الدكتور حسن إبراهيم حسن

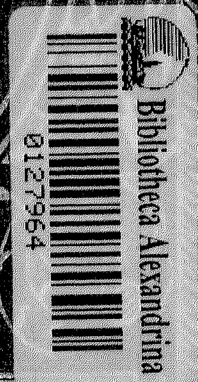
تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الأول

الدولة العربية

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس



مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

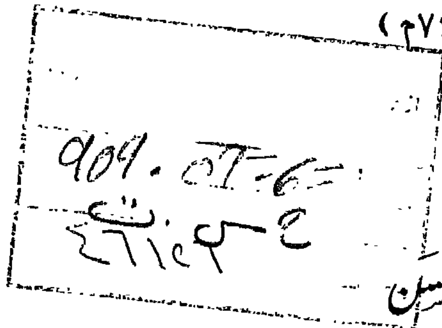
دار الجيل
بيروت

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الأول

الدولة العربيّة
في الشرق ومصر والمغرب والأندلس
(١-١٣٢هـ / ٦٢٢-٧٤٩م)



تأليف
الدكتور حسن إبراهيم حسن

مُدير جامِعة أسيوط ، وَأستاذ التاريخ الإسلامي بجامِعة القاهِرَة
وأستاذ الدراسات الإسلاميّة وَتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وَكاليفورنيا والرباط سَابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمَعهد الدراسات الإسلاميّة العَالية
جَامِعَة بَغداد

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصريّة
القاهِرَة

الطبعة الرابعة عشرة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذا كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي بأجزائه الأربعة للدكتور المرحوم حسن ابراهيم حسن نقدمه للقراء والطلاب في طبعة منقحة وبإخراج جديد مزودة بالفهارس الضرورية التي تسهل على الطالب الرجوع الى مبتغاه بيسر وسهولة .

وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب منذ نصف قرن ونيف ولاقى رواجاً وإقبالاً عند صدوره من كافة مستويات القراء وطلاب المعرفة وهواة المطالعة ، وبصدور الأجزاء التالية ازداد الإقبال عليه وبصورة خاصة من طلاب الدراسات التاريخية وكل قارىء عربي تواق لمعرفة تاريخ أمته ومنجزاتها في شتى ميادين الحضارة منذ أن أضاءت الدنيا بنور الإسلام وعبر العصور .

هذا ولا تقتصر دراسة التاريخ ومطالعته للمعرفة والهواية فقط ولكن لاستخلاص العظات والعبر فالتاريخ هو سياسة الماضي وسياسة الماضي تاريخ المستقبل ، قال تعالى في معرض أخباره عن قرون خلت : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ سورة ق ٣٧ / ٥٠ .

وقال ابن خلدون :

إعلم أن التاريخ فن غزير المذهب شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم ، والملوك في سِيَرهم وسياستهم . حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة . . . !!

قال تعالى : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

فإذا كانت هذه فائدة التاريخ كان على المؤرخ من أجل تحقيق هذا الهدف تحري الحقيقة عند تدوينه للتأريخ أو عند نقله لحادثة ما بعيداً عن الخيال والهوى لأنه بالنتيجة سيحظى بأعمال الانسان وبالتالي حقيقة هذا الانسان .

قال ابن خلدون أيضاً :

. . كثيراً ما وقع للمؤرخين من المغالط في الوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولهـا فضلوا عن الحق وتاهـوا ولا بد من رد الأخبـار الى الأصول وعرضها على القواعد . . . !!

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ صدق الله العظيم

الناشر

الباب الأول

العرب قبل الاسلام

١ ـ وصف بلاد العرب

لما كانت بلاد العرب مهد الدين الإسلامي ومنبع الدول الإسلامية، وجب أن نعرف شيئاً عن وصفها الجغرافي، وعن شعوبها، وحالتها السياسية والاجتماعية والدينية قبل ظهور الإسلام.

يكاد يكون تاريخ العرب القديم مجهولاً جهلاً تاماً لسببين:

الأول ـ عدم الوحدة السياسية، فقد كانت جمهرتهم بدواً رحلاً، متفرقين في مختلف الأصقاع، متعادين متنافرين، لم تضمهم وحدة شاملة ولا ملك قوي.

الثاني ـ عدم معرفتهم الكتابة إذ كان أكثرهم أميين، ولذلك لم يدونوا حوادثهم إلا في أواخر العصر الأموي. أما قبل ذلك فكان اعتمادهم على نقل الأخبار شفوياً، اللهم إلا أطرافاً من الجزيرة كمملكتي سبأ ومعين اللتين نقشت أخبارهما على الآثار التي لا تزال باقية إلى اليوم.

وقد بحث نلدكه[١] لفظ «عرب» فقال: «يظهر أن المعنى الحقيقي للفظ عرب هو صحراء، كما يظهر أن معنى Arabia يشمل صحراء الجزيرة وسورية وشبه جزيرة سيناء. وتصادف لفظي Arabia, Arab في الكتب اليونانية. ولهيرودت معرفة تامة بالعرب، وبالجزء الذي يقع بين فلسطين ومصر. وقد درس معاصرو هيرودوت من المؤرخين، من أمثال أكزينوفون Xenophon تلميذ سقراط، لفظ Arab، وقالوا إنه يطلق على صحراء الجزيرة العربية بوجه خاص، كما يطلق على البدو من زمن بعيد لفظ «أعراب».

وقد اختلف المؤرخون في موطن الساميين الأصلي، أهم من بلاد العرب؟ أم رحلوا إليها

---

(١) Noeldeke: Historians' History of the World, vol. viii. pp. 1, 2, 3.

من أفريقية؟ أم رحلوا إليها من بلاد الجزيرة Mesopotamia؟ فيقول أصحاب التوراة إن «مهد الإنسان فيما بين النهرين، ومنه تفرق في الأرض، فاشتق من الساميين: الأشوريون والبابليون في العراق، والأراميون في الشام، والفينيقيون على شواطىء سورية، والعبرانيون في فلسطين، والعرب في جزيرة العرب، والأثيوبيون في الحبشة؛ ومرجعهم في إثبات ذلك إلى التوراة. ولا يقول هذا القول من علماء العصر إلا قليلون».

ويرى بعض المستشرقين «أن مهد الساميين في إفريقية. ونظراً لقرب بلاد الحبشة من بلاد العرب إقليماً ولغة، قالوا إن مهد الساميين الحبشة». ويرى بعض آخر أن مهد الساميين جزيرة العرب، ومنها تفرقوا في الأرض كما تفرقوا في صدر الإسلام. وذهبت طائفة أخرى إلى أن مهد الساميين في جنوبي الفرات. ولكل من هؤلاء أدلة جغرافية، أو اقتصادية، أو جنسية، أو لغوية. ويرى بعض المستشرقين أيضاً أن مهد الساميين في بادية الشام إلى نجد.

ولم يقطع العلماء في أصل مهد الساميين برأي حتى الآن، وهم دائبون على التنقيب عن الآثار ومقارنة اللغات بعضها ببعض، ودراسة الحضارات المختلفة للشعوب السامية والبلاد المحيطة بها، ليقفوا على الرأي الأخير في هذه المسألة.

والمشاهد في أحوال الأغلب من سكان الجزيرة العربية، أنهم دائمو السفر والترحال إلى البلاد الخصبة المحيطة بالجزيرة، لاستيفاء ما ينقصهم من وسائل الحياة في بلادهم. وقد يشنون على هذه الأطراف غارات حربية. ويقول نلدكه: (vol. viii, P. 3) «إن أهالي الولايات البيزنطية المجاورة لبلاد العرب أطلقوا لفظ Saracens على هذه القبائل، بسبب تعديهم على القوافل، أو لفرضهم مكوساً ثقيلة عليهم، فأصبح يطلق على البدو من أهل هذه الجهات Saracens؛ ثم أطلق هذا اللفظ على جميع العرب بل على جميع المسلمين من غير تمييز، ثم تعداه إلى الشرقيين بلا استثناء».

وقد أدلى المسعودي[1] برأيه عن التفسير الصحيح لأصل هذه الكلمة فقال: «وأنكر (الإمبراطور نقفور) على الروم تسميتهم العرب «ساراقينوس»؛ تفسير ذلك عبيد سارة، ضغنا منهم على هاجر وابنها إسماعيل، وأنها كانت أمة لسارة. وقال تسميتهم عبيد سارة كذب؛ والروم إلى هذا الوقت تسمى العرب ساراقينوس».

ولكن يظهر أن لفظ ساراقينوس الذي أورده المسعودي محرف عن Sarakinos اليوناني، وقد أمدني زميلي الأستاذ د. ل. درو D. L. Drew أستاذ الدراسات القديمة بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً، بتعليق طريف على هذه التسمية كما وردت في المراجع اللاتينية

(١) كتاب التنبيه والإشراف ص ١٦٨

واليونانية، فكتب إلي :

١ ـ إن المؤرخ أميانس مرسيللينس Ammianus Marcellinus يقول إن Scenitae يعني العرب سكان الخيام، أو أهل الوبر، وإن هذا الاسم صار Sarraceni.

٢ ـ إن المؤرخين اليونان ذكروا لفظ سراقينوس Sarakinos الذي استعمل في آداب القرن الأول الميلادي، ويظهر أنه يدل على اسم شعب كان يسكن سورية، أو شرقي الأردن، أو شبه جزيرة سيناء، ثم توسعوا في استعماله حتى شمل كل الشرقيين، وأصبح اسم Sarcens يطلق على العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وهو تحريف للفظ سراقينوس[١].

أما لفظ Taits فقد أطلق بهذه الصورة على جميع العرب، أطلقه عليهم السريانيون من أهل الرها Edessa وأهل بابل. وربما كان المراد بهذا اللفظ: قبيلة طيِّئ التي كانت تقيم في الجبلين أجأ وسلمى في الشمال الغربي من نجد على مقربة من المدينة، ثم انتشروا في جهات مختلفة خارج بلادهم.

وبلاد العرب في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا، وهي شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات: البحر الأحمر، والمحيط الهندي، والخليج الفارسي. ويطلق العرب على بلادهم اسم جزيرة العرب.

وبلاد العرب في مجموعها صحراء، ولكنها ليست ككل الصحارى التي لا زرع فيها ولا ماء. ومما يلاحظ عليها طبيعة سطحها، فهو مختلف الأجزاء، فبعضه مغطى بالكثبان الرملية، وبعضه الآخر بالجبال والآكام، كما أن بعضه غور منخفض، وبعضه الآخر نجد مرتفع.

وكانت هذه التفرقة ملحوظة عند الجغرافيين في العصور القديمة، فقسموا بلاد العرب إلى Arabia Petrix (أو Petraea كما سماها بطليموس)، وهي الأرض الواقعة جنوب غربي بادية الشام، وحاضرتها بطرة؛ Arabia Deserta، وقد أطلق على بادية الشام وحدها ثم أطلقه بعض على شبه جزيرة العرب لجدبها بوجه عام؛ و Arabia Felix، وهي بلاد اليمن، التي تسمى الأرض الخضراء، أو البلاد السعيدة، حيث قامت فيها حضارة معين وسبأ[٢].

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة العربية بحسب طبيعتها خمسة أقسام[٣]:

١ ـ تهامة: وهي الأرض الواطئة الممتدة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر من ينبع إلى نجران في اليمن؛ وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها، من التهم وهو شدة الحر وركود

---

(١) وقد تفضل الأستاذ درو فذكر تفاصيل فقهية عن تطور اشتقاق هذه الكلمات.

(٢) Doughty : Arabia Deserta p. 524.

(٣) انظر مقدمة معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري الذي أفاض في وصف الجزيرة العربية حـ ١ ص ١ ـ ٩٠ (القاهرة سنة ١٩٤٥).

الريح. وتسمى الغور أيضاً لانخفاض أرضها عن أرض نجد.

٢ ـ الحجاز: ويقع شمالي اليمن وشرقي تهامة، ويتكون من عدة أودية تتخلل سلسلة جبال السراة الممتدة من الشام إلى نجران في اليمن. وقد وصفه جوستاف لي بون[١] بأنه إقليم جبلي رملي في الصقع الأوسط من المنطقة المعتدلة الشمالية تجاه البحر الأحمر، وفيه المدينتان المقدستان: مكة والمدينة. وقد سمي حجازاً لأنه يحتجز بين تهامة ونجد.

٣ ـ نجد: ويمتد بين اليمن جنوباً وبادية السماوة شمالاً والعروض وأطراف العراق، وسمي نجداً لارتفاع أرضه.

٤ ـ اليمن: ويمتد من نجد إلى المحيط الهندي جنوباً والبحر الأحمر غرباً، ويتصل به من الشرق حضر موت والشحر وعمان، وكانت بلاد اليمن وحضر موت في الجنوب ميداناً للحروب الداخلة والفتن الأهلية، ففنيت منها سلالة التبابعة الذين بنوا مأرب وقصور غمدان وظفار، وأقاموا سد مأرب الذي يشبه خزان أسوان في مصر.

٥ ـ العروض: ويشمل اليمامة وعمان والبحرين، وسمي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق. وكانت عمان والبحرين، منفصلتين عن سائر بلاد العرب بأمرين أحدهما طبيعي وهو تلك المفاوز والبراري الواسعة والصحاري الجدبة القفرة التي حالت بينها وبين سائر البلاد، والأمر الثاني سياسي وهو إذعانها لسيادة الفرس.

ويقول «هل»[٢]: «وقد تزول الدهشة التي يثيرها الاعتقاد السائد بأن بلاد العرب صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، إذا بحثنا في أرض بلاد العرب من الناحية الطبيعية فليس شبه جزيرة العرب خلوا إلا من الصحاري والسهوب[٣]، وهو يحوي أراضي غاية في الخصب كانت تزرع منذ آلاف السنين، فيها المدن والقرى الآهلة بالسكان».

وهذه الأقسام الخصبة تمتد على سواحل شبه الجزيرة بوجه عام: ففي الجنوب الغربي بلاد اليمن، ويسميها الأقدمون الأرض الخضراء، كما تقدم، وفي الجنوب بلاد حضر موت موطن البخور الكثير الاستعمال في الأزمان الغابرة، وفي الشرق بلاد الأحساء الخصبة على الخليج الفارسي، وكانت جميع أرضها صالحة للزراعة عدا جزء قليل جداً. وأما الساحل الغربي»، فأرضه وعرة حزنة، تتخللها التلال والكثبان، ولكنها تمتاز بمراعيها، وكانت في الأزمان الغابرة أحسن حالاً مما هي عليه اليوم. أما أرض بلاد العرب الوسطى المرتفعة، وهي نجد، وما يتخللها من الجبال المرتفعة هنا وهناك، ووديانها الطويلة وسهوبها التي تربى فيها

---

(١) Le Bon. Civilisation des Arabes, Tome 1, p. 11.

(٢) Cultur der Arabera, trans, by Khuda Bukhsh, pp. 2,3

(٣) هي أراض واسعة جرداء لا نبات فيها ولا ماء

أحسن الخيول العربية، واليمامة الواقعة إلى الجنوب الشرقي، فقد كانتا تسدان حاجة العرب من القمح والشعير وغيرهما، كما كانتا في القرنين السادس والسابع الميلاديين لا تقلان خصباً عن أراضي أوروبا الخصبة اليوم، بل ربما كانت تبذها في كثير من البقاع[١].

وقد وصف سديو[٢] بلاد الحجاز فقال: «إن الحجاز يجذب النفوس ويشوقها أكثر من غيره، لاشتماله على أكثر مدائن العرب، و«يثرب»، التي سميت فيما بعد المدينة. ويتخلل أرض الحجاز كثبان من الرمال وآكام خصبة. وهي مساكن القبائل. وحول هذه الآكام قرى وضياع، وهي قلاع حصينة تقيهم شر هجمات الأعداء، وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار التي تستعمل علفاً للماشية، وبها عيون ماء كثيرة. وإلى الغرب من إحدى تلك الآكام مدينة الطائف التي تعد بستاناً ونزهة لأهل مكة.

ويتألف وسط شبه جزيرة العرب من سهول قاحلة رملية جنوباً حجرية شمالاً وفي الجهات القاحلة أماكن جبلية ذات ينابيع مائية يشتغل سكانها بالزراعة، ولهم مدن وقرى كثيرة كما في الصحراء الإفريقية.

وأول من وقف على أحوالها من الأوربيين ووصفها وصفاً تاماً، الرحالة الإنجليزي بلجريف[٣] (Palgrave) الذي جاب شبه جزيرة العرب في سنتي ١٨٦٢، ١٨٦٣ م. وكان أول من زار «الرياض» من الرحالة الإنجليز، ووصف نجد بأنها سهل موحش فسيح يقع في مقدمته حاضرة هذا الإقليم (الرياض). وهي كبيرة مربعة الشكل، تتوجها أبراج عالية وأسوار دفاعية متينة، وتبدو فيها عظمة القصر الملكي الشاهق المعروف بقصر فيصل. ومن البلاد التي زارها بلجريف «الأحساء» على ساحل الخليج الفارسي. وقد سحرته مناظرها الطبيعية الخلابة، وأعجب بها إعجابه بالرياض، وقال إن بها أفضل أشجار النخيل في بلاد العرب، ثم نوه بالمثل العربي المشهور «لا يحمل التمر إلى هجر»، كما وصف بلجريف الكويت والقطيف.

وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرد المختلفة اللون، وفيها الحرار[٤] والصحارى الرملية المترامية الأطراف، وتتخلل الجبال والوديان التي هيأتها السيول. والأراضي القريبة خصبة التربة صالحة لإقامة الأهالي الذين يعتمدون على ما تنبته أراضيهم، وما يجدونه فيها من ماء يشربون منه ومرعى يسيمون فيه أنعامهم. وأما ما بعد عن هذه الوديان فهو قفر غير صالح للسكن وأعظم وادٍ ببلاد العرب وادي «الدهناء» الذي يعود على العرب بالخير إذا أخصب، غير أن

---

(١) انظر ما ذكره البكري عن حمى ضرية والنقيع قرب المدينة. (٢) Histoire générale tome I. pp.41.2.

(٣) انظر مجلة «المستمع العربي» السنة الخامسة، عدد ٥١ ص ٨ ـ ٩.

(٤) جمع حرة وهي أرض بركانية ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار. انظر لفظ حرار في معجم البلدان لياقوت ومعجم ما استعجم للبكري

الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن كثيراً منه يغيض في الرمال. وقد يتأخر المطر فتشتد الحال بالقبائل الكثيرة التي تعتمد عليه، ومع ذلك قل أن يستقر العرب في مكان واحد لأنهم يتنقلون إلى حيث الماء. كما أن في بلاد العرب مياهاً يسمونها «الأحساء»، وهي جمع حسي، وهو الرمل الذي تحته صلابة. فإذا نزل المطر على ذلك الرمل منعته الصلابة أن يتسرب إلى الأرض.

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تسد حاجة الجزيرة غلب عليها الجدب: لأن الكثير من مائها يغيض في جوف الأرض فلا يمكن الانتفاع به إلا بطرق هندسية لم يكن للعرب معرفة بها، اللهم إلا في بلاد اليمن التي استطاع أهلها أن يحفظوا مياه الأودية، فبنوا سد مأرب المشهور لحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به وقت الحاجة، وهو العرم المذكورة في سورة سبأ من القرآن الكريم [سورة ٣٤ : ١٥].

ويظن بعض أن المعيشة في الصحاري غير ممكنة، ولكن الحال على العكس من ذلك، فإن جوها ملائم لسكنى قوم أقوياء خالين من الأمراض يتحملون المشاق التي فرضتها عليهم طبيعة أرضهم، وكمية المطر قليلة أو معدومة في بلاد العرب اللهم إلا في بلاد اليمن التي تعتبر أكثر بلاد العرب أمطاراً بسبب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تقابل الجبال، فتساقط الأمطار على سفوحها الجنوبية وتتسرب إلى جوف الأرض ثم تتجمع في بعض الجهات المنخفضة في صورة آبار.

وإذا نظرنا إلى مصور بلاد العرب وجدنا به جزأين صحراويين: أحدهما في شمال هضبة نجد، ويسمى «النفود»، ويمتد حتى جنوبي فلسطين، وهو عبارة عن كثبان رملية تتخللها وديان عميقة لا يصل إليها الماء. ويمكن اختراق النفود من الشرق إلى الغرب في نحو أربعين ساعة مع صعوبة عبورها: والآخر في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب، شمالي حضر موت، ويسمى «بادية الأحقاف» أو «الربع الخالي»، وهو أشق بكثير من صحراء الشمال وأشد جدباً منها. ولم يعبر أحد تلك الأرض حتى الرحالة والبدو أنفسهم، وفيما عدا ذلك نرى ببلاد العرب أراضي زراعية ودارات[1]، وهي واحات خصبة يمكن السكنى فيها وقد كسبت طبيعة هذه البلاد أهلها النشاط والخفة، وخصوصاً البدو منهم، فإنهم لا يعتمدون كثيراً على الزراعة ولا سيما إذا فقد الماء، وجعل اعتمادهم على تربية الأنعام، وخصوصاً الإبل، فيأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويكتسبون بأوبارها، وهي تحمل أمتعتهم إلى حيث يريدون الإقامة إذا فقدوا الماء، أو أرادوا الرحيل إلى جهة من الجهات للتجارة[2].

---

(١) الدارة أرض مستديرة منخفضة تحفها الجبال، فيها مياه ورمال. ودارات العرب كثيرة، جمع منها ياقوت والبكري نحو ستين دارة.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٢ ص ٣١٣ - ٣١٥.

٢ ـ الشعوب العربية

يقسم مؤرخو العرب العرب قسمين عظيمين: القسم الأول، العرب البائدة، وهم الذين بادوا ودرست آثارهم وانقطعت أخبارهم، ولا نعرف عنهم شيئاً إلا ما ورد في الكتب السماوية والشعر العربي كأخبار عاد وثمود. ومن أشهر قبائلهم عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم الأولى. أما القسم الثاني فهم العرب الباقية، وينقسمون إلى فرعين: العرب العاربة[١]، وهم شعب قحطان وموطنهم بلاد اليمن. ومن أشهر قبائلهم: جرهم، ويعرب. ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين هما: كهلان وحمير.

وأشهر بطون حمير: قضاعة. ومن فروع قضاعة: بليّ، وجهينة، وكلب، وبهراء، وبنو نهد، وجرم.

وأشهر بطون كهلان: الأزد (ومنهم الأوس، والخزرج وأولاد جفنة، وهم الغساسنة الذين ملكوا الشام)، وطيّئ (ومنهم جديلة؛ ونبهان، وبحتر، وزبيد، وثعلبة)، ومذحج (ومنهم خولان وسعد العشيرة قبيلة المتنبي، والنخع وعنس، وإليهم ينسب الأسود العنسي الكذاب)، وهمدان، وكندة، ومراد، وأنمار، وجذام، ولخم[٢].

ولما أخذ اليمنيون بأسباب الحضارة قامت لهم عدة ممالك أشهرها: معين وسبأ وحمير وغيرها. وقد حاول بعض ملوك سبأ الاستفادة من مياه الأمطار الكثيرة، فأقاموا سداً لحفظ المياه وراءه يسمى العرم بلسانهم كما تقدم. وقد تحولت أراضيهم بتنظيم الريّ في هذه البلاد إلى جنات، كما فصل القرآن الكريم ذلك في سورة سبأ، على ما سيأتي.

ولما أخذت بلاد اليمن في الانحطاط، وعجز أهلها عن إصلاح السد الذي أقامه أسلافهم لحفظ المياه، وانكسر السد، غرقت بلادهم، وتفرقوا أيدي سبأ في شتى أنحاء الجزيرة العربية.

فسارت قبيلة ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز، وانتهوا إلى المدينة فغلبوا على من كان بها، وأكثرهم من اليهود؛ وسارت قبيلة حارثة بن عمرو ـ وهم خزاعة ـ فاقتحموا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم الثانية، وهي قبيلة قحطانية قديمة من اليمن، وسارت عمران بن عمرو نحو عمان فنزلوها واستوطنوها، وهم أزد عمان، وسارت جفنة بن عمرو إلى الشام ونزلوا بماء يقال له غسان، فنسبوا إليه، ومنهم ملوك الغساسنة. وسارت لخم بن عدي إلى الحيرة وسكنوها، ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة؛ وسارت طيّىء بعد مسير الأزد إلى الشمال، ونزلوا

---

(١) يقال عرب عاربة وعرباء وعربة، أي صرحاء خلص. وهم العرب الأصليون.

(٢) القلقشندي جـ١ص٣١٣ ـ ٣٥٣.

بالجبلين أجأ وسلمى، لما رأوه هناك من الخصب. وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة، يخترقهما وادي الدهناء. وقد ورد ذكرهما كثيراً في أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة، وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر، قال شاعرهم عارق الطائي:

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة — إذا استحيتها[1] العيس تنضي[2] من البعد
أبو عدني والرمل بيني وبينه؟ — تأمل رويداً ما أمامة من هند
ومن أجأ حولي رعان[3] كأنها — قبائل خيل من كميت[4] ومن ورد[5]

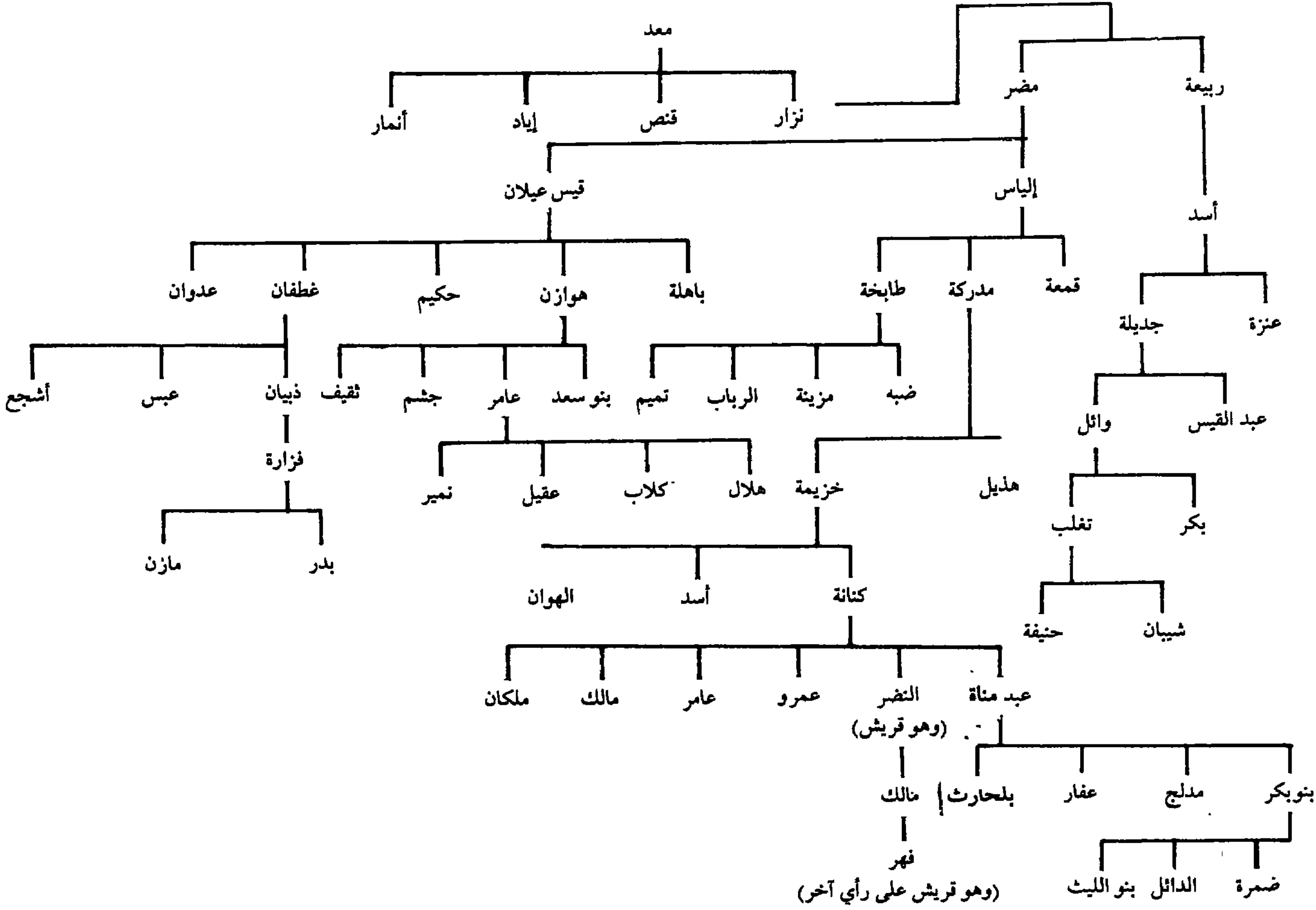
وسارت كلب بن وبرة من قضاعة إلى بادية السماوة. طرف شمال نجد وأقاموا بها. وتتصل السماوة بأطراف العراق، ويخترقها وادي الدهناء. ومنهم ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، والكلبي المؤرخ النسابة المشهور.

العرب المستعربة: ويقال لهم العرب المتعربة أيضاً كما في القاموس، سموا بذلك لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية. فلما نزلت جرهم من القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل وأمه، تزوج منهم وتعلم هو وأبناؤه العربية، فسموا بذلك العرب المستعربة. وهم جمهور العرب من البدو والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام حين خالطهم أخيراً في مساكنهم عرب اليمن بعد انكسار سد العرم.

ويختلف النسابون فيما بين إسماعيل وعدنان من أسماء رؤوس القبائل المستعربة والذي ذكره النبي ﷺ من أجداده، هو ما بين عدنان وعبد المطلب. أما ما فوق عدنان فهو محل خلاف كثير بين المؤرخين في أسماء الآباء وعددهم. وهو شيء طبيعي، لأن العرب كانوا أميين لم يدونوا أنسابهم في كتب ولا نقشوها على آثار، وإنما تناقلوها رواية باللسان، والمنقول باللسان عرضة لكثير من الخطأ والتغيير. وقد ذكر ابن قتيبة (كتاب المعارف ص ٢٩) عدة أقوال مختلفة في العدد والأسماء نضرب عنها صفحاً لعدم إمكان تحقيقها. يقول نيكلسون: «لا مراء في أن هذه الأنساب غير صحيحة، وأن نسب عدنان إلى إسماعيل لا يزال مثار كثير من الشك، على الرغم من أن العرب كادوا يجمعون على أنه من ولد إسماعيل، وبنوا على ذلك أنسابهم، وظهرت فيه عصبياتهم واضحة جلية. وخير لنا أن نتحدث عما يعتقده العرب ويتخذونه أساساً لنظامهم الاجتماعي وآثارهم الأدبية، صارفين النظر عن نقده وبيان حظه من الخطأ والصواب»[6].

---

(١) حملتها في الحقب، وهو الحزام الذي يشد عليه صدر الناقة، أي إذا حملتها العيس.
(٢) أي صارت أنضاء هزيلة.
(٣) جمع رعن وهو أنف الجبل.
(٤) الكميت الأحمر.
(٥) الأصهب وهو لون الظباء. التبريزي: شرح حماسة أبي تمام.
(٦) Lit. Hist of the Arabs pp. xviii., xx, xxi.


معد
نزار
قنص
إياد
أنمار
ربيعة
مضر
أسد
عنزة
جديلة
عبد القيس
وائل
بكر
تغلب
شيبان
حنيفة
إلياس
قيس عيلان
قمعة
مدركة
طابخة
باهلة
هوازن
حكيم
غطفان
عدوان
ضبه
مزينة
الرباب
تميم
بنو سعد
عامر
جشم
ثقيف
ذبيان
عبس
أشجع
فزارة
بدر
مازن
هلال
كلاب
عقيل
نمير
هذيل
خزيمة
كنانة
أسد
الهوان
عبد مناة
النضر
(وهو قريش)
عمرو
عامر
مالك
ملكان
مالك
فهر
(وهو قريش على رأي آخر)
بنوبكر
مدلج
عفار
بلحارث
ضمرة
الدائل
بنو الليث

والذي استفاض في كتب مؤرخي العرب أن إبراهيم[١] رحل بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة، فأقام إسماعيل وأمه مع جرهم من أولاد قحطان فنشأ معهم، وكانت لغتهم العربية، فتعلمها منهم[٢]، ثم صاهرهم، وولد إثني عشر ولداً تفرعت منهم بطون كثيرة[٣].

ومن أولاد عدنان: معد، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم. وكان لمعد أربعة أولاد: إياد، ونزار، وقنص، وأنمار. وكان لقنص الإمارة بعد أبيه على العرب في مكة. وقد أراد إخراج أخيه نزار من الحرم، فأخرجه أهل مكة، وقدموا عليه نزار، الذي تشعبت منه هذان البطنان العظيمان وهما: ربيعة ومضر. وقد نزلت ربيعة «مهبط الجبل من غمر ذي كندة، وبطن ذي عرق وما صاقها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة». وانتشر بنو مضر بن نزار في الحجاز وكثروا كثرة عظيمة، ثم غلبوا على كثير من المواضع في نجد وغيرها وانتهت إليهم رياسة الحرم بمكة.

قام النزاع بين إياد بن معد، وكانت تقيم مع أخواتها بتهامة حتى قامت بينهم حرب. فتظاهرت مضر وربيعة على إياد وأوقعوا بها الهزيمة وأرغموها على الخروج من تهامة. فنزلوا باحية سواد الكوفة، ثم اجتازوا نهر الفرات وانتشروا بأرض الجزيرة. ثم نزل بعضهم تكريت والموصل، وسار بعضهم إلى حمص وأطراف الشام[٤]. ودان بعضهم لغسان وتنصروا، ثم لحق أكثرهم بلاد الروم مع جبلة بن الأيهم. وكان من دخل مع جبلة من إياد وقضاعة وغسان ولخم وجذام نحو أربعين ألفاً، ولم يزالوا بها على الإسلام. فلما كان زمن عمر بن الخطاب بعث رسلاً من عنده معهم المصاحف إلى ملك الروم، أن أعرض هذه المصاحف على من قبلك من قومنا من العرب، فمن أسلم منهم فلا تحولن بينه وبين الخروج إلينا. فوالله لئن لم تفعل، لأتبعن كل من كان على دينك في جميع بلادنا فلأقتلنه. فلما قدمت المصاحف عليه عورضت بالإنجيل، فوجدوا القرآن يوافق الإنجيل فأسلموا. ولم يبق من ولد عدنان بعد خروج

---

(١) ولد إبراهيم عليه السلام بالعراق. ولما أمره الله تعالى أن يدعو قومه إلى التوحيد دعا أباه فلم يجبه. ودعا قومه فلم يجيبوه، ولما نمى خبره إلى نمرود أمر به فألقي في النار فكانت عليه برداً وسلاماً كما يحدثنا القرآن الكريم [سورة الأنبياء ٢١: ٦٨ - ٦٩] وقد سار إبراهيم وزوجته سارة وغيرها ممن آمن بدعوته إلى حران، ثم أتى مصر حيث حاق بهم حنق فرعون الذي أطلقه هو وزوجته بعد أن ظهرت على يد إبراهيم آيات النبوة. وكانت هاجر لا تلد، فوهبت لإبراهيم، فأولدها إسماعيل، فحزنت سارة لذلك، فرزقها الله إسحاق. ثم غارت سارة من هاجر وابنها إسماعيل، وقالت: «إن ابن الأمة لا يرث مع ابني»، وطلبت من إبراهيم أن يخرجها عنها، فسار إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز، وتركهما بمكة (أبو الفدا جـ ١ ص ١٣).

(٢) يظهر أن إسماعيل كان يتكلم العبرانية، وأن بني جرهم كانوا يتكلمون لغة عربية تختلف عن اللغة العربية المعروفة الآن بعض الاختلاف، ثم امتزجت اللغتان، فكانت منهما اللغة العربية التي يتكلمها أهل الحجاز عند نزول القرآن الكريم.

(٣) ابن قتيبة: كتاب المعارف ص ١٨.

(٤) البكري جـ ١ ص ١٨، ٧ - ٧١.

إياد من تهامة، إلا ربيعة ومضر ومن كان معهم أو دخيلاً فيهم أو مجاوراً لهم[١].

وقد تشعبت مضر شعبتين: قيس عيلان بن مضر، وإياس بن مضر[٢]. ومن قبائل قيس عيلان بن مضر: خصفة وسعد وعمر. ومن أولاد خصفة: عكرمة، ومحارب، ومن أعقاب عكرمة القبيلتان المشهورتان: هوازن وسليم. ومن أعقاب هوازن: معاوية بن بكر بن هوازن، وسعد بن بكر، وإليه ينسب كل سعدي. ومنهم حليمة بنت ذؤيب السعدية التي أرضعت الرسول، وقسي، وهو ثقيف، واسمه منبه بن بكر. وإليه ينسب الثقفيون. وقد أقام ثقيف بالطائف في نفر من أصهاره عدوان بن عمر بن قيس بن عيلان. وقد تمرد ثقيف على قومه وفتك بمن جاوره، فنابذوه العداء فانحاز عنهم[٣].

وقد روى البكري[٤] عن هشام الكلبي في سبب تسمية ثقيف بهذا الاسم وما كان من نزول منبه بن بكر بن هوازن، واسمه ثقيف ـ فقال: «إن ثقيفاً والنخع ابنا خالة، وإنهما خرجا في نجعة، ومعهما غنيمة (أي قطعة يسيرة من الغنم) لهما، فيها شاة، معها جدي لها، فعرض لها مصدق[٥] لبعض ملوك اليمن فأرادهما على أخذ الشاة ذات الجدي، فقالا له: خذ منها ما شئت، فقال: هذه الشاة الحلوب، قالا: إنما نعيش ويعيش جديها منها، فخذ غيرهما. فأبى، فنظر أحدهما إلى صاحبه، وهما بقتله، فأشار أحدهما إلى صاحبه أن أرمه فرماه بسهم، ففلق قلبه. ثم قال أحدهما لصاحبه: والله ما تحملنا أرض واحدة. إما أن تغرب وأشرق، وإما أن تشرق وأغرب، فقال قسي، وهو ثقيف: فإني أغرب، وقال النخع، واسمه جسر: فإني أشرق. فمضى النخع حتى نزل بيشة باليمن. فلما كثر ولده، تحول إلى الدثنية، فهي منازلهم إلى اليوم. ومضى قسي حتى أتى وادي القرى، فنزل بعجوز يهودية كبيرة لا ولد لها. فكان يعمل بالنهار ويأوي إليها بالليل، فاتخذها أما واتخذته ابناً. فلما حضرتها الوفاة قالت له: يا هذا لا أحد لي غيرك، وقد أردت أن أكرمك لإلطافك إياي، وإنما كنت أعدك ابني. وقد حضرني الموت، فإذا أنت واريتني، فخذ هذا الذهب وهذه القضبان من العنب. فإذا أنت نزلت وادياً تقدر على الماء فيه، فأغرسها فيه، فإنك تنتفع بها، وماتت.

فأخذ الذهب والقضبان ثم أقبل، حتى إذا كان قريباً من وج، وهو الطائف، إذا هو بأمة يقال لها خصيلة. قال هشام: ويقال زبيبة، ترعى ثلاث مائة شاة فأسر في نفسه طمعاً فيها، وفطنت له، فقالت: كأنك أسررت في طمعاً: تقتلني وتأخذ الغنم، قال: أي والله! قالت: والله

(١) البكري ٧٦.
(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٢ ص ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٥، ٣١٩ ـ ٣٢٠.
(٣) البكري جـ ١ ص ٦٤ ـ ٦٦، ٧٦ ـ ٧٧.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٤ ـ ٦٦.
(٥) المصدق: العامل الذي يجمع الأموال للحكومة.

لو فعلت لذهبت نفسك ومالك وأخذت الغنم منك . أنا جارية عامر بن الظرب العدواني سيد قيس وحكمها، وأظنك خائفاً طريداً. قال: نعم، قالت: فعربي أنت؟ قال: نعم، قالت: فأنا أدلك على خير مما أردت، مولاي إذا طفلت الشمس للإياب يقبل فيصعد هذا الجبل ثم يشرف على هذا الوادي، فإذا لم يرَ فيه أحداً وضع قوسه وجفيرة[1] وثيابه، ثم ينحدر في الوادي، لقضاء حاجته، ثم يستنجي بماء من العين ثم يصعد فيأخذ ثيابه وقوسه، ثم ينصرف فيخرج رسوله فينادي: ألا من أراد الدرمك[2] واللحم والتمر واللبن، فليأتِ دار عامر بن الظرب فيأتيه قومه، فاسبقه إلى الصخرة وأكمن له عندها. فإذا وضع ثيابه وقوسه فخذها، فإذا قال لك: من أنت؟ فقل: غريب فأنزلني، وطريد فآوني، وعزب فزوجني، فإنه سيفعل. ففعل ذلك قسي، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا قسي بن منبه، وأنا طريد فآوني، وغريب فأنزلني، وعزب فزوجني، فانصرف به إلى وج، وخرج مناديه فنادى: ألا من أراد الخمر واللحم والتمر واللبن فليأتِ دار عامر بن ظرب، فأقبل كل من كان من حوله من قومه. فلما أكلوا وتمجعوا[3] وفرغوا، قال لهم: ألست سيدكم وابن سيدكم وحكمكم؟ قالوا بلى! قال: ألم تؤمنون من أمنت وتؤوون من آويت وتزوجون من زوجت؟ قالوا: بلى! قال هذا قسي بن منبه وقد زوجته ابنتي وآويته معي في داري وأمنته. قالوا: نعم! جوزنا ما فعلت، فزوجه ابنته زينب؛ فولدت له عوفاً وجشم ودارساً، وهم من الأزد بالسراة، وسلامة انتسبوا في اليمن. . . وهم أهل أبيات قليلة في بني نصر بن معاوية. ثم هلكت زينب فزوجه ابنة له أخرى يقال لها آمنة، فولدت له ناصر بن قسي، والمسك بنت قسي . . . وهي أم النمر بن قاسط.

وغرس قسي تلك القضبان بوادي وج، فأنبتت، فقالوا: قاتله الله ما أثقفه حين ثقف عامراً حتى أمنه وزوجه، وأنبتت تلك القضبان حتى أطعمت، فسمي ثقيفاً يومئذٍ»[4].

كذلك نزلت هاجر من صعصعة ناحية من الطائف بجوار أصهارهم عدوان بن عمرو بن قيس، ثم وقعت بين عدوان حرب، فتفرقت جماعتهم وتشتت شملهم، فطمعت فيهم بنو عامر وأخرجتهم من الطائف، غير أن ثقيفاً، وقد عرفت فضل الطائف، فقالوا لبني عامر: «إن هذه بلاد غرس وزرع وقد رأيناكم اخترتم المراعي عليها، فأصررتم بعمارتها وأعمالها، ونحن أبصر بعملها منكم فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع وتدفعوا بلادكم هذه إلينا، فنثيرها حرثاً ونغرسها ثماراً وأشجاراً ونكظمها كظائم، ونحفرها أطواء، ونملؤها عمارة وجناناً بفراغنا لها

---

(١) الجفيرة: جعبة من جلود لا خشب لها أو من خشب لا جود منها.

(٢) الدرمك: الدقيق النقي الجواري، ولعله يريد الخبز المصنوع منه.

(٣) تمجع: أكل التمر اليابس وشرب عليه اللبن.

(٤) هذا ما رواه هشام بن الكلبي في خبر ثقيف وسكناها الطائف وهو لا يخلو من مسحة القصص الموضوع.

وإقبالنا عليها وشغلكم عنها واختياركم غيرها؟ فإذا بلغت الزروع وأدركت الثمار شاطرناكم، فكان لكم النصف بحكم في البلاد ولنا النصف بعملنا فيها، فكنتم بين ضرع وزرع لم يجتمع لأحد من العرب مثله. فدفعت بنو عامر الطائف إلى ثقيف بذلك الشرط، فأحسنت ثقيف عمارتها. . . فلبثوا بذلك زماناً حتى كثرت ثقيف، وحصنوا الطائف، وبنوا عليها حائطاً يطيف بها، فسميت الطائف[١]. ومن قبائل قيس أيضاً: بنو غطفان، ومن بطونها بنو عبس بن بغيض ابن ريث بن غطفان، ومنهم زهير بن قيس صاحب حرب داحس والغبراء؛ وعنترة العبسي البطل المشهور. ومن غطفان بنو ذبيان بن ريث بن غطفان، ومنهم النابغة الذبياني الشاعر؛ ومن ذبيان: فزارة، وكانت تقيم بنجد ووادي القرى[٢].

وكان لإلياس بن مضر ثلاثة أولاد: قمعة وطابخة ومدركة. وقد تفرعت منهم بطون كثيرة: فمن قمعة: أسلم، وخزاعة؛ ومن طابخة: ضبة، والرباب، ومزينة وتميم. ومن بطون تميم: بنو العنبر بن عمرو بن تميم، وإليهم ينسب جديلة بن عبد الله العنبري الصحابي، ومن بطون تميم أيضاً: بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم[٣].

ومن أولاد مدركة: خزيمة، ومن خزيمة: الهون، وأسد، وكنانة، ومن كنانة: النضر؛ ومن النضر: مالك بن النضر؛ ومن مالك: فهر، وهو قريش. وتقيم بطون كنانة بن خزيمة إخوة بني أسد بجهات مكة. وانقسمت قريش إلى قبائل شتى. ومن أولاد مدركة أيضاً: بنو هذيل؛ ومن هذيل بنو لحيان، وسعد[٤].

وكانت ديار بني هذيل بن مدركة على مقربة من الطائف، ولهم أراضٍ أخرى في نجد وتهامة بين مكة والمدينة. أما بنو أسد بن خزيمة بن مدركة فكانت ديارهم مما يلي الكرخ من أرض نجد، وكانت طيِّىء تقيم بجوارهم[٥].

ولما تنافست أولاد مدركة وطابخة بن إلياس بن مضر في أرضهم وقعت بينهم حرب انتهت بانتصار مدركة، فرحلت طابخة من تهامة إلى ظواهر نجد والحجاز، وانحازت مزينة بن أد بن طابخة إلى جبال رضوى وما والاها من أرض الحجاز. وسارت تميم بن مر بن أد بن طابخة وضبة بن أد بن طابخة وعكل بن أد إلى بلاد نجد وصحاريها، ثم نزلوا في الأراضي الواقعة بين اليمامة وهجر.

وقامت قبائل مدركة بن إلياس بن مضر بتهامة وما والاها من البلاد، وأقام ولد النضر بن

---

(١) البكري: معجم ما استعجم جـ ١ ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) النويري جـ ٢ ص ٣١٦ ـ ٣١٧، ٣٢٣. القلقشندي جـ ١ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٣) القلقشندي: جـ ١ ص ٣٤٧.

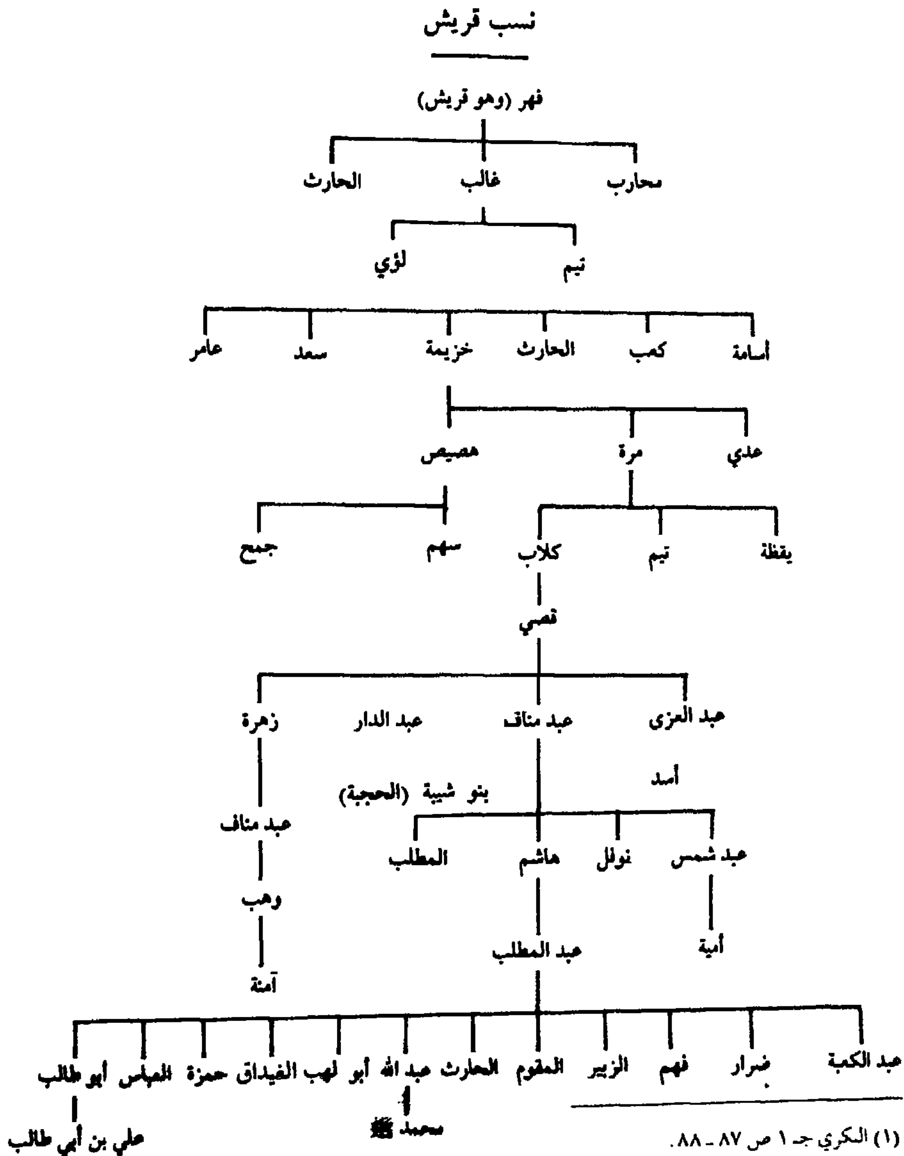
(٤) ابن قتيبة ص ٣٠. النويري جـ ٢ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٥) القلقشندي: جـ ١ ص ٣٤٩.

خزيمة بن مدركة حول مكة وما والاها[١].

وأقام أبناء فهر بن مدركة حول مكة، وظلوا على ذلك حتى أنزلهم قصي بن كلاب الحرم، ومن ولد فهر: قريش البطاح، وهم الذين دخلوا مع قصي الأبطح، من مكة، وقريش الظواهر من ولد فهر: تيم الأدرم بن غالب بن فهر، ومعيص بن عامر بن لؤي، ومحارب والحارث ابنا فهر.

نسب قريش



(١) البكري جـ ١ ص ٨٧ ـ ٨٨.

انقسمت قريش إلى بطون شتى، من أشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب، وعدي ابن كعب وتيم بن مرة، وزهرة بن قصي بن كلاب، وقصي بن كلاب بن مرة؛ ويتفرع منه قبيلتان: بنو عبد الدار بن قصي، وبنو عبد العزى بن قصي؛ ومن بني عبد العزى بنو أسد.

ومن أولاد قصي: عبد مناف بن قصي. ومن أولاده نوفل، وعبد شمس جد الخلفاء الأمويين، والمطلب، وهاشم[1]. ومن بيت هاشم النبي ﷺ، والعباسيون أولاد العباس بن عبد المطلب، والعلويون أولاد علي بن أبي طالب.

ولما تكاثرت العدنانية، ورأوا أن البلاد التي كانوا يقيمون فيها قد ضاقت بهم، تفرقوا حيث الماء والزرع. وممن هاجر منهم عبد القيس بن ربيعة، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تيم بن مرة، وقد هاجروا إلى جهة البحرين. وكان المنذر بن ساوة من بني حنظلة بن مالك ابن زيد مناة بن تميم أمير هذه الجهة من قبل الفرس عند ظهور الإسلام.

وقامت بنو سليم في الأراضي الممتدة بين وادي القرى وخيبر إلى شرقي المدينة المنوّرة (ومنهم الخنساء وابنها العباس بن مرداس). كما سكنت ثقيف بالطائف وهوازن شرقي مكة بنواحي أوطاس[2] على الطريق بين مكة والبصرة، وسكنت بنو أسد شرقي تيماء، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران، وأقامت قريش بمكة وضواحيها؛ إلا أنهم ظلوا متفرقين حتى جاء قصي بن كلاب، فكون لهم وحدة وغلبت خزاعة على أمر الكعبة، ومن ثم ظهر أمرهم بين القبائل الأخرى[3].

وقد بين البكري (جـ ١ ص ٩٠) مواضع القبائل العربية المضرية التي نزلت الحجاز ونجدا عند مجيء الإسلام فقال: وجاء الله عزّ وجلّ بالإسلام، وقد نزل الحجاز من العرب أسد، وعبس، وغطفان، وفزارة، ومزينة، وفهم، وعدوان، وهذيل، وخثعم، وسلول، وهلال، وكلاب بن ربيعة، وطيِّىء ـ وأسد وطيِّىء حليفان ـ وجهينة، نزلوا جبال الحجاز: الأشعر، والأجرد، وقدساً، وآرة، ورضوى، وأسهلوا إلى بطن أضم، ونزلت قبائل من بلي شغبا وبدا، بين تيماء والمدينة. ونزلت ثقيف وبجيلة حضرة الطائف، ودار خثعم من هؤلاء: تربة وبيشة، وظهر تبالة، على محجة اليمن، من مكة إليها، وهم مخالطون لهلال بن عمرو، وبطن تبالة لبني مازن، ودار سلول في عمل المدينة، ومنازل أزد شنوءة السراة، وهي أودية مستقبلة مطلع الشمس بتثليث وتربة وبيشة، وأوساط هذه الأودية لخثعم؛ على ما تقدم، وأحياء مذحج. وهذه

(١) القلقشندي جـ ١ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٢) اسم وادٍ دارت فيه غزوة حنين التي أوقع فيها النبي ﷺ ببني هوازن انظر سورة التوبة [التوبة ٩: ٢٥].

(٣) راجع كتاب معجم ما استعجم للبكري جـ ١ ص ٨٩.
Wustenfeld: Genealogische der arabischen stamme and Famillion (Gottingen, 1853 - 1853).

الأودية تدفع في أرض بني عامر بن صعصعة، ومن بقي بأرض الحجاز من أعجاز جشم ونصر ابن معاوية. ومن ولد خصفة بن قيس: فهم بالحرة، حرة بني سليم وحرة بني هلال وحضرة الربذة، إلى قرن تربة، وهم مخالطون لكلاب بن ربيعة، هؤلاء كلهم من ساكني الحجاز.

ونزل نجدا من العرب: بنو كعب بن ربيعة بن عامر، ودارهم الفلج وما أحاط به من البادية. ونزل نمير بن عامر، وباهلة بن يعصر، وتميم كلها بأسرها، باليمامة وبها دارهم، إلا أن حاضرتها لربيعة بن نزار وإخوتهم».

ومن أشهر قبائل ربيعة: أسد، وكانت تسكن شمالي وادي الرمة[1] بنجد وعبد القيس، ووائل، وتنقسم إلى بكر وتغلب، ومن تغلب بن وائل، كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس[2].

ولما قامت الحرب بين بني ربيعة، تفرقوا، فرحلت عبد القيس إلى البحرين وهجر وزاحموا إياد والأزد، وكانوا قد رحلوا إلى هذه البلاد قبل ذلك الوقت وأجلوهم عنها، فرحلوا إلى بلاد العراق، واقتسمت قيس البحرين بينهم ودخلت قبائل من بني ربيعة، من بكر، وتغلب، وغفيلة، وعنزة، وضبيعة ظواهر بلاد نجد والحجاز وأطراف تهامة وما والاها، وانتشروا فيها، حتى وقعت الحرب بينهم وقتل جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان، كليب بن ربيعة، وقامت بسبب ذلك الحرب المعروفة بحرب البسوس التي دامت أربعين سنة[3].

«ولم تزل الحروب والوقائع تنقلهم من بلد إلى بلد، وتنفيهم من أرض إلى أرض، وتغلب في كل ذلك ظاهرة على بكر، حتى التقوا يوم قضة»[4]، وكانت الغلبة لبني تغلب على بكر، «فتفرقوا على ذلك اليوم، وتبددوا في البلاد، أعني بني تغلب. وانتشرت بكر بن وائل، وعنزة وضبة باليمامة، فيما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق ومناظرها، وناحية الأبلة إلى هيت وما والاها من البلاد، وانحازت النمر وغفلة إلى أطراف الجزيرة وعانات وما دونها، إلى بلاد بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاعة» (البكري ١: ٨٥ ـ ٨٦).

وإلى بكر بن وائل ينسب طرفة بن العبد البكري، وإلى تغلب ينسب عمرو بن كلثوم والأخطل، وثلاثتهم من كبار شعراء العربية.

---

(١) الرمة: قاع عظيم بنجد من ناحية المدينة المنوّرة، تنصب فيه عدة أودية ويقع على مقربة من بلاد فزارة. انظر كتاب معجم ما استعجم للبكري.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ١ ص ٣٣٨.

(٣) البكري جـ١ ص ٨١، ٨٣، ٨٥.

(٤) قضة: هي عقبة في عارض اليمامة، وعارض جبل، وقضة من اليمامة على ثلاث ليال.

٣ ـ الممالك العربية قبل الإسلام

(أ) معين:

كان الحكام في هذه البلاد قسمين:

الأول: الملوك المتوجون، وكانوا تابعين لملوك آخرين، ويسمون أقيالاً. ولم يكونوا مستقلين استقلالاً تاماً، اللهم إذا استثنينا بعض ملوك اليمن في عصور ازدهارها.

الثاني: رؤساء العشائر، وكان لهم ما للملوك من الحكم والمزايا، ولكنهم لم يكونوا أصحاب تيجان، وقد يكونون على تمام الاستقلال، أو تابعين لملك متوج.

ومن ممالك بلاد العرب الجنوبية معين وسبأ وحمير، ومنهم الملوك التبابعة (واحدهم تبع). وكان التبع بمنزلة الإمبراطور أي ملك الملوك، لسيادته على عدة ملوك مستقلين استقلالاً داخلياً، ويسمون الأذواء أو الأقيال. وكان ينبع من هؤلاء الحكام في بعض الأحيان رئيس يوسع سلطانه إلى ما يجاوز مخلافه، ويعظم نفوذه أو يصغر، بحسب اتساع مخلافه وخصبه أو ضيقه وفقره. ويعد مخلاف صنعاء أضخم هذه المخاليف وأخصبها حتى إن رؤساءه كانوا يلقبون بالملوك. وكانت عدن من المدن المستقلة.

كذلك كان في جزيرة العرب ملوك من قبيلة كندة، وكان موطنهم بلاد حضر موت الواقعة في الجنوب الشرقي. وقد ملكوا جهات مختلفة من هذه البلاد، كما كان لهم السلطان والقوة في بلادهم. على أن هذه المملكة لم تدم طويلاً.

ومن ممالك بلاد العرب الجنوبية مملكة معين، وكانت في الشمال وسبأ جنوبيها، وقتبان. وكانت أشد إمعاناً في الجنوب بنواحي عدن. أما حضر موت فكانت شرقي هذه الممالك الثلاث.

وقد ورد ذكر معين في بعض الكتب العربية، كما وقفنا على أخبارها من النقوش التي كشفت حديثاً في جزيرة العرب ومن بعض أخبار التوراة. وقد قامت هذه المملكة في بلاد اليمن، في منطقة الجوف الجنوبي شرقي صنعاء، وحاضرتها القرن كما وردت في الآثار، ويسميها اليونان كارنا أو قارنا، وتشمل معين: قتبان، وحضر موت، وإقليم ملخ Melukh.

وقد ذكر الهمذاني[١] محفد معين بأسفل جوف أرحب، وقال إنها خراب خاوية على عروشها.

وذكر جليزر Glazer أن معين أقدم في تاريخها وثقافتها من سبأ، وأيد هذه الدعوى فريق

---

(١) الإكليل: جـ ٨ ص ١٠٥ (برنستون سنة ١٩٤٥).

من العلماء وعارضها فريق آخر، ويقول بعض المؤرخين إن المنافسة قامت بين معين وبين سبأ التي خلفتها. ويزعم جليزر أن المعينيين قد انحط شأنهم حتى وصلوا إلى بربريتهم الأولى، أو أنهم انقرضوا فعلاً حول نهاية القرن الأول قبل الميلاد، وهذا لا يتفق مع ما أشار إليه فيلبي من أنهم كانوا جيران السبئيين، ومع وصف بطليموس لهم في وقت متأخر من أنهم كانوا شعباً عظيماً جداً[1].

ولم يذكر مؤرخو اليونان شيئاً عن ملوك معين ولا عن أسمائهم. ولكن رجال الآثار استطاعوا أن يعثروا على أسماء ملوكها في أنقاض منطقة الجوف (أي جوف أرحب) ببلاد اليمن بين نجران وحضر موت.

وفي الجوف نجد مكاناً يحمل اسم معين. ويقول هليفي إن بمنطقة الجوف أطلالاً أقدم من أي منطقة أخرى ببلاد العرب. ومن أهم هذه الأطلال من الناحية التاريخية تلك الأماكن التي لا تزال تحمل اسم معين أو مأرب، ولا شك أن الأولى تمثل حاضرة المعينيين (أوليري ص ٩٥).

وكانت الحكومة في هذه المملكة، على ما ورد في النقوش المعينية، وراثية تنتقل من الأب إلى الابن؛ وقد يشترك الاثنان معاً في الحكم. واهتدى بعض المنقبين إلى معرفة ستة وعشرين من ملوك هذه الدولة[2].

ويستدل من النقوش، وما ورد في التوراة، وما كتبه بعض مؤرخي اليونان أن معين ظهرت في الألف الثاني قبل الميلاد، أي بين سنتي ١٢٠٠ و ٦٥٠ ق. م.، وأنها كانت على جانب عظيم من القوة والثروة. كذلك يستدل مما وقف عليه الباحثون من أحوال المعينيين السياسية والاجتماعية، ومن أسماء رجالهم وآلهتهم وأنهم ينتسبون في الأصل إلى عمالقة العراق. وقد هاجر المعينيون مع غيرهم من القبائل من بلاد العراق، والتمسوا مقراً متحضراً يقيمون فيه؛ فنزلوا اليمن بإقليم الجوف، وشيدوا القصور والمحافد على مثال ما شاهدوه في بابل.

وامتد نفوذ المعينيين بفضل نشاطهم التجاري إلى الخليج الفارسي وإلى أعالي بلاد الحجاز مما يلي سواحل البحر الأحمر. يدل على ذلك النقوش التي عثروا عليها في وادي القرى والصفا وحوران[3] وكان المعينيون يحملون أنواع البخور من جنوبي الجزيرة العربية إلى الشمال مارين بأواسط الجزيرة؛ وحذا حذوهم السبئيون في إمداد المعابد المصرية بالبخور في عصر البطالمة (أوليري ص ٩٤).

---

(١) O'Leary: Arabia Before Muhammad, p. 94.

(٢) Hitti: History of the Arabs, pp. 53 - 54.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١١١ ـ ١١٤.

وكانت مملكة معين أقوى وأغنى من مملكة سبأ التي اشتهرت أمرها في التاريخ . لظهورها في وقت كان فيه الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب مزعزعاً وأقل أمناً، ولا سيما في عالم التجارة، على حين ظهرت معين في وقت كانت فيه قبائل الجزيرة العربية على جانب عظيم من القوة.

(ب) مملكة سبأ:

كانت مملكة سبأ بين معين وقتبان، وامتد نفوذها من ساحل الخليج الفارسي شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً[١]. وقد انتقل سلطان معين إلى سبأ التي بدأت قوتها تظهر في أواخر أيام معين، وامتد نفوذها حول سنة ٩٥٠ إلى سنة ١١٥ ق. م. وورثت سبأ ملك معين حول سنة ٦٥٠ ق. م. كما تقدم، وآلت إليها السيادة على الجزء الجنوبي لبلاد العرب، كما أصبح ملوك سبأ حكاماً على هذه البلاد في هذه الفترة التي تعد أزهى عصورها.

ويستدل من آثار دولة سبأ أنها كانت في بدء أمرها إمارة صغيرة، ثم أصبحت مملكة تتمتع بنفوذ قوي على ما جاورها من المحافد، أو القلاع والقصور والمخاليف. ومما هو جدير بالذكر أننا لا نجد في آثارها إلا القليل عن الفتوح والحروب التي قامت بها، ويرجعَ السبب في ذلك إلا أنها كانت دولة تعنى بالتجارة دون غيرها.

كذلك يتبين من الآثار التي عثر عليها الباحثون، أن دولة سبأ الحقيقية مرت في طورين يتميزان بألقاب ملوك السبئيين. فكان ملكهم في الطور الأول الذي ينتهي حول سنة ٦٥٠ ق. م.، ويسمى «مكرب سبأ». . وقد تلقب بهذا اللقب، على ما ورد في النصوص نحو سبعة عشر ملكاً. وكان محفد صرواح وهو خريبة الحديثة على مسيرة يوم غربي مأرب، من أقدم مباني السبئيين، وكان حاضرتهم الأولى[٢].

أما في الطور الثاني (حول سنة ٦٥٠ إلى ١١٥ ق. م.) فقد كان الحكام يحملون لقب «ملك سبأ»[٣]. وكانت حاضرة سبأ في ذلك العصر مدينة مأرب. ويقول بعض إن سبأ هي مأرب. ويقول الأستاذ فيليب حتى (ص ٥٥) إن سبأ هي في الحقيقة اسم يطلق على البلاد والشعب وليس على المدينة. وذكر أو ليرى (ص ٩٠) أن حاضرة سبأ كانت تسمى مريابة Mariaba جنوب شرقي مأرب وأنها على جبل كثير الأشجار.

---

(١) كان السبئيون أكثر أهالي بلاد اليمن شهرة؛ إذ كان لفظ سبأ يطلق عادة على جميع تجار العرب كما كان كثير الاستعمال في العهد القديم.

(٢) Hitti, P. 54.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١١٧ - ١١٨.

وقد نقل أوليري (ص ٩٠) وصف مدينة مأرب وأعمالها عن الرحالة المحدثين مثل هليفي، فقال إنها تمتد إلى مسافة ١٦٠ ميلاً شمال شرقي بلاد اليمن، ويفصل هضبة صنعاء عن منحدرات تهم وبلد خولان وادٍ عميق متسع، أو بعبارة أدق سلسلة غير متصلة من الوديان. وتجري هذه الأرض المنخفضة غير المنتظمة إلى الشمال والجنوب منفصلة عن هضبة اليمن وعسير. وإلى الشرق منها رمال الصحراء الكبرى المرتفعة. أما الجزء الجنوبي من هذا المنخفض، فهو الجوف (ويعرف بوجه خاص بجوف اليمن)، وهو مركز حضارة سبأ القديمة. وتقع الحاضرة القديمة، وهي مأرب، على بعد ثلاثين ميلاً جنوبي الجوف الأسفل وخمسة وخمسين ميلاً شمالي صنعاء. وقد شاهدها كل من ميبوهر Mebuhr في سنة ١٧٦٢ م، ثم هليفي الذي وصفها فقال: «إنها عبارة عن أطلال، عدا ذلك الجزء الذي تتألف منه البلدة الحديثة، ويقع على تل. وتشغل هذه الأطلال مساحة قطرها نحو خمسمائة متر، وتشتمل على كثير من أعمدة الرخام التي لا قواعد لها. ويقع السد على مسيرة ساعتين أو ثلاث تقريباً من ناحية الغرب عند مدخل وادٍ يؤلف مجرى وادي شبوان. والجزء الذي لا يزال باقياً إلى اليوم يكشف عن أطلال سد متين البناء جداً، وله عيون كثيرة. وإلى الجنوب الغربي قليلاً يرى الناظر أطلال بناء كبير جداً ذي حجارة منحوتة، مبني ببراعة، ويرى قبالته صخرة عظيمة. وعلى مقربة من هذه الصخور يرى الناظر سلسلة من الصهاريج التي تغذيها ينابيع المياه. وعلى مقربة منها مدن أخرى قديمة أشهرها نجران، وتقع في ولاية يفصلها عن الجوف الأعلى أرض حزنة تمتد إلى مسيرة أربعة أيام».

وقد ساعد سبأ وحمير على الاستقرار ذلك الخصب الذي امتاز به هذا الإقليم الذي كانوا يسكنونه من بلاد العرب، كما كان لتجارتهم المطردة الواسعة النطاق مع مصر وسورية وبابل أثر كبير في تدفق موارد الثروة على هذه البلاد. وكان بعضهم يزرع الحقول، وبعضهم الآخر يتجر في البهار الذي تغله بلادهم، أو الذي يستجلب من بلاد الحبشة. ومن هذه يقلعون في قوارب مصنوعة من قشور الأشجار.

وكان لسبأ في البحر الأحمر أسطول بحري تشحن سفنه بالبخور لإمداد الهياكل المصرية بها. وقد ورثت سبأ من معين ذلك المركز التجاري، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية بينها وبين البلاد الأخرى.

ولا شك أنه كان لهذه الأقاصيص الشائعة بين الأمم الغربية عما بلغته مدن سبأ وحمير من الأبهة والعظمة، وهذه الستون هيكلاً، وأواني الذهب والفضة، وأعمدة الرخام، وعجلات مأرب، أساس من الحقيقة.

وإن أطلال هذه القناطر المقامة على الأعمدة لتوصيل ماء الشرب إلى المدن

(aqueducts) وهذه السدود والأحواض لتثير إعجاب الرحالة والسائحين الأوروبيين، من حيث براعة الرسم ومتانة البناء. وهي تكشف، لا عن المهارة التي بلغتها سبأ وحمير في فن العمارة وحدها، بل تدل أيضاً على معرفتهم التامة بنظام الريّ. ولا غرو فقد حذقوا فن شق الترع وإقامة الأحواض من هذه المجاري المتدفقة من الجبال للانتفاع بها في ريّ أرضهم. وقد تأثرت الأعمال الهندسية في مملكة سبأ بالأبنية المصرية والبابلية وهي - بلا شك - ذات طابع قريب الشبه بالأبنية التي أقامها قوم يتمتعون بثقافة هؤلاء الذين يسكنون وادي النهر، من حيث ضبط المياه المعرضة للفيضان الذي يحدث في أوقات دورية.

وإن خرائف الأبنية الفخمة من القصور والمحافد والقلاع قرب مأرب ونجران والغراب ونقب الحجرة لتؤيد الروايات العربية والأوروبية التي تحدثنا عما بلغته هذه البلاد من العظمة والمجد في الأزمان الغابرة. وإن النقوش التي وجدت على هذه الأطلال وغيرها في جنوب غربي بلاد اليمن (وترجع إلى سنة ١٢٠ تقريباً)، لتعطينا فكرة عن حياة القبائل التي كانت تقيم في جنوبي بلاد العرب ق. م. وما بلغته من تقدم في الفن والثقافة، كما أن الأشكال الأولى لحروف الهجاء قد اشتقت عن الأشكال البابلية، ثم سارت معها جنباً لجنب من حيث التطور والرقي.

ومع ما كان لدولة سبأ من تقدم في الحضارة والتجارة، يظهر أنها لم يكن لها قوة حربية، فإن الملكة بلقيس، وهي من أشهر ملوك سبأ، والتي ورد ذكرها في القرآن والتوراة بلقب ملكة سبأ، لم تخف خوفها حين تسلمت رسالة سليمان وقالت لقومها: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾. ويدل على ذلك أيضاً قول سليمان حين أرسل إلى بلقيس مهدداً ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ [سورة النمل ٢٧ : ٣٤، ٣٧]. وإذا علمنا أن ملك سليمان لم يجاوز فلسطين وما حواليها، أمكننا أن نتبين مقدار قوة بلاد اليمن إذ ذاك[١].

اختلف المؤرخون في أسباب سقوط الدولة السبئية. فيرى مؤرخو العرب أن السبب في ذلك يرجع إلى تصدع سد مأرب، الذي لم يكن لهم غنى عنه لريّ أرضهم رياً منظماً، والذي كان السبب الأساسي في رقي بلادهم وتقدمها. ويذهب بعض المستشرقين إلى أن انكسار هذا السد كان في حد ذاته نتيجة إهمال من أمة آخذة في الانحطاط، وأن هذا الخراب الذي حل بأهل سبأ لا بد أن يكون قد حدث تدريجياً قبل انهيار السد بزمن طويل، لأنه لا يعقل أن تزول مدينة عظيمة دفعة واحدة. وكان من أثر ذلك الحادث أن هاجر عدد كبير من أهل هذه البلاد إلى

---

(١) Noeldeke, Vol - viii, pp - 104 - 105.

الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب كما تقدم.

ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على هذا السد وأهمله الملوك، تصدعت جوانبه ولم يعد يحتمل تدفق السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه، فانكسر، وفاضت المياه على ما حوله من القرى والمزارع فأتلفتها.

وقد ذكر أوليري أن انكسار سد مأرب حدث تاريخي لا ريب فيه، وأن القرآن الكريم وصف هذا الحدث بأنه عقاب أنزله الله بأهل سبأ.

(جـ) مملكة حمير:

كانت حمير وكهلان من العرب القحطانيين تتنازعان الرياسة وتتنافسان على الملك؛ وقد قسموا بلادهم إلى مخاليف، لكل منها رئيس يكبر ويصغر بحسب زيادة قوة مخلافه أو ضعفها.

وتقع مملكة حمير بين سبأ والبحر الأحمر، وتشغل الأراضي التي يطلق عليها اسم قتبان. وقد حلت أول الأمر محل قتبان التي ظهرت قبلها، ثم استوعبت مملكة سبأ وريدان، وظهرت مملكة حمير بعد سنة ١١٥ ق. واتخذ الحميريون ريدان التي عرفت فيما بعد باسم ظفار مقراً لملكهم. وكانت ظفار مدينة داخلية على بعد مائة ميل شرقي مخا على الطريق إلى صنعاء، وحلت محل مأرب حاضرة سبأ، وقرناً أو قروناً حاضرة المعينيين. وقد ورث الحميريون، المعينيين والسبئيين في الثقافة والتجارة، وكانت لغتهم هي نفس لغة السبئيين والمعينيين من قبلهم.

وكان الحميريون يقيمون في ريدان قبل ذلك، وهم أقيال أو أذواء ويسمى كبيرهم «ذو ريدان»، ولما تغلبوا على السبئيين صار لقب كبيرهم «ملك سبأ وذو ريدان». ودامت مملكة حمير ٦٤٠ سنة يمكن تقسيمها إلى عصرين متساويين. ويلقب ملوك العصر الأول أو الطبقة الأولى بملوك سبأ وريدان. ويبدأ العصر الثاني بضم حضر موت إلى حمير، ويلقب ملوكها بلقب ملوك سبأ وريدان وحضر موت.

وتختلف مملكة حمير عن مملكة سبأ في اهتمامها بالفتوح، وقد نبغ من ملوكها قواد عملوا على اتساع رقعة دولتهم، فتغلبوا على بعض البلاد المجاورة، وحاربوا الفرس والأحباش.

ولا نستطيع أن نصل إلى معلومات ذات غناء عن أعمال ملوك حمير لاختلاف الروايات العربية، كما أنه ليس من السهل الاهتداء إلى تاريخ هؤلاء الملوك من الآثار المنقوشة أو النقود، لتشابه أسماء كثير من هؤلاء الملوك الذين عاشوا في عصور متقاربة، على الرغم من مقارنة ما كتبه مؤرخو اليونان، مثل سترابون بما عثر عليه من هذه النقوش. ولعل السبب في تشابه أسماء

ملوك حمير وزيادة عددهم، يرجع إلى أن بعض مؤرخي العرب أدخل في عداد هؤلاء الملوك أقيالاً أو قواداً اشتهروا بفتوحاتهم، فأدخلوهم في عداد ملوكهم.

ومن أشهر ملوك حمير: شمر يرعش؛ وقد ذكرت الروايات العربية أنه وطىء أرض العراق وفارس وخراسان، وفتح مدائنها، وخرب مدينة الصغد، وراء نهر جيحون، ثم بنى مدينة هناك عرفت باسمه، وتعرف بسمرقند[1].

ومن ملوك حمير أسعد أبو كرب (٣٨٥ ـ ٤٢٠ م). وقد زعمت الروايات العربية أنه غزا أذربيجان، وهزم ملك الفرس، كما هزم ملك سمرقند وقتله، وعاثت جيوشه في بلاد الصين، وعادت محملة بالغنائم. كما حاصرت جيوشه رومة، وأدت له القسطنطينية الجزية. كذلك تزعم الروايات العربية أن أسعد هذا غزا يثرب، وكسا الكعبة، وأنه كان أول من تهود من العرب[2].

ومن ملوك حمير: يوسف ذي نواس، وكان يحكم بلاد نجران التي كانت تدين بالمسيحية؛ غير أنه اعتنق اليهودية في أواخر أيامه، واضطهد المسيحيين وأحرقهم بالنار في سنة ٥٣٤ م[3]. فطلب جستنيان إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من نجاشي الحبشة غزو هذه البلاد وإنقاذ المسيحيين. وكان جستنيان يرمي من وراء ذلك إلى غرضين: أحدهما سياسي، وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقاً لتجارته إلى الشرق إذا وقعت في يد حلفائه الأحباش ليقضي على تجارة منافسيه الفرس، والآخر ديني، وهو جعل السيادة للدين المسيحي هناك.

١ ـ **استيلاء الحبشة على بلاد اليمن**: تغلب أرياط الحبشي على بلاد اليمن وحكمها من قبل النجاشي. إلا أن المنافسة قامت بينه وبين أبرهة أحد قواد الحبشة وتحاربا، فقتل أرياط، فخلفه أبرهة على اليمن برضاء النجاشي. وقد جرح أبرهة في هذه المعركة، وشجت شفته، فلقب الأشرم.

وكان من أول ما قام به أبرهة الأشرم أن فكر في بناء هيكل في صنعاء لصرف الحجاج عن الكعبة إليه، كما غزا مكة لهذا الغرض، فأخفق في غزوته على ما سيأتي عند الكلام عن قريش.

٢ ـ **استيلاء الفرس على بلاد اليمن**: توفي أبرهة بعد أن عاد إلى اليمن بقليل، فخلفه ولداه «يكسوم» ثم «مسروق»، وقد أذلا أهل اليمن وأساءا معاملتهم، فلجأ سيف بن ذي يزن

---

(١) هشام: كتاب التيجان في ملوك حمير ص ٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

(٣) وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم في سورة البروج وسماهم اصحاب الأخدود ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود﴾ [سورة ٨٥: ٤ ـ ٥]

الحميري إلى قيصر الروم، وطلب منه أن يخرج الأحباش من بلاد اليمن، وأن يكون له الملك فيها، فلم يجبه إلى طلبه، فاستنجد بالمنذر بن ماء السماء والد النعمان بن المنذر المشهور. وكانت الحيرة تابعة إذ ذاك للفرس، وطلب منه أن يقدمه إلى كسرى أنو شروان (٥٣١ ـ ٥٧٨). فلما قابله سيف بن ذي يزن في بلاطه، ويوجد ذلك التاج العظيم معلقاً على رأسه، لم تبهره هذه العظمة بل تقدم في شجاعة إلى كسرى وطلب منه مساعدته على استرداد بلاده من الأحباش، فأهمله كسرى وقال له: بعدت أرضك عن أرضنا وهي أرض قليلة الخير، وإنما بها الشاة والبعير، وذلك مما لا حاجة لنا به». ثم صرفه بعد أن أعطاه ١٠,٠٠٠ درهم فارسي وخلع عليه. فخرج سيف من عنده غاضباً ورمى الدراهم فتخاطفها الخدم. فلما علم كسرى بذلك، غضب وأمر بإحضاره، وأراد أن يعاقبه لجرأته وعبثه بهيبته. فلما دخل عليه قال كسرى[1]: «عمدت إلى حباء (عطاء) الملك الذي حباك به تنثره للناس»، فأجابه ابن ذي يزن: «ما أصنع بالذي أعطاني الملك؛ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة؟» فطمع كسرى في الاستيلاء على هذه البلاد، وعقد مجلساً من ذوي الرأي في بلاده، واستشارهم في غزوها. فأشار عليهم بعضهم برأي يكفل له الاقتصاد في الأرواح والنفقات التي تحتاج إليها غزوة كهذه الغزوة، ولذلك اختاروا الجنود لها من بين المسجونين، حتى إذا انتصروا لم يكلفهم ذلك شيئاً، وإن قتلوا في تلك الحرب كان في ذلك خير وسيلة للتخلص منهم: فأخرج منهم ٨٠٠ مسجون، وكان قائدهم «وهرز». ويصفه المؤرخون، ومنهم المستشرق نلدكه (أمراء غسان ص ٢٦)، بأنه بلغ من الكبر عتياً لدرجة أن جفنيه انطبق أحدهما على الآخر، حتى إنه كان لا يرى إلا بصعوبة. وسار الجيش وعدده ٨٠٠ مقاتل في ثماني سفن، على كل سفينة مائة، غرق منها اثنتان ووصل ٦٠٠ جندي. فلما علم أهل اليمن بذلك، وكانوا يقاسون ألوان العذاب وصنوف الخسف من الأحباش، خرج كثير منهم وانضموا إلى الجيش الفارسي.

أولم «وهرز» وليمة كبيرة في صنعاء. وفي أثنائها أحرق المراكب الست، وقال لجنوده: ليس أمامكم إلا إحدى اثنتين: إما القتال بشجاعة حتى الظفر، وإما الاستكانة والتخاذل، وحينذاك يلحقكم العار والخزي العظيم.

ولما نشب القتال بين الفرس والأحباش، قتل نوذاذ بن وهرز، فحنق وهرز على الأحباش وقال: أروني ملكهم، فقالوا له: ترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء. ثم أمر بحاجبيه فعصبا له، ووضع في قوسه نشابة فمعط فيها حتى إذا ملأها أرسلها. فصك بها الياقوتة التي بين عينيه، فتغلغلت النشابة في رأسه حتى خرجت من قفاه فمات. وهزم

---

(١) الطبري جـ ٨ ص ١١٦.

الأحباش وكتب وهرز إلى كسرى: «إني قد ضبطت لك اليمن وأخرجت من كان بها من الحبشة». فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذي يزن على اليمن وأرضها. وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية يؤديها إليه كل عام، وكتب إلى وهرز أن يتصرف إليه، فانصرف[1].

قتل سيف بن ذي يزن كثيراً من الأحباش في بلاد اليمن، وانتهى به الأمر بأن قتله رجل حبشي. فلما بلغ ذلك كسرى، بعث وهرز إلى بلاد اليمن في أربعة آلاف من الفرس، وأمره ألا يترك أسود ولا ولد عربية من أسود صغيراً أو كبيراً إلا قتله، فلما دخل وهرز بلاد اليمن لم يترك بها حبشياً إلا قتله، ثم كتب إلى كسرى بذلك، فأمره عليها حتى هلك، فخلفه ابنه المرزبان. فلما مات خلفه خرخسرة بن البينجان بن المرزبان بن وهرز. وقد غضب عليه كسرى فخاف ليأتيه به أهل اليمن يحملونه على أعناقهم. فلما قدم على كسرى، تلقاه رجل من عظماء فارس، فألقى عليه سيفاً لأبي كسرى، فأجاره كسرى بذلك ونجاه من القتل ونزعه. وولى باذان على اليمن، وهو آخر ولاة هذه البلاد من قبل كسرى فارس، وعاش إلى عهد النبي ﷺ، وأسلم هو وقومه على أثر ما دار بينه وبين الرسول من الرسائل بشأن إسلامه كما سيأتي (الطبري ٢ : ١٢١).

(د) مملكة الحيرة:

١ ـ **نشأة مملكة الحيرة**: استوطن بعض القبائل العربية الأراضي القريبة من حدود الدولتين الرومانية والفارسية وتمتعت باستقلال محدود. واستعان الفرس والروم بهذه القبائل على أغراضهم السياسية، التي كانت ترمي إلى الوقوف في وجه القبائل العربية الأخرى التي تغير على بلادهم، وتهدد الأمن في القرى الزراعية والمراكز التجارية المجاورة لتلك القبائل كلما أصابهم الجدب، واستعاض الروم والفرس عن جنودهم بجنود هذه القبائل.

وقد اتخذت سياسة خاصة إزاء هؤلاء الجيران الذين كانوا يهددون الأمن في القرى الزراعية المجاورة لهم، كما عبدوا الطرق وأنشأوا مصلحة حدود أقاموا فيها الجند وعقدوا المعاهدات لحفظ الأمن كما كانت تفعل انجلترا من إبرام المعاهدات مع أمراء الشمال الغربي للهند، كالأفغان، وتسليح منافذ جبال الشمال الشرقي.

وقد حاول المناذرة والغساسنة أن يقلدوا حضارة الفرس والروم، فأحاط ملك الحيرة نفسه بجميع مظاهر البلاط الفارسي، وكذلك كانت الحال مع ملك الغساسنة بالنسبة إلى الدولة

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ١١٧.

الرومانية الشرقية، وتوالت وفود العرب على بلاط كسرى وقيصر، حتى إن بعضهم تنصر واعتنق المسيحية.

كانت علاقة الحيرة ببلاد الفرس كعلاقة غسان بدولة الروم، وقد اتخذ الفرس إمارة الحيرة، للاستعانة بها على حرب الروم، ولتكون حائلاً بين العراق وغارات العرب على الدولة الفارسية. كما اتخذ الروم أمراء غسان أعواناً لهم على الفرس، ووسيلة لحكم قبائل العرب القريبة منهم كما تقدم. وكان للغسانيين مواقف معدودة في الجاهلية انتصروا فيها للروم على الفرس، وصدوا عنهم ملوك الحيرة، وتأثروا بحضارة الروم كما تأثر المناذرة بحضارة الفرس.

وتقع إمارة الحيرة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة على بحيرة النجف موطن الشيعة حتى اليوم؛ وكانت على أرض خصبة تمر بها فروع من نهر الفرات، أما أهلها فكانوا منذ القرن الثالث الميلادي ثلاثة أجناس:

١ ـ تنوخ وينزلون غربي الفرات.

٢ ـ العباد[١] وهم الذين سكنوا المدينة.

٣ ـ الأحلاف وهم الذين لحقوا بها من غير تنوخ والعباد.

انحطت الدولة الفارسية على أثر هزيمة الإسكندر المقدوني دارا ملك الفرس سنة ٢٣٣ ق. م. وقد قسم الإسكندر بلاد الفرس إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف حتى لا يقووا على الإغارة على بلاد اليونان. واستمر ملوك الطوائف يتولون حكم بلاد الفرس إلى سنة ٢٢٦ م، حين نبغ أردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة. واستمر أردشير في الحكم إلى سنة ٢٤١ م، واستطاع أن يوحد كلمة الفرس من جديد، كما أعاد إلى سلطانه الأراضي العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار، ومنحهما الاستقلال ليمنع أهلها من الإغارة على تخوم بلاده، وليستعين بهم على الرومان وعلى العرب الذين يغيرون على بلاد الفرس كما تقدم.

ويرجع تاريخ إمارة الحيرة إلى القرن الثالث الميلادي، واستمر إلى ظهور الإسلام، وكان لأهلها أثر كبير في الحضارة العربية: فقد كانوا يجوبون أرجاء الجزيرة العربية بالتجارة،

---

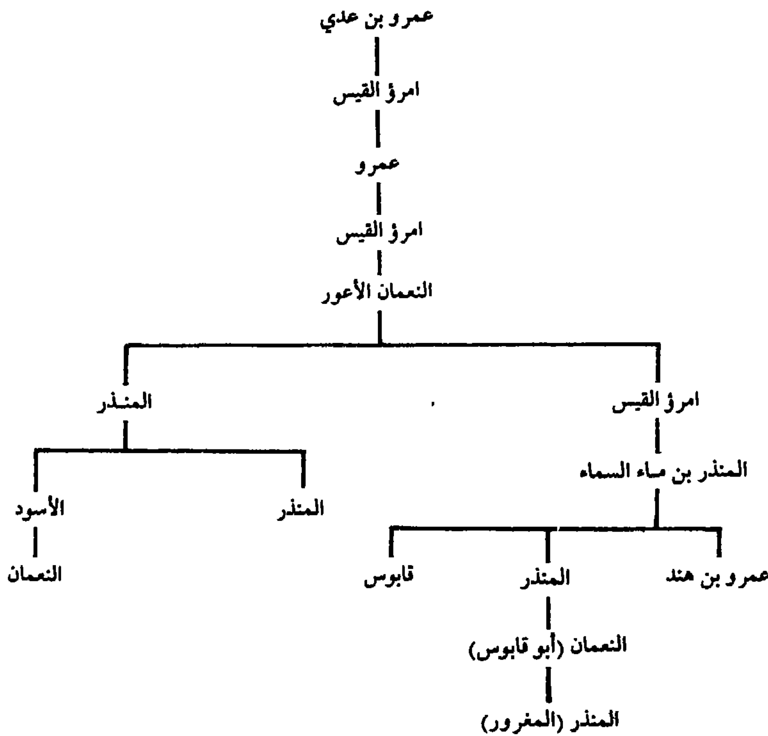
(١) سموا عباداً، لأن شعارهم كان «يا لعباد الله» قول خولف، فقال ابن دريد: إنما سموا عباداً لأنهم كانوا طاعة لملوك العجم. وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ معناه مطيعون. وقال أحمد بن أبي يعقوب: إنما سمي نصارى الحيرة العباد، لأنه وفد على كسرى خمسة منهم: فقال لأحدهم: ما اسمك؟ قال عبد المسيح، وقال للثاني ما اسمك؟ قال: عبد ياليل، وقال للثالث: ما اسمك؟ قال عبد يسوع، وقال للرابع: ما اسمك؟ قال: عبد الله، وقال للخامس: ما اسمك؟ قال: عبد عمر، فقال كسرى: أنتم عباد كلكم، فسموا العباد ـ انظر البكري: معجم ما استعجم جـ ١ ص ٢٥.

ويشتغلون بتعليم القراءة والكتابة. وبذلك أصبحوا واسطة في نشر المعارف في الجزيرة، كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب على أثر اعتناق بعض ملوكهم الدين المسيحي بعد تركهم الوثنية.

وصفوة القول إن أهل الحيرة كانوا واسطة بين الفرس والعرب، وعلى أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية إلى بلاد العرب. وقد تعاقب على هذه المملكة خمسة وعشرون ملكاً، نكتفي الآن بذكر أشهرهم.

٢ ـ ملوك الحيرة: تولى عمرو بن عدي الملك بعد جذيمة الأبرش صاحب القصة المعروفة مع الزباء(١)، وكان عمرو أول من اتخذ مدينة الحيرة حاضرة لملكه، وقد تولى النعمان ابن امرئ القيس الحكم في أوائل القرن الخامس الميلادي، وهو باني الخورنق والسدير.

ملوك الحيرة آل نصر حسب تسلسلهم غير الدخلاء(٢)



---

(١) راجع هذه القصة في المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٢) جرجي زيدان: العرب قبل الاسلام ص ٢٠١.

وكان النعمان شديد الوطأة على العرب، ويقال إنه تنصر وتنسك في آخر عهده. ويذكر الطبري[١] في سبب بنائه الخورنق، أن يزدجرد الأثيم بن بهران بن سابور كسرى فارس لم يعش له ولد، فسأل عن منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر (ظاهر) الحيرة. فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرىء القيس، وأمره ببناء الخورنق مسكناً له، وأنزله إياه، وأمره بإخراجه إلى بوادي العرب. وكان الذي بنى الخورنق رجلاً يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان عمله. فقال له: لو علمت أنكم توفونني أجري وتصنعون بي ما أنا أهله، بنيت بناء يدور مع الشمس حيثما دارت، فقال: وإنك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل منه لم تبنه؟ فأمر به فطرح من رأس الخورنق. وقد سار ما صنعه النعمان بسنمار سير الأمثال حتى قيل: «جزاه جزاء سمار»، وقال الشاعر في ذلك:

جـزى بنـوه أبـا الغيـلان عن كبـر وحسن فعـل كمـا يجـزى سنمـار

وإذا امتاز الخورنق بهذه العظمة والوجاهة اللتين يطريهما شعراء العرب، فقد كان هناك قصر يقال له الحضر (بفتح الحاء وسكون الضاد)، بناه الضيزن بن معاوية بن عمران بن الحاف ابن قضاعة بجبال تكريت بين دجلة والفرات. وكان صاحبه قد ملك تلك الناحية وبلغ ملكه الشام، فأغار على فارس في غيبة سابور وأسر أخته. فلما عاد سابور، غزاه الضيزن، فاحتمى منه في قصره الحضر. فأقام سابور أربعة أعوام لا يستطيع هدمه ولا الوصول إلى الضيزن، حتى خرجت النضيرة بنت الضيزن لأمر لها: فلما رأت سابور أعجب كل منهما بجمال الآخر؛ واتفقت معه على أن تعرفه ما يهدم به سور هذا القصر، ويقتل أباها، ثم يتزوجها ويحتملها. ولكنه قتلها قبل عودته بعد أن فتح الحصن. وقد وصفه عدي بن زيد العبادي في قصيدته التي وصف فيها الخورنق فقال:

وأخـو الحضـر[٢] إذا بنـاه وإذ دجـ ـلة تـجـري إليـه والـخـابـور

شـاده مـرمـراً وجـلله كـلـ ـسـا فـللطيـر في ذراه وكـور[٣]

قال حمزة الأصفهاني[٤] (ت ٣٠٦ هـ): فلما أتى على الملك النعمان ثلاثون سنة، علا مجلسه على الخورنق، وأشرف منه على النجف وما يليه من النخل والبساتين والجنان والأنهار مما يلي المغرب، وعلى الفرات مما يلي الشرق، فأعجبه ما رأى في البر من الخضرة والنور

---

(١) جـ ٢ ص ٧٢. البكري جـ ٢ ص ٥١٥ - ٥١٦.

(٢) الحضر: حصن بجبال تكريت بين دجلة والفرات كان صاحبه ملكاً من العجم يقال له الساطرون. البكري جـ ٢ ص ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٣) الطبري جـ ٢ ص ٦٢. الأغاني جـ ٢ ١٤١.

(٤) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (برلين سنة ١٣٤١ هـ) ص ٥٦٨. الطبري جـ ٢ ص ٧٣.

والأنهار الجارية ولقاط الكمأة[١] ورعي الإبل وصيد الظباء والأرانب، وفي الفرات من الملاحين والغواصين وصيادي السمك، وفي الحيرة من الأموال والخيول ومن يمرج فيها من رعيته، ففكر وقال: أي درك في هذا الذي قد ملكته اليوم ويملكه غداً غيري؟ فبعث إلى حجابه ونحاهم عن بابه. فلما جن عليه الليل، التحف بكساء وساح في الأرض، فلم يره أحد، وفيه يقول عدي بن زيد يخاطب النعمان بن المنذر:

وتدبر رب الخورنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال: وما غبـ ـطة حي إلى الممات يصير؟
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ـة[٢] وارتهم هناك القبور
ثم أضْحَوْا كأنهم ورق جـ ـف فألوت به الصبا والدبور[٣]

تولى المنذر الحكم سنة ٥٢٠ م. وكان يعاصره كسرى أنو شروان ملك فارس، وجستنيان أمبراطور الروم، والحارث بن أبي شمر الغساني عامل الدولة الرومانية على بلاد الشام، الذي اشتبك مع المنذر في نزاع على الأرض الواقعة جنوبي تدمر، وتمتد على جانبي الطريق من دمشق إلى مدينة سرجيوس Sergiopolis، وتسمى Strata[٤]. فقد كان كل من هذين الأميرين يدعى السلطة على القبائل العربية النازلة بها. ولم يكد ينتهي ما بينهما من نزاع حتى نشبت الحرب بينهما من جديد حول سنة ٥٤١ م، وفيها أسر المنذر أحد أبناء الحارث، وانتهت الحرب بهزيمة المنذر وقتله في موقعة مرج حليمة سنة ٥٥٤ م، غير أن الحرب لم تلبث أن نشبت بين عرب الحيرة والغساسنة، وانتهت بموقعة عين أباغ[٥] التي قتل فيها ملك الحيرة أيضاً[٦] (سنة ٥٧٠ م).

وتولى النعمان بن المنذر الحكم ٥٨٠ م، ثم قتله كسرى أبرويز في سنة ٦٠٢ م ـ وقد مدحه النابغة الذبياني بعدة قصائد. ويروي المسعودي[٧] أن النابغة استأذن على النعمان يوماً،

(١) لقط السنبل ولقاطه ما يلتقطه الناس من الثمار، والكمأة نبات ترعاه الإبل وقد يأكله الناس وينبت في الأراضي الصحراوية بعد المطر.
(٢) الأمة: النعمة.
(٣) الصبا: ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل بالنهار، والدبور: ريح تقابل الصبا. انظر البكري جـ ٢ ص ٧٢ ـ ٧٤. الأغاني جـ ٢ ص ١٤٤.
(٤) نلدكه: أمراء غسان ص ١٨.
(٥) هو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت، وانظر يوم عين أباغ في ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٧٣.
(٦) نلدكه: أمراء غسان ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٧) مروج الذهب جـ ١ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

فقال له الحاجب إن الملك على شرابه. قال: فهو وقت الملق، تقبله الأفئدة، وهو جذل للرحيق، فإن تلج تلق المجد عن غرر مواهبه، فأنت قسيم ما أفدت. قال له الحاجب: ما تفي عنايتي بدون شكر، فكيف أرغب فيما وصفت، ودون ما طلبت رهبة التعدي؟ قال النابغة: ومن عنده؟ قال الحاجب: خالد بن جعفر الكلابي نديمه. فقال النابغة: هل لك إلى أن تؤدي إلى خالد عني ما أقول لك؟ قال: وما هو؟ قال: تقول إن من يدرك وفاء الدرك بك وتأديتي من الشكر ما قد علمت. فلما صار خالد إلى بعض ما تبعثه موارد الشراب عليه نهض فاعترضه الحاجب: قال يهنك التئام حادث النعيم. قال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر. وكان خالد رفيقاً يأتي الأشياء بلطف وحسن بصيرة، فدخل مبتسماً وهو يقول:

ألا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

واللات لكأني أنظر إلى ذي رعين وقد مدت لهم قضبان المجد؛ إلى معالم إحسانكم ومناقب أنسابكم، في حلبة أنت إن أبيت اللعن غرتها، فجئت سابقاً منهملاً وجاءوا لم يلم لهم سعي. قال النعمان: لأنت في وصفك أبلغ إحساناً من النابغة في نظام قافيته. فقال خالد: ما أبلغ فيك حسناً إلا وهو دون قدرك استحقاقاً للشرف الباهر، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا. فأمر النعمان بإدخاله، فخرج الحاجب فقال: قد أذن بفتح الباب ورفع الحجاب. أدخل! فدخل ثم انتصب بين يديه وحياه تحية الملك، وقال: أبيت اللعن، أتفاخر وأنت سائد العرب وغرة الحسب. ثم قال:

أخلاق مجدك جلت ما لها خطر في الجود والناس بين العلم والخبر

متوج بالمعالي فوق مفرقه وفي الوغى ضيغم في صورة القمر

فتهلل وجه النعمان بالسرور ثم أمر فحُشي فوه جوهراً.

٣ ـ المناذرة في أواخر أيامهم: حل الضعف والانقسام بأمراء الحيرة على أثر ما نزل بهم من الحوادث الجسام، وما توالى على دولة آل ساسان من الضعف. وكانت أولى تلك الحوادث هزيمة المنذر بن ماء السماء عاهل البيت اللخمي وقتله على يد الحارث بن أبي شمر الغساني في موقعة مرج حليمة، ثم هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغساني سنة ٥٧٠ م. ثم تبع ذلك اضطراب حبل هذا البيت وتنازع أولاد المنذر العرش. وإنه وإن كان النعمان بن المنذر قد فاز به، فإنه لم ينج من الدس والكيد له في البلاط الفارسي، حتى غضب كسرى عليه، فاستدعاه إلى بلاده، فذهب إليه بعد أن عرض نفسه على القبائل، فلم تجرؤ إحداهن على مناصرته على كسرى، وظل هناك حتى مات. ثم أقام كسرى إياس بن قبيصة خلفاً للنعمان على بلاد الحيرة، ولم يكن من أهل بيته، وأشرك معه رجلاً فارسياً في الحكم، اسمه «النخير جان».

وكان من أثر نزع النعمان من الحيرة أن ضعفت الأداة الحكومية ، وقامت حرب « ذي قار » بين إياس بن قبيصة حاكم الحيرة ، تؤيده حكومة فارس ، وبين العرب . فكان النصر للعرب ، وهزم الفرس وأمير الحيرة . ثم انفرد بالملك في الحيرة آزاذ بن يابيان الهمذاني سبعة عشر عاماً . ولم يلبث المنذر بن النعمان بن المنذر الذي ملك الحيرة من بعده إلا ثمانية أشهر حتى قدم خالد بن الوليد الحيرة[1] .

(هـ) مملكة غسان :

سارت قبائل من قضاعة إلى الشام في الوقت الذي هاجر فيه عرب اليمن إلى العراق، وسكنت في شمال غربي الجزيرة العربية في الأراضي التي يطلق عليها الآن شرقي الأردن، وكان يسكنها الضجاعمة. ولما هاجرت الأزد من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب، ذهب بطن منهم إلى الشام وأقاموا على ماء هناك يقال له غسان، فسموا أزد غسان. وكان شأن الضجاعمة قد ضعف. فتمكنت أزد غسان من إقامة دولة لهم عرفت بدولة الغساسنة، وولى الروم منهم جفنة بن عمرو ملكاً على عرب الشام. ولم يزل الغسانيون يحكمون هذه البلاد من قبل الروم حتى جاء الإسلام ووقعت موقعة اليرموك سنة ١٣ هـ.

وقد أجمعت الروايات التاريخية والشعراء المعاصرون على أن جفنة هو جد أسرة الغساسنة، فقد دعا النابغة الذبياني أحد أمراء هذا البيت القدماء «الحارث الجفني» ويستنتج من قصيدة متأخرة لحسان بن ثابت أن جفنة كان شيخاً من أهل العصور القديمة يفتخر به سكان يثرب[2]. وكان ملك الغساسنة حول دمشق وتدمر. وكانوا يتجولون في الجهات الجنوبية لدمشق. وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران. وقد قابل النبي ﷺ بعض الأعراب من غسان في غزوة تبوك وأسلم بعضهم على يديه.

ملوك غسان: كان الحارث بن جبلة أول أمراء بني جفنة وأعظمهم شأناً. وقد تولى ملك الغساسنة في أيام الإمبراطور جستنيان من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٦٩ م وينتهي نسبه إلى جفنة بن عمرو. وقد رفع الإمبراطور جستنيان الحارث إلى مرتبة الملوك، وبسط سلطته على كل القبائل العربية في بلاد الشام؛ يريد بذلك أن يقيم خصماً قوياً في وجه المنذر ملك الحيرة. ومن المرجح أنه لم يكن للروم قبل هذا الإمبراطور عمال كبار من العرب في سورية، وأنه لم تكن لأحد من الضجاعمة أو لأمراء كندة ـ الذين خضعوا مدة من الزمن للدولة الرومانية الشرقية ـ أو لغيرهم من أمراء العرب سلطان بلغ ما بلغه بنو جفنة فيما بعد[3].

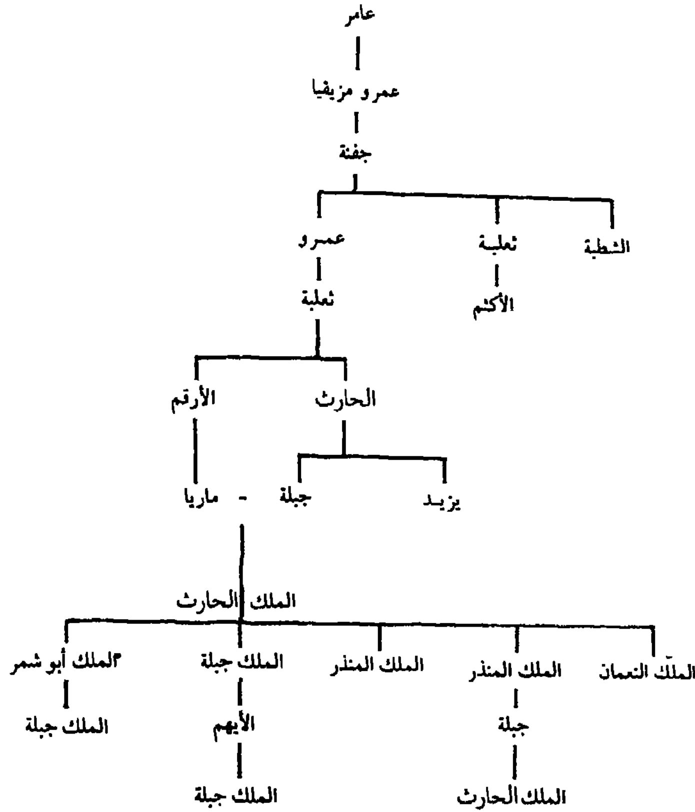
---

(١) الطبري جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٢) نلدكه : أمراء غسان ص ٣ .

(٣) نلدكه : أمراء غسان ص ١١

أنساب بني جفنة
حسب رواية ابن الكلبي



ويستفاد من أخبار العرب أن بني جفنة استولوا على سورية بعد أن انتصروا على الضجاعمة من قبائل سليح. وذكر حمزة الأصفهاني وابن قتيبة أن أول أمير جاء بالغساسنة إلى سورية هو ثعلبة بن عمرو. ويؤيد هذا الروايات العربية القديمة. وقد وقعت بينه وبين قضاعة حرب انتهت بإرغامه على دفع الجزية لرئيس قضاعة لكن غسان لم تلبث أن انتصرت على قضاعة، وأصبح الغساسنة منذ ذلك الوقت أصحاب السلطان في هذه البلاد؛ ووجد الروم فيهم حلفاء أقوياء يقاومون الفرس والعرب المغيرين على أطراف مملكتهم. واختلف المؤرخون في الوقت الذي تعاقد فيه الغساسنة والروم الذين تعهدوا أن يمدوا الغساسنة بعدد من

جندهم إذا حاربوا قوماً من العرب. ويقدر هذا العدد بـ ٣٠ ألف أو ٤٠ ألف، كما تعهدت الغساسنة بإمداد الروم بعشرين ألف مقاتل إذا تحارب الفرس والروم.

وقامت بين الحارث والمنذر أمير الحيرة حرب بسبب النزاع على الأراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر. ذلك أن أمير الحيرة ادعى أن القبائل العربية النازلة في تلك الأراضي خاضعة لسلطته؛ فنازعه الأمير الغساني هذه السلطة، ونشبت الحرب بينهما، وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين الدولتين[١].

وفي سنة ٥٤١ حارب الحارث في العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزاريوس Belizarius، ولم يحصل من حملته هذه على نتائج تذكر. ولهذا لم يمضِ على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال سنة ٥٤٤ م، ووقع في هذه الحرب أحد أبناء الحارث أسيراً في يد المنذر. واستمر القتال بين الأميرين العربيين إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً سنة ٥٥٤ م في معركة دارت بينهما بالقرب من قنسرين وانتهت بقتل المنذر ملك الحيرة، وسافر الحارث على أثر ذلك إلى القسطنطينية (٥٦٣ م) لمفاوضة قيصر الروم فيمن يخلفه من أولاده على سورية، وما يتخذ من التدابير لمقاومة ملك الحيرة. وكان لما شاهده الحارث في الحاضرة البيزنطية من مظاهر الترف وقع عظيم في نفسه[٢].

ولما توفي الحارث سنة ٥٧٠ م خلفه ابنه المنذر، ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى هب لمحاربة عرب الحيرة، وكانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة أبيه، فقاتلهم وانتصر على ملكهم قابوس بن المنذر. ثم وقعت جفوة بين غسان والروم انقطع على أثرها وصول المدد ثلاث سنوات، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة، وأغاروا على سورية، فاضطر الروم إلى مسايرة أمير الغساسنة، وعقدت محالفة بين إمبراطور الروم وبينه، ثم ارتاب الإمبراطور في ولائه ونفاه إلى صقلية. ولكن المنذر لم يلبث طويلاً في منفاه، فقد سخط على الإمبراطور أبناء المنذر الأربعة، وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهم الأكبر النعمان في الصحراء وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضي الدولة الرومانية. غير أن القائد البيزنطي تمكن من القبض على النعمان وأسره وساقه إلى القسطنطينية (٥٨٣)[٣]. وقد تفرقت كلمة العرب في سورية بعد أن سيق المنذر إلى القسطنطينية وتفككت عرا وحدتهم، فاختارت كل قبيلة منهم أميراً لها والتحق بعضهم بالفرس.

---

(١) ابن قتيبة: المعارف ص ١٣٣. اليعقوبي جـ ١ ص ٢٣٥.
(٢) نلدكه: أمراء غسان ص ١٨، ٢٠ ـ ٢١.
(٣) المصدر نفسه ص ٣١، ٣٢.

ولما كثر النزاع بين القبائل العربية بعد فقد أميرها، أسرع الروم في إقامة عامل جديد لتسكين القبائل البدوية الضاربة في تلك الأنحاء(١).

على أن دخول الفرس بلاد الشام سنة ٦١٣ م قضى على ملك بني جفنة، ففر بعض أمرائهم إلى بلاد الروم ولجأ بعضهم إلى داخل الصحراء. وأنزل الفرس الرعب في قلوب أهالي بلاد الشام وطردوا منها عمال الروم. ولم يتركوا الحكم في أيدي بني جفنة الذين أراقوا دماءهم وعاثوا في ديارهم (نلدكه ص ٤٦).

وفي سنة ٦٢٨ م انتصر الروم على الفرس واستردوا بلاد الشام. وليس لدينا ما يثبت أن هرقل أسند الحكم في سورية إلى أحد أمراء بني جفنة. وقد يتضح من عدم مقاومة المناذرة أنه لم يكن للروم في بلاد الحبشة إذ ذاك عامل قوي يحميها ويدفع عنها المغيرين من الخارج.

والواقع أن الغساسنة في ذلك الوقت كثيراً ما حاربوا المسلمين إلى جانب الروم. وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم. ويقال إنه أسلم في عهد عمر بن الخطاب على أثر انتصار العرب في اليرموك (١٣/٦٣٦). غير أنه لم يلبث أن عاد إلى الروم وتحول إلى النصرانية، وهجر وطنه ليستقر نهائياً في بلاد الدولة الرومانية(٢).

بلغت دولة الغساسنة درجة كبيرة من الحضارة. فقد كان ببلادها كثير من الحصون؛ كما كان بها كثير من البيع والكنائس. وكان ملوكها يقتنون الجواري الروميات، ومبانيها مجللة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها. وقد تعلموا من مخالطتهم الروم ومحاربتهم الفرس، الفنون الحربية، وطرق الدفاع، وكسبوا المران العسكري، وأخذوا من اللغة اليونانية كثيراً من الكلمات التي لم تكن معروفة بها مثل الكنيسة والراهب.

(و) بلاد الحجاز:

١ ـ مكة: حافظ الحجاز على استقلاله منذ أقدم العصور، فلم يعبث بحريته الملوك الفاتحون، في الوقت الذي عبث فيه كيرش وقمبيز وغيرهما من ملوك الفرس باستقلال كثير من الأمم. كذلك ظل محافظاً على استقلاله أيام الإسكندر المقدوني الذي صده العرب حين أغار على دارا ملك الفرس. وكان من أثر تمتع أهل الحجاز بالاستقلال طول حياتهم، أن ظهرت فيهم طبائع خاصة بهم، من حيث عراقة أصلهم وشرف آبائهم وشهامتهم التي كانت ـ ولا تزال ـ

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٥.

(٢) كان سبب ارتداده إلى النصرانية أن أحد العامة من بني فزارة وطيء ذيل إزاره وهو يطوف بالكعبة، فلطمه جبلة حتى هشم أنفه. فشكاه الرجل إلى عمر بن الخطاب فحكم بالقود فعز على جبلة، وهو ملك، أن يصفعه رجل من العامة ويهشم أنفه، فاحتال للهرب، ولجأ إلى ملك الروم، وتبعه خمسمائة رجل من قومه، فتنصروا عن آخرهم، وفرح بهم هرقل وأكرمهم ثم ندم جبلة على فعله (أبو الفدا جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢).

مضرب الأمثال ولغتهم التي حافظت على نقائها وصفائها(١).

وكان لبلاد العرب دين واحد وعقيدة مشتركة مركزها مكة(٢)، وهي قرية تأسست حول منتصف القرن الخامس الميلادي، في وادٍ ضيق طويل مجدب على مقربة من بئر زمزم، وتبعد عن جدة بنحو ٤٥ ميلاً.

وكان العمالقة أول من سكن مكة؛ ثم خلفتهم قبيلة جرهم الثانية، وفي عهدهم نزل إسماعيل وأمه بوادي مكة. وصاهرهم إسماعيل. ولما مات تولى البيت بعده ابنه ثابت، وهو أكبر أولاده، ثم تولى ولاة من جرهم استمرت ولايتهم إلى سنة ٢٠٧ م كما ذكر سديو.

ظلت ولاية البيت في جرهم حتى اتسع سلطانهم وعظمت شوكتهم. فعاثوا في الأرض، واستحلوا أموال الكعبة، واضطهدوا من دخل مكة من غير أهلها(٣). ولما قدمت خزاعة من اليمن أجلت جرهم وانتزعت منها السيادة بعد تفرق سبأ على أثر سيل العرم، إذ عرج على مكة بنو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة، فاستعان بنو حارثة بكنانة (بطن من مر) فغلبهم بنو حارثة، وكان رئيسهم يومئذٍ عمرو بن لحي. واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلثمائة سنة أحدثوا فيها كثيراً من الأوهام الفاسدة ولا سيما عبادة هبل(٤).

٢ - انتقال السيادة إلى قريش: استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش(٥) وتغلبت عليها في القرن الخامس الميلادي، وكانت على درجة كبيرة من الرقي. فاستولى قصي ابن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م من يد خزاعة وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية، فرحلت خزاعة ونزلت في بطن مر (وادي فاطمة). ومن ثم عظم نفوذه واجتمعت له

(١) Sédillot, Vol I.p. 41 .

(٢) قال ياقوت في معجمه (جـ ٧ ص ١٣٣) : مكة بيت الله الحرام ، فيقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت . وقال آخر هي بكة ،وقيل بالميم الحرم كله وبالباء المسجد خاصة . وقد تضاربت أقوال المؤرخين في تسمية مكة واشتقاقها . فهي أم القرى كما سماها الله تعالى ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ ، والبلد الأمين كما جاء في قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ﴾ ، والبيت العتيق كما سماها الله تعالى : ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ . ومكة أو بكة كلمة بابلية سمته بها العماليق ، ومعناها البيت .

(٣) الأزرقي : كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ص ٣٦ .

(٤) بضم الهاء وفتح الباب : اسم صنم أتى به عمرو بن لحي .

(٥) قريش هم ولد النضر بن كنانة على ما يقول بعض . وقد ورد مثل ذلك عن الرسول حين سئل : من قريش ؟ فقال : « من ولد النضر » وهم بنو فهر الذي هو قريش ، وإن كل من كان من ولد فهر فهو قرشي ، ذلك النسب الذي يتصل بمعد بن عدنان . وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصي بن كلاب إلى الحرم بعد أن نفى خزاعة من الحرم ، من القرش وهو التجمع ، كما ورد ذلك في معاجم اللغة ، أو أنهم سموا قريشاً لاحترافهم التجارة ، كما قيل أيضاً إنها سميت قريشاً بداية في البحر ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لأنها أعظم دواب البحر قوة .

الطبري جـ ٢ ص ١٨٧ . المبرد : نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب ص ١٢٩ . العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٠٢ .

السقاية والحجابة والرفادة واللواء ولم تجتمع في رجل من قبله.

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشاً الذين منهم قصي بن كلاب، الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام، هم من ولد كنانة، الذي يرجع نسبه إلى عدنان وينتهي إلى إسماعيل عليه السلام. وإلى ذلك يشير الحديث الذي أثر عن الرسول: «اختار الله من إسماعيل كنانة، واختار قريشاً من كنانة، واختار بني هاشم من قريش، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار».

وتحدثنا المصادر العربية، ومن بينها القرآن الكريم، أن إبراهيم كان يزور ولده إسماعيل من حين لآخر، وأن الله أمره ببناء الكعبة - أي البيت الحرام - وأن إبراهيم كان يبني، وإسماعيل يرفع له الحجارة، حتى أتمَّاه ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [سورة البقرة ٢ : ١٢٧].

وقد سارت الركبان بذكر الكعبة ولا سيما بعد أن أمر الله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [سورة الحج ٢٢ : ٢٧] ولولا هذه القصة التي أوردها لنا القرآن الكريم في سورة إبراهيم وما حوته من الأخبار لما عرفنا عن قريش شيئاً ذا غناء.

بنيت الكعبة في مكة؛ وهي بيت صغير مربع يحيط به فضاء غير مسقوف. وقد أطلق عليها الكعبة لأنها تشبه الكعب. وكانت قبائل العرب تحج إليها، ولكل قبيلة منها صنمها في جوف الكعبة. وفيها صور إبراهيم والمسيح، وفيها الحجر الأسود الذي يقال إنه سقط من السماء، وتمثال الهبل صنم قريش وهو من العقيق، وكان أكثر احتراماً وتقديساً من الأصنام الأخرى.

وقد قام حول الكعبة بعض أسر من فهر إحدى بطون قبيلة كنانة عرفت باسم قريش - كما تقدم - وأسست حكومة جمهورية من نوع الحكومات التي كانت في بلاد العرب. واتخذوا جزءاً من الأرض المجاورة للكعبة أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل. وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها كما أصبحت قبيلة قريش محترمة في نظر القبائل العربية.

وإلى قريش يرجع الفضل في توثيق الروابط التي تربط من يؤمون البيت الحرام كل عام من مختلف القبائل، إذ أصبحت مكة المكان الذي تفد إليه القبائل من كافة أرجاء بلاد العرب حيث يجتمعون للحج والتجارة. وقد جعل هذا الأمر لقريش مركزاً خاصاً في نفوس القبائل، وأتاح الفرصة لكثير من رجال هذه القبيلة، فظهرت مواهبهم بعد ظهور الإسلام. وكان منهم

رجال كثيرون يعتبرون بحق من أكبر قادة العالم في الحرب والسياسة[١] .

٣ ـ الحكومة في قريش: ذكر المؤرخون أن بني سهم (ومنهم عمرو بن العاص) كانوا أصحاب الحكومة في قريش قبل الإسلام. على أننا لا ندري حقيقة هذه الحكومة، وكل ما نعلمه هو أن العادة قد جرت عند العرب وعند غيرهم من الأمم في عصورها الأولى قبل الإسلام، أن تقتسم الأسر الكبيرة منها الأعمال الاجتماعية. فلعل هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء، بحيث يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفدون على مكة من العرب إلى بني سهم، أو بعبارة أصح إلى زعماء بني سهم، فيما كان يقع بينهم من الخصومات. وكان يلي الحكومة عند قريش أصحاب الرأي والحلم والدهاء فيها. ولا مغيب عنا ما يروى عن أكثم بن صيفي وذي الإصبع العدواني وغيرهما من حكماء العرب. ولم تكن حكومة قريش قبل قصي بن كلاب في يد هذه القبيلة، بل كانت في خزاعة. فلما جاء قصي جمع شتات القرشيين ووحد كلمتهم، ثم أصبح الرئيس الديني للبيت الحرام الذي كان يفد إليه العرب من كافة أنحاء الجزيرة.

ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة، وكان له من مظاهر الرياسة أربعة أمور:

١ ـ رياسة دار الندوة: وهي نادي قريش ومجمع الملأ والسراة منها، يتشاورون فيها في مهام أمورهم ويزوجون بناتهم، وكان لا يسمح بدخولها إلا لمن بلغ الأربعين.

٢ ـ اللواء: وهي رياسة القوى الحربية، وتكون لمن بيده اللواء، يسلمونه إليه عند قيام الحرب.

٣ ـ الحجابة: وهي حجابة الكعبة أو سدانتها، فلا يفتح بابها إلا هو، وهو الذي يلي أمر خدمتها[٢].

٤ ـ سقاية الحجاج ورفادته[٣]: كان أهل مكة يملؤون أحواضاً من ماء زمزم يحلونها بشيء من التمر والزبيب. وكانت السقاية عند ظهور الإسلام في يد العباس بن عبد المطلب وولده. أما الرفادة فهي خرج قرره قصي على أهل مكة ليصنعوا به طعاماً للحاج على سبيل

---

(١) القلقشندي: جـ ٢ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .

(٢) كانت الحجابة في بني عبد الدار حتى فتحت مكة، فطلبها العباس من النبي ﷺ، وأراد أن يجمع النبي له السقاية والحجابة، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾، فرد النبي المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن عبد العزى.

(٣) لم تشترك جميع بطون قريش في الرفادة قبل قصي، فلما جاء زمن الحج رأى قصي أن يكون لكل قرشي نصيب في إطعام الحاج لعلمه ما يكون لقرى الضيف في نفس مضيفه من أثر.

الضيافة . وقام بالرفادة بعد قصي ابنه عبد مناف ، ثم ابنه هاشم[١] ثم ابنه عبد المطلب ، ثم ابنه أبو طالب، ثم أخوه العباس ، وجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والاسلام . .

وكانت لقريش مظاهر أخرى للرياسة تلي هذه في الأهمية، وزعت بين رؤسائهم حتى لا يكون هناك مجال للنزاع. على أنهم، وإن أمنوا الحروب، لم يأمنوا المنافسة بين كبراء البيت الواحد، كما حدث بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس، الذي كان ينافس عمه على رئاسة قريش بما كان له من ثروة، مما ولد الجفوة بين البيتين.

وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حراماً يقيمون فيها أسواقهم حول الحرم. ولم يجرؤ أحد على الإخلال بحرمة البيت. ولما قامت الحرب بين قريش وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً، سمتها العرب حرب الفجار، لما فيها من انتهاك حرمة الحرم. ومما ساعد على سيادة قريش واحترامهم عند جميع العرب، حلف الفضول[٢]، فقد أخذت فيه قريش على نفسها ألا تجد مظلوماً في مكة إلا نصروه ولا غريباً إلا آووه.

٤ - **مكة في عهد عبد المطلب:** وما زال فضل قريش يزداد بين القبائل حتى جاء عبد المطلب الذي اشتهر بتجديد حفر بئر زمزم[٣] سنة ٥٤٠ م. وفي عهده خذل الله أبرهة الأشرم، وصده عن مكة والبيت الحرام، ونجت مكة في أيامه من خطر الحبشة، فذاعت شهرته وقصدته القبائل من كافة أطراف الجزيرة. فقد كتب أبرهة إلى قيصر الروم في ذلك الوقت أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء، وسأله العون، فأرسل إليه الصناع وأمده بالفسيفساء والرخام. فلما تم بناؤها، كتب أبرهة إلى النجاشي أنه يريد أن يصرف إليها حجاج العرب ويحول تجارة قريش إلى صنعاء. فأثار ذلك حفيظة العرب، فخرج رجل من بني مالك بن كنانة حتى قدم اليمن، ودخل الكنيسة وعبث بأساسها وانتهك حرمتها، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة، وجرد جيشاً عظيماً من الأحباش سير أمامه القبلة، ويمم شطر الكعبة، وعسكر بقرب مكة في مكان يقال له المغمس[٤] حيث دارت المناوشات بين الحبشة والعرب.

روى الطبري (جـ ٢ ص ١١١) أن أبرهة لما نزل المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له

---

(١) سمي هاشماً لأنه هشم الثريد لقومه بمكة وقد أصابهم القحط .

(٢) سمي حلف الفضول لأنهم حلفوا أن يردوا الفضول إلى أهلها، لأنه يشبه حلف ثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل.

(٣) يقال إن إسماعيل لما عطش ضرب بقدمه الأرض فنبع الماء وظهرت بئر زمزم.

(٤) المغمس: بتشديد الميم وفتحها موضع على ثلثي فرسخ من مكة في طريق الطائف يرجم فيه الحجاج قبر أبي رغال الذي كان دليل أبرهة.

الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهلها من قريش وغيرهم، وأصاب مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله، ورأوا أن لا طاقة لهم به. وبعث أبرهة حناطة الحيرى إلى مكة وقال له: سل عن سيد هذا البلد ثم قال له إن الملك يقول لكم: إني لم آتِ لحربكم، إنما جئت لهدم البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن لم يرد حربي فأْتني به. فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم. فقال له حناطة: انطلق إلى الملك، فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر، فلما تقابل معه أبرهة قال لترجمانه: «حاجتي إلى الملك أن يرد عليَّ مائتي بعير أصابها لي». فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدتَ فيك حين كلمتني. أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلني فيه؟ قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه»، ثم عرض على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت؛ فأبى. فخرج عبد المطلب حانقاً وجاء إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش وقال:

يا ربِّ لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنعْ منهمُ حماكا
إن عدو البيت عن عاداكا ... امنعهمْ أن يُخرِّبوا قراكا

صمم أبرهة على دخول مكة وهدم الكعبة. فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وقد ورد ذكره في القرآن في سورة الفيل (١٠٥ : ١ ـ ٥)، قال تعالى: ﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول؟﴾.

هكذا هزم أبرهة وجيشه، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل بهم من نقمته:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

اختلف المؤرخون فيما حل بجيش أبرهة، فقال بعض إنه لم ينج منه سوى أبرهة ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن وتحدث بما صنع الله بأصحاب الفيل.

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٥٢ ـ ٥٣.

ويقول براون (جـ ١ ص ١٧٦ ـ ١٨١) عن غزو الأحباش للكعبة: «إن عام الفيل يعتبر فاتحة عصر جديد في تاريخ حياة العرب القومية». ولا شك أن هذه الحادثة التاريخية كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة، حتى إنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم. فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها. ونشر دين توحيد جديد هو دين الحنيفية، إذ لو أتيح لهذا الجيش النصر والظفر لتغير وجه التاريخ، وانتشر الدين المسيحي في بلاد العرب وانصرف الناس عن مكة إلى صنعاء.

ولما ذاع نبأ أصحاب الفيل بين العرب زاد احترامهم للحرم وقالوا: «أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم».

٤ ـ الحالة السياسية

(أ) أنواع الحكم في بلاد العرب:

لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن، ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه أو «بوليس» يقر الأمن والنظام، وجيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية. كذلك لم يكلفوا دفع الضرائب، لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية، وتضرب على أيدي المعتدي وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه. وإنما كان الشخص المعتدى عليه يثأر لنفسه بنفسه، وعلى قبيلته أن تشد أزره. ولا يصبح للمعتدى عليه حق في المطالبة بالثأر إذا دفع المعتدي تعويضاً، كما كانت الحالة عند الجرمانيين في العصور الوسطى. أما إذا كان المعتدي أحد أقرباء المعتدى عليه أخذ الثأر منه وحده لا من قبيلته. ومما يلفت النظر، أن العربي لما دخل في الإسلام لم يغتفر لذوي قرباه كفرهم وعدم إيمانهم هذا[١].

يقول أرنولد[٢]: «لم يكن هناك إطلاقاً أي منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث. كما كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال؛ وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة، فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة

---

(١) من ذلك ما أشار به عمر بن الخطاب حين استشاره النبي ﷺ وعبد الله بن رواحة فيما يصنع بأسرى بدر، إذ أشار عمر بضرب أعناقهم، وأشار عبد الله بن رواحة بحرقهم في وادٍ كثير الحطب حتى أبو بكر الذي أشار بإخلاء سبيلهم وأخذ الفداء منهم، قصد إلى انتفاع المسلمين وإعزاز الدين بما يؤخذ من أموالهم فدية، وبما يخسره فريق مما يفت في عضدها ويثنيها عن قتال المسلمين والصد عن سبيل الله، حتى نزل في ذلك قوله تعالى ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ [سورة الأنفال ٨: ٦٧]: الطبري جـ ٢ ص ٢٩٤.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة المؤلف ٥١ ـ ٥٢.

شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب، بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته. وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس، إذا كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سناً، وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي. وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعاً كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية اشتراكاً في الدفاع عن القبيلة أو قياماً بغارات بالغة الخطورة».

وكان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة الأمير في وقت الحرب؛ أما في وقت السلم فقد كانت الأسرة هي الشيء الوحيد المنظم.

(ب) أيام العرب:

كثر النزاع بين القبائل العربية في الجاهلية بسبب الاختلاف على السيادة أو التسابق على موارد الماء ومنابت الكلاء، فوقعت بينهم حروب كثيرة أريقت فيها الدماء وأيام معدودة عرفت بأيام العرب ووقائعها ومن أشهرها:

١ ـ البسوس: وقعت حرب البسوس قبل الإسلام بين قبيلتي بكر وتغلب ابني وائل. وكانت هذه الحرب الطاحنة التي دامت أربعين سنة بسبب ناقة كانت تملكها إمرأة عجوز من بكر تدعى البسوس.

ذلك أنه لما آلت السيادة إلى تغلب، علا نفوذ وائل بن ربيعة الذي لقب كليباً (لأنه كان إذا سار صحب كلبه)، واجتمعت تحت راية كليب كل قبائل معد، وظل موضع احترامهم. ثم داخله الزهو والإعجاب، وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع نزول المطر حيث تنبت الكلأ، واتخذ لنفسه حمى من الأرض لا يجرؤ أحد أن يطأه، وجعل حمايته تشمل كل أنواع الوحش حتى كان يقول «وحش أرض كذا في جواري فلا يصاد». وأصبح الناس لا يرعون إبلهم مع إبله ولا يوقدون ناراً مع ناره، ولا يجسر أحد أن يمر بين بيوته.

تزوج كليب جليلة بنت مرة بن شيبان من بكر. وكان لهـا أخ اسمه جساس كان حمى كليب. أي المنطقة المحرمة على غيره، في أرض تسمى «العالية» لا يقربها إلا المحارب. واتفق أن رجلاً يقال له سعد بن شميس بن طوق الجرمي نزل بدار البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة. وكان للجرمي ناقة اسمها سراب ترعى مع نوق جساس. وقد ضربت العرب بها المثل فقالت: «أشأم من سراب» كما قالوا: «أشأم من البسوس»، فخرج كليب يوماً يتعهد الإبل ومراعيها ومعه جساس، فنظر كليب إلى سراب وسأل عن أمرها، فقال له جساس: هذه ناقة جارنا الجرمي، فقال كليب: لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها، فقال جساس: لئن

وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبنك[1]. وافترقا، فذهب كليب إلى زوجته وقال لها: أترين أن في العرب رجلاً مانعاً مني جاره؟ فقالت: لا أعلمه إلا جساساً. ثم أخبرها بما حدث، فخافت عاقبة هذا التنافر ومنعته الخروج إلى الحي ونهت أخاها جساساً عن أن يسرح إبله فيها.

ثم خرج كليب ذات يوم إلى الحمى وجعل يتصفح الإبل، فرأى ناقة الجرمي فرمى ضرعها، فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها. فلما رأى الجرمي ما حل بها صرخ، فسمعت البسوس صراخه فخرجت إليه ووضعت يدها على الناقة وصاحت: واذلاه! ورآها جساس فقال: اسكتي ولا تراعي. وأسكت الجرمي وقال له وللبسوس: إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالاً، وهو فحل لكليب لم يرَ في زمانه مثله. وكان جساس يعني بمقالته كليباً. فلما نقل أحد أصحاب كليب هذا الحديث إليه ثارت ثائرته، وأخذ جساس يترقب الفرص لتحقيق غرضه.

خرج كليب أحد الأيام وابتعد عن بيوته. فركب جساس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليباً. فوقف كليب فقال له جساس: يا كليب الرمح وراءك، فقال: إن كنت صادقاً فاقتل إليَّ من أمامي، ولم يلتفت إليه، فطعنه، فأرداه عن فرسه فقال كليب: يا جساس، أغثني بشربة من ماء، فلم يأته بشيء، وقضى كليب نحبه. ثم انصرف جساس راكباً فرسه وقد ظهرت ركبتاه. فلما أتى أباه مرّة قال له: طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً، فقال أبوه مرة: ومن طعنت؟ قال: قتلت كليباً، فقال أبوه: بئس والله ما جئت به قومك، ولم يرَ بداً من التأهب للحرب، فدعا قومه إلى القتال فأجابوه.

ولما علم قوم كليب بمقتله خرجوا إليه ودفنوه. وقالت النساء لأخت كليب: اخرجي جليلة أخت جساس عنا فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا. فخرجت جليلة تجر أذيالها، وأتت أباها مرة، فقال لها أبوها: ما وراءك يا جليلة؟ فقالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد خليل، وقتل أخ عن قليل، وبين هذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد.

ولما وصل إلى مهلهل نبأ مقتل أخيه كليب، جز شعره، وقصر ثوبه، وهجر النساء، وامتنع عن القمار والشراب، ودعا قومه، وبعث رجالاً منهم إلى بني شيبان، وقالوا لمرة والد جسّاس: إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة، وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة، وإنا نعرض عليك خلالاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع: إما أن تحيي كليباً، أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به، أو هماماً فإنه كفء له، أو تمكّنا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه: فقال لهم

(١) اللبة: موضع القلادة من العنق.

مرة: أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه؛ وأما دفعي جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه ولا أدري أي بلاد قصد؛ وأما همام فإنه أبو عشرة، وأخو عشرة وعم عشرة وكلهم فرسان قومهم، فلن يسلموه بجريرة غيره، وأما أنا فما هو إلا أن تحول الخيل جولة فأكون أول قتيل، فما أتعجل الموت. لكم عندي خصلتان: أما إحدهما فهؤلاء أبنائي الباقون، فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم، وأما الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر. فغضب القوم من إجابته، ونشبت الحرب بين الفريقين أربعين سنة، وتعرف بحرب البسوس[1].

٢ - داحس والغبراء: وهي حروب قيس. قال أبو عبيدة: حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. وكان السبب الذي هاجها أن قيس بن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء، أيهما يكون له السبق. وكان داحس فحلاً لقيس بن زهير، والغبراء حجر[2] لحمل بن بدر. وتواضعا الرهان على مائة بعير، وجعلا منتهى الغاية غلوة[3] والإضمار[4] أربعين ليلة. ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمروهما أربعين ليلة. وفي طرف الغابة شعاب كثيرة. فأكمن حمل بن بدر في تلك الشعاب[5] فتياناً على طريق الفرسين، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوا وجهه عن الغاية. فأرسلوهما فأحضرا[6]. فلما أحضرا خرجت الأنثى من الفحل[7]، فقال حمل بن بدر: سبقتك يا قيس، فقال قيس: رويداً يعدون الجدد إلى الوعث[8] وترشح أعطاف الفحل. فلما أوغلا في الجدد وخرجا إلى الوعث، برز داحس عن الغبراء فقال قيس: جري المذكيات غلاء، فذهبت مثلاً. فلما شارف داحس الغابة ودنا من الفتية وثبوا في وجه داحس فروده عن الغاية.

وثارت الحرب بين عبس وذبيان ابني بغيض، فبقيت أربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لاشتعالهم بالحرب فبعث حذيفة بن بدر أخو حمل بن بدر (صاحب الغبراء) ابنه مالكاً إلى قيس بن زهير (صاحب داحس) يطلب منه حق السبق، فقال قيس: كلا، لا مطلتك به، ثم أخذ الرمح فطعنه به فدق صلبه، ورجعت فرسه غائرة. فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة

---

(١) ابن الأثير جـ ١ ص ١٨٧ ـ ١٩٣.
(٢) الحجر الأنثى من الخيل.
(٣) الغلوة: مقدار رمية السهم.
(٤) المضمار الموضع تضمر فيه الخيل، والاضمار: إعدادها ليوم السباق بإطعامها طعاماً خاصاً وتدريبها على الجري.
(٥) الشعاب: منافذ على جانبي الوادي أو الجبل.
(٦) الإحصار: الجري السريع.
(٧) خرجت منه: أي فاتته وسبقته.
(٨) يعدون الحدد: أي انتظر حتى تخرج الخيل من الأرض الصلبة المستوية إلى الأرض الرخوة والطريق العسر.

عشراء، وزعموا أن الربيع بن زياد العبسي حملها وحده فقبضها حذيفة ومكن الناس. ثم إن مالك بن زهير (العبسي أخا قيس بن زهير) نزل اللقاطة من أرض الشربة، فأخبر حذيفة بمكانه، فعدا عليه فقتله. ففي ذلك يقول عنترة العبسي الفوارس:

فلله عينا مَن رأى مثلَ مالكٍ عقيرةَ قوم إن جرى فرسان

فليتهما لم يجريا قيد غلوة وليتهما لم يرسلا لرهان

فقالت بنو عبس: مالك بن زهير بمالك بن حذيفة. وردوا علينا مالنا. فأبى حذيفة أن يرد شيئاً. وكان الربيع بن زياد (العبسي) مجاوراً لبني فزارة، ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته، وكان يقال لهم الكملة. وكان مشاحناً لقيس بن زهير من سبب درع لقيس غلبه عليها الربيع بن زياد، فأطرد[1] قيس لبونا لبني زياد. فأتى بها مكة، فعارض بها عبد الله بن جدعان بسلاح، وفي ذلك يقول قيس بن زهير:

ألم يأتيك والأنباء تنمي[2] بما لاقت لبون بني زياد؟

ومحبسها على القرشي تشرى بأدرع وأسياف حداد؟

وكنت إذا بليت بخصم سوء دلفت له[3] بداهية الفؤاد؟

ولما قتل مالك بن زهير قامت به بنو فزارة يسألون ويقولون: ما فعل حماركم؟[4] قالوا صدناه، فقال الربيع: ما هذا الوحي؟ قالوا: قتلنا مالك بن زهير. قال: بئسما فعلتم بقومكم، قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم. قالوا: لولا أنك جارنا لقتلناك. وكانت حفرة الجار ثلاثاً، فقالوا له بعد ثلاث ليالٍ: اخرج عنا. فخرج، واتبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه وأتاه قيس ابن زهير فعاقده (حالفه). وفي ذلك يقول الربيع بن زياد العبسي:

فإنْ تك حربكم أمست عواناً فإني لم أكن ممن جناها

ولكن وُلد سودة أرثوها[5] وحشوا[6] نارها لمن اصطلاها

فإني غير خاذلكم ولكن سأسعى الآن إذ بلغت مداها

ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بني فزارة وذبيان ورئيسهم الربيع بن زياد ورئيس بني فزارة حذيفة بن بدر، ووقعت بين الحيين حروب طويلة ووقائع كثيرة دامت نحو أربعين سنة كانت سجالاً بينهم، وورد فيها من الشعر العربي شيء كثير جداً من أحسن الشعر وأقواه كمعقلة زهير بن أبي سلمى التي مطلعها:

---

(١) اطرد: ساق أي أغار عليها في الطريق.
(٢) بكسر الميم أي تنتشر وتذيع.
(٣) دلفت له: أي خرجت إليه وأسرعت نحوه.
(٤) كناية عن مالك بن زهير الذي قتل.
(٥) أرثَّ النار: أشعلها.
(٦) أي غذوها بالوقود.

أمِن أمّ أوْفَى دِمنة لم تكلم   بحومانة الدرَّاج فالمتثلم

وكمعلقة عنترة العبسي التي مطلعها:

هل غادر الشعراء من متردم[١]   أم هل عرفتَ الدار بعد توهم؟[٢]

٣ - أيام الفجار: هي حروب وقعت في الأشهر الحرام بين قبائل من عرب الحجاز؛ والفجار الأول كان بين كنانة وهوازن، ولم يقع فيها بأس شديد، والفجار الثاني كان بين قريش وهوازن، اقتتل فيه القوم قتالاً يسيراً وأصلح بينهم حرب بن أمية؛ والفجار الثالث كان بين كنانة وهوازن بسبب دين كان على رجل من كنانة لرجل من بني نصر بن معاوية، ولم يستطع الوفاء به. وتهايج الناس في سوق عكاظ من الفريقين، وكاد أن يقع بينهم قتال، ثم رأوا الخطب يسيراً فتراجعوا وهذه الأيام تسمى فجاراً لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرمونها ففجروا فيها.

ومن أشهر هذه الأيام، الفجار الرابع، كان بين قريش وكنانة من ناحية وهوازن من ناحية أخرى. هاجها رجل اسمه البراد الكناني بقتله عروة الرحال الكلابي من هوازن، فأبت هوازن أن تقتل بعروة البراد، لأن عروة سيد هوازن والبراد خليع من بني كنانة، وأرادوا أن يقتلوا به سيداً من قريش.

وهذه الحرب كانت قبل مبعث النبي ﷺ بست وعشرين سنة، وقد شهدها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه، وقال النبي: «كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة، يعني أناولهم النبل»[٣].

وكان سبب هذه الحرب «أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث بسوق عكاظ في كل عام، لطيمة[٤] في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها (يحميها) له حتى تباع هناك، ويشتري له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه. وكانت سوق عكاظ تقوم أول يوم من ذي القعدة، فيتسوقون إلى حضور الحج، ثم يحجون. وكانت الأشهر الحرم أربعة أشهر: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. وعكاظ بين نخلة والطائف وبينها وبين الطائف نحو عشرة أميال. وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتهيؤ للحج من أول ذي القعدة إلى وقت الحج ويأمن بعضها بعضاً. فجهز النعمان غير اللطيمة ثم قال: من يجيرها؟ فقال البراض بن قيس الضمري. أنا أجيرها على بني كنانة، فقال النعمان: ما أريد إلا رجلاً يجيرها على نجد

---

(١) أي هل يدرك الشعراء مكاناً أي معنى لم يقولوا فيه شعراً؟

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٣) العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٤) العير التي تحمل البر والمسك من العراق وجزيرة العرب.

وتهامة، فقال عروة الرحال وهو يومئذٍ رجل هوازن: أكليب خليع يجيرها؟ أبيت اللعن، أنا أجيرها لك على أهل الشيخ والقيصوم[1] في اهل نجد وتهامة، فقال البراض: أعلى بني كنانة تجيرها يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم. فدفعها النعمان إلى عروة فخرج بها، وتبعه البراض وعروة لا يخشى منه شيئاً لأنه كان بين ظهراني قومه من غطفان إلى جانب فدك إلى أرض يقال لها أوارة. فنزل بها عروة، فشرب من الخمر وغنته قينة ثم قام فنام؛ فجاء البراض فدخل عليه، فناشده عروة وقال: كانت مني زلة، وكانت الفعلة مني ضلة، فقتله، وخرج يرتجز ويقول:

قد كانت الفعلة مني ضَلهْ هلا على غيري جعلت الزلهْ؟

فسوف أعلو بالحسام الفلّه (الرأس)

واستاق اللطيمة إلى خيبر، واتبعه المساور بن مالك الغطفاني وأسد بن خيثم الغنوي حتى دخلا خيبر، فكان البراض أول من لقيهما. فقال لهما: من الرجلان؟ قالا: من غطفان وغنى، قال البراض: ما شأن غطفان وغنى بهذه البلدة؟ قالا: ومن أنت؟ قال: من أهل خيبر، قالا: ألك علم بالبراض؟ قال: دخل علينا طريداً خليعاً، فلم يؤوه أحد بخيبر ولا أدخله بيتاً، قال: فأين يكون؟ قال: فهل لكما به طاقة إن ذللكما عليه؟ قالا: نعم. قال: فأنزلا! فنزلا وعقلا راحلتيهما: قال: فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً؟ قال الغطفاني: أنا، قال البراض: فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما، ففعل فانطلق البراض يمشي بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة في جانب خيبر عن البيوت، فقال البراض: هو في هذه الخربة وإليها يأوي، فانظرني حتى أنظر أثم (هناك) هو أم لا، فوقفت له ودخل البراض، ثم خرج إليه وقال: هو نائم في البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت، فهل عندك سيف فيه ضرامة؟ قال: نعم. قال: هات سيفك أنظر إليه أصارم هو، فأعطاه إياه، فهزه البراض ثم ضربه به حتى قتله، ووضع السيف خلف الباب وأقبل على الغنوي فقال: ما وراءك؟ قال: لم أرَ أجبن من صاحبك، تركته قائماً في الباب الذي فيه الرجل والرجل نائم لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه. قال الغنوي: يا لهفاه! لو كان أحد ينظر راحلتينا. قال البراض: هما علي إن ذهبتا. فانطلق الغنوي والبراض خلفه، حتى إذا جاوز الغنوي باب الخربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله؛ وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق. وبلغ قريش خبر البراض بسوق عكاظ فخلصوا نجياً[2] واتبعتهم قيس لما بلغهم أن البراض قتل عروة الرحال. وعلم قيس أبو براء بن مالك، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ونادوهم: يا معشر قريش! إنا نعاهد الله أن لا تبطل دم عروة الرحال أبداً ونقتل به عظيماً منكم وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام

---

(١) الشيخ والقيصوم من نباتات جزيرة العرب.

(٢) خلصوا نجياً: اخذوا يتشاورون.

المقبل. فقال حرب بن أمية لأبي سفيان ابنه: قل لهم إن موعدكم قابل في هذا اليوم، فقال خداش بن زهير في هذا اليوم وهو يوم نخلة:

يا شدة ما شددنا غير كاذبة | على سخينة[1] لولا الليل والحرم
لما رأوا خيلنا تزجي أوائلها | آساد غيل حمى أشبالها الأجم[2]
واستقبلوا الضراب[3] لا كفاء[4] له | يبدي من الغزل الأكفال ما كتموا
ولولا سلالا وعظم الخيل لاحقة | كما تخب إلى أوطانها النعم
ولت بهم كل محضار ململمة | كأنها لَقْوَةُ في جنبها جرم

ومن أيام الفجار يوم شمطة، وكانت الغلبة فيه لهوازن على كنانة. وتفصيل ذلك أن كنانة جمعت قبائلها من قريش وعبد مناف، والأحابيش[5] ومن لحق بهم من بني أسد بن خزيمة. والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة. وجمعت سليم وهوازن جموعها وأحلافها غير بني كلاب وبني كَعب، فإنهما لم يشهدا يوماً من أيام الفجار غير يوم نخلة. فاجتمعوا بشمطة من عكاظ في الأيام التي تواعدوا فيها، وعلى كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها، وكذلك على قبائل قيس. غير أن أمر كنانة كلها إلى حرب بن أمية، وعلى إحدى مجنبتيها عبد الله بن جدعان. وعلى الأخرى كريظ بن ربيعة، وحرب بن أمية في القلب، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفي، فتناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض. فكانت الدائرة في أول النهار لكنانة على هوازن، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت وانقشعت كنانة، فاستمر القتل فيهم، فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل، وقيل ثمانون، ولم يقتل من قريش يومئذٍ أحد يذكر.

وكانت أيام الفجار خمسة في أربع سنين: أولها يوم نخلة، ولم يكن لواحد منهما الغلبة على صاحبه، ثم يوم شمطة لهوازن على كنانة، وهو أعظم أيامهم، ثم يوم العبلاء، ثم يوم شرب، وكان لكنانة على هوازن، ثم يوم الحريرة لهوازن على كنانة. قال أبو عبيدة: ثم تداعى

---

(١) لقب لقريش تعير به، لأنها كانت تأكل السخينة في الجدب، وهي طعام دقيق يخلط به مواد أخرى لتكثيره.
(٢) الأجم: الرماح، شبه الرماح يحملها القوم بالغابة يسكنها الأسد.
(٣) الضراب: الضرب.
(٤) لا كفاء له: لا مثيل له.
(٥) كان هؤلاء الأحابيش من الجند المرتزقة، استأجرتها قريش لتدافع عنها عند الحاجة لانصراف أهلها للتجارة، وقد اختلف المؤرخون في أصل هذه الجماعة وتسميتها بهذا الاسم: فمنهم من يقول إن بعض قبائل العرب تجمعت ونزلت عند جبل بأسفل مكة يسمى «حبيش» من تحبش بمعنى اجتمع. ولكن الأب لامانس يقول إنهم من أصل حبشي. ومع كل، فسواء أكانت هذه القوة عرباً خلصاً، أم من الأحباش، أو من الأرقاء الذين كانوا في خدمة قريش، فقد كانوا قوة لقريش يدافعون عنها إذا أغار عليها المغير.

الناس إلى السلم على أن يذروا الفضل[١] ويتعاهدوا ويتوائقوا[٢].

٥ ـ **التجارة في بلاد العرب**: جمع أهل سبأ ثـروة كبيرة من احتكـارهم التجارة، وعلى الأخص في العطور كالبخور الذي كان شائع الاستعمال في المعابد بمصر والحبشة وغيرهما. وكانت قوافل سبأ ـ كما سبق ـ تحمل هذه الحاصلات وغيرهـا من حاصـلات هذه البـلاد إلى الأصقاع الشمالية، كما كانت لهم محطات تجارية تصل بلادهم بغيـرها. ولا شـك أن اليمن بلغت درجة عظيمـة من المدنيـة والحضارة انتقلت منهـا إلى أرجاء جـزيرة العـرب، وخاصـة الجهات التي اتصلوا بأهلها عن طريق الأسفار المنظمة.

ولما كانت أرض مكة صخرية لا ماء فيهـا ولا زرع امتاز أهلهـا على غيرهم من العـرب بالنشاط التجاري. وكان لهم في نفوس العرب احترام لأنهم ولاة الكعبة الذابون عن حيـاضها الحافظون مجدها، وساعدهم على ذلك مركز مكة الجغـرافي، لذلـك لا ندهش إذا أصبحت مكة منذ القرن السادس الميلادي مركزاً للتجارة بين اليمن والشام والحبشة.

وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب، لأنهم سكان مكة وحمـاة الكعبة التي يقـدسها العرب. فكانوا يسيرون آمنين مطمئنين. وجابت قوافلهم هذه البلاد طولاً وعرضاً كما فعل أهل اليمن من قبل، فوصلوا إلى غزة وبيت المقدس ودمشق، وعبروا البحر الأحمـر إلى الحبشة. وكانت ميناء جدة، التي تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلاً، واسطة التجارة بينها وبين الحبشـة. وكانت السلع تحمل من جدة إلى القطيف في إقليم البحرين، حيث تنقل في القوارب مع اللؤلؤ الذي يستخرج من الخليج الفارسي إلى مصب الفرات.

وتقع مكة في نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوباً والشام شمـالاً. وكانت غيـر قريش تحمـل من أسواق صنعـاء ومن موانئ عمـان واليمن، الطيب والبخـور الكثير الاستعمـال في المعـابد والكنـائس والقصور في البـلاد الواقعـة في حـوض البحـر الأبيض المتـوسط، وكـذا المنسوجات الحريرية والجلود والأسلحة والمعادن النفيسة التي يرد كثير منها إلى موانئ بـلاد اليمن من الهنـد والصين وغيرهمـا من بلاد الشـرق وتحمل من أسـواق بصرى ودمشق القمـح والمصنوعات وزيت الزيتون والحبوب والخشب والقز، ومن بلاد الحبشة التـوابل، ومن مصـر المنسوجات المعروفة بالقباطي.

وبلغ من اهتمام القرشيين بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين في العام: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكان بنو عبد مناف الأربعة يتـوجهون إلى البـلاد المختلفة

---

(١) أي يتركوا ما زاد من عدد القتلى في فريق على الآخر دون أن يطلبوا بديته.

(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٧١، ٣٧٣.

للتجارة: فكان هاشم يتوجه إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس. وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء[1]. وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذي يقصده أماناً له؛ فكان هذا أشبه بالعلاقات التجارية بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك، وقد منَّ الله تعالى على قريش في ذلك بقوله: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

وكانت بلاد العرب وعرة إلا عليهم، لعلمهم بالصحراء وسبلها ومواضع الأمن والخوف منها، وقدرتهم على تحمل القيظ وعناء السير، فلم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما من سبيل للسير في هذه الفيافي والقفار الكثيرة الوعورة والأخطار. فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما واختصوا بنقل سلعها. وكان من أثر احتكارهم تلك التجارة وانتشارها في مكة أن أثرى أهلها ثراءً كبيراً. ولم يكن حب أبناء الأشراف النبلاء وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم. أضف إلى ذلك ازدياد عددهم على الأيام، لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل، وعدم تعرضهم للمنازعات والحروب التي أنهكت قوى العرب في جاهليتهم. كما ساعدتهم ثروتهم على قرى الضيف، فلهجت بمحامدهم ألسنة الشعراء الوافدين على مكة من كافة أرجاء بلاد العرب.

وقد أثرت قريش من التجارة ثراءً عظيماً، وظهر فيها كثير من الأثرياء كأبي سفيان، والوليد ابن المغيرة، وعبد الله بن جدعان الذي استطاع أن يسلح في حرب الفجار مائة رجل بالسلاح الكامل. وكان القرشيون بثمابة الوسطاء بين إقليم البحر الأبيض المتوسط في الشمال، حيث الشام وفلسطين، وسواحل آسيا الصغرى ومصر الشمالية، وبين ذلك الإقليم الموسمي الذي تكثر فيه الخيرات المعروفة من توابل وحاصلات أخرى هامة.

وبما أن التجارة تقتضي علماً بالسياسة العامة والعلاقات التجارية، عني القرشيون بالوقوف على العلاقات بين فارس والروم، وبين اليمن والحبشة، وهل هناك ما يعترض تجارتها. وبذلك كانت تجارة قريش مدرسة لتكوين أفراد يصعب على المدارس العادية تخريجهم فيها، كما تقتضي التجارة علماً خاصاً بالحساب التجاري وكل ما يتعلق بالتجارة من مكاييل ومقاييس.

وقد أفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية على جانب كبير من الأهمية، وساعد اشتغالهم بالتجارة وكثرة أسفارهم إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها، ومخالطتهم أقواماً

---

(١) الألوسي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (بغداد سنة ١٢٨٠ هـ) ص ٦٩.

مختلفين، كالفرس والروم، من ذوي المدنيات القديمة، على معرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية والأدبية، مما كان له أثر كبير في تثقيف عقولهم ورقي مداركهم حتى وصلوا إلى مستوى فكري لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات الذين كانوا يعرفون الكتابة والقراءة والحساب ، كما كانوا على علم بأحوال الأمم المجاورة لهم من سياسة وغيرها مما ظهرت آثارها بعد في الفتوح الإسلامية . ولكل ذلك حسنت إدارتهم لشؤون الكعبة ، وسهلوا على الناس القدوم إليها وشجعوهم على الحج الى بلدهم .

٦ ـ **الحالة الاجتماعية**: نعني بالحالة الاجتماعية علاقة العربي بزوجته وأولاده وبني عمه وعلاقة القبائل المختلفة بعضها ببعض:

وإذا بحثنا تاريخ العرب القديم وجدنا فيه مؤثرات ثلاثة عظيمة:

الأول ـ أنهم يتكلمون لغة واحدة هي العربية وإن اختلفت لهجاتها.

الثاني ـ أنهم يدينون بدين واحد هو الدين الوثني.

الثالث ـ أنهم من جنس واحد هو الجنس السامي.

وتفسر لنا هذه العزلة التي فرضتها الطبيعة على بلاد العرب بقاء الجنس السامي فيها نقياً حافظاً لصفاته. وتشمل بلاد العرب فريقين من السكان: بدو وحضر. فأما البدو فيعيشون في الصحراء، وهم ـ كما وصفهم سمنه Simneh مؤرخ مصر في عصر الأسرة التاسعة عشرة ـ رعاة يحبون الحرب ويغير بعضهم على بعض، ولا يزالون، على الرغم من مرور القرون والأجيال، كما كانوا أيام الأسرة التاسعة عشرة وفي القرن السادس الميلادي، لم يظهر عليهم تغيير جوهري . أما الحضر فيسكنون المدن ، وقد أفرغوا جهودهم في حرث الأرض وتجارة القوافل حتى جنوا من ذلك ثروة عظيمة.

ومن يتتبع أشعار العرب في الجاهلية يجزم أن المرأة العربية كانت تتمتع في ذلك العصر بقسط وافر من الحرية. فكانت تستشار في مهام الأمور، بل تشارك الرجل في كثير من أعماله. وكانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقي أكثر مما يخيل إلينا. يدلك على ذلك افتخار الرجل بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه، وإعطاؤهم المرأة قسطها مما تحب من النسيب إذا بدءوا قصائدهم التي يفخرون فيها بمحامد قومهم وعظيم فعالهم. ناهيك بما كان للمرأة العربية من الأثر الصالح في الإسلام.

وكان للعرب نظام ثابت في الزواج، فكان جمهورهم يقترنون بالزوجة بعد رضاء أهلها، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات في أمر زواجهن. وينبغي ألا تخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة. وهذا الأمر لم يكن يستحسنه جمهور العرب مع ما عرف عنهم من غيرة على الأهل ومحافظة

على الشرف، حتى كان من النادر أن يرى الإنسان بنتاً بالغة قد أدركت سن الزواج، أو أرملة صغيرة في سن لم تتزوج، إذ كان من الضروري أن يكون للأسرة أطفال عديدون كي تكون غنية بأفرادها قوية محترمة.

وكانوا يطلقون، والطلاق بيد الرجل، إلا أنه كان هناك نساء يشترطن أن تكون الفرقة بأيديهن. ومن عاداتهن المستقبحة وأد البنات مخافة المذلة أو العار. على أن هذا الأمر لم يكن شائعاً عند العرب، بل كان في بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر، وعلى الأخص في بني أسد وتميم. وقد نهى عن ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾، [سورة التكوير ٨١: ٨ ـ ٩].

أما معاملة العرب لأبنائهم الذكور فكانت تنطوي على الحنان والمحبة، إلا قليلاً من الفقراء والضعفاء كانوا يقتلون أولادهم مخافة الإملاق. وقد سفههم الله في ذلك ونهى عن هذه العادة المرذولة بقوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾، وأما معاملتهم للأخ وابن العم، فكانوا ينصرونهم أخطأوا أم أصابوا، عدلوا أم ظلموا، بمعنى أن الرجل كان يلحقه العار إذا قعد عن نصرة أخيه أو ابن عمه. فكان لزاماً عليه أن يقوم بنصرته مخطئاً كان أو مصيباً، وفي ذلك قالوا: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً[1].

هذه هي حال العربي مع أهله وأبيه وأخيه وابن عمه وأفراد قبيلته. فإذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس أفراد كل بطن في الرياسة والشرف وإن كان يجمعهم أصل واحد. وقد يبلغ العداء أشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة. ومن أمثلة ذلك العداء بين الأوس والخزرج، وبين عبس وذبيان، وبين عبد شمس وهاشم، وبين ربيعة ومضر.

والخلاصة أن روح الوئام كانت سائدة بين أفراد القبيلة الواحدة، مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة. وقد نهك ذلك الأمر قواهم في حروبهم المستمرة لسببين:

الأول ـ التنافس على مادة الحياة وهي المراعي وموارد الماء.

الثاني ـ تنازع الشرف والرياسة، فإذا مات أكبر الأخوة نازع ابنه أعمامه. ولذلك نشبت الحروب بين القبائل المتقاربة في الأنساب أو الأمكنة.

وكان للشعر أثر كبير في تأريث نيران العداوة بين القبائل العربية بتعداد المآثر والمفاخر لقوم ودفع نظرائهم عنها.

---

(١) هذا القول من حكمة الجاهلية. وكانوا يعتبرون النصرة هي الإعانة على الغير، أما في الإسلام فقد اعتبر من ضمن النصرة نصيحة الظالم لرده عن ظلمه. ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، كما قال: «الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله والمؤمنين».

وإذا ذل أحد أفراد القبيلة لحق العار القبيلة بأسرها؛ وقد يؤدي نزاع بين فردين من قبيلتين مختلفتين إلى قيام الحروب بين هاتين القبيلتين، ولو كان السبب تافهاً.

٧ ـ **الحالة الأدبية**: كانت مكة ـ كما أسلفنا ـ مركز الحركة التجارية والأدبية ببلاد الحجاز؛ فكان يفد إليها العرب من كل صوب وحدب في أيام الحج والمواسم، فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض، ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بشرف أصلهم وكرم محتدهم، فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية في نفوس أطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة والخصال الكريمة، وتدفع بهم إلى جليل الأعمال وأسمى الغايات.

على أن التعليم في هذا العصر لم يكن منتشراً في بلاد العرب، لأن العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد. وما نظن أن بلاد العرب ـ وعلى الأخص مكة ـ كانت تعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة، إنما كان الرجل من أهلها يشعر بالحاجة إلى ذلك فيتعلمها. وكان النبي ﷺ أول من عني عناية خاصة بتعليم العرب الكتابة والقراءة، بأن عهد إلى أسرى بدر الذين يعرفون الكتابة والقراءة ممن عجزوا عن دفع الفداء بأن يعلم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين هذه الكتابة والقراءة.

ولا يغيب عن أذهاننا ما كان لاجتماع الشعراء في مكة وفي سوق عكاظ من أثر في حياة العرب الأدبية، كما لا نجهل أيضاً أن كثيرين من هؤلاء الشعراء كانوا يجوبون البلاد المجاورة، فاتصلوا بالفرس عن طريق المناذرة وبالروم عن طريق الغساسنة، واتصلوا بالفرس والروم معاً عن طريق التجارة، كما أخذوا بعض الفكر الدينية عن الجاليات اليهودية وعن نساطرة الحيرة.

وقد ظهر أثر تلك الأفكار في شعر الشعراء كقيس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت، وفي خطب الخطباء وأقوال الحكماء من العرب مثل أكثم بن صيفي وورقة بن نوفل.

أما العلوم التي حذقها العرب بحكم البيئة التي نشأوا عليها وطبيعة البلاد التي درجوا على أرضها فهي علم الأنواء. ولا غرو فقد مهروا في تتبع الأنواء وتعرف أوقات نزول الغيث، كما مهروا في علم الأثر. فقد كانت لهم دراية خاصة بمعرفة آثار الأقدام، وساعدهم على ذلك تلك الصحراء المغطاة بالرمال التي تنطبع فيها آثار الأقدام بسهولة. كما مهروا في علم الأنساب؛ فقد كان يسكن جزيرة العرب قبائل متنافرة. ومن ثم دفعتهم الحاجة الملحة إلى أن يحفظوا أنسابهم التي يعتمدون عليها في عقد محالفاتهم أو في شن الغارات على أعدائهم أو المنافسة على مركز الرياسة فيهم ـ إلى غير ذلك من العلوم التي تنشأ في مثل هذه البيئة والتي هي أولى بأن يطلق عليها مجموعات من المعارف من أن تكون علوماً بالمعنى الذي نعرفه.

وكان الغرض الأصلي من اجتماعات العرب دينياً بحتاً: أما تناشدهم الأشعار وتبادلهم الأفكار، فإنما كان أمراً ثانوياً دفعوا إليه بحكم اجتماعهم في صعيد واحد ترفرف عليهم ألوية

السلام، على أن ذلك الغرض الديني لم يلبث أن أصبح عرضياً لا قيمة له وثانوياً لا يؤبه له، بعد أن حلت محله الأغراض الاجتماعية والشؤون السياسية. فطالما كانت تعقد المعاهدات وتبرم المخالفات في تلك المجتمعات. ومن ثم ظهر الشعراء الذين كانت لهم جلسات ممتعة يتبارون فيها في الشعر، وأصبح تبادل الأفكار والمنافع هو الغرض الأصلي من تلك المجتمعات[1].

ولم يحل عدم انتشار التعليم في بلاد العرب في الجاهلية دون قيام نهضة أدبية في خلال ذلك العصر. وليس أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر الذي يكون صورة صادقة للخلق القومي، والذي يختلف تماماً عن الشعر في الشعوب السامية الشمالية في مادته وتركيبه، ذلك الشعر الذي لم نعلم به إلا في أزهى عصور انتشاره.

وجميع الشعر العربي مقفى. على أن القافية ليست خاصة بالشعر، فقد تقفى العبارات التي لها علاقة ما بالأمور الدينية والأحاديث ذات الخطر، والتي ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة مثل تنبؤات بعض المتنبئين وحكم الحكماء.

يقول نلدكه: «ولما كان هذا النوع من الشعر يرجع إلى عصر غير معلوم، وأنه قد ظهر وانتشر بادئ ذي بدء بين الإغريق والروم في القرن الرابع الميلادي، فليس بعيداً أن يكون ثمة ارتباط من ناحية ما، بين ذلك الشعر وبين الشعر العربي، وخصوصاً في استعمال تلك الطريقة الفنية التي لا يبعد أن تكون قد وصلت إلى العرب في نفس ذلك الوقت... على أنه يغلب على الظن أن يكون الشعر العربي قد ابتدأ بالنثر المقفى، ثم تطور حتى انتهى إلى ما هو عليه اليوم من البحور والأوزان. ومع ذلك فإن هذه المسألة لا تزال محلاً لاحتمالات كثيرة، ولم تقم للآن أدلة قاطعة نستطيع الأخذ بها. على أن اقتباس الشعر العربي أوزانه عن الشعر اللاتيني أو اليوناني لا يحط قدره؛ كما لا ينقص طرافته تلك الدقة في مراعاة هذه القافية واستيلائها على النفس، حتى إن العربي الذي لم يمرن على الأدب، والذي لم يكن له من الثقافة حظ كبير أو قليل، ليحفظ تلك القصائد والمقطوعات الشعرية وينقلها مع الرعاية التامة والمحافظة الشديدة لتلك الأوزان النظمية، على الرغم من أنها تختلف كثيراً في أوزانها وقافيتها عن المقاييس النظمية للشعر اللاتيني واليوناني».

ويتناول الشعر العربي القديم الحياة العادية والشؤون الحيوية للبدوي. وطالما كان يتغنى الشعر العربي بذكر تلك الحياة وامتداحها وصبغها نجم الألوان من الأخيلة الشعرية، كما لم ينس هذا الشعر نصيبه من الحكم الرائعة والأفكار القيمة.

---

(١) انظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٩ ـ ٢٠.

وقد مهد الطريق للدين الإسلامي بعض مشهوري الشعراء الذين ثقفت عقولهم الأسفار الطويلة والمشاهدات الجمة، والذين اختلطوا بالمسيحيين وترددوا على بعض أقيال العرب. وكان العربي يحرص كل الحرص على الامتناع عن القتال في بعض أشهر السنة وهي الأشهر الحرم. وكانوا يتهادنون فتضع الحرب أوزارها بين جميع القبائل في تلك الأشهر، وينسى الضغن والحفيظة بينهم ولو إلى حين، فلا يراق فيها دم ولا تنتهك فيها حرمة، فيتقابل الأصدقاء والأعداء لا يذكر أحدهم للآخر في تلك الفترة من السلم ضغناً أو موجدة، ويجتمعون في أوقات معينة وأماكن معروفة للقيام ببعض النسك والشعائر الدينية، وتكريم الآلهة والزلفى إليها مما كان له أكبر الأثر في نهضة العرب.

٨ ـ **الحالة الدينية**: لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً ذا غناء عن ديانة العرب في الجاهلية. على أن ما لدينا من المعلومات يمكننا ـ على قلته ـ من أن نصور هذه الحالة تصويراً أقرب إلى الحقيقة.

كان دهماء العرب يدينون بالدين الوثني. ويقال إن الذي نقل الوثنية إلى العرب هو عمرو ابن لحيّ (بضم اللام وفتح الحاء وتشديد الياء) الخزاعي. ولا يبعد أن يكون عمرو هذا قد نقل بعض الأوثان من بلاد الشام إلى الكعبة.

روى ابن الكلبي أن عمرو بن لحيّ مرض مرضاً شديداً فقيل له: «إن بالبلقاء من الشام حمه إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذا؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، فنقلها، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة».

وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان هبل أعظمها شأناً؛ وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، فصنعت له قريش يداً من ذهب. وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، فكان يقال له هبل خزيمة.

وكان من عادة العرب في الجاهلية أنه إذا أراد أحدهم قضاء أمر لجأ إلى القداح فضربها، فإن خرج قدح بنعم مضى إلى غايته، وإن خرج بلا عدل عن المضي فيه. روى ابن الكلبي أنه كان أمام هبل في جوف الكعبة سبعة من القداح كتب في أولها صريح، وفي ثانيها ملصق، فإذا شكوا في مولود أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه. ومن هذه القداح قدح على الميت، وقدح على الزواج، وثلاثة لم يقف المؤرخون بعد على حقيقتها. فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوا هبل فاستقسموا بهذه القداح عنده.

وقد أثر عن عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: لئن ولد لي عشرة

أبناء ثم شبوا وأصبحوا بحيث يمنعونني لأنحرن أحدهم عند الكعبة. فلما حقق الله سبحانه وتعالى أمنيته أراد أن يفي بنذره، فجمع أبناءه عند هبل، وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم، وأعطى كل واحد منهم قدحاً فيه اسمه. ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح أصغر أولاده عبد الله بنعم. وأراد عبد المطلب أن يضحي بابنه عبد الله على كره منه إذ كان يؤثره على سائر أبنائه، فحالت قريش بينه وبين ذلك وأشاروا عليه بأن يسير إلى عرافة بخيبر، فإن أمرته بذبحه فعل، وإن أشارت بغير ذلك عمل بمشورتها. فلما قص عبد المطلب على العرافة خبر ابنه قالت له: كم الدية فيكم؟ قال: عشراً من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشراً من الإبل. ثم أضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم. فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم. فعاد عبد المطلب إلى مكة ولجأ إلى صاحب القداح، فكان كلما ضرب بقدح خرج على عبد الله، فزاد عشراً من الإبل، فخرج القدح على عبد الله أيضاً. وأخذ عبد المطلب يزيد الفداء عشراً فعشراً حتى بلغ المائة، فخرج القدح على الإبل، فنحرت ثم تركت لا يمنع عنها إنسان. وهكذا افتدى عبد المطلب ولده عبد الله[1].

ولم يكن هبل وحده معبود العرب، فقد انتشرت الأصنام في أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار وحجارة مصورة وغير مصورة، حتى قيل كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً. ويظهر أن السبب في وجودها أن قريشاً رأت أن تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة، حتى إذا أتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم.

كانت مناة أقدم هذه الأصنام، وهي إلهة القضاء ولا سيما قضاء الموت، وكان العرب يسمون أبناءهم عبد مناة وزيد مناة. وقد نصب هذا الصنم على ساحل البحر بقديد بين المدينة ومكة. وكانت تعظمها الأزد والأوس والخزرج حتى أمر الرسول علي بن أبي طالب بكسره عندما خرج لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

ومن هذه الأصنام: اللات بالطائف، ومعناها الإله. وقد عرفت في آثار تدمر والنبط. وكانت صخرة مربعة أقيم عليها بناء، وقامت على سدانتها ثقيف التي تشبهت بقريش سدنة الكعبة. وبلغ من تعظيم العرب اللات أن كانوا يسمون أبناءهم زيد اللات وتيم اللات.

ومن هذه الأصنام: العزى، وهي أحدث من مناة واللات. وكانت تمثل في شجيرات في وادي نخلة عن يمين الذاهب من مكة إلى العراق. وبلغ من تعظيم العرب وقريش إياها أن كانوا

---

(١) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٨، ٢٧ ـ ٢٨.

يسمون أبناءهم عبد العزى[١].

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، كما كانوا يقولون: بنات الله وهن يشفعن إليه: فأنزل الله على الرسول: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [سورة النجم ٥٣: ١٩ ـ ٢٣].

ومن معبودات العرب الوثنيين: سواع بأرض ينبع، وقد قام بنو لحيان على سدانته، واتخذت قبيلة كلب بدومة الجندل وداً، واتخذت مذحج وأرض جرش يغوث، واتخذت حيوان يعوق، وكانت على ليلتين من صنعاء، واتخذت حمير نسراً وكان قوم نوح يعبدون هذه الأوثان التي جاء ذكرها في سورة نوح (٧١: ٢١ ـ ٢٣). ﴿قال نوح: رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾:

وكان إلى جانب الوثنية في بلاد العرب نحل وديانات أخرى، منها الصابئة ويعبد أتباعها النجوم والكواكب. وقد انتشرت في بلاد اليمن وحران وأعالي العراق. والزرادشتية نسبة إلى زرادشت نبي الفرس القدماء، وهي ديانة رمزية تقول بأن العالم في قوتين هما الخير والشر، ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة. ويعتبر أتباع الزرادشتية النار لا على أنها العنصر المحرق بل على أنها مصدر النور الذي هو أساس الخير. وكانت هذه الديانة سائدة في فارس وفي شرقي بلاد العرب وخاصة في جهة البحرين.

وكان للعرب الوثنيين كثير من الأماكن المقدسة غير أن اعتقاداتهم لم تكن من الجد في شيء كثير. ولا شك أنه كان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير في العادات التي خلفها آباؤهم، وكانوا محافظين عليها شديدي التمسك بها. على أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة حقيقتها. ولكن الوثنيين في شمالي بلاد العرب كانوا أكثر حماسة من غيرهم وأشد تعصباً لدينهم لاتصالهم بالمسيحيين في الشام وفلسطين، وكذلك كانت الحال في اليمن لاتصالهم بالأحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية.

وكان العرب يقدمون القرابين لآلهتهم ويسيرون في مواكب حول معابدهم. وكان المنذر ابن ماء السماء (٥٠٥ ـ ٥٥٤ م) في الحيرة يقدم كثير من أسرى المسيحيين تكريماً للسيار «فينوس» (الزهرة)، كما كان عرب شبه جزيرة سيناء يقدمون القرابين البشرية لنفس هذا السيار.

---

(١) ابن الكلبي ١٣ ـ ١٥، ١٦، ٢٧.

وقد سبقهم الإسرائيليون منذ عهد بعيد إلى مثل ذلك. ومن المحتمل أن يكون لاتصال العرب الشديد بالمسيحيين وأهل الديانات الأخرى أثر كبير في إحياء الحماس الديني. ومن القرآن الكريم نقف على أن العرب كانوا ـ على الرغم من وثنيتهم ـ يؤمنون بالله، بدليل قوله تعالى: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾..

انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ولا سيما في اليمن، كما انتشرت في وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت قبائل بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع. ويقول ندلكه (جـ ٨ ص ٨) إن هؤلاء اليهود كانوا في الأصل من أهالي الجزيرة العربية ثم اعتنقوا اليهودية، وأنهم لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية في التوحيد، وإن كانوا شديدي التمسك بدينهم. على أن فريقاً آخر من المؤرخين يرى أن يهود هذه الجزيرة نزحوا إليها من فلسطين. وقد نشر هؤلاء اليهود في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب، وكان لذلك أثره في الوثنية الحجازية حتى أصبح أهل يثرب أسرع العرب إلى قبول الإسلام.

وكذلك انتشرت المسيحية في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال وفي بلاد اليمن في الجنوب. وقد دخلت بلاد العرب بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية في القرن الرابع الميلادي؛ إلا أنها لم تجذب إليها أنصاراً كثيرين منهم. وقد تكون الحال على غير هذا لو أن حكومة رومة أخذت على عاتقها نشر هذا الدين. وكان من أثر هذه العلاقات الوثيقة بين العرب والبيزنطيين أن تأثر العرب بالمسيحية إلى حد ما، فانتشرت في الجنوب عن طريق الحبشة وفي الشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديار والصوامع.

وقد انقسمت النصرانية في ذلك الوقت إلى عدة فرق تسرب منها إلى جزيرة العرب فرقتان: فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام. وكان أهم مواطن النصرانية في بلاد العرب نجران، وهي مدينة خصبة التربة عامرة بالسكان، يشتغل أهلها بالزراعة ويجيدون صناعة المنسوجات الحريرية ويتجرون في الجلود والأسلحة.

وكان بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها، وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين. ووجد بينهم أناس دعوا إلى دين توحيد جديد له علاقة ما بالمسيحية، ودعوا إلى نبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر. وكانوا يعتقدون في البعث بوجود إله واحد يحاسب ويجازي الناس على أعمالهم من خير وشر. ويطلق على هذه النزعة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون، نسبة إلى حنيف. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة [آل عمران ٣: ٦٧] ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً

مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ، وفي [سورة الأنعام ٦ : ٧٦ ـ ٧٩] : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ .

ومن هؤلاء أمية بن أبي الصلت الشاعر المعروف. وكان يؤمل أن يكون النبي المنتظر، فلما بعث النبي ﷺ حقد عليه. ومنهم ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوج الرسول. وكان ورقة شيخاً كبيراً يحفظ الإنجيل، وهو الذي قال حين أخبرته خديجة بنزول الوحي على الرسول: يا ليتني كنت جذعاً إذ يخرجك قومك ثم قال: وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، وقيس بن ساعدة الإيادي، وكان أشهر قضاة العرب وفصحائهم وخطبائهم. وقد سمعه الرسول يخطب بسوق عكاظ على جمل له يحث العرب على ترك العادات المرذولة ويبشرهم ببعث الرسول . وقد قال فيه الرسول : « يرحم الله قيساً ! إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده »[1] .

وعلى الجملة، فإنه لما ولد الرسول ﷺ، أخذت الوثنية لدى العرب في الضعف وأخذ بعضهم يؤمن بالحياة الآخرة. وكان لليهودية والمسيحية أشياع كثيرون يؤمنون بتلك العقيدة القائلة بالتوحيد.

على أنه لم يقدر لأي دين من هذه الأديان الفوز والغلبة في بلاد العرب، فقد كانت المسيحية إذ ذاك مذهباً معقداً تعددت فيه الفرق واختلفت، وكانت اليهودية دين الشعب المختار الذي لم يقبل العرب على أنفسهم أن يضحوا له باستقلالهم، كما ضعف مذهب التوحيد لما لاقاه من معارضة العناصر المقتبسة من دين زرادشت. ومع ذلك فقد مهدت المذاهب والأفكار والآراء المسيحية واليهودية والفارسية الطريق لظهور المصلح المنتظر وهو النبي ﷺ.

---

(١) راجع خطبة قيس بن ساعدة في صبح الأعشى جـ ١ ص ٢١٢ .

الباب الثاني

البعثة النبوية

١ ـ الرسول منذ أن ولد إلى أن بعث

ولد الرسول في ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م. كما تروي لنا الروايات العربية[١]، وهي السنة المعروفة بعام الفيل، من أبوين فقيرين في مالهما، غنيين في جاههما وحسبهما. وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. وكان لأولاد هاشم سقاية الحاج. وقد مات أبوه قبل أن يولد فكفله جده عبد المطلب. فلما مات كفله عمه أبو طالب، وعهد في إرضاعه إلى امرأة بدوية تسمى حليمة كما جرت عادة الأشراف من قريش، فنشأ الطفل في جو بدوي يتكلم لغتهم الفصيحة. وتوفيت أمه آمنة وهو في السادسة من عمره، ولم يكن له من الميراث إلا القليل.

وقد اعتاد محمد أن يخرج مع إخوته من الرضاع في رعاية الغنم وهو طفل في البادية. وكان لهذا العمل أثر كبير في نفسه، إذ أنه ولد في قلبه الرأفة والرحمة ولين الجانب وغيرها من الصفات الحميدة. ثم اشتغل بالتجارة وذهب إلى بلاد اليمن والشام[٢]. والتجارة ـ كما لا يخفى ـ تربي في التاجر صفات لا تقل عن صفات القائد في الجيش، إذ يحتاج التاجر المسافر في القافلة لحراسة بضاعته والذود عنها إذا هجم عليه بعض الأعراب. وقد اتسعت معرفته وتجربته بما شاهد من أحوال بلاد الشام وطرق التعامل وأخلاق الناس ومظاهر الحياة في البيئة

---

(١) ذكر المرحوم محمود باشا الفلكي أن ولادة الرسول كانت في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م.

(٢) سافر الرسول بالتجارة إلى الشام أكثر من مرة، فذهب به عمه أبو طالب إلى بصرى وهو في الثانية عشرة من عمره، وهناك لمح فيه راهب اسمه بحيرا (بضم الباء) علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور في نومه ويقظته، ورأى في بدنه علامات النبوة على ما جاء في كتب النصارى. وقد سافر الرسول إلى الشام وهو في الخامسة والعشرين مع ميسرة غلام السيدة خديجة، فربحت التجارة، وأخبر راهب اسمه نسطور الرسول بأنه سيكون نبياً.

الرومانية، كما وقف على أساليب الناس في البيع والشراء مما كان له أعظم الأثر في التشريعات بعد الرسالة.

وقد أدى اشتغاله بالتجارة، وما عرف عنه من الصدق والأمانة اللتين كانتا شعاراً لـه منذ نعومة أظفاره، إلى معرفته بالسيدة خديجة بنت خويلد، وهي سيدة شريفة موسرة، فأنفذته في تجارة لها إلى الشام، فربحت تجارتها ضعف ما كانت تربح من قبل. فضاعفت لـه الأجر، وارتضته زوجاً لها وهو في الخامسة والعشرين وكانت أرملة في الأربعين، وقالت له: يا ابن عم! إني قد رغبت فيك، لقرابتك وسلطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك»[(١)]. وقد دفع صداقه عمه أبو طالب. وخطب خطبة، شهدها حمزة بـن عبد المطلب عم الرسول أبان فيها ما عليه محمد من الفضل والنبل على الرغم من قلة ماله، فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً. وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن محمد بـن عبد الله ابن أخي من لا يـوازن به فتى من قـريش إلا رجح (فـاقه) عليـه براً وفضلاً، وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً (ذكاءً). وإن كان المال قل (قلة) فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة. ولـه في خديجة بنت خويلد رغبـة ولها فيـه مثل ذلـك، وما أحببتم من الصـداق فعليَّ»[(٢)]. وقد أعقـب الرسول منها ستة أطفال منهم فاطمة التي تزوجت فيما بعد بعلي بن أبي طالب.

ويقول ابن إسحق (ص ١٢٠) في خديجة: «وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء به فخففت بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمـع شيئاً ممـا يكرهـه، من رد عليه وتكـذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتهون عليه أمر الناس».

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين جددت قريش بناء الكعبة لتصـدع جدرانهـا، وكان الرسول ينقل الحجارة مع القرشيين؛ وقد اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود مكانـه، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل من باب شيبة[(٣)]، فكان الرسول أول من دخل منه فقالوا: هذا هو الأمين رضيناه حكماً، وأخبروه الخبر، فبسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال: لتـأخذ كـل قبيلة بناحية من الثوب، فرفعوه حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه الرسول ووضعه في مكانه، وبذلك أرضاهم جميعاً.

---

(١) ابن إسحاق ص ١٢٠.

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٣: ٢ ـ ٢٠٦.

كان المزوج لها عمها عمرو بن أسد، والمزوج له بها عمه أبو طالب، والسفير بين خديجة والرسول نفيسة بنت منبه.
وكان الصداق اثنتي عشرة أوقية من الذهب (والأوقية أربعون درهماً).

(٣) وكان يقال له في الجاهلية باب عبد شمس ويقال له باب السلام الآن.

وكان الرسول على خلق عظيم، وقد اشتهر بين قومه بالمروءة والوفاء بالعهد وحسن الجوار والحلم، والعفة والتواضع والجود والشجاعة والصدق والأمانة حتى سموه الأمين. وكان يكره عبادة الأوثان، فلم يحضر مواسم الحج، وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما يذبح على النصب[1]، ولا يحضر مجالس اللهو والسمر.

وقد عصمه الله قبل النبوة وبعدها، وبشرت بنبوته التوراة والإنجيل، كما تنبأ الرهبان والكهان بقرب بعثته، وكثرت بذلك الأخبار حتى سمي بعض العرب أولادهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبي المنتظر، وقد قال الله تعالى حاكياً ما جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم: يا بني إسرائيل إني رسول لله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [سورة الصف ٦١: ٦].

وقد جاء في سورة الضحى ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث﴾ [سورة الضحى - ٩٣: ٧ - ١١]. ولعل المقصود بالضلال هنا الحيرة في طريق الهداية التي يسلكها بقومه ليخرجوا من الوثنية إلى الإسلام ويتمنى ذلك في سرعة. ولكن سنة الله في هداية الأقوام كانت تقتضي زمناً أطول إلى أن تلين قلوب العرب لقبول الإسلام. وقد تم ذلك في خلال ثلاثة وعشرين عاماً سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً[2].

وقد أجمع المؤرخون وأصحاب السيرة على أن الرسول لم يكن يأنس لهذا النوع من الديانات التي كان يدين بها العرب، فقد كان يخلو بنفسه ويفكر في ذلك كثيراً، واستمر كذلك حتى أخذ بالحنيفية، وهي دين إبراهيم الذي كان يدين به بعض العرب الذين تنبهت عقولهم إلى انحطاط الوثنية، من أمثال قيس بن ساعدة، واكثم بن صيفي، وأمية بن أبي الصلت.

٢ - بعثة الرسول

وقد آثر الرسول العزلة وألف النسك والعبادة، فكان يذهب إلى غار حراء[3] يتحنث فيه ويتأمل عجائب الكون، ويفكر في البعث والحساب والجنة والنار، حتى إذا فرغ ما معه من الزاد عاد إلى بيت خديجة فتزود مرة أخرى لمثل ذلك التغيب؛ ولم يزل كذلك حتى نزل عليه الوحي. وكان أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق

---

(١) هي حجارة تنصب عليها دماء الذبائح وتعبد.

(٢) انظر تفسير سورة الضحى من جزء عم الأستاذ الشيخ محمد عبده ص ١١٠ - ١١٢.

(٣) بجبل ثور الذي اختفى فيه الرسول وأبو بكر، وهو على مقربة من مكة وسمي ثور. لأن ثور بن عبد مناة ولد عنده فنسب إليه.

الصبح . وبقي الرسول على ذلك ستة أشهر حتى بلغ الأربعين من عمره، فنزل عليه الوحي يوم الإثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، فرأى جبريل الذي ظهر أمامه وقال: إقرأ! فقال: ما أنا بقارىء، فضمه ضمة قوية حتى بلغ منه الجهد، وقال له: إقرأ! فقال: ما أنا بقارىء، فضمه كذلك ثم أطلعه وقال له في الثالثة: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [سورة العلق ٩٦: ١ ـ ٥]. فكانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن.

وسرعان ما عاد الرسول إلى خديجة وهو يرتجف مما أصابه فقال: زملوني، زملوني (أي لفوني في ثياب)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، وأخبر خديجة بما رأى وقال: قد خشيت على نفسي (من شدة ما لاقاه من الملك)، فقالت: كلا والله ما يخزيك الله أبداً. ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان شيخاً كبيراً يحفظ الإنجيل، فقالت له: يا ابن العم اسمع من ابن أخيك فأخبره عليه الصلاة والسلام بما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس (أي ملك الوحي) الذي نزل على موسى، ثم قال: يا ليتني كنت فيها جذعاً (أي شاباً قوياً) إذ يخرجك قومك. فقال الرسول: أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

وعاود الرسول الذهاب إلى غار حراء مدة، وقد سمع ذات يوم صوتاً من السماء، فرفع إليه بصره، فإذا الملك الذي جاءه أولاً بين السماء والأرض؛ فرجع إلى داره فقال دثروني دثروني فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر﴾[1] [سورة المدثر ٧٤: ١ ـ ٧] وهذا هو بدء دعوته ﷺ.

في هذه البيئة التي انتشر فيها ظلام الوثنية بعث الله محمداً برسالة إلى هذا العالم يعلمه الحقيقة الخالدة، وهي أنه ليس هناك إلا إله واحد، نبيه محمد، يدبر ويراقب ويجازي الطيبين والأشرار بعد الموت، كل بمقدار عمله، دعاهم إلى نبذ عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله.

اعتنق هذا الدين البسيط السامي أول الأمر الأفراد المتصلون بالرسول، كزوجه خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب، وكان في كفالة الرسول، لأن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال، فكفل العباس جعفراً والرسول علياً. وأسلم من الموالي زيد بن حارثة الكلبي الذي وهبته السيدة خديجة للرسول، فاعتقه وتبناه؛ فكان يقال له زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعالى ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾، فدعوه زيد بن حارثة [سورة الأحزاب ٣٣: ٥].

---

(١) وقد قيل أيضاً إن أول من آمن بالرسول من الموالي بلال بن رباح الحبشي مولى أبي بكر، وآمنت به ايضاً أم بركة الحبشية.

ولكن الأمر لم يقتصر على أقاربه ومواليه، بل تعداهم إلى بعض رجالات قريش، كأبي بكر الصديق الذي كان من أخلص أصدقاء النبي، واتصف بصفات قل أن تجمع في شخص. فقد كان ثرياً عالماً بقريش وأنسابها. وكان لإسلامه أثر كبير؛ فقد أسلم على يديه خمسة من المسلمين الأولين، منهم عثمان بن عفان وكان لا يجاوز العشرين، والزبير بن العوام أحد أقرباء النبي وزوجته خديجة، وقد بلغ الحلم، وسعد بن أبي وقاص الذي تم على يديه فتح بلاد الفرس، وعبد الرحمن بن عوف[١] التاجر الموسر. وكان اسمه عبد عمر فسماه الرسول بهذا الاسم، وطلحة بن عبيد الله وكان أحد رجال الشورى الستة الذين رشحهم عمر ليختار المسلمون واحداً منهم للخلافة.

وتلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش، كأبي عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، الذي اتخذت داره مركزاً للدعوة سراً إلى الإسلام، ولا تزال بمكة إلى اليوم. وكانت هذه الدار على جبل الصفا يؤمها الحجيج والغرباء. وتعد الفترة التي قضاها الرسول في هذه الدار فترة هامة في تاريخ الدعوة إلى الإسلام بمكة، حتى إن كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام من تلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم[٢].

ولم تقتصر الدعوة على هؤلاء، بل تلاهم قوم آخرون من بينهم طائفة من الموالي والفقراء. وسميت هذه الدعوة دعوة الأفراد لأن الرسول كان يدعو كلا من هؤلاء على انفراد، وسموا السابقين الأولين.

٣ ـ الجهر بالدعوة ـ مناوأة قريش
حماية أبي طالب للرسول

استمر الرسول ثلاث سنين يدعو سراً إلى الإسلام كل من يثق فيه ويطمئن إلى استعداده النفسي لقبول دعوته. وكان هو وأصحابه في تلك الفترة يستخفون من قريش في صلاتهم وفي الدعوة إلى هذا الدين. وكان المشركون كلما رأوهم في صلاتهم سخروا منهم ومن عبادتهم، حتى إذا كثر المسلمون وخافت قريش كثرة عددهم، قعدت لهم بكل طريق، تصد الناس عن دعوتهم وتحقر من شأنهم وتستهزئ بهم. ولكن الرسول أمر على رأس ثلاث سنين بالجهر بالدعوة وعدم المبالاة بما نصب له المعارضون المستهزئون ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين﴾ [سورة الحجر ١٥ : ٩٤] وقال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك

---

(١) لما علمت أمه بإسلامه قالت له: والله؛ لا يظلني سقف من الحر والبرد وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر.
(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ [سورة الشعراء ٢٦: ٢١٤ ـ ٢١٦].

صدع الرسول بأمر ربه وأخذ يفكر فيما يحدث به قريشاً ويستشير ذلك النفر القليل الذي آمنوا به وصدقوه. ثم دعا الرسول بني عبد المطلب إلى طعام صنعه علي بن أبي طالب وتكلم الرسول فقال: يا بني عبد المطلب! إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ودعا بطون قريش من فوق جبل الصفا بظاهر مكة.

فلما اجتمعت إليه قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم! ما جربنا عليك كذباً. فقال: ﴿إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾، فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى في أبي لهب وزوجه قوله: ﴿تبَّت يدا أبي لهب وتَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد﴾[1] [سورة اللهب ١١١: ١ ـ ٥].

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهورا جلياً، لأن الرسول لو قصر كلامه على تطهير النفس وإصلاح الأخلاق لما أثارت دعوته شيئاً من المقاومة أو المعارضة التي لقيها. ولكن جهره بالدعوة إلى وحدانية الله، ودعوته إلى تلك الوحدانية في كل مكان وغضه من شأن الأوثان ـ كل ذلك جعلهم يخشون القضاء على عبادة الأوثان التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة[2]، فناصبته قريش العداء وأجمعوا على خلافه والوقوف في سبيل دعوته وإيذاء أتباعه ليفتنوهم عن دينهم، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً.

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس أن المشركين كانوا يضربون المسلم ويجيعونه ويعطشونه حتى كان لا يقدر على الجلوس من شدة الضرب، ليرتد عن دينه ويقول آمنت باللات والعزى، وكان بعض المسلمين يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فراراً من أذاهم. وقد

---

(١) كان أبو لهب من أعمام الرسول، ولكنه كان من أشد الناس عداوة له وأحرصهم على إيذائه. وقد يكون السبب في ذلك أنه كان متزوجاً بأم حرب بن أمية وأخت أبي سفيان بن حرب. وكانت هي الأخرى معادية للرسول تسيء إليه بالقول والفعل. فقد روي أنها كانت تجلس في مجتمعات النساء وتقوم بدعاية سيئة ضده وضد ما يدعو إليه. كما روي أنها كانت تطرح الشوك في طريق الرسول إذا سار. وقد سماها القرآن حمالة الحطب. قال البيضاوي: «يعني حطب جهنم، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداة الرسول وتحمل زوجها على إيذائه أو النميمة به، وكانت توقد نار الخصومة أو حزمة الشوك أو الحسك التي تحملها فتنثرها بالليل في طريق رسول الله». (تفسير البيضاوي ـ سورة المسد).

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام: ترجمة المؤلف ص ٣٧.

فرق الله تعالى بين هؤلاء وبين من ارتد عن الإيمان وانشرح صدره للكفر بقوله: ﴿إلا من أكره وقلْبه مطمئن بالإيمان﴾ [سورة النحل ١٦ : ١٠٦] .

ويقول ابن الأثير (جـ ٢ ص ١٣٠) إن مشركي قريش كانوا يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح[١] إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها، فيمر بهم الرسول فيقول: «صبراً يا آل ياسر موعدكم الجنة». وكان أبو جهل إذا سمع بإسلام رجل من ذوي الشرف أنبه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك. لنسفهن حلمك، ولنفيلن[٢] رأيك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال له: لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه. ولما مات ياسر من العذاب، أغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام. ثم أمعن المشركون في تعذيب ابنه عمار، بالحر تارة وبوضع الصخر على صدره تارة أخرى[٣].

وهذا بلال مؤذن رسول الله ﷺ، الذي ذاعت شهرته باعتباره أول مؤذن في الإسلام، ومن أعظم الفقهاء والمحدثين. وهو عبد حبشي وصفه الرسول بأنه أول ثمار الحبشة، وكان يقاسي أشد ألوان العذاب. وكان خلف الجمحي من مشركي قريش يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتلقى على صدره ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول: أحد أحد! فيقول أحد أحد والله يا بلال، ولم يزل على هذا العذاب حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه.

أما خبَّاب بن الأرتّ فقد عذبه الكفار عذاباً شديداً، إذ كانوا يوثقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف[٤]، فلم يزده ذلك إلا تمسكاً بالإسلام وإخلاصاً له. وقد هاجر مع رسول الله ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها.

ولم يقتصر تعذيب قريش المسلمين على الرجال بل تعداهم إلى النساء. فقد أسلمت لبينة جارية بني مؤمن (وهو حي بني عدي بن كعب) قبل إسلام عمر بن الخطاب؛ فكان عمر يمعن في تعذيبها حتى يمل، ثم يدعها ويقول: إني لم أدعك إلا سآمة، ولم تزل في هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها[٥].

وقد ضعفت عزائم فئة قليلة بتأثير هذه المحنة، على حين ساعد هذا الاضطهاد على

---

(١) هي أرض مستوية بين مكة ومنى.
(٢) أي لنقبحنه ولنخطئنه.
(٣) ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٢.
(٤) الحجارة المحماة بالنار.
(٥) ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤١.

إذكاء الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى: فقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها، فتعرض له قوم من قريش وجعلوا يضربونه في وجهه؛ لكنه استمر يتلو القرآن، ثم أعاد إلى رفاقه وأظهر استعداده للجهر بالإسلام بمثل هـذه الطريقة في اليوم التالي. ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون(١).

ولم تفعل قريش بالرسول أول الأمر ما فعلت بالمستضعفين الذين اتبعوه. لمكانة عمه أبي طالب وشرفه وجاهه فيهم. وقد عطف أبو طالب على الرسول ومنعه وحماه، فمضى رسول الله على أمر الله، مظهراً لدينه، لا يرده عن ذلك شيء. فلما رأت قريش منه الجد في الدعوة، وسكوت أبي طالب عنه وعدم نهيه عن ذلك الذي يقول عن آلهتهم وآبائهم ونظمهم، خشيت أن يتفاقم شره ويعظم أمره، فمشى رجال من أشرافها إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا. فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على ما نحن عليه من خلافة، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه. ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال، ودبت العداوة والبغضاء بين أفراد الأسرة الواحدة، فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى. فقالوا له: يا أبا طالب! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم ينته عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شيم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.

ثم انصرفت قريش عن أبي طالب، فعظم عليه تحدي قومه له وفراقهم إياه وعدوانهم له، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ولا خذلانه، وبعث إلى الرسول فقال له يا ابن أخي! إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله أن عمه يريد أن يخذله؛ وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال: يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر فبكى، ثم قام. فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل رسول الله، فقال: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً. وبذلك أظهر أبو طالب الجد في نصرة الرسول.

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله، وأنه آثر فراقهم وعداوتهم، مشوا

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٣٧.

إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: يا أبا طالب! هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى[١] في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم. فنقتله، فإنما هو رجل برجل. قال: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلّص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال أبو طالب لمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك. واشتد الجدال وتنابذ الفريقان، فخرجت قريش من عند أبي طالب وقد أجمعت على التنكيل بمحمد وأتباعه ليحولوا دون انتشار دعوته، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب.

قام أبو طالب في بني هاشم وبني المطلب حين رأى صنيع قريش بالمسلمين، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب[٢].

وقد خشيت قريش أن يستميل الرسول الحجاج الذين كانوا يفدون على مكة في الحج، وتشاوروا فيما بينهم للقضاء على الدعوة الإسلامية وهي لا تزال في مهدها، واجتمع إلى الوليد ابن المغيرة نفر من قريش قد حضر الموسم. وكان الوليد ذا سن وشرف فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به قال: بل أنتم فقولوا أسمع. . قالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه[٣]. قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه. فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته[٤]. قالوا فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه[٥]، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر: قال: ما هو بساحر، لقد رأينا

---

(١) يعني أشده وأقواه، والفرس النهد: هو الغليظ.

(٢) ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٢.

(٣) زمزمة الكاهن كلام خفي لا يفهم وسجعه أن يجعل لكلامه المنثور نهايات كنهايات الشعر.

(٤) الخنق: الاختناق الذي يصيب المجنون، والتخالج: اختلاج الأعضاء وتحركها من غير إرادة، والوسوسة: ما يلقيه الشيطان في نفس الإنسان.

(٥) هذه كلها أنواع من الشعر.

السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم[١] قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناه[٢]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول، هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه وجعلوا يجلسون بسبل[٣] الناس حين قدموا الموسم لا يمر أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره[٤].

وقد روى البيضاوي أن المغيرة مر بالرسول وهو يقرأ سورة السجدة، فأتى قومه وقال: لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجن. إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفـه لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، فقالت قريش: صبأ الوليد، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه. فقعد إلته حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فناداهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهـل رأيتموه يخنق، وتقـولون إنـه كاهن فهـل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ فقالوا: لا، فقال: ما هو إلّا ساحر. أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ ففرحوا بقوله وتفرقوا عنه متعجبين منه. وقد نعى القرآن ذلك على الوليد بقوله ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآيـاتنا عنيداً سأرهقه صعوداً، إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلّا سحر يؤثر إن هذا إلّا قول البشر﴾ [سورة المدثر ٧٤: ١١ ـ ٢٥].

يقول ابن هشام (جـ ١ ص ٢٨٦): «فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها. فلما خشي أبو طالب دهماء العرب (عامتهم وجماعتهم) أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانة منها وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره، إنه غير مسلم رسول الله ﷺ ولا تـاركه لشيء أبـداً حتى يهلك دونه»، فلجئوا إلى تعذيب المسلمين عن طريق السفهاء.

---

(١) هذا إشارة إلى ما كان يفعل الساحر إذا كان يأخذ خيطاً فيعقده ثم ينفث عليه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ أراد الساحرات.

(٢) العذق: الكثير الشعب والأطراف، وقوله لجناه. أي فيه ثمر يجنى.

(٣) السبل: طرق الناس واحد سبيل

(٤) ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

٤ ـ هجرة المسلمين إلى الحبشة

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

ولم يفكر الرسول في هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية، لأنها كانت ترفض دعوته في مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكاً بدينها الوثني. وكذلك لم يفكر في الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين، لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها في النفوذ الأدبي ببلاد العرب، فهماً والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً خصوصاً إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾[1] .أما اليمن ـ وكانت مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوي ـ فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها. وقد برهنت الأيام على بعد نظره، فقد كتب كسرى[2]. إلى «باذان» عامله على اليمن: «ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتياني به».

وكذلك كان شأن الحيرة التي كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة. أما الشام فهي بعيدة كذلك، فضلاً عما كان يسودها هي والحيرة إذ ذاك من اضطراب. ولا يخفى استحالة الهجرة إلى مكان قصي كالحيرة والشام على أولئك اللاجئين الذين كانوا يخرجون من مكة فقراء مستخفين من قريش لئلا تحول بينهم وبين الخروج، ثم إن كلا من الشام واليمن والحيرة كانت أسواقاً هامة لتجارة قريش. وكان لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات في أوقات منتظمة. فإذا علمت هذه القبيلة بوجودهم في بلد منها. طلبت إلى أهل ذلك البلد أن يردوهم إليها ويخرجوهم منها، كما حاولت ذلك مع النجاشي لولا تسامحه وقوة خلقه.

لذلك اتجه الرسول إلى بلاد الحبشة لما كان يعرف في ملكها من العدل والتسامح. وفي ذلك يقول الرسول للمسلمين: «فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق». وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان، وكلهم من بطون قريش. وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول، والزبير بن العوام وعبد الله بن عوف، وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت

---

(١) وقد بدأ هذا الشعور واضحاً عندما هاجم الرسول إلى المدينة إذ ائتمروا به مرات «وجادلوه غير مخلصين حتى وصل بهم الأمر إلى أن قالوا لقريش «لديكم أفضل من دينه».

(٢) كان ذلك عندما وصل إليه كتاب الرسول يدعوه إلى الإسلام وترك المجوسية، فغضب ومزق الكتاب وأهان حامله، وكتب إلى باذان ليحمل إليه هذا النبي على ما سيأتي في دعوى عمومية الرسالة.

عميس، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص. وقد أكرمهم النجاشي وأمنهم على حياتهم وأصبحوا في رغد من العيش.

«فلما رأى قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشي ليخرجهم من بلاده، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص. ويقال إنه كان معهما معاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة.

سار عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص إلى النجاشي ومعهما الهدايا، وطلبا مقابلته ثم قالا: «أيها الملك! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لنردهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه». فقالت بطارقة النجاشي: أيها الملك! قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم».

وكان النجاشي بعيد النظر، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم. فتقدم جعفر بن أبي طالب ووصف له حالة العرب قبل الإسلام وبعده، وشرح له أن دعوة الرسول ترمي إلى ترك الأوثان وعبادة الله والتخلق بمكارم الأخلاق فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ فقال جعفر: نعم! قال: فاقرأه عليّ، فقرأ جعفر عليه صدراً من كهيعص (سورة مريم وفيها حديث ميلاد المسيح). فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى أبلغت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مسكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما[١].

ولما خرجا قال عمرو بن العاص: «والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم[٢]، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد»، وطلب مقابلة النجاشي من الغد وقال له: «أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم واسألهم عما يقولون فيه». فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فقال النجاشي: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت، ثم قال: اذهبوا فأنتم شيوم (آمنون) بأرضي. من سبكم غرم (أي عاقبناه)، فانصرفوا، ورجع بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٢) يعني جماعتهم ومعظمهم.

إلى المدينة، وأقام بعضهم في الحبشة إلى السنة السابعة للهجرة.

ولما رأت قريش أن مكايدهم التي دبروها للرسول قد أخفقت، أجمعوا أمرهم على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا مع هذين البيتين، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم من أنفسهم. ولا يتجرون معهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ليقتلوه. وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً ممن أراد صلتهم من قريش.

وهكذا ظل بنو هاشم مهجورين في شعب من شعاب مكة، إلا في الأشهر الحرم حيث حرم القتال في كافة أنحاء بلاد العرب، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجيج من زيارة الكعبة المكرمة التي كانت تعد مركز ديانة العرب في ذلك الحين.

وقد رثى بعض القرشيين لحال بني هاشم وبني المطلب وتعاقدوا على نقض الصحيفة وإخراجهم من الشعب، وكان من بينهم زهير بن أمية بن عاتكة عمة الرسول، فقد حرض قومه على الخروج على الصحيفة وقال لهم: «يا أهل مكة! أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون؟ والله لا أقعد حتى تشق الصحيفة الظالمة القاطعة». فعارضه أبو جهل، فقام المطعم بن عدي ـ وكان من بيت نوفل بن عبد مناف ـ إلى الصحيفة فشقها، وبذلك نقضوا هذه الصحيفة، فعاد بنو هاشم والمطلب إلى مساكنهم بعد ما ذاقوه من العذاب[1].

٥ ـ الهجرة إلى يثرب

كان الرسول في ذلك الوقت يجد في نشر الدعوة الإسلامية، وكان أهل بيته مسلمهم وكافرهم ينصرونه، على الرغم مما لاقوه من الشدائد والأهوال. وما وافت السنة العاشرة من نزول الوحي حتى أصيب الرسول بوفاة عمه وحاميه أبي طالب، وقد مات على الكفر برغم تصديقه لرسول الله ونصرته إياه، مخافة العار وخشية المسبة لترك ما كان عليه آباؤه.

ثم ماتت خديجة بعد أبي طالب. وكان موتهما قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، وفقد الرسول بذلك نصيرين كبيرين، وأصبح بقاؤه في مكة محفوفاً بالمخاطر. يقول أبو الفدا[2]: وتتابعت على الرسول ﷺ بموتهما المصائب ونالت منه قريش، خصوصاً أبو لهب بن عبد المطلب، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية، فإنهم كانوا جيران النبي ﷺ، وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه من الأقذار وقت صلاته وطعامه.

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٠، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٩٧ ـ ٣٩٩.

(٢) المختصر جـ ١ ص ١٢٠، ١٢٢ ـ ١٢٣

ولما اشتد أذى قريش لرسول الله بعد وفاة عمه، عزم على التماس قوم آخرين يكونون أكثر استعداداً لقبول دعوته، ويستطيع أن يجد في بلدهم تربة أشد خصباً وصلاحية؛ فانطلق إلى مدينة الطائف ودعا فريقاً من أشرافها إلى وحدانية الله. ولكنه لم يلقَ منهم أذناً مصغية، بل قابلوا دعوته بالاستهزاء «وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط «بستان» فعاد إلى مكة ولم يتمكن من دخولها، وتجلت مرارة نفسه في تلك الآيات التي جاءت على لسان نوح ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾ [سورة نوح ٧١: ٢ ـ ٧] فطلب الرسول حماية المطعم بن عدي، فتسلح مع بنيه، ودخلوا مع الرسول الحرم حيث طاف وصلى ولم يصبه أحد بسوء.

ثم عاود الرسول نشر الإسلام بين أهل مكة. وكان كل اعتماده في نشر الدعوة في موسم الحج؛ فكان يعرض نفسه على القبائل ويدعوهم إلى الله وعمه أبو لهب ينادي: «إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه». وكان بعض الحجاج يرفض دعوته وبعضهم الآخر يرد عليه رداً قبيحاً.

في ذلك الوقت أسرى برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، حيث عرج به إلى السموات السبع. يقول الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ [سورة بني إسرائيل ١٧ : ١]. وفي تلك الليلة فرض الله على الرسول الصلوات الخمس[١].

(أ) ترحيب أهل يثرب بدعوة الرسول:

وجدت دعوة الرسول بيئة صالحة في أهل يثرب، الذين وصل إلى علمهم ما كان بين المسلمين وكفار قريش في مكة من نزاع أدى إلى هجرة جماعة من المسلمين ونجاتهم بعقيدتهم إلى بلاد الحبشة، كما علموا بإسلام رجال من بطون قريش المختلفة ومن القبائل الأخرى. كما علم غيرهم من العرب بذلك، وهم على اتصال بمكة عن طريق الذين كانوا يفدون من أهلها على مكة للحج، وعلى الأخص عن طريق ذلك الوفد الذي أرسلته الأوس في السنة العاشرة من البعثة يلتمس من قريش الحلف على قومهم من الخزرج، وانتهز الرسول فرصة وجودهم، ودعاهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم وأعرض بعضهم الآخر[٢].

---

(١) راجع الإسراء والمعراج في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣ ـ ١٥.
(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٣٥.

وكان أهل يثرب من الأوس والخزرج شعباً قوياً صلب العود. ولا غرو فقد برهنوا على شدة بطشهم وقوة بأسهم في تلك الحروب التي لم تهدأ ثائرتها ولم تنطفىء نارها بينهم: وقد أقام بها اليهود من بني قريظة وبني النضير زمناً طويلاً. ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على أثر هذه الكارثة التي نزلت بهم باضطهاد أدريان Hadrian لهم. وفي ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من البدو المهاجرين، وهم الأوس والخزرج من قبائل عرب الجنوب، وسمح لهما بالإقامة في رقعة من هذه المنطقة. ولما تكاثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئاً فشيئاً، حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم، وذلك في نهاية القرن الخامس الميلادي، كما أقام اليهود أيضاً في فدك وتيماء وفي وادي القرى وخيبر.

وكانت هناك صلات وثيقة بين هؤلاء اليهود في يثرب وبين من جاورهم من الأوس والخزرج، حتى إنهم ألفوا أفكار اليهود الدينية ومرنوا على استساغة الكثير منها. وفي الحق أنه كان لوجود أديان سماوية في يثرب، لها كتب منزلة من عند الله، كاليهودية فيها ذكر للوحي ووحدانية الله، ثم عظمته وقدرته الشاملة، والبعث والحساب وما بعدهما من جنة ونار وغير ذلك ـ كان لهذا كله من الأثر ما أضعف الوثنية في نفوس العرب النازلين بيثرب وجعلهم أقدر على فهم دعوى نبوة محمد من أهل مكة الوثنيين. فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة مبغضة إلى نفوس القرشيين منهم خاصة[1].

وقد عرف أهل يثرب عندما رأوا محمداً وتعاليمه مبلغ الشبه بينه وبين من توعدهم به اليهود، فبادروا إلى تصديقه حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود إلى اتباعه، فيقتلوهم قتل عاد وإرم[2]. لهذا لا نعجب إذا رأينا أهل يثرب أكثر تحمساً للإسلام.

ولعل حالة المجتمع في يثرب كانت تدعو إلى انتهاز مثل هذه الفرصة، إذ وجد أهلها في هذا الدين ما يوحد كلمتهم ويجمع شملهم ويقضي على ما بينهم من تنازع وبغضاء. كما وجدوا في شخصية الرسول بغيتهم المنشودة، إذ عرفوه رجلاً من أكرم بيوتات قريش وساداتها، ثم هو ابن آمنة من بني النجار أحد بطون الخزرج. ومع ذلك فهو نبي يستطيعون أن يطاولوا

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٤٢.

(٢) ذكر ابن هشام (جـ ٢ ص ٣٨) عن رجال من الأنصار قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود: كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا. وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حتى دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا به ففينا وفيهم نزلت الآيات ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [سورة البقرة ٢: ٨٩].

اليهود بما ينزل عليه من وحي. فهو الذي يستطيع أن يجمع الأوس والخزرج تحت لوائه، وكانوا أحوج إلى ذلك بعد يوم بعاث الذي كان النصر فيه للأوس. ولعل انهزام الخزرج يوم بعاث قد جعلهم أكثر استعداداً لقبول الدين الإسلامي، حتى كانوا أسبق إليه من بني عمهم الأوس.

ففي الموسم التالي ليوم بعاث، أقبل جماعة من الخزرج للحج، فيهم ستة من ساداتهم، وكانوا ينشدون حليفاً لتوحيد كلمتهم مع الأوس أو للتغلب عليهم، إذ كان كل منهما يريد أن تكون له الرياسة، فلقيهم الرسول عند العقبة[1]، فسمعوا لدعوته وأجابوا.

(ب) بيعتا العقبة:

يقول ابن هشام (جـ ٢ ص ٣٨): فبينما الرسول عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. ولما لقيهم رسول الله قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: من موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم شيئاً من القرآن. فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى أثره - وكانوا إذ ذاك متأثرين بما سمعوا من اليهود - قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلموا والله، أنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، وكانوا ستة من الخزرج. فلما قدموا المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم. فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله، وذلك بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة في تأدية رسالتهم.

ولما حل الموسم التالي، وافى مكة (في السنة الثانية عشرة من البعثة) إثنا عشر رجلاً من أهل يثرب، لقوا الرسول بالعقبة وبايعوه في تلك الليلة. وقد سميت تلك البيعة (بيعة النساء) و(بيعة العقبة الأولى): قال عبادة بن الصامت: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض علينا الحرب، على ألا نشرك بالله شيئاً. ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ونأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في مكروه. فإن وافيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء غفر وإن شاء عذب». ولعل هذه البيعة سميت بيعة النساء، لوجود عفراء بنت

---

(١) منزل في طريق مكة على مقربة من منى بعد واقصة وقبل القاع لمن يريد مكة. وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل.

عبيد بن ثعلبة بها، وهي أول امرأة بايعت الرسول.

وقد أرسل الرسول مع أهل يثرب مصعب بن عُمَيْر يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويؤمهم في المسجد، وكان يسمى «المقرىء»(١).

اجتمع مصعب برسول الله بالعقبة بعد الحج، وقد عاد أخيراً من الحبشة واتخذ دار أسعد ابن زُرارة مقاماً له. وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن في تلك الدار أحياناً، وأحياناً أخرى في دار بني ظفر في حي من أحياء يثرب حيث كانت تقيم في هذه الأسرة مع أسرة بني عبد الأشهل.

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير شيخي بني عبد الأشهل في ذلك الحين. وقد حدث ذات يوم أن كان مصعب جالساً مع أسيد في دار بني ظفر، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثاً، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم، وقال لأسيد بن خضير: «لا أباً لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارناليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أسيد بن زرارة مني حيث قد علمت، لكفيتك» (وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسيد). عندئذٍ تناول أسيد حربته وانطلق إلى أسعد ومصعب ثم صاح بهما: «ما جاء بكما إلينا؟ أتسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة». فأجاب مصعب في هدوء: «أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهت فكف عنه». فركز أسيد حربته في الأرض وجلس إليهما يسمع ومصعب يشرح له مبادىء الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات القرآن. وصاح به مأخوذاً: «كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟» فأجاب مصعب، تغتسل فتطهر ثوبك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فاستجاب أسيد لساعته وردد شهادة الإسلام ثم قال: «إن ورائي رجلاً (يشير إلى سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن».

عند ذلك انصرف أسيد، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ نفسه ثائراً غضباً على أسيد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد؛ فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه. عندئذٍ رضي أن يصغي إلى كلام مصعب، وسرعان ما أثر فيه، وحمل الإقناع إلى قلبه، فدخل في الدين وأصبح من المسلمين، ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ فقالوا: «سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة»، فقال سعد: «فإن كلام رجالكم ونساءكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله». ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل(٢). وسرعان ما أصبحت الرياسة إليه على الأوس والخزرج جميعاً، وأسلم كثير من

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٣٣ - ٣٤. ابن سعد جـ ٢ ص ٨٢.

(٢) ابن إسحاق ص ٢٩١ وما يليها. انظر أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٣١ - ٣٢.

أهل يثرب، حتى لم يبق دار من دورها إلا فيها مسلمون ومسلمات.

وما أن وافى موسم الحج التالي (في السنة الثالثة عشرة من البعثة)، حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصاً من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة، وقد عزموا على أن يدعوا النبي للهجرة إلى يثرب ويبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم.

وكان يرافقهم شيخهم مصعب بن عمير، الذي بادر على أثر وصوله بزيارة النبي وأخبره بما أصابه من نجاح في نشر الدعوة إلى الإسلام. ويقال إن أمه لما سمعت بمقدمه، بعثت إليه تقول: «يا عاق، أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره، ذهب إلى أمه فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد، قال: أنا على دين رسول الله ﷺ، وهو الإسلام. الذي رضي الله لنفسه ولرسوله. قالت: ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب، فقال: أفر بديني أن تفتنوني، فأرادت حبسه، فقال: لئن حبستني لأحرضن على قتل من يتعرض لي، قالت: فاذهب لشأنك وجعلت تبكي، فقال مصعب. يا أماه إني لك ناصح عليك شفيق، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قالت: والثواقب (النجوم) لا أدخل في دينك، فيزري بي ويضعف عقلي، ولكني أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني»[1].

اجتمع هؤلاء اليثربيون برسول الله في العقبة بعد أداء الحج. وكان معه عمه العباس، وكان لا يزال على الشرك. «فلما جلس، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب. فقال: يا معشر الخزرج! إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عز من قومه ومنعة في بلده؛ وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك؛ وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»[2]. فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله فتلى القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام؛ ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فأخذ البراء بن مغرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا[3]، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة[4]، ورثناها كابراً عن كابر، فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ـ أبو الهيثم بن

---

(١) ابن إسحاق ص ٢٩١ وما يليها. انظر أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٤٩ ـ ٥٠. الطبري جـ ٢ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) أزرنا: نساءنا، والمرأة يكنى عنها بالإزار. (٤) الحلقة: السلاح عامة، وقيل الدروع خاصة.

التيهان؟ فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم[1]، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

وقد طلب الرسول منهم أن ينتخبوا من بينهم إثني عشر نقيباً ليكونوا رؤساء عليهم، فانتخبوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري موجهاً كلامه إلى الخزرج: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم! قال: فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتوه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم واقون له بما دعوتموه إليه على تهلكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة. قالوا: أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه. فأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال: والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقل لرسول الله في أعناقهم، وأما عبد الله بن أبي بكر فقال: ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى لأمر القوم[2].

ولما وصل نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب تآمروا على اغتياله، واجتمعوا في دار الندوة للتشاور في هذا الأمر الخطير، فأشار بعضهم بحبسه، وبعضهم بقتله، وانتهى بهم الرأي إلى أن يؤخذ من كل قبيلة فتى جلد، وأن يعطى كل منهم سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد، وبذلك يتفرق دمه في القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً[3]. فنزل على الرسول قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [سورة الأنفال ٨: ٣٠].

ذهب الرسول إلى صاحبه أبي بكر وأطلعه على ما أخبره الله به من تآمر قريش به، وقال: إن الله قد أمرني بالهجرة، فطلب منه أبو بكر أن يصحبه وخرج الاثنان من باب صغير خلف دار أبي بكر، وأمر الرسول علي بن أبي طالب أن يبيت في مكانه تلك الليلة، ثم جاء القوم ووقفوا على باب بيت الرسول.

يقول ابن هشام (جـ ٢ ص ٩٨ - ١٠٠): فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر ابن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمد إلى غار بجبل ثور بأسفل مكة فدخلاه. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره،

---

(١) معنى ذلك أن ذمة الرسول ذمتهم وحرمته حرمتهم.
(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٥٥.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩٢ - ٩٥.

ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاراً، ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما».

وخشي الرسول وأبو بكر أن يلحقهما أذى قريش، إلا أنهما تدرعا بالصبر. وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في سورة التوبة (٩: ٤٠) ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾.

ولما خرج الرسول من مكة مهاجراً إلى يثرب جعلت قريش مائة ناقة مكافأة لمن يدلهم عليه أو يأتي به.

وقد وصف جغرافيو العرب الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة موحشة لا يصادف فيها المسافر ما يخفف عنه السفر من زرع وماء. ويتخللها طريقان: أحدهما شرقي محاذ لبلاد نجد، والآخر غربي محاذ لساحل البحر الأحمر. وقد اختار الدليل الطريق الثاني. بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق المألوفة تماماً. بل كان يلتوي هنا وهناك تفادياً من أن يلحقهم من يقفوا أثرهم من القرشيين ممن كان يطمع في الحصول على الجائزة التي قررتها قريش لمن يأتي بالرسول.

وقد وصف ابن هشام (جـ ١ ص ١٠٤ - ١٠٨) الطريق الذي سلكه الرسول وصحبه من جبل ثور إلى المدينة، فقال إن عبد الله بن أُريقط سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل عسفان[١]، وتبعد عن مكة بستة وثلاثين ميلاً. ثم سلك بهما الدليل على أسفل أمج، ثم استجار بهما الدليل حتى عارض الطريق بعد أن جاوز قديد، ثم سلك الخرار[٢]، وهو وادٍ يقع في نحو منتصف الطريق بين مكة والمدينة. ثم أخذ بهما الجداجد[٣] وتقع في أرض مستوية صلبة، ثم هبط بهما العرج[٤]. ثم هبط وادي العتيق الذي يؤدي إلى المدينة، وقدم بهما قباء على عمرو بن عوف يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من

---

(١) بضم أوله وسكون ثانية ثم فاء وآخره نون وهي قرية صغيرة قريبة من ساحل البحر الأحمر على حد تهامة على طريق المدينة، يكثر بها النخيل والمزارع، وسميت عسفان لتعسف الطريق، ويسمى الطريق بين عسفان وملل الساحل.

(٢) بفتح الخاء وتشديد الراء: موضع بالحجاز قرب الجحفة. معجم ما استعجم للبكري جـ ٢ ص ٤٩٢.

(٣) جمع جدجد وهي الأرض المستوية الصلبة، ويجوز أن يكون جمع جدجد وهي البئر القديمة. ويظن ياقوت أنها آبار قديمة

(٤) بفتح أوله وسكون ثانية وجيم: منزل بطريق مكة على طريق الحاج.

شهر ربيع الأول، فأقام بها أربعة أيام ومعه أبو بكر، وأسس مسجده في هذه الأيام الأربعة. وبينما هما بقباء لحق بهما علي بن أبي طالب بعد ما ردَّ الودائع التي كانت عند الرسول لأصحابها من أهل مكة. وهكذا غادر الرسول مكة متحملاً كل ألم في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه.

خرج الرسول من قباء يوم الجمعة ميمماً شطر يثرب. فلما أدركته الصلاة في الطريق صلى بالناس الجمعة لأول مرة، ثم تابع سيره إلى يثرب فوصل إليها في ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م)[١].

٦ ـ نشأة حكومة نظامية في المدينة: أصبحت يثرب بعد هجرة الرسول إليها معقل الإسلام وملجأ جماعة المسلمين وغدت تعرف باسم مدينة النبي، وتسمى اليوم المدينة والمدينة المنوّرة لوجود قبر الرسول بها[٢].

وقد اتخذ المسلمون السنة التي هجر فيها الرسول من مكة إلى المدينة مبدأ للتاريخ عندهم، نسبة إلى هذا الحادث العظيم، وكانوا يؤرخون الحوادث قبل ذلك بعام الفيل.

وأصبح بالمدينة في ذلك الوقت ثلاثة أصناف من السكان:

الأول: المهاجرون وهم الذين هاجروا فراراً بدينهم من مكة إلى المدينة.

الثاني: الأنصار وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين وهم الأوس والخزرج، وسموا بذلك لأنهم نصروا النبي على قريش.

الثالث: اليهود، وقد انتهى بهم الأمر إلى الخروج تدريجياً من جزيرة العرب.

وقد استطاع الرسول أن ينشر دينه بين أهل المدينة، وأن يجد من بينهم أتباعاً كثيرين في فترة قصيرة، كما استطاع أن يصلح ذات بينهم، ويوطد السلم بين عشائرهم ويعقد حلفاً بين المسلمين من مهاجرين وأنصار، وبين اليهود. وقد أورد لنا ابن هشام (جـ ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٣) صورة هذا الحلف الذي هو موادعة ومسالمة ليهود المدينة، وإقرار لهم على دينهم وأموالهم، جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي (ﷺ) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دونْ الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[٣] يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين

(١) الطبري جـ ٢ ص ٢٥٥.

(٢) وقد ذكر ياقوت تسعة وعشرين اسماً. منها المدينة، وطيبة (لطيب هوائها)، والمحيبة، والمحبوبة، ويثرب، والناحية، والمباركة، والعاصمة، والشرفية.

(٣) بفتح الراء وسكون الباء أي حالهم التي جاء الإسلام وهم عليها من أحكام الديات والدماء.

٤ ـ شرط لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين في المصلحة العامة، وفتح الطريق للراغبين في الإسلام، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق.

ولم يرد لهذا الكتاب ذكر إلا في سيرة ابن هشام.

واستطاع الرسول أن يجعل نفسه في المدينة على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه، دون إشارة أي شعور من القلق أو خوف من التعدي على السلطة المعترف بها.. وهكذا باشر الرسول سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل، مع فارق واحد، وهو أن الرباط الديني بين المسلمين يقوم مقام رابطة الأسرة والدم.

وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام، ولو من الوجهة النظرية على الأقل ـ كما كان دائماً ـ نظاماً سياسياً بقدر ما هو نظام ديني.

كان أول شيء اتجه إليه نظر الرسول حين وصل إلى المدينة العمل على إقامة شعائر دينه الجديد، فبنى مسجده الذي دفن فيه. وكان المسلمون يجتمعون في المسجد للصلاة لا ينادي بها أحد فيهم، فتكلموا يوماً في ذلك القتال فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: اتخذوا قرناً (بوقاً) مثل قرن اليهود، فقال عمر: أو لا تبعون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال الرسول: يا بلال قم فنادِ بالصلاة. وإذا جاء وقت الصلاة يقول بلال: الصلاة جامعة. وكان من المنادين عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأنصاري. فبينما هو بين اليقظان والنائم، يرى شخصاً يلقنه الأذان، فحضر إلى الرسول وقص عليه ما رأى، فقال له: إنها لرؤيا حق، لقن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً. ولما أذن بلال، حسر عمر يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله[1].

ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه. ومن ثم سمي هذا الدين «الإسلام» لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لإرادة الله تعالى. والذين يدينون به يسمون المسلمين أي الذين يخضعون لأمر الله ورسوله. وأمر الرسول بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، كما أمر بصوم شهر رمضان، وحمى حقوق الملكية، وجعل للمرأة مركزاً محترماً لم يكن لها في الجاهلية.

وكان من أظهر آثار الإسلام أنه آخى بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ومراتبهم،

---

(١) اختلف الفقهاء في الطريق الذي ثبت به الأذان، فقال بعضهم إنما ثبت عن طريق الوحي. وقال آخرون إنه ثبت عن طريق الرؤيا التي رآها عبد الله بن زيد. ونحن نميل إلى الأخذ بالرأي الثاني، فقد وقع فيما رواه عبد الرازق، وأبو داود، في المرسل عن طريق عبيد بن عمر بن الليثي أحد كبار التابعين أن عمر لما رأى الأذان جاء يخبر الرسول فقال له: قد سبقك بذلك الوحي، جامع الترمذي، طبعة الهند سنة ١٩١٠ هـ ص ٢٢٦.

وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية، فأصبحوا متساوين جميعاً. لا فرق بين السيد والعبد، وغدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. وقد منّ الله على المسلمين بقوله: ﴿إن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ [سورة الأنفال ٨: ٦٢ ـ ٦٣].

وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك المساواة التي جاء بها الإسلام وتلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التي مزقت شمل العرب. وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [سورة الحجرات ٤٩ ـ ١٣]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى».

وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية ثم بين أفراد الشعب. فلما فرغ الرسول من توحيد كلمة العرب حول همته إلى نشر الإسلام خارج المدينة، وحينئذٍ بدأت غزواته الأولى.

٧ ـ **الجهاد وأغراضه**: يزعم بعض ذوي الأغراض أن الرسول أكره الناس على قبول الإسلام وأنه اعتمد في نشره على السيف. ولكن هذا لا يتفق مع صريح قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [سورة البقرة ٢: ٢٥٦]. كما يتنافى مع ما رواه الثقاة من المؤرخين عن بدء انتشار الإسلام. فقد بدأ الرسول بدعوة بعض أصحابه ممن كان يثق بهم، فأسلم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف، وتبعهم غيرهم. وطالما كان الرسول يعرض نفسه في موسم الحج على القبائل داعياً إلى الإسلام من أقبل إلى مكة من سائر العرب. ومن هؤلاء جماعة من الأوس والخزرج أجابوه إلى ما دعاهم إليه من اعتناق الإسلام، ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا قومهم إلى هذا الدين. مضى ذلك في جزيرة العرب دون أن يستل الرسول سيفاً أو يقاتل عدواً. وكذلك اتبع الرسول الطرق السلمية في نشر الإسلام خارج جزيرة العرب، إذ كتب إلى الملوك والأمراء في ذلك العصر يدعوهم إلى الإسلام.

وإن ما ادعاه بعض من أن الإسلام انتشر بحد السيف ليتنافى مع ما سار عليه الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد التي فتحوها واحترامهم حريتهم الدينية ومحافظتهم على حقوقهم المدنية. يدل على ذلك أمان عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (الطبري جـ ٤ ص ١٥٩).

من هذا يتبين أن الإسلام وجد طريقه إلى القلوب وخالطت بشاشته النفوس عن طريق الحجة والاقناع. أضف إلى ذلك أن النفوس كانت تتطلع منذ مستهل القرن السابع الميلادي

إلى مصلح جديد، فقد تطرق الفساد إلى جميع نواحي الحياة، ومال ميزان العدل بين الناس بلاد العرب والفرس والروم. ومن ثم بادر الناس إلى الإسلام لما امتاز به من الديمقراطية الصحيحة والمساواة الحقة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ [سورة الروم ٣٠: ٣].

وقد مكث الرسول بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة. وقد أذاقته قريش هو والمسلمين كل صنوف الأذى، فصبر على أذاهم وحثه الله تعالى على التدرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات، وضرب له الأمثال في الصبر والاحتمال، من ذلك قوله تعالى: ﴿واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل عليهم﴾ [سورة الأحقاف ٤٦: ٣٥].

ولما تفاقم أذى قريش للرسول وصحبه أمره الله تعالى بقتال المشركين، وهو ما يعبر عنه بالجهاد أو القتال في سبيل الله، وهو القتال الخالص لله تعالى. وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا في سبيل الله في آيات بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة.

وقد أذن للمسلمين بالقتال لأمور منها:

١ ـ الدفاع عن النفس، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ [سورة الحج ٢٢: ٣٩ ـ ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [سورة البقرة ٢: ١٩٠ ـ ١٩٣].

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ [سورة النساء ٤: ٧٥]. من ذلك نرى أن القتال لم يشرع إلا دفاعاً عن النفس وما إلى ذلك العرض والمال.

٢ ـ تأمين الدعوة والدفاع عنها أمام من يقف في سبيلها، حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام الفتنة عن دينه، كما حدث لعمار بن ياسر وبلال وغيرهما من المستضعفين من المسلمين.

ولما تمالأ أن مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول، أمره الله بقتال المشركين كافة ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ [سورة التوبة ٩: ٣٦].

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول عليهم وانضموا إلى مشركي قريش لقتاله، نزل قوله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ [سورة الأنفال ٩: ٥٨].

وقد وعد الله المسلمين النصر على أعدائهم في الدنيا وبشرهم بالنعيم في الآخرة فقال: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ [سورة النساء ٤: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ [سورة النساء ٤: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً، فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذٍ دُبرَه إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ [سورة الأنفال ٨: ١٥ ـ ١٦].

٨ ـ الغزوات والسرايا(١)

غزوة بدر الكبرى(٢):

ذكر الواقدي أن رسول الله عقد في رمضان من السنة الأولى للهجرة لحمزة بن عبد المطلب لواء في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترض عيراً لقريش، وقد لقي أبا جهل في ثلاثمائة رجل، فحجز بينهم مجدي بن عمر الجهني، فافترقوا دون قتال. وقد أرسل الرسول عدة سرايا بقصد الاستطلاع، حتى إذا كان شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة خرج بنفسه إلى قرية يقال لها ودان على بعد ثمانية أميال من الأبواء بين مكة والمدينة يريد قريشاً وبني ضمرة، فوادعته بنو ضمرة وعاد إلى المدينة، وتسمى هذه الغزوة غزوة الأبواء أيضاً.

وفي شهر رجب من هذه السنة بعث رسول الله عبد الله بن جحش(٣) ومعه ثمانية من

---

(١) الغزوة هي ما خرج فيها الرسول مع المقاتلين، والسرية أو البعث ما لم يخرج فيها بنفسه، فقد يعقد اللواء لها على رجل من أصحابه. وقد يطلقون على السرية غزوة (ولكن ذلك قليل)، كما قالوا غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل. وكانت الغزوات التي غزا فيها الرسول بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وكانت السرايا والبعوث ثمانياً وثلاثين، وقيل أكثر من ذلك.

(٢) تختلف الرواية العربية في أول غزوة وتاريخها وترتيب السرايا التي سبقت بدراً؛ فيزعم الواقدي أن سرية حمزة كانت في رمضان من السنة الأولى للهجرة كما يعتبرها الأولى. أما ابن هشام فيعتبرها مسبوقة لغزوة ودان، وسرية عبيد بن الحارث ابن عبد المطلب إلى ماء بالحجاز في أسفل ثنية المرة، ويعتبر أن أول غزوة كانت في صفر من السنة الثانية (الطبري جـ ٤ ص ٢٥٩).

(٣) هو من السابقين إلى الإسلام، ولما بعثه النبي سماه أمير المؤمنين، فكان أول من سمي في الإسلام بهذا الاسم، وهذا لا يتنافى مع القول بأن عمر أول من تسمى به من الخلفاء.

المهاجرين، وكتب له كتاباً أمره فيه ألا يفضه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه ويمضي لما أمره به ولا يستكره أحداً من أصحابه ففعل. حتى إذا فتح الكتاب وجد فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم»[١]. ثم عرض الرسول الأمر على أصحابه وخيرهم بين المضي معه أو الرجوع فمضوا، ولم يتخلف عنه واحد منهم حتى نزل نخلة، فمرت به قافلة قريش بتجارتها وعليها عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمون عندما اشتبكوا بهم، ثم أسروا منهم عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وقدموا بهما وبالعير على الرسول بالمدينة فقال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». ثم وقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، وعنفهم إخوانهم المسلمون على ما صنعوا وقالوا لهم: «صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتم في الشهر الحرام»، فسقط في أيديهم، وظنوا أنهم قد هلكوا بما صنعوا. فانتهزت قريش هذه الفرصة ونادت في كل مكان بأن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال. كما خاض اليهود في ذلك حتى غفر الله للمؤمنين ودافع عنهم بقوله: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به. والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [سورة البقرة٢ : ٢١٧] .

ولما وضعت الحرب أوزارها بعثت قريش في افتداء الأسيرين. فقال الرسول: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا[٢] فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم» فلما قدم سعد وعتبة أفداهما رسول الله، فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم وأقام عند الرسول إلى أن استشهد يوم بئر معونة.

وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى، فقد ندب الرسول نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهي قادمة من الشام. فلما علم بذلك أبو سفيان بن حرب رئيس القافلة، بعث إلى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم ويستنفرهم لاستنقاذها، ثم غير طريقه، .وتوجه إلى البحر وسار بحذائه حتى جاوز موقف المسلمين، ثم انسل إلى مكة دون أن تمس تجارة قريش بسوء. وقد التقى الرسول بقريش عند ماء بدر. وكان عددهم يتراوح بين تسعمائة وألف، فيهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول، وأبو جهل بن

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ٢٦٢ .

(٢) يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، وكانا قد تخلفا عن عبد الله بن جحش في بحثهما عن بعير ضل منهما.

هشام بن المغيرة؛ فنصر الله المسلمين، وقتل سبعون من رجالات قريش وساداتهم، أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر[١].

كان لهذه الغزوة أثر كبير في تاريخ الإسلام: فقد كانت أول اصطدام جدي بين المسلمين وقريش، انتصر فيه المسلمون على الكفار، وتجلى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم في نصرة دينهم. وقد أحفظ ذلك رجالات قريش، فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين.

وبلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم في تلك الغزوة أن سموها غزوة الفرقان، لأن الله سبحانه وتعالى فرق بها بين الحق والباطل، وأعز الإسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش وأسر كبرائهم، مع قلة عدد المسلمين وكثرة عددهم؛ كما سموا كل من شهدها من المسلمين بدرياً، وكانوا يعتزون بهذه التسمية ويفخرون.

وبلغ من تأثر قريش لهزيمتهم في تلك الموقعة أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحرب الرسول والقضاء على أصحابه. ومن ثم بدأت سلسلة من الحروب كان النصر فيها حليف المسلمين (اللهم إلا غزوة أحد). وكان مركز الحروب يتحرج أو يتوطد بعد كل حرب تبعاً لنتيجتها، ولكنهم صبروا واطمأنوا إلى نصر الله وكانت العاقبة للمتقين.

اختلف القوم في النفل[٢] الذي ساقه الله إلى المسلمين في غزوة بدر. فقد ادعاه الذين جمعوه، كما ادعاه من باشروا القتال ومن أحاطوا بالرسول يحرسونه خشية أن يغتاله المشركون. ونسي كل فريق من هؤلاء نصيب الآخرين واستحقاقهم في النفل، كما أهملوا من وكل إليهم الرسول أعمالاً تتصل بالقتال وليست منه، ومن تخلف عن القتال لأعذار كعثمان بن عفان الذي أبقاه الرسول مع أسامة بن زيد في المدينة لتمريض رقية بنت الرسول وزوجة عثمان التي فاضت روحها والمسلمون في المعركة، وأتى البشير بالنصر وهم يوارونها في التراب.

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٤٣ ـ ٢٧٥، ٣٥٤ ـ ٣٥٥: الطبري جـ ٤ ص ٢٦٧ ـ ٢٩٧.

(٢) النفل أو الغنيمة هو ما أخذه المسلمون من الكفار قهراً بعد هزيمتهم في الحرب وهناك الفيء وهو أيضاً مأخوذ من الكفار، ولكن عن طريق صلح واتفاق معهم.

ويختلف النفل عن الفيء بأن أربعة أخماس النفل تقسم على المحاربين. أما أربعة أخماس الفيء فإنها تترك للرسول أو لإمام المسلمين ليصرفها في مصالح المسلمين التي منها الجيش. وأما خمس الفيء أو الغنيمة فإنه يقسم إلى خمسة أسهم أو أقسام: سهم للرسول (في حياته) ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين، والسهم الثاني لذوي القربى، والسهم الثالث لليتامى من ذوي الحاجات، والسهم الرابع للمساكين، والسهم الخامس لأبناء السبيل.

ويدخل في الفيء الجزية والخراج والعشر من متاجر المشركين: وهذا كله يختلف عن الصدقات، وهي المال الذي يؤخذ من المسلم زكاة كان أو تطوعاً (انظر كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٢١ ـ ١٥١).

ولما رفع الأمر إلى الرسول نزل قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ [سورة الأنفال ٨: ١]. ثم أقبل رسول الله إلى المدينة، واحتمل معه النفل وجعل عليه عبد الله بن كعب، حتى إذا قربوا من المدينة قسم الرسول الغنائم بين المسلمين على السواء.

غزوة أحد:

وقعت هذه الغزوة في النصف من شعبان في السنة الثالثة للهجرة. ويرجع السبب في وقوعها إلى أن قريشاً لما أرادت أن تثأر لما أصابها يوم بدر، خصصت جميع ما كان من مال في العير التي اعترضها المسلمون في ذلك اليوم ليستعينوا به على حرب الرسول وأصحابه. واجتمع حول أبي سفيان بن حرب ثلاثة آلاف من قريش والأحابيش وعرب كنانة وتهامة، فخرج بهم يريد المدينة، واصطحب القيان ومعهم المعازف والخمر، وخرج معهم نساء كبرائهم لإثارة حماستهم، ولم يحضر العباس بن عبد المطلب عم الرسول يوم أُحد. وتقول بعض الروايات إنه أرسل إلى الرسول سراً من يعلمه بخروج قريش إليه[1].

ولما سمع الرسول بقدوم قريش استشار الصحابة فيما يصنع، فأشار عليه قوم بلقائهم في خارج المدينة. وكان يقول بذلك الشباب ومن لم يشهد بدراً، وهم أكثر أهل المدينة. أما كبار الصحابة فكانوا يرون البقاء في المدينة، وكان ذلك رأي الرسول أيضاً لحصانتها الطبيعية ومناعتها وسهولة الإحاطة بالعدو في أزقتها، وانتفاع المسلمين بمساعدة النساء والأطفال، لأنهم يستطيعون أن يحصبوا المشركين بالحجارة وهم في دورهم آمنين. وكان هذا الرأي هو رأي عبد الله بن أبي بن سلول عندما استشاره الرسول كما كان ذلك رأي كبار الصحابة.

وقد قبل الرسول الرأي الأول إذ وجد في عددهم كثرة وفي بأسهم قوة. فعزم على الخروج. وليس لامته وصلى بالناس الجمعة، وحثهم على الثبات والصبر، فخشي هذا النفر من الصحابة أن يكونوا قد استكرهوا الرسول وتحدثوا إليه في ذلك، وعرضوا عليه البقاء في المدينة والنزول على رأيه ورأي كبار الصحابة فقال: ما كان لنبي لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.

وقد سار الرسول وقت السحر من ليلة السبت في ألف من المسلمين. ولم يكد جيش المسلمين يبلغ الشوط، وهو مكان خارج المدينة، حتى رجع عبد الله بن أبي بثلثهم وقال: عصاني واتبع الولدان. فلما ذكرهم عبد الله بن عمرو بن حرام بحق الله عليهم وقال لهم:

---

(١) وليس ذلك بعيداً، فقد كان معروفاً عن بني هاشم أن هواهم مع الرسول، وإنهم ما كانوا يخرجون لحربه إلا مستكرهين ولذلك يشك بعض المؤرخين في أن العباس حضر بدراً (راجع الطبري جـ ٤ ص ٢٢٦ ـ ٢٨٢).

﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ [سورة آل عمران ٣: ١٦٧]، احتجوا بأنه لن يكون قتال وقالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم.

وكان لهذا الانقسام أثر كبير في صفوف المسلمين وكادت أن تتفرق كلمتهم وتتمزق وحدتهم. وقد وصف الله تعالى حال عبد الله بن أبي بن سلول ومن لف لفه من المنافقين بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط وإذ غدوت من أهلك تبوأ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [سورة آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٢].

نزل رسول الله الشعب من جبل أُحد، وعسكر على سفحه الموجه للمدينة والمنحدر إلى بطن الوادي الذي عسكرت فيه قريش. فاحتمى الرسول بالجبل، وجعل الرماة على جبل صغير أمام أُحد يعرف حتى الآن بجبل الرماة، وأوصاهم بألا يتركوا مكانهم سواء أكانت الغلبة للمسلمين أم عليهم. ثم استعرض الجيش وأخرج منه الأحداث الذين دفعتهم الحماسة إلى اصطلاء نار الحرب، ثم ألح عليه فتيان وبكيا فاستبقاهما بعد أن اختبر استعدادهما.

وبدأت المعركة بالمبارزة، وكان على رأس المشركين أبو سفيان بن حرب، وعلى الخيل خالد بن الوليد. ثم التحم الجيشان وصمد بعضهما لبعض، واتبع المسلمون خطة الرسول أول الأمر، فكان النصر في جانبهم، فقد حصدوا أعداءهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر. ويقول الزبير بن العوام في رواية ابن هشام: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير.

ولما رأى المسلمون تقهقر المشركين، أهمل الرماة وصية الرسول إياهم بالثبات في أماكنهم حتى يعلن هو انتهاء القتال، وأخذوا يجمعون ما تركه العدو وراءهم من الغنيمة والأسلاب. ولقد ذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير بما قال الرسول فلم يسمعوا، بل اندفعوا يتعجلون الغنيمة ويستبقون إليها، فانتهز خالد بن الوليد فرصة خلو الجبل من الرماة وأتى المسلمين من خلفهم وأعمل الرماح في ظهورهم. وقد اضطرب المسلمون لهذه المفاجأة واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر، ثم اشتد الخطب عندما صرخ ابن قميئة (من المشركين): «ألا إن محمداً قد قتل»، وتخاذل المسلمون واستولى اليأس على قلوب فريق منهم، ومن بينهم عمر بن الخطاب مع ما امتاز به من رباطة الجأش وقوة النفس؛ كما استقتل

فريق آخر من أمثال أنس بن النضر (عم أنس بن مالك) قال: «ماذا تصنعون بالحياة من بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ».

وأحاط الباقون بالرسول وقاموا دونه يدفعون ويتلقون دونه طعنات الرماح وضربات السيوف على أن خبر مقتل الرسول، وإن كان قد أدى إلى انخذال المسلمون وجعل اليأس يستولي عليهم، أدى إلى نجاته من أذى المشركين. ولا غرو فقد انخدعت قريش بذلك الخبر واكتفت من الحرب بتلك النتيجة. وفطن الرسول نفسه لهذا، ورأى ذلك فرصة أتاحها الله له وللمسلمين لصرف المشركين عنه. فقد أشار إلى كعب بن مالك الأنصاري بالسكوت حين هم بأن يصيح في المسلمين بأن الرسول على قيد الحياة.

وعلى الرغم من استبسال المسلمين وتفانيهم في الذود عن حياة الرسول، جرح في وجنته وكسرت رباعيته وشج في رأسه، ووقع في إحدى الحفر التي حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون. واستشهد من المسلمين أكثر من سبعين.

وقد مثل نساء قريش بقتل المسلمين، حتى إن هنداً بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب[1]، وأخذت مضغة من كبده فلاكتها حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها[2].

وقد أمر الرسول بجمع قتلى المسلمين إلى جنب حمزة وصلى عليهم، ثم أمر بدفنهم، ثم عاد إلى المدينة. وقد تلقى المؤمنون في هذه الموقعة أنفع الدروس وأبعدها أثراً في حياتهم المستقبلة، إذ كانت أول انهزام حربي حل بهم بعد تلك الانتصارات التي اعتادوها، كما كشفت للمسلمين عن مبلغ إيمان المنافقين واستعدادهم للتضحية، وأطمعت قريشاً وغيرها من القبائل في جماعة المسلمين، حتى استهانوا بهم وظنوا أنه من اليسر القضاء عليهم. وهكذا شجعت تلك الغزوة المشركين على حرب المسلمين كما سيأتي.

(١) هو عم النبي، قتله غلام حبشي يقال له وحشي مولى مطعم بن جبير، وقد بعثه مولاه مع قريش وقال له: إن قتلت حمزة بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق؛ فأتى وحشي إلى حمزة وقد سبقه إليه سباع من بني عبد العزى. فلما رأى حمزة سباعا ضربه فقتله، فانتهز وحشي فرصة انشغال حمزة بطعن سباع وصوب حربته عليه فأثبتها في جسمه، فاتجه حمزة إلى قاتله ليفتك به ولكنه عجز وهوى إلى الأرض، فتركه وحشي حتى مات ثم عاد فانتزع منه حربته ولم يقاتل حتى رجع إلى مكة وقد هرب منها إلى الطائف يوم الفتح خائفاً من الرسول لعلمه بشدة حزنه على عمه. فلما أخبر بأن الرسول يعفو عمن أتاه، ذهب إليه فأسلم، فعفا عنه الرسول. وقد حارب وحشي مع المسلمين جيوش مسيلمة الكذاب، وتمكن من قتل مسيلمة نفسه حتى كان يقول: «قتلت خير الناس بعد رسول الله (يعني حمزة)، وقد قتلت شر الناس (يريد مسيلمة)

(٢) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨.

غزوة الأحزاب سنة ٥ هـ:

ظنت قريش بعد أحد أنها هزمت محمداً وأخذت تعد العدة لغزوة أخرى تقضي بها على ما بقي له من قوة. وكان خروجها يوم الأحزاب تنفيذاً لهذه الخطة. على أن هذه الفترة بين غزوتي أحد والأحزاب لم تمر من غير أن يشتبك المسلمون فيها مع بعض القبائل العربية الأخرى التي استخفت بقوة المسلمين وتجرأت عليهم، فاعتدت عليهم لتتقرب بذلك إلى قريش زعيمة الوثنية، ولتأخذ بنصيبها في شن الغارة على المسلمين والنيل من هذا الدين الجديد، من ذلك ما صنعت قبيلتا عضل والقارة يوم الرجيع، ثم ما صنعت بنو سليم يوم بئر معونة، حتى لقد بلغ الاستخفاف بالمسلمين والاستهانة بشأنهم أن فكر بنو النضير من يهود المدينة في قتل محمد رأس هذه الجماعة للتخلص منها.

قدم على رسول الله وفد من عضل والقارة فقالوا له: «يا رسول الله، إن فينا إسلاماً وخيراً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام»، فبعث رسول الله ستة من أصحابه. فلما أتوا على الرجيع[1] غدروا بهم، فأخذوا سيوفهم ليقاتلوهم، وما زالوا يدافعون عن أنفسهم حتى قتل بعضهم وأسر البعض الآخر، وكانت نهايتهم القتل، فكان ذلك سبب غزوة بني لحيان[2].

ذكر ابن هشام[3] أن أبا براء عامر بن مالك قدم المدينة على رسول الله، فعرض عليه الرسول الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ثم قال للرسول: «يا محمد لو بعث رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك». فقال رسول الله: «إني أخشى عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: «أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك». فبعث الرسول المنذر بن عمرو في أربعين رجلاً من خيار المسلمين. فساروا حتى نزلوا بئر معونة فبعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه وعدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه وقالوا: «لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً». فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم فأجابوه إلى ذلك وخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم وهم في رحالهم. فلما رأوهم أخفوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، وكانوا ـ رضي الله عنهم ـ من أشهر القراء والحفاظ.

أما بنو النضير فقد أجمع المؤرخون على أن السبب في حربهم يرجع إلى تآمرهم على

---

(١) الرجيع: ماء لبني لحيان من هذيل بين مكة وعسفان بناحية الحجاز.
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢. الطبري جـ ٥ ص ٢٩ ـ ٣٣.
(٣) جـ ٣ ص ١٨٤ ـ ١٨٥. الطبري جـ ٥ ص ٣٣ ـ ٣٦.

قتل الرسول: فقد جاءهم يستعينهم في دية قتيلين قتلهما المسلمون خطأ[١]، قالوا: «نعم يا أبا القاسم (كانت هذه كنية الرسول) نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه»، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه».

وكان الرسول قد جلس إلى جنب جدار من بيوتهم حتى يأتوه بالمال. فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش: أنا لذلك. ثم صعد ليلقي بالحجر على الرسول وهو جالس في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي. فأتى الخبر من السماء بما أراد القوم، فعاد إلى المدينة من غير أن يعلم أحد بذلك. فلما استبطأه أصحابه خرجوا يبحثون عنه، فأخبرهم رجل أنه رآه يدخل المدينة، فأقبلوا عليه يسألونه عن السبب، فأخبرهم بما ألهمه الله إياه من تآمر اليهود وأمره بالتهيؤ لحربهم ثم سار إليهم فتحصنوا منه بآطامهم (أي حصونهم) فحاصرهم ستة أيام، وأمر بقطع النخيل وتحريقه. ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، فسألوا الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن يأخذوا معهم ما تحمل الإبل من المال إلا الدروع، فأجابهم الرسول إلى ذلك فخرجوا إلى خيبر وسار بعضهم إلى الشام. وكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق، وكنانة ابن أخيه الربيع، وحيي بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها[٢] .

ولما أجلى الرسول يهود بني النضير عن ديارهم بالمدينة، رحلوا إلى خيبر وعزموا على الانتقام منه ومن أصحابه، ومن ذهبوا يألبون عليه سائر العرب ويحزبون الأحزاب عليه. وكانت قريش قد خرجت من أحد منتصرة، وخيل إليها أنها قد هزمت المسلمين أو محمداً، ولم يبق إلا أن تشن عليه غارة أخرى فتقضي عليه نهائياً. يدل على ذلك صيحة أبي سفيان بن حرب. «إن موعدكم بدر العام المقبل» (الطبري جـ ٥ ص ٢٤).

ولكن قريشاً لم يسعفها الحظ في ذلك العام لوقوع الجدب بأرضهم والكساد بتجارتهم فلما جاءهم وفد اليهود[٣] واطمأنت قريش إلى نصرتهم وانضمامهم إليها رأت أنهم سوف يحيطون بمحمد في داخل المدينة وفي خارجها، كما رأوا في خروجهم محواً لما لحقهم من تهمة الجبن عن قتال محمد. وخرج الرسول إلى لقائهم في الموعد الذي ضربوه وأقام ثمانية أيام فلم يخرجوا إليه. لذلك نشطت قريش لما دعيت إليه من حرب الرسول واعترتها فرصة سانحة.

---

(١) كان بينهم وبين المسلمين حلف يقضي بالتعاون على دفع الدية الواجبة على أحد الفريقين.

(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٢ - ١٩٣

(٣) هم سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب في نفر من بني النضير، وهوذة بن قيس، وأبو عمار في نفر من بني وائل.

فلما اطمأن اليهود إلى مناصرة قريش، ذهبوا إلى غطفان من قيس عيلان ودعوهم إلى مثل ما دعوا قريشاً إليه، ووعدهم العون وأخبروهم بانضمام قريش إليهم فقبلت غطفان، وتهيأت الأحزاب للخروج إلى المدينة. وكان قائد قريش أبا سفيان بن حرب، وقائد بني أشجع من عطفان مشعر بن رخيلة. فما اتصل بالرسول ما عزم عليه المشركون حفر الخندق، وعمل بنفسه فيه «ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا. وعمل المسلمون حتى أحكموه: وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له «جعيل» فسماه رسول الله ﷺ عمراً، فقالوا:

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوماً ظهرا

فإذا مروا بعمرو قال رسول الله «عمراً» وإذا مروا بظهر قال رسول الله «ظهراً»[1].

كان الخندق شمالي المدينة، لأن الجهات الأخرى كانت محصنة بالجبال والنخيل والبيوت. واختلف المؤرخون في مكان الخندق وطوله. ويظهر أنهم خطوه من الحرة الشرقية إلى الشمال فالغرب ثم إلى الجنوب قليلاً. وإذا صحت الرواية القائلة بأن الرسول وكل إلى كل عشرة من المسلمين أن يحفروا قطعة من الخندق طولها أربعون ذراعاً، فأننا نستطيع أن نستنتج أن طول هذا الخندق بلغ إثني عشر ألف ذراع على الأقل. هذا إذا فرضنا أنه لم يعمل في حفره إلا رجال الجيش الذين اتفقت الروايات على أنهم كانوا ثلاثة آلاف.

فرغ المسلمون من حفر الخندق قبل وصول قريش على الرغم من تسلل المنافقين وهربهم في أثناء العمل دون إذن الرسول. وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها، يذكر لرسول الله ويستأذن في اللحوق لحاجته فيأذن له. فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له. فأنزل الله تعالى في أولئك النفر من المؤمنين ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾ [سورة النور ٢٤ : ٦٢]. ثم قال تعالى: في المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِواذا، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [سورة النور ٢٤ : ٦٣].

وقد أقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كنانة وتهامة في عشرة آلاف ونزلوا في مجتمع الأسيال من رومة، وهي بين الجرف التي تقع على بعد ثلاثة أميال من المدينة وزغابة، وفيها بئر

---

(١) ابن هشام حـ٣ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

رومة التي ابتاعها عثمان بن عفان وتصدق بها على المسلمين. وأقبلت غطفان ومن تبعهم من نجد، فنزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد، وخرج الرسول في ثلاثة آلاف وجعلوا ظهرهم إلى جبل سلع، وجعل الرسول النساء والأولاد في الآطام، والخندق بينهم وبين المشركين(١).

وقد جاء حيي بن أخطب النضيري إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عهد بني قريظة ليراوده على نقض ما بينه وبين الرسول، فامتنع أولاً. ثم انتهى إلى أن نقض بنو قريظة ما بينهم وبين المسلمين، فلما علم الرسول بذلك أرسل إليهم أربعة، منهم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليستيقنوا من هذا الخبر، فرأوا منهم الغدر، فعادوا وأخبروا الرسول فقال: الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين.

واشتد الخوف وعظم البلاء على المسلمين إذ ذاك، وظهر نفاق الكثيرين حتى قال متعب ابن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»(٢). وأقام الرسول وأقام المشركون عليه قريباً من شهر لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار. فلما اشتد الأمر على المسلمين بعث الرسول إلى قائدي غطفان يفاوضهما في قبول ثلث غلة المدينة على أن يرجعا بمن معهما، فقبلا، وكتب نص المحالفة خلواً من أسماء الشهود، إذ لم يتم الصلح ولم يكن إلا المراودة. فتحدث الرسول إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيد الأوس والخزرج، وذكر لهما ما وصل إليه مع غطفان من اتفاق، فلم يرضيا إلا أن يكون أمراً من عند الله، فأخبرهما الرسول بأن هذه الفكرة عرضت له للخروج من هذا المأزق الذي يحيط بالمدينة، ثم أعطاهما الكتاب ليمحوا ما به ففعلا، وعاد الموقف إلى ما كان عليه من تبادل المناوشات التي لم تأتِ بنتيجة حاسمة لأحد الطرفين. وكان الرسول في ذلك الوقت يدأب على مصابرة المسلمين الذين اشتد بهم البلاء وزاد تأثير الجوع والبرد فيهم(٣) وفي مفاوضة غطفان ابتغاء صرفهم عن قريش، ليفت ذلك في عضدهم فيرجعوا هم أيضاً. وأما قريش فقد ثقل عليهم الحصار وملوا الانتظار في البرد القارس والمطر الذي لم تغن عنهم خيامهم شيئاً.

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٣٨. تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٥١.

(٣) بلغ من شدة وطأة الجوع على الرسول والمسلمين أن كانوا يربطون الحجارة على بطونهم. وقد ذكر أن الرسول كان يصلي في الليلة التي عادت فيها قريش في مرط (بكسر الميم وسكون الراء وهو إزار أو كساء من صوف أو خز) وروى ابن هشام (جـ ٣ ص ٢٥٠) أن حذيفة بن اليمان الذي بعثه الرسول ليتعرف حالة الأحزاب قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مراجل (ضرب من وشي اليمن فيه صور المراجل وهي القدور التي يطبخ فيها) فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح علي طرف المرط.

عند ذلك جاء إلى الرسول نعيم بن مسعود مسلماً، وعرض عليه أن يكلفه بأي عمل يقوم به في جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة، فقال له خذل عنا فإن الحرب خدعة. فذهب مسعود إلى بني قريظة وحذرهم إن هزمت قريش فنجت بنفسها فتركتهم تحت رحمة محمد ثم نصحهم بألا يطمئنوا إلا إذا أعطوهم رهائن من سادتهم وأشرافهم. ثم ذهب إلى كل من قريش وغطفان وأوهمهم أن بني قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد، واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشاً وغطفان عن بعض سادتهم فيأخذونهم على أنهم رهائن ويقدمونهم إلى محمد ليضرب أعناقهم. فاستعجلت قريش وعد قريظة لها نصرتها، فكان في جوابهم عليهم ما يؤكد عزم بني قريظة على الغدر بهم.

وقد فعلت هذه الوقيعة فعلها في الأحزاب، وتأكدت قريش وغطفان من غدر القريظيين بهم، فعزموا على الرحيل. وكان للعوامل الطبيعية أيضاً أكبر الأثر في ذلك، إذ هبت ريح زعزع عاتية جعلت تكفأ قدورهم وتنزع خيامهم، فأرغمتهم على الرحيل.

وكان لطول أمد الحصار أسوأ الأثر في نفوس الأحزاب المتحالفة مع قريش، مما جعل لإخفاقها ورجوعها تجر أذيال الخيبة وتندب الآمال التي كانت تحلم بها، أثراً كبيراً في سرعة انتشار الإسلام بين قبائل العرب.

كما ظهرت في هذه الحرب مقدرة الرسول الحربية ومرونته السياسية، إذ أنفذ مشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق، وهو من الأعمال الحربية التي لم تعرفها العرب قبل ذلك، حتى لقد دهشت قريش عندما رأته وقال قائلهم: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها»(١)، كما تجلت حنكته السياسية في مساومة غطفان لزلزلتها عن موقفها إلى جانب قريش(٢)، ثم في التفريق والوقيعة بين هذه الأحزاب وبين بني قريظة. هذا إلى ما أبداه الرسول من المهارة في مصابرة المسلمين وتشجيعهم على تحمل الجوع والعري في تلك الأيام التي عصفت الطبيعة بمعسكر قريش واضطرتهم إلى الجلاء.

غزوة بني قريظة:

عاد الرسول من جبل سلع بعد رحيل قريش ووصل إلى المدينة ظهراً، فدخل بيت عائشة ثم خرج، وأمر بلالاً أن يؤذن في الناس: من كان سميعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني

---

(١) اس هشام جـ٣ ص ٢٤٠.

(٢) لما فاوض الرسول غطفان وأطمعهم في ثلث غلة المدينة ثم عدل عن ذلك ورفضه، توهمت غطفان أن مركزه قد تحسن، وأنه مقبل على حرب الأحزاب وإجلائهم. ومما زاد هذا الوهم تحقق غطفان من عدول بني قريظة عن مناصرة الأحزاب وعزمها على تقديم سادات قريش وغطفان إلى الرسول ليقتلهم

قريظة. فتلاحق المسلمون وحرج علي بالراية، وكانت على حالها لم تطو بعد. ولا غرو فقد أحفظ قلوب المسلمين وملأها حقداً وموجدة على بني قريظة نقضهم العهد وممالأة الأعداء عليهم حتى ﴿زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ [سورة الأحزاب ٣٣: ١٠].

فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين خارت قواهم وأيقنوا بالهلاك. فتبرءوا مما ارتكبوه من الغدر وسألوا الرسول العفو، فأبى ذلك عليهم وشدد الحصار خمسة وعشرين يوماً، حتى نزلوا على حكمه وسألوا حلفاءهم الأوس أن يتوسطوا في إطلاقهم كما توسط الخزرج في إطلاق حلفائهم من بني قينقاع. فتواثبت الأوس وقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا، فقال لهم رسول الله: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد ابن معاذ[1]

فلما جيء بسعد قاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين أن الحكم فيهم لمن حكم؛ فأجابوه وأجابه الرسول: أن نعم. قال سعد: فإني أحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال له رسول الله: لقد حكمت فيهم بحكم الله، ثم حفرت لهم الخنادق وضربت أعناقهم جميعاً، وكانوا نحو سبعمائة. ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة تسمى بنانة زوجة الحكم القرظي، لقتلها خلاد بن سويد برحى طرحتها عليه فمات، فقتلها الرسول في خلاد.

وقد قسم الرسول أموال بني قريظة وسباياهم بعد أن عزل الخمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفراداً من شتى القبائل، ولا سيما من كان يقيم منهم في جوار المدينة، لتزداد بهم صفوف أتباع النبي. وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة، ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً في تحويل إخوته إليه. وفي القصة التالية مثل من أمثلة التحويل إلى الإسلام، وذلك في السنة الخامسة للهجرة.

بعثت بنو سعد بن بكر واحداً منها يقال له ضمام بن ثعلبة رسولاً إلى النبي، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله. ودخل المسجد حيث كان النبي جالساً في أصحابه، فأقبل حتى وقف عليهم وقال: «أيكم ابن عبد المطلب»؟ فقال النبي: «أنا ابن عبد المطلب» قال: «أمحمد؟» قال «نعم». قال: «إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك». قال: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك». قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان من قبلك وإله

---

(١) روى ابن هشام (جـ ٣ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨) أن علي بن أبي طالب صاح وهم على حصار بني قريظة: يا كتيبة الإيمان. وتقدم هو والزبير بن العوام وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم، فقالوا: يا محمد! ننزل على حكم سعد بن معاذ.

من هو كائن بعدك: الله بعثك إلينا رسولاً؟ قال محمد: «اللهم نعم». قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟» قال محمد: «اللهم نعم». وبعد ذلك سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها، عن الصلاة والصيام والحج الخ، وهو يستحلفه مثل ما سبق. وأخيراً قال: «.. فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص»، ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه. فلما جمعهم كان أول ما قال لهم: «بئست اللات والعزى، قالوا: مه يا ضمام اتّقِ البرص، اتّقِ الجذام، اتّقِ الجنون»، قال: «ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه»، وما زال يقص عليهم حتى لم يأتِ المساء إلا وقد أسلم كل من في الحي رجالاً ونساءً[1].

وكان عمرو بن مرة من جهينة التي كانت تقيم بين المدينة وللبحر الأحمر مثلاً آخر لهؤلاء الدعاة. وقد وصف إسلامه بقوله: «كان لنا صنم وكنا نعظمه وكنت سادنه. فلما سمعت بالنبي كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام، فذلك حين أقول:

شهدت بأن الله حق وإنني ... لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساقي الإزار مهاجراً ... إليك، أجوب الرعث بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً ... رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثه رسول الله إلى قومه يرغب في الإسلام، فتكللت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذي استعصى على الترغيب.

غزوة بني المصطلق أو المريسيع:

بلغ الرسول أن بني المصطلق بن خزاعة (من حلفاء بني مدلج)، قد عولوا على حربة بزعامة الحارث بن أبي ضرار أبي جويرية بنت الحارث زوج الرسول. فلما سمع الرسول بذلك، خرج إليهم حتى لقيهم على مآلهم يقال له المريسيع قرب قديد، وحلت الهزيمة ببني المصطلق وأسر المسلمون كثيراً من نسائهم وإبلهم.

وكان لهذه الغزوة أهمية كبرى في تاريخ الإسلام، لقيام النزاع بين المهاجرين والأنصار قياماً كاد يؤدي إلى انفصام عرى الوحدة بين المسلمين، وزواج الرسول بجويرية بنت الحارث

---

(١) ابن إسحاق ص ٩٤٣ - ٩٤٤. وتعتمد هذه القصة على بعض مصادر مشكوك في صحتها.

سيد بني المصطلق، ثم لوقوع حادث الإفك الذي كدر حياة عائشة أياماً وأرجف به المبطلون ورموها في أعز شيء لديها.

تنازع سنان بن دبر الجهني حليف بني سالم من الأنصار بعد انتهاء موقعة المريسيع مع جهجاه بن مسعود الغفاري، فضربه هذا بيده، فنادى سنان: يا للأنصار! ونادى جهجاه يا لقريش! يا لكنانة! وشهر المهاجرون والأنصار السلاح كل في وجه الآخر وكادوا يقتتلون لولا أن تداركهم الرسول وقال: «ما بال دعوى الجاهلية! دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة»، وسرعان ما سكنت الفتنة.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين يحقد على الرسول، إذ كان يطمع في سيادة يثرب قبل هجرة الرسول إليها، وكاد يلبس التاج أو شارة السيادة، فأحفظه ذلك وعبر عما كان يجيش في نفسه من حقد على الرسول وكراهة للإسلام والمسلمين، وحض قومه على طرد المهاجرين وعود الحال إلى ما كانت عليه قبل الهجرة، فقال: «أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدونا وجلابيب قريش ما قال القائل: سمن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». وسمع بذلك الرسول وأشار عليه عمر بقتل عبد الله بن أبي؛ فنهاه وقال: كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟.

وكان الرسول عليه السلام سياسياً ماهراً؛ فقد رأى ببعد نظره أن يشغل جنده ليصرفهم عن الحديث في هذا الأمر، فإذا أخذ منهم التعب ناموا ولم يجدوا فرصة للحديث. حتى إذا ما أخذ الرسول في المسير لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسأله عن سبب خروجه وقت الظهيرة؛ فأخبره الخبر فقال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك استلبته ملكاً. وكان من أثر تدخل عبد الله بن عبد الله بن أبي في أمر أبيه والإلحاح عليه في الذهاب إلى الرسول أثر في إصلاح ذات البين بينه وبين الرسول.

وكان بين سبايا بني المصطلق جويرية بنت الحارث سيد القوم. وكانت قد وقعت من نصيب ثابت بن قيس، فشق ذلك على نفسها، واتفقت معه على أن تتحرر بطريق المكاتبة[1]. فلما جاءت إلى الرسول تطلب منه العون على الحصول على هذا المال، رأى من الحكمة أن يتألفها بما ينزع من قلبها الحقد على الإسلام. فقدم إليها المال وعرض عليها الزواج منها وتزوجها. وكان الرسول بعيد النظر، فقد كانت بنت سيد مات أبوها بسيف الإسلام، فخشي

---

(١) المكاتبة هي أن يتفق الرقيق مع مولاه على مبلغ معين من المال في أجل محدود يقدمه إلى مولاه فيصبح حراً، ويصير للعبد في أثناء هذه المدة الحق في المتاجرة وما تستلزمه من تصرفات كالبيع والشراء وغيرهما مما لا يصح له مباشرته لولا إبرام هذا العقد. فإذا أدى العبد المال المتفق عليه صار حراً، وإذا عجز عن إدائه في الموعد المحدد عاد كما كان، ولمولاه كل ما جمعه من مال.

الرسول أن يجتمع حولها فلول أبيها فتكون باباً من أبواب الشر على المسلمين. وكان من أثر ذلك أن أعتق كل مسلم من كانت بيده من أهل بيتها استعظاماً لأن يسترقوا أصهار الرسول(١).

حادثة الإفك:

كانت عائشة مع الرسول في هذه الغزوة. وفي أثناء عودة المسلمين إلى المدينة حدثت حادثة الإفك التي أذاعها دعاة السوء حول السيدة عائشة، وذلك حين رأوا صفوان بن المعطل يقود بعيرها في المدينة عند عودتها من غزوة بني المصطلق فاتهموها إفكاً وبهتاناً، وتطرق الحزن والألم إلى قلب الرسول. وتقص علينا السيدة عائشة نفسها هذه الحادثة، كما رواها ابن هشام (جـ ٣ ص ٣٤٢ - ٣٤٣).

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمهما خرج بها معه. فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق(٢) لم يهيجهن اللحم(٣) فيثقلن. وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به. فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة، نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفاري(٤)، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري. فلما رجعت إلى الرحل، وذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده. وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت (إليه)، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يرحلون لي البعير. وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع. فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشكوا أني فيه ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به. فرجعت إلى العسكر وما فيه من داعٍ ولا مجيب، قد انطلق الناس. فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني. وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إليّ. فوالله أني لمضطجعة، إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجاته، فلم يبت مع الناس

---

(١) ابن سعد جـ ٢ ص ٢٥. الطبري جـ ٥ ص ٦٣ - ٦٦.

(٢) بضم العين وفتح اللام - جمع علقة، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء تريد أن طعامهم كان قليلاً، فهن نحيفات غير بدينات.

(٣) التهيج. انتفاخ الجسم حتى يشبه الورم

(٤) الجزع: خرز أسود فيه خطوط بيض أي مجزع. وظفاري: نسبة إلى مدينة ظفار باليمن.

فرأى سوادي[١]، فأقبل حتى وقف علي، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب. فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ، وأنا متلففة في ثيابي، قال: ما خلفك يرحمك الله؟ فما كلمته، ثم قرب البعير فقال: اركبي؛ واستأخر عني. فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس. فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس فلما اطمأنوا، طلع الرجل يقودني، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتج العسكر (تحرك واضطرب)، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

«ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً. إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل عليّ وعندي أمي[٢] تمرضني.. قال: «كيف تيكم؟» «لا يزيد على ذلك».

ولكن الله سبحانه لم يلبث أن برأ السيدة عائشة مما رميت به، وجعل حصانتها قرآناً يتلى، فقال تعالى في سورة النور[٣] (٢٤ : ١١): ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ [سورة النور ٢٤ : ١٥].

وأنشد حسان بن ثابت قصيدة طويلة، يعتذر فيها عما فرط منه في حق السيدة عائشة، ننقل منها هذه الأبيات:

حصانٌ رزانٌ ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[٤]
عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل[٥]
مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل[٦]

---

(١) السواد ههنا: الشخص، تقول: رأيت سواداً من بعيد إذا رأيت شخصاً.
(٢) هي أم رومان، واسمها زيب بنت عبد دهمان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة.
(٣) أنظر ما ذكرته الدكتورة زاهية قدورة عن حديث الإفك في كتابها عائشة أم المؤمنين (القاهرة سنة ١٩٤٧) ص ٨٤ - ١٠٠.
(٤) حصان: عفيفة، ورزان: هادئة وقور، وتزن - بالبناء للمجهول: تتهم، وغرثى: جائعة، والغوافل: جمع غافلة، وهي المرأة التي لا تتناول أحداً بأذى من قول أو فعل ولا تفطن لعيوب الناس.
(٥) العقيلة: الكريمة، والمساعي: جمع مسعاة، وهو ما يسعى فيه المرء من طلب المجد والمكارم.
(٦) مهذبة: صافية مخلصة، والخيم - بكسر الخاء - الطبع والأصل.

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم فلا رفعت سوطي إلى أناملي(١)
وكيف ودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل(٢)

الهدنة مع قريش (سنة ٦ هـ):

وفي السنة السادسة للهجرة خرج الرسول للعمرة، وهي زيارة البيت الحرام في غير موسم الحج، في ألف وأربعمائة من المسلمين(٣)؛ فوقف القرشيون في طريقه على مقربة من مكة يمنعونه من دخولها، فندب الرسول عثمان بن عفان للذهاب إلى قريش لمكانته فيهم واستطلاع أنبائهم وتعرف السبب في منعهم المسلمين من أن يطوفوا ببيت الله ويعظموه؛ فحجزت قريش عثمان عندها، وشاع بين المسلمين أنه قتل. عندئذٍ تأهب الرسول لقتال قريش وبايعه من كان معه من المسلمين على حربها وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان(٤).

ولما علمت قريش بأمر هذه البيعة أسقط في يدها، وأرسلت البعوث إلى الرسول تفاوضه في العدول عن دخوله مكة هذا العام. فلما رأت قريش أن تلك البعوث لم تنجح أرسلت إلى الرسول وفداً على رأسه سهيل بن عمرو وخطيبهم المفوه، فقال للرسول: «يا محمد! ما كان من حبس عثمان ومن معه، وما كان من قتال من قاتلك، فإنه ليس من رأي عقلائنا، بل شيء قام به السفهاء، فابعث إلينا من أسرت». فقال الرسول: «حتى ترسلوا من عندكم»، فأرسلت قريش عثمان ومن معه، وأمر الرسول بإطلاق من في يد المسلمين من أسرى قريش، وتم الاتفاق بين الرسول وسهيل على:

١ - أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين.
٢ - أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه.

---

(١) الأنامل: جمع أنملة. وهي طرف الإصبع، وربمّا عبر بها عن الإصبع، وأراد الدعاء على نفسه بشلل يده إن كان ما نسب إليه قد قاله حقاً.

(٢) المحافل: جمع محفل، وهو المكان الذي يجتمع فيه الناس

ابن هشام جـ ٣ ص ٣٥٣ - ٣٥٤. راجع حديث الإفك في فتح الباري، شرح البخاري جـ ٨ ص ٣٣٤، والطبري جـ ٣ ص ٦٧ - ٧١

(٣) تكاد تجمع روايات الطبري على أن عدد المسلمين كان ألفاً وأربعمائة. ولم يخالف ذلك إلا رواية واحدة، إذ تقول إن عددهم كان سبعمائة وقد فصل الطبري اختلاف الروايات في إسلام خالد بن الوليد وهل كان إذ ذاك في جيش المسلمين أو أنه كان لا يزال على الشرك أو أنه كان على خيل المسلمين (جـ ٣ ص ٧٢).

(٤) وقد نوه الله بشأن هذه البيعة في قوله تعالى في سورة الفتح (٤٨: ١٨ - ١٩)﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾، كما عظم شأن هذه البيعة عند المسلمين، فلما ولي عمر الخلافة، خشي أن يقدس المسلمون الشجرة التي عقدت تحتها هذه البيعة، فقطعها لئلا يفتن بها الناس؛ ومن هذه الآية سميت هذه البيعة بيعة الرضوان.

٣ ـ ألا تلزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد.

٤ ـ أن من أحب الدخول في عقد قريش وعهدها فله ذلك، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه.

٥ ـ أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة، على أن يأتي في العام التالي فيدخل مع أصحابه مكة بعد أن تخرج منها قريش، ويقيم بها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلا السيوف في القرب (الأغماد).

وقد عز على المسلمين أن يعودوا إلى المدينة من غير أن يعتمروا، وكانوا واثقين من وعد الله إياهم فتح مكة في رؤيا رآها الرسول. وكان الشيطان ينزع بين المسلمين في هذه المرة لولا حكمة أم سلمة زوجة الرسول وبعد نظرها. ذكر الطبري (جـ٣ ص ٨٠) أن الرسول ـ بعد أن فرغ من صلح الحديبية ـ «قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، فلم يقم منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس وما كان من مخالفتهم أمره، فقالت: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ أخرج فلا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك. فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً».

كما عز عليهم أن يسلموا برد من يلجأ إليهم من قريش إليها، على حين أن قريشاً لم تلتزم لهم بمثل ذلك، ولقد ذاقوا ما في ذلك من مذلة واستسلام عند تطبيق ذلك الشرط لأول مرة، إذا ما لبثوا أن وجدوا أبا جندل بن سهيل بن عمرو قادماً عليهم يرسف في أغلاله الحديدية ويستغيث بهم من ظلم قريش وعسفها. فلما رآه أبوه (سهيل بن عمرو) التفت إلى الرسول وطلب إليه تنفيذ شروط الصلح: فقد لجت[1] القضية بينه وبين الرسول، فأجابه الرسول إلى ما أراد، ورد أبا جندل إلى قريش وهو يصيح مستنجداً والرسول يقول له: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله لا نغدر به»[2].

وقد ثارت نفوس المسلمين واستزل بهم الشيطان وأخذوا يتساءلون فيما بينهم. على أن أحداً لم يجرؤ على مفاتحة الرسول في شأن ذلك الصلح حتى قام عمر، وقد طوعت له جرأته أن يسأل الرسول وقال له: «ألست رسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟».

---

(١) يقصد أن الصلح قد أبرم.

(٢) ابن هشام جـ٣ ص ٣٦٧، ٣٧٢ـ٣٧٣

غير أن الرسول عالج هذه الفورة بحكمته وسداده فأجابه بقوله: «أنا عبد الله ورسوله لن أخلف أمره ولن يضيعني». ثم عاتب الشاكين من أصحابه عتاباً خفيفاً وتوجه إلى المدينة، وشرع في استغلال هذه الهدنة لبث الدعوة وتبليغ الرسالة والعمل على تنظيم شؤون المدينة الداخلية. وقد عد الزهري هذا الصلح فتحاً عظيماً للإسلام إذ يقول: فما فتح في الإسلام قبله أعظم منه. . فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، فالتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»[1].

وقد جعلت هذه الهدنة الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً في ذلك الحين، فجاء وفد صغير من قبيلة بني دوس تلك الجبال التي تتاخم بلاد اليمن الشمالية وانضموا إلى النبي في المدينة. وكانت جماعة من هذه القبيلة قبل ظهور الإسلام، مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم. وكانوا يرون أن هذا العالم لا بد له من خالق ولو أنهم لم يهتدوا إليه. فلما بعث محمد رسولاً من قبل الخالق، قدم أحدهم، واسمه طفيل بن عمرو، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق.

وعلى أن قريشاً حذرته ما قد يتركه محمد في نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه، تبع طفيل النبي إلى بيته بعد أن رآه يصلي في الكعبة، فشرح له النبي تعاليم الإسلام. وقد أصبحت نفس طفيل تفيض تحمساً لهذا الدين الجديد. فلما رجع إلى بلده، أفلح في هدي أبيه وزوجه، ولكنه وجد قومه غير راغبين في ترك عباداتهم الوثنية القديمة؛ فعاد إلى النبي، وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق في دعوته، وطلب إليه أن يستنزل لعنة الله على بني دوس، ولكن النبي شجعه على المثابرة بقوله: «إرجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم»، ودعا لهم النبي بقوله: اللهم إهدِ دوساً: «وقد بلغ من نجاح طفيل في بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة في السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه. وبعد أن دخل النبي مكة دخول الظافر، أشعل طفيل النار في كتلة من الخشب، وهي الصنم الذي كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين[2].

إسلام خالد وعمرو:

كان صلح الحديبية في الواقع نصراً للمسلمين، فقد أدركت قريش أن أمر الإسلام ظاهر

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٧٩، ٨١.

(٢) ابن إسحاق ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤. انظر كتاب الدعوة إلى الإسلام ص ٥٧.

لا محالة. وكان المسلمون واثقين من وعد الله إياهم بفتح مكة، وأدركوا أن انتصار المسلمين قد تكرر، وأن أمره قد عظم في جميع البلاد العربية، فقتلت سادات قريش، ومات ذوو الحلم فيها، كما أدركوا أن أمر الإسلام، سينتهي بالظفر، وأن سقوط مكة قريب.

لذلك أسرع خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وغيرهما، فأدركوا الفرصة قبل فواتها، وعقدوا النية على الدخول في الإسلام، ووقف خالد في قريش يقول: «قد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق على كل ذي لب أن يتبعه»، وفزع عكرمة بن أبي جهل لما سمع، فرد قائلاً: لقد صبأت يا خالد، فقال خالد: لم أصبأ، ولكني أسلمت فقال عكرمة: والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت، فقال خالد: ولم؟ فقال عكرمة: لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح، وقتل عمك وابن عمك ببدر. فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد. أما رأيت قريشاً يريدون قتاله؟ فقال خالد: هذا أمر الجاهلية وحميتها لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق، وبعث خالد إلى النبي بأفراس كما بعث إليه بإقراره بالإسلام.

لقي خالد عمرو بن العاص وهو مقبل من مكة يريد المدينة المنوّرة، فقال عمرو: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي. أذهب والله أسلم، فحتى متى؟ فقال عمرو: والله ما جئت إلا لأسلم. فقدما على الرسول، فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنا عمرو وقال: يا رسول الله إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجب ما قبله، وإن الهجرة تجب ما قبلها»[1].

موقف اليهود من المسلمين:

نشب النضال بين اليهود والمسلمين منذ رحل النبي إلى المدينة واتخذها مركزاً لنشر دعوته، فقد رأوا في محمد وفي دينه منافساً جديداً يوشك أن يقضي على نفوذهم وعلى نفوذ النصارى جميعاً، وأن ينتزع من الفريقين لواء الزعامة الدينيةالذي يتجاذبونه. فقد كان من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش، فهو لذلك أقرب إلى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعاً بافتخارهم بالعلم وإذلالهم بالتوراة وكتب بني إسرائيل. لذلك كان أهل المدينة أسرع إلى قبول دعوة محمد بن عبد الله والانضواء تحت لواء ذلك النبي العربي الذي كان اليهود يستفتحون به عليهم.

وكان اليهود والنصارى في بلاد العرب يتنازعون النفوذ الأدبي في الجزيرة ويتنافسون في كسب احترام العرب وفي الدعاية بينهم كل لدينه. وكان اليهود يستنصرون على المشركين في

---

(١) الطبري حـ ٣ ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

الجاهلية ويقولون: اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان. وإذا سألهم العرب قالوا: إن نبياً قد قرب زمانه، وسيكون لمن اتبعه العز والنصر إلى يوم القيامة، ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم.

لذلك كان اليهود يكرهون محمداً وينظرون إليه وإلى دعوته بعين الخوف من أول يوم طلع عليهم من أفق يثرب. ثم ازداد خوفهم وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدس والإرجاف، ثم بالمراء والجدل فيما يعلمون وما لا يعلمون. وإذا سألوا عن شيء مما في كتبهم حرفوا الكلام عن مواضعه، وألبسوا الحق بالباطل ليكسبوا ولاء المشركين بالغض من شأن الإسلام، لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة. وقد نعى الله عليهم ذلك بقوله: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ [سورة البقرة ٢: ٩٠]. وكانوا يسعون في دين الله معاجزين، لكي يفتنوا الناس عن دينهم ويوهنوا عقائدهم بالشبه والأباطيل. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيءٍ قدير﴾ [سورة البقرة ٢: ١٠٩]. كل ذلك والنبي يصابرهم ويصبر عليهم ويغض النظر عن نفاق من نافق منهم، ويسوي بينهم وبين المسلمين في المصالح، ويحترم شعائرهم. وقد وفى لهم بوعودهم، مكتفياً بعقاب الأشخاص الذين كانوا يخالفون عهوده، ولم يأخذ البريء منهم بجرم المسيء كما فعل بكعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق. فقد اكتفى بقتلهما دون أن يتعرض لجماعة اليهود.

ومع ذلك كان الرسول يرفق باليهود إذا نقضوا عهده أو حاربهم فانتصر عليهم، فكان لا يعاقبهم إلا بمقدار ما يكف أيديهم عنه. وكان يحكم فيهم من يختارونه بأنفسهم. وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته قريشاً وغيرها.

ولما رأى اليهود جماعة المسلمين تتكاثر والإسلام ينتشر وأن الله يفتح لقبوله قلوب العرب، وأن جميع مصالح اليهود القائمة على أرستقراطية دينية فرضوها على العرب بقولهم إنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه، أصبحت مهددة باستقرار الأمر لهؤلاء العرب الأميين ـ لما رأوا ذلك أيقنوا ألا سبيل للمحافظة على هذه المصالح وضمان اطمئنانهم في الجزيرة إلا بالقضاء على محمد وأتباعه.

لذلك ما فتئوا يكيدون للإسلام والمسلمين بكافة الطرق، وينتهزون الفرص لمحاولة قتل الرسول تارة وتأليب سائر العرب على المسلمين تارة أخرى، وتحزيب الأحزاب عليهم، ثم خيانة عهود المسلمين ونقضها في أحرج الأوقات، وممالأة الأعداء عليهم ليستأصلوا شأفتهم

ويبيدوهم عن آخرهم.

فلما أخفقت هذه المحاولات، وأخفق العرب في القضاء على محمد، جمع اليهود شملهم .وتحزبوا أحزاباً، وقاموا بأنفسهم للاغارة على المدينة ليدهموا المسلمين فيها، فسعى بذلك يهود خيبر إلى بني عمهم في تيماء وفدك ووادي القرى. ولا غرو فإن في خيبر أشراف بني النضير الذين ساروا إليها بأموالهم، وأصبحت بيدهم دفة الأمور فيها.

ولما علم الرسول بتأهب اليهود للإغارة على المدينة والقضاء على الإسلام في معقله، عاجلهم وسار إلى خيبر، معقد هذا الحلف وصاحبة الزعامة فيه، والرأس المدبرة له المهيمنة عليه، فقضى عليها ليتفرغ لأداء الرسالة وتبليغ دين الله إلى خلقه. ولعل فيما أوردناه عن موقف اليهود حيال الرسول وعدائهم لدعوته، ومكايدهم التي دبروها له، ما يدحض أقوال بعض ذوي الأغراض من المستشرقين الذين ذهبوا إلى أن الغرض الأول من إغارة المسلمين على اليهود إنما هو الحصول على الغنائم ، من ذلك ما يقوله مرجليوث(١) :

«عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب. ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه. وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة، فقد كان هناك على أي حال سبب ما ـ حقيقياً كان أو مصطنعاً ـ يدعو إلى انتقامه منهم. إلا أن خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد، لم يرتكب أهلها في حقه ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً، لأن قتل أحدهم رسول الله لا يصح أن يكون سبباً يتذرع به للانتقام». ولم يطمئن مرجليوث إلى ما رواه الواقدي من أن الرسول ﷺ وصل إلى علمه أن يهود خيبر يعدون العدة لشن الغارة على المدينة.

ثم ينتهي مرجليوث من ذلك كله إلى أن المسلمين إنما غزوا خيبر للحصول على ما فيها من الغنائم، وأن الحجة التي تذرعوا بها، وهي أن أهلها لم يكونوا على الإسلام، ينطوي تحتها شن الغارة على العالم خارج المدينة، وإلى أن الرسول قد غير سياسته مع اليهود ومع المشركين حيث يقول: «وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذي طرأ على سياسة الرسول (ﷺ) منذ أيامه الأولى في المدينة، عندما أعلن مساواة اليهود بالمسلمين في المعاملة، وأن يترك الوثنيين لا يتعرض لهم بسوء، طالما كانوا بعيدين عن إظهار عدائهم للمسلمين. أما الآن فإن مجرد القول بأن جماعة ما، مشركة أو يهودية أو غير مسلمة، يعتبر كافياً لشن الغارة عليها. وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد، والتي دفعته إلى شن غارات متتابعة، كما سيطرت على نفس الإسكندر من قبله ونابليون من بعده».

---

(١) Muhammad and the Rise of Islam, p.p. 392-3.

وهذا يبين لنا السبب الذي حدا مرجليوث على أن يقول: «إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أي حد أصبح الإسلام خطراً يهدد العالم».

وإنا لنعجب لهذا الأسلوب الذي ذهب إليه مرجليوث ومن نحا نحوه في قراءة التاريخ. فإذا حدثه التاريخ أن الرسول أتى بعين (جاسوس) أقر لهم بأنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم معونة فدك ونصرتها على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر! أو قال له إن الذي قبض على هذا العين إنما هو علي بن أبي طالب الذي ذهب إلى فدك لما علم الرسول أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، شك مرجليوث في صدق التاريخ وأمانته، لأن صدق التاريخ في هذه الحالة يدحض دعواه ويصد هجماته على الرسول والمسلمين.

وإذا روى التاريخ لكل غزوة أسبابها الملحة التي يصح أن تحمل الرسول على أنواع من العقاب أقسى مما كان يفعل، وروى إلى جانب هذه الغزوات حرص الرسول على الوفاء بعهوده ودفعه الديات لمن قتلهم أتباعه خطأ، وعفوه عن كل معتدٍ إذا أتاه مسلماً - إذا حدثه التاريخ بكل ذلك أصم أذنيه وادعى أن الرسول قد غير سياسته التي أعلنها في أيامه الأولى بالمدينة.

أما دعوى مرجليوث أن المسلمين لم يهاجموا خيبر إلا رغبة في الحصول على أموالها، فلعل في خروج المسلمين الأولين بمكة عن أموالهم وتحملهم ألوان الفتنة وآلام العزلة ثم الاغتراب والهجرة، ولعل في إيواء الأنصار إخوانهم المهاجرين وقسمتهم ثرواتهم عليهم: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [سورة الحشر ٥٩: ٩]، ولعل في الآلام التي تحملوها والفقر والجوع والفزع الذي ذاقوا مرارته في غزوة الأحزاب وفي غيرها - لعل في ذلك كله ما يدحض تلك الفرية التي رمى مرجليوث المسلمين بها.

غزوة خيبر (٨ هـ) غزوة مؤتة (٨ هـ):

لما أزال الله عن المدينة خطر الأحزاب من قريش ومن والاهم، حول الرسول اهتمامه إلى اليهود، ليؤدبهم على نقضهم العهود وتحالفهم مع أعدائه من مشركي مكة وغطفان، فابتدأ ببني قريظة الذين خذلوه ونقضوا عهده، ثم أمضى شطراً كبيراً من السنة السادسة في محاربة يهود وادي القرى وفدك، وأخذ يعد العدة لغزو خيبر التي آوت إليها سادة بني النضير وأشرافهم، وأخذوا يعقدون المحالفات ويفاوضون يهود فدك على نصرتهم، على أن يكون لهم ثمر خيبر، وتقع على مسيرة خمسة أيام من المدينة، كما أرسل زيد بن حارثة في رجب من هذه السنة في غزوة وادي القرى، فخرج فيها وقتل كل أصحابه. فنذر أن يعيد عليهم الكرة إذا شفي من جراحه، فعاد إليهم في رمضان من هذه السنة.

فلما عاد الرسول من العمرة في شهر ذي الحجة سنة ٩ هـ أقام بالمدينة أياماً. ثم سار إلى

خيبر (المحرم سنة ٧ هـ)، فوصل إلى وادي الرجيع[١] في الليل[٢]، وأناخ بها. فلما أصبح الرسول ركب إلى خيبر دون أن يحس أهلها، حتى بلغها والعمال قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم[٣]، فلما رأوه رجعوا هاربين إلى حصونهم. ولما همت غطفان بنصرة خيبر وجدوا الرسول قد نزل بوادي الرجيع بينهم وبين خيبر ليحول دون مساعدتهم إياهم فرجعت، وأخذ الرسول في مهاجمة الآطام (الحصون)، فاستولى على حصن ناعم ثم حصن القموس، وهو حصن ابن أبي الحقيق، وامتنع على المسلمين حصن الصعب بن معاذ مدة حتى جهدوا من طول الحصار ونفد ما عندهم من القوت.

وقد جاء إلى الرسول بنو سهم ممن أسلم يسألونه بعض القوت، فلم يجدوا عنده شيئاً، فدعا لهم. وقد بلغت الحالة في جيش المسلمين أن اضطروا إلى أكل الحمر الأهلية، فنهاهم الرسول عن ذلك وأجاز لهم أكل الخيل، ثم غدا الجيش في ذلك اليوم، ففتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، وكان أكثر الحصون وفرة في الزاد والطعام، فتحسن مركز المسلمين واشتد ساعدهم على الحصار. ثم تداعت بقية الحصون إلا حُصْني الوطيح والسلالم، فقد اعتصم بهما اليهود ودافعوا عنهما حتى قطع الرسول عنهم الماء وأيقنوا بالهلاك، فسألوه أن يحقن دماءهم ففعل، ثم سألوه أن يبقيهم على الأرض يزرعونها، لأنهم أعلم بها وأعمر لها على أن يكون لهم نصف ما تغله الأرض ويؤتيه النخيل، فأجابهم الرسول إلى ذلك وقال لهم: «على أنا إن شئنا أخرجناكم». فلما سمعت فدك بغزو خيبر وما عاهد النبي أهلها عليه، صالحوه على مثل ذلك بدون حرب ولا قتال. وكذلك صنع يهود تيماء إلا وادي القرى، فقد تمسكوا وأبوا حتى هاجمهم الرسول واضطرهم إلى التسليم.

وفي السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول إلى الغساسنة، وكانوا من العرب الضاربين على حدود بلاد الشام، رسولاً يدعوهم إلى الإسلام، فقتلوه. فأنفذ إليهم جيشاً يتألف من ثلاثة آلاف بقيادة مولاه زيد بن حارثة، فلقيته جموع هرقل إمبراطور الروم عند مؤتة[٤] وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، فأبلى زيد بلاءً حسناً في الجهاد حتى استشهد في سبيل الله، فتولى إمرة المسلمين عبد الله بن أبي رواحة، فاستشهد، وكان في الخامسة والخمسين من عمره فخلفه

---

(١) هو غير وادي الرجيع القريب من الطائف الذي يسكنه بنو الرجيع الذين عدوا على المسلمين في غزوة بني الرجيع قال ياقوت في معجمه: «وهذا غير الأول، لأن ذلك قرب الطائف: وخيبر من ناحية الشام على خمسة أيام من المدينة، فيكون بين الرجعين أكثر من خمسة عشر يوماً».

(٢) روى الترمذي في جامعه (ص ١٩٨) عن مالك بن أنس عن حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً، وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغر عليهم حتى يصبح.

(٣) المسحاة: أداة من أدوات الزراعة لجرف الطين، والمكاتل: جمع مكتل كمنبر وهو زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً.

(٤) بالضم ثم واو مهموزة وتاء مثناة من فوقها، كانت تطبع بها السيوف، وإليها تنسب المشرفية من السيوف.

جعفر بن أبي طالب، فلحق به؛ ثم أخذ الراية خالد بن الوليد، فأبلى في الجهاد، حتى لقد قال: اندق يومئذٍ في يدي سبعة أسياف، فما ثبت فيها صفيحة يمانية[1]، ثم عاد بجيش المسلمين إلى المدينة.

وقد نزل الوحي على الرسول بخبر من استشهد من القواد في هذه الغزوة، فصعد المنبر، وخطب المسلمين خطبة أخبرهم فيها بقتل زيد ومن خلفه في قيادة الجيش إلى أن قال: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه، فسمي سيف الله».

فتح مكة أو غزوة الفتح (سنة ٨ هـ):

نقض أهل مكة الهدنة التي عقدت بينهم وبين الرسول في السنة السادسة للهجرة، فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين؛ فاستجارت هذه القبيلة بالرسول، فسار إلى مكة في عشرة آلاف من المسلمين. ولما علم أهل مكة بقدوم هذا الجيش خرج قادتهم خاضعين. وكان في مقدمتهم أبو سفيان فأكرمه الرسول. ودخل المسلمون مكة، وسار رسول الله إلى الكعبة وطاف بها سبع مرات، ثم أمر بإزالة التماثيل والصور، وعظم أصحابه الأصناف وهو يقول: ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ [سورة بني إسرائيل ١٧: ٨١].

ولا يفوتنا أن نبحث العوامل التي ساعدت على فتح مكة بهذه السهولة، وما كان من انقياد سادة قريش وأصحاب الرأي فيهم إلى الرسول، بعدما أذاقوه هو والمسلمين من ألوان التعذيب، حتى هاجر من مكة إلى المدينة حيث آواه الأنصار ونصروه على أهله. ومن نظر في أمر قريش ومسلكها مع الرسول عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوي حماسة شديدة في جهاد الإسلام أول الأمر، وكان انتصار الرسول لا يزيدهم إلا شدة وحماسة. فلما تكرر هذا الانتصار وعظم أمره في جميع البلاد العربية، أخذ الشبان وذوو المطامع يترددون ويتساءلون عن أي الأمرين أوفق لهم: رأوا قوة المسلمين وضعف المشركين، فكانوا لو انضموا إلى هذه القوة الناشئة فأفادوا واستفادوا. ولكنهم كانوا يخشون اتهام قومهم إياهم، وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية: فمنهم من تغلب على هذه الأوهام فذهب إلى المدينة وأسلم، كخالد بن الوليد؛ ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً. حتى إذا ما وضح الصبح لذي عينين وتبين له أن أمر محمد قد ظهر على قريش، أسرع فأدرك الفرصة قبل ضياعها وأسلم قبل الفتح كعمرو بن العاص. فقد اعتزل البلاد العربية وذهب إلى أرض محايدة هي أرض الحبشة ليرقب الأمر، فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة والنجاشي وأيقن أن أمر الإسلام سينتهي بالظفر، وأنه إن أراد أن يدخر

---

(١) ابن الأثير. أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٢.

لنفسه مكانة بين أقرانه الذين سبقوه إلى الإسلام، لم يكن بد من أن يسلم طائعاً قبل أن يسلم كارهاً.

ولقد روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب لعمرو ابن العاص: «لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟ فقال عمرو: وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره، لا يستطيع التخلص منه إلا إلى ما أراد الذي هو بيده! فقال عمر: صدقت».

ولم يكن هذا أمر عمرو وحده، وإنما كان أمر طائفة كبيرة من الذين أسلموا متأخرين، ولسنا نشك في أن عمراً حين أسلم، قد وثق بأن أمر الإسلام ليس مقصوراً على بلاد العرب، بل هو متجاوزها إلى غيرها، وأنه قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فتح[1].

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على البيت الحرام (الكعبة) من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية؛ فقد اعتقدت القبائل العربية التي رفضت الدعوة أول الأمر، أن المسلمين تلحظهم عناية لا قبل لغيرهم بها، فسارعوا إلى الإسلام ودخلوا فيه أفواجاً.

وبعد أن تم للرسول النصر على أهل مكة، أخضع فريقاً من البدو كان يهدد هذه المدينة، كما أخضع مسيحيي نجران وأمراء مهرة وعُمان، وقبائل اليمن ونجد. ولم يأتِ عام ١٠ هـ (٦٣١ م) حتى كانت بلاد العرب جميعاً خاضعة له. وبذلك دالت دولة الأصنام واستؤصلت الوثنية من بلاد العرب.

يقول نلدكه: «ولو أن القبائل العربية استطاعت أن تعقد فيما بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية والذود عن استقلالهم، الأمر الذي كان ذا أهمية في نظرهم، لأصبح جهاد محمد في مناجزتهم جهاداً في غير عدو. إلا أن عجز العربي القح عن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة، وأن يوحد بين البطون الممزقة للعمل تحت لواء واحد - حتى ولو كان ذلك في سبيل الظفر بغايات سامية وأغراض خطيرة الشأن - فإن ذلك قد سمح له أن يخضعهم لدينه القبيلة تلو الأخرى، وأن ينتصر عليهم بكل الوسائل، تارة بالقوة والقهر، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية. وإن الهدايا الثمينة التي كان الرسول يتألف بها قلوب الناشئين في الدين، وكذلك خاصة القوم وصفوتهم الذين لم يتغلغل الإيمان بعد في قلوبهم، وكان لها أثر كبير في قلوب العرب، حتى أصبحوا يدخلون في دين الله أفراداً وجماعات».

على أن نلدكه لم يفطن لما كان من اجتماع العرب على حرب الرسول في غزوة

---

(١) انظر كتاب تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٠، ٣١.

الأحزاب. فقد حزبوا الأحزاب عليه، وأغاروا على المدينة وحاصروها، وضيقوا على أهلها، حتى كادوا يقضون على المسلمين فيها، لولا ما أبداه الرسول من المهارة الحربية والسياسية. فقد أمر بحفر الخندق ليحول بين الأحزاب وبين دخول المدينة، كما أمر نعيم بن مسعود أن يخذل عنه غطفان وبني قريظة وقريشاً ويوقع بينهم ـ لما يعلمه من حسن صلته بهم ـ كما ذكرنا في غزوة الأحزاب.

غزوتا حنين والطائف (سنة ٨ هـ):

ولم يكد يمضي على الرسول بمكة خمسة عشر يوماً بعد الفتح، حتى سمع بقدوم هوازن، وعلى رأسها مالك بن عوف (من بني نصر) ومعهم ثقيف. وقد حشد مالك خلف الجند النساء والأطفال والأموال ليحول بينهم وبين الفرار. فلما أشار عليه دريد بن الصمة بإرجاعهم لئلا يثقلوا الجيش ويعوقوا حركته، أبى ونزل حنيناً، وأوصى رجاله أن يكسروا جفون (أغماد) سيوفهم إذا لقوا المسلمين وأن يحملوا عليهم حملة رجل واحد.

سمع الرسول بهؤلاء فندب من يتعرف أمرهم. ولما عرف أنهم أعدوا عدتهم للحرب، أخبر الرسول بذلك، فخرج إليهم على رأس عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم مكة وألفين من أهلها، واستعار الرسول من صفوان بن أمية ـ وكان لا يزال على الشرك ـ مائة درع، ثم خرج. حتى إذا بلغوا حنيناً في عماية الصبح، راعهم انقضاض القبائل عليهم من هوازن وثقيف من شعب الوادي، ففزع المسلمون واختل نظامهم، ولم تغن عن كثرتهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولوا مدبرين وأقام الرسول ينادي: أين أيها الناس؟ هلموا إلي! أنا رسول الله محمد بن عبد الله. ولم يبق حوله إلا نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيت الرسول، منهم العباس بن عبد المطلب ممسكاً بعنان بغلة الرسول، وأبو سفيان بن الحارث.

واشتد الحال على المسلمين وعظم البلاء حتى كانوا لا يسمعون نداء الرسول لهم. وقال كلدة أو جبلة أخو صفوان بن أمية: ألا بطل السحر اليوم. وقد حدثت شيبة بن عثمان بن أبي طلحة نفسه بالانتقام من الرسول وأخذ ثأر أبيه الذي قتل يوم أُحد. قال: فأردت برسول الله ﷺ لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي، فلم أطلق ذلك، فعلمت أنه ممنوع مني (ابن هشام جـ ٤ ـ ص ٧٢ ـ ٧٣). عند ذلك أمر الرسول العباس بن عبد المطلب ـ وكان جهوري الصوت بديناً ـ أن يصيح في الناس: يا معشر الأنصار! يا أصحاب السمرة[1]. فأجابوه: لبيك لبيك!

---

(١) هي الشجرة التي تحتها بيعة الرضوان، وكان يطلق عليها السمرة أو السدرة فكان يناديهم بذلك تذكيراً لهم بعهدهم للرسول في البيعة.

وسارعوا ناحية الرسول يتراكضون إليه، حتى كان الرجل إذا عجز عن اقتحام السبيل إلى الرسول على بعيره يجره وقصد إليه رجلاً.

واجتمع حول الرسول نحو مائة من الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام، فاستقبلوا الأعداء بقلوب مطمئنة، وقام العباس ينادي: يا للأنصار! يا للخزرج! فتكاثر الناس حوله. فلما أسفر الصبح وخرج العدو من مكمنه التقوا به وجهاً لوجه، ثم اجتلد القوم واستحر القتال، وقال الرسول: «الآن حمي الوطيس». وقد أهوى علي بن أبي طالب إلى صاحب راية المشركين، فضرب عرقوبي جمله، ووثب أحد الأنصار على الرجل فقتله، وتمت هزيمة المشركين وتفرقت فلولهم. فذهب مالك بن عوف ببعضهم إلى الطائف، وذهب آخرون إلى سهل أوطاس ونخلة، وتتبع المسلمون من ذهبوا إلى أوطاس ومن ذهبوا إلى نخلة، وانصرف الرسول من وادي حنين إلى الطائف في أثر مالك بن عوف ليحاصرها وقد أمر بحمل السبايا والغنائم إلى الجعرانة[1] حتى يعود من حصار الطائف ثم سار الرسول إلى الطائف مطارداً فلول ثقيف الذين لجؤوا إليها، ومعهم مالك بن عوف؛ حتى إذا دخلوا مدينتهم، أغلقوا عليهم أبوابها واعتصموا بالحصون يرمون المسلمين بالنبال من فوقها. وكان الرسول قد عسكر قريباً منهم، فأمر أصحابه بالتقهقر قليلاً حتى لا يستهدفوا لنبل المشركين، مكتفياً بحصارهم. ولكن ثقيفاً صمدت لقتال المسلمين وحصارهم خمسة عشر يوماً (أو بضعة وعشرين على رواية أخرى)، وظلت ترميهم بالنبال مطمئنة إلى مناعة أسوارها ووفرة الغذاء والمؤونة فيها[2]، حتى اضطر الرسول إلى أن ينصب المنجنيق[3]، ويرميهم به، كما سير إليهم جنده في الدبابات[4] والضبور[5] ليتقي بها المسلمون النبل الموجه من عل. فلم يلبثوا ـ وكانوا أهل حذق ومهارة ـ أن احتالوا لصدها عنهم

---

(١) بكسر أوله وسكون العين وتخفيف الراء، وبعضهم نكسر العين وبشدد الراء. هي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب. وقال أبو العباس القاضي: أفضل العمرة لأهل مكة ومن جاورها من الجعرانة، لأن رسول الله ﷺ اعتمر منها انظر هذا اللفظ في معظم البلدان لياقوت.

(٢) روى ابن سعد (جـ ٢ ص ١١٤) أن ثقيفاً رموا حصنهم وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة.

(٣) قال ابن هشام (جـ ٤ ص ١٢٨) إن أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق رسول الله ﷺ، رمى به أهل الطائف والمنجنيق أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء.

(٤) الدبابة أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون في جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن. فينقبونه وهم في داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من قبل العدو

(٥) الضبر ويجمع على ضبور كسهل وسهول: أي أداة كالدبابة تقريباً تصنع من الخشب المغطى بالجلد، يكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها، وهي أشبه بالسيارات المدرعة اليوم. روى ابن هشام (جـ ٤ ص ١٢٢) أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا وقعة حنين ولا حصار الطائف، لأنهما كانا يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور مما يدل على مبلغ اهتمام ثقيف بحرب الرسول وإعدادها للمعدات المختلفة لتلك الحرب التي شنتها عليه وهو في مكة، فكانت وقعة حنين.

بإلقاء قطع الحديد المحمية عليها، فأحرقوها واضطروا من فيها إلى الخروج منها، ثم رموهم بالنبل، فقتلوا منهم رجالاً. فلم يجد الرسول بدأ من أن يهددهم بإتلاف بساتينهم وتحريق كرومهم، وهي عزيزة عليهم لما لها من الشهرة وبعد الصيت في جميع أرجاء جزيرة العرب، حتى غدت الطائف بفضل هذه الكروم جنة فيحاء وسط هذه الصحراء القاحلة. وأخذ المسلمون في تنفيذ أمر الرسول، فعز على ثقيف كرومها. وقد رأت الجد من الرسول وأتباعه؛ فبعثت إليه من يخبره «بأنه ليس بالطائف مال أبعد رشاء ولا أشد مؤنة ولا أبعد عمارة من مال بني الأسود، وأن محمداً إن قطعة لم يعمر أبداً. . فيأخذه لنفسه أو ليدعه لله والرحم، فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل» (ابن هشام ٤ : ١٢٩) وأقام الرسول على حصارهم، حتى إذا دنا شهر ذي القعدة (وهو من الأشهر الحرم)، فك عنهم الحصار ليرجع إليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم.

عاد الرسول إلى الجعرانة حيث كانت تنتظره أسلاب هوازن وسبيها؛ ووافاه وفد هوازن مسلمين تائبين، وطلبوا منه أن يرد عليهم أموالهم ومن سبى منهم. فخيرهم بين أخذ السبي أو الأموال، فآثروا نساءهم على أموالهم، فنزل لهم الرسول عن كل من دخل منهم في ملكه أو ملك بني عبد المطلب، وقال لهم: إذا صليت فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم. ففعلوا؛ فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله؛ فقال الأقرع بن حابس أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فأجابه بنو سليم بأنهم نزلوا عمّا في أيديهم لرسول الله ﷺ[1]؛ فقال عليه الصلاة والسلام لمن احتبس نصيبه من سبي هوازن وضن به: ادفعوها ولكم بكل إنسان ست فرائض من أول شيء أصيبه. فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم، وأنفذ الرسول بحكمته لهوازن كل من أخذ منها. ومما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء الذين رفضوا كانوا من الذين خرجوا مع رسول الله من مكة في حرب هوازن، فهم ممن أسلموا يوم الفتح وليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار الذين خالط الإيمان قلوبهم وقام الإسلام على أكتافهم.

أهلّ[2] الرسول بالعمرة من الجعرانة، فرجع إلى مكة وفرق الغنائم في المؤلفة قلوبهم من سادات قريش وغيرها من قبائل العرب. على أن الأنصار قد تغيرت نفوسهم لذلك بعض

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) أهل بالحج أو بالعمرة. إذ أحرم من الميقات (وهو المكان الذي يلبس فيه قاصد مكة لحج أو عمرة لباس الإحرام) ونوى الحج أو العمرة.

الشيء، وساورتهم الشكوك، فظنوا أن الرسول صار في غنى عنهم بعد أن لقي قومه، فلم يعد يحفل بهم ولا يعني بشأنهم كما كان من قبل. فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار، فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة التاريخية التي يتجلى فيها حسن سياسته وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب إليه، ومهارته في إعداد سامعيه، وتهيئتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى أبعد حد. فقد بين للأنصار في عبارة سلسلة أخاذة نعمة الإسلام عليهم، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وإيواءهم إياه ومواساتهم له، ثم عتب في كياسة وظرف تطلعهم إلى هذا الفيء الذي أفاءه الله عليهم، ففرقه في حديثي عهد بالإسلام تطييباً لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة، معتمداً على حسن إسلام الأنصار وصدق رغبتهم في نشر الدين وإعلاء كلمة الله. ثم أكد محبته إياهم وإيثارهم على غيرهم من العرب، وأخيراً أعلن إليهم أنه منهم، ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم. فلا عجب إذا بكى الأنصار بعد هذه الخطبة الرائعة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم ودعوا ذلك غنماً عظيماً.

روى الطبري (جـ ٣ ص ١٣٨ ـ ١٣٩) أنه لما اجتمع الأنصار برسول الله، حمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ وقالوا: بلى! لله ولرسوله المن والفضل، فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل! قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. وجدتم أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة[١] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، وركلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً. لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا».

ثم عزم الرسول على العودة إلى المدينة، فأقام على مكة عتاب بن أسيد[٢]، ثم سار إلى المدينة، فوصل إليها في شهر ذي القعدة سنة ٨ للهجرة.

---

(١) اللعاع: كغراب نصيب قليل من الدنيا.

(٢) وفي رواية أخرى للطبري (جـ ٣ ص ١٣٢) أنه استخلف أبا بكر على أهل مكة وأمره أن يقيم للناس الحج ويعلم الناس الإسلام وأن يؤمن من حج من الناس.

ظنت ثقيف، وقد رأت جيش المسلمين يتراجع عن الطائف دون أن ينال منهم شيئاً أو أن يكرههم على التسليم، أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه وانتصرت عليهم، وهم الذين دانت لهم جزيرة العرب كلها، فاعتزت ثقيف بهذا النصر وفرحت به، ثم شمخت بأنفها على من جاورها من القبائل، وعز عليها أن يقوم عروة بن مسعود فوق علية (غرفة في أعلى البيت) له ينادي للصلاة ويدعو إلى دين ذلك النبي الذي بغض من شأن طاغيتهم وصنمهم «اللات»، فرشقوه بالنبال حتى قتلوه. عندئذٍ لجأ ابنه مليح ومعه قارب بن الأسود إلى الرسول ـ وقد أسلما ـ «يريدان فراق ثقيف وألا يجامعاهم على شيء أبداً»[1].

ولا غرو فقد أصبحت ثقيف أشد على المسلمين من قريش في عهد نضالها مع الرسول. وقد آوى الرسول هذين اللاجئين، كما آوى العبيد الذين انضموا إليه عند حصار الطائف وأعتقهم. ولم تدرِ ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد، فقد صارت بوثنيتها في الطائف في عزلة عن سائر العرب حولها، الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ويعتبرون أنفسهم في حالة حرب معها لمناوأتها الإسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها، كما فعلت مع عروة ومع هؤلاء العبيد.

وقد أحسَّت ثقيف بشدة وطأة هذا النوع من الحصار وثقله عليها. روى ابن هشام (جـ ٤ ص ١٩٥ ـ ١٩٦) أن عمرو بن أمية أتى «عبد ياليل» ـ وكان بينهما شيء من الجفاء ـ فقال له: «إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة. إنه قد كان من أمر هذا الرجل (يعني الرسول) ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم، فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض: أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب (نفس) ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟ فائتمروا بينهم وأجمعوا على أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً، كما أرسلوا عروة، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا ذلك عليه. فأبى أن يفعل، وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلاً حتى

---

(١) لما قدم الرسول المدينة بعد حصار الطائف وفد عليه عروة بن مسعود مسلماً، وهو من سادات ثقيف. وكان في أثناء حصار الطائف في جرش (من مخاليف اليمين) يتعلم صناعة الدبابات والضبور التي عزمت ثقيف على أن تعهدها لمهاجمه الرسول في موقعة حنين. فلما علم بانصراف الرسول عن الطائف وذهابه إلى المدينة، لحق به حتى قيل إنه أدركه قبل أن يصل إلى المدينة. فلما أسلم استأذن الرسول في العودة إلى الطائف ليدعو قومه إلى الإسلام. فخشي عليه الرسول عنت أهل الطائف وحذر أن يقتلوه، فعزم على الذهاب معتمداً على شرف بيته فيهم ورفعة شأنه بينهم وقال للرسول: «أنا أحب إليهم من أبكارهم». فلما وصل إلى الطائف دعا قومه إلى الإسلام، حتى إذا كان الفجر صعد إلى علية له ودعا من فوقها إلى الصلاة والإيمان بالله، فاجتمعوا عليه ورموه بالنبل، فمات مغتبطاً باستشهاده في سبيل الله، وطلب أن يدفن مع من استشهد من المسلمين في حصار الطائف فدفن معهم. ابن هشام جـ ٤ ص ١٩٤ ـ ١٩٥، ١٩٩.

ترسلوا معي رجالاً، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة. فخرج بهم. لكي يشغل كل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه»، وحملهم على الالتزام بما التزم به الوفد فأجابوه إلى ذلك.

قدم وفد ثقيف على الرسول في الشهر الذي عاد فيه من غزوة تبوك (رمضان سنة ٩ هـ)، وعرضوا عليه إسلامهم، وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة، وأن يترك لهم طاغيتهم «اللات» لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى إلا أن يدخلوا في الإسلام من غير قيد ولا شرط، حتى لقد سألوه أن يتركها سنتين بدلاً من ثلاث ثم سنة ثم شهراً فأبى. غير أنه أعفاهم أن يهدموها بأيديهم، وأرسل معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة[1].

وقد أمر الرسول عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان أحدثهم سناً، ولكنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن، وكتب لهم الرسول كتاباً[2] فلما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال له: أدخل أنت على قومك. ولما شرع المغيرة في هدم (اللات) قام أهله (بنو معتب) دونه يحمونه خشية أن يُرمى كما رُمي عروة بن مسعود، وخرجت نساء ثقيف حسراً يبكين على صنمهم.

على أن أهل الطائف الذين حرصوا على وثنيتهم كل الحرص ودافعوا الرسول عنها بهذه الحماسة، أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصاً على الإسلام وذوداً عنه، حتى في محنة الردة، حيث أصبح الإسلام مقصوراً على أهل مكة والمدينة والطائف وقبيلة عبد القيس كما سيأتي.

غزوة تبوك (سنة ٩ هـ):

وفي السنة التاسعة للهجرة بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام أن الروم تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين، ومعهم بعض القبائل العربية، فدعا المسلمين إلى الجهاد، وخرج بالجيش في طريق الشام. فلما وصل إلى تبوك أقام فيها أياماً فصالحه أهلها، وجاءت الوفود من أيلة وغيرها، وصالحوه على دفع الجزية. كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجند إلى دومة الجندل؛ فأسر صاحبها واستولى عليها، ثم عاد الرسول إلى المدينة. وكانت غزوة تبوك آخر غزوات الرسول.

---

(١) كان المغيرة بن شعبة من بني ثقيف أنفسهم: وكان ـ كما وصفه النووي في تهذيب الأسماء واللغات (جـ ٢ ص ١٠٩ ـ ١١٠) ـ موصوفاً بالدهاء والحلم. وكذلك كان لأبي سفيان بن حرب حرمة ومكانة عند أهل الطائف، وكان له فيهم قرابة ورحم، وقد فقئت إحدى عينيه في حصار الطائف.

(٢) أنظر نص هذا الكتاب في ابن هشام (جـ ٤ ص ٢٠٠).

أخذت الدعوة الإسلامية في الانتشار بين كثير من القبائل العربية. من ذلك ما ذكره ابن سعد عن انتشار الإسلام بين أهالي حمير: «كتب رسول الله إلى الحارث، ومسروح، ونعيم بن عبد كلال من حمير: سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله، وأن الله وحده لا شريك له، بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته. وقالت اليهود «عزير ابن الله». وقالت النصارى: «الله ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله (قال): بعث الرسول بالكتاب مع عياش بن ربيعة المخزومي، وقال: وإذا جئت أرضهم فلا تدخل ليلاً حتى تصبح ثم تطهر، فأحسن طهورك وصل ركعتين، وسل الله النجاح والقبول واستعد بالله وخذ كتابي بيميسك، وادفعه بيمينك في أيمانهم فإنهم قابلون، وقرأ عليهم: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين﴾ إلخ. [سورة البينة رقم ٩٨]. فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين، فلن نأتيك حجة ألا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره، وهم قارؤون عليك، فإذا رطنوا فقل: «ترجموا»، وقل: حسبي الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير. فإذا أسلموا فسلهم قضبهم الثلاثة التي إذا حضروا بها سجدوا وهي من الأتل: قضيب ملمع ببياض وصفرة وقضيب ذو عجز كأنه خيزران، والأسود البهيم كأنه من سأسم، ثم أخرجها فحرقها بسوقهم». قال عياش: «فحرجت أفعل ما أمرني به رسول الله، حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم. قال: فمررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أسواب دور ثلاثة، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط، فانتهيت إلى قوم في قاعة الدار فقلت: أنا رسول الله، وفعلت ما أمرني فقبلوا، وكان كما قال النبي ﷺ[٢].

وفي السنة التاسعة للهجرة وفد على النبي ثلاثة عشر رجلاً من بني كلاب، وهم فرع من بني عامر بن صعصعة، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنّة الرسول، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد. كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهي بنو رؤاس بن كلاب على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك، وكان في المدينة، واعتنق الإسلام ثم دعا بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء به[٣].

وفي هذه السنة نفسها قام واثلة بن الأسقع - وكان حديث العهد بالإسلام - بمحاولة لم تصادف نجاحاً كبيراً، إذ أخذ يرغب قومه في الإسلام. وكان قد اعتنقه بعد أن لقي النبي مرة،

---

(١) بفتح التاء، على بعد إثني عشر فرسخاً من المدينة وفلسطين على سكة حديد الحجاز.
(٢) ابن سعد ص ٨٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٦، ٩١.

فطرده أبوه في احتقار وازدراء وقال له: «والله لا أكلمه كلمة أبداً»، ولم يجد راغباً فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته التي جهزته للرجوع إلى النبي بالمدينة. وكانت هذه السنة التاسعة للهجرة تسمى بعام الوفود، لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وأهالي المدن أرسلوا إلى النبي وفادات تعلن إسلامها. وكان ذلك المبدأ الجديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الأخوة الإسلامية في المجتمع العربي قد أخذ في إضعاف قوة الرابطة القبلية القديمة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودحوله في المجتمع الحديد ينطوي على هدم أهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دحول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت إلى تفكك النظام القبلي، حتى أصبح ضعيفاً أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك كتلك الحياة التي صار إليها المسلمون. وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبي لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفاً عديم التأثير(١).

٩ ـ وفاة الرسول: وفي السنة العاشرة للهجرة خرج الرسول للحج في أكثر من مائة ألف من المسلمين. عند جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة(٢) التي تعتبر دستور الإسلام ولا غرو فقد بين فيها دستور الإسلام وقواعده، ونادى بالمساواة بين الناس، لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والتريف القرشي. «أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

وقد تم القرآن بنزول قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة ٥: ٣].

ولم يمضِ على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام بالحمى. فلما رأى الأنصار اشتداد المرض عليه أحاطوا بالمسجد، فأخبره الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب بذلك، فخرج متوكئاً على عليّ والعباس والفضل أمامهما. وكان الرسول معصوب الرأس يخط برجليه، فجلس في أسفل مرقاة من المبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس! بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم. هل خلد نبي قبلي ممن بعث الله فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون بي. فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين

---

(١) أرنولد. الدعوة إلى الإسلام ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) راجع هده الخطبة في ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [سورة العصر ٣]. وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عزّ وجلّ لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرص وتقطعوا أرحامكم؟.

«وأوصيكم بالأنصار خيراً ـ فإنهم الـذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم ـ أن تحسنوا إليهم. ألم يشـاطـروكم في الثمـار؟ ألم يـوسعـوا لكم في الـديـار؟ ألم يؤثـروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم. ألا ولا يستأثرون عليهم، ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي. ألا فإن موعدكم الحوض[١]، ألا فمن أحب أن يرده عليّ غداً فليكفكف لسانه إلا فيما ينبغي».

انتقل الرسول إلى حوار ربه في يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١هـ (٨ يونيو سنـة ٦٣٢ م)، وهو في الثالثة والستين من عمره، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة على أحسن الوجوه وأكملها.

وقد وقع خبر وفاة الرسول على المسلمين وقع الصاعقة. حتى أنهم ذهلوا ونسوا ما نزل من الآيات التي تشير إلى موت الأنبياء كسائر البشر، ووقف عمر بن الخطاب رافعاً سيفه مهدداً بالقتل كل من يقول بوفاة النبي، ويقول: «إن رجلاً من المنافقين زعم أن رسول الله ﷺ توفي. وإنه والله ما مـات، ولكنه ذهب كمـا ذهب موسى. والله ليـرجعن رسول الله ﷺ فيقـطع أيدي رجال زعموا أنه مات».

فلما أقبل أبو بكر نزل عن باب المسجد وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مغطى بثوب، فكشف عنه وقال: «بأبي أنت وأمي! طبت حياً وميتاً! وانقطع لموتك ما لم ينقـطع لموت أحـد من الأنبياء من النبـوة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة[٢]، وعممت حتى صرنا فيك سواء. ولولا أن موتك كان اختياراً منك، لجدنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنـا عليك ماء الشؤون[٣]، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وإدناف[٤] يتخالفان ولا يبرحان. اللهم

---

(١) يعني حوض الكوثر الذي يشرب المؤمنون منه يوم القيامة.

(٢) خص الشيء من باب قعد خصوصاً فهو خاص، خـلاف عم، مثل اختص (وكـلا الفعلين يستعمل متعـدياً ولازمـاً): والمعنى أنك يا رسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس، فإنك مع ما احتصصت به من مناقب النبوة وقـد نزل بـك الموت.

(٣) جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى المعين.

(٤) دلف المريض كفرح وادنف: ثقل، والشمس: دنت للغروب واصفرت

فأبلغه عنا السلام. اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا، واحفظه فينا!».

ثم خرج أبو بكر إلى الناس وخطب خطبته الحكيمة فثاب الناس إلى رشدهم: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هـو الحق المبين: ثم قال أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قتـل انقلبتم على أعقـابكم، ومن ينقلب على عقبيـه فلن يضـر الله شيئـاً، وسيجـزي الله الشاكرين﴾[1]، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده وما عندكم، وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنّة نبيه. فمن أخذ بهمـا عرف، ومن فـرق بينهما أنكر. «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم، فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم»[2].

«روي عن مالك أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ توفي يوم الإثنين ودفن يوم الثـلاثاء، وصلى عليه الناس أفواجاً لا يؤمهم أحد. وقد اختلفوا في مكان دفنه. فقال بعضهم: ندفنه في مكة مسقط رأسه، وقال آخرون بالبقيع مع أصحابه، وقال غيرهـم: ندفنه في مسجده، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما دفن نبي إلا مكانه الذي توفي فيه فحفر له فيه»[3].

١٠ ـ صفات الرسول وأخلاقه: كان رسول الله ﷺ معتدل القامة متـوسط الطول، ليس بالطويـل ولا بالقصيـر، كثيف الشعر، سبط الأطـراف، عريض مـا بين الكتفين، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أكحل العينين أدعجهما. وكان يُعنَى بنظافة جسمه وثيابـه ويحرص على حسن هندامه. وفي ذلك يقول: «النظافة من الإيمان». وكان حاضر البديهة سريع الجواب في أدب ووقار، كما كان كثير الانشراح والتبسط مع أصحابه وأهله. شديد الحياء إلا في حدود الله، فإنه كان لا يخشى في إقامتها لومة لائم. روي عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذارى[4].

وكان الرسول سياسياً حكيماً ذا رأي صائب وفكر ثاقب. وقد بدت مهارته السياسيـة في التأليف بين أهل المدينة، وهم الأوس والخزرج، كما ظهر ذلك واضحاً جلياً في تصرفاته التي

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٤٤. وقد نزلت هذه الآية في غزوة أُحد.

(٢) ابن هشام جـ٤ ص٣٣٥. الطبري حـ٣ ص١٩٧ـ١٩٨. زهر الآداب جـ١ ص٣٥.

(٣) تيسير الوصول إلى جامع الأصول جـ ٤ ص ١٩٥. سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٥٣.

(٤) صحيح البخاري على هامش ابن حجر العسقلاني جـ ٦ ص ٣٧٣.

كان يصدرها على البديهة ويخرج بها من أشد المآزق حرجاً.

روى ابن هشام (جـ ٣: ٣٣٤ ـ ٣٣٥) أنه لما تفاقمت روح العصبية بين الأنصار والمهاجرين في غزوة المريسيع ـ حتى قال عبد الله بن أبي بن سلول: ليخرجن الأعز منها الأذل ـ أمر بالارتحال وسار في وقت الظهيرة، ولم يرح الجيش حتى وصل إلى المدينة لكي لا يترك للرجال فرصة الجدال والانقسام وهم بعيدون عن مدينتهم. كما رفض ما عرضه عليه عمر من قتل ابن سلول رأس النفاق وسبب هذه الفرقة، وترفق بابنه عبد الله إذ طلب إليه أن يأذن له بقتل أبيه إذا أراد، فقال له الرسول: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا. فكان ابن أبي إذا أحدث حدثاً بعد ذلك، عاتبه قومه وعنفوه. وقال الرسول لعمر بن الخطاب يوماً: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. كما ظهر ذلك أيضاً في الانتفاع بحسن صلة نعيم بن مسعود بكل من قريظة وقريش وغطفان، في الإيقاع بينهم وتخذيلهم بعضهم عن بعض، حتى أذن الله وأزال عن المدينة خطراً داهماً.

«كان محمد في مكة والمدينة من ساعة أن استيقظ على صوت الرفيق الأعلى في حراء إلى أن استجابت روحه لذلك الرفيق في بيت عائشة، واضح الهدف متعدد الوسيلة، راجح العقل، حسن السياسة.

عاش (الرسول) في جوار عبد المطلب وهو مشرك، وطلب في عودته من الطائف جوار المطعم بن عدي، فدخل مكة في حمايته وهو مشرك. ولذلك قبل الاستفادة من نظم أهل الأوثان في مكة، وقبل في المدينة أن ينظم أهلها ويعاهدهم، ويستعين بهم، ويقودهم إلى النصر، ليحمي نفسه وصحبه، ويقضي على الأوثان: موهبة واحدة، ووسيلة واحدة، لغاية واحدة من أحوال شتى، أخطأ هؤلاء الكتاب تصويرها»[١].

وكان ﷺ ذا نفس سمحة تحب الخير وتميل إلى العفو. يدل على ذلك عفوه عن وحشي مولى مطعم بن جبير الذي قتل عمه حمزة بن عبد المطلب في غزوة أُحد، وعن رفاعة بن سموأل القرظي، وعن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب التي لاكت كبد عمه حمزة، وعن مالك بن عوف صاحب هوازن الذي قتل المسلمين وخدعهم في عماية الصبح[٢].

قال ابن أبي ليلى: أخبرنا عليّ أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحى ما تطحن، فبلغها أن النبي ﷺ أتى بسبي، فأتته تسأله خادماً، فلم توافقه (تجده)، فذكرت لعائشة. فجاء النبي فذكرت عائشة له ذلك، فأتاها وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم فقال: مكانكما حتى وجدت

(١) عبد الرحمن عزام: بطل الأبطال ص ٧٠ ـ ٧١.
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ١٨، ٤١، ١٣٧.

برد قدمه على صدري فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما، فكبرا الله أربعاً وثلاثين، واحمداه ثلاثاً وثلاثين، وسبحاه ثلاثاً وثلاثين. إن ذلك خير لكما مما سألتماه». وقد ورد في حديث آخر عن علي في هذه القصة: والله لا أعطيكم وأدع أهل الصُفَّة تُطْوَى بطونَهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم. وفي حديث الفضل بن الحسن الضمري عن ضباعة أم الحكم بن الزبير قالت: أصاب النبي ﷺ سبياً، فذهبت أنا وأختي فاطمة نسأله فقال؟ سبقتكما يتامى بدر[١].

وكان عليه الصلاة والسلام قنوعاً زاهداً صبوراً، روي عن أنس قال: قال ﷺ: لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أذيت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة (يعني ثلاثون يوماً وليلة متتابعة) وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال. قال الترمذي في شرح الحديث إن هذا كان حين خرج النبي ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال، أي أن ما كان مع بلال من الزاد كان قليلاً بحيث يستره بلال تحت إبطه.

وروي عن علي بن الجعدي قال: ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه. وعن عائشة قالت: إنّا كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد ناراً إن هو إلا الماء والتمر! وعنها أنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها.

وقال ابن مسعود: دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر في جنبه فقلت: يا رسول الله! لو اتخذنا لك وطاء نجعله بينك وبين الحصير يقيك منه. فقال: ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.

ولم يكن أحرص من الرسول على حسن معاملة أصحابه، حتى لقد كان يكنى عن الشخص الذي يريد تنبيهه إلى خطأ لكي لا يحقره بين الأقران. روي عنه ﷺ أنه ما لعن مسلماً بذكر (أي بصريح اسمه)، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله، ولا سئل في شيء قط فمنعه إلاّ أن يسأل، ولا يألوا جهداً في أن يضرب لهم المثل وينأى بهم عن مزالق الطمع في مال الله والاستجداء. روي أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني. ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى[٢].

---

(١) صحيح البخاري على هامش ابن حجر العسقلاني جـ ٦ ص ١٣٢

(٢) راجع هذا الحديث في صحيح البخاري (كتاب الزكاة ـ باب الاستعفاف عن المسألة) (المطبعة الأميرية سنة ١٣١٤ هـ) جـ ٢ ص ١٢٣. شرح فتح الباري على البخاري (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) جـ ٣ ص ٢١٥.

وكان عليه الصلاة والسلام أشد الناس حياءً لا يحدث أحداً بما يكره، قالت عائشة: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا، ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا. وروي أنه كان لا يثبت بصره في وجه أحد.

أما شفقته ورأفته ورحمته فقد وصفه بها القرآن الكريم: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عـزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [سورة التوبة ٩: ١٢٨]. روي أن إعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال: أحسنت إليك يا إعرابي؟ قال: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم الرسول أن يكفوا، ثم قام الرجل ودخل داره وأرسل إلى الإعرابي وزاده شيئاً ثم قال: أحسنت إليك؟ قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له الرسول: إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت، فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك. فلما كان العشي، جاء الإعرابي فقال الرسول: إن هذا الإعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك، قال الإعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر.

وذكر ابن هشام (٤: ١٥٢ ـ ١٥٣) أن كعب بن زهير بن أبي سلمى وفد على الرسول معتذراً تائباً بعد أن هجاه وهجا المسلمين. وسأله العفو وأنشده قصيدته المشهورة: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول»، فعفا عنه وأجازه على شعره[1]، كما كان يجيز من شعراء المسلمين حسان ابن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

وكان الرسول لا يباري في جهوده وكرمه. قال جابر: ما سئل عليه السلام عن شيء فقال لا. وقال ابن عباس: كان أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان. وعن أنس أن رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى بلده وقال أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة. وأعطى غير واحد مائة من الإبل، وحمل إلى الرسول تسعون ألف درهم، فما رد قائلاً حتى فرغ منها. وجاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء، ولكن اتبع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم ﷺ، وعرف البشر في وجهه وقال: بهذا أمرت.

---

(١) ذكر كثير من المصادر العربية إن النبي خلع على كعب بن زهير بردته في ذلك اليوم فبقيت في أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بن أبي سفيان بعشرين ألف درهم، ثم بيعت للمنصور العباسي بأربعين ألف ولا تزال في القسطنطينية إلى اليوم

الباب الثالث

أثر الاسلام في العرب

١ ـ عموم الرسالة المحمدية

(أ) كتب الرسول إلى الملوك والأمراء:

أرسل الرسول في السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء، فبعث دِحية بن خليفة الكلبي الخزرجي إلى هرقل إمبراطور الروم، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى فارس، وعمر بن أمية الضمري إلى النجاشي، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس عامل هرقل على مصر، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي أمير بلاد اليمامة، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوَى أخي بني القيس صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجندي[١].

ولعل إنكار بعض المستشرقين كتب الرسول إلى الملوك والأمراء خارج جزيرة العرب يرجع إلى عدم عثورهم على ما يدل على شيء من ذلك في الوثائق التي خلفها هؤلاء الملوك والأمراء. وهذا لا ينهض دليلاً على صحة هذا الزعم، إذ ليس بعيداً أن تكون الصور الأصلية لتلك الكتب قد فقدت لسبب من الأسباب.

أما مؤرخو العرب فلا يشكون في إرسال هذه الكتب فقد ذكر ابن هشام[٢] واليعقوبي[٣] والطبري (٣: ٨٥) ما يشت بعوث الرسول إلى جيرانه من الملوك والأمراء وكتبه إليهم يدعوهم فيها الإسلام. يقول الطبري: «حدثنا ابن حميد قال، حدثني ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب المصري أنه وجد كتاباً فيه تسمية من بعث رسول اللهﷺ إلى ملوك الخائبين (الكفار) وما قال

---

(١) ابن هشام حـ ٤ ص ٢٩٧. الطبري حـ ٣ ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) حـ ٤ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٣) جـ ٢ ص ٨٣.

لأصحابه حين بعثهم، فبعث به (أي الكتاب) إلى ابن شهاب الزهري مع ثقة من أهل بلده فعرفه (أي هذا الكتاب).

وفي الكتاب أن رسول الله خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم: إني بعثت رحمة وكافة: فأدّوا عني يرحمكم الله ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى ابن مريم قالوا: يا رسول الله! وكيف كان اختلافهم؟ قال: دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه، فأما من قرب به فأحب وسلم، وأما من بعد به فكره وأبى؛ فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عزّ وجلّ، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم. فقال عيسى: هذا أمر قد عزم الله لكم عليه، فامضوا». قال ابن إسحاق: ثم فرق الرسول ﷺ بين أصحابه، فبعث سليط بن عمرو بن العاص.. الخ.

ويقال إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم! من محمد ابن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم. السلام على من اتبع الهدى أما بعد، أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتولى فإن اثم الأكارين (الأريسين) عليك[1] ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[2].

وكتب إلى المقوقس: «بسم الله الرحمن الرحيم! من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى! أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾.

وكتب إلى النجاشي: «بسم الله الرحمن الرحيم! من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة. سلام أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى. فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله: فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى»!.

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٨٧

(٢) سورة آل عمران ٣: ٦٤ فتوح مصر لابن عبد الحكم (طبعه دار العاديات الشرقية بالقاهرة) ص ٥٢. أنظر أيضاً الطبري جـ ٣ ص ٨٧.

وكتب إلى كسرى أبرويز ملك الفرس. «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأدعوك بدعاية الله عزّ وجلّ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ولأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وأسلم تسلم، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك»[1].

(ب) أثر هذه الكتب:

ولننظر الآن في أثر هذه الكتب في الملوك والأمراء الذين أرسلت إليهم، والذين يمثلون الشعوب التي كانوا يحكمونها. ولو أن أحداً من هؤلاء الملوك قبل دعوة الرسول ودان بالإسلام لانتشر هذا الدين بين رعاياه.

على أن التاريخ لم يذكر لنا أن أحداً من الملوك الذين كانوا في خارج جزيرة العرب دان بالإسلام، وإن كان بعضهم قد أحسن معاملة الرسل وتجمل في الرد على كتاب الرسل.

فمن الطبيعي أن كسرى ـ وهو ذلك الملك الذي ورث «الحق الملكي المقدس عن أجداده من آل ساسان» يأبى أن يكون تابعاً للعرب. ومن ثم كان يخشى من هذا الدين على شخصه وسلطانه اللذين كانا موضع قداسة الشعب. هذا إلى ما كان يراه الفرس لأنفسهم من سيادة على عرب اليمن والحيرة، وهم لا يقلون في نظرهم عن عرب الحجاز.

من ذلك لا تعجب إذا ثارت ثائرة كسرى فمزق كتاب الرسول وأرسل إلى باذان عامله على اليمن: «إبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به». فبعث باذان رسولين يحملان كتاباً إلى الرسول، يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه، فخرجا حتى قدما الطائف، فوجدوا رجالاً من قريش، فسألاهم عن الرسول فقالوا هو بالمدينة، واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك، كفيتم الرجل. فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله ﷺ، فقالا: إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق معنا. فصرفهما الرسول على أن يعودا إليه في الغد. فأتى رسول الله الخبر من السماء «أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله». فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول هذا الخبر فقالا له: إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال نعم! أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى. وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء[2]. فعاد الرسولان إلى باذان فقصا عليه ما تنبأ به النبي فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول. ولننظرن ما قد قال، فلئن كان

---

(١) راجع هذه الكتب في صبح الأعشى للقلقشندي (جـ ٦ ص ٣٧٦ ـ ٣٨٠).

(٢) الأبناء: هم أولاد الفرس القدماء الذين فتحوا بلاد اليمن واستولوا عليها من الأحباش.

هذا حقاً فإنه لنبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا. فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: «أما بعد، فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما استحل من قتل أشرافهم. فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك (يعني الرسول عليه الصلاة والسلام)، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه». فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن (الطبري ٣: ٩٠).

ويزعم مرجليوث(١) أن عيون الرسول كانت تأتيه بالأخبار بسرعة، ويستبعد عدول رسولي باذان عن تأدية واجبهما على أثر نبوءة الرسول بموت كسرى، ثم يقول: وإذا كان تاريخ اغتيال كسرى فارس صحيحاً(٢)، فإن كل ما يمكن أن تفرضه هو أن هذاالاضطراب الذي انتشر على أثر مقتل كسرى كان السبب في نقل عيون الرسول نبأ هذا الاغتيال إليه، ويزعم مرجليوث أن هذه الرسالة لم تسلم قط إلى كسرى.

على أنه قد فات مرجليوث أن الرسول أعلن موت كسرى يوم اغتياله، برغم بعد الشقة بين الحجاز وفارس، حتى إن خبر موت كسرى لم يصل إلى بلاد اليمن إلا بعد نبوءة الرسول بمقتله وعود رسولي باذان إليه، وانتظار باذان وصول الأخبار الرسمية من بلاد الفرس. وأما استبعاد مرجليوث عدول رسولي باذان عن تنفيذ أمر كسرى بمجرد تنبوء الرسول بمقتله، فهو غير مقبول، ولا سيما إذا علمنا أن عقلية أهالي بلاد العرب وما جاورها من بلاد الفرس والروم كانت مهيأة لقبول هذه التنبؤات. ناهيك بما كان من هرقل واشتغاله بعلم النجوم، وكتابته إلى صاحب إيلياء يستطلع رأيه في ظهور نبي آخر الزمان. أما هرقل فإن الرواية العربية تزعم أنه كان راغباً في الإسلام، وأنه تحدث في شأن هذا الدين الى أبي سفيان ونفر من قريش كانوا معه حين وصل إلى كتاب الرسول، فاستقبله استقبالاً حسناً ودعاه إلى مجلس مجمع رجال الكنيسة وأفضى إليهم بما وصل إليه، حتى إذا نفروا وأنكروا ذلك عليه عدل عن رأيه وتظاهر بحرصه على المسيحية.

ولا غرو فقد كان العالم في ذلك الوقت يتطلع إلى ظهور نبي آخر الزمان وعني هرقل نفسه بهذه المسألة عناية خاصة؛ فقد كتب إلى صاحب إيلياء ـ وكان مرجعاً في علم النجوم كما تقدم ـ يخبره بأنه رأى من علم النجوم أن نبي آخر الزمان قد ظهر ويسأله رأيه في ذلك.

قال أبو سفيان(٣): خرجنا في نفر من قريش تجاراً إلى الشام . . . ووالله إنا لبغزة إذ هجم

---

(١) Margoliouth, Mohammad and the Rise Islam, p. 368.

(٢) الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ وذلك بعد استيلاء المسلمين على خيبر بثلاثة أشهر تقريباً.

(٣) صحيح البخاري (طبعة بولاق سنة ١٣١٣ هـ) جـ ١ ص ٨. انظر أيضاً الطبري (طبعة القاهرة) حـ ٣ ص ٨٥ ـ ٨٧ فتح =

علينا صاحب شرطته (أي شرطة هرقل). فقال: أنتم من رهط هذا الرجل الذي بالحجاز (يعني النبي ﷺ)؟ قلنا: نعم! قال انطلقوا بنا إلى الملك، فانطلقنا معه. فلما انتهينا إليه قال: أيكم أمس به رحماً؟ قلت: أنا، فقال أدنه. فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، قال إني سأسأله، فإن كذب فردوا عليه، فوالله لو كذبت ما ردوا عليّ، ولكن كنت امرأً سيداً أتكرم عن الكذب، وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته، أن يحفظوا ذلك عليّ ثم يحدثوا به عني، فلم أكذبه. فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي. قال: فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له: أيها الملك! ما يهمك من أمره، إن شأنه دون ما يبلغك. فجعل لا يلتفت إلى ذلك مني ثم قال: أنبئني عما أسألك عنه من شأنه، قلت: سل عما بدا لك. قال: كيف نسبه فيكم! قلت: محض، أوسطنا نسباً. قال: فأخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول هو فهو يتشبه به؟ قلت: لا. قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت لا؛ قال: فأخبرني عن أتباعه منكم من هم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: فأخبرني عمن تبعه، أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ (وفي روايه أخرى هل يرتد أحد منهم سخطه لدينه؟) قلت: ما تبعه رجل ففارقه. قال: هل يغدر؟ فلم أجد شيئاً مما سألني عنه أغمزه فيه غيرها. قلت: لا! ونحن منه في هدنة (يريد صلح الحديبية) ولا نأمن غدره. قال: فوالله ما التفت إليها مني ثم كرر علي الحديث فقال: سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً، وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً؟ وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به، فزعمت أن لا، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه، فزعمت أن لا، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه. فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه (وفي رواية أخرى وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب)، وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا، فلئن كنت صدقتني عنه، ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه. انطلق لشأنك. قال: فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول: أي عباد الله! لقد أمر ابن أبي كبشة»[1].

الباري (شرح البخاري) لابن حجر (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) جـ١ ص ٢٤ ـ ٣٤، عمدة القارى، شرح البخاري للعيني (القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ) جـ١ ص ٩١.

(١) يعني الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان يمكنه كفار قريش بأبيه من الرضاع استخفافاً به. وأبو كبشة هذا هو زوج حليمة السعدية التي أرضعت الرسول.

ويحدثنا الطبري (٣: ٨) في إحدى رواياته أن هرقل لما وصل إليه كتاب الرسول وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينية. . جمع الروم فقال لهم: يا معشر الروم! إني عارض عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها. قالوا: ما هي؟ قال تعلمون والله إن هذا الرجل لنبي مرسل، إنا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا. فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. فقالوا: نحن نكون تحت يدي العرب ونحن أعظم ملكاً وأكثرهم رجالاً وأفضلهم بلداً؟ قال: فهلم فأعطيه الجزية في كل سنة أكسر عني شوكته وأستريح من حربه مما أعطيه إياه، قالوا: نحن نعطي العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا، ونحن أكثر الناس عدداً وأعظمهم ملكاً وأمنعهم بلداً؟ لا والله لا تفعل هذا أبداً قال: فهلم فلأصلحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعني أرض الشام. فقالوا له: نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها سرة الشام؟ والله لا تفعل هذا أبداً. فلما أبوا عليه قال: أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم. ثم جلس على بغل له فانطلق، حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال: السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية».

من ذلك نرى أن الروايات العربية المختلفة تكاد تجمع على أن هرقل كان يميل إلى قبول الإسلام، وأن من أهم الأسباب التي من أجلها رفض الروم قبول هذا الدين أنه دين العرب الذين كان الروم يستصرخون شأنهم، وأن هرقل كان ضعيفاً أمام ذوي الرأي من دولته، حتى لقد خيرهم بين قبول هذا الدين أو لا، ثم عدل عن رأيه إلى مصالحة المسلمين على أن يعطيهم جزءاً من بلاد الشام.

على أنا لا نستطيع أن نسلم بجميع ما جاء في هذه الرواية العربية، ولا سيما إذا علمنا - اعتماداً على المصادر التاريخية التي بأيدينا - أن هرقل كانت تحيط به في ذلك الوقت أخطار خارجية، فإنه وإن كان قد انتصر على الآفار والصقالبة واسترد بلاد سورية ومصر، وغزا بلاد الجزيرة وانتصر على الفرس في موقعة نينوى سنة ٦٢٧ م، ودخل بجيوشه إلى قلب الدولة الفارسية وهدد حاضرتها المدائن (٦٢٨ م) - فقد كانت جيوش خسرو، كسرى فارس في ذلك الوقت، تتقدم في آسيا الصغرى وتهاجم البوسفور حتى كادت القسطنطينية تقع في أيديهم.

كما تصف لنا بعض الروايات حال هرقل وما كان يساوره من الأفكار إذ ذاك، والمخاوف التي كانت تجول بخاطره فترغبه في اعتناق الإسلام، وأنه كان لا يريد الدخول في حرب مع عدو جديد بعد أن فرغ من حروبه مع الدولة الفارسية، إذ كان يتوقع خطراً جديداً سوف يدهمه من ناحية هذه الدولة العربية الناشئة.

ومما يدل على أن هرقل كان يصدر في ذلك الأمر عن بواعث سياسية أكثر منها دينية، أنه جمع الجيوش الجرارة لحرب هؤلاء العرب في الشام وفلسطين ومصر، وغضب على المقوقس

واستدعاه إلى القسطنطينية حين علم أنه دخل في صلح مع العرب، ثم نفاه وأرسل إلى قواد الروم بمصر يوبخهم ويحثهم على مواصلة قتال العرب، وظل كذلك إلى أن مات والعرب يحاصرون حصن بابليون سنة ٦٤١ م[١].

وقد يكون من الأسباب التي حملت مؤرخي العرب على الاعتقاد بأن هرقل كان يميل إلى اعتناق الإسلام، ما ذكره الطبري[٢] من «أنه قد أجاز دحية الكلبي (سفير الرسول إليه) بمال وكساه كسى»، وأن ناساً من جذام بأرض حسمى[٣] قطعوا عليه الطريق ولم يتركوا معه شيئاً فجاء إلى الرسول قبل أن يدخل بيته، فبعث رسول الله زيد بن حارثة في سرية إلى أرض حسمى.

ومع تسليمنا باحتمال صدق ما في هذا الخبر من الحوادث، فلا نستبعد أن منح هرقل وحباءه دحية لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب السياسة، أراد أن يتألف به قلوب المسلمين، لما كان يخشاه من ظهور أمر الرسول، وليس أدل على صحة هذا الرأي من أنه جمع رجال دولته وعرض عليهم الإسلام، فلما أبوا ورأى منهم الجد في الخروج عليه إن هو دخل في ذلك الدين، عدل عن ذلك وقال لهم: يا معشر الروم! إني قد عرضت عليكم وعرضت. لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي قد حدث، وقد رأيت منكم الذي أسر به.

وأما المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم، فإنه لم يقل عن هرقل في الاحتفاء بحاطب بن أبي بلتعة رسول النبي إليه. فمؤرخو العرب يكادون يجمعون على أنه أحسن استقباله وأجابه بقوله: «قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أن مخرجه الشام - وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله - فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس. والقبط لا تطاوعني في أتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك»[٤]، ورده بهدية إلى النبي ﷺ، اتفق المؤرخون على أن منها مارية القبطية وأختاً لها وشيئاً من خيرات مصر[٥]. ويمكننا أن نثق

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر جـ ٢ ص ٦٤ - ٦٦.

(٢) جـ ٣ ص ٨٧.

(٣) أرض بادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان. وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم. قال المتنبي: حسمى أرض طيبة تنبت جميع النبات مملوءة جبالاً في كبد السماء متناوحة ملس الجوانب، إذا أراد الناظر النظر إلى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها بشدة. ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده ولا يكاد القتام يفارقها. والقتام دخان أسود لا يزال يتصاعد من رأس الجبل، لأن فيه بركاناً كان يثور أحياناً - أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت ومعجم ما استعجم للبكري.

(٤) ابن عبد الحكم · فتوح مصر جـ ٢ ص ٤٢.

(٥) تختلف الروايات فيضيف بعضها إلى ذلك كسوة وبغلة بسرجها، وبعضهم يضيف خصياً. ذكر الطبري أنه كان حارساً ودليلاً واسمه مابور، كما ذكر بعض آخر أنه كان من بين الهدية طبيب، وأن الجواري كن أربعاً لا اثنتين.
ومما يؤثر عن الرسول أنه قبل الهدية ورد الطبيب وقال: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع.

بصدق هذه الرواية اعتماداً على ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت عند الرسول جارية تدعى مارية القبطية وأنها ولدت له ابنه إبراهيم.

وكان من أثر استقبال المقوقس حاطب بن أبي بلتعة، وهذه الهدايا التي كان من بينها مارية القبطية، أن أثنى الرسول على أهل مصر من القبط وأوصى بهم خيراً إذ يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم فيكم صهراً وذمة»[١].

أما النجاشي، فعلى الرغم من تأكيد الرواية العربية أنه قد أسلم[٢]، ومظاهر حسن الصلة التي نشأت ودامت بينه وبين محمد ﷺ طوال حياته[٣]، فإن هذا كله لا يحملنا على القول بإسلام النجاشي، ولا سيما أن جمهرة المؤرخين وثقاتهم يكادون يجمعون على أن الإسلام لم يظهر في بلاد الحبشة إلا بعد دولة من الزمن. يدل على ذلك ما رواه الطبري وابن الأثير[٤] من أن الحبشة «كانت قد تطرفت تطرفاً من أطراف الإسلام (أي أغارت على طرف من بلاد المسلمين) في زمن عمر، فبعث إليهم علقمة بن مجزز المدلجي في البحر في نفر من المسلمين فأصيبوا، فجعل عمر على نفسه (أي عزم) ألا يحمل في البحر أحداً يعني للغزو[٥].

(ج) المستشرقون والرسالة:

يقول سير توماس أرنولد[٦]: «على أنه، وإن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق. فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام». فقد قال تعالى في سورة (ص): ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين﴾[٧]. وفي سورة يّس: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين،

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ٢٢٨. أورد ابن عبد الحكم (جـ ١ ص ١، ٢) رواية تشبه هذه.

(٢) قد تكون هذه الرواية متأثرة بما أبداه النجاشي من استقبال المهاجرين وإكرام ضيافتهم وامتناعه عن تسليمهم إلى قريش حين بعثت إليه في طلبهم.

(٣) حتى لقد روي أن النبي نعى النجاشي إلى المسلمين مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أنه كان مسلماً. (الطبري جـ ٣ ص ٨٩). وقد أورد ابن هشام (جـ ١ ص ٣٦٢) عن عائشة أنها قالت: لما مات النجاشي كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور: وهذا الحديث - إن صح - يبين لنا مبلغ إعجاب المسلمين بالنجاشي.

(٤) الطبري جـ ٤ ص ٢٣١. ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٠.

(٥) ذكر ابن سعد (كتاب الطبقات الكبير جـ ٢ ص ١١٧) أن هذه الغزوة كانت في عهد الرسول (شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ). وسواء صحت روايته أو الرواية التي اتفق عليها كل من الطبري وابن الأثير، فإن ذلك لا ينقص قيمة هذه الحادثة في ذلك الاستدلال الذي ذهبنا إليه.

(٦) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة المؤلف ص ٤٨.

(٧) سورة ص ٣٨: ٨٧ - ٨٨.

لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾(١). وفي سورة الفرقان: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾(٢).

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٣).

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾(٤).

﴿ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٥).

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾(٦).

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(٧).

وينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادىء الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البينات، ومن بينهم وليم ميور(٨) إذ يقول: «إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه. وعلى فرض أنه فكر فيها، كان تفكيره تفكيراً غامضاً. فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم. وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج». وكذلك شك كيتاني(٩) في أن يكون النبي قد تخطى بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدين.

ومن الغريب أن يشك وليم ميور في صحة دعوى عموم الرسالة. وأن يبني شكه هذا على أن محمداً ما كان يعرف غير الجزيرة، وأنها كانت عالمه الذي لم يفكر في سواه، وأن هذا

---

(١) سورة يس ٣٦: ٦٩ - ٧٠.

(٢) سورة الفرقان ٢٥: ١.

(٣) سورة سبأ ٣٤: ٢٨.

(٤) سورة الأعراف ٧: ١٥٨.

(٥) سورة آل عمران ٣: ٨٥.

(٦) سورة النساء ٤: ١٢٥.

(٧) سورة التوبة ٩: ٢٩ - ٣٣.

(٨) Muir The Caliphate pp 43 - 44.

(٩) Gaetani, Annali del'Islam, vol v. pp 323 - 324.

الدين لم يهيأ إلا لتلك البلاد، وأن محمداً منذ بعث إلى أن مات لم يوجه دعوته إلا للعرب دون غيرهم، فهل خفيت على ذلك المؤرخ صلة قريش بدول ذلك العهد، وما أتاحته له التجارة من دربة وخبرة بشؤون هذه الأمم وأحوالهم، وأن محمداً بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة ببلاد الشام؟ ـ فقد سافر وهو صبي مع عمه أبي طالب في تجاراته، حتى إذا بلغ خديجة ما بلغها عن خبرته وأمانته ألقت بمالها بين يديه، فكان من مهارته وحذقه ما جعلها تعرض عليه الزواج منها. ثم ظل يشتغل بالتجارة حتى بعث: أفبعد ذلك يمكن أن يقال عن محمد إنه كان لا يعرف غير بلاد العرب، وهو رجل عصامي لم يكسب مركزه الممتاز في مكة قبيل البعثة إلا من ذكاء عقله وكفاية مواهبه؟ وهل يستبعد على محمد الذي خرج من مكة ناجياً بنفسه ونفس صاحبه أن يتخطفهما الناس، لائذاً بأهل المدينة الذين آووه ونصروه، ثم صبر وصابر، حتى عاد إلى مكة بعد ثماني سنين وهو السيد الأمر فيها وفي الجزيرة، تحوم حول شخصه مائة ألف من القلوب أو تزيد، ومن ورائهم كثيرون من أرجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة، يقدم عليه رؤساؤها وأكابرها؟ هل يبعد على هذا الرجل أن يرنو بناظره إلى ما وراء الجزيرة ليبسط عليها سلطانه إن كان من محبي السلطة والحكم، أو ليفيض عليها من فضل الله الذي عمر الجزيرة وملأها عدلاً وأمناً ودعة وحباً؟.

لو قيل إن الإسكندر المقدوني كان يعمل على تكوين إمبراطورية تشمل العالم القديم كله، وتجعله يلتف حول هذا الشاب الإغريقي، لصدقنا. ولو قيل إن نابليون كان يعمل على تكوين إمبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد ليجلس على عرشها الفتى الطلياني، لصدقنا. أما إذا قيل إن محمد بن عبد الله فكر في أن يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب والمتصلين بقريش ـ اتصالاً تعيش عليه قريش وينبني على أساسه كل شيء في البيئة القرشية ـ فذلك أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر أن يقبله، إلا أن يكون تفكير ذلك النبي في هذا الأمر تفكيراً على نحو غامض.

وأما القول بأن هذا الدين «لم يهيأ إلا لبلاد العرب»، فإن ذلك لن يمنع محمداً من التفكير في تعميم دينه، لأن هذا التفكير، سواء تحقق أو لم يتحقق، إنما يعتمد على اعتقاده أن دينه صالح لذلك. وقد ثبت في القرآن أنه كان يعتقد أن الإسلام قد هيئ لكل حالة، وأن القرآن قد تكفل بتبيان كل شيء إذ يقول الله تعالى لرسوله في غير آية: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ [سورة النحل ١٦: ٨٩] ﴿وما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [سورة الأنعام ٦: ٣٨].

ويؤيد دعوى عموم الرسالة بالجنس البشري قول محمد متنبئاً أن بلالاً «أول ثمار الحبشة»

وأن صهيباً «أول ثمار الروم». وكذلك ما قاله عن سلمان الذي كان أول من أسلم من الفرس، وكان عبداً نصرانياً بالمدينة، اعتنق هذا الدين الجديد في السنة الأولى من الهجرة، وهكذا صرح الرسول في وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل؛ يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم في هذه الآيات البينات:

﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ [سورة يونس ١٠: ١٩].

﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ [سورة الأحقاف ٤٦: ٩].

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [سورة البقرة ٢: ٢١٣].

﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [سورة النحل ١٦: ١٢٣].

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [سورة الأنعام ٦: ١٦١].

﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [سورة البقرة ٢: ١٣٥].

﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ [سورة آل عمران ٦: ٩٥ ـ ٩٦].

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [سورة النساء ٤: ١٢٥].

﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين﴾ [سورة الحج ٢٢: ٧٨][1].

ويعزو بعض المستشرقين إلى الرسول أموراً يشمئز منها الذوق السليم ويبرأ منها النقد النزيه. على أن كثيراً من المنصفين قد صرحوا بأن القرآن وحده وما فيه من قواعد العمران وأسس المدنية الحقة، هو الذي أخرج للعالم تلك المدنية التي لا يزالون الأوروبيون يستغلون ثمارها بعد أن وضع لهم القرآن نظمها وأسسها.

---

(١) انظر كتاب الدعوة إلى الإسلام، ترجمة المؤلف ص ٥١.

يريد بعض المستشرقين أن يقلل من أهمية الرسالة ويحكم على الرسول حكماً جائراً يدفعهم إليه التعصب والتحزب وبغضهم للإسلام ومقتهم لنبيه، وذلك بتطبيقهم على التاريخ الإسلامي بعض أنماط من النقد المتطرف وطرقه القاسية، ومن هؤلاء الأب اليسوعي لامانس. فإنه، على الرغم من أنه أحد أولئك الباحثين المحدثين المبرزين ومن أوسع الأخصائيين في تلك الموضوعات اطلاعاً ومن أكثرهم تعصباً وتحيزاً، نراه يحيد عن الطريق السليم حين يعرض المسائل الإسلامية. وقد وقف على مدى هذا التحيز الذي دفعه إلى توجيه حملاته إلى الإسلام والمسلمين كاتب فرنسي معتدل في حكمه هو مسيو: «إميل درمنجم» في كتابه «حياة محمد»[١] يفند في مقدمته ما يقوله لامانس عن الدعوة الإسلامية فيقول:

«إن الأب لامانس يرى مثلاً أنه حين يوافق حديث من أحاديث الرسول بعض آي من القرآن، أن الحديث قد وضع ودس على محمد، اعتماداً على ورود معناه في القرآن وتأييد الكتاب له. ومن ثم لا يعتبره الأب لامانس صحيح الرواية، ولا يثق به ولا يعتمد عليه. فحدثني بربك كيف يمكن تدوين التاريخ إذن؟ إذا كان كلما اتفقت شهادتان واجتمع دليلان، فبدلا من أن تقوى إحداهما الأخرى وتزكيها، فإنها تكذبها وتجرحها. يمكن أن يكون الحديث قد وضع لشرح بعض النصوص القرآنية، أو للأخذ بظاهر اللفظ القرآني، ولكن على الرغم من كل ذلك، قد يكون ما يذكره الحديث حقاً في كثير من الحالات إن لم يكن صحيحاً في أغلبها، وليس أمام المؤرخ الذي يجهل طرق النقد وسائل أخرى ممكنة يستطيع أن يعتمد ويتصرف بها سوى نقل الخبر وروايته. فمثلاً الحديث الذي يعزو إلى محمد حب العسل: يحتمل أن يكون وضع بناءً على أن القرآن امتدح في العسل خواصه الصحية الصافية؛ كما يحتمل أن يقال إن محمداً إنما نصح وأوصى بأكل العسل لأنه كان يحبه ويجده صحياً، وأيضاً لأن العسل في نفسه صحي وجدير بأن يوصي باستعماله. فكيف يستطيع راوي الحديث أن يتصرف في روايته أكثر من أن يسند الحديث إلى الرسول؟ وكيف يستطيع أن يذكر ذلك بدون أن يقاسي شكوك العالم المحدث؟».

ومهما يكن من نقد هؤلاء المستشرقين، ولا شك أن الرسول قد نهض ببلاد العرب، ووحد كلمة رجال قريش وزعمائهم وأُولي الرأي فيهم، ووجه شعارها الديني الغامض بعد أن خلع عليه قالباً عملياً واضحاً نحو دين آخر، هو أشد صفاءً وأكثر نقاءً مما ألفوه في وثنيتهم الأولى.

قال فنلي[٢]. قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على

---

(١) Dermenghem: La Vie de Mahomet (Paris, 1929), pp. V - VI.

(٢) Finlay: Greece Under The Roman, Chapter V. p. 2.

عقول أتباعه وأعمالهم، ووضعت عبقريته أساس دين سياسي ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة. إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الأسيوية، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي، لدليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورعوس والإسكندر.

٢ ـ الأثـر الدينـي

(أ) القرآن بين عهدين:

بعث الرسول ﷺ على رأس الأربعين من عمره، واختاره الله تعالى لجواره وله من العمر ثلاث وستون سنة بعد أن بلغ رسالته وأدى أمانته. وقد ظل الوحي يواتيه طوال تلك المدة بأحكام الله وما شرع لعباده، ينزل عليه بين الحين والآخر بالآية والآيات في حل ما يعرض له من مشكلات وتذليل ما يعترض مهمته من عقبات ينير له الطريق ويرسم الخطط.

ومن هذه الحوادث الجسام التي امتلأت بها حياة الرسول وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته، حادث عظيم فذ، هو هجرته إلى المدينة والتجاؤه إلى من آمن به من أهلها ليؤوه وأصحابه، وليحموا دعوته مما نصبت لها قريش. تلك الهجرة قسمت حياة الرسول إلى عهدين، تطورت فيهما طرقه في تبليغ الرسالة. فكان الرسول قبل الهجرة يناقش قريشاً في المبادىء العامة ويختلف وإياهم في الألوهية. وهل أساسها التوحيد أم تعدد المعبودات، ويخوفهم بيوم القيامة ويرهبهم بما فيه من بعث وحساب يتبعه ثواب أو عقاب، ويطالبهم بانصاف نسائهم وعبيدهم ويسوي بين فقيرهم وغنيهم، قال الرسول الكريم في حجة الوداع «كلكم لآدم وآدم من تراب». وقال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [سورة الحجرات ٤٩ : ١٣]. ويدعوهم إلى أن في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم، مما أثار حنق قريش وحفيظتها عليه، فأخذته وأصحابه بصنوف التعذيب والتنكيل، ليصرفوه عن دعوته ويمنعوه عن الاتصال بالناس حتى تموت الفكرة وتقبر في مهدها.

فلما هاجر الرسول إلى المدينة أخذ يفصل ما أجمل في العهد المكي من أمور العبادة ومبادىء الأخلاق، كما وضع النظريات العامة، وشرع للمسلمين نظم المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق، وحرم المنكرات كالخمر والزنا والميسر، وقرر الحدود والقصاص.

وصفوة القول أن الرسول أخذ ينظم أمر تلك الجماعة الصغيرة الناشئة التي حاطه أفرادها بقلوبهم وأرواحهم، ويشرع لها نظماً لمعاملاتها. وهو في ذلك كله لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في بث الدعوة وتبليغ الرسالة. وكان القرآن في ذلك كله ساعده الذي لا يخذله ومدد الله إليه الذي لا يتأخر عنه عند الحاجة، فيه ناقش المشركين في مكة أمهات مسائل الدين وقضاياه

الكلية، وسفه آلهتهم وعاب نظامهم الاجتماعي.

كذلك كان القرآن رائد الرسول في المدينة حين كان يناقش اليهود الذين استعانت بهم قريش في الغض من دعوته، والذين استكثروا على العرب الأميين أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه؛ كما كان مرجعه الوحيد حين كان يحاسب هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب على ما غيروا وبدلوا في دينهم وكتبهم.

(ب) تحويل القبلة:

وبينما كان الرسول يعمل على نشر الدعوة في خارج المدينة كان يفكر في أمر القبلة، ويقلب وجهه في السماء ينتظر الوحي من عند الله، لأنه كان في مكة يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس في صلاته[١]، وظل الرسول يصلي قبل بيت المقدس إلى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، حين أمره الله سبحانه وتعالى بالتحول إلى الكعبة بدلاً من بيت المقدس. وكانت الكعبة بيت إبراهيم، ومعقد فخار العرب واحترام قبائلهم جميعاً.

وقد اتخذ اليهود من اتجاه الرسول إلى بيت المقدس في صلاته ذريعة لمجادلته بما يعلمون وما يعلمون، كما حاولوا فتنة المسلمين ليوقعوا بينهم، وصار بعضهم يقول: نحن علمنا محمداً قبلته ولولانا ما درى إلى أين يتجه[٢]. وتعجب بعض آخر من محمد الذي يخالف دينهم ويتبع قبلتهم.

روى ابن هشام[٣] عن ابن إسحاق أنه «لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشرة شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة، أتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس، وفردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق فقالوا: يا محمد! ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك. وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه؛ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [سورة البقرة ٢ : ١٤٢].

وقد ألقى في روع الرسول إذ ذاك أن الله محوِّله عن قبلتهم هذه، لأن من سنة الله تعالى أن يجعل لكل وجهة قبلة هو موليها قال تعالى: ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ [سورة البقرة ٢ : ١٤٨] ولأن الله ما جعل القبلة إلى الكعبة إلا ليمتحن المسلمين ليعلم من يتبع الرسول ممن

---

(١) تفسير الطبري، الفخر الرازي، سورة البقرة ٢ : ١٤٢.
(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ١٧٦.
(٣) جـ ٢ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

ينقلب على عقبيه لذلك توقع الرسول الوحي في أمر القبلة وانتظر حكم الله فيها. فأنزل الله عليه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ [سورة البقرة ٢: ١٤٤]. وإنما أمر الله الرسول بذلك ليقضي على تخرصات اليهود ويدحض حجتهم وحجة المشركين الذين كانوا يقولون إن محمداً يدَّعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته. وقد أشار القرآن إلى أن أمر القبلة وتحولها يعرفه أهل الكتاب[1]، ولكنهم يثيرون الشبهات ويعرضون على الرسول أنه لو عاد إلى قبلتهم، لكانوا يرجون أن يكون صاحبهم الذي ينتظرونه ـ كل ذلك ليفتنوه فيتبع قبلتهم، فأجاب الله عن ترهاتهم بأن لله المشرق والمغرب. وبأن لكل شريعة قبلة كما يعلمون، ثم أيأسهم من رجوع الرسول إلى قبلتهم، فقال تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم﴾ [سورة البقرة ٢: ١٤٥].

«أما تعيين القبلة في الصلاة فقد ذكروا فيها حكماً: أحدها أن الله تعالى خلق في الإنسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات، وقوة خيالية منصرفة في عالم الأجسام. وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها. فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلي مجرد، وجب أن يضع له صورة خيالية يحسنها، حتى تكون له تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعاني العقلية. ولذلك فإن المهندس إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير وضع له صورة معينة وشكلاً معيناً، ليصير الحس والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم الكلي. ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم، فإنه لا بد أن يستقبله بوجهه، وأن يكون معرضاً عنه، وأن يبالغ في الثناء عليه لسانه، ويبالغ في الخدمة والتضرع له، فاستقباله القبلة في الصلاة يجري مجرى كونه مستقبلاً للملك لا معرضاً عنه، والقراءة والتسبيحات تجري مجرى الثناء عليه والركوع والسجود يجري مجرى الخدمة. . وثالثها أن الله يحب الموافقة والإلفة بين المؤمنين. وقد ذكر المنة بها عليهم حيث قال: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [سورة آل عمران ٣: ١٠٣]. ولو توجه كل واحد في صلاته إلى ناحية أخرى لكان ذلك يوهم اختلافاً ظاهراً، فعين الله تعالى لهم جهة معلومة وأمرهم بالتوجه نحوها ليصل لهم الموافقة

---

(١) يقول البيضاوي في ذلك: «لعلمهم بأن من عادة الله وسننه تخصيص كل شريعة بقبلة، ولتضمن كتبهم أن النبي ﷺ يصلي إلى القبلتين». كما يشير إلى أن قبلة اليهود الصخرة ببيت المقدس، وقبلة النصارى مطلع الشمس. ويروي أيضاً أن من أوصاف النبي في التوراة التي كانت بين أيديهم أن قبلته الكعبة.

بسبب ذلك. وفيه إشارة إلى أن الله يحب الموافقة بين عباده في أعمال الخير(١).

(ج) أركان الدين:

لم يكن للعرب قوانين معروفة، فقد كانوا يرجعون إلى رؤسائهم فيما ينشأ بينهم من خلاف، حتى جاء الإسلام بقانون سماوي هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فنظم المعادلات، كما شرع المسلمين العبادات(٢): كالصلاة والصوم والزكاة والحج لتوجههم نحو الخير، ولتكون صلة بين العبد وربه.

شرعت الصلاة لتكون رمزاً لشكر المنعم على بعض آلائه، وليلتمس بها المسلم العون من الله سبحانه خالق الكون وبارئه، وشرع الصوم لتقوى به الروح على كبح جماح النفس إذا طغت المادة، لما فيه من كسر حدة الشهوات الجسمية التي تعوق الروح عن السمو اللائق بالإنسان.

ولا غرو فإن النفس لا تكاد تقارب الكمال من تلك الرياضة حتى تحس ألم الجوع والحرمان، فتعطف على الفقير والمحروم، وتتجاوز عن اليسير من المال للعائل والعاني. وهذه هي حكمة مشروعية الزكاة. فإذا اطمأنت نفس المسلم وآمن بما عليه من حق نحو بني جنسه، وبذل هذا الحق عن حب ورضى، علم أن هذا الحق ليس مقصوراً على المال، بل ثمة أنواع أخرى من التعاون ليست دون المال نفعاً. ولما كان الإسلام دين وحدة وتعارف وإلفة، شرع لهم الحج يجتمع فيه القادرون من المسلمين.

ومن أصول الإسلام الإيمان بالبعث في يوم القيامة، حيث يبعث الإنسان ويجازى على عمله ﴿يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل متقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [سورة الزلزلة ٩٩: ٦ ـ ٨].

٣ ـ الأثر الاجتماعي

(أ) تنظيم المعاملات:

حرم الإسلام سفك الدماء، ومنع أن يأخذ صاحب الثأر ثأره بنفسه، بل جعل ذلك إلى الإمام وحده وأوصى الإمام وحثه على القصاص من القاتل. قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص

---

(١) تفسير الفحر الراري، سورة البقرة ٢ ١٤٢ ـ ١٥٠

(٢) شرعت الصلاة والركاة في مكة. وأما كيفية إقامة الصلاة ومصارف الزكاة ومقاديرها فلم يشرع إلا في المدينة. ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الركاة وما تقدموا لأنفسكم من حير تحدوه عند الله﴾ [سورة البقرة ٢: ١١٠]. كما شرع بها الصوم سنة ٢ هـ وفي دلك يقول الله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ [سورة البقرة ٢: ١٨٣]. والحح سنة ٦ هـ لقوله تعالى ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ [سورة آل عمران ٣. ٩٧].

حياة يا أولي الألباب﴾ [سورة البقرة ٢ : ١٧٩]، كما حث على العفو، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ [سورة البقرة ٢ : ١٧٨]. كما جعل الدية لولي المقتول خطأ، قال تعالى : ﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾ [سورة النساء ٤ : ٩١]. وكذلك نهى الإسلام عن الربا حتى لا تضيع المروءة بين الناس ويفرق الشره والتكالب على المادة كلمتهم. كما نهى عن أكل أموال الناس بالباطل. قال تعالى : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ [سورة البقرة ٢ : ٢٧٧]. ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾ [سورة البقرة ٢ : ٢٧٨ ـ ٢٨٠].

كما وضع الإسلام الكثير من الأسس والمبادىء العامة التي تنظم المعاملات بين أفراد جماعة المسلمين كالبيع والشراء. وعني عناية كبيرة بالأسرة، فشرع الزواج والطلاق، وفرض النفقة للزوجة على زوجها، وللابن على أبيه، وللأب على ابنه. وسمي عقد الزواج ميثاقاً غليظاً كما وصفه بأنه علاقة مودة ورحمة، وجعل للمرأة على زوجها المهر والنفقة، ولم يحدد نهايته. ونهى عن الزواج بالمشركات، وحرم التزوج بالأم والأخت ومن يشبههما، قال تعالى : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعتكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم. وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ [سورة النساء ٤ : ٢٣].

وأباح الإسلام التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، ولكنه اشترط العدل ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ [سورة النساء ٤ : ٣]. كما بين أن العدل بينهن من أصعب الأمور ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل﴾ [سورة النساء ٤ : ١٢٩].

كذلك حرص الإسلام على أواصر القرابة من أن تعبث بها الغيرة، كما حث على التمسك بالفضائل والآداب العالية كالاستئذان ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم﴾[سورة النور ٢٤ : ٢٧ ـ ٢٨]. والتحية إذ أمر برد التحية بمثلها أو بأحسن منها ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو

ردوها﴾ [سورة النساء ٤ : ٨٦]. وأمر كلا من الرجال والنساء بغض الطرف ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة(١) من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [سورة النور ٢٤ : ٣٠ - ٣١].

وكذلك اهتم الإسلام كثيراً بمسألة العهد اوالميثاق، قال تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ [سورة النحل ١٦ : ٩١]. وقال: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ [سورة التوبة ٩: ٤]. وجعل القتيل من القوم المعاهدين للمسلمين في درجة المقتول من المسلمين أنفسهم فقال: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ [سورة النساء ٤٠ : ٩٢]. وهذه دية المسلم نفسه.

(ب) مركز المرأة في الإسلام:

يظن بعض علماء الاجتماع أن الإسلام هضم المرأة حقها، حيث أعطاها نصف نصيب الرجل في الميراث، وجعل الرجل يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وجعل الطلاق بيد الرجل، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة، فحرمها كثيراً من الحقوق التي يتمتع بها الرجل.

كانت المرأة في العصور القديمة والوسطى عند اليونان والرومان وغيرهم كالمتاع أو كالحيوان: فلم يكن لها حق في التملك عن أي طريق، ولم يكن لها ميراث أصلاً، كما لم يكن لها حظ من التعليم(٢).

أما الإسلام فقد أوجب تعلم العلم عن كل مسلم ومسلمة، كما أوجب على أمهات المؤمنين تلاوة القرآن وتعلم العلم ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [سورة الأحزاب ٣٣: ٣٤]. ناهيك بعائشة أم المؤمنين التي اشتهرت بالرواية والفقه والفتيا والتاريخ

---

(١) الإربة والأرب، بالكسر والضم في الهمزة: الحاجة والخبث والدهاء والمكر والقائلة.

(٢) حقيقة أن الأمية في الجاهلية كانت تشمل الرحل والمرأة على السواء، وإنما المقصود من هذا التعليم والتهذيب هو حرمانها من المحالس والاختلاف إلى مجالس التهذيب والثقافة عند العرب.

والنسب ورواية الشعر والطب وعلم النجوم، حتى لقد قال فيها الرسول «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء». وقد اشتركت في الخلاف السياسي وقادت المسلمين يوم الجمل، وكذلك أختها أسماء بنت أبي بكر وأم عبد الله بن الزبير التي اشتهرت برواية الحديث[١]. «وظهر كثير من النساء في الحرب التي قامت بين علي ومعاوية، فخضن غمارها وقدن الجيوش فيها: كأم الخير بنت الحريش البارقية، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمذانية، وعكرمة بنت الأطرش، وأم سنان بنت حشيمة بن خرشة المذحجية[٢].

كما سوى الإسلام بين المرأة والرجل في جميع الحقوق تقريباً، فأباح للمرأة ما دامت من أهل التصرف في مالها أن تتزوج بنفسها، وأن توكل غيرها في زواجها دون اعتراض عليها، كما أباح الشارع للمرأة أن تشترط في عقد الزواج أن يكون أمرها في يدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت.

وقد يعترض أحد على قسمة المواريث التي جعلت للمرأة نصف نصيب الرجل، فيتوهم أن في هذا إجحافاً بحقوقها. على أننا نجد أن حظها قد زاد إذا عرفنا أن المرأة مكفولة بالرجل في معظم أدوار حياتها، وأنه يجب عليه شرعاً أن ينفق عليها. «فإذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف، فإن تقدير الشارع لها حظاً من المواريث غاية في الرأفة بها ومراعاة جانبها والعناية بشأنها». فأين حجر الإسلام على المرأة؟ وأين التضييق عليها مع هذا التسامح[٣]؟.

وقد أباح الإسلام الطلاق على أنه ضرورة، وقال فيه الرسول: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». كما اتفق فقهاء المسلمين على النهي عنه عند استقامة الزوجين؛ فمنهم من قال إنه نهي كراهة، ومنهم من قال إنه نهي تحريم. ورأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب مستدلين بأنه إضرار. كما نهي الرسول عن ذلك في قوله: «لا ضرر ولا ضرار» ويروى أنه كره أن يطلق زيد زوجته زينب بنت جحش لأنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به؛ وطالما كان يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

واختلف الفقهاء في الأسباب التي تسوغ الطلاق. قال ابن عابدين: «أما الطلاق فالأصل فيه الحظر أي الحرمة، والإباحة للحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق ووجود البغضاء». فإذا تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعاً كان محظوراً. قال تعالى: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا

---

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ٤٥، ٤٨. عمدة القاري جـ ١ ص ٢٨. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٥ ص ٤، ٥. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية جـ ٤ ص ٢٧٩، ٢٨١:

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٥٨.

(٣) عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة ص ٨٦.

عليهن سبيلاً﴾ [سورة النساء ٤ : ٣٤] أي لا تطلبوا الفراق.

وجعل الإسلام الطلاق بيد الرجل، لأن الرجل هو المسؤول عن الأسرة وتدبير معاشها وتربية الأبناء؛ ورباط الزوجية هو أساس هذا كله، فمن الخطر أن يوضع في يد غير مسؤولة. ذلك إلى ما يعرف في طبيعة النساء من سرعة الانفعال والتأثر بأوهى الأسباب، فلو وضعت العصمة في يدها لتعرضت للخطر عند حدوث أقل المؤثرات.

على أن هذا الدين قد عوض المرأة ما عسى أن تخسره من جعل الطلاق بيد الرجل، فوضع الإسلام للرجل قيوداً، ورسم له خطة من شأنها أن تحول بينه وبين العبث برباط الزوجية والتخلص منه لسبب غير معقول: فكلفه أن يدفع للمرأة صداقها، ومنعه أن يأخذ من ذلك الصداق شيئاً عند الفراق، حتى يكون في هذه الخسارة المالية وما سوف يحتاج إلى بذله للزوجة الجديدة ما يحول بينه وبين الطلاق إن كانت له مندوحة. ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾؟ [سورة النساء ٤ : ٢٠]. كما نصحه أن يعرض ما بينه وبينها من خلاف على حكمين من أهله وأهلها وجاء التوفيق ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ [سورة النساء ٤ : ٣٥].

كما أمره بإحسان معاملتها ورعايتها، وخوفه من الإقدام على فسخ عقدة الزواج أو التفريط في شأنها تخويفاً دينياً ومادياً ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [سورة النساء ٤ : ١٩]. وفي الحديث «إن أبغض الحلال عند الله الطلاق».

وقد أخذ مشرعو أوروبا اليوم بما عابوه على الإسلام بالأمس، فشرعوا الطلاق بعد أن ألجأتهم إلى تشريعه الحاجة الملحة والضرورة القصوى، وبعد أن ظهرت لهم حكمته ووجهة نظر الإسلام في تشريعه وإليك ما يقوله بعض فقهائهم: «الطلاق شر ولكنه شر لا بد منه لصلاح المجتمع، لأنه العلاج الوحيد لشر قد يكون أكثر منه بلاءً. وتحريم الطلاق ـ بما فيه من ضرر ـ بمثابة تحريم ممارسة فن الجراحة، لأن الجراح سوف يضطر إلى بتر بعض أعضاء المريض. على أنه ليس ثمة خطر من شرعية الطلاق، إذ ليس الطلاق هو الذي يفسد الحياة الزوجية ويحل عراها المقدسة، وإنما هو سوء التفاهم الذي يقع بين الزوجين ويعوق إحكام هذه العروة ويدك صرحها. والطلاق وحده هو الذي يضع حداً لما عساه ينشأ بين الزوجين من نفور قبل أن يستفحل ويصبح شراً مستطيراً على المجتمع»[1].

---

(١) **Planiol et Ripert**: Traité élémentaire de Droit Civil (Paris, 1932). tome 1, p. 404.

كما جعل الإسلام للمرأة الحق في المطالبة بالتفرقة بينها وبين زوجها إذا وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك وأجاز لها أن تتفق مع زوجها، على أن يكون من حقها حل رباط الزوجية. ولو فاتتها كل هذه الفرص فإنها تستطيع أن تتفق معه بعد الزواج على الفرقة، بشرط أن تعوضه عما يتعرض له من خسارة. قال تعالى: ﴿فإن خفتم ألّا تقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ [سورة البقرة ٢ : ٢٢٩]. على أن القرآن قد حذر الرجل من مساومة المرأة وإساءة معاملتها، لكي يبتز مالها ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ [سورة النساء ٤ : ١٩].

وأما أن الرجل يصح له التزوج بأكثر من واحدة فيرجع إلى أن هذا خير طريق للإكثار من النسل، وخاصة في البيئات التي تحتاج إلى كثرة الأيدي للحرب أو العمل كالبلاد الزراعية. وكان الرسول يعلم أن المسلمين مكلفون بالجهاد في سبيل الدعوة، فزواج بعض العرب بأكثر من واحدة كفيل بأن يعوض على المسلمين ما يفقدونه في جهادهم، ويعوض الكثير من النساء عن أزواجهن الذين فقدوا في الحرب، وهو سبيل لتلافي زيادة عدد البنات اللاتي بلغن سن الزواج ولم يتزوجن.

أضف إلى ذلك أن المرأة قد تكون عاقراً أو مصابة بمرض، ولكن مصلحتها تقتضي بقاءها مع زوجها. على أن الإسلام، وإن كان قد أجاز التزوج بأكثر من واحدة، فقد أجازه بشرط ليس من اليسير تحقيقه على أكمل وجه وهو العدل بين الزوجات.

(جـ) زوجات الرسول:

كانت السيدة خديجة عون الرسول على الشدائد كما كانت وزير صدق للإسلام. وقد توفيت في السنة العاشرة من نزول الوحي قبل الهجرة بثلاث سنين. وسمي هذا العام عام الحزن، حيث كانت الفاجعة فيه مزدوجة، بوفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه من العرب، وزوجه خديجة التي كان يسكن إليها. يقول ابن سعد[١]. «وجد الرسول ﷺ على خديجة حتى خشي عليه». وكان هذا الحزن يمنعه من التفكير في أمر الزواج حتى ساق الله إليه خولة بنت حكيم، وقد قالت له: يا رسول الله! كأني أراك قد دخلتك خلة (حاجة) لفقد خديجة فقال: أجل! أم العيال وربة البيت. قالت: أفلا أخطب عليك؟ قال: بلى! فإنكن معشر النساء أرفق بذلك. فخطبت عليه سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤي. وخطبت عليه عائشة بنت أبي بكر فتزوجها، فبنى بسودة بمكة ولعائشة يومئذٍ ست سنين حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة». وكان زواج الرسول بسودة بنت زمعة في شهر رمضان سنة عشر من النبوة، ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر في المدينة. وكان صداق الرسول اثنتي عشرة أوقية ونشا ـ أي خمسمائة درهم ـ لأن

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤١

الأوقية أربعون درهماً والنش عشرون[١].

كان الرسول يحب عائشة حباً جماً ويعطف عليها كل العطف. فقد روي عنها أنها قالت: كنت ألعب بالبنات (اللعب)، ويجئن صواحبات لي فيلعبن معي؛ فإذا رأين رسول الله ﷺ انقمعن[٢] منه، فكان رسول الله يدخلهن فيلعبن معي[٣].

وعن عائشة أيضاً قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك فهبت ريح، فكشفت ناحية من ستر على صفة في البيت عن بنات لي، فقال: وما هذا يا عائشة؟ قلت: بناتي. ورأى بينهن فرساً لها جناحان من رقاع[٤] قال: وما هذا الذي أرى وسطهن؟ قلت: فرسي. قال: وما هذا الذي عليه؟ قلت جناحان. قال: جناحان؟ قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه[٥].

ولا غرو فقد تمتعت السيدة عائشة بمنزلة لم تتمتع بها امرأة غيرها من زوجات الرسول إلا خديجة. وإنا لنجد مظهر ذلك الحب بادياً في كلام الرسول لعائشة، وفي كلام عائشة نفسها، وفي كلام زوجات الرسول والصحابة. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: يا عائشة! حبك في قلبي كالعروة الوثقى. وكانت السيدة عائشة تسأله من وقت لآخر: كيف حال العروة يا رسول الله؟ فيقول لها: إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل[٦]. وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا الحب وتعلم مكانتها عند الرسول، تقول في حديث لها: ولقد كانت زينب بنت جحش وأم سلمة لهما عنده مكان، وكانتا أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدي. وكانت زوجات الرسول يعلمن هذه المكانة، فلما كبرت سودة بنت زمعة وخافت أن يفارقها الرسول وهبت يومها لعائشة دون سواها[٧]. وقد غضبت زينب بنت جحش حين رأت أن عائشة قد ملكت قلب الرسول[٨].

ولعل قائلاً يقول: إذا كانت هذه مكانة عائشة من الرسول، فلماذا تزوج عليها، وفي هذا ما فيه من الإساءة إليها؟ ظن بعض المستشرقين ومن يجهلون حقيقة ما يرمي إليه الإسلام، أن الرسول تزوج بعد موت خديجة بغير امرأة، وعابوا عليه ذلك، ولم يدروا أن هذا الزواج كان لأغراض دينية وسياسية. فقد تزوج الرسول جميع زوجاته بعد موت خديجة وهو في سن

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١١٥، ١٥٧.

(٢) أي دخلن في بيت أو من وراء ستر وأصله من القمع الذي على رأس الثمرة، أي دخلن فيه كما تدخل الثمرة في قمعها. النهاية في غريب الحديث جـ ٣ ص ٣١١.

(٣) ابن سعد جـ ٢ ص ٤٥.

(٤) الرقاع بالكسر جمع رقعة بالضم وهي الخرقة التي يرقع بها الثوب، يريد أن جناحي الفرس كانا من الرقاع.

(٥) زيني دحلان: السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٣٠.

(٦) الألوسي روح المعاني جـ ٢ ص ٧٥٣. (٧) ابن سعد جـ ٨ ص ٣٦، ٨١.

(٨) محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري: السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ٣٩.

الخمسين أو بعدها[1]. أضف إلى ذلك أنه كان يحب عائشة حباً جماً، ويعمل على إرضائها، ولم يتزوج بعدها بامرأة لجمال أعظم من جمالها. وبذلك أصبح من اليسير أن ندرك أن ذلك إنما كان لأغراض سياسية ودينية فحسب.

وكان من أثر تلك الأغراض الانتفاع بالمصاهرة واتخاذها وسيلة لاجتذاب عطف القبائل. يفسر لنا هذا أن أكثر زواجه كان من قريش سيدة العرب؛ كما كان لتأليف القلوب إلى الإسلام دخل كبير في زواجه عليه الصلاة والسلام. أضف إلى ذلك ما كان لرأفته وعطفه على من ذل بعد عز من أثر في زواجه ببعض زوجاته، فقد تزوج من جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وصفية بنت حيي سيد بني النضير ليتم له إسلام قومهما، لا لتأثير جمالها كما يقولون، فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك، وهو الذي يقول في المرأة: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2]، وهو الذي تفيض الروايات في وصف حبه لعائشة طوال حياته.

وتزوج الرسول أم سلمة، وهي امرأة مسلم مات في سبيل الله والدفاع عن الإسلام، تطييباً لقلبها وإثابة لها عن زوجها، كما تزوج حفصة بنت عمر تطييباً لقلبها عن زوجها المتوفي ومكافأة لأبيها عمر، ومكانته في نصرة الدين على ما نعلم.

وأما زينب بنت جحش فكان زواج الرسول منها لأغراض تشريعية. فقد كان العرب يحرمون في جاهليتهم الزواج بزوجة المتبنًّى، لاعتقادهم أن زوجة المتبنًّى كزوجة الابن من الصلب، فتزوجها الرسول إبطالاً لهذا الزعم. ولما خشي أن يتقول عليه اليهود والمنافقون ويرمونه بأنه خرج على هذه التقاليد نزل قوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً﴾ [سورة الأحزاب ٣٣: ٣٧].

أضف إلى ذلك أن الرسول تزوج زينب للمحافظة على كرامتها بعد زواجها، بمولى، فقد كانت ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول الذي خطبها لمولاه زيد بن حارثة، فعز على أهلها أن تتزوج من مولى، ولكنهم لم يروا بداً من إجابة الرسول. فلما تزوج بها زيد أظهرت له من الشمم والعظمة ما لم يتحمله، فشكا ذلك إلى الرسول، فأمره بأن يتذرع بالصبر، ولكن الوحي نزل على الرسول بالطلاق، وأمره أن يتزوج هو بها، حسبما لما بين الزوجين من نزاع، وحرصاً على شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى وهي من أشرف بيوت العرب.

---

(١) روى الطبري (جـ ٣ ص ٨٣) أن الرسول حين بعث عبد الرحمن بن عوف إلى دومة (أو دومة الجندل بلد بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، تقع قرب تبوك وهي أول غزوات الشام في السنة الخامسة للهجرة) قال له: «إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم»، مما يدل على أن ذلك كان سياسة من الرسول

(٢) يدعو عليه بالفقر حتى تلتصق يده بالتراب .

على أننا نرى في زواج الرسول بزينب بنت جحش مثلاً أعلى من مثل الديموقراطية التي امتاز بها الإسلام. فليس أمعن في تلك الديموقراطية من أن يتزوج رسول الله بامرأة كانت بالأمس زوجة أحد مواليه، تلك الديموقراطية التي وضع أساسها بخطبة زينب، وهي بنت عمته، وكانت من أشراف العرب، لزيد، وهو من الموالي، ولم يستنكف الرسول أن يتزوج بها بعد أن طلقها زيد.

(د) الرقيق:

سوى الإسلام بين الناس على اختلاف أجناسهم، فسوى بين الأبيض والأسود، والبدوي والمتحضر، والحاكم والمحكوم، وبين الرجال والنساء، كما سوى اليهود والنصارى بالمسلمين ما داموا في سلم معهم.

انظر إلى المسلمين وهم في المسجد يؤدون فريضة الصلاة، أو في مكة يحجون البيت الحرام، أو في المحاكم الشرعية في صدر الإسلام فقد جعل الله المؤمنين إخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاوتون به من الحق، كما يظهر من قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: «أيها الناس إنما المؤمنون إخوة. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى»[1].

روي عن ابن عباس أن أحد الموالي خطب إلى جماعة من بني بياضة وأشار عليهم الرسول بتزويجه فقالوا: يا رسول الله! أنزوج بناتنا موالينا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[2].

وروي في نزول هذه الآية سبب آخر لا يقل عن هذا السبب في الدلالة على مبلغ عناية الإسلام بالرقيق. فقد أمر الرسول بلالاً بأن يؤذن على ظهر الكعبة، فغضب الحارث بن هشام وعتاب بن أسيد وقالا: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة؟.

وكان المسلمون يعاملون الرقيق أحسن معاملة، فقد ظفر الموالي بأسمى الرتب وتسنموا أعلى المناصب. ولنضرب لذلك مثلاً زيد بن حارثة وابنه أسامة الذي ولي إمرة المسلمين ولما يناهز الثامنة عشرة من عمره.

كان زيد بن حارثة من أحرار العرب ينتهي نسبه إلى كلب. وكان من عجائب الاتفاق أن خرجت به أمه سعدى لتزور قومها بني معن. وبينما هم في الطريق انقضت عليهم خيل من بني

---

(١) عبد العرير حاويش: الإسلام دين الفطرة ص ٧٧ ـ ٧٨

(٢) سورة الحجرات ٤٩. ١٣.

القين بن جسر، فأسروا زيداً وساقوه إلى سوق عكاظ، حيث اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم. وظل زيد في خدمة خديجة إلى أن تزوجت من الرسول عليه الصلاة والسلام فوهبت له زيداً. وقد وجد عليه أبوه وجداً شديداً ورثاه بقوله:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فعل أَحَيٌّ يرَجَّى أم أتى دونه الأجلْ
تذكرنيه الشمسُ عند طلوعها وتَعْرِضُ ذكراه إذا قاربَ الطَّفَل(١)

وقد حج قوم من كلب فرأوا زيداً، فعرفهم وعرفوه فقال: أبلغوا أهلي هذه الأبيات:

أحِن إلى قومي وإنْ كنتُ نائياً بأني قطينُ البيتِ عند المشاعرِ(٢)

فانطلقوا، فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه، فقدم مكة، فسأل عن النبي فقيل: هو في المسجد، فدخل عليه فقال: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه! أنتم أهل حرم الله، تفكون العاني وتطعمون الأسير: حئناك في ولدنا عندك، فأمنن علينا وأحسن في فدائه، فإنا سنرفع لك، قال: وما ذاك؟ قالوا: زيد بن حارثة: فقال أو غير ذلك؟ ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء. فدعاه الرسول فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم! هذا أبي وهذا عمي، قال: فأنا من قد علمت، وقد رأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم. فقال أبوه: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية؟ قال: قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى الرسول ذلك، أخرجه إلى الحجر فقال: اشهدوا أن زيداً ابني، يرثني وأرثه. فلما رأى ذلك أبوه وعمه، طابت أنفسهما وانصرفا.

ثم بث الرسول وأخذ ينشر تعاليم الإسلام السمحة، وجعل المؤمنين إخوة، لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق. وكان زيد من المسلمين الأولين حتى لقد قيل إنه رابع أربعة دخلوا في الإسلام وهم: خديجة، وأبو بكر، وعلي، وزيد. وقد شهد زيد غزوة بدر الكبرى، وكان البشير الذي حمل إلى أهل المدينة أنباء انتصار الإسلام على الكفر. وشاء الرسول إلا أن يعبر لزيد عن محبته له وإيثاره إياه وحدبه عليه فزوجه من مولاته أم أيمن، فولدت له ابنه أسامة. بل لقد خصه الرسول بعطفه، فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش كما تقدم. قالت عائشة: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليها، ولو بقي لاستخلفه بعده. وروى الزهري أن الرسول استخلف زيداً في بعض أسفاره، فلا عجب إذا ظفر زيد، وهو أحد موالي الرسول، بعطف مولاه، وغدا موضع ثقته ومحل رعايته، حتى أطلق عليه

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٣ ص ٢٥

(٢) لم يذكر ابن حجر إلا هذا البيت.

المسلمون، زيد بن محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ فسمي زيد بن حارثة(١).

«على أن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلاً. ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم إلا على إعلاء كلمة الله تعالى بشرط أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم، أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم كعبدة الأوثان، فقد قال مالك والشافعي وأحمد في إحدى رواياته إن ذلك لا يجوز مطلقاً.

وقد حاول الإسلام جهده أن يلغي ذلك النظام ويحول دون انتشاره بشتى الوسائل. فقال فقهاء المسلمين إن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله،وإن مجرد دخول العدو المحارب دار الإسلام أمان له من السبي.

على أن الإسلام لم يَنِ في تعبيد الطريق لإلغاء الرق. فما فتىء الرسول يرغب الناس في تحرير الرقيق، كما جعل في هذا الدين أموراً يلزم فيها السيد بالإعتاق. من ذلك إخبار الرسول أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادات وأقربها قبولاً عند الله، وأنه كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الإيمان وفي القرآن غير آية جعلت فك الرقاب أولى العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى ربه.

على أن الإسلام، وإن لم يجد بداً من إباحة الرق، لم يترك الأرقاء هملاً، فقد نظم شؤونهم وأخذ بأيديهم في طريق الحرية، فسوى بين الرقيق ومولاه في الطعام والشراب واللباس، وفي التعليم والتهذيب، وسواهم بسادتهم في معظم الحقوق المدنية، اللهم إلا في الولاية (أي الرياسة)، كما حثّ على معاملتهم بالحسنى، ورغب المسلمين في تحرير من بأيديهم من الأرقاء وحذرهم من إساءة معاملتهم.

واعتبر الإسلام الرق عارضاً، ولذلك شرع عدة وسائل للنهوض بالأرقاء ومساعدتهم على استرداد حريتهم واستقلالهم. قال تعالى: ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال اللّه الذي آتاكم ﴾ (سورة النور ٢٤: ٣٣).

وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن مكاتبة العبد مستحبة، وللامام أحمد بن حنبل في رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده إليها على قدر قيمته أو أكثر، وأن للعبد الاتجار ليحصل على ما يدفعه لسيده من نحوم (أقساط) الكتابة، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء

وإذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما بقي من المال المتفق عليه، فالحنفية تجبره على

---

(١) ابن حجر حـ ٣ ص ٢٦.

الأداء حرصاً على تحريره . وإذا لم يكن معه مال ـ ولكنه كان قـادراً على الكسب ـ فـالمالكيـة تجبره على الكسب ما دام قادراً عليه . ويشترط الفقهاء أن يراعى في عقد الكتابة حـال الرقيق ، كما يزون أن أقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضرورياً(١) . كما رغب الإسلام في إعتاق الرقيق بدون مقابل ابتغاء وجه الله . قال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فـك رقبة أو إطعـام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ﴾ (سورة البلد ٩٠ : ٨ ـ ١٦) .

ولم يترك الإسلام فرصة من فرص التحرير إلا انتهزهـا ، فسن طريقـة التدبيـر ، وهي أن يوصي السيد بأن يكون مولاه حراً بعد موتـه . واتفق الأئمة على أنـه لو كـان في يد إنسـان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده ، فكذبـه الغلام ، فـالقول للغـلام مع يمينـه أنه حـر . وبتطبيق القاعدة المشهورة « البينة على المـدعي واليمين على من أنكر » ، نجـد أن الشرع اعتبـر حريـة الإنسـان هي الأصل ، وأن الـرق أمـر عـارض ، فكلف من ادعـاه البينـة ، واكتفى ممن أنكـره باليمين . ولا يخفى ما في ذلك من شدة حرص الشارع على تحرير الأرقاء ما وجد إليه سبيـلاً . أضف إلى ذلك إجماع الفقهاء على أنه إذا التقط شخصان لقيطاً ، فادعى مسلم أنه عبده وادعى كافر أنـه ابنه ، فـإنه يقضي ببنوّتـه للكـافر حتى يكـون حراً ، ولا يقضي للمسلم حتى لا يكـون رقيقاً . ومن هذا يتبين لنا مبلغ تقديس الاسلام للحرية .

وللإسلام ـ عدا ذلك ـ وسائل شتى لتحرير الرقاب . فقد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب ، بأن يعطي الأمير أو العامل الرقيق المكاتب ما يستعين بـه على فك رقبتـه ، أو أن يشتري الإمام بمال الصدقة العبيد ويعتقهم .

عن واصل الأحدب قال : سمعت المعرور بن سـويد قـال : رأيت أبا ذر الغفـاري وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألناه عن ذلك فقال: سببت رجلاً فشكاني إلى النبيﷺ، فقال لي النبي: أعيرته بأمه ؟ ثم قـال : « إخوانكم خـولكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كـان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلمتموهم مـا يغلبهم فأعينوهم » . وقال عليه الصـلاة والسلام : « إذا أتى أحـدكم خادمـه بطعـامه ، فـإن لم يجلسه معه ، فلىناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي علاجه »(٢) .

وعن ابن مسعود الأنصاري قال : بينما أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صـوتاً من خلفي : « اعلم يا ابن مسعود » مرتين ؟ فالتفت ، فـإذا رسول اللّه ﷺ ، فألقيت السوط من يـدي فقال :

---

(١) عبد العرير حاويش. الإسلام دين المطرة ص ٨١

(٢) العيبي. «شرح النحاري» حـ ١٣ ص ٢٧ الإحياء للغرالي · ناب حقوق الملوك، علاح الطعام وتحهيره وإعداده.

والله لله أقدر عليك منك على هذا . وبلغ من رحمة الرسول أنه كان لا يطيق أن يسمع أحداً يقول : عبدي أو أمتي ، وأنه أمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك وأن يقولوا : فتاي وفتاتي . وكان لهذه التربية أحسن الأثر في تحرير الأرقاء ونشر المساواة بين المسلمين . روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول رأى رجلاً على دابة وغلامه يسعى خلفه ، فقال : يا عبد الله احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله » .

ولم تكن العناية بالرقيق مقصورة على الرسول ، بل إن ذلك قد تعدى إلى بعض الصحابة . فقد روي أن علي بن أبي طالب قال : إني لأستحي أن أستعبد إنساناً يقول ربي الله . ومن أحسن ما روي عن علي أنه أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة ، فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجاً وأغلاهما قيمة وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق مني بأجودهما لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ، أما أنا فقد كبرت » .

وعني الإسلام بنفسية الرقيق عناية خاصة ، فقال تعالى يطيب خاطرهم ويفتح باب الأمل في المغفرة وحسن الجزاء : ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ . [سورة الأنفال ٨ : ٧٠]. وقال الرسول . « العبد إذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه ، كان له أجره مرتين » ، حتى إن كثيراً منهم كان يتمنى أن يعيش رقيقاً ليكون له أجران .

وقد وصف المستشرق « فان دنبرغ » معاملة الإسلام للرقيق في هذه العبارة : « لقد وضعت للرقيق في الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الإنساني النبيل . ففيها تجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تسير في طليعة الحضارة . نعم : إن الاسلام لم يلغ الرقيق الذي كان شائعاً في العالم ، ولكنه عمل كثيراً على إصلاح حاله ، وأبقى حكم الأسير، ولكنه أمر بالرفق به». فلما جيء بالأسرى بعد غزو بدر الكبرى، فرقهم الرسول على أصحابه وقال : استوصوا بهم خيراً . وقال أبو عزيز بن عمير صاحب لواء المسلمين في بدر : كنت في رهط من الأنصار حتى أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدموا غذاءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا .

٤ ـ الأثر الأدبي

رأى العرب في بلاغة القرآن وروعة أسلوبه ما بهرهم وآثار إعجابهم، فانساقوا إلى تقليده ومحاكاته. وبلغ من افتتان العرب بالقرآن وإعجابهم به أن امتنع بعضهم عن قول الشعر، كما فعل لبيد بن ربيعة أحد أصحاب المعلقات؛ فإنه قدم على الرسول في وفد من قومه، وأسلم

وحسن إسلامه. واستغنى بالقرآن وقراءته عن شعره الذي نبغ فيه، حتى إنه لم يصح عنه في أربعين سنة قضاها في الإسلام إلا بيت واحد:

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

هو في رواية الأغاني:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن وقال: أبدلني الله خيراً منه[١]. شاعت ألفاظ القرآن وطرائفه في جميع القبائل العربية، وأصبحت معروفة لديهم فيما ينشئون من خطب وأشعار. فكان لهم بذلك لغة عامة، وحدت مشاربهم وخلقت فيهم خيالاً متجانساً ومثلاً علياً متحدة.

يقول الأستاذ كرد علي[٢]: «والقرآن أبلغ كتاب للعرب، ولولاه لما كان لهم أدب ولا شريعة ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً﴾ [سورة السجدة ٤١ : ٣]، عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله مع أنهم خصوا بالتحدي[٣]، وكان للفصاحة عندهم المكان الأرفع، فاعترفوا بعد جدال طويل: «أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه على أساليب الكلام المعتاد[٤]. «جعله الله كما قال علي بن أبي طالب: رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاج به، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى».

قال جان جاك روسو أحد مفكري القرن الثامن عشر: «من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه. ولو أنه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة، وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر في شغاف القلوب، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان، لخر ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله! خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار، أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار» وقال كارلايل (Carlyle) أحد كتاب القرن التاسع عشر: «إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن وقولهم بإعجازه لأكبر دليل على تباين الأذواق في الأمم المختلفة. والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة

---

(١) انظر ترجمة لبيد في طبقات الشعراء لابن سلام، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والأغاني جـ ١٤ ص ٧٣
Nichelson Lit Hist of the Arabs, pp 119 - 120.

(٢) الإسلام والحضارة العربية ص ٦٧ وما يليها.

(٣) تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم الغلبة وتحدى صاحبه القراءة والصراع ليظهر أيهما أقرأ وأصرع

(٤) كرد علي. عن كتاب إعجاز القرآن للباقلاني.

وحسن الصياغة» وجاهر كلود فارير في القرن العشرين بأن «آيات القرآن جميلة، تحس تلاوتها، فيها نفحة طاهرة عجيبة، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة، وتدعو إلى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد»[١]

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل[٢] عن توجيه القرآن للناس إلى ما يستطيعون معرفته من أمره: «والقرآن يتحدث عما في الكون من خلق الله حديثاً يوجهنا إلى غاية ما نستطيع معرفته من أمره. فهو يتحدث عن الأهلة، وعن الشمس والقمر، وعن الليل والنهار، وعن الأرض وما خلق فيها، والسماء وزينة كواكبها، وعن البحر يزجي الله الفلك فيه لنبتغي من فضله، وعن الأنعام التي تركبها وزينة، وعن كل ما في الكون من علم وفن. ويتحدث القرآن عن هذا كله، ويدعو إلى النظر فيه وإلى دراسته وإلى الاستمتاع بآثاره وثمراته شكراً لله على نعمته». .

٥ ـ الأثر السياسي

جمع الإسلام قبائل العرب تحت لوائه، وألف بين قلوبهم، وقضى على العصبية الجاهلية فزالت الحزازات القديمة والثارات التي بين القبائل، فخضعوا لحكم النبي وأوامر القرآن بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرقين وبذلك قامت في بلاد العرب حكومة مركزية محترمة عزيزة الجانب؛ وكان حماس العربي للإسلام وولاؤه له لا يقل عن حماسه لوثنيته واستبساله في الذود عنها ومن ثم بذل النفس والنفيس في سبيل نشر الدين وحمايته حتى دانت قبائل العرب وأصبحت ترى في الإسلام رمز وحدتها وشعار مجدها وقد حملهم على الاستماتة في نشر هذا الدين الجديد ما ضمنه لهم من حسن ثواب الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ [سورة آل عمران ٣: ١٦٩ ـ ١٧١].

وقصارى القول أن الإسلام غير أخلاق العرب وساعد على نشر الفضيلة بينهم حتى ظهر منهم رجال كثيرون اشتهروا بالورع والتقوى. إلا أنه كان هناك فريق سموا الأعراب عرفوا بالنفاق، وقد وصفهم الله تعالى في قوله: **﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما** أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم﴾ [سورة التوبة ٩: ٩٧ ـ ٩٨].

ويقول سير توماس أرنولد[٣] نقلاً عن فون كريمر: «وقد جمعت فكرة الدين المشترك

---

(١) انظر كتاب الإسلام والحضارة للأستاذ محمد كرد علي ص ٦٩

(٢) حياة محمد ص ٥٢١.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٥٣.

تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب. وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة، تلك هي مبدأ الحياة القومية في جريرة العرب الوتنية. وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة، وإن لم يقضِ عليه نهائياً (إد كان ذلك مستحيلاً)، شيئاً تانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية. وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح؛ فلما انتقل محمد إلى جوار ربه، كانت السكينة ترفرف على أكبر جزء من شبه الجزيرة بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر. وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل إلى هذا الائتلاف».

٦ - بين الجاهلية والإسلام

قال براون: «لم يكن عمل محمد في الإسلام سهلاً. فقد كانت السنوات الثماني أو العشر التي قضاها في مكة إلى أن هاجر إلى المدينة في سنة ٦٢٢ م[١] (وهي السنة التي اعتبرها المسلمون مبدأ لتاريخهم ولا زالوا على ذلك إلى اليوم) عصر يأس وقنوط. إذا استثنيا هؤلاء المسلمين الذين عمر الإسلام قلوبهم، فلم يحفلوا بالتعذيب ولم يجد اليأس إلى قلوبهم سبيلاً، ولم يكن يشق على العرب، وخاصة بدو الصحراء، أن ينبذوا آلهتهم ويتركوا عاداتهم الموروثة لولا أنهم كرهوا هذه التكاليف التي أتى بها الإسلام، كما شق عليهم ذلك الوعيد الذي أتى به القرآن. لذلك رفضوا هذه النظم التي أتى بها الإسلام. ولا يزال عربي الصحراء محافظاً على بداوته الأولى إلى اليوم، لا يعتقد شيء ولا يسعى إلا وراء المادة، ولم يكن ذكاؤه إلا نشاطاً عقلياً في دائرة محدودة. ولم تكن سذاجته وسرعة تصديقه وميله لقبول كل غريب تدفعه إلى تصديق ما أتى به الدين عن الأمور المعنوية. كما أن طبيعته التي فطرت على الاعتزاز بالنفس والثقة بها لم تكن لتشعر بالحاجة إلى إله يخضع له ويفنى في عبادته ولم تكن فكرة التوحيد والانصراف عن هذه الآلهة المتعددة إلى إله واحد، اكتشافاً حديثاً انفرد به الإسلام. ومع أن الإسلام كان يطالب العرب الوثنيين بتكاليف مادية أقل مما كانوا يقدمونه لأوثانهم، فإن تلك الأوثان ما كانت لتفرض عليهم تلك الفروض التي أتى بها هذا الدين، كما أنهم كانوا لا يلتفون إليها بالمودة إلا بقدر ما تصيبهم به من خير، بخلاف الإسلام الذي يطالبهم بالخضوع لله تعالى في السراء والضراء، ويأمرهم بقبول قضاء الله من خير وشر».

ويقول دوزي: «وكانوا يغضبون من الآلهة ويجبهونها بحقيقة ما يعتقدون، كما كانوا

---

(١) يعني مند أمر الرسول بالهجرة بالدعوة إلى عام هجرته

يتحدونها. وكانوا يطرحون الأزلام(١) في غضب وازدراء إذا كانت مشورتها على غير ما تهوى نفوسهم، ويسبون الأصنام ويرجمونها بالحجارة إذا عاكسهم القدر فظنوه من غضب تلك الآلهة، ويسقطون آلهتهم عن عروشها(٢)، ويشبعونها سباباً لأقل سبب. ومع ذلك لم تكن هذه الحالة(٣). لتحمل العرب على قبول هذا الدين الجديد الذي يفرض عليهم أوامره ونواهيه. حقاً إن هده الآلهة، وإن لم يكن لها سلطان عليهم، كانت مألوفة لهم. ومع ذلك فإنها لم تضرهم في شيء ولم تكلفهم شيئاً يذكر. أضف إلى ذلك أن الإسلام لم يسالم هذه الأوثان ولا الذين ألفوا عبادتها، بل ناصبهم العداء. والواقع أنه كان من الأسباب التي ساعدت على انتشار ذلك الدين الجديد الذي ينهى عن عبادة الأوثان أنه لم يصطدم بعبادة لها تأثير في قلوب أصحابها».

وقد وازن جولد تسيهر في باب الدين والمروءة بين المثل العليا في الجاهلية والإسلام فقال: «إن الشجاعة الشخصية، والكرم الذي لا يحد، والبذخ والإسراف في قرى الضيف، واختصاص ذوي قرباه بنصره وولائه، وأخذ الثأر من غير ما رحمة ولا شفقة إذا اعتدي عليه أو على عشيرته، كانت أظهر الفضائل في الجاهلية. أما في الإسلام، فنجد الصبر والاحتمال، وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، شخصية كانت أو قبلية؛ كما نجد عدم الاكتراث بالأمور الدنيوية والأعراض الزائلة، وتجنب الرياء والفخر وكثيراً غيرها مما جاء به الإسلام. وكانت هذه الفضائل جديرة بأن تبعث المسلمين على ازدراء هذه المثل العليا للجاهلية»(٤).

وإن هذه المثل التي جاء بها الإسلام ليتجلى بعضها في القرآن: ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتُّقون﴾ [سورة ٢ : ١٧٧].

«إن الأثر الوحيد الجدير بالذكر الذي تركه الإسلام في العرب في القضاء على الأخذ بالثأر، حتى إن كل قبيلة كانت تخضع للإسلام أو تدين له وتعتنقه، تنزل عن حقها في الأخذ بثأر من سفكت دماؤهم في الوقائع والحروب، مع أنا كنا نجد العربي في غير تلك الظروف يرى

(١) الزلم القدح وجمعها أزلام، والقداح هي السهام التي كان الجاهليون يستقسمون بها أي يستشيرونها فيما يهمون بالقيام به من سفر أو تجارة أو نحو ذلك

(٢) هي القواعد التي كانوا يضعون عليها التماثيل أو الأصنام.

(٣) أي عدم احترام تلك الآلهة على هذه الصورة التي وصفها.

(٤) Browne, vol. i. pp. 189 - 191.

ترك الأخذ بالثأر أو دية الدم من أحط مظاهر الذلة والعار. ولكن اتخاذ العرب الرسول زعيماً لهم، ذلك الأمر الذي كان شاقاً على نفوسهم وصعباً عليهم أن يدينوا لواحد منهم، قد هيأ ذلك الشعب العربي لقبول تلك الحالة الجديدة؛ فألان قناتهم وأسلس قيادهم، فأتمروا بأمره، حتى إنه لم يعد هناك عربي إلا دافع دفاع المخلصين في الذود عن ذلك الدين الجديد. ومن ثم يتضح لك كيف استطاع عرب ذلك العصر نشر دينهم في جميع الربوع والأرجاء»[١].

وهاك قصيدة تأبط شراً[٢] التي تصور لنا تلك المثل الجاهلية وكيف كان ينظر العرب إليها. وعلى الرغم من تشكك علماء الشعر في نسبة هذه القصيدة إلى العصر الجاهلي وحكايتهم عن خلف الأحمر أنها منتحلة، فإن هذا التشكك لا يقلل من قيمتها باعتبارها صورة[٣] للمثل العليا التي كان يتمسك بها عرب الجاهلية. وهذه القصيدة التي نظمها هذا الشاعر على أثر قتل هذيل خاله، وإغارته عليهم ليأخذ بثأره، قد تحدث فيها بأن دم خاله لن يهدر، وبأنه سيضطلع بهذا العبء وبأن من ورائه ابن أخت له قوي جدير بأن يشد أزره وأن يحل محله. ثم ينتقل من قتل خاله إلى وصف ما في هذا الحادث من خسارة فادحة حلت به، ثم يستطرد في ذكر مناقب خاله ويذكر هجوم فتيان هذيل عليهم ويعقب ذلك بوصف قوتهم وقدرتهم على دفعهم، ثم يتسلى عن قتلهم خاله بأنه كثيراً ما نال منهم، ويصف حياة خاله في حالتي السلم والحرب:

إن بالشعب[٤] الذي دون سلع ... لقتيلا دمه ما يطل[٥]
خلف العبء عليَّ وولى ... أنا بالعبء له مستقل[٦]
ووراء الثأر مني ابن أخت ... مصع[٧] عقدته ما تحل[٨]

---

(١) Noêldeke, vol. viii, p. 20.

(٢) واسمه ثابت وكنيته أبو زهير من بني فهر. وإنما لقب بهذا اللقب لأنه تأبط سكيناً ذات يوم، وسئلت أمه عنه فقالت: لا أدري إنه تأبط شراً وخرج. وقيل غير ذلك. ديوان الحماسة لأبي تمام، مختصر شرح التبريزي (القاهرة سنة ١٢٣٤ هـ، ١٩١٦ م) ص ٢٩٦ ـ ٣٠٣.

(٣) نرى أن الحجة التي اعتمد عليها من ادعى انتحال هذا الشعر هي أمور تتصل باللفظ وطرق التعبير إذ قال النمري: ومما يدل على أنه مولد قوله: (في البيت الخامس) حل حتى دق فيه الأجل، فإن الأعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا أما الحجة الأخرى فهي ملاحظة البيت الأول لبعد هذا المكان عن ديار هذيل التي قتل فيها خال تأبط شراً، أي أنهم لم يذكروا أن منتحل هذا الشعر قد أخطأ فتمدح بأمور لم تكن مما يتمدح به العرب.

(٤) الشعب: الطريق في الجبل.

(٥) ما يهدر.

(٦) استقل بالشيء رفعه وبالعبء حمله.

(٧) المصع بكسر الصاد وتسكينها هو الرجل الشديد أو الضارب بالسيف.

(٨) لا ينثني عن عزمه.

مطرق[١] يرشح سماً كما أطر ق أفعى ينفث السم صل[٢]
خبر ما نابنا مصمئل[٣] جل حتى دق فيه الأجل
يزني[٤] الدهر وكان غشوما يأبى جاره ما يذل
شامس[٥] في القر حتى إذا ما ذكت الشعرى[٦] فبرد وظل
يابس الجنبين[٧] من غير بؤس وندى الكفين شهم مدل[٨]
ظاعن[٩] بالحزم حتى إذا ما حل، حل الحزم حيث يحل
غيث مزن[١٠] غامر[١١] حيث يجري وإذا يسطو فليث أبل[١٢]
مسبل في الحي[١٣] أحوى[١٤] رفل[١٥] وإذا يغزو فسمع[١٦] أزل[١٧]
وله طعمان أرى وشرى[١٨] وكلا الطعمين قد ذاق كل
يركب الهول وحيداً ولا يصـ ـحبه إلا اليماني الأسل[١٩]

---

(١) مرخي عينيه ينظر إلى الأرض

(٢) الصل الخبيث من الأفاعي. ومعنى البيت أن ابن أخته شجاع في الحرب يطرق إطراق الحية الخبيثة التي تقذف السم.

(٣) المصمئل الشديد. ومعنى البيت أن الذي أصابه ونزل به بخبر موته خطب جليل يصغر عنده العظيم من الحوادث

(٤) سلبني والمراد فجعني في هذا الراحل الأبي عن الضيم الذي يجعل جاره عزيزاً.

(٥) شمس يومنا كنصر وجلس وكسمع صار ذا شمس ومنه شامس ذو شمس والمقصود هنا أنه ذو دفء بما يفيضه على ضيفه ويكرمه به من طعام ولباس كالشمس تدفىء المقرور

(٦) ذكت الشعرى وضحت وبانت في السماء ولا يكون ذلك إلا في الصيف في ليلة حرها شديد. ومعنى البيت أنه قد أعد لضيفانه طعاماً ولباساً في الشتاء وظلاً ظليلاً وماءً بارداً في حرف الصيف.

(٧) يابس الجنبين هزيل ضامر وكانوا يتمدحون بذلك.

(٨) المدل الواثق بنفسه وبعدته.

(٩) الظعن السفر والانتقال.

(١٠) الغيث المطر والمزن جمع مزنة وهي السحابة البيضاء.

(١١) غمر الماء كثر وغمر الشيء غطاه.

(١٢) الليث الإبل هو المصمم الماضي على وجه لا يبالي ما يلقى.

(١٣) مسبل في الحي: يسبل ثيابه حينما يكون في الحي

(١٤) الأحوى في شفتيه سواد وهو محمود.

(١٥) الكثير اللحم والواسع الثوب.

(١٦) السمع ولد الذئب.

(١٧) الأزل: السريع المشي الخفيف لحم العجز والفخدين. في القاموس المحيط (السمع الأرل ذئب أرسح يتولد بين الضبع والذئب). والأرسح من الرسح وهو قلة لحم العجز والفخذين.

(١٨) الأرى العسل والشرى الحنظل، يقصد أنه قد أذاق الناس في كرمه أطيب الأطعمة كرماً كما أنه أذاق أعداءه الصاب والعلقم.

(١٩) السيف المثلم من كثرة الضرب به.

وفتوٍّ[١] هجروا[٢] ثم أسروا[٣] ليلهم حتى إذا انجاب[٤] حلوا[٥]
كل ماضٍ[٦] قد تردى[٧] بماضٍ[٨] كسنا البرق[٩] إذا ما يسل[١٠]
فأدركنا الثأر منهم ولما ينج مِلحيين[١١] إلا الأقل
فاحتسوا أنفاس نوم[١٢] فلما هوّموا[١٣] رعتهم[١٤] فاشمعلوا[١٥]
لئن قلت[١٦] هذيل شباة[١٧] لبما كان هذيلاً يفل[١٨]
وبما أبركها[١٩] في مناخ جعجع[٢٠] ينقب فيه الأظل[٢١]
وبما صبحها[٢٢] في ذراها[٢٣] منه بعد القتل نهب وشل[٢٤]
صليت[٢٥] مني هذيل بخرق[٢٦] لا يمل الشر حتى يملو
ينهل[٢٧] الصعدة[٢٨] حتى إذا ما نهكت كان لها منه عل[٢٩]

---

(١) جمع فتى على وزن فعول مثل ذكر وذكور.
(٢) ساروا وقت الهاجرة وهي اشتداد الحر في منتصف النهار.
(٣) الإسراء والسرى: السير ليلاً.
(٤) إنجاب الليل: انقضى.
(٥) أقاموا.
(٦) شخص ماضٍ أي ماضي العزيمة.
(٧) لبس الرداء يعني تقلد السيف أو نحوه.
(٨) السيف الماضي: القاطع.
(٩) السنا الضوء.
(١٠) يلمع في الأفق.
(١١) من اللحيين.
(١٢) احتسى الشراب: تناوله متقطعاً، ويقصد من احتساء أنفاس النوم وقوعهم في نوم عميق
(١٣) هوم الرجل: إذا هز رأسه من النعاس.
(١٤) أي فزعتهم من الروع.
(١٥) أسرعوا في السير والمقصودون في هذا البيت هم أعداؤه.
(١٦) فل حد السيف: كسره.
(١٧) الشباة حد السيف.
(١٨) فكثيراً ما كان يفل هذيلاً.
(١٩) أناخها.
(٢٠) الجعجع الأرض الغليظة.
(٢١) ينقب يعني يحفي والأظل هو باطن خف البعير: ومعنى البيت أنه كثيراً ما حمل هذيلاً على الأرض الصعبة التي تحفي قدم البعير وحملهم الكثير من المشاق.
(٢٢) صبحها: أتاها في الصباح.
(٢٣) الذرى الظل، وذرى البيت ساحته.
(٢٤) الشل: الإفساد والطرد، أي أنه أعقب تقتيله إياهم بنهب وإفساد في عقر دارهم في وضح النهار.
(٢٥) صلى النار: قاسى حرارتها.
(٢٦) الخرق: الشجاع.
(٢٧) النهل: الشرب أولاً والإنهال إيراد البعير ليشرب لأول مرة.
(٢٨) الصعدة: القناة نبتت مستوية.
(٢٩) العل الشرب بعد الشرب أي أنه يسقي رمحه من دم خصمه مرة وأخرى.

حلت الخمر وكانت حراما ... وبلأى [١] ما ألمت تحل [٢]
فاسقنيها يا سواد [٣] بن عمرو ... إن جسمي بعد خالي لخل [٤]
تضحك الضبع لقتلي هذيل ... وترى الذئب لها يستهل [٥]
وعتاق الطير [٦] تغدو بطانا [٧] ... تتخطاهم فما تستقل [٨]

ولنأت بحديث جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي حين دبرت قريش المكايد لإخراج المهاجرين من بلاد الحبشة وإعادتهم إلى بلدهم ليفتنوهم عن دينهم. فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة لتحريض النجاشي على إخراجهم من بلاده. وقد تقدم القول بأن النجاشي بعث في طلب المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم، فتقدم جعفر بن أبي طالب ورد عليه في هذا الحديث الذي يعتبر موازنة طريفة بين مثل الجاهلية ومثل الإسلام، وهاك نصه:

«أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وإداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث» [٩].

ويقول ابن حزم [١٠]: «وكانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد، كربيعة ومضر وإياد وقضاعة، أو ملوكاً في بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر... فانقادوا كلهم لظهور

---

(١) اللأى: البطء.
(٢) الإلمام الزيارة الخفيفة. وكان من عادة العرب أن يحرم الرجل على نفسه عدة أشياء إذا قتل له قتيل حتى يدرك ثاره مثل شرب الخمر وغسل الرأس، فهو يقول إنه قد صار في حل من شرب الخمر بعد أن حرم ذلك على نفسه.
(٣) أصلها يا سوادة فرخم وهو قياسي في النداء.
(٤) مهزول.
(٥) يتهلل بالفرح.
(٦) عتاق الطير: جوارحها وكواسرها.
(٧) ترجع مملوءة البطن.
(٨) تطير أي أنها لا تستطيع الطيران لكثرة ما أكلت من قتلاهم.
(٩) ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.
(١٠) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ٨٥.

الحق وآمنوا برسول الله، وهم آلاف آلاف. وصاروا إخوة كبني أب وأم، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسله[١] طوعاً بلا خوف غزو ولا إعطاه مال ولا يطمع في عز. بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه، وأكثر مالاً وسلاحاً منه وأوسع بلداً من بلده. . . وهكذا كان إسلام جميع العرب، أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة، لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به من معجزاته، وما اتبعه الأوس والخزرج إلا وهو فريد طريد، قد نابذه قومه حسداً له، إذ كان فقيراً لا مال له، يتيماً لا أب له ولا أخ ولا ابن أخ ولا ولد، أمياً لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوت بها، فعلمه الله تعالى الحكمة دون معلم، وعصمه من كل من أراد قتله».

وقد جعل الإسلام العقل حكماً في الدين وفي الإيمان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ [سورة البقرة ٢ : ١٧١]. ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية فيقول: «إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن ربي على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحاً بغير فكر، فهو غير مؤمن. فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم فيعمل الخير، لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته. . والدعوة إلى النظر في الكون لاستنباط سننه وللاهتداء إلى الإيمان ببارئه. يكررها القرآن مئات المرات في سوره المختلفة، وكلها موجهة إلى قوى الإنسان العاقلة، تدعوه إلى التدبير والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينة، وتحذره الأخذ بما وجد آباءه عليه من غير نظر فيه وتمحيص له وثقة ذاتية بمبلغه من الحق».

وقال ويلز: «كان الإسلام في أول أمره خالياً من التعقيدات اللاهوتية التي طالما تعقدت بها النصرانية، وأحدثت شقاقاً قضى على الروح النصراني. وليس للإسلام كهنة، بل له علماء ومعلمون ووعاظ وهو حافل بروح الرأفة والسخاء والإخاء، كما أنه ينطوي على عاطفة النجدة التي تنبت في الصحراء، ولهذا جاز إلى قلوب عامة الناس دون أن يجد ما يصده في غرائزهم».

وصفوة القول أن الرسول ﷺ، على ما وصفه ميور[٢]، امتاز «بوضوح كلامه ويسر دينه. وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير، كما فعل محمد» .

---

(٣) الرسل بكسر الراء وتشديدها وسكون السين هو اللين.

(٢) The Life of Muhammad, pp. 523, 528.

الباب الرابع

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق
(١١ - ١٣/٦٣٢ - ٦٣٤)

١ - أبو بكر منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي[(١)] كان يسمى في الجاهلية عبد الكعبة[(٢)]، فسماه الرسول عبد الله؛ ولقب عتيقاً[(٣)]، والصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ولا سيما صبيحة الإسراء.

ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر، وعرف بالخصال الكريمة، واشتهر بالعفة؛ ولم يكن يشرب الخمر التي كانت فاشية في الجاهلية[(٤)]. وكان من سراة مكة في الجاهلية، عالماً بأنساب العرب وأخبارهم. وكان بزازاً يتاجر في الثياب؛ وقد بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم. وهو أول من أسلم من الرجال. وسرعان ما ترك التجارة بعد إسلامه ليتفرغ إلى الدعوة الإسلامية مع رسول الله، فأسلم بدعوته كثير من العرب الذين اعتز بهم الإسلام: كعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة ابن عبيد الله.

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٤ ص ١٠١.

(٢) زيني دحلان: السيرة الحلبية ص ١١٠. وقيل عبد اللات وقيل عبد العزى

(٣) قيل إنه كان لا يعيش لأمه ولد فاستقبلت به البيت وقالت اللهم هذا عتيقك من الموت. وقيل لسبقه إلى الإسلام أو لأن الرسول بشره بأن الله أعتقه من النار. وروى ابن حجر (الإصابة جـ ٤ ص ١٠٢) أن الرسول كان هو وأصحابه بفناء الكعبة إذ جاء أبو بكر، فقال الرسول: من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر، فغلب عليه اسم عتيق: أنظر كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول لابن الديبع الشيباني جـ ٣ ص ٢٦٣.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء جـ ١ ص ٢٢.

وكان إيمانه بالرسول شديداً، إذ كان صديقه في صباه وكان رفيقه عندما هاجر إلى المدينة؛ وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ [سورة التوبة ٩: ٤٠]. ولما استقر الرسول في المدينة كان أبو بكر ساعده الأيمن. وقد خصه الرسول بمزايا لم يخص بها أحد سواه. وكان كما يقول ابن خلدون (مقدمة ص ٢٠٦) «يفاوض أصحابه ويشاورهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى. فكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره».

روى الطبري (جـ ٣ ص ١٩٣) أن الرسول ﷺ عندما قال في آخر خطبة له: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»، فهمها أبو بكر وعلم أن رسول الله إنما يريد نفسه، وأن وفاته قد حانت فبكى وقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال:على رسلك يا أبا بكر، أنظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه».

وصفوة القول أن أبا بكر قاسم الرسول مر العيش وحلوه، وآلام الحياة وما فيها من نصر وظفر، وبقي معه لا ينفك عنه كظله.

٢ - بيعة السقيفة:

لم يوصِ الرسول بزعامة المسلمين لأحد من أصحابه، بل ترك مسألة الخلافة شورى بينهم. فلما تطاير نعيه اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة، وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة رجلًا منهم، هو سعد بن عبادة سيد الخزرج. فحضر إليهم نفر من المهاجرين، وكاد يقوم بين هؤلاء وهؤلاء خلاف شديد، لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيباً وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش وأن أمر العرب لن يصلح إلّا إذا وليته قريش، وحذر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفس عليها الخزرج، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس. فلما ذكر الأنصار ما كان بينهم في الجاهلية، وأن الحال توشك أن تعود إلى مثل ما كانوا عليه من عداوة، اطمأنوا إلى رأي أبي بكر، فعرض عليهم مبايعة عمر أو أبي عبيدة بن الجراح. فخشي عمر أن يترك الناس فيختلفوا على أنفسهم ويضيع الأثر الذي أحدثه كلام أبي بكر، فقام إلى أبي بكر وبايعه بالخلافة[1] وقال له: «ألم يأمر النبي بأن تصلِ أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفته، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منّا جميعاً». وقد بايع عمر وأبو عبيدة أبا بكر وسبقهما بشير بن سعد، ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه، وتسمى بيعة السقيفة بالبيعة الخاصة لأنه

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٣٣٥ - ٣٣٩.

لم يبايعها إلّا نفر قليل من المسلمين هم الدين حضروا السقيفة. فلما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر في المسجد وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة.

حدث هذا بينما كان علي بن أبي طالب قد انحاز مع الزبير ونفر من بني هاشم إلى بيت فاطمة، وقضى هو وأهل بيت الرسول يوم الثلاثاء في تحهيزه ودفنه. فوجد في نفسه على أبي بكر ومن بايعوه متجاهلين مكانته وحقّه[1] على أن علياً بايع أبا بكر بعد موت فاطمة، وأعلن عمر في خطبة له أن علياً تخلّف عنهم هو والزبير ومن كان معهما إلى بيت فاطمة، وأن الظرف كان دقيقاً يتطلب حلاً حاسماً عاجلاً"[2].

وقد أعلن أبو بكر سياسته التي عول على إنتاجها في هذه الحطبة القصيرة الجامعة التي خطبها في مسجد الرسول على أثر أخذ البيعة العامة له في اليوم التالي لاجتماع السقيفة، وهاك نصها:

«أيها الناس! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني: الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلّا قوم ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلّا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[3].

٣ ـ صفات أبي بكر:

كان أبو بكر من رؤساء قريش وأهل مشورتهم، وكان رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً. وكانت تساق إليه في الجاهلية الأشناق، وهي الديات والمغارم التي يتحملها من يتقرب بها من العشيرة. فكان إذا حمل شيئاً من ذلك فسأل فيه قريشاً مدحوه وأمضوا حمالته، فإن احتملها غيره لم يصدقوه.

فلما جاء الإسلام آثره الرسول على من سواه، فأخلص في الصحبة لرسول الله، ولم يخالجه شك في كل ما أتى به حتى سماه الرسول الصديق. وقد أجمع أهل السير على أنه لم يتخلف عن رسول الله في مشهد من مشاهده، وكان فيمن ثبت معه يوم أُحد وحنين. روي عن عائشة أنها قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين ولم يمر عليهما يوم إلا يأتيان فيه

---

(١) أنظر خطبة علي في الطبري جـ٣ ص ٢٠٢.

(٢) أنظر خطبة عمر في سيرة ابن هشام (جـ ٤ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨) والطبري (جـ ٣ ص ٢٠٠)

(٣) ابن هشام جـ ٤ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١. الطبري جـ ص ٢٠٣.

رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشيا.

اشتهر أبو بكر في جميع مواقفه بالشجاعة والثبات في الخطوب. ولا غرو فقد نهض باتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة العرب بعد أن تمزق شملهم أو كاد. ناهيك بما فعله مع المرتدين الدين رماهم بجيوش المسلمين لحربهم، وخرج بنفسه للقائهم عندما هاجموا المدينة وأسامة في الشام بجيش المسلمين، حتى لقد ناشده الصحابة ألا يعرض نفسه للخطر. فأبى وقال: والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي. وصبر وصابر حتى آتاه الله سبحانه وتعالى النصر والظفر بهم، وأعادهم إلى حظيرة الدين وأعلى شأن الإسلام. ثم جعل من المسلمين جنداً لبث الدعوة والجهاد في سبيل الله في خارج الجزيرة العربية. حتى أديل لهم من دولتي الفرس والروم العظيمتين وفتحوا ما فتحوا من بلادهم حتى قبضه الله.

وأحاديث الرسول في إكرام أبي بكر والاعتراف بأياديه عنده وفضله على الإسلام كثيرة متواترة. روى البخاري عن أبي الدرداء في حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي (مرتين) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله عزّ وجلّ بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، وإن صاحبكم خليل الله».

كان أبو بكر كريم اليد كثير البذل حتى لقد أنفق ثروته التي يقدروها عروة بن الزبير بأربعين ألف درهم في سبيل الله تعالى وقال: أخبرتني عائشة أنه مات وما ترك درهماً ولا ديناراً[1]. وقد أنفق ثروته في سبيل الله، وأعتق سبعة من المسلمين كان القرشيون يمعنون في تعذيبهم ليرتدوا إلى الوثنية. ومن هؤلاء بلال وعامر بن فهيرة وجارية بني المؤمل.

واشتهر كذلك بالتواضع والزهد، مقتدياً برسول الله ﷺ، حتى كان إذا مدح يقول: اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني مما يقولون. وكان رضي الله تعالى عنه معروفاً بين الصحابة بالعلم والتفقه في الدين والفصاحة وأصالة الرأي وصدق الفراسة ودقة الفهم.

ذكر النووي (جـ ٢ ص ١٩١) عن علي بن أبي طالب أنه قال: قدم رسول الله أبا بكر يصلي بالناس، وأنا حاضر غير غائب وصحيح غير مريض. ولو شاء أن يقدمني لقدمني، فرضينا لدنيانا من رضيه الله ورسوله عليه السلام لديننا.

---

(١) النووي تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١٨٩ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٤ ص ٢٧٩.

عمر بن الخطاب
(١٣ - ٢٣ه/ ٦٣٤ - ٦٤٤ م)

١ - عمر منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

ينتهي نسب عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح إلى كعب بن لؤي القرشي العدوي. اشتهر بنو عدي، وهم بطن من بطون قريش، بالشرف والمجد، وكانت لهم مواقف مشهورة في الإسلام، ومنهم زيد بن عمروبن نفيل الذي رفض عبادة الأوثان في الجاهلية والتزم الحنيفية، وابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وخارجة بن حذافة الذي ولي قضاء مصر في عهد عمرو بن العاص. ويجتمع نسب عمر مع الرسول في الجد السابع، ويجتمع معه من جهة أمه في الجد السادس، وكنيته أبو حفص، كناه الرسول بذلك لما رآه فيه من الشدة.

روى الطبري (٥: ١٧) أن عمر ولد بمكة قبل حرب الفجار بنحو أربع سنين. ونشأ نشأة عالية، فكان مثال الفصاحة والبلاغة والصراحة في الحق. وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه، ثم احترف التجارة، يختلف فيها إلى الشام. وهو من الرهط الذين انتهى إليهم الشرف في الجاهلية. وكانت إليه السفارة، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً. وكان عمر عزيز الجانب محترماً بين قومه، قوي الشكيمة شديد البأس. وروى ابن الأثير في أسد الغابة (جـ ٤ ص ٥٣) أنه ولد بعد الرسول بثلاث عشرة سنة.

٢ - إسلام عمر:

وفي السنة الخامسة للدعوة أسلم عمر بن الخطاب، وكان لإسلامه أثر كبير في ظهور الإسلام، إذ أبى إخفاء شعائره الدينية لاعتقاده أنه لم يكن بين القرشيين من يجرؤ على معارضته[١]. وقد أثر عن الرسول أنه قال: اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين، يعني عمرو ابن هشام، وعمر بن الخطاب[٢]. وروى ابن الأثير[٣] عن عبد الله بن مسعود قال: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة. ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يديه أسهماً، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة والملأ من

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٤ - ٣٧٠.
(٢) الطبري جـ ٥ ص ١٧.
(٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ٥٨.

قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً. ثم أتى المقام فصلى متمكناً، ثم وقف على الخلق واحدة واحدة وقال لهم: شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس. من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجه.

وكان عمر يعارض الدعوة الإسلامية معارضة شديدة في مبدأ الأمر؛ ولكنه ما لبث أن صار من أتباع الرسول المتفانين في نشر الإسلام. وهاك ما رواه ابن هشام(١) عن إسلامه: خرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك (صهرك، يقصد زوج أخته)، وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب. فقد والله أسلما وتابعا محمد على دينه، فعليك بهما؛ فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «طه» يقرئها إياها. فلما سمعوا صوت عمر اختفى خباب في البيت وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة.. وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب. فلما دخل قال: «ما هذه الهينمة التي سمعت»؟ قالا له: ما سمعت شيئاً. قال: «بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه». وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم! قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر باخته من الدم، ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. فقالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها، فقالت له أخته: يا أخي أنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها «طه»... فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب، خرج إليه فقال له: يا عمر! والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب. فالله الله يا عمر! فقال له عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب هو في بيت عند الصفا (يريد بيت الأرقم بن أبي الأرقم، وكان مقر الدعوة الإسلامية في دور استتارها) معه فيه نفر من أصحابه؛ فأخذ عمر سيفه

(١) جـ ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٧٠.

فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب. فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله. فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال: يا رسول الله! هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله: أئذن له، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله حتى لقيه بالحجرة، فأخذ بحجزه[١] أو بمجمع ردائه، ثم جبذه جبذة شديدة وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة؛ فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، فكبر الرسول تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم. ولما وفق إسلام عمر إسلام حمزة، اطمأن المؤمنون وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينصفانه من عدوه.

صحب عمر الرسول بعد إسلامه، فأحسن صحبته، وبالغ في نصرته، ووقف حياته على المدافعة عنه والذود عن الإسلام وكان من أشد الناس على الكفار، وشهد بعض غزواته، فكان مع الرسول في بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان، وفي غزوة خيبر والفتح وغيرها. وكان الرسول يستشيره في كثير من الأمور، وكثيراً ما كان عمر يشير على الرسول بالأمر فينزل القرآن موافقاً لما أشار به. وقد أثر عن الرسول أنه قال: عمر معي وأنا مع عمر، والحق بعدي مع عمر حيث كان[٢].

وكان أبو بكر يستشير عمر في مهام الأمور ويحيل عليه الفصل في القضايا. وإن لم يتسم باسم القاضي. وكان ساعده الأيمن في حروب الردة، وإليه يرجع الفضل في جمع القرآن وتدوينه على ما سيأتي.

٣ ـ بيعة عمر:

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله، خشي إن هو قبض ولم يعهد بالخلافة إلى أحد يجمع شتات المسلمين ويوحد كلمتهم، عاد الاختلاف على الخلافة بين المسلمين سيرته الأولى فيتمكن منهم العدو؛ فرأى ببعد نظره أن يحتاط لهذا الأمر تلافياً للأخطار.

نظر أبو بكر في أصحابه ليختبر من بينهم رجلاً يكون شديداً في غير عنف وليناً في غير ضعف، فوجد أن «من توفرت فيه هذه الصفة من الصحابة أحد رجلين عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب إلا أن الأول ربما يريد الأمر فيرى في طريقه عقبة فيدور إليه، والثاني يرى

(١) الحجزة: موضع تكة السراويل.
(٢) الطبري جـ ٣ ص ١٩٢.

الاستقامة لا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه. فهو بهذا إلى الشدة أميل منه إلى اللين»[١].

ولما وقع اختيار أبي بكر على عمر جعل يستشير فيه كل من دخل عليه من الصحابة، فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة. قال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه، ثم دعا عثمان فقال: أخبرني عن عمر؟ فقال: أنت أخبرنا به، فقال: على ذلك يا أبا عبد الله؟ أخبرني عن عمر، فقال: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. وسأل أسيد بن حضير الأنصاري[٢] فقال أسيد: اللهم أعلمه الخير بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط، الذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه واستشار أبو بكر سعيد بن زيد وغيره من المهاجرين والأنصار فأثنوا على عمر..

ثم دعا أبو بكر عثمان بن عفان فأملاه كتاب عهده لعمر، وهاك نصه: بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة. وفي الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر. إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب؛ فإن بر وعدل، فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [سورة الشعراء ٢٦ : ٢٢٧]».

ولما ولي عمر الخلافة صعد المنبر فقال: إني قائل كلمات فأمنوا عليهن. فكان أول كلام قاله حين استخلف: «إنما مثل العرب مثل جمل أنف[٣] اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده. وأما أنا فورب الكعبة لأحملهم على الطريق»[٤].

٤ ـ الفتوح الإسلامية

(أ) عوامل الفتوح:

عرفنا كيف وضع النبي ﷺ السياسة الخارجية، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته، وحارب الغساسنة الخاضعين للروم على حدود بلاد الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه.

---

(١) رفيق العظم: أشهر مشاهير الإسلام ص ١٢٣.

(٢) كان ابن حضير فارس الأوس ورئيسهم يوم بعاث وكان أسيد من السابقين إلى الإسلام، وهو أحد النقباء ليلة العقبة. ابن

(٣) حجر الإصابة في تمييز الصحابة جـ ١ ص ٤٨.

(٤) الجمل الأنف. الذي اشتكى أنفه من البرة. وهي حلقة أنف البعير أو لحمة أنفه يجر منها لإخضاعه وتذليله.

(٢) الطبري جـ ٤ ص ٥٤. ابن الأثير، جـ ٢ ص ٢٠٨

وقد جهز الرسول قبل وفاته حملة لغزو بلاد الشام عقد لواءها لأسامة بن زيد بن حارثة وكان أسامة حين استشهد أبوه في الخامسة عشر من عمره، فما كاد يبلغ الثامنة عشرة، حتى رأى الرسول، تكريماً لذكرى أبيه أن يعقد لابنه ويسيره لقتال الروم ليأخذ بثأر أبيه وثأر من استشهد معه من المسلمين، ويؤدب الروم الذين سخروا من دعوة الرسول واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه.

ثم مرض الرسول وانتقل إلى جوار ربه، فرأى أسامة أن ينزل عن إمرة الجيش ليترك للخليفة الجديد حرية الاختيار. ولكن أبا بكر خليفة رسول الله أبى إلا أن ينفذ رغبة الرسول؛ فسير أسامة إلى مشارف الشام، لأنه رأى في ذلك مناورة حربية وسياسية تشعر أعداءهم في الداخل والخارج بقوة الحكومة العربية وثبات مركزها، وقال العرب: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا.

ولكن بعض الصحابة، ومن بينهم عمر بن الخطاب، اعترضوا على تولية أسامة على رأس هذا البعث، لصغر سنه، واضطراب الأحوال في شبه الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول. ولكن أبا بكر قال في حزم: «لا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ، ولو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي». ثم وثب، وكان جالساً، فأخذ بلحية عمر وقال: «ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرني أن أعزله؟».

لذلك لا نعجب إذا رأينا المسلمين وبينهم عمر بن الخطاب يسارعون إلى الانضواء تحت لواء أسامة، مجاهدين في سبيل الله ونصرة دينه.

ولما تحرك الجيش، خرج أبو بكر ماشياً لتوديعه؛ وأسامة راكب، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله! لتركبن أو لأنزلن. فقال: والله لا نزلتَ ولا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله، فإن الغازي له بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وسبعمائة سيئة تمحى عنه. وبلغ من إكبار أبي بكر لأسامة أن قال له: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، ثم وصاه أبو بكر فقال: «لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تفعلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله»[1].

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ حـ ٢ ص ١٣٩.

وهكذا شرع أبو بكر خليفة رسول الله للمسلمين آداب القتال، فأوصاهم بالضعفاء خيراً، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم، ولا يتعرضوا لشعائرهم الدينية. وكان أسامة، ذلك الفتى اليافع والقائد الشاب والمسلم الورع، خير من يقوم على تنفيذ هذه السياسة التي تتفق مع ما جاء به الكتاب والسنة. وهو يعتبر بحق مثلاً رائعاً ضربه ذلك الدين السمح ودلك النبي العربي الكريم وقام على تنفيذه خلفاء المسلمين وقوادهم المبرزون.

وقد بعث انتصار أسامة البشر في نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الردة وأصبح لانتصاره من الأهمية ما لا يتفق مع قيمته الحقيقية، بل اعتبر فيما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام.

وجه أبو بكر همه بعد ذلك إلى إخماد الفتن والثورات الداخلية ليشغل العرب بالحروب الخارجية، لأنها كانت تفي بما أمر به الدين من نشر الإسلام من جهة، ولأنها كانت من جهة أخرى استغلالاً صالحاً لما جبل عليه العربي من حب القتال. لذلك لم يكد أبو بكر ينتهي من حروب الردة الطاحنة التي شنها على العرب المارقين، حتى أرسل تلك الجيوش وزودها بالأمداد يتلو بعضها بعضاً لفتح البلاد ونشر الإسلام فيها: فأنفذ خالد بن الوليد إلى الحيرة ودعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد في سبيل الله، وأنفذهم إلى بلاد الشام.

وإن توجيه أبي بكر الجيوش لغزو دولتي الفرس والروم في وقت واحد، مع ما كان لهاتين الدولتين من الملك وبسطة النفوذ ووفرة الثروة، ليدل على حسن سياسته وقوة عزيمته. غير أننا لا نعجب إذا عرفنا أن هاتين الدولتين، وإن كانتا مضرب الأمثال في الأبهة والعظمة، إلا أن هذا كله كان أمراً ظاهرياً فقط. فقد أضعفهما استبداد الملوك والبذخ والخلافات الدينية والتنافس على الملك، على حين ألف الإسلام بين قلوب العرب، فوجد أبو بكر في الأمة العربية الفتية المولعة بالحرب المتقشفة في طعامها ولباسها مع ما عليه رجالها من شدة الإيمان والحرص على الاستشهاد في سبيل نصرة الدين خير معين للقضاء على هاتين الدولتين.

وقد تمت معظم الفتوح الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب: ففتحت فارس وفلسطين والشام ومصر، وزادت الدولة العربية في رقعة أملاكها على حساب هاتين الدولتين العظيمتين: الفارسية والرومانية الشرقية أو البيزنطية.

وسهل على العرب فتح ولايات الدولة الرومانية الشرقية ما كان بينها وبين العرب من صلة في الجنس وتقارب في اللغة وصلات في التجارة. أضف إلى ذلك ما كان بين الدولة الرومانية والأمم التي تحت سلطانها من النفور بسبب الانقسامات الدينية، وزيادة الضرائب زيادة ناء تحتها الأهلون، فرحبوا بحكم العرب ليتخلصوا من الحكم الروماني واستبداد الكنيسة البيزنطية.

أخذت الدولة الرومانية في الانحطاط على أثر قيام الفتن والثورات في أواخر عهد جستنيان إلى وفاة هرقل (٥٦٥ ـ ٦٤١ م). ومع أن هرقل استطاع أن يحول دون توسع الفرس في فتوحاتهم، واسترد البلاد التي كانوا قد استولوا عليها بمعاهدة سنة ٦٢٨م، فإن المسلمين اقتطعوا منه أجمل ممتلكاته الشرقية، وحاصر الآفار القسطنطينية من الشمال، وجاء معهم البلغار الذين استقروا نهائياً في شبه جزيرة البلقان سنة ٦٧٩ حيث لا يزالون إلى الآن، وبذلك لم يعد الدانوب الحد الشمالي للأمبراطورية كما كان من قبل.

وكان ضعف نفوذ البيزنطيين في الغرب أكثر منه في الشرق فقد قام في إسبانيا القوط الغربيون واستولوا على إشبيلية عنوة سنة ٥٨٢ م، واضطروا قرطبة إلى التسليم. واستولى سفنتيلا (Swinthilla) على آخر ممتلكات البيزنطيين سنة ٦٢٨ م، ولم يعد للقوط منازع في كافة أرجاء شبه جزيرة أيبريا، وأصبح نهوض العرب في الوقت نفسه من أعظم الأخطار التي تهدد كيان هذه الإمبراطورية واستقلالها.

أما في بلاد فارس فقد كان الفرس أمة مستقلة متجانسة في جنسيتها ولغتها ودينها. ومن ثم كانت مقاومة الفرس للعرب مقاومة أمة لأمة أخرى. ومع ذلك استولى عليهم التواني والتواكل على أثر انتصار هرقل عليهم. وهناك أسباب أخرى أدت إلى القضاء على الإمبراطورية الفارسية، فقد انقضى على تأسيس إمبراطورية آل ساسان (سنة ٢٢٦ م) على يد أردشير بن بابك أربعة قرون، وهو عصر طويل تزعزعت فيه أسس الإمبراطورية الفارسية واختل نظامها، واقتبس عنها العرب مذهب ماني[١]. كما انتقلت إليهم بعض آثار الفلسفة والعلوم اليونانية على يد النسطوريين أو الأفلاطونيين الذين طردهم جستنيان من أثينا.

وكان للدولة الفارسية علاقات وثيقة مع الإمبراطورية الصينية التي كانت متاخمة لها، ومع الهند حيث انتشرت الديانة البوذية، وساعد اتصالها بهذه الحضارات على تقدمها في العلوم والمعارف.

وكان من أثر استبداد الساسانيين بالحكم في أواخر عهدهم أن كرههم الأهلون وأصبحوا

---

(١) المانوية نسبة إلى ماني. وقد حاولت هذه الطائفة ـ كما حاول القدامى من الإشراقيين ـ التوفيق بين المسيحية والوثنية في الشرق. وقد أخذت عقائدها وطقوسها عن التوراة وعن الفارسية القديمة ثم البوذية، ويقول أنصار هذه الطائفة بالأثنية وهي العقيدة الأساسية لديانة الفرس. ومن ثم يقولون بوجود مصدرين إلهيين لهذا العالم: أحدهما إله الخير ويرمزون له بالنور، والثاني إله الشر ويرمزون له بالظلمة ويسمون الأول إله النور والثاني إله الظلمة، وهو الإله الذي صدر عنه هذا العالم المادي، وانتشرت المانوية في الشرق ولا سيما في بلاد الفرس والهند، وفي بلاد التبت والصين والتركستان، حيث ظلت مزدهرة بها حتى القرن الحادي عشر الميلادي، ثم انتقلت إلى العرب حتى وصلت إلى جنوبي إيطاليا، وقد دعا القديس أوغسطين إلى هذا المذهب وعمل على نشره زهاء ثماني سنوات، وناوأه كل من فالنتيان سنة ٣٧٢م ثم ثيودوسيس الأول سنة ٣٨١م مناوأة شديدة وأصدرا ضده المراسيم الشديدة

ينظرون إليهم نظرة السخط والاستياء. وبذلك أعرضوا عنهم، واتسعت مسافة الخلف بينهم حين شجع هؤلاء الملوك ديانة زرادشت ـ وكانت من قبل بغيضة لدى الأهلين ـ وأفسحوا المجال لكهنتها حتى أصبح لهم شيء من السلطة في الدولة ومنحوهم نفوذاً عظيماً في مجالس الملك، ودعوا أن لهم نصيباً كبيراً في سياسة الدولة، وأخذوا يضطهدون الأحزاب الدينية المخالفة من يهود ومسيحيين وصابئة وبوذيين ومانويين، وساعدت هذه الأسباب على ضعف الدولة الفارسية وانحلالها.

هكذا كانت حالة الفرس من الفساد والتفكك السياسي والضعف المعنوي حين اعتلى عرشها يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان الذي اضطربت في عهده أمور الفرس. وكان قد جلس على سرير الملك وعمره إحدى وعشرون سنة، فقوي حينئذٍ طمع العرب في غزو هذه البلاد، وساعد على ذلك ما كان الرسول يعدهم به من امتلاك كنوز الأكاسرة.

(ب) فتح العراق وفارس:

كان العرب يرون بلاد الفرس أصعب منالاً من بلاد الدولة البيزنطية كما تقدم، ومن ثم كانوا يتهيبون غزوها. وقد وجه أبو بكر جيشاً إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة، فأخضع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوبي نهر الفرات، وانتصر على الفرس، واستولى على الحيرة والأنبار. وما لبث العرب أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكثيف الذي أعده يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان بقيادة رستم، وارتدوا إلى أطراف الصحراء. وظلت الحال على ذلك إلى آخر أيام أبي بكر، حيث وجه خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين في قتال الروم بالشام وفلسطين.

فلما ولي عمر بن الخطاب الخلافة وزاد الاضطراب في بلاد الفرس، كتب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك، وما كان من جلوس يزدجرد على العرش مع حداثة سنه، وحثه على انتهاز هذه الفرصة. وكان عمر قد اطمأن من ناحية الروم بعد هزيمتهم في أجنادين سنة ١٥ هـ، فوجه همه لغزو العراق، ودعا الناس لغزوها وهون عليهم فتحها، وأراد أن يقود الجيش بنفسه. ولكن بعض الصحابة أشاروا عليه بأن يبعث رجلاً من كبار الصحابة وأن يكون هو من ورائه يمده بالأمداد. فلما سمع عمر ذلك صعد المنبر وقال: «أيها الناس! إني كنت عازماً على الخروج معكم، وإن ذوي اللب والرأي منكم قد صرفوني عن هذا الرأي، وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلاً من الصحابة يتولى أمر الحرب» (الفخري ص ٧٥).

وقع الاختيار على سعد بن أبي وقاص، فاستحسن عمر هذا الرأي، واستقدم سعداً وعهد إليه بفتح العراق ثم ودع الجيش. وجعل سعد يتنقل في الأراضي التي بين الحجاز والكوفة، يستمع الأخبار، ورسل عمر توافيه وكتبه تأتيه يشير عليه فيها بآرائه ويمده بالجنود.

ولما قصد سعد القادسية (١٥هـ/ ٦٣٦ م) - وكانت باب العراق- التقى برستم (بفتح التاء) في جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل، على حين كان جند العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف، وكان الفرس يضحكون من قبل العرب ويشبهونها بالمغازل.

ترددت الرسل بين قائد العرب وقائد الفرس. فكان العربي يأتي إلى باب رستم، وهو جالس على سرير الذهب، وقد زين مجلسه بالفرش المنسوج بالذهب، ولبس الفرس التيجان وأقاموا الفيلة حول المكان، فيجيء العربي وهو متقلد سيفه فيربط فرسه بالقرب من سرير رستم، فيهم الفرس بمنعه. وذكر البلاذري[1] أن رستم سأل سعد بن أبي وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة، فقصد سريره ليجلس معه عليه، فمنعه الأساورة من ذلك فقال له رستم: «لقد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد. ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون. فقال المغيرة: إن الله بعث إلينا نبيه ﷺ، فسعدنا بإجابته واتباعه. وأمرنا بجهاد من خالف ديننا ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾. ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده، والإيمان بنبيه ﷺ فإن فعلت، وإلا فالسيف بيننا وبينكم، «فقال له رستم: والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين، فقال المغيرة: لا حول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه».

وقد أعجب رستم بالعرب وبسديد إجابتهم حتى قال لأصحابه: أنظروا فإن هؤلاء لا يحلوا أمرهم من أن يكون صدقاً أو كذباً. فإن كانوا كاذبين، فإن قوماً يحفظون أسرارهم هذا الحفظ ولا يختلفون في شيء، وقد تعاهدوا على كتمان سرهم هذا التعاقد بحيث لا يظهر أحد منهم سرهم، لقوم في غاية الشدة والقوة، وإن كانوا صادقين فهؤلاء لا يقف حذاءهم أحد. فصاحوا حوله وقالوا: الله الله أن تترك ما أنت عليه لشيء رأيته من هؤلاء الكلاب بل صمم على حربهم فقال رستم: «هو ما أقول لكم ولكني معكم على ما تريدون». (الفخري ص ٧٧).

لذلك لم يرَ رستم بداً من المضي في حرب العرب، واقتتلوا أياماً انعكس الريح في آخرها عليه وعلى جنده حتى أعماهم الغبار، وقتل رستم وعدد كبير من جنده وهرب الباقون، وغنمت أموالهم. ثم تبعهم سعد إلى جلولاء (١٦ هـ) وأوقع بهم، وأسر إحدى بنات كسرى وقتل عدداً كبيراً من الفرس[2]. وكان من أثر فتح جلولاء أن اعتنق الإسلام دهاقين الفلاليج والنهرين، وبابل، ونهر الملك، وكوثي وغيرهم، فأقرهم عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ورفع عنهم الجزية[3].

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٦٥

(٢) الطبري جـ ٤ ص ١٣٢ - ١٤٠.

(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧١.

عند ذلك كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح، فكتب إليه: «قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً». فاتخذ الكوفة وأسس بها المسجد الجامع واختط الناس المنازل ومصرها، أي جعلها حاضرة للمسلمين في هذه البلاد، ثم توغل سعد في بلاد العراق واستولى على المدائن حاضرة بلاد الفرس بعد أن حاصرها شهرين، وغنم العرب منها غنائم كثيرة، من بينها بساط كسرى، وفر يزدجرد إلى حلوان وحمل معه أمواله وما خف حمله من متاعه.

ولم يستطع يزدجرد أن يلم شعث جنده ويستعد لملاقاة العرب من جديد إلا بعد أربع سنين. فقد ذكر البلاذري (ص ٢٦١)، أن سعد بن أبي وقاص أرسل إلى حلوان جيشاً يتألف من ثلاثة آلاف رجل بقيادة جرير بن عبد الله البجلي، ففتحها صلحاً، وفر يزدجرد إلى نواحي أصبهان (١٩ هـ). وفي سنة ٢٠ هـ تجمع حول يزدجرد المقاتلون من الريّ وقومس وأصبهان وهمذان وغيرها. وذكر البلاذري (ص ٣٠٩ ـ ٣١٠) أن جيش كسرى بلغ ٦٠,٠٠٠ مقاتل وفي رواية أخرى ١٠٠,٠٠٠. ولما اتصلت هذه الأنباء بمسامع الخليفة عمر عول على المسير إليه بنفسه، ثم خاف خروج العرب حين غيابه، وأشير عليه بأن «يغزي أهل الشام من شامهم وأهل اليمن من يمنهم. فخاف إن فعل ذلك أن تعود الروم إلى أوطانها وتغلب الحبشة على ما يليها. فكتب إلى أهل الكوفة يأمرهم أن يسير ثلثاهم ويبقى ثلثهم لحفظ بلدهم وديارهم، وبعث من أهل البصرة بعثاً». وولى عمر النعمان بن مقرن المزني قيادة جيش العرب في نهاوند (٢١ هـ)، وكتب النصر للعرب برغم استماتة الفرس في الدفاع. وعرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح لشدتها وأهميتها.

وبعد أن استولى العرب على نهاوند ساروا إلى الأهواز وفتحوها سنة ٢٢ هـ، ثم فتحوا قم وقاشان. ثم وجه عمر بن الخطاب، عبد الله بن بديل إلى أصبهان، ففتحها صلحاً على أن يؤدي أهلها الجزية والخراج، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم. ثم وجه عروة بن زيد الخيلي الطائي إلى الريّ في ثمانية آلاف مقاتل ففتحها، كما فتح المسلمون قومس صلحاً[1]، وكاتب سويد بن مقرن ملك جرجان، ثم سار إلى بلاده.

وقد أورد الطبري شروط الصلح التي تعهد فيها أهالي هذه البلاد بأن يؤدوا الجزية للمسلمين كفاء تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وإطلاق الحرية الدينية لهم، وبأن يجازي من يقوم من أهلها بمساعدة المسلمين. كما تضمن هذا الصلح أن يلتزم المسلمون المحافظة على هذه الشروط طالما أدى أهل جرجان الجزية وأقروا المسلمين ولم ينقضوا ذلك العهد، «وعلى

---

(١) البلاذري ص ٣١٩ ـ ٣٢٠

أن من سب مسلماً بلغ جهده (أي ضرب ضرباً شديداً يبلغ الجهد)ومن ضربه حل دمه»[١].

ويظهر أن الإصبهبذ حاكم بلاد طبرستان الواسعة على ساحل بحر الخرز[٢] خشي سوء العاقبة، فحذا حذو ملك جرجان القريبة من بلاده، فطلب من المسلمين الصلح على ألا يكون بينهما قتال، فكتب إليه سويد عهداً على مثال العهد الذي أعطاه أهل جرجان[٣].

وكانت سنة ٢٢ هـ حافلة بالفتوح العربية في فارس وكان الخليفة عمر يرمي إلى القضاء على ملك الأكاسرة. روى البلاذري[٤] أن المغيرة بن شعبة عامل الكوفة غزا أذربيجان وفتحها عنوة وفرض عليها الخراج[٥]. ولم يزل العرب يتابعون فتوحهم في هذه البلاد الشاسعة الأرجاء، فندب سراقة بن عمرو، عبد الرحمن بن ربيعة للمسير إلى بلاد الباب وهي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروفة بالدربند، وأمده عمر بحبيب بن مسلمة عامله على بلاد الجزيرة. فطلب شهر براز ملك هذه البلاد من عبد الرحمن أن يأتيه، ففعل، ثم عبر له عما يكنه من سخط وكراهة للأرمن والقبج الذين يقيمون حول بلاده، وأعرب له عن نياته الطيبة نحو المسلمين، وطلب إليه أن يعفيه من الجزية، إذ كان يرى فيها ما يشعر بالذلة على أن يعاونهم في حروبهم. بيد أن ذلك القائد لم يرَ بدا من الرجوع إلى قائده الأعلى سراقة بن عمرو الذي قبل ذلك الطلب وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فأقره.

وجه سراقة أربعة جيوش إلى البلاد المحيطة بأرمينية. ولما تم له فتحها كتب عمر يبشره بالفتح، ولكنه لم ينعم بثمرة تلك الانتصارات، وحالت منيته دون إتمام هذه الفتوح؛ وخلفه عبد الرحمن بن ربيعة الذي عهد إليه عمر بغزو بلاد الترك، ولكنه لم يتمكن إلا من فتح بعضها[٦].

ولكن أقدام العرب لم تتوطد في هذه البلاد التي لم تلبث أن انتقضت في عهد عثمان الذي عول على فتحها من جديد على ما سيأتي.

أما يزدجرد الثالث فقد ظل العرب يطاردونه ويستولون على بلاده، حتى إنه اضطر إلى الفرار إلى أقصى الحدود الشرقية، وما زال أمره يضعف حتى قتل بخراسان في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣١ هـ. وبموت يزدجرد زالت الدولة الساسانية وتحققت دعوة النبي بتمزيق ملك الأكاسرة.

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ٢٥٤.

(٢) ويسمى بحر قزوين وبحر طبرستان.

(٣) راجع هذا العهد في الطبري (جـ ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٤) فتوح البلدان ص ٣٣٤

(٥) أورد الطبري (جـ ٤ ص ٢٥٦) شروط الصلح الذي عقد بين المسلمين وأهل أدربيجان.

(٦) الطبري جـ ٤ ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

أثر الفتح العربي في بلاد الفرس:

لا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات التي أحرزوها على الفرس فضموا إلى بلادهم بلداً جديداً، وأثروا وأصبحوا في رغد من العيش بعد أن امتلكوا كنوز الفرس. وقد بهرت تلك النفائس والأموال العرب الذين اعتادوا التقشف والبساطة. فقد ذكر صاحب الفخري (ص ٧٨) أن بدوياً ظفر بحجر من الياقوت يساوي مبلغاً عظيماً، فلم يدرِ قيمته، فرآه بعض من يعرف قيمته فاشتراه منه بألف درهم. ثم عرف البدوي قيمته ولامه أصحابه وقالوا له: هلا طلبت فيه أكثر من ذلك؟ قال: لو علمت أن وراء الألف عدداً أكثر من الألف لطلبته. وكان من بين العرب من يأخذ في يده الذهب الأحمر ويقول: «من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء»؟ لأنه يرى أن الفضة خير من الذهب.

وقد رحب الفرس بالعرب حباً في الخلاص من ظلم الحكام أولاً، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانياً، ثم أملا في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين، ومن زارادشتيين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين[1].

على أن سكان المدن، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة، رحبوا بالدين الإسلامي، واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقبيح عبادةالنار والأرض والماء، وهم الذين كان ينظر إليهم باحتقار وازدراء، ولما يترتب على اعتناقهم الإسلام من تركهم أحراراً ومساواتهم في المذهب الديني. ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت نفسها بالأمر الصعب، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة، حتى إنه لم يعد لأتباعها مركز يجتمعون حوله، فوجدوا السبيل سهلاً ميسوراً لاعتناقهم الإسلام لما بين مذهبهم الجديد ومذهبهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة. فالفارسي يستطيع أن يجد في القرآن كثيراً من التعاليم الأساسية في ديانته القديمة، وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيراً[2].

وفضلاً عن هذه العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام ببلاد الفرس في سرعة مدهشة، كان ثمة عامل آخر هو الشعور السياسي والوطني لهذا الشعب المغلوب، ذلك الشعور الذي أدى إلى انضوائهم تحت لواء هذا الدين الجديد عن طريق زواج الحسين بن علي بشهر باتوه إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية. وقد رأى الفرس في أولاد الحسين وارثين

---

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٧٣

(٢) سير توماس أرنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة المؤلف ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

لملوكهم الأقدمين. وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعلق الفرس بعلي من جهة، وظهور المذهب الشيعي في بلادهم من جهة أخرى[١].

ولم تكن القوة هي السبب في تحويل الناس إلى الإسلام بدليل هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها العرب من بقي من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم. ولا تزال هناك بعض جماعات صغيرة من الفرس يعبدون النار، وكان أجدادهم يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية بعد الفتح الإسلامي، كما كانت الدولة الإسلامية تحول دون التعرض لمعابدهم.

ولما تم للعرب فتح بلاد الفرس قاموا بحماية الأهالي مقابل دفع مبلغ معين يؤديه كل فرد قادر على القتال، يسمى الجزية أو جزية الرؤوس، وهي ضريبة شخصية يدفعها أهل الذمة كفاء إعفائهم من خدمة الجيش. وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الإسلام. وكانت الأرض ملكاً للفاتحين. غير أن هؤلاء كانوا يتركونها للأهالي يزرعونها على أن يؤدوا جزءاً من غلتها ضريبة عقارية تسمى الخراج. ويرجع السبب في ترك الأرض في أيدي الأهلين إلى الرغبة في أن يكون كل مسلم جندياً من جنود الإسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد، على أن يمنح عطاء معيناً من بيت مال المسلمين مقابل خدماته.

وكان من أثر هذه السياسة أن بادر كثير من الأهلين إلى الإسلام، مما ساعد العرب على التوسع في فتح بلاد المشرق.

(ج) فتح الشام وفلسطين:

تسيير الجيوش. كان حكام الروم في أواخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم ويسومونهم العذاب، فتأفف من جورهم أهالي البلاد التي كانت تحت سلطانهم، ومالوا إلى الخلاص من ربقة الذل والاستعباد، وتغيير الحال التي أصبحوا فيها على أي شكل كان. ولم يكن الروم، وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم، من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم، فخارت نفوسهم وداخلهم شيء من اليأس. فساعد هذا تلك الأمة الطموح، مع ما عليه رجالها من الشجاعة وقوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد.

وكانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جراء هذه الغارة التي شنها على بلادهم أسامة بن زيد، فجمع الأمبراطور هرقل جيشاً جراراً عسكر به على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين[٢]. فدعا أبو بكر المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب، فلبوا الدعوة بحمية

---

(١) أرنولد. الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٨ - ٢٣٩

(٢) تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٩ - ٤٠.

وحماسة شديدتين. وسرعان ما أنفذ الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد اللواء لأربعة من الأمراء هم:

١ ـ أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ومركز القيادة الجابية.

٢ ـ عمرو بن العاص ووجهته فلسطين.

٣ ـ يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق.

٤ ـ شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن.

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضاً، وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبي عبيدة، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وأن يمد الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك[1].

وعند مسير عمرو بن العاص إلى فلسطين، أوصاه أبو بكر وصية بليغة نقف منها على أخلاق عمر، وحرص أبي بكر على المسلمين، وسلوك الأمراء مع أهالي البلاد التي فتحها العرب[2].

عمل عمرو بما رسمه له أبو بكر في وصيته التي كانت أشبه شيء بالخطة الحربية، فسار في طريق إيلياء حتى وصل إلى فلسطين، ونزل «بغمر العربات». فلما علم هرقل بوصول كتائب المسلمين، أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف من قوتهم. ولما بلغ عمر أن جيش الروم يزيد على مائة ألف أرسل عبد الله بن عمر بن الخطاب في ألف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم، وحمل بنفسه على كبيرهم فقتله. فداخل الفزع قلوب الأعداء واقتتل الفريقان وحلت الهزيمة بالروم، فولوا الأدبار. واستولى المسلمون على ما كان معهم عدا ستمائة أسير، وقتل من المسلمين سبعة على ما رواه الواقدي[3].

ولما أصبح المسلمون أشرف عليهم عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف[4] فأقبل عمرو ورتب الجند وأمرهم أن يقرؤوا القرآن، وجعل يحببهم في القتال ويرغبهم في ثواب الله وجنته. فلما شاهدهم روبيس بطريق الروم، انكسرت حميته وأسقط في يده.

ولما اشتبك الفريقان في القتال حمل المسلمون على العدو حملة منكرة، وكان شعارهم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، يا رب انصر أمة محمد ﷺ». ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل، إذ آتى الله المسلمين النصر وولى الروم منهزمين

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ٢٨ ابن الأثير جـ ٢ ص ١٩٥.

(٢) راجع هذه الوصية في كتاب فتوح الشام للواقدي جـ ١ ص ٩ ـ ١٠

(٣) لم يرو الطبري هذه الموقعة ولعله أكثر احتياطاً في رواية الأخبار

(٤) هذا ما ذكره الواقدي. أما الطبري فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفاً، وذكر ابن الأثير أن هرقل أرسل إلى عمرو تسعين ألفاً.

والمسلمـون في أعقابهم مسرعون. وكانت خسـارة الروم في هـذه الموقعـة خمسة عشـر ألفاً وخسارة المسلمين مائة وثلاثين، من بينهم سعيد بن خالد أخو عمرو بن العاص لأمه.

مسيرة خالد إلى الشام ـ موقعة اليرموك:

وفي الوقت الذي اشتعل فيه المسلمون بفتح بلاد الدولة البيزنطية في الشـام وفلسطين، توجهت قوة صغيرة لفتح بلاد العراق. وبينما كانت انتصـارات المسلمين تتوالى في العـراق، وصلت أنباء الشام بأن أبا عبيدة لم يقو على مدافعة الروم، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد بأن يسير حتى يأتي جموع المسلمين باليرموك، فسار خالد من العراق لمساعدة جيوش العرب في الشام وتولى القيادة مكان أبي عبيدة، فولى خالد المثنى بن حارثة الشيباني قيادة جند المسلمين، وسار على رأس جيش كبير[١] حتى وصل إلى بُصرى، وهي مدينة تجارية حصينة. وكان أبو عبيدة قد أنفذ شرحبيل بن حسنة إليها، فلم يقو على هـزيمةالـروم، لأن حاميـة هذه المدينة صوبت سهامها إلى المسلمين من كل جانب، ولم ينجهم إلا حضور خالد الذي استطاع أن يستولي عليها بمعونة واليها رومانوس الذي اعتنق الإسلام وسلم المدينة للمسلمين بعد أن دلهم على الدخول إليها من سرداب تحت سورها.

على أن خالداً سار إلى الشام كارهاً، واعتقد أن الخليفة عمر سعى لإقصائه عن العراق حتى لا يتم فتحها على يديه. يدل على ذلك قوله عندما جاءه كتاب أبي بكر: «هذا عمل الأعيثر ابن أم شملة: يعني عمر بن الخطاب، حسدني أن يكون فتح العراق على يدي»[٢].

وقد شجع استيلاء العرب على مدينة بصرى على محاصرة دمشق، في الوقت الذي شتت فيه عمرو بن العاص شمل الجيوش البيزنـطية في فلسـطين. ولما سمـع عمرو أن الإمبـراطور أرسل أربعة جيوش لمحاربة جيوش المسلمين الأربعة، غدا مركز المسلمين من الـدقة بحيث استشار قوادهم بعضهم بعضاً، فأشار عليهم عمرو بالاجتماع في مكان واحد يواجهون فيه قوى البيزنطيين، واختار اليرموك.

ولما علم «هرقل» بذلك جيَّش الجيوش تحت قيادة ماهان (أو بامـان). وهو قـائد أرمني عرف فيه «هرقل» الشجاعة والإقدام، فسار في ثمانين ألفاً، ولحق به جبلة بن الأيهم ملك غسان على رأس ستين ألفاً من العرب المتنصرة، عدا الجنود التي كانت مع غيرهم من قـواد الروم.

---

(١) في الطبري أن جيش خالد كان عشرة آلاف سار بهم من قراقر إلى سوى وما زال يوقع بما يقابله من المدن إلى أن اجتمع ببقية جيوش المسلمين في اليرموك. ابن الأثير جـ ٢ ص ١٩٨

(٢) الطبري جـ ٤ ص ٤٤

فأصبح عددهم مائة وأربعين ألفاً. وذكر الطبري وابن الأثير وغيرهما أن جيش المسلمين كان يجاور أربعين ألفاً. أما قول الواقدي[١] إنه كان مع «هامان» ومن تحت إمرته خمسمائة ألف أو ستمائة ألف أو ألف ألف وستمائة ألف (١,٦٠٠,٠٠٠) فهو قول مردود والمبالغة فيه ظاهرة.

اجتمع العرب على مقربة من نهر اليرموك الذي ينبع من مرتفعات حوران ويصب في الأردن جنوبي بحيرة طبرية. وعلى نحو ثلاثين ميلاً من التقائه بالأردن يكون في الطرف الشمالي شرجاً على شكل نصف دائرة يحيط بسهل متسع صالح لأن يعسكر به جيش كبير. وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة، وعند مضيق هذا الشرج عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التي في الداخل. وهذه البقعة تسمى «الواقوصة» ذات الشهرة العظيمة في الوقائع الإسلامية. وقد زعم الروم أنها محمية من جميع جهاتها وأنها محصنة تحصيناً طبيعياً، وسيروا جيشهم إلى العرب الذين عبروا النهر من شماله وجعلوا مركزهم بجانب هذا العنق.

وكان «هرقل» قد أوصى «ماهان» بمراسلة العرب للصلح، فأرسل جبلة بن الأيهم إلى أبي عبيدة، فأبى أن يجيبه إلى طلبه إلا بعد أن يستولي المسلمون على بلاد الشام وفلسطين، وأرسل أبو عبيدة إلى جبلة رسلاً يؤنبونه لانضمامه إلى الروم، وينصحون له بأن يرجع إلى الإسلام أو يكف عن قتالهم ويدفع الجزية، فلم يزده ذلك إلا مكابرة.

ولما قدم خالد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون الروم متساندين، فرتب الجيش، وجعل أبا عبيدة في القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة. ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين، واشتركت النساء مع الرجال في القتال لصد هجمات العدو الذي اضطرهم إلى التقهقر عدة مرات[٢]. وبعد الهزائم التي لحقت بالروم في الأدغال وعلى رؤوس الجبال، جاء يوم الواقوصة الذي كتب فيه النصر للعرب حيث هوى من جند الروم مائة وعشرون ألفاً[٣].

وبينما كان العرب يقاتلون الروم في اليرموك، أتاهم نعي أبي بكر وتولية عمر الخلافة. وكان الخليفة الجديد لا يزال يذكر لخالد موقفه من مالك بن نويرة. فعزله عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة، ولكنه «استحيى أن يقرأ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يد خالد، وكتب الكتاب باسمه».

ولكن خالداً لم يكن بالرجل الذي يتمرد على خليفة رسول الله أو يعترض على أمره، لأنه يحرص على وحدة المسلمين حتى ينصرفوا إلى جهاد العدو. فإنه لما قرأ كتاب عمر قال: ما أنا

---

(١) فتوح الشام جـ ١ ص ١٢٠.
(٢) الواقدي جـ ١ ص ٦٥ ـ الطبري جـ ٤ ص ٣٢
(٣) الطبري جـ ٤ ص ٣٥.

بالذي أعصى أمير المؤمنين، وحارب تحت إمرة أبي عبيدة جندياً من جنود الإسلام.

على أن بعض المسلمين لم يرَ رأي عمر في عزل خالد عن القيادة، فقد قال أبو عمرو ابن حفص بن المغيرة: عزلت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ ووضعت لواء رفعه رسول الله ﷺ، فقال عمر: إنك قريب القرابة، حديث السن، مغضباً لابن عمك[1].

وقد قيل إن عمر عزل خالداً لأنه كان يخشى أن يفتتن الناس به، وأنه عزم على أن يوليه عملاً بعد أن يرجع من الحج. ولكن المنية وافته سنة إحدى وعشرين للهجرة[2].

فتح دمشق وبيت المقدس:

ولما علم «هرقل» بانتصار المسلمين في اليرموك ـ وكان ببيت المقدس ـ رأى في بقائه خطراً عليه، فأسرع بالرحيل إلى حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية فخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وهو يريد تتبع القافلة، وكان لا يدري أيجتمعون أم يفترقون، فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وأن المدد أتى أهل دمشق من حمص. وكان لايدري هل يبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن فكتب إلى الخليفة عمر يستطلع، وأقام بمرج الصفر. فلما جاء عمر نبأ فتح اليرموك، ولى الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنه ضم خالداً إلى أبي عبيدة، وأمر عمرو بمعاونة غيره من القواد حتى تنتقل الحرب إلى فلسطين فيتولى القيادة فيها.

ولما جاء عمر كتاب أبي عبيدة كتب إليه: أما بعد فابدؤوا بدمشق فإنها حصن الشام، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم. وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح الله عليك فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمراً، وأخلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته. وقد أرسل أبو عبيدة إلى فحل عشرة قواد، فبث الروم المياه حولها، فوحلت الأرض وعاق ذلك تقدم المسلمين[3].

ولما وصلت جيوش المسلمين إلى دمشق نزل عمرو بن العاص بباب الفراديس ونزل شرحبيل بن حسنة بباب توما، وقيس بن هبيرة بباب الفرج، وأبو عبيدة بباب الجابية، وبقي خالد بالباب الشرقي.

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٢ ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه حـ ٣ ص ١٧٨

(٣) الطبري حـ ٤ ص ٥٦ ـ ٥٧.

وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوماً، ولم تجد منعة حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع نفعاً. ومنع المسلمون المدد من أن يصل إليهم، ونفذت المؤن من عندهم، فعيل صبرهم وانكسرت حميتهم، وتم للمسلمين فتح هذه المدينة[١].

وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فتحت فيه دمشق، فروى بعض أنها فتحت في أواخر سنة ١٣ للهجرة، وقال بعض إنها فتحت في أوائل المحرم، وقال بعض إنها فتحت في رجب من هذه السنة.

وبعد فتح دمشق سار المسلمون إلى فحل، وكان قد أخلاها أهلها وساروا إلى بيسان، وصارت المياه والأوحال بينهم وبين الروم.

اقتتل المسلمون والروم قتالاً شديداً، فانهزم الروم وطاردهم المسلمون إلى الأوحال، ووخزوهم بالرماح حتى أصيبوا جميعاً، ولم يفلت منهم إلا الشريد، وانصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، فاستوليا عليها ثم على حماة وقنسرين واللاذقية وحلب.

أما شرحبيل وعمرو بن العاص فقد قصدا بيسان، فحاصرا أهلها أياماً وأرغموهم على طلب الصلح والأمان، ولما علم أهل طبرية بما حل بأهل فحل وبيسان صالحوا أبا الأعور، وتم بذلك صلح الأردن، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بالفتح[٢].

كان على فلسطين في ذلك الوقت والٍ روماني يدعى «أرطبون»[٣]. وقد أقام جنداً كثيراً ببيت المقدس وغزة والرملة، على حين عسكر بجنده الكثيف بأجنادين.

ولما رأى عمرو أن القوة التي مع الروم أقوى مما كان يظن، كتب إلى عمر بن الخطاب فقال عمر: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج، وكتب إلى القواد أن يسيروا إلى قيسارية والرملة وإيلياء ليشغلوا الروم عن عمرو.

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة، وحاول إضعاف قوة «أرطبون» فلم يوفق، واقتتل المسلمون والروم قتالاً شديداً لا يقل عن قتال اليرموك. فانهزم «أرطبون» في ثمانين ألفاً من الروم وآوى بالفالة إلى إيلياء، وكان ذلك سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م)[٤].

وكان من أثر انتصار عمرو على «أرطبون» أن أذعن لسلطان العرب كل من يافا ونابلس

---

(١) انظر عمرو بن العاص للمؤلف ص ٤٦ ـ ٤٧

(٢) الطبري جـ ٤ ص ٥٩. ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٣) ذكر بطلر (The Arab Conquest of Egypt, p.215) أن لفظ أرطبون الذي يطلقه مؤرخو العرب على هذا القائد خطأ والصحيح أريطيون.

(٤) الطبري جـ ٤ ص ٥٧.

وعسقلان وغزة والرملة وعكا، وبيروت واللد والجبلة، وفتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس.

ولما أتم عمرو بن العاص فتح غزة ولد ونابلس وبيت جبرين، قصد بيت المقدس. وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة ودية ويطلب إليه تسليم المدينة، والأرطبون يأبى عليه. وقد أنزلت المنجنيقات التي نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس خسائر فادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد وقد حاصر المسلمون هذه المدينة أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال، وعدوا الاستيلاء عليها دينياً أكثر منه سياسياً، لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة لكونها مركز الأرض المقدسة.

ولما كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله أو الدخول في طاعة المسلمين ودفع الجزية، نظروا في أمرهم، فوجدوا أنفسهم في ضنك عظيم وحصار شديد. وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها الكبار، وأنهم مأخوذون لا محالة، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين ألا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى، لكثرة ما لاقى المسلمون في حربهم من العناء وما بذلوا في قتالهم من الدماء. وقد خافوا على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون، فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس، فرأوا توكيداً للأمان وتوثيقاً لعرى العهد، أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه. ثم ظهر بطرقهم سفرونيوس (Sophronius) على الأسوار طالباً التسليم، على أن يكون المتولي للصلح الخليفة عمر بن الخطاب. فكاتبه الأمراء في ذلك، فرضي عمر ورحل إلى الجابية، وكتب لأهل إيلياء كتاباً أشهد فيه قواد المسلمين، كما كتب إلى سائر كور فلسطين كتاباً أورد الطبري صورته. وكان فتح إيلياء في سنة ١٦ هـ أو في أواخر سنة ١٥ هـ (٦٣٥ م)(١).

غير أن عمرو بن العاص ظل مع جيشه بفلسطين للقضاء على القوة التي كانت لا تزال مع قسطنطين بن هرقل. فسار إلى قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف. وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية وهرب أبيه من أنطاكية، وتوهم أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة، فانسل من قصره هو وأسرته خفية، ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل ولما علم الأهلون بهرب أميرهم سلموا لعمرو.

ضعف سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون فيها المشاق والأهوال، وقاسوا طويلاً من شدة بردها، وقتل من جندهم عدد كبير لا سيما في مواقع اليرموك

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ١٥٨ ـ ١٦٠.

ودمشق وبيت المقدس وحلب، حتى بلغ عدد من قتل منهم أكثر من خمسة وعشرين ألفاً، مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً والدماء الغزيرة التي أهدرت في فتحها عزيزة.

(د) فتح مصر :

حالة مصر قبل الفتح: لكي نقف على مبلغ السهولة التي تم بها فتح مصر على أيدي العرب، ينبغي أن نتعرف حالة هذه البلاد من الناحيتين الدينية والسياسية.

كانت مصر إحدى الولايات الرومانية؛ وكانت ـ كغيرها من الولايات ـ تدين بالدين الوثني، إلى أن ولد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور أوغسطس قيصر مؤسس الإمبراطورية الرومانية، على أثر انتصاره على لجيوش أنطنيوس وكيلوبترا سنة ٣١ ق. م. فأخذت نقم الأباطرة الرومان تتوالى على الوثنيين الذين اعتنقوا هذا الدين الجديد، وظلوا على ذلك إلى أن اعترف الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧) بالدين المسيحي، وساوى بين المسيحية وغيرها من الأديان (٣٢٣م)، وأعطى المسيحيين بعض الامتيازات[١] الى أن جعل الإمبارطور تيودوسيس (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) المسيحية الدين الرسمي للدولة في سنة ٣٨١ م.

بعد ذلك أخذت النقم تتوالى على الوثنيين بعد أن كانت تتوالى على المسيحيين. على أن المسيحيين ما كادوا يتخلصون من الاختلافات الدينية حتى وقعوا في الاختلافات المذهبية، ونشأ عن ذلك ما يعرف بالمذهب الأرثوذكسي والمذهب الكاثوليكي وغيرهما من المذاهب[٢].

---

(١) كان ذلك عملاً سياسياً أكثر منه دينياً. وذلك أنه أراد أن يربط أجزاء الإمبراطورية برابطة أدبية قوية تكون أداة للوحدة التي كان ينشدها، ووجد في الدين المسيحي تلك الرابطة التي كان يريدها يدل على صحة هذا الرأي أنه اتخذ من الخلاف بين أريوس الذي كان يقول إن المسيح أشرف مخلوق ولكنه دون الله، وأثناسيوس الذي كان يرى أنه من روح الله وأنه يساويه في اللاهوت وأن العلاقة بينهما أبدية (وهو ما يعبر عنه بمبدأ التثليث)، ذريعة لعقد مجمع نيقية في آسيا الصغرى سنة ٣٢٥ م للتوفيق بين هذه الآراء. وكان من أثر ذلك أن انقسم المسيحيون إلى أرثوذكس (المستقيمو الرأي أو المتمسكون بالدين القويم وهم كأهل السنة عندنا)، وإلى كاثوليك وهم أتباع الكنيسة الجامعة أي كنيسة روما ومن أنصار أثناسيوس.

ومن ذلك يتبين أن المصريين ما كادوا يخلصون من اضطهاد الأباطرة الوثنيين حتى وقعوا في الاختلافات المذهبية التي كان لها أثرها. فإن مسيحيي مصر كانوا أرثوذكس بينما غدا الأباطرة في روما كاثوليكا.

(٢) لم يكد تيودوسيس يقبض على زمام الأحكام حتى جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة. وكان من أثر هذه السياسة أن لاقى الوثنيون في مصر (وفي غيرها) ما لاقاه المسيحيون من قبل. على أنه قد قام خلاف آخر بين المصريين والروم بسبب ظهور مذهبين جديدين:

١ ـ اليعقوبي: ويقول أتباعه بامتزاج الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح، وذلك بعد التجسد.

٢ ـ الملكي: ويعتقد أتباعه أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور وأنه غير مخلوق. اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحداً وهو المسيح.

وكان من أثر هذا الخلاف أن عقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م في عهد الإمبراطور مرقيانوس (٤٥٠ ـ ٤٥٧ م).

وكان هذا الاختلاف سبباً في انتشار البؤس والشقاء بين المصريين.

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق. م، فجعل أوغسطس قيصر هذه البلاد مخزناً يمد روما بحاجتها من الغلال. وبذلك انحطت درجة العلم والعرفان فيها، وأغلقت أبواب المناصب العالية أمام المصريين، وزادت الضرائب في عهد الرومان زيادة كبيرة حتى شملت ـ كما يقول المؤرخ «ملن»[١] ـ الأشخاص والأشياء: فكانت تجبى على الرؤوس والصناعات، وعلى الماشية والأراضي. ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع، بل كانت تجبى على المارة رجالاً ونساءً ـ تجاراً وغير تجار ـ ومن صناع السفن، ومن زوجات الجنود، وعلى أثاث المنازل. ولم تقتصر تلك الضرائب على الأحياء بل تعدتها إلى الموتى، حتى إنه كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة.

وقد ألزم المصريون بإيواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان، وتقديم ما يلزمهم من الحاجات، وتوفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم، كما ألزموا في السنين الأخيرة بأن يقوموا بغذاء الجنود. وقد أدت هذه الأعباء إلى ضعف المصريين وخمولهم وازدياد سخطهم على الحكم الروماني. كما كان للاختلافات الدينية نتائج لا يستهان بها، ومهدت السبيل لاستيلاء الفرس على مصر فترة من الزمن ثم لاستيلاء العرب عليها[٢].

لذلك لا تعجب إذا أصبح المصريون يتطلعون لدولة أخرى تخلصهم من هذه الحالة السيئة وترفع عنهم تلك المظالم. وقد سرهم ما علموه من استيلاء العرب على الشام، كما سرهم ما سمعوه من حسن سيرتهم في البلاد التي فتحوها، وتمنوا أن يكون خلاصهم من ظلم الروم على يد المسلمين.

مسير عمرو إلى مصر:

لما قدم عمر بن الخطاب الجابية من أعمال دمشق سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م). أتى إليه عمرو ابن العاص، وكان من القواد الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لفتح الشام وفلسطين، وقال له: «أتأذن لي في السير إلى مصر». وذكر له أنها أكثر الأرض أموالاً، وقال له: «إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم». فتردد الخليفة في الأمر، وأشفق على المسلمين أن يصيبهم الإخفاق. ولم يستطع أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً كبيراً، لتفرق جند المسلمين في الشام والجزيرة وفارس. أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع في الفتح، وخاصة أن أقدام المسلمين

---

(١) Milne, History of Egypt Under Roman Rule, pp. 115-125

(٢) على أن كل هذه الآلام لم تكن مقصورة على المصريين، إنما كانت شاملة لجميع أجزاء الإمبراطورية، وهي من الأسباب التي أدت إلى سقوطها وفتح العرب لها

لم تثبت بعد في البلاد التي فتحوها. فلم يزل عمرو يهون عليه فتحها ويعظم أمرها، طمعاً فيها ورغبة في خيراتها. لأنه وقف بنفسه على أحوالها في الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة عدة مرات، وعرف خصب أرضها ووفرة خيراتها. كما بين لعمر أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم في الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب، وأن بقاءها في يد الروم يعرض سيادة العرب في بلاد الشام، وما زال بعمر حتى أذن له بقصدها وعقد له على أربعة آلاف رجل.

ولما أمر عمر عمرو بن العاص بالمسير قال له: «إني مرسل إليك كتاباً، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامضِ لوجهك واستعن بالله واستنصره». ويقال إن كتاب عمر وصل إلى عمرو وهو برفح، فلم يتسلمه من الرسول حتى قرب من العريش، فأخذ الكتاب وقرأه على أصحابه، فإذا عمر يأمره فيه بالانصراف إن لم يكن قد دخل أرض مصر، ثم أمر الجيش بالمسير على بركة الله.

سار عمرو بجنده مخترقاً رمال سيناء حتى وصل إلى العريش[1] سنة ١٨ هـ، وفتحها من غير مقاومة، لأن حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف في وجه العرب زمناً طويلاً، ثم لعدم وجود حامية رومانية بها. ثم غادر عمرو العريش مخترقاً الطريق الذي كان يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج والسائحون منذ أقدم العصور. وهو طريق إبراهيم عندما سار إلى بلاد العرب بابنه إسماعيل، وطريق يوسف عندما سار من الشام إلى مصر زمن الفراعنة، وطريق قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر، والإسكندر المقدوني الذي مد فتوحه إلى الهند. ولم يشتبك عمرو مع جند الروم في قتال حتى وصل إلى مدينة «الفرما»، وهي مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديار، وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء من النيل، وكانت بمثابة مفتاح مصر في ذلك الزمن. ولما فتح الفرس مصر خربوا أسوارها وهدموا بعض كنائسها. وكان الروم قد رمموا ما دمره الفرس في أثناء غزوتهم لمصر، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين. واضطر المسلمون إلى حصارها أكثر من شهر ثبتوا فيه حتى تم لهم فتحها في منتصف يناير سنة ٦٤٠ م (أول المحرم سنة ١٩ هـ). وقد أجمع المؤرخون على أن القبط كانوا أعواناً للعرب على حصار الفرما.

تقدم عمرو حتى وصل إلى بلبيس، ماراً في طريقه بأرض مغطاة بقشور الصدف البيضاء

---

(١) إن المسافر من فلسطين إلى مصر يسير إلى الشحرتين على حدود مصر ثم إلى العريش في قسم الحدود، ثم إلى قرية البقارة ثم إلى الواردة وسط التلال المرملة، ثم إلى الفرما وهي أول مدينة مصرية يصل إليها. ثم إلى مدينة الحرير ثم إلى حيفة ثم إلى المسطاط.

التي استحالت اليوم إلى رمال، ثم بمدينة مجدل Migdol، وتلي الفرما في الصحراء على مقربة من ساحل البحر الأبيض إلى الجهة المعروفة بالقنطرة الواقعة على قناة السويس الحالية. ثم أخذ في السير إلى الصالحية فوادي الطليمات بقرب التل الكبير. وإنما اختار عمرو هذا الطريق لخلوه من المستنقعات، بخلاف الطريق الأخر الذي كان يسلكه معظم الفاتحين، ولما وصل عمرو إلى بلبيس وجد بها الأرطبون، وكان قد فر إلى مصر قبل تسليم بيت المقدس لعمر بن الخطاب، فهزمه عمرو واستولى على المدينة بعد شهرلم ينقطع فيه القتال، ويقال إن ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الروم كانت بها حين فتحها المسلمون، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة، مما أكسب المسلمين محبة القبط، فحسن رأيهم فيهم وفي حكمهم.

وبعد استيلاء عمرو على بلبيس سار إلى تندونياس التي سماها العرب فيما بعد أم دنين، ثم سميت المقس، وهنا نشب القتال بين المسلمين والبيزنطيين، ودام القتال عدة أسابيع، ولما أبطأ الفتح على عمرو كف عن القتال وأرسل إلى عمر يطلب منه المدد، فأمده بأربعة آلاف، على رأسهم أربعة من كبار الصحابة هم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، والمقداد بن الأسود وكتب الخليفة لعمرو: «قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل».

ولما وصل هذا المدد إلى عين شمس، سار عمرو لملاقاته، وتقدم تيودور قائد الروم في عشرين ألفاً، فوضع له عمرو كميناً في الجبل الأحمر شرقي العباسية، وآخر على النيل قريباً من أم دنين، ولاقاه ببقية الجيش. ولما نشب القتال بين الفريقين، خرج الكمين الذي كان في الجبل الأحمر وانقض على الروم، فاختل نظامهم وعرجوا على أم دنين، فقابلهم الكمين الذي كان بقرب أم دنين، فأصبحوا بين جيوش العرب الثلاثة وحلت بهم الهزيمة؛ ولم يبق منهم إلا عدد قليل سار بعضهم في النيل وفر البعض الأخر إلى حصن بابليون.

فتح حصن بابليون:

ثبتت قدم عمرو في أم دنين وعين شمس التي صارت مركزاً لقيادته الحربية، ولم يبق أمامه سوى حصن بابليون، فسار إليه وحاصره سنة ٢٠ هـ، وكان ذلك وقت فيضان النيل، وطال أمد الحصار إلى سبعة أشهر لمناعة أسوار المدينة وقلة معدات الحصار عند العرب.

وبعد شهور رأى المقوقس الجد من العرب وصبرهم على القتال، وأنهم سوف يقتحمون الحصن بصبرهم وشجاعتهم. فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بجزيرة الروضة، وأرسل إلى عمرو يطلب منه الصلح، وقال له في كتاب أرسله إليه: «قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها، وأنتم عصبة يسيرة، وأخشى أن تغشاكم الروم فتندموا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر بيننا على ما نحب وتحبون». ولما أتت رسل المقوقس إلى عمرو،

أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس، ثم قال لهم عمرو: ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث:

١ ـ إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

٢ ـ وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون.

٣ ـ وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين.

ولما عاد الرسل إلى المقوقس، سر بلقائهم وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا: رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة. والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة لا تهمه. جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم».

وقد أرهب المقوقس هذا الحديث، فأشار على قومه بطلب الصلح، وأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا إليه رسلاً للمفاوضة في الصلح. فبعث عمرو عشرة رجال فيها عبادة بن الصامت، وأمره أن يكون هو المتكلم. ودارت المحادثات بين الطرفين، وسلك المقوقس طريق الإرهاب المصوغ في قالب النصيحة، وألح على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث، فرفع عبادة يديه وقال: «لا ورب هذه السماء، ورب هذه الأرض، ورب كل شيء. ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم». فقال المقوقس لقومه: «أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث. فوالله ما لكم بهم من طاقة، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين، لنجيبنهم إلى ما هو أعظم من هذه كرهاً»(١).

ولما كتب المقوقس بذلك إلى هرقل رد عليه يوبخه ويحقر من قوة المسلمين، وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم الذين مع المقوقس، فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم. أما المقوقس فإنه لم يعبأ بهرقل، بل أعلم عمرو بن العاص أنه لم يخرج عما عاقده عليه، وأن القبط موفون له ما صالحهم عليه. وتحدثنا المصادر العربية أن عمر طلب من المقوقس أن يضمن له الجسور ويقيم للمسلمين الإنزال والضيافة بين الفسطاط والإسكندرية، فقبل وصار القبط أعواناً للمسلمين(٢) وقد عد مؤرخو الفرنجة هذا العمل خيانة من المقوقس.

فتح الإسكندرية:

كانت الإسكندرية عند استيلاء العرب على مصر، قصبة الديار المصرية، وثانية حواضر الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بعد القسطنطينية)، وأول مدينة تجارية في العالم. وقد أيقن

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٥٩ ـ ٦٣.

(٢) ابن عبد الحكم ص ٦٥ ـ ٦٧.

الروم أن سقوط هذه المدينة في أيدي العرب يؤدي حتماً إلى زوال سلطانهم من مصر. لذلك بادر الإمبراطور إلى إرسال الجيش إليها، ونشطوا للدفاع عن المدينة وأغلقوا أبوابها وتحصنوا فيها.

سار عمرو إلى هذه المدينة، وفتح في طريقه طرنوط(١)، ثم نقيوس(٢) ثم سلطيس(٣)، ثم الكريون، وهي آخر حلقة في سلسلة الحصون الرومانية التي كانت تمتد من بابليون إلى الإسكندرية. وقد تحصن فيها تيودور قائد الحصن الروماني وقاتل المسلمين قتالاً شديداً. ولما دارت الدائرة عليه، ولى هو وفلول جيشه الأدبار حتى وصلوا إلى الإسكندرية. وكان على المقدمة عبد الله بن عمرو بن العاص، وحامل اللواء وردان مولى عمرو.

وصلت فلول الروم إلى الإسكندرية، وتحصنوا بها، وكانت منيعة حصينة. وقد عني الروم بتحصينها كما عني البطالسة من قبلهم لتقوى على رد غارات الأعداء وصد هجمات الفاتحين. وكانت الأمداد تأتي إليها من الروم باستمرار. ولم تقل حاميتها عن خمسين ألف جندي مزودين بالمؤن الوفيرة والعدد الكثيرة، على حين بلغ جند العرب نحو إثني عشر ألفاً. وظل عمرو وجنوده يردون غارات الأعداء ويقابلون هجمات الروم نحواً من أربعة أشهر، فأقلق هذا الخليفة عمر، فبعث إلى عمرو كتاباً يلزمه فيه هو والمسلمون، فقرأ عمرو الكتاب، وعقد لعبادة بن الصامت وولاه قتال الروم، ففتح الله الإسكندرية على يديه، وتم هذا الفتح عنوة، ولكن عمراً جعل أهلها ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم. شأن العرب مع أهالي معظم البلاد التي فتحوها. وإنما عامل عمرو المصريين معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ليستجلب محبتهم.

ويتلخص الصلح الذي عقده المقوقس مع العرب فيما يلي:

١ ـ أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين في كل سنة.

٢ ـ المهادنة أحد عشر شهراً.

٣ ـ احتفاظ العرب بمركزهم مدة الهدنة، وألا يباشروا أعمالاً حربية ضد الإسكندرية، وأن يكف جند الروم عن الأعمال العدائية.

٤ ـ ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وألا يتدخلوا في أمور المسيحيين.

---

(١) بفتح الطاء والراء، على الشاطىء العربي لفرع رشيد، وتسمى الآن الطرانة وتقع على مقربة من كفر داود على حط الماشي في جهة الخطاطبة وكوم حمادة.

(٢) بفتح النون، على النيل إلى الشمال من طرنوط، بمديرية البحيرة بجهة النخيلة مركز كوم حمادة.

(٣) بضم السين على بعد ستة أميال حوبي دمهور في منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون.

٥ ـ أن ترحل الحامية التي بها مع ما يملكون من أموال وأمتعة وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم.

٦ ـ بقاء اليهود بالإسكندرية.

٧ ـ ألا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومي.

٨ ـ أن يكون عند المسلمين من الروم ١٥٠ جندياً و ٥٠ ملكياً رهينة لتنفيذ هذه المعاهدة[١].

أثر فتح مصر:

(أ) معاملة العرب للمصريين: لم يشتط العرب في معاملة القبط بل عاملوهم بمنتهى اللين؛ فخيروهم بين الإسلام والبقاء على دينهم: فمن أسلم منهم صار له ما للمسلمين من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات، ومن بقي على دينه فرضت عليه جزية صغيرة مقدارها ديناران على من بلغ الحلم منهم، واستثنوا النساء والشيوخ والأطفال. أضف إلى ذلك رفع الاضطهاد عنهم وعدم تحميلهم ما لا يطيقون، وبهذه الطريقة أتيح لعمرو تنفيذ أوامره على أهون سبيل. وكان عمرو يضع مصلحة المصريين نصب عينيه، ولم يأل جهداً في اكتساب محبتهم، فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته.

وقد أطلق العرب الحرية الدينية للقبط. يؤيد ذلك ما فعله عمرو بعد استيلائه على حصن بابليون، إذ كتب بيده عهداً للقبط بحماية كنيستهم ولعن كل من يجرؤ من المسلمين على إخراجهم منها، وكتب أماناً للبطريق بنيامين، ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة. وأمر عمرو باستقبال بنيامين عندما قدم الإسكندرية أحسن استقبال، وألقى على مسامعه خطاباً بليغاً ضمنه الاقتراحات التي رآها ضرورية لحفظ كيان الكنيسة، فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لإدارة شؤون الكنيسة؛ قد لاحظ «بطلر» أن عودة بنيامين إلى عرش الكنيسة كفاها شر الوقوع في أزمة خطيرة.

وإن الخطبة البليغة التي ألقاها باسيلي أسقف نقيوس بدير مقاريوس، لخير شاهد على أن القبط أصبحوا بعد الفتح الإسلامي في غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الروم: يدل على ذلك رد بنيامين على باسيلي بقوله: «لقد وجدت في مدينة الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون». فمن هذه الكلمات التي فاه بها البطريق يتجلى مبلغ الطمأنينة التي شعر بها المصريون في عهد عمرو.

---

(١) راجع كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٧٢ ـ ٧٤، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٨ وما يليها، وكتاب الولاة للكندي ص ٩ وما يليها.

ومما يؤيد هذا القول وصف «ساويرس» القوم بأنهم كانوا في اليوم الذي زار فيه دير مقاريوس كالثيرة إذا أطلقت من قيودها.

ومما يدل أيضاً على حسن سياسة العرب في مصر، أنهم لم يفرقوا بين الملكانية واليعاقبة من المصريين، الذين كانوا متساوين أمام القانون، والذين أظلهم العرب بعدلهم وحموهم بحسن تدبيرهم. يقول سير توماس أرنولد[١]: «يرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف به من الإدارة الظالمة وما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت: فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط، الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم».

وقد ترك العرب الأرض للمصريين، وأخذوا على عاتقهم حمايتهم وأمنوهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم، فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل.

ولم تقتصر أعمال العرب على ذلك، بل إنهم أعادوا الأمن والنظام إلى البلاد، وقاموا بالإصلاحات العظيمة، فنظموا الإدارة، ونصبوا القضاة ورسموا خطة جباية الخراج، وعنوا عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الريّ من كري الخلجان، وبناء مقاييس للنيل، وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور. وكان من أثر هذه الإصلاحات أن تحسنت حال القبط وزادت ثروتهم: وينسب إليهم بعض المؤرخين خطأ أو عن سوء قصد إحراق مكتبة الإسكندرية[٢].

(ب) مكتبة الإسكندرية: خاض بعض المتأخرين من المؤرخين في مسألة إحراق مكتبة الإسكندرية، فنسبها بعضهم إلى عمرو بن العاص، وزعموا أن عمر بن الخطاب أمره بإحراقها. وناقش هذه المسألة كثير من الفرنجة مثل جبون[٣] وبطلر[٤] وسديو[٥] وجوستاف لي بون[٦] وغيرهم. ولكنهم لم يجزموا برأي فيها، بل ارتابوا في صحة تهمة إحراق هذه المكتبة التي وجهت إلى عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر، وقالوا إنها تخالف التقاليد الإسلامية «ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامي مثل: أوتيخا الذي وصف فتح مصر بإسهاب، ولم يرد في تاريخه ولا في تاريخ غيره من معاصريه ذكر لهذه التهمة. كذلك لم ترد في تاريخ الأقدمين. كاليعقوبي، والبلاذري، وابن عبد الحكم، والطبري، والكندي ولا في

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة المؤلف ص ١٢٣.

(٢) راجع كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٣٠ ـ ١٥٣.

(٣) Gibbon, vol. 1x pp: 274 - 276.

(٤) Butler, pp. 401 - 426.

(٥) Sédillot, vol. 1. pp. 155 - 156.

(٦) Le Bon, p. 708.

تاريخ من جاء بيدهم وأخذ منهم. كالمقريزي، وأبي المحاسن، والسيوطي وغيرهم.

وأول من نسب الحريق إلى عمرو هو عبد اللطيف البغدادي[١] (٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م) وجاء بعده ابن القفطي (٦٤٦/١٢٤٨ م)[٢] وأبو الفرج الملطي[٣] (٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م). على أنه لا يمكننا أن نلقي التبعة على ابن القفطي وأبي الفرج، لاحتمال أن يكونا قد أخذا هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادي الذي رمى عمراً بهذه التهمة، ولم يذكر لنا من أي تاريخ أخذ ولا من أي مصدر استقى، بل ذكرها عرضاً في سياق كلامه عن عمود السواري، وإنما تلقف ذلك من ألسنة العوام. فالتبعة واقعة إذن على عبد اللطيف البغدادي لا على ابن القفطي وأبي الفرج، إذا فرض أن عبد اللطيف هو أول من ذكر هذه المسألة.

وقد دلل المؤرخون الذين ذهبوا إلى القول بأن إحراق مكتبة الإسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب:

١ - بأن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة في محو كل كتاب غير القرآن والسنة.

٢ - وأنهم أحرقوا مكاتب الفرس عند فتح بلادهم، كما ذكر ذلك حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون.

٣ - وأن هذه الرواية والتي تثبت الحريق لم يروها أبو الفرج القفط، بل رواها أيضاً مؤرخان مسلمان هما عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي.

٤ - وأن إحراق الكتب كان أمراً معروفاً وشائعاً يتشفى به كل مخالف ممن خالفه في رأيه.

وقد ذكروا أن عبد الله بن طاهر أتلف في سنة ٢١٣ هـ كتباً فارسية من مؤلفات المجوس، وحذا حذوه هولاكو التتاري سنة ٦٥٦ هـ بإلقاء خزائن الكتب في دجلة.

أما الدليل الأول فغير مسلم به، لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم، بدليل ما ذكره أبو الفرج من أن عمرو بن العاص كان يصغي إلى أقوال يوحنا النحوي،

---

(١) الإفادة والاعتبار ص ٢٨

(٢) وزير حلب المعروف بالقاصي الأكرم ولد في قفط من بلاد الصعيد سنة ٥٦٥، وتوفي بحلب سنة ٦٤٦ هـ وألف كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (لايبسك سنة ١٣٤٠ - ١٩٠٢ م)

(٣) غريغورس أبو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبري. ولد سنة ١٢٢٦ م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى. وتعلم في صغره اليونانية والسريانية والعربية، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. وفر به والده إلى أنطاكية سنة ١٢٤٣ م وعاش أبو الفرج عيشة الزهد والنسك وانفرد في مغارة بالبرية، ثم ذهب إلى طرابلس الشام حيث أتم دراسة البيان والطب، ورقي وهو في العشرين من عمره إلى أسقفية جوماس من أعمال ملطية. وفي سنة ١٢٦٤ م انتخب (معريانا)، وهي كلمة فارسية معناها المثمر وهذا المنصب من أكبر المناصب بعد منصب البطريركية، وهو أشبه بكبير (الأساقفة) على الجهات الواقعة بين النهرين والعراق العجمي. وألف أبو الفرج أكثر من ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها من بينها كتابه مختصر الدول

ويعجب بها كل الإعجاب، ويحله من نفسه محل الاحترام والإجلال. ومن المعلوم أن هذه الآراء مسيحية. أضف إلى ذلك أن المسلمين بعد غزوة بدر كانوا يجعلون فداء من لم يجد مالاً يفتدي به نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين، وهذا منتهى التشجيع للعلم.

أما الدليل الثاني، وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح، فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجي خليفة، ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية المتقدمة، لأنه توفي سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧ م). فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكتبات لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجي خليفة.

أما الدليل الثالث، وهو أن أبا الفرج لم يروِ هذه الرواية وحده، بل رواها أيضاً عبد اللطيف البغدادي وابن القفطي، وهما مؤرخان إسلاميان عظيمان، فيمكن دحضه بما أوردناه في مناقشة ما ذكره أبو الفرج، لأنهم عاشوا في عصر واحد، وروايتهم واحدة تقريباً. ولا يبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع معاد للعرب والإسلام.

وأما الدليل الرابع فلا يثبت دعواهم، لأنه على فرض صحة هذه الرواية، فإن عبد الله بن طاهر كان متأخراً (٢١٣ هـ). ولا يؤخذ عمله حجة على عمر بن الخطاب المتوفي سنة ٢٣ هـ. هذا إلى أن عبد الله بن طاهر أحرق هذه الكتب لأنها من كتب المجوس عباد النار، وفرق بين الكتب المسيحية والمجوسية في نظر المسلمين الذين يحترمون أهل الكتاب من النصارى واليهود، لاتفاق الجميع على غاية واحدة هي الاعتراف بإله قادر ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا بعده أفلا تعقلون﴾ [سورة آل عمران ٣ : ٦٤].

وقد أسهب بعض المؤرخين المحدثين في تفنيد رواية أبي الفرج. ومنهم جبون وبطلر وسديو وغيرهم، وذكروا ما يدل على أن عمراً وعمر بريئان مما نسب إليهما. وهاك رواية أبي الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو بن العاص قال:

«كان في وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى يوحنا النحوي، كان قسيساً قبطياً من أهل الإسكندرية. وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين بيحيى المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أي النحوي. وكان إسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساوري)، ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع فأسقطوه من منزلته، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة

الإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يوماً: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها. فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى. فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها، فاستنفدت في ستة أشهر، فاسمع ما جرى واعجب»! وهذا ما يستنتج من أقوال المؤرخين:

١ - إذا تأملنا رواية أبي الفرج فإننا نجد بالخرافة أشبه. فقد ذكر فيها أن كتب المكتبة كفت أربعة آلاف حمام ستة أشهر. وهذا غير معقول، فضلاً عن أن عمراً لو قصد تدمير المكتبة لأحرقها في الحال ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمامات، وإلا لتمكن يوحنا الذي بنى أبو الفرج روايته عليه من أخذ ما يلزم من هذه الكتب بثمن بخس.

ذكر «بطلر» أن يوحنا مات قبل استيلاء العرب على الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة. وإن صح هذا كان معناه دحض ما جاء بهذه الرواية خاصاً بيوحنا النحوي. وإذن تنهدم الرواية والحادثة من أولها إلى آخرها.

٣ - إن روايات عبد اللطيف وابن القفطي وأبي الفرج ظهرت بعد ستة قرون من وقوع هذه الحادثة. فلو سلمنا جدلاً بصحتها، لما مر عليها مؤرخان شهيران تقدما عبد اللطيف وأبا الفرج. وهما أوتيخا المتوفي سنة ٣١١ هـ، ويوحنا أسقف نقيوس من غير أن يتعرضا لها، وتاريخهما عن مصر من أهم المصادر التي يعتمد عليها، فضلاً عن أنه لم يذكر هذا الخبر أحد من المتقدمين كابن عبد الحكم والبلاذري واليعقوبي والطبري، حتى جاء عبد اللطيف وابن القفطي وأبو الفرج في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادي) فذكروها. فلو أنها حقيقية لتعرض لها هؤلاء المتقدمون.

٤ - إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين: الأولى سنة ٤٨ ق. م على أثر إحراق أسطول يوليوس قيصر، والثانية في عهد القيصر تيودوسيس (٣٧٨ - ٣٩٥ م) سنة ٣٩١.

٥ - إن قول أورازيوس Orazius إنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته مدينة الإسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي، يثبت عدم وجود هذه المكتبة قبل استيلاء

العرب على الإسكندرية. وعلى ذلك فإن الكتب التي كانت بالمكتبة من عهد البطالسة لم يبق لها أثر منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، أي منذ عهد الإمبراطور تيودوسيس، كما أنه لم يرد لها ذكر في الآداب في القرنين السادس والسابع. ومن المعلوم أن حالة مصر قبيل الفتح الإسلامي - أي منذ أيام دقلديانوس - كانت، على ما سبق، حالة تأخر في الزراعة والصناعة والعلوم والمعارف والآداب. فمن البعيد إذاً أن يهتم الناس بإعادة هذه المكتبة إلى عهدها الأول:

٦ - إن التعاليم الإسلامية تخالف رواية أبي الفرج (وعبد اللطيف) لأنها ترمي إلى عدم التعرض للكتب الدينية - اليهودية والنصرانية - وكذا غيرها لأنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها. ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لعادات العرب الذين عرف عنهم عدم التعرض لما فيه ذكر الله.

٧ - وإذا ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرابيس، فمن المعقول أن النيران التهمت ما فيه من الكتب فلم تبق عليها ولم تذر.

٨ - ولو فرضنا أن هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامي، فإنه لم يكن ثمة ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدي الروم في أثناء الهدنة، وقد أجاز لهم عمرو في عهد الصلح أن يحملوا كل ما يقدرون عليه، وكان لديهم من الوقت ما يمكنهم من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة.

فالقول إذن بأن إحراق مكتبة الإسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب محض افتراء.

صفات عمر - وفاته:

كان عمر رضي الله عنه شديداً في الحق، كان قبل أن يسلم أشد القرشيين خطراً على المسلمين. فلما أسلم أصبح أشد المسلمين مجاهرة برأيه ودفاعاً عن هذا الدين. قال أبو مسعود: ما عُبد الله جهرة حتى أسلم عمر[1]، وكان من أقسى المسلمين في التنكيل بالمشركين وإيقاع العقوبة بهم. فقد قال للرسول حين استشاره في أسارى بدر: «ادفعهم إلينا يا رسول الله فلنضرب أعناقهم»، وفيهم أقاربه وأقارب أبي بكر، بل كان فيهم أقارب الرسول وفروع بني هاشم. وقال عمر للرسول في شأن صلح الحديبية: «ألست رسول الله؟ وألسنا مسلمين أليسوا كفاراً؟» حتى إذا قال له الرسول: نعم! قال له: وعلام نعطي الدنية في ديننا؟.

وشهر عمر سيفه وهدد بالقتل كل من قال إن محمداً قد مات. فلما تمت البيعة لأبي بكر

(١) ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٤ ص ١٧٩.

بالخلافة جلس عمر منه مجلس المشير، فكان صارماً في رأيه، شديداً على من تأخر عن جماعة المسلمين في البيعة. كذلك أشار على أبي بكر بقتل خالد بن الوليد في مالك بن نويرة حين علم أن خالداً قتله بعد أن ثاب للإسلام واعترف به، فأبى أبو بكر عليه ذلك وقال إنه تأول فأخطأ، فقال له عمر: فاعزله، فرفض أبو بكر، وقال: ما كنت لأشيم «لأغمد» سيفاً سلّه الله على الكافرين[1]. فلما ولي عمر الخلافة عزل خالداً عن قيادة الجيش.

وكانت شدة عمر في خلافته من أظهر ما امتاز به، فكان إذا أمر بشيء أو نهى عنه بدأ ذلك بأهله؛ فجمعهم وقال لهم: إني نهيت عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير يعني إلى اللحم[2]، وأقسم بالله: لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة.

وكان عمر شديداً على ولاته؛ يخشى أن يرهبوا الناس فيذلوا نفوسهم ويعلموهم الجبن ويطبعوهم على الصغار؛ فكان يفتح صدره لأية شكاية في أحد عماله؛ فيعلن ذلك لعامة المسلمين في خطبه.

وكما كان عمر حريصاً على كرامة المسلمين وعزة نفوسهم، يحميهم وينتصف لهم من عدوان الولاة والأرستقراطيين منهم، كذلك كان أحرص الناس على أموال المسلمين ومصالحهم، فكثيراً ما كان يرى وهو يدهن إبل الصدقة بالقار[3]، وقد قام علي بن أبي طالب يوماً على رأس عثمان وهما في الظل يملي عليه ما يقول عمر، وقد لف على رأسه برداً يتقي به حرارة الشمس، وجعل يعد الإبل ويحصيها ويملي عليهم ذلك حتى قال علي لعثمان: نعت بنت شعيب في كتاب الله ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ [سورة طه ٢٨ : ٢٦]، ثم أشار إلى عمر فقال: هذا هو القوي الأمين»[4]. روي عن أسلم أنه قال: «إنه بعثه مرة بإبل من إبل الصدقة إلى الحمى، فوضع رحله على ناقة منها، فلما رأى عمر أنه وضع رحله على ناقة من الإبل حسناء قال له: لا أم لك؛ عمدت إلى ناقة تغني أهل بيت مال المسلمين، فهلا ابن لبون بوالا أو ناقة شصوصاً[5]؟.

وقد استقرضته هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وأم معاوية بن أبي سفيان أربعة آلاف درهم تتجر فيها على أن تضمنها فأعطاها، فلما عادت شكت الوضيعة[6]، فقال لها عمر: لو

---

(١) الطبري جـ٣ ص ٢٤٣.

(٢) وهو يقصد من ذلك أن الناس إذا رأت من أهل الأمير وحاشيته تهاوناً في أمر اقتدوا بهم وأمعنوا في الاستهتار به.

(٣) هي إبل كانت لبيت المال مما يجمع من الزكاة وغيرها يتصدقون بألبانها على فقراء المسلمين.

(٤) الطبري جـ٥ ص ٨.

(٥) الطبري جـ٥ ص ١٨. ابن لبون هو الذكر من الإبل الذي مضى عليه أكثر من عام، والبوال كثير البول والشصوص التي لا لبن لها.

(٦) وضع في تجارته (على صيغة المبني للمجهول) ضعة ـ خسر والوضيعة الخسارة.

كان مالي لتركته، ولكنه مال المسلمين، وهذه مشورة (صفقة) لم يغب عنها أبو سفيان، فبعث إليه فحمله حتى وفته[١].

كذلك نرى عمر مع احترامه للأنصار واتباعه وصية الرسول بهم يقول لسادتهم وكبرائهم ـ وقد اجتمعوا في المسجد يتناشدون الأشعار التي قيلت في هجاء قريش إبان البعثة ـ أرغاء كرغاء الإبل؟ وكذلك لم تمنعه منزلة سعد بن عبادة وفضله في الإسلام من أن يقول له يوم السقيفة: قتل الله سعد بن عبادة إنه منافق، لأنه حاول أن يأخذ الخلافة لنفسه، فلما بايع المسلمون أبا بكر تخلف سعد عن جماعتهم.

وقد بلغ من عدل عمر أنه كان يحرص كل الحرص على دفع أعطيات المسلمين إليهم في مواعيدها لا فرق بين عامة وخاصة. وقد أثر عنه أنه كان يقول: والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال (يعني أموال الفيء) وهو في مكانه. كما كان لا يعفي أي إنسان مهما كانت منزلته مما يستحقه من العقوبة؛ وكانت لا تؤثر في تصرفاته عواطفه الخاصة ونزعات قلبه. روى صاحب الفخري (ص ٣٧) أن عمر قال لرجل: إني لا أحبك. قال: فتقصني من حقي شيئاً؟ قال عمر: لا! قال الرجل: فما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء.

ولقد بلغ من زهد عمر أن أصاب أرضاً بخيبر، فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ وأجاب رسول الله: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها. فتصدق عمر بها على الفقراء والقربى وفي الرقاب وفي سبيل الله والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقاً غير متمول فيها. وقال إنه لا يباع أصلها ولا توهب ولا يورث. فكانت هذه أول صدقة تصدق بها في الإسلام، وكانت الأصل الأول لنظام الوقف عند المسلمين[٢].

وكان عمر متواضعاً برغم هذه الشدة التي عرفت عنه. ذكر هشام الكلبي أن عمر كان يحمل ديوان أعطيات خزاعة حتى ينزل قديداً، فتأتيه خزاعة في قديد فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي. وقد ظهر تواضع عمر في ملبسه ومظهره عند ذهابه إلى الشام، وعند مقابلته الهرمزان قائد الفرس الذي قصد إليه في المدينة، وما كاد يعرفه لبساطة ملبسة وعدم اعتداده بنفسه.

وكان عمر مع تواضعه يأخذ منه الغضب كل مأخذ على من يجترئ على سلطان الله.

---

(١) حبس عمر أبا سفيان بن حرب، وهو من سادات قريش وزعمائها، حتى ردت زوجته هند قرضاً أخذته من بيت مال المسلمين.

(٢) البيضاوي: كتاب الحديث ٢٤: ١٩ باب الهبة، ص ٣٢١ ـ ٣٣٢.

أتى عمر يوماً بمال فجعل يقسمه بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدرة وقال: إنك أقبلت لا تهـاب سلطان الله في الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك (الطبري ٥: ٢٣ ـ ٢٤).

وكان رضي الله عنه عالماً بالقرآن وتأويله مجتهداً في دين الله ذا رأي وفتيا. روى النووي عن ابن عمر أنه سئل: من كان يفتي الناس في زمن رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكـر وعمر، مـا أعلم غيرهما[1].

وكان عمر أكثر الصحابة شجاعة وجرأة. فكثيراً ما كان يسأل الرسول ﷺ عن التصرفات التي يدرك حكمتها، كما سأله في يوم الحديبية عن السبب في قبول هذا الصلح. ولم يفـارقه رأيه واجتهاده طوال حياته، وخاصة بعد موت الرسول وانقطاع الـوحي وحرمـان المسلمين من شخص الرسول الذي كان المرجع الأخير في حل المشكلات وتوضيـح المبهمات. روي عن عمران بن سوادة قال: «صليت الصبح مع عمر فقرأ سبحان (أي سورة الإسراء) وسورة معها، ثم انصرف، وقمت معه فقال: «أحاجة؟» قلت: «حاجة»، قال: «فالحق»، فلحقت. فلما دخل أذن لي فإذا هو على سرير ليس فوقه شيء، فقلت: «نصيحة». فقال: «مرحباً بالناصـح غدواً وعشياً». قلت: «عابت أمتك منك أربعاً»، فوضـع رأس درته في ذقنـه، ووضـع أسفلهـا على فخذه ثم قال: «هات!» قلت: «ذكروا أنك حرمت العمـرة في أشهر الحـج، ولم يفعل ذلـك رسـول الله ﷺ ولا أبو بكـر رضي الله تعالى عنـه، وهي حلال». قـال: «وهي حلال لـو أنهم اعتمروا في أشهر الحج رأوها مجزية من حجهم، فكانت قائبة[2]، قوب عامها، فقرع حججهم وهو بهاء من بهاء الله؛ وقد أصبت». قلت: «وذكروا أنك حرمت متعة النساء، وذكر لـه أشياء أخرى أتى بها عمر من غير أن يسبقه في ذلك مثل أو قدوة من عهد الرسول أو أبي بكر، فأجابه عمر عن كل منها وشرح له حكمتها والأسباب التي دعت إليها، فاطمأن ابن سوادة وزالت شبهته (الطبري ٥: ٤٢).

ومما يدل على نفاذ بصيرة عمر وحسن تقديره للأمومة ودقة فهمه لنفسية الشعب العربي، مـا قاله لعمران هـذا في آخر ذلـك الحديث، حين شكـا من زجره الـرعية، إذ شـرع الدرة ثم مسحها حتى أتى على آخرها ثم قال: أنا زميل محمد، فوالله إني لأرتع فأشبع، وأسقي فأروي؛ وأنهز اللفوت وأزجر العروض، وأذب قدري، وأسوق خطوي، وأضم العنود وألحق القطوف، وأكثر الزجر، وأقل الضرب وأشهر العصي، وأدفع باليد، لولا ذلك لأعذرت، حتى قال معاوية

(١) النووي: تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١٩٠.

(٢) يريد أنه لو أتيحت لهم العمرة زمن الحج لاكتفوا بها عن الحج فبطل الحج وهو فريضة مهمة.

لما بلغه ذلك الكلام. كان والله عالماً برغبته. وقد أراد عمر بذلك أن يهيّئ للرعية جميع وسائل الراحة والطمأنينة بالعدل وصيانة الحقوق، ثم يضرب على أيدي المعتدين ويكف المفسدين.

وكان عمر إذا قسا في عقوبة شخص فإنما يفعل ذلك ليزجر غيره عن الوقوع في معصية وهو رفيق برعيته يشهر عليهم العصا ليخيفهم حتى اضطر إلى ضربهم أو دفعهم بيده.

كان عمر ورعاً متقشفاً، لا يخشى في القيام بالواجب لومة لائم، وكان لا يحابي فيه أحداً، متحمساً للحق إلى حد الصلابة برغم عطفه على الضعفاء؛ كما كان قاضياً شديد النزاهة نحو غيره وخاصة نحو نفسه. ولا غرو فقد ولد حاكماً بطبيعته ورجلاً في كل خطوة من خطوات حياته(١).

وكان عمر شديد التعلق بالقرآن، ولم تمنعه شدة حرصه على الوقوف عند أوامره ونواهيه واحترامه للرسول وصدقه مع صحبته، من الاجتهاد برأيه وإنشاء ما تدعو إليه الضرورة وتقتضيه مصلحة الرعية. فإذا ورد نصّ لم يبق في أحوال الجماعة ما يقتضي تطبيقه، لم يطبقه. وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص، أوله، حرصاً على ملاءمة الحكم لأحوال المجتمع مع مطابقته لتعاليم الإسلام.

أخرج عمرو بن ميمون عن أبيه قال: أتى عمر بن الخطاب رجل فقال: يا أمير المؤمنين! إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب، قال: أمن كتاب الله؟ قال: لا. فدعا عمر بالدرة فجعل يضربه بها ويقول: ﴿الر: تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [سورة يوسف ١٢: ١ - ٣]، ثم قال: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم، وتركوا التوراة والإنجيل حتى درس وذهب ما فيهما من العلم.

قتل عمر بن الخطاب على يد فيروز، ويلقب أبا لؤلؤة، وكان غلام المغيرة بن شعبة. قتله بخنجر له رأسان وضربه ست ضربات إحداهما تحت سرته، وهي التي قتلته. وتوفي في شهر ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد أن ولي الخلافة عشر سنين وستة أشهر، ومات وهو في الثالثة والستين من عمره كما مات النبي وأبو بكر في هذه السن أيضاً.

وإن مقتل عمر على يد رجل من الموالين ليبين مبلغ الاستياء والسخط الذي استولى على نفوس هؤلاء الفرس بعد زوال سلطانهم ودخولهم في حوزة العرب.

---

(١) Nicholson, p. 189.

عثمان بن عفان
(٢٣ - ٣٥ / ٦٤٤ - ٦٥٦)

١ - عثمان منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

ولد عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف بن قصي الأموي القرشي في السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول بخمس سنين، وقيل إنه ولد بعد عام الفيل بست سنين. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة الرسول، وكانت توأمة لعبد الله أبي الرسول.

اشتهر عثمان بالفقه والحياء والكرم، وكان لين العريكة كثير الإحسان والحلم. «وكان - كما يقول ابن حجر[1] - لا يوقظ نائماً من أهل بيته إلا أن يجده يقظان، فيدعوه فيناوله وضوءه، وكان يصوم الدهر». وكان يصوم طوال أيام السنة، عدا الأيام المكروهة، وهي أيام العيدين ويوم الشك في أول رمضان.

أسلم عثمان على يد أبي بكر وزوجه الرسول ابنته رقية. فلما آذى مشركو قريش المسلمين، كان عثمان من أوائل المهاجرين مع زوجته. فلما علم المهاجرون برضاء قريش عن الرسول عاد عثمان إلى مكة وهاجر مع الرسول إلى المدينة، واشترك في الغزوات إلا غزوة بدر لاشتغاله بتمريض زوجته التي ماتت ودفنت في اليوم الذي انتصر فيه المسلمون، فعده الرسول من البدريين ثم زوجه الرسول ابنته الثانية أم كلثوم. ولهذا لقب ذا النورين، لزواجه بابنتي الرسول: رقية وأم كلثوم التي توفيت في السنة التاسعة من الهجرة. وهو - كما يقول الذهبي[2] - أفضل من قرأ القرآن على النبي ﷺ.

وقد استعان الرسول بعثمان في كثير من شؤون المسلمين: فكان سفيره لدى قريش في السنة السادسة للهجرة حين حالت دون دخول الرسول مكة لأداء العمرة. فلما ذاع نبأ قتلهم عثمان بايع المسلمون الرسول بيعة الرضوان في المكان المعروف بالحديبية على مقربة من مكة. وبذل عثمان كثيراً من ماله في سبيل الإسلام. ولا غرو فقد كانت له اليد الطولى في جيش العسرة الذي أعده الرسول لغزوة تبوك، فقد أمد المسلمين بتسعمائة وخمسين فرساً وألف دينار، كما اشترى بئر رومة من يهودي بعشرين ألف درهم تصدق بها على المسلمين. وقد أثر عن الرسول أنه قال: من حفر بئر رومة فله الجنة[3]. كما أثر عنه أنه بشر عثمان بالجنة وعده من

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٤ ص ٢٢٣.

(٢) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٩.

(٣) النووي: تهذيب الأسماء واللغات جـ ١ ص ٢٢٣. صحيح البخاري جـ ٤ ص ١٨٨.

أهلها، وقال: لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان.

وكان عثمان من رواة الحديث. يقول ابن حجر: روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر، كما روى عنه أولاده: عمرو وأبان وسعيد، وابن عمه مروان بن الحكم، ومن الصحابة عبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت، وأبو هريرة وغيرهم، ومن التابعين الأحنف بن قيس ومحمد بن الحنفية بن علي وسعيد بن المسيب[1] وذكر النووي[2] أن عثمان روى عن الرسول مائة حديث وستة وأربعين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة منها. وانفرد البخاري بثمانية ومسلم بخمسة.

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه اتخذ أبو بكر عثمان أميناً وكاتباً له يستشيره في مهام الأمور، وكانت أغلبية الشورى في جانبه بعد مقتل عمر.

وصفوة القول أن عثمان كان على ما وصف نفسه في هذه الكلمات: «إن الله بعث محمداً بالحق نبياً، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله، وآمنت بما بعث به ثم هاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ، وكنت صهر رسول الله، وبايعته. فوالله ما عصيته وما غششته حتى توفاه الله تعالى، ثم أبو بكر مثله مثل عمر».

٢ ـ قصة الشورى أو بيعة عثمان:

لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له: «يا أمير المؤمنين لو استخلفت». قال: «من استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لأستخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله فقال: رجل أدلك عليه عبد الله بن عمر. فقال: قاتلك الله؟ والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم، ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي. بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن أنج كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد»، ثم قال: فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) وإن ترك فقد ترك من هو خير مني (يعني رسول الله ﷺ)، ولن يضيع الله دينه، فخرجوا.

وقد خشي أصحاب رسول الله أن يقضي عمر نحبه دون استخلاف، فذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا: يا أمير المؤمنين! لو عهدت عهداً؟ فقال: عليكم بهؤلاء الرهط الذي مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، قال فيهم إنهم من أهل الجنة: علي بن أبي طالب، وعثمان ابن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام حواري رسول الله

---

(١) ابن حجر: الإصابة جـ ٤ ص ٢٢٣.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات جـ ١ ص ٣٢٢

وابن عمته، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء. وأوصى بأن تكون الخلافة للرحل الذي يقع عليه الاختيار من الفريق الذي في صفه عبد الله بن عمر في حالة تساوي الأصوات، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف. ثم دعاهم عمر وقال لهم: «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، لا يكون هذا الأمر إلا فيكم. وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ. إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس. فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر. فإن قدم في الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، وقال عمر لصهيب: صلِ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر. وقم على رؤوسهم؛ فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد، فاشدخ رأسه أو اضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى إثنان فاضرب رؤوسهما؛ فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم، فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم. فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

فلما مات عمر اجتمع هؤلاء النفر في بيت المسور بن مخرمة إلا طلحة فإنه كان غائباً. ولكن سرعان ما ظهر فيهم التنافس، فقال لهم طلحة الأنصاري: «أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها». ولكن عبد الرحمن بن عوف أخرج الناس من هذا المأزق واقترح عليهم اقتراحاً يمنع هذا التنافس، فقال لهم: «أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟»، فلم يجبه أحد، فقال: «أنا أخلع منها نفسي، فرضي القوم بذلك وعليٌّ ساكت، فقال له: «ما تقول يا أبا الحسن؟». فقال: «أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم لرحمه، ولا تألو الأمة».

فقال: «أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله، ألا أخص ذا رحم ولا آلو المسلمين». فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، ومن ثم أخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء: فكان بعض يشير بعليٍّ، وبعض آحر يشير بعثمان. وكذلك استشار أصحابه، فقال لعلي: لو لم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى؟ فقال: عثمان، وكذلك فعل مع الزبير وسعد، فقالا: عثمان. ثم سأل عثمان فأشار بعلي. ومن هنا نجد أن استحقاق الخلافة انحصر في علي وعثمان، إن كانا محط أنظار الصحابة وأشراف المسلمين.

ولما انتهى الأجل الذي ضربه عمر، جاء عبد الرحمن ـ بعد أن طاف هذه الليالي يستأنس برأي الناس ـ وقت صلاة الصبح إلى المسجد حيث اجتمع سائر أصحابه، وحضر من عداهم من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد. ولما ازدحم المسجد بالناس، قام عبد الرحمن فقال: «أيها الناس! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا أميرهم».

وهنا ظهرت بوادر الانقسام بين أنصار علي وعثمان، إذ قام عمار بن ياسر فقال: «إن أردت ألا يختلف الناس فبايع علياً»، فقال المقداد بن الأسود: «صدق عمار، إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا»، فقام عبد الله بن أبي سرح وقال: «إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان»، فقال عبد الله بن أبي ربيعة: «صدق عبد الله إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا»، فشتم عمار بن أبي سرح وقال له: «متى كنت تنصح المسلمين؟»[١].

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية، فقال عمار: «أيها الناس! إن الله عزّ وجلّ أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه. فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟» فقال سعد بن أبي وقاص: «يا عبد الرحمن! أفرغ قبل أن يفتتن الناس».

فقال عبد الرحمن: «إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً». ودعا علياً فقال له: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده». قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي. ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قال لعلي، فقال: نعم! فبايعه. وبذلك نال عثمان الخلافة، فقال علي لعبد الرحمن: «لقد حبوته حبو دهر، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن»[٢].

ومن ثم نرى أن التنافس قد ظهر عند ذلك الوقت بين عثمان وعلي أو بالأحرى بين بني هاشم وبني أمية، لأن الخلافة انحصرت فيهما تقريباً، إذ أن الناس كانوا لا يعدلون بهما أحداً غيرهما. وكاد الأمر يتم لعلي، لولا أنه لم يتمش مع عبد الرحمن بن عوف بأن يسير على ما سنه أبو بكر وعمر، وأراد أن يعمل بمبلغ علمه، فصرفت عنه الخلافة إلى عثمان الذي رضي عن طيب خاطر أن يتبع سنة من كان قبله. وكان ذلك في آخر شهر ذي الحجة سنة ٢٣ هـ.

اختير عثمان للخلافة، فانقسم المسلمون إلى أمويين وهاشميين أو علويين. فقد كان علي هو المقدم في بني هاشم، لسبقه في الدين وإخلاصه وتضحيته في سبيل نصرة هذا

---

(١) الطبري جـ ٥ ص ٣٤ ـ ٣٥، ٣٦.
(٢) الطبري جـ ٥ ص ٣٧. ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٠ ـ ٣١.

الدين، ولأنه زوج فاطمة بنت رسول الله. أما العباس عم النبي فإنه لم يتطلع إلى الخلافة واكتفى بمساعدة علي. وبعد أن بويع عثمان خطب الناس هذه الخطبة فقال: «إنكم في دار قلعة[1]، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها، الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها، وأطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ـ والذي هو خير ـ فقال عزّ وجلّ: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ [سورة الكهف ١٨: ٤٥][2].

وهذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التي عول عثمان على انتهاجها في إدارة شؤون دولته، وإنما هي عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة. كأن عثمان لا يريد أن يلزم نفسه بسياسة خاصة يطمئن إليها المسلمون وغيرهم من أهالي الدولة الإسلامية في عهده. وقد يرجع سبب دلك إلى شيخوخته، وما فطر عليه من اللين والتدين والتعليق بآثار السلف.

على أن عثمان سرعان ما تدارك هذا الأمر، فأرسل إلى الولاة والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين بالأمصار، كتباً يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف والنهي عن المنكر، والعطف على أهل الذمة، وجباية الخراج بالعدل والإنصاف، ونصح عمال الخراج في هذه الكلمات: «أما بعد، فإن الله حلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق. خذوا الحق وأعطوا الحق به. والأمانة والأمانة قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم. والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم».

٣ ـ الفتوح في عهد عثمان:

لم يقطع استخلاف عثمان سلسلة الفتوح التي قام بهما المسلمون في عهد عمر. فقد فتحت بلاد أرمينية وإفريقيا وقبرص، وواصل المسلمون العمل على توطيد نفوذهم في بلاد الفرس التي انتقض بعضها، فلم يكن بد إذن من أن يعملوا على فتحها وتوطيد نفوذهم فيها من جديد.

ففي عهد عثمان فتحت بلاد طبرستان على يد سعيد بن العاص. وقد قيل إن جيش

---

(١) بضم القاف وتسكين اللام أو ضمها أو فتحها، أي دار انقلاع ليست بمستوطن.

(٢) الطبري جـ ٥ ص ٤٣.

المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابني علي وعبد الله بن العباس وعمرو بن العاص والزبير ابن العوام. وكذلك اضطر ملك جرجان إلى طلب الصلح من سعيد بن العاص وتعهد بأن يدفع له ٢٠٠,٠٠٠ درهم كل سنة.

وفي سنة ٣١هـ انتقض أهل خراسان على عثمان. فأرسل إليهم عبد الله بن عامر عامله على البصرة في جيش كثيف اشتبك مع أهالي هذه البلاد في مرو ونيسابور ونسا وهراة وبوشنج وبدعيس ومرو الشاهجان وغيرهما، ففتحها من جديد. ثم وجه ذلك القائد الأحنف بن قيس إلى طخارستان. فلما بلغ «قصر الأحنف». وكان من حصون بلاد مرو الروذ، حاصر أهله في ذلك المكان وأرغمهم على طلب الصلح. بيد أنه سرعان ما انضم إلى أهل مرو الروذ أهل الجوزجان والطالقان والفارياب والصغانيان شرقي نهر جيحون. واشتبك هؤلاء جميعاً مع الأحنف بن قيس الذي أحل بهم الهزيمة في عدة مواقع، وفتح الجوزجان عنوة، ثم فتح الطالقان صلحاً، ثم فتح الفارياب، وسار إلى بلخ فصالحه أهلها، ثم سار إلى خوارزم، ولكنه لم يتمكن من فتحها فعاد إلى مرو.

عبر الأحنف نهر جيحون فصالحه أهالي بلاد ما وراء النهر، ثم قدم على عثمان بعد أن استخلف قيس بن الهيثم على هذه البلاد، فتوغل في طخارستان وفتحها مدينة تلو مدينة وأرغم أهلها على مصالحته[1].

كذلك ضرب عثمان على أيدي الثائرين في سائر الولايات الإسلامية، فجعل على الكوفة الوليد بن عقبة، وأمده بأربعين ألف مقاتل للمحافظة على الثغور كالريّ وأذربيجان وغيرهما. وإعادة أهلها إلى الطاعة إذا حدثتهم أنفسهم بالعصيان. وقد خصص عامل الكوفة عشرة آلاف من جنده لغزو هذه الثغور مرة في كل سنة.

كما انتقضت أذربيجان ومنعت الجزية التي فرضها عليها المسلمين، فغزاها الوليد وأرغمها على دفع الجزية. ولما خرج أهل أرمينية عن طاعة المسلمين، سير إليهم الوليد جيشاً شتت شملهم وأحل بهم الهزيمة.

وكان معاوية على ولاية الشام منذ أيام عمر. وقد أنشأ هذا الوالي أسطولاً حارب به البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية في آسيا الصغرى، كما استولى على جزيرتي قبرص ورودس وفتح كثيراً من الحصون، وسار إلى أرمينية الصغرى حتى وصل إلى قاليقلا[2]، فصالحه أهلها، ثم استمر في فتوحه حتى بلغ تفليس.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٤٢، ٤١٠ - ٤١٥.

(٢) أوكيلكيا وهي البلاد التي فوق زاوية خليج اسكندرونة وتعرف عند العرب باسم قاليقلا.

أما مصر فإن عمر بن الخطاب لم يرض بمقدار الخراج الذي جباه عمرو بن العاص، فظن فيه الظنون وأرسل ابن مسلمة ليقاسمه ماله، ثم عزله سنة ٢٣ هـ، أي قبل وفاته بقليل، عن ولاية الصعيد وقلدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح. فلما ولي عثمان الخلافة عزل عمراً بعد أن وليها أربع سنين وأشهراً[1]، وولى ابن أبي سرح مصر جميعها. فكان هذا سبب الجفاء والعداوة بين عمرو وعثمان حتى قيل إن عمراً أخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى سياسته وأن له يداً في قتله.

على أن ابن سرح لم يكد يستقر في ولاية مصر حتى انتقض الروم فيها، وكتب أهل الإسكندرية إلى الإمبراطور قسطنطين بن هرقل يصفون له ما كانوا عليه من الذلة ويهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة من كان بها من حامية المسلمين. فأنفذ قسطنطين قائده الأرمني مانويل إلى الإسكندرية على رأس جيش كثيف، فاستولى عليها، وأخذ هو وجنده ومن انضم إليهم من الروم المقيمين في الوجه البحري يعيثون في هذه البلاد حتى بلغوا مدينة نقيوس.

ولم يرحب القبط بعودة بلادهم إلى الروم فيسومونهم الخسف لمظاهرتهم العرب ورضائهم عن حكمهم من جهة، ولما كان بينهم وبين الروم من الخلاف المذهبي الذي كان مصدر شقائهم من جهة أخرى. لهذا كتب القبط إلى الخليفة عثمان يلحون في إسناد حروب الروم إلى عمرو بن العاص لما كسبه في حروبه معهم من خبرة، فولى عثمان عمراً الإسكندرية وعهد إليه بحرب الروم وإخراجهم من مصر. وفي مدينة نقيوس دار القتال بين جند عمرو وجند مانويل في البحر وفي النهر، وكثر الترامي بالنشاب حتى وقع فرس عمرو من تحته. ثم طلب المسلمون المبارزة بين فارس منهم وفارس من الروم، فكانت الغلبة لفارس المسلمين، فثارت حميتهم وشدوا على العدو وانتصروا عليه وقتلوا قائده، ثم تعقبوا الفالة إلى الإسكندرية وأعملوا السيف في رقابهم، ثم أمر عمرو بوقف القتال، وأمر بأن يبنى في الموضع الذي رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة، وهدم سور الإسكندرية، وكان قد حلف لئن نصره الله ليهدمنه. وبهذا تثبت أقدام العرب في مصر من جديد (٢٥ هـ).

وقد أقام والي مصر الجديد في الفسطاط يرقب الأمور من كثب وينتظر ما سوف تلده تلك الحرب الناشئة بين العرب والروم في مصر ولا شك أن انتصار عمرو وطد قدم عبد الله بن سعد في ولايته، فحذا حذو سلفه في الإصلاح الداخلي وفي الحروب الخارجية. أما الإصلاح الداخلي فإن عمراً لم يترك له شيئاً جديداً، اللهم إلا ما كان من زيادة الخراج في ولايته حتى بلغ ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار بدل ١٢,٠٠٠,٠٠٠. وأما الأحوال الخارجية فتنحصر في أمرين هما:

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ١٠.

١ ـ موقف مصر من الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان وعلي وقيام الدولة الأموية.

٢ ـ الفتوح الخارجية: ويهمنا الآن أن نتكلم على الفتوح الخارجية فنقول: إن عمرو بن العاص أمن حدود مصر من ناحية الغرب بفتح برقة صلحاً سنة ٢١ هـ، وفتح طرابلس عنوة سنة ٢٢ هـ ثم بعث نافع بن عبد القيس الفهري. وكان أخا العاص بن وائل لأمه، إلى بلاد النوبة فقاتل أهلها قتالاً شديداً فانصرفوا.

فلما ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ، فكر في غزو إفريقيا واستأذن الخليفة عثمان، فأذن له بعد أن استشار كبار الصحابة، وأرسل إليه من المدينة المنوّرة جيشاً يضم كثيراً من أعيان الصحابة.

وسار هذا الجيش إلى إفريقيا، وانقطعت أخباره عن مركز الخلافة فأرسل عثمان عبد الله ابن الزبير في جماعة لموافاته بأخبار الجند. ولما وصل ابن الزبير إلى إفريقيا، لم ترقه الخطة التي سار عليها ابن أبي سرح في قتال الأعداء، إذ كان يقاتلهم كل يوم إلى وقت الظهيرة، ثم يعود الجيشان إلى معسكرهما في اليوم التالي.

وقد أنكر ابن الزبير على ابن أبي سرح خطته هذه لما رأى فيها من إتاحة الفرصةللعدو للاستعداد، وأشار عليه بتقسيم جيش المسلمين إلى فرقتين: إحداهما تسير لقتال العدو أول النهار، على حين تأخذ الأخرى قسطها من الراحة وتستعد لمباغتة العدو عندما يأوي إلى معسكره. فنزل ابن أبي سرح عن قيادة الجيش لابن الزبير الذي شرع في تنفيذ خطته فلما حان الموعد المضروب لانصراف الجيشين، استعدت الفرقة التي لم تخرج للحرب أول النهار، وهجم بها على العدو الذي نهكته الحرب. ثم غشيهم في خيامهم، وهزمهم هزيمة منكرة، وقتل ملكهم جرجير. وبذلك تم النصر للمسلمين؛ ولولا خطة ابن الزبير وحيلته، لما أحرز المسلمون هذا النصر. وقد غنم المسلمون في هذه الحرب غنائم كثيرة حتى قيل إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار[1].

عاد ابن الزبير بالغنائم إلى المدينة، وأخبر عثمان بانتصار المسلمين وما غنموه من ذلك الفتح، فسر بذلك وطلب منه أن يخطب الناس، فقال: يا أمير المؤمنين! إني أهيب لك مني لهم. فقام عثمان في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال «أيها الناس! إن الله فتح عليكم إفريقيا، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله». وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر، فخطب الناس خطبة طويلة رواها ابن عبد ربه[2].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٣١ ـ ٢٣٤ الكندي كتاب الولاة ص ـ ١٢

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٧٥ ـ ٣٨٦. وقد قيل إنه أول من خطب إلى جانب المنبر

ثم وجه ابن أبي سرح همه إلى الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد ـ وكان عمرو قد غزاها من قبل ـ فبلغ دنقلة سنة ٣١ هـ وقاتل أهلها قتالاً شديداً. ولكنه لم يتمكن من فتحها، فهادن أهلها وعقد معهم صلحاً رواه البلاذري[١] والكندي[٢] ونقله لينبول، وهو أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة، هذه تمدهم بالحبوب والعدس وتلك ترسل الرقيق إلى مصر.

وفي سنة ٣٤ هـ نشب القتال بين عبد الله بن سعد وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الإسكندرية. وكان النصر للعرب في هذه الموقعة التي عرفت بموقعة السواري أو ذات السواري، لكثرة سواري السفن التي اشتركت في المعركة، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة، منها مائتان للمسلمين.

وقد دارت هذه الموقعة بالقرب من الساحل الإفريقي في الفرضة المسماة فرصة «زيوارة». وساعدت السفن التي استولى عليها العرب في هذه الموقعة على إنشاء أسطول مصري كان له أثر كبير في المواقع البحرية التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين في أيام الأمويين[٣].

٤ ـ صفات عثمان ـ وفاته:

كان عثمان تقياً ورعاً يصوم الدهر كما تقدم، ويحج بيت الله كل عام. وعن عائشة أنها قالت لما بلغها قتل عثمان: «قتلوه وإنه والله لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب. ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ»[٤]. وقد وصف عبد الله ابن العباس عثمان فقال: «رحم الله أبا عمرو، كان والله أكرم الجعدة وأفضل البررة، هجاداً بالأسحار كثير الدموع عند ذكر النار، نهاضا عند كل مكرمة، سباقاً عند كل منحه، حياً أبياً وفياً، صاحب جيش العسرة، وختن رسول الله ﷺ وآله، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين».

وكان عثمان طيب النفس، نقي السريرة، حليماً متواضعاً، رفيقاً بالناس. يقول المسعودي: «كان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا به (اقتدوا) في فعله» وهو الذي جهز جيش العسرة بالمال والإبل والأفراس. واشترى بئر رومة وزاد في مسجد الرسول، وعوض الناس عن أرضهم

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.
(٢) كتاب الولاة ص ١٢ ـ ١٣.
Hist of Egypt in the Middle Ages, pp. 20 - 21.
(٣) الكندي كتاب الولاة ص ١٣.
(٤) ابن حجر: الإصابة جـ ٤ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

التي أدخلها في المسجد من ماله الخاص.

وكانت الخصلة التي ميزه بها النبي فيما روى المحدثون وأصحاب السير صدق الحياء. وكان النبي يقول: إن الملائكة لتستحي من عثمان، وكان النبي يلقى أصحابه منفصلاً غير متكلف، فإذا أذن لعثمان احتشم وقال: كيف لا نستحي من رجل تستحي منه الملائكة. وكان النبي يعلل احتشامه حين يأذن لعثمان بأنه إن يفعل، استحيا عثمان أن يثبت بين يديه وأن يبلغه حاجته ويأخذ حظه من التحدث إليه.

وكان عثمان غنياً[١] ينعم بما ينعم به الأغنياء، فيسكن في داره التي بناها في المدينة بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر (شجر السرو). واقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها، وإذا حج ضرب له الفسطاط بمنى. وكان يأكل ألين الطعام وأطيب أصنافه، كما روي أنه كان يشد أسنانه بالذهب ويلبس أفخر الثياب.

روى الطبري (٥: ٣٦١) عن عمرو بن أمية الضمري، قال: وإني كنت أتعشى من عثمان خزيراً (شبه عصيدة بلحم) من طبخ مطبوخ من أجود ما رأيت، فيها بطون العنم وأدمها اللبن والسمن. وعن عبد الله بن عامر قال: كنت أفطر مع عثمان في رمضان، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر، قد رأيت على مائدة عثمان الدومك الجيد (نوع من الدقيق) وصغار الضأن كل ليلة. كما روي أن عثمان أول من نخل له الدقيق.

ولكن عثمان كان يحب التوسعة على الناس، فلم يقصد في بذل اعطياتهم ولم يقتصر على إعطائهم الكفاف من العيش كما كان يفعل عمر خشية للفتنة ولم يرض عثمان أن يأخذ الناس بأكثر مما فرضه الله تعالى عليهم، فلم يحجر على كبار الصحابة، ولم يمنعهم من الخروج إلى الولايات، فالتفت الناس حولهم وافتتنوا بهم، كما افتتن هؤلاء الصحابة بما رأوه من ألوان النعم ومظاهر الحضارة في البلاد التي خرجوا إليها، وهذا ما كان يخشاه عمر حين منعهم من الخروج إلى الولايات.

ولم يجعل عثمان ولاته على التقشف والبعد عن مواطن التهمة والريبة كما فعل عمر، إذ كان يأخذ على الوالي عهداً ألا يلبس رقيقاً ولا يأكل نقياً ولا يتخذ دون حاجات الناس حجاباً.

غير أن ذلك التساهل من عثمان لم يكن عن تهاون في حقوق الله وإغضاء عن حرماته، فكثيراً ما كان يحث الناس على التمسك بالدين ويأخذهم بالمحافظة عليه ويضرب على أيدي المستهترين حتى كرهوه «واستطالوا عمره». من ذلك أنه عين رجلاً من بني ليث، وكلفه مراقبة

---

(١) ذكر المسعودي (مروج ١ ٤٢٣) عن عبد الله بن عتبة أنه كان عند خازن عثمان يوم قتل من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما ١٠٠,٠٠٠ دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلاً

من يطيرون الحمام على الجلاهقات[1] حتى قضى عليها، وأرسل طائفاً بالعصا يمنع الذين اعتادوا السكر، فاشتد في مهمته وجلد كل من وقع في يده. وهدد عثمان بالنفي عن المدينة كل من عكف على البدع، وخطب الناس خطبة حثهم فيها على العدول عن تلك الأحداث حتى لا يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من أهل الأمصار الأخرى. ثم حظر عليهم التوسط أو الاستشفاع عنده لمن يوقع عليه عقوبة من العقوبات، ولم يعف عن واحد ممن كانوا يقترفون هذه الآثام، فضج الناس من الجلد والنفي.

واتبع عثمان سياسة عمر في الاستفسار عن الولاة من الوفود وسؤال الرعية عن أمرائها. غير أن ذلك أدى إلى عكس ما كان يرجو، إذ كثر الدس على هؤلاء الولاة، واتخذ المغرضون من ذلك سبيلاً للحط من شأنهم، كما كان بعض الولاة يدس إلى الخليفة من يمدحونه عنده[2].

ومما يؤخذ على عثمان أنه كان سريع التأثر بأحاديث الناس، زمامه بيد أقاربه ولا سيما مروان بن الحكم.

وقد وصف سيد أمير علي عثمان بن عفان فقال: «كان عثمان شيخاً كبيراً ضعيف الإرادة. فلم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم رغم نزاهته وفضائله الكثيرة[3]. وقد أثار بسياسة الضعف التي سار عليها وانحيازه إلى ذوي قرباه ومحاباتهم، كراهة أهل المدينة وكثيرين من أهالي الأمصار الإسلامية، فقام المسلمون بهذه الفتنة التي انتهت بقتله في أواخر سنة ٣٥ هـ على ما سيأتي في الباب السادس.

علي بن أبي طالب
(٣٥ - ٤٠/ ٦٥٦ - ٦٦١)

أ - علي منذ أن ولد إلى أن ولي الخلافة:

ولد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي بمكة قبل البعثة بعشر سنين، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وقد أسلمت وهاجرت مع الرسول، وكانت من السابقات.

كان أبو طالب كثير العيال، فلما أصاب مكة جدب سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبي طالب مشقة العيش بأن يعول بعض ولده، وذهب الرسول والعباس إلى أبي طالب

---

(١) الجلاهق البندق الذي يرمي به في الصيد
(٢) الطبري جـ ٥ ص ١٢٢.
(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٥.
A Short Hist. of the Saracens, p. 46

وعرضا عليه المساعدة فقبل، فضم العباس إليه جعفراً وضم الرسول علياً. ولما بعث الرسول كان علي أول من آمن به من الصبيان، ولما يناهز الثالثة عشرة. وقد قيل إن الرسول لما دعا العرب إلى دينه الجديد وأحجم القوم عن ماصرته صاح علي في حماسة الصبي قائلاً: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه».

بات علي في موضع الرسول في الليلة التي هاجر فيها من مكة الى يثرب[١]، ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي كانت عند الرسول لأهلها وقد زوجه الرسول من ابنته فاطمة في السنة الثانية للهجرة، فأعقب منها الحسن والحسين. واشترك في جميع الغزوات عدا غزوة تبوك، فإن الرسول خلفه على المدينة . وقد دافع كثيراً عن الرسول ، كما روى عنه من الصحابة ولداه الحسن والحسين وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن العباس وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري وصهيب ومروان بن الحكم، واشتهر علي بالفروسية والإقدام .

ولما توفي الرسول اشتغل علي بتجهيزه ودفنه، واشترك معه العباس بن عبد المطلب والفضل وقثم بن العباس وأسامة بن زيد[٢]. وكان علي يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعد الرسول، لما له من السابقة في الإسلام، ولأنه أقرب الناس إلى الرسول نسباً وصهراً. فلما آلت الخلافة إلى أبي بكر لم يبايعه علي أول الأمر.

وكان أبو بكر يستشير علياً في مهام الأمور، وكان عمر لا يعمل عملاً إلا بمشورته لما يعهده فيه من الفقه والدين والذكاء، وكان من أهل الشورى الستة الذين رشحهم عمر للخلافة؛ وقد عرض عبد الرحمن بن عوف الخلافة على عليّ، وشرط عليه شروطاً امتنع عن بعضها فعدل عنه إلى عثمان[٣]، فقبلها فولاه، فبايعه علي، وكان علي يظن أن الخلافة ستؤول إليه؛ فلما آلت إلى عثمان بايعه علي ولازمه، ولكن محاباة عثمان ذوي قرباه غيرت رأي علي فيه، فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما[٤].

٢ ـ بيعة علي ـ سياسته :

ولم يكن انتخاب علي على الصورة التي تم بها انتخاب من سبقه من الخلفاء. فقد انتخب أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة، وإن كانوا قد اختلفوا بعض الاختلاف في بادئ الأمر. وبعد وفاة أبي بكر لم يكن ثمة اختلاف في الرأي، لأنه كان قد عهد إلى عمر، فرأى المسلمون وجوب طاعته. ولما توفي عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون

---

(١) راجع ابن أبي الحديد جـ ٣ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨
(٢) الطبري جـ ٣ ص ١٤٣، ٢٦٢.
(٣) ابن حجر الإصابة جـ ٤ ص ٢٦٩.
(٤) الطبري جـ ٣ ص ٢٠٤. ابن أبي الحديد جـ ٣ ص ١٩٢

الشورى الذي سنه عمر.

أما عند موت عثمان فقد مالَ بعض الثوار إلى تولية علي، وعلى رأسهم ابن سبأ. وكان أكثر الصحابة متفرقين في الأمصار، ولم يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل وعلى رأسهم طلحة والزبير. وقد تردد بعض الصحابة في بيعة علي، كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وتخلف بعض الأنصار كحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وأبي سعيد الخدري، إذ كانوا يميلون إلى عثمان، وهرب بعض إلى الشام كالمغيرة بن شعبة. وتمت بيعة علي بالأغلبية على الرغم من تخلف بعض الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وتخلف بني أمية ولحاق بعضهم بالشام وبعض آخر بمكة[1]. قال صاحب العقد الفريد (جـ٢ ص ٩٣): لما قتل عثمان بن عفان أقبل الناس يهرعون إلى علي بن أبي طالب، فتراكمت عليه الجماعة في البيعة فقال: ليس ذلك الحكم، إنما ذلك لأهل بدر: أين طلحة والزبير وسعد؟ فأقبلوا فبايعوا، ثم بايعه المهاجرون والأنصار، ثم بايعه الناس، وذلك يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكان أول من بايعه طلحة.

بادر علي، لما عرف عنه من الشدة في الحق وعدم الهوادة فيه، بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وسبب خروج الثوار عليه، ولم يصغِ لنصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور في نصابها. كما استفتح ولايته باسترداد الإقطاعيات التي كان عثمان قد منحها بعض بطانته والمقربين من أهل بيته إلى بيت المال، واتبع في توزيع الأرزاق القواعد التي سنها عمر.

وقد أثار هذا العمل سخط أولئك الولاة الذين أثروا في عهد عثمان. وأبى معاوية بن أبي سفيان، الذي مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوي، الإذعان لأمر علي ونشر لواء الثورة والعصيان، وطالب علياً الذين لم يدخلوا في طاعته بأن يأخذ بثأر عثمان فيتتبع قتلته ويقتلهم لكنه رأى أن يدخلوا في الطاعة ثم يتقدم إليه ولي دمه أولاً، فيتبع معه ما يوجبه الشرع، إذ كان يرى أن القصاص من غير دعوى ولا إقامة بينة مخالف لكتاب الله.

ومن ثم قامت موقعة الجمل بين جند علي من ناحية وبين بني أمية وعائشة وطلحة والزبير من ناحية أخرى. ثم دارت بين جند علي ومعاوية موقعة صفين التي أعقبها التحكيم وما اقترن به من انقسام جند علي على أنفسهم وظهور الخوارج واستيلاء معاوية على مصر.

ذلك أن علي بن أبي طالب لما بلغه أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام، سار في شهر شعبان من سنة ٣٦ هـ - وكان قد أوقع برجال طلحة والزبير وعائشة في يوم الجمل - إلى

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٤٠.

صفين. وهنا اجتمع الجيشان على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ. ولما لم يتم الاتفاق بينهما دارت رحى الحرب من جديد[١]، وأشرف علي على النصر لولا ما ابتكره معاوية وعمرو ابن العاص من ضروب الحيل التي أدت إلى انقسام جند علي، وعقد التحكيم في شهر رمضان من هذه السنة، وازداد أمر معاوية بقوة جيشه وتخاذل الناس عن علي واعتزالهم إياه. وكان من أثر تلك القوة المتحدة التي كانت بزعامة معاوية أن تمكن من سلخ ما كان تحت سلطان علي شيئاً فشيئاً.

كانت مصر إحدى الولايات التي سلخها معاوية من علي، ذلك أنه بعد أن قتل عثمان عاد وفد مصر من أنصار ابن سبأ إلى بلادهم، فلما دخلوا الفسطاط ارتجز رجل منهم يفتخر بما أوتوا من نصر وما أصابوا من بلاء، وما كان لهم من أثر في الفتنة التي انتهت بقتل عثمان، وبما أجمعوا رأيهم عليه إذا حاد الخليفة الجديد عن السبيل فقال:

خذها إليك واحذرنْ أبا حسنْ ... إنما نمر الحرب إمرار الرسن[٢]

بالسيف كي تخمد نيران الفتن

على أن قتل عثمان لم يرضِ شيعته في مصر، بل أغضبهم وأثار حفيظتهم، فصمموا على أن يثأروا لقتله وأن يطلبوا بدمه، وبايعوا معاوية بن حَديج[٣] الذي سار بهم إلى الصعيد، فبعث إليهم محمد بن أبي حذيفة جيشاً، والتقى الجمعان بدقناس من كورة البهنسا. فهزم أصحاب ابن أبي حذيفة، ومضى ابن حديج إلى برقة ثم عاد إلى الإسكندرية.

هذا ما رواه الكندي[٤] ومن أخذ عنه كالمقريزي[٥]. وإنا لا ندري لماذا واصل معاوية بن حديج السير حتى وصل إلى برقة ثم إلى الإسكندرية، وهل كان يرمي إلى الاستيلاء عليها فتم له ذلك؟ أم أنه لم يظفر بشيء فاضطر إلى الرجوع؟ ومع كل فقد ذكر هؤلاء المؤرخون ما كان من الحوادث بين شيعة عثمان وشيعة علي على ما ذكرناه. وزاد الكندي أن ابن أبي حذيفة لما علم بوصول العدو إلى الإسكندرية جمع جيشاً آخر (رمضان سنة ٣٦ هـ). وفي مدينة خربتا في كورة الحوف شرقي الدلتا، التقى الجيشان، فدارت الدائرة أيضاً على أنصار ابن أبي حذيفة وقتل قائدهم في الحرب.

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٧٢.

(٢) الرسن: حبل يربط به رأس الدابة مع أنفها.

(٣) وهو الذي قتل محمد ابن أبي بكر بأمر عمرو بن العاص، وغزا إفريقيا ثلاث مرات فأصيبت عينه في إحداهن. قيل أيضاً إنه غزا النوبة مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح فأصيبت عينه هناك.

(٤) كتاب الولاة ص ١٨ - ٢٠.

(٥) خطط جـ ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

وهناك عامل آخر خارجي كان ينازع سلطان العلويين في مصر، هو حزب الأمويين في الشام وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان الذي أخذ يعمل على سلخ مصر من علي كما تقدم. سار معاوية إلى هذه البلاد ونزل بسلمنت من كورة عين شمس (شوال سنة ٣٦ هـ) فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأنصاره ليمنعوه، فبعث إليه معاوية يخبره أنه لا يريد قتالاً، بل يريد منه أن يدفع إليه رؤوس قتلة عثمان، فأبى عليه. فبعث معاوية يطلب تبادل الرهائن والودائع كي يضمنوا حميعاً أن يكف الفريقان عن الحرب، فقبل ابن أبي حذيفة.

ولعل ابن أبي حذيفة لم يفطن إلى مكان ما يرمي إليه معاوية، وأن هذا الطلب لم يكن في حقيقة الأمر إلا مكيدة حاك شركها دهاؤه، فاستحلف على مصر رجلاً من أنصاره، هو الحكم بن أبي الصلت، وخرج في الرهن هو وغيره من قتلة عثمان. وفي لد من أرض فلسطين حبسهم معاوية وسار إلى دمشق، فهربوا من سجنهم إلا واحداً منهم أبى الفرار، فتتبعهم عامل معاوية وقتلهم وقتل معهم محمد بن أبي حذيفة (دو الحجة سنة ٣٦ هـ).

ونحن نستبعد أن يقبل ابن أبي حذيفة طلب معاوية. يدل على ذلك أن معاوية لما بعث إلى ابن أبي حذيفة يطلب إليه أن يدفع إليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر - وكانا على رأس قتلة عثمان - امتنع ابن أبي حذيفة وقال له: لو طلبت منا جدياً رطب السرة بعثمان ما دفعنا إليك.

ولما بلغ علياً قتل ابن أبي حذيفة، ولى مصر قيس بن عبادة الأنصاري، فدخلها في شهر ربيع الأول سنة ٣٧ هـ. وكان قيس من أهل الرأي والبأس، استمال إليه العثمانية المقيمين بخربتا وأحسن إليهم. وكان أهل مصر، إلا هؤلاء (وكانوا زهاء عشرة آلاف) مع علي بن أبي طالب. وقد حاول معاوية وعمرو بن العاص التغلب على مصر، فامتنع قيس على معاوية. فلم يكن بد إذن من إعمال الحيلة لإخراجه، فأذاع معاوية أن قيساً من شيعة عثمان وأن كتبه تأتيه. فلما سمع علي أمر قيساً بمحاربة العثمانيين بخربتا، فأجابه بأنه أمنهم على أنفسهم ليأمن جانبهم، لأن فيهم كثيرين من وجوه أهل مصر وأشرافهم، فعزله علي وولى مكانه الأشتر بن مالك لأنه ثقل عليه فأبعده عنه[1].

على أن والي مصر الجديد لم يكد يصل إلى القلزم (وهي مدينة السويس الحالية) حتى شرب شربة من العسل لا يبعد أن يكون قد دس له السم فيها، فمات. فولى علي بن أبي طالب بعده محمد بن أبي بكر الذي دخل مصر في منتصف شهر رمضان سنة ٣٧ هـ. فأظهر الخيلاء وأساء إلى العثمانية وبعث إلى زعيمهم معاوية بن حديج يدعوه إلى بيعة علي، فلم يجبه إلى

---

(١) الكندي كتاب الولاة - ١٩ - ٢٢

طلبه، فهدم دورهم ونهب أموالهم وآذى أولادهم وحبسهم فعولوا على حربه. ولكن ابن أبي بكر رأى أن يتلافى ما قد يجره الاشتباك معهم في حرب، فصالحهم ثم سيرهم إلى معاوية، فظلوا هناك حتى انتهت موقعة صفين وعقد التحكيم.

ولم يكن معاوية بالذي يفتر عن استخلاص مصر وانتزاعها من علي، فسار عمرو على رأس جيش من أهل الشام، وحمى وطيس القتال بين الفريقين، ودخل عمرو الفسطاط واختفى محمد بن أبي بكر، فبعث معاوية بن حديج عدوه القديم العيون حتى اهتدوا إلى مكانه. فقتله ابن حديج ثم جعله في جيفة حمار وأحرقه بالنار (صفر ٣٨ هـ).

ظلت ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر زهاء خمس سنين (٣٨ - ٤٣ هـ)، حيث ولاه معاوية إياها ولاية مطلقة وجعلها له طعمة بعد النفقة على جندها وما تحتاج إليه من ضروب الإصلاح، وما بقي فهو له.

كان عمرو يشرف على القضاء والخراج والجند والشرطة، فنظم القضاء على وفق أحكام الشريعة الإسلامية، وقسم البلاد كوراً أي مديريات، وأقام على كل منها قاضياً قبطياً يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين على وفق شرائعهم ونظم الخراج، وكان يأتي من ناحيتين.

الأولى: الضريبة الشخصية، وهي جزية الرؤوس التي فرضت على أهل الذمة.

الثانية: ضريبة الأطيان، وقد راعى عمرو في جبايتها حالة النيل من حيث زيادته ونقصانه.

وقد تحبب عمرو إلى القبط وأطلق لهم حرية الدين، وأقام العدل بينهم، فتمتعوا بالهدوء والطمأنينة، وتجلت مقدرته في الحرب والسياسة. ولا عجب فقد ملأ اسم عمرو كل مكان لانفراده بتلك المأثرة الخالدة وهي فتح مصر ونشر الإسلام فيها. ولم يكن عمرو تاجراً فحسب، بل كان شاعراً يجيد الشعر، وسياسياً عبقرياً، وقائداً فذاً. اشتهر بالفصاحة حتى كان عمر بن الخطاب يقول إذا رأى رجلاً يتلعثم في كلامه: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد.

وقد عرف عمرو بالحكمة البليغة، وله أقوال مأثورة جرت مجرى المثل. من ذلك قوله: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ولكنه الذي يعرف خير الشرين، وقوله: إن الكريم يصول إذا جاع واللئيم يصول إذا شبع.

كان عمرو شخصية جمعت بين العدل والحلم والشجاعة والإقدام وطهارة السريرة، واحتلت مكانها اللائق بها بين الأبطال وأعلام الإسلام الذين يمجدهم التاريخ ويحفظ لهم أجمل الذكرى وأطيب الأثر.

٤ ـ صفات علي ـ وفاته :

اتصف علي بن أبي طالب بالخصال الحميدة. فقد نشأ في بيت رسول الله، فتأدب بآدابه العالية وتخلق بصفاته الكريمة. وكان أول من أسلم من الصبيان كما تقدم. وقد أحله الرسول من نفسه المحل اللائق به فعهد إليه بكثير من أمور المسلمين، فأبلى فيها بلاءً حسناً وأخلص في نصرة الإسلام، فعلا أمره ونبه ذكره، واشتهر بالشجاعة والبطولة. وليس أدل على ذلك من تعرضه للخطر في الليلة التي هاجر فيها الرسول، إذ لبس ثوب الرسول وبات في فراشه، مع أنه كان يعلم عزم المشركين على قتله في تلك الليلة، كما اختاره الرسول في غزوة خيبر وقال: «لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فيفتح الله عليه». فلما أصبح الناس دعا علياً ووجهه إلى فتح خيبر.

كما اشتهر علي بالمروءة والوفاء واحترام العهود والحرص على مال المسلمين. يدل على ذلك ما نقله الطبري (جـ ٦ ص ٩٠) عن أبي رافع خازن بيت المال في عهد علي قال: دخل علي يوماً وقد زينت ابنته، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها فقال: من أين لها هذه؟ لله علي أن أقطع يدها. فلما رأيت جده في ذلك قلت: أنا يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها! فسكت.

وذكر صاحب الفخري (ص ٨١) أن عقيل بن أبي طالب أخا علي من أبيه وأمه طلب من بيت المال شيئاً لم يكن له حق فيه، فمنعه علي وقال: يا أخي ليس لك في هذا المال إلا ما أعطيتك، ولكن اصبر حتى يجيء مالي وأعطيك ما تريد، فلم يرض عقيلاً هذا الجواب، ففارق علياً وقصد معاوية بالشام . .

وكان علي لا يعطي ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما. وكان يرجع إليه في كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ومسائل الميراث والمشكل من القضايا. روي أن عمر كان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن ويقول: قضية ولا أبا حسن لها. وأبو حسن كنية علي بن أبي طالب. وكان علي يقول: سلوني سلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار في سهل أم في جبل.

وكان علي مضرب الأمثال في الفصاحة، يلقي القول فيأخذ بمجامع القلوب، ويخطب الخطبة فيثير النفوس ويحمسها للحرب، كما كان أشعر الخلفاء الراشدين. أخرج السيوطي[١] عن الشعبي قال: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عثمان يقول الشعر،

---

(١) تاريخ الخلفاء ـ ٢٢٢

وكان علي أشعر الثلاثة.

«كان علي - كما يقول نيكلسون[٢] - يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه، برغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة. فقد كان نشيطاً، ذكياً، بعيد النظر، بطلاً في الحرب، مشيراً، حكيماً وفياً، شريف الخصومة. نبغ في الشعر والبلاغة، واشتهرت أشعاره وخطبه في الشرق الإسلامي، على الرغم من أن كثيراً منها مدسوس عليه. ويمكن مقارنته بمونت روز[٣] وبيار[٤] في شجاعته ونجدته. وكانت تنقصه الحنكة السياسية وعدم التردد في اختيار الوسائل أياً كانت لتثبيت مركزه. ومن تم تغلب عليه منافسوه الذين عرفوا أول الأمر أن الحرب خدعة، والذين كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أي جرم يبلغ بهم الغاية ويكفل لهم النصر».

وبينما كان علي يلقى الشدائد على يد أصحابه الذين تثاقلوا عنه وتسللوا من جيشه، تمكن معاوية من الاستيلاء على مصر على يد عمرو بن العاص كما تقدم. ولم يكتف معاوية بذلك بل أخذ يدعو إلى نفسه بالخلافة، وأدرك علي هذا الخطر فجمع جيشاً قوامه أربعون ألفاً لقتال معاوية. ولم يكد هذا الجيش يتحرك حتى طعن عبد الرحمن بن ملجم الخارجي علياً بسيف مسموم، فتوفي في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ.

ذلك أن ثلاثة من الخوارج أجمعوا أمرهم على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص في يوم واحد، لترتاح الأمة الإسلامية من تلك الحروب التي نشبت من أجل الخلافة. وأما ابن ملجم فقد قتل علياً كرم الله وجهه. وبوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين، ولم يفز الذي ندب نفسه بقتل معاوية بقتله. أما عمرو بن بكر الذي عزم على قتل عمرو بن العاص، فإنه جلس له في الليلة المتفق عليها فلم يخرج عمرو لمرضه، وندب خارجة بن حذافة قاضي مصر أن يصلي بالناس. وبينما هو في الصلاة ضربه الخارجي بالسيف فقتله، وكان يظنه عمراً فلما علم أن المقتول غير عمرو قال: أردت عمرواً وأراد الله خارجة، فذهبت مثلاً. ولما وقف الرجل بين يدي عمرو بكى: فقيل له: أجزعا من الموت مع هذا الإقدام؟ قال لا والله، غماً أن يفوز صاحباي بقتل علي ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو.

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs p. 191

(٢) اشتهر جيمس جراهام مونترور James Graham Montrose (١٦١٢ - ١٦٥٠) بالبطولة والشجاعة في الثورات قامت في اسكتلندة سنة ١٦٢٧ م

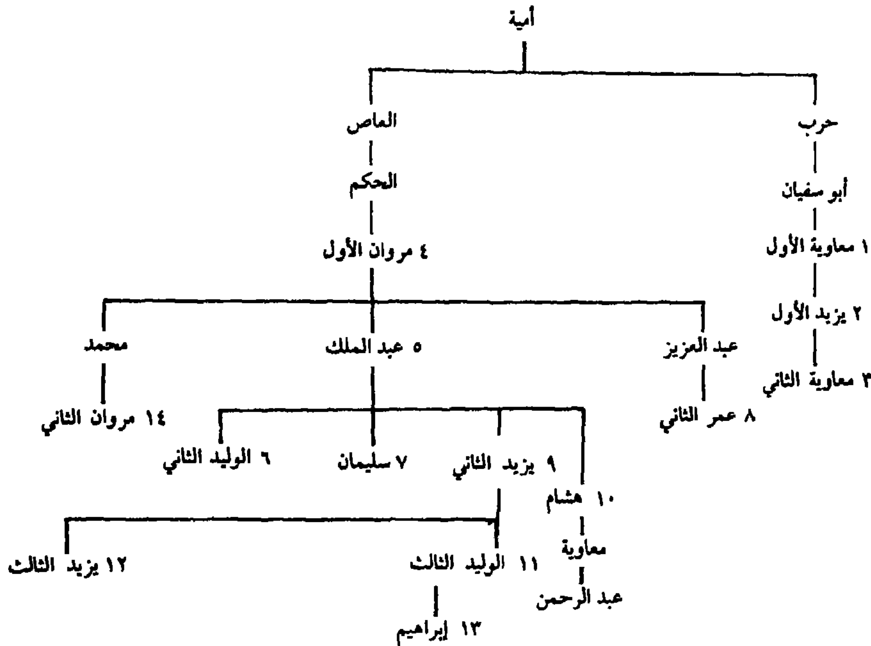
(٣) كان Pierre Terrail Bayard من مشهوري قواد فرنسا، ولد بمدينة جرينوبل سنة ١٤٦٣ م وأحرز النصر والظفر في جميع الحروب التي وقعت في عهد شارل الخامس ولويس الثاني عشر وفرانسوا الأول. وقد أثارت شجاعته وشرفه إعجاب الناس حتى الكثيرين من أعدائه أنفسهم

الباب الخامس

الخلفاء الأمويون

(٤١ - ١٣٢هـ/٦٦١ - ٧٥٠م)

هجرية	ميلادية
٤١ معاوية	٦٦١
٦٠ يزيد الأول	٦٨٠
٦٤ معاوية الثاني	٦٨٣
٦٤ مروان	٦٨٣
٦٥ عبد الملك	٦٨٥
٨٦ الوليد	٧٠٥
٩٦ سليمان	٧١٥
٩٩ عمر بن عبد العزيز	٧١٧
١٠١ يزيد الثاني	٧٢٠
١٠٥ هشام	٧٢٤
١٢٥ الوليد الثاني	٧٤٣
١٢٦ يزيد الثالث	٧٤٤
١٢٦ إبراهيم	٧٤٤
١٢٧ - ١٣٢ مروان الثاني	٧٤٤ - ٧٥٠



١ ـ معاوية بن أبي سفيان
(٤٠ ـ ٦٠/ ٦٦٠ ـ ٦٨٠)

١ ـ معاوية منذ ولد إلى أن ولي الخلافة :

ينتسب معاوية بن أبي سفيان بن حرب مؤسس الدولة الأموية التي دان لها المسلمون زهاء ثمانين سنة (٤٠ ـ ١٣٢ هـ) إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف(١) كان أمية من سادات قريش في الجاهلية، وكان في الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف. لهذا لا نعجب إذا تنافس هذان البطنان رياسة قريش مما أدى إلى قيام العداء بينهما في الجاهلية والإسلام.

كان أمية تاجراً كثير المال والعيال، فكان له عشرة من الأولاد امتازوا بالشرف والسيادة،

---

(١) وهي أم أخيه عتبة، وأما يزيد بن أبي سفيان ومحمد بن أبي سفيان وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فمن أمهات أخرى

منهم حرب، وسفيان، وأبو سفيان. وكان حرب بن أمية قائد قريش يوم الفجار، كما قاد أبو سفيان قريشاً في حروبها ضد النبي. وهو صاحب العير القادم من الشام إلى مكة التي وقعت من أجلها غزوة بدر الكبرى. وكان رئيس الجيش النافر وقتئذٍ لحماية قريش عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه، فكان أبوه صاحب العير وجده صاحب النفير، وبهما يضرب المثل فيقال للخامل: «لا في العير ولا في النفير»[1].

ولد معاوية بمكة قبل البعثة بخمس سنين. وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة. واتخذه الرسول ﷺ كاتباً للوحي. ولما فتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة أراد أبو سفيان أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه، وأنهى العباس ذلك إلى الرسول، فأمر منادياً ينادي بمكة: من أغمد سيفه فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وبذلك سوى الرسول ﷺ بين بيت أبي سفيان وبيت الله، وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله. فليس من عجب إذا أسلم كثير من بني أمية وأخذوا يعملون على نشر الإسلام ومد فتوحه.

وقد روى معاوية الحديث عن أبي بكر وعمر وعثمان وأخته أم المؤمنين حبيبة بنت أبي سفيان، وروى عنه من الصحابة عبد الله بن عباس، ومعاوية بن حديج، وعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وسعيد بن المسيب[2] وقد أبلى بنو أمية في حرب الردة بلاءً حسناً، وسار بعضهم إلى الشام، فاشتهر أمرهم وعظم ذكرهم. ومنهم يزيد بن أبي سفيان الذي ولاه أبو بكر قيادة أحد الجيوش الأربعة التي أنفذها لفتح الشام، وولاه عمر دمشق، كما ولى أخاه معاوية ما وليها من البلاد الشامية. فلما مات يزيد أضاف عمر إلى معاوية ما كان لأخيه، ولما ولي عثمان الخلافة ولى معاوية الشام كلها، ثم استقل بهذه البلاد بعد مقتل عثمان. ولما بويع علي بالمدينة امتنع معاوية من المبايعة له متهماً إياه بالهوادة في أمر عثمان وإيوائه قتلته في جيشه وعدم القصاص منهم، وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة علي، مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل العراق وأهل الشام. وقصارى القول أن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام.

/ نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى. فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن علي بعد مقتل أبيه واستخلفوه. إلا أن خلافته لم تثبت أمام قوة معاوية وما كان من رواج الإشاعة بانهزام جيوشه أمام جند الشام مما أدى إلى تخلي أهل العراق عنه، فلم يجد

---

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ١١٠

(٢) ابن حجر. الإصابة جـ ٦ ص ١١٣

بدأ من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين. على أن الدافع الحقيقي الذي حدا الحسن على النزول، يرجع - على ما ذهب إليه اليعقوبي[١] - إلى أنه قد أصبح لا قبل له بمعاوية وجنده، فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه في الخلافة، على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا. وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق في الولايات الإسلامية كافة.

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٤١ هـ[٢] دخل معاوية الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين، واجتمع عليه الناس، فسمي ذلك العام عام الجماعة، ثم رحل الحسن إلى المدينة ولزم منزله حتى مات.

يقول نيكلسون[٣]: اعتبر المسلمون انتصار بني أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء، والتي جاهدها رسول الله ﷺ حتى قضى عليها وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله، فقضوا عليها وأقاموا على أنقاضها دعائم الإسلام، ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية في السراء والضراء، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ويستذلون الضعفاء ويبتزون الأموال. لذلك لا ندهش إذا كره المسلمون بني أمية وغطرستهم وكبرياءهم وإثارتهم الأحقاد القديمة، ونزوعهم للروح الجاهلية، ولا سيما أن جمهور المسلمين كانوا يرون بين الأمويين رجالاً كثيرين لم يعتنقوا الإسلام إلا سعياً وراء مصالحهم الشخصية. ولا غرو فقد كان معاوية يرمي إلى جعل الخلافة ملكاً كسروياً. وليس أدل على ذلك من قوله: «أنا أول الملوك»[٤].

٢ - الفتوح في عهد معاوية:

غزا عبد الله بن سوار، وكان أميراً على ثغر السند القيقان، وهي بلاد السند مما يلي خراسان مرتين، ولكنه قتل في المرة الثانية، ثم غزا المهلب بن أبي صفرة هذه البلاد حتى وصل إلى لاهور[٥]. وقد توجهت همة المسلمين نحو الشمال والغرب حيث الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تغير على البلاد الإسلامية القريبة منها: فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً، وبلغ أسطول الشام في عهده ١٧٠٠ سفينة فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزائر اليونانية. أما في البر فقد رتب معاوية الشواتي والصوائف وهي الجيوش التي كانت تغزو هذه

---

(١) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٣٥٤.
(٢) المسعودي مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦.
(٣) Nicholson, p. 139.
(٤) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٢٧٦
(٥) البلاذري. فتوح البلدان ص ٤٣٨ - ٤٣٩

البلاد في الشتاء والصيف.

وفي سنة ٤٢ هـ ولى معاوية قيس بن الهيثم بلاد خراسان، وكان أهل بدغيس وهراة وبلخ قد نقضوا عهد الصلح، فصار قيس إلى بلخ فخرب معبدها (ويدعى نوبهار)، وطلب أهلها الصلح فأجابهم. ولما علم أهل بدغيس وهراة وبوشنج بما حل بأهل بلخ، طلبوا الصلح والأمان من عبد الله بن حازم الذي حمل الأموال إلى عبد الله بن عامر بالبصرة.

ولما تولى زياد ابن أبيه البصرة سنة ٤٥ هـ . ولى أمير بن أحمد مرو، وولى خليد بن عبد الله الحنفي أبرشهر، وقيس بن الهيثم مرو الروذ والطالقان والفارياب، ونافع بن خالد الطاحي من الأزد هراة وبادغيس وبوشنج وقادس، والحكم بن عمرو الغفاري خراسان ثم خلفه عليها الربيع ابن زياد الحارثي .

ولما توفي زياد بن أبيه ولى معاوية ابنه عبيد الله بن زياد خراسان. وكان في الخامسة والعشرين من عمره المديد، فبلغ بيكند، وأرغم خاتون أميرة بخارى[1] على طلب الصلح، فاستنجدت بالترك، فأرسلوا إليها جيشاً أحل به المسلمون الهزيمة وأرغمت خاتون على طلب الصلح والأمان، ودخل جيش المسلمين بيكند. على أن خاتون نقضت العهد وأبطلت الإتاوة، ولكنها لم تلبث أن حملت على دفعها. ودخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان الذي خلف عبيد الله بن زياد على ولاية خراسان، ثم دخل المسلمون سمرقند بعد قتال عنيف.

وفي سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية براً وبحراً. وكان هذا الجيش بقيادة سفيان بن عوف، وخرج معه عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري؛ وأمر معاوية ابنه يزيد على الجيش، فساروا حتى بلغوا القسطنطينية، فاقتتل المسلمون والروم، ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين؛ وفي أثناء الحصار قتل أبو أيوب الأنصاري، فدفن خارج القسطنطينية بالقرب من سورها، ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وسفنهم.

وفي سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى عقبة بن نافع، وكان يقيم سرقة وزويلة منذ أيام عمرو ابن العاص، عشرة آلاف جندي، فدخل إفريقيا وتمكن من فتحها وأسلم على يديه كثير من البربر. وقد عمل العرب على إدخالهم في جيوشهم، وبذلك تسنى لهم أن يحذوهم إلى

---

(١) هي زوجة أمير بخارى المتوفي، وقد أصبحت وصية على ابنها الصغير، وخاتون معناه السيدة بلغة أهل الصغانيان.
Gibb. The Arab Conquests in Central Asia, p. 16

(٢) Ibid, pp. 16 - 17 البلاذري ص ٤١٧ ـ ٤١٨

الإسلام حتى وصل إلى بلاد السودان. وقد كون البربر نواة الجيوش التي أتمت فتح بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب بل من البربر أيضاً. وبذلك أصبح عقبة بن نافع والياً على أفريقيا بعد أن كانت تابعة لوالي مصر.

وقد رأى عقبة على أثر انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة يقيم بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد، فقصد موصع القيروان، وأمر ببناء هذه المدينة وبنى بها المسجد الجامع، ولم يلبث أن عزل عقبة وولى مكانه أبو المهاجر مولى مسلمة بن مخلد الذي ولاه معاوية مصر وإفريقيا[١].

٣ - تولية يزيد العهد:

كان المغيرة بن شعبة أول من أشار على معاوية بولاية ابنه يزيد العهد، وذلك أن معاوية أراد في سنة ٤٩ هـ أن يعزل المغيرة عن الكوفة ويستعمل عليها سعيد بن العاص. فبلغ الخبر المغيرة، فذهب إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وقال له: «إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبي ﷺ وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم. وإنما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة. ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين من أن يعقد لك البيعة، قال: «أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم».

ولما اختمرت هذه الفكرة عند يزيد أعلم أباه بها، فأحضر معاوية المغيرة وسأله عن هذا الأمر، فقال له: ما يقول يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف، فاعقد له. فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال: ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرَيْن أحد يخالفك.

رد معاوية المغيرة إلى الكوفة وعدل عن عزله وطلب منه أن يمهد البيعة ليزيد، فعاد إلى الكوفة وحبب الناس إلى هذا الأمر، فبايع أنصار الأمويين يزيد. ثم أوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية فزينوا له البيعة ليزيد وطلبوا منه أن يعهد إليه. وبذلك قوي عزم معاوية على البيعة لابنه، فأرسل إلى زياد بن أبيه فنصح لمعاوية أن يتريث هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة في يزيد وقال: «ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد». وعاد الرسول إلى دمشق وأخبر يزيد رأي زياد فيه، فكف عن كثير مما كان يصنع، وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتأني في هذا الأمر، فعمل معاوية بمشورة زياد.

---

(١) اليعقوبي في كتاب البلدان (طبعة دي غوية) ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول:

«إني قد كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك».

عرض مروان الأمر على الناس فوافقوا، فأخبر معاوية بموافقتهم. ثم أرسل معاوية إلى مروان كتاباً يقول فيه إنه عول على أخذ البيعة لابنه يزيد، فقرأه على الناس في المسجد فهاج القوم وماجوا فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: «ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل، قام هرقل»، وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك، وفعل مثله عبد الله بن الزبير[1].

ومن ثم ظهر حزب المعارضة الذي أنكر البيعة ليزيد، وعلى رأسه عبد الرحمن بن أبي بكر، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير. على أن معاوية لم يأبه لهذه المعارضة وكتب إلى عماله أن يمهدوا لبيعة يزيد في الأمصار، وأن يرسلوا إليه الوفود بدمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة. وقد تكلم الضحاك بن قيس الفهري في هذه الوفود ودعا لبيعة يزيد. وتحققت بذلك سياسة معاوية. فأعلن البيعة لابنه بعد أن خطبهم معاوية والضحاك بن قيس وغيرهما في تعظيم الإسلام وحرمة الخلافة، وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على بيعته من جمع كلمة المسلمين.

ويظهر أن كثيراً من هؤلاء القوم لم يرضوا عن هذه السياسة. فقد انبرى له رجل عرف بالصراحة، لا يخشى في الحق لومة لائم، هو الأحنف بن قيس فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبنا. وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه، إن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضا فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تروده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا».

على أن معاوية استعمل كل أنواع الحيل والدهاء، فكان «يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق أكثر الناس» وبايعوا ابنه يزيد! فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق، ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه، فقابله الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، فأساء لقاءهم. ثم دخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم إليها وهدد بقتلهم إن لم يحيوه إلى بيعة يزيد؛ فنصحت له أن يرفق بهم ويحسن معاملتهم ثم عاد إلى المدينة ولقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي، وأغدق عليهم الهبات؛ وتكلم

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٢١٤، ٢١٥ - ٢١٦.

معهم في شأن البيعة، فقال ابن الزبير: «نخيرك بين ثلاث خصال. فقال: أعرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر، قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف، قالوا: صدقت. فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبنه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا. ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قولنا قوله. قال: فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطب فيكم، فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإني قائم بمقالة! فأقسم بالله لئن رد عليَّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه. ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد عليَّ كلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يبتز أمر دونهم ولا يقضي إلا عن مشورتهم، وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد. فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر. ثم انصرف إلى المدينة، فلقي أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون، فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا: والله ما فعلنا، فقالوا: ما منعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: «كادنا وخفنا القتل»[1].

هكذا بايع الناس يزيد عدا هؤلاء النفر، فقسا معاوية عليهم، وخالف شروط الخلافة، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية.

٤ - صفات معاوية - وفاته:

كان معاوية داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظاً في السياسة، يقول صاحب الفخري (ص ٩٩ - ١٠٠): كان معاوية عاقلاً في دنياه، لبيباً عالماً، حليماً، ملكاً قوياً، جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا، عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً، يحلم في موضع الحلم ويشتد في موضع الشدة، إلا أن الحلم كان أغلب عليه. وكان كريماً باذلاً للمال محباً للرياسة شغوفاً بها. كان يفضل على أشراف رعيته كثيراً، فلا يزال أشراف قريش - مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وجعفر وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأبان بن

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨

عثمان بن عفان وناس من ال أبي طالب رضي الله عنهم ـ يفدون عليه بدمشق، فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمة. قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهو رجل من الأنصار: يا قيس! والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين علي عليه السلام وأنت حي»، فقال قيس: «والله إني كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين». فلم يقل له شيئاً، « وهذا من أجمل ما كانوا يخاطبونه به ».

وقد وصف نيكلسون[1] معاوية فقال: «كان معاوية سياسياً محنكاً لا يقل في مضمار السياسة عن ريشيليو. فقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من أن يجذب إليه الرجال ذوي الآراء المعتلة في جميع الأحزاب المعارضة له». وبهذه الصفات استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج خاصة، وأن يسوس الأمة العربية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير. وبذلك أصبح ـ على ما يذهب إليه صاحب الفخري (ص ١٠٠) ـ خليفة العالم، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى بالخلافة.

لما مرض معاوية مرض الموت أوصى ابنه يزيد وصية تدل على سداد رأيه وخبرته بالأمور ومعرفته بالرجال، فقال له: انظر إلى أهل الحجاز، منهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عندك فتعاهده. وانظر أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله، فإن عزل عامل واحد أهون من سل مائة ألف سيف لا تدري على من تكون الدائرة، ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار؛ فإن رابك من عدوك ريب فارمه بهم. ثم أردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا في غيره، فيتأدبوا بغير أدبهم، لست أخاف عليك إلا ثلاثة: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر. فأما الحسين بن علي فأرجو أن يكفيكه الله فإنه قتل أباه وخذل أخاه. وأما ابن الزبير فإنه خب[2] ضب، فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً. وأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذه[3] الورع، فخل بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك[4]. ومات معاوية في شهر رجب سنة ٦٠ هـ.

---

(١) Lit Hist - of the Arabs, p 195.

(٢) الخب بالفتح والكسر: هو الداهية.

(٣) وقذه: سكنه وغلبه وتركه عليلاً.

(٤) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٣١ ـ ١٣٢

٢ - يزيد بن معاوية
(٦٠ - ٦٣/ ٦٨٠ - ٦٨٤)

١ - توليته الخلافة :

ولد يزيد من ميسون بنت بحدل الكلبية، وهي امرأة بدوية تزوجها معاوية قبل أن يلي الخلافة غير أنها لم تحتمل المعيشة في دمشق فردها إلى أهلها، فنشأ يزيد في البادية على ما عودته أمه من معيشة البدو. وكان فصيحاً كريماً وشاعراً مفلحاً، حتى قالوا: «بدئ الشعر بملك وختم بملك»، يعنون امرؤ القيس ويزيد.

ولما مات معاوية بايع الناس يزيد بالخلافة، وقعد عن بيعته الحسين بن علي، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر. فكتب يزيد إلى الوليد بن عتبة عامله على المدينة أن يأخذ له البيعة من هؤلاء النفر، فبايعه عبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر. أما عبد الله بن الزبير، فإنه أبى وفر إلى مكة واستعاذ بالبيت، وأخذ يعمل على بث الدعوة لنفسه، ولكنه وجد في الحسين بن علي منافساً قوياً، فلم يجرؤ على مناوأته[1].

ولما طلب عامل المدينة من الحسين بن علي أن يبايع يزيد بالخلافة قال له: «أما البيعة فإن مثلي لا يعطي بيعته سراً، ولا أراك تجترئ بها مني سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية. فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً»، فقال له الوليد، وكان يحب العافية: فانصرف على اسم الله. وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكاتب الشيعة بالكوفة.

٢ - خروج بلاد الحجاز - غزوة مكة :

لم تنته مصائب يزيد عند حد كارثة كربلاء التي قتل فيها الحسين بن علي سنة ٦١ هـ، فقد أبيحت المدينة المنورة، وهي حرم رسول الله ﷺ في عهده. ويرجع ذلك إلى كراهة أهلها حكم يزيد وخلعهم إياه وطردهم عامله وتضييقهم على من كان بها من بني أمية[2]، فبعث إليهم يزيد مسلم بن عقبة المري وكان من جبابرة العرب ودهاتهم[3]، وكان قد طعن في السن فسار إليها وهو مريض وحاصرها من جهة الحرة من ظاهر المدينة وفتحها، ثم أباحها للجند ثلاثة أيام، وأسرف هو وجنده في القتل والنهب والاعتداء، فلقبوه مسرفاً لذلك. وقد استشهد في تلك

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢٣٠ الطبري جـ ٦ ص ١٨٩

(٢) اليعقوبي تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٠٤ وما يليها

(٣) المسعودي مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٢

المعركة التي كانت شراً على الإسلام والمسلمين زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول. وهكذا أباح الأمويون المدينة ودنسوها.

أمر يزيد قائده مسلم بن عقبة بطل الحرة بالمسير إلى مكة. فتوجه إليها، وكان عبد الله بن الزبير قد دعا فيها إلى نفسه، وتبعه أهلها. ومات مسلم في الطريق، فتولى قيادة الجند الحصين ابن نمير، وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم، فسار بالجيش إلى مكة وحاصرها. فخرج إليه ابن الزبير. وبينما كانت رحى القتال تدور بين الفريقين أتاهم نعي يزيد، فرأى الحصين أن يأخذ البيعة لابن الزبير إذا انتقل إلى الشام، فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة، فعاد الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة بعد أن ألحقوا الخسارة الفادحة بالكعبة[1]، «فتواردت ـ كما يقول المسعودي (جـ ٢ ص ٩٧) ـ أحجار المجانيق والعرادات عن البيت، ورمى مع الأحجار بالنار والنفط ـ ومشاقات الكنان وغير ذلك من المحرقات؛ وانهدمت الكعبة واحترقت البنية (البناء). . . لثلاث خلون من شهر ربيع الأول (سنة ٦٤)».

وقد علق فان فلوتن[2] على حصار الأمويين المدينة وغزو الكعبة بقوله: «كان السواد الأعظم من العرب يرى في حزب بني أمية حزب الدين والنظام، كما أن عدداً كبيراً من المسلمين كان لا يرى في الاستيلاء على المدينتين المقدستين إلا ضرورة دعا إليها موقف أهل الحجاز العدائي دون أن يرى في ذلك أي انتهاك لحرمتيهما».

٣ ـ معاوية الثاني
(٦٣/ ٦٨٠)

كان معاوية صبياً ضعيفاً ليس له من الأهمية ما يستحق الذكر، إذ لم يزد عهده على أربعين يوماً، فلم يتمتع بالملك لمرضه، ولم يكن بد من انزوائه في داره ذكر صاحب الفخري (ص ١٠٩) أنه فكر في ترشيح رجل للخلافة كما فعل أبو بكر مع عمر، فلم يجد الرجل الذي يصلح لها، فاقتدى بعمر بن الخطاب في اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم رجلاً فلم يفلح فترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاؤون وقال لهم: فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتم». فقالوا: ولِ أخاك خالداً، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وزرها ثم

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ٥٥.

(٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة المؤلف ص ٦٩ ـ ٧٠.

أنظر أيضاً الأبيات ١٧، ٣٠ وما يليها من قصيدة أبي صخر الهذلي، ديوان هذيل (طبعة Wellhausen ص ٩٢).

صعد المنبر وقال: «يا أيها الناس! إن جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله ﷺ وهو عليّ بن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بخطاياه. ثم قلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك. وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، وصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه». ثم بكى حتى جرت دموعه على خديه وقال: «إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم وخرب الكعبة. وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم، فشأنكم وأمركم. والله لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نلنا منها حظاً، ولئن كانت شراً فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها: ألا فليصل بالناس حسان بن مالك، وشاوروا في خلافتكم رحمكم الله». ثم دخل منزله وتغيب حتى مات في سنته بعد أيام(١).

٤ ـ مروان بن الحكم
(٦٤ ـ ٦٥ هـ)

١ ـ مروان منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

ينتسب مروان إلى البيت الأموي الذي وقف من الرسول ومن دعوته ذلك الموقف العدائي المعروف. فقد كان أبوه الحكم بن العاص يؤذي الرسول قبل أن يسلم. فلما أسلم لم يخلص في إسلامه ولم يفتر عن إيذاء الرسول والسخرية به. وبلغ من جرأته أنه اطلع على الرسول في إحدى حجراته، فخرج الرسول مغضباً. ولما عرفه قال: من عذيري من هذا الوزغ! ثم أخرجه من المدينة وقال: لا يساكنني فيها أبداً(٢).

ولكن عثمان لما ولي الخلافة أعاد الحكم، وكان من ذوي قرباه، إلى المدينة وأعطاه مالاً كثيراً، وآثر ابنه مروان، واتخذه وزيراً له ومشيراً، فكان ساعده وكاتبه ومدبره. فلما توفي عثمان وآلت الخلافة إلى علي، اعتزل مروان السياسة بعد موقعة الجمل المشهورة، وبايع علياً، وأقام بالمدينة، وظل على ذلك حتى آلت الخلافة إلى معاوية، فولاه المدينة مرتين. ولما مات معاوية قربه ابنه يزيد إليه وأكرمه، فظل بالشام إلى أن ولي الخلافة بعد معاوية الثاني بن يزيد، وشد أزره عبيد الله بن زياد وعمرو بن سعيد بعد أن كاد يبايع ابن الزبير.

٢ ـ الحرب الأهلية:

لما مات معاوية الثاني هاج عرب الشام، وكانوا عصب الدولة وقوتها، بفضل اتحادهم وتماسكهم. غير أن هذه الوحدة ما لبثت أن تفككت أوصالها حين مالت كلب إلى بني أمية،

---

(١) الكندي ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) الخميس في أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٠٧.

وأصبحت قيس ضلعهم مع عبد الله بن الزبير. وانقسمت كلب نفسها، فمال فريق منهم إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وكان برغم صغر سنه، فصيحاً بليغاً ضرب في الكيمياء بسهم، ومال فريق آخر إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية لسنه وشيخوخته. من ذلك نرى أن النزاع قد احتدم بين عرب الشام بسبب المنافسة بين أفراد البيت الأموي، إذ أصبح كل منهم يطمح إلى الخلافة ويرى نفسه أحق بها من غيره.

واستمر النزاع بين أنصار بني أمية حتى عقدوا مؤتمر الجابية، الذي بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة (في ذي القعدة ٦٤ هـ)[١]، ثم خالد بن يزيد، ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده، وبذلك انتقل الملك من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني، وبذلك أرضوا الذين يتطلعون إلى الخلافة.

اتحدت كلمة اليمنية من كلب؛ وأما قيس فإنها اجتمعت بزعامة الضحاك بن قيس الفهري بمرج راهط وبايعت عبد الله بن الزبير، فانحصرت الخلافة بينه وبين مروان. ثم سار مروان إلى الضحاك وهزمه في موقعة مرج راهط (المحرم سنة ٥٦ هـ)، وبذلك انتصر العنصر اليمني على العنصر المضري.

وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية من جديد، ليس في الشام وحدها، بل في سائر الولايات الإسلامية وخاصة في خراسان وظهر العداء بين اليمنية والمضرية في صورة نزاع متصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصي البلاد التي وصلت إليها الفتوح العربية فيما شنّه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك دموية.

تابع مروان بن الحكم نشاطه بعد هذه الموقعة، فجرد جيشاً بقيادته إلى مصر لطرد عبد الرحمن بن جحدم عامل عبد الله بن الزبير، وسار ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة (عند العقبة). ونشط ابن جحدم لحربه، وأشار عليه بعض رجاله بأن يحفر خندقاً، موقعه الآن جهة القرافة، فتم حفره في شهر واحد.

بعث ابن جحدم الجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه عبد العزيز، فحلت الهزيمة بجيوش عامل ابن الزبير. ولم ينفعه خندقه، ودخل مروان عين شمس ثم الفسطاط في أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ، وبنى الدار البيضاء لتكون مقراً له، وبايعه الناس إلا نفراً ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير، فضرب أعناقهم، وكانوا ثمانين رجلاً من المعافر، وقتل الأكدر بن حمام بن عامر بن صعب سيد لخم، فسار زهاء ثلاثين ألفاً من لخم وهم مدججون بالسلاح، ووقفوا بباب مروان ثائرين، فتوسط بعضهم في الصلح وانصرف الثائرون. وتصادف أن توفي

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٣٤ - ٣٩.

عبد الله بن عمرو بن العاص في اليوم الذي قتل فيه الأكدر (١٥ جمادي الأخرى سنة ٦٥هـ)، فلم يستطع الناس أن يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان، فدفن في داره[١].

ثم عاد مروان إلى الشام حيث أعد جيشين، سير أحدهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله ابن الزبير إلى نفسه بالخلافة، والآخر إلى العراق، فحلت الهزيمة بجيش الحجاز. ولم يقم جيش العراق بشيء يذكر في حياة مروان الذي عاجلته المنية سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز.

كان مروان من ذوي الرأي والفصاحة والشجاعة، وكان كثير التلاوة للقرآن. روى الديار بكري أن مروان كان من رجال قريش، وكان من أقرأ الناس للقرآن»[٢]. وقد روى الحديث عن كثير من الصحابة كعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت. وإليه يرجع الفضل في ضبط المقاييس والموازين حتى لا يقع الغبن في البيع والشراء. ومما يؤخذ عليه اتهامه بالكتاب المكذوب على عثمان، وإن كان الدليل لم يقم على ذلك.

وقد ذكرنا أن أنصار الأمويين اتفقوا في مؤتمر الجابية على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة، على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية، ثم سعيد بن العاص من بعده. غير أن مروان نقض ذلك العهد وبايع ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز وأخذ يحقر من شأن خالد ليصرف أهل الشام عنه. وقد دخل خالد بن يزيد على مروان يوماً فشتمه مروان، فخجل خالد ودخل على أمه ـ وكانت قد تزوجت من مروان بعد وفاة أبيه ـ وأخبرها بما حدث، فقالت له: «لا يعرفن ذلك منك واسكت فإني أكفيكه»[٣] ولما نام مروان وضعت على وجهه وسادة لم ترفعها حتى مات. ولما علم بذلك ابنه عبد الملك اراد أن يقتلها، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس عن امرأة قتلت أباه فيلحق به العار.

٥ ـ عبد الملك بن مروان
(٦٥ ـ ٨٦/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥)

١ ـ عبد الملك منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية. ويجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه في أبي العاص، وكان يضرب بأمه المثل في الخصال الحميدة والصفات الكريمة.

ولد عبد الملك بالمدينة سنة ٢٦ هـ في خلافة عثمان بن عفان، وقد نشأ نشأة عالية؛

(١) الكندي ص ٤٥ ـ ٤٦
(٢) الخميس في أنفس نفيس جـ ٢ ص ٣٩٧
(٣) الطبري جـ ٧ ص ٨٣.

فعرف بالشجاعة والنجدة، وكان فصيحاً بليغاً، صريحاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم، وقد حفظ الكتاب الكريم وقرأ العلوم الدينية من الفقه والتفسير والحديث على مشيخة الحجازيين في المدينة.

روى ابن سعد[1] أن أهل المدينة قالوا: حفظ عبد الملك عن عثمان وسمع من أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ولا غرو فقد أصبح فقيهاً وعالماً مشغوفاً بالعلم، كما كان أديباً عالماً بنقد الشعر وتمييز جيده من رديئه. وله مع الشعراء والأدباء مجالس مشهودة ذاعت في كتب الأدب والمحاضرات، مثل كتاب الكامل للمبرد والأمالي لأبي علي وغيرهما من دواوين الأدب.

٢ ـ الدولة الأموية في عهد عبد الملك:

كادت الأمة العربية عند وفاة مروان بن الحكم تمزقها العصبية القبلية التي دأب النبي ﷺ على إخمادها، حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال، لولا أن أتاح الله لهذه الدولة عبد الملك بن مروان الذي يعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة الأموية، لما امتاز به من رجاحة العقل والقدرة على تصريف الأمور، فانتشلها من الفوضى التي وصلت إليها وأقام صرح مجدها على أسس لم يسبقه إليها من جاء قبله من الخلفاء.

وقد أخذ عبد الملك في مبدأ عهده يشن الغارة على أعدائه، ولم يمض سبع سنين حتى استقامت له الأمور وهدأت الأحوال وساد السلام في البقية الباقية من عهده وعهد من جاء بعده من أولاده.

ففي مصر انتشر السلام واستتب الأمن بفضل حسن سياسة أخيه عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ). وكان من خيرة الولاة الذين حكموا مصر في العصر الأموي، فقد صحب أباه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير الذي صادفت دعوته نجاحاً عظيماً في بلاد العرب والعراق، وفي مصر حيث انضم إليه أنصار العلويين لاعتقادهم أنه يدعو لأهل البيت.

ولما عزم مروان على العودة إلى دمشق ولي ابنه عبد العزيز على مصر صلاتها وخراجها، وجعلها له طعمة يتصرف في خراجها كيف شاء. وكان بعض المصريين في ذلك الوقت على البغض لمروان ولبني أمية، فخاف عبد العزيز أنصار ابن الزبير وخشي عاقبة عدائهم إذا بقي في مصر، وأفضى بذلك إلى أبيه، فخفف من خوفه ورسم له الخطة التي يتألف بها قلوب المصريين على اختلافهم، وأوضح له أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا أسرهم بجوده وجذبهم إليه

---

(١) كتاب الطبقات الكبير جـ ٥ ص ١٧٣.

بالمودة والبشاشة، وأوصاه بأن يظهر لكل زعيم أنه خاصته دون غيره من الزعماء، وبهذا يتفانى الكل في خدمته ويجمعون على طاعته[١].

ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح في وصية أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة في هذا البلد، فأوصاه بتقوى الله في السر والعلانية، وبالبر بالفقراء وتنفيذ وعده إذا وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد، وأن تكون المشورة رائدة قبل الفصل في أمور دولته، فتلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل[٢].

وعمل عبد العزيز بنصائح أبيه، فنجحت سياسته في مصر نجاحاً ظاهراً، واستطاع أن يدخل كثيراً من ضروب الإصلاح، فبنى مقياساً للنيل، وزاد في جامع عمرو من ناحية الغرب، وأخلى في شماله رحبة فسيحة. وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط[٣]، ونقش عليها اسمه (٦٩ هـ)[٤]، واتخذ مدينة حلوان حاضرة لولايته (٧٣ هـ) بعد أن أصيب بداء الجذام. وقيل إنه انتقل إليها لتفشي الوباء في الفسطاط، ونقل إليها بيت المال، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم على قناطر معلقة مشيدة على أعمدة تصل عيون الماء بالبركة. ويظهر أن الأمويين أخذوا هذا النوع من القناطر عن الروم، وكانت منتشرة في الدولة الرومانية في القرن الثاني الميلادي. وغرس عبد العزيز في حلوان الأشجار والنخيل، وبنى بها المساجد وغيرها من الأبنية الفخمة، حتى قيل أنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار[٥]. وبلغ من شغفه بالعمارة والتماثيل أنه بنى في مدينة الفسطاط حماماً لابنه زبان وأقام على بابه تمثالاً عجيباً من الزجاج على صورة امرأة، وأطلق عليه «أبو مرة»، ذلك الاسم الذي تسمت به القيسارية التي كان يمتلكها عبد العزيز، وكانت تعرف في زمن ابن دقماق[٦] المتوفي سنة ٨٠٩ هـ باسم حمام بثينة.

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد يسر ورخاء لمصر التي استطاعت أن تظهر بمظهر النشاط الأدبي والمادي. وتغنى المؤرخون والشعراء بأعمال البر والكرم التي قام بها هذا الوالي، فقد ذكر بعض المؤرخين إنه «كان له ألف جفنة تنصب حول داره ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر»، حتى وصف أحد الشعراء أيام عبد العزيز بأنها كأعياد

---

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) الكندي ص ٤٨. المقريزي: خطط جـ ١ ص ٢٠٩.

(٣) ومكانها الآن على الخليج عند مسجد السيدة زينب

(٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٦٣، ١٢٠

(٥) أبو صالح الأرمني: كنائس وأديرة مصر، ورقة ٥٢ ب ـ ١٥٢

(٦) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٣٩، ١٠٥.

الفطر أو أعياد الأضحى[١].

وعلى الرغم من أن مصر كانت طعمة لعبد العزيز، قيل إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار ـ عدا أمواله في حلوان وقيسارية أبي مرة، وما خلفه من الخيل والرقيق والثياب المرقع بعضها. فلا عجب إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته.

على أن مصر لم تنعم بهذا الرخاء طويلاً بعد موت عبد العزيز، فقد زج الجند العربي بنفسه في النزاع الذي انتهى بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية على ما سيأتي.

وكان أشد أعداء عبد الله خطراً المختار بن أبي عبيد وعبد الله بن الزبير. روى المسعودي[٢] أن عبد الملك سار في سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار بالكوفة، وبينما هو في الطريق أتاه في إحدى الليالي خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده، وأتاه في تلك الليلة أيضاً مقتل القائد الذي أرسله لحرب عبد الله بن الزبير بالمدينة، ثم جاءه خبر دخول جند ابن الزبير أرض فلسطين ولحاق أخيه مصعب بهم. ثم جاءه خبر مسير إمبراطور الروم ونزوله المصيصة[٣] في طريقه إلى الشام. ثم جاءه أن عبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها، وأن المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغيرهما ـ إلى آخر ما هنالك من أخبار السوء التي تذهب بعقل الحليم وتبعث في النفس اليأس والقنوط.

كان عبد الملك ـ على الرغم من هذا كلّه ـ رابط الجأش شديد الإيمان بكفاءته وقدرته، فلم يرَ في ليلة قبلها أشد ضحكاً، ولا أحسن وجهاً، ولا أبسط لساناً، ولا أثبت جناناً من تلك الليلة تجلداً وسياسة للملوك. ولننظر الآن كيف تغلب عبد الملك على هذه الصعاب.

بعد أن قضى الحجاج بن يوسف الثقفي على عبد الله بن الزبير ـ على ما سيأتي ـ ولاه عبد الملك بلاد الحجاز سنة ٧٣ هـ، فظل بها إلى سنة ٧٥ هـ حيث ولاه عبد الملك العراق؛ وسار إليها في جيش من أهل الشام. ولما بلغ القادسية أمر الجيش بالاستراحة، وسار هو في اثني عشر راكباً إلى الكوفة، فدخلها وصعد المنبر متلثماً. ولما غص الجامع بأهله كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته في الأدب والتاريخ، وكلها إطناب واستهتار بأهل العراق، وتوعد لهم لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بني أمية:

«أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

---

(١) الكندي ص ٥١ ـ ٥٢

(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ١١٣

(٣) بالفتح ثم الكسر والتشديد من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم بقرب طرسوس.

يا أهل الكوفة! إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى». أما بقية الخطبة فإنها لا تختلف في معناها ولهجتها عما تقدم.

ولما فرغ الحجاج من خطبته لم يفه أحد ممن كان بالمسجد، وفيهم أهل الشرف والرياسة، بكلمة يعترض فيها على قوارص كلمه وشديد زهوه بنفسه أو يظهر استياءه لما لحق أهل بلده من مذلة وما حاق بهم من مهانة. وبعد هذه المقدمة الطويلة المفزعة أمر الحجاج غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم ! ». غير أن أحداً من الحاضرين لم يرد سلام الخليفة، فأمر الحجاج غلامه بالكف، وأخذ يوبخ الناس ويتهددهم ويتوعدهم ؛ فقال: «والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن»، ثم أمر غلامه فأعاد الكرة، فلما قرأ سلام الخليفة قال الحاضرون: «على أمير المؤمنين السلام»[1].

ومن هذه الخطبة نتبين السياسة التي رسمها الحجاج للسير عليها مع أهل العراق، وهي سياسة حزم ممزوج بالظلم والجبروت. ولا غرو فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظنة.

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة سار إلى البصرة وخطب الناس فيها خطبة لا تختلف في معناها ومرماها عن خطبته في الكوفة. ومن ثم عمل على معاونة المهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج.

تفاقم خطر المشرق حين خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج ثم طاعة عبد الملك، وانقاد إليه أهل كرمان والريّ والجبال. وما لبث أن دخل البصرة والكوفة، وقوي أمره، فاستنجد الحجاج بعبد الملك وألح عليه في إرسال المدد. يدل على ذلك قوله في ختام كتابه إلى الخليفة: واغوثاه بالله ثلاث مرات، فأمده عبد الملك بالجيوش.

التقى الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين، ووقعت بينهم أكثر من ثمانين موقعة دارت الدائرة بعدها على ابن الأشعث، فهرب إلى بلاد الهند، فاحتال الحجاج في قتله وأتي إليه برأسه في الكوفة، وأسرف الحجاج في قتل أسرى دير الجماجم، وفي إعطاء الأموال لمن نصروه على عدوه.

وهكذا أخضع الحجاج بلاد العراق وما والاه من بلاد المشرق لسلطان عبد الملك بن مروان ؛ الذي توطدت دعائم ملكه وانتشر الأمن في بلاده بفضل يقظته ودأبه على العمل لخير

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ٢١٠ المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٥ .

رعاياه. فقد كان يميل إلى إقرار العدل، ويكره تخطي حدود الاعتدال في عقوبتـه، يدل على ذلك ما دار بينه وبين الحجاج من مكاتبات حين بلغه إسرافـه في قتل أسـرى دير الجمـاجم، وإعطائه الأموال لرجاله، إذ كتب إليه ذلك الكتاب الشديد اللهجة بـرغم ما بـذل من جهد في سبيل تثبيت دعائم ملكه.

«أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل أميـر المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء والخـطأ الدية، وفي العمد القود (القصاص)، وفي الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله، وسيان عنده منع حق وإعطـاء باطـل، فإن كنت أردت النـاس له فمـا أغناهم عنك، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لين وشـدة فلا يؤنسـك إلا الطاعـة ولا يوحشـك إلا المعصية، وظن بـأمير المؤمنين كـل شيء إلا احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً».

وصل إلى الحجاج كتاب عبد الملك، وكتاب رجل لا تأخذه لومة لائم في الحق وإيثار مصلحة شعبه واكتساب محبته. وقد رد عليه الحجاج بهذا الكتاب الرقيق يبرر فيه تصرفه: «أما بعد! فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سَرْفي في الدماء وتبذيري في الأموال. ولعمري ما بلغت في عقوبتي أهل المعصية ما هم أهله، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه. فإن كان قتل أولئك العصاة سرفاً، وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً، فليس على أمير المؤمنين ما سلف وليمد لي فيه حداً انتهي إليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله. ووالله ما علي من عقل ولا قود، ما أصبت القوم خطأ فأفديه ولا أعطيتهم إلا لك ولا قتلت إلا فيك وأما ما أنا ما منتظره من أمريك فألينهما عدة وأعظمها محنة، فقد عبأت للعدة الخلاد وللمحنة الصبر»[1].

أسند الحجاج بن يوسف ولاية خراسان إلى المهلب بن أبي صفرة، فقام بكثير من الفتوح في هذه البلاد، ذكر البلاذري[2]: أنـه فتح خجندة وغزا كش سنـة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) واتخذهـا مركزاً لقيادته، وأرسل منها أولاده لغزو كثير من البلاد، فأرسل يزيد على رأس قوة لغزوة الختل، وأرسل حبيب إلى رابنجان قوات بخارى. وذكر الطبري (٨: ١٧) أن المغيرة بن المهلب الذي خلف أباه في مرو مات في رجب سنة ٨٢ هـ. فلما علم أخو يزيد بن المهلب بـذلك أراد أن يعلم أباه الخبر؛ وكـان بكش؛ فأمـر النساء فصـرخن، فقال المهلب: مـا هذا؟ فقيـل: مات المغيرة؛ فجزع جـزعاً شـديداً؛ فـوجه ابنـه إلى مرو. وأوصـاه بما يعمـل وكتب الحجاج إلى المهلب يعزيه في ابنه المغيرة. ويظهر أن هذا الحادث قد نال من نفس المهلب حتى إنه أيقن

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧.
(٢) فتوح البلدان ص٤٢٢ - ٤٢٣.

بأنه ليس من أمل في أية محاولة لفتح هذه البلاد. ومن ثم تصالح مع أهل كش وعدل عن غزواته، ولكنه مات في شهر ذي الحجة على مقربة من مرو الروذ وولى الحجاج ابنه يزيد بلاد خراسان[١].

استهل يزيد عهده بغزو خوارزم، ولم يقدم على غزو غيرها من البلاد لاختلال الأمن في خراسان بسبب ظهور روح العصبية بين قيس والأزد، وزاد ميل يزيد إلى الأزد نار هذه العصبية اشتعالاً. ولم يكن موقف الموالي أقل سوءاً حيث نرى مؤامرة ثابت بن قطنة وأخيه حريث على موسى بن عبد الله السلمي عامل ترمذ الذي ناصره طرخون ملك الصغد. وسرعان ما قتل حريث بن قطنة وأخوه ثابت في ميدان القتال[٢]. وقد عمل الحجاج على التخلص من يزيد بن المهلب، ولكنه خشي في الوقت نفسه ثورة الأزد في خراسان عليه، فولى هذه البلاد أخاه المفضل بن أبي صفرة في سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م) وكان ضعيفاً. ففتح باذغيس، وكانت قد انتقضت. وسعى الحجاج لدى عبد الملك بن مروان إلى تولية قتيبة بن مسلم خراسان. وكان هذا الوالي من باهلة إحدى بطون قيس، وبذلك يستطيع أن يجذب إليه القيسيين في خراسان. ووصل قتيبة مرو حول نهاية سنة ٨٥ هـ.

٣ ـ صفات عبد الملك:

وصف الشعبي عبد الملك بن مروان في هذه الكلمات: «ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه»[٣]. وكان عبد الملك فصيحاً. قيل له: لقد أسرع إليك الشيب. قال: شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن وقيل له: يا أمير المؤمنين! عجل إليك الشيب. فقال: وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس كل جمعة[٤].

اشتهر عبد الملك بالحزم وأصالة الرأي. قال العيني[٥]: كان يُقال معاوية أحلم وعبد الملك أحزم.

وقد تولى عبد الملك القضاء والفتيا في المدينة بعد زيد بن ثابت سنة ٤٢هـ وولاه أبوه هجر فأقام فيها العدل ونظم أمورها.

وروى صاحب كتاب العقد[٦] أن عبد الملك بن مروان خطب الناس يوماً فقال: أيها الناس! إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ـ يريد عثمان بن عمان ـ ولا بالخليفة المداهن

---

(١) Gibb, p. 25.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٣) ابن سعد: كتاب الطبقات جـ ١ ص ١٦٦.

(٤) السيوطي تاريخ الحلفاء ص ٨٤ ـ ٩٥

(٥) عقد الجمان ص ١١.

(٦) جـ ١ ص ٢٨٨ (وطبعة القاهرة سنة ١٣٤٦هـ) جـ ٣ ص ١٤٩.

ـ يريد معاوية ـ ولا بالخليفة المأفون[1] ـ يريد يزيد بن معاوية ـ. فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا ثم نزل». وخطب أيضاً على المنبر: «أيها الناس! إن الله حدّ حدوداً وفرض فروضاً، فما زلتم تزدادون في الذنب نزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف، ثم نزل».

ويتبين مما ذكره المسعودي[2] ما اتصف به عبد الملك من الآداب الاجتماعية. فقد ذكر أن بعض جلسائه،قال له يوماً: أريد الخلوة بك، فلما خلا به قال له عبد الملك: بشرط ثلاث خصال: لا تُطر نفسي عندك فأنا أعلم بها منك، ولا تغتب عندي أحداً فلن أسمع منك، ولا تكذب فلا رأي لمكذب. قال: أتأذن في الانصراف؟ قال: إذا شئت.

٦ ـ الوليد بن عبد الملك
(٨٦ ـ ٩٦/ ٧٠٥ـ ٧١٥)

١ ـ توليته الخلافة :

لما مات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ خلفه ابنه الوليد، وقد ظل في الخلافة عشر سنين، وكان عهده عهد فتح ويسر ورخاء، فاتسعت في أيّامه رقعة الدولة الأموية شرقاً وغرباً، كما خففت أعباء الحياة على جمهور المسلمين، بعطفه على الفقراء والمعوزين، واهتمامه بأحوال رعيته وسهره على مصالحهم، وعمله على تخفيف آلام مرضاهم، وتخصيصه أعطيات للمجذومين لمنعهم عن سؤال الناس، كما أعطى كل مقعد خادماً يهتم بأمره، وكل ضرير قائداً يسهر على راحته.

كان الوليد لحاناً، فقال له أبوه: «إنه لا يليْ العرب إلّا من يحسن كلامهم» فدخل الوليد بيتاً وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل فيه، فخرج أجل مما كان يوم دخوله. فلما بلغ ذلك أتاه عبد الملك قال: قد أعذر، لقد أضر بالوليد حبنا له، يشير إلى أنه لم يرسله إلى البادية ليتعلم الفصاحة بين الأعراب.

٢ ـ الفتوح في عهد الوليد:

أ ـ فتح بلاد ما وراء النهر: تمكن الوليد بفضل السلام الذي انتشرت ألويته بين ربوع بلاده من إعادة عهد الفتوح التي تمت في عهد من سبقه من الخلفاء، فاتسعت رقعة أملاكه في المشرق والمغرب. وقد اشتهر في عهد الوليد ثلاثة من القواد كان لهم أثر عظيم في هذه الفتوح: هم قتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفي، وموسى بن نصير.

---

(١) الضعيف الرأي.

(٢) مروج الذهب حـ ٣ ص ١٢٦.

وأما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج خراسان سنة٧٦ هـ فخرج إلى بلخ ـ وكانت أول جهة قصدها ـ فتلقاه دهاقينها وعظماؤها وساروا معه. ولما عبر نهر جيحون قابله ملك الصغانيان وأهدى إليه كثيراً من الهدايا وسلم إليه بلاده. وفي سنة ٨٧ هـ، غزا قتيبة بيكند[١] حيث أغار على الصغد وقاتلهم قتالاً شديداً فانهزموا وتفرقوا، ثم طلبوا من قتيبة الصلح، فصالحهم وولى عليهم والياً من قبله، غير أن أهل بيكند انتهزوا فرصة غياب قتيبة وغدروا بعامله وقتلوه، فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة، وغنم منها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو. وفي ربيع سنة ٨٨ هـ استخلف قتيبة على مرو أخاه بشار بن مسلم، وواصل فتوحاته، فكان النصر حليفه في بلاد كرمينية[٢]، ثم سار إلى بخارى وفتحها بعد أن لقي عناءً كبيراً واضطر أهلها إلى مصالحته.

ولم تكن الإصلاحات التي قام بها قتيبة بعد أن تم فتح بخارى مقصورة على الشؤون المدنية، بل تعدتها إلى الجيش، وكانت روح العصبية التي أملت على العرب أن يستأثروا بحقوقهم كاملة باعتبارهم طبقة محاربة، قد قللت إلى حد بعيد من عدد الفرس في الجيوش الإسلامية، وكانت جيوش خراسان في ذلك الوقت تتألف على الوجه الآتي: من أهل البصرة والعالية من المقاتلة ٩,٠٠٠، ومن بكر ٧,٠٠، ومن تميم ١٠,٠٠٠، ومن عبد القيس ٤,٠٠٠، ومن الأزد ١٠,٠٠٠، ومن الكوفة ٧,٠٠٠. ولم يكن مع هؤلاء الـ ٤٧,٠٠٠ عربي سوى ٧,٠٠٠ من الموالي بقيادة حيان النبطي، وكان من الديلم، وقيل من خراسان، وإنما قيل له نبطي للكنتة[٣].

على أن قتيبة ألزم أهالي بخارى، بعد أن فتحها لأول مرة، كما ألزم غيرها من أهالي البلاد المفتوحة أن يمدوه بقوة إضافية من الجيوش المحلية، تتراوح عادة بين ١٠,٠٠٠، ٢٠,٠٠٠ رجل يقومون بالخدمة مع الجيوش العربية. يقول جب[٤]: «ولا يبعد، إذا كان ما ذكرناه حقاً، أن يكون سعيد بن عثمان هو الذي سن هذه السنة بعد أن قام بفتح سمرقند؛ وكما لا يبعد أن يكون ذلك النظام قد عمل به في أماكن أخرى شملتها الفتوح العربية، لتكون هذه الجيوش على أهبة الاستعداد لتلبية نداء قوادهم إذادعت الحاجة إلى ذلك، وهذا يعلل السرعة التي بها فتح سمرقند على يد قتيبة بن مسلم».

---

(١) بكسر الباء وفتح الكاف وسكون النون وهي بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى. وقد خربت قبل ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ

(٢) بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الميم بعدها ياء مثناة من تحت ساكنة فنون مكسورة وياء أخرى مفتوحة غير مشددة، هي بلدة من نواحي الصغد بين سمرقند وبخارى.

(٣) ابن الأثير جـ ٥ ص ٦.

(٤) Gibb. P 40.

وبينما كان قتيبة مشتغلاً بتنظيم بخارى سير أخاه عبد الرحمن على رأس قوة صغيرة من كش ونسف لتأخذ من طرخون ملك الصغد ما كان قد صالحه قتيبة عليه في العام الماضي، ولقي هذا القائد نجاحاً ملحوظاً في هذه السبيل، وأعاد إلى طرخون الرهائن، ورجع إلى أخيه قتيبة ببخارى حيث عاد إلى مرو لقضاء الشتاء فيها(١).

(وفي سنة ٩٣ هـ فتح قتيبة مدن خوارزم صلحاً) ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد، واستخلف عليها عبد الله بن مسلم ثم عاد إلى مرو. وبفتح سمرقند وطد قتيبة مركزه في بلاد ما وراء النهر. ولكن فتح هذه المدينة ليس معناه، كما يقول (جب) (ص ٤٧ ـ ٤٨)، فتح بلاد الصغد، وإنما كان كل ما قام به العرب أنهم أقاموا حامية عربية في بلد يضمر لهم العداء، وقد رأى قواد سمرقند من العرب من الواجب عليهم أن يمدوا نفوذهم تدريجياً على إقليم الصُّغْد بإرسال الحملات والغارات إليه. وبذلك كان هناك اختلاف جوهري بين فتح بخارى وفتح سمرقند: فالفتح الأول كان نتيجة سلسلة حملات نضبت فيها موارد البلاد التي ضمت إلى حوزة العرب شيئاً فشيئاً، وأصبح جميع السكان رعايا العرب، وغدوا تحت إشرافهم المستمر. أما فتح سمرقند فإن العرب قد استولوا عليها أثر معركة واحدة حاسمة.

ولكن الصغد لم تذعن جميعاً لحكم العرب، وإنما اعترفت بسيادتهم اعترافاً ظاهرياً. وقد عانت هذه البلاد كثيراً من المحن من جراء الغارات المستمرة، حتى أن أحد شعراء ذلك العصر قد أمدنا بصورة حية عن ثروتها التي تبددت وأراضيها التي أصبحت قفراً مجدبة حيث يقول:

كل يوم يحوي قتيبة نهباً ... ويزيد الأموال مالاً جديدا
باهِلِيٌّ قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كن سوداء
دوخ الصغد بالكتاب حتى ... ترك الصغد بالعراء قعودا
فوليدٌ يبكي لفقد أبيه ... وأب موجع يبكي الوليدا(٢)

قد يتوقع البعض أن الغرض الذي كان يرمي إليه قتيبة بعد فتح سمرقند أن يوطد السيادة العربية في الصغد كما فعل في بخارى من قبل. ولكننا نراه يقرر مد حدود الدولة العربية في أواسط آسيا، وبعبر نهر جيحون ميمماً شطر بخارى حيث التقى بجيش مؤلف من ٢٠,٠٠٠ مقاتل من خوارزم وبخارى وكش ونسف(٣)، ثم يسير في العام التالي إلى فرغانة(٤)، حيث

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه حـ ٤ ص ٢٣٦.
(٣) البلادري: فتوح البلدان ص ٤٣٧، الطبري جـ ٨ ص ٨٩
(٤) إقليم متاخم لبلاد تركستان ومن مدنه خجندة.

استأنف منها السير حتى بلغ خجندة[1] حيث لقي مقاومة تذكر، ولكنه أحرز نصراً مبيناً. ثم انصرف إلى كاشان حاضرة فرغانة، ففتحها وعاد إلى مرو. وفي أثناء إقامته بها أتاه كتاب الوليد ابن عبد الملك، وقد جاء فيه: (قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك. فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأني أنظر إلى بلائك والثغر الذي أنت فيه)[2].

وكان من أثر فتح بلاد ما وراء النهر أن دخل الإسلام فيها. ذلك أن قتيبة لما وصل إلى سمرقند وجد فيها كثيراً من الأصنام، وكان عبادها يعتقدون أن كل من اعتدى عليها مات لساعته. على أن هذا الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التي أثارتها تلك الخرافات، ولم يحجم عن إحراق الأصنام.

يقول ابن الأثير (٤ : ٢٣٥): (وأتى بالأصنام فكانت كالقصر العظيم، وأخذ ما عليها وأمر بها فأخرجت، فجاءه غوزك فقال: إن شكرك عليّ واجب لا تتعرض لهذه الأصنام، فإن منها أصناماً من أحرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، فدعا بالنار فكبر ثم أشعلها فاحترقت).

وكان تحول الناس في هذه البلاد إلى الإسلام برغم هذا ضئيلاً في مستهل تاريخ تقدم الفتوح الإسلامية في أواسط آسيا. ويظهر أن أهالي هذه البلاد طالما تظاهروا بانتحالهم الإسلام إلى حين، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح: ولم يصب العرب النجاح المطلوب في إرغام الأهلين على اعتناق دين الفاتحين، حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة، فحمل أهلها على اعتناق الإسلام. ولقي الذين أسلموا من أهالي هذه البلاد مقاومة عنيفة من مواطنيهم، حتى أن كل مسلم اضطر أن يحمل سلاحاً أنى سار ليحافظ على حياته. ولم يجرؤ المسلمون على الظهور في المساجد أو الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدي السلاح، على حين لم يكن بد من أن تقام الجواسيس لمرافقة الحديثي العهد بالإسلام. وكذلك بذل الفاتحون جهوداً كبيرة لجذب الناس إلى هذا الدين، بل لقد حاول تأليفهم بالمال لحضور صلاة الجمعة بالمساجد، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلاً من العربية، حتى يستطيعوا جميعاً أن يفهموه في سهولة ويسر[3].

ب ـ محاولة فتح بلاد الصين روي عن الرسول أنه قال: «اطلبوا العلم ولو في الصين»[4]. ومع أنه ليس لدينا شاهد تاريخي يدل على أن هذا الكلام قد جاء على لسان

(١) بضم الخاء وفتح الجيم هي مدينة مشهورة على نهر سيحون بينها وبين سمرقند نحو عشرة أيام.

(٢) الطبري جـ ٨ ص ٩١ ـ ٩٦. ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٠٧. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٢٤٣.

(٤) كنز العمال جـ ٥ ص ٢٠٢.

الرسول، فليس من المستحيل أن يكون قد عرف اسم هذه البلاد، لأن الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمن طويل. فكانت حاصلات الشرق التي تتلقاها بلاد الشام وموانىء البحر الأبيض تمر بنسبة هائلة عن طريق بلاد العرب. وفي القرن السادس الميلادي كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان. وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبلاد فارس وبلاد العرب هي السوق الرئيسية للتجار الصينيين. وقد ورد ذكر العرب لأول مرة في التواريخ الصينية في ذلك الوقت الذي ابتدأ فيه حكم دولة تانج T'ang (٦١٨ ـ ٩٠٧ م). وتشير هذه التواريخ إلى نشأة القومية الإسلامية في مدنهم، كما تتحدث بإيجاز عن التعاليم الدينية للعقيدة الجديدة.

وعندما توفي يزدجرد آخر ملوك آل ساسان في فارس، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب الغزاة. غير أن امبراطور الصين أجاب بأن بلاد الفرس من بعد الشقة وطول المسافة بحيث لا يستطيع أن يرسل إليه الجيوش المطلوبة. ولكن قيل إنه بعث إلى البلاط العربي سفيراً يدافع عن قضية الأمير الهارب. ومن المحتمل أيضاً أن يكون الامبراطور قد أوصى سفيره بأن يتبين مدى الاتساع والقوة في الدولة الجديدة التي كانت قد نشأت في بلاد العرب. وقيل إن عثمان بن عفان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصيني في عودته فأكرم الامبراطور وفادة أول سفير من المسلمين بعث إليه[1].

وفي عهد الوليد بن عبد الملك نجد القائد العربي المشهور قتيبة بن مسلم لا يكتفي بما فتحه من بلاد ما وراء النهر، بل يمضي قدماً في سنة ٩٦ هـ إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف. وبينما هو في طريقه إليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك، فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو، بل تابع سيره حتى قرب من الصين، فأرسل إلى ملكها وفداً برياسة هبيرة بن المشمرج الكلابي. وبعد أن دارت بينه وبينهم عدة مراسلات قال ملك الصين موجهاً كلامه إليهم: (انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه). فقال له هبيرة: (كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه). فأجابه ملك الصين: فما الذي يرضي صاحبك؟ فقال هبيرة: (إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية) فقال الملك: فإننا نخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها[2]. ثم دعا

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٣٣٣.
(٢) الطبري جـ ٨ ص ١٠٠ ـ ١٠١.

بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ثم عاد إلى مرو.

وتذكر التواريخ الصينية أن هشام بن عبد الملك أرسل سفيراً يدعى سليمان إلى الأمبراطور هزوان تسنج Hswan T'sang. وقد اكتسبت هذه العلاقات السياسية التي قامت بين الدولتين العربية والصينية أهمية جديدة في أواخر عهد هذا الامبراطور حين طرده أحد الغاصبين عن عرشه، فتنحى عنه لابنه سوتسنج Su Tsung، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، فأرسل إليه قوة من الجيوش العربية التي ساعدته على استرداد ملكه، ولم ترجع هذه القوة العربية إلى بلادها بل تزوجت من أهلها واستقرت في الصين[1].

جـ - فتح بلاد السند: ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد. فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة. ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد من ناحية الشمال الغربي، واستمر ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي، واستقر بعضهم فيها، وكونوا ممالك كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية.

يقول البلاذري (ص ٤٣٨): ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان سنة خمس عشرة للهجرة، فوجه أخاه الحكم إلى البحرين، ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى تانة. فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك، فكتب إليه عمر: يا أخا ثقيف! حملت دوداً على عود، وإني أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم. ووجه عثمان بن أبي العاص الحكم أيضاً إلى بروص، ووجه أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى خور الديبل على الساحل الغربي لبلاد الهند، ويعرف الآن باسم كراتشي، فلقي العدو فظفر به.

فلما ولي عثمان بن عفان الخلافة، ولى عبد الله بن عامر العراق، وأمره أن يوجه إلى الهند رجلاً يستطلع أخبارها، ويصفها له، فوجه حكيم بن جبلة العبدي، فلما رجع وصفها له، ولم يغز هذه البلاد أحد حتى سنة ٣٩ هـ حين وجه علي بن أبي طالب إليها حملة بقيادة الحارث ابن مرة، فغنم كثيراً من الغنائم والأسرى، ثم قتل سنة ٤٢ هـ بأرض القيقان من بلاد السند مما يلي خراسان.

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان غزا المهلب بن أبي صفرة بلاد سنة ٤٤ هـ. وامتدت فتوحه إلى الأراضي الواقعة بين كابل والملتان، ثم امتدت فتوح المسلمين في هذه البلاد

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ترجمة ٣٣٢ - ٣٣٣.

فشملت القوقان والقيقان والديبل.

ولما ولي الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) الخلافة عهد الحجاج بن يوسف الثقفي إلى محمد بن القاسم في غزو بلاد الهند، فسار إليها سنة ٨٩ هـ، وحاصر ثغر الديبل وفتحه عنوة وبنى به مسجداً، ثم سار إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالاً حسناً وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح.

واصل محمد بن القاسم فتوحه في هذه البلاد حتى بلغ نهر السند، وكان يعرف إذ ذاك باسم نهر مهران. وهنا التقى بداهر ملك السند، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة، فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه. وذكر المدائني أن الذي قتله رجل من بني كلاب[1].

بذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه في كافة أرجاء بلاد السند، ثم تابع هذه الفتوحات حتى وصل إلى الملتان ودخلها. على أن مؤن المسلمين نفذت وكادوا يهلكون جوعاً وعطشاً، حتى اضطروا إلى أكل الدواب. وقتل محمد بن القاسم سدنة البد، وفي مكان عبادته، ويشبه كنائس النصارى وبيع اليهود. ويقول البلاذري (ص ٤٤٥): (وكان بد الملتان بداً تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور، ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنماً فيه هو أيوب النبي ﷺ). والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنجاب. قال ياقوت: (وبه صنم يعظمه الهند، وتحج إليه من أقصى بلدانها، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم، وسمي المولتان بهذا الصنم، وقد ألبس جميع بدنه جلداً يشبه السختيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه. وعيناه جوهرتان وعلى رأسه إكليل ذهب، وهو متربع على ذلك السرير، وقد مد ذراعيه على ركبتيه، ويسمي العرب المولتان فرج بيت الذهب، لأنها فتحت في أول الإسلام، وكان بها ضيق وقحط، فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا به».

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩ ـ ١٠١ هـ) كتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، ووعد بأن يقرهم على ما بأيديهم، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. (وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم حَليشة بن داهر والملوك وتسموا بأسماء العرب)، وغزا عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر بن عبد العزيز بعض بلاد الهند. وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) خرج المسلمون عن بلاد الهند، ثم ولي الحكم بن عوانة الكلبي، وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة، فلم ير المسلمون ملجأ يلجأون إليه، فبنى من

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤

وراء البحيرة مما يلي الهند مدينة سماها (المحفوظة) وجعلها مأوى لهم ومعاداً ومصرها)[1].

ولما قامت الدولة العباسية فتح المسلمون في عهد أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) بلاد قشمير والملتان، وكانت قد انتقضت، وهدموا البد وبنوا في موضعه مسجداً.

(د ـ فتح بلاد الأندلس)

١ ـ **حالة الأندلس قبل الفتح**: ظلت أسبانيا تحت حكم الرومان إلى أن أغارت عليها قبائل الوندال في القرن الخامس الميلادي. ومن ذلك الوقت أطلق على هذه البلاد فاندلوسيا أي بلد الوندال، فأطلق عليها العرب بلاد الأندلس، كما يطلقون عليها اسم الجزيرة.

وفي أوائل القرن السادس الميلادي (٥٠٧) أغار على أسبانيا قبائل القوط الغربيين وطردوا الوندال إلى إفريقية وكونوا لهم دولة قوية في أسبانيا، غير أن أمرهم ما لبث أن ضعف وسرت فيهم روح التخاذل، فقسم الأشراف ورجال الدين البلاد إلى إقطاعات كبيرة وسكنوا القصور الفخمة، وانصرفوا إلى اللهو وماتت فيهم حمية آبائهم الشجعان، وتركوا الصناعة والزراعة في أيدي الأرقاء الذين كانوا يعيشون في ذل وضعة كما أثقلوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب.

وقد اتبع رجال الدين ـ الذين كانوا يشيدون بالأخوة المسيحية بعد أن أثروا وملكوا الضياع الواسعة ـ السياسة الموروثة وعاملوا عبيدهم وخولهم بالعسف كما كان يفعل أثرياء الرومان وأغنياء القوط من بعدهم. (وقد كسب رجال الدين ـ كما يقول سير توماس أرنولد[2] ـ لطائفتهم نفوذاً راجحاً في شؤون الدولة. وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين في المجالس الوطنية التي كانت تجتمع لإقرار الشؤون الهامة في الدولة والمصادقة على انتخاب الملك، وادعت لنفسها الحق في عزله إذاأبى الإذعان لقراراتهم، واتخذ القسس من وراء هذه القوة التي وصلوا إليها سبيلاً لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة العدد في أسبانيا. وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول في المسيحية)، وحاول اليهود إشعال الثورة مراراً لما نزل بهم من الضيق والعسف، ولكنهم أخفقوا في محاولاتهم ونهبت ديارهم واضطر كثير منهم إلى اعتناق المسيحية.

وكانت الطبقة الدنيا تشمل العبيد الذين انصرفوا إلى زراعتها. أما الطبقة الوسطى فقد كانت تلاقي من ضنك العيش شراً مما كان يلاقيه العبيد، فكان يقع عليهم عبء الإنفاق على الدولة، فهم الذين يؤدون الضرائب ويجمعون الأموال للأغنياء مما جر إلى خراب هذه الطبقة

---

(١) البلاذري ٤٤٦ ـ ٤٤٩.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ١٥٤ ـ ١٥٥.

وإفلاسها[١]. هذا إلى ما أصاب أسبانيا من بؤس وشقاء؛ فقد قيل إن الوباء تفشى في سني ٨٨، ٨٩، ٩٠ هـ حتى مات أكثر من نصف سكانها.

تلك هي حال بلاد الأندلس في الوقت الذي كان أهل شمالي إفريقية يتمتعون بحكم العرب وينعمون بعدلهم. فلا عجب إذا تمنى الأسبان، وبخاصة اليهود والعبيد، الخلاص من نير الحكم القوطي الجائر، ولا يأبهون لتغلب حاكم على حاكم. وقد تولى العرش وتيكا الذي يسميه العرب «غيطشة»، ولكنه لم يلبث أن عزل في نهاية سنة ٧٠٩ م.

وصل العرب في أوائل القرن الثامن الميلادي إلى سواحل المحيط الأطلسي بإفريقية، ورأوا مضيق هرقل، ورنوا بأبصارهم إلى ولايات أسبانيا المشرقة. وكان قد مضى على حكم القوط الجائر لهذه البلاد زهاء قرنين. وحاول العرب في النصف الثاني من القرن الأول الهجري غزو أسبانيا من ناحية إفريقية، فأغاروا على السواحل الأسبانية في عهد الملك فمبا Vampa (٦٧٢ - ٦٨٠ م) القوطي وقد خلفه في الحكم الملك إرفنج. وفي عهده سن تشريع خاص لاضطهاد اليهود. ثم اعتلى أجيسا Egica العرش من بعده. وفي أيامه دبر يهود أسبانيا (٦٩٤ م) مؤامرة واسعة النطاق لقلب النظام السياسي في أسبانيا بمساعدة العرب الذين استولوا على شمالي إفريقية. ولما اكتشفت هذه المؤامرة شرعت عدة قوانين لحمل اليهود على التنصر واستعباد من لم يعتنق المسيحية منهم. غير أن هذه السياسة كانت بعيدة عن الصواب.

وجلس على العرش من بعده أخيلا Achila في أوائل سنة ٧٠١ م، ثم عزل في ربيع هذه السنة على أيدي نبلاء القوط ورجال الكهنوت الذين ولوا مكانه قائد الجيش القوطي رودريك[٢] (ويسميه العرب لذريق وزذريك، وهو آخر ملوك الدولة القوطية في أسبانيا. ولكن هذا الملك ما لبث أن أغرق في الشهوات حتى نفرت منه القلوب، وظهر في عهده حزب قوي بزعامة أخيلا الذي حاول استرداد عرشه وحزب آخر ناصر الملك).

تقلد موسى بن نصير مولى عبد العزيز بن مروان إفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ، فخرج من مصر على رأس جيش قاصداً إفريقية. فلما بلغها ضم إليه جيشاً آخر جعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد. ثم أخذ موسى يقاتل البربر ويبسط نفوذ الأمويين وينشر الإسلام في أرجاء بلاد المغرب حتى بلغ طنجة، وكانت قصبة بلادهم وأم مدائنهم، فحاصرها حتى فتحت وأسلم أهلها وقلد طارقاً ولايتها[٣].

بهذا تمكن موسى وطارق من فتح بلاد المغرب كلها، ولم يقف في طريقه غير قلاع سبتة

---

(١) Dozy, The Moslems in Spain, P. 231.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٨.

(٣) لينبول: العرب في أسبانيا، ترجمة علي الجارم ص ٥ - ٦، ٨.

الحصينة على مجاز الزقاق. وكانت سبتة ـ كما يقول لينبول[١] ـ كغيرها من بلاد جنوبي بحر الروم تحت حكم امبراطور الروم. غير أنها لبعدها عن القسطنطينية كانت تتوجه إلى مملكة أسبانيا بطلب المعونة، فهي تابعة للروم من حيث الحكم، مضافة في الحقيقة إلى ملك طليطلة لحمايتها والدفاع عنها. على أن معاونة أسبانيا لها لم تكن كافية لصد تيار العرب الفاتحين الذين امتدت فتوحهم من بلاد الصين شرقاً إلى أعمدة هرقل غرباً، أي إلى سواحل المحيط الأطلسي. على أنه حدث فوق هذا أن قام الشقاق بين الكونت جوليان حاكم سبتة من قبل القوط ولذريق ملك أسبانيا، وفتح هذا الشقاق الباب واسعاً لدخول العرب وذلل سبيل الفتح للغزاة.

٢ ـ **الفتح العربي**: تحالف الكونت جوليان مع حزب أخيلا للتخلص من لذريق لما كان يضمره له من العداء بسبب سوء مسلكه مع ابنيه[٢]، وانضم إلى المؤتمرين وعول على الانتقام لنفسه، ووجد في جيوش البربر والعرب في شمالي إفريقية خير من يقوم على تحقيق أغراضه وإرواء أحقاده. زار جوليان موسى بن نصير وأخبره أن الحرب بينهما قد انتهت، وكلمه في غزو الأندلس ووصف له حسنها وفضلها، وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وغزارة المياه وعذوبتها، وهون عليه مع ذلك حال رجالها، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء. فشوق موسى إلى ما هنالك وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه جوليان، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين، واستظهر عليه بأن سامه (كلفه) مكاشفة أهل ملته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشن الغارة فيها. ففعل جوليان ذلك وجمع جمعاً من أهل عمله، فدخل بهم في مركبين وحل بساحل الجزيرة الخضراء، فأغار وقتل وسبى وغزا، وأقام بها أياماً، ثم رجع بمن معه سالمين، وشاع الخبر عند المسلمين، فأنسوا لجوليان واطمأنوا إليه، وكان ذلك عقب سنة تسعين[٣].

لم ير موسى بدأ من الرجوع إلى الخليفة الوليد الذي تردد أول الأمر، ثم أمره أن يرتاد الطريق حتى يتحقق أن جوليان لم يرد التغرير بالمسلمين، فأرسل طريف بن مالك، وكان من البربر وإليه تنسب جزيرة طريف على المجاز، في سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) على رأس خمسمائة مقاتل منهم أربعمائة راجل ومائة فارس جاز بهم البحر في أربع من سفن جوليان، وغزا بعض ثغور الأندلس الجنوبية بمساعدة جوليان وعاد محملاً بالغنائم، بعد أن اقتنع بانعدام وسائل الدفاع في أسبانيا.

---

(١) العرب في أسبانيا، ترجمة علي الجارم ص ٤

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٩ Bradly, The Goths, P 358

(٣) المقري. نفح الطيب جـ ١ ص ١١٩ ـ ٢٢٠.

وقد شجع نجاح طريف في هذه الغزوة موسى بن نصير على فتح أسبانيا، فندب لهذا الأمر الخطير مولاه طارق بن زياد قائد جيشه وحاكم طنجة. وقيل إنه اختاره ليرتاد الطريق كطريف.

كان طارق أحد الموالي الذين كان لهم شأن في الفتوح الإسلامية. ومن عجب أن يختلف المؤرخون وأصحاب السير في نسب قائد فذ وفاتح مشهور مثله. فيذكر بعضهم أنه بربري الأصل ينتمي إلى نفزاوة من بربر إفريقية، وهي البلاد التي يطلق عليها اسم تونس الآن، وفي رواية أخرى أنه ينتمي إلى قبيلة زناتة. ويرى بعض آخر أنه من موالي الفرس من مدينة همذان، وقيل إن اسمه طارق بن عمرو وليس طارق بن زياد. ولكن مما لا شك فيه أنه كان مولى لموسى بن نصير، وأن موسى وثق به فقربه إليه وأمره على بعض الجيوش، وجعله في مقدمة جيشه الذي قاتل به البربر وفتح بلادهم وولاه طنجة كما تقدم. ثم ندبه لفتح أسبانيا لأنه توسم فيه صدق العزيمة وقوة الشكيمة وشدة البأس وصلابة العود، فوق ما امتاز به من حسن الكلام وقوة البيان والقدرة على التأثير في قلوب سامعيه، وما اشتهر عنه من الإخلاص في الجهاد، ورجل هذا شأنه وتلك سريرته خير من يضطلع بهذا الأمر الجليل. هذا إلى أن طارقاً كان من بربر إفريقية وأن جل جنده كانوا من البربر، فهو يستطيع إذن أن يصل إلى شغاف قلوبهم، ويؤثر في نفوسهم، ويحسن توجيههم، ويأخذ بأيديهم في طريق النصر.

وفي شهر شعبان سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) عبر طارق البحر في أربع سفن أعدها له جوليان، وسار على رأس سبعة آلاف من المسلمين، وأخذ طارق وهو على رأس سفينته يتأمل عجائب الكون وينظر إلى السماء متوجهاً إلى الله بقلبه يلتمس منه العون ويذكر الرسول الكريم وما لاقاه في سبيل نشر الدعوة من محن وآلام، إذ أخذته سنة من النوم، فرأى النبي ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فيقول له رسول الله: «يا طارق! تقدم لشأنك، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه». ثم هب طارق من نومه مستبشراً، وثابت نفسه ببشراه ولم يشك في النصر.

ألقت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد التي حملت اسم طارق إلى اليوم فسميت (جبل طارق) ونزل المسلمون في مكان يقال له البحيرة جنوبي أسبانيا. وكان الملك لذريق إذ ذاك مشغولاً بثورة أخيلا في بمبلونة شمالي أسبانيا، ولما علم بنزول العرب في أرض أسبانيا، أدرك ما يحدق ببلاده من خطر، وأغذَّ السير إلى الجنوب، وجمع جيشاً جراراً قيل إنه بلغ سبعين ألفاً، وقيل مائة ألف.

ولكن هذا الجيش الجرار المزود بكامل العدة والسلاح لم يثن عزيمة طارق أو يضعف إيمانه، بل أخذ يفتح القلاع والمدن. وقد قيل إن امرأة عجوزاً من أهل الجزيرة الخضراء وقعت

في أيدي المسلمين. فلما رأت طارقاً قالت: (إنه كان لها زوج عالم بالحدثان، فكان يحدثهم عن أمير يدخل بلادهم هذا فيتغلب عليه ويصف من نعته أنه ضخم الهامة، فأنت كذلك. ومنها أن في كتفه الأيسر شامة عليها شعر، فإن كانت فيك فأنت هو، فكشف ثوبه إذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت، فاستبشر بذلك ومن معه)(١).

بعث طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد حتى يستطيع الوقوف أمام جيش لذريق، فأمده بخمسة آلاف، فبلغ عدد جنده اثني عشر ألفاً. وقد ثارت مخاوف المسلمين حين علموا بدنو جيش لذريق، ولكن طارقاً لم يزد إلا حماسة واستبسالاً، فقام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه، وألقى عليهم خطبته الخالدة التي حثهم فيها على الجهاد والتذرع بالصبر، ومناهم الأماني الطيبة، وبشرهم بما سيفتحون من بلاد ويصيبون من غنائم وينعمون في دنياهم وآخرتهم فقال:

«أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذه الطاغية.. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس. أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً... وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان (الذهب)، المقصورات في قصور الملك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً... ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم. واعلموا أني مجيب لما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله»(٢).

ولما أصبح الصباح أقبل لذريق وهو على سريره محمولاً على دابتين، وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، تحف به البنود والأعلام، وبين يديه جنده الكثيف من العبيد والمستضعفين الذين ينقصهم النظام والإخلاص. وأقبل طارق في بساطته يحف به أصحابه

---

(١) المقري نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٩. (٢) المقري جـ ١ ص ١١٣ - ١١٤

الذين عمر الإخلاص قلوبهم، وعليهم الزرد، ومن فوق رؤوسهم العمائم، وبأيديهم القسي العربية، وقد امتشقوا السيوف وتقلدوا الرماح.

التقى طارق بجيش لذريق على مقربة من نهر وادي لكة، ويسميه العرب وادي بكة، ويصب في المضيق عند رأس الطرف الأغر، وأخذ طارق وجنده يحملون على العدو حتى تم له النصر. ثم هجم طارق على لذريق فضربه بسيفه فقتله، وقيل إنه جرح، فرمى بنفسه في وادي لكّه فغرق. وحمل النهر جثته إلى المحيط، ولا تزال نهايته سراً إلى اليوم، وحلت الهزيمة بجنده وتشتت شمله وتفرق أيدي سبأ.

ومما ساعد على انتصار جيش طارق انحياز أبناء غيطشة وأنصارهم إلى العرب، وكانوا ينفسون على لذريق اغتصابه العرش بعد موت أبيهم، فقد ذكر المقري أن لذريق كتب إلى أولاد غيطشة يحثهم على الانضمام إليه لحرب العرب ويحذرهم من القعود عن نصرته، وقال بعضهم لبعض: (إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله، وإنما كان من أتباعنا، فلسنا نعدم من سيرته خبالاً في أمرنا، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا، وإنما مرادهم أن يمثلوا أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنا، فهلموا فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه. فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه). وقيل لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق، وأرسلوا إلى طارق يسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم، وأن يسلم إليهم إذا ظفر، ضياع والدهم بالأندلس كلها، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة، وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك. كما استطاع جوليان أن يستميل إليه كثيراً من جند لذريق، مما رجح كفة العرب ومزق شمل جيش لذريق. وقد قيل إن طارقاً ضربه بسيفه فقتله[١].

يقول ستانلي لينبول[٢]: إن انتصار المسلمين في وادي لكة ألقى بأسبانيا كلها في يدي المسلمين. ولم يكن طارق بحاجة إلا إلى قليل من الجهد ليقضي على المقاومة الضئيلة في بعض المدن، بل إن الإسبان (كانوا ـ كما يقول المقري ـ يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً).

كتب طارق إلى موسى بن نصير يخبره بما أحرزه من نصر وما استولى عليه من غنائم، فدبت الغيرة إلى نفسه، وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس، وأن يكون له نصيب في الغنائم. فكتب إلى طارق يأمره ألا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف ابنه عبد الله على القيروان، وخرج في سنة ٩٣ هـ في عسكر ضخم بصحبة حبيب بن مندة الفهري.

---

(١) المقري. نفح الطيب حـ ١ ص ١١٧، ١٢١ ـ ١٢٢. Dozy, p 232 et seq.

(٢) العرب في أسبانيا، ترجمة ص ٢١

وقد رأى طارق بعد أن استشار رؤساء جيشه، أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر ويعطي القوط فرصة يلمون فيها شعثهم ويوحدون كلمتهم؛ فأخذ يزحف على مدن أسبانيا، وقسم جنده ثلاث فرق أو كتائب بثها في شبه الجزيرة: فأرسل مغيث بن الحارث على رأس سبعمائة فارس إلى قرطبة (وقيل إن الذي سار إلى قرطبة هو طارق نفسه)، وكان معظم أهلها قد رحلوا إلى طليطلة التي كانت حاضرة دولتهم وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس.

وقد دلهم راعي غنم على ثغرة في سور قرطبة العالي الحصين، وأعانت الطبيعة المسلمين على أعدائهم في تلك الليلة فانهمر المطر وسقط الجليد، فلم يسمع وقع حوافر الخيل. وعبر المسلمون نهر قرطبة وباغتوا حراس المدينة الذين انزووا هرباً من المطر والبرد، وتسلقوا السور وباغتوا الحراس وقتلوا نفراً منهم، وفتحوا باب الحصن واستولوا على المدينة عنوة؛ وتحصن أميرها بكنيسة غربي المدينة ثلاثة أشهر حتى ضاق ذرعاً وأرغم على الهرب. فطارده مغيث وقبض عليه ثم جمع يهود قرطبة وأقرهم فيها مع طائفة من الجند[1].

وكان لليهود أثر يذكر فيما فتحه العرب من المدن. وأضف إلى ذلك ما استولى على نفوس الأسبان من خوف وفزع. وهذا يعلل لنا مبلغ السهولة التي ساعدت العرب على فتح كورة رية وفتح أكبر مدائنها مالقة، ثم كورة ألبيرة حيث غرناطة التي أنزلوا فيها اليهود. ثم فتحت مدينة أريولة أبوابها للعرب، وتبعتها طليطلة حاضرة مملكة القوط، وكان أهلها قد اعتصموا بمدينة خلف الجبل، وأنزل المسلمون اليهود في طليطلة وخلفوا معهم فريقاً من الجند لحمايتها. وكان ذلك سنة كدأبهم في كل مدينة يفتحونها ثم طاردوا أهل طليطلة المنهزمين، فسلكوا وادي الحارة حتى بلغوا مدينة المائدة وما زالوا يتبعون جند الأسبان المنهزمين أمامهم إلى أن وصلوا إلى جليقية في الشمال الغربي من الأندلس.

أما موسى بن نصير فإنه لما دخل الأندلس على رأس جيش كثيف يتألف من العرب والبربر، فتح مدينة قرمونة، وكانت أحصن مدن هذه البلاد، ثم مضى إلى إشبيلية، وكانت من أعظم مدن الأندلس شأناً وأفخمها بناء وأكثرها آثاراً، وكانت حاضرة أسبانيا، حتى غلب عليها القوط فاتخذوا طليطلة حاضرة لدولتهم كما تقدم. ولكن هذه المدينة امتنعت على موسى الذي أرغم على حصارها عدة أشهر حتى تم له فتحها. ثم أخذ يفتح البلاد حتى بلغ مدينة ماردة التي اتخذها بعض ملوك أسبانية حاضرة لهم. وقد امتازت بقصورها ومصانعها وكنائسها، وقد استعصت على المسلمين حتى فتحوها في يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ. ولكن أهلها لم يلبثوا أن انقضوا على المسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً، فوجه إليهم موسى بن نصير ابنه

(١) المقري. نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٥

عبد العزيز ففتحها من جديد.

امتدت فتوح موسى إلى برشلونة شرقاً وأربونا في الجوف وقادس في الجنوب الغربي وجليقية في الشمال الغربي. ثم التقى موسى بطارق في مكان من كورة طلبيرة، فحط شأنه وأظهر ما في نفسه من حقد وموجدة عليه لمخالفته أمره، بل ضربه بالسوط ووبخه على استبداده برأيه وطالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها ثم سجنه[1].

غير أن طارقاً استطاع وهو في سجنه أن يبث شكواه إلى الخليفة الوليد، فكتب إلى موسى بإطلاقه ورده إلى عمله. ثم سار موسى وطارق لفتح شمالي أسبانيا، ففتحا أقاليم أرغونة وقشتالة وقطلونية، كما استوليا على سرقطسة وبرشلونة، واستمرا في السير حتى بلغا جبال البرانس. وتم بذلك فتح أسبانيا عدا الأقاليم الجبلية في الشمال الغربي التي التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم.

ولم تقف أطماع موسى عند حد جبال البرانس، بل عزم على مواصلة الفتوح في جنوب بلاد فرنسا الحالية، على أن يتجه شرقاً حتى يصل إلى القسطنطينية التي عجز العرب عن فتحها، ثم يستمر في فتوحه حتى يلحق بحاضرة الخلافة وبذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية. ولما بلغ الخليفة الوليد ذلك أمره بالكفّ عن التوسع واستدعاه هو وطارقاً، لأنه لم يرض أن يعرض المسلمين للخطر، ولأنه كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد إذا تم له فتحها، وكتب إلى موسى أن يعدل عن تنفيذ هذه الخطة الجريئة. فرحل إلى دمشق سنة ٩٦ هـ بعد أن ولى ابنه عبد العزيز بن موسى عليها، وولى ابنه عبد الله على إفريقية. وقبل وصول موسى إلى دمشق مرض الوليد مرض الموت فطلب أخوه سليمان، وكان الوليد قد ولاه عهده، إلى موسى أن يبطىء في السير حتى يموت الوليد طمعاً في الحصول على الغنائم والتحف التي كان يحملها هذا القائد. غير أن موسى لم يعمل بهذا الرأي فحقد عليه سليمان كما سيأتي. أما طارق فقد انتهت حياته في غموض كما بدأت في غموض. وكل ما ذكره المؤرخون أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره.

خلف عبد العزيز بن موسى بن نصير أباه في ولاية الأندلس كما تقدم، فنظم الحكومة، وألف مجلساً خاصاً لاستنباط الأحكام الشرعية التي تتفق وحالة السكان وعني بالزراعة ونظم الطرق، ورفع عن الأسبان مظالم القوط؛ فخفف الضرائب التي أثقلت كاهلهم وساوى فيها بين طبقات الأمة من غير تمييز في الدين والجنس. كما أمن الآهلين على دينهم وأموالهم وأنفسهم وحريتهم، وشجع العرب على الاختلاط والتصاهر معهم، وتزوج هو بأرملة لذريق التي بقيت على دينها.

---

(١) المقري جـ ١ ص ١٢٥، ١٢٧ - ١٢٨.

وكان من أثر مغالاة عبد العزيز بن موسى في إرضاء المسيحيين، أن نقم عليه بعض أعدائه ووشوا به عند الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي كان يخاف خروجه عليه انتقاماً لأبيه، فأثار جند الأندلس وأوغر صدورهم عليه فقتلوه بعد أن حكم هذه البلاد سنتين[١].

وبعد أن قتل عبد العزيز بن موسى أقام الجند قائدهم أبا أيوب بن حبيب الفهري ابن أخت موسى بن نصير والياً على الأندلس، فأخذ يطوف البلاد وينشر العدل في أرجائها، غير أن مدة ولايته لم تطل، فقد عزل لعدم موافقة والي إفريقية على تعيينه، وكان لهذا الوالي حق تعيين الأمراء على بلاد الأندلس، فخلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٧ هـ، وبقي في ولايته سنتين وثمانية أشهر[٢].

٣ - أثر فتح الأندلس: غير الفتح الإسلامي حال أهل الأندلس بوجه عام. فقد زال الحكم القوطي وآثاره عن تلك البلاد، ولم يبق للقوط شوكة، إلا فريقاً اعتصم في جبال جليقية في الشمال الغربي، وقد آلت ممالكهم وأموالهم إلى العرب الفاتحين، وأبقى العرب على بعض الذين أعانوهم من الحكام القدماء، فأعيد جوليان إلى حكم سبتة كما كان، وردت إلى أبناء غيطشة أموالهم وضياعهم الكثيرة[٣].

أما اليهود فقد ذاقوا الذل والهوان في حكم القوط، فقد سمح لهم العرب بمزاولة التجارة، وأمنوا على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وسمحوا لهم بحرية الملكية، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة فنبغوا ونبهوا[٤].

وأحسن العرب معاملة الذين حل بهم البؤس والشقاء قديماً، فنالوا في عهد العرب كثيراً من الحقوق المدنية، فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج. وكان هم العرب منصرفاً إلى توطيد السلام بين الأجناس المختلفة، فانقاد الأسبان لحكمها لما وجدوا فيه التسامح الذي كانوا ينشدونه.

وقد دان بالإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابت، متحولين إليه من دنياهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها وانصرفوا إلى مطامع الدنيا فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم. (أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئاً. وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو

---

(١) المقري نفح الطيب حـ ١ ص ١١٠

(٢) المقريزي حـ ٢ ص ٦٩٥ - ٦٩٦

(٣) المصدر نفسه حـ ١ ص ١٢٦ - ١٢٧

(٤) المقري حـ ١ ص ٢٨٠ - ٢٨١. أرنولد الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ١٥٥

الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد)[١].

٤ ـ **حروب العرب فيما وراء البرانس:** لم يحقق موسى بن نصير فكرته الجريئة التي كانت تهدف إلى فتح جنوبي أوروبا، فلم تتعد فتوح العرب جبال البرانس، إلى أن ولى عمر بن عبد العزيز، السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ـ ١٠٢ هـ) بلاد الأندلس، فجدد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس، وزحف على مقاطعتي سبتمانيا وبروفانس، ثم أغار على أكيتانيا، وكانت مقاطعة مستقلة جنوبي نهر اللوار، وحاصر تولوز (طلوشة)، فقابله بودو دوق أكيتانيا بجيش كبير، ونشبت بين الفريقين معركة عظيمة قتل فيها السمح وأكثر رجاله، فتولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي قيادة الجند، فانسحب بفلول جيشه إلى مدينة نربونة.

وقد أدخل السمح كثيراً من ضروب الإصلاح، فخمس الأراضي التي فتحت عنوة (بأمر عمر بن عبد العزيز) وبنى قنطرة قرطبة.

وفي سنة ١٠٣ هـ تولى على بلاد الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي من قبل والي إفريقية، فعاد إلى غزو بلاد غالة واستولى على سبتمانيا، ووصل إلى حوض الرون، وتوغل في إقليم برغندية حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها. ولكنه قتل أثناء عودته (١٠٧ هـ)، فاضطر العرب إلى التقهقر إلى نربونة ثانية، ووقف تيار الفتح أربع سنين بسبب قيام الاضطرابات الداخلية في الأندلس؛ إلى أن تولى حكم هذه البلاد عبد الرحمن الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية في عهد هشام بن عبد الملك، فوطد النظام في أرجاء البلاد، وأصلح ما أصاب الجيش والإدارة من خلل، ثم تفرغ للقتال في بلاد غالة، فخرج في ثمانية آلاف رجل واستولى على دوقية أكيتانيا.

وقد استعان دوق أكيتانيا بالفرنجة، فجمع شارل مارتل جيشاً ضخماً لقي به العرب على مقربة من بواتييه حيث دارت بينهم الموقعة المشهورة بموقعة تور، في الموضع المعروف ببلاط الشهداء، وتعرف هذه الغزوة بغزوة البلاط كما عرفت غزوة السمح بن مالك من قبل[٢]. وكانت الغنائم التي غنمها المسلمون في أكيتانيا من الكثرة بحيث خشي عبد الرحمن أن تشغل الجند وتعطل حركات الجيش. وبعد مناوشات دارت ثمانية أيام دارت رحى القتال إلى أن غابت الشمس. وفي اليوم التالي هجم المسلمون على العدو وكاد النصر يتم لهم، لولا ما أشيع من أن العدو استولى على ما خلفوه من غنائم. فأسرع الجند لحمايتها ووقع الاضطراب في صفوفهم وأصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته، فتفرقت كلمة المسلمين، واختلف رؤساء الجند

---

(١) أرنولد الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ١٥٧، ١٥٩

(٢) المقري نفح الطيب جـ ٢ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٦

واصطروا إلى الانسحاب في ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون، ولم يتعقب شارل مارتل فلول جيش المسلمين خشية أن يكون انسحابهم تدبيراً للإيقاع بهم.

وتعتبر موقعة تور من المواقع الحاسمة في التاريخ، إذ لو تم النصر للعرب لوقعت أوروبا في أيديهم وانتشر الإسلام فيها، ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة، بل أخذوا يتراجعون إلى بلاد الأندلس، حتى أنه لم يبق لهم فيما وراء البرنس إلا مقاطعة سبتمانيا، ولم تكن حروبهم بعد ذلك إلا غارات لا أهمية لها.

وكان من أثر ما أحرزه شارل مارتل من انتصار على العرب أن ذاع صيته ولقبه الفرنجة شارل مارتل أي شارل المطرقة.

٥ ـ **الأندلس في أواخر العصر الأموي**: على أن العصبية القبلية لم تلبث أن ظهرت بين العرب في الأندلس، بين الشاميين والبلديين (وهم عرب الحجاز)، وبين البربر والعرب، بل بين العرب أنفسهم من يمنية ومضرية، وأصبح بعض المسلمين يستعين بالفرنجة على إخوانهم في الدين، ورأى الفرنجة تغلب المسلمين على بلاد الأندلس، فهالهم هذا الأمر وعملوا على مناوأتهم وإخراجهم من البلاد. وخشي الفرنجة توغل العرب في بلادهم، فاجتمعوا إلى ملكهم (قارلة) (هو شارل مارتل). . . فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أوتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لها، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع. ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر[1].

ولا غرو فقد قام النزاع بين العرب والبربر. وما كاد شر البربر يزول من الأندلس، حتى قام النزاع بين المضرية واليمنية: فقد تولى أبو الخطار بلاد الأندلس سنة ١٢٥ هـ، فقام في وجهه الصميل بن حاتم ـ وكان مضرياً ـ وخلعه وأسره وولى عليهم واحداً منهم (١٢٧ هـ). ولكن هذا الوالي الجديد، أو الثائر بعبارة أدق، توفي بعد سنتين (فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار وامتنعت مضر ورأسهم الصميل وافترقت الكلمة، فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير. . . فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري، فوليها يوسف وكان (مضرياً) سنة تسع وعشرين (ومائة)، فاستقر الأمر على أن يلي سنة

---

(١) المقري نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٠

ثم يرد الأمر إلى اليمن فيولون من أحبوا من قومهم. فلما انقضت السنة أقبل أهل اليمن بأسرهم يريدون أن يولوا رجلاً منهم، فهم الصميل فقتل منهم خلقاً كثيراً. . . واجتمع الناس على يوسف ولم يعترضه أحد. . . وبقي يوسف على الأندلس إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام[١].

٧ - سليمان بن عبد الملك
(٩٦ - ٩٩/ ٧١٥ - ٧١٧)

Gener ı'

اتسعت رقعة الدولة الأموية في الشرق والغرب في عهد الوليد بن عبد الملك كما تقدم. أما في عهد سليمان فإنه لم يكن هناك من فتح غير بلاد جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب أمير بلاد المشرق وحصار القسطنطينية.

١ - فتح القسطنطينية:

وكان الوليد قد شرع في إرسال حملة للاستيلاء على القسطنطينية، ولكنه توفي قبل مسير هذه الحملة. فلما ولي سليمان الخلافة، أنفذ هذه الحملة ورابط في مرج دابق على بعد أربعة فراسخ من حلب[٢]. وقد دافع أنستيساس الثاني امبراطور الروم عن حاضرة ملكه بكل ما أوتي من قوة، وأرسل إلى الثغور حملة لتحول دون وصول الأقوات والمؤن إلى جند المسلمين، ولكنها أخفقت، وانضم إلى جيش المسلمين في آسيا الصغرى ليو الأزوري البيزنطي، وكان يطمع في الملك، واتحد مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان أمير هذه الحملة. ومن ثم أخذ المسلمون يستولون على بلاد آسيا الصغرى مدينة تلو مدينة حتى عبروا البحر ووصلوا إلى أسوار القسطنطينية، وتبعهم أسطول المسلمين من الثغور الشامية والمصرية، واشترك في حصار حاضرة البيزنطيين.

غير أن ليو خرج على صفوف المسلمين وأعلن نفسه امبراطوراً بدلاً من انستيساس الذي كان مكروهاً من الأهلين. واشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر، وهاجمها أسطولهم، فعمل ليو على استدراج سفن المسلمين، ففتكت بها النار الإغريقية ونفذت أقواتهم، فتحملوا آلام الجوع والمرض حتى فني جلهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم، وعادت الحملة تجر ذيل الخيبة، كما أخفقت الحملة التي سبقتها في عهد معاوية.

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٩٨ - ١٩٩. المقري جـ ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) والمرج كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة في ثغر المصيصة، وبه قبر سليمان بن عبد الملك.

٢ ـ تنكيله بولاة أخيه الوليد ـ وفاته:

هذا إلى ما كان من إيثار بعض ولاة سليمان وعماله عن النيل من البعض الآخر. ومن هؤلاء محمد بن القاسم في الهند، وقتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر، وموسى بن نصير في الأندلس، وأسرة الحجاج في العراق.

كان سليمان بن عبد الملك يبغض الحجاج وأهله وولاته، حتى أن الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان، وذلك لما كان من إجابة الوليد إلى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز. فلما ولي سليمان الخلافة وولى يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند، أخذ محمد بن القاسم ابن أخت الحجاج وقيده وحمله إلى العراق. وكا حمد محبوباً من أهالي السند لحسن سيرته فيهم، حتى إنهم بكوا عليه حين فارقهم، ولما وصل محمد إلى العراق حبس في واسط، ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن وقتله. وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة الذي نسي بلاءه وعظيم أعماله.

وحقد سليمان بن عبد الملك كذلك على قتيبة بن مسلم الباهلي لأنه كان ممن وافق الوليد على عزله من ولاية العهد، وأما موسى بن نصير فقد تعجل الذهاب إلى الخليفة الوليد قبيل وفاته ومعه الأموال والغنائم، ولم يصغ إلى طلب سليمان إياه التريث حتى يموت الوليد ويؤول إليه غنائم الأندلس. ومن هذا ترى أن سليمان كان مدفوعاً في حقده على أولئك الرجال بعوامل شخصية، ومن ثم لم يكن من سبيل إلى نبوغ القواد وإخلاص قلوبهم لخلفائهم بعد أن رأوا أن إخلاصهم كان وبالاً عليهم.

لم يعمر سليمان في الخلافة أكثر من سنتين. وقد اشتهر بالفصاحة بعكس أخيه الوليد وكان فوق ذلك نهماً مغرماً بالطعام والنساء. وقد دب الترف والبذخ في البلاط في عهد سليمان، وتسرب إليه الفساد، فأكثر من الخصيان، وتعددت هذه الرذائل إلى الولاة والأمراء. وقد قيل عن وفاته إنه لبس يوماً حلة وعمامة خضراء ونظر في المرآة وقال: أنا الملك الفتي فنظرت إليه جارية من جواريه وقالت:

أنت نِعمَ المتاع لو كنت تبقى   غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسان
ليس فيما علمته فيك عيبٌ   كان في الناس غير أنك فان

ولم يمض أسبوع واحد على ذلك حتى مات.

٨ ـ عمر بن عبد العزيز
(٩٩ ـ ١٠١ هـ)

١ ـ عمر منذ ولد إلى أن ولي الخلافة :

يعد عمر بن عبد العزيز من أحسن خلفاء بني أمية سيرة، وأنقاهم سريرة، وأنزههم يداً، وأعفهم لساناً، وأسبقهم إلى نشر الإسلام وإعلاء كلمة الدين. وقد أصبح حكمه غرة في جبين ذلك العصر الذي تلطخ بالاستبداد وسفك الدماء، حتى لقد شبه المسلمون خلافته بخلافة جده عمر بن الخطاب في عدله وزهده.

ولد عمر بن عبد العزيز في مدينة حلوان التي اتخذها أبوه عبد العزيز بن مروان دار الإمارة ونقل إليها الدواوين وطالت أيامه في مصر حتى أربت على العشرين سنة (٦٥ ـ ٨٦)، وتغنى المؤرخون والشعراء بأعمال البر والإحسان والكرم التي قام بها هذا الأمير كما تقدم.

في هذه البيئة المترفة وفي ذلك النعيم المقيم، ولد عمر بن عبد العزيز من أبوين كريمين، ولا عجب في ذلك: فأبوه ذلك الأمير السمح الكريم الذي اشتهر بالورع والتقوى وعكف على مجالسة الصحابة ورواة الحديث والاستماع إلى الشعر والأدب، حتى كان مجلسه ندوة للفقهاء وللعلماء والأدباء. وأمه أم عاصم بنت عمر بن الخطاب، وكانت لينة الجانب رضية الخلق على جانب عظيم من الورع والتقوى.

حفظ عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير، ثم أرسله أبوه إلى المدينة لطلب العلم، فتفقه في الدين وروى الحديث وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر، وبلغ من علو كعبه واستبحاره في العلم أن قيل: (كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة).

ظل عمر بالمدينة حتى مات أبوه وآلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، فبعث في طلب ابن أخيه وزوجه من ابنته فاطمة. وأقام عمر بدمشق حتى ولي الوليد الخلافة سنة ٨٦ هـ، فعرف لعمر صلاحه وكفايته، فولاه المدينة في تلك السنة، فبقي بها سبع سنين، كان فيها مثالاً يحتذى في الورع والتقوى، حتى أنه روي عن أنس بن مالك أنه قال: (ما صليت وراء إمام بعد رسول الله أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى، يعني عمر بن عبد العزيز، وهو أمير على المدينة).

على أن عمر كان برغم هذا كله متأثراً بجاهه وطيب أرومته، حتى لقد أخذ عليه البعض أنه كان في صباه يبالغ في تنعمه ويختال في مشيته. ولعل ذلك كان راجعاً إلى أنه كان لا يزال حينذاك في ميعة الصبا وشرخ الشباب. حتى إذا تقدمت به السن وأثقلت أعباء الإمارة والخلافة كاهله زهد في الدنيا وزينتها.

نعم! إن هذا التنعم لم يله هذا الشاب المترف عن التمسك بأهداب الدين وما يتطلبه ذلك التمسك من الوفاء بالعهد والميثاق. فقد أراد الخليفة الوليد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد وأن يبايع ابنه، وأطاعه كثير من الأشراف رغبة أو رهبة. ولكن عمر أبى أن يخلع رجلاً له في عنقه بيعة، ولم يخش في الحق لومة لائم ولا سخط خليفة ولا خشية عذاب أو موت حين قال للخليفة: (في أعناقنا بيعة)، وأصر على موقفه، فانقلب عليه الوليد حتى مالت عنقه وأشرف على الهلاك، لولا أن بعضهم شفع فيه، فأطلقه الخليفة واكتفى بعزله عن المدينة[١].

ثم دارت الأيام دورتها، وآلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، فلم ينس ذلك الموقف الرائع الذي وقفه منه عمر حتى كاد أن يضحي بحياته في سبيل الوفاء بعهده. فإن سليمان لما مرض مرض الموت أراد أن يبايع أحد أولاده، فنهاه السدي وكان أحد خاصته، وقال له: يا أمير المؤمنين! إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستحفظ على الناس رجلاً صالحاً، فقال سليمان: استخير الله وأفعل، ثم استشاره في عمر بن عبد العزيز، فأثنى عليه خيراً وأشار بتوليته العهد (الفخري ص ١١٧).

ولم يتردد سليمان في تولية عمر عهده، مدفوعاً بذلك الموقف الذي وقفه منه عمر وما آنسه فيه من حسن الخلق وكريم السجايا. فكتب عهده، وختمه بدير سمعان من أعمال حمص[٢]، ودعا أهل بيته وقال لهم: (بايعت لمن عهدت إليه في هذا الكتاب)، ولم يعلمهم به فبايعوا. ولما مات سليمان جمعهم السدي وكتم موته عنهم وقال لهم: بايعوا مرة أخرى. ولما رأى أنه قد أحكم الأمر أعلمهم بموت سليمان، فبايعوا عمر بن عبد العزيز، ولم يتخلف عن بيته إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك.

ضربت عمر دابة في جبهته وهو غلام، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك لسعيد. وقد أثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: من ولدي رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلاً[٣]. وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بالعدل حتى قيل: الأشج والناقص أعدلا بني مروان: أما الناقص فهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك، لقب بذلك لأنه نقص من أعطيات أهل الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الفخري ص ١٢٢).

٢ - خلافة عمر:

ولما ولي عمر الخلافة جاءه سالم السدي فقال له عمر: أسرك ما وليت أم ساءك فقال: سرني للناس وساءني لك. قال له عمر: إني أخاف أن تكون قد أوبقت (أهلكت) نفسي. قال

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٧.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٥٢.

السدي: ما أحسن حالك إن كنت تخاف وإني أخاف عليك ألا تخاف، قال عمر: عظني! فقال السدي: أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة(١).

ولما بويع عمر بالخلافة وقرئ كتاب العهد باسمه قال: والله إن هذا الأمر ما سألته الله قط. ولما قدم إليه مركب الخليفة أبى وقال: ائتوني ببغلتي. فلما جاء أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها قال: ابعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريدون، واجعل أثمانها في مال الله، تكفيني بغلتي هذه الشهباء(٢).

ولما فرغ عمر من تشييع جنازة سليمان وعاد إلى داره قال له مولاه: ما لي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه ولا طالبه مني، ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ألا وإني لست بقاض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً. وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

بذلك كان عمر أشبه بجده عمر بن الخطاب في زهده وتقشفه، وإيمانه بالله وتمسكه بكتابه وسنة رسوله.

٣ - إصلاحات عمر:

أدخل عمر بن عبد العزيز كثيراً من الإصلاحات، ولكن هذه الإصلاحات كانت في الواقع في مصلحة الإسلام أكثر منها في مصلحة بيت المال. فقد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين وبخاصة الموالي من الفرس، ومن السهل أن نتنبأ بنتائج هذه السياسة الجديدة التي كان من أثرها أن زاد إقبال الناس على الإسلام. ولتحاشي ذلك الخطر اشترط بعض الولاة الختان وحفظ شيء من القرآن. ومن ثم كان لزاماً العودة إلى فرض الجزية كما كانت من قبل أو ضياع ثمار ما فتحه المسلمون من البلاد.

وقد نقص إيراد بيت المال نقصاً محسوساً ورأى بعض الولاة عندما نقصت جزية الرءوس على أثر ازدياد دخول الناس في الإسلام أن يرفع الجزية عمن أسلم، فأبى عمر أن يجيب هؤلاء الولاة إلى ما طلبوه، مدفوعاً في ذلك بشدة إيمانه، وحرصه على إعلاء كلمة الدين يدل على ذلك جواب عمر على كتاب واليه على مصر وقد شكا إليه أن الإسلام أضر بالجزية واستأذنه في أن يفرضها على من أسلم، فكتب إليه عمر كتابه الخالد الذي يقول فيه: (فضع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمد ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمر أشقى

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٥٣

من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام عن يديه).

ولا غرو فقد قام عمر بن عبد العزيز بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة الإسلامية، وقدم لأهالي البلاد التي فتحها العرب كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام، حتى أنه كان يمنحهم هبات من المال. وقد قيل إنه أعطى قائداً نصرانياً ألف دينار تألفه بها على الإسلام، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام. وقد قيل إن الجراح بن عبد الله عامله على خراسان أدخل في الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص، كما قيل إن عمر كتب إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه إلى الدخول في الإسلام[١].

بل لقد كان من أثر دعوة عمر بن عبد العزيز الناس إلى الإسلام أن أدخل في هذا الدين كثيراً من أهالي بلاد ما وراء النهر[٢]، كما استجاب كثير من أمراء السند لدعوة عمر الذي أرسل إلى إسماعيل بن عبد الله حين ولاه بلاد المغرب عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في أمور دينهم. وقد أظهر هذا الوالي الجديد نشاطاً ملحوظاً في دعوة البربر إلى قبول الإسلام بحيث لم يبق واحد منهم لم يدخل في هذا الدين[٣].

ويبلغ من تسامح عمر ورعايته لأهل الذمة وما ذاع عن زهده وورعه وتقشفه أن أحد كتاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم الرسول وإلى أسماء الخلفاء الأول كلما عرض لذكرهم، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[٤].

كان من سياسة عمر أن يجنح إلى المسالمة، ويرى أنها كفيلة بحل المشكلات وجمع الشمل وتوحيد الكلمة، فإن الخوارج لما خرجوا في عهده لم يشأ أن يسلك معهم سبيل العنف والشدة كما فعل عمه عبد الملك بن مروان من قبل، بل إن أخلاقه الكريمة وحبه للمسلم قد أبت عليه إلا أن يقارعهم بالحجة. وقد نجح في إقناع الرسل الذين أرسلهم إليه زعيم الخوارج، ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر فلم يجن ثمار ما زرع[٥].

وكان عمر في غاية النسك والصلاح والتواضع، حتى أنه لم يكن للشعراء نصيب في بلاطه الذي امتلأ بأهل التقوى والزهد وصرف عمال من كان قبله من بني أمية (واستعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، وترك لعن علي عليه السلام على المنابر)[٦]، وكان بنو أمية

---

(١) ابن سعد كتاب الطبقات جـ ٥ ص ٢٥٨. أرنولد الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٧٦.

(٢) البلاذري. فتوح البلدان ص ٤٤١

(٣) أرنولد: ص ٣٥١ نقلاً عن Fournel Les Berbères, p. 270.

(٤) أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦٦.

(٥) راجع ما ذكرناه عن سياسة عمر بن عبد العزيز مع الخوارج في الباب السادس

(٦) المسعودي مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨

يسبونه. ولا عجب فقد سار عمر سيرة أبيه عبد العزيز في مصر، فقد أثر عنه أنه كان (إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، تتعتع). فلما قال له (ابنه) عمر: لم فعلت ذلك؟ قال: يا بني! اعلم أن العوام لو عرفوا عن علي بن أبي طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا إلى ولده. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قطع السب وجعل مكانه قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (الفخري ص ١٧٧).

وقد بلغ من زهد عمر أنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة. روي أنه قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم ير مثله: اختاري؛ إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وهو في بيت واحد، فقالت: لا بل أنا أختارك عليه وعلى أضعافه. فأمر به حتى وضع في بيت مال المسلمين. فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لأخته فاطمة: إن شئت رددته إليك، قالت: لا والله لا أطيب به نفساً في حياته وأرجع فيه بعد موته.

وكان يشتري لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها. فلما أتته الخلافة كان يشتري له قميص بعشرة دراهم، فإذا لبسه استلانه.

كان عهد عمر بن عبد العزيز، برغم قصره من أحسن عهود الخلفاء، حتى أن بعض المؤرخين عده متمماً لعهد الخلفاء الراشدين بل لعهد أبي بكر وعمر، فقالوا: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر، وعمر، وعمر بن عبد العزيز.

ولو أن خلافة عمر التي لم تزد عن سنتين وخمسة أشهر قد طالت، لفتح صفحة رائعة مجيدة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الدولة الأموية. ومات هذا الخليفة في شهر رجب من سنة ١٠١ هـ. ولا عجب إذا نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبد العزيز الذي ظل معظماً يغشاه كثير من الناس كما ذكر المسعودي المتوفى سنة هـ.

٩ - يزيد بن عبد الملك
(١٠١ - ١٠٥/ ٧٢٠ - ٧٢٤ م)

ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة في شهر رجب سنة ١٠١ هـ. وبعد توليته الخلافة أعلن شوذب الخارجي الحرب على الأمويين، وهزمهم في عدة وقعات، إلى أن ولى مسلمة بن عبد الملك الكوفة من قبل يزيد، فأرسل إلى شوذب سعيد بن عمرو الحريشي في جيش كثيف، فدارت الدائرة على شوذب ومن معه من الخوارج، ولم يفلت منهم إلا القليل.

وفي أيام يزيد خرج يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. وقد فر من سجن عمر بن

عبد العزيز، فسار إلى البصرة وأسر واليها، ثم واصل السير إلى الكوفة، فانضم إليه الأزد، كما انحاز إليه أهله وخاصته، فعظم أمره واشتدت شوكته، فبعث إليه يزيد أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد في جيش عظيم. ولما التقى الجيشان اقتتلوا قتالاً شديداً، فولى أصحاب يزيد عنه، فقتل في المعركة.

اشتهر يزيد بن عبد الملك باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء. قيل إنه شغف بجاريتين إحداهما تسمى: سلامة والأخرى حبابة (بضم الحاء)، وقد غنت حبابة يوماً ليزيد:

بين التراقي واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال: أريد أن أطير! فقالت له حبابة: فعلى من تدعو الأمة؟ قال: عليك، وقبل يدها؛ فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك!.

فانظر إلى هذا وإلى أبيه عبد الملك حين خرج إلى قتال مصعب بن الزبير وصدته زوجه عاتكة، فلم يلتفت إليها واستشهد بقول كثير عزة:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حصان[1] عليها در نظم يزينها
نهته فلما لم تر النهي نافعاً بكت فبكى مما شجاها قطينها[2]

ذكر المسعودي[3] أن أبا حمزة الخارجي كان إذا ذكر بني مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال: أقعد حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره، ثم قال: أريد أن أطير، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه.

ولما اعتلت حبابة أقام يزيد أياماً لا يظهر للناس. فلما ماتت مكث معها أياماً لا يدفنها جزعاً عليها. فقال له بعض خاصته: إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك، فدفنها وأقام بعدها أياماً قلائل ومات.

في أيام يزيد ظهرت النفرة بينه وبين أخيه هشام لما كان من سوء سورة يزيد. ولما بلغه أن أخاه هشام ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه لهوه كتب إليه: أما بعد! فقد بلغني استثقالك حياتي واستبطاؤك موتي، ولعمري إنك بعدي لواهي الجناح أجذم الكف[4]، وما استوجبت منك ما بلغني عنك. فأجابه هشام: أما بعد! فإن أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم، يوشك أن يقدح ذلك في فساد ذات البين وتقطع الأرحام. وأمير المؤمنين

(١) امرأة حصان: (بفتح الحاء) أي عفيفة.
(٢) القطين: من يسكن مع الإنسان والمراد بها حاشيتها وخدمها.
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧٥: الفخري ص ١١٨ - ١١٩.
(٤) أجذم الكف: مقطوع الكف.

بفضله وما جعله الله أهلاً له، أولى أن يتعهد ذنوب أهل الذنوب. فأما أنا فمعاذ الله أن أستثقل حياتك أو أستبطىء وفاتك؛ فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك. فاحفظ وصية عبد الملك إيانا وقوله لنا في ترك التباغي والتخاذل، وما أمر به من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء، فهو خير لك وأملك بك... فلما أتى الكتاب هشاماً ارتحل إليه، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعاية حتى مات يزيد[١].

١٠ - هشام بن عبد الملك
(١٠٥ - ١٢٥ / ٧٢٤ - ٧٤٣)

ولي هشام بن عبد الملك الخلافة في شهر شعبان سنة ١٠٥ هـ في اليوم الذي مات فيه أخوه يزيد، وبقي في الخلافة إلى أن توفي بالرصافة من أرض قنسرين في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ بعد أن مكث في الخلافة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأياماً.

وقد بادر الخلفاء بعد موت عمر بن عبد العزيز إلى فرض ضرائب فادحة لسد النقص الذي جرته سياسة عمر إزاء الموالي وإعفائهم من الجزية. فقد فاجأ هشام الموالي بضريبة خراجية لا قبل لهم باحتمالها، فسار الحارث بن سريج وحارب الأمويين، وكان يزعم أنه المهدي الذي أرسله الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين. بل انضم إليه في ثورته هذه أنصار من العرب، وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على ضفاف نهر سيحون.

ولما تولى أسد بن عبد الله القسري هذه البلاد بعد عاصم بن عبد الله، استرد من الحارث البلاد التي استولى عليها من الأمويين، واضطره إلى الانسحاب إلى طخارستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر حيث انضم إلى الأتراك ضد العرب.

وفي سنة ١٢٠ هـ ولى هشام بن عبد الملك نصر بن سيار خراسان، وكان أكثر الموالين للعرش الأموي كفاية، فاستطاع أن يوطد دعائم الحكم الأموي في بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣ هـ[٢].

وفي عهد هشام خرج زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي على ما سيأتي في الباب السادس.

كان هشام غزير العقل حليماً عفيفاً؛ اشتهر بالتدبير وحسن السياسة، حتى قيل إن السواس من بني أمية ثلاثة: «معاوية وعبد الملك وهشام». وكان أبو جعفر المنصور يقتدي

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧٩.
(٢) كتاب السياسة العربية، ترجمة المؤلف ص ٦١ - ٦٣.

بهشام في أكثر أموره، وفي سياسته وتدبيره شؤون الدولة.

ومن إصلاحات هشام اهتمامه بتعمير الأرض وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك في طريق مكة، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي العباسي. وفي أيامه ظهرت صناعة الخز والقطيفة، وكان هشام كلفاً بالخيل، وهو أول من أقام لها الحلبات من الخلفاء كما عني بعدد الحرب ولامتها.

ومما يؤخذ على هشام إمعانه في الانتقام من العلويين والتنكيل بهم، كلما أمكنته الفرصة. ناهيك بما فعله يزيد ويحيى ابني علي بن الحسين بن علي. هذا إلى ما عرف عنه من الغلظة وخشونة الطبع وشدة البخل. ومما يدل على بخله أن رجلاً أهدى إليه طائرين فأعجب بهما، فقال له الرجل: أين جائزتي يا أمير المؤمنين؟ فقال له هشام: وما جائزة طائرين؟ قال: ما شاء أمير المؤمنين. قال: خذ أحدهما، فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه فقال له: وتختار أيضاً؟ قال: نعم! والله أختار، فقال: دعه، وأمر له بدريهمات. ودخل هشام بستاناً له ومعه ندماؤه فطافوا به، وبه كل الثمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين، فقال هشام: وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه! ثم نادى حارسه فقال له: اقلع شجره واغرس فيه زيتوناً حتى لا يأكل منه أحد شيئاً[1].

١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك
(١٢٥ - ٧٤٣)

بويع الوليد بن يزيد في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ في اليوم الذي توفي فيه هشام، وبقي في الخلافة سنة وشهرين وأياماً إلى أن قتل بقرية من قرى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ.

اشتهر الوليد باللهو والخلاعة والمجون، وكان شاعراً مجيداً، له أشعار حسنة في العتاب والغزل ووصف الخمر.

كان السبب في قتل الوليد أنه كان قبل أن يلي الخلافة من سوء السيرة وانتهاك حرمات الله عز وجل. فلما أفضت إليه الخلافة لم يزدد إلا انهماكاً في اللذات واستهتاراً بالمعاصي، وإغضاب أكابر أهل بيته والإساءة إليهم. فاجتمعوا عليه مع غيرهم من رجالات دولته وهجموا عليه. فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال: يوم كيوم عثمان بن عفان، ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد وقتله.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥

١٢ ـ مروان بن محمد
(١٢٧ ـ ١٣٢/ ٧٤٤ ـ ٧٤٩)

ولي يزيد بن الوليد الخلافة بـدمشق في جمادى الآخـرة سنة ١٢٦ هـ، وتـوفي في ذي الحجة من هذه السنة بعد أن بقي في الخلافة خمسة أشهر، وقام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم ابن الوليد، فلم يمكث في الخلافة أكثر من شهرين.

وكان يزيد بن الوليد أحول، يظهر التنسـك، وقد سمي النـاقص لأنه نقص أرزاق بعض الجند وخاصة جند الحجاز كما تقدم. وكان يميل إلى تعاليم المعتزلة. وفي عهده أخذ حبـل أمية في الاضطراب. ولما مات بويع أخوه إبراهيم بيعة لم تأت بطائل، (فكـان ناس يسلمـون عليه بالخلافة وناس بالإمارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما). ولم يلبث مروان بن محمد أن سار إليه وخلعه. وهرب إبراهيم من دمشق فظفر به مروان فقتله وصلبه وقتل من مالأه، ومن بينهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خـالد القسـري، عند ذلـك اشتعلت نار العصبيـة بين النزارية أو المضـرية وبين القحـطانية أو اليمنيـة، وتحزبت القبـائل وثـارت العصبية في البـدو والحضر، وتعصب مروان بن محمد لنزار على اليمن وانصـرفت اليمن عنه ومـالوا إلى الـدولة العباسية[١].

بويع مروان بدمشق في شهر صفر سنة ١٢٧ هـ، وكان يلقب بالحمار، لأنه كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه؛ فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكايد الحرب. ولقب الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم من أصحاب المقالات في الاعتزال، وكان يكنى أبا عبد الملك، واشتهر بالشجاعة والدهاء والمكر.

ولما ولي الخلافة ثارت الفتن والقلاقل فنشطت الشيعة في بث دعوتها التي قضت على البيت الأموي، وظهرت عقيدة المهدي التي كان لها أثر كبير في سقوط الدولة الأموية.

سقـوط الدولة الأموية وأسبابه

١ ـ تولية العهد اثنين:

من الأسبـاب التي أضعفت البيت الأموي وآذنت بـذهاب ريحـه توليـة العهد اثنين يلي أحدهما الآخر، فقد لقي هـذا بذور الشقـاق والمنافسـة بين أفراد ذلـك البيت وأورثهم الحقد والبغضاء، ولا غرو فإنه لم يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على إقصاء الثاني من ولاية العهد

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٣. الفخري ص ١٢٣

وإحلال أحد أبنائه مكانه، مما أوغر صدور بعضهم على بعض. ولم يقتصر النزاع بين أفراد هذا البيت بل تعداهم إلى القواد والعمال. فإنه لم يكد يتم الأمر لثانيهما حتى ينكل بمن ظاهر خصمه وساعده على إقصائه من ولاية العهد.

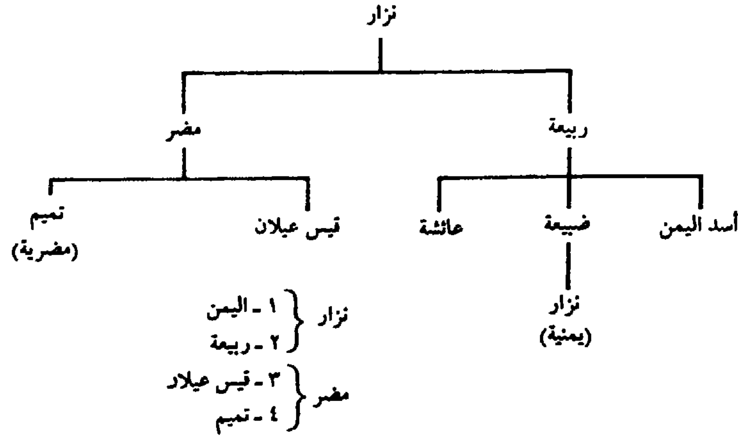
وأول من سن هذه السنة مروان بن الحكم، فقد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولم يأبه بما كان في مؤتمر الجابية حيث بايعوا عبد الملك ثم خالد بن يزيد وعمرو ابن سعيد بن العاص. وكان من أثر ذلك أن خرج عمرو بن سعيد على عبد الملك.

سار عبد الملك على سنة أبيه مروان، فقد فكر في خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد وتولية ابنيه الوليد ثم سليمان، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون ما كانت تحدثه به نفسه من خلعه. ولم يمنعه ذلك من ارتكاب تلك الغلطة التي أورثت البغض والعداوة بين الأخوين، بل تعدتهما إلى القواد والعمال. فإن الوليد بن عبد الملك لما ولي الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه عبد العزيز، وكتب بذلك إلى العمال، فأجابه الحجاج ابن يوسف الثقفي والي العراق، وقتيبة بن مسلم والي خراسان، ومحمد بن القاسم والي السند. وأجزل الوليد العطاء للشعراء للإشادة بفضل عبد العزيز مما أثار روح الكراهة والبغضاء بينه وبين أخيه. فلما ولي سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد، انتقم ممن كان لهم ضلع في خلعه. وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً وأضحت خطراً على الدولة الأموية. فقد كان الخليفة ينتقم من القواد والعمال لمجرد اتهامهم بممالأة الخليفة السابق على خلعه.

هكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال والتشفي منهم، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل الوليد. على أن ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من أهل بيته، فقد أمر يزيد بن المهلب، وكان عدو الحجاج الألد، وصالح بن عبد الرحمن أن يذيقا آل الحجاج أشد صنوف العذاب. كذلك انتقم سليمان من محمد بن القاسم، ذلك القائد العظيم الذي بسط نفوذ الدولة على الهند والسند، وكذلك كان نصيب قتيبة بن مسلم الذي بسط نفوذ الدولة في بلاد ما وراء النهر.

٢ - ظهور روح العصبية:

بعث روح العصبية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية، غير أنها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر في انحلال الحزب الأموي الذي ظل حافظاً لكيانه كحزب سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذي اعترى ذلك الحزب فقد كان عمر صالحاً عادلاً، قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال



رضاه جميع العناصر الشورية، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يول والياً إلا لكفايته وعدالته، سواء أكان من كلب أو من قيس. فسكنت في عهده الفتن التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها.

فلما توفي عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر في حزب بني أمية، وكانت هذه الفتنة في الواقع نزاعاً بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن. ولما كان الخليفة من عرب الشمال لم يتورع عن خوض غمار تلك الفتنة.

وكانت هذه الفتنة سبباً في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة، فقد قتل بعضهم في الحرب، وحمل بعضهم في الأغلال إلى يزيد بن عبد الملك، فأمر بهم فقتلوا جميعاً.

وقد أخلصت أسرة المهلب في خدمة بني أمية، فأبلى هو وأبناؤه في حرب الأزارقة من الخوارج بلاءً حسناً، كما حارب أهل خراسان والخزر والترك. وخلفه أبناؤه، فكانوا مثله في النبل والشجاعة والفضل، فمدحهم الشعراء وتغنى بفضلهم الركبان، وقصدهم الشعراء وذوو الحاجات. فأجزلوا لهم العطاء ووصلوهم بالصلات الجمة، فعظم أمرهم وبعد صيتهم ونبه شأنهم، فكانوا غرة في جبين الدولة الأموية، كما كان البرامكة في دولة بني العباس. لذلك لا ندهش إذا انحاز إليهم العنصر اليمني الذي أصبح منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان حزب بني أمية، وقد زج يزيد بنفسه في تلك العصبية التي عادت سيرتها الأولى يوم مرج راهط، وأخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلف بين هذين العنصرين اللذين كانا عصب دولتهم ومصدر قوتهم، فنراهم ينضمون إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية حيناً آخر.

كان طبيعياً بعد هذه الحادثة أن يأخذ يزيد جانب القيسيين، فولى أخاه مسلمة الذي قضى على ثورة يزيد بن المهلب على المشرق، ثم ولى عمر بن هبيرة وهو قيسي. واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً لا يملك من الأمر شيئاً.

ولما توفي يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه هشام، رأى أن القيسية قد علت كلمتها وخاف ازدياد نفوذها على الدولة، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ليعيد التوازن بين العنصرين اليمني والقيسي. فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين. فولى خالد ابن عبد الله القسري على العراق وولى أخاه أسداً على خراسان. وبذلك أخذ العنصر اليمني يستعيد قوته وأخذ العنصر القيسي في الضعف، وتعصب خالد وأخوه لليمنية، فأخذوا ينتقمون من المضريين[1].

على أن هشاماً لم يتبع سياسة ثابتة بإزاء القبائل المختلفة، فإنه بعد أن انحاز إلى جانب اليمنيين لم يلبث أن تحول عنهم إلى المضريين وولى منهم العمال: فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق، ونصر بن سيار خراسان، وكذلك فعل في بلاد الأندلس.

وكان مقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمنية من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط حزب بني أمية، فإن اليمنية الذين لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب، فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله، لاتهامه بممالأة العلويين وإغداقه عليهم حتى خرج زيد بن علي زين العابدين، كما اتهم بالزندقة والإلحاد فعادت القلاقل سيرتها الأولى، وعمل اليمنية على التخلص من سيادة الأمويين.

لزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين لأن أمه كانت منهم وأقصى العنصر اليمني، فأثار هذا عوامل السخط والغضب في نفوس اليمنية عليه بعد أن قتل زعيمهم وأقصاهم من مناصب الدولة، فأخذوا يدبرون المكائد لقتله، وسخط عليه عامة الناس، فانتهز اليمنيون هذه الفرصة وثاروا عليه، وانضم إليهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي كان يظهر التنسك والتواضع، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ وبايعوا يزيد.

ولم يضع قتل الوليد حداً للنزاع الذي قام بين أفراد البيت الأموي وظهر بين العنصرين اليمني والمضري، بل ساعد على تفاقم ذلك النزاع، فإن يزيد لم يكد يعتلي عرش الخلافة حتى أخذ بسيرة أسلافه. فانضم إلى اليمنيين ولزم جانبهم، وأخذ يولي العمال منهم لأنهم ساعدوه على الوصول إلى الخلافة.

وأطلق اليمنيون يدهم في الإساءة إلى المضريين الذين ثارت ثائرتهم، فأشعلوا نار الثورة

---

(١) الطبري جـ ٨ ص ١٩٢ - ١٩٣.

في حمص، وانضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وغيره من أفراد البيت الأموي، كما ثاروا في فلسطين بزعامة يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وحذا أهل الأردن حذوهم بزعامة محمد بن عبد الملك. غير أن يزيد بن الوليد استطاع بمساعدة اليمنيين أن يتغلب على هؤلاء جميعاً، فأخضعهم وزج بزعمائهم من أهل بيته في أعماق السجون.

توفي يزيد بعد أن حكم ستة أشهر (١٢٦ هـ)، فولي الخلافة بعده أخوه إبراهيم، وكان يزيد قد عهد إليه بالخلافة التي فقدت ما كان لها من هيبة في نفوس المسلمين. ولم يلق إبراهيم الاحترام الذي كان لمن سبقه من الخلفاء، حتى كان الناس يسلمون عليه بالخلافة تارة، وبالإمارة تارة أخرى، وطوراً لا يسلمون عليه بواحدة منهما[١].

سار مروان بجنوده من الجزيرة يريد الشام مطالباً بدم الوليد بن يزيد، وتظاهر بعزمه على إعادة الخلافة إلى ابنه إبراهيم. وسرعان ما انضمت إليه القيسية لمناهضة اليمنية التي دبرت مؤامرة لقتل الوليد، فأخذ إبراهيم يحشد الجيوش لقتال مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينية. ولكن مروان كان قائداً شجاعاً حنكته الحروب مع الخزر والترك، فاستطاع أن يتغلب على جنود إبراهيم وهزمهم شر هزيمة ودخل الشام، وفر إبراهيم هو وكثير من أنصاره.

وكان مروان يريد أن تكون الخلافة في ولد الوليد، ولكن اليمنيين عمدوا إلى ابني الوليد فقتلوهما في السجن خوفاً من أن يليا الخلافة فيقتصان منهم، وشهد محمد السفياني بأنهما جعلا الخلافة من بعدهما لمروان، ثم قال السفياني لمروان: ابسط يدك أبايعك، فبايعه وتبعه أهل الشام، وبذلك أصبح مروان خليفة المسلمين (١٢٧ هـ). وفي عهده ثارت روح العصبية في جميع أنحاء الدولة الأموية وتقوض بناء البيت الأموي وأشرف على الزوال.

على أن مروان سار سيرة سلفه، فتعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد الذي قتلوه انتقاماً لخالد بن عبد الله القسري. فانتفض أهل حمص بزعامة ثابت بن نعيم، وانضم إليهم أهل تدمر برياسة الأصبغ بن ذؤالة الكلبي. غير أن مروان استطاع أن يتغلب عليهم ويهزمهم شر هزيمة، كما ثار يزيد بن خالد القسري بدمشق وانضمت إليه اليمنية، فأرسل مروان جيشاً أحل بهم الهزيمة وقتل يزيد، فخلصت له دمشق وحذت اليمنية حذوهم في فلسطين، فأرسل إليه مروان جيشاً قضى عليهم.

ولم يكد الأمر يستتب لمروان في بلاد الشام حتى خرج عليه بها سليمان بن هشام بن عبد الملك، ودعا أهلها إلى خلعه، فانضمت إليه اليمنية، فسار إليه مروان وهزمه بعد حروب طويلة، وفر سليمان إلى العراق وانضم إلى الخوارج لمناوأة مروان، كما انضم إليه عبد الله بن

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١١٥، ١١٧ ـ ١١٨، ١٢٥.

عمر بن عبد العزيز.

هذه هي حال العصبية في الشام، وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمني، وربما كان ذلك هو السبب الذي حدا مروان على عدم اتخاذها مقراً لملكه، وانتقل إلى الجزيرة حيث أقامت القيسية الذين كانوا عماد دولته.

وأما بلاد العراق فإن الحالة لم تكن فيها أحسن مما كانت عليه في بلاد الشام. فقد اشتعلت نار العصبية في هذه البلاد حتى ظهر الضحاك بن قيس الخارجي الذي استولى عليها، كما استولى فريق من الخوارج على بلاد اليمن والحجاز بقيادة المختار بن أبي عبيدة[١].

وهكذا أصبحت البلاد مرتعاً للفتن والاضطرابات، وشغل إخماد هذه الفتن مروان، فلم يلتفت إلى خراسان وما كان يجري فيها من بث الدعوة العباسية التي اشتد أمرها وعظم خطرها. ولم يلبث أن باغتته الرايات السود من خراسان، وطاردته، وقضت على جيشه، ففر إلى مصر حيث أدركه عبد الله بن علي العباسي ثم أخوه صالح بن علي الذي قتله سنة ١٣٢ هـ، ويعتبر القضاء على بني أمية قضاء على نفوذ العرب الذين كان الأمويون يعتمدون عليهم دون سواهم.

٣ ـ انغماس بعض الخلفاء في الترف:

كان لانصراف بعض خلفاء بني أمية إلى حياة البذخ والترف اللذين أخذوهما عن البلاط البيزنطي أثر كبير في سقوط دولتهم. فقد اشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو. وكان ـ كما يقول المسعودي[٢] ـ صاحب طرب وجوارح وكلاب وفهود ومنادمة على الشراب.

أما يزيد بن عبد الملك فإنه لم يكن أحسن حالاً من يزيد بن معاوية، فقد كان كما ذكر البلخي[٣] ـ صاحب لهو وقصف، شغف بحبابة واشتهر بذكرها. كذلك اشتهر ابنه الوليد باللهو والمجون، وكان شاعراً مجيداً له أشعار كثيرة في العتاب والغزل[٤].

٤ ـ تعصب الأمويين للعرب:

كانت الدولة الأموية دولة عربية لحماً ودماً، ومن ثم تعصب الأمويون للعرب والعربية، وأخذوا ينظرون إلى الموالي نظرة الاحتقار والازدراء، بما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية في الإسلام: وكان منشأ تلك الحركة اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم وأن لغتهم أرقى اللغات.

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٣١، ١٣٥.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٤.

(٣) كتاب البدء والتاريخ، وينسب إلى أبي زيد بن سهل البلخي، وهو المطهر بن طاهر المقدسي (طبعة باريس) جـ ٦ ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) الطبري جـ ٨ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

وإذا نظرنا إلى حركة الشعوبية ألفيناها حرباً سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكاً لا يقل أثراً عن اشتباك الألسنة والرماح. وترجع هذه الحركة ـ على ما يظهر ـ إلى الوقت الذي دخل فيه العرب بلاد الفرس وغيرها من بلاد الأعاجم. ولما جاء الأمويون حملوا لواء تلك الحركة طوال خلافتهم، وانحازوا إلى العرب ولم يساووا بينهم وبين الموالي، فأجمع هؤلاء أمرهم وثاروا على الأمويين في عهد عبد الملك بن مروان، فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفي ليقضي على حركاتهم.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر عماله بوضع الجزية عمن أسلم، سواء كان عربياً أم غير عربي. ولقد نجحت سياسته في حياته، ثم تبدلت الحال بعد وفاته، فعاد الأمويون يفرقون في المعاملة بين العرب والموالي.

فلا عجب إذا أثارت هذه المعاملة حنق الموالي وسخطهم على الأمويين وأخذوا يتلمسون الفرص للإيقاع بهم، فانضموا إلى المختار، ثم إلى الخوارج واشتركوا في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، كما ثاروا مع يزيد بن المهلب للقضاء على هذه الدولة. فلما نشط دعاة العباسيين انضموا إلى الدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة. وقد فطن العباسيون إلى ما كان يضمره الموالي لبني أمية ودولتهم من كراهة فاستعانوا بهم في نشر الدعوة لهم.

الباب السادس

الحركات السياسية والدينية

تمهيـــد:

امتاز هذا العصر بقيام حركات كان لها أثر بعيد في السياسة والدين، فإننا نرى الخلاف يدب بين العرب منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه، فلا تخضع أكثر القبائل لسلطان أبي بكر وترتد عن الإسلام ويمتنع بعضها عن أداء الزكاة، بل إن بعض العرب يدعون النبوة. كما شاهد هذا العصر تلك الفتنة الجامحة التي أودت بحياة عثمان بن عفان نتيجة لظهور النزعات السياسية والعصبية.

ولا غرو فقد اختلف المسلمون إثر وفاة الرسول فيمن يولونه الخلافة، وانتهى الأمر بتولية أبي بكر، وانضم كثير من العرب إلى علي، وأدى ذلك إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين: جماعية وشيعة. أما الجماعية فهم الذين رضوا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. ولما استقر الأمر لبني أمية دخلوا في طاعتهم، ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية، وأما من عداها فأحزاب ثائرة أو طوائف خارجة لم تجتمع على واحدة منها كلمة المسلمين، ولا كانت لها دولة جامعة، وإن ملك بعضها ملكاً واسعاً في حقب من التاريخ، وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي، وقرروا أنها حق لعلي بن أبي طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده.

وكذلك ظهر في أواخر عهد الخلفاء الراشدين حزب الخوارج الذي وقف مع حزب الشيعة في وجه بني أمية. واستمر النزاع بين الجماعية والخوارج والشيعة طوال العصر الأموي. كما ظهر في هذا العصر حزب الزبيريين الذي تفاقم خطره في الحجاز والعراق ومصر وكاد يقضي على نفوذ الأمويين في بلاد الشام. ولا يقل أثر المرجئة والمعتزلة في توجيه السياسة الإسلامية في ذلك العصر عن هذه الأحزاب التي أضعفت نفوذ الأمويين وساعدت على سقوط دولتهم على أيدي العباسيين وأنصارهم كما سيأتي:

١ - ردة العــرب

كانت حكومة الرسول حكومة دينية تعتمد إلى حد كبير، في سلطتها التنفيذية على عقيدة الناس في أن هذا النبي إنما يصدر في أحكامه وتصرفاته عن وحي الله وأمره. قال تعالى: ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى ﴾ [سورة النجم ٥٣ : ١ - ٥]. كما كان في حكمة الرسول وتسويته بين أبناء القبائل المختلفة، وعدم خضوعه لنزعات النفس وميلها إلى إيثار الأهل والعشيرة، واختصاصهم بالعائدة وتقديمهم على الأكفاء من غيرهم، وفي محوه العصبية والشعور القبلي، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها - كان في هذا كله ما سهل على العربي طاعته والإذعان له، وسهل على القبائل المختلفة أن تنضوي تحت لوائه وأن تدين له بالزعامة، لقد بلغ من افتتان بعض العرب بشخصية الرسول أنهم ما كانوا يستطيعون أن يصدقوا بموته.

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه وتحققوا من ذلك، شك فريق منهم في أمر هذا الدين الذي خلفه، واعتقد غيرهم أن قريشاً أو غيرها إذا وليت هذا الأمر سوف تحيله ملكاً عضوداً. فأخذوا يفكرون في موقفهم وينظرون إلى مصيرهم، فرأوا أن هذا النبي الذي كان يقوم بالسفارة عن الله عز وجل، ويبلغهم أمره ونهيه، ويتمتع بالعصمة عن الخطأ والتنزه عن الزلل، فقد فارقهم إلى ربه. وليس ثمة إنسان في العالم يتصف بهذه الصفات التي كانت الضمان الوحيد لمساواة القبائل بعضهم ببعض وجعل الناس كأسنان المشط.

فمن المحتمل إذن أن يحكم من يخلف هذا الرسول هواه وأهله وعشيرته في الناس ومصالحهم، كما لا يبعد أن يُعلي هذا المركز (الخلافة) من شأن القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة، ويغض من شأن غيرها من القبائل فيميل ميزان العدل بين الناس.

ويفسر لنا هذا تسابق القبائل والبطون عند وفاة الرسول على أن يكون الأمر لها دون غيرها، فتكشف ما في الصدور وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية إذ ذاك: فالأنصار يخافون قريشاً والمهاجرون إن استأثروا بالأمر دونهم وهم جميعاً فيما بينهم يتوجسون، وتخشى كل من الأوس والخزرج صاحبتها. ولم يكن الحال في مكة بأقل منه في المدينة، فقد دب التنافس في هذا الأمر بين بطون قريش. فلما تم الأمر لأبي بكر، وجد عليه بنو هاشم وامتنع علي عن بيعته أشهراً، وسعى أبو سفيان بن حرب في إيغار صدر علي على أبي بكر ونعت علياً والعباس (الأذلين والمستضعفين)[1].

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٠٢

ولئن كان للمهاجرين من بني هاشم وغيرهم، وللأنصار أوسهم وخزرجهم من القرابة لرسول الله أو الفضل والسبق في الإسلام، أو النصر والإيواء لدين الله والذود عنه ـ لئن كان لهؤلاء وأولئك سبب من هذه الأسباب يتذرعون به ويطمعون من أجله في الخلافة، فإن القبائل العربية الأخرى لم تجد لنفسها من السابقة في الإسلام ولا من القرابة للرسول ما تعتز به.

وقد رأت هذه القبائل المهاجرين والأنصار يتنازعون هذا الأمر فيما بينهم، فيقول المهاجرون: (منا الأمراء ومنكم الوزراء)، ويقول الأنصار: (بل منا أمير ومنكم أمير). فيئست هذه القبائل وضاع أملها في الخلافة، فأعلنت العصيان ورفض أكثرهم أن يخضعوا لسلطان أبي بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة التي ظنوها إتاوة، ولا غرو فقد كان بعضهم يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد موت زعيمهم، لأنهم كرهوا سيادة قريش الذين ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين[١] وما زال دبيب العصيان ينمو في النفوس، والتمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل، حتى كاد يتزعزع مركز الإسلام وانكمشت أطرافه إلى مكة والمدينة والطائف وبني عبد القيس.

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشيء المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها. فقد هم أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل رسول الله على أم القرى، فتوارى منهم. ولولا أن قام فيهم سهيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر لهم وفاة النبي: (إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأى غير رأينا ضربنا عنقه) لترددوا في موقفهم. على أن سهيلاً أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره: (والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ). ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً في نفوسهم من التهديد، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردتهم؛ فقد رأوا الأمر في المدينة قد آل إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه.

وهمت ثقيف بالطائف أن ترتد، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي عليهم فقال: (يا أبناء ثقيف! كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد). وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حنين، وذكر ما بينها وبين مكة من أواصر النسب والقربى، (فاستمسكت بالإسلام ولعل قيام أبي بكر بالخلافة ونهوض أهل المدينة إلى جانبه في أمرها، قد كان له من الأثر في ثقيف مثل ما كان له في أم القرى)[٢].

هذا هو الشعور الذي شاع في القبائل التي ارتدت عن الإسلام. أما قريش، وقد آل إليها هذا التراث المجيد، فقد اضطلعت بعبئه وتلقته بما يليق به من العناية والجد في تحمل

---

(١) انظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ٣٦ ـ ٣٧. (٢) انظر هيكل: الصديق أبو بكر ص ٧٦ ـ ٧٧.

مسؤولياته، ولم تضن في سبيله بفلذات أكبادها وساداتها وأشرافها، فوجهتهم لمحاربة هذه القبائل، وبرهنت على أنها زعيمة العرب، وأحقهم بهذا الأمر وأقدرهم على الاضطلاع به. يدل على ذلك قول عمر لنفر من الصحابة: (أظن قلتم ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يقروا بهذا الأمر)، ثم قال: (فلا تخافوا هذه المنزلة، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في أثركم، فاتقوا الله فيه)[1].

أ ـ موقف أبي بكر من المرتدين

وليس غريباً أن تحمل العصبية العرب على ركوب هذا الأمر الصعب والارتداد عن دين الله من أجل حرمانهم من الخلافة؛ فنحن نعلم أن العصبية من أهم العوامل وأبعدها أثراً في القبائل التي أسلمت أو حاربت الإسلام في عهد الرسول: فالأوس والخزرج قبلوا الإسلام لأنهم سيعتزون به ويستنصرونه على اليهود الذين كانوا يدلون عليهم بدينهم وكتبهم ويتهددونهم بقتلهم قتل عاد وإرم حينما يبعث نبي آخر الزمان. وهؤلاء اليهود ـ والنصارى أيضاً ـ أعرضوا عن الإسلام ونفروا منه لأنه لم يوح به إلى رجل منهم. وحاربت القبائل الأخرى المشهورة مثل هوازن وثقيف الإسلام خشية أن يظهر عليها ويخضعها كما أخضع القبائل الأخرى.

بل لقد دفعت هذه العصبية بعض القبائل إلى انتحال النبوة، فتنبأ فيها رجال قبل وفاة الرسول وبعدها، وشايعتها هذه القبائل، وكان أشد هؤلاء المتنبئين خطراً مسيلمة الكذاب الذي استفحل خطره وتفاقم شره لانضمام الرجّال بن عنفوة من بني حنيفة إليه وخديعته سجاح التميمية حتى تزوجته وانضم أتباعها إليه[2].

وقد كتب مسيلمة إلى الرسول كتاباً يدَّعي فيه مشاركته في الرسالة ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب، فكتب إليه الرسول: (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

ثم لم يلبث الرسول أن توفي. فلما ولي أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة بن أبي جهل، وألحق به شَرحبيل بن حسنة. فتعجل عكرمة حتى حلت به الهزيمة، فوجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش كثيف على مقدمته شرحبيل، والتحم جيش المسلمين بجيش مسيلمة، واستماتت بنو حنيفة في القتال، وفي مقدمتهم الرجّال، حتى كاد النصر يتم لهم، لولا أن صدق المسلمون في الجهاد وصبروا في الحرب، كما دعا خالد مسيلمة للمبارزة عساه يقتله فيقضي

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٤٦.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

على رأس تلك الفتنة ويخمد جذوتها، ولكن مسيلمة لم يستطع صبراً أمام خالد، فولى هارباً. وحمل المسلمون عليه وعلى أصحابه فهزموهم. وأكثر المسلمون القتل في بني حنيفة حتى قتل مسيلمة على يد وحشي قاتل حمزة عم الرسول في غزوة أحد ورجل من الأنصار(١).

كذلك ادعى الأسود العنسي النبوة في اليمن وتابعه قومه، فاشتد بهم ساعده، وغزا بلاد نجران فدانت له كما دانت له مذحج التي استخلف عليها عمرو بن معد يكرب. وعدا على شهر بن باذان صاحب صنعاء فقتله وتزوج امرأته، وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك إلى الرسول، فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسود، فأتمروا به حتى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول في صبيحتها(٢).

وممن ادعى النبوة أيضاً طليحة بن خويلد، وهو كاهن من بني أسد، اتبعه قومه ودعوا إليه حلفاءهم من طيِّىء والغوث ومن إليهم. فلما توفي النبي ظهر أمره وانضمت إليه غطفان ومن حولها، فبعث إليهم أبو بكر عدياً ثم خالد بن الوليد، فأسلمت طيِّىء وجَديلة وصبرت معه فزارة وأسد، حتى إذا استعر القتال وأيقن طليحة بالهلاك فر إلى الشام. وذكر الطبري في رواية له أن طليحة مضى حتى نزل إلى كلب، فأسلم، ولم يزل مقيماً بينها حتى مات أبو بكر. فلما ولي عمر الخلافة أتاه فبايعه واشترك في الفتوح العربية في عهده.

وممن التف حول هؤلاء المتنبئين عرب لم يؤمنوا بنبوتهم، وإنما فكروا في الارتداد، وانحازوا إلى هؤلاء المتنبئين يستنصرون بهم على قريش ليتخلصوا من زعامتها وسيادتها التي فرضتها عليهم.

وهناك فريق من العرب ارتدوا ولم ينضموا إلى واحد ممن ادعوا النبوة، ومن هؤلاء سكان البحرين الذين ارتدوا بعد وفاة ملكهم المنذر بن ساوَى، حتى قيض الله الجارود بن المعلى العبدي، فنصحهم حتى ثابوا إلى الإسلام. ولكن الحطم بن ضبيعة ومن اتبعه من بني بكر بن وائل، أحاطوا بالمسلمين وحاصروهم حتى بعث إليهم أبو بكر العلاء الحضرمي، فحارب الحطم ومن معه ولم يستطع أن يقهره حتى بدت له فرصة فانتهزها. ذلك أنهم سمعوا في معسكر المشركين ضجة فدسوا فيهم من يتعرف خبرهم، فعرف أن القوم سكارى، فهجم عليهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف واستولوا على ما في المعسكر(٣).

واجه أبو بكر كل هذه الصعاب بما عرف عنه من حزم وعزم وغيرة على الدين، فبادر إلى تسيير الجيوش إلى المرتدين والمتنبئين ومانعي الزكاة، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائداً

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٣٢ Muir, The Caliphate pp. 20-22.
(٣) الطبري: جـ ٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٦١.

في وقت واحد وهم:

١ ـ خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح.

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل ووجهته مسيلمة الكذاب في بني حنيفة.

٣ ـ المهاجر بن أبي أمية ووجهته العنسي باليمن ومعونة الأبناء على قيس بن العاص.

٤ ـ عمرو بن العاص ووجهته قضاعة ووديعة والحارث.

٥ ـ سعيد بن العاص ووجهته الحمقتان من مشارف الشام.

٦ ـ حذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأمر دبا.

٧ ـ عرفجة بن هرثمة ووجهته مهرة.

٨ ـ شرحبيل بن حسنة بعثه في إثر عكرمة بن أبي جهل على أن يلحق بعمرو بن العاص إذا فرغ من بني حنيفة في اليمامة.

٩ ـ طريفة بن حاجز ووجهته بنو سليم ومن معه من هوازن.

١٠ ـ سويد بن مقرن ووجهته تهامة باليمن.

١١ ـ العلاء بن الحضرمي ووجهته البحرين.

وأمر أبو بكر كل قائد بالمسير إلى ناحية من نواحي بلاد العرب بعد أن كتب له عهداً يأمره فيه: (بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان)، وأمره (أن لا يرد المسلمين عن قتال عدوهم)، وأن (لا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله، ثم نصحه بأن لا يدخل في المسلمين حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم حتى لا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم)[1].

وأرسل أبو بكر إلى جميع المرتدين كتاباً يدعوهم فيه الرجوع إلى حظيرة الدين ويرد الشبهة التي نشأت عن موت الرسول بأنه بشر يموت كما يموت كل إنسان ثم هددهم بالقتل والإحراق وسبي النساء والذراري إذا لم يرجعوا.

بعث أبو بكر هذه الكتب مع الرسل إلى المرتدين أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم العهود. وكانت الغلبة للجيوش الإسلامية، وعلت كلمة الدين من جديد بعد أن أعمل هؤلاء القواد وجنودهم السيف في رقاب المرتدين.

ومما ساعد على انتصار المسلمين في حروب الردة قوة إيمانهم التي بعثت في نفوسهم الشجاعة والإقدام والاستخفاف بردة العرب. يدل على صحة هذا القول ما رواه المؤرخون عن

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٢٢٧.

مرقف عمرو بن العاص، من قرة بن هبيرة من بني عامر، إذ نزل به فأكرمه ثم خلا به وقال: (يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أعفيتموها فتسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم). فأجابه عمرو على الفور جواباً يدل على استهانته بردة العرب فقال: **تخوفنا** بردة العرب؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفش[١] أمك.

ولما أتى بقرة بن هبيرة أسيراً إلى أبي بكر رضي الله عنه، استشهد بعمرو على إسلامه، فأحضر أبو بكر عمراً فسأله، فأخبره بقول قرة إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة، فقال قرة: مهلاً يا عمرو، فقال: كلا والله لأخبرنه بجميعه، فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه[٢].

يقول ميور[٣] عن سبب نجاح المسلمين في القضاء على الردة واستئصال شأفها من بلاد العرب: (وإنما يرجع الفضل في تتويج هذه الجهود بالنصر والظفر إلى تلك الروح القوية التي بثها محمد في نفوس أتباعه المخلصين).

ب ـ موقف الإسلام من المرتدين

اتخذ بعض المستشرقين ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام بعد وفاة الرسول، دليلاً على أن الإسلام إنما قام بحد السيف، وأن الخوف وحده هو الذي أدخل العرب في هذا الدين. وفي الحق أن العرب الذين حاربهم أبو بكر رسموا مرتدين لم يرتدوا عن الإسلام كما يتبادر إلى الذهن من تسميتهم مرتدين، وإنما كانوا فريقين:

١ ـ فريقاً منع الزكاة فقط زاعماً أنها إتاوة تدفع إلى الرسول، فلما انتقل إلى جوار ربه، أصبحوا في حل من عدم دفعها إلى خليفته، وفي شأن هذا الفريق عارض عمر أبا بكر في حربهم، محتجاً بقوله عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله». ولكن أبا بكر رأى في امتناع هؤلاء عن دفع الزكاة هدماً لركن من أهم أركان الدين قد يؤدي التهاون فيه إلى هدم سائر الأركان.

وكان من رأي أبي بكر أن يأخذ هذا الفريق من المرتدين في غير هوادة حيث قال: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً[٤] كانوا يؤدونه

(١) الحفش بكسر السكون بيت تنفرد فيه النفساء.

(٢) الطبري جـ ٣ ص ٢٣١. انظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٨

(٣) The Caliphate, p. 18.

(٤) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة، لأن على صاحبها التسليم، وإنما يقع القبض بالرباط. وقيل أراد ما يساوي عقالاً من حقوق الصدقة إذا أخذ المتصدق أعيان الإبل. قيل أخذ عقالاً، وإذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً. وقال المبرد في الكامل: إن المتصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالاً، وإذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً.

إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه)، فقال عمر: (فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق)[١].

على أن هؤلاء لم يرتدوا عن الإسلام لبغضهم إياه أو كراهتهم له، وإنما ظنوا أن الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول، أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد التي هي عماد هذا الدين، بل زعموا أن الزكاة إنما هي إتاوة يدفعونها للرسول، ومن ثم لم يجدوا مبرراً لدفعها بعد وفاته[٢].

٢ ـ وأما الفريق الثاني فقد ارتدوا عن الإسلام ولم يكونوا مسلمين حقاً، لأن السواد الأعظم منهم كان من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق ولم يمض عليهم من الزمن ما يكفي لأن يؤثر الدين في قلوبهم ولا غرو فالدين عقيدة ومبدأ يملآن القلب ويؤثران في كل ما يصدر عنه. وقد نعى الله سبحانه وتعالى عليهم هذه الطبيعة الجافية في غير آية من القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم[٣] من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون. قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩: ١٤ ـ ١٦]. وقال تعالى: ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ [سورة التوبة ٩: ٩٨ ـ ٩٩].

وأما معاقبة الإسلام من ارتد عنه بالقتل، فذلك أمر اقتضته سياسة الدولة أكثر من الحرص على إسلام هؤلاء، إذ كان أخوف ما تخافه الدولة الإسلامية من الإبقاء على هؤلاء المرتدين أن ينقلبوا عيوناً عليها، وبذلك يصبحون شراً مستطيراً يهدد كيانها. ولا غرو فإن السياسة والدين لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر عند المسلمين[٤].

٣ ـ على أن الإسلام شديد الحيطة في أمر المرتدين، فهو لا يأخذهم بالشبه ولا يحكم فيهم بالظنة، وإنما يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليهم من أمر الدين، وما عرض له من الشبه في صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة.

---

(١) صحيح البخاري (طبعة بولاق) جـ ٢ ص ١٠٥.

(٢) انظر تعليق المؤلف على كتاب السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية ص ٨٧.

(٣) لا ينقصكم من أجور أعمالكم

(٤) انظر Nicholson, p. 197.

وإلى القارىء طائفة من أقوال الأئمة في هذا الصدد قال أبو حنيفة: إذا ارتد المسلم عرض عليه الإسلام وأجل ثلاثة أيام، لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها، فعلينا إزالة تلك الشبهة، أو هو يحتاج إلى التفكر لنبين له الحق، فلا يكون ذلك إلا بمهلة، فإن استمهل كان على الإمام أن يمهله. ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام في الشرع كما في الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية في البيوع)، فلهذا يمهله ثلاثة أيام[1].

ويقول بعض فقهاء المالكية: (واستتيب المرتد وجوباً ولو عبداً أو امرأة ثلاثة أيام بلياليها من يوم الثبوت لا من يوم الكفر بلا جوع ولا عطش، بل يطعم ويسقى من ماله وبلا معاقبة وإن لم يتب)[2].

وقال الإمام الشافعي: (ويجب استتابة المرتد ذكراً أو غيره لأنه كان محترماً بالإسلام، وربما عرضت له شبهة فتزال، وقيل يمهل ثلاثة أيام)[3]، وقال الإمام أحمد بن حنبل: (ومن ارتد عن الإسلام من الرجال والنساء وهو بالغ عاقل، دعي إليه ثلاثة أيام)[4].

على أنه ينبغي ألا يكفر مسلم يحتمل عمله أو قوله الكفر وعدمه إلا إذا كان التكفير بقوله أو بعمله مجمعاً عليه. وقد صرح العلماء بأنه لا يكفر مسلم بقول يحتمل الكفر من تسع وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه واحد[5].

من ذلك نرى أن محاربة أبي بكر من ارتد من المسلمين بعد وفاة الرسول لم تكن سوى قمع ثورة داخلية أراد بعض من لم يخالط الإسلام قلوبهم القضاء عليه وهو لا يزال في مهده، فلم يكن بد إذاً من أن يقضي أبو بكر على هذه الثورة حتى لا تتصدع أركان الوحدة العربية وتتفرق كلمة المسلمين.

وأما من دخلوا الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه، فإنه لم يرتد منهم أحد. وقد أجمع المؤرخون على أن أهل مكة والمدينة والطائف ثبتوا على إسلامهم، ولم تؤثر فيهم تلك العاصفة التي عصفت بشبه جزيرة العرب على أثر وفاة الرسول.

---

(١) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسي (القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ) جـ ١٠ ص ٩٨ ـ ١٠٠.

(٢) انظر باب الردة وأحكامها في الشرح الكبير للدردير (طبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ) جـ ٤ ص ٢٧٠ حاشية الدسوقي جـ ٤ ص ٢٦٧.

(٣) انظر باب الردة حاشية البجرمي على شرح المنهج (طبعة بولاق سنة ١٣٩٩ هـ).

(٤) انظر كشاف القناع على متن الإقناع (طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) جـ ٤ ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

(٥) انظر باب المرتد في حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين (طبعة مصر سنة ١٢٧٢ هـ). وهذه هي الروح التي أملت على أبي بكر كتابه إلى المرتدين وعهده إلى القواد.

٢ - الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان

كان عثمان في السبعين من عمره حين آلت الخلافة إليه. وكان سهلاً ليناً؛ فلم يكن له حزم أبي بكر وعمر، تلك الصفة التي كان لا بد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية في ذلك العهد، وخاصة في دور انتقال العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والاستمتاع بالأموال المتدفقة من البلاد المفتوحة.

ولقد اغتبط المسلمون بخلافة عثمان لما وجدوا فيه من لين وتيسير بعد شدة عمر وتضييقه. فقد سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها(١)، وترك الأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون. كما بدأت الثروات تتدفق على المدينة ومكة تفعل فعلها في نفوس العرب فتغريهم بالاستمتاع بها التي استمتاعاً دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف. فانتشر في المدينة بعض أنواع اللهو(٢)، فاضطر عثمان إلى الضرب على أيدي أصحابها وكبح جماحها ونفى بعضهم عن المدينة فتذمروا(٣)، وتذمر ذووهم وذوو فريق من

---

(١) قال الطبري (جـ ٥ ص ١٣٤): (كان عمر بن الخطاب قد حجر على اعلام قريش من المهاجرين الخروج إلى البلدان إلا بإذن وأجل. فشكوه فبلغه فقام وقال: الا إني قد سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثنياً، ثم رباعياً، ثم سديساً ثم نازلاً (الجزع من الإبل ما كان في السنة الخامسة، والثني ما كان في السادسة، والرباعي (منقوص على وزن ثماني) من الإبل ما كان في السابعة، والسديس ما كان في الثامنة، والبازل ما كان في التاسعة)، الا فهل ينتظر بالباذل إلا النقصان؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ألا وان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده. ألا فاما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزهـا أن يتهافتوا في النار. فلما ولي عثمان الخلافة لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر؛ فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام، فكان مغموماً في الناس وصاروا أوزاعاً إليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك. فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقريب والانقطاع إليهم، فكان دلك أول وهن على الإسلام واول فتنة كانت في العامة ليس إلا دلك).

(٢) قال الطبري (جـ ٥ ص ١٣٤): أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا (أي كثرت الأموال) وانتهى وسع الناس (أي بلغوا من الثروة والترف الغاية) طيران الحمام (أي تطييره) والرمي على الجلاهقات (جمع جلاهق وهو البندق الذي يرمى به الطير)، فاستعمل عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثماني (من خلافته) فقصها (أي قص الحمام) وكسر الجلاهقات.

(٣) روى الطبري (جـ ٥ ص ١٣٧): أن عثمان لما عاقب كعب بن ذي الحبكة على لهوه، غضب ونفر في الناس الذين نفروا فضرب معهم ثم نفى إلى الشام. ولما عاقب ضابىء بن الحارث البرجمي بالحبس وظل فيه حتى مات عثمان، خرج ضابىء وهو يقول:

همممت ولم افعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

وذكر الطبري ايضاً أن نفراً اجتمعوا بالكوفة وفيهم الأشتر وزيد بن صوحان وكعب بن ذي الحبكة وأبو زبيب وابو مورع.. فقالوا: والله لا يرفع رأس ما دام عثمان على الناس فقال عمر بن ضابىء وكميل بن زياد: نحن نقتله فأما عمير فقد رجع عن عزمه، وأما كميل فإنه جسر وحاول قتل عثمان لولا أن عثمان لكمه.

الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر . فقد روى السيوطي[١] أن بني هذيل وبني زهرة حنقوا على عثمان لهناة (إساءة) كانت منه إلى صاحبهم عبد الله بن مسعود، وكذلك غضب بنو غفار وأحلافها لأبي ذر الغفاري، وبنو مخزوم الذين حنقوا على عثمان لما صنع بعمار بن ياسر.

لذلك لا نعجب إذا رأينا هؤلاء يسارعون إلى إجابة دعاة الثورة على عثمان في الأقاليم. وكان ذوو قرباهم في المدينة وما حولها أول من استاء من سياسة عثمان، كما كانوا أكثر الناس مجاهرة بالتبرم من أعماله ونقداً لسياسته، مما اضطر عثمان ـ وهو صحابي جليل وخليفة المسلمين ـ إلى تبريرها أمام جمهور المسلمين[٢]. فكان تبرير بعضها كافياً لبيان صحتها وإخلائه من المسؤولية، ولكن الدعاية السيئة التي قامت ضده كثيراً ما كانت تغلب على حججه وأدلته، وكان تبريره بعضها الآخر ضعيف الحجة[٣]، لم يقتنع به شيوخ الصحابة ولم يخله من لومهم واعتراضهم عليه.

وذكر الطبري والدينوري والسيوطي وغيرهم عدة أشياء استحدثها عثمان في الدين لم يسبق بها في عهد الرسول ولا في عهد أبي بكر وعمر. فهو أول من أقطع القطائع، وأول من خفض صوته بالتكبير، وأول من أمر بالأذان يوم الجمعة، وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة، وأول من فرض الناس إخراج زكاتهم، وأول من أخذ الزكاة على الخيل، وكان النبي قد أعفى من زكاة الخيل والرقيق، وأول من حمى الحمى[٤]. يقول بعض إنه حمى الحمى لإبل الصدقة ولإبله وخيله وإبل بني أمية وخيلها. ويقول عثمان: إنه لم يحم الحمى إلا لإبل الصدقة. ولما لامه المسلمون على أنه حمى الحمى لإبل الصدقة كانت حجته إنما أراد ألا

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠٦.

(٢) مما عابوه على عثمان أنه حمى الحمى، فأجابهم عنه بأن عمر قد اتخذه من قبله ولم يفعل إلا أن وسع هذا الحمى لما زادت إبل الصدقة وامتنع بعض المسلمين الذين يملكون أرضاً بجوار المسجد النبوي عن تسليمها إليه ليوسع بها المسجد، فأخذها عنوة وقال: قد فعل ذلك عمر من قبل.

(٣) قال عثمان حين سئل عن بذخه وترفه وأكله ألين الطعام وشدة أسنانه بالذهب ومقارنة ذلك بما كان يصنع عمر: يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق؟ وقوله عن الأموال التي كان يغدقها على نفسه والأعوان من أهله وأقربائه على حين كان عمر يستغني من بيت المال بالكفاف: كان هذا حقاً لعمر وقد تركه وتبرع به للمسلمين وليس عليّ من لا يتبرع بشيء من حقه لوم ولا تثريب وكذلك كان موقفه من الولاة الذين عينهم من أقربائه، فاستغاث منهم رعيتهم فلم يردعهم ولم يكفهم.

(٤) يقال حمى فلان الأرض يحميها حمى حتى لا يقرب. والحمى موضع فيه كلأ يحمي من الناس أن يرعى. وقال الشافعي رضي الله عنه في تفسير قوله ﷺ: «لا حمى إلا لله ولرسوله». وكان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى خاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره فلم يرعه معه أحد. وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله، فنهى النبي ﷺ أن يحمي على الناس كما كانوا في الجاهلية يفعلون.

يكون هناك اختلاف بين الأفراد والدولة فيما يتصل بالمراعي.

كذلك أخذ المسلمون على عثمان أنه أعاد عمه الحكم بن العاص وأهله إلى المدينة، وكان الرسول قد أخرجهم منها بسبب إيذاء الحكم للرسول. ولكن عثمان شفع عند الرسول في إعادته فلم يعده. فلما ولى الخلافة أعاد الحكم إلى المدينة. ولما مات الحكم ضرب عثمان على قبره فسطاطاً وولى ابنه الحارث بن الحكم سوق المدينة، فأساء السيرة وطمع في جمع المال، وآثر ابنه الآخر مروان بن الحكم فاتخذه وزيراً ومشيراً، فأنكر المسلمون ذلك وسعى إليه أعلام الصحابة فلاموه فيه، ولكنه زعم لهم أنه كلم النبي في رد الحكم فأطعمه في ذلك، ثم توفي قبل أن يرده[١].

كما نقم المسلمون على عثمان أنه عزل ولاة عمر عن الأمصار وولاها ذوي قرباه ومن بينهم وبينه صلة.

كان هذا في داخل المدينة وهي حاضرة الدولة وقلبها النابض. أما في الولايات الإسلامية فقد وجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتذمرين من عثمان الحانقين عليه طبقتان من الشعب: طبقة الأرستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة، وطبقة المقاتلين المتبرمين من فقرهم، وحرمانهم.

أوجد الطبقة الأولى عثمان، فقد أباح لأعلام قريش ـ كما أسلفنا ـ أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات الإسلامية المفتوحة كالعراق والشام ومصر. كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملاكهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار، وقد تصدى المسعودي لذكر نفر من هؤلاء الصحابة الذين رحلوا إلى الولايات واستقروا بها فقال: (وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور).

خرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار إلى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز، وأنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمها السبق في الإسلام وصحبه الرسول. وإنا لنستطيع من وراء تلك الثروات التي وصف لنا المسعودي بعضها ـ أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية ذات الزعامة الدينية، ويلتفون حولهم معجبين بأخلاقهم ومحامدهم مأخوذين بأحاديثهم عن مواقفهم المجيدة وحسن بلائهم في نصرة النبي على أعدائه المشركين، ومفتونين بما يضفيه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات، حتى أصبح كل فريق منهم يتمنى أن تصير الخلافة في يد صاحبه.

ومن بين هؤلاء الأشياع والأتباع نفر كان يتمنى أن يلي صاحبهم الخلافة لتكون لهم

---

(١) طه حسين: فتنة عثمان ص ١٨٠ ـ ١٨٥

الحظوة عنده. فتعظم مكانهم ويعلو مقامهم. وإن اختلاف الوفود التي أتت من الولايات الإسلامية لخلع عثمان، على من توليه خلفاً له ـ حتى قال أهل البصرة نولي الزبير وقال أهل الكوفة نولي طلحة. . . الخ ـ لأكبر دليل على صحة هذا القول.

كما وجد إلى جانب هذه الطبقة الأرستقراطية طبقة أخرى فقيرة معدمة أنشأها عمال عثمان، باستئثارهم بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وحرمان المقاتلة منها. مدعين أن بالفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه. فلما رأى هؤلاء المحاربون ـ وجلهم من البدو ـ هذه الثروات الضخمة والأموال الكثيرة يستأثر بها الحكام والقواد من قريش، ورأوا أنفسهم قد خرجوا من الصحراء يطلبون الغنى والمجد في ظلال السيوف، فاحتكرتها قريش لنفسها حرمتهم حتى من الغنائم التي كانت تعطى للمحارب في عهد الرسول ثم في عهد أبي بكر وعمر، حقدوا على قريش واعتبروها مغتصبة لحقوقهم وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها. لذلك لا نعجب إذا أعلن المقاتلة من العرب بأن أموال الفيء والغنائم إنما هي لهم وليست للحكومة، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله.

من هذا كله يتبين أن حال الدولة الإسلامية قد تغيرت تماماً في عهد عثمان، وأن هذا التغير أثار روح المعارضة لسياسة الحكومة والاستياء من تصرفاتها، وبعث على التمرد عليها في المدينة وفي جميع الأمصار. فكان هذا الجو ملائماً تمام الملاءمة ومهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لف لفه والتأثر بها إلى أبعد حد.

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم اشتهر بالورع والتقوى ـ وكان من كبار أئمة الحديث ـ وهو أبو ذر الغفاري[1] الذي تحدى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ. وكان يهودياً فأسلم، ثم أخذ يتنقل في البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة والشام ومصر.

وفد ابن سبأ إلى الشام وحرض أبا ذر على معاوية وقال له: يا أبا ذر! ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله؟ ألا أن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه[2] دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين[3] (أي من ديوان العطاء).

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن استياءه من سياسة معاوية، ويحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الإقلاع عن ادخار الأموال وكنزها، محتجاً بقوله تعالى: ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمي عليها في نار

---

(١) كان أبو ذر من أهل الصفة، ولا يبعد ان يكون لهذا أثر في ميوله الاشتراكية.

(٢) احتجن المال: ضمه واحتواه.

(٣) الطبري ١: ٢٨٥٩.

جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ [سورة التوبة ٩: ٢٤]. كما لا نعجب أيضاً إذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسيئون إلى الأغنياء حتى شكوا ذلك إلى معاوية. فلما رفع معاوية الأمر إلى عثمان أيقن أن الفتنة قد أخرجت بخطمها[١] وعينها.

وقد بعث عثمان في طلب أبي ذر الذي آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسة. وكأن أبا ذر قد تنبأ بتلك الثورة التي ذهب ضحيتها. ولما دخل المدينة وجد المجتمعات تعقد للتآمر على عثمان، نادى في المجتمعين: (بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار).

وقد أذن عثمان لأبي ذر بالإقامة في الربذة، وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة ـ أو نفاه إليها على ما ذهب إليه ابن هشام[٢] والخوارزمي[٣] ـ ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات سنة ٣١ هـ وهو كاره لها.

ولقد وجد ابن سبأ ـ وهو أول من حرض الناس على كره عثمان ـ الطريق ممهدة لخلعه. ولسنا نشك في حسن نية أبي ذر، وما كان من استيائه من عثمان ومن سياسته. فقد كان مصدر استيائه ما كان يعتقده في عثمان في هوادة في الدين وتهاون في أحكامه، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ.

وقد صادفت دعوة ابن سبأ في البصرة مرعى خصيباً؛ بيد أن عبد الله بن عامر والي عثمان طرده من هذه البلاد، فرحل إلى الكوفة، حيث تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه، ومن قريش الذين استولوا على أرض السواد[٤]، واتخذوه بستاناً لهم، وواصل الثائرون الاجتماعات في منازلهم ولعن عثمان جهاراً وخاض الناس فيما ارتكب من عظائم الأمور.

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً، فقصد الشام، فلم يلق من أهلها ما لقي في البصرة والكوفة، فرحل إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين، واتصل بالثائرين في البصرة والكوفة، وتبادل معهم الكتب والرسل، وبعث الدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلي، واستطاع أن يؤثر في نفوس الناس: فوضع مذهب الرجعة أي رجعة محمد، ثم نشر مذهب

---

(١) الخطم: (بفتح الخاء وسكون الطاء) مقدم الأنف والفم من الدابة، والمراد هنا: بدأت أوائل الفتنة.

(٢) سيرة ابن هشام (طبعة أوربا) ٢: ٩٧١.

(٣) رسائل الخوارزمي ص ١٣١. مروج الذهب للمسعودي جـ ١ ص ٤٨٣.

(٤) موضعان إحداهما بنواحي البلقاء، حيث السواد لسواد حجارتها، والثاني يراد به رسباق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب. سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، كانوا إذا حرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار فيسمونه سواداً، كما ترى شيئاً من بعد فتقول: ما ذلك السواد؟ وهم يسمون الأخضر سواداً والسواد أخضراً.

الوصاية، بمعنى أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين. واتهم أبا بكر وعمر وعثمان بالتعدي على حق علي في الخلافة، كما روج بين المسلمين نظرية الحق الإلهي التي أخذها عن الفرس الذين احتلوا قبل الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله. وبذلك هيأ ابن سبأ العقول إلى الاعتقاد بأنْ عثمان اغتصب الخلافة من علي وصي الرسول، وأخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى ولاته، فقال لهم: (إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وهذا علي وصي الرسول ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر)[١].

وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته في مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان وعلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامله على مصر ومن ذوي قرباه. كما ساعد انضمام محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر على إذكاء نيران السخط في مصر ونجاح ابن سبأ في سياسته.

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبي بكر إلى صلة النسب بينه وبين علي بن أبي طالب وابنه الحسين بن علي. فقد تزوج علي أسماء بنت عميس أم محمد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه. فكان ابن أبي بكر ربيباً في بيت علي؛ ولأن الحسين بن علي ومحمد بن أبي بكر كانا زوجين لابنتي يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان من الفرس، ولأن كتاب مروان بن الحكم قد كتب إلى ابن أبي سرح بقتل محمد بن أبي بكر والتمثيل به وبمن معه من المهاجرين والأنصار.

وأما مسلك ابن أبي حذيفة العدائي لعثمان فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبي سرح في غزوة ذات السواري التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ على ما تقدم.

ولما وضعت الحرب أوزارها. رجع هو ومحمد بن أبي بكر إلى الفسطاط حيث انضما إلى ابن سبأ[٢]. وذكر المقريزي السبب الذي حدا ابن أبي حذيفة على أن يسلك هذا المسلك العدائي لعثمان فقال: إن ابن أبي حذيفة تربى في كنف عثمان بعد وفاة أبيه؛ فلما ولي عثمان الخلافة طلب أن يوليه بعض أمور المسلمين، فأبى ذلك عليه، إذ نُمي إليه أنه شرب الخمر فقال له: لو كنت رضا لوليتك ولكنك لست هناك.

وقد أصبحت الحالة في البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطر عثمان إلى ندب أربعة من رجاله ليبحثوا أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال في الولايات الإسلامية: فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، وهو أحد أصحاب رسول الله ومن السابقين إلى الإسلام.

---

(١) الطبري ١: ٢٩٤٢.

(٢) الطبري جـ ٥ ص ٧٠ ـ ٧١، ١٣٥.

وقد عاد هؤلاء إلى الخليفة إلا عمار بن ياسر، فقد استماله الثائرون في مصر[١]. وساعد على ذلك ما كان بين عمار وعثمان الذي أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب.

وقد حقق ابن سبأ ما كان يرمي إليه من تأليب الولايات الإسلامية على عثمان وولاته. وليس أدل صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه من أمثال محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر.

ولا غرو فقد قام ابن أبي حذيفة بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ. فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة واتفقوا على الشخوص إلى المدينة، وهو ما يمكن تسميته دور العمل. وخرج كل منهم في ستمائة رجل توافوا خارج المدينة حيث اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان: فمال أهل البصرة إلى الزبير، وأهل الكوفة إلى طلحة، ورغب أهل مصر - وعلى رأسهم ابن سبأ - في علي بن أبي طالب، وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره[٢].

أجاب عثمان وفد مصر إلى مطالبه، فقفل راجعاً، وبينما هم في الطريق رأوا راكباً يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى ففتشوه، فإذا هو يحمل كتاباً عن لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله على مصر، يأمره فيه أن يستأصل شأفة هذا النفر قتلاً وتصليباً، فعادوا إلى المدينة ودخلوا على عثمان، فأغلظ الإيمان على أنه ما كتب ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ولا علم له به. فطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان بن الحكم، إذ قام عندهم الدليل على أنه هو الذي بعث بهذا الكتاب، فأبى عثمان، فحاصروه اثنين وعشرين يوماً، فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه، فناشدهم الله أن يكفوا حتى لا يندلع لسان الفتنة ويتفاقم خطرها.

ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى، وأن المدد الذي طلبه عثمان من الولايات الإسلامية أوشك أن يباغتهم، جدوا في أمرهم واقتحموا عليه الدار بعد أن دار القتال بينهم وبين من تصدى للدفاع عنه، كمحمد بن أبي بكر والحسن والحسين ابني علي وعبد الله بن الزبير. ولما حوصر عثمان أشرف على المتآمرين وقال لهم: أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ، ألستم تعلمون أن رسول الله قال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»، فجهزته. ألستم تعلمون أن رسول الله قال: «من حفر بئر رومة فله الجنة»، فحفرتها[٣]؟.

---

(١) المصدر نفسه ١: ٢٩٤٥ - ٢٩٤٦.

(٢) الطبري ١: ٢٩٥٥.

(٣) الطبري جـ ٥ ص ١٣٠ - ١٣٢. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

وقد قتله الغافقي بحديدة كانت معه، وجاء غيره ليضربه بسيفه فأكبت زوجه نائلة وتلقت السيف بيدها، فقطع إصبعها. وانتهبوا بيته وبيت المال. وكان ذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٦ م). وتولى علي بن أبي طالب الخلافة في الخامس والعشرين من هذا الشهر، فكان ذلك أول فصول هذه المأساة وما أعقبها من تحزب العرب أحزاباً مما أضعف الإسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقاً.

ويظهر أن أهل المدينة تواكلوا في الدفاع عن عثمان، إذ يبعد كل البعد أن يعجزوا عن نصرته وصد تلك الفئة الباغية عنه، وهم الذين مرنوا على الحرب وبرهنوا في مواقفهم مع رسول الله وأبي بكر وعمر عن شجاعة نادرة واستبسال لا يزال مضرب الأمثال، فلو أنهم نشطوا للذود عن عثمان لما تمكن الثوار مع قلة عددهم من قتله والاستبداد بالأمر والتحكم في المدينة ومن بها.

ولا شك أن كثيراً من علية القوم في المدينة نقموا على عثمان إيثاره بني أمية على غيرهم من جلة الصحابة، فنفضوا أيديهم من تلك الفتنة لما بلغ الهياج أشده، ولم تجد نصائحهم نفعاً، فظلوا يشاهدون تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد، ظناً أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق.

روى ابن قتيبة أن عثمان خرج إلى المسجد، فإذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس فقال عثمان: (والله يا أبا الحسن ما أدري، أشتهي موتك أم أشتهي حياتك؟ فوالله إن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأني لا أجد منك خلفاً).

وقال صاحب الفخري (ص ٥٥): (وما زال علي عليه السلام من أكبر المساعدين لعثمان الذابين عنه، وما زال عثمان يلجأ إليه في دفع الناس عنه، فيقوم عليه السلام في دفعهم عنه القيام المحمود. ولما حوصر عثمان أرسل إليه عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام لنصرة عثمان رضي الله عنه، فقال: إن الحسن عليه السلام استقتل مع عثمان، فكان عثمان يسأله أن يكف فيقسم عليه وهو يبذل نفسه في نصرته).

٣ ـ الأحزاب بعد مقتل عثمان

أ ـ خروج طلحة والزبير وعائشة ـ موقعة الجمل:

نصح علي بن أبي طالب الذين طالبوا بدم عثمان أن يتريثوا، حتى إذا هدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه أجرى الحق مجراه وتمكن من إنزال الجزاء بقتلة عثمان. إلا أن نصائحه لم تجد أذناً مصغية. فقد ساء عائشة قتل عثمان. وانضم إليها طلحة والزبير. وقيل إن الزبير كان يطمع في ولاية العراق، وطلحة في ولاية اليمن. فلما أرسل علي الولاة ولم يكن لهما حظ

في الولاية، نقما عليه وندما على بيعتهما وعزما على الخروج، فاستأذنا علياً في الخروج إلى مكة لأداء العمرة، ولكنه لم يخف عليه أمرهما، فقال لهما: والله ما العمرة تريدان.

وقد عولت حفصة بنت عمر زوجة الرسول على الخروج مع عائشة، ولكن أخاها عبد الله ثناها عن عزمها. ولم يكن من رأي أم سلمة زوج الرسول أن تمضي عائشة في هذا السبيل، فأرسلت إليها كتاباً طويلاً تطلب إليها العدول عن الخروج وتقول لها: (لو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك. أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة[1] في الدين؟ فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ولا يرأب بهن إن انصدع. جهاد النساء غض الأطراف وضم الذيول وقصر الموادة. ما كنت قائلة للرسول ﷺ لو عارضك[2] ببعض هذه الفلوات[3] ناصة قعوداً[4] من منهل إلى منهل؟ وغداً تردين على رسول الله ﷺ؛ وأقسم لو قيل لي يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتِكَةً حجاباً ضربه عليّ. فاجعليه سترك وقاعة البيت حصنك، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرتهم. ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشت نهش الرقشاء[5] المطرقة والسلام).

فردت عائشة عليها بهذا الكتاب: (أما بعد، فما أقبلني لوعظك وأعرفني لحق نصيحتك، وما أنا بمعمرة بعد تعريج، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه فئتين متشاجرتين من المسلمين، فإن أقعد فعن غير حرج، وإن أمض فإلى ما غنى بي عن الازدياد منه، والسلام)[6]؟.

عمل طلحة والزبير على استمالة زعماء البصرة[7]، كما استمالا عبد الله بن عمر؛ لكنه كان يرى في القعود النجاة والخير، كما كان يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم[8].

ولم يصغ طلحة والزبير لنصح الناصحين ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التي كادت تتمزق شر ممزق، بل لم يكن لنصيحة أم سلمة أي أثر في نفس عائشة. وسرعان ما خرج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة في ستمائة رجل. فلما وصلوا (إلى ماء الحوأب) في طريق البصرة، نبحتهم كلابه، فسألت عائشة محمد بن طلحة: أي ماء هذا؟ قال: هذا ماء الحوأب. فقالت:

---

(١) الإفراط مجاوزة الحد.

(٢) قابلك أو التقى بك.

(٣) جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة.

(٤) نص البعير أو الفرس، استخرج أقصى ما عنده من السير، والقعود الناقة.

(٥) الرقشاء: من الحيات المنقطة بسواد وبياض.

(٦) انظر هذين الكتابين في العقد الفريد جـ ٣ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٧) هم كعب بن سور سيد اليمن، والمنذر بن ربيعة سيد ربيعة، والأحنف بن قيس سيد مصر.

(٨) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٠، ١٠٣.

ما أراني إليّ راجعة، قال: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «كأني بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب، وإياك أن تكوني أنت يا حميراء». فقال لها محمد بن طلحة: تقدمي رحمك الله ودعي هذا القول، وأتى عبد الله بن الزبير فحلف لها بالله أنها غادرته أول الليل، وأتاه بينة من الأعراب فشهدوا بذلك فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الإسلام.

استأنف الجيش السير إلى البصرة. وقد عرض لهم سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة في الطريق، ونصحا لهم بالرجوع، كما نصحا الجند. وسار علي بن أبي طالب نحو البصرة. والتقى الجيشان في مكان يقال له الخريبة[١] في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ. ونشب القتال، وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكراً، واقتتل الناس حوله حتى صار كالقنفذ من النشاب، وثبتت عائشة وحماها مروان بن الحكم في نفر من قيس وكنانة وبني أسد، وظل مروان كلما وثب رجل إلى الجمل ضربه بالسيف وقطع يده، حتى قطع نحو عشرين يداً، وأتاه رجل من خلفه وضربه وضرب عرقوب الجمل، وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة وطلحة والزبير، وأسرت عائشة ومروان بن الحكم، وقتل طلحة، رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله لما كان يتهمه بتحريض الناس على عثمان. وانصرف الزبير إلى المدينة، فقتله ابن جرموز غيلة في الطريق. وبقيت عائشة في هودجها إلى الليل، وأدخلها أخوها محمد بن أبي بكر إلى البصرة. وسأل علي عائشة: أترتحل إلى المدينة؟ قالت: أرتحل. فجهزها بما احتاجت إليه، وسير معها أولاده مسيرة يوم، وشيعها الناس. وقيل إن عدد القتلى في يوم الجمل عشرة آلاف من الفريقين[٢].

وإنا لا ندهش أن يقابل علي إساءة عائشة إليه بالعفو فيحسن إليها الإحسان كله، ويجهزها بما تحتاج إليه في سيرها، ويزورها في البيت الذي نزلت فيه، ويوفد أولاده ليشيعوها، ويودعها بنفسه، لذلك قالت عائشة يوم رحيلها لمشيعيها: إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي ـ على معتبتي ـ من الأخيار[٣]. قال علي: (أيها الناس! صدقت والله وبرت، وإنه ما كان بينهما إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة)[٤].

على أننا نرى أنه لم يكن هناك مبرر لخروج طلحة والزبير وعائشة، ما دام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم والحدود، ولا سيما بعد أن وعدهم علي بالنظر في أمر عثمان والبحث عن قاتليه

(١) سميت بذلك فيما ذكره الزجاجي، لأن المرزبان كان قد بنى به قصراً خرب بعده. فلما نزل المسلمون بالبصرة ابتنوا عنده، وسموه الخريبة.

(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) لهذا القول علاقة بحادثة الإفك التي أشرنا إليها في غزوة بني المصطلق.

(٤) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٢٠، ٥٦.

والقصاص منهم عندما تستقر الأمور وتهدأ تلك الفتنة. ونرى من جهة أخرى أن مجرد قبول علي في جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان في الوقت الذي يطالب فيه الناس بدمه، كاف لأن تحوم حوله الشبهة التي تبرر اتهامه بالاشتراك في دمه.

ب ـ النزاع بين حزب عثمان وحزب علي ـ موقعة صفين ـ التحكيم:

على إثر انتصار علي في موقعة الجمل انحصر النزاع بين حزبين اثنين:

١ ـ حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأناً والمطالب بدمه.

٢ ـ حزب علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين، ورأس بني هاشم، الذين كان العداء بينهم وبين بني أمية قديماً منذ الجاهلية، ولم يزده الإسلام إلا شدة: فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علي يوم بدر، كما أن بني هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد.

وقد صورت أم الخير بنت الحريش البارقية، الخلاف بين علي ومعاوية، وذكرت أسبابه في تلك الخطبة التي ألقتها يوم صفين: (يا أيها الناس! اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم؛ إن الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل، ورفع العلم؛ فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة. فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [سورة محمد ٤٧ : ٣١]؟ قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وبيدك يا ربي أزمة القلوب. فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصديق الأكبر. إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس.. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته وأبي ابنيه؟ (تعني الحسن والحسين). خلق من طينته، وتفرع عن نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك حتى يؤيده الله بمعونته، ويمضي على حسن استقامته، لا يعرج لراحة اللذات، وهو مفلق الهام ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون: فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي

---

(١) سورة محمد ٣١ : ٤٨.

بدر، وأفنى أهل أحد، وفرق جمع هوازن. فيا لها وقائع زرعت في قلوب القوم نفاقاً وردة وشقاقاً. وقد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق،.والسلام عليكم ورحمة الله).

بادر علي لما عرف عنه من شدة في الحق بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وخروج الثوار عليه. وقد أذعن جميع الولاة لأمر علي وانصرفوا عما كانوا يلونه من الولايات.

أما معاوية بن أبي سفيان الذي مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوي من المرتزقة الذين انضموا إليه طمعاً فيما كان يضفيه عليهم من الأرزاق ويسبغه من الأعطيات، فقد أبى الإذعان لأمر علي وشق عصا الطاعة عليه، واتهمه بدم عثمان لأنه آوى قتلته في جيشه.

وأصر معاوية على أن يقاتل علياً بجند الشام بعد أن أوغر صدورهم عليه لإيوائه قتلة عثمان في جيشه. فلما بلغ علياً أن معاوية استعد للقتال ومعه أهل الشام، توجه إلى الكوفة بعد انتصاره في موقعة الجمل ووجه جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته والدخول في طاعته، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما. فماطله معاوية واستنظره وكتب إلى عمرو بن العاص: (أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، فقد قدم علي جرير بن عبد الله في بيعة علي، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني، فأقدم على بركة الله تعالى)[١].

ولما قدم عمرو على معاوية، أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى[٢].

رجع جرير إلى علي وأخبره بحال معاوية، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين بكوا حين وضع لهم معاوية على المنبر قميص عثمان الذي قتل فيه مخضباً بدمه وإصبع زوجه نائلة معلقة فيه. وكتب بالخبر إلى الأجناد، فآلوا على أنفسهم ألا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان، وأجمعوا على قتال علي اعتقاداً منهم أنه قعد عن نصرة وعثمان وآوى قتلته.

سار علي من الكوفة إلى صفين في تسعين ألفاً، وسار معاوية من الشام في خمسة وثمانين ألفاً على ما رواه المسعودي[٣]. وعسكر في موضع سهل على الفرات، وبات علي وجيشه في البر عطاشاً لأنه حيل بينهم وبين الماء.

---

(١) اليعقوبي جـ ١ ص ٣١٥.

(٢) هذا ما ذكره الطبري، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبي من أن عمراً أشار على معاوية ألا يذكر عثمان لأن معاوية خذله؛ وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب إلى فلسطين.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥ ـ ١٧.

ولكن علياً أرسل من أجلى رجال معاوية عن الماء. فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده، فأذن له. وبعد يومين من نزول علي في هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوه إلى توحيد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين. وطالت المراسلات بينهما، فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ. ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد[١].

ويظهر من رواية الطبري[٢] أن رسل علي إلى معاوية لم يكونوا ليصلحوا رسل صلح؛ فقد كانت فيهم شدة، وكان رسل معاوية يسيئون الرد عليهم، مما وسع مسافة الخلف بين الفريقين.

وفي اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ هـ عاد القتال بين علي ومعاوية سيرته الأولى. فكان يخرج قائد من هنا وقائد من هناك للمبارزة، حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ فباتوا يصلحون أمرهم، وغدت الأمة العربية على حد قول الشاعر:

أصبحتِ الأمةُ في أمر عجب والأمر مجموعٌ غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

اشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياماً متوالية. فلما قتل عمار استاء أصحاب علي لمقتله، فزحفوا على جند معاوية حتى أشرفوا على الفتح. فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام: الله الله في الحرمات والنساء والبنات! وقال: هلم مخبأك يا ابن العاص فقد هلكنا. غير أن عمرو بن العاص استطاع بما أوتيه من فنون الدهاء أن يفرق بين جند علي وقال لجنده: (أيها الناس! من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه)، فرفعوا المصحف وقال قائلهم: (هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم). فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا: (نجيب إلى كتاب الله)[٣]: وأراد عمرو بحيلته هذه أن يكسر من حدة جند علي وحميتهم ـ وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ـ وأن يفرق بينهم ويفت في عضدهم فيكفون عن قتالهم.

ولما رغب أهل العراق في الموادعة نصح لهم علي ألا يغتروا بقول معاوية وأصحابه وقال لهم: إن ذلك لم يكن إلا خديعة أرادوا بها أن يفرقوا كلمتكم ويقضوا على وحدتكم. فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال، فأرسل إليه، فقال الأشتر للرسول: (ليس هذه الساعة التي ينبغي أن تزيلني فيها عن موضعي وقد رجوت أن يفتح لي فيها فلا تعجلني) فرجع الرسول بالخبر، فما انتهى إليه حتى ارتفع الضجيج وعلت الأصوات بين جند الأشتر، فقال له

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٧٢.

(٢) جـ ٥ ص ٣٤٣.

(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠ ـ ٢٢.

القوم: (والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل. ابعث إليه فليأت، وإلا والله اعتزلناك). فقال علي للرسول: (ويحك! قل للأشتر أن يقبل فإن الفتنة قد وقعت)، فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة القتال.

أرسل علي الأشعث بن قيس إلى معاوية يستطلع رأيه، فقال له معاوية: (نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه: تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله).

ثم رجع الأشعث إلى علي فأخبره برأي معاوية، فقال الناس: رضينا وقبلنا، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال أهل العراق قد رضينا أبا موسى الأشعري، فقال علي: (قد عصيتموني أول الأمر فلا تعصوني الآن)، وبين لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه، فأبوا إلا إياه، فأذعن على كره منه[1].

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدومة الجندل[2]، حيث كتبا عقد التحكيم في شهر صفر سنة ٣٧ هـ. وهذه صورة ذلك الكتاب نقلاً عن الطبري (جـ ٦ ص ٢٩ ـ ٣٠):

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضي عليّ على أهل الكوفة ومن معه من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين: إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات. فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل، وهما أبو موسى الأشعري عبد الله ابن قيس، وعمرو بن العاص القرشي، عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه . . . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان. وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما، وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة، وأرادا فيه إلحاداً وظلماً. المهم إنا نستبنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة.

---

(١) اليعقوبي جـ ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩، المسعودي: جـ ٢ ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) بضم الدال وفتحه تبعد عن دمشق بسبعة مراحل وتقع على الطريق من دمشق إلى المدينة.

ولما حان وقت اجتماع الحكمين بعث علي بن أبي طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي وعبد الله بن عباس يُصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام، فتوافوا بدومة الجندل. وذكر المسعودي[1] أنه لما دنا وفد علي من موضع الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبي موسى: إن علياً لم يرض بك حكماً لفضل على غيرك، والمتقدمون عليك كثيرون، وإن الناس أبوا غيرك. وإني لأظن ذلك لشر يراد بهم. وقد ضم داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة. ووصى معاوية عمراً حين رافقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى فقال: يا أبا عبد الله! إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأخذ الجد. . لا تلقه برأيك كله. ووافى عمراً سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة وغيرهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي. ويتبين لنا مما ذكره المسعودي:

١ - أن أبا موسى لم يكن بالرجل الذي يقف أمام عمرو داهية العرب هذا الموقف الذي يحتاج إلى الحنكة في السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين.

٢ - أن علياً أكره على اختيار أبي موسى، فلم يثق به لأنه فارقه وعذل الناس عنه. وأما معاوية وأهل الشام فقد كانوا راضين بعمرو.

اجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ. وفي هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره. إذ استدرج أبا موسى حتى خلع علي حين ثبت عمرو موكله معاوية. قال المسعودي[2]: قال عمرو: يا أبا موسى! رأيت أول ما نقضي لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل الغدر بغدرهم، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحديث الذي حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله، ثم قال: يا عمرو! هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين، فجزاه عمرو خيراً وقال: إن الكلام أولاً وآخراً، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه في كتاب يصير إليه أمرنا؛ فقال أبو موسى: فاكتب، فدعا عمر بصحيفة وكاتب، فتقدم إليه ليبدأ به أولاً دون أبي موسى لما أراد من المكر به، ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا. اكتب. . !

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٥.

بسم الله الرحمن الرحيم، هـذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ثم قال عمرو: نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذي عليه. قال أبو موسى: اكتب! ثم قال في عمر مثل ذلك. قال عمرو: اكتب! وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضا منهم، وأنه كان مؤمناً. فقال أبو موسى: ليس هذا والله مما قعدنا له. قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً. قال أبو موسى: اكتب! قال عمرو: فظالماً قتل أو مظلوماً، قال أبو موسى: بل قتل مظلوماً، قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم! قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا! قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى! فقال عمرو للكاتب: اكتب! وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإنا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان، قال أبو موسى: وهذا أمر حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لله، فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد. قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: لقد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله ابن عمر؟ فعمد عمر إلى ما قاله أبو موسى فصوبه، وعدد له جماعة وأبو موسى يأبى إلا ابن عمر. فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً.

ويتبين مما كتب في تلك الصحيفة مبلغ تفوق عمرو على أبي موسى في الدهاء والسياسة. فلا غرو فقد استدرجه حتى أقر له بأن عثمان قتل مظلوماً، وأن لمعاوية الحق في أن يطلب بدمه المسفوك. وهكذا تمكن عمرو من تنفيذ غرضه والوصول إلى غايته وهو خلع علي ابن أبي طالب وتثبيت معاوية بن أبي سفيان، على الرغم من تشبث أبي موسى بخلع معاوية واستخلاف عبد الله بن عمر دون غيره من الصحابة.

قال الطبري (٦ : ٣٩): قال عمرو لأبي موسى (بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة): ما رأيك؟ قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختاروا لأنفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: إن الرأي ما رأيت وقال: يا أبا موسى! أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق فتكلم أبو موسى: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة، فقال عمرو: صدق. تقدم يا أبا موسى فتكلم، فتقدم أبا موسى ثم قال: أيها الناس! إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأيه عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، فتستقبل هذه الأمة هذا

الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم. وإني قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه؛ فتنابذا، وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة، ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة.

ونحن نشك في هذا ونميل إلى ما قاله المسعودي[1] إنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب في الصحيفة، وما كان من إقرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك، وأنهما لم يخطبا، وإنما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وأن يولي المسلمون من أحبوا.

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأي، ونرى أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم، وصادف أن خالف رأيه رأي علي وبني هاشم، فكان هذا مصدر سخط بعض المسلمين عليه. ولا شك أن رأي أبي موسى كان رأي طائفة عظيمة من معاصريه، ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافياً وحده لتثبيت ملك صاحبه، بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر منها:

١ ـ اضطراب جند علي بن أبي طالب الذي أراد إعادة الكرة على معاوية وبخاصة بعد موقعة صفين وانشقاق الخوارج عليه.

٢ ـ اتحاد جند معاوية والتفافهم حوله وتفانيهم في نصرته. ولا غرو فقد عمل منذ ولي بلاد الشام في عهد عمر على استعمارها بأتباعه وذوي قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح .

وإن الناظر في أمر التحكيم ليجد أنه لم يكن قائماً على أساس، إذا لم يكن من وراء الحكمين قوة من المسلمين تستطيع تنفيذ حكمهما. فقد اتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية، وأن يستقبل المسلمون أمرهم من جديد فيولوا عليهم من يختارونه للخلافة، وقد دونا ذلك في صحيفة ختما عليها جميعها. بيد أننا نرى أن الفريقين لم يذعنا لهذا الحكم، مع أن الحكمين قد فوض إليهما الفصل في هذا الخلاف. وكل ما كان للتحكيم من أثر هو أنه أعطى الفرصة لجند الشام بالاستئثار بالأمر بعد أن انقسم جند علي.

ولما علم علي بهذه الخدعة أراد أن يحكم السيف بينه وبين معاوية وأخذ يستعد لقتاله من جديد. فلما تكامل جيشه واعتزم المسير إلى الشام، جاءته الأخبار أن الخوارج الذين اعتزلوه قد ساروا نحو «المدائن».

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧.

٤ ـ الخــوارج

أ ـ نشأة الخوارج ـ يوم النهروان :

كانت الأمة الإسلامية حين ولي معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب :

١ ـ شيعة بني أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية وخاصة مصر، وكانوا يرون أن تكون الخلافة في قريش وأن البيت الأموي أحق بها.

٢ ـ شيعة علي بن أبي طالب، وكانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر، وكانوا يرون أن تكون الخلافة في قريش وأن علياً وأولاده من بعده أحق المسلمين بها.

٣ ـ الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين. وكان هؤلاء الخوارج يمثلون الديمقراطية الإسلامية، إذ كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفؤاً لا فرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي.

كان لكل من الأحزاب أتباع وأشياع يدينون برأيه في الخلافة. ومنها الديمقراطي كحزب الخوارج، وغير الديمقراطي كسائر الأحزاب الأخرى. وعلى هذا أخذ كل حزب يناضل غيره من الأحزاب، واشتد النزاع بينها وجرد كل منها السيف، واستمر النزاع بين الأمويين والهاشميين حتى قامت الدولة العباسية. وبعد موقعة صفين انصرف علي مع أشياعه إلى العراق وعاد معاوية مع أنصاره إلى الشام. ولكن أهل الشام عادوا متفقي الكلمة وعاد أهل العراق وقد وقع الانقسام في صفوفهم(١)، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط. يقول الخوارج: يا أعداء الله أرهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم. ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا. فلما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا قرية بظاهر الكوفة تسمى حروراء، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم: إن أمير القتال شبث بن ربعي وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويسمى هؤلاء الذين اعتزلوا علياً الخوارج، كما يسمون الحرورية.

مما تقدم يتضح أن الخوارج خرجوا على عليّ وانشقوا عليه مع أنهم كانوا بالأمس من حزبه وأعوانه، لأنهم كانوا يعتقدون أن علياً إمام بويع بيعة صحيحة، فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه، بل كان خليقاً به أن يمضي في حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس أو يقتلوا عن آخرهم.

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ٣٥.

أخذ علي في مفاوضة هؤلاء الخوارج عسى أن يرجعوا عن رأيهم، فأرسل إليهم عبد الله ابن العباس، فناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته، فرجعوا عن رأيهم وامتنع آخرون، فخرج إليهم عليٌّ نفسه ثم سألهم: (ما أخرجكم علينا؟) قالوا: حكومتكم يوم صفين. فقال: (أنشدكم الله! ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم علي رأيي؟ ولما أبيتم إلا ذلك اشترطنا على الحكمين أن يحكما بما في القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما في القرآن، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء؟) قالوا له: فخبرنا، أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: (إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال). قالوا: فخبرنا (عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟) قال: (ليعلم الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ادخلوا مصركم) فدخلوا إلى أن ينتهي الحكمان من حكمهما (الطبري: ٦: ٣٦).

هؤلاء هم نواة الخوارج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ الإسلام، وهذا مبدأ ظهورهم. ومن ثم أصبح في الدولة العربية ثلاثة أحزاب بعد أن كان بها حزبان هما: حزب علي وحزب معاوية، أو إن شئت فقل حزب الشيعة وحزب الأمويين.

وإن الناظر إلى هذا الحزب الجديد، وهو حزب الخوارج، ليرى أنهم كانوا من حزب الشيعة أنصار علي، ولكنهم انشقوا على هذا الحزب بسبب قبول علي التحكيم.

ولكن أمر هذا الحزب الجديد يدعو إلى العجب، فإنهم لم يبنوا خروجهم على أمر معقول يبرر هذا الخروج، لأنهم هم الذين أشاروا بهذا التحكيم، وأن علياً لم يقبله إلا بعد أن أكرهوه على قبوله. فكيف إذن يسوغون لأنفسهم أن يخرجوا على ما أبرموه؟ وأما قولهم إن علياً بقبوله التحكيم قد شك في خلافته. فهذا أمر غير صحيح، صاحب الحق كثيراً ما يتحقق أن الحق له، فإذا رأى من خصمه إنكاراً لهذا الحق وتمسكاً بوجهة نظره، فإنه لا يجد أمامه سبيلاً إلا أن يرفع الأمر إلى قاض حسماً النزاع.

وصفوة القول أن هذه الطائفة الجديدة بنت أمرها على مقدمات لم تتضح بعد، فزادوا كلمة المسلمين تفريقاً وخدعوا بما ظهر لهم أنه الصواب، كما قال لهم علي حين رددوا قولتهم المشهورة: (لا حكم إلا الله)، (كلمة حق يراد بها باطل).

لم يستطع علي أن يجاري هؤلاء القوم في رأيهم، وهو أنه أخطأ أو كفر، على الرغم مما أبدوه من استعداد للعودة إلى صفوفه. وقولهم إنه ليس عليه من حرج إذا أجابهم إلى ما طلبوه، مع أنه كان يعتبر رجوع هذه الطائفة إلى صفوفه من شأنه أن يزيده قوة أمام مناوئيه. فقد رأى في إجابة طلبهم إقراراً بكفره على الرغم من أنه كان يعتقد أنه يعمل للمصلحة العامة ابتغاء مرضاة الله.

اجتمع الخوارج من أهل البصرة والكوفة وقصدوا إلى النهروان، واستخلفوا عليهم رجلاً منهم هو عبد الله بن وهب الراسي، وأخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم رأيهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعلياً.

ولما التقى علي بالخوارج في النهروان ولوا هاربين إلى ناحية الجسر، فظن الناس أنهم عبروه، فقالوا لعلي: يا أمير المؤمنين! إنهم عبروا الجسر فالقهم قبل أن يبعدوا. فقال علي: ما عبروا وأن مصارعهم دون الجسر، ووالله لا يقتل منكم عشرة ولا يبقى منهم عشرة، فشك الناس في قوله. فلما أشرفوا على الجسر رأوهم لم يعبروا، فكبر أصحاب علي وقالوا: هو كما قلت يا أمير المؤمنين قال: نعم! والله ما كذبت ولا كذبت. فلما انتهت الواقعة وسكنت الحرب، أحصى القتلى من أصحاب علي فكانوا سبعة، وأما الخوارج فذهبت طائفة منهم قبل أن تنشب الحرب وقالوا: والله ما ندري على أي شيء نقاتل علي بن أبي طالب سنأخذ ناحية حتى ننظر إلى ماذا يؤول الأمر. وأما الباقون فثبتوا وقاتلوا فهلكوا جميعاً. فلما فرغ علي من هزيمة الخوارج، رجع إلى الكوفة وندب الناس إلى قتال أهل الشام، فتثاقلوا، ولما وعظهم وحثهم على الجهاد قالوا: يا أمير المؤمنين! كلت سيوفنا وفنيت نبالنا ومللنا من الحرب، فأمهلنا نصلح أمورنا ونتوجه. وكان علي قد عسكر بظاهرة الكوفة، فأمهلهم وأمرهم أن يوطنوا نفوسهم على الحرب، ونهاهم عن الرجوع إلى أهليهم حتى يعودوا من الشام، فصاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم، فلم يجد علي منهم أذناً مصغية، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين من الهجرة.

ب ـ الخوارج في عهد معاوية:

كانت الأمة الإسلامية حين ولي معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب: شيعة بني أمية، وشيعة علي، والخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين.

وكان الخوارج أشد هذه الأحزاب خطراً، وكان من الصعب ردهم إلى جماعة المسلمين بالحجة والإقناع. ولا عجب فقد كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفار وأن دماءهم وأموالهم حلال. لذلك لم يكن بد من أن يسلك معاوية معهم سبيل الشدة والقمع ليأمن شرهم ويحول دون ما يلقونه من بذور التفرقة التي كادت تودي بالأمة الإسلامية.

وكان معاوية أبغض إلى الخوارج من علي، لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين، واتخاذه القصور والحراس والحجاب وما إلى ذلك من مظاهر الملك التي اتخذها عن البلاط البيزنطي، وأنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضا منهم.

فلما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ عول الخوارج على قتاله، وكان على رأسهم فروة

بـواثقكم(٢)؛

ابن نوفل الأشجعي الذي اعتزل علياً والحسن في خمسمائـة من الخوارج بشهـر زور[١]. فلما بايع الحسن معاوية قال فروة لأصحابه: جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فخرج هو وأصحابه إلى الكوفة حيث كان معاوية، فأرسل إليهم جيشاً من أهل الشام، فلما هزمه الخوارج، قال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عنـدي حتى تكفوا بـوائقكم[٢]؛ فخرج أهل الكوفة لقتال الخوارج، فقالوا لهم: (ويلكم ما تبغون! أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا نقاتله، فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا)، فأبى أهل الكـوفة إلا القتال حتى يغلبوهم [٣].

ولم يكن انهزام الفريقين ليثني الخـوارج عن عزمهم ولا ليثبط همتهم في الـدفاع عما يعتقدون أنه الحق. فسرعان ما قام فريق آخر بزعامة حيان بن ظبيان السلمي وتذاكروا إخوانهم بالنهروان وما لاقوه في سبيل الدفاع عن مبادئهم.

وكان حيان من هؤلاء الذين قاتلوا علياً يوم النهروان، وقد عفا عنه علي عندما أصابه جرح في هذه الموقعة. فلما برئ خرج هو وجماعته من الخوارج إلى الري وأقاموا بها حتى بلغهم قتل علي. فحث حيان من معه من الخوارج على المسير إلى الكوفة ومناجزة أعدائهم. فقد سار الخوارج إلى الكوفة ودخلوها. وكان من حسن حظهم أن كان عليها المغيـرة بن شعبة، وكـان حسن السيرة يكره إراقة الدماء، فلم يتدخل في شؤون الخوارج الذين اجتمعوا في ذلك الوقت في دار حيان حيث ولوا أمرهم المستورد بن علقمة التيمي، واتفقوا على أن يكون خروجهم في غرة شعبان سنة ٤٣ هـ[٤].

على أن أحلام الخوارج لم تتحقق حين عول المغيرة على التنكيل بهم واستئصال شأفتهم بما عرف عنه من الدهاء والمكر. ولا غرو فقد كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين العرب بالدهاء: هم عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة هذا الذي كان يقول فيه الناس: لو كان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها.

ولما علم المغيرة بأمر الخوارج شدد في طلبهم وعول على القضاء عليهم قبـل أن يشتد خطرهم؛ فقبض على جماعة منهم من بينهم حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين الطائي وأودعهم السجن[٥]؛ وضيق على إخوانهم حتى غادروا الكوفة وأخذوا يتنقلون في البلاد الإسلامية. ثم ساروا إلى نهير الصراة (قرب مدينة بغداد التي بنيت في عهد أبي جعفر بن المنصور) ومنها إلى

---

(١) إقليم واسع في بلاد الجبل بين أردبيل وهمذان وأهلها من الأكراد يمتازون بالبأس والشدة.

(٢) جمع بائقة وهي الأمر المهلك.

(٣) الطبري جـ ٦ ص ٩٥.

(٤) الطبري جـ ٦ ص ١٠٠.

(٥) الطبري جـ ٦ ص ١٠٤.

بهرسير[١] القريبة من المدائن، ولما علم المغيرة بمسيرهم جمع لقتالهم جيشاً من الشيعيين يربو عدده على ثلاثة آلاف وأمر عليه رجلاً من كبار الشيعة هو مَعقل بن قيس الرياحي[٢]، فأدرك الخوارج بالمذار، بين واسط والبصرة، بديلمايا، وهي قرية من قرى إستان بهرسير بجانب دِجلة، على مقربة من ساباط حيث قتلهم عن آخرهم.

ولما وجد معاوية تفاقم خطر الخوارج في العراق ولى زياد بن أبيه[٣] البصرة سنة ٤٥ هـ، فخطبهم خطبته المشهورة بالبتراء، لأنه لم يبتدئها بحمد الله على ما جرت به عادة خطباء الإسلام منذ عهد النبي. وقد أوضح فيها السياسة التي سيسير عليها في حكم هذه البلاد، وهي سياسة حزم كان من أثرها أن توطدت أركان ملك معاوية في هذه البلاد واستتب الأمن والطمأنينة في ربوعها، واستطاع بذلك أن يضرب على أيدي هؤلاء الخوارج الذين أخذهم بالشدة وأوقع الرعب في قلوبهم فانقادوا له، وحذا حذوه المغيرة في الكوفة، وبذلك أمن معاوية جانب أهل العراق.

وفي سنة ٥٣ هـ أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة بعد موت واليها المغيرة بن شعبة. فلما وصل إليها حُصب وهو على المنبر، فأغلق أبواب المسجد واستحلف الناس على ذلك فمن حلف خلى سبيله ومن لم يحلف حبسه، وأودع السجن ثلاثين رجلاً قطعت أيديهم، وكان زياد يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة ستة أشهر.

وقد ضعفت شوكة الخوارج بما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة في معاملتهم، فلم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق حتى ولي البصرة عبيد الله بن زياد، فظنوه سهلاً ليناً، فتحركوا في سنة ٥٨ هـ. ولكن ابن زياد قتل منهم جماعة صبراً.

ويروي الطبري أن ابن زياد خرج في رهان له. فلما جلس ينظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية، فأقبل على ابن زياد وقال له: خمس كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم

---

(١) بفتح الباء وضم الهاء وفتح الراء وكسر السين.

(٢) الطبري جـ ٦ ص ١٠٨ - ١١٨.

(٣) كان زياد والياً على فارس من قبل علي بن أبي طالب؛ فلما قتل علي اعتصم زياد في ولايته فبعث إليه معاوية، المغيرة ابن شعبة، فما زال زياد حتى ثناه عن رأيه وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان. فسار إليه وسلمه ما بقي عنده من أموال فارس، واستحلفه معاوية بأبي سفيان الذي اعترف ببنوته في حياته على ما قيل، وشهد بذلك نفر من الناس، وإن كان بعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين. لهذا يقال له زياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية وزياد ابن أبيه لجهلهم اسم أبيه، وبعضهم يلحقه بأبي سفيان، ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع ما في هذا الأمر من العار والخزي، وإنما هي السياسة تفعل ما تشاء.

جبارين ﴾ [سورة الشعراء ٢٦ :١٢٨ - ١٣٠] . فلما سمع ابن زياد ذلك ترك رهانه وأضمر لعروة الشر ، فهرب ، غير أن ابن زياد تمكن من القبض عليه وقتله . فغضب لقتله أخوه أبو بلال، وخرج الى الأهواز في أربعين رجلاً من الخوارج ، فبعث إليهم عبيد الله بن زياد ألفي رجل على رأسهم ابن حصن التميمي ، فهزمته الخوارج ، فقال شاعرهم :

أألفا مؤمنٍ منكم زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا؟
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا[١]

على أن ما أصابه أبو بلال لم يأت بطائل، فقد عول ابن زياد على استئصال شأفته وشأفة من معه، فأرسل إليه ثلاثة آلاف أوقعوا به وقتلوه هو وكثيراً من أصحابه سنة ٦١ هـ.

جـ - الخوارج في عهد عبد الملك:

لما اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج في العراق وسد في وجوههم كل طريق، اجتمعوا وتذاكروا ما حل بهم على يد الأمويين، فقال لهم نافع بن الأزرق: (إن الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم الجهاد واحتج عليكم، وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف، فأخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة؛ فإن كان على رأينا جاهدنا معه، وإن لم يكن على رأينا دافعناه عن البيت). ثم سار الخوارج إلى مكة حيث لحقوا بعبد الله بن الزبير ، فعول على استمالتهم إليه واتخذ من انضمامهم إليه فرصة للوصول إلى غايته، وأخبرهم أنه على رأيهم فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد.

ولما وضعت الحرب أوزارها بين ابن الزبير ويزيد بن معاوية اجتمع الخوارج وقالوا: إن الذي صنعتم أمس ليس رأياً ناجحاً، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس مثل رأيكم. ثم اتفقوا على أن يفدوا على ابن الزبير ويسألوه عن رأيه في عثمان وعلي وما أحدثه كل منهما. فلما كاشفوه بذلك قال لهم: (أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان وعدو أعدائه). ولما تبين الخوارج أن ابن الزبير ليس على رأيهم رحلوا من مكة، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي وعبد الله بن الصفار السعدي وعبد الله بن إباض وحنظلة بن بيهس حتى بلغوا البصرة، وسار أبو طالوت من بني بكر بن وائل وأبو فديك وعطية بن الأسود اليشكري إلى اليمامة[٢] .

ولما دخل نافع بن الأزرق البصرة، اجتمع هو وأصحابه وأخذوا يتذاكرون الجهاد ثم خرجوا وكسروا باب السجن وأخرجوا من فيه من الخوارج الذين حبسهم ابن زياد، وساعدهم على ذلك خروج أهل البصرة على ابن زياد الذي ضعف نفوذه بعد موت يزيد بن معاوية وازدياد

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٧٥.
(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨٠.

خطر الزبير الذي كان يدعو لنفسه في بلاد الحجاز.

ولما لحق نافع بالأهواز واستولى عليها وجبى خراجها، وكثر أتباعه وانتشر عماله في السواد وأوقع الفزع في قلوب أهل البصرة، أصبحت الحرب سجالاً بين الأمويين والخوارج حتى حلت الهزيمة بأهل البصرة في جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ.

ولما رأى أهل البصرة أن خطر الخوارج قد تفاقم، طلبوا إلى الأحنف بن قيس أن يتولى حربهم، فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة، لما يعلمه فيه من الشجاعة وحسن الرأي والمعرفة بالحرب. ودارت رحى القتال بين الخوارج وأهل البصرة بقيادة المهلب والأحنف بن قيس فدارت الدائرة على الخوارج وقتل زعيمهم، فانحازوا إلى نواحي كرمان وأصفهان. ولم يزل المهلب يطارد الخوارج حتى تقلّد مصعب بن الزبير ولاية العراق؛ فولاه الجزيرة وولى عمر ابن عبيد الله بن معمر حرب الخوارج، واستطاع أن يجلبهم إلى أصفهان حيث جمع الخوارج شملهم في سابور، فسار إليهم قائد ابن الزبير وهزمهم. غير أنه لم يكن في حزم المهلب وشدته، وأتاح بذلك الفرصة للخوارج فعاثوا في الأرض وقتلوا الأطفال والنساء وجبوا الخراج. ولم ير أهل العراق بداً من أن يطلبوا إلى مصعب رجوع المهلب إلى قتالهم. وسرعان ما تلاقى المهلب مع الخوارج بزعامة قطري بن الفجاءة، واقتتل الفريقان ثمانية أشهر صمد فيها المهلب لقتالهم[(١)].

استفحل خطر الخوارج الذين أبلوا في كثير من المعارك لما اشتهر عن ولاة العراق من الضعف ووهن العزيمة. لذلك لم ير الخليفة عبد الملك بداً من تولية الحجاج بن يوسف على العراق ـ كما أشرنا ـ فأخذ أهلها بالشدة حتى انضموا إلى المهلب، وأخذ الحجاج يواليه بالمدد حتى تمكن من طرد الخوارج إلى كرمان، وأقام بفارس، ثم تبعهم إلى بجيرفت[(٢)] حيث قاتلهم أكثر من سنة صبر على قتالهم حتى دب الشقاق بينهم.

ولما علم الحجاج بمسير قطري ومن معه إلى طبرستان أرسل إليهم جيشاً كبيراً قضى عليهم وقتل قطري. ومن ذلك الوقت ضعفت شوكة الأزارقة[(٣)].

وكذلك حارب الحجاج الصفرية من الخوارج الذين هزموا الجيش الأموي في حران ـ وكان يبلغ مائة ألف ـ هزيمة منكرة وغنموا ما معه من سلاح ومال، كما أوقعوا بالأمويين في كثير من المعارك.

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) بكسر الجيم وفتح الراء وسكون الفاء بعدها تاء مثناة فوقية، من أشهر مدن كرمان وأوسعها، بها خيرات ونخل وفواكه، يتخللها نهر.

(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٨٣.

وعلى الرغم من قلة عدد الخوارج وقتل صالح بن مسرح، نراهم يهزمون جند الأمويين على كثرتهم في أكثر المواقع. ذكر ابن خلكان أن قطري بن الفجاءة خرج في بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود خشب، فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل من الأعداء. فحسر قطري عن وجهه، فلما رآه الرجل ولى هارباً، فقال له قطري: إلى أين؟ قال: لا يستحي الإنسان أن يفر منك.

وليس غريباً أن يولي هذا الرجل الأدبار أمام قطري وهو الذي يقول:

فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حي ... وداعية لأهل الأرض داعي
وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع[1]

ولما رأى الحجاج ضعف أهل الكوفة عن مقاومة الخوارج وتثاقل أهل العراق عن حربهم، سأل عبد الملك أن يمده بجيش من أهل الشام، فبعث إليه ستة آلاف حمل عليهم شبيب أكثر من ثلاثين حملة، فصمدوا حتى اضطروا الخوارج إلى عبور جسر على نهر دجيل. فهوت بشبيب رجل فرسه فغرق في النهر، فحمل أهل الشام على أصحابه وأفنوهم عن آخرهم[2]، واستراح الحجاج من خطر الخوارج، وطويت بموت شبيب صفحات من صفحات الفروسية النادرة.

ويمتاز هذا العصر بكثرة الحروب التي أضرم نارها الخوارج، وأظهروا فيها شجاعة نادرة وبسالة ممتازة ولا سيما منذ فارق بعضهم عبد الله بن الزبير بمكة؛ وأغار بعضهم - كالأزارقة والنجدية والصفرية - على بلاد الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان الذي يرجع إليه الفضل في إضعاف قوتهم وفل شوكتهم. ولو أنهم تعاونوا وكانوا يداً واحدة لكان لهم شأن غير هذا الشأن.

د - الخوارج في عهد عمر بن عبد العزيز:

لم يحرك الخوارج ساكناً في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة خرج رجل من بني يشكر من الخوارج يدعى شوذب. ولكن عمر، بما جبل عليه من الأخلاق الكريمة وما اشتهر عنه من حبه للسلم وجمع الكلمة، لم يشأ أن يأخذ الخوارج بالشدة والقسوة، بل أراد أن يعاملهم باللين ويقارعهم بالحجة، فأرسل إلى شوذب كتاباً يقول فيه: (بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست أولى بذلك مني، فهلم أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا). فكتب

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٠.
(٢) انظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٩٦.

شوذب إلى عمر: (لقد أنصفت، وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك).

وكان عمر بن العزيز يرمي بهذا العمل إلى إزالة الخلف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان. ولم ير، بما عرف عنه من كراهة لإراقة دماء المسلمين، إلا أن يسلك معهم سبل اللين. وقد أثمرت سياسة عمر، فشهد أحد هذين الخارجين المتناظرين بأن عمر على صواب، وذكر المسعودي[1] أن أحد هذين الرسولين قال لعمر: (ما سمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذاً من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا بريء منك) فقال عمر للرسول الآخر: (فأنت ما تقول؟) قال: ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت! ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى تعرض عليهم قولك فأنظر ما حجتهم. ثم مضى أحد الرسولين إلى شوذب وأتباعه ليطلعهم على ما دار في هذه المناظرة، ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر (٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ).

وقد نصب الخوارج أنفسهم في بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والطاغين. لذلك لا نعجب إذا أمد هؤلاء الخوارج البربر من أهل إفريقية المتذمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التي استعانوا بها على قتال ولاتهم في تلك البلاد.

هـ ـ الخوارج في أواخر الدولة الأموية ـ أبو حمزة الخارجي:

وفي عهد مروان بن محمد تفاقم خطر الخوارج واشتد أمر أبي مسلم الخراساني، وانتهز الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه إثر مقتل الوليد بن يزيد وإذكاء نار العصبية بين القبائل العربية: فخرج على بني أمية وانضم إليه الخوارج. وزاد هذه الحالة سوءاً عزل مروان بن محمد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عن العراق وتولية النضر ابن سعيد الحريشي. فامتنع عبد الله في الحيرة، فسار إليه النضر وانضمت قيس إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وطالبوا مروان بدم الوليد ـ وكانت أمه من قيس ـ كما انضمت إليه اليمنية لاشتراكهم في قتل الوليد.

فلما رأى الضحاك ذلك الخلاف زحف على الكوفة سنة ١٢٧ هـ، فانضم إليه عبد الله بن عمر بن سليمان بن هشام. وهكذا ظهر الانقسام بين أفراد البيت الأموي ظهوراً بيناً. وأخذ بعضهم ينضم إلى الثائرين ليكيد الفريق الآخر.

واشتد خطر الضحاك في الكوفة حتى بلغ أنصاره زهاء مائة ألف وغدا يهدد سلامة الدولة الأموية. وسرعان ما غادر الكوفة وسار إلى الموصل ثم إلى نصيبين، فكتب مروان إلى ابنه

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١

عبد الله أن يسير إليه، فحاصره في نصيبين، ثم لحق به مروان وقضى عليه وهزم أتباعه عند ماردين سنة ١٢٨ هـ[١].

على أن موت الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج في العراق، فقد ظهر زعيم جديد هو أبو حمزة الخارجي؛ وكان يفد إلى مكة كل سنة لإثارة الناس على مروان وحثهم على قتاله. وبلغ من تفاقم خطره أنه جاء إلى عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق (سنة ١٢٨ هـ) وقال له: (اسمع كلاماً حسناً، إني أراك تدعو إلى حق، فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي). فخرج معه حتى أتيا حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى قتال مروان[٢].

وفي سنة ١٢٩ هـ خرج أبو حمزة إلى مكة في سبعمائة رجل من قبل عبد الله بن يحيى، ففزع الناس حين رأوهم. ولم يرَ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وكان على مكة والمدينة، بداً من أن يطلب منهم الهدنة حتى ينتهي موسم الحج.

ولما انتهى الموسم سار عبد الواحد إلى المدينة، وزاد أهلها في اعطياتهم وأمر عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان[٣]، فخرج لقتال أبي حمزة. فلما كان بالعقيق جاءته رسل أبي حمزة يقولون: (إننا والله ما لنا بقتالكم حاجة، دعونا نمضي إلى عدونا). فأبى ذلك عليهم وأصر على الحرب وسار حتى نزل قديداً، فأعمل فيهم أصحاب أبي حمزة السيف وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

ولما اتصل نبأ هذه الهزيمة بعبد الواحد هرب إلى الشام، فدخل أبو حمزة الخارجي المدينة في صفر سنة ١٣٠ هـ، وأحسن السيرة في أهلها، وأقام بها ثلاثة أشهر. ثم سار إلى الشام، فأرسل إليه مروان بن محمد جيشاً التقى مع الخوارج في وادي القرى، فقتل أبو حمزة وكثير من أصحابه. ثم سار عبد الملك إلى المدينة ثم إلى اليمن وهزم عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق، وكان أبو حمزة قد ولاه الخلافة، وقتله هو وكثيراً من أتباعه[٤].

وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج الذين حاولوا قلب نظام الحكم فيها فلم يفلحوا. وإلى مروان يرجع الفضل في القضاء على الخوارج، ولم يشغله تفكك عرى دولته عن الضرب على أيديهم بعد أن عاثوا في الأرض وقتاً طويلاً.

و- نظرية الخلافة عند الخوارج:

كان الخوارج أول الأمر حزباً سياسياً لا يعدو بحثه مسألة الخلافة وما يتصل بها، وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلي إلى أن حكم الحكمين.

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٣٥، ١٤٠، ١٤١.
(٢) المصدر نفسه جـ ٥ ص ١٤١.
(٣) المصدر نفسه جـ ٥ ص ١٥٧.
(٤) الطبري جـ ٩ ص ١١٩. ابن الأثير جـ ٥ ص ١٥٨.

ويمثل الخوارج ـ الجمهوريون كما يسميهم فان فلوتن[١] ـ المبادىء الديمقراطية المتطرفة. ويمكن تلخيص نظريتهم في الخلافة في أنها حق لكل عربي حر، وأنه إذا اختير الخليفة فلا يصح له أن ينزل عنها، وإذا جار استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة ذلك[٢].

وقد أدخل الخوارج بعض التعديل على الشرط الأول، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم، كثير من المسلمين من غير العرب. لذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على سواء، وخالفوا بهذا الرأي نظرية الشيعة التي تقول بانحصار الخلافة في آل بيت النبي.

وقد انضم إلى الخوارج وغذى صفوفهم أولئك العرب الخلص من رجال الصحراء، وبخاصة بعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن، مثل قبيلة تميم وأبطال القادسية ورؤساء الجند الذين انضم إليهم أولئك المتطرفون في الإسلام من أهل الصيام والصلاة كما سماهم بذلك الشهرستاني، ورأوا أن جماعة المسلمين أصبحت في خطر بسبب المطامع الشخصية، وأن مصالحهم أصبحت خاضعة لمصلحة بعض الأحزاب تعبث بها كما تشاء. وكذلك انضم إليهم بعض القراء من جند علي، وبخاصة حين رأوا إخفاق الحكمين في حكمهما وخيبة أملهم في حقن دماء المسلمين وإحلال الوئام بينهم.

كانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية خالصة بخلاف ما ذهب إليه نيكلسون الذي يرى أن الدفاع الأصلي للخوارج عن تلك الحركة وتركهم جند علي إنما هو دافع ديني برغم ما كان يشوبه من المظهر السياسي. وقد ظلت هذه الصبغة السياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا آراءهم السياسية بالأبحاث الدينية، فقال: إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب، فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر فهو كافر. وهكذا كانت أفكار الخوارج في الدين لا تقل شدة عن أفكارهم في السياسة. وكان لتعصبهم السياسي أثر كبير في وجهة نظرهم الدينية، فكانوا أشداء في الدين غير متسامحين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سبيلاً.

ومما امتاز به الخوارج شدة تمسكهم بالقرآن وإتباع أحكامه وتنفيذ أوامره، وكان خوفهم من عذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم التحمس للحق وشدة التمسك به والائتمار بأوامر الله واجتناب نواهيه، حتى لقد وصفهم الشهرستاني بأنهم (أهل صيام وصلاة) إلا أنهم غلوا في أفكارهم حتى عدوا مرتكب الكبيرة ـ بل مرتكب الصغيرة أيضاً ـ كافراً، وخرجوا على أئمتهم

(١) السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٦٩.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٠ ـ ١١١.

للهفوة الصغيرة يرتكبونها. ويتشدد كثير منهم في النظر إلى مخالفيهم من المسلمين فيعدونهم كفاراً، بل كانوا يعاملونهم بما هو أقسى من معاملة الكفار. يحكون أن واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، وقع في أيديهم، فادعى أنه مشرك مستجير، ورأى أن هذا ينجيه منهم أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم.

واشتد الخوارج في معاملة المخالفين لهم، حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني. وهكذا كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أشد أعمال القسوة، برغم ما كان من ظهورهم بمظهر العباد والزهاد، وتورعهم عن تافه الأشياء، وتحرجهم عن صغائر الأمور أشد التحرج. كما كانوا يأتون أفظع المنكرات وأكبر الكبائر كأنهم لا يدينون بإله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة، وهم مع ذلك يعجزون عن الإتيان بالآيات البينات من كتاب الله وأحاديث الرسول يستدلون بها على تبرير عملهم، على الرغم من أن فريقاً منهم قد شذ عنها، ففهموا من قولهم: (لا حكم إلا لله) أن المراد لا حكومة ـ أي لا حاجة إلى إمام ـ بدليل قول علي بن أبي طالب حين سمعهم يقولون هذه العبارة: (كلمة حق يراد بها باطل. نعم! إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو. وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي).

وصفوة القول أن نظرية الخوارج الأساسية في الخلافة تكاد تكون مشتركة بين جمهورهم على الأقل.

ز ـ فرق الخوارج:

تفرق الخوارج عشرين فرقة كل منها تخالف الأخرى في تعاليمها كلها أو بعضها. والآن نتكلم على أشهر هذه الفرق وما كان لها من تعاليم.

فمن فرق الخوارج: الأزارقة، وهم أصحاب نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فقهائهم. ولم تكن من الخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد شوكة من الأزارقة. وقد كفر نافع وأصحابه علياً بن أبي طالب وجميع المسلمين، وقال نافع: إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم إذا دعاهم للصلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم، وهم في نظره مثل كفار العرب وعبدة الأوثان، كما قال عن بلادهم إنها دار حرب. ويحل قتالهم وقتل أطفالهم ونسائهم لأنهم كانوا يعتقدون أن أطفال مخالفيهم مشركون وأنهم مخلدون في النار.

وكان نافع لا يجيز التقية في قول ولا في عمل، لأن الله تعالى يقول: ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾. وكان يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة الذين كانوا على رأيه عن القتال مع قدرتهم عليه أو عن الهجرة إليهم، وأوجب امتحان من ينضمون

إليهم. وكانوا يدفعون إليه واحداً من أسرى مخالفيهم ويأمرونه بقتله، فإن قتله صدقوه وإن لم يقتله قالوا هذا منافق ومشرك وقتلوه[١]. وكذلك يكفرون مرتكب الكبيرة مستدلين بكفر إبليس الذي يقولون عنه إنه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى وقال: ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾.

وزاد نافع أن أسقط حد الرجم على الزاني المحصن لأنه لم يرد نص عليه في القرآن[٢]. وأسقط الحد عمن قذف الرجل المحصن، ولكنه أقامه على من قذف المحصنات من النساء، وحكم بقطع يد السارق في القليل والكثير، وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها[٣].

ومن فرق الخوارج النجدية: وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي. ومن تعاليمه التي انفرد بها، أن المخطىء بعد أن يجتهد معذور، وأن الدين أمران: معرفة الله ومعرفة رسوله، وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والإقرار بما جاء من عند الله جملة[٤]. وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهلهم إلى أن تقوم عليهم الحجة، ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور، ومن خاف العذاب على المجتهد المخطىء قبل قيام الحجة عليه فهو كافر. وعظم جريمة الكذب[٥] على الزنا وأسقط حد شرب الخمر[٦]، وأجاز التقية[٧]، واحتج بقوله تعالى: ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ كما قال إن القعود عن القتال جائز، والجهاد إذا أمكن كان أفضل، واستدل بقوله تعالى: ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾. واستحل دماء أهل الذمة وأموالهم وحكم بالبراءة ممن حرمها، وأجاز عدم إقامة إمام، وإنما على الناس أن ينصف بعضهم بعضاً فيما بينهم، فإن رأوا أن ذلك لا يتم بحملهم عليه فأقاموه جاز[٨].

أما البيهسية من الخوارج فهم أصحاب أبي بيهس بن جابر. ومن تعاليمه أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ، والولاية لأولياء الله. وكان يكفر

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٦٣.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٤.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٢ ـ ١٦٥.

(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٦٨.

(٥) قال: من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك ومن زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر فهو مسلم إذا كان من موافقيه (الفرق بين الفرق ص ٦٨).

(٦) الفرق بين الفرق ص ٦٨. يقول الشهرستاني (جـ ١ ص ٦٦): إنه غلظ على الناس تغليظاً شديداً.

(٧) هي اتقاء أذى الخصم بأن يكتم عنه اعتقاده عن غيره.

(٨) الشهرستاني جـ ١ ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

الواقفية(١)، لأنه يعتبر أن من بين الأشياء التي جاء بها النبي والتي تجب معرفتها. المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها، فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها. ويقول إن هناك أشياء أخرى يجب على المسلم ألا يعرفها إلا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها. وكان يقول: إن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل. أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله ﷺ تحل الإقامة معهم كما فعل المسلمون في إقامتهم.

والإباضية من الخوارج هم أتباع عبد الله بن إباض التميمي. ويختلفون عن بقية فرق الخوارج في أنهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم. ولعل هذا يرجع إلى طبيعة ظروف نشأتهم، فإن صاحبهم عبد الله بن إباض لم يخرج إلا في أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الأمويون على الخوارج أو كادوا، وبعد أن كاد اليأس يدب إلى الأحزاب، وتحول نضالهم حول الحكم إلى آراء ومذاهب تكاد تكون علمية بحتة، بل قالوا إنه يجهل التزوج منهم، وأن يتوارث الخارجي وغيره.

وهم إلى المسألة أميل، حتى أنهم قالوا إنه لا يحل قتل الخوارج غيلة ولا يحل سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال. فإذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل. أما الذهب والفضة أو غيرهما فإنهم يردونه إلى أعدائهم وكانوا يرون أن بلاد مخالفيهم من المسلمين هي ديار توحيد إلا معسكر السلطان (يقصدون منها حاكم بني أمية أو غيره من الأمراء الجائرين)، فإنه دار بغي. كما قالوا: إن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة موحد مؤمن، فهو كافر كفر نعمة لا كفر ملة(٢)، وإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً، ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة إلى المؤمن فحسب، بل إن الكافر مطالب بها أيضاً، وليس في القرآن تخصيص الأمر أو النهي بواحد منهما، وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم(٣).

ومن فرق الخوارج أيضاً الصفرية: وهم أصحاب زياد بن الأصفر، وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ما داموا متفقين في الدين والاعتقاد، وقال: إن التقية جائزة في القول دون العمل ولم يحكم بقتل أطفال المشركين ولا بتكفيرهم أو تخليدهم في النار، وفرق بين الكبائر

---

(١) وهم الذين يقولون إنا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحلال أم حرام.

(٢) أي أنه مؤمن بالله وبوحدانيته وبالرسول، ولكنه مقصر في شكر نعمة الله عليه فهو كافر بفضل الله عليه وجاحد له وإلا لما ارتكب ما نهاه عنه الله

(٣) هم أربع فرق: الحفصية والحارثية واليزيدية وأصحاب طاعة لا يراد بها الله (أي من يرون أن النفاق والرياء في طاعة الله لا يكفر) غير أنهم أجمعوا على أمور منها ما ذكرنا: ومنها القول بإمامة عبد الله بن إباض، وبأن كفار هذه الأمة أو كفار أهل القبلة (ويعنون مخالفيهم من المسلمين) ليسوا مشركين وليسوا مؤمنين، ولكنهم كفار (أي كفروا بنعمة الله وجحدوها ولو أنهم مؤمنون بألوهيته)، وأجازوا شهادة هؤلاء عليهم في القضايا (الفرق بين الفرق ص ٨٢ - ٨٣)

التي يلزم فيها والتي لا حد عليها[١]، فلم يكفر مرتكب الأولى[٢]، إنما كفر مرتكب الثانية[٣].

هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج. وإن الناظر إلى مذاهبهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار وعبدة الأوثان فلا عجب إذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة، وشغلوا - كما رأينا - الحزب الأموي وغيره مدة طويلة، وكلفوا الأمة الإسلامية ثمناً غالياً من الأرواح والأموال.

يرى نيكلسون[٤] أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ، وبرغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة؛ مما أدى إلى إخفاقهم. وقد لانت قناتهم قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم ويسود أفكارهم، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادتهم واستئصال شأفتهم. ويرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين.

وقد أصاب نيكلسون فيما ذهب إليه. فإنه ليس أدل على زهد هؤلاء الخوارج في حطام الدنيا وزينتها مما ذكره الطبري (٧: ٢٤٨) عن شبيب الخارجي وقد انتهى إلى إحدى المدن، فندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها. (فساروا حتى أتوا دار العامل ونادوا: أجيبوا الأمير، فقالوا: أي الأمراء؟ قالوا: أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيباً، فاغتر العامل بذلك وخرج إليهم، فضربوا عنقه، وقبضوا على ما كان في دار الإمارة من مال ولحقوا بشبيب. فلما انتهوا إليه قال: ما الذي أتيتمونا به؟ قالوا: جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال، والمال على دابة في بدره، فقال شبيب: أتيتمونا بفتنة للمسلمين. علم الحربة يا غلام؟ فخرق بها البدر وأمر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدره حتى وردت الصراة، فقال: إن بقي شيء فاقذفه في الماء).

---

(١) لعظم قدرها وفظاعة الجريمة فيها حتى لا يكفر عن الإنسان سيئتها أي عقوبة في الدنيا، ومثلوا لهذا النوع من الكبائر بترك الصلاة.

(٢) قالوا لا يصح أن يسمى إلا باسم الحد الذي يوقع عليه. فإذا سرق أو قذف قيل إنه سارق أو قاذف، ولا يصح أن يسمى كافراً أو مشركاً.

(٣) روى الشهرستاني أن زياداً (إمامهم) قال: الشرك شركان: شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان، والكفر كفران: كفر بالنعمة، وكفر بإنكار الربوبية، والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود (هم من يرتكبون جريمة السرقة أو جريمة الزنا أو القذف. .) وهي سنة وبراءة من أهل الجحود وهي فريضة (جـ ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥).

(٤) p.221.

٥ ـ الشيعة

أ ـ نشأة الشيعة:

اعتقد أنصار علي بن أبي طالب أنه أحق بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان أخذوا حق الإمامة المقدس من علي. وأتاح تذمر المسلمين من سياسة عثمان الفرصة لأنصار علي لتحويل الخلافة إلى أهل البيت، وأذكى نيران الثورة أبو ذر الغفاري بتحريض ابن سبأ الذي أخذ يتنقل بين الولايات الإسلامية. ووضع عقائد مذهب الشيعة الغالية في الإسلام، وانتهى به المطاف إلى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين، وأرسل دعاته إلى الأمصار الإسلامية لنشر الدعوة لعلي، ووضع مذهب الرجعة أي رجعة محمد ﷺ وقال في ذلك: «إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد» وقد قال الله عز وجل: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ [سورة القصص ٢٨ : ٨٥]. وزاد ابن سبأ أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى. ومن هنا نشأ في الإسلام مذهب تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر.

كما نشر ابن سبأ مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم، بمعنى أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين، وأنهم من ناوءوا علياً وتعدوا على حقه في الإمامة. كماأخذ عن الفرس الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي نظرية الحق الإلهي، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله سبحانه. وأعلن ابن سبأ (أن عثمان أخذها (أي الخلافة) بغير حق. وهذا وصي رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر)[١].

ولما ولي علي الخلافة تطور مذهب السبئية. ذكر ابن حزم[٢] أن قوماً من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا علياً وقالوا له: (أنت هو)، فقال لهم: (ومن هو؟) فقالوا: (أنت الله). فغضب علي وأظهر الجد وأمر بنار فأوقدت، وأمر مولاه قنبراً بأن يلقي بهؤلاء الرجال فيها. فجعلوا يقولون وهم يلقون في النار، (الآن صح عندنا أنه الله)!

أمر علي بنفي ابن سبأ إلى المدائن، ولكن هذا لم يثنه عن مواصلة الدعوة لعلي. فلما مات علي قالت السبئية برجعته وتوقفه. وذكر ابن حزم[٣] أن ابن سبأ لما بلغه قتل علي قال: «لو

(١) الطبري (طبعه دي غويه) ١. ٢٩٤٢.
(٢) الملل والنحل جـ ٤ ص ١٨٦.
(٣) الشهرستاني جـ ٤ ص ١٨٠.

أتيتموني بدماغه سبعين مرة لما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» . وكذلك ذهبت السبئية إلى القول أن علياً يجيء في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره على ما ذهب إليه بعض)، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً[1].

ولما قتل علي دعا العرب إلى ابنه الحسن، وذكر المسعودي[2] أنه استخلف في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ إلا أن خلافته لم يطل أمدها لما أشيع عن انهزام جيوشه أمام جند الشام وتخلى أهل العراق عنه، فلم يجد بدًّا من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين.

على أن الدافع الحقيقي الذي حمل الحسن على النزول عن الخلافة، إنما يرجع ـ على ما ذهب إليه اليعقوبي[3] ـ إلى أنه لم يعد بحيث يستطيع أن يقف في وجه معاوية. ذكر الطبري (جـ ٦ ص ٩٢) عن السبب الحقيقي الذي حدا الحسن على النزول لمعاوية عن الخلافة: «وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن. وكان عم المختار بن أبي عبيد عاملاً على المدائن، وكان اسمه سعد بن مسعود، فقال له المختار وهو غلام شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية، فقال له سعد: عليك لعنة الله! أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ، فأوثقه، بئس الرجل أنت! فلما رأى الحسن عليه السلام تفرق الأمر عنه، بعث إلى معاوية يطلب الصلح، وبعث معاوية إليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، فقاما على الحسن بالمدائن فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها. ثم قام الحسن في أهل العراق فقال: إنه سخى بنفسه عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي، ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس»

ب ـ الشيعة في عهد معاوية:

خمدت روح التشجيع في نفوس أهل الكوفة وانضووا تحت لواء معاوية الذي أصبح صاحب السلطان المطلق على أثر نزول الحسن بن علي له عن الخلافة ومغادرته الكوفة إلى المدينة. بيد أن السياسة التي سار عليها معاوية من سب علي بن أبي طالب وأهل بيته على المنابر أثارت حنق الشيعيين عليه. ذلك أن معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة أمره

(١) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١١ . انظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٥ ـ ١٢ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣١ .
(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٥٥ .

بلعن علي، فأخذ المغيرة في لعنه كلما قام خطيباً. وبينما هو يخطب ذات مرة سب علياً ومدح عثمان، فقام حجر بن عدي وقال له: «إن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل، وإن من تزكون وتطرون أولى بالذم»[1]. فقال له المغيرة: «ويحك يا حجر! اتقِ السلطان وغضبه وسطوته فإن غضب السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك».

ظل حجر بن عدي على سياسته العدائية ضد سلطان بني أمية حتى مات المغيرة وولي الكوفة بعده زياد بن أبيه، فسار على سنة من كان قبله في سب علي، فزاد هذا في حنق حجر ومن معه، وأخذوا يعقدون الاجتماعات لسب معاوية. فلما نمى خبر هذه الاجتماعات إلى زياد غادر البصرة إلى الكوفة وأمر رئيس شرطته أن يأتي بحجر. فلما ذهب إليه سبه أصحاب حجر ومنعوه من أن يصل إليه، فجمع زياد أهل الكوفة وقال لهم: «تشجعون[2] بيد وتواسون بأخرى، أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق، هذا والله من رجسكم، والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم»، فقالوا: معاذ الله أن يكون لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك، ثم أمر زياد صاحب شرطته مرة أخرى أن يقبض على حجر ويحضره إليه فتم له ذلك. ولم يلبث زياد أن أرسل حجراً وأصحابه إلى معاوية[3]، فقتل منهم ثمانية وعفا عن ستة تبرءوا من علي بن أبي طالب (سنة ٥١ هـ).

بذلك ضعفت الشيعة وأصبح التشيع أمراً نظرياً. ولا غرو فقد كان بعضهم ينقصهم الحماس والإخلاص للمبدأ الذي كانوا يعتنقونه، ولم يكونوا كالخوارج في شجاعتهم وإخلاصهم لمبادئهم التي كانوا يضحون في سبيلها بأنفسهم.

جـ - خروج الحسين بن علي - مأساة كربلاء - التوابون:

ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة أرسل إلى الوليد بن عقبة - وكان عامله على المدينة - أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة في الحجاز، فامتنع عبد الله بن الزبير وفر إلى مكة، وخرج الحسين بن علي من المدينة وسار إلى مكة دون أن يبايع يزيد وكاتب الشيعة بالكوفة، فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتاباً جاء فيه: «إنه ليس علينا إمام، فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن النعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد. ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام». ثم أتبعوا هذا الكتاب بكتب

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٤٣.
(٢) من الشح وهو الجرح.
(٣) الطبري جـ ٦ ص ١٥٠.

أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذين حضروا الاجتماع. وطلبوا منه أن يبادر إلى الذهاب إلى الكوفة(١).

وقد قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٦٠ هـ. فلما وصلت هذه الكتب إلى الحسين أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل ليتبين حقيقة الأمر، فسار إلى الكوفة حيث التف حوله كثير من الشيعيين وبايعوه على النصر، فاغتر بما شاهده منهم وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة.

وفي هذه الأثناء عزل يزيد النعمان بن بشير عن الكوفة لضعفه، أو لأنه كان يؤثر العافية ويحب السلم، وولى مكانه عبيد الله بن زياد أمير البصرة وأصبح أميراً على البلدين. فأخذ الشيعة بالشدة، وتفرق عن مسلم بن عقيل كثير من أهل الكوفة، فاستجار بهانيء بن عروة المرادي، فقتلهما عبيد الله بن زياد.

أما الحسين فإنه لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل. ولما استبطأ أخبار مسلم وعزم على الخروج، نصح له عبد الرحمن بن الحارث وعبد الله بن العباس أن يعدل عن الخروج وأن يسير إلى اليمن. وقد قيل إن الحسين كان يعرف ما يحدق به من خطر إذا بقي في مكة، لأن بني أمية سوف يتعقبونه حتى يقتلونه في الحجاز. لذلك آثر أن يكون قتله بعيداً عن البيت الحرام. ولما رأى عبد الله بن العباس إصرار الحسين على الخوارج قال له: فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فإني خائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه.

ولكن الحسين لم يلتفت إلى نصح الناصحين، بل سار إلى الكوفة على رأس فئة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلاً، ولم يكن قد علم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان الشيعة له، ولقي الفرزدق في الطريق فسأله عن أهل الكوفة فقال له: (خلفت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية عليك).

فلما دنا الحسين من الكوفة وعلم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان أهلها له، قابله الحر بن يزيد التميمي وقال له: ارجع فإني لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه. من ثم داخل الحسين الشك وهم بالرجوع. غير أن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بثأر أخيهم أو يقتلوا دونه، فنزل الحسين على رأيهم وسار حتى لقيته خيل ابن زياد، فعدل إلى كربلاء حيث نشب القتال في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ. «ثم قتل الحسين عليه السلام - كما يقول صاحب الفخري (ص ١٠٧) - قتلة شنيعة، ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر والاحتساب والشجاعة والورع

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٣ - ٤.

والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة؛ ومن أهله وأصحابه رضي الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس وكراهية للحياة بعده، والمقاتلة بين يديه عن بصيرة ما لم يشاهد مثله. ووقع النهب والسبي في عسكره وذراريه عليهم السلام، ثم حمل النساء رأسه صلوات الله عليه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة » .

كان لمقتل الحسين في أرض كربلاء التي أصبحت ملطخة بدمائه ودماء أهل بيته أثر بعيد في إذكاء نار التشيع في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم، وكانوا قبل ذلك متفرقي الكلمة مشتتي الأهواء، إذ كان التشيع قبل مقتله رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة. فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل في أعماق قلوبهم وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم.

وعلى أثر مقتل الحسين انتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم به رابطة النسب، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأنقى دم فارسي. لذلك لا تعجب إذا أخذ شعور العداء منذ ذلك الوقت يثور لأوهى الأسباب. يؤيد هذا أن عبيد الله بن زياد لما ارتقى المنبر بعد قتل الحسين وخطب خطبته التي جاء فيها: (الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته)، قام عبد الله بن عفيف، وأخذ يفند قوله بهذه الكلمات المملوءة حنقاً المفعمة سخطاً على بني أمية وولاتهم فقال: (يا عدو الله! إن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه. تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين)[1]؟.

وقد وصف صاحب الفخري (ص ١٠٦) موقعة كربلاء فقال: (هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاماً لها واستفظاعاً. فإنها قضية لم يجر في الإسلام أعظم فحشاً منها. ولعمري إن قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامة الكبرى، ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبي أو التمثيل ما تقشعر له الجلود. واكتفيت أيضاً عن بسط القول فيها بشهرتها فإنها أشهر الطامات. فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضي بشيء منها ولا تقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وجعله من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. (سورة الكهف ١٨: ١٠٣ ـ ١٠٤)

ولنأت الآن برأي مؤرخ شرقي مسلم عن هذه الموقعة وما كان لها من أثر في نفوس الشيعة خاصة والمسلمين عامة، وهو سيد أمير علي[2]:

(لقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع في جميع البلاد الإسلامية، كما أذكت في نفوس أهل بلاد الفرس ذلك الحماس الوطني الذي ساعد بني العباس على ثل عرش الأمويين

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ١٤ ـ ١٥.

(٢) p. 87

وإسقـاط دولتهم).

وكذلك علق نيكلسون[١] على مأساة كربلاء بهذه الكلمات فقال: (يعتبر جميع المؤرخين الإسـلاميين الذين يكـادون يجمعون ـ مـع استثناء القليـل النـادر منهم ـ على بغض الأمـويين والعـداء لهم، ويعتبرون الحسين بن علي شهيـداً في الوقت الـذي يعتبرون يـزيد بن معـاوية سفاكاً؛ على حين يرى جمهرة المؤرخين المحدثين رأي سير وليم ميـور الذي يـذهب إلى أن الحسين بانسياقه إلى تدبير الخيانـة سعياً وراء العـرش ارتكب جريمـة هددت كيـان المجتمع وتطلبت من أولي الأمر (في الدولة الأموية) التعجيل بقمعها.

وكان هذا بطبيعة الحال وجهة نظر الفريق الذي كان بيـده النفوذ والسلطان. وأمـا حكم التاريخ في هذا الموضوع ـ إذا تصدينا لبحثه وتمحيصه ـ فلن يعدو أن يكون حكم الدين على الملكية أو قضاء الحكومة الدينية على الدولة العربية. وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ بحق بإدانة الأمويين. على أنه يجمل بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له في نظر المسلمين. وقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يندموا على ما فرطت أيديهم، إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة فصاحوا صيحة واحدة: الأخذ بثأر الحسين، هذا النداء الذي دوى في كل مكان وعلى الأخص عند الموالي من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب.

هذه العبارات تصف حال الأمة العربية وصفاً دقيقاً في ذلك الحين، حتى أن العداء بين الأمويين والعلويين غدا شديد الخطر بعد مقتل الحسين وقتل كثير من ذوي قرباه.

اشتد شعور العداء بعد مقتل الحسين وتفاقم سخط سائر المسلمين وحنقهم على بني أمية وولاتهم. وفي عهد مروان بن الحكم غلا مرجـل هذا العـداء وتحركت الشيعـة بالكـوفة سنـة ٦٥ هـ، فتلاقوا وندموا على ما فرطوا في حق الحسين وخذلانهم إياه وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم، وتابوا كما فعلوا، فسموا التوابين. ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأره ومقاتلة قتلته، وإقرار الحق في نصابه بتنصيب رجل من أهل البيت، وأمروا عليهم رجلاً منهم اسمـه سليمان بن صـرد، ثم دعوا النـاس للأخـذ بثأر الحسين، ونـظموا القصـائد في رثـائـه والتحريض على القتال.

اجتمع التوابون وساروا حتى وصلوا إلى عين الوردة (٦٥ هـ)، حيث اشتبكوا بعبيـد الله ابن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق، ثم أقـره عبد الملك بن مـروان عليها، ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمـدائن. ولما تـلاقى الجيشان، حلت الهـزيمة بالشيعيين بعد أن أبلوا بلاءً حسناً وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم[٢].

---

(١) pp 197 - 198.

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٧٣ ـ ٧٩.

د ـ المختار بن أبي عبيد:

ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنة ٦٦ هـ. وكان ذا أطماع كبيرة؛ تقلب كثيراً في الأحزاب. واتصل أخيراً بعبد الله بن الزبير وأراد أن يكون وزيراً له، ولكن بن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب: فقد كان أموياً ثم زبيرياً. ولما لم يجد من ابن الزبير ما كان يؤمله رجع إلى الكوفة وانضم إلى الشيعة، واستغل ثورة التوابين لنيل اغراضه ومراميه ضد ابن الزبير والأمويين، واستتر وراء ابن الحنفية وادعى أنه أميره ووزيره، وذلك لتنفيذ أغراضه والوصول إلى الخلافة، وبذلك وقف في وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وانضوت الشيعة تحت لوائه، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول في الدعوة التي قام بها ابن الزبير في مكة.

أما ما كان من أعمال المختار الحربية، فإنه بعد أن انضمت إليه فلول جيش التوابين والموالي الذين تعلقوا بحب آل البيت، وثب على عامل الكوفة من قبل ابن الزبير فطرده. ولما أتيحت له الفرصة أرسل إلى الكوفة جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد والأخذ بثأر الحسين بعد أن عجز التوابون عن الأخذ بالثأر.

سار إبراهيم حتى لقي ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر الخازر[1]، فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وكثير من أشراف أهل الشام وحمل رأسه إلى المختار، فبعث به إلى ابن الزبير بمكة، وكان من أثر انتصار المختار على ابن زياد أن ازداد تعلق الشيعة به والتف حوله كثير منهم.

ولما استفحل أمر المختار عمل ابن الزبير على الإيقاع به. فأرسل إليه جيشاً بقيادة أخيه مصعب بعد أن ولاه العراق. وقد عمل مصعب على استخلاص هذه البلاد من المختار، فوقعت بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ هـ حرب كان النصر فيها حليف مصعب بعد أن قتل المختار وسبعة آلاف من أتباعه الذين طالبوا بدم الحسين، واستولى مصعب بن الزبير على الكوفة.

وقد ظل عبد الملك في الشام يرقب الحوادث، فترك عبد الله بن الزبير يقاتل الشيعة والخوارج دون أن يتعرض لهم. ولا شك أنه كان يرمي بسياسته هذه إلى إضعاف قوة ابن الزبير، فلم يكد مصعب يفرغ من قتال المختار حتى خرج إليه عبد الملك بن مروان بعد أن هادن امبراطور الروم حين أغار على المصيصة سنة ٧٠ هـ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيغير على بلاد الشام، وبعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدي إليه نحو خمسين ألف دينار في كل عام؛ غير أنه عاد فقطعها عندما انقشعت سحب الصعاب التي

---

(١) بفتح الزاي وكسرها وبعدها راء: هو نهر بين إربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل ويصب في دجلة.

كانت تحيط به. ولما وثق عبد الملك من أن الروم لن يغيروا على بلاده في أثناء محاربته ابن الزبير، سار من الشام إلى العراق بحذاء الفرات.

وانتهز عمرو بن سعيد بن العاص فرصة انشغال عبد الملك بحرب ابن الزبير في العراق وشق عصا طاعته ودعا الناس إلى بيعته في دمشق، فلم ير الخليفة الأموي بداً من العودة إلى دمشق، وما زال بعمرو حتى ثناه عن رأيه بعد أن مناه ولاية العهد(١).

وقد عرف عمرو بن سعيد بالفصاحة والبلاغة والشهامة والإقدام، وكان يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك؛ فكتب إليه عبد الملك: (إنك لتطمع نفسك بالخلافة ولست لها بأهل)، فرد عليه عمرو يهدده ويتوعده في كتاب ينم عن الازدراء والاستهتار(٢).

هـ ـ الكيسانية:

فَتَّ إباء محمد بن الحنفية عن الدخول فيما قام به عبد الله بن الزبير في عضد هذه الدعوة وهيأ للمختار فرصة سانحة لتكوين حزب شيعي جديد هو حزب الكيسانية. بيد أن الجهود التي بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل.

قامت ثورة المختار في خلافة عبد الملك بن مروان. وقد قارن فان فلوتن بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال: يظهر أن عقيدة السبئية بنيت على الرأي القديم القائل بتجسد الألوهية. وزاد هذا المؤرخ أن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعي الآخر وهو حزب الكيسانية الذي ظهر في بادىء أمره بالكوفة تحت زعامة المختار حين ثار بها(٣). وعلى الرغم من عقيدتهم الأصلية وهي القول بإمامة محمد بن الحنفية بعد أبيه علي، يغالي الكيسانية في اعتقادهم بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية، فيذهبون إلى أن ابن الحنفية هو الإمام، ويعتقدون أنه أحاط بالعلوم كلها(٤)، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا إليه بالأسرار وبعلم التأويل والباطن(٥). وانتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة إلى القول بضرورة طاعته، إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون الإلهي (وهذا ما يميزهم عن غيرهم من المعتدلين من الشيعة).

---

(١) اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٢) المسعودي جـ ٢ ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٣) ذكر الشهرستاني (جـ ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام في القرن الخامس الميلادي)، والبراهمة في الهند، والفلاسفة القدماء والصابئة.

(٤) قيل: إن ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد وحذا حذوه غيره من الأئمة. قال فان فلوتن: وهنا يسأل المرء بأي مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المغرقة في الغلو التي كانت أشخاصهم السبب في ظهورها؟.

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ١٩٦ ـ ١٩٨.

ويعتقد الكيسانية في البداء، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد، وفي تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر، وفي الرجعة، أي رجعة محمد بن الحنفية؛ كما يعتقدون بنبوة علي والحسن والحسين وابن الحنفية. على أنهم يختلفون في أن ابن الحنفية ورث الإمامة عن علي مباشرة أو عن طريق أخويه الحسن والحسين. ويقول النوبختي[١]:

(وفرق قالت بإمامة محمد بن الحنفية، لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه، وادّعى (المختار) أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الإمام بعد أبيه. وكان يقول إن محمد بن الحنفية وصي علي بن أبي طالب، وأنه الإمام المختار قيمه وعامله).

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفية، واستفزتهم الأخبار التي ذاعت عن موته، فاعتقدوا أنه يقيم في جبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة[٢]. وأن عودته ستكون من هذا المكان. وقد نظم كُثَيِّر عزة والسيد الحميري أشعاراً كثيرة في هذا الاعتقاد حتى غدا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيساني. يقول كثير عزّة المتوفى سنة ١٠٥ (٧٢٣ م):

ألا إنَّ الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعةٌ سواء
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسبط غيبته كرْبلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً ... برضوى[١] عنده عسل وماء

ويقول الشهرستاني (١٩٦٠١): (إن جميع الكيسانية يعتقدون أن الدين طاعة رجل، وأن طاعتهم ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام كالصلاة والصوم والحج وهكذا).

وقد تكلم فان فلوتن[٣] عن الإمام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال: (إن السبئية، وإن كانوا يعتبرون إمامهم شخصاً مقدساً بطبيعته، فإن الكيسانية يبذلون له الطاعة باعتباره رجلاً رفيع المنزلة محيطاً بعلوم ما وراء الطبيعة).

هذا موجز عما بثه المختار بن أبي عبيد في نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع، لا يخفى على القارىء بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين الإسلامي.

---

(١) كتاب فرق الشيعة ص ٢٠ ـ ٢١

(٢) هو جبل قرب ينبع منيف ذو شعاب وأودية وبه أشجار ومياه كثيرة حتى ليرى من ينبع أخضر اللون.

(٣) السيادة العربية، ترجمة المؤلف، ص ٨٢.

ر ـ خروج زيد بن علي بن زين العابدين:

وفي عهد هشام خرج زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. وكان يحدث نفسه بالخلافة، ويرى أنه أحق بها حتى كانت أيام هشام بن عبد الملك. ذكر المسعودي (مروج جـ ٢ ص ١٨١) أن زيداً دخل على هشام، فلم يحفل به هو ولا رجال بلاطه، فجلس حيث انتهى به مجلسه فقال: يا أمير المؤمنين! ليس حد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله؛ فانتهره هشام وقال له: أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة، واتهمه هشام بوديعة لخالد بن عبد الله القسري أمير الكوفة، فبعث به إلى يوسف بن عمر الثقفي والي العراق من قبل هشام. فاستحلفه أنه ليس عنده مال لخالد فخلى سبيله[1].

فلما عاد زيد إلى المدينة تبعه زهاء خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة، وقيل أربعون ألفاً، وحرضوه على الخروج. ولما ظهر أمره حاربه يوسف بن عمر فتفرق أصحاب زيد عنه، وخذلوه، وحارب في نفر قليل فأصابه سهم في جنبه فمات من ساعته، ودفنه أصحابه في ساقية وأجروا الماء على قبره خوفاً أن يمثل به. وقد دل بعض العبيد يوسف على جثة زيد، فنبش القبر وأخرجها وصلبها، ثم حرقها وذرّ رمادها في الفرات[2].

وإلى زيد تنسب جماعة الزيدية التي تفرعت منها جماعة الرافضة. ويرجع السبب في تسميتهم (الرافضة) إلى أن زيداً لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفي قالوا له: (إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب). فقال زيد: (إني لا أقول فيهما إلا خيراً وما سمعت أبي يقول فيهما إلا خيراً. وإنما خرجت على بني أمية لأنهم قتلوا جدي الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار)، ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم: رفضتموني، فأطلق عليهم الرافضة.

انقسمت الزيدية بعد موت زيد إلى طوائف عدة، فظل فريق منهم على ولائه لزيد، وبايعوا ابنه يحيى وقاتلوا معه في خراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م)، إلا أن أمره قد آل إلى ما آل إليه أمر أبيه من قبل، إذ أصابته نشابة فمات، وحز رأسه وصلب ثم أحرق حتى صار رماداً تذروه الرياح[3].

---

(١) الفخري ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) كانت الزيدية ثماني فرق: الأولى: الجارودية وهم أصحاب أبي الجارود زياد بن المنذر العبدي، وذهبوا إلى أن الإمامة مقصورة في ولد الحسن والحسين دون غيرهما، الثانية: المرتدية، الثالثة: الأبرقية، الرابعة: اليعقوبية وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي، الخامسة: العقبية، السادسة: الأبترية وهم أصحاب كثير الأبتر والحسن بن صالح بن جني، السابعة: الجريرية وهم أصحاب سليمان بن جرير، الثامنة اليمانية وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفي، وقد غلا =

ز - عقيـدة المهـدي:

يقول فان فلوتن: (إن الاعتقاد بظهور المهدي وانتظاره لم يقتصر في بادىء الأمر على آل البيت وحدهم، بل إن ذلك الاعتقاد بدأ يذاع وينتشر بين المسلمين بحسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره[١]. وقد انتشرت فكرة المهدي المنتظر عند أهل السنة، حتى محت ذكر غيره من المهديين الذين كان بعض يتنبأ بهم، مثل: السفياني المنتظر والقحطاني المنتظر وغيرهما. ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً في نفوس المسلمين، وإنما صاروا بالنسبة إلى المهدي المنتظر كالدجال بالنسبة إلى عيسى بن مريم. لذلك كان من المعقول أن يظهر عليهم ذلك المهدي، ويهزمهم هزيمة حاسمة، وينتصر عليهم انتصاراً مبيناً)[٢].

وكان البون شاسعاً بين تلك السعادة التي كان ينشدها الناس على يد المهدي المنتظر، وتلك الآلام التي كانوا يعانونها في ذلك الحين حيث الحروب الأهلية التي اشتعلت بسبب انقسام خلفاء بني أمية على أنفسهم، وبسبب تلك الإحن والأحقاد القديمة التي تفاقمت بين مضر وقحطان، تلك الحروب التي أنزلت الخراب ببلاد الشام حيث اندلع لهيبها أول الأمر، ثم تطاير شررها إلى غيرها من الولايات الإسلامية.

وقد ساد الاضطراب كافة أنحاء الدولة الأموية، واستولى على العرب من جديد الميل إلى الحرب والكفاح. فرفع الشيعة والخوارج رءوسهم، وظلت الحاميات السورية وحدها على ولائها للعرش الأموي، على حين كان المرابطون من الجنود العربية يشايعون أعداء الحكومة، حتى كادت تلك الفتن تقضي على ذلك التراث الذي خلفه النبي ﷺ، وتودي بذلك الإصلاح الذي قام به كل من أبي بكر وعمر. وهكذا كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل.

وتصف لنا هذه الأبيات التي نظمها عباس بن الوليد حرج الدولة الأموية وما وصل إليه الخلفاء الأمويون من يأس وقنوط:

إنـي أعيـذُكُـمُ بـالله مـن فـتـن ... مثـل الجبـال تسـامى ثم تنـدفـع
إن البـريَّـة قـد ملت سيـاستكم ... فـاستمسكوا بعمـود الدين وارتـدعـوا
لا تُلحِمُنَّ[٣] ذئـاب النـاس أنفسكم ... إن الـذئـاب إذا مـا ألحمت رتعـوا

هؤلاء في المذهب وفرعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم - أبو الحسن النوبختي: كتاب فرق الشيعة ص ١٩، ٤٩، ٥٠ - ٥١.

(١) ذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلاً من موسى بن طلحة وعمر بن عبد العزيز بالمهدي.

(٢) فان فلوتن: السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) (بضم التاء والميم): لا تطعموا.

لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع [١]

يقول فان فلوتن[٢]: هل كان الناس يعتقدون إزاء تلك الحالة السيئة بقرب ظهور المهدي (المخلص)؟ كل ذلك ممكن، بل من المحتمل جداً أن هذا الأمل كان العزاء الوحيد للتقاة من المسلمين (أهل السنة). ومع ذلك فلا ندهش إذا رأينا نبوءة أخرى تشغل الأذهان في ذلك الحين. لذلك كان من الضروري ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتي عليه ليعيد السبيل لذلك المهدي المنتظر. وهكذا ظهرت بجانب تلك النبوءات القديمة نبوءة أخرى هي نبوءة الرجل ذي الأعلام السود[٣] الذي يخرج من المشرق ويزيل عرش بني أمية[٤].

على أن دعوى الحارث هذه لم تصادف شيئاً من النجاح. فقد ظلت الحكومة وأنصارها من العرب اليمنية القحطانية صاحبة النصر والظفر. بيد أن ذلك الأمل الذي كان الحارث بن سريج أول من بعثه في النفوس لم يخب بعد، كما كان العامل الوحيد الذي جذب إلى الدعوة العباسية جميع هؤلاء الذين كانوا يشاطرون الحارث ميوله وآراءه السياسية. وليس بعيداً أن يكون الحارث قد اعتمد في دعوته هذه على هذا الحديث المشهور الذي رواه أبو داود[٥]: (ويخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث، على مقدمته رجل يقال له منصور، يوطىء أو يمكن لآل محمد، كما مكنت قريش لرسول الله ﷺ، وجب على كل نصره). ولم يلبث هذا الحديث - إن صح - أن أصبح نبوءة من تلك النبوءات التي وردت في كتب التكهن.

٦ - حزب الزبيريين

أ - نشأة حزب الزبيريين:

يرى كثير من المؤرخين أن نشأة هذا الحزب ترجع إلى الوقت الذي دعا فيه عبد الله بن الزبير إلى نفسه بمكة سنة ٦٣ هـ. على أننا نرى أن نواة هذا الحزب قد ظهرت بعد الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان. وخروج طلحة والزبير وعائشة على علي بن أبي طالب.

فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من تأمير عثمان له على داره سبباً كافياً لأحقيته بالخلافة، لأن استخلاف عثمان له دون أصحابه الذين كانوا معه يدل على كفاءته ومقدرته على القيام بمهام الأمور. وقد استند في ذلك إلى تأمير الرسول أبا بكر للصلاة وهو في مرضه الأخير مما عده

---

(١) الطبري (طبعة دي غوية) ٢ : ١٧٨٨ .

(٢) السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(٣) كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين فاتخذ العباسيون السواد شعاراً لهم حداداً على الشهداء من آل البيت.

(٤) انظر المبرد: كتاب الكامل ص ٥٨٥ . الطبري (طبعة دي غوية) ٢ : ١٩٢٩ وما يليها.

(٥) كتاب السنن جـ ٢ ص ١٣٥ .

المسلمون كافياً لإسناد الخلافة إليه. فلا عجب إذا صار ابن الزبير يتحين الفرص من ذلك الوقت للوصول إلى الخلافة.

وكان عبد الله بن الزبير في عهد علي يرى أحقيته بالخلافة؛ ويعمل على تحقيق أغراضه، فأوقع بين معاوية وبين علي الذي وقف على ما تنطوي عليه أغراضه، فخاطب أباه الزبير في شأن ابنه عبد الله وقال له: (لقد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا)[١]. كما عمل عبد الله بن الزبير على تقوية حزب الزبير وطلحة وعائشة طمعاً في الخلافة. ولا غرو فقد كان يد هذا الحزب ولسانه الناطق، وكان لا يألوا جهداً في جمع كلمته. ولا عجب فقد كان عبد الله ربيباً في بيت خالته عائشة أم المؤمنين التي كانت تسعى لتحويل الخلافة إليه. وقد قيل إن مروان بن الحكم لما سار إلى طلحة والزبير وقال لهما: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة، أرسلت إليه عائشة رسولاً يقول له: (فليصل بالناس ابن أختي)[٢]، تريد عبد الله بن الزبير.

وقد بينا كيف ثنى عبد الله بن الزبير عزم خالته عائشة عن العودة إلى المدينة حين نبحتها كلاب الحوأب، وكيف ألح على أبيه الزبير بالعدول عن رأيه حين هم بالانصراف والعودة إلى المدينة، ورماه بالجبن حتى كفر عن يمينه وخاض غمار الحرب[٣].

على أننا لا نعلم أن ابن الزبير قد عارض معاوية قبل توليته يزيد العهد أو أنه خالفه في شيء، بل بالعكس نراه جندياً من جنود معاوية يشترك مع الجيوش في محاربة الأعداء. فكان في الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية سنة ٥٠ هـ بقيادة يزيد بن معاوية. ولا ريب أن معاوية كان يلمح في ابن الزبير ناحية المعارضة، فكان يترضاه ويتودد إليه ويحسن وفادته ويغدق عليه العطايا والمنح. وطالما كان يقول له: (مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواري رسول الله ويأمر له بمائة ألف). وليس ذلك ببعيد على معاوية الذي عرف بالمكر والدهاء.

ومهما يكن من شيء فقد كمن ابن الزبير في عقر داره طوال عهد معاوية تقريباً، ولعل هزيمة حزب طلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل كان لها أثر في انزوائه وعدم معارضته. على أنه لم يظل طويلاً على هذه الحال من الجمود والاستكانة؛ فإنه لما علم بتولية يزيد العهد هب من سباته وقاد حزب المعارضة الذي وقف في وجه معاوية، وعمل على إحباط مساعيه في هذه السبيل.

تطورت دعوة ابن الزبير بعد موت معاوية بن أبي سفيان، فقد خلا له الجو بعد مقتل

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٢٠٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٨٨.
(٣) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٢٠١.

الحسين بن علي ـ على ما تقدم ـ فدعا إلى نفسه سنة ٦٣ هـ، وصادفت دعوته نجاحاً عظيماً في بلاد العرب والعراق. على أن امتناع محمد بن الحنفية بن علي عن مبايعة ابن الزبير ـ وكان قد بايع يزيد بن معاوية ـ قد فت في عضد ابن الزبير وساعد على ظهور حزب الكيسانية بزعامة المختار بن أبي عبيد الذي قام في الكوفة بعد مقتل الحسين.

وعلى الرغم من ذلك كله استطاع حزب الزبيريين أن يعكر صفو الأمويين ردحاً من الزمن. وكانت هناك عوامل عدة ساعدت على إثارة المسلمين على بني أمية وأتاحت الفرصة لظهور هذا الحزب. ومن هذه العوامل:

١ ـ تحول الخلافة من طريق الشورى والانتخاب إلى طريق التعيين والوراثة، ومن الحكم الجمهوري إلى الحكم الملكي، ذلك النظام الذي جرى عليه الأكاسرة والقياصرة، وما أذاعه أعداء الأمويين عن صفات يزيد الخلقية مما حط قدره وباعد بينه وبين أحقيته بالخلافة في نظر المسلمين.

٢ ـ وقوع الحوادث الجسام في عهد يزيد ولا سيما مقتل الحسين بن علي، وغزو مكة والمدينة. فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من هذه الحوادث وسيلة لإثارة شعور المسلمين على بني أمية والدعوة لنفسه بالخلافة في الحجاز.

٣ ـ معاملة ولاة بني أمية أهالي الولايات بالقسوة والعنف حتى كرهوا حكم الأمويين وانضموا إلى أعدائهم.

٤ ـ ما عرف عن عبد الله بن الزبير من الصلاح والتقوى والتمسك بالدين حتى أنه اكتسب محبة المسلمين وظفر بتأييدهم.

ب ـ الدعوة لابن الزبير:

وسرعان ما ظهر أمر ابن الزبير بمكة. روى الطبري عن هشام عن أبي محنف في خطبة لعبد الله بن الزبير أنه قال عن أهل العراق بعد مقتل الحسين: (إنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه عليهم. فلما قدم عليهم ساروا إليه وقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سالماً فيمضي فيك حكمه، وإما أن تحارب. فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة. فرحم الله حسيناً وأخزى قاتل حسين. لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانه ما كان في مثله واعظ وناه عنه، ولكنه ما حم نازل (ما قد يكون)، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع. أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً؟ لا! ولا نراهم لذلك أهلاً. أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه

منهم، وأولى به في الدين والفضل. أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام وشرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلاب الصيد (يعرض بيزيد). فسوف يلقون غياً). فثار إليه أصحابه فقالوا: أيها الرجل! أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر (وقد كان يبايع الناس سراً ويظهر أنه عائذ بالبيت) فقال لهم: لا تعجلوا! وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة، وقد كان أشد شيء عليه وعلى أصحابه، وكان مع شدته عليهم يداري ويرفق. فلما استقر عند يزيد بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة، أعطى الله عهداً ليوثقنه في سلسلة؛ فبعث بسلسلة من فضة، فمر بها البريد على مروان بن الحكم بالمدينة، فأخبر ما قدم له بالسلسلة، وبالسلسلة التي معه. ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير فأتى ابن الزبير فأخبره بممر البريد على مروان، فقال ابن الزبير: لا والله لا أكون أنا ذلك المستضعف، ورد ذلك البريد رداً رفيقاً. وعلا أمر ابن الزبير بمكة وكاتبه أهل المدينة، وقال الناس: (أما إذا هلك الحسين عليه السلام، فليس أحد ينازع ابن الزبير)[1].

استطاع ابن الزبير أن يثير أهل المدينة على ولاة يزيد حتى ثاروا وطردوا عامله (٦٣هـ). وقد بينا ما ترتب على هذا من حصار مسلم بن عقبة المري لها من ناحية الحرة وفتحها وإباحتها، وما تلا ذلك من حصار الحصين بن نمير مكة حيث دعا ابن الزبير إلى نفسه، ونشوب القتال بينهما وإحراق الكعبة. ثم توفي يزيد بن معاوية، وانقسم الأمويون على أنفسهم وكادت تضيع الخلافة من أيديهم واتسع نطاق الدعوة لابن الزبير بعد موت معاوية الثاني في الحجاز والعراق واليمن، ومصر. وانضم فريق من أهل الشام إليه: انضم إليه أهل مكة والمدينة عدا عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية، إذ كانا يعتقدان أن بني هاشم أحق بالخلافة، ودعا إلى ابن الزبير سلمة بن حنظلة التميمي في البصرة[2]. كما دخل أهل الكوفة في طاعته، ثم تبعهم سائر أهل العراق بعد أن نقضوا بيعة عبيد الله بن زياد الذي أقام نفسه نائب خليفة بعد موت يزيد وبايعوه بيعة مؤقتة.

أما في بلاد الشام فإن دعوة ابن الزبير لم تظهر إلا بعد موت معاوية بن يزيد حيث انضم أهل هذه البلاد إلى أمويين وزبيريين. يقول عبد الله بن عبد ربه[3]: (فلما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن. وبايع أهل مصر أيضاً ابن الزبير، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام).

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٢) الطبري جـ ٧ ص ٢٠. ابن الأثير جـ ٤ ص ٥٦٤.
(٣) العقد الفريد: جـ ٣ ص ١٤٥.

سار عبد الملك لقتال مصعب ابن الزبير بعد أن صالح القيسيين. فلما علم مصعب بمسيره إلى الكوفة أخذ يستعد لملاقاته. ولم يستطع جند مصعب الوقوف أمام جند عبد الملك، لأن جزءاً كبيراً من جيشه ـ وعلى رأسهم المهلب بن أبي صفرة ـ قد نهكته محاربة الخوارج. أضف إلى ذلك سخط الشيعة عليه لقتله المختار بن أبي عبيد.

وقد أرسل عبد الملك قواد مصعب وأعيان الكوفة ومناهم الأماني حتى أفسدهم عليه، إلا إبراهيم بن الأشتر، فإنه أعطى مصعب الكتاب الذي بعث به عبد الملك إليه. يقول ابن قتيبة[1]: (فكلهم أخفى الأمر عن مصعب إلا إبراهيم بن الأشتر، فإنه لما جاءه كتاب عبد الملك أخذه وأعطاه لمصعب فوجده يمنيه بولاية العراق، وأخبره خبر القواد وأنهم أخفوا كتب عبد الملك وطلب من مصعب أن يقتلهم حتى لا يفسدوا الجيش، فأبى مصعب ثم رجا منه حبسهم حتى يتبين الأمر، فأبى ذلك عليه أيضاً).

من ذلك نرى أن مصعب بن الزبير لم يتمتع بإخلاص جنده الذين استمالهم عبد الملك إليه بالأماني، كما نرى قصر نظر مصعب الذي سمح لهؤلاء الساخطين عليه بالبقاء في جيشه وعدم أخذه برأي إبراهيم بن الأشتر بعد أن أطلعه على الحقيقة.

وكان لهذه السياسة أثرها، فتفرق أصحاب مصعب عنه وترك في عدد قليل. وعلى مقربة من باحمرا[2]. نشب القتال بين الفريقين، فقتل مصعب بعد أن أبلى بلاء حسناً وهزم من كانوا معه، ودخل عبد الملك الكوفة، فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ، وولى على البصرة والكوفة عمالاً من قبله[3].

بذلك صفا الجو لعبد الملك في العراق، ولم يبق في يد عبد الله بن الزبير إلا بلاد الحجاز. فلما توطدت سلطته في العراق أعد جيشاً كثيفاً بقيادة الحجاج بن يوسف للقضاء على ابن الزبير.

خرج الحجاج إلى الطائف، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند؛ ثم سار إلى مكة وحاصرها، وضرب الكعبة بالمجانيق، وأرغم أهلها على طلب الأمان، فانضم بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوي قرباه إلى الحجاج وبقي عبد الله في عدد قليل من أنصاره[4].

على أن عبد الملك لم يرد أن يحط شأن الكعبة، وإنما اضطر إلى قتال ابن الزبير، فحدث ما حدث عن غير قصد. وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٠.

(٢) بين الكوفة وواسط، وتبعد عن الكوفة بسبعة عشر فرسخاً.

(٣) الطبري جـ ٧ ص ١٨٧ ـ ١٨٨

(٤) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعاً في الدين.

خرج عبد الله بن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالاً شديداً، وأظهر شجاعة نادرة حتى حملوا عليه وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ.

جـ - عومل انحلال حزب الزبيريين:

جعل عبد الله بن الزبير مقر حكومته في الحجاز، وكان الحجاز بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية إلى الشام والعراق مأوى الطبقة الأرستقراطية التي مالت إلى حياة اللهو والمجون لتدفق الثروة عليها. لذلك لم تلق دعوة ابن الزبير نجاحاً في تلك البلاد.

ويظهر أن ابن الزبير كان متأثراً بهذه الفكرة القديمة، وهي إعادة النفوذ والسيطرة إلى بلاد الحجاز كما كان في عهد النبي وأبي بكر وعمر وعثمان، حتى أنه لم يسر إلى بلاد الشام حيث دعاه الحصين بن نمير ليبايع له بعد وفاة يزيد بن معاوية، فأبى ابن الزبير أن يغادر بلاد الحجاز.

أضف إلى ذلك تواكل عبد الله بن الزبير في نشر الدعوة لنفسه، فظل بالحجاز وترك أمر الدعاية إلى أنصاره كالضحاك بن قيس، وزفر بن الحارث بالشام، وأخيه مصعب بالعراق، على حين كانت السياسة الحكيمة تقضي عليه بأن يتولى ذلك بنفسه في الولايات الإسلامية الأخرى كالعراق ومصر.

وكان لظهور الشيعة والخوارج وقيامهم في وجه ابن الزبير أثر كبير في قتله. فقد توزعت قوته، فاشتغل فريق من رجاله المحنكين بقتال حزب الخوارج، وتعقب فريق آخر المختار، وحارب فريق ثالث بني أمية. ولو أن هذه الفرق تجمعت على بني أمية لما تمكن الأمويون من القضاء على الزبيريين.

أضف إلى ذلك ما اشتهر عن عبد الله بن الزبير من البخل. ذكر صاحب العقد الفريد (١ : ٢٠٩) أن مصعب بن الزبير لما قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي، وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق، فقال: يا أمير المؤمنين! جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرٌ لتعطيهم من هذا المال، فقال له: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله والله لا فعلت. أما خلفاء بني أمية فقد اجتذبوا الناس إليهم بالأموال الضخمة والعطايا، والناس عبيد الدرهم والدينار كما يقولون.

ولا عجب إذا تفوق الأمويون على الزبيريين في ناحية الدعاية واجتذاب الناس إليهم، حتى الشعراء الذين لهجوا بمحامدهم وبثوا الدعاية لدولتهم رغبة في الحصول على أموالهم وأعطياتهم التي كانوا يبذلونها في شيء كثير من السخاء، حتى أنهم كانوا يفيضون على الشعراء وعلى القبائل التي ينتمي إليها هؤلاء الشعراء، على حين لا نجد أكثر من شاعر واحد أخلص للزبيريين وظل على ولائه لهم حتى بعد سقوط حزبهم. هذا هو الشاعر عبيد الله بن قيس

الرقيات[1] الذي كان من أنصار عبد الله بن الزبير، وكان مغالياً في نصر الزبيريين.

انصرف الناس عن عبد الله بن الزبير وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب. وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل، فتنبأ بأفول نجمه. وقال لمصعب عندما طلب منه أن ينضم إليه ويترك أخاه: (والله إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبداً: عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه. فلا يسود رجل فيه تلك الخصال). أضعف إلى ذلك إخراج عبد الله بن الزبير بني أمية من المدينة وتحامله على بني هاشم وحطه من شأنهم، وهدمه الكعبة لإصلاحها. فاتخذ الحجاج بن يوسف من ذلك وسيلة لإثارة الناس عليه.

وبذلك سقط حزب الزبيريين بعد أن بسط سلطانه على الحجاز والعراق ومصر تسع سنين (٦٤ - ٧٣ هـ)، ولم تقم له بعد ذلك قائمة.

وكان لهزيمة ابن الزبير مغزاها السياسي، فإنها ليست هزيمة شخص أو حزب، ولكنها هزيمة ذلك الإقليم الذي حمل لواء هذه النهضة مدة من الزمن. وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات التي بذلها الحجاز لاسترداد نفوذه الأدبي والسياسي.

٧ - المرجئة

تكلمنا من قبل على طائفتين من أقدم الطوائف الإسلامية وهما: الخوارج أو الجمهوريون، والشيعة أو الملكيون. وسنتكلم الآن على طائفة أخرى لا يقل أثرها في توجيه السياسة الإسلامية عن هاتين الطائفتين، وهي طائفة المرجئة التي ظهرت في دمشق حاضرة الأمويين بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

وقد سميت هذه الطائفة المرجئة، من الإرجاء وهو التأخير، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث[2]. كما يتحرجون عن إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها. ويرى فان فلوتن أن تسمية المرجئة ترجع إلى بعض آي القرآن، وأنها مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾ [سورة التوبة ٩: ١٠٦]. ويرى نيكلسون أن المرجئة مشتقة من أرجأ بمعنى بعث الرجاء والأمل[3]،

---

(١) سمي ابن قيس الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية. وهو شاعر قرشي يؤثر العصبية القرشية ويختص منها بحزب الزبيريين الذين اتصل بهم ومدحهم ودافع عنهم حتى قتل مصعب بن الزبير ثم أخوه عبد الله واختفى حزبهم من ميدان السياسة. انظر ترجمته في الأغاني (٥: ٧٣ - ١٠٠).

(٢) انظر البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٩. الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٦.

(٣) Lit. Hist of The Arabs, p. 221.

لأنهم كانوا يقولون إنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الفكر طاعة .

وكانت العقيدة الأساسية عند المرجئة عدم تكفير أي إنسان أياً كان مهما ارتكب من المعاصي، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق بالشهادتين، تاركين الفصل في أمره لله وحده.

وقد غلا جهم بن صفوان أحد رؤوس المرجئة، فزعم (أن الإيمان عقد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه فلا تقية، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية[١] في دار الإسلام وعبد الصليب، وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، ولي الله عز وجل من أهل الجنة). وكان من الطبيعي أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها إلى اطراح الفرائض العملية للإسلام ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس، فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن.

وهؤلاء هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية، مخالفين في ذلك الشيعة والخوارج. ومع هذا فإنهم يتفقون في العقيدة إلى حد ما مع طائفة المحافظين وهي أهل السنة، وإن كانوا ـ كما يرى فون كريمر[٢] ـ قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء السنيين، باعتقادهم (أنه لا يخلد مسلم مؤمن في النار)، وعلى العموم فهم يضعون العقيدة فوق العمل.

وكانت آراؤهم تتفق تماماً مع رجال البلاط الأموي ومن يلوذ به، بحيث لا يستطيع أحد من الشيعيين أو الخوارج أن يعيش بينهم، في الوقت الذي تمكن فيه المسيحيون وغيرهم من غير المسلمين أن ينالوا الحظوة لديهم أو يشغلوا المناصب العالية، حتى كان من الصعب اعتبار تلك الطائفة من المسيحيين أكثر من خدام ضرورة وأغراض، يدورون مع الزمن أنى دار ويميلون مع الرياح كيفما دارت، وكانوا في ذلك أشبه بقسيس بريي Bray[٣].

وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلاً، ومع ذلك فقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور.

ويقول فون كريمر: (ومما يؤسف له كثيراً أنه ليس لدينا غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة. فقد استمروا طوال ذلك العصر وذاقوا حلوه ومره. وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية العربية عن الأمويين حتى أن أقدم المصادر التاريخية التي وصلت إلينا إنما ترجع إلى عهد العباسيين. ومن ثم كان لزوماً علينا أن نستقي معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة في مؤلفات كتاب العرب في ذلك العصر الثاني).

---

(١) ابن حزم (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠) جـ ٤ ص ٢٠٤.

(٢) Cesch. d'Herrsch-Ideen, p. 25.

(٣) اسم قسيس كان مضرب المثل في التقلب، فقد اشتهر مذهبه حسب تغير الأحوال، واستطاع أن يعيش في عهد شارل الثاني وجيمس الثاني ووليم الثالث والملكة آن وجورج الأول، بتقلبه وتغييره مذهبه في الوقت الذي كان يعيش فيه.

وممن اشتهر من شعراء بني أمية بالقول بالإرجاء ثابت قطنة، وكان في صحبة يزيد بن المهلب، وله قصيدة في الإرجاء تعد وثيقة تاريخية قيمة في توضيح مذهبهم، وقد رواها صاحب الأغاني (جـ ٦ ص ٩٢٧).

٨ ـ المعتزلة

أ ـ نشأة المعتزلة وآراؤهم:

تكلمنا من قبل على الشيعة والخوارج والمرجئة من حيث أثرها في تاريخ الإسلام. والآن نتكلم على طائفة رابعة لا يقل أثرها في توجيه السياسة الإسلامية عن تلك الطوائف الثلاث، وهذه الطائفة هي القدرية أو المعتزلة.

اختلف واصل بن عطاء الغزال الفارسي مع أستاذه الحسن البصري الفقيه المشهور في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكبت ذنباً كبيراً. هل يسمى مؤمناً أو لا؟ ويقول واصل: إن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى مؤمناً كما لا يمكن أن يسمى كافراً، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتين وقد انتحى واصل ناحية بعيدة عن المسجد وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التلاميذ الذين اتبعوه، فكان الحسن البصري يقول للذين التفوا حوله أن واصلاً (اعتزل عنا) ومن ثم أطلق خصوم واصل عليه وعلى أتباعه اسم (المعتزلة)[١].

ويظهر من المعلومات التي وصلت إلينا أن مولد تلك الطائفة ومهدها كان بلاد العراق، وهي بابل القديمة ـ حيث تقابل الجنسان السامي والفارسي واختلطا ـ التي أصبحت بعد قليل كعبة العلم، ثم غدت بعد قليل أيضاً مقر الحكومة في عهد العباسيين[٢].

ويرى فون كريمر أن الاعتزال نما وانتشر في دمشق بتأثير رجال الدين من البيزنطيين، وبخاصة يحيى الدمشقي وتلميذه تيودور أبو قرة. أما ذلك الاسم الآخر الأكثر وضوحاً وهو (القدرية) الذي عرف به أهل هذه الطائفة، فإنه يرجع إلى مذهبهم القائل بحرية إرادة الإنسان، وإلى الحديث المكذوب على النبي ﷺ وهو (القدرية مجوس هذه الأمة)، وذلك لأنهم ـ كما يقول شتينر ـ يبررون وجود الشر. فقد وضعوا قاعدة أخرى هي إرادة الإنسان ضد إرادة الله، وهي ما عزاه إليهم خصومهم، حتى أننا لنجد الشاعر الصوفي الفارسي محمود الشبستاري يشير في أوائل القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى ذلك الحديث في كتابه المشهور عن التصوف المسمى جُلشنى راز بما يأتي: (كل رجل لا يعتقد بالقضاء والقدر فهو مجوسي (أي من عباد النار)، كما قرر ذلك الرسول في سنته).

---

(١) انظر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) Dozy; Histoire de L'Islamisme, p. 201.

ويرى فون كريمر أن معبد الجهني (ت ٨٠/٦٩٩) كان يدين بمذهب حرية الإرادة في دمشق في آخر القرن السابع الميلادي، وأنه تلقاه عن رجل فارسي يسمى سنبويه Sinbuye، الذي قتله عبد الملك بن مروان، وفي رواية أخرى الحجاج بن يوسف[١].

وتتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والوعيد والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما القول بالتوحيد، وهو الأصل الأول، فقد ذهبت المعتزلة من بصريين وبغداديين وغيرهم أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان، ولا نهاية ولا حد، وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شيء، وأنه القديم. وأن ما سواه محدث.

وأما القول بالعدل، وهو الأصل الثاني، فمعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل إنهم يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد، ولم ينه إلا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطيقونه، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها، وهو المالك لها دونهم، يفنيها إذا شاء ويبقيها إذا شاء. ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارياً عن معصيته، ولكان على ذلك قادراً، غير أنه لا يفعل، إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى.

وأما القول بالوعيد، وهو الأصل الثالث، فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأنه لصادق في وعده، ووعيده، لا مبدل لكلماته.

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين، وهو الأصل الرابع، فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقاً على حسب ما ورد التوفيق بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه.

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الأصل الخامس، فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه، وإن كان كالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق[٢].

ويقول المعتزلة أيضاً بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، ولو لم يرد بهما

---

(١) راجع: Browne, vol. pp. 279 - 281.

(٢) المسعودي. مروج الذهب جـ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

شرع، وأن للشيء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحا. ويشبه هذا المذهب في بعض الوجوه مذهب العقليين Rationalists الذي ساد أوروبا في عصر النهضة(١).

ب ـ علاقة المعتزلة بالشيعة والخوارج:

ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة، فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام. يقول المسعودي(٢): (يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة، تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه، سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان. ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره. وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك. والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن حِني. ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الإباضية وغيرهم إلا النجدات من فرق الخوارج، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبها. ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر، إلا أنهم قالوا: إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج إلى إمام، وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها، منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فوض الأمر إلى الشورى: لو أن سالماً حي لما داخلني فيه الظنون. فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة في سائر المؤمنين، لم يطلق هذا القول ولم يتأسف على موت سالم مولى أبي حذيفة، وقد صح بذلك عن النبي ﷺ أخبار كثيرة منها قوله: اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع. وقال عز وجل: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩: ١٣].

قال جولدتسيهر عن علاقة المعتزلة بالشيعة: (ومما هو جدير بالملاحظة أن طوائف الشيعة برغم تشعبها قد سادت فيها مبادىء المعتزلة في كثير من المسائل ولا سيما ما لم يتأثر منها بعقيدة الإمام أو المهدي، فقد استطاع فقهاء الشيعة وعلماء التوحيد منهم أن يستفيدوا من أفكار المعتزلة ويستخدموها لدعم عقائدهم ومذاهبهم الخاصة. وهذا يدل على أن الشيعة آثروا أن يسموا أنفسهم أهل العدل، وهو نفس التسمية التي تسمى بها المعتزلة.

ويظهر التشابه بين المعتزلة والشيعة فيما يدعيه هؤلاء أن علياً والأئمة من آل بيته هم أول من قالوا بحرية الإرادة، وأن المعتزلة لم يزيدوا في ذلك شيئاً أكثر من شرحهم تلك العقيدة التي وضع أساسها علي بن أبي طالب. لذلك نرى في كتبهم التي كتبوها في علم الكلام تلك

---

(١) Nicholson, p. 224.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢.

الظاهرة الغريبة، وهي أنهم كانوا يلقبون فقهاءهم بلقب إمام، ذلك اللقب الذي يقدسه الشيعة. أضف إلى ذلك تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم القائلة أن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد. وهذا نفس ما يقوله المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً في ذلك بالمعتزلة من الإمامية. وهكذا تأثر كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد خاصة.

ولا غرو فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب. وقلما نجد كتاباً من كتبهم، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام علي.

يقول ابن أبي الحديد[1]: (وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب، ولا نقل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً. وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به. وأول من خاض فيه من العرب علي عليه السلام. ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه. ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصورونه، ولو فهموه لم يفهموه؛ وأنى للعرب ذلك. ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا في بحار المقولات إليه خاصة دون غيره، وسموه أستاذهم ورئيسهم، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها. ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام)؟.

كذلك ذكر المعتزلة الإمام علياً في الطبقة الأولى من طبقاتهم. كما ذكروا قصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من صفين، أكان المسير بقضاء الله وقدره؟ فقال عليه السلام: والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة[2] إلا بقضاء وقدر. فقال الشيخ: عند الله احتسب عنائي، ما لي من الأجر شيء، فقال: بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: كيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا؟ فقال عليه السلام: لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً، ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة المذنب أولى من المحسن: تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن وشهود الزور، وأهل العماء عن الصواب

(١) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٢) التلعة والتلاع أرض مرتفعة.

في الأمور، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً، ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً. ذلك ظن الذين كفروا، فويل للكافرين من النار، فقال الشيخ: وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا؟ فقال: أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول:

أنت الإمامُ الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالإحسان إحسانا(١)

كذلك ذكروا في الطبقة الثانية الحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي. وكان محمد هذا (ابن الحنفية) هو الذي ربى واصل بن عطاء كما تقدم. وكان أبو هاشم إذا سئل عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول: إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره في واصل بن عطاء. وكذلك أخذ واصل عن أبي هاشم الذي كان معه في الكتب، فأخذ عنه وعن أبيه.

هذه بعض الصلات التي ظهرت منذ ظهور المعتزلة، ومنها نرى أثر آل البيت في ظهور الاعتزال ومقدار تأثر رؤساء المعتزلة بالبيت النبوي.

ولما كانت الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية، فخاصمت بعضها، واتصلت ببعضها الآخر اتصالاً يختلف شدة وضعفاً يذهب كل منها في عقائده. ولبيان هذا نقول: إن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها ثلاثة أقسام: غالية ورافضة وزيدية. أما الغالية فهم الذين غالوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم فرق كثيرة كالسبئية(٢).

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة، وهو التوحيد، للرد على غلاة الشيعة، والرافضة الذين قالوا إن الله قدٌّ وصورة وأنه جسم ذو أعضاء. وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة، نرى أن المتقدمين منهم، مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمي الرافضة، كانوا كذلك خصوماً للمعتزلة، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك. يقول الخياط المعتزلي(٣): (فهل كان على الأرض رافضي إلا وهو يقول: إن الله صورة، ويروي في ذلك الروايات، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم، إلا من صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد فنفته الرافضة عنها ولم تقر به؟).

أما الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة. وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن علي الذي

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٧، ١١.
(٢) المصدر نفسه ص ٨.
(٣) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ص ١٤٤.

تتلمذ لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة، واقتبس منه أصول الاعتزال، وأصبح جميع أصحابه معتزلة إلا من خرج عليه منهم. وقد اشتركت المعتزلة من بني هاشم في مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسين بمكة في أواخر عهد بني أمية ثم شاركوا الشيعة في سخطهم على العباسيين بعد أن آلت الخلافة إليهم، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن علي تحت لواء إبراهيم بن عبد الله في العراق في محاربة أبي جعفر المنصور، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه[1]، ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال، ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم التي تقول إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد، وهذا هو عقيدة المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً بالمعتزلة في ذلك من الإمامية، إذ تتفق مع المعتزلة فضلاً عن ذلك في كثير من الأجزاء والتفاصيل. ولا يزال الاعتزال ظاهراً في أدب الشيعة حتى اليوم. ومن ذلك كان الخطأ البين ـ من وجهة التاريخ السياسي الديني أو من وجهة التاريخ الأدبي ـ أن نظن أن انتصار مذهب الأشاعرة المؤزر على مذهب المعتزلة قد قضي عليه القضاء الأخير، وأنه لم يبق له وجود بعد ذلك.

وقد بلغ من شدة التشابه بين المعتزلة والشيعة أن اختلط الأمر على المؤرخين، فلم يميزوا بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد، وذلك لانقسامها إلى قسمين رئيسيين:

١ ـ قسم يحتوي على الفصول التي تبحث في التوحيد.

٢ ـ وقسم يتضمن البحوث المتعلقة بالعدل.

على أن كتب الشيعة امتازت بذكر نظرية الإمام وعصمته، وهذا ما يميز كتب الشيعة عن كتب المعتزلة.

بيد أنه يجمل بنا ألا نهمل القول بأن النظام ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ كان يرافق الشيعة في كل ما يتعلق بنظرية الإمام وعصمته. ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم البراهين التي استدل بها الشيعيون على نظرية الإمامة قامت على أسس من مذهب الاعتزال البحت. فالقول بضرورة وجود إمام في كل عصر، ووجوب عصمة ذلك الإمام عن الخطأ يتفق تماماً مع رأي المعتزلة وقولهم بوجوب إرسال الرسل لأن الله حكيم وعادل. ومن ثم يقول الشيعة: (إن الله يبعث للناس في كل عصر مرشداً وهادياً معصوماً من الخطأ. وهكذا نرى الشيعة تقيم قواعدها الرئيسية على نظريات عقائد المعتزلة)[2].

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٧٩.

(٢) Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islam, pp. 188 - 189.

ويتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس، كما يتفقون معهم في القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين. ويفهم ذلك من قول الخوارج: (لا حكم إلا الله). إلا أن المعتزلة لا تجيز هذا إلا في حالة واحدة وهي: أن يكون جميع المسلمين عدولاً ليس بينهم فاسق. ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخوارج على بني أمية وإثارة الفتن واضطرابات. ولا سيما في إفريقية وبلاد المغرب، تلك المبادىء التي كانت تتفق في كثير من المسائل ـ وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية ـ مع ميول الخوارج[1].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩١.

الباب السابع

نظم الحكم

تتكون نظم الحكم في الدولة من مجموع القوانين والمبادىء والتقاليد التي يقوم عليها الحكم في هذه الدولة. ومن هذه النظم:

١ ـ النظام السياسي ويتناول الخلافة من حيث كونها نظاماً للحكم، ومن حيث نشأتها وارتقائها وضعفها، كما يتناول الكلام على الوزارة والكتابة التي يتولى صاحبها مخاطبة الولاة وغيرهم من موظفي الدولة، والحجابة التي يشبه صاحبها كبير الأمناء في أيامنا هذه.

٢ ـ النظام الإداري ونعني به إدارة الأقاليم من حيث بيان سلطة الولاة في ولايتهم، وتعدد دواوين الدولة، كديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان المستغلات أو الإيرادات، وديوان الطراز، وديوان الخاتم، ويشبه قلم «الأرشيف» أو السجلات، والبريد، والشرطة.

٣ ـ النظام المالي ويبحث موارد بيت المال ومصارفه، والخراج بنوعيه، وديوان الخراج وجبايته، ونظام المقاسمة، ونظام الالتزام أو الإقطاع ثم الجزية والزكاة والفيء والغنيمة والعشور. كما يتناول نظام الضرائب وطرق جبايتها ومقدار الجباية، والأوجه التي تصرف فيها موارد بيت المال.

٤ ـ النظام الحربي ويتناول الجيش وإمرته وأسلحته.

٥ ـ النظام القضائي ويتناول القضاء والمظالم التي يلجأ إليها المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل، والحسبة التي تعتبر وسطاً بين القضاء والمظالم.

١ ـ النظام السياسي

أ ـ الخلافة:

لم يؤثر عن النبي ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده، بل ترك هذه المسألة من غير أن يبت فيها، ورأى أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من أحبوا.

والخلافة لغة مصدر «خلف». يقال: (خلفه خلافة، كان خليفته وبقي بعده. والخليفة السلطان الأعظم. والجمع خلائف وخلفاء). فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد، ومن ثم سمي من يخلف الرسول في إجراء الأحكام الشرعية خليفة، ويسمى أيضاً إماماً. فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به. ولهذا يقال الإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة فلأنه يخلف النبي في أمته، فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله. واختلف في تسميته خليفة الله، فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾، وقوله: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾[١] ومنع الجمهور منه. وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به، وقال: (لست خليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ)، ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب أما الحاضر فلا[٢].

أما الخلافة في الاصطلاح: فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ. وفي ذلك يقول ابن خلدون: (والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا)[٣].

وإن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضاً، بيده وحده زمام الأمة. فكل ولاية مستمدة منه، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه. فهو الحاكم الزمني والروحي بخلاف ما نجده في الغرب في العصور الوسطى.

وقد ذكر سير توماس أرنولد[٤] أوجه الشبه والاختلاف بين هذين النظامين اللذين قاما خلال العصور الوسطى: وهما الخلافة في الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب، فقال: (إن كلا النظامين يستند إلى قوة الدين: فكلاهما دين عالمي يعمل على ضم العالم تحت لوائه. بيد أن الامبراطورية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة، حتى أن الامبراطور شرلمان تلقب بألقاب الأباطرة الوثنيين، كما نجد في الغرب حاكمين: أحدهما زمني وهو الامبراطور، والآخر روحي وهو البابا، أما الخلافة فإنها لم تقم

---

(١) سورة الأنعام ٦: ١٦٥.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) The Caliphate, pp. 1 - 2.
Henry Osborn Talylor: The Mediaveal Mind, vol, II, pp. 393.
Goldziher Muhammedanische Studien, vol. II. p. 19. seq.

على نظام سياسي سابق، بل هي نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت إثر ظهور الإسلام وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية. والخليفة حاكم سياسي بمعنى أنه يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين. ويستطيع باعتباره حامي الدين أن يعلن الحرب على الكفار ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة، ويلقي خطبة الجمعة، بخلاف البابا فإنه يعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين، وهو المرجع الأعلى في الأمور الدينية).

١ ـ **شروط الخلافة**: والخلافة ضربان: اختيارية وقهرية. فالاختيارية [١] هي التي تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها، ويشترط في الشخص الذي يرشح لها أن يكون جامعاً للصفات المطلوبة والشروط اللازمة لها، وهي ـ كما ذكر الماوردي وغيره ـ أربعة: العلم، والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل. واختلف في شرط خامس هو النسب القرشي. أما القهرية فهي التي نالها صاحبها بالغلب والقوة. ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها.

ويراد بالعلم العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام الفقهية، وبالعدالة أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك متجنباً للمعاصي. وفي ذلك يقول ابن خلدون (مقدمة ١٥٢): (ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها، وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف).

ويقصد بالكفاية أن يكون الخليفة قادراً على إقامة الحدود، بصيراً بالحروب كفيلاً بحمل الناس عليها، صاحب رأي وتدبير [٢]:

أما قرشية النسب فالمراد بها أن يكون الخليفة من قبيلة قريش، بدليل إجماع كثير من الصحابة يوم السقيفة [٣] على ذلك، واحتجاج قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة بقول الرسول: الأئمة من قريش، وبأن النبي أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم. ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم. فحاجوا الأنصار حتى عدلوا عما هموا به من بيعة سعد. وثبت في الصحيح أيضاً: (لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش)، كما أثر عن النبي أنه قال: «الملك في قريش والقضاء في الأنصار والأذان في الحبشة»، كما قال: «الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة».

---

(١) بدر الدين بن جماعة: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام المنشور بمجلة Islamica الألمانية، العدد الرابع سنة ١٩٣٤. الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٤. مقدمة ابن خلدون ص ١٥٢.

(٢) راجع ما ذكره الدكتور عبد الرازق أحمد السنهوري في كتابه Le Califat, pp. 53 - 58.

(٣) هي ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة يجتمعون فيها وكانت له الرياسة.

على أن أكثر هذه الأحاديث مدسوس على الرسول، فقد ذكر ابن خلدون (مقدمة ص ١٥٣ - ١٥٤) أن الرسول قال: «الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا، واسترحموا فرحموا»، مما يدل على أن الإمامة تكون في قريش إذا استوفوا هذه الشروط». على أن هناك أيضاً من الأحاديث النبوية ما يبيح إطلاق الخلافة إطلاقاً وعدم قصرها على قريش.

وقد نشر المهاجرون كل تلك الأحاديث مع أن القرآن لم يشر إلى قصر الخلافة على أسرة أو قبيلة معينة، فقد قال الله تعالى: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩ : ١٣]، وأثر عن الرسول أنه قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[1].

ويرى الشيعة أن تكون الخلافة لعلي ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة. وهم لا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة، كما يجعلون للخليفة صفات دينية، فهو لديهم مستودع العلم الشرعي، لأنه هو وحده الذي يفهم القرآن والسنة وله حق تفسيرهما. ولذلك لقبوا الخليفة بلقب «إمام» لأنهم يعتبرونه قدوة لهم. ووضع بعضهم علياً في مصاف الآلهة، بل قالوا: إن الخلافة ركن من أركان الدين.

ويرى الخوارج صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى وعلي إلى أن حكم الحكمين، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر.. ثم شرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب. ولذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين للأحرار أو الأرقاء على سواء، وخالفوا بهذا الرأي نظرية الشيعة التي تقول بقصر الخلافة على آل بيت النبي.

وقد رضي المرجئة حكم بني أمية، مخالفين في ذلك الخوارج والشيعة، لأن العقيدة الأساسية عندهم هي عدم تكفير أي إنسان اعتقد الإسلام ونطق بالشهادتين مهما ارتكب من المعاصي. أما المعتزلة أو القدرية التي لم تلبث أن خاضت غمار السياسة، فقد تكلمت في الإمامة وشروط الإمام، وقالوا: إن الإمامة اختيار من الأمة[2].

٢ - طريقة انتخاب الخلفاء الراشدين:

اجتمع الأنصار إثر وفاة الرسول في سقيفة بني ساعدة ليختاروا من بينهم خليفة، ورشحوا سيد الخزرج، وهو سعد بن عبادة، الذي قام فيهم خطيباً فقال: يا معشر الأنصار! لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب.. أثخن الله عز وجل لرسوله بكم

---

(١) الزبيبة واحدة الزبيب المأكول، ورؤوس الحبش توصف بالصغر.

(٢) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة: القاهرة ١٩٦٢) ص ٧ - ١٣.

الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين. استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس، فإنه لكم دون الناس.

ولما اتصل نبأ هذا الاجتماع بعمر بن الخطاب، أسرع ومعه أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح إلى السقيفة حيث قام بين المهاجرين والأنصار نقاش طويل[١]. وقام أبو بكر خطيباً وأخذ يبرر موقف المهاجرين وأحقيتهم بالخلافة فقال: (.. فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له بالصبر معه، على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياه.. فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم في ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه. فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتانون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور).

ولم ترد الأوس أن تؤول الخلافة إلى الخزرج وانضمت إلى المهاجرين. ثم قام عمر فبايع أبا بكر بالخلافة وقال له: ألم يأمر النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر؟ فأنت خليفه ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً. ثم قال له عمر: ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه، وبايعه المهاجرون والأنصار[٢].

بويع أبو بكر بفضل ما أوتيه عمر من المهارة والشجاعة. وتسمى هذه البيعة (البيعة الخاصة)، إذ لم يبايعه إلا نفر قليل من المسلمين الذين حضروا السقيفة. ثم جلس أبو بكر على المنبر في اليوم التالي وبايعه عامة المسلمين، وتسمى هذه البيعة (البيعة العامة).

يقول سير توماس أرنولد[٣]: (لوحظ في انتخاب أبي بكر ما يلاحظ في انتخاب شيخ القبيلة العربية، لأنه انتخاب يتفق مع الروح العربية). وتم هذا الانتخاب بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان مألوفاً لدى قبائل العرب في الجاهلية، ذلك النظام الذي يقضي بأن تكون السن والفضائل أساساً لاختيار شيخ القبيلة.

بقي أبو بكر في الخلافة أكثر من عامين؛ وقبل موته رشح عمر للخلافة. وهنا أيضاً تتمشى الشورى وعدم التوريث مع الطبيعة العربية. ذلك أنه لما اشتد المرض على أبي بكر خاف إن هو ترك أمر الخلافة كما تركه رسول الله، أن ينقسم المسلمون ويصبحوا أشد خطراً على أنفسهم من أهل الردة. لذلك استقر رأيه على أن يعهد بالخلافة من بعده إلى من يعتقد فيه

---

(١) الطبري جـ٣ ص ٢٠٧ ـ ٢١٠.
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص ٢١٠.
(٣) The Caliphate, p. 20.

الكفاية وحسن السياسة، فوقع اختياره على عمر. وهذه هي الحادثة الأولى التي عين فيها الخليفة من يخلفه، أما الثانية فهي حين اختار عمر ستة من أهل الشورى يختارون من بينهم خليفة.

على أن أبا بكر لم يشأ أن ينفرد برأيه حين رشح عمر للخلافة، فاستشار كبار الصحابة وسألهم رأيهم في عمر، فأثنوا عليه ووافقوا على اختياره، فكتب كتاب عهده لعمر وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر. إني استعملت عليكم عمر ابن الخطاب، فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

ولما طعن عمر أخذ الناس يتكلمون في أمر الخلافة، وطلبوا إليه أن يعهد، وعرض عليه بعض أن يعهد إلى ابنه عبد الله، فأبى واختار ستة من الصحابة هم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة ابن عبيد الله، ودعاهم إليه إلا طلحة، وكان غائباً، وقال لهم: (. . . فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له في الأمر).

ولما بويع عثمان بالخلافة خطب الناس خطبته المعروفة، وهي لا تبين السياسة التي عول على انتهاجها في إدارة دولته، وإنما هي عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة. وقد يرجع ذلك إلى شيخوخته وما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف. وقد دلت الحوادث على أن عثمان لم يكن يستطيع أن يحكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت رقعة بلادها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها. لذلك لا نعجب إذا غلب على أمره وذهب ضحية هذه السياسة التي لم تكن تلائم العصر الذي عاش فيه.

وبعد مقتل عثمان مال الثوار إلى تولية علي، ولم يكن بالمدينة سوى عدد قليل من الصحابة، على رأسهم طلحة والزبير. كما تردد في بيعته بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وتخلف بنو أمية الذين لحق بعضهم بالشام وبعضهم الآخر بمكة.

وقد أراد علي أن يحكم وفق التقاليد التي سادت زمن النبي وأبي بكر وعمر، مع أن الأحوال كانت تستلزم شيئاً من السياسة والدهاء. فبادر إلى عزل ولاة عثمان برغم نصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور. ولكن معاوية أبى الإذعان لأمر علي وقامت بسبب ذلك الحرب بينهما، ثم عقد بينهما التحكيم، وقتل علي وفاز معاوية بالخلافة وقامت الدولة الأموية.

٣ - رأينا في بيعة الخلفاء الراشدين:

على الرغم من أن بيعة الخلفاء الراشدين لم تكن منظمة إلا أنها كانت تحمل فكرة الشورى التي تتمشى مع الروح العربية وتبعد كل البعد عن النظام الوراثي.

ويزعم بعض أن انتخاب أبي بكر كان انتخاباً غير منظم، إذ لم يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه، ولم يؤذن الناس بهذا الاجتماع من قبل. والجواب على ذلك أنه قد حصل اجتماع ضم أصحاب الرسول، ورشح الأنصار سعد بن عبادة، ورشح أبو بكر أبا عبيدة وعمر. وتبادل الأنصار والمهاجرون الآراء وأقاموا الحجج، ورجحت حجة على حجة. لذلك لا نستطيع أن نوافق الذين يطعنون في هذا الانتخاب. وإن حرص الصحابة وكراهتهم أن يظلوا يوماً أو بعض يوم من غير أن يكون لهم إمام يجمع كلمتهم هو الذي حملهم على المبادرة إلى الاجتماع في سقيفتهم. وكذلك كان حرص عمر في مبادرته إلى بيعة أبي بكر، فقد أثر عنه أنه قال: (إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً، فلا يغرن امرأ أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة؛ فقد كانت كذلك، غير أن الله وقى شرها، وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر).

ويظهر أن الذين عابوا هذا الانتخاب، وخاصة المحدثين من المؤرخين، أرادوا أن يقيسوا ما حدث منذ ألف وثلثمائة وثلاث وسبعين سنة بما يحدث الآن وهو قياس مع الفارق.

ونلاحظ في اختيار عمر أمرين خطيرين: أولهما أن أبا بكر علق خلافة عمر على رضا الناس، وثانيهما أن أبا بكر لم ينتخب أحداً من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصاً أجمع الناس على احترامه.

وكانت بيعة عمر صحيحة، وإذا قيل إنه ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس غالباً ويكون قادراً على حمايتهم، وأنها أشبه بولاية العهد أو التعيين، فإن أبا بكر لم يستبد برأيه ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر، بل إنه استشار الصحابة فأثنوا على عمر ووافقوا على اختياره.

على أن هذه الطريقة لا تخلو من العيوب، إذ قد يخطيء الخليفة أو يحسن الظن بمن لا يحقق ظنه. فليس كل خليفة كأبي بكر ولا كل ولي عهد كعمر، ولا يستطيع أحد أن يطمئن إلى حسن نتيجة مثل هذه الطريقة لما فيها من احتمال الخطأ في الاختيار على الأقل. وقد زعم الأمويون والعباسيون وغيرهم أن هذه السنة التي سنها أبو بكر، والتي كان قوامها الشورى وعدم التوريث تعطي الخليفة الحق في انتخاب من يخلفه بغير قيد ولا شرط.

أما بيعة عثمان فهي أقرب إلى الشورى من بيعة عمر، إذ قد تعدد المرشحون للخلافة. وكان للمجتمعين بمسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير في توجيه هذا الانتخاب وحصر

الخلافة في واحد من اثنين هما عثمان وعلي . وقد تكون هذه الطريقة التي أشار بها عمر في اختيار خليفته صالحة لو أنها وجدت البيئة الصالحة لها. ويزعم بعض أنها ناقصة، لأنها ضيقت دائرة الناخبين إلى حد بعيد فجعلتهم ستة، وأهملت جمهور المسلمين، كما أدت إلى ظهور التنافس بين عثمان وعلي، أو بعبارة أخرى بين بني هاشم وبني أمية، وانقسم المسلمون بسبب ذلك إلى أمويين وهاشميين أو علويين، لأن علي بن أبي طالب كان هو المقدم في بني هاشم.

كذلك كان انتخاب علي شورياً. وإن لم يكن هذا الانتخاب عاماً لتفرق أكثر الصحابة في الأمصار كما تقدم. وإن لم يكن انتخابه بالطريقة التي انتخب بها من سبقه من الخلفاء، فقد انتخب أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا في المدينة، وإن كانوا قد اختلفوا في بادىء الأمر. وبعد وفاة أبي بكر لم يكن ثمة اختلاف في الأمر لأنه كان قد عهد إلى عمر ورأى المسلمون وجوب طاعته، ثم بويع عثمان بمقتضى قانون الشورى الذي سنه عمر. أما من يقول إن علياً لم يبايعه إلا أهل المدينة وإنه لم يؤخذ في ذلك رأي غيرهم من المسلمين في الحواضر الإسلامية، فيمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبني على رأي أهل المدينة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن أحداً من الخلفاء الراشدين لم يفكر في جعل الخلافة وراثية، فقد أبى عمر أن يعهد لابنه عبد الله، وأبى علي أن يعهد لابنه الحسن حين سأله بعض المسلمين وهو على فراش الموت فقال: (لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر). كما يلاحظ أنه كان من السهل أن يحسن المسلمون اختيار من يليق لهذا المنصب الخطير من بين الشخصيات البارزة فيهم، إذ كانت محدودة العدد معروفة للخاص والعام.

وإذن لم يكن ثمة استبداد في طريقة تولية العهد التي قد تقي المسلمين شر التنافس والتناحر ولا غرو فقد لقيت طريقة أبي بكر ارتياحاً لدى جمهور المسلمين، بدليل مطالبتهم عمر بأن يعهد لأحدهم كما فعل أبو بكر من قبل. ولكن قتل عثمان دون أن يعهد لغيره عاد بالعرب إلى الطريقة الأولى التي كانت قريبة الشبه بطريقة انتخاب شيخ القبيلة العربية. وكان كل من الخلفاء الراشدين يخطب الناس بعد بيعته، فيوضح لهم السياسة التي عول على انتهاجها في إدارة شؤون دولته، فكانت هذه الخطبة بمثابة خطبة العرش في الوقت الحاضر.

٤ ـ الأمويون والخلافة:

وقد غير انتقال الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان نظام الشورى الذي كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين، وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة والمكايد. على أنه وجد فريق من المسلمين يبرر هذه الحالة ويستند في ذلك إلى أحاديث رويت عن النبي ﷺ تحض الناس على طاعة الحاكم والخضوع لحكمه أياً كانت نزعته وطريقة حكمه فقد أثر عنه أنه قال: «سيليكم بعدي البر ببره ويليكم الفاجر بفجوره، فاسمعوا وأطيعوا في كل ما

وافق الحق، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم».

ولما ولى معاوية ابنه يزيد العهد ظهر نظام التوريث، وانتقلت الدولة من ذلك النظام الذي ساد عهد الخلفاء الراشدين إلى النظام الذي سار عليه الأمويون في حكم الدولة الإسلامية، أو بعبارة أخرى من نظام الخلافة الذي يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين، إلى النظام الملكي الذي يقوم على أساس التوريث ويستند إلى السياسة أولاً وإلى الدين ثانياً. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين واستحالت بذلك إلى ملك.

على أنه ينبغي أن لا يعزب عن أذهاننا أثر البيئة في تطور نظام البيعة، إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية في عهد الخلفاء الراشدين، كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي، وقام ذلك النظام الذي يتفق وطبيعة العرب كما تقدم. فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية، تأثر العرب بالبيئة التي عاشوا فيها، وغدا نظام الخلافة أشبه بالنظام الملكي أو القيصري، ومن ثم زادت الصفة الزمنية في الخليفة، وكان معاوية متأثراً في ذلك بالنظام الذي كان سائداً في الدولتين البيزنطية والساسانية، وسار في تحقيق هذه السياسة بمنتهى المهارة، وأخذ لهذا الأمر الخطير أهبته في شيء كثير من الحيطة، فأوحى إلى عماله على الأمصار أن يمهدوا السبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد.

وعلى هذا النظام سار العباسيون، فحرموا المسلمين هذا الحق الطبيعي وهو الشورى التي ألفها العرب وجاء بها القرآن وأيدتها الأحاديث النبوية. وغلا الأمويون ـ والعباسيون من بعدهم ـ في ذلك حتى أصبحوا يولون عهدهم اثنين بل ثلاثة، وأصبح الخليفة الأموي يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته على حين أصبحت هذه البيعة تؤخذ في الأقاليم بحضور الوالي نيابة عن الخليفة. وهذه الطريقة جمعت في نفسها ـ كما يقول سيد أمير علي[١] ـ كلا من النظام الديمقراطي ونظام الحكم المطلق في آن واحد مع تجردها من مزايا كل منهما، إذ كانت البيعة تتم بأية طريقة، سواء أكان ذلك بالوعيد أم بالوعود الخلابة، وأصبح الانتخاب شرعياً على أي حال. على أن هذا النظام أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين أفراد البيت الأموي وأوغر صدور بعضهم على بعض، فقام النزاع بينهم وتعدى ذلك إلى القواد والعمال، مما ساعد على سقوط الدولة الأموية.

ومع ذلك أبى معاوية الثاني أن يعهد لولده أو بعض آل بيته، بل ترك الأمر شورى للناس ليختاروا من أحبوا، فقال: (فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم)، وقال أيضاً: (وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم، فشأنكم وأمركم)[٢].

---

(١) A Short Hist. of the Saracens. p. 185.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٦٤.

٥ ـ ألقـاب الخليفـة:

وكان أبو بكر يلقب بلقب خليفة رسول الله إذ كان يقوم مقام الرسول في حكم الدولة الإسلامية والمحافظة على الدين. وكان عمر يلقب بلقب خليفة خليفة رسول الله.

روى البلاذري أن بلال مؤذن الرسول كان يقف بباب الرسول ويقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة حي على الفلاح؛ الصلاة يا رسول الله! فلما ولي أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة حي على الفلاح! الصلاة يا خليفة رسول الله! وفي خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يردد هذه الكلمات مبتدئاً بقوله: السلام عليك يا خليفة رسول الله... الخ. ومنعاً لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكر، أمر عمر أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين، وأن تزاد عبارة رحمك الله على الأذان[١]، ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٢١٧ ـ ٢١٩): إن المؤذنين كانوا يختمون الأذان بعبارة (السلام عليك)، يعنون بذلك الخليفة أو أحد عماله. وظلت الحال على ذلك طوال عهد الأمويين وفي الصدر الأول من أيام العباسيين حتى تولى الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم. على أن الخلفاء تخلفوا عنها في أواخر أيام العباسيين لوقوعهم تحت سلطان الأتراك، فعدل الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم، وبطل استعمال هذه الكلمات، وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون الذين لم يقيموا الصلاة فلم تذكر هذه الكلمات إلا في أذان الفجر[٢].

وقد أورد صاحب كتاب «محاسن الملوك»[٣] عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر ما نصه: قال المغيرة لعمر رضي الله عنهما: يا خليفة الله! فقال عمر: ذاك نبي الله داود، قال: يا خليفة رسول الله! قال: ذاك صاحبكم المفقود، قال: يا خليفة خليفة رسول الله! قال: ذاك أمر يطول. قال: يا عمر! قال: لا تبخس مقامي شرفه، أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين، وبذلك كان عمر أول من تلقب بهذا اللقب الذي كان يتمشى مع عهد الفتوح، لما في ذلك اللفظ من معنى السلطتين الحربية والإدارية.

أما لفظ إمام فإن الأصل فيه مستعار من إمامة الصلاة، ولذا ترى الشيعة يستعملون هذا اللفظ، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوي قوى إلٓهية مقدسة، وقد ورد لفظ إمام في القرآن بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس، قال تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم

---

(١) ذكر المقريزي (خطط حـ ٢ ص ٢١٧) أن عثمان هو الذي أمر بإضافة هذه العبارة.

(٢) الماوردي الأحكام السلطانية ص ٩٦ ـ ٩٩.

(٣) ورقة ٢٥ ـ ٢٧، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، راجع كتاب التاج في أخلاق الملوك (طبعة أحمد زكي باشا) ص ٨٨ حاشية ٩ ص ٨٦ ـ ٨٨.

فعل الخيرات ﴾ [سورة الأنبياء ٢١ : ٢٣]، وكان النبي يؤم الناس في الصلاة باعتباره زعيماً للمسلمين. ولما مرض مرضه الأخير ندب أبا بكر ليصلي بالناس. وكانت إمامة أبي بكر للمسلمين في الصلاة نيابة عن النبي من أهم الأدلة التي استند إليها السنيون في أحقية أبي بكر بالخلافة بعد النبي. وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين في الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة، حتى أصبحت من أهم أعمال الولاة في الأمصار الإسلامية.

ب ـ الوزارة:

الوزير كلمة مشتقة من الوِزْر وهو الثقل، لأن الوزير يحمل أعباء الدولة، أو من الوَزر وهو الملجأ والمعتصم، بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره (الفخري ص ١٣٧). قال ابن خلدون في مقدمته (ص ٢٠٤): (اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه، فما ظنك بسياسة الرعية ومن استرعاه من خلقه وعباده؟ وقد طلب موسى من الله سبحانه وتعالى أن يمده برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم فقال: ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري﴾ [سورة طه ٢٠ : ٢٩ ـ ٣١] .

والوزارة ليست من مستحدثات الإسلام، بل هي أقدم عهداً من ذلك؛ فقد عرفها الفرس وبنو إسرائيل وغيرهما من الأمم.

أما إذا أريد بالوزارة استعانة السلطان أو الأمير بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم، فهي تتصل بصدر الإسلام، لأن الرسول الكريم كان يشاور أصحابه في الأمور العامة والخاصة ويخص أبا بكر ببعض الأمور، حتى أن العرب الذين اختلطوا بالفرس والروم قبل الإسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم يسمون أبا بكر وزير النبي.

كذلك كان حال عمر مع أبي بكر، فقد كان يشرف على القضاء ويقوم بتوزيع الزكاة. وكذلك كان شأن عثمان وعلي مع عمر فإنه كان يستعين بهما ويستنير بآرائهما ويعهد إليهما في القيام بكثير من أمور الدولة والنظر في أحوال الرعية .

وكان علي يقوم بالقضاء بين الناس وبكتابة الرسائل وفداء أسرى المسلمين.

وكان هؤلاء الأعوان يعملون عمل الوزراء، وإن كان اسم الوزير لم يطلق عليهم، لأنه لم يكن معروفاً عند العرب في ذلك العصر، لبساطة الإسلام وبعده عن أبهة الملك[1]. وكان الخليفة يستعين في إدارة شؤون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦ .

المدينة وشيوخ القبائل؛ وكان لا يقطع أمراً دونهم. لـذلك كـان نظام الحكم في ذلـك العصر أقرب إلى النظام الجمهوري.

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية واستحالت إلى ملك وراثي اختار الخلفاء بعض ذوي الرأي ليستعينوا بآرائهم. فكان هؤلاء يقومون بعمل الوزراء وإن لم يلقبـوا بلقب الوزيـر. ومع ذلك فإننا نجد زياد بن أبيه يلقب بلقب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك.

جـ ـ الكتابة:

ومن أكبر أعوان الخليفة (الكاتب)، وكان عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، ومعاويـة بن أبي سفيان، والمغيـرة بن شعبة، وسعيـد بن العاص يكتبون القرآن ويحررون الكتب التي كان الرسول يرسلها إلى الملوك والأمراء[١].

ولما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفـان كاتبـاً له. واتخـذ عمر زيـد بـن ثابت وعبد الله بن الأرقم؛ واتخذ عثمان مروان بن الحكم. وروى الجهشياري (ص ٢٣) أن علياً كرم الله وجهه قال لكاتبه عبد الله بن رافع: (يا عبد الله! ألق دواتك[٢]، وأطل شباة[٣] قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط[٤] بين الحروف).

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية تعدد الكتاب لتعدد مصالح الدولـة، وأصبح الكتـاب خمسة: كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجنـد وكاتب الشـرطة وكـاتب القاضي. وكـان كاتب الرسائل أهم هؤلاء الكتاب في الرتبة، وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين[٥].

ومن الكتاب الذين ذاع صيتهم زياد بن أبيه كاتب أبي موسى الأشعـري، وسالم كـاتب هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد.

د ـ الحجابة:

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم بل كانوا يخاطبون الناس على اختلافهم بلا حجاب. فلما انتقلت الخـلافة إلى بني أميـة، اتخذ معـاوية ومن جـاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو بـن العاص، وذلك خـوفاً على أنفسهم من شر الناس، وتلافياً لازدحامهم على أبوابهم. وشغلهم عن النظر في مهام الدولة، وفي

---

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ ـ ١٤.
(٢) اجعل لها ليقة وهي خرقة توضع في المداد.
(٣) الشباء (بفتح الشين) برية القلم.
(٤) القرمطة: الدقة في الكتابة والتقريب بين الحروف.
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

ذلك يقول ابن خلدون:

(وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة. فلم يفعلوه. فلما انقلبت الخلافة إلى ملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه. كان أول شيء بدىء به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع لعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم بذلك وسموه الحاجب)[1].

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا هذه، وكان يشغل منصباً سامياً في البلاط، ومهنته إدخال الناس على الخليفة مراعياً في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم. ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا، فقد قال عبد الملك بن مروان لما ولى حاجبه: (لقد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد).

كذلك أوصى عبد الملك أخاه عبد العزيز الذي ولي مصر من قبله (٦٥ ـ ٨٦ هـ) فقال: (أبسط بشرك، وآثر الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك. وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلّا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده)[1].

٢ ـ النظام الإداري

ظل النظام الإداري للحكومة الإسلامية في الجملة على ما كان عليه في بلاد الفرس والروم. فقد وجد العرب أن هذه الأمم التي بنوا حضارتهم على أنقاضها ذات تاريخ مجيد عريق في الحضارة والمدنية والنظم السياسية. فلم يكن بد إذن من قبول هذا النظام وإبقائه على ما كان عليه من قبل، ثم إحداث ما يتطلبه الإصلاح من التغيير الذي يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التي دانت للمسلمين.

وكان النظام الإداري في صدر الإسلام وفي عهد بني أمية نظاماً أولياً، فلم يتبع نظام توزيع الأعمال على الإدارات المختلفة واختصاص كل إدارة بأعمال معينة كما فعل العباسيون من بعد.

ولما ولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم وقال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال، وقال عمر: وأنا أكفيك القضاء. وكان أبو بكر يستشير أهل الرأي والفقه من أمثال عمر

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١١٥.

وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت.

وقد بقي النظام الإداري في الولايات الإسلامية وسار عليه الولاة دون أن يدخل عليه تغيير يستحق الذكر. فكان بمصر مثلاً المدير أو المحافظ، والمأمور، أو نائب المدير، والخولي أو المفتش الزراعي، وهم لا يختلفون حتى اليوم من حيث اختصاصاتهم عما كانوا عليه في عهد الرومان، اللهم إلا في الألفاظ الرومانية التي كانت تطلق على من كانوا يشغلون هذه المناصب قبل الفتح الاسلامي.

أ - الدواوين:

كان المسلمون يحاربون ابتغاء مرضاة الله لا يريدون على ذلك مالاً ولا جزاءً إلا من عند الله. وقد بذل بعضهم كثيراً من ماله في وجوه البر والإحسان. ولم يفرض لهم النبي ولا أبو بكر عطاءً مقرراً، ولكن جرت العادة أنهم إذا غزوا بلداً من البلاد أخذوا نصيبهم من الغنائم بحسب ما قررته الشريعة. وإذا ورد إلى المدينة شيء قسمه النبي عليهم في المسجد، وجرى الأمر على ذلك حتى كانت سنة ١٥ هـ. ولما توالت الفتوح الإسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الفرس، رأى عمر توزيع هذه الأموال على المسلمين مراعياً في ذلك مراتبهم ومبلغ استحقاقهم، ولكنه لم يعرف كيف يؤدي هذا العمل على أتم الوجوه، فأشار عليه أحد مرازبة الفرس بإدخال نظام الدواوين الذي سار عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخراجها.

والديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر[1]، وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان. يقول الماوردي[2]: (والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال). ويقول الجهشياري[3] عن سبب تدوين عمر الدواوين: (كان عمر أول من دوّن الدواوين من العرب في الإسلام، وكان السبب في ذلك أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال، فلقي عمر فقال له عمر: ماذا جئت به؟ قال: خمسمائة ألف درهم، فقال عمر: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف درهم ومائة ألف درهم ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، فقال عمر: أطيب هو؟(يريد أحلال هو؟) قال: لا أدري، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلناه كيلاً، وإن شئتم أن نعده عداً، فقام إليه رجل فقال: يا أمير

---

(١) ذكر ابن خلدون (مقدمة ص ٢١١) أن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال: (ديوانه) أي مجانين بلغة الفرس، فسمي موضعهم بذلك، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات.

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٩١.

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٦ - ١٧.

المؤمنين! قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً لهم قال: دونوا الدواوين.

وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس. فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين! إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء. وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل، فتنبه عمر وقال: صفه لي، فوصفه المرزبان، فدون الدواوين وفرض العطاء(١).

وقد قيل إن عمر استشار المسلمين في تدوين الديوان فقال علي بن أبي طالب: (تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً)، وقال عثمان بن عفان: (أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا، حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر)، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: (وقد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً: فدون ديواناً وجند جنداً)، فأخذ بقوله، فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش، فقال لهم: (اكتبوا الناس على منازلهم). فبدءوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة. فلما نظر إليه عمر قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدءوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله(٢).

عامل عمر المسلمين وأهل الذمة على سواء معاملة قوامها العدالة المطلقة. يدل على صحة هذا القول ما حكي عن عمر حين عاب عليه قومه تأخير تدوين أنصبتهم في بيت المال وقالوا له: (أنت خليفة رسول الله ﷺ وخليفة أبي بكر، خليفة رسول الله ﷺ، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا، قال: بخ بخ بني عدي! أردتم الأكل على ظهري، وإني أهب حسناتي لكم. لا والله حتى تأتيكم الدعوة وأن يطبق عليكم الدفتر (يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس). إن لي صاحبين (يعني النبي وأبا بكر) سلكا طريقاً، فإن أنا خالفتهما خولف بي. والله ما أدركنا الفضل في الدنيا، وما نرجو الثواب على عملنا إلا بمحمد ﷺ . فهو شرفنا وقومه أشرف، ثم الأقرب فالأقرب. والله لئن جاءت الأعاجم بعمل جئنا بغير عمل، لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه. ابدءوا بقرابة النبي ﷺ: الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله تعالى)(٣).

ولما عزم عمر على تدوين الديوان في المحرم سنة ٢٠ هـ، (بدأ ببني هاشم في الدعوة، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ، فكان القوم إذا استووا في القرابة قدم أهل السابقة، ثم انتهوا إلى الأنصار فقالوا: بمن نبدأ؟ فقال: ابدءوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي من الأوس ثم

(١) الفخري ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

الأقرب فالأقرب لسعد وفرض عمر لأهل الديوان، ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض. وكان أبو بكر قد سوى بين الناس في القسم. فقيل لعمر في ذلك فقال: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه. فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، وفرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة حليفهم ومولاهم بالسواء، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر،ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد أحداً أربعة آلاف درهم لكل رجل، وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين إلا حسناً وحسيناً، فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول الله ﷺ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف لقرابته برسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فرض له سبعة آلاف درهم، وقال سائرهم: لم يفضل أحداً على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ فإنه فرض لهن اثني عشر ألفاً، وألحق بهن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي بن أخطب. وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم، وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين. . وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف. . ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً، فألحق من جاءه من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين ديناراً لكل رجل، وفرض لآخرين معهم، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة. ولم ينقص أحداً من ثلثمائة. وقال: لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألفاً لسفره، وألفاً لسلاحه، وألفاً يخلفه لأهله، وألفاً لفرسه ونعله. وفرض لنساء مهاجرات، فرض لصفية بنت عبد المطلب ستة آلاف درهم، ولأسماء بنت عميس ألف درهم، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم)[1].

على أن بعض المسلمين رأى أن تدوين الدواوين يجعل العرب يهملون التجارة التي كانوا يعتبرونها من أشرف المهن، فقال أبو سفيان بن حرب لعمر: أديوان مثل ديوان بني الأصفر؟ إنك إن فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة. فقال عمر: لا بد من هذا، فقد كثر فيء المسلمين.

استخدم عمر الكتاب في الدواوين، فرتبوا الناس طبقات كما تقدم، مبتدئين بالعباس عم النبي، ثم بني هاشم، ثم بمن بعدهم. وجرى الحال على ذلك مدة خلافته وخلافة عثمان الذي أدخل في أيامه تعديلاً يستحق الذكر (الفخري ص ٧٩ - ٨٠).

وأنشأ عمر ديوان الجند لتدوين أسماء الجند وما يخص كلاً منهم من العطاء، وديوان

(١) الطبري جـ ٤ ص ١٦٢ - ١٦٣.

الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء، وانحصرت الأعمال الإدارية في عهد بني أمية في أربعة دواوين أو إدرات رئيسية هي: .

١ ـ ديوان الخراج.

٢ ـ ديوان الرسائل ويشرف صاحبه على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة.

٣ ـ ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة.

٤ ـ ديوان الخاتم وقد أنشأه معاوية بن أبي سفيان، وكان أكبر دواوين الدولة. ويقوم موظفوه بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان، كما هو الحال اليوم في قلم «الأرشيف» أو السجلات.

ويرجع السبب في إنشاء هذا الديوان إلى أن معاوية أحال رجلاً على زياد بن أبيه عامله على بلاد العراق بمائة ألف درهم، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب ـ وكانت توقيعاتهم تصدر غير مختومة ـ وجعل المائة مائتين. فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد وقال: (ما أحلته إلا بمائة ألف)، ثم استعاد المائة ألف من الرجل ووضع ديوان الخاتم، فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشتمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها في شيء (الفخري ص ١٠٢).

على أن ختم الرسائل والصكوك كان قبل ذلك. فقد روي أن النبي ﷺ لما أراد أن يكتب إلى هرقل امبراطور الروم، قيل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ الرسول خاتماً من فضة ونقش فيه «محمد رسول الله»، ثم ختم به أبو بكر وعمر وعثمان إلى أن سقط من يد عثمان في بئر أريس، فصنع آخر على مثاله.

وكان ديوان الخاتم يعد من الدواوين الكبرى منذ خلافة معاوية إلى أواسط عهد الدولة العباسية، ثم ألغي لتحول الأعمال إلى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم.

وكان بجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى أقل أهمية من هذه: منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة وما هو خاص بنفقات الجند.

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان فنقل، عبد الملك ديوان فارس والشام إلى العربية ونقل ابنه الوليد ديوان مصر إلى العربية.

ويقول سيد أمير علي: إن النظام الإداري والسياسي للولايات الإسلامية في عهد الدولة الأموية لم يكن من عمل معاوية؛ بل إن عبد الملك هو الذي وضع هذا النظام فقد صبغ الإدارة والمالية بالصبغة العربية، وبتحويله الدواوين إلى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب وقام الحجاج بن يوسف بتنفيذ سياسة عبد الملك.

ولما فتح المسلمون بلاد الفرس والروم واتسع ملكهم وعظمت دولتهم، اقتدوا بالأكاسرة والقياصرة، فاتخذوا الطراز عن الروم. لكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها في الإسلام، بل استعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وعبارات أخرى تجري مجرى الفأل والدعاء. وظلوا على ذلك إلى أيام عبد الملك، فنقله إلى العربية وبدأ بالقراطيس (ورق البردى)، وكانت تنسج بمصر وتنقش عليها عبارات مسيحية. وقد أمر عبد الملك بترجمة هذه العبارات إلى العربية. ولما عرف معناها قال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام، وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر، بإبطال هذا الطراز واستبدال تلك العبارات بإحدى الشهادتين (لا إله إلا الله)، ففعل. وظل هذا الطراز في سائر بلاد الدولة الإسلامية ولم يغير من جوهره شيء. كما كتب عبد الملك إلى عماله بإبطال القراطيس المطرزة بطراز الروم وإنزال العقاب بمن يخالف ذلك.

وقد بنى الخلفاء في قصورهم دواراً لنسيج أثوابهم، فكان يشرف عليها «صاحب الطراز»؛ فينظر في أمور الصياغ والحاكة، ويجري عليهم الأرزاق ويتفقد أعمالهم. وقد بلغت هذه الدور أوج عظمتها في عهد الدولتين الأموية والعباسية.

ولما حملت هذه القراطيس إلى بلاد الروم وعلم بها الامبراطور أنكر ما فيها، واستشاط غيظاً، فكتب إلى عبد الملك: إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم. فإن كان ما تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا، فاختر إحدى الحالتين وبعث إليه بهدية يسترضيه بها للرجوع إلى الطراز، فرد عبد الملك هديته وأخبر الرسول بأنه لا رد عنده، فأعاد إليها أضعافها وطلب الجواب. فلما لم يرد عليه غضب الامبراطور وبعث يهدده بنقش سب النبي على النقود، لذلك عول عبد الملك على ضرب العملة الإسلامية.

وكان إصلاح العملة من أهم الأعمال التي قام بها عبد الملك، وهي تدل على حسن سياسته وبعد نظره، إذ لم يكن في العربية عملة مقررة إلى ذلك الحين. وكان لكل ولاية دار ضرب خاصة بها تضرب بها العملة. على أنها لم تف بالغرض المطلوب لعدم ضبط معيار هذه النقود وظهور تزييفها[1]. وقد بنى عبد الملك داراً للضرب، وأمر بسحب العملة في جميع أنحاء الدولة وضرب بدلها عملة جديدة من الذهب والفضة. وكان يعاقب كل من يزيف العملة عقاباً صارماً.

وحذا الوليد حذو أبيه عبد الملك، فحول ديوان الخراج في مصر إلى العربية بعد أن كان

---

(١) Von Kremer: Orient Under the Caliphs. pp 199 - 200.

باليونانية التي كانت اللغة الرسمية في هذه البلاد إلى عهد الوليد بن عبد الملك (شوال ٨٦ - جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ). يؤيد ذلك أوراق البردى العربية ذات الصيغة الرسمية يرجع تاريخها إلى عهد الوليد، والتي دونت باليونانية والعربية معاً.

ولنأت بوصف بعض الوثائق نقلاً عن كتاب أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان[١]، ففي صفحة ٢١ نجد الطراز رقم ٥ المؤرخ (٩٠ - ٩٦ هـ). وهو عبارة عن كتاب من أهل كورة أشقوة (كوم أشقوه) إلى الأمير قرة بن شريك صاحب الخراج والصلاة في مصر.

ونجد في صفحة ٢٥ الطراز رقم ٩٥، وهو بمثابة مرسوم صادر من عبد الله بن عبد الملك بن مروان صاحب الخراج والصلاة في مصر (٨٦ - ٩٠ هـ)، وفيه بعد البسملة وعبارات التوحيد وذكر أمير المؤمنين الوليد (بن عبد الملك): هذا مما أمر به الأمير عبد الله بن عبد الملك في سنة ست وثمانين. وتدل هذه الوثيقة على أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين في دواوين الحكومة: الأولى على أنها اللغة الرسمية التي كانت تدون بها الأعمال في تلك الدواوين، والثانية لأنها لغة الحاكم العربي، وذلك لصدور هذه الوثيقة عن رجل له صفة رسمية، وهو والي مصر، وكذلك نجد في صفحة ٦٧ الطراز رقم ٦٧، وهو شبيه بهذا تماماً، غير أنه مؤرخ بسنة ٨٩ هـ.

وكذلك كانت الحال في الوثائق التي صدرت عن الوالي الذي حل محله في ولاية الصلاة والخراج في مصر وهو قرة بن شريك، فإنها بمثل هاتين الصيغتين وفي نفس هذه المسائل الرسمية[٢]. أضف إلى ذلك الطراز رقم ٦٨ وفيه نجد ثبتاً دونت فيه عدة أسماء أمام كل منها مقدار ما دفع. ولهذه الوثيقة أهمية كبيرة لتعلقها بمسألة الخراج مباشرة.

وقد يلاحظ في بعض أوراق البردى كتابات باللغة القبطية إلى جانب اللغتين اليونانية والعربية، وربما دعا ذلك إلى الاعتقاد بأن اللغة القبطية كانت لغة رسمية، ولكننا نستطيع أن ندفع هذا الاعتقاد بما نلاحظه على هذه الكتابات القبطية من أنها قد دونت في آخر الوثيقة[٣] أو في ظهرها مما يدل على أن هذه اللغة كانت في الدرجة الثالثة من الأهمية[٤]، ومن أن هذه

---

(١) انظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب.

(٢) انظر الطراز رقم ٢٨، ٢٩، ٦٠، ٦٥، ٦٩ ص ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤.

(٣) يقول جروهمان في إحدى هذه الأوراق: (.. وغرض الفراغ الذي بين السطر الأخير من الطراز والسطر الأول من الصك القبطي ٥ سم.. (ص ٦٣) ويقول في وصف الطراز رقم ٦ المؤرخ ٨٦ - ٩٦هـ)، وفي أسفل الطراز فراغ عرضه ١ و ٥ سم، وفي أسفله نص قبطي، وكذلك رقم ٣ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطي ومتن الطراز ٥ و ٦ سم.

(٤) كما في الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣، فإن به سطرين من متن قبطي كتبا في ظهر الطراز، وكذلك بالطراز رقم ٤ ص ٤٦ أربعة أسطر قبطية في ظهر الأصل.

الكتابات كلها قد دونت بحبر مخالف لحبر النص الأصلي للوثيقة[1]. كما نلاحظ أن هذه الكتابات القبطية يختلف موضوعها عن موضوع النص الأصلي اليوناني العربي، فموضوعها في الغالب من نوع واحد هو الصكوك كما وجد في الوثائق صكوك باليونانية[2]. يضاف إلى ذلك كله أنه لم يعثر حتى الآن على وثيقة رسمية كتبت بالقبطية في العهد العربي.

ومما يدل على أن كتابة هذه الوثائق اليونانية والعربية كانت عامة لسكان مصر يخاطب بها اليونان والقبط وغيرهم، ما ورد بصفحة ٥٤ عن الطراز رقم ٣٠، حيث نجد ثبتاً على عمود ممتد ١١ سطراً يحتوي على أسماء من القبط.. ويرجع خطه اليوناني المنمق إلى القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي).

ب - الإمارة على البلدان:

كانت حكومة القبيلة عند العرب في العصر الجاهلي ديمقراطية، وكان شيخها يجمع رؤساء العشائر للتشاور والفصل في الأمور. ولم يكن للقبيلة قانون تسير على وفقه، بل كانت تحكم بما جرى عليه العرف الذي قام عندهم مقام القانون. فلما ظهر الإسلام أحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية، وأصبح المسلمون متساوين جميعاً. وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [سورة الحجرات ٤٩ : ١٣].

ولم تكن حكومة الرسول حكومة دينية فحسب، بل كانت حكومة سياسية أيضاً. فقد كان يقود الجيوش ويفصل في الخصومات ويجبي الأموال. ومن ثم جمع في يده السلطتين الدينية والسياسية معاً. على أن السلطة السياسية جاءت عرضاً، لأن الغرض الأول الذي بعث الرسول من أجله إنما كان نشر الدعوة إلى الإسلام.

ولما هاجر الرسول إلى المدينة وضع نظام الدولة الإسلامية على ما تقدم، وكان ينيب عمالاً على القبائل وعلى المدن. وكان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة في الحجاز واليمن عامل من قبله، يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة.

ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية. وقد فرض الرسول لعتاب بن أَسَيْد الذي ولاه مكة درهماً كل يوم؛ فكان هذا الراتب أول ما وضع من الرواتب للعمال. أما كبار الصحابة

---

(١) نظر وصف جروهمان للطراز رقم ٦، فإن أصله مكتوب بحبر بني مائل للسواد على حين كتبت السطور القبطية الملحقة به بحبر أسود. وكذلك الحال في الطراز رقم ٦١ ص ١٣ ثم في الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣. وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فإن لون الحبر في نصه الأصلي أسود ولونه في النص القبطي بني.

(٢) انظر الطراز رقم ٣١، ٤٨، ٥٠ ص ١٦، ١٧، ١٨ على الترتيب.

فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم وغيرها.

ولما ولي أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم. وقسمت بلاد العرب إلى عدة ولايات هي: مكة، والمدينة، والطائف، وصنعاء، وحضرموت، وخولان، وزبيد، ورمع[1]، والجندل، ونجران، وجرش، والبحرين.

ولما اتسعت الدولة العربية في عهد عمر، قسم البلاد أقساماً إدارية كبيرة ليسهل حكمها والإشراف عل موارد ثروتها: وهي ولاية الأهواز والبحرين، وولاية سجستان ومُكران وكرمان، وولاية طبرستان، وولاية خراسان، وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات: بلاد العراق وقد قسمها قسمين أحدهما حاضرته الكوفة والآخر حاضرته البصرة. وقسم بلاد الشام قسمين: أحدهما قاعدته حمص والثاني دمشق، وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته. وقسم إفريقية إلى ثلاث ولايات: مصر العليا ومصر السفلى وغربي مصر وصحراء ليبيا.

وقد عين عمر على هذه الولايات عمالاً أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي كان يجمع في يده السلطتين التنفيذية والقضائية. وكان أمراء الأقاليم يسمون عمالاً. ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة. وقد استعملت كلمة والي فيما بعد، وهذا يشعر بأن العامل قد أصبح له النفوذ والسلطان كما كانت الحال مع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ولي بلاد العراق من قبل عبد الملك بن مروان وابنه الوليد من بعده. كذلك أطلقت عليه كلمة أمير، وأن تطور هذا اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة.

كما أصبحت كلمة عامل في عهد بني أمية تطلق على رئيس الناحية الإدارية وكان حكام الولايات يلقبون بلقب أمير، ذلك اللقب الذي يطلق على أمراء البيت المالك. ولم تكن ثمة صلة بين لقب أمير ولقب عامل ولقب أمير الأمراء الذي أدخله الخلفاء العباسيون في سنة ٣٢٤ هـ، وتلقب به قائد القواد مؤنس الخادم الذي لم يعتبر نفسه أميراً قط. ثم جاء كافور الإخشيد فرضي بأن يلقب بلقب أستاذ.

وكان في كل إقليم عامل (أو وال أو أمير) يقوم بإمامة الناس في الصلاة والفصل في النزاع وقيادة الجند وجمع المال وما إلى ذلك. وكان عامل الخراج أهم هؤلاء العمال، وكان يعمل مع الوالي جنباً إلى جنب، هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى شؤون الدولة المالية. وكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالي مما أدى إلى تنازع السلطة وقيام المنافسة بينهما، الأمر الذي يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج، وكان عامل الخراج يعين من قبل الخليفة مباشرة، ولكن الأمير كان يتمتع بالسلطة المطلقة.

---

(١) بكسر أوله وفتح ثانيه وعين مهملة موضع باليمن، وقيل هو جبل.

وقد ذكر الطبري أسماء ولاة الأقاليم الإسلامية في عهد عمر (جـ ٥ ص ٤٢ ـ ٤٣) ثم عهد عثمان (جـ ٥ ص ١٤٨) الذي اتسعت رقعة الدولة في عهده كما يتبين ذلك من الثبت الآتي.

الولايات	العمال في عهد عمر	العمال في عهد عثمان
مكة	نافع بن الحارث الخزاعي	عبد الله الحضرمي
الطائف	سفيان بن عبد الله الثقفي	القاسم بن ربيعة الثقفي
صنعاء	يعلى بن منبه حليف بني نوفل	يعلى بن منبه
البصرة	أبوموسى الأشعري	عبد الله بن عامر
الكوفة	المغيرة بن شعبة	سعيد بن العاص
مصر	عمرو بن العاص	عبد الله بن سعد بن أبي سرح
البحرين	عثمان بن أبي العاص	عبد الله بن قيس الفزاري
الشام	(دمشق) معاوية بن أبي سفيان	معاوية بن أبي سفيان
حمص	عمير بن سعد	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد
الأردن		الأعور بن سفيان
فلسطين		علقمة بن حكيم الكناني
قنسرين		حبيب بن سلمة
قرقيسيا		جرير بن عبد الله
أذربيجان		الأشعث بن قيس
حلوان		عتبة بن النهاس
همذان		النسير
الري		سعيد بن قيس
أصبهان		السائب بن الأقرع
ماسبذان		حبيش

وعمر أول من وضع النظام السياسي للدولة الإسلامية ونظم إدارتها. وكانت سياسته ترمي إلى تماسك بلاد العرب وإدخال القبائل بعضها في بعض لتكون أمة واحدة هي الأمة العربية. وكانت سياسته ترمي إلى عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد التي فتحوها حتى لا تضيع قوميتهم، يقول سيد أمير علي (ص ٥٧): (لو أن عمر عاش أطول مما عاش لاستطاع بما وهبه الله من قوة الشكيمة والشخصية البارزة أن يقوي من شأن الوحدة العربية ويحول دون قيام هذه الحروب الأهلية الطاحنة التي هددت كيان الإسلام).

وقد اختار عمر الولاة من العرب، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين.

روى الطبري (٥ : ٢٠)، أن عمر خطب الناس يوماً فقال: أيها الناس! إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم (جلودكم) ولا ليأخذوا أعشاركم (أموالكم)، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه. فوثب عمرو بن العاص وقال: رأيتك يا أمير المؤمنين إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه؟ قال عمر: أي والذي نفس عمر بيده لأُقُصَّنَّه[1] منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ثم بين لعمرو ما يخشاه على الرعية من عنف الأمراء وظلم الولاة فقال: «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تُجَمِّروهم[2] فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم». ناهيك بما فعله عمر بولد عمرو بن العاص وبجبلة بن الأيهم حين حكم بالقصاص لكل منهما لواحد من السوقة.

وكان عمر يسأل الرعية إذا وفدت عليه في موسم الحج أو غير موسمه عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم، روي عن الأسود بن أبي يزيد قال: كان الوفد إذا قدموا على عمر، سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم، فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم! فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عزله[3].

وكان عمر لا يولي عاملاً إلا إذا كتب له عهداً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه ألا يركب برذوناً (حماراً)، ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس[4].

وكان عمر يتفقد أحوال الرعية بنفسه، ويطوف في الأسواق وهو يقرأ القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم. بل لقد عزم على الطواف في الولايات الإسلامية ليقف بنفسه على أحوال الرعية فيها. فقد روي أنه قال: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن الناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ، وأما هم فلا يصلون إليّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا![5].

---

(١) بضم القاف وفتح الصاد والنون مع التشديد.

(٢) أي لا تتركوا الجنود في بلاد الأعداء زمناً طويلاً بعيدين عن أهلهم.

(٣) الطبري جـ ٥ ص ٢٣.

(٤) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٢١.

(٥) المصدر نفسه جـ ٥ ص ٢٠.

كما رسم عثمان السياسة يسير عليها عماله في الأقاليم في هذه العبارة التي رواها الطبري (٥: ٤٤) في حوادث سنة ٢٤ هـ. فقد كتب إلى عماله: (أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة. وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة. وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم. ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

والإمارة على البلدان نوعان: إمارة عامة، وإمارة خاصة. فالعامة نوعان: إمارة استكفاء بعقد عن اختيار، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار. وتشمل الإمارة عن اختيار سبعة أمور أوردها الماوردي[1] كما يلي:

١ - النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم.
٢ - النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.
٣ - جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منهما.
٤ - حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل.
٥ - إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين.
٦ - الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.
٧ - تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معاونين عليه.

(فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس).

أما الإمارة عن اضطرار فهي التي يأخذها الوالي ويقرها الخليفة، وفيها يكون الوالي مستبداً بالسياسة والتدبير. ولكن المسائل المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة، ولا يمكنه أن يغض النظر عن بدعة أو إهمال.

وأما عن الإمارة الخاصة فيقول الماوردي: (يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة[2] والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات).

وكانت إمارة العمال على إماراتهم في العهد الأول عامة، ثم رؤي أن تخصص. فكانت

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٨ وما يليها.

(٢) البيضة: المجتمع وموضع السلطان ومستقر الدعوة.

إمرة عمرو بن العاص على مصر عامة، إذ كان يقود الجيوش ويقضي في الخصومات ويجبي الأموال. ثم عين عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج. وبذلك أصبحت ولاية عمرو خاصة بعد أن كانت عامة. وبعد قليل تقلد قضاء مصر قاض للفصل في الخصومات، فصارت سلطة الوالي مقصورة على قيادة الجيش وإمامة الصلاة[١].

وقد بلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك.

ويقول سيد أمير علي (ص ١٩٠): إن هناك نقصاً تطرق إلى النظام الإداري في عهد بني أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد. وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الإقامة في حواضر ولاياتهم. أما في عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط الذين كانوا يقيمون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالاً يحكمون الولايات نيابة عنهم.

وكانت الولاية عامة للخليفة على جميع بلاد الدولة الإسلامية. ومن ثم كان من حقه تعيين القضاة والولاة ليحكموا هذه البلاد باسمه. وكان الخليفة يستعين في إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين، منهم: عامل الخراج أو صاحب بيت المال، والقاضي، والقائد، وصاحب الشرطة، على حين عين عمر عمالاً للصلاة لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين.

وقد بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها في عهد الأمويين، وكانت تنقسم إلى خمس ولايات كبرى هي:

١ ـ الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.

٢ ـ مصر بقسميها السفلى والعليا.

٣ ـ العراقان: العربي (بلاد بابل وآشور القديمة)، والعجمي (بلاد الفرس نفسها)، وعمان والبحرين وكرمان وسجستان، وكابل وخراسان، وبلاد ما وراء النهر والسند، وبعض أجزاء بلاد البنجاب؛ وكانت كل هذه الأقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها والي العراق وحاضرته الكوفة. ويلي خراسان وبلاد ما وراء النهر عامل من قبل والي العراق مركزه مدينة مرو عادة، وكانت بلاد البحرين وعمان تحت إشراف عامل البصرة من قبل والي العراق، ويلي بلاد السند والبنجاب عامل آخر من قبل والي العراق.

٤ ـ بلاد الجزيرة وتتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض بلاد آسيا الصغرى.

٥ ـ والولاية الخامسة هي أهم هذه الولايات، وتشمل كل إفريقية الشمالية حتى غربي

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة: القاهرة ١٩٦٢) ص ١٥٣ ـ ١٦٢.

مصر، وبلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار، ومركزها القيروان، وقد أناب والي إفريقية ولاة من قبله لحكم طنجة وجزر البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأندلس(١).

جـ - البـريـد:

البريد في الاصطلاح هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن. فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى المكان الآخر، وقد تعب فرسه، ركب غيره فرساً مستريحاً، فإذا وصل إلى المكان الآخر ركب غيره فرساً آخر، وهكذا حتى يصل إلى المكان النهائي. وأما معناه اللغوي فهو مسافة معلومة قدرت باثني عشرة ميلاً، وقدره الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. وكان يطلق على الرسول «بريد»، وقد قيل إن لفظ بريد عربي، وقيل إنه فارسي معرب وأن أصله بالفارسية «بريد دم» أي مقصوص الذَّنَب، لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز عن غيره من الدواب الأخرى. وكان البريد يطلق على الرسول، وكانوا يضعون البريد في أماكن معينة لحفظ الأموال وسرعة وصول الأخبار(٢).

وقد أدخل نظام البريد في أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم. على أن مقاديره أو مسافته كانت متفاوتة. وقد أدخل نظام البريد في الإسلام في عهد معاوية بن أبي سفيان، ثم أدخل عليه عبد الملك بن مروان عدة تحسينات، وبذلك أصبح أداة هامة في إدارة شؤون الدولة. وبلغ من اهتمامه بالبريد أنه أوصى صاحبه أن لا يمنع عامل البريد من الدخول عليه ليلاً أو نهاراً لأن عدم دخوله ساعة قد يفسد أعمال الولاية سنة كاملة(٣).

د - الشـرطـة:

والشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين، وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم. وقد سموا بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها.

وكان عمر أول من أدخل نظام العسكر في الليل. وفي عهد علي بن أبي طالب نظمت الشرطة، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة. وكان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر، لأنه يتولى رياسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن.

---

(١) ameer Ali, pp. 187 - 188.

(٢) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر، تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية، ويتولى صاحبها إقامة الحدود. ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، واستقل صاحب الشرطة بالنظر في الجرائم.

وقد أدخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) نظام الأحداث، وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد[١].

ولما فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ كانت الشرطة في مدينة الفسطاط، ولما أسس صالح ابن علي العباسي مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ ، أنشئت فيها داراً أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين:

١ ـ الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط.

٢ ـ الشرطة العليا ومقرها العسكر، وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر يقع شمالي الفسطاط، ومن ثم سميت الشرطة العليا[٢].

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى وشرطة صغرى، وقد بين ابن خلدون[٣] اختصاص كل من الشرطتين. فقال: إنها انقسمت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وإنه جعل لصاحب الشرطة الكبرى الحكم على الخاصة من ذوي النفوذ والجاه واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان رَجْل[٤] يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تشريفه.

٣ ـ النظام المالي

أ ـ موارد بيت المال:

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ نشأتها، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه للمصالح العامة للمسلمين. وهو بهذا يشبه وزارة المالية في العصر الحاضر،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٥

(٣) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٠١٦ وما عليها خط المؤلف.

(٤) كذا في المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون

وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية.

والمال الوارد لبيت مال المسلمين: إما أن يكون ضريبة عن الأرض أو عن أشياء أخرى غير الأرض كنصيبه من الفيء والغنائم والركاز، وكجزية الرؤوس التي يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم، والعشر الذي يدفعه المشركون عن متاجرهم وسفنهم التي تدخل بلاد المسلمين وموانيهم، ويسمى العشور. كما كانت ترد إلى بيت المال التي لم يعلم لها مستحق، كاللقطة وتركة من لا وارث له، والأموال التي يصالح عليها المسلمون أعداءهم ونحو ذلك. ويجمل بنا أن نأتي بكلمة عن كل مورد من هذه الموارد التي تمد بيت المال بالأموال.

١ - **الخراج**: والخراج هو مقدار معين من المال أو الحاصلات، ويفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن يعوض المحاربين عن نصيبهم فيها أو يسترضيهم كما فعل عمر بن الخطاب. ويؤخذ عن الأرض التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت مال المسلمين.

وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأراضي لا يفرض عليها الخراج، وإنما يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها وغلاتها، وتسمى الأرض العشرية. وقد ذكر الماوردي[1] هذه الأنواع فقال:

١ - الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب، فهذه كانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج.

٢ - الأرض التي ملكها المسلمون عنوة إذا قسمها الخليفة على الفاتحين، فهذه تعتبر أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج.

٣ - الأرض التي كانت تؤخذ من المشركين عنوة، وهذه تعتبر غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون عنها العشر من غلتها، وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج.

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما صنع عمر بن الخطاب في أرض السواد[2]، وإما حصة معينة مما خرج من الأرض. ويطلق على ذلك المعاملة أو المزارعة،

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣١.

(٢) روي أن السواد لما فتح في زمن عمر بن الخطاب شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون فأراد قوم قسمتها، فقال عمر: فكيف بمن يأتي من المسلمين بعدكم فيجدون الأرض قد اقتسمت ودونت؟ وبعد مناقشات كثيرة جمع عمر الناس وخطبهم خطبة جاء فيها: قد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع فيها الخرج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، فوافقوه على ذلك وقد طلبوا إليه أن يقسم أرض الشام كما قسم الرسول خيبر فقال عمر: إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم: وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين.

كما عامل النبي أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض قليلاً كان أو كثيراً.

وقد مسحت أرض السواد في زمن عمر بن الخطاب فبلغت ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريباً. فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب، وبلغ ما جبي من خراج العراق في عهد عمر ١٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم، متوسط جناية الجريب ٣,٥٥ درهم. فإذا كان الفدان يساوي ٣,٥ من الأجربة فتكون ضريبة الفدان المنزرع قمحاً ١٤ درهماً.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخراج، فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التي فرضت على أهل الذمة، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض. وكل منهما يخالف ما جرى به عرف الرواة الذين تحدثوا عن مقدار الخراج في الولايات. فهم يعنون بالخراج المال الذي يأتي من إحدى ناحيتين: الأولى الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أو جزية الرؤوس، الثانية ضرائب الأطيان، لذلك اختلف المؤرخون في تقدير الخراج[1].

ولم يكن الخراج إيراداً ثانياً للدولة، إذ كانت ضريبة الأطيان تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وتحسين وسائل الري، كما أن جزية الرؤوس كانت تتناقص بالتوالي لدخول أهل الولايات الإسلامبة في الإسلام.

وقد تناول الماوردي الكلام على الخراج فقال: (فأما الخراج فهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها، وفيه من نص الكتاب بينة خالفت نص الجزية، فلذلك كان موقوفاً على اجتهاد الأئمة). وقال في موضع آخر: والأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام: أحدها ما استأنف المسلمون إحياءه فهو أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج، والقسم الثاني ما أسلم عليه أربابه فهم أحق به، فتكون على مذهب الشافعي أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج، والقسم الثالث ما ملك عن المشركون عنوة وقهراً، فيكون على مذهب الشافعي رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها. وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج، والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهي الأرض المختصة بوضع الخراج عليها.

وكذلك يقول (ص ١٣٢): وأما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون فتنقسم ثلاثة أقسام: أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء، فقد اختلف الفقهاء في حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها: فذهب الشافعي إلى أنها تكون غنيمة كالأموال، وتقسم بين الفاتحة إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتوقف على مصالح المسلمين، وقال مالك: تصير وقفاً

---

(١) ذيل التاريخ المجموع على التحقيق لأوتيخا أو سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م).

على المسلمين حين غنمت، ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين. وقال أبو حنيفة: للإمام فيها الخيار بين قسمتها بين الفاتحين فتكون أرضاً عشرية أو يعيدها إلى أيدي المشركين بخراج يضربه عليها فتكون أرض خراج.

وكان الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاة والقواد لجباية الخراج، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المصالح العامة، ويرسلون الباقي إلى بيت المال ليصرف فيما خصص له.

وذكر أبو يوسف في كتابه الخراج الصفات التي تتوافر فيمن يتولى جباية الخراج فقال: إنه يجب أن يكون فقيهاً، عالماً، مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم.

وعلى الجملة، فقد كان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح لم يشتد فيه الولاة في جمع الجزية، وكانت الضرائب المفروضة على الأرض تقدر على حسب مساحة الأرض ومبلغ جودتها ونوع المحصول ولم تكن تدفع كلها نقداً بل كان بعضها يدفع عيناً. وقد عني الولاة بأمر الري لضمان جباية الخراج، فعنوا بمراقبة السدود وإنشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها وكريها (أو تطهيرها). وكانت الضريبة تخفض إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

كان هناك نظامان لجباية الخراج: نظام المقاسمة، ونظام الالتزام. ففي النظام الأول ترى الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً. وبلغ من شدة مراقبة عمر لعماله أن كان يحصي أموالهم قبل توليتهم، فإذا انتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده إلى بيت المال، إلا إذا اتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة.

وأما نظام الالتزام أو الإقطاع فإنه يرجع إلى عهد الرسول، فقد أقطع أناساً من مزينة أو جهينة أرضاً بقصد تعميرها فلم يعمروها، وجاء آخرون فعمروها؛ فاختصم الجهنيون والمزنيون إلى عمر بن الخطاب فقال: (من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها). وأقطع عثمان بن عفان عبد الله بن مسعود النهرين، وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز.

ويقول المقريزي (خطط جـ ١ ص ٦٧): إن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يقطعون أرض مصر لنفر من خواصهم، ومن خراج مصر تصرف أعطيات الجند وما تتطلبه مرافق الدولة وما بقي يرسل إلى بيت المال، وما أقطع من الأراضي يبقى بيد من آل إليه.

وقد ذكر الماوردي[١] نوعي الإقطاع فقال إنه ضربان: إقطاع استغلال وإقطاع تمليك. والثاني ينقسم إلى موات وعامر، والثاني ضربان: أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام. فإن كانت في دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام المقطع ليتملكها.

وقد أوضح الأستاذ جروهمان[٢] طريقة كراء أرض الدولة أو قبالة (كفالة) الأراضي فقال: «إن ذلك كان يحصل على طريقة المزاد على يد متولي خراج مصر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط حيث ينادي على الأرض جزءاً (أو كورة)، ويعطى لمن يرسو عليه المزاد لمدة أربع سنوات». وفي ذلك يقول المقريزي[٣]: «إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما انتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس. وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ أو الاستبجار وغير ذلك. فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمنها إلى ناحيته، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك، ويحمل ما عليه من الخراج في إبانه على أقساط، ويحسب له من مبلغ قبالته، وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة في الخراج. ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين».

وبلغ مقدار خراج السواد في عهد عمر بن الخطاب ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي عهد ولاية عبيد الله بن زياد ١٣٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وعهد الحجاج بن يوسف ١٨٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي عهد عمر بن عبد العزيز ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي عهد عمر بن هبيرة ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، سوى طعام الجند وأرزاق المقاتلة، وفي عهد يوسف بن عمر ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم كان يحمل منها إلى دار الخلافة مبلغاً يتراوح بين ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وينفق على من معه من جند الشام ١٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وعلى البريد ٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وعلى الطوارىء ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الأحداث والعواتق ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

وبلغ خراج بلاد الشام في عهد عبد الملك بن مروان ١,٧٣٠,٠٠٠ دينار منها

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨١ ـ ١٨٢.
(٢) AR. Pap. Vol. II. pp. 64 - 65.
(٣) خطط جـ ١ ص ٨٢.

١٨٠,٠٠٠ من الأردن ، ٣٥٠,٠٠٠ من فلسطين، و٤٠٠,٠٠٠ من دمشق، و٨٠٠,٠٠٠ من حمص وقنسرين والعواصم[١] .

أما عن خراج مصر فيقول ابن عبد الحكم[٢]: «حدثنا عبد الملك بن مسلمة قال: لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط من راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ، ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ على دينارين ، فأحصوا ذلك ، فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف » .

ونحن نشك في صحة هذا التقدير لأنه لو حسبت جزية الرؤوس وحدها بناء على هذا التقدير، لبلغ مقدارها ١٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار مع أن عمراً جباها ١٢,٠٠٠,٠٠٠. ورب قائل يقول: إن الأربعة ملايين الباقية قد استبقاها عمر لجنده، ولما قد يقوم به من الإصلاحات. ومع ذلك فقد أهملنا حساب جزية الأرض كفاء ما يتفق على مصر من وجوه الإصلاح. فصحة التقدير ٦,٠٠٠,٠٠٠ إذ أن متوسط عدد سكان مصر في أيام الخلفاء الراشدين والأمويين يتراوح بين ١٥,٠٠٠,٠٠٠،و١٨,٠٠٠,٠٠٠ . وهذا التقدير يتناسب مع ما قدره المؤرخ ملن في كتابه مصر تحت حكم الرومان من أن عدد سكان مصر لم يقل في أيام الخلفاء الراشدين عن عددهم في أيام البيزنطيين، إذ لم تكن هناك حروب ولا مجاعات ولا أوبئة[٣].

وبلغ خراج مصر في عهد عمرو بن العاص ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار. ولكن الخليفة عمر لم يقنع بهذا القدر وعجب من أن مصر لم تؤد نصف ما كانت تؤديه قبل الإسلام، إذ نمى إليه أن خراجها بلغ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد المقوقس، بل قيل إنه بلغ ٢٤,٤٠٠,٠٠٠ دينار.

وكانت مساحة الأرض المزروعة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تقرب من ٦,٠٠٠,٠٠٠ فدان. وكان المصريون يزرعون ثلثي هذه المساحة قمحاً وشعيراً. وإذا كان خراج الفدان الواحد سبع كيلات كان محصول الأرض:

$$\frac{٧ \text{ كيلات} \times ٤ \text{ أفدنة}}{١٢} = ٢,٣٣٣,٣٣٣$$

أردباً. فإذا حسبنا ضريبة الأرض على أساس ٢٪ بلغ نصيب الدولة من هذا الإيراد

$$\frac{٢,٣٣٣,٣٣٣ \times ٢}{١٠٠} = ٤,٦٦٦,٦٦٦$$

أردباً .

من ذلك يتضح أن ضريبة الأرض كانت بنسبة ٢٪. وفي ذلك يقول اليعقوبي[٤]: «في

---

(١) جرجى زيدان: التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٧٥ .

(٢) كتاب فتوح مصر ص ٥٦ .

(٣) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٩ ص ١٦٦ ـ ١٧٧ .

هذه السنة فتح عمرو بن العاص الإسكندرية وسائر أعمال مصر واجتباها ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار من خراج رؤوسهم لكل رأس دينار، وخراج غلتهم من مائة أردب أردبان. وبلغ خراج مصر في عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار، ثم أخذ الخراج يتناقص حتى بلغ ١
في عهد ولاية أسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ) ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وبلغ في عهد ولاية عبيد الله بن الحبحاب في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار[١]. ويرجع هذا النقص إلى كثرة دخول المصريين في الإسلام وانصراف الولاة عن العناية بشؤون الري.

وصفوة القول إن خراج العراق بلغ في عهد الدولة الأموية ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وخراج مصر ٣٦,٠٠٠,٠٠٠، والشام ٢٠,٠٠٠,٠٠٠، فيكون مجموع خراج هذه البلاد ١٨٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، عدا خراج سائر البلاد الإسلامية التي لم يعرف مقدار خراجها بالضبط.

٢ ـ **العشور**: يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحرب (أي بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) فيأخذون منهم العشر. فكتب عمر: خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين درهماً من كل أربعين درهماً، ولا تأخذ منهم فيما دون المائتين شيئاً، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم.

وقد نص الشرع على أخذ العشر من سلع تجار الكفار التي يقدمون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام إذا شرط ذلك عليهم. وقد أفتى الشافعي بأن للإمام أن يزيد عن العشر وأن ينقص منه إلى نصف العشر، وأن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة، ولا يزيد أحد العشر على مرة من كل قادم في التجارة في السنة الواحدة ولو تكرر قدومه. وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى.

٣ ـ **الزكاة**: الزكاة والصدقة شيء واحد من أزكى الشيء يزكيه إذا نماه، أو من زكاه تزكية إذا طهره. وإنما سميت بذلك للإشارة إلى أن إخراج شيء من مال الإنسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه. وأيضاً لأن إحراج شيء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة. قال تعالى: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم ﴾[١]. وهي كل ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع بين

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٦١.

فقرائهم. وكان للصدقة ديوان خاص بها في دار الخلافة له فروع في سائر الولايات. فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر (٢,٥٪) عما يمتلكونه من المال. وهذه هي زكاة النقد أو النقدين (الذهب والفضة).

أما زكاة السوائم وهي الإبل والغنم ويلتحق بها العنز، فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق إلى مائة، ثم يبتدىء من ١٠١ إلى ٢٠٠ بمقدار واحدة في كل مائة. والإبل عن كل خمس شاة إلى أربع وعشرين، فإن كانت خمساً وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أو أقل). والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة بنت سنة. فإذا بلغ العدد ستين كانت بمقدار واحدة بنت سنتين، والخيل إذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها. كل ذلك إذا كانت الحيوانات تأكل من الكلأ المباح، فإن علفها صاحبها فلا زكاة فيها، وإذا دخلت في التجارة فتقوم ويدفع عنها زكاة التجارة[(١)].

أما زكاة عروض التجارة فهي: ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة، وأن يحول عليها الحول.

وزكاة المعدن والركاز، وهو مال وجد تحت الأرض سواء كان معدناً خلقه الله تعالى بدون أن يضعه أحد فيها أو كان كنزاً دفنه الكفار. فقد قال الحسن البصري فيه: ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس، وماكان في أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر[(٢)].

وأما زكاة الزرع والثمار فيجب فيها العشر إذا كانت خارجة عن أرض تسقى بالمطر أو السيح[(٣)]، ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها، وأن يكون الخارج منها مما يقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها[(٤)].

وكانت الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين في قوله تعالى: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ [سورة التوبة ٩: ٦٠].

٤ - **الجزيـة**: ومن موارد بيت المال الجزية وهي مبلغ معين من المال يدفعه من توافرت فيه شروط خاصة، وهي تشبه الخراج في أن كلاً منهما جزء من الفيء يجيء في أوقات معينة من كل سنة، ولكنهما يختلفان في أن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالإسلام، وفي أنها

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٠٨ - ١١٧.

(٢) راجع كتاب صحيح البخاري.

(٣) الماء الذي يسيح على الأرض من المصارف وغيرها.

(٤) راجع الجامع لأحكام القرآن جـ ٧ ص ٩٩، والفقه على المذاهب الأربعة، وصحيح البخاري.

قد ثبتت بنص الكتاب الكريم: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد (أي عن قدرة) وهم صاغرون ﴾ [سورة التوبة ٩: ٢٩] (أي قابلون أن تجري عليهم أحكام الإسلام). وأما الخراج فهو على الأرض، ولا يسقط بإسلام المالك، والخراج إنما ثبت بالاجتهاد.

وإنما وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان، وهما رعية لدولة واحدة في المسؤولية، كما تكافآ في التمتع بالحقوق وتساويا في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة «إذ ليس في مواشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة. والرجال والنساء في ذلك (أي في عدم دفعهم الزكاة عن مواشيهم وغيرها) سواء؛ فليست الجزية ديناً على الذمي يستوفى منه بالوسائل التي تستوفى بها الديون. فمن وجبت عليه الجزية وتوفي أو أسلم قبل دفعها لم تؤخذ من تركته ولم يطالب بها ورثته[1].

وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع، ولا تؤخذ من مسكين يُتصدق عليه، ولا ممن لا قدرة له على العمل، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوي العاهات، ولا من أحد من المترهبين في الأديرة وأهل الصوامع إلا إن كان غنياً.

ويلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين لم يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين، وأنه أعفى منها الأشخاص الذين يعفيهم من القتال. وفي ذلك يقول الماوردي[2]: «واسمها مشتق من الجزاء، فيجب على أولي الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا (يستقروا) بها في دار الإسلام ويلتزم لهم ببذلها بحقين: أحدهما الكف عنهم. والثاني الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين».

أما مقدار الجزية فقد قسمها أبو حنيفة ثلاثة أقسام:

١ ـ أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً.

٢ ـ ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً.

٣ ـ وفقراء يكتسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهماً.

أما جباية الجزية فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الإسلام بالرفق والإنصاف في جبايتها من أهل الكتاب وصيانة أرواحهم وأموالهم من عبث الجباة والولاة. وتقضي القاعدة الفقهية أو

---

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٦٩ ـ ٧٢.

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٣٧.

دستور الإسلام فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعيها بأنه «لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية « أي لحملهم على أدائها »، ولا يقامون في الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » .

والأخبار الواردة في معاملة المسلمين أهل الكتاب في صدر الإسلام كثيرة تشهد بروح العدل والرفق والشعور النبيل نحوهم. روى أبو يوسف عن أبي ظبيان قال: «كنا مع سلمان الفارسي في غزاة، فمر رجل وقد جنى فاكهة، فجعل يقسمها بين أصحابه، فمر بسلمان فسبه، فرد على سلمان وهو لا يعرفه. فقيل له: هذا سلمان، فرجع فجعل يعتذر إليه ثم قال له الرجل ما يحل لنا من أهل الذمة يا أبا عبد الله؟ قال: ثلاث من عماك إلى هداك، ومن فقرك إلى غناك، وإذا صحبت الصاحب منهم تأكل طعامه ويأكل طعامك، ويركب دابتك وتركب دابته في أن لا تصرفه عن وجه يريده » .

وروي أن عمر بن الخطاب مر على باب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عمر عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن! فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل[1]. ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه (أشباهه). فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبه ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين، وهذا من مساكين أهل الكتاب، ووضع الجزية عنه وعن ضربائه[2].

وهذا أبو يوسف قاضي الرشيد يكتب إليه والدولة العباسية في أوج عزها وسلطانها وبطشها فيقول: قد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ، والتفقد لهم حتى لا يجحفوا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عند وفاته: أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

وروي عن نافع عن ابن عمر أنه قال: كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أنه قال: «احفظوني في ذمتي»[3]، وعن ابن عباس قال: ليس في أموال أهل الذمة إلا العفو.

---

(١) اي اعطاه شيئاً ليس بالكثير .

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٧٠ .

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

٥ ـ الفيء والغنيمة: والفيء هو مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل أو ركاب(١).

وكان للنبي ﷺ خمس الفيء يقسم خمسة أسهم متساوية: كل سهم منها لأربابه عملاً بقوله تعالى: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾(٢). وبعد موت الرسول رد نصيبه إلى بيت المال. وأما أربعة الأخماس الباقية فكانت تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند.

والغنيمة هي كل ما أصابه المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال. وتشتمل على أربعة أقسام: هي الأسرى والسبي والأرضون والأموال: فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون في الأسر. والسبي هم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين، فلا يجوز قتالهم وإنما يقسمون في جملة الغنائم. وإن كان النساء من غير أهل الذمة أو ممن ليس لهن كتاب ـ كالدهرية وعبدة الأوثان ـ وامتنعن عن الإسلام يقتلن أو يسترقن، ويجوز قبول الفدية عنهن؛ فإن فودي بهم أسرى من المسلمين في أيدي قومهم عوض الغانمون عنهم من سهم المصالح (بفتح اللام الثانية)، وكذلك في حالة المنّ عليهن. يدل على هذا ما فعله الرسول مع هوازن حينما لقوه مستعطفين! فقد قسم السبي على الجيش. وكانت الأرض التي تؤخذ في الحرب عنوة يخرج أهلها منها لأنها غنيمة كالأموال. واختلفوا في كيفية تصرف الإمام فيها: هل يحبسها لمصالح المسلمين؟ أم يقسمها على المحاربين؟ فالشافعي يرى تقسيمها كما فعل أبو بكر. وقال مالك: إنها تصير وقفاً كما فعل عمر، وقال أبو حنيفة بالخيار بين قسمتها أو وقفها.

وأما الأموال المنقولة، وهي ما يمكن نقله كالماشية والمال، فكانت تقسم بين المقاتلة، وكذلك الحال بالنسبة للأسلاب كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم، وكان الرسول يقسمها حسبما يرى.

ولما اختلف الصحابة في تقسيم غنائم بدر شرح القرآن طريقة قسمها في هذه الآية: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء، فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [سورة الأنفال ٨: ٤١]. فكان للإمام مع من ذكر في الآية الخمس وصارت الأربعة الأخماس الباقية حقاً للفاتحين(٣).

---

(١) الإيجاف: سرعة السير، والركاب: الإبل التي يسافر عليها لا واحد لها من لفظها، أي لم يعدوا في تحصيله خيلاً ولا إبلاً بل حصل بلا قتال.

(٢) سورة الحشر ٥٩: ٧.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

الضرائب في عهد بني أمية :

زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين. فلم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التي قررها أسلافهم بل جاوزوا حدودها وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر: أن زد على كل امرئ من القبط قيراطاً، فكتب إليه وردان: كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم؟ وكانت الحال كذلك في سائر الولايات الإسلامية، فقد صادر أحد إخوة الحجاج أملاك الأهالي ببلاد اليمن، وأثار حنقهم وسخطهم بفرضه عليهم ضريبة معينة (وظيفة) ، عدا العشر الذي قرره الإسلام[1] .

وفي عهد عبد الملك عمل في خراسان إحصاء جديد للسكان عامة، وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة. وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير على ما كانت عليه من قبل[2] . وكذلك كانت الحال في العراق حيث كانت تزيد الضرائب الاستثنائية في عبء ما كان يثقل كاهل الأهلين من الضرائب المقررة .

وقد بيّن فون كريمر[3] كيف استطاع الحجاج أن يرغم حديثي العهد بالإسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار، وما تلا ذلك من المقاومة العنيفة التي قاوموه بها. وانضمامهم إلى صفوف عبد الرحمن بن الأشعث الذي أشعل نار الثورة على بني أمية.

وروى مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة التي كانت ترمي إلى العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه من قبل. فقد أجمع هؤلاء على القول بأن بلاد العراق كانت بعد الحجاج أسوأ البلاد حالاً. من ذلك ما ذكره اليعقوبي[4]: (وكان (الحجاج) أول من أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال، وانكسر الخراج في أيامه، فلم يحمل كثير شيء، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم)، وكان خراجها في عهد معاوية ١٢٠ مليوناً من الدراهم. على أنه لا يجب ألا يغيب عن الذهن أن عصر الحجاج كان مليئاً بكثير من حروب الخوارج التي استنفذت أموال العراق.

على أن الحجاج، وإن كان قد قسا في معاملة الموالي خاصة وأهل العراق عامة، كان مخلصاً في خدمة بني أمية زهاء عشرين سنة حتى مات في عهد الوليد بن عبد الملك، ولم يترك وراءه غير القرآن وسلاحه وبضع مئين من العملة الفضية.

وقد أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج أن لا يأخذوا من الأهالي من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً، وهو ما أمر به عمر بن الخطاب، ورأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٧٣.

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٢٣.

(٣) Orient Under the Caliphs, p. 208 .

(٤) جـ ٢ ص ٣٤٨ وما يليها.

أثقل وزناً من تلك الدراهم التي فرضها عمر بن الخطاب مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الأهالي.

ب ـ مصارف بيت المال:

وكان المال الذي يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة على حسب ما يراه الإمام، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، ولا يصرف للولاة ولا للقضاة شيء من أموال الصدقة، بخلاف والي الصدقة فإن رزقه يصرف منها. وكانت زيادة أرزاق القضاة والولاة ونقصها من حق الإمام، ومنه تدفع أعطيات الجند، وهي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات خاصة. وكانت في أيام النبي ﷺ غير محدودة ولا معينة، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة، وما يرد من خراج الأرض التي بقيت في أيدي أهلها كما كانت تقسم بينهم.

ولما ولي أبو بكر الخلافة سوى بينهم في العطاء قائلاً: وهذا معاش، فالأسوة فيه خير من الأثرة). ولما ولي عمر جعل العطاء بحسب السبق إلى الإسلام. وبقيت أعطيات الجند تقسم على هذا النحو في عهد الخلفاء الراشدين. فلما احتاج معاوية وهو وال على بلاد الشام إلى استنجاد العرب زاد في أعطيات جنده الذي بلغ ستين ألفاً، انفق عليهم ستين مليون درهم في السنة. فلما توطدت دعائم الأمويين نقصوا ذلك المبلغ الضخم إلى أقل من النصف.

وكان ينفق من بيت المال على كري الترع الكبيرة، والمجاري التي تأخذ من الأنهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، وعلى حفر الترع للزراعة وغيرها. أضف إلى ذلك النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم[١]، وعلى شراء المعدات الحربية، وإعطاء العطايا والمنح للأدباء والعلماء.

ولا يفوتنا أن نذكر أن النظام الذي أقره عمر كان يفرض لكل مسلم دون اسمه في دواوين الحكومة رواتب سنوية كفاء خدماته الحربية، عدا ما كان يمنحه من الأجر (فريضة) لأبنائه، لا فرق في ذلك بين العرب والموالي.

على أن هناك أمراً آخر جديراً بالملاحظة، هو أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً في عهد هذا الخليفة. لذلك أصبح العطاء وقفاً على الدهاقين، وهم كبار ملاك الأراضي من الفرس الذين ساعدوا العرب في فتوحاتهم. وبذلك نستطيع أن نعلل ما ذهب إليه البلاذري[٢] من أن العرب

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٩٤ ـ ١٩٦.

(٢) فتوح البلدان ص ٤٦١.

في ذلك الوقت لم يكن يحفظهم أن يقاسمهم غيرهم من الذين دخلوا الإسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم. وقد ذكر اليعقوبي[١] أن علياً وحده هو الذي تمسك بالقواعد القديمة، ولا نعلم إلى أي حد اتبع الأمويون الطريقة التي وضعها عمر للأعطيات السنوية.

وكان الأمويون على جانب كبير من الحكمة وبعد النظر، فقد عملوا على تلافي ما عسى أن يجره عليهم ذلك النظام الذي كان يقضي بنقص عطاء رعاياهم من العرب عن القدر الذي فرضه لهم عمر بن الخطاب. وقد أجحف مؤرخو الغرب في الحكم على هذه الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز والتي كان الغرض منها القضاء على ما قام به في سبيل انتشار الإسلام من العقبات، وذلك بمنحه الموالي الحقوق التي كان يستمتع بها المسلمون من العرب وحدهم، وإعفائهم من الجزية التي كان يدفعها الكفار، ثم مقاسمتهم إخوانهم المسلمين من العرب نصيبهم من الأعطيات السنوية[٢].

وعلى الرغم من ذلك، ينبغي أن يتورع المؤرخ عن القسوة في الحكم على تلك الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز. ويقول فان فلوتن: ومن العدل أن أطالب الذين يشايعون الحجاج بن يوسف على ذلك الخليفة المصلح بالإجابة عن هذين السؤالين:

١ ـ ألم يكن خيراً للأمويين أنفسهم مساواتهم جميع العناصر في الحقوق: تلك السياسة التي لا يبعد أن يكون عدم الأخذ بها هو السبب الأول في سقوط دولتهم؟.

٢ ـ وإذا لم تكن تلك المساواة في مصلحة خلفاء بني أمية، ألم تكن من مصلحة الإسلام نفسه؟ ليس ثمة أحد كائناً من كان يستطيع أن يشك في صحة هذه الملاحظة الثانية فإن النظام العسكري الذي وضعه عمر بن الخطاب لم يعد يلائم حال الأمة العربية في ذلك الحين.

وكان عمر بن عبد العزيز أول من فطن من خلفاء بني أمية إلى أن وقت التفرغ للإصلاحات الداخلية قد آن، كما اقتنع بذلك عمر بن الخطاب من قبل، حتى أن ذلك قد حال دون القيام بفتوحات جديدة، وكانت سياسة عمر تقوم على المحافظة على الدين والتمسك الشديد بالنظام الذي سنه جده عمر بن الخطاب. فقد كان يكنّ لجده في أعماق نفسه الاحترام والإكبار، برغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولاً تاماً. فقد كان لزاماً أن تجد الحكومة أعمالاً جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين في الولايات الإسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال.

ولا غرو فقد كانت السياسة التي سار عليها عمر بن عبد العزيز تحول دون ملكية الجند للأرض، على حين كانت الحال تقضي بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها، كما كانت تسخو

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢١٣.

(٢) Von. Kremer, Vol. I. p. 174.

في منح الأعطيات حتى للموالي من المسلمين، في الوقت الذي كانت فيه مالية البلاد تتطلب إلغاء تلك الأعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم. وهكذا حال ذلك التصرف الذي أنضب موارد الدولة دون نجاح تلك السياسة التي كانت ترمي إلى الإصلاح وإعفاء الجدد في الإسلام من الجزية.

٤ ـ النظام الحربي

أ ـ الجيش:

لما جاء الإسلام ألف بين قلوب العرب الذين أخذوا يدافعون عنه بالنفس والنفيس، فيلبون دعوة الرسول أو الخليفة، ويقاتلون في سبيل الله ونصرة الدين. وكان عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة، فأنشأ ديوان الجند للإشراف عليهم، بتقييد أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم، وكان القتال في عهد عمر يقوم على العاطفة الدينية والرغبة في نشر الإسلام.

ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام وفلسطين ومصر، أقام الجند في هذه الأمصار في معسكرات خاصة بهم، وانصرفوا إلى الزراعة وتكوين الثروة وامتلاك العقار الثابت، وبذلك انصرفوا عن الجندية وفترت الروح العسكرية فيهم، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم أن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق أسراتهم.

وإلى عمر يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل، ولا يرتاحون إلا في أكواخ مصنوعة من سعف النخل. ومن ثم بنيت «العواصم» وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة. وكان عدد جند العرب عند فتحهم حصن بابليون يتراوح بين ١٢,٠٠٠، ١٥,٦٠٠، ١٦,٠٠٠. ولما جاء عثمان وحدثت في عهده الفتنة التي أدت إلى انقسام المسلمين، أصبح القتال في سبيل الدفاع عن الرأي وليس في سبيل نشر الدين كما كانت الحال في أيام عمر.

وقد أكمل الأمويون ما بدأه عمر في نظام الجندية، ولكن لما استقر الأمر لهم قعد المسلمون عن الحرب وانصرفوا عن القتال، فأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجباري. وقيل إن عدد جند العرب بلغ في عهد معاوية ٤٠ ألفاً من الجنود المرتزقة والمتطوعة.

وكان الجيش في عهد عبد الملك بن مروان يتكون من العنصر العربي. لأن الدولة الأموية كانت ـ على ما نعلم ـ عربية لحماً ودماً. وظلت الحال على ذلك حتى توسع الأمويون في فتوحهم، وضموا شمال إفريقية وبلاد الأندلس فاستعانوا بالبربر في الجيش.

وكان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة، وكان هؤلاء يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح، وأولئك يتسلحون بالدروع والسيوف والقسي والسهام. وكان العرب في الجاهلية يستعملون هذه الأسلحة، لأنهم كانوا يحملون بها أغراضهم ويستجلبون معايشهم، وخصوصاً القسي التي مهروا في الرمي بها لحدة أبصارهم وحاجتهم إليها في الصيد، وبلغ من مهارتهم في الرمي بالقوس أن الرامي كان يستطيع أن يرمي إحدى عيني الغزال دون الأخرى.

فلما جاء الإسلام ساعدتهم مهارتهم في استعمال القسي على قهر الروم الذين لم يكونوا يحسنون الرمي بها. لذلك كان قادة المسلمين يدربون جنودهم على إتقان الرمي بالنبال. وكان النبي يقول: «ارموا واركبوا، وأن تركبوا أحب إليّ من أن ترموا». وفي القرآن الكريم: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾. وكان الرسول يقول وهو على المنبر بعد أن يتلو هذه الآية: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي».

ولما سار الرسول إلى الطائف مطارداً فلول ثقيف الذين اعتصموا بحصونهم ورموا المسلمين بالنبال من فوقها. اضطر الرسول أن يرميهم بالمنجنيق. روي أن الرسول كان أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق(١)، وهو أداة تُرمى بها الحجارة على الأعداء، ويتركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب تعمل منها القاعدة وفوقها القائمتان على الجانبين، وتتصل هاتان القائمتان بعرضة، ثم يركب على هذه العرضة سهم يُراعَى في وضعه أن يكون أحد طرفيه قصيراً والآخر طويلاً، وتثقل الجهة القصيرة حتى يصير وضع السهم رأسياً. وفي الجهة الطويلة تركب الكفة التي يوضع فيها الحجر المعد للقذف بعد أن يجذب حتى يجعل عاليه أسفلاً، وعندئذ يُخلى السهم فينطلق الحجر نحو الهدف، كذلك سير إليهم الرسول الدبابات، وهي من آلات الحرب. وكان المحاربون يدخلون في جوفها ويدفعونها إلى جدران الحصن فينقبونه وهم في داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من قبل العدو. وكذلك استعمل الرسول الضبور وهي كالدبابة تقريباً تصنع من الخشب المغطى بالجلد، ويكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن فيقاتلون أهله وهم فيها، وهي أشبه بالسيارات المصفحة اليوم.

وكذلك الرجالة يقفون في صفوف متراحمة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان. وكان جناحا الجيش يتألفان من الفرسان عادة. ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم في ميادين القتال إلى أسلحتهم وحدها، بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والمثابرة والصبر على تحمل الشدائد. وإذا أضفنا إلى هذه الصفات ما امتازوا به من الحماس وبذل النفس في نصرة الدين، أمكننا أن نهتدي إلى سر ذلك الفوز الذي أحرزه العرب في

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٣٠٣.

حروبهم، وكانت الدولة العربية تسخو في تموين الجند وإمدادهم بما يحتاجون إليه من الزاد والسلاح.

وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور، ويرتدي الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى ما تحت الركبة، وسراويل ونعالاً تشبه النعال التي يلبسها أهل بلاد الأفغان اليوم.

وكانوا يكبرون ويتلون الآيات القرآنية في أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفي أثناء اشتباكهم في المعارك الحربية.

وكانت النساء يصحبن الجيش، ويخصص لهن أماكن في المدن الحصينة ويقرعن الطبول لإثارة الحماسة في نفوس الجند.

وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالي البلاد المفتوحة بسوء. ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر. وكان الجندي لا يقيم في خدمة الجيش أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيداً عن أسرته[1].

وكانت وحدات الجيش من القبائل العربية؛ وكان النبي ﷺ يقود الجيش بنفسه أحياناً. ولما تطورت الأحوال وتعددت الجيوش في البلدان المختلفة، أصبح من الصعب على الخلفاء أن يقوموا بهذه المهنة، فكانوا يختارون أصلح الناس لقيادتها من أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص والمثنى بن حارثة.

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه لأنه يعتبر نائبه. فقد كان ينوب عنه في إقامة الصلاة وإذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس، فيصبح هذا القائد بمثابة (قائد القواد) وإذا انتهى الفتح أصبحت مهمة القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم. وكان ديوان الجند الذي استحدثه عمر ابن الخطاب أكبر مساعد على تحسين نظام الجندية وضبطه في الإسلام.

وإلى القواد العرب يرجع الفضل في تنظيم طريقة القتال؛ فقد كان العرب في الجاهلية يتبعون طريقة الكر والفر فيكرون على العدو، وإذا آنسوا في أنفسهم ضعفاً فروا، ثم عادوا فكروا، وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام.

غير أن قواد المسلمين لم يطمئنوا إلى الطريقة ورأوا أنها لا تكفل لهم النصر ولا تصلح لقتال الجنود المنظمة. وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [سورة الصف ٦١: ٤]. وأخذ المسلمون في عهد النبي يقفون للقتال

---

(١) Ameer Aly, pp 54 -55.

صفوفاً كما يفعلون في الصلاة، ثم يسيرون لملاقـاة العدو متضامنين، ليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه.

وفي عهد الأمويين اختلط العرب كثيراً بـالفرس وأخـذوا عنهم نظام التعبئة، أي تقسيم الجيش إلى خمس كتائب. ولذلك كانوا يسمون الجيش كله خميساً، تكون إحداها في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى (قلب الجيش)، وإلى يمينها واحدة تسمى (الميمنـة)، وأخرى إلى يسـارها تسمى (الميسـرة)، ثم تكون أمـامها كتيبـة ـ من الفـرسـان في الغـالب ـ وتسمى (المقدمة)، وخلفها كتيبة تسمى (ساقة الجيش)، ولذلك تركوا نظام الصفوف.

وتتضح لنا طريقة العرب في تسيير الجيوش ونظامها في كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبي وقاص حيث يقول: (وترفق بالمسلمين في سيـرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحـة يحيون بهـا أنفسهم ويرمـون أسلحتهم وأمتعتهم. ونـحِّ منازلهم عن قـرى أهـل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيء، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولـوهم خيراً. ولا تنتصـر على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض عدوك، فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليـك من أمرهم شيء، وليكن عنـدك من العرب أو من أهـل الأرض من نطمئن إلى نصحـه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عين لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائـع عوراتهم. واختـر للطلائـع أهل البـأس والرأي من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القـوة. واجعل أهـل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد. ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك اكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبـة أو ضيعة أو نكاية. فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعالجهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفـة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك...).

ب ـ البحـريـة:

لم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية في صدر الإسلام لبداوتهم وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله. وكان أول من ركب البحر العـلاء بـن الحضرمي والي البحـرين في عهد عمر، فقد توجه لغزو بلاد فارس في اثني عشر ألفاً من المسلمين من غيـر إذن الخليفة،

وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها بلاد الفرس. فلما علم عمر بذلك، وكان يكره ركوب البحر، غضب على العلاء وعزله.

ولما فتحت الشام شاهد العرب سفن الروم، فتطلعت أنفسهم إلى مجاراة أعدائهم، وألح معاوية على عمر في أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً لقربها منه، فطلب الخليفة عمر من عمرو ابن العاص والي مصر أن يصف له البحر وراكبه، فكتب إليه عمرو: (يا أمير المؤمنين! إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب؛ وإن ثار أزاغ العقول. يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة. هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق). فلماجاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية يردعه عن ركوب البحر قائلاً: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً.

وقد علل ابن خلدون[1] سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر فقال: (والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته. فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشواني[2]، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغرهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس).

ولما ولي عثمان الخلافة أعاد عليه معاوية الكرة في غزو الروم بحراً، فأذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً؛ فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس، فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة. كما حارب عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر من قبل عثمان قسطنطين بن هرقل في بحر الروم، وانتصر عليه في موقعة ذات السواري التي اشتبك فيها ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين. وفي هذه السنة أيضاً فتح العرب جزيرة قبرص، كما جردو حملة لغزو بلاد الدولة البيزنطية.

ومن ذلك الحين أخذت الحملات تتوالى على تلك البلاد. ولما ولي معاوية الخلافة عني بإنشاء السفن الحربية لصد غارات الدولة البيزنطية على البلاد الإسلامية، ورتب لغزوها الشواتي والصوائف، ووضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بينه وبينهم شتاء وصيفاً. وبلغ أسطول

---

(١) مقدمة ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

(٢) جمع شونة، وهي المركب المعد للجهاد في البحر.

الشام ١٧٠٠ سفينة. وفي عهد معاويه عزا عصبه بن عامر الفهري جزيرة رودس، وفي سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس في عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ)، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص. ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن، فانشئت لأول مرة (٥٤ هـ) دار الصناعة لبنائها في جزيرة الروضة(١).

أما أن العرب كانوا في الأصل مدينين للبيزنطيين في هذه الناحية من الفنون الحربية، فهو أمر لا سبيل إلى إنكاره. إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة، وإن كانوا قد تتلمذوا للبيزنطيين في تلك الناحية فترة من الزمن، أصبحوا فيما بعد أساتذة أوربا في هذه الفنون، يدلنا على ذلك أن بعض الإصلاحات البحرية المستعملة في أوربا لا تزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم(٢).

٥ - النظام القضائي

أ - القضاء:

وجدت نواة القضاء عند العرب في الجاهلية. فلما جاء الإسلام تولى الرسول الفصل في الخصومات، كما يتبين ذلك من الحلف الذي عقد بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين، وقد جاء في هذا الحلف: (وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله)(٣).

كان عليه الصلاة والسلام قاضياً كما كان للشريعة مبلغاً، ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه، إذ كانت الأمة لا تزال على بساطتها وضيق رقعتها، ثم لقلة عدد القضايا المرفوعة إليه. ولم يؤثر عنه أنه عين في بلد من البلدان رجلاً اختص بالقضاء بين المسلمين. بل كان يعهد بذلك إلى بعض الولاة ضمن ولايتهم أمور الولاية، وتارة يعهد إلى أحد أصحابه بفض بعض الخصومات.

وكان الرسول يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحي. وكان المتخاصمان يحضران إليه مختارين فيسمع كلام كل منهما. وكانت طرق الإثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود والكتابة والفراسة والقرعة وغيرها، كان الرسول يقول: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر». والبينة في الشرع اسم لما يبين الحق ويظهره، بمعنى أن المدعي ملزم بإظهار ما يبين صحة دعواه، فإذا أظهر صدقه بإحدى الطرق حكم له. وكان الرسول يقول: «أمرت أن

---

(١) المقريزي خطط جـ ٢ ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) Hell. Die Kultur det Araber, p. 72.

(٣) ابن هشام جـ ٢ ص ٩٤ - ٩٨.

أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر».

وكان عليه السلام لا يحابي أحداً من المتخاصمين. فقد أثر عنه أنه قال: «إذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء». وروى مسلم أنه قال: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر).

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد، كما أذن للبعض الآخر بالفتيا، وممن اشتهر بالفتيا من الصحابة في عهد الرسول مائة وواحد وثلاثون رجلاً وامرأة، نبغ منهم سبعة هم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والسيدة عائشة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس.

ولم يكن السجن بمعناه المعروف الآن موجوداً في زمن الرسول ولا في عهد أبي بكر، وإنما استحدث في عهد عمر بن الخطاب، إذ كان الحبس لا يتعدى في عهد الرسول منع المتهم من الاختلاط بغيره، وذلك بوضعه في بيت أو مسجد، وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه له. فلم يكن السجن إذن مكاناً يحبس فيه المجرم كما كانت عليه الحال في عهد عمر ومن جاء بعده من الخلفاء.

ولما ولي أبو بكر الخلافة أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان لما عرف به من الشدة والحزم. على أن عمر لم يتلقب بلقب قاض في خلافة أبي بكر.

ولما انتشر الإسلام في عهد عمر واختلط العرب بغيرهم من الأمم، دعت حالة المدينة الجديدة إلى إدخال نظام تشريعي لفض المشاكل التي تنشأ بين الأفراد من العرب وغيرهم، وقضى هذا النظام بتعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في فض هذه المشاكل طبقاً لأحكام القرآن والسنة والقياس. والسنة ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير. ويقصد بالقياس أن القاضي إذا عرضت عليه قضية لم يجد فيها حكماً منصوصاً عليه في القرآن الكريم ولا في سنة رسول الله ولم يكن قد صدر فيها حكم بإجماع من الصحابة، بحث عن مشكلة تشبه المشاكل التي بين يديه يكون قد صدر فيها حكم من القرآن أو السنة أو الإجماع، وهو اتفاق مجتهدي الأمة في عصر من العصور على أي حكم من الأحكام، بشرط أن يكون له مستند من الكتاب والسنة، هذا يكفي من غير تعرف المستند. وفي ذلك يقول الماوردي (ص ٦٣) في كلامه عن الشروط التي يجب أن تتوافر في القاضي: (والرابع - عمله بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها، حتى يجد طريقاً إلى العلم بأحكام

النوازل وتمييز الحق من الباطل).

كان عمر أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية، وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة أو الوالي إذا كانت ولايته عامة، بمعنى أن تكون له الولاية على الخراج والصلاة معاً. فولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وولى شريح بن الحارث الكندي قضاء الكوفة، كما ولى أبا موسى الأشعري قضاة البصرة، وولّى عثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر، وجعل قضاء الشام قضاءً مستقلاً.

ومن الثابت أن شريح بن الحارث الكندي كان قاضي الكوفة في عهد عمر، وأن أبا موسى الأشعري تولى قضاء البصرة من قبل عمر أيضاً، وهذا يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من أن عمر أرسل هذا الكتاب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على قضاء الكوفة، لأنه لم ينقلد ولاية الكوفة إلا في خلافة عثمان بن عفان[١].

وقد سن عمر لهؤلاء القضاة دستوراً يسيرون على هديه في الأحكام، ويعتبر هذا الكتاب أساس علم المرافعات في القضاء، وبعث بهذا الكتاب إلى أبي موسى الأشعري وإلى غيره من القضاة وهاك نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس[٢]، سلام عليك! أما بعد فالقضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة. فافهم إذا أدلى إليك[٣]، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. وليس بين الناس[٤] في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك[٥] ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق. فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج[٦] في صدرك. مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً في شهادة زور أو ظنيناً (متهماً) في ولاء أو قرابة. فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات، وإياك والقلق والضجر والتأذي للناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب

---

(١) راجع الطبري جـ ٤ ص ٢٥٣.
(٢) هو اسم أبي موسى الأشعري.
(٣) أي رفع لك الأمر وجيء به إليك.
(٤) أي اعدل وساو
(٥) الحيف: الظلم والجور
(٦) التلجلج: التردد في الكلام.

الله بها الأجر ويحسن بها الذخر، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شأنه)[1].

كان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين مستقلاً محترم الجانب، وكان يراعى في اختيار القاضي غزارة العلم والتقوى والورع والعدل. وكان القاضي يحكم في بعض الأحيان بحسب ما يوحي إليه اجتهاده، بمعنى أنه إذا سئل في واقعة وقعت بالفعل أخذ من النصوص الواردة في الكتاب والسنة والحكم المراد تطبيقه. فإن لم يكن في الواقعة نص من الكتاب والسنة اجتهد برأيه وقاس الأمور بأشباهها. ومن ثم أصبح الاجتهاد (أو الرأي أو القياس) مبدأ يعتد به في الأحكام القضائية في العصور التالية، وأصبحت تبنى عليه أكثر الأحكام.

ولم يكن للقاضي كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام، لأنها كانت تنفذ على أثر البت فيها، وكان القاضي يقوم بتنفيذها بنفسه، كما كان القاضي يجلس للحكم في منزله أولاً، ثم أصبح يجلس في المسجد ليفصل في الخصومات.

وقد تميز القضاء في عهد بني أمية بميزتين:

الأولى ـ أن القاضي كان يحكم بما يوجبه إليه اجتهاده، إذا لم تكن المذاهب الأربعة التي تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد. فكان القاضي في هذا العصر يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنة أو الإجماع أو يجتهد في الحكم اجتهاداً.

الثانية ـ أن القضاء لم يكن متأثراً بالسياسة، إذ كان القضاة مستقلين في أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة، وكانوا مطلقي التصرف وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج.

كما كان القضاة في العصر الأموي من خيرة الناس، يخشون الله ويحكمون بين الناس بالعدل. وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين في أحكامهم، كان الخليفة يقرب أحكامهم ويعزل من يشذ منهم عن الطريق السوي. حكى الكندي[2] أن هشام بن عبد الملك بلغه أن يحيى بن ميمون الحضرمي لم ينصف يتيماً احتكم إليه بعد بلوغه، فكتب إلى عامله على مصر يقول: (اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً، وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً سليماً من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم).

ومن هذه العبارة نتبين الصفات التي كان يجب أن تتوافر في القاضي في ذلك العصر. قال عمر بن عبد العزيز: (إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علم كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم عن الخصم، واقتداء الأئمة، ومشاركة أهل العلم والرأي).

---

(١) سنن الدارقطني. البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٢٢. (٢) كتاب القضاة ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

وفي ذلك العهد ظهرت الحاجة إلى وجود سجلات تدون فيها الأحكام التي يصدرها القضاة، ولم يعرف هذا في عهد الخلفاء الراشدين. إلا أن تناكر الخصوم أدى إلى إدخال هذا النظام، فوجدت السجلات. قال الكندي: كان سليم بن عنز قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان؛ فاختصم إليه في ميراث، فقضى بين الورثة ولكنهم تناكروا ورجعوا إليه، فقضى. وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند، فكان بذلك أول قاض في العهد الأموي سجل أحكامه.

ب ـ الحسبة:

وكانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم: فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفي الجنايات أحياناً مما يحتاج الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب.

وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين: فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل[1].

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بعمل المحتسب، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي. (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد رؤي عمر يضرب جمالاً ويقول له: (حملت جملك ما لا يطيق). فالمحتسب إذن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحافظ على الآداب والفضيلة، وينظر في مراعاة أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق. ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، ويستوفي الديون، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف[2]، ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين، وقد أجمل ابن خلدون (مقدمة ص ١٩٦) أعمال المحتسب في هذه العبارة فقال:

(ويبحث عن المنكرات، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦١ ـ ٧٢.

(٢) وكان لها دار خاصة: فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة. ومعهم موازينهم وصنوجهم ومكاييلهم فيعايرها. فإن وجد فيها خللاً صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها. وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية. المقريزي: خطط جـ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

من الإكثار من الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[1]، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها، وفي المكاييل والموازين، وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم. وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء. وقد كان في كثير من الدول الإسلامية، مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره).

أما في الأندلس فكان يتولى الحسبة في كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق. وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة، ويختار من بين القضاة، لأن عمله مرتبط بالقضاء. وقد حدد المقري[2] سلطة المحتسب في الأندلس، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأوا بعيداً من الدقة، حتى إنْ أثمان الحاجيات كانت محدودة، وأن الإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً، وأن المحتسبين (كان لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لأنها عندهم تدخل في جميع البياعات).

جـ - المظالم:

وكانت هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي والمحتسب، هي سلطة قاضي المظالم. ولا غرو فقد كانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا في هذا العصر، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضي عن تنفيذ حكمه في قضية رجل من علية القوم.

وقد دعت الحالة إلى إنشاء محكمة المظالم لوقف تعدي ذوي الجاه والحسب. ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع.

وقد نظر الرسول في الشرب الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار فحضره بنفسه وقال للزبير: أسبق أنت يا زبير ثم الأنصاري، فقال الأنصاري: إنه لابن عمك يا

---

(١) طلب رد عدوان الغير برفع قضية ونحو ذلك؟.

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

رسول الله، فغضب الرسول من قوله وقال: «يا زبير أجره على بطنه حتى يبلغ الماء إلى الكعبين». وإنما أمر بذلك تأديباً له. ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين، لأن الناس كانوا في صدر الإسلام بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم إلا علياً كرم الله وجهه، فإنه احتاج إلى النظر فيها. على أنه لم يفرد لسماع المظالم يوماً معيناً أو ساعة معينة، وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصفه، ثم أفرد الخلفاء الأمويون يوماً خاصاً للنظر في أحوال المتظلمين وتصفح قصصهم. وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان. لكنه كان إذا وقف منها على مشكل إحتاج فيه إلى حكم رده إلى قاضيه ابن إدريس الأزدي، فكان ابن إدريس المباشر وعبد الملك الآمر. وهذا يدل دلالة واضحة على حسن تصرف عبد الملك وعدالته واحتياطه في أمور المسمين.

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنه. وكان صاحب المظالم يعين يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين لكي يتفرغ لأعماله الأخرى بقية الأسبوع، إلا إذا كان من عمال المظالم المنفردين بها فيكون له النظر في جميع الأيام. وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد كغيرها من المحاكم التي يعقدها القضاة. ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات مختلفة لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم.

١ ـ الحماة والأعوان، وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى القوة والعنف أو الفرار من وجه القضاء.

٢ ـ القضاة والحكام، ومهنتهم الإشارة على صاحب المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق إلى أصحابها وإعلامه بما يجري بين الخصوم لإلمامهم بشتى الأمور الخاصة بالمتقاضين.

٣ ـ الفقهاء، وإليهم يرجع قاضي المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية.

٤ ـ الكتاب، ويقومون بتدوين ما يجري بين الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق.

٥ ـ الشهود، ومهنتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضي من الأحكام مما لا ينافي الحق والعدل.

ومن اختصاصات قاضي المظالم النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا حادوا عن طريق العدل والإنصاف، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة، والنظر في تظلم المرتزقة إذا أنقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها إليهم. وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته والتأثير في الخصم حتى يعترف بالحق (فإذا اعترف حكم عليه باعترافه)، ومن اختصاصه كذلك تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام، ومراعاة إقامة

العبادات كالجمع والأعياد والحج والجهاد[١].

ومن هذا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة، كما نقف على ما كان عليه النظام القضائي من الدقة والإتقان. هذا إذا راعينا أن هذا النظام الذي ساد منذ نيف وعشرة قرون لا يقل كثيراً عن مثيله في الوقت الحاضر. على أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخوف إذ روعي في اختيار قاضي المظالم أن يكون رجلاً مشهوداً له بالورع والتقوى لا تأخذه في الله لومة لائم.

رواتب القضاة: وكان راتب القاضي لا يقل ـ على ما هو معروف من المصادر التاريخية ـ عن عشرة دنانير كل شهر، وبلغ بعد ذلك سبعة دنانير في اليوم حتى لا ينظر القاضي بعد ذلك إلى شيء، وكان يضاف إلى القضاء أحياناً أعمال أخرى كالقصص، وبيت المال، والمظالم، فيتقاضى القضاة ما خصص لكل وظيفة من هذه الوظائف مما أدى إلى ضخامة راتبه.

وقد فرض عمر بن الخطاب لشريح قاضيه على الكوفة مائة درهم في كل شهر مع مؤنته من الحنطة، وزاد راتب القاضي في الدولة الأموية تبعاً لزيادة موارد الدولة. قيل إن عبد الرحمن ابن حجيرة قاضي مصر(٦٩ ـ ٨٣ هـ) كان يتناول ألف دينار في العام: مائتين عن القضاء، ومائتين عن القصص، ومائتين عن بيت المال. وكان عطاؤه مائتي دينار، وجائزته مائتين. لكن معظم القضاة لم يتناولوا في عهد عمر بن عبد العزيز راتباً أصلاً، لأنه كان يرى أن القاضي لا يجوز له أن يتناول راتباً كفاء قيامه بهذه الخدمة الدينية. وبلغ راتب القاضي في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية عشرة دنانير في كل شهر، كما ثبت من براءة عثر عليها في ديوان مروان كانت قد صدرت إلى خازن بيت المال بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه الشهري في شهر ربيع الأول سنة ١٣١ هـ.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٣ ـ ٨٩.

الباب الثامن

الثقافة والفن

١ - الثقافة

عني الدين الإسلامي بالعلم وتشجيعه والدعوة إلى تحصيله. فقد حرص الرسول على تعليم الصحابة الكتابة، ففرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدي نفسه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين . ثم حث الصحابة على تعلم اللغات حين بعث دعاته ورسله إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية ، فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم .

ولم يختص النبي الرجال بالعلم والتعليم، بل كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفوراً . ولذلك قال عليه السلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وكان الرسول يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم، عن أبي بردة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مولاه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»[1].

وليس أدل على نصيب المرأة المسلمة من العلم من محاجة إحدى نساء المدينة لعمر بن الخطاب حين قام يخطب المسلمين ويحثهم على ألا يزيدوا في مهور نسائهم عن مهور زوجات الرسول، إذ قالت له تلك المرأة: وماذا تقول في قوله تعالى: ﴿ وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾؟ فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

وكان الصحابة أنفسهم مشغوفين بسماع الرسول ﷺ والأخذ عنه ، حتى كان الرجل إذا لم يستطع أن يذهب إلى مجلسه أناب عنه صديقاً له ثم يتعلم منه آخر النهار ما قال الرسول. قال

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ ص ٣٠.

عمر: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[١].

ولم ينفرد الرسول ﷺ وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس في المدينة، بل كان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم.

ويعتبر الفقهاء أن أوجب حقوق الأمة على الخليفة (نشر العلوم والشريعة، وتعظيم العلم وأهله، ورفع مناره ومحله، ومخالطة العلماء الأعلام النصحاء لدين الإسلام، ومشاورتهم في موارد الأحكام ومصادر النقض والإبرام)[٢].

وقد ألقت أفكار الرسول وتعاليمه بذورها في تربة خصيبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة. وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روي عن النبي من كلام ووصايا، والأمناء على تراث محمد الأدبي. ولقد تألفت من هؤلاء جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوماً طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي[٣].

وقد أفاد كثير من الصحابة من صحبتهم للرسول: فنبغ علي في القضاء حتى كان يقال إذا أشكل الأمر: قضية ولا أبا حسن لها، ونبغ معاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام، وزيد ابن ثابت في تقسيم المواريث والأنصبة في الغنائم وما إليها، وأبي بن كعب في قراءة القرآن.. روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد بن ثابت (أي أعلمهم بعلم الفرائض وهي المواريث)، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[٤].

وقد تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الأمصار الإسلامية، فقاموا فيها بحركة علمية، والتفت حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس، ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بينهم كثير من الموالي.

---

(١) صحيح البخاري: جـ ١ ص ٢٧.

(٢) بدر الدين بن جماعة: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، المجلد الرابع من مجلة Islamica جـ ١ ص ٦١ (١٩٣٤).

(٣) سير توماس أرنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٦٠ ـ ٦١، نقلاً عن Caetani, vol. II, p. 429.

(٤) ابن عساكر. تاريخ دمشق جـ ٣٣ ص ٨٠.

وكانت عناية المسلمين في صدر الإسلام مقصورة على العلوم الدينية، وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث. ولذلك نلاحظ أن العلوم المتصلة بالدين قد انتشرت في عهد بني أمية، بخلاف ما كانت عليه الحال في أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها.

تقسيم العلوم:

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة وعلوم الأوائل.

وتشمل العلوم النقلية: علم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الحديث، والفقه والنحو، واللغة، والأدب. -

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والسحر والكيمياء، والتاريخ، والجغرافيا.

أ ـ العلوم النقلية:

١ ـ **علم القراءات**: كان علم القراءات من العلوم التي اشتغل بها المسلمون؛ ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن، تتركز النواة التي بدأ بها هذا العلم في القرآن، وفي نصوصه نفسها، وبعبارة أوضح في قراءته. ففي هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير.

يقول جولدتسيهر[١]: وهذه القراءات المختلفة تدور حول المصحف العثماني، وهو المصحف الذي جمع الناس عليه خليفة المسلمين عثمان بن عفان، وأراد بذلك أن يرفع الخطر الذي أوشك أن يقع في كلام الله في أشكاله واستعمالاته. وقد تسامح المسلمون في هذه القراءات واعترفوا بها جميعاً على الرغم مما قد يفرض من أن الله قد أوحى بكلامه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً وأن مثله من الكلام المحفوظ في اللوح والذي ينزل به الملك على رسوله المختار، يجب أن يكون على شكل واحد وبلفظ واحد. وقد عالج (نلدكه) هذا الموضوع بتوسع في كتابه «تاريخ القرآن».

ويرجع السبب في ظهور القسم الأكبر من هذه القراءات إلى طبيعة الخط العربي، فإن

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٣ ـ ٤.

من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها، كما أن عدم وجود الحركات النحوية وفقدان الشكل في الخط العربي يمكن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب. فهذه التكميلات للرسم الكتابي، ثم هذه الاختلافات في الحركات والشكل ـ كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات فيما أهمل شكله أو نقطه من القرآن.

وقد ظهرت للقراءات سبع طرق، كل طريقة منها تمثلها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام وتستند في أحاديث موثوق بها، وعليها يجب أن يقتصر في قراءة المصحف. ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم عاشوا في القرن الأول كابن العباس وعائشة وعثمان صاحب القراءات وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبي (بضم الألف وفتح الباء وياء مشددة) بن كعب، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم[١].

تدوين المصحف:

نزل القرآن منجماً[٢] في بضع وعشرين سنة. فكانت تنزل الآية أو الآيات كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم أو بأمر الرسول على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والإبل وأضلاعها.

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه وقامت حروب الردة وقتل فيها أكثر القراء من الصحابة وخاصة في يوم اليمامة حيث قتل منهم زهاء سبعين[٣]، هال هذا الأمر عمر بن الخطاب، وكان مستشار أبي بكر وساعده الأيمن، فذهب إلى أبي بكر وقال له: إن القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن الكثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال. وقد ضم أبو بكر إلى زيد بن ثابت سالماً مولى أبي حذيفة ليعاونه في جمع القرآن على أن يقوم زيد بتدوينه.

وكان زيد بن ثابت شاباً عرف برجاحة العقل وحسن السيرة. وكان يكتب الوحي للرسول. ولا ريب أن هذا العمل الجليل كان في حد ذاته مجهوداً شاقاً يتطلب الكثير من الأناة والصبر. وقد عبر زيد عن خطورة هذا العمل في هذه الكلمات التي تبين لنا كيف قام به وأتمه: فوالله لو

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) يقال نجم المال تنجيماً إذا اداه نجوماً أي على اقساط.

(٣) وقد قيل إنه قتل مثل هذا العدد في غزوة بئر معونة في عهد الرسول.

كلفوني ثقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ منه، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ومن صدور الرجال. وقال أبو بكر لعمر وزيد: اقعدوا على باب المسجد، فمن جاء كما بشاهدين على كتاب الله فاكتباه. قال صاحب تاريخ القرآن[1]: والأقرب إلى الظن أن الشاهدين إنما كانا يشهدان بأن ما أتوا به كان مما عرض على رسول الله ﷺ عام وفاته العرضة الأخيرة[1]، وكتب بين يديه. ولذلك قال زيد بن ثابت: حتى وجدت الآيتين[2] من سورة براءة (التوبة) مع أبي خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره.

ولولا ذلك لما صح معنى عدم وجدانهم هذه الآتية، لأن زيداً كان قد جمع القرآن وحفظه وأخذه عن النبي ﷺ، وقبل قول أبي خزيمة، لأن النبي ﷺ جعل شهادته شهادة رجلين.

وكان هذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة في الأكتاف والعسب واللخاف، ونسخها في الأديم وهو الجلد المدبوغ. قال ابن حجر في رواية عبادة بن غزية أن زيد بن ثابت قال: فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم.

وقد حفظت هذه الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر حتى مات، فحفظت عند ابنته حفصة بنت عمر. وقد لاحظ حذيفة بن اليمان قائد عثمان في غزو أذربيجان اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فأشار على عثمان بتدوين مصحف يقرؤه المسلمون. قال ابن الأثير (جـ٣ ص ٤٥ ـ ٤٦): فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً، لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً، قال: ما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد (بن الأسود)، ورأيت أهل دمشق يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرءوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرءوا على أبي موسى ويسمون مصحفه «لباب القلوب». فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود: ماتنكر؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم

---

(١) أبو عبد الله الزنجاني. (تاريخ القرآن) طبع لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٥ ص ٤٢.

(٢) جمع القرآن على عهد النبي ﷺ في آخر سنة من حياته. ولكن لم يضم بعضه الى بعض. وإنما علمهم النبي ﷺ ترتيب آياته والناسخ منها والمنسوخ. وقد عقد المؤلف فصلاً في كتابه تاريخ القرآن ذكر فيه من جمعوا القرآن على عهد النبي: وفيه ذكر محمد بن إسحاق في الفهرست أن الجماع للقرآن على عهد النبي هم علي بن أبي طالب، وسعد بن عبيد بن نعمان، وأبو الدرداء عويمر بن زيد، ومعاذ بن جبل بن أوس، وأبو زيد ثابت بن زيد، وأبي كعب بن قيس.

(٣) هاتان الآيتان هما ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [سورة التوبة ٩: ١٢٧].

أعراب، فاسكتوا فإنكم على خطأ، وقال حذيفة: والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك. فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس، وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى وقال: أنا النذير العريان فأدركوا الأمة. فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن ارسلي إلينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر.

فلا عجب إذا لاقت هذه الفكرة قبولاً في نفس عثمان، فعول على نسخ المصحف تلافياً لما قد يجر إليه التهاون في هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة. وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر الصحف إلى عثمان لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار، وقام بهذا العمل زيد ابن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش.

وقد أشار أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) إلى سبب اختيار زيد بن ثابت لهذا العمل الجليل في كتابه «المقنع» في رسم مصاحف الأمصار الذي نشره «برتزل» حديثاً مع كتاب النقط: فإن قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف، وقد كان في الصحابة من هو أكبر منه كابن مسعود وأبي موسى الأشعري وغيرهما من متقدمي الصحابة، قلت: إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ومناقب اجتمعت له لم تجتمع لغيره، منها أنه كتب الوحي للنبي ﷺ، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبي على جبريل عليهما السلام. وهذه الأشياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به، لامتناع اجتماعهما في غيره، وإن كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف وخصه بها دون غيره من سائر المهاجرين والأنصار، ثم سلك عثمان رضي الله عنه طريق أبي بكر في ذلك إذ لم يسعه غيره، وإذ كان النبي ﷺ قد قال: «اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر». فولاه ذلك أيضاً وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعاً على لغتهم، ويكون ما فيه من لغات ووجوه على مذهبهم دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات[1].

أمر عثمان بإحراق المصاحف الأخرى، فعاب عليه ذلك بعض ذوي الأغراض السيئة وبخاصة أهل الكوفة. فلما نسخوا الصحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل مصر من الأمصار بمصحف وحرق ما سوى ذلك، وأمر أن يعتمدوا عليها ويدعوا غيرها من المصاحف.

---

(١) راجع مقدمة الأستاذ محمد كرد علي في مجلة الرسالة عدد ١٠٨ في ٢٩ يولية سنة ١٩٣٥.

وقد عرف الناس جميعاً فضل هذا العمل إلا ما كان من أهل الكوفة، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي ﷺ، وامتنع أصحاب عبد الله بن مسعود. ولما قدم على الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف، فصاح وقال: اسكت! فعن ملأ منا فعل ذلك؛ فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله[1].

مما تقدم يتبين أن القصد من التدوين الأول إنما هو جمع القرآن وحفظه من الضياع، كما كان التدوين الثاني يرمي إلى غرض واحد، هو جمع الناس على وجه واحد في قراءة القرآن خشية ما قد يقع بينهم من خلاف مصدره التحريف الذي يفتح الباب على مصراعيه للزيادة والنقصان في كلام الله سبحانه، ولا سيما أن العرب أخذوا يختلطون بأهالي البلاد المفتوحة الذين اختلفت لغاتهم وتباينت لهجاتهم. وعندنا أن عثمان أحسن كل الإحسان إلى المسلمين، وأن عمله هذا يستحق الثناء والتقدير لا اللوم والتعنيف. وإن أثر عمر بن الخطاب في حفظ القرآن لا يقل عن أثر عثمان، إذ لو لم يتدراك هذا الأمر بحكمته وبعد نظره، لنال القرآن من التبديل والتحريف أكثر مما ناله غيره من الكتب السماوية الأخرى فيضيع إعجازه ويتلاشى بيانه.

وصفوة القول أن الله سبحانه شاء ألا تعبث بالقرآن يد التحريف والتبديل فقال في كتابه العزيز: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [سورة الحجر ١٥ : ٩]، وقال: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[2] [سورة فصلت ٤١ : ٤٢].

٢ - التفسير: ومن العلوم النقلية التي اشتغل بها المسلمون لفهم معاني القرآن الكريم «علم التفسير». وقد روي عن عائشة أنها قالت: (لم يكن النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل). فلما اتسعت الدولة العربية ودخل العجم في الإسلام، دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن، وأخذ بعض كبار الصحابة، من أمثال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، يفسرون القرآن اعتماداً على ما سمعوه من الرسول أو بحسب ما وصل إليه فهمهم. ويعتبر هؤلاء الصحابة مؤسسي مدرسة التفسير في الإسلام، وحذا حذوهم في ذلك التابعون مثل سعيد بن جبير وغيره.

وقد نظر بعض الأتقياء من المسلمين إلى القرآن الكريم نظرة إجلال وتقديس، حتى لقد عدوا البحث في تفسيره ضرباً من الخرق في الدين. وكان عمر بن الخطاب يكره البحث في غوامض الآيات القرآنية، حتى أنه ضرب رجلاً كان يسأل عن متشابه القرآن حتى أدمى رأسه،

---

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٦.

(٢) انظر وليام ميور The Life of Muhammad, pp. XIV-XXIV.

وأمر ألا يجالسه أحد من المسلمين. ويقول جولدتسيهر[١]، اعتماداً على بعض المصادر العربية وغيرها: وقد نظر الأتقياء في عصر بني أمية إلى التفسير مثل هذه النظرة. كان شقيق بن سلمة الاسدي ـ وكان معاصراً لزياد بن أبيه والحجاج ـ إذا سئل عن شيء من القرآن قال: (وقد أصاب الله الذي به أراد)، يعني بذلك أنه لا يريد أن يبحث عن المعنى. وقد سئل عبيدة بن قيس الكوفي (المتوفى سنة ٧٢ هـ)، من أصحاب ابن مسعود عن سبب نزول بعض آيات القرآن، فقال: (عليك باتقاء الله والسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن).

وفي هذا العصر حكي أن رجلاً طلب إلى سعيد بن جبير (المتوفى سنة ٩٥ هـ) الذي قتله الحجاج، أن يفسر له آيات القرآن فقال له: (لأن تقع بعض جوانبي خير لي من ذلك). وقيل: إن الأصمعي اللغوي المعروف (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) كان ـ ورعاً منه وخشية ـ لا يفسر القرآن. وقد رويت عن أحمد بن حنبل هذه الكلمة في تفسير القرآن: (ثلاثة أشياء لا أصل لها: التفسير، والملاحم، والمغازي).

وعلى الرغم من تخوف الأتقياء من تفسير القرآن، أثر عن كثير من الصحابة وعلماء المسلمين أنهم فسروا القرآن: فهذا عبد الله بن عباس قال فيه تلميذه مجاهد: إنه إذا فسر الشيء رأيت عليه النور[٢].

اتجه المفسرون في تفسير القران اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول ﷺ وكبار الصحابة، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل.

على أن النوع الأول من التفسير، وهو التفسير بالمأثور، قد اتسع على مر الزمن، بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل كعب الأحبار اليهودي وعبد الله بن سلام وابن جريج. (وكان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم). كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير في استعمالاته اللغوية. وقد أثر عن ابن عباس أنه قال: إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات القرآنية بألفاظ وردت في الشعر الجاهلي[٣].

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام، اعتبر التفسير جزءاً من الحديث، أو فرعاً من فروعه، حتى إن التفسير في ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبعثرة غير

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ترجمة ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٦، ٦٨ ـ ٦٩.

مرتبة حسب ترتيب السور والآيات، إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشكون في نسبته إليه. أما الطريقة المنظمة في تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا في العصر العباسي.

ومن أشهر المفسرين عبد الله بن عباس، وابن جريج، وكان يجمع كل ما وصل إليه حين تحري الدقة في التفسير، والسدي المتوفي سنة ١٢٧هـ، وقد اعتمد في تفسيره على ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، ومقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ، وقد تأثر بتفسير التوراة الذي اتخذه عن اليهود، حتى أن الإمام أبا حنيفة اتهمه بالكذب، وتفسير محمد بن إسحاق الذي أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية وعن وهب بن منبه وكعب الأحبار. على أن هذه التفاسير قد ضاعت ولم يصل إلينا شيء منها إلا عن محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

٣ ـ الحديث: ومن مصادر التشريع الإسلامي «الحديث»، وهو ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي في الأهمية بعد القرآن. وقد جمع البخاري، على ما نعلم، نحو ٧٢٧٥ حديثاً بما فيها الأحاديث المكررة. فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف. وقد اختارها البخاري ـ على ما قيل من ثلثمائة ألف حديث. ومن ذلك يتبين لنا مبلغ ما وصل إليه التحريف في الحديث.

وكانت هذه الأحاديث التي وصلت إلى أيدينا موضعاً للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين: ذلك أنه عند وفاة الرسول ﷺ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل. وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض، فتأثرت بشيء غير قليل من التبديل والتحريف مما أدى بها إلى الغموض والإبهام، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها.

حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا في العصر العباسي. ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المتوفى ١٢٣ هـ.

٤ ـ النحو: نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفيهما وضعت علوم العقائد والفقه، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين. وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية. ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف. وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد

الأمويين. وقد قيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١].

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التي تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها. ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة، حتى سمّي نحاة البصرة «أهل المنطق» أو «أهل القياس» تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة. «وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند الكوفيين. وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق، لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها. وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كي تؤثر في مذاهبهم الكلامية[٢].

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٣ هـ (٧٧٠ م) الذي اشتغل بالتفسير، والخليل بن أحمد واضع علم العروض، وصاحب كتاب «العين» الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية.

٥ ـ الأدب:

أ ـ النظم: لم يكن للأدب حظ في صدر الإسلام، لاشتغال العرب بالفتوح وتنظيم دولتهم التي اتسعت أرجاؤها، ثم لاشتغالهم بالحروب الأهلية التي استنفدت كل مجهوداتهم.

وقد حافظت الروح الأدبية في هذا العهد على ما كانت عليه في الجاهلية، فلم يتعد الأدب دائرة الشعر تقريباً، إذ أصبح يمثل بعض مظاهر السلطة. وقد ظن بعض المستشرقين أن الدين قلل من أهمية الشعر حتى لا يطغى على القرآن. وهذا الزعم لا أساس له، لأن القرآن ليس من الشعر في شيء، ولا يصح أن يكون نموذجاً له. ولو أن القرآن الكريم قد غض من شأن بعض الشعراء، فلأنهم كانوا من أعداء الإصلاح ومن دعاة الفوضى. قال تعالى: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾؟ [سورة الشعراء ٢٤: ٢٢٥ ـ ٢٢٦].

على أن الشعر قد أعلى من قدر هؤلاء الذين قاموا بنصرة المبادىء القويمة ودافعوا عنها فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف، كما شجعهم الرسول وأجزل لهم العطايا، واعتبر هذا نوعاً من الجهاد في سبيل الله والانتصار للحق. وأحسن مثل لذلك الشاعر المخضرم حسان بن ثابت الذي قربه الرسول إليه. وليس أدل على احترام الإسلام للشعر من قوله عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة».

وكان شعراء هذا العصر لا يزالون على ما كان عليه من سبقهم في الجاهلية برغم تأثرهم

---

(١) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) دي بور؟ تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨ ـ ٣٩.

بالقرآن وأسلوبه. فإذا قرأت قصيدة لشاعر من أنصار الدعوة في مدح الرسول أو هجاء المشركين، أو قصيدة لشاعر من الذين شايعوا قريشاً في مدح أحد زعمائها أو رثاء قتلاها، أو في هجاء المسلمين، ألفيت هذه القصيدة أو تلك لا تكاد تخرج عما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل في الجاهلية أو يهجونهم به، ولو أنه قد كثر فيها الحديث عن الجنة والنار، والحساب والعذاب، والبعث والنشور، وما إلى ذلك من الأمور الدينية التي لم يعن بها العرب الجاهليون في أشعارهم.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الشعراء الذين ناهضوا الرسول وقاوموا الدعوة لم يكونوا أقل من الشعراء المسلمين تأثراً بالقرآن وما جاء به من المعاني الدينية. فقد كانوا يقرءون القرآن ويعنون به، لا لإيمانهم بما فيه، ولكن للرد على ما جاءهم به ومناقشته في تلك المبادىء الجديدة التي جاء بها.

كما كان يوجه هؤلاء الشعراء اهتمامهم ـ إذا أرادوا هجاء الرسول أو الغض من شأنه ـ إلى تعرف أقوال المسلمين ومعتقداتهم، وما يقابل ذلك في دينهم القديم ليستطيعوا دفع هجمات الرسول عن معبوداتهم وسخريته من نظمهم الدينية وأوضاعهم الاجتماعية. لذلك نالت هذه الناحية شيئاً من اهتمام الخطباء والشعراء والمجادلين، وكثر ورودها على ألسنتهم بعد أن كانت من الأمور التي لا يعرض لها العربي في حياته العادية ويلم بها إلا إلماماً يسيراً.

ومن هنا نشأت معارضة القرآن «وهي الإتيان بكلام يشبهه في بلاغته وخصائصه الفنية. وكان القرآن أولى معجزات الرسول واقواها في الدلالة على أنه رسول من عند الله، لأنه أتى بكلام لا يستطيع أي إنسان أن يأتي بمثله. وقد تحدى الرسول والقرآن العرب جميعاً برغم فصاحتهم وتفننهم في أساليب الكلام أن يأتوا بقرآن مثله فعجزوا. ثم تحداهم بعد ذلك أن يأتوا بعشر سور فقط فعجزوا أيضاً. قال تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [سورة هود ١١ : ١٣]. ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [سورة البقرة ٢ : ٢٣] قال تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [سورة الإسراء ١٧ : ٨٨].

وقد اشتهر من شعراء المسلمين حسان بن ثابت، وعبد الله بن مالك، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير؛ واشتهر من شعراء المشركين عبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وكعب بن الأشرف وغير هؤلاء وهؤلاء.

هذا هو حال الأدب في عهد الرسول وفي عهد الخلفاء الراشدين. أما في عهد بني أمية

فقد تغيرت الحال تغيراً ظاهراً. فقد ظهرت أحزاب مختلفة كلها يطاحن ويناضل بالقول والسيف للوصول إلى السيادة والحكم واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين والمشيدين بعظمة الملك وسطوة الخلفاء، وقلّدهم في ذلك الحكام والولاة في الأقاليم المختلفة ، كما تغيرت الحال الاجتماعية بما أفاء الله على العرب من أسلاب الجيوش في البلاد المفتوحة، فارتقت بذلك الحياة العربية وارتفع مستوى الحضارة والتمدن في البيت العربي وتعددت مرافقه وضرورياته. وكان للإماء الأعجميات أعمق الأثر وأبلغه في الانتقال بالبيت من خشونة البداوة وشظفها إلى لين الحضارة ونضارتها، فنشأت في ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر لم تكن معروفة من قبل.

كما تطورت الإدارة الحكومية وتعددت حاجاتها مما دعا إلى إنشاء الدواوين. ومن هذه الدواوين وأقربها اتصالاً بالحياة الأدبية، ديوان الإنشاء والرسائل الذي أوجد نوعاً من النثر لم يكن للعرب به عهد. هذا ما يسمى بالنثر الفني، ويقصدون به تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله في الأقاليم. وقد بدأ هذا النوع من النثر في ذلك العصر ونما، حتى ظهر في آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب الذي يعد بحق مؤسس الكتابة الفنية وواضع أصولها وقواعدها[١].

وكان للفتوح الإسلامية أكبر الأثر في ظهور طبقة أرستقراطية بما كان من رخاء الأمة المادي وخاصة في بلاد الحجاز. وقد تجلت مظاهر هذا الرخاء في حياة الأثرياء. وكان لتلك المظاهر أثر محسوس في الحركة الفكرية، ولا سيما في فني الغناء والموسيقى وفي تهذيب الشعر. وليس معنى ذلك أن هذه الأنواع في الفنون الجميلة لم تكن مألوفة عند العرب قبل الإسلام، فقد أدخلتها مغنيات من غير العرب وخاصة من الفرس.

على أنه قد ظهر في القرن الأول للهجرة مغنون من العرب في مكة والمدينة نظموا قطعاً من الشعر ولحنوها. ونبغ في الموسيقى كثيرون من أمثال معبد وابن شريح وطويس. ثم اشتغلت هذه الطبقة بالشعر العربي، فنبغ منهم كثيرون في الغزل مثل عمر بن أبي ربيعة القرشي. واعتقد كثير من العرب أن أشعاره كانت أبشع جناية اقترفت على الدين. وزعم بعض أن كثيراً من الشعر الغزلي منسوب خطأ إلى بعض الشعراء كالأشعار التي تنسب إلى مجنون ليلى، حتى شك بعض في وجود رجل بهذا الاسم. وإن صح ذلك لا يبعد أن يكون كثير من الشعر المنسوب إليه من شعر غيره. وممن نبغ في الشعر الغزلي جميل صاحب القصائد المشهورة في الغزل التي نظمها في محبوبته بثينة[٢].

---

(١) انظر ما ذكره الجهشياري عن عبد الحميد الكاتب في كتاب الوزراء والكتاب ص ٧٢ ـ ٧٩.

(٢) Nicholson, pp. 237 - 238.

ومهما يكن من شيء فقد كانت نزعة الأمويين جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، بل يؤثر فيهم الشعر الجيد والخطبة البليغة، فأجاد بعض خلفائهم نظم الشعر: كيزيد بن معاوية حتى قالوا: (بدئ الشعر بملك وختم بملك)، يعنون امرأ القيس ويزيد. وكان عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً.

وقد وجدت في خارج الحجاز ضروب أخرى من الشعر، فنبغ في عهد الأمويين الفرزدق، وجرير، والأخطل، وكلهم من أهل العراق مولداً ومنشأ. ونزحت العناصر النشيطة منذ الفتح الإسلامي إلى الأقاليم العربية كالعراق والشام فخلت منهم جزيرة العرب. وبلغت المنافسة أشدها بين جرير والفرزدق، حتى إنك لترى ذلك في ثنايا شعرهما المسمى بالنقائض الذي امتاز بالهجاء العنيف المقذع، وإن كان قد بلغ درجة عظيمة من الإتقان والجودة، وأصبح المعين الذي تغترف منه اللغة العربية في عصرها الجديد.

وكان لكل من جرير والفرزدق أنصار يتعصبون له ولشعره. وليس أدل على ذلك من انقسام جند المهلب بن أبي صفرة والي خراسان عند مسيره لحرب الأزارقة من الخوارج إلى فريقين: فريق يحبذ جريراً، وآخر يفضل الفرزدق.

وانضم الأخطل إلى هذا العراك ـ وكان مسيحياً هواه مع الفرزدق ـ واتخذه الأمويون كبير شعرائهم وأعظم مؤيديهم، وكان من المقربين إلى عبد الملك بن مروان، فكان يدخل عليه بلا استئذان وهو مرتد أفخر الملابس الحريرية، وعليه صليب من ذهب متدل من رقبته بسلسلة ذهبية.

كما كان للأحزاب السياسية الأخرى شعراء أبلوا بلاءً حسناً في نصرتهم وتأييد مذاهبهم وآرائهم والدفاع عنها والدعوة إليها. نذكر منهم عمران بن حطان وقطري بن الفجاءة من الخوارج، وعبد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين، والكميت بن زيد الأسدي من الشيعة.

ب ـ العلوم العقلية: أما اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية، فإنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية التي كانت منتشرة منذ فتوحات الإسكندر في مصر وسورية وغربي آسيا. فإنه لما اضمحلت مدرسة الرها في أواخر القرن الخامس الميلادي بسبب قيام الخلافات المذهبية، لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس، واحتموا ببلاط كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٨ م)، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة الذين نفاهم الامبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم، وأسس في جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة، وبقي أثرها في تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية كما غدت حران مركزاً من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق. وتكلم أهل حران، وهم الصابئة، اللغة العربية في سهولة ويسر، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين، وإليهم

يرجع الفضل في ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية.

ولم يكن لترجمة الكتب العربية حظ كبير في عهد بني أمية، وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء، وكذلك عربت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان بعد أن كانت بالفارسية في العراق(١)، واليونانية في مصر والشام، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك.

وكانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وأصبح كثير منها مراكز هامة للحركة العلمية. وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة، الذي كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب. وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة. وهكذا أخذت الثقافات التي كان للإسلام أثر كبير في مزجها، تلتقي في تلك المراكز على مر السنين حتى امتزج بعضها ببعض. فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب كان يرى لزاماً عليه أن يتعلم العربية وآدابها حتى يتيسر له قراءة القرآن ودراسته، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية.

وكانت النفقات التي خصصت لدور العلم في صدر الإسلام قليلة، وذلك يرجع إلى زهد المدرسين واكتفائهم بما كانوا يصيبونه من الفيء والصدقة. وقد اقتصرت نفقات دور العلم على المساعدات المالية التي كان يقدمها الخلفاء إلى الزهاد الذين حبسوا أنفسهم في المساجد للعبادة.

وقد أثر عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى والي حمص: انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت المال حين يأتيك كتابي هذا، فإن خير الخير أعجله والسلام.

١ - الكيمياء والطب:

اشتغل المسلمون في عهد الأمويين بالعلوم الطبية ولا سيما الكيمياء التي لا يبعد أن يكونوا قد أخذوها عن اليونان.

وكان خالد بن يزيد أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الإسكندرية حيث راجت صناعة الكيمياء، وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية القبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية. وعمل على

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ٣٨.

الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء كما تقدم(١)، كما طلب إليهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب، ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية.

وقد أنفق خالد بن يزيد الأموال الضخمة في طلب الذهب واستحضار آلاته، ولعلهم ترجموا له شيئاً لم يصلنا خبره. وقد ذكر الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» أن خالداً كان خطيباً شاعراً فصيحاً جامعاً جيد الرأي كثير الأدب.

ويعتبر لقمان الحكيم أقدم أطباء العرب. وكان الحارث بن كلدة الذي ولد في الطائف في القرن السادس الميلادي أشهر أطباء عصره. وقد درس الطب بمارستان جند يسابور ببلاد الفرس، ثم أصبح طبيب خسرويه كسرى فارس. وقد تخصص الحارث في علم الصحة وأوصى بعدم الإفراط في الطعام وعدم الاستحمام بعد تناوله، كما أوصى بالحجامة والحقن. ولما ظهر الإسلام قربه الرسول إليه. وظل محل ثقة العرب حتى مات في سنة ٣٣ هـ. وقد تلقى النضر الطب عن أبيه الحارث وذاعت شهرته، واخترع حبوباً مسهلة نسبت إليه، وكانت تستعمل في أمراض الصفراء. واشتغل ابن أبي رمثة التميمي بعلم التشريح.

وقد عني المسلمون بنشر الثقافة الطبية بترجمة ما خلفه الأقدمون، وأسسوا المعاهد العلمية لتخريج الأطباء. وكان هناك نوعان من الكليات الطبية هما: البيمارستانات، أو الكليات العملية للطب، والمدارس النظرية.

وقد قيل إن أول بيمارستان في الإسلام هو تلك الخيمة التي ضربها الرسول في المدينة يوم «الخندق»، وجعل فيها امرأة تدعى رفيدة تقوم بخدمة الجرحى. وذهب المقريزي إلى أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) كان أول من بنى البيمارستان في الإسلام، وذلك في سنة ٨٨ هـ (٧٠٦ م)، وجعل فيه الأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وأمر بمنع المجذومين عن سؤال الناس، وخصص لهم الأعطيات، كما أعطى كل مقعد خادماً يهتم بأمره، وكل ضرير قائداً يسهر على راحته.

كما استعان الأمويون بالأطباء الذين كانوا يعملون في بيمارستان جند يسابور بخوزستان الذي أسسه كسرى أنوشروان، وجلب إليه الأطباء من بلاد اليونان. وقد تخرج في هذا المعهد: الحارث بن كلدة وابنه النضر. كما استعان الأمويون ببعض الأطباء الذين كانوا يعملون في هذا المعهد الطبي، كابن أثال الطبيب النصراني الجند يسابوري الذي اتخذه معاوية بن أبي سفيان طبيباً له، وحكم الدمشقي، وتيادوق وغيرهم.

ذكر المسعودي(٢) أن عبد الملك بن مروان كان مولعاً بعلم النجوم، حتى أنه كان

---

(١) Hell, The Arab Civilisation, p. 60.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٠

يصحب معه بعض المنجمين في حروبه. فإنه لما بلغه قدوم إبراهيم بن الأشتر النخعي لحرب أخيه محمد بن مروان، بعث عبد الملك إلى أخيه يأمره ألا يقابله في ذلك اليوم. وكان مع عبد الملك منجم مقدم على غيره. وقد أشار على هذا الخليفة بألا تشتبك خيله في حرب في ذلك اليوم، لأنه من أيام النحس، وأن يحارب بعد ثلاثة أيام حيث يكتب له النصر. ولكن أخاه محمد لم يعبأ بنبوءة ذلك المنجم وواصل القتال وأحل الهزيمة بابن الأشتر.

٢ ـ السيـر والمغـازي:

كذلك اشتغل المسلمون في ذلك العصر بتدوين السير والفتوح الإسلامية. وكان عبيد بن شربة اليمني أول من ألبس هذا النوع من القصص ثوب التاريخ، ثم جاء وهب بن منبه، فتصدى للمغازي وهي الفتوح الإسلامية، ووضع أساسها وعنه روى المؤرخون المتقدمون .

وقد روي أن عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ أقدم من ألف في السيرة النبوية، وكذلك كان أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ. فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه في سيرة الرسول، وجمع كل من ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ، وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٣١ هـ كتاباً في المغازي. وممن اشتغل بالمغازي ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ، وتلميذه ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ، صاحب سيرة النبي ﷺ. ومع ذلك لم يشجع الخلفاء الأمويون هؤلاء الكتاب على تدوين أخبار الإسلام، لأنهم كانوا يفضلون عليها قراءة القرآن. فقد قيل إن عبد الملك بن مروان رأى كتاباً لوهب بن منبه في يد شخص، فأمر بالكتاب فأحرق ثم أمر بقراءة القرآن بدلاً منه. ومع ذلك كان معاوية بن أبي سفيان مشغوفاً بقراءة الأخبار والسير والآثار كما تقدم.

٢ ـ الـفـن

تمهيـد:

كان يغلب على الجماعة الإسلامية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده البساطة وخشونة العيش والجهاد في سبيل الله. فلم يكن المجتمع الإسلامي حينئذ مرتعاً خصيباً للفنون الجميلة بأنواعها[١]: وفي ذلك يقول ابن خلدون[٢]: (فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة أو البنيان والإسراف في غير القصد).

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ١٠.

(٢) راجع ما ذكره ابن خلدون في مقدمته في الفصل الثامن (في أن المباني والمصانع قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول) ص (٣١٢ ـ ٣١٣).

ولما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى جمعوا شتى الأساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد(١). واتسع أفق الفن في أعينهم، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عما رسمه الدين الإسلامي. على أن الأمر الذي يسترعي النظر، أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير المجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة، لأنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان. ولهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية(٢).

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب مع حالة معيشتهم، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب، والمقرنصات أو الدلايات. وهي زخارف بارزة تشبه خلايا النحل، وتجدها في طبقات، مصفوفاً بعضها فوق بعض في وجهات المساجد وفي المآذن، وتحت شرفات البناء، أو في تيجان بعض الأعمدة أو في القباب بين القاعدة المربعة والسطح الدائر. وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة في السقوف الخشبية فضلاً عن الأبنية الحجرية(٣).

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم، احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها. وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر في المساجد. وكان مسجد قباء الذي أسسه الرسول عليه الصلاة والسلام، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية من حيث الشكل العام. ومما لا شك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة وإلى المدينة المنورة في كل عام، وأداءهم الصلاة في المدن والقرى التي كانوا يمرون بها، وقد ساعد على محاكاة مساجد الحجاز.

وقد أدخلت المقصورة في بناء المساجد لينتظر فيها الإمام حتى يحين وقت الصلاة. وكان أول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين خشي على نفسه أن يحل به ما حل بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، واقتدى به الخلفاء من بعده. كذلك دخلت في عمارة المساجد زيادات، منها المآذن والمحراب الذي يدل على جهة القبلة(٤) والإيوانات، وهي أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مقامة على أعمدة أو دعائم، واستمر ذلك إلى العصر العباسي الأول.

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين. ومن مميزاته

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ١.

(٢) المصدر نفسه ص ٨ و ٢٥ ـ ٤٣.

(٣) زكي محمد حسن: فنون الإسلام. ص ٩.

Zaky M. Hassan: ;The Attitude of Islam towards Painting (Bulletin of the Faculty of Arts. University of Cairo, Vol. VII, July, 1944), pp. 1 - 16 .

(٤) Creswell: Early Muslim Architecture, Vol. I. pp. 3 - 9 .

الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية. فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة، ندور حول حافة التحف الأثرية، أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار. . .

وقد ازدهر في عهد الأمويين فن النقش على الجدران، ولا يزال بعض بقاياه ماثلاً في «قصير عمرة»، وهو قصر صغير للصيد شرقي البحر الميت على بعد خمسين ميلاً شرقي عمان، ويتجلى في طرازه مزيج من الفنون الشرقية واليونانية. ويذهب علماء الآثار إلى أنه شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي[١]، ويشتمل على قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائري.

العمـــارة:

١ ـ الـمـــدن:

تنقسم العمارة الإسلامية ثلاثة أقسام: عمارة مدنية تتمثل في المدن وفي بيوت الخاصة، ودينية تتمثل في المساجد، وحربية تتمثل في الحصون والقلاع.

وكانت مباني العرب في غاية البساطة. ولم يكن في مكة إلا مبان قليلة أهمها «الكعبة». وكانت دور الأغنياء تبنى بالحجارة، على حين كانت معظم مباني المدينة تبنى من اللبن.

وكانت الدور في الغالب من طبقة واحدة، ولها فناء، وفي وسطها بئر. فلما اتسعت الفتوح الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب وكثرت الأموال في الحجاز، توافد على المدينة كثير من الخبراء في العمارة من الأجانب؛ فارتقى فن العمارة فيها، وشيد كبراء العرب في مكة والمدينة القصور الواسعة من الحجارة والرخام. ويقال إن الدار التي بناها عثمان بن عفان كانت غاية في العظمة والبهاء.

ويقول المسعودي: إن الصحابة في عهد عثمان أقاموا لأنفسهم دوراً فخمة، فشيد الزبير ابن العوام دوراً فخمة في المدينة والكوفة والفسطاط والإسكندرية. وكان لسعد بن أبي وقاص قصر فخم في وادي العقيق بالمدينة.

ولما استولى العرب على بلاد الشام وفارس اتخذوا طرازاً للعمارة خاصاً بهم يتناسب مع طبيعتهم وحالة معيشتهم، وكان لهذا الطراز طابع جديد بما أدخل فيه من عناصر فنية مختلفة.

وتمتاز العمارة العربية بالقباب والمآذن والأعمدة والمنحنيات، وهذه تشبه من بعض

---

(١) كتاب التصوير عند العرب تأليف المغفور له احمد تيمور باشا، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكي محمد حسن ص ١٥٠، ١٥١، ٢٤٧، ٢٥٠. انظر كتاب فنون الإسلام للمؤلف نفسه ص ٤٤.

الوجوه صورة النخيل المحبب إليهم، لأنه من أعظم أغذيتهم ومن مصادر ثرواتهم.

وكانت المدن تحاط بأسوار منيعة للدفاع عنها، كما كان لأصحاب كل حرفة حي خاص من أحياء المدينة يعرف بهم. وقد عرف العرب ببغضهم للنظام المركزي، فكانوا أينما حلوا يتكتلون قبائل وفرقاً متميزاً بعضها عن بعض، ولكل حي أو قسم من المدينة أبواب منيعة تفصله عن سائر الأقسام والأحياء، ويقوم الحراس على حراسة هذه الأبواب التي تغلق إذا قامت ثورة في المدينة، فينقطع الاتصال بين أجزائها المختلفة.

أ ـ تأسيس البصرة:

لم يطب للعرب المقام في «المدائن» قاعدة بلاد الفرس. لعدم تعودهم معيشة المدن الكبيرة، لأنهم فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي والكلأ والمراعي لماشيتهم التي هي أعز أموالهم، ولأن الخليفة عمر أراد أن لا يحول بينه وبين المسلمين بحر إذا أراد أن يمدهم بالجند. لذلك شرع العرب في بناء البصرة ثم الكوفة، فاختط عتبة بن غزوان البصرة في ربيع سنة ١٦ هـ.

وكانت البصرة في مبدأ أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة، فأنشىء بها أولاً المسجد[١]، وبنى بجواره دار الإمارة، وحولها خطط، لكل قبيلة منها خطة ومسجد ومقبرة، وقد اتخذت الدور من الغاب أولاً. ولما وجدوا أن الغاب لا يقوى على مقاومة النار بنوا الدور باللبن ثم بنوها بالآجر والحجارة بعد أن اتسعت ثروتهم.

ولم يكد يمضي على تأسيس البصرة عشرون سنة حتى أصبحت من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي وخاصة في التجارة بين الهند والصين بحراً. وبذلك حلت محل الأبلة على الخليج الفارسي[٢]، ولم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى.

وكان معظم سكان البصرة من ربيعة ومضر، ثم وفدت إليها جاليات من الهند والسند والصين، كما تردد عليها كثير من العرب للتجارة. وكان من أثر ذلك أن ظهرت فيها حياة أدبية جديدة وتأثرت الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة كما تقدم.

ب ـ تأسيس الكوفة:

ولكن العرب استوخموا مدينة البصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها، ففكروا في تأسيس مدينة أخرى أصح منها هواء وأبعد عن الرطوبات، فاختطوا الكوفة. فبعث سعد بن أبي وقاص سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان يرتادان له موضعاً تتوافر فيه هذه الشروط، فوقع اختيارهما على

---

(١) بني أولاً باللبن والطين وسقف بالعشب، ثم جدده زياد بن أبيه سنة ٤٤ هـ فبناه بالآجر والجص وسقفه بخشب الساج.
(٢) الطبري جـ ٤ ص ١٤٨، ١٥٠ ـ ١٥٨.

مكان غربي الفرات على مقربة من الحيرة.

ولما أقر الخليفة عمر هذا الاختيار غادر سعد المدائن ونزل بجنده في الكوفة في المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨ م)، وعسكر جند العرب ـ وعددهم أربعون ألفاً ـ في الخيام أولاً ثم بنوا بيوتاً من القصب. وسرعان ما أتت عليها النار، فأمر عمر بأن تبنى الدور باللبن. فاختط أبو الهياج بن مالك الأسدي شوارعها وأزقاتها، وأسس بها جامعاً وبنى في مقدمته ظلة مقامة على أساطين من الرخام. وجعل العرب المسجد في وسط المدينة حيث تفرعت الطرق والدروب، وبنى في نهاية أحد هذه الطرق دار سعد بن أبي وقاص، وتبعد عن المسجد بمائتي ذراع، واتخذ فيها بيت المال. وقام ببناء المسجد ودار الإمارة بناءون من الفرس على مثال مباني الأكاسرة. وكانت الطرق فسيحة رحبة حتى لا يحتجب عن العرب هواء البادية الذي ألفوه.

وسرعان ما زادت أهمية البصرة والكوفة حتى أصبحتا من أعظم مراكز العلم والسياسة والحرب في البلاد الإسلامية، وغدت الكوفة قصبة العراق الأعلى. فكان والي الكوفة يعين من قبله الولاة على الباب وأذربيجان وهمذان والري وأصبهان والموصل وقرقيسيا. ولكن أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن.

ولما ولي علي بن أبي طالب الخلافة ترك المدينة واتخذ الكوفة حاضرة لخلافته لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها، ووقوعها في مكان متوسط سهل الاتصال بأجزاء الدولة الإسلامية. ومما دعا علياً إلى هذا الاختيار ما عول عليه من حرب معاوية الذي امتنع عن بيعته. ولكن الأيام برهنت على أن علياً لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة. فإن تركه المدينة هدم التوازن الذي كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء من قبله. وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سرابا. فإنه لم يستطع أن يقر هذا النظام في حاضرة ملكه الجديدة. وكان علي يحب الكوفة ويؤثرها على المدينة حتى قال فيها: (الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء. والذي نفسي بيده لينتصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز). وكان إذا أشرف عليها قال: (يا حبذا مقامنا بالكوفة تعرفها جمالنا العلوفة أرض سوداء سهلة معروفة)[1].

جـ ـ تأسيس الفسطاط :

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر، أراد أن يجعلها مقراً لولايته لما فيها من عمران وأبنية، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فسأل عمر رسول عمرو: (هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب إلى عمرو: إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ١٤١.

شتاء ولا صيف؛ فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت).

ولا شك أن مدينة الإسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الإسكندر. فلم يكن بد من أن تكون الحاضرة ـ على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب ـ إما على البحر الأحمر، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية. ولما لم تكن العرب أمة بحرية، لم يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة في نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب. أضف إلى ذلك حكمة عمرو في اختيار موقع الفسطاط، لأنه كان يستطيع فيه أن يشرف على قسمي الديار المصرية شمالاً وجنوباً، ثم لقربه من الطريق إلى بلاد العرب.

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم. ولم يكن في هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط الحامية الرومية. وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة. وكانت تقع في المنطقة التي حول جامع عمرو، وتمتد شرقاً حتى قرب سفح جبل المقطم، وشمالاً حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر، وغرباً حتى النيل، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي.

وقد قيل في تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة، فقال بعضهم: إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الإسكندرية أمر بفسطاطه أن يرفع؛ فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه فقال: لقد تحرمت بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها، فأقر في موضعه، فبذلك سميت الفسطاط. وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط. أما «بطلر» فيقول: إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ Fossatum ومعناه «مدينة حصينة»، أخذه العرب عن الروم في أثناء حربهم في الشام، وربما كان هذا أرجح الأقوال.

ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولى الخطط أربعة من قواد المسلمين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل. لذلك لا يبعد أن يكون هؤلاء قد اختاروا النزول في المكان الذي نزلوا فيه أولاً لصلاحه وقربه من النيل.

وكانت بيوت الصحابة بمدينة الفسطاط في بادىء الأمر طبقة واحدة، ثم أخذت الدور تتسع وتعلو شيئاً فشيئاً، حتى صار ارتفاع أغلب الدور خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمانياً، وأصبح يسكنها المائتان من الناس بعد أن كان لا يسكنها إلا أسرة قليلة العدد.

وقد ظلت مدينة الفسطاط قاعدة الديار المصرية ومقراً للإمارة حتى بنيت مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها.

د ـ دمشق:

كانت دمشق قبل الفتح العربي مقر حكام الروم. وقد أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية

منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، وغدت أكبر المدن الإسلامية في ذلك العصر وأفخمها في الأبهة والعمارة، كما امتازت على غيرها من المدن بكثرة الأنهار والينابيع. وقد قيل إن دمشق سميت بذلك الاسم من الدمقس وهو ضرب من الحرير الذي اشتهرت به قبل الإسلام بزمن طويل.

وقد ذكر ياقوت أن دمشق كانت حصينة، أقيمت حولها أسوار منيعة بلغ ارتفاعها ثمانية أمتار وعرضها خمسة عشر قدماً.

وكان لدمشق سبعة أبواب، يرى أبراجها العالية القادم إليها من بعد عظيم. وقد شيد بها معاوية قصر الخضراء؛ وقد سمِّي بهذا الاسم للون نقوشه وطلائه. ولما ولي الوليد الخلافة جمل دمشق وضواحيها بالمباني العامة. وقد سارت كلفة الوليد بالعمارة سير الأمثال. قيل: (إن الناس في دمشق كانوا في عهده يتكلمون عن العمارات وجمالها، وفي عهد سليمان عن الطعام والنساء، وفي عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن).

ومن آثار الأمويين الخالدة في دمشق مجاري مياهها، ولا يزال نهر بردى يجلب الماء إلى المدينة. وبلغ نظام مجاري الماء من الدقة بحيث أصبح لكل دار في دمشق نافورة خاصة بها، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التي شقها الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة، والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التي شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور.

هـ ـ تأسيس القيروان:

ومن المدن التي أسسها المسلمون في ذلك العصر مدينة القيروان. ذلك أن معاوية بن أبي سفيان ولى عقبة بن نافع الفهري إفريقية سنة ٤٨ هـ، وكان إذ ذاك يقيم بنواحي برقة، فدعا إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الذي بعث به معاوية، وسار إلى إفريقية، ونازل مدنها، فافتتحها عنوة، وأسلم على يده كثير من البربر.

وقد رأى عقبة على أثر انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة تحمي جند المسلمين وأموالهم من عدوان أهالي هذه البلاد عليهم، فاختار موقع القيروان لبعده عن ساحل البحر حتى يكون المسلمون بمأمن من غارات الروم. واختط عقبة في ذلك الموضع داراً للإمارة، واختط الناس حولها الخطط والدور كما بنى بها المسجد الجامع.

وكان يسكن القيروان أخلاط من الناس، من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان، وبها فريق من الفرس من أهالي خراسان. كما أقام بها البربر والروم. وكان يحيط بالقيروان سور مبني باللبن والطين، بناه القائد العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ وقد هدم زيادة الله إبراهيم بن الأغلب هذا السور في سنة ٢٠٩ هـ بعد أن خرج عليه أهل القيروان بزعامة المنصور المعروف بالطنبدي، ثم أعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور

الصنهاجي سنة ٤٤٤ هـ[١].

وقد ذكر ابن خلدون عند كلامه على ما (تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة) أنه يجب أن تحاط المدينة بالأسوار وأن تبنى إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة. كما يجب أن يراعى عند اختيار موضعها طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكداً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة، أسرع إليها العفن فأسرع المرض للإنسان والحيوان وتفشت الحميات، وقرب الزرع منها فيحصل الناس على الأقوات، وقربها من البحر ليحصل الناس على حاجاتهم من البلاد النائية. وختم ابن خلدون كلامه بقوله: إن العرب لم يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان وغيرها، وأنها كانت أقرب إلى الخراب إذ لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

على أن كلام ابن خلدون لا ينطبق على جميع المدن التي أسسها العرب، بل ينطبق على بعضها. فإن الفسطاط مثلاً روعي عند تأسيسها الأمور الطبيعية والسياسية، لأن النيل يحدها شرقاً والجبل غرباً، وتقع المزارع بينها وبين الجبل من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى. أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا ليسهل الإشراف على الوجهين البحري والقبلي. ولما لم يكن العرب أمة بحرية لم يكن ثمة ما يدعو لاتخاذ الحاضرة على البحر الأحمر، حتى لا يحول بينهما وبين العرب ماء كما رأى عمر بن الخطاب.

٢ ـ المساجد:

أ ـ الحرم النبوي الشريف:

لما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة بنى مسجده الذي دفن فيه. وكانت الأرض التي بني عليها المسجد لغلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، وكان مربداً للتمر. وقد أراد أن يهبها لله وللرسول، فأبى الرسول ﷺ إلا أن يشتريها بالثمن، وأمر بتسوية حفره وقطع ما به من النخل. وشرع الرسول ﷺ في بناء مسجده من اللبن وكان يبني فيه بنفسه. وكان سقفه من الجريد وأعمدته من خشب النخل وارتفاعه قدر قامة. وجعلت قبلته لبيت المقدس إلى أن حولت إلى الكعبة. وبنى الصُّفة وهي موضع مظلل من المسجد ليأوي إليها فقراء المسلمين، وجعل للمسجد بابين: باب عائشة، والباب الذي يقال له باب عاتكة، وباباً في مؤخر المسجد يقال له باب مليكة. وبنى بجواره بيوتاً باللبن وسقفها بجذوع من النخل. ثم زاد الرسول ﷺ في المسجد بعد فتح خيبر لازدياد عدد المسلمين.

---

(١) أبو عبيدة البكري: المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٤ ـ ٢٥.

ولما ولي عمر الخلافة أراد أن يشتري دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول ليدخلها في المسجد، فوهبها العباس لله وللمسلمين، فأدخلها عمر فيه وجعل طوله مائة وأربعين ذراعاً وارتفاعه أحد عشر ذراعاً، وجعل لـه ستة أبـواب وحصنه (١٧ هـ). ثم بنـاه عثمان بن عفـان بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضاً، وسقفه بالساج وزاد فيه زيادة كبيرة ونقل إليه الحصباء من العقيق (٢٩ ـ ٣٠ هـ).

وقد أمر الوليد بن عبد الملك الأموي عمر بن عبد العـزيز عـامله على المدينـة بإدخـال حجرات زوجات الرسول ﷺ في المسجد؛ فأصبحت مساحته مائتي ذراع في مثلها. وكتب إلى امبراطور الروم يطلب منه العمال لعمارة مسجد الرسول فبعث إليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القبط. كما أرسل إليه أربعين ألف مثقال من الذهب وأحمالاً من الفسيفساء، فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجـارة، وجعلوا عمد المسجـد من الحجارة المـحشوة بـعمد الحديد والرصاص، وجعل المحراب والمقصورة من الساج، ثم تولى أمراء المسلمين مسجد الرسول بالعمارة والتجديد[١].

وكانت شؤون الدولة العامة تدار في المساجد قبل إنشاء الأبنية الخاصة بدور الحكومة، ويتضح ذلك مما يقوله سير توماس أرنولد[٢]: (لم يكن المسجد مكاناً للعبادة وحدها، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية. فكان النبي ﷺ يستقبل في المسجد السفراء ويدير شؤون الدولة، ويخطب جماعة المسلمين من على المنبر في الأمور السياسية والدينية. . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد، ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه، كما كان الخليفة يلقي بعد بيعته من فوق المنبر خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان لسياسته في الحكم. فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش الذي يلقي من فوقه بيان سياسة الدولة في الأمم الدستورية).

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم أن المساجد كانت تستخدم لاجتماع العلماء فيها، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم، ثم استخدمت معاهـد للتعليم يتلقى فيها الأطفـال اللغة العربية وأصول الدين، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم. وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين ،كان المسجد المكان الذي تذاع فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالمصالح العامة.

ويقـول سير تـوماس أرنـولد أيضـاً إن المساجـد لـم تلبث أن فقدت أهميتهـا السيـاسيـة والاجتماعية، فلم تعد تمثل عرش الخليفة أو كرسي الوالي أو منصة القاضي، وغـدا المسجد

---

(١) انظر لفظ يثرب في معجم البلدان لياقوت.

(٢) The caliphate, pp. 36 - 38 .

مقصوراً على إقامة الخطبة الدينية، يمجد فيها الله ويصلي على النبي ﷺ ويترحم على الصحابة ويدعى للخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله ﷺ في المحافظة على الدين. ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة في الخطبة ليكون ذلك أشبه باعتراف الولايات الإسلامية بسلطة الخلفاء الإسمية.

ب ـ تأسيس الجامع العتيق[1]:

أسس هذا الجامع عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين من الهجرة. وكان على الأرض التي بنى عليها مسجد لقيسبة بن كلثوم التجيبي. وقد سأل عمرو حين عاد المسلمون من الإسكندرية قيسبة أن ينزل عن داره، وكانت تقع إلى الشمال من حصن بابليون، ليجعل مكانها مسجداً، فأجابه إلى طلبه وتصدق بها على المسلمين، ومن ثم شرع عمرو في بنائه، فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان في مبدأ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن.

ولم يكن للمسجد الذي بناه عمرو محراب مجوف. وأول من بناه قرة بن شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦). وكان للمسجد بابان أمام دار عمر وبابان في الشمال وبابان في الغرب. وكان الخارج من زقاق القناديل[2] يلقى ركن الجامع الشرقي محاذياً ركن جامع عمرو الغربي. وكان سقفه منخفضاً جداً، كما لم يكن للمسجد صحن. وقد اتخذ عمرو منبراً في المسجد فكتب إليه عمر بن الخطاب: (أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك)؟ فكسره عمرو.

هذا هو أقدم جامع إسلامي بني في مصر، وترجع أهميته التاريخية إلى موضعه القديم الذي بناه فيه عمرو بن العاص.

جـ ـ مسجد دمشق:

ويضرب بمسجد دمشق المثل في جماله وحسن نظامه، وأول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح، ثم بناه الوليد بن عبد الملك بين سنتي ٨٨، ٩٦ هـ. وكان الوليد كلفاً بالعمارة وخاصة عمارة المساجد. ولما عزم على بناء مسجده جمع زعماء النصارى في دمشق وعرض عليهم رغبته في إدماج كنيسة القديس يوحنا في مسجد المسلمين واستعداده لأن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى في أي مكان شاءوا، وأن يدفع إليهم ثمناً مضاعفاً، فأبوا واحتجوا بالعهد الذي أخذه

---

(١) يطلق على هذا الجامع أيضاً جامع عمرو، وتاج الجوامع، والمسجد الجامع (ابن دقماق حـ ٤ ص ٥٩).

(٢) دعي بهذا الاسم لأنه كان منازل الأشراف، وكان على أبوابهم القناديل. وإنما قيل له زقاق القناديل، لأنه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمر، وهو من الخطط القديمة وله أربعة مسالك.

المسلمون على أنفسهم بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء.

ولكن الوليد لم يأبه لقولهم وسارع إلى هدم الكنيسة وبنى مكانها مسجد دمشق. وقد تأنق هذا الخليفة في بناء هذا المسجد، حتى قيل إنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين تقرباً إلى الله بهذا العمل الديني الجليل. قال المسعودي (مروج جـ ٢ ص ١٥٢): وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال: لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته، فوجه به إلى وهب بن منبه فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان الحكيم بن داود عليهما السلام، فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا آدم، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك لزهدت فيما بقي من طول أملك، وقصرت عن رغبتك وحيلك، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك، وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب. فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد، فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت، وقبل أن يأخذ منك بالكظم ويحال بينك وبين العمل، وكتب زمن سليمان بن داود؛ فأمر الوليد أن تكتب بالذهب على اللازوردي في حائط المسجد: ربنا الله لا نعبد إلا الله. أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين. وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة.

وقيل إن السجلات التي اشتملت على نفقات البناء نقلت إلى قصر الوليد على ثمانية عشر بعيراً لبحثها وإقرارها، فأقرها الخليفة الأموي دون بحث أو مراجعة وقال: هو شيء آخر أخرجناه لله ولا نرجو من ورائه شيئاً.

وفي الحق أن مسجد دمشق الذي يعرف الآن بالمسجد الأموي آية من آيات الفن العربي والبيزنطي، ولا يزال حافظاً لرونقه وبهائه إلى اليوم. وإن في هذا الوصف الذي وصفه به أحد أهالي دمشق لمثلاً حياً وبرهاناً ناطقاً على ما بلغه هذا المسجد من الرواء والاتقان، هو جامع المحاسن كامل الغرائب، معدود من إحدى العجائب، فقد أزر بعض فرشه بالرخام وألف على أحسن تركيب ونظام.

وقد غلا الوليد في بناء هذا المسجد. فقد كان محرابه مرصعاً بالجواهر الثمينة، عليه قناديل الذهب والفضة، ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية، حتى إن الناس أخذوا يرمونه بقصر النظر والتبذير، وأنه بناه من بيت مال المسلمين من غير فائدة تعود عليهم من وراء هذا الإسراف. وسرعان ما وصلت هذه الأقوال إلى مسامع الوليد. فخطبهم في المسجد فقال: بلغني أنكم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم يدخل لكم فيها حبة

قمح. وقد قيل: عجائب الدنيا أربع: قنطرة سنجة، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرهاء، ومسجد دمشق.

ولما رأى عمر بن عبد العزيز أن المال الذي أنفق على بناء المسجد الأموي لم يكن في موضعه، وأن بيت المال قد تأثر من جراء ذلك، عول على أن يتدارك هذه الخسائر، فينزع الفسيفساء ويستغني بالحبال عن السلاسل الذهبية التي علقت فيها المصابيح.

وقد اتفق أن وصل إلى دمشق سفراء من قبل امبراطور الروم ورغبوا في زيارة مسجد دمشق، فسمح لهم عمر، ووكل بهم رجلاً يعرف لغتهم. فلما مروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة رفعوا رؤوسهم إلى المسجد. وقد نكس رئيس الوفد رأسه واصفر وجهه فسأله من معه، فقال: إنا معشر أهل رومة نقول إن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها. ولما اتصل هذا بمسامع عمر قال: إني أرى أن مسجدكم هذا غيظ على الكفار، وترك ما عزم عليه[1].

د ـ مسجد القيروان:

ومن المساجد التي بنيت في هذا العصر مسجد القيروان، بناه عقبة بن نافع بعد أن اختط دار الإمارة في القيروان. على أن عامل هشام بن عبد الملك رأى أن هذا المسجد يضيق بالمصلين، وكتب بذلك إلى الخليفة، فأمره بشراء الأرض التي كانت بجانب المسجد.

وفي عهد إمارة يزيد بن حاتم على إفريقية أعيد بناء هذا المسجد سنة ١٠٠ هـ ثم عزم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على هدمه وتجديد بنائه وإزالة كل أثر لغيره فيه، فنصح له بعض أن يعدل عن هدم المحراب، لأن من تقدمه من الولاة توقفوا عن ذلك حين علموا أن عقبة ابن نافع هو الذي أقامه، وأشار عليه بعض البنائين بأن يدخل المحراب بين حائطين، وبذلك لا يظهر أي أثر لغيره، فأعجب زيادة الله بذلك الرأي وشرع في تجديد بناء مسجد القيروان. ولما آلت ولاية إفريقية إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، زاد في هذا الجامع وأدخل على بنائه عدة تحسينات، وبنى القبة المعروفة بقبة البهو[2].

ولد فن العمارة الإسلامية في عصر بني أمية، ولكنه سرعان ما نما وترعرع فكانت من آثار الطراز الأموي عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ووحدوا كثيراً من العناصر الفنية في أجزاء دولتهم وألفوا منها طرازاً ممتازاً[3].

---

(١) انظر لفظ دمشق في معجم البلدان لياقوت.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٤٣.

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

١ - طبقات الشعب:

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات، وأماكن النزهة، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

كان الخلفاء الراشدون والأمويون من بعدهم يعتمدون على العنصر العربي في إدارة شؤون الدولة العربية التي امتدت فتوحها من أسوار بلاد الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، على الرغم من أن الدين الإسلامي قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي. يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من الآيات البينات التي تجعل التقوى أساس الحكم بين المؤمنين: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾، ﴿ إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم ﴾. وما أثر عن الرسول أنه قال: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

وقد تعصب الأمويون العرب ونظروا إلى الموالي نظر السيد للمسود مما أثار روح القومية في نفوس هؤلاء الموالي، فثاروا على الحكم الأموي وانضموا إلى الخارجين على بني أمية، وأخذوا يتسلمون الفرص لإزالة دولتهم، فانضموا إلى المختار، ثم إلى الخوارج، كما اشتركوا في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، وفي فتنة يزيد بن المهلب، وفي غيرها من الثورات التي كانت ترمي إلى القضاء على بني أمية. هذا إلى أن العنصر العربي نفسه لم يكن متحد الكلمة بسبب اشتعال العصبية القبلية التي حاول الإسلام القضاء عليها. وكان تفاقم روح العصبية في خراسان خاصة من أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة العباسية على أيدي الموالي

الذين سخطوا على الحكم العربي، كما ساعدت اشتعال العصبية في الأندلس على قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل الأموي في هذه البلاد.

ومهما يكن من شيء فقد تمتع أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، بالحرية الدينية فقد تركهم العرب يدينون بما رضوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للمسلمين. ففي فارس نجد سكان المدن، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف يرحبون بالدين الإسلامي. وقد عامل العرب من ظل من الفرس على مذهبه القديم معاملة حسنة، ولم يتعرضوا لأماكن عبادتهم.

وكذلك كانت الحال في بلاد الشام ومصر، فقد خير العرب أهل الذمة بين الإسلام والبقاء على دينهم، فمن أسلم منهم تمتع بما يتمتع به المسلمون، ومن بقي على دينه فرضت عليه الجزية كفاء حمايته وتأمينه على نفسه وعلى أولاده وأمواله. كما أحسن العرب معاملة أهل الذمة في بلاد الأندلس، فسمحوا لليهود الذين ذاقوا كثيراً من ألوان العسف في عهد القوط بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وأحسنوا معاملة المسيحيين الذين تمسكوا بدينهم، وكان لسياسة التسامح الديني التي أظهرها العرب نحو أهالي هذه البلاد وغيرها أثر كبير في تحول كثير منهم إلى الإسلام.

أما في مصر فإن العرب لما فتحوا هذه البلاد أصبح فيها ثلاثة عناصر من السكان: القبط وهم أهل البلاد الأصليون، وكانوا يكونون السواد الأعظم من السكان، والروم، وهم بقايا الحكم الروماني الذي قضى عليه العرب، وكان الروم واليهود يكونون أقلية ضئيلة من السكان. أما العنصر الثالث وهو العنصر العربي، فكان يتألف بعد الفتح من الجند العربي ومن القبائل العربية التي سحرتها طبيعة هذه البلاد.

وقد بلغ جند العرب في مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً، ثم أخذ هذا العدد يزداد بسبب وفود نساء هؤلاء الجند وأولادهم، واتخاذهم مصر وطناً ثانياً. أضف إلى ذلك اندماج هؤلاء العرب في أهالي البلاد الأصليين بالمصاهرة. على أنه برغم هذه الزيادة المطردة في العرب النازحين إلى مصر، طلب عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك الأموي، أن يأذن له في إسكان العرب من قبائل قيس في أرض الحوف الشرقي جهة بلبيس حيث يقيم نفر من جَديلة. وسرعان ما بلغ عدد هؤلاء القيسيين خمسة آلاف كما وفد إليها أولاد الكنز الذين يرجع نسبهم إلى ربيعة بن معد بن عدنان من عرب الشمال، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد، أي بإقليم أسوان وغيره.

وقد اشتغل العرب باستثمار الأرض وتاجروا في الإبل والخيل، وحملوا عليها غلات أرضهم إلى القلزم (وهي مدينة السويس الآن) حيث كانت تنقل إلى بلاد العرب. على أن اندماج العرب في المصريين اندماجاً فعلياً زاد زيادة واضحة بعد أن أسقط المعتصم العباسي

أسماء العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب في الريف، واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق وأخذ العنصر العربي يضعف شيئاً فشيئاً.

وكان الشعب في بلاد الأندلس يتألف من عدة عناصر، من بينها المسلمون من العرب والبربر الذين ساهموا في فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومن مسيحيي الأندلس من الأسبان الذين دخلوا في الإسلام.

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين في أماكن كثيرة، ونزل فريق من المضريين في طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها. كما نزل اليمنيون في غرناطة وقرطبة وإشبيلية، ومرسية وبطليوس. وقام العرب بدور هام في الأندلس، وكان للنزاع الذي قام بين هذه القبائل أثر كبير في إضعاف الحكم الإسلامي في هذه البلاد.

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاء الحسن في فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح، ترى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة في الشمال، حيث استهدفوا لحملات المسيحيين الذين أقاموا الأماكن الحصينة، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب وأخذوا يناصبونهم العداء، كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم في بلاد المغرب.

٢ ـ مجالس الغناء والطرب:

لم يكن الغناء والموسيقى شيئاً مستحدثاً عند العرب قبل ظهور الإسلام، فقد كان لتردد أشرافهم على بلاط كسرى وقيصر أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية، فنعموا بسماع الموسيقى والغناء. وكان لطبيعة بلادهم أثر واضح في تقدم فن الغناء، فقد كان حداة الإبل يغنون الرجز ليخففوا عن أنفسهم مشقة الطريق ووعورة السبيل.

فلما ظهر الإسلام لم يغفل العرب أثر الصوت الجميل في تلاوة القرآن الكريم وفي أذان الصلاة، فقد أثر عن الرسول ﷺ أنه طلب إلى بلال أن يؤذن للصلاة لأنه كان ندي الصوت. واستمر الحال على ذلك في عهدَ الخلفاء الراشدين الذين انصرفوا إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، حتى تحولت الخلافة إلى الأمويين، وانتشر شعراء الغزل في الحجاز من أمثال عمر بن أبي ربيعة، وقيس بن ذُرَيْح، وكثير عزة، وجميل بثينة، ومال الناس إلى أشعارهم وتغنوا بها.

وقد أخذ الأمويون كما أخذ العباسيون من بعدهم، نظام مجالسهم عن الفرس. وقد وصف الجاحظ في كتابه التاج في أخلاق الملوك في باب المنادمة، هذه المجالس في عهد

أردشير بن بابك، فقال: إنه كان أول من رتب الندماء، فجعلهم ثلاث طبقات:

فكانت الأساورة[١] وأبناء الملوك في الطبقة الأولى، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة.

ثم الطبقة الثانية، وكان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع، وهي بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم.

ثم الطبقة الثالثة، وكان مجلسهم على عشرة أذرع من الثانية، وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة. غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر، ولا مَؤُوفٌ (مصاب بآفة) ولا مرمي بـأُبَنَة (عيب)، ولا مجهول الأبوين، ولا ابن صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً.

وكان الذي يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهل الحذاقة بالموسيقات والأغاني، فكانوا بإزاء هؤلاء نصب خط الاستواء.

ويقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقيات.

ويقابل الطبقة الثانية من أصحاب الفكاهات والمضحكين، وأصحاب الونج والمعازف والطنابير. وكان لا يرمز الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغتبر، وإن أمره بذلك، راجعه واحتج عليه[٢].

وكان الخلفاء الأول يستمعون في أوقات فراغهم لقصائد الشعراء. ولم يلبث الغناء أن حل محل الشعر، فكان معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد لا يظهرون للندماء، بل كان بينهم حجاب، حتى لا يطلع الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب. فقد تأخذ نشوة الطرب بلبه فيقوم بحركات لا يطالع عليها إلا خواص جواريه. وإذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو حركة غريبة صاح صاحب الستارة: (حسبك يا جارية! كفى! انتهى! اقصري!)، موهماً الندماء أن الفاعل لتلك الحركات هو بعض الجواري.

وكان بعض خلفاء بني أمية يظهرون للندماء والمغنين، ولا يحفلون بإتيان حركات تثيرها نشوة الطرب في نفوسهم[٣]. وكان يزيد بن عبد الملك يبالغ في المجون بحضرة الندماء، كما سوى بين الطبقة العليا والسفلى، وأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه، فلم يتورعوا في الرد عليه. وحذا حذوه في ذلك الوليد بن يزيد[٤].

---

(١) الأسوار: جمعها أساورة وهم الفرسان.

(٢) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٢٥ ـ ٢٦، انظر أيضاً المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ١٥١. وما يليها.

(٣) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٣٢.

(٤) الجاحظ: كتاب التاج ص ٣١ ـ ٣٢.

وفي عهد الوليد الثاني كلف الناس بالموسيقى والغناء، وكانوا يسرفون في ذلك كل الإسراف، وينفقون ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخليفة يدعوهم إلى دمشق من أقاصي البلاد. وليس أدل على كلف الأمويين بالمغنين والإنفاق عليهم عن سعة مما ذكره الطبري إذ قال: (حج يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بن عبد الملك. فاشترى حُبابة ـ وكان اسمها العالية ـ بأربعة آلاف دينار، فقال سليمان: هممت أن أحجر على يزيد، فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من أهل مصر، فلما ولي يزيد الخلافة قالت له زوجته سعدة: يا أمير المؤمنين! هل بقي في الدنيا شيء تتمناه بعد؟ قال: نعم حبابة. فأرسلت سعدة رجلاً فاشتراها بأربعة آلاف دينار، فأراحتها حتى ذهب عنها كلال السفر؛ ثم أتت بها يزيد، فأجلستها من وراء الستر وقالت: يا أمير المؤمنين! أبقي شيء من الدنيا تتمناه؟ قال: ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك؟ فرفعت الستر، وقالت: هذه حبابة، فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وحباها. وقد أثر تدفق طبقات المغنين المحترفين على دمشق في أخلاق الناس، وفي حياة المجتمع حتى دب الترف في الدولة.

ومن أشهر المغنين في هذا العصر «طُوَيس» مولى بني مخزوم، وكان لا يضرب بالعود، وإنما كان ينقر بالدف، عالماً بأنساب أهل المدينة. وهو أول من غنى بالمدينة غناء يدخل في الإيقاع، وهو بناء ألحان الغناء على موقعها وميزانها.

وكان أهل المدينة يؤثرون غناء طويس على كل غناء، وقد سمعهم ذات مرة وهم يشيدون بغنائه، فاستخرج دفاً ثم نقر به وغناهم بشعر عمارة بن الوليد المخزومي في خَولة بنت ثابت عارضها بقصيدته فيها:

يا خليلي نابني سهدي ... لم تَنَمْ عيني ولم تكدِ

وهو:

تناهى فيكمُ وجدي ... وصدَّع حبكم كبدي
فقلبي مُصْعَرٌ حُزْناً ... بذات الخالِ في الخَدِّ
فما لاقى أخو عِشْقٍ ... عُشَيْرَ العُشر من جَهْدِ

فأقبل عليه ابن سُرَيْج فقال: والله هذا أحسن الناس غناء (الأغاني: جـ ٢ ص ٣٥).

وكان طويس كثيراً ما يتغنى بالشعر الذي قيل في الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فيثير ما كان بينهما من عداء وتسيل بسبب ذلك الدماء (الأغاني جـ ٣ ص ٣٩).

وممن اشتهر بالغناء في العصر الأموي أبو مروان الغريض، وقد لقب بذلك لأنه كان طري الوجه نضراً غض الشباب حسن المنظر. وكان من مولدي البربر ومن رجال الأدب. إلا أن الغناء

غلب عليه بما وضعه من الألحان. وقد أخذ الغناء عن ابن سريج الذي أضمر له الحسد لما آنسه فيه من مخايل النبوغ وطرده. وعده جرير رابع أربعة اشتهروا في الغناء فقال: و (كان المغنون بمكة أربعة: فسيد ميزر، وتابع مسدد. . . وكان السيد أبو يحيى بن سريج والتابع أبو يزيد الغريض، وكان هناك رجل عالم بالصناعة فقال: كان الغريض أحلق أهل زمانه بمكة بالغناء بعد ابن سريج. وما زال أصحابنا لا يفرقون بينهما لمقاربتهما بالغناء).

وقد أبدع الغريض في الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناءه عن الجن. وكان يعترض الحجاج فيصغون إليه، خرج مرة ووقف في مكان لا يرى فيه، فغنى في شعر عمر بن أبي ربيعة:

أيها الرائح المجد ابتكاراً   قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا: طائفة من الجن حجاج[1].

وكان للقيان أثر ملحوظ في تقدم الغناء في العصر الأموي. روى المسعودي[2] أن فتى من بني أمية كان يختلف إلى قينة لبعض القرشيين. وكانت تحبه، ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة، فقال لها الفتى وقد أراد أن يعرف مبلغ ميلها إليه أتحسنين أن تقولي :

أحبكم حباً بكل جوارحي   فهل عندكم علم بما لكم عندي

أتجزون بالود المضاعف مثله   فإن كريماً من جزى الود بالود؟

قالت: نعم! وأحسن أحسن منه وقالت:

للذي ودنا المودة بالضعـ   ـف وفضل البادي به لا يجازى

لا بدا ما بنا لكم ملأ الأر   ض وأقطار شامها والحجازا

فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها فازداد كلفاً بها وقال:

أنت عذر الفتى إذ هتك الستـ   ـر وإن كان يوسف المعصوما

وقد أقامت هذه القينة عند ذلك الفتى الأموي حولاً ثم ماتت، فرثاها وقضى في حاله تلك. فدفنا معاً، وكان من مرثيته لها قوله:

قد تمنيت جنة الخلد للخلـ   ـد فأُدخلتها بلا استئهال

ثم أخرجت إذ تطمعت بالنعـ   ـمة منها والموت أحمدُ حال

وقال أشعب الطامع: هذا سيد شهيد الهوى، انحروا على قبره سبعين بدنة.

ويلاحظ أن أكثر المغنين والقيان في هذا العصر كانوا من غير العرب كما كانوا في العصر الجاهلي، لأن العرب لم يحترفوا الغناء أو يشتهروا بالموسيقى، وإنما برعوا في الشعر وخاصة الفن الغزلي في هذا العصر.

---

(١) الأغاني جـ ٣ ص ٣٦٢ ـ ٣٧٥.   (٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٧١.

ومن الآلات الموسيقية التي استعملها المغنون والموسيقيون في ذلك العصر: الصنج، وبه سمي أعشى قيس صناجة العرب لجودة شعره، والطنبور، والدريج وله أوتار كالطنبور، ويسمى الونّ، والطنطنة صوت الطنبور وضرب ذي الأوتار. ومن آلات الطرب المزمار ومن أسمائه الناي واليراع[1].

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء:

كان لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الأمم أثر كبير في تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وخاصة في عهد الأمويين. فقد استفاد معاوية من نظم الحكم التي أدخلها الروم في بلاد الشام، وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد. فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه، ووضع المقصورة لخوفه مما جرى لعلي كرم الله وجهه، فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف[2].

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يؤم الناس في صلاة الجمعة وفي الصلوات الخمس، وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدين، ثم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز من خلفاء بني أمية. ولم يهتم غيرهم من الخلفاء بأن يؤموا الناس في الصلوات الخمس، واقتصروا على إمامتهم في صلاة الجمعة. فكان الخليفة في العصر الأموي يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر، ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، وبيده الخاتم والعصا وهما شارتا الملك. وكثيراً ما كان بعض الخلفاء الأمويين لا يحضرون صلاة الجمعة، بل ينيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة.

وقد وصف المسعودي[3] حياة معاوية الخاصة فقال: (كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاءه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلي أربع ركعات. ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي، ثم يؤتى بالغذاء الأصغر: وهو فضلة عشائه من جدي بارد أو فرخ أو ما يشبهه، ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله لما أراد ثم يخرج فيقول: يا غلام! اخرج الكرسي، فيخرج إلى المسجد فيوضع، فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي. ويقوم الأحداث، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول ظلمت فيقول: أعزوه. ويقول عُدي علي، فيقول: ابعثوا معه، ويقول: صُنع بي، فيقول: انظروا في أمره. حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على

---

(١) ابن سيدة: المخصص جـ٣ ص ١١ ـ ١٥
(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠١.
(٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٧٠ ـ ٧١.

السرير؛ ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه؟ فيقول: بنعمة من الله. فإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء! إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا؛ فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول آخر: غاب فلان عن أهله، فيقول: تعاهدوهم، أعطوهم، أقضوا حوائجهم، أخدموهم. ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه، ويقدم الرجل فيقول له: اجلس على المائدة، فيجلس، فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه أمراً، فيقال: يا عبد الله! اعقب. فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي أصحاب الحوائج كلهم. وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء. ثم يرفع الغداء ويقول للناس: أجيزوا فينصرفون فيدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي، ثم يدخل فيصلي أربع ركعات، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة. فإذا كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد، والكعك المنضد والفواكه اليابسة. وإن كان وقت الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة، ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم. ويجلس إلى العصر ثم يخرج، فيصلي العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع، حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب. ولا ينادى له بأصحاب الحوائج. ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب، فيخرج فيصليها، ثم يصلي بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلي، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويسمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم، وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة. ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات. ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفناه كل يوم).

وقد تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم، فكان قصر الخليفة في دمشق غاية في الأبهة، وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء وأعمدته بالرخام والذهب وسقوفه بالذهب، المرصع بالجواهر. ولطفت جوه النافورات والمياه الخارجية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة. وكان

الخليفة يجلس في البهو الكبير، وعلى يمينه أمراء البيت المالك، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاد، ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم.

وقد تحدث المسعودي عن حياة الترف وحب الظهور التي ميزت العرب المترفين في عهد عثمان بن عفان، فقد اقتنوا الضياع والدور وجمعوا الثروات الضخمة. ومنهم الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية. وما ذكره من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار. وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكناس[1] بدار الطلحتين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية شراة[2] أكثر مما ذكرنا. وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج. وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزُّهري ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً. وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات. وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار. وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار. وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك الأموال في أيامه (عثمان)، ولم يكن من ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة[3].

وفي مدينة الكوفة جمعت الأسرات البارزة مبالغ ضخمة مما كانت تدره عليهم الغنائم

---

(١) بكسر أوله موضع من بلاد غنى، عن أبي عبيدة قال جرير:

لمن الديار كأنها لم تحلل ... بين الكناس وبين طلح الأعزل

والكناسة بالضم هي محلة بالكوفة قتل فيها زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسن بن علي.

(٢) السراة سلسلة جبال تمتد من عرفة (قرب مكة) إلى صنعاء في الجنوب يسكنها قوم من الأزد يقال لهم أزد السراة، وهي جبال التوائية تتخللها أخاديد وتنبت فيها الكروم وقصب السكر والقرظ.

(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ٤٣٤.

والأعطيات السنوية، حتى أن كوفياً رحل إلى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه[١].

ولم يكن التأنق في حياة القصور مقصوراً على الخلفاء، فقد تنافس الأمراء وكبار رجال الدولة في تجميل دمشق وغيرها من المدن العظيمة. فقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم ـ وكان والياً على الموصل في عهد هشام بن عبد الملك ـ داراً منيفة من الرخام الخالص والمرمر، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع، كما بنى خانات (فنادق) في الموصل.

وقد رأى الحر ما يعانيه أهل الموصل من المشاق في الحصول على ماء الشرب، فشق قناة ما تزال باقية إلى اليوم، وغرس الأشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة.

يقول سيد أمير علي[٢]: لم يتغير طراز البيوت وترتيبها في دمشق عما كان عليه في عهد الأمويين على الرغم من مرور مئات السنين. فترى البواب جالساً على مقعد خشبي أمام الباب كما تراه الآن في دور الأغنياء، وترى على باب دور الفقراء قطعة من المعدن أو الحديد تستخدم مطرقة للباب.

وفي داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه أروقة من الأعمدة، وأرضه من الحجارة أو الرخام، وممشى مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة. وفي الفناء نافورة تحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية، ويظللها أشجار البرتقال والليمون. وعلى جانب الفناء يقام الإيوان، وهو عبارة عن صالة فرشت بالرخام والبلاط الملون. وتستعمل قاعة الاستقبال وقت الحر. وقبالة الباب تقام عادة كوة غير نافذة مزخرفة بالأعمدة الرخامية وفوقها الطست والإبريق للوضوء.

وكانت قصور الأغنياء من طبقتين أحياناً، وعلى يمين وشمال الأبهاء أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدي إلى الأبهاء والحجرات الأخرى.

وفي الشتاء تكسى أرض الإيوان الرخامية والحجرات بالطنافس الثمينة، وتدفأ الحجرات بالمهل (الموقد). أما في الصيف فكانت النافورات والنوافذ تلطف حرارة الجو.

وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربي مطلية بالذهب. ولم تكن هناك مقاعد، فإذا كان صاحب الدار من أصحاب المراكز السامية، وضعت الطنافس فوق بعض لتكون بمثابة مقعد مرتفع له.

---

(١) الطبري. طبعة دي غوية ١: ٨٠٦.

(٢) A Short Hist. of the Arabs, p. 195.

٤ ـ الطعام:

كانت معيشة العرب في بادىء الأمر غاية في البساطة. فكانوا في صدر الإسلام يكتفون بالقليل من الطعام الذي لم يجاوز لوناً أو لونين. وكان خير أدمهم اللحم. وكان سكان المدن أقرب إلى العناية بالطعام والتفنن فيه من سكان البوادي.

وكان النبي ﷺ وكثير من الصحابة يقلون من الطعام، لا لفقر أو شح، ولكن زهداً في الدنيا. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله. وكانوا إذا أكلوا لا يملئون بطونهم. فهذا النبي ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه».

وقد بين صاحب الفخري مبلغ زهد الخلفاء الراشدين وتقشفهم في هذه العبارة فقال: (اعلم أنها دولة لم تكن طرز دول الدنيا، وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه. والحق في هذا أن زيها قد كان زي الأنبياء وهديها هدي الأولياء، وفتوحها فتوح الملوك والكبار. فأما زيها فهو الخشونة في العيش والتقلل في المطعم والملبس. كان أحدهم يمشي في الأسواق راجلاً وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه، وفي رجله تاسومة وفي يده دزة. فمن وجب عليه حد استوفاه منه. وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم. ضرب أمير المؤمنين علي عليه السلام المثل بالعسل والخبز النقي، فقال في بعض كلامه: لو شئت لاهتديت الى مصفى العسل بلباب هذا البر. واعلم أنهم لم يتقللوا في أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم، وكسراً للنفس عن شهواتها، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها. وإلا فكل واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب. ولكن أكثر خرجهم كان في وجوه البر والقرب)[1].

وكان العرب يراعون قواعد الصحة، فلا يدخلون الطعام على الطعام، ولا يسرفون في المأكل. أثر عن الرسول ﷺ قوله: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده، ويأكلون بأيديهم لعدم وجود الملاعق والشوك في ذلك الوقت، كما كانت الحال في أوربا إلى عهد قريب. ومع ذلك ذكر الإمام أحمد أن النبي ﷺ كان يستعمل السكين في قطع اللحم.

وكان العرب كرماء يجودون بطعامهم ولا سيما أهل البوادي، حتى كانوا يوقدون النار ليلاً ليهتدي بها الضيفان الغرباء؛ يدل على ذلك قول الشاعر:

وإني لمعط ما وجدت وقائل ... لموقد ناري: ليلة الريح أوقد

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ٧٠ ـ ٧١.

وكانوا إذا أكلوا جميعاً بسطوا سماطاً على الأرض ثم جلسوا صفين من حوله كما نجلس اليوم حول المائدة[١].

ومن أطعمة العرب الثريد، وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم. ومنه اللمزة وهو الخبز يكسر على السمن، والكوثان، وهو الأرز والسمك، والأطرية، وهو طعام كالخيوط من الدقيق، و «الشعيرية»، وهو طعام كالخيوط صغر فتلها في حجم الشعير، والربيكة وهي شيء يطبخ من بر وتمر ويعجن بسمن، و «الجشيش»، وهو دقيق مجروش يوضع في قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ثم يطبخ، و «العكة» وهو طعام يتخذ من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى.

ومن ألوان الطعام القديد و «الصفيف» فإذا شرح اللحم وقدد فهو القديد، وإذا شرح عراضاً فهو الصفيف. والشواء، والبسيسة وهي الدقيق أو السويق يلت بالسمن أو بالزبد ثم يؤكل ولا يطبخ، والخزير، وهي الحساء من الدسم والدقيق. والخزيرة أيضاً أن تنصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير، فإذا نضج در عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة، ولا تكون الخزيرة إلا وفيها لحم[٢].

ويظهر أن الخضر لم تكن مستعملة عند العرب في طعامهم كثيراً كما هي مستعملة في طعامنا اليوم، لأن بلادهم ليست زراعية.

وينبغي ألا يغيب عنا أن العرب لما خالطوا الأمم الأخرى وتغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها، استحدثوا فيها طرقاً غير طرقهم الأولى. ففي عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق، وكانت الملاعق تصنع من الخشب، كما كانت تجلب ملاعق من الفخار من بلاد الصين. وكانوا يجلسون على الكراسي أمام مائدة الطعام التي يكسوها مفرش من القماش.

وكان معاوية بن أبي سفيان يكثر من الطعام حتى قيل إنه كان يأكل في كل يوم خمس أكلات[٣]. كما اشتهر سليمان بن عبد الملك بحبه للطعام وتفننه في اختيار ألوانه. وعرف بنهمه؛ قيل إن الطباخ كان يأتيه بالدجاجة، فلا يصبر حتى تبرد فيأخذها بكمه فيفصلها عن السفافيد. قال الأصمعي: ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله للفراريج بكمه فقال: قاتلك الله! فما أعلمك بأخبارهم؟ إنه عرضت علي جباب بني أمية فنظرت إلى جبة سليمان، وإذا كل جبة منها في كمها أثر دهن، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث، ثم قال: عليّ بجباب سليمان فأتي بها فنظرنا، فإذا تلك الآثار ظاهرة، فكساني منها جبة. فكان الأصمعي ربما يخرج أحياناً فيما يقول: هذه جبة سليمان التي كسانيها الرشيد.

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد جـ ٤ ص ٣٠٨.
(٢) ابن سيدة: المخصص جـ ٤ ص ١٢٠ ـ ١٤٨.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٢، الفخري ص ١١٦.

وكان للأكل مع الخلفاء والأمراء آداب مقررة، فينبغي ألا ينبسط الشخص في الطعام لأن الأكل مع الملوك للشرف لا للشبع مع ما في الانبساط من الجرأة وسوء الأدب[١].

٥ - الملابس:

ولم يكن الرسول ولا أبو بكر وعمر من بعده يتأنقون في ملبسهم، بل كان الزهد في عرض الدنيا من أبرز صفاتهم. فقد كان أبو بكر يلبس في خلافته الشملة والعباءة. قدم إليه ملوك اليمن وعليهم الحلل الموشاة بالذهب المحلاة بالتيجان. فلما رأوا ما عليه من الزهد والتواضع والنسك ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم من أفخر اللباس، حتى إن ذا الكلاع ملك حمير رؤي يوماً في سوق المدينة يمشي وعلى كتفه جلد شاة، ففزعت عشيرته وقالوا له: (فضحتنا بين المهاجرين والأنصار، قال: فأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام؟ لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا)[٢].

وكان عمر متواضعاً خشن الملبس. وقد اتبعه عماله في سائر أفعاله وأخلاقه. كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم، ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه، مع هيبة قد رزقها، وكان أكثر ركابه الإبل، ورحله مشدودة بالليف، وكذلك عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال.

وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير. وكان أبو عبيدة بن الجراح يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فلاموه على ذلك وقالوا له: إنك بالشام وحولنا الأعداء، فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال: ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر الرسول ﷺ[٣].

وكان لباس البدو يتكون من قباء طويل مشقوق من الوسط ومتدل إلى العقب ومربوط من الوسط بحزام من الجلد. ولا يزال البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا اللباس إلى اليوم.

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل، كما كانوا يرتدون في الحرب أو في ركوب الخيل أردية خاصة؛ فيلبسون السروال عادة ورداء قصيراً بدلاً من الثياب الفضفاضة المتدلية.

أما لباس الرأس فهو العمامة. وكان حجمها يختلف تبعاً للسن والمركز العلمي وغيرهما. وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة، وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقي الرقبة حرارة الشمس.

---

(١) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ١١.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ٤١٣.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤١٨.

وكانت الأردية تختلف تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعي ونوع عملهم. فكانت كسوة الفقيه أو الكاتب تختلف عن ثياب الجند وهكذا. وكان شيوخ القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل إلى الركبتين يعلوه جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين، ويشده من الوسط حزام من الحرير، وفوق ذلك الجبة؛ كما كانوا يلبسون النعال أو الأحذية.

أما ثياب المرأة العربية فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد. وإذا خرجت المرأة من بيتها ارتدت الحبرة وهي ضرب من برود اليمن. وهي ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها من التراب والطين، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة. وكانت النساء في الجاهلية يلبسن قميصاً مشقوقاً إلى الصدر.

وفي عهد سليمان بن عبد الملك شاع الوشي الذي كان يجلب من اليمن والكوفة والإسكندرية، واتخذ الناس منه جلابيب وأردية وسراويل وعمائم وقلانس. وقد بلغ من ولوعه بالوشي أنه كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه ورجال بلاطه إلا في الوشي. وكان رداؤه إذا جلس أو ركب أو ارتقى المنبر من الوشي(١).

٦ - المـــرأة:

كانت المرأة العربية - ولا تزال - تتمتع بقسط وافر من الحرية. وكانت النساء في عهد الخلفاء الراشدين يختلطن بالجمهور ويسمعن خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التي كان يلقيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس وغيرهما.

ويرجع اتخاذ الحريم - كما يقول فون كريمر(٢) - إلى عهد الوليد الثاني الذي أدخل كثيراً من العادات البيزنطية في البلاط، واتخذ الخصيان أمناء في قصره. وكان الإغريق أول من سن تلك السنة السيئة. وقد انتقد الجاحظ هذه العادة التي انتشرت في القرن الثالث الهجري انتقاداً مراً.

واشتهر من نساء العرب في هذا العصر عائشة أم المؤمنين التي ضربت بسهم وافر في الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب وقادت جند المسلمين يوم الجمل، وأختها أسماء بنت أبي بكر وأم عبد الله بن الزبير. وقد اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم، وعكرشة بنت الأطرش التي اشتركت في الحرب بين علي ومعاوية. وكانت تحرض الجند على معاوية، وكانت المرأة العربية تصحب الجيش ويخصص لها مكان في المدن الحصينة والمعسكرات.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٢.

(٢) Orient Under the Caliphs, pp. 171-2.

وتظهر شهامة المرأة العربية حين سار الحجاج إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق[1]، وأرغم أهلها على طلب الأمان، وانضم إليه بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوي قرباه. وبقي عبد الله بن الزبير في عدد قليل من أنصاره. ولما أيقن أنه مقتول لا محالة، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال: يا أماه! قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا! فما رأيك؟ فقالت: (أنت أعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية يلعبون بها. وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين. كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فقال: يا أماه! أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. فقالت: يا بني! إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها، فامض على بصيرتك واستعن بالله، فقبل رأسها وقال: هذا رأيي، فطفقت أمه تدعو له وتشجعه)[2].

ومن شهيرات نساء العصر الأموي أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك. وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد، الذي كان يستشيرها في مهام أمور الدولة.

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي سيدة نساء عصرها ومن أظرفهن وأحسنهن أخلاقاً. اجتمع إليها يوماً جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب، فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كلاً بألف دينار.

وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتي نبغن في الأدب وأيام العرب والنجوم. وفدت على هشام بن عبد الملك ذات يوم فقال لها: ما أوفدك؟ قالت: حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق. قال: إني سأعرفه حقك، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فأسمروا عندي الليلة، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة، فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة.

---

(١) لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة، وإنما اضطر إلى قتال ابن الزبير فحدث ما حدث عن غير قصد. وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعاً في الدين.

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

وكانت حفلات الزواج في صدر الإسلام غاية في البساطة. وأحسن مثل لذلك زواج السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ من علي بن أبي طالب.

ذكر ابن سعد أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة من الرسول فاعتذر في رفق. وقد أشار بعض الصحابة على عليّ أن يخطب فاطمة من أبيها، فقال لها الرسول ﷺ: «إن علياً يذكرك»، وقال له: أهلاً وسهلاً، وكانت هذه علامة الرضا. وكان صداق فاطمة وغيرها من بنات الرسول ﷺ خمسمائة درهم: أي نحو اثنتي عشرة أوقية ونصف[١]. وكانت فيما جهزت به فاطمة سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف وتور[٢] من أدم وقربة ومنخل ومنشفة وقدح. وقد أهدتها بعض النساء بردين من برود الأول عليها دملوجات من فضة مصفرات بزعفران[٣].

وقد تزوج علي فاطمة في شهر رجب بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها بعد أن عاد من غزوة بدر، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها[٤].

وكان الزواج عند العرب يومان: يوم الإملاك وهو يوم العقد، وفيه يجتمع ذوو الفتاة في ساحة دارهم، ويقدم أقارب الفتى. وإذا التأم جمعهم خطبهم ولي الفتى خطبة رقيقة، ثم يرد عليه ولي الفتاة في خطبة قصيرة يضمنها الرضا. ثم تنحر الجزر وتمد الموائد ويسمع الغناء من مجالس النساء. وتسمى وليمة ذلك اليوم النقيعة. واليوم الثاني يوم البناء وفيه يتبارى العرب في الاحتفال: فيلعب الفتيان بالرماح ويتسابقون على الخيل. ويبسطون الأنماط في الدار ويشدونها على الجدران؛ ويجلس النساء على النمارق وتجلى الفتاة وتلبس الحلي. ثم تسير في حشد من أترابها. ثم يغنيها النساء مشيدات بمآثر آبائها ومحامد قومها. وإذا انقضى ذلك الحفل أخذ النساء في الانصراف وودعن الفتاة بقولهن: باليمن والبركة وعلى خير طائر[٥].

٧ - أنواع التسلية:

وقد شغل العرب أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية كالصيد وسباق الخيل. وكان بعض خلفاء بني أمية كلفين بالصيد لفوائد الكثيرة، إذ كان الصيد يرمي - كما يقول صاحب الفخري (ص ٥٤) - إلى تمرين العساكر على الركض والكر والعطف وتعويدهم الفروسية وإدمانهم للرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس، واعتياد القتل والسفك، وتقليل المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس؛ ومنها اختيار الخيول ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض؛

(١) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير جـ ٨ ص ١٣.
(٢) التورة: إناء يشرب منه.
(٣) ابن سعد جـ ٨ ص ١٥.
(٤) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٣.
(٥) عبد الله عفيفي: المرأة العربية جـ ١ ص ١٥٥ - ١٥٦، ١٦١ - ١٦٢.

ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ المزاج؛ ومنها فضل لحم الصيد على باقي اللحوم لأنه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية فتزيد في حرارة الإنسان.

وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفاً بالصيد. وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلاجل المنسوجة منه، ويخص لكل كلب عبداً يقوم على خدمته[١].

وكان سباق الخيل أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته. ويقال إن هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات السباق. وقد اشترك في السباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء، حتى أن المسعودي يقول: إنه لم يسبق هذا السباق مثيل. وكانت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق. وكذلك كان الوليد الثاني مغرماً بسباق الخيل وله في حفلات السباق أخبار مذكورة في كتب التاريخ كالمسعودي وغيره[٢].

ومن أنواع التسلية عند العرب: الكرة، وكانوا يتدافعونها بالصوالجة، والقلة والمغلاة، وهما عودان يلعب بهما الصبيان، فيرمي الصبي بالقلة في الهواء ثم يضربها بمقلاء في يده، وهي خشبة طولها ذراع، فتستمر القلة في حركتها. وإذا وقعت كان طرفاها مجافين للأرض، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع، ثم يعترضها بالمقلاة فيضربها في الهواء فتستمر ماضية[٣].

(١) الفخري ٥٤.
(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٨ - ١٨٩.
(٣) ابن سيدة: المخصص جـ ٣ ص ١٧، ١٩.

مصـــادر الكتـــاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب وقد رتبت أسماء المؤلفين بحسب أحرف الهجاء مع ذكر سنة الوفاة.

ابن الأثير (١٢٣٨/٦٣٠): علي بن أحمد أبي الكرم.

١ - «الكامل في التاريخ» ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ).

٢ - «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ٦ أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ).

أرنولد: «سير توماس» و - .Arnold: Sir Thomas W.

٣ - «The Preaching of Islam» 3d. edition. ed. Reynold A. Nicholson, - (London, 1935).

وترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، (الطبعة الثانية) (القاهرة ١٩٤٧).

٤ - «The Caliphate» (Oxford, 1924).

الأزرقي (٨٤٧/٢٣٣).

٥ - «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» طبعة وستنفلد (جوتنجن ١٢٧٥/١٨٥٨).

الإسحاقي (القرن الحادي عشر): محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد المنوفى.

٦ - «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من الدول» (القاهرة ١٢٧٦ هـ).

الألوسي: السيد محمود شكري البغدادي.

٧ - «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣/١٩٢٤).

٨ - «تفسير روح المعاني» (بولاق ١٣٠٠).

أمير علي: سيد .Ameer Ali: Sayed

٩ ـ «A Short History of the Saracens» (London. 1954).
«مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي» ترجمة رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨).
أوليري، دي ليسي ـ O'leary, De Lacy.
١٠ ـ «Arabia Before Muhammad» (London. 1927).
برادلي : هنري ـ Bradley : Henry.
١١ ـ «The Goths» (London, 1887).
براون : إدوارد ج ـ Browne: Edward G..
١٢ ـ «Literary History of Persia-from the Earliest Times until Firdawsi» (London, 1909).
البغدادي (١١٣٧/٤٢٩) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر.
١٣ ـ «الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨/ ١٩١٠).
البغدادي (القرن ١٣ هـ) : أبو الفوز محمد أمين المشهور بالسويدي.
١٤ ـ «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» (بغداد ١٢٨٠ هـ).
بروكلمان : كارل ـ Brockelmann: Carl.
١٥ ـ «Geschichte der Arabiseher Litteratur» 2 vols. (Weimar, 1898 - 1902).
برونو: رودلف إرنست ـ Brunnow: Roudolf Ernest.
١٦ ـ «Traité élémentaire de Droit Civil», (Paris, 1932).
البكري (١٠٩٧/٤٨٧) : أبو عبيد الله بن عبد العزيز.
١٧ ـ «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (باريس ١٩١١).
البلاذري (٨٩٢/٢٧٩) أحمد بن يحيى بن جابر.
١٨ ـ «فتوح البلدان» (القاهرة ١٣١٨ هـ).
بلانيول وريبير ـ Blaniol et Repert.
١٩ ـ «Taité élémentaire de Droit Civil» (Paris, 1932).
البيضاوي (١٣٨٩/٧٩١). ناصر الدين عبد الله بن عمر.
٢٠ ـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ومعه حاشية شيخ زادة (استانبول).
بيمونت ومونو ـ Bement et Monod.
٢١ ـ «Histoire de l'Europe au Moyen-Age» (395 - 1270 A.D.) (Paris, 1921).
الثعالبي (١٠٣٧/٤٢٩) : أبو منصور عبد الملك.

٢٢ ـ «يتيمة الدهر» ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤).
الجاحظ (٢٥٥/٨٦٩): أبو عثمان عمرو بن بحر.
٢٣ ـ كتاب «التاج في أخلاق الملوك» حققه المرحوم أحمد زكي (باشا) (القاهرة ١٣٣٣/١٩١٤).
٢٤ ـ كتاب «البيان والتبيين» ٤ أجزاء (القاهرة ١٩٢٨).
٢٥ ـ كتاب «التبصر بالتجارة» (الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥) نشره وصححه وعلق عليه السيد حسني عبد الوهاب التونسي (الجزائر ١٩٠٥).
جاويش: عبد العزيز.
٢٦ ـ «الإسلام دين الفطرة».
جب: سير هاملتون أ. ر ـ Gibb. Sir Hamilton A.R.
٢٧ ـ «The Arab Conquests in Central Asia» (London, 1923).
جيبون إدوارد ـ Gibbon, Edward.
٢٨ ـ «The History of the Decline and Fall of the Roman Empire» 7 vols. ed. by J.B. Bury.
جروهمان: أدولف ـ Grohman Adolf.
٢٩ ـ «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية»، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)، الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦).
دي جوبينو ـ De Gobineau.
٣٠ ـ «Religion et Philosohpie dans l'Asie Centrale» (Paris, 1865).
جولدتسيهر: اجنتس Ignaz.
٣١ ـ «Le Dogme et la Loi de l'Islam».
ترجمه إلى الفرنسية فيلكس أران (باريس ١٩٢٠) وإلى العربية تحت عنوان «العقيدة والشريعة الإسلامية» الأساتذة: محمد يوسف موسى، وعبد العزيز عبد الحق، وعلي حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦).
٣٢ ـ «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن»، ترجمه إلى العربية الدكتور علي حسن عبد القادر (١٣٦٣/١٩٤٤).
الجهشياري (٣٣١/٩٤٢ ـ ٩٤٣): أبو عبد الله محمد بن عبدوس.
٣٣ ـ «الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨)، حققه ونشره الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
جويدي: Guidi: Ign.

٣٤ ـ «L'Arabie Antèislamique» (Paris, 1921) .
حاجي خليفة (١٠٥٨/١٦٥٧): مصطفى كاتب شلبي.
٣٥ ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (لبيسيك ولندن سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨).
حتي : فيليب ك. ـ . Hitti: Phillp K .
٣٦ ـ «History of the Arabs» Vth ed. (London, 1945) .
ابن حجر (٨٥٣/١٤٤٩): شهاب الدين بن علي العسقلاني.
٣٧ ـ «الإصابة في الصحابة» (القاهرة ١٣٢٣ هـ).
٣٨ ـ «فتح الباري في صحيح البخاري» (يولاق ١٣٠٠ هـ).
ابن أبي الحديد (٤٠٤/١٠١٣): الشريف الرضي محمد بن أبي أحمد الحسيني.
٣٩ ـ «كتاب نهج البلاغة» أربعة مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ).
ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤): أبو محمد علي بن أحمد.
٤٠ ـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ).
حسن إبراهيم حسن: الدكتور.
٤١ ـ «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (بولاق ١٩٣٢)، الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة ١٩٥٨).
٤٢ ـ «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن، ترجمه عن الفرنسية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم ومحمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣).
٤٣ ـ «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية تأليف أدولف جروهمان، ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤)، الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦)، الجزءان الثالث (١٩٦٢) والرابع تحت الطبع.
٤٤ ـ «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الجزء الثاني الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢).
٤٥ ـ الجزء الثالث، الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢).
٤٦ ـ «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٣).
٤٧ ـ «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني» بحث مستخرج من كتاب «المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٢٧ ـ ٢٢٩ .
٤٨ ـ «الدعوة إلى الإسلام» تأليف سير توماس أرنولد، ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي. الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٧).

٤٩ ـ زعماء الإسلام (القاهرة ١٩٥٣).

٥٠ ـ اليمن البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٩).

الحلبي (١٠٤٤/١٦٣٤) علي بن برهان الدين.

٥١ ـ «إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون» المعروفة بالسيرة الحلبية (القاهرة ١٣٢٠).

حمزة الأصفهاني (٣٠٦/٩١٨): أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني.

٥٢ ـ «تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء» (ليبرج ١٨٢٤، برلين ١٣٤٠ هـ).

الخضري: الشيخ محمد (بك).

٥٣ ـ «تاريخ الأمم الإسلامية» (القاهرة ١٩١٥).

ابن خلدون (٨٠٨/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦) عبد الرحمن بن محمد.

٥٤ ـ «مقدمة ابن خلدون» (مصر ١٣١١ هـ).

٥٥ ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٧٤ هـ).

ابن خلكان (٦٨١/١٢٨١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي.

٥٦ ـ «وفيات الأعيان» (مصر ١٣١٠ هـ).

دحلان: أحمد زيني.

٥٧ ـ «السيرة النبوية والآثار المحمدية» (على هامش السيرة الحلبية) (القاهرة ١٣٢٠ هـ).

الدردير: أحمد بن محمد بن أحمد.

٥٨ ـ «الشرح الكبير» (بولاق ١٣١٩ هـ).

در منجم: إميل ـ Dermenghem: Emile.

٥٩ ـ «La Vie de Mahomet» (Paris, 1930).

ابن دقماق (٨٠٩/١٤٠٦ ـ ١٤٠٧): إبراهيم بن محمد المصري.

٦٠ ـ «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» جـ ٤، ٥ (القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣).

الدروي: الدكتور عبد العزيز.

٦١ ـ «مقدمة في تاريخ صدر الإسلام» (بغداد ١٩٤٩).

دوزي: ر ب. أ. ـ Dozy: R.P.A.

٦٢ ـ «Essai sur l'Histoire de I'slamisme» (trad. R.V. Chauvin, Paris, 1879).

٦٣ ـ «Histoire des Musulmans d'Espagne» Leyden, 1961).

٦٤ ـ «Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes» (Amsterdam, 1845).

٦٥ ـ «Supplément aux Dictionnaires Arabes» (Leyden, 1881) .
ابن الديبع (١٥٣٧/٩٤٤): عبد الرحمن بن علي الشيباني .
٦٦ ـ «تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول» (القاهرة ١٣٤٦ هـ) .
ابن أبي دينار (١٦٩٨/١١١٠): محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني .
٦٧ ـ كتاب «المونس في أخبار إفريقية وتونس» (تونس ١٢٨٦ هـ) .
الدينوري (٨٩٥/٢٨٢): أبو حنيفة أحمد بن داود .
٦٨ ـ «الأخبار الطوال» جزءان (ليدن ١٨٨٨) .
الذهبي (١٣٤٧/٧٨٤ ـ ١٣٤٨): الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد .
٦٩ ـ «تذكرة الحفاظ» جزءان، الطبعة الثانية (حيدر أباد ١٣٣٣ هـ) .
رفيق العظم .
٧٠ ـ «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة» (القاهرة ١٣٢١ هـ) .
زكي محمد حسن: الدكتور .
٧١ ـ «الفن الإسلامي في مصر» الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) .
٧٢ ـ «كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٣٧) .
٧٣ ـ «الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي» (القاهرة ١٩٤٠) .
٧٤ ـ «فنون الإسلام» (القاهرة ١٩٤٨) .
الزنجاني: أبو عبد الله .
٧٥ ـ «تاريخ القرآن» (القاهرة ١٩٣٥) .
زيدان: جرجي .
٧٦ ـ «تاريخ التمدن الإسلامي» خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦) .
سيديو: ل . ب . ـ .Sédillot, L.B .
٧٧ ـ «Histoire Générale des Arabs» (Paris, 1877) .
السرخسي (١٠٩٠/٤٨٣): محمد بن أحمد بن أبي سهل الحنفي .
٧٨ ـ «كتاب المبسوط» (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .
ابن سعد (٨٣٥/٢٢٠): محمد .
٧٩ ـ «كتاب الطبقات الكبير» ٨ أجزاء (ليدن ١٣٢٢ هـ) .
ابن سعيد (١٢٧٥/٦٧٣): علي بن موسى المغربي .
٨٠ ـ كتاب «المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ ـ

١٨٩٩ م)، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، نشره زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل كاشف (القاهرة ١٩٥٣).

ابن سلام (٢٢٤/٨٣٨ ـ ٨٣٩): أبو عبيد القاسم.

٨١ ـ «كتاب الأموال» (القاهرة ١٣٥٣ هـ).

السنهوري: الدكتور عبد الرزاق أحمد ـ .Sanhoury: Dr. A.A.

٨٢ ـ «Le Califat» (Paris, 1926).

ابن سيدة: (٤٥٨/١٠٦٥ ـ ١٠٦٦): أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي.

٨٣ ـ «كتاب المخصص» ٢٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١ هـ).

السيوطي (٩١١/١٥٠٥): عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين.

٨٤ ـ «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (مصر ١٣٥١ هـ).

٨٥ ـ «تفسير الجلالين» ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٦).

٨٦ ـ «حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة» (القاهرة ١٣٢٧ هـ).

الشهرستاني (٥٤٨/١١٥٣): أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.

٨٧ ـ «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).

ابن طباطبا (٧٠٩/١٣٠٩): محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطقطقي.

٨٨ ـ «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧).

الطبري (٣١٠/٩٢٣): أبو جعفر محمد بن جرير.

٨٩ ـ «تاريخ الأمم والملوك» ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٢٦ هـ).

الطبري (٦٩٤/١٢٩٤ ـ ١٢٩٥): محب الدين أحمد بن عبد الله.

٩٠ ـ «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (حلب ١٣٤٦ هـ).

طه حسين.

٩١ ـ «حديث الأربعاء» الجزء الثاني (القاهرة ١٣٤٤ ـ ١٩٢٦).

٩٢ ـ «على هامش السيرة» (القاهرة ١٩٣٥).

٩٣ ـ «الفتنة الكبرى» عثمان (القاهرة ١٩٤٨).

ابن عبد الحكم (٢٥٧/٨٧٠ ـ ٨٧١): أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي.

٩٤ ـ «فتوح مصر» (القاهرة ١٩١٤).

ابن عبد ربه (٣٤٩/٩٤٠): شهاب الدين أحمد.

٩٥ ـ «العقد الفريد» ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦/١٩٢٨).
ابن عذاري (توفي أواخر القرن السابع الهجري): أبو محمد عبد الله محمد المراكشي.
٩٦ ـ «البيان المغرب في أخبار المغرب» نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (٨٤٨/١٨٥١ م).
عقيقي: المرحوم عبد الله (بك).
٩٧ ـ «المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها» الجزء الأول (القاهرة ١٣٣٨/١٩٢١).
علي إبراهيم حسن: الدكتور.
٩٨ ـ «تاريخ مصر في العصور الوسطى» الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٥١).
«النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٦٢).
علي عبد الرزاق ـ الأستاذ.
٩٩ ـ «الإسلام وأصول الحكم» الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٥).
الصيني (٨٥٥/ ١٤٥١): بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد.
١٠٠ ـ «عمدة القارىء بشرح صحيح البخاري» (بولاق).
١٠١ ـ «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة.
أبو الفدا (٧٣٢/١٢٣١): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه.
١٠٢ ـ «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ، القاهرة ١٣٥١ هـ).
أبو الفرج الملطي (٦٨٥/١٢٨٦): جريجوري بارهبرايس.
١٠٣ ـ «مختصر الدول» ٣ أجزاء (أكسفورد ١٦٧٣).
فلبي: هـ. ب. ـ Philby, H. St., J.B.
١٠٤ ـ «The Background of Islam» (Alexandria, 1947).
فنلي: جورج ـ Finlay, George.
١٠٥ ـ «Histoiry of the Byzantine Empire (716 - 1500). A.D. (London, 1856)».
فيرنيل: هنري ـ Fournel: Henri.
١٠٦ ـ «Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes» Tome II (Paris, 1881).
ابن قتيبة (٢٧٦/٨٨٩): أبو محمد عبد الله بن مسلم.
١٠٧ ـ «كتاب المعارف» (١٣٥٣/١٩٣٤).
١٠٨ ـ «الإمامة والسياسة» (القاهرة ١٣٢٢ هـ).
قدورة: الدكتورة زاهية.
١٠٩ ـ «عائشة أم المؤمنين» (القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧).
القفطي (٦٤٦/ ١٢٤٨): جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.

١١٠ ـ «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (ليبسك ١٣٢٢/١٩٠٣).
القلقشندي (٨٢١/١٤١٨): أبو العباس أحمد.
١١١ ـ «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٨).
القلقشندي (٣٢١/٩٣٣) محمد بن عبد الله.
١١٢ ـ «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب» مخطوط بدار الكتب المصرية.
كاشف: دكتورة سيدة إسماعيل.
١١٣ ـ «مصر في فجر الإسلام» (القاهرة ١٩٤٧).
كريزول: ك. أ. ك. ـ Creswell, K.A.C.
١١٤ ـ «Early Muslim Architecture, 2 vols, (Oxford. 1930, 1938).
كرد علي: محمد.
١١٥ ـ «الإسلام والحضارة العربية» الجزء الأول (القاهرة ١٣٤٩ هـ).
كريمر: ألفرد فون ـ Kremer, Alfred Von.
١١٦ ـ «Culturgeschichte des Orient unter den Chalifen» 2 vols. (Vienna, 1875), trans. by Khuda Bukhsh (Calcutta, 1920 - 27).
الكلبي (٢٠٤/٨١٩) أبو المنذر هشام بن محمد السائب.
١١٧ ـ «كتاب الأصنام» (دار الكتب المصرية ١٣٤٣/١٩٢٤).
الكندي (٣٥٠/٩٦١) أبو عمر محمد بن يوسف.
١١٨ ـ «كتاب الولاة والقضاة» (نشر روفن جست) (J. W. Gibb).
(Memorial Series, vol IX, 1912).
كتاني: الأمير ليوني ـ Caetani, Prince Leone.
١١٩ ـ «Annali dell' Islam» 5 vols. (Milano, 1905-13).
لامانس: الأب هنري ـ La mmense: Pére Henri.
١٢٠ ـ «Berceau de l'Islam» (Rome, 1914).
لويس: برنارد ـ Lewis, Bernard.
١٢١ ـ «The Origins of Ismailism» (Cambridge, 1940).
ترجمه إلى العربية خليل أحمد جلو، وجاسم محمد الرجب (بغداد ١٩٤٨).
١٢٢ ـ The Arabs in History (London, 1950).
لي بون: جوستاف ـ Le Bon, Jostave.

١٢٣ - «La Civilisation des Arabes» (Paris, 1884).
لينبول؛ ستانلي - Lane-Poole, Stanley.
١٢٤ - «The Story of Cairo» (London, 1912).
١٢٥ - «History of Egypt in the Middle Ages» (London, 1892).
١٢٦ - «Coins and Medals» (London, 1898).
١٢٧ - «The Moors in Spain» (London, 1887).
ترجمه إلى العربية علي الجارم (بك) (القاهرة ١٩٤٤).
الماوردي (٤٥٠/١٠٥٧): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري.
١٢٨ - «الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٢٩٧ هـ، لندن ١٩٠١ م).
المبرد (٣٨٥/٩٩٥): أبو العباس محمد بن يزيد النحوي.
١٢٩ - «كتاب الكامل» جزءان (القاهرة ١٣٢٣).
أبو المحاسن (٨٧٤/١٤٦٩): جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي.
١٣٠ - «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة ١٩٣٥).
محمد عبده: الإمام.
١٣١ - «رسالة التوحيد» (القاهرة ١٣٢٤ هـ).
المراكشي (٦٦٩ / ١٢٧٠ - ١٢٧١) : محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي.
١٣٢ - «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (لندن ١٨٨١)، ترجمه وشرحه ا. فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣).
مرجليوث: د. س. - Margoliouth: D.S.
١٣٣ - Mohammad and the Rise of Islam, 3rd ed. (London, 1932).
مسلم (٢٦١/ ٨٧٥): أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري.
١٣٤ - «الجامع الصحيح» ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ - ١٣٣٢).
المقري (١٠٤١/١٦٣٢): شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.
١٣٥ - «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٠ /١٨٦٢).
المقريزي (٨٤٥/١٤٤١): تقي الدين أحمد بن علي.
١٣٦ - «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» جزءان (بولاق ١٢٧١ هـ).
ميلن: ج. جرافتون Milne: Grafton.
١٣٧ - «History of Egypt Under Roman Roie», (London, 1913).
ميجون: ج. Migeon: G.

١٣٨ ـ «Manuel d'Art Musulman» 2 vols, (Paris, 1920) .

ميور: سير وليام تمبل ـ Muir: Sir William Temple .

١٣٩ ـ «The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall» (London, 1924) .

١٤٠ ـ «The Life of Mohammed» (Edinburgh, 1923) .

نلدكة: تيودور ـ Nœldeke, Theododor .

١٤١ ـ «Historians» History of the World, 27 vols, vol. I .

١٤٢ ـ «امراء غسان» ترجمه الدكتور بندلي جوزي، والدكتور قسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣).

ابن النديم (٩٩٣/٣٨٣): محمد بن إسحاق.

١٤٣ ـ «كتاب الفهرست» (القاهرة ١٢٤٨ هـ).

النوبختي (٨١٧/٢٣٢): أبو محمد الحسن بن موسى.

١٤٤ ـ «كتاب فرق الشيعة» (استانبول ١٩٣١).

النووي (١٢٧٨/٦٧٦): أبو زكريا محيي الدين بن شرف.

١٤٥ ـ «تهذيب الأسماء واللغات» جزءان (القاهرة).

نيكلسون: أ. رينولد ـ Nicholson: A. Reynold .

١٤٦ ـ «Literary History of the Arabs» (Cambribdge, 1930) .

ابن هشام (٨٣٣/٢١٨): أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري الحميري.

١٤٧ ـ «كتاب سيرة رسول الله ﷺ» ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٣٦ ـ ١٣٣٧).

١٤٨ ـ «التيجان في ملوك حمير» (حيدر أباد ١٣٤٧ هـ).

الهمداني (٩٤٦/٣٣٤): أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود.

١٤٩ ـ «صفة جزيرة العرب» جزءان: طبعة دافيد ميلر (ليدن ١٨٩١).

الواقدي (٨٢٢/٢٠٨): أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي المدني.

١٥٠ ـ «فتوح الشام» (القاهرة ١٣٠٢ هـ).

هل: يوسف ـ Hell: Joseph .

١٥١ ـ «Cultur der Arabera» trans. by Khuda Bakhsh, «Arab Civilisation» (Cambridge, 1926) .

هيكل: الدكتور محمد حسين.

١٥٢ ـ «حياة محمد» الطبعة الثالثة (القاهرة ١٣٥٨).

١٥٣ ـ «الصديق أبو بكر» (القاهرة ١٣٦١ هـ).
١٥٤ ـ «الفاروق عمر» جزءان (القاهرة ١٣٦٤ هـ).
وستنفلد: ف. فون ـ Wustenfeld: F. Von.
١٥٥ ـ Genealogiche Tabellen der Arabischen Stamme Und.
١٥٦ ـ Die Cechichtchreiber der Araber und ihre Werke, (Gottingen, 1882).
Familien (Gottingen, 1852-3).

ياقوت (٦٢٦/١٢٢٩): شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي.
١٥٧ ـ «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (١٣٢٣/١٩٠٦).
١٥٨ ـ «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» E.J.W. Gibb Memorial, Series ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١).

اليعقوبي (٢٨٢/٨٩٥): أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.
١٥٩ ـ «تاريخ اليعقوبي» جزءان، طبعة M. Th. Houtsma (ليدن ١٨٨٣ م)، طبعة النجف (العراق ١٣٥٨ هـ).
١٦٠ ـ «كتاب البلدان» طبعة دي غوية (ليدن ١٨٩٢).

أبو يوسف (١٩٢/٨٠٧ ـ ٨٠٨): يعقوب بن إبراهيم.
١٦١ ـ «كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ) و (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ).

الفهارس العامة

١ - فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٢ - فهرس القبائل والمذاهب والشعوب

حرف الألف

حرف الباء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

٣ - فهرس الأماكن والمواقع الجغرافية

حرف الألف مدة والألف همزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء



فهرس موضوعات الجزء الأول

الباب الخامس: الخلفاء الأمويون

الباب السادس: الحركات السياسية والدينية

الباب السابع: نظم الحكم

الباب الثامن: الثقافة والفن

الباب التاسع: الحالة الاجتماعية

الفهارس العامة

الدكتور حسن إبراهيم حسن

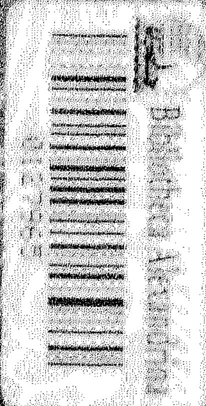
تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

العصر العباسي الأول

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس



دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

العصر العباسي الأول
في الشرق ومصر والمغرب والأندلس
(١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٧م)

تأليف
الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العالية
جامعة بغداد

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

دار الجيل
بيروت

الطبعة الرابعة عشرة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

ظهرت الطبعة الأولى من الجزء الثاني من هذا الكتاب من شهر فبراير سنة ١٩٤٥، والطبعة الثانية في شهر مايو سنة ١٩٤٨، والثالثة في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٢، والرابعة في شهر يناير سنة ١٩٥٨، والخامسة في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٩. ولما نفدت الطبعة الأخيرة من هذا الكتاب، حرصت على إعادة طبعه للمرة السابعة، فأدخلت عليه مادة جديدة في نواحي متعددة من الكتاب، ورجعت إلى مصادر عربية وإفرنجية أخرى، يجدها القارىء في الهوامش، وفي ثبت المصادر، وفي الفهارس.

وقد أصبحت أبواب هذا الجزء تسعة أبواب، بحثت في الباب الأول منها حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي وما كان لها من أثر في قيام الدولة العباسية؛ وترجمت في الباب الثاني لخلفاء العصر العباسي الأول، مبيناً أهم الأحداث التاريخية التي وقعت في عهد كل منهم. وعالجت في الباب الثالث الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها وما كان لها أثر في السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك. وبحثت في الباب الرابع العلاقات الخارجية للدولة العباسية مع بلاد المغرب، ومع بلاد الأندلس والفرنجة، ومع البيزنطيين والهند. وتكلمت في الباب الخامس على نظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية، لأبين كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية في ذلك العصر. وعرضت في الباب السادس للحالة الاقتصادية وما بلغه المسلمون من تقدم ورقي في ميدان الزراعة والتجارة. ثم ألممت في الباب السابع بحالة الثقافة، فبحثت أنواع العلوم النقلية، كعلم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو والأدب، وأنواع العلوم العقلية، وما كان لتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة من أثر في ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية. كما تكلمت على معاهد الدرس والثقافة، واهتمام المسلمين بالتاريخ والجغرافية وعلم النجوم والرياضيات والكيمياء والطب، وأفردت للفن باباً خاصاً هو الباب الثامن، فألممت فيه بتاريخ الفنون، وخاصة فن العمارة الذي يعتبر بحق مقياساً

لحضارة الأمم ونهضتها في كل عصر. ثم تناولت في الباب التاسع الحالة الاجتماعية، فبحثت في طبقات المجتمع العباسي. ومجالس الغناء والطرب، وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم، وألوان الطعام واللباس، والأعياد والمواسم والحفلات وأنواع التسلية، وما كان للمرأة من أثر في هذا المجتمع.

وقد سرت في هذا الجزء على المنهج الذي سرت عليه في الجزأين الأول والثالث من هذا الكتاب، فبحثت في هذا العصر من نواحيه المختلفة: سياسية ودينية وثقافية واجتماعية. كما يرى القارىء في الهوامش وفي ذيل الكتاب تنبيهاً على المصادر لمن أراد التوسع في مسألة من المسائل التي لم يسمح المجال بالتوسع فيها، وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين، كما ذيلته بفهرس عام يشمل أسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة.

ومن دواعي الفخر أن أنوه في هذا المقام أن هذا الكتاب الذي ظهرت الأجزاء الثلاثة الأولى منه قد ترجم إلى اللغة الأردية بحكومة الباكستان، كما طلب إليَّ الموافقة على ترجمته إلى اللغة الأندونيسية، وإلى اللغة الإنكليزية.

كما يسرني أن أقدم الطبعة الأولى من الجزء الرابع الذي طال انتظاره، بعد أن أعددته للطبع، وأرجو أن أقدمه إلى قرائي الكرام بعد قليل. والله أسأل أن يوفقني إلى إتمام الجزء الخامس تحقيقاً لفائدة طلاب الثقافة الإسلامية.

الجيزة في شهر سبتمبر سنة ١٩٦٤ **حسن إبراهيم حسن**

الباب الأول
حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي
ـ الجماعية ـ الشيعة ـ الخوارج ـ المرجئة ـ المعتزلة

(أ) الجماعية: لما انتقل الرسول إلى جوار ربه، وترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من بينهم من يلي أمورهم، اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة، وانتهى الأمر بتولية أبي بكر. ولكن كثيراً من العرب، كالعباس عم النبي وطلحة والزبير، انضموا إلى علي، وأدى ذلك إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين جماعية وشيعة.

فأما الجماعية فهم الجمهرة الكبرى من أهل الإسلام، وهم الذين رضوا خلافة الشيخين أبي بكر وعمر وعثمان من بعدهما. ولما استقر الأمر لبني أمية دخلوا في طاعتهم. ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية على الحقيقة؛ فأما من عداها فأحزاب ثائرة أو طوائف خارجة، لم تجتمع على واحدة منها كلمة المسلمين، ولا كانت لها دولة جامعة، وإن ملك بعضها ملكاً واسعاً في حقب من التاريخ.

(ب) الشيعة: وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي، وقد قرروا أنها حق لعلي بن أبي طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده. وقال الغلاة منهم إن الأئمة معصومون، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم، وإن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية ـ حتى بعض فرق الشيعة ـ خارجون على الدين ودللوا على صحة هذا الرأي بأن علياً كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال، وأن ما قام به في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبي[١] ونسب الغلاة أيضاً إلى النبي أحاديث تشهد بما لآل علي من حرمة، وبما لعلي من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام.

نشرُ ابن سبأ مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم، بمعنى أن علياً وصي محمد، وأنه خاتم الأنبياء بعد محمد خاتم النبيين، وأنهم من ناوءوا علياً وتعدوا على حقه في الإمامة كما أخذ عن الفرس ـ الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي ـ

---

(١) انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف (الطبعة الثالثة ١٩٦٤) ص ١.

نظرية الحق الإلهي، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي، وأنه يستمد الحكم من الله. وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي وصي رسول الله[١].

وإن الباحث في تاريخ الشيعة في العصر الأموي، ليرى أن موقعة كربلاء (سنة ٦١هـ) قد وحّدت صفوف الشيعة، وأثارت في نفوسهم الحماسة للأخذ بثأر الحسين بن علي. كما أذكت مأساة كربلاء روح التشيع بعد أن كان رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة. ولكن التشيع امتزج بعد مقتل الحسين بدمائهم، وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم، وانتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين رابطة المصاهرة، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأنقى دم فارسي.

وقد وجد عبد الله بن الزبير في موقعة كربلاء فرصة سانحة لتحقيق أغراضه السياسية تحت ستار الأخذ بثأر الحسين بن علي، كما تهيأت الفرصة للمختار بن أبي عبيد الثقفي الذي ادعى إمامة محمد بن الحنفية بن أبي طالب. وكان من أثر ذلك أن انضم إليه التوابون الذين ندموا على ما فرطوا في حق الحسين وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم؛ وتابوا عما فعلوا، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأره، وانضموا إلى المختار بن أبي عبيد وحاربوا عبيد الله بن زياد والي العراق الذي قتل الحسين بن علي وقتلوه. وأتاحت هذه الحروب التي دارت بين جند الأمويين وبين جيوش المختار، الفرصة لعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب للقضاء على المختار والاستيلاء على بلاد العراق والحجاز ومصر.

ومع أن الأمويين قد تغلبوا على ابن الزبير، فقد فت في عضدهم مقتل الحسين في موقعة كربلاء وجعلهم يعضون بنان الندم.

(جـ) الخوارج: من الأحزاب التي خرجت على الأمويين، حزب الخوارج الذين كانوا بالأمس من أشياع علي بن أبي طالب ثم خرجوا عليه بعد التحكيم. وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيه الأولى، وعليّ إلى أن حكم الحكمين. ويمثل هؤلاء الخوارج أو «الديمقراطيون»، كما يسميهم فان فلوتن[٢]: المبادىء الديمقراطية المتطرفة، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر. على أن منهم من أدخل على نظريتهم بعض التعديل، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب، حيث جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على سواء، وخالفوا بذلك نظرية الشيعة التي تقول بحصر الخلافة في آل بيت النبي.

(١) المصدر نفسه ص ٧ ـ ١٢.

(٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية. ترجمة المؤلف ص ٦٩.

وكان لسخط المسلمين على سوء تصرف بعض الخلفاء الأمويين أثر كبير في إثارة الشيعة والخوارج والموالي من الفرس، وأتيحت الفرصة للخوارج لنصب أنفسهم لحماية هؤلاء من نير الأمويين. وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم غلوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم، حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان. فلا عجب إذا اشتطوا في حربهم، وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة، وشغلوا كما رأينا الحزب الأموي وغيره مدة طويلة، حتى كلفوا الأمة الإسلامية ثمناً غالياً من الأموال والأرواح. وقد تفانوا في آرائهم الدينية تفانيهم في حروبهم، حتى قيل إن أربعين رجلاً من الخوارج استطاعوا أن يهزموا جيش عبيد الله بن زياد، وكانت عدته ألفي رجل.

وفي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (١٢٧ ـ ١٣٢هـ) تفاقم خطر الخوارج الذين انتهزوا فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه، وثاروا بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني وهددوا العراق. ولكن قتل الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج في بلاد العراق، فقد ظهر فيهم زعيم جديد، هو أبو حمزة الخارجي، الذي ثار في الحجاز وحضرموت، ولكن مروان بن محمد هزمه وقتله. وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج في عهد بني أمية.

(د) المرجئة: ونستطرد الآن إلى الكلام على طائفة من الطوائف الإسلامية لا يقل أثرها خطراً في اتجاه السياسة الإسلامية عن الشيعة أو الملكيين والخوارج أو الجمهوريين، وهو حزب المرجئة الذي ظهر في دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

تخالف المرجئة الخوارج في تكفيرهم الخلفاء الثلاثة: عثمان وعليا ومعاوية وأنصارهم، ذاهبين إلى القول بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر، وأن ذلك موكول إلى الله وحده يوم القيامة، مهما كانت الذنوب التي اقترفها والمبادىء السياسية التي يدين بها. فهم يرجئون الحكم على إخوانهم في الدين إلى الله وحده الذي ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾[1].

وكانت مسألة المسائل في ذلك الحين هي موقف حديثي العهد بالإسلام. وقد قامت المرجئة بدورها في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين، حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف، وحلت تلك المشكلة الاجتماعية الجديدة محل الخلاف على الإمامة. وقد ذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا

---

(١) سورة غافر ٤٠: ١٩.

لا يزالون على كفرهم، بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وعلى هذا كانوا لا يتحرجون عن قتال أية حكومة تقر مثل تلك المظالم. ومن ثم لا ندهش بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والعسف في بلاد ما وراء النهر، أن نرى هؤلاء يحرمون سفك الدماء البريئة، ويجهرون بأن جميع المسلمين إخوة في الدين. وصفوة القول ان كل ما كان ينشده هؤلاء، إنما هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الإسلام[1].

وكان ذلك بلا ريب شعور الجمهور الأعظم من أتباع الحارث بن سُرَيج، الذي قام على رأس المرجئة بثورة على الأمويين في بلاد ما وراء النهر. وطالما حارب الحكومة الأموية لاشتطاطها في جمع الضرائب من الأهلين، وكان يزعم أنه المهدي الذي بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين. لذلك أشعل نار الثورة على بني أمية. وكل ما كان يرمي إليه الحارث، الرجوع إلى القرآن والسنة، وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية. وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطىء نهر سيحون. ثم اضطر أمام ضغط جيوش أسد بن عبدالله القسري الذي ولي خراسان، إلى التخلي عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر (١١٨هـ). ثم عفا عنه الخليفة الوليد الثاني بتدخل نصر بن سيار والي خراسان، ولكن الحارث عاد إلى التمرد، فانضم إلى اليمانية، فطرد نصر بن سيار من مرو حاضرة خراسان، ثم دب بينه وبين اليمانية ذلك الشقاق الذي لم ينته إلا بموته في سنة ١٢٨هـ. ولم تكن ثورة الحارث إلا نتيجة لتذمر الموالي وعلى رأسهم المرجئة.

(هـ) المعتزلة: أما القدرية أو المعتزلة فإنها لا تقل أثراً عن تلك الطوائف الثلاث في اتجاه السياسة الإسلامية. ويظهر أن نشأة المعتزلة كانت في بلاد العراق التي كانت مهداً للحضارتين الفارسية والسامية، والتي أصبحت كعبة العلم ومقر الحكومة في عهد العباسيين. وقد سموا القدرية أيضاً لأنهم يقولون بحرية إرادة الإنسان. وتتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول: التوحيد، والعدل، والوعيد، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة. إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة، فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام. وقد تأثرت المعتزلة بالشيعة في قولهم بحرية الإرادة، تلك العقيدة التي وضع أساسها الأئمة من بيت علي، كما يطلق المعتزلة على فقهائهم لقب الأئمة الذي كانت تطلقه الشيعة على فقهائهم.

---

(١) راجع كتاب: السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٦٤ ـ ٦٥.

ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم: إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد، وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً بالمعتزلة في ذلك من الإمامية، إذ تتفق مع المعتزلة فضلاً عن ذلك في كثير من النقط والتفاصيل. كما تتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس، وفي القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين، كما يفهم ذلك من قول الخوارج «لا حكم إلا لله». ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخروج على بني أمية وإثارة الفتن والاضطرابات، ولا سيما في إفريقية وبلاد المغرب، تلك المبادىء التي كانت تتفق في كثير من المسائل ـ وبخاصة فيما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية ـ مع ميول الخوارج[1].

من ذلك نرى أن هذه الأحزاب كان لها أثر كبير في زوال الدولة الأموية، وأنهم كانوا يعتقدون أن جهاد الأمويين جهاد ديني. وكانوا يستندون في ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني من الخلفاء الأمويين، ولا سيما ما كان من هتك حرمة المدينة المنورة في عهد يزيد واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس.

٢ ـ حزب بني أمية وانقسامه على نفسه

أولاً: بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموي: كانت الإمامة (وهي القيادة العليا للمسلمين) أولى المسائل التي فرقت المسلمين ومزقتهم شيعاً وأحزاباً. أما بنو أمية (ومقرهم بلاد الشام) فهم أهل الدولة الإسلامية لذلك الحين، لاجتماع أكثر المسلمين عليهم، وخاصة بعد نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية وكانوا يزعمون أنهم أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبي بكر وعمر وعثمان)، وأنهم أصحاب الحق في الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه لما كان يربطهم من أواصر القرابة. وكان يناوىء حكومة الأمويين:

١ ـ أهل المدينة، وهم أنصار النبي، الذين كانوا لارتباطهم باليمانيين من العرب في نسبهم، يكرهون بني أمية ويعتبرونهم مغتصبين للحكم، وخاصة بعد موقعة الحرة التي وقعت في أيام يزيد بن معاوية.

٢ ـ حزب الشيعة، وهم أنصار أهل البيت المتحمسون للدفاع عن حقوقهم في الخلافة ولا سيما حق علي.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩١.

٣ ـ حزب الخوارج، وهم الجمهوريون الذين يقولون باختيار الخلفاء من بين الأكفاء أنى كانت الطبقة التي ينتمون إليها، كما كانوا يرون أيضاً عزل الخليفة منذ اللحظة التي يفقد فيها ثقة الأغلبية.

وقد أثارت السياسة التي جرى عليها الأمويون في تولية العهد اثنين يلي أحدهما الآخر عوامل المنافسة، وبذرت بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموي، حتى قيل إن الخلافة في عهد بني أمية استحالت إلى ملك استبدادي يعتمد على نظام التوريث. وبذلك خرج الأمويون في حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذي ساد في حكم الخلفاء الراشدين.

وكان لهذه السياسة أثرها في ضعف الأمويين، فإنه لم يكد يتم الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى. حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العهد وإحلال أحد أولاده مكانه. ومما زاد هذه الحالة سوءاً، أن هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموي، بل تعداهم إلى القواد والعمال، حتى إذا ولي الثاني الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذي قبله وأقصاهم عن مناصب الدولة.

وكان معاوية أول من سن سنة التوريث من الخلفاء الأمويين، كما كان مروان بن الحكم أول من عمل على أخذ البيعة لاثنين من أولاده. واتبع عبد الملك بن مروان سنة أبيه، فعمل على خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد، وتولية ابنيه الوليد وسليمان، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون تحقيق هذه السياسة. وسار الوليد سيرة أبيه في هذه السياسة التي أثارت الحقد والمنافسة بين أفراد هذا البيت، فقد عمل على خلع أخيه سليمان والبيعة بولاية العهد لابنه عبد العزيز. فلما ولي سليمان الخلافة انتقم ممن ساعدوا الوليد على خلعه، فانتقم من محمد بن القاسم الذي يرجع إليه الفضل في فتح بلاد السند. وكذلك فعل مع قتيبة بن مسلم الذي فتح بلاد ما وراء النهر. ومات الحجاج بن يوسف قبل أن يلي الخلافة فانتقم من آل الحجاج شر انتقام.

ثانياً: بالعصبية في الأمصار والجيش: عمل الرسول على إزالة العصبية والشعور القبلي، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها، وسهل ذلك على القبائل العربية المختلفة أن تنضوي تحت لوائه وتدين له بالزعامة. فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه تسابقت القبائل والبطون العربية على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها. وبذلك تجلت النفس العربية والطبيعة القبلية، مما أدى إلى ارتداد أكثر القبائل العربية وتمردها على حكومة قريش حتى تزعزع مركز الإسلام، لولا ما أوتيه أبو بكر الصديق من صدق العزيمة، وما عرف عنه من حزم وغيرة على الدين، فكانت الغلبة للجيوش الإسلامية، وعلت كلمة الإسلام من جديد.

وإن روح العصبية التي حاول الإسلام أن يقضي عليها قد بعثت بين القبائل العربية على

أثر وفاة يزيد بن معاوية. غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر في انحلال دولة الأمويين، الذين ظلوا حافظين لكيانهم كفريق سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز. التي تعتبر فترة انتقال بين حالة القوة والتماسك وحالة الضعف والتفكك الذي اعترى بني أمية. فقد كان عمر صالحاً عادلاً، قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضاء جميع العناصر الثورية، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يول والياً إلا لكفايته وعدالته سواء أكان من كلب أو قيس، فسكنت في عهده العواصف التي كانت تنتاب الدولة وتكاد تذهب بريحها.

ولما مات معاوية بن أبي سفيان تفككت الوحدة العربية في بلاد الشام، فمال الكلبيون إلى بني أمية، وانضم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس إلى عبد الله بن الزبير الذي عمل على سلب الخلافة من الأمويين. وتعتبر موقعة مرج راهط (سنة ٦٥ هـ) صراعاً بين عرب الشمال المضريين وبين عرب الجنوب اليمنيين. وكان لهذه الموقعة أثرها في إذكاء نار العصبية بين المضرية واليمنية في سائر البلاد العربية، وخاصة في خراسان.

ولما توفي عمر بن عبد العزيز وولي الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ)، اشتعلت نيران العصبية من جديد بين عرب الشام وعرب الجنوب، أو بين مضر واليمن. ولم يتورع هذا الخليفة عن خوض غمار هذه الفتنة بانحيازه إلى المضريين على اليمنيين، ذلك الصراع الذي انتهى بقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقتل أهل بيته اليمنيين الذين كانوا غرة في جبين الدولة الأموية كما كان البرامكة فيما بعد غرة في جبين الدولة العباسية. وقد أشعل قتل آل المهلب نار العصبية في قلوب ذلك العنصر وأثار حقده على البيت الأموي، وصار العنصر اليمني منذ ذلك الحين خطراً يهدد كيان بني أمية.

كذلك أثار مقتل خالد بن عبد الله القسري والي العراق في عهد هشام بن عبد الملك كراهة اليمنيين، حتى لقد عد المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة الأموية. ذلك أن اليمنيين الذين لم ينسوا قتل آل المهلب، والذين فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري، انضووا تحت لواء ابنه يزيد بن خالد القسري وأشعلوا نار الثورة في دمشق. وتبعهم اليمنيون في فلسطين، فثاروا في وجه الحكم الأموي، ثم انضموا إلى سليمان بن هشام بن عبد االملك ونادوا بخلع مروان بن محمد.

هذه هي حال العصبية في الشام. وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمني، وربما كان ذلك هو السبب في أن مروان لم يتخذها مقراً لملكه وانتقل إلى الجزيرة، لأن أكثر من فيها كانوا من القيسية عماد دولته.

وهكذا أضعفت العصبية في الأمصار والجيش بني أمية وآذنت بزوال سلطانهم، ولا غرو فقد كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل.

٣ ـ حزب بني هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بني أمية:

(١) انتقال حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين:

أثار قتل الحسين ـ كما تقدم ـ حماسة المسلمين، فتوحدت صفوف الشيعة، وزادت الدعوة لآل علي قوة، واشتد العداء بين الأمويين والعلويين الذين أثاروا الفتن والثورات في الولايات الإسلامية. ثم حدثت هذه الحادثة الهامة في تاريخ الشيعة، وهي انتقال حق الإمامة من بيت علي إلى بيت العباس على يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية، وهو ما يمكن أن يطلق عليه «ميراث الكيسانية».

ذلك أنه في سنة ٩٨ للهجرة استدعى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أبا هاشم وأكرم وفادته، وأظهر التودد له، ولكنه دبر أمر قتله خشية أن يدعو إلى نفسه، فدس له من سمه وهو في طريقه إلى الحميمة، وهي قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام والحجاز، حيث كان يقيم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وقد قيل إن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله، قصد محمداً هذا، وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية، ونزل له عن حقه في الإمامة، وأمده بأسماء داعي دعاته في الكوفة، ومن يليه من الدعاة، كما سلمه رسائل يقدمها إليهم(١).

بذلك تحول حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين. وهنا يحسن بنا أن نسأل: لماذا عدل أبو هاشم عن أهل بيته من العلويين وحول حقه إلى بني عمه من العباسيين؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال نرجع قليلاً إلى الوراء فنقول: إنه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يرشح المسلمون للخلافة أحداً من بني هاشم إلا علي بن أبي طالب وأولاده، ولم تتجه الأنظار إلى العباس عم النبي بعد وفاته لأنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام. ومن ثم لم يرشح للخلافة هو ولا أولاده من بعده. وقد قيل إن أبا سفيان جاء العباس بعد بيعة أبي بكر فقال له: أبسط يدك أبايعك، فأبى العباس.

وكانت العلاقة بين بني هاشم، علويين وعباسيين، تقوم على الود والصفاء. وكان البيتان متحدين على العدو المشترك وهو بنو أمية، إلى أن انتقل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين بنزول أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.

---

(١) أنظر تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٢٠ ـ ٢١.

ويظهر أن العباسيين كانوا في أواخر القرن الأول الهجري، أكثر كفاية ونشاطاً في الناحية السياسية من العلويين، وأكثر تطلعاً منهم إلى النفوذ والسلطان. وقد قيل إن أبا هاشم إنما فعل ذلك لأنه لم يجد بين أفراد البيت العلوي من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين أضف إلى ذلك اختلاف اعتقاد الشيعة الكيسانية أنصار أبي هاشم عن اعتقاد الشيعة الإمامية أنصار أولاد فاطمة. على أن هناك مسألة جديرة بالملاحظة وهي أن نزول أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لا يمكن أن يعتبر نزولاً من العلويين جميعاً، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكاً بعقائد الشيعة الإمامية، بدليل قيامهم في وجه العباسيين بعد قيام دولتهم.

وقد صور المسعودي[١] الأسباب التي ساعدت على زوال ملك بني أمية في هذه العبارة فقال: «سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها[٢] عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا؛ وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا؛ وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا».

(ب) تنظيم الدعوة العباسية:

رأى الإمام محمد بن علي العباسي أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير، وأن كل محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق، فرأى بعد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيطة؛ فطلب من شيعته أن يدعو الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بني أمية. ووجد أن كلا من الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة، لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل، ولأن أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة، ويعتقدون في نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان. هذا إلى ما كان يقاسيه الفرس تحت نير الأمويين، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم. وقد وصف الإمام محمد بن علي العباسي الأهواء والميول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات الإسلامية في هذه العبارة.

«أما الكوفة وسواها فشيعة علي، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف، وأما الجزيرة

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤.

(٢) أي العارفين بتاريخ هذه الدولة وأخبارها.

فحرورية[١] وأعراب كأعلاج[٢]، ومسلمون في أخلاق النصارى؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبوبكر وعمر. «ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل، وهامات وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة. وبعد فإني أتطلع إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»[٣].

نهض محمد بن علي العباسي بالدعوة نهضة قوية، وعين النقباء والدعاة وأوصاهم ببث الدعوة سراً، كما أوصاهم أن يتظاهروا بنشرها لآل البيت عامة تسكيناً للعلويين.

وقد بدأت هذه الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الحميمة التي اتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم، وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز. ووجه محمد بن علي العباسي الدعاة إلى الولايات الإسلامية، فوجه ميسرة إلى العراق، كما وجه ثلاثة من الدعاة احدهم أبو عكرمة السراج، وعهد إليهم في نشر الدعوة في خراسان. وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة العباسية في الخفاء، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة. واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية من بينهم إثنا عشر نقيباً. وشمر الكل عن ساعد الجد في بث الدعوة لبني العباس، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد، وكتب إليهم محمد بن علي دستوراً يسيرون عليه في نشر الدعوة، على أن تكون «للرضا من آل محمد»، ذلك اللفظ الذي يشمل أبناء علي وأبناء العباس؛ إذ أن تعيين شخص المدعو إليه يثير الأمويين كما يثير العلويين على الدعوة العباسية[٤].

ويمكن تقسيم الدعوة العباسية قسمين:

الأول: ويبدأ في مستهل القرن الأول للهجرة؛ وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني. وكانت الدعوة في هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج كما تقدم.

---

(١) هذا اللفظ مشتق من حروراء وهي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين، نزل بها الخوراج الذين اعتزلوا علي بن أبي طالب، فنسبوا إليها وسموا حرورية.

(٢) العلج حمار الوحش

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ج ٣ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٤) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 250.

ويبدأ الدور الثاني بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة العباسية. وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في دور العمل، وهو دور الحروب التي انتهت بزوال الدولة الأموية.

٤ ـ قيام الدولة العباسية

(١) ميل الموالي إلى بني هاشم:

تاقت نفوس الموالي من الفرس إلى التخلص من حكم الأمويين، لما ارتكبوه من وسائل العنف في قمع ثورات العلويين، ومالوا إلى نصرة بني هاشم، ولا سيما بعد مقتل زيد بن علي وابنه يحيى: فإن هؤلاء الموالي ـ إذا استثنينا طبقة الدهاقين، وهم ملاك الأراضي من الفرس الذين أسند الأمويون إليهم المناصب الإدارية الهامة، واستأثروا بجباية الخراج فتمتعوا بنفوذ كبير، والذين أطلق عليهم العرب اسم العلوج ـ اعتقدوا أن اعتناقهم الإسلام لم يسو بينهم وبين العرب. ولا غرو فإن المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الإسلام ببعض القبائل العربية ليكونوا موالي لتلك القبائل. ونظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالي نظرة الاحتقار، لامتهانهم طبقات العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالي.

وهذا يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين وميلهم إليهم. وقد أوضح لنا براون(١) السبب الذي استمالهم إلى ذلك، معتمداً على ما ذكره جوبينو في هذا الصدد حيث يقول: «إنني أعتقد أن جوبينو قد أصاب فيما قاله، إن نظرية الحق الإلهي وحصرها في البيت الساساني كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في العصور التي تلتها. وقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس إلا بمظهر ثوري غير مطابق لطبائع الأشياء. أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهية التي أضمرها هؤلاء الفرس لعمر، ثاني الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية. وإن هذه النزعة، وإن تسترت بستار الدين، فلن يفوت الباحث تفهم سرها ومراميها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الحسين، وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبي وعلي ابن عمه. قد قالوا إنه تزوج من شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان. ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثني عشرية الشائعة الآن في بلاد فارس، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية لا يمثلون حق النبوة فقط بل يمثلون الملك أيضاً، لأنهم من سلالة النبي محمد وآل ساسان معاً).

---

(١) Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 130.

ومن ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التي يشير إليها جوبينو في العبارة الآتية حيث يقول: «كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس، وهي أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج، وذلك بصفتهم المزدوجة، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم بيبي شهر بانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً».

وذلك يعلل كثرة الثورات والفتن التي أثارها هؤلاء الموالي من الفرس الذين ساعدوا آل البيت ضد الأمويين. ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي تلك الثورة التي أشعل نيرانها الحارث بن سُريج الذي انضوى تحت لوائه الموالي في خراسان وبلاد ما وراء النهر. ولم تخمد حركة الموالي بموت الحارث سنة ١٢٨ هـ فلم يكد يمضي على وفاته سنة واحدة حتى اشعل أبو مسلم على بني أمية تلك الثورة التي قلبت عرشهم وانتهت بزوال دولتهم.

(ب) زوال الدولة الأموية:

في أثناء وقوع هذه الحوادث مات الإمام محمد بن علي العباسي سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢)، وكانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطاً بعيداً. وقد أوصى محمد بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم. وفي عهده دخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في طور جديد هو طور العمل، وهو ما يمكن أن نطلق عليه العصر الثاني للدعوة العباسية، ويبتدىء من سنة ١٢٧ هـ.

اتصل بإبراهيم الإمام شاب اتصف بالشجاعة والإقدام، واضطلع بأعباء الدعوة العباسية في خراسان، وقضى على سلطان الأمويين فيها. وإليه يرجع الفضل في قيام الدولة العباسية. ذلك الشاب هو أبو مسلم الخراساني. ولا بأس أن نذكر طرفا من سيرته قبل أن ينضم إلى الدعوة العباسية.

اختلف المؤرخون في نسب أبي مسلم. فقيل إنه كان حراً يسمى إبراهيم بن عثمان، ويكنى أبا إسحاق، وإنه ينتسب إلى بزرجمهر. وقد ولد بأصبهان ثم رحل إلى الكوفة وهو في السابعة من عمره. ولما اتصل بابراهيم الإمام أمره بتغيير اسمه وقال له: «لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته في الكتب». فسماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم، وزوجه امرأة من طيىء، كانت تقيم مع أبيها بخراسان.

وقيل في سبب اتصال أبي مسلم بإبراهيم الإمام أن سليمان بن كثير أحد النقباء وغيره من النقباء تركوا خراسان في سنة ١٢٤هـ متظاهرين بالحج إلى مكة. فلما دخلوا الكوفة أتوا إلى عاصم ين يونس العجلي، وكان قد اتهم بالدعوة للعباسيين، فحبسوه هو وعيسى وإدريس ابني معقل العجلي، وكان يوسف بن عمر والي العراق قد حبسهم مع من حبس من عمال خالد

القسري. وكان أبو مسلم يقوم بخدمة ابني العجلي. ولما رأى سليمان بن كثير ومن معه أبا مسلم، توسموا فيه مخايل الذكاء، ودعوه إلى الانضمام إلى الدعوة العباسية.

وقد قيل إن أبا مسلم لما قوي أمره ادعى أنه ولد سليط بن عبد الله بن العباس. وكانت لسليط هذا جارية ادعى ابنها أنه من ولد عبد الله بن العباس. ولما مات سليط نازع ورثته في ميراثه، فسر بنو أمية، ليتخذوا من ذلك سبباً للحط من شأن علي بن عبد الله بن العباس، فأعانوه، وقضى له القاضي في دمشق بالميراث ولما قويت شوكة أبي مسلم ادعى أنه من ولد سليط.

وقيل إن أبا مسلم كان من الرقيق، وإن اتصاله ببني العباس يرجع إلى بُكير بن ماهان داعي العباسيين الذي قدم الكوفة حيث حبس. فدعا أبا مسلم إلى الانضمام للدعوة واشتراه من ابني معقل العجلي بأربعمائة درهم، ولما خرجوا من السجن بعث بكير بن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم الإمام، فأنفذه إلى أبي موسى السراج.

في سنة ١٢٨هـ تسلم أبو مسلم الخراساني مقاليد الأمور في خراسان. وكان من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصبية بين المضرية واليمانية في خراسان وضعف قوة أمير هذه البلاد، وخروج الخوارج في اليمن وحضرموت.

وقد ظل أبو مسلم في خراسان إلى أن كتب إبراهيم الإمام إلى أبي سلمة الخلال داعية العباسيين في الكوفة، يعلمه أنه أرسل أبا مسلم إلى خراسان، وأنه أمر أهلها بالسمع والطاعة له، وكتب الإمام إلى أبي مسلم كتاباً يقول فيه: «إنك رجل منا أهل البيت، احفظ وصيتي: أنظر إلى هذا الحي من اليمن، فالزمهم ولكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه، وإن استطعت ألا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل. وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير)، ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني».

وقد ساعدت الاضطرابات التي انتشرت في خراسان في ذلك الحين أبا مسلم الخراساني على تحقيق سياسته.

وفي عهد هشام بن عبد الملك اشتعلت نيران العصبية بين القبائل العربية في خراسان في عهد ولاية أسد بن عبدالله القسري، وكان يمانياً ضلعه مع اليمانيين، الذين آثرهم على غيرهم من العرب وأسند إليهم مناصب الدولة. ثم ولي هذه البلاد نصر بن سيار، وكان مضرياً،

فأقصى اليمانيين، وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين. وكانت الحرب بين نصر بن سيار والي خراسان، وجديع بن شبيب المعروف بالكرماني زعيم اليمانية الذين تمت الغلبة لهم، وطردوا والي خراسان، وناوئوا الحكومة الأموية، وناصروا الدعوة العباسية بعد انضمام أبي مسلم إليها. واستطاع أبو مسلم بحسن دهائه أن يضرب كل فريق بالآخر، وتم له النصر على العرب جميعاً.

وعرف أبو مسلم، بما أوتيه من الحذق والمهارة الحربية، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذي فرق كلمة العرب في خراسان. كما استطاع أن يرابط بجنده سبعة أشهر في ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه وبذلك تمكن من الاستيلاء على تلك البلاد دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة. ولم يكد يتم له النفوذ هناك، حتى عمد إلى التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة؛ فقتلهم عن آخرهم.

وقد أدرك نصر بن سيار والي خراسان مدى خطر دعاة العباسيين في هذه البلاد، فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يكشف له فيه عن قوة أبي مسلم وضعف الجند الأموي في خراسان، وختم كتابه بهذه الأبيات:

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأحْرص أن يكونَ له ضِرامُ
فإن النار بالعودَيْن تذْكى ... وإن الحرب أولُها الكلام
فقلت من التعجب: ليت شعري ... أأيقاظٌ أمية أم نيام؟

فعندئذ عمت الثورة التي انتهت بزوال الدولة الأموية. وإلى القارىء ما ذكره أبو حنيفة الدينوري[١]، لعله ايبيِّن حال الأمة العربية في ذلك الحين. قال: «وانجفل الناس على أبي مسلم: من هراة وجوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس وسرخس وبلخ والصغانيان وطخارستان وختلان وكش ونسف، فتوافوا جميعاً مسودي الثياب[٢]. وقد سودوا أنصاف الخشب التي كانت معهم، وسموها «كافر كوبات» وأقبلوا فرساناً وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها «هر مروان»، يسمونها لمروان بن محمد، وكانوا زهاء مائة ألف رجل».

ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم، حتى وقع في يد مروان بن محمد

---

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠.

(٢) راجع ما ذكره فان فلوتن (السيادة العربية ص ١٢٤ ـ ١٢٦) عن اتخاذ الخلفاء العباسيين السواد شعاراً لهم.

آخر خلفاء بني أمية، كتاب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان، فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم وسجنه في حران وقتله، فتولى الدعوة العباسية أبو سلمة الخلال. ولما علم إبراهيم الإمام أنه لا نجاة له، ولى عهده أخاه أبا العباس عبدالله بن محمد، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة. ولما قتل إبراهيم الإمام سار رسوله إلى الحميمة، وسلم وصيته إلى أبي العباس، فتوجه هذا إلى الكوفة، ومعه كبار بني هاشم من ولد العباس، وفيهم أخوه أبو جعفر المنصور، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد، وعمه عبدالله بن علي.

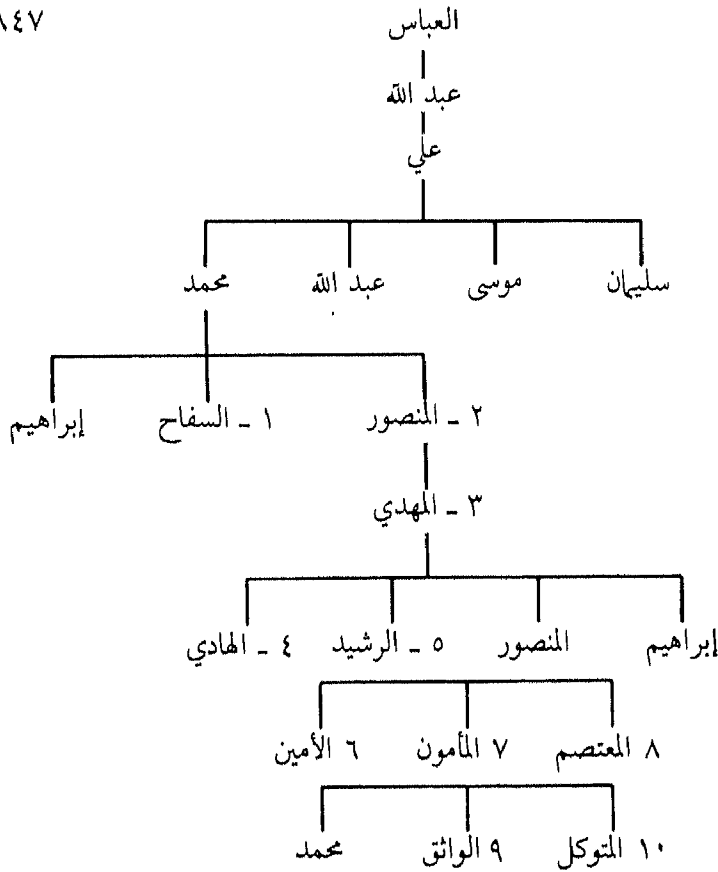
بعد ذلك حلت الهزيمة بيزيد بن عمر بن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة، وأرغم على السير إلى واسط؛ فجاء أبو سلمة، ونزل بجنده بمدينة الكوفة في أوائل سنة ١٣٢هـ من غير أن يلقى مقاومة تذكر.

وفي أواخر هذه السنة خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق، بعد أن دالت فيها دولة الأمويين، ولما آلت الخلافة إلى أبي العباس عهد إلى عمه عبد الله بن علي بقتال مروان بن محمد، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق، وقتل وأغرق كثيراً من أصحابه، من بينهم نحو ثلثمائة من بني أمية، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع أخو يزيد الناقص (١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ). ثم مضى مروان إلى الموصل حيث هزم وفر إلى حران واتخذها داراً لإقامته، ثم عبر الفرات، فنزل عبد الله بن علي بابها، واستولى على خزائن مروان، وكان قد رحل إلى فلسطين والأردن، فأحل به عبد الله الهزيمة ثم سار إلى دمشق فحاصرها، وهزم الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألفاً، وقتل عدداً كبيراً من بني أمية وأنصارهم.

بعد ذلك لحق مروان بن محمد بمصر، ونزل عبد الله بن عليّ على نهر أبي فطرس بفلسطين (١٥ ذو القعدة سنة ١٣٢هـ). ثم رحل مروان إلى الفسطاط، فكتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن علي ليولي صالح بن علي العباسي قتال مروان، فسار حتى لحق به في قرية بوصير من أعمال الفيوم، وهجم جند العباسيين على عسكره. وضربوا الطبول وكبروا ونادوا. يا لثارات إبراهيم! يعنون إبراهيم الإمام الذي سمه الأميون في حران. وقتل مروان ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ وأخذ رأسه وأرسل إلى السفاح في الكوفة، وانتهت بذلك الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح.

خلفاء العصر العباسي الأول

هجرية		ميلادية
١٣٢	السفاح	٧٥٠
١٣٦	المنصور	٧٥٤
١٥٨	المهدي	٧٧٥
١٥٩	الهادي	٧٨٥
١٧٠	الرشيد	٧٨٦
١٩٣	الأمين	٨٠٩
١٩٨	المأمون	٨١٣
٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٢٢٧	الواثق	٨٤٢
٢٣٢	المتوكل	٨٤٧



الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

نتكلم في هذا الباب على خلفاء العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ) فنقصر كلامنا على ترجمة كل من هؤلاء الخلفاء وعلى أهم الأحداث التي وقعت في عهده.

حكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون، من سنة ١٣٢هـ، وهي السنة التي ولي فيها أبو العباس السفاح الخلافة، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨ م). وفي ذلك يقول صاحب الفخري[١]: «واعلم ـ علمت الخير ـ أن هذه الدولة من كبار الدول، ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك؛ فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة، ثم مكثت فيها الخلافة والملك حدود ستمائة سنة».

وقال في موضع آخر[٢]: «إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم، أسواق العلوم فيها قائمة، وبضائع الآداب فيها نافقة، وشعائر الدين فيها معظمة، والخيرات فيها دارّة، والدنيا عامرة، والحرمات مرعية، والثغور محصنة وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها، فانتشر الجبر، واضطرب الأمر وانتقلت الدولة».

أبو العباس السفاح

(١٣٢ ـ ١٣٦/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤)

كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم. وكان أبوه محمد أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي حتى مات سنة ١٢٥هـ. وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم: وفي عهد إبراهيم دخل النزاع بين بني أمية وبني العباس في طور جديد هو دور العمل (١٢٧هـ) كما تقدم.

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٢٥. (٢) المصدر نفسه ص ١٣٤.

ولما قبض على إبراهيم الإمام وحبس في حران ثم قتل، انتقلت أسرته إلى الكوفة (صفر سنة ١٣٢هـ) واستتروا بضعة أسابيع، حتى أخرجهم أتباعهم، وسلموا على أبي العباس بالخلافة، لأن أمه كانت عربية، وعدلوا عن أخيه أبي جعفر مع أنه كان أكبر منه لأن أمه كانت أم ولد، وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وفي يوم الجمعة أقام السفاح الخطبة فخطب على المنبر قائماً، وكان بنو أمية يخطبون قعوداً فحياه الناس وقالوا: أحييت السنة يـابن عم رسول الله ﷺ. وقد نوه أبو العباس في خطبته بفضل آل محمد، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد أهل البيت، وأنحى باللائمة على جند الشام، وأطنب في مدح أهل الكوفة، وزاد في أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس، وأفاض في مدح أهل خراسان الذين ساعدوه على إقامة دولته، وختم خطبته بقوله: «أنا السفاح[1] المبيح، والثائر المبير»، مما يشعر في بادىء الرأي أنه عول على سفك دماء كل من يقف في سبيله[2].

ثم نزل أبو العباس، وداود بن علي أمامه حتى دخل القصر وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد. فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل.

ولما تمت البيعة لأبي العباس السفاح، تحول إلى الأنبار، غربي نهر الفرات، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ: وقد أسسها سابق بن هرمز أحد ملوك الفرس، فجاء السفاح فجددها وأقام بها القصور. ثم بنى المنصور في جوارها قصراً فخماً اتخذه دار ملكه، فسميت هذه المدينة «الهاشمية» نسبة إلى هاشم جد هذه الأسرة.

---

(١) ناقش الأستاذ نيكلسون (p. 253, note 1.) لفظ السفاح فقال: «لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح. ومع كل فإنه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية. ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة يوم الكلاب الأولى سمي السفاح، لأنه أفرغ مزاد جيشه قبل الموقعة. والذي أميل إليه أنه سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطاب له: «فأنا السفاح المبيح والثائر المبير».

ونحن نميل إلى الأخذ بأن لفظ السفاح إنما أطلق وشاع عن أبي العباس بعد هذه الخطبة، لما قام به من سفك دماء الأمويين وغيرهم من الخارجين على الدولة. ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المناح، أنه يتوعد أهل الكوفة لما أظهروه في ماضي أيامهم من تغير في الأهواء والميول وأن يتوعد غيرهم من أعدائه، ولا سيما الأمويين الذين صمم على التنكيل بهم لما اقترفوه من الآثام والذنوب، وتبشيره من يقوم بنصرته بإدرار العطايا والأموال لهم. وقد ذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ١٨٠) أن النبي ﷺ قال: يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهوره من الفتن يقال له السفاح، فيكون إعطاؤه المال حثياً.

(٢) انظر الملحق الأول.

وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني أمية، وقضى على أعقاب الأمويين، حتى إنه لم يفلت منهم إلا عبد الرحمن الداخل، الذي أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس. وكذلك وجه السفاح همته إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته؛ فقتل أبا سلمة الخلال، وهم بقتل أبي مسلم لولا أن عاجلته منيته، كما قتل ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد الأموي بعد أن أعطاه الأمان.

أخلاق السفاح وصفاته:

يقول المسعودي(١) عن أبي العباس السفاح: «إنه كان جميلاً وسيماً»؛ ويقول صاحب الفخري (ص ١٣٤): «إنه كان كريماً حليماً وقوراً، عاقلاً كاملاً، كبير الحياء، حسن الأخلاق». ويقول السيوطي(٢): «وكان السفاح أسخى الناس، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها. وقال عبدالله بن الحسن العلوي مرة: سمعت بألف ألف درهم وما رأيتها قط. فأمر بها فأحضرت، وأمر بحملها معه إلى منزله. وكان نقش خاتمه: «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن» ويؤثر عنه قوله: إن من أدنياء الناس ووضائعهم من عد البخل حزماً والحلم ذلاً، وقوله: إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة والصبر حسناً، إلا على ما أوقع الدين وأوهن السلطان، والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة.

ويقول الطبري(٣): كان السفاح مجعد الشعر، طويلاً أبيض، أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية.

وقال المسعودي(٤): «ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح. وكان كثيراً ما يقول: إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً، ويختار أن يزداد جهلاً، فقال له أبو بكر الهذلي: ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟

قال: يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية، فلا يزال يسمع سخفاً ويروي نقصاً، فقال له الهذلي: لذلك فضلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتم النبيين.

وكان السفاح يشجع الأدب والغناء، ويجزل العطاء على الشعراء والمغنين فقد دخل عليه أبو بجيلة الشاعر، فسلم عليه وقال: عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك، أفتأذن لي في إنشادك؟ فقال له السفاح: لعنك الله! ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان:

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٥.
(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٧١.
(٣) جـ ٩ ص ١٥٤.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٧.

أمسلم إني يابن كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض؟

فقال الشاعر: أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول:

فكما قد قلتُ في سواكا زورٌ وقد كفّرَ هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياك فكنتَ أنت للرجاء ذاكا

فرضي السفاح عنه وأجزل له العطاء.

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين: أحسنت والله فأعد هذا الصوت. وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة، ويقول: لا يكون سرورنا معجلاً ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً، على أنه سرعان ما احتجب عن ندمائه.

وكان السفاح إذا أحضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً، فكان إبراهيم بن مخرمة الكندي إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله، فقال له السفاح يوماً: يا إبراهيم ما دعاك إلى أن تشغلني عن طعامي بحوائجك؟ قال: يدعوني إلى ذلك التماس النجح لما أسأل. قال أبو العباس: إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة[١].

ويحدثنا المسعودي[٢] عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة. وكانت قد تزوجت من عبدالله بن الوليد بن المغيرة المخزومي. فمات وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات. فبينا هي ذات يوم، إذ مر بها أبو العباس السفاح، وكان جميلاً وسيماً، فسألت عنه، وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها، وقالت لمولاتها: قولي له: هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك. وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجواهر. فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك، فقال السفاح: أنا مملق لا مال عندي، فدفعت إليه المال، وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجه منها، فزوجه إياها، فأصدقها خمسمائة دينار، وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار، وزفت إليه في ثياب موشاة بالجواهر، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمراً إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه.

فلما كان ذات يوم في خلافته، خلا به خالد بن صفوان فقال له: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك وسعة ملكك، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة، فإن مرضت مرضت وإن

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

غابت غبت وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجواري ومعرفة أخبار حالتهن والتمتع بما تشتهي منهن. فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء، وإن منهن البضة البيضاء، والدقيقة السمراء، والبربرية العجزاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها. وجعل خالد يجيد في الوصف ويجد في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه. فلما فرغ كلامه، قال أبو العباس: ويحك يا خالد! ما صك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك. فأعد علي كلامك. فقد وقع مني موقعاً. فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه، ثم انصرف.

وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منه، فدخلت عليه زوجته أم سلمة، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت: إني لأنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء، قالت: فما قصتك؟ فجعل ينزوي عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد، فقالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله ينصحني وتشتمينه؟ وخرجت من عنده مغضبة وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً. قال خالد: فانصرفت إلى منزلي وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه، ولم أشك أن صلته ستأتيني. فلم ألبث حتى سار إلي أولئك النجارية وأنا قاعد على باب داري، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي، أيقنت بالجائزة واصلة، حتى وقفوا علي فسألوا عني، فقلت: هاأنذا خالد، فسبق إلي أحدهم بهراوة كانت معه. فلما أهوى بها علي وثبت فدخلت منزلي وأغلقت الباب علي واستترت، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي، ووقع في خلدي أني أتيت من قبل أم سلمة، وطلبني السفاح طلباً شديداً، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا علي وقالوا: أجب أمير المؤمنين فأيقنت بالموت، فركبت وليس علي لحم ولا دم.

فلما وصلت إلى الدار أومأ إلي بالجلوس، ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت، وحركة خلفها، فقال: يا خالد! لم أرك منذ ثلاث، قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين قال: ويحك! إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعده علي، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد، فقال: ويحك! لم يكن هذا في الحديث. فقلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القدر يغلي عليهن. قال أبو العباس: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا الكلام منك في حديثك. قال: وأخبرتك أن الأربع من النساء شر صحيح لصاحبهن، يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه. قال: ويلك! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت.

قال خالد: بلى والله، قال: ويلك! وتكذبني؟ قال: وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال: مر في حديثك، قال: وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال، ولكن لا خصي لهن، قال خالد: فسمعت الضحك من وراء الستر، فقلت: نعم وأخبرتك أيضاً أن بني مخزوم ريحانة قريش، وأنت عندك ريحانة من الرياحين، وأنت تطمح نفسك إلى حرائر النساء وغيرها من الإماء. قال خالد: فقيل لي من وراء الستر: صدقت والله يا عماه وبررت، بهذا حدثت أمير المؤمنين، ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك، فقال له أبو العباس، ما لك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة، فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد ساروا إليّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام.

بقي السفاح في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر، ومات بالجدري في مدينة الأنبار التي اتخذها قاعدة لخلافته، وذلك يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦هـ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل ابن تسع وعشرين.

أبو جعفر المنصور
(١٣٦ - ١٥٨/٧٥٤ - ٧٧٥)

ولد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي العباسي سنة ١٠١هـ في الحميمة من أرض الشراة على مقربة من العقبة، وذلك في أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز. وأمه سلامة البربرية[١]. وقد تربى وسط كبار الرجال من جلة بني هاشم. وصحب أباه وجده فنشأ أديباً فصيحاً، ملماً بسير الملوك والأمراء[٢]. واستعان السفاح بأبي جعفر في التخلص من أبي سلمة الخلال لأنه كان يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين، وأرسله إلى خراسان لاستطلاع رأي أبي مسلم في قتل أبي سلمة، فتم له ما أراد. ثم وجه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى خراسان لأخذ البيعة له وتوليته العهد من بعده؛ ولكن قتل أبي مسلم سليمان بن كثير، على الرغم من وجود أبي جعفر بخراسان، قد أثار حفيظته وحنقه، حتى إنه أشار على الخليفة بقتل أبي مسلم قبل أن يستفحل خطره في الدولة ولكن أبا العباس خاف أن يؤدي هذا القتل إلى إثارة غضب الخراسانيين على الأخذ بثأره.

كذلك استعان أبو العباس السفاح بأخيه أبي جعفر في مقاتلة يزيد بن عمر بن هبيرة قائد

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٢٦. وقيل إن أمه سلامة بنت بشير من مولدات البصرة (المسعودي التنبيه والإشراف ص ٣٤٠) وقيل أيضاً ربطة الحارثية أم السفاح، وهذا غير صحيح.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨١.

مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وزعيم العرب في ذلك الوقت. وعلى الرغم من إعطاء أبي العباس الأمان له قتله قبل أن يجف مداد ذاك الأمان. وقد قيل إن أبا مسلم الخراساني أرسل إلى السفاح كتاباً يشير فيه بقتل ابن هبيرة، وختم كلامه بقوله: «إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد؛ لا والله لا يصلح أمر فيه ابن هبيرة»، وكان أبو جعفر يرى عدم قتله.

وفي سنة ١٣٢هـ ولى السفاح أبا جعفر الجزيرة وأذربيجان وأرمينية[١]، وفي سنة ١٣٦هـ ولاه السفاح إمارة الحج. ثم توفي السفاح، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي جعفر، ثم إلى عيسى بن موسى بن محمد بن علي، وكتب بذلك العهد، وختم عليه بخاتمه، وشهد بذلك أهل بيته، وسلمه إلى عيسى بن موسى بن محمد العباس[٢].

أرسل عيسى بن موسى إلى أبي جعفر يعلمه بموت أبي العباس السفاح وأخذ البيعة له، فلقيه الرسول بمكان يقال له زكية. فلما جاءه الكتاب دعا الناس فبايعوه، وبايعه أبو مسلم وقال أبو جعفر: «أين موضعنا هذا؟ قالوا: زكية، فقال أمر يزكي لنا إن شاء الله تعالى»[٣].

وفي أيام المنصور حدثت أحداث خطيرة: من ذلك حرج مركز العباسيين بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبدالله بن علي والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية نفسه. ولكن المنصور استطاع بحزمه وكيده أن يقهر العرب ويأسر عمه ثم يقتله، وأن يقهر الفرس ويقتل أبا مسلم، كما استطاع المنصور أن يقهر العلويين، ويقتل محمداً (النفس الزكية) بن عبدالله بن الحسن في الحجاز، وأخاه إبراهيم في العراق.

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ـ البيعة للمهدي:

ومن الأحداث الخطيرة التي وقعت في عهد أبي جعفر المنصور، خلع عيسى بن موسى بن محمد العباسي من ولاية العهد، وأخذ البيعة للمهدي بن المنصور.

وقد ذكر صاحب الفخري[٤] كيفية خلع عيسى فقال: «اختلف أرباب السير في كيفية خلعه، فقيل إن المنصور التمس منه ذلك، وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه، ويجلس المهدي عن

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٥٤.
(٣) ذكر الطبري في رواية أخرى أن البيعة قد وردت على أبي جعفر بعد الحج في منزل من منازل طريق مكة يقال له «صفية» فتفاءل باسمه، وقال: صفت لنا إن شاء الله تعالى.
(٤) ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

يساره، فلما فاوضه المنصور في خلع نفسه قال: يا أمير المؤمنين! كيف أصنع بالأيمان التي في رقبتي وفي رقاب الناس، بالعتاق والطلاق والحج والصدقة؟ ليس إلى الخلع سبيل. فتغير المنصور عليه وباعده بعض المباعدة، وصار يأذن للمهدي قبله، ويجلسه دون المهدي. وصار يتقصد أذاه. فكان يكون عيسى بن موسى جالساً، فيحفر الحائط الذي يليه وينتثر التراب على رأسه، فيقول لبنيه تنحوا. ثم يقوم هو فيصلي والتراب ينثر عليه؛ ثم يؤذن له فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفضه؛ فيقول له المنصور: يا عيسى! ما يدخل علي أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب، أفكل هذا من الشارع؟ فيقول عيسى: أحب ذلك يا أمير المؤمنين، ولا يشكو.

وقيل إنه سقاه بعض ما يتلفه. فمرض مدة، ثم أفاق منه. فلم يزل هذا الأذى يتكرر عليه حتى خلع نفسه وبايع، وقيل بل وضع المنصور الجند فساروا يشتمون عيسى بن موسى إذا رأوه وينالون منه. فلما شكا ذلك إلى المنصور قال له: يا بن أخي! إني والله أخافهم عليك وعلى نفسي، فإني قد أشربت قلوبهم حب ذلك الفتى، يعني المهدي، فلو قدمته بين يديك. فخلع عيسى نفسه، وبايع المهدي. ولما رآه بعض أهل الكوفة وقد جعل المهدي قدامه في الخلافة، وصار هو بعده، قال هذا الذي كان غداً فصار بعد غد. وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال مبلغه أحد عشر ألف ألف درهم، وقيل بل أرسل إليه خالد بن برمك فأخذ معه جماعة من أهل المنصور، نحو ثلاثين رجلاً، ومضى إلى عيسى. فخاطبه في أن يخلع نفسه فأبى. فلما أبى قال خالد للجماعة: نشهد عليه في أنه قد خلع نفسه، ونحقن بذلك دمه، وتسكن هذه الفتنة، فشهدوا عليه بذلك، فقامت البينة به، وأنكر عيسى فلم يلتفت إليه، وتم خلعه وبويع للمهدي.

وبعد أن أخذت البيعة للمهدي، أوصاه أبوه المنصور بوصية تكشف عن السياسة التي وضعها لابنه، ليسير عليها في سياسة رعيته، ومسلمهم وذميهم. فحثه على الرأفة بهم، والسهر على راحتهم، وبسط العدل بينهم، والتقرب إلى الله بحسن السيرة، وإجلال أهل العلم والدين، وعمارة الأرض لتخفيف الخراج، ونشر الإسلام، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته[1].

وقد ذكر المسعودي[2] أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور بعد أن بايع لابنه المهدي فقال له: يا أبا عثمان! هذا ابن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين قال له عمر: يا أمير المؤمنين! أراك قد وطدت له الأمور، وهي تصير إليه، وأنت عنه مسئول فاستعبر المنصور وقال له: عظني

(١) انظر الملحق الثالث.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٣.

يا عمرو، قال: يا أمير المؤمنين! إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منها ببعضها، وإن هذا الذي في يديك لو بقي في يد غيرك لم يصل إليك، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده.

أخلاق المنصور وصفاته ـ وفاته:

ذهب بعض المؤرخين إلى القول إن المنصور، كان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ويقظة وحزماً وصلاحاً واهتماماً بمصالح الرعية وجداً في بلاطه. وهو يعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة العباسية كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة للدولة الأموية. ولا غرو فإن كلا الرجلين استطاع بما أوتيه من حزم وعزم أن ينتشل بلاده من عبث العابثين وخطر الخوارج، وأن يوطد دعائم ملكه على أسس قوية من النظام.

قال الطبري[1]: «كان المنصور أسمر طويلاً نحيفاً خفيف العارضين»، وكان ميالاً بطبيعته إلى النظام الذي هو أساس نجاح الأعمال. فكان ينظر في صدر النهار في أمور الدولة وما يعود على الرعية من خير. فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك، فإذا مضى ثلث الليل انصرف سماره، وقام إلى فراشه. فنام الثلث الثاني، ثم يقوم من فراشه فيتوضأ. ويجلس في محرابه حتى مطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في ديوانه ويبدأ عمله كعادته في كل يوم.

اشتهر المنصور بالجد في بلاطه، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث. روى الطبري عن حماد التركي أن المنصور سمع يوماً في داره جلبة، فقال: ما هذا يا حماد؟ أنظر! فذهب فإذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور، وهن يضحكن؛ فمشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن. فلما رأينه تفرقن، فأمر المنصور مولاه بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور، فلم يزل يضرب به رأسه حتى كسره، ثم أخرجه المنصور من قصره.

ويحدثنا المسعودي[2] أن المنصور بينما كان جالساً في مجلسه، سقط بين يديه سهم فذعر ذعراً شديداً، ثم أخذه فجعل يقلبه، فإذا مكتوب عليه بين الريشتين:

أتطمعُ في الحياة إلى التناد[3]   وتحسب أن ما لك من نفاد؟
ستسأل عن ذنوبك والخطايا   وتسأل بعد ذاك عن العباد

---

(١) جـ ٩ ص ٢٩٩. (٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣٣. (٣) يريد يوم التناد وهو يوم القيامة.

ثم قرأ عند الريشة الأولى:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وساعفتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى:

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تريك خسيس القوم ترفعه ... إلى السماء ويوماً تخفض العالي

وإذا على باب السهم مكتوب: همذان فيها رجل مظلوم في حبسك، فبعث المنصور من فوره بعض خاصته ليفتشوا السجون، فوجدوا شيخاً موثقاً بالحديد، متوجهاً نحو القبلة يردد هذه الآية: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[1]، فسأله عن بلده، فقال: همذان، فحمل ووضع بين يدي المنصور فسأله عن قصته، فأخبره أنه من أبناء مدينة همذان، ومن أهل اليسار فيها، وأن الوالي أراد أن يأخذ منه ضيعته التي تقوم بألف ألف درهم؛ فامتنع عن القبول فكبله بالحديد وحمله. وكتب إليه أنه عاص؛ فكان من أمره ما كان، وظل على ذلك أربع سنين. فأمر المنصور ففك الحديد عن هذا الرجل وأطلق من حبسه، وردت إليه ضيعته وولاه همذان. فشكره الرجل، وقال: يا أمير المؤمنين! أما الضيعة فقد قبلتها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما واليك فقد عفوت عنه. وعاد هذا الرجل معززاً مكرماً، وصرف المنصور الوالي عن ولايته وعاقبه على فعلته.

وكان المنصور يكره سفك الدماء إلا بالحق فقد بلغه أن عيسى بن موسى قتل رجلاً من ولد نصر بن سيار والي مروان بن محمد الأموي، كان مستخفياً في الكوفة. فأنكر ذلك على عيسى وهمّ بقتله. ثم عدل عن هذا العمل، بعد أن بلغه أنه لم يقم بذلك عن سوء نية أو عن موجدة لهذا الرجل. فكتب إليه أبو جعفر هذا الكتاب يؤنبه فيه على فعلته، ويأمره ألا يعاقب أحداً عن ريبة أو ظنة. وإنما لثبوت التهمة عليه وتوافر الأدلة على جرمه. وهاك هذا الكتاب بنصه عن الطبري[2]:

«أما بعد فإنه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه، لم يؤخرك قتل ابن نصر بن سيار، واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال في مثله. فأمسك عمن ولاك أمير المؤمنين أمره من عربي وأعجمي وأحمر وأسود، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة في أحد قبله تباعة (ظلامة)، فإنه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة، ولا بحدث كان منه في

(١) سورة الشعراء: ٢٦ : ٢٢٧.
(٢) جـ ٩ ص ٢٩٤.

حرب أعقبه الله منها سلماً، ستر به عن ذي غلة، وحجز به عن محنة ما في الصدور. وليس ييأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر، كما أنه لا يأمن من إدبار مقبل إن شاء الله والسلام».

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد. ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي كفلت له النجاح إذا صادفته إحدى الصعوبات، وكانت كثيرة في عهده كما نعلم. ومما يسجل للمنصور بالفخر والإعجاب، قيامه في وجه من خرجوا عليه من أهل بيته وبين أبناء عمه من العلويين؛ فقد تغلب عليهم بفضل هذا الثبات، ووطد دعائم ملكه بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوهن والانحلال.

وروى الطبري[١] عن الوضين بن عطاء قال: استزارني أبو جعفر، وكان بيني وبينه خلالة قبل الخلافة. فصرت إلى مدينة السلام، فجلونا يوماً. فقال لي: يا أبا عبد الله! ما لك؟ قلت: الخير الذي يعرفه أمير المؤمنين، قال: وما عليك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن، فقال لي: أربع في بيتك؟ قلت: نعم! قال: فوالله لردد ذلك علي حتى ظننت أنه سيمولني، ثم رفع رأسه إلي، فقال: أنت أيسر العرب، أربع مغازل في بيتك!».

ومما يدل على حرص المنصور في النفقات ما رواه الطبري[٢] عن الفضل بن الربيع، قال: «وذكر عن علي بن محمد بن الفضل بن الربيع، حدثه أن المنصور لما فرغ من بناء قصره بالمدينة دخله فطاف فيه واستحسنه واستنظفه، وأعجبه ما رأى فيه، غير أنه استكثر ما أنفق عليه، ونظر إلى موضع فيه استحسنه جداً، فقال لي: اخرج إلى الربيع فقل له: اخرج إلى المسيب فقل له يحضرني الساعة بناء فارها. فخرجت إلى المسيب، فأخبرته، فبعث إلى رئيس البنائين فدعاه، فأدخله على أبي جعفر، فلما وقف بين يديه قال له: كيف عملت لأصحابنا في هذا القصر؟ وكم أخذت من الأجرة لكل ألف آجرة ولبنة؟ فبقي البناء لا يقدر على أن يرد عليه شيئاً، فخافه المسيب، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال: لا علم لي يا أمير المؤمنين، قال: ويحك! قل وأنت آمن من كل ما تخاف، قال: يا أمير المؤمنين لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه، فأخذ بيده وقال له: تعال لا علمك الله خيراً، وأدخله الحجرة التي استحسنها، فأراه مجلساً كان فيها، فقال له: انظر إلى هذا المجلس وابن لي بإزائه طاقاً يكون شبيهاً بالبيت، لا تدخل فيه خشباً. قال: نعم يا أمير المؤمنين. فأقبل البناء، وكل من معه يتعجبون من فهمه بالبناء والهندسة، فقال له البناء: ما أحسن أن جيء به على هذا ولا أقوم به على الذي تريد، فقال له: فأنا أعينك عليه، قال: فأمر بالآجر والجص فجيء به ثم أقبل

(١) جـ ٩ ص ٢١٢.

(٢) جـ ٩ ص ٢٦٣.

يحصي جميع ما دخل في بناء الطاق من الآجر والجص. ولم يزل كذلك حتى فرغ منه في يومه وبعض اليوم الثاني، فدعا المسيب فقال له: ادفع أجره على حسب ما عمل معك. فحاسبه المسيب فأصابه خمسة دراهم، فاستكثر ذلك المنصور وقال: لا أرضى إليه بذلك، فلم يزل به حتى نقصه درهماً، ثم أخذ المقادير، ونظر مقدار الطاق من الحجرة حتى عرفه. ثم أخذ الوكلاء والمسيب يحملان النفقات، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرفوه قيمة ذلك، فلم يزل يحسبه شيئاً فشيئاً، وحملهم على ما رفع في أجرة بناء الطاق، فخرج على المسيب مما في يده ستة آلاف درهم ونيف. فأخذه بها واعتقله، فما برح من القصر حتى أداها إليه».

وكان المنصور حريصاً على جمع المال كما كان أحرص منه على إنفاقه. وكان يغلب عليه الشح حتى ضرب المثل بشحه وحرصه، فسمي أبا الدوانيق، والمنصور الدوانيقي، لتشدده في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم. فإنه لما بنى في مدينة بغداد كان ينظر في العمارة بنفسه، فيحاسب الصناع والأجراء فيقول لهذا: أنت نمت القائلة، ولهذا أنت لم تبكر إلى عملك، ولغيره: أنت انصرفت ولم تكمل اليوم، فيعطي كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه، فلا يكاد يعطي أجرة يوم واحد.

وقال المسعودي(١): وكان المنصور من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف. وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزماً، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً وكان كما قال زياد لو أن عندي ألف بعير وعندي بعير أجرب، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره. وخلف ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار. وكان مع هذا يضن بماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام. ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل.

وقد وصف صاحب الفخري(٢) المنصور في هذه العبارة فقال: كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم، وعقلائهم وعلمائهم، وذوي الآراء الصائبة منهم، والتدبيرات السديدة، وقوراً شديد الوقار، حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالاً لما يكون من عبث أو مزاح. فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام، تغير لونه، واحمرت عيناه، وانقلبت جميع أوصافه. قال يوماً لبنيه: يا بني! إذا رأيتموني قد لبست ثيابي وخرجت إلى المجلس، فلا يدنو أحد مني مخافة أن أعره بشيء. قالوا: وكان المنصور يلبس الخشن، وربما رقع قميصه. وقيل ذلك لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، فقال: الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه قالوا: ولم يكن يرى في دار المنصور لهو ولعب أو ما يشبه اللهو واللعب.

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٥ ـ ٣٤٦. (٢) ص ١٤١ ـ ١٤٢.

ولى المنصور رجلاً من العرب حضر موت، فكتب إليه صاحب البريد يخبره أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها، فعزله وكتب إليه: ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش. سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً[١].

وقد عرف المنصور بالفصاحة في القول والإبانة عن مقصده. فقد روى الطبري[٢] في حوادث سنة ١٥٠هـ أنه خطب ببغداد في يوم عرفات، فقال: أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده؛ وأنا خازنه على فيئه، أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه. فقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفله أقفلني. فارغبوا إلى الله أيها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف، الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أن يوفقني للصواب، ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، ويفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم إنه سميع قريب!.

وقد خطب المنصور الناس بعد قتل أبي مسلم فقال: أيها الناس! لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشية المعصية، ولا تسروا غش الأئمة؛ فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه وسقطات أفعاله، وأبداها الله لإمامه، الذي بادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه. إنا لم نبخسكم حقوقكم ولم نبخس الذي حقه عليكم. إنه من نازعنا هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد. وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا أنه من نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا، ثم نكث بنا هو فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق من إقامة الحق عليه[٣].

إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء وإن لم يكن قد بلغ في ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس من قبله. ومما يؤخذ عليه أيضاً غدره بمن أمنه، الأمر الذي يحط شأنه في نظر التاريخ. فقد غدر غدرات ثلاثاً: غدر بابن هبيرة وقد أعطاه الأمان، ولم يبد منه ما يدعو إلى الفتك به، وغدر بعمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه، وغدر بأبي مسلم بعد أن طمأنه.

ومما يدل على ميله إلى انتهاك حرمة العهود، معاملته لزوجته، وكان قد تعهد لها ألا

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٩٧.
(٢) جـ ٩ ص ٣١٠ - ٣١١.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٦.

يتزوج عليها، وشهد الشهود بذلك. فلما ولي الخلافة، أخذ يستفتي الفقهاء والقضاة من الأمصار الإسلامية في فسخ ذلك العقد. لولا أن وافاها الأجل بعد عشرين سنة من خلافته. ولا يخفى ما ينطوي تحت هذا العمل من محاولة تعريض فقهائه لمخالفة ضمائرهم وعدم رعاية ذممهم[١].

روى الطبري[٢] في سبب وفاة المنصور، أنه خرج سنة ١٥٨هـ مشيعاً ابنه المهدي حين وجهه إلى الرقة، فشج فيما بين حاجبيه وصرع من يومه. وكان المنصور يكثر من الطعام ولا يعمل بنصيحة الأطباء، حتى أدى ذلك إلى اشتداد علته وأودى بحياته. وقد روى علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن أبيه قال: كان المنصور لا يستمرىء طعامه ويشكو ذلك إلى المتطببين، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات. فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يقل من الطعام، ويخبرونه أن الجوارشنات تهضم في الحال، وتحدث من العلة ما هو أشد منه عليه، حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند، فقال له كما قال له غيره. فكان يتخذ له سفوفاً جوارشناً يابساً، فيه الأفاوية والأدوية الحارة. فكان يأخذه فيهضم طعامه. قال النوفلي: قال لي كثير من متطببي العراق: لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبطن، قال: قلت له: وما علمك؟ قال: هو يأخذ الجوارشن فيهضم طعامه، ويخلق من زئبر معدته كل يوم شيئاً وشحم مصارينه، فيموت ببطنه. قال لي: اضرب لذلك مثلاً: أرأيت لو أنك وضعت حجراً على مَرفع، ووضعت تحتها آجرة جديدة فقطرت، أما كان قطرها يثقب الآجرة على طول الدهر؟ أو ما علمت أن لكل قطرة حداً؟ قال كثير: فمات والله أبو جعفر كما قال (يعني النوفلي) بالبطن.

وروى الطبري[٣] في سبب موت أبي جعفر المنصور أيضاً، قال بعضهم: كان بدء وجعه الذي مات فيه، حر أصابه من ركوبه في الهواجر، وكان رجلاً محروراً على سنه، يغلب عليه المرار الأحمر. ثم هاض بطنه، فلم يزل كذلك حتى نزل بستان ابن عامر، فاشتد به (أي وجعه) فرحل عنه فقصر عن مكة، ونزل بئر ابن المرتفع، فأقام بها يوماً وليلة، ثم سار منها إلى بئر ميمون. وهي على بعد ستة أيام من مكة، وهو يسأل عن دخول الحرم يوصي الربيع بما يريد أن يوصيه به. وتوفي به في السحر أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة. واختلف المؤرخون في مبلغ سنه حين توفي. فقال بعض إنه كان في الثالثة والستين، وقال بعض إنه كان في الرابعة والستين، وقال بعض آخر إنه بلغ الخامسة والستين، وذهب بعض إلى أنه بلغ الثامنة والستين[٤].

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٣٠٩.
(٢) جـ ٩ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢.
(٣) جـ ٩ ص ٢٩٢.
(٤) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

وقد ذكر صاحب مختصر تاريخ الخلفاء[1] (ورقة ٣٠ ب) أن المنصور لما قرب من مكة؛ رأى على جدار حائط هذين البيتين وهما:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من ريب المنية نافع[2]

ولما قرأ المنصور هذين البيتين، أيقن بانقضاء أجله، فمات بعد ثلاثة أيام.

ولم يحضر عند وفاة المنصور إلا خدمه ومولاه الربيع بن يونس. فكتم الربيع خبر موته، ومنع النساء وغيرهن من البكاء والصراخ عليه ولما أصبح الصباح وشاع نبأ موته، حضر أهل بيته وجلسوا مجالسهم. وجاء بعض العلويين وغيرهم، وملئوا السرادق الذي ضرب له، ثم خرج الربيع إليهم، وفي يده قرطاس ففضه وقرأ ما فيه فإذا به: «بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين»، ثم رمى القرطاس من يده وبكى، فأبكى الناس، ثم تناول القرطاس، وقال: قد أمكنكم البكاء، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين. ولا بد من أن نقرأه عليكم فأنصتوا رحمكم الله، فسكت الناس، ثم قرأ: أما بعد، فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة. وأنا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً، ولا يذيق بعضكم بأس بعض. يا بني هاشم ويا أهل خراسان! ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي وإذكارهم البيعة له، وحضهم على القيام بدولته والوفاء له إلى آخر الكتاب[3].

عند ذلك أذن للأكابر والمسنين من أهل البيت، ثم لعامتهم؛ فأخذ الربيع منهم البيعة للمهدي بن المنصور، ولعيسى بن موسى من بعده. ثم دعا بالقواد فبايعوا، وخرج موسى بن المهدي إلى مجلس العامة فبايع من بقي من القواد والوجوه. ثم توجه العباس بن محمد ومحمد بن سليمان إلى مكة، فبايع كثير من أهل مكة والمدينة الذين حضروا موسم الحج.

من ذلك نرى أن المهدي قد بويع البيعة الخاصة بمكة، ثم بايعه ببغداد أفراد البيت العباسي وقواد الجيش وغيرهم من رجال الدولة البيعة العامة، وذلك في ١٨ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ.

---

(١) ألف هذا الكتاب حول أواخر القرن الثامن الهجري ولا يعرف مؤلفه إلى الآن.

(٢) ورد الشطر الثاني من هذا البيت في مروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ٢٤٥). يرد قضاء الله أم أنت جاهل.

(٣) الطبري ج ٩ ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

المهدي
(١٥٨ ـ ١٦٩/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥)

١ ـ المهدي منذ ولد إلى أن ولي الخلافة:

ولد محمد بن عبد الله المنصور بالحميمة سنة ١٢٦ هـ وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميري، من حمير التي ملكت اليمن زمناً طويلاً. ونشأ في بيت الخلافة، وعني أبوه المنصور بتثقيفه. وعهد به إلى المفضل الضبي، فعلمه تعليماً عربياً، وجمع له أمثال العرب ومختار شعرهم، فمال إلى العلم والأدب، وعكف على حفظ أيام العرب ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار والأشعار. فنشأ فصيحاً يقول الشعر ويجيده ويحفظ كثيراً منه ومن أمثال العرب[١].

وكان المهدي ـ على ما وصفه ابن طباطبا[٢] شهماً كريماً، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم. وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه في الحوادث. وكان يجلس في كل وقت للمظالم، كما كان ذكياً فصيحاً بعيد الهمة سديد الرأي، ثاقب الفكر، قوي البيان، فصيح اللسان، عالماً بضروب السياسة وفنونها، مما أهله لأن يلي أمور المسلمين. وكان أبوه يعرف فيه هذه الصفات، فكان إذا دخل عليه في مجلسه أتبعه ببصره، لحبه له وإعجابه به، وزوده بنصائحه.

كان المهدي في العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدي والي خراسان، وجعل في مقدمة الجيش قائداً من أمهر قواده هو خازم بن خزيمة. ثم أرسل المهدي خازم على رأس جيش من أهل خراسان، فقضى على ثورة الإصبهبذ والي طبرستان، وأسر ابنته، كما استعان أبو جعفر المنصور بابنه المهدي في القضاء على فتنة أستاذ سيس الذي ادعى النبوة بخراسان، وحاصره خازم في عشرين ألف مقاتل، وأسره وقتل سبعين ألفاً من رجاله. وفي سنة ١٥٣ هـ ولى المنصور ابنه المهدي إمارة الحج[٣].

ولما بويع المهدي البيعة العامة وتقبل عزاء الناس بوفاة أبيه، وتهنئتهم له باعتلائه العرش، كان أبو دُلامة الشاعر أول من هنأه بالخلافة، وعزاه بوفاة أبيه في قصيدة رائعة. وكأن لسان حاله

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩١.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٦١.

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٤.

يقول: مات الخليفة يحيا الخليفة، كما يقولون الآن، مات الملك يحيا الملك. وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة.

عيناي واحدة تُرى مسرورة	بأميرها جذلى، وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسوؤها	ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرما	ويسرها أن قام هذا الأراف
هلك الخليفة يا لأمّة أحمد	وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة	ولذلك جنات النعيم تزخرف

ولما تمت البيعة العامة نادى المنادي: الصلاة جامعة! وخطب المهدي خطبة عبر فيها عن عظم المسؤولية التي ألقاها موت أبيه على عاتقه، ونعى أباه في هذه الكلمات القصيرة. فقال: إن أمير المؤمنين عبد دعي فأجاب. وأمر فأطاع. واغرورقت عيناه فقال: إن رسول الله ﷺ قد بكى عند فراق الأحبة. ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً. وعند الله احتسب أمير المؤمنين. وبه عز وجل استعين على خلافة المسلمين[1]. ثم ترقرق الدمع في عين المهدي. ولم يتمكن من إطالة الخطبة لما كان يشعر به من شدة الحزن على وفاة أبيه.

٢ ـ إصلاحات المهدي:

قضى المهدي في الخلافة زهاء عشر سنين، تعتبر فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العباس، وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده. وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التي صادرها أبوه إلى أهلها، وأطلق العلويين الذين حبسهم أبوه، وعفا عنهم، وأدار عليهم الأرزاق، وبادر إلى رد نسب أبي بكرة[2] وآل زياد (بن أبيه).

وقد بدأ المهدي عهده بسلسلة من ضروب الإصلاح، واستعان في ذلك بما تركه له أبوه من

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢

(٢) هو أخو زياد بن أبيه لأمه. وكني أبا بكرة لأنه ممن نزل يوم الطائف إلى الرسول من حصن الطائف في بكرة، فأسلم وكني أبا بكرة، وأعتقه الرسول، واتخذه مولى له. وكان أبو بكرة يقول: أنا من إخوانكم في الدين وأنا مولى رسول الله ﷺ، وإن أبى الناس أن ينسبوني فأنا نفيع بن مسروح (ابن الأثير. أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٥ ص ١٥١).

انظر أيضاً نسخة كتاب المهدي إلى والي البصرة في رد آل زياد إلى نسبهم في الطبري (ج ٩ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦)

بيت مال عامر يكفي الدولة عشر سنين كاملة؛ كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم من الخوارج عليه وعلى الدين.

فمن أعماله أنه أمر بالإفراج عن المسجونين إلا أكثرهم شراً وفساداً، وبنى الأبنية في طريق مكة، وزاد على ما كان قد بناه أبوه في الجهات الأخرى؛ كما بنى الأحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل، وأجرى على أهل السجون وعلى المجذمين حتى يمتنعوا عن السؤال ويحولوا دون انتشار الأمراض. وزاد في المسجد الحرام، غير أنه محا اسم الوليد بن عبد الملك من حائط الحرم، وكتب اسمه بدله وجدد الأميال وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن، وأدخل عليها ضروباً من التحسين، وعيَّن الأمناء في الولايات ليوافوه بأخبار الولاة، فساد العدل وعم الرخاء جميع أرجاء الدولة.

وقد حصن المهدي المدن، وخاصة مدينة الرصافة. وصارت بغداد في عهده مركزاً لتجارة العالم، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر. وسن المهدي سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة في كل عام، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض، وسار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء. وكان المهدي يميل إلى السنة، فنزع المقاصير في صلاة الجماعة، وصير المنبر على القدر الذي كان عليه منبر الرسول.

٣ ـ الفتن والثورات:

وفي عهد المهدي خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموي ببلاد الشام سنة ١٦١ هـ، وحلت به الهزيمة وحبس، ثم عفا المهدي عنه ووسع عليه الأرزاق. ثم خرج في السنة التالية عبد السلام بن هشام اليشكري في الجزيرة، واشتدت شوكته، وكثر أتباعه، وعاث في الأرض. ولكنه هزم وقتل في قنسرين. كما خرج بالموصل رجل من بني تميم يدعى ياسين، واستولى على أكثر ديار ربيعة ومضر، فحلت به الهزيمة. وثار أهل الحوف في مصر (بالقرب من بلبيس) سنة ١٥٨ هـ، وقتلوا عامل المهدي، الذي ندب لقتالهم الفضل بن صالح بن علي العباسي، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدي، وأحل بهم الهزيمة.

وكانت أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً، هذه الثورات التي أذكى نيرانها الزنادقة، الذين تبعد تعاليمهم عن الإسلام وعقائده وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة، التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية والزوجية المرعية، وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر.

٤ ـ صفات المهدي ـ وفاته:

قال المسعودي[1]: وكان المهدي محبباً إلى الخاص والعام، لأنه افتتح عهده بالنظر إلى

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

المظالم، والكف عن القتل، وأمن الخائف، وإنصاف المظلوم، وبسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، سوى ما جباه في أيامه.

وكان من خلق المهدي الحياء والعفو والجود والحلم، ولم يكن يشرب النبيذ، وإنما أجازه لجلسائه وسماره. وكان يتأثر بالقرآن. كما اتصف بالعدل، وجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة. وقد بلغ من حبه للعدل وميله إلى رد المظالم لأصحابها، أنه كان يقول إذا جلس: أدخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردي المظالم إلا للحياء منهم لكفى.

وما يدل على عدل المهدي ما قاله مسعود بن مساور، وقد ظلمه وكيل المهدي وغصبه ضيعته، فأتى صاحب المظالم، وأعطاه رقعة أوصلها إلى المهدي وعنده القاضي. فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته، فأخبره فقال للقاضي: إن هذا ظلمني في ضيعتي، مشيراً إلى المهدي. فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين قال: ضيعتي في يدي، فقال ابن مساور: أصلح الله القاضي سله؛ صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أم بعدها؟ فقال المهدي: بعد الخلافة، فقضى القاضي للمدعي، فخضع المهدي لحكم القضاء[1].

قال صاحب الفخري (ص ١٦٣): فقيل إنه طرد ظبياً في بعض متصيداته، فدخل الظبي إلى باب خربة؛ فدخل فرس المهدي خلفه، فدقه باب الخربة فقطع ظهره؛ فمات من ساعته. وقيل إن بعض جواريه جعلت سماً في بعض المآكل لجارية أخرى؛ فأكل المهدي منه وهو لا يعلم فمات. وذلك في سنة تسع وستين ومائة.

الهادي
(١٦٩ - ١٧٠/ ٧٨٥-٧٨٦)

كان موسى الهادي أكبر من أخيه هارون؛ وقد ولاه أبوه عهده. وعهد لهارون بالخلافة من بعده. ثم فكر في تقديمه عليه، بسبب إيثاره إياه، ومشاركة أمه الخيزران له في محبته، لولا أن عاجلته المنية. وكان هارون من العقل بحيث لم يتردد في البيعة لأخيه حين سمع بوفاة أبيه. وقد قضى الهادي قبل أن يعتلي عرش الخلافة أكثر أيامه في بلاد المشرق، وأتته البيعة وهو يحارب في طبرستان وجرجان.

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٢ - ١٤.

وقد وصف المسعودي الهادي فقال إنه كان قاسي القلب شرس الأخلاق صعب المرام، كثير الأدب محباً له. وكان شديداً شجاعاً جواداً سخياً، ولسنا نشك في أن تربيته العربية وقضاءه أكثر أيامه في الحرب والغزو، كان ذا أثر كبير في أخلاقه وآدابه. ومما يؤخذ عليه تنكيله بالعلويين، وتمثيله بالأمويين والخوراج والزنادقة، وأخذه أكثرهم على الظنة والريبة، وعزمه على خلع أخيه هارون من ولاية العهد وإسرافه في العطاء(١).

١ ـ تنكيل الهادي بالخوارج والزنادقة:

ورث الهادي عن أبيه كراهيته للزنادقة وعمل على استئصال شأفتهم. وقد قام بوصية أبيه له بألا يفتر عن التنكيل بهذه الطائفة وتطهير البلاد من رجسهم وفسادهم، فلم يأل جهداً في الضرب على أيدي الزنادقة والخوارج الذين ثاروا في بلاد الجزيرة، وقتل من ظفر به منهم.

ويحدثنا المسعودي أن الهادي كان في بستانه يوماً راكباً حماراً. وقد بلغه أن رجاله ظفروا برجل من الخوارج، فأمر بإدخاله. فلما قرب الخارجي منه، أخذ من أحد حراسه سيفاً وأقبل عليه يريد قتله، وتنحى عنه من كان معه من رجاله بيد أن الهادي ظل في مكانه رابط الجأش ثابت الجنان حتى قرب منه الرجل فصاح: «اضرب عنقه». ولم يكن خلف هذا الخارجي أحد، وإنما أوهمه الهادي ليشغله عنه، فالتفت الخارجي وراءه ليدرأ عن نفسه الخطر، فانقض عليه الهادي، ورمى به إلى الأرض، وأخذ السيف من يده، وضرب به عنقه. وقد أثر عن الهادي أنه لم يركب بعد ذلك حماراً ولم يفارق حسامه.

ولم تكن كراهة الهادي للزنادقة والخوارج بأقل منها للأمويين، ولم يكن يهدأ له بال لاعتقاده بأن أهل بيته لم يثأروا من الأمويين بما يشفي غليلهم ويثلج صدورهم(٢).

٢ ـ عزم الهادي على خلع أخيه هارون:

اقتدى الهادي بما فعله جده المنصور مع عيسى بن موسى، وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر، وشجعه على ذلك رجال بلاطه. بيد أن يحيى بن خالد بن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الأمر لصغر سن ابنه جعفر، واحتراماً للعهد الذي أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده، ودرءاً لما عسى أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه إذا آلت إليه قبل بلوغه سن الرشد، وأشار عليه بأن يتريث في هذا الأمر حتى يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون النزول له عن الولاية، فاستمع إلى ما قاله يحيى البرمكي للخليفة الهادي. يا أمير المؤمنين! إن فعلت حملت

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٥.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ٢٥٨.

الناس على نكث الإيمان ونقض العهود، وتجرأ الناس على مثل ذلك. ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد، ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد في بيعته. وكان من أثر هذه النصيحة أن عدل الهادي عن رأيه مدة، ثم غلب عليه حبه لولده وإيثاره على أخيه، فأحضر يحيى وفاوضه في خلع أخيه، فقال له: يا أمير المؤمنين! لو حدث بك حادث الموت، وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ، أفترى خلافته تصح؟ وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة إليه، قال: لا، فقال يحيى: فدع هذا الأمر حتى تأتيه عفواً. ولو لم يكن المهدي بايع لهارون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بني أبيك[1] إلا أن الهادي لم يحفل بهذه النصيحة، وزج بالبرمكي في غيابة السجن ردحاً من الزمن وهم بقتله.

أما هارون فكان يميل إلى إجابة أخيه بعد أن ضيق عليه واضطهده، وحط رجال بلاطه من شأنه. فأشار عليه يحيى البرمكي أن يستأذن أخاه في السفر طلباً للصيد، فأذن له وطال غيابه حتى أخذ الهادي يلح عليه في العودة ويبالغ في تحقيره وإهانته، وهو ينتحل من الأعذار ما يطيل بقاءه، حتى أتاه نعيه والبيعة له. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عزم الهادي على إخراج هارون من ولاية العهد دفع بأمه الخيزران إلى السعي في موته، وإن كنا نشك في ذلك.

على أنه مما يسترعي النظر أن العداء كان مستحكماً بين الهادي وأمه، وأن هذا العداء ظل على شدته إلى يوم وفاته، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن أمه دست بعض جواريها لقتله. ذلك أن الخيزران (بفتح الخاء وسكون الياء وضم الزاي) كانت لها الكلمة النافذة في عهد المهدي: فكانت تأمر وتنهى، حتى كان الناس يتوافدون على دارها ويلجئون إليها لقضاء حاجاتهم.

فلما ولي الهادي الخلافة، وكان شديد الغيرة على النساء كره ذلك،ونهى أمه عن فعله. هذا ما ذكره لنا ابن طباطبا[2]. ويزيد المسعودي[3] هذه المسألة بياناً فيقول: «إن الهادي كان كثير الطاعة لأمه. وكان يجيبها إلى ما تسأله من قضاء الحاجات، فسألته يوماً قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلاً. فألحت في الطلب وقامت مغضبة، فقال لها متهدداً متوعداً: لئن بلغني أنه وفد ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أو من خدمي، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله. فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي[4]. ثم قال لأصحابه: أيما خير، أنا وأمي،أم أنتم وأمهاتكم؟ قالوا: بل أنت وأمك، قال: فأيكم يحب

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٨٠.
(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٧٢.
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦١.
(٤) الطبري جـ ١٠ ص ٢٣.

أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقال فعلت أم فلان وضعت أم فلان؟ قالوا: لا نحب ذلك قال: فما بالكم تأتون أمي فتتحدثوا بحديثها؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها[١] لهذا لا نعجب إذا أثار هذا القول حفيظة الخيزران وكراهتها لابنها الهادي، فأضمرت له السوء. وكان لهذه الإهانة نتائجها، فانقطع الناس عن سؤالها والتردد على دارها، مما حدا بعض المؤرخين إلى القول، إن الهادي بعث لأمه بطعام مسموم، فلم تأكل منه وأطعمته هرة فماتت، وإن صح ذلك جاز أن تأخذ بما ذهب إليه المؤرخون من أن موت الهادي كان بتدبير أمه، وإن كنا نشك في ذلك كما تقدم.

وفي رأينا أن الهادي قد أحسن فيما فعل، صيانة لأمه، وحفظاً لكرامتها وحسن سمعتها. وهذا بين من قوله لها حين حضرته الوفاة، وقد بعث في طلبها لما اشتد عليه المرض: «وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى، مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك. ولم أكن بك عاقاً، بل كنت لك صائناً وباراً واصلاً[٢]».

٣ ـ أخلاق الهادي وصفاته ـ وفاته:

اشتهر الهادي بالإسراف في العطاء، فقد ذكر المسعودي[٣] أنه قال يوماً: كأني بك قد تحدث نفسك بتمام الرؤيا[٤]، وتؤمل ما أنت عنه بعيد، ومن دون ذلك خرط القتاد. فقال له هارون: يا أمير المؤمنين! من تكبر وضع، ومن تواضع رفع، ومن ظلم خذل، وإن وصل الأمر إلي وصلت من قطعت، وبررت من حرمت، وصيرت أولادك أعلى من أولادي، وزوجتهم بناتي، وقضيت بذلك حق الإمام المهدي. وقد أثر هذا الكلام العذب في نفس الهادي وأطفأ ثائرة غضبه، فبرقت أسارير وجهه سروراً، وقال لأخيه: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، أدن مني! فقام هارون فقبل يده ثم ذهب ليعود إلى مجلسه، فقال الهادي: والشيخ الجليل والملك النبيل لا جلست إلا معي في صدر المجلس، ثم أمر خازن بيت المال أن يحمل إلى هارون ألف ألف دينار وخمسمائة ألف إذا وفى زمن الخراج. ولما أراد هارون الخروج، قدمت دابته حتى وصلت إلى بساط الخليفة.

ومما يدل على إسراف الهادي في العطاء هذه الحكاية التي يقصها علينا المسعودي، وهي أنه

(١) الفخري ص ١٧٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦١.

(٣) مروج الذهب: جـ ٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٤) قيل إن المهدي رأى في منامه كأنه دفع إلى الهادي قضيباً وإلى الرشيد قضيباً: فأما قضيب الهادي فأورق إعلاه قليلاً، وأما قضيب الرشيد فأورق من أوله إلى أخره. فلما قص الرؤيا قيل له إنهما يملكان، فأما الهادي فتقل أيامه، وأما الرشيد فتطول، وتكون أحسن الأيام ودهره أزهر الدهور.

أمر بسيف عمرو بن معد يكرب الصمصامة، فوضع بين يديه، وأتى بمكتل[١]، وأمر حاجبه أن يأذن للشعراء في الدخول عليه فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا في هذا السيف شعراً، فبدأ ابن يامين البصري وقال أبياتاً، فقال له الهادي: لك السيف والمكتل، فأخذهما، وفرق المكتل على الشعراء، ثم بعث إليه الهادي واشترى منه السيف بخمسين ألفاً.

ولما تطل خلافة الهادي، فقد توفي ببغداد لإثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ، بعد أن ظل في الخلافة سنة وشهراً وإثنين وعشرين يوماً. ويقول ابن طباطبا[٢]: «والليلة التي مات فيها، هي ليلة مات فيها خليفة، وجلس خليفة، وولد خليفة، وقد كانوا يحدثون أنه سيكون ليلة كذلك. فالخليفة الذي مات هو الهادي، والذي جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد، والذي ولد هو المأمون».

وقد ذكر المسعودي [٣] في موت الهادي: وسنح للهادي الخروج نحو بلاد الحديثة[٤]. فمرض هناك وانصرف، وقد ثقل في العلة، فلم يجرؤ أحد من الناس على الدخول عليه إلا صغار الخدم... ويقال إنه أوقف بين يديه رجلاً من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة، فجعل الهادي يذكره ذنوبه، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين! اعتذاري بما تقر عيني به رد عليك، وإقراري بما ذكرت يوجب ذنباً، ولكني أقول:

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر

هارون الرشيد
(١٧٠ - ١٩٣/ ٧٨٦ - ٨٠٩)

يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بني العباس: بلغت بغداد في عهده درجة لم تصل إليها من قبل، فأصبحت مركز التجارة، وكعبة رجال العلم والأدب. واشتهر اسم الرشيد في بلاد الغرب، لما كان بينه وبين شرلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود والصفاء ومما

---

(١) المكتل شبه الزنبيل خمسة عشر صاعاً والصاع أربعة أمداد، والمد مكيال، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورطلان عند أهل العراق.

(٢) الفخري ص ١٧٤.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦١.

(٤) ذكر ياقوت في معجمه أنها سميت بذلك لما أحدث بناؤها، وهي في عدة مواضع. فمنها حديثة الموصل وحديثة الفرات. والحديثة أيضاً من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش.

زاد في ذيوع شهرته بين أمم الغرب كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية، حتى إنه لا تكاد تخلو منه مكتبة من مكتبات الأفراد في أوروبا وأمريكا.

ولد هارون بالري لثلاث بقين من شهر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ، وأمه أم ولد يمانية جرشية يقال لها الخيزران، وهي أم الهادي، وفيها يقول مروان بن أبي حفصة.

يا خيزران هناك ثم هناك أمسى يسوس العالمين ابناك

وقد ولد الفضل بن يحيى البرمكي قبله بسبعة أيام، فأرضعت أم الفضل الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد.

وقد ولى المهدي ابنه هارون العهد بعد أخيه الهادي. وكان يعرف فيه الذكاء والكفاية، ففكر في العدول عن عهده السابق، وهم أن يرشحه للخلافة بعده مباشرة. وساعدته على ذلك أمه الخيزران، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادي، لولا أن حالت منية المهدي دون ذلك. وقد ولاه أبوه الصائفة في سنتي ١٦٣ هـ و ١٦٥ هـ، فأرغم ايريني ـ وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ـ على طلب الصلح، الذي انتهى بعقد هدنة بين العباسيين والبيزنطيين أمدها ثلاث سنين، وولاه أبوه بلاد المغرب سنة ١٦٤هـ.

ولي هارون الرشيد الخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه الهادي، وهي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة[1]. ومن المسائل التي يجب دراستها في عهد الرشيد: قيام الفتن الداخلية وخاصة في الموصل وإفريقية وأرمينية، وأثر البرامكة في الدولة ونكبتهم على يد الرشيد، على الرغم من عملهم على تقدم الحضارة الإسلامية.

١ ـ الفتن والثورات:

خرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني على هارون الرشيد سنة ١٧٨ هـ. وانتصر على جيوشه أكثر من مرة. فقتل والي نصيبين. ثم مضى إلى أرمينية وأذربيجان وعاث فيهما فساداً ثم عاد الى الجزيرة (١٧٩ هـ) وعبر نهر دجلة حتى وصل الى حلوان. واشتدت شوكته وكثر أتباعه، فبعث الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني، ابن أخي معن بن زائدة الشيباني بطل موقعة الراوندية، كما سيأتي في الباب الثالث. وقد رمى الوليد هارون الرشيد بالجور والظلم، وعول على التخلص من هذا الجور والظلم حين برز لقتال يزيد بن مزيد الشيباني وارتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلي بناري
جوركم أخرجني من داري

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٤٧ ـ ٤٨. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٨.

وسرعان ما حلت الهزيمة بجند الوليد بن طريف الشيباني وقتل.

وفي إفريقية استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتي ١٧٨ و١٨١ هـ، كما أخذت في التقلص عن الحكم الإسلامي، وغدت كفة النصر ترجح في جانبهم حيناً، وفي جانب العباسيين حيناً آخر، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين على رأس جيش كثيف استطاع أن يقضي عليهم ويطفىء جذوة ثورتهم. على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته أن فوز العباسيين على البربر لا سبيل إلى تحقيقه، لتفاقم نار العداء التي أضرمها هؤلاء البربر، فعول على النزول عن القيادة وعاد إلى المشرق حيث البذخ والرفاهية ثم قامت في هذه البلاد دولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب، الذي ولي هذه البلاد من قبل الرشيد لتأديب البربر، والوقوف في وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية. ولكن هذه الدولة ما لبثت أن استقلت عن الخلافة العباسية في بغداد، وزال عنها سلطان العباسيين، اللهم إلا في الاسم فقط؛ واتخذت مدينة القيروان الواقعة في الجنوب الغربي من مدينة تونس الحالية، حاضرة لها، وظلت على ذلك إلى أن استولى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ.

وفي سنة ١٧٦ هـ تحولت المنازعات القديمة بين اليمانيين والعدنانيين في سورية إلى حرب مستمرة، وبقيت دمشق زهاء سنتين مسرحاً للانقسامات والحروب الداخلية. ولكن هذه الحالة لم تكن مما يهتم له الخليفة، بل كان يرى على العكس من ذلك أنه قد أفاد منها، لأنها أضعفت قوة أهالي هذه البلاد الذين ثبت عنده عدم إخلاصهم وولائهم للعباسيين[1]. على أن الحرب التي دارت بين الفريقين قد اشتعلت نارها من جديد بعد عشرة أعوام، فرأى الرشيد ضرورة التدخل بينهم وقضى عليهم.

ويقول الطبري[2] إن الرشيد ولى موسى بن يحيى بن خالد البرمكي بلاد الشام فأصلح بين أهلها وسكنت هذه الفتنة الجامحة.

وكانت بلاد خراسان، التي وليها علي بن عيسى بن ماهان، مصدر الفتن والقلاقل في عهد هارون الرشيد. فقد سار هذا الوالي على سياسة تنطوي على الظلم والعسف واغتصاب الأموال من الأهالي، فكان يرسل الى الخليفة كثيراً من الهدايا والطرف التي بهرته، واستفز بعمله كبراء خراسان، فكتبوا إلى الرشيد يستغيثون به، فعزم على الخروج لمحاربة علي بن عيسى، وعسكر في الري.

فلما بلغ ذلك علياً قابل الرشيد بهدايا أنفس من الهدايا الأولى، ووزع مثلها على رجال

(١) Muir, The Caliphate, p. 479

(٢) جـ ١٠ ص ٦٠.

بلاطه، فاطمأن الرشيد من جانبه، ثم عاد هذا الوالي إلى سيرته الأولى في ظلمه واستبداده، وغلا في نكايته بمن استغاثوا بالخليفة.

واتفق أن حدث في ذلك الوقت أن رجلاً من أهالي سمرقند، يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار، قاد امرأة من ذوي اليسار إلى الكفر، تخلصاً من زوجها الذي طالت غيبته، ورغبة في التزوج بها. فلما بلغ الرشيد ذلك أرسل من فوره إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بين رافع وزوجته وأن يعاتبه على فعلته. فقام كل من والي خراسان وعامل سمرقند بتنفيذ أوامر الرشيد، وحبس رافع. ولكنه فر من سجنه، واستغاث بولد علي بن عيسى، فتوسط له عند أبيه، فأمنه ورده إلى بلده، فثار لنفسه من عامل هذه المدينة وقتله، واتبعه كثير من أهالي سمرقند وبلاد ما وراء النهر، فأرسل إليه علي بن عيسى ابنه عيسى، فقتله رافع في بلخ.

وقد قيل إن علي بن عيسى جمع في قصره أموالاً ضخمة، وأن الناس هجموا على هذا القصر واستولوا على ما فيه. فلما بلغ الرشيد ذلك تحقق من استبداد علي، لما كان من استفزازه شعور الأهلين، فقرر عزله، وأرسل إليه هرثمة بن أعين يحمل إليه كتاباً بخطه؛ فقبض هرثمة على علي وأتباعه، وصادر أموالهم. وبعث بهم إلى الرشيد، وأخذ الفرح من الناس كل مأخذ بلقائهم هرثمة وتخليصهم من عسف هذا الوالي وظلمه. غير أن رافعاً لم يكن قد هدأ أمره، فخرج الرشيد بنفسه لحربه. إلا أن المنية أدركته وهو في طريقه. وظل رافع على حاله حتى أيام المأمون[١].

٢ ـ البرامكة:

كان برمك جد الأسرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ: فكان يقوم بالإشراف على هذا البيت. كما كان يقوم قصي وأولاده من بعده بسدانة الكعبة في الجاهلية وكان برمك وأسرته يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم. ولما ظهر الإسلام. أسلم بعضهم. وظهر منهم في أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك. الذي تقلد الوزارة في عهد السفاح والمنصور. واتخذ هارون الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلي الخلافة كاتباً له يرجع إلى رأيه وتدبيره. كما يرجع الخليفة إلى رأي الوزير وتدبيره. ولما ولي الرشيد الخلافة استوزر يحيى. فعلا شأنه وبعد صيته. وأصبح هو وأولاده كعبة الآمال وغدت تشد إليهم الرحال. وفي ذلك يقول ابن طباطبا[٢]:

«اعلم أن هذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر. وتاجاً على مفرق العصر. ضربت

---

(١) أنظر ما كتبه الطبري عن علي بن عيسى (جـ ١٠ ص ١٠٠ ـ ١٠٨).
(٢) الفخري ١٧٣.

بمكارمها الأمثال. وشدت إليها الرحال. ونيطت بها الآمال. وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها. ومنحتها أوفر إسعادها. فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة. والبحور زاخرة. والسيول دافعة. والغيوث ماطرة: أسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية. والدنيا في أيامهم عامرة. وأبهة المملكة ظاهر: وهم ملجأ اللهف. ومعتصم الطريد. ولهم يقول أبو نواس:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم   بني برمك من رائحين وغاد»

كان خالد بن برمك فاضلاً جليلًا كريماً حازماً يقظاً. قربه السفاح إليه وأولاه ثقته. وأحله من نفسه محل التعظيم والتكريم. ولكنه لم يغتر بهذا التعظيم والتكريم. وأبى إلا أن يظهر أمام مولاه بمظهر الإخلاص والتواضع. وتجنب أن يسمى وزيراً على رغم أنه كان يعمل عمل الوزراء. خشية أن يحل به ما حل بأبي سلمة الخلال وزير آل محمد الذي قتله أبو العباس السفاح. وقد قيل إن كل من استوزر بعد أبي سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً، تطيراً مما جرى على أبي سلمة. حتى قال أحد الشعراء:

إن الوزير وزير آل محمد   أودى، فمن يشناك كان وزيرا

نعم! كان خالد عظيم المنزلة قليل القدر عند الخلفاء. قيل إن السفاح قال له يوماً: يا خالد! ما رضيت حتى استخدمتني! ففزع خالد. وقال: كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك؟ فضحك السفاح وقال إن ريطة ابنتي تنام مع ابنتك في مكان واحد. فأقوم بالليل. فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما. فأرده عليهما فقبل خالد يده وقال: مولى يكتسب الأجر في عبده وأمته.

اشتهر خالد بن برمك برجاحة العقل وبعد النظر. يدل على صحة هذا الرأي، أن المنصور لما شرع في بناء مدينة بغداد. ورأى أن مواد البناء تكلفه كثيراً من النفقات. أشار عليه بعضهم بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه. فاستشار المنصور خالد بن برمك في ذلك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين. فإنه آية الإسلام. فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله إلا أمر سماوي. وهو مع ذلك مصلى علي بن أبي طالب عليه السلام. والمئونة في نقضه أكثر من نفعه. فقال له المنصور: أبيت يا خالد إلا ميلاً إلى العجمية ثم أمر بهدمه. فهدمت منه ثلمة. فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها. فأمسك المنصور عن هدمه وقال: يا خالد! قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم الإيوان. فقال: يا أمير المؤمنين! أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك.

وكان يحيى بن خالد البرمكي أشهر رجال عصره علماً وأدباً وفضلاً وجوداً ونبلاً. وكان في الثانية عشرة من عمره حين قامت الدولة العباسية. فتربى في كنفها وشمله الخليفة المنصور بعطفه. فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ هـ. واختاره المهدي كاتباً ونائباً لابنه هارون. فخرج معه في الصائفة لغزو البيزنطيين. ولما تولى هارون بلاد المغرب، ساعده يحيى على النهوض بأعبائها. وأخلص له الإخلاص كله. ولما أراد الهادي أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد، نصح له بالعدول عن هذا الرأي كما تقدم.

ولهذا قلد هارون كاتبه الوفي المخلص الوزارة بعد اعتلائه العرش. وفوض إليه أمور دولته واستعان بأولاده الأربعة وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى. ونهض يحيى، كما يقول صاحب الفخري (ص ١٧٩ ـ ١٨٠). بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور، وتدارك الخلل، وجبى الأموال، وعمر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة، وتصدى لمهات المملكة. وكان كاتباً بليغاً لبيباً، أديباً سديداً، صائب الآراء وحسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الأمور، جواداً يباري الريح كرماً وجوداً، ممدحاً بكل لسان، حليماً عفيفاً، وقوراً مهيباً.

وكان الفضل أكبر أولاد يحيى من كرام أهل عصره، وكان عضد أبيه، ينوب عنه في جلائل أعماله. وقد أرضعته أم الرشيد، كما أرضعت أم يحيى الرشيد كما تقدم.

ولما ولد الأمين عهد الرشيد إلى الفضل بتربيته. وفي سنة ١٧٦ هـ ندبه لحرب يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الذي ثار في بلاد الديلم. وفي سنة ١٧٨ هـ ولاه هارون الرشيد بلاد خراسان، فقضى على الفتنة التي قامت بها، وأحسن معاملة أهلها، وبنى بها المساجد، ثم عاد الى بغداد بعد سنة.

قيل إن محمد بن ابراهيم الإمام (بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس)، حضر يوماً عند الفضل بن يحيى ومعه سفط فيه جوهر، وقال له: إن حاصلي قد قصر مما احتاج إليه وقد علاني دين مبلغه ألف ألف درهم. وإني استحيي أن اعلم أحداً بذلك، وآنف أن أسأل أحداً من التجار أن يقرضني ذلك، وإن كان معي رهن يفي بالقيمة. وأنت ـ أبقاك الله! ـ لك تجار يعاملونك، وأنا أسأل أن تقترض لي من أحدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن، فقال له الفضل: السمع والطاعة. ولكن نجح هذه الحاجة أن تقيم عندي هذا اليوم، فأقام عنده ثم أخذ الفضل السفط منه وهو مختوم بختمه، وأرسل معه ألف ألف درهم. وأنفذ الدراهم والسفط إلى منزله، وأخذ خط وكيله بقبضه. وأقام محمد في دار الفضل إلى آخر النهار، ثم انصرف إلى داره، فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم، فسر بذلك سروراً عظيماً. فلما جاء الغد بكر محمد إلى الفضل ليشكره على ذلك، فوجده قد بكر إلى دار الرشيد، فمضى محمد إليها.

فلما علم الفضل بذلك، خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه فمضى محمد إليه. فلما علم بذلك خرج من باب آخر، ومضى إلى داره، فمضى محمد إليه واجتمع به. وشكره وقال له: إني بكرت إليك لأشكرك على إحسانك؛ فقال الفضل: إني فكرت في أمرك فرأيت أن هذه الألف ألف التي حملتها أمس إليك، تقضي بها دينك، ثم تحتاج فتقترض، فبعد قليل يعلوك مثلها. فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين وعرضت عليه حالك، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى، ولما حضرت إلى أمير المؤمنين، خرجت أنا من باب آخر، وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبي، لأني ما كنت أؤثر أن ألقاك حتى يحمل المال إلى منزلك، وقد حمل، فقال له محمد: أي شيء أجازيك على هذا الاحسان؟ ما عندي شيء أجازيك به، إلا أني ألتزم بالايمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق، انـي ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك. فلما ذهبت دولة البرامكة، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم، احتاج محمد، فقالوا له: لو ركبت إلى الفضل بن الربيع، فلم يقبل، والتزم باليمين، فلم يركب إلى أحد، ولم يقف على باب أحد حتى مات[1].

أما جعفر بن يحيى فقد اشتهر بالفصاحة والفطنة والحلم والكرم، وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه، ويؤثره على أخيه الفضل لشراسة أخلاقه، ولذلك عمل على التخلص منه حتى قيل إن الرشيد قال يوماً ليحيى: يا أبي! ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك؟ فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني. فقال: فضم إلى جعفر أعمالاً كأعمال الفضل، فقال يحيى: إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك؛ فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمي بالوزير الصغير أيضاً.

ولكن الرشيد كان يؤثر جعفـراً على أخيه الفضل، لعلو منزلته عنده ومحبته إياه، وأبى إلا أن ينقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر، وطلب من يحيى أن يكتب إلى ابنه الفضل بذلك، فكتب إليه: «قد أمر أمير المؤمنين ـ أعلـى الله أمره! ـ أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك» فأجابه الفضل: «قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت مني نعمة صارت إليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه»، فقال جعفر: «لله در أخي، ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه، وأقوى منه العقل عنده، وأوضع في البلاغة ذرعه!».

ولم يقتصر إيثار الرشيد وحبه جعفر بن يحيى على ما ذكرنا، فقد ولاه مصر في سنة ١٧٦هـ. وفي سنة ١٨٦ أرسله إلى بلاد الشام حين أثار أهلها الفتن والقلاقل، فأزال أسباب التذمر واطمأنت خواطر الأهلين، فعلت منزلته عند الرشيد، فأسند إليه في هذه السنة ولاية خراسان، ثم ولاه حراسة الجيش.

(١) الفخري ص ١٨٥ ـ ١٨٦. أنظر أيضاً. الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ٢١٢ وما يليها.

ومما يدل على علو مكانة جعفر عند الرشيد وخطر مركزه في الدولة العباسية أن جعفر بن يحيى البرمكي جلس يوماً للشرب، وأحب الخلوة، فأحضر ندماءه الذين يأنس إليهم، وجلس معهم، وقد هيىء المجلس ولبسوا الثياب المصبغة. وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر. وقد أمر جعفر بن يحيى الحاجب ألا يأذن لأحد بالدخول عليه سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم، يدعى عبد الملك بن صالح. ثم أخذوا يشربون، ودارت الكاسات وخفقت العيدان. وكان أحد أقارب الخليفة يدعى عبد الملك بن صالح بن عبد علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوقار والدين والحشمة. وكان الرشيد قد طلب منه أن ينادمه؛ فلم يفعل. فاتفق أن حضر عبد الملك بن صالح المذكور إلى باب يحيى ابن جعفر البرمكي ليخاطبه في حوائج له، فظن الحاجب أنه عبد الملك بن صالح الذي آثره جعفر بن يحيى البرمكي وأمر بألا يدخل عليه أحد سواه. فأذن الحاجب له، فدخل على جعفر بن يحيى. فلما رآه كاد عقله يذهب حياء، وفطن أن المسألة اشتبهت على الحاجب لاشتباه الاسم. وفطن عبد الملك بن صالح للقصة، وظهر الخجل على وجه جعفر بن يحيى، ولكن عبد الملك بدا على وجهه السرور والانشراح وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة. فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه، وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: أسقونا من شرابكم، فسقوه، فقال: أرفقوا بنا فليس من عادتنا الإكثار من الشراب. ثم أخذ يمازحهم حتى زال انقباض جعفر بن يحيى وخجله وفرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال لعبد الملك: ما حاجتك؟ قال: جئت أصلحك الله! - في ثلاث حوائج، أريد أن تخاطب الخليفة فيها: أولها أن علي ديناً مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره، وثالثها أريد أن تزوج ولدي بابنة الخليفة، فإنها بنت عمه وهو كفء لها. فقال له جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث: أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر، أما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين، على صداق مبلغه كذا وكذا، فانصرف في أمان الله[1].

وإنما فعل جعفر ما فعل لشدة ثقته بنفسه عند الرشيد؛ فإن عبد الملك لما عاد إلى منزله وجد أن المال قد سبقه. ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وأعلمه بما جرى، فأقره الرشيد على تصرفه، ولم يخرج جعفر حتى كتب لابن عبد الملك تقليد بولاية مصر، وعقد عقده على ابنة الرشيد.

أما موسى فكان أشد أبناء يحيى البرمكي بأساً، كما كان كاملاً سرياً وقائداً محنكاً. ولاه

---

(١) ابن طباطبا ص ١٨٧ - ١٨٨.

الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦هـ، فأصلح أمورها وهدأت على يديه أحوالها. وقد أوقع به علي بن عيسى والي خراسان عند الرشيد، ورماه بتهمة إثارة الاضطرابات فيها والخروج على الخلافة. واتفق أن اختفى موسى بسبب دين عليه، فازداد الرشيد اعتقاداً بصدق هذه الوشايات، وأمر به فحبس في الكوفة. ولم يطلق سراحه إلا بوساطة أمه وضمان أبيه له، ثم عفا الرشيد عنه وخلع عليه. أما محمد بن يحيى فكان سرياً بعيد الهمة، ولم يكن له من الشهرة ما كان لإخوته.

ومن ذلك نستطيع أن نقف على مبلغ خطر مركز الأسرة البرمكية في أيام هارون الرشيد الذي وثق بهم، وفوض إليهم أمور دولته. ولا نعجب إذا انصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم والتغني بكرمهم وجودهم الذي كان مضرب الأمثال.

وقد قيل إن الرشيد حج ومعه يحيى بن خالد بن برمك وابناه الفضل وجعفر. فلما وصلوا إلى المدينة المنورة، جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس. وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث، حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيات الثلاث.

وقد بلغ من جود يحيى وكرمه، أنه كان إذا ركب أعد صرراً في كل منها مائتا درهم يدفعها إلى الذين يقفون في طريقه ويلتمسون معونته. لهذا لا نعجب إذا تلمس الوشاة وعمال السوء أسباب الإيقاع بالبرامكة، الذين بلغوا أوج عظمتهم وذروة عزهم، وقصدهم الرائح والغادي والحقير والنبيل.

٣ ـ صفات الرشيد وأخلاقه ـ وفاته:

«كان هارون أبيض طويلاً مسمناً جميلاً»(١). «وكانت دولة الرشيد» كما يقول ابن طباطبا(٢): «من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة مملكة. جبى الرشيد معظم الدنيا... ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة. وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيباً عند الخاصة والعامة».

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم. كان يحج سنة ويغزو

---

(١) الخطيب البغدادي: كتاب تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٥.
(٢) الفخري ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

سنة مدة خلافته إلا سنين قليلة. وكان يصلي كل يوم مائة ركعة؛ وحج ماشياً. ولم يحج خليفة ماشياً غيره. وكان إذا حج حج معه مائة ألف من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة. وكان يتشبه في أفعاله بالمنصور إلا في بذل المال، فإنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر. وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين.

قال الأصمعي: صنع الرشيد طعاماً، وزخرف مجلسه، وأحضر أبا العتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد: أحسنت، ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد، فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته، فقال الرشيد: دعه، فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه.

اشتهر الرشيد بحسن معاملة العلماء. قال أبو معاوية الضرير أحد علماء عصره: أكلت مع الرشيد يوماً، فصب على يدي الماء رجل، فقال لي: يا أبا معاوية! أتدري من صب الماء على يدك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين، فقال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين! أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم، قال: نعم[1].

قال الخطيب البغدادي[2]: «اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل: وزراؤه البرامكة، لم ير مثلهم سخاء وسروراً، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، كان في عصره كجرير في عصره، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية، وحاجبه الفضل بن الربيع، أتيه الناس وأشدهم تعاظماً، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته، وضاربه زلزل، وزامره بر سوءاً وزوجته أم جعفر، أرغب الناس في خير، وأسرعهم إلى كل بر، وهي أسرع الناس في معروف. أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك إلى أشياء من المعروف».

وفي عهد الرشيد مات من أعلام الإسلام الإمام مالك بن أنس، والليث بن سعد الفقيه

---

(١) الفخري ص ١٧٥ - ١٧٦. (٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١١.

المصري، والفقيه أبو يوسف صاحب كتاب الخراج، وسيبويه إمام العربية، ومروان بن أبي حفصة الشاعر، والمفضل بن فضالة قاضي مصر، وموسى الكاظم، وهو الإمام السابع عند طائفة الإمامية الاثني عشرية، والعباس بن الأحنف الشاعر[١].

بلغت بغداد في عهد الرشيد درجة عالية من الحضارة والعمران، فبنيت فيها القصور الشاهقة، وزادت موارد ثروتها، وكانت تصل إليها التجارة من أقصى البلدان. ذكر المؤرخون أن الرشيد أراد أن يوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز، فعدل عن هذا الرأي[٢].

وكانت خزائن الرشيد تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب، حتى بلغت في عهده ما يقرب من اثنين وسبعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب، حتى إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: اذهبي حيث شئت يأتني خراجك[٣]. وصفوة القول أن «أيام الرشيد كانت ـ كما يقول السيوطي[٤] ـ كلها أيام خير كأنها في حسنها أعراس».

اشتدت علة الرشيد وهو بطوس في ضيعة تعرف بسناباذ، فدعا من كان بعسكره من بني هاشم، وأوصاهم بثلاث: الحفظ لامامتكم، والنصيحة لأئمتكم، واجتماع كلمتكم؛ وانظروا محمداً (الأمين) وعبد الله (المأمون)، فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه.

ولما اشتدت علة الرشيد هون عليه الأطباء علته. فأرسل إلى طبيب فارسي كان هناك، فأراه ماءه مع قوارير شتى. فلما انتهى قارورته قال: عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك، فليوص، فإنه لا برء له من هذه العلة، فبكى الرشيد، وجعل يردد هذين البيتين:

إن الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع محذور أتى

ما للطبيب يموت بالداء الذي ... قد كان يبرىء نفسه فيما مضى؟[٥]

عهد الرشيد بالخلافة لأبنائه الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن، وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها القضاة والفقهاء وأكابر بني هاشم، وعلقت في الكعبة، ثم مات يوم السبت لأربع ليال خلون

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٢ ص ٢٧٠
(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩.
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨١.

من شهر جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر[١].

الأمين
(١٩٣ - ١٩٨/٨٠٨ - ٨١٣)

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠هـ، وهي السنة التي ولي فيها أبوه الرشيد الخلافة، وذلك بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر. وأمه أم جعفر زبيدة ابنة جعفر بن المنصور، وليس في خلفاء بني لعباس من أبوه وأمه هاشميان سواه. ولما مات الرشيد بطوس، أحضر إليه رجاء الخادم وهو ببغداد البردة والقضيب والخاتم، وهي شارات الخلافة.

وقد وصف الطبري[٢] محمد الأمين في هذه العبارة فقال: «وكان سبطاً أبزع أبيض، صغير العينين أقنى جميلاً عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين»، ووصفه السيوطي[٣] بقوله: «وكان من أحسن الشباب صورة، أبيض طويلاً، ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة؛ يقال إنه قتل مرة أسداً بيده. وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة، لكن كان سيىء التدبير كثير التبذير ضعيف الرأي أرعن، لا يصلح للإمارة».

كان عهد الأمين مليئاً بالفتن والاضطرابات؛ وفي الوقت الذي قامت هذه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون، اشتعلت نار الثورة في بلاد الشام على يد علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد ابن معاوية، المعروف بالسفياني، الذي دعا إلى نفسه، واحتل دمشق وما يليها بعد أن طرد عامل الأمين، وكاد يتم له الاستقلال بهذه البلاد، لولا أن قام بين اليمنيين والمضريين نزاع خطير حال دون تحقيق أمانيه. وقد أرسل الأمين الجيوش لقمع هذه الفتن بقيادة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، ثم عبدالله بن صالح بن علي العباسي. ولكن سوء الحالة في بغداد حال دون القيام بعمل جدي ضد هذا السفياني. وهكذا أصبحت بلاد الشام مسرحاً للفوضى سنتين أو أكثر. هذا إلى أن الحسين بن علي بن عيسى قد أثار عداء جنوده الشآميين بتحيزه لجنده الخراسانيين، ومن ثم عاد هذا القائد فجأة إلى بغداد[٤].

روى السيوطي[٥] عن إسحاق الموصلي قال: «اجتمعت في الأمين خصائل لم تكن في

(١) الطبري جـ ١٠ ص ١١٢.
(٢) جـ ١ ص ٢٠٩.
(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٩٧.
(٤) الطبري جـ ١٠ ص ١٥٥.
(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢.

غيره: كان أحسن الناس وجهاً وأسخاهم، وأشرف الخلفاء أباً وأماً، حسن الأدب عالماً بالشعر؛ لكن غلب عليه الهوى واللعب. وكان مع سخائه بالمال بخيلاً بالطعام جداً. وقال أبو الحسن الأحمر: كنت ربما أنسيت البيت الذي يستشهد به في النحو، فينشدنيه الأمين. وما رأيت في أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون. «وكان الأمين يجيد الشعر»[1]. ويميل إلى اللهو واللعب والتبذير، وبنى مجالس للتنزه، وفي ذلك يقول الطبري[2]:

«ولما ملك محمد، وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين، وضمهم إليه، وأجرى لهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فره الدواب، وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك، واحتجب على إخوته وأهل بيته وقواده، واستخف بهم، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه. وحمل إليهم ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح. وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه، بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذي وباب الأنبار ونبارى والهوب. وأمر بعمل حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيماً».

ولم يعمر الأمين طويلاً، فقد قتل بعد أن جلس على عرش الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨هـ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره. وقد ذهب الأمير ضحية هذه الفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون، بسبب خلعه أخاه، وتوليته ابنه موسى العهد من بعده، ونكث العهد والميثاق الذي أخذه عليه أبوه الرشيد وعلقه في الكعبة. وقد ساد عهده في الفتنة الهوجاء التي فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم وقوضت كثيراً من معالم مدينة بغداد حاضرة العباسيين، وكعبة العلوم والآداب، ومركز التجارة، وحاضرة الإسلام.

ولما قتل الأمين أرسل عبد الله بن طاهر رأسه إلى المأمون، الذي صفا له الجو واستقرت له الامور، وكتب إلى الأمصار الإسلامية كتاباً جاء فيه: «أما بعد فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، وقد فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة، بمفارقته عصم الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين. يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ نوح ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾، فلا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله. وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ورداه رداء نكسه وأحصد لأمير

(١) السيوطي. تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢. (٢) ج ١٠ ص ٢١٥، ٢١٦.

المؤمنين أمره وأنجز له وعده. وما ينتظر من صادق وعده حين رد به الالفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها»[1].

وقد أصاب ابن الأثير في وصف الأمين بقوله: «لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره».

المأمون
(١٩٨ - ٢١٨/ ٨١٣ - ٨٣٣)

ولد عبد الله أبو العباس المأمون بن الرشيد سنة ١٧٠هـ، في الليلة التي مات فيها عمه الخليفة الهادي. وأمه أم ولد تسمى مراجل، وقد ولاه أبوه العهد وهو في الثالثة عشرة من عمره بعد أخيه الأمين، وأسند إليه ولاية خراسان وما يتصل بها إلى همذان. ولما توفي أبوه لم يف له أخوه الأمين بعهده، كما تقدم، بل عول على أن يقدم عليه ابنه موسى في ولاية العهد، فأبى المأمون ذلك، ونشبت بينهما تلك الحروب التي انتهت بقتل الأمين في ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨هـ.

بويع المأمون بالخلافة وهو في الري، وظل بخراسان حتى قدم بغداد في منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤. وقد وصفه ابن طباطبا[2] فقال: واعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال. وله اختراعات كثيرة في مملكته. منها أنه أول من فحص منهم علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها، وحل إقليدس ونظر في علوم الأوائل، وتكلم في الطب وقرب أهل الحكمة. ومن اختراعاته مقاسمة أهل السواد بالخمسين. وكانت المقاسمة المعهودة النصف. ومن اختراعاته إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن. وفي أيامه نشأت هذه المقالة، ونوظر فيها أحمد بن حنبل وغيره. ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها. فلما ولي المعتصم تكلم فيها، وضرب أحمد بن حنبل. ومن اختراعاته أيضاً نقل الدولة من بني العباس إلى علي عليه السلام، وتغيير الناس السواد بلباس الخضرة، وقالوا هو لباس أهل الجنة.

١ ـ الأحوال الداخلية:

مال المأمون أول الأمر إلى العلويين، واتخذ الخضرة شعارهم، وصاهر علياً الرضا وولاه عهده، وأنزل العلويين منازل العز والكرم، وظل على ذلك حتى عزم على السير إلى بغداد. ومات علي الرضا وهو في طريقه إليها على ما سيأتي. ومع ذلك لم يغير المأمون سياسته نحو

---

(١) الطبري: جـ ١٠ ص ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٢) الفخري ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

العلويين بعد أن رجع إلى السواد شعار العباسيين، إلى أن قام باليمن عبد الرحمن بن عبدالله العلوي سنة ٢٠٧ هـ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله، فأمنه وألبسه السواد.

وفي سنة ٢٠٣هـ، ولى المأمون محمداً الزيادي بلاد تهامة ليقضي على المتشيعين فيها، فاختط مدينة زبيد، وأصبح أشبه بملك مستقل. إلا أنه كان يخطب للعباسيين ويؤدي لهم الخراج، وظل الملك في أعقابه إلى سنة ٥٥٣هـ. وبذلك انسلخت هذه البلاد عن الدولة العباسية. وكانت الدولة الزيادية أول دولة استقلت باليمن، كما كانت الحال بالنسبة إلى دولة الأغالبة التي أسسها الرشيد سنة ١٨٤هـ، لتكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الأدارسة، فاعتز ملكهم وقويت شوكتهم إلى أن أزال الفاطميون دولتهم. وقد انسلخت هاتان الدولتان عن الدولة العباسية. وكان السبب في تكوينها خوف العباسيين من أن يمتد نفوذ العلويين إلى بلادهم.

وقد ثار أهل بغداد وولوا إبراهيم بن المهدي الخلافة حين كان المأمون بمرو. فلما أحس الناس بقدوم المأمون خلعوا إبراهيم، فاختفى ثم قبض عليه، فعفا عنه المأمون، وقربه إليه.
وقد قبض على إبراهيم في سنة ٢١٠هـ، عقب اكتشاف مؤامرة بزعامة إبراهيم بن محمد بن عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة، ترمي إلى اغتيال المأمون وتولية إبراهيم بن المهدي الخلافة. أما ابن عائشة فقد أمر المأمون بأن يقام ثلاثة أيام في الشمس، ثم ضرب بالسياط وحبس ثم قتل وصلب وأعقب ذلك القبض على إبراهيم بن المهدي وهو متزي بزي امرأة. يقول الطبري(١): أخذ إبراهيم . . . وهو متنقب مع امرأتين في زي امرأة، أخذه حارس أسود ليلاً، فقال: من أنتن، وأين تردن في هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم فيما ذكر خاتم ياقوت كان في يده؛ له قدر عظيم ليخليهن ولا يسألهن. فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهن وقال: هذا خاتم رجل له شأن فرفعهن إلى صاحب المسلحة، فأمرهن أن يسفرن، فتمنع إبراهيم. فجذبه صاحب المسلحة. فبدت لحيته، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه. فذهب به إلى باب المأمون، فأعلم به، فأمر بالاحتفاظ به في الدار. فلما كان غداة الأحد أقعد في دارالمأمون، لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند، وصيروا المقنعة التي كان متنقباً بها في عنقه، والملحفة التي كان ملتحفاً بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ. فلما كان يوم الخميس حوله المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده، ثم أخرجه المأمون معه، حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط، فقال الناس إن الحسن كلمه فيه، فرضي عنه وخلى سبيله، وسيره عند أحمد بن أبي خالد وسير معه خالد بن يحيى بن معاذ، وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظانه. إلا أنه موسع عليه

(١) جـ ١٠ ص ٢٧٠ - ٢٧١.

عند أمه وعياله، ويركب إلى دار المأمون وهؤلاء معه يحفظونه. فلما أدخل على المأمون قال له: هيه يا إبراهيم! فقال: يا أمير المؤمنين! ولي الثأر يحكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء، أمكن عادية الدهر من نفسه. وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك. فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، قال: بل أعفو يا إبراهيم، فكبر ثم خر ساجداً. وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختف، فوقع المأمون في حاشية رقعته: القدرة تذهب الحفيظة، والندم توبة، وبينهما عفو الله، وهو أكبر ما نسأله».

وفي عهد المأمون شق نصر بن شَبَثْ عصا الطاعة. وكان عربياً يتعصب للأمين لأنه يمثل العنصر العربي وينقم على المأمون لاتخاذه الخراسانيين دون العرب أنصاراً له. وقد تغلب نصر على ما جاوره من البلاد، وشايعه كثير من العرب. ولما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين واستولى على العراق، ندبه المأمون لمحاربة نصر، وولى الحسن بن سهل العراق، وطلب من طاهر بن الحسين أن يسير لمحاربة نصر، وأن يتخذ الرقة مركزاً لأعماله الحربية. ولكن طاهراً لم يجد في حرب نصر، لأنه كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل، لانتزاعه بلاد العراق منه، وأحرزت جيوش نصر بن شبث النصر على جيوش طاهر بن الحسين. وأراد بعض العلويين أن يقيموا خليفة منهم، فأبى نصر ذلك عليهم وقال: إنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب، لأنهم يقدمون عليهم العجم. ولما قدم المأمون بغداد، استدعى طاهراً وولى ابنه عبدالله بن طاهر خراسان، وكتب له كتاباً مشهوراً يوصيه فيه بمحاربة نصر، فجد في حربه وحاصره حتى طلب الأمان. وكان المأمون قد ندب إليه من يؤمنه، فأجاب على ألا يطأ بساط المأمون فأبى الخليفة، واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين، حتى أرغم نصر على طلب الأمان، وسيق إلى بغداد في شهر صفر سنة ٢١٠هـ، بعد أن حارب جيوش المأمون نحواً من خمس سنين(١).

كذلك عكر الزط صفو المأمون. وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد، وهم المعروفون بالنور. وأصلهم من هنود آسيا، وكانوا يقيمون على سواحل الخليج الفارسي، وانتهزوا قيام الفتنة بين الأمين والمأمون، فاستولوا على طريق البصرة. ولما عاد المأمون إلى بغداد ندب عيسى بن يزيد الجلودي لمحاربتهم (سنة ٢٠٥هـ). وفي سنة ٢٠٦هـ ولى المأمون داود بن ماسجور البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، وندبه لمحاربة الزط. فلم يكن لحربه هو ومن سبقه من القواد أثر ظاهر، بدليل قول نصر بن شبث

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٥٨ وما يليها في حوادث سنة ٢٠٥هـ إلى سنة ٢١٠هـ.

عن المأمون حين ألح في أن يطأ نصر بساطه: إنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه. واستمر الزط يقاتلون العباسيين إلى أيام المعتصم حيث قضى عليهم في سنة ٢١٩هـ.

وفي عهد المأمون ثار المصريون سنة ٢١٠هـ، فبعث عبدالله بن طاهر لإخماد هذه الثورة، فاستولى على الفسطاط وأقر الأمن. ثم تفرغ لإصلاح البلاد، وزاد في جامع عمرو بن العاص، ولكن ولايته لم يطل أمدها، فعاد إلى العراق، وعادت الثورات في مصر سيرتها الأولى، وانتقض القبط، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين؛ فندب المأمون قائده الأفشين، ثم جاء إلى هذه البلاد بنفسه وأعاد الأمن إلى نصابه[1].

على أن الحسن بن سهل لم يتمكن من سياسة أهل العراق بالحزم. كما شاع في تلك البلاد بعد خروج طاهر بن الحسين منها، أن الفضل بن سهل قد استبد بالأمور دون المأمون، وأنه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وقواده، مما أثار، استياء بني هاشم ووجوه الناس في بلاد العراق. وثارت القلاقل في الأمصار، فقامت بضواحي الكوفة (سنة ١٩٩هـ) فتنة بزعامة أبي السرايا، الذي كان يدعو لأحد العلويين، وأوقع الهزيمة بجيوش الحسن بن سهل، مما اضطر أخاه الفضل - برغم شدة حقده على هرثمة - إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبي السرايا الذي حلت به الهزيمة.

ولما قضى هرثمة على ثورة أبي السرايا، ولاه الخليفة بلاد الشام والحجاز؛ لكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب قبل أن يطلع المأمون بنفسه على حقيقة الحال في العراق وما يليه غرباً ويوجه نظره إلى الخطر المحدق به. فلما بلغ هرثمة مرو حاضرة خراسان، خشي أن يخفي الفضل بن سهل خبر قدومه عن الخليفة؛ فضرب الطبول؛ وما لبث أن مثل بين يديه، وأفضى إليه بحقيقة الحال في الدولة الإسلامية. فجازاه على عمله هذا بحبسه، ولم يزل في سجنه حتى قتل.

على أن قتل هرثمة أثار غضب رجال الجيش في بغداد، وانتشرت الفوضى من جديد. فتألب أهلها على الحسن بن سهل، وأقاموا المنصور بن المهدي أميراً عليهم. بعد أن تنحى عن قبول الخلافة.

وقد أثار مبايعة علي الرضا بولاية العهد غضب العباسيين، فنادوا بخلع المأمون، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة كما تقدم، ولقبوه المبارك. فتصدى لهم الحسن بن سهل واليه على العراق؛ غير أنه عجز عن إخماد هذه الفتنة، وظل إبراهيم بن المهدي خليفة ببغداد مدة سنتين.

---

(١) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٤٩٢.

ولما علم المأمون بما وصلت إليه الحال في بغداد من الاضطراب، عول على الرحيل إليها. وبينما كان في طريقه إلى تلك المدينة، دس لوزيره الفضل بن سهل من قتله، فتفرق عنه أنصاره، ولما وصل الى طوس حدثت حادثة أخرى، هي وفاة علي الرضا، وقد اتهم المأمون بقتله تقريباً إلى العباسيين.

قدم المأمون بغداد، فازدحمت جموع أهلها في الطرقات، وتهللت وجوههم فرحاً واستبشاراً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه. وبعد أن استقر الأمر للمأمون في بغداد، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل وطلب الزواج من ابنته بوران، فرحب الوزير بهذه المصاهرة، وبذل على زفافها كثيراً من الأموال، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم.

ولما عرضت للحسن بن سهل علته التي أودت بحياته، انقطع بداره، واحتجب عن الناس؛ فاستوزر المأمون أحمد بن أبي خالد، وكان على جانب كبير من رجاحة العقل، كما كان كاتباً فصيحاً بصيراً بعواقب الأمور. وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان، فصوب هذا الرأي، على أن طاهراً لم يلبث أن قطع الخطبة للخليفة، ووضع نواة الدولة الطاهرية. فهدد المأمون وزيره؛ وصمم على قتله إذا لم يعمل على التخلص من هذا الخارج؛ فأرسل الوزير الى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة، فأكل منها ومات لساعته.

استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن يوليه الوزارة بعد أحمد بن خالد، فأشار عليه بتولية أحمد بن يوسف وأبي عباد بن يحيى وقال: هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين؛ فقال له: اختر لي أحدهما، فاختار أحمد بن يوسف فاستوزره.

وكان أحمد بن يوسف كاتباً أديباً وشاعراً، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك. استشاره المأمون في رجل كان يكرهه أحمد، فوصفه وذكر محاسنه، فقال له المأمون: يا أحمد! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك، فقال: لأني لك كما قال الشاعر:

كفى ثمناً بما أسديت أني ... صدقتك في الصديق وفي عدائي
وأني حين تندبني لأمر ... يكون هداك أغلب من هوائي

٢ ـ صفات المأمون وأخلاقه ـ وفاته:

وكان المأمون يتحلى بكثير من الصفات التي امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين. من ذلك ميله إلى العفو وكراهته للانتقام. وليس أدل على ظهور هذه الصفة فيه من عفوه عن إبراهيم بن المهدي الذي تربع في كرسي الخلافة نحواً من سنتين، وعن الفضل بن الربيع الذي

حرمه من السلاح والعتاد الذي كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليمه إليه بعد وفاته، فإنه مع ذلك لم يعمل على التخلص منه وقال: أما القتل فلا أقتله. ولكن أجعله بحيث اذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب. وهذا أقل ما كان ينتظر من المأمون، ولا سيما بعد أن بلغه ما كان من تنازع الفضل بن الربيع مع علي بن عيسى، وتوجيهه معه قيداً من الفضة، بعد أن تنازعا في الفضة والحديد ليقيده بها.

وقد تحلى المأمون بكثير من الصفات التي ترجح كفة الحكم له في نظر المؤرخ، على الرغم مما ظهر به من القسوة في إخماد الثورة التي قامت في مصر في سنتي ٢١٢، ٢١٦ هـ، وكذلك في معاملة يحيى بن أكثم وأبي دلف حين غضب عليهما.

وقد فاق المأمون الخلفاء العباسيين قاطبة في كرمه. يدل على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل؛ فقد أمر عند انصراف الحسن من فم الصلح[١] بعشرة آلاف ألف درهم، كما أقطعه فم الصلح، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة. ويحدثنا ابن طباطبا[٢] أنه لما وصل إلى دمشق قل المال عنده، فشكا ذلك إلى أخيه المعتصم (وكان يلي بعض أعمال الدولة). فلم يمض أسبوع واحد حتى وافاه من المال ثلاثون ألف ألف ألف درهم (الألف مكررة ثلاث مرات)، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم: أخرج بنا للنظر إلى هذا المال؛ فخرج وخرج الناس معه، وقد زين الحمل وزخرف، فقال المأمون: إن انصرافنا إلى منازلنا بهذا المال وانصراف الناس خائبين لؤم، ثم أمر كاتبه أن يعطي بعض خاصته ألف ألف، والبعض الآخر أكثر من ذلك، حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ألف، ثم أمر فحول الباقي على الجيش ومصالحه.

وكان المأمون حاضر البديهة سريع الجواب. روي أن امرأة جاءته وهو في مجلس من العلماء وقالت له: يا أمير المؤمنين! مات أخي وخلف ستمائة دينار، أعطوني ديناراً. فأخذ المأمون يحسب ثم قال لها: هذا نصيبك، فقال له العلماء: كيف علمت يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الرجل خلف ابنتين، قالت: نعم، قال: فلهن الثلثان أربعمائة، وخلف والدة، فلها السدس مائة، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون، وبالله ألك اثنا عشر أخاً؟ قالت: نعم! قال: أصابهم ديناران وأصابك دينار.

---

(١) هو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم، تأخذ من دجلة فوق واسط، وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه عدة مدن صغيرة، زوج في أحدها الوزير الحسن بن سهل ابنته بوران للمأمون. انظر لفظ فم الصلح في معجم البلدان لياقوت.

(٢) الفخري ص ١٧٩.

وقد أثر عن المأمون كثير من الأحاديث التي أصبحت أقرب الى الحكم، من ذلك قوله: الناس ثلاثة: فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال، ومنهم كالدواء يحتاج اليه في حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال.

وكان المأمون يقرب منه الشعراء، كما حذق هو نفسه الشعر، حتى نفقت سوقه، وكثر الشعراء والمغنون وعلماء الكلام في عهده.

وكان المأمون يميل إلى الإقناع في الجدل والمناقشة «واحتمال آراء المتناظرين إذا لم تتفق مع آرائه وميوله، والعمل على قطع دابر الرياء والنفاق وغيرهما من الرذائل التي كانت متفشية بين قواده وجنده.

وتوفي المأمون في آخر غزواته ببلاد الدولة البيزنطية، فقد أصابته الحمى وهو في شمال مدينة طوس، وتوفي في الثامنة والأربعين من عمره، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد، وأحسن بذلك إلى أسرته وإلى نفسه.

المعتصم
(٢١٨ - ٢٢٧/ ٨٣٣ - ٨٤٢)

ولد أبو اسحاق محمد المعتصم سنة ١٧٨ هـ. وأمه أم ولد تسمى ماردة[١]، وأبوه الرشيد. وكان يلي بلاد الشام ومصر في عهد أخيه المأمون ولما مرض المأمون عهد إليه بالخلافة وعدل عن تولية ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب. ولعل السبب الذي حمله على ذلك هو أنه رأى في شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ما يضمن له تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته.

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم وصية جاء فيها: «يا أبا إسحاق! أدن مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه. ولا تغتر بالله ومهلته، فكان قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، العوام العوام، فإن الملك بهم، وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين. ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك. وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيء، وانصف

---

(١) ذكرها المسعودي (مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٥) ماربة، وذكرها الطبري (جـ ١١ ص ٩) والسيوطي (ص ٢٢٢ ماردة).

بعضهم من بعض بالحق بينهم، وقربهم وتأمنهم، وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم، ولا تغفل عنهم في كل وقت. والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة. فإن طالت مدتهم، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك مقدم النية فيه، راجياً ثواب الله عليه»(١).

بويع المعتصم يوم وفاة أخيه المأمون في التاسع عشر من شهر رجب سنة ٢١٨ هـ، ورفض الجند أن يدخلوا في طاعته في مبدأ الأمر، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، ولكنه أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه، فحذا الجيش حذوه(٢).

وقد وصف ابن طباطبا(٣) المعتصم وقال إنه كان سديد الرأي، شديد المنة، يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات. وكان موصوفاً بالشجاعة، وسُمِّي المثمن من أحد عشر وجهاً: هو الثامن ولد العباس، والثامن من الخلفاء، وتولى الخلافة وعمره ثماني عشر سنة، وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر، وتوفي وله ثماني وأربعون سنة، وولد في شعبان وهو الشهر الثامن. وخلف ثمانية ذكور، وثمانية بنات، وغزا ثماني غزوات، وخلف ثمانية ألف ألف درهم.

١ ـ الفتن والثورات:

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي في مثل هذه المسألة، وإنما كان ينفذ وصية المأمون، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعرف بذلك من العلماء وأهل الرأي: فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن.

ولم تكن سياسة المعتصم نحو العلويين أقل شدة من سياسة الخلفاء العباسيين قبله، إلا إذا استثنينا المأمون. فقد ذكر المسعودي(٤) أن المعتصم تخلص من محمد الجواد بن علي الرضا، الذي كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل، ولكنه مات بعد وصوله إلى بغداد في سنة ٢١٩ هـ، فاتهمت زوجته بدس السم له. وقد يكون ذلك بإيعاز المعتصم نفسه خشية أن تحدثه نفسه بالمطالبة بالخلافة، لأن أولاده من سلالة المأمون، ولأن أباه علياً الرضا قد ولاه المأمون العهد قبل وفاته، حتى تؤول الخلافة إلى أبيه ثم إليه من بعده.

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٩٤.
(٢) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٣٠٤.
(٣) الفخري ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

وكذلك خرج على المعتصم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي. فقد أثار في نفس المعتصم المخاوف التي أثارها محمد بن علي الرضا من قبل، ولكنه رحل عن الكوفة إلى خراسان فراراً من بطش المعتصم به، وانضم إليه كثير من أهلها وحارب جيوش الخليفة العباسي في كثير من المواقع، حتى حمله عبد الله بن طاهر إلى المعتصم، فحبسه بسامرا. وقد اختلف الناس في وفاته: فمنهم من قال إنه مات مسموماً، ومنهم من قال إن بعض شيعته أخرجوه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما، ومنهم من زعم أنه حي لم يمت وأنه المهدي المنتظر، وأكثرهم بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم.

ومن المصاعب التي واجهت المعتصم في خلافته وهددت مرافق دولته، فتنة الهنود المعروفين بالزط، الذين استولوا على طريق البصرة، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن، ثم حالوا دون وصول المؤن والأقوات إلى بغداد.

وقد ندب المعتصم لقتالهم عجيف بن عنبسة أحد القواد من العرب، فعسكر بالقرب من واسط، وسد الأنهار عليهم وأحاط بهم من كل جانب، وقاتلهم تسعة أشهر، ثم أرغمهم على طلب الأمان. وكان عددهم سبعة وعشرين ألفاً بين رجال ونساء وأطفال. فحملهم عجيف في السفن، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ، فشاهدهم المعتصم ورجال دولته، ثم أمر بهم فنفوا إلى آسيا الصغرى، وظلوا هناك إلى أن أسرهم البيزنطيون سنة ٢٤١ هـ، ومن ثم وجدوا طريقاً إلى أوروبا، وعرفوا هناك باسم Gypsies أو النور، ويقيمون عادة في خارج المدن[1].

وكان من أثر السياسة التي سار عليها المعتصم في الاستعانة بالأتراك، وإجزاله الهبات والعطايا لهم دون غيرهم، أن دب في نفوس العرب دبيب الغيرة والحسد لهؤلاء الأتراك. وقام عجيف، وذلك القائد العربي الذي أبلى بلاء حسناً في محاربة الزط، بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه، فأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه. ودخل قواد العرب في حلبة هذه المؤامرة، واتفقوا على قتل المعتصم والأفشين وآشناس إذا تم توزيع الغنائم التي استولى عليها المسلمون من البيزنطيين في موقعة عمورية المشهورة.

على أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم؛ فقد لعبت الخمر يوماً بلب العباس وبلب بعض المتآمرين، فأفضوا بسر المؤامرة إلى المعتصم، فمنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف.

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٥٦. —Muir' The Capliphate, p. 514

وبذلك قضى المعتصم على هذه المحاولة في مهدها، ولكنه لم يتخلص من سوء أثرها؛ فقد أوقعته في أيدي قواده الأتراك، وأدت إلى إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وإسقاطهم من ديوان العطاء. يقول ميور[١]: «ومما زاد هذه الحالة سوءاً أن الأتراك أنفسهم لم يكونوا جادين في إخلاصهم للخليفة. فقد تغلب على نفوسهم عوامل الرغبة في انتزاع السلطة، وغدا الخلفاء في أثناء وجود البلاط العباسي في سامرا ألاعيب في أيدي القواد الأتراك».

ومن الحوادث الهامة التي وقعت في عهد المعتصم، فتح عمورية وهدمها، والثورات التي أشعلها بابك الخرمي ومازيار والأفشين ـ على ما سيأتي في الباب الثالث ـ وتأسيس مدينة سامرا التي اتخذها حاضرة لدولته (انظر الباب الثامن).

وكان لاعتماد المعتصم على الأتراك أثر سيىء في نفوس العرب كما رأينا، فثاروا في بلاد الشام تحت زعامة أبي حرب المبرقع اليماني، الذي أشعل نار الفتنة في فلسطين قبل موت المعتصم بقليل، بسبب دخول أحد الجند في داره وهو غائب. فلما عاد وعلم بالخبر قتل هذا الجندي، وخاف على نفسه، فلبس برقعاً وهرب إلى بلاد الأردن، حيث أخذ يحرض الناس على الخليفة المعتصم. وكان يزعم أنه أموي، فقال الذين استجابوا له: هذا هو السفياني. فالتف حوله كثير من أهالي هذه البلاد، وخاصة اليمانية؛ فأرسل إليه المعتصم جيشاً يزيد على مائة ألف من الجند. فلما سار هذا القائد إليه وجد أنه في زهاء مائة ألف. فكره حربه وعسكر بحذائه، وطاوله حتى كان أول حراثة الناس للأرض، وانصرف الحراثون إلى الحراثة، وأرباب الأرض إلى أرضهم، وبقي هذا القائد في نفر قليل، فأحل به قائد المعتصم الهزيمة وأسره وجاء به إلى سامرا[٢].

كذلك أثار الأكراد الفتنة في بلاذ الموصل على يد جعفر الكردي؛ فبعث إليهم المعتصم إيتاخ أحد قواد الأتراك فقاتله (المحرم سنة ٢٢٧ هـ)، ثم وثب أحد أصحاب جعفر به فقتله، وذلك في أوائل خلافة الواثق.

٢ ـ صفات المعتصم:

حكم المعتصم الدولة العباسية حكماً استبدادياً مقرناً بشيء من العطف وحسن التدبير، حتى وصفه المسعودي[٣] بحسن السيرة واستقامة الطريقة.

وكان المعتصم شفيقاً بالفقراء، والضعفاء محباً للبذل. رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاص حماره في الوحل وسقط ما عليه من الشوك الذي يستعمله أهل العراق في التدفئة،

(١) Ibid p. 517. (٢) الطبري جـ١١ ص ٦. (٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٣٥٦.

فأخرج الحمار من الطين وحمل الشوك فوضعه عليه، ثم غسل يديه في غدير، واستوى على دابته ولحق به حرسه بخيولهم، بعد أن أمر بعض خاصته أن يعطي هذا الشيخ أربعة آلاف درهم.

وقد علق ميور[1] على هذه الحكاية، موازناً بين ما فعله المعتصم في هذه الحادثة، وما فعله في مدينة عمورية التي انتصر فيها على البيزنطيين، فقال: «ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يضحي بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتي ألف نسمة، وتقدر ثروتها بالملايين. ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده، ولوث رداءه، ليخلص شيخاً ضعيفاً وقع حماره في حفرة من الطين، وأي هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت؟».

أصيب المعتصم في آخر أيامه بمرض قضى عليه لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ، فرثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات بقوله:

قد قلت: إذ غيبوك واصطفت عليك أيد بالتُّرْبِ والطين
اذهب، فنعم الحفيظ كنت على الدنيا ونعم الظهير للدين

الواثق

(٢٢٧ - ٢٣٢/٧٤٢ - ٧٤٧)

ولد هارون الواثق بالله بن المعتصم في شهر شعبان سنة ١٨٦ هـ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس. وكان الواثق منذ حداثته راجح العقل، بصيراً بتصريف الأمور، سياسياً ماهراً، موصوفاً بكثير من الخلال التي جعلت أباه يعتمد عليه في أثناء غيابه حتى مقر خلافته، فتركه في بغداد سنة ٢٢٠ هـ حين سار لبناء مدينة سامرا التي اتخذها قاعدة لخلافته، كما أنابه عنه سنة ٢٢٣ هـ في استقبال الأفشين بعد رجوعه منتصراً في حرب بابك الخرمي، وعهد إليه بفتح عمورية.

ولى المعتصم ابنه الواثق عهده، فولي الخلافة في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ واقتدى بأبيه في الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية في الدولة. فولى آشناس التركي السلطة، وتوجه بتاج مرصع بالجواهر. وقد علق السيوطي[2] على ذلك بقوله: «وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً، فإن الترك إنما كثروا في عهد أبيه».

١ - الأحوال الداخلية:

وفي أوائل عهد الواثق ثارت القيسية بدمشق وحاصروا إليها، فأرسل إليهم جيشاً بقيادة

(١) The Caliphate, p. 519.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦.

رجاء بن أيوب، فانتصر عليهم في مرج راهط وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وانهزم الباقون وعاد الأمن إلى نصابه.

ذكر الطبري أن بني سليم وغيرهم من البدو عاثوا في بلاد الحجاز، فنهبوا الأسواق، وامتد أذاهم إلى كثير من الناس، وقطعوا الطرق، وأوقعوا بجند والي المدينة المنورة. فأرسل إليهم الواثق في شهر شعبان سنة ٢٣٠ هـ جيشاً بقيادة بغا الكبير أحد قواد الأتراك، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً وأسر مثلهم، وقبض على نحو ألف رجل منهم ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة. ثم سار لإخضاع بني مرة بعدن، فحاول هؤلاء الخروج من حبسهم وثاروا في المدينة، فأحاط بهم أهلها وقتلوهم عن آخرهم. ثم عاد بغا إلى سامرا بعد أن أقر الأمن في جزيرة العرب الشمالية، واشتبك على غير جدوى في عدة حروب مع القبائل المناوئة للخلافة في أواسط هذه البلاد وجنوبها.

وقد سار الواثق على سياسة أبيه المعتصم في الانتصار للمعتزلة، وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس، مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد فتآمروا عليه، وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن، وحملوا على الواثق حملة شعواء، ودعوا إلى عزله؛ فالتف حوله كثير من أنصاره، وعينوا يوماً ينفذون فيه مؤامراتهم على أن يضربوا الطبول في الليلة السابقة لذلك اليوم بيد أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ ذلك الأمر أكثرا من شرب الخمر في تلك الليلة، وأخذ الفريق الذي رابط على الجانب الشرقي يدق الطبول، فلم يجبهم أصحابهم الذين رابطوا في الجانب الغربي. وكشفت المؤامرة قبل أن يستفحل خطرها، وقبض على أحمد بن نصر وأعوانه، وسيقوا إلى الخليفة الواثق بسامرا قاعدة خلافته، فعقد لهم مجلساً للمناظرة، وطرحت مسألة الشغب والخروج على الخلافة جانباً، وناظر الخليفة أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن فقال له:

«يا أحمد ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربك أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فنحن على الخبر. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟ فقال القاضي عبد الرحمن بن اسحاق: هو حلال الدم، وقال غيره: اسقني دمه يا أمير المؤمنين، ووافقه الحاضرون إلا ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، فإنه قال: يا أمير المؤمنين! كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل، فقال الواثق: إذا رأيتموني قد قمت إليه، فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي إليه. ودعا بالصمصامة، سيف عمرو بن معديكرب الزبيدي، ذلك الفارس العربي الذي ذاع صيت سيفه، وكان قد أهدي إلى الخليفة

الهادي العباسي وورثه خلفاؤه، وضربه على عنقه ورأسه، وضربه أحد خاصته فقطع عنقه وجز رأسه. وحمل إلى بغداد وصلب في الجانب الغربي أياماً، وفي الشرق أخرى، ووضع في أذنه رقعة فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك، ممن قتله الله تعالى على يدي عبد الله مروان، الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة، ومكنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح، والحمد لله الذي عجل به إلى ناره وأليم عقابه»[١].

وقد تمتع ولاة الأقاليم في عهد الواثق بنفوذ كبير: فكان عبد الله بن طاهر بن الحسين يدير شؤون ولاية خراسان وطبرستان وكرمان. وأسند هذا الخليفة لآشناس التركي أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب، فولى عليها ولاة من قبله وأقاموا بسامرا مركز الخلافة.

وكان الضعف والتحكم يشوب إدارة الواثق، فقد سأل أحد جلسائه ليلة أن يقص عليه قصة نكبة البرامكة على يد جده الرشيد، فلما سمع القصة وعرف كيف انتزع الرشيد منهم الأموال قال: صدق والله جدي، إنما العاجز من لا يستبد. ولم يمض أسبوع واحد، حتى أوقع بكتابه، وأخذ من كل منهم مبلغاً يتراوح بين أربعة عشر ألفاً وألف ألف دينار. ومن هنا نقف على مبلغ تفشي الرشوة والفساد بين رجال الدولة في ذلك العهد[٢].

وقد ذكر المسعودي[٣] أن أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير غلبا على الواثق حتى كان لا يصدر إلا عن رأيهما، «وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه». كذلك ذكر المسعودي وصف أحد الأعراب رجال الدولة في عهد الواثق فقال: «ذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي (نسبة إلى جاسم وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بجاسم على أميال من الجابية) قال: خرجت في أيام الواثق إلى سر من رأى، فلما قربت منها لقيني أعرابي، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه فقلت: يا أعرابي! ممن أنت؟ قال من بني عامر. قلت: كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين؟ قال: قتل أرضاً عالمها، قلت: ما تقول في أمير المؤمنين؟ قال: وثق بالله فكفاه، أشجى القاصية وقصم العادية ورغب عن كل ذي جناية، فقلت: فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: هضبة لا ترام وجبل لا يضام، تشحذ له المدى وتنصب له الحبائل، حتى إذا أقبل كان قد وثب وثبة الذئب وختل ختلة الضب. قلت: فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات؟ قال: وسع الداني شره ووصل الى البعيد ضره، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب، قلت: فما تقول في عمرو بن فرج؟ قال ضخم نهم،

(١) الطبري جـ ١٢ ص ١٧ - ١٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ١١ ص ١٠ - ١٢.
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

استعذب الدم بنصبه اللوم ترساً للدعاء. قلت: فما تقول في الفضل بن مروان؟ قال: رجل نبش بعد ما قبر، ليس تعد له حياة في الأحياء، وعليه خفة الموتى. قلت: فما تقول في الوزير؟ قال: تخاله كبش الزنادقة، أما تراه إذا أحمله الخليفة سمن ورتع؟ وإذا هزه أمطر فأمرع؟ قلت: فما تقول في أحمد بن الخصيب؟ قال: ذاك أكل أكلة نهم فزرق زرقة بشم. قلت: فما تقول في إبراهيم أخيه؟ قال: أموات غير أحياء وما يشعرون يبعثون. قلت: فما تقول في أحمد بن إسرائيل؟ قال: لله دره، أي فاعل هو؟ وأي صابر هو؟ أعد الصبر دثاراً أو الجود شعاراً، وأهون عليه بهم. قلت: فما تقول في المعلى بن أيوب؟ قال: ذاك رجل خير، نصيح السلطان، عفيف اللسان سلم من القوم وسلموا منه. قلت: فما تقول في ابراهيم بن رباح؟ قال: ذاك رجل أوثقه كرمه، وأسلمه فصله، وله دعاء لا يسلمه ورب لا يخذله، وفوقه خليفة لا يظلمه، قلت: فما تقول في الحسن ابنه؟ قال: ذاك عود نضار غرس في منابت الكرم، حتى إذا اهتز حصدوه. قلت: فما تقول في نجاح بن سلمة؟ قال: لله دره، أي طالب وتر ومدرك ثأر يلتهب كأنه شعلة نار. له من الخليفة في الأحيان جلسة تزيل نعماً، وتحل نقماً. قلت: يا أعرابي؛ أين منزلك حتى آتيك؟ قال: اللهم عفواً ما لي منزل، أنا أشتغل النهار وألتف الليل، فحينما أدركني الرقاد رقدت، قلت: فكيف رضاك عن أهل العسكر؟ قال: إن أعطوني لم أحمدهم، وإن ضيعوني لم أذممهم، وإني كما قال هذا الغلام الطائي:

وما أبالي وخيرُ القول أصدقه حقنتَ لي ماء وجهي أو حقنت دمي

قلت: فأنا قائل هذا الشعر، قال إنك أنت الطائي؟ قلت: نعم قال لله أبوك، وأنت القائل:

ما جودُ كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي وقد أخلقته عرض»

٢ ـ صفات الواثق:

كان الواثق لا يبارى في علمه وأدبه حتى سمي المأمون الأصغر لأدبه وفضله. وقد شغف بالوقوف على آراء العلماء والحكماء، فطلب من حنين بن إسحاق أن يؤلف كتاباً يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء، والمسهل وآلات الجسد، فألفه وسماه «كتاب المسائل الطبيعية».

وقد أفرد الواثق مجلساً للمناظرة في قصره، مقتفياً في ذلك أثر عمه المأمون. سأل الواثق العلماء مرة في الزهد، فأفاضوا القول فيه. ثم طلب إليهم أن يخبره كل منهم عن أحسن ما سمع من أقوال الحكماء الذين حضروا وفاة الإسكندر. فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين! كل ما ذكروه حسن، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء «دوجانس»، فقال: إن

الإسكندر أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس. وقد نظم أبو العتاهية شعراً تتمثل فيه هذه الحكمة فقال:

كفى حزناً بدفنك ثم أني نفضتُ تراب قَبرك من يديا
وكانتْ في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وكان الواثق شاعراً يقول الشعر، ويجذل العطاء للشعراء الذين زخر عصره بكثير منهم. ومن هؤلاء أبو تمام الذي مهد طريق الحكم والأمثال لأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري.

حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين، ولم يول عهده أحداً. وسئل في مرض الموت أن يوصي بالخلافة لولده، فلم يقبل وقال: «لا أتحمل أمركم حياً وميتاً». وتوفي الواثق في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ. وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية، وذلك نتيجة طبيعية لهذه السياسة التي سار عليها أبوه المعتصم، الذي اعتمد على الأتراك، وأحلهم محل العرب، وما جره هؤلاء من إثارة خواطر الأهلين بسبب تمسكهم بالبدع الدينية.

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ ـ حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

(ا) تمثيل العباسيين ببني أمية:

تتبع السفاح البقية الباقية من بني أمية وأنصارهم. ويخيل إلينا أنه إنما لجأ إلى هذه السياسة، لما كان يضمره بنو هاشم لبني أمية من عداء منذ أيام الجاهلية، والعداء بين بني أمية وبني هاشم باقي الأثر، لم يزده الإسلام إلا تفاقماً وازدياداً. أضف إلى ذلك ما كان من تأثير الشعراء ورجال البلاط في إذكاء نيران هذا العداء، وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان.

وذكر المؤرخون أن العباسيين أخذوا بثأر إبراهيم الإمام، قتيل حران في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية؛ فقتل عبد الله بن علي عم السفاح نحو ثلثمائة من بني أمية، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك أخو يزيد الناقص، وذلك في شهر جمادى الآخر سنة ١٣٢هـ. ثم قبض على يزيد بن معاوية بن عبد الملك، وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك وبعث بهما إلى أبي العباس، فقتلهما وصلبهما؛ ثم قتل، وهو على نهر أبي فطرس بفلسطين خلقاً كثيراً من بني أمية، وقتل سليمان بن يزيد بن عبد الملك بالبقاء، وحمل رأسه إلى عبد الله بن علي، كما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية[١].

ولما أتي لأبي العباس برأس مروان ووضع بين يديه، سجد فأطال ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك، ثم قال: ما أبالي متى طرقني الموت، فقد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو[٢] هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم، وتمثل بقول الشاعر:

---

(١) انظر الملحق الرابع.

(٢) الشلو من كل شيء: الجسد وهو المراد هنا، والشلو العضو جمعه أشلاء.

لو يشربونَ دمي لم يرو شاربهم ... ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ثم حول وجهه إلى القبلة فأطال السجود، ثم جلس وقد أسفر وجهه، وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له:

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت ... قواطع في أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقربوا ... بهنَّ إلى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هام الرجال تركتها ... كبيض نعامٍ في الوعى متحطما[1]

نعم! كان للشعراء ورجال البلاط أثر كبير في إشعال نيران العداء ضد بني أمية فإن السفاح كان جالساً في مجلس الخلافة، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه السفاح، فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده:

لا يغرنكَ ما ترى من رجال ... إنَّ تحتَ الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال: قتلتني يا شيخ! ثم دخل السفاح وأخذ سليمان فقتل. ودخل على أبي العباس شاعر آخر، وقد قدم الطعام، وعنده نحو سبعين رجلاً من بني أمية فأنشده:

أصبح الملكُ ثابتَ الأساس ... بالبهاليل من بني العباسِ
طلبوا وِتر هاشمٍ فشفوها ... بعد مِيل من الزمان وياس
لا تُقيلنْ عبد شمسٍ عِثارا ... واقطعن كل رَقلة[2] وغراس[3]
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارقٍ وكراسي
أنزلوها بحيثُ أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد ... وقتيلاً بجانب المهراس[4]
والقتيل الذي بحران أضحى[5] ... ثاوياً بين غربة وتناسي[6]

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٣:
(٢) الرقل: جمع رقلة وهي النخلة التي فانت اليد سموقاً.
(٣) ما يغرس من صغار النخل.
(٤) (١) ماء بجبل أحد قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن.
(٥) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.
(٦) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٧٤.

أجل! لقد أعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضي، وما جره الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت. ولا زالت مأساة إبراهيم الإمام عالقة ببال الخليفة العباسي. فماذا كان من أمر هؤلاء الأمويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي أعادها إلى ذاكرة السفاح شعراء دولته؟ أمر السفاح بسليمان بن هشام فقتل، ثم أمر بمن كان في داره من بني أمية فضربوا بالسياط، وبسط النطوع عليهم، وجلس فوقهم، فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً.

وقد بالغ العباسيون في التنكيل ببني أمية وعولوا على استئصال شأفتهم، فتعقبهم أخوه وأعمامه في البصرة والكوفة والشام، ونبشوا قبر معاوية بن أبي سفيان، فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد.

على أن روح الانتقام الذي أضمره العباسيون لبني أمية لم ينته بوفاة السفاح، بل استمر طوال العصر العباسي الأول. يقول ابن دأب، وكان من خواص الخليفة الهادي: «دعاني في وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعوني في مثله. فدخلت إليه، فإذا هو جالس في بيت صغير شتوي وقدامه جزء ينظر فيه، فقال لي: يا عيسى! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: إني أرقت في هذه الليلة وتداعت إلي الخواطر واشتملت عليَّ الهموم، وهاج لي ما جرت إليه بني أمية من بني حرب وبني مروان في سفك دمائنا. فقلت! يا أمير المؤمنين! هذا عبدالله بن علي قد قتل منهم على نهر أبي فطرس فلاناً وفلاناً، حتى أتيت على تسمية من قتل منهم؛ وهذا عبد الصمد بن علي قد قتل منهم بالحجاز في وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن علي. . .» قال ابن دأب: فسرَّ والله الهادي[1].

وهكذا اشتد العداء بين بني أمية وبني هاشم جاهلية وإسلاماً. وقد نهج المأمون نهج من سبقه من الخلفاء في الحط من شأن الأمويين، حتى إنه أمر بلعن معاوية على المنابر في كافة الأمصار الإسلامية.

من ذلك نرى أن العباسيين لم يقفوا في معاملة بني أمية وأنصارهم عند حد التمثيل بالموتى ولعن بعض خلفائهم على المنابر، بل إنهم قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم، وأثاروا كراهة العرب بتقريب الفرس إليهم. فلا عجب إذا انصرف العرب عن العباسيين، ودب في نفوسهم دبيب الكراهية لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم، لممالأة العباسيين لهم واعتمادهم على ولائهم، فقامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية.

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥٨.

(ب) ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية ـ طمع الفرس في السلطان واستئنافهم الدعوة لآل علي:

قام الدين الإسلامي على أساس المساواة بين المسلمين كافة، عربهم وعجمهم؛ وأيد هذه النظرية بعض أحاديث أثرت عن النبي ﷺ، وآيات وردت في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[(١)] ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾[(٢)]، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». على أن الحكم ظل في حقيقة الأمر في يد العرب دون غيرهم من المسلمين، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، حتى إذا قامت هذه الثورة التي انتقل بها الحكم إلى العباسيين على أيدي الفرس، وخاصة الخراسانيين، سنحت الفرصة لهؤلاء بالاستئثار بالسلطة وتولي الحكم، وساعد على ذلك شدة ميل العباسيين إلى الفرس، وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية. كما أن إسراف العباسيين في التمثيل ببني أمية صرف عنهم العرب كما تقدم.

قامت الدولة العباسية باسم الدين، وعمل العباسيون على التأثير في عقول الناس عن طريق إعادة الأمر إلى آل محمد وإزالة سلطان بني أمية المغتصبين هذا الأمر منهم وهو الخلافة. وقد اختار الأئمة من ولد عباس لنشر دعوتهم في الكوفة وخراسان اللتين كانتا مهد التشيع من قديم، لأن الفرس الذين دخلوا في الإسلام كانوا أقرب إلى غيرهم من التأثر بآراء الشيعة، لأنهم لا يفرقون بين الخلافة والملك، ومن ثم ناصروا العلويين. هذا إلى أن الفرس الذين كانت بلادهم ذات تاريخ عظيم من أقدم العصور، والذين فرضوا سيادتهم على بعض بلاد العرب، قد وجدوا في نشر الدعوة لآل محمد فرصة يتخلصون بها من نير الأمويين، ويستردون شيئاً مما كان لهم من نفوذ وسلطان. لذلك رأوا أنهم بمساعدتهم هذه الدولة الجديدة يصبحون أصحاب الكلمة المسموعة فيها. ومن ثم غدا هذا النزاع في حقيقة الأمر نزاعاً بين العرب والفرس، بعد أن كان نزاعاً بين بني أمية وبني العباس.

على أن نفوذ العرب قد تقلص تدريجياً، حتى إن الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون لم تكن في حقيقة الأمر إلا جهاداً حزبياً بين العلويين والعباسيين من ناحية، وبين العرب والفرس من ناحية أخرى. ولم يكن انتصار المأمون على الأمين إلا انتصاراً للفرس على العرب وزوال حكم العرب زوالاً لا رجعة بعده.

وكان من أثر ذلك الميل الذي أبداه العباسيون نحو الفرس وتلك الرعاية التي حاطوهم

---

(١) سورة الحجرات ٤٩: ١٣. (٢) سورة الحجرات ٤٩: ١٠.

بها، أن أصبح نظام الحكم عند العباسيين مماثلاً لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان. قال بالمر في كتابه هارون الرشيد[1]: «ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي، كان طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية. ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسي على رأس الحكومة، كما نجد أيضاً أن الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان».

أجل! لقد اتخذ الخلفاء الموالي من الخراسانيين حرساً لهم، لاعتمادهم على ولائهم وإخلاصهم؛ واستبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة وتسلطوا على أرواح الرعية كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل. وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي، واحتجب الخليفة عن رعيته، واتخذوا الوزير والحاجب والكاتب، ودخلت مظاهر السلطان الفارسية قبل ظهور الإسلام بوقت طويل في بلاد الروم، وقضت باحتجاب أباطرة الروم عن الشعب وإحاطتهم برجال البلاط.

وطبيعي أن يميل العباسيون إلى الفرس، الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم، وقاموا في وجه أعدائهم الأمويين وإن مثل هذا الميل إلى الفرس، وتلك الكراهة التي أضمرها العباسيون للأمويين، لتتمثل في تلك الخطب التي ألقاها داود بن علي وأبو جعفر المنصور وغيرهما، يشيدون فيها بمآثر الفرس وما بذلوه من جهود في سبيل قيام الدولة العباسية، ويتوعدون الأمويين لما اقترفوه من ذنوب، ويمنون الفرس، وبخاصة الخراسانيين، بإجزال العطاء وإدرار الأموال. من ذلك قول داود بن علي: «يا أهل الكوفة! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا»[2]. وقول أبي جعفر المنصور: «يا أهل خراسان! أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا»[3]، كما أوصى المنصور ابنه المهدي بالخراسانيين خيراً فقال: «وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده»[4].

كذلك يتمثل ميل العباسيين إلى الفرس في تلك الخطبة التي ألقاها أبو جعفر المنصور في أهل خراسان، بعد أن قبض على عبدالله بن الحسن العلوي. وهي تبين لنا مبلغ عداء العباسيين للعلويين وأشياعهم ولأنصار الأمويين، وكيف أثاروا الفرس عليهم واعتمدوا عليهم في تأسيس دولتهم، وكيف عولوا على إسناد مناصب الدولة إلى الفرس.

---

(١) Palmer: Haroun al.Rashid, pp. 37 ' 38.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ١٢٧.

(٣) المسعودي: مروج الذهب: جـ ٢ ص ٢٤١.

(٤) الطبري جـ ٩ ص ٣١٩.

ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وآل بيته، صعد المنبر بالهاشمية، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد ﷺ، ثم قال: «يا أهل خراسان! أنتم أنصارنا وأهل دعوتنا؛ ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا. إن ولد ابن أبي طالب تركناهم، والذي لا إله إلا هو والخلافة، لم تعرض لهم بقليل ولا بكثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فما أفلح وحكم الحكمين، فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة. ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه. ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه، فوالله ما كان برجل، عرضت عليه الأموال فقبلها، ودس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدي فخلعه، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه... فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة... فأسلموه حتى قتل. ثم قام بعده زين بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه. وقد كان أبي محمد بن علي ناشده الله في الخروج، وقال له: لا تقبل أقاويل أهل الكوفة، فإنا نجد في علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب، وناشده الله بذلك عمي داود وتحذره رحمه الله عن زاهد الكوفة فلم يقبل... وقتل وصلب بالكناسة. ثم وثب بنو أمية علينا، فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كان لهم عندنا ترة (ثأر) يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم، فنفونا عن البلاد، فصرنا مرة بالطائف ـ ومرة بالشام ـ ومرة بالشراء، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً، فأحيا الله شرفنا وأعزنا بكم، وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا ﷺ، فقر الحق في قراره، وأظهر الله مناره وأعز أنصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا»[١].

على أن الفرس، على الرغم مما أظهره العباسيون من ميل ظاهر نحوهم حتى آثروهم على العرب فأسندوا إليهم مناصب الدولة مدنية كانت أو عسكرية، وعلى الرغم من تأثر العباسيين بهم في اقتباس نظم الحكم عنهم، والاقتداء بهم في مظاهر البلاط، وفي اللباس، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم ـ على الرغم من هذا كله كانوا لا يقنعون بما نالوه من عطف وميل، وما وصلوا إليه من نفوذ وسلطان فعملوا على التخلص من العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين. وإن ميل الفرس إلى العلويين قديم، كما تعلم، يرجع إلى أيام الحسين بن علي.

ولا غرو فقد شايع الفرس العلويين، لما كانوا يعتقدونه من أنهم وحدهم يملكون حق حمل التاج، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك هذه الأسرة؛ ولأنهم الأئمة رؤساء الدين حقاً. وذلك يتفق مع معتقداتهم الدينية: إذ كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرة تقديس وإكبار. ويعتقدون أنهم ظل الله في الأرض. كما كانوا يعتقدون أن

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

العلويين، وبخاصة أبناء الحسين بن علي، يمثلون حق النبوة والملك، لأنهم من سلالة النبي وآل ساسان. وهذا يفسر لنا سبب ميل الفرس إلى العلويين وعملهم على تحويل الخلافة إليهم. وقد اضطلع بهذا الأمر أحد زعماء الفرس. وهو أبو سلمة الخلال.

كان حفص بن سليمان. «ويكنى أبا سلمة الخلال»[١] مولى لبني الحارث بن كعب، من أهل اليسار في الكوفة: اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية. كما كان فصيحاً عالماً بالأشعار والسير والجدل والتفسير. وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بكير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام. فلما حانت وفاة بكير، أوصى الإمام بأن يعهد إلى أبي سلمة بالقيام بأمر الدعوة مكانه. فكتب إليه الإمام بذلك. فأخلص أبو سلمة للدعوة العباسية وبذل جهده للقيام بنصرتها. وقد اتفق المؤرخون على أنه لما سبر أحوال بني العباس، عزم على العدول عنهم إلى أولاد علي بن أبي طالب. ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة إلى العلويين أرسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً، وأمره أن يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، فإن أجاب أبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي؛ فإن أجاب أبطل كتاب عمر الأشرف بن علي زين العابدين، وإن لم يجب قصد عمر. فذهب الرسول إلى جعفر الصادق ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فلم يقم له وزناً ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال: «ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري؟» ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق، فسأله الرسول عن رد كتاب أبي سلمة فقال له: قد رأيتَ الجواب.

مضى الرسول بعد ذلك إلى عبد الله المحض، فسر بالكتاب، وركب غداة ذلك اليوم إلى جعفر الصادق وقال له: «هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان». فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفرس، أو الكثيرين منهم على الأقل، لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة: «ومتى صار أهل خراسان شيعتك؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته؟ كيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك؟» وهذا كلام رجل من كبار

---

(١) قيل في تلقيبه بالخلال ثلاثة أوجه:

(ا) لأن منزله كان قريباً من محلة الخلالين ـ وكان يجالسهم ـ فنسب إليهم، كما نسب الغزالي إلى الغزالين. لأنه كان يجالسهم كثيراً.

(ب) أو لأنه كانت له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب إلى ذلك.

(ج) وقيل أيضاً إنه نسب إلى خلل السيوف وهي أغمادها.

العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان، وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة، وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه، بل شك في نصحه، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذي جاءه قبله. وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه إلا أن رد الكتاب وقال: «أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه»[1].

من هذا كله نرى أن العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة أنصار ما يعبد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بداً من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها. ومن هذا لا نعجب إذا فتّ رفض هؤلاء العلويين في عضد أبي سلمة، وأدى إلى قتله على يد السفاح بعد أن وقف على ما دبره له ولأسرته.

ويحكي لنا التاريخ أن السفاح لما بويع بالخلافة، استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الخراسانيين، وهم عصب الدولة ومصدر قوتها، ولقبه وزير آل محمد. إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح؛ إذ خاف على نفسه إن هو قتله، قام أهل خراسان يثأرون له، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم، وكتب إليه مع أخيه المنصور كتاباً يخبره فيه: أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين، وعهد له بمعاقبته، وباطن الكتاب يشعر بتصويب قتله. فأرسل أبو مسلم رجالاً من أهل خراسان فقتلوه، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليه مقامه. وبذلك هيأ أبو مسلم سبيل قتله بنفسه، فقد عول السفاح على التخلص منه، إلا أن منيته حالت دون ذلك.

ولكن ميل الفرس إلى العلويين لم يخمد بقتل أبي سلمة الخلال، فقد كانوا يناصرون كل علوي يعمل على الخروج على العباسيين. ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي محاولة جعفر بن يحيى البرمكي تخليص يحيى بن عبدالله العلوي في عهد هارون الرشيد، وما قام به الفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان من تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين، حيث حمل المأمون على أن يولي عهده علي الرضا، وأن يتخذ الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين شعاراً رسمياً لدولته.

(جـ) حرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن علي والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني:

عمل العباسيون في مستهل دولتهم على التخلص من بني أمية، فأسرفوا في قتلهم والتمثيل بهم، مدفوعين في ذلك بما أضمروه للأمويين من ذلك العداء القديم الذي بقيت آثاره

---

(١) الفخري ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

بعد ظهور الإسلام. ومال العباسيون إلى الفرس ميلا شديدا، فقربوهم إليهم وآثروهم على العرب بالمناصب المدنية والعسكرية، مما أوغر صدور العرب من ناحية العباسيين. على أن الفرس لم يقنعوا بما نالوه من أثرة، (بفتح الألف والثاء والراء) وما تمتعوا به من نفوذ وسلطان في ظل العباسيين الذين أنقذوهم من نير الأمويين ومالوا إلى آل علي، لأنهم يجمعون، كما تعلم، بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي. هذا إلى مناوأة عبد الله بن علي عم المنصور الذي بدأ يناوئه السلطان، ويؤلب الناس عليه، ويعمل على اغتصاب الخلافة منه.

لذلك ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبدالله بن علي، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني. أضف إلى ذلك خروج العلويين وعلى رأسهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في الحجاز والعراق كما سيأتي.

ذلك أنه لما مات أبو العباس السفاح ولي الخلافة أبو جعفر المنصور. ولما اتصل بعمه عبد الله بن علي خبر وفاة أبي العباس، أمر منادياً فنادى في الجند: الصلاة جامعة. فاجتمع إليه القواد والجند، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى الذي ولاه السفاح عهده بعد أبي جعفر، ودعا إلى نفسه، وادعى أن أبا العباس لما أراد توجيه الجند لقتال مروان بن محمد قال لهم: «من انتدب منكم للمسير إليه فهو ولي عهدي، وأنه لم ينتدب لهذا الأمر أحد غيري». ويقال إن القواد بايعوا عبد الله، وكان بموضع يقال له دلوك بنواحي حلب، وأنه رحل إلى حران على طريق الموصل والشام، وطلب إلى واليها مبايعته فأبى، فهزمه وقتله.

ولما بلغ أبا جعفر أن عبد الله شق عصا الطاعة، ندب أبا مسلم لقتاله فقال له: لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله؛ إنما عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصونني. وقد ضم أبو جعفر إلى أبي مسلم نخبة من مشهوري قواد العرب كالحسن وحميد ابني قحطبة. ويقول اليعقوبي[1]: إن حميد بن قُحْطبة كان مع عبدالله بن علي، وإن هذا تخوف منه واحتال في التخلص منه، فأرسل معه إلى والي حلب كتاباً أمره فيه بقتله. ولما قطع ابن قحطبة نحو نصف الطريق، ارتاب في أمر هذا الكتاب، وتوجس خيفة من ناحية عبدالله بن علي. ولما فك الطومار وقرأ الكتاب، جمع خاصته وأعلمهم بما فيه، وسار إلى الرصافة وانضم بجنده إلى أبي مسلم، فقوي بانضمامه إليه وضعف جند عبدالله بن علي.

وهناك حادثة أخرى جعلت موقف عبد الله أشد حرجاً، هي أنه هم بقتل مَنْ في جنده من الخراسانيين، وكانوا زهاء سبعة عشر ألفاً، خشية انضمامهم إلى أبي مسلم. وقد كتب أبو

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٣٩

مسلم إلى عبد الله كتاباً يقول فيه: «إني لم أؤمر بقتالك ولم أوجه إليك. ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام، فأنا أريدها». وبذلك خدع أبو مسلم جند عبد الله من أهل الشام الذين خافوا على بلادهم وذراريهم وأبوا إلا المسير نحو بلادهم. فلم يـر عبد الله بداً من التوجه نحو بلاد الشام وحارب خمسة أشهر حلت بعدها الهزيمة بجنده، وذلك في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٦، وفر من ميدان القتال حتى وصل إلى البصرة، واختفى عند أخيه سليمان بن علي، وكان قد وليها من قبل المنصور، واستولى أبو مسلم على ما في معسكر عبد الله من مال وعتاد(١).

من ذلك نرى أن عبد الله بن علي قد أخطأ بعمله على التخلص من حميد بن قحطبة الذي كان يعد من أعظم قواد الدولة العباسية في ذلك الحين، ثم بقتله من كان في جيشه من الخراسانيين، مما أضعف قوته وأثار حفيظة من بقي معه من الجند، فلم يخلصوا له ولدعوته.

ويقول الطبري(٢): إن عبد الله بن علي بايع أبا جعفر المنصور سنة ١٣٨هـ، حين كان أخوه سليمان لا يزال على ولاية البصرة، وأن سليمان لما عزل اختفى عبد الله خوفاً على حياته، ثم ألح المنصور على سليمان بن علي وعيسى بن موسى بإحضار عبد الله، وأعطاهما الأمان على ألا يسيء إليه. ولكنه أمر بحبسه، وقتل بعض أصحابه، ثم قتله سنة ١٤٩هـ بعد أن حبسه تسع سنين(٣)، وأمن بذلك شر أبي مسلم ومحمد النفس الزكية وإبراهيم بن عبدالله بن الحسن العلوي وعمه عبدالله بن علي، كما عمل أبو جعفر على التخلص من عيسى بن موسى ليصفو الجو لابنه المهدي كما تقدم.

تفاقم العداء بين أبي مسلم وأبي جعفر المنصور منذ أيام السفاح، الذي بعث أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم، وكان بنيسابور، ومعه كتاب بتوليته على خراسان، وطلب منه أن يبايع أخاه أبا جعفر من بعده. وعلى الرغم من أن أبا مسلم أجاب الخليفة إلى ما طلب وأخذ له ولأخيه البيعة من أهل خراسان، حنق عليه أبو جعفر لاستخفافه به وأوغر صدر الخليفة عليه وحثه على قتله وخوفه من خروجه عليه، وقال له: «أطعني واقتل أبا مسلم فوالله إن في رأسه لغدرة». ولكن أبا العباس لم يجب أخاه إلى ما طلب، لما قام به أبو مسلم من جهود في سبيل الدولة العباسية، ولما كان يتمتع به من نفوذ في نفوس أهل خراسان.

ثم حدثت بين أبي جعفر وأبي مسلم أحداث أدت إلى إثارة عوامل الحقد والكراهة بين الرجلين. ذلك أن أبا مسلم أراد أن يحج بيت الله، فولى الخليفة أبا جعفر إمارة الحج فغضب أبو مسلم وقال: «أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا؟» وعمل أبو مسلم على الحط من

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٧٢.
(٣) المسعودي. مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٤.

هيبة أبي جعفر، بإنفاقه الأموال الضخمة في الترفيه عن العرب وإصلاح الطرق ثم بتقديمه عليه في الطريق بعد أداء فريضة الحج.

عند ذلك أتى أبا مسلم نعي أبي العباس السفاح، فكتب إلى أبي جعفر يعزيه في وفاة أخيه، ولم يهنئه بالخلافة أو يبعث إليه بالبيعة، أو يقف في طريقه حتى يلحق به الخليفة الجديد؛ ثم بايعه بعد مماطلة قليلة ليدخل في روعه القلق من ناحيته. ولما وصل المنصور إلى الكوفة، ندب أبا مسلم لمحاربة عمه عبدالله بن علي لخروجه عليه. ولما علم المنصور بانتصار أبي مسلم على عمه، أرسل إليه رسولاً من قبله ليحصي الغنائم. فغضب أبو مسلم وهم بقتل الرسول وقال: «أمين على الدماء خائن في الأموال»؟.

ولما عاد رسول أبي جعفر أخبره بما رآه، فخاف أن يعود أبو مسلم إلى خراسان فيؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها، فعمل على إبعاده عنها، وولاه مصر والشام، فغضب أبو مسلم وقال: «هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي»، وعول على السير إلى خراسان. عند ذلك أوجس المنصور خيفة من ناحية أبي مسلم وخشي خروجه عليه، وعول على التخلص منه قبل أن يستفحل شره، فكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالرجوع إليه، فرد عليه أبو مسلم: «أنه لم يبق لأمير المؤمنين - أكرمه الله! - عدو إلا أمكنه الله منه. وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان، أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد، حيث تقارنها السلامة. فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك، فإن أبيت إلا أن تعطي النفس إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي»[(١)].

وفي هذا الكتاب عبر أبو مسلم عما يجيش في صدره من حقد لأبي جعفر وما يخشاه على حياته إذا هو أطاع أمره. ولكن أبا جعفر أراد أن يسلك مع قائده العظيم سبيل اللين والمسالمة. فكتب إليه كتاباً يقول فيه: «قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة. فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة الأخرى التي أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها. وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طيه من الباب الذي فتحه عليك»[(٢)].

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٦١.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ١٦٦ - ١٦٧.

أرسل أبو جعفر هذا الكتاب إلى أبي مسلم مع أبي حميد المرورودي، وأمره أن يتلطف معه في القول حتى يلين، وأن يمنيه الأماني؛ فإن أبى هدده بالويل والثبور وعظائم الأمور، وأكد له أن الخليفة قد عول على القضاء عليه، ولو خاض البحر واقتحم النار حتى يقتله أو يموت. فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتملكه القلق، ولا سيما بعد أن علم أن أبا جعفر أرسل إلى نائب أبي مسلم بخراسان كتاباً يمنيه فيه بولايتها إذا هو قطع صلته به وحال دون وصوله إليها. كما ازداد قلق أبي مسلم حين بلغه كتاب نائبه في خراسان يقول: «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه». وكان تهديد أبي حميد نائب أبي مسلم في خراسان كافياً لعدوله عن رأيه، ولكن بعض نصحائه لم يطمئن إلى وعود أبي جعفر ورسله، وحذروه من الرجوع إليه.

ولما علم أبو جعفر بقرب أبي مسلم من المدائن، دبر أمر اغتياله، وأمر في الوقت نفسه رجالات دولته وأفراد البيت الهاشمي بلقائه. ثم مثل أبو مسلم بين يدي الخليفة، فقال له: انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام، فإن للسفر عناء، إحضر غداً. وأرسل الخليفة إلى عثمان بن نهيك رئيس حرسه، ودبر معه طريقة قتله، وهي أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم، وأن يكونوا خلف الرواق، على أن يخرجوا إذا صفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم.

ثم أصبح الصباح وجاء أبو مسلم ومثل بين يدي أبي جعفر الذي أخذ يحدثه ويقول له[١]: أخبرني عن نصلين أصبتهما في متاع عبد الله بن علي، قال: هذا أحدهما الذي عليّ. قال: أرنيه، فانتضاه، فناوله فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه؛ وأقبل عليه يعاتبه، فقال: أخبرني عن كتابك إلى العباس تنهاه عن الموات[٢] أردت أن تعلمنا الدين؟ قال: ظننت أخذه لا يحل، فكتب إلي، فلما أتاني كتابي علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم. قال: أخبرني عن تقدمك إياي في الطريق، قال: كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس، فتقدمتك التماس المفرق. قال: فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلي. تقدم فترى من رأينا، ومضيت، فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت إلي، قال: منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس، وقلت نقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف. قال: فجارية عبدالله بن علي أردت أن تتخذها، قال: لا، ولكني خفت أن تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها، قال فمراغمتك وخروجك إلى خراسان، قال: خفت

---

(١) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) الموات. ما لا روح فيه أو هو الأرض التي لا مالك لها.

أن يكون قد دخلك مني شيء، فقلت: آتي خراسان فأكتب إليك بعذري، وإلى ذاك ما قد ذهب ما في نفسك علي. قال: تالله ما رأيت كاليوم قط، والله ما زدتني إلا غضباً. ثم أقبل يعاتبه: ألست الكاتب تبدأ بنفسك، والكاتب إلي تخطب أمينة بنت علي، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ ما دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر؟ قال: أراد الخلاف وعصاني فقتلته(١). فقال المنصور: وحاله عندنا حاله فقتلته، وتعصيني وأنت مخالف عليّ، قتلني الله إن لم أقتلك. فضربه بعمود وخرج عثمان بن نهيك وشبيب وحرب فقتلوه، وذلك لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٣٧هـ، فقال المنصور:

زعمت أن الدّين لا ينقضي   فاستوف بالكيل أبا مجرم
سُقيت كأساً كنت تسقي بها   أمرّ في الحلق من العلقم

وكان أبو مسلم قد قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف صبراً. وقيل إن أبا جعفر لما عاتبه قال: فعلت وفعلت، قال أبو مسلم: ليس يقال هذا إلي بعد بلائي وما كان مني فقال: «يا ابن الخبيثة! والله لو كانت أمة مكانك لأجزت ناصيتها، إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً».

وقد كان أبو مسلم قال ـ فيما قيل ـ عند أول ضربة أصابته: يا أمير المؤمنين! استبقني لعدوك، فقال: لا أبقاني الله إذاً، وأي عدو لي أعدى منك؟ وقيل إن عيسى بن موسى دخل بعدما قتل أبو مسلم، فقال: يا أمير المؤمنين! أين أبو مسلم؟ فقال: قد كان ههنا آنفاً، فقال عيسى: يا أمير المؤمنين! قد عرفت طاعته ونصيحته ورأي الإمام إبراهيم كان فيه فقال: يا

---

(١) نقل فان فلوتن عن كتاب المقفى الكبير للمقريزي (مخطوط. المكتبة الأهلية بباريس، ورقة ٨٠ ب) شذرات خاصة بمقتل سليمان بن كثير فقال: وكان سليمان بن كثير الخزاعي من النقباء، فلما قدم أبو جعفر أخو أبي العباس على أبي مسلم قال له: إنا كنا نحب تمام أمركم، وقد تم بحمد الله ونعمته، فإذا شئتم قلبناها عليه. وكان محمد بن سليمان بن كثير خداشياً، فكره تسليم أبيه الأمر إلى أبي مسلم. فلما ظهر أبو مسلم وغلب على الأمر قتل محمداً، ثم أتى سليمان الكفية، وهم الذين بايعوا على أن لا يأخذوا مالاً وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها ويدخلون الجنة. ويقال إنهم أعطوا كفاً من الحنطة فسموا الكفية، وقال لهم: حفرنا نهراً بأيدينا فجاء غيرنا فأجرى فيه الماء، يعني أبا مسلم، فبلغ قوله أبا مسلم، فاستوحش منه، وشهد عليه أبو تراب الداعية ومحمد بن علوان المروروذي وغيرهما في وجهه، بأنه أخذ عنقود عنب وقال: اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسق دمه. وشهدوا أن ابنه كان خداشياً، وأنه بال على كتاب الإمام، فقال أبو مسلم لبعضهم: خذ به وألحقه بخوارزم، وكذلك كان يقول لمن أراد قتله، فقتل سليمان بن كثير: (السيادة العربية ـ ترجمة المؤلف ص ١٤٦ ـ ١٤٧).

أنوك، والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه، هاهو ذاك في البساط، فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون. وكان لعيسى رأي في أبي مسلم، فقال له المنصور: خلع الله قلبك، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم؟ ثم دعا أبو جعفر بجعفر بن حنظلة، فدخل عليه فقال: ما تقول في أبي مسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن كنت أخذت شعرة من رأسه، فاقتل ثم اقتل ثم اقتل، فقال المنصور: وفقك الله، ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولاً، فقال: يا أمير المؤمنين: عُدَّ من هذا اليوم لخلافتك»[١].

ثم خطب المنصور في الناس خطبة قال فيها: «أيها الناس! لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة، فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه، إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الذي بادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه. إنه من نازعنا هذا القميص أجزرناه خبى هذا الغمد. وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكبت بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا. ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه». ثم أعطى المنصورالجوائز لقواد أبي مسلم وجنده حتى رضوا، ورجع أصحابه وهم يقولون: «بعنا مولانا بالدراهم»[٢].

ولكن قتل أبي مسلم لم يرض أهل خراسان ولم يرض أنصاره، فخرج رجل منهم اسمه سنباذ يطلب الأخذ بثأره: وكان مجوسياً من بعض قرى نيسابور، وقد كثر أشياعه، وأطاعه كثير من أهل خراسان، وبخاصة أهل الجبال[٣]. فلما بلغ المنصور خبر سنباذ أرسل إليه عشرة آلاف فارس أحلوا به الهزيمة. وخرج غير سنباذ كثيرون طلباً لثأر أبي مسلم، وكان المقنع الخراساني أشدهم خطراً. واعتقد بعضهم أنه حي لم يمت، فزعموا أنه «أو شيدربامي» (بكسر الشين والدال) أو «أو شيدرما» أحد أعقاب زرادشت (بفتح الزاي وضم الدال وسكون الشين) الذي ينتظر المجوس ظهوره كما ينتظر المسلمون ظهور المهدي، حتى إن تلك الطوائف لم تعتقد بموت أبي مسلم، بل كانوا ينتظرون رجعته ليملأ الأرض عدلاً، على حين حول بعض أشياعه الإمامة إلى ابنته فاطمة[٤].

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٦٧.
(٢) الطبري جـ ٩ ص ٣١٣.
(٣) أي الجبال الواقعة جنوبي بحر قزوين أو بحر طبرستان، وسمي بذلك لأن طبرستان أشهر البلاد الواقعة عليه.
(٤) السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ١٣٤.

ويقول نظام الملك[١]: كان أول ما يتكلمون به في دعواتهم، ترحمهم على أبي مسلم الخراساني والمهدي وفيروز حفيد أبي مسلم وابن بنته فاطمة. وذهب «كازانوفا» إلى القول بأن هؤلاء الأشياع كانوا يسمون الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت أبي مسلم، وهؤلاء هم طائفة الخرمية التي سيأتي الكلام عليها.

وفي رأينا أن المنصور إنما قام بهذا العمل مدفوعاً بما كان بينه وبين أبي مسلم من حزازات شخصية قديمة. وقد زاد أبو مسلم النار اشتعالاً، بتماديه في زهوه وإعجابه بنفسه وإسرافه في قتل النفوس البريئة بغير شفقة أو رحمة. ومما يؤخذ عليه قتله سليمان بن كثير.

أما إخلاص هذا الرجل وتفانيه في نصرة العباسيين، فأمر لم يقم الدليل بعد على إضعافه أو دحضه. وإن أبا جعفر إنما قام بهذا العمل، مدفوعاً بعوامل الغيرة من أبي مسلم، متأثراً بهذه الهواجس التي استولت عليه، فظن به الظنون وخامرته الريب في إخلاصه وولائه. وعندنا أن أبا مسلم إن كان يستحق القتل على يد أحد من الناس، فيصح أن يكون بعيداً عن بيت العباس.

وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها في أغلب الأحيان. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتمنوا الدول فتحرموها». ويقول صاحب الفخري (ص ١٣٨): «وكان المخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك، كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به».

والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون، فقد كانت خاتمة أبي عبد الله الشيعي الذي تدين له الدولة الفاطمية بظهورها ووجودها في عالم الدول المستقلة، خاتمة أبي مسلم الخراساني، مع ما عرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية.

وقد استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيه من دهاء وحزم، أن يقهر أعداءه من العرب ويأسر عمه عبد الله بن علي ثم يقتله، وأن يقهر أعداءه من الفرس ويقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية.

---

(١) Siasset Nameh, tome II, p. 290.

(د) حركات الموالي:

١ ـ الراوندية:

لم يكد المنصور ينتهي من قتل أبي مسلم الخراساني حتى فوجىء بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس، وكانوا قبل الفتح الإسلامي يقدسون ملوكهم فيجعلونهم في مصاف الآلهة، وهؤلاء هم الراوندية[١].

كانت الكوفة التي ظهر منها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامي. وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء) Parsees والمانوية والصابئة وغيرها، وذلك للتوفيق بينه (أي الإسلام) وبين تلك الديانات المختلفة. وكان الدعاة يقومون بنشر الدين الإسلامي بين الناس بحماسة وحمية، برغم هذا التغيير الذي طرأ عليه في ذلك الحين، ويدافعون عنه بإخلاص وغيرة، حتى كان يحكم على الكثيرين من الغلاة والمبتدعين منذ أيام علي بن أبي طالب إلى عهد المنصور العباسي (حين أصبحت بغداد حاضرة الدولة الإسلامية)، وذلك لجرأتهم على الابتداع في الإسلام وإدخالهم فيه ما ليس منه. وإلى القارىء ما ذكره المدائني المؤرخ المتوفى سنة ٢١٤هـ عن عقيدة الراوندية، قال: إن رجلاً من الرواندية كان يقال له الأبلق، وكان أبرص، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية، فزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة واحداً بعد واحد، إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبي)، وأنهم آلهة، كما استحلوا الحرمات. فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم الحرمات. فبلغ ذلك أسد بن عبدالله (القسري) فقتلهم وصلبهم، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم، فعبدوا أبا جعفر المنصور، وصعدوا إلى الخضراء[٢]، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون[٣]. وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت أنت! (يعنون أنت الله!) فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم. فأقبلوا يقولون: أنت أنت![٤]».

---

(١) نسبة إلى مدينة راوند (بفتح الواو) القريبة من أصفهان وكانت مهد دعوتهم.

(٢) هي القبة التي بناها المنصور ببغداد.

(٣) لا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس القدرة على الطير في الهواء حتى اليوم كما يعزى مثل ذلك أيضاً إلى بعض البوذيين.

(٤) راجع الطبري جـ ٩ ص ٣٠٧. فان فلوتن السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٨٢ و٩٦.

لم ير المنصور بداً من أن يضرب على أيدي هؤلاء، لأنه لم يكن يستطيع أن يوافقهم على قولهم، لخروجهم على الدين والدولة، ولأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة.

وقد حبس المنصور من زعماء الراوندية مائتي رجل، فأثار هذا نفوس أنصارهم فاجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا الرؤساء، ثم قصدوا المنصور وحاربوه، فخرج إليهم ماشياً. فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه، لولا أن أغاثه معن بن زائدة الشيباني، أحد قواد الأمويين الذين حاربوا العباسيين تحت إمرة ابن هبيرة والي العراق. وقد ظهر معن، وقاتل دون الخليفة العباسي، فأبلى بلاء حسناً، فظفر بالراوندية وكوفىء بولاية اليمن، وكان قد أخفي بعد واقعة واسط إلى هذه الساعة.

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين، لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني، الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروي كما كان ينظر إليهم باعتبارهم زنادقة، يرون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها؛ فعاملهم كما عامل أبا مسلم وقتلهم شر قتلة. إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يقضي عليهم قضاء تاماً، فظهروا في صور مختلفة نراها في مثل ثورات المقنع الخراساني وبابك الخرمي وغيرهما.

٢ ـ المقنعية:

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) ظهر المقنع (بضم الميم وفتح القاف وفتح النون مع التشديد) بخراسان. وكان رجلاً قبيح الخلقة أعور قصيراً، من أهل مرو. عمل وجهاً من ذهب وركبه على وجهه، وادعى الألوهية. وكان يقول: الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، ثم إلى صورة إبراهيم، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء، ثم في صورة محمد، ثم تحول بعده في صورة علي بن أبي طالب، ثم انتقل في صورة أولاده، حتى حصل في صورة أبي مسلم الخراساني. ثم زعم أنه انتقل منه إليه، وقال: إني أتنقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها. ومن رآني احترق بنوري. وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج، وأباح للناس الأموال والنساء، كما أباح لهم تعاليم مزدك، فعبده الناس وسجدوا له.

وقد أظهر المقنع قمراً يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر ثم يأفل. وفي ذلك يقول أبو العلاء المعري[1]:

---

(١) شرح التنوير على كتاب سقط الزند لأبي العلاء المعري (القاهرة سنة ١٢٨٦هـ) جـ ٢ ص ١٠٣.

أفِـقْ إنمـا البـدر المـقـنـع[١] ضـلالٌ وغي مثل بـدر المقنـع

وإلى ذلك يشير أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك في إحدى قصائده:

إليـك فـما بـدرُ المقنع طـالعـاً بـأسحر من ألفاظ بـدر المعمم[٢]

وكان المقنع في مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزّام وكانوا كيسانية في الأصل)، الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية، ثم إلى ابنه أبي هاشم، ثم إلى علي بن عبدالله بن عباس، ثم إلى ابنه محمد، ثم إلى ابنه إبراهيم الإمام، ثم إلى أخيه أبي العباس السفاح، ثم انتقلت إلى أبي مسلم الخراساني. وقد ظهروا بخراسان واتخذوا مرو مركزاً لنشر دعوتهم، واعتقدوا أن روح الله قد حل في أبي مسلم، وأنه أيده وأعانه على بني أمية فقتلهم عن آخرهم. كما قالوا بتناسخ الأرواح. واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلهاً بحلول روح الله فيه، وأنه حي لم يمت. وينتظرون عودته، قالوا إن الذي قتله المنصور كان شيطاناً تصور للناس في صورة أبي مسلم، وهؤلاء بمرو وهراة يعرفون بالبركوكية[٣].

ولما قوي أمر المقنع وكثر أنصاره، انضم إليه أهل بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين. واعتصم بقلعة حصينة بكش، وأرسل إليه الخليفة المهدي سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم، الذي طاوله حتى ضجر هو وأصحابه، فطلب أكثرهم الأمان، وبقي هو في القلعة مع نفر يسير من أصحابه، ولما شعر المقنع بالهزيمة، أشعل النار في القلعة، وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع، وأذاب النحاس والسكر في تنور، وجمع نساءه وأولاده وطلب ممن أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا إلى السماء، وقال «أنا صاعد إلى السماء، فمن أراد أن يصحبني فليشرب من هذا الشراب». وسقاهم شراباً مسموماً شرب هو منه، فماتوا جميعاً، وألقى نساءه وأولاده في النار، ثم ألقى بنفسه فيها خوفاً من أن يظفر أعداؤه بجثته أو جثث نسائه، وذلك سنة ١٦٩هـ. واطمأن المهدي من ناحية المقنع وأمن الناس من شر مبادئه.

---

(١) يريد بالبدر المقنع رأس امرأة مقنعة تشبه بحسنها البدر. والمراد بالمقنع رجل من الممخرقين تنبأ ببلاد ما وراء النهر في ناحية كش (بضم الكاف) وأغوى بمخرقته كثيراً من الناس وادعى «أنه يطلع بدراً في السماء» فأنبط بئراً واسعة في بعض جبال تلك الناحية، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء، فكان شعاعه يظهر في الجو كأنه بدر. وأقام بذلك مدة يغري الناس ويضلهم بأباطيله ويقول: أفق من سكرة الهوى ودعوى محبة النساء، فإن المرأة المقنعة التي تحسبها بدراً مقنعاً حسناً وبهاء، حبها والاغترار بها غواية وضلالة كالاغترار ببدر المقنع الذي أظهره تمويهاً وتغريراً.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٥٣.

(٣) النوبختي: فرق الشيعة ص ٤٢ ـ ٤٣. الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧

ولكن موت المقنع لم يضع حداً لتعاليمه التي اعتنقها نفر من بلاد ما وراء النهر، أصبحوا يعرفون باسم «المقنعية المبيضة». وقد زعموا أن المقنع كان إلهاً، وأنه تصور في كل زمان بصورة خاصة(١)، وأصبح له أشياع في بلاد ما وراء النهر وفي تركستان، حيث اتخذوا في كل قرية مسجداً يصلون فيه ويستحلون الميتة والخنزير، ويبيحون النساء، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذن مسجدهم قتلوه وأخفوا جثته.

٣ ـ الخرمية:

(ا) بابك الخرمي:

كانت بلاد الفرس التي نشأ فيها بابك الخرمي كثيرة المعتقدات والبدع، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعده. ولهذا ظهرت فيها الطوائف الدينية على اختلافها ومنها طائفة الخرمية(٢) (بضم الخاء وفتح الراء مع التشديد وكسر الميم) التي أسسها مزدك (بفتح الميم والدال وسكون الراء) في أيام قباذ(بضم القاف) أبي كسرى الأول المعروف بأنو شروان. وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية(٣) طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك (بفتح البائين)، الذي ادعى الألوهية، وعكر صفو الدولة العباسية في أيام المأمون، وأخذ أمره يتفاقم إلى أيام المعتصم.

ويرى بعض المؤرخين أن بابك الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني، وأنه ثار في وجه العباسيين لينتقم لأبي مسلم، وأن حركته استمرار لحركة المقنع الخراساني والروائدية وغيرهم. ويقول أبو حنيفة الدينوري(٤): «والذي صح عندنا وثبت، أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم هذه، التي تنسب إليها الفاطمية من الخرمية، لا إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ».

وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان أحد رؤساء الخرمية. ولما توفي جاويدان أقامت امرأته بابك مكانه، وادعت أن روحه حلت في جسده، وأوعزت إلى رجاله بوجوب طاعته. ثم تزوجت منه، فأخذ بابك في إفساد عقول الناس حتى كان المأمون بمرو.

وفي عهد المعتصم تفاقم قلق أهل بغداد من بابك الخرمي، ودخلت أذربيجان تحت حوزته، وأعانه ملك أرمينية وإمبراطور الدولة البيزنطية. وانتشرت جيوشه، وأدخل الرعب في

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢١٥.

(٢) قيل إنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها.

(٣) وهؤلاء يسمون الخرمية الأول، لتمييزهم عن الخرمية الثانية الذين نبغ منهم البابكية أتباع بابك الخرمي في عهد المأمون والمعتصم.

(٤) الأخبار الطوال (طبعة ليدن) ص ٢٩٧.

نفوس أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التي كانت، ولا تزال، تموج بالمذاهب المختلفة: فهناك الزرادشتية والمانوية والمزدكية والأبو مسلمية (أتباع أبي مسلم الخراساني). وكل هذه العقائد مجتمعة تكون عقائد الخرمية.

ويقول البلخي[١]: «وانضوى إليه القطاع والحراب والذعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة، وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى الرجالة. واحتوى على مدن وقرى، وأخذ بالتمثيل بالناس والتحريق بالنار والانهاك في الفساد وقلة الرحمة والمبالاة. وهزم جيوشاً كثيرة للسلطان وقتل عدة قواد. وذكر في بعض الكتب أنه قتل فيما حفظ ألف ألف إنسان من بين رجل وامرأة وصبي[٢]».

مبادىء الخرمية:

ومبادىء الخرمية جديرة بالبحث لما كان لها من الأثر في تاريخ العصر العباسي، وبخاصة في علاقة الموالي بالعباسيين. فمن مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس والمجوس، وهم بذلك قد أثاروا حرباً شعواء على الإسلام والعرب. يؤيد هذا ما ذكره البلخي[٣]: فإن الخرمية احتالوا في إزالة الملك إلى العجم، فموهوا هذه النحلة، وزينوها للجهال، ودعوا إليها في السر. ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد». ومن مبادئهم تأليه البشر، فقد ادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه، حتى جعل الخرمية يقولون: «آمنا بك يا روح بابك كما آمنا بك يا روح جاويدان». كما كان من مبادىء الخرمية مبدأ الرجعة التي قال بها غلاة المتشيعين.

ويقول البلخي[٤] عن مبادئ الخرمية: «هم فرق وأصناف، غير أنهم يجمعهم القول بالرجعة، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (يعني القول بالتناسخ)، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة، وأن الوحي لا ينقطع أبداً. وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب. ولا يرون تهجينه (أي تحقيره) والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرم كيد نحلتهم وخسف مذهبهم... ويعظمون أمر أبي مسلم، ويلعنون أبا جعفر على قتله، ويكثرون الصلاة على فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت

---

(١) كتاب البدء والتاريخ جـ ٦ ص ١١٥ - ١١٦. انظر ما كتبه نظام الملك عن ثورة بابك (سياسة نامة جـ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٨).

(٢) انظر الملحق الخامس حيث أوردنا ما ذكره المسعودي عن نهاية بابك الخرمي.

(٣) كتاب البدء والتاريخ: جـ ٥ ص ١٣٤.

(٤) البدء والتاريخ. جـ ٤ ص ٣٠ - ٣١.

أبي مسلم، ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم «فريشتكان»، ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة. وأصل دينهم القول بالنور والظلمة. . . ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء. . . وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع».

ويؤيد هذا ما ذكره نظام الملك[١] من أنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة. وأباحوا شرب الخمر، ونادوا بإباحة المحرمات والاشتراكية في النساء. ويعتقد الإنسان أن هذه المبادىء هي مبادىء مزدك. ويبذلون كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الإسلام قضاء مبرماً، كما أنهم لم يشعروا بأي ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت، وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلاً إلى جذب الأنصار إليهم، لنشر دعوتهم التي ترمي إلى هدم العقائد الإسلامية. ويقول نظام الملك إن الخرمية والباطنية سواء.

ويرى بعض الباحثين كما يقول فان فلوتن[٢] أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذي قد يكون مشتقاً من خرم (اسم لمدينة ببلاد ميديا) أو من كلمة خرم ومعناها «لذيذ» فإذا ما تكلمنا عن «خرم دينيا»، فلكي نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً غير اللذة. ومن هنا يتبين أن هذه الطوائف، وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التي لهن في البلاد الشرقية وأباحت لهن الظهور في المجتمعات الدينية، فإن ذلك لم يكن إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن في تلك المجتمعات.

على أن ما ذهبت إليه هذه الطائفة من الاستمتاع باللذة التي لا حد لها لم يكن العامل الوحيد فيما يكنه أهل السنة من البغض لهذه الطوائف، وإن كنا لا نستطيع في الوقت نفسه أن ننكر أنه كان لغلو بعض المتطرفين من أهل هذه الطوائف أثر كبير في بغض السنيين لطائفة الخرمية.

(ب) الأفشين والمازيار:

ولم يكد المعتصم ينتهي من ثورة بابك التي هددت ملكه وأقلقت باله وأفنت كثيراً من جنده، وأضاعت أمواله وأهلكت الحرث والنسل، حتى فوجىء بثورة الأفشين، أو بمؤامرته التي دبرها بالاشتراك مع المازيار، وكان رئيساً للمحمرة، وهم فرقة من الخرمية أتباع بابك الخرمي، وقد تألق نجم المازيار في أيام المأمون، فوثق به وولاه جبال شروين في أطراف بلاد طبرستان، وسماه محمداً، وسمح له بأن يحتفظ بلقب الإصبهبذ الذي كان يطلق على كل من يلي هذه الجهات.

---

(١) سياسة تامة: ص ٢٩٨ وما يليها.
(٢) السيادة العربية، ترجمة المؤلف ص ٩٩ ـ ١٠٠.

ولما مات المأمون وولي أخوه المعتصم الخلافة كشف المازيار عن ميوله الثورية، ودارت المراسلات بينه وبين بابك الذي كان يدين بمبادىء الخرمية كما ذكرنا، وعرض عليه مساعدته في ثورته على الخليفة العباسي. ويقول الطبري[١] إن المازيار لما عزم على الخلاف دعا الناس إلى البيعة، فبايعوه كرهاً، وأخذ منهم الرهائن، فحبسهم في برج الإصبهبذ، وأمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهابهم. ومما يؤيد اتصال المازيار ببابك واتفاقه معه على الشقاق، ما ذكره البغدادي[٢]: «وكانت فتنة مازيار قد عظمت في ناحيته إلى أن أخذ في أيام المعتصم... وصلب بسر من رأى بحذاء بابك الخرمي. وأتباع مازيار اليوم في جبلهم أكرة[٣] يظهرون الإسلام ويضمرون خلافه». كان المازيار من دهاقين الفرس، يخضع مباشرة للخليفة العباسي دون ولاة خراسان من آل طاهر، وانتهز فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمي، فاتصل به وبالأفشين سراً، وعمل ثلاثتهم على محو الإسلام من بلادهم والتخلص من حكم العرب. فهذه الثورة وأمثالها كانت في الواقع ثورة دينية سياسية معاً، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية، وهي في الوقت نفسه حركة شعوبية تعمل على حط شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم.

وكان الأفشين من بلاد أشروسنة (بسكون الشين وفتح السين) ببلاد ما وراء النهر الواقعة بين أقاليم فرغانة شرقاً وسمرقند غرباً والشاس شمالاً. وكان هو وأبوه في خدمة الخليفة المعتصم، فولاه قيادة إحدى الفرق التي سيرها لغزو عمورية، فاشتهر في حروبه حتى وثق به المعتصم، وقربه إليه، وولاه حرب بابك الخرمي.

لكن الأفشين عرف بالتعصب لبلاده، حتى إنه لم يصله وهو يحارب بابك مال أو هدية إلا أرسلها إليها. وقد قيل إن عبد الله بن طاهر قبض على كثير من هذه الأموال وهي في طريقها إلى أشروسنة[٤]. وكان الأفشين ـ كما كان بابك والمازيار من قبله ـ يسعى إلى الاستقلال ببلاده والخروج على الإسلام والدولة العباسية معاً؛ كما كان يعتقد أنه لا سبيل إلى نصرة المجوسية إلا على أيديهم. ويقول براون[٥]: «إن الأفشين لم يكن في ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحباه في نهايته المحزنة»، حتى قيل إنهم وجدوا في داره أصناماً زعموا أنها كانت قد حملت إليه[٦]، وأنه كان يعبدها، كما وجدوا عنده كتباً للزنادقة. ومما يدل على أنه كان يكره العرب ويظهر الإسلام ويبطن الكفر قوله: «إني قد دخلت لهؤلاء

(١) جـ ١٠ ص ٣٤٩.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢.
(٣) الأكرة هم عمال الأراضي.
(٤) الطبري جـ ١٠ ص ٢٦٣.
(٥) Lit. Hist. of Persia Vol I p.330
(٦) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٤.

القوم (العرب) في كل شيء أكرهه، حتى أكلت منهم الزيت، وركبت الجمل، ولبست النعل، غير أني إلى هذه الغاية»، يعني لم يطل(١) ولم يختتن. وقد عبر أبو تمام عن عقيدة الأفشين في هذه الأبيات:

قد كان بوأه الخليفة جانباً ... من قلبه حرماً على الأقدار
فإذا ابن كافرةٍ يسر بكفره ... وجْداً كوجْد فرزدقٍ بنوار(٢)
ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى شرَّ الزناد الواري
صلى لها حياً وكان وَقودَها ... مَيْتاً، ويدخلها مع الفجار

كما أباح الأفشين لنفسه أكل المنخنقة من الحيوانات بحجة أن لحمها أرطب من لحم المذبوح. وكان لا يذبح على طريقة المسلمين، فيأتي كل يوم أربعاء وينصف شاة بسيفه، ويمر وسطها، ثم يأكل لحمها جرياً على عادة قومه. وكان، كالمقنع الخراساني، حين يكاتب قومه يبدأ بقوله: «من إله الآلهة إلى عبده فلان».

وقد ذكر المسعودي(٣) أن المازيار بعد أن قبض عليه، «أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس».

ومن محاكمة المعتصم للأفشين، يتبين مبلغ تعصب الأفشين لدينه ووطنه، وتنكشف سلسلة التهم التي رمي بها، كما نتبين اهتمام المعتصم بكشف غوامض هذه المؤامرة الخطيرة التي دبرها الأفشين وأنصاره. لذلك نراه يعقد لمحاكمته مجلساً برئاسته، ومعه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وقاضيه أبو دؤاد وكثير من رجالات الدولة(٤).

ولكن خاتمة الأفشين لم تكن كخاتمة بابك؛ فإنه أودع السجن ومات مسموماً، ثم أخرجت جثته فصلبت، وأحرقت مع الأصنام التي وجدت في داره، وذلك في سنة ٢٢٦ هـ.

وقد علق ميور(٥) على محاكمة الأفشين بقوله: «إنها تبين بجلاء كيف كان تمسك أهالي

---

(١) أي لم يزل شعره بالنورة (مادة لإزالة الشعر).

(٢) نوار زوجة الفرزدق كان قد طلقها فندم على ذلك وقال:

ندمت ندامة الكسعي لما ... غدت مني مطلقة نوار
وبت كفاقد عينيه عمداً ... فأصبح ما يضيء له نهار

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٤.

(٤) انظر الملحق السادس الخاص بمحاكمة الأفشين.

(٥) The Caliphate, pp. 518 - 519

ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثني، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم، ثم لتحصنهم في بلادهم المنيعة وقربهم من الأتراك الوثنيين. وقد خلص ميور من ذلك بهذا الرأي، وهو أن إسلام بعض أهالي فارس إنما كان إسلاماً ظاهرياً، وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ويعودوا إلى دينهم القديم. ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه الحركات التي أشعل نيرانها سنباذ المجوسي وأنصار أبي مسلم الخراساني وبابك الخرمي.

٤ ـ الزنادقة:

كان أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً في العصر العباسي الأول، تلك الثورات التي أذكى نيرانها الزنادقة، الذين تبعد تعاليمهم عن تعاليم الإسلام وعقائده، وتقوم على أنواع من الديمقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للخطر.

وللزندقة عدة معان تختلف باختلاف العصور: فقد كان العرب يطلقون لفظ «زنديق» على من ينفي وجود الله سبحانه، أو يقول إن له شريكاً[1].

وقيل: إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وفي ذلك يقول الشاعر:

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيبةٌ ... وللمفاليس دارُ الضنك والضيق
ظللت حَيْرانَ أمشي في أزقتها ... كأنني مصحفٌ في بيت زنديق[2]

وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم ويسرف في العبث والمجون، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعاراً له، ويتمسك بعقيدة الثنوية، وعبادة إلهين اثنين، واتباع تعاليم ماني. ثم توسعوا في العصر العباسي في إطلاق لفظ الزندقة، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية، أو يتظاهر بالظرف.

ويرجع تاريخ الزندقة إلى أواخر العصر الأموي: فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مربي الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومؤدبه زنديقاً[3] كما كان الجعد بن درهم، الذي ينسب إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فيقال مروان الجعدي، زنديقاً.

---

(١) الغزالي: كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٣٢.
(٢) انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت.
(٣) الأغاني جـ ٦ ص ١٣٢.

وذكر ابن النديم[١] أن الجعد كان مؤدباً لمروان ولولده وأنه أدخله في الزندقة. وكان خالد بن عبد الله القسري، على الرغم من اتهامه بالزندقة، شديداً على الزنادقة، حتى إنه حبس الجعد بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى، وجعله بدلاً من الأضحية بعد أن أعلن ذلك على المنبر في عهد هشام بن عبد الملك الأموي.

ولم تقو الزندقة على الظهور إلا بعد قيام الدولة العباسية، حيث انتشرت في الكوفة. وتكلم الجاحظ الذي عاش في عصر المأمون على كتب الزنادقة فوصفها لنا وصفاً دقيقاً. وإن ما ذكره عن هذه الكتب يطابق ما وصل إلينا عن كتب المانوية. وجاء أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٤٨ هـ) بعده فقال عن الزنادقة[٢] إنهم كانوا يعرفون بالثنوية، وعبادة إلهين اثنين، واتباع تعاليم ماني.

ومن الأسباب التي أدت إلى انتشار الزندقة، أنها كانت وسطاً بين النصرانية والزرادشتية أتباع زرادشت أحد أنبياء الفرس (وأشهرهم زرادشت وماني ومزدك)، وأن ذلك كان سبباً في تأثير الزندقة في أهل هذه النحل. كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام؛ فإن المانوي، كالمسلم، له عدد من الصلوات في اليوم والليلة (أربع أو سبع) كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين.

اضطهد بعض الخلفاء العباسيين أشياع هذه التعاليم، فتعقبهم المهدي، وأنشأ ديواناً عهد به إلى رجل أطلق عليه «صاحب الزنادقة»، ومهمته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم. وكان المهدي يقتل على الظنة كل من رمي عنده بالزندقة. ولما وصل إلى حلب، تتبع الزنادقة وقتلهم، ومزق أجسادهم شر ممزق.

ويقول صاحب الأغاني[٣] إن المهدي لما نزل البصرة، دفع بشاراً إلى حمدويه صاحب الزنادقة وقال له: اضربه ضرب التلف. وقال المسعودي[٤] إن هذا الخليفة أسرف في قتل الملحدين، وإنه أنشأ هذا الديوان الذي عهد به إلى صاحب الزنادقة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم، كما ألف هيئة علمية لمناظرتهم ووضع الكتب للرد عليهم. وليس أدل على اهتمام المهدي بأمر الزنادقة وعمله على التنكيل بهم والقضاء عليهم، من وصيته ابنه الذي اعتلى عرش الخلافة العباسية من بعده وتلقب بالهادي.

فقد ذكر المؤرخون أن المهدي قال لموسى يوماً، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه، فأبى أن

---

(١) الفهرست ص ٤٧٢.
(٢) الأغاني جـ٣ ص ٧٣: ٨٦.
(٣) جـ ٣ ص ٧٣.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠١.

يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه: يا بني! إن صار لك هذا الأمر، فتجرد لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتجوباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور. فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الإثنين(١).

انتشرت الزندقة حتى سرت إلى بيوت الوزراء والشعراء، فيحدثنا ابن طباطبا(٢) أن الربيع بن يونس حاجب الخليفة المهدي اتهم ابن معاوية بن يسار الذي وزر للخليفة بسبب منافسته للوزير؛ فبعث إليه المهدي، «فسأله عن شيء من القرآن العزيز، فلم يعرف؛ فقال لأبيه، وكان حاضراً: ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن فارقني منذ مدة فنسيه، فقال له: قم فتقرب إلى الله بدمه، فقام أبو عبيد الله (معاوية بن يسار)، فعثر ووقع وارتعد، فقال العباس بن محمد عم المهدي: يا أمير المؤمنين! إن رأيت أن تعفي الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره، فأمر المهدي بعض من كان حاضراً بقتله، فضرب عنقه»، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ.

ولما ولي الهادي الخلافة اشتد على الزنادقة، فقتل منهم جماعة كبيرة. وقد أثر عنه أنه قال: لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف. ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع فقال: هذا في شهر كذا ومات بعد شهر.

وصار القضاء على أتباع هذه الطائفة ديدن المهدي وشغله الشاغل، وجاء ابنه الهادي فسار في ذلك سيرة أبيه. كما عين الرشيد رجلاً عرف بصاحب الزنادقة؛ فكان يمتحن كل من يتهم بالزندقة ويعاقب من تثبت عليه بكل أنواع العقوبة. ولم تقتصر هذه العقوبة على الفرس وحدهم، بل كان هناك كثير من العرب، من أمثال صالح بن عبد القدوس، ومطيع بن إياس الشاعر الذي عاش في عهد المنصور والمهدي. وقد جيء بابنته أمام الرشيد، واعترفت بأن أباها لقنها تعاليم الزنادقة، وأنها قرأت كتاب المانوية(٣). ويقول ابن النديم(٤) إن أكثر البرامكة كانوا زنادقة، حتى زعم بعض أن ذلك كان من أهم أسباب نكبتهم(٥). وذكر ابن قتيبة(٦) أن الأصمعي رماهم بالكفر فقال:

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٤٢. (٣) الأغاني جـ ١٢ ص ٨٥. (٥) الطبري جـ ١٠ ص ٣٢٠.
(٢) الفخري ص ١٦٣ ـ ١٦٦. (٤) الفهرست ص ٤٧٣. (٦) المعارف ص ١٤٨.

إذا ذُكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وكانت الزندقة في العصر العباسي الأول ضرباً من ضروب الظرف والتثقف؛ يدل على ذلك ما قاله أحد الشعراء المسلمين لصديق له يصفه بالظرف:

يا ابن زياد أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما أردتَ أن توسم بالظرف

ويكاد يصور لنا هذه الحالة بأجلى بيان أبو نواس في قوله يذم آبان بن عبد الحميد اللاحقي، وكان زنديقاً:

جالستُ يوماً أبانا لا در در أبان
ونحن حُضر رواق الـ أمير بالنهروان
حتى إذا ما صلاةُ الـ أولى دنتْ لأوان
فقام ثم بها ذو فصاحة وبيان
فكل ما قال قلنا إلى انقضاء الأذان
فقال: كيف شهدتم بذا بغير عيان؟
لا أشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت سبحان ربي فقال: سبحان ماني
فقلت: موسى نجى المهيمن المنان
فقال ربُّك ذو مقلة ولسان
أنفسه خلقته أم مَنْ؟ فقمت مكاني
وقمت أسحب ذيلي عن هازلٍ بالقران
عن كافر يتمارى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة المجان
بمجرد وعباد والوالبي الهجان
وابن الإياس الذي نا ح نخلتي حُلوان
وابن الخليل على ريحانة الندمان(١)

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان جـ ٤ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

بقيت الزندقة بعد عصر الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعتصم الذي كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية. ولا تظن أنها زالت بموته، بل لا بد أنها سارت شوطاً بعيداً بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية.

وللزنادقة أبحاث في العلم والأدب والسياسة، إذ تأثر بها الأدباء والمفكرون، حتى إن طائفة كثيرة من أدباء هذا العصر ومفكريه بذلوا الجهد في مكافحة الزندقة والرد على الزنادقة؛ ومن ثم نشأ علم الكلام. وكان واصل بن عطاء أول من تصدى للرد عليهم وأنكر على بشار بن برد الزندقة والإلحاد لقوله:

إبليس أفضل من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار[1]
الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار[2]

وبهذا البيت الأخير وجد واصل بن عطاء السبيل إلى زندقة بشار وتكفيره، فقال فيه: لهذا الملحد الأعمى المشنف المكتنى بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من اه الغالية[3]، لبعثت إليه من يبعج بطنه ويقتله في جوف منزله»[4]. ويقال إن بشاراً كان المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأئمة، فلما قال فيه واصل ما ں، هجاه بقوله:

ما لي أشايع غزالاً له عنق ... كنقنق الدو[5] إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم ... تكفرون رجالاً كفروا رجلا

وكان لأبي الهذيل العلاف مناظرات طويلة مع الزنادقة، وقد قيل إنه ناظر يوماً صالح بن عبد القدوس ـ وكان ثنوياً معروفاً ـ فقال: «على أي شيء تعزم يا صالح؟ قال استخير الله وأقول بالإثنين. فقال أبو الهذيل: فأيهما استخرت لا أم لك؟ مات لصالح ابن، فذهب إليه أبو الهذيل ومعه النظام، وهو غلام حدث، فرآه حزيناً فقال: لا أعرف لجزعك وجهاً، فقال:

= ذكر ابن النديم (الفهرست ص ٣٧٣) طائفة من الشعراء الزنادقة: منهم بشار بن برد، إسحاق بن حلف، وسلم الخاسر، وعلي بن الخليل، وعلي بن ثابت.

(١) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران جـ ١ ص ١٧٦.

(٢) الأغاني جـ ٣ ص ٢٤.

(٣) هم الزنادقة الخناقون من المغيرية والمنصورية وقد ظهروا في أواخر الدولة الأموية.

(٤) الجاحظ: كتاب البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠.

(٥) النقنق: الصوت، والدلو: المفازة.

أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، قال: وما كتاب الشكوك؟ قال: كتاب وضعته، من قرأ فيه شك حتى يتوهم أنه لم يكن حتى يظن أنه قد كان؛ قال أبو الهذيل: فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت، وإن كان قد مات، فشك أنه قد قرأ ذلك الكتاب وإن لم يقرأه».

وهكذا كانت مناظرات أبي الهذيل الذي حول عدداً كبيراً من المجوس الثنوية إلى الإسلام[١]. كذلك فعل عمرو بن عبيد بجرير بن حازم الأزدي السمني في البصرة[٢]. ثم ظهر النظام[٣]، وهو أحذق من تكلم في الإشراق[٤]، ولم يزل يشن الغارة على الثنوية وغيرهم من الفرق الأخرى.

ولا غرو فقد تصدى المتكلمون للرد على الزنادقة. ولكن كثيراً منهم ظل، على الرغم من إفحامه، متمسكاً بعقائد الزندقة. فقد ذكر ابن النديم[٥] عند كلامه على يزدان بخت، وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن أمنه، فقطعه المتكلمون، فقال له المأمون: أسلم يا يزدان بخت: فلولا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن، فقال له يزدان بخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، فقال المأمون: أجل.

٢ ـ ظهور الحزب العلوي في ميدان السياسة واعتماده على السيف

(أ) ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق:

لم ينس العلويين حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين بن علي في كربلاء، بل كان ذلك شغلهم الشاغل. فإنهم ما فتئوا في كل أدوار حياتهم يتذرعون إلى نيل حقهم بكل وسيلة، فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة وتجريد السيف، اغتنموها ولم يدعوها تمر، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من النبي، وآثروا المعيشة الهادئة

---

(١) الخياط: الانتصار في الرد على ابن الراوندي ص ٨١.
(٢) طبقات المعتزلة ص ٢٨.
(٣) الأغاني جـ٣ ص ٢٤.
(٤) الانتصار في الرد على ابن الراوندي ص ٤٨ ـ ٥٠. انظر كتاب السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ٧٥ ـ ٨٦.
(٥) كتاب الفهرست: ص ٤٧٣. وذكر ابن النديم اتهام المأمون بالزندقة فقال: «قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم (أي من الزنادقة) وكذب في ذلك».

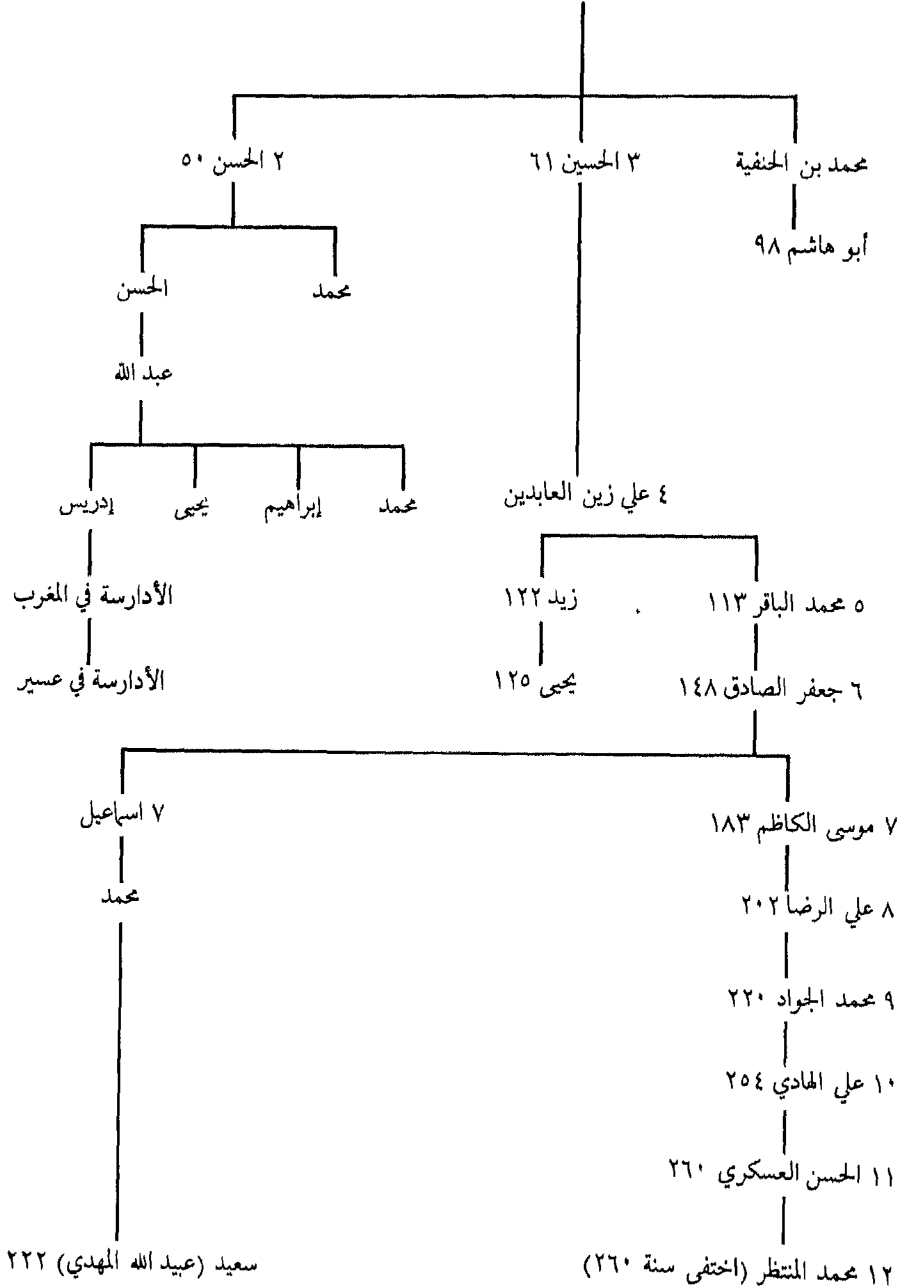
والاشتغال بالتجارة والانصراف إلى الدين على الاشتغال بالسياسة والحرب، اللهم إلا في أواخر أيام الدولة الأموية، حين قام زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى في عهد هشام بن عبد الملك.

نعم! عاش العلويون عيشة هادئة إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدي العباسيين، فلم يزجوا بأنفسهم فيها، بل تركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي، حتى كونوا لهم عصبية قوية بالمصاهرة وكسبوا رضاء أهل المدينة، فأولوهم عطفهم واحترامهم وأظهروا استعدادهم الى الانضمام إليهم وإلى دعوتهم.

وكانت الدعوة في ذلك الوقت الى الرضا من آل محمد، وكان الناس لا يبالون كثيراً أن يتولى أمرهم علوي أو عباسي، وربما كان ذلك راجعاً إلى انشغالهم بحرب بني أمية وعملهم على القضاء على دعوتهم. ولما غلب الدعاة على الكوفة، وجدوا أبا العباس بينهم، وقد عهد اليه أخوه ابراهيم الإمام، ولم يجدوا بين آل علي من يستطيع أن يحولهم عن بني العباس، إذ لم يكن للعلويين في ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يساعدهم على الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بـداً من الهدوء حتى تتهيأ لهم الأحوال فيقومون بطلبها.

فلما ظفر العباسيون بالخلافة وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني أمية، لم يرق ذلك في نظر العلويين، ولم تطب بذلك نفوسهم، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم، وعلى الرغم من كونهم يداً واحدة على بني أمية، واشتراكهم في العمل على إزالة دولتهم، إذ أدركوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم، فنابذوهم العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل، فظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إلى حقهم في الخلافة، وكانوا في هذا الدور يعملون في طي الخفاء بما مهروا فيه من فنون الدعوة والمكايد والخدع.

البيت العلوي



١ ـ ثورة محمد في الحجاز:

وأول الخارجين من العلويين في أيام العباسيين: محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخوه إبراهيم. واشتهر من أولاد الحسين في ذلك الوقت جعفر الصادق بن محمد الباقر إمام الشيعة الإمامية، ولكنه لم يحرك ساكناً، وأوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة حتى تحين الفرصة للخروج.

وكان محمد النفس الزكية أول المتطلعين إلى الخلافة من العلويين، على الرغم مما بذله العباسيون في سبيل استرضائهم: فمن إجزال للعطايا، إلى لين في القول؛ غير أن ذلك لم يجدهم نفعاً، فقد كان محمد هذا يرى أنه أحق بالخلافة. هذا إلى دعواهم الأساسية من أنهم أولاد علي، وهو الوصي والإمام، كما ذكره محمد إلى أبي جعفر في المكاتبات التي دارت بينهما.

وقد وصف ابن طباطبا[١] مبايعة بني هاشم لمحمد النفس الزكية في أواخر أيام بني أمية. فقال إن بني هاشم من العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر الدولة الأموية، وتذاكروا حالهم وما تعرضوا له من الاضطهاد، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب، وميل الناس اليهم ورغبتهم في أن تكون لهم دعوة. واتفقوا على أن يدعوا الناس سراً، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه، فاتفقوا على مبايعة محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وكان محمد من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً. وقد حضر هذا المجلس أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم: فحضره من أعيان الطالبين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأبناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمرى؛ ومن أعيان العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما. فاتفق الجميع على مبايعة محمد النفس الزكية، إلا جعفر بن محمد الصادق الذي قال لأبيه عبد الله المحض إن ابنك لا ينالها (يعني الخلافة) ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر (يعني أبا جعفر المنصور)[٢]. وكان المنصور حينئذ يرتدي قباء أصفر. قال المنصور: فرتبت العمال في نفسي من تلك الساعة، ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه.

امتنع محمد عن مبايعة السفاح، وكان أخوه أبو جعفر يأخذ الدعوة له في الحجاز. وكذلك تخلف هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور. فلما ولي المنصور الخلافة، رأى في بقاء محمد وأخيه خطراً يهدد كيان دولته، فعمل على التخلص منهما كما تخلص من منافسيه

---

(١) الفخري ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) يظهر أن هذا من وضع الشيعة فإنهم ينسبون الى أئمتهم العلم بالغيب مبالغة في احترامهم.

عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني من قبل. وقد بعث المنصور في طلب بني هاشم وسألهم عن مكان محمد، فهون بعض الأمر عليه بهذه الكلمات: «يا أمير المؤمنين! قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم، فهو يخافك على نفسه، وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية»، وقال بعض آخر: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه الذي لا ينام عنك، فر رأيك[١].

ومهما يكن من شيء، فقد خاف المنصور على نفسه من العلويين، ورأى أنه لن تقوم لخلافته قائمة إلا إذا ظفر بمحمد وأخيه، وأعمل الحيل في سبيل الظفر بهما، «فاشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب، ثم أعطى الرجل منهم البعير والرجل البعيرين. والرجل الذود[٢]، وفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة فكان الرجل منهم يرد الماء كالمار والضال فيفرون عنه ويتجسسون»[٣].

تعهد زياد بن عبد الله عامل المنصور على المدينة أن يجد في طلب محمد وأخيه إبراهيم. على أنه ما لبث أن تهاون في طلبهما، واتصل بمحمد سراً وساعده على الهرب من المدينة، فذهب إلى عدن ثم إلى السند فالكوفة، وعاد أخيراً إلى المدينة. وقد قسا المنصور على زياد فعزله وكبله بالحديد، وصادر أمواله وحبسه وولى مكانه محمد بن خالد القسري[٤].

وسرعان ما عزل المنصور محمد بن خالد، لأنه استبطأه في طلب محمد النفس الزكية، واتهمه بالتهاون والتفريط في ذلك، فأرسل رياح بن عثمان بن حيان عم مسلمة بن عقبة المري قائد الحرة في عهد يزيد بن معاوية. وقد قدم عثمان المدينة سنة ١٤١ هـ، واعتلى المنبر، وخطب الناس خطبة لا تختلف في معناها عن خطبة الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة، ننقل منها ما يلي: «يا أهل المدينة! أنا الأفعى بن الأفعى، عثمان بن حيان، وابن عم مسلمة بن عقبة، المبيد خضراءكم المفني رجالكم. والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب»[٥].

بيد أن شعور أهل المدينة كان يتدفق حماسة نحو آل علي، فإن هذا الوالي لما فرغ من كلامه، انبرى له قوم منهم، وفاجؤوه بهذه الكلمات المملوءة حنقاً على العباسيين فقالوا: «يا ابن المجلود حدين، لتكفن أو لنكفينك عن أنفسنا». ولم يكن بد من أن يكتب هذا الوالي

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٨٠.

(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العاشر، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها وجمعها أذواد.

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٨١.

(٤) الطبري جـ ٩ ص ١٨١ - ١٨٧.

(٥) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٦١.

إلى المنصور عن سوء طاعة أهل المدينة، فبعث إليه رسولاً من قبله يحمل كتابه إلى أهلها: «يا أهل المدينة! فإن واليكم كتب إليّ يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين. وأمير المؤمنين يقسم بالله، لئن لم تنزعوا، ليبدلنكم بعد أمنكم خوفاً، وليقطعن البر والبحر عنكم، وليبعثن عليكم رجالاً غلاظ الأكباد بعاد الأرحام»[1].

على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر في نفوس أهل المدينة، الذين أجمعوا على الخلاف وأبوا إلا خذلان العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين، وصاحوا بعامل المنصور من كل جانب، ورموه بالحصى، واضطروه إلى الالتجاء إلى المقصورة، وإغلاقها عليه والهرب من شرهم.

ولم يكن رياح بالذي يتراجع عن تنفيذ سياسة المنصور مهما لاقى في سبيل ذلك من محن وخطوب. لذلك نراه يأتي عبد الله بن الحسن أبا محمد النفس الزكية وهو في محبسه، ويأخذه بالتهديد والوعيد إذا لم يأته بابنيه محمد وإبراهيم.

هنا بدأ اضطهاد العلويين الحقيقي، فقد حبس رياح إخوة عبد الله بن الحسن بن الحسن وغيرهم من ذوي قرباه، وأعلن سب ابنيه محمد النفس الزكية وإبراهيم ومن ناصرهما من أهل المدينة، فرماه هؤلاء بالحصى، وأنزلوه من على المنبر قهراً حتى استتر خوفاً على حياته.

وكان محمد في ذلك الوقت مستخفياً في المدينة، فلما سمع بما حل بأبيه وأعمامه وغيرهم من ذوي قرباه أتى أمه هنداً وقال لها: «قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به، ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلى عنهم».

ويحدثنا اليعقوبي[2] والمسعودي[3] أن هنداً ذهبت إلى السجن في زي رسول، وطلبت مقابلة عبد الله، ونقلت إليه قول ابنه محمد لتستطلع رأيه في هذا الأمر. بيد أن عبد الله لم يكن بالرجل الذي تلين قناته، بل كان يعتقد في أحقية ابنه بالخلافة دون المنصور والسفاح من قبله، وكان يرى مواصلة العمل وعدم التراخي والتهاون فقال لها: إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً ويصبر حتى يأتي الله بالفرج، وقولي له فليدع إلى أمره وليجد فيه». ومضى محمد في نشر دعوته وبنو الحسن بن الحسن مسجونين في المدينة، إلى أن حج المنصور في سنة ١٤٤ هـ، فتلقاه رياح عامل المدينة بالربذة، فأمره الخليفة بالعودة إلى المدينة وإشخاص العلويين. فلما مثلوا بين يديه وهم مكبلون بالقيود والأغلال، سألهم عن مقام محمد بن عبد الله، فلم يظفر بشيء. فأخذ

---

(١) اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٥٠.

(٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٠.

يعنفهم ونكل ببعضهم، ثم بعث بهم إلى الكوفة على أقتاب[١] بغير وطاء[٢]، وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل»[٣]، وغلا المنصور في التنكيل بهم حتى مات أكثرهم.

وفي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) لم ير محمد بداً من الظهور، بعد أن دعا إلى نفسه سراً وعاش في الخفاء دهراً. أخذ فيه أشياعه من أهل بيته وغيرهم يقيمون له الدعوة، حتى اعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة وتلقب بأمير المؤمنين. وكان محمد بن عبد الله ـ كما وصفه ابن طباطبا[٤] ـ «من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً». وكان متحلياً بالصفات الحميدة والخصال الكريمة، فذاع صيته وعظم احترام الناس له. ولم يكن يميل الى سفك الدماء والظلم، وإنما اشتهر بحبه للعفو، وكان زاهداً وناسكاً، لذلك سمي بالنفس الزكية وبالهدى.

ويبدو أن وقت ظهور محمد النفس الزكية لم يكن قد آن أوانه، وإنما اضطر إلى ذلك اضطراراً. دخل جماعة على محمد وقد اشتد بهم البلاء، فقالوا له: ما تنتظر بالخروج؟ ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك. ما الذي يمنعك من أن تخرج وحدك؟ فلم ير بداً من الخروج، وكان ذلك لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة (١٤٥ هـ)[٥].

وقد ظن محمد أن الناس أجمعوا على نصرته، وأنهم كانوا شديدي الميل إليه. إذ كانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة. وساعده على ذلك إفتاء الإمام مالك بنقض بيعة المنصور، حيث قال أهل المدينة: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين»[٦]، وتلك الكتب التي كانت تأتيه من الولايات الإسلامية بتأييد الناس له وانتظار خروجه. ولم يكن يدري أن هذه حيلة دبرها له المنصور على ألسنة قواده.

أرسل محمد النفس الزكية أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته. وقد أجمع المؤرخون على أن محمداً خرج في مائتين وخمسين رجلاً، وأنه توجه إلى السجن وأخرج من كان فيه، وأمر بحبس عامل المنصور في المدينة، ثم صعد المنبر وخطب الناس في هذه الخطبة[٧]: «أما بعد أيها

---

(١) جمع قتب (بفتح القاف) أو قتب (بضم القاف) وهو الإكاف أو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير، وإكاف الحمار هو البردعة.

(٢) بالكسر ضد الغطاء أي بغير برادع ولا غطاء.

(٣) الطبري جـ ٩ ص ١٩٨ ـ ٢٠١.

(٤) الفخري ص ١٤٧.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٣٤٠.

(٦) الطبري جـ ٩ ص ٢٠٦.

(٧) الطبري جـ ٩ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

الناس! فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم، من بنائه القبة الخضراء التي بناها، معانداً الله في ملكه، وتصغيراً للكعبة الحرام. وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى. وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك، وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت. اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. أيها الناس! إني والله ما خرجت من بين أظهركم، وأنتم عندي أهل قوة وشدة ولكن اخترتكم لنفسي، والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا قد أخذ لي فيه البيعة».

وإن الناظر في هذه الخطبة ليقف على أن محمداً كان مدفوعاً في خروجه بعدة عوامل: فقد كان ينشد الخلافة ويرى أنه أحق الناس بها، كما كان يحقد على المنصور لاعتلائه عرش الخلافة، وتعذيبه أهل بيته حتى مات أكثرهم في السجن وساعد على ذلك موالاة الناس له، ولا سيما بعد أن أفتى مالك بجواز بيعته، واعتقاده أنه قد أصبح أقوى من المنصور.

٢ ـ ظهور إبراهيم في العراق:

ولما شدد المنصور في طلب إبراهيم بن عبد الله، خرج من المدينة قاصداً الكوفة وأيقن أن أهلها لن يترددوا في الخروج معه. واتصل نبأ قدومه بالمنصور، فوضع الأرصاد والجواسيس للقبض عليه والحيلولة دون هربه. ولم ير إبراهيم بداً من إعمال الحيلة. ويحدثنا اليعقوبي[١] «أن إبراهيم أرسل رجلاً من أشياعه يسمى سفيان بن يزيد إلى المنصور، فقال له: يا أمير المؤمنين! تؤمنني وأدلك على إبراهيم بعد أن أدفعه إليك: فقال: أنت آمن، وأين هو؟ قال بالبصرة، فوجه معي برجل تثق به، واحملني على دواب البريد، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه فيقبض عليه، فوجه معه أبا سويد».

وخرج سفيان بن يزيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف وعلى عنقه سفرة فيها طعام، وركب معه على خيل البريد أبو سويد وذلك الغلام. فلما وصل البريد إلى البصرة، قال سفيان لأبي سويد: انتظرني حتى أعرف خبر الرجل، ومضى ولم يعد وكان الغلام الذي عليه الجبة الصوف، هو إبراهيم بن عبدالله بن الحسن. ومن ذلك الوقت أخذ إبراهيم يبث الدعوة لأخيه محمد.

ظهر إبراهيم بن عبد الله في البصرة، واستولى على دار الإمارة[٢]، وهزم قوات الخليفة

---

(١) جـ ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

(٢) ذكر الطبري (جـ ٩ ص ٢٥٢) أن إبراهيم استولى على دار الإمارة وقبض على سفيان بن معاوية والي البصرة وحبسه. ثم انتقل إلى بيت المال فاستولى على ما فيه فنال كل رجل من جنده خمسين درهماً.

المنصور، وشد أزره فقهاء البصرة وغيرهم من ذوي الرأي والجاه، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه، وعاونه الإمام أبو حنيفة وراسله سراً، كما عاون الإمام مالك أخاه محمداً بالمدينة. وبهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالي واسط والأهواز وفارس في دعوته. ولم يزل إبراهيم يوالي انتصاراته، حتى أتاه خبر مقتل أخيه محمد قبل عيد الفطر سنة ١٤٥هـ بثلاثة أيام، فصلى بالناس يوم العيد. وقد علا وجهه الحزن ودب إلى قلبه اليأس، ونعى أخاه للناس، فازدادوا حماسة في نصرة العلويين وبايعوا إبراهيم على إمارتهم.

وفي تلك السنة وضع المنصور أساس مدينة بغداد، وأخذ العمال في العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة. على أن خروج محمد بن عبدالله قد حال دون إتمام بناء قاعدة العباسيين الجديدة، وتحولت بذلك عناية المنصور إلى القضاء على العلويين وأظهر من الحنكة السياسية ما أتاح له النصر والظفر، مستعيناً في ذلك بذوي الرأي من رجالات دولته.

ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة، دعا المنصور أبا مسلم العقيلي، وكان شيخاً ذا رأي وتجربة، فقال له: أشر عليّ في خارجي خرج عليّ، قال: صف لي الرجل، قال: رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ذو علم وزهد وورع، قال: فمن تبعه؟ قال: ولد علي وولد جعفر وعقيل، وولد عمر بن الخطاب، وولد الزبير وسائر قريش وأولاد الأنصار، قال له: صف لي البلد الذي قام به، قال: بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة. ففكر ساعة ثم قال: اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال، فقال المنصور في نفسه: قد خرف الرجل، أسأله عن خارجي خرج بالمدينة يقول لي اشحن البصرة بالرجال؟ فقال له: انصرف يا شيخ! ولم يمض غير قليل حتى ورد الخبر بأن إبراهيم بن عبدالله العلوي قد ظهر بالبصرة، فقال أبو جعفر المنصور: علي بالعقيلي. فلما دخل عليه أدناه ثم قال له: إني كنت قد شاورتك في خارجي خرج بالمدينة، فأشرت علي أن أشحن البصرة، أو كان عندك من البصرة علم؟ قال: لا، ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد. ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش، فقلت إنه رجل سيطلب غير موضعه. ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة، والشام والكوفة كذلك، وفكرت في البصرة فخفت عليها منه، فأشرت بشحنها فقال له المنصور: أحسنت، وقد خرج بها أخوه، فما الرأي في صاحب المدينة؟ قال: نرميه، بمثله إذا قال: أنا ابن رسول الله ﷺ، قال هذا. وأما ابن عم رسول الله ﷺ، فقال المنصور لعيسى بن موسى: «إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش، وإما أن تكفيني ما أخلف ورائي وأخرج أنا إليه، فقال عيسى: بل أقيك أنا يا أمير المؤمنين وأكون أنا الذي يخرج إليه. فأخرجه إليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفي راجل، وتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف، فقاتلوا

محمداً النفس الزكية بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة[١].

تحقق المنصور من صدق نبوءة أبي مسلم العقيلي بعد أن علم بظهور إبراهيم بن عبد الله بالبصرة. ولم يكتف المنصور باستشارة العقيلي، إذ لم يقتنع بوجاهة رأيه أول الأمر، ففكر في استشارة غيره، فلجأ إلى رجل من أهل بيته، هو عمه عبد الله بن علي، وكان في حبسه، فأشار عليه بأن يغدق لجنده، وأن يستحث أهل النجدة والقوة من أهل الشام، ويسد منافذ الكوفة حتى يحول دون قيام الشيعة في وجهه، وأرسل إلى عبد الله: ارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة، فاجثم على أكبادهم، فإنهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم. ثم اخففها بالمسالح؛ فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه فاضرب عنقه، وابعث إلى سلم بن قتيبة ينحدر عليك (وكان بالري). واكتب إلى أهل الشام. فمرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم، فقبل[٢].

على أن المنصور كان - على الرغم من هذا كله - متخوفاً من ناحية محمد بن عبد الله أشد الخوف. لذلك نراه يلجأ إلى انتهاج سبيل الحيلة مع محمد، فكتب إليه كتاباً بعث به مع رسول من قبله، رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداء والحرب، تلك السياسة التي كان المنصور متخوفاً من سوء مغبتها أشد الخوف.

على أن هذا الكتاب لم يكن له أي أثر في نفس محمد بن عبد الله الذي لم يعبأ بهذه الوعود الخلابة، إذ كان يعتقد بأحقيته بالخلافة، وأن المنصور قد سلبه هذه الخلافة. لذلك نراه يرد على المنصور ويلومه، لتنكيله بأهل بيته وخروجه على أصحاب الحق من آل علي وسلبهم الخلافة، ويفخر عليه بانتمائه إلى الرسول وإلى علي وفاطمة، وما أصابوه من البلاء في نصرة الدين، ثم يوازن بينه وبين المنصور من جهة الأم، ويسخر من الأمان الذي أعطاه إياه، إذ لم يكن يثق به بعدما حنث في يمينه مع ابن هبيرة، ومع عمه عبدالله بن علي، ثم مع أبي مسلم الخراساني[٣].

ولما قرأ المنصور كتاب محمد، ثارت ثائرته وأبى إلا أن يجيبه بنفسه، فقد روى الطبري (جـ ٩ ص ٢٠٩) أن أبا أيوب المورياني قال للمنصور: «دعني أجبه عنها»، فقال له: «لا! بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب، فدعني وإياه»[٤].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) انظر كتاب أبي جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية في الملحق السابع.

(٣) انظر رد محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور في الملحق الثامن.

(٤) انظر رد أبي جعفر المنصور على محمد النفس الزكية في الملحق التاسع.

(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه - تأثير مصر في ذلك:

ومهما يكن من شيء فقد أخطأ محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم في خروجهما على المنصور بعد أن بايعه عامة المسلمين، واعتمدا على العدد القليل من الأنصار، مع أن خصمهما قوي لا يتوانى عن إتيان كل أنواع المكايد والخدع للقضاء عليهما.

وقد ندب المنصور لحربهما عمه وولي عهده عيسى بن موسى بن محمد كما تقدم، وأراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون. فإن قتل عيسى، حول الخلافة إلى ابنه المهدي. ذكر الطبري[١] أن المنصور قال بعد أن سار عيسى لحرب محمد بن عبدالله: «لا أبالي أيهما قتل صاحبه». ولما أمر أبو جعفر عيسى بن موسى بالشخوص قال: شاور عمومتك، فقال له: امض أيها الرجل. فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص.

سار عيسى إلى المدينة لحرب محمد، وكان قد تغلب عليها وعلى مكة. ولما وصل الجيش إلى فيد، أرسل عيسى إلى أهل المدينة كتباً يمنيهم فيها الأماني الطيبة، فكف كثير منهم عن مساعدة العلويين.

ويظهر أن النفس الزكية قد هاله عظم جيش عيسى بن موسى، وأحزنه تفرق أكثر رجاله عنه، وشك في قوته وتردد في منازلة خصمه، واستشار أصحابه فيما يصنع: أينازلهم في المدينة كما حارب الرسول الأحزاب؟ أم يخرج إلى بلد آخر تتاح له فيه الفرصة لمحاربتهم؟ وقد أشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر، لأن فيها من الاستعداد والقوة ما لم يكن في المدينة المنورة وقالوا له: «ألست تعلم أنك أقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالاً؟ ألست تعلم أنك تقاتل أشد بلاد الله رجالاً وأكثرها مالاً وسلاحاً؟ . . . فالرأي أن تسير بمن معك حتى تأتي مصر. فوالله لا يردك راد، فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله. فصاح حنين بن عبد الله: أعوذ بالله أن تخرج من المدينة، وحدثه أن النبي ﷺ قال: رأيتني في درع حصينة فأولتها المدينة»[٢].

لم يـر محمـد بداً من النزول على رأي القائلين بالبقاء في المدينة على كره منه، وأخذ اليأس يدب إلى نفسه، ولا سيما بعد أن تبين له ضعف حماسة ذلك الفريق الذي كان يرى الخروج إلى مصر وتثاقله عن نصرته. فلم يطمئن إليهم، ورأى أن لا فائدة من الاعتماد عليهم، فخطبهم خطبة قال فيها: «يا أيها الناس؟ إنا قد جمعناكم للقتال، وأخذنا عليكم المناقب. وإن هذا العدو منكم قريب، وهو في عدد كثير، والنصر من الله والأمر بيده. وإنه قد بدا لي أن آذن لكم

(١) جـ ٩ ص ٢١٦.
(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢١٨.

وأفرج عنكم المناقب، فمن أحب أن يقيم أقام، ومن أحب أن يظعن ظعن»(١).

وكانت هذه الخطبة مقياساً لمعرفة عدد المخلصين من أنصار محمد النفس الزكية الذين قاربوا مائة ألف أول الأمر. قد تسلل أكثرهم وبقي هو في شرذمة قليلة، قاتل بها عيسى بن موسى وجنده. وقتل محمد بن عبد الله واحتز رأسه، وأرسل إلى عيسى بن موسى؛ وكان ذلك يوم الاثنين ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ(٢).

هكذا ختم أول فصول هذه المأساة. ولم يبق أمام المنصور إلا القضاء على منافسه الجديد إبراهيم بن عبد الله في العراق، وكان قد تغلب على البصرة والأهواز وفارس، وتفاقم خطره، وكثر عدد جنده حتى بلغ مائة ألف وعرف ذلك الخليفة المنصور، فاستعد لدرء خطر إبراهيم أتم استعداد، وشمر للذود عن حيض خلافته، وأبى أن يخلع ثيابه حتى يظفر بالعلويين في الحجاز والعراق، على حين تزوج إبراهيم بابنة عمر بن سلمة، «فكانت تأتيه في مصبغاتها وألوان ثيابها»(٣).

وسرعان ما أنفذ أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى - وقد عجم عوده وخبر مهارته الحربية في حرب محمد بالحجاز - لمحاربة أخيه إبراهيم في العراق. ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخمرى بين الكوفة وواسط(٤) وانهزم حميد بن قحطبة أحد قواد عيسى، وكادت الهزيمة تلحق بجيش المنصور، لولا أن ثبت عيسى وأبى أن يتحول عن مكانه حتى يقتل أو يفتح الله عليه(٥) وما زال الفريقان يقتتلان، حتى انهزم جند إبراهيم وولى أكثرهم الإدبار. وثبت هو في عدد قليل من أنصاره، حتى أصيب بسهم في حلقه، فاحتز ابن قحطبة رأسه، وأرسله إلى عيسى بن موسى، فسجد شكراً لله، وذلك يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥هـ. ولما رأى المنصور رأس إبراهيم تمثل بقول الشاعر:

فألقتْ عصاها واستقرتْ بها النوى   كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ(٦)

ولا شك أن هزيمة العلويين قد أحزنت أشياعهم المخلصين، فندبوا حظهم العاثر، وبكوا ما حل بهم من الكروب والويلات ورثاهم شعراؤهم أجمل رثاء.

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٩.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٥٥.
(٤) أقرب إلى الكوفة منها واسط وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً.
(٥) الطبري جـ ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٨.
(٦) اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٥٦. الطبري جـ ٩ ص ٢٥٩.

ولم تقتصر هذه المصائب على محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، فقد استعان محمد ببعض أهل بيته للدعوة إلى إمامته في الولايات الإسلامية. فبعث ابنه عبد الله إلى خراسان ثم إلى السند فقتل بها، وبعث ابنه الحسن إلى اليمن فحبس ومات في الحبس؛ وسار أخوه موسى إلى الجزيرة، ومضى أخوه يحيى إلى الري وطبرستان، وسار أخوه إدريس إلى بلاد المغرب، وبعث ابنه محمد إلى مصر. وقد ذكر الكندي[1] والمقريزي[2] أن محمداً أرسل ابنه علياً إلى مصر لبث الدعوة له، غير أن والي المنصور فيها استطاع أن يحبط أعماله وأعمال من ناصروه، وظل على ذلك حتى قدمت النعاة إلى مصر بخبر وفاة إبراهيم، فسقط في يد الشيعة، وانطفأت جذوة الثورة في هذه البلاد. ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر علي بن محمد.

أما وقد بينا كيف أخفق محمد وإبراهيم في هذه الثورة، وجب أن نبين العوامل التي أدت إلى ذلك.

ذكر المؤرخون أن جيش محمد في المدينة قارب مائة ألف، وكذلك جيش أخيه إبراهيم في العراق، وأن أنصارهما قد انتشروا في طول بلاد الدولة العباسية وعرضها، حتى إننا نسمع عنهم في الحجاز، وفي العراق، وفي خراسان ومصر وغيرها. فما سبب خذلانهم في وقت كانت الدولة العباسية لا تزال في دور إنشائها؟ وفي وقت كانت قلوب المسلمين ـ وخاصة قلوب أهل فارس ـ مع العلويين، حتى لقد ذهب كثير من أهل خراسان، كأبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني، ضحية هذه الميول والأهواء؟ لا شك أن هذا الإخفاق يرجع إلى عدة أسباب. ولا شك أيضاً أن المنصور يرجع إليه الفضل الأكبر في إحباط هذه الثورة، على الرغم من أن تنكيله بالعلويين أثار سخط المسلمين، وخاصة أهل خراسان، وعلى الرغم مما لاقته دعوة العلويين من عطف كثير من الشعوب الإسلامية وتأييد فقهاء ذلك العصر وعلى رأسهم الإمامان مالك وأبو حنيفة، وعلى الرغم أيضاً مما اتصف به محمد بن عبدالله من كريم الخصال والسجايا التي رفعته في أعين الناس ـ فإن ذلك كله لم يكن له من أثر أمام قوة شكيمة المنصور وشدة دهائه وعظم جيوشه وكثرة آلاته الحربية.

عرف المنصور ميل الخراسانيين إلى آل علي، فقد كتب إليه عامله على خراسان يخبره أن أهلها طلبوا شخوص محمد بن عبدالله لنصرته والخروج في وجه العباسيين تحت لوائه. ورأى المنصور بدهائه أن يداهن الخراسانيين ويثنيهم عن عزمهم، فأرسل إليهم رأس محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخي عبدالله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين ابن علي، وأوهمهم أنها رأس محمد بن عبدالله.

(١) كتاب الولاة ص ١١٤.

(٢) خطط ٢ ص ٣٣٨.

ولا شك أن المنصور قد حال بحيلته هذه دون قيام الفتن والاضطرابات في خراسان التي كان أهلها يميلون إلى العلويين لما كان بينهم من صلة النسب، ولم يحمل الدولة أعباء مقاومة هذه الفتن وما يتبعها من فقد النفوس والأرواح.

ظن محمد النفس الزكية أن قلوب الناس معه، وأنه غدا بذلك أقوى من المنصور، وزاد في هذا الظن الكتب التي كانت ترد عليه من الولايات الإسلامية بتأييد أهلها له وانتظار خروجه، ولم يفطن إلى أن أكثر الناس لا يعلمون من أمر الدعوة العلوية شيئاً، وأن أبا جعفر هو الذي دبر هذه الحيلة على ألسنة قواده، وساعده على زهوه بنفسه إفتاء الإمام مالك بطلان بيعة المنصور.

ولقد أخطأ محمد في اختيار مركزه الحربي، لأن المدينة؛ كما وصفها المسعودي(١)، «بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة» كما أن مركزه الحربي لم يكن مركزاً طبيعياً للقتال. فلو حوصرت المدينة لما وصلت إليها الميرة ولمات أهلها جوعاً وعطشاً. هذا إلى أن النفس الزكية لم يقف على مبلغ استعداد أهل الحجاز لنصرته، حتى تفرقوا عنه في الساعة الأخيرة وتركوه في هذه الشرذمة القليلة حتى قتل، ولم يدر أن المنصور كان يستشير ذوي الرأي والحجا من رجالات دولته، ولم يدخر وسعاً في تنظيم جنده وإمداده بالسلاح وبالمؤن، وأنه أمر عليهم نخبة من مشهوري قواده مما كفل له النصر. أما جند العلويين، فإنه برغم كثرته، لم ينظم ولم يرتب على أحدث النظم في ذلك العصر. فترى إبراهيم يحارب عدوه بجيشه الذي قسمه إلى كراديس، يقدم منها إلى الحرب كردوساً، فإذا انهزم تقدم الآخر وهكذا. وأبى إبراهيم أن يقاتل جنده صفاً واحداً، فيكونوا كالبنيان المرصوص كقوله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾(٢)، مع أنهم كانوا أكثر عدداً من جند عيسى بن موسى.

ثم لعل من أقوى أسباب إخفاق هذه الثورة عدم تنفيذ الخطة التي رسمها محمد وإبراهيم، وكانت تقضي بأن يخرجا في وقت واحد. ويرجع ذلك إلى تأخر خروج إبراهيم لمرضه، أو بسبب تعجل محمد للحرب ولو خرج هذان الأخوان في وقت واحد لما استطاع المنصور الوقوف أمامهما(٣).

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٧.

(٢) سورة الصف ٦١ : ٤.

(٣) كان خروج محمد بالمدينة أول رجب سنة ١٤٥هـ، وكان ظهور إبراهيم بالبصرة في أول رمضان من هذه السنة ويظهر أن الاتفاق على زمن خروج محمد وإبراهيم كان أمراً متفقاً عليه بينهما، وأن محمداً تعجل الخروج بسبب حث الناس له.

(ج) موقف الحزب العلوي بعد ثورة محمد وإبراهيم

١ - ثورة الحسين بن علي:

من ذلك يتبين أن العلويين لم يعولوا في دعواهم في الخلافة على الكيد وحده، بل ظلوا ينازلون أعداءهم في ميدان القتال كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأحوال. وفي الحق أن أمر العلويين قد ضعف بعد مقتل محمد وإبراهيم ابني عبد الله؛ غير أنهم ما فتئوا يتطلعون للخلافة، على الرغم من أنهم أصبحوا من الضعف بحيث لم يعد الخليفة العباسي بحاجة إلى التخوف من ناحيتهم، وإنما اكتفى بأن وضع كبارهم تحت نظره ببغداد، وبمراقبة عامله على المدينة المنورة لهم. ومن ثم نراهم يلجأون إلى الاستكانة، ويتحينون الفرص لشن الغارة على الخلافة العباسية من جديد.

خرج العلويون في عهد الهادي بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي، الذي دعا إلى نفسه بالمدينة في ذي القعدة سنة ١٦٩هـ. ويعزو المؤرخون خروج الحسين إلى سوء معاملة عامل الهادي على المدينة لهم، وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية، واتهامهم بشرب النبيذ، وقبضه عليهم والتشهير بهم بين أهل المدينة، مما أثار سخط الشيعة وحفزهم على الانضمام إلى العلويين. ويظهر أن العلويين قد عزموا على الخروج قبل ذلك بزعامة الحسين، وأنهم اتخذوا من سوء معاملة عامل المدينة لهم، فرصة سانحة لإثارة شعور أهل المدينة نحو العباسيين. فقد سار الحسين بن علي إلى عامل المدينة، واعترض على التشهير بأهل بيته والحط من كرامتهم.

يقول ابن طباطبا[١]: كان الحسين بن علي من رجال بني هاشم وسادتهم وفضلائهم؛ وكان قد عزم على الخروج، واتفق معه جماعة من أعيان أهل بيته. ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل علي عليه السلام، فثار آل أبي طالب بسبب ذلك، واجتمع إليهم ناس كثيرون وقصدوا دار الإمارة، فتحصن عنهم عاملها، فكسروا السجون وأخرجوا من فيها، وبويع الحسين بن علي.

أقام الحسين بعد خروجه من المدينة أحد عشر يوماً؛ ثم قصد مكة، فلقيه جيش العباسيين بفخ، وهو واد في طريق مكة يبعد عنها بستة أميال. وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين، حيث قتل الحسين بن علي بعد أن أبلى بلاء شديداً، وقتل معه بعض أهل بيته.

---

(١) الفخري ص ١٧٢ - ١٧٣.

وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. وقد كثر شعر الشيعة في رثاء قتلاهم، ومن ذلك قول أحدهم:

فلأبكينَّ على الحسين بعَولةٍ وعلى الحسنْ
وعلى ابن عاتكة[1] الذي واروه ليس بذي كفن
تركوا بفخ غُدوة في غير منزلة الوطن
كانوا كِراماً هُيجُوا لا طائشين ولا جُبُن
غسلوا المذلة عنهم غَسْلَ الثياب من الدرن[2]
هُدِيَ العباد بجدهم فلهم على الناس المنن[3]

من ذلك يتضح أن العلويين لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباسيين، وأنهم كانوا يثورون في وجه الدولة الحاكمة كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأسباب. ولم يكن العباسيون يتعمدون إساءة العلويين، وإنما كانوا ينكلون بهم لقيامهم في وجه النظام القائم كما يقولون. كما أنهم كانوا يرغبونهم بكل أنواع الترغيب، فلم يثنهم ذلك عن عزمهم في طلب الخلافة. ولم يكن العباسيون ينسون في كل أطوار علاقتهم مع العلويين أنهم أولاد عمهم، وأن لهم عليهم حرمة القرابة القريبة من الرسول، حتى في الوقت الذي كانوا يخرجون فيه عليهم ويعملون على استخلاص الخلافة منهم وتحويلها إليهم. وفي ذلك يقول المسعودي[4]: وأخذ لعبد الله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، وقتلا بعد ذلك، فسخط الهادي على موسى بن عيسى بن محمد بن عبدالله بن العباس. لقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن، وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى، وقبض أموال موسى (بن عيسى)، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار، فبكى الهادي وزجرهم وقال: أتيتموني مستبشرين كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم. إنه رأس رجل من عترة رسول الله ﷺ، ألا إن أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم شيئاً.

٢ - ثورة يحيى وإدريس إبني عبد الله:

وكانت موقعة فخ بعيدة الأثر؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجا في حلق العباسيين: هما يحيى بن عبدالله صاحب الديلم، وأخوه إدريس الذي فر إلى بلاد المغرب.

---

(١) هو الحسين بن علي بن الحسن بن علي قتيل فخ.
(٢) الدرن: القذارة.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧.

وقد أراد الرشيد أن يستميل إليه العلويين، ففك الحجز عن كثير ممن كان منهم ببغداد. ولكن أفراد البيت العلوي لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ في استحقاق الخلافة ومناضلتهم في سبيل الوصول إليها. وقد فر يحيى وإدريس ابنا عبدالله بن الحسن العلوي من موقعة فخ، وكان لهما شأن في أيام الرشيد. أما يحيى فقد مضى إلى بلاد الديلم، فاعتقد أهلها أحقيته بالإمامة وبايعوه، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد، وحداه على إعمال الحيلة للقضاء عليه وعلى دعوته، فولى الفضل بن يحيى البرمكي بلاد جرجان وطبرستان والري، وسيره في خمسين ألف جندي لمحاربة هذا العلوي.

ولكن الفضل أتى ـ بما عرف عنه من الذكاء ـ يحيى بن عبدالله من ناحية غير ناحية الحرب؛ فأخذ يحذره ويخوفه حيناً ويمنيه ويرعبه حيناً آخر، حتى مال إلى الصلح، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه، وأن يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم. فأجابه الرشيد إلى ما كتب، وأرسل الأمان إليه مع الهدايا والتحف. ثم قدم يحيى مع الفضل، فقابله الرشيد بالحفاوة والاكرام، ولكنه لم يلبث أن حبسه في داره، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان. ويحدثنا ابن طباطبا[١] أن منهم من أفتى بصحته، ومنهم أفتى ببطلانه فأبطله. على أن أموراً دعت الرشيد إلى نقض هذا الأمان والتخلص من يحيى، وذلك لسعاية رجل من أولاد الزبير بن العوام بيحيى بن عبدالله عند الرشيد، واتهامه بأنه أخذ يدعو إلى نفسه بعد إعطائه الأمان.

وأما إدريس بن عبد الله أخو يحيى، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢هـ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى حيث التف حوله البربر. ورأى الرشيد أنه لا طاقة له بإخضاعه بحد السيف، ففكر في بلوغ غايته من طريق المكايد والخدع، فأرسل إليه رجلاً معروفاً بالدهاء، وأمره أن يتقرب إليه، وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم. ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب، تقرب من إدريس، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧هـ، دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعده. فانتظر أتباعه أمة له كانت حاملاً، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة. وإليه تنسب دولة الأدارسة ببلاد المغرب.

وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ويعمل على استئصالهم. وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) ليقف في وجه الأدارسة كما سيأتي.

---

(١) الفخري ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

٣ ـ خروج محمد بن جعفر والقاسم بن إبراهيم:

خلف جعفر الصادق من الأولاد غير موسى وإسماعيل أبناء آخرين نخص بالذكر منهم: عبد الله الأفطح وإسحاق ومحمد الديباج. وقد ذكر أبو الحسن النوبختي(١)، أن فريقاً من الشيعة ذهب إلى الإمام بعد جعفر الصادق ابنه محمد (أخو موسى وإسحاق من أم ولد يقال لها حميدة)، وقالوا إن محمداً «دخل على ابنه جعفر يوماً وهو صبي، فعدا عليه، فكبا في قميصه ووقع لحر وجهه، فقام إليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره، وقال: سمعت أبي يقول إذا ولد لك ولد يشبهني، فسمه باسمي، فهو شبيهي وشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى سنته، فجعل هؤلاء الإمامة في محمد بن جعفر وولده من بعده. وهذه الفرقة تسمى السمطية التي تنسب إلى رئيس لهم يقال له يحيى بن أبي السميط.

من هذا نرى أن الإمامة بعد جعفر الصادق لم تكن في موسى الكاظم ولا إسماعيل أو ابنه محمد، بل ذهب بعض الشيعة إلى أن محمد بن جعفر أحق أولاد جعفر بها، وذهب بعض آخر إلى إمامة أخيه عبد الله الأفطح. على أن إمامة عبد الله هذا لم يطل أمدها، لوفاته دون أن يخلف ولداً ذكراً، فعاد عامة أشياعه وقالوا بإمامة أخيه موسى الكاظم.

خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق في خلافة المأمون. ويظهر أن خروجه قد حدث قبل أن يولي المأمون علياً الرضا بن موسى الكاظم عهده، أو أن ذلك كان سبب الاختلاف بين عقائد الشيعة الإمامية أصحاب موسى الكاظم، وبين أشياع أخيه محمد الديباج الذين لم تكن الصلة بينهم وبين أشياع محمد على شيء من الصفاء. ومن ثم كان خروجهم على المأمون خروجاً على من خالفوهم في العقيدة من أشياع موسى الكاظم.

وفي خلافة المأمون خرج محمد بن جعفر الصادق بمكة، وبويع بالخلافة، وتلقب بلقب أمير المؤمنين، وكان بعض أهل بيته قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر من شيوخ آل أبي طالب يقرأ عليه العلم. وقد روى عن أبيه، فأقام بمكة مدة، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه، فلم يحمد سيرتها، وأرسل المأمون إليهم عسكراً، فكانت الغلبة للمأمون، وظفر به وعفا عنه(٢).

ولم يكن خروج محمد الديباج كل ما قام به العلويون في وجه المأمون؛ فقد ذكر لنا المؤرخون أن أبا السرايا خرج في أيامه وقويت شوكته ودعا الى بعض أهل البيت، وأن الحسن بن سهل قاتل أشياع العلويين وغلبهم على أمرهم وقتل أبا السرايا. كما خرج على

---

(١) كتاب فرق الشيعة ص ٦٤ ـ ٦٥، ٧٢، ٩٠.

(٢) الفخري ص ٢٠١.

المأمون رجل من العلويين من بيت الحسن بن علي، هو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل، بعد أن غاب في الخفاء دهراً طويلاً.

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٩ هـ (٩٧١) في كتابه «الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية»، أن القاسم بن ابراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب استتر في مصر في خلافة المأمون العباسي، وأنه دعا إلى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد. وقد بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين، فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور؛ فاتصل خبره بمسامع الخليفة، فأمر بالتشدد في طلبه. فلم يطب للقاسم المقام في مصر، فعاد الى الحجاز ومنها الى تهامة، ولحق به جماعة من بني عمه وغيرهم، فبثوا الدعوة باسمه في بلخ[1] والطالقان[2] ومرو وغيرها؛ فذاع خبره، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه، فاختفى في حي من البدو. ولما ولي المعتصم الخلافة شدد في طلب القاسم، وبعث بغا الكبير وآشناس في جند كثيف، فانتقض عليه أمره، وذلك سنة ٢٢٠ هـ.

وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال: «ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب، ونحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف.. فنودي نداء يبلغنا صوته: برئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم وممن لا يدل عليه؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ومن البز كذا وكذا، والإسكاف مطرق يسمع ويعمل ولا يرفع صوته. فلما جاءنا قلنا له: أما ارتعت؟ قال: من لي؟ ما ارتياعي منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله ﷺ حتى في وقايتي لولده بنفسي؟[3].

---

(١) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيراً. افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر في خلافة عثمان بن عفان، وإليها ينتسب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ.

(٢) الطالقان (بفتح اللام) بلدتان: إحداهما بخراسان بين مروالروذ وبلخ، بينها وبين مروالروذ ثلاث مراحل. ذكر الاصطخري أن طالقان أكبر مدن طخارستان، وتقع في مستوى من الأرض يجري فيها نهر كبير، وتبلغ في الاتساع ثلث ما تبلغه مدينة بلخ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل، والفرس يسمونها أوهر، فتحت في أيام عثمان بن عفان، وبينها وبين زنجان خمسة عشر فرسخاً، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخاً)، وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم.

(٣) ليدن مخطوط رقم ١٩٧٤، ورقة ٣٤ أ - ٣٥ ب. انظر كتاب: تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٣٤ - ٣٥.

٣ ـ الجهاد النظري بين الحزبين العلوي والعباسي

(أ) في الشعر

١ ـ الشعراء العلويون:

ذكرنا أن العلويين لم ينسوا حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين بن علي، وأنهم عملوا للوصول الى حقهم بكل وسيلة ممكنة. فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة اغتنموها ولم يدعوها تمر، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من الرسول. ولما ظهرت الدعوة لآل البيت في أواخر الدولة الأموية تركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي. فلما ظفر العباسيون بالخلافة، أدرك العلويون أنهم قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم فنابذوا العباسيين العداء، وظلوا يناضلونهم ابتغاء الوصول الى الخلافة بالسيف تارة، وبالمكيدة والدهاء تارة، وبالكلام والشعر تارة أخرى ومن ثم قامت هذه الثورات التي أشعل نيرانها العلويون: كثورات محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم في عهد المنصور، وثورة الحسين بن علي بن الحسن في عهد الهادي، وثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله بن الحسن في عهد الرشيد، وثورة محمد بن الديباج بن جعفر الصادق في عهد المأمون.

ولم يكن انتصار هؤلاء الأشياع للعلويين راجعاً إلى السيف وحده، بل عمد كثير من الشعراء الموالين لهم إلى نشر دعوتهم وتأييد حقهم في الخلافة. وكان طبيعياً أن يناصر العباسيين جماعة من الشعراء ينتصرون لهم ويقارعون شعراء أعدائهم العلويين، مدفوعين في ذلك بالعطايا والأموال، أو لاعتقادهم بأحقية العباسيين بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين. ويمكن أن تعتبر هذه المساجلات الشعرية ناحية من نواحي الجهاد النظري الذي قام بين الحزبين العلوي، والعباسي. وثمة نواح أخرى من هذه المساجلات، نراها تظهر ظهوراً جلياً في العلم والكلام بنوع خاص، كما تظهر في السياسة، حتى إن كثيرين من الوزراء كانوا ينغمسون في هذا الصراع بموالاتهم للعلويين، فيعرضون أنفسهم لسخط العباسيين وكراهتهم.

والآن نعرض الكلام على الجهاد النظري بين العلويين والعباسيين كما يظهر من ثنايا أقوال الشعراء الموالين لكل من هذين الحزبين: فمن شعراء العلويين كُثَيِّر عزة (ت ١٠٥ هـ)، والكميت (ت ١٢٦ هـ) في العصر الأموي، والسيد الحميري (١٧٣ هـ) ودعبل بن علي الخزاعي في العصر العباسي الأول.

كان إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري يعتنق مذهب الكيسانية، الذي يعتقد

أنصاره أن محمد بن الحنفية بن علي ورث الإمامة عن أبيه علي مباشرة، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين، كما يعتقد برجعته. ويقول السيد الحميري[١]:

سنينَ وأشهراً ويُرى برضْوى بشعبٍ بين أنمارٍ وأُسْد
مقيم بين آرام وعين وخفانٍ تروحُ خلال رُبْد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهنَّ مُفترساً بحد
أمِنَّ به الردى فرتعن طوراً بلا خوفٍ لدى مرعى وورد

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميري في محمد بن الحنفية، من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهراً كثيرة، ومن حوله الأنمار والآساد والظباء وبقر الوحش وأنواع الشاء، من غير أن يعدو عليها أسد بظفر أو بناب لاحترامها إياه وتقديسها له.

ويظهر أن السيد الحميري قد غلا في ميله إلى العلويين، فكان يعبر عن هذا الميل وذلك الإخلاص بقصائد يبكي فيها ما حل بهم من عنت واضطهاد وقتل. فمن ذلك هذه القصيدة التي نظمها في قبر الحسين بن علي:

أمررْ على جَدَث الحـ ـسين فقل لأعْظُمِه الزكيه
آأعظماً لا زلتِ من وطفاء ساكبة رويه
وإذا مررتَ بقبره فأطلْ به وقفِ المطيهْ
وابْكِ المطهر للمطهرِ والمطهرة النقيه
كبكاءِ مُعْولةٍ أتتْ يوماً لواحدها المنيَّه

على أن إسراف السيد الحميري في مدح العلويين وذم السنيين، وبخاصة كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان، قد حمل الناس على نبذ شعره لما تضمنه من سب أصحاب رسول الله والطعن فيهم. يؤيد ذلك هذه القصيدة التي بعث بها إلى الخليفة المهدي يطلب إليه أن يحرم آل أبي بكر وعمر ما يستحقونه من مال الدولة، ومن هذه القصيدة:

قلْ لابن عباسٍ سَميِّ محمدٍ لا تُعطينَّ إلى عَديٍّ درهما
إحرم بني تيم بن مرةَ إنهم شرُّ البرية آخراً ومقدما
إن تُعْطهم لن يشكروا لك نعمةً ويكافئون بأن تُذم وتُشتما

ومما يدل على مبلغ تشيع السيد الحميري وحبه لعلي بن أبي طالب وأولاده من بعده، هذه القصيدة التي نظمها في يوم غدير خم، حيث نزل الرسول وآخى علي بن أبي طالب، وقد أثر

(١) أنظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ١٨ - ١٩.

عنه أنه قال: «علي مني بمنزلة هارون من موسى؛ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله». ومن ذلك أصبح يوم غدير خم عيداً يعنى به الشيعيون عناية عظيمة. ويروي الشيعيون هذا الحديث عن النبي ويقولون انه قال في السنة العاشرة للهجرة، وهو العام المعروف بحجة الوداع[١]. ويعتقد الشيعة أن علي بن أبي طالب أحق بالخلافة بعد الرسول ﷺ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة منه. ومن هذه القصيدة:

من كنت مولاه فهذا له ... مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا
وظلَّ قومٌ غاظهم قولُه ... كأنما آنافُهم تجدُع
حتى إذا واروه في لحده ... وانصرفوا عن دفنه ضيعوا[٢]

وكان السيد الحميري مع إسرافه في حب العلويين لا يتورع عن مدح خصومهم العباسيين، مدفوعاً في ذلك بخوفه من بطش العباسيين ورغبته في الحصول على أموالهم. من ذلك قوله يمدح أبا العباس السفاح:

دونكموها يا بني هاشم ... فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها فالبسوا تاجها ... لا تعدموا منكم له لابسا
لو خَيَّرَ المنبر فرسانه ... ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسةٌ ... لم يتركوا رطباً ولا يابسا

ويعتبر دعبل بن علي الخزاعي من أكثر الشعراء العلويين تعصباً للمذهب الشيعي وتفانياً في حب علي وأولاده، حتى لقد وقف من العباسيين موقفاً عدائياً ظاهراً، فأخذ يهجو خلفاءهم ووزراءهم وولاتهم وكبار رجال دولتهم. فلم يسلم من هجائه الرشيد والمأمون والمعتصم، ومدح العلويين بقصائد رائعة أشاد فيها بمناقبهم. وقد عبر عن حزنه لقتل العلويين وتشتت أشلائهم في مختلف الأقطار الإسلامية، في قصيدة طويلة أنشدها بعد أن حلت الهزيمة بمحمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم. ومما جاء في هذه القصيدة:

ذكرتُ محلَّ الربع[٣] من عرفات ... فأسبلتُ دمع العين بالعبرات
مدارسُ آياتٍ خلتْ من تِلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات[٤]
ديارٌ عفاها جور كل منابذ ... ولم تعف بالأيام والسنوات

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٣٦.
(٢) الأغاني جـ٧ ص ٣.
(٣) الربع: بتشديد الراء مطلق مكان.
(٤) عرصة الدار: ساحتها وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء.

قبورٌ بكوفان وأخرى بطيبة ... وأخرى بفخ ما لها صلوات
وأخرى بأرض الجوزان محلها ... وقبر ببا خمرى لدى العربات
هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا ... وهم خير قادات وخير حماة[1]

وقد ذكر الطبري[2] أن دعبل بن علي الخزاعي هجا الخلفاء العباسيين كما تقدم. ولم يسلم من هجائه كبار رجال الدولة وأمراؤها وخواصها، كما هجا الخليفة المعتصم الذي هدده بقتله، فخاف وهرب إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب. وهاك تلك الأبيات التي هجاه بها:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ ... عداة ثووا فيها وثامنهم كلب
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم ... وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركي عليه مهابة ... فأنت له أم وأنت له أب[3]

ولم يسلم الواثق من هجاء دعبل، فقد ذكر الخطيب البغدادي أن[4] الواثق لما ولي الخلافة كتب دعبل بن علي الخزاعي أبياتاً، ثم أتى بها الحاجب فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام، وقل: مديح لدعبل: فأخذ الحاجب الطومار، فأدخله إلى الواثق ففضه، فإذا فيه:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ ... ولا رقاد إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد ... وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا، ومر الشؤم يتبعه ... وقام هذا، وقام الويل والنكد

فطلب فلم يوجد».

٢ ـ الشعراء العباسيون:

وكان مروان بن أبي حفصة يخالف السيد الحميري ودعبلاً في تشيعهما للعلويين. وكان من أنصار الأمويين، حتى قربه إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وأصبح من خاصته المقربين إليه، وشهد معه جميع مواقعه السياسية والحربية، كما كان ساعده الأيمن في الأعمال التي تولاها قبل وصوله إلى عرش الخلافة وبعده.

---

(١) محمد بن النعمان: مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٢٧ ب ـ ٢٢٩ ب.
(٢) جـ ١٠ ص ٣٠١.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٤) تاريخ بغداد: جـ ١٤ ص ١٦ ـ ١٧.

على أن مروان كان كثير التلون والتذبذب في ميوله وأهوائه، فلم يستمر على ولائه للأمويين بعد أن دالت دولتهم وقامت على أنقاضها دولة العباسيين، وسرعان ما غدا من شعرائهم البارزين يؤيد أحقيتهم في الخلافة، وناوأ العلويين وشعراءهم في مسألة الخلافة حتى قال:

يا ابن الذي ورث النبي محمداً   دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم   قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة   نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبني البنات وراثة الأعمام؟

وقد أثار هذا البيت الأخير حفيظة الشيعة، فلعنوا مروان بن أبي حفصة وردوا على قصيدته بقصيدة أخرى على وزنها ورويها، ثم قتلوه، ومما جاء فيها:

لمْ لا يكونُ وإن ذاك لكائن   لبني البنات وراثة الأعمام؟
للبنت نصف كامل من ماله   والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما   صلى الطليق مخافة الصمصام[1]

وكان مروان بن أبي حفصة شاعر بني العباس في عهد المهدي والهادي والرشيد، قد أنشد في حضرة المهدي قصيدة أشاد فيها بفضائل العباسيين وأحقيتهم بالخلافة وذم العلويين. فمن ذلك قوله:

هل تطمسون من السما نجومَها   بأكفكم أو تسترون هلالها؟
أو تجحدون مقالة عن ربكم   جبريل بلغها النبي فقالها؟
شهدت من الأنفال آخر آية   بتراثهم فأردتم إبطالها

ولكن مروان بن أبي حمصة كان ـ كما ذكرنا ـ نفعياً يسير في ركاب صاحب السلطان ويشيد بمديحه ويهجو أعداءه في سبيل الحصول على المال. ولا عجب فهو القائل في مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية:

مروان يا ابن محمد أنت الذي   زيدت به شرفاً بنو مروان

---

(١) يريدون العباس بن عبد المطلب، لقبه الطليق لأنه كان مع المشركين يوم بدر ثم افتدى نفسه بعد أن أسره المسلمون.

(ب) في العلم والكلام بنوع خاص

١ ـ الشيعة:

كان لكل من العلويين والعباسيين وجهة نظر تذرع بها لتأييد دعواه في الخلافة؛ فأما وجهة نظر العلويين فترجع إلى ما كانوا يعتقدون من أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس، الذي اعترف بأحقية علي بن أبي طالب، وامتنع هو وكثير من علية العرب عن مبايعة أبي بكر واتحدوا مع علي(١)، وحذا أولاد العباس في ذلك حذو أبيهم، حتى جاء أبو هاشم بن محمد بن الحنفية، فنزل عن حقه في الإمامة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. أضف إلى ذلك أن محمداً النفس الزكية كان قد بويع في أواخر الدولة الأموية. في ذلك الاجتماع الذي حضره رجالات بني هاشم: فحضره من العلويين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن وأبناه محمد النفس الزكية وإبراهيم، ومن العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما، واتفقوا جميعاً على أن يدعوا الناس سراً، وبايعوا النفس الزكية إلا جعفراً الصادق. هذا إلى ما يعتقده العلويون من أنهم وحدهم أحق المسلمين بالخلافة، وأن أبا بكر وعمر وعثمان، وكذا الخلفاء من بني أمية وبني العباس انتزعوا حق الإمامة من علي، الذي يعتقد أشياعه أن الإمامة في بيته، لأنه كان أول من دخل في الإسلام من الصبيان، ولما له من البلاء الحسن في نصرة هذا الدين، ولأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة.

فهل نقض العباسيون هذه البيعة فنازعوا العلويين حقهم في الخلافة؟ أو أنهم كانوا يرون أنهم أصحاب هذا الحق وأولى به من بني عمهم؟ إن كتاب المنصور إلى محمد النفس الزكية لا يترك مجالاً للشك في أن العباسيين قد أصبحوا منذ أواخر الدولة الأموية ـ على الأقل ـ يعتقدون أنهم وحدهم أحق بهذا الأمر دون أبناء أعمامهم العلويين لأنهم أولاد فاطمة بنت الرسول، وهي «لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة»، على حين أن العباسيين أولاد العباس عم رسول الله ﷺ، والوارث له يوم وفاته(٢)، ولأن العباس كانت إليه ولاية زمزم

---

(١) ابن هشام (طبعة أوروبا) جـ ٢ ص ١٠١٣.

(٢) السر في أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للأعمام أمران: الأول، أن أبا بكر أخذ فدك «قرية بخيبر» من يد فاطمة، وكان رسول الله ﷺ قد أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها، فادعت أنها ترث ذلك، فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون، واستدل بحديث سمعه من رسول الله ﷺ في ذلك الثاني، أن بني العباس يدعون أيلولة ميراث الرسول من إمامة المسلمين لهم، لأنه عم رسول الله ﷺ، والوارث له يوم وفاته، لأن ابنته فاطمة لا تحوز كل المال، وعلي أنزل من العباس، فقالوا هم إنها تحوز كل الميراث ليمنعوا بني العباس من دعواهم. وإلى ذلك يشير شاعر بني العباس بقوله:

وسقاية الحجيج في الجاهلية دون إخوته، حتى نازعه فيها علي بن أبي طالب فقضى عمر للعباس، فلم يزل العباسيون يلونها في الجاهلية والإسلام.

ويستند العباسيون في دعواهم إلى مذهب أهل السنة الذي يورث العم دون البنت أو ابن العم، كما يتبين ذلك من قول المنصور في نهاية كتابه إلى محمد بن عبد الله يفخر عليه بشرف العباسيين على العلويين: «ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره (أي العباس)؛ فكان وارثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده: فالسقاية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده. فلم يبق شرف ولا فضل، ولا إسلام في دنيا ولا آخرة، إلا والعباس وارثه ومورثه... فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم، فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم؟»[١].

من هذا نرى أن العباسيين إنما تحولوا إلى جانب العلويين، ليطلبوا بثأرهم ويتخذوهم تكأة للوصول إلى الخلافة: فظن العلويون أن العباسيين فضلوا علياً على العباس. هذا إلى ما قرره المنصور من أن العلويين لم يعد لهم حق في الخلافة بعد أن نزل عنها الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان على الأقل.

وقد رأى المنصور ضرورة محاربة محمد وأخيه إبراهيم والقضاء عليهما باعتبارهما خارجين على الدولة، لأنه أصبح بحكم البيعة له خليفة المسلمين، فلا ينبغي له أن يفرط في مقاومة العلويين، الذين كانوا يعملون على قلب نظام الدولة العباسية وتحويل الخلافة إليهم بعد أن جاهد العباسيون في سبيل الوصول إليها. وكان العباسيون يرون أنهم أولو الأمر وأحق من بني عمهم بالخلافة. على أن من العدل والإنصاف أن نقول، إن العباسيين كان يجدر بهم أن يجدوا سبيلاً للتوفيق بين وجهة نظرهم ووجهة نظر آل بيت علي، لإزالة أسباب الخلاف، وإعطاء العلويين نصيبهم من هذا الأمر الذي كانوا يرون أنهم أحق به من غيرهم، ولا سيما بعد أن قعد العباسيون عن المطالبة بدعواهم في الخلافة، منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه إلى أن أشرفت الدولة الأموية على الزوال[٢].

طائفتا الإمامية:

خرجت بلاد المغرب الأقصى عن سلطان الرشيد على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن،

= أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام؟
انظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٣١٦.

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٢ ـ ٢١٣.
(٢) الفخري ص ١٧٨.

كما خرجت بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وأصبح الرشيد يخاف العلويين أشد الخوف ويوقع أشد أنواع العقاب بكل من اتهم بالميل إليهم. ووجد سعاة السوء، حتى من العلويين أنفسهم، سبيلاً للإيقاع بآل بيتهم عند الرشيد. وكان موسى الكاظم بن جعفر الصادق ضحية هؤلاء السعاة؛ فقد وجد حساده والناقمون عليه، السبيل معبدة للإيقاع به عند الرشيد وإثارة مخاوفه من اعتقاد الناس بإمامته حتى أخذوا يحملون إليه خمس أموالهم، ومن اعتزامه الخروج عليه، مما أقلق باله ودفعه إلى العمل على التخلص منه.

وكان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه قد وشى به إلى الرشيد، وقال له إن الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم، ويعتقدون إمامته، وأنه على عزم الخروج عليك، وكثر في القول. فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمه وأقلقه، ثم أعطى الواشي مالاً أحاله به على البلاد، فلم يستمتع به، وما إن وصل المال من البلاد حتى مرض مرضاً شديداً ومات.

حج الرشيد سنة ١٧٩ هـ، ولما وصل إلى المدينة قبض على موسى بن جعفر الصادق، وحمله إلى بغداد حيث حبس، ثم قتل، وأدخل عليه جماعة من العدول شهدوا أنه مات حتف أنفه.

على أن الأمر الذي يسترعي النظر في هذه المسألة، هو وشاية بعض آل علي بموسى الكاظم عند الرشيد، مما يدل على أن الخلاف قد دب بين العلويين، فما السبب إذاً؟ يرجع السبب في ذلك إلى معتقدات الإمامية التي تنص على أن الإمام يكتسب الإمامة بطريق الوراثة، وأنه يجب أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً.

وإن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق في سنة ١٤٨ هـ، قد جر إلى انقسام الإمامية إلى طائفتين: الإمامية، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الإمامية الاثني عشرية، وقد قالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع؛ والإسماعيلية، وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر، وكان أكبر أولاد أبيه، على الرغم من أن وفاته كانت في حياة أبيه.

ويقال إن جعفر الصادق حول الإمامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه موسى الكاظم بسبب اتهام إسماعيل بشرب الخمر. على أن فريقاً من الشيعة يقول إن شرب إسماعيل الخمر لا يعد دليلاً على عدم تقواه، وأيدوا دعواهم بأن بعض الشيعة في العراق كان يشرب الخمر. وبذلك ظهرت طائفة الإسماعيلية الذين يقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو الإمام السابع عندهم[1].

(١) يقول أنصار إسماعيل إنه وإن كان قد أبعد عن الإمامة فقد تحولت إلى ابنه محمد بن إسماعيل، وهو الإمام =

ويحدثنا الحسن النوبختي في كتابه: «فرق الشيعة»(١) أن طائفة الإسماعيلية التي ذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل، لا ابنه موسى الكاظم. وقد أنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه، وقالت إنه تغيب «ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس». كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل، «لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام، ولا تكون إلا في الأعقاب. ولم يكن لأخوي إسماعيل، عبد الله وموسى، في الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين. وأصحاب هذا القول يسمون «المباركية» نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر».

وبديهي أن الخلاف بين العلويين على اختلاف طوائفهم وبين العباسيين لم يكن أقل أثراً منه بين طائفتي الإمامية الاثني عشرية والإمامية الإسماعيلية، مما يحملنا على الظن أن حساد موسى الكاظم كانوا من أهل بيته، وأنهم أوقعوا به عند الرشيد، فقبض عليه وحبسه في بغداد، فظل فيها إلى أن كانت نهايته سنة ١٨٣ هـ وهو في الرابعة والخمسين. ولا يزال قبره يزار إلى الآن في حي «الكاظمية» المشهور بالكرخ، في الجانب الغربي، وهو موطن الشيعة.

ويحدثنا أبو الفدا(٢) عن ورع موسى وزهده فيقول: «وتولى خدمته في الحبس أخت السندي. وحكت عن موسى المذكور أنه كان إذا صلى العتمة، حمد الله ومجده، ودعا إلى أن يزول الليل، ثم يقوم يصلي حتى يطلع الصبح، فيصلي الصبح، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال، ثم يتوضأ ويصلي العصر، ثم يذكر الله تعالى حتى يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة. فكان هذا دأبه إلى أن مات رحمة الله عليه. وكان يلقب الكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسيء إليه».

وقد فطن المأمون إلى مغبة هذه السياسة التي سار عليها الخلفاء العباسيون في معاملة العلويين، فولى عهده رجلاً من آل علي الرضا. ولولا موته مسموماً وهو في طريقه إلى بغداد لتحولت الخلافة من العباسيين إلى العلويين.

٢ ـ المعتزلة:

تكلمنا في الباب الأول عن المعتزلة أو القدرية من حيث أثرها في اتجاه السياسة الإسلامية في العصر الأموي، وقلنا ان عقيدتهم الأساسية تتكون من خمسة أصول، وهي القول بالتوحيد، وهو أن الله واحد لا شريك له، والقول بالعدل وهو أن الله لا يحب الشر والفساد،

= السابع عندهم. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٩٠ ـ ٣٩٧.

(١) ص ٥٧ ـ ٥٨، ٧١ ـ ٧٢، ٩٠.

(٢) المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥ ـ ١٦.

والقول بالوعد والوعيد، وهو أن الله صادق في وعده ووعيده لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد التوبة، والقول بالمنزلة بين المنزلتين؛ وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر لكنه فاسق، والقول بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه، سواء أكان كافراً أم فاسقاً[١].

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا علاقة لها بالسياسة، بخلاف ما كان عليه الشيعة والخوارج والمرجئة. إلا أنها سرعان ما تدخلت الأمور السياسية الهامة، فبحثت مسألة الإمامة ووضعت الشروط التي يجب أن تتوافر في الأئمة، كما بينا ما هنالك من علاقة بين مبادىء المعتزلة ومبادىء الشيعة، حتى كانت تسمي نفسها «أهل العدل» كالمعتزلة سواء بسواء. كما قالت المعتزلة بحرية الإرادة، التي وضع أساسها علي بن أبي طالب. كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب «إمام»، ذلك اللقب الذي يقدسه الشيعة. أضف إلى ذلك تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم القائلة إن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد. وهذا نفس ما يقوله المعتزلة. والزيدية أكثر شبهاً في ذلك بالمعتزلة من الإمامية. وهكذا تأثر كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد خاصة.

ولا غرو، فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب. وقلما نجد كتاباً من كتبهم، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام علي. ويقول ابن أبي الحديد[٢]:

«وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب، ولا نقل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً. وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به. وأول من خاض فيه من العرب عليّ عليه السلام. ولهذا نجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا نجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك، ولا يتصورونه، ولو فهموه لم يفهموه، وأنى للعرب ذلك. ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا في بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره، وسموه أستاذهم ورئيسهم، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها. ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى

---

(١) الخياط المعتزلي: كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي: ص ٥٠ ـ ٥١. المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) شرح نهج البلاغة: جـ٢ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

واصل بن عطاء، وواصل تلميذ أبي هاشم بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام؟».

كذلك ذكر المعتزلة الإمام علي في الطبقة الأولى من طبقاتهم. كما ذكروا قصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من صفين: أكان المسير بقضاء الله وقدره؟ فقال عليه السلام: والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا قلعة إلا بقضاء وقدر. فقال الشيخ: عند الله احتسب عنائي، ما لي من الأجر شيء، فقال: بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: فكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا؟ فقال عليه السلام: لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة المذنب أولى من المحسن. تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وشهود الزور، وأهل العماء عن الصواب في الأمور. هم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيراً. ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً. ذلك ظن الذين كفروا، فويل للكافرين من النار: فقال الشيخ وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا؟ فقال: أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول:

أنتَ الإمامُ الذي نرجو بطاعته يومَ النشور من الرحمن رِضوانا
أوضَحْتَ من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالإحسان إحسانا[١]

كذلك ذكروا في الطبقة الثانية الحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي. وكان محمد هذا (ابن الحنفية) هو الذي ربى واصل بن عطاء كما تقدم. وكان أبو هاشم إذا سئل عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول: إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره في واصل بن عطاء. وكذلك أخذ واصل عن أبي هاشم الذي كان معه في المكتب، فأخذ عنه وعن أبيه[٢]. هذه بعض الصلات التي ظهرت منذ ظهور المعتزلة. ومنها نرى أثر آل البيت في ظهور الاعتزال، ومقدار تأثر رؤساء المعتزلة بالبيت النبوي.

ولما كان الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية، فخاصمت بعضها، واتصلت بالبعض الأخر اتصالاً يختلف شدة وضعفاً، وحسبما

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٧. (٢) المصدر نفسه ص ١١.

يذهب إليه كل منها في عقائده. ولبيان هذا نقول إن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها ثلاثة أقسام: غالية ورافضة وزيدية. أما الغالية فهم الذين غلوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم فرق كثيرة كالسبئية[١].

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة وهو التوحيد، للرد على غلاة الشيعة، والرافضة هم الذين قالوا إن الله قدٌّ وصورة، وإنه جسم ذو أعضاء. وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة فإننا نرى أن المتقدمين منهم، مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمي الرافضة، كانوا كذلك خصوماً للمعتزلة، لقولهم بالشبيبه والرجعة وغير ذلك.

يقول الخياط المعتزلي[٢]: «فهل كان على الأرض رافضي إلا وهو يقول: إن الله صورة، ويروي في ذلك الروايات، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم، إلا من صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد، فنفته الرافضة عنها ولم تقربه؟».

أما الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة. وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن علي الذي تتلمذ لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة واقتبس منه أصول الاعتزال، وأصبح جميع أنصاره معتزلة إلا من خرج عليه منهم. وقد اشترك المعتزلة من بني هاشم في مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بمكة في أواخر عهد بني أمية، ثم شاركوا الشيعة في سخطهم على العباسيين بعد أن آلت الخلافة إليهم، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن علي تحت لواء إبراهيم بن عبد الله في العراق في محاربة أبي جعفر المنصور، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه[٣].

ولم تبلغ تعاليم المعتزلة مبلغها من الانتشار والقوة إلا في العصر العباسي الأول، وخاصة في عهد المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) الذي عمل على عقد مجالس للمناظرة بقصره، وأباح للمتناظرين الكلام في مختلف الموضوعات: فقد تناظر في مجلسه إثنان في موضوع الإمامة، فانتصر أحدهما لطائفة الإمامية الاثني عشرية، وانتصر الثاني لطائفة الإمامية الزيدية. ولو أخذنا بأحد هذين الرأيين، لأضعف ذلك من حجة العباسيين بأحقيتهم بالخلافة، وولي العلويين.

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٨.
(٢) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ص ١٤٤.
(٣) مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٧٩.

وكان المأمون يرى أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة أسباب الخلاف بين العلماء؛ فقد روي عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال: أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم. وجلس لهم المأمون، فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم فلما انفض ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المأمون: «يا أبا محمد! إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين: إما شاك فيتبين ويثبت فينقاد طوعاً، وإما معاند فيرد بالفعل كرهاً».

وقد ظهر في عهد المأمون جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تأولوا أصول الدين والعقائد وحكموا عقولهم في البحث. ونشأت بسبب ذلك اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث.

وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل، فقرب أتباع هذا المذهب إليه، ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد. يقول الأستاذ براون[١]: «وأما العقيدة القائلة بأن القرآن غير مخلوق، فقد كان المعتزلة يمقتونها أشد المقت. ففي سنة ٢٢١هـ (٨٢٦م) كاد المأمون أن يثير حرباً داخلية، مدفوعاً إلى ذلك بميول الشيعة، وخاصة عندما عهد بالخلافة من بعده لعلي الرضا الإمام الثامن من أئمة الشيعة الاثني عشرية».

وقد وافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق كتاب الله، فأرسل في سنة ٢١٨هـ كتاباً إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين في مسألة القرآن، كما أمره أن يأخذ على القضاة عهداً بألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن، وأن يعاقب كل من لم يقل بهذا الرأي. ومما جاء في هذا الكتاب: «قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وقصور، أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه. ذلك أنها ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه. وقد قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[٢] فكل ما جعله الله قد خلقه، كما قال تعالى: ﴿وجعل الظلمات

(١) lit. hist of persia. vol I p. 284

(٢) سورة يوسف ١٢: ٢.

والنور﴾(١)، وقال ﴿وكُلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾(٢)، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه. فاجمع مَنْ بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، وامتحنهم فيما يقولون، واكشفهم عما يعتقدون في خلق الله تعالى القرآن واحداثه، وأعلمهم أني غير مستعين في عملي ولا أثق بمن لا يوثق بدينه»(٣).

وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي في هذه المسألة؛ وإنما كان ينفذ وصية المأمون، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأي، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن.

وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم في انتصاره للمعتزلة. وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد. وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن، ودعوا إلى عزل الواثق، لكنه ما لبث أن قبض عليه وعلى أعوانه، وسيقوا إلى الخليفة بسامرا قاعدة خلافته، فعقد لهم مجلساً للمناظرة، وناظر الواثق أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن، فقال له: يا أحمد! ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال؛ أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربك؟ أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر، فقال الواثق لمن حوله، ما تقولون فيه؟ فقال القاضي عبد الرحمن بن إسحاق وقال غيره: اسقني دمه يا أمير المؤمنين، فوافقه الحاضرون إلا ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، فإنه قال: يا أمير المؤمنين كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل. وما لبث أحمد بن نصر أن لقي حتفه على يد هذا الخليفة.

وقد غلا الواثق في معاملة القائلين بعدم خلق القرآن. وقد طلب عندما تبودلت الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين أن يسأل كل أسير من أسرى المسلمين عن رأيه في القرآن، وكان نصيب كل من قال بعدم خلق القرآن أن يرد إلى أسره باعتباره خارجاً على الإسلام(٤).

٣ ـ أهل السنة:

دخل في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ كثير من الشعوب كالفرس والشاميين

(١) سورة الأنعام: ٦: ١.
(٢) سورة هود ١١: ٢.
(٣) الطبري جـ ١٠ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٤) الطبري: جـ ١١ ص ١٩.

والمصريين وغيرهم، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية خارج جزيرة العرب، وكان لهذه الشعوب أديان وتقاليد ونظم، ولم يكن في استطاعتهم تطبيق عقائد الإسلام التي ذكرت في القرآن عليها، ومن هنا اتجه نظرهم إلى مصدر آخر من مصادر التشريع الإسلامي هو «السنة»، أي ما أثر عن الرسول من قول أو فعل أي شيء رآه. وكانت المدينة المنورة مركز أهل السنة أو الأمر. وينبغي أن نميز بين أهل الحديث الذين يتمسكون بأقوال الرسول خاصة، وأهل السنة وهم الذين يتمسكون بأقوال الرسول وأفعاله وعاداته وغيرها(١).

ولم يطلق اسم «أهل السنة» إلا في العصر العباسي الأول في الوقت الذي تطور فيه مذهب المعتزلة، حتى أصبح يطلق اسم «أهل السنة» على كل من يتمسك بالكتاب والسنة، واسم «المعتزلة» على كل من يأخذ بالكلام والنظر. أما في صدر الإسلام فكان يطلق على كل من يتمسك بالكتاب والسنة اسم «الصحابة» لأنهم اجتمعوا مع الرسول وناصروه. كما أطلق على من أتى بعدهم الأتباع وأتباع الأتباع. وظلت الحال كذلك إلى أن انتصر أبو الحسن الأشعري وأتباعه على المعتزلة، واضمحلت أكثر الفرق الإسلامية الأخرى، فلم يعد هناك سوى الشيعة وأهل السنة، فيقال هذا شيعي وذاك سني، واستمرت هذه التسمية إلى الوقت الحاضر.

وقد مر مذهب أهل السنة بأدوار مختلفة، وقام الصراع بينهم وبين المعتزلة، واصطدم زعماء أهل السنة مع العباسيين أنفسهم، فكان من مبادىء أهل السنة تمسكهم بنصوص الكتاب والسنة، وذهبوا إلى أن الإيمان ليس بحاجة إلى غيرهما. كما ذهبوا إلى القول بأن الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل إلى الإلحاد مخالفين بذلك مبادىء المعتزلة، مما أدى إلى وقوع ذلك النزاع بين أصحاب المذهبين. وآية ذلك ما رأيناه في عهد المأمون من وقوع الصراع العنيف في مسألة خلق القرآن بين أهل «السنة والجماعة» وبين «المعتزلة» الذين سادت مبادئهم في بلاط الخلفاء وأصبحت الكلمة النافذة في ذلك الوقت.

على أن أهل السنة لم يقصروا كلامهم على الأمور النظرية، بل كثيراً ما تعرضوا للمسائل السياسية كمسألة الإمامة. فقد نقم أبو حنيفة على العباسيين سطوتهم وشدتهم، ومال إلى العلويين في الفتنة التي قامت بين أبي جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم. وقد روي أن المنصور استقدم أبا حنيفة من الكوفة لاتهامه بمناصرة إبراهيم بن عبدالله العلوي،

(١) قيل عن سفيان الثوري إنه إمام في السنة وليس بإمام في الحديث: وان الأوزاعي إمام في الحديث وليس بإمام في السنة، وأن مالك بن أنس كان إماماً في السنة والحديث معاً. وقد بقي هذا التمييز طويلاً حتى اصطلح المتأخرون على جعلها شيئاً واحداً.

فظل ببغداد خمسة عشر يوماً. ثم دس له السم فمات. كما كان مالك بن أنس يفتي الناس بأنه «ليس على مكره يمين». ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين، لأن هذا معناه أن من بايع العباسيين مكرهاً فله أن يتحلل من بيعته، وله أن يبايع محمداً النفس الزكية. وقد نهى المنصور مالكاً عن التحدث بهذا الحديث ثم ضربه بالسياط لما علم أنه ما زال يحدث به[1].

(جـ) في السياسة

أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في النزاع

اعتنق الفرس الدين الإسلامي ووجدوا فيه المساواة التي كانوا ينشدونها، لأن هذا الدين يقوم على أساس المساواة بين المسلمين كافة، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي. وتمتع الفرس بمبدأ المساواة في عهد الخلفاء الراشدين. فلما انتقل الحكم إلى الأمويين آثروا العرب على الفرس ولم يساووا بين هؤلاء وأولئك في الحقوق المدنية والعسكرية، وأثاروا بذلك كراهة الموالي، الذين، عملوا على التخلص من نيرهم، وانضموا إلى بني هاشم طمعاً في نيل حقوقهم وإعادة مجد بلادهم.

وقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، كما نعلم، ولكن العباسيين، وإن كانوا قد اعترفوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم، لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم في سلطانهم أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين. ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم، الذين مالوا إلى العلويين. فنكل السفاح بأبي سلمة، والمهدي بيعقوب بن داود، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل.

اتصل أبو سلمة الخلال الذي كان من أهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية، ببني العباس بتزكية صهره بُكَيْر بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام ولما مات إبراهيم وخلفه في الدعوة أخوه أبو العباس، حامت الشكوك حول إخلاص أبي سلمة للدعوة العباسية، واتهم بأنه أخذ يعمل على العدول عنهم وتحويل الخلافة إلى العلويين؛ كما أنه لم يهتم بأبي العباس وأهل بيته بعد أن هاجروا من الحميمة إلى الكوفة، حتى إنه أبى أن يدفع أجرة الحمالين الذين تولوا نقلهم ونقل أمتعتهم، وأخفى أمرهم وأمر بمراقبتهم. ولما قامت الدولة العباسية أرسل أبو سلمة إلى زعماء العلويين بالحجاز، وهم جعفر الصادق، وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي، وعمر الأشرف بن علي زين العابدين يدعوهم إلى قبول الخلافة كما تقدم.

(١) انظر الملحق العاشر.

وقد قيل إن أبا العباس السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه، لما كان يتمتع به من مكانة سامية ونفوذ كبير في نفوس الخراسانيين. وهم أعضاد الدولة العباسية ومصدر قوتها، وفوض إليه أمور هذه الدولة، ولقبه وزير آل محمد، وخشي إذا قتله أن يقوم أهل خراسان في وجهه ويثأروا له. وبذلك عمل أبو العباس على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم الخراساني، لأنه كان يكرهه ويحقد عليه لعلو منزلته في الدولة.

ولم يكن للوزراء من الفرس أثر في هذا النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين في عهد أبي جعفر المنصور، لضعف هؤلاء الوزراء في عهده، بسبب استبداده بأمور دولته، وشدة حرصه على سلطانه، حتى كانوا معرضين للقتل لأتفه الأسباب فلما ولي المهدي الخلافة وأمر بحجب وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار بعد أن قتل ابنه الذي اتهم بانتحال مذهب الزنادقة، استوزر أبا عبد الله يعقوب بن داود وكان من الخراسانيين. وكان أبوه وأعمامه يتولون الكتابة لنصر بن سيار والي خراسان في أواخر أيام بني أمية، لنبوغهم في العلم والأدب والشعر والسير. فلما انتقل الحكم إلى العباسيين لم ينتفعوا بمواهب آل داود لاتصالهم ببني أمية من قبل. وقد قيل إن يعقوب بن داود انتحل عقائد الزيدية، ثم مال إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوي وتقرب إليهم. وأخذ هو وأهل بيته ينشرون الدعوة لمحمد النفس الزكية، وانضووا تحت لواء أخيه إبراهيم في العراق. فلما قتل إبراهيم اختفوا حتى ظفر بهم المنصور، فحبسهم إلى أن ولي المهدي الخلافة، فأطلقهم واستوزر يعقوب بن داود وفوض إليه كافة أمور دولته، وانصرف إلى اللهو وسماع الغناء والشراب، فقال بشار بن برد:

بني أميةَ هُبوا طال نومُكُمُ إنَّ الخليفةَ يعقوبُ بن داود
ضاعتْ خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافَة الله بين الناي ِ والعود

وقد ذكر ابن طباطبا[1] أن الخليفة المهدي طلب من وزيره يعقوب بن داود أن يكفيه أحد العلويين لأنه خاف خروجه عليه، واستحلفه على ذلك، ولكن يعقوب رق لحال العلوي وأطلقه، وكانت عند هذا الوزير جارية أهداها له المهدي فدست إليه من أعلمه بحقيقة الحال، فبث العيون والأرصاد حتى أتوه بذلك العلوي وجعله في بيت قريب من مجلسه. ثم استدعى الوزير وسأله عما آل إليه أمر العلوي فقال: قد أراح الله منه أمير المؤمنين. قال: مات؟ قال: نعم؟ قال: بالله؟ إي والله، قال فضع يدك على رأسي وأحلف به، قال يعقوب: فوضعت يدي على رأسه وحلفت به، فقال (المهدي) لبعض الخدم: أخرج إلينا من في هذا البيت، فلما رآه

---

(١) كتاب الفخري ص ١٦٧ ـ ١٦٩.

يعقوب امتنع الكلام عليه وتحير في أمره. فقال المهدي: يا يعقوب! قد حل لي دمك. قال يعقوب: «فدليت بحبل في بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء». فظل في حبسه إلى أن أطلقه الرشيد وقد فقد بصره ورقت حاله، وسمح له بأن يقضي البقية الباقية من حياته في مكة، فلم تطل أيامه بعد ذلك ومات سنة ١٦٧ هـ.

ولم يعمر الهادي في الخلافة، وخلفه أخوه هارون الرشيد، فاستوزر البرامكة الذين كان لهم شأن عظيم في الدولة العباسية، ولا سيما في عهد الرشيد الذي أوقع بهم لأسباب كثيرة، اهمها ميلهم إلى العلويين، كما أوقع السفاح بوزيره أبي سلمة الخلال، والمهدي بوزيره يعقوب بن داود كما تقدم. ويحسن بنا أن نفحص عن العوامل التي أدت إلى نكبة البرامكة على يد الرشيد، تلك النكبة التي تعتبر بحق من أمهات الحوادث التي وقعت في عهد الرشيد خاصة وفي العصر العباسي الأول عامة.

اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير في السبب الذي دفع هارون الرشيد إلى نكبة البرامكة، مع أنه شب في حجر يحيى بن خالد البرمكي حتى كان يدعوه يا أبت. فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين أخته العباسة، وبعضهم يقول إن ذلك كان بسبب إطلاق جعفر البرمكي يحيى بن عبد الله العلوي بعد أن أمره الرشيد بحبسه، وبعضهم يقول إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس إليهم، وأن ذلك أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم.

أضف إلى ذلك ما أظهره البرامكة من الدالة على الرشيد مما لا تحمله نفوس الملوك، وسعاية أعداء البرامكة وبخاصة الفضل بن الربيع بهم عند الرشيد. ومما يدل على تأثير هذه السعايات في نفس الرشيد ما رواه ابن طباطبا[1] عن بختيشوع الطبيب قال: «دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد. وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال: جزى الله يحيى خيراً تصدى للأمور وأراحني من الكد ووفر أوقاتي على اللذة؛ ثم دخلت عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال: استبد يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلا اسمها، فقلت إنه سينكبهم فنكبهم عقيب ذلك».

ذكر بختيشوع الطبيب أنه بينما كان جالساً في مجلس الرشيد إذ دخل يحيى بن خالد،

---

(١) الفخري ص ١٩٠

وكان من عادته أن يدخل بلا إذن. فلما دخل وسلم على الرشيد، رد عليه رداً ضعيفاً. فعلم يحيى أن الرشيد قد تغير عليه. ثم عبر الرشيد عن استيائه لدخول يحيى البرمكي عليه دون إذن. فقام يحيى! فقال: يا أمير المؤمنين! قدمني الله إليك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان قد خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري، حتى إني كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره. وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب؛ وإذا قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. فاستحيى الرشيد، وكان من أرق الخلفاء وجهاً وقال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يتقولون[١].

كذلك روى الطبري[١] هذه العبارة التي تدلنا على مبلغ حقد الرشيد على البرامكة وعمله على الغض من شأنهم، حتى إنه أمر غلمانه بالإعراض عنهم والاستهتار بهم إذا دخلوا قصره. دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال: فدخل فلم يجبه أحد، فاربدَّ لونه، وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه.

أضف إلى ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى وغيرهم، وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد دسوا للمغنين شعراً يثير عامل المنافسة والحقد في نفسه، وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على سماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم[٢]. فانظر كيف كان حال الرشيد من البرامكة عندما سمع هذين البيتين:

ليتَ هنداً أنجزتْنا ما تَعِدْ وشفَتْ أنفسَنا مما تجِدْ
واستبدَّت مرةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبد

أجل! لقد نجح أعداء البرامكة ومنافسوهم في حيلتهم، فإن الرشيد لما سمع هذين البيتين قال: «إي والله إني عاجز». وسلط عليهم سيف انتقامه.

ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة إلى حوادث ليست فجائية كالتي تقدمت، وإنما هي أمور جاءت متتابعة: منها أن الرشيد كان يميل كثيراً إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة، فكانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك، وكان الفضل يظن أن الذي حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكي فلما ماتت الخيزران، ولى الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان في يد جعفر (١٨٤ هـ).

---

(١) ج ١٠ ص ٧٩ - ٨٠.
(٢) ابن خلدون. مقدمة ص ١٥.

وأعقب ذلك إطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسين بن العلوي الذي خرج على الرشيد في بلاد الديلم، فبعث إليه الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين ألف مقاتل، فما زال به حتى مال إلى الصلح وطلب أماناً بخط الرشيد، فكتب إليه الأمان بخطه، وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم. ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والإكرام، ولكنه لم يلبث أن حبسه إذ علم أنه يعمل لخلعه، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان الذي أعطاه يحيى، ثم سلمه لجعفر بن يحيى البرمكي فأطلقه[١]. فكان ذلك من أهم أسباب نكبة البرامكة. وفي ذلك يقول الطبري[٢].

«وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي، فسأله عن شيء من أمره، فأجابه إلى أن قال: أتق الله في أمري، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا اويت مُحْدثاً، فرق عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا امن أن أوخذ بعد قليل، فأرد إليك أو إلى غيرك؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه، فعلا الأمر فوجده حقاً، وانكشفت عنده، فدخل على الرشيد وأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال: وما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري فانكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان اخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال، قال: بحياتي؟ فأحجم جعفر، وكان من أدق الخلق ذهناً وأصفاهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، وقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا خيانة به ولا مكروه عنده، قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال؛ قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك، فكان من أمره ما كان».

لذلك لا نعجب إذا ساءت العلاقة بين البرامكة وبين الرشيد، وساعد على إشعال هذه النيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره، وكراهة زبيدة أم الأمين للبرامكة، إذ كانت تظن أن الرشيد قد عهد إلى ابنه المأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكي. أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسي كان يدعو إلى نفسه، وأن البرامكة كانوا يساعدونه، فغضب الرشيد عليهم وحبس عبد الملك معهم.

ولم يكن جعفر البرمكي وحده هو الذي اتهم بالتقرب إلى العلويين، بل شاركه في ذلك

---

(١) الجهشياري. كتاب الوزراء والكتاب ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) ج ١٠ ص ٨٠ ـ ٨١.

أخوه موسى بن يحيى البرمكي فقد رماه أعداؤه بأنه ينشر الدعوة إلى العلويين ويعمل على تحويل الخلافة إليهم بين أهالي خراسان.

أما قصة العباسة مع جعفر بن يحيى البرمكي، وتتلخص في أن هارون الرشيد لكلفه بمكانة جعفر وأخته العباسة وحرصه على حضورهما مجلسه، أذن لهما في عقد الزواج دون الخلوة، وأن الرشيد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط، فأمر نستبعده كل البعد، مع ما نعرفه من نسب العباسة وحسبها ودينها. فهي بنت الخليفة المهدي بن المنصور، وهي كما يقول ابن خلدون[١]: «قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف وموقع الفواحش. فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدوا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم؟ . . . وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف، وقاس العباسة بابنة ملك من ملوك زمانه، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها، وفي سلطان قومها، واستنكره ولج في تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟».

ومما يؤيد بطلان هذا الرأي ما نعلمه من أنفة العباسيين عن مصاهرة الموالي. وليست حكاية أبي مسلم الخراساني مع زوجة عبد الله بن علي العباسي التي زادت حنق المنصور عليه وساعدت على الفتك به بعيدة عن أذهاننا.

ونحن نميل إلى القول بأن الرشيد نكب البرامكة لما كان من استبدادهم بالأمور دونه. وفي ذلك يقول ابن خلدون[٢]: «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجابهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت اثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الأمال، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع، من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة، وأغضبوا أهل الولاية، فكشف لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية».

(١) مقدمة ص ١٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤.

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء، ولم يردوا قاصداً. قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم؛ - كما يبدو - مبلغ ضخم لا يقل عن مليون وستمائة وخمسة وستين ألف دينار، غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف التي تثير عوامل الغيرة في نفوس أعدائهم وحسادهم وتهيىء لهم السبيل للإيقاع بهم عند الخليفة. بهذا تنبأ إبراهيم بن المهدي ووجد أن نكبة البرامكة اتية لا ريب فيها. وهو يقص علينا هذه العبارة التي ننقلها عن الطبري[١] قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال لي: أما تعجب من منصور بن زياد؟ قلت؛ فبماذا؟ قال: سألته هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة، قال إبراهيم: فقلت: الذي يعيبها أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له. قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول يا أمير المؤمنين! إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم، فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التي تنوبه؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب والموقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع مني قلت إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالستر لها أو بإظهار القليل من كثيرها، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا وانظروا».

ويتهم البغدادي[٢] البرامكة، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس، فيقول عند كلامه على الباطنية: «ولم يمكنهم (الباطنية) إظهار عبادة النيران، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين: ينبغي أن تجمر المساجد كلها، وأن تكون في كل مسجد مجمرة[٣] يوضع عليها الند (الطيب) والعود في كل حال. وكان البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً. فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وأن تصير الكعبة بيت نار، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة». وذكر ابن النديم[٤] أن «البرامكة بأسرها - إلا محمد بن خالد بن برمك - كانت زنادقة».

وصفوة القول أن سقوط أسرة البرامكة كان نتيجة حوادث متتابعة، دفعت الرشيد، لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب، بل إلى القضاء عليها وإعفاء اثارها. فانظر كيف قضى الرشيد على هذه الأسرة: «لما عاد الرشيد من الحج، سار من الحيرة إلى الأنبار في السفن،

---

(١) ج ١٠ ص ٨٢.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٠.

(٣) المجمرة: كالموقد عندنا اليوم يوضع فيها البخور.

(٤) الفهرست ص ٤٧٣.

وركب جعفر بن يحيى إلى الصيد، وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى، وتحف الرشيد وهداياه تأتيه، وعنده بختيشوع الطبيب وأبو زكار الأعمى يغنيه، فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرور الخادم؛ وكان مبغضاً لجعفر، وقال: اذهب فجئني برأس جعفر ولا تراجعني، فوافاه مسرور بغير إذن وهجم عليه وأبو زكار يغنيه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق أو ينادي

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكي: لقد سررتني بمجيئك وسؤتني بدخولك علي بغير إذن، فقال: الذي جئت له أعظم، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك، فوقع على رجليه فقبلهما وقال له: عاود أمير المؤمنين فإن الشراب قد حمله على ذلك. وقال: دعني أدخل داري فأوصي فقال: الدخول لا سبيل إليه، وأما الوصية فأوصي بما بدا لك، فأوصى، ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به إلى قبة وضرب عنقه، وأتى برأسه على ترس إلى الرشيد، وببدنه في نطع، ووجه الرشيد فقبض على أبيه وإخوته وأهله وأصحابه بالرقة واستأصل شأفتهم».

وكان قتل جعفر البرمكي في ليلة السبت أول ليلة من شهر صفر سنة ١٧٧ هـ وهو في السابعة والثلاثين من عمره.

وهكذا عفى الدهر هذه الأسرة التي كان لها أكبر الأثر في تقدم الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب وفي الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها.

كذلك ذهب الفضل بن سهل وزير المأمون ضحية ميله إلى العلويين وعمله على تحويل الخلافة إليهم.

كان الفضل من أولاد ملوك الفرس، وكان أبوه مجوسياً من ذوي اليسار، أسلم في أيام هارون الرشيد، واتصل هو وابنه الفضل بيحيى بن خالد البرمكي الذي اتخذه الفضل قهرماناً له (أي رئيسا للخدم). ثم اتخذه الرشيد ليكون في خدمة ابنه المأمون. ويقول الجهشياري[1]: إن جعفر بن يحيى لما عزم على استخدام الفضل بن سهل المأمون، قرظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد فقال له الرشيد: أوصله إلي. فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت، فنظر إلى يحيى نظرة منكر لاختياره فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين! إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك، أن تملك قلبه هيبة سيده، فقال له الرشيد: لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام، فقد أحسنت، ولئن كان بديهة فهو أحسن، ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق تقريظ يحيى له.

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٣١

ويقال إن الفضل بن سهل لما رأى نجابة المأمون في صباه ونظر في طالعه، وكان خبيراً بعلم النجوم فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة، لزم ناحيته وخدمه، ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره.

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذي سمي (ذا الرياستين) لجمعه بين السيف والقلم، كما كان يقال له (الوزير الأمير). وكان الفضل بن سهل - كما يقول ابن طباطبا[١] - سخياً كريماً، يجاري البرامكة في سخائه وكرمه. كما كان حليماً بليغاً، عالماً باداب الملوك، بصيراً بالحيل، جيد الحدس، شديد العقوبة، وفيه يقول الشاعر:

لـلفـضـل بـن سـهـل يـدٌ ... يـقْصُرُ عـنـهـا الـمـثـلْ
فـبـاطـنـها لـلـنـدى ... وظـاهـرهـا لـلـقُـبـل
وبـسْـطـتـهـا لـلـغـنـى ... وسـطـوتـهـا لـلأجـل

ولكن الفضل بن سهل كان - كغيره من الفرس - ينتصر للعنصر الفارسي، ويعتقد أن العلويين احق بحمل التاج، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي، وهو دم النبوة، وأشرف دم فارسي، وهو دم الأكاسرة، وعمل على أن تكون السيادة للعنصر الفارسي. وكان يتشبه بوزراء الأكاسرة ليعيد مجد الفرس القديم.

يقول الجهشياري[٢]: «إن الفضل بن سهل بن زادا نفروخ كان يجلس على كرسي مجنح، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يحمل حتى تقع عينا المأمون عليه. فإذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى، وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين، فيعود ويقعد عليه وإنما ذهب ذو الرياستين إلى مذهب الأكاسرة».

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يمثل العنصر الفارسي في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون، كما كان الفضل بن الربيع وزير الأمين يمثل العنصر العربي، حتى كان هذا النزاع في الواقع نزاعاً حزبياً بين الفرس من ناحية وبين العرب من ناحية أخرى. ولا غرو فقد أوغر الفضل بن سهل قلب المأمون على أخيه الأمين، وإليه يرجع الفضل في تولية المأمون عليا الرضا عهده، وتحويل الخلافة إلى ال علي الذين يؤثرهم الفرس على سائر بني هاشم. وكان المأمون قد جد في تجديد العهد لعلي بن موسى بن جعفر، وتقدم إلى الفضل بأخذ البيعة إلى الناس، وأرسل الكتب إلى عمال الأقاليم يأمرهم بإبطال لبس السواد ولبس الخضرة وجعل الأعلام والقلانس خضراً[٣].

(١) كتاب الفخري ص ٢٠١ - ٢٠٢.
(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٤٠١ - ٤٠٢. (٣) المصدر نفسه ص ٣١٢

على أن المأمون أدرك أن الفضل بن سهل آثار بعمله هذا أهل بغداد وأفراد البيت العباسي، حتى إنهم ولوا ابراهيم بن المهدي الخلافة وعولوا على الوقوف في وجه المأمون، فعمل على التخلص من علي الرضا والفضل بن سهل ليصفو الجو له، فلما دخل بغداد لم يقف أهلها في وجهه.

٤ ـ تطور موقف الحزبين العلوي والعباسي بعد نكبة البرامكة

(١) قوة الحزب العباسي بعد نكبة البرامكة

١ ـ تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوي:

ذكرنا في كلامنا على أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين، أن العباسيين، وإن كانوا قد أشادوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم، لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك؛ فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم في سلطانهم أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين. ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين: فينكل السفاح بأبي سلمة، والمهدي بيعقوب بن داود، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل. وقد وقعت نكبة البرامكة إثر وقوع حوادث جاءت متتابعة، ووجد أعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب وخاصة الفضل بن الربيع، من استئثار البرامكة بالنفوذ واستمالتهم الناس إليهم، ما أوغر صدر الرشيد عليهم، وحمله على الإيقاع بهم، وقام الشعراء بدور هام في إثارة حقد الرشيد على البرامكة.

ولا غرو فإن نكبة البرامكة معناها ضعف نفوذ الفرس وانتصار الحزب العباسي، لولا وقوع هذه الحادثة التاريخية التي أضعفت من نفوذ هذا الحزب وزادت من نفوذ الحزب العلوي، وهي تولية الرشيد العهد أولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن.

ذلك أن الفضل بن يحيى البرمكي حسن للرشيد تولية ابنه محمد العهد، وتعهد بأخذ البيعة له في خراسان، فبايعه وسماه الأمين، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية فبايعه الناس. وقد ولى الرشيد الأمين عهده في سنة ١٧٣ هـ، وضم إليه الشام والعراق في سنة ١٧٥ هـ واختلف العباسيون في هذه البيعة: فبعضهم كان يميل إليها لأن الأمين ابن السيدة زبيدة وهي عربية عباسية، وبعضهم لم يعجبه هذا العمل لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد الرشيد لصغر سن الأمين، وبعضهم كان لا يميل إلى المأمون لأن أمه كانت أم ولد من خراسان.

ولكن الرشيد أحس أنه أخطأ بتولية ابنه الأمين عهده وهو أصغر من أخيه عبد الله

(المأمون)، وأنه فعل ذلك بتأثير زوجه زبيدة أم الأمين وميل بني هاشم إلى الأمين، لأن أمه هاشمية، مع أنه لم يكن يصلح للخلافة، لما عرف به من سوء التصرف والتبذير، ثم ميله إلى مشاركة النساء في الرأي، مع ما عرف عن أخيه المأمون من الاستقامة وحسن التدبير وبعد النظر، وما تحلى به «من عزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي»[١]. ويظهر أن الرشيد أحسّ أنه تعجل بتولية ابنه الأمين دون عبد الله، وأخذ يفكر في العدول عن هذا الرأي وتحويل هذه البيعة إلى عبد الله، فبايع له في سنة ١٧٣ هـ وسماه المأمون، وولاه من حد همذان إلى آخر الشرق.

روى المسعودي عن الأصمعي[٢] أنه قال: «بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة، إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً، فكان يقعد مرة، ويضطجع مرة ويبكي ثم أنشأ يقول:

قلدْ أمور الله ذا ثقةٍ مُوَحَّدَ الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطلٍ لا يَفهمون إذا ما مَعْشرٌ فهموا

فلما سمعت ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال لمروان الخادم: «عليَّ بيحيى، فما لبث أن قال: يا أبا الفضل! إن رسول الله ﷺ مات في غير وصية، والإسلام جذع، والإيمان جديد، وكلمة العرب مجتمعة، قد أمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل. فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر، وكان من خبره ما قد علمت، وأن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى سارت إلى غير أهلها، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأثق بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه، وهو عبد الله؛ وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء في رأيه. وعبد الله، المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق به في الأمر العظيم: فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم امن تخليطه على الرعية. فأشر علي في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها، فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر. فقال: يا أمير المؤمنين! إن كل زلة مستقالة، وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد، فإن الخطأ فيه غير مأمون، والزلة فيه لا تستدرك، والنظر فيه مجلس غير هذا. فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة، فأمرني بالتنحي، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما، فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل. وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد».

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

هكذا ولى الرشيد عهده ابنيه الأمين والمأمون. وفي سنة ١٨٦ هـ حج الرشيد بيت الله مع ولي عهده وعلق الشرطين في الكعبة[١].

ولم يقتصر الرشيد على تولية ابنيه الأمين والمأمون العهد، بل تعدى الأمر إلى ابنه القاسم، الذي ولاه عهده بعد الأمين والمأمون، وسماه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم. وهكذا قسم الرشيد الدولة العباسية بين أبنائه الثلاثة، وهيأ بذلك عوامل المنافسة والحسد بينهم، وألقى بذور الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون، وأضعفت الحزب العباسي، وهيأت السبيل لتقوية الحزب العلوي في عهد المأمون كما سيأتي. وقد وصف الطبري شعور الناس على اختلافهم في تولية الرشيد عهده فقال: ولما قسم الرشيد دولته بين أولاده الثلاثة، قال بعض العامة: قد أحكم أمر الملك، وقال بعضهم ألق بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية.

٢ ـ الفتنة بين الأمين والمأمون: كيف كانت هذه الفتنة جهاداً حزبياً بين الفرس أنصار المأمون من ناحية، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى:

قامت ببغداد في خلافة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ) فتنة جامحة، حين عزم على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع، لأنه كان يخاف المأمون لما فعله عند وفاة الرشيد من إحضاره جميع عسكره إلى الأمين، وكان الرشيد قد أوصى به للمأمون. لذلك حسن الفضل بن سهل للأمين خلع أخيه والبيعة لابنه موسى، ووافق الفضل في رأيه بعض الناس. فمال الأمين إلى أقوالهم، على حين نهاه أصحابه وذوو الرأي في بغداد عن ذلك، وحذروه عاقبة البغي ونكث العهود والمواثيق، وقالوا له: «لا تجرىء القواد على النكث للإيمان وعلى الخلع فيخلعوك»[٢]. فلم يلتفت الأمين إليهم ومال إلى رأي الفضل بن الربيع، وولى عهده ابنه موسى، وسماه الناطق بالحق. وبذلك نكث الأمين العهد والميثاق الذي أخذه على نفسه، فأغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالي الأمصار الإسلامية، وبخاصة أهالي الحجاز، فقاموا في وجهه واشتعلت نيران الفتنة التي أودت بخلافته.

على أن الأمين لما شرع في خلع المأمون دعاه للحضور إلى بغداد ليقر على نفسه بالخلع. ولكن المأمون اعتذر عن الحضور، وكثرت الكتب بينهما. ورق الأمين في مراسلاته إلى أخيه حتى كاد ينخدع ويوافق على خلع نفسه من ولاية العهد ومبايعة موسى بن الأمين. إلا أن الفضل بن

(١) راجع نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة في الطبري ج ١٠ ص ٧٦ ـ ٧٧ الملحق الحادي عشر.

(٢) أنظر نصيحة خزيمة بن خازم للأمين في كتاب الخلفاء للسيوطي ص ١٩٨.

سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع وضمن له الخلافة: فقد اشتهر المأمون في أثناء مقامه بخراسان بالورع والتقوى، فحسنت سيرته وتمدح الناس بذكره، على حين انصرف الأمين بعد اعتلائه عرش الخلافة إلى اللهو والمجون. فلما ظهرت بوادر الفتنة، استمال الفضل بن سهل الناس إلى المأمون، وضبط الثغور، وقام بتفتيش الكتب الواردة إلى خراسان، وقبض على أعوان الأمين، كما قطع الأمين خطبة المأمون من بغداد.

قامت الفتنة بين الأخوين، وهي في الواقع نزاع حزبي بين الفرس أنصار المأمون من ناحية، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى، وقد قاد أمر هذا النزاع الفضل بن سهل وزير المأمون وكان فارسياً، والفضل بن الربيع وزير الأمين وكان عربياً. وسرعان ما تغلب طاهر بن الحسين قائد المأمون على جند علي بن عيسى بن ماهان قائد الأمين وقتله بظاهر الري. ومما زاد مركز الأمين حرجاً شغب الحسين بن علي بن عيسى عليه وخلعه وحبسه، وانتصر كثير من الجند له، مما أدى إلى قيام الحروب بين جند الأمين أنفسهم[١].

وقد وضع حصار بغداد وسقوطها على أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيب، حداً لهذا النزاع الذي انتهى بقتل الأمين. فقد نزل زهير رقة كلواذي، وحفر الخنادق، ونصب المجانيق، ورمى جند الأمين بالعرادات، وأخذ عشر أموال التجار، وجبى الضرائب على السفن. ونزل هرثمة نهر «بين»، وجعل عليه حائطاً وخندقاً، وأعد المجانيق، ونزل طاهر البستان القريب من باب الأنبار. وكان من أثر هذا الحصار أن ضاق الأمين ذرعاً، ونفدت أمواله واضطر لبيع كل ما في الخزائن والأمتعة، وضرب ما في قصوره من آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم لينفق منها على الجند. ثم استولى طاهر على بعض أرباض بغداد ومدينة المنصور الشرقية وأسواق الكرخ، وعلى قصر الخلد، عدا أهل السجون والأوباش[٢]

ويظهر أن الأمين لم يقدر الظروف السيئة التي أحاطت به وبدولته. فقد أقبل برغم ذلك على اللهو والشراب، واعتمد على قواده، وعاث اللصوص وقطاع الطرق في الأرض فسادا، فتطاولوا على الرجال والنساء والضعفاء، وفي الوقت الذي حكم طاهر بن الحسين خطته لفتح بغداد، وأمر جنده بحسن معاملة الضعفاء والنساء مما كان له أثر يذكر في تحول كثير من رعايا الامين إلى جانب قائد المأمون، وعلى رأسهم محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين، وعبد الله بن حميد بن قَحْطبة، ويحيى بن علي بن ماهان.

انتصر جند الأمين على جند طاهر بن الحسين في موقعة «درب الحجارة» التي قتل فيها

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٤.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٧٤. أنظر ما ورد في الباب الثامن عن بناء مدينة بغداد.

خلق كثير، وهزم هرثمة في موقعة «باب الشماسية» على يد رجل من الغزاة لولا أن حمل بعض أصحاب هرثمة على هذا الرجل وقطع يده وخلصه، فمر منهزماً وبلغ خبره أهل عكسره. فدب إلى نفوسهم اليأس وفروا نحو حلوان لا يلوون على شيء، وقويت بذلك الغزاة واشتد خطرهم، وأصبح طاهر بين نارين: إما أن يفر فيلحق به عار الهزيمة، وإما أن يحارب حتى يكتب له النصر؛ ثم أمر طاهر بإحراق مدينة بغداد وهدمها.

يقول الطبري[1] إن طاهر بن الحسين هدم «دور من خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة، وأرحاء أبي جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة، وجعل يبايت أصحاب محمد (الأمين) ويدالجهم، ويحوي في كل يوم ناحية من بعد ناحية ويخندق عليها المراصد من المقاتلة. وجعل أصحاب محمد ينقصون ويزيدون، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون، فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد، ويكونون أضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تعدياً». .

ولكن أهل هذه الجهات لم يحفلوا بما حل بهم من القتل وببلدهم من التخريب والإحراق؛ ولم ير طاهر بداً من التضييق عليهم، فحال دون وصول متاجرهم، واحتكر الدقيق فغلت الأسعار واشتد البلاء.

ضعف أمر الأمين وتركه بعض قواده، وانحازوا مع بعض تجار الكرخ ووجوهها إلى طاهر بن الحسين، وطلب الجند أرزاقهم؛ فأمر الأمين ببيع ما بقي من التحف في خزائنه، وغدا مركزه من أحرج المراكز، حتى إنه لم يعد يثق بأشد الناس اتصالاً به، وعبر عن سخطه وسوء حاله في هذه الكلمات: «وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعاً وأراح الناس منهم: فما منهم إلا عدو ممن معنا وممن علينا: أما هؤلاء فيريدون مالي وأما أولئك فيريدون نفسي».

اشتد البلاء على بغداد، وأيقن قواد الأمين أنه لا قبل لهم بمقاومة الحصار، فخشوا سوء مصيرهم، وأشار عليه جماعة منهم بالهرب إلى الجزيرة والشام وطلب النجدة من أهلها، وصادف هذا الرأي قبولاً منه. ولكن طاهر بن الحسين كتب إلى سليمان بن جعفر، وإلى محمد بن عيسى، وإلى السندي بن شاهك: «والله لئن لم تقروه وتردوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها، ولا تكون لي همة إلا أنفسكم؛ فدخلوا على محمد (الأمين) فقالوا: لقد بلغنا الذي عزمت عليه، فنحن نذكرك الله في نفسك: إن هؤلاء صعاليك، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار، وضاق عليهم المذهب، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم وأموالهم عند

---

(١) ج ١٠ ص ١٨٤.

أخيك وعند طاهر وهرثمة، لما انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها. ولسنا نأمن إذا برزوا بك وحصلت في أيديهم، أن يأخذوك أسيراً، ويأخذوا رأسك، فيتقربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم، وضربوا له فيه الأمثال»(١).

واختلف أصحاب الأمين في الرأي: فطلب من هرثمة أن يتوسط في إصلاح ذات البين بينه وبين أخيه المأمون على أن ينزل عن الخلافة، فكتب إليه كتاباً يقول فيه: «قد كان ينبغي لك أن تدعو إلى ذلك قبل أن يتفاقم الأمر، أما الآن فقد جاوز السيل الزبى، وشغل الحلي أهله أن يعار. ومع ذلك... فإني لا آلو جهداً في كل ما عاد بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين». فلما سمع الأمين ذلك استشار أصحابه، فأشاروا عليه بالقبول طمعاً في الإبقاء عليه. فلما جُنّ الليل لبس لباس الخلافة، وسار في الحراقة إلى هرثمة، فخرج طاهر وأصحابه فرموا الحراقة بالسهام، فألقى الأمين بنفسه في الماء، وركض إلى الشاطىء فحمل عليه بعض رجال المأمون وقتلوه وأخذوا رأسه، فبعث به طاهر بن الحسين إلى المأمون مع البردة والقضيب والسيف(٢).

على أننا إذا دققناالنظر في هذه الفتنة رأينا أن الرشيد كان السبب في هذه النكبات كلها لأنه:

أولاً ـ ولى الأمين دون المأمون مع أنه أكبر سناً.

ثانياً ـ أعطى المأمون امتيازاً كبيراً فيما أقطعه إياه، فاستطاع أن يناوىء الأمين ويتغلب عليه. فقد تولى الأمين العراق والشام، وتولى المأمون بلاد الفرس، وتولى المؤتمن بلاد المغرب ومصر.

ثالثاً ـ أن الأمين مال إلى تولية ابنه دون أخيه.

أما الأمين فإن خلعه وقتله يرجع إلى نكثه العهد والميثاق، وإخراجه أخاه المأمون من ولاية العهد، ونقضه العهدين اللذين تركهما أبوه، وفي ذلك ما فيه من انتهاك حرمة البيت المقدس.أأضف إلى ذلك تولية عيسى بن علي بن عيسى الحرب في خراسان، مع ما عرف عنه من القسوة في معاملة الأهلين، مما ساعد على ثورة الناس عليه، وانصراف الأمين عن أمور الخلافة واشتغاله باللهو والغناء.

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٩٠ ـ ١٩٦.

(٢) انظر الطبري (ج ١٠ ص ١٩٢ ـ ٢٠٨) للوقوف على ما ذكره عن الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون.

٣ ـ تولية المأمون عليا الرضا عهده:

إن العوامل التي حملت الخليفة المأمون على أن يولي عهده علياً الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام الثامن عند طائفة الإمامية الاثني عشرية، ثم ما كان من موت ذلك العلوي بتدبير المأمون ـ على ما ورد في المصادر الشيعية ـ جديرة بالبحث، لما لها من العلاقة الوثيقة بتاريخ الشيعة من ناحية، ثم بتاريخ الخليفة المأمون العباسي من ناحية أخرى.

اتفق جمهور المؤرخين ـ من الشيعيين والسنيين ـ على ثلاث نقط أساسية لا شك في صحتها، وهي أن المأمون ولى عهده علياً الرضا، وأنه لبس الخضرة شعار العلويين، وأنه زوجه ابنته أم حبيب سنة ٢٠٢ هـ.

ولد علي الرضا سنة ١٥٠ هـ؛ وكان على جانب عظيم من العلم والورع. وقد قيل لأبي نواس: «علام تركت مدح علي بن موسى والخصال التي تجمعن فيه؟»، فقال: لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه؛ والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله:

قيل لي أنت أحسنُ الناس طُرّاً ... في فنونٍ من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديحٌ ... يُثْمر الدر في يَدَيْ مجتنيه
فعلامَ تركتَ مدح ابن موسى ... والخصالَ التي تجمّعن فيه؟
قلتُ: لا أستطيع مدحَ إمامٍ ... كان جبريلُ خادماً لأبيه[1]

ويجمل بنا أن نسأل أي الغرضين أرجح: أكان شعور المأمون نحو علي الرضا شعوراً دينياً بحتاً الباعث عليه اقتناعه بأن بيت علي أحق بالخلافة من بيت العباس؟ أم كان ذلك الشعور الديني يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمي إلى اكتساب المأمون ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العقائد الشيعية، متأثراً بميوله الفارسيّة، إذ كانت أمه وزوجه فارسيتين، فشب على التشيع متأثراً بالفرس؟.

أما الجواب عن السؤال الأول، فإن بعض المصادر تؤيد القول بأن المأمون كان مخلصاً في تودده للعلويين جاداً في تولية علي الرضا عهده، وأن الذي حمله على ذلك هو إفراطه في التشيع حتى قيل إنه همّ بخلع نفسه وتفويض الأمر إليه، وضرب الدراهم باسمه، وخطب له مع الخليفة على المنابر، وزوجه ابنته. من ذلك ما ذكره محمد بن النعمان من أن المأمون أرسل الجلودي إلى المدينة، وطلب إليه أن يحث أفراد البيت العلوي على الرحيل معه إلى مرو حاضرة

(١) ابن خلكان: كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١١ ـ ٣٢٢.

خراسان، فلبى الجلودي أوامر الخليفة ونهض بالأمر. فلما قدموا مرو استقبلهم المأمون في قصره، واحتفل بهم، وخص علياً الرضا برعايته وعطفه وأفرد له منزلاً خاصاً به[١].

ثم بعث المأمون في طلب الحسن والفضل ابني سهل وأسرَّ إليهما عزمه على تولية الرضا عهده. وقد اختلف الأخوان في الرأي، فقاوم الحسن الفكرة أشد مقاومة، وحذر المأمون مغبة الأخذ بهذه السياسة لما فيها من تحويل الخلافة إلى بيت علي، فقال له المأمون: «إني عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع (يعني أخاه الأمين) أخرجت الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب. وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض»[٢].

وكان الفضل يطمح إلى الاستئثار بالنفوذ في دولة المأمون؛ غير أنه لما رأى أن هذا الأمر لا يتم له والعراق في أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، عمل على إقصائهما عما كانا يليانه من البلاد حتى يضعف بذلك نفوذهما، وولى أخاه الحسن بن سهل بلاد العراق.

وقد عضد الفضل بن سهل فكرة تحويل الخلافة إلى بيت علي. يدل على ذلك ما كان من تدبير المأمون اغتياله بمرو قبل رحيله إلى بغداد، ثم ما كان من قتله الرضا بالسم وهو في طريقه إليها.

وقد ذكر الطبري[٣] أن علياً الرضا لما قدم مرو، أحسن المأمون وفادته، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلب نظره في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب، فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه. فولاه عهده ولقبه «الرضا من آل محمد»، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين، وكتب بذلك إلى الآفاق (وذلك لليلتين خلتا من رمضان سنة ٢٠١ هـ).

فأحفظ ذلك بني العباس، ولا سيما منصور وإبراهيم ابني المهدي، وامتنع أهل بغداد عن البيعة للرضا؛ ثم خاض الناس في خلع المأمون وأخذ البيعة لإبراهيم بن المهدي. وكان في جانب المأمون رجال كرهوا تولية علي الرضا العهد، وخافوا خروج الخلافة من بيت العباس وعودها إلى بني فاطمة.

وفي مجمع حافل يضم الأشراف والأمراء ورجال الدولة، أعلن الفضل بن سهل بالنيابة عن الخليفة ولاية عهد علي بن موسى الكاظم بعد المأمون. وبعد أسبوع أقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس بيعة الرضا، ثم وزعت الجوائز والخلع على كبار رجال الدولة وعلى

---

(١) محمد بن النعمان: كتاب الإرشاد، مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٦٤٧، ورقة رقم ٢٢٧ (أ).
(٢) النسيبي كتاب مطالب السول في غزوات الرسول، ليدن، مخطوط رقم ١٩٧٩ ورقة رقم ٢٢٢ (أ).
(٣) جـ ١٠ ص ٤٣.

الشعراء الذين أشادوا بفضائل الرضا وامتدحوا المأمون.

ومنح المأمون كبار عمال الدولة عطاء سنة، وأجاز دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المتشيع المشهور بخمسين ألف درهم، وأجزل الوزير عطاءه. ومن هذه القصيدة التي أذاعت ذكر دعبل بين شعراء عصره:

ذكـرتُ محـلَّ الـربـع من عـرفـات فـأسبلتُ دمـع العـين بـالعـبرات

ويروي بعض المؤرخين أن علياً أفضل الخلفاء الراشدين، ويعزو بعض آخر ذلك إلى عوامل سياسية: ذلك أن الفرس كانوا يعتقدون أن العلويين هم وحدهم أحق بحمل التاج لصفتهم المشتركة من آل ساسان وآل علي، لأن أولاد الحسين بن علي من ابنة يزدجرد الثالث. وقد كتب المأمون بذلك إلى الأمصار الإسلامية، وأمر المسلمين بلبس الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين.

وليس من عجب في ذلك، فقد كان المأمون نفسه متأثراً بالعقائد الفارسية، لأن أمه كانت خراسانية، ولأنه بعمله هذا يستطيع أن يكتسب رضاء الفرس وإخلاصهم؛ لذلك يمكن أن يعد عمله هذا سياسياً أكثر منه دينياً. يدل على ذلك أن الناس ببغداد هاجوا، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة، فبقي فيها سنتين تقريباً (٢٠٢ - ٢٠٤ هـ) حتى دخل المأمون بغداد.

أما عن السؤال الثاني. وهو: هل كان ذلك الشعور الديني يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمي إلى اكتساب ولاء الخراسانيين المتشيعين؟ فالجواب عنه أن بعض مؤلفي المصادر الشيعية والسنية يرى أن تولية المأمون علياً الرضا ولاية العهد لم تكن إلا سياسة منه لاستمالة قلوب الخراسانيين، فإن العلاقة التي بين المأمون وعلي الرضا، والتي كان ظاهرها الإخلاص والمحبة، لم تلبث أن تغيرت، لما كان يراه المأمون من التفاف الخراسانيين حول علي الرضا، وما كان يخشاه من تحول الخلافة عنه إلى العلويين إذا هو تورط في هذه السياسة. يدل على ذلك هذه العبارة[1] «ومما تلقته الأسماع ونقلته الألسن في بقاع الأصقاع، أن الخليفة المأمون وجد في يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنه ثقلاً عن الخروج إلى الصلاة بالناس، فانتدب أبا الحسن علياً الرضا للصلاة بالناس، فخرج وعليه قميص قصير أبيض وعمامة بيضاء، وهي من قطن، وفي يده قضيب. فأقبل ماشياً يؤم المصلى وهو يقول: السلام على أبوي آدم ونوح! السلام على أبوي إسماعيل وإبراهيم! السلام على أبوي محمد وعلي! السلام على عباد الله الصالحين! فلما

(١) النسيبي: مطالب الرسول: ورقة ١٢٤ ب.

رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يده، فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال له: يا أمير المؤمنين! تدارك الناس وأخرج وصل بهم، وإلا خرجت الخلافة منك الآن[١]. فحمله هذا الأمر إلى الخروج بنفسه، وجاء مسرعاً والرضا لم يخلص إلى المصلى، لكثرة ازدحام الناس عليه، فتقدم المأمون وصلى بالناس».

وإذا رجعنا إلى بعض المصادر الشيعية، فإننا نقف منها على أن العلاقة بين المأمون وعلي الرضا لم تكن على شيء من الصفا. فقد كان الرضا يكثر من وعظ المأمون إذا خلا به ويخوفه غضب الله عز وجل ويقبح ما يرتكبه من خلافه، والمأمون يظهر قبول ذلك منه ويبطن كراهيته للرضا. على أننا لا نستطيع الجزم بأن ما ذكرناه مستمد من جميع المصادر الشيعية التي رجعنا إليها، لأن بعض المؤرخين لم يذكر شيئاً عن سوء العلاقة بين المأمون والرضا، وإنما اقتصروا على القول بأن المأمون هو الذي دبر موته.

قال ابن القفطي[٢]: «قال عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم، وهو منجم مأموني كبير القدر في صناعته يعلم المأمون قدره في ذلك - وكان لا يقدم إلا عالماً مشهوداً له بعد الاختبار - وكان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متخشين متخفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بني العباس، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء، فظنوا بهم ما يظنون من الأنبياء، ويتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي. فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء به، فنظر في هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال: لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم، لسقطوا من أعينهم ولانقلب شكرهم لهم ذماً، ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً. وإنما الرأي أن تقدم أحدهم وتظهر لهم إماماً. فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة في الآدميين، ويتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء. فإذا تحقق ذلك أزلت من أقمته ورددت الأمر إلى حالته الأولى. وقوي هذا الرأي عنده، وكتم باطنه عن خواصه، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) صلوات الله عليه! وأفكر هو وهو فيمن يصلح، فوقع إجماعهما على الرضا، فإذا الفضل بن سهل في تقرير ذلك وترتيبه، وهو لا يعلم باطن الأمر. وأخذ في اختيار وقت لبيعة الرضا، فاختار طالع السرطان وفيه المشتري. قال عبد الله بن سهل نوبخت هذا: أردت أن

(١) وقد ذكر محمد بن النعمان (مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٣٠ (أ) أن الفضل بن سهل الوزير هو الذي أسرع إلى المأمون وأخبره بخطورة المركز وما كان من شغب الناس.

(٢) اختبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ - ٢٢٣.

أعلم نية المأمون في هذه البيعة، وأن باطنه كظاهره أم لا، لأن الأمر عظيم، فأنفذت إليه في هذه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه ـ وكان يحيى في مهم أمره ـ وقلت له: إن هذه البيعة في الوقت الذي اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقص، لأن المشتري، وإن كان في الطالع في بيت شرفه، فإن السرطان برج متقلب. وفي الرابع ـ وهو بيت العافية المريخ، وهو نحس، وقد أغفل ذو الرياستين هذا، فكتب المأمون إلي: قد وقفت على ذلك، أحسن الله جزاءك! فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هذا، فإنه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له. فهو ذو الرياستين بذلك، فما زلت أصوب رأيه الأول خوفاً من اتهام المأمون لي. وما أغفلت أمري حتى مضى أمر البيعة، فسلمت من المأمون».

وإذا صح ما قيل من أن شعور المأمون نحو آل علي كان شعوراً دينياً يحمل بين ثناياه مشروعاً سياسياً يرمي إلى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العلويين، إذا صح ذلك تبين لنا أن المأمون لم يرد بهذا العمل إلا اكتساب رضاء العنصر الخراساني وضم العلويين إلى صفه وتهدئة الخواطر، وأنه لم يكن مخلصاً في تحويل الخلافة إلى العلويين، وأن هذا لم يكن إلا سياسة دعت إليها الضرورة وسياسة الملك. ولا أدل على ذلك من نقضه كل ما أبرم من تولية الرضا عهده حينما أمكنته الفرصة.

وانتهى الأمر بتلك المأساة التاريخية، وهي اغتيال كل من الفضل بن سهل وعلي الرضا، فقد هاج الناس ببغداد وماجوا، وغرقت حاضرة العباسيين في لجج الفوضى، وخاض الناس في خلع المأمون، وفكروا في تولية إبراهيم بن المهدي ـ كما تقدم ـ ولقبوه المبارك. وكتب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل ـ وقد أحس بما أضمره المأمون له من شر ـ ينصح له بأن يحتاط لنفسه خشية الاغتيال وقال في كتابه: «إني نظرت في تحويل السنة، فوجدت فيه أنك تذوق في شهر كذا يوم الأربعاء حر الحديد وحر النار، وأرى أن تحجم أنت وأمير المؤمنين والرضا من دخول الحمام في هذا اليوم ليزول عنك نحسه». ودخل الفضل الحمام في يوم الأربعاء الذي حذره منه أخوه، فقبض عليه جماعة من الرجال واغتالوه[1].

ويظهر أن كتاب الحسن بن سهل لم يصل إلى أخيه الفضل قبل يوم الأربعاء المشؤوم، أو أنه أرغم على دخول الحمام بعد أن وصل إليه الكتاب. وإن صحت هذه الرواية، فقد لهج الحسن بن سهل بما كان سائداً بين أفراد البيت العباسي ببغداد، وبما كان من هياجهم على المأمون لتوليته رجلاً من العلويين، وعملهم على التخلص من المأمون والرضا والفضل.

وكان للفضل بن سهل شيعة قوية تؤيده وتنصره. فلما رأوا ما حل به، اتهموا المأمون

(١) محمد بن النعمان: كتاب الإرشاد ورقة ٢٣٠ ب.

ورموه بالاشتراك في المؤامرة، وشغب قواده خراسان وجنودهم وغيرهم من أنصار الفضل على الخليفة، وتجمعوا ببابه وهموا بإحراقه. ولما رأى المأمون أن حياته مهددة بالخطر، طلب إلى علي الرضا أن يركب إلى الثوار ويصرفهم. وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة لنجاة الخليفة وتهدئة الخواطر، لمحبة أهل خراسان له وصدقهم في الإخلاص لطاعته. ولا غرو، فإن إشارة واحدة منه كانت كفيلة بتهدئة خواطر الثائرين وعدولهم عن رأيهم.

هكذا مات الفضل بن سهل وتفرق أنصاره، ونجا الخليفة مما كان يتهدده من الخطر في ذلك الظرف العصيب. وبموت الفضل بن سهل لم يبق أمام المأمون إلا علي الرضا، فلننظر كيف تخلص منه.

اختلفت كلمة المؤرخين في كيفية قتل الرضا: فمنهم من ذكر أن المأمون دس له السم في عنقود من العنب أو في بعض الأشربة. وذكر محمد بن النعمان[١] أن المأمون أمر أحد رجاله أن يطيل أظفاره وألا يطلع أحداً على ذلك. ثم استدعاه فأخرج إليه شيئاً يشبه التمر هندي وقال له: «إعجن هذا بيديك جميعاً»، ففعل، ثم دخل علي الرضا، فكلم المأمون بما أغضبه، فصاح المأمون بأحد غلمانه، وأمره أن يقدم إلى الرضا ماء الرمان (أو عصير التمر هندي على الأصح) ثم قدمه المأمون للرضا، فمات بعد يومين. وقد ذكر ابن أبي الصلت، الذي روى محمد بن النعمان هذه الحكاية عنه، أنه دخل على الرضا وقد خرج المأمون من عنده فقال: يا أبا الصلت! لقد فعلوها والله، وجعل يوحد الله. وقد روى هذا المؤرخ نفسه رواية أخرى عن كيفية موت الرضا، فذكر أنه كان يحب العنب، فأخذ له شيء منه، فجعل في موضع اقماعه الإبر أياماً، ثم نزعت وجيء به إليه، فأكل منه وهو في علته التي ذكرناها فقتلته.

ومن الواضح أن هذه الروايات متهمة لأنها جاءت من مصدر شيعي، على حين سكت معظم المصادر الموثوق بها عن ذكرها.

وقد اتفق المؤرخون على أن المأمون أظهر عند وفاة الرضا أعمق مظاهر الحزن. وهكذا نجحت سياسة المأمون، فاغتيل الفضل بن سهل وقتل علي الرضا بالسم، ودفن في سناباذ من أعمال طوس التي دفن فيها الرشيد، وحرم ابنه محمد ولاية العهد بعد أبيه، وعاد المأمون ثانية إلى السواد شعار العباسيين.

كانت سياسة المأمون نحو العلويين تنطوي على كثير من العطف والتسامح. ويظهر ذلك مما رواه ابن طباطبا[٢] عن خروج محمد بن جعفر الصادق على المأمون فقال: وفي أيامه خرج

---

(١) ورقة ٢٣١ ب ٢٣٢ أ.

(٢) الفخري ص ٢٠١.

محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة، وبويع بالخلافة وسموه أمير المؤمنين. وكان بعض أهله قد حسن له ذلك، حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب، يقرأ عليه العلم. وكان (قد) روى عن أبيه عليه السلام علماً جماً. فمكث بمكة مدة، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه، فلم تحمد سيرتهما، وأرسل المأمون عسكراً فكانت الغلبة له، وظفر به المأمون وعفا عنه[1].

ومهما يكن من شيء، فقد أجمعت المصادر الشيعية والسنية على أن المأمون كان يعطف على العلويين ويرى أن الخلافة قد اغتصبت منهم، وكان يعترف بحسن معاملة العلويين لأبناء عمهم العباسيين. فقد روى السيوطي[2] أن المأمون قال يوماً وقد سئل عن سبب بره بالعلويين: «وإنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولي لم يول أحداً من بني هاشم شيئاً، ثم عمر ثم عثمان كذلك. ثم ولي علي فولى عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبداً مكة، وقثم البحرين: وما ترك أحداً منهم حتى ولاه شيئاً، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت».

وليس أدل على حب المأمون لأولاد علي بن أبي طالب من هذه الوصية التي أوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته: «وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم، وأقبل من محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة من محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى»[3].

وقد ظل المأمون يعامل العلويين معاملة تتفق وما كان يعتقده في فضل علي بن أبي طالب، إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ هـ ببلاد اليمن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب؛ فبعث إليه المأمون أحد رجاله في جيش كثيف فأمنه وعاد به إلى المأمون، فأمر المأمون بمنع العلويين من الدخول عليه وحتم عليهم لبس السواد.

٤ ـ ظهور العنصر التركي:

اعتمد الأمويون على العنصر العربي فأسندوا إليهم أهم مناصب الدولة، كما اعتمدوا عليهم في الشؤون الحربية، ولم يساووا بينهم وبين العجم وخاصة الموالي من الفرس الذين عملوا على التخلص من الأمويين وأخذوا ينضمون إلى الثائرين عليهم، وكانوا من أقوى

---

(١) انظر مقالة المؤلف «المأمون علي الرضا» بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة المجلد الأول الجزء الأول، مايو سنة ١٩٣٣.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥.

(٣) الطبري جـ ١٠ ص ٢٩٥.

العوامل في القضاء على الأمويين كما رأينا. ولما آل الأمر إلى العباسيين، اعتمدوا على هؤلاء الموالي الذين قامت دولتهم على أكتافهم، وأخذوا عنهم كثيراً من نظم الحكم التي كانت سائدة في العهد الساساني، وأهملوا العنصر العربي إهمالاً ظهر أثره في بعض الحركات التي كانت نتيجة سخط العنصر العربي على العنصر الفارسي. ومن أقوى الأمثلة على ذلك تآمر الفضل بن الربيع على البرامكة. ثم قامت الفتنة بين الأمين والمأمون، فكانت في الواقع انتصاراً للفرس على العرب، وذلك نتيجة للعداء القديم الذي قام بين العرب والفرس.

ولما ولي المعتصم الخلافة، وكانت أمه تركية، أهمل العنصر العربي والفارسي واعتمد على الأتراك الذين اتخذهم حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة كما فعل أخوه المأمون مع الخراسانيين. وكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسي استعان بالأتراك وأسند إليهم مناصب الدولة. وقد عني المعتصم باقتناء الترك، فبعث في شرائهم إلى سمرقند وفرغانة وغيرهما من النواحي، وبذل في سبيل ذلك الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب[1].

وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوي، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية كما تقدم. وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في بلاد ما وراء النهر، واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام سبباً للاعتماد عليهم، فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وقلدهم الولايات الكبيرة، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء[2].

وما لبث أن تفاقم نفوذ هؤلاء الأتراك وزاد عددهم حتى أربى على الخمسين ألفاً كما يقول جبون[3]. وكان هؤلاء الأتراك يرسلون إلى الخلفاء العباسيين مع الهدايا التي كان يبعث بها الولاة من بلاد ما وراء النهر. ومن هؤلاء الأتراك طولون أبو أحمد بن طولون الذي أهداه والي هذه البلاد إلى الخليفة المأمون. وكان هؤلاء الأتراك يتدفقون سنة بعد سنة على أسواق بغداد، حتى كثر عددهم، واستطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء أولاً ثم إلى الجيش أخيراً.

وكان الشاب التركي يحصل على حريته إذا ما أخلص في خدمة مولاه. وقد جرت العادة أن يصل إلى المناصب الكبيرة في البلاط العباسي. وأخذ هؤلاء الأتراك الذين كانوا بعيدين عن

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣.

(٢) النظم الإسلامية للمؤلف الطبعة الثالثة ص ١٨٤.

(٣) Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV, p.47.

الحضارة والعلم يندمجون في طبقات الأمراء المثقفين، فاعتنقوا الإسلام وتأدبوا بآدابه، وتعلموا العربية ووقفوا على أحكام القرآن، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية، حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للاضطلاع بشؤون الدولة أو القيام بأعباء المناصب العالية في البلاط، تحرر من عبوديته وتولى المنصب الذي يتناسب مع كفاءته ومواهبه. ومن ثم رشحوا للمناصب على اختلافها ووصلوا إلى أعلى مراتبها، من الاندماج في سلك البلاط إلى تقلد أكبر الولايات.

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء الأتراك أن أخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الإسلامية، على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة على نحو ما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي ذاع في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

وقد جرت العادة أن يستخلف هؤلاء الأتراك نواباً عنهم يحكمون هذه البلاد باسمهم، فكانوا يدعون لهم بعد الخليفة وينقشون اسمهم على السكة. وكان هؤلاء الأتراك من كبار رجال البلاط العباسي. ولم يكن من السهل أن يتركوا دار الخلافة في بغداد أو سامراء وما فيها من نعيم وترف، ثم يأتون إلى هذه الولايات للإقامة فيها. يقول لينبول[1]: «إن هذا الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي كان مظهراً من مظاهر الثورة التي أحس بها معظم أجزاء الخلافة، وعاد إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها في النهاية». ومن ذلك الوقت الذي التحم فيه العرب بالأتراك على ضفاف نهر سيحون، وأضحى هؤلاء تحت النفوذ العربي، صار لهؤلاء الأسرى مجال فسيح في الأسر الإسلامية: فقوة أبدانهم وجمال طلعتهم، وشجاعتهم وأمانتهم - كل هذه الصفات أكسبتهم ثقة كبار الأمراء من العرب وخاصة الخلفاء، الذين اعتقدوا أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب الذين عرفوا بالغيرة والحسد، أو على الفرس الذين تفاقم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهدداً لكيان دولتهم وسلامتها. وكان لهم إلى ذلك الوقت نصيب كبير في إدارة شؤون الدولة العربية.

ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً. وفي ذلك يقول المسعودي[2] «إن الأتراك كانوا يؤذون العوام بمدينة السلام بجريهم بالخيول في الأسواق، وإلحاق الأذى بالضعفاء والصبيان فكان أهل بغداد يثورون على بعضهم

(١) History of Egypt in the Middle Ages, p. 29

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٩.

فيقتلونهم إذا صدموا امرأة أو شيخاً كبيراً أو صبياً أو ضريراً». وقد زاد الطبري[١] هذه المسألة بياناً فقال: «إن غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها، وذلك أنهم كانوا عجماً جفاة، يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة، ويطئون الصبي فيأخذهم الأبناء[٢]، فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم، فربما هلك من الجراح بعضهم، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت بهم العامة، فذكر أنه رأى المعتصم راكباً منصرفاً من المصلى في يوم عيد أضحى أو فطر. فلما صار في مربعة الحرشي، نظر إلى شيخ قد قام إليه فقال له: يا أبا إسحاق! فابتدره الجند ليضربوه، فأشار إليهم المعتصم فكفهم عنه؛ فقال الشيخ: ما لك؟ قال: «لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج[٣] فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت بهم رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك كله».

وكان من أثر ازدياد نفوذ الأتراك أن حقد عليهم العرب وتآمروا على المعتصم والأفشين وأشناس[٤] وغيرهم من قواد الأتراك، وأثار عُجيف بن عَنْبسة القائد العربي العباس بن المأمون على عمه المعتصم ولكن المعتصم، وإن كان قد قضى على العباس وعجيف، وأقصى العرب من مناصب الدولة المدنية والعسكرية ومن ديوان العطاء، أتاح بذلك الفرصة للأتراك فزاد من نفوذهم، حتى أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية.

وقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك حتى قيل إن المعتصم نفسه شكا من قوادهم في أواخر أيامه، ولو أنه استعان بقواد العرب لأتيح له استعادة سلطان الخلافة. وقد عبر المعتصم عن أسفه لاعتماده على هؤلاء الأتراك في هذه العبارة التي خاطب فيها أحد جلسائه فقال: «في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم، قلت: ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت، وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله، وأنت، فأنت

---

(١) جـ ١٠ ص ٣١١.

(٢) الأبناء هم البقية الباقية من الفرس الذين طردوا الأحباش من اليمن أيام سيف بن ذي يزن الذي استنجد بكسرى أنو شروان فأرسل معه قائده وهريز.

(٣) العلج حمار الوحش الغليظ، ورجل علج أي شديد.

(٤) ذكر الطبري (جـ ١٠ ص ٣٩٩) نفراً من هؤلاء الأتراك ورد ذكرهم في قصيدة أحد الزط ننقل منها هذين البيتين:

فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم ... من يا زمان ومن بلج ومن توز
ومن شناس وأفشين ومن فرج ... المعلمين بديباج وإبريز

والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبداً، وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد؟ وأنا فاصطنعت الأفشين، فقد رأيت إلى ما صار أمره. وأشناس ففشل رأيه، وإيتاخ فلا شيء، ووصيف فلا مغنى فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين أعزك الله! نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها. قال: يا إسحاق! لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل علي من هذا الجواب»[1].

على أن قوة شكيمة المعتصم قد حدت من نفوذ الأتراك. فلما مات وولي الخلافة بعده ابنه الواثق، أخذ هؤلاء يتدخلون في أمور الدولة، حتى أصبح مكتوف الأيدي مسلوب السلطة. ولما ولي المتوكل الخلافة حاول أن يكف أيديهم فقتلوه، وصار ابنه المنتصر الذي اشترك معهم في قتله، طوع بنانهم، وأصبحت الدولة العباسية ميداناً للفوضى والدسائس وغدا في أيدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله أو حبسه وقتله.

على أن ظهور العنصر التركي قد أدى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر، لأنه استأثر بالأمر دون الفريقين، ولم يكن يحفل بأولئك أو هؤلاء. ومن هنا بدأ ظهور الدولة المستقلة وشبه المستقلة في أطراف الدولة العباسية: كالصفارية والسامانية والغزنوية، والعلوية بطبرستان والأغلبية بتونس، والفاطمية ببلاد المغرب، والطولونية والإخشيدية بمصر، وبني أمية بالأندلس، والزيدية باليمن.

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٨ ـ ٩.

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

١ - مع مصر:

وضع الرسول ﷺ أساس السياسة الخارجية للعرب: فبعث في السنة السادسة للهجرة أصحابه إلى هرقل امبراطور الدولة البيزنطية، وإلى كسرى فارس، وإلى نجاشي الحبشة، وإلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل، وإلى أمير اليمامة، وإلى أمير الغسانيين. فمنهم من تلطف في الرد ومنهم من أساء معاملة رسل النبي ﷺ.

وقد أعد الرسول قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى جيشاً لغزو أطراف الشام بقيادة أسامة بن زيد؛ غير أن وفاته حالت دون إرسال هذا الجيش. فلما ولي أبو بكر الخلافة أمر أسامة بغزو بلاد الروم. وما كاد ينتهي من حروب الردة، حتى دعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد في سبيل الله، وأنفذهم لغزو دولتي الفرس والروم في وقت واحد، مع ما كان لكل من هاتين الدولتين من سعة الملك وبسطة السلطان ووفرة الثروة. وبذلك وضع المسلمون أساس السياسة الخارجية ثم توجهت همتهم في عهد الدولة الأموية نحو الشمال والغرب، حيث الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها، وحاول العرب فتح القسطنطينية غير مرة. ولما تحول الحكم إلى العباسيين زادت علاقات المسلمين بغيرهم، ولا سيما بمصر والمغرب، والأندلس والفرنجة، وبالدولة البيزنطية وبلاد الهند.

وكان من أثر تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين أن قامت في مصر حاضرة جديدة حلت محل الفسطاط، هي مدينة العسكر. فقد رأى صالح بن علي العباسي (المحرم سنة ١٣٢ - شعبان سنة ١٣٣، ١٣٧ - ١٣٧ هـ) أن مدينة الفسطاط تضيق بعسكره، فاختار الموضع الذي كان يعرف بالحمراء القصوى[1].

ولما خلف أبو عون صالح بن علي ولاية مصر، أمر أصحابه بالبناء ثم بنى الفضل بن صالح بن علي العباسي (١٦٩ - ١٦٩ هـ) في مدينة العسكر جامعاً عرف بجامع العسكر، وأخذ الناس في عمارة الدور حتى اتصلت هذه الحاضرة الجديدة بمدينة الفسطاط.

(١) تخربت هذه الحمراء قبل قدوم مروان بن محمد الأموي إلى مصر واستحالت صحراء.

وقد قام الجند العربي في مصر، كما قام القبط الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من أهالي هذه البلاد، بدور هام في السياسة في العصر العباسي الأول. فقد اشتركوا في فتنة محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن العلوي الذي ظهرت دعوته في هذه البلاد حيث نشر ابنه علي بن محمد الدعوة له فيها. غير أن والي أبي جعفر المنصور على مصر استطاع أن يحيط ثورة أنصار علي، وانطفأت جذوة هذه الثورة بعد أن اتصل بهم نبأ وفاة إبراهيم بن عبد الله[١].

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) خرج في مصر دِحْية (بكسر الدال وسكون الحاء وفتح الياء) بن مصعب (بن الإصبع بن عبد العزيز بن مروان) في ولاية إبراهيم بن صالح بن علي العباسي (١٦٥ ـ ١٦٧ هـ). وتغلب على أكثر بلاد الصعيد، وكاد نفوذ العباسيين يذهب من هذه البلاد، فلما علم الخليفة المهدي بذلك نقم على هذا الوالي وعزله[٢].

وقد حاول موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي (١٦٧ ـ ١٦٨ هـ) الذي ولي مصر بعد إبراهيم بن صالح، أن يقضي على فتنة دحية الأموي، ولكنه لم يلبث أن قتل. وشدد هذا الوالي في جمع الخراج، وزاد على كل فدان مثل ما كان يؤخذ عليه من قبل. وارتشى هذا الوالي، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب، فكرهه الجند والأهالي ونابذوه العداء. وقامت الفتن في البلاد واشتدت وطأتها في الصعيد وكورة الحوف؛ فأرسل موسى جيشاً لقتال الثائرين في الصعيد وسار هو على رأس جيش آخر لقتال أهل الحوف، فتخلى عنه الجند وأسلموه إلى الأهالي فقتلوه[٣].

بيد أن ثورة دحية في الصعيد لم تنته بقتل هذا الوالي، بل استمرت في عهد خلفه حسامة ابن عمرو المعاقري، ولم تخمد جذوتها إلا في عهد الفضل بن صالح (١٦٩ ـ ١٦٩ هـ) الذي ولي مصر من قبل الخليفة الهادي؛ فهزم دحية زعيم الثائرين في الصعيد وأمر به فضربت عنقه وصلب. على أن الفضل لم يجن ثمار انتصاره، إذ عزل في نفس السنة التي ولي فيها هذه البلاد.

ومن ولاة العصر العباسي الأول في مصر موسى بن عيسى الذي ولي هذه البلاد ثلاث مرات (١٧١، ١٧٥، ١٧٩ هـ). وقد اشتهر بالعدل وحسن الإدارة، واكتسب محبة الأهلين، وتحبب إلى النصارى، فأذن لهم ببناء الكنائس التي هدمها سلفه، وأشار عليه بذلك قاضياه الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة (بفتح اللام)، بحجة أن إعادة الكنائس المستحدثة من عمارة البلاد، كما زاد في جامع عمرو بن العاص.

---

(١) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٣٣٨.

(٢) الكندي: كتاب الولاة ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٣) الكندي ص ١٢٥ المقريزي ج ١ ص ٣٠٨.

كذلك كان للجند العربي في مصر نصيب كبير في الفتنة التي قامت بين الأمين وأخيه المأمون، شأنهم في الفتن الخارجية التي قامت بين الخلفاء والخارجين عليهم أو المنافسين لهم، وغدا اشتراك هؤلاء الجند في الثورات مألوفاً لديهم، حتى في الحالات التي لم يكن ثمة ما يدعو المصريين إلى الاشتراك فيها.

ولسنا ندري الباعث الحقيقي الذي دفع هؤلاء الجند إلى الزج بأنفسهم في غمار هذه الثورات التي لم يكن لها علاقة بالعصبية العربية التي جاء الإسلام معفياً لها، وإن كانت هذه الثورات قد ظهرت بعد وفاة الرسول من حين إلى حين. ويظهر أن الجند العربي كان لا يزال مرتبطاً بدار الخلافة برابطة الدم أكثر من ارتباطه بمصر نفسها، إذ لم تكن القومية المصرية قد شملت بعد المصريين جميعاً. غير أن الأمر الذي يسترعي النظر أن مصر كانت، على ما رواه الكندي[1]، حين قام النزاع بين الأمين والمأمون ـ في أمن ودعة، وكانت راضية عن واليها جابر بن الأشعث الطائي وعن حكمه، وأن هذا الوالي كان محبباً إلى الخاصة والعامة في هذه البلاد.

احتدم النزاع بين الأمين والمأمون بسبب خلع الأمين أخاه المأمون وترك الدعاء له على المنابر وتوليته ابنه موسى العهد بدلاً منه. فغضب العرب في مصر وفي غيرها من الولايات الإسلامية وعولوا على خلع الأمين، لنكثه العهد الذي تركه أبوه الرشيد وأودعه الكعبة. وهذا وحده كان كافياً لإثارة سخط الناس عليه. وظهر في مصر السَّرِي بن الحكم الذي استغل هذه الفرصة لمصلحته الشخصية لإعلاء شأنه ورفع ذكره، إذ كان منذ أتى إلى مصر في أيام الرشيد خملاً لا حيثية له، فدعا إلى المأمون، فبايعه نفر يسير. ولكنه ظل على نشاطه في نشر الدعوة حتى دعا المأمون أشراف مصر إلى بيعته، فأجابوه سراً. وأتى كتاب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون المعدودين إلى عباد بن حيان وكيله على ضياعه في مصر، فقرأ هذا الكتاب على الجند في المسجد ودعاهم إلى خلع الأمين؛ فأجابه أكثرهم وخلعوه (جمادى الآخر سنة ١٦٦ هـ)، وأخرجوا واليه من الفسطاط وبايعوا عباداً، فأقره المأمون على ولاية مصر.

ولما علم الأمين بما حدث في مصر من خلعه وإخراج عامله، كتب إلى ربيعة بن قيس، وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف، بولايته على مصر، وطلب إلى اليمانية أن يقوموا بمساعدته؛ فأظهروا دعوة الأمين وخلعوا المأمون وخرجوا إلى الفسطاط، ودارت بين الفريقين مناوشات وحروب، عقد لواء النصر فيها لأنصار المأمون. ولما بلغ قيساً قتل الأمين (المحرم سنة ١٩٨ هـ) وبيعة المأمون تفرقوا[2].

---

(١) كتاب الولاة ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

تطور الاضطراب بمصر في عهد المأمون إلى نزاع بين بعض القواد الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة والاستقلال عن الخلافة. وليس أدل على ذلك من أن الشرطة قد تقلدها خمسة في بضعة أسابيع، كما أخذت سلطة الخليفة تضعف تدريجياً في هذا البلاد التي أصبحت في وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب[١]. ويذكر «ساويرس» نقلا عن الوثائق المعاصرة أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور في بغداد، وقام الخارجون بجباية الضرائب لأنفسهم. ومن هؤلاء الخارجين، عبد العزيز الجروي الذي استولى على شرقي الدلتا من شطنوف إلى الفرما، والسري بن الحكم الذي استولى على الوجه القبلي في مصر إلى أسوان. أما غربي الدلتا، وفي ذلك الإسكندرية وأعمالها ومريوط والبحيرة جميعها، فقد ملكها قبيلتا لخم وجذام[٢].

ندب المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين، وكان في الشام، ليقضي على هذه الاضطرابات التي سادت في مصر نحواً من إحدى عشرة سنة كادت فيها تستقل عن الخلافة، حتى إنها لم تعد ترسل إليها الخراج، أو تذعن لأوامر الخليفة أو تعترف بسلطة الولاة الذين يوليهم، كما تغلب على كل ناحية قائد أو زعيم. وقد استولى طاهر على الفسطاط وأقر الأمن في نصابه[٣]، ثم تفرغ لإصلاح البلاد وزاد في جامع عمرو. ولكن ولايته لم يطل أمرها؛ فعاد إلى العراق، وعادت الثورات في مصر سيرتها الأولى. وانتقض القبط، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين؛ فندب المأمون قائده الأفشين، ثم جاء هو نفسه إلى هذه البلاد وأعاد الأمن إلى نصابه.

ولما ولي المعتصم الخلافة في سنة ٢١٨ هـ تحول النفوذ من العنصر العربي إلى الأتراك، واندمج العرب في المصريين بعد أن أسقط المعتصم أسماء العرب من ديوان العطاء. واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب في الريف، واحترفوا الزراعة وغيرها. وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم، ولم يحكم مصر والٍ من العرب بعد ذلك إلا عنْبسة بن إسحاق (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ).

كما كان لمحنة خلق القرآن التي ظهرت في أيام المأمون أثر بعيد في علاقة مصر بالخلافة: فإن المأمون لم يعاقب القضاة والفقهاء والمحدثين الذين لم يقروا بخلق القرآن قبل وفاته سنة ٢١٧ هـ بأربعة أشهر. ثم جاء أخوه المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) فعذب الذين امتنعوا عن القول بخلق القرآن، وأرسل إلى واليه على مصر، كيدر بن نصر بن عبد الله (٢١٧ ـ ٢١٩

(١) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في فجر الإسلام ص ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥ ـ ١٦٦، نقلا عن كتاب سير الآباء البطاركة ص ٤٢٨.
(٣) الكندي ص ١٨٠ ـ ١٨٢.

هـ)، كتاباً يأمره فيه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، وأن يمتحن قاضي مصر هارون بن عبد الله الزهري، كما يمتحن الفقهاء والمحدثين والشهود، ويعزل القاضي إذا لم يقر بأن القرآن مخلوق، وأن لا يأذن لأحد في حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن.

ولكن مصر لم تتعرض لما تعرضت له العراق. فقد أقر هذا القاضي بخلق القرآن كما أجاب أكثر الفقهاء، وهرب من هذه البلاد من لم يوافق الخليفة فيما ذهب إليه في هذه المسألة[١].

ولما ولي الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ)، بعث إلى قاضي مصر محمد بن أبي الليث يأمره بامتحان الناس في خلق القرآن، وتشدد في حمل الناس على قبول هذه الآراء، حتى إنه حبس كثيراً ممن عارضوه، وأمر أن يكتب على المساجد: لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق. كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد، وأمرهم أن لا يقربوه. ولم يكن للمذاهب الأخرى أتباع في مصر إذ ذاك. فلما ولي المتوكل الخلافة ترك القول بخلق القرآن الذي أدى إلى تفريق كلمة المسلمين[٢].

٢ ـ مع بلاد النوبة:

ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص٢١٣) أن مملكة النوبة المسيحية وقفت في طريق العرب فاتحين أو مهاجرين وأن ملكها عقد مع المسلمين صلحاً أشبه بمعاهدة اقتصادية. غير أن أهل النوبة لم يحافظوا على هذا الصلح ونقضوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهد حتى غزا بلادهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٣١ هـ وتغلب عليهم وأرغم ملكهم على طلب الصلح، وكتب بينه وبين المسلمين عهداً يقوم على التسامح الديني وحسن الجوار وتبادل المنافع الاقتصادية: فمصر تمد النوبة بالحبوب والثياب والخيل، والنوبة تمد مصر بالماشية والرقيق لفلاحة الأرض لينصرف المسلمون للجهاد[٣].

وفي أواخر القرن الأول للهجرة تجمع لعبيد الله بن الحبحاب (بفتح الحاء الأولى وسكون الباء) البجة (بضم الباء وفتح الجيم) أو البجاه (بضم الباء) وكانوا يقيمون على مقربة من عيذاب (بفتح العين وسكون الياء) على البحر الأحمر، وانتشروا في بلاد النوبة وغيرها، ولا سيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر في الأراضي الممتدة بين دنقلة وأسوان تقريباً. ولكن ابن الحبحاب تركهم وهادنهم.

---

(١) الكندي: ص ٤٤٥ ـ ٤٤٧.
(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣١٢.
(٣) المقريزي ج ١ ص ٢٠٠.

وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصال تعاهد ومرور وانتقال، وأن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب كبني أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرقي السودان واستقروا في أرض الجزيرة، ويبدو أن العرب اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالبجة في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادي النيل، وخاصة من إقليم أسوان، فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين. ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم. فهذه كلها عوامل مهدت للعرب سبيل الاختلاط أول الأمر بالبجة في شرقي السودان وساعدت على تعريب هذه المنطقة.

غير أن البجة لم يحافظوا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع عبيد الله بن الحبحاب، فكثرت غاراتهم على جهات أسوان، واشتد إيذاؤهم للمسلمين فيها؛ فرفع أمرهم إلى الخليفة المأمون العباسي (٢١٦/٨٣١)، فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد بينه وبين كنون (بفتح الكاف وضم النون مع التشديد) بن عبد العزيز زعيم البجة. ومن أهم شروط هذا العهد التي تبين لنا مدى اتصال العرب بمنطقة شرق السودان:

١ ـ أن تكون بلاد البجة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد بين دَهلك (بفتح الدال واللام وسكون الهاء) وباضع ملكاً للخليفة، وأن يكون كنون ملكاً على البجة. وهذه أول مرة تكون فيها منطقة السودان ملكاً للخليفة، فقد كانت المناطق المعروفة للعرب يومئذ مستقلة قائمة بذاتها يربطها عهد بأمير المؤمنين أو بولاته.

٢ ـ أن يؤدي ملك البجة كل عام الخراج أو «البقط»[١] (بفتح الباء وسكون القاف) على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار.

---

(١) قال المقريزي (خطط ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠): «البقط ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ضريبة عليهم. فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي إما عن قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب أي نبذة من مرعى، فيكون معناه على هذا نبذة من المال، أو يكون من قولهم إن في بني تميم بقطاً من ربيعة أي فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه. ومنه بقط الأرض فرقة منها، وبقط الشيء فرقه: والبقط أن تعطي الحبة على الثلث أو الربع، والبقط أيضاً ما سقط من التمر إذا قطع . . . فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة. وكان يؤخذ منهم في قرية يقال لها القصر، مسافتها من أسوان خمسة أميال . . . وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص: ولعل معنى بقط عهد (Pact).
وقد أورد المقريزي (خطط ج ١ ص ٢٠٢) ما كان يدفعه أهل النوبة المسلمين، وهي ٣٦٠ رأساً من الغنم؛ لبيت المال، ولوالي مصر أربعون رأساً، ويدفع المسلمون ألف أردب من القمح وثلاث مئة إردب ـ

٣ ـ أن يحترم البجة الإسلام وألا يذكروه بسوء ولا يعينوا أحداً على أهله.

٤ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

٥ ـ ألا يمنعوا من المسلمين تاجراً أو مقيماً مجتازاً أو حاجاً، فهو آمن حتى ينزح من بلادهم. وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين كانوا يذهبون إلى شرق السودان للتجارة أو للإقامة أو المرور، أو للحج، مما يدعو إلى الاستقرار أو البقاء في تلك المنطقة.

٦ ـ إذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال[1].

وتدل هذه الشروط على أن العرب المسلمين كانوا يترددون على شرقي السودان تجاراً ومقيمين ومجتازين وحجاجاً، وأن من البجة من أسلم، وأنه كان للمسلمين بها مساجد معمورة في أكثر من بلد، وأن عمال الخليفة كانوا يغشونها لقبض الجزية. فهذه المنطقة إذن أسبق مناطق السودان إلى الدخول في الإسلام.

وكان هناك اتصال بين ملك النوبة والخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) بسبب العهد الذي أبرم بين ملك النوبة والمسلمين. فقد أرسل السفراء ليجددوا هذا العهد، وزار ملك النوبة قاعدة مصر حيث قوبل بمظاهر الاحترام والتكريم وعاد إلى بلاده يحمل الهدايا. وفي عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) نقض البجة هذا العهد، وامتنعوا عن أداء الجزية التي كانت مقررة عليهم، وتعرضوا لمن كان في مناجم الذهب من العمال والحفارين، وامتدت غاراتهم على أعالي الصعيد، ونهبوا بعض المدن المصرية كإسنا وأسوان، مما أدى إلى قيام الحرب بينهم وبين المسلمين على ما سيأتي في الجزء الثالث من هذا الكتاب[2].

٣ ـ مع بلاد المغرب:

كان تأسيس مدينة القيروان في إفريقية (بلاد تونس الآن)، على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ(٦٧٠م) تمكيناً للعرب بمركز حصين اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية. وكان نجاح عقبة في تحويل البربر إلى الإسلام بطيئاً. ثم واصل ولاة العرب الذين تولوا هذه البلاد في القرن الثاني للهجرة جهودهم في سبيل تحويل هؤلاء البربر إلى الإسلام، كما عملوا على إدماجهم في

= أخرى لرسل ملك النوبة. وكذلك من الشعير، عدا فرسين ومائة ثوب وأربعة أثواب من القباطي عدا أنواع أخرى من الأثواب».

(١) المقريزي: (خطط جـ ١ ص ١٩٥ ـ ١٩٦).

(٢) أنظر كتاب انتشار الإسلام في القارة الإفريقية للمؤلف ص ١٤١ ـ ١٤٤.

جيوشهم وانضوائهم تحت لوائهم؛ وبذلك استطاعوا أن يجذبوهم إلى اعتناق الإسلام.

وقد كون البربر في شمالي إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التي أتمت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب بل من البربر كطارق بن زياد، وفي أقل من نصف قرن تم لهم فتح بلاد الأندلس.

على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلاً، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافأوا على ما قدموه من خدمات كما كانوا يؤملون. مع اعتناقهم الإسلام لم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير بل معاملة السيد للمسود. وكان من أثر هذه المعاملة أن انتحل البربر مذهب الخوارج لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية، وأخذوا يثيرون الفتن والقلائل في وجه العرب، حتى إننا إذا تتبعنا حوادث سنة ١٣٠ هـ تبين لنا ضعف نفوذ الخليفة الأموي في هذه البلاد.

لهذا لا نعجب إذا غدت إفريقية مسرحاً للفتن والقلائل في العصر العباسي، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية في بغداد، ولجهل البربر في ذلك العصر، وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الإسلامية، وبغضهم ولاتهم من العرب لفرضهم الضرائب الفادحة عليهم.

أما بعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية في بغداد، فقد ساعدت الأدارسة على تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ. كما ساعدت الأغالبة في تونس على تأسيس دولتهم. وكان الرشيد قد أقطع إبراهيم بن الأغلب تونس في سنة ١٨٤ هـ وأما عن جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية، فكان من آثاره أن الإسلام لم يتوطد بين البربر وبين العرب النازلين في بلادهم منذ امتدت الفتوح الإسلامية إلى هذه البلاد. وهذا يفسر لنا انتشار مذهبي الخوارج والشيعة في بلاد المغرب وقيام البربر في وجه العباسيين بين حين وحين. وأما عن بغض البربر لولاتهم من العرب فيرجع إلى فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهلين. وفي الحق أن قيام الخوارج من البربر في وجه العباسيين لم يكن خروجاً على الدين، بل كل خروجاً على السلطة الحاكمة، لظلم الولاة لهم وفرضهم عليهم ضرائب فادحة[١].

وقد ذكر ابن الأثير [٢] أن محمد بن الأشعث والي إفريقية خرج على أبي جعفر المنصور، فولى هذه البلاد الأغلب بن سالم[٣] أبا إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة، فقدم

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) جـ ٥ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٣) ذكر ابن الأثير أن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجه التميمي كان ممن قام مع أبي مسلم الخراساني ثم قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث.

القيروان سنة ١٤٧ هـ. وسرعان ما ثار عليه البربر بزعامة قواد من العرب، وقتل الأغلب على أبواب مدينة القيروان سنة ١٥٠ هـ، وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد. ويقول ميور[١]: إن إفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين في معظم عهد المنصور، وإن البربر والعرب النازلين فيها مالوا إلى مبادىء الخوارج، وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش تلو الجيوش لإخضاعهم، ولكن بدون جدوى. واستمرت مدينة القيروان تسقط في أيدي الثوار حيناً وفي أيدي العباسيين حيناً آخر إلى قبيل نهاية خلافة المنصور.

ولما بلغ الخليفة المنصور نبأ مقتل الأغلب، ولى إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص من ولد قبيصة أخي المهلب بن أبي صفرة، فوصل إلى القيروان ـ وكان جند الأغلب قد استولوا عليها بعد وفاته (صفر سنة ١٥١ هـ)، وأقر الأمن في هذه البلاد نحو ثلاث سنين. ثم ثار إلى ناحية الزاب لبناء مدينة طُبْنة، فانتهز البربر من الإباضية والصفرية وغيرهم فرصة تغيب عمر بن حفص عن إفريقية وانتقضوا على هذا الوالي وهاجموا مدينة القيروان، «وانتقضت إفريقية من كل ناحية، ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في إثني عشر عسكراً، منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفاً، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً، وأبو حاتم في عسكر كثير، وعاصم السدراني الإباضي في ستة آلاف فارس، والمسعود الزناني الإباضي في عشرة آلاف فارس، وغير من ذكرنا». واستطاع عمر بن حفص بما بذل من الأموال أن يفك حصار طبنة بإرشاد بعض المحاصرين من الخوارج: فترك هؤلاء حصار طبنة وحاصروا القيروان. فلما اشتد الضيق بأهلها قصدهم عمر بن حفص وأعمل الحيلة حتى دخلها.

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حل بجند عمر بن حفص، بعث يزيد بن حاتم بن قبيصة بن أبي صفرة في ستين ألف فارس؛ فوصل إلى إفريقية سنة ١٥٤ هـ. فبادر أبو حاتم الخارجي إلى لقائه. ولكن الهزيمة حلت به، وقتل هو وجنده من البربر في شهر ربيع الأول ١٥٥هـ. وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون: «يا لثارات عمر بن حفص». وأقام شهراً يقتل الخوارج، ثم رحل إلى القيروان.

ويقول ميور (ص ٤٦١): إن أبا جعفر المنصور لما تخلص من خصومه الآخرين، أصبح من القوة بحيث استطاع أن يرسل إلى بلاد المغرب جيشاً جراراً أقر الأمن في جميع أرجاء هذه البلاد حيناً من الدهر. ولا غرو فقد اشتعلت نيران الثورة في بلاد المغرب وأقلقت بال العباسيين، حتى قيل إنه: «كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) من لدن قاتلوا عمر بن

(١) Muir, The Caliphate, P. 461.

حفص إلى انقضاء أمرهم ثلثمائة وخمس وسبعون وقعة». وقد بذلت الدولة العباسية جهوداً متصلة وتضحيات عظيمة ونفقات طائلة.

استمرت قبائل البربر في إفريقية تناوىء سلطان العباسيين بين سنتي ١٧٨ و١٨١ هـ، وأخذت في الخروج على حكم العباسيين، وغدت كفة النصر ترجح في جانبهم حيناً وفي جانب العباسيين حيناً اخر، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين على رأس جيش كثيف، فوصل إليها في شهر ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ واستطاع أن يضعف قوتهم. على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته تأصل العداء في نفوس البربر واستحالة فوز العباسيين عليهم، فعول على النزول عن القيادة وعاد إلى الشرق حيث البذخ والرفاهية. ولما رأى هرثمة الاختلاف الذي ساد إفريقية، بعث بكتبه إلى الرشيد يعتذر عن بقائه، فأمره بالقدوم إلى العراق، فسار عن إفريقية في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة بعد أن ولي هذه البلاد سنتين ونصف سنة.

ثم ولى الرشيد محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، فأساء معاملة الأهلين، فتجددت ثورات البربر والعرب ودخلوا القيروان. فجمع إبراهيم بن الأغلب، وكان يلي بعض نواحي الزاب، جيشاً طرد به هؤلاء الثوار وأعاد والي الرشيد إلى ولايته[1].

وكان من أثر هذا العداء الذي أضمره البربر للأمويين والعباسيين، وانضمام بعض العرب النازلين في هذه البلاد إليهم، وميل هؤلاء وأولئك إلى مذهب الخوارج، أن قامت الفتن والقلاقل في هذه البلاد. وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية، فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالاً يكاد يكون تاماً. ومن هذه الولايات تاهرت التي أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (تافيلالت الحالية) (١٣٧ - ٢٩٧ هـ)، وولاية سجلماسة (تافيلالت الحالية) التي أسسها بنو مدرار بمساعدة الصفرية الزناتيين (١٦٧ - ٢٥٧هـ) وولاية تلمسان التي أسسها بنو قرة الصهاجيون، ودولة برغواطة (بضم الباء والعين وسكون الراء) في تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الأطلسي، ودولة الأغالبة التي أسسها إبراهيم بن الأغلب في تونس (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)، ودولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن في المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١٣ هـ).

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٤١ - ٢٤٢، ج ٦ ص ٥٠، ٥٥.

دولة الأغالبة(١)

في تونس وغيرها

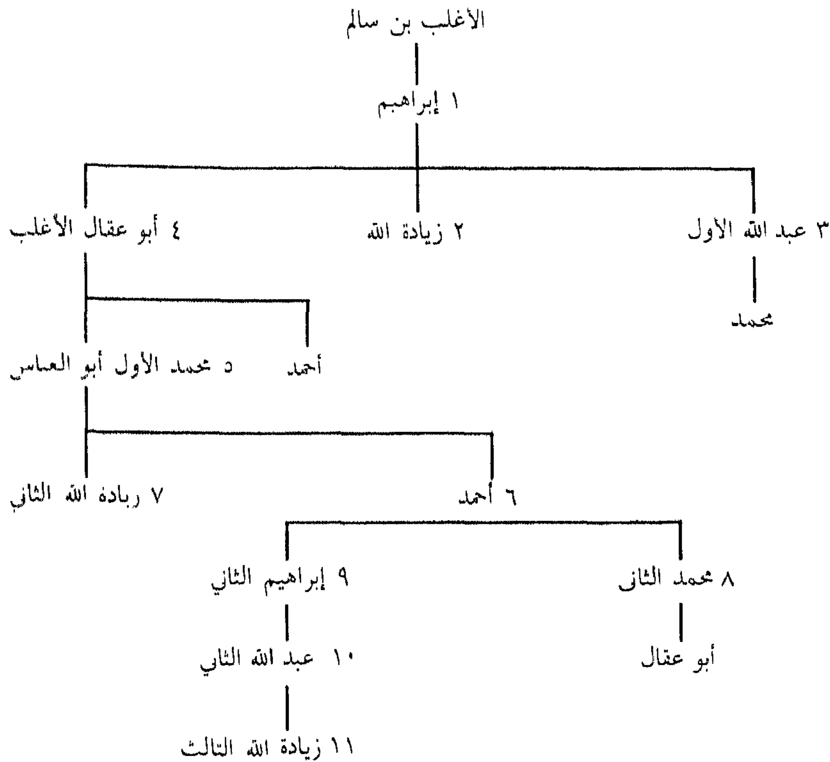
١٨٤ - ٢٩٦/٨٠٠ - ٩٠٩

اسم الوالي	هجرية	ميلادية	اسم الوالي	هجرية	ميلادية
١ إبراهيم الأول	١٨٤	٨٠٠	٦ أحمد	٢٤٢	٨٥٦
٢ عبد الله الأول	١٩٦	٨١١	٧ زيادة الله الثاني	٢٤٩	٨٦٣
٣ زيادة الله الأول	٢٠١	٨١٦	٨ محمد الثاني	٢٥٠	٨٦٤
٤ أبو عقال الأغلب	٢٢٣	٨٣٧	٩ إبراهيم الثاني	٢٦١	٨٧٤
٥ محمد الأول أبو العباس	٢٢٦	٨٤٠	١٠ عبد الله الثاني	٢٨٩	٩٠٢
			١١ زيادة الله الثالث	٢٩٠	٩٠٣
				٢٩٦	٩٠٩

(الفاطميون)

(١) Lan-Poole: Muhammadan Dynasties pp. 37, 38.

جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة



إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦ هـ):

كان قيام دولة الأغالبة في تونس نتيجة هذه السياسة التي سار عليها الرشيد في تأديب البربر وغيرهم من الثوار والوقوف في وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية. وقد طلب إبراهيم، وكان يلي بعض نواحي الزاب على ما تقدم، إلى الرشيد أن يوليه إفريقية، على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله مصر من الأموال التي اعتادت أن ترسلها إليها في كل سنة، ومقدارها مائة ألف دينار، كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال في بغداد أربعين

ألف دينار. وأشار هرثمة بن أعين على الرشيد بتولية إبراهيم بن الأغلب هذه البلاد لما رآه من عقله وكفايته[١]؛ فولاه الرشيد إياها في شهر المحرم من سنة ١٨٤ هـ.

وكان إبراهيم بن الأغلب على جانب عظيم من الشجاعة ورجاحة العقل، وقد آنس فيه الذكاء أستاذه الليث بن سعد، وكان إمام أهل مصر في الفقه والحديث فقال: «ليكون لهذا الفتى شأن»[٢]، وقال الشافعي رضي الله عنه إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به[٣]، أي أن تلاميذه لم ينشروا مذهبه كما فعل أهل العراق مثلا بمذهب أبي حنيفة. وقد صدقت نبوءة الليث، فإن إبراهيم لما آلت إليه مقاليد الحكم في إفريقية ضبط أمورها، وبنى في سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان[٤]، ونقل إليها أهله وعبيده وأهل ثقته. ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائه للخليفة العباسي والاعتراف بسلطان الدولة العباسية عليه.

على أن الثورات في بلاد المغرب لم تلبث أن سارت سيرتها الأولى؛ فخرج على إبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٦ هـ حمديس، وكان من العرب النازلين بمدينة تونس، فبعث إليه ابن الأغلب عمران بن مخلد في جيش كبير، فأحل الهزيمة بِحَمْديس وجنده وقتل منهم عشرة آلاف رجل ودخل تونس[٥].

وفي سنة ١٨٩ هـ انتشرت الثورة في طرابلس وكانت تابعة لأمير إفريقية، لبغض أهلها لولائهم وعزمهم على إخراج واليهم سفيان بن المضاء، وكان قد ولي هذه البلاد للمرة الرابعة، وأخرجوه من داره وطاردوه إلى المسجد وقتلوا أصحابه فيه، وأرغموه على العودة إلى القيروان ولما يمض على ولايته سبعة وعشرين يوماً، وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي. ولكنه لم يستطع أن يقر الأمور بسبب قيام النزاع بين العرب والأبناء[٦]. فأرسل إبراهيم إليهم جيشاً أحضرهم إلى القيروان، ولكنه عفا عنهم.

على أن الفتن والثورات لم تخمد في طرابلس، فيحدثنا ابن الأثير أن أبا عصام ثار على رأس جماعة كبيرة، وأن إبراهيم بن الأغلب ظفر بهم، وولى هذه البلاد ابنه عبد الله الذي لقي كثيراً من الشدائد من ناحية البربر أول الأمر، حتى أرغموه على الخروج من المدينة، ولكنه

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٦.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ١ ص ٨٤.
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٨.
(٤) سمى ابن عذارى (ج ١ ص ٨٤) هذه المدينة القصر القديم، وسماها ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥) العباسية.
(٥) ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥٦) ابن عذارى (البيان المغرب جـ ١ ص ٨٤).
(٦) يقصد بذلك الذين يجمعون بين الدم العربي والدم البربري.

استطاع أن يستميلهم إليه بما أغدق عليهم من الأموال والعطايا. وعلى الرغم من دخول عبد الله مدينة طرابلس لم يأمن أبوه بقاءه فيها، فولي سفيان بن المضاء هذه البلاد للمرة الخامسة، فثارت قبيلة هوارة (بفتح الهاء وتشديد الواو مع الفتح) عليه ودخلوا مدينة طرابلس وهدموا أسوارها، فأرسل إليهم إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على رأس ثلاثة عشر ألف فارس، فهزم البربر وقتل كثيراً منهم ودخل طرابلس وأعاد بناء سورها. ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جمع البربر وحرضهم على قتال الأغالبة، وحاربهم إلى أن توفي أبوه إبراهيم، وآلت إمارة الأغالبة إليه, فاضطر إلى مصالحتهم «على أن يكون البلد والبحر لعبد الله وما كان خارجاً عن ذلك يكون لعبد الوهاب»[١].

وكما كان إبراهيم بن الأغلب يخشى شر أهالي طرابلس الذين تألبوا عليه وثاروا في وجهه، كذلك عمل على القضاء على الأدارسة في بلاد المغرب ليأمن جانبهم. وقد بلغه أن إدريس بن إدريس قد كثر جمعه، فأراد قصده، ولكن أصحابه نصحوا له بالعدول عن رأيه وقالوا: اتركه ما تركك. وكتب إليه إدريس يستعطفه ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداء وتفريق أنصاره ويذكر له قرابته من الرسول عليه الصلاة والسلام فكف عنه.

وقد ذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[٢] أن إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء شرلمان في العباسية حاضرة ولايته[٣]. ويظهر أن منزلته قد علت حتى إن شرلمان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة العباسي.

كان إبراهيم بن أغلب ـ على ما وصفه ابن عذارى ـ «فقيهاً أديباً وشاعراً خطيباً، ذا رأي ونجدة وبأس وحزم، وعلم بالحروب ومكايدها، جريء الجنان طويل اللسان، لم يل أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة، ولا أرأف بالرعية، ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت إفريقية في أيامه، واستقامت الأحوال بها».

عبد الله الأول (١٩٦ ـ ٢٠١هـ):

ولى إبراهيم بن الأغلب ابنه أبا العباس عبد الله العهد من بعده، فلما مات في سنة ١٩٦هـ كان عبد الله يحارب ابن رستم في طرابلس كما تقدم، فقام أخوه زيادة الله بالأمر،

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٦٩، ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) خلاصة تاريخ تونس (طبعة سنة ١٣٤٤هـ) ص ٥٩.

(٣) قيل إن سبب قدوم هؤلاء السفراء يرجع إلى طلب شرلمان نقل رفـاة أحد القديسين من قرطاجنة إلى إكس لا شابل حاضرة الفرنجة وإن إبراهيم بن الأغلب أجابه إلى طلبه.

وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجمع رجاله وخدمه، وبعث إليه بذلك. ولكن عبد الله لم يعد إلى إفريقية إلا في سنة ١٩٧هـ حيث سلم إليه أخوه زيادة الله مقاليد الأمور. ولما قتل الخليفة الأمين في سنة ١٩٨هـ وولي الخلافة بعده المأمون أقر عبدالله بن إبراهيم على إفريقية[١].

وكان عبد الله سيىء السيرة حتى مع أهل بيته. يقول ابن عذارى إنه لما عاد من طرابلس تلقاه أخوه زيادة الله وسلم الأمر إليه. ولكنه أساء معاملته، وكان يأمر رجال بلاطه بإطلاق ألسنتهم فيه، وزيادة الله يظهر له التعظيم والإكبار ولا يظهر له تغيراً أو كراهة، كما اشتط في جمع الضرائب حتى قيل إنه فرض على كل فدان ثمانية عشر ديناراً في كل سنة. وكانت معاملته للأهلين تنطوي على كثير من العنت والجور. ولم يصغ إلى نصائح أهل الورع والدين، حتى قيل إنه لما قدم حفص بن حميد الصالح على إفريقية ومعه قوم صالحون من الجزيرة، قصدوا إليه فوعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين، فتهاون بهم، فخرجوا مغمومين[٢] يريدون القيروان، وكان هو في القصر القديم (يعني العباسية). فلما وصلوا وادي القصارين قال لهم حفص بن حميد: قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من الخالق، فاسألوا المولى واضرعوا إليه في زوال ظلمه عن المسلمين، فإن فتح في الدعاء فقد أذن في الإجابة، فتوضأوا وساروا إلى كدية روح[٣]، فصلى بهم حفص ركعتين، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس (عبدالله) ويريحهم منه. وقد قيل إنه أصيب بقرحة تحت أذنه فقتلته في اليوم السادس من دعاء القوم. وقال من حضر غسله: إنه لما كشف عنه ثيابه «ظن أنه عبد أسود بعد جماله، وذلك بسوء فعاله»[٤]. وكان ذلك في سنة ٢٠١هـ بعد أن حكم خمس سنين وشهرين.

يتبين من هذه القصة التي تكاد تكون قصة خيالية تنطوي على شيء كثير من المبالغة، أن سيرة هذا الوالي قد أثارت عليه حنق أهل بيته، فاتخذ المؤرخون من سوء سيرته مصدراً لتأليف القصص حول حياته.

زيادة الله الأول (٢٠١ - ٢٢٣):

كان زيادة الله من أطول الأغالبة عهداً بالحكم، وكان - كأخيه عبد الله - يميل إلى الظلم

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١ ص ٨٣ - ٨٦.
(٢) مقصورين في الأصل ولعل الكلمة «مفقورين».
(٣) الكدية: الأرض الصلبة.
(٤) ابن عذارى جـ ١ ص ٨٧. ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢١.

والجور ويمتاز عهده بقيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرتي سردينية وصقلية في البحر الأبيض المتوسط.

وقد قضى زيادة الله الست سنوات الأولى من عهده آمناً مطمئناً، حتى خرج عليه (سنة ٢٠٧هـ) زياد بن سهل المعروف بابن الصقلية، لكن الهزيمة حلت به هو وأنصاره. وفي السنة التالية خرج بتونس منصور بن نصير الطنبذي، فسير إليه زيادة الله جيشاً بقيادة محمد بن حمزة، فهزمه منصور وقتل إسماعيل بن سالم بن سفيان بن عقال وابنه محمد، وكانا من أقارب زيادة الله. فلما سمع زيادة الله بذلك أرسل وزيره الأغلب بن عبدالله على رأس جيش كثيف، ثم شيع هذا الجيش، وهدد قائده وجنده بالقتل إذا حلت بهم الهزيمة، وأفلت المنصور من أيديهم. ولكن تهديد زيادة الله لم يحل دون إلحاق الهزيمة بجنده، الذين خشوا سوء العاقبة وعولوا على عدم العودة إلى العباسية، فتقلبت بهم الأحوال، وخلعوا طاعته وانضموا إلى المنصور، واستولوا على كثير من المدن مثل باجة وصطفورة والأربس.

وقد اضطربت أحوال إفريقية وكادت تخرج من يد زيادة الله الذي أثار كراهة أهلها بسوء سيرته وقسوته، وقد تفاقم خطر منصور، فسار إلى القيروان وحاصرها وحارب زيادة الله في كثير من المواقع التي انتهت بهزيمة منصور وهربه في (جمادى الآخر سنة ٢٠٨هـ). وعزم زيادة الله على إنزال العقاب بأهل القيروان فنصحه أهل العلم والدين فعدل عن رأيه، ولكنه هدم سور المدينة. ثم أرسل ابن أخيه محمد إلى مدينة سبيبة، فحلت به الهزيمة. وقد أثار هذا الانتصار شجاعة منصور، فحاصر القيروان من جديد وأقلق بال زيادة الله الذي ضعف أمره وتضاءلت ولايته، حتى إنه لم يبق بيده سنة ٢٠٩هـ غير قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس(١). وضرب منصور الطنبذي السكة باسمه.

ولم تنته هذه الثورة التي كادت تودي بدولة الأغالبة إلا في سنة ٢١١هـ، وذلك يرجع إلى قيام النزاع بين منصور الطنبذي وقائده عامر بن نافع الذي هاله ازدياد نفوذه واتساع رقعة البلاد التي دخلت في حوزته، وأرغمه على الهرب إلى المشرق، ولم يلبث أن قبض عليه وحبسه، ثم قتله واستولى على بلاده، على أن النزاع الذي قام بين أنصار منصور الطنبذي لم يقف عند هذا الحد، بل لقد ازداد سوءاً بعد مقتل منصور، حتى مات عامر بن نافع في سنة ٢١٣هـ واطمأن زيادة الله بن الأغلب من ناحية هؤلاء الثوار، وعبر عن اغتباطه حين علم بوفاة عامر بقوله: «اليوم وضعت الحرب أوزارها»(٢).

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٣.   (٢) ابن عذارى: البيان المغرب: جـ ١ ص ٩٤ ـ ٩٥.

فتح جزيرة صقلية :

فتحت جزيرة صقلية على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في سنة ٢١٢هـ. وذلك في عهد الخليفة المأمون. على أن اهتمام المسلمين بفتح هذه الجزيرة يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان حيث غزاها عبدالله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج والي إفريقية، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت في هذه الجزيرة[١]. ويقول النويري[٢] إن محمد بن إدريس الأنصاري فتحها في أيام يزيد بن عبدالملك وغنم منها غنائم كثيرة؛ ثم غزاها بشر بن صفوان الكلبي في أيام هشام بن عبدالملك (١٠٩) كما غزاها حبيب بن أبي عبيدة في سنة ١٢٢هـ واستولى على سرقوسة على الساحل الشرقي للجزيرة، ثم عاد إلى إفريقية محملاً بالغنائم. ثم غزاها عبد الرحمن في سنة ١٣٠هـ، غير أن أقدام المسلمين لم تكد تثبت إلا في عهد الأغالبة.

روى المؤرخون الذين تناولوا الكلام على فتح صقلية أن السبب المباشر لفتحها في عهد زيادة الله بن الأغلب على إفريقية، أن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني ولى عليها قسطنطين البطريق، فأرسل يوفيميوس (Euphemius) في أسطول نهب ساحل إفريقية. ثم غضب عليه الإمبراطور إذ نمى إليه أنه اختطف راهبة من هناك، ففر إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقي وثار في وجه حاكم الجزيرة. ولما رأى أنه لا طاقة له بجيوش الإمبراطور وأساطيله، لجأ إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، واستغاث به وهون عليه فتحها؛ فجهز زيادة الله جيشاً وأسطولاً يتألف من مائة مركب بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان[٣].

ولما وصل جيش زيادة الله إلى صقلية، قامت الحرب بين المسلمين ويوفيميوس من ناحية وبينهم وبين حاكم الجزيرة من ناحية أخرى، وانتهت هذه المعارك بهزيمة الروم. وعلى الرغم مما لحق المسلمين من الهزائم ووفاة أسد بن الفرات وهو على حصار مدينة سرقوسة في سنة ٢١٣هـ، ولى المحاربون عليهم محمد بن أبي الجواري، واستطاع المسلمون أن يستولوا على كثير من الحصون كحصن ميناو وجربجند. أما يوفيميوس فقد سار إلى مدينة قصريانة وانقلب على المسلمين فيها، فثاروا عليه وقتلوه. ولكن المسلمين لم يستطيعوا التوغل في هذه الجزيرة حتى جاءتهم سفن من الأندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم بقيادة قرغلوش، فطلب المسلمون منه المعونة. فأجابهم إلى طلبهم، واستولوا على مدينة ميناو، ولكنهم اضطروا إلى الرحيل عنها،

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٤.
(٢) المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٤٢٦.
(٣) المكتبة الصقلية ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩ عن كتاب نهاية الأرب للنويري.

وانتشر الوباء فيهم، ومات القائد الأندلسي وكثير من جند المسلمين، وعاد الأندلسيون إلى بلادهم (سنة ٢١٥هـ)(١).

وقد طال حصار المسلمين لمدينة بلرم، فبدأ في شهر جمادى الآخر سنة ٢١٥هـ وانتهى بفتحها سنة ٢١٦هـ، وفي سنة ٢١٩هـ سار المسلمون إلى قصريانة، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، وكانوا يعودون إليها مرة بعد أخرى، ثم يرتدون عنها فيحاولون الاستيلاء على غيرها من المدن مثل طبرمين وقسطياسة، وعلى بعض الحصون المحيطة بجبل النار وغيرها، وظلوا على ذلك إلى أن مات زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣هـ(٢) ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على الجزيرة كلها برغم ما كان يصلهم من الأمداد من إفريقية. وكانت سرقوسة آخر معقل وقع في أيديهم في عهد إبراهيم الثاني الأغلبي سنة ٢٦٤هـ.

محمد الأول (٢٢٦ - ٢٤٢هـ):

ولما مات زيادة الله الأول سنة ٢٢٣ خلفه أخوه أبو عقال، وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب الذين ولوا إمارة الأغالبة بعده على التوالي. وكان أبو عقال أحسن سيرة من أخويه، لأنه «أجزل على العمال أرزاقاً واسعة وصلات جزلة، وقبض أيديهم عن الرعية، فقطع النبيذ عن القيروان، وعاقب على بيعه وشربه». ولم يحدث في عهده ما يستحق الذكر إلا هذه الثورة التي أذكت نيرانها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر فقضى عليهم عيسى بن ريعان الأزدي قائد الأغالبة، وانتصر عليهم في موقعة حاسمة بين قفصة وقسطيلية. وتوفي أبو عقال في شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ بعد أن حكم سنتين وتسعة أشهر وأياماً، وهو في الثالثة والخمسين من عمره، فخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.

وكان أبو العباس (٢٢٦ ـ ٢٤٢هـ) من أطول أمراء الأغالبة عهداً. وقد تخللت عهده حوادث كثيرة كان أشدها خطراً اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه، وذلك أن أحمد تواعد مع جملة من الموالي إلى موضع، فتوافوا هناك وقت الظهيرة فقصدوا إلى مدينة القصر القديم، وقد خلا الباب من الرجال، فدخلوا منه وأغلقوه ثم أغلقوا الأبواب الأخرى، وهجموا على أبي عبد الله ابن علي بن حميد الوزير فأمر أحمد بن الأغلب فضربت عنقه. ووقع القتال بين رجال محمد بن الأغلب ورجال أخيه أحمد، وجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد: ما لكم تقاتلوننا؟ نحن في طاعة محمد بن الأغلب، إنما قمنا عن أولاد علي بن حميد الذين أفقروكم واستولوا على

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٢) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٤ ـ ١٢٥، ١٢٧.

أموال مولاكم دونكم، وأما نحن ففي الطاعة. فلما سمعوا ذلك عدلوا عن القتال. ولما نظر محمد ما دهمه من غير استعداد، قعد في مجلسه الذي يعقد فيه للعامة، وأذن لأخيه أحمد ومن معه في الدخول عليه فدخلوا بسلاحهم فكانت بينهم معاتبة، ثم حلف كل منهما على ألا يغدر بصاحبه، واصطلحا، واستقامت الأمور لأحمد بن الأغلب إلا اسم الإمارة فقط.

وقبض أحمد على من شاء، واصطفى من أراد، وعذب من أحب، وأعطى الرجال وجبى الأموال، واستوزر نصر بن حمزة. وفي سنة ٢٣٢هـ ظفر محمد بن الأغلب بأخيه أحمد وحبسه، واسترد سلطانه بمساعدة جماعة من بني عمه ومواليه. ثم دخل المدينة، وحارب أخاه، وأطلق من كان في حبسه واستعان بهم، ووصل أهل القيروان بالأموال والكسي، ثم نفى أخاه أحمد[١] إلى المشرق، فمات بالعراق[٢].

من ذلك نرى أن قبض أحمد بن أبي عقال الأغلب على أخيه محمد الذي ولي الإمارة بعد أبيه، لم يكن مصدره سخطه على الوزير ابن حميد والحد من نفوذه وإنما كان ذلك راجعاً إلى طمع أحمد وميله إلى الانفراد بالسلطة دون أخيه. ولولا انتصار محمد عليه لتحولت السلطة إلى أخيه بعد أن اغتصبها منه أكثر من سنة (٢٣١ - ٢٣٢هـ).

وعلى أن محمداً الأول لم يكد ينتهي من ثورة أخيه أحمد عليه، حتى فوجىء في السنة التالية بثورة سالم بن غليون أمير الزاب، وكان قد عزله عن إمارتها، فأضمر له الخلاف، وقصد القيروان، وقامت الحرب بينه وبين محمد الأول، ودارت الدائرة على سالم وقتل. وفي سنة ٢٣٤هـ خرج على محمد الأول عمر بن سليم التجيبي الذي تفاقم شره، ولم يستطع ابن الأغلب القضاء عليه إلا في سنة ٢٣٦هـ، وقتله، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبي[٣].

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية، واهتم بهذه الحرب اهتماماً جعله في مرتبة الجهاد ضد الروم. فولى العباس بن الفضل الفزاري تتمة الفتح: ففتح بين سنتي ٢٣٧، ٢٤٧ هـ قصريانة[٤] وقطانية وسرقوسة. ويظهر أن المسلمين كانوا

---

(١) يلاحظ أن أحمد هذا الذي مات في العراق هو أحمد بن أبي عقال الأغلب، وهو غير أحمد بن محمد الأول الذي ولي بعد أبيه محمد الأول.

(٢) ابن عذارى جـ ١ ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥ - ١٦.

(٤) قال أبو الفدا (المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٨) إن قصريانة هي المدينة التي بها دار الملك بصقلية، وكان الملك قبلها يسكن مرقوسة «يقصد سرقوسة»؛ فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى =

يستولون على هذه المدن ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم ، فكانت حرب المسلمين في هذه الجزيرة ، كما يقولون ، حرباً مائعة غير ثابتة[١].

وفي سنة ٢٤٢هـ توفي أبو العباس محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً ، فخلفه ابنه إبراهيم (٢٤٢ ـ ٢٤٩هـ) .

هكذا تأسست دولة الأغالبة في إفريقية على يد إبراهيم بن الأغلب الذي اتخذ مدينة القيروان حاضرة لدولته ، وتمتعت هذه الدولة باستقلال اسمي ، ولكنها ما لبثت أن استقلت على مر الزمن استقلالاً يكاد يكون تاماً ، بحيث لم يبق للخليفة العباسي سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ .

= قصريانة لحصانتها ، ففتحها العباس في سنة ٢٣٧هـ . . . وبنى بها مسجداً في الحال ونصب فيها منبراً ، وخطب وصلى فيها الجمعة .

(١) النويري : نهاية الأرب ، المكتبة الصقلية جـ ٤٣١ ـ ٤٣٣ .

دولة الأدارسة
في مراكش
١٧٢ ـ ٣٧٥/٧٨٨ - ٩٨٥
أمراء الأدارسة[1]

	هجرية	ميلادية
إدريس	١٧٢	٧٨٨
إدريس الثاني	١٧٧	٧٩٣
محمد بن إدريس	٢١٣	٨٢٨
علي بن محمد	٢٢١	٨٣٦
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤	٨٤٩
يحيى الثاني بن محمد		
علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني		
يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني		
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢	٩٠٤
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	٣١٠	٩٢٢

(بربر مكناسة)

(١) Lane- Poole, Muhammadan Dynasties, p. 35.

إدريس بن عبد الله (١٧٢ - ١٧٧هـ):

كانت موقعة فخ الـتي وقعت في عهد الخليفة العباسي الهادي سنة ١٦٩هـ بعيدة الأثر في تاريخ العلويين؛ فقد هرب منها رجلان كانا كالشجا في حلق العباسيين: أولهما يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي الذي ثار في بلاد الديلم في عهد هارون الرشيد، وثانيهما أخوه إدريس بن عبد الله الذي نجح في إثارة أهالي المغرب الأقصى على العباسيين.

وفي سنة ١٧٢هـ قامت دولة الأدارسة على يد المولـى إدريس بن عبدالله العلوي الذي سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوي في موقعة فخ. وقد استقبلته قبيلة أوربة (بفتح الألف وسكون الواو وفتح الراء والباء) البربرية التي لقي منها العون والتأييد في تأسيس دولة الأدارسة التي كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام في ربوع هذه البلاد. ثم وفدت على إدريس قبائل زناتة وزراعة ومكناسة وغيرها ودخلوا في طاعته، فقويت شوكته، وامتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضي التي تقيم فيها قبائل زناتة وغيرها من القبائل المنتشرة من القيروان وتمتد إلى المحيط الأطلسي[1].

وقد خشي هارون الرشيد تفاقم خطر إدريس ومحبة الناس له، واتصل به أنه عزم على غزو إفريقية، فعمل على التخلص منه، وفكر في إنفاذ جيش كثيف للقضاء عليه. ولكنه عدل عن ذلك لبعد الشقة ووعورة الطريق، فأشار عليه يحيى البرمكي بأن يبعث إليه برجـل معروف بالدهاء يحتال لاغتياله. فبعث الرشيد سليمان بن جرير، ويعرف بـالشماخ[2] وكـان من موالي المهدي، وزوده بكتاب إلى واليه على إفريقية. فأذن له هذا الوالي باجتياز حدود ولايته والمسير إلى المغرب الأقصى حيث التقى بإدريس، وذكر له أنه متطبب، وتظاهر بالتشيع لآل البيت، فأكرمه وقربه إليه. ثم تحين الشماخ الفرصة لقتل إدريس. وقد قيل إنه دس له السم في قارورة ملأى بالطيب، وقيل إنه دسه في مسواك قدمه إليه وكان إدريس يشكو من ألم في أسنانه ولثته. وقيل إنه قدم له عنباً مسموماً. ولما تحقق الشماخ من الغرض الذي أتى من أجله، هرب وقدم على إبراهيم بن الأغلب، فأخبره بما فعل، وجاءته بعد مقدمه الأخبار بموت إدريس، فكتب ابن الأغلب إلى الرشيد بذلك، فولى الشماخ بريد مصر وأخبارها[3].

---

(١) على جبل زرهون بقرب مكناس، وكانت مدينة حصينة كثيرة الأشجار والزيتون ولها سور عظيم (السلاوي جـ ١ ص ٦٨).

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٧ - ٦٨.

(٣) الطبري جـ ١٠ ص ٢٩.

انظر ما ذكرناه في ص ١١٧ - ١١٨.

إدريس الثاني (١٧٧ - ٢١٣هـ):

وكان لإدريس أمة بربرية حامل تدعى كنزة؛ فانتظر أشياعه حتى وضعت بعد موته بشهرين ولداً ذكراً أسموه إدريساً. وهو إدريس الثاني مؤسس مدينة فاس ويعتبر المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة.

ولما بلغ إدريس الثاني الحادية عشرة من عمره، بايعه البربر في غرة ربيع الأول سنة ١٨٨هـ بمدينة وليلي، فخطب الناس فقبلوا يده وبايعوه، ثم بايعته كافة قبائل المغرب، ومن بينها زناتة وأوربة وصنهاجة والمصامدة. ثم شرع في بناء مدينة فارس سنة ١٩٢هـ، فتم بناؤها في السنة التالية واتخذها إدريس حاضرته لدولته.

وقد وجه إدريس همه لمحاربة الصفرية من الخوارج، وأحل بهم الهزيمة[1] وضرب السكة باسمه. ويقول ابن الأثير (جـ ٦ ص ٥٦) إن إبراهيم بن الأغلب أراد قتال إدريس، فنهاه أصحابه وقالوا له: أتركه ما تركك، فكتب إليه إدريس يذكر له قرابته من رسول الله، فكف عنه.

توفي إدريس الثاني في شهر جمادى الآخر سنة ٢١٣هـ وهو في السادسة والثلاثين من عمره، فخلفه ابنه محمد بن إدريس. وفي عهده انقسم أمراء هذا البيت على أنفسهم، فخرج عليه عيسى بن إدريس بمدينة آزمور ونبذ طاعته ودعا لنفسه. فاستعان محمد بأخيه القاسم صاحب طنجة فأبى، فكتب إلى أخيه الثاني عمر صاحب مكناس، فامتثل أمره، وسار لقتال عيسى على رأس جيش من البربر، وأوقع به الهزيمة وطرده وأقره على عمل أخيه، وأمره بقتال أخيه القاسم، فزحف إلى ظاهر طنجة، وأحل به الهزيمة واستولى على ما بيده من البلاد الممتدة على ساحل البحر حتى مدينة طنجة.

ولم يلبث أن توفي محمد في شهر ربيع الثاني سنة ٢٢١هـ، فخلفه ابنه علي بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤هـ)، وكان في التاسعة من عمره، ولقب حيدرة، وهو لقب علي بن أبي طالب. ولم يذكرلنا المؤرخون كثيراً عن دولة الأدارسة في عهد علي بن محمد الذي توفي في شهر رجب سنة ٢٣٤، وخلفه أخوه يحيى بن محمد الذي يذكر ابن خلدون[2] أنه قام بالأمر، وامتد سلطانه، وعظمت دولته، وحسنت آثاره، واستبحر عمران فاس في عهده، وبنيت بها الحمامات والفنادق، وبنيت خارجها الأرباض، ورحل إليها الناس من البلاد المغربية. وسنوالي الكلام

(١) السلاوي: جـ ١ ص ٧٢ ـ ٧٤.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٥.

على الأدارسة التي زالت دولتهم على أيدي الفاطميين في القرن الرابع الهجري في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وقد قامت دولة الأدارسة بدور هام في نشر الإسلام في ربوع المغرب. وكان لانتسابهم إلى الرسول الكريم أثر كبير في توحيد القبائل المتعادية وتأييد الأهلين لهم بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شملهم، واستطاع المولى إدريس لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعي، أي بين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة. كما استطاع الأدارسة بفضل هذه الوحدة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة جهاد مقدس بقصد إتمام نشر الإسلام في البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية بين قبائل المغرب. وقد جاوز نفوذ الأدارسة منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التي تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان[١].

---

(١) الجزنائي: زهرة الآس في بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢) ص ٢٢.

٤ ـ مع بلاد الأندلس[١]:

(١٣٨ ـ ٤٢٢/ ٧٥٦ ـ ١٠٣١)

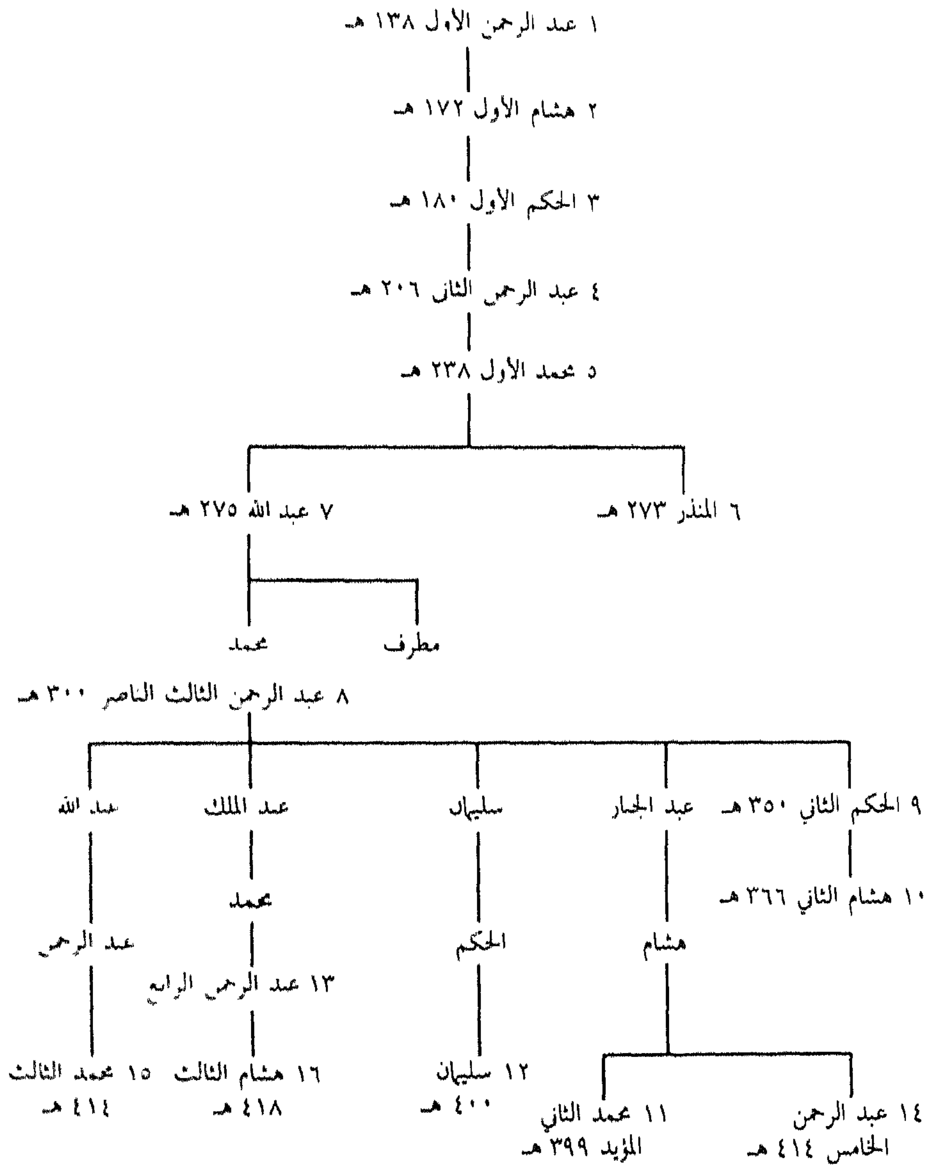
هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية	
١٣٨	٧٥٦	١ عبد الرحمن الأول	٤٠٠	١٠١٠	١٤ محمد الثاني (للمرة الثانية)
١٧٢	٧٨٨	٢ هشام الأول	٤٠٣	١٠١٣	١٥ سليمان (للمرة الثانية)
١٨٠	٧٩٦	٣ الحكم الأول	٤٠٧	١٠١٦	١٦ علي بن حمود[٢]
٢٠٦	٨٢٢	٤ عبد الرحمن الثاني	٤٠٨	١٠١٨	١٧ عبد الرحمن الرابع المرتضى
٢٣٨	٨٥٢	٥ محمد الأول	٤٠٨	١٠١٨	١٨ القاسم بن حمود
٢٧٣	٨٨٦	٦ المنذر	٤١٢	١٠٢١	١٩ يحيى بن علي
٢٧٥	٨٨٨	٧ عبد الله	٤١٣	١٠٢٢	٢٠ القاسم (للمرة الثانية)
٣٠٠	٩١٢	٨ عبد الرحمن الثالث	٤١٤	١٠٢٣	٢١ عبد الرحمن الخامس المستظهر
		(الخليفة الناصر)	٤١٤	١٠٢٤	٢٢ محمد الثالث المستكفي
٣٥٠	٩٦١	٩ الحكم الثاني المستنصر	٤١٦	١٠٢٥	٢٣ يحيى (للمرة الثانية)
٣٦٦	٩٧٦	١٠ هشام الثاني المؤيد	٤١٨	١٠٢٧	٢٤ هشام الثالث المعتمد
٣٩٩	١٠٠٩	١١ محمد الثاني المؤيد	٤٢٢	١٠٣١	
٤٠٠	١٠٠٩	١٢ سليمان المستعين			

(دول صغيرة)[٢]

(١) lane - poole: muhammadan dynasties, pp. 21'22,23.

(٢) من أسرة الحموديين في سبتة، راجع المصدر نفسه ص ٢٣.

جدول يمثل نسب الأمويين في قرطبة



عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢هـ):

أخذ سلطان العباسيين يتقلص عن بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق. وقد قام النزاع بين المضرية واليمنية في هذه البلاد، فتولى أبو الخطار عليها في سنة ١٢٥هـ. فقام في وجهه الصميل (بضم الصاد مع التشديد وفتح الميم وسكون الياء) بن حاتم، وكان مضرياً، وخلعه وأسره وولى عليهم واحداً منهم (سنة ١٢٧هـ). ولكن هذا الوالي الجديد، أو الثائر بعبارة أدق، توفي بعد سنتين، فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار، وافترقت الكلمة: فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير. فلما تفاقم الأمر، اتفق رأيهم على يوسف بن عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وكان مضرياً، فوليها سنة ١٣٩هـ. فاستقر بينهم الأمر على أن يلي سنة، ثم يرد إلى اليمن، فيولون من أحبوا من قومهم. فلما انقضت السنة أراد أهل اليمن أن يولوا رجلاً منهم، فهم الصميل فقتل منهم خلقاً كثيراً، واجتمع الناس على يوسف، ولم يعترض أحد. وظل يوسف على ولاية الأندلس إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام.

ظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الأموية، وتعقب العباسيون أفراد البيت الأموي ومثلوا بهم، فأتيحت الفرصة لأحد أمراء هذا البيت، وهو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذي أفلت من أيدي العباسيين، وهرب إلى بلاد الأندلس حيث أسس فيها الدولة الأموية التي أصبحت حضارتها منبعاً لحضارة أوربا الحديثة.

وقد وصف عبد الرحمن كيفية نجاته من العباسيين وهربه إلى الأندلس فقال: «لما أعطينا الأمان، ثم نكس بنا بنهر أبي فطرس، وأبيحت دماؤنا، أتانا الخبر. وكنت منتبذاً من الناس، فرجعت إلى منزلي آيساً ونظرت فيما يصلحني وأهلي وخرجت خائفاً حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض. فبينا أنا ذات يوم بها، وولدي سليمان يلعب بين يدي، وهو يومئذ ابن أربع سنين، فخرج عني، ثم دخل الصبي من باب البيت باكياً فزعاً، وجعلت أدفعه وهو يتعلق بي، فخرجت لأنظر، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود منحطة عليها، وأخ لي حدث السن يقول لي النجاء النجاء! فهذه رايات المسودة. فأخذت دنانير معي ونجوت بنفسي وأخي، وأعلمت إخوتي بمتوجهي فأمرتهم أن يلحقني مولاي بدر. وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوالي أثراً. فأتيت رجلاً من معارفي، وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحني، فدل علي عبد الله العامل فأقبل في خيل له يطلبني، فخرجنا على أرجلنا هراباً. والخيل تبصرنا، فدخلنا في بساتين على الفرات، فسبقنا الخيل على الفرات فسبحنا. فأما أنا فنجوت. والخيل ينادوننا بالأمان ولا أرجع، وأما أخي فإنه عجز عن السباحة في نصف الفرات، فرجع إليهم

بالأمان وأخذوه فقتلوه، وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ومضيت لوجهي، فتواريت في غيضة أشبه، حتى انقطع الطلب عني، وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية»[١].

لقي عبد الرحمن كثيراً من الصعاب في طريقه إلى الأندلس، فقد اشتد في طلبه عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي إفريقية وأبو يوسف الفهري أمير بلاد الأندلس، فهرب إلى مكناسة إحدى قبائل البربر، فلقي منهم كثيراً من الشدائد، فتسلل إلى جماعة من زناتة فأحسنوا إليه؛ وقيل إنه قصد أخواله في نفزاوة فأكرموه، ثم أخذ يراسل الأمويين في الأندلس ويدعوهم إلى نفسه ويمنيهم الأماني الطيبة، واستعان في ذلك بغلامه بدر. واستغل عبد الرحمن سوء حال بلاد الأندلس التي مزقتها الانقسامات والقحط، فأوقع بين المضرية واليمنية فيها، واستطاع أن يدخل هذه البلاد في شهر ربيع الأول سنة ١٣٨هـ. كما استطاع بعد قليل أن يجذب إليه قبائل اليمن. وكانت تحنق على يوسف الفهري. وما زال يستولي على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة حتى دخل قرطبة وقضى على نفوذ واليها يوسف الفهري[٢].

ولكن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن الداخل، فعمل على القضاء عليه. ويقول ابن الأثير[٣] عند كلامه على حوادث سنة ١٤٦هـ: إن العلاء بن مغيث اليحصبي (بفتح الياء الأولى وسكون الحاء وضم الصاد) صار من إفريقية إلى إحدى مدن الأندلس، ولبس السواد، واجتمع إليه خلق كثير. فخرج إليه عبد الرحمن الداخل الأموي، فالتقيا بنواحي إشبيلية، فانهزم العلاء وأصحابه، وقتل هو وسبعة آلاف، وأمر عبد الرحمن بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلى مكة، وكان بها أبو جعفر المنصور.

ولا شك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فت في عضدها ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد، فعمل على استمالة عبد الرحمن وأرسل إليه الرسل. وكثيراً ما كان يظهر إعجابه به وبمقدرته، وبعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة.

وقد ذكر المؤرخون أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه: «أخبروني عن صقر قريش من هو؟ قالوا: أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأباد الأعداء. قال: ما صنعتم شيئاً، قالوا: فمعاوية. قال: ولا هذا. قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: ولا

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦. (٣) الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٣٢.

هذا، قالوا فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً عجمياً مفرداً، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا صعبه، وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه»(١).

وكثيراً ما كان أبو جعفر المنصور يشيد بذكر عبد الرحمن الداخل ويعدله بنفسه ويقول: «لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه: فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شئونه، وعدمه لأهله ونسبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرمى همته ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده؛ فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند. ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم. فاستولى فيها على أريكته، ملكاً على قطيعته، قاهراً لأعدائه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه. إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه»(٢).

ولما لم يظفر المنصور بشيء من وراء هذه السياسة، طرق باب «بيبين» ملك الفرنجة رغبة في مساعدته على عبد الرحمن الداخل؛ فأرسل إليه سفراء أقاموا في بلاطه عدة سنين، ثم عادوا إلى المنصور يصحبهم سفراء الفرنجة. ثم عاد هؤلاء إلى بيبين محملين بهدايا الشرق النفيسة، دون أن تؤدي هذه المفاوضات إلى شيء سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده(٣). وبذلك لم يحاول إظهار عدائه الحربي للخليفة العباسي. لذلك نرى المنصور، وإن كان لم ينجح في القضاء على عبد الرحمن الداخل في الناحية الحربية، قد نجح إلى حد بعيد في الناحية السياسية، ووضع أساس هذه السياسة التي سار عليها أبناؤه من بعده.

وكانت الدول تهاب الدولة الإسلامية في عهد المهدي العباسي لعظمتها وقوة سلطانها، إلا ما كان بين العباسيين والأمويين في الأندلس. فقد كان المهدي يضمر العداء لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه المنصور من قبل ويود إزالة دولته. ولكنه كان يحجم عن تجريد الجيوش إلى بلاده، لبعد الشقة ووعورة الطريق، وإتعاب جنده بالمسير في صحراء إفريقية، وقوة عبد الرحمن الذي فكر في انتزاع بلاد الشام من العباسيين، لولا أن الحالة الداخلية في بلاده

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٧.

(٣) mair, the caliphate, pp. 460 ' 461.

تطلبت العدول عن تحقيق هذه السياسة، فاكتفى كل من الرجلين بمعاداة الآخر. وقد وجه الخليفة العباسي المهدي، عبد الرحمن بن حبيب الفهري إلى بلاد الأندلس، فسار من إفريقية، وعبر البحر، وكتب إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة يحثه على الدخول في طاعة العباسيين، فلم يجب سليمان طلبه، فثارت ثائرة الفهري، وأغار على بلده بجند كثيف من البربر. ولكن سليمان هزم الفهري، وطرد عبد الرحمن الداخل الفالة من جنده، وأحرق سفنه ليحول بذلك دون هربه. على أن قائد المهدي تحصن بناحية بلنسية، وصمد للأمويين وأوقع الرعب في قلوبهم، وبذل عبد الرحمن الداخل ألف دينار لمن يأتيه برأسه، فاقتفى أثره رجل من البربر، وتتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله غيلة، وحمل رأسه إلى أمير بلاد الأندلس. ولم تنجح سياسة المهدي في إعادة هذه البلاد إلى الدولة العباسية[١].

استقر عبد الرحمن بقرطبة، وبنى بها القصر والمسجد الجامع، وقطع الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس، وأثل بها ذلك الملك العظيم، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها. وكان عبد الرحمن ينظر في المظالم بنفسه وينصف الضعيف من القوي. وكان إذا جاء وقت الطعام دعا إلى مائدته أصحابه ومن قصده من أصحاب الحاجات[٢].

حكم عبد الرحمن بلاد الأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، ومات في سنة ١٧٢هـ وخلف من الولد عشرين منهم أحد عشر ذكراً وتسع إناث، وعاصر من الخلفاء العباسيين: المنصور، والهادي، والرشيد.

هشام الأول ـ الحكم الأول:

خلف عبد الرحمن ابنه هشام الأول (١٧٢ ـ ١٨٠هـ)، وأمه أم ولد تسمى حلل. وكان أبوه قد عهد إليه بالإمارة من بعده، وولاه ماردة، وأعده للحكم. وكان يأنس فيه الحزم ويثق به.

وقد شبهه المقري[٣] بعمر بن عبد العزيز في عدله واهتمامه بشئون المسلمين، حتى إنه قرب إليه الفقهاء الذين تمتعوا في عهده بنفوذ عظيم وأصبحت لهم مكانة كبيرة في الدولة، ومن أشهر هؤلاء الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي الذي ينتسب إلى قبيلة المصامدة من البربر. وقد رحل إلى المشرق، وأخذ العلم عن الإمام مالك بن أنس، وروى عنه كتابه الموطأ، وانتهت إليه الرياسة في الفقه والحديث[٤].

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٠.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣٢ ـ ٣٣٤.

كان هشام يبعث بثقاته إلى الكور يسألون الناس عن سير عماله؛ فإذا انتهى إليه أن أحدهم ظلم أحداً عزله عن عمله وأنصف المظلوم. كما عين في المدن عسساً لمنع الشجار وارتكاب الجرائم، ورأى أن تقسم الغرامات المفروضة على الأشرار بين الأتقياء الذين لا يمنعهم مطر أو برد من غشيان المساجد. وكان يعود المرضى، ويقود جيوشه بنفسه لمحاربة نصارى الشمال، ولقبه الناس بالشفيق والعادل(١).

وكان هشام تقياً صالحاً، صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والرفاهية؛ فجمَّل مدينة قرطبة وزينها بالمباني الفخمة والبساتين النضرة، وجدد القنطرة التي بناها السمح بن مالك الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز ببلاد الأندلس. وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل في إحكام البناء(٢). كما أتم المسجد الذي أسسه أبوه، وشيد غيره من المساجد في أنحاء البلاد. وعني بنشر اللغة العربية حتى أصبحت تدرس في مدارس اليهود. وبلغ من تواضعه أنه كان يطوف في شوارع قرطبة، ويختلط برعيته، وينظر في المظالم بنفسه، ويشهد الجنائز(٣).

توفي هشام سنة ١٨٠هـ، بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (وقيل ثماني سنين). «وكان ـ كما وصفه المقري(٤) ـ من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد».

ولي الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ) بعد أبيه هشام. وكان يختلف عن أبيه اختلافاً كبيراً؛ فقد كانت سياسته ترمي إلى إقصاء الفقهاء عن التدخل في شئون الدولة، وقصر عملهم على إقامة الشعائر الدينية والفصل في القضايا. فثارت ثائرتهم وأخذوا يسبونه، وحرضوا العامة على العصيان. وزاد في حنقهم اتخاذ الحكم المماليك المرتزقة حرساً له، فعاثوا في الطرقات، وثار المولدون والأسبان الذين اعتنقوا الإسلام في قرطبة وطليطلة. وقاد ثورة قرطبة الفقهاء، وعلى رأسهم يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت الفقيه، فخلعوه وبايعوا أحد أفراد أسرته، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة، فقاتلهم وأوقع بهم. ولذلك سمي «الحكم الربضي» وهدم الحكم دورهم ومساجدهم. فلحقوا بفاس من أرض العدوة، وبالاسكندرية حيث نزل جمع منهم، ثم ثاروا بها، فسار إليهم عبد الله بن طاهر والي مصر من قبل المأمون وغلبهم، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنجة(٥).

ويقص علينا المقري(٦) هذه القصة الطريفة التي أدت إلى موقعة وادي الحجارة، فيقول إن العباس الشاعر نزل بوادي الحجارة، فسمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم! لقد أهملتنا

---

(١) راجع: لينبول ـ ترجمة علي الجارم ص ٦٧.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٠.
(٣) dozy, histoire des musulmans d'espagne, I p. 242.
(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٩.
(٥) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٢.

حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا، فسألها عن ظلامتها فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت، فنظم عباس بن ناصح الجزيري قصيدته التي قال في أولها:

تململتُ في وادي الحجارة مسئداً   أراعي نجوماً ما يرون تغيرا
إليكَ أبا العاصي نضيتُ مطيتي   تسير بهم سارياً ومهجرا
تداركْ نساءَ العالمين بنصرة   فإنك أحْرى أن تُغيثَ وتنصرا

فلما دخل العباس على الحكم أنشده هذه القصيدة ووصف ما ساد هذه الأرجاء من خوف وهلع واستنجاد هذه المرأة به، فنادى بالجهاد، وخرج بعد ثلاثة أيام إلى وادي الحجارة ومعه العباس الشاعر، وسأل عن مكان العدو، وغزاه وفتح حصونه، وخرب بلاده، وقتل كثيراً من أهله، ثم عاد إلى وادي الحجارة وأمر بإحضار الأسرى فقطعت رءوسهم، ثم بعث في طلب المرأة التي استغاثت به، وقال للعباس الشاعر: سلها هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة: والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعز نصره. فارتاح إلى قولها وظهر على وجهه البشر والسرور وقال:

ألمْ ترَ عباسُ أنِّي أجبتها   على البُعْدِ أقتادُ الخميسَ المظفرا؟
فأدركتُ أوطاراً وبردت غُلة   ونفست مكروباً وأغنيت مُعْسِرا

قال العباس: نعم! جزاك الله خيراً عن المسلمين وقبل يده.

وقد خرج على الحكم عماه واستوليا على طليطلة وبلنسية، واستعان أحدهما بشرلمان، فحاربهم الحكم واسترد البلاد التي استولوا عليها. واتخذ الأمراء المسيحيون في الشمال من هذه الحروب الأهلية التي وقعت بين المسلمين في بلاد الأندلس فرصة للإغارة على ولاية أرغونة. ولكن الحكم حاربهم وردهم على أعقابهم. كما ثار والي برشلونة أكبر معاقل المسلمين في هذه البلاد واستعان بشرلمان، فأرسل الحكم جيشاً استردها.

ذكر ابن خلدون(١) أن الحكم أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه. وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس. وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالأندلس.

---

(١) العبر جـ ٤ ص ١٢٧.

وقد أفاد «شارل مارتل» ملك الفرنجة من الخلاف الذي ساد بين العباسيين في الشرق والأمويين في بلاد الأندلس، فتقرب إلى الخليفة المهدي العباسي ليكسب شيئاً من النفوذ في بلاده، ويهدد بذلك منافسه إمبراطور الدولة البيزنطية. وقد جنى شرلمان ثمار هذه السياسة فاكتسب محبة هارون الرشيد. وكانت العلاقة بينه وبين امبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء، بخلاف ما كانت عليه مع امبراطور الدولة البيزنطية. فخطب شرلمان ود الرشيد. وأرسل إليه وفداً مؤلفاً من رجلين من النصارى ورجل من اليهود، لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس، ونشر التجارة بين البلدين، والحصول على علوم المشرق. كما رغب الرشيد في محالفة شرلمان على امبراطور القسطنطينية وأمير الأندلس الأموي.

على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب لم تؤد إلى غرض مادي يذكر، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد. ولا غرو فقد أصبح شرلمان حامي المسيحيين الذين يفدون إلى هذه البلاد لأداء فريضة الحج. ومع أنه لم ينظر إلى هذا الأمر بعين الاعتبار، فقد أدى ذلك إلى نتائج خطيرة في المستقبل، لأنه أكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة في فلسطين.

كان من بين الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شرلمان وأثارت إعجاب الناس في بلاد الفرنجة، ذلك الفيل الذي وصل إلى إكس لاشابل حاضرة إمبراطورية شرلمان، وكان يسمى أبا العباس، وتلك الساعة المائية الدقاقة التي آمنوا أنها آلة سحرية، وغيرها من هدايا المشرق النادرة.

عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ):

مات الحكم في سنة ٢٠٦هـ بعد أن حكم سبعاً وعشرين سنة، فخلفه ابنه عبد الرحمن الثاني. وقد ولد بطليطلة في شهر شعبان سنة ١٧٦هـ، وعني أبوه بتنشئته وتثقيفه، فحذق علوم الشريعة والفلسفة وسمي «الأوسط» لأن الأول هو عبد الرحمن الداخل، والثالث عبد الرحمن الناصر. وامتاز عهده بالهدوء والسكينة، وكثرت الأموال في خزائنه، واتخذ القصور والمتنزهات. وجلب إلى قرطبة المياه من الجبال، وأقام الجسور، ونظم شوارع قرطبة، وزاد في بناء جامعها. كما أنشأ المساجد في أكثر مدن الأندلس، وجعل إلى جانب كل مسجد مدرسة ومستشفى، وأصلح الطرق الرومانية القديمة، كما شجع العلوم والآداب والفلسفة، فظهر في بلاد الأندلس في أيامه نوابغ العلماء من كل فن.

ولما استتب لعبد الرحمن الأوسط الأمر بالأندلس تفرغ لإصلاح البلاد، فنمت ثروتها

حتى نافست الدولة العباسية في العظمة والنهضة العلمية. وقد انتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي الذي استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط. وكان عبد الرحمن من أكثر أمراء الأندلس أبهة في بلاطه. وقد امتازت حاشيته بكثير من الصفات العربية الكريمة. ويرجع الفضل في ذلك إلى زرياب الذي قدم عليه من العراق في سنة ٢٠٦هـ وقد رحب به عبد الرحمن وبالغ في إكرامه وأغدق عليه وأنزله داراً فخمة.

منح عبد الرحمن ومن جاء قبله من الأمراء الأمويين أهل بلاد الأندلس الحرية لإقامة شعائرهم الدينية، وكثيراً ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنباً إلى جنب، كما كانوا يعينون في أرقى المناصب الحربية والسياسية. ومن ثم اعتنق كثير منهم الإسلام. وعلى الرغم من هذا التسامح الديني الذي تمتع به أهل بلاد الأندلس، أثار بعض القسس الفتنة في أواخر عهد عبد الرحمن، فحرضوا المسيحيين على سب النبي ﷺ. ولما كان سب الدين جريمة يعاقب مرتكبيها بالقتل، أمر عبد الرحمن بقتل كثير من القسس وغيرهم. ومن هؤلاء يولوجيوس الذي أثار روح التضحية بين النصارى، وساعده شاب غني من أهل قرطبة يدعى ألفارو، وقسيس آخر يدعى برفتكوس، وغيره من متحمسي القسيسين والرهبان والنساء مثل فلورا (Flora)، وكان أبوها مسلماً وأمها نصرانية[١].

يقول لينبول[٢] «إن المسيحية لا تعلم دعاتها أن يطوحوا بحياتهم هدراً لمحض التمتع بالتعذيب والقتل. على أن نصارى الأندلس لم يضطهدوا، ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر من نصارى الأندلس أنفسهم. وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم، لأن قدسية المسيح وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل من أظهر مبادىء الإسلام.

ولما خشي رجال الكنيسة أن تنقلب هذه الحركة إلى اضطهاد حقيقي، عقدوا مؤتمراً أصدروا قراراً يحرم المجاهرة بسب النبي ﷺ أو القرآن، فهدأت الأحوال.

وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر، كما تخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم. وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال، فقال إن النصارى نسوا لغتهم حتى إنه لم يوجد واحد في كل ألف يكتب كلمة لاتينية صحيحة.

---

(١) راجع هذه الحوادث في: Dozy, the Moslems in Spain, pp. 278 - 281

(٢) ترجمة علي الجارم ص ٧٧.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط أغار الفونس أمير ليون[١]، كما أغار غيره من مسيحيي الشمال على البلاد الإسلامية الشمالية. فأرسل عبد الرحمن إليهم جيوشاً خربت بلادهم وأرغمتهم على دفع الجزية، وبلغ من قوة المسلمين في الأندلس في عهد عبد الرحمن أن وفدت عليه في سنة ٢٢٢هـ (٨٣٦م) رسل إمبراطور القسطنطينية بالهدايا وطلبوا إليه عقد معاهدة، ورغبوه في ملك آبائه بالمشرق، وكانت الدولة العباسية في حلف مع شرلمان ثم مع ابنه لويس التقي. ومما يدل على حسن سياسة عبد الرحمن تحالفه مع مقاطعة نافار الواقعة شمالي البرانس لتكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الفرنجة.

وكان عبد الرحمن الأوسط ـ كما وصفه لينبول[٢] ـ نقي الذوق لين الخلق سهل القياد، ملك زمامه طول حياته أربعة نالوا عنده الحظوة الكاملة وهم: مغن، وفقيه، وامرأة، وعبد أسود. وكان أشد هؤلاء تسلطاً عليه الفقيه يحيى بن يحيى الليثي[٣]، وهو هو نفسه الذي أثار الفقهاء على أبيه الحكم، ولكنه أصبح اليوم صاحب التأثير المطلق والكلمة التي لا ترد لدى الأمير الجديد. وكانت للأميرة «طروب» وعبده «نصر» سلطة نافذة في شئون الملك. أما «زرياب» المغني فإنه استغل حظوته عند عبد الرحمن في إنهاض الفنون والثقافة، وأبى أن يزج بنفسه في أمور الدولة التي قد تكون سيئة المغبة.

ذكر الطبري[٤] في حوادث سنة ٢١٠هـ، «أن عبد الله بن طاهر طرد جماعة من الأندلس اتخذوا من وقوع الاضطرابات في مصر فرصة سانحة لهم، فنزلوا الإسكندرية واستقروا فيها. فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر، أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين، وإلى من كان انضوى إليهم، يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة، فأخبروه أنهم أجابوه إلى الطاعة وسألوه الأمان على أن يرتحلوا من الاسكندرية إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام؛ فأعطاهم الأمان على ذلك، وأنهم رحلوا عنها، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها إقريطش، فاستوطنوها وأقاموا بها، بقايا أولادهم إلى اليوم».

ولكن فكرة فتح بلاد الأندلس وإعادتها إلى سلطان العباسيين قد شغلت حلفاءهم، حتى إن المعتصم عزم على المسير إلى أقصى المغرب، ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأمويين عليها[٥].

وكان عبد الرحمن الأوسط نصيراً للعلوم والآداب والفنون، وكان مولعاً بالفلك

---

(١) أو أستوريش في شمال غربي الأندلس.
(٢) ترجمة علي الجارم ص ٧٢.
(٣) Dozy, The Moslems in Spain, p. 260.
(٤) جـ ١٠ ص ٢٧٥.
(٥) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

والتنجيم، وقد أحاط نفسه بنخبة من علماء الفلك، وأدر عليهم الأرزاق والمنح. وقد بعث في بداية عهده عباس بن نصيح (بضم النون وفتح الصاد وسكون الياء) إلى الشرق الإسلامي لينقل إليه الكتب التي استحوذ عليها المسلمون. وكان هذا الأمير مشغوفاً بمطالعة الطب والفلسفة القديمة.

وقد حرص الأمويون منذ عهده على إحياء الدولة الأموية في الأندلس، فأسس عبد الرحمن الداخل دولته وبنى مجتمعه وشجع التقاليد الإسلامية على غرار الدولة الأموية في سورية. وقد شجعه على بلوغ أمانيه، ذلك التشابه الجغرافي بين الدولة الأموية القديمة في طرف البحر الأبيض المتوسط الشرقي، والدولة الأموية الجديدة في الطرف الغربي لهذا البحر، كما وجد الشعراء ذلك التشابه العظيم بين سهول الأندلس اليانعة وغوطة دمشق النضرة.

واحتفظ مسلمو الشرق الذين استوطنوا الأندلس بتقاليد أجدادهم، ثم أخذت هذه التقاليد تتواءم مع عوامل البيئة الجديدة، بسبب اعتناق أهل الأندلس الإسلام واندماجهم مع العرب المسلمين عن طريق المصاهرة. وقد تكونت من الجماعات العربية التي جاءت لإحياء الخلافة الأموية، طبقة الشآميين ثم طبقة العرب الذين حضروا الفتح أو جاءوا بعده مباشرة وكونوا طبقة البلديين (القوميين).

وقد عاش هؤلاء المحاربون الذين ينتمون إلى أصل عربي في أراضيهم الشاسعة التي قام على زراعتها السكان الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام بعد قليل. وكان السواد الأعظم من هؤلاء الجند سورياً. لذلك أطلقوا على أحيائهم وقصورهم أسماء سورية. فنجد مثلاً حي الرصافة الذي يذكرنا بقصر الرصافة في صحراء تدمر.

وكان عهد الحكم الأول بن عبد الرحمن الداخل فترة هدوء سياسي لم يقع فيها من الأحداث السياسية ما يستحق الذكر. وقد ساعد ذلك الهدوء على خلق نهضة علمية، ولا سيما في عهد عبد الرحمن الأوسط الذي يعتبر عهده عهد يسر ورخاء وازدهار ثقافي، وذلك لتأثير الشرق الإسلامي في العصر العباسي.

نعم إن العباسيين المعاصرين في الشرق لم ينسوا ضياع هذا الاقليم المزدهر من أيديهم؛ ولم يستطيعوا أن يؤثروا فيه سياسياً، ولكنهم مع ذلك استطاعوا أن يؤثروا فيه اقتصادياً وثقافياً: فنجد نظام الحكم في الأندلس يسير إلى حد كبير على وفق نظام الحكم الذي أخذه العباسيون عن الساسانيين في بلاد الفرس ونجد بلاط الأمير الأموي في الأندلس يتبع تقاليد البلاط العباسي الذي يتمشى مع تقاليد الأسرة الساسانية، كما نجد هذا الأمير يتخذ بيت المال وديوان الخاتم وديوان الطراز على غرار نظام المسلمين في الشرق. ونراه أيضاً يؤسس المصانع التي تنتج

المنسوجات التي أصبحت تحاكي منسوجات العباسيين، إلى غير ذلك من التقاليد التي سار عليها خلفاؤه من بعده، وأدخلوا عليها بعض التعديلات التي أكسبتها طابعها الاسباني.

ويصف المؤرخ الأندلسي أحمد الرازي في مخطوطة ليفي بروفينسال عصر الحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط، فيذكر أن عبد الرحمن الأوسط قسم وقته بين رعاية تعمير قرطبة وتجميلها وبين الصيد بالباز في سهول الوادي الكبير، وبين المجتمعات الأدبية والموسيقية، مما يدل دلالة قاطعة على أنه وضع نظام الدولة الأموية في الأندلس قبل عبد الرحمن الثالث الناصر بنحو قرن، وكان يرسل رسله إلى الشرق الإسلامي فيصفون له نظام الحكم عند العباسيين، فلا يتردد في قبوله برغم ذلك العداء التقليدي الذي قام بين بني أمية وبني هاشم منذ أيام الجاهلية ولم يزده الإسلام إلا تفاقماً وازدياداً(١).

٥ ـ مع البيزنطيين:

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام. فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات: المرة الأولى في عهد عثمان بن عفان، والثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان، والثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك.

وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب في أواخر الدولة الأموية؛ فاتخذ قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الغارة على البلاد الإسلامية المتاخمة لبلاده.

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب والبيزنطيين، وأصبحت عبارة عن غارات الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال. وهذا يخالف ما كانت عليه الحال في أيام الأمويين الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ابتغاء احتلال القسطنطينية، ولا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى عاملين هامين:

أولهما: مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين؛ حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر في إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين، واعتمد في تحقيق سياسته على ولاء أهالي الشام لبني أمية.

وثانيهما: عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية.

---

(١) بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية ص ١٨ ـ ١٩.

وقد بدأ البيزنطيون يشنون إغارتهم على أراضي الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور. فغزا قسطنطين الرابع بعض أراضي الشام سنة ١٣٧هـ، واستولى على ملطية وخرب حصونها. غير أن العرب تمكنوا من استردادها في السنة التالية ورمموا حصونها وأقاموا فيها حامية كبيرة. ويقول ابن الأثير[١] عند كلامه على حوادث سنة ١٣٩هـ: وغزا مع صالح بن علي (العباسي) أختاه أم عيسى ولبابة[٢] بنتا علي، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله . . . وكان الفداء بين المنصور وملك الروم، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم، وبناها وعمرها، ورد إليها أهلها وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة، فأقاموا بها وحموها. ولم يكن بعد ذلك صائفة[٣] فيما قيل إلا سنة ست وأربعين (ومائة) لاشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن بن علي.

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين إلى حين حتى سنة ١٥٥هـ، حين طلب الإمبراطور قسطنطين الرابع الصلح مع العباسيين على أن يؤدي لهم جزية سنة. ونقرأ في الطبري[٤] عن الصوائف في سني ١٥٦ و١٥٧ و١٥٨هـ وذلك في أواخر عهد الخليفة المنصور.

وفي سنة ١٥٩هـ خرج الخليفة المهدي على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم، ووصل إلى البردان وعسكر به، وأرسل العباس بن محمد فبلغ أنقره[٥]. وفي سنة ١٦١هـ تولى قيادة الصائفة ثمامة بن الوليد الذي سار بجيشه حتى نزل دابق، والتقى بجيش الروم الذي بلغ عدده ثمانين ألفاً، فلم يحفل به ثمامة اعتزازاً بقوته وكثرة جنده، وهزم الروم على مقربة من مرعش التي حاصرها، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده.

وقد قوي الروم بهذا الانتصار، فأغاروا على «الحدث» في سنة ١٦٢هـ وهدموا سورها. فولى المهدي أمر الصائفة قائده الحسن بن قحطبة الذي لم يستطع إحراز النصر على الروم وعاد أدراجه. وفي سنة ١٦٣هـ أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مرعش وأحرقوها، فأرسل المهدي جيشاً بقيادة الحسن بن قحطبة. غير أن الروم عادوا إلى بلادهم، ثم

---

(١) كتاب الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ٢٢.
(٢) بفتح اللام وتشديد الباء.
(٣) الصائفة غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج (القاموس المحيط)، وجمعها صوائف، وهي تختلف عن الشواتي وهي الحروب مع الروم في الشتاء.
(٤) جـ ٩ ص ٢٨٦.
(٥) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٨٨.

أغاروا على حدود العباسيين من جديد، فخرج المهدي على رأس جيش يبلغ مائة وخمسين ألفاً، واستخلف ابنه موسى (الهادي) على بغداد، واتخذ مدينة حلب مركزاً لأعماله الحربية، ووجه ابنه هارون على رأس جيش كثيف يضم نخبة من أشهر رجال الدولة العباسية، منهم يحيى بن خالد البرمكي، وعبد الملك بن صالح، وعيسى بن موسى، والحسن بن قحطبة، وخرج المهدي مشيعاً ابنه هارون حتى وصل إلى جيحان وارتاد بها مدينة تسمى المهدية(١).

زحف هارون إلى بلاد الروم حتى وصل إلى حصن سمالوا، ونصب عليه المنجنيق وخربه واستولى عليه. وقد تعهد الروم بدفع غرامة حربية فداء لأسرهم(٢).

وقد نقض الروم شروط الصلح وعادت إغاراتهم على أملاك الدولة العباسية سيرتها الأولى، فندب المهدي ابنه هارون لحربهم وغزو بلادهم من جديد، وولاه «الصائفة» وضم إليه مولاه الربيع بن يونس.

وفي سنة ١٦٥ هـ أعاد المهدي الكرة على بلاد الدولة البيزنطية، فجمع جيشاً يقرب من مائة ألف جندي وعبر الفرات، ثم أمر عليه ابنه هارون، فوصل هذا الجيش إلى سواحل البسفور، وأرغم الملكة أيريني أرملة ليو الرابع، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء في الطريق عند عودتهم إلى بلادهم، وأن تسلم أسرى المسلمين. وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين أمدها ثلاث سنين. وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٥٤،٠٠٠ والأسرى ٥،٠٠٠(٣).

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أن هابه الملوك. وقد أرسل إليهم رسلا يدعونهم إلى الطاعة، فدخل أكثرهم في طاعته: ومنهم ملك كابل، وملك طبرستان، وملك السند، وملك طخارستان، وملك فرغانة، وملك أشروسنة، وملك سجستان، وملك الترك، وملك التبت، وملك السند، وملك الصين، وملك الهند(٤).

وعلى الجملة فقد امتاز عهد المهدي بكثرة حروبه مع البيزنطيين، ومما يسترعي النظر في هذه الحروب أن النصر كان كثيراً في جانب المسلمين.

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٣٢٦، ٣٤٢.

(٢) ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٢.

(٣) Finlay, History of the Byzantine Empire, pp. 104-7. وقد أتى الطبري (٩ : ٣٤٧) بنص شروط الصلح الذي أبرم بين المسلمين والروم.

(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٢٩.

ولما ولي هارون الرشيد الخلافة وجه اهتمامه إلى توطيد دعائم السلام في أراضي الدولة العباسية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية، ثم سار بنفسه في سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى، فانتصر على البيزنطيين في كثير من المعارك، وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية.

وكان من أثر الانتصارات التي أحرزها المسلمون على البيزنطيين أن سارعت الامبراطورة أيريني إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية. غير أن نقفور الذي اعتلى العرش بعد أيريني أرسل إلى الرشيد في ١٨٧ هـ كتاباً نقض فيه الهدنة، وألح في طلب الجزية التي دفعتها إليه أيريني، وإليك نص هذا الكتاب: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها. ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي، فأردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد هذا الكتاب استفزه الغضب، وتفرق جلساؤه من الخوف، واستعجم الرأي على الوزير. ودعا الرشيد من فوره بدواة ورد على امبراطور الروم بهذه الكلمات: «بسم الله الرحمن الرحيم! من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام». ثم خرج لمحاربته، فسار إليه بجيوشه الجرارة مخترقاً أسيا الصغرى، وظل يتابع حروبه حتى استولى على هرقلة قبل أن يتمكن الامبراطور من رده لانشغاله بإخماد الفتنة التي قامت في بلاده. وانتهى بذلك كبرياء هذا الامبراطور وصلفه بعقد صلح أرغم فيه على دفع الجزية من جديد[١]. وقد اتخذ الشعراء من نقض نقفور شروط الصلح وما أبلاه هارون الرشيد في حروبه مع الروم موضوعاً لقصائدهم.

على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن نقضوا هذه الهدنة من جديد وأخذوا يتقدمون نحو بلاد الدولة العباسية في السنة التالية، وأوقعوا بالمسلمين جنوبي اسيا الصغرى، وعلى الأخص في مرعش وطرسوس. وساعدهم على إحراز هذا النصر انشغال الرشيد بقمع الثورات الداخلية. ولكنه عاد إلى بلاد الروم على رأس جيش يبلغ مائة وخمسة وثلاثين ألف رجل، وأوقع بهم، واستولى على هرقلة وطوانة وغيرهما من أمهات مدن الروم، وأسر عشرة الاف، كما أخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية[٢].

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) Muir, The Caliphate, p. 488.

يقول الطبري[١]: «وكان نقفور اشترط ألا يخرب (الرشيد) ذا الكلام ولا سملة ولا حصن سنان، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة، وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائة ألف دينار».

ولم تقتصر حروب هارون الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط. ففي سنة ١٩٠ هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص وأسروا منها ستة عشر ألف نفس، ومن بينهم أسقف هذه الجزيرة.

وفي عهد الخليفة الأمين لم تقع حروب بين هاتين الدولتين، لانشغاله بالفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون. وفي عهد المأمون عاد الصراع بين الدولتين سيرته الأولى؛ فقد شجع المأمون توماس الصقلبي الذي ثار في آسيا الصغرى على الامبراطور تيوفيلس، وأمده بالمال والرجال، وعمل على تتويجه امبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها. ولكن سرعان ما انكشفت حيلته ولم يتم له ما أراد.

واتبع الامبراطور البيزنطي هذه السياسة نفسها نحو الخليفة العباسي، فجعل بلاد الروم موئلا للخرمية وأتباع بابك الخرمي الفارسي الذي ثار في سنة ٢٠١ هـ على المأمون، واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية في منطقة حـرّان، واستقل عن الدولة العباسية اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ)، نشر خلالها مذهبه في الإباحية إلا أن امبراطور الروم سئم في النهاية، وعرض الصلح على المأمون وكتب إليه: «أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما. ولست حرياً أن تضع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تجوزه إلى نفسك. وفي علمك كاف عن أخبارك، وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا، ولنكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة، فإن أبيت فلا أدب لك (في) الخمر ولا أزخرف لك في القول، فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسدادها، شأن خيلها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام».

ولكن كتاب امبراطور الروم أثار غضب المأمون، لأنه كان يجمع بين اللين والشدة، ولأن المأمون كان يرغب في فتح القسطنطينية. لذلك رفض الصلح مع الروم، ورد على تيوفيلس بهذا الكتاب:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه بين اللين والشدة، مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفك الأسارى ورفع

---

(١) جـ ١٠ ص ٩٩.

القتل والقتال. فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أؤثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم. ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة أو كريم منقلب. غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية. فإن أبيت ففدية توجب ذمة ويثبت نظرة، وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة، والسلام على من اتبع الهدى»[١].

وفي سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم، ولكن المنية وافته ودفن في طرسوس. وفي زمن المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) أصبحت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه. ولكن المعتصم كان بعيد النظر، فوجه كل همه للقضاء على فتنة بابك الخرمي أولاً. فانتهز الامبراطور البيزنطي تلك الفرصة وأغار على مدينة زبطرة وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين. وكان الامبراطور يرمي من وراء ذلك إلى إنقاذ بابك؛ فخرج تيوفليس في مائة ألف.. وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم، فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة.

وقد ذكر ابن الأثير[٢] أن ملك الروم لما خرج وفعل في بلاد الإسلام ما فعل، بلغ الخبر المعتصم. فلما بلغه ذلك استعظمه، وكبر لديه. وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك! ونهض من ساعته، وصاح في قصره. النفير! النفير! ثم ركب دابته.

وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك؛ فسار من فوره إلى أنقرة في جيش ضخم، وهزم الامبراطور البيزنطي واستولى على أنقرة. ثم عزم على تخريب عمورية التي نشأ فيها الامبراطور تيوفيلس. فعسكر غربي دجلة حيث التف حوله جنده، وعلى رأسهم نخبة من مشاهير قواده كالأفشين وأشناس وبغا الكبير، ومن العرب أمثال عجيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن جند المعتصم بلغ خمسمائة ألف، وذكر بعض

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٢) كتاب الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ١٧٦.


التبت
الأفغان
الدولة الغزنوية
الدولة الغورية
السند
راجبوتانا
خانديش
أريسه
العرب
خليج بنغاله
سيلان
١٠٠١ - ١٧٥٧ م

آخر ممن لا يميلون إلى المبالغة أنه بلغ مائتي ألف. وخرج المعتصم على رأس هذا الجيش، وتابع المسير في أراضي آسيا الصغرى حتى وصل إلى عمورية، فحاصرها وأسرف في قتل الأهلين، حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألفاً من سكانها، وتركها للنهب والتدمير والإحراق أربعة أيام كاملة، وافتدى أشرافها ونبلاؤها أنفسهم بأموال كثيرة.

ولما عاد المعتصم إلى سامرا بعد ذلك النصر المؤزر الذي أحرزه على البيزنطيين في عمورية الشهيرة (سنة ٢٢٣ هـ) التي انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً احتفل باستقباله احتفالاً باهراً يتمثل في قصيدة أبي تمام المعروفة التي سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال في مطلع قصيدته:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتب ... في حَدّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِب

يا يَومَ وقعةَ عمورية انصرفتْ ... عنكِ المُنَى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ

٦ ـ مع الهند:

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد؛ فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة. ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادي، واستقر بعضهم فيها، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر في تقدم الحضارة الإسلامية.

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان غزا المهلب بن أبي صفرة بلاد السند سنة ٤٤ هـ، وامتدت فتوحه إلى الأراضي الواقعة بين كابل والملتان. ثم امتدت فتوح المسلمين في هذه البلاد، فشملت البوقان والقيقان والديبل. ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه في هذه البلاد حتى بلغ نهر السند، وكان يعرف إذ ذاك بنهر مهران وهناك التقى بداهر ملك السند، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة، فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه[١].

لما قامت الدولة العباسية ولى أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) هشام بن عمرو التغلبي بلاد السند. وفي عهده فتحت بلاد كشمير، وكانت قد انتقضت، وهدم البد وهو مكان عبادتهم، ويشبه كنائس النصارى وبيع اليهود، وبنى في موضعه مسجداً؛ وقد تقدمت هذه البلاد في عهد ولايته واستقر بها الأمن وتوطدت أركانه[٢]. يقول البلاذري[٣]:

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥.

(٢) البلاذري: ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤٥.

«وكان بد الملتان بدأ تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور، ويحج إليه أهل السند، فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي ﷺ». والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود في بلاد البنجاب. قال ياقوت(١): «وبها صنم يعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم، سمي المولتان بهذا الصنم. وقد ألبس جميع بدنه جلداً يشبه السختيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه. وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، هو متربع على ذلك السرير، وقد مد ذراعيه على ركبتيه. ويسمي العرب المولتان فرج بيت الذهب، لأنها فتحت في أول الإسلام، وكان بها ضيق وقحط، فوجدوا فيها ذهباً كبيراً فاتسعوا به».

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) غزا المسلمون بلاد الهند في سنة ١٥٩ هـ، وحاصروا مدينة باربد بالمنجنيق وفتحوها عنوة، وأشعلوا النار في تمثال بوذا. على أن هذه الغزوة كانت كارثة على جند العباسيين؛ فقد فشا الموت فيهم حتى مات منهم أكثر من ألف، ودمرت الزوابع سفنهم في الخليج الفارسي، وغرق كثير من الجند. وما زالت فتوح المسلمين تتسع في السند والهند في عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ). وفي عهد أخيه المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) انتشر الإسلام في البلاد الواقعة بين كابل وكشمير والملتان.

ويقول البلاذري(٢): إن بلداً يدعى العيسفان بين قشمير والملتان وكابل كان له ملك عاقل، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنماً قد بني عليه بيت وأبدوه. فمرض ابن الملك فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم: ادعوا الصنم أن يبرىء ابني. فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه فقالوا: قد دعوناه، وقد أجابنا إلى ما سألناه. فلم يلبث الغلام أن مات، فوثب الملك على البيت فهدمه وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم. ثم دعا قوماً من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد، فوحد وأسلم. وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله».

---

(١) أنظر لفظ المولتان في معجم البلدان لياقوت.

(٢) فتوح البلدان ص ٤٥١. ابن الأثير جـ ٦ ص ١٧، انظر مقال المؤلف في مجلة كلية الاداب، المجلد السابع، يوليه سنة ١٩٤٤؛ انتشار الإسلام في الهند في صحيفة الجامعة المصرية (مايو ١٩٣٣) بقلم حسن إبراهيم حسن ص ٣، ٥ - ٧.

الباب الخامس

نظم الحكم

١ ـ النظام السياسي

(أ) الخلافة:

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية في العصر العباسي الأول، وهو النظام الذي كان منتشراً في الشرق، وكان مألوفاً عند الفرس منذ أيام إكزرسيس Xerxes. وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان من قبل.

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة: فإن تلك الدولة قد قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية مع منافاة ذلك لحق المساواة الذي أقره القرآن والسنة بين البشر. وحذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد أبناءهم. وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكي المقدس، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره. لذلك أصبح الخليفة العباسي في نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب، كما يتجلى ذلك في قول أبي جعفر المنصور.

«إنما أنا سلطان الله في أرضه»، وذلك يخالف ما كانت عليه الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين الذين استمدوا سلطانهم من الشعب. يدل على ذلك قول أبي بكر بعد توليته الخلافة: «فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني»،وقول عمر بن عبد العزيز: «لست بخير من أحدكم ولكنني أثقلكم حملاً».

وقد أقام العباسيون حقهم في الملك على أساس أنهم وارثو بيت الرسول، وعملوا على الاحتفاظ بالخلافة في دولة تيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ليظهروا بذلك الفرق بين السلطتين في عهدهم وفي عهد الأمويين من قبلهم[١]. وقد حرصوا على الاحتفاظ بهذا المظهر،

(١) Sanhoury, Le Califat, pp. 303 - 304.

لأن حقهم يقوم عليه. وعلى هذا لم يقبلوا أن يكونوا ملوكاً فحسب، بل أرادوا أولا أن ينظر إليهم على أنهم أمراء دينيون، وأن يدرك الناس أن حكومتهم حكومة دينية، فقد حل محل الأمويين، الذين حكم عليهم الأتقياء بأنهم أهل دنيا، والذين اهتموا في بلاطهم بدمشق وفي قصورهم في الصحراء بالتقاليد والنظم العربية القديمة، سلطة ربانية ذات مظاهر دينية(١).

وقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبدادياً إلى عهد الرشيد، على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أصحاب البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين. أما الخليفة فكان مصدر كل قوة كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة(٢).

وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين إلى الفرس أن أصبح نظام الحكم في عهدهم مماثلاً لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان. يقول بالمر(٣): «لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي، كان طبيعياً أن تسيطر الآراء الفارسية. ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسي على رأس الحكومة، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به امبراطورية آل ساسان. واحتجب الخليفة عن رعيته واتخذ الوزير والسياف، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة. وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي واحتفل بالنيروز والمهرجان والروم(٤) وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة. لهذا لا نعجب إذا أصبح الخليفة العباسي يعيش عيشة الأكاسرة، تحوطه الأبهة والعظمة، وينحني أمامه الداخل عليه، ويقبل الأرض بين يديه، وإذا قرب منه قبل رداءه، وهو شرف لا يناله إلا رجال الدولة البارزون».

وقد ظلت الحكومة الإسلامية ملكية وراثية استبدادية. فولاية العهد استمرت من الناحية العملية للاحتفاظ بالخلافة في البيت العباسي، وبمظاهر الأبهة التي أحاطت بالخلفاء العباسيين، والتي كانت تختلف عن البساطة العربية التي امتاز بها البيت الأموي، قد بعثنا من جديد بصورة واضحة، ذلك الطابع الاستبدادي للحكومة الذي تجلى في عهد خلفاء السفاح وثمة اختلاف آخر بين البيتين الأموي والعباسي: فإن العنصر العربي في عهد الأمويين كانت له السيادة، على حين ساد في عهد الخلفاء العباسيين (الأوائل) نفوذ العنصر العباسي. ويرجع قيام

(١) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر ص ٤٨ بتصرف.

(٢) Ameer Ali, A Short Hist. of the Saracens, pp. 405 -406

(٣) Palmer, Haroun al-Rachid, pp. 37-38

(٤) هو عيد لهم في اليوم الحادي والعشرين من كل شهر من شهور الفرس، ومعناه الراحة والفرح.

الدولة العباسية إلى مساندة الفرس، لذلك أصبح نفوذ هذا العنصر ظاهر الأثر منذ بداية حكم العباسيين، وإن سقوط البرامكة، تلك الأسـرة الفارسية القوية التي تمتعت منذ عهد المنصور بنفوذ كبير بلغ ذروته في عهد الرشيد، كان مفاجئاً وعلى غير انتظار. وكان المأمون الخليفة السابع من أم فارسية، كما تزوج هو بسيدة فارسية أيضاً. وبذلك يمكن القول إن ظهور العباسيين كان أشبه بثورة تمخضت عن بعث جديد لحكم الأكاسرة، وان بغداد قد أصبحت أشبه بحاضرة لهذه النهضة الفارسية.

وكذلك نجد الخلفاء العباسيين لا يؤمون الناس في الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون وبعض الخلفاء الأمويين. وإن ذلك المظهر الخارجي الذي أحاط بالخلفاء العباسيين ليختلف عن تلك البساطة الأولى التي امتاز بها الإسلام، ويعيد إلى الذاكرة مظاهر الأبهة التي تجلت في البلاط الساساني[١].

أضف إلى ذلك ارتداء الخليفة بردة النبي ﷺ عند توليته الخلافة أو حضوره الحفلات الدينية باعتباره نائباً عنه في حكم المسلمين. كذلك نجد الخليفة العباسي يتلقب بلقب «إمام»، توكيداً للمعنى الديني في خلافة العباسيين، أي أنهم أصبحوا أئمة الناس، بعد أن كان هذا اللقب يطلق في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم. وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية التفويض الإلهي، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية[٢].

وقد سار العباسيون على نظام تولية العهد أكثر من واحد وغلوا في ذلك. وقد عهد السفاح (١٣٢ ـ ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) ثم الى ابن أخيه عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس. فلما آلت الخلافة إلى المنصور، خلع عيسى بن موسى، وبايع ابنه المهدي، وجعل عيسى من بعده. ولما ولي المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد، كذلك عول الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ) على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر، مقتدياً في ذلك بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى، ولم يحترم العهد الذي أخذه على نفسه حين

---

(١) Sanhoury, Le Califat. pp. 301-302, 304

(٢) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف، الطبعة الثالثة ص ٥٠ ـ ٥١

ولاه أبوه عهده، وضيق على أخيه هارون، وحط رجال بلاطه من شأنه حتى مال إلى النزول عن حقه لولا وفاة الهادي.

جاء هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ)، فولى عهده أولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، وقسم البلاد بينهم، وأعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه[١]، مما أدى إلى قيام الفتن والحروب الداخلية. على أن الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) خرج على هذا النظام، فلم يعهد لابنه محمد. وقد سئل وهو في مرضه الأخير أن يوصي بالخلافة لولده، فقال كلمته المأثورة: «لا يراني الله أتقلدهما حياً وميتاً»، مقتفياً في ذلك أثر عمر بن الخطاب ومعاوية الثاني.

ولا يخفى ما جرته هذه السياسة من إثارة البغضاء والعداوة بين أفراد البيت المالك. فإنه لم يكد الأمر يتم لأحد المتنافسين، حتى يعمل على التنكيل بمن ساعد خصمه على إقصائه من ولاية العهد. وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً، وأصبحت خطراً على كيان الدولة العباسية.

(ب) الوزارة:

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس ـ كما تقدم ـ ومنها الوزارة، وإن كانت سلطاتها لم تتحدد بصورة واضحة في عهد أبي سلمة الخلال أول وزراء العباسيين، ثم نمت وتدرجت حتى اتخذت شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الأول. وكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن، ينوب عنه في حكم البلاد، وينصب العمال ويشرف على الضرائب، ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته[٢].

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم. فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور. وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء، ويأبى أن يسمى وزيراً، على الرغم من منزلته عند الخلفاء.

وهكذا كان حال الوزارة في أيام المنصور، بل في الصدر الأول من هذا العصر. استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكي أبا أيوب المورياني، وكان من أهل موريان[٣]. اشتراه المنصور صبياً قبل أن يلي الخلافة، فثقفه وعلمه. واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه الخليفة السفاح

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٣.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧.
(٣) قرية من نواحي خوزستان، أنظر معجم البلدان لياقوت.

ومعه هدية له، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته؛ فأبقاه وأعتقه، وجعله من أخص رجاله المقربين إليه، وأدر عليه عطاءه وصلاته، وظل على ذلك حتى ولي المنصور الخلافة فقلده الوزارة، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خالد بن برمك(١).

وبعد قتل هذا الوزير المنكود الطالع، استوزر أبو جعفر المنصور الربيع بن يونس الذي شارك سلفه في سوء طالعه أيام الهادي: «وكان نبيلاً حازماً، عاقلاً فطناً، خبيراً بالأمور الحسابية، ملماً بشؤون الدولة، محباً لفعل الخير، عارفاً بآداب الملوك». رأى المنصور يوماً في بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف، فلم يدر ما هي؛ فقال: يا ربيع! ما هذه الشجيرة؟ فقال الربيع: إجماع ووفاق، وكره أن يقول خلاف».

لم يزل الربيع حائزاً ثقة المنصور إلى أن مات؛ فقام بأخذ البيعة لابنه المهدي، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادي في خلافته.

وكانت أعمال الوزارة في عهد المهدي أوضح، ويد أصحابها أكثر عملاً مما كانت عليه أيام المنصور، لأن المهدي كان يعتمد على وزرائه بسبب كفايتهم وانشغاله هو باللهو، وكان أول هؤلاء الوزراء أبو عبيد الله معاوية بن يسار الذي تقلد الكتابة للمهدي قبل أن يلي الخلافة. وقد عرف له المنصور فضله، وعزم على أن يستوزره لنفسه، ولكنه آثر ابنه المهدي، ونصح له أن يعمل برأيه ويتبع مشورته. ولما ولي المهدي الخلافة، فوض إليه الأمور وسلمه الدواوين.

ولكن معاوية كان متكبراً، وكان الربيع بن يونس الحاجب يضمر له الكراهة والبغضاء لتكبره عليه وعدم اكتراثه به، وأخذ يدس له عند الخليفة(٢)، فأوغر صدره على ابنه الذي رمي بالزندقة، وقتل بسبب ذلك. ثم أمر المهدي بوزيره فحجب عنه، وزالت سلطته، واعتزل بداره حتى مات سنة ١٧٩ هـ(٣).

استوزر المهدي بعد أبي عبد الله معاوية بن يسار، أبا عبد الله يعقوب بن داود؛ ولكن هذا الخليفة نكبه وأودعه السجن، حيث قضى بقية عهد المهدي والهادي وردحاً من أيام هارون الرشيد. ويعزو المؤرخون سبب نكبته إلى تشيعه وميله إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوي على ما تقدم.

واستوزر المهدي بعده الفيض بن صالح، وكان من أهل نيسابور، وكان نصرانياً فأسلم في أوائل الدولة العباسية، وأخذ من الأدب وعلو الهمة والبراعة بأوفى نصيب. كما اشتهر

(١) انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ١١٧.
(٢) الفخري ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص ٢٨٤.

بالسخاء والجود، حتى كان يحيى بن خالد بن برمك يقول إذا استعظم أحد كرمه وجوده: «لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمري». ومما يؤخذ عليه ما كان يظهره من الكبر والتيه، حتى نحا بعض الشعراء عليه باللائمة وحطوا من شأنه لزهوه وإعجابه. وظل الفيض متربعاً في دست الوزارة حتى مات المهدي وولي الهادي الخلافة، فلم يستوزره، ومات سنة ١٧٣ هـ.

استوزر الهادي في مبدأ خلافته الربيع بن يونس، واستوزر بعده ابراهيم بن ذكوان الحراني. وكان اتصاله به لأول مرة عن طريق معلمه الخاص، إذ كان يصحبه عند ذهابه إليه. فخف على قلب الأمير الصغير، وألفه حتى إنه لم يكن يصبر على فراقه. وقد اشتدت بابن ذكوان السعاية إلى المهدي، فنهى ابنه عن صحبته وهدده بالخلع، وهدد الحراني بالقتل. ولما أعيته الحيل في إبعاده عنه، أمر المهدي بإحضاره إليه. فحضر وهو على أهبة الركوب إلى الصيد، فلما رآه حلف بالله ثلاثاً ليقتلنه عند عودته وأمر بحبسه. فأقبل ابن ذكوان على الدعاء والتضرع ومات المهدي في أثناء غيابه، وولي الخلافة من بعده ابنه الهادي فاستوزره، فلم يعمر في الوزارة طويلاً لوفاة الهادي بعد قليل[١].

وقد ذكر الماوردي[٢] الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال: «ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما في النظرين، وذلك من أربعة أوجه:

أحدها: أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

والثاني: أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتفويض الولاة، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

والثالث: أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ.

والرابع: أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الذمة منها... ولهذه الفروق الأربعة بين النظرين افترق في أربعة من شروط الوزارتين:

أحدها: أن الحرية معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ.

والثاني: أن الإسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.

---

(١) الفخري ص ١٤٢ ـ ١٤٣.
(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٦.

والثالث: أن العالم بالأحكام الشرعية معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.

والرابع: أن المعرفة بأمري الحرب والخراج معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ. فافترقا في شروط التقليد من أربعة أوجه، كما افترقا في حقوق النظر من أربعة أوجه، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط.

ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول «آل برمك»، فقد اتخذ الرشيد يحيى بن خالد البرمكي وزيراً له وقال له: «قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك. فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت. وامض الأمور على ما ترى». ودفع إليه خاتمه الخاص ثم سلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد في كل شؤون الدولة، وخلفه ابنه جعفر بن يحيى بن خالد، فقبض البرامكة على زمام أموال الدولة في أيديهم. فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة».

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذي سمي ذا الرياستين والوزير والأمير؛ ثم استوزر أخاه الحسن بن سهل، وتزوج ابنته بوران. «وكانت دولة بني فضل ـ على ما قاله صاحب الفخري[1] ـ في جهة الدهر غرة وفي مفرق العصر درة، وكانت مختصر الدولة البرمكية، وهم صنائع البرامكة. ثم استوزر أحمد بن أبي دؤاد، وكان من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً. ثم جاء بعده وزراء اشتهر بعضهم بالتفقه في الدين والحديث ومنهم من برع في الخط. غير أن الوزراء الذين استوزرهم المأمون بعد بني سهل لم يكونوا وزراء تفويض، وإنما كانوا وزراء تنفيذ، بمعنى أنه لم يكن لهم استقلال بالأمور، إذ كان المأمون يدير أمر دولته بنفسه لئلا يستفحل نفوذ الوزراء، كما حدث في عهد أبيه الرشيد مع البرامكة، وفي عهد أخيه الأمين مع الفضل بن الربيع، وفي عهده مع بني سهل.

ومن أشهر وزراء التنفيذ في عهد المأمون ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسي الأول، أحمد بن أبي خالد. وكان من الموالي، على جانب كبير من رجاحة العقل، كما كان كاتباً فصيحاً بصيراً بالأمور. وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان. فصوب هذا الرأي وضمن هذا التعيين. على أن طاهراً ما لبث أن قطع الخطبة للمأمون لأمور أنكرها عليه الخليفة، فهدد المأمون وزيره لأنه أشار عليه بتولية طاهر، وصمم على قطع رقبته إذا هو لم

---

(١) الفخري ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

يعمل على التخلص من هذا الخارج، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة، فأكل منها ومات لساعته. أما أحمد بن أبي خالد، فكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ في أيام المأمون.

ومنهم أحمد بن يوسف، وكان من الموالي كذلك، كما كان كاتباً أديباً، شاعراً، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك. استشاره المأمون في رجل كان يكرهه أحمد، فوصفه وذكر محاسنه، فقال له المأمون: يا أحمد! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك، فقال لأني لك كما قال الشاعر:

كفى ثمناً بما أديت أني صدقتك في الصديق وفي عدائي
وأني حين تندبني لأمر يكون هواك أغلب من هوائي

وقد اتخذ الواثق محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه، وكان منحرفاً عنه قبل توليته الخلافة، لكنه لما استخلف لم يجد بين رجاله من يقوم مقام هذا الوزير، فاعتمد عليه في إدارة شؤون دولته. وقد ذكر صاحب كتاب الفخري[1]، السبب الذي من أجله انحرف الواثق قبل خلافته على ابن الزيات، وكيف اضطر هذا الخليفة إلى اتخاذه كاتباً له ووزيراً فقال: «كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال وأحال به على ابن الزيات، فمنعه وأشار على المعتصم ألا يعطيه شيئاً. فقبل المعتصم قوله، ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك، فكتب بخطه كتاباً بالحج والعتق والصدقة أنه إن ولي الخلافة ليقتلن ابن الزيات شر قتلة. فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة، ذكر حديث ابن الزيات فأراد أن يعاجله، فخاف ألا يجد مثله، فقال للحاجب: أدخل إلي عشرة من الكتاب. فلما دخلوا عليه اختبرهم، فما كان فيهم من أرضاه، فقال للحاجب: أدخل من الملك محتاج إليه محمد بن الزيات، فأدخله، فوقف بين يديه خائفاً، فقال للخادم: أحضر إلي المكتوب الفلاني، فأحضر له الكتاب الذي كان كتبه، وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات، فدفعه إلى ابن الزيات وقال: اقرأه! فلما قرأه قال: يا أمير المؤمنين! أنا عبد إن عاقبته فأنت حاكم فيه، وإن كفرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك، فقال الواثق: والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك. وسأكفر عن يميني، فإني أجد من المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً، ثم كفر عن يمينه واستوزره»، وما لبث ابن الزيات حتى أصبح صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد المعتصم.

ولم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس شائعاً كما كان في الدولة العباسية في المشرق والدولة الفاطمية في مصر. فكان يطلق على من يضطلع بأعباء الوزارة في الأندلس

---

(١) الفخري ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذي الوزارتين تارة أخرى. ولهذا نرى أن الحاجب في الدولة الأموية بالأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف(١).

وقد ألقى ابن خلدون(٢) ضوءاً على نظام الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس، فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير في الدولتين العباسية والفاطمية ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير. فكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم، ويتولى رئاسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شؤون الدولة.

ولم يكن مجلس الحاجب، أو بالأحرى مجلس الوزراء، هو وحده الذي يدير شؤون الدولة، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى «مجلس الشورى» يرأسه الأمير أو الخليفة، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموي.

(جـ) الكتابة:

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول، أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للاشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها. ومن أشهر الكتاب في هذا العصر كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي.

ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه؛ كما كان يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة(٣). وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة. وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه؛ فقد أثر عن أبي جعفر المنصور أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الزكية هم كاتبه أن يجيبه، فقال له المنصور: «لا! بل أنا أجيبه إذ تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه».

وقد زخر العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم؛ فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، واشتهر الفضل والحسن

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢.

(٢) مقدمة ص ٢٠٨.

(٣) مقدمة ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق.

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب[١].

(د) الحجابة:

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف مراتبهم بلا حجاب. فلما انتقل الحكم إلى بني أمية اتخذ معاوية بن أبي سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس، وتلافياً لازدحامهم على أبوابهم، وشغلهم عن النظر في مهام الدولة.

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا؛ وكان يشغل منصباً سامياً في القصر. ومهنته إدخال الناس على الخليفة مراعياً في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم.

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية، فاتخذوا الحجاب، وزادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا في الأمور الهامة، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثاني. فصار بين الناس وبين الخليفة داران: دار الخاصة ودار العامة، يقابل كل طائفة في كل مكان معين على ما يراه الحجاب، ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين.

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين. فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة، ويستبد بالنفوذ دون الوزير، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة، ويحتم عليهم ألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته[٢].

ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول الفضل بن الربيع الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد وأشعل نار الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون، وإيتاخ حاجب الخليفة الواثق. ويقول البيهقي[٣]: «قال الواثق لابن أبي دؤاد: من أولى الناس بالحجبة؟ فقال: مولى شفيق يصون بطلاقة وجهه من ولاه، ويستعبد الناس لمولاه، فنظر الواثق إلى إيتاخ ـ وكان واقفاً على رأسه ـ فقال: قد ولاه أبو عبد الله الحجبة، فكان إيتاخ يعرف ذلك ويتقدم بين يديه إلى أن يبلغ رتبته».

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص ٣.
(٢) Metz, The Renaissance of Islam, p. 15.   (٣) كتاب المحاسن والمساوىء جـ ١ ص ١٢٤

٢ ـ النظام الإداري

(أ) الإمارة على البلدان:

كان النظام الإداري في العصر العباسي الأول نظاماً مركزياً، وأصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاة مطلقي السلطة، بعكس ولاة الأمويين، كالحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة. لذلك استحال النظام اللامركزي إلى نظام مركزي مما يشعر بتقلص نفوذ العمال: ومن أهم الموظفين في الولايات الإسلامية في العصر العباسي الأول: صاحب بيت المال، وصاحب البريد، والقاضي، واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند.

ويقول سيد أمير علي[١]: أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محددة مماثلة للنظم الحديثة في الأمم المتحضرة، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة من بعض الوجوه عما هي عليه في أيامنا هذه، فكانت كل مناصب الدولة، كما كانت الحال في الدولة العثمانية، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء.

وكان الخليفة العباسي في هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شؤونها. بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً، وإذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شؤون ولايته. وكان أقل شك في صدقه كافياً لمصادرة أملاكه جميعها. وفي أيام المنصور لم تكن مهمة الوالي بأي حال أكثر من وظيفة صورية.

وقد ذكر الماوردي[٢] أن الإمارة على الأقاليم كانت ثلاثة أنواع:

١ ـ **إمارة استكفاء**: وفيها يفوض الخليفة إلى الوالي إمارة بلد أو إقليم فيشمل نظره على سبعة أمور: أحدها النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم، إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذّرها عليهم، الثاني النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام، والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منها، والرابع حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل، والخامس إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين، والسادس الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو تستخلف عليها، والسابع تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه. فإن كان هذا

(١) A Short History of the Saracens, pp. 408- 409.

(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٨ ـ ٣٤.

الإقليم ثغراً متاخماً للعدو، اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس.

٢ ـ إمارة استيلاء: وهي أن يستولي أحد الأمراء قسراً على ولاية من الولايات، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها.

٣ ـ إمارة خاصة: بمعنى أن يقصر الخليفة عمل الوالي على تدبير الجيش وسياسة الرعية، وحماية البيضة، والذب عن الحريم، دون التعرض للقضاء والأحكام أو لجباية الخراج والصدقات: وكانت الدولة العباسية في عهد السفاح تنقسم سياسياً إلى عدة ولايات هي:

(١) الكوفة والسواد (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة وأرمينية وأذربيجان (١٠) سورية (١١) مصر وإفريقية (١٢) السند.

وقد فصل السفاح فيها بعد فلسطين عن الشام، كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منهما ولايتين. وأصبحت صقلية تابعة لولاية إفريقية، واستمرت إفريقية تحت إشراف والي مصر إلى أن استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم هذه الولاية استقلالاً داخلياً في عهد هارون الرشيد(١).

وقد جرت العادة أن يولي الخلفاء العباسيون الولايات الإسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسي وأكابر القواد. غير أن هؤلاء وأولئك آثروا البقاء في بغداد أو في سامرا، وأنابوا عنهم نواباً يحكمون هذه الولايات باسمهم. ولم يكن هذا التقليد الجديد شديد الخطر على سلامة الدولة العباسية وهي في قوتها. على أنه لما ضعفت السلطة المركزية، ساءت الحالة في هذه الولايات، وجنح بعض نواب الولاة إلى الاستقلال، فظهرت في مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية، وظهرت في المشرق الدول الطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها.

وقد أورد اليعقوبي أسماء الولاة في عهد أبي العباس السفاح:

أبو جعفر	الجزيرة وأرمينية وأذربيجان
داود بن علي	الحجاز واليمن واليمامة
عبد الله بن علي	بلاد الشام
سليمان بن علي	البصرة وما يليها من البحرين وعمان

(١) Von Kremer, PP. 218 - 219.

إسماعيل بن علي	كور الأهواز
أبو مسلم الخراساني	خراسان
أبو عون	مصر وشمالي إفريقية[١].

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الولاة، كما يقول الدكتور الدوري، من أفراد البيت العباسي أو من كبار أنصار الدعوة العباسية[٢].

ظل نظام الحكم في الدولة العباسية كما وضعه المنصور إلى عهد الرشيد، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأفراد البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين. أما الخليفة فكان مصدر كل قوة، كما أنه مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة. ولكن بتوالي الأيام ظهر أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد، ومن ثم أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها.

(ب) الدواوين:

وكان النظام الإداري في العصر العباسي الأول من حيث توزيع العمل يعادل أحسن النظم الحديثة. وهاك أهم دواوين الدولة التي كانت تشبه الوزارات في العهد الحاضر:

ديوان الخراج. وديوان الدية، وديوان الزمام، وديوان الجند وديوان الموالي والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده)، وديوان البريد، وديوان زمام النفقات، وديوان الرسائل، وكانت مهنة صاحبه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة، وديوان الحوائج، وديوان الأحشام، وديوان المنح أو المقاضاة، وديوان الأكرة للإشراف على الترع والجسور وشؤون الري.

وكان ديوان الأزمة أو الزمام (ويشبه ديوان المحاسبة اليوم) الذي أنشأه الخليفة المهدي من أهم دواوين الدولة. وكانت مهنة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق أغنى أقاليم الدولة العباسية وتقديم حساب الضرائب في الأقاليم الأخرى. ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن، وكانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان، فيتخذ دواوين الأزمة ويولي على كل منها رجلاً. وقد أنشأ العباسيون ديواناً سموه ديوان النظر أو المكاتبات والمراجعات، وينقسم أربعة أقسام: ديوان الجيش وفيه الإثبات

---

(١) تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف (١٩٣٩ م) جـ ٣ ص ٨٨ - ٨٩.
(٢) الدروي: العصر العباسي الأول ص ٦٣.

والعطاء، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج(١).

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر في مصالح غير المسلمين يدعى رئيسها كاتب الجهباز.

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل في شؤون الجماعات إلا بمقدار، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شؤونها الخاصة بنفسها، ولا تتدخل الحكومة إلا في حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب. غير أنها ـ مع ذلك ـ كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشؤون التي تتصل بالزراعة من بناء القنوات وترميمها(٢).

(جـ) البريد:

كان للبريد ديوان كبير في بغداد له محطات على طول الطريق. وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً في نقل الرسائل حتى عهد الخليفة المعتصم. وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة للتجار في أسفارهم، كما كانت أساساً للبحوث الجغرافية. إلا أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة لا لنقل رسائل الجمهور؛ ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة الخاصة. فكان صاحب البريد يراقب العمال، ويتجسس على الأعداء، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن وكانت مهنة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة، ينقل أوامره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه(٣).

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم. وكان أبو جعفر المنصور يقول: «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، فقيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهي: أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإن من ظلمها غني، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه. قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة»(٤).

---

(١) Ameer Aly, P. 415. Von Kremer. P. 234 - 8.

(٢) النظم الإسلامية للمؤلف ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٣) Von Kremer, P. 233 Seq.

(٤) الطبري جـ ٩ ص ٢٩٧.

كانت عين المنصور ساهرة لا تنام عن عماله وما يأتونه في أعمالهم من خير أو شر؛ فقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد، فكتب إلى هذا الوالي: «ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش، سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان، والحق بأهلك مذموماً مدحوراً»(١).

وقد استخدم المنصور عمال البريد الذين كانوا عيوناً له وعوناً على الإشراف على أمور دولته، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة، وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام، وما يرد بيت المال من الأموال وما إلى ذلك. كما كان ولاة البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات وغيرها. وبلغ من انتظام إدارة البريد في عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من أمور. وبهذا كان يقف على كل ما يحدث في الولايات الإسلامية. لذا كان شديد الاتصال بولاته، فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، وإن رأى من أحدهم تقصيراً وبخه ولامه أو عزله من عمله مهاناً.

وكان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة، والإشراف على أعمال الوالي، كما كان بعبارة أخرى. مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقتها. وعلى الرغم من ذلك كله، بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت ولاية هذه الأقاليم وراثية. ولا غرو فقد كان ولاة الأقاليم الكبيرة يولون من قبلهم الولاة وسرعان ما خرجت مقاليد الأمور في حاضرة الدولة نفسها من أيدي الخلفاء(٢).

(د) الشرطة:

ومن النظم الإدارية الهامة في العصر العباسي الأول نظام الشرطة: «وكان أصل وضعها في الدولة العباسية - كما يقول ابن خلدون(٣) - لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أولاً، ثم الحدود بعد استيفائها، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها. وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن، لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود

(١) الطبري: جـ ص ٣١٤. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٢.

(٢) Orient Under The Caliphs, P, 232 Seq.

(٣) مقدمة ص ٢١٨ - ٢١٩.

بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة. وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق. وأفرادها من نظر القاضي، ونزّهوا هذه المرتبة، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس، وإنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الرعاع والغجر. ثم عظمت نباهتهم في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة».

وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة. وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر، لأنه عبارة عن رئيس الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين.

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة في مدينة الفسطاط. ولما تأسست مدينة العسكر في سنة ١٣٢هـ، أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى، وانقسمت الشرطة بذلك إلى قسمين:

١ ـ الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط.

٢ ـ الشرطة العليا ومقرها العسكر. وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمال الفسطاط. ومن ثم سميت الشرطة العليا[١]. ولما فتح جوهر الصقلي مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة. وذكر ابن دقاق[٢] أن صاحب الشرطة توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر إلى مصر، فأسند عمله إلى جبر. وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط، وتقلدها عروة بن إبراهيم وشبل المَعْرِضي[٣].

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى، وشرطة صغرى. ويقول ابن خلدون[٤] في بيان اختصاص كل من الشرطتين:

«ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى. وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له[٥] الحكم على أهل المراتب

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٥.

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١.

(٣) المقريزي. اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ٩٥.

(٤) انظر ص ٢٤٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوط بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف.

(٥) كذا في النسخ المطبوعة في بيروت ومصر ومخطوطة المكتبة الزكية التي سبقت الإشارة إليها. وليس في الكلام =

السلطانية، والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كراسي بباب دار السلطان، رجل[١] يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه».

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش ابتدع نوعاً ثالثاً للشرطة، أطلق عليه الشرطة الوسطى. ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر في جرائم الطبقة الوسطى، وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأصحاب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء ومن في طبقتهم. وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن سعيد بن جدير[٢]. ويقول المقري[٣] عن الشرطة في الأندلس: «وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة: ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان، وذلك قليل، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي، وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك»[٤].

ولا يختلف نظام العسس في الأندلس عنه في المشرق إلا في التسمية، حيث عرف العسس في الأندلس بالداربين لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة[٥]، ولكل زقاق باتت فيه[٦] له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة[٧] عامتها وكثرة شرهم[٨].

= مرجع الضمير (له). ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق. ومن هذا أو ما بعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصاً من صاحب الشرطة الصغرى، فللأول (أ) الحكم على الخاصة والدهماء. (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه، أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة، وهم الدهماء.

(١) كذا في المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون، والرجل اسم جمع لراجل، وهم الرجالة أيضاً، وفي النسخ المطبوعة: «رجال».

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ٢ ص ٢١٢.

(٣) نفح الطيب: جـ ١ ص ١٠٣.

(٤) كان صاحب الشرطة في الدولة العباسية وفي الأندلس وفي عهد الفاطميين في المغرب ومصر ينظر في الجرائم ويقيم الحدود. راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣:

(٥) أي بعد صلاة العشاء.

(٦) بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب.

(٧) الشاطر: الخبيث.

(٨) المقري. نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

٣ - النظام الحربي

بلغ عدد الجيش في عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجند الذين كانوا يكونون الجيش النظامي للدولة. وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام. ثم قلت أرزاقهم تبعاً لقلة عددهم. ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً (والدرهم يساوي أربعة قروش تقريباً). وبجانب الجنود النظامية طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب، مدفوعين بعوامل دينية أو مادية.

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده. فمنهم الحربية، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين. وكان الجند العربي حتى آخر عهد الدولة الأموية من العرب. ولما جاءت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، دخل في الجيش العربي العنصر الفارسي الذي تغلغل نفوذه في جسم الدولة.

ولم يكن اعتماد الخلفاء العباسيين على الفرس راجعاً إلى مساعدة هؤلاء لهم في تأسيس دولتهم، بل كان راجعاً أيضاً إلى العصبية التي كانت تشتعل نارها بين الجند العربي من حين إلى حين، حتى إن جعفر المنصور فكر في تأسيس الكرخ جنوبي بغداد، ليبعد عنه خطر جنده من اليمنية والمضرية[١]. فقد تعرض عربي من عرب الشمال للخليفة المأمون مراراً وقال له: انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان، قال؛ أكثرت علي يا أخا الشام، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها وما أحبتني قط. وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله عز وجل نبيه ﷺ من مضر، ولم يخرج إثنان إلا خرج أحدهما شارياً أعزب فعل الله بك».

ولما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ، رأى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوي، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية، فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وقلدهم الولايات الكبيرة، وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء، فدبت الغيرة والحسد في نفوس القواد، وبخاصة العرب، فعملوا على التخلص منهم، وأغروا العباس ابن المأمون بالمطالبة بالخلافة، ودبروا المكايد للتخلص من المعتصم، ولكنه قضى على هذه المؤامرة وقتل العباس كما تقدم.

وكان من أثر هذه المؤامرة أن أقصى المعتصم القواد من العرب والفرس تدريجياً، ومحا

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٨١ - ٢٨٢.

أسماءهم من ديوان العطاء، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً.

ومن هذا نرى أن العصبية في الجيش لم تقتصر على العصبية العربية القبلية بين اليمنية والمضرية، بل تعدت ذلك إلى العصبية القومية التي قامت بين الترك والعرب، تلك العصبية التي ظهرت في عهد المعتصم وكادت تودي بحياته حين سار لمحاربة الإمبراطور البيزنطي تيوفيل. إلا أن المجال لم يتسع لها. لأن الأتراك أقصوا العرب نهائياً، وأصبح لهم الأمر والنهي، فاندمجوا في الأهلين واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة. كما استعان المعتصم بفرق من المصريين أطلق عليهم المغاربة، ومن الخزر، كما استعان بالمتطوعة الذين كانوا ينضمون إلى الجيش مدفوعين بالرغبة في الجهاد أو سعياً وراء الكسب. وكان لهؤلاء أثر يذكر في حرب بابك الخرمي وفي محاربة البيزنطيين.

ونتبين وصف الآلات الحربية التي استعملها العباسيون مما ذكره المسعودي[1] عن حصار جند المأمون بغداد.

«ونصب له (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنيقات، ونزل في رقة كلواذي والجزيرة، فتأذى الناس به، وصعد نحوه خلق من العيارين[2] وأهل السجون - وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين[3] والمآزر[4]. وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ، ورقا[5] من الخوف والبواري[6] قد قيرت[7] وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي مرتبة من الركوب على مقدار ما تحت يده. فالعريف، له أناس مركبهم غير من ذكرناه من المقاتلة. كذلك النقيب والقائد والأمير يركبون أناساً عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ومقاود قد اتخذ لهم ولجم من مكانس ومذاب، فيأتي العريف وقد أركب واحداً، وقدامه عشرة من المقاتلة. ويأتي النقيب والقائد والأمير كذلك. فتقف النظارة ينظرون إلى

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٧ - ٣٠٨.
(٢) قوم يختفون نهاراً ويظهرون ليلاً، وهم لصوص.
(٣) التبابين: جمع تبان (بالضم والتشديد) وهي سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة المغلظة فقط، تكون للملاحين والمصارعين.
(٤) المآزر: جمع مئزر وهو الملحفة، وكل ما سترك.
(٥) الدرق: جمع درقة، الجحفة: هي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب.
(٦) جمع بوري أو بورية، وهو الحصير المنسوج من القنب، فارسي معرب.
(٧) قير الشيء: طلاه بالقار وهو الزفت.

حربهم أصحاب الخيول الفره[١] والجواشن[٢] والدروع والتجافيف[٣] والرماح والدرق التبتية»[٤].

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية، وخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذي اهتم بالشؤون الحربية اهتماماً كثيراً. وكان يلذ له أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه، لابساً خوذته. وكانت الجنود تصف أمامه في ثلاثة أقسام: عرب الشمال (مصر)، وعرب الجنوب اليمن، والخراسانيون. ولكي يحمي العرب أنفسهم من غارات الروم أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهي الثغور، مثل طرسوس وأدنة والمصيصة ومرعش وملطية، وكانت هذه الثغور تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي الروم. ولما ولي هارون الرشيد الخلافة حصن هذه المدن الحصينة وأطلق عليها اسم الثغور[٥].

٤ ـ النظام المالي

تعمل السياسةالمالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسية منذ ظهورها، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية، وهو يشبه وزارة المالية، وصاحبه يقوم مقام وزير المالية في الوقت الحاضر.

وأهم موارد بيت المال: الخراج، والجزية، والزكاة، والفيء، والغنيمة، والعشور. وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التي قررها أسلافهم، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها. وسن الأمويون نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية الأموال. ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية. وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى «دار الاستخراج». وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج:

---

(١) الفره: جمع فاره وهو النشيط.

(٢) الجشن: مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط، والجوشن حلقة تتداخل فيها رقيقة من التنك.

(٣) جمع تجفاف، وهو ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح.

(٤) هذه النسبة إلى «تبت» بأرض الترك.

(٥) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

١ ـ المحاسبة، وهي إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً.

٢ ـ المقاسمة، وهي ضريبة نوعية تؤخذ عن المحصول.

٣ ـ المقاطعة، وهي ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة. وتدخل في هذا النظام معظم أراضي التاج. كثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجدب. مثال ذلك أن الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربع الضريبة بإرجائه السنة المالية من منتصف مارس إلى ١٧ يونيه «ربيع الأول» ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٢١ يولية.

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد بلغ ٢٧٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة[١].

وقد اهتم العباسيون بالخراج اهتماماً عظيماً، وعلى الأخص في عهد هارون الرشيد، الذي أمر أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ومن أشهر فقهاء عصره، أن يكتب في الخراج كتاباً جامعاً «يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي[٢]، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم»[٣]. وقد بين أبو يوسف في هذا الكتاب الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال، فسمى كتابه «كتاب الخراج»، وقد تناول المؤلف الكلام على ثلاثة أمور:

الأول: موارد بيت المال، وتنقسم ثلاثة أقسام:

١ ـ خمس الغنائم.

٢ ـ الخراج ويدخل تحته ما يسمى وظيفة الأرض الخراجية، ثم جزية أهل الذمة، ثم العشور. وقد أدخلت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن ثم لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم. وحد أرض الخراج: كل أرض من أراضي الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام، وأبقاها بأيدي أهلها، أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة. ويخرج من ذلك أنواع

---

(١) Sayed Ameer Ali, P. 426 et seq.

(٢) الجوالي هي اختيار الأحسن من كل شيء سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء، الهزيل منها والصغير. وربما كانت هذه وظيفة العامل في الزكاة.

(٣) أبو سيف: كتاب الخراج (القاهرة في سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٣.

من الأرض لا يوضع عليها الخراج، وإنما تكون أرضاً عشرية، وهي كل أرض العرب غير بني تغلب وكل أراضي الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعاً، وكذلك كل أرض من أراضي الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين.

٣ ـ الصدقات.

الثاني: بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث: بيان الواجبات التي يقوم بها بيت المال.

وقد عمل الخلفاء العباسيون على عدم إرهاق المزارعين، وعني البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج على حسب نوع المحصول وجودة الأرض؛ وراعوا خفض الضرائب في بعض الأحيان إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

وصفوة القول ان خزائن العباسيين كانت تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب حتى بلغت في أيام هارون الرشيد ما يقرب من إثنين وأربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب[١]. ويرجع الفضل في ذلك إلى الإصلاحات التي أدخلها أبو جعفر المنصور على ضريبة الأرض في السواد. وذلك أن الخراج كان يؤخذ نقداً على مساحة الأرض سواء زرعت أم لم تزرع؛ فوضع نظام المقاسمة الذي تقدمت الإشارة إليه، والذي يقضي بأن يدفع الزارع جزءاً من غلة الأرض ويبقى له ما يكفيه. كما شدد الرقابة على جباة الضرائب حتى لا يظلموا الناس أو يستأثروا بأموال الدولة. وليس أدل على دقة المنصور وحرصه ما كان من محاسبته البنائين وغيرهم عند بناء مدينة بغداد حتى رماه بعض المؤرخين بالبخل ولقبوه الدوانيقي.

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحو خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب. ويقول الجهشياري[٢] إن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب «عمل في أيام الرشيد تقديراً عرضه على يحيى بن خالد (البرمكي) لما يحمل إلى بيت المال بالحضرة من جميع النواحي من المال والأمتعة» جاء فيه:

أثمان غلات السواد: ثمانون ألف ألف، وسبع مائة ألف، وثمانون ألف درهم.

أبواب المال بالسواد: أربعة عشر ألف ألف، وثماني مائة ألف درهم، الحلل النجرانية مائتا حلة، الطين المختم: مائتان وأربعون رطلا.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٠.

(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

كسكر: أحد عشر ألف ألف، وست مائة ألف درهم.
كور دجلة: عشرون ألف ألف، وثماني مائة ألف درهم.
حلوان: أربعة آلاف ألف، وثماني مائة ألف درهم.
الأهواز: خمسة وعشرون ألف ألف درهم. السكر: ثلاثون ألف رطل.

فارس: سبعة وعشرون ألف ألف درهم. ماء الزبيب الأسود؛ عشرون ألف رطل. الرمان والسفرجل: مائتا ألف وخمسون ألفاً، ماء الورد: ثلاثون ألف قارورة، الأنبجات[1]: خمسة عشر ألف رطل، الطين السيرافي، خمسون ألف رطل، الزبيب ـ بالكر الهاشمي ـ ثلاثة أكوار.

كرمان: أربعة آلاف ألف ومائتا ألف درهم، المتاع اليمني والخبيصي[2]: خمس مائة ثوب، التمر: عشرون ألف رطل، الكمون: مائة رطل.
مكران: أربع مائة ألف درهم.

السند وما يليها: أحد عشر ألف ألف، وخمس مائة ألف درهم، الطعام بالقفيز الكيرخ: ألف ألف قفيز، الفيلة: ثلاثة فيلة، الثياب الحبشية: ألفا ثوب، الفوط: أربعة آلاف فوطة، العود الهندي: مائة وخمسون مناً، ومن سائر أصناف العود: مائة وخمسون مناً، النعال: ألفا زوج، وذلك سوى القرنفل والجوزبوا.

سجستان: أربعة آلاف ألف وست مائة ألف درهم، الثياب المعينة: ثلاث مائة ثوب، الفانيذ[3]: عشرون ألف رطل.

خراسان: ثمانية وعشرون ألف ألف درهم، نقر الفضة الأمناء: ألفا نقرة البراذين أربعة آلاف برذون، الرقيق: ألف رأس، المتاع: سبعة وعشرون ألف ثوب، الإهليج: ثلاث مائة رطل.

جرجان: اثنا عشر ألف ألف درهم، الإبريسم: ألف مناً.

قومس ألف ألف، وخمس مائة ألف درهم، نقر الفضة الأمناء ألف نقرة الأكسية: سبعون كساء، الرمان: أربعون ألف رمانة.

---

(١) هي ما نسميه الان (المانجو) وكانوا يتخذون منه مربى.
(٢) خبيص: بلدة بكرمان.
(٣) في القاموس: الفانيذ ضرب من الحلواء معرب (بانيد).

طبرستان والرويان ودنباوند: ستة آلاف ألف، وثلاثة مائة ألف درهم. الفرش الطبري: ست مائة قطعة، الأكسية: مائتا كساء، الثياب: خمسمائة ثوب، المناديل: ثلاثمائة منديل، الجامات: ستمائة جام.

الري: اثنا عشر ألف درهم، الرمان: مائة ألف ألف رمانة، الخوخ: ألف رطل.

أصفهان: سوى خمتش ورساتيق عيسى راديس: أحد عشر ألف ألف درهم، العسل عشرون ألف رطل، الشمع عشرون ألف رطل.

همذان ودستي: أحد عشر ألف ألف رطل، وثماني مائة ألف درهم، الرب والرمانين[1]: ألف منا، العسل الأروندي: عشرون ألف رطل.

ماهي البصرة والكوفة: عشرون ألف ألف درهم.

شهر زور وما يليها: أربعة وعشرون ألف ألف درهم.

المَوْصِل وما يليها: أربعة وعشرون ألف ألف درهم، العسل الأبيض: عشرون ألف رطل.

الجزيرة، والديارات، والفرات، أربعة وثلاثون ألف ألف درهم.

أذربيجان: أربعة آلاف ألف درهم.

موقان وكرج: ثلاثة مائة ألف درهم.

جيلان: من الرقيق: مائة رأس، البز والطيلسان[2] من العسل، اثنا عشر زقاً، من البزاة: عشر بزاة. ومن الأكسية: عشرون كساء.

أرمينية: ثلاثة عشر ألف ألف درهم، البسط: عشرون بساطاً، والرقم: خمس مائة وثمانون قطعة، المالح المنبوذ ما هي: عشر آلاف رطل، الطريخ: عشرة آلاف رطل، البزاة ثلاثون بازياً، البغال مائتا بغل.

قنسرين والعواصم: أربع مائة ألف وتسعون ألف دينار.

حمص: ثلاث مائة ألف وعشرون ألف دينار، الزبيب: ألف راحلة.

دمشق: أربع مائة ألف وعشرون ألف دينار.

الأردن: ستة وتسعون ألف دينار.

---

(١) كذا في تاريخ ابن خلدون وفي الأصل (رب والريباس).

(٢) لم يذكر أمامها تقدير في الأصل.

فلسطين: ثلاث مائة ألف وعشرون ألف دينار، ومن جميع أجناد الشام من الزبيب ثلاث مائة ألف رطل.

مصر: سوى تنيس ودمياط والأشمونين، فإن هذه وقفت للنفقات، ألف ألف وتسع مائة وعشرون ألف دينار.

برقة: ألف ألف درهم.

إفريقية: ثلاثة عشر ألف ألف درهم، ومن البسط: مائة وعشرون بساطاً.

اليمن: سوى الثياب، ثماني مائة ألف، وسبعون ألف دينار.

مكة والمدينة: ثلاث مائة ألف دينار.

جملة التقدير: فذلك العين، خمسة آلاف دينار، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهماً بدينار: مائة ألف ألف، وخمسة وعشرون ألف ألف وخمس مائة واثنان وثلاثون ألف درهم، الورق أربع مائة ألف ألف، وأربعة آلاف ألف، وسبع مائة ألف، وثمانية آلاف درهم، يكون الورق مع قيمة العين ـ خمس مائة ألف ألف وثلاثين ألف ألف، واثني عشر ألف درهم.

كذلك أورد ابن خلدون[1] بياناً مفصلاً بجباية الخراج في عهد الخليفة المأمون وقد نقله عنه جرجي زيدان[2]. وإليك خراج الدولة في هذا العهد:

---

(١) مقدمة ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٢) كتاب التمدن الإسلامي جـ ٢ ص ٥٣ ـ ٥٥.

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدرهم	الأموال والغلال
السواد	٢٧,٨٠٠,٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة، ومن طين الختم ٢٤٠ رطلاً
كسكر	١١,٩٠٠,٠٠٠	
كور دجلة	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	
حلوان	٤,٨٠٠,٠٠٠	
الأهواز	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	وسكر ٣٠,٠٠٠ رطل
فارس	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠,٠٠٠ قارورة، ومن الزيت الأسود ٢٠,٠٠٠
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠	ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب، وتمر ٢٠,٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠,٠٠٠	
السند وما يليه	١١,٥٠٠,٠٠٠	وعود هندي ١٥٠ رطل
سجستان	٤,٠٠٠,٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠ ثوب ومن الفانيذ ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢,٠٠٠ نقرة و٤,٠٠٠ برذون و١,٠٠٠ رأس رقيق و٢٠,٠٠٠ ثوب متاع و٣٠,٠٠٠ إهليج
جرجان	٢,٠٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ شقة إبريسم
قومس	١,٥٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ١,٠٠٠ نقرة
طبرستان والرويان ودماوند	٦,٣٠٠,٠٠٠	و٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و٢٠٠ أكسية و٥٠٠ ثوب و٣٠٠ منديل و٣٠٠ جام
الري	١٢,٠٠٠,٠٠٠	و٢٠,٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١,٣٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ رطل رب الرمانين و١٢٠٠٠ رطل عسل
ماهـا البصرة والكوفة	١٠,٧٠٠,٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
شهرزور	٩,٧٠٠,٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	و٢٠,٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ رأس رقيق و١٢,٠٠٠ زق عسل، وعشر بزاة و٣٠ كساء

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدرهم	الأموال والغلات
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	و٢٠ درهم من القسط المحفور، ٥٣٠ رطلاً من الرقم، و١٠,٠٠٠ رطل من المسايح السورماهي، و١٠,٠٠٠ رطل من الصونج، ٢٠٠ بغل، ٣٠ مهراً
برقة	١,٠٠٠,٠٠٠	
إفريقية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	و١٢٠ بساطاً
المجموع الكلي	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	درهم
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠,٠٠٠	و١,٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠,٠٠٠	
الأردن	٩٧,٠٠٠	
فلسطين	٣١٠,٠٠٠	و٣٠٠,٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢,٩٢٠,٠٠٠	
اليمن	٣٧٠,٠٠٠	سور المتاع لم يذكر
الحجاز	٣٠٠,٠٠٠	
المجموع الكلي	٤,٨١٧,٠٠٠	دينار، تساوي ٢٧,٢٥٥,٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر
فيكون المجموع بالدرهم	٧٢,٢٥٥,٠٠٠	
يضاف إليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	
فتكون الجملة	٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠	درهم

من هذه القائمة نرى أن خراج أقاليم المشرق كان يقدر بالدراهم وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وإفريقية). وسنرى نحو ذلك أيضاً في القائمتين الأخريين والسبب في ذلك - على ما يظهر - يرجع إلى أن مناجم الفضة كانت أكثر في أقاليم المشرق منها في المغرب، وبعكس ذلك مناجم الذهب.

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وإفريقية) ٣١٨,٦٠٠,٠٠٠ درهم ومجموع أقاليم المغرب ٤,٨١٧,٠٠٠ دينار. وبتحويل هذه الدنانير إلى دراهم يكون مجموعها ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم. وبإضافة مقدار جباية المغرب إلى مقدار جباية المشرق، يبلغ مجموع الجباية ٣٩٠،٨٥٥،٠٠٠ درهم. هذا عدا خراج الكرخ ويبلغ ٣٠٠,٠٠٠ درهم، وجيلان ويبلغ خراجها ٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وعلى هذا يكون مجموع جباية الدولة العباسية في عهد المأمون نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم عدا الأموال والغلات الأخرى. وقد جرت العادة أن تقدر الغلات بما تساويه نقداً، كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الأصل من الحنطة، كما سنرى في تفصيل طساسيج (أي نواحي) السواد من قائمتي قدامة بن جعفر وابن خرداذبه. وكان يصل إلى بيت المال ببغداد صافي ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أموال الجند وما تتطلبه الجباية من نفقات، وإصلاح الترع وما ينفق على الدواوين، وما يتطلبه الخليفة ووزراؤه وكتابه ورجال بلاطه(١).

وإليك بيان خراج الدولة العباسية في عهد المعتصم على ما أورده قدامه بن جعفر(٢). وقد ذكر مقدار كل من الحنطة والشعير مفصلاً باعتبار طساسيج السواد، أي نواحيه في الشرق والغرب.

١ ـ طساسيج السواد في الجانب الغربي:

اسم الناحية	الحنطة بالسكر	الشعير بالسكر	الدراهم
الأنبار ونهر عيسى	١١,٨٠٠	٦,٤٠٠	٤٠٠,٠٠٠
طسوج مسكن	٣,٠٠٠	١,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
طسوج قطربل	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
طسوج بادوريا (بادرايا)	٣,٥٠٠	١,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
نهر سير	١,٧٠٠	١,٧٠٠	١٥٠,٠٠٠
الرومقان	١٣,٣٠٠	٣,٣٠٠	٢٥٠,٠٠٠

(١) جرجي زيدان: كتاب التمدن الإسلامي جـ٢ ص ٥٥ ـ٥٦.
(٢) كتاب الخراج (طبعة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ) ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠. انظر جرجي زيدان: كتاب التمدن الإسلامي جـ٢ ص ٥٧ ـ ٥٩.

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالسكر	مقدار الشعير بالسكر	الدراهم
كوقي	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
نهر درقيط	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠
نهر جوير	١,٥٠٠	٦,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣,٥٠٠	٤,٠٠٠	١٢٢,٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١,٥٠٠	٧,٢٠٠	٣٥٠,٠٠٠
بابل وخطرنية	٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠,٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج عين النمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج الحية والبداة	١,٥٠٠	١,٦٠٠	١٥٠,٠٠٠
سورا وبربسيما	١,٥٠٠	٤,٥٠٠	٢٥٠,٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
فرات بادقلي	٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٦٢,٠٠٠
طسوج السيلحين	١,٠٠٠	١,٥٠٠	١٤٠,٠٠٠
روذمستان وهزمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠,٠٠٠
تستر	٢,٢٠٠	٢,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
إيغار يقتين	١,٢٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٤,٨٠٠
كسكر	٣٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠

٢ ـ طساسيج السواد في الجانب الشرقي:

طسوج بزر جسابور	٢,٥٠٠	٢,٢٠٠	٣٠٠,٠٠٠
طسوج الواذنين	٤,٨٠٠	٤,٨٠٠	١٢٠,٠٠٠
طسوج بوق	٢٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
كلواذي ونهر بين	١,٦٠٠	١,٥٠٠	٣٣٠,٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١,٠٠٠	١,٥٠٠	٣٤٠,٠٠٠
روستقباذ	١,٠٠٠	١,٤٠٠	٢٤٦,٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
سلسل ومهروذ	٢,٠٠٠	١,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
جلولا وجللتا	١,٠٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
الدبيين	١,٩٠٠	١,٣٠٠	٤٠,٠٠٠
الدسكرة	١,٨٠٠	١,٤٠٠	٦٠,٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥,٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣,٠٠٠	٥,١٠٠	١٢٠,٠٠٠
النهروان الأعلى	١,٧٠٠	١,٨٠٠	٣٥٠,٠٠٠
النهروان الأوسط	٢,٠٠٠	٥٠٠	١٠٠,٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤,٧٠٠	٥,٥٠٠	٣٣٠,٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤,٠٠٠	٤٣٠,٠٠٠
نهر الصلة على تلك العبرة	١,٠٠٠	٣,١٢١	٥٩,٠٠٠
النهروان الأسفل	١,٧٠٠	١,٣٠٠	٥٣,٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥,٦٠٠	١٢٣,٩٢١	٨,٨٢١,٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥,٦٠٠ كر حنطة، ١٢٣,٩٢١ كر شعير ٨,٨٢١,٨٠٠٠ درهم. على أن هذا المجموع يختلف عما ذكره قدامة بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم. فقد ذكر في إيراد المجموع: «فذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧,٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩,٧٢١ كراً، ومن الورق ٨,٠٩٥,٨٠٠ درهم». ولعل السبب في هذا الفرق خطأ قراءة بعض الأعداد. على أن الفرق على كثرته لا يعتد به. بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهم. وقد فعل قدامة ذلك فحولهما باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً. والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار، فبلغ ذلك ١٠٠,٣٦١,٨٥٠ درهماً، وقال إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، فإذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤,٤٤٧,٦٥٠ درهماً على هذه الصورة.

٨,٠٩٦,٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقاً
١٠٠,٣٦١,٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدراهم
٦,٠٠٠,٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤,٤٥٧,٦٥٠	درهم

موارد الجباية من أقاليم المشرق والمغرب مع السواد:

١ - أقاليم المشرق

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المشرق	دراهم
السواد	١٤,٤٥٧,٦٥٠	الري ودماوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	قومس	١,١٥٠,٠٠٠
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	جرجان	٤٠٠,٠٠٠,٧٠٠
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	طبرستان	٤,٢٨٠,٠٠٠
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠,٠٠٠
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	الموصل وما يليها	٦,٣٠٠,٠٠٠
حلوان	٩٠٠,٠٠٠	قردى وبديدى	٣,٢٠٠,٠٠٠
ماء الكوفة	٥,٠٠٠,٠٠٠	ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠
ماء البصرة	٤,٨٠٠,٠٠٠	آرزن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠	طرون	١٠٠,٠٠٠
ماسبذان	١,٢٠٠,٠٠٠	آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠
الإيفارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠		
أذربيجان	٣,٥٠٠,٠٠٠	المجموع الكلي	٣١١,٥٨١,٣٥٠

٢ ـ أقاليم المغرب

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠,٠٠٠	الحرمين	١٠٠,٠٠٠
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	اليمن	٦٠٠,٠٠٠
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	عمان	٣٠٠,٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠		
مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	المجموع	٥,١٠٢,٠٠٠
		وبتحويلها إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً تساوي ٧٦,٧ ١٠,٠٠٠ درهماً	

وبإضافتها إلى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة يكون مجموع ذلك كله ٣٣٨,٢٩١,٣٥٠ درهماً، وهو ارتفاع الخراج حسب تقدير قدامة.

من ذلك يتضح أن جباية الخراج في عهد المأمون ٣٩٦,١٥٥,٠٠٠ درهم وفي عهد المعتصم ٣٨٨,٢٩١,٣٥٠ درهم[1].

وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، كما تدفع منه أعطيات الجند، أي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات معينة من السنة، كما ينفق منه على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها، وكرى الترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، والنفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس، ودفن من يموت منهم. وشراء المعدات الحربية، ومنح العطايا للعلماء والأدباء وغيرهم.

وكان النظام المالي في الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهي: الخزانة العامة، وإدارة بيت المال، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة.

وأما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى «خازن المال»، ومقر هذه الخزانة القصر، وفيها تودع الأموال التي تجبى من المدن والقرى. ومن أهمها: أموال التركات التي يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وارثاً، والضرائب المفروضة على الأسواق،

(١) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

والرسوم الجمركية التي تضرب على السفن، والخراج، والجزية، والأعشار. وقد قيل إن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف. ولا ندري إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدراهم. ويغلب على الظن أنه بالدراهم، لأنه إذا حسب دنانير تجاوز ٣٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠، وفي هذا شيء كثير من المبالغة.

وقد ذكر المقري[١] الذي عزا ذلك إلى ابن خلدون، أن الناصر «كان يقسم الجباية أثلاثاً: ثلثاً للجند، ثلثاً للبناء، وثلثاً مدخراً. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق المستخلص[٢] سبعمائة ألف وخمس وستين ألف دينار. وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان».

وذكر ابن حوقل[٣] أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم، إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ - ٣٦٩ هـ). أما ما يطلق عليه اسم بيت المال في الأندلس فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف، وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة. ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية، ودفع رواتب موظفي المساجد، وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة. ويقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة، ومن ينوبون عنه تحت إشراف الخليفة. ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشؤون الاجتماعية الآن.

وأما موارد الخليفة الخاصة، فكان يشرف عليها موظف يعرف «بصاحب الدية»، كما يشرف هذا الموظف على أراضي الأمير أو الخليفة، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءاً قليلاً من المحاصيل لأنفسهم.

٥ - النظام القضائي

(أ) القضاء:

تطور النظام القضائي في العصر العباسي الأول تطوراً كبيراً، لأن روح الاجتهاد في الأحكام ضعفت بسبب ظهور المذاهب الأربعة، فأصبح القاضي يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة، والشام والمغرب وفق مذهب

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧١.
(٢) أي من الضرائب التي تجبى على التجارة.
(٣) المسالك والممالك ص ٧٧.

مالك، وفي مصر وفق المذهب الشافعي(١). وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب عنه قاضياً يحكم بمذهب المتخاصمين.

وقد عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية. لذلك نرى أبا حنيفة النعمان يعتذر عن تولي هذا المنصب في عهد أبي جعفر المنصور، ويقول له: «اتق الله، ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟». وكان بين أبي حنيفة ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي وحشة، لاعتراض أبي حنيفة عليه في أحكامه ـ وكان أصغر منه سناً ـ فشكاه إلى المنصور، فمنعه من الفتيا(٢).

وهناك كثير من الأمثلة تدل على أن الخلفاء العباسيين نقضوا العهد مع كثير من القواد العلويين وغيرهم بعد أن أعطوهم الأمان، وذلك عن طريق فتاوى القضاة، كما فعل أبو العباس السفاح مع ابن هبيرة، وأبو جعفر المنصور مع أبي مسلم الخراساني وعمه عبد الله بن علي، وهارون الرشيد مع يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي(٣).

ذلك أن ابن هبيرة تسلم من أبي جعفر المنصور كتاباً يحمل إمضاء الخليفة السفاح يعطيه فيه الأمان. ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة. كذلك غدر المنصور بعمه عبد الله بن علي وبأبي مسلم الخراساني. وإلى ذلك يشير محمد النفس الزكية في رده على كتاب أبي جعفر. وأما يحيى بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية، فقد ثار في بلاد الديلم وأقلق بال الرشيد، فندب الفضل بن يحيى البرمكي لمحاربته، فاستماله إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم. فأجابه الرشيد إلى ما طلب وأرسل إليه الأمان. ثم قدم يحيى مع الفضل. فتلقاه الرشيد بالحفاوة والإكرام. ولكنه لم يلبث أن حبسه في داره، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان، فمنهم من أفتى بصحته، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله.

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام «قاضي القضاة»(٤). وكان يقيم في حاضرة الدولة ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار، وأول من تلقب بهذا اللقب أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في عهد هارون الرشيد.

(١) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.
(٢) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي جـ٢ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.
(٣) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٠.
(٤) كان قاضي القضاة يسمى أيضاً «أقضى القضاة».

وفي العصر العباسي الأول اتسعت سلطة القاضي، فبعد أن كان عمله مقصوراً على الفصل بين الخصوم، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء. وممن نبغ من القضاة في هذا العصر يحيى بن أكثم الذي قاد الجنود في عهد المأمون لمحاربة الروم، وأحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة في عهد الواثق الذي أخذ الفقه عن يحيى بن أكثم.

على أن أهم ما امتاز به العصر العباسي أنه أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه[١].

ومما هو جدير بالملاحظة اتخاذ جماعة الشهود الدائمين أمام القاضي، فيحدثنا الكندي[٢] أن القاضي إذا شهد عنده أحد كان معروفاً بالسلامة، قبله القاضي، وإذا كان غير معروف بها أوقف، وإذا كان الشاهد مجهولاً لا يعرف سئل عنه جيرانه، فإنه ذكروه به من خير أو شر عمل به. وكان غوث بن سليمان في خلافة أبي جعفر المنصور، أول من سئل عن الشهود بمصر في السر، ويرجع ذلك إلى كثرة شهادة الزور في زمنه. وقد عين القاضي مفضل بن فضالة رجلاً يسمى «صاحب المسائل» مهنته الوقوف على حالة الشهود. كما أن القاضي العمري الذي ولي قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ دون أسماء الشهود في كتابه، وحذا القضاة حذوه في هذا العمل. وبلغ من اهتمام القاضي عيسى بن المنكدر الذي ولي قضاء مصر سنة ٢١٢ هـ بأمر الشهود، أن كان يتنكر بالليل ويغطي رأسه، ويمشي في الطرقات ليسأل عنهم. ونجد في عهد بولاية القضاء في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر أن التثبت في شهادة الشهود والمبالغة في السؤال عنهم والفحص عن وجوه عدالتهم والبحث عن حالاتهم من أهم واجبات القاضي في ذلك العصر.

وقد أدخل بعض قضاة العصر العباسي في مصر ضروباً من الإصلاح؛ فقد طهر القاضي غوث (١٣٥ ـ ١٤٠ هـ) القضاء من العيوب التي كانت فاشية فيه، وأخصها شهادة الزور، فكان يسأل عن الشهود سراً، فإذا تحقق من استقامتهم وحسن سيرتهم قبل شهادتهم. وكان ـ كما وصفه الكندي ـ «أعلم الناس بمعاني القضاء وسياسته». واشتهر بالعدل والاعتدال في أحكامه، وبلغ من عدله أنه جعل الخليفة المهدي وامرأته شكته إليه على قدم المساواة في الحكم، إذ ساوى بين الرجل الذي وكله الخليفة عنه وبين الخصم في مجلس القضاء.

وبلغ من نزاهة القاضي أبي خزيمة (١٤٤ ـ ١٥٤ هـ)، أنه كان لا يأخذ عطاءه عن اليوم الذي يقضيه بعيداً عن مجلس الحكم لغسل ثيابه أو حضور جنازة. وكان قضاة هذا العهد

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨١.
(٢) كتاب القضاة ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

يقتدون بالرسول في بعده عن مظاهر الكبرياء. فقد أثر عنه أنه كان يقضي كثيراً من حاجاته بنفسه[١]. وكان أبوه عبد الله بن لَهيعة (١٥٤ ـ ١٦٤ هـ) أول قاض بمصر حضر في الاحتفال لإثبات رؤية الهلال.

وقد أدخل المفضل بن فضالة (١٦٨ ـ ١٦٩، ١٧٤ ـ ١٧٧ هـ) كثيراً من ضروب الإصلاح على نظام القضاء؛ فقد عني بالسجلات وجعلها تامة وافية، فدون فيها الوصايا والديوان. كذلك كان أول من اتخذ «صاحب المسائل»، ومهنته الوقوف على حقيقة الشهود. ويظهر أن هذا الإصلاح كان ظاهرياً. فقد قيل إن هذا الموظف كان يرتشي من بعض الناس ليقرر عدالتهم لدى القاضي، على أن المفضل فطن إلى ضرر الاستعانة بهذا الموظف، فعين عشرة رجال للشهادة، ولكن هذا العمل لم يرق في نظر الجمهور، لاتخاذه الشهود بهذه القلة، ولأنه عمل جديد لم يسبق إليه أحد من القضاة، فقال رجل يسمى إسحاق بن معاذ يقبح رأي القاضي:

سننتَ لنا في الجور حكمنا ... وصيرت قوماً لصوصاً عدولا
ولم يسمع الناس فيما مضى ... بأن العدولَ عَديداً قليلا[٢]

وقد نظم لهيعة بن عيسى (١٩٦ ـ ١٩٨، ١٩٩ ـ ٢٠٤ هـ) الأحباس، وكانت في أيامه على ما قاله هو لأصحابه: «سألت الله أن يبلغني الحكم فيها، فلم أترك شيئاً منها حتى حكمت فيه. وجددت الشهادة به». ولا غرو فقد جمع أموال الأحباس، وخصص نصيباً منها لأهل مصر، كما أدخل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون المواحيز[٣] وأجرى عليهم العطاء من الأحباس. فكان ذلك أول ما فرضت فروض القضاة. ثم سن الناس هذه السنة بعد لهيعة؛ فسميت هذه الأحباس فروض لهيعة، ثم سميت بعد ذلك فروض القاضي. على أن لهيعة أغضب أهل مصر، لأنه اتخذ ثلاثين رجلاً جعلهم بطانة له.

ولم يكن النظام القضائي خالياً من العيوب التي جعلته متمشياً مع الحالة السيئة التي سادت مصر في ذلك العصر. فقد بلغت الرشوة درجة انحطت معها نفوس القضاة، ومنهم

(١) روى البخاري أن السيدة عائشة سئلت: ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج.

(٢) أن تنصب الإسم وترفع الخبر، وقد نصب الجزئين كما هو في هذا البيت، كما في قولهم إن حراسنا أسداً كما وردت في كلام العرب.

(٣) جمع ماحوز، وهو المكان الذي يكون بين القوم وبين عدوهم، وفيه أساميهم ومكاتبهم، وهو من استعمال أهل الشام.

عبد الرحمن بن عبد الله العمري الذي قيل إنه أصاب من الرشوة مائة ألف دينار. بل لقد شرب الخمر وأم الدور لسماع المغنيات، مما أساء إلى سمعته ونال من كرامة منصبه. وعلى الرغم مما وصل إليه هذا القاضي من الضعف اتخذ الشهود، ودون أسماءهم في سجل خاص، وحذا حذوه في ذلك من جاء بعده من القضاة.

ومن أشهر قضاة هذا العصر ابن مسروق الكندي (١٧٧ ـ ١٨٤ هـ)، الذي عمل على رفع شأن القضاء، وأبى أن يخضع لسلطة الوالي، ولم يحضر مجلسه كما جرت العادة إلى وقته. وكان من أثر ذلك أن القضاة لم يحضروا مجالس الحكم بعد ذلك. كما أصلح هذا القاضي ديوان القضاء، باتخاذه قمطراً تودع فيه القضايا ويختم، ثم يفض إذا جلس للقضاء.

وقد وصف لينبول[١] القاضي في مصر في عهد الأمويين وفي العصر العباسي الأول فقال: إنه كان على خبرة اكتسبها من اشتغاله بالفقه الإسلامي. وقد اشتهر لدى العامة بالاستقامة وحسن الأخلاق. وكان لمركزه أهمية ولشخصه نفوذ كبير؛ لذلك لم يكن يجري عليه ما يجري على غيره من العمال، بل ظل القاضي في كثير من الأحيان يشغل منصبه في عهد عدة ولاة. ولم تكن أسرع إلى القاضي من تقديم استقالته إذا تدخل في أحكامه الشرعية متدخل. وبلغ من محبة الناس للقضاة، أن أصبح الولاة يفكرون طويلاً إذا حدثتهم أنفسهم بالإقدام على عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور، كما لم يعد للوالي في العصر العباسي سلطة عزل القضاة، بل صارت المراسيم تصدر بتعيينهم من بغداد عادة، وأصبحت مسألة تحديد رواتبهم ودفعها موكولة إلى الخليفة نفسه».

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس شأنه في سائر البلاد الإسلامية. فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء، لتعليق هذه الوظيفة بالدين. وكان قاضي القضاة يسمى «قاضي الجماعة» أيضاً، لأنه يكون في حضرة الدولة وحكمه نافذ في جميع أرجائها. ويشترط في القاضي أن يكون متعمقاً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة، ولا يشترط أن يكون عربياً خالصاً، فكثيراً ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالي والمولدين والبربر. وكان يحيى بن يحيى الليثي كبير قضاة الأندلس من أصل بربري. ويختار القاضي غالباً من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق في القضاء، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة[٢].

---

(١) Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 39 - 40.
راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ١ ص ١٠٣.

وكان قاضي الجماعة يقيم بقرطبة، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة، وينوب عنه في الأقاليم قضاة يسمى كل منهم «مسدد خاصة». وكان القرآن والسنة مصدر التشريع في الأندلس، ويسير القضاة في أحكامهم على وفق مذهب الإمام مالك، ويقوم الحكام والولاة بتنفيذ هذه الأحكام.

وقد سار الأمويون في الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضاتهم قيادة الجيوش نيابة عنهم. ويقول ابن خلدون(١): إنهم كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف. وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس.

ومن اختصاصات القاضي أيضاً الإشراف على موارد الأحباس، وسجلات الفتاوى الفقهية(٢)، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء والدعاء في صلاة الاستسقاء(٣). وكان القضاة في الأندلس يعرفون الإسبانية القديمة ويناقشون المتقاضين بها في مجلس الحكم(٤).

(ب) النظر في المظالم:

وإلى جانب القضاء «النظر في المظالم» وكان صاحب المظالم ينظر في كل «حكم يعجز عنه القاضي، فينظر فيه من هو أقوى منه يداً». وكان الوزير يعين أصحاب المظالم في البلاد. وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر في المظالم، وقد بين الماوردي الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء. ومن أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ما يكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المبطل، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا(٥)، إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض: وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم والاستكثار من

(١) مقدمة ص ١٩٣.

(٢) أنشىء هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ. وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه، وجعل من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٣) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً، ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة». واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصاً معيناً، ولمنصب قاضي القضاة شخصاً آخر.

(٤) الخشني: القضاة بقرطبة ص ٩٦، ١٣٨.

(٥) استعصى التوفيق بينهم.

عددهم ليزول عنه الشك، وأنه يجوز أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم، وعادة القضاة تكليف المدعي إحضار بينة، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله(١).

وكانت محكمة المظالم تعقد برئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما. ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طوال الأسبوع. وتنعقد محكمة المظالم في المسجد، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم.

١ ـ الحماة والأعوان، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

٢ ـ الحكام، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجري بين الخصوم، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين. وكان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات، إذا كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا في جلساتهم:

٣ ـ الفقهاء، وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية.

٤ ـ الكتاب، ويقومون بتدوين أقوال الخصوم، وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق.

٥ ـ الشهود، ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم والشهادة على أن ما أصدره القاضي من الأحكام لا ينافي الحق والعدل. ومن اختصاصات قاضي المظالم:

١ ـ النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة.

٢ ـ النظر في تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم.

٣ ـ تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

٤ ـ مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد(٢).

(حـ) الحسبة:

وكانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم. فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام؛ ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦١ ـ ٧٢. (٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٣ ـ ٨١ بتصرف.

أحياناً مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة؛ ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب. وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين: فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم. أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في العمل(١).

وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بعمل المحتسب ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد رؤي عمر يضرب جمالاً ويقول له: «حملت جملك ما لا يطيق». فالمحتسب إذاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة، وينظر في مراعاة أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، ويستوفي الديون، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف(٢)، ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين. وقد أجمل ابن خلدون(٣) أعمال المحتسب في هذه العبارة فقال:

«ويبحث عن المنكرات، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء(٤)، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين. وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء: وقد كان في كثير من الدول الإسلامية، مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس، داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره».

---

(١) المصدر نفسه ص ٦١ ـ ٧٢.

(٢) وكان لها دار خاصة، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها، فإن وجد فيها خللا صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمر بإصلاحها، وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ـ المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٣) مقدمة ص ١٩٦.

(٤) أي طلب رد عدوان الغير.

أما في الأندلس فكان يتولى الحسبة في كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق. وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة، ويختار من القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء. وقد حدد المقري[1] سلطة المحتسب في الأندلس، ومما ذكره يتبين أن هذا النظام بلغ شأواً بعيداً من الدقة، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة، والإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً، كما يتبين أن المحتسبين كان «لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع البياعات»[2].

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

(٢) ورد في الأصل المبتاعات ولعلها محرفة عما أثبتناه.

الباب السادس
الحالة الاقتصادية

تمهيـد:

حث الإسلام المسلمين على طلب الكسب. وهذا الدين الحنيف ينظم الحياة الدنيوية والأخروية ويدعو إلى الاهتمام بهما معاً. وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة القصص (٢٨ : ٧٧) ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾.

لذلك نرى أن العبادة في الإسلام لا تقتصر على أعمال الخشوع كالصلاة والصيام وغيرها من الأمور الروحية، بل تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً. فهذا الإمام أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفي في القرن الثاني للهجرة يقول: «طلب الكسب فضيلة كما أن طلب العلم فريضة». وها هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ٢٣٤هـ وصاحب الإمام أبي حنيفة يضع «كتاب الاكتساب في الرزق المستطاب» يبين فيه أن طلب الكسب واجب على كل مسلم ومسلمة، كما يبين أنواع المكاسب، وحصرها في التجارة والإجارة والزراعة والصناعة.

وهذا حجة الإسلام الإمام الغزالي يفرد في كتاب «إحياء علوم الدين» باباً في آداب الكسب والمعاش، ويستشهد بالآيات القرآنية التي تحث على الكسب والعمل، إذ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المزمل (٧٣: ٢٠) ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾. وبذلك وضع الدين الحنيف السعي في الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها في مرتبة الجهاد. ويقول الله جل شأنه في هذا المعنى ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً [أي خيراً] كثيراً وسعة﴾ [النساء ٤ : ١٠٠]. وهذا هو العلامة ابن خلدون يخصص الباب الخامس من الكتاب الأول ويشتمل على ثلاثة وثلاثين باباً[1] في مقدمة تاريخه «في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك من

(١) مقدمة ص ٤٠٠ - ٤٢٩.

الأحوال»، مما لا يدع مجالاً للشك في أن الإسلام عني عناية شديدة بهذه الحياة الدنيا التي هي مزرعة الآخرة كما جاء في الأثر الشريف. وبذلك وضع الإسلام السعي في الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها في مرتبة الجهاد على ما تقدم.

وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب، وقد بلغت في أيام الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار. عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب، حتى قيل إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «إذهبي حيث شئت يأتني خراجك»(١).

على أن دخل الدولة العباسية أخذ ينقص شيئاً فشيئاً. حتى أصبح في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أقل من جزء واحد وعشرين جزءاً مما كان عليه في عهد هارون الرشيد، وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلاً لا يحتمل مما نهك قوة هذه الدولة.

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد بلغ ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة، وأن نفقة الخليفة المأمون بلغت ستة آلاف دينار كل يوم أي ٢,١٩٠,٠٠٠ دينار في السنة(٢).

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب. وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على صالح الدولة، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، وتدفع منه أعطيات الجند، أي رواتبهم التي تصرف لهم في أوقات معينة من العام، كما ينفق منه على كري الأنهار وإصلاح مجاريها وكري الترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، وحفر الترع للزراعة وغيرها، وكذا النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم، وعلى المعدات الحربية والعطايا والمنح التي يمنحها العلماء والأدباء كما تقدم.

ومع توافر موارد الدولة في العصر العباسي، كانت خزائن الخلفاء تفيض بما كانوا يجبونه من الضرائب حتى عم الرخاء ورخصت أسعار الحاجيات. يقول الخطيب البغدادي(٣): «سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخاري يقول: رأيت في زمن أبي جعفر كبشاً

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٠.
(٢) Ameer Aly, p. 426 et seq.
(٣) تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٠.

بدرهم، وحملاً بأربعة دوانق (والدانق سدس درهم)، والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم. . . وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلاً بدرهم، ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم، ثم ذكر العسل فقال عشرة أرطال، والسمن اثني عشر رطلاً».

ويرجع الفضل في ازدياد موارد الدولة في العصر العباسي الأول إلى اهتمام الخلفاء بشئون البلاد الاقتصادية، والعمل على تنمية مواردها، وعنايتهم بالزراعة والتجارة وغيرها من شئون الاقتصاد والمال، كما تفعل الدول في العصر الحديث.

١ ـ الزراعة:

وجه خلفاء العصر العباسي الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة، فنشطوا في حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطر. وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية. وكانت الحكومة تشرف على إدارتها إشرافاً مباشراً. وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها. وامتدت في هذه الأراضي شبكة من الترع والمصارف، حتى أصبحت قوية الخصب، تكثر بها المزارع والبساتين، وكانت تعرف بأرض السواد[1]، ولكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة. ويحد السواد من حديه: الموصل إلى عبادان طولاً، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان غرباً، وتبلغ مساحته، على ما ذكره الخطيب البغدادي[2] ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب، والجريب عشرة آلاف ذراع[3].

ولما كان ماء الفرات لا يكفي لري أراضي السواد أو يساعد على خصبها، عمل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الإرواء بشق كثير من الجداول والترع، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لإرواء الأراضي الواقعة على شاطئه الغربي وعلى ساحل الخليج الفارسي، وأمكن بذلك إرواء جميع الأراضي الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى أرض نضرة تدر على أهلها الخير والماء. كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذي يأخذ ماءه من دجلة وقناة أخرى من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات، ووصلها بمدينة بغداد في عقود محكمة

---

(١) يلحق العرب لون الخضرة بالسواد فتضع أحدهما محل الآخر، من ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين «مدهامتان» (سورة الرحمن ٥٥: ٦٤) أي خضراوان، فوصفت الخضرة بالدهمة وهي من سواد الليل. وقال الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٤) في موضع آخر: إنما سمي السواد سواداً لأنهم قدموا يفتحون الكوفة، فلما نظروا سواد النخل قالوا: ما هذا السواد؟

(٢) تاريخ بغداد جـ ١ ص ١١.

(٣) انظر لفظ السودان في معجم البلدان لياقوت، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ١ ص ١١، ١٢، ٢٤.

بالصاروج (وهو حجر الكلس) والآجر. فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ في الشوارع والدروب والأرباض، ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء[1]. كما ساق هذا الخليفة الماء إلى الكرخ، فجرى فيها نهر القلائين، نسبة إلى محلة كبيرة واقعة شرقي الكرخ كان يقلى فيها السمك، ونهر البزازين، ونهر الدجاج، وقد سمي بهذا الاسم لأن بائعي الدجاج كانوا يقفون عنده لبيع ما معهم من الدجاج.

ويجري ببغداد نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ ماءه من الفرات، ويمر بسطوح فيروز سابور، حتى يصل المحول التي تبعد عن بغداد بفرسخ واحد. ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد، ويصب في دجلة عند قصر عيسى بن علي العباسي. وعلى كل قنطرة من القناطر المقامة عليه سوق تحيط بجانبه البساتين والمتنزهات. وقد امتدت القنوات إلى جميع أرباض بغداد. فغرس أهلها النخيل الذي كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد، كما غرسوا الأشجار ونسقوا البساتين والحدائق. ويأخذ الصراة من نهر عيسى عند المحول ويسقي أرض بادرايا، ويستمر في سيره إلى أن يصل إلى بغداد ويصب في دجلة، ومن أنهار بغداد نهر كرخايا الذي يأخذ ماءه من نهر عيسى جنوبي المحول، وتتفرع منه جداول تجري في سوق الكرخ. ومنها رفيل، ويأخذ ماءه من نهر عيسى ويصب في دجلة.

وقد عني خلفاء العصر العباسي الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة علمية، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين، فتوسعوا في البحث النظري ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النبات.

وسار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمة ترمي إلى عدم إرهاق المزارعين بالضرائب، وعني بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض، وراعوا خفض الضرائب إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

وكذلك عني الخلفاء العباسيون بشئون الزراع وعملوا على تخفيض الضرائب عليهم؛ فألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الحنطة والشوفان، وأحل محلها نظام «المقاسمة»، وهو دفع الضرائب نوعاً بنسبة خاصة من المحصول. على أن النظام النقدي القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهها. ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة في جمع الضرائب، توسع الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه

(١) اليعقوبي. كتاب البلدان ص ٢٥٠.

المنصور فعممه، وجعل الضرائب تجبى دائماً بالنسبة للمحصول وإذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج إلى عمل كثير، ألزم المزارع بأن يقدم إلى الحكومة نصف غلة أرضه، وإذا صعب عليه إرواؤها، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض.

أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوَّم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث، ويسمى هذا النظام المقاسمة، تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف بالمحاسبة، والذي كان يقضي بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض.

وفي سنة ٢٠٤هـ خفض الخليفة المأمون العباسي (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) ضريبة الأرض مرة أخرى. فأصبح يجبى الخمسان بدلاً من النصف، حتى على أكثر الأرض إنتاجاً. أما في بابل والعراق والجزيرة وفارس، حيث نجد كثيراً من كبار الملاك والمزارعين. فقد كانت هناك ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التي عقدت أيام الفتح، وكان أهالي شمالي فارس وخراسان يتمتعون بنفس هذا الامتياز.

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها: فنُرى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبدالله بن العباس، وقطيعة الربيع بن يونس، وكان بها تجار خراسان من البزازين أي بائعي الثياب، وقاطعة صالح بن المنصور[1].

وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال، عدا الهدايا والطرف، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي شمل أوربا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم. فولى الرشيد عبد الملك بن صالح مصر صلاتها وخراجها، وولى المأمون عبدالله بن طاهر بن الحسين هذه البلاد (٢١١ ـ ٢١٣هـ) على هذا النحو الإقطاعي. وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون وتلك السياسة، فولى أشناس التركي مصر (٢١٩ ـ ٢٢٩هـ)، وقلد الواثق إيتاخ ولاية هذه البلاد (٢٣٠ ـ ٢٣٥هـ)[2].

---

(١) راجع كتاب البلدان لليعقوبي، ص ٢٤٢ ـ ٢٥٤. انظر ما ذكرناه عن قطائع بغداد في الباب السابع من هذا الجزء.

(٢) الكندي: كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣ و١٧٣ و١٨٠ و١٨٤ و١٩٥ ـ ١٩٧، ١٩٨ ـ ٢٠٢.
Corbert, J.R.A.S. (1891). p. 528.

وكانت الحنطة تزرع في كافة بلاد الدولة العباسية حيث يتوافر الماء، أما الذرة فقد بقيت زراعته مقصورة على جنوبي جزيرة العرب، وكان الأهلون يزرعون كذلك الشعير والأرز والنخيل وأشجار الفاكهة.

وكان الكرم يغرس بكثرة في جميع أنحاء الدولة العباسية. وتمتاز كروم اليمن بطول عناقيدها. يحكى أن بعض عمال هارون الرشيد حمل إليه وهو يؤدي فريضة الحج عنقودين من العنب محملين على بعير. وذكر ابن حوقل في كتابه «المسالك والممالك» أن أهل مدينة زُغر القريبة من البحر الميت كانوا يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخل بالطلح.

ومن الفواكه التي أدخلت زراعتها في أراضي الدولة العباسية النارنج، وقد ذكر المسعودي أنه جلب من الهند، ثم زرع بعمان والبصرة والعراق والشام. وذكر المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» أن ثمارالنارنج في فلسطين كانت أحسن منها في غيرها من البلاد.

وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها الذي أصبح مضرب المثل في الحسن، كما كثرت بفلسطين أشجار الزيتون وخاصة في بلدة نابلس التي كان أهلها يستخرجون منه الزيت.

وكان قصب السكر يزرع في البصرة وصور. وبلغ من شهرة صرر بزراعته أن اتخذ بعض أهالي البندقية بها مزرعة قصب في أيام الحروب الصليبية، كما بلغت زراعة القصب شأواً كبيراً في العصر العباسي الأول.

وجلب العرب الجاموس من الهند ـ وهي موطنه الأصلي ـ ثم نقل إلى العراق في عهد الأمويين. وروي أن أهل الشام في ذلك العهد لما شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم، أمرت الحكومة بوضع أربعة آلاف جاموسة على حدود بلادهم من ناحية الشمال، لأن الجاموس كان يعتبر أكبر عدو للأسود.

وكان أهالي فلسطين يعنون بتربية الجاموس ويعتمدون في غذائهم على لبنه ولحمه. أما البقر فلم يكن لحمه مستساغاً، وإنما كان يربى للانتفاع بلبنه. وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب يوصي بلبن الغنم ولحم الضأن.

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت؛ ولكن زراعة التوابل لم يقدر لها النجاح، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت في بعض جهات الأندلس وصقلية[١].

---

(١) Heyd: History du Commerce, tome I.p.50.

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والفواكه كالبرتقال والكمثري والتفاح والتين والعنب والرمان والخوخ الذي كانت تكثر زراعته في السهول، والموز الذي تكثر زراعته في وديان البحر الأبيض المتوسط، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون. وعني أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس، والتوت لتربية دود القز. وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كتاجة والوادي الكبير والوادي اليانع وإبرو، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول، واستخدموا هذه المياه في الزراعة التي أحرزوا قصب السبق فيها. ووضع الأمويون تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي الذي أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها، وقد أخذه عنهم غيرهم من الأمم.

٢ - الصناعة:

كذلك كان للصناعة نصيب كبير من عناية خلفاء العصر العباسي الأول الذين عنوا باستعمال موارد الثروة المعدنية، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان. وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات المعدنية. كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز، والملح والكبريت من شمالي فارس، والقار والنفط من بلاد الكرج.

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج، ولا سيما في عهد الخليفة المعتصم الذي شيد مصانع جديدة لها في بغداد وسامرا وغيرها من المدن؛ كما أنشأ مصانع للورق في عدة مدن وجلب لها الأساتذة، والصناع من مصر التي اشتهرت بصنع الورق منذ عهد بعيد، كما أنشأ العباسيون دوراً للطراز في أهم مدن فارس. وكذلك تفوق المسلمون في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد. ومما يدل على تفوق المسلمين في الصناعة، هذه المنسوجات النفيسة التي أخرجتها أنوال فارس والعراق والشام، فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها، وتفوقت خوزستان بمنسوجاتها. وكان للمنسوجات الحريرية المشجرة الجميلة التي تصنع في تستر ولسجاجيد قرقب وحراير سوس شهرة عظيمة في أسواق العالم في ذلك الحين. وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى «الدمقس» واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها.

كما اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة المنسوجات، فكان يصنع في مدينة تنيس الثياب الملونة والفرش، ويعمل بها للخليفة ثوب يقال له البدنة بلغت قيمته ألف دينار، ليس فيه من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين، أما بقيته فمن الذهب الخالص المحكم الصنعة،

ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة النسيج من الكتان بلغت قيمتها مائة دينار إلا في مدينتي تنيس ودمياط، مما يدل على مدى تقدم صناعة المنسوجات المصرية ودقتها في ذلك العصر كما كانت تصنع الثياب الصوفية في مدينة القيس.

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف، واتخذ أهلها سمة (طرازاً) خاصة بهم في زخرفة الزجاج. وفي مستهل القرن الثاني للهجرة كان الزجاج الملون المطلى بالميناء يصدر إلى كثير من جهات العالم. وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الإتقان[١].

وكان ببغداد عدد كبير من دور الصناعة، وقد قيل إنه كان بها أربعمائة رحى مائية، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف[٢]. ويلوح لنا أن في هذا القول شيئاً كبيراً من المبالغة. وكان لكل حرفة سوق خاصة، كسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق البزازين[٣]. وقد أسس الخليفة المنصور أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزاً للصناعة والتجارة.

واشتهرت بغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس، وبلغت صناعتهم شأواً بعيداً في الدقة والجمال، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأبصار، وكانوا يتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً، صوروا عليها طيوراً تطير، ومن فوقها العقبان تنقض عليها، وهي تحاول الإفلات من مخالبها، مما يأخذ بالألباب ويستوقف الأنظار[٤].

واشتهرت مصر من عهد الفراعنة بصناعة المعادن، ولا سيما صياغة الذهب والفضة، وضربوا بسهم وافر في صناعة الأدوية والعقاقير.

واشتهرت مصر في العصر العباسي الأول بصناعة المراكب النيلية التي كانت تسير في النيل تحمل حاصلات البلاد بين جهات الوجهين البحري والقبلي، كما اشتهرت بصناعة السفن التي تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الاسكندرية ودمياط وتنيس والفرما.

---

(١) أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة ص ٣٦٤ - ٣٦٥.
(٢) أمين زكي: كتاب عمران بغداد ص ٥٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٨.
(٤) نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٥.

وكذا اشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة، وعلى الأخص الذهب من المناجم الواقعة على نهر تاجة، والفضة ببعض جهات قرطبة، والحديد من جبال طليطلة. والرصاص من غربي قرطبة، والنحاس بنواحي طليطلة وشمالي الأندلس. وقال المقري[١] إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والخمري والأحمر والمجزع، ووصفها وصفاً شائقاً وذكرأماكنها. وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الجلود. كما اشتهرت بلاد الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع.

كما اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون، والنبيذ من الكروم، ومهر أهلها في استخراج العقاقير من النباتات المختلفة التي أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد[٢].

أسس محمد بن علي بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيح دخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة، وقد قام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بغرس نباتات الشام وآسيا الصغرى ومصر وفارس. ثم ضمه الملك الكامل الأيوبي إلى حاشيته وأصبح رئيس النباتيين؛ وألف كتابه المشهور في النباتات ومات سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م).

٣ ـ التجارة:

ولم تقتصر عناية الخلفاء على الزراعة والصناعة وحدهما، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة، فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل، وأنشأوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار، وكان لذلك أثر بعيد في نشاط التجارة الخارجية والداخلية، وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تبخر عباب البحار.

وقد شجع خلفاء العصر العباسي الأول التجارة تشجيعاً غير مباشر بما أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلاطهم، وذلك بتمهيد الطرق وتأسيس مدينة بغداد التي ساعد موقعها على أن تصبح سوقاً تجارياً من الطراز الأول. وكانت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب ومصر، وأصبح الفرات ودجلة شريانين تجاريين هامين في داخل بلاد الدولة العباسية[٣].

---

(١) نفخ الطيب جـ ١ ص ٩٥.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) Heyd, Tome. I,p. 26

وبعد أن أسس العباسيون مدينة بغداد على شاطىء دجلة، حفروا قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات عبر العراق، ووصلوها بحاضرة دولتهم، وأصبحت هذه القناة تربط هذه الحاضرة بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر، وكانت تأتي إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخارى وفارس(١).

وقد ذكر الخطيب البغدادي(٢) وياقوت عند كلامهما على سبب اختيار المنصور موقع بغداد، أن أحد الدهاقين، وهم كبار ملاك الأراضي، حسن له النزول ببغداد فقال له: إنك تصير بين أربعة طساسيج (جمع طسوج وهو الناحية): طسوجان في الجانب الغربي، وطسوجان في الجانب الشرقي. فاللذان في الغربي قطربل وبادريا واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذي، فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامراً. وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تجيئك الميرة من الغرب، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط في دجلة وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها في تامُرا، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة. وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر أو القنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت قريب من البر والبحر والجبل».

وبعد أن بنى المنصور مدينة بغداد، وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبية منها بين الصراة ونهر عيسى، ونقل إليها أسواق بغداد، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة. ومن هذه الأسواق، سوق العطارين، وسوق الحدادين، وسوق النجارين، وسوق البزازين، وسوق الرياحين (حيث تباع الزهور)، وسوق القصابين. وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق في آخر الأسواق وقال: اجعلوا سوق القصابين في آخر الأسواق، فإنهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع(٣).

ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في مقدمة كتاب التبصر بالتجارة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ص ٣) عن مدينة البصرة التي أصبحت في العصر العباسي الأول من أهم مراكز التجارة: «وهي باب بغداد الكبير، ومدخل دجلها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا... إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى. ولذلك استفحل بها العمران، وكثرت فيها المصانع والصنائع، وصارت واسطة العرب والعجم، وحق لها أن تتلقب بقبة السلام، كما سماها عمر بن الخطاب رضي الله عنه».

(١) Heyd, Tome I, p. 27
(٢) تاريخ بغداد جـ ١ ص ١ - ٢٣.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ جـ ١ ص ٨٠.

وكان طريق القوافل الكبرى التي يجتازها الحجاج السوريون يبعد عن البحر بعض الشيء لأنه كان يمر شرقي نهر الأردن خارج فلسطين. ولكن زيارة المسجد الأقصى بيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل كانت من الأمور المقدسة عند المسلمين. وكان كثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة، فيتقابلون مع حجاج الغرب المسيحيين. وبذلك أتيحت للتجار الفرصة لتبادل السلع. وفي ١٥ من سبتمبر من كل عام يقام في بيت المقدس سوق كبيرة يفد إليها تجار الأمم المختلفة. وكان أكثر الحجاج يجتمعون في دمشق التي كانت ملتقى عدة طرق هامة، ثم يسيرون في جماعات كبيرة إلى مكة، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج.

وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق. ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكة لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام، فلا يبعد أنها كانت تحصل على ما تحتاج إليه من السلع التي كانوا يبتاعونها في سوق دمشق الكبير. وهناك طريق آخر مهم يوصل إلى سورية، وهو مجرى الفرات الذي يبدأ من الخليج الفارسي وينتهي عند نقطة لا تبعد كثيراً عن البحر الأبيض المتوسط.

وكان ببلاد الشام كثير من الأسواق التي امتدت بها الحوانيت على جانبي الشوارع؛ وكان لكل طائفة من التجار قسم خاص بها؛ وللتجار الغرباء فنادق قريبة الشبه بالأسواق الكبيرة يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها. وقد أقام العرب غربي مصر وفي بلاد الأندلس وصقلية دويلات تقوم بدور الوسيط في تبادل التجارة بين الشرق والغرب، وكانت قصور القيروان وقرطبة وبلرم في حاجة إلى منتجات آسيا.

وكانت سفن العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط من ميناء أنطاكية شرقاً إلى جبل طارق في ستة وثلاثين يوماً. وتعد أنطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية، كما كانت صور ميناء حربياً أنشئت به دار للصناعة تخرج منه السفن لمحاربة البيزنطيين.

ويتضح من رحلات السندباد البحري التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة والتي ترجع إلى عهد هارون الرشيد، أن العرب قاموا في العصر العباسي برحلات بحرية تبدأ من بغداد وتسير في الخليج الفارسي حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (وتعرف الآن بشبه جزيرة الملايو). وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التي تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين.

ولا يبعد أن يكون العرب قد وصلوا إلى بلاد الصين في القرن الثاني الهجري، وأنهم كانوا من بين الأجانب الذين فتح لهم ميناء كانتون وسوقها في سنة ٨٢ هـ (٧٠٠ م). وقد أثبتت

بعض الفتن التي وقعت بهذه المدينة في سنة ١٤١هـ (٧٥٨م) وجودهم هناك[١]. كما جاوز العرب جزيرة سيلان في العصر العباسي الأول. وبعد أن كان العرب حتى أوائل هذا العصر يجوبون البحار الواقعة على ساحل الهند، أصبح من النادر أن يجوبوا الخليج الفارسي، لأنهم أخذوا يقومون برحلات طويلة إلى بلاد الصين. وقد اتخذ العرب ميناء سيراف مرسى لهذه السفن التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها من هذه الجهات، وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين[٢].

وفي القرن الثالث الهجري وضع أبو القاسم بن خرداذبه[٣] دليلاً للمسافرين، وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ مصب دجلة عند الأبلة ويصل إلى بلاد الهند والصين.

ويذكر ابن خرداذبه أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطىء الفارسي وساحل الهند حتى ملبار. وكان اختيار هذه الطريق يرجع إلى الرغبة في شحن البضائع وتفريغها في الموانىء المختلفة، لا إلى الخوف من التوغل في البحر. وفي الحق أن هذه السفن كانت إذا غادرت ساحل كروماندل تعبر خليج بنغالة في خط مستقيم كما كانت تفعل السفن الصينية تماماً.

وقد استطاع العرب منذ أواخر القرن الثاني للهجرة أن يستقروا في ميناء خانفو (بضم النون) إلى الجنوب من مدينة شنغاي الحالية، وكان لهم بسبب تساهل إمبراطور هذه البلاد وكرمه قاضي مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ويؤمهم في الصلاة، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل في داخل هذه البلاد ابتغاء التجارة مع أهلها. وظل حال تجار العرب على ذلك حتى قامت في هذه البلاد فتن وثورات كان من أثرها أن ساءت حال هؤلاء التجار، فقطعوا علاقاتهم مع الصين، وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا. واتخذوا مركزهم في مدينة كله kalah ، وهي فرضة في الهند في منتصف الطريق بين عمان والصين، وتقع في طرف خط الاستواء[٤].

وقد أصبحت كله مرسى للسفن التي تحمل متاجر آسيا الغربية والشرقية، وفتحت أمام تجار العرب سوق جديدة للتجارة في سلع الهند الصينية، وهي الكافور والقرنفل وخشب العود

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة المؤلف ص ٣٣١.

(٢) Heyd, Tome i. p. 72

(٣) كتاب المسالك (ليدن سنة ١٣٠٦هـ).

(٤) انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت.

والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير، وقد تقدمت هذه التجارة تقدماً عظيماً، حتى أصبحت الرحلة إلى شبه جزيرة ملقا في القرن العاشر الميلادي من أسهل الرحلات العالمية في نظر بحارة سيراف الذين عرفوا أيضاً جزيرة جاوه.

وقد وصل العرب إلى الهند الصينية والصين في كثير من الأحيان، ولا يبعد أن يكون بعضهم قد وصل إلى كوريا[1].

وكانت الرحلة من الساحل العربي إلى ساحل الهند الغربي تستغرق مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر، وقد تستغرق شهراً واحداً إذا ساعدتها الريح. ولا ريب أن تجار العرب كانوا يقيمون في سيلان قبل سنة ٨٠هـ.

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم في القرنين الثالث والرابع، أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند، وأن جماعة من أمراء ملبار قد اعتنقوا الإسلام وسمحوا للعرب بإقامة المساجد في هذه البلاد، وبينما أنشأ العرب على سواحل الهند وفي بعض مدنها جاليات عربية، كانت جيوشهم منذ أوائل القرن الثامن الميلادي قد تجاوزت حدود فارس فاستولت على بلاد السند. وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت في الملتان والديبل. وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد في ذهابها إلى بلاد الهند والصين وفي عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد[2].

كذلك وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية. وبينما كان زمرد ساحل الهند الشرقي ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة، كان أمراء الشرق الأقصى يطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثيرة في الحبشة. وكانت ميناء عدن سوقاً نافقة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقية الشرقي[3].

وكانت جدة ميناء مكة كما كانت القلزم ميناء مصر وسورية، وقد فكر هارون الرشيد في حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر. ولكنه أهمل هذه الفكرة عندما قيل له إن الإغريق يجدون عن طريق هذه القناة منفذاً إلى البحر الأحمر، وإنهم يستخدمون هذا المنفذ لإرسال حملات ضد مكة والمدينة وقطع طريق الحج. لذلك عدل الرشيد عن حفر قناة السويس[4]

---

(١) Hyed, tome.I, pp. 30-32.

(٢) Ibid, pp. 32-33. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٣٣١ وما يليها.

(٣) Heyd, tome.I, p. 53

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٩.

وأصبح من المستحيل تحاشي عبور الصحراء إذا أريد نقل السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر إلى الغرب، فكانت هذه السلع تحمل على ظهور الجمال ثم تنقل في النيل، أو ترسل في البر عبر برزخ السويس[١].

وكان الطريق الأول يوصل إلى الإسكندرية مباشرة. وإذا كانت شهرة الإسكندرية قد تضاءلت أمام شهرة بغداد، فإن حالة الغنى التي تمتعت بها مصر في عهد الطولونيين قد أعادت إليها بعض الانتعاش. وكان بعض السلع التي ترد عن طريق البحر الأحمر يرسل عبر برزخ السويس إلى ميناء الفرما التي احتفظت بغناها وأهميتها. ومما جعل لهذا الطريق قيمة ظاهرة بين الطرق الأخرى أنه كان لا يستغرق أكثر من أربعة أو خمسة أيام.

أما السلع التي كانت تجلب من الشرق إلى جدة ومنها ترسل إلى مكة في موسم الحج، فإنها كانت تصل إلى الغرب على أيدي التجار المصريين الذين كانوا يفدون إلى بلادهم براً مع الحجاج، أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها إلى دمشق.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب أصحاب السيادة على المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند، كان هناك طريق تجاري يسير من تلك المنطقة إلى داخل فارس ماراً بولاية سجستان. وإلى الشمال من ذلك الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان، وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما من المدن التي صارت فيها بعد مراكز تجارية كبيرة. ومن هنا تسير القوافل نحو خراسان غرباً وبخارى شمالاً، حتى إن توابل الهند كانت تنتشر في تلك الأقاليم وتتلاقى في بخارى مع السلع الآتية من الصين عبر آسيا الوسطى.

وكانت هناك علاقات تجارية بين أهالي بخارى والصين. وبعد أن وصل نفوذ العرب إلى نهر سيحون كان التاجر يستطيع الذهاب إلى الصين دون أن يجد عقبات من السلطات الرسمية. وبعد أن يعبر نهر سيحون شرقاً يمر بقبيلة التغزغز أهم قبائل الترك التي كانت تقيم على سفوح جبال تيان شان. وكان هناك طريقان مطروقان: أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع، ويصلح لسير دواب الحمل، والآخر قصير جداً، ولكنه متشعب، ولذلك يستغرق أربعين يوماً. وهناك طريق يمر بالتبت ولكنه كان محفوفاً بالمصاعب[٢].

وكانت تجارة الحرير هي السبب الأساسي في ذهاب القوافل إلى الصين. فلما انتشر هذا النوع في شمالي فارس واشتهرت بصناعته، قل مسير القوافل إلى بلاد الصين[٣].

---

(١) Hyed, tome I, p. 41

(٢) Ibid, tome I, pp. 836-38.

(٣) Ibid, I. pp. 37-38.

ويقول صاحب «كتاب حضارة الإسلام في دار السلام»(١) إنه لما توافرت الأموال في أيدي العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن. حملت السلع من جميع أرجاء العالم إلى العراق. فحملت الآنية من الهند، والحديد من خراسان، والرصاص من كرمان، والنسيج الملون من قشمير، والعود والمسك والسروج والدار صيني من الصين، والعطر وأنواع الطيب من اليمن، والسلاح والمصوغات من فارس، واللآلىء من عيذاب والخيزران والكافور والعود والقرنفل والنارجيل والثياب القطنية والفيلة من الهند والسند، والياقوت والماس من سرنديب، والجلود والرقيق من بلاد الروم، والفاكهة والسلاح والحديد من بلاد الشام. وجلود الثعالب من الروسيا.

وقد عني هارون الرشيد بتنظيم التجارة، فعهد إلى المحتسب في مراقبة الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل. ومراعاة أثمان الحاجيات منعاً للغش أو ابتزاز أموال الأهلين(٢).

وكان المسلمون في العصر العباسي الأول يصدرون الشعير والحنطة، والأرز والفاكهة وزهور مازندران المشهورة، والسكر والزجاج والحرير، والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية، والزيت والعطور. كماء الورد والزعفران وماء السوسن وشراب العنف وزيت البنفسج وغيرها(٣).

وصفوة القول ان عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية، كان له أثر بعيد في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة، فكثرت رحلاتهم في هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب. فوصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة.

---

(١) جميل نخلة المدور ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨.

(٣) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة ص ٢٦٦.

الباب السابع

الثقافة

(ا) اشتغال الموالي بالعلم:

مما يسترعي نظر الباحث في تاريخ الثقافة الإسلامية، أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالي، وخاصة الفرس. وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد في القرن السابع الهجري. وفي ذلك يقول ابن خلدون[1] عند كلامه على «أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم»:

«من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبته، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن علم فيها ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم. وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عزب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة. وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين. وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء، أي الذين يقرأون الكتاب، وليسوا أميين لما أن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة، بما كانوا عزباً. فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء، إشارة إلى هذا، فهم قراء لكتاب الله والسنة والمأثورة عن الله، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح. قال صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي. فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فيما بعد، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه. ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الإسناد وما دونه، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة. وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى

---

(١) (مقدمة طبعة كترمير Quatremère) ص ٢٧٠ - ٢٧٤.

وضع القوانين النحوية وصارت العلوم حضرية. . وبعد الحرب عنها وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس. فكان صاحب صناعة النحو سيبويه [والزجاج] والفارسي (٣٧٧هـ) من بعده والزجاج[١] (٣١١هـ) من بعدهما. وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى (النشأة والتربية) ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم. وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى، لاتساع الفن بالعراق وما بعده. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما نعرف، وكذا جملة علماء الكلام! وكذا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: «لو تعلق العلم بأعناق السماء لناله قوم من فارس». وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة، فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها، مع ما يلحقهم من الأنفة في انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليهما، ودفعوا ذلك إلى من قام به من المعجم والمولدين، وما زالوا يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حامليها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غزيبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها، وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم، مشغولون بما لا يجدي عليهم في الملك والسياسة».

ويقول الأستاذ نيكلسون[٢] «وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية، ووفرة ثروتها، ورواج تجارتها، أثر كبير في إنشاء نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا أن الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً غدوا فجأة طلاباً للعلم أو على الأقل أنصاراً للأدب. وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر للمعارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل».

---

(١) كذا بالأصل ولعله يريد أن يقول: والزجاج من بعدها والفارسي من بعدهما، لأن الزجاج متقدم على أبي علي الفارسي.

(٢) Lit. Hist. of The Arabs p. 281.

هذا في الشرق الإسلامي في العصر العباسي الأول، أما في الغرب فقد نافست قرطبة بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب، حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية. ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم.

كان عهد الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ) وعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) فترة هدوء سياسي لم يقع فيها من الأحداث السياسية ما يستحق الذكر. وقد ساعد ذلك الهدوء على بدء نهضة علمية، ولا سيما في عهد عبد الرحمن الأوسط الذي يعتبر عهده عهد يسر ورخاء وازدهار ثقافي، وذلك عن طريق تأثير الشرق الإسلامي في العصر العباسي.

وكان عبد الرحمن الأوسط نصيراً للعلوم والفنون، أولع بالفلك والتنجيم وأحاط نفسه بنخبة من علماء الفلك وأدر عليهم الأرزاق والمنح.

وقد بعث في بداية عهده عباس بن نصيح إلى الشرق الإسلامي لينقل إليه الكتب التي استحوذ عليها العباسيون. وكان هذا الأمير الأموي مولعاً بمطالعة كتب الطب والفلسفة القديمة(١). وانتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط. وبذل الحكم المستنصر، حتى قبل أن يجعل على عرش الخلافة الأموية سنة ٣٥٠ هـ، جهوداً بعيدة الأثر في توجيه الدراسة الأندلسية في ميدان العلوم والطب.

تقسيم العلوم:

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة.

وتشمل العلوم النقلية؛ علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان، والأدب.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والسحر، والكيمياء، والتاريخ، والجغرافيا.

وفي العصر العباسي الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية، وظهر المتكلمون، وتكلم

---

(١) بروفنسال؛ الشرق الإسلامي والحضارة العربية (تطوان ١٩٥٩) ص ١٨ ـ ١٩.

الناس في مسألة خلق القرآن. وتدخل المأمون في ذلك، فأوجد مجالس للمناظرة بين العلماء في حضرته. ولهذا عاب الناس عليه تدخله في الأمور الدينية كما عابوا عليه تفضيله علي بن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين والأمويين، وذهب بعض إلى أن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلف بين المتناظرين في المسائل الدينية، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين. وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدر ضعفهم. وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل؛ فقرب أتباع هذا المذهب إليه، ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة.

وفي هذا العصر ظهر نوعان من العلماء: الأول هم الذين يغلب على ثقافتهم النقل والاستيعاب ويسمون أهل علم، والثاني هم الذين يغلب على ثقافتهم الابتداع والاستنباط ويسمون أهل عقل. وقد ذكر ابن خلكان[1] أن الخليل بن أحمد اجتمع بابن المقفع وتحدثا في شتى المسائل، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفَّع؟ فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه.

وليس من شك في أن ابن المقفع قد غلب على ثقافته النقل والترجمة والتأثر بآراء غيره من العلما، على حين قد غلب على ثقافة الخليل الابتكار الذي يتجلى من هذه الحقيقة، وهي أنه أول من فرع قواعد النحو، وأول من صنف المعاجم، وأول من تكلم في علم العروض، فالأول إذن ذو علم، والثاني ذو عقل.

(أ) العلوم النقلية

١ ـ علم القراءات:

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم القراءات، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن. وتتركز النواة التي بدأ بها هذا العلم في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها، وبعبارة أخرى في قراءته. ففي هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير. ويرجع السبب في ظهور بعض هذه القراءات إلى خاصية الخط العربي، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها.

وقد وجدت على مر الزمن سبع طرق في القراءات، تمثل كل طريقة منها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام،ترتبط باسمه وتستند إلى أحاديث موثوق بها، وعليها يقتصر في قراءة

---

(١) كتاب وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٧٣.

المصحف. ويعتبر هارون بن موسى البصري اليهودي الأصل (المتوفى بين سنتي ١٧٠ و ١٨٠ هـ، وكان مولى للأزد، أول من حاول نقد القراءات المختلفة، وبحث وجوه النظر التي تقوم عليها، ونقد الأسانيد التي تستند إليها نقداً قوياً. وعلى الرغم من أنه كان قدرياً معتزلياً، قدره البخاري ومسلم ووثقه يحيى بن معين. ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم ممن عاشوا في القرن الأول كابن عباس وعائشة، وعثمان صاحب القراءة، وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم، كعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وهؤلاء قد أثنى عليهم التابعون وغيرهم[١].

ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول يحيى بن الحارث الذماري[٢] المتوفى سنة ١٤٥ هـ، وحمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦ هـ في خلافة أبي جعفر المنصور، وأبو عبد الرحمن المقرىء المتوفى سنة ٢١٣ هـ، وخلف بن هشام البزاز المتوفى سنة ٢٢٩ هـ[٣].

٢ ـ التفسير:

اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل: ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية.

على أن النوع الأول من التفسير، وهو التفسير بالمأثور، وقد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل، مثل كعب الأحبار اليهودي وعبد الله بن سلام وابن جُريج. «ولقد كان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم»[٤]، كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير في استعمالاته اللغوية. وقد أثر عن ابن عباس أنه قال: إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات بألفاظ وردت في الشعر الجاهلي[٥].

---

(١) جولد تسيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ـ ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) نسبة إلى ذمار من مخاليف اليمن

(٣) ابن قتيبة: كتاب المعارف ص ٢٣٠ ـ ٢٣١. ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٤٢ ـ ٤٥.

(٤) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٦.

(٥) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٨ ـ ٦٩.

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام، اعتبر التفسير جزءاً من الحديث أو فرعاً من فروعه، حتى ان التفسير في ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات، إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشكون في نسبته إليه.

أما الطريقة المنظمة في تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا في العصر العباسي. روى ابن النديم[1] «أن عمر بن بكير كان من أصحاب الفرّاء صاحب كتاب معاني القرآن المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب؛ فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً. فلما خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ! وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها، ثم استوفى الكتاب كله، فقرأ الرجل، ويفسر الفراء، فقال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه». ولا شك أن الفراء قد فسر القرآن حسب ترتيب الآيات، وأنه فسره بهذه الطريقة التي رسمها لنفسه في أربعة أجزاء[2].

ومن أشهر المفسرين بعد عبد الله بن عباس، ابن جريج الذي كان يجمع كل ما وصل إليه دون تحري الدقة في التفسير، والسُّدي المتوفى سنة ١٢٧ هـ، وقد اعتمد في تفسيره على ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، ومقاتل بن سليمان الأزدي، المتوفى سنة ١٥٠ هـ، وقد تأثر بتفسير التوراة الذي أخذه عن اليهود، حتى إن الإمام أبا حنيفة قد اتهمه بالكذب، وقال الشافعي: «الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل في التفسير، وعلى زهير بن أبي سلمى في الشعر، وعلى أبي حنيفة في الكلام». ويروى عنه أيضاً أنه قال: «من أحب التفسير فعليه بمقاتل». ومن أشهر كتب التفسير: تفسير محمد بن إسحاق الذي أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية عن وهب بن منبه وكعب الأحبار.

على أن هذه التفاسير قد ضاعت، ولم يصل إلينا شيء منها إلا عن ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ) في تفسيره المشهور الذي يقع في ثلاثين مجلداً (القاهرة سنة ١٩٠٤)، وقد وصفه أبو حامد الأسفراييني بقوله: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً». يقول جولد تسيهر إنه دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور[3].

---

(١) كتاب الفهرست ص ٩٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٠.

(٣) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٥ - ٨٦.

ويمتاز الطبري في تفسيره بتحري الدقة في النقل عن الرسول والصحابة والتابعين، ومعارضته أصحاب الرأي المستقلين في التفكير، لأنهم كثيراً ما يتبعون هواهم. «وقد أعطى - كذلك - في تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً. وعلى هذا النحو انتظم في تفسيره، آية بعد آية، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم، ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلي، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل من نقد الرجال جرحاً وتعديلاً. فعندما يظهر له أن الحديث غير موثوق به، فإنه يصرح فيه بما يناسبه، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً. وقال مرة عن مجاهد الذي كان يحب أتباعه، إن رأيه يخالف إجماع الحجة الذي لا يمكن نسبته إلى الكذب، وفي مرة أخرى «وما ذكر هنا عن مجاهد لا معنى له وفساد رأيه لا شك فيه».

وعلى هذا النحو كان الطبري يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس. ويمتاز ابن جرير عمن سبقه من المفسرين، بأنه كان يأتي بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلية من مراجع يهودية الأصل (مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه) ولكنه لا يتمسك في ذلك بإعجاب المتقدمين بلا قيد ولا شرط[١].

امتاز العصر العباسي الأول بوجود جماعة من المعتزلة (أحرار الرأي) الذين لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم على العقل. وقد بذلوا جهداً عظيماً لدحض آراء معارضيهم بتفسير بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية. ويقول جولد تسيهر[٢]: «وقد جر سلوك هؤلاء المعتزلة المخالف لبعض النظريات الدينية السائدة عند المحدثين، إلى التباعد بين هؤلاء المتطرفين الذين يعتمدون على العقل، وهم أولئك الأتقياء المبالغون في الدقة. وكان ذلك في العصر العباس الأول، وما لبثوا بعد ذلك أن أصبحوا فرقة خالفت (وإن تكن للمخالفة أيضاً بواعث أخرى) النظريات المروية على خط مستقيم بكل حرية واستقلال».

وفي سبيل مكافحة خصوم هذه الفرقة (المعتزلة)، كان من الضروري أن تؤسس تعاليمها على أسس دينية من القرآن، وأن ترد من جهة أخرى حجج هؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها، من القرآن أيضاً، بطريق التفسير الماهر واستخدامه في سبيل ذلك.

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٩ - ١٠٠.

وقد حبذ جولد تسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية، لأنهم كافحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين[١].

ومن أشهر تفاسير المعتزلة تفسير أبي بكر الأصم (٢٤٠ هـ)، وتفسير ابن جرو الأسدي (٣٨٧ هـ). وقد قيل إنه كتب في تفسير البسملة نحو ١٢٠ وجهاً.

ومن ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعاً لكثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي؛ فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة يعتمدون عليها في استنباط قواعد اللغة العربية، كما ساعد «الإعراب» على تفسير القرآن وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية، حتى لقد وضع علماؤهم، كالكسائي والمبرد والفراء وخلف النحوي، كتباً أطلقوا عليها «معاني القرآن»[٢]. كما اعتمد الفقهاء في أرائهم الفقهية على القرآن، وألفوا في المذاهب المختلفة كتباً سموها «أحكام القرآن». ومن هؤلاء الشافعي وأبو بكر الرازي أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه. أضف إلى ذلك ما كتبه المؤرخون من تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلتها بتاريخ الأمم الأخرى. وغير خاف أن القرآن الكريم من أهم المصادر التاريخية بلا نزاع، لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالاً، ولا سيما في الكلام على النبي ﷺ. فمن القرآن نستطيع أن ننظر إلى النبي من حيث هو نبي أو سياسي أو مشرع، أو من حيث هو مصلح اجتماعي، أو من حيث كونه رجلاً عادياً. وبهذا كله نجد صورة واضحة للنبي من جميع هذه الوجوه كما نجد في القرآن مصدراً لتاريخ الأمم الأخرى كدولة سبأ في اليمن (سورة النمل وسورة سبأ)، وتاريخ اليهود (سورة البقرة) وصراعهم مع الرسول (سورة الأحزاب). وعلاقتهم بموسى (سورة البقرة والنمل والقصص وغيرها).

كما أخذ علماء الكلام يفسرون القرآن الكريم بما يتفق ومبادئهم. فأولوا القرآن لنفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى، وإبعاد الخرافات التي وجدت سبيلاً إلى الدين الإسلامي عن طريق التفسير[٣].

٣ - الحديث:

ومن أهم مصادر التشريع الإسلامي «الحديث» وهو ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي في الأهمية بعد القرآن. وقد جمع البخاري، على ما نعلم، نحو ٧٢٥٧ حديثاً بما فيها الأحاديث المكررة. فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف. وقد اختارها البخاري -

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧. (٢) ابن النديم ص ٥١ - ٥٢. (٣) المصدر نفسه ص ٥٧.

على ما قيل ـ من ثلاثمائة ألف حديث. ومع ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر حديثاً ومن ذلك يتبين لنا ما وصل إليه التحريف في الحديث.

وكانت هذه الأحاديث التي وصلت إلى أيدينا موضعاً للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين: ذلك أنه عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل. وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض، فتأثرت بشيء غير قليل من التبديل والتحريف، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها.

حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة، أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية. وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا في العصر العباسي واشتهر منهم الإمام مالك. والإمامان محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، ومسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ) صاحبي الصحيحين المشهورين الذائعين في بلاد الإسلام. ثم ظهر بعدهما أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ) صاحب السنن. وأبو عيسى محمد الترمذي (٢٧٨هـ) صاحب الجامع، والنسائي (٣٠٣هـ)، وابن ماجة (٢٧٥هـ) صاحبا السنن، وكلهم ممن ألف في السنن كتاباً نسب إليه. ولا تزال كتبهم باقية. وهي أشهر الكتب الستة، ولكن أشهرها جميعاً صحيحا البخاري ومسلم. وهذه «الكتبَ الستة» كما تسمى، تحتل المكانة السامية بين مصادر التشريع الإسلامي[١].

ومن رواة الحديث محمد بن إسحاق صاحب المغازي المشهور. روى ابن خلكان[٢] أن أصحاب الزهري كانوا يلجأون إلى محمد بن إسحاق فيما شكوا فيه من حديث الزهري ثقة منهم بحفظه. وحكي عن يحيى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل أنهم وثقوا محمد بن إسحاق واحتجوا بحديثه.

٤ ـ الفقه:

نشأ عن دراسة القرآن والحديث وتعرف معانيهما الخاصة الحاجة إلى تعلم النحو واللغة، وتطلب ذلك فهم الشعر الجاهلي الذي أمد الباحثين بأحسن ما تمثله اللغة العربية من الأدب القديم الخالص. كما تطلب فهم اللغة العربية دراسة الأنساب والتاريخ التي ما لبثت أن أصبحت على مر الزمن علوماً مستقلة. كذلك عكف المسلمون على تفسير القرآن، وحذا

(١) Nicholson, p. 337

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٨٣.

حذوهم في ذلك بعض التابعين. ولم يكن تدوين الحديث شائعاً في القرن الأول الهجري، غير أن الناس أقبلوا منذ مستهل القرن الثاني على جمعه وتدوينه، حتى أصبح المحور الذي تدور عليه الحركات العلمية في الأمصار الإسلامية.

على أن اختلاف أئمة الفقه في فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها قد أدى إلى تعدد المذاهب. واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي: مذهب مالك إمام أهل الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث، ومذهب أبي حنيفة إمام أهل العراق وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس، ومذهب الشافعي، وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز، ثم جعل مذهبه وسطاً بين الطريقتين، ومذهب أحمد بن حنبل، وكان من كبار المحدثين. واختص هو وأصحابه بالمذهب الحنبلي الذي يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه[1].

ومن ثم ظهرت في ميدان الفقه مدرستان: مدرسة أهل الحديث في المدينة، وعلى رأسها الإمام مالك الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السنة، ومدرسة أهل الرأي في العراق، وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة الذي كان يدين بالرأي.

ولد أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠هـ، ومات ببغداد سنة ١٥٠هـ. وقيل إنه حج وهو في السادسة عشرة من عمره مع أبيه، وشهد عبدالله بن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله، كما روي أيضاً أنه سمع مالك بن أنس. وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة ببيع الخز، ويجلس في الأسواق، مما أكسبه خبرة عظيمة، وجعله يعرف حقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس في البيع والشراء.

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه في مدرسة الكوفة، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولى عبدالله بن عمر، ولكنه أخذ أكثر علمه عن أستاذه حماد بن أبي سليمان الأشعري. وكان أبو حنيفة يتشدد في قبول الحديث ويتحرى عنه وعن رجاله، فلا يقبل الخبر عن رسول الله إلا إذا رواه جماعة عن جماعة، أو إذا أنفق فقهاء الأمصار على العمل به.

ولم يصل إلينا أي كتاب في الفقه لأبي حنيفة. إلا أن ابن النديم[2] ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر، وهو في العقائد، ورسالته إلى البُسْتي. وكتاب العالم والمتعلم، وكتاب الرد على القدرية، والعلم براً وبحراً شرقاً وغرباً بعداً وقرباً.

ومن تلاميذ أبي حنيفة الليث بن سعد الذي تقلد قضاء مصر. وقد قيل إن أبا جعفر

---

(١) مقدمة ابن خلدون. ص ٣٩١ ـ ٣٩٣. (٢) كتاب الفهرست ص ٢٨٥.

المنصور اجتمع به في بيت المقدس، وأنه قال لما خرج لوداعه: أعجبني ما رأيت من شدة عقلك؛ والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك. وقد ذكر ابن خلكان[1] أن دخل الليث بلغ خمسة آلاف دينار في السنة، وأنه كان يوزعها على أهل العلم استغناء منه وتورعاً.

ومن فقهاء ذلك العصر مالك بن أنس الذي ولد سنة ٩٣هـ (أو سنة ٩٧هـ)، وتوفي سنة ١٧٩هـ. وقضى حياته بالمدينة المنورة. وروي أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبي نعيم، وأخذ العلم عن ربيعة الراي، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كابن شهاب الزهري، ونافع مولى عبدالله بن عمر، وروى عنه الأوزاعي.

وكان مالك أول من كتب في العلوم الدينية في العصر العباسي، وكتابه «الموطأ» أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي. ومن كتبه «المدونة»، وهي مجموعة رسائل من فقه مالك، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري. وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة. وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً، لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم، وورثوا من السنة ما لم يتح لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى.

وقد دخل مذهب مالك الأندلس في عهد الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦هـ). وحل محل مذهب الأوزاعي الذي ظهر في المدينة ومات في الشام سنة ١٨١هـ. وقد قبل الأمير الأموي هذا المذهب لأنه يحرر بلاده من تأثير العباسيين الأدبي[2] وانتشر هذا المذهب في المغرب في الوقت نفسه. وبذلك اتجهت الدراسات الفقهية شطر مذهب مالك. وقد نشأ عن دخول مذهب مالك في المغرب والأندلس مدرسة دينية طبقت شهرتها العالم الإسلامي الغربي. وظهر من بين علمائها: عبد الملك بن حبيب صاحب «الواضحة» وعيسى بن دينار، وزياد بن عبد الرحمن.

وممن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك محمد بن الحسن في العراق، ويحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ) في الأندلس، وكان من قبيلة المصامدة من البربر. وقد أخذ العلم عن مالك، وروى عنه كتابه «الموطأ»، وبروايته انتشر في المغرب والأندلس، وانتهت إليه الرياسة في الفقه والحديث في بلاد الأندلس. كما سمع عن الليث بن سعد في مصر وسفيان بن عيينة بمكة.

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣٨.

(٢) ويرجع السبب في ذلك إلى أن العباسيين كانوا يسيرون على وفق مذهب أبي حنيفة. لذلك مال الأمويون بالأندلس إلى مذهب الأوزاعي ليتجنبوا المذهب الحنفي الذي اتخذه العباسيون.

وكان قاضي القضاة في بلاد الأندلس لا يلي إلا بمشورة يحيى واختياره[١]. ومن تلاميذ مالك أيضاً عبدالله بن وهب. وعبد الرحمن بن القاسم، وعبد الله بن الحكم في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان.

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الذي جمع بين مدرستي النقل والعقل بما أوتيه من سعة العقول والقدرة على الابتكار. وهو أول من تكلم في أصول الفقه وأول من أخذ في وضع مبادئه. وكان شديداً في التشيع حتى إنه حضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال: «لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم، هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل». «وكان الشافعي إذا أراد أن يحدث، توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة. فقيل له في ذلك، قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ لا أحدث إلا متمكناً على طهارة». وقد ترك بلاد العراق سنة ٢٠٠ هـ وقصد مصر حيث مات بها سنة ٢٠٤هـ. وله كتب كثيرة في الفقه، منها كتاب المبسوط في الفقه، وكتاب الأم، وقد أملاه على تلاميذه في مصر. وروى عنه كثير من الفقهاء كأبي ثور وابن الجنيد والبويطي وابن سريح وغيرهم[٢].

كان الشافعي ـ كما وصفه ابن خلكان[٣] كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين: اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر، حتى إن الأصمعي، مع جلالة قدره في هذا الشأن، قرأ عليه أشعار الهذليين ما لم يجتمع في غيره، حتى قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي. . قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، فقال: يا بني! كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل، الذي قال فيه الإمام الشافعي حينما خرج من بغداد إلى مصر. «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل». إلا أن مذهبه قليل الأتباع، وأكثرهم بالشام ونجد والبحرين. وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى: وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزيمته وشدة تمسكه بالدين.

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠.

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٤٧.

ومن فقهاء ذلك العصر أبو يوسف الذي ولد سنة ١١٤هـ، وتوفي سنة ١٨٢هـ. وقد ذكر المترجمون له أنه نشأ فقيراً، وأن أستاذه أبا حنيفة كان يمده بالمال. وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدي والهادي والرشيد. وكان في أيام الرشيد يتقلد منصب قاضي القضاة.

وكان أبو يوسف أكبر تلاميذ أبي حنيفة، وقد أخذ عنه الفقه، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد. ومن مؤلفات أبي يوسف «كتاب الخراج» الذي ألفه للرشيد. وتعرض فيه لأهم أمور الدولة المالية التي لا يستطيع الإلمام بها إلا من كان في مثل منصبه وقربه من الخلفاء وتضلعه في الفقه الإسلامي.

ومن أشهر فقهاء هذا العصر الليث بن سعد. ولد ببلدة قلقشندة بمصر (في محافظة القليوبية)، واشتهر بالكرم والثراء، وبلغ دخله خمسة آلاف دينار في السنة كان يفرقها على أهل العلم من أصحابه كما تقدم، وقد أطنب العلماء في الإشادة بعلمه. روي عن الشافعي أنه قال: إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وقال ابن وهب: ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث، وكان الشافعي يتأسف على فوات لقائه. وتوفي الليث سنة ١٥٧هـ.

٥ ـ علم الكلام:

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم الكلام. ويقصد به الأقوال التي كانت تصاغ على نمط منطقي أو جدلي، وعلى الأخص المعتقدات، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم «المتكلمين». وكان يطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون أهل السنة والجماعة. يقول الغزالي[٢]: «وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة».

وكان من أثر ذلك أن أخذت كل فرقة تدافع عن عقيدتها وتعمل على دحض الأدلة التي وردت في عقائد مخالفيها. وكانت المناظرات تعقد بين المتكلمين في قصور الخلفاء وفي المعاهد الدينية كالمساجد وغير الدينية كبيوت الحكمة.

ومن أشهر المتكلمين: واصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، والنظام، وأبو الحسن الأشعري، وحجة الإسلام الغزالي.

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٨.

انظر علي حسن عبد القادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٦).

(٢) المنقذ من الضلال (طبعة دمشق ١٣٥٢/١٩٣٤) ص ٧١.

يقول دي بور[١]: وعلى أن ظهور الكلام في الإسلام كان بدعة من أكبر البدع. وقد شدد في التكبر على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاز البحث في الأحكام الفقهية العلمية ابتداع، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم، بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلي من الواجبات المفروضة على المسلمين. وقد صادف هذا الرأي قبولاً في ذلك العهد. وفي الحديث أن النبي قال: «أول ما خلق الله تعالى العلم أو العقل».

على أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون المتكلمين ردهم على أهل البدع، بحجة أن في ذلك ترويجاً لعقائد هؤلاء المبتدعين[٢].

على أننا نرى أن المتكلمين باستخدامهم أسلحة خصومهم قد نجحوا في الرد عليهم، كما نجحوا في دعم الكلام وتقويته. ويقول نيبرج[٣]: «فحلت المعتزلة (وهم من المتكلمين) من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية في أول أمرها من تاريخ المسيحية. فكما أنه لا ريب في أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت بمناظراتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسسته».

وقد غلا خصوم المتكلمين فرموهم بالزندقة، وقالوا: «علماء الكلام زنادقة» ويقول الشهرستاني[٤]: «فالمعتزلة غالوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفي الصفات».

وكان لتعاليم المعتزلة أثر كبير في النهضة الثقافية في العصر العباسي الأول، ولا سيما في مسألة القرآن، وهل هو مخلوق أو قديم، وفي المناظرات التي عمل المأمون على ترويجها لنشر العلم وإزالة الخلاف بين العلماء. وقد ظهر في عهده جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد، وحكموا عقولهم في البحث، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث. وكان اعتماد المتكلمين في مباحثهم على العقل دون النقل. ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل، فقرب أتباع هذا المذهب إليه. ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ في قصر الخلافة ببغداد؛ ووافقهم فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن كما تقدم.

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي بريدة، ص ٥١.
(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٣) مقدمة كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ص ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠.

وصفوة القول أن بعض خلفاء العصر العباسي الأول، كالمأمون والمعتصم والواثق، شجع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلي في المسائل الدينية، وأن هؤلاء الخلفاء وقع فيما وقع فيه الروم من قبل، فأخذوا ببعض هذه الآراء واضطهدوا المعارضين لها، وعضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية وبخاصة مسألة خلق القران، التي شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة (٢١٨ ـ ٢٣٢هـ).

ومن أبرز متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف الذي ولد سنة ١٣٥هـ ومات سنة ٢٣٥. وكان من أقوى الشخصيات في مدرسة البصرة كما كان رئيس طائفة المعتزلة في أيامه؛ واشتهر بالجدل. وقد وصفه الخياط المعتزلي[1] بقوله: إنه نسيج وحده ووحيد دهره في البيان ومعرفة جيد الكلام، وكان أبو الهذيل واسع الاطلاع فصيحاً. يدل على ذلك قول أحمد بن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥هـ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: «ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ. وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلامه بثلثمائة بيت[2]». واشتهر أبو الهذيل بقوة الجدل والإقناع، حتى قيل إنه أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل، وقد شغل كل حياته بالجدل مع الزنادقة والمجوس والثنوية وغيرهم. وقد ناظر مرة صالح بن عبد القدوس، وكان زنديقاً، فغلبه، فأنشد صالح هذا البيت:

أبـا الهُـذَيْـلِ جـزاك الله من رجـل   فـأنت حقاً لعمـري مُعْضـل جـدل

وبالإضافة إلى ما امتاز به أبو الهذيل من سعة الاطلاع والفصاحة وقوة الحجة، أفاد كثيراً من وراء اشتغاله بالفلسفة اليونانية. وقد شهد له بذلك النظام المعتزلي الذي قال عنه حين ناظره في الفلسفة: «فلما ناظرته خيل إلي أنه لم يكن متشاغلاً إلا بها»[3]. ويقول دي بور[4]: «وكان متكلماً مشهوراً، وهو أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر في مذاهبهم الكلامية».

٦ ـ النحو:

نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول

---

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص ٦٧.
(٢) أحمد بن يحيى بن المرتضى: كتاب المنية والأمل ص ٢٦.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.
(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٥٧.

الهجري، وفيهما وضعت العقائد والفقه، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين. وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية. ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي، حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف. وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد الأمويين، وقد قيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب[١].

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التي تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها. ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة، حتى سمي نحاة البصرة «أهل المنطق» تميزاً لهم عن نحاة الكوفة. «وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند الكوفيين؛ وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق، لأن تأثير المذاهب الفلسفية قد ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها. وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كي تؤثر في مذاهبهم الكلامية»[٢].

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء (١٥٣/ ٧٧٠) الذي اشتغل بالتفسير، والخليل بن أحمد واضع علم العروض، وصاحب كتاب «العين» الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية، وسيبويه الفارسي، ويعرف كتابه باسم «كتاب سيبويه»، وفيه يقول دي بور[٣]: فلو نظرنا إلى كتاب سيبويه لوجدناه عملاً ناضجاً ومجهوداً عظيماً، حتى إن المتأخرين قالوا. إنه لا بد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء، مثله مثل قانون ابن سينا في الطب. ومن هؤلاء العلماء الأصمعي وأبو عبيدة، وقد تألق نجمهما في عهد هارون الرشيد، والمبرد صاحب كتاب الكامل الذي توفي بعد ذلك بقرن. ومن أشهر علماء الكوفة الكسائي العالم الفارسي الذي عهد إليه هارون الرشيد بتهذيب ابنيه الأمين والمأمون، وتلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ (٨٢٢م)، والمُفَضَّل الضبي الذي صنف كتابه المفضليات وأهداه إلى الخليفة المهدي[٤].

---

(١) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٦٠ ـ ٦١.
(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨ ـ ٣٩.
(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٩.
(٤) Nicholson, p. 286.

الأدب

(أ) الشعر :

وكانت نزعة الأمويين عربية جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، بل كان يؤثر عليها الشعر الجيد والخطبة البليغة، فأجاد بعض خلفائهم نظم الشعر: كيزيد بن معاوية حتى قالوا: بدىء الشعر بملك وختم بملك، يعنون امرأ القيس ويزيد. وكان عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً، وقد نبغ في عهده من الشعراء جرير والأخطل والفرزدق.

أما في العصر العباسي فقد ظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب، حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والمخضرمين والجاهليين. ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس، وهو ممن أذاع القول في الخمر والغزل والصيد، وغير ذلك من فنون الشعر التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف، وسخر من الأطلال التي جرى الشعراء على الإشادة بذكرها في مطلع قصائدهم، كما أنحى على كل قديم يدل على صحة هذا الرأي قول أبي نواس:

دع الأطلال تَسفيها الجَنُوبُ ... وتبْلَى عهدَ جِدَّتِها الخطوبُ
وخَلِّ لراكب الوجناء أرضاً ... تخبُّ بها النجيبة والنجيب
بلادٌ نبتها عُشَرٌ وطَلْح ... وأكثرُ صَيْدها ضبعٌ وذيب
ولا تأخذْ عن الأعراب لهواً ... ولا عيشاً فعيشُهُمُ جَديب
دع الألبانَ يشربُها رجالٌ ... رقيقُ العيش بينهم غريب[1]

وقد حذا ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ) حذو أبي نواس في القول بالتجديد وكان أول من اشتهر بالنقد، وأعلن أن الحكم على القدامى والمحدثين يجب أن يبنى على المواهب دون سواها، بغض النظر عن الزمن الذي عاشوا فيه. وحذا حذو ابن قتيبة من جاء بعده من الكتاب كالثعالبي، وابن خلدون، الذي نادى بأن الشعراء يجب أن يتغنوا بذكر الطبيعة، وأن ينشدوا الحقيقة، لا أن يصفوا أسفاراً على ظهور جمال لم يركبوها، ويقطعوا صحراوات لم يشاهدوها، بدلاً من أن ينظموا قصائدهم في أحد أنصار الأدب، ممن يقيمون في نفس المدينة التي يقيمون فيها.

ويتبين ذلك من عبارات ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء»: «ولم أقصد فيما

---

(١) Divan des Abu Nowas, Die Weinlieder .ed. by Ahlwart., No. 10 dd. 1-5.

ذكرته من شعر كل شاعر، مختار له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حقه، ووفرت عليه حظه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه»[1].

ومن هؤلاء الشعراء أبو تمام الطائي الأكبر المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، وتلميذه أبو عبادة البحتري صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة، وابن الرومي المعروف بطول نفسه وغزارة شعره وغوصه على نادر المعاني وعجيب التصورات، وأبو العتاهية الذي برع في فنون الشعر، فاشتهر بالغزل الرقيق، وعلى الأخص في عتبة جارية المهدي التي قال فيها:

يا عُتْبُ ما لي ولكِ ... يا ليتني لم أركِ
ملكِتني فانتهكي ... ما شئت أن تنتهكي
أبيتُ ليلي ساهراً ... أرعى نجومَ الفلك
مفترشاً جمر الغضى ... ملتحفاً بالحَسَك[2]

كما امتاز شعره بالحكمة والموعظة، وهو القائل:

إن أخاك الصدقَ من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومَنْ إذا رَيْبُ الزمان صدعك ... شتَّت شملَ نفسه كي يجمعك[3]

قال الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر»: إن الشعراء المحدثين فاقوا شعراء الجاهلية في رقة اللفظ وعذوبة المعنى.

ومن العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه وفي الأدب عامة:

١ ـ اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية، ففضائل العرب في الجاهلية لم تعد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتغنى به.

---

(١) ابن سلام. كتاب طبقات الشعراء (طبعة القاهرة) ص ٢.
راجع .Nicholson, pp. 285-7

(٢) يعني حسك السعدان، والحسك أيضاً ما يعمل من الحديد على مثاله وهو من آلات العسكر. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣١.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٥٢.

٢ ـ تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السذاجة، وذلك بسبب تعدد أعمال الناس وزيادة تجارتهم في العصر العباسي.

٣ ـ انتشار الشعوبية التي قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم.

٤ ـ أثر الثقافة الأجنبية، والفارسية خاصة، وفي الشعر والأدب العباسي. إلا أنه على الرغم من هذا كله، لا زلنا نجد في اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان.

٥ ـ اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين ـ عدا فترات قليلة ـ على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة. ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم. فكان كل اعتماد الشعراء في كسب عيشهم على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء، بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا. ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم مميزات الشعر في أيام العباسيين. أضف إلى ذلك دخول غير العرب وخاصة الفرس في حلبة الشعراء. ولما كان الحكم في الدولة العباسية استبدادياً، كان الإفراط في المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم.

وكان للفرق الدينية، كالشيعية والمعتزلة، التي نشأت في القرن الأول الهجري ونمت في العصر العباسي الأول، شعراء يدافعون عن مبدئهم ويحفزون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر. ومن هؤلاء السيد الحميري (١٧٣هـ). وكان كيسانياً، فأبان عن عقيدته في محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، وأشاد بمآثره على ما تقدم.

وكان للمعتزلة الذين نشطت دعوتهم في بداية العصر العباسي ونمت نمواً سريعاً في عصر المأمون، شعراء يشيدون بمبادئهم وأعمالهم. من ذلك ما قاله بعضهم:

له خَلْف شِعب الصين في كل ثغرة   إلى سوسها الأقصى وخلف البرابِر
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهُم   تهكمُ جبَّار ولا كيدُ ماكر

وقد حفزت الانتصارات المتوالية التي ظفر بها الخلفاء العباسيون على الروم، كثيراً من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للإشادة ببطولتهم وما أحرزوه من نصر وظفر في سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين. من ذلك ما قاله أبو العتاهية في مطلع قصيدته التي نظمها على أثر انتصار الرشيد على الروم في هرقلة:

ألا نادتْ هِرقلةُ بالخراب   من الملك الموفق بالصواب

ومدح أبو تمام الخليفة المعتصم على أثر انتصاره في عمورية بقصيدته التي قال فيها:

فَتْحُ الفتوح تعالى أن يحيط به   نظمٌ من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له   وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يومَ وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

(ب) النثر:

ويمثل الأدب وتاريخه في العصر العباسي الأول طائفة من الأدباء، نخص بالذكر منهم عبد الله بن المقفع الذي يرجع إليه الفضل في نقل كثير من الكتب عن الفهلوية، وهي الفارسية القديمة. ومن هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عن أقاصيص بيدبا التي كتبت بالسنسكريتية، وهي اللغة الهندية القديمة. ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر في الأدب العربي، كما يعد مثلاً أعلى في سلامة الأسلوب وسلاسة العبارة.

ومن أدباء هذا العصر عبد الحميد الكاتب الذي يعتبر شيخ صناعة الكتابة، والذي قيل فيه: «بدئت الكتابة بعبد الحميد»، لأنه أحدث فيها أموراً فنية لم تكن من قبل، كالتحميدات في صدور الرسائل وتقسيم الفقر والفصول، وختم الرسائل بما يناسب المكتوب إليه، وإطالتها في شئون الملك والسياسة إطالة لم تعهد من قبل. وليس لعبد الحميد كتب، وإنما خلف رسائل مشهودة مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ، من أشهرها رسالته إلى الكتاب، ورسالته التي كتبها إلى ولي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ويجمع أسلوبه بين الجزالة العربية وسهولة الحضريين، ومع غزارة المعاني ودقتها وحسن تقسيمها[١].

ومن هؤلاء ابن قتيبة الذي ينسب إلى مدينة مرو حاضرة خراسان؛ وقد تقلد منصب القضاء في مدينة دينور، وعاش في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. ومن كتبه كتاب المعارف، وكتاب الشعر والشعراء الذي نادى فيه بالتجديد وأنحى على كل قديم لوما، وكتاب «أدب الكاتب» وكتاب عيون الأخبار[٢] الذي قسمه إلى عشرة كتب: كتاب الحرب، وكتاب السؤدد، وكتاب الطبائع والأخلاق المذمومة، وكتاب العلم والبيان، وكتاب

---

(١) راجع ما كتبه الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب ـ نشره الأستاذ مصطفى السقا (١٢٥٧/١٩٢٨) ص ٧٦ ـ ٨٣.

(٢) طبعة دار الكتب المصرية في أربعة مجلدات (١٢٤٢ ـ ١٢٤٨هـ).

الزاهد، وكتاب الإخوان، وكتاب الحوائج، وكتاب الطعام، وكتاب النساء[١].

ومن أدباء ذلك العصر عمرو بن بحر الجاحظ البصري (٢٥٥ هـ) الذي عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة، حتى لقد نشأت فرقة تسمى الجاحظية نسبة إليه. ومن أشهر كتبه كتاب «الحيوان» وكتاب «البيان والتبيين».

(جـ) العلوم العقلية :

١ ـ الترجمة :

أما عن اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية، فيرى الأستاذ نيكلسون[٢] أنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية، التي كانت منذ فتوحات الإسكندر منتشرة في مصر وسورية وغربي آسيا، فإنه لما اضمحلت مدرسة الرها في أواخر القرن الخامس الميلادي بسبب قيام الخلافات المذهبية، لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس، واحتموا ببلاط كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٨ م)، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة، الذين نفاهم الإمبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم، وأسس في جُنْد يسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة، وبقي أثرها في تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية. كما غدت حران مركزاً آخر من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق. وقد تكلم أهل حران، وهم الصابئة، اللغة العربية في سهولة ويسر، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين. وإليهم يرجع الفضل في ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية.

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير في عهد بني أمية. وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية : فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء. وكذلك عربت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان، بعد أن كانت بالفارسية واليونانية، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك[٣].

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs, pp. 346-7.

(٢) Ibid, p. 258.

(٣) انظر كتاب أوراق البردى العربية، ترجمة المؤلف جـ ١ ص ٢٨ وما يليها.

فلما جاءت الدولة العباسية التي قامت بمساعدة الفرس، ونشأ من ذلك اختلاط العنصرين العربي والفارسي، اتجهت ميول الخلفاء العباسيين إلى معرفة علوم الفرس واليونان، فعني أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب، ونقل له حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وجالينوس في الطب. كما نقل ابن المقفع[1] كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية، وترجم كتاب «السند هند» وكتاب إقليدس في الهندسة إلى العربية. واشتهر في الترجمة من الفارسية إلى العربية غير ابن المقفع كثيرون، كآل نوبخت، والحسن بن سهل الذي استوزره المأمون، وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في فتوح البلدان، وعمر بن الفرخان.

وقد زادت العناية بترجمة الكتب في عهد هارون الرشيد بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية الكبرى، فأمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان. كما نشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وإدرار الأرزاق عليهم.

وفي عهد المأمون قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية، وخاصة من اليونانية والفارسية، إلى العربية؛ فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب. وروى ابن النديم[2]. أن «المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل». ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد إليهم المأمون في ترجمتها. وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة.

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون، بل عني جماعة من ذوي اليسار في عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية. ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم، الذين أنفقوا الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقى، والنجوم وقد أنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم، فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات[3]. وقد ظهرت في عهد المأمون طائفة من جهابذة الرياضيين من أمثال محمد بن موسى الخوارزمي الذي يعد أول من درس الجبر دراسة منظمة وجعله علماً منفصلاً عن الحساب.

---

(١) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٤٢.

(٢) كتاب الفهرست ص ٣٣٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٠.

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة في عهد المأمون العباسي، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها. نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم. وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها.

وقصارى القول أنه كان هناك أربعة من مشاهير المترجمين في الإسلام هم: حنين بن إسحاق، ويعقوب الكندي، وثابت بن قرة الحراني، وعمر بن الفرّحان الطبري وأن العباسيين ترجموا ما وصل إليه اليونان والفرس وغيرهم من العلوم، كالفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى والمنطق والفلك والجغرافية والتاريخ والحكم والآداب والسير. وقد ذكر ابن النديم[١] «أن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة».

٢ ـ معاهد الدرس والثقافة:

كانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة، وقد تنوعت العلوم التي كانت تدرس في العصر العباسي، وأصبح كثير من هذه المساجد مراكز هامة للحركات العلمية. وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة الذي كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب. وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة. وهكذا صارت الثقافات التي كان للإسلام أثر في مزجها، تلتقي في تلك المراكز على مر السنين، حتى امتزج بعضها ببعض. فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب كان يرى لزاماً عليه أن يتعلم العربية وآدابها حتى يتيسر له قراءة القرآن ودراسته، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية.

ولم يكن للمكتبات شأن كبير في العصر الأموي، ولما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي، وتقدمت صناعة الورق، وتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين واتخاذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم، كثرت المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية. وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية.

وكان بيت الحكمة، الذي يرجح أن الرشيد هو الذي وضع أساسه، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات، من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي. وقد

(١) كتاب الفهرست ص ٣٤٠.

ظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وكانت تحوي كل الكتب في العلوم التي اشتغل بها العرب، كما كان للعلماء والأدباء الذين يختلفون إليها، أكبر الأثر في تقدم الحركة العلمية في عهد العباسيين ونشر الثقافة بين جمهور المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى. ولم يقتصر تشجيع العلم على الخلفاء بل تعداهم إلى الوزراء وسائر كبار رجال الدولة. فقد ذكر المسعودي[1] أن يحيى بن خالد البرمكي كان يميل إلى البحث والمناظرة، وكان «له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل».

ومن أهم معاهد الثقافة أيضاً: الزاوية، والرباط، والكتاب، والمدرسة وديوان الإنشاء، والمارستان. كما أصبحت بعض المدن مراكز للدراسات على اختلافها كما سيأتي الكلام على ذلك بشيء من الإسهاب في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

٣ ـ التاريخ:

يقول دي بور[2]: يمتاز مؤرخو العرب الأقدمون بالقدرة على إدراك الجزئيات إدراكاً دقيقاً، غير أنهم لم يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع. وقد وجدوا من اتساع دولتهم مادة غزيرة في التاريخ والجغرافية.

ولم يكن السواد الأعظم في صدر الإسلام يستطيعون القراءة والكتابة، فلم يدون تاريخ الأمة العربية إلا بعد زمن غير قصير. وقد روى العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بشيء غير قليل من التبديل والتحريف، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها. حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة، أخذ العرب يبحثون تاريخهم، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة غير متصل بعضها ببعض، أو أنه دون بحيث يتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة التي عمل كل منها على إكبار مذهبهم ولعن أعدائه.

والحق أن مصادر التاريخ الإسلامي كثيرة متنوعة. فمن أهم المصادر التاريخية مصادر التاريخ النبوي. وهي القرآن الكريم؛ والأحاديث النبوية، والشعر الذي أثر عن العصر النبوي، مثل شعر حسان بن ثابت الذي نظم القصائد الكثيرة في مدح الرسول وهجاء أعدائه، إلا أن كثيراً من الشعر المنسوب إليه قد دس عليه.

ويعزى إلى ابن المقفع أنه نقل كتاب خداي نامه Khuday Name'h. أو كتاب الملوك، من الفهلوية إلى العربية، وقد سماه سير ملوك العجم، ويعد نموذجاً لكتابة التاريخ عند

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٣. (٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٨٠.

العرب. ويعتبر هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، وأبوه محمد. أول من كتب من العرب في علم التاريخ، كما اشتهر كل منهما بتحري الدقة في روايته.

وقد تأثرت كتابة التاريخ في صدر الإسلام بحياة الرسول، لأن المؤرخين اتخذوا من الحديث ولاسيما ما يتصل منها بالغزوات مادة لما دونوه، ومن ثم ظهرت كتب السير والمغازي.

ومن أقدم مصادر السيرة النبوية سيرة ابن هشام المتوفى بمصر سنة ٢١٨ هـ، وتعرف باسم سيرة رسول الله: وقد استمد فيها معلوماته التاريخية عن أستاذه ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ[١]. وهي تعطينا صورة صحيحة لحياة النبي ﷺ وما قام به في تبليغ الرسالة وبث الدين. ويؤخذ على ابن هشام اختصاره في مواضع أطال فيها ابن إسحاق وإطالته في مواضع اختصرها. ومن كتب ابن هشام كتاب في أنساب حمير وملوكها، وكتاب في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب[٢] ومن كتب المغازي كتاب الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ.

وفي القرن الثالث الهجري تطور علم التاريخ واتسعت مصادره، وأخذ المؤرخون يوفقون بين المواد المستمدة من السيرة وغيرها من المصادر ابتغاء إدماجها في رواية تاريخية متماسكة. ولعل البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ أول من أخذ بهذا المنهج في كتابه فتوح البلدان.

ومن مصادر السيرة النبوية أيضاً كتاب الطبقات الكبير [٣] لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م)، وكان كاتب الواقدي المتوفى سنة ٢١٨ هـ. ويعد هذا الكتاب من المصادر الموثوق بصحتها، على الرغم من أن مؤلفه عرف بالميل إلى الشيعة.

٤ ـ الجغرافية:

كان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين براً وبحراً بالبلدان القاصية، ثم لتعبيد الطرق وجعلها آمنة، أثر كبير في تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين؛ فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ووضعوا في وصفها الكتب والأسفار، ووصفوا ما شهدوه في البلدان التي اختلفوا إليها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة. وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة، هي خلاصة مشاهداتهم

---

(١) روى الشافعي أنه قال؛ من أراد أن يبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق (ابن خلكان جـ ٩ ص ٤٨٣).

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٩٠.

(٣) يقع هذا الكتاب في ثمانية مجلدات، وطبع في مدينة ليدن سنة ١٣٢٥ هـ، وقام بطبعه المستشرق إدوارد سخاو Edward Sachau مدير مدرسة اللغات الشرقية ببرلين سابقاً، وقد أفرد ابن سعد للسيرة مجلدين.

وتجاريبهم التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان.

وقد تقدم الكلام في الباب السادس أن رحلات المسلمين وصلت في عهد هارون الرشيد إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين. ويقال إنهم وصلوا بحراً إلى كوبا. كما كان للفتوح الإسلامية في أواسط آسيا وفي بلاد الهند شرقاً، وغرباً في شمال إفريقية وأوربا، أثر كبير في اتساع أفق التفكير الإسلامي عن أحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفي تنشيط التجارة والصناعة.

ولكن مما يسترعي النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة، لم تظهر ظهوراً جلياً إلا في العصر العباسي الثاني. أما في العصر العباسي الأول فقد ظهر ابن خرداذبه، الجغرافي الفارسي الأصل، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وخلف لنا كتابه «المسالك والممالك»[١]. ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التي ظهرت في اللغة العربية. وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة، ويصل إلى الهند والصين[٢].

٥ ـ علم النجوم والرياضيات والكيمياء:

ولم يكن لبعض علوم العجم كالنجوم والكيمياء والرياضيات الفلسفة والطب، مكان ملحوظ بين العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الأول ولكنها ازدهرت بعد ذلك، لأن همتهم كانت مقصورة في الغالب على نقل الكتب. على أن هذا لا يمنعنا عن القول إنه كانت هناك طائفة من المسلمين أخذوا يشتغلون بهذه العلوم، كجابر بن حيان الذي اشتهر في الكيمياء. وكان من أهل طرسوس، ويعرفه الأوروبيون باسم Geber، وتوفي في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد ألف جابر كتباً كثيرة في الكيمياء والمعادن والأحجار انتفع بها الأوروبيون.

واشتهر بالصيدلة كوهين العطار اليهودي الذي وضع كثيراً من المؤلفات، نخص بالذكر منها كتابه «صناعة الصيدلة»، شرح فيه العقاقير شرحاً ضافياً، وأوضح طريقة عمل المشروبات والجرعات والمساحيق والحبوب وغيرها.

ويقول دي بور[٣] إن فيثاغورس يعتبر معلم العرب في الرياضيات، حتى إنه كان يقال

---

(١) طبع في مدينة لندن سنة ١٨٨٦ ونشره دي غويه.

(٢) Nicholson, P. 356.

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٨٠.

إن الإنسان لا يكون فيلسوفاً ولا طبيباً حاذقاً إلا بدراسة فروع الرياضيات، كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى. واشتهر في علم الحساب عمران بن الوضاح وشهاب بن كثير، ومهر في الهندسة الحجاج بن أرطاة الذي خط المسجد الجامع ببغداد في عهد المنصور. وكانت هناك علاقة كبيرة بين الرياضيات والتنجيم الذي اشتغل به العرب في عهد بني أمية، ثم تقدمت ممارسته في العصر العباسي الأول، حتى إن أبا جعفر المنصور لما اتصل به خروج محمد النفس الزكية «أشفق منه، فجعل الحارث المنجم يقول له: يا أمير المؤمنين! ما يجزعك منه؟ فوالله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يوماً».

وما يدلنا على اعتماد العباسيين على التنجيم في كثير من الأحيان، ما ذكره ياقوت الحموي عند كلامه على تأسيس مدينة بغداد، من أن أبا جعفر المنصور اعتمد على الوقت الذي اختاره له المنجمون، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسي للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم، وأخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها.

وقد رأينا عند كلامنا على أثر الوزراء في النزاع الذي قام بين العباسيين والعلويين، أن الفضل بن سهل كان خبيراً بعلم النجوم، وأن هذا العلم قد دله على أن المأمون سيصير خليفة. ولذلك تقرب إليه وأخلص له إلى أن أفضت الخلافة إليه فاستوزره. كما كان الحسن بن سهل أخو الفضل خبيراً في علم النجوم؛ فقد رأيناه ينصح لأخيه الفضل ألا يدخل الحمام في اليوم الذي اغتيل فيه، معتمداً في ذلك على معرفته بالتنجيم. وممن اشتهر بالتنجيم في العصر العباسي الأول عبد الله بن نوبخت. وقد ذكر ابن القفطي(١) أن المأمون استعان به في اختيار وقت لبيعة علي الرضا.

وممن نبغ في علم النجوم في العصر العباسي الأول جعفر بن عمر البلخي، ويعرف بأبي معشر الفلكي. وكان في بدء حياته من أصحاب الحديث. ثم اشتغل بعلم النجوم، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين عن عمره، وعمر طويلاً حتى جاوز المائة، ومات بواسط سنة ٢٧٢ هـ. ولأبي معشر كتب كثيرة، منها إثبات العلوم، وهيئة الفلك.

٦ ـ الطب:

وكان لاختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم، وخاصة الفرس والروم، أثر كبير في العلوم العقلية كالطب والرياضيات وعلم النجوم. فقد رأينا أبا جعفر المنصور يستشير أطباء العراق ويعتمد على إرشاداتهم، وأنه استقدم طبيباً من مشاهير أطباء الهند؛ كما ذكرنا عند كلامنا على

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

وفاة المنصور كيف تنبأ أطباؤه بموته بسبب إكثاره من الطعام وإسرافه في تعاطي الأفاوية والأدوية الحارة التي تهضم طعامه، ولكنها تضر بمعدته وأمعائه، وكيف ذهب المنصور ضحية عدم إصغائه لنصائح هؤلاء الأطباء مما يدل على مبلغ تقدم الطب في ذلك العصر.

واشتهر في عهد هارون الرشيد من الأطباء ابن بختيشوع الذي نبغ في علم النفس ومهر في تشخيص الأمراض العصبية وعلاجها، وعينه هذا الخليفة رئيساً للأطباء في حاشيته. واشتهر في عهد المعتصم يحيى بن ماسويه. ويذكر المسعودي أن المعتصم كان يعتمد على مشورته، وأنه كان لذلك يحتفظ ببنية قوية، وأنه لما خالف مشورة طبيبه اعتلت صحته وتغير لونه. يقول ابن ماسويه عن المعتصم لما اعتراه المرض: «كان قبل ذلك إذا أكل السمك اتخذ له صباغاً من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل، فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك وإضراره بالعصب؛ وإذا أكل الرؤوس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها. وكان في أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتي، فصار اليوم إذا أنكرت شيئاً خالفني وقال: آكل هذا على رغم ابن ماسويه».

وكما أن العباسيين اعتمدوا على أطباء العراق والهند، كذلك اعتمدوا على الطب الذي خلفه اليونان. وقد نبغ في عهد الواثق من الأطباء ابن بختيشوع، وابن ماسويه، وميخائيل وحنين بن إسحاق، وقد حذق هؤلاء وغيرهم صناعة الطب ومرنوا عليها، واعتمدوا في علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب. كما أفاد المسلمون من كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الأمراض[١]. ونبغ حنين بن إسحاق في علم المواد السامة. وقد قيل إن الخليفة المتوكل أمره بدس السم لأحد أعدائه، فأبى قائلاً إن القرآن يأمر بعمل الخير حتى لأعدائنا، وصناعتنا الشريفة تمنعنا من أذى الغير.

كذلك وصف الأطباء في هذا العصر الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق، وطلب منه أن يصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته، «فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد»[٢].

وقد أورد المسعودي وصفاً دقيقاً للأسنان يعتبر في الواقع وثيقة طبية هامة لا بأس من ذكرها هنا. قال الواثق لحنين من بين الجماعة: «ما أول آلات الغذاء من الأسنان؟ قال: أول آلات الغذاء الفم وفيه الأسنان والأسنان إثنتان وثلاثون سناً، منها في اللحي الأعلى ستة عشر

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢ ص ٣٦٦. (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٦.

سناً، وفي اللحي الأسفل كذلك؛ ومن أربعة في كل واحد من اللحيين، عراض محددة الأطراف، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج إلى قطعه من الأطعمة اللينة. كما يقطع هذا النوع من المأكل بالسكين، وهي الثنايا والرباعيات. وعن جنبي هذه الأربعة في كل واحد من اللحيين سنان رؤوسهما حادة وأصولهما عريضة، وهي الأنياب، وبها يكسر كل ما يحتاج إلى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل. وعن جنبي النابين في كل واحد من اللحيين، خمس أسنان أخر عوارض خشن، وهي الأضراس، ويسميها اليونانيون الطواحن، لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل. وكل واحد من الثنايا والرباعيات والأنياب له أصل واحد. وأما الأضراس فما كان منها في اللحي الأعلى، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأنصبين، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة. وما كان من الأضراس في اللحي الأسفل، فلكل واحد منها أصلان، خلا الضرسين الأقصيين، فإنما ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة. وإنما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان، لشدة قوة العمل بها، وخصت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأعلى الفم».

وفي هذا العصر اهتم العباسيون بنشر العلوم الطبية وتقدمها، فشجعوا الأطباء وأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج، حيث يعرض الأطباء نتائج أبحاثهم، ويعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية. وأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية. وقد أمر أبو جعفر المنصور الذي يعتبر المؤسس الثاني للدولة العباسية ببناء مستشفى للعميان ومأوى للمجاذيب وملجأ للعجائز في بغداد، وشيد هارون الرشيد مستشفى كبيراً لتعليم الطب وزوده بالمؤلفات العلمية.

الباب الثامن
الفن

اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى، واتسع أفق الفن في أعينهم، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عن مبادىء الدين الإسلامي. على أن الأمر الذي يسترعي النظر أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء والزخرفة، لأنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان، لهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية(١).

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب وحالة معيشتهم، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب والمقرنصات أو الدلايات، وهي زخارف معمارية تشبه خلايا النحل، وتجدها بارزة ومدلاة في طبقات، مصفوفاً بعضها فوق بعض في واجهات المساجد وفي المآذن، لإقامة الشرفات التي يدور فيها المؤذن، أو في تيجان بعض الأعمدة الإسلامية أو في القباب التي بين القاعدة المربعة والسطح الدائر. وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة في السقوف الخشبية فضلاً عن استخدامها في العمائر نفسها(٢).

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم، احتفظت العمارة العربية أول الأمر في المساجد. وكان مسجد قباء الذي أنشأه الرسول عليه الصلاة والسلام، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية ومما لا شك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في كل عام، وأداءهم الصلاة في المدن والقرى التي كانوا يمرون بها، قد ساعد على محاكاة مساجد بلاد الحجاز.

وقد أدخلت المقصورة في عمارة المساجد لتحجب الإمام عن سائر المصلين. وكان أول

(١) زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية ص ٨ و ٢٥ ـ ٤٣.
Zaky M. Hassan: The Attitude of Islam Towards Pounting Bulletin Of The Faculty Of Arts, Fouad I. University, Vol VII July, 1944 PP, 1- 15.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨.

من اتخذها معاوية بن أبي سفيان، حين خشي على نفسه أن يحل به ما حل بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، واقتدى به الخلفاء من بعده. وكذلك دخلت في عمارة المساجد زيادات، منها المآذن والمحراب الذي يدل على جهة القبلة[١]، والإيوانات، وهي أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم. واستمر ذلك إلى العصر العباسي الأول.

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين. ومن مميزاته الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية، فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة، تدور حول حافة التحف الأثرية أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار.

وفي عهد الأمويين ازدهر فن النقوش الحائطية التي لا يزال بعضها باقياً في «قصير عمرة»، وهو بيت للصيد شرقي البحر الميت. ويتجلى في طرازها مزيج من الأساليب الشرقية والهلينية. ويذهب علماء الآثار إلى أن هذا البناء شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي[٢].

ولما انتقل مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد أثر الفن الفارسي في الفن الإسلامي تأثيراً كبيراً. وكان للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة، ولوع شديد ببناء القصور الفخمة. فقد بنى أبو جعفر المنصور قصر الذهب في وسط مدينة بغداد. وفي صدر هذا القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، يعلوه قبة عليها مجلس. وفوق هذا المجلس القبة الخضراء. وبلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعاً، وقد بني بالجص والآجر، ورفعت حجراته على أساطين الساج، وسقف بالخشب وحلي باللازورد: وبقي على ذلك حتى هدمه هارون الرشيد وأعاد بناءه، وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس في يده رمح. وكان هذا التمثال يدور مع الريح؛ فإذا استقبل الصنم جهة من الجهات ومد الرمح نحوها، كان ذلك إيذانا بظهور الخوارج من هذه الجهة. على أننا نرى أن فيما ذكره الخطيب البغدادي[٣] شيئاً كثيراً من المبالغة.

ومن قصور بغداد «قصر الخلد» على شاطىء دجلة الغربي تجاه باب خراسان. وقد تأنق أبو جعفر المنصور في بنائه وتجميله حتى سمي الخلد تشبيهاً له بجنة الخلد. وبنى المهدي بن المنصور قصر الوضاح على مقربة من قصر الرصافة. ومن قصور بغداد قصر عيسى الذي بناه

(١) Creswell: Early Moslim Architecture, Vol. I. PP. 98 - 99.

(٢) كتاب التصوير عند العرب، تأليف أحمد تيمور باشا، أخرجه وزاد عليه الدراسة الفنية والتعليقات الدكتور زكي محمد حسن، ص ١٥٠ - ١٥١، ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣) كتاب تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٣.

عيسى بن علي العباسي عند مصب الرفيل في دجلة. وكانت بعض عمائر بغداد مؤلفة من عدة طبقات يظهر في زخرفها الذوق الفارسي.

وفي العصر العباسي الأول تقدم فن الزخرفة تقدماً عظيماً، يدل على ذلك هذه القباب الأربع التي بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد الأربعة، وكان قطر كل واحدة منها خمسين ذراعاً. وقد زخرفت هذه القباب بالذهب، وكان يصعد إليها على الخيل، وعليها تماثيل تديرها الريح. وكان المنصور يجلس في هذه القباب طلباً للراحة؛ فإذا أحب النظر إلى الماء جلس في قبة باب خراسان، وإذا أحب النظر إلى الأرباض وما والاها جلس في قبة باب الشام، وإذا أحب النظر إلى الكرخ جلس في قبة باب البصرة، وإذا أحب النظر إلى البساتين والضياع جلس في قبة باب الكوفة. وتشبه هذه القباب المناظر التي بناها الخلفاء الفاطميون في الفسطاط والقاهرة فيما بعد.

وقد أصبحت القصور في العصر العباسي الأول محلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج، وعليها صور من الجص المجسم، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي.

ومن آيات فن الزخرفة في العصر العباسي تلك الزخارف الجصية التي كانت تغطي الأجزاء السفلية من الجدران، والتي كشفت الحفائر في أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها[١]. كما أن من آياته الصور الحائطية التي عثر عليها في أنقاض بعض القصور في هذه المدينة. وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص في الصيد[٢] أو لنساء يرقصن[٣]. وقد انتشرت أساليب العباسيين في زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والخزفية والخشبية في الدولة الإسلامية في ذلك العصر، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران[٤].

ولم تقتصر عناية الخلفاء العباسيين على عمارة المدن الكبرى كبغداد وسامرا، بل إنهم اهتموا ببناء القصور في طريق مكة. يقول الطبري[٥]: «أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة، وأوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة، وأمر بالزيادة في

(١) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر جـ ١ ص ٢٨، ٣١.

(٢) Zaky M. Hassan: Hunting As Practised In Arab Countreis Of The Middle Ages.

(٣) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر جـ ١ ص ٣٢ ـ ٣٣. راجع أيضاً. تعليقات زكي محمد حسن في كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٤١ ـ ١٤٥، ٢٥٠ ـ ٢٥٣.

(٤) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص ١٧، ٢١١ ـ ٢١٦، ٢٣٧ ـ ٢٤١.

(٥) ٩ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منها. وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع. . . وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الجامع بالبصرة، فزيد فيه من مقدمه مما يلي القبلة، وعلى يمينه مما يلي رحبة بني سليم. وأمر المهدي بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر، وتصييرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به» كما أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام(١).

وقد وصف المسعودي(٢) قصر محمد بن سليمان الذي ولي البصرة في عهد المهدي فقال:

«ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار، دخل عليه عبد الصمد بن شبة فقال له محمد: كيف ترى بنائي؟ قال: بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع بناء وأرق هواء على أحسن ماء بين صواري وحسان وظباء».

وقد أولع الخلفاء العباسيون عامة بالعمارة. ويقول المسعودي(٣) عن المعتصم: «كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة: فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر المكسب ويتسع المعاش. وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعاً، متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً، فلا تؤامرني فيه.

والآن نأخذ في الكلام على بناء المدن في العصر العباسي الأول، فنشرع في الكلام على بناء مدينتي بغداد وسامرا.

(١) بغداد:

الحواضر الإسلامية التي سبقت بغداد:

إن تاريخ بغداد، باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية، يسير جنباً لجنب مع قيام الدولة العباسية وسقوطها. وقد جرت العادة في البلاد الإسلامية أن تتخذ كل أسرة تلى الحكم قاعدة جديدة لها(٤)، فاتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يثرب مدينة له على أثر هجرته إليها، فلم

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٤.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٤٥.

(٤) وهذه ظاهرة لاحظها العلماء في تاريخ الشرق القديم بوجه عام.
راجع الفصل الذي كتبه الأستاذ كريزولCreswell عن تأسيس بغداد، الجزء الثاني من كتابه
Early Muslim Architecture

تلبث أن أصبحت حاضرة الإسلام وأصبحت تسمى المدينة أو مدينة الرسول أو المدينة المنورة، وظلت حاضرة للدولة العربية حتى ولي علي بن أبي طالب الخلافة، فتركها واتخذ الكوفة بعد موقعة الجمل المشهورة حاضرة لخلافته.

وقد برهنت الأيام على أن علياً لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة، فإن تركه «المدينة» قد هز التوازن الذي كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء قبله. وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سراباً، فإنه لم يستطع أن يقر النظام في حاضرة ملكه الجديدة، لأن السواد الأعظم منهم كانوا يناوئون حكومته الناشئة.

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان اتخذ دمشق حاضرة لخلافته. ولا غرو فقد عمل منذ وليها في عهد عمر على توطيد نفوذه في بلاد الشام، مستعيناً بأتباعه وذوي قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح. ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لأن تكون حاضرة للأمويين. أضف إلى ذلك خصب بلاد الشام وكثرة النماء فيها، وقربها من بلاد الحجاز التي كانت لا تزال مركز القوة الدينية في الإسلام، ومن سائر مواطن القبائل العربية مما يساعد على تجنيد الجنود إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ولا عجب فإن الدولة الأموية كانت تحتفظ بالدم العربي والعصبية العربية. هذا إلى أن دمشق كانت قريبة من حدود الإمبراطورية البيزنطية، تلك الحدود التي كان النزاع يقوم فيها بين العرب الروم، الذين لم تكد الحرب تخبو نارها بينهم في وقت من الأوقات. كما أن قرب حاضرة المسلمين في العصر الأموي من هذه الحدود من شأنه أن يسهل حشد الجيوش في أقرب وقت.

ولما قامت الدولة العباسية لم تعد دمشق صالحة لأن تكون حاضرة لخلافتهم.

أولاً ـ لأن بني أمية وأنصارهم كانوا يقيمون فيها.

ثانياً ـ لبعدها عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين. فقد كانت الدولة الأموية في وسط عنصر عربي يتعصب للعروبة ويناصر الأمويين على الروم إذا دهموا بلادهم. أما العباسيون فلم تكن لهم عصبية بين العرب، وإنما قامت قوتهم على الموالي من الفرس الذين كانوا بعيدين عن دمشق.

ثالثاً ـ ولقربها من حدود الدولة البيزنطية لم تعد آمنة من غارات جيوشهم عليها.

فكان من المناسب إذاً أن يعدل العباسيون عن اتخاذ دمشق حاضرة لخلافتهم وأن يستبدلوا بها حاضرة جديدة على مقربة من بلاد فارس.

وفي غضون الفتوح الإسلامية تأسست ببلاد العراق مدينتان اتخذهما المسلمون مركزين حربيين للجند هما : البصرة القريبة من مصب دجلة ، والكوفة الواقعة على نهر الفرات ، حيث يدخل طريق القوافل الصحراوية من الحجاز إلى فارس في أراضي بلاد العراق الزراعية . وقد أقام أبو العباس السفاح في القصر الذي بناه بجانب الأنبار ، المدينة الفارسية القديمة الواقعة على الشاطىء الشرقي من نهر الفرات ، حيث يتفرع النهر الكبير الذي اطلق عليه فيما بعد نهر عيسى ، ويجري نحو دجلة . وسمى السفاح قصره «الهاشمية» نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف[١] .

ولما توفي السفاح سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) وولي أخوه المنصور الخلافة ، شرع بعد قليل في بناء قصر آخر سماه الهاشمية أيضا . وكانت الهاشمية الثانية ، أو هاشمية الكوفة ، بين الكوفة والحيرة ، وهي المدينة الفارسية القديمة الواقعة على نهرالفرات[٢] . وقد أدرك المنصور أن هذه المدينة لا تصلح حاضرة لخلافته ، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعايتهم ، ولأنها كانت معسكر القبائل العربية التي لم تفتر عن إثارة الفتن والقلاقل ، حتى أصبح المنصور لا يأمن على نفسه لمجاورته أهل هذه المدينة الذين أفسدوا عليه جنده ، ولما كان أيضا من كراهته المقام فيها بعد حادث الراوندية . أضف إلى ذلك أن أهل الكوفة وما يجاورها من المدن نقع على حد الصحراء العربية التي تهب رمالها على الشاطىء الغربي للفرات[٣] .

(٢) ـ اختيار موقع بغداد :

وقد رأى المنصور ضرورة اتخاذ حاضرته الجديدة وسط أراض خصبة يرويها ماء دجلة والجداول التي تأخذ ماءها من الفرات ، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته ، وتتوافر فيه سبل المعيشة ؛ فبعث روادا يختارون له مكانا يبني فيه حاضرته الجديدة ، فدلوه على موضع قريب من بارما الواقعة جنوبي الموصل ، فخرج إليه في جماعة من رجال بلاطه وبات فيه . ولما أصبح سأل رجاله عن رأيهم في هذا المكان ، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه ، فقال : «ولكن لا مرفق فيه للرعية» . وذكر لهم أنه قد مر في طريقه إلى هذا المكان بموضع تجلب إليه المؤن في البر والنهر ، وأنه يصلح مكاناً لحاضرة ملكه إذا استطاب هواءه ثم رجع المنصور

---

(١) اليعقوبي؛ كتاب البلدان ص ١٣٧ . الطبري ج ٩ ص ١٧٤ .

(٢) وفي رواية أخرى أن هاشمية المنصور كانت على مقربة من المدينة المسماة بمدينة هبيرة وكانت تقع على الفرات شمالي الكوفة . وينبغي أن نميز بينها وبين قصر ابن هبيرة ، الذي عمر ما حوله ، حتى أصبح مدينة عرفت بقصر ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمالي الكوفة .

(٣) راجع ، Le Strange: Baghdad During The Abbasid Caliphate, PP. 11 - 14.

إلى هذا المكان وأقام فيه يوماً وليلة؛ وكان ذلك في فصل الصيف، فأعجبه هواؤه ووجد فيه المكان الذي يفي بأغراضه[١].

ثم دعا المنصور أهل هذه النواحي[٢] وسألهم عنها، وكيف هي في الحر والبرد والأمطار وغيرها، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم، فبعث رجالاً من عنده فباتوا في هذه النواحي وأتوه بأخبارها، فأعجب المنصور موضع بغداد. وكان فيه، كما ذكر الخطيب البغدادي[٣]، مزرعة يقال لها المباركة، فدعا المنصور صاحبها ـ وكان أحد الدهاقين ـ وسأله عنها، فحسن له النزول بها لوقوعها بين أربعة نواحي (طساسيج)، وورود المؤن إليها من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وأرمينية وأذربيجان عن طريق دجلة والفرات وفروعها[٤].

وقد روعي في اختيار موقع بغداد ما قاله ابن خلدون[٥] في أوضاع الحواضر: ويشترط في اختيار موضع المدينة أن تقع «إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات». وختم ابن خلدون كلامه بقوله إن العرب لم يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق. ذلك أن راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل أصحاب المنصور عن الرجل الذي يريد أن يبني المدينة، فقيل له أمير المؤمنين الخليفة المنصور. فسأل الراهب عن اسمه، فقيل عبد الله. فسأل عما إذا كان للخليفة اسم غير هذا، فقيل: اللهم لا إلا أن كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور. فقال الراهب للرجل: «إذهب إليه وقل له لا يتعب نفسه في بناء هذه المدينة، فإنا نجد في كتبنا أن رجلاً اسمه مقلاص يبني ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن، وأن غيره لا يتمكن من ذلك. فجاء الرجل إلى المنصور، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير: «أما والله كان اسمي مقلاصاً، وكانت تضرب به الأمثال. وكان لنا عجوز تربيني، فاتفق أن صبيان المكتب جاءوا يوماً إلي وقالوا لي

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩. ياقوت؛ معجم البلدان ـ انظر لفظ بغداد.

(٢) ذكر الطبري (جـ ص ٢٣٩) هذه النواحي وهي. الدير وبغداد والمخرم والدير المعروف ببستان القس والعتيقة.

(٣) كتاب تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢١.

(٤) انظر الباب السادس من هذا الكتاب.

(٥) مقدمة ص ٢٩١.

نحن اليوم أضيافك، ولم يكن معي ما أنفقه عليهم، وكان للعجوز غزل، فأخذته وبعته بما أنفقه عليهم. فلما علمت أني سرقت غزلها، سمتني مقلاصاً، وغلب علي هذا اللقب، ثم ذهب عني، والآن عرفت أني أبني المدينة[١]:

وكانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الفرس، وتقع على الشاطىء الغربي لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يلتقي فيه نهر الصراة بدجلة.

وقد بقيت قباب بغداد القديمة إلى أيام الطبري المتوفى سنة ٣١٠[٢] هـ كما كانت سوقاً يقصده تجار الفرس والصين بتجارتهم، وأغار عليها المسلمون سنة ٢٣ هـ بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني وغنموا منها مغانم كثيرة[٣].

ويؤيد البحث الحديث وجود بغداد القديمة. وقد ذكر لي سترينج[٤] أن المنقب الإنكليزي سير هنري رولينسون عثر في سنة ١٨٤٨ م في وقت انخفاض نهر دجلة على سور من الآجر يحف بشاطىء هذا النهر الغربي، ومنه يظهر أن مدينة قديمة كانت تقوم في هذا المكان. وقد وجد اسم بختنصر وألقابه وغزواته منقوشة على قطع الآجر، كما ظهر في الثبت الجغرافي الأشوري لحكم سردانا بالوس لفظ يقارب تماماً لفظ بغداد.

(٣) ـ اشتقاق لفظ بغداد:

ويروي بعض المؤرخين أن كلمة بغداد فارسية الأصل. فقد ذكر ياقوت وغيره عدة اشتقاقات طريفة لهذا الاسم منها:

١ ـ أن بغداد مكونة من كلمتين؛ بـغ ومعناها بالفارسية بستان وداد اسم لرجل كان يملك هذا البستان.

٢ ـ وقيل أن بغ اسم صنم، وداد بمعنى أعطى أو منح. قيل إن كسرى أقطع هذه الناحية عبداً من المشرق من عباد الأصنام. فقال العبد: «بغ دادي» أي الصنم أعطاني. وروى النسائي أن رجلاً قدم على عبد العزيز بن أبي رواد، فقال له: من أين أنت؟ فقال من بغداد، فقال: لا تقل بغداد، فإن بغ صنم وداد أعطى ولكن قل مدينة السلام.

٣ ـ وقيل إن بغداد كانت سوقاً يقصده تجار أهل فلسطين بتجارتهم فيربحون الربح

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠: ابن الجوزي. مناقب بغداد ص ١٩. الفخري ص ١١٣ ـ ١١٧.

(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢٤٠.

(٣) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٦.

(٤) Baghdad During the Abbasid Caliphate p.p. 9 - 10.

الواسع . وكان اسم ملك الصين «بَغْ» فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا : «بغ داد» أي أن هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك ، لأن داد بمعنى أعطى أي أعطانا الملك .

٤ ـ وقيل إن بغداد أصلها بغداذ ، وهو فارسي معرب عن باغ ومعناه بستان ، وداذويه اسم رجل من الفرس . وذلك أن بعض نواحي بغداد كان بستاناً لرجل من الفرس اسمه داذويه . وهذا قريب الشبه بما ورد في التسمية الأولى . ومما يدل على فارسية هذا الاسم وجود الدال مع الذال ؛ وهو مألوف عند الفرس وليس له نظير في كلام العرب . ويقول لي سترينج إن الاشتقاق الصحيح لهذا اللفظ هو من الكلمتين الفارسيتين القديمتين بغ وهو الله ، وداذ ومعناها مؤسسة أو أساس ؛ ومن ذلك يكون معنى بغداد المدينة التي بناها الله .

٥ ـ وقد سماها المنصور مدينة السلام . وهذه التسمية مأخوذة عن الفارسية أيضاً ؛ فقد ذكر ياقوت أن بعض هذه المدينة كان أثراً لمدينة دارسة اختطها أحد ملوك الفرس ، فمرض ، فقالوا له : «ما الذي يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة؟» فقال «هليدوه وروز» أي أدخلوها بسلام . فلما علم المنصور بذلك قال : «سميتها مدينة السلام» . وقيل إنها سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله ، أو لأن نهر دجلة يقال له وادي السلام . وكان أبو الفرج الببغا يقول هي مدينة السلام بل مدينة الإسلام .

٦ ـ وكان الجانب الغربي لبغداد في العصور الإسلامية يسمى الزوراء ، لازورار في قبلتها . وقيل لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجية (أي ليست على سمتها) ، وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها . ويقول المسعودي إن أهل هذه المدينة كانوا يسمونها الزوراء والرحاء في أيامه . بينما يسمى جانبها الشرقي الروحاء لانبساط مجرى نهر دجلة عنده .

وقد أطلق لفظ الزوراء على بغداد في بدء إنشائها للانحراف الذي شوهد في محاريب مساجدها ، وسميت «المدينة المدورة» لأنها على شكل دائرة ، ويقال لها دار السلام تشبيهاً لها بالجنة[١] . وقد ورد في تسمية بغداد أيضاً مغداذ ومغداد ومغدان[٢] .

(٤) ـ تخطيط بغداد :

شرع المنصور في بناء حاضرته الجديدة في موضع بغداد القديمة ، وأمر بإحضار المهندسين

---

(١) البغدادي تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢ . تاريخ بغداد جـ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ . انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت ولسان العرب .

والبنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة وواسط وبلاد الديلم، حتى بلغ عددهم مائة ألف على ما ذكره المؤرخون، وإن كنا نشك في هذا العدد ونرى فيه مبالغة ظاهرة. كما اختار جماعة ممن يثق بفضلهم وعدالتهم وعلمهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب، من أمثال الحجاج بن أرطاة، وعمران بن الوضاح، وأجرى عليهم الأرزاق، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجر.

وقيل إن المنصور أراد أن يولي القضاء أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي، فامتنع فحلف ألا يتركه حتى يوليه عملاً من الأعمال، وحلف أبو حنيفة ألا يفعل. ومما حدا المنصور على معاملة أبي حنيفة هذه المعاملة، رغبته في التحلل من يمينه والخروج منها[1]. وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المنصور عامل أبا حنيفة هذه المعاملة، لما رُمي به من الانحياز إلى دعوة محمد بن عبد الله العلوي؛ فحفظ له ذلك. فلما شرع في بناء بغداد، عهد إلى أبي حنيفة في عد اللبن والإشراف على البناء، فابتكر طريقة لعد الطوب بالقصب. وهي طريقة سهلة، فإن كان طول الطوبة ٣٠ سنتيمتراً مثلاً، أتى أبو حنيفة بقصبة قاس بها صف الطوب، وأمكنه بذلك معرفة عدد الطوب بالضبط في زمن قصير وبدون عناء.

أحضر أبو حنيفة قصبة يعد بها اللبن والآجر، ثم وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة بيده وقال: بسم الله! والحمد لله. والأرض لله يورثها من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال: «ابنوا على بركة الله»[2].

ويحدثنا ياقوت أن المنصور وضع أساس بغداد في الوقت الذي اختاره المنجمون. قال أبو سهل بن نوبخت: «أمرني المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت، فإذا الطالع في الشمس وهي في القوس، فخبرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس إلى ما فيها، ثم قلت: وأخبرك خلة أخرى أسرك بها يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قلت: نجد في أدلة النجوم أنه لا يموت بها خليفة أبداً حتف أنفه؛ فتبسم وقال: الحمد لله على ذلك ﴿هذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج، والمهدي ابنه خرج إلى نواحي الجبل فمات بماسبذان بموضع يقال له الروذ، والهادي ابنه مات بعيسباذ قرية أو محلة بالجانب الشرقي من بغداد، والرشيد مات بطوس، والأمين أخذ في شبارته وقتل بالجانب الشرقي،

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٤١.

(٢) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠. الطبري جـ ٩ ص ٢٤١.

والمأمون مات بالبذندون من نواحي المصيصة بالشام، والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء ماتوا بسامرا، ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرقي بغداد»[١].

احتفل المنصور بوضع الحجر الأساسي لبناء بغداد احتفالاً شائقاً شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والعلماء والقواد والأعيان.

وقد روى الطبري وغيره أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن يعرف رسمها، فأمر أن تخط طرق المدينة بالرماد، ثم دخل من موضع كل باب، ومر في طرقات المدينة ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن، ويصب عليه النقط وتوقد فيه النار، فنظر إليه والنار تشتعل. وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة. ثم حفر الأساس مكان هذه الخطوط، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ[٢]. وجعل المنصور مدينته مدورة، وجعل داره وجامعه في وسطها حتى لا يكون أحد أقرب إليه من الآخر؛ وهو نوع جديد في بناء المدن عند المسلمين يظهر أنهم أخذوه عن الفرس[٣].

ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناء إلا الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام، وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص، خص إحداها بصاحب الشرطة والأخرى بصاحب الحرس، وجعل حول ذلك منازل أولاده الأصاغر ومن يقوم بشؤونهم من الخدم والعبيد، واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ومطبخ العامة. وأخذ البناءون يبنون حول الدواوين دور الأهالي تتخللها الأسواق، وجعل للمدينة شوارع رئيسية أربعة تمتد من شوارع المدينة الأربعة يتفرع منها شوارع أخرى[٤].

ولما وقف المنصور على رسم مدينته الجديدة شرع في بناء سورها. ثم أخذ العمال في العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة، ولكن البناء ما لبث أن وقف بسبب خروج محمد النفس الزكية في المدينة المنورة سنة ١٤٥ هـ.

٥ ـ إتمام البناء:

ولما قضى المنصور على ثورة العلويين عزم على إتمام بناء بغداد في أقرب وقت[٥]، وأمر

---

(١) راجع لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت.
(٢) الطبري جـ ٩ ص ٢٤١.
(٣) Le Strange, p. 18.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٦.
(٥) أجمع المؤرخون على أن بناء بغداد تم في سنة ٦ (٦) ـ وأصبحت مقر الدولة العباسية وأن بناء سور المدينة وخندقها لم يتم قبل سنة ١٤٩ هـ (الطبري جـ ٩ ص ٢٤١).

بأن يبنى للمدينة سوران: سور داخلي عرضه من أسفله خمسون ذراعاً ومن أعلاه عشرون ذراعاً، وسور خارجي ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه كعرض السور الداخلي وليس عليه أبراج[١]، وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا. وبنيت حافتاه بالجص والآجر وفوقه ١٦٣ برجاً، سمك كل منها خمسة أذرع[٢]. وكان بالسور الخارجي أربعة أبواب، بابان دون باب وهي: باب الكوفة ويقع في الجنوب الغربي، وباب البصرة ويقع في الجنوب الشرقيّ ويشرفان على قناة الصراة، وباب خراسان يقع في الشمال الشرقي وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قنطرة السفن الرئيسية، وكان يسمى باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خراسان، وباب الشام ويقع في الشمال الغربي ويوصل إلى طريق الأنبار[٣].

وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع، ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك. وعلى السور أبراج، سمك كل منها خمسة أذرع، وبنيت عليه شرافات[٤]، وبين السورين ستون ذراعاً، ويسمى «الفَصيل»، ويسمى السور الخارجي «سور الفصل»، وحوله الخندق ويسمى السور الداخلي سور المدينة.

وكان وزن كل لبنة جعفرية (نسبة إلى أبي جعفر المنصور) ١١٧ رطلاً. وقد ذكر اليعقوبي أن وزن اللبنة التامة المربعة التي يبلغ طولها ذراعاً وعرضها ذراعاً، مائتا رطل، واللبنة المنصفة التي يبلغ طولها ذراعاً وعرضها نصف ذراع مائة رطل. وذكر صاحب «كتاب مناقب بغداد» أن الطوب المستعمل هو اللبن والآجر المطبوخ.

وكان بين البابين دهليز ورحبة توصل إلى الفصيل الدائر بين السورين، ويسمى الأول باب الفصيل والثاني باب المدينة. فإذا دخل من باب خراسان مثلاً عطف على يساره في دهليز أزج[٥] مبني بالآجر والجص، طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، ويوصله بالباب الثاني رحبة طولها ستون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً. وعن يمين الداخل ويساره بابان: الأيمن ويوصل إلى فصيل باب الشام والأيسر ويوصل إلى فصيل باب البصرة. ومن باب

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢٤٠.
(٢) اليعقوبي. كتاب البلدان ص ٢٣٩.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٤) هي الحلي التي توضع في أعلى البناء على هيئة عرائس أو نحوها ونلاحظ في أعلى المباني الأثرية كالمساجد والحصون.
(٥) ضرب من الأبنية.

البصرة يدور الشخص إلى باب الكوفة، ويدور الذي انتهى إلى باب الشام إلى باب الكوفة، والأبواب الأربعة على مثال واحد من حيث الفصلان والرحاب والطاقات. أما الباب الداخلي أو باب المدينة، فيدخل منه إلى دهليز طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً.

وقد ذكر الطبري أن أبا جعفر المنصور نقل خمسة من هذه الأبواب من مدينة واسط. ويقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي وجدها على باب مدينة بناها النبي سليمان بن داود تعرف باسم زندورد، وهو اسم دير من أديار النسطوريين كان يقع شرقي مدينة بغداد. وقد شاهد الطبري هذه الأبواب حول سنة ٣٠٠ هـ. وأقام المنصور على باب خراسان باباً جيء به من بلاد الشام، ويقال إنه من عمل الفراعنة. وأقام على باب الكوفة باباً جيء به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسري، وعمل لباب الشام باباً صنع في بغداد، وكان أضعف أبواب بغداد، وعلى كل أزج من أزج هذه الأبواب مجلس تتصل درجاته بهذا السور، وعلى هذا المجلس قبة عالية يجلس فيها المنصور طلباً للراحة، فيشاهد الوافدين من خراسان والشام والبصرة والكوفة.

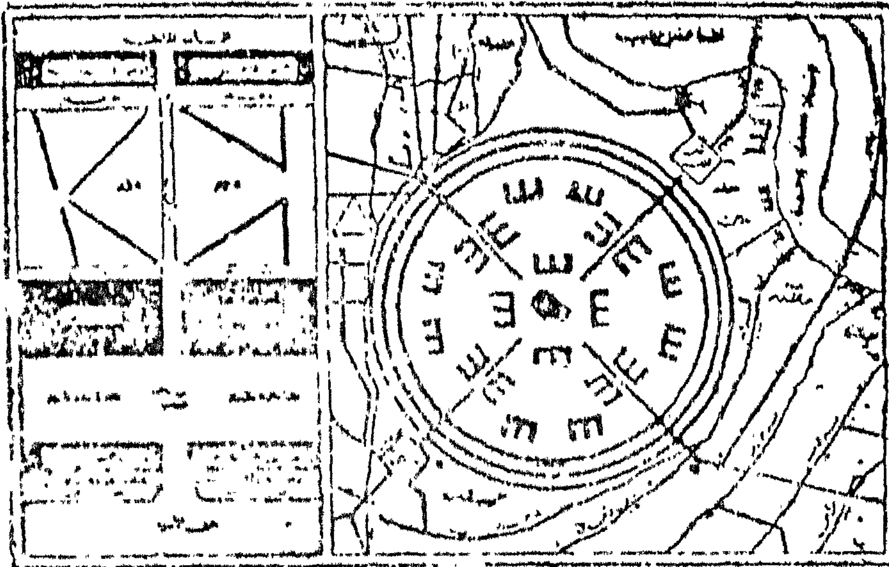
وقد بنى المنصور قصره الذي كان يطلق عليه اسم قصر الذهب، وبنى جامعه قبالته في وسط المدينة. وبلغت مساحة القصر ١٦٠,٠٠٠ ذراعاً مربعاً، وبلغت مساحة الجامع ٤٠,٠٠٠ ذراعاً مربعاً. ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة، حيث تفرعت من أبواب السور الداخلي الذي يحيط بمركز المدينة أربعة شوارع رئيسية منظمة متجهة خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهي إلى الخندق. وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية التي نسقت تنسيقاً بديعاً، والتي كانت متشابهة في الشكل وأسلوب البناء.

وكانت أبواب القواد تشرف على رحبة الجامع. فشكا الناس ذلك إلى الخليفة المنصور، فأمرهم بتحويل أبوابهم حتى لا تطل على الجامع، وجعلت في طرف المدينة وطاقاتها التي بلغ عددها خمسة وثلاثين، عرض كل منها خمسة عشر ذراعاً، وطولها مائتا ذراع. وبين كل طاقين بنيت غرف للمرابطة. وكان على كل باب من أبواب المدينة قائد في ألف جندي[1]. وإذا وقف الإنسان في نهاية أحد هذه الشوارع رأى قصر الخليفة[2]، كما هو الحال في حي السكاكيني بالقاهرة حيث ترى السراي ماثلاً أمام الأعين من كل الشوارع المتفرعة عن السراي الذي هو بمثابة مركز الدائرة.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٦.

(٢) ابن رستة. الأعلاق النفيسة ص ١٠٨.





وسرعان ما ازدحمت بغداد بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها، فلم ير المنصور بدآ من الإقامة خارج المدينة في مكان طيب الهواء، فبنى قصر الخلد في سنة ١٥٧ هـ[١].

ولا شك أن هذه الأعمال الجليلة كلفت الخليفة المنصور كثيراً من النفقات، حتى إنه فكر في استعمال أنقاض «المدائن» حاضرة الفرس القديمة في تعمير حاضرة ملكه الجديدة، فاستشار وزيره خالد بن برمك في هدم إيوان كسرى ونقل أنقاضه لبناء بغداد وتعميرها، فنهاه خالد عن ذلك.

(٦) ـ القطائع والأرباض:

ولما فرغ أبو جعفر المنصور من عمارة بغداد، أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض رغبة في تخفيف الضغط على بغداد من جهة، ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى. وقد حذا ابن طولون في مصر حذو المنصور، فأسس مدينة القطائع بعد أن ضاقت الفسطاط والعسكر بخدمه ومماليكه وجنده، وأعطى كل طائفة قطيعة خاصة بها.

وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها. فنرى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس على البصرة، وقطيعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ومضر، وكانت على الصراة أيضاً، وقطيعة الربيع بن يونس مولى المنصور، وكان بها تجار خراسان من البزازين[٢]، وقطيعة صالح بن المنصور. وسرعان ما اتسعت قطائع بغداد وزاد إقبال الناس على سكناها، حتى إن نقل حاضرة الدولة العباسية إلى سامرا في أيام المعتصم لم يؤثر على نمو الحركة التجارية والعلمية في بغداد[٣].

وقد أسهب اليعقوبي في الكلام على سكك[٤] بغداد ودروبها[٥]. فنجد سكة الشرطة، وسكة المطبق وفيها سجن المطبق، وسكة الربيع، وسكة المؤذنين. وقد بلغ عدد هذه السكك والدروب ستة آلاف، وبلغ عدد الحمامات عشرة آلاف. وبالغ اليعقوبي وابن رسته في عدد المساجد، فذكر كل منهما أنها بلغت الثلاثين ألف! وزاد ابن رسته أن الجانب الغربي لمدينة

(١) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٥. انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت.

(٢) أي بائعي الثياب.

(٣) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٤٢ ـ ٢٥٤.

(٤) جمع سكة وهي الرقاق.

(٥) الدرب: المدخل بين جبلين، والعرب تستعمله في معنى الباب لأنه كالباب لما يفضي إليه، والدرب باب السكة الواسع والباب الأكبر.

بغداد (الكرخ) كان ضعف الجانب الشرقي (الرصافة أو بغداد الشرقية) سعة وكثرة عمارة.

قسم الخليفة المنصور أرباض[١] بغداد أربعة أقسام جعل على كل منها رئيساً، وعهد إلى كل رئيس منهم إقامة سوق في القسم الذي يشرف عليه، كما أمر أن تخط الشوارع والدروب بحيث تكون المباني منتظمة، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل النابه الذكر الذي يقيم فيه، كما تفعل المجالس البلدية الآن. وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات[٢].

ولننتقل إلى الكلام على بناء الرصافة في الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد، وعلى الكرخ التي بناها أبو جعفر المنصور في الجزء الغربي من بغداد.

(٧) ـ الرصافة ـ الكرخ:

إن بناء بغداد، وإن كان قد حقق الغرض الذي رمى إليه المنصور من منع وصول العدو إليه، لم يحل دون ما قد يحدث إذا شغب عليه الجند، ولقد برهنت الأيام على أنه لم يكن آمناً كل الأمن على نفسه بإقامته في بغداد، إذ قد وقع هذا الشغب فعلاً حين قام عليه جنده وحاربوه على أحد أبواب بغداد، وهو باب الذهب فأشار عليه أحد رجال دولته ببناء الرصافة وقال له: «اعبر بابنك المهدي، فأنزله في الجانب (الشرقي من بغداد) قصراً، وحوله، وحول من جيشك معه قوماً، فيصير ذلك بلداً، وهذا بلداً. فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب، وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها. فقبل (المنصور) رأيه فاستوى له ملكه».

وقد اتخذت الرصافة في الأصل ثكنات للجيش، وسميت «رصافة بغداد»، وبغداد الشرقية لأنها تقع في الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لمدينة بغداد، وبنى لها المنصور سوراً، وحفر حولها خندقاً، وجعل فيها ميداناً فسيحاً ومسجداً وبستاناً، وأجرى الماء فيها، فتم ذلك في خلافة ابنه المهدي سنة ١٥٩ هـ[٣].

وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد في الاتساع، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات، والميادين الواسعة، والمباني الضخمة، كما تجلت فيها مظاهر الخلاعة والملاهي. وفي ذلك يقول علي بن الجهم الشاعر:

---

(١) الربض (بفتحتين) للمدينة ما حولها وجمعها أرباض أي نواحي.

(٢) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٤٠ ـ ٢٤٩.

(٣) الطبري جـ ٩ ص ٢٨٢.

عيونُ المها بين الرُّصافة والجسر   جلبن الهوى من حيثُ أدري ولا أدري

وقد أحصى اليعقوبي[١] طرق الرصافة ودروبها، ووصف أسواقها وتجارتها، وقال إنه كان بها أربعة آلاف درب وسكة، وخمسة عشرة ألف مسجد، وخمسة آلاف حمام، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من المبالغة.

وقال نخلة المدور[٢] إن أهالي بغداد توسعوا في تعمير الجانب الشرقي لمدينة بغداد المعروف بالرصافة، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة، واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات، وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنايات العامة، حتى أصبحت الزوراء (يعني بغداد) بجانبها كأنها البلد العتيق تجمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره.

وقد بلغ اتساع بغداد والرصافة اتساعاً عظيماً حتى أصبحتا أشبه بمدن صغيرة متلاصقة[٣]، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق في ذلك العصر، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وازدهرت فيها الفنون المختلفة وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي حتى ما كان منها مناهضاً للخلافة العباسية[٤].

ولم تزل الأسواق داخل مدينة بغداد حتى وفد على المنصور أحد بطارقة الروم، فأمر حاجبه الربيع بن يونس أن يطيف به في المدينة، ويصعد به إلى السور، ويريه قباب الأبواب والطاقات ليرى ما عليه حاضرة خلافته من الأبهة والعمران: فلما مثل البطريق[٥] بين يدي المنصور، سأله: كيف رأيت مدينتي؟ فقال: «يا أمير المؤمنين! إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك، وفيه ثلاثة عيوب.

«أما أول عيب فيه فبعده عن الماء، ولا بد للناس من الماء لشفاههم؛ وأما العيب الثاني

(١) كتاب البلدان ص ٢٥٣ - ٢٥٤.
(٢) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٢ - ٩٣.
(٣) ذكر ياقوت في معجمه المدن التي تسمى الرصافة: فمنها رصافة البصرة ورصافة الشام وهي أكثر من مدينة، منها رصافة نيسابور التي أقطعها سليمان بن عبد الملك ابنه عبد العزيز لما ولد، ورصافة هشام بن عبد الملك غربي الرقة، وقيل لها الزوراء، وكان يسكنها في الصيف، ورصافة واسط وهي قرية بالعراق من أعمال واسط، ورصافة أبي العباس السفاح بالأنبار، ورصافة قرطبة التي بناها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ورصافة بغداد. وقال ياقوت باحتمال اشتقاق لفظ الرصافة من الرصف، وهو ضم الشيء إلى الشيء كما يرصف البناء والشارع.
(٤) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ٨٢، ١٤٠، ١٦٨.
(٥) البطريق: القائد من قواد الروم.

فإن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة وليس في بنائك هذا بستان؛ وأما العيب الثالث فإن رعيتك معك في بنائك، وإذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشا سره».

من ذلك وقف المنصور على أوجه النقص في مدينته، لكنه لم يرد أن يعترف للبطريق بما فاته من أخطاء في بنائها فقال له: «أما قولك في الماء فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا، وأما العيب الثاني فإنا لم نخلق للهو واللعب، وأما قولك في سري فما لي سر دون رعيتي». ولكن البطريق لما خرج بعث أبو جعفر المنصور في طلب شميس وخلاد وقال لهما: مدا إلي قناتين من دجلة وأغرسا لي العباسية وانقلا الناس إلى الكرخ[١].

وفي سنة ١٥٧ هـ قام الربيع بن يونس ببناء الكرخ غربي المدينة المدورة (بغداد) من مال المنصور الخاص، وحولت إليها أسواق المدينة[٢]. وأوسع المنصور طرق بغداد حتى غدا اتساع كل منها أربعين ذراعاً. ووضع تصميم بناء الكرخ على قطعة من القماش عين عليها مواضع الأسواق، كما عين موضع بناء جامع يصلي فيه أهل هذه الأسواق حتى لا يدخلوا المدينة، وعهد بالعمل إلى مولاه الوضاح، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة كما هو الحال في المدن الكبيرة. وقد بنيت أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى[٣] لتكون مركزاً للصناعة والتجارة، حتى إذا أخذت بغداد في الاتساع صارت الكرخ في وسطها[٤]، وأصبحت كما قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة نفطويه:

سقى أربع الكرخ الغوادي بديمةٍ   وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة   وتلك لها فضل على كل منزل[٥]

وقد عني المنصور عناية كبيرة بتنظيم مدينته ونظافة شوارعها وطرقها؛ فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة. وكانت الروايا تدخل على ظهور البغال، فرأى الخليفة أن ذلك لا يتفق وأبهة حاضرة خلافته وروائها، فأمر بتوصيل الماء إلى قصره.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ جـ ١ ص ٧٨ - ٧٩.
(٢) أورد الطبري (جـ ٩ ص ٢٦٢ - ٢٦٣) في نقل الأسواق إلى الكرخ سبباً آخر هو ارتفاع الدخان منها واسوداد حيطان بغداد مما ضايق الخليفة.
(٣) أمين زكي: عمران بغداد ص ١٠٨.
(٤) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٥٤.
(٥) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٩ - ٨٢.

٨ ـ نفقات بناء بغداد ـ ما قيل في وصفها:

وقد تطلب بناء بغداد كثيراً من النفقات، لأن المنصور عمل على تحصينها تحصيناً منيعاً لتحاكي الحواضر الكبيرة، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم، في العظمة والأبهة. فقد بلغت نفقات المدينة وما إليها من الأسوار والأبواب والقصر والجامع والأسواق والقباب والفصلان والخنادق وغيرها ٤,٨٣٣,٠٠٠ درهم على رواية الطبري (جـ ٩ ص ٢٦٣)، وهو يعادل ٤٠٠,٠٠٠ دينار أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه وفي رواية أخرى للطبري أن نفقات المدينة بلغت ١٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب، وهو يعادل ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريباً، وعن الطبري أخذ الخطيب البغدادي مع تعديل طفيف. ويرجح لي سترينج الرواية الثانية، ويستبعد أن تكون النفقات قد بلغت ١٦٠,٠٠٠ جنيه إذا لاحظنا مقدار ما بذل من النفقات في بناء المدينة وتنسيق بساتينها وحفر خلجانها وتشييد حصونها وغير ذلك مما يتطلب أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ دينار أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه.

ونرى أن في الرواية الثانية مبالغة ظاهرة، إذا علمنا أن أبا جعفر المنصور كان حريصاً على جمع المال كما كان أشد حرصاً في إنفاقه. أضف إلى هذا رخص المعيشة في ذلك العصر. وكان المنصور يحرص في الإنفاق على البناء لأنه كان يغلب عليه الشح، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه، فسمي «أبا الدوانيق» و«المنصور الدوانيقي»، لتشدده في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم أي سبعة مليمات تقريباً.

هكذا تأسست مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، وقد بقيت إلى سنة ٦٥٦ هـ حين خربها التتار بقيادة هولاكو، ولحق بها الخراب قبل القرن السابع الهجري مرتين: مرة في أثناء الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون في أواخر القرن الثاني للهجرة، ومرة ثانية حين أغار بنو بويه على بلاد العراق واستولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ.

وفي العصر العباسي الأول أصبحت مدينة بغداد أم المدائن ومركز التجارة، وكعبة العلوم والآداب ومعين الثروة والرخاء؛ كما أصبحت مبانيها الفخمة ومتنزهاتها الجميلة آية من آيات الفن. يقول الجاحظ: قد رأيت المدن العظام، والمذكورة بالإتقان والإحكام، بالشامات وبلاد الروم، وفي غيرهما من البلدان فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نبلاً، ولا أوسع أبواباً ولا أجود فصيلاً من الزوراء، وهي مدينة أبي جعفر المنصور، كأنما صبت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغاً[1].

(١) الخطيب البغدادي جـ ١ ص ٢٧.

ومما جاء في مدح بغداد: «بغداد جنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الطرائف واللطائف. وبها أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع». وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية(١):

وقد وصف طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن بغداد في هذه الأبيات فقال:

هي البلدةُ الحسناءُ خُصَّتْ لأهلها بأشياء لم يجمعن مُذْ كنَّ في مصر
هواءٌ رقيق في اعتدالٍ وصحة وماءٌ له طعمٌ ألذ من الخمر
ودجلتها شطان قد نظما لنا بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
تراها كمسكٍ والمياهُ كفضة وحَصْباؤها مثل اليواقيت والدر

(ب) سامرًّا:

لما شكا أهل بغداد من عنت الأتراك وعسفهم، ندب المعتصم أحد رجاله لاختيار موضع كان السفاح قد شرع في بناء مدينة جديدة فيه، ثم بنى الرشيد بجوارها قصراً وحفر عندها نهراً سماه «القاطول»؛ ثم بنى المعتصم في ذلك المكان قصراً وهبه لمولاه آشناس القائد التركي المشهور. وقد فكر المعتصم في هذا المكان الذي فيه قصره، فبنى عنده مدينة «سامرا» حاضر خلافته الجديدة، وتقع شرقي دجلة على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد، وتبعد منها ستين ميلاً مر ناحية الشمال.

وقد ذكر ياقوت في سبب اختيار موضع سامرا، أن المعتصم أعطى وزيره أحمد بن خالد الكاتب (سنة ٢١٩ هـ) خمسة آلاف دينار، وأن هذا الوزير قصد ذلك الموضع، وابتاع ديراً للنصارى بخمسة آلاف درهم، وبستاناً بجواره بخمسة آلاف درهم، كما ابتاع بعض الأراضي والدور المجاورة لذلك الموضع. ثم أطلع الوزير الخليفة المعتصم على عقود البيع، فخرج إلى هذا المكان في أواخر سنة ٢٢٠ هـ، ونزل في المضارب التي أقيمت على شاطىء نهر القاطول، ثم قصد موضع سامرا، وأقام فيه ثلاثة أيام طلباً للصيد، فأعجبه موقعه، لأنه يسهل منه الوصول إلى بغداد براً وبحراً إذا خرج أهلها عن طاعته.

شرع المعتصم في تخطيط حاضرته الجديدة في سنة ٢٢١ هـ فوضع أساس قصره، وأحضر العمال والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية، وجعل للأتراك قطائع خاصة بهم ولغلمانه من أهل خراسان ـ وكانوا يسمون الأشروسية ـ قطائع، ولأهل الحرف فى

(١) ياقوت ـ معجم البلدان: انظر لفظ بغداد.

مصر، وكان يطلق عليهم «المغاربة» قطائع، وأفرد للتجارة وأرباب الحرف والصناعات أسواقاً خاصة، ونقل إلى هذه المدينة الأشجار والثمار وشيد في طرفها مسجداً جامعاً. ونزل أشناس وغيره من القواد كرخ سامرا.

هكذا تم بناء سامرا التي قصدها الناس من كل صوب وحدب، وشيدوا فيها المباني الشاهقة، حتى أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر.

وقد سمى ياقوت سبعة عشر قصراً بناها المعتصم والمتوكل في مدينة سامرا. وكانت هذه القصور نموذجاً للقصور التي بنيت فيما بعد في البلاد الواقعة بين بخارى شرقاً وقرطبة غرباً[١]، وذكر أن هذه المدينة لما عمرت، أطلق عليها اسم «سرور من رأى»، ثم اختصر الاسم فقيل «سر من رأى». ولما خربت واستوحشت سميت «ساء من رأى»، ثم اختصرت فقيل «سامرا».

وذكر المسعودي[٢] في سبب تسمية سامرا بهذا الاسم، أنها مدينة سام بن نوح، وقال ياقوت في أن سام بنى هذه المدينة فنسبت إليه وسميت «سام راه» بالفارسية، وأنه دعا أن لا يصيب أهلها سوء، فأراد السفاح أن يبنيها، فبنى مدينة الأنبار بحذائها. ولما تم بناؤها سميت «سرور من رأى»، وقال كارل[٣] إن أميان Ammian ذكر هذه المدينة في عبارته التي وردت عن تقهقر جوفيان باسم Castellum Sumers. ويظهر أن لهذه التسمية الطويلة التي أطلقت على مدينة المعتصم صلة اشتقاقية بهذا الاسم القديم.

قال ابن المعتز في وصف سامرا: «إنها وإن جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى: كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها مسك أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مريء، وتاجرها مالك، وفقيرها فاتك».

وقد احتفظت سامرا بروائها وبهائها منذ بنيت في عهد المعتصم إلى نهاية خلافة المعتضد العباسي سنة ٢٨٩ هـ. ثم سارع إليها الخراب، ولم يبق فيها إلا قبر علي الهادي الإمام العاشر والسرداب الذي اختفى فيه محمد المنتظر، وهو الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثني عشرية، وقبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهدي والمعتمد.

وقد وصف ياقوت المتوفى أوائل القرن السابع الهجري أطلال سامرا كما شاهدها، فقال:

---

(١) بارنولد: تاريخ الحضارة الإسلامية (ترجمة حمزة طاهر) ص ٥٣.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٠.

(٣) Geschichte Der Chalifen, Vol. II. P. 382 n.

«وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها، بعد أن لم يكن في الأرض كلها أحسن منها، ولا أجمل ولا أعظم، ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها فسبحان من لا يزول ولا يحول».

(جـ) قرطبة :

لما دخل عبد الرحمن الأول بلاد الأندلس ووطد دعائم الإمارة الأموية فيها، اتخذ مدينة قرطبة حاضرة لإمارته، وبنى فيها القصر والمسجد والجامع.

وقد ذكر المقري[١] العوامل التي حدت عبد الرحمن على اختيار قرطبة مقراً لإمارته فقال: إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حاضرة ملكهم لعلى بصيرة: الديار الكثيرة المنفسحة، والشوارع المتسعة، والمباني الفخمة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج النضر، والمحرث العظيم، والشَّعراء[٢] الكافية، والتوسط بين شرقي الأندلس وغربها».

فلما ولي هشام بن عبد الرحمن بلاد الأندلس، جمل قرطبة وزينها بالمباني الفخمة والبساتين النضرة، وجدد القنطرة التي بناها السمح بن مالك الخولاني عامل عمرو بن عبد العزيز بالأندلس على نهر الوادي الكبير، وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل في إحكام البناء. وكان طولها ثمانمائة ذراع وعرضها عشرين باعاً[٣]، وارتفاعها ستين ذراعاً، وعدد حناياها ثمانية عشر حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجا[٤].

اتخذ عبد الرحمن الداخل من قصر قرطبة القديم مقراً لإمارته، ثم جمله وأنشأ فيه الرياض الفيحاء، وأجرى من الجبال القريبة من هذه المدينة، المياه العذبة في كل ساحة من ساحاته في قنوات الرصاص «تؤديها منها إلى المصانع صور (تماثيل) مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة، والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة».

وقد ألحقت بهذا القصر القصور الفخمة والبساتين النضرة، كالكامل والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرستق، وقصر السرور والتاج والبديع[٥].

---

(١) نفح الطيب جـ ١ - ٢١٧ ـ ٢١٨.
(٢) الشعراء: الأرض الكثيرة الشجر، وقيل، هي الروضة.
(٣) الباع مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما يميناً وشمالاً.
(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٦.
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢١٩.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة كثيراً من القصور، كقصر الرصافة الذي كان يختلف إليه للنزهة، وكانت تحيط به البساتين الواسعة التي نقل إليها غرائب النبات والأشجار من مختلف البلاد، كما جلب إلى هذا البستان شجر الرمان واستنبته حتى أينع وأثمر[١]. وقد قيل إن أخته أم الأصبغ كانت ترسل إليه شجرة الرمان من الشام[٢].

ومن قصور قرطبة قصر الدمشق الذي احتفظ باسم حاضرة الأمويين في الشرق، وكان يقوم على أعمدة من الرخام. وقد نمقت ساحاته وفناؤه، واتخذ أمراء بني أمية في الأندلس وخلفاؤها مكاناً للتسلية، وحاكوا به قصرهم بدمشق.

ومن أشهر آثار عبد الرحمن الأول: المسجد الجامع بقرطبة الذي بناه في سنة ١٨٦ هـ وأنفق في بنائه ٨٠,٠٠٠ دينار حصل عليها من غنائم القوط. ثم أتم هذا المسجد ابنه التقي هشام سنة ١٧٧ هـ، وتعهده الأمراء من بعده بالتجميل والزيادة حتى أصبح من أجمل مساجد الإسلام. فمن الأمراء من صفح السواري والحيطان بالذهب، ومنهم من أضاف إليه مئذنة، ومنهم من زاد في رقعته ليتسع للعدد الضخم من المصلين.

وقد بلغ عدد بوائكه[٣] تسع عشرة من الشرق إلى الغرب وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب. وللمسجد واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع، وثلاث وتسعون ومائتا وألف سارية. وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه المزين بالفسيفساء وصب في سواريه الذهب الإبريز واللازورد. أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب، ويتألف من ستة وثلاثين ألف وصل (قطعة منفصلة) سمرت بمسامير الذهب والفضة وزين بعضها الأحجار النفيسة. وكان للجامع أربع ميضآت يصل إليها الماء من الجبال. وبنيت الدور إلى الجانب الغربي من المسجد لنزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل.

وبهذا المسجد أيضاً مئات من الثريات التي صنعت من نحاس أجراس الكنائس للإضاءة ليلاً. وكان به شموع ضخمة زنة الواحدة منها خمسون رطلاً كانت تشتعل ليلاً ونهاراً إلى جانبي الخطيب أو الواعظ في شهر رمضان. وكان يقوم بخدمة المسجد ثلثمائة رجل يوقدون البخور من العنبر والعود ويعدون الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل. وبهذا المسجد تنور من

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٠.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٥٩.

(٣) من معاني البوائك النخل الثوابت في مكانها. قال شارح القاموس ومنه أيضاً تسمية بوائك السب لأعمدتها الضخمة، وهي وإن كانت عامية مولدة غير أن لها وجهاً في الاشتقاق صحيحاً.

نحاس أصفر يحمل ألف مصباح. «وفيه أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون»(١).

عني عبد الرحمن الأوسط بتعمير قرطبة وتجميلها، وشيد أمراء الأمويين في الأندلس، كالحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط ومحمد الأول (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) قصوراً فخمة، كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف، وقصر الدمشق، وقصر قرطبة الذي وصفه المقري فقال إنه يمتاز بالرياض اليانعة، والبحيرات الهائلة، والبرك البديعة، والصهاريج الغريبة، والقباب العالية المنيفة الذي لم ير الراءون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها.

اتسع عمران قرطبة حتى بلغ عدد سكانها في القرن الرابع الهجري ٥٠٠,٠٠٠ نسمة، وعدد دورها ١٣,١٠٠، غير قصورها الفخمة، وضواحيها الثمانية والعشرين، وحماماتها الثلثمائة، ومساجدها التي بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل. ولم يتفوق عليها في الاتساع سوى مدينة بغداد، وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بحاضرة العباسيين، فقال بعضهم:

دع عنك حضرَة بغداد وبهجتها ... ولا تعظِّم بلادَ الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة ... وما مشى فوقها مثلُ ابن حَمْدين(٢)

(د) فاس:

١ - إرتياد موضع فاس:

في سنة ١٨٩ هـ وفد على إدريس الثاني نحو خمسمائة فارس من العرب من الأزد وبني يحصب وغيرهم من إفريقية والأندلس. وقد ذكر ابن القاضي أن إدريس سر بقدومهم وأكرم وفادتهم، ورفع منزلتهم واتخذهم بطانة له، لأنه شعر بشيء من الوحشة بين البربر، وقد قلد إدريس عمير بن مصعب الأزدي الوزارة، وكان من فرسان العرب وسادتهم، وكان لأبيه مصعب مآثر عظيمة في إفريقية والأندلس ومواقف مشهورة في غزو بلاد الروم. كما قلد إدريس الثاني محمد بن سعيد القيسي القضاء. وكان صالحاً ورعاً، أخذ العلم عن الإمام مالك وسفيان الثوري وروى عنهما، ثم خرج إلى الأندلس للجهاد في سبيل الله، ثم وفد على إدريس فيمن

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٦.
Lane - Poole: The Moors In Spain, PP. 136 - 9.
(٢) المقري نفح الطيب جـ ٢ ص ٢١٦، ٢١٩، ٢٥٦، ٢٥٧.
Dozy. The Moslems In Spain, P. 449.

وفد عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق، فكثر الناس وضاقت بهم مدينة وليلي (بفتح الواو وكسر اللامين)، وهي على مقربة من جبل زرهون (بفتح الزاي وسكون الراء) شمالي مدينة فاس حيث أقام إدريس الأول.

ولما رأى إدريس الثاني أن الأمر قد استتب له، وأن مدينة وليلي قد ضاقت بجيشه وحشمه ووجوه أهل دولته، أراد أن يرتاد موضعاً يبني فيه حاضرة ملكه، فسار في سنة ١٩٠ هـ بصحبة بعض خاصته ورؤساء دولته. فوصل إلى جبل زالغ (أوزلاخ)، وهو جبل شامخ يشرف على مدينة فاس من ناحية الشرق، ولا يزال يعرف بهذا الاسم إلى الآن. وهنا شرع إدريس الثاني في البناء وأقام جزءاً من السور. ولكن السيل قد انهال من أعلى الجبل في بعض الليالي وحمل معه كل ما بني. فلم ير إدريس بدأ من العدول عن الاستمرار في البناء(١).

ولما أهلت سنة ١٩١ هـ خرج إدريس الثاني يرتاد موضعاً آخر يبني فيه مدينته.

ولما وصل إلى وادي (أو نهر) «سِبُو» (بكسر السين) رأى حمة (بفتح الحاء وتشديد الميم مع الفتح) خولان، وهي حمة سيدي حرازم الآن، وتبعد عن فاس بنحو عشرة كيلو مترات وتشتهر بمياهها المعدنية وقد أعجبه هذا المكان لقربه من الماء ووجود هذه الحمة فيه، فشرع في وضع الأساس وقطعت الأخشاب وصنع الجير وغيره من أدوات البناء، وبدىء في العمل. ولكن «إدريس» عدل عن البناء مرة أخرى لأنه خشي أن تتعرض مدينته لفيضان وادي «سبو» في فصل الشتاء، وقفل راجعاً إلى مدينة وليلي، وبعث وزيره عميراً يرتاد له موضعاً يفي بأغراضه.

سار هذا الوزير في جماعة من قومه حتى بلغ «فحص سايس»، وهو سهل فسيح يمتد بين جبل زرهون والحاجب وتقع في وسطه مدينة فاس الآن. فوجد اتساع رقعة المكان واعتدال هوائه وكثرة مائه، فنزل ودعا الله أن يستجيب لدعائه، ثم امتطى صهوة جواده وأمر قومه أن ينتظروه عند تلك العين حتى يعود إليهم. ومن ثم نسبت إليه هذه العين فسميت «عين عمير» ثم واصل الوزير سيره حتى وصل إلى العين التي ينبع منها وادي فاس، فرأى أكثر من ستين عيناً تنساب مياهها في أرض فسيحة تحيط بها المزارع والأشجار. ولما شرب من ماء هذه العين استطابه وقال: «ماء عذب وهواء معتدل». ثم سار عمير في الوادي حتى وصل إلى موضع مدينة فاس الحالي، فنظر إلى الجبلين، فوجد غيطة(٢) كثيفة الأشجار عامرة بالعيون والأنهار، وشاهد

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، الخزانة العامة بالرباط، مخطوط جـ ١٢٤٢ ورقة ٣٩٠ وما يليها.

(٢) الغيطة هي جزء من الأرض غني بمائه وأشجاره وجمال خضرته. ومن هذا التعبير أخذ لفظ الغيط في الاصطلاح المصري بمعنى الحقل.

في بعض مواضعها خياماً من شعر يسكنها قوم من زناته. واطمأن الوزير إلى ما رأى، فعاد إلى وليلي ووصف لمولاه إدريس الثاني هذا المكان وذكر له ما يمتاز به من وفرة مائه وجودة تربته واعتدال هوائه. فسار إليه إدريس وسأل عن ملاك هذه الأرض، فقيل قوم من زواغة يعرفون ببني الخير فقال: هذا فأل حسن، وبعث في طلبهم واشترى هذه الأرض منهم بستة آلاف درهم وأدى لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك[١].

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق التي ظهرت عند بناء مدينة بغداد. ذلك أن إدريس الثاني لما عزم على بناء مدينة فاس وبلغ موضعها مر به أحد الرهبان، وكان شيخاً كبيراً، قيل إنه ناهز المائة والخمسين. وكان يترهب في صومعة قريبة من تلك النواحي، فسلم على إدريس وقال له: أيها الأمير! ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين؟ قال؛ أريد أن أختط بينهما مدينة لسكناي وسكنى ولدي من بعدي، يعبد الله تعالى بها ويتلى بها كتابه وتقام بها حدوده، قال: أيها الأمير! إن لك عندي بشرى. قال: وما هي أيها الراهب؟ قال: أخبرني راهب كان قبلي في هذا الدير منذ مائة سنة أنه وجد في كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى «ساف» خربت منذ ألف سنة وسبعمائة، وأنه سيجددها ويحيي آثارها ويقيم درسها (وصحتها دارسها أي ما درس منها) رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس. فيكون له بها شأن عظيم لا يزال دين الإسلام قائما بها إلى يوم القيامة. فقال إدريس: الحمد لله! أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله ﷺ، وأنا بانيها إن شاء الله. لذلك عقد إدريس العزم على بناء مدينته، فوضع أساسها.

ويدلل ابن أبي زرع[٢]وابن القاضي[٣] على صحة الحكاية بأن أحد اليهود حفر أساس دار له بقنطرة عديلة من هذه المدينة فوجد في هذا الأساس دمية (بضم الدال) من رخام على صورة جارية نقشت على ظهرها هذه العبارة: هذا موضع حمام عمر ألف عام ثم خرب فأقيم بموضعه بيعة للعبادة.

٢ ـ اشتقاق لفظ فاس:

اختلف المؤرخون في تسمية مدينة فاس:

١ ـ فقد قيل إن إدريس الثاني لما شرع في بنائها كان يعمل مع الصناع والفعلة، فصنع له بعض الناس فأساً من ذهب، أو فضة، يستعمله إدريس في البناء، فكان يقال: هات الفأس

(١) ابن القاضي: جذوة الإقتباس المصدر نفسه.

(٢) روض القرطاس جـ١ ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) جدوة الإقتباس ورقة ٣٩١ وما يليها.

أحمل الفأس، أحفروا بالفأس، فسميت المدينة «فأس» ثم سهلت إلى فاس للتخفيف.

٢ ـ وقيل إنه لما شرع في حفر أساس المدينة من جهة القبلة وجد في الحفيرة فأس طوله أربعة أمتار وسعته شبر واحد ووزنه ستون رطلاً من عمل الأوائل. فسميت المدينة «فأساً».

ويرجح الحسن الوزان أو ليون الإفريقي(١) أن هذه التسمية جاءت نتيجة عثور المولى إدريس على فأس عند حفر أساس المدينة، فسمى مدينته «فاس».

٣ ـ وقيل إنه لما تم بناء المدينة طلب رجال الحاشية من المولى إدريس أن يسميها فقال: أسميها باسم المدينة التي كانت قبلها على ما أخبرنا بـه الراهب، وكـانت تسمى «ساف»(٢)، ولكني أقلب اسمها، فأصبحت فاس بدل ساف.

ويرى بعض أن المواضع الذي بنيت فيه المدينة كان يحمل اسم فاس. وأن هذه التسمية كانت راجعة إلى النهر الذي يخترق المدينة، وكان يسمى «ساف» Sef باللغة الإفريقية، فقلب لفظ ساف إلى فاس(٣).

ويرى «إيبولار» عند تعليقه على ما ذكره الحسن الوزان عن مدينة فاس، أن كلمة «أسيف» Asef معناها بالبربرية النهر، وأنها تصبح عند قلبها فاس، وذلك بشيء من التصرف(٤).

ولا تبعد صحة هذا الرأي الذي يرتكز على أصل من اللغة البربرية.

٣ ـ تخطيط فاس:

وضع إدريس الثاني أساس مدينة فاس في يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة ١٩٢ هـ فأسس عدوة(٥) الأندلس وأدارها بالسور من ناحية القبلة. وقد أقام بها ثلثمائة أسرة جاءت من قرطبة بعد أن ثاروا على الحكم الأول الأموي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) بربض هذه المدينة الغربي

---

(١) Loin l"Africain. Tom I, PP. 179 - 180.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ ١ ص ٦٠ ـ ٦١.

(٣) الحسن الوزان tom I, P. 180

(٤) Tome I, P. 179, Note 106

(٥) بضم العين وسكون الدال وفتح الواو. ومعناها شاطىء النهر أو البحر. وقد ورد هذا اللفظ في القران الكريم (سورة الأنفال ٨ : ٤٢): ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾.

بزعامة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، فأحل بهم الأمير الأموي الهزيمة وهدم دورهم ومساجدهم ووضع حداً لتدخل رجال الدين.

وقد أرغم هؤلاء الثوار على الهجرة إلى فاس (والإسكندرية) وأقاموا بها، حيث لحقت بهم قبائل البربر من أوربة (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الواو وفتح الباء) وغمارة (بضم الغين) ولواتـة (بفتح اللام والتاء الأولى).

ثم وضع إدريس الثاني أساس عدوة القرويين في غرة ربيع الثاني من سنة ١٩٣ هـ[1]، فوفد عليها ثلثمائة أسرة جاءت من القيروان (بتونس الحالية) تاركين بلادهم لنفس الأسباب التي أدت إلى هجرة الأندلسيين.

وقد امتاز هذا المكان بكثرة أشجاره ووفرة عيونه وتدفق أنهاره. ولذلك رأى إدريس الثاني أن ينتقل من عدوة الأندلس إلى عدوة القرويين في الموضع المعروف بدار القيطون (بفتح القاف وسكون الياء) اليوم القريب من ضريح مولاي إدريس.

ثم أخذ إدريس الثاني في بناء المسجد الذي يعرف الآن بمسجد الشرفا. وهو مسجد مولاي إدريس اليوم، وأقام فيه الخطبة. ثم أخذ في بناء داره المعروفة بدار القيطون التي يسكنها الشرفاء الجوطيون من أولاده. ثم بنى القيسارية إلى جانب المسجد الجامع، وأدار حوله الأسواق من كل جانب، وأمر الناس بالبناء وقال لهم: من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة ابتغاء وجه الله. فبنى الناس الدور وغرسوا الأشجـار وكثرت العـمارات. وفي ذلك الوقت وفد على إدريس الثاني جماعة من الفرس من بلاد العراق، فأنزلهم بناحية «عين علو» (بفتح العين وضم اللام مع التشديد) التي بنيت عليها دار الجزاء ودار أخرى بإزائها. أما

---

(١) هذان التاريخان (١٩٢ و١٩٣ هـ) هما المتداولان عند جمهرة مؤرخي المغرب. على أن الأستاذ «أندري آدم» أتى بنظرية جديدة عن تأسيس مدينة فاس، فذكر أن عدوة الأندلس بناها إدريس الأول بين سنتي ١٧٢ و١٧٤! هـ (ولعله يقصد سنة ١٧٧ هـ، وهي السنة التي توفي فيها إدريس الأول). وقد دلل «آدم» على صحة نظريته بما أورده من نصوص متعددة استمدها من مصادر أصيلة، مثل كتاب أبي بكر الرازي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ الـذي ينسب تـأسيس مدينة فاس إلى إدريس الأول، والنوفلي المؤرخ الذي ذكر أن إدريس الثاني أتى إلى مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ واستقر بعدوة الأندلسيين، أي أن مدينة كانت قائمة قبل مجيء إدريس الثاني. ومن المصادر التي اعتمد عليها الأستاذ «آدم»، كتاب «الزهرة المنشورة في الأخبار المأثورة»، وهو ديوان تاريخي أي منظومة تاريخية نظمت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) في عهد بني نصر (بني الأحمر) ملوك غرناطة، وقد ذكر صاحب هذا الديوان أن الأندلسيين بعد خروجهم من قرطبة في سنة ٢٠٢ هـ في عهد الحكم بن هشام جاءوا إلى فاس، فسميت إحدى العدوتين «عدوة الأندلسين»، وقد أضاف صاحب هذا الديوان أن مدينة فاس بنيت سنة ١٧٨هـ، حين دخل إدريس بن عبد الله بلاد المغرب =

دار الجزاء فهي المكان الذي تشرف عليه وزارة الأوقاف المغربية ولها سهم في الدور التابعة له[١].

وقد أدار إدريس سور عدوة القرويين مبتدئاً برأس عقبة علو وصنع برأس العقبة باباً سماه باب إفريقية (يقصد باب القيروان). ثم هبط بالسور إلى عقبة الزعتر حيث صنع باباً سماه باب حصن سعدون، ويليه باب القوس. واستمر في البناء حتى وصل إلى المكان الذي يفصل بين العدوتين وصنع باباً سماه باب الفصيل لأنه يفصل بين عدوة الأندلس وعدوة القرويين. ثم جاوز هذا الباب وصنع باباً سماه باب الفرج.

ثم ابتدأ إدريس الثاني بعدوة الأندلس من جهة القبلة، واستمر في بناء السور وصنع قبالة باب الفرج وباب الفصيل من عدوة القرويين باباً سماه باب أبي سفيان، ومنه يخرج الناس إلى بلاد غمارة (بضم الغين) والريف شمالاً. ثم سار بالسور شرقاً فصنع باباً يعرف بباب الكنيسة، ومنه يخرج المسافر إلى تلمسان. ولم يزل هذا الباب على حاله كما بناه إدريس حتى هدمه عبد المؤمن بن علي الموحدي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)، ثم بناه الناصر بن المنصور الموحدي حين جدد سور المدينة سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ م). كذلك بنى إدريس بسور عدوة الأندلسّ القبلي باباً سماه باب القبلة لم يزل على حاله حتى هدمه «دوناس» اليفراني حين دخل الأندلس عنوة، فبناها الفتوح بن عطية الزناتي اليفراني في عهد ولايته على هذه المدينة[٢]. كما بنى بسور عدوة القرويين الغربي باب الحديد الذي يؤدي إلى الأطلس المتوسط، وباب

= (والمعروف أنه دخل سنة ١٧٢ هـ). ويقول «أندري ادم»: «هكذا نستخرج تاريخاً جديداً دا ثلاثة فصول:

١ ـ مدينة بربرية الأسلوب بناها إدريس الأول سنة ١٧٨ هـ (٧٨٩ م) كانت تسمى إذ ذاك مدينة فاس، ضربت بها السكة إلى سنة ١٨٩ هـ.

٢ ـ مدينة جديدة على أسلوب شرقي، أو إن شئت فقل، على أسلوب إفريقي توسي. فسميت هذه المدينة أولاً «العالية»، ثم سميت بعد ذلك مدينة القرويين.

٣ ـ إن وفود القرطبيين الأندلسيين سنة ٢٠٢ هـ سمحت لإدريس الثاني بأن يزيل الصبغة البربرية للمدينة التي أسسها أبوه، وبأن يقيم هؤلاء الأندلسيين الذين زادوا مساحتها بالبناء بأسلوب أندلسي. ومن هنا سميت مدينة الأندلسيين.

ويرى الأستاذ بروفنسال أن القارىء يلتبس عليه قراءة سبعين وتسعين بالعربية، ولاسيما إذا ذكرنا أن النقط لم يكن شائعاً في العصور الأولى، فكتب بعض الناسخين إثنتين وسبعين ومائة بدلاً من إثنتين وتسعين ومائة. انظر مجلة الثقافة المغربية العدد الأول ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

(١) ابن القاضي: جذوة الإقتباس، المصدر نفسه.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ ١ ص ٥٢ ـ ٥٤.

سليمان الذي يؤدي إلى مدينة مراكش وبلاد المصامدة وباب الجوف الذي يؤدي إلى الرابطة القديمة وسد في أثناء المجاعة التي حلت بمدينة فاس سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ - ١٢٣٠ م)، وباب حصن سعدون ويقع جنوبي السور، وهو الذي بناه إدريس.

٤ - اتساع مدينة فاس:

وسرعان ما اتسعت مدينة فاس وكثر سكانها وزاد عدد أبوابها، وغرست الأشجار والكروم والزيتون على جانبي نهر سبر، وعمرت الأرض وقصدها الناس من كافة البلاد وازدحمت بالسكان، وأقام بها التجار وأرباب الحرف وغيرهم.

ولما فرغ إدريس من بناء فاس انتقل إليها واتخذها حاضرة لدولته. وفي سنة ١٩٧ هـ خرج لغزو من بقي من الكفار بنفيس (نهر يقرب من مدينة مراكش) وبلاد المصامدة، ففتحها وعاد سنة ١٩٩ هـ ثم خرج لغزو قبائل نفزاوة ودخل مدينة تلمسان[١].

ولما فرغ إدريس من بناء مدينته أقام خطبة الجمعة وختمها بقوله: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت بناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك، وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك ﷺ ما بقيت الدنيا. اللهم وفق ساكنها وقاطنها للخير وأعنهم عليه، وأكفهم مؤونة أعدائهم، ووسع عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والنفاق، إنك على كل شيء قدير» وقد أدار عليه الأمير عجيسة في عهد ولايته سورا وصنع فوق باب حصن سعدون بابا أطلق عليه باب عجيسة كما فعل أخوه الفتح بباب عدوة الأندلس. ولم يزل باب عجيسة على حاله بقية أيام زناتة وصنهاجة إلى عهد الناصر الموحدي (٥٩٥ - ٦١١/١١٩٩ - ١٢١٤) الذي أمر ببناء سور المدينة. وكان جده عبد المؤمن قد هدمه سنة ٥٤٠ هـ كما ذكرنا، وبنى على مقربة من باب الجيسة وفوقه باباً كبيراً سماه باب عجيسة[٢].

ولم تزل الخطبة تقام في عدوة القرويين حتى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م). حتى تقلد أمورها دوناس الزناتي. فلما مات بايع أهل عدوة الأندلسيين ابنه الفتوح (وهو الأكبر) وحكم ابنه الأصغر وعجيسة بعدوة القرويين. وكان لكل من العدوتين جيش وبلاط. ثم قامت العداوة بين الأخوين وتنافسا على الرياسة، واشتعلت نار الحروب بين المدينتين ودارت رحى القتال على

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ص ٣٩٠ وما يليها.
(٢) وقد أسقط الناس حرف العين وأدخلوا بدله الألف واللام فقالوا باب الجيسة، ولا يزال يعرف بهذا الاسم إلى الآن.

ضفة النهر الكبير بالمكان الذي يعرف بكهف الوقادين بين العدوتين، وقد دخل الفتوح صاحب عدوة الأندلس على أخيه عجيسة فقتله واستولى على السلطة في العدوتين ثلاث سنين[١].

وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة وأكثرهم يشتغل بالزراعة، وأهل عدوة القرويين أهل رفاهية ونخوة في البناء واللباس، وأكثرهم صناع وتجار، ورجال عدوة القرويين أوسم وجوها من رجال عدوة الأندلس كما كانوا أجمل نساء.

وكانت أسواق فاس تحيط بجامع القرويين، وكانت محلاتهم ملاصقة لسور الجامع وبعضها الآخر يقابل هذا السور.

وقد أشاد ابن أبي زرع[٢] بمزايا مدينة فاس على سائر مدن المغرب فقال: «وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء، واعتدال الهواء، وطيب التربة، وحسن الثمرة، وسعة المحرث[٣] وعظيم بركته، وقرب المحطب، وكثرة عدده وشجره. وبها منازل مؤنقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة منسقة، وعيون منهمرة، وأنهار متدفقة منحدرة، وأشجار ملتفة، وجنات دائرة بها محتفة».

وقد توافرت في مدينة فاس المزايا التي يجب أن تتوافر في المدن الجميلة فقال: «وقالت الحكماء: أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري والحرث الطيب، والمحطب (بفتح الطاء) القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها. وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة»[٤].

---

(١) ابن القاضي؛ نفس المصدر. ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ ١ ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) روض القرطاس جـ ١ ص ٤٢.
(٣) أي الأرض الصالحة للحراثة. ومحرث كمجلس اسم مكان الحرث.
(٤) ابن أبي زرع: جـ ١ ص ٤٢.

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

١ ـ طبقات الشعب

(أ) عند العباسيين:

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات، وأماكن النزهة، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على العنصر العربي الذي كان يكون السواد الأعظم من أفراد الشعب في بلاد الشام. فلما ظهرت الدولة العباسية بمساعدة الفرس وتحول مركز هذه الدولة إلى بلاد العراق، ساد العنصر الفارسي، واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب وأسندوا إليهم المناصب المدنية والعسكرية. ومن ثم قامت المنافسة بين العرب والفرس، حتى جاء المعتصم ـ وكانت أمه تركية ـ فاعتمد على العنصر التركي واتخذهم حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة، وقلدهم ولاية الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة، بل أخرج العرب من ديوان العطاء وأحل محلهم الترك، فحقد عليهم العرب والفرس جميعاً.

ولم يقتصر الصراع على ما كان بين العرب والفرس والترك، بل تعداه إلى قيام المنافسة بين العنصر العربي نفسه: فاشتعلت نيران العصبية بين عرب الشمال المضريين، وعرب الجنوب اليمنيين، حتى إن نقل المنصور جنده إلى الكرخ جنوبي بغداد، كان نتيجة قيام روح العصبية بين بعض العرب وبعض.

ذكر الطبري[١] أن قُثَم بن عباس دخل على المنصور، وكان شيخاً ذا رأي وحزم، فقال

(١) جـ ٩ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

له المنصور: أما ترى يا قثم ما نحن فيه من التياث الجند علينا؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم، فيخرج هذا الأمر من أيدينا فما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين عندي رأي لو أظهرته لك فسد، وإن تركتني أمضيته، صلحت لك خلافتك، وهابك جندك، فقال له: أفتمضي في خلافتي أمراً لا تعلمني ما هو؟ فقال له: إن كنت عندك متهماً على دولتك فلا تشاورني، وإن كنت مأموناً عليها فدعني أمضي رأيي فقال: فأمضه. فانصرف قثم إلى منزله، فدعا غلاماً له فقال: إذا كان غدا، فتقدمني، فاجلس في دار أمير المؤمنين. فإذا رأيتني قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلتي، فاستوقفني، واستحلفني بحق رسول الله، وحق العباس، وحق أمير المؤمنين، لما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها. فإني سأنتهرك، وأغلظ لك القول، فلا يهولنك ذلك مني، وعاودني بالمسألة، فإني سأشتمك، فلا يردعك ذلك، وعاودني بالقول والمسألة، فإني سأضربك بسوطي، فلا يشق ذلك عليك، فقل لي: أي الحيين أشرف اليمن أم مضر؟ فإذا أجبتك فخل عنان بلغني وأنت حر». فغدا الغلام فجلس حيث أمره، فلما جاء الشيخ، فعل الغلام ما أمره به مولاه، وفعل المولى ما كان قد قال له ثم قال له. قل! فقال: أي الحيين أشرف. اليمن أم مضر؟ فقال قثم: مضر كان منها رسول الله ﷺ، وفيها كتاب الله عز وجل، وفيها بيت الله، ومنها خليفة الله، فامتعضت اليمن، إذ لم يذكر لها شيء من شرفها، فقال له قائد من قواد اليمن. ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرف ولا فضيلة لليمن، ثم قال لغلامه: قم فخذ بعنان بغلة الشيخ، فاكبحها كبحاً عنيفاً تطأ من به منه. ففعل الغلام ما أمره به مولاه حتى كاد أن يقيمها على عراقيبها، فاستعضت من ذلك مضر فقالت: أيفعل هذا بشيخنا؟ فأمر رجل منهم غلامه فقال: أقطع يده، فنفر الحيان، وصرف قثم بغلته، فدخل على أبي جعفر، وافترق الجند، فصارت مضر فرقة، واليمن، والخراسانية فرقة، وربيعة فرقة.

من ذلك نرى أن الشعب كان يتكون في العصر العباسي الأول من العرب، وعلى الأخص المضريين واليمنيين. ثم من الفرس، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية، والترك. وعلى الأخص منذ أيام المعتصم، والمغاربة وغيرهم. وكان المسلمون ينقسمون إلى سنيين وشيعيين. ولم يخمد النزاع بينهم طوال العصر العباسي الأول، بل تطور أطواراً مختلفة، نراها في الثورات التي أذكى نيرانها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في عهد أبي جعفر المنصور، والحسين بن علي في عهد الهادي، ويحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن في عهد هارون الرشيد.

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني، حتى إننا نرى ببغداد كثيراً من الأديار نخص

بالذكر منها دير العذارى، وكان في قطيعة النصارى على نهر الدجاج، ودير درمايس الذي وصفه الشابشتي في كتابه «الديارات»، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار. ويقصده الناس للنزهة وانتشار الهواء، ودير الروم شرقي بغداد، الذي أشار أحد رهبانه على أبي جعفر المنصور ببناء مدينته في هذا الموضع، وكان خاصاً بالنسطوريين. وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية في أديارهم وبيعهم خارج مدينة بغداد في أمن ودعة، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الديني مع أهل الذمة.

وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية كذلك في شعائر أهل الذمة، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم.

وكانت الطوائف الدينية منفصلاً بعضها عن بعض تمام الانفصال، وكان لا يجوز للمسيحي أن يتهود ولا لليهودي أن يتنصر؛ واقتصر تغيير الدين على الدخول في الإسلام. ولم يكن النصراني يرث اليهودي ولا اليهودي يرث النصراني، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم، ولا المسلم يرث غير المسلم، يهودياً كان أو نصرانياً. ولم يكن في المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين.

وكان الشعب يتألف في العصر العباسي الأول من أربعة عناصر رئيسية هي: العرب والفرس والأتراك والمغاربة. فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، اعتمد الخلفاء عليهم، وأهملوا العرب الذين نقموا على الفرس وأشعلوا نيران الثورات حتى قامت بين الأمين والمأمون هذه الفتنة التي كانت في حقيقة الأمر انتصاراً للفرس على العرب. ولما ولي المعتصم الخلافة ظهر العنصر التركي على مسرح السياسة واتخذهم هذا الخليفة حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة، وأقصى العرب من ديوان العطاء وأدى ظهور العنصر التركي إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين.

وإن الثورات التي أشعل نارها بابك الخرمي والمازيار والأفشين في أواخر العصر العباسي الأول، لتبين لنا مبلغ سخط الفرس على العرب والأتراك والمغاربة، كما يظهر ذلك من قول الأفشين للمازيار يستحثه على مساعدته في ثورته التي كانت ترمي إلى إعادة السلطان إلى الفرس. «فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس. فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك، والعربي

بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس؛ وهؤلاء الذئاب، يعني المغاربة، إنما هم أكلة رأس، وأولاد الشياطين، يعني الأتراك، فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم».

وكان الرقيق يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً. وكانت سمرقند التي كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق بيئة صالحة جداً لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر، إذ كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها[١]. ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء، بدليل أن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق. وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحياناً على العربيات الحرائر.

وقد أشاد الخطيب البغدادي[٢] بوصف أهل العراق مركز الخلافة العباسية وقلبها النابض في العصر العباسي الأول في هذه العبارة الشائقة، وأطنب في ذكائهم ومحاسنهم وأدبهم وخلقهم فقال: «إن العراق الذي بنيت فيه بغداد، وهي صفوة الأرض ووسطها، يحيط به ستة أقاليم هي بلاد الترك، والهند، والصين، والشام، والحجاز، ومصر. لذلك اعتدلت ألوان أهله، وامتدت أجسامهم، وسلموا من شقرة الروم والصقالبة، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان، ومن غلظة الترك، ومن جفاء أهل الجبال وخراسان، ومن دمامة أهل الصين ومن جانسهم وشاكل خلقهم، فسلموا من ذلك كله، واجتمع في أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار، بلطف من العزيز القهار، وكما اعتدلوا في الخلقة، كذلك لطفوا في الفطنة والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور».

(ب) في مصر والأندلس:

ولما فتح العرب مصر أصبح فيها ثلاثة عناصر من السكان: القبط، وهم أهل البلاد الأصليون، وكانوا يكونون السواد الأعظم من السكان. والروم، وهم بقايا الحكم الروماني الذي قضى عليه العرب. وكان الروم واليهود يكونون أقلية ضئيلة من السكان. أما العنصر الثالث، وهو العنصر العربي، فكان بعد الفتح يتألف من الجند العربي ومن القبائل العربية التي سحرتها هذه البلاد.

وقد بلغ جند العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً، ثم أخذ هذا العدد يزداد بسبب وفود نساء هؤلاء الجند وأولادهم، واتخاذهم مصر وطناً ثانياً لهم. أضف إلى ذلك

(١) متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص ٢٦٨.
(٢) تاريخ بغداد جـ١ ص ٢٢ - ٢٣.

اندماج هؤلاء العرب في أهالي البلاد الأصليين بالمصاهرة. على أنه برغم هذه الزيادة المطردة في العرب النازحين إلى مصر، طلب عبد الله بن الحبحاب عامل الخراج من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي أن يأذن له في إسكان العرب من قبيلة قيس في أرض الحوف الشرقي جهة بلبيس، حيث يقيم نفر من جديلة. وسرعان ما بلغ عدد هؤلاء النزلاء خمسة آلاف.

كما وفد إلى مصر أولاد الكيز الذين يرجع نسبهم إلى ربيعة بن معد بن عدنان من عرب الشمال، ونزلت طائفة منهم بإقليم أسوان وغيره من أهالي الصعيد. كما نزل بهذا الإقليم كثير من العرب من قبائل اليمن كخزاعة والجعافرة والعبابدة والبشارية. واستطاع بنو ربيعة الذين كانوا يقيمون في إقليم أسوان خاصة أن يصدوا غارات البجة أو البجاة، كما انتشروا في بلاد النوبة وغيرها، ولا سيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر، في الأراضي الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريباً.

وقد اشتغل العرب باستثمار الأرض وتاجروا في الإبل والخيل، وحملوا عليها غلات أرضهم إلى القلزم[١] حيث كانت تنقل إلى بلاد العرب. على أن اندماج العرب في المصريين اندماجاً فعلياً زاد زيادة واضحة بعد أن أسقط المعتصم أسماء العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب في الريف، واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق، وأخذ العنصر العربي في الدولة العباسية يضعف شيئاً فشيئاً.

وفي بلاد الأندلس كان الشعب يتألف من عدة عناصر، من بينها المسلمون من العرب والبربر الذين ساهموا في فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومن مسيحيي الأندلس من الإسبان الذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح، ومن اليهود الذين رزحوا تحت الحكم القوطي.

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين وسكنوا في أماكن كثيرة، ونزل كثير من المضريين في طُليطلة وسَرَقُسْطة واشْبيلية وبَلنسية وغيرها، كما نزل اليمنيون في غرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس. وقام العرب في الأندلس بدور هام في تاريخ هذه البلاد وتدخلوا في شؤونها السياسية. وكان للنزاع بين هذه القبائل أثر كبير في إضعاف الحكم الإسلامي في هذه البلاد. وكان لاعتماد عبد الرحمن الداخل على البربر واتخاذ جنوده منهم لعدم ثقته بالعرب، أثر بعيد في إضعاف الدولة الأموية في هذه البلاد، واستغل المسيحيون هذه الفرصة لشن غاراتهم على المسلمين والعمل على استرداد بلادهم.

---

(١) هي مدينة السويس الآن.

وعلى الرغم من أن البربر بقيادة طارق بن زياد أبلوا البلاء الحسن في فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة في الشمال، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا في الأماكن الحصينة، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين. ولهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب[١] وأخذوا يناصبونهم العداء كما كانوا يناصبون العرب والروم في بلاد المغرب من قبل.

وفي الحق أن البربر كانوا إذا أنسوا من أمراء الأمويين وحلفائهم في الأندلس قوة، استكانوا وآثروا العافية، وعاشوا عيشة الهدوء والسكينة؛ وإذا أنسوا من هؤلاء ضعفاً اتخذوا من ذلك فرصة لشق عصا الطاعة، فتراهم ينتهزون فرصة الاضطرابات في عهد المنذر وعبد الله ابني محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط، ويستقلون في أواخر القرن الثالث الهجري بالولايات الغربية وجنوبي بلاد البرتغال، ويحتلون بعض الأماكن الهامة في الأندلس[٢]. ومن أشد هؤلاء البربر خطراً أسرة ذي النون التي دهمت الأندلس كلها ـ كما يقول ستانلي لينبول[٣] ـ بالسيف والنار وعاثت في جميع أرجائها.

ومن أهم طبقات المجتمع في الأندلس: الصقالبة، وكانوا من المماليك الذين كان تجار الإغريق والبنادقة يجلبونهم إلى بلاد الأندلس ويبيعونهم صغاراً، فينشؤون نشأة إسلامية كانوا يسمون الخرس أيضاً لعجمتهم. وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف. كما كانوا يجلبون من أسرى الحروب، أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوروبية أو سواحل البحر الأبيض الغربية ويسمون «الحشم». ويشبه هؤلاء الصقالبة الأتراك في الدولة العباسية منذ عهد المعتصم.

وقد ذكر المقدسي[٤] عند كلامه على الخدم السود والبيض، أن البيض جنسان: «الصقالبة، وبلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخصون. ثم يخرجون إلى مصر والروم يقعون إلى الشام وأقور، وقد انقطعوا بخراب الثغور». وكان الصقالبة يكونون عنصراً هاماً من عناصر الجيش ويقيمون عادة بقرطبة. وقد اتخذهم الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) حرساً له، ولم يلبث أن زاد نفوذهم وتفاقم شرهم.

---

(١) Lane - Poole, The Moors in Spain, pp. 53 - 55.

(٢) ابن خلدون. العبر جـ ٤ ص ١٣٣.

(٣) The Moors in Spain, pp. 100 - 101.

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٤٢.

٢ ـ مجالس الغناء والطرب

(أ) في عهد العباسيين:

انغمس العباسيون في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة. وكانت قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة. كما ازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة. وكان العباسيون ينفقون عن سعة في سبيل رفاهيتهم، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور. وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين، كما كانت مجالس الخلفاء من آيات الروعة والجمال.

وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس. وقد وصف الجاحظ في كتابه «التاج في أخلاق الملوك» في باب المنادمة، هذه المجالس في عهد أردشير بن بابك، فقال إنه كان أول «من رتب الندماء، وأخذ بزمام سياستهم وأنه جعلهم ثلاث طبقات[١]».

«ولما قامت الدولة العباسية كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء، في مجلسه، ثم احتجب عنهم، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه ومغنيه ويمنحهم العطايا والصلات ويقول: العجب ممن يفرح إنساناً فيتعجل السرور، ويجعل ثواب من سره تسويفاً وعدة. فكان في كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسروراً»[٢]. ولم يظهر أبو جعفر المنصور لنديم قط، ولم يره أحد يشرب غير الماء، كما كان لا يثيب أحداً من ندمائه. وكان المهدي يسمع الغناء، وكان أصحابه يشربون عنده النبيذ على الرغم من أنه لم يكن يشربه[٣].

وقد احتجب المهدي في أول خلافته عن الندماء عاماً كاملاً تشبهاً بأبيه المنصور، ثم ظهر لندمائه وأجزل لهم العطايا والمنح. وكان الهادي يحب الغناء ويطرب له. وقد قرب إليه من المغنين ابن جامع الذي حذق فن الغناء، وإبراهيم الموصلي الذي ضرب في الغناء بسهم وافر، والزبير بن دحمان والغنوي. وذكر الطبري[٤] أن الهادي كان «يشتهي من الغناء الوسط الذي

---

(١) انظر ما ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب نقلاً عن كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٣٣.

(٣) الفخري ص ١٦٧.

(٤) جـ ١٠ ص ٤٦.

يقل ترجيعه ولا يبلغ أن يستخف به جداً». وكان إذا أعجبه الغناء وطرب قال لمغنيه: «أحسنت أحسنت»، ويكثر له العطاء حتى يبلغ أحياناً ألف ألف درهم.

وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين. وقد جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان؛ «فكان إبراهيم الموصلي و[إسماعيل أبو القاسم] بن جامع وزلزل [منصور الضارب] في الطبقة الأولى. وكان زلزل يضرب، ويغني هذان عليه».

وفي عهد الرشيد نبغ من المغنين والموسيقيين: «وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس. فكان إذا جس العود، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله لم يملك نفسه حتى يطرب[1]. وكان يضرب المثل بزلزل في حسن الضرب بالعود. واشتهر في أيام المهدي والهادي والرشيد. وقد أنشأ في بغداد بركة وقفها على المسلمين، فاشتهرت باسمه، وأكثر الشعراء من ذكرها».

وإذا أجاد أحد المغنين أو الموسيقيين، أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التي تعلو رتبته. ذكر الجاحظ[2] أن برصوما الزامر أعجب الرشيد مرة، وكان في الطبقة الثانية، «فطرب الرشيد يوماً لزمره، فقال له صاحب الستارة: يا إسحاق! أزمر على غناء ابن جامع، قال: لا أفعل، قال: يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل؟ قال: إن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها، فإما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمر على الأولى، فلا أفعل! فقال الرشيد لصاحب الستارة: ارفعه إلى الطبقة الأولى، فإذا قمت فادفع البساط الذي في مجلسهم إليه، فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط، وكان يساوي ألفي دينار. فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وأخواته. وكانت أمه نبطية لكناء، فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه، وجاء نساء جيرانه يهنئن أمه بما خص به دون أصحابه ويدعون لها. فأخذت سكيناً وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط، حتى أتت على أكثره. فجاء برصوما فإذا البساط قد تقسم بالسكاكين فقال: ويلك ما صنعت؟ قالت: لم أدر، ظننت أنه كذا يقسم؛ فحدث الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر».

وممن نبغ في الغناء في عهد الرشيد مسكين المدني، ويعرف بأبي صدقة. روى المسعودي[3] قصة هذا المغني الذي وصف فيها حياته، وكيف تبدلت حاله من حائك رقيق

(١) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ٣٧ - ٣٨، ٩٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٤١.
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

الحال إلى مغن رفيع القدر وكيف أخذ الغناء عن إحدى الجواري، وكيف كان لفن الغناء مكان ملحوظ بين الفنون في العصر العباسي، فقال:

وجمع الرشيد ذات يوم المغنين فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر، وكنت فيهم. وحضر منا مسكين المدني، ويعرف بأبي صدقة، وكان يوقع بالقضيب مطبوعاً حاذقاً، طيب العشرة مليح البادرة. فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النبيذ صوتاً، فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه ففعل، فلم يطرب عليه. ثم فعل مثل ذلك بحماقة ممن حضر فلم يحرك منه أحد. فقال صاحب الستارة لمسكين المدني: يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنه، قال إبراهيم: فاندفع فغناه فأمسكنا جميعاً متعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة. فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول: يا مسكين أعده! فأعاده بقوة ونشاط، فقال: أحسنت وأجملت، ورفعت الستارة بيننا وبينه. قال مسكين: يا أمير المؤمنين! إن لهذا الصوت خبراً، قال: وما هو؟ قال: كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير، وكان لمولاي عليَّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين، فإذا دفعت ضريبتي تصرفت في حوائجي، فخطت يوماً قميصاً لبعض الطالبين فدفع إلي درهمين وتغديت وسقاني أقداحاً، فخرجت وأنا جذلان، فلقيتني سوداء على رقبتها جرة وهي تغني هذا الصوت، فأذهلني عن كل مهم وأنساني كل حاجة، فقلت: بصاحب هذا القبر والمنبر ألا ألقيت علي هذا الصوت؟ فقالت: وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين، فأخرجت الدرهمين فدفعتهما إليها، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت، فما زالت تردد حتى كأنه مكتوب في صدري. ثم انصرفت إلى مولاي فقال لي: هلم خراجك، فقلت: كان وكان، فقال: يا ابن اللخناء، وبطحني وضربني وحلق لحيتي ورأسي. فبت يا أمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالاً وأنسيت الصوت مما نالني. فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذي لقيتها فيه، وبقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها، إذ نظرت بها مقبلة فأنسيت كل ما نالني، وملت إليها فقلت: أنسيت الصوت ورب الكعبة؟ فقلت الأمر كما ذكرت! وعرفتها ما مر بي من حلق الرأس واللحية فقالت: وحق القبر ومن فيه لا فعلت إلا بدرهمين. فأخرجت جلـي (مقصي) ورهنته على درهمين، فدفعتهما إليها. فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت فمرت فيه ثم قالت كأني بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار ثم انصرفت إلى مولاي وجلا فقال: هلم خراجك، فلويت لساني، فقال: يا ابن اللخناء! ألم يكفك ما مر عليك بالأمس؟ فقلت: إني أعرفك أني اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت، واندفعت أغنيه! فقال لي: ويحك! معك مثل هذا الصوت ولم تعلمني؛ امرأته طالق لو كنت قلته أمس لأعتقتك. فضحك الرشيد وقال: ويلك! ما أدري أيما أحسن حديثك أم غناؤك؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء، فقبضه وانصرف، والشعر:

قفْ بالمنازل ساعةً فتأمّلِ   فلسوف أحمل للبِلى في محمل

وكان الرشيد يقدر الندماء والمغنين والموسيقيين، حتى إنه «لم يجتمع - كما يقول ابن طباطبا[١] على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين، ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة».

ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقى في العصر العباسي، بفضل اهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة الذين عملوا على رفع شأنها. وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية في بغداد يشتركن في حفلات موسيقية خاصة[٢].

ومن أشهر المغنين الذين حظوا برضاء بعض الخلفاء العباسيين: إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وكانا من رجال الأدب، إلا أن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان. وقد أبدع إبراهيم الموصلي في تنسيق الألحان حتى توهم أن الأرواح هي التي تعلمه الأصوات. ولم يكن إبراهيم الموصلي وحده متأثراً بهذا الشعور، بل ورثه عنه ابنه إسحاق[٣].

تعلم إبراهيم فن الغناء على رجل أخذ أصوات الغناء عن أهل الحجاز. وكان أول صوت أخذه عن أستاذه:

أرسلي بالسلام يا سَلم إني   مُذْ علقتكم غني فقير
فالغنى إن ملكت أمرك والفقـ   ـر بأني أزور من لا يزور
ويْحَ نفسي! تسلو النفوس ونفسي   في هوى الريم ذكرها ما يجوز
من لنفسٍ تتوق أنتِ هواها   وفؤادٍ يكاد فيك يطير؟[٤]

وقد نبغ إبراهيم الموصلي في فن الغناء، وإليه يرجع الفضل في تعليم الجواري الغناء في عصره. فقد روى صاحب الأغاني[٥] عن إسحاق بن ابراهيم قال: لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء وإنما كانوا يعلمونه الصفر والعود. وأول من علم الجواري المثمنات أبي، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن. وفيه يقول أبو عيينة بن أبي عيينة المهلبي، وقد

---

(١) الفخري ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٢) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٩١ - ٣٩٢.
(٣) انظر المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٤) الأغاني جـ ٥ ص ٢٠٢.
(٥) المصدر نفسه جـ ٥ ص ١٧٠.

كان هوى جارية يقال لها أمان، فأغلى بها مولاها السوم (القيمة)، وجعل يرددها إلى إبراهيم وابنه إسحاق فتأخذ عنهما، فكلما زادت في الغناء زاد في سومه.

وقد وصف ابراهيم الموصلي كيف يصوغ ألحانه في هذه العبارة: أخرج الهم من فكري، وأمثل الطرب بين عيني فتسرع لي مسالك الألحان [التي أريد] فأسلكها بدليل الإيقاع، فأرجع مصيباً ظافراً بما أريد». ومن أغانيه:

إلا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجدا على وجد
أإن هتفتْ ورقاءُ في رونق الضحى ... على فَنَنٍ غضٍّ النبات من الرند[1]
بكيت كما يبكي الحزين صبابة ... وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أنَّ قرب الدار خيرٌ من البعد[2]

وكان البرامكة وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم، على حين ترفع جماعة من العباسيين كإبراهيم بن المهدي وأخيه يعقوب وأختهما علية، وعبد الله بن الهادي، وعيسى بن الرشيد وغيرهم من تقييد غنائهم بما حفظ من أصوات المتقدمين.

وكانت مجالس الخلفاء العباسيين تزدان بمظاهر البذخ والروعة والبهاء، فيتخذ الخليفة مكانه في صدر الإيوان في القصر، وبين يديه مائة من صفوة الحرس في أثواب زاهية، ويقف حوله يمنة ويسرة كبار رجال الدولة والأعيان[3].

ولم تقتصر مجالس المنادمة والطرب على الخلفاء وحدهم، بل جاراهم في ذلك الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة. فقد وصف ابن طباطبا[4] مجلس جعفر بن يحيى البرمكي حين كان يجلس للشراب، ومعه ندماؤه الذين يأنس إليهم، وكانوا يلبسون «الثياب المصبغة، وإذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر... ثم جلسوا يشربون، ودارت الكاسات وخفقت العيدان».

ولم تكن هذه المجالس تخلو من النوادر والطرائف، التي تملؤها بهجة وسروراً. فقد روى صاحب الأغاني[5]أن الرشيد قال يوماً لجعفر بن يحيى: قد طال سماعنا هذه العصابة على

(١) الرند: بتشديد الراء وسكون النون شجر طيب الرائحة من شجر البادية.
(٢) الأغاني جـ ٥ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٣) سيد أمير علي: كتاب مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧.
(٤) الفخر ص ١٨٧.
(٥) جـ ٥ ص ١٠٦.

اختلاط الأمر فيها فهلم أقاسمك إياها، وأخايرك، فاقتسما المغنين، على أن جعلا بإزاء كل رجل نظيره. وكان ابن جامع في حيز الرشيد وإبراهيم في حيز جعفر بن يحيى. وجعل الندماء لمحنة المغنين[1]، وأمر الرشيد ابن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان، وطرب الرشيد غاية الطرب. فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم: هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنه، فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه؛ وظهر الانكسار فيه، فقال الرشيد لجعفر: هذا واحد، ثم قال لإسماعيل بن جامع: غنِّ يا إسماعيل! فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول، وأرضى في كل حال. فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم: هاته يا إبراهيم قال: ولا أعرف هذا، فقال: هذان إثنان عـنِّ يا إسماعيل، فغنى ثالثاً يتقدم الصوتين الأولين ويفضلهما. فلما أتى على آخره قال: هاته يا إبراهيم؛ قال: ولا أعرف هذا أيضاً، فقال له جعفر: أخزيتنا أخزاك الله!

وأتم ابن جامع يومه والرشيد مسرور به وأجازه بجوائز كثيرة، وخلع عليه خلعاً فاخرة. ولم يزل إبراهيم منكسراً حتى انصرف. ولكن إبراهيم الموصلي تمكن من سرقة هذه الألحان التي لحنها ابن جامع عن طريق أحد أصدقائه، ونال بذلك رضاء الرشيد، مما يدل على حرص المغنين على الاحتفاظ بألحانهم، حتى لا يتداولها سائر المغنين[2].

وكان الأمين يجتمع مع ندمائه في مكان واحد، وكان كثير الهبات والعطايا، حتى فاق الخلفاء العباسيين قاطبة في جوده وعطاياه لندمائه ومغنيه. ويقول إسحاق بن إبراهيم الموصلي: «لو كان بينه وبين ندمائه حجاب، خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا». وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة، وأنهبهم للأموال إذا طرب لها. وقد رأيته وقد أمر بعض أهل بيته بوقر زورق ذهباً، فانصرف به، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار، فحملت أمامي. ولقد غناه إبراهيم بن المهدي غناء لم أرتضه، فقام عن مجلسه، فأكب عليه فقبل رأسه، فقام إبراهيم ما وطئت رجلاه من بساطه، فأمر له بمائتي ألف دينار. ولقد رأيته يوماً وعلى رأسه بعض غلمانه، فنظر إليه فقال: ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل؛ انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغسل بها ثيابك.

وقد وصف إبراهيم بن المهدي مجلس الأمين وما كان يحويه من أثاث ورياش وصفاً شائقاً، وكيف حاول أن يتخذ من هذا المجلس سبيلاً إلى السلوى حين كان محاصراً ببغداد، وفي ذلك يقول المسعودي[3]: «وحدث إبراهيم بن المهدي قال: بعث إلي الأمين وهو محاصر،

(١) المحنة: الاختبار، يقال: محنه إذا اختبره وجربه.
(٢) الأغاني جـ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.
(٣) مروج الذهب جـ٢ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

فصرت إليه وهو جالس في طارمة[1]، خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة. وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في الطارمة، وهي قبة كان اتخذ لها فراشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر، وغير ذلك من أنواع الإبريسم فسلمت، فإذا قدامه قدح بلور مخروز، فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال. وبين يدي سليمان قدح مثله، فجلست بإزاء سليمان، فأتيت بقدح كالأول والثاني. فقال: إنما بعثت إليكما لما بلغني قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان، وما قد صنع في أمرنا من المكروه وقابلنا به من الإساءة، فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما فأقبلنا نحدثه ونؤنسه؛ حتى سلا عما كان يجد، وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً، قال: فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها: غنينا! فوضعت العود في حجرها وغنت.

كُلَيبٌ لعمري أكثرَ ناصراً ... وأكثرَ جرماً منك ضُرِّج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها: اسكتي قبحك الله! ثم عاد إلى ما كان عليه من الإقطاب، فأقبلنا نحدثه ونبسطه إلى أن سلا وضحك، ثم أقبل عليها وقال: هات ما عندك، فغنت.

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما غَدَرَتْ يوماً بكسرى مرازِبُه

فأسكتها وزأرها، وعاد إلى الحالة الأولى، فسليناه حتى عاد إلى الضحك، فأقبل عليها الثالثة فقال: غني فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بل نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العوائر

وقيل بل أنها غنت:

أما وربِّ الكون والحرَكِ ... إنَّ المنايا كثيرةُ الشرك

فقال لها: قومي عني، فعل الله بك وصنع بك! فقامت فعثرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته، فانهرق الشراب. وكانت ليلة قمراء، ونحن على شاطىء دجلة في قصره المعروف بالخلد، فسمعنا قائلاً يقول: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾، قال ابن المهدي: فقمت وقد وثب فسمعت منشداً من ناحية القصر ينشد هذين البيتين:

لا تعجبَنّ من العَجَبْ ... قد جاءَ مَا يقضي العجبْ
قد جاء أمرٌ فادحٌ ... فيه لذي عَجب عجب

---

(١) **الطارمة**: مجلس يتخذ من الخشب وسط بستان للجلوس فيه والنزهة.

قال: فما قمنا معه بعدها إلى أن قتل.

أما المأمون فقد امتنع عن سماع الغناء بعد قدومه بغداد سبع سنين، ثم أخذ يسمعه من وراء حجاب كما كان يفعل أبوه الرشيد في أول عهده بالخلافة. وظهر للندماء والمغنين، ولم ينل إسحاق بن إبراهيم الموصلي تقدير المأمون أول الأمر، حتى سأل عنه فأوقع به بعض خاصة الخليفة ورماه بالكبر والتيه، فلم يحفل به المأمون، ثم تمكن إسحاق الموصلي من إرسال بيتين غناهما زرزر أحد تلاميذه في حضرة المأمون وهما:

يا سَرْحَةَ الماء[1] قد سُدَّتْ مواردُه — أما إليكِ طريقٌ غيرُ مسدود؟
لحائم حام حتى لا حراك به — محلأ عن سبيل الماء مطرود[2]

فلما غناه زرزر أطربه وأبهجه وحرك له جوارحه وقال: ويلك من هذا؟ قال: عبدك المجفو المطرح يا سيدي إسحاق. قال: يحضر الساعة، فجاء رسوله، وإسحاق مستعد قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤد أنه سيبعث إليه، فجاءه الرسول، فحدثت أنه لما دخل عليه ودنا منه، مد يده إليه ثم قال: أدن مني! فأكب عليه واحتضنه المأمون وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مصغياً إليه ومسروراً به»[3].

وفي الحق أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قد أجاد في وضع الألحان، وكتب رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أنغامه وطرائقه، واحتفظ بالغناء القديم، وخالف بذلك أباه ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين. ويقول صاحب الأغاني[4]: وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده».

نبغ إسحاق في العلم والأدب والرواية والشعر والغناء. قال صاحب الأغاني[5] ولم يكن له في هذا (أي الغناء) نظير، فإنه لحق بمن مضى فيه، وسبق من بقي، ولحب[6] الناس جميعاً

---

(١) الشجرة النابتة على الماء، كناية عن المرأة. وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب لما أنذر الشعراء بالجلد إذا ما تشيئوا بالنساء، قال أحد الشعراء في قصيدة له:

تراني إن عللت نفسي بسرحة — من السرح موجود على طريق
أبى الله إلا أن سرحة مالك — على كل سرحات العضاء تروق

(٢) الجاحظ: كتاب التاج ص ٤٤ - ٤٥.

(٣) الجاحظ ص ٤٤ - ٤٥.

(٤) جـ ٥ ص ٢٦٩.

(٥) جـ ٥ ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٦) لحب الطريق سلكه وأوضحه.

طريقه، فأوضحها، وسهل عليه سبيله وأثارها. فهو إمام أهل صناعته جميعاً، ورأسهم ومعلمهم. وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء، لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعف وأصدق، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة.

وكان إسحاق يقدر العلم ويشجع العلماء، وقد قيل إنه كان يعطي ابن الأعرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار، فأهدى له شيئاً من كتاب النوادر. ومر يوماً على دار إسحاق فقال: هذه دار الذي نأخذ من ماله ومن أدبه. كما أشاد بفضله المدائني المؤرخ المشهور صاحب كتاب المغازي فقال: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: أمضي إلى رجل هو كما قال الشاعر:

تحمِلُ أشباحنا إلى ملكٍ تأخذُ من ماله ومن أدبه[1]

ويقول ابن النديم[2] إن المدائني مات في دار إسحاق بن إبراهيم الموصلي ـ منقطعاً إليه ـ سنة ٢٥٥ هـ.

وقد غنى إسحاق الموصلي لهارون الرشيد وأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم. ولما ولي المعتصم الخلافة، كان إسحاق الموصلي قد ناهز الستين من عمره، فغناه قصيدة جاء فيها:

أنتم أهلُ الخلافة فينا ولكمْ منبرُها والسَّريرُ

وقد أمر المعتصم لإسحاق الموصلي بجائزة سنية فضله بها على سائر الشعراء الذين هنأوه بالخلافة، كما نال إعجابه بعد أن غناه قصيدة أخرى على أثر عودته من إحدى غزواته. وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة التي يشيد فيها الموصلي بأبي إسحاق المعتصم، وما أحرزه من نصر وظفر:

إلى ابن الرشيد إمام الهدى بَعثنا المطِيَّ تجوبُ الفَلا
إلى ملكٍ حلّ مِنْ هاشم ذؤابة مجد مُنيف الذرى
كساه الإلهُ رداءَ الجمال ونورَ الجلال وهدْيَ التقى[3]

وكان الخليفة الواثق يتقن الغناء إتقاناً لم يسبق إليه خليفة ولا ابن خليفة. وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة. يقول السيوطي[4]: وكان (الواثق) أعلم الخلفاء بالغناء، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت، وكان حاذقاً بضرب العود وراوية الأشعار والأخبار.

---

(١) الأغاني جـ ٥ ص ٢٧٤.
(٢) الفهرست ص ١٤٧.
(٣) الأغاني جـ ٥ ص ٣٢ ـ ٣٣، ٣٠٤.
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

وكان الواثق يقدر غناء إسحاق الموصلي ويعجب به، روى صاحب الأغاني أن الواثق لحن هذين البيتين وأمر الموصلي فغناهما، فأعجب به وقال: «ما كان أغنانا أن نأمر إسحاق بالصنعة في هذا الشعر لأنه قد أفسد علينا لحننا». وهاك هذين البيتين:

أيا مُنشر الموتى أفدني من التي بها نهلت نفسي سقاماً وعلت
لقد بخلت حتى لو أني سألتها قذى العين من سافي التراب لضنت[1]

وكان إسحاق يصحب الخليفة الواثق في أسفاره. قصد مرة النجف[2] والصالحية، فحن الموصلي إلى بغداد وإلى أولاده الصغار، فوصف ذلك وصفاً شائقاً وغناه في أبيات تدل على علو كعبه في الشعر والغناء منها قوله:

يا راكبَ العيس لا تعجلْ بنا وقفْ نحيِّي داراً لسُعدى ثم ننصرف
لم ينزل الناس في سهلٍ ولا جبل أصفى هواء ولا أعذى[3] من النجف
حفت ببر وبحر من جوانبها فالبر في طرف والبحر في طرف[4]

ومنها قوله:

إذا ذكرتْ بغداد نفسي تقطّعت من الشوق أو كادت تموت بها وجْدا[4]

(ب) في الأندلس:

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين وقد قيل إن علون (بفتح العين وبضم اللام مع التشديد) وزرقون (بضم الزاي وسكون الراء) أول من دخل هذه البلاد من المغنين في عهد الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذي اشتهر منصور اليهودي بالغناء في زمانه. وفي عهد عبد الرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)، وفد على الأندلس أبو الحسن علي بن رافع الملقب بزرياب. وقد أطلق عليه هذا اللقب لسواد لون بشرته وفصاحة لسانه تشبيهاً له بطائر أسود الريش حسن الصوت. وقد روى المقري قصة هذا المغني والموسيقي المشهور، وكيف تفوق على أستاذه اسحاق بن ابراهيم الموصلي المغني والموسيقي المشهور في بلاط بغداد.

وقد دون أحمد بن محمد الرازي الذي كشف «بروفنسال»[5] أخيراً مخطوطة عن عهد

---

(١) الأغاني جـ ٥ ص ٣٥٨.
(٢) موضع بظهر الكوفة، وبالقرب منه قبر علي بن أبي طالب.
(٣) أطيب هواء، يقال: هذا المكان يعذو إذا طاب هواؤه
(٤) الأغاني جـ ٥ ص ٣٥٦ - ٣٥٧.
(٥) الشرق الإسلامي والحضارة العربية ص ٢٠ - ٢٤.

الحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط (والمقري)(١) قصة هذا المغني، وكيف أبدع في فنه أيام الرشيد، وكيف أثار حسد أستاذه اسحاق، واضطر أن يرحل عن بغداد خوفاً على حياته، وكيف رحل إلى قرطبة، فقربه عبد الرحمن الأوسط إليه وأجزل له العطاء وأصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون في هذه البلاد.

كان زرياب مولى الخليفة المهدي العباسي، فارسي الأصل، وكان شاعراً مطبوعاً وأديباً ملماً بعلم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك، حافظاً لكثير من الحكم والأمثال، كما كان فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث. وقد امتاز منذ طفولته وتتلمذ على اسحاق الموصلي وتفوق عليه دون أن يشعر بذلك. وقد طلب هارون الرشيد من اسحاق أن يأتي له بمغن غريب حذق الغناء، وإن لم يكن قد اشتهر في هذا الفن، فذكر له تلميذه زرياب، فلما مثل بين يدي الرشيد سأله عن معرفته بالغناء فقال: «نعم! أحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق. فلما أدني إليه وقف عن تناوله وقال: لي عود نحته بيدي وأرهفته إحكامي لا أرتضي غيره، وهو بالباب. فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه. فأمر بإدخاله إليه. فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه، قال له: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟ فقال: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي، فقال له: ما أراهما إلا واحداً، فقال: صدقت يا مولاي! لا يؤدي النظر غير ذلك. ولكن عودي، وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه، فهو يقع من وزنه في الثالث أو نحوه، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أنائه ورخاوة وبهاء، ومثلها اتخذتها من مصران شبل أسد، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان» ثم غنى:

يا أيها الملكُ الميمونُ طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا

وطار الرشيد طرباً و ـ ب لإسحاق: والله لولا أني أعلم من صدقك لي على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل، لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذه إليك واعتن بشأنه حتى أفرغ فإن لي فيه نظراً، فسقط في يد إسحاق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره، فخلا بزرياب وقال: يا علي! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها، والدنيا فتانة والشركة في الصناعة عداوة. . . فخذ الآن حذرك، والله لا أبقي عليك ولا أدع اغتيالك، باذلاً في ذلك بدني ومالي. . . فخرج زرياب لوقته فرحل عنه يبغي مغرب الشمس واستراح

(١) نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٠ ـ ٧٥١.

قلب إسحاق منه. وتذكّره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه، فأمر إسحاق بحضوره فقال: ومن لي به يا أمير المؤمنين؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهي به عن غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني. وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لمم يغشاه . . فسكن الرشيد إلى قول إسحاق وقال: على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير».

اختار زرياب الرحيل إلى المغرب وقضى وقتاً قصيراً في بلاط زيادة الله الأول الأغلبي أمير القيروان، حتى دعاه الحكم الأول بعد أن اتصل به خبر مهارته. سار زرياب وأولاده ونزلوا من البحر في ميناء الجزيرة. لكنه علم بوفاة الحكم وتولية ابنه عبد الرحمن الأوسط (سنة ٢٠٦هـ) الذي أسرع فأرسل إلى زرياب ينبئه بأنه منفذ وعد أبيه إليه، وكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويسهلوا له طريق الوصول إلى قرطبة، وأنزله في دار فخمة. ثم استدعاه بعد أن استراح من عناء السفر، وبالغ في إكرامه وقرر له راتباً شهرياً قدره مائتا دينار، ولكل من أولاده الأربعة عشرون ديناراً وأغدق عليه وعلى أولاده الأرزاق، فأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار في كل سنة. ألف لكل من عيدي الفطر والأضحى، وخمسمائة لكل من عيدي النوروز والمهرجان؛ عدا ما خصص له من الشعير والقمح، وما وهب من الضياع والدور والبساتين التي قدرت بأربعين ألف دينار.

ولما سمع عبد الرحمن غناء زرياب أعجب بمواهبه، وقدّمه على جميع المغنين. وزاد إعجاب هذا الأمير به، حتى إنه كان يجلسه إلى جانبه، ويستمع إلى غنائه، وإلى ما يقصه عليه من أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء. ولم يلبث أن ملك زرياب قلب عبد الرحمن، حتى إنه أمر بأن يفتح له باب خاص يستدعيه منه متى أراد[1].

وسرعان ما فرض زرياب نفسه على المجتمع القرطبي بفضل فنه وثرائه الذي أثار دويا في العالم الإسلامي الشرقي، حتى إن أحد الموسيقيين في بغداد أعرب عن خيبة أمله بقوله، إنه بينما يسير زرياب في قرطبة في كوكبة من الفرسان ويملك ثلاثين ألف دينار من الذهب، صار يؤدي سوء حظه إلى أن يموت من الجوع. أبدع زرياب في تنسيق الألحان، حتى توهم أن الجن هي التي تعلمه الأصوات، ولا غرو فقد ورث هذا الشعور عن أستاذه إسحاق الموصلي الذي ورثه عن أبيه. وكان زرياب «يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فيأخذان عوديهما، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ثم يعود عجلان إلى مضجعه»[2]

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٠ ـ ٧٥١ (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٥١

كما زاد زرياب على العود وتراً خاصاً، واتخذ مضرب العود من قوادم النسر بدل الخشب[١]. وقد أثر عنه أنه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، مقتدياً في ذلك ببطليموس الذي ابتدع هذه العلوم.

وقد ازدهرت الموسيقى والغناء في بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط الذي كان ـ كما يقول المقري[٢] ـ مولعاً بالغناء مؤثراً له على جميع لذته. وقد أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس كما يقول ابن خلدون[٣]. وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه؛ «فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر كان، ويأتي إثره بالبسيط، ويختم بالمحركات والإهزاج تبعاً لمراسم زرياب».

وكان زرياب إذا أراد أن يعلم تلميذاً أمره بالقعود على الوسادة المدورة المعروفة بالمسورة، وأن يشد صوته إذا كان قوي الصوت. فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة، لأن ذلك يقوي الصوت فلا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم. فإن كان ألصَّ الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه، أو كانت عادته أن يزم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه. وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته: يا حجام. أو يصيح: آه، ويمد صوته، فإن سمع صوته صافياً ندياً قوياً، لا تعتريه غُنة ولا حبسة ولا ضيق نفس، أشار بتعليمه، وإن وجده غير ذلك أبعده[٤].

ورث زرياب في الأدب والغناء أولاده، وكانوا ثمانية ذكور وبنتان هما علية وحمدونة. وقد تعلموا الغناء ومارسوا صناعته. وكان عبيد الله أعلاهم قدرًا، ثم يليه عبد الرحمن، لكنه كان شديد الزهو بنفسه والعجب بغنائه والاستخفاف بالعظماء حتى أثار سخطهم عليه وكراهتهم له. وكذلك تفوقت حمدونة في فن الغناء على أختها علية التي تزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز، وتقدمت بها السن حتى لم يبق من بيت زرياب غيرها وأخذ عنها فن الغناء.

وإلى زرياب يرجع الفضل في تعليم الجواري الغناء في عصره. وكانت له جواري أدبهن وعلمهن الغناء والعزف على العود. ومن هؤلاء غزلان وهنيدة، ومنفعة التي اشتهرت بفرط جمالها. وقد أعجب بها عبد الرحمن الأوسط، فأهداها زرياب إليه، فحظيت عنده[٥].

---

(١) المقري جـ ٢ ص ٧٥٠.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٥.
(٣) العبر جـ ٣ ص ١٢٧.
(٤) المقري. نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٢.
(٥) نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٣ ـ ٧٥٤.

ولم يكن زرياب مغنياً وموسيقياً فحسب، بل كان شاعراً مطبوعاً وأديباً ظريفاً وعالماً بالنجوم. وكان في زيه مثالاً يحتذيه أهل بلاد الأندلس في ملابس الفصول المختلفة، كما أدخل في الطعام ألواناً جديدة. وقد بلغ الذروة في الجاه والثروة، ونال الحظوة التامة عند عبد الرحمن الثاني، وبـذ الناس في تهذيبه وفكاهته، وأصبح أشهر رجال الأندلس، «وتحكم في الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها بيترونيس Petronius وبروميـل الوسيم Brummel Beau»[1].

وكان بيترونيس كاتباً قصصياً رومانياً، اشتهرت كتابته بالتنكيت والسخرية المستوردة، وأعجب به نيرون ووصله بحاشيته. واشتهر جورج برومل بابتداع الأزياء ومات في سنة ١٨٤٠م.

وصفوة القول أن زرياب بلغ من الشهرة درجة عظيمة حتى إنه كان يركب في مائة غلام[2].

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء والوزراء:

يعتبر المنزل وما فيه من سكان وما يقدم من طعام وشراب وما تقام فيه من حفلات، وما يرتديه سكانها من ملابس، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية، وقد تأثر العباسيون في منازلهم بالأساليب الفارسية خاصة. ولا عجب فإنهم مالوا إلى الفرس، فأسندوا إليهم مناصب الدولة واقتبسوا عنهم نظم الحكم، واقتدوا بهم في مظاهر البلاط، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم وغير ذلك.

وقد اتخذت دور بغداد على مثال دور الفرس ودور الروم التي بنوها في بلاد الشام، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس. وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي: مقاصير الحرم، وحجرات الخدم، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة، ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين. وحليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة، كما كانوا يزينون أسطح دورهم بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة في الفضاء، ويحيط بكل دار سور واحد، أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها[3].

---

(١) L. Poole, The Moors in Spain, p. 82.

(٢) الأغاني جـ ٤ ص ٣٥٤. انظر ما ذكره بروفنسال عن أحمد بن محمد الرازي في مخطوطة عن عهد الحكم بن هشام وعبد الرحمن الأوسط في الأندلس. منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية (تطوان) ١٩٥١ ص ٢٠ ـ ٢٤.

(٣) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٥ ـ ٢٦.

وقد سار الترف العباسيين بازدياد العمران. فكانت العمائر ببغداد وغيرها من أمهات المدن مؤلفة من عدة طبقات، كما كانت غرفها تزدان بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية، والمرصعات والمذهبات التي بلغت حد الإتقان. ويقول نخلة المدور[1] إن أهل بغداد كانوا يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين، ويلبسون حيطانها بالوشي والديباج، ويعنون بغرس الأزهار في جناتهم، حتى إنهم كانوا يجلبون لها الرياحين من بلاد الهند، فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار، ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطاً، ويميلون إلى اللهو والطرب نتيجة إقبالهم على اقتناء القيان، ويتفننون في ملاذ الطعام إلى حد أنهم كانوا يشترون الصيد في غير أوانه، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة، ويتخذون مقاعدهم في أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها مما ينقشون في الرخام فإذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الواقية بترويح النفس، واتخذوا في السقوف مراوح يعملون لها مراوح تجرها فيجذبونها فيهف عليهم النسيم البارد، ويستجيدون في اللباس والزينة، وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم.

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار، وكانت الأروقة تسمى بالاربعيني أو الستيني، على قدر الغلمان، أو يجتمعون في كل منها، ومن هذه القصور: قصر الذهب الذي بناه أبو جعفر المنصور في وسط بغداد، وقصر الخلد الذي بناه على شاطىء دجلة الغربي تجاه باب خراسان، وتأنق في بنائه وتجميله حتى سمي «الخلد» تشبيهاً له بجنة الخلد. وبنيت حوله المنازل فأصبح القصر وما حواليه يعرف بالخلد[2].

وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل وبأبوابه مسامير من الذهب والفضة؛ كما تخلله العمد الكثيرة الضخمة التي عني المنصور بتزيينها بالصور والرسوم. وفي هذا القصر العرش - ويسمى «مجلس الأمير» - وقد فرش بالرخام المجزع يتوسطه قضبان من الذهب، وفرش بالديباج والبسط التي نقشت عليها أبيات من الشعر في مدح الخليفة، وفيه كراسي مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة؛ وفي صدر هذا المجلس يجلس الخليفة في قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب.

وقد بنى الرشيد على دجلة قصراً تأنق في تجميله وزينه بأفخر أنواع الزينة وأقام فيه.

---

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٩.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٥.

أساطين الرخام. وكان أشبه بإحدى المناظر التي كان يجلس فيها الخلفاء الفاطميون للنزهة وتبديل الهواء، فكان يجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين.

وبنى الخليفة الواثق في مدينة سامرا عدة قصور منها قصر الهاروني. وقد وصف الطبري[1] أحد أروقته ويسمى الرواق الأوسط، فقال: «كان في أحد شقي ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء كأنها بيضة قدر ذراع فيها ترى العين حولها وفي وسطها ساج منقوش مغشى باللازورد والذهب. وكانت تسمى قبة المنطقة، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة».

كذلك كانت قصور الأمراء ورجال الدولة تكتنفها الحدائق الغناء؛ كما امتازت أيضاً بفخامة بنائها واتساعها، ومن أحسن الأمثلة على ذلك قصر عيسى بن عبد الله بن العباس عند مصب نهر الرُّفيل المتفرع من دجلة. فقد ذكر ياقوت أن أبا جعفر المنصور زار عمه عيسى بن علي بن عبدالله في أربعة آلاف رجل. فوسعهم هذا القصر. ولما أراد المنصور الانصراف قال لمضيفه: «يا أبا العباس! لي حاجة! قال: ما هي يا أمير المؤمنين؟ فأمرك طاعة؟ قال تهب لي هذا القصر، قال: ما بي ضن عنك به، لكني أكره أن يقول الناس إن أمير المؤمنين زار عمه فأخرجه من قصره وشرد عياله. وبعد: فإن فيه من حرم أمير المؤمنين ومواليه أربعة آلاف نفس. فإن لم يكن بد من أخذه، فليأمر لي أمير المؤمنين بفضاء يسعني ويسعهم أضرب فيه مضارب وخيماً أنقلهم إليها إلى أن أبني لهم ما يواريهم. فقال له المنصور: عمر الله بك منزلك يا عم وبارك لك فيه، ثم نهض وانصرف.

وكان البرامكة يعنون ببناء قصورهم ويتأنقون بتجميلها وتأثيثها حتى تبقى على مر الزمن شاهدة بمآثرهم ناطقة بذكراهم. فقد روى الجهشياري أن يحيى بن خالد البرمكي قال لولديه الفضل وجعفر: «لا شيء أبقى ذكراً من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً. فاتخذ جعفر قصره وكذلك الفضل». قال جعفر يصف قصره لأبي الفضل عمرو بن مسعدة، وقد سار بحذائه: «يا أبا الفضل! والله إني لأعلم أنه من بناء مثلي، ولكن قلت: إن بقي لي فهو قصر جعفر، وإن شره السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر، ويبقى اسمه وذكره، ولعله أن يمر به من لنا عنده إحسان فيترحم علينا».

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء، ولم يردوا قاصداً. قيل إن جعفراً البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم، وهو ـ كما يبدو ـ مبلغ لا يقل عن مليون وثلثمائة ألف دينار غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف.

---

(١) جـ ١١ ص ١٠.

وبنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة، وقد وصفه أحد زواره فقال: بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع فضاء، وأرق هواء، على أحسن ماء، بين صواري وحسان وظباء. فقال محمد: بناء كلامك أحسن من بنائنا»[١].

وقد خلف محمد بن سليمان كثيراً من الفرش الرقيق، والدواب من الخيل والإبل، والطيب والجوهر، كما ترك ستين ألف ألف درهم، غير ما خلفه من الضياع، كما أخرج من خزائنه ما كان يهدى إليه من طرائف السند ومكران وكرمان وفارس والأهواز واليمامة والري وعمان[٢].

وكان العباسيون يقلدون الفرس في تخفيف حرارة الشمس في الصيف؛ فيعملون لبيوتهم سقفاً من الطين يجددونها في كل يوم يقضي الخليفة القيلولة فيه. «وكان يؤتى بأطنان القصب والخلاف طوالاً غلاظاً فترصف حول البيت، ويؤتى بقطع الثلج العظام فتجعل ما بين أضعافها. وكانت بنو أمية تفعل ذلك (أيضاً)... وذكر بعضهم أن المنصور كان يطين له في أول خلافته ببيت في الصيف يقيل فيه فاتخذ له أيوب الخوزي ثياباً كثيفة تبل وتوضع على سبائك، فيجد بردها فاستطابها، وقال: ما أحسب هذه الثياب إن اتخذت أكثف من هذه إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل. وكانت أبرد، فاتخذ له الخيش، فكان ينصب على قبة، اتخذ الخلفاء بعده الشرائح واتخذها الناس[٣].

وقد عني الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة. وقد رأى المنصور أن وصول الروايا على ظهور البغال إلى قصره لا يتفق وأبهة مدينته، لذلك أمر بتوصيل الماء إليه من نهر دجلة.

ولم تكن قصور الأمويين بالأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين، فقد اشتهرت قرطبة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة، وقد ذكرنا من قبل أن أمراء الأمويين في الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف، وقصر الدمشق.

٤ ـ الطعام:

عني العباسيون بتنويع الطعام، وكان أبو جعفر المنصور يكثر منه ولا يعمل بنصح الأطباء، حتى كان ذلك من أسباب ضعف صحته ووفاته. وقد حفلت مائدة الرشيد بألوان

---

(١) المسعودي مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٤.
(٢) الطبري: جـ ٢ ص ٥١ ـ ٥٢.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٣٠٦.

الطعام، حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون ثلاثين لوناً في اليوم، وإنه كان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم. ولما تزوج من زبيدة بنت جعفر، أقيمت في قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم.

ولم يقتصر إسراف العباسيين في الطعام على الخلفاء وحدهم، بل تعداهم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة. فقد ذكر ياقوت(١) أن أبا جعفر المنصور لما زار عمه عيسى بن علي في أربعة آلاف قدم لهم من ألوان الطعام: الخبز ولحم الجدي والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى على نحو ما نراه في ولائمنا اليوم وقد بلغ من تفننهم في الطهي وإسرافهم في الإنفاق عليه، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة، كلون من ألوان الطعام الشهية الكثيرة التي كانت تزخر بها موائدهم.

روى المسعودي(٢)، أن إبراهيم بن المهدي قال: استزرت الرشيد بالرقة فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد. فلما وضعت البوارد، رأى فيها قرب إليه منها جام قريض سمك، فاستصغر القطع وقال لم صغر طباخك تقطيع السمك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! هذه ألسنة السمك، قال فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان، فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين! فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن تحضره مراقب. فلما حضر المال أمر أن يتصدق به وقال: أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم.

وقد بلغت نفقة المأمون في اليوم ستة آلاف دينار، كان ينفق منها مبلغاً كبيراً على مطابخه(٣).

وكان أهل بغداد يتفننون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها، من صيد وفاكهة وخضراوات، حتى كانوا يزينون هذه الأطعمة أحياناً بما يعادلها في الوزن من الفضة كما تقدم. كما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحبوب والجبن وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند(٤).

---

(١) انظر قصر عيسى بن علي في معجم البلدان لياقوت، والمسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٣) كتاب الفخري ص ٢٠٧.
(٤) الطبري جـ ١٠ ص ٥٢

وعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين قد يشربون النبيذ، لم يسمح كثير منهم بتناوله على موائدهم. فقد ذكر الطبري أن بختيشوع الطبيب لما قدم على أبي جعفر المنصور «من السوس ودخل عليه في عصره بباب الذهب ببغداد، أمر له بطعام يتغذى به فلما وضعت المائدة بين يديه قال: شراب، فأخبر المنصور بذلك فقال: دعوه. فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك، فطلب الشراب فقيل له: لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب، فتعشى وشرب ماء دجلة. فلما كان من الغد نظر إلى مائه وقال: ما كنت أحسب أن شيئاً يجزي من الشراب (يغني عنه)، فهذا ماء دجلة يجزي من الشراب».

ومما ذكره المقريزي عن حلول المأمون وبعض أفراد أسرته وكبار رجال دولته في ضيعة إحدى نساء القبط عندما قدم مصر في سنة ٢١٧هـ، وما قدم إليهم من طعام وشراب، وما يذكر في سبيل إكرامهم وتوفير أسباب الراحة لهم، نستطيع أن نقف على مدى ثروة مصر في ذلك العصر.

قال المقريزي[1] إن المأمون لما سار في قرى مصر، كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله. وكان يقيم في القرية يوماً وليلة، فمر بقرية يقال لها طاه النمل، فلم يدخلها لحقارتها. فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها. وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس. فذكروا له أن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين! نزلت في كل ضيعة، وتجاوزت ضيعتي، والقبط تعيرني بذلك. وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف ولعقبي، ولا تشمت الأعداء بي، وبكت بكاء كثيراً، فرق لها المأمون، وثنى عنان فرسه إليها ونزل. فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ[2] وسأله: كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته. فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة.

وكان بصحبة المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل، ويحيى بن أكثم، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد: فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراد، ولم تكل أحداً منهم ولا من القواد إلى غيره. ثم أحضرت للمأمون الكثير من فاخر الطعام.

فلما أصبح الصباح وعزم الخليفة على الرحيل، حضرت ومعها عشر وصائف، مع كل وصيفة طبق، فلما شاهدها المأمون من بعد قال لمن معه: قد جاءتكم القبطية بهدية الريف.

(١) خطط جـ ١ ص ٨١.
(٢) يعني مطبخ المأمون.

الكامخ والصحباء والصبر. فلما وضعت ذلك بين يدي المأمون، رأى في كل طبق كيساً من ذهب، فأعجبه ذلك وأمرها بإعادته فقالت: لا والله لا أفعل. فتأمل المأمون الذهب، فإذا به ضرب عام واحد، فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك، فقالت: يا أمير المؤمنين! لا تكسر قلوبنا، فقال: إن لي في بعض ما صنعت لكفاية، ولا نحب التثقيل عليك. فردي مالك، بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين! هذا (وأشارت إلى الذهب) من هذا، وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض وقالت: ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا شيء كثير، فأمر به الخليفة فأخذ منها، وأقطعها عدة ضياع، وأعطاها من قريتها طاه النمل مائتي فدان بغير خراج.

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس أرقى أنواع الطهي البغدادي، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأفراح Aspirage ، كما زاد في الأطعمة لوناً أطلقوا عليه «النقايا»، يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالستيوسق والكباب، ولوناً من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في مرق كثير الأفاوية والتوابل، وقد أذاع زرياب أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة، فكانوا يبدأون بالحساء، ثم يقدمون اللحوم والطيور، وينتهون بالحلوى. كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة المصنوعة من الزجاج الثمين لأنها أكثر انسجاماً مع نظر المائدة من الأكواب الذهبية والفضية. وابتكر أسمطة الطعام من الجلد الرقيق بدل الكتان، واتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤها وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه[١].

٥ ـ الملابس:

وكان لانتشار النفوذ الفارسي في الدولة العباسية أثر كبير على ظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي. ويؤيد ذلك ما ذكره فون كريمر[٢] من أن النفوذ الفارسي في بلاط الخلفاء قد بلغ الذروة في عهد الهادي وهارون الرشيد والمأمون وإن أغلب وزراء الأخير من هؤلاء كانوا فرساً أو من أصل فارسي، كما ذكر أن الميل للأزياء الفارسية في بغداد أخذ ينمو ويطرد.

وكان اللباس الفارسي لباس البلاط الرسمي. فقد قرر أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين لبس القلانس، وهي القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل، بصفة رسمية. كما

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢. بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية ـ الأندلسية ص ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) Streifsuge, pp. 32-3.

أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة، كما يتضح من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل التي تظهر عليها صورته مرتدياً ملابس فارسية حقيقية.

وفي العصر العباسي كان اللباس العادي للطبقة الراقية يشمل على «سروالة» فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة. أما لباس العامة فيشمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام. وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال.

وكان من المستحسن لبس الثياب البيض. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله الجنة بيضاء، وخير ثيابكم البيض تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم».

وكان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الأسود أو البنفسجي الذي يصل إلى الركبة. وكان مفتوحاً عند الرقبة، فيظهر القفطان زاهياً من تحته وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذي أمر بجعلها فضفاضة. ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع. ويتمنطق الخليفة بمنطقة مرصعة بالجواهر. ويتشح بعباءة سوداء، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية[١]. وكان الخلفاء والقضاة يلبسون العمامة والطيلسان، مقتدين في ذلك بالنبي ﷺ كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة، حولها عمامة ذات لون أسود وهو شعار العباسيين. وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء في ملابسهم.

وقد ذكر ابن خلكان[٢] عن أبي يوسف قاضي هارون الرشيد «أنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان. وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلباسه»، وكان الكتاب يلبسون الدراعات، وهي ثياب مشقوقة من الصدر؛ ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة[٣]. وأما غير العلماء فقد كانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوتة من الحرير الأبيض، ثم استعاضوا عنها بكلوتة خفيفة بنفسجية اللون. وكان اللباس العادي للطبقة الراقية في العصر العباسي يتألف من سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة.

وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها «موازج». وكانت ثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة. أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى «قمر بند».

---

(١) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧.
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٣.
(٣) متز. الحضارة الإسلامية ص ١٧٩.

وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال. أما الجنود فكانوا يلبسون الأحذية، على حين كان بعض الأعيان ينتعل كليهما في وقت واحد، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجي المسمى «الجرموق» عند دخول المساجد أو القصور[١].

وكان لباس المرأة يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة. عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد. وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

وقد تطورت ملابس النساء في العصر العباسي تطوراً ظاهراً عما كانت عليه في العصر الأموي، إذا اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء الرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة. ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى «علية» بنت المهدي وأخت الرشيد. وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة. أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب، ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن. ولم يجهلن فن التجميل الذي أخذنه عن الفارسيات. وكان «طابع الحسن» الصناعي مما يتحلى به الأعربيات[٢].

وكان للسيدة زبيدة أثر كبير في تطور الزي وإدخال تغييرات على ملابس السيدات في عصرها: فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر. وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها، حتى إنها اتخذت ثوباً من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار[٣].

وفي بلاد الأندلس تحكم زرياب في ابتداع الأزياء، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول، وعلمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء من أول يونيه حتى نهاية سبتمبر، كما علمهم أن الربيع هو فصل الملابس الحريرية الخفيفة والقمصان ذات الألوان الزاهية، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة. ومن مآثر زرياب أنه فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل، واستعمل معجون الأسنان، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعرهم في وسط الرأس، بدلاً من أن يتركوا خصلات الشعر فوق جبينهم تغطي أصداغهم ويعقصونه حول رأسهم، وأن يظهروا الحاجبين والأذن.

---

(١) أمير علي. مختصر تاريخ العرب ٣٨٨ ـ ٣٨٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٣) المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٥٥.

وبتأثير زرياب تغير البلاط الأموي والمجتمع القرطبي، بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسي، حتى في أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم. وربما كان تأثير زرياب على المجتمع الارستقراطي أكثر عمقاً من تأثيره كموسيقي، بما أدخله من التجديدات التي ينسبها إليه المؤرخون في هذه البيئة الإسلامية التي لم تغير طريقة حياتها زهاء قرن منذ تأسيس الدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ[١].

٦ - المرأة:

كانت المرأة في العصر العباسي الأول تتمتع بقسط وافر من الحرية فقد تدخل بعضهن في شئون الدولة، كالخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد. وكانت كثيراً ما يسأل ابنها الهادي قضاء حاجات المترددين على بيتها. غير أن شدة غيرته على النساء حملته على أن يضع حداً لتدخلها في أمور دولته.

وقد تمتعت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين بنفوذ كبير في الدولة، فإنها حين حجت بيت الله سنة ١٨٦هـ وأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب، دعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له: «اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً». ووفد على مكة أكفأ المهندسين والعمال، ووصلوا بين منابع الماء في الجبال، واعتمدوا على عين حنين فأرسلوا منها الماء تحت الصخور حتى تغلغل من الحل إلى الحرم. وبذلك وصل الماء إلى مكة، قبلة المسلمين التي يجتمع فيها حجاج بيت الله. ولا يزال هذا الماء يجري إلى مكة حتى اليوم.

وكذلك ساهمت المرأة في هذا العصر في الحروب، فاشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا علي بن عبدالله بن عباس عم الخليفة المنصور. وكن في عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجند إلى ميدان القتال[٢]. ولما سبى الروم نساء المسلمين ومثلوا بهن في عهد المعتصم وصاحت امرأة هاشمية وقعت أسيرة في أيديهم «وامعتصماه»! لبى الخليفة نداءها وثارت ثائرته، وقاد جيشه الجرار وانتصر على الروم في وقعة عمورية المشهورة كما تقدم.

وقد بلغت المرأة في هذا العصر مبلغاً عظيماً من الثقافة حتى كانت تنظم الشعر وتناظر

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ - ٧٥٢. ليفي بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية، عن مخطوط المؤرخ الأندلسي أحمد بن محمد الرازي. منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الأسبانية (تطوان ١٦٥١) ص ٢٠ - ٢٤.

(٢) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ١٩٠.

الرجل في عهد الرشيد والمأمون. وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة. وكثيراً ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتاً شعرية إلى زوجها الرشيد، وإن القصيدة التي بعثت بها إلى الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمير لتدل دلالة واضحة على علو كعبها في الأدب والشعر والسياسة وهاك بعض أبيات منها:

لخير إمام قام من خير عنصر — وأفضل راقٍ فوق أعواد منبر
ووارثِ علم الأولين وفخرهم — وللملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعيني تستهل دموعها — إليك ابن عمي مع جفوني ومحجري
أصبتُ بأدنى الناس منك قرابةً — ومَنْ زال عن كبدي فقل تصبري[١]

ويقول نخلة المدور[٢]: «إن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك، كمثل اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب، وأعينها من يواقيت وجواهر، يقال إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار؛ وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجوهر. والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل، عليها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشي والديباج والسمور وأنواع الحرير، وكمثل اتخاذها شمع العنبر، واصطناعها الخلف مرصعاً بالجوهر، واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها».

وقد أولع الناس، وخاصة الخلفاء باتخاذ الإماء من غير العرب، لأنهن كن في الغالب أوفر جمالاً. أضف إلى ذلك أن العادة قد جرت ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إذا كانت من الحرائر إلا في حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي لمريد الخطبة، بخلاف الأمة فقد كان يستطيع أن يراها ويتعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها. وكثيراً ما كان أبناء الجواري أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر. كذلك لم يكن ثمة فرق في التوريث بين أبناء الحرائر والإماء.

وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات إماء: فكانت أم المأمون أمة فارسية، وأم المعتصم تركية، كما كانت «شجاع» أم المتوكل خوارزمية، والسيدة أم المقتدر رومية، وكذلك كانت أم الخليفة المستكفي، وكانت أم المطيع صقلبية[٣].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٦.
(٢) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٥.
(٣) النظم الإسلامية للمؤلف.

وكانت الإماء يجلبن من أسواق النخاسة من جميع البلاد إلى بغداد [١]. ومنهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر. واشتهرت كثيرات منهن بالجمال وعذوبة اللفظ وجمال الصوت. ولم يكن بيع الرقيقات مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المعروف، بل إن كثيراً من الاماء كن يأتين سوق النخاسة مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم في بيوت الخلفاء والأمراء.

وقد أمدنا الجاحظ[٢] بوثيقة أخرى تبين محاسن ومساوىء التزوج من الإماء فقال عند كلامه على محاسن الجواري: «قيل... كان يقال: من أراد قلة المؤونة وخفة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر. وكان مسلمة بن مسلمة يقول: عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر، وقال: السرور باتخاذ السراري.

وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم. حتى نشأ فيهم علي بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وفاق أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً، فرغب الناس في اتخاذ السراري، قال: وليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة: السفاح والمنصور (؟) والأمين، والباقون كلهم أبناء الجواري، وقد علقت الجواري لأنهن يجمعن بين عز العرب ودهاء العجم. وقال عند كلامه على مساوىء الجواري:

إذا لم يكنْ في منزل المرء حُرةٌ رأى خللاً فيها تولى الولائد
فلا يتخذ منهن حر قعيدةً فهنّ لعمر الله شر القعائد

وكان يقال: الجواري كخبز السوق والحرائر كخبز الدور، ومن أمثال العرب: لا تمازح أمة ولا تبك على أكمة.

ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة.

وكان للمرأة شأن كبير في بلاد الأندلس، وقامت الجواري بدور هام في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة. وليس أدل على ذلك من قصة «طروب» جارية عبد الرحمن الأوسط، ذلك أنه لما أغضبها، هجرته، وصدت عنه، وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها، فاشتد قلقه لهجرها، وضاق ذرعه من شوقها، وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك. فأرسل من خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول إليها، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم،

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٨.
(٢) المحاسن والأضداد (طبعة مصر سنة ١٣٢٤ هـ) ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

وآلت أن لا تخرج إليهم طائفة، ولو انتهى الأمر إلى القتل فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها، واستأذنوه في كسر الباب عليها، فنهاهم، وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم. ففعلوا، وبنوا عليها بالبدر. وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً، راغباً في المراجعة، على أن لها جميع ما سد به الباب. فأجابت وفتحت الباب. فانهالت البدر في بيتها. فأكبت على رجله تقبلها. وحازت المال(١).

وذكر المقري أن هذه الجارية كانت تبرم الأمور مع نصر الخصي. وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئاً مما أبرمته. وكذلك أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة. فأعتقها وتزوجها. كما أولع بجواري أخر منهن شفاء. وقلم. وكانت أديبة راوية للشعر حافظة للأخبار. كما كانت حسنة الخط(٢).

٧ ـ الأعياد والمواسم:

(ا) الاحتفال بالعيدين:

زاد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية ـ كما رأينا ـ حتى شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي، وبلغ الذروة في عهد هارون الرشيد. وفي بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرد، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة. وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام، واتخذ رجال البلاط العباسي العادات الفارسية القديمة.

وكان الخلفاء يحتفلون بالعيدين احتفالاً دينياً، فيؤمون الناس في الصلاة، ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد وما يجب على المسلمين اتباعه للمحافظة على شعائر الإسلام، ولا غرو فقد كانت مظاهر الإسلام تتحلى في الاحتفال بهذين العيدين في الأمصار الإسلامية وعلى الأخص في بغداد وبيت المقدس ودمشق. أما المسلمون الذين يفدون على مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج، فكان الخطيب يخطب في المسجد الحرام في اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة يشرح لهم فيها مناسك الحج، ثم يأخذون في أداء شعائره، ويضحون أضحيات العيد بعد رميهم الجمار بمنى.

وكان الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى يبلغ منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قوياً، مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية، وترد إليها صلات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٥

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٥.

بأنفسهم. ويقول ابن حوقل: ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب إلا بطرسوس. لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها، وتكثر لديهم الصلات، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة. ولا شك أنه كان لذلك أكبر الأثر في ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى معانيها في الاحتفال بالأعياد بطرسوس، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى في هذه المدينة من محاسن الإسلام.

وكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن الإسلامية في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور الخلافة. وقد لبست الجماهير الطيالسة السود تشبهاً بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم. وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[1].

(ب) الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام:

وكان النوروز من المواسم القديمة، اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد، وهو أول أيام السنة عندهم، ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل أي عند ابتداء فصل الربيع. وقد سن ملوك خراسان سنة جديدة، فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف، وفيه يحتفلون بعيد النوروز. وأول من اتخذ هذا اليوم ـ على ما ذكره البيروني[2] ـ هو جم شيد وهو ـ كما يقول براون[3] نقلا عن بعض المصادر العربية ـ سليمان داود[4]. وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس، غير أنه عاد في العصر العباسي الأول. وقد أضر نظام النوروز القديم بالمزارعين ضرراً بليغاً، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز، فكان يجيء والزرع أخضر في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب.

ويستطّرد البيروني في الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا في عهد هشام بن عبد الملك الأموي (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ)، وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسري، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب، وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً فأبى، وكتب إلى هشام بذلك فأجاب: إني

---

(١) المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٢.

(٢) الآثار الباقية (طبعة سخاو Sachau) ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٣) lit. Hist Of Persia,.Vol I, 114, 259.

(٤) البيروني الآثار الباقية ص ٢١٥.

أخاف أن يكون هذا من قوله تعالى ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾(١). واستمرت الحال كذلك إلى أن ولي هارون الرشيد الخلافة، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحيى بن خالد البرمكي، وسألوه أن يؤخر النوروز نحواً من شهرين؛ فهم يحيى بإجابة طلبهم، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للمجوسية، فعدل عن ذلك، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل.

أما أصل النوروز فيقول البيروني(١) إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ثم رد إليه بعد أربعين يوماً، فعاد إليه ملكه، وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور، فقالت الفرس: «نوروز آمذ» أي جاء اليوم الجديد، فسمي هذا اليوم «النوروز». وأمر سليمان الريح فحملته، ورآه خطاف فقال: «أيها الملك إن لي عشاً فيه بيضات، فاعدل لا تحملها». فعدل سليمان. ولما نزل على الأرض ثانية حمل الخطاف في منقاره ماء، فرشه بين يدي الملك، وأهداه رجل جرادة، فذلك أصل رش الماء والهدايا في النوروز.

وكان الفرس يتهادون في عيد النوروز بالهدايا، ومنها السكر والملابس. ويقول البيروني(٢): «إن قصب السكر إنما ظهر في مملكة جم يوم النوروز، ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت، وهو أنه رأى قصبة كثيرة الماء قد مجت شيئاً من عصارتها فذاقها، فوجد فيها حلاوة لذيذة، فأمر باستخراج مائها وعمل منها السكر فارتفع في اليوم وتهادوه الخامس تبركاً به . . . فجرى الرسم لملوك خراسان فيه أن يخلعوا أساورتهم الخلع الربيعية والصيفية. كما اعتادوا الاغتسال بالماء، وأن يرشوا بعضهم بعضاً به في ذلك اليوم تبركاً ودفعاً للأمراض».

ومما يدل على اهتمام أكاسرة الفرس بالنوروز ما ذكره البيروني حيث قال: «وكان من آيين الأكاسرة في هذه الأيام الخمسة أن يبدأ الملك يوم النوروز، فيعلم الناس بالجلوس له والإحسان إليه، وفي اليوم الثاني يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات، وفي اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موابذته، وفي اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته، وفي الخامس لولده وصنائعه، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام، ويستوفي ما استوجبه من الميرة والإنعام. فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم، فنورز لنفسه، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين، فيتأملها ويفرق منها ما شاء ويودع الخزائن ما شاء الله».

(١) سورة التوبة: ٣٧.

(٢) البيروني: الآثار الباقية ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٨ - ٢١٩.

وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنورور في أول العام على ما رأينا، وفي آخره بالمهرجان، ويسمونه (روز مهر)، ومعناه محبة الروح، وكان من أكبر أعيادهم. فقد أثر عن سلمان الفارسي أنه قال: «كنا على عهد الفرس نقول إن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت في النوروز، ومن الزبرجد في المهرجان، ففضلهما على غيرهما من الأيام كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر»(١). وكان الفرس يتخذون المهرجان دليلاً على نهاية العام والنوروز دليلاً على بدايته. ويوافق أول عيد المهرجان أول الشتاء.

وكان ملوك الفرس يلبسون تاجاً مرصعاً بالجواهر عليه صورة الشمس ويقيمون سوقا عظيمة. وقد قيل إن تعظيم الفرس ليوم المهرجان يرجع إلى استبشار الناس حين سمعوا بانتصار أفريدون على الضحاك. ويعتقدون أن الملائكة نزلت لمساعدة أفريدون في ذلك اليوم. «وجرى الرسم بذلك في دور الملـوك أن يقف في صحن الدار رجل شجاع وقت إسفار الصبح، ويقول بأعلى صوته: يا أيها الملائكة! انزلوا إلى الدنيا وأقمعوا الشياطين الأشرار وادفعوهم عن الدنيا». «وكان الفرس يتهادون في المهرجان بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز ومنها السكر، ويقدم فيه الأكاسرة إلى الفرسان كسوة الخريف والشتاء»(٢). وقد اعتاد ملوك الفرس الجلوس للعامة يوماً في المهرجان ويوماً في النوروز. ويقول الجاحظ(٣): «ولا يحجب عنه أحد في هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف».

وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس، ويسمونه «رام روز»، وهو المهرجان العظيم، وفيه ظفر أفريدون بالضحاك. وقد اهتم الفرس بعيد المهرجان، ويقع في اليوم السادس عشر، وبعيد الرام ويقع في اليوم الحادي والعشرين. «وقد أمر زرادشت أن يكون سبيل المهرجان ورام روز واحداً في التعظيم، فعيدوهما، حتى وصل بينهما هرمز بن شابور البطل وعيد ما بينهما من الأيام جعل الملوك إيرانشهـو من لدن المهرجان إلى تمام ثلاثين أعياداً بين طبقات الناس»(٤).

ولا غرو فقد كان من أثر ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم على العرب، أن أخذوا عنهم نظم الحكم، وقلدوهم في الأزياء وفي الطعام، واحتفلوا بأعيادهم، وخاصة بالنوروز والمهرجان والرام، التي أصبحت من أهم أعيادهم الرسمية في العصر العباسي الأول.

---

(١) البيروني: كتاب الآثار الباقية ص ٢٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ ـ ٢٣٣.
(٣) التاج في أخلاق الملوك ص ١٥٥.
(٤) البيروني: المصدر نفسه ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(جـ) موكب الخلفاء:

وقد فاقت مواكب الخلفاء العباسيين مواكب الأمويين في الروعة والبهاء. ففي أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة موكب الخليفة حاملين الأعلام، ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة، ثم الخليفة ممتطياً جواداً شديد البياض، وبين يديه كبار رجال الدولة. وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويتشح بعباءة سوداء ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية، وبيده قضيب النبي ﷺ وخاتمه، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة[1]. وكان الخليفة الهادي أول من أدخل هذا النظام، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يميلان إلى البساطة، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين. ومن مظاهر سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبادب والأبواق في أوقات الصلاة.

ومن أعظم مواكب الخلفاء العباسيين موكب الحج، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكسي والطعام الذي كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج. ومعهم شرذمة من الجند لحراستهم. ويسير في مقدمة هذا الموكب هوادج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم في أحدها أمير الحاج[2].

ذكر الماوردي أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء: **أحدها** جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا، **والثاني** ترتيبهم في المسير والنزول وإعطاء كل طائفة منهم مقاداً حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار، ويألف مكانه إذا نزل، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه، **والثالث** أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم. **والرابع** أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدبها وأوعرها. **والخامس** أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت. **والسادس** أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم ذاعر ولا يطمح فيهم متلصص. **والسابع** أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج، بقتال إن قدر عليه أو ببذل مال إن أجاب الحجيج إليه. **والثامن** أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرض للحكم بينهم إجباراً، إلا أن يفوض الحكم إليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم. فإن دخلوا بلداً فيه حاكم جاز لـه، ولحاكم البلد أن يحكم، فأيهما حكم نفذ حكمه ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم

---

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٠٣ ـ ١٠٥.

يحكم بينهم إلا حاكم البلد. **والتاسع** أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد. **والعاشر** أن يراعي اتساع الوقت حتى يؤمن القوات ولا تلجئهم ضيقة إلى الحث في المسير. فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته، فإذا كان الوقت متسعاً عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف، وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفاً من فواتها فيفوت الحج بها، فإن زمان الوقوف بعرفة ما بين زوال الشمس من يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر فمن أدرك الوقوف بها في شيء من هذا الزمان من ليل أو نهار فقد أدرك الحج، وإن فاته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر، فقد فاته الحج، وعليه إتمام ما بقي من أركانه وجبرانه بدم، وقضاؤه في العام المقبل إن أمكنه وفيما بعده إن قدر عليه، ولا يصير حجه عمرة بالفوات، ولا يتحلل بعد الفوات إلا بإحلال الحج. فإذا قضى الناس حجهم أمهلهم الأيام التي جرت بها العادة في إنجاز علائقهم ولا يرهقهم في الخروج فيضر بهم، فإذا عاد بهم سار على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر رسول الله ﷺ، رعاية لحرمته وقياماً بحقوق طاعته، ثم يكون في عوده بهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما التزمه في صدرهم، حتى يصل بهم إلى البلد الذي سار بهم منه فتنقطع ولايته عنهم بالعود إليهم.

ويقول نخلة المدور[1]: «ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة، وقد غصت بالناس المواقف، وضاقت بهم المساحات، ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة. ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض، قد استرسل عليه الفضة في الحلية الثقيلة، وهو جالس في هودج مزين بالأصداف اللامعة، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب، وفي يده قضيب الخلافة. وفي الأخرى الخاتم، وعليه جبة وشي من فوقها بردة خضراء للنبي ﷺ، وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية، يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن سلمى بأربعين ألف درهم. وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي ﷺ أهل الأبلة لتبقى عندهم بركة فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار، واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين. وأما الفيلة فإنه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب... وإنه إنما اتخذها موكباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها، وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها. وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة، وراءهم الإبل التي يطعنها حريمه وأهل بيته، وفيهم موسى بن المهدي حاجاً ومعهم

---

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٥٤ ـ ٥٥.

حرس خاص بهم يحملون الرايات السود».

قد سن الخليفة المهدي سنة كسوة الكعبة في كل عام. فإنه لما قدم مكة، نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر، وألبسها كسوة جديدة من الحرير، إذ خاف أن تتهدم لكثرة ما عليها من الكسى التي ألبسها هشام بن عبد الملك الأموي. فأصبح ذلك سنة اتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي، هي سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام، اختصت مصر بصناعة هذه الكسوة منذ ذلك الوقت.

وكان بعض وزراء العصر العباسي الأول يعيش عيشة قوامها البذخ والإسراف: فهذا يحيى بن خالد البرمكي قد بلغ من كرمه وجوده، أنه كان إذا ركب أعد بدراً (صرراً) في كل منها مائتا درهم، يدفعها إلى من يقفون في طريقه ويلتمسون سؤاله. وقد كثر الوافدون على دار خالد بن برمك، وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالاً، فقال خالد: إني أستقبح هذا الإسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر، فسماهم الزوار. وكان خالد أول من سماهم بذلك فقال له بعضهم: والله لا أدري أي أياديك عندنا أجل، أصلتنا أم تسميتنا[١]؟

(د) حفلات الزواج:

وكان العباسيون يعنون عناية بحفلات الزواج. ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم مما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون (الرشيد) بالسيدة زبيدة. فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الإسلام، ووهب الناس في هذا اليوم أواني الذهب مملوءة بالفضة وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر، وزينها بكثير من الحلي والجواهر، حتى إنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلي والجواهر.

ويقول الشابشتي[٢] إن المأمون أمهر بوران ١٠٠,٠٠٠ دينار، ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، أي أكثر من نصف مليون دينار، وأنه أوقد بين يديه في تلك الليلة ثلاث شمعات عنبر وكثر دخانها فقالت زبيدة: إن فيما ظهر من السرف الكفاية، ارفعوا هذا الشمع العنبر وهاتوا الشمع. ولما جليت بوران على المأمون نثر عليها حباراً[٣] كان في كمه، فوقع على حصير منسوج من الذهب، فقال: لله درُّ الحسن بن هانىء، حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤٠.

(٢) الديارات: مخطوط فيبار رقم ١١٠ برلين، ودار الكتب المصرية ورقة ٦٧ (أ).

(٣) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٤٩٤) أنه نثر اللؤلؤ من فمه.

وامتنع من كان حاضراً أن يلتقط شيئاً، فقال المأمون: أكرمنها، فمدت زبيدة يدها فأخذت حبة، فالتقط الباقي من كان حاضراً، كما ذكر الشابشتي أن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدي ١٣٨٨,٠٠٠ ديناراً، عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه.

وقد أكدت السيدة زبيدة لأبي عبد الله المأمون، وكان أخا الأمين ابن السيدة زبيدة من أبيه الرشيد كما نعلم، أن نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون درهم.

وقد فاق المأمون أباه الرشيد في كرمه وإسرافه. يدلنا على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل. ويقول الطبري(١) إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو في طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم، ومنحه خراج إقليم فم الصلح. ويقول ابن خلكان(٢) إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة.

وقد وصف المسعودي(٤) إسراف الحسن بن سهل وبذخه في هذا الزواج فقال: ونثر الحسن في ذلك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل، فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضي إلى الوكيل الذي نصب لذلك، فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية، من طسوج كذا، من رستاق كذا وجارية يقال لها فلانة الفلانية ودابة صفاتها كَذا. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده، وعلى المكارين والحمالين والملاحين، وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره، فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون، ولا مما يطعم تعلقته البهائم. فلما أراد المأمون إن يصعد في دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن: حوائجك يا أبا محمد! قال: نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ علي مكاني من قلبك فإنه لا يتهيأ لي حفظه إلا بك، فقالت في ذلك الشعراء فأكثرت وأطنبت الخطباء في ذلك وتكلمت، فمما استظرف مما قيل في ذلك الشعر قول ابن حازم الباهلي:

بـارك الله لـلحسـنْ ولـبـورانَ في الخَـتَـنْ
يـا بـنَ هـارون قـد ظـفـرت ولـكـن بـبـنـت مَـنْ

---

(١) (طبعة دي غويه) ٢: ١٠٨٣ - ١٠٨٤.

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣٤.

فلما نمي هذا الشعر إلى المأمون قال: والله ما ندري خير أراد أم شر(١).

٨ ـ أنواع التسلية:

كان الناس في العصر العباسي الأول يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التي تتجلى فيها الزكانة والفطنة. أما الحكايات الطوال فكانوا يتنكبون عنها، لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخاصة.

كما كانوا يتلهون في داخل المنازل بلعبة الشطرنج التي أدخلها الرشيد، ثم انتشرت بين العرب وحلت محل الورق والزهر، وكانوا يلعبون بها على رقعة مربعة حمراء من أدم وظهر في قصر الخليفة العباسي المعتضد في أواخر القرن الثالث الهجري نوع من الشطرنج يسمى «الجوارحية» أو اللعب بالجوارح، تعمل فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس غيرها من الحواس(٢).

وقد قيل إن الخليفة المأمون مال إلى لعب الشطرنج بعد قدومه من خراسان إلى بغداد، ودعا كبار لاعبيه الذين كانوا يتوقرون بين يديه، فضاق بذلك وقال: إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة، قولوا ما تقولون إذا خلوتم(٣).

وكان النرد من الألعاب التي اعتاد الناس أن يتلهوا بها في العصر العباسي الأول، ويستعمل في لعبة ثلاثون حجراً وفصان على رقعة رسم عليها إثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً. وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل، وما يخرج من الفصين إذا رمي بهما بالقضاء الجاري على العباد.

ومن أنواع التسلية في ذلك العصر الرمي بالنشاب والصيد بالبندق، ولعبة الجوكان والصولجان والجريد.

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي الأول. وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على أن لا تكون وسيلة للحصول على المال. وبلغ من شغف الناس بسباق الخيل واهتمامهم به، أن كان السابق يستولي

---

(١) كتاب شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٣.
انظر الملحق الثاني عشر عن «بناء ببوران بنت الحسن بن سهل».
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٣) المسعودي. مروج الذهب جـ ١ ص ٥٢٢.

على الحصان المسبوق في بعض الأحيان[١]، وتنافس الخلفاء والوزراء في تربية خيل السباق.

روى الجهشياري[٢] أن هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكي «أن يتخذ خيلاً يجريها في الحلبة، فأجرى جعفر يوماً خيله بالرقة، فسبقت خيل الرشيد، فغضب الرشيد، فقال العباس بن محمد الهاشمي لجعفر: يا أبا الفضل! ما أحسن الشكر وأدعاه للمزيد! من أين لك هذا الفرس السابق؟ فقال له: أمه من خيلك، فقال: والله لأرضينك. ثم أقبل على الرشيد فقال: كنت يا أمير المؤمنين مع أمير المؤمنين أبي العباس. ونحن في المدائن وقد أرسلت الخيل، فبينا نحن ننظر طلع آخر سابق، وقد حصل في الغبار فما ترى علامته، فقال عيسى بن علي: لي، وقال غيره لي. ثم طلع آخر على تلك الصفة، فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك، وقد أخذ قصبات السبق، فقال خالد؛ يا أمير المؤمنين! من يقبضها؟ فقال: هي لنا عندك فإنك عدة من عددنا؛ فسرى عن الرشيد وزال الغضب عنه».

وروى المسعودي[٣] حكاية تبين لنا مبلغ اهتمام الرشيد بسباق الخيل قال: وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة. فلما أرسلت، صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى عليه الخيل، لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملها فقال: فرسي والله. ثم تأمل الآخرة فقال: فرس ابني المأمون. فجاءا يحنكان أمام الخيل. وكان فرسه السابق، وفرس المأمون ثانية فسر بذلك، ثم جاء الخيل بعد ذلك.

ومن أنواع التسلية في العصر العباسي الأول لعبة الكريكيت والتنس، ويسمونها لعبة «القراح». وكان النساء يمارسن الرمي بالسهام. ولم يكن الرقص في بادىء الأمر مقصوراً على الطبقات المحترفة فحسب، بل كثيراً ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضاً.

وكان بعض الخلفاء كلفاً بالصيد. فقد حرص المهدي على القيام برحلات منظمة، بصحبة فرسان يتقلدون السيوف، ويتبعهم طائفة الجند والغلمان، وكان الخليفة يسير محاذياً لنهر دجلة ارتياداً للخضرة التي تجنح إليها الطيور وتسرح فيها الغزلان.

وقد كلف هؤلاء الخلفاء بالصيد وتأنقوا في إعداد العدة له؛ وقلدهم في ذلك الأمراء حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب. كما عنوا باستخدام الصقر والباز في الصيد، وعنوا بتربية الكلاب السريعة العدو، ووكلوا بكل كلب شخصاً يقوم بتربيته.

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٥

(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٠٧.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٩.

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

خطبة أبي العباس السفاح في مسجد الكوفة[١]

يقول الطبري: «لما صعد (أبو العباس) المنبر حين بويع له بالخلافة قام في أعلاها، وصعد داود بن علي فقام دونه، فتكلم أبو العباس فقال: الحمد الله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله، وكهفه وحصنه، والقوام به والذابين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله وقرابته، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا، عزيزاً عليه ما عنتنا[٢]، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً؛ ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل، فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس[٣] أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[٤]. وقال: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[٥]. وقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[٦] وقال: ﴿وما أفاء[٧] الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى﴾[٨] وقال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء، فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى﴾[٩] فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم. وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٢٥ - ١٢٦.
(٢) يعني يعز عليه أن نقع في أمر شاق.
(٣) الغدر أو العقاب أو الغضب.
(٤) الأحزاب ٣٣ : ٣٣.
(٥) الشورى ٤٢ : ٢٣.
(٦) الشعراء ٢٦ : ٢١٤.
(٧) من الفيء وهو كل ما غنمه المسلمون من المشركين عفواً من غير قتال.
(٨) الحشر ٥٩ : ٧.
(٩) الأنفال ٨ : ٤١.

بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت (قبحت) وجوههم، بما ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، ودحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة الدنيئة، وتم بنا النقيصة وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ. فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها وخرجوا خماصاً[١] منها ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه[٢]. فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا، والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا. وإني لأجور أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح. وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة! أنتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا. أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثأر المبير».

وكان موعوكا: فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر.

(١) أي جياعاً من المخمصة وهي الجوع.

(٢) أغضبوه.

الملحق الثاني

خطبة داود بن علي العباسي في مسجد الكوفة[١]

«وصعد داود بن علي، فقام دونه على مراقي المنبر فقال: الحمد لله شكراً شكراً شكراً، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ، أيها الناس! الآن أقشعت (أذهبت) حنادس[٢] الدنيا؛ وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم. أيها الناس! إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً (فضة) ولا عقياناً (ذهباً). ولا نحفر نهراً، ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وماكرثنا[٣] من أموركم، وبهظنا[٤] من شئونكم. ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله. ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ﷺ. تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسننهم في البلاد التي استلذوا تسربل الأوزان وتجليب الآصار[٥]؛ ومرحوا في أغنة المعاصي وركضوا في ميادين الغي جهلاً باستدراج الله وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين، وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور، وأرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه (زمامه). فظن عدو الله أن لن نقدر عليه. فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) جمع حندس وهو الليل المظلم والظلمة.

(٣) اشتد علينا.

(٤) غلبنا وثقل علينا.

(٥) جمع إصر وهو الذنب.

وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلالته وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا. أيها الناس! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة؛ إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر[١] فيه شدة الوعك. وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية؛ فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار والأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى. فعج[٢] الناس له بالدعاء.

ثم قال: يا أهل الكوفة! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام، ومن عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، فإن لكل أهل بيت مصراً، وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد، وأشار بيده إلى أبي العباس. فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ﷺ. الحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

---

(١) اتسع في كلامه.

(٢) رفع صوته بالدعاء.

الملحق الثالث

وصية أبي جعفر ابنه محمد المهدي[١]

«هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدي محمد بن أمير المؤمنين، ولي عهد المسلمين، حين أسند وصيته إليه بعده واستخلفه على الرعية، من المسلمين وأهل الذمة، وحرم الله وخزائنه وأرضه الّتي يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين. إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد، ويحذرك الحسرة والندامة، والفضيحة في القيامة، قبل حلول الموت، وعاقبة الفوت حين يقول: ﴿رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾[٢]. هيهات أين منك المهل وقد انقضى عنك الأجل... وتقول ﴿رب أرجعون لعلي أعمل صالحاً﴾[٣]، فيومئذ ينقطع أهلك ويحل بك عملك، فترى ما قدمته يداك وسعت فيه قدماك، ونطق به لسانك، واستركبت عليه جوارحك، ولحظت له عينك، وانطوى عليه غيبك، فنجزي عليه الجزاء الأوفى، إن شراً فشراً وإن خيراً فخيراً.

فليكن تقوى الله من شأنك، وطاعته من بالك، استعن بالله على دينك، وتقرب به إلى ربك ونفسك فخذ منها، ولا تجعلها للهوى. ولن تعمل الشر قامعاً، فليس أحد أكثر وزراً، ولا أعظم مصيبة، ولا أجل رزية منك، لتكاتف منك أجمعون، وتكافىء على أفعال ولاتك الظالمين، فإن الله يقول: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾[٤]. فكأني بك وقد أوثقت بين يدي الجبار، وخذلك الأنصار، وأسلمك الأعوان، وطوقت الخطايا، وقرنت بك الذنوب، حل بك الوجل وقعد بك الفشل، كلت حجتك، وقلت حيلتك، وأخذت منك الحقوق، واقتاد منك المخلوق في يوم شديد هوله، عظيم كربه، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق، واستقضى عليك الحق، إذ لا خصة تنجيك ولا قرابة تحميك، تطلب فيه التباعة، ولا تقبل فيه الشفاعة ويعمل فيه بالعدل ويقضي فيه

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٧٢ ـ ٤٧٤.
(٢) المنافقون ٦٣ : ١٠.
(٣) المؤمنون ٢٣ : ٩٩ـ١٠٠.
(٤) الزمر ٣٩ : ٣٠.

بالفصل، قال الله: ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾[1]، فعليك بالتشمير لدينك والاجتهاد لنفسك. ففكك عنك، وبادر يومك، واحذر غدك، واتق دنياك فإنها دنيا غادرة موبقة، ولتصدق الله نيتك، وتعظم إليه فاقتك.

«وارغب إلى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم في الدين. وابذل في ذلك بهجتك ونجدتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك. واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك، فإنه يكفيك ويغنيك وينصرك وكفى به مؤيداً ونصيراً».

(١) غافر ٤٠ : ١٧.

الملحق الرابع

قتل مروان بن محمد[1]

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان، وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه، إذا بخادم لمروان شاهر السيف، يحاول الدخول عليهن؛ فأخذوا الخادم، فسئل عن أمره فقال: أمرني مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه، فلا تقتلوني، فإنكم والله إن قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله ﷺ، فقالوا له: أنظر ما تقول، قال: إن كذبت فاقتلوني، هلموا فاتبعوني، ففعلوا فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل، فقال: اكشفوا هنا، فكشفوا، فإذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بني هاشم، فوجه بها عامر بن إسماعيل إلى عبد الله بن علي، فوجه بها عبد الله إلى أبي العباس السفاح، فتداولت ذلك خلفاء بني العباس إلى أيام المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ).

ولما احتز عامر رأس مروان واحتوى على عسكره. دخل الكنيسة التي كان فيها مروان، فقعد على فرشه وأكل من طعامه، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى، وتعرف بأم مروان، فقالت: يا عامر! أن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره وحكمت في مملكته، لقادر أن يغير ما بك.

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن علي. فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقال: يا عم أمير المؤمنين! حفظ الله لك في الدنيا والآخرة! نحن بناتك وبنات أخيك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا، قال: إذاً لا نستبقي منكم أحداً رجلاً ولا امرأة. ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخي إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الإمام في محبسه بحران؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين بن علي وصلبه في كناسة الكوفة، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يد يوسف بن عمر الثقفي؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد المدعو مسلمة بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي، على يد عمر بن سعد

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

مع من قتل بين يديه من أهل بيته؟ ألم يخرج بحرم رسول الله ﷺ سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية، وقبل مقدمهـم بعث إليه برأس الحسين بن علي قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها، حتى قدموا به على يزيد بدمشق، كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك؟ ثم أوقف حرم رسول الله ﷺ موقف السبي يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطعام، ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله ﷺ، استخفافاً بحقه ﷺ وجرأة على الله عز وجل وكفراً لأنعمه. فما الذي استبقيتم منا أهل البيت لو عدلتم فيه علينا؟ قالت: يا عم أمير المؤمنين! وليسعنا عفوكم إذاً، قال: أما العفو فنعم، قد وسعكم، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح. فقالت: يا عم أمير المؤمنين! أي أوان عرس هذا؟ بل تلحقنا بحران. قال: إذن أفعل ذلك بكن إن شاء الله. فألحقن بحران، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان، وشققن جيوبهن، وأعولن بالصياح حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان.

الملحق الخامس

نهاية بابَك الخرمي(١)

وقد وصف المسعودي نهاية بابك الخرمي وصفاً مسهباً فقال: «فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه، هرب من موضعه وزال عن مكانه، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه، وقد تزيا بزي السفر وأهل التجارة والقوافل، فنزل موضعاً من بلاد أرمينية على بعض المياه؛ وبالقرب منهم راعي غنم، فابتاعوا منه شاة وشاءوا شراء شيء من الزاد لهم، فمضى من فوره إلى سهل بن سنباط، فأخبره الخبر وقال: وهو بابك لا شك فيه.

وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن حبله خشي أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار، فيكثر جمعه وينضاف إليه فلال عسكره فيرجع إلى ما كان من أمره. فأخذ الطرق، وكاتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان وضمن في ذلك الرغائب. فلما سمع سهل بن سنباط من الراعي ما أخبره به، سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه؛ حتى أتى الموضع الذي به بابك. فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له: أيها الملك! قم إلى قصرك الذي فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك؛ فسار معه إلى أن أتى قلعته، وأجلسه على سريره، ورفع منزلته ووطأ له منزلته ومن معه، وقدمت المائدة وقعد يأكل معه، فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه: أمثلك يأكل معي؟ فقام سهل عن المائدة وقال أخطأت أيها الملك، وأنت أحق من احتمل عبده إذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك، وجاءه بحداد وقال له: مد رجليك أيها الملك، وأوثقه بالحديد، فقال له بابك: أغدروا يا سهل؟ قال: يابن الخبيثة؟/إنما أنت راعي غنم وبقر، ما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات؟ وقيد من كان معه، وأرسل إلى الأفشين يخبره الخبر وأن الرجل عنده، فسرح إليه الأفشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد وعليهم خليفة، يقال له بوغادة، فتسلمه ومن معه، وأتي به إلى الأفشين، ومعه ابن سنباط، فرفع الأفشين منزلة سهل، وخلع عليه، وحمله وتوجه، وقاد بين يديه وأسقط عنه الخراج، فأطلقه، وأطلق الطيور إلى

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

المعتصم، وكتب إليه بالفتح. فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير، وعمهم الفرح وأظهروا السرور، وبثت الكتب إلى الأمصار بالفتح. وقد كان أفنى عساكر السلطان، فسار الأفشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامرا، وبعث إليه بالفيل الأشهب، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون وكان فيلاً عظيماً، وقد جلل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون، ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفناه. وحمل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر، منسوجة بالذهب، وقد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة، وقد نظم على القلنسوة كثيراً من اللؤلؤ والجواهر وألبس بابك الدراعة، وألبس أخوه الأخرى، وجعلت القلنسوة على رأس بابك، وعلى رأس أخيه نحوها. وقدم إليك الفيل وإلى أخيه الناقة. فلما رأى صورة الفيل استعظمه، وقال: ما هذه الدابة العظيمة! واستحسن الدراعة وقال: هذه كرامة ملك عظيم جليل إلى أسير، فقد العز ذليل، أخطأته الأقدار، وزالت عنه الجدود وتورطته المحن، إنها الفرحة تقتضي ترحة. وضرب له المصاف صفين، في الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود، من القاطول إلى سامرا، مدد واحد متصل غير منفصل، وبابك على الفيل، وأخوه وراءه على الناقة والفيل يخطر بين الصفين به، وبابك يخطر ذات اليمين وذات الشمال ويميز الرجال والعدد، ويظهر الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين. ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ولا مثل تلك الزينة، ودخل الأفشين على المعتصم، فرفع منزلته وأعلى مكانه، وأتى ببابك فطوف به بين يديه، فقال له المعتصم: أنت بابك؟ فلم يجب وكررها عليه مراراً، وبابك ساكت، فمال إليه الأفشين وقال له: الويل لك! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت؟ فقال: نعم أنا بابك، فسجد المعتصم عند ذلك ثم قال: جردوه، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة، وقطعت يمينه وضرب به وجهه، وفعل مثل ذلك بيساره، وثلث برجليه، وهو يتمرغ بالنطع في دمه.

وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله، فلم يلتفت إلى قوله وأقبل يضرب بما بقي من زنديه وجهه، وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل القلب ليكون أطول لعذابه ففعل.

ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده. ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ونصب على الجسر، وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها، لما كان في

نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده، وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملا
وتبديلها.

وحمل أخوه عبد الله مع الرأس إلى مدينة السلام، ففعل به إسحاق بن إبراهيم ما فعل بأخيه بابك بسامرا، وصلب جثة بابك على خشبة طويلة في أقاصي سامرا».

الملحق السادس

محاكمة الأفشين(١)

«وذكر عن هارون بن عيسى بن منصور أنه قال: شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبي دؤاد وإسحاق بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات. فأتي بالأفشين، ولم يكن بعد في الحبس الشديد. فأحضر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين بما هو عليه. ولم يترك في الدار أحد من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور، وصرف الناس.

وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات. وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان والموبذ والمرزبان بن تركش، وهو أحد ملوك السغد، ورجلان من أهل السغد. فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين، وعليهما ثياب رثة، فقال لهما محمد بن عبد الملك، ما شأنكما؟ فكشفا عن ظهرهما وهي عارية من اللحم فقال له محمد: تعرف هذين؟ قال نعم! هذا مؤذن، وهذا إمام بنيا مسجداً بأشروسنة، فضربت كل واحد منهما ألف سوط، وذلك أن بيني وبين ملوك السغد عهداً أو شرطاً أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه. فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم ـ يعني أهل أشروسنة ـ فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجداً. فضربتهما على هذا ألفاً ألفاً، لتعديهما القوم من بيعتهم. فقال له محمد: ما كتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله؟ قال: هذا كتاب ورثته عن أبي. فيه أدب من العجم، وما ذكر من الكفر، فكنت أستمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك. ووجدته محلى، فلم يضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه، فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام. ثم تقدم الموبذ فقال: إن هذا كان يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة. وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف، ثم يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها وقال لي يوماً: إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل، غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة، يعني لم يطل ولم يختتن، فقال الأفشين: خبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٧.

الكلام ثقة هو في دينه؟ وكان الموبذ مجوسياً، أسلم بعد على يد المتوكل ونادمه، قالوا لا، قال فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدلونه؟ ثم أقبل على الموبذ فقال: هل كان بين منزلي ومنزلك باب أو كوة تطلع علي منها وتعرف أخباري منها؟ قال: لا! قال: أفليس كنت أدخلك إلي وابثك سري، وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها؟ قال: نعم! قال: فلست بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك، إذا أفشيت علي سراً أسررته إليك. ثم تنحى الموبذ وتقدم له المرزبان بن تركش فقالوا للأفشين: هل تعرف هذا؟ قال: لا فقيل للمرزبان: هل تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الأفشين، قالوا له: هذا المرزبان، فقال له المرزبان: يا ممخرق كم تدافع وتموه؟ قال له الأفشين: يا طويل اللحية ما تقول؟ قال: كيف يكتب إليك أهل مملكتك؟ قال: كما كانوا يكتبون إلى أبي وجدي، قال: فقل قال لا أقول، فقال المرزبان: أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية؟ قال: بلى، قال: أفليس تفسيره بالعربية إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان؟ قال: بلى! قال محمد بن عبد الملك: والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا؟ فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه أنا ربكم الأعلى؟ قال: كانت هذه عادة القوم لأبي وجدي ولي قبل أن أدخل في الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد علي طاعتهم، فقال له إسحاق بن إبراهيم بن مصعب: ويحك يا خيذر؟ كيف تحلف بالله لنا، فنصدقك ونصدق يمينك، ونجريك مجرى المسلمين وأنت تدعي ما ادعى فرعون؟ قال: يا أبا الحسين! هذه سورة قرأها عجيف على عليّ بن هشام، وأنت تقرأها علي، فانظر غداً من يقرؤها عليك.

ثم قدم مازيار صاحب طبرستان فقالوا للأفشين. تعرف هذا، قال لا، قالوا للمازيار تعرف هذا؟ قال: نعم قد عرفته الآن، قالوا: هل كاتبته؟ قال لا، قالوا للمازيار: هل كتب إليك؟ قال نعم، كتب أخوه خاش إلى أخي قوهيار أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك، فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت، فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس.

فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك: والعربي بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس، وهؤلاء الذئاب يعني المغاربة، إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين، يعني الأتراك، فإنما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم، فقال الأفشين. هذا يدعي على أخيه وأخي دعوى لا يجب علي، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله إلي ويثق بناحيتي، كان غير مستنكر، لأني إذا نصرت الخليفة بيدي كنت بالحيلة أحرى أن أنصره لآخذ

بقفاء وآتي به الخليفة لأحظى به عنده كما حظي به عبد الله بن طاهر عند الخليفة: ثم نحى للمازيار. ولما قال للمرزبان التركشي ما قال، وقال لإسحاق بن إبراهيم ما قال، زجر ابن أبي دؤاد الأفشين فقال: أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك بيدك فلا تدعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة. فقال له ابن أبي دؤاد:

أمطهر أنت؟ قال لا، قال فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام، والطهور من النجاسة. قال: أنت في دين الإسلام استعمال التقية؟ قال بلى، قال خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت، قال أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف، فلا يمنعك ذلك من أن تكون في الحرب، وتجزع من قتل قلفة؟ قال: تلك ضرورة تعنيني، فأصبر عليها إذا وقعت، وهذا شيء أستجلبه. فلا آمن معه خروج نفسي، ولم أعلم أن في تركها الخروج من الإسلام. فقال ابن أبي دؤاد: قد بان لكم أمره يا بغا (يوجه كلامه إلى بغا الكبير أبي موسى التركي)، عليك به. فضرب بغا بيده على منطقته فجذبها فقال: قد كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم، فقلب بغا ذيل البقاء على رأسه، ثم أخذ بمجامع القباء من عند عنقه. ثم أخرجه من باب الوزيري إلى محبسه».

الملحق السابع

كتاب أبي جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية[١]

«بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾[٢]. ولك عليَّ عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ، إن تبت ورجعت من قبل أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم، على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال. وأعطيك ألف ألف درهم، وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك، أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً. فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إليَّ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به».

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٠.

(٢) سورة المائدة ٥: ٣٣ - ٣٤.

الملحق الثامن

رد محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله، إلى عبد الله بن محمد ﴿طسم، تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾[2]. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي.

فإن الحق حقنا؛ وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا. لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء. وليس يمت أحد من بني هاشم مثل الذي يمت من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله ﷺ، فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ، ومن السلف أولهم إسلاما علي، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة.

ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة. وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وإن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أبا، لم تعرق في العجم، ولم تنازع في أمهات الأولاد. فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار. فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة وابن خير

---

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) سورة القصص ٢٨ : ١ - ٦.

أهل النار. ولك الله على أن دخلت في طاعتي، وأجبت دعوتي، أن أؤمنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله، أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي. فأي الأمان تعطيني؟ أمان ابن هبيرة؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي؟ أم أمان أبي مسلم؟».

الملحق التاسع

رد أبي جعفر المنصور على محمد النفس الزكية(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد! فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء. ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أبا، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا. ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن، كانت آمنة أقربهن رحماً، وأعظمهن حقاً، وأول مَن يدخل الجنة غداً.

ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم، واصطفائه لهم. وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا إبناً. ولو أحداً رزق الإسلام بالقرابة، رزقه عبد الله، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة؛ ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء. قال الله عز وجل: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾(٢).

ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾(٣)، فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان أحدهما أبي وأبى اثنان أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلاًّ ولا ذمة ولا ميراثاً. وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً، وابن خير الأشرار. وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار، وسترد لتعلم ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾(٤).

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي، وأن هاشماً ولده مرتين، ومن فاطمة أم حسن، وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبي ﷺ ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ؛

(١) الطبري جـ ٩ ص ٢١١ ـ ٢١٣.
(٢) سورة القصص ٢٨: ٥٦.
(٣) سورة الشعراء ٢٦: ٢١٤.
(٤) سورة الشعراء ٢٦: ٢٢٧.

لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً، وأنه لم يلدك العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً، فإنك قد تعديت طورك، وفخرت على من هو خير من نفسك نفساً وأباً وأولاً وآخراً، إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وعلى والد والده، وما خيار بني أبيك خاصة، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد.

وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد، ولهو خير من جدك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل أبيه جعفر، وجدته أم ولد، ولهو خير منك. وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ، فإن الله تعالى يقول في كتابه ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾[1].

ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا يجوز لها الإمامة؛ فكيف تورث بها، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً، ومرضها سراً، ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما، ولقد جاء السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون.

وأما ما فخرت به من علي وسابقته، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة، فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها، ولم يروا له حقاً فيها. أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له متهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبى سعد بيعته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده: ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها، وتفرق عنه أصحابه، وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثمّ حكم حكمين رضي بهما وأعطاهما عهده وميثاقه، فاجتمعا على خلعه.

ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير ولائه ولا حله، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه، ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه. ثم خرجتم على بني أمية، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان. وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٤٠.

وفضلناه. فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر. وليس ذلك كما ظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلماً منهم، مجتمعاً عليهم بالفضل، وابتلي أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه.

ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا فيها أبوك، فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام. ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى ربه، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به.

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره، فكان وارثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده: فالسقاية سقايته، وميراث النبي له والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة، إلا والعباس وارثه ومورثه.

أما ما ذكرت من بدر، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبي طالب وعياله، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته. ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً، لمات طالب وعقيل جوعاً وللحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب عنكم العار والسبة، وكفاكم النفقة والمؤونة؛ ثم فدى عقيلاً يوم بدر. فكيف تفخر علينا، وقد أعناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الأباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه؛ ولم تدركوا لأنفسكم؟ والسلام عليكم ورحمة الله!»

الملحق العاشر

أصناف أهل السنة كما ذكرهم البغدادي:

وقد ذهب البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق إلى القول «إن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس: صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب، وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة. وسلكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاتية[٢] من المتكلمين الذين تبرأوا من التشبيه والتعطيل، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائر أهل الأهواء الضالة.

والصنف الثاني منهم أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث من الذين اعتقدوا في أصول الدين مذهب الصفاتية في الله وفي صفاته الأزلية وتبرأوا من القدر والاعتزال، وأثبتوا رؤية الله بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال في القبر، ومع إثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التي دون الشرك، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهليها ودوام عذاب النار على الكفرة، وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة، الذين تبرأوا من أهل الأهواء الضالة، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ورأوا تحريم المتعة، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية. ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعي والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة وابن أبي ليلى وأصحاب أبي ثور وأصحاب أحمد بن حنبل، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في أبواب العقلية أصول الصفاتية، ولم يخلطوا فقهه بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة.

والصنف الثالث منهم هم الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي عليه السلام، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل[٣]، ولم

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣. (٢) الصفاتية. هم يثبتون صفات الله.

(٣) الجرح: الذنب الذي يجعل صاحبه غير أهل لرواية الحديث، والتعديل هو إثبات الصفات التي تجعله غير عرضة للتجريح.

يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة.

والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف، وجروا على سمت[١] أئمة اللغة كالخيل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء والأخفش والأصمعي والمازني وأبي عبيد، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج.

ومن مال منهم إلى شيء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة، ولا كان قوله حجة في اللغة والنحو. والصنف الخامس منهم هم الذين أحاطوا علماً بوجود قراءات القرآن، وبوجود تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة. والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا واختبروا فاعتبروا. ورضوا بالقدر وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد، كل مسؤول عن الخير والشر ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياء ولا يتركونه حياء. دينهم التوحيد ونفي التشبيه، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[٢].

والصنف السابع منهم قوم مرابطون في ثغور المسلمين في وجوه الكفرة، يجاهدون أعداء المسلمين، ويحمون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم. ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة. وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[٣].

والصنف الثامن منهم عامة البلدان التي غلب فيها شعائر أهل السنة دون عامة البقاع التي ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة. وإنما أردنا بهذا الصنف من العامة عامة واعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة في أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد، ورجعوا إليهم في معالم دينهم، وقلدوهم في فروع الحلال والحرام، ولم يفتقدوا شيئاً من بدع أهل الأهواء الضالة. وهؤلاء الذين سمتهم الصوفية حشو الجنة، فهؤلاء أصناف أهل السنة والجماعة ومجموعهم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم».

---

(١) السمت: الطريق.
(٢) سورة الحديد: ٢١، سورة الجمعة ٤.
(٣) سورة العنكبوت: ٦٩.

الملحق الحادي عشر

نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة[١]

«هذا كتابٌ لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحة من عقله وجواز أمره، وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، أن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العبادات والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين، وابتاع لي من الضياع والعقد والرباع، وابتعت منه من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتابي بسبب محاسبة، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً، ولا يدخل علي ولا عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس، مكروهاً في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك وأقربه، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون، وقبله وعرف صدق نيته فيه. فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشه، وأوفي ببيعته، وولايته، ولا أغدره ولا أنكث وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ما وفَّى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري، وسمي في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين، ولم يتبعني بشيء من ذلك، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه. فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلي يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولانا إياه، فعلي أن أنفذ أمره، ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إلي. وإن أراد محمد أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي، فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه وشرط على نفسه في أمري، وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له به، ولا أنقض من ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً

---

(١) الطبري جـ ١٠ ص ٧٦ - ٧٧.

ولا بعيداً من الناس أجمعين إلا أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فليلزمني ومحمداً الوفاء له وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد على الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا، ما وفَّى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي وما أعطاني أمير المؤمنين من الأسماء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي. وعلى عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه والإيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها ونهى عن نقضها وتبديلها. فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عزّ وجل، ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله ﷺ؛ ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً. وكل امرأة هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة، طالقاً ثلاثاً البتة طلاق الحرج. وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً عليَّ في عنقي حافياً راجلاً، لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة. وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا، لازم لي، لا أضمره غيره، ولا أنوي غيره. شهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان، وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة».

الملحق الثاني عشر

ذكر بناء المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل[١]

«قال أحمد بن أبي طاهر: ذكر أصحاب التاريخ أن بناء المأمون ببوران بنت الحسن كان في شهر رمضان في سنة عشر ومائتين هـ، وأنه لما مضى إلى فم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل حمل معه إبراهيم بن المهدي، ومر بالمصلين الذين كانوا مع إبراهيم بن عائشة في المطبق، فأمر بإنزالهم، وكانوا مصلبين على الجسر الأسفل. وكان إنزالهم في جمادى الأولى ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين منه ولما كان من غد يوم الأربعاء أمر بإنزال إبراهيم بن عائشة، فكفن وصلي عليه، ودفن في مقابر قريش كما ذكرنا في خبر ابن عائشة آنفاً.

حدثني الحارث بن نصر المنجم، وكان من أصحاب الحسن بن سهل قال. لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران، ركب من بغداد زورقاً حتى أرقى على باب الحسن بن سهل. وكان العباس بن المأمون قد تقدم على الظهر، فتلقاه الحسن خارج عسكره في موضع كان اتخذ له على شاطىء دجلة بني له فيه جوسق. فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل. فحلف عليه ألا يفعل. فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل، فقال له العباس: بحق أمير المؤمنين لا تنزل فاعتنقه الحسن وهو راكب.

ثم أمر له أن يقدم إليه دابته ودخلها جميعاً إلى منزل الحسن، ووافى المأمون في وقت العشاء، وذلك في شهر رمضان من سنة عشر ومائتين، فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله، حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم، فدعا المأمون بشراب، فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب، فمد يده بجام فيه شراب إلى الحسن فتبطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك، فغمز دينار بن عبد الله الحسن فقال الحسن. يا أمير المؤمنين! أشربه بإذنك وأمرك. فقال له المأمون: لولا أمري لم أمد يدي إليك فأخذ الجام فشربه.

فلما كان في الليلة الثانية. جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذي الرياستين، فلما كان في الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها. فلما

---

(١) أحمد بن طاهر طيفور: كتاب تاريخ بغداد ص ٢٠٦ ـ ٢١١.

جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون بأن تجمع. وسألها عن عدد الدر كم هو، فقالت: ألف حبة، فأمر المأمون بعدها فنقصت عشرة، فقال: من أخذها منكم؟ ردوها فقالوا حسين زجلة (بحسب الطبري في النسخة رخلة)، فأمر بردها فقال: يا أمير المؤمنين! إنما نثر لنأخذه، قال فإني أخلفها عليك فردها. وجمع المأمون ذلك الدر في الآنية ووضع في حجرها وقال: هذه نحتلك فاسألي حوائجك، فأمسكت فقالت لها جدتها: كلمي سيدك وأسأليه حوائجك فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي، فقال قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر في الحج فأذن لها. ولبستها أم جعفر البدنة الأموية، وابتنى بها في ليلته، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا في تنور ذهب، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا سرف.

فلما كان من غد، دعا بإبراهيم بن المهدي فجاء يمشي من شاطىء دجلة عليه مبطنة ملحم وهو متعصم بعمامة حتى دخل. فلما رفع الستر عن المأمون رمى بنفسه فصاح المأمون: يا عم! لا بأس عليك، فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة وقبل يده وأنشده شعراً، ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية ودعا له بمركب، وقلده سيفا وخرج، فسلم على الناس ورد إلى موضعه. قال الحارث: وأقام المأمون سبعة عشر يوماً يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه. قال: وخلع الحسن بن سهل على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم.

وكان مبلغ النفقة عليه خمسين ألف ألف درهم قال: وأمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس وأقطعه فم الصلح، فحملت إليه على المكان، وكانت معدة عند غسان بن عباد قال: فجلس الحسن ففرقها في قواده وأصحابه وحشمه وخدمه. قال: ولما انصرف المأمون شيعه الحسن ثم رجع إلى فم الصلح.

فحدثني الفضل بن جعفر بن الفضل قال: حدثني أحمد بن الحسن بن سهل قال: كان أهلنا يتحدثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بني هاشم، فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم الغنيمة بعث فتسلمها.

وقال أبو الحسن علي بن الحسن بن عبد الأعلى الكاتب قال: حدثني الحسن بن سهل يوماً بأشياء كانت في أم جعفر. ووصف رجاحة عقلها وفهمها، ثم قال: سألها يوماً المأمون بفم الصلح حين خرج للبناء على بوران وسأل حمدونة بنت غضيض عن مقدار أنفقت في ذلك الأمر، فقالت حمدونة: أنفق خمسة وعشرين ألف ألف، فقالت أم جعفر: ما صنعت شيئاً، قد أنفق ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف، إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم. قال: وأعددنا له شمعتين عنبر. قال: فدخل بها ليلاً فأوقدتا بين يديه، فكثر دخانهما فقال: ارفعوها فقد آذانا

الدخان وهاتوا الشمع . قال : ونحلتها أم جعفر في ذلك اليوم فم الصلح قال : فكان سبب عود فم الصلح إلى ملكي ، وكانت قبل ذلك لي .

فدخل علي يوماً حميد الطوسي فأقراني أربعة أبيات امتدح بها ذا الرياستين، فقلت له ننفذها لك إلى ذي الرياستين واقطعك الصلح في العاجل إلى أن تأتي مكافأتك من قبله، فأقطعته إياها. ثم ردها المأمون على أم جعفر فنحلتها بوران، وحدثني علي بن الحسين قال. كان الحسن بن سهل لا يرفع الستور عنه، ولا يرفع الشمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبينها إذا نظر إليها، وكان متطيراً يحب أن يقال له إذا دخل عليه : انصرفنا من فرح وسرور، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت واحد».

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب

وقد رتبت أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء

مع بيان سنة وفاة بعض المؤلفين

ابن الأثير: (١٢٣٨/٦٣٠). علي بن أحمد بن أبي الكرم.

١ ـ «الكامل في التاريخ» ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ).

أرنولد: سير توماس و .Arnold: Sir Thomas W

٢ ـ The Preaching of Islam, 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson (Lond. 1935).

وترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي.

(الطبعة الثانية)، (القاهرة ١٩٥٧).

The Caliphate (Oxford, 1941).

٣ ـ أربري: أ ج .Arbeerry: A. J

٤ ـ (The Legay of Persia), Oxford, 1953.

الأصفهاني: (٩٦٧/٣٥٦): أبو الفرج.

٥ ـ «كتاب الأغاني» ٢١ جزءاً [القاهرة ١٢٨٥ هـ]، [القاهرة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٦]

أماري: ميشيل Amari: Michel

٦ ـ «مكتبة صقلية العربية» .Biblioteca Arabo-Sieula, 2 vols

أمير علي: سيد Ameer Ali: Sayed

٧ ـ (A Short History of the Saracens (Lond., 1921-1953)

٨ ـ «مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي»، (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية رياض رأفت.

أوتيخا (٩٢٩/٣١١): سعيد بن البطريق.

٩ ـ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (بيروت ١٩٠٩).

أوليري دي ليسي. O'Leary De Lacy

١٠ - A Short History of the Fatimid Khalifate (Lond., 1923)
بارتولد: ف. Bartold: F.
١١ - «تاريخ الحضارة الإسلامية». نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)
بالمر: Palmer
١٢ - Haroun el-Raschid (Lond., 1881).
براون: إدوارد ج. Browne: Edward G.
١٢ - A Literary History of Persia (From the Earliest Times until (Firdawsi) Vol. 1. (Lond,. 1919).
بروكلمان: كارل Brocklmann: Carl
١٤ - Geschichte Arabischer Litteratur. 2 Vols. (Weimar. 1898 - 1902).
البغدادي: (٤٢٩/ ١٠٣٧): أبو منصور عبد القادر بن طاهر.
١٥ - «الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨/ ١٩١٠).
البكري (١٠٩٧/٤٨٧) أبو عبيد الله بن عبد العزيز.
١٦- «كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (طبعة دي سلان De Slane باريس ١٩١١).
البلاذري: (٨٩٢/٢٧٩): أحمد بن يحيى بن جابر.
١٧ - «فتوح البلدان» (القاهرة ١٣١٨ هـ).
البلخي: (٩٣٣/٣٢٢ - ٩٣٤): أبو زيد بن سهل.
١٨ - «كتاب البدء والتاريخ»، وينسب إلى مطهر بن طاهر المقدسي ٦ أجزاء (باريس ١٨٩٩ - ١٩٠٧).
دي بور: ت. ج. De Boer T. G.
١٩ - «تاريخ الفلسفة في الإسلام» نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، جزءان (القاهرة ١٩٣٨/١٣٥٧).
البيروني: (١٠٤٨/٤٤٠) أبو الريحان محمد بن أحمد.
٢٠ - «الآثار الباقية عن القرون الخالية» طبعة إدوارد سخاو (ليبزج ١٨٧٨، ١٨٧٩)
بيمونت ومونود Bemont et Monod
٢١ - Histoire de l'Europe au Moyen Age (Paris. 1921).
تيمور: أحمد (باشا).

٢٢ - «التصوير عند العرب»: نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢)
الجزنائي: أبو الحسن علي.
٢٣ - «زهرة الآس في بناء مدينة فاس» (فاس ١٩٢٢).
٢٤ - «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها» (القاهرة ١٣٥١ هـ).
الجاحظ
٢٥ - «كتاب التاج في أخلاق الملوك».
حققه المرحوم أحمد زكي باشا (القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤).
٢٦ - «كتاب البيان والتبيين» ٤ أجزاء (القاهرة ١٩٢٨).
٢٧ - «كتاب التبصر بالتجارة» الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥) نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي.
٢٨ - ثلاث رسائل نشرت في كتاب (القاهرة ١٣٤٤ هـ).
٢٩ - المحاسن والأضداد (القاهرة ١٣٢٤ هـ).
جرونيباوم: ج. أ. فون Grunebaum G. A. von
٣٠ - Islam Essaye in the Nature and Grouth of a Cultural Tradition. (Lond,. 1955).
جيبون: إدوارد Gibon, Edward
٣١ - The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 vols. ed. by. B. B. Bury.
جروهمان: أدولف Grohmann: adolf.
٣٢ - أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥) الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦) الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٢) - ترجمه الدكتور حسن إبراهيم حسن، والجزء الرابع تحت الطبع.
الجهشياري: (٣٣١/٩٣٣): أبو عبد الله محمد بن عبدوس.
٣٣ - «كتاب الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨)، حققه ونشره الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
دي جوبينو De Gobineau
٣٤ - "Religion et philosophie dans L'Asie Centrale". (Paris. 1865).
جولدتسيهر: إجنتس Goldziher: Ignaz
٣٥ - «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن»، ترجمه الدكتور علي حسن عبد القادر (القاهرة ١٣٦٣/١٩٤٤).

٣٦ ـ Vorlesnngen uder den Islams (2 nd ed. Heidelberg. 1919). trans. Into Frensh by Fe´lix Arin under title (Le Dogme et la Roi de L'Islamı) (Paris. 1920).

ترجمه إلى العربية بعنوان: «العقيدة والشريعة الإسلامية» محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق، وعلي حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦).

ابن أبي الحديد: (١٣٠٣/٤٠٤): الشريف الرضي محمد بن أحمد الحسيني.

٣٧ ـ «كتاب نهج البلاغة» أربع مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ).

حتي، فيليب ك. .Hitti: Philp K

٣٨ ـ History of the Arabs (London. 1953).

حسن إبراهيم حسن:

٣٩ ـ «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢).

٤٠ ـ «الدولة الفاطمية» الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤).

٤١ ـ «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن (Van Vloten)، ترجمه وعلق عليه المؤلف بالاشتراك مع الشيخ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣).

٤٢ ـ «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية» تأليف أدولف جروهمان. ترجمه إلى العربية وعلق عليه المؤلف، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤): الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦)، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٢).

٤٣ ـ «تاريخ الإسلام السياسي» الجزء الأول (الطبعة السابعة) (القاهرة ١٩٦٤) الجزء الثالث الطبعة السادسة (القاهرة ١٩٦٢).

٤٤ ـ «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٢).

٤٥ ـ «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»؛ بحث مستخرج من «كتاب المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة ١٩٤٢ ص ١٢٧ ـ ٢٢٩).

٤٦ ـ انتشار الإسلام في شرقي القارة الإفريقية (الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٤).

٤٧ ـ اليمن: البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨).

ابن حزم (١٠٦٤/٤٥٦) أبو محمد علي بن أحمد.

٤٨ ـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).
ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله.
٤٩ ـ «كتاب المسالك والممالك» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٨٩).
الخضري: محمد.
٥٠ ـ «تاريخ الدولة العباسية» (القاهرة ١٩١٦).
الخطيب البغدادي (١٠٧٣/٤٦٣): الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.
٥١ ـ «تاريخ بغداد أو مدينة السلام» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩).
ابن خلدون: (١٤٠٥/٨٠٨ ـ ١٤٠٦): عبد الرحمن بن محمد.
٥٢ ـ مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٨٨٦) ونسخة مخطوطة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية رقم ١٥.
٥٣ ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ).
ابن خلكان (١٢٧١/٦٨١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي.
٥٤ ـ «وفيات الأعيان» جزءان (بولاق ١٢٨٢ هـ)، (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ) ٦ أجزاء (القاهرة ١٩٤٨) ترجمه إلى الإنكليزية دي سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨).
الخياط: أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلي.
٥٥ ـ «كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد»، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج (القاهرة ١٩٢٥/١٣٤٤).
حاجي خليفة (١٦٥٧/١٠٦٧): مصطفى كاتب شلبي.
٥٦ ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، نشر النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج. فلوجل Flugel (ليبسك لندن ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨).
ابن دقماق (١٤٠٦/٨٠٩ ـ ١٤٠٧): إبراهيم بن محمد المصري.
«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» الجزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٨٣/١٣٠٩).
الدوري، عبد العزيز.
٥٨ ـ العصر العباسي الأول (بغداد ١٩٤٥).
دوزي: ر. ب. أ. Dosy; R. P. A.
٥٨ ـ Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861), trans. into English by. F. G. Stokes (The Moslems in Spain) (London 1913).

٥٩ ـ Essai sur L'Histoire de L'Islamisme, trans. par Victor Chauvin (Leyden - Paris, 1841).
٦٠ ـ Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).
٦١ ـ Supplèment au Dictionaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1801).
ديمومبين: م. ج. Demombynes, M. G.
٦٢ ـ Muslim Institutions, trans. from French (London, 1950).
«النظم الإسلامية» ترجمه إلى اللغة العربية صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢).
ابن أبي دينار (١١١٠/١٦٩٨) محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني.
٦٣ ـ «كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» (تونس ١٢٨٦ هـ).
الدينوري: (٢٨٢/٨٩٥): حمد بن داود أبو حنيفة.
٦٤ ـ «الأخبار الطوال» جزءان (ليدن ١٨٨٨).
ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبد الله.
٦٥ ـ «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، (أمسالا ١٨٤٤) (الرباط ١٩٣٦).
زكي محمد حسن.
٦٦ ـ «الفن الإسلامي في مصر» الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).
٦٧ ـ «كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٣٧).
٦٨ ـ «الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي» (القاهرة ١٩٤٠).
زيدان: جرجي.
٦٩ ـ «تاريخ الإسلام» خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦).
ابن زيدان: عبد الرحمن.
٧٠ ـ «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس» ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩).
العز والصولة في معالم الدولة (الرباط ١٣٨١/١٩٦١).
لي سترينج: جاي Le Strange: Guy
٧١ ـ Baghdad During the Abbasid Caliphate. (Oxford, 1924).
ابن سعيد (٥٨٣/١٢٨٥): علي بن موسى المغربي.
٧٢ ـ «كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩).
السلاوي: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

٧٣ ـ «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» ١٠ أجزاء (الدار البيضاء ١٩٥٤).
السيوطي (٩١١/١٦٠٥): عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين.
٧٤ ـ «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (القاهرة ١٣٥١ هـ).
٧٥ ـ «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ).
شاخت: يوسف .Schacht, Joseph
٧٦ ـ .The Origins of Muhammadan Jurisdruence, (Oxford, 1950)
الشابشتي (٣٨٨/٩٩٦): أبو الحسن علي بن محمد.
٧٧ ـ «كتاب الديارات» مخطوط (Berlin, We. 1100)
الشهرستاني (٦٥٨/١١٥٣): أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
٧٨ ـ «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).
ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى.
٧٩ ـ «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٢٣).
الطبري: (٣١٠/٩٢٢): أبو جعفر محمد بن جرير.
٨٠ ـ «تاريخ الأمم والملوك» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٨١) (القاهرة ١٣٢٦ هـ).
٨١ ـ «تفسير محمد بن جرير الطبري» في ثلاثين مجلداً.
٨٢ ـ «اختلاف الفقهاء» نشر يوسف شاخت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان «كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبري» (ليدن ١٩٣٣).
طه حسين
٨٣ ـ «حديث الأربعاء» (القاهرة ١٩٢٥).
الطوسي (٤٦٠/١٠٦٧ ـ ١٠٦٨): محمد بن الحسن.
٨٤ ـ «فهرست كتب الشيعة» (كلكتا ١٨٥٥ م).
طيفور (٢٨٠/٨٩٣ ـ ٨٩٤): أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر.
٨٥ ـ «تاريخ بغداد» الجزء السادس. طبعة هـ. كلر H. Keller (لايبسك ١٩٠٨).
ابن عبد ربه (٣٤٩/ ٩٤٠) شهاب الدين أحمد.
٨٦ ـ «العقد الفريد» ٣ أجزاء القاهرة (١٣٤٦/١٩٢٨).
ابن عذارى (توفي في أواخر القرن السابع الهجري): أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي.
٨٧ ـ «البيان المغرب في أخبار المغرب» نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (١٨٤٨ ـ ١٨٥١)
علي إبراهيم حسن: دكتور.

٨٨ - «تاريخ مصر في العصور الوسطى» (القاهرة ١٩٥٤).
«النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن - القاهرة (١٩٣٩، ١٩٥٩، ١٩٦٠).
علي حسن عبد القادر: دكتور.
٨٩ - «نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي» الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٥٦).
الغزالي (١١١١/٥٠٥) الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد.
٩٠ - «المنقذ من الضلال» (دمشق ١٣٥٣/ ١٩٣٤).
٩١ - «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» (القاهرة ١٣١٩/١٩٠١).
فان فلوتن: ج. Van Vloten, J.
٩٢ - Recherches sur la Domination Arabe, Le Chiitisme et les Croyances Messiques Sous le Khilifat des Omayades (Amesterdam, 1894).
ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن، والشيخ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤).
أبو الفدا: (١٣٣١/٧٣٣): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه.
٩٣ - «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ)، (القاهرة ١٣١٥ هـ).
فنلي: جورج Finlay: George
٩٤ - "History of the Byzantine Empire" (716-1507 A. D.) (London, 1859).
ابن القاضي: أحمد بن محمد المكناسي.
٩٥ - «جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس». مخطوط رقم ج ١٢٤٢. (الرباط).
ابن قتيبة: (٢٧٦/ ٨٨٩) أبو مسلم محمد عبد الله بن مسلم.
٩٦ - «كتاب المعارف» (١٣٤٨/١٣٥٣ هـ).
٩٧ - «عيون الأخبار» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣/ ١٣٤٨ هـ).
قدامة: (٩٤٨/٣٢٧). أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي.
٩٨ - «نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة» (طبعة دي غوية - ليدن ١٨٨٩).
القفطي: (١٢٤٨/٦٤٦) جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.
٩٩ - «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»، (ليبسك ١٣٢٢/١٩٠٣).
القلقشندي: (٨٢١/٤١٨): أبو العباس أحمد.
١٠٠ - «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٧١٣ - ١٧١٧)
كاشف: دكتورة سيدة إسماعيل.

١٠١ - «مصر في فجر الإسلام» (القاهرة ١٩٤٧ م).
الكتبي (٧٦٤/١٣٦٢ - ١٣٦٣): محمد بن شاكر بن أحمد الحي.
١٠٢ - «فوات الوفيات» جزءان (القاهرة ١٢٩٩، ١٩٥١).
كريزويل. ك. أ. ك. Greswell: K. A. C.
١٠٣ - "Early Muslim Architecture" 2 vols. (Oxford, 1930 and 1938).
١٠٤ - "Culturgeschischte des Orients unter den Chalifen" 2 vols. (Vienna, 1875) Trans by. S. Khuda Bukhsh (the Orient under the Caliphs) (Calcutta, 1290).
الكندي (٣٥٠/٩٦١): أبو عمر محمد بن يوسف.
١٠٥ - «كتاب الولاة وكتاب القضاة» طبعه روفن جست Rhuvon Cuest
١٠٦ - كيرك: جورج أ. Kirk, George E.
"A Short History of the Middle East" (Lond., 1952).
لويس: برنارد Lewis, Bernard
١٠٧ - "The Arabs in Histoy" (London, 1950).
E. G. W. Gibb Memorial Series (London, 1871).
١٠٨ - ليفي بروفنسال:
الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية، معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية (تطوان ١٩٥١).
لينبول: ستانلي Lane-Poole, Stanley
١٠٩ - "The Mohammadan Dynasties" (Paris, 1625).
١١٠ - "The Moors in Spain" (London, 1887) ترجمه إلى العربية علي الجارم (القاهرة ١٩٤٤).
١١١ - "A History of Egypt in the Middle Ages" (Lond., 1924).
ليون الإفريقي (الحسن الوزان) Jean Lion L'Africain
١١٢ - Description de l'Afrique (trad, de L'Italien) par A. Epaulard, 2 tomes (Paris, 1966).
الماوردي: (٤٥٠/١٥٠٧): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي البصري.
١١٣ - «الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٢٩٨).
متز: آدم Mez: Adam

١١٤ ـ 'The Renaissance of Islam" trans, into English by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (Lond., 1930).
وترجمه الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة إلى العربية بعنوان: «الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري»، جزءان (القاهرة: ١٩٤٠ ـ ١٩٤١).
أبو المحاسن (١٤٦٩/٨٧٤). جمال الدين بن يوسف بن تغري بردى.
١١٥ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» جـ ١، ٢ (القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠).
المدور: جميل نحله.
١١٦ ـ «حضارة الإسلام في دار السلام» (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٣).
المراكشي (٦٦٩/١٢٧٠ ـ ١٢٧١): محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي.
١١٧ ـ «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» طبعة دوزي (ليدن ١٨٨١) (القاهرة) وترجمه وشرحه أ. فانيان E. Eagnan (الجزائر ١٨٩٣).
ابن المرتضى (٢٢٥/٩٣٦ ـ ٩٣٧): المهدي لدين الله أحمد بن يحيى.
١١٨ ـ «باب ذكر المعتزلة» من كتاب المنية والأمل (طبعة الهند).
المسعودي (٣٤٦/٩٥٦) أبو الحسن علي.
١١٩ ـ «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر» جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ) وترجمه إلى الفرنسية باربييه دي مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or (باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧).
١٢٠ ـ «كتاب التنبيه والإشراف» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٣، القاهرة ١٣٥٧/١٨٣٨).
المقدسي: (٣٨٨/٩٧٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد.
١٢١ ـ «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» طبعة دي غويه (ليدن ١٩٠٦).
المقري (١٠٤١/١٦٣٣): أحمد بن محمد.
١٢٢ ـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ٤ أجزاء (بولاق ١٢٧٩/١٨٦٢)، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٤٩).
١٢٣ ـ «أزهار الرياض في أخبار عياض» ٣ أجزاء، ضبطه وحققه وعلق عليه الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤١).
المقريزي: (٨٤٥/١٤٤١) تقي الدين أحمد بن علي.
١٢٤ ـ «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ).
ميور: وليام تمبل Muir: William temple

١٢٥ ـ "The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall", (Edinburgh, 1924).

نظام الملك: (٤٨٥/١٠٩٢ م).

١٢٦ ـ «كتاب سياسة نامة» Siasset Name'h, trsite de Gouvernement, Compose` Pour Le Sultan Malik-Chah par Le Nizam oul-moulk, (texte Persan ed. by Charles Schefer) 3 vols. (Paris, 1891 - 1897).

ابن النديم: (٣٨٣/٩٩٣) محمد بن إسحاق.

١٢٧ ـ «كتاب الفهرست» جزءان (لايبسك ١٨٧١ م)، (القاهرة ١٣٤٨ هـ).

النسيبي.

١٢٨ ـ «كتاب مطالب السول في غزوات الرسول» مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٩٧٩.

ابن النعمان: محمد.

١٢٩ ـ «كتاب الإرشاد» مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ١٦٤٧.

٢٠/٨١٧) أبو محمد الحسن بن موسى.

١٣٠ ـ «كتاب فرق الشيعة» (استامبول ١٩٣١).

نيكلسون: أ رينولد Nicholson: A. Reynold

١٣١ ـ "Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930)

هيد: و. Heyd" W.

١٣٢ ـ "Histoire du Commerce du Levant au moyen age" 2 vols (Leipzig 1925).

هل يوسف: Hell: Joseph.

١٣٣ ـ "The Arab Civilisation" trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge, 1926).

وستنفلد: ف. فون Wustenfeld: Von

١٣٤ ـ "Die Geshichtschreiber der Araber und ihre Werke" (Gottingen, 1882).

ياقوت: (٦٢٦/١٢٢٩): شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي.

١٣٥ ـ «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٢٣٥/١٩٠٨).

اليعقوبي: (٢٧٢/٨٩٥): أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.

١٣٦ ـ «تاريخ اليعقوبي» جزءان (طبعة M. Th. Houtsma ليدن ١٨٩٢).

١٣٧ ـ «كتاب البلدان» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٢).

أبو يوسف: (١٩٢/٨٠٧ ـ ٨٠٨) يعقوب بن إبراهيم.

١٣٨ ـ «كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ) و[المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦].

الفهارس العامة

* فهرس الأعلام والقبائل والمذاهب والشعوب
* فهرس الأماكن والمواقع الجغرافية
* فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الأعلام والقبائل والمذاهب

ـ ن ـ

فهرس الأماكن

ـ ت ـ

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ن ـ

محتويات الكتاب

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ ـ حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

الباب الخامس

نظم الحكم

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

الباب السابع

الثقافة

الباب الثامن

الفن

الباب التاسع

الحالة الاجتماعية

ملاحق الكتاب

الدكتور حسن ابراهيم حسن

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثالث

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس



مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

دار الجيل
بيروت

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثالث

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

(٢٣٢ - ٤٤٧ هـ / ٨٤٧ - ١٠٥٥ م)

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العالية
جامعة بغداد

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

الطبعة الرابعة عشرة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذا كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي بأجزائه الأربعة للدكتور المرحوم حسن ابراهيم حسن نقدمه للقراء والطلاب في طبعة منقحة وبإخراج جديد مزودة بالفهارس الضرورية التي تسهل على الطالب الرجوع الى مبتغاه بيسر وسهولة .

وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب منذ نصف قرن ونيف ولاقى رواجاً وإقبالاً عند صدوره من كافة مستويات القراء وطلاب المعرفة وهواة المطالعة ، وبصدور الأجزاء التالية ازداد الإقبال عليه وبصورة خاصة من طلاب الدراسات التاريخية وكل قارىء عربي تواق لمعرفة تاريخ أمته ومنجزاتها في شتى ميادين الحضارة منذ أن أضاءت الدنيا بنور الإسلام وعبر العصور .

هذا ولا تقتصر دراسة التاريخ ومطالعته للمعرفة والهواية فقط ولكن لاستخلاص العظات والعبر فالتاريخ هو سياسة الماضي وسياسة الماضي تاريخ المستقبل ، قال تعالى في معرض أخباره عن قرون خلت : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ سورة ق ٣٧ / ٥٠ .

وقال ابن خلدون :

إعلم أن التاريخ فن غزير المذهب شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم ، والملوك في سِيْرهم وسياستهم . حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة . . . !!

قال تعالى : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

فإذا كانت هذه فائدة التاريخ كان على المؤرخ من أجل تحقيق هذا الهدف تحري الحقيقة عند تدوينه للتأريخ أو عند نقله لحادثة ما بعيداً عن الخيال والهوى لأنه بالنتيجة سيحظى بأعمال الانسان وبالتالي حقيقة هذا الانسان .

قال ابن خلدون أيضاً :

.. كثيراً ما وقع للمؤرخين من المغالط في الوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها فضلوا عن الحق وتاهوا ولا بد من رد الأخبار الى الأصول وعرضها على القواعد . . . !!

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ صدق الله العظيم

الناشر

الباب الأول

عصر نفوذ الأتراك
(٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ)

تمهيد

يعتبر عهد الخليفة المتوكل العباسي بدء عصر انحلال الدولة العباسية الذي انتهى بسقوطها على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ. ويرجع ضعف هذه الدولة إلى عدة عوامل: نذكر منها اعتماد العباسيين على الفرس ثم على الأتراك، وإيثارهم إياهم بالمناصب المدنية والعسكرية على العرب الذين كانوا مادة الإسلام وقوام الدولة العربية، فضعفت عصبيتهم وانحطت منزلتهم وانصرفت قلوبهم عن تأييد الدولة.

ومما أثار حقد العرب العباسيين، فتك هؤلاء ببني أمية، وتمثيلهم بهم، ومناصبتهم العلويين العداء؛ فقام العلويون في وجههم، لأنهم استأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم، إذ أن الدولة قامت باسمهم وبسيوف أشياعهم.

ذلك إلى ضعف قيمة العهود والمواثيق في نظر الخلفاء العباسيين ونقضهم لها إذا عارضت مصالحهم، مع مخالفة ذلك لقوله تعالى، **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾**. [سورة النحل: ١٦ : ١٩].

ومن ذلك ظهور كثير من بدع الملاحدة والزنادقة، كالراوندية والخرمية وأصحاب المقالات وطوائف المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم، مما أدى إلى انقسام المسلمين شيعاً وطوائف يناهض بعضها بعضاً، بل يحاول بعضها القضاء على الدولة نفسها.

وعلى الرغم من هذه العوامل، كان للعصر العباسي الثاني ميزاته ومظاهر حضارته، فقد اشتهر فيه كثير من الخلفاء الذين حاولوا إعادة الدولة العباسية إلى ما كانت عليه من قوة ومجد، كما ظهر فيه بعض الدويلات الصغيرة المتنافسة، كالسامانية والبويهية والحمدانية

والغزنوية والسلجوقية. فكان لتلك الدويلات أثر محمود في تقدم الحضارة الإسلامية وتشجيع العلوم والآداب والفنون وغيرها، مع أنها كانت من عوامل ضعف الدولة العباسية.

وسيتضح من ترجمة حياة خلفاء هذا العصر مدى استبداد الأتراك بالسلطة في جميع أمور الدولة، وكيف أصبح في أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم.

كان المعتصم أول الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالأتراك وأسندوا إليهم مناصب الدولة وأقطعوهم الولايات الإسلامية. «وكان هذا الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي مظهراً من مظاهر الثورة التي أحس بها معظم أجزاء الخلافة وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها في النهاية»(١).

وقد أدرك المعتصم خطر هؤلاء الأتراك الذين آذوا أهل بغداد، ففكر في نقلهم إلى سامرا التي اتخذها قاعدة لخلافته. وبلغ من ازدياد نفوذهم أن حقد عليهم العرب والفرس وتآمروا على المعتصم وكبار رجال دولته من الأتراك الذين أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية، حتى إن المعتصم نفسه شكا منهم في أواخر أيامه، وعبر عن أسفه لأحد أعوان أخيه المأمون لاعتماده عليهم(٢).

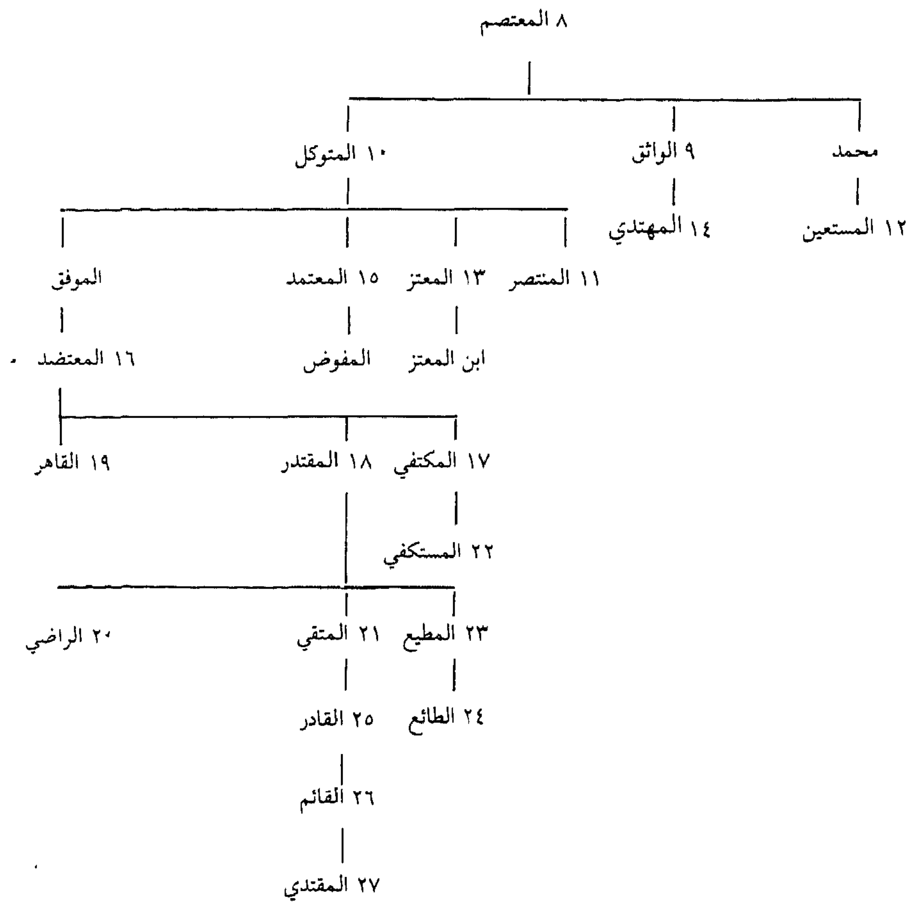
خلفاء العصر العباسي الثاني
(٢٣٢ ـ ٨٤٧/٤٤٧ ـ ١٠٥٥)

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ المتوكل	٢٣٢	٨٤٧	١٠ القاهر	٣٢٠	٩٣٢
٢ المنتصر	٢٤٧	٨٦١	١١ الراضي	٣٢٢	٩٣٤
٣ المستعين	٢٤٨	٨٦٢	١٢ المتقي	٣٢٩	٩٤٠
٤ المعتز	٢٥٢	٨٦٦	١٣ المستكفي	٣٣٣	٩٤٤
٥ المهتدي	٢٥٥	٨٦٩	١٤ المطيع	٣٣٤	٩٤٦
٦ المعتمد	٢٥٦	٨٧٠	١٥ الطائع	٣٦٣	٩٧٤
٧ المعتضد	٢٧٩	٨٩٢	١٦ القادر	٣٨١	٩٩١
٨ المكتفي	٢٨٩	٩٠٢	١٧ القائم	٤٢٢	١٠٣١
٩ المقتدر	٢٩٥	٩٠٨	١٨ المقتدي	٤٦٧	١٠٧٥

(١) Lane - Poole, History of Egypt in the Middle Ages, P. 29.

(٢) الطبري ج ص ٨ ـ ٩. أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب (الطبعة السابعة) ص ١٧٣.

جدول يمثل تسلسل الخلفاء في الحكم



المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ):

ولد جعفر بن المعتصم في سنة ٢٠٦ هـ بفم الصلح، وهي بلدة على نهر دجلة على مقربة من مدينة واسط، ويكنى أبا الفضل. وأمه أم ولد يقال لها شجاع، «كانت ـ كما يقول الخطيب البغدادي[١] ـ من سروات النساء سخاءً وكرماً»، قيل إنها تركية، وقيل أيضاً إنها خوارزمية. وقد تربت منذ حداثة سنها في بيت المعتصم واشتركت في تربية ابنها وإعداده لاعتلاء العرش.

ولى الواثق أخاه المتوكل إمارة الحج في سنة ٢٢٧ هـ، ولما عاد غضب الواثق وحد من نفوذه. فقد ذكر المؤرخون أن أم الواثق كانت أم ولد تسمى قراطيس، وكانت شجاع أم المتوكل أم ولد كما تقدم، فلم يكن الأخوان شقيقين. وذكر الطبري (جـ ١١ ص ٢٧) أن جعفراً رأى في المنام كأن سكراً سليمانياً يسقط عليه من السماء مكتوب عليه جعفر المتوكل على الله، فقال له بعض خاصته: «هي والله أيها الأمير أعزك الله الخلافة»، وبلغ الواثق ذلك فحبسه وضيق عليه.

مات الواثق ولم يعهد لابنه محمد. وقد سئل وهو في مرضه الذي مات منه أن يوصي بالخلافة فقال كلمته المأثورة: «لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً» مقتفياً في ذلك أثر عمر بن الخطاب. وكان محمد صغيراً لا يصلح للخلافة، ولم يكن طامعاً فيها لانحراف بعض رؤساء الدولة عنه وخوفهم من أن يثأر لنفسه منهم.

وكان المتوكل يميل إلى أهل السنة ويعمل على نصرتهم، وضرب بالسياط رجلاً سب أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة. وقد بدأ حكمه بنهي الناس عن القول بخلق القرآن الذي شغل الدولة العباسية في عهد المأمون والمعتصم والواثق.

ذكر المسعودي[٢] أن المتوكل «أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة»، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية. وكان لعمله هذا أثر حسن في نفوس المسلمين فأولوه احترامهم وبالغوا في تعظيمه والثناء عليه، حتى قال

---

(١) تاريخ بغداد ج ٧ص ١٦٦.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩.

قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق يوم الردة وعمر بن عبد العزيز في رده المظالم، والمتوكل في إحياء السنة.

لكن المتوكل أساء إلى نفسه بسياسة العنف التي انتهجها في معاملة العلويين، فأمر في سنة ٢٣٦ هـ بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من الدور، وأن يحرث ويبذر، ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام بعثنا به إلى المطبق (سجن)، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه[1]. وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين، وخاصة أهل بغداد الذين ردوا على الإهانات التي ألحقها بالعلويين بسبه في المساجد والطرقات.

ومن الآفات الطبيعية التي وقعت في عهد المتوكل هبوب عاصفة شديدة على بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من مدن العراق، فاحترق الزرع والماشية، وانقطعت المواد الغذائية عن الأسواق في بغداد وغيرها، فانتشرت المجاعة وهلك كثير من الناس.

وقد انتهز الروم فرصة الضعف الذي طرأ على الدولة العباسية فاستأنفوا غاراتهم على أراضيها، فأغاروا على دمياط وفتكوا بأهلها وأحرقوا دورهم. ثم غزوا قاليقلا (قيليقيا) جنوبي آسيا الصغرى وهزموا أهلها هزيمة منكرة، إلى غير ذلك من الحروب التي سيأتي الكلام عليها في باب العلاقات الخارجية.

ويظهر أن المتوكل كان يروم نقل الخلافة إلى الشام ويجعل العرب عمادها وأعوانها، تبرماً بالترك وكثرة ما أحدثوا في الدولة من فوضى وإفساد للشئون العامة، حتى ضاق بهم أهالي العراق ولم ينج الخلفاء من شرهم.

اشتهر المتوكل بالحلم. فقد ذكر محمد بن أبي عون أنه لما أتى بمحمد بن المغيث إليه وقد دعا بالنطع والسيف قال له المتوكل: يا محمد ما دعاك إلى المشاقة؟ قال: الشقوة يا أمير المؤمنين، وأنت ظل الله الممدود بينه وبين خلقه. إن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك، وهو العفو عن عبدك. فقال المتوكل: أفعل خيرهما وأمن عليك، ارجع إلى منزلك. قال ابن المغيث: يا أمير المؤمنين! الله أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) الطبري ج ١١ص ٤٤.

وفي سنة ٢٣٥ هـ ولى المتوكل العهد أولاده: محمداً وسماه المنتصر، وأبا عبد الله بن قبيحة ولقبه المعتز، وإبراهيم وسماه المؤيد، «وعد لكل واحد منهم لواءين، أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل»[١].

على أن المتوكل رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر، لمحبته لقبيحة أم المعتز، ويظهر أن ذلك كان راجعاً إلى ما حاكه رجال بلاطه من دسائس لإقصاء المنتصر والمؤيد.

ولكن المنتصر غضب لذلك فدبر مع الأتراك مؤامرة لاغتيال أبيه. ولا غرو فقد حاول بعض الأتراك الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غيلة بدمشق، ولكنهم أخفقوا في تدبيرهم بفضل بغا الكبير والفتح بن خاقان[٢]. على أن بغا الصغير اتفق مع باغر التركي على قتل المتوكل، فضربه بالسيف، واستقرت الخلافة لابنه المنتصر.

ومن هنا يتبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك في الدولة العباسية وأثرهم في تصريف شئونها فيما بعد، حتى إن الخليفة العباسي أصبح مسلوب السلطة مهيض الجانب ضعيف الإرادة.

«كانت أيام المتوكل ـ كما يقول المسعودي ـ (جـ٢ ص ٢٩٤) في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها، أيام سراء لا ضراء، كما قال بعضهم: كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص الشعر وأماني الحب وأيام الشباب».

ويقول ميور[٣]: «إن مدح المؤرخين لعهد المتوكل الذي دام خمس عشرة سنة أعاد في خلالها المذهب السني إلى ما كان عليه وشجع الشعراء والعلماء، يخفف بعض الشيء مما اشتهر به هذا العهد من الظلم المنطوي على القسوة والانغماس في الملاذ والتطرف في الآراء الدينية».

المنتصر بالله (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ):

خلف المتوكل ابنه وقاتله المنتصر بالله في شوال سنة ٢٤٧ هـ، وادعى أن الذي قتل

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٨.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٣) The Caliphate, P. 530.

أباه هو الفتح بن خاقان، وأنه قتل أخذاً بثار أبيه، وبايعه الناس بالخلافة، وبعث بنسخة البيعة إلى الأمصار[١].

ولما تمت البيعة للمنتصر حسن إليه الأتراك خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، إذ كانوا يخشون بأسهما. وكتب كل واحد منهما رقعة بخطه أنه خلع نفسه من البيعة.

كان المنتصر بخلاف أبيه يحسن إلى العلويين، فأزال عنهم ما كانوا فيه من الخوف وسمح لهم بزيارة قبر الحسين، وكان أبوه قد منعهم من ذلك، فأنشد يزيد المهلبي:

ولقد بررتَ الطالبية بعد ما ... ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت ألفة هاشم فرأيتهم ... بعد العداوة بينهم إخوانا

«كان المنتصر ـ على ما وصفه ابن الأثير (ج ٧ ص ٢٩) ـ عظيم الحلم راجح العقل غزير المعروف راغباً في الخير جواداً كثير الإنصاف حسن العشرة». وروى المسعودي[٢] أن علي بن يحيى المنجم قال: «ما رأيت أحداً مثل المنتصر ولا أكرم أفعالاً بغير تبجح منه ولا تكلف».

وعلى الرغم من أن المنتصر كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه، لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول: «هؤلاء قتلة الخلفاء»، ففكروا في قتله وأغروا طبيبه ابن طيفور بذلك وأعطوه ثلاثين ألف دينار، ففصده بريشة مسمومة، في ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ وله من العمر ست وعشرون سنة.

يقول صاحب الفخري (ص ٢١٧): «كان المنتصر شهماً فاتكاً سفاكاً للدم. لما قتل أباه تحدث الناس بأنه لا يطول له العمر بعده، وشبهوه بشيرويه بن كسرى حين قتل أباه ولم يستمتع بالملك بعده. وقالوا: لما قتل المنتصر أباه وبويع له بالخلافة، جلس على بساط لم ير الناس مثله، وعليه كتابة عجيبة بالفارسية، فنظر إليها المنتصر واستحسنها وقال لمن حضر: هل تعرفون معناها؟ فأحجموا وقالوا لا نعرف، فاستحضر رجلاً عجمياً غريباً وأمره بقراءتها، فأحجم الرجل، فقال له المنتصر: قل وما عليك بأس فليس لك ذنب؛ فقال الرجل: على هذا البساط مكتوب: أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) مروج الذهب ٢ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

إلا ستة أشهر. فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه مغضباً، فلم تتم ستة أشهر حتى مات».

المستعين بالله (٢٤٨ ـ ٢٥٢):

ولما مات المنتصر اجتمع القواد وتشاوروا فمن يولونه الخلافة بعده، وأجمع رأيهم على تولية أحمد بن محمد المعتصم؛ وبايعوه وله من العمر ثمان وعشرون سنة ولقب المستعين بالله. وكان العباسيون لا يأمنون جانب الأتراك، كما كان هؤلاء يعملون على تولية الخلافة من يطمئنون إليه من أمراء البيت العباسي. لذلك لم يرضوا بأن يولوا أحداً من أولاد المتوكل حتى لا يثأر منهم لقتل أبيه المتوكل وسم أخيه المنتصر[١].

على أن الأتراك وعلى رأسهم باغر التركي الذي اشترك في قتل الخليفة المتوكل، سرعان ما قلبوا للمستعين ظهر المجن، ولا سيما بعد أن اتصل إلى بمسامعهم أنه عول على القضاء عليهم وهنا انقسم الأتراك على أنفسهم: فريق منهم، وعلى رأسه وصيف وبغا، صحب الخليفة إلى بغداد، وفريق آخر طلب إليه العودة إلى سامرا، واعتذروا عما بدر منهم، فامتنع عن تلبية طلبهم[٢].

ولما رأى الأتراك تنكر المستعين (بن محمد بن المعتصم) لهم وامتناعه عن العودة إلى سامرا، خلعوه وبايعوا ابن عمه المعتز بن المتوكل. ومن ثم قامت الحرب بينهما ودامت عدة أشهر، وأثر ذلك في حالة البلاد الاقتصادية، فغلت الأسعار وعظم البلاء[٣].

ولما انهزم الخليفة المستعين استجار بمحمد بن عبد الله بن طاهر، فخذله ومال إلى المعتز، وانصرف أبو أحمد الموفق من بغداد إلى سامرا، فخلع عليه المعتز وتوج ووشح بوشاحين، وخلع على من كان معه من قواده، وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة.

وقد أخرج الخليفة المعزول إلى واسط، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه، فأحسن إليه وأطلق له الحرية في التنقل والصيد. وعلى الرغم من ذلك الفوز الذي أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه، أوجسوا شراً من بقائه حياً، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٠.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٩ ـ ٥٠.

تثبت إلا إذا قتل المستعين، ووافقهم على ذلك قبيحة أم المعتز التي خافت على حياة ولدها أن تمتد إليه يد الأعداء، فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه ولاية واسط، فلم يرض أن يقتل خليفة له في رقبته بيعة، فأرسلوا سعيداً الخادم أحد حجاب القصر في شرذمة الجيش إلى واسط، فتولى قتل الخليفة بنفسه [١].

وصفوة القول أن موقف المستعين من الأتراك كان كما وصفه أحد الشعراء:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

ويقول صاحب الفخري (ص ٢٢٢): «واعلم أن المستعين كان مستضعفاً في رأيه وعقله وتدبيره، وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب، ولم يكن فيه من الخصال المحمود إلا أنه كان كريماً وهوباً».

المعتز ـ المهتدي:

كان المعتز بن المتوكل ـ كما يصفه صاحب الفخري ـ (٢٢٠) جميل الشخص حسن الصورة، ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس. إلا أن الأتراك كانوا منذ قتل المتوكل قد استلوا على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه».

ومما يدل على مدى تغلغل الأتراك في أمور الدولة وتسلطهم على حياة الخلفاء أنفسهم هذه العبارة التي رواها صاحب الفخري (ص ٢٢١) قال: «ولما جلس المعتز على سرير الخلافة، قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم: انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة. وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا: فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك».

وكان المعتز يخاف الأتراك ويخشى بأسهم ولا يأمن جانبهم: وكان بغا الصغير أشد هؤلاء خطراً عليه. ويصف ابن الأثير قتل المعتز في هذه العبارة: «فدخل إليه جماعة منهم

---

(١) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٦٠ ـ ٦١.

فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه. وأقاموه في الشمس في الدار، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر. وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة، وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان. وكانت أمه قبيحة قد اتخذت من دارها سرداباً، فخرجت منه هي وأخت المعتز. وكانوا قد أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحداً يجوز إليها، وسلموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة (جرعة) من ماء البئر فمنعه ثم أدخلوه سرداباً وحصحصوا عليه، أي جعلوه في بيت وسدوا بابه، فمات.

استخفت قبيحة بعد موت ابنها المستعين خوفاً على حياتها من شر صالح بن وصيف، وأخفت ما عندها من المال وقدره ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار، عدا كثيراً من الجواهر والحلي والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذي لا تعرف له قيمة ومن الغريب أنها عرضت ابنها للقتل ورفضت أن تدفع للثائرين خمسين ألف دينار فقط[1].

أما المهتدي بن الواثق فقد ولي الخلافة بعد قتل أخيه المعتز سنة ٢٥٥ هـ، وظهرت في أيامه قبيحة أم المعتز بعد أن استخفت مدة، كما قام العامة في مستهل خلافته بثورة في بغداد وأبوا مبايعته، ولكنه استعمل المال في إخماد هذه الثورة فبايعوه. ثم لم يلبث الجند أن ثاروا عليه بسبب استيلاء سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد على رواتبهم، وعبث الخراسانيون بالعامة فعولوا على التخلص من قائدهم وطردوه. كما أذكى العلويون نار الثورة في كثير من البلاد الإسلامية. فقد ثار الحسن بن زيد العلوي بطبرستان، وبدأت ثورة الزنج التي هددت الدولة العباسية زهاء أربع عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ). وشق الخوارج بزعامة مساورة الشاوري عصا الطاعة في الموصل.

ومن أهم هذه الثورات: ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ. وكان أبوه عيسى والياً على فلسطين والأردن. ولما مات تغلب ابنه أحمد على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة، وانتهز فرصة اضطراب حبل الأمور في حاضرة الدولة، فحدثته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر بلاد الشام وطمع في مصر.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

وقد عمد الخليفة المهتدي إلى التخلص منه بالمكايد والخدع، فولاه أرمينية على أن يستخلف من ينوب عنه في ولاية الشام ليقضيه عنها، وندب أحمد بن طولون لقتاله على أن يتقلد بلاد الشام بعد إخضاعه (١). ولكن سرعان ما وافى ابن طولون وهو في الطريق كتاب من العراق يأمره بالعودة إلى مصر. وقدم ماجور التركي من العراق وهزم قوة ابن الشيخ واستولى على دمشق، ولحق ابن الشيخ بنواحي أرمينية فتولى ماجور أعمال الشام كلها.

وكان المهتدي ـ كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل ـ ألعوبة في أيدي الأتراك. وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من الضعف وما بلغته الخلافة من الوهن والانحلال من هذه العبارة التي رواها الطبري: «رفع المهتدي يديه إلى السماء ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو، فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه. اللهم تول كيد من كايد المسلمين، اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا؟ اللهم إني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه، ناصراً لهم ودافعاً عنهم، اللهم فآجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان، ثم انحدرت دموعه يبكي» (٢).

نعم! لقد أصبح الخليفة العباسي في ذلك العصر ألعوبة في أيدي هؤلاء الجند الذين كانوا تحت إمرة موسى بن بغا. ولكن المهتدي اتخذ من هذا الضعف قوة لأخذ الثأر. وكيف يثأر لنفسه ولا جيش يحميه؟ لقد لجأ إلى الحيلة والدهاء وحاول أن يستميل إليه باكباك أحد قواد الجيش، فطلب إليه أن يقوم بقتل موسى بن بغا على أن يؤمره على الجيش من بعده. ولكن باكباك لم يثق بالخليفة ووعوده، وسار إلى موسى وعرض عليه الكتاب، واتفقا فيما بينهما على أن يسير باكباك إلى المهتدي متظاهراً بالإخلاص له حتى يدبر قتله.

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة على أثر قتلة بعض الموالي، فثاروا عليه، ثم أسروه وخلعوه ولم يكتفوا بذلك بل عذبوه حتى مات في رجب سنة ٢٥٦ هـ (٣).

وقد وصف المسعودي (٤) الخليفة المهتدي في هذه العبارة: «وأمر بالمعروف ونهى

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٢١٤. المقريزي خطط جـ ٢ ص ٣١٥.
(٢) الطبري جـ ١١ ص ١٧٣.
(٣) السيوطي. تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢. (٤) الذهب جـ ٢ ص ٤٣١.

عن المنكر وحرم الشراب، ونهى عن القيان وأظهر العدل. وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب ويؤم بهم، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريق الواضحة، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة حتى قتلوه».

وكان المهتدي أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة. وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول: إني أستحيي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس. وكان يجلس للمظالم فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم، كما كان يتقلل في مأكله وملبسه[١].

روى إبراهيم بن مخلد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشميين قال: إن المهتدي وجدوا في متاعه سقطاً فيه جبة صوف وكساء وبرنس. وكان يلبسه في الليل ويصلي فيه ويقول: أما تستحي بنو العباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز؟ وكان قد أطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب ومنع أصحاب السلطان عن الظلم. وقد أثر عنه أنه كان إذا صام أفطر على الخبز والزيت والخل والملح[٢].

المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ):

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على خليفة المهتدي في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ، وبايعوا المعتمد بن المتوكل بالخلافة، وكان إذ ذاك محبوساً بالجوسق. يقول صاحب الفخري (ص ٢٢٦): «وقد غلب أخوه الموفق حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها. وذلك أن صاحب الزنج أو دعيّ آل علي، لما ثار في وجه الخلافة العباسية واستفحل أمره في هجر وبلاد البحرين، وقدم البصرة، أنفذ الخلفية المعتمد إلى مكة رسولاً أحضر أخاه أبا طلحة (٢٥٧ هـ) - وكان الخليفة المهتدي قد نفاه إليها - وولى عهده ابنه جعفر، وسماه المفوض إلى الله، وولى أخاه أبا أحمد طلحة من بعده وسماه الموفق، وقسم الدولة العباسية بين ابنه وأخيه، فخص الموفق بالبلاد الشرقية، وولى المفوض البلاد الغربية، وضم إليه موسى بن بغا، وولاه أفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان وغيرها، فحكمها باسمه؛ واتخذ موسى بن عبيد الله بن سليمان بن وهب كاتباً له. وشرط الخليفة أن يختص المفوض والموفق كل بعمله لا ينظر أحدهما في عمل

---

(١) الفخري ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٣ - ٨٤.

الآخر، وأن يقوم كل منهما بالنفقة على قسمه من خراج ذلك القسم، وأمر بكتاب البيعة فحفظ في الكعبة. على أن هذا العمل لم يرض الموفق، لما كان يضمره لأخيه من حسد، وما كان يراه من عدم أهليته للخلافة؛ وزاد في حقده عليه تقديمه ابنه المفوض عليه في الخلافة، يقول صاحب الفخري (ص ٢٢٦): «كان المعتمد مستضعفاً، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره. وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة: للمعتمد الخطبة والسكة، والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر، ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء. وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته». ويقول السيوطي[١]: «وانهمك المعتمد في اللهو واللذات واشتغل عن الرعية، فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة».

أما موسى بن بغا فهو أحسن الأمثلة التي تبين لنا مدى اتساع نفوذ الأتراك في ذلك العصر: كان بغا الكبير ابن موسى من قواد الجيش العباسي أيام الخليفة المعتصم. وقد اشترك في كثير من الحروب التي شبت للذود عن الخلافة، وأبدى فيها شجاعة ممتازة رفعته فوق غيره من القواد، حتى سمح له أن يتزوج من بيت الخلافة، فكان ـ كما يقول الطبري ـ ابن خالة المتوكل.

وقد بدأ موسى حياته في الجندية، ودرج في الجيش حتى أصبح من أكبر قواده، وقام بدور هام في الثورات التي أقامها الأتراك في وجه الخلفاء: فطوراً نراه يذب عن عرش الخلافة وطوراً يتآمر مع المتآمرين لثل هذا العرش. كما نرى الخلفاء يندبونه لتهدئة الثائرين على الدولة. ولما ولي المعتمد الخلافة صانع الأتراك وخاصة قائدهم موسى بن بغا وبالغ في إكرامه، فأرسله في سنة ٢٥٩ هـ لقتال صاحب الزنج، وشيعه إلى خارج مدينة سامرا وخلع عليه. ولما ولى ابنه المفوض العهد ضم إليه موسى، فغدا الساعد الأيمن لكل من المفوض والموفق؛ يستعينان به على إخماد ثورة الزنج تارة، وعلى كبح جماح الخارجين على الدولة تارة أخرى، حتى وافته منيته سنة ٢٦٤ هـ.

وقد وقع في عهد الخليفة المعتمد أحداث هامة كان لها أثر كبير في تاريخ الدولة العباسية: أهمها ثورة الزنج، واختفاء الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثني عشرية. وتأسيس طائفة الإسماعيلية التي تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢.

وقد أثارت ثورة الزنج الطاحنة عداء الموفق لابن طولون وإلى مصر. ولم يكن الموفق بعيد النظر، فلو أنه استمال ابن طولون الذي لبى نداءه أول الأمر وأمده بما يعينه على حرب هذا الخارجي - على الرغم من أنه لم يكن تابعاً له - لاستطاع أن يوجه همه ويبذل كل جهوده في محاربة صاحب الزنج والقضاء عليه وعلى أتباعه، قبل أن يستفحل خطرهم ويتفاقم شرهم في بلاد الدولة العباسية الشرقية التي كان يليها الموفق.

نعم! لقد نفذت موارد الشرق أو كادت لما حل به من البلاء على أثر هذه الحروب المتصلة التي شنها الموفق على الزنج. هذا إلى ما كان من تثاقل الأهالي عن حمل الخراج وانصراف الخليفة إلى ملاذه، فأقبل على الصيد واللعب ومنادمة النساء، فضاعت حرمة الخلافة واستقلّ العمال بالولايات.

ولم ير الموفق الذي ندبه الخليفة لمحاربة الزنج بدًّا من الالتجاء إلى أحمد بن طولون؛ فأرسل إليه مع تحرير خادم الخليفة المتوكل كتاباً يشكو فيه سوء الحالة المالية في بلاده، وطلب إليه أن يمده بالمال الذي يساعده عن الاستمرار في محاربة صاحب الزنج، ولما علم الخليفة المعتمد بذلك أرسل إلى ابن طولون كتاباً يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة وكل ما جرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الرقيق والخيل والشمع والطراز[1] وغير ذلك. كما أرسل إليه أيضاً كتاباً سرياً يقول فيه إن أبا أحمد الموفق إنما أرسل رسوله ليستقصي أخباره وليكون عيناً عليه؛ ويشير على ابن طولون بأن يأخذ الحيطة لنفسه، لأن الموفق كاتب قواد مصر ليفسدهم عليه[2].

وقد بعث ابن طولون مع رسول الموفق مليوناً ومائتي ألف دينار، وشيعه بنفسه حتى وصل إلى العريش؛ وبذلك خالف ابن طولون الخليفة وأرسل المال إلى الموفق، لأنه كان يعلم حقيقة الحال في البلاد الشرقية، كما وقف على مدى الخطر الذي كان يهدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج.

---

(١) الطراز من شارات السلطان وهو كتابة اسم الخليفة مع كلمات أخرى يتفاءلون بها في ثيابهم الخاصة. وقد سميت الدور التي يصنع بها الطراز «دور الطراز» كما كان القائم عليها يسمى «صاحب الطراز» - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٢ - ٢٩٣. الخطط للمقريزي جـ٢ ص ٧٩، ٢١٢، ٤٠٧ كتاب أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف، جروهمان ترجمة المؤلف جـ١ ص ٣ - ٤ Encylopaedia of Islam. Tiraz S.V.

(٢) ابن الداية: سيرة ابن طولون ص ٤٩ - ٢٠. المقريزي: خطط جـ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩.

على أن الموفق لم يحمد لابن طولون هذا الصنيع، وأظهر الجفاء في كتاب طويل أرسله إليه، ثم عمد إلى اختيار رجل يصرف به ابن طولون عن مصر، وأوعز إلى موسى بن بغا ـ وكان عون الدولة وأشد أهلها بأساً وإقداماً ـ بصرف ابن طولون عن مصر وتقليدها ماجور والي الشام. فكتب موسى إلى ماجور كتاب التقليد وأنفذه إليه، ولكنه توقف عن إرساله إلى ابن طولون، لما كان بينهما من النسب، ولأنه آنس في نفسه العجز عن مناهضته. وقد خشي ابن بغا أن يزداد نفوذ ابن طولون، لأن في ولايته على مصر والشام تهديداً لسلطة الخليفة والأتراك معاً. وسرعان ما سار إلى الرقة وأخذ يستعد لقتاله؛ وأقام ابن بغا بالرقة عشرة أشهر يتحين الفرص لقتال ابن طولون؛ ولكن أحواله اضطربت لتألب الجند عليه ومطالبتهم بدفع أرزاقهم؛ فعاد إلى بغداد حيث عرضت له علته، فحل إلى سامرا وأقام بها شهرين ومات في شهر صفر من سنة ٢٦٤ هـ[١].

على أن الموفق لم يستطع الكيد لابن طولون والنيل منه بعزله عن مصر. فعمد إلى عزله عن الثغور الشآمية. بيد أن الخليفة أمر بردها إليه بعد أن اضطربت أحوالها.

وسرعان ما سار ابن طولون بجيشه نحو بلاد الشام، فدانت له أمهات مدنها ودعي له على منابرها (٢٦٤ ـ ٢٦٥ هـ) وجعل الرقة مقراً لولايته الجديدة. ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لإخماد ثورة ابنه العباس، ولكن لما بلغه خروج لؤلؤ والي الرقة عليه خرج ثانية إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ)، واستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في طريقه إلى الشام بلغه خروج أهل طرسوس وعزلهم واليه عليهم، فعول على السير إليها.

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنوج، وخرج من سامرا متظاهراً بالصيد (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ)، وأرسل ابن طولون قائدين من قواده لانتظار الخليفة بالرقة. وأراد الخليفة أن يمر على إسحاق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة، وكان الموفق أرسل إليه صالح بن مخلد يأمره برد الخليفة والقبض على من معه من القواد ويمنيه بأطيب الأماني. ولما وصل المعتمد إلى الحديثة لقية ابن كنداج وتظاهر بموالاته له؟[٢]، وانحدر به إلى سامرا، ومنعه من نزول دار الخلافة. ولا غرو فقد شل الموقف يده عن مباشرة أمور الدولة وحجر عليه. وقد قيل إنه احتاج يوماً إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها[٣].

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) راجع سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٦٨، ٦٩ الكندي: كتاب الولاة ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٧ ـ ١٨١.

وصفوة القول أن الخليفة المعتمد كان على حد قول السيوطي[١]: «هو أول خليفة قهر وحجر عليه ونكل به».

ولم يزل العداء مستحكماً بين الموفق والطولونيين في مصر بعد وفاة أحمد بن طولون؛ فقد واصل ابنه خمارويه لعن الموفق على المنابر، وبعث الواسطي كاتب أبيه إلى الشام بجيش كثيف. وعززه من البحر بأسطول قوي. وخرج الموفق من بغداد، وانضم إليه ابن كنداج والي الموصل، ومحمد بن أبي الساج والي أرمينية والجبال، واستولوا على دمشق، فلم ير خمارويه بداً من الخروج بنفسه، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج في أعماله، وتم الصلح بين والي مصر ودار الخلافة، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة. هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر والدعاء له مع الخليفة.

كانت أيام المعتمد أيام محن وخطوب. ذكر ابن الأثير (ج ٧ ص ١٥٨) أن الحرب اشتعلت في أوائل سنة ٢٧٨ هـ بين أصحاب وصيف الخادم والبربر وغيرهم، وأنه قتل جماعة كبيرة من الفريقين. وفي هذه السنة توفي أبو أحمد الموفق بعد أن أعياه النقرس الذي ألم به وهو في بلاد الجبل حتى إنه لم يقدر على الركوب، فعمل له سرير عليه قبة، فكان يقعد عليه وخادم له يبرد رجله بالأشياء الباردة، حتى إنه يضع عليها الثلج، ثم صارت علة رجله داء الفيل[٢]. وكان يحمل سريره أربعون رجلاً بالنوبة، فقال لهم يوماً: قد ضجرتم من حملي، بودي أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسي وآكل وأنا في عافية. وقال في مرضه: أطبق ديواني على مائة ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ حالاً مني».

وصل الموفق إلى داره في اليوم الثاني من شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ ومات، فحمل أنصاره الخليفة المعتمد وأولاد من المدائن. ومات الموفق ودفن بالرصافة بعد أن قبض على أزمة الأمور في الدولة العباسية وغلب على أخيه المعتمد حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها.

وكان الموفق ـ مع ذلك ـ «عادلاً حسن السيرة يجلس للمظالم، وعنده القضاة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣.

(٢) هو ورم في الساق يسيل منه ماء.

وغيرهم، فينتصف الناس بعضهم من بعض». وكان عالماً بالأدب والنسب والفقه والسياسة وغير ذلك. قال يوماً: إن جدي عبد الله بن العباس قال إن الذباب ليقع على جليسي فيؤذيني ذلك ـ وهذا نهاية الكرم ـ وأنا والله أرى جلسائي بالعين التي أرى بها إخواني. والله لو تهيأ لي أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان. وكان الموفق يميل إلى الأبهة والترف.

جلس أبو العباس بن الموفق للعزاء، واجتمع القواد وبايعوه بولاية العهد بعد المفوض إلى الله بن المعتمد، ولقبوه المعتضد بالله، وتحولت إليه سلطة أبيه. فضعف أمر الخليفة المعتمد. فأشهد على نفسه أنه خلع ابنه المفوض من ولاية العهد وبايع لأبي العباس المعتضد. ومات المعتمد بعد أشهر فجأة حتى تواترت الإشاعات بأنه سم. وقد بقي في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة، كانت عهد فتن واضطرابات، على الرغم من ازدهار عصره بطائفة من العلماء الأعلام كالبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصري المشهور والقاضي بكار.

المعتضد بالله ـ والمكتفي بالله:

لما مات الخليفة المعتمد بويع لأبي العباس بن الموفق ولقب المعتضد بالله وقد أحسن المعتضد إلى آل علي، وأخذ يشيد بفضله ويذم الأمويين على أن بعض خاصته نصح له بأن يعدل عن هذه السياسة حتى لا يمهد السبيل إلى رعاياه بالالتفاف حول العلويين فتضيع هيبة العباسيين ويخرج الأمر من أيديهم. كذلك اكتسب المعتضد محبة الناس عند ما أصدر أوامره بإبطال ديوان المواريث، وبأن يورث ذوو الأرحام. كما منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها. ومنع القصاص والمنجمين من الجلوس في الطريق، وصلى بالناس صلاة الأضحى، فكبر في الركعة الأولى ستاً وفي الثانية واحدة، ولم تسمع منه الخطبة[1].

وقد أقر المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب في الوزارة. وقد عهده خرج عمرو بن الليث الصفار أحد زعماء الصفارية واستولى على كثير من بلاد الفرس، كما ظهر في عهده القرامطة في الكوفة على يد حمدان قرمط، وفي البحرين على يد أبي سعيد الجنابي وظهر

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

ابن حوشب في بلاد اليمن حيث نشر الدعوة للمهدي، وأبو عبد الله الشيعي الذي نشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب وحارب كثيراً من زعماء البربر ومهد للقضاء على دولة الأغالبة فيما بعد. كما ظهر في عهد المعتضد نصر بن أحمد الساماني مؤسس الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر على ما سيأتي الكلام على ذلك في الباب الرابع.

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توثيق العلاقات بين خمارويه بن أحمد بن طولون والخليفة العباسي. ولا غرو فقد استطاع خمارويه أن يكسب رضا المعتضد بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، وجعلها لأولاده من بعده. ويذكر أبو المحاسن[١] «أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه اثنتي عشرة خلعة، وسيفاً وتاجاً ووشاحاً». وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقبت بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي، ولكنه اختارها لنفسه.

وكان المعتضد وافر العقل شديد الوطأة قليل الرحمة، إذا غضب على قائد أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه. وكان شهماً جلداً موصوفاً بالرجلة، قد لقي الحروب وعرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام. وهابه الناس ورهبوه أعظم رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط علته. وكانت أيامه كثيرة الأمن والرخاء، وكان قد أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية، كما كان يسمى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني العباس.

وقد وصفه ابن الأثير[٢] في هذه العبارة: «كان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق، وكان شهماً شجاعاً مقداماً، وكان ذا عزم، وكان فيه شح. بلغه خبر وصيف خادم ابن أبي الساج وعليه قباء أصفر. فسار من ساعته وظفر بوصيف وعاد فدخل أنطاكية وعليه القباء، فقال بعض أهلها: الخليفة بغير سواد فقال بعض أصحابه: إنه سار فيه ولم ينزعه إلى الآن. وكان عفيفاً، وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه».

وقد نبغ في عهد المعتضد كثير من الكتّاب والمفكرين والشعراء، نخص بالذكر منهم ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) مثقف الخليفة المكتفي في حداثته، والبحتري (٢٨٤ هـ)، والمبرد اللغوي المشهور (٢٨٦ هـ) وابن قتيبة (٢٧٦ هـ)، والبلاذري (٢٧٩ هـ)، وأبا حنيفة

---

(١) النجوم الزهراء جـ ٣ ص ٧٨.
(٢) جـ ٧ ص ١٨٣.

الدينوري (٢٧٦ هـ)، وابن واضح اليعقوبي (٢٨٢ هـ)، وكانوا من أكابر مؤرخي هذا العصر. كما نبغ ثابت بن قرة الحراني الرياضي المشهور، وابن الفقيه الهمذاني الجغرافي وكلاهما مات حول سنة ٢٨٧ هـ. ومن أفذاذ شعراء هذا العصر ابن المعتز وابن الرومي وكان المعتضد نفسه شاعراً يجيد الشعر(١).

لما مات المعتضد ولي الخلافة بعده ابنه أبو محمد وتلقب المكتفي بالله. وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك، وكان يضرب المثل بحسنها. وكان عند موت أبيه بالرقة، فقام القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب بأخذ البيعة له. وقد عاد الخليفة الجديد إلى بغداد ونزل بدار الخلافة، وأقر القاسم بن وهب في الوزارة. وسرعان ما أدركت هذا الوزير الوفاة، فاستوزر المكتفي العباس بن القاسم.

وقد عمل الوزير القاسم بن وهب الذي أخذ البيعة للمكتفي على التخلص من بدر «صاحب جيش المعتضد والمستولي على أمره والمطاع في خدمه وغلمانه». وعزا الطبري ذلك إلى أن هذا الوزير كان قد حاول تحويل الخلافة عن بيت المعتضد في حياته، ولكن بدراً غلام المعتضد لم يوافقه على ذلك، فانتهز هذا الوزير فرصة تغيب بدر في فارس ودبر مؤامرة انتهت باغتياله(٢)، لأنه خاف أن يفشي سر مؤامرته ضد أبناء المعتضد. واتخذ من تغير المكتفي على بدر منذ عهد أبيه المعتضد وسيلة لإيغار صدره عليه، وصور بدراً بصورة الثائر(٣).

وفي عهد المكتفي كان السامانيون أصحاب النفوذ المطلق في فارس، كما تفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة، وفي سورية بزعامة زكرويه وألقوا الرعب والفزع في قلوب الأهلين، وذكر المؤرخون أنهم هاجموا قوافل الحاج في عودتهم من مكة وقتلوا منهم عشرين ألفاً.

وقد خرج القرامطة الشماليون الذين ثاروا في العراق العربي وبادية السماوة وبلاد الشام بزعامة يحيى بن زكرويه، فقتل في سنة ٢٩٠ هـ. ثم خرج أخوه الحسين. كما زالت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة المكتفي سنة ٢٩٢ هـ. ثم أزال نفوذ قرامطة الشمال بقتله زكرويه سنة ٢٩٤ هـ.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٤٨.
(٢) الطبري جـ ١١ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

وكان المكتفي حسن السيرة محبوباً عند الرعية «سار سيرة جميلة فأحبه الناس ودعوا له». ولكنه كان مبذراً كثير البذل. ويقول السيوطي[1] إنه «هدم المطامير التي اتخذها أبـوه المعتضد وصيرها مساجد، وأمر برد البساتين والحوانيت التي أخذها أبوه من الناس ليعملها قصراً إلى أهلها». ومن مآثر المكتفي المسجد الجامع بالرحبة والتاج والدار الشاطئية ببغداد.

واشتهر في أيام المكتفي من العلماء عبد الله بن أحمد بن حنبل، وثعلب إمام العربية، والبزاز صاحب المسند، ومحمد بن نصر المروزي الإمام. وأبو جعفر الترمذي شيخ الشافعية في العراق.

ولم يعمر المكتفي في الخلافة. فمات في ١١ من ذي الحجة سنة ٢٩٥ هـ، وكان في ريعان الشباب، فخلفه أخوه المقتدر.

المقتدر ـ القاهر:

خلف المكتفي أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد وهو في الثالثة عشـرة من عمره، وتلقب المقتدر، وكان كـالريشـة في مهب الريـح، قلده العباس بن الحسن وزيـر المكتفي ليكون أسلس قياداً من ابن المعتز، وانتصـح بنصحية ابن الفـرات الذي أشـار عليه بتـولية المقتدر وقال له: اتـقِ الله ولا تنصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وجارية هذا وضيعة هذا وفرس هذا، ومن لقي الناس ولقوه وعرف الأمور وتحنك وحسب حساب نعم الناس. قال (ابن الفرات): فاستعاد ذلك مني الوزيـر دفعات، ثم قـال: فبمن تشير؟ فقلت بجعفر بن المعتضد فقال: ويحك! جعفر صبي، قلت: إلا أنه ابن المعتضد. ولم تجيء برجل يأمر وينهى ويعرف ما لنا وممن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل؟ ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبيره أنت[2]؟

ولكن الوزير العباس بن الحسن لم يلبث أن عمل على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز الخلافة. ولما بلغ ذلك المقتدر أعطى ابن المعتز بعض المال، فعدل عن رغبته في الخلافة. غير أن هذا لم يمنع أنصاره من تحقيق سياستهم، فلم ير المقتدر بدأً من الهرب في ٢٠ من ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ، فحضر القواد والقضـاة والأعيان وبـايعوا عبـد الله بن

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣.

ـمعتز بالخلافة ولقبوه المرتضى بالله[1]، فاستورز محمد بن داود بن الجـراح وقلد علي بن ـسى الدواوين، وولى أبا المثنى أحمد بن يعقوب القضاء.

روى السيوطي[2] أن محمد بن جـرير الـطبري لمـا علم بخلع المقتدر ومبـايعة ابن ـمعتز قال: «ما الخبر؟ قيل: بويع ابن المعتز. قال: فمن رشح للوزارة؟ قيـل: محمد بن ـود: قال: فمن ذكر للقضاء؟ قيل: أبو المثنى، فأطرق ثم قال: هذا الأمر لا يتم، قيل له: ـيف؟ قال: كل واحد ممن سميتهم متقدم في معناه عالي الـرتبة، والـزمام مـدبر والـدنيا ـلية، وما أرى هذا إلا إلى إضمحلال، وما أرى لمدته طولاً».

ولما تم الأمر لابن المعتز، أرسل إلى المقتـدر يأمـره بالانصـراف إلى دار محمد بن ـهر حتى يتيسر له الانتقـال إلى دار الخلافـة، فعول أتبـاع المقتدر، وعلى رأسهم مؤنس ـخادم ومؤنس الخازن وغـريب الخال والحـاشية على محـاربة ابن المعتـز، واتجهوا إلى ـخرم حيث كان يقيم ابن المعتز، فهرب مع وزيره محمد بن داود وقاضيـه أحمد بن داود ـاجبه يمن. وسادت الفوضى بغـداد، ووقع النهب والقتـل، وحبس المقتدر عبـد الله بن ـعتز، فظل في حبسه إلى أن مات، وقبض على الفقهاء والأمراء الذين ناصروه وساعدوه ـي خلعه، وبذلك استقر الأمر للمقتدر من جديد[3].

كان المقتدر ـ كما وصفه صاحب الفخري (ص ٢٣٣) «سمحاً كريماً كثير الإنفاق، رد ـوم الخلافة من التجمل وسعة الإدارات والمعاش وكثرة الخلع والصلات».

ولما توطدت سلطة المقتدر استوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات. وإليه يرجع ـضل في تهدئة الفتنة التي سادت بغداد على أثر انتقال الخلافة إلى المقتدر، وتم له ذلك يوم واحد. وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

ودبَّـرْتَ في سـاعـةٍ دولـة تميـلُ بغيـرك في أشهـر[4]

على أن هذا الوزير لم يبق في الوزارة مدة طويلة، فقد قبض عليه المقتدر لأمور نسبت ـ، واستوزر بعده أبا علي محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان، وكان سيء السيرة كثير

---

(١) يقول الطبري (جـ ١١ ص ٤٠٥) إنه لقب الراضي بالله. ويقـول السيوطي (تـاريخ الخلفـاء ٢٥٢) إنه لقب الغالب بالله.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٦ ـ ٨.

(٤) الفخري ص ٢٣٨.

التولية والعزل، وقد ساءت حالة الدولة في عهد الوزير، حتى إن الخليفة لم ير بدأً من عزله وتعيين علي بن عيسى بدله (٣٠١هـ).

على أن بقاء هذه الوزارة لم يطل بسبب إسراف الخليفة المقتدر، وعزله الوزراء والقبض عليهم،وتدخل النساء في أمور الدولة لصغر سنه وانصرافه إلى اللهو. وفي ذلك يقول صاحب الفخري (ص ٢٣٥): واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاته، فخربت الدنيا في أيامه، وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة، فخلع، ثم أعيد، ثم قتل.

ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه، وكانت تسمى «السيدة» وبلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هي أو قهرمانتها من أحد الوزراء كان مصيره العزل لا محالة، وقد اتسعت سلطة «السيدة» إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها «ثومال» صاحبة للمظالم، وأدى تدخل النساء في أمور الدولة إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها.

انتشرت الفتن في عهد المقتدر، فخرج عليه مؤنس الخادم في سنة ٣١٧ هـ بعد أن بلغه أنه فكر في تولية هارون بن غريب مكانه، وأرسل مؤنس إلى المقتدر ينبئه بتذمر الجيش من إسراف الحاشية والخدم، وضياع الأموال وإفساد الحكم بسبب تدخلهم في أمور الدولة ويلح عليه في إخراجهم من قصره والاستيلاء على ما في أيديهم. فرد المقتدر عليه بكتاب ينفي فيه التهم التي وجهت إليه وإلى رجال حاشيته. فطلب القواد، وعلى رأسهم أبو الهيجاء الحمداني ونازوك، إخراج هارون بن غريب عن بغداد، فأجابهم الخليفة إلى ما طلبوه، وولى هارون الثغور الشامية والجزرية. وخلا الجو بذلك لهؤلاء، فثاروا على الخليفة، وأخرجوه من داره، ونادوا بخلعه، وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة، ولقبوه القاهر بالله(١).

على أن إقامة الحفلات بمناسبة تقليد القاهر الخلافة لم تشبع نهم الجند، «فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السنة، ولم يكن مؤنس حاضراً، فارتفعت الأصوات، فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردوه إلى الخلافة، فحملوه على

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ١٨٩ ـ ١٩٢.

عناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة». وقد هدأت الأحـوال بعودة المقتـدر الذي أطلق جند أرزاقهم وزاد فيها، وباع ما في خزانته من الأمتعة والجواهر[١].

وقد وصف ميور[٢] الدولة العباسية في عهـد المقتدر فقـال: «إن عهد هـذا الخليفة تعس قد هوى بالدولة إلى الحضيض. فقد ضاعت ممتلكاتها في الخارج: فضاعت إفريقية أوشكت مصر أن تضيع، واستقل أمراء بني حمدان بالموصل، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا غاراتهم المتصلة على الحدود المتاخمة التي ضعف الدفاع عنها. ومع ذلك بقي شيء من لاعتراف بسلطان الخلافة في البلاد الشرقية، حتى بين أولئـك الأمراء الـذين نادوا أخيـراً ستقلال ولايـاتهم. أما في الأراضي القـريبة من حـاضرة العبـاسيين فقد أخمـدت ثورات قرامطة المخيفين إلى حين. وفي بغداد نفسها، صار الخليفة المقتـدر الذي كـان آلة في دي رجال البلاط المفسدين ذوي الأطماع الدنيئة تحت رحمة حراسه من الأجـانب الذين صبحـوا يأتمـرون إلى حد كبيـر بأوامـر القواد من الأتـراك وغيرهم، الـذين لا يمتـون إلى عباسيين بصلة والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين».

وإذا علمنا أن هذا الخليفة قد غلب على أمره وخلع مرتين وذبـح في النهايـة عندمـا حاول مقاومة أحد قواده المخلصين لعرشـه الذي استعـان به، فـلا نعجب إذا تلاشت تلك لهيبة التي عمل أسلافه القريبون على استعادتها، وغدا العرش مرة ثانية هدفـاً للازدراء في لداخل، وفرصة سانحة تحمل على إغراء المغيـرين على الدولـة من الخارج. أضف إلى لك أن الشعب قد فسدت أخلاقه، ولم تعد بغداد بعد ذلك المكان الذي يضم رجالاً أقوياء دافعون عن بلادهم، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحالة إلى ذلك. أما الآن فقد أصبحوا حزاباً وشيعاً متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدمـاء، كما فعلوا في ذلـك الحين عند فسير نص من النصوص، وكما حدث أيضاً عندما ثار الحنابلة ورموا الطبري بالإلحاد وحالوا ون دفنه.

وقد أشار ابن الأثير[٣] إلى ذلك بقوله: «دفن الطبري «ليلاً بداره لأن العـامة اجتمعت منعت من دفنه نهاراً، وادعوا عليه بالـرفض ثم ادعوا عليه بالإلحاد... فليس الأمر كـذلك إنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم: ولذلـك سبب هو أن الـطبري

---

١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٧٠.
٢) The Caliphate, PP.567 - 8.
(٣) جـ ٨ ص ٤٥ ـ ٤٦.

جمع كتاباً فيه اختلاف الفقهاء ـ لم يصنف مثله ـ ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً. فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا.

حسدوا الفتى إذا لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لذميم

لم يمض على عودة المقتدر إلى الخلافة المرة الثانية سنة واحدة، حتى خرج عليه مؤنس ثانية، وانتهى الأمر بقتله، وتركت جثته مكشوفة أياماً ثم دفن بالموضع الذي مات فيه وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة ٣٢٠ هـ. وقد أدى ما فعله مؤنس إلى تجرؤ الولاة العباسيين على خلفائهم، كما أدى إلى ضعف الخلافة[١].

وفي عهد المقتدر نبغ كثير من العلماء، نخص بالذكر منهم الفقيه محمد بن داود الظاهري وابن شريح شيخ الشافعية، والجنيد شيخ الصوفية، والنسائي صاحب كتاب السنن، والجبائي شيخ المعتزلة، وابن جرير الطبري، والزجاج النحوي، والأخفش الصغير النحوي، وأبو عوانة صاحب الصحيح، وقدامة بن جعفر الكاتب، وابن زكريا الطبيب.

ولي الخلافة بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد ولقب القاهر بالله. وفي عهده انتشرت الفتن الداخلية، فلم تمض عليه في الخلافة سنة واحدة حتى شغب عليه الجند، واتفق بعض كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه وتولية أحد أولاد المكتفي. فلما علم القاهر بذلك عول على التخلص منهم. «فتحيل القاهر عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم وطين على ابن المكتفي بين حيطين»[٢].

وقد اشتهر القاهر بالقسوة، واتخذ حربة عظيمة يحملها بيده إذا سعى في ذلك، ويطرحها بين يديه في حال جلوسه يباشر الحرب[٣] بتلك الحربة لمن يريد قتله، فسكن من كان يستعدي على من كان قبله من الخلفاء والتشغب والوثب عليهم. وكان.. مخوف السطوة»[٤]. ويقول السيوطي[٥]: «إنه زيدت في ألقابه عبارة المنتقم من أعداء الله ونقش

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧.
(٣) ولعله يريد الضرب.
(٤) المسعودي: مروج الذهب حـ ٢ ص ٥١٤.
(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧، ٢٥٨.

ذلك على السكة». وكان القاهر ـ كما وصفه الصولي ـ «أهوج سفاكاً للدماء قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة، مدمن الخمر، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل».

وقد نجا الوزير ابن مقلة بنفسه، إلا أن داره أحرقت، ونهبت دور أتباعه. ولما هدأت الفتنة أعطى الخليفة القاهر الجند أرزاقهم، فهدأت نفوسهم وسكنت ثائرتهم؛ واستطاع أن يقبض على زمام الأمور من جديد[١]. إلا أن جماعة الساجية أتباع ابن أبي الساج أحد قواد المعتمد، والحجرية[٢] خافوا بطش القاهر، وشجعهم على شق عصا الطاعة دسائس ابن مقلة. وزاد شك هؤلاء الجند إقامة الخليفة القاهر المطامير[٣] في داره للفتك بزعمائهم. ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ٩٧): إن القاهر لما تمكن من الخلافة أغلظ للساجية والحجرية حتى كان لا يقضي لأكابرهم حاجة، وإنه حفر في داره خمسين مطمورة تحت الأرض، وأحكم أبوابها. وقيل: إنه حفرها لمقدمي الساجية والحجرية وأثار بذلك نفورهم وخوفهم منه، كما قبض على جماعة من القرامطة وأرسلوا من فارس إلى بغداد، فحبسوا في تلك المطامير، ثم تقدم سراً بفتح الأبواب عليهم والإحسان إليهم، ليستعين بهم وبغلمانه على القبض على مقدمي الحجرية والساجية.

وفي عهد القاهر اشتهر من العلماء أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الذي نبغ في الشعر واللغة، حتى وصفه المسعودي[٤] بقوله: «إنه برع في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها».

وذكر صاحب الفخري (ص ٢٤٩) أن القاهر «خرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس، وقصد بذلك التشنيع على المستكفي، فرآه بعض الهاشميين، فمنعه من ذلك، وأعطاه خمسمائة درهم» ولما علم المستكفي بذلك منعه من الخروج، وظل محبوساً إلى أن مات في شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٩ هـ، وذلك في عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ)، وله من العمر ثلاث وخمسون سنة.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) هم جماعة من الشباب يقيمون في حجرة منفردة، وهم فرقة من الحرس الخاص في قصور الخلفاء.
(٣) المطمورة هي حفرة تحت الأرض. وبنى مطمورة إذا بنى بيتاً في الأرض. ويقصد بذلك حجراً تحت حجر الأرض للسجن والتعذيب.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١٨.

الباب الثاني

عصر إمرة الأمراء

(٣٢٤ - ٩٣٩/٣٣٤ - ٩٤٨)

١ - عوامل ظهور نظام إمرة الأمراء:

كانت بلاد فارس وما جاورها بيئة صالحة لنمو كثير من العناصر التي ناوأت الخلافة العباسية، فقد قامت في هذه البلاد عدة دول كالطاهرية والصفارية والسامانية، كما قامت فيها أيضاً دول أسسها رجال من الديالمة من أمثال ماكان بن كالي، ومرداويج بن زيار، وأخيه وشمكير بن زيار. ثم قامت فيها دولة بني بويه الذين استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ثم دولة السلاجقة الذين استولوا عليها سنة ٤٤٧ هـ، ووضعوا الخلافة العباسية تحت حمايتهم واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء ثم قامت الدولة الخوارزمية التي تخلصت من نفوذ السلاجقة وناوأت الخلافة والمغول، وكانت في النهاية سبب ما حل بالخلافة من المصائب التي انتهت بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م).

وفي سنة ٣٢٢ هـ عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمي أحد قواد أسفار أمير قزوين، فطرد أسفار واستولى على بلاده، ثم فتح الري وأصفهان، وكانا من قبل تحت ولاية يوسف بن أبي الساج، واستولى على طبرستان وجرجان والري وهمذان وأصبهان، وبلغت جيوشه نواحي حلوان. وقد عمل هذا القائد على الاستيلاء على بغداد وإعادة مجد الدولة الفارسية ولم ير الخليفة العباسي المقتدر بدا من إقراره على ما بيده، بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية[١].

ولما قتل مرداويج بن زيار الديلمي على يد غلمانه خلفه أخوه وشمكير. على أن نفوذه سرعان ما ضعف وانتزع منه ركن الدولة بن بويه بلاد الري سنة ٣٣٠ هـ، كما انتزع أبو علي

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٦٥ و٧٢ - ٧٣، ٨٤ - ٨٥و١١٣ - ١١٤.

محمد بن المظفر بن محتاج والي نصر بن أحمد الساماني على بلاد خراسان، بلاد طبرستان وجرجان، وأرغمه على المسير إلى بلاد الجبل حيث أدعن لطاعة نصر بن أحمد الساماني ثم لابنه نوح بن نصر. ولما اعتلى منصور بن نوح عرش الدولة السامانية أنفذه على رأس جيش كبير لمحاربة ركن الدولة بن بويه، ولكنه مات في الطريق.

استعان الراضي في إدارة شئون دولته ببعض ورراء ضعاف كانوا يبذلون للخليفة كثيراً من المال ليرفعهم إلى مرتبة الوزراء. وليس أدل على ذلك مما بذله أبو علي بن مقلة حين تقلد الوزارة للمرة الثالثة في عهد الراضي. فقد دفع للخليفة خمسمائة ألف دينار. غير أنه لم يتمتع بالوزارة طويلاً، إذ ثار عليه الجند، وقامت في البلاد فتنة انتهت بعزله، وصرفه الراضي عن الوزارة واستوزر عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح، فظهر عجزه عن إدارة البلاد. وقلد الراضي أخاه الوزارة، فاختلت أمور الدولة في عهد وزارته ولم يلبث أن استقال من منصبه، فحل محله أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي ـ وكان ـ كغيره من الوزراء الذين سبقوه ـ ضعيف الجانب، لم يقم بأي عمل في سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها، بل لقد اشتد ضعف الدولة في عهده، واضطر أخيراً إلى الاختفاء حتى لا يلحق به أذى الأهلين.

وقد وصفه صاحب الفخري (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤) في هذه العبارة: «وكان قصيراً جداً في غاية القصر، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير الخلافة أربع أصابع حتى يتمكن الكرخي الوزير من مشاورة الخليفة، وتطير الناس من ذلك وقالوا: هذا مؤذن بنقص الدولة، فكان الأمر كما قالوا عليه، واختلفت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر».

٢ ـ ابن رائق يتقلد إمرة الأمراء ـ بجكم يخلفه:

ولما رأى الخليفة الراضي أن الكرخي عجز عن النهوض بأعباء الوزارة، استوزر سليمان بن الحسن بن مخلد، فعجز هو أيضاً عن إدارة شئون البلاد، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة، مما دعا الخليفة إلى استمالة ابن رائق ـ وكان يلي واسط والبصرة ـ وسلم إليه مقاليد الأمور ولقبه «أمير الأمراء»، فازدادت سلطته، وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم، وزادت مكانته عند الخليفة وعلت على مرتبة الوزير. «ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون في جميع النواحي، وفوض إليه تدبير المملكة، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك، وأن يكنى، وأنفذ إليه الخلع واللواء مع ماكرد

الديلمي (من الساجية) وخادم من خدم السلطان»[١].

ويظهر أن محمد بن رائق لم يكن أول من تلقب بلقب أمير الأمراء. فقد ذكر مسكويه[٢] أنه لما ظهرت الوحشة بين الخليفة المقتدر ومؤنس الخادم، قلد هذا الخليفة هارون بن غريب إمرة الأمراء سنة ٣١٦ هـ.

وبذلك زال نفوذ الوزير فلم يعد ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولم يكن له غير اسم الوزارة، كما لم يحضر في دار السلطان إلا في أيام المواكب ويقف ساكتاً. وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في كافة شئون الدولة. وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الأمراء[٣]، فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون، ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون، وبطلت بيوت الأموال».

وإن حالة الخلفاء العباسيين في عهد إمرة الأمراء لتشبه في كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين الذين كانوا أشبه بالأعيب في أيدي نظار السراي (Maires) والذين لم يعد لهم من الأمر شيء إلا ما كان من ظهورهم في الحفلات الرسمية. وفيما عد ذلك عاشوا عيشة العزلة في إحدى ضياعهم[٤].

على أن نفوذ ابن رائق لم يلبث أن ضعف سنة ٣٣٦ هـ من جراء منافسة الأمراء له. فقد حاربه أبو عبد الله البريدي صاحب الأهواز، كما خرج عليه أحد قواده واسمه بجكم، ودخل بغداد سنة ٣٢٧هـ، وآلت إليه إمرة الأمراء، واستولى بذلك على جميع شئون الدولة زهاء سنتين (٣٢٧ ـ ٣٢٩). وقد وصف الصولي حالة بغداد في الوقت الذي تقلد فيه بجكم إمرة الأمراء، فقال إن العامة عاثوا في الأرض فساداً، وانقضوا على الحمامات العامة وأخذوا تياب من فيها. وكثرت المصادرات وتفاقم شر اللصوص الذين تسلحوا بالعدد لكبس الدور ليلاً. وشكا الناس من غير جدوى إلى بجكم ما أحله بهم أصحابه من بلاء، وانتشرت الفوضى والمنازعات وساءت حالة العراق.

وصفوة القول أن حالة الدولة العباسية أصبحت من الضعف بحيث لم يتمكن الخليفة الراضي من دفع أرزاق الجند ولا من الحصول على ما يكفيه. وفكر الخليفة في الاستنجاد

---

(١) تجارب الأمم جـ ١ص ٣٥١.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٨.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٩٢.

(٤) Oman, European History, P.268.

بأبي عبد الله الحسن البريدي[1]. وظلت الحال على ذلك حتى توفي الراضي ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ، بعد أن حكم الدولة العباسية ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وله من العمر إحدى وثلاثون سنة وستة أشهر، وكان الغالب على أمور دولته بجكم التركي. وكان قبل وفاته يقيم بواسط. ويظهر أنه كان لحبسه في عهد الخليفة القاهر أثر كبير في ضعف جسمه.

كان الخليفة الراضي آخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء. وقد «سئل أن يخطب يوم الجمعة، فصعد المنبر بسر من رأى. فشنف الأسماع وبالغ في الموعظة»[2].

وقد وصف ابن الأثير[3] الدولة العباسية في عهد الراضي في هذه العبارة فقال: «ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق، ليس للخليفة حكم. وأما باقي الأطراف: فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها. والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي[4]، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي».

ولما توفي الراضي بالله اجتمع الكوفي كاتب بجكم مع سليمان بن الحسن وزير الراضي وغيره ممن تقلّد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويين والقضاة وأفراد البيت العباسي وسائر رجالات الدولة العباسية وشاورهم فيمن يصلح للخلافة فرشحوا إبراهيم بن المقتدر لهذا المنصب، فأحضر إلى دار الخلافة وبويعَ له في العشرين من شهر ربيع الأول سنة

---

(١) الصولي. أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٢) الفخري ص ٢٥١. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦١.

(٣) جـ ٨ ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٤) أعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد الأموي في بلاد الأندلس (١٠ ـ ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة **وتلقب** بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ.

٣٢٩ هـ، وعرضت عليه ألقاب فاختار منها لقب المتقي لله وبايعه الناس وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط[١].

٣ ـ البريديون ـ الحمدانيون:

وقد أحل جند بجكم الهزيمة بالبريديين بالمذار، بين واسط والبصرة وأسروا كثيراً من أصحابهم. وسرعان ما تتابعت المصائب على بجكم وأخذ نجمه يأفل، فنهبت القافلة الذاهبة إلى خراسان، وأخذ الحزن منه كل مأخذ، حتى امتنع عن الطعام أياماً. ثم ورد الخبر بقتل ماكان بن كالي التركي، فاحتجب ثلاثة أيام غما عليه ثم ورد الخبر بإيقاع صاحب خراسان بأخي مرداويج بن زيار وهزيمته إياه، وانتهت هذه المصائب بقتل بجكم نفسه بيد بعض الأكراد الذين عول على انتهاب أموالهم.

على أن موت بجكم لم يضعف نفوذ الأمراء. فقد دخل أبو الحسين البريدي واسط ثم دخل بغداد في جيش كثيف من الأتراك والديلم، واستولى على دار الخلافة وصرف الوزير ابن ميمون. وتقلد الوزارة أبو عبد الله البريدي. على أن البريديين لاقوا في بغداد مقاومة عنيفة، وهرب الخليفة المتقي وابنه ومحمد بن رائق (وكان قد عاد من الشام بعد موت بجكم) إلى الموصل، وقتل أصحاب البريدي من وجدوه في دار الخلافة من حاشية الخليفة ونهبوا دار الخلافة نفسها[٢].

على أن البريديين لم يظفروا بمحبة الناس جميعاً، فقد عزم الديلم على اغتيال الوزير أبي عبد الله البريدي إذ دخل قصر الخلافة وسبوه وأساءوا إلى البريديين، وأعانهم العامة وتجمعوا على جانبي نهر دجلة، وأخذوا يصيحون ويهتفون هتافات تنم عن سخطهم عليه وكراهتهم له. وهكذا غدت الوزارة عبئاً ثقيلاً لا يحمله الناس، فقد رغب علي بن عيسى عن قبول الوزارة، ورغب عنها أخوه عبد الرحمن، وأخيراً استوزر الخليفة أبا إسحاق الإسكافي المعروف بالقراريطي، فأشار عليه بأن يعين رجلاً يعهد إليه بإمرة الجيش. وفي ٣ من شوال سنة ٣٢٩ عين كورتكين أميراً للجيش، وخلع عليه، وسرعان ما أرسل على رأس جيش كثيف أخرج البريديين من واسط[٣].

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

علم أبو عبد الله البريدي أن جماعة من الأتراك بزعامة نوزون يريدون الفتك به وعلم توزون بذلك، فاستولى على دار مؤنس، وعاد الخليفة المتقي إلى بغداد في ١٨ شوال سنة ٣٣٠ هـ بعد أن غاب عنها ثلاثة أشهر وعشرين يوما، وقلد توزون شرطة بغداد، واستوزر أبا إسحاق القراريطي. ثم سطع نجم بني حمدان في أفق الدولة العباسية[١]، فخلع الخليفة على الحسن بن عبد الله، وطوق وسور بسوارين وسمي ناصر الدولة، كما خلع على أخيه أبي الحسن ولقب سيف الدولة. وقد بدأ ناصر الدولة بن حمدان عهده بإصلاح السكة، وحال دون عبث العيارين والصيارف بعيارها، وأضاف إلى عبارة محمد رسول الله ﷺ. ثم ضرب في المحرم من سنة ٣٣١ هـ دنانير جديدة، وهدد الصيارف بإنزال العقاب بهم إذا لم يقلعوا عن الربا[٢].

على أن حال بغداد في عهد الحمدانيين (٣٣٠ ـ ٣٣١ هـ) الذين عرفوا بتشجيع الأدباء والشعراء بعطاياهم، لم تكن أحسن منها في عهد من سبقهم من أمراء الأمراء. فقد «كثرت المتلصصة ببغداد، وكبست دور المياسير، وخرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه، على انسداد طرقهم، ولو أمنوا لخرج أضعاف من خرج. وغلت الأسعار في جمادى الآخرة غلاء عظيماً، ومات الناس جوعاً ووقع فيهم الوباء، فكانوا يبقون على الطريق أياماً لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم. . وكثر الجراد في هذا الوقت فصاده الناس، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده. وكان نعمة من الله جلّ وعلا. . وغلت الأسعار وعز كل شيء من سائر الأطعمة والملبوس». أضف إلى ذلك وقوع الخلاف بين سيف الدولة الحمداني وتوزون واستيلاء البريديين على الجامدة، ثم وقوع الحرب بين البريديين وأحمد بن بويه على مقربة من البصرة[٣] على أن سوء التفاهم بين الخليفة وبني حمدان لم يحل دون زواج أبي منصور بن المتقي من ابنة ناصر الدولة بن حمدان.

استوزر ناصر الدولة بن حمدان أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني، فلم يكن له من الوزارة إلا اسمها. ويقول الصولي (ص ٢٣٥): «وضيق ناصر الدولة على المتقي لله في نفقاته وعلى أهل داره، وانتزع ضياعه وضياع والدته فجعلها في جملته، واقتصر به على أجزاء يسيرة. . وتحدث الناس عن فعله هذا وصنعه بالخليفة، ما كثر به الشاكي له والداعي

(١) مسكويه جـ ٢ ص ٢٨.
(٢) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله: ص ٢٢٩ ـ ٢٢٩و٢٣١.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٤ ـ ٢٣٧.

عليه، وتمنى الناس بني البريدي وغيرهم مع ما نالهم من الضر والضرائب والغلاء ونكبات الناس وأخذ أموالهم».

وقد علل ميور[١] قصر عهد الحمدانيين في بغداد بهذه العبارة: «إن العرب لم تعد لديهم القدرة على مناوأة العناصر المتبربرة التي أصبحت لها السيادة في بغداد في ذلك الوقت. وإن الجند المرتزقة من الأجانب وقوادهم قد ألفوا منذ زمن طويل الاحترام والطاعة لرؤسائهم من العرب، حتى إننا نرى أن الجند من العرب الذين أهمل شأنهم وطرح بهم في زوايا النسيان، لم يقووا بعد على التماسك والاحتفاظ بشخصيتهم أمام الأتراك الذين مرنوا على الحرب وألفوا حسن النظام». وهكذا لم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء في بغداد أكثر من سنة واحدة، واضطروا إلى العودة إلى الموصل، واستطاع أحد قواد الترك، واسمه توزون، أن يدخل بغداد بعد أن انتصر على البريديين في البصرة وواسط، ولم يستطع الحمدانيون أن يفرضوا نفوذهم على الأتراك في بغداد التي أصبحت مرعى خصيباً للفوضى ومصادرة الأهلين».

٤ ـ توزون ـ ابن شيرزاد:

بذلك مهد ناصر الدولة بن حمدان لدخول توزون بغداد في شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ. وفي ٦ من شوال من هذه السنة خلع الخليفة المتقي على توزون وجعله أمير الأمراء. وكانت سياسة توزون ترمي إلى مصالحة البريديين في واسط والتفرغ لمحاربة الحمدانيين[٢].

على أن البريديين سرعان ما استولوا على واسط، فطردهم توزون منها ثم استولى على تكريت، واتخذ ابن شيرزاد الذي هرب من البريديين كاتباً له على غير رضا من الخليفة، ثم سيره إلى بغداد فدخلها في المحرم سنة ٣٣٢ هـ، فعزم الخليفة على الخروج من حاضرة ملكه برغم نصيحة القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى. ويقول السيوطي (تاريخ الخلفاء ٢٦٢) «فسار المتقي بأهله إلى تكريت، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب والأكراد إلى قتال توزون، فالتقيا بعكبرة[٣]، فانهزم ابن حمدان والمتقي إلى الموصل، ثم تلاقوا مرة أخرى، فانهزم ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين».

---

(١) The Caliphate, p. 573.

(٢) الصولي ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥، ٢٤٧.

(٣) بضم العين وتسكين الكاف وفتح الباء. بليدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد شمالاً عشرة فراسخ.

ولما اتصل بتوزون خبر هرب الخليفة من بغداد وتغيره عليه وعمله على التخلص منه، اتفق مع البريدي وزوجه ابنته ثم سار إلى بغداد، وسار سيف الدولة الحمداني إلى تكريت حيث كان يقيم الخليفة، ولحق به أخوه ناصر الدولة بن حمدان. وعلى مقربة من تكريت وقعت الحرب بين الحمدانيين وبين توزون الذي انتصر عليهم، ثم سار الحمدانيون مع الخليفة إلى الموصل[1].

وقد شجع انتصار توزون على الحمدانيين في تكريت على المسير إلى الموصل لاستخلاصها منهم، وكتب إلى الخليفة يستميله، فلم يصغ إليه لأنه لم يكن يثق به. ثم قصد الحمدانيون بصحبة المتقي إلى نصيبين، ودخل توزون الموصل، فسار الخليفة إلى الرق ولحق به سيف الدولة، وأرسل المتقي إلى توزون كتاباً يعبر فيه عن سخطه عليه لاتصاله بالبريدي، وطلب إليه أن يعقد الصلح مع سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة «فتم الصلح وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم. وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقي عند بني حمدان بالموصل، ثم ساروا عنها إلى الرقة فأقاموا بها[2].

وفي سنة ٣٣٢ هـ علم الإخشيد بما آل إليه أمر الخليفة المتقي، وما كان من خروجه من بغداد ووقوعه في يد الحمدانيين وقد استفحل أمرهم، وتنازع السلطة بين توزون والبريدي وقد قوي بطشهما، فلم يجد بداً من الاستنجاد بمحمد بن طغج الإخشيد في مصر، فحضر إلى الرقة حيث التقى بالخليفة الذي مال إلى مصلحة توزون بعد أن تعهد بحمايته، وعاد الخليفة إلى بغداد، وسار الإخشيد إلى مصر.

ولكن بطانة الخليفة أوغرت صدره من ناحية أمير الأمراء، وشجعته على انتهاج سياسة العداء نحوه. ولا غرو فقد كان توزون يرمي إلى مصالحة ناصر الدولة بن حمدان والخليفة بعد أن تصالح مع البريديين وأمن جانبهم، حتى إذا تم له ذلك تفرغ لمناهضة بني بويه الذين تفاقم شرهم وتزايد خطرهم. وتم الصلح بين توزون وناصر الدولة، ورجع إلى بغداد في الوقت الذي دخل فيه بنو بويه واسط، وجمعوا الضرائب وجبوا الخراج. بيد أن توزون لم يهدأ من ناحية الخليفة الذي كتب إلى بني بويه ودعاهم إلى المسير إلى بغداد وقامت المؤامرات في بغداد لقتل توزون وتمهيد السبيل لدخول بني بويه.

---

(١) الصولي ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥. ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٤. (٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٤.

ولم يدم الصفاء بين توزون والخليفة المتقي بسبب تآمره عليه وعمله على صرفه. فقبض توزون عليه في شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ، ونهب أصحابه عسكره، وأخذ الخاتم من يده، «واستخرج عبد الله بن المكتفي بالله فألبسه ثياباً جاء بها معه ودفع إليه الخاتم. فصار إلى مضرب الأمير، فعقد له الأمر، وكحل[١] المتقي لله، فصاح، فأمر أصحاب الدبادب[٢] فضربوا بها. فصاح فلم يسمع صياحه، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله. فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً»[٣].

يقول السيوطي[٤]: ولما كحل (المتقي) قال القاهر:

صرت وإبراهيم شيخي[٥] عمى   لا بد للشيخين من مصدر
ما دام توزون له إمرة   مُطاعةٌ فالميل في المجمر

وظل المتقي مسجوناً خمساً وعشرين سنة إلى أن مات في شهر شعبان سنة ٣٥٧ هـ.

كانت الدولة العباسية في الوقت الذي خلع فيه المتقي مضطربة، إذ كانت السلطة كلها في يد توزون أمير الأمراء وقد استعان بأبي جعفر بن شيرزاد الذي اتخذه كاتباً له، وتولى الوزارة أبو الحسين علي بن محمد بن مقلة، وتقلد القضاء أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقي، والشرطة ببغداد أبو بكر محمد بن جعفر النقيب، والحسبة رجل يعرف بالأسمر، كما اتخذ أبا العباس أحمد بن خاقان المفلحي حاجباً له، وولي مصر والشام أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد، وولي الحسن بن عبد الله بن حمدان الموصل وديار ربيعة وديار بكر، ونوح بن نصر بن أحمد الساماني بلاد خراسان، وعلي بن بويه فارس والأهواز، وأصبهان الحسن بن بويه[٦] ولما بويع عبد الله بن المكتفي لقب المستكفي بالله، وكان في الحادية والأربعين من عمره، وأمه أم ولد تسمى أملح الناس[٧].

وقد أمدنا مسكويه[٨]، وعنه أخذ ابن الأثير، بمعلومات طريفة عن خلع المتقي وأخذ البيعة للمستكفي، وما كان للأتراك والنساء من أثر في ذلك. ومن ذلك يتبين مبلغ الضعف

---

(١) كناية عن سمل عينيه.
(٢) الدبادب: جمع دبدب وهو الطبل.
(٣) الصولى ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣. ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٩.
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣.
(٥) وردت في السيوطي (ص ٢٦٣) شيخ وهو خطأ.
(٦) الصولى ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣.
(٨) تجارب الأمم: جـ ٢ ص ٧٢ ـ ٧٥.

لذي وصلت إليه الخلافة العباسية والخلاف الذي ساد بين أفراد البيت العباسي، حتى إن ؤلاء كانوا لا يتورعون عن التآمر بعضهم على بعض ابتغاء الوصول إلى الحكم.

وكان الخليفة المستكفي كغيره من الخلفاء الذين سبقوه ألعوبة في أيدي الأتراك، حتى إن توزون الذي أقره الخليفة في منصب إمرة الأمراء «ضم إليه غلاماً تركياً من غلمانه تقف بين يديه»(١). ولا شك أن الدافع الذي حدا بتوزون إلى انتهاج هذه السياسة هو لوقوف على أسرار الخليفة وما يجري في دار الخلافة من أمور.

وفي أوائل عهد المستكفي مات توزون (المحرم سنة ٣٣٤ هـ)، وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهر، فخلفه في إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد.

اختلف المؤرخون في تقدير أعمال شيرزاد: فالصولي يرى أنه كان من أحسن الأمراء سياسة. على أن هذا الأمير لم يكن أقل عنتاً ممن سبقوه، فقد زاد أرزاق الجند من الأتراك والديلم زيادة كبيرة، وصادر الأموال لاسترضائهم، وفرض الأموال الكثيرة على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من الناس، وزادت الضرائب في أيامه زيادة حملت التجار على لهرب من بغداد، وضاعت هيبة الحكومة، وعجز الشرطة عن الضرب على أيدي اللصوص والمفسدين.

ولم تطل خلافة المستكفي بالله، فقد جلس على العرش سنة وأربعة أشهر استبد توزون فيها بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد الذي استخفى بعد أن تقلد إمرة الأمراء ثلاثة أشهر وعشرين يوماً. ثم استولى معز الدولة بن بويه على بغداد.

على أن الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذي أدخله الراضي بإنشاء منصب أمير الأمراء لإقالة الخلافة من عثرتها، بل زادت أحوالها سوءاً. وإن من يستقصي عهد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) والمتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ) والمستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) ـ ذلك العهد الذي انتهى بدخول بني بويه بغداد واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء ـ يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجالات الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء. نعم! قام النزاع بين ابن رائق وأبي عبد الله البريدي صاحب الأهواز، وخرج بجكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء، وعمل

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٤١.

فيهـا إلى أن قتل سنـة ٣٢٩ هـ، ثم دخل ابن رائق بغـداد ولحق بـه منـافسـه أبـو عبـد الله البريدي. وانتهى النزاع بينهما بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقي إلى ناصر الدولـة بن حمدان بالموصل، فقتل هذا ابن رائق حتى لا يقف في سبيله ويحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء. وسرعان ما دخـل ابن حمدان بغـداد بصحبة الخليفـة العباسي، وتقلد أعبـاء هذا المنصب في مستهـل شهـر شعبـان سنـة ٣٣٠ هـ. على أن بغـداد في عهـد الحمـدانيين (٣٣٠ ـ ٣٣١ هـ) لم تكن أحسن حـالاً منها في عهـد من سبقهم من أمـراء الأمـراء. فقـد طردهم منها توزون التركي رئيس الشرطة في شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ، وطارد جيوشهم إلى الموصل؛ وتقلد إمرة الأمراء، وقبض على الخليفة وسمل عينيه (صفر سنة ٣٣٣ هـ) وخلعه وولى بدله المستكفي. ثم مات توزون سنة ٣٣٤ هـ وتولى إمرة الأمراء تـركي آخر هـو ابن شيرزاد صاحب الأمر والنهي في عهد توزون.

والآن ننتقـل إلى الكلام عن عصـر بني بويـه في العـراق، وفي فـارس، وفي الـري وهمذان وأصبهان.

الباب الثالث

عصر بني بويه في العراق

(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)

بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد:

ظهر بنو بويه في عالم التاريخ في أوائل القرن الرابع الهجري من خلال ذلك الغموض الذي اكتنف تاريخهم قبل دلك. وقد نقـل لنا مترجمو حياتهم أقوالاً مختلفة عن أسلافهم. وإن سلسلة نسب هـذه الأسرة مسـألة يحـوطها الشـك، شأن الملوك والأمـراء الذين تـظهر عظمتهم مرة واحدة.

يقول بعض المؤرخين إنهم ينتسبون إلى بهـرام جور أحـد ملوك ساسـان، ويلحقهم بعض آخر بالآلهة كما كان يفعل الرومان في تمجيد أبطالهم، ويقول غيرهم إنهم كانوا من دهماء الناس. ويرى زترشتين[١] أن نسبهم لا يرجع إلى بهرام جور ولكنـه يرجـع إلى كبير وزرائه مهر نرسي. وينسبهم بعض آخر إلى بني ضبة من العرب.

ويقول صاحب الفخري (ص ٢٤٩): «أما نسبهم فيرتفع من بويه إلى واحد من ملوك الفرس، حتى يتصل بيهوذا بن يعقوب بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذلك إلى آدم أبيّ البشر. وليسوا من الديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم»[٢]... فإن جدهم أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم. وكان بويه صياد سمك، وقد كان معز الدولة

---

(١) أنظر لفظ بويه في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) تقع في الجنوب الغربي من بحر قزوين (الخزر أو بحر طبرستان لأنها أكبر البلاد الـواقعة عليـه). وقد فتحت في خلافة عمر بن الخطاب، وخضع أهلها للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنيتهم إلى أن دخل بلادهم الحسن بن على الزيدي الملقب بالأطروش، فأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم على يديه كثير من الأهالي.

بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول: كنت أحتطب الحطب على رأسي»[١].

وتاريخ بني بويه قبل ظهورهم في عالم الدول أشبه بالخرافة، وكان لانتشار التنجيم والطلسمات في ذلك الوقت أثره في التنبؤ بما أضمره لهم القدر من التقدم في معارج الرقي والوصول إلى درجة عظيمة من الملك واستبدادهم بالسلطة دون الخلفاء، حتى خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد بعدما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة. يقول صاحب الفخري (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠) «فكان من مبدأ دولتهم ما حدث شهريار بن رستم الديلمي قال: «كان أبو شجاع بويه في مبدأ أمره صديقاً لي؛ فدخلت عليه وقد ماتت زوجته أم أولاده الثلاثة الذين تملكوا البلاد، وهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد. وقد اشتد حزن أبي شجاع بويه على زوجته، فعزيته وسكنت قلقه، ونقلته إلى منزلي، وأحضرت له طعاماً وجمعت إليه أولاده الثلاثة. فبينا هم عندي إذ مر بالباب شخص يقول: المنجم المعزم، مفسر المنامات، كاتب الرقي والطلسمات؛ فاستدعاه أبو شجاع بويه وقال له: قد رأيت البارحة رؤيا فسرها لي، ثم قص عليه الرؤيا، فقال المنجم: هذا منام عظيم ولا أفسره إلا بخلعة وفرس؛ فقال له بويه: والله ما أملك غير الثياب التي على جسدي، وإن أعطيتك إياها بقيت عرياناً. فقال المنجم: فعشرة دنانير، فقال له بويه: والله ما أملك دينارين فكيف عشرة؟ ثم إنه أعطاه شيئاً يسيراً، فقال المنجم: أعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم في الآفاق، ويولد لهم جماعة ملوك؛ فقال له بويه: أما تستحي تسخر بنا! أنا رجل فقير مضطر وأولادي هؤلاء فقراء مساكين، فمن أين هم والملك؟ فقال له المنجم: فأخبرني عن وقت ولادة واحد واحد من أولادك، فأخبره بويه ذلك، فجعل ينظر في أصطرلابه وتقاويمه، ثم نهض المنجم وقبل يد عماد الدولة أبي الحسن علي وقال: هذا والله الذي يملك البلاد؛ ثم يملك هذا من بعده، وقبض على يد أخيه أبي علي الحسن، فاغتاظ منه أبو شجاع بويه وقال لأولاده: اصفعوه فقد أفرط في السخرية بنا، فصفعوه ونحن نضحك منه فقال المنجم: لا بأس بهذا إذا ذكرتم لي هذا الحال عند ولايتكم؛ فأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف».

---

(١) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٥٦) أن معز الدولة كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وإخوته الثلاثة البلاد، وكان أصغر إخوته.

بنو بويه(1)

١ - في فارس

	هجرية	ميلادية
١ عماد الدولة (أبو الحسن علي)	٣٢٠ *	٩٣٢
٢ عضد الدولة (أبو شجاع خسرو)	٣٣٨ *	٩٤٦
٣ شرف الدولة (أبو الفوارس شيرزاد)	٣٧٢ *	٩٨٢
٤ صمصام (أبو كالينجار المرزبان)	٣٧٩ *	٩٨٩
٥ بهاء الدولة (العراق)	٣٨٨ *	٩٩٨
٦ سلطان الدولة (أبو شجاع)	٤١٣ *	١٠١٢
٧ عماد الدولة (أبو كاليجار المرزبان)	٤١٥ *	١٠٢٤
٨ أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم)	٤٤٠ - ٤٤٧ *	١٠٤٨ - ١٠٥٥

* (هذه العلامة تدل على أنه كان يحكم بلاد العراق أيضاً)

٢ - في العراق والأهواز وكرمان

	هجرية	ميلادية
١ معز الدولة (أبو الحسين أحمد)	٣٢٠	٩٣٢
٢ عز الدولة (بختيار)	٣٥٦	٩٦٧
٣ عضد الدولة (في فارس)	٣٦٧	٩٧٧
٤ شرف الدولة (في فارس)	٣٧٢	٩٨٢
٥ بهاء الدولة أبو نصر (فيروز)	٢٧٩	٩٨٩
٦ سلطان الذ ولة (في فارس)	٤٠٣	١٠١٢

(١) أنظر كتاب Stanley Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, pp.141.4 حيث نقلنا هذه الجداول التي تبين مدى نفوذ بني بويه في فارس، وفي العراق والأهواز وكرمان، وفي الري وهمذان وأصبهان.

ولايات منقسمة في العراق

	هجرية	ميلادية
١ مشرف الدولة	٤١١	١٠٢٠
٢ جلال الدولة	٤١٦	١٠٢٥
٣ عماد الدولة (في فارس)	٤٣٥	١٠٤٣
٤ أبو نصر خسرو فيروز (في فارس)	٤٤٠ ـ ٤٤٧	١٩٤٨ ـ ١٠٥٥

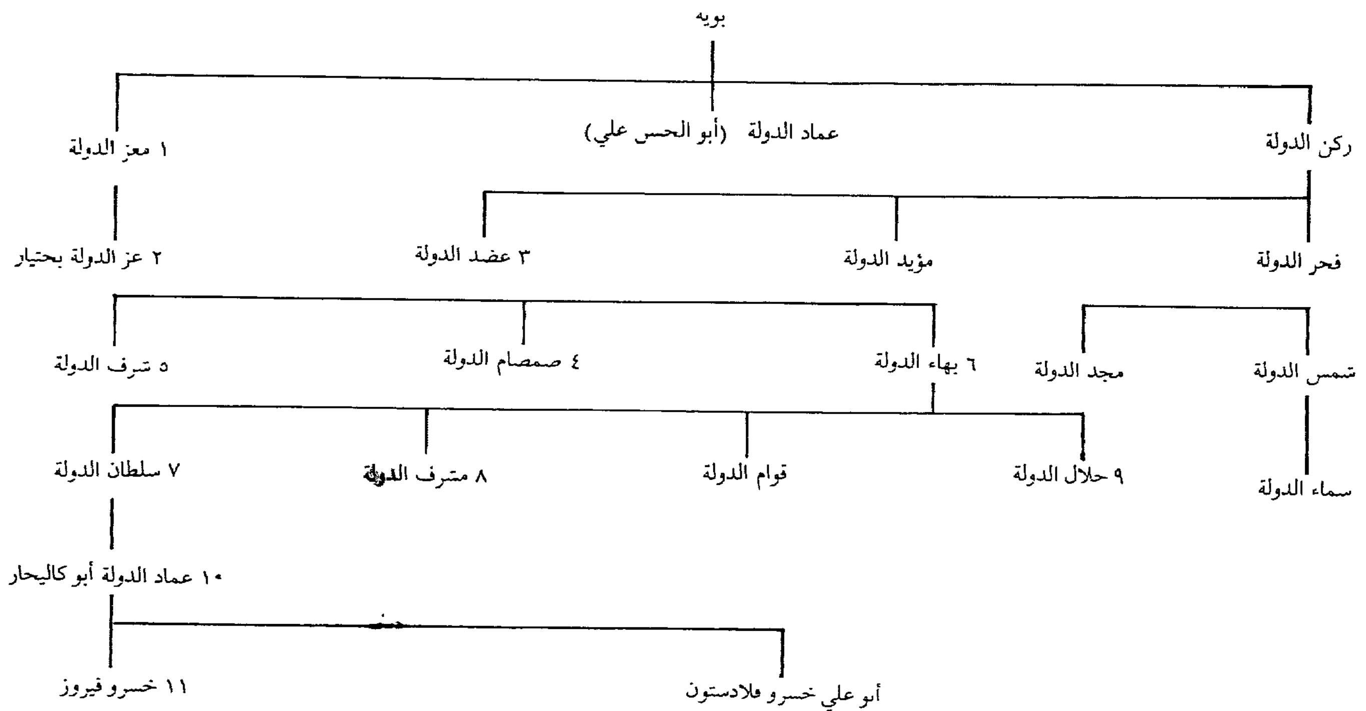
كرمان

	هجرية	ميلادية
١ قوام الدولة (أبو الفوارس)	٤٠٣	١٠١٢
٢ عماد الدولة (في فارس)	٤١٩	١٠٢٨
٣ أبو منصور فلادستون	٤٤٠ ـ ٤٤٨	١٠٤٨ ـ ١٠٥٦

٣ ـ في الري وهمذان وأصبهان

	هجرية	ميلادية
١ ركن الدولة أبو علي حسن	٣٢٠	٩٣٢
٢ مؤيد الدولة أبو منصور (أصبهان فقط)	٣٦٦ ـ ٣٧٣	٩٧٦ ـ ٩٨٣
٣ فخر الدولة أبو الحسن علي (ضم أصبهان سنة ٩٧٣)	٣٦٦	٩٧٦
٤ مجد الدولة أبو طالب رستم (عزله محمود الغزنوي)	٣٧٨ ـ ٤٢٠	٩٩٧ ـ ١٠٢٩
٥ شمس الدولة أبو طاهر (همذان فقط)	٣٨٧	٩٩٧
٦ سماء الدولة أبو الحسن (عزله ابن كاكويه)	٤١٢ ـ ٤١٤	١٠٢١ ـ ١٠٢٣

جدول يمثل تسلسل أمراء بني بويه في الحكم



دخل بنو بويه في زي الأجناد. وسرعان ما ارتقى علي بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمراء في جيش مـاكان بن كالي. فلما قام النزاع بينه وبين مرداويج بن زيار، الذي حرج على أسفار بن شيرويـه، واستولى على كـل بلاد جـرجان وطبـرستان وقـزوين وزنجان وقم والكرج[١]، زاد نفوذه حول سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م)، وتحبب إلى الرعبة فأحبته، وعمـل له سريراً من ذهب يجلس عليه، وسريراً من الفضة يجلس عليه أكابر قواده. وامتـدت سلطته إلى حدود العراق، وأسس الدولة الزيارية، وأراد أن يستولي على بغداد «وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب» (الفخري ص ٢٥١).

ولما رأى أولاد بويه أن كفة مرداويج آخذة في الرجحان انحازوا إليه، وسر مـرداويج أول الأمر بانحيازهم، وولى علي بن بويه بلاد الكرج[٢]. إلا أن مرداويج لم يلبث أن خشي خطرهم فأعاد إلى الخليفة مدينة أصبهان التي كان قد فتحها أحمد بن بويه باسمه، وجلب على نفسه بذلك عداوة البويهيين[٣]، ثم أرسل إلى أخيـه وشمكير في الـري يأمـره بصرف أولاد بويه إذا ما وصلوا إليه، فصرفهم إلا علي بن بويه لما رآه فيه من الكرم وحسن التدبير، وسـاعده على الخـروج سـراً أبـو عبـد الله الحسين بن محمـد الملقب بـالعميـد والـد أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة المشهور. ومضى علي بن بويه إلى بلاد الكرج وآل إليه حكمها[٤].

على أن الجو لم يصف لعلي بن بويه، فقد عول مرداويج على طرده من بلاد الكرج وأرسل جيشاً كبيراً لإخراجه منها، فقصد أصبهان، فلم يحسن صاحبها المـظفر بن يـاقوت لقاءه، فاضطر إلى محاربته وانتصر عليه، واضطر إلى الهرب إلى فارس التي كان يليها أبوه ياقوت، وانضم إليه أربعمائة من الديلم. فبلغ عدد جنده سبعمائة[٥]. ثم علم علي بن بويه بمسير وشمكير إليه، فقصد مدينة أرجان الكبيرة وتقـع على بعد ستين فـرسخاً من كـل من شيراز والأهواز، واستخرج خراجها الذي بلغ ألفي ألف درهم. ثم خـاف أن يجتمع عليـه مرداويج ووشمكير، فسار إلى إصطخر وانتصر على المظفر بن ياقوت، ثم دخل شيراز سنة ٣٢٢ هـ[٦].

---

(١) بفتح أوله وثانيه مدينة بين همذان أو أصبهان.
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٠٠.
(٣) أنظر لفظ بويه في دائرة المعارف الإسلامية.
(٤) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٧٨.
(٥) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٣ حيث نرى اختلافاً في هذا العدد.
(٦) مسكويه: تجارب الأمم ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

بعد ذلك أخذ علي بن بويه يعمل على كسب رضا مرداويج. فتملق ثانية، وأقام الخطبة له وأهدى إليه كثيراً من الطرف، وأنفذ إليه أخاه الحسن بن بويه رهينة، فقلده أرجان[١]. ثم تبع دلك قتل مرداويج (سنة ٣٢٣ هـ)، فاطمأن علي بن بويه من جهته، ولم يبق أمامه إلا القضاء على مناوأة ياقوت الذي عاد إلى الظهور، واتفق مع أبي عبد الله البريدي على طرده من شيراز، ثم أحل به الهزيمة بنواحي أرجان، ودانت له بلاد فارس بالطاعة، وعقد الصلح مع البريدي، ثم أرسل إلى الخليفة الراضي يطلب اعترافه بسلطانه في فارس، فتم له ما أراد.

ولم يكن علي بن بويه (عماد الدولة) هو وحده الذي سما إلى قمة المجد والعظمة من أولاد أبي شجاع بويه، فقد كان فر أخوه ركن الدولة الحسن الذي كان رهينة عند مرداويج بعد قتله، واستولى على أصبهان والري وهمذان وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له[٢]، كما نازع أحمد بن بويه (معز الدولة) علي بن العباس على ولاية كرمان[٣] وانتصر عليه. ولكنه تركها له ملبياً دعوة أخيه علي بن بويه لمعاونة البريدي على ابن رائق (سنة ٣٢٦ هـ)، واستولى على الأهواز، ثم دعاه الخليفة المتقي إلى دخول بغداد حين ساءت العلاقة بينه وبين توزون، فسار إليها في سنة ٢٣٢ هـ، ولكن توزون هزمه قبل أن يصل إليها[٤].

معز الدولة (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ):

خلع مرداويج على أولاد بويه على ما تقدم، وتمكن علي بن بويه من مد سلطانه من بلاد الكرج إلى الأهواز؛ وتولى أخوه السلطة في كل جهات فارس الجنوبية، ثم كاتبه قواد بغداد وطلبوا إليه المسير إليهم والاستيلاء على هذه المدينة، فقابله الخليفة المستكفي واحتفى به، وخلع عليه، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، ولقب أخاه الحسن

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٠٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٣) يفتح أوله وقد يكسر. وسكون ثانية وآخره نون. ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان تقع مكران شرقيها ومكران غربيها وخراسان شماليها وبحر فارس جنوبيها. وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي. تشبه البصرة في وفرة خيراتها.

(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ١١٩ - ١٢٠و١٤٤ - ١٤٥.

ركن الدولة، «وضرب ألقابهم على السكة، ولقب المستكفي إمام الحق وضرب ذلك على السكة»[(١)].

وقد أصبح بنو بويه في عهد هؤلاء الخلفاء مطلقي التصرف في العراق، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم فإن معز الدولة لما دخل بغداد فكر في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها. ولكنه عدل عن هذه السياسة لما قد يتعرض له سلطانه من خطر، بسبب وجود خلافة علوية، يطيعها الجند، ويعترف بها الديلم، ويكونون أداة في يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء.

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٢٦) أن معز الدولة أهان الخليفة المستكفي وقبض عليه وسمل عينيه، وأجلس المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) على عرش الخلافة، وحدد له ألف درهم في اليوم، ثم قطع ذلك الراتب بعد أن فتح البصرة وحدد له إقطاعات يسيرة يعيش منها، كما عين له كاتباً يتصرف في شئونها. ولم يكن هذا كل ما قام به معز الدولة لتقوية نفوذه وإضعاف سلطة الخليفة، فقد عين ابنه بختيار أميراً للأمراء في سنة ٣٣٤ هـ[(٢)].

وكان لسياسة بني بويه أسوأ الأثر في العراق، فقد قامت الفتن الطائفية، وثار الجند كل في وجه الآخر، وانتشرت الفوضى وعم الاضطراب، وساد الفزع قلوب الأهلين، وأدى تعصب بني بويه للشيعة إلى إرغام السنيين على الاشتراك في أعياد الشيعيين.

ولم تقتصر سياسة معز الدولة على الحد من نفوذ الخليفة العباسي في بغداد، بل عمل أيضاً على إقرار نفوذه في البلاد التابعة للدولة العباسية. فتراه يعمل على إضعاف الحمدانيين في الموصل، ويرسل إليها في سنة ٣٣٤ هـ جيشاً لمحاربة ناصر الدولة بن حمدان الذي انتهز فرصة خروج معز الدولة بصحبة الخليفة المطيع، واستولى على بغداد. وسار معز الدولة إلى تكريت، وكانت تحت نفوذ الحمدانيين، ونهبها، وعاد بصحبة الخليفة إلى بغداد ونزلا بالجانب الشرقي، وكان ناصر الدولة وابن شيرزاد قد نزلا بالجانب الغربي منها. ثم قامت الحرب بين الفريقين في بغداد، وحاول أنصار الدولة دون وصول الميرة إلى جند معز الدولة، وإبطال السكة التي تحمل اسم الخليفة المطيع، وضرب السكة باسم المتقي على

(١) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٥٦) أنه كان يقال له الأقطع. لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٥٨.

النحو الذي ضربت به في سنة ٣٣١ هـ، واستمرت الحرب أربعة أشهر استقر بعدها معز الدولة ببغداد، وسار ناصر الدولة إلى عكبرة[١].

كذلك عمل معز الدولة على إخضاع البريديين لسلطانه حتى يصفو له الجو في بلاد العراق، فعول على انتزاع البصرة من أبي القاسم البريدي، وصحب معه الخليفة المطيع، وكان أبو القاسم البريدي قد هرب إلى هجر قاعدة القرامطة الأساسية[٢].

تربع معز الدولة بن بويه على دست السلطنة في بغداد اثنتين وعشرين سنة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) استأثر فيها بالسلطة دون الخليفة الذي لم يعد له من الخلافة إلا اسمها، ومد نفوذه على جميع بلاد العراق وخطب له في عمان وكانت علاقته بأخويه عماد الدولة علي في فارس وركن الدولة حسن في الري وهمذان وأصبهان تقوم على أساس متين من المودة والصفاء. وما زال معز الدولة يعمل على تحقيق سياسته حتى اعتراه المرض الذي مات منه وهو في طريقه لحرب صاحب البطائح على مقربة من البصرة، فسار إلى واسط ومنها إلى بغداد حيث وافته منيته في شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ، وهو في الثالثة والخمسين من عمره، فخلفه ابنه منصور بختيار الذي تلقب بلقب عز الدولة، وكان أبوه قد عهد إليه بالسلطنة من بعده حين شعر بدنو أجله.

بختيار (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ):

وكان معز الدولة بن بويه ملماً بأحوال الدولة العباسية، فعمل على دفع الخطر عنها، وأمن شر أعدائه البريديين والحمدانيين وغيرهم كما تقدم. فلما شعر بدنو أجله أوصى ابنه عز الدولة بختيار باليقظة والتحرز من ناحية أعدائه، وخاصة من ناحية الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من جنده، وأن يجريهم على أرزاقهم، كما أوصاه بمداراة الديلم ليكتفي خطرهم، وبطاعة عمه ركن الدولة والرجوع إليه في الأمور الهامة، وطاعة ابن عمه عضد الدولة لأنه أكبر منه سناً وأكثر منه تجربة وأحذق بالسياسة، كما أوصاه بإقرار كاتبيه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس لإخلاصهما وكفايتهما.

ولكن بختيار لم يعبأ بنصائح أبيه ولم يسر على وفق السياسة التي رسمها له، بل انصرف إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء، وأثار سخط كاتبيه وفرق بينهما وطمع في إقطاعات كبار حاشيته وخاصة سبكتكين. وكان معز الدولة يثق به ويعتمد عليه، فأشار على

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٢. ١٦٣. ١٦٧. (٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١١٢.

بختيار ألا يقطع أمراً دونه لحسن سياسته وتمكن هيبته من قلوب الجند. ولم يكتف بختيار بهذا بل أخذ يناوىء ابن عمه عضد الدولة وترك استشارة عمه ركن الدولة، ونفى كبار الديلم طمعاً في أموالهم.

ولما رأى سبكتكين انصراف بختيار عنه وطمعه في إقطاعاته وأمواله، «انقبض عنه، فصار لا يركب إليه ولا يثق به، واقتصر على التراسل على أيدي المتوسطين. وكان لسبكتكين أصحاب أخبار في المعسكر، وفي دار بختيار خاصة، وله عيون وجواسيس من خاصة حاشيته وبطانته، فكان لا يخفى عليه شيء من حركاته»[١]. وفي عهد بختيار استولى الفاطميون على مصر في سنة ٣٥٨ هـ، وقطعت الخطبة للخليفة العباسي، وذكر اسم الخليفة الفاطمي محله.

وسرعان ما عزل بختيار الخليفة المطيع وولي الطائع الخلافة، واضطربت أمور الدولة: فالشيعة في نزاع متصل مع أهل السنة، والجند من الأتراك والديلم وغيرهم يلحون في طلب أرزاقهم، وأصحاب الإقطاعات التي اغتصبها بختيار حانقون ساخطون يتربصون الدوائر للنيل منه. ولم يـر بختيار بـداً من الاستنجاد بعمه ركن الدولة في الري وهمذان وأصبهان وابن عمه عضد الدولة في فارس، كما كتب إلى أبي تغلب بن حمدان يطلب معونته. وكان من أثر تفاقم العلاقة بين بختيار من ناحية وبين سبكتكين والخليفة الطائع من ناحية أخرى، أن قامت الحرب بين الفريقين في المحرم سنة ٣٦٤هـ[٢].

لذلك لم ير بختيار بداً من الاستنجاد بابن عمه عضد الدولة الذي لم يرع لابن عمه حرمة لأنه كان شديد الرغبة في الاستئثار بالسلطة في بغداد. واتصل سراً بجند بختيار وشجعهم على طلب أرزاقهم، وحث بختيار من ناحية أخرى على مقاومتهم والضرب على أيديهم، واتخذ من حقد الخليفة الطائع وكراهته ليختار فرصة للوصول إلى السلطة[٣].

وضعف شأن بختيار الذي عزله جنده من الأتراك بإيعاز عضد الدولة، الذي استقرت قدمه ببغداد وقبض على ابن عمه بختيار (سنة ٣٦٤ هـ)، وكتب إلى والده ركن الدولة يخبره بذلك، فأنكر عليه غاية الإنكار، وكتب إليه يهدده بالمسير إليه إن لم يرد ابن عمه إلى

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٣٥.
(٢) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٣٢.
(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٤٤.

ولايته، فأطلقه عضد الدولة إلى ولايته بعد أن استحلفه على أن يكون نائباً عنه بالعراق وألا يخالف له أمراً، ثم توجه إلى فارس. وكان من أثر ذلك أن تزوج الخليفة الطائع لله بنت بختيار على صداق قدره مائة ألف دينار. ولما توفي ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ، قصد عضد الدولة العراق وحارب بختيار في واسط، وانتصر عليه وأرغمه على الفرار من بغداد؛ فقصد الحمدانيين في الموصل، واستعان بأبي تغلب بن حمدان، والتقى الجيشان بنواحي تكريت. ولكن الهزيمة حلت ببختيار، وأسر وسيق إلى بغداد، فقتله عضد الدولة(١).

كان بختيار ـ على وصفه أبو العميد(٢) ـ «ملكاً شهماً جلداً قوي الجسم والقلب، فيقال إنه كان يصرع الثور بيديه من غير أعوان ولا حبال (في الأصل والأحبال)، يقبض على قوائمه ويطرحه على الأرض. وكان يبرز (بضم الياء) للأسود ويصيدها (في الأصل ويصيدهم)، وكان كريماً شجاعاً».

عضد الدولة(٣) ـ صمصام الدولة:

بذلك صفا الجو لعضد في الدولة العراق في سنة ٣٦٧ هـ وخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية وتوجه وطوقه وسوده، وعقد له لـواءين بيده، وولاه ما وراء بابه(٤). ولكن العلاقة لم تلبث أن تبدلت بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة الذي أمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين وحمله على ضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات في اليوم: في وقت الصبح والمغرب والعشاء، وأن يخطب له على منابر بغداد؛ مع أن ذلك من الأمور التي انفرد بها الخليفة دون غيره(٥).

ونقرأ في ابن العميد في حوادث سنة ٣٦٨ هـ أن عضد الدولة استولى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار بكر وديار مضر، وهرب أبو تغلب الحمداني إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمي، وأن الخليفة الطائع أمر «بأن يخطب للملك عضد الدولة ببغداد في خطبة الجمعة، وأن يضرب على باب عضد الدولة بالدبادب في أوقات الصلوات الخمس، كما تقرأ أن عضد الدولة أول من خوطب بالملك في الإسلام، وأنه كان يخطب له على

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤و٢٥٠. (٢) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦.

(٣) كان عضد الدولة يسمى أبا شجاع فناخسرو، فلما نزل عمه عماد الدولة إليه عن فارس واستولى أبو شجاع عليها بعد موته تلقب بلقب عضد الدولة. ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٦.

(٤) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٣٥. (٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠.

المنابر بشاهنشاة لأعظم ملك الملوك. ولم يبلغ أحد من أمراء بني بويه ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك وبسطة السلطان، حتى دان له سائر أمراء بني بويـه. وامتد سلطانـه ـ كما يقول ابن العميد ـ على «بغداد والعراق وكرمان وفارس وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحران ومنبج»[١].

قال أمدروز[٢]: «إن قوة بني بويه قد تسنمت غاربها في عهد عضد الدولة، وإن قصره كان محط كبار رجال العلم والأدب، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب، ومنهـا كتاب الإيضاح والتكملة في النحو الذي صنفه له الشيخ أبو علي الفارسي، وكتاب التاجي في أخبار بني بويه لأبي إسحاق الصابي. كما أقام البيمارستانات، ومن أشهرها البيمارستان العضدي ببغداد الذي يقول فيه ابن خلكان[٣]: «ليس في الدنيا مثـل ترتيبـه، وأعد لـه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه».

بيد أن عضد الـدولة، على الـرغم مما اشتهـر به من حسن السيـاسة، رمي بـالقسوة وسفك الدماء والغدر بمن أمنه[٤] ومما يدل على اغتراره بنفسه واعتزازه بقوته قوله وهو على فراش الموت:

قتلت صنـاديـد الـرجـال فلم أدع   عـدواً ولم أهمل على جيشـه خلقـا
وأخليت دور الملك من بعد عزمهم   فشـردتهم غربـاً وبـددتهم شـرقـا[٥]

وقد وصفه علماء عصره فقال أحدهم[٦]: «لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها وأعطاها فوق قيمتها، وطلب الربح فيها فخسر روحه فيها. وقال الثاني: استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم فيها فهذا انتباهه. وقال الثالث: ما رأيت عاقلاً في عقله ولا غافلاً في غفلته مثله. لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مبرم ويغرم وهو يظن أنه غانم. وقال الرابع: من جد للدنيا هزلت به ومن أهزل راغباً عنها جدت له. وقال الخامس: ترك هذه الدنيا شاغرة ورحل

---

(١) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩.

(٢) Amedroz, Three Years of Buwaihid Rule of Baghdad. J.R. A. S. (1901), p. 779.Le Strange: Baghdad During the abbasid Caliphate. p.234 et Seq.

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٨.

(٤) أبو شجاع جـ ٣ ص ٤٢و٥٦.

(٥) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٣٩.

(٦) أبو شجاع جـ ٣ ص ٧٥ ـ ٧٧.

عنها بلاد زاد ولا راحلة. وقال السادس: إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف. وقال السابع: إنما سلبك من قدر عليك وقال الثامن: أما أنه لو كان معتبراً في حياته لما صار عبرة في مماته. وقال التاسع: الصاعد في درجات الدنيا إلى إسفال، والنازل في درجاتها إلى تعال. وقال العاشر: كيف غفلت عن هذا الأمر حتى نفذ فيك؟ وهلا اتخذت دونه جنة تقيك؟ إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين».

توفي عضد الدولة في الثامن من شهر شوال سنة ٣٧٢، وله من العمر سبعة وأربعون سنة وأحد عشر شهراً، وحمل إلى مشهد الإمام علي بن أبي طالب. وكانت ولايته خمس سنين ونصف سنة، استبد فيها بالسلطة، وأمن شر أعدائه في الداخل والخارج، ووطد دعائم سلطانه فنشر العدل وشجع العلماء وعني بالعبارة على ما رأينا.

ولما مات عضد الدولة خلفه ابنه أبو كاليجار المرزبان، الذي بايعه الأمراء والقواد ولقبوه صمصام الدولة[١]، ولقبه الخليفة الطائع شمس الملة[٢] «وخلع عليه الخلع السبع والعمة السوداء، وسور وطوق وتوج، وعقد له لواءان وحمل على فرس بمركب ذهب وقيد بين يديه مثله، وقرىء عهد بتقليده الأمور فيما بلغت الدولة (العباسية) من جميع الممالك. . . وجددت له البيعة، وأطلق رسومها وأقيمت الدعوة وغيرت السكة».

ويظهر أن العلاقة بين الخليفة الطائع وصمصام الدولة كانت تنطوي على شيء من المودة والصفاء. على أن النزاع لم يلبث أن قام بين صمصام الدولة وأكبر إخوانه شرف الدولة، وكان يمتد نفوذه على أصبهان والري وشيراز وغيرها[٣] وقد عزم على أخذ بلاد العراق، وتسلسل إليه جنود صمصام الدولة ودخلوا في طاعته[٤].

وقد أدرك صمصام الدولة حرج مركزه ورأى عجزه عن مناهضة أخيه، فأرسل إليه يطلب الصلح. ولكن هذا الصلح لم يتم. ففي سنة ٣٧٦ هـ. سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط فاستولى عليها، ولما استشار صمصام الدولة أصحابه نصح له بعضهم بالمسير إلى الموصل وبلاد الجبل حيث تتاح له فرصة مقاومة أخيه شرف الدولة وإحداث الشقاق بين

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٧١.
(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٤٢.
(٤) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٢١.

أنصاره من الديلم والأتراك، وأشار بعضهم الآخر بمكاتبة عمه فخر الدولة وطلب النجدة منه والمسير إلى قرميسين[١]، ثم إلى أصبهان وفارس والاستيلاء على خزائن شرف الدولة في أثناء غيبته، ومن ثم يضطر هذا إلى العودة إلى فارس وطلب الصلح من جديد[٢] بيد أن صمصام الدولة لم يأبه لتلك النصائح وقصد أخاه في بعض خاصته، فأحسن لقاءه، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه، ثم صحبه إلى بغداد ونزل بقصر الشفيعي.

على أن وصول شرف الدولة إلى بغداد لم يضع حداً للنزاع الذي قام بينه وبين أخيه، فقد دب الشقاق بين الأتراك والديلم، وتمت الغلبة لهؤلاء فنادوا بعودة صمصام الدولة إلى السلطنة. ولكن شرف الدولة هدد بقتل أخيه، وتمكن من توحيد صفوف الأتراك والديلم، وأرسل أخاه إلى فارس فاعتقل في إحدى قلاعها[٣] بعد أن حكم في العراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

شرف الدولة ـ بهاء الدولة:

ولما استقرت إمارة شرف الدولة بن عضد الدولة في العراق، قدم بغداد فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر، وطوقه وسوره وكتب له عهداً وولاه ما وراء بابه، وعقد له لواءين، ولقبه شاهنشاه[٤].

وكانت سياسة شرف الدولة ترمي إلى التودد إلى أخيه صمصام الدولة، حتى إنه أنكر على الشعراء تعريضهم به في قصائدهم التي أنشدوها حين هنئوه بالسلطنة[٥]. ولكن بعض رجال حاشيته ما زالوا يوغرون صدره على أخيه ويخوفونه من خروجه عليه، حتى إنه اعتقله في إحدى قلاع فارس[٦].

وقد عمل شرف الدولة على تحقيق العدل بين الناس «ورفع أمر المصادرات وقطع أسبابها وذم طرق السعايات وسد أبوابها... وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام. وطالب

(١) بفتح القاف وكسر الميم، بلد بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً، يقع بالقرب من دينور كما يقع بين همذان وحلوان على جادة الحاج.

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧ ـ ١٨.

(٣) أبو شجاع: جـ ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

(٤) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٤١.

(٥) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٣٤.

(٦) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٢.

العمال بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات. ووجد الأسعار متزايدة والأقوات متعذرة، فرتب نقل الغلات من بلاد فارس في البحر وجد في حملها من كل بلد»(١).

قلد شرف الدولة أحد رؤساء البطيحة أميراً عليها ولقبه مهذب الدولة. وكانت البطيحة أرضاً واسعة بين واسط والبصرة غمرتها مياه دجلة والفرات منذ أيام كسرى أبرويز، فتبطح الماء في تلك الجهات فرحل أهلها عنها. ثم جاء الإسلام وتغلب الماء على النواحي المجاورة، حتى كانت السفن تسير فيها، وبنوا القرى في المرتفعات التي يغمرها الماء وزرعوا الأرز في بعض أرضها. ثم تمكن أهل هذه الجهات في أوائل عهد بني بويه من أن يؤمروا عليهم أميراً منهم، وتحصنوا بالمياه والسفن، وخرجت هذه الجهات عن طاعة الدولة العباسية.

ويقول ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨ ـ ١٩) إن مهذب الدولة أحسن السيرة وبذل الخير والإحسان، فقصده الناس وأمن عنده الخائف، وصارت البطيحة معقلاً لكل من قصدها واتخذها الأكابر وطناً، وبنوا فيها الدور الحسنة ووسعهم بره وإحسانه، وكاتب ملوك الأطراف وكاتبوه، وزوجه بهاء الدولة ابنته، وعُظم شأنه إلى أن قصده القادر بالله فحماه، وبقي عنده إلى أن أتته الخلافة.

وقد قامت المنافسة بين شرف الدولة وبين عمه فخر الدولة. لذلك نراه يرسل مقدم عسكره أو قائد قواده، ويسمى فراتكين الجهشياري، لقتال بدر بن حسنويه في بلاد الجبل لميله إلى عمه. وعلى الرغم من كثرة عدد جند شرف الدولة وإحرازه النصر والظفر أول الأمر، أحل بهم بدر الهزيمة، ثم استولى على بلاد الجبل وما والاها، وأصبح خطراً يهدد بلاد العراق(٢).

ولم يطل عهد شرف الدولة، فمات في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ هـ، بعد أن حكم ببغداد سنتين وثمانية أشهر(٣) ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره. وكان قد عهد

---

(١) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤١.

(٣) يلاحظ أن ستانلي لينبول أغفل حكم صمصام الدولة في العراق من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٦ هـ، وجعل سلطنة شرف الدولة في العراق من سنة ٣٧٢ هـ إلى سنة ٣٧٩ هـ، على حين أنه لم يحكم في العراق إلا سنتين وتسعة أشهر (٣٧٦ ـ ٣٧٩ هـ).

قبل وفاته إلى أخيه أبي نصر، والذي قبل ذلك بعد تردد، لاضطراب حبل إمارة بني بويه في العراق، وجلس للعزاء وركب الخليفة الطائع للعزاء كذلك، فتلقاه بهاء الدولة وقبل الأرض بين يديه [١].

وبعد خمسة أيام من وفاة شرف الدولة، ركب أبو نصر إلى دار الخلافة، فخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية، ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة، وقرىء عهده بين يديه بالتقليد [٢].

أقر بهاء الدولة أبا منصور بن صالحان وزير شرف الدولة في الوزارة، ثم استوزر أبا نصر خواشاذة وخلع عليه، وأقر أصحاب الدواوين وغيرهم من الموظفين في مناصبهم. وتمكن بما أوتيه من الدهاء من القبض على الأمير أبي علي ابن أخيه شرف الدولة وقتله ليصفو له الجو، كما تمكن من استمالة الأتراك الذين التفوا حوله. ولما قامت الفتنة بين الأتراك والديلم في مستهل إمارته، انضم بهاء الدولة إلى الأتراك، واستطاع بذلك أن يضعف من نفوذ الديلم [٣].

بيد أن استمالة بهاء الدولة الأتراك إليه وإضعاف نفوذ الديلم لم يضع حداً للمصاعب التي قامت في وجهه، فقد واجه صعوبة لا تقل خطراً من خارج بلاد العراق. فإن فخر الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان طمع في الاستيلاء على بلاد العراق بعد موت شرف الدولة، وشجعه على تحقيق هذه السياسة وزيره الصاحب بن عباد الكاتب المشهور، الذي كان يرنو ببصره إلى بغداد والجلوس على دست الوزارة فيها، ويترقب الفرص للوصول إلى غايته، وأيقن أن الفرصة قد سنحت له بموت شرف الدولة[٤].

ولما علم بهاء الدولة بنبأ وصول فخر الدولة إلى الأهواز عول على القضاء على جيوشه قبل أن يصل إلى بغداد، والتقى الجيشان بالقرب من خوزستان، وتم النصر لبهاء الدولة الذي سار بعد ذلك إلى واسط والبصرة[٥]، وبعث بجيوشه إلى أرجان، فاستولى على قلعتها المنيعة، وكان بها من العين ألف ألف دينار ومن الورق ثمانية آلاف ألف[٦].

---

(١) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٥٠ ـ ١٥٢، ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٣.
(٢) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٥٣. ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٤١.
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣.
(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ١٦٣ ـ ١٧٤.
(٥) أبو شجاع ج ٣ ص ١٦٦ و١٦٩.
(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٨.

والآن نعود إلى الكلام على صمصام الدولة الذي بعث به أخوه شرف الدولة إلى فارس واعتقله في إحدى قلاعها سنة ٢٧٦ هـ، فنقول إنه تمكن من الهرب من معتقله، وانتصر على جيش أخيه بهاء الدولة على مقربة من شيراز سنة ٣٨٠ هـ، وتم الصلح بينهما على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق، وحلف كل منهما لصاحبه على الوفاء، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز [١].

على أن هذا الصلح لم يطل أمده، فإن بهاء الدولة عمل على الاستيلاء على فارس، وقابل صمصام الدولة هذا العمل باستيلائه على خوزستان في سنة ٣٨٣ هـ، وعلى الأهواز في سنة ٣٨٥ هـ. وساعده على ذلك موت نائب بهاء الدولة بها ورغبة جنده من الأتراك في العودة إلى بغداد. كما استولت جيوش صمصام الدولة على البصرة (٣٨٦ هـ)، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إحراز النصر النهائي لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة. وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، على أن يخطب في البصرة لكل من صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة، ولم ينجل الصراع الذي قام بين صمصام الدولة وبهاء الدولة إلا بقتل أولهما في سنة ٣٨٨هـ[٢].

وسرعان ما ساءت العلاقة بين بهاء الدولة والخليفة الطائع، ولم يستفد الخلفاء العباسيون من سياسة بني بويه الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يستمدون نفوذهم من الخليفة ويتمتعون برضاه ليكتسبوا رضاء العامة. فقد قبض بهاء الدولة على الخليفة الطائع وخلعه، وبايع القادر بالله في سنة ٣٨١ هـ. وقد عزا السيوطي[٣] ذلك إلى أن الخليفة حبس أحد خواص بهاء الدولة. ولكن الواقع أن السلطان البويهي طمع في أموال الخليفة وأرسل إليه يسأله الإذن في الحضور ليجدد العهد له. فأذن له الخليفة وجلس له كما جرت العادة. فدخل بهاء الدولة في جمع كثير، ثم قبل الأرض وجلس على كرسي، ودخل أحد الديلم وتظاهر بأنه يريد أن يقبل يد الخليفة. ثم جذبه وأنزله عن سريره، والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد: وأخذ بهاء الدولة ما في دار الخليفة من الذخائر[٤]. وكان من هؤلاء الذين شاهدوا هذه المأساة الشريف الرضي الذي بادر إلى التسليم ونجا بنفسه بعد أن امتهن أكثر رجالات الدولة من القضاة والأشراف وسلبت ثيابهم.

---

(١) أبو شجاع ج ٣ ص ١٨٣ ـ ١٨٣.
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٩، ٤١، ٤٦، ٥٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٧٢.
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٩.

ويقول أبو شجاع إن الخليفة الطائع أجبر على أن يخلع نفسه وينزل عن الخلافة إلى أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، الذي تلقب القادر بالله بعد أن بقي في الخلافة سبع عشرة سنة وثمانية شهور وخمسة أيام (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ). وقد وصف ابن العميد (ص ٢٤٣) الخليفة الطائع فقال: «كان جواداً كريماً، إلا أن يده كانت قصيرة مع بني بويه، فإنهم كانوا الملوك وليس للخليفة إلا مجرد الاسم». وكان القادر أطول الخلفاء العباسيين حكماً، وقد بقيت خلافته أكثر من إحدى وأربعين سنة.

ثار الديلم والأتراك وطلبوا رسم البيعة على ما جرت به العادة، ومنعوا الخطبة باسم الخليفة، وترددت الرسل بين الجند وبهاء الدولة الذي أجاب طلبهم وأغدق عليهم ومنح كلاً منهم ثمانمائة درهم، وأقيمت الخطبة باسم أبي العباس أحمد القادر بالله، وهنأه الناس بالخلافة ومدحه الشعراء؛ وأنشد الشريف الرضي قصيدة طويلة[١].

كان القادر ـ كما وصفه الخطيب البغدادي[٢] ـ «من الستر والديانة وإدامة التهجد بالليل، وكثرة البر والصدقات على صفة اشتهرت عنه، وعرف بها عند كل أحد، مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد». وقد صنف في الأصول كتاباً ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وذكر فيه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفاء المعتزلة والقائلين بخلق القرآن. وكان هذا الكتاب يقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ويحضر الناس سماعه.

ازداد نفوذ بهاء الدولة في عهد القادر؛ فاستبد بالسلطة دون الخليفة الذي «قلده ما وراء بابه»[٣]. وقد استمرت العلاقة بين الخليفة العباسي وبين بهاء الدولة على شيء من الصفاء، بدليل زواج الخليفة من سكينة ابنة بهاء الدين على صداق قدره مائة ألف دينار (٣٨٣ هـ)[٤]، وإضافة هذه الألقاب إلى بهاء الدولة في خطبة الجمعة بأمر الخليفة وهي: «قوام الدين، صفي أمير المؤمنين»[٥].

وعلى الرغم من استبداد بهاء الدولة بالسلطة، نرى الخليفة القادر يعمل على تولية ابنه

---

(١) ديوان الشريف الرضي جـ ١ ص ٤٧.

(٢) تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٤.

(٤) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٥٤.

(٥) هلال الصابي: كتاب التاريخ، الجزء الثاني (بيروت ١٩٠٤) ٤٤٣.

العهد من بعده لبقاء الحكم في بيته، وإن كان ذلك الحكم قد انتقل في الواقع إلى أيدي بني بويه [(١)].

حاول بهاء الدولة التخلص من أبناء بختيار، وكانوا قد قتلوا صمصام الدولة واستولوا على فارس وعولوا على محاربته واستمالة الديلم الذين كانوا يحنقون عليه لاعتماده على الأتراك. إلا أن بهاء الدولة استمال زعيم الديلم إليه، وحارب ابني بختيار اللذين انتقلت إليهما الزعامة في فارس[(٢)]، واستطاع أن يحدث الشقاق في صفوفهما، وأن يوقع بهما الهزيمة ويستولي على فارس سنة ٣٧٩ هـ: فلحق أحدهما بالبطيحة، ولحق الثاني ببلاد الديلم، ولكنه عاد إلى فارس حيث التف حوله كثير من الزط والديلم والأتراك، واستولى على أغلب بلاد كرمان. على أن بهاء الدولة أرسل إليه جيشاً أحل به الهزيمة وقتله (٣٩٠ هـ) [(٣)].

وقد اضطربت أحوال البطيحة واستولى عليها أبو العباس بن واصل، وطرد صاحبها مهذب الدولة (صهر بهاء الدولة) ثم استولى على البصرة وهدد جنوبي بلاد العراق؛ وهزم جيوش بهاء الدولة (٣٩٤ هـ)، الذي أرسل إليه من بغداد جيشاً بقيادة مهذب الدولة، فتمكن من استردادها، واتفق مع بهاء الدولة على أن يدفع له خمسين ألف دينار جزية سنوية. على أن خطر ابن واصل لم يزل باستيلاء بهاء الدولة على البطيحة وطرده منها، فإنه سار إلى البصرة، وكانت في قبضة يده، وهدد الأهواز وانتصر على جيوش بهاء الدولة فيها. وعلى الرغم من انتصار ابن واصل، راسل بهاء الدولة وصالحه وزاد في إقطاعه، وحلف كل منهما لصاحبه وعاد إلى البصرة[(٤)].

وفي سنة ٤٠١ هـ تعرض نفوذ بني بويه في العراق للخطر، حيث خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل، الذي آلت إليه السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، فأرسل الخليفة القادر أبا بكر الباقلاني الفقيه المشهور إلى بهاء الدولة، وطلب إليه أن يعمل على قمع هذه الحركة، فأرسل بهاء الدولة جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة للخليفة العباسي[(٥)].

---

(١) هلال الصابي: ذيل تجارب الأمم جـ ٣ ص ٢٤٠.
(٢) هما أبو نصر الذي تلقب نور الدولة ومحيي الأمة، وأبو القاسم الذي تلقب حسام الدولة سيد الأمة.
(٣) هلال الصابي: كتاب التاريخ ص ٤٧٩ ـ ٤٩٤. ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٦ ـ ٥٧ ـ و ٦٠ ـ ٦١.
(٤) ابن العميد. تاريخ المسلمين ص ٢٥٧. (٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٨٣.

بيد أن بهاء الدولة أجاب الخليفة العباسي إلى طلبه احتفاظاً بنفوذه هو في بلاد العراق والوقوف في سبيل كل من يعمل على الحد من هذا النفوذ، لا سيما إذا علمنا أن الخليفة العباسي لم يكن له مع بني بويه من الأمر شيء سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة. ومع هذا فقد عرف بنو بويه بالتعصب للمذاهب الشيعية. وبلغ من تعصبهم أن قامت الثورات من حين إلى حين بين الشيعيين والسنيين في بغداد وفي غيرها من أمهات مدن العراق، ففي سنة ٣٨٩ هـ قامت بين الشيعيين والسنيين في بغداد ثورة كاد يقتل فيها أبو حامد الأسفراييني. وتعصب أهل الشيعة ببغداد للخليفة الحاكم الفاطمي وصاحوا: يا حاكم يا منصور؟

وكان بهاء الدولة ـ على ما وصفه أبو المحاسن[1] ـ ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء، حتى إن خواصه كانوا يهربون من قربه، وجمع من المال ما لم يجمعه أحد بني بويه، ولم يكن في ملوك بني بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة».

توفي بهاء الدولة في الخامس من شهر جمادى الآخرة من سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)، بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة (٣٧٩ ـ ٤٠٣ هـ) وتسعة أشهر وأيام. وكان في الثانية والأربعين من عمره، وحملت جثته من أرجان إلى مشهد علي بن أبي طالب بالكوفة، فخلفه في السلطنة ابنه سلطان الدولة أو شجاع، وكان قد عهد إليه بالسلطنة من بعد.

سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدين (٤٠٣ ـ ٤١٦ هـ):

خلف بهاء الدولة في السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع (٤٠٣ ـ ٤١١ هـ). وقد استهل عهده بتولية أخيه جلال الدولة أبي طاهر البصرة، وتولية أخيه الآخر قوام الدولة أبي الفوارس. ويعزو ابن الأثير (جـ ٩ ص ٩٠، ١٠٩ ـ ١١٠) ذلك الشقاق إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بحرب أخيه وأخذ ما بيده من البلاد، فبادر إلى امتلاك شيراز في سنة ٤٠٧ هـ. ولكن جيوش سلطان الدولة لم تلبث أن أخرجته منها وطاردته إلى كرمان واحتلتها. ثم إلى خراسان حيث لجأ أبو الفوارس إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، الذي أمده بجيش استرد به كرمان (٤٠٨ هـ). على أن هذا الجيش لم يقو على الوقوف في وجه جند سلطان الدولة، فاضطر أبو الفوارس إلى التقهقر واللحاق بشمس الدولة بن فخر

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٢٣.

الدولة بن بويه صاحب همذان، ثم بمهذب الدولة صاحب البطيحة، وانتهز الأمر بإعادة كرمان إلى أبي الفوارس الذي اعترف بزعامة أخيه سلطان الدولة.

ولم تقتصر مصاعب سلطان الدولة على مناوأة أخيه قوام الدولة أبي الفوارس، فقد شغب عليه الجند في العراق وأرادوا تولية أخيه مشرف الدولة السلطنة فيها، وأشار بعض خواص سلطان الدولة عليه بالقبض على أخيه، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وعمل على الهرب إلى واسط فقال له الجند: «إما أن تجعل عندنا ولدك (أبا كاليجار) أو أخاك مشرف الدولة، فراسل أخاه بذلك، فامتنع ثم أجاب بعد معاودة. ثم إنهما اتفقا واجتمعا ببغداد... وفارق سلطان الدولة بغداد وقصد الأهواز (ذو الحجة ٤١١ هـ) واستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق»[١] (٤١١ ـ ٤١٦ هـ). إلا أن الحرب لم تلبث أن قامت بين هذين الأخوين، وحلت الهزيمة بجيش سلطان الدولة الذي هرب من الأهواز إلى أرجان، وقوي أمر مشرف الدولة، فلقب في أواخر شهر ذي الحجة بلقب شاهنشاه، واعترف أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة بسلطانه، وخطب له ببغداد في أواخر المحرم سنة ٤١٢ هـ[٢].

على أن سلطان الدولة أخذ يعمل على استرداد نفوذه. واتخذ من ثورة الديلم على وزير أخيه مشرف الدولة وقتلهم إياه فرصة لتحقيق أغراضه؛ فأنقذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز فاستولى عليها سنة ٤١٢ هـ، وتم الصلح بينه وبين أخيه سلطان الدولة وحلف كل منهما لصاحبه على أن يكون العراق لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة (سنة ٤١٣ هـ)، وصفا الجو لمشرف الدولة بوفاة أخيه سلطان الدولة في سنة ٤١٥ هـ. وله من العمر اثنان وعشرون سنة وخمسة أشهر[٣].

وفي أيام مشرف الدولة ازداد نفوذ الأتراك. ويرجع ذلك إلى ضعف سلاطين بني بويه وتسلم الأطفال عرش السلطنة في بغداد في ذلك الوقت. ولا عجب فقد ولي سلطان الدولة السلطنة وهو في الثالثة عشرة من عمره، ووليها أخوه مشرف الدولة وهو في الثامنة عشرة. ويقول ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٢٥) في حوادث سنة ٤١٥ هـ إن مشرف الدولة اضطر إلى الهرب مع وزيره وجماعة من مقدمي الديلم إلى قرواش بن مقلد العقيلي، ولم يعد إلا بعد أن استوثق منهم.

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١١٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١١٩ ـ ١٢١.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

كان مشرف الدولة كثير الخير قليل الشر عـادلاً حسن السيرة، ولم يعمر في السلطة سوى خمس سنين وخمسة وعشرين يوماً، ومات وله من العمر ثلاث وعشرون سنة.

جلال الدولة (٤١٦ ـ ٤٣٥ هـ):

كان أبو طاهر جلال الدولة من أطول سلاطين بني بويه عهداً في الحكم، فقد أقيمت له الخطبة بالعراق بعد أخيه مشرف الدولة، وطلب إليه وهو بـالبصرة الحضـور إلى بغداد، ولكنه سار إلى واسط ثم عاد إلى البصرة، فقطعت الخطبة له وتحولت إلى ابن أخيه الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة، وكان مشغولاً بالحرب مع عمه أبي الفوارس صاحب كرمان فاتخذ جلال الدولة من ذلك فرصة للمسير إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة لنفسه من جديد[1].

ويقول أبو الفدا (جـ ٢ ص ١٥٦) إن الخليفة القـادر استدعى جـلال الدولـة، وكان بالبصرة، إلى بغداد «لما حصل من النهب والفتن»، لخلوها من السلطان، فدخلها في اليوم الثالث من شهر رمضان (سنة ٤١٨ هـ) وخرج الخليفة القادر للقائه، وحلفه واستـوثق منه، واستقر جلال الدولة في بغداد.

وقد أوضح ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٣٥) ازدياد نفوذ الأتراك وتـأثيرهم في تسيير أمور الدولة العباسية في ذلـك الحين، حتى إنهم أخذوا يتـدخلون في توليـة سلاطين بني بـويه وعزلهم، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم بالطاعة والوفاء، والخليفة في ذلك كله لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم.

على أن الأتراك كانوا ينـزعون دائماً إلى شق عصا الطاعة مدفـوعين بعوامـل الطمـع وابتزاز الأموال. ففي سنة ٤١٩ هـ ثاروا على جلال الدولة ببغداد ونهبـوا داره ودور أنصاره كما نهبوا صياغات أخرجها جلال الدولـة لتضرب دنـانير ودراهم، وتفـرق فيهم. وحصروا جلال الدولة في داره ومنعوه الطعام والماء، حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان.. ثم أرسل إلى الخليفة القادر بالله ليصلح الأمر مع أولئك القواد، فـأصلح بينهم وبين جلال الدولة. ولم يمض غير أيام حتى عادوا إلى الشغب واضطر جلال الدولة إلى بيع فرشه وثيابه وخيمه، وفرق ثمنها فيهم[2].

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٣٧.

ولم يكن هذا كله ما صادف جلال الدولة من صعاب في سبيل إقرار ملكه بالعراق، فقد قام في وجهه أبو كاليجار بن سلطان الدولة الذي استمال إليه بعض أمراء العراق واستولى على البصرة، ثم سار إلى واسط واحتلها، فسار جلال الدولة إلى الأهواز وانتهبها في غيبة أبي كالجيار، وأحل الهزيمة بجنده واسترد واسط[١]، ثم استولى على البصرة من جند أبي كاليجار[٢].

مات الخليفة القادر في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ، بعد أن بقي في الخلافة إحدى وأربعين سنة وثلاثة وعشرين يوماً، وكان في السابعة والثمانين من عمره. وعلى الرغم من استبدادا الأتراك والديلم بأمور الدولة، احتفظ القادر بهيبة الخلافة.

وقد خلف القادر ابنه القائم بأمر الله سنة ٤٢٢ هـ، وكان في الثانية والثلاثين من عمره، وأمه أم ولد رومية تسمى بدر الدجى (وقيل قطر الندى)، وكان أبوه قد ولاه عهده في سنة ٤٢١ هـ وكان القائم ـ كما يقول أبو المحاسن ـ[٣] «متديناً ورعاً زاهداً عالماً في وجهه أثر صفار من قيام الليل وكان يسرد (يتابع) الصوم» وقد عمر في الخلافة أربعاً وأربعين سنة[٤].

وكان الخليفة القائم في عهد سلطة جلال الدولة وأبي كاليجار والملك الرحيم مسلوب السلطة كغيره من الخلفاء الذين سبقوه في الوقت الذي أصبح فيه بنو بويه يديرون العالم الإسلامي من غير أن يحفلوا بمن يدعي أنه أمير المؤمنين[٥]. على أن ما أصاب الدولة العباسية من ضعف ووهن لم يكن راجعاً أيضاً إلى قيام النزاع والمنافسة بين بني بويه من جهة وبينهم وبين الجند من جهة أخرى. ففي سنة ٤٢٤ هـ أصبحت البصرة مركزاً للصراع بين جلال الدولة وبين ابن أخيه عماد الدولة بن سلطان الدولة الذي خطب له على منابرها.

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٥٣.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٨.

(٤) يقول أبو المحاسن «جـ ٥ ص ٩٨»، «ومن الغرائب أن القائم هذا كان معاصراً للمستنصر العبيدي... وكلاهما مكث في الخلافة ما لم يمكنه غيره من ابائه وأجداده من طول المدة، فالقائم هذا كانت مدته اربعاً واربعين سنه والمستنصر ستين سنة»، وقد نسي أبو المحاسن أن عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس مكث في الحكم أكثر من خمسين سنة «٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ» وإن لم يكن أباؤه من الخلفاء.

(٥) Arnold, The Caliphate, p.63

ولكن جند جلال الدولة استردوا هذه المدينة ثم جلوا عنها في السنة التالية. كما شغب الجند على جلال الدولة وقبضوا عليه وأخرجوه من داره. ولولا انقسام هؤلاء الجند على أنفسهم لزال ملك جلال الدولة الذي أفاد من جراء هذا الانقسام وعاد إلى بغداد بعد قليل(١).

وقد صور هارولد باون(٢) في مقاله الذي نشره في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٢٩ سوء مركز جلال الدولة منذ تولي مقاليد الحكم سنة ٤١٦ هـ فقال: «إن إدارة جلال الدولة منذ تولي مقاليد الحكم في سنة ٤١٦ هـ كانت في غاية الضعف؛ فإن بغداد قد عدت منذ ذلك الحين مسرحاً للشغب والمنازعات الطائفية، وزاد هذه المنازعات تعقيداً منافسات الجند الذين كانوا يتألفون من أجناس مختلفة أهمها العرب والديلم والأتراك. أضف إلى ذلك أن الأتراك قد عطفوا على دعوى أبي كاليجار بن سلطان الدولة، الأخ الأكبر لجلال الدولة لتسلم عرش السلطة في العراق. وقام هؤلاء الجند ثلاث مرات بمحاولات عنيفة ترمي إلى خلع جلال الدولة وتنصيب ابن أخيه أبي كاليجار في السلطنة وكانت الحروب بين الفريقين لا تكاد تنقطع في السنين الأولى من حكم جلال الدولة. وبلغت الفوضى ذروتها في بغداد سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٧ م)، وأرغم السلطان على الهرب من حاضرة العباسيين ثلاث مرات خوفاً على حياته؛ ولكن جلال الدولة وابن أخيه (أبو كاليجار) عقدا الصلح سنة ٤٢٨ هـ، فساد الوفاق بينهما».

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨٢ - ١٨٣) في حوادث سنة ٤٣٢ هـ أن النزاع قام بين جلال الدولة البويهي وقرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل، الذي لم يعبأ بأوامر جلال الدولة، وأخذ يؤلب الجند من الأتراك عليه. وانتهت الحروب التي قامت بينهما بعودة قرواش إلى طاعة بني بويه.

ولم تكن المصاعب التي صادفت جلال الدولة مقصورة على ذلك النزاع الذي كان يقوم بين أمراء بني بويه من حين إلى حين، وعلى شغب الجند عليه، بل كان راجعاً أيضاً إلى تذمُّر الخليفة القائم منه بسبب تدخله في شئونه الخاصة.

توفي جلال الدولة في شهر شعبان سنة ٤٣٥ هـ بعد أن حكم بغداد ست عشرة سنة

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٦١.

(٢) Harold Bowen: The Last Buwayhids J. R. A. S. (1929), p.229.

وأحد عشر شهراً، وكان في الثانية والخمسين من عمره. وقد عرف بالضعف وسوء التدبير، وامتاز عهده بازدياد نفوذ الجند والولاة. وكان، كغيره من سلاطين بني بويه، مغالياً في التشيع، وكان يكثر من زيارة مشهدي علي بن أبي طالب وابنه الحسين، حتى إنه كان يمشي حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ.

أبو كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ):

عمل جلال الدولة على أن يخلفه في السلطنة ابنه الأكبر أبو منصور فيروز. وقد ولاه أبوه البصرة إلى أن خرجت من يده، فولاه واسط، ولم يكن فيروز الذي لقبه الخليفة «الملك العزيز»، كلفا بشئون الدولة، بل صرف وقته في الانغماس في الملاذ من ناحية، وفي دراسة الأدب والتاريخ والنحو ونظم القصائد من ناحية أخرى(١).

ولم يستطيع الملك العزيز الاحتفاظ بنفوذ أبيه في بغداد. فقد استمال أبو كاليجار بن سلطان الدولة كبار القواد بالأموال، فأقاموا الخطبة له، واستقر أمره ببغداد. على حين أخذ أنصار الملك العزيز اينفضون من حوله، ولجئوا إلى الأمراء على غير جدوى، حتى مات بميافارقين سنه ٤٤١ هـ.

بذلك استطاع أبو كاليجار دخول بغداد، ولكنه لم يجد من الخليفة القائم الذي لم يخرج للقائه الترحيب الذي كان يؤمله. ولما ضرب أبو كاليجار الدبادب على داره في أوقات الصلوات الخمس، وأمر الخليفة بقصرها على ثلاث مرات، لم يحفل بأمر الخليفة(٢).

وقد اعترف سائر أمراء العراق بنفوذ أبي كاليجار، واستولى أنصاره على همذان، وطردوا نائب طغرلبك السلجوقي منها. وأمر أبو كاليجار ببناء سور مدينة شيراز التي ظهر فيها إذ ذاك المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (٤٧٠ هـ)، الذي شغل منصب داعي دعاة الفاطميين في فارس وداعي دعاتهم في مصر بعد ذلك. ويرجع سبب بناء سور مدينة شيراز في سنة ٤٣٦ هـ، إلى ما كان يخشاه أبو كاليجار من اتساع نفوذ السلاجقة الذين ازداد خطرهم في الأربع السنين الأولى من حكمه.

وقد حارب أبو كاليجار صاحب أصبهان لنقضه العهد وانضمامه إلى طغرلبك السلجوقي واستيلائه على بعض نواحي كرمان، وإلحاق الهزيمة به وطرده من هذه البلاد.

(١) أبو الفدا. المختصر ج ٢ ص ١٦٧. (٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ٣٧ ـ ٣٨.

ولكن أبا كاليجار نجح في استمالة صاحب أصبهان الذي دعا له على منابرها في سنة ٤٣٨ هـ. وبعد ذلك بسنتين عقد الصلح بين أبي كاليجاريين طغرلبك، الذي كتب إلى أخيه (إبراهيم بن ينال) يأمره بالكف عما وراء ما بيده. واستقر الحال بينهما على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبي كاليجار، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك[١].

وكان من أثر عقد الصلح الذي اقترن بربط البيتين البويهي والسلجوقي برباط المصاهرة، أن تأجل استيلاء السلاجقة على بغداد إلى حين، كما تأخر تهديد السلاجقة لأملاك الفاطميين في الشام ومصر.

وقد اتخذ بنو بويه الشيعيون من التقرب إلى الفاطميين وسلة لإثارة مخاوف العباسيين حتى لا يرتموا في أحضان أعدائهم السلاجقة السنيين. وكأنهم بذلك رجعوا إلى السياسة التي أراد معز الدولة بن بويه أن يتبعها حيال الفاطميين بعد استيلائه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ، ولكنه أشير عليه بالعدول عن هذه السياسة.

وقد نقل هارولد باون عن كتاب Fārs - Nameh أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السبعية الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة في فارس على يد ذلك الداهي القدير الذي نجح حتى في تحويل هذا الأمير (أبي كاليجار) إلى عقائد هذا المذهب.

ساءت العلاقة بين أبي كاليجار وبين واليه في كرمان، فقصده في شهر ربيع الآخر من هذه السنة. ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق، وتوفي في شهر جمادى الأولى سنة ٤٤٠ هـ وله من العمر أربعون سنة ومدة سلطنته أربع سنين وشهران وأيام، وحكم فارس والأهواز خمساً وعشرين سنة[٣]. وكان، كما يصفه أبو المحاسن (جـ ٥ ص ٤٦)، «شجاعاً، فاتكاً مشغولاً بالشرب واللهو».

أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠ - ٤٤٧ هـ):

لما علم أبو نصر خسرو فيروز بموت أبيه أبي كاليجار، وكان نائباً عنه في العراق،

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٩٩.

(٢) The Last Buwayhids, J.R.A.S.(1929), p.134

(٣) أبو المحاسن ج ٥ ص ٤٦.

استخلف الجند، وراسل الخليفة القائم في تلقيبه بالملك الرحيم. وترددت الرسل بينهما في ذلك إلى أن أجيب إلى ملتمسه؛ سوى «الملك الرحيم». فإن الخليفة امتنع من إجابته وقال: لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى، واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة. هذا ما ذكره ابن الأثير (جـ ٩ ص ٢٠٤) أما أبو المحاسن (جـ ٥ ص ٤٦) فقد ذكر أن الخليفة القائم بأمر الله لقبه «الملك الرحيم» وخلع عليه خلعة السلطنة. وكانت الخلع سبع جباب كاملة، والتاج والطوق والسوارين واللواءين كما كان (قد) فعل بعضد الدولة.

وكان للملك الرحيم إخوة كثيرون هم: الأمير أبو منصور فلادستون، وأبو طالب كامرو، وأبو المظفر بهرام، وأبو علي فناخسرو، وأبو سعد خسروشاه، واسفنديار، وبويه، وأخ صغير وأختان، تزوجت إحداهما الخليفة القائم وماتت سنة ٤٤٠ هـ، وتزوجت الأخرى طغرلبك[1].

استولى أبو منصور على شيراز، فسير إليه أخوه الملك الرحيم أخاه الاخر أبا سعد خسروشاه فاستولى عليها، وأقام الخطبة فيها للملك الرحيم الذي سار إلى خوزستان، فأذعن له بالطاعة، كما هزمت جيوشه الملك العزيز بن جلال الدولة الذي طمع في امتلاك البصرة، فانقطع أمله في العودة إلى السلطنة ومات في السنة التالية (٤٤١ هـ).

ولكن الأحوال تقلبت بالملك الرحيم، فإن أخاه أبا منصور صاحب فارس انتصر عليه وملك الأهواز (٤٤١ هـ) ولم يلبث أن خرج منها بسبب شغب الجند عليه. وإعادة الخطبة للملك الرحيم الذي استرد الأهواز بنفسه في السنة التالية، وفي سنة ٤٤٣ هـ أرسل الملك الرحيم أخاه أبا سعد فاستولى على قلعة إصطخر ومدينة شيراز، وأصبحت مدن العراق وفارس مركزاً للنزاع بين الملك الرحيم وبين إخوته تارة وبينه وبين السلاجقة تارة أخرى[2].

وكانت هذه الحروب التي قامت بين أبناء أبي كاليجار من أهم عوامل ضعف بني بويه، فإنه بدلاً من أن يستعين الملك الرحيم بإخوته على دفع خطر السلاجقة عن بلاده، قلم أظفاره وهيأ لمنافسيه السلاجقة الأقوياء سبيل الاستيلاء على بغداد، كما كانت مناوأة أبي الحارث البساسيري أحد قواد بني بويه الأتراك للخليفة القائم من أهم العوامل التي عجلت بسقوط بني بويه.

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٠٤ Harold Bowen J.R.A.S. (1929) p.227

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٠٦ ـ ٢٢٩.

ويصف البنداري[1] كيف دخل طغرلبك بغداد واستقر بها وكيف استقل فيها، وكيف أسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين، وكيف قضي على الملك الرحيم آخر سلاطين بني بويه في العراق، بعد أن حكموا أكثر من قرن على ما سنفصله في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ ـ ١٠.

الباب الرابع

الدول المستقلة

تمهيد

استبد أمير الأمراء بالسلطنة على ما تقدم، وتولى بجكم الحكم في أمور الدولة كافة، كما ذكر اسمه في الخطبة على جميع المنابر، واستقلّ أكثر الولايات الإسلامية عن الدولة العباسية، وقامت الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ ـ ٧٥٦/٣٩٧ ـ ١٩٠٢) على يد عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل، وتأسست دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣١١/ ٧٨٨ ـ ٩٣٢) على يد إدريس عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، ودولة الأغالبة في تونس (١٨٤ ـ ٢٦٩/ ٨٠٠ ـ ٩٠٨) على يد إبراهيم بن الأغلب. كذلك كانت سيادة الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥) والإخشيديين (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) والفاطميين (٣٥٨ ـ ٥٦٧/ ٩٦٩ ـ ١١٧١) في مصر.

أما في الشرق فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩/ ٨٢٠ ـ ٨٧٢) في خراسان، ومنهم انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هي الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠/ ٧٦٨ ـ ٩٠٣) التي قامت على يد يعقوب بن الليث الصفار، والدولة السامانية (٢٦٦ ـ ٣٨٩/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩) التي تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢/ ٩٦٢ ـ ١١٣٦) لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالي الأتراك الذين استخدموا في البلاط الساماني، كما زاد نفوذ بني بويه.

وكان لقيام هذه الدول أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية؛ ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزاً لهذه الحضارة ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين في الحضارة وفي العلوم والمعارف، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى، وأصبح كل منها قبلة العلماء والشعراء والكتّاب الذين تنقلوا بين هذه الحواضر طلباً للعلم أو ابتغاء الكسب، هذا إلى أن قيام هذه الدول لم يؤثر في مظاهر الحضارة الإسلامية، على العكس عاد عليها بفوائد كثيرة. ولنذكر طرقاً عن الدول التي قامت في ذلك العصر.

الدولة الصفارية

(٢٥٤ - ٢٩٠/٨٦٧ - ٩٠٣)

يعقوب بن الليث الصفار:

تأسست الدولة الصفارية على يد يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤ - ٢٦٥ هـ)، الذي أغار على بلاد الدولة الطاهرية في خراسان، التي أسسها طاهر بن الحسين في عهد الخليفة المأمون (٢٠٥ هـ).

وقد استقل بنو طاهر بحكم هذه البلاد، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعترفون بسلطان الخليفة العباسي، «واشتد نفوذهم إلى حدود بلاد الهند» ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا فيها حتى سنة ٢٥٩ هـ.

كان يعقوب وأخوه عمرو يشتغلان بعمل الصفر ويتظاهران بالزهد. وكان يعقوب أحد زعماء المطوعة، واشتهر أمره منذ سنة ٢٣٧ هـ، كما كان أحد قواد صالح بن النضر الكناني الذي استولى على سجستان. ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان إذ ذاك استردها من هؤلاء المطوعة.

وسرعان ما تغلب على هذه المدينة درهم بن الحسين زعيم المطوعة الذي ظهر عجزه، فولي جنده قائده يعقوب بن الليث الذي تولى أمر المطوعة وحارب الخوارج والشراة وهزمهم هزيمة منكرة، ولم يلبث أن اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها[١].

ثم إحتلت جيوشه نيسابور (سنة ٢٥٩ هـ) قاعدة الدولة الطاهرية، مخالفاً أوامر الخليفة ومدعياً أن أهل خراسان قد بعثوا إليه لاستخلاصها من آل طاهر[٢].

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٢. (٢) الطبري ج ١١ ص ٢٣٢.

ولم يكن يعقوب بن الليث يرمي إلى القضاء على الدولة الطاهرية، بل عمل على أن يمد نفوذه على بلاد فارس وخراسان، لذلك تراه يحارب الترك على تخوم سجستان، فرهبته الملوك وأذهن له ملك المولتان: وملك الرخج، وملك الطبسين، وملك زابلستان وملك السند ومكران وغيرهم، كما حارب الحسن بن زيد (٢٥٠ ـ ٢٧٠ هـ) مؤسس الدولة العلوية في طبرستان وهزمه[١].

وفي سنه ٢٦١ بدأت أطماع يعقوب بن الليث الواسعة تظهر ظهوراً بيناً، وأدرك الخليفة العباسي المعتمد مدى الخطر الذي تستهدف له دولته من جراء ازدياد نفوذه، فأضمر له العداء، وجمع ببغداد حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان. وقرىء عليهم كتاب الخليفة بلعن يعقوب، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب إلى الأمصار لتذاع بين الناس[٢].

وقد أثار الخليفة العباسي بعمله هذا حنق يعقوب، فأعد عدته لقصد العراق ثم سار إلى الأهواز، «وكاتب الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس، وما كان مضموماً إلى طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور، وشرطتي بغداد وسر من رأى، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند، وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التي نسخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، ويقرأ عليهم خلاف ما قرىء عليهم أولاً.. ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب. ففعل ذلك الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله. وأجابه إلى ما طلب، وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار، وأجيب إلى الولاية التي طلبها»[٣].

بيد أن أطماع يعقوب لم تقف عند حد، فلم يقنع بتوليته الخليفة العباسي له على هذه البلاد، بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه. ويظهر أنه كان يعتمد على جيش قوي؛ فقد ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣١٧) أن مساحة معسكره كانت ميلاً في ميل، وأن دوابه كانت في غاية الفراهية، ولكن ذلك كله لم يغنه شيئاً، فقد ثار جنده عليه حين رأوا الخليفة المعتمد على رأس الجيش فحلت به الهزيمة.

على أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد يعقوب بن الليث الذي لم يكتف بما استولى عليه من البلاد، بل أخذ يحارب بعض ولاة الخليفة. وفي أواخر سنة ٢٦٣ هـ، استولى على

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) المرجع السابق جـ ١١ ص ٢٣٤.
(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٦.

جند يسابور، ثم أخذ الأهواز من يد صاحب الزنج بعد حروب طاحنة [١].

وقد ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣٢٠) أن الخليفة المعتمد حاول أن يستميل إليه يعقوب بن الليث ليأمن جانبه، فيقول: أرسل إليه رسولاً يترضاه ويستميله ويقلده أعمال فارس؛ فوصل الرسول ويعقوب مريض، فجلس له، وجعل عنده سيفاً ورغيفاً، ومعه بصل، وأحضر الرسول فأدى الرسالة، وقال له: «قل للخليفة إني عليل، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني؛ وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا السيف هذا، حتى آخذ بسيفي أو تكسرني وتفقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل. وعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات» (في جند يسابور)[٢] وكان موته لأربع عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة ٢٦٥ هـ[٣].

اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير، فكان يحسن اختيار رجاله، كما كان يحسن تنظيم جيوشه وإعدادها بالعدة والسلاح. وامتلأت خزائنه بالأموال حتى قيل إنه ترك خمسين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار[٤].

ويقول براون[٥] إن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال إنه بعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التي قام بها يعقوب بن الليث الصفار فإنه على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق، نجح في تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها، ليس في سجستان وحدها حيث قامت دولتها أول الأمر، بل في معظم أرجاء فارس وإلى أسوار بغداد تقريباً.

عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ - ٢٨٧ هـ):

ولما توفي يعقوب بن الليث الصفار أقر أبو أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي المعتمد أخاه عمرو بن الليث على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) زاد نظام الملك في كتابه سياسة نامه Siyasset Nsmeh (ed. Schefer. pp.1316 أن يعقوب هدد المعتمد بإرسال رأسه إلى المهدية حاضرة الفاطميين: وهذا خطأ ظاهر، لأن يعقوب مات في سنة ٢٦٥ هـ أي قبل قيام الدولة الفاطمية بإحدى وثلاثين سنة. وكان تأسيس المهدية التي اتخذها عبيد الله المهدي الفاطمي حاضرة بعد ذلك، أنظر أيضاً.
Browne Lit. Hist. of Persia. vol. I.p.353

(٣) (ابن خلكان جـ ٢ ص ٣١٩.

(٤) أنظر الملحق الثاني.

(٥) Lit. Hist. of Persia, vol. I.pp.346 - 7.

ببغداد، وخلع عليه. وبذلك قبض عمرو على ما كان بيد أخيه، وأناب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عنه في شرطة بغداد والبصرة، وبعث إلى الموفق بعامود من ذهب[1].

ويقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣٣٠) إن عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن التدبير والسياسة حتى قيل: ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث.

على أن العلاقة لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية، فقد عزل الخليفة المعتمد عمرو بن الليث عن البلاد التي ولاه إياها، وأعلن هذا الخلع على ملأ من حاج خراسان، ولعنه بحضرتهم، وأخبرهم أنه قلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر، بيد أن محمد بن طاهر آثر البقاء بحاضرة الخلافة وأناب رافع بن هرثمة في إدارة ولاية خراسان، وانتصرت جيوش المعتمد على عمرو بن الليث، وخرج أبو أحمد الموفق في سنة ٢٧٤ هـ لحربه، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على كرمان وسجستان وعاد أدراجه[2].

ولما ولي المعتضد الخلافة (٢٧٩ هـ)، عزل رافع بن هرثمة الذي كان محمد بن طاهر قد أنابه عنه في ولايتها، وأعادها إلى عمرو بن الليث. ولكن رافعاً لم يذعن لأمر الخليفة وشق عصا الطاعة، وحارب عمراً الذي قتله في سنة ٣٨٣ هـ وبعث برأسه إلى المعتضد؛ ففرح لذلك غاية الفرح، وأرسل إليه الخلع واللواء دليلاً على رضائه عنه. ولكن عمراً اعتذر عن قبول هذه الخلع وأصر على طلب ولاية بلاد ما وراء النهر، وكانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني. ولم يجد الخليفة بداً من إجابة عمرو الذي لم تقف أطماعه عند حد وكتب إليه إسماعيل: «إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاقنع بما في يدك، واتركني مقيماً بهذا الثغر؛ فأبى إجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره، فقال عمرو: لو شئت أن أسكره ببدر الأموال وأعبره لفعلت».

ولكن عمراً لم يقدر الصعاب التي قد تقف في سبيله وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته الجيوش بنفسه، فحلت به الهزيمة ووقع أسيراً في قبضة إسماعيل بن أحمد الساماني، وتشتت شمل جيشه الذي بلغ سبعين ألفاً أيدي سبأ وكانت هذه الموقعة من المواقع

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٢٥٥.

(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٣.

الحاسمة، لأنها كانت من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها[١].

ولما علم الخليفة المعتضد بهزيمة عمرو بن الليث فرح فرحاً شديداً وأشاد بذكر إسماعيل بن أحمد الذي سير عمراً إلى الخليفة، وألبس عمرو دراعة ديباج، وبرنس السخط، وحمل على جمل له سنامان ـ يقال له إذا كان ضخماً على هذه الصورة «الفالج» ـ في غاية الارتفاع، وكان عمرو قد أهداه فيما أهدى للخليفة. وقد ألبس الجمل الديباج وحلي بذوائب وأرسان مفضضة، وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسنى، وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاء منه، فرقت له العامة، وأمسكت عن الدعاء عليه. ثم أدخل إلى الخليفة، وقد جلس له، واحتفل به، فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعاً وقال له: هذا ما يبغيك يا عمرو. ثم أخرج من بين يديه إلى حجرة قد أعدت له. ومات عمرو في غد ذلك اليوم، ودفن، وقيل إنه قتل[٢].

«وكان عمرو ـ كما يقول ابن الأثير (جـ ٧ .ص ١٧٨ ـ ١٧٩) عظيم السياسة، قد منع أصحابه وقواده أن يضرب أحد غلاماً إلا بأمره، أو يتولى عقوبة الغلام نائبه أو أحد حجابه. وكان يشتري المماليك الصغار ويربيهم ويهبهم لقواد، ويجري عليهم الجرايات الحسنة سراً ليطالعوه بأحوال قواده، ولا يكتم عنه من أخبارهم شيء. ولم يكونوا يعلمون من ينقل إليه عنهم، فكان أحدهم يحذره وهو وحده».

ولما أسر عمرو، آل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث (صفر سنة ٢٨٨ هـ)، إلا أنه لم يكن له من الأمر شيء، لاستبداد سبك السبكري غلام عمرو بن الليث بالسلطة، حيث قبض عليه وعلى أخيه يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث في سنة ٢٩٦ هـ وبعث بهما إلى بغداد. وتغلب على بلاد فارس إلى أن طرده منها الليث بن علي بن الليث الصفار، فاستنجد السبكري بالخليفة المقتدر، فأمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم (٢٩٧هـ) وحلت الهزيمة بالليث الصفاري وأسر. ولكن الجو لم يصف للخلافة بسبب عصيان السبكري وامتناعه عن إرسال الأموال إلى بيت المال[٣].

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٨ ـ ١٧٩. ابن خلكان ج ١ ص ٣٢١، ٣٣٢.

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٢٣.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٢٤. ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠.

وقد بعثت الخلافة العباسية الجيوش تلو الجيوش للقضاء على السبكري، ولكنها لم تستطع القبض عليه حتى تمكن أحمد بن إسماعيل الساماني من الاستيلاء على سجستان والقبض على محمد بن علي بن الليث الصفاري، ثم على السبكري، وبعث بهما إلى بغداد في شوال سنة ٢٩٨ هـ. ومن ثم زالت الدولة الصفارية التي لم يقتصر خطرها على انتزاع ذلك الجزء الكبير من أراضي الدولة العباسية، بل حاول يعقوب فتح بغداد، واقتفى أخوه عمرو أثره، ولكنهما لم يصلا إلى بغيتهما.

ويرجع ضعف الدولة الصفارية وزوالها إلى موقف الخلافة العباسية العدائي منها، وما بذلته من الجهود المتصلة للقضاء عليها. أضف إلى ذلك موقف السامانيين من هذه الدولة، فقد هزم إسماعيل بن أحمد الساماني جيوش عمرو بن الليث الصفار وأرسله إلى بغداد، وقضى ابنه أحمد بن إسماعيل عليها نهائياً. هذا إلى مناوأة بعض قوادهم ولا سيما سبك السبكري غلام عمرو بن الليث الصفار الذي كان لثورته أثر كبير في ضعف هذه الدولة وزوالها في النهاية.

الدولة السامانية

(٢٦١ - ٣٨٩ / ٨٧٤ - ٩٩٩)

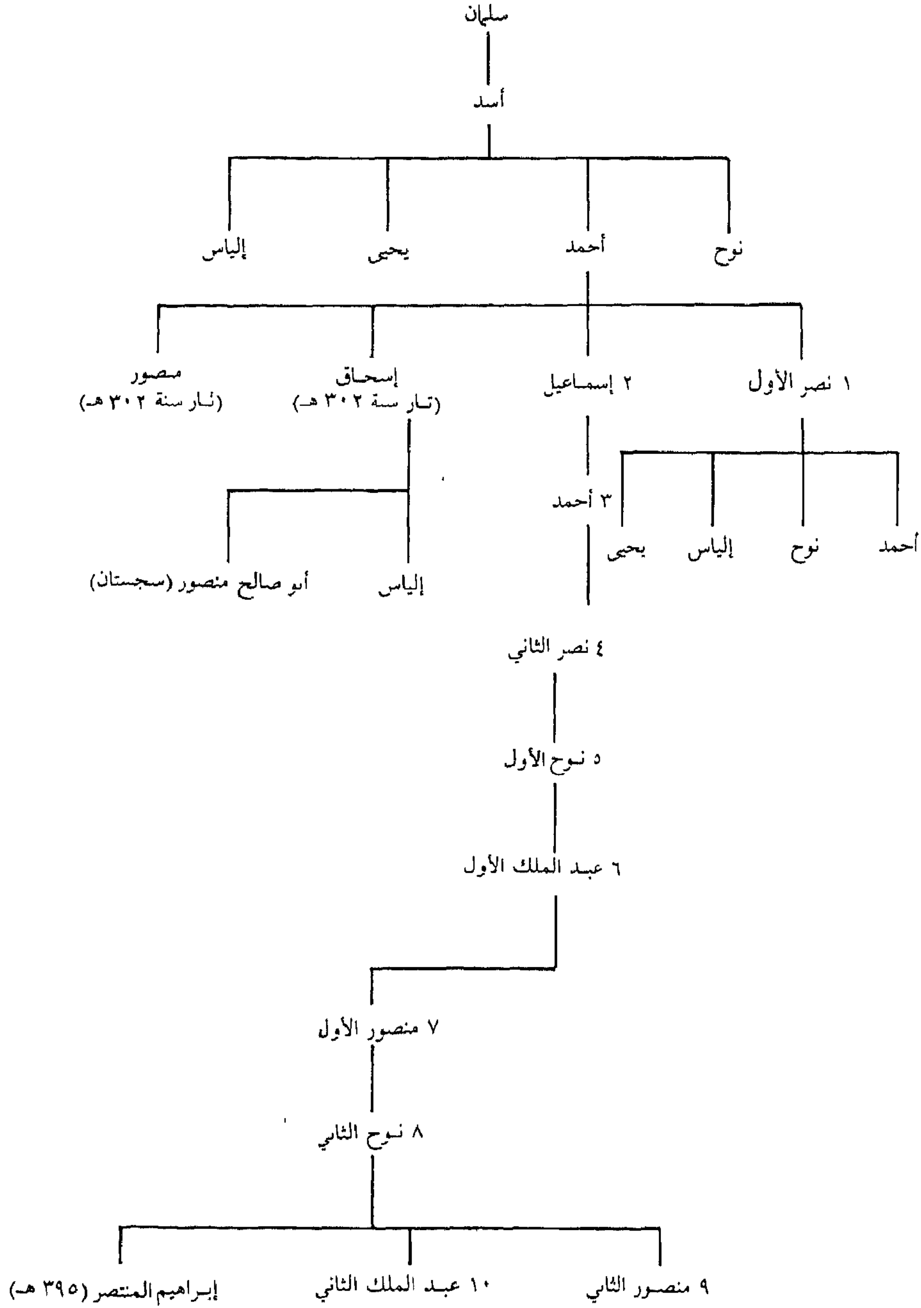
البيت الساماني[١]

	هجرية	ميلادية
١ نصر الأول بن أحمد	٣٦١	٨٧٤
٢ إسماعيل بن أحمد	٢٧٩	٨٩٢
٣ أحمد بن إسماعيل	٢٩٥	٩٠٧
٤ نصر الثاني بن أحمد	٣٠١	٩١٣
٥ نوح الأول بن نصر	٣٣١	٩٤٢
٦ عبد الملك الأول بن نوح	٣٤٣	٩٥٤
٧ منصور الأول بن نوح	٣٥٠	٩٦١
٨ نوح الثاني بن منصور	٣٦٦	٩٧٦
٩ منصور الثاني بن نوح الثاني	٣٨٧	٩٩٧
١٠ عبد الملك الثاني بن نوح الثاني	٣٨١	٩٩٩

(١) Lane - poole: Muhammadan Dynasties, pp. 132 - 133

(خانات تركستان : الغزنويون)

تسلسل آل سامان



إسماعيل بن أحمد (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ):

تنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة في المجد يرجع أصلها إلى بهرام جور ـ وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون، فولاهم بلاد ما وراء النهر ورفع من شأنهم.

وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الإسلام، وسمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في أواخر عهد الأمويين، وظهر أولاد أسد بن سامان في عهد الخليفة المأمون، فولي نوح بن أسد سمرقند في سنة ٢٠٤ هـ. وأحمد بن أسد فرغانة، ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة، وإلياس بن أسد هراة. ولما ولي طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الأعمال.

وكان لأحمد بن أسد سبعة أولاد، اشتهر منهم إسماعيل ونصر الذي خلف أباه على سمرقند وما يليها من قبل الطاهريين حتى ولاه الخليفة العباسي المعتمد بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ. ومن ثم تأسست الدولة السامانية، وأصبح نصر بن أحمد الساماني من القوة بحيث استطاع أن يولي أخاه إسماعيل على بخارى (٢٦١ هـ). ولكن النزاع لم يلبث أن دب بينهما بسبب إثارة خصومهما العداوة والبغضاء بينهما، حتى إن نصراً قصد أخاه إسماعيل لحربه في سنة ٢٧٢ هـ، ولكنهما تصالحا مدة، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد وقامت الحرب بينهما في سنة ٢٧٥ هـ، وظفر إسماعيل بأخيه نصر. فلما حمل إليه ترجل له إسماعيل وقبل يديه، ورده من موضعه إلى سمرقند، وناب عنه في ولاية بخارى[١]. ولما مات نصر في سنة ٢٧٩ هـ آلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل. وفي عهد إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة، وقامت بدور خطير في إزالة الدولة الصفارية كما تقدم.

وقد تمكن إسماعيل بن أحمد الساماني من فتح بلاد طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد الذي كان ينازع السامانيين السلطة في خراسان. على أن القائد الذي تم على يديه فتح هذه البلاد لم يلبث أن ثار عليه، واتخذ البياض شعاراً له، مناوئاً بذلك العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم ـ وسار إسماعيل بن أحمد على رأس جيش كبير، وأحل الهزيمة بهذا القائد، وضم الري وقزوين إلى سلطانه، وبذلك أمن حدوده بلاده من ناحية الغرب (سنة ٢٨٩ هـ).

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٩٩ و١٠٠.

وفي سنة ٢٩١ هـ صد إسماعيل جيوش الترك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية[1]، ومات إسماعيل في مدينة بخارى سنة ٢٩٥ هـ. ولا يزال قبره حتى اليوم في مدينة بخارى التي ارتقت في عهد إسماعيل حتى أصبحت من أهم الحواضر الإسلامية. على أنه ليست هناك نقوش تدل على أن هذا القبر هو قبر إسماعيل، كما يستدل من الكتابات التي نقشت على القبر نفسه أو على الأبنية المحيطة به.

وقد وصف ابن الاثير (جـ ٧ ص ١٠٠) إسماعيل بن أحمد الساماني فقال: «إنه كان خيراً يحب أهل العلم والدين، ويكرمهم». وقال في موضع آخر (جـ ٨ ص ٢ - ٣) «إنه كان عاقلاً عادلاً، حسن السيرة في رعيته، حليماً. حكي عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدبه، فمر به الأمير إسماعيل يوماً، والمؤدب لا يعلم به، فسمعه وهو يسبُّ ابنه ويقول له: لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك. فدخل إليه، فقال له: يا هذا؟ نحن لم نذنب ذنباً لتسبنا، فهل ترى أن تعفينا من سبك، وتخص المذنب بشتمك وذمك؟ فارتاع المؤدب، فخرج إسماعيل من عنده وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه».

أحمد بن إسماعيل وابنه نصر (٢٩٥ - ٣٣١ هـ):

لما توفي إسماعيل بن أحمد الساماني سنة ٢٩٥ هـ أقر الخليفة المكتفي ابنه أبا نصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه. وقد تم زوال الدولة الصفارية على يديه. فأسر غلامه سيمجور، سبك السبكري غلام عمرو بن الليث الصفار، كما أسر الليث بن علي الصفاري[2]. وفي المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل بن علي بن الليث الصفاري وأسر أخاه محمد بن الليث، وبعث بسبك ومحمد إلى بغداد[3]. على أن هذه البلاد لم تلبث أن خلعت طاعة أحمد بن إسماعيل، ودعا أهلها لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار. فأرسل السامانيون الجيوش لإخضاعها، واستمرت الحرب بين الفريقين نحواً من سنة حتى تم النصر للسامانيين، وقبض على الصفاري، وتولى سيمجور سجستان من قبل السامانيين.

ولم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل حيث قتل في سنة ٣٠١ هـ. وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٧) أنه كان مولعاً بالصيد، فخرج متصيداً، وأنه أتاه كتاب نائبه بطبرستان يخبره

---

(١) أنظر لفظ إسماعيل بن أحمد في Encylopaedia of Islam, vol.II.pp.pp.545 - 6

(٢) الطبري ج ١٢ ص ١١، ١٩.

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١ - ٢٢.

بظهور الحسن بن علي العلوي الأطروش وتغلبه عليها، وأنه أخرجه عنها، فحزن أحمد لذلك وعاد إلى معسكره، وكان قد أحرقه قبل خروجه للصيد، فنزل عليه فتطير الناس من ذلك. وكان له أسد يربطه كل ليلة على بابه، فلا يجسر أحد أن يقربه. فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة، فدخل إليه جماعة من غلمانه فذبحوه على سريره وهربوا، وذلك لسبع بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ فحمل إلى بخارى فدفن بها ولقب بالشهيد.

كان أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني في الثامنة من عمره حين قتل أبوه، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه، وهو إسحاق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذي استمال أهالي بلاد ما وراء النهر - عدا بخارى - إليه وإلى أولاده، وأرسل هو وبعض أمراء البيت الساماني إلى الخليفة العباسي المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحي خراسان. ولكن الخليفة أقر نصراً على بلاد أبيه، وأقر اللقب الذي تلقب به وهو السعيد، وضبط بلاده أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني[١].

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠١ هـ أن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني وابنه إلياس بن إسحاق، ثارا على السعيد نصر وسارا نحو بخارى. ولكن الهزيمة حلت بهما غير مرة، واستولت جيوش نصر على سمرقند، واختفى إسحاق، ثم أسر، وهرب ابنه إلياس إلى فرغانة، وخرج ابنه الثاني أبو صالح منصور على نصر في السنة التالية، وانضم إليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على أن يتولوها نيابة عنه، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور، واستمرت الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين (٣٠٢ - ٣٠٦ م)؛ وانتهت بعودة نيسابور وغيرها إلى نفوذ نصر[٢].

أخذ إلياس بن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني الذي كان قد ثار مع أبيه يعدُّ العدة لمحاربة نصر حتى اجتمع حوله ثلاثون ألف فارس، ثم قصد سمرقند مناوئاً نفوذ السعيد نصر بن أحمد الذي انتصرت جيوشه عليه في سنة ٣١٠ هـ، وأرغمته على الهرب إلى فرغانة والاختفاء بها، ثم أخذ يعد العدة من جديد بمعونة صاحب الشاش، ولكن الهزيمة حلت به وأسر صاحب الشاش ومات.

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة حتى أن الخلفاء كانوا يعتمدون على أمراء البيت الساماني في إقرار سلطانهم في بلاد المشرق. ولما

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨

(٢) المصدر نفسه ح ٨ ص ٢٨، ٣٠ - ٣١.

دعا الخليفة المقتدر يوسف بن أبي الساج إلى واسط لإنقاذه لمحاربة القرامطة، كتب إلى السعيد نصر الثاني الساماني بولاية الري، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فاتك غلام يوسف بن أبي الساج، فاستولى عليها نصر وولي عليها سيمجور وعاد إلى بخارى.

وفي سنة ٣٣٢ هـ ثار أبو علي محمد بن إلياس على نصر بن أحمد السامابي واستولى عن كرمان، فسير إليه نصر ماكان بن كالي على رأس جيش كثيف أحل الهزيمة بابن إلياس، واستولى على كرمان ووليها من قبل السامانيين. على أن ماكان بن كالي حرج على السامانيين في جرجان سنة ٣٢٨ هـ. فأرسل إليه نصر بن أحمد جيشاً هزمه واستولى على هذه البلاد وأعادها إلى نفوذ السامانيين كما انتزعت جيوشهم الري من يد وشمكير بن زيار (أخي مرداويج بن زيار) بعد أن هرب إلى طبرستان ثم دخل في طاعة السامانيين، ومن يد ماكان بن كالي الذي قتل. ثم أخذت انتصارات جيوش السامانيين تتابع، فاستولت على أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغت حدود حلوان[١].

كان السعيد نصر بن أحمد على جانب عظيم من حسن الخلق. وقد وصفه ابن الأثير فقال إنه كان حليماً كريماً عاقلاً[٢]. حكي عنه أنه خرج عليه أخوه أبو زكريا ونهب خزانته وأمواله. فلما عاد السعيد إلى حاضرة ملكه، قيل له إن جماعة انتهبوا ماله، فلم يعرض لهم وأخبروه أن بعض السوقة اشترى منها سكيناً نفيساً بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه مائتي درهم وطلب السكين، فأبى أن يبيعه إلا بألف درهم، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ أرى عنده مالي فلم أعاقبه وأعطيته حقه فاشتط في الطلب؟ ثم أمر باسترضائه. وطال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهراً، فأقبل على الصلاة والعبادة، وبنى له في قصره بيتاً سماه بيت العبادة. فكان يلبس ثياباً نظافاً ويمشي إليه حافياً ويصلي فيه ويدعو ويتضرع. وكان ذلك في سنة ٣٣١ هـ، بعد أن ولي إمرة السامانيين ثلاثين سنة وشهراً وثلاثة أيام، ومات وله من العمر ثمان وثلاثون سنة[٣].

وقد خالف نظام الملك[٤] ما ذكره ابن الأثير عن نهاية السعيد نصر بن أحمد الساماني فقال إنه دان بعقائد الإسماعيلية وإن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله. فلما أدرك نصر الخطر المحدق به، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٩٦، ١٢٦، ١٣٠، ١٣٧

(٣) المصدر نفسه ح ٨ ص ١٤٢.

(٤) Siyasset Nâmeh, vol.II.pp.278 - 281.

وأنصاره في بلاده. وذكر المقريزي أن نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال.

نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ):

تولى نوح بن نصر الساماني بلاد خراسان وما وراء النهر في شهر شعبان سنة ٣٣١ هـ، واستهل إمارته بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويأمن خروجهم عليه، وولاهم بعض الولايات، وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبني بويه في أيام نوح بن نصر الذي عمل على استرداد الري من يد ركن الدولة بن بويه، وتفاقم النزاع بينهما، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده إلى البويهيين. بيد أن نوحاً أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الري، وتمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ(١).

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده أبي علي بن محتاج الذي أخلص له ولأبيه من قبل(٢).

وقد كاتب الجند إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر الساماني - وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان - يطلبون إليه الحضور لمبايعته، فلبى دعوتهم. وقامت الحرب بينه بمساعدة أبي علي وبين نوح بن نصر. واستولى على نيسابور ومرو وبخارى في سنة ٣٣٥ هـ وخطب فيها لإبراهيم بن أحمد بن إسماعيل. على أن أبا علي لم يلبث أن خرج على إبراهيم الذي مال إلى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على أن يتقلد إمرة جيوشه، وعمل على تولية أبي جعفر محمد بن نصر بن أحمد أخي الأمير نوح بن نصر، وبايع له، وأقام الخطبة باسمه في كثير من نواحي خراسان وبلاد ما وراء النهر

واستمرت الحروب بين أبي علي ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ إلى ٣٣٧ هـ، وانتهت بعقد الصلح بينهما(٣).

واستطاع نوح بن نصر أن يسترد الري وبلاد الجبل من ركن الدولة بن بويه الذي كان له أثر كبير في إثارة أبي علي (٣٣٩ هـ)(٤)

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٥٨ - ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٦٤.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٦٤ - ١٦٣ - ١٣٥.
(٤) مسكويه جـ ٢ ص ١٠٠ - ١٠١، ١٠٣ - ١٠٤.

وقد أسند نوح قيادة جيوش خراسان إلى أبي علي الذي استطاع بمساعدة وشمكير بن زيار أن يرغم ركن الدولة بن بويه على أن يدفع لنوح بن نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار. على أن نوحاً لم يلبث أن ساورته الريب في إخلاص أبي علي. فعزله عن قيادة الجيوش في خراسان، فراسل ركن الدولة وسار إليه في الري حيث أكرمه، وتدخل لدى الخليفة العباسي المطيع، فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معز الدولة بن بويه، وذلك سنة ٣٤٣ هـ، وهي السنة التي توفي فيها الأمير نوح بن نصر[١].

عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٢ - ٣٦٦ هـ):

لما تولى عبد الملك بن نوح إمرة السامانيين سنة ٣٤٣ هـ، قلد بكر بن مالك قيادة الجيوش في خراسان، وسيره من بخارى لإخراج أبي علي بن محتاج، الذي انضم جنده إلى عبد الملك وبقي هو في مائتي رجل من أصحابه، واضطر إلى الهرب ولجأ إلى ركن الدولة في الري فأحسن وفادته[٢].

على أن أيام عبد الملك بن نوح لم تطل بسبب كبوة فرسه في شهر شوال سنة ٣٥٠ هـ فآلت السلطنة من بعده إلى أخيه أبي صالح منصور بن نوح، وافتتنت خراسان بعده، كما يقول مسكويه (جـ ٢ ص ١٨٩)، ودب الضعف إلى جسم الدولة السامانية.

وفي عهد منصور شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد، وولوا مكانه رجلاً من أصحابه يدعى طاهر بن الحسين. ولكن منصور بن نوح، أمد خلف بجيش استرد به هذه البلاد، لكنه لم يلبث أن طرد منها، ثم استردها بمعونة السامانيين. بيد أن علاقته بالسامانيين لم تلبث أن ساءت، «فقطع ما كان يحمله إلى بخارى من الخلع والخدم والأموال التي استقرت القاعدة عليها»، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربته بسجستان، واستمرت هذه الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على مبلغ الضعف الذي دب إلى البيت الساماني. وقد أحسن ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٠٢) بقوله: «وكان هذا أول وهن دخل على الدولة السامانية، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم».

وفي سنة ٣٥٦ هـ قامت الحرب في جهات الري بين منصور بن نوح وركن الدولة بن بويه، ولم ينته العداء بين السامانيين والبويهيين إلا في سنة ٣٦١ هـ، حيث تم الصلح بين

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٧.
(٢) مسكويه ج ٢ ص ١٥٧.

الأمير منصور بن نوح الساماني وبين عضد الدولة، على أن يحمل كل من ركن الدولة في كل سنة مائة ألف دينار. ويحمل إليه ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار. وتزوج نوح بابنة عضد الدولة. وحمل إليه من الهدايا والتحف، وكتب بينهم كتاب الصلح وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق(١).

نوح الثاني بن منصور (٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ):

ولما مات منصور بن نوح سنة ٣٦٦ هـ، تولى بعده ابنه نوح الثاني وتلقب المنصور وكان في الثالثة عشرة من عمره. وقام بأمر الدولة السامانية في مستهل إمارته وزيره أبو الحسن العتبي، ولكن محمد بن إبراهيم بن سيمجور قائد الجيش في خراسان من قبل السامانيين استبد بالأمر في هذه البلاد، واتخذ من صغر سن الأمير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه، فعزل الوزير العتبي، وولى أبا العباس تاش إمرة الجيش، كما قامت الحرب في هذه السنة بين الأمير نوح بن منصور الساماني وبين عضد الدولة بن بويه الذي استولى على جرجان، ولا سيما بعد أن اتصل بهم نبأ قتل الوزير أبي الحسن العتبي الذي يرجع إليه الفضل في متابعة هذه الحروب(٢). أضف إلى ذلك ثورة أحد أمراء البيت الساماني على نوح بعد أن حلت الهزيمة بجيوشه(٣).

على أن الوزير الجديد عبد الله بن عزيز الذي كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير العتبي، عمل على عزل أبي العباس تاش عن خراسان وإعادة أبي الحسن بن سيمجور إليها، فامتنع أبو العباس عن تنفيذ أوامر الوزير الجديد وطلب العون من فخر الدولة بن بويه الذي أمدّه بجيش يحارب به ابن سيمجور، واستولى على نيسابور، ثم كتب إلى الأمير نوح يستميله ويستعطفه. ولكن ابن عزيز تشدد في عزله ووافقته على ذلك أم الأمير نوح التي كان لها الأمر والنهي في دولة ولدها، حتى كانوا يصدرون عن رأيها، فقال بعض أهل ذلك العصر:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما ... رأيُ النساء وإمْرَة الصِّبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى ... وأخو الصبا يجري بغير عنان (٤)

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففي سنة ٣٨٣ هـ ثار عليه اثنان من أكبر قواد السامانيين هما أبو الحسن بن سيمجور. وفائق الخاصة غلام نوح بن

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٥. أبو المحاسن جـ ٤ ص ٦٣.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٤ ـ ٥.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٠ ـ ١١.
(٤) مسكويه جـ ٣ ص ٩٣.

نصر، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي، وكانت بلاده تمتد من حدود الدولة السامانية شرقاً حتى تتاخم حدود الصين، وأطمعاه في الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وتمكن إيلك في هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى. على أن نوحاً لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على أثر موت بغراخان وثورة أهالي بخارى عليه[١].

وفي سنة ٣٨٤ هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنة لحرب الأمراء الثائرين عليه وانتصرت جيوشهما بالقرب من هراة على الأمراء الذين استعانوا ببني بويه وفروا إلى جرجان. كما استعاد نوح نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة، وعاد نوح إلى بخارى، وعاد سبكتكين إلى هراة. وأقام محمود بنيسابور[٢]. على أن هؤلاء الثائرين لم يلبثوا أن انتصروا على محمود.

ومع أن أيام نوح بن منصور الساماني طالت مدتها حتى أربت على إحدى وعشرين سنة، كان عهده مليئاً بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سنه، وتدخل النساء والوزراء في الحكم، وطمع أمراء الأطراف واستئثارهم بالسلطة وطمع بني بويه والأتراك في بلادهم وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني نفسه[٣].

زوال الدولة السامانية:

لما توفي نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧ هـ، قام بعده ابنه منصور بن نوح، فعمل على تأليف القلوب حوله. بإغداق الأموال على أنصاره وقواده. على أن إيلك المعروف بغراخان التركي، الذي كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣ هـ، اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند. وانضم إليه فائق الخاصة الذي تمكن من الاستيلاء على بخاري، متظاهراً بأنه يسعى لخدمة الأمير منصور، «رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم، وأرسل إليهم مشايخ بخارى ومقدمهم في العود إلى بلده وملكه، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق؛ فعاد إليها ودخلها، وولى فائق أمره وحكم في دولته، وولى بكتوزون إمرة الجيش بخراسان»[٤]. وفي السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٤٨.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٤٨.
(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨.

نوح ومحمود الغزنوي الذي أثار سخطه تولية بكتوزون على خراسان؛ وطلب إعادتها إليه، فلم يجب طلبه وساءت العلاقة بينهم. وسرعان ما قبض بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح وسملا عينيه ولما يمض عليه في الإمارة غير سنة وسبعة أشهر. ووليا أخاه الصغير عبد الملك بن نوح. واتخذ محمود الغزنوي من اضطراب حبل الأمور في الدولة السامانية فرصة للاستيلاء على نيسابور وبخارى، واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادر بالله. ووقعت بلاد ما وراء النهر في يد إيلك بغراخان الذي قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح، ولكنه لم يلبث أن قبض على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه، وحبس معه أخاه منصور بن نوح الذي ولي إدارة السامانيين من قبله، كما حبس أخويه أبا إبراهيم إسماعيل وأبا يعقوب ابني نوح، وحبس من أعمامه أبا زكريا وأبا سليمان، وأفرد كل واحد منهم في حجرة.

وإن من يستقصي تاريخ السامانيين ليرى أن زوال دولتهم يرجع إلى عوامل عدة، نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هذا البيت وخروج القواد وعمال الأطراف عليهم، واستعانتهم بعض أمراء هذا البيت على نوح بن نصر (٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ)، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال الأطراف ببني بويه، مما أضعف الدولة السامانية وأدى إلى زوالها في النهاية. أضف إلى ذلك تدخل النساء والوزراء في الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء.

وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدي الغزنويين وخانات تركستان، وأصبحت كأن لم تغن بالأمس، كدأب الدولة قبلها، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار»[١].

ولأمراء السامانيين فضل كبير في تشجيع الأدب، وبخاصة الأدب الفارسي الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث، حتى إن الفرس أخذوا يؤلفون بلغتهم الفارسية وقد بدأ الروح الفارسي يظهر في الأدب الفارسي منذ ذلك الوقت. ومن ذلك كتاب الشاهنامه للفردوسي، ومختصر الطبري للبلعمي وزير منصور الأول بن نوح (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ).

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ ـ ٥٦.

أما الطب والفلك والفلسفة فقد كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلاً من الفارسية إذ لم يكن لهذه العلوم كبير علاقة بالأدب الفارسي. ومن أشهر كتب الطب في ذلك العصر الكتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي،وأهداه إلى أبي صالح منصور بن إسحاق الساماني الذي ولي سجستان نيابة عن السامانيين. وقد روى لنا ابن سينا الفيلسوف المشهور الذي قامت علاقته بالسامانيين منذ حداثة سنه على أساس متين بعد أن أسعده الحظ بشفاء الأمير نوح بن منصور على يديه مع أنه قد ناهز السابعة عشرة من عمره - روى أنه رأى في مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل.

الدولة الغزنوية

(في بلاد الأفغان والبنجاب)

٣٥١ - ٥٨٢/٩٦٢ - ١١٣٦

البيت الغزنوي[1]

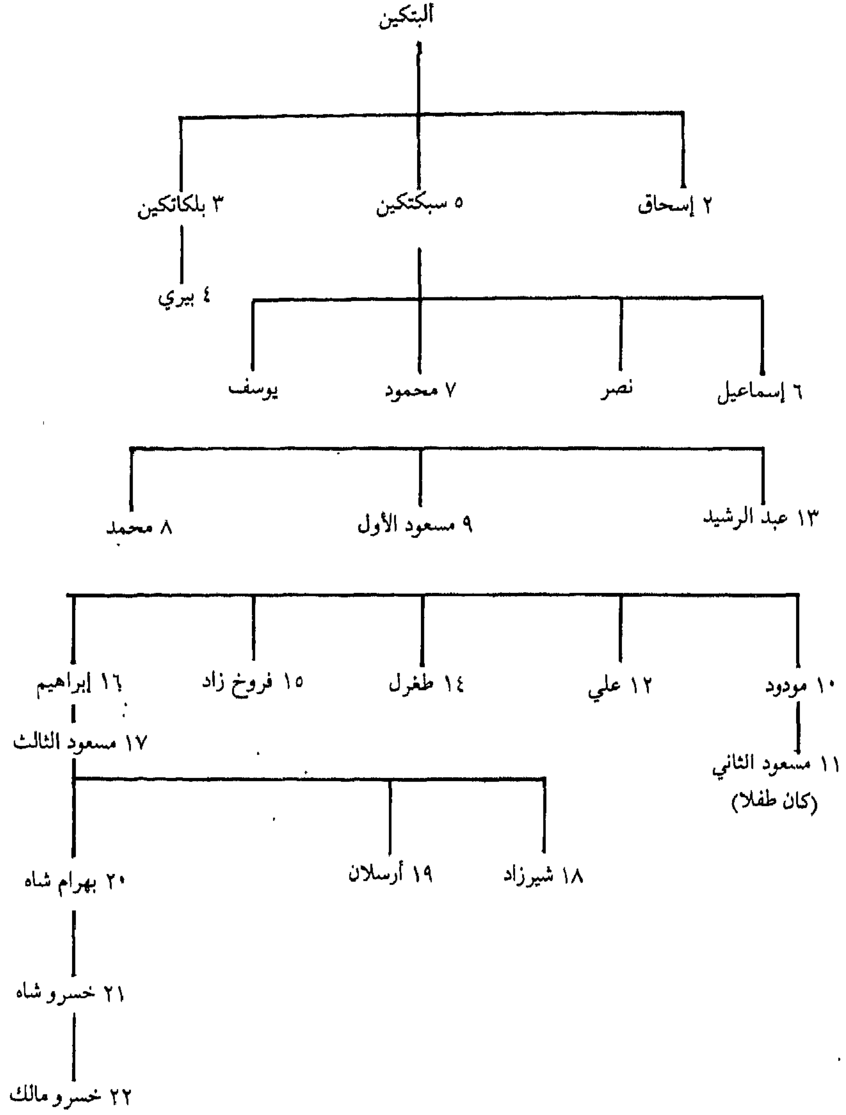
	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ ألبتكين	٣٥١	٩٦٢	١٢ علي أبو الحسن بهاء الدولة	٤٤١	١٠٤٨
٢ إسحاق	٣٥٢	٩٦٣	١٣ عبد الرشيد: عز الدولة	٤٤١	١٠٤٩
٣ بلافكين	٣٥٥	٩٦٦	١٤ طغرل (مغتصب)	٤٤٤	١٠٥٢
٤ بيري	٣٦٢	٩٧٢	١٥ فروخ زاد: جمال الدولة	٤٤٤	١٠٥٥
٥ سبكتكين	٣٦٦	٩٧٦	١٦ إبراهيم: ظهير الدولة	٤٥١	١٠٥٩
٦ إسماعيل	٣٨٧	٩٩٧	١٧ مسعود الثالث علاء الدولة	٤٩٢	١٠٩٩
٧ محمود: يمين الدولة	٣٨٨	٩٩٨	١٨ شيرزاد: كمال الدولة	٥٠٨	١١١٤
٨ محمد: جلال الدولة	٤٢١	١٠٣٠	١٩ أرسلان: سلطان الدولة	٥٠٩	١١١٥
٩ مسعود الأول ناصر دين الله	٤٢٢	١٠٣٠	٢٠ بهرام شاه: يمين الدولة	٥١٢	١١١٨
١٠ مودود: شهاب الدولة	٤٣٢	١٠٤٠	٢١ خسرو شاه: معز الدولة	٥٤٧	١١٥٢
١١ مسعود الثاني[2]	٤١١	١٠٤٨	٢٢ خسرو مالك: تاج الدولة	٥٥٥	١١٦٠
				٥٨٢	١١٨٦

[الغوريون]

(١) Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 289 - 290.

(٢) أخطأ لينبول بذكر وفاته سنة ٤٤٠ هـ، ولذلك أصلحنا هذه السنة عن كتب التاريخ.

جدول الأمراء الغزنويين



سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ):

كان ألبتكين من الموالي الأتراك الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين فأسندوا إليهم المناصب العالية في الدولة. وقد عين عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣ - ٣٥٠ هـ) ألبتكين حاجباً في بلاطه، ثم عينه في سنة ٣٤٤ هـ عاملاً على مدينة هراة، ولكنه أقصى عن منصبه بعد وفاة مولاه، فعاد إلى مدينة غزنة التي كان أبوه يليها من قبل السامانيين، وحل محله في حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢ هـ، واستطاع أن يناوىء منصوراً الأول بن نوح الساماني (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ)، ولكنه مات بعد سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع رقعة البلاد التي استولى عليها، كما لم يتمكن ابنه إسحاق من مد نفوذ الغزنويين.

وكان لإسحاق مملوكان، هما بلكاتكين Balkatigin وسبكتكين Subuktigin. وقد آلت السلطة من بعده إلى أولهما فضرب النقود باسمه في غزنة سنة ٣٥٩ هـ، وتبعه في حكمها بيري أحد أهالي هذه المدينة. ويعتبر سبكتكين أحد موالي ألبتكين وزوج ابنته المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية[١]. ويذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٤٧) أن إسحاق بن ألبتكين لما توفي «ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للحكم، اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم، فاختلفوا، ثم اتفقوا على سبكتكين، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فقدموه عليهم وولوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة».

وقد مد سبكتكين سلطانه في الشرق، حيث أسس دولة حاضرتها بشاور، وفي فارس باستيلائه على خراسان التي ولاه عليها نوح بن منصور الساماني في سنة ٣٨٤ هـ، مكافأة له على قمع الثوار في بلاد ما وراء النهر[٢].

ذكر ابن الأثير في حوادث سنتي ٣٦٦، ٣٦٩ هـ أن سبكتكين استولى على ناحية قصدار القريبة من غزنة، وبست الواقعة بين سجستان وهراة، وأن صاحب بست كان قد استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده، ولكنه لم يف بتعهداته له وماطله، فأحل به سبكتكين الهزيمة واستولى على بست. ثم صار إلى قصدار بعد أن خرج عليه واليها. واعتصم بها لمناعتها وصعوبة مسالكها، واستولى عليها وأرغم هذا الوالي على الاعتراف بطاعته.

---

(١) Encyclopedia of Islam, Ghaznavids, S.V. (Vol.II,p.154)

(٢) Brown: Lit. Hist: of Persia, vol. I, pp. 371 - 372.

وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزء كبير من بلاد الهند، فاستولى على بعض المواقع الجبلية فيها، حيث مدينة كابل حاضرة بلاد الأفغان الحالية[١]، وعاد إلى بلاده سالماً ظافراً. ولكن جيبال أحد ملوك الهند، الذي كانت مملكته تمتد في شمال غربي الهند، رأى في استيلاء سبكتكين على أطراف بلاده تهديداً لمملكته، وبدأت بين ملوك الهند وملوك غزنة حروب طاحنة انتهت باستيلاء محمود بن سبكتكين على جزء كبير من هذه البلاد.

وفي سنة ٣٩٦ هـ حلت الهزيمة بجيبال، وطلب الصلح مع سبكتكين «على مال يؤديه إليه وبلاد يسلمها إليه وخمسين فيلاً يحملها إليه، فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله حتى يتم تسليم البلاد، ولكن جيبال قبض على من معه من المسلمين مقابل رهائنه. فلما سمع سبكتكين بذلك سار نحو الهند وخرب كل ما مر عليه من بلادهم، ثم قصد لمغان، وكانت من أحسن قلاعهم، ففتحها عنوة، وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام، ثم عاد إلى غزنة وسار جيبال في مائة ألف مقاتل التقوا بجند سبكتكين الذي أحل الهزيمة بالهنود، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة. وكان من أثر انتصار سبكتكين في هذه الموقعة أن دخل في طاعته الأفغان والخليج»[٢].

ومع أن سبكتكين كان من الناحية العملية مستقلاً عن السامانيين وأكثر نفوذاً منهم[٣]، اعترف - كما يقول لينبول[٤] - لهم بالسيادة وشن الحروب وفتح البلاد باسمهم، حتى «اتسعت رقعة ولايته، وعظم حجم جريدته، وعمرت أرض خزينته، وأشفقت النفوس من هيبته»[٥] ففي سنة ٣٨٤ هـ نرى نوح بن نصر الساماني يستعين بسبكتكين صاحب غزنة على حروب أبي علي بن سيمجور وفائق الخاصة، اللذين شقا عصا الطاعة في خراسان، وولاه خراسان، ودارت الحرب بنواحي هراة بين نوح الساماني وسبكتكين وابنه محمود من ناحية، وبين أبي علي بن سيمجور وفائق الخاصة وفخر الدولة بن ركن الدولة البويهي من ناحية أخرى، وانتهت بانتصار سبكتكين، وتتبّعه أبا علي وفائقاً إلى نيسابور، واستيلائه عليها.

---

(١) كانت هذه الأراضي ولا تزال تعرف باسم Hid أو Hund، ويعرف ملوكها باسم ملوك مملكة الشاهات، ويعرفون عامة باسم ملوك الهنود في كابل.

(٢) العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص ٥٨، ٧٦.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٨.

(٤) Mahammadan Dynasstics,p. 286.

(٥) العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص٦٣.

وبعودة نيسابور إلى السامانيين ولي نوح محمود بن سبكتكين ناصر الدولة(١).

مات سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ بعد أن حكم عشرين سنة وضع فيها أساس إمبراطورية الغزنويين بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر في فتوحه في الشرق والغرب، وما اشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومتانة الخلق، تلك الإمبراطورية التي اتسعت رقعتها وامتدت حدودها في عهد ابنه محمود الغزنوي، و«كان سبكتكين عادلاً خيراً كثير الجهاد، حسن الاعتقاد، ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء»(٢).

وقد رثاه أبو الفتح البستي الشاعر المشهور الذي اتخذه سبكتكين كاتباً له بقوله:

قلت إذ مات ناصر الدين والدو ... لة حباه ربه بالكرامه
وتداعت جموعه بافتراق ... هكذا هكذا تكون القيامه(٣)

يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ):

عهد سبكتكين قبل موته إلى ابنه إسماعيل؛ وكان ضعيف الرأي والتدبير حتى كادت تنفذ خزائنه، فأرسل إليه أخوه محمود، وكان أكبر منه سناً، يبين له أحقيته في السلطنة بعد أبيه. واتصل بمحمود قواد إسماعيل سراً، والتقت جيوشهما بظاهر غزنة. وبانتصار محمود استقر له ملك الغزنويين، وقبض على إسماعيل بعد أن حكم سبعة شهور.

يقول براون(٤): «إن قوة محمود الغزنوي التي لا تحد قد ظهرت فجأة، وإنه بدأ عهده بوضع يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند اثنتي عشرة مرة، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب، وأخضع بلاد الغور، وبلاد ما وراء النهر، ووالى لبني بويه ضرباته التي انتهت باستيلائه على أصبهان».

وكان من أهم الأغراض التي رمى إليها محمود الغزنوي أن يرث ملك السامانيين. وقد حز في نفسه انتزاع منصور بن نوح نيسابور منه وإمرة جيش خراسان وتوليتهما بكتوزون واتخذ محمود من انحلال الدولة السامانية، وتآمر بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح، وقبضهما عليه، وسمل عينيه، وتولية أخيه الصغير، فرصة لتحقيق سياسته. وأحل محمود الهزيمة بجيش السامانيين في مرو (جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ)، وارتد

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٨. العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص ٥٠ - ٥١، ٥٤.
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨.
(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤.
(٤) Lit. Hist. of Persia, vol. I. p.376.

عبـد الملك بن نوح إلى بـلاد ما وراء النهـر. وصفت له خـراسان، وعين أخـاه نصراً على جيوشها، فاتخذ نيسابور مركزاً له، وخطب للخليفة القادر. وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوي. ومن بلاد ما وراء النهر على يد بغراخان(١).

كان محمود الغزنوي أول من تلقب من الغزنويين بلقب سلطان. بعـد أن كان يلقب بلقب أمير. وقد لقبه الخليفة القادر بالله يمين الدولة، وأمين الملة. وظهرت هذه الألقـاب على السكة التي كانت تحمل اسمه(٢).

ولم يكتف محمود بما استولى عليه من بلاد. بل عمل على مد نفـوذه وتوسيـع رقعة أملاكه. فحارب خلف بن أحمد صاحب سجستان. واستولى عليها (٣٩٣). ولكنها لم تلبث أن خرجت عليه. فأخضعها وأقطعها أخاه نصراً(٣).

وفي سنة ٤٠١ هـ حارب محمود الغور. وكانوا لا يـدينون بـالإسلام. وتقـع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة. ومن ثم كانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيـل. وقد أوقع محمود بهم وأخضعهم لسلطانه. ونشر الإسلام بينهم. وأرسـل إليهم جماعـة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين.

ومن أهم الأعمال التي قام بها محمود الغزنوي إزالته سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل. فقد انتهز فرصة استنجاد مجد الدولة بن فخر الدولة الذي استبدت أمه بالأمـر دونه وانصرف إلى النساء واشتغل بقراءة الكتب. فاختلت دولته بعد موت أمه وأرسل إليه في سنة ٤٢٠ هـ جيشاً قبض عليه وعلى ابنه أبي دلف. ثم سار محمود إلى الري ودخلها. وأحضر مجد الدولة وقال له: أما قرأت شانامة (يقصد الشاهنامة للفردوسي: وهو تاريخ الفرس)، وتاريخ الطبـري (وهو تاريخ المسلمين)؟ قال: بلى؟ قال: ما حالك حال من قرأهما(٤). أما لعبت بالشطرنج؟ قال: بلى! قال: فهل رأيت شاهاً يدخل على شاه؟ قال: لا! قال: فمن حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك؟ ثم سيره إلى خراسـان وملك قزوين وصلب عدداً كبيراً من أصحابه الباطنية: ونفى المعتزلة إلى خراسان. وأحرق كتب الفلسفة والمعتزلة والنجوم. وأخذ عدا ذلك مائة حمل من الكتب(٥).

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٥٤.
(٢) ابن خلكان: جـ ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٣) تاريخ اليمني جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٤. ابن الأثير جـ ٩ ص ٦٠، ٦٤ ـ ٦٥.
(٤) في الأصل قرأها والسؤال عن كتابين.
(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٩.

كذلك حارب محمود الغزنوي الأتراك الغزية. أصحاب أرسلان بن سلجوق. وكانوا يقطنون صحارى بخارى. ولما قبض على زعيمهم أرسلان في بلاد ما وراء النهر وأرسله إلى بلاد الهند وقتل كثيراً من أصحابه. هرب جمع كبير منهم في سنة ٤٢٠ هـ ولحقوا بخراسان وعاثوا فيها. فهربوا إلى أصبهان حيث طاردتهم جيوش محمود الغزنوي وأوقعت بهم. ثم سار محمود إلى خراسان حيث تفاقم شر هؤلاء الغز. وما زال يحاربهم حتى مات. واستمر ابنه مسعود في حربهم(١).

ولم تقتصر جهود الغزنوي على فتح البلاد في فارس وخراسان وغيرهما. بل إنه اهتم أيضاً بالقضاء على أهل البدع والأهواء. ففي سنة ٤٠٨ هـ نراه يشمر عن ساعد الجد في محاربتهم في غير هوادة. يقول الذهبي(٢): «وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله. وبث كلمته في عماله بخراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة. وصلبهم ونفاهم. وأمر بلعنهم على المنابر. وشردهم من ديارهم».

ولما وجد الفاطميون في مصر ما يلاقيه أنصارهم من الإسماعيلية في بلاد المشرق على يد محمود الغزنوي، عملوا على استمالته إليهم. ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم.

فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند:

اصطبغت حملات محمود الغزنوي في بلاد الهند بين سنتي ٣٩٢ و ٤١٥ هـ (١٠٠٠ و ١٠٢٤ م) بصبغة الجهاد الديني. وكان يرمي من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام في هذه البلاد ليكون ذلك كفارة لما كان من قتال المسلمين. ولذلك فرض - كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٨٥) - على نفسه في كل عام غزو الهند. أضف إلى ذلك أن جيبال ملك البنجاب الذي حارب أباه سبكتكين حروباً طاحنة، كان لا يزال في قوة لايستهان بها، كما أن قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية، ووقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها يجعلها سهلة الاتصال بوديان كابل وقورم ونهر جمال - كل ذلك أمد محموداً بمزايا فريدة ساعدت على نجاح غزواته في بلاد الهند. ومما ساعد محموداً على تحقيق هذه الأغراض استيلاؤه على بلاد ما وراء النهر التي آلت إلى إيلك خان بعد زوال الدولة السامانية، وعلى

---

(١) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) تاريخ الإسلام: مخطوط جـ ٣ ورقة ٢٧٩.

سجستان وبلاد الغور. مما قوي مركزه الحربي في الداخل وأطلق يده في توجيه حملاته المنتظمة إلى بلاد الهند[١].

وفي سنة ٣٩٢ هـ غزا محمود الغزنوي شمالي الهند؛ وانتصر على جيبال وأسره وغنم غنائم كثيرة حتى قيل إن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف. ثم أطلق جيبال على جزء من المال يؤديه. وكان من عادة الهنود أن من وقع منهم أسيراً في أيدي المسلمين لا تنعقد له بعدها رياسة. ولذلك حلق جيبال رأسه، ثم ألقى نفسه في النار فاحترق، وترك مملكته لابنه أنندبال Anandpal. وكان من أثر ما أحرزه محمود بن نصر في هذه الغزوة أن أطلق عليه «الغازي»[٢].

وبعد أن أحل محمود الغزنوي الهزيمة بجيبال سار نحو ويهند Und وانتصر على أهلها. ثم قصد إقليم الملتان، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة؛ فاستولى على مدينة بهاطية. وانتصر على صاحبها بحيرا (٣٩٥ هـ) ونشر الإسلام فيها، وولى عليها أحد المسلمين. وعهد إليه بتعليم أهلها قواعد الإسلام. وفي سنة ٣٩٦ هـ قصد محمود مدينة الملتان نفسها. وانتصر وهو في طريقه إليها على أنندبال بن جيبال لأنه لم يسمح له بالمرور من بلاده. ولما سمع أبو الفتوح داود صاحب الملتان، وكان يدين أهلها بمذهب القرامطة، بقدوم محمود الغزنوي إلى بلاده، فر إلى سرنديب: فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عنوة وفرض عليها الجزية[٣].

وفي سنة ٣٩٧ هـ أعلن محمود الغزنوي الحرب على ولد أنندبال الذي اعتنق الإسلام على يد محمود، وتلقب بلقب نواسه شاه؛ وحكم بلاده نيابة عنه. ولكنه ارتد عن هذا الدين، وشق عصا الطاعة. فسار إليه محمود وانتصر عليه وضم بلاده إلى أملاكه.

وبينما كان محمود مشغولاً بحرب إيلك خان، الذي استولى على بلاد ما وراء النهر من يد السامانيين ثم حارب جيوشهم على مقربة من بلخ وجيوش الغور على ما تقدم، عقد ملوك الهند وأمراؤها حلفاً لمقاومة محمود والدفاع عن بلادهم وعن دينهم. وفي سنة ٣٩٨ هـ عبر محمود نهر السند والتقى في ويهند الواقعة في البنجاب بجيش جرار يتألف من قوات

---

(١) أنظر .Encyclopaedia of Islam, vol.II.p.155

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٦٤.

(٣) .Defrèmery, Essai Sur L'Histoire des Ismaéliens, p.30

أبرهمن بال بن أنندبال وراجات أدجين وجواليار ودلهي وغيرها، وكادوا يظفرون بالمسلمين(١).

ثم تبع يمين الدولة أثر أبرهمن بال حتى بلغ قلعة بهيم نغر، وكان الهنود قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ونقلوا إليها الذخائر والجواهر، فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقاتلهم وأرغمهم على طلب الأمان، وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة، وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته، «فأخذ من الجواهر ما لا يحد، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة منا. وكان فيها بيت مملوء من فضة، طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً، إلى غير ذلك من الأمتعة. وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم، ففرش تلك الجواهر في صحن داره، وكان قد اجتمع إليه الرسل والملوك، فأدخلهم إليه فرأوا ما لم يسمعوا بمثله»(٢).

وكان من أثر انتصار محمود في هذه الغزوة أن انتثر عقد هذا الحلف وزالت الثقة من نفوس هؤلاء الراجات، ودفع أنندبال إلى محمود غرامة كبيرة؛ وتعهد بأن يدفع إليه جزية سنوية، كما تعهد بأن لا يقف في طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب. أما داود صاحب بلاد الملتان فإنه ارتد إلى عقائد القرامطة، فغزا محمود بلاده في سنتي ٤٠٠ و٤٠١هـ واستولى على حاضرتها، وقتل كثيراً من أهلها، وقبض على داود وأرسله إلى بلاد الغور حيث قضى بقية حياته(٣)، ثم استولى محمود الغزنوي على ناردين (٤٠٤ هـ)، وهدم الصنم المعروف بسومنان وغنم غنائم كثيرة. ثم عزم محمود على امتلاك قشمير، ولكنه لم يوفق في حملاته العديدة التي قام بها في السنوات ٤٠٤ و٤٠٥ و٤٠٦هـ، وفقد كثيراً من جنده وغرق كثير منهم بسبب فيضان بعض الأنهار(٤).

أقسم محمود على أن يغزو بلاد الهند في كل سنة، ولكنه انشغل في سنة ٤٠٧ هـ بضم بلاد خوارزم على أثر مقتل خوارزم شاه مأمون، وكان قد تزوج من أخت محمود واعترف بسلطانه وأراد أن يخطب على منابر بلاده، فقتله بعض قواده وأجلسوا ابنه مكانه.

---

(١) Wosceley Haig: Encylopaedia of Islam , vol. ii.133.

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٧.

(٣) Encyclopaedia of Islam, vol. II. 133.

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩١ ـ ٩٦.

فقصد محمود هذه البلاد، واستولى عليها، وأنزل العقاب بالثوار؛ وولى عليها نائباً من قبله، ثم تفرغ لبلاد قشمير[١].

لذلك نراه يسير من غزنة سيراً متصلاً مدة ثلاثة أشهر، ثم يعبر نهري سيحون وجيلوم فيخضع له ملوك هذه الجهات. ثم يستمر في سيره حتى يصل إلى قشمير فيخضع له صاحبها ويسلم على يديه. ولما سمع راجا برن Barran، (ويدعى هودب أو هردتا Hardatte) زعيم بولند شهر بنبأ وصول جيوش محمود إلى بلاده، سقط في يده، وأخذ الفزع من نفسه كل مأخذ، وخشي على حياته من عقاب الله، ولم ير بداً من اعتناق الإسلام، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله سبحانه وتعالى. وسرعان ما تقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله، وأعلنوا للفاتحين رغبتهم في التحول عن دينهم القديم إلى الإسلام ومناصبة الكفار العداء. ثم سار عنه إلى قلعة كلجند Kulcand، وعليها راجا مهبان Mahaban، فقاتله محمود قتالاً شديداً، وغنم المسلمون أمواله، وملكوا حصونه ثم سار نحو معبد لهم في مدينة مثورا Mathura أو بندرابان Bandrapan، وهو يقع على نهر، وفيه كثير من الأصنام: منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر، وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفاً وثلثمائة مثقال، ومن الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك كله. ثم سار نحو كنوج Kannawj، وكان يحميها سبعة حصون على نهر الجنج، وكان صاحبها راجبال Radjyapala قد فارقها، ثم عبر نهر الجنج (أو كنك على ما يسميه ابن الأثير) فاستولى محمود الغزنوي على قلاعها وأعمالها وفيها نحو عشرة آلاف بيت من بيوت الأصنام. تم سار إلى قلعة البراهمة وتسمى مجهاون Mujhawan فقاتلوه قتالاً شديداً، فأحل بهم الهزيمة ولم ينج منهم إلا الشريد؛ ثم سار نحو قلعة آسي[٢] على نهر الجنج. فلما اقترب منها هرب صاحبها جندبال فاستولى عليها يمين الدولة، ثم سار إلى قلعة شروة Sharwa، فلما اقترب منها نقل صاحبها جندراي[٣] ماله وفيوله نحو جبال منيعة يحتمي بها، ففتحها يمين الدولة وغنم ما فيها، ثم سار في طلب جندراي، وأسر كثيراً منهم وغنم ما معهم من مال وفيلة. وكان السبي في هذه الغزوة من الكثرة بحيث إن أحدهم كان يباع بأقل

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩٨.

(٢) ذكرها ولسلي هيج أسني Asni

(٣) راي هو راجا حسب تسمية ابن الأثير الذي يقول (ج ٩ ص ١١٥) إن «راي هو لقب الملك كقيصر وكسرى، ولا يزال هذا اللقب إلى الآن شائعاً في بلاد الهند».

من عشرة دراهم. ولما عاد محمود الغزنوي من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة وأنفق على بنائه كل ما غنمه في هذه الغزاة.

وقد حز في نفس ملوك الهند ما أحرزه محمود الغزنوي من نصر مؤزر وما أبداه بعضهم من تخاذل، فسار نندا راجا كالنجار Kâlindjâr وراجا جواليار Gwaliyar إلى راجبال راجا كنوج وحارباه، لتركه حاضرة بلاده، وقتلاه. وانضم إلى نندا كثيراً من ملوك الهند الخاضعين لنفوذ محمود الغزنوي. وهدد سلطانه في هذه البلاد. فلم ير بداً من العودة إلى الهند والقضاء على هذا الخطر قبل استفحاله. وقضى في طريقه على جماعة الأفغان الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية بين غزنة والهند، ويقطعون الطريق، ويعوقون مواصلات محمود إلى هذه البلاد. ولما تم له ما أراد، قصد نندا وحلفاءه وقضى عليهم في بلاد البنجاب وغنم منهم غنائم كثيرة (٤٠٩/١٠١٩)[١].

وهكذا استمرت غزوات محمود الغزنوي في بلاد الهند سنة بعد أخرى، حتى توج انتصاراته الباهرة في غزواته التي شنها عليها باسترداد ناردين. وهدم صنم سومنان الذي كان الهنود يعتبرونه الملاذ الذي يحميهم من غزوات الغزنويين. «فكان كلما فتح يمين الدولة من الهند فتحاً وكسر صنماً يقول الهنود إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات (سومنان على الأصح)، ولو كان راضياً عنها لأهلك من قصدها بسوء. فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه، ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام[٢]. فاستعد لهذه الغزوة أتم استعداد، واخترق صحراء الهند (صحراء ثار) واستولى على أجمر Adjmâr وأنهلوارة Anhilwara، فتركها صاحبها بهيم Bhim، ووصل إلى سومنان في ١٦ ذي القعدة سنة ٤١٦ هـ (يناير ١٠٢٦ م). فرأى حصناً منيعاً دافع عنه أهله أشد دفاع. ثم علم أن أمراء جوجرات Gudjarat الذين فروا قبل قدومه قد لموا شملهم للذود عن معبودهم، وساروا نحو المدينة، فترك بعض رجاله يحاصرون الهند، واتجه ببقية جيشه صوب جيوش هؤلاء الأمراء، وانتصر عليهم بعد أن كادت تحل به الهزيمة؛ فولوا الأدبار، واستطاع أن يستولي على هذا الصنم المشهور. وقد سر محمود الغزنوي بهذا النصر المؤزر، وأرسل إلى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين في الهند[٣].

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٥ - ١١٦.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١١٨.
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٤ - ٨٥.

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات وحسن مناخه، حتى إنه فكر في اتخاذ أنهلورا حاضرة له واستخلاف ابنه مسعود في حكم غزنة، لولا أن قواده أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأي، وعاد إلى غزنة محملاً بالغنائم. وكانت آخر غزوات محمود الغزنوي لبلاد الهند في سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) لتأديب الثوار الذين اعترضوه في أثناء عودته إلى غزنة، وأعد لهذه الغزوة أسطولاً صغيراً، وأحل الهزيمة بالجات Djats في نهر السند[١].

ولم يفتر محمود الغزنوي عن توجيه حملاته إلى بلاد الهند طوال عهده، حتى إننا نرى نائبه ينال نكين في هذه البلاد يستولي في السنة التي تولى فيها محمود على نرسي، وكانت تعد من أعظم مدن الهند في ذلك الوقت.

يقول ولسلي هيج[٢]: «يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محموداً (الغزنوي) سلطاناً هندياً خالصاً. فقد فتح في خريف حياته إقليم البنجاب، ونشر الإسلام في ربوع الهند، وفتح طريقاً سلكه بعده كثيرون، وقنع خلفاؤه، بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، بحكم إقليم البنجاب، وكونوا أسرة هندية خالصة».

ويقول ستانلي لينبول[٣]: «إن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم، ،يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد. فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغوري[٤] وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهي ونشروا نفوذ المسلمين في أرجاء بلاد الهند الشمالية كافة»[٥].

وقد بلغ محمود الغزنوي في فتوحه «إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية، قد حض عنها أجناس الشرك، وبنى بها مساجد وجوامع[٦]، وأقام بدلاً من

---

(١) W. Haig: Encylopaedia of Islam vol. II.P.134.

(٢) Cambridge History of India (Cambridge, 1928) vol, III, pp.62 - 27.

(٣) The Muhammadan Dynasties, p. 284.

(٤) حكمت الدولة الغزنوية بلاد أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣(١١٤٨ م)إلى سنة٦١٢هـ(١٢١٥).

(٥) Ishwari Prassad: Inde du VIIe au XVIIe Siécle, p. 48 et Suiv. أنظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في الهند: بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مايو ١٩٤٤ ص ٧.

(٦) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٥.

بيوت الأصنام، مساجد الإسلام، وعن مشاهد البهتان، معاهد التوحيد والإيمان فصارت الأطفال تهدد في بطالاتها بإقدامه، وتفزع بإقبال ألويته وأعلامه، وظل أندبالهم وجيبالهم وكماتهم وأبطالهم كما قال الأشجع السلمي:

وعلى عَدُوِّك يابنَ عمِّ محمدٍ ... رصدان: ضوء الصبح والإظلام
فإذا تَنَبَّه رُعْتَه وإذا هدا ... سَلَّتْ عليه سيوفك الأحلام[١]

وقد أطنب العتبي[٢] في سجايا محمود الغزنوي، وأشاد باتساع رقعة مملكته في هذه العبارة فقال:

«إن راية الإسلام لم تظل على سلطان أحسن ديناً، وأصدق يقيناً، وأحسن علماً، وأوقع حلماً، وأسد سيرة، وأخلص سريرة، وأتم وفاء وأعم سخاء وأوفر حباء، وأغنى غناء وأعظم قدراً، وأفخم ذكراً، وأمد باعاً، وأشد امتناعاً، وأجل جلالة، وأكمل عدة وآلة، وأرفع ملكاً وسلطاناً، وأطوع أنصاراً وأعواناً، وأردع سيفاً وسناناً، وأحمى للإسلام وذويه وأنقى للشرك ومنتحليه، وأعدى للباطل من يليه، اكتساباً ووراثة وطباعاً واستفادة، من الأمير السيد، الملك المؤيد، يمين الدولة، وأمين الملة، أبي القاسم محمود بن ناصر الدين، أبي منصور سبكتكين: ملك الشرق بجنبيه، والصدر من العالم ويديه، لانتظام الإقليم الرابع وما يليه من ثالث الأقاليم وخامسها[٣] في حوزة ملكه، وحصون انتظام ممالكه الفسيحة، وولاياتها العريضة في قبضة ملكه، ومصير أمرائها وذوي الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته، واستدرائهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته، وإذعان ملوك الأرض على بعدهم لعزته. وارتياعهم من فائض هيبته، واحترامهم على تقاذف الديار، وتحاجز الأنجاد والأغوار، من فاجىء ركضته، واستخفاء الهند والروم تحت جيوبها عند ذكره، واقشعرارهم لمهب الرياح من أرضه. وقد كان أدام الله دولته منذ لفظه المهد وجفاه الرضاع، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام، واستغنى عن الإشارة بالإفهام، مشغول اللسان بالذكر والقرآن، مشغول

---

(١) العتبي: تاريخ اليميني جـ ١ ص ٣٨ ـ ٣٩. (٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) أراد بالإقليم الرابع خراسان، لأنها من أشهر كور هذا الأقليم، وأراد بالإقليم الثالث الذي منه قندهار وكابل وكثير من مدن بلاد الهند. والأقليم الخامس هو ما يلي الأقليم الرابع من ناحية الشمال، ويراد به ما تملكه السلطان محمود الغزنوي من بلاد الترك وخوارزم وغيرها. ولا يبعد أن يكون العتبي قد أراد بالصدر من العالم الاقليم الرابع خراسان، لأنه يقع بالأقاليم السبعة وسطاً، وهو كالصدر من الإنسان وما يليه من الأقليم الثالث والخامس كاليدين.

النفس بالسيف والسنان، ممدود الهمة إلى معالي الأمور، معقود الأمنية بسياسة الجمهور، لعبه مع الأتراب جد، وجده مستكد، يألم لما لا يعلمه حتى يقتله خبراً، ويحزن لما يحزن حتى يدمثه قسراً وقهراً».

كان محمود الغزنوي ـ كما وصفه ابن الأثير(١) ـ عاقلاً ديناً خيراً(٢)، عنده علم ومعرفة، له كثير من الكتب في الفنون، وقصده العلماء من أقطار البلاد. وكان يكرمهم، ويقبل عليهم، ويعظمهم ويحسن إليهم. وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته، والرفق بهم، كثير الغزوات، ملازماً للجهاد. وفتوحه مشهورة مذكورة... وفيه ما يستدل به على بذل نفسه لله تعالى واهتمامه بالجهاد، ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق(٣)... وكان ربعة مليح اللون حسن الوجه، صغير العينين، أحمر الشعر».

وقد نقل أبو نصر العتبي عن بديع الزمان الهمداني (٣٩٨/١٠٠٧) أبياتاً يصف فيها ازدهار الدولة الغزنوية في عهد يمين الدولة محمود الغزنوي وتحول السيادة والنفوذ من العنصر الفارسي إلى العنصر التركي بقضاء محمود الغزنوي على السامانيين(٤).

مسعود الأول (٤٢١ ـ ٤٣٢ هـ):

لما حضرت محمود الغزنوي الوفاة، أوصى إلى ابنه محمد نائبه ببلخ بالحكم من بعده، ولقبه جلال الدولة، ولم يوص لابنه الأكبر مسعود لإيقاع الوشاة به عند أبيه. ووصل محمد إلى غزنة بعد موت أبيه بأربعين يوماً، وخلع على قواده وعساكره، فأطاعوه.

---

(١) جـ ٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٨٦) أن محموداً الغزنوي كان مولعاً بعلم الحديث، وقد رأى أن أكثر هذه الأحاديث موافق لمذهب الشافعي، ولذلك تحول محمود إليه، وترك مذهب أبي حنيفة.

(٣) ذكر ابن الأثير جـ ٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١) أن محموداً قبض على وزيره أبي القاسم أحمد بن الحسن الميمندي (٤١٢ هـ) طمعاً في ماله، «وأخذ منه لما قبض عليه مالاً وأغراضاً بقيمة خمسة آلاف درهم. وذكر أيضاً أنه «بلغه أن إنساناً من نيسابور كثير المال عظيم الغنى، فأحضره إلى غرفة وقال له: بلغنا أنك قرمطي، فقال: لست بقرمطي، ولي مال يؤخذ منه ما يراد وأعفى من هذا الاسم، فأخذ منه مالاً وكتب معه كتاباً بصحة اعتقاده».

(٤) تاريخ اليميني جـ ١ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦.

أما مسعود فقد كان شأنه مع أخيه محمد شأن أبيه محمود مع أخيه إسماعيل بن سبكتكين، فإن مسعوداً لما بلغه خبر وفاة أبيه وهو بأصبهان، سار إلى خراسان، وكتب إلى أخيه يطلب إقراره على البلاد التي كان قد فتحها، وهي بعض بلاد طبرستان والجبل وأصبهان، ووعد بتقديم اسم أخيه في الخطبة على اسمه. ولكن محمداً لم يجب أخاه إلى طلبه، وانضم بعض جنده إلى مسعود، لكبر سنه وشجاعته وقوة بأسه، وثار بعضهم الآخر عليه، وقبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه، لأنه كان مشغولاً بالشراب واللعب عن تدبير الدولة، ونادوا بأخيه مسعود سلطاناً عليهم. وذلك في ذي القعدة سنة ٤٠١ هـ أي بعد اعتلائه السلطنة بخمسة أشهر[١]. ولقبه الخليفة القادر ناصر دين الله وحافظ عباد الله، وظهير خليفة الله[٢]، وسيد الملوك والسلاطين[٣].

وفي سنة ٤٠٦ هـ ولى محمود ابنه مسعوداً العهد من بعده. ثم ولاه هراة. وفي سنة ٤١١ هـ عهد إليه بمحاربة الغور، فأبلى بلاء حسناً. وأخضع الجزء الشمالي الغربي من هذه البلاد. ولكن أباه لم يلبث أن غضب عليه وسجنه في المولتان. ثم عفا عنه. وقلده ولاية هراة ثانية. ولما فتحت بلاد الري في سنة ٤٣٠ هـ (١٠٢٩ م) وزالت منها سيادة البويهيين من أبناء ركن الدولة، وليها مسعود الذي ضم همذان وأصبهان وأزال سلطان البويهيين منهما.

عمل مسعود على إقرار نفوذه في بلاد المشرق. فاستولى على مكران (٤٢٢ هـ). ثم على كرمان التي لم تلبث أن خرجت عن طاعته. ثم سار إلى خراسان لفتح بلاد العراق. فاتخذ أحمد بن ينال نكين نائب الغزنويين في لاهور من ذلك فرصة للاستقلال بهذه البلاد واضطر مسعود إلى العودة إلى غزنة. وولى علاء الدولة بن كاكويه. وكان بنو بويه قد ولوه أصبهان. فطلب من مسعود إقراره عليها بجزية سنوية على هذه المدينة. وأقر دارا بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير على جرجان وطبرستان. وأرسل أبا سهل الحمدوني لإقرار الأمور في الري. وسار مسعود إلى الهند وفتح قلعة سرستي الجبلية في جنوبي قشمير وقد حاول أبوه محمود فتحها من قبل فلم يوفق. وأرغم نائبه أحمد بن ينال نكين على الارتداد إلى نهر السند. حيث غرق (٢٤٦ هـ) ثم عاد إلى هذه البلاد في السنة التالية، واستولى على

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٥٠.

(٢) Encyclopaedia of Islam. vol. III.p.400

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨١.

بعض قلاعها مثل هانسي Hansi وسونيبات Sonipat، وخلف ابنه مجدداً على بلاد البنجاب[١].

ولما تغلب مسعود على الصعاب التي اعترضته في الهند، اعترضته صعوبة أخرى في خراسان، حيث نازعه السلطة فيها قوتان خطيرتان، هما الغز والسلاجقة. أما الغز فقد أجلاهم عن خراسان بعد حروب دامت زهاء سنتين (٤٢٩ ـ ٤٣١ هـ)، وأما السلاجقة الذين تفاقم شرهم في الوقت الذي قامت فيه الاضطرابات بعد وفاة محمود الغزنوي، فقد نهبوا هراة في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م)، وبدءوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون على خراسان إغارات منظمة. وفي سنة ٤٢٦ هـ حاربهم مسعود وهزمهم هزيمة منكرة. ولم يستطع مسعود التفرغ للقضاء على السلاجقة، لشغله بغزو الهند، مما أدى إلى ازدياد قوتهم وطمعهم في أملاك الغزنويين. على أن ذلك لم يضعف قوة السلاجقة المعنوية. فضاعفوا جهدهم، واستولوا على مرو ونيسابور وسرخس (سنة ٤٢٩ هـ)، بل على معظم بلاد خراسان سوى بلخ. ولم ير مسعود بداً من قتالهم بنفسه. فعاد من غزنة، وانتصر على طغرل في شهر شعبان سنة ٤٣٠ هـ. وطرد السلاجقة والغز من خراسان. ولكن السلاجقة لم يلبثوا أن هزموا مسعوداً في شهر رمضان سنة ٤٣١ هـ هزيمة منكرة وأفلت من الأسر.

وكانت هذه الهزيمة بعيدة الأثر في نفس مسعود، حتى إنه عزم على الانسحاب إلى بلاد الهند حيث يستطيع أن يجمع جيشاً جراراً يحارب به السلاجقة[٢]. وبعد أن عبر نهر السند بقليل، ثار مواليه وقبضوا عليه ونهبوا خزائنه، وانضموا إلى سائر الجند، وأقاموا أخاه محمداً (وكان بصحبته مسمولاً بعد أن قبض عليه) وسلموا عليه بالإمارة، وبقي مسعود فيمن معه من العسكر، وانتهت هذه الحروب الأهلية التي قامت بين جند مسعود وأنصار أخيه محمد بقتل مسعود.

وقد أطنب ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨٢) في وصف مناقب مسعود واتساع رقعة سلطنته فقال: إنه كان شجاعاً كريماً، ذا فضائل كثيرة. محباً للعلماء. فصنفوا له التصانيف الكثيرة في العلوم. وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة. قيل إنه تصدق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأنه عمر كثيراً من المساجد، وأجزل العطاء للشعراء. أعطى

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧٠ ـ ١٧٢، ١٨١.

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٨٢.

شاعراً على قصيدة ألف دينار، وأعطى آخر لكل بيت ألف درهم. وكان يكتب خطاً حسناً. وقد امتد نفوذه على أصبهان والري وهمذان وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وكرمان وسندستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند.

مودود بن مسعود (٤٣٢ - ٤٤١ هـ):

لما قتل مسعود عاد أخوه محمد إلى غزنة، وأرسل إلى ابن أخيه مودود بخراسان يتنصل من تبعة قتل أبيه، فرد عليه بهذه العبارة التي تنم عن حزنه وعزمه على القصاص من قتلة أبيه، فقال: «أطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين)، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلاً يعيش به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي، الذي لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين. وستعلمون في أي حتف تورطتم، وأي شر تأبطتم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

نفلق هاما من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعقَّ وأظلما».

سار مودود من خراسان قاصداً غزنة وحارب عمه محمداً، وكان قد عاد من الهند، بالقرب من دينور على طريق كابل وبشاور، وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل أولاده جميعاً إلا عبد الرحيم الذي غضب لقتل عمه، كما قتل كل من رمى بالاشتراك في هذه المؤامرة، وبنى في المكان الذي انتصر فيه على عمه قرية ورباطاً، سماهما فتح آباذ، ودخل غزنة في شهر شعبان سنة ٤٣٢ هـ.

وقد أثار انتصار مودود مخاوف الغز السلاجقة، فثار عليهم أهالي البلاد التي خضعت لهم، ودخلوا في طاعة مودود الذي استقر أمره بغزنة، ولم يعد يخشى أحداً إلا أخاه مجدوداً. وكان أبوه مسعود قد سيره إلى الهند وولاه إقليم البنجاب في سنة ٥٢٦ هـ كما تقدم، فعصى أخاه مودوداً واستقل بلاد هور والمولتان، وجهز جيشاً سار به نحو غزنة ولكنه مات في شهر ذي الحجة من سنة ٤٣٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٤١ م) بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام[١].

وقد أصبح السلاجقة على مر الأيام خطراً يهدد الدولة الغزنوية؛ ففي سنة ٤٣٥ هـ انتصر ألب أرسلان بن داود السلجوقي على جيش مودود الغزنوي، ومع ذلك تمكنت جماعة

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨٢.

من جيوش مودود من القضاء على جماعة من الغز بنواحي بست[١].

ولم يقل اهتمام مودود بشئون الهند عن أسلافه فيها، فقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٩٣ ـ ١٩٤) أن ثلاثة من ملوك الهند[٢] تحالفوا مع بعض راجاتها. وحاصروا لاهور حاضرة الغزنويين في هذه البلاد، وأن مودوداً أرسل جيشاً كبيراً للقضاء على قوة الهنود وتقويض حلفهم، فانهزم سخبال.

وكان من أثر هذا الانتصار أن استعاد الغزنويون هيبتهم في بلاد الهند الشمالية إلى حين. وكان مودود يعمل على استرداد البلاد التي استولى عليها السلاجقة في عهد أبيه، فحاربهم في سنة ٤٣٥ هـ كما تقدم، وطلب إلى عمال الأقاليم مساعدته على تحقيق أغراضه، ووعدهم بإقرارهم على ما يفتحونه من بلاد، وعمرهم بالأموال الضخمة. ومن ثم نرى صاحب أصبهان ينشط لمساعدته لولا أن هلك كثير من جنده في الصحراء، كما نرى ملك الترك يسير إلى ترمذ ويطرد السلاجقة منها، وتذهب طائفة من هؤلاء الترك إلى خوارزم ويسير مودود من غزنة سنة ٤٤١ هـ لحرب السلاجقة، ولكن المرض ينتابه، فيعود إلى حاضرة ملكه، ويموت في العشرين من رجب من هذه السنة، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، بعد أن ملك تسع سنوات وعشرة أشهر[٣].

وحاول موت مودود المبكر دون القضاء على قوة السلاجقة؛ فقد عرف بالشجاعة والإقدام، وعمل على توطيد ملكه وإعادة مملكته إلى ما كانت عليه في عهد جده يمين الدولة محمود الغزنوي.

عبد الرشيد ـ فروخ زاد (٤٤١ ـ ٤٥١ هـ):

تولى مسعود الثاني بعد وفاة أبيه مودود، ولكنه لم يبق في السلطنة سوى خمسة أيام، ثم تقلد السلطنة بعده عمه أبو الحسن علي بن مسعود الأول. وقد انتهز عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوي فرصة الاضطراب الذي ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود، ودعا

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) ومنهم سخبال Sukhpal الذي تحالف مع نواسى شاه بن جبيبال ملك ويهند Waihand وديبال هريانة Dipal Haryana

(٣) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٢٠٨.

الجند إلى طاعته فأجابوه، وساروا إلى غزنة، ففر علي بن مسعود، واستقر الأمر له، وتلقب عز الدولة، وشمس دين الله، وسيف الدولة. وقيل إنه تلقب أيضاً جمال الدولة.

وقد عمل عبد الرشيد على طرد السلاجقة من خراسان، مستعيناً في ذلك بطغرل زوج أخت مودود وحاجبه الذي أرسله إلى هذه البلاد. ولما آنس طغرل من نفسه القوة قصد غزنة حتى أصبح على بعد ستة فراسخ منها، وحاول خداع عبد الرشيد، مدعياً أن الجند تألبوا عليه وألحوا في العودة للمطالبة بزيادة أرزاقهم. وعلى الرغم من اعتصام عبد الرشيد بقلعته في غزنة، قبض عليه طغرل وقتله سنة ٤٤٤ هـ، واستولى على بلاده وتزوج ابنة مسعود الأول.

ولكن عمل طغرل لم يرض بعض القواد، كما أنه لم يرض نائب الغزنويين في الهند برغم ما بذله من جهود في إغرائه واستمالته إليه. واتصل هذا الوالي بوجوه القواد، كما اتصل بزوجة طغرل، وأنكر على هؤلاء إغضاءهم وقعودهم عن الأخذ بثأر عبد الرشيد. وبذلك أثار هذا الأمير حماسة بعض القواد، فدخلو على طغرل وقتلوه، وولوا فروخ شاه الذي اعتمد على خرخيز نائب الغزنويين في الهند في إدارة دولته.

قضى فروخ في السلطنة سبع سنين في محاربة أعدائه، وخاصة السلاجقة، ولم يأمن جانب قواده ومماليكه. ويحدثنا ابن الأثير (جـ ١٠ ص ٢) في حوادث سنة ٤٥٠ هـ أن بعض قواده ومماليكه ثاروا عليه واتفقوا على قتله وهو في الحمام، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره. ويظهر أن هذه الحادثة قد أثرت في حالته النفسية تأثيراً سيئاً، حتى إنه أخذ يكثر من ذكر الموت ويحتقر الحياة؛ ولم يعش بعد هذه الحادثة طويلاً، فمات في شهر صفر سنة ٤٥١ هـ، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم بن مسعود (٤٥١ ـ ٤٩٢ هـ) الذي طالت سلطنته، وعقد الصلح من السلاجقة، وفتح في الهند كثيراً من القلاع التي امتنعت على أبيه مسعود الأول وجده يمين الدولة محمود الغزنوي من قبل.

وبعد. فلما كان بحثاً مقصوراً على العصر العباسي الثاني من عهد المتوكل إلى أن استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ رأينا أن نترك إتمام الكلام على الغزنويين إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله.

على أنه ينبغي ألا نترك هذا الموضوع دون أن نبين ما امتازت به الدولة الغزنوية في هذا العصر، فنقول: إن سلاطين هذه الدولة كانوا سنيين متشددين، ولذلك حاربوا أهل

البدع والأهواء، كالمعتزلة والجهمية والقرامطة وغيرهم، كما كانوا يشجعون الفن والثقافة ويغدقون على الشعراء والكتّاب والعلماء كأبي الفتح العتبي (١٠٣٦/٤٢٨)، وأبي الريحان البيروني (٤٤١ هـ) والفردوسي صاحب الشاهنامه، وكان بعضهم ـ كمحمود الغزنوي ـ كلفا بدراسة الحديث وغيره من علوم الدين، كما عملوا على نشر الإسلام. فأنفقوا حياتهم في فتح بلاد الغور والهند، وهدموا الأصنام والمعابد. وكان لهذه الفتوح آثار بعيدة المدى، فقد فتح الطريق إلى الهند، وتوغل المسلمون فيها، وضموا بلاد البنجاب نهائياً، وخضع أهالي جوجرات الذين قبلوا تنصيب الراجات عليهم من قبل الغزنويين الذين نصبوا أنفسهم للقضاء على قوات السلاجقة في خراسان، والغور في الأفغان، وخانات الترك في بلاد ما وراء النهر. كما استولوا على الري وأصبهان وغيرهما من بني بويه، وضموا إليها خوارزم وطبرستان وبلاد الجبل، وامتدت بلادهم ـ كما رأينا ـ من لاهور إلى سمرقند وأصبهان[١].

ويمثل ظهور الدولة الغزنوية ـ كما يقول فيليب حتّي[٢] ـ أول انتصار للعنصر التركي في صراعه مع العنصر الإيراني على السيادة النهائية في الإسلام. ومع ذلك فإن الدولة الغزنوية لا تختلف في أساسها عن الدولة الصفارية أو الدولة السامانية. وإن هذه الدولة المفككة الأوصال إنما حافظت على كيانها بقوة السيف، ولما تراخت اليد التي كانت تقبض على هذا السيف، لم يكن بد من أن تتداعى هذه الأجزاء التي كانت تتألف منها هذه الإمبراطورية، وهذا ما حدث بعد موت محمود الغزنوي».

وقد زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغوري سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين في الهند وانقسمت إلى أسرات إسلامية مستقلة.

وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر ابن الأثير[٣] من أحسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود، فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهودة.

---

(١) Lane - Pool: Muhammadan Dynasties, p. 288.

(٢) History of the Arabs. p. 465

(٣) الكامل ج ١١ ص ٦٩.

بنو بويه في فارس

عماد الدولة بن بويه (٣٢٠ - ٣٣٨ هـ) :

رأينا من قبل كيف ولي علي بن بويه بلاد الكرج من قبل مرداويج بن زيار الديلمي، وكيف أمر أخاه وشمكير بن زيار في الري بصرف أولاد بويه، فصرفهم إلا علي بن بويه لما رآه فيه من حسن التدبير، وكيف ساعده أبو عبد الله محمد الملقب بالعميد والد أبي الفضل بن العميد على المسير إلى بلاد الكرج التي آل إليه حكمها. ومع ذلك فقد عمل وشمكير على صرف عماد الدولة عن بلاد الكرج، فقال له ابن العميد: «إنه لا يرجع طوعاً، وربما قاتل من يقصده ويخرج عن طاعتنا». فتركه[1].

على أن علي بن بويه تحبب إلى أهالي الكرج وأحسن إليهم، وافتتح كثيراً من قلاع الخرمية واستولى على ما فيها من الذخائر والأموال، وأغدق على الأهلين، فلهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وامتدحوا سيرته، وأحبه الناس وقصدوه. ولكن الجو لم يصف له، لموقف مرداويج العدائي منه، وعزمه على طرده من بلاد الكرج. وحنق بعض ولاته عليه، وملك علي بن بويه أصبهان، فقوي أمره وعلا شأنه في عيون الناس، لأنه هزم بمائتين من أصحابه آلافاً من أصحاب السلطان، وبلغ ذلك مرداويج فأقلقه[2].

ولما أحس مرداويج بن زيار ازدياد نفوذ علي بن بويه وعد بأن يمده بجيوش يفتح بها ما حوله من البلاد باسمه، وأن يؤول حكمها إليه مع إقامة الخطبة لمرداويج على منابرها، وأرسل في الوقت نفسه أخاه وشمكير على رأس جيش كثيف يفاجىء به علي بن بويه في أصبهان وهو مطمئن إلى وعوده. ولكن علي بن بويه أدرك سوء نية مرداويج، فرحل عن أصبهان.

ثم استولى مرداويج على شيراز، ولم يلبث أن استقر نفوذه في فارس، وكتب إلى الخليفة العباسي الراضي وإلى وزيره أبي علي بن مقلة يعلن طاعته ويطلب إقراره على ما

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٢.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

بيده من البلاد، ويتعهد بأداء ألف ألف درهم في كل سنة، فأجيب إلى طلبه، وأقر على ولاية فارس، وأرسلت إليه الخلع[١].

ولما قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ، لم يبق أمام علي بن بويه إلا مناوأة ياقوت الذي استولى على الأهواز وحاربه بنواحي أرجان، وأصبح يخشى بأسه، وكان ـ كما يقول ابن خلكان[٢] ـ سبب سعادة بني بويه وانتشار صيتهم، واستيلائهم على البلاد، وامتلاكهم العراقين والأهواز، وسياستهم أمور الرعية أحسن سياسة.

وفي ٣٣٤ هـ لقب الخليفة المستكفي علي بن بويه عماد الدولة، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة، ولقب أخاه أحمد معز الدولة، ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهي في بغداد.

وكانت علاقة عماد الدولة على فارس بأخويه معز الدولة أحمد في العراق وركن الدولة حسن في الري وهمذان وأصبهان، تقوم على أساس متين من المودة والصفاء. فقد كان معز الدولة صاحب أمر الخلافة يومئذ «يحب أخاه عماد الدولة ويحترمه، ويكاتبه بالعبودية ويقبل الأرض بين يديه إذا اجتمعا، مع عظم سلطانه لكونه أكبر سناً»[٣].

وليس أدل على ما ساد بين أولاد بني بويه من وئام ووفاق ومودة من أن عماد الدولة علياً لما أحس بالموت أرسل إلى أخيه ركن الدولة يطلب إليه ابنه إرسال عضد الدولة ليوليه عهده بفارس، لأنه لم يكن له ولد ذكر.

عضد الدولة (٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ):

ولما مات عماد الدولة في سنة ٣٣٨ هـ. تولى بلاد فارس بعده ابن أخيه عضد الدولة. ولكن نفوذه لم يستقر في هذه البلاد بسبب سخط بعض قواد البويهيين عليه، لولا تدخل عمه معز الدولة صاحب بلاد العراق، وأبيه ركن الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان[٤].

واستمرت العلاقة بين عضد الدولة وعمه معز الدولة على أساس من المودة والصفاء، حتى آلت السلطة إلى بختيار، فاتخذ عضد الدولة من سوء سياسة ابن عمه فرصة لبسط نفوذه على البلاد التابعة له. ففي سنة ٣٥٧ هـ قامت الثورة في بلاد كرمان. فاستولى عليها عضد الدولة

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٦٤.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٠٠.
(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٤.

وأقطعها ابنه أبا الفوارس، الذي ولي بعده ولقب شرف الدولة (٣٧٢ ـ ٣٧٩ هـ). كذلك اتخذ عضد الدولة من ضعف نفوذ بختيار في عمان فرصة لإقامة الدعوة لنفسه فيها وبسط نفوذه عليها. فلما ثار الزنج على عامل عضد الدولة وقتلوه وولوا عليها رجلاً منهم، أرسل من كرمان جيشاً استرد هذه البلاد في سنة ٣٦٢ هـ. ثم قضى على الثوار نهائياً في السنة التالية[١]. ولما مات ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ، يمم عضد الدولة شطر العراق وحارب جيوش بختيار في واسط وأحل به الهزيمة في تكريت وأسره، وبعث به إلى بغداد حيث قتل وخلع عليه الخليفة الطائع[٢]. وبذلك امتد نفوذ عضد الدولة إلى العراق والأهواز وكرمان وفارس. ثم إلى البلاد الممتدة بين همذان والري التي استولى عليها من أخيه فخر الدولة في ٣٦٩ هـ. وأناب عنه في حكمها أخاه مؤيد الدولة.

شرف الدولة ـ صمصام الدولة (٣٧٢ ـ ٣٨٨ هـ):

رأينا أن عضد الدولة لما استولى على كرمان في سنة ٣٥٧ هـ أقطعها ابنه شرف الدولة الذي خرج بعد موت أخيه في ٣٧٢ هـ من كرمان إلى فارس. وقبض على نصر بن هارون النصراني وزير أبيه وقتله لأنه كان يسيء صحبته أيام أبيه. وأطلق الشريف أبا الحسين محمد بن عمر العلوي، والنقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي، والقاضي أبا محمد بن معروف، وأبا نصر خواشاذة. وكان عضد الدولة قد حبسهم، وأظهر العداء لأخيه صمصام الدولة وقطع خطبته، وأقام الخطبة لنفسه، وتلقب بتاج الدولة، واستولى على البصرة، وأقطعها أخاه أبا الحسين. فبقي كذلك ثلاث سنين إلى أن قبض عليه شرف الدولة[٣].

ويظهر أن صمصام الدولة كان يخشى منافسة أخيه الأكبر شرف الدولة. لذلك نراه بعد أن يلي أمور العراق يخلع على أخويه أبي الحسين أحمد وأبي طاهر فيروز شاه. ويقطعهما فارس. ويأمرهما بأن يحولا دون وصول أخيهما شرف الدولة إليها. غير أن شرف الدولة كان قد سبقهما إلى احتلالهما فعاد إلى الأهواز. ومن ثم قامت الحرب بين صمصام الدولة وشرف الدولة الذي انتصر على أخيه واستقل بالأهواز سنة ٣٧٣ هـ[٤].

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١٠، ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٢) مسكويه: جـ ٢ ص ٢٨٠ ـ ٣٨٦.
(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩.
(٤) مسكويه: جـ ٣ ص ١٢٠ ـ ١٢٤.

وفي سنة ٣٧٥ هـ قصد شرف الدولة الأهواز واستولى عليها، وأرغم أخاه أبا الحسين على الفرار، ثم استولى على البصرة وقبض على أخيه أبي طاهر فيروز شاه. وخشي صمصام الدولة ازدياد خطر أخيه شرف الدولة، وتم الصلح بينهما، ويقضي بأن يذكر اسم شرف الدولة على المنابر في بلاد العراق قبل اسم أخيه، وأن يكون نائباً عن أخيه في حكم العراق، وأن يطلق صمصام الدولة أخاه بهاء الدولة أبا نصر ويسيره إليه. وخلع الخليفة الطائع على شرف الدولة كما جرت العادة بأن يخلع على كل من تؤول إليه السلطة.

ولكن هذا الصلح لم يطل وعاد شرف الدولة عن الصلح وقصد بغداد، واستولى على بلاد العراق من يد أخيه صمصام الدولة في سنة ٣٧٦ هـ، وساق أخاه إلى فارس حيث اعتقل في إحدى قلاعها، وسملت عيناه.

فلما مات شرف الدولة في سنة ٣٧٩ هـ فر صمصام الدولة من معتقله، والتف حوله كثير من الديلم. واستأنف الصراع بينه وبين أخيه بهاء الدولة الذي آل إليه حكم بلاد العراق بعد أخيه شرف الدولة، كما قامت الحرب بينه وبين أبي علي بن شرف الدولة في فارس وكان يليها من قبل أبيه. وفي سنة ٣٨٠ هـ انتصر صمصام الدولة على جيش بهاء الدولة على مقربة من شيراز، وعقد الصلح بينهما، على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق[١].

وصاحب حسن الطالع صمصام الدولة، فأحرز الانتصارات المتصلة باستيلاء جيوشه على الأهواز سنة ٣٨٥ هـ وعلى خوزستان والبصرة سنة ٣٨٦ هـ. وكادت تقع بلاد العراق في قبضته لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة. وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، على أن يخطب لهما ولمهذب الدولة في البصرة، ولم ينته ذلك الصراع إلا باغتيال صمصام الدولة في سنة ٣٨٨ هـ على يد أبي نصر أخذاً بثأر أبيه بختيار الذي قتله عضد الدولة. وكان صمصام الدولة حين قتل في الخامسة والثلاثين من عمره[٢].

بهاء الدولة ـ سلطان الدولة (٣٨٨ ـ ٤١٥ هـ):

ولما قتل صمصام الدولة استولى ابنا بختيار هذان على فارس، وتلقب أولهما نور

(١) أبو شجاع. ذيل تجارب الأمم لمسكويه جـ ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) راجع أسباب اغتيال صمصام الدولة في ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٣.

الدولة ومحيي الأمة، وتلقب ثانيهما حسام الدولة وسيد الأمة. ولكن بهاء الدولة أحل بهما الهزيمة، واستولى على فارس في سنة ٣٨٩ هـ(١)، ثم قصد شيراز، واستأصل شأفة أنصار أبناء بختيار، وأخرج جثة أخيه صمصام الدولة ودفنها في مقبرة بني بويه بشيراز، ثم استولت جيوشه على كرمان(٢).

وفي سنة ٣٩٠ هـ عاد أبو نصر بن بختيار، وكان قد هرب إلى بلاد الديلم بعد أن حلت به الهزيمة بشيراز سنة ٣٨٩ هـ، إلى فارس، والتف حوله عدد كبير من الديلم والأتراك والزط، ثم قصد كرمان وحارب عامل بهاء الدولة فيها، واستولى على أغلب بلادها، وأثار قلق بهاء الدولة الذي سير إليه جيشاً أحل به الهزيمة وقتله، وبعث برأسه إلى بهاء الدولة. وبذلك استقر سلطان بهاء الدولة في فارس وكرمان إلى أن مات في سنة ٤٠٣ هـ، فخلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع. وكان قد عهد إليه بالسلطنة في العراق وفارس وما يليهما من بعده.

وقد ذكرنا من قبل أن سلطان الدولة استهل سلطته بتولية أخويه جلال الدولة البصرة وقوام الدولة أبي الفوارس كرمان، وأن الشقاق دب بينه وبين أخيه قوام الدولة الذي أغراه الديلم بحرب أخيه، فاستولى على شيراز ثم على كرمان، التي استردها سلطان الدولة في السنة التالية بمساعدة محمود الغزنوي، وانتهى الأمر بإعادة كرمان إلى قوام الدولة واعترافه بسلطان أخيه. كما تعرض نفوذ سلطان الدولة للخطر بسبب مناوأة أخيه مشرف الدولة الذي استخلف على العراق (٤١١ ـ ٤١٦ هـ) وخطب له ببغداد في (٤١٢ هـ)، وانتهى هذا النزاع بعقد للصلح على أن يكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة الذي لم يلبث أن توفي سنة ٤١٥ هـ.

عماد الدولة أبو كاليجار (٤١٥ ـ ٤٤٠ هـ):

لما تولى سلطان الدولة الذي آل إليه ملك فارس لم يصف الجو لابنه أبي كاليجار وأصبحت فارس مركزاً للنزاع، وتقلبت هذه البلاد بين أبي كاليجار وعمه أبي الفوارس حتى استولى أبو كاليجار عليها نهائياً في سنة ٤٤٧ هـ(٤).

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٣٤ ـ ١٣٥) في حوادث سنة ٤١٨ هـ أن نفوذ أبي كاليجار امتد إلى جنوب العراق، وأن أهالي البطيحة ثاروا عليه فأخضعهم لنفوذه، وأن

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٦.
(٢) مسكويه جـ ٣ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٠ ـ ٦١.
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

الحرب تجددت بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان، وأن الصلح عقد بينهما على أن تكون كرمان لأبي الفوارس وفارس لأبي كاليجار، وأن يدفع أبو كاليجار لعمه عشرين ألف دينار في كل سنة.

وفي سنة ٤١٩ هـ استولى أبو كاليجار على البصرة وطرد منها الملك العزيز بن جلال الدولة، واستولى في السنة نفسها على كرمان على أثر وفاة صاحبها أبي الفوارس بغير قتال ثم على مدينة واسط (٤٢٠ هـ). ولكن جلال الدولة لم يلبث أن استردها، كما استرد البصرة (٤٢١ هـ) التي أصبحت مركزاً للصراع بينه وبين أبي كاليجار الذي خطب له على منابرها في سنة ٤٢٤ هـ[1].

على أن تولية أبي كاليجار السلطنة في بلاد العراق (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) لم تشغله عن الاهتمام بشئون فارس وتستنفد الكثير من صحته، حتى إنه مات سنة ٤٤٠ هـ وهو في طريقه لإخماد ثورة نائبه بكرمان.

وفي عهد أبي نصر فيروز الملك الرحيم بن أبي كاليجار (٤٤٠ ـ ٤٤٧ هـ) زال سلطان البويهيين في فارس والعراق. ولا غرو فقد ورث هذا السلطان عن أبيه تركة مثقلة بالمتاعب والأخطار في الداخل والخارج. ففي الداخل نرى انقسام أفراد هذا البيت بعضهم على بعض: فهناك الملك عبد العزيز بن جلال الدولة، كان يطمع في السلطنة ويحارب الملك الرحيم في البصرة، لولا أن حالت وفاته في سنة ٤٤١ هـ دون تحقيق أمنيته، وهناك أيضاً أبو منصور بن أبي كاليجار (أخو الملك الرحيم) يستولي على الأهواز (٤٤١ هـ).

ولولا شغب الجند عليه لخرجت هذه البلاد عن سلطان الملك الرحيم. وتجددت متاعب هذا السلطان بخروج أخيه أبي منصور عليه من جديد، واستيلائه على الأهواز ومطاردة جيوشه إلى واسط، كما حارب أيضاً أخاه أبا علي فناخسرو في البصرة، وإن كان قد تم له النصر عليه. وهكذا أصبحت أمهات مدن العراق وفارس مركزاً للصراع بين الملك الرحيم وبين إخوته وأقاربه.

أما في الخارج فقد ازداد نشاط السلاجقة وتفاقم خطرهم وقويت أطماعهم في الاستيلاء على فارس والعراق، بل على الشام ومصر. وشجعهم على تحقيق هذه الأماني

---

(١) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٣٨.

ضعف بني بويه في أواخر أيامهم، واستعانة العباسيين بمنافسيهم السلاجقة لتخليصهم من استبداد البويهيين. وقد تمكن السلاجقة أخيراً من الاستيلاء على أملاك بني بويه في فارس والعراق، كما كانت مناوأة أبي الحارث البساسيري للخليفة العباسي المطيع من أهم الأسباب التي عجلت بسقوط هذه الدولة، بعد أن حكمت كثيراً من البلاد الإسلامية أكثر من قرن.

بنو بويه في الري وهمذان وأصبهان

ركن الدولة (٣٣٠ ـ ٣٦٦ هـ):

بينا من قبل تألق نجم أولاد بويه في أوائل القرن الرابع الهجري، فمد عماد الدولة نفوذه في فارس، واستولى ركن الدولة الذي كان رهينة عند مرداويج بن زيار على أصبهان والري وهمذان وسائر بلاد العراق العجمي، واستولى معز الدولة على الأهواز. وفي سنة ٣٣٤ هـ استعان الخليفة العباسي المستكفي بأحمد بن بويه لتخليصه من شر الأتراك، وطلب إليه المسير إلى بغداد، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، ولقب أخاه أبا علي الحسن ركن الدولة.

وفي سنة ٣٢٧ هـ بدأ الصراع بين ركن الدولة الحسن وبين وشمكير بن زيار الديلمي أخي مرداويج بن زيار، الذي عز عليه استيلاء ركن الدولة على البلاد التي كانت بيد أخيه؛ فأرسل إليه جيشاً طرده من أصبهان، فاضطر ركن الدولة إلى التقهقر إلى بلاد فارس. ثم سار في السنة التالية إلى واسط ليمد نفوذه منها إلى ما جاورها من البلاد، ولكنه اضطر أمام مقاومة البريديين والخليفة الراضي وبجكم إلى التقهقر نحو الأهواز. وفي هذه السنة نفسها عاد ركن الدولة إلى أصبهان واستولى عليها وطرد أصحاب وشمكير منها، واتفق هو وأخوه عماد الدولة مع أبي علي بن محتاج قائد نصر بن أحمد الساماني بخراسان وأخذا يحرضانه على ماكان بن كالي ووشمكير يعدانه المساعدة عليهما. وقد رمي ركن الدولة وعماد الدولة ابنا بويه من وراء صداقتهما لابن محتاج إلى بسط نفوذهما على بلاد وشمكير[١]. ولم يكتف ركن الدولة بذلك، بل سار في سنة ٣٢٩ هـ إلى الري حيث حارب جيوش وشمكير وانتصر

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٧، ١٣٠.

عليها، وانضم إليه عدد كبير منهم[١]. وقد تحققت سياسة ابني بويه باستيلاء ركن الدولة على الري، فآلت إليهما أعمال الري والجبل وفارس والأهواز والعراق، وجبي باسمهما خراج الموصل وديار بكر وديار مضر (٣٣٥ هـ).

على أن ركن الدولة لم يتمتع بالهدوء في بلاده التي كانت تتعرض لهجمات منافسيه الكثيرين وكان من أشد هؤلاء خطراً، وشمكير بن زيار الديلمي، وأمراء السامانيين. ولكن موت وشمكير بن زيار فجأة، أبعد هذا الخطر الذي كان يهدد بلاد ركن الدولة[٢].

وكان ركن الدولة يعمل على أن يكون البويهيون قوة متحدة متماسكة تقف في وقت الخطوب يداً واحدة. كما كانت العلاقة بين معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة أولاد بويه تقوم على أساس المودة والصفاء واحترام الصغير لمن هو أكبر منه سناً، كما كانت تقوم على أساس احترام العهود والمواثيق حتى مع غير بني بويه. وقد رأينا ذلك واضحاً جلياً، حين تهددت بلاد ركن الدولة لخطر وشمكير والسامانيين. وعندما استنجد عز الدولة بختيار بابن عمه عضد الدولة صاحب فارس الذي طمع في بلاده واتخذ من ضعفه فرصة للوصول إلى السلطنة، أنكر أبوه ركن الدولة عليه عمله وهدده بالمسير إليه في العراق، ورد بختيار إلى سلطنته فيها.

كان عماد الدولة أكبر أولاد أبيه، وركن الدولة أوسطهم، ومعز الدولة أصغرهم «وكان ركن الدولة ـ كما وصفه ابن خلكان (جـ ١ ص ١٤١ ـ) ـ ملكاً جليل المقدار عالي الهمة».

اشتهر ركن الدولة بحسن الخلق وعفة اللسان والعفو عند المقدرة. ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٠٨) أن وشمكير بن زيار الديلمي كتب إلى ركن الدولة يتهدده بضروب من الوعيد والتهديد ويقول: والله لئن ظفرت بك لأفعلن بك ولأصنعن، بألفاظ قبيحة، فلم يتجاسر الكاتب أن يقرأه، فأخذه ركن الدولة فقرأه وقال للكاتب: أكتب إليه: أما جمعك وأحشادك، فما كنت قط أهون منك علي الآن، وأما تهديدك وإبعادك، فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضده، ولأحسنن إليك ولأكرمنك.

ولما كتب ركن الدولة إلى عضد الدولة يلومه على ما فعل مع ابن عمه بختيار، وعزمه على إبعاده عن السلطنة في العراق وانتزاعها منه ويتهدده إن هو أصر على تنفيذ أغراضه ذكر

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

له حسن معاملته لأصدقائه وأعدائه على السواء، ووفاته بوعوده فقال: «أما عرفت أني نصرت الحسن بن القيرزان وهو غريب مني مراراً كثيرة أخاطر فيها بملكي ونفسي؟ فإذا ظفرت أعدت له بلاده، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد، ثم نصرت إبراهيم بن المرزبان وأعدته إلى أذربيجان، وأنفذت وزيري وعساكري في نصرته، ولم آخذ منه درهماً واحداً. كل ذلك طلباً لحسن الذكر ومحافظة على الفتوة[١].

وتوفي ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ بعد حياة طويلة حافلة بالنصر والظفر ومكارم الأخلاق، وكان في الثانية والثمانين من عمره.

أولاد ركن الدولة (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ):

ذكرنا أن ركن الدولة ولى عهده ابنه عضد الدولة وجعل لولده فخر الدولة همذان وأعمال الجبل، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها، على أن يحكما هذه البلاد بإشراف أخيهما عضد الدولة. وكان عضد الدولة يخشى أخاه فخر الدولة ويخاف اتصاله ببختيار واتحادهما عليه؛ فعول على أخذ بلاد العراق على بلاد أخيه فخر الدولة في سنة ٣٦٩ هـ، فأخذ عضد الدولة ما كان بيد فخر الدولة، وأناب أخاه مؤيد الدولة عنه في حكم هذه البلاد[٢].

ولما مات عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ، ولحق به أخوه مؤيد الدولة؛ اختار قواده أخاه فخر الدولة. وأشار الصاحب بن عباد باختياره لكبر سنه ووافر هيبته. واتخذ فخر الدولة الصاحب بن عباد وزيراً له، وخلع عليه الخليفة العباسي الطائع، وقامت العلاقة بين كل من فخر الدولة وابني أخيه صمصام الدولة وشرف الدولة، ابني عضد الدولة على أساس الوفاق واتحاد المصلحة[٣].

ولكن هذه العلاقة تبدلت في عهد بهاء الدولة في العراق (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ). فقد طمع فخر الدولة كما طمح أخوه عضد الدولة من قبل في الاستيلاء على بلاد العراق، وشجعه وزيره الصاحب بن عباد على فتحها ليتقلد الوزارة في بغداد. ولكن بهاء الدولة صاحب العراق سير إليه جيشاً التقى به على مقربة من خوزستان وأحل به الهزيمة [٤].

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٥.
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٥٦.
(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٠.
(٤) أبو شجاع: جـ ٣ ص ١٦٦، ١٦٩.

وكان فخر الدولة، بحكم قرب بلاده من بلاد السامانيين في عداء مع أمرائهم، وكان يقوم بمساعدة الخارجين عليهم، كما حدث في مساعدته أبا علي بن محتاج وفائق الخاصة على نوح الثاني بن منصور الساماني في سنة ٣٨٤ هـ.

توفي فخر الدولة في سنة ٣٨٧ هـ، وقام بالأمر من بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم (٣٨٧ ـ ٤٢٠ هـ) الذي لم يجاوز الرابعة من عمره، على أن يلي أخوه شمس الدولة أبو طاهر همذان وقرميسين إلى حدود العراق. وكان لأمه مركز خاص في إدارة شئون دولة ابنها الصغير، واستعانت في ذلك الأمر ببعض الأمراء. ولكن ذلك لم يحل دون طمع أمراء البلاد المجاورة لبلاده. فقد طمع فيها شمس المعالي قابوس بن وشمكير بن زيار الديلمي، واستولى على جرجان ومزق جيوش مجد الدولة شر ممزق.

ولم يتوطد ملك مجد الدولة في عهده الطويل الذي بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة. ويرجع ذلك إلى صغر سنه كما تقدم، وطمع بعض الأمراء في السلطنة، واستبداد أمه بالأمر دونه، «حتى جعلته كالمحجور عليه»، مما أثار حنقه عليها، وجعله يعمل على التخلص من نفوذها. فلما فطنت إلى ما يراد بها، هربت من الري، واستعانت بابنها الثاني شمس الدولة أبي طالب صاحب همذان وقرميسين، كما استعانت ببدر بن حسنويه الكردي أمير الجبل من قبل مجد الدولة، الذي استعان من قبل بزوجها فخر الدولة على بهاء الدولة. ثم عادت إلى الري، وحبست مجد الدولة، وأجلست ابنها شمس الدولة على العرش في سنة ٣٩٠ هـ فتقلدت الأمور نحواً من سنة «صارت فيها تعطي الأمر وتسمع رسائل الملوك وتعطي الأجوبة»، وأثارت بذلك حنق شمس الدولة الذي أصبح معها كالمحجور عليه. فأعادت أخاه مجد الدولة إلى الملك لأنه ألين عريكة. وسرعان ما ازدادت مطامع شمس الدولة، فعمل على إقصاء أخيه وأمه من بلاد الري، وأرغمهما على الرحيل عنها، ولكنه اضطر إلى العودة إلى همذان على أثر شغب الجند عليه[1].

ولم تطل أيام أولاد ركن الدولة في همذان وقرميسين؛ فقد استعان شمس الدولة بعلاء الدولة أبي جعفر بن كاكاويه، وكان يلي أصبهان من قبل مجد الدولة، على الأتراك الذين تفاقم شرهم وكثرت مشاغباتهم عليه. وعلى الرغم من قضائه عليهم في سنة ٤١٤ هـ أخذت

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٦و٩٢ ـ ٩٣.

قوته تضعف سريعاً وسلطانه يضمحل، وتمكن ابن كاكويه من القضاء على ابنه سماء الدولة في سنة ٤١٤ هـ؛ وزال سلطان ركن الدولة وأولاده نهائياً من هذه البلاد.

كذلك لم تطل أيام أولاد ركن الدولة في الري، فإن مجد الدولة بن فخر الدولة الذي استبدت أمه بالأمر دونه، وانصرف إلى المطالعة والدرس واختلت أحوال بلاده بعد وفاة أمه، استنجد في سنة ٤٢٠ هـ بيمين الدولة محمود الغزنوي، فأرسل إليه جيشاً قبض عليه وعلى ابنه أبي دُلف، واستحوذ على ما كان في خزائنه من الأموال، كما استولى على الري وأزال عنها سلطان البويهيين نهائياً.

الدولة الحمدانية (١)

(في الموصل وحلب وغيرهما)

(٣١٧ - ٣٩٤/٩٢٩ - ١٠٠٣)

١ ـ الموصل

	هجرية	ميلادية
١ ناصر الدولة أبو محمد الحسن	٣١٧	٩٢٩
٢ عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر	٣٥٨	٩٦٨
	٣٦٩	٩٧٩
٣ أبو طاهر إبراهيم	٣٧١	٩٨١
أبو عبد الله الحسين	٣٨٠	٩٩١

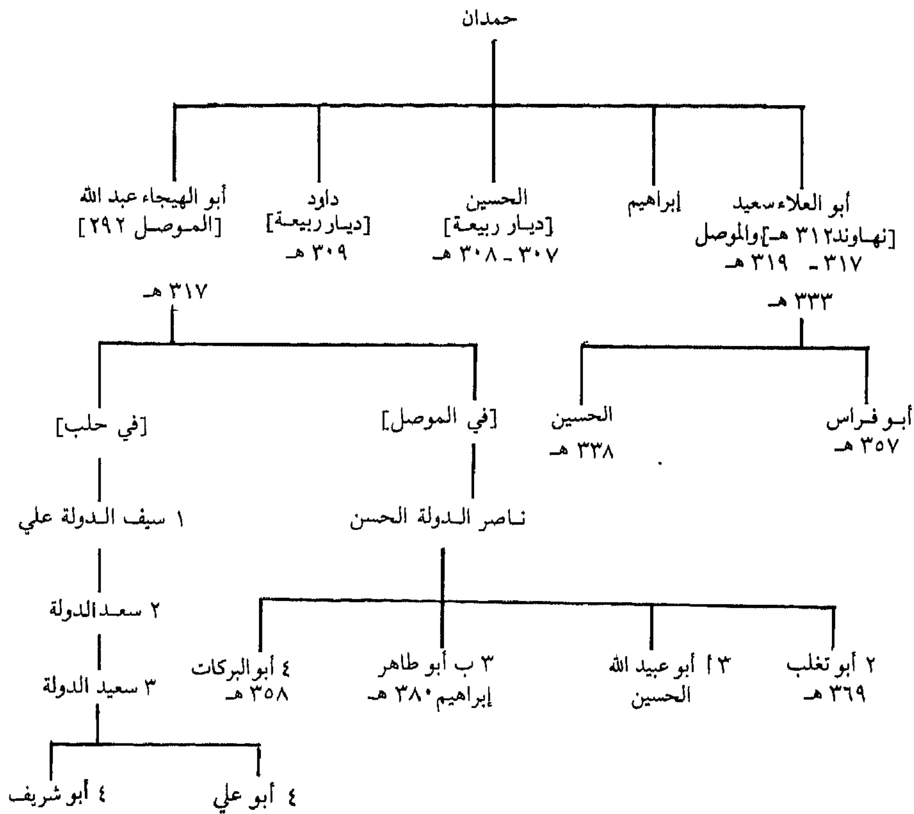
(البويهيون والعقيليون)

Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 112 - 113. (١)

٢ - في حلب	هجرية	ميلادية
١ سيف الدولة أبو المحاسن علي	٣٣٣	٩٤٤
٢ سعد الدولة أبو المعالي شريف	٣٥٦	٩٦٧
٣ سعيد الدولة أبو الفضائل سعد	٣٨١	٩٩١
٤ أبو الحسن علي	٣٩٢	١٠٠١
أبو المعالي شريف	٣٩٤	١٠٠٣

(الفاطميون)

جدول يمثل أمراء الحمدانيين



الحمدانيون في الموصل

ناصر الدولة (٣١٧ - ٣٥٨ هـ):

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية الأصل التي قامت بضواحي مدينة الموصل، وقد قام حمدون بدور هام في الحوادث السياسية التي وقعت في هذه المدينة منذ سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م). وقد تحالف مع هارون الشاري الخارجي في سنة ٢٧٢ هـ، واستولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل، وحاربه الخليفة المعتضد في سنة ٢٨١ هـ، فهرب حمدان تاركاً ابنه الحسين عليها. واستولى الخليفة على ماردين، وطارد حمدان وظفر به بعد قليل، وسجنه في بغداد؛ واستمر في سجنه حتى هزم ابنه الحسين هارون الخارجي وخلع عليه المعتضد، وطوقه وخلع على إخوته. . . وأمر بحل قيود حمدان بن حمدون[1] والتوسعة عليه والإحسان إليه ووعد بإطلاقه»[2].

من ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين، فاشتهر الحسين بن حمدان في حروبه مع القرامطة ومناصرته عبد الله بن المعتز الذي استولى على الخلافة من المقتدر مدة قصيرة، فكرهه المقتدر وأقصاه، ثم عفا عنه بتوسط أخيه إبراهيم وولاه قم وقاشان. ولكنه لم يلبث أن تنازع مع الخليفة المقتدر، فحبسه حتى مات في سنة ٣٠٦ هـ.

قلد الخليفة المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل وما يليها في سنة ٢٩٢ هـ، وولى أخاه إبراهيم ديار ربيعة في سنة ٣٠٧ هـ، فظل بها إلى أن خلفه عليها أخوه داود سنة ٣٠٩ هـ، كما ولى أخاه سعيداً نهاوند في سنة ٣١٢ هـ، وقلد غيرهم من بني حمدان بعض مناصب الدولة، وأناب عبد الله بن حمدان ابنه ناصر الدولة الحسن عنه في حكم الموصل ٣٠٨ هـ، واستطاع أن يحتفظ بنفوذه فيها إلى أن مات في سنة ٣٥٨ هـ، إلا فترة قصيرة لا تزيد على سنتين (٣١٧ - ٣١٩ هـ). كما استطاع أن يمد نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة، ولقبه الخليفة المتقي في شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ناصر الدولة، ولقب أخاه سيف الدولة[3].

---

(١) وردت في ابن الأثير ج ٧ ص ١٧ ابن حمدان.

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٦٦ - ١٦٧، ١٦٩ - ١٧٠.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٨.

سطع نجم ناصر الدولة بن حمدان في أفق الدولة العباسية، كما رأينا، وتقلد إمرة الأمراء في هذه السنة بعد أن قتل ابن رائق ونال رضاء الخليفة المتقي لله[١]؛ فأصلح السكة، ولكنه اشتط في فرض الضرائب، فغلت الأسعار، وعز الطعام واللباس، وضيق على الخليفة المتقي لله في نفقاته، وانتزع منه ضياعه وأثار بذلك حنق الخليفة وسخط الناس عليه[٢].

وقامت الحروب الأهلية بين ناصر الدولة وبين البريديين من ناحية وبين هؤلاء والبويهيين من ناحية أخرى[٣]، وانتهز الخليفة فرصة خروجه إلى الموصل، فاستنجد بتوزون ومهد له السبيل لدخول بغداد (سنة ٣٣١ هـ). ولم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء في بغداد أكثر من سنة واضطروا إلى العودة إلى الموصل.

وسرعان ما قام العداء بين توزون والخليفة العباسي الذي لجأ إلى ناصر الدولة بن حمدان، وقامت الحرب بين الفريقين في عُكبرة، وتبعد عن بغداد بعشرة فراسخ، وانهزم ابن حمدان والخليفة إلى الموصل ثم إلى نصيبين. وقد شجعت هزائم الحمدانيين على ضياع الموصل وعقد الصلح بين توزون وابن حمدان، الذي أقر على ما بيده من البلاد ثلاث سنوات، على أن يؤدي ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم في كل سنة.

ولم يقف النزاع بين توزون والبريديين من ناحية وبينه وبين الحمدانيين والخليفة المتقي من ناحية أخرى، حتى إن الخليفة مل من الحمدانيين وكاتب توزون في الصلح. ولكن محمد بن طغج الإخشيد الذي التقى بالخليفة في الرقة، نصح له بالمسير معه إلى مصر، ولكنه عاد إلى بغداد. وكان الخليفة المتقي يستعين على توزون بناصر الدولة بن حمدان في الموصل تارة وببني بويه الذين أخذت قوتهم في الازدياد تارة أخرى. ولكن ذلك لم يغنه شيئاً، فقد سمله توزون وحبسه وولي المستكفي الخلافة (صفر سنة ٣٣٣ هـ)[٤]. ثم مات توزون بعد قليل (المحرم سنة ٣٣٤ هـ)، وتولى ابن شيرزاد إمرة الأمراء. وقد قيل إنه رغب في تحويل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان، إلا أن الجند أبوا عليه ذلك، وأقرهم الخليفة على ذلك.

وسرعان ما دخل بنو بويه بغداد (٣٣٤ هـ)، ودخلت العلاقة بين البويهيين والخلافة العباسية في طور جديد. وكانت سياسة بني بويه ترمي إلى الحد من نفوذ الحمدانيين في

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٥.

(٢) أبو بكر الصولي. أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٤٠، ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

الموصل، فنرى معز الدولة يسير بصحبة الخليفة المطيع لمحاربة ناصر الدولة ويلتقي الجيشان عند عكبرة ويتمكن ابن شيرزاد من أن يدخل بغداد ويحكمها باسم ناصر الدولة، ثم يلحق به هذا بعد قليل ويخطب للمتقي على منابر بغداد ويضرب السكة باسمه. ولم يستطع معز الدولة أن يسترد بغداد إلا بعد أربعة أشهر، وأرغم ناصر الدولة على الارتداد إلى الموصل، وعقد الصلح بينهما في أوائل سنة ٣٣٥ هـ؛ ولكن العلاقة بين الحمدانيين والبويهيين لم تستقر نهائياً، بل أخذ النزاع يدب بينهم من حين إلى حين.

وفي سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ ـ ٩٥٧ م) اتخذ ناصر الدولة بن حمدان من خروج معز الدولة من بغداد لإخماد الثورة في الأهواز، فرصة لدخول بغداد والاستيلاء عليها. ولما قضى معز الدولة على هذه الثورة، رحل الحمدانيون عن بغداد، وامتنع ناصر الدولة عن إرسال الأموال المقررة لدار الخلافة، فاستولى معز الدولة على الموصل ونصيبين، وأرسل جيشاً إلى الرحبة، وأرغم ناصر الدولة على الهرب إلى ميافارقين ثم إلى حلب التي استقل بها أخوه سيف الدولة، ولم يتم الصلح بينه وبين معز الدولة إلا بعد أن تدخل سيف الدولة وأخذ على عاتقه أداء ما على أخيه من الأموال(١).

ويظهر أن الحوادث التي تتابعت على ناصر الدولة الحمداني قد أثرت في حالته النفسية تأثيراً شديداً: فضمان أخيه سيف الدولة له بأن يقوم بدفع الأموال المقررة عليه لمعز الدولة (٣٤٧ هـ)، وطلب البويهيين زيادة هذه الأموال، وتوغل جيوشهم في البلاد التابعة لناصر الدولة، وعقد معز الدولة لابنه أبي تغلب ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة وما كان في يده بمال مقرر (٣٥٣ هـ). وموت أخيه سيف الدولة الذي كان شديد المحبة له (٣٥٦ هـ) ـ كل ذلك حز في نفسه، حتى تغيرت أحواله، وساءت أخلاقه، وضعف عقله، ولم يبق له حرمة عند أولاده الذين اختلفوا على أنفسهم، وقبض عليه ابنه أبو تغلب بمدينة الموصل وحبسه، وظل في حبسه إلى أن توفي في شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ(٢).

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨ ـ ٣٦٩ هـ):

أسرع إلى الدولة الحمدانية في الموصل الضعف بعد وفاة ناصر الدولة واختلف أولاده على أنفسهم، وصاروا شيعاً وأحزاباً، وطرد بنو بويه أبا تغلب الغضنفر من الموصل

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٣ ـ ١٨٩. (٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٩٨.

(٣٦٧ هـ)، ولم يكن استردادها على أيدي أخويه أبي طاهر إبراهيم وأبي عبد الله الحسين إلا انتعاشاً قصير المدى.

وبعد وفاة ناصر الدولة استمر النزاع بين أولاده وانقسموا إلى فريقين: فريق يناصر حمدان بن ناصر الدولة، وفريق آخر يناصر أخاه أبا تغلب. ولكن الهزائم تتابعت على حمدان، فلجأ إلى بختيار بن معز الدولة في بغداد، فأكرم وفادته، وتوسط في الصلح بينه وبين أخيه، وأرسل النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي سفيراً في الصلح بين ولدي ناصر الدولة. وقد دفع بختيار إلى اختيار أبي أحمد الموسوي أنه من العلويين الذين كان يميل إليهم الحمدانيون والبويهيون على السواء، وتم الصلح بين الأخوين وعاد حمدان إلى الرحبة[١]. وكان أخوه أبو تغلب قد استولى عليها منه وأناب عليها أخاه أبا البركات (٣٥٨ - ٣٥٩ هـ). على أن النزاع لم ينته بهذا الصلح، بل تجدد في عنف وشدة، حتى إن حمدان قتل أخاه أبا البركات (٣ رمضان ٣٥٩ هـ). واشتد الصراع بين أبي تغلب وحمدان، الذي حلت به الهزيمة، فسار إلى بغداد، ولجأ مع أخيه إبراهيم إلى بختيار من جديد، فتلقاهما بالقبول وأكرمهما، وأصبح الحمدانيون جماعتين: جماعة بزعامة حمدان وإبراهيم يساعدهما بختيار، وجماعة بزعامة أبي تغلب وأخيه الحسين[٢].

صفا الجو لأبي تغلب بعد أن أحل الهزيمة بأخيه حمدان، فاستولى على حران (٣٥٩ هـ)، ولكنه عجز عن الوقوف في وجه الروم الذين أغاروا على الرها ووصلوا إلى نصيبين وديار بكر وعلى الرغم من حالة الضعف التي سادت بين أفراد البيت الحمداني، كان أبو تغلب كأبيه ناصر الدولة، ينفس على البويهيين ازدياد نفوذهم ويعمل على إزالة سلطانهم من العراق. فلما قصد بختيار بلاد الموصل لمساعدة حمدان على أخيه أبي تغلب، انتهز هذا فرصة ابتعاد بختيار عن بغداد وخلوها من جنده، وقصدها وكاد يستولي عليها. وقد خشي بختيار بأس هذا المنافس. وجاء في عقد الصلح أن يرد أبو تغلب إلى أخيه حمدان أملاكه وإقطاعه إلا ماردين، وأن يلقب (أبو تغلب) بلقب سلطان، وأن يسلم إليه ابنة بختيار التي كان قد تزوجها. ولكن الحرب التي تجددت بينهما انتهت بإقرار هذا الصلح سنة ٣٦٣ هـ[٣].

---

(١) بضم الراء وسكون الحاء وفتح الباء بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات جنوبي قرقيسيا.

(٢) ابن الأثير جـ ١ ص ٢١٣ - ٢١٥.

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦ - ٢٢٨.

وفي سنتي ٣٦٧، ٣٦٨ هـ استولى عضد الدولة البويهي على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار مضر من يد أبي تغلب الحمداني، فعوَّل على قصد دمشق واتخاذها مركزاً لولايته، ولكنها امتنعت عليه، فلجأ إلى الخليفة العزيز الفاطمي الذي طلب منه القدوم إلى القاهرة لإمداده بالمال والرجال. ولكنه خشي أن يكون في هذا خديعة للفتك به، فرحل إلى طبرية وتبودلت الرسل بينهما. وفي ذلك الوقت خرج دغفل بن مفرج الطائي أمير الرملة من قبل العزيز بالله الفاطمي، وعمل على طرد العقيليين من الشام، ولجأ هؤلاء إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة وطلبوا منه المعونة، ولكنه اعتذر عن إجابة طلبهم حتى لا يثير حنق الخليفة الفاطمي عليه، بل توسط بينهم وبين هذا الخليفة، وخشي دغفل بن مفرج، والفضل بن صالح ـ وكان العزيز قد أرسله على رأس جيش لقمع الثورة في دمشق ـ خطر أبي تغلب وحارباه هو وبني عقيل. وأحلا به الهزيمة وقتلاه في شهر صفر سنة ٣٦٩ هـ[١].

على أن الحمدانيين استعادوا الموصل وما يليها في سنة ٣٧٩ هـ على يد أبي طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة، وأخيه أبي عبد الله الحسين[٢]. ولكنهم لم يبقوا فيها أكثر من سنة، لأن الأكراد طمعوا في إزالة دولتهم، وانتصر أبو علي بن مروان الكردي على أبي عبد الله الحسين أخي أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني، وبعث به إلى مصر بشفاعة الخليفة العزيز بالله الفاطمي، كما قيل أبو الزواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني. واستولى على مدينتي نصيبين وبلد (٣٧٩ هـ)، وضم إليهما الموصل في السنة التالية، ولكه طرد منها على أيدي بني بويه؛ ثم استردها أخوه المقلد بن المسيب العقيلي الذي أقره بهاء الدولة البويهي على هذه البلاد وما يليها في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٤)[٣].

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١.

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

الحمدانيون في حلب

سيف الدولة (٣٣٣ ـ ٣٥٦ هـ):

ذكرنا أن الخليفة المتقي لقب الحسن بن حمدان ناصر الدولة، ولقب أخاه علياً سيف الدولة في شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ، وأن سيف الدولة أصبح الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة في حروبه مع البريديين والأتراك، فتراه يستولي على مدينة واسط من البريديين ويعمل على ضم البصرة إليه، ولكنه لم يستطع تحقيق أمنيته لقلة المال عنده. بيد أن علاقة المودة التي كانت تربط الحمدانيين بالأتراك وعلى رأسهم توزون، لم تلبث أن تبدلت. وثار الأتراك على سيف الدولة بواسط، فهرب من معسكره إلى بغداد، ثم لحق بأخيه ناصر الدولة الذي كان يلي إمرة الأمراء، وأرغم أمام ثورات الأتراك على المسير إلى الموصل، وانتهز سيف الدولة فرصة النزاع الذي قام في واسط بين الأتراك بزعامة توزون، وعول على أخذ بغداد، وساعده الخليفة المتقي سراً. ولكنه لم يستطع البقاء فيها لاستيلاء توزون عليها.

سار سيف الدولة الحمداني إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣ هـ[1]، وهرب إلى مصر يانس المؤنسي الخصي، وكان قد وليها من قبل الإخشيد. فأرسل الإخشيد جيشاً لمحاربته بقيادة كافور ومعه يانس، فتقابلا مع الحمدانيين عند الرستن الواقعة على نهر العاصي الذي يمر بالقرب من حماه، فحلت الهزيمة بالمصريين وأسر منهم أربعة آلاف عدا القتلى والغرقى.

ثم تقدم سيف الدولة يريد دمشق، فسار إليه الإخشيد الذي حلت به الهزيمة في قنسرين، ولكنه انتهز فرصة انشغال الحمدانيين بجمع الغنائم واقتسامها، فأطلق عشرة آلاف من صناديد جنده، بددوا شمل العدو، ودخل حلب حاضرة الحمدانيين واسترد دمشق إلا أنه ـ على الرغم من انتصاره ـ تصالح مع الحمدانيين على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً، كما تعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق[2].

---

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) أن أول من ملك حلب من بني بويه هو الحسين بن سعيد أخو أبي فراس الحمداني الشاعر المشهور، وذلك في شهر رجب سنة ٣٣٢ هـ.

(٢) ابن الأثير جـ ١ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

ولعل الإخشيد كان يرمي من وراء إبرام الصلح على هذه الصورة، أن يبقي الدولة الحمدانية حصناً منيعاً يكفيه مئونة محاربة البيزنطيين، الذين لا يفترون عن مهاجمة الولايات الإسلامية المتاخمة لبلادهم، والدين أغاروا سنة ٣٣١ هـ على أرزن وميافارقين ونصيبين، فقتلوا وسبوا كثيراً من المسلمين، ثم دخلوا في السنة التالية ٣٣٢ هـ رأس العين، المدينة الكبيرة المشهورة في بلاد الجزيرة، بين حران ونصيبين، في ثمانين ألفاً، فقتلوا وسبوا خلقاً عظيماً من المسلمين.

ولكن هذا الصلح لم يطل، فإن الإخشيد لما مات في سنة ٣٣٤ هـ وتولى كافور الوصاية على ابنه أبي الحسن علي، استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق في هذه السنة، ثم سار إلى الرملة لغزو مصر؛ فحاربه كافور بصحبة الحسن بن عبيد الله بن طغج وانتصر عليه في اللجون ببلاد الأردن، وتبعد عن طبرية بنحو عشرين ميلاً وعن الرملة بنحو أربعين ميلاً؛ ثم انتصرا عليه انتصاراً حاسماً بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق. ودخل الجيش مدينة حلب. وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح. بنفس الشروط التي عقدت بها أواخر أيام الإخشيد ما عدا الجزية فقد وقف دفعها[١].

وسرعان ما أخذ نفوذ سيف الدولة يزداد، حتى إن معز الدولة بن بويه قبل توسط لديه في شأن أخيه ناصر الدولة، فأبرم الصلح معه، على أن يضمن سيف الدولة أداء الأموال التي يجب على أخيه ناصر الدولة أداؤها لبيت المال ببغداد.

وقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين، حتى قيل إنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة، انتصر في بعضها وحلت به الهزيمة في بعض آخر. وكان كثير من البلاد الإسلامية مسرحاً للحروب التي دارت بين الحمدانيين والروم في ذلك العصر. وقد أغار سيف الدولة على زبطرة وعرقة وملطية ونواحيها، فقتل وأحرق وسبى، وانثنى قافلاً إلى درب موزار، فوجد عليه قسطنطين بن فردس الدمستق فأوقع به، وقتل صناديد رجاله، ثم عبر الفرات وأوغل في بلاد الروم والتقى بجيش فردس بمرعش وهزمه. وقتل رؤوس البطارقة، وأسر قسطنطين بن الدمستق الذي أصابته ضربة في وجهه، وأكثر الشعراء في هذه الموقعة فقال أبو فراس الحمداني:

وآب بقسطنطينَ وهو مكبل ... تحفُّ بطاريق به وزرازرُ[٢]

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٤.

(٢) جمع زرزار وهو البطريق.

وولى على الرسم الدمستق هاربا وفي وجهه عذر من السيف عاذر[١]

ثم سار سيف الدولة لبناء الحدث. وهي قلعة عظيمة الشأن؛ فاشتد ذلك على ملك الروم الذي أرسل جيشاً جراراً يضم عظماء مملكته وعلى رأسهم فردس الدمستق، وأحاطوا بعسكر سيف الدولة الذي حمل على العدو واخترق الصفوف طلباً للدمستق فولى هارباً، وأسرصهره وابن بنته، وقتل خلق كثير من الروم، وأكثر الشعراء في هذه الموقعة فقال أبو الطيب المتنبي:

بناها عليٌّ والقنا تقرع القنا ومـوج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم

ازدهر عهد سيف الدولة بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء، كأبي الفتح عثمان بن جني النحوي، وأبي الطيب المتنبي. واشتهر كثير من أمراء الحمدانيين بالشعر؛ كأبي فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة، وابن أخيه الحسين بن ناصر الدولة. وكان سيف الدولة نفسه شاعراً يجيد الشعر؛ فمن شعره الذي يعبر فيه عن وفاته لأخيه ناصر الدولة قوله:

وهبت لك العَليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق[٢]

وقد وصف الثعالبي (جـ ١ ص ١١ ـ ١٢) سيف الدولة وما بلغته الدولة الحمدانية في عهده في هذه العبارة فقال:

«وكان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة. وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطه قلادتهم. وكان غرة الزمان وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور. وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف يأسها وتنزع لباسها، ويفل أنيابها وتذل صعابها، وتكفي الرعية سوء آدابها. وغزواته تدرك من طاغية الروم النار. وتحسم شرهم المثار، وتحسن في الإسلام الآثار وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء وحلبة[٣]

(١) الثعالبي. يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ ـ ٢٣.
(٢) ابن الأثير ج ص ٢٠٨.
(٣) الحلبة. الخيل تجتمع للسباق من كل أوب ولا تخرج من مكان واحد.

الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به... وكان كل من أبي محمد بن عبد الله بن محمد القاضي الكاتب، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت كقول أبي الطيب المتنبي:

خليليَّ إنِّي لا أرَى غيرَ شاعر ... فلي منهم الدعوى ومني القصائدُ
فلا تعجبا إنّ السيوفَ كثيرةٌ ... ولكنَّ سيفَ الدولة اليوم واحدُ

توفي سيف الدولة بحلب في شهر صفر سنة ٣٥٦ هـ، ونقل إلى ميافارقين بعد أن ملك ثلاثاً وعشرين سنة، وتولى بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف.

سعد الدولة ـ سعيد الدولة (٣٥٦ ـ ٣٩٢ هـ):

وفي عهد سعد الدولة بدأ الضعف يدب في جسم الحمدانيين في حلب. فقد قتل خاله أبا فراس بن أبي العلاء سعيد بن حمدان، الشاعر المشهور (سنة ٣٥٧ هـ)[١]، وثار عليه قَرْعويه غلام أبيه سيف الدولة واستولى على حلب، وحال دون دخوله إليها، وأقام فيها نحو ست سنين[٢]، ثم عبر أبو المعالي نهر الفرات وقصد حماه فأقام بها[٣].

سار سعد الدولة بعد ذلك إلى حمص وشرع في عمارتها وتحصينها، وكان الروم قد عاثوا فيها حين أغاروا عليها في سنة ٣٥٨ هـ. وتم الصلح بينه وبين قرعويه (٣٥٩ هـ). وخطب له على منابر حلب، ولكنه آثر البقاء بحمص وناصر الفاطميين فخطب للخليفة المعز لدين الله[٤].

على أن النزاع لم يلبث أن قام بين بكجور وسعد الدولة الذي عزله عن حمص فكتب إلى العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ) يطلب إليه أن يوليه دمشق وينفذ إليه جيشاً يستولي به على حلب.

دخل بكجور دمشق (٣٧٣ هـ) وساءت العلاقة بينه وبين يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز، الذي حقد عليه لقتله نائبه في ضياعه بدمشق، وعمل على قتله. ولما كشف

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١١.
(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧.
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١٥.
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١١٩ ـ ٢٢٠.

بكجور سر هـذه المؤامرة، نكـل بأتبـاع ابن كلس وقتلهم وصلبهم (رمضان ٣٧٧ هـ)، ثم طلب من سعد الدولة أن يرده إلى ولايـة حمص، فأجـابه إلى ذلـك (٣٧٩ هـ)، ولكنه لم يستطع الاستقرار فيها، وساءت علاقته بالفاطميين وبسعد الدولة، فلجأ إلى بهاء الدولة بن بويه فلم يظفر بشيء.

ولما مات يعقوب بن كلس وتقلد الوزارة عيسى بن نسطورس، وكان نصرانياً من أقباط مصر، خافه بكجور كما خاف يعقوب بن كلس من قبل، وأرسل إلى الخليفة العزيز يطلب مساعدته للاستيلاء على حلب، فأجابه إلى ما أراد وكتب إلى والي طرابلس يأمره بمساعدته ولكن عيسى أمره بمماطلة بكجور الذي وصل إلى حلب. وعلم سعد الدولة الحمداني بما يراد به، فكاتب باسيل الثاني إمبراطور الروم (٣٥٢ ـ ٤١٦ /٩٦٣ ـ ١٠٢٥)، وطلب إليه أن يأمر والي إنطاكية بمعونته. ووقعت الحرب بين بكجور، يساعده المغاربة والعرب، وبين سعد الدولة يساعده الروم والأرمن والديلم والأتراك وخمسمائة من صناديد العرب من بني كلاب[1].

وهكـذا وقع النـزاع بين الحمدانيين وبين قـوادهم، وقامت الحـروب الأهلية بينهم، وأصبح سعـد الدولة يستعين بالروم، وغدا بكجور يستعين بالفاطميين. وكان لسعد الدولة وبكجور الغُرم وللروم والفاطميين الغنم.

وقد أراد سعد الدولة أن يوحد الصفوف بين جند الحمدانيين جميعاً، وآثر سياسة اللين والمسالمة على سياسـة النـزاع والحرب؛ فكتب إلى بكجـور يدعـوه إلى رعايـة حق الرق والولاء، ويطلب إليه الكف عن مناجـزته ومنـاوأته، ويعـده بإقـطاعه الأراضي الممتـدة بين حمص والرقة؛ فلم يزدد بكجور إلا غروراً، وأبى إلا القتال، ودارت رحى الحرب ووقعت الدائرة عليه. وقد عزا ابن القلانسي (٣٤ ـ ٣٦) هزيمة بكجور إلى بخله وانتصار سعد الدولة إلى جوده وكرمه وميل العرب إليه.

ولما صفا الجو لسعد الدولة الحمداني وأمن شر بكجور، سار إلى الرقة، وكان بها أبو الحسن بن المغربي، وكان قد هرب إلى الكوفة خوفاً من بطش بكجور، كما كان بها أولاد بكجور، الذين آلت أموالهم إلى سعد الدولة بعـد قتل أبيهم، فكتبـوا إلى الخليفة العـزيز

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣ ـ ٣٤.

الفاطمي يسألونه التدخل لدى سعد الدولة عسى أن يكف عن أذاهم، فكتب إليه العزيز كتاباً يتوعده فيه ويأمره بإنفاذهم إلى مصر. ولما وصل كتاب الخليفة الفاطمي إلى سعد الدولة أساءت معاملة رسوله، وأخذ يعد العدة لحربه لولا أن عرضت له علته التي مات منها في سنة ٣٨١ هـ، فحمل تابوته إلى الرقة ودفن بها[١].

تولى سعيد الدولة بعد وفاة أبيه سعد الدولة، وكان قد عهد إليه وهو في مرضه الأخير، وأوصى لؤلؤاً الخادم به وبابنه الآخر أبي الهيجاء وبأخته ست الناس. وقد أخذ لؤلؤ البيعة لسعيد الدولة الذي امتاز عهده بوقوع الحروب بين الحمدانيين والفاطميين، الذين لم يتمكن قائدهم منجوتكين من أخذ حلب بسبب قلة الأقوات وارتد إلى دمشق. وعظم ذلك على الخليفة العزيز، فخرج بنفسه لفتحها. ولكنه مات في بلبيس سنة ٣٨٦ هـ[٢].

ولم يكد سعد الدولة يتخلص من شر بكجور، حتى وقع ابنه سعيد الدولة في شر لؤلؤ الذي آلت إليه الوصاية عليه، فطمع في ولايته وقتله هو وابنته وكان قد تزوج منها، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولدي سعيد الدولة: أبي الحسن علي، وأبي المعالي شريف. ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة. وجعل ابنه منصوراً ولياً على الدولة (سنة ٣٩٤ هـ). ومات لؤلؤ بعد أن تقدمت به السن (١٠٠٨/٣٩٩)، فخلفه ابنه منصور الذي اعترف بسلطان الخليفة الفاطمي الحاكم وذكر اسمه في الخطبة فلقبه مرتضى الدولة. ويمكن أن يقال إن نفوذ الفاطميين امتد إلى حلب منذ ذلك الحين، ولكنه توطد بعد أن قام النزاع بين مرتضى الدولة وبين الفتح غلام أبيه، الذي انضم إلى جانب الحاكم الفاطمي، فأقطعه صيدا وصور وبيروت. ولقبه مبارك الدولة وسعدها، واستمر على حكم حلب من قبل الحاكم. وبذلك قضى الفاطميون على حكم الحمدانيين في حلب[٣].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) Hasil Ev., Cambridge Mediaeval History vol. IV p.149.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٥٦، ٥٨.

الدولة الطولونية

في مصر والشام

٢٥٤ - ٢٩٢/٨٦٨ - ٩٠٥

الطولونيون

	هجرية	ميلادية
١ - أحمد بن طولون	٢٥٤	٨٦٨
٢ - خمارويه بن أحمد	٢٧٠	٨٨٣
٣ - أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢	٨٩٥
٤ - هارون بن خمارويه	٢٨٣	٨٩٦
٥ - شيبان بن أحمد	٢٩٢	-٩٠٤-
	٢٩٢	٩٠٥

أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ):

ظلت مصر بعد قيام الدولة الأموية في حالة ضعف وجمود في كل ناحية من نواحي الحياة، إلا في فترات قليلة عمل فيها ولاة هذه البلاد على تقدمها ورقيها، كمسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ)، وعبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ). وموسى بن عيسى الذي ولي مصر ثلاث مرات (في سني ١٧١، ١٧٥، ١٧٩ هـ) على أن هذه البلاد أخذت تنتعش منذ قامت الدولة الطولونية التي استقلت بحكمها استقلالاً يكاد يكون تاماً. وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة لم يزد على ثمان وثلاثين سنة، أخذت مصر بقسط موفور من التقدم والإصلاح.

كان أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة تركياً، وكان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم الولاة من بلاد ما وراء النهر إلى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم. وقد كثر هؤلاء الأتراك منذ ولي المعتصم الخلافة (٢١٨ هـ)، إذ كانت أمه تركية؛ فاعتمد على العنصر التركي، واتخذ من الأتراك حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون من قبله من تولية الفرس مناصب الدولة: فولي المأمون عبد الله بن

طاهر بن الحسين مصر صلاتها وخراجها (٢١١ ـ ٢١٣ هـ)، وولى المعتصم آشناس التركي مصر (٢١٩ ـ ٢٢٩ هـ)، وقلد الواثق إيتاخ (٢٣٤ ـ ٢٣٥ هـ). وكان هؤلاء الولاة يستخلفون عنهم نواباً يحكمون البلاد باسمهم، ويدعون لهم على المنابر بعد الخليفة وينقشون اسمهم على السكة، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة وما فيها من نعيم وترف ويأتوا إلى مصر للإقامة فيها. ولما أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، انتشر العرب في ريف مصر، واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق، وأخذ العنصر العربي يضعف شيئاً فشيئاً، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم. ولم يل مصر بعد ذلك عربي إلا عنبسة بن إسحق (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ).

تقلد «باكباك» التركي مصر، فاستخلف عليها ابن طولون وجعله على حاضرتها، وضم إليه جيشاً فدخلها في شهر رمضان سنة ٢٥٤ هـ، وكان ولاة مصر في ذلك العصر لا ينيبون عنهم شخصاً واحداً في هذه البلاد، وإنما كانوا يقسمون أعمالها بين عدة أشخاص، ليكون كل واحد منهم عيناً على الآخر، فلا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بها في يده خشية اتفاق الآخرين عليه. وكان هؤلاء الأتراك يسندون القضاء والخراج لغير هؤلاء الولاة، وبذلك كانت أعمال مصر عندما دخلها أحمد بن طولون مقسمة بين عدة أشخاص، فكان على الإسكندرية إسحاق بن دينار، وعلى برقة أحمد بن عيسى الصعيدي، وعلى القضاء بكار بن قتيبة، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز، وعلى الخراج أحمد بن المدبر.

ومن ذلك نرى أن ولاية مصر لم تصف لابن طولون، لأنه إنما تقلد قصبة هذه البلاد دون غيرها، إذ كان يحكمها باسم واليها باكباك، وفي استطاعته أن يعزله إذا لم يحز رضاه. هذا فضلاً عما كان من منافسة ابن المدبر عامل الخراج في مصر ومثابرته على الإيقاع به عند الخليفة[1]. ومن قيام الثورات التي أضرم نارها الخوارج في مصر ومن بينهم ابنه العباس، إلى ما كان من سخط أبي أحمد طلحة ولي العهد عليه وعمله على صرفه عن هذه البلاد.

---

(١) أتخذ ابن المدبر حرساً من مولدي الغور (وهي جبال وولاية بين هراة وغزنة) وكانوا طوال الأجسام ذوي بأس وإقدام. يتدرعون بالأقبية والمناطق ويحملون بأيديهم مقارع غليظة على طرف كل منها مقمعة من فضة (وهي عمود من الحديد). وكانوا يقفون بين يديه إذا جلس ويركبون بين يديه إذا ركب فتزيد هيبتهم في نفوس الناس. وقد عمل ابن طولون على إقصاء هذا الحرس الذي رآه بين بني يديه يوم خرج للقائه وطلب أن يستعيض الهدية التي بعث بها إليه ابن المدبر بهؤلاء الغلمان ليقضي بذلك على نفوذه وهيبته.

فلم يكن بد من أن يعمل ابن طولون على التغلب على هذه الصعاب وتثبيت قدم أولاده من بعده.

قتل باكباك فتولى مصر يارجوخ صهر أحمد بن طولون، فكتب إليه «تسلم من نفسك لنفسك». وبذلك أقره على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها. وزاد قلق ابن المدبر عامل الخراج الذي أثار سخط المصريين بزيادة الضرائب، واستعماله القسوة في جبايتها، وعمل على عزل ابن طولون، وخشي عاقبة أمره في مصر، فطلب صرفه عن خراجها. وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن في سنة ٢٥٧ هـ، وتقلد خراج مصر من بعده أحمد بن خالد.

وفي شهر رمضان سنة ٢٥٩ هـ مات يارجوخ صاحب إقطاع مصر الذي كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه ويدعو له على منابرها بعد الخليفة، فتوطدت قدمه في هذه البلاد وأصبح والياً عليها من قبل الخليفة مباشرة. وفي سنة ٢٦٣ هـ كتب الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج، فرد عليه: «لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري»، فقلده خراج مصر، وولاه الثغور الشامية، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده.

بعد أن قضى ابن طولون على الصعاب التي قامت في وجهه في مصر، اعترضته صعوبة كادت تقضي على أماله، لولا ما أوتيه من حسن السياسة وعلو الهمة ورباطة الجأش. وكان مصدر هذا الشر أبو أحمد الموفق طلحة، الذي غلب على أخيه الخليفة حتى إنه لم يبق له من الخلافة إلا اسمها، كما أن ثورة الزنج الطاحنة أثارت عداء الموفق لابن طولون والي مصر، الذي وقف على مدى الخطر الذي هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج، فبعث إلى الموفق بمليون ومائتي ألد دينار، استقبل هذا المال، وبعث إلى ابن طولون بكتاب ينطوي على الجفاء والشر، فرد عليه بكتاب شديد اللهجة.

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي كان يميل إلى ابن طولون، أرغم على عزله من ولاية الثغور الشامية، ولكنه لم يلبث أن ردها إليه بعد أن اضطربت أحوالها، ووجد ابن طولون الفرصة سانحة لأخذ بلاد الشام بعد وفاة واليها ماجور لاشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج، وخشي ضياع ولاية الثغور منه بسبب وقوع بلاد الشام بينها وبين مصر، وسار بجيشه

نحو بلاد الشام، فدانت له أمهات مدنها، ودعي له على منابرها(٢٦٤ ـ ٢٦٥ هـ)، ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لقمع ثورة ابنه العباس. ثم خرج ابن طولون إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) بعد أن اتصل به نبأ خروج لؤلؤ والي الرقة عليه وانضمامه إلى الموفق، واستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في طريقه إليها، بلغه خروج أهل طرسوس عليه، فعول على المسير إليها. ولكنه لما وصل إلى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسي ينبئه فيه بالمسير إليه والاحتماء به. ورحب ابن طولون بهذه الفكرة لما تنطوي عليه من تقوية شأنه في مصر. ولكن ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة قبض على الخليفة المعتمد وساقه إلى سامرا، وكوفىء بولاية مصر.

وقد فعلت سياسة الموفق فعلها في الناس، فقد كان من أثر لعن الخليفة ولعن ابنه المفوض وأخيه الموفق لابن طولون، وانضمام لؤلؤ ومن معه من القواد ومنافسة ابن كنداج له وتوليته على مصر والشام، أن ضعف نفوذه الأدبي في البلاد التي دانت لسلطانه، فحلت الهزيمة بجيشه في مكة، ولعن في المسجد الحرام[١]. وكان من أثر هذه الدعاية الواسعة التي نشرها الموفق ضد عدوه ابن طولون، أن حلت به الهزيمة لأول مرة في طرسوس ومات أكثر جنده من البرد بسبب غرق أمتعتهم[٢].

وسار ابن طولون بعد ذلك إلى المصيصة وأقام بها ثلاثة أيام: وهنا عرضت له علته التي أودت بحياته.

قال الكندي[٣]: وتزايدت علة أحمد بن طولون، فأمر الناس بالدعاء له، فغدا الناس بالدعاء له إلى مسجد محمود بسفح المقطم يوم الإثنين لست خلون من شوال سنة سبعين ومائتين. وحضر معهم القصاص فدعوا له، ثم غدوا أيضاً بالدعاء له. وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين، وحضروا أيضاً اليوم الثالث مع النساء والصبيان، وأقاموا على ذلك أياماً. ثم توفي ليلة الأحد لعشر خلت من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وله من العمر خمسون سنة وشهر وسبعة عشر يوماً؛ ودفن باليحموم بسفح المقطم بعد أن حكم نيفاً وستة عشر سنة، وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين، منهم سبعة عشر من الذكور وستة عشر من الإناث.

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٣٢٠.

(٢) ابن الداية: سيرة ابن طولون ص ٧١. (٣) كتاب الولاة ص ٢٣١.

كان ابن طولون بعيد النظر عالي الهمة قوي البأس شديد المراس. اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسيا الصغرى، وخشي بأسه إمبراطور الروم، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة ووعورة الطريق، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين.

وكان ابن طولون سياسياً محنكاً، وقائداً ماهراً، خبيراً بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش، كما كان إدارياً حازماً [١]، وقف على موارد الثروة على اختلافها، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته من غيرأن يرهق الأهلين بالمكوس والضرائب، وعمل على ترفيههم ونشر العدل بينهم، فاستتب الأمن واستقرت الأمور وسادت الطمأنينة بين الناس. وشمل الرخاء البلاد في عهده، حتى بيع عشرة الأرادب من القمح بدينار واحد. هذا إلى تحصينه الثغور والاحتفاظ بجيش كامل العدد والعدة. كما ضرب بسهم وافر في سبيل الإصلاح، فاهتم بالزراعة وعني بإقامة الجسور وحفر الترع.

أما أخلاقه وصفاته، فقد كان مضرب الأمثال في الكرم والجود، وفي الشجاعة والبسالة، وفي صدق الفراسة، وفي العدل والتواضع. وكان يقرب إليه العلماء، ويجزل لهم العطاء. كما كان يتصدق على الفقراء. فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار. وكان ـ إلى جانب ذلك ـ يبذل في أعمال الخير ألف دينار في كل يوم.

قال المقريزي (خطط جـ ١ ص ٣١٦): «كانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة.. سوى مطابخه التي أقيمت كل يوم للصدقات في داره وغيرها، ويذبح فيها البقر والكباش. ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة. في اثنين منها فالوذج والإثنان الآخران على القدر. وكانت تعمل في داره وينادي: من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر. وتفتح الأبواب ويدخل الناس. وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته.

ويعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين. ولذلك كان من أكثر الولاة احتراماً لحفاظه [٢].

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٩.

خمارويه (٢٧٠ ـ ٢٨٢ هـ):

بعد وفاة ابن طولون. اجتمع الجند ـ على ما قضت به العادة في ذلك الوقت ـ وولوا مكانه ابنه خمارويه. ولم يستطع الخليفة العباسي إلا الموافقة على تعيين الوالي الجديد وله من العمر عشرون سنة. ولم تكن ولاية مصر قد توطدت أركانها لآل طولون. وأصبح خمارويه أمام عدة صعاب لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالقوة حيناً وبالدماء حيناً آخر.

ولا غرو، فقد ظلت مصر في عهد خمارويه كما كانت في عهد أبيه، محط أطماع المتنافسين من القواد الأتراك، ومثار حسد أبي أحمد الموفق؛ فواصل لعن الموفق على المنابر، وبعث الواسطي كاتب أبيه بجيش كثيف، وعززه من البحر بأسطول قوي. وخرج الموفق من بغداد، وانضم إليه ابن كنداج والي الموصل، ومحمد بن أبي الساج والي أرمينية والجبال، واستولوا على دمشق. فلم ير خمارويه بداً من الخروج بنفسه، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج في أعماله، وتم الصلح بين والي مصر ودار الخلافة، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ـ ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة. هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر والدعاء له مع الخليفة[(١)].

وكان من أثر هذا الانتصار أن استولى خمارويه على الرقة، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة، ودعي له على منابرها، كما أخضع ابن أبي الساج (٢٧٦/٨٨٨)، وطارد جيوشه إلى مدينة (بلد) على نهر دجلة، حيث بنى على شاطئه سريراً من الذهب ليجلس عليه، إشارة بما حازه من نصر مؤزر. كما كان من أثر هذا الانتصار أن اعترف بسلطانه والي طرسوس (٢٧٦ هـ)، بعد أن كان قد نبذ طاعة الطولونيين سنة ٢٧٠ هـ. ولم تقتصر أعمال خمارويه الحربية على ما تقدم، بل اتسع نفوذ مصر في عهده إلى ما وراء ولاية طرسوس، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٧ ـ ٢٧٩ هـ)[(٢)].

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توطيد سلطان خمارويه الذي استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، وجعلها لأولاده من بعده. وكان من

---

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٠.

(٢) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٣٥ ـ ٢٣٩. المقريزي خطط جـ ١ ص ٣١٩

أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي، ولكن الخليفة اختارها لنفسه.

توفي خمارويه في سنة ٢٨٢ هـ. وكان محباً للترف يبذل الأموال الضخمة على أبهة بلاطه ومبانيه الضخمة ومنتزهاته وغير ذلك. وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة ألف دينار في كل سنة؛ وكانت رواتبهم وأرزاقهم تدفع إليهم بانتظام. هذا إلى ما عرف من خمارويه من كثرة إنفاقه على مطابخه، حتى بلغت نفقاته في كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار (٢٧٦٠٠٠ دينار في السنة). ولا شك أن كثرة هذا المبلغ وتسمية مطبخه مطبخ العامة يدلان على أنه نسج على منوال أبيه في حبه للجود والكرم، وشغفه بمد يد المساعدة إلى الفقراء والمعوزين. هذا إلى ما أطلقه من الأرزاق لجواريه وأولاده ومن يقوم بخدمتهم.

زوال الدولة الطولونية (٢٨٢ ـ ٢٩٢ هـ):

ولي مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشر سنين، لم تستفد البلاد فيها شيئاً غير انتشار الفوضى، وتألب الجند وتنازع السلطة بين المتنافسين، وانتصار الجند لفريق دون فريق. ذلك أنه لما توفي خمارويه بدمشق (ذي القعدة ٢٨٢ هـ) عاد ابنه أبو العساكر جيش إلى مصر، حيث أخذ الناس عليه أموراً أثارتهم عليه، فاستوحش من كبار الجند وتنكر لهم، فعملوا على الكيد له والخلاص منه، وفر بعضهم إلى الخليفة العباسي. وخلع طاعته طغج بن جف (أبو محمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر) عامل دمشق. وقد آلى جيش على نفسه ليشعلن نار الفتن والثورات، فقتل عمه مضر بن أحمد بن طولون، فوثب عليه الجند وخلعوه، ثم جمعوا الفقهاء والقضاة فتبرءوا من بيعته، وانضموا إلى الجند في خلعه (١٥ جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ هـ). وذلك بعد نيف وستة أشهر من ولايته، فظل في سجنه إلى أن مات بعد أيام.

اجتمع الجند يوم خلع جيش وولوا ـ على ما جرت به العادة في ذلك الوقت ـ أبا موسى هارون بن خمارويه. وكان صغيراً لم تزد سنه على الرابعة عشرة، فلم يكن يصلح للولاية والحكم. وربما كان ذلك مما دفع بطائفة من الجند إلى عدم الرضا بتوليته، فكاتبوا رجلاً آخر من بني طولون، هو ربيعة بن أحمد بن طولون، وكان في الإسكندرية وطلبوا إليه أن يسير إلى مصر، ووعدوه أن يقوموا بنصرته. فليس من عجب إذا صادفت هذه الدعوة قبولاً في نفس ربيعة الذي جمع من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم جيشاً كثيفاً سار على رأسه

حتى نزل قريباً من الفسطاط. على أن حال هؤلاء القوم مع ربيعة كانت أشبه من بعض الوجوه بحال أهل الكوفة مع الحسين بن علي؛ فقد خذلوا ربيعة وقعدوا عن نصرته، ولم يحولوا على الأقل دون خروج جند هارون الذين قاتلوه وأسروه (شعبان سنة ٢٨٤ هـ) ثم أثخنوه بالسياط حتى إنه ضرب ألفاً ومائتي سوط، ومات تحت الضرب.

لم يفلح المناوئون لحكم هارون فيما دبروه، بل لم تعد نصرتهم لربيعة حد التدبير والكتابة. وفي عهد هارون خرج القرامطة بالشام (٢٩٠ هـ) وكانت تابعة لمصر، فأنفذ والي مصر جيشاً لمحاربتهم، ولم يستطع هذا الجيش إخراجهم من الشام، بل حلت به الهزيمة، وأدى هذا الضعف إلى تجديد رغبة الخلافة العباسية في إعادة مصر إلى سلطانها المطلق، فبعث الخليفة المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ) محمد بن سليمان الكاتب لاستردادها من هارون[1]، فنزل بحمص وبعث بأسطول إلى سواحل هذه البلاد، ثم واصل السير إلى فلسطين. وخرج هارون بن خمارويه لدفع ابن سليمان عن دخول مصر، وسير المراكب الحربية لقتاله. وفي تنيس التقى الأسطولان العباسي والمصري، فحلت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط في يد محمد بن سليمان.

رأى هارون أنه لا طاقة له بهزيمة الجيش العباسي، فصمم على الفرار، ولجأ إلى العباسة[2]، ومعه أهله وأعمامه ونفر يسير من جنده. وفي هذا المكان قتله عماه شيبان وعدي ابنا أحمد بن طولون، وهو منشغل باللهو ثمل بالخمر (صفر سنة ٢٩٢ هـ)، ولم يناهز حينذاك الثانية والعشرين من عمره.

هكذا انتهت ولاية هارون الذي قتل على يد عميه، فكان طبيعياً إذا أن يؤول أمر هذه الولاية إلى أحد قتلته. وقد آلت فعلاً إلى عمه شيبان الذي لم يلبث أن سار إلى الفسطاط

---

(١) الطبري ٢: ٢٢٥١ ـ ٢٢٥٢.

(٢) قال ياقوت في معجمه: هي بليدة أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، ذات نخل طوال وقد عمرت في أيامنا، لأن الملك الكامل بن العادل بن أيوب جعلها من متنزهاته وكان يكثر الخروج إليها للصيد، لأن إلى جانبها مما يلي البرية مستنقع ماء يأوى إليه طير كثير، فهو يخرج إليها للصيد، بينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخاً. سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون التي صحبت قطر الندى ابنة أخيها خمارويه في طريقها إلى بغداد لتزف إلى الخليفة المعتضد العباسي. وفي هذا الموضع عملت عباسة قصراً أحكمت بناءه، وفيه ودعت ابنة أخيها، ومن ثم عمر ذلك المكان المنفر، وصار بلداً فكان يقال له قصر عباسة، ثم أطلق عليه فيما بعد عباسة فقط، ويطلق الآن على بلدة بجوار الزقازيق.

ليتسلم مقاليد هذه الولاية. بيد أن هذا العمل لم يرض الجند، بل أغضبهم بمقدار ما أغضبهم قتل مضر بن أحمد بن طولون على يد ابن أخيه جيش بن خمارويه من قبل. وأنكر القواد والجند جميعاً ما أتاه شيبان وأخوه، ولم يعترفوا بولاية شيبان، وكاتبوا محمد بن سليمان وطلبوا منه المسير إلى مصر، فسار حتى نزل العباسة حيث لقيه طغج بن جف في جميع كثير من القواد، وصحبوه إلى الفسطاط. وهنا انضم إليهم أصحاب شيبان الذي لم يجد بداً من طلب الأمان من محمد بن سليمان. وفي شهر ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ خرج شيبان، ولم يكن قد مضى على ولايته غير اثني عشر يوماً، ودخل القائد العباسي مدينة القطائع، وألقى فيها النار، ونهبت رجاله الفسطاط وكسروا أبواب السجون وأخرجوا أولاد ابن طولون وأنصارهم من القواد. وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت هذه البلاد ثماني وثلاثين سنة[١].

على أن الاضطرابات استمرت في هذه البلاد، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها، ثم لاستبداد الأتراك بالسلطة، وضعف مصر نفسها وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج. هذا إلى أن مصر قد تعرضت في ذلك الوقت لغزوات الفاطميين. الذين أسسوا دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ. وحاولوا الاستيلاء على مصر مرات لاتخاذها مركزاً لنشر دعوتهم. ومقراً لخلافتهم وبسط نفوذهم في الشرق، وظلت مصر على هذه الحال. إلى أن وليها محمد بن طغج الإخشيد. فدخلت في عهده في طور جديد من التقدم والإصلاح[٢].

---

(١) أنظر سقوط الدولة الطولونية في المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣١٣ وما يليها، وأبا المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٨ ـ ١٤٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: أنظر كتاب المجمل في التاريخ المصري ص ١٥٢.

الدولة الإخشيدية

. (في مصر والشام)

٣٢٣ - ٩٣٥/٣٥٨ - ٩٦٩

الإخشيديون[١]

	هجرية	ميلادية
١ محمد الإخشيد بن طغج	٣٢٣	٩٣٥
٢ أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	٢٣٤	٩٤٦
٣ أبو الحسن علي بن الإخشيد	٣٤٩	٩٦٠
٤ أبو المسك كافور	٣٥٥	٩٦٦
٥ أبو الفوارس أحمد بن علي	٣٥٧	٩٦٧
	٣٥٨	٩٦٩

الفاطميون

محمد بن طغج[٢] الإخشيد (٣٣٢ - ٣٣٤ هـ):

كان أبو بكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة. وكان كل من ملوكها يلقب بالإخشيد. كما يلقب ملك الفرس بكسرى. وملك الروم بقيصر. وملك الحبشة بالنجاشي.

سار جف جد الإخشيد إلى الخليفة المعتصم. فأكرمه، وأقام معه إلى أن توفي هذا الخليفة؛ فاتصل بابنه الواثق ثم بأخيه المتوكل. وظل على ذلك إلى أن توفي في نفس الليلة التي قتل فيها المتوكل.

---

(١) Lane - Poole, Muhammdan Dynasties,p.69.

(٢) وتفسير طغج ـ على ما ذكره ابن خلكان ـ عبد الرحمن.

ولما سار جف إلى بغداد بمن بقي من الطولونيين وأنصارهم، سار معه ابنه طغج، فثقل على الوزير العباس بن الحسن، لأنه ترفع عن النزول له والترجل، فأوقع به الوزير عند الخليفة وحبسه مع ابنيه محمد وعبيد الله.

وقد ظل طغج وابناه في الحبس إلى أن توفي سنة ٢٩٤ هـ على ما تقدم؛ فأطلق الوزير ابنيه، فلزما خدمته، وكانا يركبان معه إدا ركب ويقفان بين يديه إذا جلس، وظلا على ذلك إلى اليوم الذي ضرب فيه الحسين بن حمدان الوزير العباس بن الحسن بالسيف على عاتقه. ولم يكن ولدا طغج نسيا الأخذ بثأر أبيهما كما لم يكن ابن حمدان يجهل ما فعله الوزير بطغج. فلما سقط الوزير عن جواده صاح ابن حمدان بولدي طغج ليثأرا لقتل أبيهما، فضربا العباس بالسيف. وهرب ابن حمدان إلى ديار ربيعة، وهرب عبيد الله بن طغج إلى شيراز حيث دخل في خدمة أميرها.

أما طغج بن جف فقد زودنا ابن زولاق بشيء ذي غناء عن سيرته، فذكر لنا أنه ولد له سبعة أولاد من الذكور، أحدهم محمد الإخشيد الذي ولد في منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨ هـ بشارع باب الكوفة ببغداد، ووصفه بالثراء، وسعة العيش[١]. اتصل محمد بن طغج بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام، وقد ذكر ابن سعيد[٢] نقلا عن ابن زولاق أن عبيد الله بن طغج عاد إلى بغداد في أيام الخليفة المقتدر، واتصل بخدمته، وحاز من علو المرتبة ما جعله يفتخر على أخيه الإخشيد، فكان يخرج معه للصيد. ولما ولي ابن بسطام مصر صحبه الإخشيد إليها وبقي معه إلى أن توفي سنة ٢٩٧ هـ، فاتصل بخدمة ابنه أبي القاسم علي، ثم حارب تحت قيادة تكين[٣]، في الموقعة التي دارت بين الجند المصريين وجند حباسة بن يوسف الكناني قائد عبيد الله المهدي الفاطمي في بلاد المغرب. وفي هذه الموقعة أبلى الإخشيد بلاء حسناً، وتوثقت الصلة بينه وبين تكين، فكان يتنقل معه بين الشام ومصر. وقد ولي عمان وجبل الشراة شمالي العقبة سنة ٣٠٦ هـ نيابة عن تكين الذي كان يلي بلاد الشام إذ ذاك، ثم ولاه الإسكندرية في ولايته الثانية على مصر (٣٠٧ ـ ٣٠٩ هـ)، واشترك في غزوة الفاطميين الثانية على مصر بقيادة القائم بن المهدي وولي عهده.

---

(١) تتجلى في وصفه له روح المبالغة، من ذلك قوله إن خزانة طيبة حملت في إحدى سفراته على أكثر من خمسين جملاً، وإنه كان له بدمشق قبة مشبكة يطيب فيها، فتصل رائحة الطيب إلى أكثر جهات المدينة.

(٢) المغرب في حلى المغرب ص ٧.

(٣) ولي تكين مصر ثلاث مرات هي: ٢٩٧ ـ ٣٠٢، ٣٠٧ ـ ٣٠٩، ٣١١ ـ ٣٢١ هـ.

اشتهر أمر محمد بن طغج في الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ هـ، حين ولي إقليم طبرية وجبل الشراة نيابة عن تكين، وذلك على أثر بلائه وإيقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من أهل العراق، منهم جارية أم الخليفة المقتدر. وقد سار الإخشيد بالأسرى إلى دمشق، فحمد له تكين هذا العمل، وكتب أهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الإخشيد، فاشتهر أمره، وكتب إليه الناس يشكرون له فعله ويحمدون مروءته.

ولا غرو فقد كان من أثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ ـ ٣٢٤ هـ)، أن أمر الخليفة العباسي بزيادة «الإخشيد» على اسمه، وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك فرغانة، ودعي له بهذا اللقب على منابر مصر والشام في شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ[١].

وقد أعاد الإخشيد النظام والسكينة، ووطد مركزه في مصر والشام، وصد غزوات الفاطميين الذين أرسلوا إلى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٢٣١ ـ ٣٢٤ هـ) حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين، وانتهت بمعاهدة الصلح.

ويخبرنا الكندي[٢] أنه حدثت في عهد ولاية الإخشيد الثانية (رمضان سنة ٣٢٣ ـ جمادى الثانية سنة ٣٢٤) عدة مواقع انتهت بعقد الصلح بين الفريقين، وانضمام بعض الزعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذي دخل الإسكندرية، فأرسل إليهم الإخشيد جيشاً هزمهم وأرغمهم على العودة إلى بلادهم.

وكتب القائم الفاطمي إلى الإخشيد بيده كتاباً دونه ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب»[٣]. وإنما فعل القائم ذلك رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداوة والحرب التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل.

وقد سادت صلة الوفاق بين الإخشيد والخلافة العباسية إلى سنة ٣٢٨ هـ، حين تبدلت هذه الصلة بمسير محمد بن رائق الخزري إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة، مما حدا

---

(١) كتاب الولاة ص ٢٨٨.

(٢) كتاب الولاة ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥، ٢٨٧.

(٣) ص ٣٥ ـ ٣٦. أنظر أيضاً «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف (القاهرة ١٩٥٨) ص ٨٣ ـ ٨٤.

بالإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسي وذكر اسم الخليفة الفاطمي محل اسمه في الخطبة، أو على الأقل إلى وقف الدعوة للخليفة العباسي ردحاً من الزمن.

وفي هذه السنة وقعت الحرب في العريش بين الإخشيد وابن رائق، الذي استولى على دمشق من قبل، فمضى ابن رائق منهزماً إلى الرملة. وعلى الرغم من قتل عبيد الله بن طغج أخي الإخشيد، عقد الصلح على ما يحب ابن رائق، فتقلد ولاية الأراضي الشآمية الواقعة شمالي الرملة؛ وتعهد الإخشيد بأن يدفع إليه ١٤٠,٠٠٠ دينار جزية سنوية، مما حدا ببعض المؤرخين إلى أن يعد عقد الإخشيد الصلح على هذه الصورة مع انتصاره على خصمه دليلاً على ضعف سياسته.

على أننا نرى في عمله هذا ما يبرره نظراً للأحوال التي كانت تربط به، لأنه كان يخشى أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه، على الرغم من انتصاره في هذه المرة، ولأنه كان يخشى خصماً آخر يهدده من ناحية مصر الغربية، وهو الخليفة الفاطمي.

بيد أن وفاة ابن رائق بعد الصلح سنتين أعادت إلى حوزة الإخشيد كل بلاد الشام من غير حرب، ودخلت مكة والمدينة تحت سيادة مصر، وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور.

غير أن الأمر لم يكن قد استتب للإخشيد بعد، لخروج العلويين عليه في مصر؛ ومناوأة الحمدانيين الذين استولوا على قنسرين والعواصم سنة ٣٣٢ هـ؛ فولاها ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان[١]. ثم سار الإخشيد إلى الشام، فانتهز ابن السراج العلوي[٢] هذه الفرصة وسار إلى الصعيد ونهب بعض بلاده. ولكن قوته لم تكن بالتي تديل دولاً وتقيم أخرى؛ فسرعان ما سار إلى برقة ودخل في سلطان الخليفة[٣].

وقد ساءت العلاقة بين الإخشيدين وسيف الدولة الحمداني على أثر استيلائه على حلب. واضطر الإخشيد إلى عقد الصلح الذي يقضي بترك حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً للحمدانيين، وتعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق.

---

(١) أبو المحاسن ج ٣ ص ٢٨٠.

(٢) هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن موسى بن علي بن أبي طالب.

(٣) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٩١.

وصاية كافور على أولاد الإخشيد:

ولما شعر الإخشيد بدنو أجله، عهد إلى كافور بالوصاية على ولده أبي القاسم أنوجور. وقد مات الإخشيد بدمشق في ٢٤ ذي القعدة سنة ٣٣٩ هـ (يولية سنة ٩٤٦ م)، وهو في السادسة والستين من عمره، ونقل إلى بيت المقدس، ودفن بها بعد أن ولي مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين. فخلفه ابناه أبو القاسم أنوجور ثم أبو الحسن علي ولا نستطيع الحكم عليها، إذ لم تترك لهما الفرصة الكافية لإظهار كفايتهما حتى ماتا في غموض تام لم يشعر بولايتهما أحد. وكان أنوجور في ذلك الحين لا يزال طفلاً لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره، فقام بتدبير أمره كافور الإخشيد، الذي بقيت علاقته بهذا الوالي الجديد على ما كانت عليه من قبل، وهي علاقة الأستاذ بالتلميذ؛ وأصبح كافور بذلك صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيدية[١]، «وبقي الاسم لأبي القاسم والدست[٢] لكافور»[٣].

وقام في وجه كافور في مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية: فنجح في القضاء على ثورة قام بها أهل مصر، فارتفع شأنه عند الناس على اختلافهم[٤]. وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور في الشام واستيلاء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب على دمشق وبأنه عول على المسير إلى الرملة لغزو مصر، فحاربه كافور وانتصر عليه انتصاراً حاسماً بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق، ودخل الجيش المصري مدينة حلب، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح، بنفس الشروط التي عقدت بها في أواخر أيام الإخشيدي، ما عدا الجزية التي وقف دفعها.

وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية حتى مدينتي حلب وطرسوس. وبذلك عظم شأنه وزادت شهرته، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن تكون له سلطة شرعية. وخاطبه علية القوم بالأستاذ، وذكر اسمه في

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٤. ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص ١٤٥ تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٩٣.

(٢) معناه الديوان ومجلس الوزراء والرياسة. راجع كتاب شفاء الغليل.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢.

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢.

الخطبة، ودعي له على المنابر في مصر والبلاد التابعة لها، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين[١].

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ظهرت الوحشة بينه وبين كافور. وانقسم الجند فريقين: الإخشيدية، وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها. والكافورية وهم أنصار كافور الذين رقاهم إلى المناصب العالية في الدولة. ومع ذلك ظل كافور على ما هو عليه يصرف لابن سيده راتباً سنوياً قدره أربعمائة ألف دينار.

ولا شك أن كافوراً كان مشغوفاً بالإمارة ولوعاً بالسلطة، فإنه لما تولى أبو الحسن علي بن الإخشيد بعد أخيه أنوجور، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه، على الرغم من أن الوالي الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره، بل إنه حرمه كل عمل، ومنع الناس من الاجتماع به، فأصبح أبو الحسن أسيراً في قصره لا عمل له إلا الصلاة أو اللهو، وعين له كافور ـ كما عين لأخيه من قبل ـ أربعمائة ألف دينار في كل سنة، وبقي أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ بالعلة التي مات بها أخوه من قبل.

وكان الوارث للعرش ولداً صغيراً يدعى أحمد بن أبي الحسن علي، فحال كافور دون تعيينه بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه؛ وبقيت مصر بغير أمير نحواً من شهر. وفي المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده على ولاية مصر، وأظهر الخلع التي وصلت إليه من الخليفة، فنودي به والياً على مصر وما يليها من البلاد، فلم يتغير لقبه «الأستاذ»، ودعي له بعد الخليفة على المنابر[٢].

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر ٣٥٥ هـ ـ ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ). ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود، توالت فيه المصائب على مصر، فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تتألف من عشرين ألف رجل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج (سنة ٣٥٥ هـ)، ووقعت بمصر زلازل مروعة، وشبت نيران هائلة دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة، وعاث فساداً في البلاد الواقعة بين الشلال

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٤٧.
(٢) المغرب في حلى المغرب ص ٤٦، ٤٩، نقلاً عن أبي عبد الله محمد بن سعد القرطي.

الأول وأخميم، فأحرق بعض المدن وقتل أهليها بالسيف ونهب أموالهم. وكان أشد هذه الأهوال انخفاض ماء النيل.

وفي عهد كافور حاول المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العودة لغزو مصر، وسار بجيشه إلى حدود هذه البلاد الغربية، ووصل إلى الواحات. فجهز إليه كافور جيشا لوقف تيار تقدمه وطرده. ولكنه تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته والاعتراف بسيادته، ووعد كثير من رجال بلاطه وكبار موظفي دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي.

روى أبو المحاسن[1] عن الذهبي: «وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله ندماء. وكان عظيم الحرمة، وله حجاب، وله جوارٍ مغنيات، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف. زاد ملكه على مولاه الإخشيد. وكان كثير الخلع والهبات، خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً، جيد العقل داهية. كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخادع هؤلاء وهؤلاء، وتم له الأمر».

وقد نبغ بمصر في عهد كافور الإخشيد كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين، ومن أشهرهم القاضي أبو بكر بن الحداد، وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصري، وأبو عمر الكندي، والحسن بن زولاق.

توفي كافور بمصر في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ. وعاش بضعاً وستين سنة، وكانت إمارته على مصر ثلاثاً وعشرين سنة، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور. خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور، مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به، وكتب على قبره:

ما لقبرك يا كافورُ منفرداً	بالصَّحْصَح المَرْتِ بعد العسكر اللجب
يدرس قبرك آحاد الرجال وقد	كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

ولما توفي كافور، اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد والياً على هذه البلاد؛ وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج ـ

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦.

والي الشام ـ وصياً عليه. غير أنه لم يلبث أن استبد بالأمر وأساء معاملة الأهلين، فسخط عليه المصريون، واضطر أخيراً إلى العودة إلى بلاد الشام. وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمي فرصة هذا الاضطراب الذي فشا في مصر، وضعف بغداد عن الدفاع عنها، لاشتغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا في بلاد الدولة العباسية، فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ.

الدولة الفاطمية

(في بلاد المغرب ومصر)

٢٩٧ - ٥٦٧/٩٠٩ - ١١٧١

الخلفاء الفاطميون[١]

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ المهدي أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩	٨ المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٢ القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤	٩ المستعلي أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
٣ المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥	١٠ الآمر أبو علي المنصور	٤٩٥	١١٠١
٤ المعز أبو تميم معد	٣٤١	٩٥٢	١١ الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
٥ العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥	١٢ الظافر أبو المنصور إسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
٦ الحاكم أبو علي المنصور	٣٨٦	٩٩٦	١٣ الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
٧ الظاهر أبو الحسن علي	٤١١	١٠٣٠	١٤ العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
				٥٦٧	١١٧١

(الأيوبيون)

(١) Lane - Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 11 - 12.

جدول الخلفاء الفاطميين



عبيد الله المهدي (٢٩٦ ـ ٣٢٢ هـ):

ذهب المؤرخون في نسب الفاطميين مذاهب شتى: فبعضهم يقول إنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم سموا الإسماعيلية أيضاً؛ وبعضهم ينكر صحة نسبهم إلى إسماعيل، ويقول إنهم يرجعون في نسبهم إلى رجل فارسي هو عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي، الثنوي المذهب، الذي يقول بوجود إلهين إثنين: إله النور وإله الظلمة.

ولد سعيد بن محمد الحبيب في سنة ٢٥٩ هـ (وقيل سنة ٢٦٠)[١] في سلمية، التي اتخذها الإسماعيلية مركزاً لدعوتهم. وكان أبوه قد أرسل في سنة ٢٧٠ هـ أحد أشياعه، ويسمى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي، إلى بلاد اليمن، لنشر الدعوة للفاطميين فيها. وسرعان ما اعتقد أهالي اليمن في المهدي من آل علي وانتظروا ظهوره، بفضل جهود ابن حوشب الذي ابتنى حصناً بجبل لاعة باليمن، وتغلب على معظم أرجائها. وبعث دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب. ولما اتصل بابن حوشب موت الحلواني وأبي سفيان داعي الإسماعيلية في بلاد المغرب، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي، وكان من صنعاء، بنشر الدعوة في هذه البلاد. ولما استقر بأبي عبد الله الشيعي المقام وصادفت دعوته شيئاً كثيراً من النجاح، أرسل إلى سلمية يدعو عبيد الله المهدي للحضور إلى إفريقية[٢]؛ فرحب بهذه الدعوة. ولكن الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) علم ذلك، فأمر بالقبض عليه.

من ذلك نقف على مدى الصعاب التي لقيها عبيد الله المهدي في طريقه إلى المغرب، وكيف أفلت من القبض عليه في مصر حيث ظهر في زي التجار، وكيف استغل الأموال الكثيرة التي حملها معه من سلمية في رشوة بعض الولاة في طريقه إلى المغرب ليأمن الوقوع في أيديهم، وكيف أفلت من أيدي عمال زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية الذي وضع الأرصاد والعيون للقبض عليه. ولكن اليسع بن مدرار أمين سجلماسة، بسرعان ما قبض على عبيد الله المهدي وحبسه[٣]. ثم أخذ أبو عبد الله يواصل فتوحه، على الرغم من

---

(١) قال ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٧٢) وكانت ولادته في سنة ٢٥٩ هـ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ بمدينة سلمية، قيل بالكوفة، ودعى له بالخلافة على منابر مدينة وقادة في شهر ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ.

(٢) غريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٥٢. هـ.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣ ـ ١٤.

وقوع المهدي في يد اليسع، ويمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب، واستطاع أخيراً أن يدخل رقادة (رجب ٢٩٦ هـ) التي اتخذها إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) مقراً لإمارته، ويستقر في دار الإمارة، ويزيل نفوذ الأغالبة، ويبطل اسم الخليفة العباسي من الخطبة(١).

ظل عبيد الله المهدي في حبسه بسجلماسة حتى تمَّ لداعي الشيعة الفتح والنصر، فسار في قوة كبيرة إلى هذه المدينة. ولما سمع اليسع بن مدرار بوصول أبي عبد الله الشيعي إليها، هرب ليلاً، وحمل معه أقاربه وأمتعته، وأطلق داعي الشيعة عبيد الله المهدي من سجنه (٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ).

قرب المهدي من القيروان، حيث سلم عليه أهلها بالخلافة، وبايعوه على الطاعة، وذكر اسمه في الخطبة، وتلقب «المهدي أمير المؤمنين». ولم يلبث أن قسم على رؤساء كتامة الذين ساعدوا على إقامة دولته، أعمال هذه الدولة، ثم دوَّن الدواوين، وجبى الأموال، واستقرت قدمه في هذه البلاد.

ولم يكتف عبيد الله المهدي بما أحرزته جيوشه من نصر وظفر وما استولت عليه من بلاد، بل عمل على مد سلطانه إلى مصر، وعلى أثر تأسيس دولته في القيروان، وضع الخطط لتحقيق سياسته، وأعد في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جيشاً من المغاربة تحت قيادة ولي عهده أبي القاسم، وحُباسة بن يوسف، أحد زعماء كتامة، واستولى هذا الجيش على برقة، ثم واصل السير حتى استولى على الإسكندرية وسار إلى الوجه البحري.

ولكن الخليفة المقتدر العباسي بعث مؤنساً الخادم(٢) على رأس جيش كبير، قيل إنه بلغ أربعين ألفاً، أحل الهزيمة بالجيش الفاطمي وأرغمه على العودة إلى المغرب(٣). وفي سنة ٣٠٧ هـ سار إلى مصر جيش آخر بقيادة أبي القاسم بن المهدي واستولى على الإسكندرية فأرسل الخليفة العباسي مؤنساً الخادم فألحق الهزيمة بالفاطميين، وأحرق كثيراً من مراكبهم، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم (سنة ٣٠٩)(٤). ويقول الكندي(٥) عن

(١) حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣ - ٥٦.
(٢) مسكويه: تجارب الأمم ح ١ ص ٣٦.
(٣) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٦٨ - ٢٧٣. المقريزي. إتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء ص ٤١.
(٤) عريب بن سعد. صلة تاريخ الطبري ص ٨٣ - ٨٦. الكندي. كتاب الولاة ص ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٥) كتاب الولاة ص ٢٨١ - ٢٨٧.

الحملة الفاطمية الثالثة على مصر، إنها ظلت ثلاث سنين (٣٢١ - ٣٢٤ هـ)، وإن معاهدة الصلح أبرمت بين الفريقين في سنة ٣٢٣ هـ، ولكن هذا الصلح لم يطل أمده. فقد انضم بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذي دخل الإسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٢٤ هـ، فبعث إليهم الإخشيد جيشاً أحل بهم الهزيمة وأرغمهم على العودة إلى بلادهم[١].

أقام عبيد الله المهدي بالقيروان التي اتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٤ هـ، حيث اختطَّ مدينة المهدية على بعد مرحلتين جنوبي القيروان. وقد ظلت هذه المدينة آهلة بالسكان إلى سنة ٥٤٣ هـ. حين أرسل روجر النرمندي صاحب صقلية أحد قواده فاستولى عليها، وبقيت في أيدي الفرنجة إلى أن استولى عليها عبد المؤمن في سنة ٥٥٥ هـ. ومات عبيد الله المهدي في سنة ٣٢٢ هـ.

القائم والمنصور (٣٢٢ - ٣٤١ هـ):

ولي أبو القاسم الخلافة بعد أبيه عبيد الله المهدي، وتلقب القائم. وكان كغيره من الخلفاء الفاطميين، ينقم على السنيين، حتى إنه أمر بلعن الصحابة، وقد أثار ذلك غضب المغاربة وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين، وكان أشد هذه الثورات خطراً وأشدها بلاء، تلك الثورة التي أشعل نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد، والتي استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد إلا في عهد ابنه المنصور.

توفي القائم في شهر رمضان سنة ٣٣٤ هـ، وخلفه ابنه أبو الظاهر إسماعيل الذي تلقب المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ وقد ولد بالقيروان سنة ٣٠٢ هـ وقيل ٣٠١ هـ)، وكان حين ولي الخلافة في الثانية والعشرين من عمره. وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش، كما استطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب[٢].

وقد أخفى المنصور موت أبيه حتى لا يؤثر ذلك في حماسة جيوشه التي كانت مشغولة بثورة أبي يزيد، وانقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهد هذا الخليفة، لأنه

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٨. ابن خلدون. العبر جـ ٤ ص ٣٩.
(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٧.

قصر كل همه وأنفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التي شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية.

ولما ولي المنصور الخلافة قويت جيوشه بانضمام صنهاجة وغيرها إليه، واستطاع أن يهزم جيوش أبي يزيد، وطارده إلى الصحراء، وقبض عليه، وسيق إلى المهدية حيث مات متأثراً من جراحه (المحرم ٣٣٦ هـ)[١].

وقد قضى المنصور البقية الباقية من خلافته في إعادة تنظيم بلاده، فأنشأ أسطولاً كبيراً، وأسس مدينة المنصورية (٣٣٧ هـ) على مقربة من القيروان، واتخذها حاضرة لدولته، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين، إلى أن قدم ابنه المعز لدين الله مصر في سنة ٣٦٢ هـ، واتخذ القاهرة التي بناها جوهر (٣٥٨ هـ) حاضرة لدولته.

ويرجع الفضل فيما أحرزه المنصور من نصر على أبي يزيد إلى شجاعته وإقدامه، وإلى فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب. وقد حكم سبع سنين وستة أيام، ومات في يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ هـ، ودفن بالمهدية. وقد قيل في سبب موته إنه خرج من المنصورية حاضرة ملكه للتنزه، فاشتد هطول المطر وهبوب الريح، حتى فاجأه المرض وأوهن جسمه ومات أكثر من كان معه. ولما دخل المنصورية أراد أن يدخل الحمام، فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، فاشتد عليه المرض ولازمه الأرق. فأعطاه منوماً فمات[٢].

المعز لدين الله: (٣٤١ - ٣٦٥ هـ):

كان المعز مثقفاً يجيد عدة لغات: منها اللغة التليانية التي تعلمها في صباه بجزيرة صقلية، واللغة الصقلية التي كانت منتشرة في هذه الجزيرة، كما عرف اللغة السودانية. وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب[٣]، فضلاً عما عرف به حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل.

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٠ - ١٥٨، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٤٥ - ٥٥ و٥٩، وابن عذارى. البيان المغرب في أخبار المغرب. ج ٢ ص ٢٢٤ - ٣٢٦، وابن أبي دينار: المونس في أخبار إفريقية وتونس ص ٥٩ - ٦١، حسن إبراهيم حسن. تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٢.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧.

(٣) المقريزي. اتعاظ الحنفا ص ٦١، ٦٥.

وفي عهده دانت له قبائل البربر كافة، ولا سيما قبيلتا بني كملان وبني مليلة من قبائل هوارة، وقد ابتا أن تذعنا للخلفاء الفاطميين من قبله. ويرجع الفضل في امتداد نفوذه على كافة بلاد المغرب إلى جوهر الصقلي وزيري بن مناد الصنهاجي. وقد بعث هذا الخليفة جوهراً على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة لفتح ما بقي من بلاد المغرب. فوصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وأرسل إلى مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط إشعاراً ببلوغ نفوذه أقصى بلاد المغرب غرباً.

ولما دانت بلاد المغرب للمعز فكر في فتح مصر. ولا غرو فقد حاول الفاطميون فتح هذه البلاد من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها، وأهمية موقعها الجغرافي من الناحيتين السياسية والحربية، وقربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز، التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين. ذلك إلى أن نجاح الفاطميين في فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة، وهي المدينة المنورة، ودمشق، وبغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين.

ومن العوامل التي شجعت المعز على فتح مصر، استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبي يزيد، وانتشار الاضطرابات والفوضى في مصر إثر وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ، وضعف الخلافة العباسية واشتغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها. أضف إلى ذلك تأييد الشيعيين في مصر للدعوة الفاطمية، حتى إنهم كتبوا إلى المعز يطلبون إليه إرسال جيش لفتح هذه البلاد. وكان ليعقوب بن كلس الذي استوزره كافور ثم هرب إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز، أثر كبير في بيان حالة الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور؛ وحث الخليفة على المبادرة بإرسال جيوشه إليها.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ، سار جوهر نحو مصر(١)، ومر على برقة، ثم استأنف المسير إلى الإسكندرية، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة، ومنع جنده من التعرض للأهلين، واستطاع أن يكبح جماح عساكره الذين وسعت لهم الأرزاق(٢).

ولما اتصل بأهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية واستيلائهم عليها، ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر في الصلح. فأجابه جوهر إلى ما طلب

---

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ١٤٨.

(٢) يحيى بن سعيد: صلة تاريخ أوتيخا ص ١٣٢.

وكتب له عهداً تعهد فيه بأن يطلق للمصريين حرية العقيدة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة في النفوس بحماية مصر من عدوان المغيرين عليها[١].

ولما اتصل بالخليفة المعز نبأ فتح مصر، سر سروراً عظيماً، وأنشده شاعره محمد بن هانىء الأندلسي قصيدة طويلة جاء في مطلعها:

تقول بنو العباسِ هَل فُتِحَتْ مصرُ ... فقلْ لبني العباس قد قضي الأمْر[٢]

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية، وتحقق حلم الخليفة المعز ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين، في تحويل حاضرة خلافتهم إلى مصر واتخاذها مركز إمبراطوريتهم الشاسعة الأرجاء[٣].

وجه جوهر همه لمد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة لمصر منذ أيام الطولونيين. لذلك عهد إلى جعفر بن فلاح أحد قواد المغاربة من قبيلة كتامة بهذا الفتح، لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة، ولأن جوهراً أراد بذلك أن يبعده عن مصر حتى لا ينافسه في حكمها. ولما وصل جعفر إلى الرملة، لقيه جيش الحسن بن عبيد الله بن طغج والي الرملة ودمشق، ودارت الدائرة على الحسن، وأسر مع كثير من جنده. وسيق إلى الفسطاط، ثم أرسل إلى بلاد المغرب، فبقي بها إلى أن مات في سنة ٣٧١ هـ.

استأنف جعفر السير إلى طبرية واستولى عليها من يد واليها فاتك الذي كان يليها من قبل الإخشيديين، دون أن يلقى مقاومة تذكر. ثم دخل دمشق، وأشعل النار في أسواقها وأذكى الفتنة بين أهلها الذين لعنوا الفاطميين على المنابر، ولكنهم لم يجدوا بدًّا من طلب الأمان من جعفر الذي خطب للخليفة المعز الفاطمي على منابر دمشق في المحرم سنة ٣٥٩ هـ.

وقد أثار جعفر نفوس أهل الشام فلم يخلصوا له، واستمروا يدبرون الفتن والمؤامرات للخلاص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني، واستنجدوا بالقرامطة والأتراك الذين تفاقم خطرهم في عهد المعز، ولم يتم القضاء عليهم إلا في عهد ابنه العزيز.

(١) راجع هذا العهد في المقريزي. اتعاظ الحنفا ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٢) ديوان ابن هانىء ص ٨٦.
(٣) راجع حسن إبراهيم حسن. تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

وبعد أن فرغ جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر وإقامة الدعوة الفاطمية في فلسطين والشام والحجاز؛ بعث إلى مولاه المعز رسولاً ينبئه بذلك، فسر سروراً عظيماً، وخرج من المنصورية حاضرة خلافته، فوصل إلى سردانية التي دانت هي وصقلية لسيادة الفاطميين، واستخلف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية، «وتوجه إلى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار»[1]، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله.

دخل المعز الإسكندرية في ٤ من شعبان ٣٦٢ هـ (٣٠ مايو ٩٧٣ م)، ثم دخل القاهرة في ٧ من رمضان ٣٦٢ هـ (١١ يونية ٩٧٣ م)، ودخل القصر الذي بناه له جوهر وخر ساجداً لله تعالى، وصلى ركعتين في إحدى ردهاته وصلى خلفه من كان معه.

وأقام أولاد المعز وحاشيته وخدمه وعبيده معه في القصر، وكان جوهر قد أعد به كل ما يحتاج إليه الملوك، ونزل جوهر بقصر الوزارة في القاهرة[2].

وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وغدت القاهرة، بدل المنصورية، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء.

على أن نقل المعز مقر خلافته من المنصورية إلى القاهرة أفقد الفاطميين إفريقية (تونس)؛ فاستقل بلكين بن زيري بن مناد شيخ صنهاجة، وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢ هـ، وحذا حذوه الحماديون في سنة ٣٩٨ هـ وتقلص ظل الحكم الفاطمي عن كل بلاد المغرب في عهد المستنصر الفاطمي.

وقد نسلم المعز مقاليد الحكم من جوهر الذي حكم مصر أربع سنين؛ ثم أخذ يتوارى عن مسرح السياسة المصرية، ولم يعد إلى الظهور إلا في أواخر سنة ٣٦٤ هـ حين تفاقم خطر الأتراك بزعامة أفتكين، وخطر القرامطة بزعامة الحسن بن أحمد، واستعصى على المعز كبح جماحهما، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه.

قضى المعز الشطر الأكبر من خلافته في بلاد المغرب، ولم يبق في مصر أكثر من

---

(١) ابن خلكان: جـ ٢ ص ١٠٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣.

سنتين إلا قليلاً. وقد توفي المعز في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة.

العزيز بالله: (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ):

يعتبر عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي عهد يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة، ولا غرو فهو أول من حول الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن بعد أن كان معهداً خاصاً بدراسة الفقه الشيعي وإقامة الصلاة.

ولد أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله في يوم الخميس ١٤ المحرم سنة ٣٤٤ هـ بمدينة المهدية التي بناها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية، وقدم القاهرة مع أبيه المعز في سنة ٣٦٢ هـ، وخلفه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ وهو في الثانية والعشرين من عمره.

وقد ترامت رقعة الدولة الفاطمية في عهد العزيز من بلاد العرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً. وزادت مملكته ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ١٥٣) ـ على مملكة أبيه، وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب أبوابها، وخطب له المقلد بن المسيب العقيلي صاحب الموصل بالموصل وأعمالها في سنة ٣٨٢ هـ، وضرب اسمه على السكة والبنود وخطب له باليمن.

وفي أيام العزيز تفاقم خطر القرامطة وأفتكين ببلاد الشام، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المعز من قبل. ولم يكد العزيز يوطد سلطته في مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين، وكانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين؛ فوجه جوهر الصقلي. ولكنه لم يستطع استردادهما، وعاد إلى مصر، وأشار على العزيز بحرب أفتكين والقرامطة بنفسه، فالتقى العزيز بجيوشهما في الرملة، ودارت الدائرة أخيراً على القرامطة وأفتكين (المحرم سنة ٣٦٨ هـ). وبذلك قضى الخليفة الفاطمي على هذه الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية، وفر أفتكين على فرس له فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل الخليفة الفاطمي لمن يأتي به مائة ألف دينار، ولكن العزيز عفا عنه وأغدق عليه.

وقد وجه الفاطميون في عهد العزيز اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي؛ وأصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعيين؛ أو بعبارة أخرى في أيدي المغاربة أنصار

الفاطميين، وعزل أبو الطاهر القاضي السني وعين مكانه عبد العزيز بن النعمان القاضي المغربي الفاطمي المذهب. وقلد العزيز يعقوب بن كلس الوزارة (رمضان سنة ٣٦٨ هـ) فأدار شئون الدولة الفاطمية بمهارة وحمية.

وقد بنى الخليفة العزيز كثيراً من المنشآت التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده منها القصر الغربي، واهتم ببناء المساجد، فأسس في سنة ٣٨٠ هـ مسجداً أتمه ابنه الحاكم فنسب إليه، وأسس قاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك، وبنت الملكة تغريد زوجة المعز في عهده مسجد القرافة وقصر القرافة.

وفي عهد العزيز نبغ طائفة من الشعراء والكتّاب والأطباء والمؤرخين: ومن الشعراء أبو حامد الأنطاكي الذي أقام بمصر زمناً طويلاً، ونظم معظم قصائده في مدح المعز والعزيز والحاكم، وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس. ونبغ في الطب علي بن رضوان الذي ألف عدة كتب في الطب والفلسفة والمنطق، ونبغ في التاريخ الحسن بن إبراهيم بن زولاق الذي يعتبر حجة في تاريخ العصر الفاطمي الأول، وأبو الحسن علي الشابشتي الذي ولاه العزيز خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه.

وكان العزيز رجلاً ممتعاً يميل إلى الأبهة. كما كان خبيراً بالجواهر ابتدع نوعاً جديداً من العمائم محلاة بخيوط الذهب، وسروجاً معطرة بالعنبر، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده، وشغف ـ كخمارويه بن أحمد بن طولون ـ بجوارح الطير الغريبة، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان. وكان مغرماً بالصيد، وخاصة السباع[١] وكان ذكياً أديباً مستنيراً، يجيد عدة لغات كأبيه المعز.

وكان العزيز فوق ذلك كريماً محباً للعفو، وصنيعه مع أفتكين التركي خير مثل لذلك واشتهر العزيز بالتسامح الديني، فكان يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه من قبله. وتزوج بنصرانية. وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية، وقلد عيسى بن نسطورس النصراني الوزارة، كما عين منشأ بن إبراهيم اليهودي بلاد الشام[٢].

ومات العزيز ببلبيس سنة ٣٨٦ هـ. وهو في الرابعة والأربعين من عمره[٣].

---

(١) ابن خلكان حـ ٢ ص ١٥٢.

(٢) أبو صالح الأرمني، كنائس وأديرة مصر ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) ذكر ابن القلانسي (ص ٤٢) أنه ولد في القيروان سنة ٥٤١ هـ، وأن مدة خلافته إحدى وعشرون سنة، وهو خطأ واضح.

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ):

ولد أبو علي المنصور في شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ، وعهد إليه أبوه بالخلافة من بعده في سنة ٣٨٣ هـ، ثم بويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبوه، وذلك في رمضان ٣٨٦ هـ، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة، وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم. ويمكن تقسيم عهد الحاكم أربعة أقسام:

الأول من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٣٩٠؛ وكان الحاكم في هذه المدة لا يملك من أمور السلطان شيئاً، إذ كانت كل السلطة في يد ابن عمار ثم في يد برجوان.

الثاني من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٣٩٥ هـ، وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة أظهر فيها تعصباً شديداً للمذهب الفاطمي؛ وبذلك اضطهد أهل الذمة من ناحية والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية أخرى[1].

الثالث من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٤٠١ هـ. وفي هذه الفترة بدل الحاكم سياسة التعصب مدفوعاً بعاملين هما تحديد حدود مصر من ناحية الغرب، حتى أغار عليها أبو ركوة، الذي ادعى النسب للأمويين في الأندلس، بجيش كبير من المغاربة، وأعلن أنه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين. وقد لاقى الحاكم صعوبة كبيرة في القضاء على أبي ركوة، حتى أسر وصلب على أحد أبواب القاهرة. أما العامل الثاني فهو ما قامت به مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ - ٤٠١ هـ)[2].

الرابع من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤١١ هـ. وفيها كانت سياسة الحاكم تمتاز مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم بعنف كثير كما كانت تمتاز بشيء من التذبذب والاضطراب[3].

على أن سياسة الحاكم هذه، وإن كانت قد أثارت سخط المصريين عامة، ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة، وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده. وفي عهده ظهرت طائفة الدرزية التي دعت إلى الاعتقاد بألوهيته، مما أثار بينه وبين السنيين ذلك النزاع الذي انتهى بقتله في سنة ٤١١ هـ.

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٥٦، ٥٩ - ٦٠.

(٢) المقريزي. خطط ج ١ ص ٢٨٧.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان ص ١٢٦.

وقد أنشيء في عهد الحاكم دار الحكمة التي كان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم، حوت كثيراً من أمهات الكتب مما ألف في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية.

الظاهر والمستنصر (٤١١ ـ ٤٨٧ هـ):

ولد أبو الحسن الظاهر في شهر رمضان سنة ٣٩٥ هـ، وولي الخلافة بعد قتل أبيه بأيام (شوال ٤١١ هـ)، وقد قامت عمته ست الملك بالوصاية عليه في الفترة الأولى من حكمه، فأظهرت كفاية ممتازة في إدارة شئون البلاد، وبذلت العطاء للجند، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت في سنة ٤١٥ هـ.

وكان الظاهر سمحاً، عاقلاً، لين العريكة استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فتمتعوا في عهده بالحرية الدينية. كما وجه عنايته إلى ترقية شئون البلاد وتحسين حالة الزراعة[١].

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة، فقد مرض بالاستسقاء، وتوفي في منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ. ولما علم وزيره الجرجرائي بذلك، أخذ البيعة لابنه أبي تميم الذي تلقب المستنصر.

ولد أبو تميم محمد بن الظاهر في شهر جمادى الآخر سنة ٤٢٠ هـ، وبويع له بالخلافة في يوم وفاة أبيه، وكان في السابعة من عمره، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. وكان أطول الخلفاء عهداً، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة. ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى تزعزع مركز الخلافة الفاطمية.

وقد امتد سلطان الفاطميين في القسم الأول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي إفريقية. وكان اسمه يذاع على جميع منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، وكذا في صقلية واليمن والحجاز والموصل، بل في بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة. ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين؛ فقد أعلن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي استقلاله

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٥٢.

وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢ هـ، وحذا حذوه الحماديون في سنة ٣٩٨ هـ، ولم تأت سنة ٤٤٣ هـ حتى تقلص الحكم الفاطمي من بلاد المغرب. وفي سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى، واستولى روجر النرمندي على صقلية التي كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم في سنة ٤٦٢ هـ.

وعلى الرغم من المنازعات التي قامت في أوائل عهد الخليفة المستنصر بين التستري والفلاحي، وتدخل أم الخليفة في إدارة شئون الدولة، تمتعت مصر بشيء من الطمأنينة والرخاء. فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمي وأبهته، وما كانت عليه القاهرة في ذلك الوقت من يسر ورخاء[١].

غير أن هذا الرخاء الذي كانت تتمتع به مصر في ذلك الحين لم يدم طويلاً، فقد انتشر الوباء والقحط في مصر، وانقطع ماء النيل، فأهملت الزراعة، وانتشرت المجاعة، وعمَّ الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته هذه البلاد في العصور الوسطى، وامتد ثماني سنين (٤٤٦ - ٤٥٤ هـ). ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند، ودونت عنه قصص مروعة.

ويحسن بنا ألا نطيل الكلام على عهد المستنصر الفاطمي الذي حكم الدولة الفاطمية أكثر من ستين سنة كما تقدم، ولا سيما بعد أن تقلد بدر الجمال الوزارة، وحكم البلاد حكماً مطلقاً منذ سنة ٤٤٦. لأن هذا يخرج بنا عن نطاق هذا الجزء الذي خصصناه لدراسة العالم الإسلامي من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٤٤٧ هـ، أي قبل تقلد بدر الوزارة بنحو عشرين سنة، وقبل وفاة المستنصر بأربعين سنة (شوال ٤٨٧ هـ). لذلك رأينا أن نرجىء الكلام على القسم الثاني من عهد المستنصر إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

---

(١) Safar N'ameh, p. 127 et Seq.

دولة الأغالبة[1]

(في تونس وغيرها)

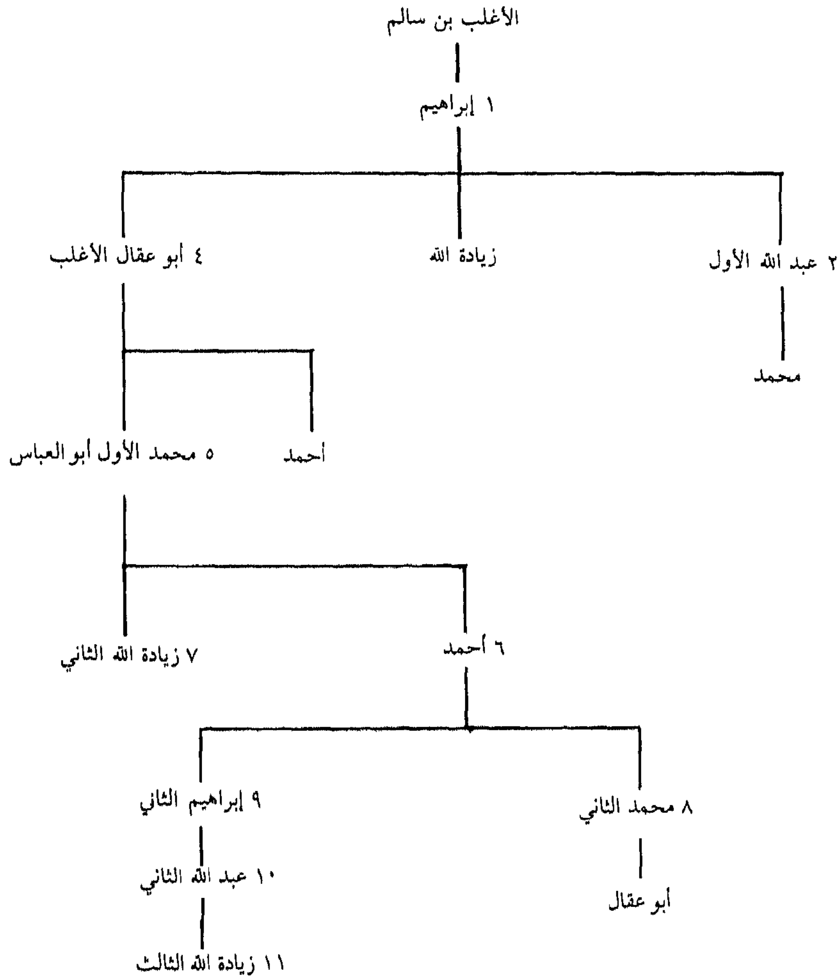
١٨٤ - ٢٩٦/٨٠٠ - ٩٠٩

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ إبراهيم الأول	١٨٤	٨٠٠	٧ زيادة الله الثاني	٢٤٩	٨٦٣
٢ عبد الله الأول	١٩٦	٨١١	٨ محمد الثاني	٢٥٠	٨٦٤
٣ زيادة الله الأول	٢٠١	٨١٦	٩ إبراهيم الثاني	٢٦١	٨٧٤
٤ أبو عقال الأغلب	٢٢٣	٨٣٧	١٠ عبد الله الثاني	٢٨٩	٩٠٢
٥ محمد الأول أبو العباس	٢٢٦	٨٤٠	١١ زيادة الله الثالث	٢٩٠	٩٠٣
٦ أحمد	٢٤٢	٨٥٦		٢٩٦	٩٠٩

(الفاطميون)

(١) Lane - Poole: Mohamman Dynasties, pp.37 - 38.

جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة



أبو الغرانيق محمد الثاني (٢٥٠ ـ ٢٦١ هـ):

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب[1] أن أبا العباس محمد كان من أطول أمراء الأغالبة عهداً، وأنه قد تخللت عهده حوادث كثيرة كان أشدها خطراً اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه.

(١) راجع ما ذكرناه عن دولة الأغالبة إلى عهد محمد الأول في الجزء الثاني من هذا الكتاب (الطبعة السادسة سنة١٩٦٢) ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

على أن محمداً الأول لم يكد ينتهي من ثورة أخيه أحمد عليه في سنة ٢٣٢ هـ، حتى فوجىء في السنة التالية بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب، الذي دارت الدّائرة عليه وقتل. وفي سنة ٢٣٤ هـ خرج عمرو بن سليم التجيبي فقضى عليه محمد بن الأغلب في سنة ٢٣٦ هـ وقتله، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبي.

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات، تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية، واهتم بهذه الحرب اهتماماً جعله في مرتبة الجهاد ضد الروم. وقد تولى العباس بن الفضل الفزاري تتمة الفتح: ففتح بين سنتي ٢٣٧، ٢٤٧ هـ قصريانة[١] وقطانية وسرقوسة. ويظهر أن المسلمين كانوا يستولون على هذه المدن ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم، فكانت حرب المسلمين في هذه الجزيرة، كما يقولون، حرباً مائعة غير ثابتة[٢].

وفي سنة ٢٤٢ هـ توفي محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً، فخلفه ابنه أحمد (٢٤٢ ـ ٢٤٩ هـ) «وكان ـ كما يقول ابن عذارى[٣] ـ حسن السيرة كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأسمحهم وأرفقهم بالرعية، مع دين واجتناب الظلم عن حداثة سنه وقلة عمره. وكان يركب في ليالي شعبان ورمضان، وبين يديه الشمع، فيخرج من القصر القديم فيمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع (أحد أبواب القيروان) ومعه دواب بالدراهم، فكان يعطي الضعفاء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان فيخرج الناس إليه يدعون له».

ولم يطل حكم أحمد حيث توفي سنة ٢٤٩ هـ، فخلفه أخوه زيادة الله الثاني بن محمد (٢٤٩ ـ ٢٥٠ هـ)، ولكنه لم يلبث أن توفي بعد سنة واحدة وستة أيام، وتولى بعده ابن أخيه محمد الثاني بن أحمد (٢٥٠ ـ ٢٦١ هـ)، ويلقب بأبي الغرانيق، لأنه كان مولعاً بصيد الغرانيق، حتى إنه بنى قصراً يخرج إليه ليصيدها، أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب.

---

(١) قال أبو الفدا (المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٨) إن قصريانة «هي المدينة التي بها دار الملك بصقلية، وكان الملك يسكن موقوسة «يقصد سرقوسة». فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى قصريانة لحصانتها، ففتحها العباس في سنة ٢٣٧ هـ... وبنى بها مسجداً في الحال ونصب فيها منبراً، وخطب وصلى الجمعة.

(٢) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٤٣١ ـ ٤٣٣.

(٣) البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٥.

وقد وصفه ابن عذارى[١] في هذه العبارة فقال إنه كان مسرفاً في العطاء مع حسن سيرته في الرعية، ثم غلبت عليه اللذات.

ولم يقع في عهد أبي الغرانيق ما يستحق الذكر، سوى متابعة فتح صقلية، مقتدياً في ذلك بأسلافه، وكثرة توليته الولاة على هذه الجزيرة، وقتل بعض هؤلاء الولاة، إما بسبب نشوب الحرب بينهم وبين الروم، أو نتيجة لعمله على إشعال نار العصبية القبلية بين العرب النازلين فيها. ويقول ابن عذارى إن الحرب وقعت بين المسلمين والروم في صقلية من سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ٢٥٩ هـ، وإن المسلمين حاولوا في خلال هذه الفترة فتح مدينة سرقوسة وغيرها من أمهات المدن في هذه الجزيرة وفي جنوبي إيطاليا.

وقد توفي أبو الغرانيق في شهر جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ بعد أن حكم إفريقية وما يليها عشر سنين وخمسة أشهر ونصف شهر، عاصر في خلالها من الخلفاء العباسيين المستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وأقره كل منهم على ولايته على ما جرت به العادة في ذلك العصر.

إبراهيم الثاني ـ زيادة الله الثالث:

يعتبر إبراهيم الثاني أطول أمراء الأغالبة في إفريقية عهداً بالإمارة. وقد وقعت في عهده أمور كثيرة، منها أنه اغتصب الولاية من ابن أخيه أبي عقال بن محمد الثاني ولما يمض عليه في الإمارة غير أيام، ثم بناء مدينة رقادة في سنة ٢٦٣ هـ، وفتح سرقوسة نهائياً وسقوطها في يد المسلمين في سنه ٢٧٤ هـ، وتنكيله بالموالي بالقصر القديم لأنهم ثاروا عليه، ثم هزيمته العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٧ هـ.

وتعتبر الحرب التي دارت بين إبراهيم الثاني والعباس بن أحمد بن طولون، الذي خرج على أبيه كما تقدم، من أهم الأحداث التي وقعت في عهده. وقد ذكر ابن عذارى[٢] في إسهاب العوامل التي أدت إلى وقوع هذه الحرب، وما وقع فيها من معارك، وما انتهت إليه من نتائج، كما تناول الكلام عليها مؤرخو مصر كابن الداية والمقريزي.

ذلك أن العباس بن أحمد بن طولون سولت له نفسه الخروج على أبيه والتوجه إلى إفريقية، وصغر له أتباعه من شأن إبراهيم الثاني بن أحمد الأغلبي أمير هذه البلاد، فأرسل

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٠٧ وما يليها.　(٢) البيان المغرب: ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

إليه العباس كتاباً يقول فيه إن أمير المؤمنين قلده أمر إفريقية، ويأمره بالدعاء له على منابرها والاستعداد لاستقباله. ويخبره أنه قد أقره عليها على أن يحكمها نيابة عنه. ثم سار العباس حتى وصل إلى مدينة لبدة، فخرج إليه عاملها وأهلوها مرحبين، فازدادت نفسه غروراً، وقبض على عاملها وأباح المدينة لجنده، فنهبوا أموالها وقتلوا رجالها واستباحوا نساءها، فاستغاث أهلها بإلياس بن منصور صاحب نفوسة وزعيم الإباضية من الخوارج. وقد أرسل إليه العباس بن أحمد بن طولون رسولاً من قبله يأمره بالإذعان والخضوع، فقال إلياس للرسول: «قل لهذا الغلام: أما أنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك. وأنا على إثر رسالتي إليك»[١]. وسرعان ما أرسل إليه جيشاً من ١٢,٠٠٠ مقاتل، وجرد ابن الأغلب لقتاله جيشاً آخر، فهزم العباس وعاد إلى برقة[٢].

«كان إبراهيم ـ كما وصفه ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٠١ ـ ١٠٢) ـ عادلاً حازماً في أموره، آمن البلاد وقتل أهل البغي والفساد. وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والإثنين، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم.. وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان، تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها. وكانت له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات[٣].

توفي إبراهيم الثاني في شهر ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ، بعد أن حكم ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر واثني عشر يوماً.

بويع عبد الله أبو العباس بن إبراهيم الثاني بعد أبيه، ولكنه لم يبق في الإمارة سوى تسعة أشهر وأحد عشر يوماً، ثم قتل بيد غلمانه. وقد قيل إن ذلك حدث بإيحاء ابنه زيادة الله فخلفه ابنه زيادة الله الثالث، وكان أبوه قد قبض عليه وحبسه إذ بلغه أنه يريد الخروج عليه.

وكان زيادة الله آخر أمراء الأغالبة ببلاد المغرب. وفي عهده بدأت أعمال أبي عبد الله الشيعي دعي الفاطميين، فوقع في يده كثير من المدن. وقضى زيادة الله أيامه في اللهو

---

(١) ابن الداية: سيرة أحمد بن طولون ص ٦١.

(٢) المقريزي: خطط ١ص ٣٢٠.

(٣) لعله يريد بالعملات جمع عملة يعني المكيدة كما يعبر عنها العوام وكما يفهم من سياق القصة التي ذكرها ابن الأثير.

والترف، وكان وزراؤه لا يبالون إلا بنجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم، وساعدوا على إزالة سلطان الأغالبة ومد نفوذ الفاطميين إلى أكثر أجزاء هذه البلاد. وفي سنة ٢٩١ هـ غدا الفاطميون أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان أكبر مدن بلاد المغرب[١].

وقد ذكر ابن عذارى[٢] أن زيادة الله لما سمع بدخول أبي عبد الله الشيعي مدينة رقادة في سنة ٢٩٦ هـ وفرار أهلها منها، حمل معه بأخف وزنه وغلا ثمنه، ثم «ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الأحمال تمر بين يديه هارباً على عيون أهله وولده، فأخذت جارية من جواريه عوداً ووضعته على صدرها وغنته لتحرّكه على حملها معه فقالت:

لم أنْسَ يوم الوداع موقفها ... وجفنها في دموعها غرق
وقولها والركاب سائرة: ... تتركنا سيدي وتنطلق؟
أستودع الله ظبية جزعت ... للبين، والبين فيه لي حرق؟

فدمعت عينا زيادة الله، وشغله سوء الموقف عن حملها معه وخرج من مدينة رقادة مع وجوه رجاله وعبيده، ولحق بمدينة طرابلس.

وبذلك زال سلطان بني مدرار عن سجلماسة، وبني رستم عن تاهرت، وبني الأغلب عن تونس، وقامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقية.

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٢ ـ ٢٧. حسن إبرهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠ وما يليها.

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

دولة الأدارسة

(في مراكش)

١٧٢ - ٧٨٨/٣٧٥ - ٩٨٥

أمراء الأدارسة[1]

	هجرية	ميلادية
إدريس	١٧٢	٧٨٨
إدريس الثاني	١٧٧	٧٩٣
محمد بن إدريس الثاني	٢١٣	٨٢٨
علي بن محمد	٢٢١	٨٣٦
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤	٨٤٩
يحيى الثاني بن محمد		
علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني		
يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني		
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢	٩٠٤
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	٣١٠	٩٢٢

(بربر مكناسة)

علي بن عمر بن إدريس الثاني (٢٢١ - ٢٣٤ هـ):

لما توفي إدريس الثاني في شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٣ هـ، وخلفه ابنه محمد بن إدريس، لكنه لم يلبث أن توفي في شهر ربيع الثاني سنة ٢٢١ هـ، فخلفه ابنه علي بن محمد وكان في التاسعة من عمره، ولقب حيدرة، وهو لقب علي بن أبي طالب. ولم يحدث

---

(1) Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, p.35.

في عهده ما يستحق الذكر حتى توفي في شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ، فخلفه أخـوه يحيى بن محمد الذي امتد سلطانه، وعظمت دولته، وحسنت أيامه، واستبحر عمران فاس، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجارة، وبنيت خارجها الأرباض [١].

ولما توفي علي بن محمد خلفه ابنه يحيى بن علي بن محمد بن إدريس، وكان سيىء السيرة فثارت عليه العامة. فاختفى بعدوة الأندلس [٢] ريثما تخمد الفتنة، ومات من ليلته. واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل، الـذي تزعم الثـورة على يحيى بن علي، على مدينـة فاس. وكتبت زوجة يحيى إلى أبيهـا علي بن عمر بن إدريس صـاحب الريف وطلبت إليـه الحضور لإخماد هذه الثورة، فجاء إلى فارس واستولى عليها، وانقطع الملك من عقب ابن محمد بن إدريس الثاني، وأصبح في عقب عمرو بن إدريس صاحب الريف تارة، وفي عقب القاسم بن إدريس الزاهد تارة أخرى [٣].

ولم يلبث أن دخل أهل فارس في طاعة علي بن عمر بن إدريس، وخطب له على منابر المغرب، واستقرت قدمه في هذه البلاد فترة من الزمن، حتى ثار عليه عبد الرزاق الفهري أحد زعماء الخوارج الصفرية، وتبعه أهالي البلاد القريبة من مدينة فاس التي دخلها، ففـر علي بن عمر إلى أوروبة.

على أن فريقاً من أهل فاس بعثوا إلى يحيى بن إدريس، ويعرف بالعوّام [٤]، يطلبون منه الحضور إلى بلدهم. ولما وصل إليهم بايعوه على الطاعة، ثم تفرغ لحرب عبد الرزاق الصفري وأرغمه على الخروج من عدوة الأندلس، فدخلها يحيى وبايعه أهلها وجميـع من نزل بها من أهل الأندلس الربضيين [٥]؛ وصرف وقته في قتال الخوارج الصفرية، ودارت بينه وبينهم وقائع كثيرة، وظل يحيى أميراً على فاس وما يليها من بلاد المغرب الأقصى إلى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ.

---

(١) ابن خلدون. العبر: ص ١٥٤.

(٢) بضم العين هي الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض والمحيط الأطلسي من الأندلس، ويقـابلها عدوة المغرب.

(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٨.

(٤) ويسمى أيضاً الجوطي نسبة إلى جوطة وهي قرية على نهر سبو ببلاد المغرب وقد نزلها يحي فنسب إليها السلاوي جـ ١ ص ٧٨.

(٥) نسبة إلى ربض مدينة قرطبة.

وقد ذكر السلاوي[١] أنه بعد وفاة يحيى الأول سنة ٢٣٤ هـ إلى وفاة يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني سنة ٢٩٢ هـ وقعت ببلاد المغرب الأقصى حوادث جسام، بسبب انتشار الفوضى في هذه الفترة التي دارت فيها رحى الحروب الأهلية بين أبناء إدريس والخوارج الصفرية، مما أثر تأثيراً سيئاً في حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فقد انتشر القحط وعدمت الأقوات وغلت الأسعار، وفشا الموت لدرجة لم تعهد أهالي البلاد لها مثيلاً من قبل ففي سنة ٢٥٣ هـ انتشر القحط ببلاد العدوة، وقاسى الأهلون الشدائد والأهوال سبع سنين عجاف. وفي سنة ٢٦٧ هـ حدثت «زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها، تهدمت منها القصور، وانحطت منها الصخور من الجبال، وفر الناس من المدن، وتساقطت السقوف والحيطان، وفرت الطيور عن أوكارها، وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس، سهلها وجبالها، وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة، ومن البحر الرومي إلى أقصى المغرب».

وفي سنة ٢٧٦ هـ انتشرت الفتن ببلاد المسجد الأقصى وإفريقية، وعم القحط بلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضاً. وهلك خلق كثير من الوباء. وصفوة القول أن هذه الفترة قد سادها الاضطراب والفوضى، وانقسم الأدارسة على أنفسهم، حتى إن ابن خلدون الذي يعتبر شيخ مؤرخي المغرب، لم يستطع أن يحدد مبدأ ونهاية حكم أمراء الأدارسة في هذه الفترة الغامضة.

يحيى الرابع بن إدريس بن عمرو (٢٩٢ - ٣١٠ هـ):

لما قتل يحيى بن القاسم، ولي يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، فبايعه أهل فاس، وخطب له على منابرها، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى. وكان يحيى «واسطة عقد البيت الإدريسي، أعلاهم قدراً وأبعدهم ذكراً، وأكثرهم عدلاً، وأغزرهم فضلاً. وأوسعهم ملكاً. وكان فقيهاً، حافظاً الحديث. ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعاً حازماً، ذا صلاح ودين وورع»[٢]. ولم يبلغ أحد من الأدازسة ما بلغه يحيى الرابع في سعة الملك وبسطة السلطان، حتى ظهر الفاطميون في إفريقيا في أواخر القرن الثالث الهجري، ثم مدوا نفوذهم نحو بلاد المغرب الأقصى في عهد عبيد الله المهدي وخلفائه من بعده[٣].

---

(١) الاستقصا جـ ١ ص ٧٨ - ٧٩.

(٢) السلاوي: جـ ١ ص ٢٩.

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٩.

استقر ملك يحيى الرابع نحو خمس عشرة سنة؛ ففي سنة ٣٠٠ هـ غزا بلاده قائد عبيد الله المهدي مصالة بن حبوس صاحب تاهرت والمغرب الأوسط وفتح تاهرت[١] ثم التقى بيحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة وأحل به الهزيمة. ثم حاصر مدينة فاس واضطر يحيى إلى الصلح، على أن يؤدي إليه بعض الأموال، وأن يبايع للمهدي الفاطمي، وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس، كما ولى موسى بن أبي العافية ابن عم مصال بن يحيى سائر بلاد المغرب الأقصى لمساعدته إياه على غزو هذه البلاد. وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الأدارسة. ولما عاد مصالة إلى فاس سنة ٣٠٩ هـ أوغر موسى بن أبي العافية صدره على يحيى بن إدريس فقبض عليه، واستصفى أمواله، ثم نفاه. فأقام عند بني عمه ببلاد الريف، فتصدى له موسى بن أبي العافية وحبسه، ثم أطلقه بعد عشرين سنة، فقصد إفريقية ومات في مدينة المهدية سنة ٣٣٢ هـ[٢].

الحسن بن محمد (٣١٠ - ٣١٢ هـ):

ولما قبض مصالة على يحيى بن إدريس ولي ريحان الكتامي على فاس، ولكن ولايته لم تطل، حيث ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم المعروف بالحجام في سنة ٣١٠ هـ واستولى على فاس وقتل ريحان، فبايعه الناس ودخلوا في طاعته، ثم مد نفوذه إلى ما جاوره من البلاد، وتفرغ لقتال موسى بن أبي العافية، ودارت بينهما عدة معارك قتل في إحداها ولد موسى، ومات الحسن في سنة ٣١٢ هـ، واستولى موسى على ملك الأدارسة ببلاد المغرب[٣]، فشايع الفاطميين بإفريقية. ولكن دولة الأدارسة، التي كادت تزول على يد موسى بن أبي العافية من ناحية، وعلى أيدي الفاطميين من ناحية أخرى، تحولت إلى بلاد الريف، واستقر الأمر لموسى بن أبي العافية في المغربين الأقصى والأوسط[٤].

على أن موسى بن أبي العافية لم يلبث أن خلع طاعة الفاطميين ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)؛ وكان قد طمع في امتلاك المغرب الأقصى واستولى على سبتة، وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده. ولما علم عبيد الله المهدي بذلك أرسل جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن بصليت

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١ ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٢) السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٧٩ - ٨٠.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٢١ - ٣٣٢. (٤) السلاوي: الاستقصا جـ ١ ص ٨١.

صاحب تاهرت وابن أخي مصالة بن حبوس. وانتهت هذه الحرب بفرار موسى عن مدينة فاس، فولى عليها حميد أحد قواده؛ ولكنه لم يلبث أن قتل بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢ هـ بيد أحد الثوار الذي بعث برأسه وبابنه إلى موسى بن أبي العافية، فبعث به إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة، وخطب للأمويين في بلاد المغرب من جديد[١].

على أن الخليفة الفاطمي القائم أرسل قائده ميسوراً الخصي إلى المغرب الأقصى في سنة ٣٢٣ هـ فحاصر فاس واستولى عليها من يد أحمد بن بكر، وبعث به إلى المهدية، وخطب للقائم الفاطمي على منابرها، وضرب السكة باسمه، وولاها الحسن بن القاسم اللواتي الذي استمرت ولايته عليها حتى أطلق أحمد بن بكر من حبسه في المهدية سنة ٣٣٥ هـ، فسار إلى فاس وأقام بها متنكراً حتى تمكن من خلع الحسن بن القاسم وتولى إمرة فاس[٢]. واعتصم موسى بن أبي العافية بحصن ألبكاي، واستفحل خطره، وبدأ بنشر الدعوة للأمويين في شمال إفريقية؛ ثم خلفه ابنه إبراهيم بعد وفاته. ولما توفي إبراهيم سنة ٣٥٠ هـ خلفه ابنه عبد الرحمن، ثم ابنه محمد الذي انقرضت في أيامه دولة آل أبي العافية في بلاد المغرب الأقصى سنة ٣٦٣ هـ، بعد أن حكمت مائة وأربعين سنة (٣٠٥ ـ ٤٤٥ هـ)، ثم استمر نفوذهم في أطراف المغرب حتى قضى عليهم يوسف بن تاشفين.

تحولت دولة الأدارسة إلى بلاد الريف كما تقدم، ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذي تمتعت به في فاس، حتى طردهم موسى بن أبي العافية، واستأثر بالنفوذ في المغربين الأقصى والأوسط. وهكذا أصبح الأدارسة ببلاد الريف «تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب، إما من الشيعة أصحاب إفريقية، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس».

ولما طارد ميسور الخصي، موسى بن أبي العافية إلى الصحراء، انتقلت السلطة في بلاد المغرب إلى القاسم وإبراهيم أخوي الحسن بن محمد بن إدريس آخر أمراء الأدارسة بفاس، وبايع أهالي هذه البلاد القاسم بن الحسن، الذي ملك أكثر بلاد المغرب عدا فاس، واتخذ قلعة حجر النسر مقراً لإمارته، وأخذ في نشر الدعوة الشيعية حتى توفي سنة ٣٣٧ هـ، فخلفه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم، وكان ـ كما يصفه السلاوي (جـ ١ ص ٨٥) ـ . فقيهاً، ورعاً حافظاً للسير، عارفاً بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر، شجاعاً، جوداً، وكان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل.

---

(١) السلاوي: الاستقصا: جـ ١ ص ٨٢. (٢) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

ولكن أبا العيش لم يلبث أن دعا إلى الأمويين بالأندلس وقطع دعوة الفاطميين، وانتشر نفوذه في بلاد المغرب الأقصى كافة إلى سجلماسة. ثم طمع عبد الرحمن الثالث الأموي في امتلاك طنجة من أبي العيش وضمها إلى سبتة، وكان قد استولى عليها من قبل فأبى أبو العيش، ولكنه اضطر إلى الإذعان بعد أن أرسل إليه الخليفة الأموي جيشاً وأسطولاً حاصراه وضيقا عليه، وزاد نفوذ الأمويين ببلاد المغرب الأقصى حتى مات أبو العيش سنة ٣٤٨[١].

خلف أبو القاسم بن محمد بن القاسم بن كنون (ويلقب بكنون) أخاه أبا العيش، الذي استخلفه على بلاد المغرب حين سار مع عبد الرحمن الناصر لجهاد الفرنجة في الأندلس. وكان أبو القاسم آخر أمراء الأدارسة في المغرب الأقصى التي زالت في عهده على أيدي الفاطميين.

وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران، وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ببلاد المغرب الأقصى. وقد زال ملكهم بعد أن حكموا قرنين وثلاث سنين (١٧٢ - ٣٧٥)[٢]، لم تتمتع فيها البلاد بشيء من الاستقرار الذي يمكن القائمين بالحكم فيها من توجيه جهودهم إلى نشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة.

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٦ ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) تأسست ببلاد المغرب في هذا العصر دول عدة، نذكر منها الدولة الحمادية ببلاد الجزائر (٣٩٨ - ٥٤٧ هـ) ودولة المرابطين بمراكش وبعض بلاد الجزائر وبلاد الأندلس (٤٤٨ - ٥٤١ هـ)، ودولة الموحدين في شمال إفريقية (٥٢٤ - ٦٦٧ هـ) والدولة الحفصية في تونس (٦٢٥ - ٩٤١ هـ)، والدولة الزيانية في بلاد الجزائر (٦٢٣ - ٧٩٦ هـ)، والدولة المرينية بمراكش (٥٩١ - ٨٧٥ هـ)، والدولة الشريفية بمراكش (٩٥١ - ١٣١١ هـ)، وسنرجىء الكلام عليها إلى الأجزاء الباقية من هذا الكتاب إن شاء الله.
أنظر Lane - Pool: Muhammadan Dynasties pp.23 - 61

الأمويون في قرطبة[١]

(١٣٨ - ٤٢٢/٧٥٦ - ١٠٣١)

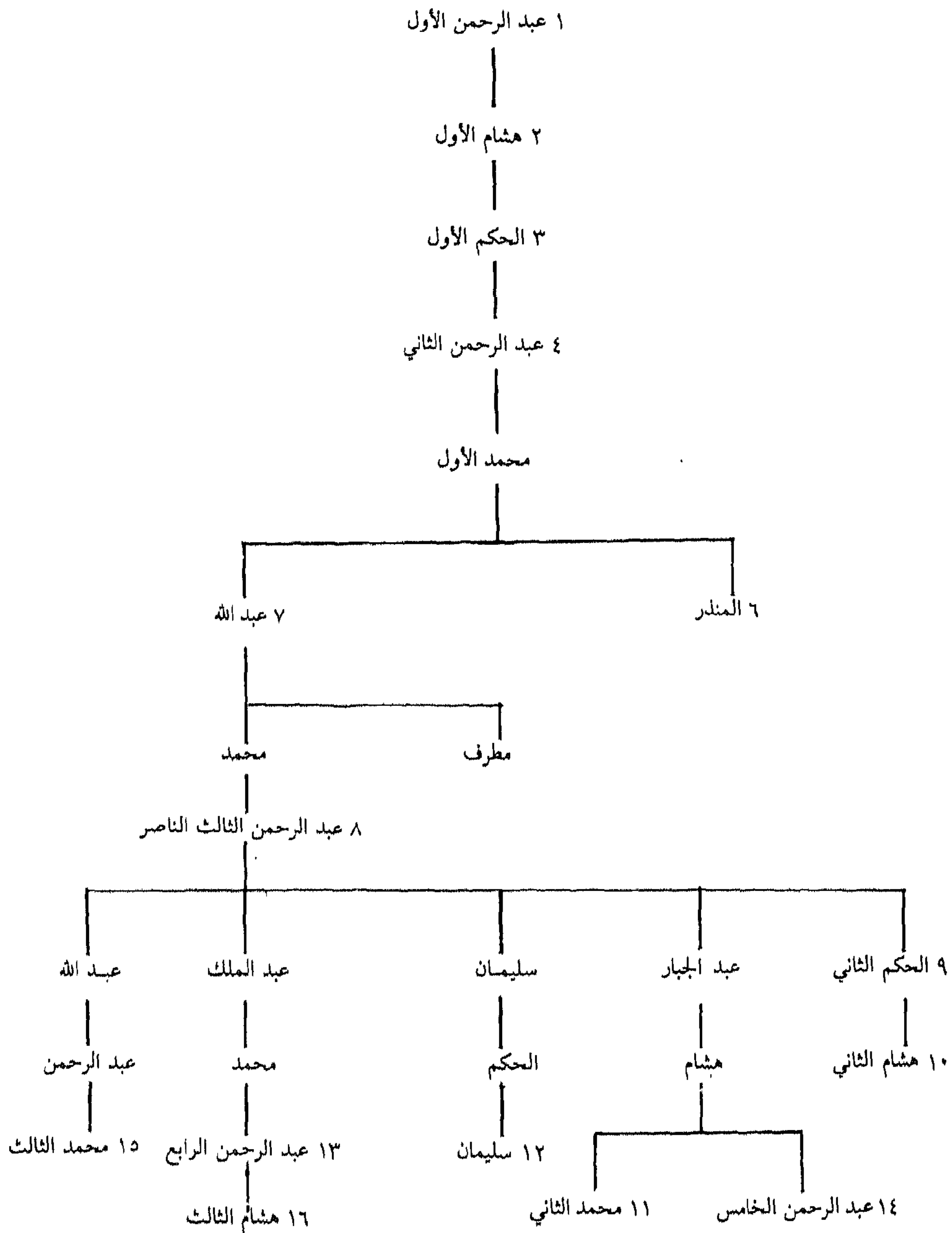
	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ عبد الرحمن الأول	١٣٨	٧٥٦	١٣ محمد الثاني (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
٢ هشام الأول	١٨٢	٧٨٨	١٤ هشام الثاني (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
٣ الحكم الأول	١٨٠	٨٩٦	١٥ سليمان (للمرة الثانية)	٤٠٣	١٠١٣
٤ عبد الرحمن الثاني	٢٠٦	٨٢٢	١٦ علي بن حمودة[٢]	٤٠٧	١٠١٦
٥ محمد الأول	٢٣٨	٨٥٢	١٧ عبد الرحمن الرابع المرتضى	٤٠٨	١٠١٨
٦ المنذر	٢٧٣	٨٨٦	١٨ القاسم بن حمودة	٤٠٨	١٠١٨
٧ عبد الله	٢٧٥	٨٨٨	١٩ يحيى بن علي	٤١٢	١٠٢١
٨ عبد الرحمن الثالث			٢٠ القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢
(الخليفة الناصر)	٣٠٠	٩١٢	٢١ عبدالرحمن الخامس المستظهر	٤١٤	١٠٢٣
٩ الحكم الثاني المستنصر	٣٥٠	٩٩١	٢٢ محمد الثالث المستكفي	٤٢٤	١٠٢٤
١٠ هشام الثاني المؤيد	٣٦٦	٩٧٦	٢٣ يحيى (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥
١٢ محمد الثاني المؤيد	٣٩٩	١٠٠٩	٢٤ هشام الثالث المعتمد	٤١٨	١٠٢٧
١٢ سليمان المستعين	٤٠٠	١٠٠٩		٤٢٢	١٠٣١

(دول صغيرة)

(١) راجع كتاب Lane - Poole: Muhmmadan Dynastics, pp. 21 - 22 - 23.

(٢) من أسرة الحموديين (في سبتة).

جدول يمثل نسب الأمويين في قرطبة



عبد الله (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ):

لما مات عبد الرحمن الثاني سنة ٢٣٨ هـ خلفه ثلاثة من أمراء البيت الأموي هم: محمد الأول، والمنذر وعبد الله. وعلى الرغم من أن هؤلاء حكموا هذه البلاد اثنتين وسبعين سنة، لم يكن لهم أثر يذكر في تاريخ الأندلس، بل قاست هذه البلاد كثيراً في خلال هذا العصر الذي تميز بخروج عمال الأقاليم على الأمراء، وثورات مسيحيي الشمال؛ وانتشار روح العصيان، إلى أن اعتلى عرشها عبد الرحمن الثالث في سنة ٣٠٠ هـ.

خلف محمد الأول (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ) أباه عبد الرحمن الثاني. ولا يذكر عنه سوى إرسال هذه الحملات الموفقة في مستهل إمارته (٢٣٨ هـ) إلى شمال أسبانيا للقضاء على الثورات التي قامت في برشلونة وطليطلة وغيرهما، واستطاع بذلك أن يوطد الأمن في هذه الأرجاء. وقد دون المقري[1] حروب محمد الأول في سني ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٦٣، ٢٦٨، وهي تتلخص في إرسال حملات إلى بمبلونة وجليقية وماردة تكللت بالنصر، وأخضعت أهالي هذه الجهات. ثم توفي هذا الأمير في شهر صفر سنة ٢٧٣ هـ بعد أن قضى في إمارته خمساً وثلاثين سنة؛ وولي بعده ابنه المنذر (٢٧٣ ـ ٢٧٥)، ولكن إمارته لم تطل، وأقام سنتين إلا نصف شهر.

ثم ولي أخوه عبد الله (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ)، وكان عهده كعهد أخيه المنذر وأبيه محمد مليئاً بهذه الثورات التي أعقبت ثورة المسيحيين بقرطبة، وانتشر العصيان في ولايات الأندلس فلما تولى عبد الله الذي دبر مقتل أخيه المنذر، كان أضعف من أن يقف على قدميه في وجه الخطر الذي كان يهدد ملكه، واشتهر بالقسوة وسوء التدبير مما أثار كراهية الناس له فنبذوا طاعته، حتى إن أكثر بلاد الأندلس قد استقلت ولما يمض على توليته ثلاث سنين. واتخذ زعماء العرب والبربر والأسبان من ضعفه وسوء حكمه فرصة للخروج عليه والاستقلال بالولايات التي تحت أيديهم، وانتشرت الفوضى؛ واستولى العرب، وكانوا أقلية في البلاد، على بعض الإمارات كإشبيلية التي أصبحت منافساً خطيراً لقرطبة، كما استقل حاكماً لورقة وسرقسطة استقلالاً تاماً، ولم يعد عبد الله يعتمد إلا على الجنود المرتزقة في إخضاع أهل قرطبة إخضاعاً صورياً.

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٥.

أما البربر فقد عادوا إلى النظام القبلي الذي يتفق وتقاليدهم وطبائعهم، فاستقلوا ببعض الولايات الغربية مثل استرامادور Stramdora وجنوبي البرتغال، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن في بلاد الأندلس كمدينة جيان. وتفاقم خطر أسرة ذي النون من البربر التي عاشت في جميع نواحي الأندلس. كما استولى الأسبان الذين دخلوا الإسلام، وكانوا يبغضون أمراءهم، على ولاية الجرف Algarave في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة. واستقلوا بكثير من الولايات.

وقصارى القول أن هؤلاء جميعاً أجمعوا على كراهية عبد الله واستهانوا بسلطانه. وكان أكثر الزعماء قوة وأشدهم خطراً عمر بن حفصون، وكان يدين بالإسلام، ثم ارتد إلى المسيحية. وسمى نفسه صمويل، وأثار سكان الجبال في مقاطعة الفيرا Elvira بإمارة غرناطة، وأقام في معقله ببشتر Bobastro، وهزم جيوش الأمير عبد الله غير مرة. واضطر إلى مصالحته بعد أن ناوأ سلطان الأمير خمساً وعشرين سنة(١)، كما استقل حاكم مرسية Murcia الذي ولع بالشعر والأدب. واستولى نصارى الشمال على طليطلة. وضنّت الولايات بإرسال حاصلاتها. وخلت خزائن الدولة من المال، وغلا ثمن الخبز غلاء فاحشاً. وعد رجال الدين من المسلمين ذلك من سخط السماء وأخذوا ينشرون بين الناس تكهنات محزنة.

هكذا كانت حال الأندلس. وهذا ما آل إليه أمرها؛ فقد أصبحت ممزقة الأشلاء منبتة الأواصر، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضياع منها بالولايات التي تكون دولة قوية. وصارت أعجز من أن تقف في وجه فاتح قوي عزوم(٢). على أن بعض هذه الولايات كانت تزدهر من حين إلى حين بطائفة من حكامها الذين اشتهروا بالأدب، كحاكم مرسية وقسطلونة، وابن حجاج حاكم إشبيلية الذي ذاعت شهرته وراسله الملوك وبعثوا إليه بهداياهم، وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة، وازدان قصره بأشهر المغنين من بغداد. وكانت جاريته «قمر» البغدادية شاعرة رائعة الحسن بديعة الصوت فصيحة اللسان مرهفة الحسن. وهي التي تقول فيه:

ما في المغارب من كريم يُرتَجىَ ... إلاَّ حليفُ الجودِ إبراهيمُ
إني حللت إليه منزلَ نعمةٍ ... كلُّ المنازل ما عداه ذميمُ

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, pp. 291 - 296.

(٢) Lane - Poole: The Moors, in Spain, pp.97 - 107. ترجمة علي الجارم ص ٩٢ ـ ٩٨.

وقد قصده الشعراء وطمع شعراء قرطبة في كرمه، وقد قيل إن أحد شعرائها هجا في حضرته منافسيه من أشراف قرطبة فقال له عبد الله: كذبت نفسك يا هذا إن ظننت أن رجلاً مثلي يهش لسماع هذا الهجاء الدنيء.

ولكن عبد الله لم يستطع أن يتغلب على هذه المصائب التي حلت بالبلاد، ومات في سنة ٣٠٠ هـ وهو في الثامنة والستين من عمره بعد أن قضى في الحكم أربعاً وعشرين سنة وقد أشرفت دولة الأمويين بالأندلس في عهده على الزوال لولا أن قبض الله لها عبد الرحمن الثالث الناصر.

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ):

ولد عبد الرحمن الناصر في رمضان سنة ٢٧٧ هـ (٨٩١ م). وكان أبوه محمد بن الأمير عبد الله بن محمد الأول، وأمه أم ولد سماها ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٦)[١] مرنة، وقال: إن عبد الرحمن يوم قتل أبوه لم يزد عمره على واحد وعشرين يوماً. وكان قتله بسبب وشاية أخيه مطرف الأصغر عند أبيهما عبد الله طمعاً في اعتلاء العرش. وكان لقتل محمد أثر بالغ في نفس أبيه عبد الله الذي أمر بإدخال حفيده عبد الرحمن إلى قصره، وحاطه برعايته وقربه إليه، وآثره على أبنائه[٢].

وقد شب عبد الرحمن في بيت الإمارة وأخذ بقسط وافر من الثقافة ومال إلى دراسة الفلسفة. وكان جده يخصه بعطفه دون أبنائه، حتى قيل إنه رمى إليه بخاتمه[٣]، فاتخذ الناس من ذلك دليلاً على رضاه عنه وإيثاره على أبنائه بالإمارة من بعده، كما كان ينيبه عنه في الأعياد والمواسم والحفلات وعرض الجند. ولما مات عبد الله في ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) أجلس الأمراء والقواد عبد الرحمن على العرش وبايعوه ولقبوه الناصر، ولم يقم في وجهه أحد من أعمامه وأعمام أبيه[٤] وأرسلت البيعة إلى سائر الولايات الأندلسية.

---

(١) Dozy, The Moslems in Spain, p.382'

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٢.

(٣) ابن الخطيب. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ج ٣ ص ٣٢.

(٤) Dozy, The Moslems in Spain,p. 382.

كان الناصر حين اعتلى عرش الأندلس شاباً في مقتبل العمر لم يجاوز الثانية والعشرين .. واستبشر بإمارته رجال القصر وأهالي قرطبة لما اتصف به من سمو الأخلاق وقوة الإدراك وأنشد ابن عبد ربه هذه الأبيات يوم تولية الناصر الإمارة:

بدا الهلال جديداً والملك غضٌّ جديد
يا نعمة الله زيدي إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد[1]

كانت بلاد الأندلس عند اعتلاء عبد الرحمن العرش ـ كما يقول المقري (جـ ١ ص ١٦٦) ـ «مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين؛ فأطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، واستقلت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه».

وقد أعلن الأمير الجديد عن سياسته التي عول على نهجها، ودعا الخارجين إلى الخضوع لسلطانه، واتجهت إليه أنظار الشعب لتخليصه من عصابات اللصوص والمجرمين الذين أتلفوا الزرع وأفقروا الأرض، فخضع أكثر الولايات وسلموا حين رأوا أميرهم الشاب يتقدم جيوشه في شجاعة وثقة واعتزاز بالنفس، وأعجبوا به لأنهم وجدوا فيه من الصفات ما لم يجدوه في جده عبد الله. وفتحت له مدن الأندلس أبوابها، فسلمت له الولايات التي في جنوبي قرطبة وتبعتها إشبيلية، وأرغم البر في الغرب على الطاعة، وحذا حذوه أمير الجرف.

وكان عبد الرحمن يخلع على كل من نزل من الثوار عن حصنه ويقربه ويدر عليه الأرزاق والهبات. وبذلك خضع له كثير من هؤلاء الثوار طائعين. ثم تفرغ لقتال من بقي من الثائرين. وكان أشد هؤلاء بأساً وأعظمهم خطراً عمر بن حفصون الذي لقي جده عبد الله في سبيل محاربته كثيراً من العنت والإرهاق. وظل عبد الرحمن يقاتل هو وأولاده في معاقلهم الجبلية في ببشتر إلى أن توفي سنة ٣٠٥[2]، وسلم إليه أولاده بعد حروب طويلة؛ ولم تأت سنة ٣٢٠ هـ حتى كانت بلاد الأندلس الإسلامية خاضعة لعبد الرحمن. ولما وقف على مشارف هذا الحصن المنيع ورأى قممه الشاهقة الشديدة الانحدار المحيطة به، سجد شكراً لله على ما أولاه من نعمة الفتح والنصر، وظل طول مدة إقامته في هذا الحصن صائماً وعفا عن أعدائه.

---

(١) نفح الطيب ح ١ ص ١٦٧.
(٢) أنظر: Dozy, The Moslems in Spain, p 392

وكانت طليطلة آخر حصون الثائرين التي سقطت في يد عبد الرحمن، حيث سلمت إليه في سنة ٣٢٠ هـ، وكان أسلافه قد اضطروا إلى منحها نوعاً من الاستقلال الذاتي. وبذلك استرد عبد الرحمن ما فقده أسلافه من بلاد الأندلس في مدة لا تجاوز عشرين سنة، وغدا نفوذه قوياً بين العرب والبربر والأسبان والمولدين.

أما سياسة الناصر الداخلية إزاء مسيحيي الأندلس، فقد كانت راجعة إلى ما أظهره هؤلاء المسيحيون من الحماسة الدينية التي عبر عنها المؤرخون بالحرب المقدسة. وقد استعان عبد الرحمن في حروبه التي شنها على مسيحيي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين بالصقالبة خاصة. وكان تجار الإغريق والبنادقة يجلبون له الأرقاء ويبيعونهم صغاراً ليهذبهم وينشئهم نشأة إسلامية. وكانت بلاد الأندلس في عهده مهددة بخطر الفاطميين في بلاد المغرب جنوباً وخطر المسيحيين وخاصة أهالي أستوريش شمالاً. وقد انتشر هؤلاء المسيحيون في مقاطعة ليون وبنوا قلاع زامورة وسان استبان St. Eatevano وأوسما Osma وسيمنقاس Simacacass. ولم ير العرب بداً من استرداد أراضيهم، ولكن المسيحيين هزموهم هزيمة منكرة وأغاروا على بلادهم، وشد أزرهم شانجة sancho ملك نافار Navarre الذي أصبح زعيم المسيحية في الشمال[١].

وقد أطنب ستانلي لينبول[٢] في وصف مناقب المسلمين وحسن معاملتهم لأعدائهم وندد بأخلاق المسيحيين التي كانت مطبوعة بطابع الغلظة والخشونة والقسوة فقال: «وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميتهم، وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين إلا التعصب والقسوة، فإنهم لم يؤمنوا مستجيراً، ولم يتركوا فاراً، ولم يبقوا على جريح. وهذا يذكرنا، والحزن ملء صدورنا، بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق، فكثيراً ما عفوا عن أعدائهم نبلاء متكرمين، بينا نرى اليوم أن رجال ليون وقشتالة العتاة، يذبحون جميع رجال الحاميات، ويستأصلون مدناً مليئة بالقطان، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم».

كذلك أغار أردون الثاني Ordon 11. على بلاد الأندلس الإسلامية، وصلت جيوشه إلى مارة Meirba، وقابل عبد الرحمن ذلك بإرسال جيش أغذ السير نحو الشمال وأغار على

---

(١) Dozy, The Moslems in Spain p.414.

(٢) The Moors Spain, p.119 ترجمة على الجارم ص ١٠٨.

مملكة المسيحيين في سنة ٣٠٤ هـ ثم أرسل في السنة التالية حملة أخرى، ولكن أردون أحل بها الهزيمة أمام أسوار استبان وغنم كثيراً من الغنائم. وقد أثار هذا الانتصار الحماسة في نفس ملكي ليون ونافار، فسارت جيوشهما صوب طليطلة، وعاثت في البلاد القريبة منها، وانتصرت عليهم جنود قرطبة في موقعتين.

وقد عول عبد الرحمن على الاستعداد لحرب المسيحيين، وقاد الجيوش بنفسه (٣٠٨ هـ) وهدم قلعة أوسما، ودمر سان استيبان، ثم سار صوب نافار ونازل شانجة واضطره إلى الفرار، وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التي منيت بها جيوش المسيحيين، أغار أردون ملك ليون على حدود المسلمين، وزحف شانجة ملك نافار واحتل حصون المسلمين سنة ٣١١ هـ فسار عبد الرحمن نحو الشمال واستولى على كل ما صادفه من المدن؛ ومزق جيش شانجة وهدم حاضرته بمبلونة.

وقد أتاحت هزيمة شانجة ملك نافار، وموت أردون ملك ليون، ووقوع النزاع وقيام الحروب الأهلية بين أبنائه، الفرصة لعبد الرحمن للتفرغ لإصلاح بلاده؛ وأحس بقوته في الداخل والخارج، حتى إنه لقب نفسه بلقب خليفة في سنة ٣١٦ هـ.

على أن عبد الرحمن لم يلبث أن وجد نفسه أمام خطر ردمير (راميرو الثاني) Ramiro 11 الذي خلف أردون في حكم ليون، واستطاع أن يتحد مع مسيحيي الشمال، وأن يعقد الصلح مع محمد بن هاشم التجيبي أمير سرقسطة، وكان قد خلع طاعة عبد الرحمن الناصر. وأسرع هذا إلى إخضاع سرقسطة، ثم زحف على نافار، وانتصر على المسيحيين في عدة مواقع. ولكن راميرو قتل من جيش المسلمين في موقعة «الخندق» أكثر من خمسين ألفاً، وقيل إن جيشهم بلغ مائة ألف، ونجا عبد الرحمن بنفسه في أقل من خمسين فارساً(١). ولم يَنْسَ المسلمون هذه الكارثة، حتى إنهم أطلقوا على السنة التي حلت فيها بسنة الخندق(٢).

كانت بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر يحيط بها الأعداء من كل جانب: فكان الفرنجة في الشمال يطمعون في توسيع أملاكهم جنوباً. ولا سيما بعد استيلائهم على

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٧.
(٢) Lane - Poole, The Moors in Spain, pp. 122 - 123.

برشلونة، وكانت الإمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده. أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين، وكان الأخيرون أشدهم خطراً على بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر؛ حيث خلع موسى بن أبي العافية الذي استحوذ على المغربين الأقصى والأوسط وخلع طاعة عبيد الله المهدي الفاطمي، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي، والذي استولى على سبتة وخطب له على منابر المغرب. ولكن هذه الخطبة لم تلبث أن قطعت بعد فرار موسى من مدينة فاس أمام جيوش الفاطمية، ثم أعيدت مرة أخرى في عهد القائم الفاطمي.

وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته مادياً وأدبياً، فبنى أسطولاً من مائتي سفينة، وتلقب بلقب خليفة. ومن ثم أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، والخلافة الأموية في بلاد الأندلس. وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية، وازدهار دولته؛ وارتفاع شأنها في الداخل والخارج. ويقول المقري[١] عن عبد الرحمن: «وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة[٢]، فتلقب بألقاب الخلافة».

وقد أطنب مؤرخو العرب والفرنجة في مدح عبد الرحمن الناصر، فقال المقري[٣]: «كان سلطانه أعظم ما كان، وأعز ما كان الإسلام بملكه». «وحكي أنه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التي صفت له دون تكدير: يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من شهر كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً. فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها. هذا الخليفة الناصر خلف السدود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود؛ ملكها خمسين سنة، وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً. فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة، لا إله إلا هو»[٤].

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٦.
(٢) هذا خطأ لأن المقتدر امتدت خلافته إلى سنة ٣٢٠ هـ.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٧.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٩.

وقد وصف لينبول[١] عبد الرحمن فقال: «نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها. ولم يكتف بإنقاذها من الدمار، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب. ولم تكن قرطبة في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه في عهد الناصر، ولم تكن الأندلس قبل أيامه في تلك الحال من الخصب والإمراع والإنتاج وتوالي الخيرات، التي نماها ووصل بها إلى الكمال كد أهلها ومهارتهم في الصناعة. ولم يكن الحكم الأندلسي في يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى، كما لم تكن قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت في أيام عبد الرحمن، فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد. وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل في أوروبا وإفريقيا، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا. وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلاً واحداً، عانده كل شيء فقهره. ووقف في طريقه كل شيء فحطمه. بعث الأندلس من حضيَض البؤس إلى قمة القوة والازدهار، ولم تصل البلاد إلى كل هذا إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته».

الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ):

كان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء أمراء بني أمية في الأندلس. وقد خلفه الحكم المستنصر الذي أتاحت له فتوح أبيه وما حازه من نصر وظفر على أدائه فترة من الهدوء والطمأنينة، إذ شعر نصارى الشمال بقوة الدولة التي تركها الناصر، فلم تعترضه هذه الثورات الجامحة التي اعترضت أباه في العشرين السنة الأولى من عهده؛ كما وجد الحكم حكومة منظمة أقام دعائمها أبوه، «فجرى على رسمه، ولم يفقده من ترتيبه إلا شخصه. وولى حجابته جعفراً الصقلي»، الذي أهدى له يوم ولايته هدية نفيسة تدل على ضخامة ثروة الأندلس وما كانت تتمتع به من يسر ورخاء[٢].

ولم يقف في وجه الحكم أحد من إخوته وأعمامه وغيرهم، وجلس المستنصر على سرير الملك في البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية في السطح الممرد[٣]. وقد بايعه إخوته. ثم بايعه الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثم أصحاب الشرط وغيرهم[٤].

---

(١) The Moors in Spains 126 - 127 ترجمة علي الجارم ص ١١٧ - ١١٨.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٠.

(٣) مرد البناء: ملسه وسواه وصقله.

(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٣.

وكان الحكم الثاني ميالاً بطبعه إلى السلم والدعة، وكان الرعب الذي غرسه الناصر عظيماً في قلوب أهل الأندلس، وخاصة مسيحيي الشمال الذين كانوا لا يزالون يشعرون بقوة الخلافة. ولم يكن الحكم ضعيف القلب أو جباناً، حتى إنه كان يقود الجيوش بنفسه لمحاربة نصارى ليون إذا نقضوا عهودهم، وبلغ من قوة دولته أن استنجد به أردون ملك جليقية، فاحتفل الحكم بقدومه. . . ووصل إلى الحكم وأجلسه. ووعده بالنصر من عدوه (فريدلند قومس[١] قشتيلية)، وخلع عليه. . . وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فريد لند القومس، وأعطى على ذلك صفقة يمينه. ورهن ولده غرسيه، ودفعت الصلات والحملان له[٢] ولأصحابه، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة مع قمامسة[٣] أهل جليقية وسمورة وأساقفهم، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبو الناصر معه، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها، كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين، ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما، يسألان الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه. وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين. ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة. . . في جماعة من الأساقفة والقمامسة يسألون الصلح[٤].

كذلك بعث الحكم المستنصر جنده إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط، وخطب له على منابرها. وأبطلت الخطبة للفاطميين، كما قضى على نفوذ الأدارسة بالعُدوة بنواحي الريف[٥].

وكان الحكم مشغوفاً بالاطلاع والقراءة، وجمع كثيراً من الكتب، وأرسل الرسل لابتياعها من دمشق وبغداد والقاهرة، حتى زخرت خزانة كتبه بقرطبة بأربعمائة ألف كتاب، في وقت لم تعرف فيه الطباعة. وامتاز الحكم بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها ولا غرو فقد كان غزير العلم واسع الاطلاع، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب[٦]، «وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر». وبلغ من

---

(١) القومس بفتح القاف وتسكين الواو: الأمير وجمعها قمامسة.

(٢) في الأصل الحملات، والصواب الحملان. (٣) في الأصل قواميس وهو تحريف، أنظر القاموس.

(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٨١.

(٥) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٤٦.

(٦) Lane - Pool; The Moors in Spain pp. 155 - 156.

اهتمامه بجمع الكتب كان إذا ظهر كتاب جديد بعث إلى صاحبه في طلبه، من ذلك أنه لما علم بظهور كتاب الأغاني طلب من مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني أن يبيعه إياه، وبعث له بألف دينار من الذهب، فبعث به إليه قبل أن يرسله إلى العراق(١).

تولى الحكم المستنصر في اليوم الثاني من شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ، بعد أن حكم ست عشرة سنة.

هشام الثاني المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩) - المنصور بن أبي عامر:

خلف الحكم ابنه هشام. ويكنى أبا الوليد، ويلقب المؤيد، وأمه أم ولد تسمى «صبح» وكان هشام في العاشرة من عمره حين ولي الخلافة، فتغلبت على أمره أمه صبح، وتولى تدبير مملكته ابن أبي عامر.

ولد أبو عامر عبد الله بن محمد بن أبي عامر في إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبي بلاد الأندلس. ويرجع في أصله إلى قبيلة مُعافر القحطانية، وقد وفد قرطبة في حداثة سنة، والتحق بجامعها حيث كان أبوه يقوم بالتدريس فيه، وامتاز بين أقرانه بالذكاء وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقي حتى تملكته الرغبة في النفوذ والسلطان.

ولما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد وأصبحت أمه «صبح» تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذي لا يحد، قربت إليها ابن أبي عامر الذي عاش في مبدأ أمره من كتابة الرسائل في القصر. ولم يلبث أن اتصل بكبير الحجاب، وكان يتمتع بنفوذ كبير الوزراء إذ ذاك، فأسند إليه بعض الأعمال في القصر، واستطاع ابن أبي عامر أن يكتسب عطف السيدة صبح، لما كانت تتوسمه فيه من الذكاء وبعد الهمة، فأسندت إليه بعض المناصب الهامة، منها القضاء في بعض المدن، والنظر في الزكاة والمواريث والإشراف على أملاك ولي العهد الخاصة. كما اشتهر ابن أبي عامر بعلو الأدب والتواضع والكرم والعطف على البؤساء، واستطاع بذلك أن يستميل كبار رجال الدولة على اختلافهم.

ولما مات الحكم وآلت الخلافة إلى ابنه هشام، كان ابن أبي عامر ساعد صبح الأيمن، واستطاع أن يقضي على مؤامرة صقالبة القصر الذين كانوا يحولون دون استخلاف

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٤.

هشام؛ واكتسب محبة الناس بقضائه على هؤلاء الصقالبة[١]. ثم لم يلبث أن تخلص من جعفر بن عثمان المصحفي الحاجب ليصفو له الجو في حكم بلاد الأندلس، واتخذ لذلك الأمر عدته، فاستمال إليه الجند بعد أن غزا مملكة ليون وعاد منها محملاً بالغنائم، وعلت منزلته في قلوب الجند، واستطاع بما أوتيه من مكر ودهاء، أن يوقع الخلاف بين المصحفي وغالب قائد الجيش. واتهم المصحفي بالخيانة والسرقة، وزج به في غياهب السجن، وجلس مكانه على كرسي الحجابة، وأصبح الحاكم الحقيقي للدولة الإسلامية في الأندلس، ودعي له على المنابر، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة الصغير، ولبس الملابس المنسوجة بالذهب، ونقش اسمه عليها كما كان ينسج اسم الخلفاء.

وقد مات المصحفي بعد خمس سنوات أشنع ميتة مسجي برداء ممزق. ويقال إن ابن أبي عامر دس له السم[٢]. كما استطاع ابن أبي عامر أن يحول دون سخط رجال الدين عليه، فأمر بإحراق كتب الفلسفة في ميادين قرطبة وأحرق بعضها بيده؛ وبذلك أرضى الفقهاء الذين عرفوا بتشددهم في الدين وكراهتهم للفلاسفة، وسمي حامي الإسلام. ولم تقف سعة أطلاعه وولوعه بالفلسفة عقبة في سبيل تحقيق مطامعه السياسية[٣].

وكان ابن أبي عامر واسع الحيلة بعيد النظر. ولكي يأمن جانب جنده من العرب والصقالبة والأسبان، اتخذ له جنداً من المرتزقة من المغرب ونصارى الشمال واصطنعهم وأدر الأرزاق عليهم، فأحبوه وأخلصوا له، حتى لقد قيل إنه غزا أكثر من خمسين غزوة. ولا غرو فقد استولى على ليون وهدم قلاعها، وقهر برشلونة وجعل كنيسة سانت جاكوب St. Jacob كعبة المسيحيين في غليسية في ذلك الحين أثراً بعد عين[٤].

ولم يلبث ابن أبي عامر أن كفي أمر غالب القائد بزواجه من ابنته، ومات غالب بعد ذلك في إحدى الغزوات. وقد صمم ابن أبي عامر على إنزال العقاب بأهالي ليون لمساعدة منافسه غالب، وحاصر زامورة (٣٧١ ـ ٩٨١)، وأشعل النار حولها، وقتل أربعة آلاف من النصارى، ودخل راميرو الثالث، ولم يكن قد جاوز العشرين من عمره في حلف مع غرسية، وكونت قسطيلية، وملك نافار، ولكن الهزيمة حلت بهم.

---

(١) المراكش ص ١٨ Dozy. The Moslems in Spain.p. 138

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع من المجلد الأول (القاهرة ١٩٤٥) ص ٤٩.

(٣) Dozy pp.490 - 491

(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

ثم استأنف ابن أبي عامر السير إلى ليون. ولما رأى أن الهزيمة حلت بجنده، خلع عمامته وسار نحو العدو، ولحق به قواده وجنده الذين ثارت حماستهم، وطاردوا العدو إلى أسوار ليون، وكادوا يستولون على المدينة لولا أن حال بينهم سقوط الثلوج، وعاد ابن عامر إلى قرطبة محملاً بالغنائم والأسلاب، ولقب من ذلك الحين بذلك اللقب الذي عرف به فيما بعد وهو «المنصور بالله»، وأصبح صاحب السلطان المطلق والنفوذ الذي لا يحد[١].

يقول ستانلي لينيول[٢]: إن ليون والممالك التابعة لها خضعت للمنصور، وأدت الإتاوات إلى قرطبة، فقد تكررت هزائم قشتالة، وبرشلونة، ونافار، وسانت جاكوب، واستولى المنصور على ليون وبمبلونة وبرشلونة، وسانت جاكوب. وحمل مرة ملك نافار على أن يجثو أمامه ذليلاً على ركبتيه، ولأن هذا الوزير، وهو لا يتجاوز عن شيء؛ علم أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة في مملكته، فأطلقت في الحال مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار . . . .

وكان ابن أبي عامر محباً للعلوم مشغوفاً بالأدب مشجعاً للعلماء والأدباء. وقد زخرت بلاد الأندلس في الفترة التي تقلد فيها الحجابة بطائفة من مشهوري العلماء والأدباء والشعراء، نخص بالذكر منهم أبا العلاء صاعد بن الحسن الذي وفد على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ، فأكرمه ابن أبي عامر وأدر عليه الأرزاق، لما اشتهر به من التعمق في اللغة والنحو والأدب والشعر والسير، وما عرف به من التفكه والظرف. وقد ألف أبو العلاء هذا الحاجب المنصور كتباً أجازه عليها، كما أنشد للمظفر بن المنصور بن أبي عامر الذي ولي الحجابة بعد أبيه، قصائد رائعة. وكان لابن أبي عامر مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه العلماء للمناظرة في حضرته[٣]. وقد قيل إنه كتب بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته ويتبرك به[٤]. وقد وضع أبو مروان بن حيان كتاباً سماه «المآثر العامرية» استقصى فيه غزوات ابن أبي عامر التي نيفت على الخمسين غزوة[٥].

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, pp. 497 - 498.

(٢) The Moors in Spain, pp. 163 - 165، ترجمة علي الجارم ص ١٤٨.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٩ ـ ٢٤.

(٤) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٩٣. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع من المجلد الأول ص ٢ ـ ٤٠ حيث تجد ترجمة وافية لأبي العلاء صاعد.

(٥) المراكشي ص ٢٤.

ومن آثار ابن أبي عامر بناء مدينة «الزاهرة» على نهر الوادي الكبير شرقي قرطبة والتي استغرق بناؤها سنتين، ولم تلبث أن أخذت في الاتساع حتى اتصلت أرباضها بمدينة قرطبة نفسها؛ كما بنى قرطبة. وبذل في سبيل بنائها ١٤٠ ألف دينار.

اشتهر المنصور بن أبي عامر بالذكاء والكرم والحزم والعدل والصبر على المكاره وغيرها من الصفات التي جعلته بحق أعظم حكام الأندلس في عهد هشام الثاني المؤيد.

وصفوة القول أن ابن أبي عامر كسب محبة الشعب ورجال الدين والجند بعلمه وبعد نظره وحسن سياسته. ولم يكن للخليفة هشام المؤيد من الصفات ما يؤهله لأن يكون من عظماء الرجال؛ فقد انزوى في قصره، وقضى أوقاته في اللهو. وكانت لابن أبي عامر مطامع خفية كما تقدم، فحجر على هشام ومنع الناس من مقابلته حتى أصبح في الواقع سجيناً، ولم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط[1]. وقتل ابن أبي عامر كل من وقف في سبيله من الأمراء وزعماء القبائل والقواد، مدعياً أنه إنما كان يفعل ذلك لحماية الخليفة، كما شرد حرس الخليفة من الصقالبة، وأنشأ جيشاً جديداً من المرتزقة من قبائل البربر ومن المسيحيين، وقدم البربر على العرب وأقصى هؤلاء من مناصب الدولة...

وقد تولى ابن أبي عامر الحجابة نحواً من سبع وعشرين سنة كانت حافلة بجلائل الأعمال مليئة بالغزوات، وتوفي في آخر غزواته ببلاد مسيحيي الشمال في سنة ٣٩٣ هـ، وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به إلى أن وصل إلى مدينة سالم. وقد أحس نصارى الشمال بقوة شكيمته وشدة بأسه، وفرحوا بموته فرحاً عظيماً إذا كانوا يعتبرونه حامي الإسلام.

الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب:

ولما مات المنصور بن أبي عامر سار ابنه أبو مروان عبد الملك الذي آلت إليه الحجابة وتلقب «المظفر» سيرة أبيه في الاستئثار بالسلطة دون الخليفة هشام الثاني المؤيد. «وكانت أيامه - كما يقول المراكشي[2] - أعياداً في الخصب والأمان؛ دامت سبع سنين إلى أن مات. ثم ثارت الفتن من بعده، وتقلد ما كان يتقلده أخوه عبد الرحمن الذي تلقب الناصر، فخلط،

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, p. 492

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥ - ٢٦.

وتسمى ولي العهد. ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ، فخلع هشاماً المؤيد، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر، فقتل وصلب.

تلقب محمد بن هشام الذي استبد بالأمور بعد أن خلع الحاجب عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عمر بلقب «المهدي»، وتولى أمور قرطبة إلى أن ثار عليه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخوه أبو بكر بمساعدة البربر، فحاربهم، وأسر هذين الأخوين، وضرب أعناقهما. ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة، وتآمروا فبايعوه ولقبوه «المستعين بالله» ونهضوا به إلى ثغر طليطلة»[١].

وقد استنجد سليمان المستعين بالمسيحيين، وساروا مع البربر إلى قرطبة، والتفوا بجيوش محمد بن هشام المهدي الذي حلت به الهزيمة، ولحق بطليطلة، ودخل المستعين قرطبة سنة ٤٠٠ هـ. على أن المهدي استنجد بالمسيحيين أيضاً، وتوجه إلى قرطبة، وهزم المستعين. واضطره إلى الخروج منها مع جنده من البربر، فتفرقوا في البلاد وتوجهوا نحو الجزيرة الخضراء. ولم يكتف المهدي بذلك، بل تتبع المستعين مع أعوانه من المسيحيين. ولكن الهزيمة حلت به، وتتبعهم المستعين بدوره إلى قرطبة. وهنا لجأ المهدي إلى الحيلة، فأخرج هشاماً المؤيد من سجنه، وبايعه. وقام بحجابته، ولكن الأهالي لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه.

ثم دخل المستعين قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ وقتل هشام المؤيد سراً. وجلس على ذلك العرش المتداعي نحو أربع سنين (٤٠٣ ـ ٤٠٧ هـ)، استقل فيها بالأطراف كثير من الأمراء من أمثال باديس بن حبوس في غرناطة. والبرزالي في قرمونة. واليفرني في رنده، وهرزون في شريش. وافترق شمل الجماعة بالأندلس، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة، مثل ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة وابن أبي عامر ببلنسية؛ وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية والجزائر.

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢.

بنو حمود(١)

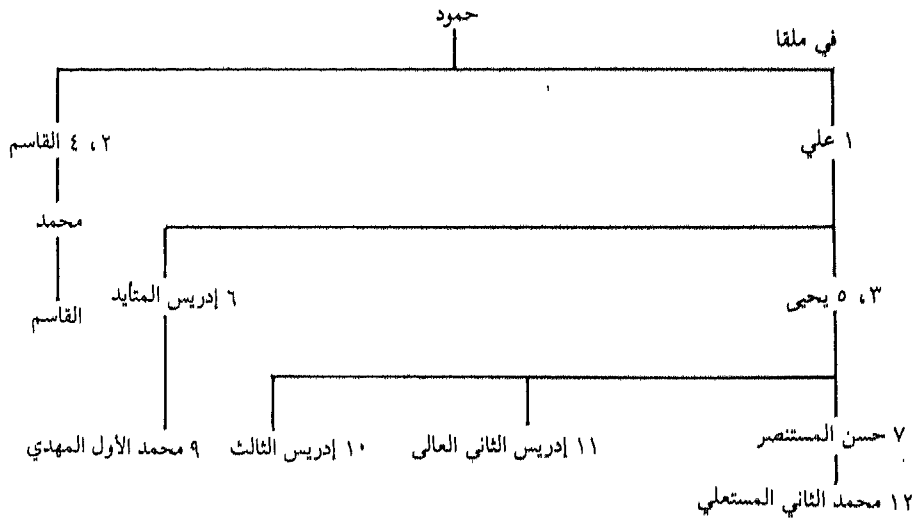
(في ملقا)

٤٠٧ - ٤٤٩ هـ

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ علي الناصر بن حمود	٤٠٧	١٠١٦	٨ إدريس الثاني (العالي)	٤٣٤	١٠٤٠
٢ القاسم المأمون	٤٠٨	١٠١٨	٩ محمد الأول المهدي	٤٣٨	١٠٤٦
٣ يحيى المعتلي	٤١٢	١٠٢١	١٠ إدريس الثالث الموفق	٤٤٤	١٠٥٢
٤ القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢	١١ إدريس الثاني (العالي)	٤٤٥	١٠٥٣
٥ يحيى (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥	(للمرة الثانية)		
٦ إدريس المتأيد	٤٢٧	١٠٣٥	١٢ محمد الثاني المستعلي	٤٤٦	١٠٥٤
٧ حسن المنتصر	٤٣١	١٠٣٩			

(المرابطون)

تسلسل نسب بني حمود



---

(١) Lane - Poole: Muhammdan Dynasties, pp. 23 - 24.

علي بن حمود:

ملك بنو حمود قرطبة سنة ٤٠٧، وقتلوا سليمان المستعين، وأزالوا ملك الأمويين بالأندلس، وحكموا هذه البلاد نحواً من أربعين سنة تخللها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموي. ولكن كيف يقبض الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة، في ذلك الوقت الذي قامت فيه الفتن والثورات، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان؟.

ففي سنة ٤٠٧ هـ ولي بلاد الأندلس علي بن حمود بن أبي العيش الذي ينتمي إلى إدريس بن عبد الله العلوي مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب. وكان علي بن حمود يلي مدينة سبتة، وأخوه القاسم بن حمود يلي الجزيرة الخضراء جنوبي الأندلس. وقد دعا خيران ـ وكان من البربر الذين يميلون إلى هشام المؤيد ـ الناس إلى الخروج على سليمان المستعين وبث الدعوة لعلي بن محمود، وأطمعه في ملك الأندلس. ولم يلبث أن قوي أمر خيران. سار ابن حمود نحو قرطبة ودخلها في سنة ٤٠٧، وبايعه الناس على طاعة هشام المؤيد ـ وكانوا يظنونه أنه لا يزال على قيد الحياة ـ وانهزم سليمان المستعين ومن معه من البربر وأسر، وسيق إلى ابن حمود مع أخيه وأبيه الحاكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وقتل سليمان، ودعي لابن حمود على منابر قرطبة، ولقب «المتوكل على الله»[١].

وقد بحث دوزي مصير هشام المؤيد فقال: إن علي بن حمود لما دخل مدينة قرطبة، كان أول ما اهتم به خيران والصقالبة الآخرون أن يبحثوا عن هشام. وارتاحت نفس ابن حمود لأنهم لم يعثروا له على أثر. وسأل سليمان المستعين في مجلس كان فيه الوزير ورجال الدين عما حدث لهشام، فأجاب بأنه قتل، فطلب إليه ابن حمود أن يدله على قبره. ولما عين مكان القبر، فتح، وسأل ابن حمود أحد خدام هشام: هل هذه الجثة التي وجدت في قبر مولاه جثة هشام؟ فأكد الخادم ـ الذي كان يعرف أن هشاماً لا يزال حياً ـ القول بوفاة هشام خوفاً من بطش ابن حمود، واستدل على أن الجثة التي في القبر جثته بسن له سوداء كان يتميز بها ذلك الخليفة، وأقر بعضهم هذه الشهادة تقربياً إلى ابن حمود، أو خوفاً من إثارة حنقه عليهم وبطشه بهم.

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ ـ ١٠١. المقري ج ١ ص ٢٠٣.

ومن ثم أصبح الصقالبة أمام الأمر الواقع، وهو الاعتراف بموت حاكمهم الشرعي وبخلافة علي بن حمود. ثم أمر علي بن حمود بقتل سليمان المسنعين وأخيه وأبيه. وبينما اقتاد الجند الحاكم أبا سليمان ليقتلوه قال ابن حمود: إذاً لقد قتلت هشاماً؟ فأجاب ذلك الرجل التقي الذي قضى أيامه في العبادة ولم يشترك في الحوادث السياسية: لا! والله شهيد على ما أقول، إننا لم نقتل هشاماً، وإنه لا يزال حياً. وقبل أن يتم كلماته هذه أشار ابن حمود الذي خشي أن ينكشف أمره، إلى سيافه فهوى بالسيف على سليمان فقتله، ثم دفنت جثة هشام الثاني المؤيد من جديد بعد أن احتفل به الاحتفال اللائق بمثله من الملوك.

ويقول دوزي إن هشاماً لم يظهر أبداً رغم ظهور ذلك الدعي والذي كان يشبهه تمام الشبه وادعى ملك إشبيلية، واعترف به أميرها محمد بن عباد، لأغراض سياسية غايتها اتخاذ ذلك ذريعة لاستئثاره بالسلطان هناك ومناوأة خصومه.

ولكن لم يقم دليل على أن هشاماً قتل بيد سليمان المستعين أو أنه مات ميتة طبيعية في أثناء حكمه. وكان أشياع الأمويين في الأندلس الذين عرفوا هشاماً، يصرحون بأن هذه الجثة التي ووريت في التراب من جديد لم تكن جثة هشام، وقد يكون اعتراف سليمان المستعين لعلي بن حمود بأن هشاماً لا يزال حياً وسيلة لتخليصه من الموت، أو أن ابن حمود قد وعده أن يكون هذا الاعتراف مؤدياً إلى نجاته. أضف إلى ذلك أن سليمان لم يكن ميالاً بطبعه لسفك الدماء. ولو أن هشاماً مات حقيقة في عهده، لأمر بعرض جثته على أهل قرطبة كما جرت العادة بذلك، وكما كانت تقضي مصلحته الخاصة ليستميل إليه قلوب الصقالبة الذين بذل ابن حمود قصارى جهده في اعترافهم بسلطانه. ولم يكن ابن حمود يجد وسيلة أحسن من هذه ولو أنهم تحققوا موت هشام، أضف إلى ذلك شهادة الحاكم أبي سليمان، الذي لم يرض عن تصريح ابنه سليمان، وأشهد الله على أن هشاماً كان لا يزال على قيد الحياة. فهل كذب هذا الرجل الورع في آخر ساعاته من الدنيا وهو مقبل على الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين؟

ويميل دوزي إلى تصديق أقوال نساء قصر هشام وخصيانه، الذين أقروا بأنه جاهد للفرار من قصره في عهد سليمان؛ وأنه بعد أن استخفى في قرطبة وعاش كما يعيش الصناع العاديون، هرب إلى آسيا الصغرى، فهل تم له ما أراد من ذلك بإغضاء سليمان عنه؟ وهل أقسم هشام بأن لا يزعج سليمان بعد ذلك؟ وهل اتصل أحدهما بالآخر بالمراسلة؟ هذه أسئلة توحي بها إجابة الحاكم أبي القاسم المستعين ساعة قتله، ولكنها مجرد احتمالات لا

يقين معها. ولا يبعد أن يكون هشام، الذي قلق من سماع اسمه تردده الإشاعات ويستغله ذوو الأطماع، فقد رأى أن يلجأ إلى مكان بعيد في إحدى جهات آسيا المجهولة، يقضي فيه البقية الباقية من حياته المليئة بالآلام والأحزان في دعة واطمئنان. وقيل أيضاً إنه آثر أن يقضي بقية أيامه في التعبد بالمدينة بعيداً عن ذلك العرش الذي التف حوله الطامعون وكثرت عنده الفتن والمنافسات[1].

وقد أفلت من هذه الفتنة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وترك قرطبة واستخفى بجبل جيان، فبايعه خيران ولقبه المرتضي، وكان قد خرج علي ابن حمود. وتبعه أمراء سرقسطة وشاطبة وبلنسية وغيرها ويمموا شطر غرناطة. ولما وصلوا إليها أرسل عبد الرحمن المرتضي إلى زاوي، وكان قد بلغ سليمان المستعين بالخلافة، كتاباً رقيقاً يدعوه فيه إلى مبايعته. ولما قرأ زاوي هذا الكتاب، أجاب بسورة الكافرون: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين﴾**[2].

ولم يلبث علي بن حمود أن قتل في السنة التالية في أثناء محاربته أهل جيان المشايعين للأمويين. وقد قيل في سبب قتله إن ثلاثة من الصقالبة الذين تمتعوا بعطفه هم الذين قتلوه. ولما سئلوا عن الأسباب التي حملتهم على ارتكاب جريمتهم أجابوا بأنهم لا يحملون لعلي ضغينة أو حقداً، وإنما قتلوه غيرة للوطن وتخليصاً له من ذلك الحاكم الذي أصبح لا يحتمل طغيانه وظلمه وجبروته، كما أنهم لم يقوموا بهذا العمل بتحريض خيران أو أهالي قرطبة[3].

خلفاء علي بن حمود:

ثم تولى القاسم بن حمود ملك قرطبة، ولقب «المأمون». ولكن ملكه لم يطل إذ خرج عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود أمير سبتة في سنة ٤١٣ هـ[4]، وتلقب «المعتلي». وفر القاسم إلى إشبيلية حيث بايعه القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد وانضوى

---

(١) Dazy. The Moslems in Spain. pp. 565 - 566

(٢) ١٠٩ : ١ - ٦ Dozy Ibid.p.568

(٣) Dozy Ibid. p. 586 أنظر أيضاً المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٤.

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

تحت لوائه عدد كثير من البربر، وسار بهم إلى قرطبة، فملكها في السنة التالية وبقي بها ست سنين. ولم يلبث يحيى أن سار إلى قرطبة، وأسر القاسم وحبسه إلى أن مات يحيى وملك أخوه إدريس، فقتله (٤٣١ هـ) وهو في الثمانين من عمره[١].

ولما انهزم القاسم بن حمود وأنصاره من البربر، أجمع أهل قرطبة على إعادة الخلافة إلى بني أمية، فبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر في ١٣ رمضان سنة ٤١٤ هـ، ولقب «المستظهر بالله»، ولكنه لم يبق في الخلافة أكثر من شهر وسبعة عشر يوماً، ثم قتل، فبايع الناس محمد بن عبد الرحمن الناصر، ويكنى أبا عبد الرحمن الأموي (ذو القعدة ٤١٤ هـ)، ولقبوه «المستكفي بالله». ولم يهتم الخليفة الجديد إلا بإشباع بطنه وشهواته، ولم يبق في الخلافة غير ستة عشر شهراً حيث ثار عليه أهل قرطبة في شهر ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ وخلعوه.

ولما توفي المستكفي عاد أهل قرطبة إلى دعوة الحموديين، وبايعوا يحيى بن علي بن حمود (المعتلي بالله) للمرة الثانية، وخطب له على منابر قرطبة سنة ٤١٦ هـ. ولكنه آثر البقاء في مالقة، وولى قرطبة عبد الرحمن بن عطاف اليفرني، وبقي يحيى بن حمود خليفة على قرطبة إلى أن أبطلت الخطبة للحموديين في سنة ٤١٧ هـ، وأعيدت إلى الأمويين. وبايع الناس أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه «المعتمد بالله» (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ودخل قرطبة في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ. ولكن عهده امتاز بكثرة الفتن والاضطرابات، ولم يلبث أن خلع في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٥) أن هذا الخليفة الأموي كان يساعد البربر ويحسن إليهم. «فنفر عنه أهل قرطبة فوضعوا عليه من خلعه».

وذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٤) أيضاً أنه بعد أن قطعت الخطبة ليحيى بن علي بن حمود للمرة الثانية، وبويع هشام الثالث المعتمد بالله (٤١٨ ـ ٤٢٢ هـ) سار يحيى إلى قرمونة فأقام بها محاصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها فأتاه الخبر يوماً أن خيلاً لأهل إشبيلية قد أخرجها القاضي أبو القاسم بن عباد إلى نواحي قرمونة، فركب إليها ولقيهم وقد كمنوا له، فلم يكن بأسرع من أن قتل، وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة».

---

(١) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤.

بويع بالخلافة بعد يحيى أخوه إدريس بن علي (٤١٧ ـ٤٣١ هـ) صاحب سبتة وطنجة، وسار إدريس إلى مالقة بعد أن أناب عنه ابن أخيه حسن بن يحيى في حكم سبتة. وتلقب إدريس «المتأيد بالله» وبقي في الخلافة إلى سنة ٤٣١ هـ (وقيل سنة ٤٣٠هـ).

ولكن القاضي أبا القاسم بن عباد ناوأ سلطان الحموديين، فأرسل ابنه إسماعيل لانتزاع هذه البلاد من أيديهم، فاستولى على قرمونة وأشبونة وأستجة. وقتل ابن عباد وأرسل رأسه إلى إدريس الذي لم يلبث أن مات بعد يومين، فملك بعده ابنه محمد الأول الجزيرة الخضراء ولم يلقب نفسه بلقب خليفة.

وآلت الخلافة بعد محمد إلى حسن بن يحيى بن علي بن حمود الذي تلقب «المستنصر بالله»، ولكنه لم يلبث أن مات في سنة ٤٣٤ هـ. وقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته انتقاماً لقتل أخيها يحيى. وأخرج البربر إدريس الثاني بن يحيى وبايعوه بالخلافة ولقبوه «العالي». وقد اشتهر بالتصدق على الفقراء حتى كان يتصدق بخمسمائة دينار في كل أسبوع وسمح للمبعدين بالعودة إلى بلادهم ورد إليهم مملكاتهم. كما اشتهر إدريس بالأدب وأجاد الشعر. غير أنه يؤخذ عليه مصاحبة الأشرار الذين أغدق عليهم ومنحهم كثيراً من الحصون وسلم إليهم وزيره موسى بن عفان فقتلوه، كما اعتقل محمد والحسن ابني عمه إدريس الأول بن علي. ولما ظهر سوء سياسته، خرج عليه أنصاره وبايعوا ابن عمه محمد الأول بن إدريس بن علي (٤٣٨ ـ ٤٤٤ هـ) ولقبوه «المهدي». وقد عرف بالشجاعة والإقدام، فهابه البربر وخافوه، وعملوا على التخلص منه، ولذلك كتبوا إلى إدريس بن يحيى (٤٤٤ ـ ٤٤٥ هـ)، ثم بايعوه بالخلافة ولقبوه «الموفق»، وخطب له بسبتة وطنجة.

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٥) أن الأمور اضطربت في أواخر أيام بني حمود حتى إنهم لقبوا أربعة من أفراد البيت الحمودي بالخلافة في وقت واحد وفي مكان ضيق من الأرض لا تجاوز مساحته ثلاثين فرسخاً، فولي الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة، وبقي محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة ٤٥٥ هـ. فلما تولى إدريس (الأول المتأيد) ابن علي؛ قصد إدريس بن يحيى مالقة فملكها، ثم انتقلت إلى صنهاجة.

وبويع محمد بن إدريس الثاني العالي بالخلافة وتلقب «المستعلي» (٤٤٦ هـ)، غير أنه لم يكن له من الأمر شيء، بل امتازت الثلاث السنين التي قضاها في الحكم بقيام الفتن والثورات. وكان محمد آخر من ولي الحكم من بني حمود، فقد تغلب باديس بن حبوس

على مالقة في سنة ٤٤٩ هـ، وخلع محمداً الذي أرغم على المسير إلى المرية، ثم بـويع بالخلافة ببلاد المغرب سنة ٤٥٦ هـ حيث بقي بها إلى أن توفي سنة ٤٦٧ هـ.

ويقول المقري (جـ ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨): «وانقرضت دولة الأشراف الحموديين من الأندلس، بعد أن كانوا يدعون الخلافة... وانقـطعت الدولـة الأمويـة من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتثر الأمراء والرؤساء من البربر والعـرب والموالي بـالجهات، واقتسمـوا خطبتهـا، وتغلب بعض على بعض واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزي للطاغيـة أن يظاهـر عليهم أو يبتزهم ملكهم. وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قـطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، فخلعهم، وأخلى منهم الأرض. فمن أشهرهم بنو عامر ملوك أشبيلية في غربي الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير بسائر المغرب والمشرق. وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هـو كاف، ومنهم بنـو جهور. كانوا بقرطبة في صورة الـوزارة حتى استولى عليهـا المعتمد بن عبـاد وأخذ قـرطبة وجعل عليها ولده، ثم كانت لـه وعليه حـروب وخطوب، وفـرق أبناءه على قـواعد الملك وأنزلهم بها، واستفحل أمره بغرب الأندلس، وعلت على يده من هنالك من الملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة، وابن الأفطس ببطليوس، وابن صمادح بالمرية وغيـرهم. فكانـوا يخطبون سلمه ويغلون في مرضاته. وكلهم يدارون الطاغية ويتقونة بالجـزي، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين (سنة ٤٤٨/١٠٥٦ م)، واستفحل ملكه، فتعلقت آمال الأندلس بإعانته، ضايقهم الطاغيـة في طلب الجزيـة، فقتل المعتمـد اليهودي الـذي جاء في طلب الجـزية للطاغية بسبب كلمة قالها آسفه بها (آلمه). ثم أجاز البحر صريحاً إلى يوسف بن تاشفين، فأجاز معه البحر، والتقوا معه في الزلاقة، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى، ونصر الله تعالى الإسلام نصر الأكفاء له».

وقـد أدى انقسـام بـلاد الأنـدلس إلى ضعف المسلمين، ومهـد السبيـل لـلإمـارات المسيحية في الشمال للقيام في وجه أمـراء العرب على أثـر ما قـام بينهم من التنافس على الخلافة، حتى بلغ من تنافسهم أن كان بعضهم يستعين بـالمسيحيين على منافسيـه. وبلغ القونس الرابع حاكم قشتالة من القوة بحيث أرغم أمراء المسلمين المجاورين له على دفـع الجزية.

وعلى الرغم من ذلك الانحلال الذي دب في جسم الدولة الأموية في الأندلس، كان عصر ملوك الطوائف من أزهى العصور في العلوم والفنون والآداب. ولا غرو، فقد نافس كل من إشبيلية وطليطلة ومالقة وبلنسية وغيرها من حواضر هذه الدويلات، قرطبة بعد أن كانت وحدها مركزاً للعلوم والفنون في بلاد الأندلس.

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

١ ـ الاثنا عشرية

زخر العصر العباسي الثاني بكثير من الحركات السياسية والدينية التي كان لها أثر بعيد في تاريخ هذا العصر. فقد قام الشيعيون بحركات ثورية كان من أثرها في انتزاع كثير من بلاد الدولة العباسية، وانتشار المبادىء الشيعية، وخاصة مبادىء الإسماعيلية بين القرامطة في سواد الكوفة، وفي البحرين، وفي شمالي العراق، وفي بلاد اليمن على يد ابن حوشب وخلفائه من الصليبيين خاصة. ولم تخل بلاد الفرس من دعاة الإسماعيلية في هذا العصر، وتكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم في مصر، وامتداد رقعتها إلى فلسطين والشام، وإلى بلاد الحجاز وغيرها، وخطب للفاطميين في الموصل وبغداد حيناً من الدهر.

وظهر كذلك في هذا العصر كثير من الحركات السياسية والدينية على أيدي الخوارج والزنج. وعلى الرغم من أن العباسيين استطاعوا أن يقضوا على هذه الحركات، إلا أنها شغلت الدولة العباسية وكلفتها كثيراً من الدمار والأموال. أضف إلى ذلك حركات المعتزلة الذين انتعش مذهبهم حيناً من الدهر، وتأثروا بالفلسفة الإغريقية كما تأثر بها إخوان الصفا مؤلفو الرسائل الفلسفية المشهورة، وذاع مذهب السنة بظهور أبي الحسن الأشعري وحجة الإسلام الغزالي، وتطورت آراء المتصوفين، فظهر منهم المعتدلون والغلاة على ما سيأتي.

ففي أواخر الدولة الأموية انضم فريق كبير من الزيدية الذين كانوا قد اعتزلوا زيد بن علي بن زيد العابدين بن الحسين بن علي، إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق. والإمام ـ على ما ذهب إليه الإمامية ـ يكتسب حقه في الإمامة بالوراثة عن علي بن أبي طالب باعتباره خليفة النبي شرعاً. ويكون الإمام وارثاً للنبي عن طريق ابنته فاطمة، ويغلب في

اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً، بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ قد أدى ـ على ما رأينا ـ إلى انقسام الشيعة الإمامية قسمين:

١ ـ الإمامية الموسوية:

وقد أطلق عليهم فيما بعد الإثنا عشرية، وكانوا يقولون بإمامة موسى الكاظم، الابن الأصغر لجعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع.

٢ ـ الإمامية الإسماعيلية:

ويقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر، وكان أكبر أولاد أبيه. ومع أن وفاته كانت في حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ، حول أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد المستور؛ وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية، لتمييزهم عن طائفة الإثنا عشرية[١].

وفي شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكري[٢]، وهو الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية، ولد سماه محمداً من أم ولد اسمها صقيل. فلما توفي الحسن في سنة ٢٦٠ هـ كان ابنه محمد في الخامسة من عمره، فأصبح الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الموسوية الذين عرفوا فيما بعد بطائفة الإمامية الاثني عشرية. ويقال إن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامرا وأمه تنظر إليه؛ ولكنه لم يعد، ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين.

ومن هنا تنسب إلى محمد الإمام الثاني عشر غيبتان: الغيبة الصغرى، وتبدأ بمولده في سنة ٢٥٥ هـ وتنتهي بموت أبيه في سنة ٢٦٠ هـ، والغيبة الكبرى، وتبدأ من اختفائه أخيراً في سنة ٢٦٥ هـ إلى الآن، ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم. ولهذا يعتقد الإمامية الإثنا عشرية أن محمداً الإمام الثاني عشر سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. ومن ثم سمي الإمام المنتظر، وصاحب الزمان، والقائم بالأمر، والحجة.

وقد ذكر المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٥ هـ أن الحسن العسكري

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) نسبة إلى العسكر. والمراد هنا مدينة سامرا التي أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكراً لجنده الأتراك، ولكنها لم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو ستين سنة (٢٢١ ـ ٢٧٩ هـ)، ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة.

عهد بنشر دعوته إلى بعض رؤساء الشيعة: فكان أبو سعيد العمري رئيس الإمامية الإثني عشرية الوكيل الأول، والنميري الذي يعتبرونه أصل الطائفة النصيرية[١] الوكيل الثاني، وحسن بن جعفر النوبختي الذي قامت الدعوة لآل عليٍّ على يد رجال من بيته الوكيل الثالث.

وقد ظلت طائفة الإمامية الإثنا عشرية معيناً يمد طائفة الإمامية الإسماعيلية بمشهوري الدعاة الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ الإسماعيلية مثل ابن حوشب، وابن فضل اليمني اللذين قامت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن بفضل جهودهما، وأبي عبد الله الشيعي المحتسب الذي يرجع إليه الفضل في نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. ويظهر أن هؤلاء الدعاة الجريئين ملوا انتظار عودة الإمام الثاني عشر فعملوا على تحقيق آمالهم في ظل إمام الإسماعيلية المستور الذي يترقب الفرص المواتية لكي يظهر للناس ويملأ الأرض عدلاً، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثاني عشر، الذي طالت غيبته، وغدا ظهوره في نظرهم أمراً بعيد الوقوع[٢].

٢ ـ الإسماعيلية أو السبعية

(أ) دور الستر:

قام النزاع بين الموسوية أشياع موسى الكاظم وبين الإسماعيلية أشياع أخيه إسماعيل ومحمد بن إسماعيل من بعده. وهؤلاء يقولون ببطلان إمامة موسى، لأنه قد نص على إمامة إسماعيل، إلا أن المعتدلين من الإسماعيلية لم يعترضوا على إمامة موسى في حياة أبيه، وقالوا إنه إمام مستودع (acting or trustee Imam) كالحسن بن علي بن أبي طالب الذي لم يستطع أن يورث الإمامة لأبنائه، رغم أنه كان إماماً، على حين كان الإسماعيلية يرون أن إسماعيل إمام مستقر (Permanent or necessery Imam) يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه، فهو والحالة هذه كالحسين بن علي بن أبي طالب[٣]. ويرى بعض آخر أن جعفر الصادق

---

(١) من أشهر الفرق الاثني عشرية وغلاتهم الذين يؤلهون علي بن أبي طالب، ولا يزال لهم بقايا في فارس والشام.

(٢) Dozy: Histoire des Musulmanes d'Espagne, vol. III, p.128.

(٣) Bernard Lewis: The Origins of Isma'ilism, pp. 49 - 52; Ivanow: Kalami pir, p. xlviii.

عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقية (تظاهراً بغير ما يخفي ليتقي سطوة الحاكم)، حتى لا يتعرض أبناء إسماعيل، وهم الأئمة الحقيقيون، لاضطهاد العباسيين. ويرى بعض المؤرخين أن جعفر الصادق خلع ابنه إسماعيل من الإمامة لأنه رُمي بشرب الخمر وسوء السيرة، ويعتقد أنصاره عصمته زاعمين أن شرب الخمر قد يكون لحكمة قد لا يستطيع المرء فهمها.

ومن ذلك يتبين أن الإمام المستودع هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ولا يستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده، كالحسن بن علي في نظر الإمامية، وموسى الكاظم في نظر معتدلي الإسماعيلية، وأن الإمام المستقر هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ويستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده، كالحسين بن علي وأبنائه من الأئمة، وكإسماعيل بن جعفر في نظر الإسماعيلية.

كان من أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعيين عامة، أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم في طي الكتمان. ولا غرو فقد أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية في الحجاز وبأخيه إبراهيم في العراق سنة ١٤٥ هـ، وقتلوا الحسين بن علي بن الحسن في موقعة فخ (سنة ١٦٩ هـ) التي هرب منها يحيى بن عبد الله صاحب الديلم، وأخوه إدريس بن عبد الله الذي أسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، وخرج في خلافة المأمون محمد الديباج بن جعفر الصادق بمكة، والقاسم بن إبراهيم بن الحسن الذي استتر في مصر نحواً من عشر سنين، وبث دعاته في مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وفي بلخ والطالقان ومرو، وظل على ذلك إلى أن انتقض عليه أمره في عهد المعتصم[١].

لذلك لا نعجب إذا رأينا أئمة الإسماعيلية يلجئون إلى نشر دعوتهم في الخفاء، وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية، ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة[٢]، وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم، وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سَلَمْية من أعمال حماه ببلاد الشام مركزاً لنشر الدعوة، وكانوا يبعثون من هذه المدينة الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية، ويعهدون في تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم في هذا الدور، وهو دور الستر، نواب الأئمة أو الحجج، وهؤلاء يرسلون دعاة

---

(١) أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب (الطبعة السادسة) ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٤ ـ ٣٦.

من قبلهم لنشر المذهب الإسماعيلي في أرجاء العالم الإسلامي.

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين تصدوا لنشر هذا المذهب وكانت إليهم رياسة هذه الدعوة، ميمون القداح الذي وضع دعامة المذهب الإسماعيلي؛ حتى اعتقد البعض أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه، واعتقد بعض آخر أنه كان يصدر في عمله عن ميول شعوبية ترمي إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى الفرس، وأنه إنما اتخذ قداحة العيون أو تطبيبها (هي عملية استخراج ماء من العين) وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية، وهي نشر المذهب الإسماعيلي. ومهد بذلك السبيل لابنه عبد الله الذي أقام في سلمية، وابتدع دعوة منظمة قسمها إلى سبع درجات أو مراتب زيدت بعده حتى أصبحت تسعاً في أيام الفاطميين، ولم يمت عبد الله حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت في كثير من البلاد الإسلامية.

ولما مات عبد الله بن ميمون خلفه في رياسة الدعوة الإسماعيلية ابنه أحمد[1]. ويرمي ابن النديم (ص ٢٦٥) أن الذي خلف عبد الله ابنه محمد، وذكر غيرهم أن أحمد هو الذي خلف أباه عبد الله وأنه كان يلقب أبا الشلعلع، ويظهر أن عبد الله اتخذ من سلمية مركزاً رئيسياً لنشر الدعوة، وعين ابنه الحسين لرياسة الدعوة بها، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع لرياسة الدعوة في بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة وبغداد؛ وعين أحد أولاده لرياسة الدعوة في فارس. ولما مات الحسين بن عبد الله حول سنة ٢٦٠ هـ، عهد عبد الله إلى ابنه أحمد أبي الشلعلع برياسة الدعوة في سلمية والعراق. ومن ثم انتقلت إليه رياسة الدعوة بعد موت أبيه حول سنة ٢٧٠ هـ، وأصبح وصياً على سعيد ابن أخيه الحسين الذي يزعم بعضهم أنه عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين. وقد بعث أحمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة في بلاد اليمن، كما بعث أبا عبد الله الشيعي إلى اليمن لتلقي أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب.

أرسل عبد الله بن ميمون وهو في الأهواز أحد دعاته؛ وهو الحسين الأهوازي، إلى سواد الكوفة، حيث لقي حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط. الذي لم يلبث أن دخل في الدعوة وساعد نشرها في سواد العراق. بعد أن ترك له الحسين الأهوازي أمر الدعوة، وصادفت الدعوة الإسماعيلية على يد حمدان رواجاً عظيماً بين العرب.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٤٨. النويري: نهاية الأرب، مخطوط جـ ٢٦ ص ٢٤.

وكان من أكبر دعاة حمدان، صهره عبدان الذي صادفت الدعوة الإسماعيلية على يده كثيراً من النجاح، حتى أن أبا سعيد الجنابي مؤسس دولة القرامطة في البحرين، وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال، أي شمالي غربي بلاد العراق وبادية السماوة وبعض بلاد الشام قد أخذا الدعوة عنه. ولم يلبث أن اختفى حمدان قرمط، وقتل عبدان على أثر انتقاضهما على أبناء القداح بعد سنة ٢٨٠ هـ، وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه ونحو الجنوب على يد أبي سعيد الجنابي.

بدأ زكرويه ينشر دعوته في الخلفاء وامتد نشاطه إلى بادية السماوة وبعض مدن الشام. وتسمى هذه الحركة حركة الجزيرة العراقية والشام[١] The Syro Mesoptamian Movement وانتشرت دعوة القرامطة على يد أبناء زكرويه؛ فقد حاصر ابنه يحيى دمشق سنة ٢٨٩ هـ، ولكنه قتل على أبوابها، وانتقلت رياسة الدعوة إلى أخيه الحسين الذي أثار القلق في بلاد الشام حتى قضى عليه محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفي سنة ٢٩١ هـ. وخرج زكرويه من مخبئه وحارب العباسيين انتقاماً لقتل ابنيه ورغبة في نشر الدعوة الإسماعيلية ولكنه قتل في سنة ٢٩٤ هـ.

أما الحسين بن بهرام، ويكنى أبا سعيد الجنابي، نسبة إلى جنابة، وهي بلدة على ساحل الخليج الفارسي شرقاً، فقد قام بنشر الدعوة الإسماعيلية في القطيف، وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة، وعمل على تكوين مجتمع إسماعيلي يدين له بالطاعة. ولكن الدولة العباسية لم تستطع القضاء عليه بسبب انشغالها بحرب قرامطة الشمال بزعامة زكرويه بن مهرويه وأبنائه.

وصفوة القول أن القرامطة في دور الستر أقلقوا العباسيين، فأذكوا الفتن في سواد الكوفة، وفي العراق العربي، وبادية الشام، وفي أكثر أرجاء سورية.

كذلك انتشرت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن على يد ابن حوشب وابن فضل الجدني نسبة إلى جدن، وهي مفازة باليمن. وقد قيل إن أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذي استمال ابن حوشب إليه وأرسله إلى بلاد اليمن، حيث استقر بقلعة لاعة جنوبي مدينة صنعاء، واتخذها مركزاً لنشر دعوته ومد نفوذه. ولم يلبث أن استمال إليه أهالي هذه البلاد

---

(١) Bernard Lewis. TheOrigins of Ismailism, pp. 73 - 74

وأقام الحصون والمعاقل، وانتصر على والي العباسيين وأمراء اليمن، وأرسل الدعاة إلى سائر بلاد اليمن والبحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب.

ولما اتصل بابن حوشب نبأ موت الحلواني وأبي سفيان داعيي الإسماعيلية في المغرب، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي بنشر الدعوة في هذه البلاد. فسار إلى مكة، حيث التقى بحجاج كتامة وصحبهم إلى مصر، وجذبهم إليه ببلاغته، فطلبوا إليه المسير معهم إلى بلادهم. ولما وصل إلى بلاد كتامة وهي بلاد الجزائر اليوم (ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ)، نزل بفج الأخيار بجبل إيكجان من أرض كتامة على مقربة من قسنطينة، وأخذ ينشر دعوته بمساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة. وقد حاول إبراهيم الثاني الأغلبي م(٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ) أن يجذب أبا عبد الله إليه. ولما أخفق في محاولته أرسل إليه حملة (٢٨٧ هـ) انتهت بالإخفاق، كما أرسل إليه حملة أخرى حلت بها الهزيمة.

وفي سنة ٢٩١ هـ وقع في يد داعي الشيعة كثير من مدن المغرب، وساعد على انتصاره موت إبراهيم الثاني الأغلبي، ولحاق ابنه أبي العباس به في السنة التالية، وتولية ابنه زيادة الله (٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ)، الذي انصرف إلى اللهو، وميل وزرائه إلى عقائد المذهب الشيعي الذي اعتقده كثير من أهالي هٰذه البلاد، وفي سنة ٢٩٦ هـ استولى أبو عبد الله على القيروان التي تبعد أربعة أميال عن مدينة رقادة، وفر زيادة الله من رقادة، وزالت دولة الأغالبة بإفريقية، وأطلق عبيد الله المهدي من سجنه في سجلماسة.

وقد استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يجهر بالدعوة لعلي وفاطمة، فأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ، وعلى الحسين وفاطمة[1] وتكللت جهود الإسماعيلية في دور الستر بالنجاح، وقامت الدولة الفاطمية أو دولة الفواطم، التي عرفت أخيراً باسم دولة العبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس هذه الدولة.

(ب) دور الظهور:

١ ـ نشر الدعوة الفاطمية في الدور المغربي:

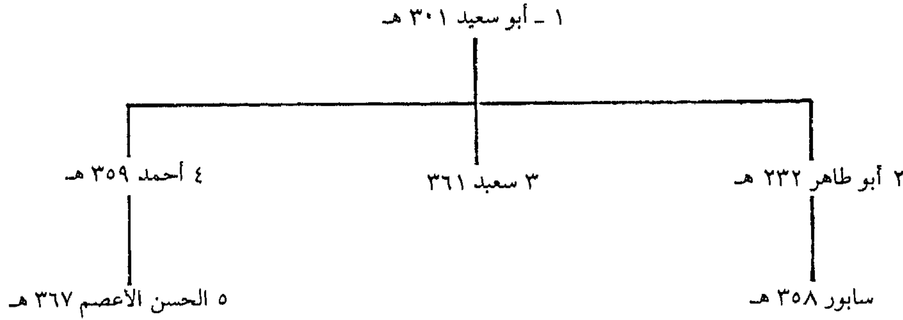
أخذت الدعوة الفاطمية تعمل على تنظيم دعوتها في جميع أنحاء العالم الإسلامي عن طريق دعاتهم. ففي بلاد اليمن تعرضت الدعوة الإسماعيلية للخطر بسبب قيام النزاع بين ابن

---

(١) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٣٦.

حوشب (منصور اليمن) وعلي بن فضل الذي خرج على هذه الدعوة، وحارب ابن حوشب واستولى على عدن ولاعة. ولم يلبث ابن فضل أن مات مسموماً (٣٠٣ هـ). كذلك كان موت منصور اليمن (٣٠٢ هـ) من العوامل التي أضعفت الدعوة الإسماعيلية باليمن[١] واتخذ السنيون من هذه الحالة فرصة للقضاء على المذهب الإسماعيلي، واضطر أنصار الفاطميين إلى نشر دعوتهم في الخفاء، حتى ظهرت قوتهم حول منتصف القرن الخامس الهجري على يد علي بن محمد الصليحي في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي.

وفي البحرين عمل أبو سعيد الجنابي وابنه سعيد على التقرب إلى العباسيين مما أثار



حنق الفاطميين وأنصارهم من القرامطة. فأثاروا الفتن وخلعوا سعيداً وولوا أخاه أبا طاهر. وأقرهم عبيد الله المهدي على ذلك (٣٠٥ هـ). وقام أبو طاهر بحملات إرهابية ليشغل العباسيين، ويتيح الفرصة للفاطميين لامتلاك مصر. ولما مات أبا طاهر سنة ٣٣٢ هـ، أقر الخليفة الفاطمي القائم أخاه أحمد في رياسة الدعوة في هذه البلاد. وقد أدت هذه السياسة إلى قيام النزاع بين أنصار أبي طاهر وأنصار أخيه أحمد، وبين القرامطة والفاطميين حيناً من الدهر.

وفي فارس قام «خلف» بنشر الدعوة الإسماعيلية، وجمع حولها لفيفاً من العلماء من أمثال الداعي غياث الذي أصبح في عهد أحمد بن خلف نائباً لرياسة الإسماعيلية أو الخليفية كما كانت تسمى في فارس[٢]. وأصبغت الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد بالصبغة العلمية والفلسفية. ومن أكبر دعاة الإسماعيلية في فارس: أبو حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ،

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ١٥١.
(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٦٦.

وكان له تأثير كبير على الأمراء، حتى أن يوسف بن أبي الساج أمير الري، فكر في خلع طاعة الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) والدخول في طاعة المهدي الفاطمي، كما جذب أسفار بن شيرويه أمير قزوين، وقائده مرداويج بن زياد الديلمي.

ومن أشهر دعاة الإسماعيلية في فارس محمد بن أحمد النسفي (٣٣١ هـ)، الذي عمل على جذب نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ) أمير خراسان وما وراء النهر، وأدخله في الدعوة الإسماعيلية. ولكن قواده سخطوا عليه لاعتناقه عقائد هذه الدعوة ودبروا مؤامرة لاغتياله، فنزل عن الإمارة لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي في بلاده[1].

وفي مصر كان الفاطميون يرسلون إليها مع جيوشهم دعاة لنشر مذهبهم فيها، فكانوا يندمجون في المصريين، ويلقنونهم عقائد هذا المذهب الذي اعتنقه كثير من المصريين. وكان للخلفاء الفاطميين، نصيب كبير في نشر هذه الدعوة. وليس أدل على ذلك من الكتاب الذي أرسله الخليفة الفاطمي القائم إلى محمد بن طغج الإخشيد يدعوه إلى قبول دعوته والدخول في طاعته[2].

وفي عهد المعز الفاطمي أصبح في مصر جماعة كبيرة تدين بعقائد المذهب الإسماعيلي، فأرسل إلى كافور الإخشيد وإلى أكابر قواده يدعوهم إلى طاعته. ويقول المقريزي (جـ ٣ ص ٢٧): «قدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه لطاعته، فلاطفهم؛ وكان أكثر الإخشيدية والكافورية والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز. وكان كافور نفسه يحسن إلى العلويين في مصر ويدر عليهم الهبات والأرزاق».

٢ ـ نشر الدعوة الفاطمية في الدور المصري:

انقسم القرامطة بسبب قيام المنافسة بين أولاد أبي سعيد فريقين: فريق بزعامة بني أبي طاهر ظل على ولائه للفاطميين. وفريق آخر بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه الحسن الأعصم الذي أصبح يضمر العداء للفاطميين ويعمل على التقرب للعباسيين.

وقد اتخذ الحسن الأعصم من استيلاء الفاطميين على دمشق في سنة ٣٥٨ هـ، ومنعهم الجزية التي كانت تدفع للقرامطة، فرصة للانتقام من الفاطميين، فسار إلى بلاد

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٦ وما يليها.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٢٦ وما يليها

الشام واستولى على دمشق، ثم سار إلى الرملة ثم إلى الفرما وعسكر بجنده في عين شمس. وفي أوائل ربيع سنة ٣٦١ هـ دار القتال بين القرامطة والفاطميين عند باب مدينة القاهرة، ودارت الدائرة على القرامطة الذين ارتدوا إلى القلزم(١). وأرسل الخليفة المعز، وكان لا يزال في بلاد المغرب، مدداً لجوهر، الذي استطاع أن يرد الحسن القرمطي وجيشه إلى دمشق، وأخذ يعد العدة لغزو مصر من جديد، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الإحساء لإخماد ثورة أنصار أبي طاهر.

ولما قدم المعز إلى مصر في أواخر سنة ٣٦٢ هـ أرسل إلى الحسن الأعصم القرمطي كتاباً طويلاً يهدده فيه ويتوعده(٢)، فرد الحسن على هذا الكتاب بكلمات قصيرة تدل على عدم مبالاته بتهديد المعز ووعيده، وعلى شدة رغبته في محاربة الفاطميين، فقال: «وصل كتابك الذيّ قل تحصيله، وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك على إثره والسلام»(٣). ولم يلبث أن ظهر القرامطة في عين شمس (ربيع الثاني ٣٦٣ هـ)، وحميت الحرب بين الفريقين، وانتهت بتشتيت قوة الحسن القرمطي واسترداد الفاطميين دمشق.

وفي أواخر عهد المعز ثار أهل دمشق وأتاحوا الفرصة لدخول أفتكين التركي مولى معز الدولة بن بويه وإعادة الخطبة للعباسيين. وقد عمل العزيز الفاطمي على استمالة أفتكين الذي أبى، واستعان بالقرامطة، وتمكن من الاستيلاء على الرملة، ويمم شطر عسقلان، وحاصر جوهر الصقلي، وحمله على طلب الصلح. ولكن العزيز خرج بنفسه، ودارت بين الفريقين على نهر الطواحين بالقرب من الرملة معركة انتهت بهزيمة القرامطة وأفتكين، وعادت دمشق إلى أيدي الفاطميين.

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة المناوئين لسلطان الفاطميين، واستطاع العزيز أن يجذبهم إليه ويعيدهم إلى الطاعة(٤).

أما من ناحية العباسيين فقد عملوا على القضاء على أعدائهم الفاطميين، وساعدهم في ذلك بنو بويه برغم تمسكهم بعقائد المذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين حتى لا

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٨٦. خطط جـ ٢ ص ١٣٨.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٣٤ - ١٤٣.
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩.
(٤) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٩١.

يتعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر. وهذا يعلل مساعدة البويهيين للقرامطة في حروبهم مع الفاطميين، وقد حاول العزيز الفاطمي أن يجذب إليه البويهيين، فأرسل إلى عضد الدولة بن ركن الدولة رسولاً من قبله (٣٦٩ هـ)، ثم تتابعت رسائله إليه، «فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية»[١].

على أن سياسة المودة قد تبدلت في أواخر عهد عضد الدولة الذي توجس خيفة من ناحية الفاطميين، فجمع مجلساً حضره العلويون الذين أقروا بطلان نسب الفاطميين. ويعتبر هذا العمل بدء تدوين المحاضر العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري، وأنكر فيها نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة. وقد هال العباسيين إقامة الخطبة للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل[٢].

على أننا نلاحظ تطوراً واضحاً في سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليجار (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ) الذي تقرب إلى الفاطميين لإلقاء الرعب في قلوب العباسيين، وذلك بتأثير المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي المستنصر الفاطمي في فارس الذي عمل على مساعدة البساسيري حين خرج على الخليفة العباسي القائم وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر بغداد نحواً من سنة.

وكان الحمدانيون، كبني بويه، يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين، على الرغم من أنهم كانوا يميلون إلى المذهب الإسماعيلي. ولذا نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام في عهد المعز وابنه العزيز الذي عمل على الاستيلاء على حلب من يد سعيد بن سيف الدولة (٣٨١ - ٣٩٢ هـ)، ولم ينقذه سوى تدخل البيزنطيين بقيادة الإمبراطور باسيل الثاني، وموت العزيز في بلبيس وهو في طريقه لفتح حلب سنة ٣٨٦ هـ. ولم تخضع حلب لحكم الفاطميين إلا في عهد الخليفة الحاكم[٣].

وقد انتشرت الدعوة للفاطميين في الموصل بعد أن انتزعها المقلد بن المسيب العقيلي من أيدي الحمدانيين سنة ٣٨٦ هـ وأسس فيها دولة العقيليين، وخطب قرواش بن المقلد للفاطميين على منابر الموصل والأنبار والكوفة والمدائن في شهر المحرم سنة ٤٠١ هـ، مما

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١١.
(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ - ٤٤.
(٣) ابن العديم، تاريخ المسلمين ص ٢٥٦، ٢٥٨.

أثار حنق العباسيين والبويهيين، حتى إنهم فكروا في السنة التالية في عقد مؤتمر كتب فيه محضر بالطعن في نسب الفاطميين(١).

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي المتوفى سنة ٤٥٩ هـ. وقد استعان به الخليفة المستنصر على إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها. ثم خلف علي الصليحي في نشر الدعوة الفاطمية في هذه البلاد ابنه الملك المكرم، والسيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم(٢).

أما علاقة الفاطميين بالأمويين في الأندلس، فقد كانت تنطوي على الكراهية والبغضاء بسبب ذلك العداء التقليدي الذي استمر بين البيتين الهاشمي والأموي منذ أيام الجاهلية. ومما يدل على استمرار ذلك العداء تلك الرسائل التي تبودلت بين العزيز بالله الفاطمي والحكم المستنصر الأموي. ذكر ابن خلكان(٣) أن العزيز كتب إلى الحكم يسبه ويهجوه، فرد هذا عليه بقوله: أما بعد. قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لاجبناك. ويقول العيني(٣): إن الحكم كتب إلى العزيز صاحب مصر كتاباً هجاه فيه وفي أهله، وأنه دعي في نسبه، وأن جده القداح باطني، وكتب في أول كتابه:

ألسنا بني مروانَ كيف تقلَّبتْ ... بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ

فلما وقف العزيز عليه رد عليه بكتاب كتب في أوله:

إذ وُلد المولودُ منّا تهلّلت ... له الأرضُ واهتزَّتْ إليه المنابرُ

عرفتنا فهَجوتنَا ولو عرفناك لأجبناك، والسلام.

ولم يقتصر هذا العداء على الأمويين في الأندلس وحده بل شمل المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية بفضل مساعدتهم، فإن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي ولاه المعز لدين الله الفاطمي بلاد المغرب قبل مسيره إلى مصر واتخاذه القاهرة حاضرة لدولته، لم يهتم هو وأبناؤه من بعده بنشر الدعوة للفاطميين في المغرب.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

(٢) الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣. ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٢٥١.

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢.

(٤) عقد الجمان، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٣٩٦.

وقد قامت الحرب بين المعز الصنهاجي وبين المستنصر الفاطمي الذي استعان بقبائل بني هلال، واستولى على القيروان سنة ٤٤٩ هـ، ففر المعز إلى المهدية، ثم قطع ابنه تميم الخطبة للمستنصر الفاطمي وخطب للقائم العباسي وخلفائه، حتى قامت دولة الموحدين على يد أبي عبد الله محمد بن تومرت الذي تلقب بلقب المهدي، ومات في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨ م)، ثم قطع أحد أخصائه من القواد، وهو عبد المؤمن، الخطبة للخليفة العباسي، وتلقب بلقب أمير المؤمنين[١].

(جـ) تنظيم الدعوة الفاطمية :

كان الإسماعيلية يتظاهرون أمام الناس بأمور تحبب إليهم المذهب الإسماعيلي الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق.

وكان دعاة هذا المذهب إذا شككوا المدعو أو المريد وطلبوا منه حل رموز الدعوة، أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة، وأن يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام. وكانت هذه الدرجات رائجة في دوري الستر والظهور، وقد أولاها الفاطميون كثيراً من العناية، فعقدوا لها المجالس في القصور، والمكتبات والمساجد.

وكانت هذه الدعوة الإسماعيلية تسند إلى «داعي الدعاة»؛ وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة، وكثيراً ما كانت الوظيفتان تسندان إلى رجل واحد، ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً، وله نواب ينوبون عنه في البلاد[٢].

وكان داعي الدعاة يقوم برياسة الدعوة الإسماعيلية ويأخذ العهد على المريدين، إما مباشرة، أو بواسطة نوابه في مصر وفي غيرها من البلاد التي ساد فيها المذهب الإسماعيلي، والإشراف على محاضرات المجالس وتنقيحها وعرضها على الخليفة لإقرارها وتذييلها بإمضائه[٣]. ومن أشهر دعاة الدعاة، أسرة أبي حنيفة النعمان المغربي، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي.

وقد خصص لداعي الدعاة مكان خاص بقصر الخليفة، هو دار العلم، حيث كان يعقد المجالس ويقرأ من مصنفاته على الناس، فيحاضر للرجال، ويعقد للنساء مجلساً خاصاً

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) المؤيد في الدين. السيرة المؤيدية ص ١٢١.

(٣) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٩١

يسمى «مجلس الدعوة» حيث يلقنهن أصول المذهب.

ويتسلم داعي الدعاة كتب الدعوة التي تقرأ على الناس في القصر من سلفه المباشر[١]. أما هذه الكتب فهي من غير شك الكتب التي ألفها دعاة من أمثال أبي حنيفة النعمان المغربي[٢]، ويعقوب بن كلس[٣]، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي[٤] وغيرهم من دعاة الإسماعيلية.

وقد قامت في العصر الفاطمي طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية ألهوا الخليفة الحاكم، وخرجوا على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة. ومن أعظم هؤلاء الغلاة حمزة بن علي الزوزني، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي.

ففي سنة ٤٠٨ هـ جهر حمزة بن علي بألوهية الحاكم، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام، ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز، ثم إلى ابنه الحاكم، الذي أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول (incarnation).

ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية[٥]، وقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخاري الدرزي في نشر عقائد هذا المذهب وشجع الأخرم على الجهر بتأليه الحاكم في سنة ٤٠٩ هـ حيث قتل.

وكان الحاكم يشجع هذه الدعوة في مصر أولاً وفي الشام ثانياً، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله. وقد ادعى تجسم الإله في شخصه؛ وهو وإن لم يصرح بذلك، كان يوافق على آراء

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) ومن أشهر كتبه: كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وكتاب الهمة في معرفة الأئمة، وكتاب المجالس والمسايرات، وكتاب أساس التأويل، وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة

(٣) ومن أشهر كتبه: الرسالة الوزيرية، التي نهج فيها منهج أبي حنيفة النعمان في كتبه.

(٤) ومن أشهر كتبه السيرة المؤيدية.

(٥) الدرز (بالفتح): واحد درزة: الثوب ونحوه، وهو فارسي معرب. ويقال درز بالدال والذال، وأولاد درزة، السفلة والسقطاء والغوغاء من الناس والخياطون، وهم من أسفل الناس والدرزى (بالفتح): الخياط والعامة تضم الدال فتقول درزى، وفي الجمع دورز، والصواب درزى في المفرد، ودررية في الجمع، والشائع اليوم دروز وهو خطأ.

أنصاره، كحمزة بن علي، والدرزي اللذين نسبا إليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى. كما شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمي هذا الاعتقاد، ولم يترددوا في أن ينسبوا إليه بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بحضرته، حتى لقد أرغم كل من لم يقل بألوهية الحاكم على دفع الجزية كأهل الدمة

ومن أهم مميزات الدرزية اتخاذهم تقويماً جديداً يؤرخون به حوادثهم، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن علي.

وكان الدرزية ينقسمون إلى طائفتين: الأولى طائفة الروحانيين وتكون الطبقة المستنيرة التي تلم بأصول المذهب الدرزي. والطائفة الثانية هي طائفة الجثمانيين، وتنقسم قسمين: الأمراء الجثمانيين والعامة أو الجهال، فالأمراء الجثمانيون يتولون شئون الحرب والزعامة الوطنية، والعامة أو الجهال وهم لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه[1].

ولا يسمح لأحد من طائفة الجثمانيين بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اختيار طويل شاق يظهر فيه استعداده لتلقي أصول المذهب الدرزي والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقهاً في عقائده.

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب؛ ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره. وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة؛ لأن الفلسفة، وهي أساس الشريعة عند الفاطميين، قد حلت في عهد الحاكم محل القرآن والسنة. كما نقف من هذه الرسائل على أن داعي الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعياً، بالإضافة إلى ما كان يقوم به المؤذنون خطباء المساجد من نشر المذهب الإسماعيلي.

---

(١) Hitt: The Origins of the Druze People and Religion, p.43.

٣ ـ الخوارج

إذا كان الخوارج قد شاركوا إلى حد كبير في سقوط الدولة الأموية، فقد أقلقوا خلفاء العصر العباسي الأول في المغرب خاصة، حيث مال أهلها إلى مبادىء الخوارج من الإصابة والصُّفْرية وغيرهم الذين بلغت جيوشهم نحو مائة ألف، وخلعوا طاعة أبي جعفر المنصور وهزموا جيوشه واستولوا على مدينة القيروان في عهده أكثر من مرة.

على أن خطر الخوارج لم ينته في العصر العباسي الأول، بل إننا نقرأ عن ثوراتهم التي كانوا يذكونها من حين إلى حين. ففي سنة ٢٥٢ هـ خرج مساور بن عبد الحميد بن مساور الشاري البجلي الخارجي على والي الموصل في عهد الخليفة المستعين، وأخرج ابنه حوثرة من السجن، وحارب هذا الوالي، واستولى على أكثر أعمال الموصل وهزم الجيوش العباسية عدة هزائم، ولكنه لم يستطع البقاء بها فسار إلى الحديثة، وكان قد اتخذها دار هجرته[١].

وقد تعرض مساور لخطر جسيم بسبب انشقاق بعض الخوارج عليه بزعامة عبيدة الذي خالفه في قبول توبة الخاطىء. وكان مساور يرى كما كان يرى الخوارج المعتدلون في أواخر العصر الأموي، عدم تكفيره وقبول توبته، على حين تمسك عبيدة بمبادىء الخوارج الأول في تكفير العاصي، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الفريقين على مقربة من الموصل في شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٧ هـ. وعلى الرغم من انتصار مساور على خصمه وقتله، انتهز الخليفة العباسي المعتمد هذه الفرصة وأرسل الجيوش بقيادة مفلح، الذي استطاع أن ينتصر عليه في عدة مواقع، وأخرجه من الموصل والحديثة. ولكن مساوراً صمد لخصمه واتبع معه خطة الكر والفر والتوغل في الجبال والشعاب والمضايق، حتى نهك قوته وأرغمه على العودة إلى سامرا حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين، واستولى على هذه البلاد، وجبى خراجها، وقويت شوكته واشتد أمره[٢].

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٥٧ هـ أن علي بن مساور وطوقاً الزهيري الخارجين خرجا في الموصل في أربعة آلاف رجل وعاشا في هذه البلاد. وذكر الطبري

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٦١، ٦٦، ٧٢.

٢) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٨١.

(جـ ١١ ص ٢٣٢) في حوادث سنة ٢٦٠ هـ أن الأكراد انضموا إلى مساور الخارجي وقتلوا رجلاً من كبار ربيعة، وأن الحرب قامت بينهما، ولما مات مساور في سنة ٢٦٣ هـ خلفه في زعامة الخوارج أيوب بن حيان الوارقي البجلي، وقام النزاع بينه وبين محمد بن خرزاد الذي ادعى أن مساوراً عهد إليه قبل وفاته، وقتل أيوب، فآلت الزعامة إلى محمد بن عبد الله بن يحيى الوارقي، بالغلام، ولكنه قتل أيضاً. فبويع هارون بن عبد الله البجلي الذي كثر أتباعه وانتصر على ابن خرزاد، واستولى على أعمال الموصل وجبى خراجها. وبذلك استقر الخوارج في نواحي الموصل، وصدوا بني شيبان حين أغاروا عليها (٢٧٢ هـ)، وحاربوا جند يوسف بن أبي الساج قبل أن يستولي عليها في السنة التالية وأوقعوا به الهزيمة[١]. كما صدوا بني شيبان حين حاولوا الإغارة على مدينة نينوى من أعمال الموصل وانتصروا عليهم بمساعدة أهل هذه البلاد (٢٧٩ هـ).

على أن أمر الخوارج أخذ في الضعف بسبب وقوع النزاع بينهم، فقد انشق على هارون زعيم الخوارج محمد بن عبادة المعروف بأبي جوزة، وانضوى تحت لوائه كثير منهم، واستولى على بعض البلاد التي كانت في حوزة هارون، وأقام الحصون، والتقى الجيشان على مقربة من سنجار. وعلى الرغم مما أحرزه هارون من نصر وظفر أضعفت هذه الحروب من أمر الخوارج وأتاحت للعباسيين فرصة التغلب عليهم، واستطاع عامل الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) على آمد أن ينتصر على محمد بن عبادة الخارجي وأن يسوقه إلى دار الخلافة. كما أدى ذلك النزاع إلى انتصار عامل الخليفة العباسي على الموصل على هارون الخارجي (٢٨٢ هـ). وتمكن الحسين بن حمدان من الانتصار عليه في السنة التالية وساقه إلى حاضرة الخلافة، «وخلع المعتضد على الحسين بن حمدان، وطوقه وخلع على إخوته، وأدخل هارون على الفيل، وأمر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدان والتوسعة عليه والإحسان إليه، ووعد بإطلاقه. ولما أركبوا هارون على الفيل، وأرادوا أن يلبسوه ديباجاً مشهراً، فامتنع وقال: لا يحل، فألبسوه كارهاً، ولما صلب نادى بأعلى صوته: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون. وكان هارون صفروياً[٢]».

وبموت هارون بن عبد الله البجلي الشاري ضعف أمر الخوارج في الموصل، ولكنهم ظلوا يقلقون الفاطميين في المغرب والعباسيين في اليمن وعمان خاصة. ففي المغرب اشتد

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٢٩، ١٥١، ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٧ ص١٦٢، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٠.

نفوذ الخوارج بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي راجت دعوته في أواخر عهد عبيد الله المهدي الفاطمي (٢٩٦ ـ ٣٢٢ هـ)، وتفاقم خطره في عهد ابنه القائم، وانتشرت جيوشه في كل أرجاء الدولة الفاطمية في سنة ٣٣٣ هـ، وكان يستولي على مدينة المهدية حاضرة الفاطميين في ذلك الحين. ولم يستطع الفاطميون الانتصار على جيوش أبي يزيد إلا في عهد الخليفة المنصور (٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ)، وقبض عليه وسيق إلى المهدية حيث مات متأثراً من جراحه في شهر المحرم سنة ٣٣٦ هـ.

أما في اليمن وعمان خاصة، فقد انتشر مذهب الخوارج الذين استطاعوا في سنة ٤٤٢ هـ أن يستولوا على مدينة عمان حاضرة هذه البلاد وأقصوا عمال البويهيين عنها. ونشروا الأمن فيها. وأظهر ابن راشد الخال العدل «وأسقط المكوس، واقتصر على رفع عشر ما يرد إليهم، وخطب لنفسه، وتلقب بالراشد بالله، ولبس الصوف، وبنى موضعاً على شكل مسجد»[1].

٤ ـ ثورة صاحب الزنج

أثار الزنج (Ethiopians) وهم طائفة من عبيد إفريقية القلق والرعب في حاضرة الخلافة العباسية. وكان مسرح هذه الثورات الجامحة العنيفة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة، هذه المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط. وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم. وكانوا لا يتقاضون من الأجر شيئاً، بل كانوا يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة على أتم الاستعداد للخروج على ولاة الأمر فيهم[2].

وقد قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسي يسمى علي بن محمد من أهالي الطالقان، ادعى أنه من ولد علي زين العابدين بن الحسين بن علي[3]، كما ادعى أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادعى أيضاً العلم بالغيب وانتحل النبوة[4]. ولكنه

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢١١.
(٢) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٦٧ ـ ٧٧.
(٣) زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ٧٢) ان اسمه علي بن محمد بن الرحيم، واسمه بهبوذا.
(٤) الطبري جـ ١ ص ١٧٦. أنظر الدوري ص ٧٩.

لم يجهر بعقائد المذهب الشيعي على الرغم من ادعائه النسب إلى علي وفاطمة، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج.

وقد علل نلدكه(١) هذه الدعوة الغريبة في هذه العبارة فقال: «لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه، أنه تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذي يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة، وإن كان هو قد افتخر بأنه من نسل علي وفاطمة، لما ينطوي عليه المذهب الشيعي من التوريث الذي لا يلائم عقول مواطنيه».

«ومن ثم يتضح وضوحاً كافياً ـ كما يقول نلدكه (ص ١٥٤) ـ لماذا رفض قرمط المؤسس الحقيقي لمذهب القرامطة، وهو المذهب الشيعي المتطرف الذي قدر له أن يملأ العالم الإسلامي قاطبة خوفاً وهلعاً. أن يرتبط بزعيم العبيد، على الرغم مما قد يفيده من اشتراكه معه في حركته، متأثراً بعوامل مذهبية».

ومهما يكن من شيء فإن صاحب الزنج لم يلبث أن كشف عن ميوله الحقيقية، حتى إن أعداءه سموه دعي علي، كما سموه الخبيث(٢).

قدم صاحب الزنج بلاد العراق، واتصل ببعض بطانة الخليفة المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ). ثم سار في سنة ٢٤٩ هـ إلى البحرين، ودعا إلى تحرير العبيد في البصرة وضواحيها، واستمال قلوبهم، حتى إنهم تركوا مواليهم وانضموا إليه، فعظم شأنه وقويت شوكته. ولقيت دعوته قبولاً بين أهالي هجر والبحرين والعراق(٣). ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ، وأقام هناك سنة، «فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه»(٤).

ويدل هذا النص الذي نقش على لواء صاحب الزنج أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت. ولهذا أول هذه الآيات التي نزلت في سورة التوبة (٩: ١١١) تأويلاً سياسياً قصد به تضليل أنصاره ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى

(١) Sketches from Eastern History, pp. 146 - 147.
أنظر Browne, Lit. Hist of Persia vol. I. p. 545. والدوري ص ٨٠.
(٢) Muir, The Caliphate, p.545.
(٣) الفخري ص ٢٢٧.
(٤) ابن الأثير جـ ٧ ص ٧٣.

بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾. وقد أول صاحب الزنج هذه الآية، بأن المؤمنين، وقد اشتروا أنفسهم، لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية[١].

وسرعان ما قدم صاحب الزنج البصرة، فأسرع إليه بعض غلمانها رغبة في التخلص من الرق. ويقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ٤٧): «وأتاه مواليهم وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده، فبطح أصحابهم، وأمر كل من عنده من العبيد، فضربوا مواليهم أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط، ثم أطلقهم».

وما زال الزنج يلتفون حول صاحبهم حتى كان يوم الفطر، فخطبهم وصلى بهم، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت، ومناهم الأماني الطيبة من إطلاق حرياتهم واستمتاعهم بالأموال التي يغنمونها في حروبهم. واتخذ مدينته التي بناها وسماها «المختارة» منبراً كان يصعد عليه ويسب عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة على الرغم من ادعائه الانتساب إلى علي.

انتشرت جيوش صاحب الزنج في العراق وخوزستان والبحرين، ونهبوا القادسية وهزموا أهالي البصرة، واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة. وألقوا الرعب والفزع في قلوب الأهلين، حتى عجزوا عن مقاومتهم وشكوا إلى الخليفة المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) ما حل بهم من بلاء، فأنفذ إليهم أحد قواده الأتراك[٢]. ولما ولي المعتمد الخلافة (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) سير «جعلان» أحد قواد الأتراك لمحاربة صاحب الزنج بالبصرة، ونشب القتال بين الفريقين، فانتصر صاحب الزنج. وقتل القائد التركي، واستولى على مدينة الأبلة على مقربة من الخليج الفارسي وشط العرب حيث يتفرع دجلة والفرات. ثم استولى على الأهواز وخربها، واضطر أهالي البصرة وما جاورها إلى مغادرة بلادهم والانتقال إلى المدن البعيدة عن مطامع الزنج.

وقد أدخل الزنج الفزع والرعب في قلوب كثير من أهالي البلاد الإسلامية، فاستولوا على البصرة سنة ٢٥٧ هـ، وذبحوا كثيراً من أهلها، وخربوا مسجدها العظيم، وأشعلوا النار في المدينة، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة[٣].

(١) Muir, The Caliphate, p. 545

(٢) ابن الأثير: ج ٧ ص ٧٥ ـ ٧٦. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢.

(٣) ابن الأثير: ج ٧ ص ٨٦ ـ ٨٧.

وبعد ذلك دخلت جموع صاحب الزنج واسط ورامهرمز[١]، فسير إليهم الخليفة المعتمد كثيراً من مشهوري قواده، من أمثال موسى بن بغا الذي قتل عدداً كبيراً منهم. غير أن هذه الهزيمة لم تفل شوكتهم، بل ظل خطرهم يتزايد وانتصاراتهم على الجيوش العراقية تتوالى، فبعث الخليفة المعتمد في طلب أخيه أبي أحمد الموفق طلحة، وكان الخليفة المهتدي قد نفاه إلى الحجاز. وعهد إليه بقتال الزنج. وعلى الرغم من أنه حاز هو وموسى بن بغا شيئاً من النجاح في بعض المواقع، انطلقت جيوش الزنج في غزو العراق وخوزستان والبحرين بشكل جماعات منظمة غايتها النهب والسلب، وألقوا الفزع والرعب في قلوب الأهلين.

ولما اطمأن الموفق من ناحية أعدائه الآخرين تفرغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه وخرج من بغداد إلى واسط في شهر صفر سنة ٢٦٧ هـ. وهزم فريقاً كبيراً منهم وأسر بعضهم. وما زالت انتصارات الموفق تتوالى على الزنج حتى أجلاهم عن الأهواز، وحاصر مدينتهم «المختارة» وبنى بإزائها مدينة سماها «الموفقة» نسبة إليه[٢]. وقطع العباس بن الموفق الميرة عن صاحب الزنج. ثم استولى أبوه على الجزء الغربي من هذه المدينة[٣]. واضطر بعض زعمائهم إلى طلب الأمان بعد أن تضاءل أملهم في إحراز النصر وبدأ بقية الثائرين ينضمون إلى الموفق. فأمنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم وأخيراً سقطت قلعتهم وعاد الناس بعد أن تخلصوا من الأسر والرق وقتل «الخبيث»[٤].

دامت الحرب بين جيوش العباسيين والزنج أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) كما تقدم. وقضى عليهم الموفق وقواده. وقتل «بهبوذا». وكان من قواد صاحب الزنج. وحمل رأسه إلى الموفق. فخر ساجدا، وعلت كلمة الجند بالتهليل والتكبير، على أن أحد أنصار صاحب الزنج رمى الموفق بسهم في صدره وهرب إلى رامهرمز. فبعث به عاملها إلى الموفق فقتله ابنه العباس الذي ولي الخلافة بعد المعتمد. وقد ذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢) أن عدد القتلى في تلك المعارك بلغ ألف وخمسمائة ألف. وذكر صاحب الفخري (ص ٢٢٧) أن عددهم بلغ ألفين وخمسمائة ألف. وقتل صاحب الزنج - على ما ذكره ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٤١) - في ٢ من صفر سنة ٢٧٠ هـ، بعد أن أقلق بال الدولة العباسية

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١١١، ١١٧.
(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢٤، ١٢٥.
(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٣٩ - ١٤٠.
(٤) Muir, The Caliphate, p. 546.

وكلفها كثيراً من الجهود والأموال والأرواح، وظل أتباعه يعيشون في البلاد الإسلامية أربع عشرة سنة وستة أيام، وعلق رأسه على رمح. وزينت بغداد بأبهى معالم الزينة، وطيف برأسه بين مظاهر الفرح، واستطاع الناس العودة إلى بلادهم التي استولى عليها الزنج، وأشاد الشعراء بذكر هذا الانتصار.

٥ ـ المعتزلة

(أ) انتعاش مذهب المعتزلة:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب[١] أن تعاليم المعتزلة ازدهرت في العصر العباسي الأول، وخاصة في عهد المأمون الذي وافقهم على القول بخلق القرآن واستخدم نفوذه في سبيل إقرار هذه العقيدة في أذهان الناس. وسار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن. واقتدى الواثق بأبيه المعتصم وعمه المأمون في انتصاره للمعتزلة وتشدده في فرض آرائه الدينية على الناس. حتى جعل إطلاق أسرى المسلمين في بلاد الدولة البيزنطية مقصوراً على الذين يقولون بخلق القرآن واعتبار من سواهم خارجين على الإسلام.

وقد أوضح أبو الحسن الأشعري[٢] المتوفى سنة ٣٢٤ هـ آراء المعتزلة، فتكلم على آرائهم في التوحيد. وفي المكان والرؤية، وفي قدرة الله سبحانه وعلمه، وفي اختلاف المعتزلة في كون الله لم يزل سميعاً بصيراً. وفي سائر صفات الله، وفي القدر وغير ذلك من المسائل، ولخص الأشعري آراء المعتزلة في التوحيد وغيره في هذه العبارة[٣]:

«أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير؛ وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض وليس

---

(١) الطبعة السابعة (١٩٦٤) ص ١٤١ ـ ١٤٣.

(٢) مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه ١٥٥ ـ ١٥٦.

بذي أبعاض وأجزاء وجوارح واعضاء؛ وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان، ولا يجري عليه زمان ولا يجوز عليه مراجعة ولا العزلة ولا الحول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس، ولا يقاس بالناس، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، ولا تجري عليه الآفات، ولا تحل به العاهات؛ وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له. ولم يزل أولاً سابقاً متقدماً للمحدثات، موجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حياً، ولا يزال كذلك لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا يسمع بالأسماع؛ شيء لا كالأشياء، عالم قادر حي لا كالعلماء القادرين الأحياء؛ وإنه القديم وحده لا قديم غيره ولا إله سواه، ولا شريك له في ملكه، ولا وزير له في سلطانه ولا معين له على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سبق، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه؛ لا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضار، ولا يناله السرور واللذات، ولا يصل إليه الأذى والآلام، ليس بذي غاية فيتناهى، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص. تقدس عن ملامسة النساء، وعن اتخاذ الصحابة والأبناء. فهذه حملة قولهم في التوحيد، وقد شاركهم في هذه الحملة الخوارج وطوائف من الشيع، وإن كانوا للجملة التي يظهرونها ناقصين ولها تاركين».

تطور مذهب المعتزلة في العصر العباسي الثاني. وقد أجاد دوزي[1] في تلخيص تطور هذا المذهب ونموه، فقال إنه اتخذ شكلاً جديداً، وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو، كما انقسم، بطبيعة الحال، إلى أقسام تتفق جميعها في نقط معينة. فقد أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفي الصفات الإلهية، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله، ولكي ينزهوا الله عن الظلم. اعترفوا للإنسان بالحرية التامة في خلق أفعاله. وكان من تعاليمهم أن إدراك وسائل الخلاص وطرق النجاة إنما ترجع إلى سلطان العقل، وأنه يمكن تمحيص هذه المسائل في ضوء العقل، سواء أكان ذلك قبل الوحي أم بعده؛ بمعنى أن الرجل يجب عليه

---

(١) Essai sur l'Histoire de L'Islamisme (trans. by Victor Chauvin) (Paris, 1879), pp. 105 - 107.

في جميع الأزمان والأمكنة أن يرجع إلى العقل في الفصل في تلك المسائل. وقد زادت الفرق الأخرى على هذه الآراء المتفق عليها آراء أخرى خاصة بها.

وقد عالج معظم المعتزلة علم التوحيد بتوسع كثير، بينما انساق آخرون وراء مناظراتهم وشغفهم بالجدل، مما أبعدهم عن روح الإسلام وطوح بهم عن تعاليمه. وكان بعضهم يعتقد بالتناسخ. ومما يدل على صحة هذا القول ما ذكره البغدادي[١] عن خروج الحائطية أتباع أحمد بن حائط القدري، والحمارية من معتزلي عسكر مكرم، على جميع فرق المعتزلة وأهل السنة. فإن أحمد بن حائط القدري ـ وكان من أصحاب النظام في الاعتزال ـ كان يقول بالتناسخ، وزعم هو وفضل الجدني «أن للخلق ربين وخالقين، أحدهما قديم وهو الله سبحانه، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم. وزعما أن المسيح ابن الله على معنى النبي دون الولاة، وزعما أيضاً أن المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة، وهو الذي عناه الله بقوله ﴿**وجاء ربك والملك صفاً صفا**﴾ (سورة الفجر ٨٩: ٢٢)، ﴿**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور**﴾، (سورة البقرة ٢: ٢١٠)؛ وهو الذي خلق آدم على صورة نفسه. وذلك تأويل ما روي أن الله تعالى خلق إلهاً على صورته؛ وزعم أنه هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر». وهو الذي عناه بقوله إن الله تعالى خلق العقل فقال له أقبل فأقبل، وقال له أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت أكرم منك وبك أُعطي وبك آخذ، وقال إن المسيح تدرع جسداً وكان قبل التدرع عقلاً... وأضاف ابن حائط وفضل الجدني فعل الخيرات كلها إلى عيسى بن مريم، وأضافا إليه محاسبة الخلق في الآخرة، والعجب في قولهما أن عيسى خلق جده آدم عليهما السلام». كما كان يتخيل آخرون أن لكل جماعة من جماعات الحيوانات نبياً، وهو حيوان من أنفسهم. ومن الغريب أن نقول إنهم اعتمدوا في عقائدهم هذه على آيتين من القرآن ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون، والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في ظلمات. من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم**﴾[٢].

ولكن ليس من العدل أن نرمي المعتزلة جميعهم بضلالات هؤلاء. وبالنظر إلى عقيدة

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) سورة الأنعام (٦: ٣٨ ـ ٣٩). الشهرستاني: أنظر الملل والنحل جـ ١ ص ٨٠ ـ ٨١.

المعتزلة في أوامر الدين ونواهيه، فإنهم يعتبرون من طائفة العقليين (Ralionalısts) في الإسلام الذين يقولون بسلطان العقل وفهمه لطبائع الأشياء. من ذلك أنهم قالوا بخلق القرآن، في الوقت الذي ذهب فيه الرسول إلى القول بعكس ذلك، ويستدلون على صحة ذلك بقولهم «إن القرآن لو لم يكن مخلوقاً لأدى ذلك إلى القول بوجود أزليين أبديين. أما إذا اعتبر القرآن أو كلام الله مخلوقاً، كان محالاً أن نعتبره صفة من الصفات الإلهية، لما لتلك الصفات من الثبات وعدم التغيير لأنه يترتب عليه قيام الحادث بالقديم، وهو محال لما فيه من قلب حقائق الأشياء؛ إذ لو صح قيام الحادث القديم لأدى ذلك إلى إحدى نتيجتين لا مناص منهما: إما قلب الحادث قديماً لقيامه بالقديم، وإما قلب القديم حادثاً لقيام الحادث به». ومع ذلك فقد تزعزعت عقيدة الوحي على يد المعتزلة تزعزعاً شديداً، حتى أعلن كثير منهم صراحة، أنه ليس مستحيلاً أن يأتي إنسان بقرآن كهذا أو أحسن منه، مخالفين في ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء (١٧ : ٨٨) ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾. ومعنى فكرة الوحي أن القرآن كلام الله، وأنه أوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وذهبوا إلى أن الاعتقاد بقدم القرآن إلى جانب قدم الله شرك[١].

وعلى ذلك عارض المعتزلة عقيدة أزلية القرآن، أي أنه كلام الله، كما عارضوا فكرة الوحي، بمعنى أن الله يتصل بالإنسان ويوحي إليه كما جاء في سورة الشورى (٤٢ : ٥١) ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم**﴾. وكانوا لا يصغون إلى أية فكرة يشم منها رائحة التجسد لله سبحانه وتعالى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ترونْ ربكم (يوم القيامة) كما ترون القمر ليلة البدر». ويسمِّي المعتزلة هؤلاء المشبهة أو المجسمة. وكانت هذه الكلمات التي فهمها أهل السنة على ظاهرها حجر عثرة يرتطمون به أنى ساروا. ومع هذا فسر أهل السنة هذا الحديث بقولهم إن الإنسان بعد موته يرى الله بعين البصيرة. وكذلك رفض المعتزلة دعوى أن الله خلق الكافر[٢]، كما لم يرضوا القول بأن الله يضر لمنافاة ذلك العدل الإلهي، بمعنى أن الله كان يسوق الكفار إلى الكفر ويريد منهم ذلك، كان من الظلم مؤاخذتهم، إذ كانت إرادة الله

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام: ترجمة أبي ريدة ص ٥٦.

(٢) يقصدون طبعاً أن كل إنسان خلق قابلاً للإيمان، وأن الكفار صاروا كذلك بتمردهم وليس بإرادة الله، بمعنى أن الله لم يرد كفر الكفار، وإنما أصبحوا كفاراً بمحض إرادتهم دون إرادة الله سبحانه وتعالى.

تعالى لا تتخلف ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، فهم يقررون اختيار الإنسان في أفعاله. بعكس ما ذهب إليه الجبرية الذين يقولون إن الإنسان مجبر على أفعاله. ولم يعترفوا بالمعجزات التي وردت في القرآن، كما أنكروا انشقاق البحر لموسى ليشق طريقاً لبني إسرائيل. وقد خرج بهم من مصر (إلى بلاد العرب) مخالفين في ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء (٢٦ : ٦٣) ﴿**فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم**﴾، كما أنكروا أن عصا موسى قد تحولت أفعى ﴿**فألقاها فإذا هي حية تسعى**﴾ (سورة طه ٢٠ : ٢٠) وأن عيسى قد أحيى الموتى. ولم ينج محمد نفسه من إنكارهم لمعجزاته.

(ب) تأثر المعتزلة بالفلسفة الإغريقية:

تأثرت المعتزلة منذ عهد طويل تأثراً شديداً بالفلسفة الإغريقية. وقد نقل براون[١] عن شتينر[٢] أن المعتزلة أول من قرأ تراجم الطبيعيين من الإغريق وفلاسفتهم التي ترجمت تحت رعاية أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ)، والمأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ)، واقتبسوا منها جميع المعارف النافعة، ولكنهم أجهدوا أنفسهم في أن يضيفوا إلى المعاني الإسلامية التي جاء بها القرآن، وكانت محصورة في دائرة ضيقة، في جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من فكر ومعان علمية وفلسفية. وأن يلائموا بينها ويخرجوا منها مزيجاً جديداً يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله.

ومن الفلاسفة الإسلاميين أبو نصر الفارابي (١٠٣٧/٣٣٩) فيلسوف المسلمين غير مدافع الذي يقول فيه ابن خلكان (جـ ٢ ص ٧٦): «هو أكبر فلاسفة المسلمين. ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه، والرئيس أبو علي بن سينا[٣] (١٠٣٧/٤٢٨) المقدم ذكره بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه، وابن رشد (١١٨٩/٥٩٥) وقد سبقهم الكندي (٨٧٣/٢٦٠) الذي وجه همته ـ على ما يظهر ـ إلى دراسة الآراء التي أثارها المعتزلة بوجه خاص. في الوقت الذي تجنب فيه أتباعه التعرض لبحث المسائل الدينية وتجنبوا إثارة النقاش فيها بقدر الإمكان. وكان يعتبر كلا من التوحيد والعلوم الطبيعية وما تحويه من الفلسفة مناطق ذات حدود واضحة. ومن ثم لم تقم مشكلة من المشاكل في سبيل التوفيق

(١) Browne, vol. I. p 288.

(٢) Steiner: Die Mu'taziliten oder die Freidenker im Islam. p.5.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

بينها. بمعنى أن التوحيد والعلوم الطبيعية. بما في ذلك الفلسفة، كان كل منها على حدة مستقلاً عن الآخر. ويقول شتينر أيضاً إن الفلاسفة العرب من تلاميذ مدرسة أرسطو كانوا في الواقع علماء طبيعيين أكثر منهم فلاسفة، وإن أعمالهم الرئيسية كانت تنحصر في ملاحظة الظواهر الطبيعية عدا دراسة علم الطب والفلك[١].

وقد نشأ الخلاف بين الاعتزال والفلسفة من ناحية وبين الدين من ناحية أخرى، وأفنى المعتزلة قواهم في تلك المناقشة المستمرة التي أثارتها مدرستا البصرة وبغداد. وكان أبو الحسن البصري أحد معاصري ابن سينا آخر من عالج تعاليمهم بشيء من الحرية واستقلال الرأي. كما أكمل ما كان فيها من نقص في نواح كثيرة. واستمر هذا الصراع بين هؤلاء وأولئك على أشده، واستمرت المعتزلة على قوتهم حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعري وصرعهم حجة الإسلام الغزالي.

٦ ـ انتعاش السنة

أخذ مذهب المعتزلة في الضعف منذ بداية العصر العباسي الثاني حيث بدأ المتوكل، أولُ خلفاء هذا العصر عهده بنهي الناس عن القول بخلق القرآن، مخالفاً في ذلك المأمون والمعتصم والواثق. ثم ظهر جماعة من علماء الكلام عارضوا المعتزلة. ومن هذه المذاهب: مذهب الكرمية الذي بقي إلى ما بعد القرن الثالث الهجري.

أما انتصار مذهب أهل السنة فقد توج بظهور أبي الحسن الأشعري. ذلك أنه لم يكد يمضي اثنا عشر عاماً على موت المتوكل، حتى ولد (سنة ٢٦٠/٨٧٣) ذلك الرجل الذي تربى بين أحضان مذهب المعتزلة، ثم رفض تعاليمهم في الأربعين من عمره، بعد أن تسلح بالأسلحة المنطقية التي أمدوه بها وحاربهم بها بقية حياته، وحمل على آرائهم حملة كتب لها التوفيق والنجاح. ذلك هو أبو الحسن الأشعري، من أعقاب أبي موسى الأشعري الذي كان أحد الحكمين بين علي ومعاوية بدومة الجندل.

وقد ألف الأشعري بعد أن انفصل عن أستاذه الجبائي من المعتزلة مؤلفات كثيرة في علم التوحيد يربو عددها على المائتين أو الثلثمائة، وله من الكتب: كتاب اللمع، وكتاب

---

(١) أنظر: Browne, vol. I, p. 289, Pote I.

الموجز، وكتاب إيضاح البرهان، وكتاب التبيين عن أصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل. وهو صاحب الكتب في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعين[١].

وقد عارض الأشعري المعتزلة ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه. ويقول الشهرستاني[٢]. «ومذهبه في الوعد والوعيد والأسماء والأحكام والسمع والعقل مخالف للمعتزلة من كل وجه. قال: الإيمان هو التصديق بالقلب. أما القول باللسان والعمل على الأركان ففروعه. فمن صدق بالقلب، أي أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب صح إيمانه، حتى لو مات في الحال كان مؤمناً ناجياً، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شيء من ذلك. وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة، يكون حكمه إلى الله تعالى؛ إما أن يغفر له برحمته، وإما أن يشفع فيه النبي ﷺ إذ قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه، يدخله الجنة برحمته. ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار، لما ورد به السمع من إخراج من كان في قلبه ذرة من الإيمان، قال: ولو تاب، لا أقول بأنه يجب على الله قبول توبته بحكم العقل، إذ هو الموجب فلا يجب عليه شيء بل ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين؛ وهو المالك في خلقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف، أو وضع الشيء في غير موضعه، وهو المالك المطلق، فلا يتصور منه ظلم ولا ينسب إليه جور».

وكان لجهود أبي الحسن الأشعري أثر كبير في إحياء السنة. حتى إنه كاد أن يقضي على مذهب الاعتزال قضاء مبرماً، بدليل ما ذكره أبو بكر الصيرفي: «كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم»[٣].

وقد تم انتصار السنة على الاعتزال بظهور حجة الإسلام الغزالي الذي وجهَ نشاطه إلى الإشادة بمذاهب السنة والحط من شأن الاعتزال والفلسفة وغيرهما.

---

(١) Dozy, Histoire de L'Islamisme, pp.252 - 256 ابن خلكان ج ١ ص ٢٧.
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٣.
(٣) ابن خلكان: ج ١ ص ٣٢٧.

٧ ـ التصوف

المتصوفون المعتزلون:

ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر «التصوف». ذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبه تعالى، ومن ثم سموا «المتصوفين». ويقول براون[١] إنه ليس ثمة علاقة بين اسم الصوفية وبين الكلمة اليونانية «سوفس» Sofis (وتكتب بالسين لا بالصاد ويقابلها بالعربية فيلسوف)، أو سفسطي «Sophist أو بكلمة «صفاء» كما يدعي الصوفيون أنفسهم؛ أو «بأهل الصفة». وهم جماعة من الفقهاء ظهروا في صدر الإسلام وكانوا يجلسون على صفة في المسجد ويجمعون معاشهم من أهل الورع عن طريق الفتاوى[٢]، ولكنه مشتق من الكلمة العربية «صوف»، كما يتضح من قرائن أخرى، كاسمهم بالفارسية «بشنيابوش» pashnima — push ومعناها الملابس الصوفية. مما يتميز به المسلمون الأولون الذين عرفوا بالبساطة والتقشف، ويقول المسعودي إن عمر بن الخطاب كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل العباءة، على حين كان سلمان الفارسي يلبس الصوف[٣]. ويقال هذا أيضاً عن أبي عبيدة بن الجراح الذي «كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي»[٤].

ولما تقدم الزمن بالمسلمين وسادت المادية والبذخ. حافظ بعض المسلمين على سنة الرسول والخلفاء في الملبس، واحتجوا بذلك احتجاجاً صامتاً على المادية والتبدير اللذين انغمس فيهما معاصروهم، فأطلق عليهم «الصوفيون»، ولحق بهم ما يلحق عادة بالمحافظين. وقد تكلم القشيري[٥] المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) على المتصوفين الأول

(١) Lit Hist, of Persia, vol. p. 297.

(٢) وقد جاء في تاج العروس والنهاية لابن كثير أن أهل الصفة كانوا أضياف الإسلام من فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٧.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٨.

(٥) Browne, vol. I.pp.297 - 298, نقلاً عن جامع نفحات الأنس (طبعة نساوليز Nassau Lees، سنة ١٨٥٨ م).

فقال: فلما ظهرت البدع وتشاحنت الفرق. وصار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن فيهم زهاداً، انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله. الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية. وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثاني الهجري بقليل».

وقد أوضح عبد الرحمن جامي الشاعر الفارسي المشهور، (نفحات الأنس ص ٣٤) أن أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي ولد في الكوفة ومضى سواد حياته في الشام وتوفي سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ ـ ٧٧٨ م). وأن أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري (٢٤٦/ ٨٦٠) تلميذ الإمام مالك. وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (٩١٠ م). ودعا إليها من فوق المنابر الشبلي المتوفي سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) (ص ٣٦). ولعل أحسن مثل للتصوف الخالص هي رابعة بنت إسماعيل العدوية التي اشتهرت بالصلاح والتقوى» وكان النساء يجلسن إليها ويسمعن وعظها. وقد أشار جامي إلى ذلك (ص ٧١) في هذين البيتين:

ولو كان النساءُ كما ذكَرْنا ... لفُضِّلَتِ النساءُ على الرجال
فلا التأنيثُ لاسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال(١)

وكانت رابعة تقول في مناجاتها: إلهي تحرق قلباً يحبك؟ ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم. ومن قولها في حب الله سبحانه وتعالى:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحْتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

وكانت رابعة تصلي الليل كله. فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر. ولما ماتت كفنت في جبتها. وهي خمار من صوف كانت تلبسه. وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ (وقيل سنة ١٣٨ هـ)(٢)، وقبرها يزار بظاهر القدس من شرقيه.

---

(١) هذان البيتان لأبي الطيب المتنبي في قصيدته في رثاء أم سيف الدولة ومطلعها:
نعد المشرفية والعوالي ... وتقتلنا المنون بلا قتال

والرواية الصحيحة في البيت الأول هي: ولو كان النساء كمن فقدنا، وليس كمن ذكرنا.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

وقد تطور مذهب التصوف عند المسلمين، وخاصة عند الفرس، في عصر متأخر وأصبحت فلسفة التصوفة ـ إن صح هذا التعبير ـ قائمة على الأفلاطونية الحديثة[١] وعلى عناصر فارسية وأخرى هندية.

وللمتصوف نفس المذهب في حب الله؛ فهم يحبونه حباً روحانياً خالياً من الرغبات والنزعات، أي أنهم يحبونه حباً أفلاطونياً. ولا شك أنهم اكتسبوا هذا الحب وصيغ التعبير عنه مما وصلهم من هذه الفلسفة، ويظهر هذا الشبه من قراءة أشعار المتصوفين، فاقرأ مثلاً قول عمر بن الفارض:

سقتني حُمَيَّا الحبِّ راحةَ مقلتي ... وكأسي محب من عن الحسنِ جَلَّتِ
وبالي أبلى من ثياب تجلدي ... به الذات في الإعدام نيطت بلذة
لما شاهدتْ مني بصائرُهم سوى ... تخلل روح بين أثواب ميتِ
فلو كشف العُوَّارُ بي وتحققوا ... من اللوح ما مني الصبابة أبقت
ومنك شقائي بل بلائي منة ... وفيك لباسُ البؤس أسبغُ نعمة[٢]

وهكذا فإنك لا تجد إلا روحانية تنبعث في هدوء واستكانة كما ينبعث النفس من بين شفتي المريض. فانظر في هذه الأبيات فهل تجد إلا إنكار الذات وفناء الجسم وتيقظاً في الروح؟ في البيت الأول أحب بعينيه، وفي الثاني وجد لذة في انعدام ذاته أمام ما يفكر فيه من حمال المحبوب «قدرة الله»، وفي الثالث والرابع في جسمه وبقيت روحه المعذبة المدنئة التي تجد «في البيت الخامس» لذة في الألم واستمراء في البؤس.

وكما اتخذ بعض التصوف وسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى، كذلك لم يتخذه بعض آخر إلا وسيلة لتحقيق مآربهم الشخصية، وفي ذلك يقول محمود الوراق:

تصوَّف كي يقال له أمينٌ ... وما يَعْني التصوفَ والأمانهْ
ولم يُرد الإله به ولكن ... أراد به الطريقَ إلى الخيانهْ

---

(١) الأفلاطونية الحديثة هي الفلسفة التي ضمت فلسفة أفلاطون اليوناني بعد إعطائها صبغة شرقية اسمها أمونيس سكاس أحد فلاسفة الإسكندرية في القرن الثالث ونقحها أفلوطين وغيره من الفلاسفة. أما وجه الشبه بين مذهب المتصوفة وفلسفة أفلوطين فهو ـ فيما يظهر ـ أن لأفلوطين مذهباً في الحب سموه الحب الأفلاطوني، وهو حب روحاني لا تتطرق إليه الأغراض المادية ولا النزعات الحسيّة.

(٢) وهي قصيدة طويلة تسمى تائية السلوك الكبرى تقع في أكثر من سبعمائة بيت. راجع ديوان ابن الفارض (بيروت سنة ١٣٢٨).

وقال ابن السماك للصوفية: «والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم. لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم»[١].

ويقول فون كريمر[٢]: «يظهر من غير شك أن التصوف جمع بين عنصرين مختلفين: تقشف مسيحي قديم دخل بقوة حتى في فجر الإسلام. ثم دخل بعد ذلك بكثير من عنصر بوذي، هو عنصر التأمل والتفكير العميق؛ وذلك نتيجة لتأثير الفرس في الإسلام. وكانت لهذا العنصر الغلبة في تكوين التصوف الإسلامي الخالص: فالأول يعبر بجلاء عن تأثير ذلك العنصر في العقل العربي أكثر من غيره، والثاني يعبر عن تأثيره في الطبيعة الفارسية».

ويظهر أن التأثير الهندي في التصوف الإسلامي لم يكن كبيراً بالدرجة التي تصورها فون كريمر، فإن تأثير الأفلاطونية الحديثة والعناصر الإسلامية كان في الواقع أعظم منها بكثير. وقد أجاد دي بور[٣] في كلامه عن التصوف فقال: «وإذا تكلمنا عن التصوف الإسلامي، فنحن نتناول بالبحث نظاماً عملياً أساسه ديني أو روحي. غير أن الأنظمة العملية تتخذ من الفكر مرآة تتجلى فيها دائماً. وهي تتخذ من ذلك صبغة نظرية. ولم يكن بد من أفعال لها أسرارها، ومن أشخاص يقربون ما بين الإنسان وربه. ويحاول هؤلاء الأشخاص أن يطلعوا على أسرار تلك الأفعال ثم يظهروا خواص مريديهم عليها، وأن يتخذوا لأنفسهم في سلسلة مراتب الوجود مكاناً يصلون فيه بين الله والناس. ولا بد أن تكون نظريات المذهب الأفلاطوني الجديد خاصة قد أثرت تأثيرها في ذلك. . . ويظهر أنه كان لمذهب التنسك (اليرجا) الهندي تأثير عظيم في بلاد الفرس على الأقل. ولكن التصوف ظل في الجملة في داخل دائرة أهل السنة. وقد كان هؤلاء من الحكمة بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء وأصحاب المواجد المتحمسين. والمتكلمون وأهل التصوف متفقون تمام الاتفاق في القول بأنه لا فاعل في كل شيء إلا الله، غير أن الغلاة من أهل التصوف زادوا على هذا بأن قالوا إنه لا موجود في شيء إلا الله.

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ٢٥١.

(٢) نقلاً عن Herrsch, Id.p.67, Browne: Lit. Hist. of Persia, vol. IIp.300.

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٧٣، ترجمة، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(ب) المتصوفون الغلاة:

١ ـ الحسين بن منصور الحلاج:

غير أن هناك جماعة من المتصوفين غلوا في تصوفهم وقالوا إنه لا موجود في كل شيء إلا الله. ومن هذا نشأ مذهب وحدة الوجود الذي خالف مذهب جمهور المسلمين، وكان من شأنه أن جعل العالم خيالاً لا حقيقة. كما وحَّد بين ذات الإنسان وذات الله. وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية، قال الصوفية بوحدة شاملة لكل شيء. وبعد أن كان الأولون يقولون بفعل الله في كل شيء، قال الآخرون بوجوده في كل شيء[١]. وقد نظر السنيون إلى هؤلاء المتصوفين الغلاة نظرتهم إلى المشبهة الذين يشبهون الله بالإنسان، والمجسمة الذين يجسمون الله فيجعلون له جرماً واحداً. والحلوليين الذين يقولون بحلول الله في الأجسام.

ومن غلاة المتصوفين الحسين بن منصور الحلاج الذي ادعى الألوهية في عهد المقتدر العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ)، ويكنى أبا مغيث. وهو مجوسي الأصل من أهل بلدة البيضاء بفارس، ونشأ بواسط ثم قدم بغداد واتخذها داراً له، واختلط بالصوفية وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره من المتصوفين[٢]. وقد «سمي الحلاج لأنه اطلع على سر القلوب، وكان يخرج لب الكلام كما يخرج الحلاج لب القطن بالحلج. وقيل كان يقعد بواسط بدكان حلاج. فمضى الحلاج في حاجة ورجع، فوجد القطن محلوجاً مع كثرته فسماه الحلاج»[٣].

اشتغل الحلاج في مبدأ أمره بالتصوف. وله في هذا شطحات كثيرة، بمعنى أن كلامه «يحتمل معنيين: أحدهما حسن محمود، والآخر قبيح مذموم»[٤]. واختلف الناس فيه، فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من يكفره[٥]. وكان ظاهره أنه ناسك صوفي، فإذا علم أن

---

(١) دبور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة ص، ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٣) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٩٩ ـ ١٠٠.
(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٤٧.
(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ١٢٦.

أهل بلده يرون الاعتزال صار معتزلياً، أو يـرون الإمامـة صار إمـامياً وأراهم أن عنـده علماً بإمامهم، أو رأى أهل السنة صار سنياً(١).

وكان الحلاج مخلطاً يلبس الصوف والمسوح تارة، والثياب المصبغة تارة، والعمامة الكبيرة والدراعة، وتارة يلبس القباء وزي الجند. وقد طاف البلاد، وقصد الهند وخراسـان وبلاد ما وراء النهر وتركستان وغيرها. وقال بعض أصحابه: «صحبته سنة إلى مكـة، وأقام بمكة بعد رجوع الحجاج إلى العراق وقال: إن شئت أن تعود فعد، فإني قد عولت أن أمضي من هنا إلى بلاد الهند. وكان الحلاج كثير الأسفار. ثم إنه نزل في البحر يريد الهند فصحبته إلى بلاد الهند. فلما وصلنا إليها استدل على امرأة ومضى إليها وتحدث معها، ووعدته إلى غد ذلك اليوم. ثم خرجت معه إلى جانب البحر ومعها غزل ملفوف وفيه عقد شبه السلم، فقالت المرأة كلمات، وصعدت في ذلـك الخيط، وكانت تضـع رجلها في الخيط وتصعـد حتى غـابت عن أعيننا، ورجـع الحـلاج وقـال لي: لأجـل هـذه المـرأة كـان قصـدي إلى الهند»(٢).

وكان لهذه الشعبذة والنارنجيـات التي تعلمها الحـلاج في الهند خـاصة أثـر كبير في عقول العامة الذين التفوا حوله ومالوا إلى مذهبه المغرق في الغلو؛ حتى إن بعضهم رماه بأنه أحد دعاة مذهب القرامطة الذي ساد في أيامه على يد أبي طاهر الجنّـابي (٣٣٢ هـ). وقد قيل إن الحلاج كان يدعو في أول أمره إلى الرضا من آل محمـد(٣). واستطاع بمهـارته أن يجذب إليه العامة، فكان يحفر في بعض الطرقات موضعاً يضع فيه زقـاً فيه مـاء، ثـم يحفر موضعاً آخر يضع فيه طعاماً، ثم يسير مع أصحابه إلى الموضع الأول. فإذا ما احتاجوا إلى ماء يشربونه ويتوضئون منه، نبش هذا الموضع بعكاز فيخرج الماء فيشربون ويتوضئون، ثـم يسير إلى الموضع الأخر فيخرج منه الطعام، ويوهم أصحابه أن ذلك من كرامات الأولياء ولـم تقتصر أساليبه في اجتذاب الناس إليه على ذلك، بل كان يحفظ الفواكه ويخرجهـا في غير أوانها(٤).

وادعى البعض أن الحلاج أحيا طائراً لابن الخليفة المقتدر، فقد ذكر عريب بن سعد (ص ٩٣) أن المقتدر أرسل إلى الحلاج خادماً ومعه طائر ميت وقال: إن هذا الببغا لولدي

---

(١) عريب بن سعد ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠١، ١٠٢، ١٠٥.

(٣) الفخري ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٤) عريب بن سعد ص ٩٩.

أبي العباس، وكان يحبها، وقد ماتت. فإن كان ما تدعي صحيحاً، فأحيي هذه الببغا. فقام الحلاج إلى جانب البيت الذي هو فيه وبال، وقال: من تكن هذه حالته لا يحيي ميتاً؛ فعد إلى الخليفة وأخبره بما رأيت وبما سمعت مني ثم قال: بلى! لي من إذا أشرت إليه أدنى إشارة أعاد الطائر إلى حالته الأولى. فعاد الخادم إلى المقتدر وأخبره بما رأى وسمع، فقال: عد إليه وقل له المقصود إعادة الطائر إلى الحياة، فأشر إلى من شئت. قال: فعلي بالطائر، فأحضره إليه وهو ميت، فوضعه على ركبتيه وغطاه بكمه، ثم تكلم بكلمات ثم رفع كمه وقد عاد الطائر حياً، فأعاده الخادم إلى المقتدر وأخبره بما رأى.

وقد ألف الحلاج كتباً ذكر فيها مبادىء تخالف المبادىء الإسلامية؛ فأباح الحج إلى غير مكة لكل من بنى في بيته بناء مربعاً وطاف حوله في أيام الحج وأدى فيه مناسك الحج، وأطعم ثلاثين يتيماً بيده، وكسا كل واحد منهم قميصاً، ومنحه سبعة دراهم، فإن ذلك كله يقوم مقام الحج (عريب ص ٩٣) كما أباح الحلاج الإفطار في شهر رمضان لمن صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر، وأفطر في اليوم الرابع على ورقات من الهندب[١]، فإن ذلك يغنيه عن صوم رمضان. وأباح ترك الصلاة لمن صلى ركعتين من أول الليل إلى آخره، فإن ذلك في نظره يغنيه عن الصلاة طول حياته، وأعفى من الزكاة من تصدق بجميع ما يمتلكه في يوم واحد، كما أعفى من العبادة من زار قبور الشهداء بمقابر قريش،وأقام بها عشرة أيام يقضيها في الصلاة والصوم مع إفطاره على قليل من خبز الشعير والملح[٢].

وكان الحلاج مع ذلك خفيف الحركات شعوذياً، قد حاول الطب وجرب الكيمياء، فلم يزل يستعمل المخاريق (الحيل والتمويهات) حتى استهوى بها من لا تحصيل عنده ثم ادعى الربوبية وقال بالحلول، وعظم افتراؤه على الله عز وجل ورسله. ووجدت له كما يقول عريب (ص ٨٩، ٩٢) كتب فيها حماقات وكلام مقلوب وكفر عظيم، وقال في بعض كتبه: إني المغرق لقوم نوح والمهلك لعاد وثمود. وكان يقول لأصحابه: أنت نوح وأنت موسى، وأنت محمد قد أعدت أرواحهم إلى أجسادكم. ويزعم بعض الجهلة المتبعين له أنه كان يغيب عنهم ثم ينزل عليهم من الهواء.

---

(١) بكسر الهاء وفتح الدال، وقد تكسر جميع هندبة أو هندابة، وهي بقلة نافعة للمعدة والكبد والطحال أكلا، وللسعة العقرب ضماداً.

(٢) عريب بن سعد ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

وقد راجت دعوة الحلاج بين كثير من الناس، وخاصة أهالي بغداد والطالقان (بخراسان) الذين افتتنوا به، حتى خشي أهل السنة أن يتفاقم خطره، ومره بالكفر والقول بالحيلولة. وقد أثر عنه أنه قال: من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية. فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ، حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله تعالى. وزعموا أنه ادعى لنفسه هذه الرتبة. وقيل إنهم ظفروا بكتب له إلى أتباعه عنوانها «مِن الهو هو رب الأرباب المتصور في كل صورة إلى عبده فلان»، فظفروا بكتب أتباعه إليه وفيها: «يا ذات الذات ومنتهى غاية الغايات[١]، نشهد بأنك المتصور في كل زمان بصورة، وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور، ونحن نستجير بك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب»[٢].

ولم تقف دعوة الحلاج عند حد التأثير في العامة، بل لقد تأثر بها كثير من رجال البلاط والكتّاب وبعض كبار الهاشميين. ورمي نصر حاجب المقتدر وأنصاره باعتقاد مبادىء الحلاج، حتى إنهم اعتقدوا أنه يحيي الموتى، وأن الجن يخدمونه ويحضرون إليه ما يريد، وأن في استطاعته أن يأتي المعجزات التي أتى بها الرسل والأنبياء، كما اعتقدوا ألوهيته ونبوة أحد أتباعه[٣].

انتشر دعاة الحلاج في كثير من الأمصار الإسلامية لبث مذهبه، واتبع في ذلك طريقة دعاة كبار الإسماعيلية. فقد روى مسكويه (جـ ١ ص ٧٩) أنه «كان في الكتب الموجودة له عجائب من مكاتبات أصحابه النافذين إلى النواحي، وبوصيته إياهم بما يدعون إليه الناس، وبما يأمرهم به من نقلهم من حال إلى حال أخرى ومرتبة إلى مرتبة، حتى يبلغوا الغاية القصوى، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم، وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ مرموزة لا يعرفها إلا من كتبها ومن كتبت إليه». وقد ادعى الحلاج الالوهية، وكان يقول بحلول اللاهوت في الإنسان، ويكتب إلى أصحابه «من النور الشعشاني»[٤]، وروي عنه أنه قال: ما في الجبة غير الله[٥] يعني جبته، كما روي عنه أنه قال: أنا الحق، وكان يتغنى بقوله:

---

(١) في الاصل الشهوات، والصواب الغايات.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٤٨.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٧٦.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.

(٥) Massignon: La Passion D'al Hosayn Ibn - Mansour, tome i. oo. 61 - 62.

أنــا مَـن أهْــوَى ومن أهــوى أنــا ... نــحــنُ روحــان حــللنــا بــدنــا
فــإذا أبــصــرتــنــي أبــصــرتَــه ... وإذا أبــصــرتَــه أبــصــرتــنــا

كما نسب إليه قوله:

سبحــان مَــنْ أظـهــر نــاســوتَــه ... ســرٌّ ســنــا لاهــوتــه الــثــاقــب
ثــم بــدا فــي خــلقــه ظــاهــراً ... فــي صــورة الآكــل والــشــارب
حــتى لــقــد عــايــنــه خــلقــه ... كلحــظة الحاجب بــالحــاجب(١)

وكذلك اعتقد أنصار الحلاج أنه يعرف السر وسر السر وأنه ضحى من أهل الكشف، كما يبين ذلك من قوله:

مــواجيدُ أهـل الوَجْـد تصـدق عن وجـدي ... وأســرار أهـل الســر مكشــوفــةٌ عنــدي

وقوله:

الله يـعلم مــا فــي الـنـفس جــارحــة ... إلا وذكــراك فــيهــا نَــيْــل مــا فــيهــا
ولا تـنـفـسْـتُ إلا كـنـت فـي نـفـسـي ... تجري بك الـروح مني في مجاريهــا(٢)

ظهر خطر الحلاج منذ مستهل القرن الـرابع الهجـري، فقد قبض عليـه ببغداد سنـة ٣٠١ هـ وشهر به بدعوى ادعائه الربوبية وقوله بالحلول. وعلى الرغم من أن علي بن عيسى وزير المقتدر وقف على جهله بالقرآن وعلوم الدين، دافع عنه نصر الحاجب الذي أدخل في روعه أن الرافضة هم الذين رموا الحلاج بالكفر والمروق عن الإسلام. وكان علي بن عيسى يعتقد أن في الحلاج قدرة خارقة وأنه قادر على أذاه فتهيب من قتله.

وكان حامد بن العباس وزير المقتدر يكره الحلاج ويعمل على التخلص منه، فاتخذ من امرأة ابن الحلاج عيناً عليه واستشهد بها عليه، كما أحضر كتبه وقرأها ووقف على ما فيها من شعوذة وكفر، ثم عقد مجلساً ضم كبار القضاة الذين ناظروه فيما كتبه وبينوا له بطلان ما ذهب إليه وخروجه على الدين الإسلامي، ورموه بالكفر وأفشوا جميعاً بكفره وأحلوا دمه؛ فأمر الخليفة بضربه ألف سوط وإحراق جثته وإلقاء رمادها في دجلة.

وقد ادعى أصحاب الحلاج أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وأن المضروب كان عدواً للحلاج ألقى شبهه عليه. كما قال بعض آخر إنه رآه وخاطبه وحدثه؛ وادعى قوم

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٧.

(٢) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٩٨، ١٠٤.

من أصحابه أنهم رأوه يركب حماراً وأنه قال لهم: إنما حولت دابة، ولست المقتول كما ظن هؤلاء البقر. ولما زادت دجلة اعتقد أصحابه أن ذلك بسبب ما ألقي فيها من رماد جثته. وقال أبو عمرو بن حيوية: لما أخرج الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس، ولم أزل أزاحم حتى رأيته، فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يوماً[١].

ولكن خطر الحلاج لم يزل بموته. فقد افتتن به كثير من الدهماء لما رأوه من سحره وشعوذته وحاله وإشاراته، حتى إنهم ألهوه ودانوا بربوبيته. وقد دافع عنه حجة الإسلام الغزالي وحمل أقواله على محمل حسن. ومهما يكن من شيء فقد أقلقت مبادىء الحلاج الخلافة العباسية، ولذلك أحضر الوراقون وحرم عليهم أن لا يبيعوا من كتبه شيئاً ولا يشتروه. وقد قبض عليه ثم قتل في شهر ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ.

٢ ـ الشلمغاني:

ويظهر أن فكرة تأليه الحلاج لم تقتصر على غلاة المتصوفين؛ فقد رأينا السبئية يؤلهون علي بن أبي طالب، والراوندية يؤلهون أبا جعفر المنصور، والخطابية يؤلهون جعفراً الصادق، والمتصوفين الغلاة يؤلهون الحلاج، ويؤله العذاقرة أبا جعفر محمد بن علي الشلمغاني (بسكون اللام وفتح الميم)، وينسب إلى إحدى قرى واسط. وقد ادعى حلول روح الإله فيه وسمى نفسه روح القدس، ووضع لأتباعه كتاباً ينطوي على الخروج على الشريعة الإسلامية[٢].

وقال ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٠١): «وكان من مذهبه أنه إله الآلهة يحق الحق، وأنه الأول القديم، والظاهر الباطن، الرازق التام، المومإ إليه بكل معنى. وكان يقول إن الله سبحانه وتعالى يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل، وأنه خلق الضد ليدل على المضدود. فمن ذلك أنه حل في آدم لما خلقه، وفي إبليسه أيضاً، وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه في معناه، وأن الدليل على الحق أفضل من الحق، وأن الضد أقرب الشيء من شبهه، وأن الله عز وجل إذا حل في جسد ناسوتي ظهر من القدرة والمعجزة ما يدل على أنه

---

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٩٤، ٩٧. راجع محاكمة الحلاج في:
Massignon op. cit. tome I, pp. 197 - 220.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٣٤٩.

هو». وهذا يشبه إلى حد كبير آراء الإمامية وخاصة الإسماعيلية منهم، في الحلول ومبدأ الضد في نظرية الإمامة.

وقد تأثر بآراء الشلمغاني بعض كبار رجال الدولة العباسية في هذا العصر. ومن هؤلاء المحسن بن أبي الحسن بن الفرات في عهد وزارة أبيه الثالثة، كما وجد صدراً رحيباً من ناصر الدولة (الحسن بن عبد الله) بن حمدان الذي أحسن وفادته وتستر عليه، وبقي عنده بالموصل إلى أن جاء بغداد حيث تبعه كبار رجالها. وممن تبعه أيضاً الحسين بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب الذي وزر للمقتدر بالله، وأبو علي بن بسطام، وإبراهيم بن أبي عون، وابن شبيب الزيات، ولكنهم لم يلبثوا أن اختفوا حين كشف أمرهم في عهد وزارة ابن مقلة في خلافة المقتدر.

ولما تفاقم خطر الشلمغاني في عهد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) قبض عليه وعلى كثير من أنصاره، ووجدت عنده وثائق تثبت ادعاء الألوهية وإغراق أنصاره في ألوهيته، وفيها خط الحسين بن القاسم، فعرضت الخطوط فعرفها الناس، وعرضت على الشلمغاني فأقر أنها خطوطهم... وأخذ ابن أبي عون وابن عبدوس معه وأحضرا معه عند الخليفة وأمرا بصفعه فامتنعا. فلما أكرها مد ابن عبدوس يده وصفعه، وأما ابن أبي عون فإنه مد يده إلى لحيته ورأسه، فارتعدت يده، فقبل لحية الشلمغاني ورأسه ثم قال: إلهي وسيدي ورازقي، فقال له الراضي: قد زعمت أنك لا تدعي الإلهية فما هذا؟ فقال: وما عليَّ من قول ابن أبي عون؟ والله يعلم أنني لا قلت له إنني إله قط. فقال ابن عبدوس إنه لم يدع الإلهية، وإنه ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر... وكنت أظن أنه يقول ذلك تقية. ثم أحضروه عدة مرات ومعهم الفقهاء والقضاة والكتاب والقواد، وفي آخر الأيام أفتى الفقهاء بإباحة دمه. فصلب الشلمغاني وابن أبي عون في ذي القعدة سنة ٣٢٢ هـ، وأحرقا بالنار»[1].

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٠٠ ـ ١٠١.

الباب السادس

العلاقات الخارجية

١ ـ مع البيزنطيين

(أ) علاقة العباسيين بالبيزنطيين :

اتخذ البيزنطيون من سوء الحال التي سادت الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني لاستبداد الأتراك والبويهيين من بعدهم بالسلطة دون الخلفاء، فرصة سانحة للإغارة على بلاد هذه الدولة. ففي سنة ٢٣٨ هـ أغار البيزنطيون على سواحل مصر، واستولوا على دمياط وتنيس وعاثوا فيهما؛ ولم يتمكن عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ) الذي ولي هذه البلاد من قبل الخليفة المتوكل العباسي من أن يضرب على أيديهم، أو أن يمنعهم من نهب البلاد وسبي النساء والأطفال وأهل الذمة. وقد نظم يحيى بن فضل قصيدة بعث بها إلى الخليفة المتوكل، وعاب فيها على عنبسة تهاونه وقعوده عن مطاردة الروم فقال:

أترضَى بأن تُوطأ حرمتُك عَنْوةً وأن يُستباح المسلمون ويُخْرَبوا[١]

كذلك أغار الروم في عهد المتوكل على مدينة عين زربا[٢] على مقربة من المصيصة (سنة ٢٤١ هـ) وأسروا من كان فيها من الزط الذين كان المعتصم قد نقلهم إليها بعد ثورتهم في البطائح بين واسط والبصرة. وفي هذه السنة تبودلت الأسرى بين المسلمين والروم في عهد ميشيل الثالث (٢٢٨ ـ ٢٥٣ / ٨٢٤ ـ ٨٦٧)، الذي آلت الوصاية عليه إلى أمه تيودورا، وبلغ عدد أسرى المسلمين عشرين ألفاً كانوا يلاقون كل ألوان التعذيب، حتى إن كثيراً منهم اضطروا إلى الدخول في المسيحية. وقد قيل إن تيودورا عرضت على هؤلاء الأسرى الارتداد

---

(١) الكندي: كتاب الولاة ص: ٢٠١.

(٢) بفتح الزاي وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة. وقد أمر هارون الرشيد ببنائها سنة ١٨٠ هـ وأقطعها فريقاً من أهل خراسان وغيرهم، ثم نقل إليها المعتصم جماعة من الزط، ويسميها الفرنجة Anazarbus .

عن الإسلام، فتنصر بعضهم، وكانوا أكثر من سبعة آلاف، وأبى الآخرون، فقتلت منهم اثني عشر ألفاً، ولم يبق من المسلمين سوى تسعمائة بين رجل وامرأة[١].

كذلك أغار البيزنطيون على الأراضي الواقعة شمالي العراق حتى بلغوا آمد وأسروا نحو عشرة آلاف من المسلمين. ولكن المتوكل عول على أخذ الثأر من البيزنطيين، فاستولى على بعض بلادهم جنوبي آسيا الصغرى (٢٤٤ هـ)[٢]، كما أسر المسلمون في سنة ٢٤٥ هـ بقيادة علي بن يحيى الأرمني أحد بطارقة الروم (أي قوادهم)، واستولو على مدينة لؤلؤة. وكان البطريق الذي كان صاحب الروم وجهه إليهم يقال له لغيط... وقيل إن علي بن يحيى الأرمني حمله إلى المتوكل، فدفعه هذا الخليفة إلى الفتح بن خاقان، فعرض عليه الإسلام فأبى، فقالوا نقتلك، فقال: أنتم أعلم. وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين[٣].

وقد اتخذت الحروب مع البيزنطيين وسيلة لإبعاد بعض القواد المناوئين، فقد قامت العداوة والبغضاء بين أحمد بن الخصيب وزير المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ)، وبين وصيف التركي، فعمل هذا الوزير على التخلص من ذلك القائد، وأغرى الخليفة بإبعاده عن حاضرة الدولة لغزو بلاد الروم[٤].

دخل وصيف بلاد الروم وأوغل فيها، ومات المنتصر في ذلك الوقت وآلت الخلافة إلى المستعين. وفي عهده غزا جعفر بن دينار الصائفة، واستولى على بعض الحصون البيزنطية وقتل اثنان من أشد قواد المسلمين بأساً وأعظمهم خطراً وهما: عمر بن عبيد الله الأقطع، وعلي بن يحيى الأرمني اللذان يقول فيهما الطبري (جـ ١١ ص ٨٥): «كانا نابين من أنياب المسلمين، شديداً بأسهما عظيماً غناؤهما عنهم، في الثغور التي هما بها». ويقول المسعودي[٥] إنهما كانا من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية، حتى إن الروم صوروا في كنائسهم عشرة من كبار قواد المسلمين، من بينهم عمرو بن عبيد الله، وعلي بن يحيى الأرمني.

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٣) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٦٠.
(٤) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥.

وكان لقتل هذين القائدين أثر بعيد في إذكاء روح الجهاد بين أهالي بغداد وسامرا، وإلى هذا يشير ميور[١]: «وكانت كفة الحرب في الخمسين سنة الماضية في غير مصلحة الدولة البيزنطية بوجه عام. بيد أنه في السنة التالية (٢٤٩ هـ) منيت غارة المسلمين على المسيحيين بإخفاق ذريع، فقد تمزقت أوصال كتيبتين من كتائب المسلمين في أرمينية وآسيا الصغرى، وأثارت أنباء هذه الهزائم حماسة أهل بغداد، وتعالت تلك الصيحات القديمة في الطرقات معلنة الجهاد والنفير. وكان لهذه الصيحات أثرها في إثارة حماسة العامة، ففتحوا السجون وأحرقوا الجسور. ولكن بغداد، وإن لم تستطع بعد أن تملي شروطها على حكامها، استطاعت أن تثير الشغب والاضطراب. بيد أن روح الحرب الدينية كانت من القوة بحيث استطاعت أن تجذب جموعاً كثيفة من الأمصار القريبة، جاءوا زرافات ووحدانا بحرابهم باذلين نفوسهم في سبيل جهاد المسيحيين».

ولما ولي المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) الخلافة انكمشت الدولة العباسية إلى حدود الجزيرة والعراق، وتجدد النزاع بين المسلمين والروم، الذين جرءوا على العبث ببعض بلاد الدولة العباسية. ولا غرو فقد قويت شوكة الدولة البيزنطية وانتشر الأمن فيها منذ اعتلاء باسيل الأول (٢٥٣ ـ ٢٧٣ / ٧٦٧ ـ ٧٨٦) العرش، فتمكن من إحراز النصر على بعض أمراء المسلمين. وساعده على ذلك ضعف بعض الخلفاء واستبداد القواد بهم وثورة الجند عليهم.

وكان أحمد بن طولون الذي ولي الثغور الشامية من قبل الخليفة المعتمد، مصدر خوف البيزنطيين، حتى إنهم هادوه في سنة ٢٦٥ هـ. وفي ذلك يقول الطبري (جـ ١١ ص ٢٥٣): «بعث ملك الروم بعبد الله بن رشيد بن كاوس الذي كان عامل الثغور، فأسر إلى أحمد بن طولون مع عدة من أسراء المسلمين وعدة مصاحف هدية منه إليه». على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن أغاروا في السنة التالية على ديار ربيعة، فتصدى لهم أهل الموصل ونصيبين، وردوهم على أعقابهم بعد أن عاثوا في هذه البلاد[٢]، فرد نائب أحمد بن طولون على الثغور الشامية على البيزنطيين، بإغارته على الأراضي القريبة من هرقلة وإيقاعه بأهلها[٣].

(١) The Caliphate, pp. 522 - 523.
(٢) ابن الأثير: ج ٧ ص ١١٨.
(٣) الطبري جـ ١١ ص ٢٥٨.

وقد أتاح اشتغال العباسيين بقتال صاحب الزنج الفرصة للبيزنطيين للإيغال في بلاد الدولة العباسية، فحاصروا قلمية (بفتح القاف واللام وسكون الميم) القريبة من طرسوس في جيش كثيف قيل إنه بلغ مائة ألف؛ ولكن المسلمين أوقعوا بهم وغنموا منهم غنائم لا تحصى[١].

كذلك أتاح اشتغال العباسيين بمحاربة قرامطة زكرويه في شمال العراق وبادية الشام وبعض المدن الشامية، الفرصة للبيزنطيين، فأغاروا في سنة ٢٩٢ هـ على الثغور الشامية في مائة ألف جندي، وعاثوا في كثير من المدن مثل الحدث (بفتح الحاء والدال). فخرج إليهم المسلمون من طرسوس، وفتحوا أنطاكية الحصينة التي يقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٩٠) إنها تشبه القسطنطينية، وقتلوا خمسة آلاف من أهلها وأسروا مثلهم وأنقذوا أسرى المسلمين فيها، كما استولوا على ستين مركباً، وغنموا ما فيها من الأموال والمتاع والرقيق. وكانت غنائم المسلمين من الكثرة بحيث بلغ نصيب كل منهم ألف دينار. كما بلغ المسلمون قونية في سنة ٢٩٤ هـ وخربوها، واضطر إمبراطور الروم إلى طلب الصلح وتبادل الأسرى بين الفريقين[٢].

وقد اتخذ البيزنطيون من ثورة الحسين بن حمدان على بني بويه فرصة للإغارة على الثغور الجزرية، فقصدوا حصن منصور سنة ٣٠٣ هـ وسبوا من كان فيه، كما أوقعوا بجند المسلمين في طرسوس وعاثوا فساداً بمرعش[٣]، وسار القائد مؤنس في السنة التالية إلى ملطية وفتح كثيراً من حصون الروم، وكان من أثرها هذا النصر المؤزر الذي أحرزه مؤنس على الروم أن خلع عليه الخليفة المقتدر لقب المظفر. وقد اضطر الروم إلى طلب المهادنة من المسلمين (سنة ٣٠٥ هـ). ويقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ٣٧) إن إمبراطور الروم أرسل إلى المقتدر رسولين يطلبان المهادنة والفداء.

على أن البيزنطيين وقفوا على مبلغ الضعف الذي حل بالدولة العباسية في عهد المقتدر الذي عجز عن إمداد الثغور بالرجال والعتاد، حتى إن الإمبراطور قسطنطين السابع (٢٩٩ - ٣٤٨/ ٩١١ - ٩٥٩) أرسل إلى أهل الثغور يرسم لهم أداء الخراج إليه ويقول: «إن

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٣٣.

فعلتم ذلك طائعين وإلا قصدتكم، فقد صح عندي ضعفكم»[١]. وكان من أثر ذلك أن دخل الروم ملطية بعد أن فر أهلها إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة (٣١٣ هـ).

ولم تكن حالة الدولة العباسية في عهد إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٣٣٤) أقل سوءاً واضطراباً بسبب تنافس الأمراء على السلطة والنفوذ. وقد أدرك البيزنطيون هذا الضعف فطمعوا في الإغارة على بلاد الدولة العباسية المجاورة لهم. ففي سنة ٣٣٠ هـ أوغل البيزنطيون في هذه البلاد حتى وصلوا إلى حلب وعاثوا فيها، وقابل المسلمون في طرسوس هذا العمل بإغارتهم على البيزنطيين في آسيا الصغرى وأسر كثير من قوادهم[٢]. ووصلت جيوش الروم في السنة التالية إلى أرزن وميافارقين ونصيبين فنهبوها وأسروا أهلها وبلغوا داراً بين نصيبين وماردين[٣]، «وطلبوا منديلاً في كنيسة الرها يزعمون أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه، على أن يطلقوا جميع من سبوا، فأرسل إليهم وأطلق الأسرى[٤] كما استولى البيزنطيون في السنة التالية على مدينة رأس عين، وأخذوا جميع ما كان فيها ونهبوها، ثم أحرقوها عند رحيلهم (الصولي ص ٢٥١).

وكان لأمراء العباسيين في مصر نصيب كبير في العلاقات التي قامت بين العباسيين والبيزنطيين. فقد كان أحمد بن طولون وابنه خمارويه من بعده شجي في حلق هؤلاء البيزنطيين. ولم يكن محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) أقل خطراً على البيزنطيين من الطولونيين. نعم! كان الإخشيد مصدر فزع للإمبراطورية البيزنطية، حتى إن الإمبراطور رومانوس تودد إليه ومدحه وكاتبه دون الخليفة على غير ما جرت به العادة في ذلك الوقت، وأرسل إليه كتاباً مع رسولين من قبله يطلب تبادل الأسرى، فرد عليه الإخشيد بكتاب طويل يدل على ثقته بنفسه وإقراره بالتبعية للخليفة العباسي، ثم على اتساع رقعة البلاد التي تدين له بالطاعة[٥].

وكذلك كانت بلاد الحمدانيين مسرحاً للنزاع بين البيزنطيين والمسلمين، فقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين، حتى إنه غزا بلادهم أربعين غزوة، انتصر في

(١) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ١٤٦.
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٩.
(٣) للصولى: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٣٢ - ٢٣٣.
(٤) السيوطي: أخبار الخلفاء ص ٢٦٢.
(٥) راجع القلقشندي: ج ٧ ص ١٠ - ١٨.

بعض وهزم في بعض آخر. ففي سنة ٣٣٩ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم وبلغ قيسارية، ثم يمم شطر سمندو (بفتح السين والميم وسكون النون) في أواسط آسيا الصغرى، فهرب الدمستق فقال المتنبي:

رضينا والدمستق[١] غير راضٍ بما حَكَم القواضب والوشيجُ[٢]
فإن يُقْدِمْ فقد زرنا سَمَنْدو وإن يُحجم فموعدُنا الخليجُ[٣]

قصد سيف الدولة بعد ذلك مدينة «صارخة» على مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية وأوقع بجيش الدمستق، وأقام المنابر وخطب له فيها. وكانت غزوة صارخة من أشهر الغزوات التي انعقد فيها لواء النصر لسيف الدولة على الروم[٤].

وفي ٣٤٢ هـ عادت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم سيرتها الأولى، وأسر قسطنطين بن الدمستق الذي ساقه سيف الدولة إلى حلب حيث بقي عنده حتى مات. وقد قابل الروم هذا العمل بغزو البلاد الإسلامية حتى بلغوا طرسوس في سنة ٣٤٨ هـ وخربوا حصن الهارونية الذي بناه هارون الرشيد على مقربة من مرعش، ثم توجهوا إلى ديار بكر ووصلوا إلى ميافارقين، وعاثوا في بلاد الحمدانيين والعباسيين، وأوقعوا الفزع في قلوب الأهلين، حتى إن الخطيب عبد الرحيم بن نباته أنشأ هذا النوع من الخطب التي أطلق عليها الخطب الجهادية لإثارة حماس المسلمين وحثهم على الجهاد[٥].

ولم تكن الدولة العباسية في عهد بني بويه أحسن حالاً منها في عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء. فقد استبدوا بالسلطة دون الخلفاء، وقامت المنافسة بين أفراد البيت البويهي، مما أطمع البيزنطيين في الدولة العباسية، فاستولى القائد نقفور فوكاس على جزيرة كريت سنة ٣٥٠[٦]. ثم انتصر على سيف الدولة الحمداني، ثم على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش ودبيق. وبالقرب من مَنْبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمداني الشاعر المشهور. ثم استولى على مدينة حلب حاضرة الحمدانيين[٧]. وقد قيل إن جيش الروم بلغ مائتي ألف مقاتل. وكان لسقوط حلب في يد الروم أثر بالغ في نفوس المسلمين عامة وفي

---

(١) الدمستق اسم لملك الروم.
(٢) الوشيج شجر الرماح أي بما حكمت به الرماح.
(٣) يقصد خليج القسطنطينية.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٣.
(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣١٩، ٣٢٢.
(٦) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٢، ٢٢٠.
(٧) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٥، ١٩٨.

نفوس أهل بغداد خاصة. حتى إنهم اجتمعوا «ووبخوا الخليفة المطيع لله بكائنة حلبْ»، وطلبوا منه أن يخرج بنفسه إلى الغزو ويأخذ بثأر أهل حلب[١].

وبعد موت رومانوس رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل (٩٦٣/٣٥٢). تزوجت أرملته تيوفونيا من نقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م)، ثم من قاتله جون زيمسكيس ويسميه مؤرخو العرب ابن الشمشقيق (٩٦٩ - ٩٧٦ م) بطلَيْ ذلك العصر، وإليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار، وامتدت غزوات هذين الإمبراطورين من تلال كبادوكيا إلى صحراء بغداد[٢].

وفي سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية، ووقعت في أيديهم مدينة المصيصة وطرسوس (٣٥٥ هـ)،وتبعتهما مدينة كيلكيا شمالي زاوية خليج إسكندرونة، وتعرف عند العرب بقاليقلا. كما انتزع جزء من بلاد سورية، واعترف قسم كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية[٣].

والواقع أن هذا الانتصار يرجع إلى كثرة الفتن والاضطرابات في بلاد الشام، فإن الفاطميين استولوا على دمشق على أثر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ. وقامت الحرب بينهم وبين القرامطة بمساعدة البويهيين، ثم تجدد النزاع بين الفاطميين في عهد العزيز من جهة وبين القرامطة وأفتكين التركي من جهة أخرى، فاتخذ البيزنطيون من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن غاراتهم على هذه البلاد.

وكان عبور الفرات في الجهات الواقعة جنوبي جبال طوروس مستحيلاً على الإغريق منذ أيام هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م). ولكن زيمسكيس استطاع أن يكتسح كثيراً من المدن العريقة في الشهرة، مثل الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الإمبراطورية القديم على مقربة من نهر دجلة، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على بيت المقدس، لولا أنه وجد أن قوته لا تكفي لتحقيق هذا الغرض، فسار نحو الشمال، واستولى على المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا وجبيل. ولكن الهزيمة حلت بجنده في طرابلس،

---

(١) أبو المحاسن جـ ٧ ص ٣٣٢، ٣٣٥.
(٢) Vasil, Ev. op. cit, vol. IV.p.145.
(٣) Ibid.pp.146 « 147.

ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية، وعاد الإمبراطور نفسه إلى حاضرة ملكه حيث مات في ١٠ يناير سنة ٩٧٦ م (٣٦٦ هـ)(١).

وقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه الفالة عن زيمسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع. على أن مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع في حربهم في الصحراء. وتبع ذلك قيام ورد بن منير السقلاروس Bardas Sclerus في الجهات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ابتغاء الجلوس على العرش ومسيره بعد إخفاقه إلى بغداد طالباً النجدة من الخليفة العباسي الذي رحب به، وما تبع ذلك توافد رسل الإمبراطور باسيل الثاني يطلبون تسليم برداس(٢).

كان لإغارة الفاطميين على حلب في سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ - ٩٩٥ م) أثره في علاقة البيزنطيين بالمسلمين. فقد طلب الحمدانيون النجدة من الإمبراطور باسيل الثاني، الذي رحب بهذا الطلب على الرغم من اشتغاله بحرب البلغار الذين عرضوا إمبراطوريته للخطر، وقرر الذهاب بنفسه إلى المشرق، ولا سيما أن أنطاكية قد تعرضت لحصار الفاطميين. ولهذا استطاع هذا الإمبراطور أن يخلص مدينة حلب حاضرة الحمدانيين، كما استولى على حمص، ولكنه اضطر بسبب عدم إحرازه النصر أمام أسوار طرابلس، إلى العودة إلى بلاده لمحاربة البلغار، ولم تلبث الهزيمة أن حلت بجيوش البيزنطيين على مقربة من فامية(٣).

ومن ثم نجد باسيل الثاني يظهر في سورية من جديد (٣٩٠/٩٩٩ م) في شيزر وحمص، ولكن الهزيمة حلت به في طرابلس ثانية واضطر إلى العودة إلى القسطنطينية في سنة ٣٩٢ هـ(٤).

(ب) علاقة الفاطميين بالبيزنطيين:

أرسل الخليفة العزيز الفاطمي في سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو بلاد الروم. غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها. ثم قدم إلى مصر

---

(١) Ibid, pp.148. مسكويه ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤. ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢.

(٢) مسكويه ج ٣ ص ١٣ - ١٤.

(٣) مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ويقال لها أفامية.

(٤) Vasil, Ev. op. cit., vol. iv,pp. 147 - 148.

رسل إمبراطور الروم يحملون الهدايا إلى العزيز وطلبوا منه عقد الصلح، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط أهمها:

١ ـ إطلاق سراح أسرى المسلمين في بلادهم.
٢ ـ الدعاء للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة.
٣ ـ حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم.
٤ ـ عقد الهدنة بين الفريقين سبع سنين(١).

وكانت بلاد الشام التي كانت تابعة للفاطميين إذ ذاك مركزاً للصراع بينهم وبين البيزنطيين على ما تقدم. فقد عمل الحاكم على منع البيزنطيين من التقدم جنوباً في هذه البلاد، وأعد لذلك حملتين انتصرت إحداهما على البيزنطيين بحراً بالقرب من طبرية، وانتصرت الأخرى براً بالقرب من فامية.

ولما علم إمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة أرسل رسولاً من قبله لمفاوضة الخليفة الفاطمي في الصلح، وتم الاتفاق بينهما على عقد صلح يقضي بوقف الحرب بين الفريقين عشر سنين(٢).

ولما ولي الخليفة الظاهر الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين. ففي سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) عقدت الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن، وتقضي بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في مساجد بلاد الروم، وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس (وكان الحاكم قد هدمها)، وترك الحرية للمسلمين الذين تحولوا إلى الإسلام في عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم(٣).

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية في أوائل عهد المستنصر على شيء من الصفاء. ففي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ ـ ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم «خمسة آلاف أسير

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٢.
Lane - Poole, of Egypt in the Middle Ages, p. 136.
(٣) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٥٥.

لتعمير كنيسة القيامة التي كان قد خربها[١]. كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤ م) في سنة ٤٦٦ هـ (١٠٥٤ م) الذي تعهد بأن يمد مصر بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التي حلت بمصر في هذه السنة.

غير أن هذا الإمبراطور توفي قبل تنفيذ هذا الاتفاق، وخلفته الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ ـ ١٠٥٦ م)، فاشترطت لمعونة مصر شروطاً أهمها أن يتعهد الخليفة الفاطمي بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها؛ فلم يوافق المستنصر على ذلك، واشتبك الفريقان في معارك برية كان النصر فيها حليف الفاطميين. ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين في مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم، فرأى المستنصر وقف القتال وطلب المهادنة، وأرسل في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) إلى الإمبراطورة تيودورا القاضي أبا عبد الله القضاعي لتسوية الخلاف، بيد أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة.

(جـ) علاقة الأمويين في الأندلس بالبيزنطيين:

رأينا من قبل أن العباسيين عملوا في العصر العباسي الأول على مناوأة أعدائهم البيزنطيين والأمويين في الأندلس، فتقربوا إلى أعدائهم الفرنجة، وخطب شرلمان ود هارون الرشيد، فأرسل إليه وفداً لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ونشر التجارة بين البلدين وارتشاف العلوم من مواردها في الشرق. وقد رحب الرشيد بهذه الوفود وأرسل مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان الذي أصبح حامي المسيحية، وتبودلت الهدايا بينهما.

بيد أنه في العصر العباسي الثاني، نرى البيزنطيين يعملون على محالفة الأمويين في الأندلس الذين اتسع نفوذهم وتفاقم خطرهم في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) للوقوف في وجه العباسيين أعداء البيزنطيين والأمويين جميعاً، ولذلك عمل الإمبراطور قسطنطين بورفيرو جنيتس Constantine Porphryogenitus (٩١١ ـ ٩٥٩ م) على التحالف مع الناصر، وأوفد في سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ ـ ٩٤٨ م) إلى البلاط الأموي بالأندلس سفارة تحمل كتاباً من الإمبراطور داخل صندوق من الفضة مغطى بالذهب[٢].

وقد اهتم عبد الرحمن الناصر باستقبال هذا الوفد استقبالاً عظيماً. وكان يرمي من وراء

(١) أبو الفدا: المختصر ج ص ٦٢.
(٢) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ١٧٣.

ذلك إلى «أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته»[١].

ولم تقف علاقة المودة بين الأمويين في الأندلس والبيزنطيين عند هذا الحد. فقد أمر الإمبراطور قسطنطين السابع بعمل قبلة للمسجد الجامع بقرطبة صنعت من الفسيفساء المذهب والملون. وقد وصفها الإدريسي الذي شاهدها بقوله «قبلة يعجز الواصفين وصفها وفيها إتقان يبهر العقول تنسيقها». كما أهدى إليه كثيراً من الأعمدة التي استعملت في بناء مدينة الزهراء. وأرسل إليه نيقولا Nicholas لترجمة الكتاب الطبي الذي كان قد أهداه إليه من اليونانيةإلى اللاتينية على أن يتولى ابن شبروط ترجمته إلى العربية.

٢ ـ مع الدول الغربية في أوربا

استقرت قدم العرب في أسبانيا وفي صقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط كما تقدم، وحاولوا الاستقرار على سواحل هذا البحر في إيطاليا وفرنسا، واستطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروڤانس الأسفل، وزادت قوتهم بما كان يصل إليهم من الإمدادات من بلاد الأندلس وإفريقية وجزيرة صقلية، وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غويمو جنوبي إقليم بروڤانس وفي غابة فراكسينت Fraxinet. ومن ثم أطلق على هذه الدولة العربية الفراكسينية. ولم يلبث هؤلاء العرب أن ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير في الأدغال والأحراج، ومما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين أمراء الإقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم على بعض.

ولم يكتف هؤلاء العرب بما بلغوه من قوة وما حازوه من ثروة، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ المطلق فيها، واستطاعوا في خلال القرن العاشر الميلادي أن يهددوا تورينو ويخربوا بعض الأديرة وينتشروا في نواحي مونت‌فرات وبيدمونت ويستقروا في سهول نهر البو. ثم تقدموا في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٥ م) إلى حدود ليجوريا Liguris، ودخلوا مدينة جنوة، ووقعت في أيديهم ممار جبال الألب الشاهقة، وخاصة ممر سان برنار، وفرضوا الضرائب على المسافرين.

---

(١) المسرى: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٠.

ولم يقف نشاط العرب عند هذا الحد، بل اجتازوا جبال الألب الشمالية ودخلوا سويسرا، وامتد نفوذهم من شواطىء بحيرة كنستانس شمالاً إلى جنوة ومرسليا ونيس جنوباً، وعملوا على نشر الإسلام في هذه الجهات، حتى إننا لا نزال نرى اسم الحي العربي Carton de Sarazins في أحد أحياء مدينة نيس.

على أن نفوذ هؤلاء العرب لم يلبث أن أخذ في الضعف حول منتصف القرن الرابع الهجري، بعد أن دانت هذه البلاد لسلطانهم زهاء سبعين سنة. وكان أهم هذه الحصون الحصن المسمى Fraxinatum بقرية جارد فرينيه Gard Frainct التي تقع الآن في سفح الجبل من الناحية الشرقية بمقاطعة بروڤانس جنوبي فرنسا. ويسمّي الإصطخري هذا الموقع جبل القلال. وقد وصفه في هذه العبارة فقال: «وأما جبل القلال فإنه كان جبلاً خراباً وفيه ماء وأرض، فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا في وجوه الإفرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم، ومقداره في الطول يومان»[1].

وقد عمل ملك بروڤانس على طرد عرب الفراكسينت من بلاده، فاستعان بأوتو الأكبر (٩٣٦ - ٩٧٣ م)، إمبراطور ألمانيا الذي أصبح في سنة ٩٦٢ م إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، على الحد من نفوذ عرب مملكة الفراكسينت بإمبراطور الدولة البيزنطية الذي أمده بأسطول، وكاد يقضي على نفوذ العرب في بلاده، لولا أن ثار عليه أحد خصومه في إيطاليا، وخشي أن يصل إليه عدوه عن طريق ممار الألب التي كانت في حوزة العرب. ولذلك هادن العرب على أن يسدوا هذه الممار في وجه عدوه.

واعتقد أوتو الأكبر أن عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس كان يساعد العرب في نشر فتوحهم؛ فأرسل إليه سفارة للعمل على وقف إغارات هؤلاء العرب. ويقول بعض المؤرخين إن عبد الرحمن كان قد أرسل إلى أوتو سفراء لإنشاء علاقات سياسية بين الدولتين، وإنه أرسل إليه كثيراً من الهدايا، وكانت هذه السفارة برياسة أحد الأساقفة المستعربين في الأندلس، وكان هذا الكتاب الذي دون باللغة العربية يحتوي على بعض عبارات فيها نقاش حول التثليث، ولكن المنية وافت هذا الأسقف وهو في طريقه إلى أوتو. وقد قيل إن أوتو اعتبر العبارات التي تدور حول فكرة التثليث إهانة لدينه، فأهان هؤلاء المبعوثين وأساء معاملتهم وأبقاهم ببلاده ثلاث سنين.

---

(١) أنظر شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب ص ١٦٤ - ١٦٥، ١٦٦ - ١٧٠.

وبعد قليل أرسل أوتو رسلاً إلى قرطبة لوصف إغارات الفراكسينت العرب من ناحية، ورد الإهانة التي وجهها المسلمون إليه من ناحية أخرى، وعهد أوتو في رياسة هؤلاء الرسل إلى جان دي جورتزا Jean de Gorza الذي وصل إلى قرطبة سنة٣٤٥هـ(٩٥٦م). علم الخليفة الناصر بما اشتمل عليه كتاب أوتو وتعريضه بمحمد عليه الصلاة والسلام، فأرسل إلى رئيس هؤلاء الرسل مطران قرطبة ينصح له بالعدول عن سب الرسول، فلم يزدد إلا عناداً، وأخذ يوبخه على تساهل مسيحيي الأندلس مع المسلمين، ومسايرتهم لهم في الختان والامتناع عن أكل لحم الخنزير. وصمم الخليفة الناصر على إبقاء أعضاء السفارة تسع سنوات لا ثلاث سنوات كما فعل أوتو برجال سفارته من قبل، وأرسل إلى إمبراطور ألمانيا كتاباً مع رجل مسيحي يسمى ريسمند يطلب فيه تغيير كتابه الأول.

وقد نجح هذا الرسول في مهمته، واستبدل أوتو كتابه بكتاب آخر وصل بعد ثمانية عشر شهراً من وصول كتابه الأول، وكوفيء هذا الرسول بتعيينه أسقفاً، وهنا مثل جورتزا بين يدي الخليفة الناصر. واصطفت الجند على جانبي الطريق التي مر فيها أعضاء هذه السفارة، ووقف الصقالبة شاكي السلاح. وفرشت ممرات قصر قرطبة بالبسط والديباج وجلس الخليفة في البهو الكبير، فتقدم الأسقف جورتزا وقبل يده وجلس بجانبه، وأخذ الناصر يثني على الإمبراطور أوتو وعلى سعة عقله وكفايته، لكنه تعرض لإحدى نقائص الحكم في دولته لاعترافه بنفوذ حكامه الإقطاعيين ومشاركتهم إياه في حكم البلاد مما يثير في نفوسهم الغرور والميل لشق عصا طاعته[١].

وعلى الرغم من عدم تصدي المؤرخين لما كان لهذه السفارة من أثر، لا يمنعنا ذلك من القول بأن بلاط الناصر كان محطاً لسفراء الدول، كسفارة أوتو ملك الصقالبة في سنة ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ)[٢]، وسفراء حكام فرنسا[٣]، كما دخل عبد الرحمن الناصر في حلف مع ملك إيطاليا الذي آلمه تخريب الفاطميين لمدينة جنوة، كما حالف البيزنطيين الذين تطلعوا إلى انتزاع جزيرة صقلية من الخليفة القائم الفاطمي[٤].

---

(١) Dozy, The Moslems in Spain, p. 429.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤.

(٣) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٣٤.

(٤) Dozy. op. Cit., p. 434.

٣ ـ مع الروس

وقد تعرضت البلاد الإسلامية في الشرق لهجوم الروس ففي سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ ـ ٩٤٤ م) أغار جماعة من الروس الذين كانوا يقيمون شمالي بلاد الخزر على أذربيجان واستولوا على قصبتها برذعة. وقد اشتهر الروس بقوة أبدانهم وشدة بأسهم ومهارتهم في الحرب. وقد وصفهم مسكويه[1] في هذه العبارة فقال: «هؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام، ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل. ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة للسلاح، ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها، ويقاتل بالحربة والترس، ويتقلد بالسيف، ويعلق عليه عموداً وآلة كالدشني، ويقاتلون رجالة لا سيما هؤلاء الواردين».

وقد أوقع هؤلاء الروس الهزيمة بأمير أذربيجان، وحاولوا أن يستميلوا الناس إليهم. فلما أبوا أن يجيبوهم إلى طلبهم، عاثوا في بلادهم وقتلوا أهل برذعة عن آخرهم. ويقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٤٦) إن الروس نزلوا برذعة ونادوا فيها بالأمان، فأحسنوا السيرة وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية. فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم. وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم، فينهاهم الروس عن ذلك، فلم ينتهِ سوى العقلاء فإنهم كفوا أنفسهم، وسائر العامة والرعاع لا يضبطون أنفسهم، فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه. وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام، فخرج من كان له ظهر يحمله وبقي أكثرهم بعد الأجل، فوضع الروسية فيهم السلاح، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس، وجمعوا من بقي بالجامع وقالوا: اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم. وسعى لهم إنسان نصراني فقرر عن كل رجل عشرين درهماً، فلم يقبل إلا عقلاؤهم. فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء، فقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا الشديد، وغنموا أموال أهلها، واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسنوها».

يمم الروس بعد ذلك صوب مراغة، وعاثوا في البلاد، فهال المسلمين ذلك ودعوا للجهاد. وأعد المرزبان بن محمد بن مسافر أمير أذربيجان جيشاً لمحاربة العدو واستطاع أن يوقع بهم[2]. وهكذا كانت علاقات المسلمين بالروس عدائية كعلاقتهم مع البيزنطيين والفرنجة وغيرهم.

---

(١) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٦٢.

(٢) مسكويه ص٦٤ ـ ٦٧ Muir, The Caliphate, p. 475

الباب السابع

نظم الحكم

١ ـ النظام السياسي

(أ) الخلافة

١ ـ الخلافة العباسية:

طبعت الخلافة في هذا العصر بطابع الوهن والضعف، لازدياد نفوذ الأتراك في الدولة العباسية، وتدخلهم في شئون الدولة وتنصيب من يشاءون وعزل من يشاءون أو قتله أو سمل عينيه حتى أصبح الخلفاء مسلوبي السلطة. كما تميزت الخلافة بطابع تدخل النساء في شئون الدولة، وكثرة تولية الوزراء وعزلهم، وتولية العهد أكثر من واحد، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أمراء البيت الواحد.

وقد أدت تولية المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ)، الذي وصفه بعضهم بأنه ظل الله الممدود بينه وبين خلقه، أولاده الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد العهد، وتقديم ابنه المعتز على المنتصر، إلى اغتيال هذا الخليفة بيد ابنه المنتصر بتحريض الأتراك. ولا غرو فقد حاول بعض هؤلاء الأتراك اغتيال هذا الخليفة في دمشق من قبل ولكنهم لم يفلحوا فانتهزوا فرصة حنق المنتصر على أبيه وانضموا إليه وقتلوه، فخلفه ابنه وقاتله على العرش. ولم يلبث المنتصر أن عمل بتدبير الأتراك على إقصاء أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، إذ كانوا يخشون أن ينتقم هذان الأميران، وخاصة المعتز، منهم لقتل أبيهما المتوكل[١].

وعلى الرغم من قصر عهد المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ) أدى خوف هؤلاء الأتراك من أبناء المتوكل إلى تحويل الخلافة إلى أحد أبناء المعتصم، وهو أحمد، ولقبوه المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ)[٢]. وفي عهد تفاقم نفوذ الأتراك، وعلى رأسهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وباغر. ولم يلبث بعض هؤلاء الأتراك الذين أجلسوا هذا الخليفة على العرش أن

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٠.

انقلبوا عليه بسبب تواتر الإشاعات بأنه عزم على الفتك بهم، ومن ثم قامت الفتن والحروب الأهلية.

وقد بلغ من تفاقم نفوذ الأتراك وخوف الخلفاء من بطشهم أن كان المعتز لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار خوفاً من الأتراك وعلى رأسهم بغا الصغير[١]. وهذا يفسر لنا لماذا عمل المعتز على اصطناع المغاربة والفراغنة للتخلص من الأتراك الذين عملوا بدورهم على التخلص منه؛ وطالبوه برواتبهم وتاروا في وجهه وقبضوا عليه وقتلوه بعد أن مثلوا به.

ثم ولي المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) الخلافة. وكان، كغيره من الخلفاء العباسيين، ألعوبة في أيدي هؤلاء الأتراك وخاصة موسى بن بغا. وسرعان ما أسر وخلع وعذب حتى مات في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ[٢]. وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويجلس للمظالم.

أما الخليفة الجديد وهو المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) فقد اعتلى العرش على أيدي الأتراك الذين أخرجوه من «الجوسَق» الذي حبسه فيه المهتدي، وكان ـ كما يقول السيوطي (ص ٢٤٣) ـ «أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به». ولا غرو فقد شل أخوه أبو أحمد الموفق طلحة يده عن مباشرة أمور الدولة حتى أصبح مسلوب السلطة.

ولم ير المعتمد بداً من مصانعة الأتراك، وخاصة قائدهم موسى بن بغا، الذي خلع عليه وضمه إلى ابنه المفوض، وقسم دولته بين ابنه جعفر، وسماه المفوض وخصه بالبلاد الغربية وضم إليه موسى بن بغا فحكمها باسمه، وولَّى أخاه أبا أحمد طلحة بعد ابنه المفوض، وسماه الموفق وخصه بالبلاد الشرقية. وبذلك ضعفت الخلافة في عهد المعتمد الذي أصبح مسلوب السلطة أمام أخيه الموفق والأتراك.

ولما توفي الموفق سنة ٢٧٨ هـ انتقل السلطان الفعلي إلى ابنه العباس أحمد الذي نجح في تنحية ابن عمه، ثم بويع بالخلافة بعد وفاة عمه سنة ٢٧٩ هـ. ولقب المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ). وكان يسمى السفاح الثاني لأنه أحيا ما درس من أطلال الخلافة حتى أصبحت قوية مهيبة وتخشاها الدول واهتم بإصلاح الحالة المالية في العراق، فعني بتحسين نظام الري ونظم الضرائب[٣].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٢٨. (٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

مات المعتضد، والمعتمد من قبله، ميتة طبيعية بعكس الخلفاء الذين فتك بهم الأتراك، وقد آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبي محمد بن المعتضد الذي تلقب «المكتفي بالله» (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ). وعلى الرغم مما اشتهر به هذا الخليفة من التبذير، نشر العدل بين الرعية، فهدم المطامير التي اتخذها أبوه المعتضد وجعلها مساجد، وأمر برد البساتين والحوانيت التي سلبها أبوه من الناس.

وقد خلف المكتفي أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد الذي تلقب المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ). ويرجع السبب في اختياره إلى صغر سنه؛ إذا لم يجاوز الثالثة عشرة ليكون أسلس قياداً. ولكن المقتدر لم يلبث أن خلع وبويع عبد الله بن المعتز بالخلافة وتلقب «الغالب بالله». إلا أن أتباع الخليفة المخلوع أعادوه إلى العرش، وقد اشتهر المقتدر بعزل وزرائه والقبض عليهم، وتدخل الجند في أمور الدولة وخروج كبير أمرائه وهو مؤنس الخادم عليه وعزله مرتين. أضف إلى ذلك رجوعه إلى قول النساء والخدم والتصرف على مقتضى آرائهن، ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه التي يطلق عليها المؤرخون اسم «السيدة»[١].

زاد ضعف الخليفة العباسي منذ أوائل القرن الرابع الهجري، لازدياد شوكة القواد من الأتراك وتفاقم خطر الدول المستقلة. فقد عظمت شوكة علي بن بويه في فارس، وأصبحت الري وأصبهان وبلاد الجبل في يد أخيه الحسن بن بويه؛ كما استقل الحمدانيون بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر. واستقل محمد بن طغج الإخشيد بمصر والشام، واستقل نصر بن أحمد الساماني بخراسان. وأعلن عبد الرحمن الثالث بالأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة، وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات[٢]. وانتهى الأمر بقتل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ.

ولم يكن حظ القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) أقل سوءاً ممن سبقه من الخلفاء العباسيين: فقد سمل وحبس. وساءت حاله حتى إنه خرج يوماً يطلب الصدقة بجامع المنصور، فأعطاه بعض الهاشميين خمسمائة درهم، وأمر المستكفي بحبسه، فظل في الحبس حتى مات في عهد المطيع سنة ٣٣٩ هـ.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٥.

(٢) هي الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في المهدية، والخلافة الأموية في قرطبة.

لم يجد الخليفة الراضي (٣٣٢ ـ ٣٣٩ هـ) نفسه إزاء ضعف الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة بدأ من استمالة ابن رائق، وكان يلي واسط والبصرة. ووجد فيه الرجل الذي يستطيع أن يعتمد عليه؛ فأسند إليه كافة أمور الدولة، ولقبه «أمير الأمراء». وبعد أن كان الصراع بين الخلفاء العباسيين وكبار القواد والأمراء، أصبح بين الخلفاء وأمراء الأمراء. وكان من أثر تنازع القواد على منصب إمرة الأمراء أن استعان هؤلاء القواد بعضهم ببعض، وأدى هذا النزاع وما أعقبه من الفوضى والاضطراب إلى استنجاد الخليفة المستكفي ببني بويه، ودخول معز الدولة بن بويه بغداد سنة ٣٣٤ هـ.

ولم يكد معز الدولة يستقر في بغداد حتى حجر على الخليفة وسمل عينيه، واستدعى الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ). وكان بنو بويه شيعة غالية؛ لذلك لم يعترفوا بأحقية الخليفة العباسي السني في زعامة المسلمين[١]. ولذلك لم يكن للخليفة العباسي في عهدهم شيء من النفوذ سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة وذلك لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور وإعطاء حكمهم صبغة شرعية في البلاد. ولولا خوف بني بويه من ضياع نفوذهم السياسي لما تورعوا عن تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين. لذلك لم يدخروا وسعاً في تقوية نفوذهم وسلب السلطة من أيدي الخلفاء العباسيين[٢].

وقد وصف البيروني[٣] موقف الخلفاء العباسيين من سلاطين بني بويه في هذه العبارة فقال: «وإن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه. والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي، لا ملك دنياوي. فالقائم من ولد العباس الآن يعني في عهد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ هو رئيس الإسلام لا ملك».

ولم يقف نفوذ البويهيين عند هذا الحد؛ فترى الخليفة المستكفي يلقب البويهيين بألقاب مختلفة، ويأمر بذكر أسمائهم في الخطبة ونقشها على السكة: فلقب أحمد معز الدولة، وعلياً عماد الدولة، والحسن ركن الدولة. وقد ذكر لينپول أنه خلع على معز الدولة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) لقب «أمير الأمراء» الذي احتفظ به أمراء البيت البويهي فيما بعد، وقال:

(١) Arnold the Caliphale, p. 61

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١/ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٣) الآثار الباقية (طبعة لايبسك سنة ١٩٢٣) ص ١٣٢

«من الخطأ أن نقول إنهم تلقبوا بلقب سلطان لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم هذا اللقب قط على السكة، وإنما استعملوا لقب أمير وملك فحسب. ومع ذلك فإن نفوذهم كان مطلقاً كنفوذ أي سلطان في بغداد».

وقد ذكر المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في كتابه «السيرة المؤيدية»، وكان معاصراً لجلال الدولة (٤١٦ ـ ٤٣٥ هـ) وأبي كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) والملك الرحيم (٤٤٠ ـ ٤٤٧ هـ) آخر أمراء بني بويه في العراق، أن بني بويه كانوا يلقبون بألقاب متعددة منها «شاهنشاه المعظم ملك الملوك محيي دين الله وغياث عباد الله، سلطان الدولة، معز أمير المؤمنين، ويمين خليفة الله؛ كما كانوا يلقبون أحياناً بلقب أمير الأمراء».

ونرى المطيع يخلع على عضد الدولة البويهي خلع السلطنة ويطوقه ويسوره ويعقد له لواءين: أحدهما مفضض على رسم ولاة العهود، ويلقبه بلقب «شاهنشاه الأعظم ملك الملوك». ويأمر بأن يضرب على بابه بالدبادب في أوقات الصلوات الخمس[١]. كما نرى الخليفة الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) يلقب صمصام الدولة بن عضد الدولة بلقب شمس الدولة ويخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء. ويسوره ويطوقه ويتوجه ويعقد له اللواءين ويحمله على فرس، ويأمر بقراءة عهده بتقليده أمور الدولة العباسية وينقش اسمه على السكة[٢]. ويفعل الخليفة مثل هذا مع شرف الدولة بن عضد الدولة، فيلقبه بلقب شاهنشاه[٣]، ثم يخلع على أبي نصر بن عضد الدولة ويقرأ عليه العهد[٤]. إلا أن الخليفة أرغم في سنة ٣٨١ هـ على النزول عن الخلافة لأنه حبس رجلاً من خواص بهاء الدولة.

وقد أصبح الخلفاء في عهد بني بويه ـ كما يقول سير توماس أرنولد[٥] ـ «لا قيمة لهم في الوقت الذي غدا غيرهم أكثر قوة ونفوذاً، وأصبحوا يديرون العالم الإسلامي من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعي أنه أمير المؤمنين، بل لقد أصبحوا ألعوبة في أيدي سلاطين بني بويه يجلسونهم على العرش ويعزلونهم متى شاءوا وشاءت أهواؤهم».

ومع أن الخليفة أصبح مسلوب السلطة في عهد بني بويه كانوا يراعون مظاهر احترامه في الحفلات وينظرون إليه باعتباره زعيم المسلمين. فكان الخليفة يستقبل السفراء، ويلبس بردة الرسول، ويضع أمامه مصحف عثمان توكيداً لسلطته الدينية. وقد امتد نفوذ بني بويه في

---

(١) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ هـ ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٦.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٧١.
(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٤١.
(٤) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٥٣.
(٥) The Caliphate, p.68.

عهد عضد الدولة في البلاد الممتدة بين بحر قزوين والخليج العربي، ومن أصبهان إلى حدود سورية، وأصبح اسمه يذكر في الخطبة وينقش على السكة بعد اسم الخليفة العباسي. كما كان بنو بويه يزوجون بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة بذلك إلى أحفادهم. فقد تزوج الخليفة الطائع من بنت عز الدولة بختيار، وتزوج هذا الخليفة من ابنة عضد الدولة. وتجددت «وصلة بين الطائع لله وبين عصد الدولة فتزوج الطائع ابنته. وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب»[١].

على أن ضعف الخلافة العباسية في عهد بني بويه لم يكن راجعاً إلى ضعف الخلفاء أنفسهم وصراعهم مع بني بويه الذين استبدوا بالسلطة دونهم، بل كان راجعاً أيضاً إلى تلقيب الخلفاء لهم بهذه الألقاب الضخمة التي رفعت من شأنهم وقللت من هيبة الخلفاء أنفسهم مثل: تاج الملة وَضياء الملك وغيات الأمة وشاهنشاه وغيرها. وقد أسرف الخلفاء العباسيون في تلقيب أمرائهم، فنرى الخليفة العباسي القادر بالله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) يلقب محمود الغزنوي بن سبكتكين بألقاب سلطان ويمين الدولة وأمين الملة[٢]، ويلقب ابنه مسعود «سيد الملوك والسلاطين»[٣]، ويلقب جلال الدولة نفسه في سنة ٤٢٣ هـ بلقب السلطان المعظم مالك الأمم. فلما اعترض عليه رسول الخليفة، وهو أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الأحكام السلطانية بأن هذه الألقاب لا تكون إلا للخليفة نفسه، عدل عنها ولقب نفسه مالك الدولة. أضف إلى ذلك انقسام أفراد البيت البويهي على أنفسهم.

ظل الخلفاء العباسيون في هذا العصر يلقبون بلقب «أمير المؤمنين» الذي تلقب به الخلفاء منذ أيام عمر بن الخطاب، كما كان الناس يعتبرون الخلفاء العباسيين «ظل الله الممدود بينه وبين خلقه»[٤]، وكما لقب الخليفة المستكفي (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) نفسه بلقب «إمام الحق»، ونقش ذلك على السكة، منافساً في ذلك الخلفاء الفاطميين الذين تلقبوا بلقب «إمام»[٥]. وقد ذكر الصولي[٦] أن الأمير أبا العباس أحمد بن المقتدر طلب إليه قبل أن

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٧.
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥.
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣١.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥.
(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٣٠.
(٦) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢، ٤.

يتلقب بلقب الراضي بالله، أن يُرسل إليه الألقاب التي يصحُّ أن ينعت بها الخلفاء وتكون أوصافاً لهم، فأرسل إليه رقعة تشتمل على ثلاثين لقباً ليختار منها ما يريد، وأشار عليه بأن يختار لنفسه لقب المرتضي بالله، ولكنه اختار لنفسه الراضي بالله وقال: «قد كنت عرفتني أن إبراهيم بن المهدي لما بويع أيام الفتنة بالخلافة أراد أن يكون له ولي عهد، فأحضروا منصور بن المهدي وسموه المرتضي. وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيري ولم يتم له أمره. وقد اخترت الراضي بالله».

وكانت ولاية العهد في أيام الخلفاء الراشدين تقوم على أساس الشورى، ولكنها أصبحت وراثية في عهد الأمويين والعباسيين، وأصبح انتخاب ولي العهد صورياً، بمعنى أن الخليفة أصبح يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته وعن طريق الولاة في الأقاليم. ولكن هذه الطريقة كانت محفوفة بالمخاطر، لإثارة الكراهة والبغضاء بين أبناء الخليفة وقيام المنافسة بين أفراد البيت المالك، وقد رأينا ما حدث على أثر تولية المتوكل العهد لأبنائه المنتصر والمعتز والمؤيد، وكيف أدى ذلك إلى قتل الخليفة نفسه.

وعلى الرغم من ضعف الخلافة في عصر إمرة الأمراء وبني بويه، استمر الخلفاء العباسيون يولون العهد أبناءهم. على أن الأتراك والبويهيين من بعدهم كانوا لا يحفلون بهذا النظام إذا كان لا يتفق مع مصالحهم. وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون اهتماماً بالغاً بتولية أبنائهم العهد في احتفال رائع(١).

وسرعان ما استبد البساسيري بالسلطة ودعا للخليفة المستنصر الفاطمي على منابر بغداد نحواً من سنة، فاستنجد الخليفة العباسي القائم بطغرلبك السلجوقي الذي انتصر على البساسيري وقتله، وتحول النفوذ إلى السلاجقة.

٢ ـ الخلافة الفاطمية:

كانت الخلافة الفاطمية التي قامت بالمغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين. فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين، لأنهم أولاد علي ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة. وظل هؤلاء العلويون يناضلون

---

(١) أنظر تولية الخليفة القادر ابنه أبا الفضل العهد من بعده في كتاب تحفة الأمراء لهلال الصابي ص ٤٢٠.

في سبيل هذه الزعامة، بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى، حتى تُوجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته، ومن ثم نرى الشيعيين يخلعون على خلفائهم من صفات التقديس ما لم يتصف به خلفاء بني العباس. وقد قيل إن الخوارج في بلاد المغرب لم يرقهم بعض عقائد الشيعة الغالية، فثاروا في وجه الخلافة الفاطمية في عهد القائم والمنصور بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

ولكي يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، عمدوا إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذي يقوم على تقديس الأئمة. وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي كمصر واليمن وفارس والهند، بل لقد توغلت هذه التعاليم في بلاد الأندلس نفسها التي كانت تحت نفوذ الأمويين السنيين(١).

ولقد لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد، قبولاً عند الفاطميين. وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض، كما أصبح شخصاً مقدساً، حتى لقد تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطاً أو تذمروا أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه، لأنها صادرة من الله الذي أملاها على الإمام المعلم، الذي تلقى علمه من الله عن طريق الوحي.

وقد استمرت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين رائجة في مصر. فقد ادعى المعز لنفسه كثيراً من صفات التقديس، وادعى الحاكم الألوهية التي شغلت كل حياته تقريباً.

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمي أو الخليفة العلوي وأمير المؤمنين. ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية لقب إمام وصاحب الزمان وسلطان والشريف القاضي، كما يظهر من مخاطبة قاضي القضاة للخليفة في صلاة الجمعة. السلام على أمير المؤمنين «الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته». وكان السنيون يطلقون عليهم «العبيديين» نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين، كما يطلق عليهم «العلويون» نسبة إلى علي بن أبي طالب، و«الفاطميون» نسبة إلى فاطمة الزهراء، كما كان يطلق عليهم «السلاطين». وكان الخلفاء الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه

---

(١) Dozy the Moslems in Spain pp. 489, 413 - 415.

بأسمائهم: فنجد مثلاً المعز لدين الله، والعزيز بالله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لدين الله، والمستنصر بالله، وهكذا.

وقد حذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد. فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته. ولما تطرق الضعف إلى الدولة الفاطمية في عهد المستنصر، أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه، كما فعل بدر الجمالي وابنه الأفضل من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبوه المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص حتى لا يخلو العالم من إمام. فجر ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى نزارية ومستعلية. ولا يزال أغا خان وأتباعه من الخوجات في الهند يمثلون النزارية، كما لا يزال البهرة من الإسماعيلية في الهند أيضاً يمثلون المستعلية.

٣ ـ إحياء الخلافة الأموية في الأندلس:

كان أمراء بني أمية في الأندلس يلقبون أنفسهم بألقاب منها: أمير وسلطان وابن الخلائف، حتى اعتلى عبد الرحمن الثالث العرش في سنة ٣٠٠ هـ. ولما استقرت قدمه في البلاد، ورأى ما وصلت إليه الخلافة العباسية في الشرق من ضعف، حتى إن سلطة الخليفة المقتدر لم تكد تتعدى مدينة بغداد مع أنه ما يزال يستعمل هذه الألقاب الضخمة(١)، وأدرك الخطر الذي يهدد بلاده من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب، ووجد أنه ليس أقل من العباسيين والفاطميين أثراً في الدفاع عن العالم الإسلامي ضد أوربا المسيحية، وفي شن الغارات ومطاردة المسيحيين في البلاد المتاخمة لبلاده(٢) ـ لما رأى عبد الرحمن ذلك كله فكر في إقامة الدعوة لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين(٣).

لذلك أمر عبد الرحمن في سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) بإقامة الخطبة له على منابر بلاده وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله(٤). وعلى ذلك أصبح في العالم الإسلامي في

---

(١) Arnold, The Caliphate, p 58.

(٢) Dozy, op cit, p.423.

(٣) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦.

(٤) أنظر: نص كتاب عبد الرحمن الناصر إلى ولاة الأقاليم في: ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١/ص ٢١٢.

ذلك الوقت ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في المهدية، والخلافة الأموية في قرطبة، وأصبح الناصر لا يحفل بالنظرية القديمة وهي أن الخليفة لا تصح خلافته إلا إذا كانت له السيادة على الحرمين.

وقد أفاد عبد الرحمن الناصر من هذا التغيير الخطير في نظام الحكم، فظهر في نظر رعاياه بمظهر لا يقل عظمة عن الخلفاء العباسيين والفاطميين. أما في الخارج فقد تمتع بمركز ممتاز بين أمراء المسلمين في ذلك الحين بما أحرزه من انتصارات على الأوربيين، حتى إن هؤلاء الأوربيين، وعلى رأسهم أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا الذي أصبح فيما بعد إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، لجئوا إليه لوقف غارات عرب الفراكسينت كما تقدم.

وقد قرن عبد الرحمن اسم الله باسمه، متشبهاً في ذلك بالعباسيين والفاطميين، فتلقب الناصر لدين الله، وسن بعلمه هذا السنة التي سار على نهجها أبناؤه من بعده؛ فتسمى ابنه الحكم المستنصر بالله، وتسمى حفيده هشام المؤيد بالله وهكذا.

احتفظت الخلافة الأموية في الأندلس بقوتها في عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر الذي شعر نصارى الشمال في عهده بقوة الخلافة، وخطب له على منابر المغرب، وقضى على نفوذ الأدارسة في بلاد الريف. ولكن هذه الخلافة قد تطرق إليها الضعف في عهد هشام المؤيد بن الحكم، الذي أصبحت أمه صبح تتمتع بالنفوذ المطلق في الدولة، ثم تولى ابن أبي عامر الحجابة[1] وأصبح الحاكم الحقيقي للدولة الأموية في الأندلس، وحجر على الخليفة هشام، الذي انزوى في قصره، وقضى أوقاته في اللهو، ولم يبق للخليفة معه إلا اسم الخلافة.

ولما مات ابن أبي عامر سنة ٣٩٣ هـ سار ابنه أبو مروان عبد الملك المظفر على نهجه في الاستئثار بالسلطة دون الخليفة، ثم تقلد الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الذي تلقب الناصر، ولكنه لم يلبث أن خلع وقتل وصلب، واستبد بالأمور محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٩٩ هـ) الذي تلقب «المهدي»، ولكن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر تلقب «المستعين»، ودخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ، ثم طرد منها بيد المهدي الذي لم يلبث أن طرد بدوره وقتل، ودخل المستعين قرطبة ثانية، وقتل هشام المؤيد سراً وجلس على عرش الخلافة المتداعي نحو أربع سنين (٤٠٣ ـ ٤٠٧ هـ)، استقل

(١) وهي الوزارة كما كانت تسمى في الشرق.

فيها كثير من أمراء الأطراف، ثم ملك قرطبة بنو حمود الذين ينتسبون إلى إدريس بن عبد الله وقتلوا سليمان المستعين الأموي، وأزالوا الخلافة الأموية بالأندلس، وحكموا هذه البلاد نحواً من أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموي. ولكن كيف يقبض هؤلاء الأمويين على العرش بأيديهم الضعيفة، في ذلك الوقت الذي قامت فيه الفتن والثورات، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان؟».

(ب) الوزارة

١ ـ الوزارة في الدولة العباسية:

قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، وتقلد الوزارة في العصر العباسي الأول وزراء أكثرهم من الأعاجم كالبرامكة وبني سهل، كما اشتهر في العصر العباسي الثاني بنو الفرات وبنو وهب وبنو الجراح الذين اشتهر منهم علي بن عيسى وزير المقتدر، وعبد الرحمن بن عيسى وزير الراضي. وكان من أثر ضعف الخلافة العباسية أن زاد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة عن طريق الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسي الوزارة.

ومن وزراء المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) محمد بن عبد الملك الزيات. وقد تقلد الوزارة للواثق وابنه المعتصم. وكان ابن الزيات ـ كما وصفه صاحب الفخري (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥) ـ: «نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدبا وخبرة باداب الرياسة وقواعد الملوك. ولكنه كان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق، حتى كان ذلك سبب قتله على يد المتوكل بعد أن استوزره أياماً»، وذكر الطبري أن ابن الزيات كان يرى استخلاف أحد أبناء الواثق بن المعتصم بدل المتوكل. فلما آلت الخلافة إلى المتوكل حنق عليه وعمل على قتله، وقد قيل في قتله إنه عمل تنوراً من حديد وضع فيه مسامير ليعذب به من يريد تعذيبه، فكان هو أول من عذب به، وقيل له ذق ما كنت تذيق الناس. ومن وزراء المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وقد اشتهر بالتعفف وكرم الأخلاق.

ولم يكن للوزارة في عهد المنتصر بن المتوكل شأن يذكر لقصر عهده واستبداد الأتراك بأمور الدولة. فلما ولي المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ) أقر أحمد بن الخصيب وزير المنتصر،

---

(١) جـ ١١ ص ٢٨، ٦٧ ـ ٦٨.

ولكنه لم ينعم بالوزارة أكثر من شهرين. ثم خلفه أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وكان من أشهر كتّاب عصره وأقدرهم في إدارة أمور الدولة، فاستطاع أن يضبط الأموال ويضيق على الأمراء، فتهددوه بالقتل وأرغموه على الهرب، فلم يستوزر المستعين بعده أحداً وإنما كان يعين كتاباً يقومون بأعمال الوزراء (الفخري ص ٢٢٤). وكانت منزلة الكتاب في هذا العصر كمنزلة أصحاب الوساطة في العصر الفاطمي.

ثم اتخذ المهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) أبا الفضل جعفر بن محمود الإسكافي وكان قد وزر للمعتز، وزيراً له، فلم يلبث أن عزله، واستوزر سليمان بن وهب. وكان بنو وهب كما كان البرامكة وبنو سهل من قبلهم ـ يتمتعون بنفوذ كبير في الدولة حتى «كانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة، والأدب في زمانهم قائم المواسم والكرم واضح المعالم»[١].

ولما ولي المعتمد الخلافة (٢٥٦ ـ ٢٧٩) ضعف شأن الوزارة لاستبداد أخيه الموفق بأمور الدولة. وفي عهده تقلد الوزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان على كره منه. ولما مات استوزر المعتمد الحسن بن مخلد كاتب أخيه الموفق، فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وكان ابن مخلد من أشهر كتّاب عصره وأكثرهم دراية بأمور الدولة. ومن أشهر وزراء المعتمد عبيد الله بن سليمان بن وهب[٢].

ولما مات ابن وهب عمل المعتمد على استصفاء أموال أهل بيته واستئصال شأفتهم. إلا أن ابنه القاسم بن عبيد الله عرض على الخليفة أن يدفع ألفي ألف دينار، فقلده الوزارة. وهكذا استطاع أن يشتري هذا الكرسي كما احتفظ بهيبة أسرته الفارسية العريقة.

ولما ولي المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) الخلافة استوزر أبا الحسن علي بن الفرات سنة ٢٩٦ هـ. وقد تقلد الوزارة ثلاث مرات، ثم قبض عليه سنة ٣١٢ هـ. وكان لبني الفرات ما كان للبرامكة وبني سهل وبني وهب من الشهرة في العصر العباسي[٣].

ومن أشهر وزراء المقتدر الوزير المصلح علي بن عيسى الذي استطاع أن يقرب بين العباسيين وأبي سعيد الجنابي زعيم قرامطة البحرين، وأثار بذلك حنق عبيد الله المهدي على أبي سعيد. وكان هذا الوزير من كبار الكتّاب، اشتهر بالورع والزهد، وفيه يقول

---

(١) الفخري ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢، ٢٤، ٤٧، ٥١.

الصولي «ما أعلم أنه وزَرَ لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته، وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه، وكتابته وحسابته وصدقاته ومبراته».

كما ضبط علي بن عيسى الدواوين ونظم شئون الدولة الداخلية، فاستتب الأمن في عهده بحسن سياسته ومهارته الإدارية وحرصه على نشر العدل بين الرعية، حتى كان يجلس بنفسه للمظالم. على أن بقاء هذا الوزير المصلح في الحكم لم يطل، بسبب إسراف الخليفة المقتدر وعزله الوزراء والقبض عليهم وتدخل النساء في أمور الدولة. وقد قيل في سبب عزله إن أم موسى قهرمانة «السيدة» أم الخليفة أرسلت إليه تطلب تقديم المال اللازم لعيد الأضحى، ولكنه اعتذر؛ فغضبت وأوغرت صدر «السيدة» عليه، فقبض عليه غداة يوم الإثنين ٨ ذي الحجة سنة ٣٠٤ هـ[١].

خلف علي بن عيسى في الوزارة حامدُ بن العباس. وقد تم على يديه قتل الحسين بن منصور الحلاج. غير أن هذا الوزير كان قليل الخبرة بأمور الوزارة، فضم إليه الخليفة المقتدر وزيره السابق علي بن عيسى، وجعله نائباً له. فاستطاع بفضل خبرته الإدارية وإلمامه بشئون الدولة أن يقبض على زمام الأمور، وأصبحت كلمته نافذة على جميع الولاة. أما الوزير حامد بن العباس، فقد أصبح مسلوب السلطة، وكان يلبس السواد شعار الدولة العباسية ويجلس في دست الوزارة، ويجلس علي بن عيسى بين يديه كالنائب بملابسه المعتادة، فسخر بعض الشعراء من شأن هذا الوزير فقال:

أعْجَبُ من كلِّ ما رأينا أنَّ وزيرين في بلادِ
هذا سوادٌ بلا وزيرٍ وذا وزيرٌ بلا سواد[٢]

وهكذا ساءت حالة الوزارة في عهد خلافة المقتدر، واضطربت الأمور بسبب هذه السياسة التي اتبعها في تعيين وزرائه وعزلهم، حتى تقلد الوزارة اثنا عشر وزيراً عزل بعضهم مراراً، كأبي الحسن علي بن الفرات وعلي بن عيسى. أضف إلى ذلك اعتماده على وزراء ضعاف كأبي علي بن محمد بن مقلة الذي عزله الراضي لوشاية أعدائه به وحبسه بعد أن قطعت يده اليمنى. وكان يبكي على يده ويقول: «قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات

---

(١) هلال الصابي: تاريخ الوزراء ص ٢٨٦. ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦

(٢) الفحري ص ٢٤٢.

لثلاثة من الخلفاء[١]، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع، كما تقطع أيدي اللصوص[٢]».

على أن بعض وزراء المقتدر، وإن كانوا قد احتفظوا بشيء من النفوذ في عهد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) فقد عجزوا عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد، واضطر هذا الخليفة إلى تقليد ابن رائق شئون الدولة كافة ولقبه بلقب «أمير الأمراء». ولم يبق للوزراء شيء من النفوذ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة في المواكب مرتدين السواد، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة، وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء[٣].

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ استبدوا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين وقضوا على نفوذ الوزراء وحلوا محلهم، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم وزراء اشتهر بعضهم كأبي الفضل محمد بن العميد[٤] وزير ركن الدولة بن بويه (٣٣٠ ـ ٣٦٥ هـ) صاحب الري وهمذان وأصبهان وسائر بلاد العراق العجمي. وقد عرف له ركن الدولة فضله بعد أن ساعده على الخروج من وجه مرداويج والمسير إلى بلاد الكرج التي آل إليه حكمها. وكان لابن العميد أثر كبير في إدارة شئون الدولة في عهد ركن الدولة. فاستوزره في سنة ٣٣٨ هـ[٥]. كما كان له أثر كبير في تنشئة عضد الدولة[٦] وتعليمه أصلح الطرق لتدبير ملكه حتى كان يشيد بفضله ويدعوه «الأستاذ الرئيس»[٧].

وقد بلغ أبو الفضل بن العميد ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٥٧) درجة عالية في الأدب حتى إنه كان يسمى الجاحظ الثاني. وهو الذي قيل فيه: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. كما كان هذا الوزير قائداً ماهراً، فقد أثر عنه أنه انتصر على «ابن ماكان» في الري وأصبهان وأسره في سنة ٣٤٤ هـ، ومات وهو في طريقه لحرب حَسنويه زعيم الأكراد سنة ٣٦٠ هـ (وقيل سنة ٣٥٩ هـ)[٨].

---

(١) هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم المقتدر والقاهر والراضي.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ٣٣٨.

(٣) النظم الإسلامية للمؤلف: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤) كان أبوه الحسين بن محمد الكاتب وزير مرداويج ابن زيار الديلمي يلقب بالعميد.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٦) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٨١.

(٧) المصدر نفسه: ج ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٨) أنظر «أبو الفضل بن العميد» في دائرة المعارف الإسلامية.

ورث أبو الفتح علي بن محمد بن العميد أباه أبا الفضل بن العميد في مواهبه الأدبية والحربية. وقد استوزره ركن الدولة بن بويه في الري بعد أبيه، فبقي في الوزارة إلى أن مات ركن الدولة. ولأبي الفتح بن العميد أثر كبير في فض النزاع الذي قام بين ركن الدولة وابنه عضد الدولة الذي عمل على أخذ بلاد العراق من يد ابن عمه بختيار(١). وقد عرف ركن الدولة لأبي الفتح حسن بلائه في إقرار سلطته بالعراق، فأبقاه في بغداد، وخلع عليه (٣٦٦ هـ)، ولقبه ذا الكفايتين لمهارته الحربية وعلو كعبه في العلم وحذقه في السياسة. وكان يركب مع ابن بقية وزير بختيار، كما اتفق مع بختيار سراً على أن يتقلد الوزارة في العراق بعد وفاة عضد الدولة، فلما علم هذا أضمر له العداء. ولما مات ركن الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان سنة ٣٦٦ هـ، استوزره ابنه مؤيد الدولة، ولكن النزاع لم يلبث أن قام بين أبي الفتح بن العميد والصاحب بن عباد وألقى عضد الدولة بابن العميد في السجن وصودرت أملاكه، وعذب حتى وافته منيته في هذه السنة (٢).

ومن أشهر وزراء بني بويه الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٨٣٥ هـ) الذي قلده مؤيد الدولة بن ركن الدولة الوزارة بعد أبي الفتح بن العميد (٣٦٦ ـ ٣٧٣ هـ)، ثم أقره فخر الدولة في الوزارة سنة ٣٧٣ هـ، وقد تقلد أبوه الصاحب بن عباد الوزارة في عهد ركن الدولة. ووصفه ابن خلكان (٣)فقال إن الصاحب نشأ «من الوزارة في حجرها، ودرج من وكرها، ورضع أفاويق درها، وورثها عن آبائه كما قال فيه أبو سعيد الرستمي:

ورِثَ الوزارة كابراً عن كابرٍ   موصولةَ الإسنادِ بالإسنادِ

وهو أول من لقب من الوزراء بالصاحب لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تقلد الوزارة وبقي علماً عليه. وقيل إنه لقب بذلك لأنه كان يصحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة الذي أطلق عليه «الصاحب»، ثم سمي بهذا الاسم كل من تقلد الوزارة بعده.

وكان الصاحب بن عباد فوق ذلك قائداً. فقد قام في سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ ـ ٩٨٨ م) على رأس جيش لغزو طبرستان، واستولى على بعض قلاعها ونظم أمورها. كما كان شاعراً مجيداً. حتى قيل إنه اجتمع عنده ما لم يجتمع عند غيره من الشعراء الذين مدحوه بغرر

---

(١) مسكويه: جـ ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٣٣٧.

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥.

القصائد، وظل على ذلك حتى مات في شهر صفر ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ودفن بأصبهان[١] وقد نصح الصاحب لفخر الدولة الذي زاره في مرضه الأخير بقوله: «قد خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع وسَرّتْ في دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر بها، فإن أجريت الأمور بعدي على نظامها وقررت القواعد على أحكامها، نسب ذلك الجيل السابق إليك. ونسبت أنا في أثناء ما يثنى به عليك، ودامت الأحدوثة الطيبة لك. وإن غيرت ذلك وعدلت، كنت أنا المشكور على السيرة السابقة، وكنت أنت المذكور بالطريقة الآنفة، وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك، فأظهر فخر الدولة قبول رأيه[٢].

٢ ـ الوزارة في مصر:

لم تعرف الوزارة في مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، لأن هؤلاء الخلفاء لم يكونوا قد استحدثوا نظام الوزارة بعد، بل كانوا يرسلون إلى هذه البلاد ولاة يديرونها باسمهم. أما في العصر العباسي، فنرى أحمد بن طولون يتخذ أحمد بن محمد الواسطي كاتباً له، وكان يضطلع بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب الوزير[٣]. وقد استوزر خمارويه ابن أحمد بن طولون أبا بكر محمد بن رستم المادرائي الكاتب[٤].

فقد تقلد الوزارة بمصر في عهد الدولة الإخشيدية الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة[٥]، وكان تقليده الوزارة من قبل الخليفة الراضي. ولم يلبث هذا الوزير أن ارتبط بالإخشيد برباط المصاهرة بزواج ابنه جعفر من ابنة الإخشيد[٦]، وأدى ذلك إلى توطيد صلة المودة بينه وبين ولي هذه البلاد الذي كان يخرج لوداعه إذا غادر البلاد أو لاستقباله إذا عاد إليها.

وكان ابن الفرات يتمتع بمركز ممتاز في الدولة العباسية حتى إنه تقلد الوزارة في بغداد سنة ٣٢٦ هـ. وقد آثر العودة إلى مصر لاستبداد أمير الأمراء بالسلطة، ولكن المنية عاجلته

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٧٥.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٩. المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٧٠.

(٥) نسبة إلى أمه حنزابة وكانت جارية رومية، والحنزابة المرأة القصيرة الغليظة (ابن دقماق: كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٧).

(٦) أن سعيد: كتاب المغرب ص ١١.

وهو في الرملة في ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ[١]، فقلد الخليفة الراضي ابنه أبا الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة أيضاً نسبة إلى جدته، على ما كان بيد أبيه، فبقي في الوزارة إلى أن جاء المعز الفاطمي إلى مصر، فعزله لأنه كان سنياً.

وكانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول (٣٥٨ ـ ٣٦٥ هـ) وزارة تنفيذ، لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يديروا أمور الدولة بأنفسهم، ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب بن كلس.

وقد وصف ابن منجب الصيرفي[٢] علاقة يعقوب بن كلس بالخليفة الفاطمي المعز وابنه العزيز وكيفية تقليده الوزارة وما خلع عليه من الألقاب وما أسبغ عليه من المنح، كما وصف أثره في العلم والأدب.

وبوفاة يعقوب بن كلس ضعفت الوزارة ثم تحولت إلى ما يسمى «الوساطة» خوفاً من ازدياد نفوذ الوزراء. ففي أوائل عهد الحاكم (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ) عزل عيسى بن نسطورس، وكان نصرانياً، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين «الوساطة» وتلقب بلقب «أمين الدولة»[٣] (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ)، ولكنه حابى الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك، ونفذت أوامره في الخزائن والأموال إطلاقاً وعطاء، حتى على جواري القصر هبة وعتقاً».

وبعد ابن عمار تقلد الوساطة «برجوان» أستاذ الحاكم ومستشاره (رمضان سنة ٣٨٧ هـ). وكان يستعين في إدارة شئون الدولة بكاتبه أبي العلاء فهد بن إبراهيم وكان نصرانياً. وظل برجوان يدير شئون الدولة الفاطمية ويشرف على الخليفة الذي ضاق بأستاذه ذرعاً، فأمر بقتله في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ، فحل محله الحسين بن جوهر القائد الذي استعان بفهد بن إبراهيم، وكان يلقب «الرئيس»[٤]. وإن من يستقصي تاريخ الوزارة في عهد الخليفة الحاكم يرى أن كثيراً من الوزراء كانوا من أهل الذمة، وأنهم كانوا لا يستقرون في الحكم طويلاً لمحاباتهم أبناء جلدتهم.

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الأول أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح، الذي تلقب بلقب «وزير الوزراء ذي الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة»[٥].

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦ ـ ١٨، ٢٤.
(٢) الإشارة إلى من نال الوزارة ٢١ ـ ٢٢.
(٣) أبو شجاع ص ٢٢٢.
(٤) ابن منجب: الإشارة ص ٢٧ : ٢٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٠ ـ ٣٢.

وممن تقلد الوساطة والوزارة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي[١]. وقد تقلد بعض المناصب العالية في عهد الحاكم، ثم تقلد الوساطة مع جليل الدولة أبي عبد الله محمد بن العداس في أوائل خلافة الظاهر الفاطمي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ)، وبقيا معاً سبعة أشهر. ولكن الجرجرائي لم يتقلد «الوزارة» إلا في سنة ٤١٨ هـ، حيث بقي فيها حتى مات الظاهر، فأقره ابنه المستنصر في منصبه فظل فيه حتى مات سنة ٤٣٦ هـ[٢].

وقد تلقب بعض الوزراء الذين تقلدوا الوزارة بعد المعز بألقاب منسوبة إلى الدولة، كأبي محمد الحسن بن عمار الكتامي الذي تلقب بلقب أمين الدولة، وتلقب الحسن بن صالح بن علي الروذباري بلقب عميد الدولة، وتلقب زرعة أخو عيسى بن نسطورس الشافي، والحسين بن طاهر أمين الأمناء، وأبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح وزير الوزراء ذا الرياستين الآمر المظفر قلب الدولة، وأبو القاسم الجرجرائي الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين وخالصته، وأبو منصور صدقة الفلاحي بتاج الملة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين.

وسنرى في الجزء الرابع من هذا الكتاب أن الوزراء في عهد المستنصر أصبحت وزارة تفويض، وأن من تقلدوها كانوا من أرباب السيوف، بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من يتقلدها إلى أمر الخليفة ونهيه.

٣ ـ الوزارة في الأندلس:

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس شائعاً كما كان في المشرق وفي الدولة الفاطمية في مصر، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة في الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذي الوزارتين تارة أخرى.

يقول المقري[٣]: «وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير، فيسميه بالحاجب. وكذلك هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك، إلى أن كانت ملوك الطوائف. فكان الملك

---

(١) ينسب إلى جرجرايا (بفتح الجيمين وسكون الراء) إحدى قرى سواد العراق.

(٢) ابن منجب: الإشارة ص ٣٥ ـ ٣٧.

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢.

منهم، لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية، وإنه كان نائباً عن خليفتهم يسمى بالحاجب، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به. وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزير عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم، وصار للوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالماً بأمور الملك خاصة».

وقد ألقى ابن خلدون(١) ضوءاً على نظام الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس. فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير في الدولتين العباسية والفاطمية، ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير. وكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزارة اليوم ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شئون الدولة.

ولم يكن مجلس الحاجب، أو بالأحرى مجلس الوزارة، هو وحده الذي يدبر شئون الدولة، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى «مجلس الشورى» يرأسه الأمير أو الخليفة، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموي.

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذي الوزارتين مقتدياً في ذلك بالعباسيين، لجمعه بين خطتي السيف والقلم. ففي سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين وضاعف له راتبه. وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه. وقد أسند الأمويون الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسَداي بن شبروط الذي بعث به سفيراً إلى أوتو إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس ازداد نفوذ الحاجب حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شيء. وقد رأينا كيف تخلص ابن أبي عامر من جعفر بن عثمان المصحفي الحاجب في عهد هشام المؤيد (٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو في بلاد الأندلس وكيف جلس مكانه على كرسي الحجابة، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الإسلامية في هذه البلاد، حتى دعي له على المنابر وضربت السكة باسمه بعد الخليفة، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء.

---

(١) مقدمة ص ٢٠٨.

(جـ) الكتابة

ولما تعددت الدواوين في الدولة العباسية أصبح من الضروري تعيين طائفة من كبار الموظفين للإشراف على هذه الدواوين. ويسمى كل من هؤلاء الموظفين «الكاتب». ومن أشهر الكتّاب في العصر العباسي الثاني: كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي. ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية إلى الملوك والولاة وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، كما يقوم بمراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه. كما كان يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان في مجلس القضاء، للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة. وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة.

وقد ذكر ابن خلدون[١] الصفات التي يجب أن تتوافر في الكاتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة في هذه العبارة فقال: «واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، وعارضة البلاغة. فإنه معرض للنظر في أمور العلم لما يعرض في مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها». ولم يقل مركز الكاتب عن مركز الوزير في كثير من الأحيان حتى إن الكتابة كانت ترشح صاحبها لتقلد الوزارة.

ومن أشهر الكتّاب في ذلك العصر محمد بن عبد الملك الزيات. وكان يلي ديوان الرسائل في عهد الواثق، وهو الذي كتب البيعة بولاية المتوكل العهد. ولما ولي المتوكل الخلافة نكبه بعد قليل[٢]. وكان الخلفاء يستعيضون الوزارة بالكتاب أحياناً، فنرى المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً له بعد ابن الزيات دون أن يلقبه بالوزير، ونرى الخليفة المقتدر يتخذ ابن الفرات الذي تقلد الكتابة وزيراً له. وكثيراً ما نرى بعض الخلفاء يتخذون من الكتّاب قواداً يعتمدون عليهم في الغزوات. وأحسن مثل لذلك محمد بن سليمان الكاتب الذي قضى على الحسين بن زكرويه القرمطي وأزال خطره عن بلاد الشام في سنة ٢٩١ هـ، كما قضى على الدولة الطولونية في مصر في السنة التالية.

---

(١) مقدمة ص ٢١٥.

(٢) الطبري ح ١١ ص ٢٦.

ولم يكن اتخاذ الكتّاب مقصوراً على الخلفاء وحدهم، بل كان عمال الأقاليم وأمراء الأمراء وسلاطين بني بويه يتخذون كتّاباً يعاونونهم في إدارة الدولة. فقد اتخذ بَجْكم الذي تقلد إمرة الأمراء في عهد الراضي والمتقي «الكوفي» كاتباً له. وكان لهذا الكاتب أثر في تولية المتقي الخلافة. وكذلك اتخذ توزون الذي تقلد إمرة الأمراء في عهد المتقي أبا جعفر بن شيرزاد كاتباً له(١). كما نرى ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه في الري وهمذان وأصبهان يتخذ ابن عباد كاتباً له، ويعهد إليه بتنشئة مؤيد الدولة بن ركن الدولة. ولم يلبث هذا الكاتب أن ارتقى إلى رتبة الوزارة في عهد مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة.

ولم تعرف الوزارة في مصر قبل عهد الإخشيديين كما تقدم، فإن أحمد بن طولون اتخذ أحمد بن محمد الواسطي كاتباً له، ثم اتخذ جعفر بن عبد الغِفار المصري. «على أنه يظهر أنه لم يكن من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد بن خاقان على ابن طولون بصرفه، فقال له: أنا أحتمله لأنه مصري. فقال له ابن خاقان: أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي، قال: لا والله، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه، وأن يكون شمل الكاتب فيه، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة منها: أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد فيعود مرفقه على فزيق من أهله، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به فيكون صفاقاً (ضماناً) لجناياته. وهو مع هذا وشمله ظاهرون مستقلون في خدمتي. والكاتب العراقي ليس كذلك، لأنه يعتقد المستغلات في بلده النائي عنه وعني، ويستبطن الرقاع. ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذي يعمل فيه، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده. فهذا السبب زهدت في كتاب سر من رأى، مع علمي بتقدمهم في الكتابة والرجاحة، فصوبت رأيه ورأيت عذره(٢)».

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة، وكان الحلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور، فإذا حاز صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة في أي وقت. وكان الكاتب في عهد الفاطميين يسمى صاحب الوساطة أحياناً ويقوم بعمل الوزير إذا استغنى الخليفة عن وزيره.

---

(١) أنظر ما ذكرناه في ص ٣٢.

(٢) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ١٥. حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص ١٤٢

وكانت الكتابة في الأندلس تلي الحجابة وهي الوزارة في الرتبة، وتنقسم قسمين: كتابة الرسائل، ويسمى صاحبها «الكاتب»، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة؛ وكاتب الزمام، ويعرف بكاتب الجهبذة، ويشترط فيه أن لا يكون من أهل الذمة، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير، وفيه يقول المقري[١]: «أعظم من الوزير وأكثر أتباعاً وأصحاباً، وأجدى منفعة. فإليه تميل الأعناق ونحوه تمد الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار». وكثيراً ما كان هذا الكاتب معرضاً للاضطهاد والعزل والمصادرة، ولا سيما حين ضعفت الدولة وتزعزع الأمن فيها.

وكان بعض كبار الموظفين في عهد المرابطين والموحدين يجمع بين الكتابة والاستشارة. وكان أكثر الكتّاب من رجال الأدب في الأندلس الذين يعملون في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال أو النواب المرابطين ثم دخلوا في خدمة أمير المسلمين المرابطي أو في خدمة أمير المؤمنين الموحدي.

(د) الحجابة:

كان معاوية أول من اتخذ الحجاب من الخلفاء بعد مؤامرة الخوارج عليه وعلى عليٍّ بن أبي طالب وعمرو بن العاص، وذلك خوفاً على حياتهم، ومنعاً لازدحام الناس على أبوابهم حتى لا ينشغلوا عن مهام الدولة. وقد حذا العباسيون حذو الأمويين، فاتخذوا الحجاب وزادوا في منع الناس من لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة. ومن ثم أصبح بين الخليفة وبين الناس داران: دار الخاصة ودار العامة حيث يقابل كل طائفة من مكان معين حسبما يرسمه الحجاب. ثم تطور نظام الحجابة في العصر العباسي الثاني، فاتخذ الخلفاء حجاباً ثالثاً أشد من الأولين[٢].

ولم تقتصر مهمة الحاجب في ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع الناس من الاتصال به. بل تعداه إلى التدخل في أهم شئون الدولة، حتى إن بعضهم استبد بهذه الشئون دون الوزراء. وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم في المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم. وكثيراً ما كان الحاجب يصبح غرضاً لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور الدولة. ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣.

(٢) ابن خلدون: مقدمة ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

صحة هذا الرأي تدبير الوزير أبي علي بن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب[١].

ولم يتمتع الحاجب في الدولة الفاطمية بما كان يتمتع به من النفوذ في العصر العباسي الثاني. ويقول ابن خلدون إنه لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم. وربما يوجد في دولة العبيديين عند استعظامها وحضارتها إلا أنه لقليل. بل إن اختيار الحاجب لم يقتصر على الخلفاء، فقد اتخذ قاضي القضاة أو الوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم.

وكانت الحجابة في الأندلس تختلف اختلافاً كبيراً عنها عند العباسيين والفاطميين كما تقدم، لاستبداد الحاجب بشئون الدولة. وأحسن مثل لذلك الحاجب المنصور بن أبي عامر. وأصبح الحاجب يطلق عليه اسم «ذي الوزارتين يعنون بذلك السيف والقلم».

٢ ـ النظام الإداري

(أ) الإمارة على البلدان:

كانت الدولة العباسية في أوائل القرن الرابع الهجري تتألف من عدة ولايات هي: مصر، وفارس، والبصرة، والأهواز، والري، والشام، وأصبهان، والثغور[٢]. وكان يساعد الوالي أو الأمير في ولايته موظف كبير يسمى العامل أو صاحب الخراج، لأن عمله مقصور على جمع الخراج وإرساله إلى بيت المال بحاضرة الدولة والإنفاق على ما تتطلبه الولاية من ضروب الإصلاح. وكان هذا الموظف لا يقل في المنزلة عن الوالي أو الأمير، فيخاطب في المراسلات الخاصة به بما يخاطب به الوالي، كما ترسل إليه المنشورات في الوقت الذي ترسل فيه إلى الوالي الذي لا يمتاز عنه إلا بالصلاة بالناس في المسجد، مما يجعل ولايته أعم من العامل أو صاحب الخراج.

وإذا اتفق كل من الوالي والعامل، كان هذا الاتفاق مصدر خير للولاية، وكثيراً ما أدى اتفاقهما إلى إثارة المتاعب على الدولة نفسها. ففي سنة ٣١٩ هـ استطاع والي فارس وكرمان

(١) مسكويه: جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣١٩

(٢) هلال الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٥٦.

وعامل الخراج فيهما أن يمنعا وصول الأموال إلى بغداد. وإذا اجتمع هذان المنصبان لرجل واحد أصبح أشد خطراً على الخلافة، كما حدث حين امتنع بَجْكم التركي عن تولي أمور الأهواز مع بقاء عامل الخراج بجانبه، وحمل الخليفة العباسي على أن تكون له الولاية والخراج، فأجيب إلى ذلك (٣٢٥ هـ)(١).

ولما أخذت الدولة العباسية في الضعف، أصبح الولاة يؤثرون البقاء في بغداد أو في سامرا وينيبون عنهم من يدبر شئون الولايات باسمهم. وكان من أثر هذه السياسة أن جنح بعض النواب والولاة إلى الاستقلال. كما كان لضعف السلطة المركزية أثر في استقلال ولاة الأقاليم البعيدة عن حاضرة الدولة: فنرى أحمد بن طولون يعمل على الجمع بين وظيفتي الوالي (الحرب والصلاة) والعامل (الخراج) والاستقلال بمصر، ويحذو حذوه في ذلك محمد بن طغج الإخشيد.

وكذلك فعل يعقوب بن الليث الصفار الذي استولى على كثير من بلاد الدولة العباسية وحمل الخليفة على الاعتراف بنفوذه فيها، وأسس الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠)(٢). واستطاع السامانيون أن يستقلوا ببلاد ما وراء النهر ويستحوذوا على ما كان في أيدي الصفارية ويؤسسوا الدولة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ). وهذه الحالة السيئة تعلل قيام الدول المستقلة في ذلك العصر: فقد ظهرت في مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية اللتان قامت على أنقاضهما الدولة الفاطمية، وظهر في المشرق دول الصفارية والسامانية والغزنوية والبويهية في فارس وفي الري وهمذان وأصبهان.

وكان يساعد الوالي والعامل في المدن جماعة من الموظفين أهمهم القاضي، والبندار ويعرف بكاتب السلعة، ومهنته المطالبة بالخراج ووجوه المال، وصاحب الجند، وصاحب البريد، ومتولي السواقي أو الضياع السلطانية، وصاحب المعونة، وكان يساعد صاحب الجند. وكان هؤلاء الموظفون يعينون من قبل الوزير ويعزلون بعزله، ثم يعودون إلى الحكم بعودة الوزير مما أدى إلى إشاعة الاضطراب وكثرة التعطل(٣).

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية حـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٢) أنظر الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١١٣ ـ ١١٥
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٧٧.

وكانت ولاية الأقاليم من المناصب الرفيعة في الدولة الإسلامية. فقد ذكر القلقشندي[١] كيفية تقليد الخلفاء العباسيين ولاة الأقاليم في هذه العبارة فقال: «وإن كان الذي يوليه الخليفة من ملوك النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة، كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة، وهو جبة أطلس أسود بطراز مذهب وطوق من ذهب يجعل في عنقه، وسواران من ذهب يجعلان في يديه، وسيف قرابه ملبس بالذهب، وفرس بمركب من ذهب، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه، كما كان يبعث إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل، فإذا وصل ذلك السلطان تلك الناحية، لبس الخلعة والعمامة وتقلد السيف وركب الفرس وسار في موكبه حتى يصل إلى محل ملكه، وربما جهز مع خلعة السلطان خلع أخرى لولده أو لوزيره أو أحد من أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ.

ومن وصف ابن الأثير[٢] لحالة الدولة العباسية في عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ). نقف على أسماء الولايات التي كانت تتألف منها هذه الدولة المتداعية، واستبداد كثير من الولاة واستقلالهم عن الدولة: «ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم. وأما باقي الأطراف، فكانت البصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي وهو الثاني منهم ويلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي».

وقد ذكر ابن الأثير[٣] الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يرشح لولاية الأقاليم وتدبير شئونها والعمل على إسعاد أهلها، فقال: إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا «رجل قد تكاملت فيه خصال أربع: حزم يتقي به عند موارد الأمور حقائق مصدرها، وحلم يحجزه عن التهور

---

(١) صبح الأعشي جـ ٢ ص ٢٧٦.
(٢) الكامل جـ ٨ ص ١١٢ - ١١٣.
(٣) الكامل جـ ٧ ص ٦٩.

والتغرير في الأشياء إلا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا تفضها الملمات مع تواتر حوائجها، وجود يهون تبذير الأموال عند سؤالها، وشرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان، وثقل الوطأة على أهل الزيغ والعدوان، والاستعداد للحوادث إذ لا تؤمن حوادث الزمان»[١].

ولم يغير العرب نظم الحكم في مصر تغييراً يذكر بعد الفتح، حتى جاءت الدولة الفاطمية، فأدخلت عليه كثيراً من التغيير، فقد عمل جوهر الصقلي على إحلال المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب الهامة ليفتح المجال أمام هؤلاء المغاربة، ومن أهم الأعمال الإدارية التي أسندت إلى الشيعيين: الوزارة، وجباية الخراج، والقضاء والحسبة، وفي عهد الفاطميين كانت مصر مقسمة إلى أربع ولايات كبرى هي: ولاية قوص وولاية الشرقية، وولاية الغربية، وولاية الإسكندرية[٢]. ولم يختلف نظام الولاية على الأقاليم عند الفاطميين والأمويين في الأندلس اختلافاً يذكر عنه في عهد العباسيين.

(ب) الدواوين:

كانت الدولة العباسية أشبه باتحاد يتألف من ولايات كثيرة، لكل ولاية ديوان ببغداد يشرف على شئونها. وينقسم كل ديوان قسمين: الأول، ويسمى الأصل، ويختص بسن الضرائب وحملها إلى بيت المال، والثاني: الزمام أو ديوان المال. واستمر هذا النظام إلى أن ولي المعتضد الخلافة (سنة ٢٧٩ هـ)، فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض، وكون منها ديواناً واحداً أطلق عليه «ديوان الدار»، ويسمى أحياناً «ديوان الدار الكبير».

وقد أثنى هلال بن الصابىء[٣] على نظام الدولة العباسية في عهد المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) في هذه العبارة فقال: «وسمعت مشايخ الكتاب يقولون إنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله، وأبي القاسم عبيد الله بن سليمان، وأبي العباس بن الفرات وبدر».

وقد قسم المعتضد الديوان أقساماً ثلاثة: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد (يعني العراق)، وأسند «الأصل» لشخص واحد و «الزمام» لشخص آخر.

وفي القرن الرابع الهجري كانت إدارة الدولة «تنقسم إلى ما يشبه وزارتين، إحداهما للداخلية، وهي ديوان الأصول، والأخرى للمالية، وهي ديوان الأزمة، وكان كل ديوان كبير

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٧٨.

(٢) راجع ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين ص ٨٥ ـ ١٠٨.

(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٨٩.

ينقسم أقساماً تسمى دواوين أيضاً، لأنه كان لكل ناحية ديوانها، ولكن لما كان الوزير، وهو رئيس السلطة المركزية، هو الذي يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه، فإن كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين الدولة.

ولم تصل الإدارة في الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة، ومن هذه الدواوين: ديوان الجيش، وديوان النفقات في بغداد وينظر في كل ما ينفق من أموال الدولة. ويظهر أنه كان يتصل ببيت المال، وقد أنشىء في عهد هشام بن عبد الملك [1]. وديوان بيت المال، وهو في بغداد ويشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال وما يخرج من وجوه النفقات والإطلاقات، وديوان زمام النفقات ويشبه ديوان المحاسبة اليوم، وديوان الأحداث والشرطة وديوان العطاء وديوان الأكرة ويشرف صاحبه على الترع والجسور وكل ما يتعلق بشئون الري وديوان الزمام أو الأزمة ويقوم صاحبه بجمع ضرائب العراق والأقاليم الأخرى والضرائب النوعية المسماة بالمعاون [2]. وديوان المصادرين، وديوان الرسائل (وكان يسمى في مصر في عهد الفاطميين ديوان الإنشاء والمراسلات)، وديوان البريد، وديوان التوقيع وتقدم إليه رقاع أصحاب الحاجات وديوان الخاتم، وديوان الفض حيث تفض الكتب الواردة من الأمراء والعمال إلى الخليفة وديوان الجهبذة، ويجري فيه من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية وما يجري مجرى ذلك من توابع أصول الأموال، وديوان الصدقة [3]، وينظر في موارد الزكاة والصدقات وتوزيعها على مستحقيها على ما ورد في القرآن الكريم.

ومن هذه الدواوين: ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة، ولعل صاحبه كان ينظر في أموال الدولة غير المنقولة من أبنية وحوانيت وحمامات، وديوان النفقات وينظر صاحبه في كل ما ينفق من أموال الدولة. ويظهر أنه كان يتصل ببيت المال.

وفي عهد الفاطميين بمصر كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير. ومن هذه الدواوين: ديوان الجيش، وديوان الكسوة والطراز، وديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم، وديوان الرواتب، ويشرف على ميزانية الدولة ورواتب الموظفين [4] ومن هذه الدواوين ديوان الشام وديوان الحجاز.

---

(١) الدورى: النظم الإسلامية ص ١٩٦ وما يليها.

(٢) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي جـ ٢ ص ٢٦٩.

(٣) متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٢٥ - ١٣١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٥.

وكان عدد الموظفين في أيام الفاطميين كبيراً، نذكر منهم صاحب الباب، وحامل مظلة الخليفة وصاحب الرسالة ويحمل كتاب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين، وصاحب بيت المال وهو أشبه بوزير المالية الآن، وقاضي القضاة، وينظر في الأحكام الشرعية وعلى دور السكة وضبط عيارها. ويلي قاضي القضاة في الرتبة داعي الدعاة، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية في المساجد ودار العلم، والمحتسب، وله النظر في الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل واستيفاء الديون والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة. ومن كبار الموظفين في العهد الفاطمي وكيل بيت المال، ونائب صاحب الباب ويستقبل سفراء الدول وينزلهم في الأماكن اللائقة بهم، ويرتب القراء الذين يقرؤون القرآن بحضرة الخليفة ويعرفون بقراء الحضرة(١).

(جـ) البريد:

كان البريد في العصر العباسي الثاني من مصالح الدولة الخاصة. وكان صاحب البريد يراقب العمال ويتجسس على الأعداء، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن. وكانت مهمته أول الأمر توصيل أخبار الولاة والعمال إلى الخليفة. ثم توسعوا في هذا العمل حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته وعماله كما ينقل أخبار هؤلاء إليه(٢).

وقد ذكر قدامة بن جعفر(٣) الشروط التي يجب أن تتوافر في صاحب البريد فقال: «يجب أن يكون ثقة، إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفح(٤)، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ (المحترز). ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه(٥) ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره، وغير

---

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩٥.

(٢) Von Koemer: Orient Under the Caliphs, p. 233 seq.

(٣) كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٤) تصفح الكلام: بحث فيه وتأمله، والكافي هو الخبير بالشيء الحسن التقدير له، ثم أطلق على ما نسميه الآن «الموظف».

(٥) أي من المعرفة مجال الطرق.

ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه، وجد عتيداً[١] عنده ومضبوطاً قبله، ولم يحتج إلى تكلف عمله والمساءلة عنه».

وكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عند توليته عهداً يرسمون له فيه الطريقة التي يجب أن يسير عليها. فقد ذكر قدامة بن جعفر[٢] أنه يجب على صاحب البريد «أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليهم أمرهم، ويتبع ذلك شافياً ويستشفه استشفافاً[٣]، وينهيه[٤] على حقه وصدقه، وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، وما يجري من أمور الرعية، فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف، فيكتب به مشروحاً... وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم... وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق وما يلزمه الموردون من الكلف (ما يكلفون) والمؤن، ويكتب بذلك على حقه وصدقه، وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه، ويكتب مما تقف عليه الحال من وقته، وأن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته... وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله[٥]. ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم، وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم، وإلى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها[٦]، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتباً بأعيانها، فيفرد لأخبار القضاء وعمال المعاون والأحداث والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً يجري كل كتاب في موضعه[٧].

---

(١) أي حاضراً من غير بحث وسؤال.

(٢) راجع آدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة أبي ريدة جـ ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) أي يبذل أقصى الجهد للوقوف على حقيقة أمره.

(٤) يوصله إلى دار الخلافة.

(٥) أي حمل الخريطة وهي الحقيبة التي تحوي الرسائل.

(٦) أي التي يجب عليه أو يجاوزها.

(٧) متز: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» ترجمة أبي ريدة، ج ١ ص ١٢٩، نقلاً عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، مخطوط باريس، ورقة ١٨ ب ـ ١٩ ب. ويرجع تاريخ هذا العهد إلى سنة ٣١٥ هـ أي إلى عهد الخليفة المقتدر.

وقد بلغ نظام البريد في عهد بني بويه مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل إلى قصور السلاطين طرية سليمة. وكانت الدولة توقع أشد العقوبة بكل من يتوانى في أداء واجبه من موظفي البريد، كما كانت المراسلات البريدية تفض في حضرة السلطان، فيأخذ منها الرسائل الهامة، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد فيوزع على أربابها. وقد ذكر أبو شجاع[١] أن الرسائل كانت تقرأ على عضد الدولة أكثر من مرة، فيرد عليها بنفسه أو يأمر كتابه بالرد عليها. ثم تعرض هذه الردود عليه، فربما زاد فيها أو نقص منها، ثم تصلح وتختم وتجعل في أسكدارها[٢] وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتها.

وبلغ من عناية عضد الدولة بالبريد أنه «إذا ترحل النهار، سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب. ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار، فإن اتفق أن تأخر، قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم. وذكر بعض الطراد[٣] أن أحد المرتبين قالت له امرأته: قد طبخنا أرزاً فتوقف لتأكل منه وتمضي، فتوقف بقدر ما أكل وتأخرت النوبة ذلك المدى، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاث آلاف عصا. لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز في سبعة أيام، وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة»[٤].

وكان العباسيون يستعملون البغال في بلاد الديلم، ويقيسون المسافات في البلاد الواقعة غربي الفرات بالأميال[٥]، وفي البلاد الواقعة شرقي هذا النهر بالفراسخ[٦].

وللبريد محطات تسمى السكك، وكانت تزود بالخيل وراكبيها في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة، وكانت طرق البريد منتشرة في الشرق والغرب، ومن أهمها:

---

(١) ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢) الأسكدار، مثلث الهمزة مضموم الكاف: لفظه فارسية معناها المدرج (القائمة) الذي يكتب فيه عدد خرائط البريد والكتب الواردة والنافذة وأسامي أربابها ـ أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي، ومعجم الألفاظ الفارسية لإستينجاس.

(٣) هم أشباه المفتشين على حامل البريد.

(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ٤٠.

(٥) هذا اللفظ مأخوذ من اليونانية التي كان لها تأثير كبير في البلاد الواقعة غربي الفرات.

(٦) الفرسخ ثلاثة أميال، ويظهر أن الفرس لم يستعملوا الأميال.

١ ـ من بغداد إلى القيروان بحذاء دجلة، ويمر بالموصل وسنجار وبلد بحذاء دجلة، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان[١].

٢ ـ من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق.

٣ ـ من بغداد إلى المشرق ويمر بحلوان وهمذان والري ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند، إلى أن يصل إلى الصين. ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر في أواسط بلاد خراسان حتى يصل إلى مرو الروذ والطالقان، ثم يخترق نهر جيحون بالقرب من ترمذ حتى يصل إلى فرغانة[٢].

وكانت الحكومة العباسية تنقل البريد في أثناء الحرب بالجمازات[٣] والجمازة شبه محفة على عجلة تجرها الخيول السريعة. فلما عزم الفاطميون على غزو مصر سنة ٣٠١ هـ استعمل علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال في كل يوم. وفي ذلك يقول عريب بن سعد القرطبي[٤]: وخلع على مؤنس في شهر ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ، وخرج متوجهاً إلى مصر، وتقدم علي بن عيسى الوزير بترتيب الجمازات من مصر إلى بغداد ليروح عليه الأخبار في كل يوم. فورد الخبر بأن جيش عبيد الله الخارج مع ابنه ومع قائده حباسة انهزموا، وبشر علي بن عيسى بذلك المقتدر، فتصدق في يومه بمائة ألف درهم، ووصل علي بن عيسى بمال عظيم».

وكذلك كان لبني بويه أثر كبير في ترقية البريد. فقد أدخل معز الدولة نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج، وهم طائفة من موظفي البريد يتخصصون في نقل البريد السريع من مكان إلى آخر. واستمال معز الدولة هؤلاء السعاة بالأرزاق والجرايات الكثيرة حتى رغب الشبان في هذه الحرفة، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم إلى معز الدولة لتدريبهم.

وكان يقام على رأس كل فرسخ حصن. وقد عدل الأمراء فيما بعد عن اتخاذ الخيل

(١) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٣.
(٣) جمز الإنسان يجمز: عدا مسرعاً، وبعير جماز: وثاب. والجمازة هنا من المحامل، وهي أشبه بالعربية التي تجرها الخيل السريعة في زماننا، وكان يركبها عمال البريد ورجال الحرب وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة (أنظر تاج العروس).
(٤) صلة تاريخ الطبري: ذيل كتاب الطبري ج ١٢ ص ٢٨.

في البريد واستعملوا الجمازات بدلاً عنها، حتى إننا نجد ابن العميد يتخذ الجمازات عندما أراد اللحاق بركن الدولة في فارس سنة ٣٦٤ هـ[١].

أما استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة، فلم يكن معروفاً عند المسلمين في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية التي كانت تستعملها من قبل. وأما في سائر بلاد الإسلام فإنها لم تستعمل، وإنما استخدمت استخداماً حسناً في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي، حتى كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة. ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات. ولم يبطل هذا النظام إلا في سنة ٤٤٠ هـ حينما أثار المعز بن باديس الفتن في المغرب في وجه الفاطميين، الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو[٢].

وكذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل في نقل الرسائل، وراج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية. فقد استعان عبد الله بن ميمون بالطيور في نقل الأخبار إلى أنصاره[٣]. كما استعان بحمام الزاجل حمدان قرمط مؤسس مذهب القرامطة في العراق، وابن حوشب في بلاد اليمن، وأبو عبد الله الشيعي في المغرب، وكذلك عامة دعاة الإسماعيلية في فارس.

وذكر عريب بن سعد[٤] أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بتولية ابن الفرات الوزارة وعزل حامد بن العباس قبل وصول الخبر إلى البصرة بأربعة أيام مستعينين في ذلك بالحمام الذي أتاهم بهذا الخبر من وقته. وذكر مسكويه[٥] عند كلامه على حوادث سنة ٣٢٨ هـ أن البريديين كانوا يستخدمون الحمام في البريد، وكذلك كان بجكم، وإن طائراً سقط «فصاده غلمان بجكم وجاءوا به إلى مولاهم، فوجد على ذنبه كتاباً فقرىء، فإذا هو «كتاب من كاتبه هذا إلى أخيه بخطه يعرفه فيه انحدار بجكم ومن أنفذ على الظهر من الجيش[٦]، وسائر أسراره وعزائمه. فلما وقف عليه بجكم عجب واغتاظ، وأحضر هذا الكاتب ورمى إليه بالكتاب، فسقط في يده، ولم يمكنه جحده لأنه بخطه المعروف، فاعترف به، فأمر به فرمي بالزوبينات بحضرته إلى أن قتله ورمى به في الماء».

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٣٥.
(٢) شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٢٣٤.
(٤) صلة تاريخ الطبري ص ٥٧.
(٥) تجارب الأمم جـ ١ ص ٤١٢ ـ ٤١٤.
(٦) الظهر ما يحمل عليه الجنود من خيل وغيرها.

وكان البريد من الوسائل التي تذرع بها أحمد بن طولون في مناوأة الخلافة العباسية، فقد استطاع أن يعين أحد المقربين إليه عاملاً للبريد في حاضرة الدولة العباسية ليكون عيناً له، يوافيه بما يجري في العراق وبما يحيكه له أعداؤه من مؤامرات في هذه البلاد، واستطاع ابن طولون بفضل هذا العامل أن يكشف عن نيات منافسيه في مصر الذين يشون به عند الخليفة ويطهر البلاد منهم، واطمأن بفضل هذه الجاسوسية التي أقامها في بغداد على مركزه في مصر.

ولما وقع الخلاف بين أحمد بن طولون وأبي أحمد الموفق طلحة أخي الخليفة العباسي المعتمد، وعمل هذا على صرف ابن طولون عن مصر وألب القواد عليه، أخبر عامل البريد ابن طولون بهذا فاحتاط لنفسه وأحبط المؤامرة(١).

وكان لطرق البريد أثر كبير في تيسير انتقال قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد. وقد أمر خمارويه عمال بريد مصر بإعداد الطريق بين القطائع وبغداد، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصراً تنزل فيه.

ومما ذكره أبو المحاسن(٢) نرى أنه كان يضطلع بأعباء البريد سنة ٢٩٢ هـ شخص يدعى شفيعاً اللؤلؤي، ويلقبه هذا المؤرخ بصاحب البريد، ولا نعرف كثيراً عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين ولا في عهد الفاطميين، اللهم إلا ما كان من اعتمادهم على حمام الزاجل. فقد ذكر القلقشندي(٣) أن الفاطميين اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام.

(د) الشرطة:

ذكرنا من قبل(٤) أن نظام الشرطة من النظم الإدارية الهامة، وأن صاحبها كان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وأنه أشبه بالمحافظ. ويعتمد الخليفة على صاحب الشرطة لحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين. وقد حدد ابن خلدون المهام التي يضطلع بها صاحب الشرطة في هذه العبارة فقال:

---

(١) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٨.
(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩٠.
(٤) ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبرائها [١] أولاً، ثم الحدود بعد استيفائها، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة. وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس. إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الدُّعَّار[٢] والفَجَرة. . . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة.

وكانت الدولة العباسية تتخذ في كل مدينة من المدن جماعة من الجند تخضع لرئيس منهم ينوب عن صاحب الشرطة الذي كان يتخذ مقره في حاضرة الدولة أو الولاية. ويضطلع هؤلاء بحفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام القضاة والمحتسبين، ويقومون بالعكس في الليل تحت إشراف رؤسائهم. وكانت الدولة تنفق عن سعة على رجال الشرطة، فتمنحهم الرواتب الكبيرة، حتى كان منصب صاحب شرطة بغداد لا يقل عن منصب الوالي[٣]. كما كانت الحكومة المركزية في حاضرة الدولة أو الولاية تعتمد على صاحب الشرطة في إقرار الأمن وحفظ النظام[٤]. وكانت الشرطة تابعة للقضاء في أول الأمر، يتولى صاحبها إقامة الحدود من القبض على المجرمين، وتنفيذ أحكام القضاة. إلا أنها لم تلبث أن انفصلت عن

---

(١) كذا في مخطوطة المكتبة الزكية رقم ١٠١٦ المحفوظة بدار الكتب المصرية، وعليها خط المؤلف، وكذا في المخطوطتين رقمي جـ ٨٠٤٥ و٢١٠٦ المحفوظتين بالدار أيضاً: استبرائها، وهو الصواب ومعناه استقصاء الأمر وطلب آخره دفعاً للشبهة، كما في تاج العروس. والمراد بذلك التحقيقات الأولى التي يجريها ضابط البوليس بمنتهى الدقة ويدونها في المحاضر الخاصة، ثم يسلمها بعد ذلك إلى السلطة القضائية وفي النسخة المقدمة طبع بيروت ص ٢١٨ - ٢١٩ وكذا في جميع طبعات القاهرة: «استبدائها» وهو تحريف لما أثبتناه.

(٢) كذا في المخطوطات الثلاث المشار إليها في الحاشية قبل هذه وفي جميع النسخ المطبوعة ببيروت والقاهرة «الرعاع» وهو تحريف لما أثبتناه.

(٣) أمير علي: مختصر تاريخ العرب. التمدن الإسلامي ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٣٣.

القضاء واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم. وكانت تولية صاحب الشرطة في الولايات الإسلامية وعزله من خصائص الوالي.

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة في مدينة الفسطاط. ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى، وبذلك انقسمت الشرطة قسمين:

١ ـ الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط.

٢ ـ والشرطة العليا ومقرها العسكر. وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمال الفسطاط. ومن ثم سميت الشرطة العليا[١]. ولما فتح جوهر الصقلي مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة. وذكر ابن دقماق[٢] أن صاحب الشرطة توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر إلى مصر، فأسند عمله إلى جبر، وبقيت دار الشرطة في الفسطاط وتقلدها عروبة بن إبراهيم وشبل المعرضي[٣].

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى، وشرطة صغرى، ويقول ابن خلدون[٤] في بيان اختصاص كل من الشرطتين ما نصه:

«ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء. وجعل له[٥] الحكم على أهل المراتب السلطانية، والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسي

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٥.

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٩٥. أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ١٩٦.

(٤) أنظر ص ٢٤٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف.

(٥) كذا في نسخ المقدمة المطبوعة في بيروت ومصر ومخطوطة المكتبة الزكية التي سبقت الإشارة إليها. وليس في الكلام مرجع للضمير في (له). ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق، ومن هذا أو ما بعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصاً من صاحب الشرطة الصغرى، فللأول:

(أ) الحكم على الخاصة والدهماء (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة، وهم الدهماء.

بباب دار السلطان، رجل[١] يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه».

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش استحدث نوعاً ثالثاً للشرطة أطلق عليه الشرطة الوسطى. ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر في جرائم الطبقة الوسطى، وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأرباب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء ومَن في طبقتهم. وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن جدير[٢]. ويقول المقري[٣] عن الشرطة في الأندلس: «وأما خطة الشرطة بالأنداس فإنها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة. ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل. وإذا كان عظيم القدر عند السلطان الأعظم، وهو الذي يحدُّ (أي يقيم الحدود) على الزنا وشرب الخمر. وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرر عليها القاضي. وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك»[٤].

ولا يختلف نظام العسس في الأندلس عنه في المشرق إلا في التسمية، حيث عرف العسس في الأندلس بالداربين، لأن مدن الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد صلاة العشاء. ولكل زقاق بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب، «وله سراج معلق وكلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة عامتهم» أي خبثهم وكثرة شرهم[٥].

---

(١) كذا في المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون. والرجل: اسم جمع لراجل، وهم الرجالة أيضاً: وفي النسخ المطبوعة «رجال».

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ٢ ص ٢١٢.

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

(٤) كان صاحب الشرطة: الدولة العباسية وفي الأندلس وفي عهد الفاطميين في المغرب ومصر ينظر في الجرائم ويقيم الحدود (راجع مقدمة ابن حلدون ص ١٩٣).

(٥) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

٣ ـ النظام الحربي

(أ) الجيش

١ ـ في الدولة العباسية:

كان الجيش في عهد الرسول وفي عهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربي. وقد اعتمد العباسيون على الفرس في إقامة دولتهم؛ ومن ثم أصبح للعنصر الفارسي أثر ملحوظ في الجيش. ولما ولي المعتصم الخلافة اعتمد على الأتراك، لأن أمه كانت تركية، فولاهم حراسة قصره، وأثارهم على الفرس والعرب، ومحا أسماء العرب من ديوان العطاء، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً. ومن ثم زاد نفوذ هذا العنصر التركي حتى أصبح خطراً يهدد حياة الخلفاء أنفسهم، وأصبح بيد القواد من الأتراك تولية الخليفة وعزله وسمل عينيه وقتله. فنجد المتوكل يذهب ضحية تآمر الأتراك عليه ويتبعه ابنه المنتصر الذي دس له الأتراك السم على يد طبيبه. وقد عبث هؤلاء الأتراك بهيبة الخلافة بقتلهم الخليفة المعتز وتمثيلهم به وتعذيبهم الخليفة المهتدي حتى مات.

ولم يلبث أن اندمج في الجيش العباسي عناصر أخرى من غير الأتراك. وكان جميع هؤلاء الجند من المرتزقة، لا هم لهم إلا جمع المال وإثارة الفوضى والقلاقل إذا تأخر دفع رواتبهم. كما كانوا ينضمون إلى كبار القواد إذا أجزلوا لهم العطاء. وكان الجيش في عهد المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ)، يتألف من الأتراك والمغاربة[١] والفراغنة[٢]، كما يظهر من هذه الأبيات التي نظمها أحمد بن الحارث اليمامي في وصف ثورة القواد على هذا الخليفة حيث يقول:

وأقبلت الترك والمغربونَ	وجاء الفراغنةُ الدار عونا
تسير كراديسهم[٣] في السلاح	يروحون خيلا ورَجْلا تَبينا
فقام بحربهم عالم	بأمر الحروب تولاه حينا
فجدد سوراً على الجانبـ	ـين حتى أحاطهم أجمعينا
وأحكم أبوابها المصمتات	ألوف ألوف إذ تحسبونا[٤]

---

(١) يقصد بذلك المصريين.

(٢) يقصد أهل فرغانة ببلاد ما وراء النهر.

(٣) جمع كردوسة وهي قطعة عظيمة من الخيل.

(٤) الطبري ج ١١ ص ٩٧.

وقد عمل بعض الخلفاء على التخلص من قواد الأتراك، فاستعانوا ببعض فرق المرتزقة[١] من العناصر الأخرى. فنرى المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ) يصطنع المغاربة والفراغنة دون الأتراك. وكان ذلك سبباً في قتله على أيدي الأتراك، وكذلك كان الخلفاء العباسيون وبعض القواد يستعينون بالعناصر الأجنبية المعادية للدولة نفسها. من ذلك أن الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) استعان بالقرامطة وأدخلهم في صفوف جيشه ولم يسلم هو من أذاهم، إذ ثاروا عليه وانضموا إلى ابن رائق الذي عمل على الاستئثار بالنفوذ دونه. «واستجاش بألف من القرامطة وجاء بهم إلى بغداد فأكثروا فيها الفساد»[٢]. وكان هؤلاء المرتزقة من القرامطة ينضمون إلى ابن رائق تارة وإلى أعدائه تارة أخرى، ويصبحون شراً مستطيراً على الدولة. ولا غرو، فقد حارب هؤلاء القرامطة في صفوف ابن رائق ضد البريدي تارة[٣]، وفي صفوف أبي عبد الله البريدي تارة أخرى. فأمد أبو طاهر الجنائي القرمطي أبا عبد الله البريدي بجيش للاستيلاء على البصرة، وعاونه على الخليفة المتقي سنة ٣٣٠ هـ، ولم يكتف البريدي بالقرامطة بل «كان معه الأكراد والديلم»[٤].

ولما استبد بنو بويه بالنفوذ في الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ. قامت المنافسة بين الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الجند ويتمتعون بنفوذ كبير منذ عهد المعتصم، وبين الديلم الذين ينتسب إليهم البويهيون، والذين اعتمدوا عليهم في إقرار سلطانهم في البلاد. وقد شعر معز الدولة بذلك فأوصى ابنه بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك[٥]، وأخذ سلاطين بني بويه يتقربون إلى الأتراك تارة وإلى الديلم أخرى: فنرى بختيار يخشى الأتراك، فيتقرب إليهم ويعتصم بهم ويثير بذلك حنق الديلم عليه. على أن هؤلاء الأتراك لم يلبثوا أن عزلوا بختيار سنة ٣٦٤ هـ بإيعاز ابن عمه عضد الدولة. ولولا تدخل ركن الدولة لآلت سلطنة العراق إلى عضد الدولة منذ ذلك الحين[٦]. وكان الجيش

---

(١) كان الجيش يتألف من قسمين: مرتزقة وهم الذين يتناولون الرواتب من الدولة، ومتطوعة وهم الذين ينتظمون في الجيش كلما دعا داعي الجهاد، ويتناولون أرزاقهم في مدة تطوعهم فقط، وتمنح أسراتهم مخصصات عينية أو نقدية.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ١٨٩.

(٣) أبو بكر الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٢٣.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، مخطوط ج ٣ ورقة ١٣٦.

(٥) أنظر هذا الكتاب ص ٤٥.

(٦) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣

في عهد بني بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة. وقد ذكر أبو شجاع[1] أنه كان للجيش في عصر عضد الدولة عارضان قائدان للجيش. أحدهما للديلم والآخر للأتراك والأعراب والأكراد. ويظهر أن المغاربة والفراغنة كانوا هم وغيرهم من المرتزقة تحت إمرة القائد الثاني.

وكان للجيش مجلسان هما: مجلس التقرير وينظر في تقدير رواتب الجند وأوقات دفعها إليهم، ومجلس المقابلة ويختص بالإشراف على سجلات الجند ومراجعة أسمائهم. وينقسم كل من هذين المجلسين إلى أقسام معينة من الجند كجند الخاصة وجند الخدمة العسكرية وجند الولايات[2].

وكان الجيش العباسي يتكون من عدة فرق، تضم النظامية أو المرتزقة والمتطوعة: وتتألف هذه الفرق من المشاة أو الرجالة أو الحربية ويتسلحون بالرماح والسيوف والحراب والتروس، والرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب، ويلبسون الخوذ لتقي رؤوسهم والدروع لتقي صدورهم، ولها أجزاء للساعدين والساقين. كما كان يتألف من النشابين وهم الذين يرمون بالنشاب، والدبابون. وقد اقتبس العرب هذا النظام عن الفرس، والعيارون وهم الذين يرمون الحجارة من القالع، والمنجنيقيون والنفاطون وهم الذين يقذفون النفط، ويرتدون الملابس التي لا تؤثر فيها النيران لاقتحام الحصون المشتعلة، والهندسة ويطلق عليهم الفعلة والأطباء والبياطرة.

وكان على كل عشرة آلاف جندي «أمير»، وعلى كل ألف «قائد»، وعلى كل مائة «نقيب»، وعلى كل عشرة «عريف». ويختلف لباس الجند باختلاف الفرق والأسلحة. ولما ولي المتوكل الخلافة أمر الجند بتغيير زيهم القديم، وألبسهم أكسية رمادية، وأمرهم بألا يجعلوا السيوف على أعناقهم، بل يتمنطقون بما حول وسطهم مقلدين في ذلك الفرس.

وهناك حرس الخليفة «وجنود المنزل» ويعهد إليهم بأعمال أقل أهمية مما يقوم به حرس الخليفة. وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم «الجاندار». وهناك أيضاً جماعة من الغلمان يتلقون علومهم في البلاط ويتدربون على الفنون الحربية، ثم يعينون «مرافقين» إذا بلغوا سن

---

(١) ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ٤٠.

(٢) متز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ٢ ص ١٢٥، نقلاً عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ورقة ١٢ ـ ب.

الرشد، ويعيشون في حجرات منفصلة عن ثكنات فرق الجيش. ومن ثم أطلق عليهم الحجرية (بضم الحاء وفتح الجيم وكسر الراء)، لتمييزهم عن الفرق الأخرى كالباجية الذين ينتسبون إلى ابن أبي الساج وغيرها.

وكان العباسيون يستخدمون جماعة من المهندسين يعرفون بالمنجنيقيين، ويعرف رئيسهم باسم أمير المنجنيقيين. ومن أشهر هؤلاء يعقوب بن صابر الذي وضع في الهندسة الحربية كتاباً سماه «عمدة المسالك في سياسة الممالك» عالج فيه كل ناحية من نواحي الحرب، كالتعبئة والاستيلاء على الحصون، وتشييد القلاع والفروسية والهندسة والحصار، وتركيب الآلات الحربية، وصفات الخيل والفرسان وأنواعهم. وكذلك كان الجيش يزود بمستشفيات الميدان، فتحمل الجرحى والمرضى على محفات تحملها الجمال[١].

وقد عني العباسيون بالجاسوسية في الجيش، واستخدموا في ذلك كلاً من الجنسين الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم. ولم تكن الجاسوسية الحربية أكثر نشاطاً ولا أعم انتشاراً في بلد من البلاد منها في الدولة البيزنطية، التي كانت لا تزال تنافس الدولة العربية والتي كان أهلها في الماضي أساتذة العرب في الفنون الحربية.

ولكي يحمي العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم، وتسمى الثغور[٢]. وهذا ضرب من التدابير الحربية التي تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب وسيوفهم فيها. وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة إلى العرب. وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة، فكانت كفة النصر ترجح مرة في جانب

---

(١) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) لما استولى أبو جعفر المنصور على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى، مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية، حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم «الثغور». ولما ولي هارون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سماها «ولاية الثغور» وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً، وأقام بها المعاقل وأمدها بحاميات دائمة، ومنح، فوق أرزاقهم، أرضاً أقاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة، وأصبحت أحوالها في يسر ورخاء إلى أيام الواثق، ثم أخذت بعد ذلك في الأفول.
أنظر كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ٢٥٢ ـ ٢٦٩.

العرب وأخرى في جانب الروم. ولذلك كانت هذه الثغور تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي البيزنطيين.

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية، وهو ما يعبر عنه اليوم بالقرعة العسكرية، تقرر بعد اختيار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد. فقد ذكر هلال بن الصابي[١] طريقة هذا الاختيار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب في هذه العبارة فقال:

«ويقف القواد والغلمان بين يديه (يعني المعتضد) في الميدان، ويجلس كتاب العطاء أسفل بحيث لا يراهم. ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم، فيأخذها خادم منه ويصعد بها إلى المعتضد بالله، ويدعو عبيد الله بن سليمان بواحد واحد ممن فيها، فيدخل الميدان، ويمتحن على البرجاص[٢]. فإن كان يرمي رمياً جيداً وهو متمكن من نفسه ومستقر في سرجه ومصيب أو مقارب في رميه، علم على اسمه «ج» وهي علامة الجيد، ومن كان دون ذلك علم على اسمه «ط»، وهي علامة «المتوسط»، ومن كان متخلفاً لا يحسن أن يركب فرسه أو يرمي هدفه علم على اسمه «د» وهي علامة الدون. ثم يحمل بعض العرض والامتحان إلى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا بها ما عندهم من صفاته لئلا يكون دخيلاً أو بديلاً».

وكان الجيش في وقت القتال يتألف من خمسة أقسام: هي القلب، وهو مركز القائد العام، والميمنة، والميسرة، والطليعة، والساقة، وكانت تتقدم الجيش الطليعة وهي سرية من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح. يقول سيد أمير علي[٣]:

«ومما لا شك فيه أن منظر الجيش العربي وهو يشق طريقه في صفوف لا نهاية لها في بلاد الأعداء، قد بلغ حد العظمة والبهاء، فكان الفرسان يسيرون في المقدمة، وعلى جانبيهم حملة النبال. ثم يأتي بعدهم الرجال الذين كانوا يسيرون في صفوف متراصة بنظام عجيب، ويليهم صفوف الحمال المحملة والعدد والخيم والعتاد. ثم تأتي بعدهم المستوصفات الصحية والنقالات لحمل المرضى والجرحى، ثم آلات الحرب كالمنجنيقات

---

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) الهدف يعلق ويرى فيه.

(٣) مختصر تاريخ العرب ص ٣٧٧.

والعرادات محملة على ظهور الجمال والخيول والبغال وهي تسير في المؤخرة. أما إذا سار الخليفة أو أحد أفراد الأسرة المالكة على رأس الجيش فلا شك في أن المنظر كان يبدو أكثر روعة وبهاء، إذ كان جنود الحرس الخلافي يتشحون بالملابس الزاهية ويحملون الأعلام ذات الشعار الملكي المنقوش بالذهب، كما كان القواد والأمراء يرتدون الملابس الفخمة. وعلى الجملة كان هذا المنظر يبدو فخماً رائعاً. وكانت الطليعة حين تصل إلى الموضع المقصود في حفر الخنادق، إذ كان نظام الجيش يقضي بألا يعسكر الجند قبل أن يتخذوا الحيطة من الهجوم المفاجىء. فإذا وصل الجيش الرئيسي نصبت الخيم في نظام بديع، وأقيمت الشوارع والأسواق والميادين كما لو كان المعسكر مدينة عامرة. وكانت توزع الأرزاق، فتوقد المطابخ وتنصب عليها القدور. وبعد تناول العشاء يؤم الخليفة أو قاضي القضاة الجند في الصلاة. ثم يجلس الجميع في حلقات يستمعون إلى أقاصيص الحروب والمخاطرات أو إلى القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناي. وكانوا لا ينامون إلا بعد الهزيع الأول من الليل».

ويتبين لنا نظام التعبئة مما ذكره محمد بن سليمان الكاتب عن الموقعة التي دارت بينه وبين الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة في بلاد الشام سنة ٢٩٢ هـ. ومنها نتبين كيف كانت الجيوش تستخدم الكمين كخدعة من خدع الحرب، وكيف كانوا يعتمدون على السياط كآلة من آلات الحرب الهامة، وإلى أي حد بلغ اهتمامهم بفرق الفرسان والرجالة[١].

٢ ـ في مصر:

وفي مصر اتخذ أحمد بن طولون جنداً كثيفاً من السودان والنوبيين والروم. وكان بقصره مكان يشرف منه في يوم عرض الجيش، ويخرج من الباب الأوسط، ويخرج عسكره من البابين الآخرين في عدد عظيم وفي أتم نظام. وقد قيل إن جيش مصر في عهد ابن طولون بلغ مائة ألف.

ويتبين مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش من وصف موكب خمارويه عند خروجه للصيد أو التنزه أو الاحتفال بأعياد الدولة ومواسمها. وقد بلغ موكب هذا الأمير حد الروعة والبهاء. ويسير فيه أولاد الحوف وشناترة الضياع، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام معروفين

---

(١) أنظر الملحق الرابع ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

بالشجاعة والبأس، فأدخلهم خمارويه في خدمته، وأدر عليهم الأرزاق والعطايا، ومنع عن الناس أذاهم، واتخذهم حرساً له. وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج؛ ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة، ويتقلدون بالسيوف المحلاة. وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان، لهم درق من حديد محكم الصنعة، وعليهم الأقبية والعمائم السود، فيخالهم الناظر بحراً أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم. ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم، والبيض[١] التي تلمع من تحت العمائم. فإذا مضى السودانيون، قدم خمارويه وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة (رمية) سهم. ويحف به حرسه المختار، وهو ممتط فرساً، تكسوه الهيبة، ويدل مظهره على السطوة وشدة البأس. فإذا سار الناس جميعاً وبينهم الجند في صمت عميق كأن على رءوسهم الطير.

وفي عهد الإخشيد كانت مصر آمنة مطمئنة بجيشها الذي بلغ أربعمائة ألف مقاتل، عدا حرسه الخاص وعبيده ومماليكه الذين كان قصره يزخر بهم، وكانوا إذ ذاك ثمانية آلاف رجل. وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بتولية ابنه أنوجور العهد[٢]. ولما تولى كافور زمام مصر وما يليها من البلاد بعد وفاة الإخشيد انضم إلى الجيش عدد كبير من السودان[٣].

وكان الجيش الفاطمي يتألف من الأمراء وطوائف الجند. ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تجاوزها إلى غيرها. فالأمراء يطوقون بأطواق الذهب حول أعناقهم، والبعض الآخر يركب في المواكب بالقصب الفضية. أما طوائف الجند فتتكون من عدة عناصر كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان. وينسب بعض هذه العناصر إلى الخلفاء: كالحافظية نسبة إلى الحافظ، والآمرية نسبة إلى الآمر، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء: كالجيوشية والأفضلية[٤].

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بعرض الجيش وتوزيع الحملات الحربية، وبخاصة إلى بلاد الشام وفلسطين[١].

---

(١) جمع بيضة وهي الخوذة الحديدية.

(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ١٥٢. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢.

(٣) المقريزي: خطط ج ١ ص ١٥٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٨٠،.

(ب) الأسطول

اهتم المسلمون على أثر فتح بلاد الشام ومصر بإنشاء أسطول لحماية سواحل هذه البلاد من غارات البيزنطيين ومحاولة فتح القسطنطينية. وقد ظهر ذلك واضحاً منذ عهد عثمان بن عفان وفي عهد الدولة الأموية التي استقرت في بلاد الشام. وعلى أن انتقال الخلافة إلى العراق أدى إلى جعل مهمة الدفاع عن هذه البلاد من اختصاص ولاتها أنفسهم. وبلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين. وكان للمسلمين في كل مرفأ منار لهداية السفن أطلق عليه اسم «الخشب»، كما كان لكل سفينة حربية قائد أو «مقدم» يقوم بتدريب الجند ويعد العدة للحملات البحرية. وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الملاحة فقط. أما القائد العام للأسطول فيدعى «أمير الماء» أو «أمير البحر» الذي اشتق عنه الأوربيون لفظ Admiral.

وقد اشتهرت مصر في العصر الإسلامي بصناعة المراكب النيلية لنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر كما اشتهرت بصناعة السفن الحربية التي تألف منها الأسطول المصري وكانت سفن الأسطول تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة البيزنطية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس شمالي بحيرة المنزلة والفرما شرقي هذه البحيرة.

ويرجع إنشاء «الصناعة» في مصر إلى الغزوة التي شنها البيزنطيون على البرلس وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة، وما تبع ذلك من استيلائهم على تنيس في سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) وعلى دمياط سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٣ م). وكان من أثر هذه الحملة الأخيرة أن قام عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ) والي مصر في ذلك الوقت بتحصين سائر الموانىء المصرية. كما قام في الوقت نفسه بإنشاء هذه «الصناعة» التي ظلت موضع عناية ولاة مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولاً كبيراً من السفن الحربية، ولكن بقاء «الصناعة» في هذا المكان أصبح مصدر خطر للبلاد بعد أن أحرقها الثوار في سنة ٣٢٣ هـ، ثم استولوا على الأسطول المصري في الفيوم واستخدموه في الهرب إلى

---

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ١٩٠. وسنقف على ترتيب الجند في عهد الفاطميين من الوصف الذي أورده ناصر خسرو عن الاحتفال بجبر الخليج في عهد المستنصر في الباب العاشر من هذا الكتاب.

الإسكندرية ثم إلى برقة. ومن ثم أمر الإخشيد بنقل دار الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون (شعبان سنة ٣٢٥ هـ). ثم أقام في موضعها بستانه المعروف «بالمختار»(١).

ولم تقف جهود الفاطميين عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين بلاد الشام التي كانت تابعة لمصر واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوي؛ فأنشأ المعز لدين الله الفاطمي داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة سفينة(٢)، وكان على رأس الأسطول المصري عشرة قواد عليهم رئيس هو «قائد القواد»، ويسمى في عصر الفاطميين «أمير الجيش»، وفي عهد المماليك «ناظر الجيش». ويتناول كل من هؤلاء القواد رواتب تصل إلى عشرين ديناراً في الشهر، وأصبح للأسطول المصري ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها. ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين، فأمر شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون وصول العدو، كما أحرق مراكب الأسطول(٣).

٤ ـ النظام المالي

(أ) في الدولة العباسية:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن سياسة العباسيين المالية كانت ترمي إلى تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها، ومن ثم كانت الميزانية العامة تقسم قسمين: قسم الاستخراج ويعرف بموارد الدولة، وقسم النفقات ويعرف بمصارف الدولة.

وقد بلغ النظام المالي في العصر العباسي الثاني مبلغاً عظيماً من الدقة والنظام، فكانت لكل ولاية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسي في بغداد أو في سامرا، وينقسم كل منهما قسمين: يشرف أحدهما على النفقات ويحمل ما تبقى إلى دار الخلافة، ويشرف الثاني على الموارد. وكان بيت المال بدار الخلافة يعني بشئون الدواوين وما يتعلق بالجزء الشرقي لمدينة بغداد، لأن هذا الجزء كان تابعاً لدار الخلافة، على حين كان الجانب الغربي لهذه المدينة تابعاً لإقليم بادرايا (بضم الدال).

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٩.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٣٣.
(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤.

وقد بين الخوارزمي[١] القوانين والدفاتر والأعمال التي كانت مستعملة في الدواوين بخراسان في ذلك العصر فقال:

قانون[٢] **الخراج**: أصله الذي يرجع إليه وتبنى الجباية عليه، وهي كلمة يونانية معربة.

الأوارج: إعراب أواره، ومعناها بالفارسية المنقول، لأنه ينقل إليه من القانون ما على الإنسان، ويثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى إلى أن يستوفي ما عليه.

الرزنامج: تفسيره كتاب اليوم، لأنه يكتب فيه ما يجري كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك.

الختمة: كتاب يرفعه الجهبذ[٣] في كل شهر بالاستخراج والجمل والنفقات والحاصل كأنه يختم الشهر به ـ الختمة الجامعة تعمل كل سنة لذلك.

التأريج: قيل لفظة فارسية ومعناها النظام، لأنه كسواد يعمل كالعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها، وأنا أظن أنه تفعيل من الأوارج. تقول: أرجت تأريجاً لأن التأريج يعمل للعقد شبيهاً بالأوارج، فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفاً ليسهل عقده بالحساب، وهكذا يعمل التأريج.

العريضة: شبيه بالتأريج، إلا أنها تعمل لأبواب يحتاج إلى أن يعلم فضل ما بينها، فينقص الأقل من الأكثر من بابين منها، ويوضع ما يفضل في باب ثالث، وهو الباب المقصود الذي تعمل العريضة لأجله، كأن تعمل عريضة للأصل والاستخراج. ففي أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل فيوضع السطر الأول من سطوره العريضة ثلاثة أبواب: أحدها للأصل، والثاني للاستخراج، والثالث لفصل ما بينها. ثم يوضع في السطر الثاني والثالث والرابع إلى حيث تنتهي تفصيلات الأصل، والاستخراج فصل ما بينهما، ويثبت كل واحد منهما بإزاء بابه، وتثبت جملة كل باب تحته.

البراءة: حجة يبذلها الجهبذ أو الخازن للمؤدي بما يؤديه إليه.

(١) مفاتيح العلوم (القاهرة ١٣٤٢ هـ) ص ٣٦ ـ ٣٩.

(٢) كانت لفظة Kanon في العصر التالي لعصر دقلديانوس هي الاصطلاح العام للضرائب العادية.

(٣) الجهبذ بالكسر: النقاد الخبير بغوامض الأمور البارع العارف بطرق النقد، وهو معرب.

الموافقة والجماعة: حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل، ولا يسمى موافقة ما لم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه، فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمي محاسبة.

ومن دفاتر ديوان الجيش **الجريدة السوداء**، وهي تكسر لقيادة قيادة في كل سنة بأسامي الرجال وأنسابهم وأجناسهم وحلاهم ومبالغ أرزاقهم وقبوضهم وسائر أحوالهم، وهو الأصل الذي يرجع إليه هذا الديوان في كل شيء.

الرجعة: حساب يرفعه المعطي في بعض العساكر لطمع[1] واحد إذا رجع إلى الديوان، والرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الإنفاق.

الصك: يعمل لكل طمع يجمع فيه أسامي المستحقين وعدتهم ومبلغ مالهم ويوقع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم.

والمؤامرة: عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك. وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استثمار واستدعاء توقيع، والصك أيضاً يعمل لأجور الساربانيين والجمالين ونحوهم.

والاستقرار: عمل يعمل لما يستقر عليه من الطمع بعد الإثبات والفك والوضع والزيادة والحط والنقل والتحويل ونحو ذلك.

المواصفة: عمل يعمل، توصف فيه أحوال تقع وأسبابها ودواعيها وما تعود بثباتها أو زوالها.

الجريدة المسجلة: هي المختومة، فأما السجل فكتاب يكتب للرسول أو المخبر أو الرجال أو غيرهم بإطلاق نفقته حيث بلغ، فيقيمها له كل عامل يجتاز به. والسجل أيضاً المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء، يقال سجل الحاكم لفلان بكذا تسجيلاً.

الفهرست: ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الديوان، وقد يكون لسائر الأشياء.

الدستور: نسخة الجماعة المنقولة من السواد.

الترقين: خط يخط في التأريج أو العريضة إذا خلا باب من السطر لكي يكون الترتيب

---

(١) الطمع محركة رزق الجهبذ، وجمعها أطماع، وأطماعهم أوقات قبض أرزاقهم.

محفوظاً به، وهو بمنزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجمل، واشتقاقه من رقان. وهو بالنبطية الفارغ.

الجائزة: علامة المقابلة.

ومن الدفاتر التي يستعملها كتاب العراق، **الإنجيذج** تفسيره الملفوظ لفظة فارسية معربة.

الأوشنج: تفسيره المطوي والجموع لفظة فارسية أيضاً.

والدروزن: ذكر الماسح وسواده الذي يثبت فيه مقادير ما يمسحه من الأرضين.

ومن أهم موارد بيت المال في هذا العصر: **الخراج، والجزية، والزكاة، والفيء، والغنيمة، والعشور**.

وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم يراع الخلفاء القواعد التي قررها أسلافهم. بل جاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها. وسنَّ الأمويون نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية الأموال. ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية. وكان للتحقيق مع هؤلاء مكان خاص يسمى «دار الاستخراج».

وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج.

١ ـ **المحاسبة**: وهي إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً.

٢ ـ **المقاسمة**: وهي ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول.

٣ ـ **المقاطعة**: وهي ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة. ويدخل في هذا النظام معظم أراضي التاج. وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجدب. مثال ذلك أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربع الضريبة بإرجائه السنة المالية من مارس إلى ١٧ يونية، ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٣١ يونية[١].

وقد أورد قدامة بن جعفر[٢] بياناً ذكر فيه أقاليم الدولة العباسية ومقدار الجباية في أواخر القرن الثالث الهجري في كل سنة. ومن هذا البيان يتضح أن الجباية كانت بالدرهم

---

(١) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

في أقاليم المشرق وبالدينار في أقاليم المغرب. كذلك يتضح أن صافي ما حمل إلى بيت المال بلغ من العين ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار من الورق، وأن الدينار يساوي خمسة عشر درهماً، وأن مجموع الجباية بلغ ٧٣,٨٠٠,٠٠٠ درهم، وهو رقم يدل بلا ريب على سوء حالة الدولة واستئثار بعض عمال الأقاليم بالنفوذ. على أنه ينبغي ألا يعزب عن أذهاننا أنه كانت هناك ضرائب أخرى تُجبى من أهل الذمة ومن أرباب الحرف والصناعات وعلى التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب. وإليك بيان قدامة:

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية	
السواد	١٣٠,٠٠٠,٠٠٠	درهم
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	درهم
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	درهم
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	درهم
ماسبذان	١,٢٠٠,٠٠٠	درهم
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	درهم
الإيغارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	درهم
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أذربيجان	٤,٥٠٠,٠٠٠	درهم
الري ودماوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠	درهم
قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٠,٠٠٠	درهم
قومس	١,١٥٠,٠٠٠	درهم
جرجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
طبرستان	٤,٢٨٠,٠٠٠	درهم
تكريت والطبرهان والسن والبوازيخ	٠,٩٠٠,٠٠٠	درهم
شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠	درهم

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية	
كورة الموصل	٦,٣٠٠,٠٠٠	درهم
قردي وبزبدي	٣,٢٠٠,٠٠٠	درهم
ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠	درهم
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠	درهم
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	درهم
حلوان	٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠	درهم
ماء الكوفة	٥,٠٠٠,٠٠٠	درهم
ماء البصرة	٤,٨٠٠,٠٠٠	درهم
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠	درهم
أرزن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠	درهم
مقاطعة طرون	١٠٠,٠٠٠	درهم
أرمينية	٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠	درهم
ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠	درهم
قنسرين	٣٦٠,٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	دينار
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	دينار
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	دينار
جند فلسطين	٢٥٩,٠٠٠	دينار
مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	دينار
الحرمين	١٠٠,٠٠٠	دينار
اليمن	٦٠٠,٠٠٠	دينار
اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠	دينار
عمان	٣٠٠,٠٠٠	دينار

ومما يدخل في شيء من الارتفاع جزية رءوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلام وهي ٢٠٠,٠٠٠ درهم.

نظام الإقطاع :

لم يأت الخراج عن طريق الأرض الخراجية وحدها بل كان يأتي أيضاً عن طريق الأرض المقطعة. ويرجع نظام الإقطاع إلى عهد الفتوح الإسلامية الأولى، فكانت أراضي الأكاسرة وأفراد البيت المالك والمرازبة، وهم كبار أصحاب الأراضي، ملكاً للدولة تقطعها من تشاء. وقد ذكر الماوردي[١] أن الإقطاع ضربان: إقطاع استغلال، وإقطاع تمليك، والثاني ينقسم إلى موات وعامر. والثاني وهو ضربان. «أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام. فإن كانت في دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها فإنه يجوز».

وكان الخراج الذي يؤدى عن الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء. وتعود هذه الأرض المقطعة إلى الحكومة في حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها. وكثيراً ما كان الخراج عبئاً ثقيلاً على صغار ملاك الأراضي، حتى إن بعضهم كان يلحق أرضه بالأقوياء، فراراً من كثرة الخراج المفروض عليهم. ومن ثم كانوا لا يدفعون عن هذه الأراضي إلا العشر فقط[٢]، وتسمى هذه الطريقة التلجئة، وهي «أن يطلق الضعيف ضيعة إلى أقوى ليحامي عليها»[٣].

على أن نظام الإقطاع لم يخل من بعض العيوب، إذ أن المقطع أو الملتزم كان يعمل على الإبراء وجمع المال، ولا يتردد في إرهاق الأهلين وإثقالهم بالضرائب المختلفة، حتى يستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك، والأهالي في ذلك مغلوبون على أمرهم قلما تصل شكاياهم إلى السلطة المركزية، فضلاً عما كان يسلكه معهم بعض الجباة من وسائل التعذيب[٤].

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨٨.
(٢) هلال بن الصابي: تاريخ الوزراء ص ١٣٤، ٢٢٠.
(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٤١.
(٤) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ١٨، ٦١، ٧٠ - ٧١.

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة، بل قد يشمل ولاية برمتها، وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي الأول حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، وأصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي ساد أوربا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين)[1].

وقد اهتم الخلفاء بمواعيد الخراج. وكان ميعاده عيد النيروز عادة. ولما حاول الأمويون تقديم ميعاد الخراج نحواً من شهر، طلب أصحاب الأراضي العدول عن تنفيذ هذا القرار. ولكن هشام بن عبد الملك أبى ذلك عليهم، واستمر هذا النظام إلى أيام هارون الرشيد حيث طلب أصحاب الأراضي من يحيى بن خالد البرمكي تأجيل ميعاد الخراج شهرين، وكاد يجيب طلبهم، ولكنه عدل عن ذلك لأنه رمي بالتعصب للمجوسية، ولم تحل هذه المسألة إلا في عهد الخليفة المتوكل. ولما جاء ابنه المنتصر أعاد ميعاد الخراج إلى ما كان عليه من قبل. ثم جاء المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) فقدم ميعاد الخراج عما كان عليه في عهد المتوكل بستة عشر يوماً، فأصبح في ٢٠ يونية من كل سنة.

وكانت الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال، وقد فرضت أول الأمر على النصارى واليهود مقابل حمايتهم والدفاع عنهم. ومن ثم كانت هذه الضريبة أشبه بضريبة الدفاع الوطني أو البدل العسكري، لذلك لم تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح، وكانت هذه الضريبة التي عرفت باسم الجزية أو جزية الرءوس أو الضريبة الشخصية تؤدى على قدر طاقة الشخص. ولذلك قسم أهل الذمة طبقات ثلاث: دنيا ويدفع الشخص ١٢ درهماً في السنة، ووسطى ويدفع ٢٤ درهماً، وعليا ويدفع ٤٨ درهماً. وفي البلاد التي استعملت فيها العملة الذهبية كانت الضريبة ديناراً ودينارين وأربعة دنانير على التوالي. وكانت الجزية تؤخذ على أقساط تبلغ أحياناً ستة أو خمسة وأحياناً أربعة أو ثلاثة أو اثنين، وفرضت في العراق أول الأمر في كل شهر. وفي سنة ٣٦٦ هـ صدر أمر الخليفة بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في شهر المحرم من كل سنة، وألا تؤخذ من النساء ولا ممن بلغ الحلم، ولا من ذي سن عالية، ولا ذي عاهة بادية، ولا من فقير معدم، ولا من راهب متبتل، ويعطى لمن يدفع الجزية براءة تثبت أداءه لها[2].

---

(١) النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) راجع متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٧٤ ـ ٧٨.

وقد بلغ المتحصل من ضريبة الجزية في أواخر القرن الثالث الهجري بمدينة بغداد ٢٠٠,٠٠٠ درهم في السنة.

ومن مصادر بيت المال ما يؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثاً له، حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال، وكان هذا مقصوراً على المسلمين. ولذلك نرى الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) يصدر في سنة ٣١١ هـ كتاباً يأمر فيه برد تركة من يموت من أهل الذمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال، وذلك لما «روي عن رسول الله ﷺ من أن المسلم لا يرث الكافر، وأن الكافر لا يرث المسلم وأنه لا يتوارث أهل ملتين»، وأن السنة التي جرت بأن أهل كل ملة يورثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذي رحمه»[١]. ونظراً لما كان لهذه التركة من أهمية باعتبارها مصدراً هاماً من مصادر بيت المال، أنشىء لها في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) ديوان خاص أطلق عليه «ديوان المواريث».

وكان هذا الديوان مصدر كثير من العنت والإرهاق والشكوى لأخذ المواريث على غير ما تجري به السنة[٢].

ومن مصادر بيت المال أخماس المعادن والركاز[٣] وخمس ما يقذفه البحر أو يستخرج منه مثل اللؤلؤ والعنبر، وأثمان الأباق من العبيد[٤]، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يظهر له صاحب[٥]. ومن مصادر بيت المال أيضاً الرسوم الجمركية كما سيأتي في الباب الثامن.

وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة مصدراً من مصادر بيت المال؛ فترى مثلاً الخليفة القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ) يصادر أموال سلفه المقتدر وأنصاره ويستولي على «ثياب وشي وديباج رومي وتستري[٦] مثقلة بالذهب، وفرش أدمي وخز وقم وديباج وصناديق

---

(١) هلال بن الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٤٤٨.

(٢) راجع كتاب الخليفة المقتدر إلى عماله في صدد تعديل قانون المواريث في ابن الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

(٣) الركاز المال المدفون في الأرض.

(٤) من أبق العبد أبقا إذا هرب من سيده من غير خوف لا كد عمل، والجمع أباق مثل كافر وكفار.

(٥) نتز: الحضارة الإسلامية ص ١٨٩.

(٦) نسبة إلى تستر (بضم التاء وسكون السين وفتح التاء)، وهي معربة عن ششتر أشهر مدن خوزستان.

فبها ثياب فاخرة وصياغات يسيرة ذهب، وصياغات كثيرة فضة، وطيب كثير من عود هندي وعنبر مسك وكافور وتماثيل كافور، قيمة ذلك نحو مائة وثلاثين ألف دينار، وقيمة التماثيل نحو ثلثمائة ألف درهم، فتسلم أكثر ذلك مؤنس المظفر ليباع، فتركوا بعضه ليخدم به القاهر»[١].

ولما قتل بجكم صودرت أمواله، وكانت مدفونة في مواضع كثيرة من بستانه، وقد قيل إن الخليفة المتقي استولى على ألفي ألف دينار من العين والورق، كما استولى من ابن شيرزاد، وكان من أنصار بجكم، على مائتي ألف دينار[٢]. وكذلك نرى بختيار بن معز الدولة ينفي كبار الديلم ويصادر إقطاعاتهم ويستولي على أموالهم وأموال المتصلين بهم[٣].

وقد سن بنو بويه طرقاً لابتزاز الأموال من أصحابها، فزاد عضد الدولة في مساحة الأراضي «واحداً في عشرة بالقلم، وأضافه إلى الأصول، وجعله رسماً جارياً[٤]، استمر إلى هذه الغاية في جميع السواد، وأحدث جنايات لم تكن، ورسوم معاملات لم تعهد، وأدخل يده في جميع الأرجاء[٥] وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئاً منه، وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه... إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... فأزاله صمصام الدولة بعده، وأطلق الارتفاع[٦] للملاك. وجعل للمراعي وفرائض الصدمات ديواناً، وأقر له عمالاً وكتاباً وجهابذة، فارتفع من أعمال السواد ما زاد على ألف ألف درهم في السنة، وأدخل يده في وقوف السواد، ورتب لها ناظرين متصرفين، وقرر لأربابها إجازة تطلق لهم عنها، فتحصل منها جملة كثيرة فصارت في المقبوض[٧]، وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك[٨]، وقرر على أسواق الدواب والحمير والجمال عما يباع فيها من جميع ذاك، وفعل في ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه على الرسوم القديمة، وحظر عمل الثلج والقز وجعلهما متجراً

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٤٤.
(٢) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٩٧، ١٩٨.
(٣) مسكويه جـ ٢ ص ٢٣٥.
(٤) أي نظاماً متبعاً.
(٥) في الأصل أرحاء جمع رحى وهو الطاحون، ويظهر أنها الأرجاء كما يقتضيه سياق الكلام.
(٦) الارتفاع هو صافي دخل الأرض ونحوها، يريد أنه اكتفى بأخذ الخراج للدولة من الملاك ويترك لهم ما بقي.
(٧) يعني أن الأموال قد حصلت من الذين كانت عليهم وصارت في قبضة أصحاب الأوقاف.
(٨) يعني أن ما عدا أراضي الأوقاف يجعل إقطاعاً ويوزع على الملتزمين على أساس نظام الإقطاع.

للخاص[١] وكانا من قبل مطلقين لمن يريد عملهما والمتجر فيهما»[٢].

وقد كثرت موارد الدولة العباسية في ذلك العصر على الرغم مما أصابها من ضعف ووهن. يدل على ذلك هذا البيان الطويل الذي أورده هلال بن الصابي [٣] عن النفقات اليومية للدولة العباسية في أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) ومنه نرى أنها بلغت نحو سبعة آلاف دينار، أي ما يزيد على مليونين ونصف مليون دينار في السنة. وإذا علمنا أن صافي ما يصل إلى حاضرة الدولة بلغ ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار في السنة، أمكن توفير ما يقرب من ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، حتى إننا نجد في أواخر عهد هذا الخليفة أن «بالحضرة تسعة آلاف ألف دينار فاضلة عن جميع النفقات، وكان المعتضد ـ رحمه الله ـ قد اعتقد أنه يتممها عشرة آلاف ألف دينار، يسبكها ويجعلها نُقْرة واحدة، ويطرحها على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار، وهو مستغن عنها. فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية»[٤]. وإليك بعض ما ورد في بيان ابن الصابي عن نفقات الدولة العباسية اليومية في أول أيام المعتضد، أعمال سقي الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وكلواذي ونهربين والرذانين وطريق خراسان مما شرط عليه أداؤه مياه ما في بيت المال من العين:

ألفي ألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار.

قسط كل شهر من ذلك	= مائتي ألف وعشرة آلاف دينار
وكل يوم	= سبعة آلاف دينار

تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله رحمة الله عليه منه:

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجالة ومن يرسمهم من البوابين ومن يجري مجراهم[٥].

(١) يقصد أنهما جعلا احتكاراً للديوان.
(٢) مسكويه جـ ٢ ص ٧١.
(٣) تاريخ الوزراء ص ١١ ـ ٢٢.
(٤) هلال بن الصابي ص ١٨٩.
(٥) ومن هؤلاء البصريون والديالمة والطبرية والمغاربة والسودان.

١٠٠٠ دينار أرزاق الغلمان المعروفين بالغلمان الخاصة، ومنهم حاجب المعتضد وخلفاء الحجاب وعدتهم ٢٥ رجلاً كانوا يلازمون الخليفة في أسفاره.

١٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان من الأحرار والمميزين، وكانت أيام شهرهم خمسين، فلما جعلت تسعين سموا التسعينية. هذا عدا ما خصص للدواب، فقد جعل «للدابة، في كل خمسة وثلاثين يوماً أربعة دنانير، والبغل ثلاثة دنانير ونصف، وللحمار برسم الرجالة دينارين».

٦٠٠ دينار أرزاق المختارين الذين انتخبوا من كل قيادة وعرفوا بالشهامة والشجاعة من المماليك الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية واليانسية والمفلحية والأزكوتيكينية والكيغلغية والكنداجية[١].

٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان المثبتين، وأيام شهرهم ١٢٠ يوماً على ما أوجبه ابن أبي دُلف[٢].

١١٠ دينار أرزاق سبعة عشر صنفاً من المختصين بخدمة دار الخلافة كالفراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين وأصحاب الأعلام والبوقيين والممخرقين[٣] والمضحكين والطبالين.

٥٠ دينار المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطواف ومن في جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة الدون من المشايخ والمترفين والرحالة الموكلون بأبواب المدينة.

٣٠٠ دينار أثمان أنزال الغلمان المماليك الستينية مما كان يطلق للقواد ليقيم كل منهم الخبز واللحم لمن في ناحيته ويوكل عليه من يستجيد[٤] الإقامة لهم.

---

(١) هذه الطوائف تنسب إلى مشهوري قواد الجيش في ذلك الوقت.

(٢) هو أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وقد حاول الاستقلال ببلاد الكرج وحارب العباسيين في الوقت الذي ثار فيه صاحب الزنج. وكان كاتبه محمد بن الحسين المعروف بدندان من أكبر أصحاب عبد الله ابن ميمون القداح. أنظر ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٢٦٧.

(٣) وردت في الأصل المخرفين وهم الذين يلعبون الألعاب السحرية ونحوها كالحوائين والسحرة ومن يشبهونهم.

(٤) يعني من يحسن التأديب لهم.

٣/١ ٣٣٣ دينار لنفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وأنزال الحرم والحشم ومخابز السودان، منها ٨٠ ديناراً للخاصة و ٣/١ ٢٥٣ دينار للعامة.

١٠٠ دينار ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن السلاح، ومما يرم من الجواشن والدروع ويتخذ من النشاب والأعلام والمطارد، ونفقات خزانة السروج وخزائن الفرش.

٤ دنانير أرزاق السقائين بالقرب في القصر والخزائن والمطابخ والمخابز والدور والحجر والخدم ولوضوء الخاص ومن يعمل بالروايا على البغال من الاصطبلات للحرم والبوابين في دار العامة.

١٦٧ ديناراً أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك دون الأكابر الأحرار، ومن أضيف إليهم من الحشم القدماء.

١٠٠ دينار أرزاق المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والأساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والعطارين والمشهرين (الدلالين) والنجارين والخراطين وغيرهم، ومن في خزانة السلاح والسروج من الخزان والصناع.

١٠٠ دينار أرزاق الحرم، وقد خصص لها ثلاثة آلاف دينار في الشهر.

٤٠٠ دينار ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة[١].

٣/١ ٦٦ دينار ما يصرف في ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل الموصوفة في أحياء العرب ويستبدل به إذا عطب في العمل.

---

(١) ذكر هلال بن الصابي (تاريخ الوزراء ص ١٧ ـ ١٨)، أنه كان هناك خمسة اصطبلات هي:

١ ـ اصطبل الخاص، ويشتمل على الخيل والحجورة (إناث الخيل) وللشهاري والبراذين (نوع من الخيل) وبغال السروج والقباب والهوادج والقردات والحمير.

٢ ـ واصطبل العامة وفيه دواب الخدم والغلمان والتفاريق والبازياريين.

٣ ـ واصطبل الدواب والحمليات وما يزاد من المروج من المهاري المحرمة، ويبتاع ويهدى، وفيه يرتبط ما يحتاج إليه العلاج والراة وما يراد من الأسفار. وفيه عقر (جرح) وعمر (عرج).

٤ ـ واصطبل لبغال الأثقال وحمل العلوفات.

٥ ـ واصطبل بقصر الطين في الشماسية لمبارك الإبل والحمارات.

٣٠ ديناراً أرزاق المطبخين.

٣٠ ديناراً أرزاق الفراشين والمجلسين وخزائن الفرش وخزان الشمع وأجرة الأعوان والحمالين فيهما.

٦ ٢/٣ دينار ثمن الشمع والزيت.

٥ دنانير أرزاق أصحاب الرِّكاب والجنائب والسروج ومن يخدم في دواب البريد.

٤٤ ١/٣ دينار أرزاق الجلساء وأكابر الملهين.

٢٣ ١/٣ دينار أرزاق جماعة من المتطببين وتلامذتهم الملازمين مع ٣٠ ديناراً لثمن الأدوية في خزانة القصر.

٧٠ ديناراً أصحاب الصيد من البازياريين والفهادين والكلابزين والصقارين والصيادين وثمن الطعم والعلاج للجوارح وأصحاب الحراب والسباعين وأصحاب الشباك واللبابيد والفحالين ومن معهم من الأعوان والحمالين وأصحاب المرور.

١٦ ٣/٤ دينار أرزاق الملاحين في الطيارات والشذاءات والسميريات والحراقات والزلالات وزواريق المعابر[1].

٤ دنانير ثمن النفط للنفاطات والمشاعل وأجرة الرجال في خدمتها.

١٥ ديناراً الصدقة وكانت تفرق على من في قصر الرصافة من الحرم المحتاجات.

٣٣ ١/٣ دينار وتجري على أولاد المتوكل وأولادهم رجالاً ونساء.

١٦ ٢/٣ دينار وتجري على أولاد الواثق والمهتدي بالله والمستعين وسائر أولاد الخلفاء.

٣٦ ١/٣ دينار أولاد الناصر ومشايخ الهاشميين وأصحاب المراتب والخطباء في المساجد بمدينة السلام.

٣٣ ١/٣ دينار أرزاق جمهور بني هاشم من العباسيين والطالبين.

٣٣ ١/٣ دينار أرزاق عبيد الله بن سليمان وابنه القاسم.

١٥٦ ١/٣ دينار أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمديرين والأعوان وسائر من في الدواوين، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد، سوى كتاب دواوين

---

(١) من أنواع من السفن.

الإعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم، وخزان بيت المال، فإنهم يأخذون أرزاقهم بما يوفونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم.

١٦٢/٣ دينار جاري إسحاق بن إبراهيم القاضي وخليفته يوسف بن يعقوب، وأولادهما وعشرة من نفر من الفقهاء.

٣٢/٣ دينار جاري المؤذنين في المسجدين الجامعين والمكبرين والقوام والأئمة والبوابين وثمن الزيت للمصابيح والحصر والماء، وثمن الستائر في الصيف، والطريق والعمارة في شهر رمضان.

٥ دنانير نفقات السجون وثمن أقوات المسجونين وشربهم.

١٠ دنانير نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما وأرزاق الجسارين.

١٥ ديناراً نفقات البيمارستان الصاعدي، وأرزاق المتطببين والكحالين ومن يخدم المغلوبين على عقولهم والبوابين والخبازين وغيرهم وثمان الطعام والأدوية والأشربة.

وليس أدله على ضخامة الثروة في هذا العصر من هذا البيان الطويل الذي ذكره مسكويه[1] عن نفقات الخليفة المقتدر الذي عرف بالتبذير. ومن هذا البيان نقف على أنه «أتلف نيفاً وسبعين ألف ألف دينار، سوى ما أنفقه في موضعه وأخرجه في وجوهه. وهذا أكبر مما جمعه الرشيد وخلفه. ولم يكن في ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد: فإن القاسم بن عبيد الله قال للمعتضد وقد سأله عن مقدار ما خلفه واحد واحد من ولد العباس من المال، «إنه لم يكن فيهم من خلف أكثر مما خلفه هارون الرشيد، فإنه خلف في بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار».

ومن أهم نفقات الدولة العباسية النفقات المخصصة للحج ونفقات الغزوات لمحاربة الأعداء من القرامطة والفاطميين والبيزنطيين وغيرهم مما يبذل لفداء أسرى المسلمين. وما يصرف على سفراء الملوك والأمراء عند استقبالهم وتوديعهم وتزويدهم بالهدايا والتحف أحياناً، وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة»[2].

---

(١) تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٣٨.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ص ٢٠٢.

(ب) في مصر:

قلد الخليفة المتوكل خراج مصر أحمد بن المدبر الذي لجأ إلى القسوة في جباية الخراج، فزاد الضرائب وحجر على النطرون بعد أن كان مباحاً، وفرض على الكلأ المباح ضريبة سميت «مال المراعي»، كما قرر على ما يصاد في البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة أسماها (مال المصايد). وكان مال الضرائب ينقسم في ذلك الوقت قسمين: خراجي وهلالي.

١ ـ **فالخراجي**: ما يؤخذ على الأرض التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج.

٢ ـ **والهلالي**: ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصاد من السمك. وكان الهلالي يعرف في زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون.

وكان ابن المدبر يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة، ويتصرف فيما بقي تصرفاً لا يتفق ومصلحة البلاد، مما أدى إلى تأخرها، ونقص خراجها إلى ٨٠٠,٠٠٠ دينار، مع أنه بلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد عمرو بن العاص، و ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد خلفه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وبلغ في عهد ابن طولون ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار.

وقد تولى جباية الخراج في مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة المادرائيين الذين اتسعت سلطتهم في هذه البلاد. ومن مشهوري هذه الأسرة أبو بكر محمد بن علي المادرائي الذي قدم مصر في سنة ٢٧٢ هـ، وبقي فيها إلى أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ. فعاد معه إلى بغداد، ثم عاد إلى مصر بصحبة الجند الذين بعث بهم الخليفة العباسي المقتدر لقتال الفاطميين حين غزوا هذه البلاد بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي وأبي القاسم بن عبيد الله المهدي.

وقد ذكر المقريزي[1] أن خراج مصر بلغ في عهد الإخشيد ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار، سوى ضياعه التي كانت ملكاً له، وأن هذا الوالي كان أول من عين رواتب لمستحقي الصدقة. وبلغت هذه الرواتب في عهد كافور الإخشيد ٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، لأرباب

---

(١) خطط جـ ١ ص ٩٩.

النعم والمستورين وأجناس ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين في الأعمال».

وقد بذل كافور الإخشيد جهده في تنمية موارد الدولة، حتى زاد خراج مصر في عهده على ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة. ولم ينقش اسمه على السكة. بل اكتفى بنقش اسم الخليفة العباسي وحده.

ولما فتح الفاطميون مصر، أقر جوهر علي بن يحيى بن العرمرم على جباية الخراج، ولكنه لم يلبث أن أشرك معه رجاء بن صولاب، وحلٍ محلهما في الإشراف على جباية الخراج يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن. وجعلت جباية الخراج قسمين: أسند أحدهما إلى علي بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله، وأسند الثاني إلى الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري.

وقد ذكر المقريزي[1] أن خراج مصر بلغ في السنة الأولى من ولاية جوهر ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار بعد أن انحط كثيراً في أواخر عهد كافور الإخشيد.

ولما جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر في أواخر سنة ٣٦٢ هـ، أمر يعقوب بن كلس وعسُلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب، فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي تفرض على كل منها. فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة المالية الرشيدة التي قضت بفحص الشكايات، وبفضل ما سلكته الدولة من حزم في تنفيذ هذا النظام الجديد. وقد ذكر ابن ميسر[2] أن الضرائب التي تجمع من الفسطاط كانت تتراوح بين ٥٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم، ومن تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من ٢٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم. ويغلب على الظن أن ابن ميسر أخطأ في بيان هذه الضرائب، فذكر لفظ دنانير بدل دراهم. وقد بلغ خراج الدولة الفاطمية في عهد وزارة الحسن بن علي اليازوري ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة.

وكان النظام المالي في الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهي: الخزانة العامة، وإدارة بيت المال، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة.

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) تاريخ مصر ص ٤٦.

أما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى «خازن المال». ومقر هذه الخزانة القصر، وفيها تودع الأموال التي تجبى من المدن والقرى. ومن أهمها: أموال التركات التي يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وارثاً، والضرائب المفروضة على الأسواق، والرسوم الجمركية التي تفرض على السفن، والخراج، والجزية، والأعشار. وقد قيل إن عبدالرحمن الناصر خلف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف. ولا ندري إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدرهم. ويغلب على الظن أنه بالدراهم لأنه إذا حسب دنانير لتجاوز ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وفي هذا شيء كثير من المبالغة. وقد ذكر المقري[١] الذي عزا ذلك إلى ابن خلدون، أن الناصر «كان يقسم الجباية أثلاثاً: ثلثاً للجند، وثلثاً للبناء، وثلثاً مدخراً. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار. ومن السوق والمستخلص[٢] سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار. وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان».

وذكر ابن حوقل[٣] أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ هـ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ - ٣٦٩ هـ)[٤]:

أما ما يطلق عليه اسم بيت المال في الأندلس فكان يقتصر على ما يرد من الأحباس أو الأوقاف. وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة، ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفي المساجد، وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة، كما يقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة ومن ينوبون عنه تحت إشراف الخليفة. ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشئون الاجتماعية الآن.

وأما موارد الخليفة الخاصة، فكان يشرف عليها موظف يعرف «بصاحب الدية» كما

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٩.

(٢) الضرائب التي تجبى على التجارة.

(٣) المسالك والممالك ص ٧٧.

(٤) راجع ما ذكرناه عن عمدة الدولة أبي تغلب الغضنفر في هذا الكتاب ص ١١٨ - ١١٩.

يشرف هذا الموظف على أراضي الأمير أو الخليفة، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءاً قليلاً من المحاصيل لأنفسهم.

٥ ـ النظام القضائي

(أ) القضاء:

١ ـ في الدولة العباسية:

تطور القضاء في العصر العباسي الثاني، فتأثر بالسياسة، وأصبح الخلفاء يتدخلون في القضاء، حتى حملوا القضاة في كثير من الأحيان على السير وفق رغباتهم.

وكثيراً ما اعتذر القضاة عن قبول ذلك المنصب خشية تدخل الخلفاء في أحكامهم القضائية. فقد قيل إن أبا بكر الرازي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ اعتذر عن قبول منصب قاضي القضاة بعد أن طلب منه ذلك مراراً. وقال ابن الأثير[١] في حوادث سنة ٣٩٩ هـ. «وفيها صرف أبو عمر بن عبد الواحد الهاشمي عن قضاء البصرة، وكان قد علا إسناده في رواية السنن لأبي داود السجستاني، ومن طريقه سمعناه. وولي القضاء بعده أبو الحسن بن أبي الشوارب، فقال العصفري الشاعر:

عندي حديثٌ طريفٌ بمثلة يُتَغنَّى
من قاضِيَين يُعَزَّى هذا وهذا يُهنَّا
فذا يقول كرهنا وذا يقول استرحنا
ويكذبان ونَهْذي فمن يُصَدِّقُ منا؟»

كما ضعفت روح الاجتهاد في هذا العصر بسبب ظهور المذاهب الأربعة، وأصبح لزاماً على القاضي أن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب واختلف القضاء في الولايات باختلاف هذه المذاهب، وأصبح المذهب القضائي الشائع في العراق مذهب أبي حنيفة النعمان، وفي الشام والمغرب والأندلس كان القضاة يصدرون أحكامهم وفق مذهب الإمام مالك، وفي مصر وفق مذهب الإمام الشافعي[٢].

---

(١) جـ ٩ ص ٧٩.

(٢) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤

وإذا تنازع متخاصمان على غير المذهب السائد في بلد من البلاد، أناب القاضي عنه من القضاة من يدين بعقائد مذهب المتخاصمين. واستمرت هذه المذاهب الأربعة حتى اليوم مصدر التشريع الإسلامي، ومن ثم أطلق على العصر العباسي «عصر أئمة المذاهب»، لأنه وضعت فيه أصول الفقه الإسلامي.

وهناك مذاهب أخرى: كمذهب الزيدية في اليمن، وهم أصحاب زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي، ويقولون بضرورة توافر الاجتهاد في الأئمة، ومذهب الإمامية الاثني عشرية في فارس والعراق، ومذهب الإمامية السبعية أو الإسماعيلية الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويقولون بضرورة اجتهاد أئمتهم في الفقه، كما يستمدون مذهبهم من الكتاب والسنة وفتاوى أئمتهم. ومن المذاهب التي انقرضت: مذهب الخوارج ومذهب المرجئة، ومذهب الاعتزال، ومذهب محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠، وقد أخذ عن مذهب الإمام الشافعي، وكان يقول بالرأي، فكرهه الحنابلة.

وقد جمع الحديث النبوي في ستة مصنفات، أجمع المسلمون على أنها أصح كتب السنة وأصحابها هم، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري المتوفى سنة ٢٦١ هـ، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، وأبو عبد الله محمد بن عيسى السلمي الترمذي المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ.

على أن رغبة الناس في التقليد ظهرت بظهور أبي الحسن الأشعري وتفكيره في الرجوع إلى مذهب أهل السنة. ويجب أن لا يعرف عن أذهاننا أن مذاهب السنة الأربعة كانت مصدر التشريع في هذا العصر، وأنه لم يتقلد القضاء إلا السنيون، بدليل ما ذكره السيوطي[1] أن بهاء الدولة البويهي (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) لما قلد الشريف أبا الحسين بن موسى العلوي قضاء القضاة والحج والمظالم، لم يوافق الخليفة القادر على هذا التقليد، لأن هذا الشريف كان إمامياً اثنْيْ عشرياً.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤.

وكان القضاة في الدولة العباسية ينوبون عن قاضي القضاة[(١)] وهو أشبه بوزير العدل الآن، ويقيم في حاضرة الدولة. وكان القاضي أبو يوسف صاحب كتاب «الخراج» أول من تلقب بهذا اللقب في عهد هارون الرشيد، واستمر هذا في العصر العباسي الثاني. ويقول السيوطي إن سلطة القاضي اتسعت حتى أصبح ينظر في القضايا المدنية وفي الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء، وكثيراً ما تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال[(٢)].

وكان لكل ولاية من الولايات الإسلامية في بادىء الأمر قاض، وباتساع الدولة العباسية أصبح لكل من هذه الولايات قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وينظر كل منهم فيما يقوم من النزاع بين من يدينون بعقائد مذهبه.

وكان القاضي يجلس في أول الأمر في المسجد، ثم وجد المسلمون أن هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله، فمنع الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) القضاة من الجلوس في المساجد. وكان بعض القضاة يقضي بين الناس في داره.

وكان لقاضي قضاة بغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة. ومن أشهر موظفي هذا الديوان الكاتب ويتقاضى ٣٠٠ درهماً في الشهر، والحاجب ويتقاضى ١٥٠ درهماً، وعارض الأحكام ويتقاضى ١٠٠ درهم، وخازن ديوان الحكم وأعوانه ويتقاضون ٦٠٠ درهم[(٣)]. كما اقتضى تطور نظام القضاء في هذا العصر التحري عن الشهود، فإن كان الشاهد معروفاً بالسلامة ولم يعرف عنه ما يجرحه قبل القاضي شهادته، وإن كان غير معروف بها لم تقبل شهادته، وإن كان مجهولاً سئل عنه جيرانه، ومن ثم وجدت جماعة من الشهود عرفوا بالشهود الدائمين أو المعدلين. وكان القاضي يمتاز باستقلال الرأي، ولا يقبل الشفاعات أو الوساطات، حتى إن قاضي جيش عضد الدولة شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله، فقال له عضد الدولة هذه العبارة التي تبين لنا مدى احترام رأي القاضي وعدم تدخل أولي الأمر في أعماله: «ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم. وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي، وليس لنا ولا لك الكلام فيه».

(١) كان قاضي القضاة يسمى أيضاً «أقضى القضاة». راجع هذا الكتاب ص ٨٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

وكان القاضي يرتدي السواد شعار العباسيين «ويعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة»[١]. وكانت القلنسوة السوداء في القرن الثالث الهجري خاصة هي التي تميز القضاة وتلبس مع الطيلسان[٢].

ويحدثنا السيوطي[٣] عند كلامه عن حوادث سنة ٣٥٩ هـ عن تولية ابن أبي الشوارب منصب القضاء فيقول: «وركب بالخلع من دار معز الدولة، وبين يديه الدبادب والبوقات وفي خدمته الجيش».

وعلى أن القضاء قد تطرق إليه بعض الفساد، وأصبح من يرشحون أنفسهم لتقلد هذا المنصب الخطير يتعهدون بتقديم مبلغ معين من المال يؤدونه في كل سنة، حتى إن ابن أبي الشوارب «شرط على نفسه أن يحمل في كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتي ألف درهم، وكتب بذلك سجلاً»[٤]. ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضي وأمر بعدم دخوله عليه. ويقول ابن الأثير[٥] في ابن أبي الشوارب: «وهو أول من ضمن من القضاة، وكان ذلك أيام معز الدولة، ولم يسمع بذلك قبله، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء. ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد».

بيد أن هذا النقص لم يكن شائعاً، فإننا نجد كثيراً من القضاة ينزهون أنفسهم عن هذه العيوب، حتى إنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد، وبعد أن يشترطوا شروطاً تكفل استقلالهم وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم. ويحدثنا السيوطي[٦] أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) وجه «إلى القاضي أبي حازم كتاباً يقول فيه: إن لي على فلان مالاً، وقد بلغني أن غرماءه أثبتوا عندك، وقد قسطت لهم من ماله، فاجعلنا كأحدهم، فقال أبو حازم: قل له: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ذاكر لما قال لي وقت قلدني، إنه أخرج الأمر من عنقه وجعله في عنقي، ولا يجوز لي أن أحكم في مال رجل لمدع إلا ببينة. فرجع إليه فأخبره فقال: قل له فلان وفلان يشهدان ـ يعني رجلين جليلين، فقال: يشهدان عندي وأسأل عنهما، فإن زكيا قبلت شهادتهما، وإلا أمضيت ما قد ثبت عندي، فامتنع أولئك من الشهادة فزعاً، ولم يدفع إلى المعتضد شيئاً».

(١) الكندي: كتاب القضاة ص ٣٧٨.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٧٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦.
(٥) جـ ٨ ص ١٩٣.
(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

وكـذلك ذكـر السيوطي[1] أن الخليفـة المطيـع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ). «قلد القضاء أبـا الحسن محمد بن شيبان الهاشمي بعد تمنع، وشرط لنفسه شروطاً منها: ألا يـرتزق على القضاء، ولا يخلع عليه، ولا يشفع إليه فما يخالف الشرع، وقرر لكاتبه في كل شهر ثلثمائة درهم، ولحاجبه مائة وخمسين، وللعارض على بابه مائة، ولخازن ديـوان الحكم والأعوان ستمائة، وكتب له عهد صورته: هذا ما عهد عبد الله الفضل المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمي. حين دعاه إلى ما يتولاه من القضاء بين أهل مدينة السلام مدينة المنصور، والمدينة الشرقية من الجانب الشرقي والجانب الغربي، والكوفة وسقي الفرات وواسط وكرخي، وطريق الفرات ودجلة، وطريق خـراسان وحلوان وقـرميسين، وديار مضـر وديـار ربيعة وديـار بكـر، والمـوصـل والحـرمين واليمن ودمشق وحمص، وجنـد قنسـرين والعواصم، ومصر والإسكندرية، وجند فلسطين والأردن وأعمال ذلك كلها، وما يجري من ذلك من الإشراف على من يختاره من العباسيين بالكوفة وسقي الفرات وأعمال ذلك وما قلده إياه من قضاء القضاة، وتصفح أعمال الحكام، والاستشراف على ما يجري عليه أمر الأحكام من سائر النواحي والأمصار التي تشتمل عليه المملكة وتنتهي إليها الدعوة، وإقرار من يجد هديه وطريقه. والاستبدال بمن يذم شيمته وسجيته احتياطاً للخاصة والعامة وجنوا على الملة والذمة عن علم بأنه المقـدم في بيته وشـرفه المبـرز في عفافتـه، الزكي في دينـه وأمانتـه، الموصوف في (ورعـه) ونزاهته، المشار إليه بالعلم والحجا، المجمع عليه في العلم والنهي، البعيد من الأدناس، اللابس من التقى أجمل اللباس، التقي الحبيب المحبور بصفاء الغيب، العالم بمصالح الدنيـا، العارف بمـا يفسد سـلامة العقبى، أمره بتقوى الله، فـإنها الجنـة الواقية، وليجعل كتاب الله في كل ما يعمل فيه رويته، ويرتب عليه حكمه وقضيتـه، إمامـه الذي يفزع إليه، وعماده الذي يعتمد عليه، وأن يتخذ سنة رسول الله ﷺ مناراً يقصده ومثالاً يتبعه، وأن يراعي بالإجماع، وأن يقتدي بالأئمة الراشدين، وأن يعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع، وأن يحضر مجلسه من يستظهر بعلمه ورأيه وأن يسـوي بين الخصمين إذا تقدما إليه في لحظه ولفظه[2]، ويوفي كل منهما من إنصافه وعدله، حتى يأمن الضعيف حيفه وييأس القوي من ميله. وأمر أن يشرف على أعوانه وأصحابه ومن يعتمد عليه من أمنائه وأسبابه، إشرافاً يمنع من التخطي إلى السيرة المحظورة، ويدفع عن الإشفاق إلى المكاسب المحجورة».

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٢) المراد أن يعدل القاضي بين الخصمين حتى في النظرة واللفظة، يفضل أحدهما على الآخر.

٢ ـ في مصر:

اكتسب قضاة مصر في العصر العباسي الأول خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامي واشتهروا بالاستقامة. وكان القاضي في ذلك العصر غير قابل للعزل كغيره من موظفي الدولة. وقد بلغ من محبة الناس للقاضي أن أصبح الولاة في مصر يخشون عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور. ولا غرو فإنه لم يعد للوالي في العصر العباسي سلطة عزل القضاة بل صارت تصدر المراسيم بتعيينهم من بغداد مباشرة. وكان تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه.

ولم يكن القضاة في عهد الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ) والإخشيديين (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) تابعين لمذهب واحد، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذي ينتمي إليه، واشتهر قضاة هذا العصر بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة.

وقد نبغ في عهد الطولونيين القاضي بكار بن قتيبة، وكان من أعلم القضاة بالفقه الإسلامي.

وكان أبو الطاهر قاضي القضاة في مصر وقت الفتح الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ. وقد تولى هذا المنصب منذ شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ، فرأى جوهر الصقلي أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يثير غضب المصريين، فأقره في منصبه لغرض سياسي فحسب، وعمل في الوقت نفسه على الحد من نفوذه.

وفي سنة ٣٦٢ هـ عين المعز قاضياً آخر من الشيعة، هو علي بن أبي حنيفة النعمان المغربي، فقاسم أبا الطاهر القضاء. فكان ابن النعمان يجلس للقضاء بجامع عمرو بن العاص في الفسطاط، ويجلس أبو الطاهر بالجامع الأزهر في القاهرة. واستمرت الحال على ذلك حتى استقل علي بن النعمان بالقضاء في شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبي الطاهر لشيخوخته وضعفه كما قيل. وقرىء على منبر جامع عمرو وسجل تقليد علي بن النعمان منصب القضاء في عهد الخليفة العزيز. وظل أولاد النعمان يتقلدون القضاء حتى سنة ٣٩٨ هـ، فتقلد الحسين بن علي بن النعمان هذا المنصب في مصر وما كان يتبعها من الأعمال في شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ، وأسندت مقاليد الدعوة الفاطمية إلى قاضي القضاة للمرة الأولى: فغدا يطلق عليه قاضي القضاة وداعي الدعاة».

على أن بعض السنيين كانوا يتقلدون القضاء أحياناً، إذ أن الفاطميين لم يسيروا دائماً

على قاعدة إسناد القضاء للمتشيعين خاصة. فقد أسند الحاكم القضاء لرجل من أهل السنة، وهو أبو العباس بن العوام الحنبلي المذهب، الذي بقي في منصبه حتى مات في عهد الخليفة الظاهر. وقد تقلد ابن العوام وخلع عليه «وأضيف إليه في الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان، ما عدا فلسطين، فإن الحاكم كان ولاها أبا طالب ابن بنت الزيدي الحسيني، وجعل لأبي العباس النظر في المعيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع».

٣ ـ في الأندلس:

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس كما كان في غيرها من البلاد الإسلامية، وكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء لتعلق هذه الوظيفة بالدين[1]. وكان قاضي القضاة يسمى «قاضي الجماعة» لأنه يكون في حاضرة الدولة. ويشترط في القاضي أن يكون متعمقاً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة، ولا يشترط فيه أن يكون عربياً خالصاً. وطالما تقلد هذا المنصب الموالي والمولدون والبربر. وأحسن مثل لذلك يحيى بن يحيى الليثي وكان من أصل بربري. ويختار القاضي غالباً من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق في القضاء، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة[2].

وكان قاضي الجماعة يقيم بقرطبة حاضرة الدولة الأموية في الأندلس ويعين من قبل الأمير أو الخليفة، وينوب عنه في الأقاليم قضاة يسمى كل منهم «مسدد خاصة».

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع في الأندلس، ويسير القضاة في المغرب والأندلس حتى اليوم على وفق مذهب الإمام مالك، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة.

وقد سار الأمويون في الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضاتهم قيادة الجيوش نيابة عنهم. وكانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف. وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وكذلك منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر.

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه.

ومن اختصاصات القاضي الإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية[١]، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء، والدعاء في صلاة الاستسقاء[٢]. وكان قاضي القضاة يسمى «صاحب الصلاة» حتى أفرد عبد الرحمن الناصر شخصاً للصلاة وشخصاً آخر للقضاء. وكان قضاة الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة ويناقشون المتقاضين بها في مجالس الحكم[٣].

(ب) المظالم:

كان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر، ويسمى رئيس هذا الديوان «صاحب المظالم»، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي. يقول ابن خلدون[٤] عن المظالم: «وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه. ويكون نظره في البينات (الحجج) والتقرير[٥] واعتماد الأمارات والقرائن[٦] وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي».

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما. ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم، نظر فيها طوال أيام الأسبوع. وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد.

---

(١) أنشىء هذا السجل في سنة ٢٩١، وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه، وجعل من هذه القضايا سجلاً علماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٢) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً: ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة»، واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصاً معيناً، ولقضاة القضاة شخصاً آخر.

(٣) الخشني: كتاب القضاة بقرطبة (مدريد١٩٤٤) ص ٩٦، ١٣٨.

(٤) مقدمة ص ١٩٣.

(٥) التقرير استقصاء البحث من الخصوم في المسائل حتى يقروا بما يوضح وجهة نظر القاضي.

(٦) يعني الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التي يتبينها القاضي من حال الخصمين عند فقد الأدلة أو الشهود.

وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر في المظالم. فقد ذكر المسعودي[١] أن الخليفة المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) بنى قبة لها أربعة أبواب وسماها «قبة المظالم»، كان يجلس فيها للعام والخاص. ويقول المسعودي[٢] في مكان آخر: «وذكر صالح بن علي الهاشمي قال: حضرت يوماً من الأيام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته».

وقد تطور نظام النظر في المظالم، فأصبح الوزراء يجلسون للنظر فيها، ويجلس أكثر الكتّاب في مجالسهم، بل تعدى الأمر إلى جلوس بعض النساء للنظر في المظالم. فقد تمتعت «السيدة» أم الخليفة المقتدر بنفوذ كبير، واتسعت سلطاتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها «ثومال» صاحبة للمظالم في سنة ٣٠٦ هـ، فكانت تجلس في مكان بنته «السيدة» في الرصافة «وتنظر في رقاع الناس كل جمعة. فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان، وتبرز التواقيع وعليها خطها»[٣].

ولم تكن محكمة المظالم تَنظر في قضايا الأفراد وحدها، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعب عامة.

وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي في أحكامه. وقد بين الماوردي[٤] الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء. ومن أهم هذه الفروق أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة، يكف الخصوم عن التجاحد[٥]، ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة المحق من المبطل، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا[٦] إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض[٧]. وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم. ومن عادة القضاء تكليف المدعي أن يحضر بينة، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله.

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣١.
(٢) المسعودي جـ ٢ ص ٤٣٦.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.
(٤) الأحكام السلطانية ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٥) المبالغة في إنكار الحق من كلا الخصمين.
(٦) استعصى التوفيق بينهم.
(٧) يعني أن القاضي إذا لم يتبين رجاحة حجج أحد الخصمين وأشكل الأمر عليه أحال الخصمين على لجنة من ديوان المظالم أو نحوها للتوفيق بينهما صلحاً.

(جـ) الحسبة :

كانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم. فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحياناً مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب. وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، مع ما بين العملين من التباين. فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل[1].

وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بعمل المحتسب بنفسه[2]، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد أجمل ابن خلدون[3] أعمال المحتسب في هذه العبارة فقال:

«ويبحث عن المنكرات، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين[4]. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[5]، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكايل والموازين.

---

(١) راجع الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦١ ـ ٧٢.

(٢) روى ابن تيمية «الحسبة في الإسلام» (القاهرة ١٣٥٩، ص ٣٣) أن عمر بن الخطاب عين عبد الملك بن عتبة عاملاً على السوق، وأن عمر منع الشعراء من التشبيب بالنساء (الأغاني جـ ٤ ص ٣٥٦) وكان يؤدب من تعرض لهن بعشرين سوطاً، ومنع أن يجتمع الصبيان بمن يتهم بالفاحشة (ابن تيمية، المصدر نفسه ص ٩٣).

(٣) مقدمة ص ١٩٦.

(٤) لم يقتصر زجر المحتسب هنا على المعلمين إذا ضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً، بل كان له أن يزجر العالم إذا خالف ما أجمع عليه الفقهاء في تفسير القرآن أو انفرد برواية حديث ينطوي على الابتداع بقصد افساد العقول، فإذا لم يكف عن ذلك فله أن ينكر عليه ويحول دون تكرار ما حدث إذا ما أجمع علماء هذا العصر على إفكاره وابتداعه (الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٠).

(٥) أي طلب رد عدوان الغير.

وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم. وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء. وقد كان في كثير من الدول الإسلامية مثال العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولى فيها باختياره».

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين، وكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع. ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة، ويمنعون معلمي الكتاتيب من ضرب الصغار ضرباً مبرحاً. وكذلك كان المحتسب يجلس للفصل بين الخصوم في جامعي عمرو والأزهر واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة بتنفيذ أحكامه، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً[١].

أما في الأندلس فكان يتولى الحسبة في كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق. وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة، ويختار من بين القضاة، لأن عمله مرتبط بالقضاء. وقد حدد المقري[٢] سلطة المحتسب في الأندلس، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأواً بعيداً من الدقة، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة، وإن الإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً، وإن المحتسبين كان «لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما نتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع البياعات»[٣].

كما كانت الحسبة تقوم على ما تقضي به الضرورة في المعاملات هناك، بحيث يمكن أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والأندلس قد استمر طوال العصور الوسطى. وأحسن دليل على أهمية الحسبة أن ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليماً ـ أقروا المحتسب في عمله وأصبحوا يُطلقون عليه Almotacen، وهو الوالي الذي

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.
(٣) ورد في الأصل المبتاعات، ولعلها محرفة عما أثبتناه.

يعهد إليه بالإشراف على الموازين والمكاييل، أما في المغرب فليس أدل على أهمية الحسبة من استمرارها في المدن المغربية حتى اليوم[١].

رواتب القضاة:

كان القضاء من أهم مناصب الدولة في هذا العصر، ولذلك رفع العباسيون رواتب القضاة حتى لا يتطلعوا إلى الرشوة التي يجب أن يتنزه عنها القاضي. فلما تولى قضاء مصر عبد الله بن طاهر، قلد عيسى بن المنكدر القضاء في سنة ٢١٢ هـ وأجرى عليه سبعة دنانير في كل يوم. وفي عهد أحمد بن طولون كان القاضي بكار بن قتيبة يتقاضى ألف دينار في الشهر. وذكر القلقشندي[٢] أن راتب قاضي القضاة بلغ مائة دينار في الشهر عدا المخصصات الأخرى. وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق، فأمر بأن يضاعف رزق الحسين بن علي بن النعمان وصلاته وإقطاعاته، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية.

وقد تقلد علي بن المحسن التنوخي المتوفى سنة ٤٤٧ هـ القضاء في عدة نواح، وبلغ دخله من القضاء ودار الضرب التي كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً في الشهر، مما يدلنا على أن راتب القاضي أخذ في العصر العباسي الثاني يقل شيئاً فشيئاً، حتى لقد اشترط على بعض القضاة أحياناً أن لا يأخذوا راتباً عن قيامهم بأعمال هذا المنصب.

وبعد أن كان الالتزام مقصوراً على الخراج، بمعنى أن تعهد الدولة إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغاً معيناً، تعدى هذا النظام إلى القضاء فأصبح القاضي يلتزم القضاء على أن يؤدي لبيت المال مبلغاً من المال مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠,٠٠٠ درهم في السنة عن قضاء بغداد[٣].

---

(١) Provencal, L'Espagne musulmane, tome III, pp. 148 - 150.

(٢) صبح الأعشي جـ ٣ ص ٥٢٦.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٦.

الباب الثامن

الحالة الاقتصادية

١ ـ الزراعة

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب[١] أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين، فتوسعوا في البحث النظري، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات.

ولما كانت الزراعة تعتمد على الري، عني العباسيون بتنظيم أساليبه، وجعل الماء مباحاً للجميع. ولذلك عملوا على تنظيمه في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي فارس وبلاد ما وراء النهر. وبلغ هذا النظام شأواً بعيداً من الدقة، حتى إن الأوربيين أدخلوا كثيراً من هذه النظم في بلادهم. وقد عنيت الدولة العباسية بصيانة السدود والترع، وجعلوا عليها جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين، ومهمتهم المحافظة على هذه السدود خشية انبثاق الماء منها، إذ يكفيه (عمران الخارج على بختيار بن معز الدولة)، «إيقاع ثلمة يسيرة في أحد نواحي السد ثم يحمل الماء فيتولى كفايته[٢] في الهدم والتخريب. فربما أفسد في ساعة أو نهار تعب سنة أو نحوها. وذلك أن هذه السدود تكون من قصب وتراب يقام في وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها. فإذا وردت المياه القوية، ومنعت من حدودها[٣]، كفي معها[٤] اليسير من المعونة[٥] حتى تنبعث ويدفع بعضها بعضاً.

(١) الطبعة السابعة ص ٣٠٥.

(٢) أن يبلغ مداه.

(٣) أي من أنصابها وجريها.

(٤) في الأصل منها ولعلها تحريف عما أثبتناه.

(٥) يعني المعاونة في فتح ثلمة يسيرة يندفع منها الماء.

وربما كان سبب انبثاق ثقب الماء فأرة، يوسعه الماء وينتهي فيه إلى حيث لا حيلة في سده»(١).

وقد جعل العباسيون لماء الري بمرو ديواناً أطلقوا عليه «ديوان الماء»(٢)، ويشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل، وتودع في سجلاته مقادير خراج الأراضي على حسب نوع ريها. فيؤخذ العشر «إذا كان يسقي سيحاً أي تسقيه السماء وإن كان يسقي بغرب(٣) أو دالية أو سانية، ففيه نصف العشر(٤)، كما كانوا يعنون بإقامة مقاييس على الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه للاستئناس بذلك في فرض الضرائب.

وكذلك كان العباسيون يعنون بحراثة الأرض ويستخدمون لذلك الأبقار، وقد بلغ عدة أبقار الحرث في أدربيل ثمانية لكل محراث، ولكل اثنتين منها قائد. كما كانوا يعنون بتسميد الأرض والمحافظة على ثمارها، حتى جعلوا كثيراً من الأطفال لنظارتها أي حراستها وطرد الطيور عنها. وعنوا كذلك بتربية الحيوانات، وخاصة البقر، ثم بتربية الجاموس الذي جلبوه من الهند بعد أن كثرت البطائح والمستنقعات في القرن الرابع الهجري. ثم انتشر استعماله في سائر البلاد الإسلامية. وكانوا يربون البقر لاستعمال ألبانه، ويعتقدون أن لحمه يضر بالصحة، ويفضلون عليه لحم الجاموس. وكانت مصر تجلب كثيراً من حيوانات الذبح من برقة التي تكثر فيها المراعي، ولا تزال كذلك حتى اليوم. واشتهرت جزيرة العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد، كما اشتهرت بلخ بالجمال ذات السنامين التي تسمى البخاتي. وكانت الخيل تجلب من بلاد العرب، وخاصة إقليم الحسا، إلى بغداد، كما اشتهرت نجد وفارس بتربية الخيل ومصر بتفريخ الدجاج وتربيته وحفظ الحمام في أبراج لوقايته من الأفاعي(٥).

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٤٥.
(٣) الغرب هو الدلو العظيمة يستقي بها على السانية، والسانية البعير يسنى عليه أي يستقي من البئر.
(٤) أبو يوسف كتاب الخراج ص ٦٣.
(٥) آدم متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٩٤.

ومن الطريف أن بعض البلاد كان يعنى بتربية الكلاب وذبحها، فكان القرامطة يربون الكلاب ويسمنونها ثم يذبحونها ويأكلونها(١).

ومن أشهر الحاصلات الزراعية الحنطة، وتزرع في البلاد الكثيرة المياه كالعراق وخوزستان ومصر، والذرة وتكثر في جنوب البلاد الإسلامية كجنوبي بلاد العرب وكرمان والنوبة، والأرز وتكثر زراعته في خوزستان ومازندران. والقلقاس في فلسطين ومصر وآسيا الصغرى، وتكثر زراعة الكروم في العراق واليمن ومصر وبلخ والشام (٢).

ومن الحاصلات الزراعية أيضاً النارنج والأترج الذي يقول المسعودي(٣) إنه حمل من أرض الهند بعد الثلثمائة «للهجرة»، فزرع بعمان، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية، وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر، وما كان يعهد ولا يعرف، فعدمت منه الروائح الخمرية الطيبة واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند، لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد». واشتهرت مصر بزراعة الليمون، «وكان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له التفاحي يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه»(٤). كما اشتهرت مصر بزراعة البطيخ الذي كانت له سوق نافقة، واشتهر فيها نوع من البطيخ يقال له العبدلاوي نسبة إلى عبد الله بن طاهر الذي حكم مصر في عهد الخليفة المأمون العباسي، وهو الذي جلبه من خراسان إليها عند قدومه. وكان تفاح الشام مضرب المثل في الجودة، كما كانت العراق، وخاصة البصرة وكرمان وشمالي إفريقية، تنتج مقادير كبيرة من التمر الذي كان يجفف ويرسل إلى البلاد الأخرى. واشتهرت بلاد الشام وشمالي إفريقية بزراعة الزيتون، واشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت المستخرج منه(٥). وكثرت زراعة قصب السكر في كثير من البلاد الإسلامية، وخاصة في بعض بلاد الأفغان وفي بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والأندلس، ويزرع في بلاد الهند القرنفل والفلفل والصندل والدار صيني وأشجار التوت لتربية دود القز. ويزرع في

---

(١) Nasir - Khusran: Safar Namèh, pp. 22 - 28.

(٢) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة ص ٣٩.

(٣) المقريزي: خطط جـ ١ ص ١٧٣.

(٤) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٩٣.

(٥) راجع الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٦ ـ ٣٢.

أصبهان السفرجل والكمثري والتفاح[١]. ومن أشهر محاصيل مصر في عهد الفاطميين خاصة القمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه.

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة: كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت، ولكن زراعة التوابل لم يقدر لها النجاح، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت في بعض جهات الأندلس وصقلية[٢].

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة، وبزراعة الفواكه كالبرتقال والكمثري والتفاح والتين والعنب والرمان، والخوخ الذي كانت تكثر زراعته في السهول، والموز وتكثر زراعته في وديان البحر الأبيض المتوسط، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون. واهتم أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس، والتوت لتربية دود القز. وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنهر تاجه والوادي الكبير والوادي اليانع وإبرو، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول، واستخدموا هذه المياه في الزراعة التي أحرزوا قصب السبق فيها. ووضع الأمويون تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي. أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها. وأخذه عنهم غيرهم من الأمم.

٢ ـ الصناعة

كان للصناعة في العصر العباسي الثاني حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة على اختلافها. ومن الصناعات التي ازدهرت في هذا العصر صناعة النسيج: فقد اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته في الفيوم. ومن أشهر مراكز هذه الصناعة في القرن الرابع الهجري إقليم الفيوم ونواحي بحيرة تنيس، وخاصة مدن دمياط وشطا ودبيق التي تنسب إليها الثياب الدبيقية. وتنيس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين ٢٠,٠٠٠، ٣٠,٠٠٠ دينار سنوياً.

---

(١) Heyd: Histoire de Commerce, tome I, p.50.

وفي دبيق كانت تصنع الثياب المثقلة والدبيقي المعلم المذهب والعمائم التي يبلغ طول كل عمامة منها مائة ذراع، وفيها رقمات منسوجة بالذهب، وقد بلغت قيمة العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل[١].

واشتهرت مدينة كازرون بفارس بصناعة النسيج حتى سميت دمياط الأعاجم، كما كان لصناعة القطن في شرق البلاد الإسلامية مركز ممتاز في صناعة الكتان، حتى قال الثعالبي إن القطن لخراسان والكتان لمصر. وانتقلت زراعة القطن وصناعته من الهند إلى خراسان وفارس أولاً، ثم انتقلت بعد ذلك بزمن طويل إلى الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية. واشتهرت مدينة كابل في هذا العصر بنسيج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين، كما اشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته. وأدخل الحمدانيون هذه الزراعة في بلاد بين النهرين في المغرب والأندلس. ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور حيث رخصت أسعاره عن أسعار نسيج الكتان، حتى إن إسماعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ) منح كل قائد من قواده ثوباً من الكتان هدية قيمة[٢].

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة، فقد بلغ نظام الطراز[٣] مبلغاً كبيراً من الرقي، كما ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية. وتتبين لنا مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات، من وصف الكسوة (بضم الكاف وكسرها) التي أمر الخليفة الفاطمي المعز بعملها للكعبة[٤].

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٢٢٦.
ذكر ناصر خسرو Safar Nameh, 139 عند كلامه على الاحتفال بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر الفاطمي أن ثوب الخليفة كان من صنع دبيق، وأن قيمته ألف دينار. كما ذكر أيضاً أن عمامة صاحب المظلة الذي كان يسير إلى جانب الخليفة ويحمل له المظلة كانت مزينة بالأحجار الكريمة، وأن ثوبه من جنس ثوب الخليفة.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٣) فارسي الأصل معناه التطريز، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشي. ولا يرتدي هذا النوع من الثياب إلا الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية. وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة، أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط، وعلى النقوش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أي نوع، سواء أكان من الحجارة أم الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار، أو كان محفوراً بالخشب.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٤.

وقد بنى المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم، وعني خلفاؤه بصناعة النسيج حيث كانوا يصنعون مقادير وافرة منها لهم ولرجال بلاطهم.

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر. من ذلك الثياب العتّابية المصنوعة من الحرير، وتنسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد[(١)]، والخسرواني (أو الخسرواني بفتح الراء)، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس[(٢)]، والقلموني، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس. وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى حيث أصبح يصنع في دمياط وتنيس خاصة[(٣)]، والتستري، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر[(٤)] أشهر مدن خوزستان، والقرقُبي وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان ثم أدخلت صناعته إلى مصر، وأصبح يصنع في دمياط وتنيس. واشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تتغير دائماً لا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس[(٥)]، والنصفية وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن.

وقد ذكر المقريزي[(٦)] أن الخليفة المعز الفاطمي أمر في سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق التستري والقوقوبي المنسوج بالذهب، كان مبيناً عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة[(٧)]. كما ذكر المقريزي[(٨)] أن الخليفة المستنصر ترك فيما تركه من الكنوز خمسين ألف مقطع من الحرير الخسرواني كان أكثره مذهباً، كما ترك حشية قلمونية بيعت بألفين وأربعمائة دينار[(٩)].

---

(١) كتاب عتاب ابن حفيد عميرة وإليه ينسب هذا الحي الذي اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب أنظر Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabs.

(٢) Lane: Arabic - English Lexicon.

(٣) ياقوت. معجم البلدان Dozy, Supplément.

(٤) وهي معربة عن ششتر.

(٥) القرقب طائر يرى في الغدر والمستنقعات. أنظر معجم البلدان لياقوت.

(٦) خطط جـ ١ ص ٤١٧.

(٧) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢٢.

(٨) خطط جـ ١ ص ١٦.

(٩) أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

وقد اشتهرت مرو بإقليم خراسان بصناعة الإبريسم، وتفوق أهل أرمينية في صناعة التكك الإبريسمية التي كان ثمن الواحدة منها يتراوح بين دينار وعشرة دنانير.

واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية. وكان للبسط الفارسية التي تصنع في أصبهان خاصة(١) المكانة الأولى منذ عهد بعيد... كما اشتهرت صناعة البسط الأرمينية في القرن الرابع الهجري، ومنها انتشرت هذه الصناعة في آسيا الصغرى، حيث أصبح للبسط الأزميرية مكانة ممتازة في أوربا، كما اشتهرت غرناطة بهذه الصناعة وكادت تبذ مدن المشرق في ذلك(٢).

ومما ذكره الجاحظ نرى أن «خير الأكسية من الصوف، المصرية ثم الخوزية (نسبة إلى خوزستان) الفارسية». واشتهرت سابور والكوفة وجور جنوبي فارس بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والنرجس والوسن والزمبق والنارنج. واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس(٣).

وقد راجت صناعة الورق في العصر العباسي الثاني؛ وكان ورق البردي الذي اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني، ثم حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري، واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر. وانتشرت صناعة الورق في دمشق وطبرية وطرابلس والشام (وحافظت سمرقند على شهرتها في هذه الصناعة). وقد قال ابن الفقيه الهمذاني عن شهرة فارس في صناعة الحديد وغيره: لقد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحديد وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا، فهم أحذق الأمة بالجوامع والأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن، ولهم الثياب الجبائية والسلينيزية، ولهم الماورد الجوري، والطين السيرافي والأكسية الفسوية، والأدهان السابورية والثياب الكازرونية(٤).

(١) الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ٢٢.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ٩٥.

(٣) ابن حوقل. المسالك والممالك ص ٣١٣.

(٤) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة، ملحق ص ٤١. انظر أيضاً «باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري والأحجار وغير ذلك» (ص ٢٥ - ٣٤).

واشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة، وعلى الأخص الذهب من المناجم الواقعة على نهر تاجه، والفضة ببعض جهات قرطبة، والحديد من جبال طليطلة، والرصاص من غربي قرطبة، والنحاس بنواحي طليطلة وشمالي الأندلس. وقال المقري إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والخمري والأحمر والمجزع. وقد وصفها وصفاً شائقاً وذكر أماكنها. وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الجلود، كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع. وكذلك اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون والنبيذ من الكروم. كما مهر أهل هذه البلاد في استخراج العقاقير من النباتات المختلفة التي أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد[1].

٣ ـ التجارة

(أ) طرق التجارة:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن عناية خلفاء العصر العباسي الأول لم تقتصر على الزراعة والصناعة، بل إنهم اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة: فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل، وأنشئوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار. وكان لذلك أكبر الأثر في نشاط التجارة الخارجية والداخلية، فأصبحت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب البلاد وتمخر عباب البحار، واحتلت تجارة المسلمين في العصر العباسي الثاني المكانة الأولى في التجارة العالمية. وكانت الإسكندرية وبغداد مقياساً لأسعار البضائع العالمية في ذلك الحين. ومن أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب.

أولاً: من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر، ويقوم به غالباً اليهود الذين كانوا من أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق. وكان لهم بمدينة أصبهان حي يسمى اليهودية. كما كان معظم تجار مدينة تستر بخوزستان من اليهود الذين كانوا يشرفون أيضاً على تجارة اللؤلؤ الذي يستخرج من خليج فارس[2]. وكان هؤلاء التجار يفدون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويسميهم المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية نسبة إلى

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٥٦. متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٢٣.

نهر الرون: ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلية، ويجلبون من الغرب الجواري والغلمان والديباج وجلود الخز[١] والفراء والسمور والسيوف. ويبدءون رحلاتهم التجارية من بروفانس التي يسميها العرب «فرنجة». وترسو سفنهم إما عند الفرما - وكانت تعد من أهم الموانىء التجارية في ذلك الحين - ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم، وهي مدينة السويس الحالية[٢]، أو إلى الإسكندرية التي كانت ملتقى التجارة العالمية، ومنها تنقل إلى الفسطاط أو إلى القاهرة عن طريق النيل. ويقول «هيد»[٣] إن شهرة بغداد طغت على الإسكندرية حيناً من الدهر. إلا أن هذه المدينة ازدهرت من جديد منذ أيام الطولونيين. وكانت هذه السلع تنقل من الفسطاط براً على الدواب إلى القلزم، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة حتى تصل السفن إلى الهند والصين. ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدارصيني فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية، ومنها إلى بروفانس. وأحياناً يقصد بعضهم القسطنطينية[٤].

ثانياً: ومن أوربا إلى المشرق عن طريق أنطاكية، ويبدأ تجار اليهود الراذانية من بروفانس بحراً إلى أنطاكية، ومنها ينقلون السلع على الدواب إلى الفرات إلى أن يبلغوا بغداد عن طريق هذا النهر وجداوله، ثم يركبون في دجلة إلى الأبلة[٥] ثم إلى عمان والهند والصين.

ثالثاً: من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين، ثم إلى مرو فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين. ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعمل. وكان المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة ويأخذون منهم الجزية باعتبارهم مسيحيين[٦].

---

(١) الخز اسم دابة ثم أطلق على الثوب المأخوذ من وبرها؛ والخز الذكر من الأرانب.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤.

(٣) Heyd, Histoire de Commerce, tome II, p.41.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤.

(٥) بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج العربي - أنظر معجم البلدان لياقوت.

(٦) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٥٤.

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل الفلجا الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجري، وجهود السامانيين الذي عملوا على إقرار الأمن في خراسان وبلاد ما وراء النهر، حتى إن قوافل التجار كانت تسير في أمن ودعة. أضف إلى ذلك زواج ولد نصر بن أحمد الساماني من ابنة ملك الصين وما كان لذلك من أثر في رواج التجارة بين الصين وبلاد السامانيين[١].

وينبغي ألا ننسى فتوح محمود الغزنوي (٣٨٨ ـ ٤٢٢ هـ) في بلاد الهند وما كان لها من أثر في رواج التجارة. ويرجع معظم النقود الإسلامية التي اكتشفت في شمالي أوربا إلى القرن الرابع الهجري، وكان أكثرها من نقود السامانيين. ولا غرو فقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمالي أوربا وبلاد الشرق.

رابعاً: الطريق البري من أوربا إلى المشرق، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق، مجتازاً بلاد المغرب الأقصى والأوسط والأدنى عن طريق إفريقية (تونس) حتى يصل إلى مصر، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق، ثم يتجه إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز، ثم إلى كرمان والهند والصين[٢].

وكان لهذه الطرق التجارية ورواج التجارة فضل كبير في انتشار الجاليات الإسلامية في البلاد الممتدة إلى الصين وكوريا. فنرى في بلاد الخزر والصين وكوريا وغيرها جاليات إسلامية كبيرة لا تقبل غير حكم المسلمين[٣].

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند، وأن جماعة من أمراء ملبار اعتنقوا الإسلام وسمحوا للعرب بإقامة المساجد في هذه البلاد. وفي الوقت الذي أنشأ فيه العرب جاليات عربية على سواحل الهند وفي بعض مدنها، كانت جيوشهم قد جاوزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) واستولت على بلاد السند. وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت

---

(١) أنظر لفظ الصين في معجم البلدان لياقوت.

(٢) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٥٤.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

في الملتان والديبل. وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد في ذهابها إلى بلاد الهند والصين، وفي عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد[١].

(ب) أشهر مراكز التجارة:

كان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر وعلى المغرب ثم على الأندلس وصقلية أثر كبير في رواج التجارة. ومن ثم أصبح العرب وسطاء لنقل التجارة بين الشرق والغرب، وأصبح بعض المدن الساحلية على هذا البحر ذا أهمية خاصة للتجارة. فقد رأينا أهمية أنطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم حتى أصبحت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية[٢]، كما أصبحت أداة الاتصال بين الشرق والغرب. وغدت الفرما والإسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب حيث تنقل منهما التجارة الآتية من أوربا إلى البحر الأحمر، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوربا. وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة التي كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية في القرن الرابع الهجري، ومن طرابلس نرى سلسلة من المواني التجارية الهامة تمتد حتى المغرب الأقصى. وكانت المهدية التي أنشأها الخليفة الفاطمي المهدي أكثر هذه المواني عمراناً وازدهاراً لقربها من مدينة القيروان، حتى كانت السفن تفد إليها تباعاً من مصر وسورية محملة ببضائع آسيا[٣]. كما قامت علاقات تجارية بين الأندلس وغيرها من البلاد الشرقية حاملة منتجات هذه البلاد.

وكانت أيلة والقلزم وجدة من أهم المواني التجارية على البحر الأحمر. ولا غرو فقد كانت أيلة والقلزم المنفذين الرئيسيين في شمالي البحر الأحمر، وعن طريقهما تنقل السلع من الغرب إلى الشرق وبالعكس. وترجع أهمية جدة إلى أنها محطة الحجاج المسلمين الذين كانوا يفدون إليها عن طريق أيلة والقلزم أو عن طريق عيذاب. كذلك اشتهرت عدن بالتجارة، لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوباً، حتى إن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب ترسو عليها. كذلك كانت البصرة من أهم مراكز التجارة، لأنها «تعد باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من

(١) Heyd, tome Ipp. 32 - 33 Arnold, the Preaching of Islam, d. 363 et seq.

(٢) Heyd, tome I. pp.43 - 44.

(٣) Ibid. p.49.

أطراف الدنيا . . . ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى»[١]. وأصبحت بغداد مركز التجارة في العالم الإسلامي حتى كانت هي والإسكندرية ـ كما رأينا ـ يتنافسان الزعامة التجارية ويقرران أسعار السلع في ذلك الحين. وزاد من أهمية بغداد التجارية أنها كانت حاضرة العالم الإسلامي في ذلك العصر وملتقى كثير من الطرق التجارية. وترجع شهرة دمشق باعتبارها مركزاً من أهم المراكز التجارية إلى وقوعها على طريق قوافل الحجاج الرئيسي، حتى إن الحجاج كانوا يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج، وعند عودتهم إليها بعد أداء فريضة، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها[٢]. وكان كثير من حجاج المسلمين يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة، فيتقابلون مع المسيحيين وبذلك أصبحت هذه المدينة سوقاً نافقة للتجارة بين الشرق والغرب.

وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة. ومن المدن التي اشتهرت بأسواقها: أصبهان، التي يحدثنا ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرافين مائتا صراف يجلسون في سوق عرفت بسوق الصرافين[٣]، والبصرة التي يقول فيها ابن الفقيه: «أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري. ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى[٤]، فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حميرياً»[٥].

وكانت التجارة تعتمد على إقامة الأسواق، وتقيم كل طائفة من التجار في قسم من أقسام هذه الأسواق، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا في المساء. أما أسواق المدن فكانت تقام في أيام معينة من الأسبوع. وكانت الحوانيت في مصر والشام وفلسطين تمتد على طول الشارع من الجانبين، وخصصت فنادق للتجار الغرباء كانت أشبه بالأسواق الكبيرة. «وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية. ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن الفنادق أو القياصر[٦]. وهناك خانات أو مخازن كبرى، كدار البطيخ بالبصرة، حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[٧]. وأما في بلاد المشرق فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد.

(١) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة مقدمة ص ٣.
(٢) Heyd, tome I, p.42.
(٣) Safar Nameh, p. 253
(٤) يقصد أقصى حدود المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً.
(٥) ابن الفقيه: كتاب البلدان ص ٥١.
(٦) من الكلمة اليونانية paodokeion.
(٧) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٢٧.

ولنأت بمثل عن أسواق المغرب الإسلامي فنذكر أسواق مدينة فاس التي كانت تحيط بجامع القرويين، منها: سوق العدول. وكانت محلاتهم ملاصقة لسوق الجامع وبعضها الآخر يقابل هذا السوق. وبجانب الجامع كثير من المكتبات وفي غربيه دكاكين الأحذية وفي شرقيه سوق النحاسين. وفي مقابل الباب الرئيسي للجامع من ناحية سوق الغرب سوق الفاكهة، ويليه سوق الشماعين فسوق الزهور فسوق الألبان، وإلى الشمال سوق الشراطين الذين يبيعون الحبال الغليظة والرفيعة، فسوق المناطق الجلدية والأحزمة واللجم، فسوق الفخار وسوق المحافظ والحقائب المصنوعة من الجلد الفاخر. ويلي هذا السوق سوق الأمناء أو النقباء، والمحتسب وأعوانه ومحلات الخضر والفواكه والأسماك واللحوم المطبوخة والمشوية والفطائر. وكانت مدينة فاس وغيرها من المدن المغربية ـ ولا تزال ـ تزخر بأسواق الزياتين حيث يباع الزيت والزبد الطازج والزيتون والليمون، وبأسواق الدجاج والصابون والدقيق والدلاء الجلدية وسروج الخيل والرماح والمنسوجات الحريرية وأدوات الزينة والأغطية الصوفية والثياب وغيرها[١].

وكانت العملة المستعملة في الأسواق، العملة الذهبية وهي الدينار، والفضية وهي الدرهم. وكان الدينار شائعاً في البلاد الغربية للدولة الإسلامية، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها. أما الدرهم فكان استعماله شائعاً في العراق وفارس. إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق. ومع ذاك ظل سائر البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدراهم. وكان الدينار يساوي أربعة عشر درهماً في ذلك العصر. ولكن الدينار كان يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد، فتارة يساوي ١٠ دراهم وتارة ١٣ درهماً وتارة أخرى ١٥ درهماً. ومن وسائل التعامل الصك، وهو أشبه بالشيك الآن، والمقايضة، وقد حرم الإسلام التعامل بالربا، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان[٢].

---

(١) Léon L'Africain, Description de L'Afrique, tome I, pp. 193 - 199.

(٢) متز جـ ٢ ص ٣١٦ ـ ٣٢١، ٣٢٨ ـ ٣٣٠.

الباب التاسع

الثقافة

مراكز الثقافة:

انتشرت الثقافة الإسلامية في هذا العصر انتشاراً يدعو إلى الإعجاب، بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية، إلى العربية، ونضج ملكات المسلمين أنفسهم في البحث والتأليف، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ورجال العلم والأدب، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامي بارتحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. ولا غرو فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية، وراجت الثقافة، وزخر بلاط هذه الدولة بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم: ومن ثم نرى صدى هذه النهضة المباركة في بلاط كل من السامانيين والغزنونيين والبويهيين والحمدانيين في الشرق، وفي بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر، وفي بلاط الأمويين في الأندلس.

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية. وخير مثل لذلك ما نشاهده من الآثار التي خلفها المعتزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم. وكان للجدل والنقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية، وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر، وخاصة في القرن الرابع الهجري، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن. ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار الدول نتيجة لذلك.

يقول ابن خلدون[١] في الفصل الذي تكلم فيه على «أن العلوم إنما تكثر بحيث يكثر العمران وتعظم الحضارة». «إن تعليم العلم من جملة الصنائع... وإن الصنائع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت (زادت) أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع. ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي، لفقدان الصنايع في أهل البدو كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها. واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في إصلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا (زادوا) على المتقدمين وفاقوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها وابذعرّ (تفرق) سكانها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام».

كانت هناك في هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها:

١ ـ أصبهان أو الري حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبي الفتح بن العميد. وكان بلاط بني بويه هناك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب.

٢ ـ البلاط الساماني في بخارى التي وصفها الثعالبي[٢] في هذه العبارة فقال:

«كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر، حدثني أبو جعفر محمد بن موسى الموسوي قال: اتخذ والدي أبو الحسن دعوة ببخارى في أيام الأمير السعيد (نصر الثاني بن أحمد ٣٠١ ـ ٣٣٠ هـ)، جمع فيها أفاضل غربائها: كأبي الحسن اللحام، وأبي محمد بن مطران، وأبي جعفر بن العباس بن الحسن، وأبي محمد بن أبي الثياب، وأبي النصر الهرثمي، وأبي نصر الظريفي، ورجاء بن الوليد الأصبهاني، وعلي بن هارون الشيباني،

---

(١) مقدمة ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٢) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٩٥.

وأبي إسحاق الفارسي، وأبي القاسم الدينوري، وأبي علي الزوزني ومن ينخرط في سلكهم. فلما استقر بهم مجلس الأنس، أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة، ويتهادون ريحان المحاضرة، ويفتقون نوافق الأدب[١]، ويتساقطون عقود الدر[٢]، وينفثون في عقد السحر[٣]. فقال لي أبي: يا ابني! هذا يوم مشهود مشهور، فاجعله تاريخاً لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت، واذكره بعدي في أعياد الدهر وأعيان العمر، فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين. فكان الأمر على ما قال ولم تكتحل عيني بمثل ذلك المجتمع».

وكانت مكتبة نوح بن نصر الساماني ـ كما يقول ابن خلكان[٤] عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته».

٣ ـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين، وقد وصفه الثعالبي (جـ٤ ص ٥٦ ـ ٥٧) في هذه العبارة فقال: «خاتم الملوك وغرة الزمان، ينبوع العدل والإحسان، ومن جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم. فأوصافه لا تدرك بالعبارات ولا تدخل تحت العرف والعادات. وآن لي أن أعمل كتاباً في أخباره وسيره، وذكر خصائصه ومآثره التي تفرد بها عن ملوك عصره، فإني أتوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته التي هي أقل محاسنه ومآثره، وأكتب فصولاً من عالي نثره مختتمة ببعض ما ينسب إليه من شريف نظمه مما يجري مجرى الأمثال من كلامه».

كان شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير طبرستان من بيت قارين القديم العريق في الشرف، وهو أحد البيوتات السبعة من آل ساسان في بلاد فارس. ويطلق مؤرخو العرب على أفراد هذه الأسرة «أهل البيوتات». ويرجع نسبه، على ما ذكره البيروني[٥] إلى قباذ والد أنوشروان أحد ملوك الساسانيين. ويقول ابن اسفنديار في كتابه «تاريخ طبرستان» إن من

---

(١) أي يقتحمون أوعية الأدب التي تشبه نوافح المسك.
(٢) يشبه ما يجري في المجالس من حديث بمنثور الدر يتساقط من العقود.
(٣) يشبه الكلام الجيد في قوة تأثيره بالعقد التي يعقد الساحر وينفث فيها من فمه.
(٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٥) الآثار الباقية ص ٣٩.

يرغب في تقدير عظمته وأخلاقه فليقرأ ما قاله عنه أبو منصور الثعالبي[١] والعتبي[٢]. وقد جمع اليزدادي أقواله في كتاب أسماه «قرائن شمس المعالي وكلام البلاغة»، وهي تدل على بلاغة قابوس في اللغة والبلاغة وعلى شجاعته ومهارته، ومعرفته باللغة وعلم الفلك والنجوم، حتى إنه كتب في الإسطرلاب رسالة أطراها أبو إسحاق الصابي. وكانت بينه وبين الصاحب بن عباد مراسلات، كما راسل أبا نصر العتبي مؤرخ حياة السلطان محمود الغزنوي[٣].

٤ ـ بلاط خوارزم في خيوة وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني بن مأمون الذي آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوي.

٥ ـ بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة، وقد تمتع بشهرة واسعة ونقل كثيراً من المؤلفات إلى غزنة، وكان من أحسن السلاطين ميلاً إلى الأدب، على الرغم من إساءته لرجاله. وقد أرسل إلى مأمون بن مأمون كتاباً مع أحد أشراف دولته، واسمه حسين بن علي بن ميكائيل، يقول فيه: قد علمت أن ببلاط خوارزم شاه كثيرين من العلماء الذين نبغ كل منهم في فنه مثل فلان وفلان، وعليك أن ترسلهم إلى بلاطي ليكون لهم شرف المثول بين يدي، ونقوى على الاستفادة من علمهم وحذقهم، وأرجو من أمير خوارزم أن يسدي إلينا هذا الجميل. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد أخرج في قالب الود، انطوى في الوقت نفسه على الترهيب والتحذير، وصيغ في صيغة الأمر كما فهمه مأمون، الذي لم ير بداً من أن يبعث في طلب هؤلاء العلماء وينقل إليهم أوامر السلطان الغزنوي في هذه الكلمات: السلطان قوي، ويملك جيشاً من رجال الهند وخراسان إلى بلاد العراق، ولا أستطيع أن أرد له طلباً أو أخالف له أمراً، فما قولكم؟ وقد مال ثلاثة من هؤلاء العلماء إلى هذا الطلب، إلا أن ابن سينا ومسيحي لم يميلا إلى تحقيق هذه الرغبة وعولا على الهرب بعلم مأمون. وهلك مسيحي تحت رمال الصحراء على أثر هبوب عاصفة، ووصل ابن سينا إلى أبيورد بعد أن صادف صعاباً جمة، ثم تابع السير إلى طوس، ثم إلى نيسابور حتى وصل أخيراً إلى جرجان، ونزل ببلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير[٤].

ولكن في العشرين سنة التي تخللت سنتي ٣٨٨ هـ (٩٩٧ م)، ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م)

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٢) تاريخ اليميني جـ ٢ ص ١٤ ـ ١٧، ١٧٢ ـ ١٧٨.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٧ ـ ٣٦.
(٤) Browne, vol. II, pp.96 - 97.

مـات الصاحب بن عبـاد سنة ٣٩٨ هـ، وزالت الـدولة السـامانيـة سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)، واغتيل شمس المعالي على أيدي الثائرين من أشراف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)؛ كما قتل مأمون الثاني على أيدي الثوار. وضم السلطان محمود الغزنوي بلاده إلى أملاكه في سنة ٤٠٨ (١٠١٧ م) واستحوذ على رجال الأدب في بلاد منافسيه.

٦ ـ بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب خاصة. فقد كانت حضرة سيف الدولة «مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر. وكان أديباً شاعراً محبّاً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به. فلو أدرك ابن الرومي زمانه لما احتاج إلى أن يقول:

ذهبَ الذين تَهزهم مُدَّاحهم ... هَزَّ الكُساة عَوَاليَ المُرَّان [1]

٧ ـ بلاد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر: اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين. نذكر منهم على سبيل المثال: القاضي بكار بن قتيبة، وأبا الفيض ذا النون المصري المتصوف، والربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وأول مؤرخي مصر الإسلامية. وبلغ الأدب بمصر في عهد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم. فقد روى المقريزي (خطط جـ ١ ص ٣٢٦) عن القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي، الذي قال في كتابه «حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة» إنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثني عشر كراسة، يحوي فهرسة شعراء ميدان ابن طولون. فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة، فكم يكون عددهم؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال[2]؟.

وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ، فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء. وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة فى عهد الطولونيين

---

(١) المران الرماح والكماة جمع كميّ، وهو البطل اللابس درعه، وعالية الرمح ما يركب فيه السنان، وهي ضد سافلته، والجمع العوالي.

يقول: ذهب الكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيهتزون له كما يهزّ البطل عالية الرمح حين يختبره، أي من الأريحية. الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١١.

(٢) حسن إبراهيم حسن. المجمل في التاريخ المصري ص ١٥٢.

والإخشيديين. وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية.

وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات. وروى المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤٠٧) أنه كان في القصر أربعون خزانة، منها خزانة تحتوي على ٨٠,٠٠٠ مجلد في العلوم القديمة.

وقد أسس الخليفة الحاكم في سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) «دار الحكمة» على مثال أكاديميات بغداد وقرطبة، وألحق بها مكتبة أطلق عليها «دار العلم»، حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات، «وأجرى هذا الخليفة (ومن جاء بعده من الخلفاء) على موظفيها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية، وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والمحابر والأقلام والورق[1].

٨ ـ بلاط الأمويين في قرطبة: وكما نافس أمويو الأندلس العباسيين في العراق والفاطميين في المغرب ومصر، نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية. ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم.

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات في مختلف العلوم والفنون. فقد بذل الحكم المستنصر، حتى قبل أن يجلس على عرش الخلافة الأموية سنة ٣٥٠ هـ، جهوداً بعيدة الأثر في توجيه الدراسة الأندلسية في ميدان العلوم والطب وكانت المكتبة التي أنشأها في قصره بقرطبة ذات ثراء لا يقارن، إذ كانت تضم بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد في وقت

---

(١) المقريزي خطط جـ ١ ص ٤٥٨ جـ ٢ ص ٣٤٢. ذكر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣) أن الوزير أبا نصر شابور أردشير ابتاع في سنة ٣٨٢ هـ داراً بالكرخ وعمرها، وسماها دار العلم ووقفها على العلماء وأودع بها كثيراً من الكتب.

لم تعرف فيه الطباعة، وكانت الفهارس التي وضعت لها في غاية الاختصار حتى إنها اكتفت بذكر أسماء الكتب ومؤلفيها فحسب.

وكانت هذه المكتبة تحتوي على أربعة وأربعين سجلاً، كل منها يقع في خمسين ورقة.

وكانت هناك شبكة محكمة من الباحثين والسماسرة والناسخين يعملون لحساب ذلك الخليفة الأموي في الأندلس. وقد انتشروا في جميع أنحاء العالم الإسلامي سعياً وراء المؤلفات.

وكان في قرطبة نفسها عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين يعملون على إنماء هذه المكتبة الفخمة وتجميلها.

وقد امتاز الحكم المستنصر بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها(١).

ولا عجب في ذلك، فقد كان الحكم، كما يقول المقري(٢)، غزير العلم واسع الاطلاع ذا معرفة بالأخبار والأنساب، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب(٣).

ولم يكن اقتناء الكتب في الأندلس مقصوراً على الأمراء والخلفاء، بل لقد قلد أشراف قرطبة ووجهاؤها خليفتهم وأخذوا في تكوين مكتبات خاصة، واعتبروا ذلك العمل مظهراً من مظاهر المباهاة والافتخار.

كان طلاب العلم في هذا العصر يجوبون البلاد سعياً إلى موارد العلم والعرفان، ثم يصنفون المصنفات التي هي أشبه بدوائر المعارف. وقد قيل إن أبا القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الذي ولد بطبرية في سنة ٣٦٠ هـ، اختلف إلى كثير من البلاد ثلاثاً وثلاثين سنة سمع فيها من ألف شيخ. كما أثر عن القاضي عبد الله محمد بن أحمد مولى عبد الرحمن

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
ذكرنا قول المقري هذا بما رأيناه عياناً في مكتبة العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا، فطالما ترددنا على خزانة كتبه بدار الكتب المصرية، وكلما رأينا كتاباً نفيساً أو مخطوطاً نادراً منها وجدنا له عليه تعليقاً ممتعاً وإضافات تصحح ما وقع فيه من أخطاء، هذا مع العناية بنظافة الكتب والمحافظة على جلدها وورقها محافظة نادرة.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨.

(٣) بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية (تطوان ١٩٥٠) ص ٣٥ ـ ٣٦.

الناصر الأندلسي أنه رحل من قرطبة وتنقل ببلاد الحجاز واليمن ومصر والشام وأخذ العلم على مائتين وثلاثين شيخاً، ثم عاد إلى الأندلس في سنة ٣٤٥ هـ واتصل بالحكم المستنصر الذي ولاه قضاء استجة ثم قضاء ألمرية، فبقي فيه حتى مات. ومن هؤلاء العلماء الذين جابوا البلاد الإسلامية وتحملوا ألوان المشاق والحرمان في سبيل اكتساب العلم، أبو القاسم بن الدباغ الذي نشأ بقرطبة وتلقى العلم على شيوخها ثم رحل إلى بلاد الشرق الإسلامي سنة ٣٤٥ هـ وتنقل بين مصر والشام يأخذ العلم على كبار علمائها زهاء خمس عشرة سنة، وقيل إن عدد شيوخه بلغ مائتين وستة وثلاثين شيخاً.

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها، وميز علماؤهم بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم، والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وأطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة، أو العلوم الدخيلة.

وتشمل العلوم النقلية: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة، والبيان، والأدب.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والسحر، والكيمياء، والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا.

(أ) العلوم النقلية

١ ـ التفسير:

كان القرآن الكريم، ولا يزال، المصدر الأساسي والمنهل الذي يأخذ عنه المسلمون العلوم المختلفة. وقد اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير المأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة. ومن أشهر مفسري هذا النوع ابن جرير الطبري وابن عطية الأندلسي[1] والقرطبي (ت ٦٧١ هـ)، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل. ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية. ولم يتخذ التفسير هذه الطريقة المنظمة إلا في العصر العباسي الثاني بوجه خاص.

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن عطية (٤٨١ ـ ٥٤٦ هـ).

ويمتاز ابن جرير الطبري في تفسيره الذي يقع في ثلاثين مجلداً، والذي وصفه أبو حامد الأسفراييني بقوله: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصّل كتاب تفسير ابن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً، بتحري الدقة في النقل عن الرسول والصحابة والتابعين، ومعارضته أصحاب الرأي لأنهم كثيراً ما يتبعون هواهم. ويقول جولدتسيهر[1] عن كتاب تفسير الطبري إنه دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور. وقد أعطى ـ كذلك ـ في تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً. وعلى هذا النحو انتظم في تفسيره، آية بعد آية، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم. ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلي، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل، من نقد الرحال جرحاً وتعديلاً. فعندما يظهر أن الحديث غير موثوق به، فإنه يصرح بما يناسبه، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً. وقال مرة عن مجاهد الذي كان يحب أتباعه، إن رأيه «يخالف إجماع الحجة الذين لا يمكن نسبتهم إلى الكذب». وفي مرة أخرى «وما ذكر ها عن مجاهد لا معنى له وفساد رأيه لا شك فيه». وعلى هذا النحو كان يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس.

وكذلك ألف الطبري في علم القراءات كتاباً يقع في ثمانية عشر مجلداً، اشتمل على القراءات المعروفة والشاذة، وتحرى الدقة في نقدها. فكان يجمع الروايات ويمحصها ويفندها ويخرج منها برأي خاص. وإذا لم تمس هذه القراءات المختلفة المعنى بشكل جوهري فضل الأخذ بالقراءة الشائعة، وعارض في شدة القراءات التي لا تعتمد على الأئمة الذين يعتبرون حجة في نظره. وكان ابن جرير يهتم عند التفسير بالمعنى الواضح الذي لا يصح العدول عنه. أما إذا كانت هناك مواضع تستدعي تفسيراً آخر، رجع إلى أقوال السلف، أي إلى الصحابة والتابعين وعلماء الأمة. كما اعتمد كثيراً على القصص الإسرائيلية التي كان يستمدها من مراجع يهودية الأصل كالتي أخذت عن أقطاب اليهود من أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه. كما اعتمد أيضاً على بعض قصص النصارى التي استمدها من ابن إسحاق عن أبي عتاب، وكان نصرانياً من قبيلة تغلب ثم أسلم. وكان ابن جرير يهتم بالأمور الجدية ويتحاشى الدخول في الجدل الذي لا طائل تحته، فتراه في تفسير قوله تعالى في سورة

---

(١) كتاب المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٦ ـ ٨٧.

يوسف (١٢ : ٢٠) عن بيع إخوة يوسف له بدراهم معدودة يقول «إن الله أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدّ مبلغ ذلك بوزن أو عدد، ولا وضع عليه دلالة من كتاب ولا خبر من الرسول. . . وليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكليف علمه»[١].

ويعتبر ابن جرير أول من اهتم في تفسير القرآن بالرجوع إلى الشعر القديم. ولا غرو فقد كانت قدمه راسخة في علوم اللغة والشعر القديم رسوخاً في الدين والتاريخ. ويقول جولدتسيهر[٢]: «وقد احتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية. فاكتسب الطبري بذلك شهرة عظيمة. وإن ما قدمه في تفسيره القرآن من الناحية اللغوية يعد كنزاً ثميناً في هذه الأبحاث، كما أنه يعد ما في كتابه من الأبحاث النحوية والاختلافات بين المدرستين النحويتين (مدرستي البصرة والكوفة) من أقدم المراجع لهذه المعرفة. وتظهر هذه البحوث اللغوية كأمر غير مقصود لذاته، وإنما كانت عنده وسيلة التفسير بالعلم. وهنا لم ينس أن يقصر استعمال هذه الطريقة على هذا المبدأ، وهو ألا يتناقض ذلك مع ما نعرفه من تفسير مأثور عن أهل العلم من الصحابة والتابعين. فهذه المسائل اللغوية لا تجعله يترك موقفه من تمسكه بالمأثور. وبهذا كله كان تفسير الطبري الكبير لب التفسير بالمأثور والقمة العالية التي وصل إليها هذا المذهب في التفسير».

ولكن الطبري أثار عليه كراهة الحنابلة وبعض السنيين الذين اتهموه بالميل إلى الآراء التي كان السلف يقفون منها موقف الحيطة، كما اتهموه أيضاً بأن آراءه تتفق مع آراء المعتزلة بعض الاتفاق، مع أنه كان يرد على القدرية آراءهم في القدَر، كما جادل علماء الكلام في كثير من المسائل، كرؤية الله رأي العين، كما كان يخالف التفسير التنزيهي عند المعتزلة، أي أن الله سبحانه منزه عن الصفات التي يتصف بها البشر، وتمسك بروايات شيوخ المحدثين القدماء كالبخاري والقشيري وأبي داود السجستاني، ولكن الحنابلة وبعض العامة حنقوا على ابن جرير ورموه بالرفض والإلحاد، وحالوا دون دفنه نهاراً، فدفن ليلاً في داره. وقد عزا ابن الأثير[٣] ذلك إلى «أن الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً، فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا.

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ ـ ٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٢.
(٣) جـ ٨ ص ٤٥ ـ ٤٦.

حسدوا الفتى إذْ لم ينالوا سَعْيَه ... فالناسُ أعداءٌ له وخصومُ
كضرائِر الحسناءِ قُلْنَ لوجهها ... حَسَداً وبُغضاً إنه لذميمُ

. . . وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني. فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم. وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، والكتاب الذي في التفسير لم يصنف مثله، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة وأخباره من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه. . . وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبري: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبي جعفر، ولقد ظلمته الحنابلة، وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني بعد أن ذكر تصانيفه: وكان أبو جعفر ممن لا يأخذه في الله لومة لائم، ولا يعدل في علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين إلى باطل، لرغبة ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد. وأما أهل الدين والورع فغير منكرين علمه وفضله وزهده، وتركه الدنيا مع إقبالها عليه إقبالاً، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة».

أما النوع الثاني من التفسير: وهو التفسير بالرأي، الذي يخالف التفسير بالمأثور باعتماده على العقل أكثر من اعتماده على النقل، فقد شغف به المعتزلة والباطنية بنوع خاص. فإن المعتزلة لما كانوا يؤمنون بمبدأ التنزيه، أو بالأحرى بمبدأ نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى، أخذوا يفسرون القرآن وفق مبادئهم، مخالفين في ذلك تفاسير مدرسة التفسير المأثور. لذلك نرى مفسري المعتزلة يلجئون إلى التأويل إذا اعترضتهم من الآيات القرآنية ما يخالف مبدأ نفي الصفات عندهم. وقد عالج المعتزلة رؤية الله يوم القيامة بطريقة تخالف ما قام به المفسرون بالمأثور. من ذلك تفسيرهم قوله تعالى في سورة القيامة **﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾** (٧٥: ٢٢ ـ ٢٣) إن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة، على حين يقول المفسرون بالمأثور إن الصالحين يرون ربهم عياناً، مستدلين بقوله تعالى في سورة الأنعام (٦: ١٠١) **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾**، قائلين إن الأبصار لا تدركه في الدنيا، بدليل قوله تعالى عن لسان موسى **﴿رب أرني أنظر إليك. قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾**

(سورة الأعراف ٧: ١٤٣). وإذا كانت رؤية الله في الدنيا مستحيلة فهي في الآخرة أحرى. وإنه من الخطأ في الفرض أن نظن أن المعتزلة في تفسيرهم القرآن قد فعلوا ذلك من أجل قصدهم الخروج على الحديث، أو من أجل النقد الحر في فهم القرآن... ولا يسعنا أن ننكر هذه الحقيقة: وهي أنهم لم يظهروا عن تفكير حر، بل ظهروا عن تقوى وصلاح»[١].

ومن أشهر مفسري المعتزلة أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المتوفى سنة ٣٢٢ هـ، ويقع تفسيره في أربعة عشر مجلداً، وابن جرو الأسدي المتوفى سنة ٣٨٧ هـ، وقد قيل إنه كتب في تفسيره البسملة نحو ١٢٠ وجهاً، وأبو تونس عبد السلام القزويني المتوفى سنة ٤٨٣، وقد فسر القرآن تفسيراً مطولاً، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبعة مجلدات. ويرجع السبب في عدم ذيوعها بين الناس إلى ضخامتها وما بها من عقائد تخالف عقائد السنيين أحياناً. ومن هؤلاء أيضاً الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضي أبي القاسم علي بن الطاهر المتوفى سنة ٤٣٦ هـ، وكانت له أمالي في الشعر والأدب، شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالي تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائي وغيره[٢].

وكذلك اتخذ الباطنية التفسير وسيلة لنشر مبادئهم، ولجئوا إلى التأويل غير المشروع أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية، فنراهم يفسرون قوله تعالى **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** (سورة نوح ٧١: ١٠ - ١٢)، بأن قوله تعالى **﴿فقلت استغفروا ربكم﴾** أي اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله **﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** بأن السماء هي الإمام، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم، ومعنى **﴿يمددكم بأموال وبنين﴾** أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى **﴿يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هي العلم الباطني[٣]. كذلك فسر الباطنية في قوله تعالى في سورة الحشر (٥٩ - ٦١) **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾**، أن الشيطان

---

(١) جولدتسهير: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١١٠ - ١١١.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ - ١١٥.

(٣) Guyard, Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis, p.209

هو عمر بن الخطاب، والإنسان هو أبو بكر الصديق: ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب، وتفسيرهم قوله تعالى ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾[١] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس وآدم المشهورين في القرآن هما أبو بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر[٢].

ظل القرآن منبع كثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في هذا العصر، فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية، كما اعتمد الفقهاء في أحكامهم الفقهية على القرآن. وألفوا كتباً كثيرة أسموها «أحكام القرآن» واستعانت الفرق الإسلامية بكتاب الله واتخذوه أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه.

٢ ـ الحديث:

من أهم مصادر التشريع الإسلامي الحديث، ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم. وقد ظهر في القرن الثاني للهجرة طائفة من أئمة الحديث من أشهرهم في المدينة الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ، وفي البصرة حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٧٦ هـ، وفي الكوفة سفيان الثوري المتوفي سنة ١٦١ هـ، وفي الشام الأوزاعي المتوفى سنة ١٨١ هـ، واشتهر في العصر العباسي الثاني من كبار أئمة الحديث الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ. وقد خالف القائلين بخلق القرآن وناله من جراء ذلك كثير من العنت والاضطهاد ويقول ابن خلكان (جـ ١ ص ١٧). «ودعي إلى القول بخلق القرآن فلم يجب، فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع. وكان ضربه في العشر الأخير من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين»: وقد ترك كتابه «المسند» الذي يشتمل على ٤٠,٠٠٠ حديث، منها عشرة آلاف مكررة، وجمع الأحاديث التي تمدح العلويين والأمويين ولم يخش في ذلك بأس العباسيين. ويتفق مذهبه مع مذهب الإمام مالك بن أنس من حيث اعتماده على الحديث، حتى اعتبره البعض محدثاً أكثر منه إماماً مشرعاً.

وقد أخذ عن ابن حنبل جماعة من الفقهاء المسلمين من أمثال محمد بن إسماعيل البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ. وفي أيامه أخذت أساليب جمع الحديث وترتيبه تأخذ مكانتها في الدقة وشدة التحري. وكان البخاري محدثاً، وقد تفوق على من سبقه من

(١) سورة الرحمن ٥٥: ٥.

(٢) الغزالي: فضائح الباطنية، نشره جولدتسيهر (ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣.

المحدثين في جمع الأحاديث، فلم يكتف بجمع أحاديث البلاد التي نشأ فيها، بل تنقل في البلاد لجمع الحديث، حتى إن رحلاته استغرقت ست عشرة سنة. كما امتاز بقدرته النادرة في التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة[١]، وساعده على ذلك قوة حافظته ومعرفته بأقدار الرجال. ويعد كتابه الجامع الصحيح المصدر الأول للأحاديث الصحيحة. وقد جمع البخاري ٧٢٧٥ حديثاً فيها عدد من الأحاديث المكررة: فإذا حذفنا هذه الأحاديث المكررة منها وغير الموصولة السند، أصبح عددها أقل من ثلاثة آلاف حديث، اختارها البخاري، على ما قيل، من ثلثمائة ألف حديث، أي بنسبة ١ ـ ٢٪. وهذا منتهى الدقة العلمية في الاختيار والنقد لما جمع من الأحاديث الكثيرة في رحلاته الطويلة. ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٧٦): «وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره، فخرّج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح، بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين، واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه، وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب، بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث، فتكررت لذلك أحاديثه، حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين. منها ثلاثة آلاف متكررة[٢]. وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب»[٣].

وقد صنف البخاري صحيحه في ٩٧ كتاباً، كل منها يحوي طائفة من الأحاديث تدور حول معنى واحد أو معانٍ متقاربة مرتبطة بعضها ببعض، ككتاب الوضوء، وكتاب الصلاة وكتاب بدء الوحي. ووضع له منهجاً وقواعد عرفت «بشروط البخاري»، كانت نبراساً استضاء به من أتى بعده من علماء الحديث.

ثم جاء بعده تلميذه مسلم بن الحجاج القشيري المتوفى سنة ٢٦١ هـ، وكان من أهل نيسابور. وامتاز، كالبخاري، بكثرة رحلاته في طلب الحديث، فرحل إلى العراق والشام

---

(١) الحديث الصحيح هو الحديث المسند أي الذي يتصل إسناده من الراوي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ويشترط في روايته العدل والضبط. أما الحديث الضعيف فهو الذي لا تتوافر فيه هذه الشروط.

(٢) مثال ذلك حديث: بني الإسلام على خمس.. الخ. فإنه يذكر في باب الإيمان والإسلام ويذكر في كتاب الصلاة، وفي كتاب الزكاة، وفي كتاب الصيام، وفي كتاب الحج، باعتبار أنه أصل لفرض هذه الفروض على المسلمين.

(٣) بمعنى أنه يذكر الحديث في كل باب بسند مخصوص عن الصحابي الذي رواه كأن يسنده إلى أبي هريرة أو إلى عبد الله بن العباس، ولكل من هؤلاء الرواة سند ورجال مخصوصون

ومصر والحجاز. وتكررت رحلاته إلى بغداد خاصة، وأفاد من البخاري في أثناء إقامته في نيسابور مدة. وعرف مصنف مسلم بصحيح مسلم أو المسند الصحيح، الذي يقول ابن خلدون[١] إنه «حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها، وجمع الطرق والأسانيد، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يستوعبا (أي البخاري ومسلم) الصحيح كله. وقد استدرك الناس عليهما في ذلك».

وقد وازن الدكتور علي حسن عبد القادر[٢] بين صحيحي البخاري ومسلم بقوله: «وإذا ما قارناه (يعني صحيح مسلم) بالبخاري (أي بصحيح البخاري) بالنسبة لمحتوياته في مجموعها، فإننا نرى بينهما اختلافاً شكلياً. فهو مصنف كالبخاري[٣]. وقد نظم حسب الأبواب مثله، ولكن الأبواب عند مسلم لم يعنون لها. وقد كان غرضه كزميله أن يستخدم كتابه في الفقه، ولكنه ترك للقارىء أن يستنتج وحده ما يراه حقاً فيما يظهر له. وأمر آخر شكلي جاء عند العلماء المتأخرين، فكلاهما كان يروي الحديث بطرق مختلفة زيادة في الإثبات. ولكن البخاري كان يرويها في أبواب مختلفة بسبب استعمال الحديث لهذه الأبواب. أما مسلم فكان يروي ذلك كله معاً: ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن مسلماً لم يكن يجعل نصب عينيه وفي الدرجة الأولى، الحياة العملية واستعمالاتها[٤] بل الحديث الخالص فقط»

وقد صنف بعض أئمة الحديث كتباً أخرى تعد في المرتبة الأولى من بين كتب الحديث، وأطلق عليها اسم الصحاح. وهؤلاء المحدثون هم: أبو داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن، وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفي سنة ٢٧٥ هـ وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحبا السنن. ويقول ابن خلدون[٥]: «ثم كتب أبو داود السجستاني، وأبو عيسى الترمذي، وأبو

(١) مقدمة ص ٣٨٧.
(٢) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ٢٩٢ - ٢٩٣.
(٣) أي على صنوف وأبواب.
(٤) يريد بالحياة العملية حاجة الفقيه إلى الحديث في باب من أبواب الفقه أو العلم كما فعل البخاري في توزيع أحاديثه على الأبواب والكتب.
(٥) مقدمة ص ٣٨٧.

عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح، وقصدوا ما توافرت فيه شروط العمل، إما الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو المعروف، وإما الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل. وهذه هي الأسانيد المشهورة في الملة، وهي أمهات كتب الحديث في السنة، فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب، ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها في علم الحديث»[١].

وممن نبغ في علم الحديث بالأندلس ابن وضاح، وابن عبد البر، والقاضي يحيى بن يحيى الليثي (وأصله من المصامدة)، وأبو الوليد الباجي، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد وابن عاصم مؤلف «التحفة»، ومنذر بن سعيد قاضي قضاة الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر (وأصله من سبتة بالمغرب).

٣ ـ الفقه:

رأينا أن العصر العباسي الأول كان عصر أئمة مذاهب السنة الأربعة، وهي مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب ابن حنبل. وقد ظهر في عصر العباسي الثاني بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب في الفقه، ولكن لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام هذه المذاهب الأربعة. ومن هؤلاء الفقهاء أبو سليمان داود بن علي بن خلف القاشاني الذي ينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان والمتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ هـ.

كان أبو سليمان داود شافعي المذهب؛ أخذ فقه الشافعي عن بعض تلاميذه. وله طريقة خاصة تتلخص في الأخذ بظاهر نص القرآن، وعدم قبول القياس والتأويل. وفي ذلك يقول ابن النديم[٢]: «هو أول من استعمل قول الظاهر وأخذ بالكتاب والسنة. وألغى ما سوى ذلك من الرأي والقياس»، ومن ثم سمي أبا سليمان داود الظاهري، ويعرف أتباعه بالظاهرية، أي الذين أنكروا القياس وأبطلوا العمل به، ويقول فيهم ابن خلدون[٣]:

---

(١) هذه الدراسات الإسلامية تشبه إلى حد كبير قواعد علم التاريخ وفلسفته ونقده التي ظهرت حديثا بعد ابن خلدون في الشرق على يد علماء فلسفة التاريخ ونقاده في أوربا. وكانت هذه الدراسات الإسلامية الحديثة أساساً للدراسات العربية في الأدب واللغة وغيرهما من علوم الرواية. فأول من فتح هذه الميادين هم علماء الحديث ولا ريب، ومنها دخل الباحثون في علوم الرواية على اختلاف أنواعها في المشرق والمغرب.

(٢) كتاب الفهرست ص ٣٠٣.

(٣) مقدمة ص ٣٩٠.

«والظاهرية جعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع، وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص، لأن النص على العلة نص على الحكم في جمع محالها». وبذلك خرج أبو سليمان داود على الأصول والقواعد الفقهية عند الشافعية أنفسهم: فتصدى للرد عليه أبو العباس بن سريح المتوفى سنة ٣٠٥ هـ في كتاب أسماه «الرد على المخالفين من أهل الرأي وأهل الظاهر». وله مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم[١] تدلنا على سعة اطلاعه. وكان ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهري، ولذلك سمي ابن حزم الظاهري.

ومن أئمة المذاهب أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) الذي تتلمذ للإمام الشافعي مدة سنتين (١٩٥ ـ ١٩٧ هـ)، واعتبره كثير من الشافعية أنه واحد منهم، وقال فيه الإمام الشافعي حينما خرج من بغداد إلى مصر: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل»[٢]. وقد لقي ابن حنبل كثيراً من ألوان الشدة والعنت في عهد المأمون والمعتصم لعدم اتفاقه مع المعتزلة في القول بخلق القرآن؛ فامتحن في هذه المسألة، وسجن وعذب، وبقي كذلك إلى عهد المتوكل الذي ترك القول بخلق القرآن، وأطلق سراح ابن حنبل الذي توفي ببغداد.

وكان ابن حنبل ـ كما رأينا ـ من كبار المحدثين. ولم يختلف العلماء في كونه محدثاً، وإنما اختلفوا في كونه فقيهاً، حتى إن ابن جرير الطبري أثار حنق الحنابلة عليه لعدم اعتباره إياه من أئمة الفقه. وفي الحق أن مذهبه في الفقه مبني على الحديث، أي إنه كتاب يجمع بين الحديث والفقه، كموطأ مالك بن أنس. وقد عرف عن ابن حنبل أنه كان يفضل الأحاديث الضعيفة على القياس الذي لا يجيزه إلا عند الضرورة أي عند نقد الحديث. ويختلف ابن حنبل عن غيره من أئمة الفقه، كأبي حنيفة والشافعي، في أنه لم يدون في الفقه كتاباً مفصلاً، بل روي عنه عدة مسائل في الفقه كانت عبارة عن إجابات لأسئلة وجهت إليه. أما ترتيب مذهبه الفقهي وتدوينه وتبويبه، فذلك من عمل تلاميذه وأتباعه. ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٩٢): «فأما أحمد بن حنبل فمقلد قليل، لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية[٣] وللأخبار[٤] بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث».

---

(١) كتاب الفهرست ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥.
(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٧.
(٣) أي تعمقه في الاعتداد بالرواية وتقديمها على الرأي.
(٤) أي وفي معاضدة الأخبار أي الأحاديث بعضها ببعض.

ومن أشهر الحنابلة في هذا العصر أبو القاسم الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ؛ وقد صنف كتابه المختصر في الفقه، وعبد العزيز بن جعفر المتوفى سنة ٣٦٣ هـ صاحب كتاب المقنع.

ومن أصحاب المذاهب الفقهية من المجتهدين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ)، وكان من أهل طبرستان. وقد درس فقه الشافعية، ولذلك لم يختلف مذهبه المعروف بالمذهب الجريري عن مذهب الإمام الشافعي، وقال فيه ابن خلكان[١]: كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً... وكان ثقة في نقله... وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في «طبقات الفقهاء المجتهدين».

وكان الطبري واسع الاطلاع كثير التأليف، ومن كتبه كتاب الأمم والملوك في التاريخ، وكتاب في التفسير، وكتاب اختلاف الفقهاء[٢]، وكتاب تبصير أولي النهى ومعالم الهدى الذي لا يزال مخطوطاً، وكتاب شرح السنة، وكتاب بشارات المصطفى[٣]، وكتاب الرد على الحرقوسية، أي الحنابلة، لأن أحمد بن حنبل من بني حرقوس[٤].

ومن أشهر أئمة المذهب المالكي في الأندلس: أبو الوليد الباجي، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد الفيلسوف، وابن عاصم مؤلف «التحفة»، ومنذر بن سعد، وقد ولاه عبد الرحمن الناصر قيادة الجيوش التي كانت تعتبر نوعاً من أنواع الجهاد نيابة عنه، كما كان يفعل الخلفاء الأمويون والعباسيون في الشرق الذين كانوا يولون قاضي القضاة قيادة الطوائف، والشواتي منذ البيزنطيين.

وهناك مذاهب أخرى انقرضت، كمذهب سفيان الثوري[٥] المتوفى سنة ١٦١ هـ. وقد أخذ عنه الأوزاعي إمام أهل الشام[٦]، ومذهب إسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، حتى إننا نرى من المذاهب الشائعة في القرن الثالث الشافعية والمالكية والثورية

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٥٦.

(٢) نشر الدكتور يوسف شاخت بعض أجزاء الكتاب تحت عنوان «كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري» (ليدن ١٩٣٣).

(٣) من ١٧ جزءاً بعضها في النجف والبعض الآخر في طهران.

(٤) على حسن عبد القادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٢١٠.

(٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٧٥.

نسبة إلى سفيان الثوري، والحنفية والداودية. وفي القرن الرابع نرى من المذاهب السائدة مذاهب الحنفية والمالكية والداودية؛ كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كمذهب الحنابلة، والراهوية والأوزاعية. إلا أنه على مر الزمن أصبحت السيادة للمذاهب الأربعة وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي؛ ووقف الاجتهاد عند هؤلاء الأربعة. ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٩١ ـ ٣٩٢) ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم[(١)]، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من[(٢)] تشعب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه، فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من[(٣)] اختص به من المقلدين، وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب، ولم يبق إلا نقل مذاهبهم، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية، لا محصول اليوم للفقه غير هذا، ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه، مهجور تقليده. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة».

٤ ـ علم الكلام:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن علم الكلام يقصد به الأقوال التي كانت تصاغ على نمط منطقي أو جدلي، وعلى الأخص في العقائد، وأن المشتغلين بهذا العلم يسمون «المتكلمين»؛ كما ذكرنا أن هذا اللفظ كان يطلق أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة، ويقول دي بور[(٤)]: «على أن ظهور الكلام في الإسلام كان بدعة من أكبر البدع؛ وقد شدد في النكير على هذا العلم الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث في الأحكام الفقهية العلمية ابتداع، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم، بل إن هؤلاء الآخرين كانوا يعتبرون النظر العقلي من الواجبات

---

(١) أي لم يبق منهم أحد.

(٢) سقطت هذه الكلمة من النسخ المطبوعة، وهي موجودة بالنسخة المخطوطة رقم ١٥ بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية.

(٣) كذا في النسخ المقدمة المحفوظة بدار الكتب رقم ١٥ بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وسقطت الواو من جميع النسخ المطبوعة.

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي ريدة، ص ٥١.

المفروضة على المسلمين. وقد صادف هذا الرأي قبولاً في هذا العهد. وفي الحديث أن النبي قال «أول ما خلق الله تعالى العلم أو العقل».

ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٤٠٦) إن علم الكلام سمي بذلك «لما فيه من المناظرة على البدع. وهي كلام صرف، وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه تنازعهم في إثبات الكلام النفسي» إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون على المتكلمين ردهم على أهل البدع، بحجة أن هذا الرد ترويج لعقائد هؤلاء المبتدعين، لأنهم - كما يقول الغزالي[١] - «اعتمدوا على مقدمات تسلم (يعتقد صحتها) من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها، إما التقليد أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً».

وكان للمعتزلة أثر كبير في تطور علم الكلام، فقد تم على أيديهم القول بخلق القرآن، ونادوا بنفي الصفات، مخالفين في ذلك جمهور أهل السنة واستمر الصراع والجدل بين طائفتي المعتزلة وأهل السنة والجماعة، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري، فتوسط بين الفريقين.

ومن أشهر متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف المتوفي سنة ٢٣٥ هـ. وقد اشتهر بالجدل، وأصبح على رأس المعتزلة في أيامه، وعرف أتباعه بالهذلية. وقال أحمد بن يحيى بن المرتضي[٢] المتوفي سنة ٣٢٥ هـ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ. وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة؛ شهدته في مجلس وقد استشهد في كلامه بثلثمائة بيت. وكان أبو الهذيل «حسن الجدال قوي الحجة، كثير الاستعمال للدلالة والإلزامات[٣]. ولأبي الهذيل كتاب يعرف بميلاس. وكان ميلاس رجلاً مجوسياً فأسلم؛ وكان سبب إسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل المذكور وجماعة من الثنوية، فقطعهم[٤] أبو الهذيل، فأسلم ميلاس عند ذلك[٥]» وقد بلغ من قوة

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٩ - ٨٠.
(٢) كتاب المنية والأمل ص ٢٦.
(٣) يريد أنه يكثر من الاستنباط واستعمال القياس الذي يؤدي إلى نتائج ملزمة للخصم.
(٤) أي بطل حججهم وأسكتهم.
(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٨٠.

جدله الذي شغل كل حياته، وخاصة مع الزنادقة والمجوس والثنوية، أن أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل، وهو ـ كما يقول ديبور [١] ـ أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر في مذاهبهم الكلامية».

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن يسار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ، من تلاميذ أبي الهذيل العلاف وأستاذ أبي عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) الذي تنسب إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة. وقد نسب إليه في علم الكلام كتب منها: الاعتزال وفضله على الفضيلة، والاستطاعة وخلق الأفعال، وخلق القرآن، وفضيلة المعتزلة. وقد رمى الجاحظ من تأليفه إلى الثناء على المعتزلة من ناحية، والرد على مخالفتهم، وخاصة الرافضة، والطعن فيهم من ناحية أخرى. ويظهر أن هذا الكتاب أثار حنق الرافضة، فردوا عليه ردوداً عنيفة. ويعتبر كتاب فضيلة المعتزلة لأحمد بن يحيى الراوندي، وكان معتزلياً ثم أصبح رافضياً، خير مثل لهذا. كما يعد كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي متمماً لكتاب فضيلة المعتزلة للجاحظ [٢]، كما تناول في كتابه البخلاء أخباراً تتصل بالمتكلمين والمعتزلة، وأخذ في كتابه الحيوان كثيراً من آراء أرسطاطاليس في كتابه الحيوان [٣].

وقد أثرت الفلسفة اليونانية في ثقافة الجاحظ حتى عد من كبار أحرار الرأي، وعارضه السنيون في كثير من آرائه. ومما يرمى به قوله: «إن الله لا يدخل النار أحداً، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها، ثم تمسكهم في نفسها على الخلود». وقد رد عليه السنيون بقولهم إنه لو كان هذا الرأي صحيحاً لألزم الجاحظ «أن يقول في الجنة إنها تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها وإن الله لا يدخل أحداً الجنة، فإن قال بذلك قطع الرغبة إلى الله في الثواب وأبطل فائدة الدعاء، وإن قال إن الله تعالى هو يدخل أهل الجنة الجنة، لزمه القول بأن يدخل النار أهلها» [٤].

ومن كبار متكلمي المعتزلة أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذي تنسب إليه طائفة الخياطية. وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ومات

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٥٧.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦٢.

(٣) نيبرج: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد: مقدمة ص ٢٣ ـ ٣٤.

(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦١.

في أوائل القرن الرابع، واشتهر برده على ابن الراوندي في كتاب أسماء «الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد»[١]. وقال نيبرج في مقدمة الكتاب (ص ١٩ ـ ٢٠) عن الخياط إنه كان «في غاية الشهرة، بعلمه باختلاف المتكلمين ومذاهبهم وآرائهم وتراجمهم. ويشهد بشهرته بذلك كثرة ذكره في كتاب ابن المرتضي، ومروج الذهب للمسعودي وغيرهما من الكتاب عند الرواية عن المعتزلة أو الحكاية عن رجالها. ويشهد كتاب الانتصار من أوله إلى آخره بواسع سلمه، فإنه يفيدنا علماً مفصلاً بدقائق كلام المعتزلة وجلائله. ويشتمل على أخبار عن المتقدمين منها وآرائهم ومناقشاتهم لا نجد مثلها في كتاب آخر مما انتهى إلينا. ولقد اقتبس من قبس الخياط المتأخرون الموافق منهم والمخالف، فقد ألف تلميذه أبو القاسم الكعبي البلخي مثلاً كتاباً في رجال المعتزلة ومقالاتها أفاد ابن المرتضي منه في كل صفحة من كتابه. ولو استنتجنا أن التلميذ نقل قصص أستاذه لما أخطأنا. واقتبس من الخياط أيضاً البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق.

ومن أشهر متكلمي هذا العصر أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المعتزلي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ[٢]. وتنسب إليه فرقة الجبائية. وكانت له مواقف رائعة مع أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٢ هـ). فقد قال الجبائي يوماً للأشعري: ما معنى الطاعة عندك؟ فقال: موافقة الأمر. وسأله عن قوله فيها فقال الجبائي: حقيقة الطاعة عندي موافقة الإرادة، وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه، فقال شيخنا أبو الحسن رحمه الله: يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله تعالى مطيعاً لعبده إذا فعل مراده فألزم ذلك، فقال شيخنا رحمه الله: خالفت إجماع المسلمين وكفرت برب العالمين[٣].

ولما مات الجبائي خلفه ابنه أبو هاشم في زعامة الجبائية، وعرفوا باسم البهشمية نسبة إليه. وكان تأثير أبي هاشم هذا بين المعتزلة عظيماً، حتى إن مبادئه استمرت إلى القرن الخامس الهجري، كما يتضح من عبارة البغدادي (ص ١٦٩) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ، «وأكبر معتزلة عصرنا على مذهبه».

٥ ـ علم اللغة:

تطور علم اللغة في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم. فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة التي تعتبر

(١) نشرة نيبرج (القاهرة سنة ١٩١٤)
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٠.
(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

مدرستها أقدم من مدرسة الكوفة بنحو مائة سنة، وكيف نبغ في هاتين المدرستين كثير من العلماء المبرزين: كأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الذي وضع علم العروض، ووضع أول معجم عربي مرتب على الحروف الهجائية وهو كتاب العين»، وسيبويه صاحب الكتاب في النحو الذي يجمع القواعد التي انتهت إليها مدرسة البصرة منذ عهد أبي الأسود الدؤلي، إلى أن جاء الخليل بن أحمد، فنظمها وشرحها وعللها وأملاها على تلاميذه، ومنهم سيبويه[١].

ومن أئمة مدرسة الكوفة علي بن حمزة الكسائي المتوفي سنة ٢٨٣، وهو أحد القراء السبعة، ومن أئمة الكوفيين في النحو، ومن مؤدبي الأمين والمأمون. وقد أخذ عنه أبو زكريا بن زياد المعروف بالفراء، «وكان ـ كما يقول ابن خلكان[٢]ـ أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب»، وهو أحد رؤساء المذهب الكوفي بعد أستاذه الكسائي. وقال فيه تلميذه ثعلب: «لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها». وقد ألف كثيراً من الكتب منها كتاب معاني القرآن، وهو تفسير لغوي شرح فيه دقائق النحو واللغة، ويقع في نحو ألف ورقة، وهو أشهر كتبه[٣].

ومن مشهوري الكوفيين المفضل الضبي صاحب كتاب المفضليات في الشعر، ومن مشهوري النحويين أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري النحوي المعروف بالنحاس، وقد رحل إلى بغداد، وأخذ من أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر وأبي إسحاق الزجاج، وابن الأنباري ونفطويه وغيرهم من أعيان أدباء العراق، وتوفي بمصر في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٨ هـ (وقيل سنة ٣٣٧ هـ). ومن مؤلفاته «تفسير أبيات سيبويه»، و«كتاب التفاحة في النحو»، و«كتاب الوقت والابتداء»، و«شرح المعلقات السبع» و«طبقات الشعراء»[٤].

ومن النحويين أيضاً أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل النجيرمي اللغوي البصري نزيل مصر. وقد نشأ في بيت اشتهر بالعلم والأدب. وكان يوسف أمثل أهل بيته،

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٢٨ ـ ٣٢٩. ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠ ش تفسير.

(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٩.

ومن طريقه روي في مصر أكثر الكتب القديمة في اللغة والشعر وأيام العرب. فإنه كان راوية لها عارفاً بها، وتوفي النجيرمي في شهر المحرم سنة ٤٢٣ هـ[١].

ويعتبر القرن الثالث الهجري عصر انتقال في اللغة. فقد ظفر نهاية القرن الثاني بأول محاولة في ضبط اللغة وعمل المعاجم، حين وضع الخليل بن أحمد منهج كتاب العين لتلميذه الليث بن المظفر. ولا ريب أن كتاب العين، مع علو قدر الخليل، لا يمثل علمه وضبطه للغة، إذ وقع فيه كثير من الأخطاء التي أخذها عليه العلماء ولذلك هب لغويو القرن الثالث لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف، فوضعوا المعاجم الواسعة، لكنها كانت على طريقة الخليل نفسها من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق، وأولها حرف العين. وعلى هذا النظام أنشأ ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) كتابه «جمهرة اللغة» [٢]. وهو، وإن خلا من كثير من العيوب التي وجدت في كتاب العين، لم يخل من مآخذ. فقد أخذ عليه العلماء بعض الألفاظ التي لم يروها الثقات وانفرد بها ابن دريد. كما أن في طريقته في شرح الكلمة وتقليب صيغها كثيراً من الصعوبة وخاصة على الباحث الذي يؤثر السرعة في الوصول إلى غايته من كتب اللغة.

وكما كان ابن دريد إماماً في اللغة، كان أديباً بارعاً ينشىء النظم وينشىء النثر، ولعله أول من اخترع فن المقامات في اللغة العربية؛ فقد تنبه نقاد العرب ومؤرخوهم إلى الأحاديث الكثيرة التي رواها عنه تلميذه أبو علي القالي في كتابه «الأمالي»[٣] من أحاديث موضوعة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة ظهرت فيها براعة ابن دريد الأدبية واللغوية. وقد نبه على هذا الحصري في كتاب «زهر الآداب»، وقال إنه مخترع هذا الفن من القصص، وبه سبق أصحاب المقامات فيما أنشأوا من فنهم بعده. ولابن دريد شعر كثير كان يذهب فيه كل مذهب من الرقة والجزالة ومن الجد، والهزل وهو مشهور في كتب الطبقات والتراجم؛ ومن مصنفاته كتاب «الاشتقاق في الأسماء»، وكتاب «زوار العرب»[٤].

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣١٥.

(٢) ويقع في ثلاثة مجلدات ضخام، غير مجلد للفهارس، وقد طبع بحيدر اباد سنة ١٣٤٥ هـ، ومنه نسختان مخطوطتان بدار الكتب المصرية.

(٣) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ ويقع في ثلاثة مجلدات تشمل الطرف والنوادر والتنبيه.

(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٧٩ ـ ٤٩٨.

وممن ألف في اللغة معجماً واسعاً على طريقة الخليل، أبو علي القالي البغدادي (٢٢٨ ـ ٣٥٦ هـ) صاحب كتاب «البارع في اللغة» وكتاب «الأمالي» في اللغة والأدب [١]، وهو الذي غرس علوم اللغة وآدابها في الأندلس، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وكبار الأدباء في تلك البلاد.

ومن هؤلاء الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥هـ)؛ وقد ألف في اللغة كتاب «المحيط»، ويقع في سبعة مجلدات، وابن فارس صاحب كتاب «المجمل» المتوفى سنة ٣٩٥ هـ، وأبو منصور الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب «التهذيب». وأشهر علماء اللغة في القرن الرابع على الإطلاق إسماعيل بن حماد الجوهري (المتوفى سنة ٣٩٢) صاحب كتاب «الصحاح في اللغة». وقد اقتصر فيه على الألفاظ الصحيحة اقتداء بالبخاري الذي اقتصر على الأحاديث النبوية الصحيحة. ولهذا المعجم مزية أخرى، فإنه ترك الطريقة التي سار عليها سلفه من اللغويين منذ عصر الخليل، من حيث ترتيب الحروف الهجائية على المخارج الصوتية، إلى ترتيبها على طريقة أخرى لا تزال مستعملة في التعليم وفي أكثر الكتب اللغوية التي جاءت بعده. مثل «لسان العرب» و «القاموس المحيط»، وهي أن ترتب المادة اللغوية على الحروف أ ب ت ث ج الخ، مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب، والحرف الأول منها هو الفصل. وهذه الطريقة التي ابتكرها الجوهري في ترتيب المعاجم تسهل على الكتاب والشعراء العثور على الألفاظ التي يريدها الكاتب في الأسجاع والشاعر في القوافي. وقد ذاعت هذه الطريقة بعده في تأليف المعاجم في الشرق والمغرب.

ولم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم، وإنما ألفوا كتباً كثيرة في الاشتقاق والتصريف وأصول النحو واللغة. وعلى رأس هؤلاء أبو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، وتلميذه ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ صاحب كتاب «الخصائص» الذي يعد أعظم الكتب في أصول اللغة والنحو. ويقول الثعالبي [٢] في ابن جني: «هو القطب في لسان العرب وإليه انتهت الرياسة والأدب».

ومن علماء اللغة من شرح الدواوين الأدبية، كابن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب التبريزي (٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ). وكان أحد أئمة اللغة والبلاغة في عصره. وقد تتلمذ

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.
(٢) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٨٩.

لأبي العلاء المعري. وقال عنه ابن خلكان[١]: «وصنف في الأدب كتباً كثيرة مفيدة، منها شرح الحماسة، وكتاب شرح ديوان المتنبي، وكتاب شرح سقط الزند، وهو ديوان أبي العلاء المعري، وشرح المعلقات السبع، وشرح المفضليات وله تهذيب غريب الحديث، وتهذيب إصلاح المنطق. وله في النحو مقدمات حسنة، والمقصود منها أسرار الصنعة وهي غزيرة الوجود. وله كتاب الكافي في علم العروض والقوافي، وكتاب في إعراب القرآن سماه الملخص، رأيته في أربعة مجلدات وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة: أكبر وأوسط وأصغر: وله غير ذلك من التآليف. . ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد».

ولا بأس من أن نورد هنا ما ذكره ابن خلدون[٢] عن تطور تأليف المعاجم العربية، قال: «إن كثيراً من العلماء اتخذوا كتاب العين أساساً لمعاجمهم. وجاء أبو بكر الزبيدي، وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص».

وقد ألف الجوهري من المشارقة كتاب الصِّحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم، فجعل البداءة منها بالهمزة، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل. ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيدة من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد، كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين، وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، فجاء من أحسن الدواوين، ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها، فكانا توأمي رحم وسليلي أبوة. هذه هي أصول كتب اللغة فيما علمناه».

ومن علماء اللغة البارزين ابن سيدة الأندلسي صاحب كتاب المعجم الذي رتبه مثل كتاب العين للخليل بن أحمد وتعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، ثم لخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر الموحدي أحد ملوك الدولة الحفصية بتونس.

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٣٣.
(٢) مقدمة ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

٦ ـ الأدب:

(أ) النظم:

تمهيد:

كانت نزعة الأمويين في الشعر، كما رأينا، جاهلية لا تميل إلى الفلسفة. وقد ظهر في العصر العباسي كثير من الشعراء نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب. ومن أشهرهم بشار بن برد، وأبو نواس الذي أنحى باللائمة على كل قديم، وحذا حذوه في هذا العصر ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) في القول بالتجديد، ثم حذا من جاء بعده من الكتاب كالثعالبي وابن خلدون.

ومن العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر وأخيلته وأساليبه وفي الأدب عامة.

١ ـ اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية، ففضائل العرب في الجاهلية لم تعد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتغنى به.

٢ ـ تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السذاجة، بسبب تعدد أعمال الناس وزيادة تجاربهم في العصر العباسي.

٣ ـ انتشار الشعوبية التي قامت على الحط من شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم.

٤ ـ أثر الثقافة الأجنبية، والفارسية خاصة، في الشعر والأدب العباسي. إلا أنه على الرغم من هذا كله، لا يزال يوجد في اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان.

يقول نيكلسون[1]: «لم يدخل الفرس على الشعر العباسي مثل تلك الفخامة التي كانت لأساليبه في الشعر القديم، ولكنهم أدخلوا عليه الخيال الحي اللطيف، والتعبير الدقيق، وعمق الإحساس، وأمدوه بكثير من الآراء والأفكار. وقد ساعد على هذا التحول في الشعر العربي، عدا تأثير الثقافة الفارسية واليونانية، شدة تأثير الإسلام في الحياة العامة،

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs.p. 290

وظهور روح ديني قوي بين الناس، بلغ أقصى مداه في شعر أبي العتاهية في الزهد والتهذيب». فالشعر في هذا العصر يمتاز برقة العبارة، والتعمق في النقد، والتفنن في المعاني باختيار الألفاظ.

٥ ـ اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين ـ عدا فترات قليلة ـ على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة. ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم. فكان كل اعتماد الشعراء في كسب عيشهم، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا. ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم مميزات الشعر في أيام العباسيين. أضف إلى ذلك دخول غير العرب، وخاصة الفرس، في حلبة الشعراء. ولما كان الحكم في الدولة العباسية استبدادياً، كان الإفراط في المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم.

١ ـ أمراء الشعر العباسي:

(أ) البحتري:

وقد ظهر في هذا العصر كثير من أفذاذ الشعر من أمثال أبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف الرضي.

ولد أبو عبادة الوليد البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٥ هـ) القحطاني الطائي بمدينة منبج ونشأ بها، وزار بعض مدن الشام كالمعرة وحلب وحمص حيث لقي بها أبا تمام وأخذ عنه. ثم قصد العراق وأقام ببغداد وسامرا حيث ذاع صيته، واتصل بالخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وأمراء الدولة العباسية في ذلك الوقت، ومدحهم ونال جوائزهم. وقد حضر قتل المتوكل، ثم اتصل بحاشية بعض خلفاء هذا الخليفة، ومات في عهد المعتضد وقد ناهز الثمانين من عمره.

وقد شهد كبار الشعراء بعلو كعبة في الشعر؛ فقد أنشد البحتري أستاذه أبا تمام شعراً فقال له: «أحسنت! أنت أمير الشعراء بعدي». وقيل للبحتري: «أيكما أشعر، أنت أم أبو تمام؟ فقال: جيده خير من جيدي، ورديئي خير من ديئه». وكان يقال لشعر البحتري سلاسل الذهب وهو في الطبقة العليا. وقيل لأبي العلاء المعري أي الثلاثة أشعر: أبو تمام، أم

البحتري، أم المتنبي؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري[١].

وقيل في شعر البحتري: «هذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتع، فلله دره. ما أسلس قياده، وأعذب ألفاظه، وأحسن سبكه، وألطف مقاصده، وليس فيه من الحشو شيء، بل جميعه نخب»[٢].

ومن أشهر قصائد البحتري القصيدة التي يمدح فيها الخليفة المتوكل ويصف موكبه في يوم عيد الفطر:

الله مَكَّنَ للخليفة جعفرٍ ... مُلْكاً يحسنه الخليفة جعفرُ
فانعمْ بيوم الفطر عيناً إنه ... يومٌ أغرُّ من الزمان مُشَهَّرُ
أظهرت عز الملك فيه بجحفلٍ ... لجبٍ يُحاط الدينُ فيه ويُنصر
خِلْنا الجبال تسير فيه وقد غدَت ... عَدَداً يسير بها العديدُ الأكثرُ
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهللوا ... لما طَلَعْت من الصفوف وكبروا
حتى انتهبت إلى المصلّى لابساً ... نورَ الهدى يبدو عليك ويظهر[٣]

ومن روائع قصائد البحتري هذه القصيدة السينية التي وصف فيها إيوان كسرى.

حضرَتْ رحْلي الهمومُ فوجهت ... إلى أبيض المدائن عَنْسي[٤]
أتسلى عن الحظوظ وآسي ... لمحلٍّ من آل ساسانَ دَرْسِ
وهم خافضون[٥] في ظلٍّ عالٍ ... مشرفٍ يحسر العيون ويُخْسي[٦]
حُلل لم تكن كأطلال سُعْدى ... في قفار من البسابس مُلْسِ[٧]

---

(١) خلكان جـ ٢ ص ١٦٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧.
(٣) ديوان البحتري (طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ) ص ١٠ ـ ١١.
(٤) في هذا البيت وما بعده يقول حلت الهموم بساحتي فركبت جملي إلى قصر المدائن الأبيض لأتسلى عن حظي، وآسى لما درس من قصور آل ساسان.
(٥) خافضون ناعمو العيش.
(٦) يرد النظر كليلاً متعباً، من قوله تعالى في سورة الملك ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.
(٧) أي هذه الآثار العظيمة ليست كأطلال البدو في القفار الخلوية.

نقل الدهر عهدهن عن الجِدة   حتى غدون أنضاء لِبْس[١]
فكأن الجرماز[٢] من عدم الإنْس وإخلاله بَنية رمس
لو تراه علمتَ أنَّ الليالي   جعلتْ فيه مأتماً بعد عُرْس
فإذا ما رأيتَ صورة أنطا   كية ارتعت بين روم وفرس[٣]
والمنايا مواثلٌ وأنوشر   وان يزجي الصفوف تحت الدرفس[٤]
ليس يُدْرَى أصنع إنس لجنٍّ   سكنوه أم صنع جن لإنس
عُمِّرتْ للسرور دهراً فصارت   للتعزي رباعُهم والتأسي
ذاك عندي وليست الدار داري   باقتراب منها ولا الجنس جنسي[٥]

(ب) ابن الرومي:

ومن أشهر شعراء هذا العصر وأبرعهم في توليد المعاني وأطولهم نفساً في القصائد، أبو الحسن بن العباس المعروف بابن الرومي. ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ، واستقر بها طوال حياته، ولم يتركها إلا قليلاً. قيل إنه رحل مرة إلى سامرا، ولكنه تشوق إلى بغداد وحن إليها فقال:

بلد صحبتُ بها الشبيبة والصبا   ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثَّلَ في الضمير رأيتَه   وعليه أغصانُ الشباب تميد[٦]

ولم يكن ابن الرومي عربي الأصل، كانت أمه فارسية وأبوه من أصل رومي، كما يتبين ذلك من قوله:

كيف أغضي على الدنية والفر   سُ خئولي والروم من أعمامي

---

(١) أنضاء لبس أي ثياب بالية.

(٢) الجرماز أحد القصور في الإيوان.

(٣) في هذا وفي الستة الأبيات التالية من القصيدة لم نذكر منها إلا البيت التالي وتركنا الأبيات الخمسة التي تليه خشية التطويل، يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دار في أنطاكية بين كسرى والروم.

(٤) الرواية الكبيرة.

(٥) فهي جديرة أن أبكيها وإن كنت غريباً لا أمت لأصحابها بنسب. ديوان البحتري ص ١١٠ أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٦) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥١.

وقد تأثر ابن الرومي بالفلسفة اليونانية حتى إنه ذهب في شعره ـ كما يقول المسعودي[١] ـ إلى معاني فلاسفة اليونان.

وقد وصفه ابن خلكان (جـ ١ ص ٣٥١) فقال: «هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكانها، ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقي فيه بقية».

وكان لموت زوجته وأبنائه الثلاثة أثر بالغ في حالته، حتى إنه لم يتزوج، وأصبح رثاؤه مثلاً يحتذى في الجوْدة. من ذلك قصيدته التي رثى فيها ابنه الأوسط، وتعد من أرقى ما فاضت به عواطف أب على ولده، ومنها:

بكاؤكما يَشْفي وإن كان لا يُجدي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي
ألا قاتل الله المنايا ورَمْيَها ... من القوم حباتِ القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتي ... فلله كيف اختار واسطة العقد!
على حين شِمتُ[٢] الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عني فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب قريباً على بعد
ثكلتُ سروري كله إذ ثكلته ... وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد
أريحانة العين والأنف والحشا ... ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدي؟
ألام لما أبدي عليك من الأسى ... وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدي[٣]

وتعتبر قصيدة ابن الرومي التي نظمها على أثر احتلال صاحب الزنج مدينة البصرة وما أحدثه فيها من التخريب والتدمير من أهم المصادر التاريخية عن ثورة الزنج التي شغلت الدولة العباسية نحو خمس عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ)، وفيها يقول:

لَهْفَ نفسي عليك أيتها البصرة لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا قبة الإسلام. لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلدان، لهفاً يبقى على الأعوام
بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩٥.

(٢) شمت الخير ارتقبته ونظرت إليه

(٣) ديوان ابن الرومي (نشره كامل كيلاني في ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٢٤) جـ ١ ص ٢٩.

دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل إذ راح مدلهم الظلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام؟
أين فلك فيها، وفلك إليها ... منشئآت في البحر كالأعلام (١)
أين تلك القصور والدور فيها ... أين ذاك البنيان ذو الإحكام؟
بُدِّلَتْ تلكم القصور تلالا ... من رماد ومن تراب ركام (٢)

وقد عزا ابن خلكان (جـ ١ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢) موت ابن الرومي (٣٨٣ هـ)، إلى حنق أبي الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، الذي كان يخاف هجوه، «فدس عليه من سمه في خشكنانة (٣) وهو في مجلسه. «فلما أكلها أحس بالسم، فقام، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه، فقال له: سلم على والدي، فقال له: ما طريقي على النار. وخرج من مجلسه، وأتى منزله، وأقام أياماً ومات. وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم، فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه: رأيت ابن الرومي يجود بنفسه، فقلت له: ما حالك؟ فأنشد:

غلطَ الطبيبُ عليَّ غلطة مورد ... عجزتْ مواردهُ عن الإصدار
والناس يلحون (٤) الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

(جـ) أبو الطيب المتنبي:

ومن فحول شعراء هذا العصر أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتنبي (٣٠٢ ـ ٣٥٤ هـ)، وتوفي في محلة كندة بالكوفة. ويقال إنه كان في أول أمره سقاء بالكوفة، ثم رحل إلى الشام، وإلى هذا يشير أحد الشعراء في هجائه له:

أيُّ فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بُكرةً وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ... ء وحيناً يبيع ماء المحيا (٥)

---

(١) إشارة إلى أنها كانت فرصة عظيمة.

(٢) أي متراكم بعضه فوق بعض. ديوان ابن الرومي جـ ٣ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٧.

(٣) الخشكنان، نوع من الفطائر المحشوة: يعجن دقيق الحنطة بالشيرج، ثم يبسط ويملأ بالسكر واللوز أو الفستق وماء الورد، ويجمع ويخبز (عن تذكرة داود بتصرف).

(٤) لحا يلحاه لامه.

(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٧.

اتصل المتنبي بسيف الدولة الحمداني في سنة ٣٣٧ هـ، وأصبح لساناً ناطقاً يشيد بمديحه. وكان ـ كما يقول الثعالبي (جـ ١ ص ٩٠) نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر. ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به؛ إذ هو الذي جذب بضبعه[1] ورفع من قدره، ونفق سعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده والأيام تحفظه، كما قال وأحسن ما شاء:

وما الدهر إلا من رواةِ قصائدي ... إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر مُنْشدا
فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنىَّ به من لا يغني مُغَرِّدا

ومن إحدى قصائد المتنبي يعاتب سيف الدولة:

مالي أكتم حباً قد بري جسدي ... وتدعي حبَّ سيف الدولة الأمم؟
إنْ كان يجمعنا حبٌّ لغرته ... فليتَ أنَّا بقدر الحب نقتسم
يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
إذا نظرتَ نيوب الليث بارزةً ... فلا تظنن أنَّ الليثَ مبتسم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
يا مَنْ يعز علينا أن نفارقهم ... وجُدانُنا كل شيء بعدكم عدم
شرُّ البلاد بلادٌ لا صديقَ به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم[2]

فارق المتنبي سيف الدولة مغاضباً، وقصد مصر وامتدح كافوراً بأحسن المدائح طمعاً في أن يوليه بعض أعمال مصر، فخلع كافور عليه وأنزله في داره وعين جماعة لخدمته، وحمل إليه كثيراً من المال. ولكنه لم يوله عملاً من الأعمال، معتذراً بأنه لا يستطيع أن يولي رجلاً يدعى النبوة؛ فانقلب مدح أبي الطيب هجاء، وأسرف في ذلك كما أسرف في مدحه من قبل[3]. فمن مدائح المتنبي لكافور، قوله في أول قصيدة أنشدها إياه في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هـ[4]:

---

(١) الضبع العضد كلها.
(٢) البرقوقي: شرح ديوان المتنبي جـ ٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٦.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٧٤.
(٤) أنظر شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي جـ ٢ ص ٥١٤، جـ ١ ص ١١٨ ـ ١١٩، ٢٦٠ ـ ٢٧٦.

قــواصــدَ كــافــور تــوارك غــيــره ومنْ قصــد البحر استقــل الســواقيــا
فجــاءت بنــا إنســانَ عيــنِ زمــانــه وخــلّت بيــاضــاً خلفــهــا ومــآقيــا

ولما لم ينل المتنبي من كافور ما طلبه، استعد للرحيل، وأنشد في يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدة طويلة هجا كافوراً فيها أشد الهجاء، ومنها[١]:

عيــدٌ بــأيــة حــالٍ عــدتَ يــا عيــد بمــا مضى أمْ لأمرٍ فيــك تجــديــدُ؟
لا تشتــر العبــد إلا والعصــا معــه إن العبيــدَ لأنجــاسٌ مــنــاكيــد

قصد المتنبي بعد ذلك بلاد فارس حيث مدح عضد الدولة بن بويه، فأجزل جائزته؛ ومن مدائحه له قوله:

أروح وقــد خــتــمــتُ عــلى فــؤادي بــحــبــك أن يــحــل بــه ســواكــا
ولــو أني استــطعت خفضتُ طــرفي فــلم أبــصــر بــه حــتــى أراكــا
وكيف الصبــر عنــك وقــد كفــاني نــداك المستفيضُ ومــا كفــاكا[٢]

ولما عاد المتنبي من فارس قصد بغداد، ثم الكوفة، فتعرضت له عصابة على رأسها فاتك بن أبي الجهل الأسدي، فحاربها المتنبي وأصحابه، وقد فكر في الفرار فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

فــالخيــل والليــل والبيــداء تعــرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فكر راجعاً وقاتل حتى قتل[٣].

(د) أبو العلاء المعري:

ولد أبو العلاء في سنة ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان، وهي بلدة صغيرة ببلاد الشام على مقربة من حماة وشيزر، تنسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري؛ وسمي المعري نسبة إلى هذه المدينة. وقد أصيب بالجدري وهو في السنة الرابعة من عمره، وذهب الجدري ببصره. وعاش معظم حياته في المعرة في عصر اضطربت فيه الأحوال السياسية: فكانت إمارة حلب

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٦.

(٢) البرقوقي: شرح ديوان المتنبي جـ ٢ ص ١٨٩. الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ١ ص ١٦٣.

(٣) ابن خلكان: جـ ١ ص ٣٧. أنظر شرح ديوان المتنبي البرقوقي جـ ١ ص ٢٦٢.

صراعاً بين الحمدانيين والفاطميين تارة، وبين قبائل البدو والروم تارة أخرى[١]، وكان لهذه الأحداث أثر في شعر أبي العلاء النقدي.

تعلم أبو العلاء النحو واللغة على أبيه، وكان من أسرة تولى أكثر أفرادها منصب القضاء على مذهب الشافعي في المعرة وما جاورها من البلاد مثل شيزر. وبقي القضاء في هذا البيت إلى أن دخل الصليبيون المعرة ٤٩٢ هـ، واستمرت الفتيا على مذهب الإمام الشافعي في هذا البيت أكثر من قرنين. وكان أبو العلاء كثير الترحال في شبابه، زار المدن الشامية المشهورة بالعلم والعلماء كأنطاكية واللاذقية وطرابلس، وأخذ العلم عن علمائها واختلف إلى مكتباتها[٢]. كما زار بغداد مرتين: إحداهما في سنة ٣٩٨ هـ، والثانية في سنة ٣٩٩. لكنه رجع إلى المعرة ولزم منزله، وشرع في التصنيف، وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله وذهاب بصره[٣].

كان أبو العلاء منذ نعومة أظفاره شاعراً مطبوعاً. قرض الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره، وكان متضلعاً في فنون الأدب والنحو واللغة، حتى قيل إنه كان يحفظ كتاب الجمهرة لابن دريد، «وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار». وقد عدد ابن خلكان مصنفات أبي العلاء فقال: «وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة،وله من النظم «لزوم ما لا يلزم»[٤]، وهو كبير يقع في خمسة أجزاء أو ما يقاربها. وله «سقط الزند»[٥]أيضاً، وشرحه بنفسه وسماه «ضوء السقط». وبلغني أن له كتاباً سماه «الأيك والغصون» وهو المعروف بالهمزة والردف (الحرف الذي قبل الهمزة) يقارب المائة جزء في الأدب أيضاً. ولما فرغ من تصنيف كتاب «اللامع العزيزي» في شرح شعر المتنبي وقرىء عليه، أخذ الجماعة في وصفه، فقال أبو العلاء: كأنما نظر المتنبي إليَّ بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي مَن به صَمَم

---

(١) ابن خلكان جـ ١ص ٣٢ ـ ٣٤.
(٢) المقدسي: أمراء الشعر العربي ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٤.
(٤) طبعة القاهرة سنة ١٨٩١.
(٥) طبعة بولاق سنة ١٢٨٦ هـ في جزأين.

اختصر أبو العلاء ديوان أبي تمام وشرحه وسماه «ذكرى حبيب»، وديوان البحتري وسماه «عبث الوليد»، وديوان المتنبي وسماه «معجز أحمد»؛ وتكلم على غريب أشعارهم ومعايبها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم، وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أماكن لخطئهم.

كانت لأبي العلاء آراء فلسفية عميقة؛ فتراه في لزومياته جريئاً مبتكراً، وله آراؤه في الأخلاق والنقد الاجتماعي. ولم يقنع بإظهار النقائص الاجتماعية والسياسية في جرأة، بل جعل الحياة السياسية كلها موضوعاً لبحثه، وأخذ يتأمل في أعمق معضلاتها[1]. يؤيد هذا قوله في لزومياته (ص ٦٤)[2].

أفيقوا أفيقوا يا غواةً فإنما ديانـاتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادروا فماتت سنة اللؤماء

وقوله:

قد حُجب النور والضياء وإنما ديننا رياء
يا عالمَ السوء ما علمنا أن مصليك أتقياء

وكان أبو العلاء يرى رأي الحكماء الذين لا يأكلون اللحم؛ وبقي خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً حتى لا يعذب الحيوانات بذبحها. وكان بيته كعبة العلماء؛ فقد زاره عبد الوهاب بن نصر المالكي[3]، وكان من كبار الشعراء، فأضافه عنده، وشهد له بالتضلع في الدين والشعر، وأشار إلى ذلك في قصيدته التي أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول:

والمالكي ابنُ نصرٍ زار في سفرٍ بلادَنا فحمدْنا النأيَ والسفرا

---

(١) نيكلسون: أنظر مادة «أبو العلاء المعري» في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) سقط الزند ص ٥١، ٥٢.

(٣) تولى عبد الوهاب بن نصر القضاء بمدينتي بادرايا وباكسايا الواقعتين على مقربة من النهروان، وفي مدينة إسعود الواقعة في أرض الجزيرة على مقربة من دجلة أو على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبي ميافارقين. وهجر بغداد في أخريات أيامه بعد أن ضاقت به سبل العيش، وقصد مصر في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي سنة ٤٢٢ هـ، ولم يلبث أن مات في تلك السنة. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٦.

إذا تـفـقـه أحـيـا مـالـكـاً جـدلاً   وتنشـر الملك الضليـل[١] إن شعـرا[٢]

كذلك زاره في معرة النعمان ناصر خسرو الشاعر والرحالة الفارسي الذي أصبح داعياً للإسماعيلية[٣]، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الإسماعيلية في فارس وداعي دعاة الفاطميين في مصر، وتحدث إليه في مذهب النباتي، وقد اعتز أبو العلاء بتقدير هؤلاء العلماء له وترددهم عليه فقال:

يـزورني النـاس: هـذا أرْضُـه يمنٌ   مـن الـبـلاد وهـذا داره الـطبس[٤]

قال الدكتور طه حسين[٥]: إن أبا العلاء «هو الفيلسوف الفذ الذي التزم ما لا يلزم عند المسلمين في سيرته ولفظه؛ فحرم الحيوان، والتزم النبات، وأبى الزواج والنسل وأراد اعتزال الناس. ومع أنه من أصحاب اللذة فلديه شدة غريبة في رفض الخمر،فقد حرمها من جهات ثلاث: من جهة العقل والصحة والدين، وألف في ذمها كتاباً خاصاً سماه «حماسة الراح». وأبو العلاء هو الفيلسوف الفذ الذي أنكر النبوات، واعترف بالإله، وعرض بالتكليف، وعارض القرآن، وهزىء بشيء من أحكامه، ثم بقي مع ذلك سالماً لم يصبه أذى في نفسه حتى مات» (٤٤٩ هـ).

٢ ـ شعراء الفرس:

ارتقى الشعر الفارسي وبلغ أقصى مداه في عهد السامانيين. ويعد أبو عبد الله بن محمد الرودجي (١٨٥ ـ ٢٣٦ هـ) أشهر شعراء النصف الأول من القرن الثالث الهجري. وقد علت شهرته على شهرة من سبقه من الشعراء، حتى لقب أبا الشعر الفارسي، وأول شعراء الفرس ومن أصاب القدح المعلى والزعامة بين شعراء عصره. وكان البلعمي وزير إسماعيل بن أحمد الساماني (ت ٣٣٠/٩٤٠) يقول إن الرودجي لم يكن له نظير بين العرب

---

(١) الملك الضليل لقب لامرىء القيس الذي عده النبي ﷺ أشعر الشعراء. وقد روى الكتبي (كتاب فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات التي ذكرها في كلامه عن عبد الوهاب بن نصر المالكي.

(٢) أبو العلاء المعري، ديوان سقط الزند ص ١٣٤.

(٣) راجع لفظة «أبو العلاء» في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) قصة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قوهستان قاين، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس، إحداهما طبس العناب، والأخرى طبس التمر، أنظر لفظ طبس في معجم البلدان لياقوت.

(٥) ذكرى أبي العلاء ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

والفرس. وقد تقلد أبو علي البلعمي ابن هذا الوزير الوزارة في عهد الأمير منصور بن نوح الساماني، ونقل كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري إلى اللغة الفارسية وتوفي سنة ٣٦٨ هـ (٩٩٦ م)(١).

واشتهر في هذا العصر كثير من شعراء الفرس، نخص بالذكر منهم عمر الخيام صاحب كتاب الرباعيات المشهور، وابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ) أحد فلاسفة المسلمين. وقد نظم كثيراً من القصائد بالفارسية، وبالعربية، من ذلك قوله في النفس:

هَبَطَتْ إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتَمَنُّعِ
محجوبة عن كل مُقلة عارفٍ ... وهي التي سَفَرَتْ ولم تتبرقع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدتْ تغرد فوق ذِرْوة شاهق ... والعلمُ يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمةً بكل خلية ... في العالمين فخرقها لم يُرفع(٢)

ومن شعراء الفرس الذين نظموا القصائد بالعربية مهيار الديلمي المتوفى سنة ٤٢٨ هـ. وقد تحول عن المجوسية إلى الإسلام في سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) على يد الشريف الرضي نقيب العلويين في بغداد(٣). ومن شعراء الغزنويين الفردوسي الذي يعد أشهر شعراء الفرس في كل العصور. ويأتي بعده العنصري شاعر بلاط محمود الغزنوي، والأسدي صديق الفردوسي الذي نشأ معه في مدينة واحدة، وهو مخترع ذلك النوع من القصائد الجدلية التي يطلق عليها «المناظرة»، والعسجدي والفروخي السجستاني. ثم يأتي بعد قليل المنوشيري، والمنصوري، واليميني الذي قيل إنه ألف تاريخ عهد السلطان محمود الغزنوي بالشعر الفارسي، والشاعرة ربيعة بنت كلب القُصدارية. ومن هؤلاء الشعراء أبو سعيد بن أبي الخير الذي اشتهر برباعياته في التصوف(٤).

(١) Browne, vol. I.pp. 355 - 356,369.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٠. Browne, vol. II.pp. 113 - 114.

(٤) Browne, vol. II pp.115 - 117.

٣ ـ شعراء مصر والأندلس

نبغ في مصر والأندلس كثير من الشعراء ولا سيما في العصر الفاطمي. وقد أكثر رجال الأدب في قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين، لما كان يدره هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم. ولقد دفعت الرغبة في الحصول على هذه الجوائز والهبات الشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين. على أن السنيين، وإن كانوا في مدحهم أكثر اعتدالاً من الشيعيين، كان ابن هانىء وغيره، قد غلوا في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين وكثيراً ما دفعهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد.

ومن أشهر هؤلاء الشعراء محمد بن هانىء الأندلسي، وكان من قبيلة الأزد، ولد في إشبيلية ببلاد الأندلس حيث قضى أيام صباه، ثم اتصل بالخليفة المعز الفاطمي الذي بالغ في الإنعام عليه. ثم توجه المعز إلى مصر، فتبعه ابن هانىء ورجع إلى المغرب لأخذ أولاده واللحاق بمولاه. وأعد العدة للرحيل وسار في طريقه إلى مصر. فلما بلغ برقة توفي سنة اثنتين وستين وثلثمائة. وعمره ست وثلاثون سنة. وقيل اثنتان وأربعون».

وكان المعز يؤمل آمالاً كباراً في هذا الشاعر ويريد أن يباهي به شعراء المشرق. فإنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانىء وهو بمصر، أسف عليه أسفاً شديداً وقال: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك»[١]. ولا شك أن المعز أصاب فيما قاله، لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانىء، ألفينا أكثره قد نظم في مدح المعز وأسرته، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه إلى نفسه، كما يتبين ذلك في هذين البيتين:

لي صارمٌ وهو شيعي كحامله ... وهو يكاد يسبق كرابي إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلَّطه ... ولم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[٢]

ولم يفتر ابن هانىء عن مواصلة مدحه للمعز والإغراق في مدحه حتى جعله في منزلة عيسى ومحمد، بل نسب إليه بعض صفات الألوهية[٣]. ونسب إليه القدرة على إتيان المعجزات[٤].

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ٤ ـ ٥.
(٢) ديوان ابن هانىء (طبعة بيروت ١٣٢٦ هـ) ص ١٨٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤ ـ ٣٦.
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٤.

ومن أشهر شعراء الفاطميين أبو حامد أحمد الأنطاكي وقد عاصر المعز والعزيز والحاكم، وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس وغيرهما، ومن قوله يمدح ابن كلس:

لم يَدَعْ للعزيز في سائر الأر ض عدواً إلا وأخمدَ نارَه
فلهذا اجتباه دون سوا ه واصطفاه لنفسه واختاره
كل يوم له على نُوَب الدهر وكرّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنُها الفرار من البخل وفي حومة الوغى كراره
قد أقلَّتْ عن العزيز عِداه بالعطايا وكثَّرت أنصارَه [١]

(أ) النثر

(١) الجاحظ

تنوعت الكتابة لكثرة العلوم، وتنوع الفنون في العصر العباسي الثاني، وأصبح في المتكلمين كتَّاب، وفي الفقهاء كتاب، وللفلسفة كتاب، وللأدب،وخاصة النثر، كتاب يجيدون الكتابة في فنه. ويقول الدكتور طه حسين[٢] عن الكتاب في القرن الثالث الهجري إنهم «قد تقسموا فنوناً مختلفة، وتخصص كل منهم في فرع من هذه العلوم: فمنهم من تخصص في الفلسفة والكلام، ومنهم من تخصص في اللغة والنحو، وقليل منهم من جمع من هذه الأشياء شيئاً كثيراً. بل نرى أن هذه الحياة العقلية غلبت العقل العربي على الخيال العربي، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر، وأكثرت الكتاب وقلت الشعراء». والذي يهمنا هنا هو النثر الأدبي.

اهتم الأدباء بدراسة البيئة التي تحيط بهم: فألف القاضي محمد بن إسحاق الصيمري المتوفى سنة ٣٧٥ هـ كتاب مساوىء العوام وأخبار السفلة والأغتام [٣]. ووصف الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الحياة في المدن. ويعد أبا النثر العربي الجديد، كما يعد أعظم كتاب النثر أثراً، حتى قال ثابت بن قرة المترجم: «ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب، والثاني الحسن البصري، والثالث أبو عثمان الجاحظ» [٤]. وإن أسلوبه

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(٢) صحيفة الجامعة المصرية، إبريل ١٩٢١ ص ٥.
(٣) يعني الأغبياء الجهال.
(٤) ياقوت: إرشاد الأريب جـ ٦ ص ٦٩ ـ ٧٠.

وما تحويه كتبه من معلومات غزيزة يؤهله لأن يوضع في المرتبة الأولى من متقدمي كتاب النثر العربي[١].

ويقول المسعودي[٢] في مؤلفات الجاحظ: «ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه مع قوله بالعثمانية[٣]. وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب. إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع وكتب الجاحظ، مع انحرافه المشهور: تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم؛ ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة. وله كتب حسان منها: كتاب البيان والتبيين[٤]. وهو أشرفها، لأنه جمع فيه المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب مما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به، وكتاب الحيوان، وكتاب الطفيليين والبخلاء، وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى نصب[٥] ولا إلى دفع حق. ولا يعلم ممن سبق وخلف من المعتزلة أفصح منه.

ومن أشهر مؤلفات الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير[٦] التي هجا فيها أحمد بن عبد الوهاب وتقع في نحو ١٥٠ صفحة[٧].

---

(١) Browne, vol. i, p. 331.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

(٣) أي تشيعه لعثمان بن عفان كما هو مذهب أهل البصرة، ومذهبهم مخالف لمذهب الشيعة العلوية في الكوفة.

(٤) اعتبر ابن خلدون (مقدمة ص ٥٠٦) كتاب البيان والتبيين أحد أركان الأدب فقال: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي على القالي البغدادي، وما سوى هذه الأبواب الأربعة فتبع لها وفروع عنها».

(٥) النصب التدين ببغض علي، ويلقب أصحاب هذا المذهب بالنواصب والناصبة وأهل النصب، لأنهم نصبوا لعلي أي عادوه. وانظر القاموس المحيط.

(٦) وهي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ الإحدى عشرة (القاهرة ١٣٢٤). وقد طبعت في ليدن سنة ١٩٠٣ ضمن ثلاث رسائل هي: رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وكافة جند الخلافة، وكتاب فخر السودان على البيضان، وكتاب التربيع والتدوير (ص ٨٦ - ١٥٧).

(٧) أنظر طه حسين: صحيفة الجامعة المصرية (إبريل ١٩٣١)

(٢) أبو إسحاق الصابي:

ويمتاز القرن الرابع الهجري بنهضة أدبية مباركة. فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان، من بينهم طائفة من الوزراء، وذاع استعمال السجع في الرسائل. وقد وصف متز[١] هذه الرسائل في هذه العبارة فقال: «إن رسائل القرن الرابع الهجري هي آية الفن الإسلامي ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون، وهي اللغة. ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن، لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق، وامتلاكهم ناصية البيان في أصعب صورة، وتلاعبهم بذلك تلاعباً. وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وإعلامه. لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة بأن تنشر كتباً للناس. وكان من أولئك الوزراء: الخصيبي، وابن مقلة، والمهلبي، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والإسكافي وزير السامانيين، وإبراهيم بن هلال الصابي الذي تقلد ديوان الإنشاء في بغداد سنة ٣٤٩ هـ.

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الحراني (٣٢٠ ـ ٣٨٤ هـ) من أشهر رجال الأدب في هذا العصر. وقد ولد ببغداد، ووصفه الثعالبي[٢] في هذه العبارة فقال: «أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناجر في الكتابة[٣]، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة». وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ، في عهد معز الدولة بن بويه ثم في عهد ابنه عز الدولة بختيار. وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار، فحقد عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ. ثم أطلقه في سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه، وأمره أن يضع له كتاباً في أخبار بني بويه سماه «التاجي». وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابي عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه، على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب، وأخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه[٤]، فرفع إلى عضد الدولة

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ١ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٢) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٣١٨.

(٣) تثنى أي توضع في الأغماد، والمقصود هنا أنه يستغنى بقلمه عن استعمال السيف والخنجر كما يقول الشاعر:

قوم إذا راموا عداوة معشر ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام

(٤) أي تزيينه بالشنوف وهي كالأقراط من الحلى.

أن صديقاً للصابي دخل عليه يوماً فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض، فسأله عما يعمله من ذلك فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها. فأمر (عضد الدولة) بأن يلقي تحت أرجل الفيلة. فأكب نصر بن هارون ومطهر بن عبد الله وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستشفعون إليه في أمره ويتلطفون في استيهاب دمه إلى أن أمر باستيحائه(١) مع القبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله، فبقي في ذلك الاعتقال بضع سنين إلى أن تخلص في آخر أيام عضد الدولة إلى أن رزحت حاله وتهتك ستره» (٢).

وكان هلال بن الصابي متمسكاً بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام، حتى إن بختيار عرض عليه الوزارة إذا أسلم، «فلم يهده الله للإسلام كما هداه لمحاسن الكلام، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويخدم الأكابر أرفع خدمة، ويساعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه» (٣).

(٣) الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ):

وكان الصاحب إسماعيل بن عباد يحب أبا إسحاق الصابي أشد الحب ويواصل إرسال منحه وعطاياه إليه. قال أبو القاسم علي بن محمد الكرخي، وكان الصاحب يقول: كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع؛ يعني نفسه.. وكان الصاحب يكتب كما يريد، والصابي يكتب كما يؤمر. وبين الحالين بون بعيد، وكيف جرى الأمر فهما هما، وقد وقف فلك البلاغة عندهما» (٤).

ويعد الصاحب إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بن ركن الدولة البويهي في أصبهان والري وهمذان من أشهر رجال الأدب في عصره. وقد وصفه الثعالبي(٥) وصفاً شائقاً في هذه العبارة فقال: «هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان.. وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم، ومنزع آمالهم، وأمواله مصروفة إليهم، وسار كلامه مسير الشمس، ونظم ناحيتي الشرق

(١) أي تركه حياً.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٩.

(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٥) يتيمة الدهر جـ ٣ ص ١٦٩ - ١٧٠.

والغرب[١]؛ واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر، من يربي عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رقاب المعاني، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين: كأبي العتاهية، والنمري، ومسلم بن الوليد، وأبي الشيعي، ومروان بن أبي حفصة، ومحمد بن مناذر، وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والزهري[٢] وجرجان مثل: أبي الحسين السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني. وأبي الحسن البديهي وأبي سعد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي، وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني، وأبي القاسم بن أبي العلاء، وأبي محمد الخازن، وأبي هاشم العلوي، وأبي الحسن الجوهري، وبني المنجم، وابن بابك، وابن القاشاني، وأبي الفضل الهمذاني، وإسماعيل الشاشي، وأبي العلاء الأسدي، وأبي الحسن الفويري، وأبي دلف الخزرجي، وأبي حفص الشهرزوري، وأبي معمر الإسماعيلي، وأبي الفيض الطبري، وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عني اسمهم، ومدحه مكاتبه الشريف الموسوي الرضي، وأبو إسحاق الصابي، وابن حجاج، وابن سكرة، وابن نباته.. وما أحسن وأصدق قول الصاحب:

إن خير المُدَّاح مَنْ مدحَتْهُ   شعراء البلاد في كلِّ نادي

ذكر ابن خلكان[٣] أنه «اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره» وصنف الصاحب كثيراً من الكتب،منها كتاب في سبعة مجلدات أسماه (المحيط)، وكتاب الكافي في الرسائل، وكتاب الأعياد وفضائل النيروز، وكتاب الإمامة ذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب وأثبت إمامة من تقدمه، وكتاب الوزراء، وكتاب الكشف عن مساوي شعر المتنبي إلى غير ذلك من الرسائل البديعة[٤].

وكانت مكتبة الصاحب تزخر بالمصنفات، حتى إن نوح بن أسد الساماني لما كتب إليه يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته، فكان من جملة أعذاره إليه، أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل[٥].

---

(١) أي جمع من تدبيره بين بلاد الشرق والغرب.
(٢) كذا في كتاب يتيمة الدهر الثعالبي ولعلها الري.
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٥.
(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٧٥.
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٧.

(٤) أبو بكر الخوارزمي:

وقد تطور الأدب تطوراً ملحوظاً في هذا العصر. فبعد أن كانت المحسنات اللفظية مقصورة على الرسائل الرسمية، تعددت الرسائل الإخوانية (أو الشخصية) بوجه عام. وأصبحت كتابة هذه الرسائل في أواخر القرن الرابع الهجري فناً من أرقى الفنون، حتى استطاع كثير من الأدباء أن يتخذوا من كتابة هذه الرسائل الجديدة وسيلة للتكسب، كما كان الشعراء من قبل. ومن أشهر هؤلاء الأدباء أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ، وكان أبوه من خوارزم وأمه من طبرستان، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري. وقد قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان، وتنقل في كور العراق والشام، واتصل بسيف الدولة الحمداني، وشرق بعد أن غرب، وورد بخارى، ثم نيسابور، ثم قصد سجستان وطبرستان، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها، وتوثقت الصلة بينه وبين الصاحب بن عباد في أصبهان[١].

ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عباد وهو بأرجان؛ فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول. فدخل الحاجب وأعلمه، فقال الصاحب: قل له، قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: إرجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال، فقال الصاحب: هذا يكون أبا بكر الخوارزمي. فأذن له في الدخول فدخل عليه. فعرفه وانبسط له[٢].

حاز الخوارزمي شهرة واسعة في ميدان الأدب، فقصده الطلاب من كل حدب وصوب. فمن رسائله في الفقر: وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان، ويستحب الغنى لما فيه من الصوان[٣]. فإذا نبغ الغم من رتبة الغنى، فالغنى هو الفقر، واليسر هو العسر، لا بل الفقير على هذه القضية أحسن من الغني وأقل منه أشغالاً، لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق، منفك الرقبة من كل رق. فلا يستبطئه إخوانه ولا يطمع فيه جيرانه، ولا تنتظر في الفطر صدقته، ولا في النحر أضحيته، ولا في شهر رمضان مائدته، ولا في الربيع باكورته[٤]. ولا

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٩٢ ـ ١٩٤، ٥٢٣.

(٢) أي سر به ورفع الكلفة بينه وبينه. ابن خلكان جـ ١ ص ٥٢٣.

(٣) أي صون الكرامة والنفس.

(٤) باكورة لشيء أول ما يظهر منه.

في الخريف فاكهته، ولا في وقت الغلة شعيره وبره، ولا في وقت الجباية خراجه وعشره. وإنما هو مسجد يحمل إليه ولا يحمل عنه[١]، وعلوي يؤخذ عليه[٢]، تتجنبه الشرط نهاراً ويتوقاه العسس ليلاً، فهو إما غانم وإما سالم. وأما الغني فإنما هو كالغنم غنيمة لكل يد سالبة، وصيد لكل نفس طالبة، وطبق على شوارع النوائب[٣]، وعلم منصوب في مدرجة المطالب[٤]، تطمع فيه الإخوان ويأخذ منه السلطان وينتظر فيه الحدثان[٥] ويحيق ملكه النقصان»[٦].

وكان أبو بكر الخوارزمي شيعياً غالياً. ولو وازنا بين رسائل الخوارزمي ورسائل الصابي، لوجدنا رسائل الصابي أكثر اتزاناً وأقل مبالغة وأقرب إلى الواقع. وكان أهم ما امتازت به رسائل الخوارزمي المحسنات البديعية والسلاسة... وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربي القديم كثير من وجوه الشبه، ومن شغف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس[٧] والتشبيهات الحسنة وقلق نفس الكاتب. غير أن ما كانت تنطوي عليه الفروسية قديماً من نبل العاطفة قد تغير وصار موضع سخرية، وهذه هي الصورة الوحيدة التي أتيحت له في مجتمعات المدن، أما الصفات الرئيسية التي اتصف بها أسلوب الخوارزمي، فهي أيضاً صفات الأسلوب الساخر. وهي المبالغة والتكرار، وهو يعمد إليهما باعتبارهما طريقة فنية في الكتابة»[٨].

(٥) بديع الزمان الهمذاني:

وكان زعيم هذا النوع من الكتابة أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف ببديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨[٩]. ـ وكان كما وصفه الثعالبي[١٠] ـ «معجزة همذان ونادرة الفلك. وبكر

---

(١) أي أن الفقير يشبه المسجد في أنه يوهب له ولا يستوهب منه.

(٢) لا يؤخذ عليه أي لا يفقد عليه شيء، وفي الأصل «عنه» ولعله تحريف.

(٣) يشبه الغني بالطبق على الإناء يغطي بماله النوائب التي تنتاب الناس.

(٤) بمعنى أنه كالراية المنصوبة الظاهرة يقصد إليها كل طالب، والمراد أن الغني يكون ظاهراً في قومه. فإذا نزلت بهم المغارم والمطالب قصده الطالبون أولاً.

(٥) أي يرتقب نزول الحوادث به.

(٦) أي يأتي على مملوكه النقص بالحوادث والعلل. الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٧) الجرس الموسيقي والعذوبة.

(٨) متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ١ ص ٤٠٤.

(٩) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩.

(١٠) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٢٤٠.

عطارد(١)، وفرد الدهر وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكته. ولم ير ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب: فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفاً ولا يخل بمعنى، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة، ثم يهذها(٢) عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً. وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها.

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها.

وربما كان يكتب الجواب المقترح عليه، فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جراً إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه. ويوشح القصيدة(٣) الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه. ويقترح عليه كل عويص وعسير من النثر، فيرتجله في أسرع من الطرف على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه».

اتصل بديع الزمان بالصاحب بن عباد وأخذ عنه، كما اتصل بأبي بكر الخوارزمي. ومن رسائله إلى الخوارزمي: «أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه، كما طرب النشوان مالت به الخمر، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب، ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب»(٤).

ومن رقعة له: «يعز عليَّ أيد الله الشيخ أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي قبل وصولي، ويرد مشرع الأنس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة:

وعليَّ أن أسعى وليـ ـسَ عليَّ إدراكُ النجاح

(١) قال الأزهري: «عطارد كوكب الكتاب» ومعناها أن الذين يولدون في طلوع عطارد يكونون ذوي حظ في الأدب والكتابة والشعر.

(٢) الهذ سرعة القراءة.

(٣) التوشيح التزين بالوشاح، والمراد أنه يجمع بين صناعتي الشعر والنثر.

(٤) رسائل بديع الزمان الهمذاني ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

وقد حضرت داره وقبلت جداره، وما بي حب الحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان[١].

على أن بديع الزمان كان بخلاف الخوارزمي، سنياً مغالياً في عقائد هذا المذهب. وكان من أثر ذلك أن دب الخلاف بينهما، فتقارعا وتساجلا، وكانت الغلبة لبديع الزمان الذي ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، وخاصة بعد موت الخوارزمي. وكان بديع الزمان يضع من قيمة أسلوب الخوارزمي ويقول: إنه لا يجيد من الكتابة «إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، المتناول لكل يد وفم»[٢].

ومن قول بديع الزمان في تعزية: «الموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنب حتى صار الحمام أصغر ذنوبها. فلتنتظر يمنة هل ترى إلا محنة؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة؟»[٣].

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين، هو أبو الفتوح علي بن محمد البستي الذي اشتهر بحذقه في الشعر والنثر. وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوي بإحضاره حين فتح مدينة بُست، فدخل في خدمة سبكتكين، وأصبح كاتب الرسائل في ديوانه وشاعر بلاطه، ثم خدم ابنه محموداً بعد وفاته، ومات في منفاه ببخارى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م)[٤]. وقد حذق الصناعة البديعة التي اشتهرت في زمانه على يد ابن العميد والصاحب وأضرابهما. وكانت له طريقة جميلة في التجنيس خاصة. «فمن ألفاظه البديعة قوله: من صلح فاسده أرغم حاسده، ومن أضاع غضبه أضاع أدبه، عادات السادات سادات العادات، من سعادة جدك وقوفك عند حدك، الرشوة رشاء الحاجات، أجهل الناس من كان للإخوان مذلاً وعلى السلطان مدلاً. الفهم شعاع العقل، المنية تضحك من الأمنية، حد العفاف الرضا بالكفاف، ما لخرق الرقيق ترقيع».

وقد ذاعت أشعار البستي في زمانه وحفظها الباس وتناقلوها. . وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة في مجالس القاهرة ومقاهيها. من ذلك القصيدة التي مطلعها:

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٢٤٣.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني ص ٧٦.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٣٤٤.

(٤) تاريخ اليميني جـ ١ ص ٦٧ ـ ٧٢.

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

ومنها:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسان[١]

(ب) العلوم العقلية

١ ـ الفلسفة:

(أ) الكندي:

تأثر المسلمون بالفلسفة اليونانية بعد أن ترجمت كتبهم إلى العربية في عهد الرشيد والمأمون، فاشتغل «كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها. نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم. وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها». وكان معاصراً للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. وكان المأمون ـ كما لا يخفى ـ أكثر الخلفاء عناية بالفلسفة وحثا للعلماء على دراستها ونقل كتبها، كما لا يخفى أثر الفلسفة في علم الكلام.

وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى المشرق عن طريق الكنائس المسيحية التي تأثرت بهذه الثقافة، وخاصة الكنيسة النسطورية التي انتشرت آراؤها في بلاد المشرق عامة وفي فارس خاصة، وآراء الكنيسة اليعقوبية والملكانية التي انتشرت في سورية. كما كان لمدارس الرها أثر كبير في نشر الثقافة اليونانية وفي مدارس نصيبين، حيث كانت تدرس العقائد النسطورية والثقافة اليونانية التي نالت تشجيع آل ساسان من ملوك الفرس. ولا تقل مدارس حران في بلاد الجزيرة عن مدارس الرها ونصيبين؛ إذ كانت تدرس فيها الآراء الفلسفية اليونانية والأفلاطونية الحديثة[٢]. وكان الحرانيون ـ أو الصابئة، وهذه التسمية التي أطلقت عليهم في

(١) Browne vol. I, pp.98,100

(٢) دي بور. تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٥ ـ ١٧.

القرنين التاسع والعاشر (الثالث والرابع الهجري) ـ [١] ينسبون حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة[٢] وأغاثاذيمون[٣] وأورانيوس[٤] وغيرهم. وقد أخذوا عن حسن نية بآراء موضوعة ترجع إلى العصر الإغريقي المتأخر، وربما يكون بعض هذه الآراء قد وضع بين ظهرانيهم. وقد نشط قليل منهم في الترجمة وفي التأليف الذي يدل على سعة العلم، وكان لكثيرين منهم اتصال علمي وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر (الثاني إلى الرابع الهجري)[٥].

وقد أسس كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) في مدينة جنديسابور معهداً تدرس فيه الفلسفة والطب وغيرهما من العلوم، وكان معظم أساتذته من المسيحيين النسطوريين. وكان لتسامح هذا الملك وشغفه بالثقافة العقلية أثر كبير في جذب العلماء، لا من النسطوريين وحدهم، بل من اليعقوبيين والسريانيين، الذين ذاعت شهرتهم في الطب، سواء في عهد الساسانيين أو في عهد الخلفاء الراشدين. ويدل على هذا التسامح ما لقيه الفلاسفة الوثنيون من أنصار المذهب الأفلاطوني الحديث من وسائل التشجيع والتعضيد[٦].

وممن تأثر بالآراء الفلسفية اليونانية خاصة يعقوب بن إسحاق الكندي، من قبيلة كندة اليمنية التي ينسب إليها امرؤ القيس الشاعر. وهو ـ كما يظهر من اسمه ـ عربي الجنس، ولذلك سمي فيلسوف العرب. وكان ـ كما يقول ابن النديم[٧] ـ «فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها... وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيقي والموسيقي والنجوم، وغير ذلك».

نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد، وكانت ـ كما نعلم ـ من مراكز الثقافة الإسلامية التي تأثرت بالثقافتين الفارسية واليونانية واشتهر الكندي بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وتنقيح ما ترجمه غيره من المترجمين. وتأثر بآراء المعتزلة، كما تأثر

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) ذكر ابن النديم (الفهرست ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤، ٤٩٦ ـ ٤٩٧) أن الكندي اطلع على مقالات لهرمس في التوحيد «لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها».

(٣) أوغاثوذيمون. وهو مصري، وكان أحد أنبياء اليونانيين والمصريين.

(٤) يسميه ابن النديم أراني ويذكره مع أنبياء الحرانيين والكلدانيين.

(٥) راجع دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٧، ١٨ هامش (١)، (٢)، (٣).

(٦) المصدر نفسه ص ١٨ ـ ١٩.

(٧) كتاب الفهرست ص ٣٥٧.

بالفلسفة اليونانية، وخاصة فلسفة أرسطو، واشتغل بالرياضيات وما وراء الطبيعة. ومن أشهر تلاميذه أحمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦ هـ. وكان مؤدب الخليفة المعتضد، واتصل به اتصالاً وثيقاً. ثم قلده الحسبة، وجعل يستشيره في أمور خلافته، واشتغل بالكيمياء والجغرافيا والتاريخ[١]. ومن تلاميذ الكندي أيضاً أبو معشر البلخي المنجم المشهور المتوفى سنة ٢٧٢ هـ، كما تأثر بآراء إخوان الصفا[٢].

وذكر ابن النديم (ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩) مؤلفات الكندي في الفلسفة والمنطق والحساب، والموسيقى والنجوم والهندسة، والفلك والطب والجدل والنفس والسياسة وغيرها.

ومن هؤلاء الفلاسفة أبو نصر الفارابي (٣٣٩ هـ) الذي لقب المعلم الثاني، والرئيس ابن سينا (٤٢٨ هـ)، وحجة الإسلام الغزالي (٥٠٥ هـ). على أن بعض الخلفاء والعامة حاربوا المشتغلين بالدراسات الفلسفية. فاضطهدوا الفلاسفة واتهموهم بالزندقة. حتى لقد نودي ببغداد في سنة ٢٧٩ هـ بألا يقعد على الطريق منجم وألا تباع كتب الفلسفة.

وقضى الحاجب المنصور بن أبي عامر على الفلاسفة وأمر بإحراق كتبهم مع ميله إلى الفلسفة. وإنما فعل ذلك ليتقرب إلى العامة. ومن ثم كانت دراسة المسلمين للفلسفة ضرورية للدفاع عن الشريعة الإسلامية. وما له صلة بالعلوم الفلسفية التي أباح الإسلام دراستها للحاجة إليها كالطب.

(ب) إخوان الصفا:

ومن أشهر فلاسفة هذا العصر هذه الطائفة التي تعرف باسم «إخوان الصفا». وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة، حتى قيل إنها إسماعيلية[٣]. وكانت هذه الطائفة ـ كما يقول براون[٤] ـ موضع عطف بني بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة، وحلوا محل العنصر التركي ردحاً من الزمن، وأصبح لهم النفوذ الفعلي في بغداد حول منتصف القرن الرابع (٩٤٥/٣٣٤). ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتم ما بدأه المعتزلة، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية وتوحيد الثقافة في صورة دائرة معارف».

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٣٦٦.

(٣) يرى بعض أن إخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الإسماعيلية، وأنهم اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم العلمي، وكان لهم فرع في بغداد.

(٤) Browne, vol. I, p. 292

وكان إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة. وقد أخذوا كثيراً من مبادىء الفلسفة الطبيعية، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة، ولجئوا إلى تأويل القرآن تأويلاً مجازياً[١]. وتعتبر رسائل إخوان الصفا أشبه بدائرة معارف. أخذت من كل مذهب فلسفي بطرف، وتدل في الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرقي العقلي. وتتألف هذه الرسائل من إحدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعي، ولها من وراء هذا أغراض سياسية، وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر في الرياضيات، وبالتلاعب بالأعداد والحروف، ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات، فترد كل شيء إلى النفس وما لها من قوى، وتنتهي أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي. وصفوة القول في آرائهم أنها تتضمن مذهب جماعة مضطهدة، تبدو النزعات السياسية مع جميع أجزائه، ونرى من خلاله بعض ما عاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من كفاح، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم، نتبين منه ما كان يختلج في نفوسهم من الأمل، وما تواصلوا به من الصبر. وهم يلتمسون في هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم وتطهيراً لها. وهذه الفلسفة هي دينهم، وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى الموت، لاعتقادهم أن ملاقاة الموت في سبيل صلاح الإخوان هي الجهاد الصحيح. وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربة الله لطواف الإنسان على هذه الأرض[٢]. فأوجبوا على الإنسان أن يساعد أخاه في هذه الحياة بكل ما يستطيع، فيجب على صاحب المال أن يجعل للفقير حظاً من ماله، وعلى من أوتي شيئاً من العلم أن يعلم أخاه الجاهل، غير أن العلم ـ كما نراه في رسائل إخوان الصفا ـ قد حبس على خاصة المستنيرين من أفراد الطبقة العليا[٣].

من هذا نرى أن الغرض الذي كان يرمي إليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاولة التوفيق بين الدين والعلم، ولكنهم لم يستطيعوا إرضاء أهل الدين ولا أهل العلم، فإن المتكلمين والفقهاء السنيين عابوا عليهم طريقتهم في التأويل. كما أن الفلاسفة، والمتأثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية. ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر في الشرق بفضل هذه الطائفة، كما تأثرت بكتاباتهم طوائف الإسماعيلية: كالدرزية والنزارية المشهورين بالحشيشية في فارس والشام، كما أفاد آخرون في تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل إخوان الصفا[٤].

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥.

(٢) رسائل إخوان الصفا جـ ٢ ص ١١٩.

(٣) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٩٩.

وقد ذكر الشهرزوري أسماء خمسة من العلماء من مؤلفي هذه الرسائل وهم: أبو سليمان محمد بن نصر البستي، ويسمى أيضاً المقدبسي (أو المقدّسي)، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد النهرجوري (أو المرجاني)، والعوفي، وزيد بن رفاعة. ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسي كما يتضح من أسمائهم. وكان من بينهم أيضاً ابن سيناء الطبيب والفيلسوف المشهور الذي «انتهت بموته (سنة ٤٢٨ هـ) - كما يقول Dietrici[١] - حركة الفلسفة في المشرق»[٢].

(جـ) أبو نصر الفارابي:

ومن أشهر فلاسفة المسلمين في هذا العصر أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي[٣] (٣٣٩ هـ). وكان أبوه من كبار القواد. وقد تنقل أبو نصر في أمهات المدن الإسلامية، واختلف إلى بغداد حيث أخذ المنطق على أبي بشر متى بن يونس الحكيم المشهور، وإلى حران حيث أخذ عن يوحنا بن خيلان الحكيم. ثم عاد إلى بغداد «وقرأ بها علوم الفلسفة، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس، وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها». ويقال إنه وجد كتاب لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبي نصر الفارابي، إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة، ونقل عنه أنه كان يقول: قرأت السماع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة، وأرى أني محتاج لمعاودة قراءته[٤]. ويعتبر الفارابي أكثر فلاسفة المسلمين، حتى لقب بفيلسوف المسلمين بالحقيقة وفيلسوف المسلمين غير مدافع[٥].

اتصل الفارابي ببلاط سيف الدولة الحمداني صاحب حلب، وصحب سيف الدولة عند فتحه مدينة دمشق ومات بها في سنة ٣٩٩ هـ. وترجع شهرته إلى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو، حيث لقب «المعلم الثاني»، تمييزاً له عن أرسطو الذي لقب «المعلم الأول». كما يمتاز الفارابي برسائله الكثيرة في علم النفس والإلهيات. ومنها العقل والمعقول، والنفس، وقوى النفس، والواحد والواحدة، والجوهر، والزمان، والخلاء، والمكان، والمقاييس. كما كتب عدة رسائل للتوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون منها: كتاب

---

(١) نشر رسائل إخوان الصفا وترجمها إلى الألمانية بين سنتي ١٨٥٨، ١٨٨٦ م. ونشرت أيضاً في ثلاثة أجزاء (بمباي ١٣٠٥ هـ)، تصنيف أحمد بن عبد الله.

(٢) Browne, vol.I,p.293

(٣) سمي بذلك لأنه ولد في محلة وسيج المنيعة الواقعة في إقليم فاراب، ببلاد وما وراء النهر.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٧٦.

(٥) القفطي: أخبار الحكماء ص ١٨٢.

الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطاطاليس، وأغراض أفلاطون، وأرسطو، وكتاب التوسط بين أرسطاطاليس وجالينوس. كما نشرت له رسالة آراء أهل المدينة الفاضلة[١]، وتقع في أربعة وثلاثين فصلاً، وتبين مدى تأثر الفارابي بأفلاطون[٢]. كما تكلم الفارابي في الأخلاق والمنطق، وفيما وراء الطبيعة، فتكلم عن الوجود والله، وعن العالم العلوي، والعالم السفلي، وبحث في النفس الإنسانية والعقل في الإنسان، وعن الحياة الآخرة[٣].

(د) ابن سينا:

ومن فلاسفة هذا العصر الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ) الذي أحيا آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب. ولهذا ذاع صيته في هاتين الناحيتين في العصور الوسطى، ليس في تفكير أهالي آسيا وحدها، بل في تفكير الأوربيين أيضاً[٤].

ولد ابن سينا في إحدى قرى مدينة بخارى. وانتقل مع أسرته إلى هذه الحاضرة وهو في الخامسة من عمره، وحفظ القرآن ودرس الأدب وأصول الدين وحساب الهندسة والجبر ولما يجاوز العاشرة من عمره، ثم درس على أبي عبد الله الناتلي الفلسفة والمنطق، ثم درس وحده الطبيعيات والإلهيات مستعيناً في ذلك بمؤلفات الفارابي. ثم درس الطب ونبغ فيه ولم يكن قد جاوز السابعة عشرة. ولما اضطربت أحوال الدولة السامانية خرج ابن سينا من بخارى وقصد خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد، ثم انتقل إلى نيسابور وأبيورد وطوس وغيرها. وكان يتردد على شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان. ثم انتقل إلى الري وقزوين وهمذان، وتقلد الوزارة لشمس الدولة (٣٨٧ ـ ٤١٢هـ)، ابن فخر الدولة. ولكن الجند ثاروا عليه، فتوارى، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير الذي قلده الوزارة من جديد، وظل فيها إلى أن مات. ثم تولى تاج الدولة، فلم يستوزره، فتوجه إلى أصبهان، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة[٥].

ألف ابن سينا في المنطق مقتفياً أثر أبي نصر الفارابي. ويعتبر المنطق المدخل

---

(١) طبعة مصر سنة ١٣٢٣ هـ.

(٢) راجع مادة «أبو نصر الفارابي» في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) يرى الفارابي أن كل موجود إما واجب الوجود أو ممكن الوجود، وليس هناك بين هذين الضربين وجود.

(٤) راجع دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٢٧ وما يليها.

(٥) Browne, vol.II.p.206

للفلسفة التي ألف فيها الكتب وتأثر بأرسطو، كما بحث في الإلهيات وشرح إلهيات أرسطو، وتكلم عن الطبيعة. وكان يحاول ما استطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة أو الجماعية. كما تكلم في الإنسان والنفس الإنسانية والعقل، وانفرد في العقل بآراء، ففي رسالته حي بن يقظان يرى أنه هو هادي النفوس الناطقة الإنسانية، وهو العقل الفعال آخر العقول الفلكية، وهو الذي يؤثر في العقل الإنساني(١).

وكان ابن سينا ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ١٥٣) ـ «نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه، وصنف كتاب الشفاء في الحكمة والنجاة والإشارات والقانون(٢) وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر». وقد ذكر السمرقندي أن «كل من يحيط علماً بما في المجلد الأول من «القانون» لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكلياته ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب».

٢ ـ الطب:

كان لتقدم الطب في أواخر العصر العباسي الأول أثر كبير في العصر العباسي الثاني فقد نبغ في عهد الواثق والمتوكل كثير من الأطباء من أمثال يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٦ م)، وبختيشوع الذي دخل في خدمة الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكانوا يثقون به في معالجة نسائهم وأولادهم(٣). ولكن المتوكل صادر ثروته الضخمة التي جمعها من اشتغاله بالطب ونفاه إلى البحرين في سنة ٢٢٤ هـ لأسباب واهية(٤).

وممن نبغ في الطب أيضاً حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٠ هـ، وكان ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ١ ص ١٦٧) إمام وقته في صناعة الطب، كما اشتهر بنقل كثير من الكتب اليونانية وترجم عن اليونانية كتب إقليدس، الذي نقحه ثابت بن قرة فيما بعد. ومن مؤلفات بختيشوع في الطب كتاب المسائل في الطب للمتعلمين وكتاب علاج العين. وكتاب الأسنان واللثة، وكتاب تدبير الفاقة، وكتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها، وكتاب المولودين لثمانية أشهر (عمله لأم ولد المتوكل)، وكتاب الأغذية، وكتاب اللبن(٥).

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ١٥٢

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٣) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٨١.

(٤) جهار مقالة، ترجمة عزام والخشاب ص ٧٦,

(٥) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٤١١، ٤١٣

(٦) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٤١٠.

اعتمد العباسيون على أطباء العراق والهند، كما اعتمدوا على الطب الذي خلفه اليونان. وقد نبغ في عهد الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) من الأطباء ابن بختيشوع، وابن ماسويه، وميخائيل، وحنين بن إسحاق، وحذقوا صناعة الطب ومرنوا عليها، واعتمدوا في علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب، كما أفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الأمراض.

وكذلك وصف الأطباء في هذا العصر، الفم والأسنان وأنواعها وعهدها ووظيفة كل منها، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق، وطلب منه أن يصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته، «فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات، يذكر فيها الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد[1]».

ويعد أبو يعقوب إسحاق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ، (وقيل سنة ٢٩٩ هـ)، من أشهر أطباء هذا العصر. وقد فاق أباه حنين بن إسحاق في النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية. «وكان ـ كما يقول ابن النديم (ص ١٤٥) ـ فصيحاً بالعربية، يزيد على أبيه في ذلك». واتصل بالخلفاء وكبار رجال الدولة، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وأصبح من المقربين إليه[2]. وله كثير من الكتب في الطب غير ما نقله إلى العربية، منها كتاب الأدوية المفردة على الحروف، وكتاب تاريخ الأطباء (ابن النديم ص ٤١٥).

ومن أشهر أطباء هذا العصر: أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م)[3] وابنه إبراهيم المتوفى سنة ٣٣٦ هـ. وقد أراد الخليفة القاهرة أن يحوله إلى الإسلام فهرب، ثم اعتقد هذا الدين بعد ذلك (ابن النديم ص ٤٢١). وفي عهد الخليفة المتوكل العباسي عقد سنان بن ثابت امتحاناً لأطباء بغداد رخص بعده لثمان وستين بمزاولة مهنة الطب. وكان ذلك على أثر وفاة مريض بسبب إهمال الطبيب. وكان يشرف على هؤلاء الأطباء رؤساء ومفتشون. وقد أمر كل طبيب بأن يحتفظ بصورة من تذكرة الدواء التي يعطيها للمريض، لتقديمها إلى الرئيس ليفحصها ويحكم فيما إذا كان العلاج متفقاً مع القوانين. وكان ينزل العقاب على الطبيب إذا مات المريض بسبب إهماله أو عدم كفايته.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٦.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٤٥.

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية، أو البيمارستانات، على نظام معاهد الطب الأجنبية ولا سيما السريانية منها، لأن السريان غلبوا على مهنة الطب في العصر العباسي الأول، فاقتبس المسلمون فكرة البيمارستان منهم. وكان يطلق على مدير البيمارستان إذا كان سرياني الأصل «الساعور»، ومعناها بالسريانية «متفقد المرضى». أما إذا كان مسلماً أطلق عليه «رئيس الأطباء»، وهو الذي يشرف عليهم ويأذن لهم بممارسة مهنة الطب[1].

وقد أطلق على من يشتغل بالطب في العصور الوسطى «حكيم» لأن الطب كان إذ ذاك من أبواب الحكمة أو الفلسفة، وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة كالطبائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين وغيرهم. وقد ذكر ابن قيم الجوزية أنواع الأطباء في هذه العبارة فقال: «والطبيب في هذا الحديث تناول من يطب بوصفه وقوله وهو الذي يختص باسم الطبائعي، وبمروده وهو الكحال، وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحي، وبموساه وهو الخاتن، وبريشته وهو الفاصد، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن. وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم»[2].

(أ) أبو بكر الرازي:

ويعتبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١١ هـ أشهر أطباء عصره، ويعرف عند الأوربيين باسم Rhazee. وكان في حداثة سنه مولعاً بالغناء، ثم أقبل على دراسة الطب بعد أن جاوز الأربعين. فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها، فبلغ من معرفة غوابرها الغاية، واعتقد الصحيح منها، وعلل السقيم، وألف في الطب كتباً كثيرة. وقال غيره: كان إمام وقته في علم الطب المشار إليه في ذلك العصر. وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها، عارفاً بأوضاعها وقوانينها، تشد إليه الرحال لأخذها عنه؛ وصنف فيها الكتب النافعة: فمن ذلك كتاب الحاوي، وهو من الكتب الكبار يدخل في مقدار ثلاثين مجلداً، وهو عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف؛ ومنها كتاب الجامع، وهو أيضاً من الكتب النافعة، وكتاب الأعصاب وهو أيضاً كبير».

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ١٩، ٢٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ص١١٠.

اتصل الرازي بمنصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح الساماني، فألف له كتابه «المنصور في الطب»، ويعد أشهر كتبه؛ «وهو على صغر حجمه من الكتب المختارة، جمع فيه بين العلم والعمل، ويحتاج إليه كل أحد» (ابن خلكان جـ ٢ ص ٧٨).

وقد ذكر ابن النديم (ص ٤١٧) أسماء كتب الرازي، فمنها «كتـاب الحاوي، ويسمى الجامع الحاضر لصناعة الطب، وينقسم هذا الكتاب اثني عشر قسماً: القسم الأول منه في علاج المرضى والأمراض، القسم الثاني في حفظ الصحة، القسم الثالث في الرئبة والجبر[١] والجراحات، القسم الرابع في قوى الأدوية والأغذية وجميع ما يحتاج إليه من المواد في الطب، القسم الخامس في الأدوية المركبة، القسم السادس في صناعة الطب، القسم السابع في صيدلة الطب: الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها، القم الثامن في الأبدان، القسم التاسع في الأوزان والمكاييل، القسم العاشر في التشريح ومنافع الأعضاء، القسم الحادي عشر في الأسباب الطبيعية من صناعة الطب، القسم الثاني عشر في المدخل إلى صناعة الطب مقالتان: في الأولى الأسماء الطبية، وفي الثانية أوائل الطب».

ومن هذه الكتب كتاب في أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان، وكتاب ما يقدم من الفواكه والأغذية وما يؤخر، وكتاب الجدري والحصبة، وكتاب الحصى في الكلي والمثانة، وكتاب إلى من لا يحضره طبيب، وكتاب الأدوية الموجودة بكل مكان، وكتاب الطب الملوكي، وكتاب اختصار النبض الكبير لجالينوس، وكتاب الفالج، وكتاب هيئة الكبد، وكتاب النقرس[٢] وعرق المديني، وكتاب القلب، وكتاب هيئة الصماخ[٣]، وكتاب أوجاع المفاصل اثنان وعشرون فصلاً، وكتاب أقراباذين (يعني المادة الطبية)، وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجاتها على الشرح، وكتاب في العلة التي لها يحدث الورم منْ الزكام في رؤوس بعض الناس؛ وكتاب في التلطف في إيصال العليل إلى بعض شهواته، وكتاب دفع مضار الأغذية، وكتاب ترتيب أكل الفواكه، وكتاب ما يعرض في صناعة الطب[٤].

---

(١) رأب الصدع: أصلحه وشعبه، ولعله في صناعة جبر العظام.

(٢) بتشديد النون وسكون القاف وكسر الراء: ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين، ويسمى داء الملوك.

(٣) تشريح صماخ الأذن.

(٤) راجع ابن النديم (ص ٤١٧ ـ ٤١٩) حيثٍ تجد كل ما ألفه الرازي في الطب والمنطق والفلسفة والهندسة والكيمياء.

اشتهر الرازي بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى، حتى كان يعالجهم وينفق عليهم، ومن إرشاداته الطبية: «ومهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب... وإذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة. ومن كلامه: عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة[١].

وقد أسندت إلى الرازي إدارة مارستان الري ثم مارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي العباسي. وللرازي آراء صائبة في الشروط التي تتوافر في الطبيب الماهر الذي يثق به المرضى في علاجهم. من ذلك يجب أن يكون حسن السيرة لا يقضي وقته في الملاهي وشرب الخمر والتمادي في الشهوات، وأن يكون أتم دراسة الطب دراسة تشهد له بالتفوق، وأن يكون قد شاهد كثيراً من المستشفيات واختلط بكثير من مهرة الأطباء، وأن يكون واسع الاطلاع بقراءته مؤلفات مشهوري الأطباء، وأن لا يقتصر على معلوماته وتجاربه الشخصية وحدها، وإلا كان متخلفاً في مهنته.

(ب) علي بن العباس المجوسي:

كان علي بن العباس المجوسي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) طبيب عضد الدولة البويهي، ومؤلف كتاب «كامل الصناعات» أشهر أطباء عصره. وكان يقيم مع عضد الدولة في مدينة شيراز. وقد ذكر نظامي عروضي السمرقندي في كتابه «جهار مقالة» الذي ترجمه براون[٢] إلى الإنجليزية أن شهرة علي بن العباس قد ذاعت على أثر معالجته حمالاً اعتاد أن يحمل أحمالاً ثقيلة، وأصيب من جراء ذلك بصداع مزمن كان يقعده عن عمله من حين إلى حين. وقد أصيب بهذا المرض وحاول الانتحار أكثر من مرة بعد أن قاسى آلام هذا المرض سبعة أو ثمانية أيام. وتصادف أن مر هذا الطبيب ببيت المريض، فحياه أخوه واستحلفه بالله سبحانه وتعالى وأخبره بحالة أخيه وطلب إليه أن يعوده. وكان هذا المريض بديناً يلبس حذاء ثقيلاً، فحلل بوله، ثم أمر بنقله إلى جهة خلوية، وأمر أحد خدمه بخلع حذائه وضربه على قفاه، ثم أمر بخلع عمامته ولفها حول عنقه، وأمر المريض أن يمتطي صهوة جواده ويعدو به حول ذلك المكان الفسيح، فبدأ الدم يتدفق من خياشيمه حتى ساءت حاله. ونام نوماً عميقاً

---

(١) ابن النديم ص ٤١١. ابن خلكان جـ ٢ ص ٧٨.

(٢) Chahar Maquala, Anechote XXXV I pp.124 - 125.

وسط هذه الدماء المتدفقة من أنفه، وفقد ثلثمائة درهم من دمه. ثم حملوه إلى داره ونام يوماً وليلة، وزال عنه الصداع ولم يعاوده أبداً. ولما سأل عضد الدولة طبيبه عن هذه الطريقة الغريبة في معالجة هذا المريض، أجابه أن الدم قد تجمد في رأسه وأنه كان من المستحيل أن يخلصه من هذا الدم المتراكم بالحجامة، فلجأ في علاجه إلى هذه الطريقة التي صادفت هذا النجاح.

ومن مؤلفات علي بن العباس كتابه المعروف «كامل الصناعة» أو الملكي الذي أهداه إلى السلطان عضد الدولة البويهي، وقد بين فيه طرق العلاج. ومن أحسن ما وصف في هذا الكتاب كلامه على مرض الجدري وأسبابه الظاهرية والباطنية وأعراضه وطرق علاجه.

(ج) ابن سينا:

ذكرنا من قبل أن ابن سينا درس المنطق والفلسفة على أبي علي القالي، وأنه أخذ الفقه على إسماعيل الزاهد، واشتغل بالطب بعد أن توجه الناتلي إلى خوارزم شاه مأمون بن محمد «وتأمل الكتب المصنفة فيه، وعالج تأدباً لا تكسباً، وعلمه هذا فاق الأوائل والأواخر في أقل مدة، وأصبح فيه عديم القرين فقيد المثل. واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة. وسنه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة. وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة. وكان إذا أشكلت عليه مسألة، توضأ وقصد الجامع وصلى، ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له. وذكر عند الأمير نوح بن نصر الساماني (٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ) صاحب خراسان في مرض مرضه، فأحضره وعالجه حتى برىء، واتصل به وقرب منه، ودخل إلى دار كتبه. . فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها، وحصل نخب فوائدها، واطلع على أكثر علومها. واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة، فتفرد أبو علي بما حصله من علومها، وكان يقال إن أبا علي توصل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه إلى نفسه. ولم يستكمل ثماني عشرة سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التي عاناها[١].

ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو علي من بخارى وقصد قصبة خوارزم، واختلف إلى خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد، ثم انتقل إلى نسا وأبيورد وطوس وغيرها

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

من البلاد. وكان يقصد الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان. وكان السلطان محمود الغزنوي قد بعث في طلب العلماء الذين كانوا ببلاط خوارزم شاه. فلما هرب ابن سينا أمر هذا السلطان بنشر صورته في الآفاق. وقد مرض أحد أقرباء شمس المعالي قابوس وشمكير، فعالجه ابن سينا وتم شفاؤه على يديه، فاستدعاه قابوس إليه وعرف شخصيته، لكنه آثر بقاؤه في خدمته. ولما سجن قابوس ومات ذهب ابن سينا إلى داهستان، ثم عاد إلى جرجان وصنف بها كتابه الأوسط الجرجاني، ثم انتقل إلى الري، ثم إلى قزوين وهمذان، وتقلد الوزارة لشمس الدولة بن فخر الدولة (٣٨٧ ـ ٤١٢ هـ). لكن الجند ثاروا عليه فتوارى، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير، وتقلد الوزارة من جديد، وظل فيها إلى أن مات شمس الدولة، وتولى تاج الدولة فلم يستوزره، فتوجه إلى أصبهان، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة بن كاكويه الذي يقول فيه ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٧٠): «ولا شك أن أبا جعفر (ابن كاكويه) كان فاسد الاعتقاد، فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلده[١]، وقد خلف ابن سينا كثيراً من الكتب في الطب، أشهرها كتابه «القانون» الذي كان يدرس في مدارس الطب في آسيا وأوربا أكثر من ستة قرون، وخاصة ما يتعلق منه بعلم الصحة والرضاع والشروط التي يجب أن تتوافر فيمن ترضع الطفل سواء أكانت أم الطفل أم امرأة أخرى، وكانت وفاة ابن سينا في مدينة همذان سنة ٤٢٨ هـ (١٠٢٦ م).

(د) أطباء مصر:

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا في الطب بأوفر سهم، كذلك حفل المغرب الإسلامي وخاصة مصر، بطائفة من أشهر أطباء هذا العصر، ومن هؤلاء سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون، وكان نصرانياً. ويقول ابن الداية[٢] إن ابن طولون شكا من الإسهال، فنصح له هذا الطبيب أن يلزم الحمية يومين لكنه خالفه وأكل، فانقطع عنه الإسهال. ولما علم هذا الطبيب بذلك، أيقن أن حياة ابن طولون قد آذنت بالأفول، ووصف حاله في هذه العبارة: «ضعف قوته الناهضة يقهر الغذاء، وسيتحرك حركة منكرة». وقد صدق هذا الطبيب ومات ابن طولون بعد يومين[٣].

---

(١) أنظر ترجمة أبي علي بن سينا في ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٢) سيرة ابن طولون ص ٨١.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء جـ ص ٨٣ ـ ٨٥.

ومن الأطباء الذين اشتهروا بمصر إبراهيم بن عيسى الذي صحب أحمد بن طولون إلى مصر ومات بها في سنة ٢٦٠ هـ، والحسن بن زيرك، وكان من أطباء ابن طولون أيضاً، ومات قبله بيوم واحد[١].

ولا غرو فقد نبغ في هذا العصر كثير من المصريين في علم الطب وما يتصل به من صناعة الأدوية والعقاقير. وقد عمل ابن طولون في مؤخر جامعه ميضأة وخزانة شراب، بها الأدوية والأشربة التي قد يحتاج إليها المصلون، وقرر لهذا المكان الخدم، وعين للمسجد طبيباً خاصاً يقوم بتطبيب المرضى من المصلين، ويكاد هذا يشبه نظام الإسعاف اليوم.

وكان ابن طولون يعنى بالشئون الصحية، فقد بنى المارستان للمرضى في أرض العسكر؛ وقسمه إلى أقسام جعل كلاً منها خاصاً بفرع من فروع الطب (سنة ٢٥٩ هـ) وجعل له حمامين. خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء. وأباحه للناس على اختلافهم من غير تمييز في الأديان والمذاهب.

وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح، وقلدوهم المناصب العالية، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. ومما ساعد على تقدم دراسة الطب أنه أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات التي كانت أشبه بكليات الطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين، أي الذين يعالجون أمراض العيون. وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريانية واليونانية، بجانب إلمامه بالطب، وقد أورد القفطي وابن أبي أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا في هذا العصر.

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، وقد نشأ في بيت المقدس ثم تنقل في كثير من المدن في طلب هذا العلم، وتوفر على دراسته حتى نبغ فيه، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية. ثم اتصل التميمي بالحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدي عامل الرملة وما يليها من البلاد الساحلية في عهد الإخشيديين، فقربه إليه، ثم صحب يعقوب بن كلس وصنف له كتاباً يشمل عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء». ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي.

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٣.

ومن أطباء المعز موسى العازار الإسرائيلي الذي حذق صناعة الطب، كما اشتهر ابنه إسحاق بن موسى بالطب، وكان مقرباً من المعز، لكنه مات في شهر صفر سنة ٣٦٣ هـ. فحزن هذا الخليفة على وفاته لحذقه وكفايته، وعين مكانه أخاه إسماعيل بن موسى وكان قد تحول إلى الإسلام، وابنه يعقوب بن إسحاق. ومن كتب موسى بن العازار في الطب «الكتاب المعزي في الطبيخ» الذي ألفه للخليفة المعز، وكتاب الأقرباذين[١].

وممن نبغ في الطب في عهد الخليفة العزيز أبو الحسن علي بن رضوان. وقد خلف كثيراً من الكتب التي تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه في هذه الناحية، كما أن له كتباً في الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة[٢]. كذلك نبغ أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصراني طبيب الخليفة الحاكم الخاص؛ وكان مقرباً منه كما كان مقرباً من أبيه العزيز، وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير في إطلاق سراح الكتاب من النصارى واليهود وإعادتهم إلى مراكزهم[٣].

ومن أطباء هذا العصر رجل يهودي كان خامل الذكر يرتزق بمداواة الجراح، واتفق أن الحاكم أصيبت ساقه بعقر مزمن. وعلى الرغم من عناية ابن مقشر وغيره لم يبرأ الحاكم من هذا الجرح. ولما أحضر هذا الطبيب إليه وضع على الجرح دواء يابساً، فشفي بعد ثلاثة أيام، فمنحه الخليفة ألف دينار وخلع عليه ،ولقبه «بالحقير النافع» وجعله من أطباء الخاص[٤] (يحيى بن سعيد ص ١٧٨).

٣ ـ علم الفلك والنجوم:

وكان لعلم النجوم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم. فقد اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسي للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذي أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة

---

(١) ابن أبي أصيبعة جـ ٢ ص ٨٦.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩٩ ـ ١٠٥.

(٣) يحي بن سعيد: صلة تاريخ أوتيخا جـ ١ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٤) يرجع هذا إلى أنه كان خامل الذكر لا إلى أنه كان يهودياً، لأن الخلفاء والأمراء المسلمين كانوا يعاملون أهل الذمة من المسيحيين واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية.

عمارتها. وكذلك اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون لها شأن في نشر هذه الدعوة في تلك البلاد[١]، ومن قصيدة الفهري التي يقول فيها.

فعند الستِّ والتسعيـ ـنَ قَطْعُ القول في العُذرِ

ما يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم في سنة ست وتسعين ومائتين. وكان لهذه العقيدة أثر كبير في انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعيلية[٢] كذلك حذا الفاطميون حذو العباسيين في الاعتماد على التنجيم. فقد ذكر ابن دقاق [٣] أن مدينة القاهرة التي بناها جوهر سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذي «يسمى القاهر».

وكذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمي بعلم النجوم، حتى إنه أنشأ رصداً بسفح المقطم أطلق عليه «الرصد الحاكمي» واستعان بأبي الحسن علي بن يونس المنجم المصري المتوفى سنة ٣٩٩ هـ صاحب الزيج[٤] المعروف بالزيج الحاكمي وزيج ابن يونس.

وقد نبغ في علم النجوم أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، وكان في بدء حياته من أصحاب الحديث، ثم اشتغل بعلم النجوم ثم نبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره، وعمر طويلاً حتى جاوز المائة. وكان أبو معشر ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ١ ص ١١٢) ـ «إمام وقته في فنه، وله التصانيف المفيدة في علم النجامة»، ومن أشهر كتبه في النجوم: كتاب المدخل الكبير، وكتاب المدخل الصغير، وكتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه، وكتاب السهمين وأعمار الملوك والدول، وكتاب تفسير المنامات من النجوم، وكتاب الأمطار والرياح وتغيير الأهوية (ابن النديم ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧).

وقد وضع أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني الحراني الصابي المتوفى سنة ٣١٩ هـ،

---

(١) عمارة اليمن: تاريخ اليمن (هنري كاسل، لندن ١٨٩٢) ١٤٠.
(٢) نظر كتابي «تاريخ الدولة الفاطمية» ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٣) انتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٢ ص ٣٥.
(٤) بكسر الزاي هو كتاب يحسب فيه سير الكواكب ويستخرج التقويم، أعني حساب الكواكب لسنة سنة، وهو فارسي، أنظر كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ١٢٧.

ويعرف عند الأوربيين باسم Albatengius[١] الزيج الصابي الذي أثبت فيه الكواكب الثابتة في سنة ٢٩٩ هـ[٢]، «وله الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة.. وكان أوحد عصره في فنه وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه»[٣] ومن أشهر كتبه أيضاً كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك[٤].

وقد اشتهر بالنجامة بيت أبي الحسن علي بن أبي عبد الله بن هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور. وكان أبو منصور جد أبيه منجم أبي جعفر المنصور، وابنه يحيى متصلاً بالفضل بن سهل الذي كان يعمل برأيه، ثم صار منجم المأمون ونديمه وأسلم على يديه، وتوفي بحلب عند خروج المأمون إلى طرسوس[٥]. وكان أبو الحسن علي (٢٧٧ - ٣٥٢ هـ) من أكبر علماء النجوم في عصره، وقد قربه الصاحب بن عباد إليه وأطلق عليه اسم «جليس الخلفاء وأنيس الوزراء»[٦]. ومن كتبه «كتاب النيروز والمهرجان»، وكتاب شهر رمضان الذي أهداه إلى الخليفة الراضي بالله العباسي[٧].

وبلغ الاهتمام برصد الكواكب غايته في القرن الرابع الهجري. وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ) لما استقرت قدمه في العراق «أمر بأن ترصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل»[٨].

وقد ضرب أبو الريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) بسهم وافر في علم النجوم. وليس أدل على ذلك من مخاطراته في بلاط غزنة على ما جاء في المقالة الثالثة والعشرين من ترجمة كتاب «جشهار مقاله»[٩] تأليف النظامي العروضي السمرقندي. ذلك أن السلطان محموداً الغزنوي بعث في طلب البيروني وهو في حديقة قصره الصيفي، وغرس فيها ألف شجرة ليمتحن البيروني علم النجوم، فسأله: من أي الأبواب الأربعة سأخرج؟ فأجاب البيروني: اجمع رأيك واكتبه على قطعة من الورق وضعها تحت وسادتي، ثم طلب أبو الريحان أسطرلابا واختير النجوم، ثم دون قراره في قطعة من الورق وضعها تحت

(١) Browne, vol. pp.363.
(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٣٨٩ - ٣٩٠.
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٠.
(٤) ابن النديم ص ٣٩٠.
(٥) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٩٤.
(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٣ ص ١٠٢.
(٧) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥٦.
(٨) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٢.
(٩) pp.92 - 95. ترجمة ص ٦٤ - ٦٥

الوسادة. ثم قال السلطان محمود: هل اهتديت إلى قرار؟ فقال البيروني: نعم! وأمر السلطان أن يثقب أحد الحيطان ويتخذ منه باب خامس خرج منه، ثم أمر بإحضار الورقة. ولما أحضرت قرأ ما فيها وهو أنه لن يخرج من أحد هذه الأبواب الأربعة، إلا أنه ستفتح فتحة في الحائط الشرقي، وسيخرج من هذا الباب. ولما قرأ السلطان هذه الورقة أخذ الغضب منه كل مأخذ، وأمر بأن يلقى أبو الريحان من فوق سطح القصر. لكنه لم يصب بأذى، لأنه سقط على شبكة أقيمت لطرد الذباب فتمزقت، واستطاع أن يصل إلى الأرض ولم يلحق به أي ضرر. ولما أمر السلطان بإدخاله قال له: يا أبا الريحان! هل تنبأت بهذا الحادث أيضاً؟ فأبرز من جيبه كراسة «مذكرة» كتب فيها: سيلقي بي في هذا اليوم من قصر السلطان، لكني سأصل إلى الأرض سالماً وأنهض معافى الجسم. لكن ذلك لم يجر على هوى السلطان الذي زاد غضبه وأمر باعتقاله في قلعة غزنة، حيث بقي ستة أشهر لم يجرؤ فيها أحد على أن يكلم السلطان في أمره، ثم أطلق بفضل تدخل الوزير أحمد بن حسن الميمندي[1] الذي انتهز إحدى الفرص المناسبة وقال للسلطان إن أبا الريحان البيروني، ذلك الرجل المسكين، على الرغم من صدق نبوءته، قد قيد وسجن بدلاً من أن يخلع عليه ويجزل له العطاء، فأجابه السلطان: أعلم يا سيدي أن هذا الرجل ليس له نظير في الدنيا سوى ابن سينا، لكن لكل تنبوءاته لم تتفق مع رغباتي. والملوك كالأطفال الصغار، يجب على المرء أن يتكلم بما يتفق ورغباتهم ليفوز بمنحهم وعطاياهم. وكان من الخير له أن يخطىء في إحدى هاتين النبوءتين. ومع ذلك أمر بإحضاره في الغد، وأعطاه جواداً محلى بالذهب وخلعة سلطانية وعمامة من الطيلسان، ووهبه ألف دينار وعبداً وأمة.

٤ ـ الرياضيات:

وممن اشتهر بالرياضيات ثابت بن قرة الحراني (٢٢١ ـ ٢٨٨ هـ). وكان في بدء أمره صيرفياً بحران، واتصل بالخليفة المعتضد الذي أدخله في عداد من اعتمد عليهم في التنجيم وبفضل ثابت ارتفع شأن الصابئة وعلت منزلتهم عند الخلفاء. ومن أشهر مؤلفاته في الرياضيات: كتاب حساب الأهلة، وكتاب في استخراج المسائل الهندسية، وكتاب الأعداد، وكتاب شكل القطاع. وكان سنان بن ثابت المتوفى سنة ٣٣١ هـ من كبار الرياضيين والمهندسين في هذا العصر؛ على أن شهرته في الطب فاقت شهرته في هذه النواحي[2].

---

(١) نسبة إلى ميمند، وهي رستاق بفارس وبنواحي غزنة أيضاً. أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت.

(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٣٨٠، ٤٢١.

ومن أشهر الرياضيين أبو الوفا محمد بن محمد بن إسماعيل بن العباس[١]. وقد ولد في نيسابور سنة ٣٢٨ هـ، ووفد على العراق وهو في العشرين من عمره، وتعلم الحساب على عمه أبي عمرو المغازلي وخاله أبي عبد الله محمد بن عنبسة. ومن مؤلفاته: كتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب. وهو سبعة أقسام كل قسم سبعة أبواب، شملت جميع أنواع الرياضيات، وكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، وكتاب المدخل إلى الأرثماطيقي، وكتاب استخراج ضلع المكعب، وكتاب معرفة الدائرة من الفلك.

ومن أشهر الرياضيين في عهد الفاطميين أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم؛ قد نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها. «وكان ـ كما يقول ابن أبي أصيبعة[٢] ـ فاضل النفس، قوي الذكاء، متفنناً في العلوم، ولم يماثله أحد من زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه. وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محباً للخير. وقد لخص كثيراً من كتب أرسطاطاليس وشرحها، وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس في الطب. وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية، إلا أنه لم يباشر أعمالها».

٥ ـ التاريخ :

زخر العصر العباسي الثاني بطائفة كبيرة من أعلام التاريخ. ولا غرو فإن هذه النهضة العلمية قد وضعت أسسها في أواخر العصر العباسي الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية، وبدأ المسلمون يصنفون الكتب في مختلف العلوم والفنون، وساهم الفرس في هذه الحركة بأوفر نصيب. ومن أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م). وكان شيعياً متحمساً لعقائد الشيعة. ولذلك أسهب في الكلام على الأئمة. ونقل كثيراً من الأقوال التي أثرت عنهم. ويعتبر كتابه في التاريخ المعروف بتاريخ اليعقوبي[٣] من أعظم المصادر التاريخية، كما يعد كتابه «البلدان» من أشهر الكتب الجغرافية[٤].

ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م). وقد خلف كثيراً من الكتب، منها كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إليه،

(١) المصدر نفسه ص ٣٩٤.
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٩٠.
(٣) في جزئين Ed. Houtsma (Leydon, 1883).
(٤) Ed. De Goeje (Leyden 1892)

وكتاب المعارف(١) الذي يعد بحق مجموعة معارف مفيدة، وكتاب عيون الأخبار(٢)، ويعد من خيرة كتب الأدب والتاريخ مادة وترتيباً(٢).

ومن هؤلاء المؤرخين البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م)، ويعد كتابه فتوح البلدان من أحسن المصادر في الفتوح الإسلامية، ومن هذه المصادر كتاب الأخبار الطوال(٤)، لأبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م). وأول هؤلاء المؤرخين الأربعة من أصل عربي، على حين يرجع الثلاثة الأخيرون إلى أصل فارسي.

ويعتبر كتاب الأمم والملوك(٥) لأبي جعفر محمد بن جعفر بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها. ولا غرو فإن الطبري أكثر تحقيقاً ممن سبقه من المؤرخين، فضلاً عن أنه أنفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله. وقد تكلم على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ. ثم جاء عريب بن سعد القرطبي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ - ٩٧٧ م)، فوصل الحوادث في كتابه المسمى «صلة تاريخ الطبري»(٦) من سنة ٢٩١ هـ إلى نهاية عهد الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٢٠ هـ(٧).

وكان القرن الرابع غنياً بكثير من المؤرخين. ومن هؤلاء سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) واشتهر باسم أوتيخا Eutychius وكان أحد بطارقة الإسكندرية، وخلف كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ١٩٠٩) الذي ذيله يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ويسمى «صلة كتاب أوتيخا».

(١) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣/١٩٣٣.

(٢) في أربعة أجزاء طبعت بدار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٩/١٩٢٥ - ١٩٣٤.

(٣) Ed. De Goeje, Leydon, 1855، القاهرة سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م).

(٤) Ed. Kraich Kovsky, Leyden. 1892

(٥) طبعة دي غوية هذا السفر الكبير في ١٣ مجلداً: منها مجلدان للمقدمة التاريخية والفهارس (١٨٧١ - ١٩٠١). وقد طبع أيضاً في القاهرة عدة طبعات من أقدمها طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ.

(٦) طبعة دي غوية سنة ١٨٩٨ م والمطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦.

(٧) ترجم أبو علي محمد البلعمي وزير منصور بن نوح الساماني كتاب تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري بصورة موجزة إلى الفارسية، وقام بنقل هذه الترجمة إلى الفرنسية كل من ديبو وزوتنبرج Dubeau anp Zetenberg (باريس ١٨٦٧ - ١٨٧٤).
أنظر Browne, vol.I.pp.359,398

ومن مشهوري المؤرخين في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن عبدوس المعروف بالجهشياري صاحب كتاب الوزراء والكتاب[١]، وهو «مؤرخ قديم من طبقة ابن جرير الطبري (المتوفي ٣١٠ هـ)، والمسعودي (المتوفى ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ). وكان أبوه عبدوس الجهشياري حاجب علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي، ثم ولي ابنه محمد بن عبدوس هذه الحجابة لعلي بن عيسى لما انضم إلى حامد بن العباس حين تقلد الورارة سنة ٣٠٦. وكان بن عبدوس على جانب عظيم من حسن الخلق، فكان يأبى الإسفاف في القول ولا يتسع صدره للغو[٢].

وللجهشياري كتب كثيرة أشهرها كتاب «الوزراء والكتاب»، وهو أول ما ألف من نوعه في تاريخ الوزراء. وقد حذا المؤرخون حذو الجهشياري في تاريخ الوزراء، فألف هلال بن المحسن الصابي (٣٥٩ ـ ٤٤٨ هـ) كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (بيروت ١٩٣٣)، وصل به تاريخ الجهشياري إلى سنة ٣٩٣ هـ. كما استمد منه ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» وابن الطقطقي في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٣٣).

ومن مؤرخي هذا العصر أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) وكان مجوسياً من أهل جرجان، وقد تتلمذ عليه الراضي بن المقتدر قبل أن يلي الخلافة[٣]. وكتابه «الأوراق»[٤] مجموعة نفيسة في الأدب والتاريخ.

ويعتبر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر[٥] لأبي الحسن علي المسعودي الذي ينتسب إلى الصحابي المشهور عبد الله بن مسعود، من أهم المصادر التاريخية في هذا

---

(١) أنظر مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري، حققه الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الإيباري، وعبد الحفيظ شلبي (الطبعة الأولى).

(٢) المصدر نفسه ص «و»، «ز».

(٣) أبو بكر الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٥ ـ ٦، ٢٦.

(٤) نشر ج. هيورت دن من هذا الكتاب «كتاب أخبار الراضي بالله والمتقي لله»، ويتناول تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م)، وكتاب أخبار الشعراء (القاهرة سنة ١٩٣٤ م)، وكتاب أشعار الخلفاء وأخبارهم (القاهرة سنة ١٩٣٦).

(٥) نشره وترجمه للفرنسية باربييه دي مينار وبافت (باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧). القاهرة ـ ١٣٤٢ هـ) في جزأين.

العصر، وخاصة في الناحية الاجتماعية. ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى أيامه. ومن كتبه أيضاً كتاب التنبيه والإشراف، وهو من الكتب الهامة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين بوجه خاص(١).

ومن مؤرخي هذا العصر الحسين بن زولاق الذي عاصر الإخشيديين والفاطميين، وامتدت حياته في الدولة الفاطمية إلى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م). وقد أتى في كتابه «فضائل مصر وأخبارها وخواصها» على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى، وهو حجة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين، لأنه كان مصرياً، ولأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه في مادة التاريخ.

ومن المؤرخين الذين عاصروا الخليفة العزيز بالله الفاطمي أبو الحسن علي الشابشتي حاجب وشمكير بن زيار الديلمي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٨٨ م). وقد اتصل أبو الحسن بخدمة العزيز، فولاه خزانة كتبه، واتخذه من جلسائه وندمائه، وترك في كتابه «الديارات» أخباراً طريفة عن الأديار في العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر، وما قيل فيها من الأشعار وما جرى من الحوادث (مخطوط برلين ـ فيمار ١١٠٠).

وهنا كتاب آخر عن كنائس وأديرة مصر لأبي صالح الأرمني المتوفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م)، اعتمد فيه على ما سمعه وشاهده بنفسه في زياراته للكنائس والأديار في القاهرة وضواحيها(٢). وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسيحي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) كتب عن مصر كتاباً مسهباً سماه تاريخ مصر، يقع في ثلاثة عشر ألف ورقة أي في ستة وعشرين ألف صفحة(٣)، ولا يوجد من هذا الكتاب غير الجزء الأربعين بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا. وهذا الكتاب أحد تصانيف المسيحي التي بلغت الثلاثين، والتي لم يعد لها الآن وجود إلا في هذه المقتبسات التي نعثر عليها في ثنايا الكتب.

---

(١) الكتبي: فوات الوفيات (القاهرة ١٢٩٩ هـ) جـ ٢ ـ ٤٥.

(٢) نشره مستر B.T.A.Evetts، وزعم في مقدمته أن كتاب الديارات للشابشتي قد ضاع وأنه لا يعرف إلا طريق العبارات التي اقتبسها من غيره من الكتاب.

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٥١٦.

ولا ننسى ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين وهم مسكويه[١] المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م)، وهلال الصابي[٢] المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م)، وأبو شجاع[٣] المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م).

أما تاريخ مسكويه المسمى «تجارب الأمم»، فهو من أهم الكتب العلمية في اللغة العربية. ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبري (وينتهي في سنة ٣٦٩ هـ). ولا يكتفي مسكويه في تاريخه بذكر الحوادث، بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة. وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية.

وقد أسهب مسكويه في تاريخ الصدر الأول من أيام بني بويه، ولم يغفل أن يمدنا بتاريخ الأحوال الخارجية للعباسيين، وقد ذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الروذاوري وزير الخليفة العباسي المقتدي (٤٧٦ ـ ٤٨٧/ ١٠٨٢ ـ ١٠٩٣) المعروف بأبي شجاع. تاريخ مسكويه بتاريخه الذي تناول فيه الكلام على المدة التي تقع بين سنتي ٣٦٩، ٣٨٩ هـ ثم تلاه هلال الصابي في تاريخه الذي ذيل به أمد روز كتاب الوزراء لهلال بن الصابي إلى سنة ٣٩٣ هـ ونقله عنه مرجليوث[٤].

ومن المصادر التي ألفها جماعة من المؤرخين والأدباء في هذا العصر: كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ. وهو من أمهات الكتب التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ الدولة العباسية منذ تأسيس مدينة بغداد في عهد الخليفة المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف.

---

(١) اختلف الكتاب في صحة ثبوت اللقب له أو لأبيه، فبعضهم كالتنوخي (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجي خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بأبيه، على حين يقول غيرهم من أمثال بديع الزمان الهمذاني (ص ١٥٧ وقد سماه مسكويه)، وياقوت (إرشاد ٢ ص ٨٨)، وابن خلكان (جـ ٢ ص ٩٢)، والقفطي (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٣١)، وابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في أخبار الأطباء جـ ١ ص ٢٤٥) بأن اللقب متصل به هو.

(٢) ياقوت (إرشاد جـ ٧ ص ٢٥٤) وابن خلكان (جـ ٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، ووستنفلد Geschichte der Araber Litteratur, no. 198

(٣) ابن خلكان جـ ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٤) أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٥١٣ ـ ٥١٥. وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة في القاهرة (١٣٣٣ ـ ١٣٣٤/١٩١٥ ـ ١٩١٦).

ويشتمل هذا الكتاب على وصف ضاف لمدينة بغداد، كما يمدنا بأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ممن عاش فيها أو رحل إليها من أهل العلم والفضل. ويقع هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً، ولا غنى عنه لطلاب البحث في تاريخ الدولة العباسية في أزهى عصورها إلى سنة وفاة المؤلف.

كذلك لا نغفل مؤلفات أبي الريحان البيروني[١] الخوارزمي المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م). وقد قضى حياته تحت كنف أمراء بيت مأمون بن مأمون أمير خوارزم، ثم زار حول سنة ٩٣٠ هـ (١٠٠٠ م) بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي اشتهر في طبرستان بتشجيع العلماء، وأهدى إليه تاريخه المشهور «الآثار الباقية عن القرون الخالية»[٢]، ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات المختلفة، والاحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص. ثم عاد البيروني إلى خوارزم حيث قضي بقية حياته في بلاط محمود الغزنوي، كذلك ألف كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة». ويعرف باسم «تاريخ الهند»، وقد نشر سخاو نسخته العربية وترجمها الإنجليزية. ثم ألف البيروني كتابه «التفهيم» وهو باللغة الفارسية، كما وضع كتابه «التفهيم في الفلك» الذي أهداه إلى الأميرة ريحانة الخوارزمية، و«القانون المسعودي» وقد أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، كما أهدى كتابه الذي ألفه في الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود.

وممن كتب في تاريخ المدن والبلاد في هذا العصر الترشخي الذي وضع كتابه «تاريخ بخارى» حول سنة ٢٣٠ هـ (٩٤٢ م) ومن هذه الكتب «تاريخ أصفهان» للمافرُوخي، وتاريخ طبرستان لليزدادي، وقد وضعا أول الأمر بالعربية، ولكنهما لم يعرفا إلا عن طريق الترجمة الفارسية. أضف إلى ذلك ما كتبه أبو نصر العتبي عن حياة السلطان محمود الغزنوي إلى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م)، ومع أن هذا المؤلف عاش حتى سنة ٤٢٨، ويسمى هذا الكتاب «تاريخ اليميني»[٣]، نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوي»[٤].

---

(١) نسبة إلى Bérti أحد أحياء حاضرة هذه البلاد.

(٢) Sachau, Préface te Bérunis Chronology of Ancient Nations, English Translation (London, 1879),p.VII

(٣) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ، ويقع في جزأين.

(٤) Browne, vol. II,pp.114 - 115

وممن ألف في تاريخ مكة في هذا العصر الأزرقي المتوفى سنة ٢٤٤ ـ ٨٥٨، والفاكهي المتوفى ٨٨٥/٣٧٣: ويعتبر كتاب «أخبار المدينة» لعمر بن شبة (بفتح الشين والباء مع التشديد) (ت ٢٦٢ هـ)، من أهم مصادر المدينة المنورة. فقد عني بوصفها من الناحية «الطبوغرافية» معتمداً على مشاهداته الشخصية وما نقله عن كثير من الرواة. وتكلم عن آبارها ووديانها وأسواقها ومساجدها. وكما تناولها من الناحية الاجتماعية ولا سيما خطط المهاجرين وعشائرهم ودورهم وأخبارهم. ولابن شبة كتب أخرى عن البصرة والكوفة ومكة. ويروي الطبري أخبار ابن شبة التي رواها عن المدائني وزاد عليها زيادات شاملة حتى أصبحت مرجعاً أساسياً لمن أتى بعده من المؤرخين المتأخرين، وممن كتب عن المدينة الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ويعتبر كتابه «أخبار المدينة» من الكتب التي لعبت بها يد الدهر. وقد اعتمد البكري وياقوت الحموي على ما كتبه ابن الزبير عن المدينة(١).

٦ ـ الجغرافية:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أنه كان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين بالبلد القاصية براً وبحراً، ثم تعبيد الطرق وجعلها آمنة، أثر كبير في تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين. فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة، ووضعوا في وصفها الكتب والأسفار ووصفوا ما شاهدوه في البلدان التي اختلفوا إليها وصفاً دقيقاً مبنيًّا على المشاهدة. وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هي خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان.

لكن مما يسترعي النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة التي خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر ظهوراً واضحاً إلا في العصر العباسي الثاني. ويعتبر ابن خرداذبه الفارسي الأصل الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري من أقدم جغرافيي المسلمين في العصر العباسي. وقد خلف لنا كتابه «المسالك والممالك»(٢) الذي يشتمل على معلومات

---

(١) أنظر البحث القيم (المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز» للدكتور صالح أحمد العلي (بحث مستل من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤) ص ١٥ ـ ٢٠.

(٢) نشره دي غويه في ليدن سنة ١٨٨٩ م (ص ٤ ـ ١٨٣) ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، ويشمل الباب الحادي عشر من الكتاب عنوانه: في ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب (١٨٤ ـ ٢٦٦).

هامة في نظم الحكم وفي النظام المالي بوجه خاص. ويعد هذا الكتاب من أقدم الكتب الجغرافية في اللغة العربية. وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة ويصل إلى الهند والصين.

ومن جغرافيي هذا العصر اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) صاحب كتاب «البلدان». وقد قام برحلات طويلة في أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب، ودون نتائج رحلاته في كتابه[1] ومن جغرافيي هذا العصر أبو محمد الحسن الهمداني (ت ٣٣٤ هـ ٩٤٦) وقد ألف كتابه «صفة جزيرة العرب» (ليدن ١٨٩١).

وكان أبو الحسن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) من كبار الرحالين المسلمين. وقد زار كل أرجاء العالم تقريباً، فزار فارس والهند وجزيرة سرنديب (سيلان) وصحب التجار إلى بحار الصين. كما زار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان، وقام برحلات في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين، وزار مصر في عهد الإخشيد سنة ٢٣٠ هـ. واهتم بوصف الأهرام وغيرها من الآثار أكثر من اهتمامه بوصف المباني والبلاط وطبقات الشعب. إلا أنه مع ذلك لم يغفل الكلام على وصف نظام الري وجبر الخليج وقطع السدود وليلة الغطاس[2]. كما وصف ما قام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار، وكشفهم أقبية مملوءة بالهياكل والموميات، وما كان لذلك من أثر في تنبيه الأذهان إلى أهمية البحث عن الآثار المصرية القديمة[3].

وقد ألف أبو إسحاق الإصطخري الفارسي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كتاب الأقاليم، ووضحه بالخرائط، كما ألف كتابه «المسالك والممالك» الذي وصف فيه نتائج مشاهداته في الأقاليم التي زارها. ونقل كثيراً من كتاب صور الملوك لأبي زيد البلخي (ت ٣٢٢ هـ) تلميذ الكندي الفيلسوف المشهور، واعتمد على ما دونه بوزرج بن شهريار الذي كتب كتابه «عجائب الهند» باللغة العربية. مستعيناً في ذلك

---

(١) وقد نشره دي غويه في جزأين (ليدن ١٨٩٢) وترجمه إلى الفرنسية جاستون فييت (القاهرة ١٩٣٧).

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

بمشاهداته وما نقله عن غيره من الرحالة[١]. ثم جاء ابن حوقل (ت ٣٨٠ هـ) في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فراجع كتاب المسالك والممالك للاصطخري وزاد عليه وأخرجه بنفس هذا الاسم[٢]. وكلا الكتابين قد ألف في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ويحتوي كل منهما على وصف دقيق لكل جزء من أجزاء العالم الإسلامي وأشهر مدنه وأماكنه.

ومن أشهر الجغرافيين والرحالة في القرن الرابع الهجري شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشاري المقدسي (ت ٣٨٧ هـ) وكتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»[٣] ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية[٤].

وناصر خسرو (ت ٤٨١/١٠٨٨) الرحالة الفارسي الذي أمدنا في كتابه «سفر نامه» أو زاد المسافر) بمعلومات ذات غناء عن مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، كما وصف ثروة البلاط الفاطمي وأبهته وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء[٥].

---

(١) Browne, vol. I, p.368

(٢) نشره دي غويه في المجموعة الجغرافية العربية (ليدن سنة ١٨٧٣ م).

(٣) نشره دي غويه (ليدن ١٨٧٧).

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢١.

(٥) أنظر كتابي «تاريخ الدولة الفاطمية» ص ٥٢١ ـ ٥٢٢.

الباب العاشر

الفن

١ ـ العمارة عند العباسيين

كثرت العمارة في العصر العباسي الثاني، فبنيت المدن التي امتلأت بالقصور والمساجد والمتنزهات. وكان تأثير الفن الفارسي في الفن الإسلامي عظيماً في هذا العصر، فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج، وعليها صور من الجص المجسم، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي.

عزم جعفر المتوكل على أن يبني مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته، فوضع أساس مدينة الجعفرية[١] في مكان قريب من مدينة سامرا ناحية الشمال، وبنى قصره الذي سماه الجعفري نسبة إليه، وشجع الأمراء والقواد وغيرهم على البناء. ويقول الطبري (جـ ١١ ص ٥٦) إن المتوكل أمر بنقض قصري المختار والبديع بسامرا وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستعماله في بناء قصره الجديد[٢].

كذلك بني المتوكل في هذه المدينة قصراً آخر سماه لؤلؤة، امتاز بارتفاع بنائه. كما أمر بحفر نهر يأخذ ماءه من دجلة ويصل إلى هذه المدينة، عرف باسم جبة دجلة، وأنفق على شق هذه الترعة مائتي ألف دينار. وكان يقوم بحفرها اثنا عشر ألف عامل، كما بلغت تكاليف قصر الجعفري أكثر من مليون دينار. يقول ياقوت[٣] إن سامرا كادت تخرب وتخلوا من أهلها على أثر انتقال المتوكل إلى الجعفرية. ولم تلبث هذه المدينة أن تخربت على أثر مقتل هذا

---

(١) وتسمى أيضاً المتوكلية.

(٢) أنظر لفظ الحعفري في معجم البلدان لياقوت.

(٣) أنظر لفظ الجعفري في معجم البلدان لياقوت.

الخليفة في سنة ٢٤٧ هـ، بعد أن هجرها ابنه وخليفته المنتصر، وعاد إلى سامرا التي ظلت حاضرة الدولة العباسية إلى سنة ٢٧٩ هـ حيث عاد الخليفة المعتضد إلى بغداد، فسقطت عمائر سامرا ولم يبق منها إلى المسجد الجامع[١].

وكان المتوكل ولوعاً بالعمارة وزخرفة الأبنية وتزيين جدرانها بالرسوم التي تمثل الحروب والمواقع الحربية. ويقول المسعودي[٢]: «وأحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يتعرفونه، وهو المعروف بالحيري الكمين والأروقة. وذلك أن بعض سماره حدثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً في دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب وهيئته للهجه (لشغفه) بها وميله نحوها، لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله. فكان الرواق مجلس الملك، وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه. وفي اليمين منها خزانة الكسوة، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب. والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق؛ فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين إضافة إلى الحيري. واتبع الناس المتوكل في ذلك اتماماً بفعله واشتهر إلى هذه الغاية».

حفل عصر بني بويه بالعمارة التي ولع بها معز الدولة: فقد أنشأ في سنة ٣٥٠ هـ قصراً فخماً شرقي بغداد، أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم، أي ما يقرب من مليون دينار، ونزع ملكية المباني المجاورة لهذا المكان، وأمر بخلع الأبواب الحديدية ببغداد والرصافة ونقلها إلى قصره. كما نقض دور الخلافة بسامرا[٣]، وأحضر مهرة البنائين[٤]. وقد أصاب هذا القصر ما أصاب غيره من قصور الخلافة في سامرا على يد بهاء الدولة الذي شرع في تخريبه واستعمال أنقاضه في بناء قصره الذي بناه في سنة ٤١٨ هـ[٥].

كذلك كان عضد الدولة ولوعاً بالعمارة، وإليه يرجع الفضل في تعمير مدينة بغداد بعد أن أصابها التدمير بسبب إهمال شأنها مدة طويلة، حين اتخذ بعض الخلفاء مدينتي سامرا والجعفرية حاضرة الدولة. لذلك أعاد عضد الدولة بناء كثير من مساجدها وأدر الأرزاق على

---

(١) نرى أنقاض هذا المسجد في قرية لا تزال تحمل اسم سامرا.

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٦٩.

(٣) نوع من الجير (المصيص).

(٤) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٨٣:

(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٦.

القائمين بها من المؤذنين والأئمة والقراء. كما أعاد بناء ما تخرب من أرباض هذه المدينة وأمر أصحاب العمارات التي أصابها الخراب بإعادتها إلى ما كانت عليه وتجميلها، وأمد العاجزين منهم بما يحتاجون إليه من مال. كما عمل على تجميل الأحياء الواقعة على ضفتي نهر دجلة، وأقام الميادين والمنتزهات فامتلأت ـ على ما يقول مسكويه[١] ـ هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح[٢] الجيف والأقذار، وجلبت إليها العروس من فارس وسائر البلاد. كما عمل عضد الدولة على تحديد ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها بعد أن أهملت زمناً طويلاً، وأقام جسر بغداد وحصته بالدرابزينات، ووكل به الحفظة والحراس[٣]، وأصلح الطريق الذي كان يمتد من العراق إلى مكة، وأعاد بناء مشهد علي والحسين[٤]. وكذلك أنشأ البيمارستان المنسوب إليه في الجانب الغربي من بغداد (٣٧٢)، وعين له الأطباء وغيرهم من الموظفين، وأمده بكل ما يحتاج إليه[٥].

وليس هذا كل ما قام به عضد الدولة من الأعمال العمرانية، فقد بنى بفارس وخوزستان كثيراً من العمائر، كما بنى البيمارستان العضدي المشهور، «وعمل السكور[٦] وأنفق فيها الأموال، وأعد عليها الآلات، ووكل بها الرجال، وألزمهم حفظها بالليل والنهار، وراعى ذلك منهم أتم مراعاة في آونة الممدود والجوارف، وأزمنة الغيوث الهواطل، وأوقات الرياح العواصف»[٧].

وكان البويهيون يعنون ببناء الأسوار حول المدن؛ فقد أمر أبو كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) ببناء سور مدينة شيراز في سنة ٤٣٦ هـ لرد غارات السلاجقة الذين تفاقم خطرهم في ذلك الحين. وبلغ طول هذا السور اثني عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع، وجعل له أحد عشر باباً[٨].

---

(١) تجارب الأمم حـ ٢ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.
(٢) الأماكن التي تطرح فيها القمامات والجيف ونحوها.
(٣) مسكويه: نفس الجزء والصفحة.
(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٥٥.
(٥) أبو المحاسن جـ ٤ ص ١٤١.
(٦) السكر (بتشديد السين وسكون الكاف) سد النهر.
(٧) مسكويه: جـ ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٨) ابن الأثير جـ ١٦٩.

٢ ـ العمارة في مصر

١ ـ تأسيس مدينة القطائع ـ جامع ابن طولون:

ولم يكن ولوع أمراء مصر وخلفاؤها بالعمارة أقل من ولوع العباسيين. ذلك أنه لما ضاقت مدينة العسكر التي أسسها صالح بن علي العباسي سنة ١٣٣ هـ بسكانها من أتباع ابن طولون وحاشيته وعسكره! اتخذ لإقامته قصراً فسيح الأرجاء، واتخذ أمامه ميداناً فسيحاً. ثم اختط كبار رجال دولته وقواده وغلمانه وأتباعه دورهم حول هذا المكان. واتخذ كل منهم قطعية خاصة به، فسميت هذه المدينة «القطائع». وكانت هذه المدينة تمتد غربي القلعة. ويحدها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبة، ومن الغرب نواحي المشهد الزيني، ومن الجنوب العسكر. وفي هذه المدينة أقامت الطوائف المختلفة من سوادنيين ونوبيين وروم وغيرهم، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الطائفة التي تسكنها كذلك أفرد ابن طولون لأصحاب الحرف والصنائع والتجار قطائع خاصة بهم، فعمرت المدينة وامتدت مبانيها حتى اتصلت بالفسطاط. وقد حدد المقريزي مدينة القطائع في عهد أحمد بن طولون فقال: إنها كانت تمتد من قبة الهواء التي بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون، ومن الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين[١].

عني ابن طولون ببناء قصره وتجميله، وجعل له ميداناً فسيحاً. وكان يطلق على القصر اسم «الميدان» وربما كان ذلك لاتساعه. وعمل ابن طولون للميدان أبواباً كثيرة: فباب الميدان خصص لدخول الجند وخروجه، وباب الصوالجة[٢]، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصة الأمير، وباب الجبل لأنه كان يلي جبل المقطم، وباب (الدرامون)، وكان يجلس عنده حاجب أسود عهد إليه النظر فيما يرتكبه الغلمان السودان من الجرائم، وباب «دغناج» لأنه كان يجلس عنده خادم أسود يقال له دغناج، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان في الشارع الأكبر، ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون. وكان على هذا الباب صورة سبعين من جبس، ولهذا سمي باب السباع أيضاً. وكان لابن طولون طريق خاص به ثلاثة أبواب يتصل بعضها ببعض.

وفي مدينة القطائع بنى أحمد بن طولون ثالث المساجد الجامعة التي أقيمت فيها صلاة الجمعة منذ الفتح الإسلامي بعد جامعي عمرو والعسكر. وقد بني هذا الجامع على

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣١٧.

(٢) المراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز والفرنسيين باسم «بولو» وهي شبيهة بلعبة كرة القدم.

جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة، وهو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأولى بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة(١). ويحيط بهذا المسجد من الجهات الأربع شوارع ابن طولون جنوباً والزيادة غرباً وبئر الوطاويط شرقاً(٤) والخضيري شمالاً، وكانت هذه الجهات تعرف بخط المغاربة.

وقد دعت حالة ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند ابن طولون وخدمه وعبيده إلى شكوى الناس فرأى أن يقوم بهذا العمل تحقيقاً لرغبة الناس من جهة، ورغبته في الخير من جهة أخرى، ثم لأن وجود القطائع من غير مسجد فيها نقص يجب تلافيه، خصوصاً وأن أول ما كان يعنى به الولاة عند إنشائهم المدن لاتخاذها حاضرة البلاد أن يبنوا مسجداً يقيمون فيه شعائر الدين، كما كانت الحال عند تأسيس الفسطاط والعسكر والقاهرة.

وكان ابن طولون يرمي من بناء هذا الجامع إلى إقامة الصلاة فيه لضيق جامع العسكر بالمصلين كما تقدم، واتخاذه معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي، وليكون أيضاً أشبه بمعهد تدرس فيه العلوم الدينية، ومكان تعلن فيه أمور الدولة، وتعقد فيه المحاكم للفصل في قضايا الأفراد أو فض المشاكل التي تنشأ بينهم وما إلى ذلك. وبعد الفراغ من بناء هذا الجامع، افتتحه ابن طولون سنة ٢٦٥ هـ. وعهد فيه بالصلاة والخطبة إلى القاضي بكار بن قتيبة.

ولجامع ابن طولون أهمية خاصة بالنسبة إلى جوامع مصر، لأنه يعد المثال الأول الذي اتخذه بناة المساجد الجامعة فيما بعد. وفي وسط الجامع بنى ابن طولون فوارة مشبكة من جميع نواحيها، عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة، وفي جوانبها ستة عشر عموداً من الرخام، وأرض هذه الفوارة وقبتها محاطة كذلك بالرخام، وعلى سطح الفوارة علامات للزوال لتعيين أوقات الصلاة، وقد صنعت من خشب الساج. أما المنارة فمراقيها (أي درجاتها) من ظاهرها، بمعنى أن الرائي يرى الصاعد من داخل المسجد وخارجه. وتمتاز هذه المنارة على غيرها من المنارات باتساع عرضها، على مثال منارة المسجد الذي بناه المتوكل العباسي في مدينة سامرا.

---

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٥٥. ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١٤ ـ ١١٥.

٢ ـ تأسيس مدينة القاهرة ـ الجامع الأزهر:

لما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر حاضرة للفاطميين، وفكر في تأسيس مدينة جديدة تكون مقراً للفاطميين، ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية، وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين أخذوا يهددون حدود مصر الشمالية. لذلك وضع أساس مدينة القاهرة (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ). كما وضع أساس قصر مولاه المعز. ثم اختطت كل قبيلة من البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها، فاختطت جماعة من برقة (الحارة البرقية) واختط الروم حارتين إحداهما حارة الروم والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر.

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة. وأقام حوله السور سمى المدينة كلها (المنصورية) نسبة إلى المنصور أبي المعز، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر، فسماها (القاهرة المعزِّية). وتقع هذه المدينة شمالي الفسطاط، وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة، وحدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية. أما الجهة الغربية فلم تجاوز خليج أمير المؤمنين، وتحد شمالاً بباب النصر، وجنوباً بباب زويلة، وشرقاً بباب البرقية والباب المحروق (الدراسة الآن)، وغرباً بباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة. وكانت القاهرة المعزية تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكي والغورية وباب الخلق[١]. ويقال إن الخليفة المعز لما قدمها في أواخر سنة ٣٦٢ هـ ورأى أنه لا ساحل لها ولم يعجبه موقعها وقال: (يا جوهر! فاتتك عمارتها ههنا [٢]، يريد المقس)[٣].

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ضم الخطط التي تكونت منها القاهرة المعزية وكانت بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة. وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار، على حين كان يعرف الجزء الواقع خارجها يعرف بظاهر القاهرة وهو عبارة عن خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٢٧٣.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء ص ٧٤.

(٣) كانت تقع عند جامع أولاد عنان الآن.

وقد وضع جوهر أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز (١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ). في الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة من الناحية الشرقية. لذلك أطلق عليه اسم «القصر الكبير الشرقي». ويسمى أيضاً القصر المعزي، لأن المعز لدين الله هو الذي أمر جوهر ببنائه حين سيره لفتح مصر ووضع له رسمه. وكان الخليفة يقيم فيه ويجلس للنظر في أمور الدولة، كما كان هذا القصر يشتمل على دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها والجند الخاص بحراسة الخليفة، وبه أربعة آلاف حجرة.

وقد وصف علي مبارك باشا مدينة القاهرة كما كانت في أيام الخليفة المعز فقال: «شكل مدينة القاهرة في أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً، ضلعه ألف ومائتا متر، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فداناً. منها سبعون فداناً بني فيها القصر الكبير، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافوري، ومثلها للميادين فيكون الباقي مائتي فدان هو الذي توزع على الفرق العسكرية في عشرين حارة بجانبي قصبة القاهرة. وكان سور المدينة الغربي بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً. وفي سنة ست وثمانين وأربعمائة في وزارة بدر الجمالي وخلافة المستنصر بالله الفاطمي، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر[١].

اتخذ جوهر عدة أبواب لمدينة القاهرة وأشهرها: باب زويلة[٢]، وباب النصر، وباب الفتوح، وباب العيد. فلما تولى أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٦٥ هـ، أعاد بناء السور والأبواب بالحجر قريباً من مواضعها أولاً، وكانت مبنية باللبن، فنقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي به الآن، كما بني باب الفتوح حيث يبدأ شارع المعز لدين الله الفاطمي بجوار جامع الحاكم، ونقل باب زويلة إلى حيث موضعه الآن، وهو المعروف عند العامة «ببوابة المتولي»[٣]. وكان باب زويلة يتكون من بابين متجاورين عند سبيل العقادين الآن، ونقل باب النصر، وكان على مقربة من مدرسة القاصد، إلى موضعه الحالي. وكانت هذه الأبواب الثلاثة التي جدد بناءها بدر الجمالي من عمل ثلاثة إخوة من مدينة الرها.

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨١.

(٢) نسبة إلى قبيلة زويلة (بوزن سفينة) إحدى قبائل المغرب التي قدمت إلى مصر على أثر الفتح.

(٣) نسبة إلى متولي الحسبة في مدينة القاهرة، وقد أطلق عليه هذا الاسم في العهد العثماني، إذا كان متولي الحسبة في مدينة القاهرة يجلس على مقربة من هذا الباب.

ولما فتح جوهر مصر سنة ٣٥٨ هـ، وأسس مدينة القاهرة في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر (أي الفسطاط والعسكر)، لم ير أن يفاجىء السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمي، حتى لا يثير كراهة المصريين. لذلك وضع أساس الجامع الأزهر (١٤ من رمضان سنة ٣٥٩/٩٧٠). ولما تم بناؤه في سنتين تقريباً، أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ[1].

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً، عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها. أما المقصورة التي بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض اللون في صفوف متوازية. وفي سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخذا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام. وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بهما مائة وستة وعشرون عموداً. وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً. وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد. وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع، وهما متلاصقتان، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء. وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف، مرصوف بالحجر، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين. ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائق مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل.

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن «القبلة القديمة»، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى، لم يبق منها سوى ستة أشهرها اثنان: يعرف أحدهما بالمقصورة القديمة، والآخر بالمقصورة الجديدة، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي.

وللأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم. وأنشىء به عند تأسيسه منارة واحدة. ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم. وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي، ومهنته التنبيه على

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشي جـ٣ ص ٣٦٤. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٢٧٣.

أوقات الصلوات. وكان يعرف الأوقات بالنظر في المزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر. وكانت مساجد القاهرة تتبع أصوات المؤذنين في الأزهر في الآذان.

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر، ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون. ففي سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية. وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة علمية، وقد عمل الخليفة العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من شتى أرجاء البلاد الإسلامية ،بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن وما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر.

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا إليه الهبات الجليلة. وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء، عدتهم خمسة وثلاثون، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر.

٣ ـ العمارة في المغرب والأندلس

١ ـ تأسيس مدينتي المهدية والمنصورية:

أقام عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع واتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها «المهدية». وقد عزا البكري[1] بناء هذه المدينة إلى محاولة أبي عبدالله الشيعي وأخيه أبي العباس ومن معهما من كتامة قتل المهدي والتنكيل بأهل القيروان.

خرج المهدي إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبني فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج. وقيل إنه وجد في بعض الكتب ما يدل على خروج أبي يزيد مخلد بن

---

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠.

كيداد على دولته[١]. ثم وفق المهدي إلى موضع المهدية، وهي متصلة بالبحر كهيئة كف متصلة بزند، فتأملها فوجد فيها راهباً في مغارة، فقال له: بِم يعرف هذا الموضع؟ فقال: هذا يسمى حزيرة الخلفاء. فأعجبه هذا الاسم، فبناها وبها دار مملكته[٢].

تقع المهدية على بعد ستين ميلاً جنوبي القيروان وقد ذكر البكري أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربي. وقد شيدت مبانيها بالصخر، واتخذ المهدي لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً، ووزن كل مسمار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرطال. ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات. وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً عدا ما كان يجري فيها من القنوات. ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماً وسوقاً نافقة للسلع التي كانت تحملها السفن من الإسكندرية ومن الشام وصقلية وغيرها[٣].

ولما فرغ المهدي من بناء حاضرته الجديدة في سنة ٣٠٥ هـ قال. «اليوم أمنت على الفاطميات» يعني بناته. ثم انتقل إليها في شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ وأقام بها. ثم عمر بها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصة بها، فنقلوا إليها أموالهم. وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة، منها ربض زويلة، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره. وفيه الأسواق والحمامات، وربض الحمى، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر، وربض قفصة[٤].

وقد أمر المهدي ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهدية، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً، وأحاطها بسور وأبواب وأقام عليها الحراس، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر، وأسكنها أرباب الدكاكين بحرمهم وأهاليهم[٥]. ويظهر أن المهدي حذا في ذلك حذو أبي جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته إلى الكرخ.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٣.

(٢) أنظر لفظ المهدية في معجم البلدان لياقوت.

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٩. ذكر البكري (ص ٨٤ ـ ٨٦) أن السفن التي كانت تخرج من المهدية كانت تمر في طريقها إلى الاسكندرية بكثير من الموانىء كمدينة قابس، ومرسي الأندلسيين، ومرسي مدينة طرابلس، ولبدة، وسرت، وأجدابية، وسوسة، وبرقة، وتبني، وطبرق، والزيتونة، والسلوم، والأندلسيين ثم تصل إلى الاسكندرية.

(٤) البكري ص ٣٠ ـ ٣١.

(٥) أنظر لفظ المهدية في معجم البلدان لياقوت.

بقيت مدينة المهدية حاضرة الدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد بن كيداد على الخليفة القائم. ثم ولي ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ وانتصر على أبي يزيد بالقرب من مدينة القيروان، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته (سنة ٣٣٧ هـ) فسميت المنصورية نسبة إليه.

وكان لهذه المدينة خمسة أبواب: الباب القبلي، والباب الشرقي، وباب زويلة، وباب كتامة، وباب الفتوح. وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير. وقد نقل الخليفة المنصور إلى حاضرته الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات. فازدهرت فيها الصناعة والتجارة،وغدت حاضرة الدولة الفاطمية إلى أن قدم الخليفة المعز مصر (٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ)، فأصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية [١].

تأسيس مدينتي الزهراء والزاهرة:

ولما ولي عبد الرحمن الناصر حكم بلاد الأندلس كانت قرطبة حاضرة هذه البلاد. وقد بلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة، وعدد دورها ثلاثة عشر ألفاً ومائة، غير قصورها الفخمة وضواحيها الثمانية والعشرين وحماماتها الثلثمائة، ومساجدها التي بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل، ولم يتفوق عليها في الاتساع سوى مدينة بغداد. وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بها، فقال بعضهم:

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ... ولا تعظِّم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة ... وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

كذلك بلغت شهرة قرطبة أهالي جرمانية الذين أطلقوا عليها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) «جوهرة العالم»[٢].

أما مدينة الزهراء فإنها لم تقل عن قرطبة روعة وبهاء. وقد ذكرى المقري[٣] في سبب بناء هذه المدينة «أن الناصر ماتت له سرية (مملوكة) وتركت مالاً كثيراً، فأمر بأن يفك بذلك أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد[٤]. فشكر الله تعالى على ذلك

---

(١) البكري ص ٢٥. أنظر لفظ المنصورية في معجم البلدان لياقوت.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٦.
(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٤) يقصد مملكتي ليون ونافار.

فقالت له جاريته الزهراء، وكان يحبها حباً شديداً، اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمالي قرطبة» وسماها الزهراء.

على أن ما أدلى به المقري لا يمكن أن يكون سبباً مباشراً لبناء هذه المدينة، إذا عرفنا أن عبد الرحمن الناصر ولي الأندلس بعد فترة طويلة انتابها الضعف. فلما وطد عبد الرحمن دعائم ملكه، ووحد بلاد الأندلس وأصبح خليفة للمسلمين، فكر في بناء مدينة يتخذها حاضر لخلافته، مقتدياً في ذلك بأبي جعفر المنصور حين بنى مدينة بغداد، وعبيد الله المهدي حين بنى مدينة المهدية، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيما بعد.

وضع الناصر أساس مدينة الزهراء في أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ في الشمال الغربي من مدينة قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها. وتأنق في بنائها، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية والمجزع من رية، والوردي والأخضر من إفريقية، وأرسل بعضه هدية من الملوك والأمراء. وقد استعمل في بناء هذه المدينة ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل كل يوم. سوى الصخر غير المعدل والآجر[١] وأقيم بها أربعة آلاف سارية[٢]، وعمل في بناء المدينة كل يوم عشرة آلاف عامل وألف وخمسمائة دابة، واستمر العمل في بنائها حتى نهاية عهد عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ هـ)، وفي عهد ابنه الحكم المستنصر إلى سنة ٣٦٥ هـ. أي نحواً من أربعين سنة[٣].

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس، وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة في البناء، كما يتبين ذلك من عبارة الإدريسي[٤] حيث يقول: «وهي في ذاتها مدينة عظيمة

---

(١) المقريزي: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٩.

(٢) السارية هي الأسطوانة أو العمود. ذكر المقري في كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض (طبعة الأستاذ السقا وآخرين جـ ٢ ص ٢٧٠). أن عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس: طركونة وغيرها. فالرخام المجزع من رية، والأبيض من غيرها، والوردي والأخضر من إفريقية من كنيسة سفاقس.

(٣) ذكر المقري. (نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩) أن الناصر كان ينفق على بناء مدينة الزهراء ثلثمائة ألف دينار مدة خمس وعشرين سنة، أي سبعة ملايين ونصف مليون دينار في مثل هذه المدة عدا ما أنفقه ابنه الحكم من بعده مدة خمس عشرة سنة.

(٤) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والمغرب ص ٢١٢.

مدرجة البنية، مدينة فوق مدينة، سطح الثلث الأعلى يوازي الجزء الأوسط، وسطح الثلث الأعلى يوازي الثلث الأسفل، ولكل ثلث منها سور؛ فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها، والجزء الأوسط لبساتين وروضات والجزء الثالث للديار والجامع».

بدأ الناصر ببناء قصره، مقتدياً في ذلك بجده ألأمير محمد وأبيه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم، الذين شيدوا قصورهم الفخمة، كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف. فبنى الناصر إلى جانب المجلس الزاهر قصره العظيم الذي سماه «دار الروضة»؛ ثم اختط مدينة الزهراء التي اتخذها داراً لإقامته وكرسياً لخلافته وبنى فيها دوراً فسيحة للحيوان، ومسارح للطيور مظللة بالشباك وداراً لصناعة آلات الحرب، والحلي للزينة[١].

وقد ذكر المؤرخون أن حيطان قصر الزهراء كانت من الذهب والرخام السميك الصافي، وأن قرامده من الذهب والفضة، ووضعت في وسط المجلس «اليتيمة» التي أهداها إياه إمبراطور القسطنطينية. وفي وسط هذا القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق. وفي كل من جوانب القصر ثمانية أبواب، انعقدت في حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر، القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي. «وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار. وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه، أومأ إلى أحد صقاليته فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك، وقيل إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس»[٢].

ومن عجائب قصر الزهراء الحوض المنقوش المذهب الذي جلب من القسطنطينية، والحوض الصغير الأخضر[٣] المنقوش بتماثيل الإنسان. «وقالوا لا قيمة له لفرط غرابته، وجماله، وحمله من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر. ونصبه الناصر في بيت المنام، في المجلس المستشرف الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالي، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه صورة غزال، إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقارب. وفي المجنبتين

(١) ابن خلدون: كتاب العبر جـ ٤ ص ١٤٤.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٠، ٢٥٦.

(٣) وقد جلب من الشام وقيل من القسطنطينية.

حمامة، وشاهين، وطاووس، ودجاجة، وديك... وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها.. وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر على أمين غيره. وكان يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرة ثمانمائة خبزة (وقيل أكثر)، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه»[١].

وقد أطنب المؤرخون والرحالة في وصف قصر الزهراء، فقال المقري[٢]: «إنه لم يبق مثله في الإسلام ألبتة... ولو لم يكن إلا السطح الممرد المشرف على الروضة، المباهي بمجلس الذهب والقبة. وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة، وحسن المستشرف (المنظر)، وبراعة الملبس والحلة، ما بين مرمر مسنون، وذهب موضون، وعمد كأنما أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها».

وعلى الرغم من أن مدينة الزهراء لا تبعد كثيراً عن قرطبة، أراد الناصر أن يستكمل مدينته الجديدة ببناء مسجد جامع فيها. ولا غرو فإن المسجد لم يكن مكاناً للعبادة فحسب، بل كان أيضاً مركز الحركة السياسية والاجتماعية، ومعهداً يجتمع فيه علماء التفسير والحديث وغيرهم.

ويعد مسجد الزهراء من آيات الفن الإسلامي، وقد عمل في بنائه ألف رجل في اليوم: منهم ثلثمائة بناء، ومائتا نجار، وخمسمائة من الصناع والفعلة. وطول المسجد من القبلة إلى الجوف[٣]، سوى المحراب، سبعة وثلاثون ذراعاً. وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً، وأقيم في المسجد منبر حوله مقصورة بديعة، وفرش بالرخام الخمري، وأقيمت في وسطه فوارة يجري فيها الماء. وقد بناه الحكم بن الناصر، وتم بناؤه في شهر شعبان سنة ٣٢٩[٤].

رأى الناصر أنه إذا انخفض ماء نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه قرطبة والزهراء، أصبح هذا الماء لا يصلح للشرب. فحفر قناة تمر بالجبل طولها ثمانون كيلو متراً. وفي سنة

(١) المقري: أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠.
(٢) أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(٣) الفضاء المتسع غير المسقوف الذي يسمى الصحن.
(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٨، أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٧٧.

٣٢٩ هـ تم بناء هذه القناة الغريبة الصنعة التي لا تزال آثارها الهندسية باقية إلى الآن[١].

وقد أطنب المؤرخون والرحالة في وصف مدينة الزهراء، وجداولها المتدفقة، وبساتينها النضرة، ومبانيها الفخمة وقصورها الجميلة، ودور الموظفين ورجال البلاط وثكنات الجند، وغلمان الصقالبة الذين كانوا يغدون ويروحون في شوارعها الواسعة بسراويلهم الحريرية الخاصة أو الموشاة بالذهب والفضة، وجماعة القضاة والفقهاء والشعراء الذين يسيرون في جد ورزانة في ردهات القصر الفخمة وأبهائه الفسيحة[٢].

وإن هذا العمل الذي يشهد لأمويي الأندلس بالبراعة في الهندسة والبناء كلف الناصر أموالاً ضخمة، حتى قيل إنه خصص ثلث خراج دولته في بناء هذه المدينة[٣]، وإنه لقي معارضة قوية تزعمها رجل اشتهر بالورع والتقوى والتفقه في الدين، هو المنذر بن سعيد البلوطي الذي ولاه الناصر إمامة الصلاة بقرطبة والزهراء بعد أن تم بناء مسجدها. وقد تحلى هذا الإمام بالشجاعة التي جعلته ينقد تصرف الخليفة متهماً إياه بأنه بذل الأموال الضخمة في بناء المدينة مما شغله عن مباشرة أمور الدولة.

على أن هذه المدينة لم تعمر طويلاً، بل ذبلت ودكت معالمها حين ولي الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الحاجب، ويلقب بشنجول[٤]. ففي سنة ٣٩٩ هـ. خلع الخليفة المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن، وتقلد الخلافة من بعده محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وهدم مدينة الزهراء، واتخذ قرطبة حاضرة لخلافته[٥].

ولم يقتصر بناء المدن على الخلفاء، بل تعداه إلى الوزراء، فقد بنى المنصور بن أبي

---

(١) المقري: أزهار الرياض جـ ٢ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٢) Lane - Pool: The Moors in Spain, pp. 140 - 141.

(٤) المقري: أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.

شنجول تصغير شانجة ملك قشتالة الذي أهدى ابنته إلى المنصور فتزوجها وأنجب منها ولده عبد الرحمن الذي عرف باسم شنجول نسبة إلى جده لأمه.

(٥) قال ابن خلدون (العبر جـ ٤ ص ١٤٩ ـ ١٥٠) إنه تلقب الناصر لدين الله، وحجر على الخليفة هشام، وطلب منه أن يوليه عهده، وأحضر أهل الحل والعقد وكتب عهده. ولكن العامة غضبوا على عبد الرحمن لتعديه على حرمة الخلافة، وخرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر في سنة ٣٩٩ هـ، وتلقب المهدي، وخلع هشاماً وحبسه، وأسر شنجول وقتل.

عامر الحاجب مدينته الزاهرة بضواحي قرطبة وشيد فيها قصراً فخماً. وفي سنة سبعين وتلثمائة انتقل إليها المنصور واتخذ فيها الدواوين والأعمال، ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه، فبنوا بها الدور القصور، واتخذوا خلالها الضياع. وقامت بها الأسواق وكثرت بها الأرفاق[1]، ونزل الناس بالنزول في أرباضها التي اتصلت بأرباض قرطبة[2].

(١) الأعمال ووجوه الرزق.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٥.

الباب الحادي عشر

الحالة الاجتماعية

١ ـ طبقات الشعب

(أ) في عهد العباسيين:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أنه يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها، وما يتمتع به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وشراب ولباس، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

كان الشعب في أواخر العصر العباسي الأول يتألف من عدة عناصر، هي العرب والفرس والمغاربة. وقد ظهر العنصر التركي على مسرح السياسية في عهد الخليفة المعتصم الذي اتخذهم حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية، وأهمل العرب والفرس، فأصبح الأتراك خطراً يهدد الخلفاء أنفسهم، حتى إن كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تآمرهم. على أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر، فاستعانوا بالمغاربة والفراعنة وغيرهم من الجنود المرتزقة، كالأكراد والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ). إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من خطر هذه العناصر التي كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة وإلى الخلفاء أخرى.

ولما انتقلت السلطة إلى بني بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم في إقرار نفوذهم. ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة

بينهم وبين الأتراك. واستعانة البويهيين بهؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى. وقد أدرك معز الدولة هذا الخطر فأوصى ابنه بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك. ولكن بختيار، على الرغم من استعانته بالأتراك، لم يسلم من شرهم، فعزلوه وانضموا إلى ابن عمه عضد الدولة. ومهما يكن من شيء فقد كان الجيش في عصر بني بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراعنة وغيرهم من المرتزقة.

وكان من أثر انقسام المسلمين في هذا العصر إلى شيع وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع. فهناك السنيون الذين كانوا يكونون السواد الأعظم ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة في عهد نفوذ الأتراك وفي عهد إمرة الأمراء وهناك الشيعيون الذين قاسوا كثيراً من العنت والاضطهاد، حتى استولى بنو بويه على العراق، فتمتعوا بشيء غير قليل من الطمأنينة في ظل البويهيين المتشيعين. ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعيين والسنيين، فضرب يحيى بن عمر بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وحبس في بغداد سنة ٢٣٥ هـ[١]. ولم ينج من عنت هذا الخليفة إلا العلويون الذين لجئوا إلى مصر. ومع ذلك أمر هذا الخليفة واليه على هذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق، ثم أمر بإرسالهم إلى المدينة. وقد خرج يحيى بن عمر العلوي على الدولة العباسية، ولكنه قتل في عهد المستعين سنة ٢٥٠ هـ[٢]. كذلك ثار بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واستولى عليها وعلى جرجان، وحكم هذه البلاد عشرين سنة (٢٥٠ - ٢٧٠ هـ) إلى أن مات، فخلفه أخوه، وكانا يدعوان إلى الرضا من آل محمد، ثم خلفه الحسن بن علي الحسني المعروف بالأطروش[٣].

بيد أن الشيعيين انتعشوا في عهد بني بويه، وأصبحوا يقيمون شعائرهم في شيء كثير من الطمأنينة، وإن كانت مساكنهم لم تتعد المكان المحيط بسوق الكرخ غربي بغداد إلا في أواخر القرن الرابع الهجري. وفي سنة ٣٤٩ هـ قامت فتنة بين العامة ببغداد، وتعطلت صلاة الجمعة في مساجد السنيين على حين أقيمت في مسجد براثا الشيعي، ولم تلبث هذه الفتنة

(١) الطبري جـ ١١ ص ٤٢.
(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤١٩ - ٤١٥، ٤٧٤.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤١٣ - ٤١٤.

أن سكنت بعد أن اعتقل معز الدولة جماعة من السنيين. وفي السنة التالية احتفل الشيعيون بيوم عاشوراء الذي جعلوه من أيام الحزن عندهم(١).

وفي الثامن عشر من شهر ذي الحجة من هذه السنة احتفل الشيعيون بيوم غدير خم، وأمر معز الدولة بإظهار الزينة في بغداد فرحاً بعيد الغدير، وضربت الدبادب والبوقات(٢).

ولم يكن هذا الاختلاف قائماً بين السنيين والشيعيين وحدهم. بل تعداه إلى داخل السنيين أنفسهم. فقد رأينا أن الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها، حتى إنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبري سنة ٣١٠ هـ، لأنه جمع كتاباً في اختلاف الفقهاء، لم يذكر فيه أحمد بن حنبل من بين هؤلاء الفقهاء(٣). كما رأينا كيف بلغ من تشددهم في الدين أن قاموا في وجه ذوي اليسار وكسروا أواني الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنيين(٤). وذكر السيوطي(٥) أن الحنابلة ثاروا ببغداد سنة ٣١٨ هـ، لاختلافهم مع غيرهم من السنيين في تفسير قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾(٦)، فقال الحنابلة إن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه، وقال غيرهم بل هي الشفاعة واحتدم الجدل بسبب ذلك واقتتل الحنابلة مع خصومهم(٧).

ومن طبقات الشعب طبقة الرقيق، وكانت مصر وشمالي إفريقية وشمالي جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود، وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات اللاتي عرفن بكثرة النسل، كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور. وكثر الزنج في العراق، وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ)، وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء.

وقد كثر شراء الرقيقات اللاتي أصبح منهم المغنيات وارتفع ثمنهن. وقد قيل إن ابن رائق اشترى حول سنة ٣٢٥ هـ جارية مولدة سمراء موصوفة بحسن الغناء بأربعة الاف

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٢٣.
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٤.
(٦) سورة الإسراء ٧٩.
(٧) راجع كتاب الخليفة الراضي إلى الحنابلة في مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ـ

دينار[١]، وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبيد الأندلس في القرن الرابع الهجري وتخريب الثغور الغربية، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي من الرقيق وهو ببزنطية وأرمينية[٢].

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسمون العلماء، الأتراك والديلم والأكراد الذين قاموا بدور هام في السياسة والحرب في هذا العصر، وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً. وكانت سمرقند، التي كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق، بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها[٣]. ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة ازدراء، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق. وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحياناً على العربيات الحرائر.

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة، وهم النصارى واليهود. وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ويقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة. وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح. ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائر أهل الذمة، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضروا مواكبهم وأعيادكم ويأمروا بحمايتهم.

وكان للنصارى بطريق يعينه الخليفة بعهد خاص كما يعهد لكبار العمال، ويطلق عليه الجاثليق النسطوري أي رئيس المسيحيين الشرقيين، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء ملته[٤]، وكذلك عومل بطريق اليعاقبة[٥].

وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب الملك، ويدفع له أهل ملته الضرائب، فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر إلى بيت المال، بخلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة

(١) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٠١.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٤٢.
(٣) متز الإسلامية ص ٢٦٨.
المصدر نفسه جـ ١ ص ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٠. راجع نسخة الجاثليق في تذكرة ابن حمدون التي نشرها أمدروز في
(٥) المجلة الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٨ ص ٤٦٧ وما يليها.

للنصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة، ويطلق على رئيس اليهود ببغداد رأس الجالوت. وقد امتد نفوذه على اليهود المقيمين في البلاد الواقعة شرقي الفرات. وبلغ عدد اليهود في البلاد الإسلامية ٣٠٠,٠٠٠ وكلما تقدمنا شرقاً زاد عدد اليهود، ففي همذان مثلاً بلغ عددهم ثلاثين ألفاً، وفي أصبهان خمسة عشر ألفاً، وفي شيراز عشرة آلاف، وفي غزنة ثمانين ألفاً، وفي سمرقند ثلاثين ألفاً، ويظهر أن عددهم كان ضئيلاً في بلاد الشام، وخاصة في أثناء الحرب الصليبية، حتى إن عددهم في الحي الخاص بهم في بيت المقدس لم يجاوز أربعة أنفس أو مائتين على ما ذكره بنيامين، أو شخصاً واحداً على ما ذكره بتاحيا. أما في دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف، وفي حلب خمسة آلاف[١]، ويقول المقدسي[٢] إنه كان بخراسان «يهود كثيرة ونصارى قليلة»، ويقول عن بلاد الجبل: «واليهود به أكثر من النصارى»[٣].

وفي القرن الرابع الهجري اعترفت الدولة العباسية بالمجوس الذين لم يكن قد تم التغلب عليهم في البلاد البعيدة، لتمسكهم بدينهم وتقاليدهم وكراهيتهم للإسلام بأنهم أهل ذمة. وكان لهم ـ كما كان لليهود ـ رئيس ديني يلقب بألقاب الملوك، يدفع له أبناء محلته الضرائب كما يفعل اليهود[٤]. وكان منصبه وراثياً. وقد كثر عدد المجوس في القرن الرابع في العراق وجنوبي فارس[٥].

(ب) في عهد الفاطميين:

وكان الشعب المصري في عهد الفاطميين يتكون من أهل السنة الذين كانوا منذ أيام الطولونيين، يكونون السواد الأعظم من المصريين، وكانوا يختلفون مع الشيعيين أنصار الفاطميين، الذين لم يدخروا وسعاً في نشر مذهبهم في المساجد والقصور وفي دور العلم وغيرها. وقد فعلت هذه السياسة فعلها في الناس، فتحول كثير من السنيين إلى المذهب الفاطمي رغبة في الهبات والعطايا والمناصب، واضطر كثير من الموظفين من أهل السنة إلى التحول إلى المذهب الفاطمي، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب.

---

(١) متز الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٦٠ ـ ٦٢.
(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٣٢٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤.
(٤) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٥٨.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٦.

أما الطبقة الثانية فهي طبقة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب ثم في مصر. وكان الفاطميون يعتمدون عليهم في جيوشهم، وخاصة الكتاميين الذين كانوا عصبة الدولة الفاطمية وقوتها في مصر.

والطبقة الثالثة هي طبقة أهل الذمة، وهم النصارى واليهود. وقد دفعت رغبة كثير منهم في الحصول على الهبات والعطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي لأغراض مادية. وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية، فتقلدوا أرقى المناصب في عهد الخليفة العزيز، وشغلوا في عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية في الدولة، بل تقلدوا الوزارة أيضاً.

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية. فقد استعان أحمد بن طولون، وكان تركياً من بلاد ما وراء النهر، بعدد كبير من هؤلاء الأتراك، وظهر أمر الأتراك في مصر في عهد الحاكم حين بالغ ابن عمار في محاربة المغاربة.

والطبقة الخامسة هي طبقة السودانيين الذين كثر عددهم في مصر منذ عهد كافور الإخشيد، وظهر أمرهم في أيام الخليفة الحاكم الذي استعان بهم على الأتراك، فأحرقوا القاهرة حنقاً منهم على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته المضطربة. وقد ظهر أمر السودانيين من جديد في أيام الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية، ثم تفاقم خطرهم في عهد ابنه المستنصر.

(حـ) في عهد الأمويين في الأندلس:

وكان الشعب في الأندلس يتألف من عدة عناصر، من بينها المسلمون من العرب البربر الذين ساهموا في فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومن مسيحيي الأندلس من الأسبان الذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح.

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين، وسكنوا في أماكن كثيرة. ونزل كثير من المصريين في طليطلة. وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها، كما نزل اليمنيون بغرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس.

وعلى الرغم من أن البربر قد أبلوا بقيادة طارق بن زياد البلاء الحسن في فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء الفتح، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة في الشمال، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا

في الأماكن الحصينة، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين. لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب[١]، وأخذوا يناصبونهم العداء كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم في بلاد المغرب.

ولكن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) استطاع أن يرغم البربر على الطاعة وأن يعيد وحدة البلاد. ولم يستطع هؤلاء البربر الظهور إلا بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (٣٩٣ هـ) حيث غدت بلاد الأندلس مسرحاً لفوضى القوى المتعادية المتنافسة، ومن بينها البربر الذين اعتمد عليهم المنصور في تحقيق سياسته حتى أصبحوا خطراً يهدد كيان الدولة[٢]. وبعد وفاة الحاجب المنصور انفض هؤلاء البربر من حول أخيه عبد الرحمن وقتلوه وأزالوا دولة العامريين[٣]، وساعدوا أفراد البيت الأموي بعضهم على بعض. لذلك نرى البربر يلتفون حول محمد بن هشام (بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) الذي تلقب بالمهدي ويساعدونه في الحروب التي قامت بينه وبين هشام بن سليمان (بن عبد الرحمن الناصر). ولما وجد محمد بن هشام حنق أهل قرطبة على البربر لمناصرتهم المنصور بن أبي عامر وأولادهم طردهم من جيشه وجردهم من سلاحهم[٤]. وقد تخلى البربر عن المهدي وناصروا هشام بن سليمان (شوال سنة ٣٩٩ هـ) وحثوه على الخروج على طاعة المهدي ولكن أهل قرطبة فتكوا بهم فتكاً ذريعاً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لذلك ساعد البربر سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين بالله، وساروا معه إلى قرطبة التي أصبحت مسرحاً للفوضى والنهب والإحراق، حتى دخلها سليمان سنة ٤٠٠ هـ، وفر المهدي واستعان بالنصارى على طرد البربر والمستعين، وتم لهم ما أرادوا، وأدى ذلك إلى تفريق كلمة المسلمين وظهور ملوك الطوائف، وقامت دولة بني حمود بمساعدة البربر على ما تقدم.

أما المسيحيون فكانوا فريقين: فريق بقي متمسكاً بدينه القديم، وفريق آخر عرف باسم المستعربين. وعلى الرغم من أنهم ظلوا على عقيدتهم الأولى أظهروا ميلهم إلى تعلم اللغة العربية فتكلموا بها، وألفوا الكتب، ونظموا الشعر، وتخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم. وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى الكونت، يختاره الأمير أو الخليفة. ولهم ممثل يمثلهم

---

(١) Lane - Poole, The Moors in Spain, P 53 - 55

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٤) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٤.

في البلاط وآخر يقوم بجمع الخراج، كما كان لهم قاض منهم ومحكمة استئنافية برياسة الكونت. وكثيراً ما كان هؤلاء المسيحيون يعينون في أرقى المناصب المدنية والحربية ويتمتعون بقسط وافر من التسامح الديني، ويختلطون بإخوانهم في حرية تامة.

وقد تمتع اليهود في هذا العصر بشيء كثير من التسامح الديني الذي لم يظفروا به تحت حكم القوط. ولا غرو فقد أسند إليهم كثير من مناصب الدولة، وأصبح بعض الحرف، وخاصة الطب، مقصوراً عليهم، وغدوا عنصراً هاماً في الإدارة والتجارة والثقافة وأصبحت قرطبة مركز الدراسات العبرية، وأصبح كثير من اليهود يتحدثون اللغة العربية الصحيحة ويكتبون بها.

وكان لليهود، كما كان للمسيحيين، نظام إداري خاص بهم. وقد ذكر الإدريسي[١] أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة، وأنهم كانوا «يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيما مسلم ألبتة، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين». وليس أدل على ما بلغه اليهود في عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ من اختيار حسداي بن شبروط اليهودي لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يغدون على البلاط الأموي في هذه البلاد. وقد قام حسداي هذا بدور هام في البعثة التي أوفدها قسطنطين الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية إلى عبد الرحمن الناصر. وفي البعثة التي أوفدها أوتو إمبراطور ألمانيا، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار.

ومن أهم طبقات الشعب في الأندلس «الصقالبة» الذين قربهم عبد الرحمن الناصر إليه بعد أن رأى روح العصبية العربية كانت مثار النزاع والانقسام، فتخلص من العرب واعتمد على جماعة من الأرقاء والمماليك الذين اتخذهم حرساً له، كما اتخذ منهم جنوداً يعتمد عليهم في إذلال العرب. وقد ذكر المقري[٢] أن عدد الصقالبة بلغ بقصر الزهراء وحده ٣٧٥٠.

ولكن هؤلاء الصقالبة لم يلبثوا أن انضموا إلى الثورات التي قامت بعد موت الحاجب المنصور الذي عمل على القضاء على العرب والصقالبة. واعتمد على البربر كما تقدم. كما استعان بهم عبد الرحمن الناصر في حروبه التي شنها على مسيحيي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين.

(١) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٩٦.

٢ ـ مجالس الغناء والطرب

(أ) في الدولة العباسية :

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن العباسيين انعمسوا في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وأن قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة كانت مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة، وازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة. وكان العباسيون في العراق والطولونيون والفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس ينفقون في سبيل رفاهيتهم عن سعة، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، لذلك حفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين. وأصبحت مجالسهم آية من آيات الروعة والجمال.

أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس كما نعلم، وعلى الرغم من ضعف الدولة في العصر العباسي الثاني، كان للخلفاء مجالس للطرب والغناء يحضرها والشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون. وقد ذكر المسعودي[١] أن مجلس المتوكل أول خلفاء العصر العباسي جمع مرة بين الشعراء والأدباء والملهين. وقد مدح البحتري هذا الخليفة بقصيدة قال في مطلعها:

عنْ أيِّ ثغرٍ تبتسمْ ... وبأيِّ طرفٍ تحتكمْ؟
حُسْنٌ يضيءُ بحسنه ... والحسنُ أشبَهُ بالكرم
قلْ للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصم
أما الرعيةُ فهي مِنْ ... أمنات عدلِكَ في حَرم

فلما انتهى هذا الشاعر سار القهقري للانصراف، فوثب أبو العنبس الصيمري الشاعر فقال: أمير المؤمنين تأمر برده، فقد والله عارضته في قصيدته هذه. فأمر برده فأخذ الصيمري ينشد قصيدة له على مثل قافية البحتري ووزنها يهجوه فيها فقال:

في أيِّ سلح ترتطمْ ... وبأي كف تلتقمْ

---

(١) مروج الذهب (طبعة باريس) جـ ٨ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦.

ووصل ذلك بما أشبه من الشتم، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه، وفحص برجله اليسرى وقال: يدفع إلى أبي العنبس عشرة آلاف درهم، فقال الفتح (بن خاقان): يا سيدي.. البحتري الذي هجي وأسمع المكروه ينصرف خائباً! قال: ويدفع إلى البحتري عشرة آلاف درهم. قال: يا سيدي! فهذا البصري الذي أشخصناه من بلده لا يشركهم فيما حصلوه؟ قال: ويدفع إليه عشرة آلاف درهم. فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل، ولم ينفع البحتري جده واجتهاده وحزمه. ثم قال المتوكل لأبي العنبس: أخبرني عن حمارك ووفاته وما كان من شعره في الرؤيا التي رأيتها. قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان أعقل من القضاة، ولم يكن له جزية ولا زلة، فاعتل علة على عقلة ومات منها، فرأيته فيما يرى النائم، فقلت له: يا حماري! ألم أبرد لك الماء، وأنق لك الشعير، وأحسن إليك جهدي؟ فلم مت على غفلة؟ وما خبرك؟ قال: نعم! لما كان في اليوم الذي وقفت على فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا، مرت بي أتان حسناء فرأيتها فأخذت بمجامع قلبي، فعشقتها، واشتد وجدي بها، فمت كمداً متأسفاً، قلت له: يا حماري! هل قلت في ذلك شعراً؟ قال: نعم! وأنشدني:

هامَ قلبي بأتانٍ عند باب الصيدلاني
تيمتني رضا بدلال بثناياها الحسان
وبخدَّين أسيلـ ـن كلَوْن الشقران
وبخدٍّ ذي دلالٍ مثلِ خد الشنفراني
فيها مِتُّ ولو عشـ ـت، إذاً طال هواني

فقلت: يا حماري! فما الشقراني؟ قال: هذا من غريب الحمير، فطرب المتوكل، وأمر الملهين المغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار، وفرح ذلك اليوم فرحاً شديداً وسر سروراً لم ير مثله، وزاد في تكرمة أبي العنبس وجائزته».

كان الخليفة المعتمد مشغوفاً بالطرب والغناء والموسيقى. دخل عليه يوماً جماعة من ندمائه، فسأل عبد الله بن خرداذبة والد أبي القاسم عبيد الجغرافي المشهور صاحب كتاب «المسالك والممالك» عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير، فأجاد في وصفها في البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور، فسر المعتمد وقاله له: «قد قلت فأحسنت ووصفت فأطنبت، وأقمت في هذا اليوم سوقاً للغناء وعيداً لأنواع الملاهي. وإن كلامك لمثل الثوب الموشى، يجتمع فيه الإحمرار والأصفر والأخضر وسائر الألوان». ثم سأل عن الصفات التي يجب أن تتوافر في المغني الحاذق، فقال له: المغني الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من

أنفاسه(١) ولطف في اختلاسه(٢) وتفرع في أجناسه. ثم سأله عن أنواع الطرب قال: «على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين، وهي طرب محرك مستخف لأريحية(٣)، ينعش النفس ودواعي الشيم عند السماع. وطرب شجن وحزن، لا سيما إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثي لمن عدم الأحباب، وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس(٤)، لا سيما عند سماع جودة التأليف وإحكام الصنعة،إذ كان من لا يعرفه، ولا يفهمه ولا يسره، بل نراه متشاغلاً عنه فذلك كالحجر الجلد والجماد الصلد، سواء وجوده وعدمه. وقد قال يا أمير المؤمنين جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام اليونانيين: من عرضت له آفة في حاسة الشم كره رائحة الطيب، ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه قال المعتمد: فما منزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم؟ قال: قد قال في ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم: إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر، وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ولقبوه بألقاب. وهو أربعة أجناس: ثقيل الأول وخفيفه، وثقيل الثاني وخفيفه، والرمل الأول وخفيفه، والهزج وخفيفه»(٥).

ثم أخذ ابن خرداذبة يصف الإيقاع في كثير من الإفاضة حتى قال: «فهذه يا أمير المؤمنين جوامع في صفة الإيقاع ومنتهى حدوده. ففرح المعتمد في هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضر من ندمائه، وفضله عليهم».

وللمعتمد مجالس قد دونت في أنواع من الأدب، منها مدح النديم وذكر فضائله، وذم التفرد بشرب النبيذ وما قيل في ذلك من النثر والشعر، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته وأنواع الشرب، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه، وأصول الغناء عند العرب وغيرهم، وأخبار الأعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين، وهيئة المجالس ومراتبهم(٦).

ولم تقتصر مجالس الغناء على الخلفاء بل تعدتهم إلى الأمراء والوزراء وغيرهم من

---

(١) أي من جمع نفسه لمده الصوت.

(٢) أي اختلس النفس دون أن يشعر الناس به.

(٣) يحرك الارتياح للكرم من كثرة الطرب.

(٤) أي من أنواع الطرب ما هو استجابة للدواعي الفنية وحدها من إحكام صنعة الغناء وجودة الإيقاع وحسن تأليف اللحن، وهذا النوع لا يطرب له إلا الفنان القوي الحس.

(٥) المسعودي: مروج الذهب (طبعة باريس) جـ ٨ ص ٩٥ ـ ٩٩.

(٦) المسعودي (طبعة باريس) جـ ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٣.

كبار رجال الدولة، فقد وصف المسعودي مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين[١].

وكان انتشار الغناء في هذا العصر راجعاً إلى كثرة الجواري، وكان معظم القيان اللائي يحترفن الغناء ببغداد في أوائل القرن الرابع الهجري من الجواري، وقليل منهن من الحرائر[٢]. وذكر السيوطي[٣] أن الخليفة القاهر أمر في سنة ٤٢١ هـ بتحريم القيان والخمر وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو، كما فعل الحنابلة في أوائل هذا القرن، وأمر ببيع المغنيات من الجواري على أنهن غير مدربات على الغناء سوادج. ومن الغريب أن هذا الخليفة كان مولعاً بالشراب وسماع المغنيات.

(ب) في مصر والأندلس:

وقد عني الطولونيون والفاطميون بالغناء والموسيقى. يدلنا على ذلك بيت الذهب الذي بناه خمارويه بن أحمد بن طولون، واتخذ على حيطانه صوراً بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف. وكان على رؤوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكودان[٤] المرصعة بالجواهر، وعلى آذانها المثبتة في الحيطان بمسامير، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع وقد لونت أجسادها بالأصابع العجيبة التي تبدو للرائي كأنها ثياب حقيقية. وذكر المقريزي[٥] أيضاً أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون أمر المغنيات بوقف الغناء، وأخذ يسمع أصوات المكبرين في سكون وخشوع. وذكر المقريزي في مكان آخر[٦] أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ و ٤٠١ هـ قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطىء الخليج. كما حرم فتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطىء، وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها، ويمنع

(١) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٣٣٥ ـ ٣٩٢.

(٢) متز: جـ ١ ص ٢٩٥.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧.

(٤) لعلها جمع كدن، وهو كما في القاموس المحيط ـ ثوب للخدر (المنزل) أو ثوب توطىء به المرأة في الهودج، ويتعين أن يكون المراد به هنا ثوب الخدر، وهو أشبه بالطرحة اليوم.

(٥) خطط جـ ١ ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٦) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٧.

البعض الآخر سماع المغنيات. يقول ابن خلكان[١]. إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولي الخلافة الظاهر بن الحاكم، وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر في بغداد، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين:

يا بني العباس صُدُّوا ... ملك الأمرَ مَعَدُّ
ملككم كان مُعاراً ... والعواري تُسْتَرَدُّ

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم في مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة.

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى، وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين، وقد قيل أن علون وزرقون كانا أول من دخل هذه البلاد من المغنين وذلك في عهد الحكم ابن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ)، الذي اشتهر منصور اليهودي بالغناء في زمانه. وفي عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) وفد على الأندلس أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب[٢]. وقد روى المقري قصة هذا المغني، وكيف تفوق على أستاذه إسحاق بن إبراهيم الموصلي الذي خيره بين الموت والنفي، وكيف رحل إلى قرطبة فقربه عبد الرحمن إليه وأجزل له العطاء، وكيف أصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون في هذه البلاد. على ما ذكرناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

(أ) في الدولة العباسية:

اتخذت دور بغدار وسامرا وغيرهما من أمهات المدن في هذا العصر على مثال دور الفرس والروم، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس. وتقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي: مقاصير الحرم، وحجرات الخدم، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة. ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين. وقد حليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة. وزينت أسطحها بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة في

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٧.

(٢) أطلق عليه هذا اللقب لسواد لونه وفصاحة لسانه تشبيهاً له بطائر أسود حسن الصوت.

الفضاء. ويحيط بكل دار سور واحد. أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها. وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها.

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار، وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو التسعيني، على قدر الغلمان الذين يجتمعون في كل منها.

وقد ابتدع المتوكل ـ كما رأينا ـ نوعاً من القصور يسمى الحيري، ينقسم ثلاثة أقسام. أوسطها الباب الأكبر، وإلى جانبه البابان الصغيران. وكان هذا الخليفة يتخذ في طريق الوصول إلى قصره ثلاثة أبواب ضخمة يدخل منها الفارس برمحه، وحذا الناس حذو المتوكل في هذا النوع من البناء. ومن أشهر هذه القصور «قصر التاج» الذي وضع أساسه الخليفة المعتضد في الجانب الشرقي من دجلة على مقربة من القصر الحسني الذي كانت تقيم فيه بوران بنت الحسن بن سهل وزوج الخليفة المأمون، ثم أتمه الخليفة المكتفي، ويقول ياقوت[١] إن واجهة قصر التاج كانت على خمسة عقود أقيم كل عقد منها على عشرة أساطين من الرخام.

وكانت قصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة.لاتساعها. يشتمل على دور وبساتين ومسطحات تظللها الأشجار، كما كانت تشتمل على قاعات ذات قباب وأروقة. ويزيد في جمال هذه القصور البرك والأنهار الجارية. وقد رأينا أن الخليفة القادر كان يجلس في قصره المعروف ببيت الرصاص «بين يديه نهر يجري الماء فيه إلى دجلة»[٢].

ومن أحسن البساتين التي كانت تلحق بقصور الخلفاء بستان القاهر المعروف ببستان النارنج الذي وصفه المسعودي[٣] فقال: «وكان للقاهر... بستان من ريحان، وغرس من النارنج، قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر. وبين ذلك أنواع العروس والرياحين والزهر، وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الأطيار من القمارى والدباسي والشحارير[٤] والببغاء، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار، وكان في غاية الحسن».

(١) أنظر لفظ «التاج» في معجم البلدان.
(٢) هلال الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٤٢٠.
(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٥٢٨.
(٤) هذه كلها أنواع من الحمام.

(ب) في مصر:

وقد تأثر الطولونيون في تشييد قصورهم بالبناء الجيري، فبنى أحمد بن طولون قصره على مثال قصور الخلافة العباسية. ولما ولي ابنه خمارويه انتقل إلى قصر أبيه، وزاد فيه، وحول الميدان الفسيح الذي كان أمام القصر إلى بستان غرس فيه الرياحين على اختلافها، والشجر بأنواعه الكثيرة. ونقل إليه الودي[١] المختلف طولاً وقصراً. ويتناول من ثمره القائم والجالس. وأمر خمارويه، فحمل إلى هذا البستان أصناف الشجر المطعم وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران.

ومما زاد خمارويه في هذا القصر «بيت الذهب»، كان من أعجب مباني الدنيا. وهو إيوان فسيح يتصل برواق رحب، طليت حيطانه بالذهب المحلول باللازورد، ويمتاز بحسن النقش وجمال التنسيق. وكذلك بني خمارويه في هذا القصر بيتاً أطلق عليه «الدكة» على مثال قبة الهواء التي بناها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسي في مصر على جبل المقطم حيث قلعة الجبل الآن. وكان خمارويه ومن أتي بعده من الأمراء يختلفون إلى هذه الدكة طلباً للراحة وتبديل الهواء[٢]. وقد وضعت فيها الستائر لتقي الجالسين من الحر والبرد بحيث ترفع وتخفض عند الحاجة. وفرشت أرضها بأفخر الفراش، واتخذ لكل فصل من الفصول فراش يناسبه. وكان خمارويه يجلس في هذا المكان حيث يشرف على ما في قصره وبستانه، فيشاهد النيل والجبل والصحراء وكافة جهات مدينة القطاع[٣].

ومن أشهر القصور في عهد الإخشيديين قصر المختار الذي بناه محمد بن طغج الإخشيد في جزيرة الروضة، كما اتخذ بستاناً عرف فيما بعد بالبستان الكافوري، لأن كافوراً اتخذه مكاناً للتنزه في أيام الجمعة والأحد والثلاثاء فنسب إليه.

تنزه محمد بن طغج الإخشيد مرة في بستان يمتلكه أبو بكر المادرائي، الذي تقلد خراج مصر واتسعت ثروته حتى بلغ خراج ضياعه أربعمائة ألف دينار في السنة. فقدم له من أفخر ألوان الطعام والشراب، وفرشت أرض البستان بالبسط، ونصب بين يدي ضيفه الكبير تماثيل مصنوعة من الذهب والفضة والكافور والعنبر وصينيتين من الفضة ملئت إحداهما

---

(١) الودي. بفتح الواو وكسر الدال وتشديد الياء، الشجر الصغار المنقولة.

(٢) الكندي: كتاب الولاة ص ١٤٧.

(٣) المقريزي: خطط حـ ١ ص ٣١٧

دنانير وملئت الأخرى دراهم لينثر منهما على من يشاء من رجال الدولة أو على المغنين والمغنيات.

وفي عهد الفاطميين بنى الخليفة العزيز كثيراً من القصور التي تدل على وفرة ثروة مصر. من ذلك القصر الغربي، وكان يقع غربي القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز شرقي مدينة القاهرة، وكان أصغر من القصر الشرقي، لذلك أطلق عليه القصر الغربي الصغير تمييزاً له عن القصر الشرقي الكبير وهو القصر الذي بناه المعز.

وقد بنت الملكة تغريد زوجة المعز قصر القرافة، وكان يتصل به بستان وحمام. وقد وصف المقريزي[١] هذا القصر فقال: إنه كان قصراً فخماً يسر الناظرين، يتردد عليه أهلوه طلباً للراحة؛ وبه قنطرة مقامه على قبو يستظل به المسافرون من الشمس. كما بنت تغريد منازل العز[٢]، وهو قصر فخم على شاطىء النيل، اتخذه ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده للتنزه.

وابتنى العزيز قصوراً أخرى في عين شمس، كما بنى في عهده قصر البحر الذي يقول فيه ابن خلكان[٣] إنه لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب. كذلك أسس العزيز قاعة للذهب التي كان يجتمع فيها مجلس الملك، وكانت مؤثثة أثاثاً فخماً، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب. وكانت كلها من رسم واحد ولون واحد. وفي صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور، حتى إذا جلس وانعقد المجلس رفعت تلك الستور.

ويمتاز الفاطميون ببناء المناظر، وهي أماكن اتخذها الخلفاء في القاهرة ومصر[٤]، والروضة والقرافة وغيرها للتنزه والاحتفال ببعض الأعياد. وقد عدد المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤٦٥) هذه المناظرة ووصف الاحتفال فيها ببعض الأعياد، وهذه المناظر هي: الأزهر، اللؤلؤة، الدكة، المقس، باب الفتوح، البعل، التاج، الخمسة وجوه، الصناعة، دار الملك، منازل العز، الهودج، بركة الحبش، الأندلس قبة الهواء، السكرة.

---

(١) جـ١ ص ٤١٥.

(٢) راجع وصف هذا المنزل في المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٨٥. المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٢.

(٤) وهي الفسطاط وأطلال العسكر والقطائع.

(جـ) في الأندلس:

ولم تكن قصور الأمويين في الأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين والطولونيين والفاطميين. فقد اشتهرت قرطبة والزهراء وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة. وقد ذكرنا أن أمراء الأمويين في الأندلس، كالحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط ومحمد، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل والقصر المنيف، وقصر الدمشق، وأن عبد الرحمن الناصر شيد بمدينة الزهراء قصره العظيم الذي سماه دار الروضة، والذي أطنب المؤرخون والرحالة في وصفه. وقد وصف المقري[1] قصر قرطبة في هذه العبارة فقال: «ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها، في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة، وتمونوا المؤن الجسيمة، حتى أوصلوها إلى القصر الكريم. وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه، في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة. وفي هذا القصر القباب العالية السمو المنيفة العلو التي لم ير الراءون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها».

ومن قصور الأمويين في الأندلس القصر الذي بناه المأمون بن ذي النون بطليطلة، وقد أنفق على بنائه أموالاً ضخمة، وجعل في وسطه بحيرة في وسطها قبة من زجاج ملون منقوش، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها. فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله. وتوقد فيها الشموع، فيرى لذلك منظر بديع عجيب. وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشداً ينشد:

أتبني بناء الخالدين وإنما ... مُقامُك فيما لو علمتَ قليلُ
لقد كان في ظل الأراك كفايةٌ ... لمن كلَّ يومٍ يقتضيه رحيلُ

فنغص عليه حاله وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أظن أن الأجل قد قرب، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفي... وذلك سنة ٤٦٢ هـ»[2].

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٥٠-٢٥١.

٤ ـ الطعام والشراب

(أ) عند العباسيين :

أسرف المسلمون في الطعام وتفننوا في ألوانـه، واهتم به الخلفـاء حتى إنهم أجازوا للشعراء وصفه. روى المسعودي[١] عند كلامه على الخليفة المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ) عن محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي قال: «كنا يوماً نأكل بين يدي المكتفي، فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه في نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل، فقـال: هل وصفت الشعراء هذا؟ فقال له يحيى: نعم! فقال أحمد بن يحيى فيها:

قـطائفُ قـد حُشِيَتْ بـالـلّوز والسكـر المـاذِي حَشْـوَ الـمـوز
تـسبَـحُ فـي آذى دُهـن الـجـوز سُــررت لمَّـا وقعت في حـوزي

كذلك أولع الأمراء وغيرهم من الأغنياء بتنوع الطعام والإسراف في إعداده. فقد ذكر المسعودي[٢] عند كلامه على يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية، «أنـه كان تذبح له في كل يوم عشرون شاة، فتطبخ في خمس قدور من الصفر الكبار. وله قدور حجارة يتخذ له فيها بعض ما يشتهيـه، وله إوزة كـل يوم وخبيصـة (رقاقـة)، وفالـوذج مع القـدور الخمس، وهي ألوان غليظة، فيأكل منها ويفرق الباقي في الغلمان الذين في داخل مضربه. ثم أهل عسكره حول مضربه وقربهم منه على حسب مراتبهم عنده».

وقد تأنق أبو جعفر محمد بن بسام في إعداد مائدته وتزيينها بالورد والـرياحين وألـوان الطعام والشراب. وقال أبو عبد الرحمن العتبي: ودخلت عليه في بعض الأيام وهو جـالس في موضع في آخر داره، فقد رفعه على بركـة وفي صدره صفـة[٣]، وهو يشـرف منها على البستان وعلى حيز الغزلان وحظيرة القمارى[٤] وأشباهها، فقلت له: يا أبا جعفر! أنت والله جالس في الجنة. قال: ليس ينبغي لك أن تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها. فما جلست واستقـر بي المجلس حتى أتوه بمـادة جزع[٥] لم أر أحسن منهـا، وفي وسطهـا جام جـزع

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥٨.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥٥.

(٣) مكان عال قد يشبه البلكون الآن.

(٤) جمع قمري وهي الحمامة.

(٥) بفتح الجيم وكسرها وتسكين الزاي. الخرز اليماني الصيني فيه بياض وسواد، وكل ما فيه بياض وسواد فهو مجزع.

ملونة[١] قد لوي على جنباتها الذهب الأحمر؛ وهي مملوءة من ماء ورد، وقد جعل سافاً على ساف[٢] كهيئة الصومعة من صدور الدجاج. وعلى المائدة سكرجات جزع فيها الأصباغ وأنواع الملح. ثم أتينا بشنبوشق بلور[٣] وبعده جامات اللوزينج. ورفعت المائدة وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة، فقدم بين أيدينا أجانة (طشت) صيني بيضاء قد كرمت بالبنفسج والخيري[٤]، وغيرها مثلها قد عبىء فيها التفاح الشامي، قدر مقدارنا ما حضر فيها ألف حبة. فما رأيت طعاماً أنظف منه، ولا ربحاً أظرف منه، فقال لي: هذا حق الصبوح. فما أنسى إلى الساعة طيب ذلك اليوم».

(ب) في مصر والأندلس:

كان أحمد بن طولون مضرب المثل في الكرم والجود، قال المقريزي[٥]: «وكانت صدقاته على أهلي المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة. وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار، سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم، وسوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها، يذبح فيها البقر والكباش، ويغرف الناس في القدور الفخار والقصاع، على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة، في اثنين منها فالوذج، والإثنان الآخران على القدر. وكانت تعمل في داره وينادى: من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ـ وتفتح الأبواب، ويدخل الناس الميدان، وابن طولون ينظر الناس في المجلس الذي تقدم ذكره، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته».

وقد حذا خمارويه بن أحمد بن طولون حذو أبيه في الكرم والجود، فبلغت نفقات مطبخه الذي عرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف دينار في كل شهر. وذكر المقريزي[٦] عند كلامه على دار الحرم التي بناه خمارويه لنساء أبيه، أنه عين لهذه الدار الخدم والطهاة، وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التي بلغت من كثرتها ووفرتها، أن الطهاة والخدم كانوا يعطون ما بقي منها للعامة.

(١) أي من زجاج ملون بسواد وبياض، وهو وعاء بلور، على هيئة الشنبوشق.
(٢) أي طبقة فوق طبقة من لحم الدجاج كهيئة مخروط.
(٣) هو وعاء بلور على هيئة الشنبوشك.
(٤) قد فرش فيها البنفسج والخيري وهو نوع من الرياحين.
(٥) خطط جـ ١ ص ٣١٦.
(٦) خطط جـ ١ ص ٣١٨.

ومن ألوان الطعام: الدجاج ولحوم الجدي والضأن والفالوذج واللوزينج والقطائف والهرائس من العصيدة التي كانت تعرف على عهد المقريزي باسم المأمونية. وبلغ من وفرة هذه الأطعمة أنها أصبحت في متناول العامة، حتى كانت القطعة من الدجاج أو لحوم الضأن أو الجدي أو الحلوى الكبيرة تباع بدرهم واحد أو درهمين، «بحيث إن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه، مما لا يقدر على عمل مثله ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك».

كذلك كان الإخشيديون يعنون بالطعام وتنوع ألوانه واشتماله على العناصر الضرورية للتغذية. فقد ذكر ابن زولاق أن الإخشيد كان يميل إلى لون من ألوان الطعام يقال له حماضية، تعمل من الحماض الذي يستخرج من الإترج، وهو نوع من البرتقال، ويلقى به في الحصرمية، وهو العنب الأخضر الذي لم ينضج بعد، ثم يلقى عليها ماء الورد والأفاويه[١]. وكان للأخشيد طبيب خاص يشرف على الطعام ويشير بما يصلح تقديمه منه للأمير[٢]. ولا يبعد أن يكون قد اتخذ هذا الطبيب ليحول دون تقديم طعام فاسد أو مسموم عن طريق من تحدثه نفسه باغتياله.

وكان كافور ينفق على مائدته إلى حد التبذير: روى أبو المحاسن عن كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر»[٣]، لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك المتوفى في القرن الثامن الهجري: «أنه بلغ ما كان يعمل في مطبخ كافور ـ لما قوي سلطانه وكثرت أمواله ـ في كل يوم من اللحم ألفان وسبعمائة رطل، وخمسمائة طائر دجاج، وخمسمائة طائر حمام، ومائة طائر إوز، وخمسون خروفاً رميساً، ومائة جدي سمين، وعشرون فرخاً سمكاً، وخمسمائة صحن حلوى في كل صحن عشرون رطلاً، ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة، وعشرة أفراد نقل، وخمسمائة كوز فقاع[٤] كبير، ومائة قرابة سكر وليمون». روى ابن خلكان[٥] عن وكيل كافور قال: «خدمت الأستاذ كافور والجراية التي يطلقها ثلاث عشرة جراية في كل يوم، ومات وقد

(١) المغرب في حلى المغرب ص ٣١. أنظر ستينجاس.
٢) ابن زولاق: المغرب ص ٣٦.
(٣) فهرست التاريخ بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨.
(٤) هو شراب يتخذ من الشعير، سمي بذلك لما يرتفع في رأسه ويعلوه من الزبد.
(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣١.

بلغت على يدي ثلاثة عشر ألفاً في كل يوم» ومن العجب ما تقرؤه في الثعالبي(١) من دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة يصفونها في قصائدهم، ويضمنونها ألوان الطعام والشراب وما تتخلله الوليمة من ضروب اللهو والسرور وسماع الموسيقى والغناء، وتزيين السماط بالورود والرياحين وكل ما يضفيه صاحب الدعوة على زائريه من مظاهر البهجة والسرور. فقد بعث محمد بن أبي الجرع الشاعر المعروف بهذه القصيدة إلى بعض أصدقائه يدعوهم فيها إلى تناول الطعام قبل حلول شهر رمضان.

وكان الفاطميون يقيمون الأسمطة في الأعياد والمواسم، وخاصة في أول العام الهجري وفي مولد النبي ﷺ، وفي غرة رمضان، وفي عيدي الفطر والأضحى حيث كانت تعم خيراتهم الناس فيها، وقد عنوا بالاحتفال بعيدي الفطر والأضحى احتفالاً رائعاً. ففي ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير الذي يقابل مجلس الخليفة، سماط ضخم طوله نحو ثلثمائة ذراع، وعرضه سبعة أذرع، نثرت عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية مما أعد في دار الفطرة الخليفية.

وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية، ويستقبل الشعب المصري هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة، إلا يوم عاشوراء، فقد كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر، حيث ينشدون الأناشيد المحزنة في رثاء الحسين. ويقام سماط يسمى سماط الحزن، ينظم في منتهى البساطة في بهو صغير ويمد عليه خبز الشعير والعدس والجبن، ويحضره الخليفة ملثماً مرتدياً الثياب القاتمة.(٢)

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام، فأدخل بقلة الهيلتون المسماة عندهم الأسفراج Aspirago، كما زاد في الأطعمة لوناً أطلقوا عليه «النقايا»، يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب، ولوناً من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في مرق كثير الأفاويه والتوابل، كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة. وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد). وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصيهم زرياب قدوة فيما سنّه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه.

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

وقد ذكر المقري[1] عند كلامه على قصر عبد الرحمن الناصر أن عدد فتيان قصر الزهراء بلغ ١٣,٧٥٠، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣,٠٠٠ رطل، عدا الدجاج والحجل والطيور والأسماك.

وقد رأينا كيف كان الخلفاء والأمراء وذوو اليسار كلفين بالحصول على بواكير الفواكه طرية سليمة، بوساطة البريد الذي بلغ حد الكمال في عهد بني بويه في المشرق وفي عهد الفاطميين في مصر.

٥ ـ الملابس:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن اللباس الفارسي أصبح لباس البلاط الرسمي وأن أبا جعفر المنصور أمر بلبس القلانس، وهي القبعات السود الطويلة المخروطة الشكل بصفة رسمية، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة. يتبين لنا من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل، حيث تظهر صورته مرتدياً ملابس فارسية. وكان اللباس العادي للطبقة الراقية في العصر العباسي يشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة. أما لباس العامة: فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال.

غير أن الخليفة المتوكل أدخل نوعاً جديداً من الملابس نسب إليه. فأظهر لباس الملحم (المبطن)، وفضل ذلك على سائر الثياب، وأتبعه من في داره على لبس ذلك، وشمل الناس لبسه، وبالغوا في ثمنه اهتماماً بعمله واصطناع الجيد منها، لمبالغة الناس فيها وميل الراعي والرعية إليها. فالباقي في أيدي الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية، وهي نوع من ثياب الملحم نهاية في الحسن والصبغ وجودة الصنع[2].

كان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الأسود[3] أو البنفسجي الذي يصل الركبة، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويتصل بعباءة سوداء، ويلبس قلنسوة طويلة

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٩.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٩.

(٣) كان القباء مفتوحاً عند الرقبة، فيظهر القفطان زاهياً من تحته، وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذي أمر بجعلها فضفاضة، ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع.

غالية. وكـان الأمراء والنبـلاء يقلدون الخلفاء في مـلابسهم. أما الخلفـاء والقضاة فكـانوا يلبسون العمامة والطيلسان مقيدين في ذلك بالنبي ﷺ ، كما كانوا يلبسون قلنسـوة طويلة، حولها عمامة ذات لون أسود، وهو شعار العباسيين.

وكان لباس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلباسه. وكان الكتاب يلبسون الدراعات، وهي ثياب مشقوقة من الصدر. ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة. وأمـا غير العلمـاء فيلبسون في داخـل بيوتهم القلنسـوة وحدهـا فوق كلونـة[١] من الحـريـر الأبيض، ثم استعاضوا عنهـا بكلونة خفيفـة بنفسجية اللون. وكـان اللباس العـادي للطبقة الراقية يتألف من سراويل فضفاضة وقميص ودراعة، وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبـة. وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير والصوف أو الجلد، ويسمونها «الموزج»[٢]. وثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة. أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى «قمربند». وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال، أما الجنود فيلبسون الأحذية، على حين ينتعـل بعض الأعيان كليهمـا في وقت واحـد، ويخلعون الحـذاء الخارجي المسمى «الجـرموق» عنـد دخول المسـاجـد أو القصور[٣].

وقد أحدث الخليفـة المستعين تغييراً في المـلابس، فصغر القـلانس بعد أن كـانت طويلة، وأمر بلبس الأكمام الواسعة التي أصبح عرضها ثلاثة أشبار[٤]. وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب ليحفظ فيها الإنسان كل مـا يحتاج إلى حفـظه كالـدنانيـر والكتب فكان المهندس يضع فيها أدواته الهندسية،ويضع الصيرفي فيها رقاعه، والخياط أدوات الخياطة والقاضي الكراسة التي يقرأ فيها يوم الجمعة، ويحفظ الكاتب الرقعة قبل عرضها[٥].

---

(١) بتشديد اللام هي كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن. أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠.

(٢) الموزج شبه الجـورب من الجلد يلبسه الفـرسان ومن يشبههم. وكـان الفتح بن خـاقان إذا جلس حضـرة الخليفة المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضأ، أخرج من ساق موزجه كتاباً يطالعه في ممره وعوده. فـإذا وصل إلى لحضـرة الخليفة أعاده إلى ساق موزجه. أنظر كتاب الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠.

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ص٤٣٠.

(٥) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

وكان السواد شعار العباسيين الرسمي[١]، وكثيراً ما كان الأثرياء يلبسون الثياب البيض لما أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله الجنة بيضاء، وخير ثيابكم تلبسونها في حياتكم وتكفون بها موتاكم». وكانوا يلبسون الملابس ذات الألوان الطبيعية، لأن الألوان غير الطبيعية لا يلبسها إلا الإماء والقيان والنبطيات وكان اللون الأزرق في المشرق واللون الأبيض في الأندلس علامة الحداد. وفي القرن الرابع كانوا لا يجيزون للرجال لبس الثياب الملونة إلا في خاصة بيوتهم، وإنما أجازوا لبسها للنساء[٢].

كانت ملابس المرأة تتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد، وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

وقد تطورت ملابس النساء في العصر العباسي تطوراً ظاهراً عما كانت عليه في العصر الأموي، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء الرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة. ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى علية بنت المهدي وأخت الرشيد. وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة. أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب، يلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن، ولم يجهلن فن التجميل الذي أخذنه عن الفارسيات. وكان «طابع الحسن» الصناعي مما يتحلى به الأعرابيات[٣].

واتخذ الناس من القماش المشمع المماطر في البلاد التي يكثر فيها المطر[٤]. وقد ورد ذكر المماطر في إحدى قصائد البحتري حين سأل أحد ممدوحيه أن يهب له ممطراً يقيه المطر[٥].

---

(١) راجع ما قيل عن اتخاذ العباسيين السواد شعاراً لهم في كتاب «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن وترجمة المؤلف: ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٨٧ ـ ١٨٩.

(٣) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٤) المقدسي: أحسن التعليم ص ٩٦.

(٥) ديوان البحتري جـ ١ ص ١٨٥.

وفي عهد الفاطميين في مصر كانت القاهرة من أهم مراكز النسيج. وقد بلغ نظام الطراز مبلغاً عظيماً من الرقي. واشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية. من ذلك القلموني ذي الألوان البراقة التي تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس، وكانت تصنع في دمياط وتنيس خاصة، والقرقبي الذي اشتهر بألوانه اللامعة التي تتغير إذا انعكست عليها أشعة الشمس، والنصفية، وتصنع من الحرير والقطن، والدبيقي الذي ينسب إلى مدينة دبيق حيث كانت تصنع الثياب المثقلة والعمائم الشرب المذهبة. وفي دار الكسوة التي بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في القاهرة كانت تفصل الثياب للخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفي الدولة على اختلاف مراتبهم، والخلع التي كانت تمنح بسعة للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر، حتى سمي عيد الحلل.

وفي بلاد الأندلس تحكم زرياب في ابتداع الأزياء، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول، و «رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم الملون، من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة، الكائن في ست بقين من شهر بؤونة الشمسي من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي، منها ثلاثة أشهر متوالية، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة. ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من صبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها، لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة. وكذا رأى زرياب أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، وذلك عند قرس البرد في الغدوات إلى أن يقوى البرد، فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء[1]. كما أبطل زرياب عادة إعفاء الشعر وإسداله مفروقاً إلى الحاجبين والصدغين[2].

٦ ـ المرأة

كانت المرأة في العصر العباسي الثاني كما كانت في العصر العباسي الأول، تتمتع بقسط وافر من الحرية. فقد تدخل بعض النساء في شئون الدولة، كقبيحة أم المعتز، والسيدة أم المقتدر وقهرمانتها ثومال، وأم موسى، وست الملك أخت الخليفة العزيز

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٢. (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

الفاطمي، والسيدة صبح أم هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في الأندلس.

وقد قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ) بدور هام في عزل الخليفة المستعين ليصفو الجو لابنها المعتز. واشتهرت قبيحة بالثراء، حتى ذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ٧٠) أنهم وجدوا عندها مليوناً وثمانمائة ألف دينار، ومع ذلك عرضت ابنها لعنت الأتراك الذين تأخرت رواتبهم المستحقة لهم وقدرها خمسون ألف دينار فقط، ولم يلبث أن ذهب ضحية هذا البخل.

واستأثرت «السيدة» أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) بنفوذ كبير في الدولة العباسية. وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها في شئون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة، من ذلك الكتاب[١] الذي بعث به إليها الوزير المصلح علي بن عيسى يتنصل فيه من التبعات التي ألقتها عليه في إدارة شئون الدولة المالية.

وعلى الرغم مما قام به هذا الوزير من إصلاح كان مصيره العزل. وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٣٧) أن أم موسى القهرمانة ذهبت إلى منزل الوزير لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم، فطلب إليها حاجبه أن تنتظر ساعة حتى يستيقظ، فعادت إلى دارها مغضبة، ولما استيقظ الوزير أرسل حاجبه وولده يعتذران إليها فلم تقبل، ودخلت على الخليفة المقتدر ورمت الوزير بما أدى إلى عزله عن الوزارة وقبض عليه.

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قرمانتها «ثومال» صاحبة للمظالم. فكانت تجلس أيام الجمع في مكان بنته «السيدة» في الرصافة[٢]. ومما يدل على مبلغ تدخل السيدة في شئون الدولة هذه الحكاية التي قصها الصولي[٣] الذي تلمذ له الراضي بن المقتدر وهو أمير، فإنها تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرماناتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم، وتوجيههم وجهة صالحة في الإلمام بنظم الحكم، والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول، بل على العكس من ذلك، فإن النساء اللاتي غدون أصحاب الحل والعقد، لم

---

(١) راجع هذا الكتاب في مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.

(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٥ ـ ٦، ٢٦.

يأبهن أن يكون الأمير أو ولي العهد متعلماً مثقفاً، وإنما يردنه ضعيفاً غير ملم بشئون الحكم.

وقد أدى تدخل «السيدة» في شئون الدولة إلى ضعف الخلافة العباسية، كما أن إلقاء القبض على الوزير المصلح علي بن عيسى بسبب اعتذاره عن إجابة قهرمانتها أم موسى إلى ما طلبت قد حرم الخلافة الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة. كما كان من أثر تعيين «ثومال» قهرمانة «السيدة» صاحبة المظالم، أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى حكامها نظرة الاحتقار والازدراء.

ازداد نفوذ حرم الخليفة في عهد الوزير حامد بن العباس وأصبحن يتدخلن في شؤون الدولة، على حين قبع الخليفة في داره، فكن يجلسن للمظالم ينظرن في رقاع الناس، ويصدرن الأوامر مذيلة بتوقيعاتهن، كما عملت السيدة على عزل الوزير أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الخصيب، وصودرت أمواله في سنة ٣١٤ هـ.

وكان للنساء شأن كبير في الدولة الفاطمية، حتى إنهم كن يتدخلن في شؤون الدولة، واشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ، ذكر المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤١٥) أن رشيدة بنت المعز تركت نحو مليون ونصف من العملة الذهبية (١,٧٠٠,٠٠٠ دينار أي ثلاثة أرباع مليون جنيه)، وتركت أختها عبدة كثيراً من خزائن الحلي والصناديق التي تحتوي على خمسة أكياس من الزمرد، وثلثمائة قطعة فضية، وثلاثين ألف ثوب صقلي، وغير ذلك من الذخائر.

وفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنفقت السيدة تغريد زوجة المعز أموالاً جمة على بناء مسجدها بالقرافة، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة، كما بنت هذه السيدة القرافة كما تقدم.

وقد تزوج الخليفة الفاطمي العزيز بسيدة رومية نصرانية على المذهب الملكاني ـ مذهب كنيسة القسطنطينية ـ فولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك. وكان لزوج العزيز هذه نفوذ كبير في الدولة، حتى إن الخليفة عين أخويها بطريرقين ملكيين: أحدهما في الإسكندرية والآخر في بيت المقدس[1].

وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل، واشتهرت بالكرم والحلم، وعرفت بالتسامح الديني. وكثيراً ما كانت تعطف على النصارى. وكانت مع أخيها الحاكم مسلوبة

(١) يحيى بن سعيد: صلة تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

السلطة، مما أثار حفيظتها، ولا سيما عند ما انتقد مسلكها، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة.

وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة، منها ثمانمائة جارية، وثمان جرات ملأى بالمسك وكثير من الأحجار الكريمة، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل، وكانت مخصصات هذه الأميرة خمسين ألف دينار في السنة[١].

الإماء:

ومن نساء هذا العصر زوجة الظاهر وأم المستنصر. وكانت سودانية، على ما تقدم، واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين، الذين كثر عددهم وقوي بطشهم في عهد المستنصر، حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفاً. ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة.

وكان للمرأة شأن كبير في بلاد الأندلس، وقامت الجواري بدور هام في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة. وليس أدل على صحة هذا القول من قصة «طروب» جارية عبد الرحمن الأوسط، فقد بلغ من شدة ميله إليها وكلفه بها أنها حين غضبت منه وأبت أن تقابله، ترضاها ببدر المال والحلي الذي قدرت قيمته بمائة ألف دينار. وقد ذكر المقري أن هذه الجارية كانت تبرم الأمور مع نصر الخصي، وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئاً مما أبرمته. كذلك أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة، فأعتقها وتزوجها كما أولع بجواري أخر منهن شقاء، وقلم، وكانت أديبة راوية الشعر حافظة للأخبار، كما كانت حسنة الخط[٢].

كذلك تمتعت السيدة صبح زوجة الحكم الثاني وأم المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) بنفوذ كبير في الدولة الأموية بالأندلس، وتغلبت على أمور ابنها الذي لم يكن قد جاوز العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إليه، وأصبحت تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذي لا يحد، وأسندت أمور الدولة إلى المنصور بن أبي عامر الذي غدا ساعدها الأيمن، لكنه أصبح بعد قليل الحاكم المطلق للدولة الإسلامية في الأندلس كما تقدم.

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٦٥. راجع كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٦٤٨.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ - ١٦٥.

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد. فكانت شجاع أم المتوكل خوارزمية، والسيدة أم المقتدر رومية، كذلك كانت أم المستكفي. وكانت أم المطيع صقلبية. وقد لعبت الإماء دوراً هاماً في تاريخ الدولة العباسية في هذا العصر، كما يتبين من هذه الرسالة الممتعة التي كتبها الشيخ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي المتطبب، يذكر فيها أنواع الجواري[١] في البلاد الإسلامية ننقل بعضها عن كتاب متز[٢] حيث يقول:

«فالهنديات لهن حسن القوام وسمرة الألوان وحظ وافر من الجمال، مع صفوة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة، لكن الشيخوخة تسرع إليهن. . . وهن يصلحن للولد ورجالهم لحسن النفوس والأموال وعمل الصنائع الدقيقة، غير أن النزلات تسرع إليهن، والفندهاريات في معنى الهنديات، والسنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور، والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم وملاحة دل وحسن شكل وبشر. ولا غيرة فيهن على الرجال، قنوعات بالقليل، لا يغضبن ولا يصخبن ويصلحن للقيان. . . والمكيات خبات مؤنثات لينات الأرساغ، ألوانهن البياض المشرب سمرة، قدودهن حسنة، وأجسامهن ملتفة، وثغورهن نقية باردة، وشعورهن جعدة، وعيونهن مراض[٣] فاترة، والطائفيات سمر مذهبات مجدولات، أخف خلق الله أرواحاً، وأحسنهن فكاهة ومزاحاً، لسن بأمهات أولاد، يكسلن في الحمل ويهلكن عند الولادة.

والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة، ويصلحن للتوليد، لأنهن أحدب شيء على ولد[٤]. ويقول أبو عثمان (الجاحظ) وهو من سماسرة هذا الشأن[٥]: إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهي بنت تسع حجج، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة، فتأدبت بالعراق، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات، واستحقت أن تخبى (تخبأ على الأصح) في الجفون وتوضع على العيون. والزنجيات مساويهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورتهن، وتحددت أسنانهن، وقل الانتفاع بهن، وخفيت المضرة منهن. والغالب عليهن

(١) وردت هذه الرسالة في مخطوط رقم ٩٧٩ بمكتبة برلين ورقة ١٣٦ ب، ١٣٧، ١٤٥، ١٥١ ب.
(٢) الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٧١ - ٢٧٤.
(٣) ذابلة مكسورة وهو من جمال النساء.
(٤) أحسن وأعطف على الأولاد.
(٥) أي من الخبيرين به.

سوء الأخلاق وكثـرة الهرب، وليس في خلقهن الفهـم، والـرقص والإيقاع فـطرة لهن وطبع فيهن. ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزمن والرقص. ويقال لو وقع الزنجي من السمـاء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع. وهـم أنقى الناس ثغوراً لكثـرة الريق، وكثـرة الريق لفسـاد الهضوم، وفيهن جلد على الكد. فالزنجي إذا شبع فصب العذاب عليه صبا فإنه لا يتألم، وليس فيهن متعة لصنانتهن (نتن الريح) وخشونة أجسامهن. أما الحبشيات فالغـالـب عليهن نعمة الأجسام ولينهـا وضعفها، يتعـاهدهن السـل والدق (الهـزال). ولا يصلحن للغناء ولا الرقص، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها. وفيهن خيرية وسلامة انقياد، يصلحن للائتمان على النفوذ يخصهن قوة النفوس وضعف الأجسام، كما يخص النوبة قوة الأجسام وضعف النفـوس: فصار الأعمـار لسوء الهضم. والبجـاويات مـذهبات الألـوان، حسنـات الوجوه، ملس الأجسام، ناعمات البشرة، جواري متعة، إن جلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن ينكل بها ـ لأنهن يقورن ويمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم ـ فيصرن شهرة من الشهر[١]. والشجاعة والسرقة في رجال البيعة طبع وغريزة، ولهذا لا يؤمنون على مال ولا يصلحون أن يكونوا خزاناً.

والنوبيات من جملة أجناس السودان، ذوات تـرف ولطف، وأبـدانهن يابسـة مع لين بشرة. وهواء مصر يوافقهن، لأن ماء النيل شربهن في بلادهن. وإذا انتقلت عن غيـر مصر تسلطت عليهن العلل الدمويـة والأمراض الحـادة. والتركيـات قد جمعن الحسن والبيـاض والنعمة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقدودهن ما بين الربع والقصيـر، والطول فيهن قليل. وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل، قل ما يتفق في أولادهن وحش ولا رديء التركيب. والروميات بيض شقر، سباط الشعور[٢] زرق العيون، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووقاء وأمانة، يصلحن للخزن، لضبطهن وقلة سماحتهن[٣]. ولا يخلو أن يكن يألفن صنائع دقيقة. أما الأرمنيات فالمـلاحة لـلأرمن لولا مـا خصوا بـه من صحة بنيـة وشدة أسـر (قوة البدن). والعفة فيهن قليلة أو مفقودة. والسرقة فيهن فاشية وقل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع ولفظ، وليست النظافة في لغتهن، وهن عبيد كد وخدمة، متى تركت العبد ساعة بغير شغل، لم يدعه خاطره إلى خير، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة، الواحد منهم

---

(١) أي شناعة من الشناعات في القبح

(٢) الشعر السبط هو الطويل المسترسل الناعم وهو ضد الجعد.

(٣) أي لحسن محافظتهن على ما تحت أيديهن وعدم تفريطهن في شيء.

إذا رأيته كسلان، فليس ذلك عجز قوة، بل دونك والعصا، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر، فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلاً عن الغضب، لا يصلحن لمتعة. وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان، كما أن الزنج أشر السودان. وما أشبه بعضهم ونساؤهم ببعض في قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد».

٧ ـ الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(أ) الأعياد والمواسم:

عني المسلمون منذ عهد بعيد الاحتفال بالعيدين في شيء من الأبهة والعظمة. وكانوا يحتفلون برمضان احتفالاً شائقاً، ويتخذون غـرّة رمضان من مـواسمهم الدينيـة، كما كـانوا يحتفلون بـالعيدين احتفـالاً دينياً، فيؤم خلفـاء المسلمين الناس في الصـلاة ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد وما يجب على المسلمين مراعاته للمحافظة على شعائر الإسلام ولا عجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى في الاحتفال بالعيدين في البلاد الإسلامية، وخاصة في بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة.

وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قوياً، مثل طرسوس، حيث كان غزاة المسلمين يتوافدون إليهـا من أنحاء البـلاد الإسلامية، وترد إليها تبرعات أهل البر من المسلمين الـذين لا يستطيعـون الخروج للغـزو بأنفسهم. وقد قيل: «ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب، إلا بطرسوس، لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها. وتكثر لديهم الصلاة وترد إليهم الأموال والصدقات العظيمة». ولا يخفى ما كان هنالك من أثر واضح في ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى مظاهرها في الاحتفال بالأعياد بطرسـوس، حتى أصبح عيـدا الفطر والأضحى في تلك المدينة من محاسن الإسلام، لتظهر قوة المسلمين أمـام أعدائهم من الروم في الثغور.

وكانت المدن الإسلامية، كبغداد في عهد العباسيين، والقاهرة في عهد الفـاطميين، تسطع في أرجائها الأنوار في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليـل، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل، وتتلألأ الأنوار الخاطفة للأبصار من قصور الخـلافة، وقـد لبست الجماهيـر في بغداد وغيـرها من المدن الإسلامية التابعة للدولة العبـاسية للطيـالسة السـود تشبهاً بـالخلفاء العبـاسيين الذين

اتخذوا السواد شعاراً لهم، وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها ﴿فسيكفيكم الله وهو السميع العليم﴾[١].

ولم يقتصر احتفال الخلفاء العباسيين على العيدين، بل شمل الأعياد الفارسية القديمة: كالنوروز والمهرجان والرام التي أصبحت في العصر العباسي من أهم أعيادهم الرسمية، وكانت عظمة الخلفاء العباسيين وأبهتهم تتجلى في الاحتفال بالعيد، واتجهت سياستهم إلى اجتذاب الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والأرزاق والهبات والأسمطة التي كانوا يمدونها في الأعياد والمواسم، وخاصة في أول العام الهجري، وفي مولد النبي ﷺ، ومولد الخليفة الجالس على العرش، وفي غرة رمضان، وفي أيام النوروز والمهرجان والرام، كما عنوا بالاحتفال بعيدي الفطر والأضحى احتفالاً رائعاً.

وكان الخلفاء عامة والفاطميون خاصة يحتفلون بعيد الفطر الذي كانوا يتبركون به وتعمُّ خيراتهم الناس فيه. فمن هذه الخيرات تفرقة الفطرة، والكسوة، وعمل السماط، وركوب الخليفة لصلاة العيد. وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون بالاحتفال بعيد الفطر في العشر الأخير من شهر رمضان، واتخذ الفاطميون في القصر باباً أطلقوا عليه «باب العيد»، لأن الخليفة كان يخرج منه في يومي العيد إلى المصلى، شرقي القصر الكبير في الفضاء الذي تشغله الآن قرافة باب النصر وراء حي الحسينية.

كذلك اهتم العباسيون بالنوروز في أول العام والمهرجان في آخره، كما كانوا يحتفلون بسائر الأعياد الفارسية القديمة التي أصبحت في العصر العباسي من أهم أعياد المسلمين الرسمية. وقد جعل العباسيون النوروز عيداً قومياً يتهادون فيه ويقيمون الولائم والحفلات، كما اتخذوا من النوروز موعداً لجمع الخراج. وتقرأ في هذا العصر كثيراً عن النوروز من حيث صلته بجمع الخراج[٢].

ولمصر منذ القدم نوروز خاص يسمى النوروز القبطي، وهو أول السنة القبطية. وفي مستهل توت توقد النيران في ليلة النوروز ويرّش الماء في يومه، وتفرق الكسوة على رجال الدولة وعلى أولادهم ونسائهم، وتوزع الرسوم التي جرت العادة بتوزيعها عليهم، كما

---

(١) سورة البقرة ٢ : ١٣٧ .

(٢) مسكويه تجارب الأمم جـ٢ ص ٧٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٢ .

يتبادلون الهدايا في هذا اليوم. واستمر الاحتفال بالنوروز في العهد الإسلامي إلى أن فتح الفاطميون مصر، فاهتموا بالاحتفال بهذا العيد. و «زاد اللعب بالماء ووقود النيران، وطاف أهل الأسواق، وعملوا فيلة، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السماجات والحلى في الأسواق. ثم أمر المعز بالنداء وبالكف، وأن لا توقد نار ولا يصب ماء. وأخذ قوم فحبسوا، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال»[١].

كذلك احتفل العباسيون بالمهرجان، وكانوا يتهادون فيه بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز، ومنها السكر. وفي هذا العيد يكثر الهرج والملاهي واللعب والفرح والسرور.

وفي عهد الفاطميين في مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء أيام السبت والثلاثاء، وأيام الجمع ويومي العيدين، أيام دينية أخرى. وفيما يلي أسماء الأعياد والمواسم التي كان الفاطميون يحتفلون بها وهي: رأسن السنة، أول العام، يوم عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين بن علي (١٠ المحرم)، مولد النبي ﷺ (١٢ ربيع الأول)، مولد علي بن أبي طالب، مولد الحسن، مولد الحسين، مولد فاطمة، مولد الخليفة القائم بالأمر، ليلة أول رجب، ليلة نصف رجب، أو شعبان، ليلة نصف شعبان[٢]، غرة رمضان، جبر الخليج، يوم النوروز، يوم الغطاس[٣]، يوم الميلاد، عيد النصر[٤]، خميس العهد[٥].

(ب) المواكب:

كانت مواكب الخلفاء العباسيين أكثر روعة من مواكب الأمويين، وخاصة في أيام الجمع، وفي مواكب الحج التي تشبه في مصر الاحتفال بسفر المحمل إلى الحجاز وعودته

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٩٣.

(٢) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود، وكان الناس يصومون في هذه الأيام الأربعة كصومهم رمضان وكانوا يحتفلون بها كما يحتفلون برمضان. واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى يوما هذا.

(٣) كان المصريون منذ عهد بعيد يحتلفون بليلة الغطاس. وقد وصف المسعودي (مروج الذهب حـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣) هذا الاحتفال في عهد الاخشيد.

(٤) كان يقع يوم ١٦ من المحرم، وهو اليوم الذي أطلق فيه الحافظ الذي حبسه الوزير أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي.

(٥) هو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام، وهو من الأعياد التي بقيت في العهد الفاطمي مشاركة للنصارى في شعورهم. ويسمي أهل القاهرة ذلك اليوم خميس العدس خطأ.

منها، وقد وصف مسكويه[١] موكب الخليفة الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) لتقديم العزاء بوفاة شرف الدولة البويهي في سنة ٣٧٩هـ.

كانت أعمال خمارويه بن أحمد بن طولون تدل على حبه للظهور، وكان شخصه محاطاً بمظاهر العظمة والأبهة إذا خرج للصيد أو للتنزه أو الاحتفال بعيد من أعياد الدولة. وكان موكب هذا الأمير حافلاً يزيده هيبة أولاد الحوف[٢] وشناترة الضياع. وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام، عرفوا بالشجاعة والبأس، فأدخلهم خمارويه في خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايا، ومنع عن الناس أذاهم، واتخذهم حراساً له، وكانوا يلبسون الأقبية وجواشن الديباج، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة، ويتقلدون بالسيوف المحلاة. ويسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان، لهم درق[٣] من حديد محكم الصنعة، وعليهم الأقبية والعمائم السود، فيخالهم الناظر بحراً أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم. ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض[٤] التي تلمع على رءوسهم من تحت العمائم. فإذا مضى السودانيون قدم خمارويه وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة (رمية) سهم. ويحف به حرسه المختار وهو ممتطٍ فرساً. فإذا سار، سار الناس جميعاً وبينهم الجند في صمت عميق كأن على رءوسهم الطير[٥].

وفي الاحتفال بصلاة الجمعة في عهد الفاطميين ما يدلنا على العظمة التي كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين، ويرينا الكرم الذي مكنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار إليهم. وفي أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التي يمر بها الخليفة في طريقه إلى الجامع لصلاة الجمعة، ويقف كثير من الناس على

---

(١) راجع ما ذكره المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٤) من هذه الأعياد والمواسم.

(٢) الحوف بمصر حوفان: الشرقي والغربي، أول الشرقي من جهة الشام، وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. ولعله يريد بذلك عرب الحوف.

(٣) معربة عن لفظ فارسي هو درجة، وهي درع بيضاوي الشكل غالباً، وفي وسطه نتوءات وله مقبض في ظاهره ويتراوح طوله بين قدم ونصف قدم وقدمين. وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة، وأحياناً من جلد التمساح.
أنظر Lane: Arabic -English Lexicon الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٣٤٧ (٢).

(٤) جمع بيضة وهي الخوذة الحديدية.

(٥) المقري: خطط جـ ١ ص ٣١٨.

جانبي الطريق، وكان الاحتفال بوفاء النيل من أعظم الاحتفالات التي كانت تقام في مصر في العصر الفاطمي ولا يزال ذلك إلى اليوم.

(جـ) الحفلات:

وكان الخلفاء والأمراء يهتمون اهتماماً بالغاً بإقامة الحفلات التي تتجلى فيها مظاهر الروعة والجلال. فقد أقام الخليفة العباسي المقتدر حفلة رائعة بمناسبة قدوم رسولي إمبراطور الروم بغداد في سنة ٣٠٥ هـ لطلب عقد الهدنة مع العباسيين[١]. وقد وصف السيوطي[٢] هذا الاحتفال فقال: «وفي سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة، فعمل المقتدر موكباً عظيماً، فأقام العسكر وصفهم بالسلاح وهم مائة وستون ألفاً، من باب الشماسية إلى دار الخلافة، وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم، ويليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب. وكانت الستور التي نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج، والبسط اثنين وعشرين ألفاً، وفي الحضرة مائة سبع في السلاسل، إلى غير ذلك».

كذلك احتفل الحاكم الفاطمي باستقبال رسول إمبراطور الروم، فأمر بتزيين القصر فكان من بين الأكياس التي تحتوي على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١. وقد نقل كله إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه، فغدا الإيوان كله يتلألأ ببريق الذهب. فقد وقعت أيام الإيوان قطعة على هيئة درقة مرصعة بالأحجار الكريمة، فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويضيء ما حواليها[٣].

ويتجلى اهتمام الأمويين الأندلس بإقامة الحفلات والتأنق فيها، من وصف استقبال الحكم المستنصر أردون ملك الجلالقة، حين وفد على قرطبة في سنة ٣٥١ هـ واستنجد بالحكم على منافسه وابن عمه شانجة؛ فجاء به غالب الناصري وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور ثم ساروا معهم إلى قرطبة. فأمر محمد هشام بن محمد بن عثمان المصحفي أن يتلقاهم في جيش عظيم كامل التعبئة، وقدموا إلى باب قرطبة، ومروا بباب القصر. فلما انتهى «أردون» إلى ما بين السدة وباب الجنان، سأل عن المكان الذي فيه قبر عبد الرحمن الناصر، أشير إلى موضعه من القصر، فخلع قلنسونة، وسار إلى مكان القبر ودعا، ثم ردّ قلنسونة إلى رأسه.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٧.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.

(٣) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤١٥.

زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد:

كان المسلمون يهتمون بحفلات الزواج اهتماماً بالغاً. فقد رأينا كيف بلغ إسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم بما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنة هارون الرشيد من السيدة زبيدة، وما أنفقه المأمون على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل الذي تجلى إسرافه وبذخه في هذا الزواج، كما تجلى بذخ العباسيين والطولونيين في زواج الخليفة العباسي المعتضد من أسماء المعروفة بقطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون.

وقد استطاع خمارويه بما هيأه له بيت مال مصر، أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لا يخشى فقراً ولا يهاب عوزاً. فقد ذكر ابن دقماق[1] أنه «حمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته» وذكر المقريزي (خطط جـ ١ ص ٢١٩) «أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلى حمله معها». فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك؛ في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه جبة من الجرجر لا يعرف لها قيمة، ومائة هون من الذهب لدق الطيب، وألف تكة ثمن الواحدة منها عشرة دنانير. وقد أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالمنزل أو مكان الاستراحة تنزل فيه وهي في طريقها إلى بغداد. وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه، فكانت في سفرها ممتعة بجميع وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت في قصر أبيها. أما مبلغ نفقات هذا العرس فلم نقف عليه في مصدر من المصادر التي رجعنا إليها. وقد ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ١٧٤) أن صداقها كان مليون درهم. وليس هذا بالشيء الكثير بجانب ما أنفق على تجهيزها، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهري الذي عهد إليه بإعداد الجهاز. نال جائزته وهي أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس[2].

كل هذا يدلنا على مبلغ الرخاء الذي شمل مصر في عهد خمارويه، وما كان من تقدم الصناعة، ورواج التجارة، وعمارة الأسواق لدرجة لم تبلغها في غضون القرن الخامس الهجري، وهو العصر الذي عاش فيه المؤرخ والفقيه القضاعي الذي يقول: «ولا يعرف اليوم في أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير إذا طلبت توجد في الحال[3]. على أن هذا يدل من جهة

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٦٧.

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٤.

(٣) ابن دقماق جـ ٤ ص ٦٧.

أخرى على ما انطوى تحت هذا العمل وغيره من الأعمال من إفقار خمارويه للدولة من جراء زواج ابنته إلى الخليفة المعتضد العباسي. وقد ذكر لنا التنوخي[1] أن قطر الندى لما وصلت إلى بغداد كان خمارويه في شدة وكرب شديدين بسبب تجهيز ابنته الذي استنفذ كل ثروته. وليس أدل على صحة هذا القول من أنه احتاج إلى شمعة فلم يوفق إلى إيجادها لوقته، فلعن ابن الجصاص الذي عده مصدر فقره وبلائه.

وقد أقيمت في قصر خمارويه الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج، واجتمعت النساء في أحسن ملابسهن الحريرية وظهرن في أجمل حليهن وارتدت قطر الندى ثوباً من الحرير الأبيض، ووضع على رأسها إكليل من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر وعلى أذنها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب، وفي أصابعها الخواتم، وفي معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة، فبدت في أحسن زينة.

ومدَّ السماط، وزين بالأزهار ذات الرائحة الذكية والألوان المختلفة. وجلست العروس في صدر السماط. وجلست أمها عن يمينها وجدتها مياس عن يسارها ووضع في طرفي السماط قطعتان كبيرتان من الحلوى، ونثرت عليه صحاف ملأى بألوان الطعام المختلفة.

خرجت قطر الندى من قصر أبيها في موكب اخترق مدينة القطائع التي اشترك أهلها في توديع ابنة الأمير الذي تقدم الموكب، يحف به حرسه المختار يلبسون الأقبية. ويتقلدون السيوف المحلاة بالذهب، وهو ممتطٍ فرسه الأشهب، متقلداً سيفاً بحمائل، تكسوه الهيبة، ويتبعه جيشه من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام، ومن السودانيين يرتدون الأردية والعمائم السود.

ولما وصلت قطر الندى إلى بغداد نزلت في قصر صاعد، وأقيمت الحفلات ودعيت النساء من علية القوم، وكي يرتدين أفخر الثياب ويتزين بأنفس الحلي، ومدت الأسمطة، وعليها ألوان الطعام، على النحو الذي مدت به في مصر، وأحضرت القيان، والمغنيات.

وكان من أثر هذا الزواج أن ولي الخليفة المعتضد خمارويه جميع البلاد الممتدة من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء، وخلع عليه اثنتي عشرة خلعة وسيفاً وتاجاً ووشاحاً.

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار الذاكرة (طبعة مرجليوت) ص ٢٦٢.

ولم يحفل المؤرخون بنقل صورة من الحفلات الشعبية للزواج وغيره، ولكن هذا يفهم ضمناً مما نقلوه من صور الحفلات الملكية، لأن ما يفعله الملوك تجتذبه الشعوب في صور متفاوتة على حسب أقدارهم ومنازلهم. وما زال الناس في كل عصر يقلدون الرؤساء وكبار الناس وينسجون على منوالهم في مظاهر حياتهم. والناس على دين ملوكهم.

٨ - أنواع التسلية

كان الناس في هذا العصر يتلهون بلعبة الشطرنج التي عرفها المسلمون في عهد الرشيد ثم انتشرت بين العرب، وكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من أدم. وقد نقل المسعودي[١] عن الجاحظ أن ما اتفق عليه الناس صور رقعة الشطرنج ست صور، ظهر منها في عهد الراضي الجوارحية، نسبة إلى الجوارح، وتتألف رقعتها من سبعة أبيات في ثمانية، وأمثلتها اثنا عشر في كل جهة منها ستة، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان التي يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطن ويعي، وهي سائر الحواس والخامس والمشترك وهو الذهب من القلب.

كذلك كان النرد من الألعاب التي اعتاد أن يتلهوا بها في هذا العصر العباسي الأول. ويستعمل في اللعب به ثلاثون حجراً وفصان، على رقعة رسم اثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما القضاء الجاري على العباد. والمشهور أن الشطرنج اختراع هندي وأن النرد من اختراع الفرس.

وكان سباق الخيل في هذا العصر من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة. وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على ألا يكون وسيلة للحصول على المال، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب. وبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولي في بعض الأحيان على الحصان المسبوق[٢]. وقد ورد في المسعودي[٣] وصف شائق لخيل السباق والشروط التي يجب أن تتوافر فيها، ووصف تاج

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٢١ - ٥٢٢، ٥٢٥.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٥.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٣٥.

الدولة أبي الحسين أحمد بن عضد الدولة الصيد بالفهود في قصيدة طويلة رواها الثعالبي[١].

وكانت السباحة والمصارعة من أهم أنواع التسلية عند العباسيين، ففي عهد الخليفة المستكفي (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) «انهمك شباب بغداد في تعلم المصارعة والسباحة، حتى صار السباح يسبح وعلى يده كانون، وفوقه قدر، فيسبح حتى ينضج اللحم»[٢]. وقد جعل أحمد بن طولون في قصره بمدينة القطائع ميداناً فسيحاً يضرب فيه بالصوالجة، وهي لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز وغيرهم باسم بولو، وهي شبيهة بعلبة كرة القدم[٣].

وقد عني أحمد بن طولون بحلبات السباق، فبنى مكاناً لعرض الخيل سماه «المنظر». ووصف القضاعي المؤرخ هذا العرض فقال: إنه من عجائب الإسلام الأربعة وهي: هذا العرض، ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد. وأضاف هذا المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة، والجمعة ببغداد، وقل الاهتمام بالاحتفال بيوم الجمعة ببغداد بعد استيلاء هولاكو التتاري عليها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)[٤]:

وكانت حلبة السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد، لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة. وفي هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق، كما جرت عادتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد. فإذا جاء وقت السباق، وأطلقت الخيل إلى غايتها، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضاً حتى نهاية الشوط.

وقد أولع خمارويه بالصيد ولعاً شديداً، فكان يخرج في جهات الأهرام والعقاب وغيرها، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده في صحبة رجال عليهم اللبود، فيدخلون في الغابة ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم، ثم يضعونه في قفص من الخشب محكم الصنعة بسعة وهو قائم. فإذا عاد خمارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذي فيه السبع، واجتمعت العامة لمشاهدة السبع[٥].

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٠٠.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٤.
(٣) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣١٥.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨ - ٣١٩.
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨.

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي، كخمارويه بن أحمد بن طولون، مشغوفاً بجوارح الطير الغريبة، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان، وكان مغرماً أيضاً بالصيد، وخاصة صيد السباع[١]، وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد، وكان الخليفة الآمر يعطي الرهبان في دير نهيا[٢] بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير[٣].

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠.

(٢) وصف. الشابشتي : (Aziz Suryal Atiya: Some Egyptian Monasteries Acording to the Unpublished Ms. of al - Shabushti's Kitab Al - Diyarat, p17) أن دير نهيا بالجيزة «من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها، عامر برهبانه وسكانه. وله في النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته. فإذا انصرف الماء وزرع، أظهرت أراضيه غرائب النوار، وأصناف الزهر، فهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة. وله خليج يجتمع إليه ساير الطيور، فهو أيضاً متصيد حسن».

(٣) أبو صالح : كنائس وأديرة مصر ص ٧٧ ـ ٧٨. ناصر خسرو: Safar Nameh, pp. 155 - 156. أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف.

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

كيف كان عضد الدولة يقضي يومه[1]

«فإنه كان يباكر دخول الحمام، فإذا خرج منه ولبس ثيابه أدى فرض الصلاة، ودخل إليه خواصه وحواشيه، فجلس منهم أبو القاسم المطهر بن عبد الله وزيره ومن قام مقامه بعده. فسأله عما عمله فيما سبق التقدم به إليه، فيخبره بذلك. ثم يذكر له ما عرض من الأمور ويستأذنه في كل أمر، فيوعز إليه بما يعتمده فيه، ويفعل مثل ذلك مع أبي الحسن علي بن عمارة وأبي عبد الله بن سعدان عارضي الجيش: ذاك الديلم وهذا الأتراك والأعراب والأكراد. فإذا ترحل النهار سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار. فإن انفق أن تأخرت قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم. ولقد ذكر بعض الطراد[2] أن أحد المرتبين قالت له امرأته: قد طبخنا رزاً فتوقف لتأكل منه وتمضي، فتوقف بقدر ما أكل، وتأخرت النوبة ذلك المدى، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا. لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز في سبعة أيام. وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة. وقيل إن بعض أصاغر الحواشي حمل في النوبة من همدان في كنانة[3]، دنانير يسيرة إلى منزله. وقد كانت عاداتهم جارية بذاك، فقصرت عن أهلها. وعرف عضد الدولة الخبر، فلم يزل يكشف عن ذلك إلى أن ظهر الخرائطي آخذ الدنانير فأمر بقطع يده.

---

(١) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم جـ٣ ص ٤٠ ـ ٤٣.

(٢) من المطاردة وهي الأجزاء للسباق، والمراد هنا أحد المشرفين في محاط البريد.

(٣) في الأصل كتانة، والصواب كنانة، وهي جعبة السهام وتصنع مر أدم.

فإذا وصلت النوبة كان فض ختومها وفتح خرائطها وإخراج الكتب منها بحضرته، ويأخذ منها ما كان إلى مجلسه. ويخرج الباقي إلى ديوان البريد فيفرق على أربابه، ثم يقرأ الكتب إليه كتاباً كتاباً ويطرحه إلى أبي القاسم عبد العزيز. فإذا تكامل وقوفه عليها جدد أبو القاسم قراءتها عليه، فيأمره في جواب كل فصل بما يوقع به تحته، وأخرج منها ما يأمر بإخراجه ليوجه عليه المطهر بن عبد الله أو من يجري مجراه في تذكرة وهي أبداً بين يديه، يعلق فيها ما يعرض له. ثم يسأل عن الطعام عند فراغه من ذلك فإذا حضر الوقت الذي رسمه بالأكل فيه، استدعاه فأصاب منه، وطبيب النوبة قائم على رأسه، وهو يسأله عن شيء من منافع الأغذية ومضارها. ثم يغسل يده وينام، فإذا انتبه جدد الوضوء وصلى الصلاة الوسطى، وخرج إلى مجلس الشرب فجلس وحضر الندماء والملهون.

ووافى أبو القاسم بن عبد العزيز فقعد بحضرته على رسمه، وعرض عليه ما كتبه الكتاب أو كتبه هو بنفسه من أجوبة الكتب الواردة، فربما زاد فيها أو نقص منها. ثم تصلح وتختم وتجعل في إسكدارها، وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتها، ومتى غاب أبو القاسم بن عبد العزيز لأمر يقطعه أو تأخر في داره واحتيج إلى كتاب يكتب، يستدعى كاتب النوبة، فأجلس بين يديه، وتقدم بما يريده إليه، وأملاه عليه وهو مع ذلك يشرب ويسمع الغناء ويسأل عما يمضي من أشعاره وما تجب معرفته من أخباره، ولا يزال على ذلك إلى أن يمضي صدر الليل ثم يأوي إلى فراشه.

وإذا كان يوم موكب برز للأولياء ولينهم ببشر وتأنيس تعلوهما هيبة ووقار، وأجاب كل ذي حاجة بما يجب في السياسة من بذل ومنع. وتفرق الناس عند انتصاف النهار، وأقام أصحاب الدواوين وكتابهم إلى حين غروب الشمس. فأما عموم الأيام فإن الأمر يجري على ما تقدم ذكره. . .

فأما ما ذكر في أمر تدبيره لجنده، فقد كانت أموالهم مطلقة في أوقاتها متتبعة في تصرفاتها، وأكثر كتابهم وأصحابهم عوناً له عليهم. وطبل العطاء يضرب في كل يوم، ويحضر من تنتهي إليه الدعوة من القواد، ومعه أصحابه بأحسن رتبة، فقبض ماله، والزيادات في الأصول محظورة على العموم، إلا عند الفتوح وما تدعو السياسة إليه من استمالة القلوب».

الملحق الثاني
سياسة يعقوب بن الليث الصفار[1]

«كانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف، وحسن انقيادهم لأمره واستقامتهم على طاعته، لما كان قد شملهم من إحسانه وغمرهم من بره وملأ قلوبهم من هيبته.. واتخذ لنفسه عريشاً من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيره، فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل عسكره وعلى قضيم[2] دوابه ويؤمن الخلل من وكلائه، فإذا رأى شيئاً يكرهه بادر بتغيره. وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختيار لهم، والغنى الظاهر منهم والنكاية في حروبهم، فجعلهم أصحاب الأعمدة للذهب، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب، ثم يليهم في اللباس والغنى فوج ثان أصحاب الأعمدة للفضة. فإذا كان في الأعياد أو في الأيام التي يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء والاحتفال، دفع إليهم تلك الأعمدة، وإنما ضربت هذه الأعمدة للنوائب.

«وسئل بعض ثقاته ممن ينظر حاله عن أشغاله في خلواته وعن مجالسته مع أهل بطانته وهل يسير مع أحد أو يجالسه، فذكر أنه لا يطلع أحداً على سره، ولا يعرف أحد بتدبيره وعزمه. و[يكون] أكثر نهاره خالياً بنفسه يفكر فيما يريده، ويظهر غير ما يضمره، ولا يشرك أحداً فيما يريده برأي ولا غيره. وإن تفرجه واشتغاله بغلمان صغار يتخذهم ويؤدبهم ويحرجهم ويدعوهم ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور يتضاربون بها بين يديه ففي هذا أكثر شغله إذا فرغ من تدبيره. ولما وقع الصفار الحسن بن زيد الحسيني بطبرستان، وذلك في سنة ستين ومائتين، وقيل سنة تسع وخمسين ومائتين، وانكشف الحسن بن زيد وأمعن

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥.

(٢) قضيم الدواب: صوتها وهي تأكل، من قضمت الدابة الشعير أي كسرته بأطراف أسنانها.

يعقوب في الطلب، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد وهم راجعون في طلب الحسن بن زيد، قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم في تلك الحرب: ما رأيت أيها الأمير كاليوم؟ قال له الصفار: وأعجب منه ما أريك إياه، ثم قربوا من الموضع الذي كان فيه عسكر الحسن بن زيد فوجدوا البدر والكراع والسلاح والعدد وجميع ما خلف في العسكر حين الهزيمة، على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشيء، ولا دنوا إليه معسكرين بالقرب منه، من حيث يرونه بالموضع الذي خلفهم فيه الصفار، فقال له الرسول. هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها إلى أن تأتي له منهم ما أراد. وكان لا يجلس إلا على قطعة مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح. وإلى جانبه ترسه عليه اتكاؤه، وليس في مضربه شيء غيره؛ فإذا أراد أن ينام في ليله أو نهاره، اضطجع على ترسه وتزع راية فيجعلها مخدته. وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختي.

وكان من سنته [أن] للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بباب مضربه، بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم، فيمرون مع أطناب(١) الشقاف إلى خيمة مضروبة بحيث لا يرى هو موضعها، لكنه يرى مداخلهم إليها ومخرجهم منها، فمن احتاج إليه منهم واحتاج إلى كلامه أو أمره أو نهيه دعاه فأمره. وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضاً من السلام عليه. ولم يكن لأحد أن يتقدم إلى باب مجلسه إلا رجل من خواصه يعرف بالعزيز وإخوته، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه فيها غلمان من خواصه. فإذا احتاج إلى أمر يأمره به، صاح بهم فخرجوا إليه، وإلا فهو في أكثر نهاره وليله في ذلك الموضع لا يقومون على رأسه. وخيمته داخل أخبية(٢) مطنبة كلها، يدور فيها خمسمائة غلام يبيتون من داخل مضربة، على كل نفس منهم ثقة وكل يتفقد أحواله لئلا يكون منهم عبث أو فساد فهو المأخوذ به. وقال بعض من ورد إليه برسالة السلطان (يعني الخليفة العباسي): أيها الأمير! أنت في رياستك ومجلسك ليس في خيمتك إلا صلاحك ومسح(٣) أنت عليه. قال: إن رئيس القوم يأتم به أصحابه في أفعاله وسيرته، فلو استعملت ما ذكرت من الأثاث لأثقلنا البهائم ولأتم بي في فعلي من في عسكري. ونحن نقطع في كل يوم المهامه(٤) والمفاوز

(١) الطنب بضم الطاء وسكون النون (أوضمها): الحبل تشد به الخيمة، ومطنب مشدود بالحبال.

(٢) الخباء هو كل ما يعمل من وبر أو صوف، وقد يكون من شعر، والجمع أخبية من كساية وأكسية، ويكون على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت.

(٣) المسح بالكسر: البلاس أو اللباس وجمعها مسوح كحمل وحمول.

(٤) هام يهيم على وجهه لا يدري أين يتوجه، والهيماء: المفازة التي لا ماء فيها، ورجل هيمان عطشان.

والأودية والقيعان[١]، ولا يصلح لنا إلا التخفيف. وكان قليل الاستعمال البغال في عكسره، وكان في عكسره خمسة آلاف جمل بختي[٢] وأضعاف عددها حمير شهب كالبغال، وهي الحمير المعروفة بالصفارية تحمل الأثقال عوضاً عن البغال. وكان السبب في ذلك أنه إذا نزل خليت الجمال الحمير للرعي وليس في وسع البغال ذلك.

الملحق الثالث

رد الإخشيد على كتاب أرمانوس إمبراطور الروم[٣]

وكتب محمد بن طغج (صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والأعمال الحجازية) إلى أرمانوس ملك الروم: من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه. . .

أما بعد، فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة، وما نمي عنا إليك وصح من شيمنا فينا لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به من هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى إلى [غير] ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه. . . .

وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه، وكان لك في ترك مكاتبتنا غنم ورشد، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيبا، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته، والذي تجشمته من مكاتبتنا، إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير، وجل نفعه

---

(١) القاع والقيعة، وجمعها قيعان، المستوى من الأرض الذي لا يثبت.

(٢) البختي بضم الباء وتسكين الخاء: واحد البخت والبخاتي وهي الإبل الخراسانية، وفي الأصل جمل بخت.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٠ ـ ١٨.

لأمر عظيم خطير، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين. فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما بسبيله، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه[1] ولم يعذه (يحفظه) من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم، وما توجيه عليكم عزائم سياستكم والتوصل إلى استنفاذ أسرائكم. ولولا أن إيضاح القول في الصواب أولى بنا من المسامحة في الجواب: لأضربنا عن ذلك صفحاً إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم أو عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم، بل إلى من نزل عن مرتبنا، هو أنه لم يثق من منعه ورد ملتمسه ممن جاوره، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم، ولا عار على أحد وإن جل قدره في ردهم. ومن وثق في نفسه ممن جاوره، وجد قصده أسهل السبيلين عليه وأدناهما إلى إرادته حسب ما تقدم. وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ولم يقرب من منزلتنا، فممالكنا عدة، كان يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن[2].

وأما الفداء ورأيك في تخليص الأسر، فإنا وإن كنا واثقين لمن في أيديكم بإحدى الحسنيين، وعلى بينة لهم من أمرهم، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة، عالمين بما لهم، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها، سكوناً إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب، ويعلم أن الله قد أعاده من أن يفتنه ولم يعذه من يبتليه. وقد تبينا مع ذلك في هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون والسلف الصالحون، فوجدنا ذلك موافقاً لما التمسته وغير خارج عما أجيبه، فسررنا بما تيسر منه، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا في سائر أعمالنا وعزمنا عليهم في جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان في إنقاذهم، وبذلنا في ذلك كل ممكن، وأخرجنا إجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا وإنجازنا وعدنا، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن المؤاقع منك إن شاء الله...

---

(١) يعني يبتليه بأمور على سبيل المحنة والتمحيص.

(٢) ورد في هذا الكتاب أن سلطان الأخشيد شمل ما كان يسمى قديماً ملك مصر، وممالك اليمن، وأجناد الشام التي منها جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وما يتفقده من أمر مكة والمدينة، وأن سياسته لهذه البلاد كانت ترمي إلى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة وإقرار الأمن والدعة في المعيشة وكسبها المودة والمحبة ـ صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٣ ـ ١٤.

والحمد لله أحق ما ابتدىء به وختم بذكره، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة وعلى آله وسلم تسليماً».

الملحق الرابع

الموقعة التي دارت ببلاد الشام بين محمد بن سليمان الكاتب والحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة(١)

«ولما كان في يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم (سنة ٢٩١ هـ)، رحلت من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعليانة في جميع العسكر من الأولياء، وزحفنا بهم على مراتبهم في القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك. فلم أبعد أن وافاني الخبر بأن الكافر القرطمي أنفذ النعمان ابن أخي إسماعيل بن النعمان أحد دعاته في ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجالة، وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع، بينه وبينَ حماه اثنا عشر ميلاً. فاجتمع إليه جمع من كان بمعرة النعمان وبناحية القصيصي وسائر النواحي من الفرسان والرجالة. فأسررت ذلك عن القواد والناس جميعاً ولم أظهره، وسألت الدُلَيْل الذي كان معي عن هذا الموضع، وكم بيننا وبينه، فذكر أنه ستة أميال، فتوكلت على الله عز وجل وتقدمت إليه في المسير نحوه، فمال الناس بالناس جميعاً، وسرنا حتى وافت الكفرة، فوجدتهم على تعبئة، ورأينا طلائعهم.

فلما نظروا إلينا مقبلين، زحفوا نحونا، وسرنا إليهم. فافترقوا ستة كراديس، وجعلوا على ميسرتهم، على ما أخبرني من ظفرت به من رؤسائهم، مسروراً العليصي وأبا الحمل وغلام هارون العليصي وأبا العذاب ورجاء وصافي وأبا يعلى العلوي في ألف وخمسمائة فارس، وكمنوا كميناً في أربعمائة فارس خلف ميسرتهم بإزاء ميمنتنا، وجعلوا في القلب النعمان العليصي، والمعروف بأبي الخطي والحماري وجماعة من بطلانهم في ألف وأربعمائة فارس وثلاثة آلاف راجل، وفي ميمنتهم كليباً العليصي والمعروف بالسديد العليصي والحسين بن العليصي وأبا الجراح العليصي وحميداً العليصي وجماعة من نظرائهم في ألف وأربعمائة فارس، وكمنوا مائتي فارس، فلم يزالوا زفا(٢) إلينا ونحن نسير نحوهم غير

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨.

(٢) زف يزف زفا وزفونا وزفيفاً: أسرع.

متفرقين، متوكلين على الله عز وجل. وقد استحثثت الأولياء والغلمان وسائر الناس غيرهم، ووعدتهم. فلما رأى بعضنا بعضاً حمل الكردوس الذي كان في ميسرتهم ضرباً بالسياط، فقصد الحسين بن حمدان وهو في جناح الميمنة، فاستقبلهم الحسين بارك الله عليه وأحسن جزاءه بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم، فكسروها في صدورهم، فأنفلوا عنهم.

وعاود القرامطة الحمل عليهم، فأخذوا السيوف واعترضوا ضرباً للوجوه، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس في أول واقعة، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة، وولوا مدبرين مفلولين، وأتبعهم الحسين فرجعوا عليه، فلم يزالوا حملة وحملة. وفي خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة، حتى أفناهم الله عز وجل، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتي رجل. وحمل الكردوس الذي كان في ميمنتهم على القاسم بن سيما ويمن الخادم ومن كان معهما من بني شيبان وبني تميم، فاستقبلوهم بالرماح حتى كسروها فيهم. واعتنق بعضهم بعضاً، فقتل من الفجرة جماعة كثيرة، وحمل عليهم في وقت حملتهم خليفة بن المبارك ولؤلؤ، وكنت قد جعلته جناحاً لخليفة في ثلثمائة فارس، وجميع أصحاب خليفة وهم يعاركون بني شيبان وتميم، فقتل من الكفرة مقتلة عظيمة وأتبعوهم. فأخذ بنو شيبان منهم ثلثمائة فرس ومائة طوق، وأخذ أصحاب خليفة مثل ذلك.

وزحف النعمان ومن معه في القلب إلينا، فحملت ومن معي، وكنت بين القلب والميمنة. وحمل خاقان ونصر القشوري ومحمد بن كمشجور ومن كان معهم في الميمنة، ووصيف موشكير ومحمد بن إسحاق كندا جيق وابنا كيغلغ والمبارك القمي وربيعة بن محمد ومهاجر بن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحي الكبير ووصيف البكتمري وبشر البكترمي ومحمد بن قراطغان. وكان في جناح الميمنة جميع من حمل على من في القلب ومن انقطع ممن كان حمل على الحسين بن حمدان، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالتهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال. ولما أن تجاوزت المصاف بنصف ميل، خفت أن يكون من الكفار مكيدة في الاحتيال على الرجالة والسواد. فوقفت إلى أن لحقوني، وجمعتهم، وجمعت الناس إليَّ، وبين يدي المطرد المبارك مطرد أمين المؤمنين، وقد حملت في الوقت الأول، وحمل الناس.

ولم يزل عيسى النوشري ضابطاً للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجالته على ما رسمته له. فلم يزل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إليَّ من كل موضع. وضربت مضربي في الموضع الذي وقفت فيه حتى نزل الناس جميعاً. ولم أزل واقفاً إلى أن صليت المغرب، حتى استقر العسكر بأهله، ووجهت في الطلائع، ثم نزلت وأكثرت حمداً لله على

ما هنأنا به من النصر. ولم يبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية في نصر هذه الدولة المباركة، في المناصحة لها إلا بلغوها، بارك الله عليهم جميعاً. ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعاً لنقيم خارج المعسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع. وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع[١] الشكر. وأنا، أعز الله سيدنا الوزير، راحل إلى حماه، ثم أشخص إلى سلمية بمن الله تعالى وعونه، فمن بقي من هؤلاء الكفار مع الكافر، فهم بسلمية، فإنه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام، واحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القواد وسائر بطون العرب من بني شيبان وتغلب وبني تميم، يجزيهم جميعاً الخير على ما كان بقي هذه الوقعة، فما بقي أحد منهم، صغير ولا كبير، غاية، والحمد لله على ما تفضل به، وإياه أسأل تمام النعمة».

الملحق الخامس

الجدل بين طائفتي المعتزلة وأهل السنة والجماعة[٢]

«ثم لما كثرت العلوم والصنائع، وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء، وألف المتكلمون في التنزيه، حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في السلوب[٣]، فقضوا بنفي صفات المعاني مع العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها؛ لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم؛ وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها. وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام؛ وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ. وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر. وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر. ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق، بدعة صرح السلف بخلافها. وعظم ضرر هذه البدعة، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم[٤]، فحمل الناس عليها، وخالفهم أئمة السلف؛ فاستحل لخلافهم أبشار[٥] كثير منهم

(١) التوزيع كالإيزاع، معناه القسمة والتفريق أي توزيع الشكر على الناس.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٣) أي في أنواع النفي والسلب بتنزيه الله عن كل ما لا يليق به من الصفات.

(٤) أخذها المأمون والمعتصم عن أحمد بن أبي داود وبشر المريسي وغيرهما من متقدمي المعتزلة.

(٥) جمع بشر وهو الجلد، يعني استحل قتلهم وجلدهم.

ودمائهم. وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد، دفعاً في صدور هذه البدع. وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق، ونفي التشبيه، وأثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع المعنوية، والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح، وكمل للعقائد في البعثة، وأحوال الجنة والنار؛ والثواب والعقاب. وألحق بذلك الكلام في الإمامة، لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان، وإنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة[١] في ذلك لمن هي له، وكذلك على الأمة[٢]. وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية، ولا تلحق بالعقائد؛ فلذلك ألحقوهما بمسائل هذا الفن. وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري؛ واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد[٣] وغيره؛ وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني[٤]، فتصدر للإمامة في طريقتهم، وهذبها، ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار... وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها، لتوقف تلك الأدلة عليها. وإن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول، وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية. إلا أن

---

(١) أي تبرئة بيان من تكون له الخلافة.

(٢) يريد أنه من الواجب على الأمة تعيين الإمام أو الخليفة إن لم يعينه سلفه.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد، الطائي البصري ثم البغدادي، أحد شيوخ المالكية وصاحب أبي الحسن الأشعري، وناصر مذهب أهل السنة، غلب عليه علما الأصول والكلام، وكان حسن الدين جميل الطريقة. وعنه أخذ القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المالكي المتوفي سنة ٤٠٣ هـ عام الكلام، وهو الذي راوده الباقلاني على الخروج إلى شيراز لمناظرة المعتزلة بحضرة فناخسرو: كما ذكر المقري في أزهار الرياض.
وهو غير أبي بكر بن مجاهد شيخ القراء، لأن هذا متقدم الوفاة، وليس معاصراً للباقلاني (راجع ابن محاهد المتكلم على طريقة الأشعري في تاريخ بغداد للخطيب، الترجمة ٢٦١، وفي الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون اليعمري المالكي (أنظر هامش المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض جـ ٣ ص ٨٥ - ٨٦ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بإشراف الأستاذ مصطفى السقا وآخرين).

(٤) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٤٨١) «أنه كان على مذهب الأشعري، وأنه صنف كتباً كثيرة في علم الكلام، وكان أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه.. وكان كثير التطويل في المناظرة مشهوراً بذلك عند الجماعة». وتوفي في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ.

صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة[١]. ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة، ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون، لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة، فكانت مهجورة عندهم لذلك».

الملحق السادس

استقبال الحكم المستنصر الأموي بالأندلس، أردون ملك جليقية حين وفد عليه في سنة ٣٥١ هـ واستنجد به على منافسه وابن عمه شانجه[٢]

«وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة، وقد كان تقدم فرشها بأنواع الغطاء والوطاء، وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسع له في الكرامة، ولأصحابه، فأقام بها الخميس والجمعة، فلما كان يوم السبب، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة. وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح وقعد الإخوة وبنوهم، والوزراء ونظراؤهم صفاً في المجلس. فيهم القاضي منذر بن سعيد، والحكام والفقهاء. فأتى محمد بن القاسم طملس لملك أردون وأصحابه، وعالي لبوسه ثوب ديباجي رومي أبيض، وبليوال من جنسه وفي لونه. وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر. وقد حفته جماعة من وجوه الذمة بالأندلس، يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما. فدخل بين صفي الترتيب، يقلب الطرف في نظم الصفوف، ويجيل النظر في كثرتها وتظاهر (قوة) أسلحتها ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه، وصلبوا على وجوههم، وتأملوا ناكسي رءوسهم غاضين من جفونهم؛ قد سكرت أبصارهم[٣]، حتى وصلوا إلى باب الأقباء، أو باب قصر الزهراء، فترجّل جميع من كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا إلى باب

---

(١) يريد أن الأدلة تتوقف صحتها ونقدها على الأقيسة المنطقية، ولم تكن هذه الصناعة المنطقية فاشية في أهل الملة الإسلامية لذلك العهد. وما وجد منها كان مجفواً من علماء الدين لاتصاله بعلوم الفلسفة.

(٢) المقري. نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٦. أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٤.

(٣) أي أصبحوا كالسكارى لا يستطيعون فتح عيونهم لروعة ما رأوا.

السدة، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الأقدام، فترجلوا، ودخل الملك أردون وجده راكباً مع محمد بن طملس، فأنزل في برطل[١] البهو الأوسط من الأبهاء القلبية التي بدار الجند، على كرسي مرتفع مكسو الأوصال[٢] بالفضة، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجه بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى. فقعد أردون على الكرسي، وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل السطح.

فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه، وبقي حاسراً إعظاماً لما كان له من الدنو إلى السرير، واستنهض، فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو. فلما قابل السرير خر ساجداً سويعة، ثم استوى قائماً. ثم نهض خطوات، وعاد إلى السجود ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة، وأهوى إلى يده، فناوله إياها، وكر راجعاً متقهقراً على عقبه، إلى وساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير. فجلس عليه؛ والبهر قد علاه؛ وأنهض خلفه من استدنى من قواسمه وأتباعه؛ فدنوا ممتثلين فعله في تكرير الخنوع. وناولهم الخليفة يده؛ فقبلوها وانصرفوا متقهقرين؛ فوقفوا على رأس ملكهم، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً ريثما يفرخ روعه (يطمئن). فلما رأى أن قد خفض عليه (اطمأن في المجلس) افتتح تكليمه...

فكرر أردون الخضوع، وأسهب في الشكر، وقام للانصراف مقهقراً، لا يولي الخليفة ظهره، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح، وقد علاه البهر وأذهله الروع، من حول ما بشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة. فلما أن دخل المجلس، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحط ساجداً إعظاماً له. ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذي بجوفي هذا المجلس، فأجلسوه هنالك عن وساد مثقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فلما بصر به قام إليه، وخضع له، وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، وانحنى إليه، فعانقه وجلس معه، فغبطه، ووعده من إنجاز

(١) البرطل بفتح الباء والطاء. المظلة الضيقة.

(٢) الأجزاء أي إنه مغشى عند اتصال أجزائه بالفضة.

عدات[١] الخليفة له بما ضاعف سروره. ثم أمر الحاجب جعفر. فصبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة. وكانت دراعة منسوجة بالذهب، وبرنساً مثلها. له لوزة[٢] مفرغة من خالص التبر. مرصعة بالجواهر والياقوت. ملأت عيني العلج[٣] تجلة، فخر ساجداً وأعلن بالدعاء. ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً؛ فخلع عليهم على قدر استحقاقهم، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم؛ وخر جميعهم خاضعين شاكرين. ثم انطلق الملك أردون وأصحابه، وقدم لركابه في أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب، عليه سرج حلي، ولجام حلي مفرغ، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون. واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه. ما أفاضوا في التبجح به والتحدث عنه أياماً».

---

(١) جمع عدة وهي الوعد.

(٢) حلية على شكل اللوزة.

(٣) العلج: رجل من كفار العجم.

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب، وقد رتبت أسماء المؤلفين على حسب أحرف الهجاء، مع ذكر سنة وفاة المؤلف

ابن الأثير (١٢٣٨/٦٣٠): علي بن أحمد بن أبي الكرم.

١ ـ «الكامل في التاريخ» ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ).

الإدريسي (١٢٥١/٦٤٩): محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي.

٢ ـ «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان» (روما ١٥٩٢).

أرنولد: «سير توماس و. Arnold: Sir Thomas w.

٣ ـ The Preaching of Islam 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson (London. 1935)، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي (القاهرة ١٩٥٧).

٤ ـ The Caliphate (Oxford, 1924).

الأشعري (٩٣٦/٣٢٤) الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل.

٥ ـ «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» نشره ريتر (اسطنبول ١٩٢٩).

الأصفهاني (٩٦٧/٣٥٦): أبو الفرج.

٦ ـ «كتاب الأغاني» ٢١ جزءاً (القاهرة ١٢٨٥)، (القاهرة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٦).

ابن أبي أصيبعة (٦٦٧/ ١٢٧٠): موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي.

٧ ـ «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» جزآن (القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ هـ).

أماري: ميشيل Amari: Michel.

٨ ـ «مكتبة صقلية العربية» Bibliotica Arabe - Siculs في جزأين.

أمدروز: هـ. ف. Amedros: H,E,.

٩ ـ Three Years of Bawaihid Rule in Baghdad, A. H. 383 - 393 Being a Fragment of the History of Hilal - as - Sabi (A. H. 448) from a Ma. in the Library of the British Museum.

أمير علي: سيد Ameer Ali: Sayed.

١٠ ـ A Short History of the Saracene (Lond. 1921) «مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي» (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية: رياض رأفت أوتيخا (٩٢٩/٣١١) سعيد بن الطريق.

١١ ـ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (بيروت ١٩٠٩).

أوليري: دي ليسي O'Leary de Lacy.

١٢ - A Short History of the Fatimid Khalifate (Lond. 1923).

بارتولد: ف Bartold: F.

١٣ - «تاريخ الحضارة الإسلامية» نقله إلى الغربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢).

بالمر. Palmer.

١٤ - Haroun al - Raschid (Lond. 1881).

باون: هارولد Bowen: Harold.

١٥ - The Last Buwayhids J. R. S. (April, 1929) pp. 225 - 285.

البحتري (٢٨٥/٦٩٨): أبو عبادة الوليد القحطاني.

١٦ - «ديوان البحتري» (القسطنطينية ١٣٠٠ هـ).

بديع الزمان (٣٩٨/١٠٠٧ - ١٠٠٨): أحمد بن محمد.

١٧ - «رسائل بديع الزمان الهمذاني»، شرح الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي (بيروت ١٨٩٠).

براون: إدواردج . . . Browne: Edward G.

١٨ - A Literary History of Peria (From the Earliest Times until Firdawsi 4 vols. vol. 1 (London, 1906) Vol. 11 (London, 1909).

١٩ - The Chahar Maqala (Four Discourses) of Nidhami - i - Samarqandi'. trans. from Persian (Lond. 1899).

ترجمه إلى العربية عزام والخشاب (القاهرة ١٩٤٩).

بروكلمان: كارل Brockelmann: Carl.

٢٠ - Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols (Weimar, - 1898 - 1902).

ابن بسام (٥٤٢/١١٤٧): أبو الحسن علي الشنتريني.

٢١ - «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منه. (القاهرة ١٣٥٨ - ١٣٦٤/١٩٣٩ - ١٩٤٥).

البغدادي (٤٢٩/١٠٣٧): أبو منصور عبد القادر بن طاهر.

٢٢ - «الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨/١٩١٠).

البكري (٤٨٧/١٠٩٧): أبو عبيد الله بن عبد العزيز.

٢٣ - «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (باريس ١٩١١).

البلاذري (٢٧٩/٨٩٢): أحمد بن يحيى بن جابر.

٢٤ - «فتوح البلدان» (القاهرة ١٣١٨ هـ).

البلخي(٣٢٢/٩٧٣- ٩٢٤): أبو زيد بن سهل.

٢٥ «كتاب البدء والتاريخ» وينسب حقيقة إلى مطهر بن طاهر المقدسي، ستة أجزاء.

دي بور: ت. ج. De Boer T. J.

٢٦ ـ «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ١٩٣٨/١٣٥٧).

البيروني (١٠٤٨/٤٤٠): أبو الريحان محمد بن أحمد.

٢٧ ـ «الآثار الباقية عن القرون الخالية» (طبعة إدوارد سخاو) ليبزج سنة ١٨٧٨، ١٨٧٩.

وترجمه إلى الإنجليزية وعلق عليه إدوارد سخاو بعنوان:

The Chronology of Ancient Nations (London, 1879).

بيمونت ومونود: Bemont et Monod.

٢٨ ـ Histoire de l' Europe au Moyen Age (395 - 1270). (Paris, 1921).

التنوخي (٣٨٤/٩٩٤ م): أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم.

٢٩ ـ «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» (القاهرة ١٩١٨ ـ ١٩٢١): ترجمه إلى الإنجليزية د. س. مرجليوث (لندن ١٩٢٢).

تيمور: المغفور له أحمد (باشا).

٣٠ ـ «التصوير عند العرب» نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢).

٣١ ـ «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها» (القاهرة ١٣٥١ هـ).

الثعالبي (٤٢٩/١٠٣٧): أبو منصور عبد الملك.

٣٢ ـ «يتيمة الدهر» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤).

الجاحظ (٢٥٥/٨٦٨): أبو عثمان عمرو بن بحر.

٣٣ ـ «كتاب التاج في أخلاق الملوك» (القاهرة ١٣٣٢/١٩٢٤).

حققه المرحوم أحمد زكي باشا.

٣٤ ـ «كتاب البيان والتبيين» أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٨).

٣٥ ـ «كتاب التبصير بالتجارة» الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥).

نشره وصححه وعلق عليه السيد حسني عبد الوهاب باشا التونسي.

٣٦ ـ ثلاث رسائل نشرت في كتاب (القاهرة ١٣٤٤ هـ): الأولى في الرد على النصارى، والثانية في ذم أخلاق الكتاب، والثالثة في القيان.

جبون: Gibbon: Edward.

٣٧ ـ The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, by G. B. Bury.

٣٨ ـ الجهشياري (٣٣١/٩٤٢ ـ ٩٤٣): أبو عبد الله محمد بن عبدوس.

«كتاب الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨).

حققه ونشره الأستاذ مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.

٣٩ ـ دي جوبينو De Gobineau.

Religion et Philosophie dans l' Asie Centrale (Paris, 1863)

جولدتسيهر إيناس Goldziher Ignaz.

٤٠ ـ المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن.
ترجمه الدكتور علي حسن عبدالقادر(القاهرة ١٣٦٣/١٩٤٤).
٤١ ـ Vorlesungen uber den Islams (2nd ed, Heidelberg. 1910). trans. into French by Felix Arin under the trle Le Dogme et la Loi de I' Islam. (Paris, 1920).
جويارد: س. Guyard: S.
٤٢ ـ Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaèlis Paris, 1874.
٤٣ ـ حتي: فيليب. ك. Hitti: Philip. K.
History of the Arabs (London. 1940, 1944).
٤٤ ـ The Origins of the Druze People and Religion (Columbia, 1928).

حاجي خليفة (١٠٦٧/١٦٥٧): مصطفى كاتب شلبي.
٤٥ ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (ليبسك ولندن ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨).
ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤) أبو محمد علي بن أحمد.
٤٦ ـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).
حسن إبراهيم حسن:
٤٧ ـ «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢) تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨).
٤٨ ـ «السيادةالعربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن Van Vloten ترجمه وعلق عليه بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣، ١٩٦٥).
٤٩ ـ «أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية» تأليف أدولف جروهمان: ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه: الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤: الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦).
٥٠ ـ «تاريخ الإسلام السياسي» الجزء الأول، الطبعة السابعة (القاهرة ١٩٦٤) «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الجزء الثاني، الطبعة.السابعة (القاهرة ١٩٦٤)، والجزء الثالث، الطبعة السابعة (القاهرة ١٩٦٥).
٥١ ـ «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٢).
٥٢ ـ «الدعوة إلى الإسلام» تأليف سير توماس أرنولد، ترجمه المؤلف بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي (القاهرة ١٩٤٧) (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧).
٥٣ ـ «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»، بحث مستخرج من «كتاب المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة ١٩٤٢) (ص ١٢٧ ـ ٢٢٩).
٥٤ ـ «كافور الإخشيد»، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، مايو ١٩٤١.

٥٥ ـ «انتشار الإسلام في الهند»، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، مايو ١٩٤٤.
٥٦ ـ عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٩٤٧).
٥٧ ـ المعز لدين الله الفاطمي، مؤسس الدولة الفاطمية في مصر، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٩٤٨) الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).
٥٨ ـ تاريخ القاهرة، تأليف ستانلي لينبول، ترجمه المؤلف بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن، والأستاذ إدوارد حليم (القاهرة ١٩٤٩).
٥٩ ـ Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain (Extract from the Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Dec, 1984).
٦٠ ـ زعماء الإسلام (القاهرة ١٩٥٣).
٦١ ـ انتشار الإسلام في القارة الإفريقية الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٣).
٦٢ ـ اليمن: البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨).
٦٣ ـ Islam: Rligions, Political and Social Study. (تحت الطبع).

الحمادي اليماني (من فقهاء السنة في اليمن في أواسط القرن الخامس الهجري): محمد بن مالك بن أبي الفضائل.
٦٤ ـ «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» (مطبعة الأنوار ١٣٥٧/١٩٣٩).

ابن خرداذبه: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله.
٦٥ ـ «كتاب المسالك والممالك» طبعة دي غويه (ليدن ١٨٨٩) وبذيله نبذة من كتاب «الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي».

الخضري: محمد.
٦٦ ـ «تاريخ الدولة العباسية» (القاهرة ١٩١٦).

الخطيب البغدادي (٤٦٣/١٠٧٠ ـ ١٠٧١): الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن علي.
٦٧ ـ «تاريخ بغداد أو مدينة السلام» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١).

الخفاجي: شهاب الدين أحمد.
٦٨ ـ «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» (القاهرة ١٢٨٢ هـ).

ابن خلدون (٨٠٨/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦): عبد الرحمن بن محمد.
٦٩ ـ «مقدمة ابن خلدون» (بيروت ١٨٨٦) النسخة محفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٥.
٧٠ ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ).

ابن خلكان (٦٨١/١٢٨٢): شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي.
٧١ ـ «وفيات الأعيان» جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ) المطبعة الميمنية بمصر (١٣١٠ هـ) ترجمه إلى الإنجليزية دي سلان De Slane باريس (١٨٤٢ ـ ١٨٤٨).
الخوارزمي (٣٧٣/٩٩٣): أبو بكر محمد بن العباس.
٧٢ ـ «رسائل الخوارزمي» (القسطنطينية ١٢٩٧ هـ).
الخوارزمي: (٣٨٧/٩٩٧) أبو عبد الله بن أحمد بن يوسف الكاتب.
٧٣ ـ «كتاب مفاتيح العلوم». صنفه سنة ٣٦٦ هـ (القاهرة ١٣٤٤ هـ)، (ليدن ١٨٩٥ م).
الخياط (عاش في القرن الرابع الهجري): أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلي.
٧٤ ـ «كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد» مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٥).
ابن دقماق (٨٠٩/١٤٠٦ ـ ١٤٠٧): إبراهيم بن محمد المصري.
٧٥ ـ «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» الجزءان الرابع والخامس، (القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣).
الدوري: عبد العزيز.
٧٦ ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد ١٩٤٥).
٧٧ ـ النظم الإسلامية (بغداد ١٩٥).
دوزي: و، ب، ا Dozy: R. P. A.
٧٨ ـ Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden. 1861), trans, into English by F G. Stokes. The Moslems in Spain (London, 1913).
٧٩ ـ Dictionnaire des Noms des Vètementschezles Arabes, Amsterdam, 1845).
٨٠ ـ Spplèment au DictionnairesArabes, 2,vols (Leyden, 1881).
٨١ ـ Essai sur l'Histoire de l'Islamisme trans. du Hollandais par Victor Chauvin (Leyden - Paris, 1879).
الدينوري (٢٨٢/ ٨٩٥): أبو حنيفة أحمد بن داود.
٨٢ ـ «الأخبار الطوال» جزءان (ليدن ١٨٨٨).
«رسائل الحاكم بأمر الله».
٨٣ ـ «كتبها كثير من دعاة الفاطميين في سنة ٤٠٨ هـ وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة (مذهب الشيعة رقم ٢٠).
الرضي (٤٠٦/١٠١٥): الشريف أبو الحسن محمد بن موسى.
٨٤ ـ «ديوان الشريف الرضي» (بيروت ١٣٠٧ هـ).
ابن الرومي (٢٨٣/٨٩٦): أبو الحسن علي بن العباس.
٨٥ ـ «ديوان ابن الرومي» ثلاثة أجزاء، نشره كامل الكيلاني (القاهرة ١٩٢٤).

زكي محمد حسن:
٨٦ - «الفن الإسلامي في مصر» الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).
٨٧ - «الفنون الإسلامية في العصر الإسلامي» (القاهرة ١٩٤٠).
٨٨ - «كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٤٠).
ابن زولاق (٣٨٧/٩٩٧): أبو محمد الحسن بن إبراهيم.
٨٩ - «العيون الدعج في حلى دولة بني طغج» نشره ابن سعيد المغربي، (٦٧٣/١٢٧٥) في كتاب المغرب في حلى المغرب (لندن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م).
زيدان: جرجي.
٩٠ - «تاريخ التمدن الإسلامي» خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦).
دي ساسي: س: De Sacy. silvesrtre
٩١ - Exposé de la Beligion des Druzes. précédé d' une Introduction et de la Vie au Khalife Hakim - Biamr - Allah. 2 vols, (Paris, 1838).
٩٢ - Chrestomathie Arabe, 3 vols. (Paris, 1826 - 1827).
٩٣ - Recherehes sur l'initiation à la Secte des Ismaèlis Joural Asiatique, 1824.
لي سترينج: جاي La Stange: Guy.
٩٤ - Baghdad During the Abbasid Caliphate (Oxfard, 1924).
ابن سعيد (٦٧٣/١٢٧٥) علي بن موسى المغربي.
٩٥ - «المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلي المشرق» (ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩).
السلاوي: الشيخ أحمد بن خالد الناصري.
٩٦ - «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، في أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ هـ)
ابن سيدة (٤٥٨/١٠٦٥ - ١٠٦٦): أبو الحسن علي الأندلسي.
٩٧ - «المخصص في اللغة» ٤٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١ هـ).
السيوطي (٩١١/١٥٠٩): عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين.
٩٨ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (القاهرة ١٣٥١ هـ).
٩٩ - «حسن المحاضرة في أخبار مصروالقاهرة» جزآن (القاهرة ١٣٢٧ هـ). ترجمه إلى الإنجليزية ميجر هـ. س، جاريت Major H, S, Jarrett (كلكتا ١٨٨١ م).
١٠٠ - «تفسير الجلالين» أربعة أجزاء.
الشابشتي (٣٨٨/٩٩٨) أبو الحسن علي بن محمد.
١٠١ - «كتاب الديارات» (مخطوط بمكتبة برلين Weimar, 1100 وقد نشر الدكتور عزيز سوريال عظمة الجزء الخامس «بديارات مصر التي يقصد للشرب فيها والتنزه بها»، وترجمها إلى الإنجليزية (Extrait du Bulletin de la Société - d Archèologie Copte. t. v. 1939).

شتاينجاس: ف. Steingass F.
١٠٢ - Persian - English Dictionary (London, 1930).
أبو شجاع (٤٨٨/١٠٩٥) محمد بن الحسين عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين الروذراوري.
١٠٣ - «ذيل كتاب تجارب الأمم» نشره هـ. ف أمدروز، وترجمه إلى الإنجليزية د. س مرجليوت (أكسفورد ١٩٢١).
شكيب أرسلان: الأمير.
١٠٤ - «تاريخ غزوات الغرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط» (القاهرة ١٣٥٢ هـ).
الشهرستاني (٥٤٨/١١٥٣ هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
١٠٥ - «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).
الشيرازي (٤٧٠/١٠٨٧)، المؤيد في الدين هبة الله.
١ - «السيرة المؤيدية» مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة» القاهرة رقم ٢٦٠٥٦.
الصولي (٣٣٥/٩٤٦): أبو بكر محمد بن يحيى.
١٠٧ - «كتاب الأوراق» قسم أخبار الشعراء، نشره ج هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٤).
١٠٨ - «أخبار الراضي بالله والمتقي لله» أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٢٢٢ هـ إلى سنة ٣٣٣. نشره ج .هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٥).
١٠٩ - «أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم» نشره ج. هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٦).
ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي.
١١٠ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٢٣).
الطبري (٣١٠/٩٢٢)، أبو جعفر محمد بن جرير.
١١١ - «تاريخ الأمم والملوك» طبعة دي غويه - ليدن ١٨٨١ م): (القاهرة ١٣٢٦).
١١٢ - «تفسير محمد بن جرير الطبري» في ثلاثين مجلداً.
١١٣ - «اختلاف الفقهاء» نشر يوسف شاحت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان «الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبري» (ليدن ١٩٣٣).
طه حسين: الدكتور
١١٤ - «حديث الأربعاء» (القاهرة ١٩٢٥).
١١٥ - «ذكرى أبي العلاء (القاهرة ١٣٣٤/١٩١٥).
الطوسي (٤٦٠/١٠٦٧) محمد بن الحسن.
١١٦ - «فهرست كتب الشيعة» (كلكتا ١٨٥٥ م).
طيفور (٢٨٠/٨٩٣-٨٩٤) أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر.

١١٧ ـ «تاريخ بغداد» الجزء السادس «طبعة هـ. كلر H. Keller (لايبسك ١٩٠٨).
ابن عبد ربه (٣٢٩/٩٤٠) شهاب الدين أحمد.
١١٨ ـ «العقد الفريد» ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦/١٩٢٨)
العتبي (٤٢٨/١٠٣٦): أبو نصر محمد بن عبد الجبار.
١١٩ ـ «تاريخ اليميني» في جزئين (القاهرة ١١٨٦ هـ)، وبه شرح الشيخ أحمد بن علي الحنفي المنيني المتوفي سنة ١٢٧٢ هـ، وسماه «الفتح الوهي على تاريخ أبي نصر العتبي».
ابن عذارى (توفي في أواخر القرن السابع الهجري): أبو عبد الله محمد المراكشي.
١٢٠ ـ «البيان المغرب في أخبار المغرب» نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٥١ م وباريس ١٩٣٠).
عريب بن سعد (٣٦٦/٩٧٦ ـ ٩٧٧) القرطبي.
١٢١ ـ «صلة تاريخ الطبري» طبعة دي غويه (ليدن ١٨٦١ م): (القاهرة ١٣٢٠ هـ).
العلي: الدكتور صالح أحمد.
١٢٢ ـ «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز» بحث مستل من المَجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤).
علي إبراهيم حسن: الدكتور
١٢٣ ـ «تاريخ جوهر الصقلي» (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٣).
١٢٤ ـ «دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص (القاهرة ١٩٤٣).
علي حسن عبد القادر: الدكتور
١٢٥ ـ «نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي» الجزء الأول (القاهرة ١٣٦١/١٩٤٢).
العمري (٧٤٢/١٣٤١) شهاب الدين أحمد بن فضل الله.
١٢٦ ـ «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» نشره وعلق عليه أحمد زكي باشا.
(القاهرة ١٣٤٢/١٩٢٤).
ابن العميد (٦٧٢/١٢٧٣) الشيخ الكين جرجس بن العميد.
١٢٧ ـ «تاريخ المسلمين» (١٦٢٥ م).
العيني (٨٥٥/١٤٥١) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى
١٢٨ ـ «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ.
الغزالي (٥٠٥/١١١١) الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد.
١٢٩ ـ «المنقذ من الضلال» (دمشق ١٣٤٣/١٩٣٤).
١٣٠ ـ «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» (القاهرة ١٣١٩/١٩٠١).
١٣١ ـ «فضائح الباطنية» نشره جولدتسيهر (ليدن ١٩١٦).

دي غويه: م.ج. De Goeje: M. G.

١٣٢ - Mémoires sur les Carmathes de Bahrain et les Fatimides (Leyden,1886)

فاسيل إف. ا. ا. Vasil, Ev. A. A.

١٣٣ - Cambridge Mediaeval History, vol. IV.

أبو الفدا (١٣٣١/٧٣٢): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه.

١٣٤ - «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ)، القاهرة ١٣٢٥ م.

فنلي: جورج Finaly: George

١٣٥ - History of the Byzantine Empire 716 - 1703 A.D. (London, 1859)

ابن قتيبة (٨٨٩/٢٧٦) أبو محمد عبد الله بن سلم.

١٣٦ - «المعارف» (١٩٣٤/١٣٥٢).

١٣٧ - «عيون الأخبار» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٨ هـ).

قدامة (٩٤٨/٢٣٧): أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي.

١٣٨ - «نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة» (طبعة دي غويه - ليدن ١٨٨٩).

القزويني (١٢٨٣/٦٢٨) أبو عبد الله زكريا الأنصاري.

١٣٩ - «آثار البلاد وأخبار العباد» (جوننحن ١٨١٨).

القفطي (١٢٤٨/٦٤٦): جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.

١٤٠ - «إخبار العلماء أخبار الحكماء» (ليبسك ١٣٢/١٩٠٣).

ابن القلانسي (١١٦٠/٥٥٥) حمزة.

١٤١ - «ذيل تاريخ دمشق»، مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقي، وسبط ابن الجوزي والذهبي (بيروت ١٩٠٨).

القلقشندي (١٤١٨/٨٢١): أبو العباس أحمد

١٤٢ - «صبح الأعشى بن ضباعة الإنشا» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧).

الكتبي(١٣٦٣/٧٦٤) محمد بن شاكر بن أحمد المحلي.

١٤٣ - «فوات الوفيات» جزآن (القاهرة ١٢٩٩ هـ).

كريزول: ك. ا. Creswell K. A. C.

١٤٤ - Early Muslim Arehitecture 2 vols. (Oxford, 1928 and 1938)

كريمر: ألفرد فون Kremer: Alfred Von

١٤٥ - The Orient under the Caliphs, 2 vols.(Calecotta. 1920)

كشاجم: أبو الفتح محمود

١٤٦ - «ديوان كشاجم» مخطوط ملك الأستاذ مصطفى السقا

الكندي (٩٦١/٣٥٠) أبو عمر محمد بن يوسف.

١٤٨ ـ «كتاب الولاة وكتاب القضاة» (طبعة روفن جست)
Rhuvon Guest, E. J. W., Gibb Memorial Series (London 1912)

لويس بارنارد Lewis: Bernard
١٤٨ ـ The Origins of Ismailism (Cambridge, 1940)
لينبول: ستانلي Lane - Poole. Stanley
١٤٩ ـ The Muhommadan Dynasties (Paris, 1892).
١٥٠ ـ Coins and Medals (London, 1892).
١٥١ ـ A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1924)
١٥٢ ـ The Moors in the Sapin (London, 1887).
ترجمه إلى العربية علي الجارم بك (القاهرة ١٩٤٤).
ماسنيو: لوي Massignon Louis
١٥٣ ـ La Passion D'Al - Hosayn - Ibn - Mansour Al - Hallaj
2 Vols (Paris 1922).

مأمور: الأمير Mamur Prince
١٥٤ ـ Polemios on the Origin of the FatimiCaliphs(London, 1934)
الماوردي (٤٥٠/١٠٥٧): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.
١٥٥ ـ «الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٣٩٨ هـ)
متز: آدم Mets: Adam
١٥٦ ـ The Renessance of Islam tnans. into English by S. Khuds Bukheb and D. S. Margliouth (London, 1939). وترجمه إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، في جزئين (القاهرة ١٣٥٦ ـ ١٣٦٠ / ١٩٤٠ ـ ١٩٤١).
الوافي (٣٥٤/٩٦٥) أبو الطيب أحمد بن الحسين السكوني.
١٥٧ ـ «ديوان المتنبي» نشره وشرحه عبد الرحمن البرقوقي (القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٣٠).
المدور: جميل نخلة
١٥٨ ـ «حضارة الإسلام في دار السلام» (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٢).
أبو المحاسن (٨٧٤/١٤٦٩): جمال الدين يوسف بن تغري بردي.
١٥٩ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» جزءان (طبعة جوينبل، ووليم بوپر) (ليدن ١٨٥١/١٨٥٥) ج ١ ـ ٩ (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٨ (١٣٦١/١٩٢٩ ـ ١٩٣٣).
المراكشي (٦٦٩/١٢٧٠ ـ ١٢٧١): محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي.

١٦٠ ـ «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» طبعة دوزي، ليدن ١٨٨١)، وترجمه وشرحه ا فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣).
ابن المرتضى (٣٣٥/٩٣٦ ـ ٩٣٧) المهدي لدين الله أحمد بن يحيى.
١٦١ ـ «باب ذكر المعتزلة» من كتاب المنية والأمل، طبعة الهند.
المسعودي (٣٤٦/٩٥٥): أبو الحسن علي.
١٦٢ ـ «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ)، وترجمه إلى الفرنسية باربييه دي مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or (باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧).
١٦٣ ـ «كتاب التنبيه والإشراف» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٨).
المقدسي: أنيس
١٦٤ ـ أمراء الشعر العربي في العصر العباسي (بيروت ١٩٣٦).
مسكويه (٤٢١/١٠٣٠): أبو علي أحمد بن محمد.
١٦٥ ـ «كتاب تجارب الأمم»، جزءان نشره هـ. ف. أمدروز (القاهرة ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣/١٩١٤ ـ ١٩١٥) وترجمه إلى الإنجليزية د. س مرجليوت (أكسفورد ١٩٢١). وذيله أبو شجاع الصابي (الجزء الثالث) القاهرة ١٣٣٤/١٩١٦).
مسلم (٢٦١/٨٧٥): أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري.
١٦٦ ـ «الجامع الصحيح» ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ م).
المعري (٤٤٩/١٠٥٧): أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان.
١٦٧ ـ «سقط الزند» (القاهرة ١٣١٩ هـ)، (بولاق ١٢٨٦ هـ) في جزئين.
١٦٨ ـ «لزوم ما لا يلزم» (القاهرة ١٨٩١ م).
١٦٩ ـ «آثار أبي العلاء المعري»، والجزء الأول، بإشراف الدكتور طه حسين (القاهرة ١٣٦٣/١٩٤٤).
المقدسي (٣٨٧/٩٩٧) شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي المعروف بالبشاري.
١٧ ـ «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» طبعة دي غويه (ليدن ١٨٧٧).
المقدسي: أنيس
١٧١ ـ «تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي»، الجزء الأول (بيروت ١٩٣٥).
١٧٢ ـ «أمراء الشعر العربي» الطبعة الثانية (بيروت ١٩٣٦).
المقريزي (٨٤٥/١٤٤١) تقي الدين أحمد بن علي
١٧٣ ـ «اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا» (بيت المقدس ١٩٠٨).
المقري (١٠٤١/١٦٣٣) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.
١٧٤ ـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» أربعة أجزاء (بولاق ١٢٩٧/١٨٦٢).

١٧٥ ـ «زهار الرياض في أخبار عياض» ثلاثة أجزاء، ضبطه وحققه وعلق عليه الأساتذة: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٣٦٠/١٩٣٩ ـ ١٩٤١).

ابن منجب (٥٤٢/١١٤٧): أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علي الصيرفي المصري.

١٧٦ ـ «الإشارة إلى من نال الوزارة» (القاهرة ١٩٧٤ م).

ميجون: ج. Migeon: G

١٧٧ ـ Manuel d' Art Musulman :2 vols. (Paris,.1927).

ميور: وليام تمبل Muir: Wiliam Temple

١٧٨ ـ The Caliphate, Its Rise, Declne, and Fall (Edinburgh, 1925).

ابن ميسر (٦٧٧/١٢٧٨): محمد بن علي بن يوسف بن جلب.

١٧٩ ـ «تاريخ مصر» طبعة هنري ماسيه (Henri Massé) (القاهرة ١٩١٩ م).

ناصر خسرو (٤٨١/١٠٨٨).

١٨٠ ـ سفر نامه Relation du voyage de Nasiri Khosrau (Safar Naméh) en Syrie, en Palestine, en Egypte en, Arabie en et Perse trans. from Persian by Charles Schefer (Paris. 188).

ابن النديم (٣٨٣/٩٩٣) محمد بن إسحاق.

١٨١ ـ «كتاب الفهرست» جزآن (لايبسك ١٨٧١ م)، (القاهرة ١٣٤٨ هـ).

النسيبي:

١٨٢ ـ «كتاب مطالب السول في غزوات الرسول» مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ٩٩٧٩.

النعمان (٣٦٣/٩٧٣): أبو حنيفة المغربي.

١٨٣ ـ «المجالس والمسايرات»، ثلاثة أجزاء: مخطوط بجامعة القاهرة، القاهرة رقم ٢٦٦٠.

نظام الملك (٤٨٥/١٠٩٢).

١٨٤ ـ كتاب «سياسة نامه»

Siasset Naméh, Traité de Gouvernement, composé Pour le Sultan Melik - chah Par le Vizir Nizam oul - maulk. Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols. (Paris, 1891 - 1897).

النوبختي (٣٠٢/٩١٤): أبو محمد الحسن بن موسى.

١٨٥ ـ «كتاب فرق الشيعة» (استانبول ١٩٣١).

النويري (٧٣٢/١٣٣١) أحمد بن عبد الوهاب.

١٨٦ ـ «نهاية الأرب في فنون الأدب»، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٣٠.

نيكلسون ا. رينولد Nicholson A, Reynold

١٨٧ ـ Literay History of the Arabs (Cambridge, 1930)

ابن هانىء (٩٧٣/٣٦٢) أبو القاسم المسكني بأبي الحسن محمد
١٨٨ ـ «ديوان ابن هانىء» (بيروت: ١٣٢ هـ).
هل: يوسف Hell: Joseph
١٨٩ ـ The Arab Givilization trans. form. German by Khuda Dukhrh (Cambridge, 1936).
هلال الصابي (١٠٥٦/٤٨٨) أبو الحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الكاتب.
١٩٠ ـ «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» نشره هـ ف. ا بـروز بـيرن ودخل بـه مـرجليـوث كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه (القاهرة ٩١٩).
هيد: و Heyd: W
١٩١ ـ Histoire du Commerce du levant au Moyen - âge 2 Vols (Leiprig 1925).
وستنفلد. ف فون W'stenfeld. F, Von
١٩٢ ـ Die Creschichts Chriber der Araber and ihre Werke (Goetingen 1662).
ياقوت (١٣٣٩/٧٢٦): شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي.
١٩٣ ـ «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٦٢٦/١٣٣٢).
١٩٤ ـ «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» طبعة ذكرى جب (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١ م).
يحيى بن سعيد الأنطاكي (١٠٦٦/٤٥١).
١٩٥ ـ «صلة كتاب أوتيخا» جزآن (بيروت ١٩٠٩).
اليعقوبي(٨٩٥/٣٨٢): أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.
١٩٦ ـ «تاريخ اليعقوبي» جزآن طبعة (W. Vh. Beutoms)
١٩٧ ـ «كتاب البلدان، طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٢.
أبو يوسف (١٩٢/٨١٧ ـ ٨١٨ يعقوب بن إبراهيم).
١٩٨ ـ «كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ): و (المطبعة السلمية بمصر ١٣٤٦ هـ).

فهرس الأعلام

حرف الف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال والذال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد الطاء الظاء

حرف العين

حرف الغين والفاء

حرف القاف

حرف الكاف واللام

حرف الميم

محمد بن العداس (أبو عبد الله) ٢٦٩.

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس المناطق

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء ـ الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء ـ الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين ـ الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين ـ الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون الهاء الواو الياء

فهرس موضوعات الجزء الثالث من تاريخ الإسلام السياسي

الباب الأول
عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ - ٣٣٤هـ)

الباب الثاني
عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٣٣٤هـ)

الباب الثالث
عصر بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧هـ)

بنو بويه في العراق

الباب الرابع
الدولة المستقلة

بنو بويه في فارس

بنو بويه في الري وهمذان وأصبهان

الباب الخامس
الحركات السياسية والدينية

الباب السادس
العلاقات الخارجية

الباب السابع
نظم الحكم

الباب الثامن
الحالة الاقتصادية

الباب التاسع
الثقافة

(أ) العلوم النقلية

(ب) العلوم العقلية

الباب العاشر

٢ ـ الفن

الباب الحادي عشر

الحالة الاجتماعية

ملاحق الكتاب

مؤلفات ومترجمات

الدكتور حسن إبراهيم حسن

١ ـ «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» ـ الجزء الأول. (الطبعة السابعة) القاهرة سنة ١٩٦٤.
٢ ـ الجزء الثاني (الطبعة السابعة) القاهرة سنة ١٩٦٤.
٣ ـ الجزء الثالث (الطبعة السابعة) القاهرة سنة ١٩٦٥[١].
٤ ـ الجزء الرابع (تحت الطبع).
٥ ـ «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، (المطبعة الأميرية) ببولاق سنة ١٩٣٢» تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٦٤).
٦ ـ «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن، (القاهرة سنة ١٩٣٩، ١٩٥٩، ١٩٦٢). وقد ترجم إلى اللغتين الفارسية والأردية.
٧ ـ «تاريخ عمرو بن العاص» (الطبعة الثانية) القاهرة سنة ١٩٢٦.
٨ ـ «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»، بحث مستخرج من «كتاب المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة سنة ١٩٤٢) ص ١٢٧ ـ ٢٢٩.
٩ ـ «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن ترجمه وعلق عليه المؤلف، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكي إبراهيم الطبعة الثانية (القاهرة سنة ١٩٦٥).
١٠ ـ «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية»، تأليف الدكتور أدولف جروهمان، ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه، الجزء الأول (القاهرة سنة ١٩٣٤) الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦)، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦١) والجزء الرابع (تحت الطبع).
١١ ـ «الدعوة إلى الإسلام». ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه، بالاشتراك مع الأستاذين الدكتور عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، الطبعة الثانية (القاهرة سنة ١٩٥٧)، والطبعة الثالثة (تحت الطبع).

١٢ - «عبيد الله المهدي» إمام الشيعة الإسماعيلية مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٦٥).

١٣ - «المعز لدين الله الفاطمي، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر»، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).

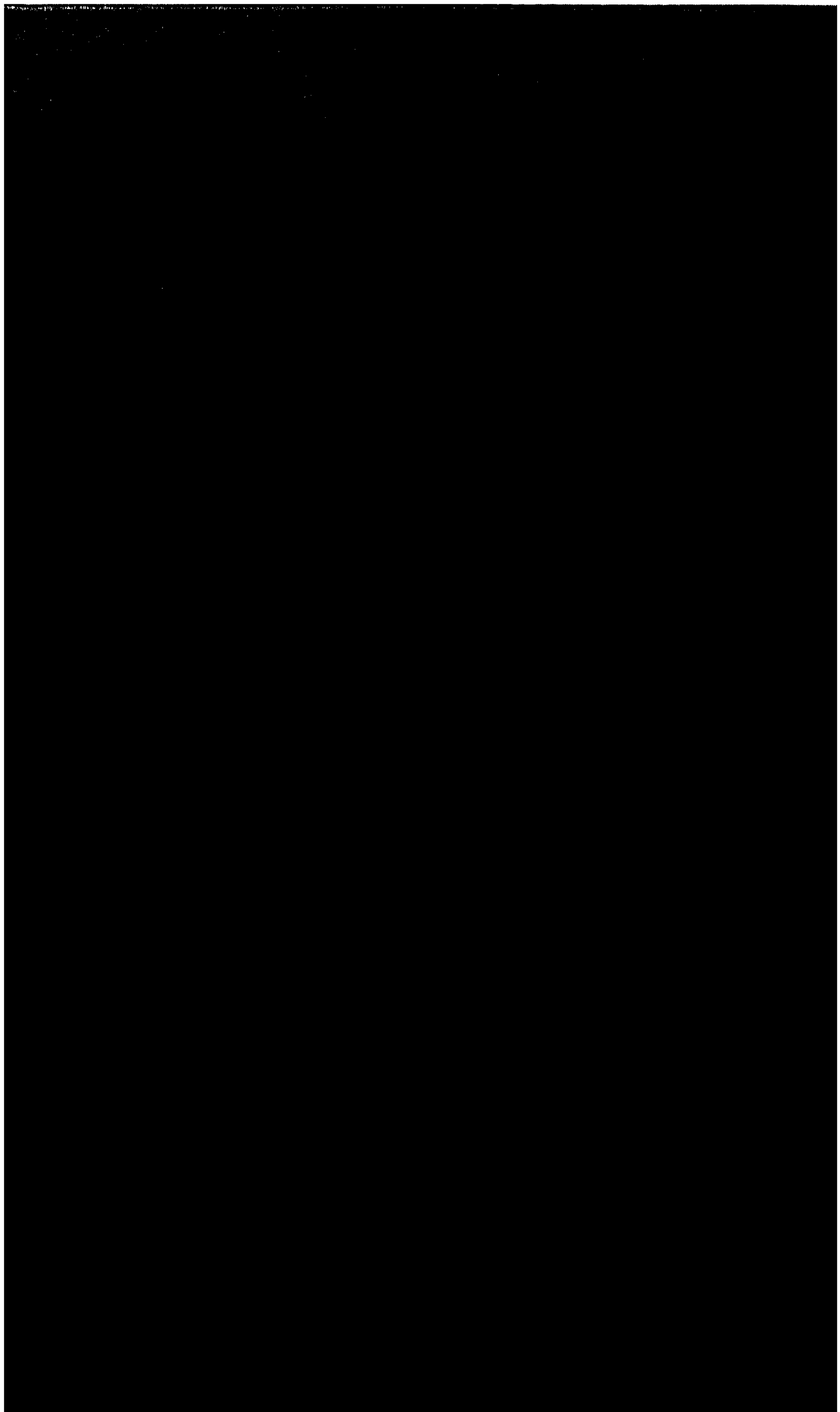
١٤ - «تاريخ القاهرة» تأليف ستانلي لينبول، ترجمه المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذين علي إبراهيم حسن، وإدوار حليم (القاهرة سنة ١٩٥٠).

١٥ - زعماء الإسلام (القاهرة ١٩٥٣)، ترجم إلى اللغة الأردية.

١٦ - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، نشر الطبعة الأولى المعهد العالي للدراسات العربية (جامعة الدول العربية) القاهرة ١٩٥٧) والطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).

١٧ - اليمن: البلاد السعيدة، لجنة «اخترنا لك» (نشرته دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٨).

١٨ - Islam: Its Origins and Developments (بالإنجليزية) (تحت الطبع) بالإضافة إلى كثير من الأبحاث المنشورة بالمجلات العلمية باللغتين العربية والإنجليزية.



الدكتور حسن إبراهيم حسن

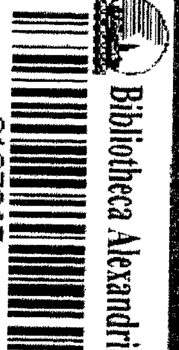
تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الرابع

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس



مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

دار الجيل
بيروت

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الرابع

العصر العباسي الثاني
في الشرق ومصر والمغرب والأندلس
(٤٤٧ - ٦٥٦هـ/١٠٥٥ - ١٢٥٨م)

تأليف
الدكتور حسن إبراهيم حسن
مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العالية
جامعة بغداد

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

الطبعة الرابعة عشرة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذا كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي بأجزائه الأربعة للدكتور المرحوم حسن ابراهيم حسن نقدمه للقراء والطلاب في طبعة منقحة وبإخراج جديد مزودة بالفهارس الضرورية التي تسهل على الطالب الرجوع الى مبتغاه بيسر وسهولة .

وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب منذ نصف قرن ونيف ولاقى رواجاً وإقبالاً عند صدوره من كافة مستويات القراء وطلاب المعرفة وهواة المطالعة ، وبصدور الأجزاء التالية ازداد الإقبال عليه وبصورة خاصة من طلاب الدراسات التاريخية وكل قارىء عربي تواق لمعرفة تاريخ أمته ومنجزاتها في شتى ميادين الحضارة منذ أن أضاءت الدنيا بنور الإسلام وعبر العصور .

هذا ولا تقتصر دراسة التاريخ ومطالعته للمعرفة والهواية فقط ولكن لاستخلاص العظات والعبر فالتاريخ هو سياسة الماضي وسياسة الماضي تاريخ المستقبل ، قال تعالى في معرض أخباره عن قرون خلت : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ سورة ق ٣٧ / ٥٠ .

وقال ابن خلدون :

إعلم أن التاريخ فن غزير المذهب شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم ، والملوك في سِيْرهم وسياستهم . حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة . . . !!

قال تعالى : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

فإذا كانت هذه فائدة التاريخ كان على المؤرخ من أجل تحقيق هذا الهدف تحري الحقيقة عند تدوينه للتأريخ أو عند نقله لحادثة ما بعيداً عن الخيال والهوى لأنه بالنتيجة سيحظى بأعمال الانسان وبالتالي حقيقة هذا الانسان .

قال ابن خلدون أيضاً :

. . كثيراً ما وقع للمؤرخين من المغالط في الوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها فضلوا عن الحق وتاهوا ولا بد من رد الأخبار الى الأصول وعرضها على القواعد . . . !!

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ صدق الله العظيم

الناشر

الباب الأول

العصر السلجوقي الأول
من ظهور طغرلبك إلى وفاة ملكشاه
٤٢٩ ـ ٤٨٥/١٠٣٨ ـ ١٠٩٢

١ ـ ظهور السلاجقة:

ينتسب السلاجقة إلى سَلجوق (بفتح السين) بن تُقاق (بضم التاء) أحد رؤساء الأتراك. وكانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر في مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخاً[١] وكان عدد السلاجقة، كما يقول ابن خلّكان يجل عن الحَصر والإحصاء، لا يدينون بالطاعة لسلطان، وكانوا إذا قصدهم جَمْع ورأوا أنه لا طاقة لهم به، دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرّمال فلا يصل إليهم أحد[٢]. والسلاجقة نوع من الأتراك الغز ويتصل نسبهم بالجد الأكبر لسلاطين الأتراك العثمانيون الذين أسسوا إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى، ثم في سورية ومصر والبحر الأبيض المتوسط وأوروبا وشمال افريقيا عن طريق سلاجقة الروم.

وقد اتسع سلطان السلاجقة حتى فاق سلطان البيت الغزنوي. وكان عصرهم أكثر ردهاراً وملكهم أعظم رقعة وقوتهم أعز سلطاناً ومنعة. وقد أخذوا في سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م يجتاحون الجزء الشمالي والشرقي من بلاد الفرس حتى أقلقوا بال السلطان محمود الغزنوي. وإلى السلاجقة يرجع الفضل في تجديد قوة الإسلام وإعادة تكوين وحدته السياسية. ولهم أهمية خاصة في التاريخ، لقيام الحروب الصليبية في أيامهم، وظهورهم على مسرح هذه الحروب، وكذلك ظهور التتار الذين قضوا على الدولة الخوارزمية[٣] أولاً ثم على الدولة العباسية.

---

(١) والفرسخ أربعة أميال.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٥.

(٣) بضم الخاء وفتحها وفتح الياء وكسرها وسكون الزاي.

كان تُقاق[١] أبو سلجوق كما وصفه ابن الأثير[٢] شهماً ذا رأي وتدبير. وكان زعيم الأتراك الغز، يرجعون إليه في أمورهم ولا يخالفون له قولاً ولا يعصون له أمراً، وقد اتفق أن جمع ملك التُرك عسكره وأراد المسير إلى البلاد الإسلامية. فنهاهم تُقاق واحتدم النقاش بينهما فأغلظ له الملك القول، فلطمه تُقاق فشج رأسه. وأحاط بتُقاق خدم الملك وأرادوا أخذه، وحال أصحاب تُقاق دون ذلك. ثم تم الصلح بينهما. وقد أنجب تُقاق ابنه سلجوق، ولما شبّ عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل الذكاء، وعرف بعلو الهمة وسعة العقل والكرم حتى استمال قلوب رجال الدولة إليه، فقرّبه ملك التُرك إليه ولقبه بلقب «سباشي» ومعناه قائد الجيش، ولكن زوجة الملك أوجست خيفة من سلجوق لما رأته من طاعة الناس له وانقيادهم إليه، وحملت الملك إلى قتله.

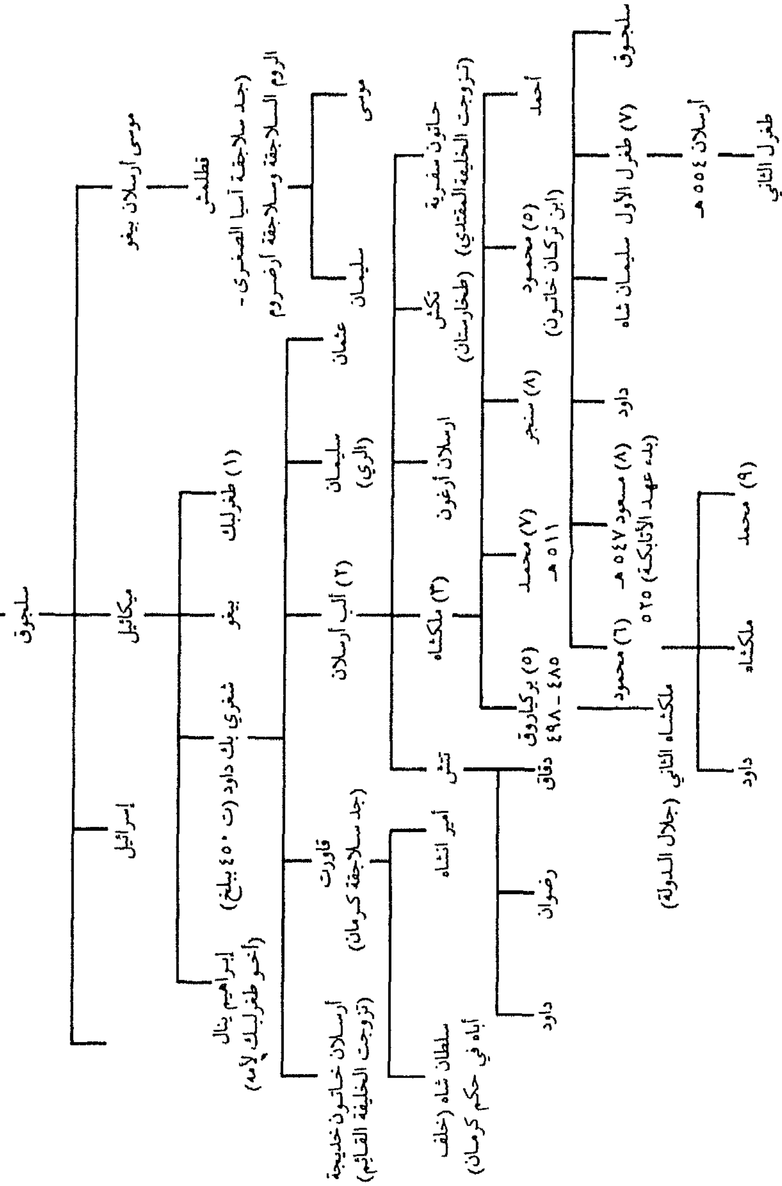
ولما نمي هذا الخبر إلى سلجوق خشي على حياته، فسار على رأس جماعته إلى دار الإسلام وتحول إلى الدين الحنيف وصح إيمانه وأقام هو وعشيرته بنواحي جند[٣]، وأخذ يغير على بلاد الأتراك الذين كانوا ولا يزالون على الكفر. وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين الذين يعيشون في بلاده، وقد طرد سلجوق عمال هذا الملك وضم بلاده إلى البلاد الإسلامية. وقد استنجد السامانيون بسلجوق لمساعدتهم على رد ما أخذه الترك من بلادهم، فأرسل إليهم ابنه أرسلان على رأس جيش استرد هذه البلاد. وكان لسلجوق من الأولاد: أرسلان وميكائيل وموسى.

توفي سلجوق بجَند بعد أن بلغ من العمر مائة وسبع سنين، ثم قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو بلاد الأتراك الكفار، وترك من الأولاد بيغو، وطغرلبك، وشُغْري بك داود، فدانت لهم عشائرهم بالطاعة، ثم يمموا شطر بُخارى، فخشي أميرها خطرهم، فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم، فالتجؤوا إلى «بغراخان» ملك تركستان واحتموا به، واستقر الأمر كما يقول ابن الأثير[٤] بين طغرلبك وأخيه داود على ألّا يجتمعا عند بغراخان حتى لا يحيق مكره السيِّئ بهم.

وقد برهنت الأيام على بعد نظر السلاجقة فقد حال بغراخان دون اجتماع هذين الأخوين عنده، فلم يوفق، فاحتال على أسر طغرلبك وتم له ما أراد. فثارت ثائرة داود وقصد بغراخان في عشائره ليخلص أخاه وأحل الهزيمة بجنده. وأطلق أخاه وعاد إلى جَنْد وبقوا

---

(١) بضم التاء ومعناه القوس الجديد.
(٢) الكامل في التاريخ ج ٩ ص ١٧٦.
(٣) بفتح الجيم وسكون النون.
(٤) الكامل ج ٩ ص ١٧٦.


نسب سلاطين السلاجقة في العراق
(٤٤٧ - ٥٥٢/١٠٥٥ - ١١٥٧)
تقاق
سلجوق
إسرائيل
ميكائيل
موسى أرسلان يغو
قطلمش
(جد سلاجقة آسيا الصغرى - الروم السلاجقة وسلاجقة أرضروم
سليمان
موسى
(١) طغرلبك
يغو
شغري بك داود (ت ٤٥٠ ببلخ)
إبراهيم ينال
(أخو طغرلبك لأمه)
عثمان
سليمان
(الري)
(٢) ألب أرسلان
قاورت
(جد سلاجقة كرمان)
أرسلان خاتون خديجة
(تزوجت الخليفة القائم)
خاتون سفرية
(تزوجت الخليفة المقتدي)
تكش
(طخارستان)
أرسلان أرغون
(٣) ملكشاه
تتش
أمير انشاه
سلطان شاه (خلف أباه في حكم كرمان)
أحمد
(٥) محمود
(ابن تركان خاتون)
(٨) سنجر
(٧) محمد
٥١١ هـ
(٥) بركيارق
٤٨٥ - ٤٩٨
دقاق
رضوان
داود
سلجوق
(٧) طغرل الأول
سليمان شاه
داود
(٨) مسعود ٥٤٧ هـ
(بدء عهد الأتابكة)
(٦) محمود
٥٢٥
ملكشاه الثاني (جلال الدولة)
أرسلان ٥٥٤ هـ
طغرل الثاني
(٩) محمد
ملكشاه
داود

هنالك حتى زالت الدولة السامانية. ولما ملك «إيلك خان» بُخارى عظم نفوذ أرسلان بن سلجوق (عم داود وطغرلبك) الذي سار إلى أذربيجان، ولكنه لم يلبث أن أسر وحبس. وقد دارت بين السلاجقة والغزنويين في عهد مسعود (ابن يمين الدولة محمود الغزنوي) معارك طاحنة في عهد مسعود، انتهت بإقطاع دهستان لداود ونسا (بفتح النون) لطغرلبك، وفراوة (بفتح الفاء) لبيغو. ولقب كل منهم بلقب دهقان، وبعث إليهم بالخلع. ولكن هؤلاء الإخوة من عشيرة السلاجقة لم يطمئنوا إلى دعوة السلطان مسعود وأخذوا يخادعونه بإظهار الطاعة له، وطلبوا إليه أن يطلق عمهم أرسلان (بن سلجوق). ولكن هذا الصلح لم يتم وانشغل مسعود ببلاد الهند.

(٢) طغرلبك:

وفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) استولى طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق على مرو حاضرة خراسان وذكر اسمه في خطبة الجمعة بلقب ملك الملوك. وفي شهر شعبان من هذه السنة التقى جيش طغرلبك بجيش الغزنويين عند باب مدينة سرخس وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً وشتت شملهم وطاردهم في كل مكان وغنم أموالهم. فكانت هذه الموقعة كما يقول ابن الأثير «هي التي ملك السلجوقيون بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد» وفي هذا الشهر استولى طغرلبك على نيسابور وأقيمت له الخطبة على منابرها وذكر اسمه مقروناً بلقب السلطان الأعظم[١]. واستقر بدار الإمارة وجلس للمظالم يومين في الأسبوع على ما جرت به العادة في هذه البلاد.

وقد ذكر ابن الأثير بصدد كلامه على فتح نيسابور أن السلاجقة رأوا الكافور فظنوه ملحاً. ويذكر ابن الأثير أن طغرلبك أقام بوابة على الأقاليم المختلفة. ويرجع انتصار السلاجقة في موقعة سرخس الحاسمة إلى أنهم قسموا جيشهم إلى ثلاث فرق كلما تبع الجيش الغزنوي إحداها طوقته الفرقتان الأخريان. وقد صمم السلطان مسعود الغزنوي على ملاقاة السلاجقة بنفسه فجمع جيشاً جراراً. ثم رحل عن غزنة حاضرة سلطنته ميمماً شطر خراسان. وقد ذكر ابن الأثير (٩/١٧٩) أن هذا الجيش بلغ مائة ألف سوى الخدم والأتباع.

استمرت الحروب بين السلاحقة والغزنويين ثلاث سنين. ثم وقع الخلاف بين جُنْد مسعود الغزنوي على الماء وازدحموا عليه، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً. وكثر القتل بينهم

(١) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٧٠، ١٧١، ١٧٩.

واشتد النهب، وتخلى بعضهم عن السلطان وفارقوه وأتاحوا بذلك الفرصة لجند داوود السلجوقي فغنموا غنائم لا تحصى. وسار طغرلبك إلى نيسابور فاستولى عليها في أوائل سنة ٤٣٢ هـ. ولم يلبث أن قتل السلطان مسعود فخلفه أخوه محمد الذي لم يبق في الحكم طويلاً وقبض عليه أخوه داود بن مسعود وقتله هو وأولاده إلّا عبد الرحيم(١).

وفي سنة ٤٣٣ هـ. استولى طغرلبك على جرجان وطبرستان وأقيمت له الخطبة في هذه البلاد وفي السنة التالية استولى على خوارزم وكانت من أملاك الغزنويين وقصد إبراهيم بنال (أخا طغرلبك لأمه) همذان(٢) واستولى عليها.

وفي سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ ـ ١٠٤٢ م) استولى السلاجقة بقيادة طغرلبك على بلاد الديلم وكرمان(٣). وانتقل السلاجقة في فتوحهم من نصر إلى نصر حتى جاءت سنة ٤٣٨ هـ التي حاصر فيها طغرلبك مدينة أصبهان وصالحه صاحبها على مال يؤديه إليه وعلى أن يقيم له الخطبة بأصبهان(٤). وفي السنة التالية عقد الصلح بين أبي كاليجار البويهي والسلطان طغرلبك السلجوقي الذي تزوج بابنة أبي كاليجار، وتزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك(٥).

---

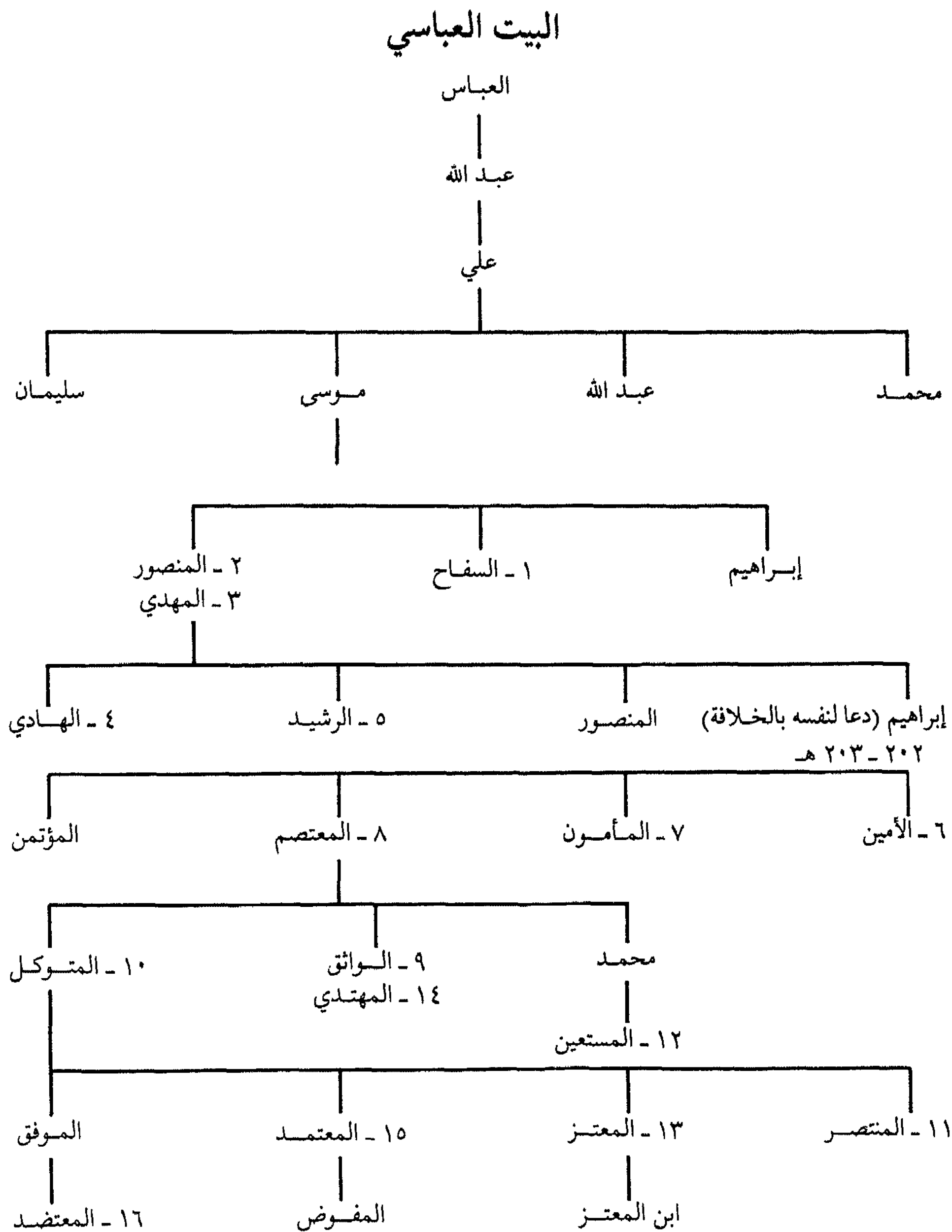
(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٠.

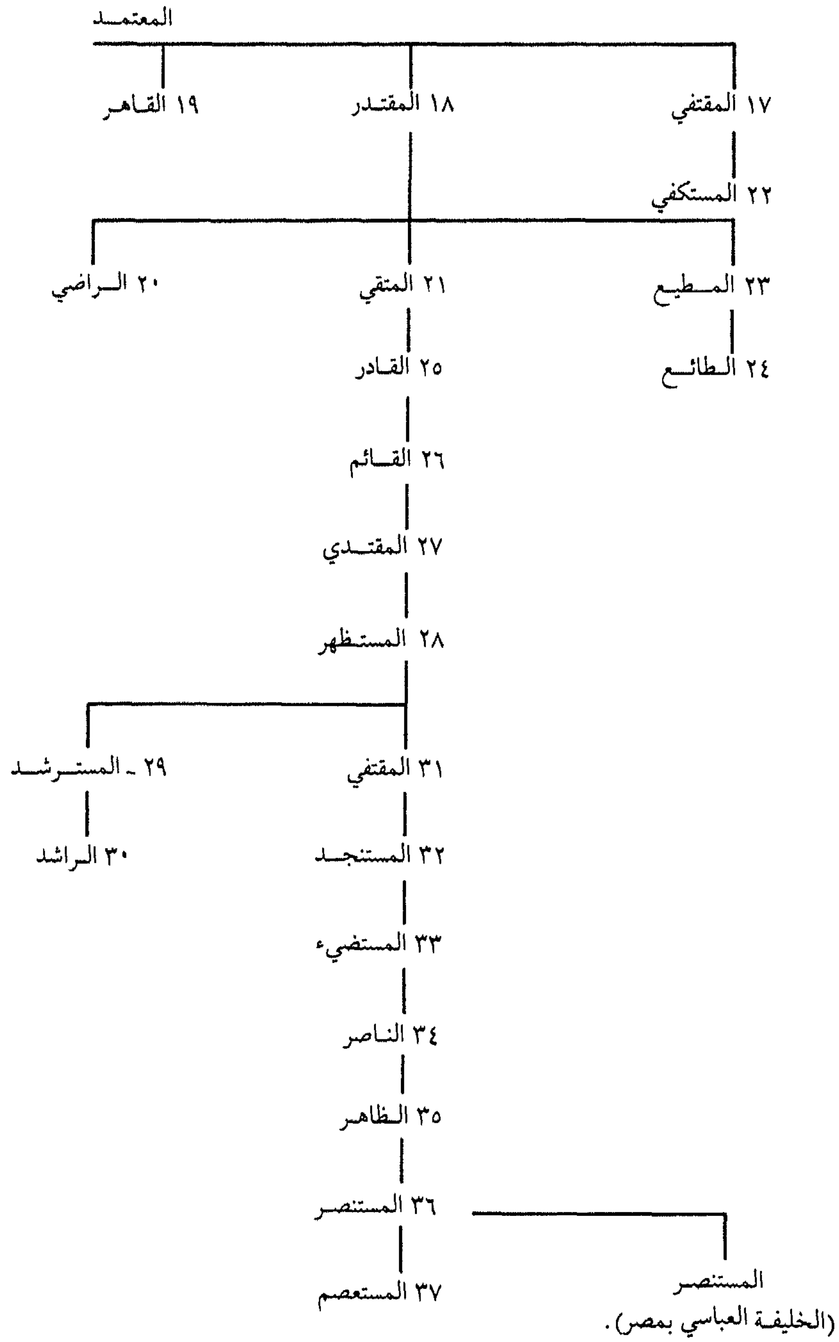
(٢) ذكر ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٥، ١٨٨، ١٩٦، في حوادث سنة ٤٢٥ هـ أن أبا كاليجار البويهي أعاد همذان إلى أملاكه وبنى سور مدينة شيراز الذي بلغ طوله اثني عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع وله أحد عشر باباً. وقد فرغ من بناء هذا السور سنة ٤٤ هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ١٩٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ١٩٦، ١٩٩ وقد ذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ١٠٧) أن طغرلبك لما ظفر بأخيه إبراهيم بنال أكرمه وأحسن إليه ورد إليه كثيراً مما أخذ منه ولكنه اختار المقام معه.

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٧.


البيت العباسي
العباس
عبد الله
علي
محمد
عبد الله
موسى
سليمان
إبراهيم
١ ـ السفاح
٢ ـ المنصور
٣ ـ المهدي
إبراهيم (دعا لنفسه بالخلافة) ٢٠٢ ـ ٢٠٣ هـ
المنصور
٥ ـ الرشيد
٤ ـ الهادي
٦ ـ الأمين
٧ ـ المأمون
٨ ـ المعتصم
المؤتمن
محمد
١٢ ـ المستعين
٩ ـ الواثق
١٤ ـ المهتدي
١٠ ـ المتوكل
١١ ـ المنتصر
١٣ ـ المعتز
ابن المعتز
١٥ ـ المعتمد
المفوض
الموفق
١٦ ـ المعتضد


المعتمد
١٧ المقتفي
١٨ المقتدر
١٩ القاهر
٢٢ المستكفي
٢٣ المطيع
٢١ المتقي
٢٠ الراضي
٢٤ الطائع
٢٥ القادر
٢٦ القائم
٢٧ المقتدي
٢٨ المستظهر
٣١ المقتفي
٢٩ ـ المسترشد
٣٠ الراشد
٣٢ المستنجد
٣٣ المستضيء
٣٤ الناصر
٣٥ الظاهر
٣٦ المستنصر
٣٧ المستعصم
المستنصر
(الخليفة العباسي بمصر).

تسلسل نسب الخلفاء العباسيين
١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م

١	١٣٢ هـ	السفاح	٧٥٠ م
٢	١٣٦	المنصور	٧٥٤
٣	١٥٨	المهدي	٧٧٥
٤	١٦٩	الهادي	٧٨٥
٥	١٧٠	الرشيد	٧٨٦
٦	١٩٣	الأمين	٨٠٩
٧	١٩٨	المأمون	٨١٣
٨	٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٩	٢٢٧	الواثق	٨٤٢
١٠	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
١١	٢٤٧	المنتصر	٨٦١
١٢	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
١٣	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
١٤	٢٥٥	المهتدي	٨٦٩
١٥	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
١٦	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
١٧	٢٨٩	المكتفي	٩٠٢
١٨	٢٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٩	٣٢٠	القاهر	٩٣٢
٢٠	٣٢٢	الراضي	٩٣٤
٢١	٣٢٩	المتقي	٩٤٠
٢٢	٣٣٣	المستكفي	٩٤٤
٢٣	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
٢٤	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
٢٥	٣٨١	القادر	٩٩١

٢٦	٤٢٢ هـ	القائم	١٠٣١م
٢٧	٤٦٧	المقتدي	١٠٧٥
٢٨	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٩	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٣٠	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٣١	٥٣٠	المقتفي	١١٣٦
٣٢	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٣٣	٥٦٦	المستضيء	١١٧٠
٣٤	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٣٥	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٣٦	٦٢٣	المستنصر	١٢٢٦
٣٧	٦٤٠ ـ ٦٥٦	المستعصم	١٢٤٢ ـ ١٢٥٨

على أن الخلاف قد دب بين أفراد البيت السلجوقي. فقد طلب طغرلبك من أخيه إبراهيم بنال أن يسلم إليه مدينة همذان وما بيده من القلاع التي ببلاد الديلم. فامتنع إبراهيم عن إجابة أخيه إلى ما طلب. ويذكر ابن الأثير أن طغرلبك أمر بأخيه فضرب بين يديه وسلمت إحدى عينيه وقطعت شفتاه، ثم دارت الحرب بينهما، وملك طغرلبك ما كان بيده من القلاع، وتحصن إبراهيم بقلعة حصينة فسار إليه طغرلبك على رأس جيش كثيف يتألف من مائة ألف مقاتل وأوقع الهزيمة بإبراهيم، وأقيمت الخطبة له في سائر ديار بكر، كما أبرمت الهدنة بين طغرلبك وإمبراطور الروم وتبودلت بينهما الهدايا وعمر مسجد القسطنطينية وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرلبك في الخطبة «ودان الناس كلهم له وعظم شأنه وتمكن ملكه وثبت».

هزم السلاجقة مودود بن مسعود الغزنوي في خراسان، ثم رد طغرلبك على كتاب الخليفة العباسي القائم، وضمنه ما حل بالبيت السلجوقي من حيف وظلم على يد البيت الغزنوي، وعبر عن شكره على ما أفاضه عليه الخليفة من خلع وما منحه إياه من ألقاب، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة «عشرة آلاف دينار عيناً وأعلاقاً نفيسة من الجواهر والثياب

والطيب وغير ذلك. وأرسل خمسة آلاف دينار للحاشية وألفي دينار لرئيس الرؤساء»[١]، «وأرسل طغرلبك إلى الخليفة رسولاً يبالغ في إظهار الطاعة والعبودية، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان. . . فأنكر الأتراك ذلك. . . فغولطوا في الجواب. وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه ويختار انقراض الدولة الديلمية»[٢].

ثم أخذ السلاجقة في تقسيم البلاد الشاسعة التي دخلت تحت حوزتهم: فأصبحت بُسْت (بضم الباء وسكون السين) وهَراة (بفتح الهاء) وسِسْتان (بكسر السين الأولى وسكون السين الثانية) في يد موسى بن قُطَلْمِش بن أرسلان بيْغو (بكسر الباء وسكون الياء) ابن سلجوق، وغدت مرو والعراق في يد أبناء أخيه شَغْري (بفتح الشين وسكون الغين) بك داود وطغرل على التوالي. أما أبناء شَغْري فقد أصبحت في يد قاوُرْت (بضم الواو وسكون الراء) كرمان وتون وطَبَس (بفتح الطاء والباء) وياقوتي أذربيجان وأَبْهَر (بفتح الألف مع الهمزة والهاء وسكون الباء) وزَنجان (بفتح الزاي وسكون النون) على حين انتخب الابن الثالث وهو ألب أرسلان، ليكون مع عمه طغرل الذي اتخذ الري حاضرة لدولته، وأعطيت همذان لإبراهيم بنال[٣] بن ميكائيل بن سلجوق، على حين تسلم موسى بن قُطَلْمِش (بضم القاف وفتح الطاء وسكون اللام وكسر الميم) جُرجان (بضم الجيم) ودامغان.

ولما تسلم الخليفة القائم كتاب طغرلبك أرسل إليه كتاباً رقيقاً. وبعد قليل أمر الخليفة بذكر اسم طغرلبك في الخطبة ونقشه على السكة قبل اسم السلطان البويهي الملك الرحيم. فخطب له يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ. ثم أرسل طغرلبك رسولاً من قبله يستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له ودخل بغداد لخمس بقين من هذا الشهر (ديسمبر ١٠٥٥ م) بصحبة الوزير رئيس الرؤساء في موكب فخم يضم القضاة والأشراف والنقباء وأعيان الدولة وأمراء أجناد السلطان البويهي الملك الرحيم[٤].

وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة قدم لطغرلبك فرس فركبها حتى وصل إلى دهليز «قصر السلام». ثم نزل ومشى والأمراء بين يديه حتى وصل إلى إيوان الخليفة، فأسدلت الستارة. ولما ظهر وجه الخليفة القائم، وعلى كتفه بردة الرسول وبيده القضيب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢١٦، ٢٢٨.
(٢) Brownee, Lit Hist. of Persia Vol. 11. P. 172.
(٣) وقد قتله طغرل بعد قليل (٤٤٩/١٠٥٧ ـ ١٠٥٨) لاتهامه بتدبير مؤامرة للغدر به.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢٢٨.

النبوي، قبل طغرلبك الأرض، فأمره الخليفة بالصعود ومعه محمد بن المنصور الكُنْدُري (بضم الكاف والدال وسكون النون) مفسراً ومترجماً. ثم وضع لطغرلبك كرسي جلس عليه، وفسر له تفويض الخليفة إليه. ثم تُوِّج وطُوِّف وسُوِّر وأفيضت عليه سبع خلع سود من طراز واحد تمثل مملكة الأقاليم السبعة، وعُمِّم بعمامة مذهَّبة، وجمع بين تاجي العرب والعجم، وقلد سيفاً محلّى بالذهب، ثم عاد وجلس على الكرسي وسأل مصافحة الخليفة، فمدّ إليه يده مرتين فقبلها ووضعها على عينه. ثم قلده الخليفة سيفاً آخر كان بين يديه، فتم له بذلك تقليد السيفين، بمعنى أنه تقلد ولاية الدولتين، فخاطبه الخليفة «بملك المشرق والمغرب». ثم أحضر عهده وقال الخليفة: هذا عهدنا يقرؤه عليك محمد بن منصور بن محمد[١] صاحبنا ووديعتنا عندك، فاحفظه وأحرسه فإنه الثقة المأمون، وانهض في دعة الله محفوظاً وبعين الكلأة[٢] ملحوظاً[٣]، وذلك في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ.

ثورة البساسيري

وبعد دخول طغرلبك بغداد بقليل واجه كثيراً من الاضطرابات التي أثارها الجنود الأتراك في دار الخلافة، والقلاقل التي سادت الموصل وديار بكر وسنجار (بكسر السين) وغيرها، ولم يكن بد من أن يقضي طغرلبك عليها بنفسه. وبعد قليل عاد طغرلبك إلى بغداد لمواجهة الثورة التي قام بها الأتراك بزعامة أبي الحارث البساسيري الذي أقام الدعوة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد وغيرها نحواً من سنة.

وقد تبدلت سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) الذي اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين، كما حال دون تقريب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه. حتى إن أبا كاليجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس، الذي تقلد فيما بعد منصب داعي الدعاة في مصر، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين. وقد دأب الخليفة المستنصر الفاطمي على مناوأة الخلفاء العباسيين. لذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيري في ثورته على الخليفة العباسي القائم، ويمده بالمال والرجال، ويبعث داعيته

(١) لقب عميد الملك وجمع بين السيف والقلم ثم لقب سيد الوزراء. البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦.

(٢) يقال كلأه الله بعين العناية أي حرسه.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٣ ـ ١٤.

الجريء هبة الله الشيرازي لإثارة حماسة جند البساسيري، وحثهم على إذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي، ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند من بلاد الشام[١].

ولم يكتف الخليفة الفاطمي بذلك، بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيري والعرب بزعامة دبيس بن علي بن مَزْيَد أمير عرب الفرات، ولقبه بألقاب منها الأمير، وسلطان ملوك العرب، وسيف الخلافة، وصفي أمير المؤمنين، ومنحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقي نهر الفرات[٢]. وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمي أن انتصر البساسيري وأنصاره على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ[٣].

ولم يقف نشاط الفاطميين من مناوأة العباسيين عند هذا الحد، فقد قام المؤيد في الدين بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد العراق، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان أبي كاليجار البويهي الذي عرف بميله إلى الفاطميين. أما الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) فقد وجد في المؤيد في الدين خطراً يهدد دولته ومذهبه السني في فارس، فعمل على القضاء على جهوده، وبعث إلى أبي كاليجار يطلب إليه تسليم داعي الفاطميين، ويهدد بدعوة السلاجقة إلى دخول بغداد.

وقد بيّن المؤيد في الدين في سيرته ما بذله من جهود في سبيل نشر الدعوة الفاطمية وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في شيراز، وإحلال اسمه محل اسم الخليفة العباسي، وكيف أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسي الذي طلب من أبي كاليجار تسليم هذا الداعي إليه، فلم يحفل السلطان البويهي بذلك، بل إنه ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة بدل اسم الخليفة العباسي[٤].

ومن هذا ندرك مدى علاقة المودة التي قامت بين أبي كاليجار البويهي وبين الفاطميين وكيف اتخذ من هذه العلاقة سلاحاً يشهره في وجه العباسيين، حتى يحول بينهم وبين التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه في ذلك الحين[٥].

---

(١) السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين، مخطوط بمكتبة القاهرة، ورقة ١٨٤.
(٢) انظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد في كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين، ص ١٩١ و١٩٣.
(٣) ابن منجف الصيرفي، الإشارة الى من نال الوزارة.
(٤) السيرة المؤيدية مخطوط ورقة ٩٥ - ٩٦.
(٥) المصدر نفسه، مخطوط ورقة ٩٢.

وكان من أثر ذلك أن أصبح أبو كاليجار يسمع محاضرات المؤيد في الدين ويدرس كتب الإسماعيلية[1].

وقد نقل هارولد باون[2] عن كتاب Fārs-nameh أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السبعية، الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت. قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة في فارس على يد ذلك الداعي القدير، الذي نجح في تحويل أبي كاليجار إلى عقائد هذا المذهب.

وفي الحق أن الديلم قد أصبحوا ـ كما يقول المؤيد في الدين[3] ـ «إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين»، واصبحوا «يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً، واتخذه الكل سراً ومفزعاً في كل شيء[4]»، وأخذ أكثر ندماء أبي كاليجار البويهي يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي[5].

وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم بنال على أخيه طغرلبك، فانتهز البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٥ هـ. وقتل الوزير ابن مسلمة، لكن الخليفة «استذم بذمام[6] قريش فحماه من القتل». ودخل البساسيري بغداد، كما يقول أبو المحاسن بالرايات المستنصرية، فمال إليه أهل الكرخ وأغلبهم من الشيعة، وزيد في الأذان حيّ على خير العمل، وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر بغداد، ثم قبض البساسيري على الخليفة العباسي وحبسه[7].

كان أبو الحارث البساسيري من قواد بني بويه الأتراك، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره في عهد الملك الرحيم، حتى أصبح الخليفة العباسي والسلطان البويهي معه مسلوبي السلطة ضعيفي الجانب. وسرعان ما استولى البساسيري على البلاد، وانتشر ذكره وطار صيته، وتهيبته أمراء العرب والعجم، ودعي له على كثير من منابر العراق والأهواز ونواحيهما، وجبى

(١) المصدر نفسه ص ١١٥.

(٢) Harold Browen, The Last Buwayhids, J. R. A. (1929), p. 234.

(٣) السيرة المؤيدية ص ٤.

(٤) السيرة المؤيدية ص ١٣.

(٥) المصدر نفسه ص ١٩.

(٦) الذمام: الحرمة يريد أنه تمنع منه بذمة قريش فحماه من القتل. في الأصل واستنزاف بزمام قريش وهو تحريف. والمعنى هنا استعاذ بشرف قريش من شر القتل.

(٧) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦، ١٢.

الأموال، وغدا الخليفة القائم لا يقطع أمراً قبل الرجوع إلى رأيه[١].

وقد عزا ابن الأثير[٢] تبدل العلاقة بين الخليفة القائم والبساسيري إلى تقريب الخليفة أبا الغنائم وأبا سعد صاحبي قريش بن بدران العقيلي اللذين وصلا سراً إلى بغداد ونسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم)، ورماه بأنه خرب البلاد وأطمع الغز (وهم فرع من السلاجقة).

وكان ابن مسلمة الذي يعرف برئيس الرؤساء قد وزر للخليفة القائم. وكان يكره بني بويه لتشيعهم، ويسعى جهده في إحلال السلاجقة السنيين محلهم في حكم بغداد، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين. يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التي بعث بها المؤيد في الدين الشيرازي، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك في العراق، إلى وزير طغرلبك، ليوقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة، ويقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى. وهاك بعض ما جاء في هذه الرسالة: «بسم سيدي الأجل عميد الملك (أبو نصر محمد بن منصور الكندري) إنني كنت خاطبت حضرته وهو يومئذ مقيم بالري، خاطباً لمودته وطالباً لاتشاج الحال[٣] بيني وبينه، لما كان يبلغني من محاسن أوصافه وجميل خلاله وخصاله، ولأن يكون التعارف بيننا سلّماً إلى التعارف بين سلاطيننا، خلّد الله ملكهم، وتأكد سبب المودة بينهم، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى ﴿**لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**﴾ [سورة النساء ٤ : ١١٤] واتفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله، حتى عمل سحره ونفذ كيده، وحصل الركاب العالي (السلطان طغرلبك) ببغداد. وانبثت الكتب يميناً وشمالاً بكون قصده لقضاء حق الخليفة (القائم) والسلام عليه والتبلغ بعده إلى مصر»[٤].

أما الخطيب البغدادي فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنده سوء عقيدة البساسيري. وشهد عنده جماعة من الأتراك أنه عرفهم وهو إذ ذاك بواسط، عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة، فكاتب الخليفة طغرلبك يستنهضه على المسير إلى العراق.

وقد ذكر الذهبي[٥] أن الخليفة القائم نمى إليه أن البساسيري كان يكاتب الفاطميين في

---

(١) الخطيب البغدادي: كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٢) ج ٩ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) الاتشاج: الاشتباك أي الائتلاف.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠.

(٥) تاريخ الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، مخطوط مصور رقم ٣٩٦ تاريخ ج ٣ ورقة ٢٢.

مصر، وطلب إلى الملك الرحيم أن يبعد البساسيري. وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى استيلاء طغرلبك على العراق.

وفي الحق أن العداء الذي قام بين الخليفة العباسي والبساسيري كان عَداء بين العباسيين والبويهيين، وبعبارة أخرى بين السنيين والشيعيين. وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بني بويه من الفاطميين على يد المؤيد في الدين الشيرازي، وأدرك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية. وليس من شك في أنه كان بين جند بني بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل، على رأسهم البساسيري، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين. فعمل الخليفة العباسي القائم على الحد من نفوذ البساسيري وأنصاره، وعزم على إبعادهم عن بغداد، وتمهيد السبيل لدخول السلاجقة إليها. ولم يكن استنجاد الخليفة العباسي بالسلاجقة إليها أمراً مستبعداً، فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة، فاستعانوا بالفرس على العرب في تأسيس دولتهم ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم، وراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري وأنصاره حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر، بل إنه أوفد الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة. وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببني بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار.

ومهما يكن من شيء فقد أرسل الخليفة العباسي إلى طغرلبك رسولاً يدعوه إلى دخول بغداد[١]. ويقول ابن الأثير[٢] في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرلبك «أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها».

وقد أعد طغرلبك لذلك الأمر الخطير عدته. ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت، وانتثر عقد نظامها، وأجفل الناس إلى غربها، وعسكر الأتراك بظاهرها. وسمع الملك الرحيم بقرب طغرلبك من بغداد، فأصعد من واسط إليها وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه إلى الملك الرحيم، أن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء، يعني المصريين، وأن الخليفة له على الملك (الرحيم) عهود، وله (أي الملك الرحيم) على الخليفة مثلها. فإن آثره (يعني طغرلبك السلجوقي) فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد، تولى الديوان تدبير أمره. فقال الملك الرحيم ومن معه: نحن

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ ـ ٩.
(٢) الكامل: ج ٩ ص ٢٢٧.

لأوامر الديوان متبعون وعنه (يعني البساسيري) منفصلون»[١].

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيري أدركوا أن الخليفة إنما قصد إقصاءه ليفسح الطريق لدخول طغرلبك. ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد في منتصف شهر رمضان، وأظهر إخلاصه للخليفة، وقبل وساطته بينه وبين طغرلبك. فكان الملك الرحيم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد العزم على الاستعانة بالسلاجقة وإزالة سلطان بني بويه. وقد أشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يدينوا بالطاعة لطغرلبك الذي دخل بغداد دون كبير عناء[٢].

على أن زعزعة الحالة المالية في مصر، وعودة المؤيد في الدين إليها، وقيام المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري، وعودة طغرلبك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم بنال؛ كل ذلك قد ساعد على القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد نحواً من سنة.

وسرعان ما ردّ طغرلبك الخليفة إلى قصره معززاً مكرماً (٤٥١ هـ) وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد[٣]. ولما رجع الخليفة إلى قصره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه. ولزم الصيام والقيام، ولم يضع رأسه بعدها على مخدة.

وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما سجن الخليفة العباسي أخذ الخليفة يكتب قصته وأنفذها إلى مكة فعلقت في الكعبة. وفيها يشكو إلى الله فعل البساسيري ويطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه، وإليك نص هذا الكتاب عن السيوطي[٤]: «اللهم إنك العالم بالسرائر المطلع على الضمائر. اللّهم إنك غني بعلمك واطلاعك على خلقك عن علامي. هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها وألغى العواقب وما ذكرها. أطغاه حلمك حتى تعدى علينا بغياً وأساء إلينا عُتُوًّا وعدواً[٥]، اللهم قلّ الناصر واعتز الظالم، وأنت المطلع العالم المنصف الحاكم، بك نعتز عليه وإليك نهرب من يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك. وقد حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه إليك ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك، فأحكم بيننا بالحق وأنت أحكم الحاكمين».

---

(١) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٩ ص ٢٢٨. انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤١١ ـ ٤١٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ ـ ٣٤٤.

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٥) يعني اعتداء.

كـان أمراء بني بـويه يقيمـون في بغداد ويجمعـون كـل السلطة في أيـديهم. ثم جـاء السـلاجقة العسكـريون يحكمـون العراق ويستـأثرون بـالسلطة. وكان الخلفـاء العبـاسيـون يعيشـون في أيام السـلاجقة من إقـطاعات مقـررة يديـرها عمـال على رأسهم الوزيـر وكاتب الإنشاء كما كانت الحال في أيام بني بويه[١]. ولم يكن لهؤلاء الخلفاء شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة، كما كانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها[٢].

على أننا إذا دققنا النظر وتتبعنا الحوادث التاريخيـة فإننـا نستطيـع أن نهتدي إلى هـذه النتيجة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت بصفة عامة أحسن بكثير من معاملة بني بويه لهم. ولعل ذلك كان راجعاً إلى هذه الحقيقة وهي أن السلاجقة كانوا يدينون بعقائد المـذهب السني مذهب العبـاسيين. فقد أصبـح السلاجقـة كغيـرهم من الشعـوب التـركيـة يتمسكون بعقائد المذهب السني بمجـرد تحولهم إلى الإسـلام. وقد عـرفوا بشـدة تحمسهم لهذا المذهب وتمسكوا كغيرهم من الأتراك بعقائد المذهب الحنفي.

وقد وصف ابن الأثير[٣] الاجتماع الذي عقد بين السلطان طغرلبك عندما عاد إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ على أثر إخضـاعه وقضـائه على منـاوأة دُبَيْس (بضم الدال وفتـح الباء وسكـون الياء) بن مزيد وقريش بن بدران وبين الخليفة القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧/١٠٣١ ـ ١٠٧٥) فقال:

«وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعـدة جلوساً عـاماً، وحضـر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد، وحضر السلطان في المساء وأصحابه حوله في السميريات[٤]. فلما خرج من السميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة، فحضر عند الخليفة، والخليفة على سـرير عـال من الأرض نحو سبعـة أذرع، وعليه بـردة النبي ﷺ، وبيده القضيب الخيـزران؛ فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤسـاء: قل لـه إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك، وقد ولّاك جميع ما ولّاه الله من بلاده وردّ عليك مراعاة عباده. فاتق الله فيما ولّاك واعرف نعمتـه عليك في ذلـك واجتهد في نشر العدل وكـفّ الظلم وإصلاح الرعية، وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه؛ فقام إلى موضـع لبسهـا فيه، وعـاد وقبل يـد الخليفة ووضعهـا على عينيه، وخـاطبـه الخليفـة بملك المشـرق والمغرب، وأعطي العهد وخرج. وأرسل إلى الخليفة خـدمة (هـدايا) كثيـرة، منها خمسـون

---

(١) البنداري: زبدة الفكرة ص ١٩٤.

(٢) Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate. p. 327.

(٣) الكامل ج ٩ ص ٢٣٧.

(٤) بضم السين مع التشديد وفتح الميم وسكون الياء: ضرب من السفن.

ألف دينار وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من السلاح وغيرها». كما تظهر هذه العلاقات الحسنة في ارتباط البيتين السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة في كثير من المناسبات.

تقدمت السن بالسلطان طغرلبك إذ بلغ السبعين، وكان عقيماً لم ينجب ولداً. ولكن أطماعه لم تقف عند حد، فملك هذه الدولة الشاسعة الأرجاء، بل إنه بعد وفاة زوجته في سنة ٤٥٤ (١٠٦١ ـ ١٠٦٢ م) خطب ابنة الخليفة القائم (وقيل أخته). ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل، فوصل إلى الري ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة. فمرض في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) بعد أن حكم الدولة العباسية سبع سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً. وكان وزيره الكندري على بعد سبعين فرسخاً من الري، فطوى هذه المسافة في يومين، ولم يكن طغرلبك قد دفن بعد. فتولى الوزير الكندري دفنه، ووزع جميع ما كان يملكه على الجند، وأجلس سليمان بن داود أخا طغرلبك على العرش، وكان عمه ألب أرسلان قد أوصى بأن يخلفه من بعده.

أخلاق طغرلبك وصفاته ـ وفاته

كان طغرلبك، على ما وصفه ابن الأثير، عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره، وكان يحافظ على الصلاة ويصوم يومي الاثنين والخميس. وكان يلبس الثياب البيض، وكان كريماً؛ فقد روى المؤرخون أن أخاه إبراهيم بنال أسر بعض ملوك الروم فافتدى نفسه بأربعمائة ألف دينار، فأبى إبراهيم وحمله إلى السلطان طغرلبك. فأرسل إمبراطور الروم إلى الأمير نصر الدولة بن مروان يطلب وساطته عند طغرلبك في إطلاق سراحه. فأرسل السلطان ذلك الرومي بصحبة أحد رجاله دون أن يأخذ منه فداء: وقد قدر الإمبراطور هذا الصنيع وعبر عن إعجابه به وتقديره إياه، فرد مع رسوله إلى طغرلبك «ما لم يحمل في الزمان المتقدم، وهو ألف ثوب ديباج، وخمسمائة ثوب أصناف[1]، وخمسمائة رأس من الكراع، إلى غير ذلك، وأنفذ مائتي ألف دينار، ومائة لبنة فضة، وثلثمائة شِهري[2] (بكسر الشين)، وثلثمائة حمار مصرية، وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون. وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمناء مسكاً[3]، وعمر ملك الروم الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وعمر منارته وعلق فيه القناديل، وفي محرابه قوساً ونشابة، وأشاع المهادنة»[4].

---

(١) يعني من التحف المتنوعة.

(٢) جاء في القاموس في مادة شهر: الشهرية (بالكسر) ضرب من البراذين وهو يناسب المعنى هنا.

(٣) لعله يقصد الأوعية المحكمة التي يؤمن على ما فيها.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٠.

وقد ذكر البنداري[١] أن أبا الحسن علي الماوردي أقضى القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية الذى يعد أول كتاب وضع في النظم الإسلامية بوجه عام والمتوفى سنة ٤٥٠ هـ لما حمل رسالة الخليفة القائم إلى طغرلبك سنة ٤٣٣ هـ، كتب إلى الخليفة كتاباً ضمنه الطعن في طغرلبك والقدح فيه وذكر مساوئه. ولكن هذا الكتاب وقع من غلام الماوردي وحمل إلى طغرلبك ووقف على ما تضمنه، ولكنه ختمه وكتم ما فيه، واستمر في إكرام الماوردي واحترامه. وكان طغرلبك يداري هفوات الناس بحلمه، كما كان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد كثير التعبد والتهجد، وكان يقول: إني أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني إلى جانبها مسجداً.

وكذلك روى البنداري[٢] عن عميد الملك الوزير الكندري أن طغرلبك لما مرض مرض الموت قال: إنما مثلي في مرضي مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف، فتظن أنها تذبح فتضطرب، حتى إذا أطلقت تفرح؛ ثم تشد قوائمها للذبح، فتظن أنها لجز الصوف وتسكن فتذبح. وهذا المرض شد القوائم للذبح. وتوفي وله من العمر سبعون سنة على ما تقدم.

(٣) ألب أرسلان ٤٥٥ ـ ٤٦٥/١٠٦٣ ـ ١٠٧٢:

خلف طغرلبك ألب أرسلان ابن أخيه شغري داود صاحب خراسان ومعه وزيره نظام الملك برغم نص طغرلبك على تولية سليمان بن داود لأن أمه كانت عنده، فحقق رغبتها في ابنها. وقد جلس على عرش السلطنة بمساعدة الوزير الكندري (بضم الكاف والدال وسكون النون) المعروف بعميد الملك، كما أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلمش ثارا عليه وحلت به الهزيمة، وجلس ألب أرسلان على عرش السلطنة[٣] بمساعدة وزيره نظام الملك. وقد أدت هذه المحاولة إلى قتل الوزير الكندري الذي قبض عليه وأرسل إلى مرو حيث اعتقل نحواً من سنة، ثم قتل بيد غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر السلطان طغرلبك ثماني سنين وشهوراً، وكان عمره إذ ذاك نيفاً وأربعين سنة[٤]. وكان الوزير الكندري فصيحاً بالعربية شاعراً، ولما شعر بدنو أجله قال لمن شهر السيف عليه: قل لنظام الملك: «بئسما عوّدتَ الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر قليبا (بئراً) وقع فيه» ودعا الله أن يُحل لعنته به وبالسلطان وأن يلقى كل منهما نفس المصير[٥].

وقد استجاب الله لدعاء الوزير الكندري، فقد حلت لعنته بالوزير نظام الملك وقتل على أيدي الباطنية، وقتل السلطان ألب أرسلان ببلاد ما وراء النهر كما سيأتي.

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(٤) البنداري ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٢.

وهكذا ظهر هذا الوزير الذي لا يضارعه وزير شرقي آخر، كما يقول «براون»[(١)]، بهذا العمل الذي ينم عن القسوة وسفك الدماء، وحلت به لعنة سلفه، وختمت حياته بنفس الطريقة التي ختمت بها حياة سلفه. وفي العصر السلجوقي الذي يشمل على خمس وخمسين سنة (٤٣٠ ـ ٤٨٥ هـ) أُسندت مقاليد الدولة إلى أحد مشهوري الوزراء الذين أنجبتهم بلاد الفرس. وهو نظام الملك الذي اشتهر بحكمته وحزمه.

اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها ألب أرسلان؛ فذكر بعضهم أنه ولد سنة ٤٢٠ هـ[(٢)] (وقيل سنة ٤٢٤ هـ أو سنة ٤٣١ هـ)، وكان عهده رغم قصره (٤٥٥ ـ ٤٦٥ هـ) حافلاً بجلائل الأعمال. ففي السنة الأولى من حكمه أخضع خَتْلان (بفتح الخاء وسكون التاء) وهَراة (بفتح الهاء) وصِغانِيان (بكسر الصاد والنون) في الشمال الشرقي، وكان أصحابها قد شقوا عليه عصا الطاعة، ورد البيزنطيين في آسيا الصغرى على أعقابهم بعد أن فتح كثيراً من قلاعهم وغنم غنائم لا تحصى وأسلم كثير من أهالي هذه البلاد. وقد اشترك ملكشاه بن ألب أرسلان والوزير نظام الملك في هذه الحروب سنة ٤٥٦ هـ[(٣)]: وبعد قليل أخضع ألب أرسلان جَنْد حيث دفن جده الأكبر سلجوق مما جعل لها أهمية خاصة في نظره، وقمع الثورة التي قامت في فارس وكرمان. وفي سنة ٤٥٧ هـ أخذ في بناء المدرسة النظامية ببغداد، وفي السنة التالية ولى عهده ابنه ملكشاه، فبايعه أمراء دولته، وذكر اسمه في الخطبة في جميع البلاد التي دانت لسلطانه، وأقطع بلاده أفراد البيت السلجوقي[(٤)].

كذلك أقطع ألب أرسلان من بلاد خصومه الفاطميين حلب ومكة والمدينة، وأقيمت الخطبة بحلب للخليفة العباسي القائم وللسلطان ألب أرسلان[(٥)]، ولعل من أهم الأحداث التي وقعت في عهد السلطان ألب أرسلان ذلك الانتصار الحاسم الذي أحرزه على جيش

---

(١) Lit. Hist. of Persia, vol II p. 175.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣ ـ ١٥. وقد ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ١٦٢) أن ألب أرسلان ولد سنة ٤٢٤ هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٧.

(٤) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٠ ص ١٩) أنه أقطع مازندران الأمير إيتانج بيغو وبلخ أخاه سليمان بن داود، وخوارزم أخاه أرسلان أرغون، ومرو ابنه الآخر أرسلان شاه، وصغانيان وطخارستان أخاه الياس، وولاية بغشور ونواحيها مسعود بن أرتاش (أحد أقارب السلطان)، وولاية اسفزار مودود بن أرتاش.

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤.

البيزنطيين في ملازجرد[١] سنة ٤٦٣ هـ، وكان هذا الجيش يتكون من مائتي ألف مقاتل[٢] في أقل تقدير (من الروم والروس والغز من جميع العشائر والأكراج والخزر والفرنجة والأرمن)، على حين لم يزد جيش السلاجقة على ١٥,٠٠٠، وما تبع هذا الانتصار من أسر إمبراطور الروم.

وقد ذكر جمهرة المؤرخين (كابن الأثير والبنداري وصاحب كتاب راحة الصدور) ما كان من أسر امبراطور الروم ديوجينيس رومانوس (Diogenes Romanus)، ذلك أن أحد غلمان سعد الدولة جوهر ـ آئين (ويسميه ابن الأثير كوهرائين) هو الذي أسر الإمبراطور، فأراد قتله، فقال له خادم مع الملك: لا تقتله فإنه الملك. وكان هذا الغلام قد عرضه جواهر ـ آئين أحد أمراء ألب أرسلان على الوزير نظام الملك فرده استحقاراً له. فأثنى عليه جوهر ـ آئين، فقال نظام الملك مازحاً: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً. ومن أعجب المصادفات أن هذا الغلام هو الذي أسر الإمبراطور، فلما أسره أحضره عند جواهر ـ آئين، فقصد السلطان ألب أرسلان وأخبره بنبأ أسر الإمبراطور، فأمر بإحضاره. فلما أحضر ضربه السلطان ثلاثة مقارع بيده وقال له: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ قال: أفعلُ القبيح، قال السلطان: ما تظن أنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك. قال: ما عزمت على غير هذا. ففداه السلطان بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، وقد استقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل إليه خمسة عشر ألف دينار[٣] يتجهز بها، وأطلق سراح جماعة من أمرائه وقواده، وخلع عليه وسير معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخاً[٤].

---

(١) بكسر الجيم (ويسميها ابن الأثير ملاذ كرد على مقربة من أخلاط غربي آسيا الصغرى.

(٢) نقل براون ج ٢ ص ١٧٧ هامش (١) عن مخطوط راحة الصدور التي صنفها الراوندي سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أن عدد جند الروم بلغ ٦٠٠,٠٠٠. وذكر البنداري ٣٠٠,٠٠٠ وابن الأثير: ٢٠٠,٠٠٠. ويتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة. وكانت نسخته الخطبة الفريدة في حوزة (شيفر) (وهي الآن بالمكتبة الأهلية بباريس في الملحق الفارسي). وقد نشر براون (Vol. II. p. 297) وصفاً لهذه المخطوطة في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بانجلترا (١٩٠٢) ص ٥٦٧ ـ ٦١٠، ٨٤٩ ـ ٨٨٧. وقد طبع محمد إقبال هذه المخطوطة سنة ١٩٢١ في ليدن ضمن سلسلة جب التذكارية. انظر براون: تاريخ الأدب في إيران ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ١٣٥ هامش ٢، ص ٩٠٩ هامش رقم ٢.

(٣) ذكر ابن الأثير عشرة آلاف ونقل براون عن كتابه راحة الصدور أنه خمسة عشر ألفاً.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤، ٢٥. البنداري: تاريخ آل سلجوق ص ٣٧ ـ ٤٢.

وفي هذه السنة فتح إتسز أحد أمراء ملكشاه بن ألب أرسلان مدينة الرملة وحاصر بيت المقدس، وكانت بأيدي الفاطميين، ففتحها واستولى على ما جاورها من البلاد عدا عسقلان[١].

وفاة ألب أرسلان ـ صفاته

وفي أوائل سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) سار ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر على رأس مائتي ألف مقاتل استدعى نقلهم أن يعقد على نهر جيحون جسراً وعبر عليه في أكثر من عشرين يوماً. وقد أتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يسمى يوسف النرزمي (بفتح النون. مع التشديد وسكون الراء وفتح الزاي)[٢]. وقد وقفت هذه القلعة في وجه ألب أرسلان وحمل هذا المستحفظ غلامان حتى قرب من السلطان فأمر بأن تضرب أربعة أوتاد لتشدّ أطرافه الأربعة إليها، ويعذبه ثم يقتله، فقال له المستحفظ: أمثلي يقتل هذه القتلة؟ فغضب ألب أرسلان وأخذ قوسه وجعل فيها سهماً وأمر بحل قيده، ورماه بسهم فأخطأه وكان مدلاً برميه، فنزل عن سريره فعثر ووقع على وجهه، فبادره يوسف بسكين كانت معه، وجرح سعد الدولة آثين، وانتقل السلطان إلى خيمة أخرى، وضرب خادم أرمني يوسف بمرزبة على رأسه فقتله. وحضر الوزير نظام الملك وأوصاه ألب أرسلان بأن يكون ابنه ملكشاه ولي عهده[٣]. ومما يؤثر عن ألب أرسلان أنه قال حين أيقن بدنو أجله: ما من وجه قصدته وعدو أردته إلا استعنت بالله عليه. ولما كان أمس، صعدت على تل عال فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر، فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علي، فعجزني (فأعجزني على الأصح) الله تعالى بأضعف خلقه، وإني أستغفر الله تعالى وأستقيله[٤] من ذلك الخاطر[٥].

وكان ألب أرسلان يطمع في السير بهذا الجيش الجرار إلى أقصى بلاد الصين، فقال: فرأيت عسكري في أجمل حال فقلت: أين مَنْ له قدر مصارعتي وقدرة معارضتي بهذا

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٥.

(٢) أو البرزمي أو الخوارزمي (بضم الخاء وفتح الواو وسكون الزاي). وقد ذكر صاحب كتاب راحة الصدور الاسم الأول وذكر الاسم الثاني صاحب كتاب سلاجقة كرمان (ص ١٢) وذكر الاسم الثالث ابن الأثير والبنداري (ص ٣٧) .Browne, Vol II. p. 179

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢.

(٤) أي أطلب منه أن يقيلني ويعفيني من الذنب الذي ارتكبته باغتراري بقوتي.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٧ ـ ٢٨.

العسكر إلى أقصى الصين «فخرجت على منيتي من الكمين»[١].

وتوفي ألب أرسلان في اليوم العاشر من سنة ٤٦٥ هـ. فحمل جثمانه إلى مرو ودفن بجوار أبيه وله من العمر أربعون سنة وشهوراً. وكانت مدة سلطنته تسع سنين وستة أشهر وأياماً. وقد ترك من الأولاد ملكشاه الذي خلفه في السلطنة وإياز وتكش وأرسلان أرغون وبوري برس (برش؟) ونتش وثلاثاً من البنات منهن سارة وعائشة[٢].

كان ألب أرسلان، كما وصفه ابن الأثير[٣]، كريماً عادلاً عاقلاً، وكان رحيم القلب مقراً بأنعم الله عليه. وكان يتصدق على الفقراء، ولا سيما في شهر رمضان الذي كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار. وقد اشتمل ديوانه على أسماء كثير من الناس في جميع البلاد التي دانت له كانوا ينعمون بصلاته وعطاياه. ولم يعرف عن عهده وقوع جناية أو مصادرة بل كان يكتفي بجمع الخراج مرتين تيسيراً للمزارعين، وكان ألب أرسلان يكره السعايات؛ فقد كتب إليه بعض السعاة ظلامة تركت على مصلاه - وهي خاصة بوزيره نظام الملك ذكر فيها فداحة الرسوم والأموال التي كان يستأثر بها لشخصه - ولما قرأ ألب أرسلان هذه الرسالة سلمها إلى وزيره وقال له: خذ هذا الكتاب فإن صدقوا فيما كتبوه فهذِّب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم وأشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية بالناس. وقد عرف ألب أرسلان بحسن السمعة والمحافظة على العهود، حتى أذعن له الناس بالطاعة ودانوا له بالولاء وقصدوه من كافة أرجاء بلاده الشاسعة الأطراف التي امتدت من أقاصي بلاد ما وراء النهر إلى أقاصي بلاد الشام. ولا عجب فقد «عظمت مملكته (كما يقول ابن خلكان)[٤] ورهبت سطوته، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرلبك مع سعة ملك عمه». وكان ألب أرسلان حريصاً على ردع جنده وكفهم عن أخذ أموال الرعية. وقد بلغه أن بعض خواص مماليكه سلب إزاراً. فأمر بالمملوك فصلب. وكان ذلك رادعاً للناس عن التعرض لمال غيرهم.

٤ - ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥/١٠٧٢ - ١٠٩٢):

أسس طغرلبك وإخوته ملكاً عظيماً، وجاء بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود، فانتصر على الروم وأسر إمبراطورهم مقابل فدية كبيرة، وهادنه خمسين سنة. ولما قتل ألب

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥. (٤) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦١.
(٢) ابن الأثير: ج ١٠ ص ٢٨. البنداري ص ٤٥.
(٣) ج ١٠ ص ٢٨.

أرسلان سنة ٤٦٥ هـ، خلفه ابنه ملكشاه الذي اتسع ملكه اتساعاً عظيماً ودعي له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى أقصى بلاد الشام غرباً ومن البلاد الإسلامية في الشمال إلى جنوبي بلاد اليمن، وأدى له أباطرة الروم الجزية.

ولد ملكشاه سنة ٤٤٧ هـ، وكان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره حين آلت إليه مقاليد هذه السلطنة الشاسعة الأرجاء. وكان مليح الوجه. وأسند الوزارة إلى نظام الملك وزاد أعطيات الجند. وكان ألب أرسلان قد أوصى ابنه ملكشاه أن يعطي عمه قاورت بن داود (وكان بكرمان) أعمال فارس وكرمان وبعض المال الذي عينه، وأن يعطي أخاه أياز بن ألب أرسلان ما كان لداود وهو خمسمائة ألف دينار[١].

وقد بدأ عهد ملكشاه بقيام الاضطرابات في أطراف البلاد التي كانت خاضعة لحكم السلاجقة. فقد استولى ألتكين (بفتح الألف مع الهمزة وسكون اللام وكسر التاء والكاف) صاحب سمرقند على ترمذ وشتت جيوش أياز أخي ملكشاه، وأسر إبراهيم الغزنوي عمه عثمان ونقله مع خزائنه إلى غزنة، ولكن جموشتكين (بضم الجيم وسكون الشين وكسر التاء) (وكان من أكبر أمراء الدولة السلجوقية) ومعه أنوشتكين[٢] جد ملوك الدولة الخوارزمية التي سيأتي الكلام عليها، تتبع آثارهم ونهب بعض بلادهم. ولعل أشد هذه الاضطرابات خطراً تلك التي أثارها قاورت عم السلطان ملكشاه وأول ملوك السلاجقة بكرمان الذي سار إلى الري مطالباً بالسلطنة. وقد التقى الجيشان على مقربة من همذان ودارت بين ملكشاه ومعه وزيره نظام الملك وبين قاورت معركة حامية الوطيس دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال انتهت بهزيمة قاورت وتشتيت شمل جنده الذين ولوا الأدبار وأسره وقتله وسمل عيون ابنيه أمير انشاه وسلطان شاه. أما سلطان شاه فلم يتم سمل عينيه للدرجة التي تحول دون قدرته على أن يخلف أباه في حكم كرمان. وتقديراً للخدمات الجليلة التي أداها الوزير نظام الملك في هذه الأزمة الخطيرة وما ظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته، منحه السلطان ملكشاه لقب أتابك وقال له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد. وحلف له، وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك، ثم لقبه بلقب «أتابك» ومعناه «الأمير الوالد» (أو مربي الأمير)[٣].

وفي السنة التالية (٤٦٧ هـ) مات الخليفة القائم (وكان في السابعة والسبعين من

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) بفتح الألف مع الهمزة وكسر التاء.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٩ ـ ٣٠.

عمره بعد أن ولي الخلافة أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً[١]. وفي عهده (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ) مات ابن سينا الذي يسمونه شيخ الفلاسفة، ومهيار الديلمي الشاعر، وأبو الحسين البصري شيخ المعتزلة، وأبو الحسن الماوردي قاضي القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية، وابن حزم الظاهري صاحب كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. والخطيب البغدادي صاحب كتاب تاريخ بغداد، وابن رشيق صاحب كتاب العمدة، وابن عبد ربه الذي خلف لنا كتابه العقد الفريد المشهور في عالم الأدب والتاريخ.

وعلى الرغم من أن السلطان ملكشاه السلجوقي وجه همته إلى الأعمال الحربية مثل أبيه، شجع العلم ونشر الحضارة. وحفر الترع وأقام الجسور وحصن المدن، كما ولع بالفلك وشجع دراسة العلوم الدينية والعقلية بمعونة وزيره المشهور نظام الملك الذي أسس المدرستين العظيمتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية كما أسس المدرسة الحنفية ببغداد.

وفي سنة ٤٦٧ هـ أسس ملكشاه المرصد وعين فيه جماعة من أعيان المنجمين، نخص بالذكر منهم عمر الخيام (عمر بن ابراهيم الخيامي) وأبا المظفر الأسفزاري وميمون ابن النجيب الواسطي وغيرهم، وقد بطل هذا المرصد بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ويذكر ابن الأثير أن ملكشاه ووزيره نظام الملك جمعا جماعة من المنجمين وجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل.

خلف الخليفة القائم ابنه المقتدي (٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ). وبعد سنة استرد الخليفة المستنصر الفاطمي نفوذه في مكة. على أن ذلك النفوذ لم يدم أكثر من سنة وفقد هذا الخليفة الفاطمي دمشق. وبعد سنتين (٤٧٤ هـ) تزوج الخليفة المقتدي ابنة السلطان ملكشاه الذي مات ابنه داود في السنة نفسها، فجزع عليه جزعاً شديداً وحزن حزناً عميقاً وحال دون غسله. ولما دفن لم يطق السلطان المقام وخرج للصيد وأمر بالنياحة عليه عدة أيام[٢]. وبعد ثلاث سنين ولد له ابن آخر هو سنجر[٣] (بفتح السين والجيم وسكون النون)، فخفف السرور بالمولود الجديد حزنه على ابنه المفقود. وفي سنة ٤٨١ هـ ولد لملكشاه ابن آخر هو بركياروق.

وفي ذلك الوقت استجاب الله لدعوة الوزير الكندري. فقد وردت الأنباء إلى بغداد

---

(١) كانت أمه أم ولد تسمى قطر الندى (وقيل علم) وكانت أرمنية (وقيل رومية) (ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٥).

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٦ ـ ٤٥. (٣) إشارة إلى سنجار (بكسر السين) (القريبة من الموصل).

بوفاة جمال الملك ابن الوزير نظام الملك، وكان يتولى بلخ وأعمالها. وقد قيل في سبب قتله أن جَعَفْرك أحد مضحكي السلطان ملكشاه كان يسخر من الوزير نظام الملك في خلواته مع السلطان. ولما بلغ ذلك جمال الملك، طوى المراحل إلى والده وإلى السلطان وهما بأصبهان فاستقبله أخواه فخر الملك ومؤيد الملك، فأغلظ لهما القول، لإغضائهما عما بلغه من سخرية جَعَفْرك بأبيهم. ولما مثل جمال الملك بين يدي السلطان رأى هذا المضحك يساره، فانتهزه فلما خرج جعفرك أمر جمال الملك بإخراج لسانه من قفاه وقطعه فمات، ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خراسان، وأقاموا بنيسابور مدة، ثم أرادوا العودة إلى أصبهان وتقدمهم الوزير نظام الملك، وقد أوعز السلطان إلى أحد خدم جمال الملك بقتله، فدس له السم في إناء مملوء بالفقاع، فشربه فمات، ثم لحق السلطان بوزيره وعزاه في ابنه[١].

زار السلطان ملكشاه بغداد مرتين في عهده. فكانت الزيارة الأولى في سنة ٤٧٩ هـ (مارس ١٠٨٧ م) بعد أن فتح حلب وحمص وغيرهما من البلاد التي تمتد من الرها إلى بلاد الشام. وكان الوزير نظام الملك بصحبة السلطان. وفي الغد خرج السلطان ملكشاه إلى الحلبة ولعب بالجوكان والكرة (البولو)، وزار مشهد موسى الكاظم الإمام السابع عند طائفة الإمامية الاثني عشرية وأضرحة معروف الكرخي المتصوف، وأحمد بن حنبل، وأبي حنيفة وغيرها من المشاهد المعروفة، كما زار مشهد علي بن أبي طالب، ومشهد ابنه الحسين. وهذا يدل على بعد نظر السلطان ونظر وزيره وعدم تحيزهما لمذهب خاص.

وقد أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدي كثيراً من الهدايا النفيسة. ثم مثل بين يدي الخليفة فخلع عليه، ثم خرج، وظل الوزير نظام الملك يقدم الأمراء، كل أمير باسمه وإقطاعه وعدة عساكره، «وفوض الخليفة إلى السلطان أمر البلاد والعباد»، وخلع الخليفة الخلع على الوزير نظام الملك. كما زار الوزير المدرسة النظامية ببغداد وخزانتها، وألقى على الطلاب درساً في الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر. وأقام السلطان ببغداد إلى شهر صفر سنة ٤٨٠ هـ ، ثم رحل إلى أصبهان[٢].

وفي ذلك الوقت زوج السلطان ملكشاه أخته زليخة خاتون من محمود بن شرف الدولة وأقطعه الرحبة وحران وسروج والرقة والخابور، كما زوج ابنته من الخليفة العباسي المقتدي، على حين ولدت زوجته تركان خاتون ابناً أسماه محموداً قدر له أن يلعب دوراً قصيراً في الاضطرابات التي سادت البلاد بعد موت أبيه، لأن ابنه الآخر أحمد الذي عزم

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٤٥.
(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٧ ـ ٥٨.

السلطان على أن يخلفه من بعده مات بمرو وهو في الحادية عشرة من عمره بعد مولد أخيه محمود بسنة. وفي الوقت نفسه عقد السلطان ملكشاه مع البيت الغزنوي محالفة كان من أثرها أن تزوجت ابنة السلطان ملكشاه من السلطان مسعود الثاني الغزنوي وكان في مقتبل العمر.

وأما زيارة السلطان ملكشاه الثانية لبغداد فقد كانت في سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر ١٠٩١ م). أي قبل وفاته بسنة. وفي المدة التي تخللت هاتين الزيارتين فتح السلطان ملكشاه بخارى وسمرقند وغيرهما من مدن بلاد ما وراء النهر، وتسلم وهو في كاشغر الجزية من إمبراطور الروم. ولم تكن أحوال الدولة السلجوقية في يوم من الأيام أعظم ازدهاراً منها في ذلك الوقت؛ فقد ذكر «براون» نقلاً عن كتاب راحة الصدور أن الملاحين الذين نقلوا ملكشاه وجيوشه على سفنهم عبْر نهر جيحون قد تسلموا من الوزير نظام الملك حوالات وتسلموا قيمتها النقدية من العامل السلجوقي بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك السلطان. وفي اللاذقية التي تعد ميناء سورية اليوم ركب السلطان ملكشاه جواده على ساحل البحر الأبيض المتوسط وشكر الله سبحانه على ما حباه من سعة الملك، كما منح رجال حاشيته إقطاعات في سورية وآسيا الصغرى، على حين اتجه جيشه النظامي الذي بلغ ٤٦,٠٠٠ مقاتل (دونت أسماؤهم في ديوان الجيش) نحو حدود الصين[(١)]. كما ملك ملكشاه بلاد اليمن واستولى على عدن[(٢)].

وكان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان «أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل»[(٣)]، وكان يجلس للمظالم بنفسه ويقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أي شخص من أفراد شعبه أن يتصل به في سهولة ويسر لرفع ظلامته أو التعبير عما لحقه من اضطهاد. وكانت السبل في أيامه آمنة، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام في أمن وطمأنينة[(٤)]، كما حفر ملكشاه الآبار في طريق مكة وبنى منارة القرون بالسبيعي في طريق مكة، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر، وأسقط المكوس عن حاج بيت الله، وقد سارت مهارته في الصيد على كل لسان[(٥)].

---

(١) Browne, Vol 11. pp. 183. 184.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٥.

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧١، ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٩.

الوزير نظام الملك

وفي السنين التي تميزت بازدهار العهد السلجوقي كان نظام الملك ساعد ملكشاه الأيمن ومدبر ملكه ومستشاره الأمين، «فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد» على حد تعبير ابن خلكان[1]. وكان نظام الملك هو وأولاده الاثنا عشر يقبضون على زمام الأمور، وقد ذهبوا كما ذهب البرامكة في العصر العباسي الأول من قبلهم ضحية الدسائس والمؤامرات التي دبرها لهم حسادهم المنافسون.

وكان نظام الملك أبو الحسن علي بن إسحاق من أبناء الدهاقين بطوس، وقد توفيت أمه وهو رضيع، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة[2]، حتى شب وتعلم العربية وعرف بعلو الهمة واشتغل بالعلم فتفوق فيه، وسمع الحديث. وقد أسندت إليه بعض أعمال الدولة، ثم أخذ يترقى في ملكها، وكان يطوف بلاد خراسان ووصل إلى غزنة في صحبة بعض الحكام، ثم اتصل بخدمة أبي علي بن شاذان متولي الأمور ببلخ، من قبل داود أبي السلطان ألب أرسلان، فظهرت كفاية نظام الملك وأمانته، وتقرب إليه وتحسنت أحواله لديه. فلما حضرت أبا علي بن شاذان الوفاة أوصى به ألب أرسلان، وزكاه عنده فأسند إليه أعماله. ثم أصبح وزيراً له ومشيراً حتى ولي السلطنة بعد عمه طغرلبك، فأسند إليه الوزارة، وعهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه وقال له: هذا حسن الطوسي (يعني نظام الملك) فتسلمه واتخذه والداً لا تخالفه.

وكان نظام الملك عالماً ديناً وجواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت. وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، وقد اشتهر ببناء المدارس في البلاد وخصص لها النفقات العظيمة وأملى الحديث ببغداد ونيسابور وغيرهما من مدن خراسان.

وكان نظام الملك منقطعاً للعبادة يؤدي الصلوات في أوقاتها، إذ كان يأمر مؤذنه بالصلاة إذا حان وقتها، وينبهه إذا حان وقت الأذان، كما أسقط المكوس والضرائب وأزال على المنابر لعن الأشعرية[3] الذي كان من آثار عهد البويهيين الشيعيين. وكان الوزير عماد

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٩٦.

(٢) دون مقابل أي ابتغاء لمرضاة الله.

(٣) كان الأشعرية سنيين مؤولين يلتقون مع الشيعة في كثير من الآراء ويبدو من هذا أن السلاجقة كانوا يسيرون على السنة السلفية، أي على نهج السلف الصالح. وقد اتخذ الأشعرية مذهباً وسطاً بين المعتزلة =

الملك الكندري قد حسن للسلطان طغرلبك لعن الرافضة، فوافقه على ذلك، فأضاف إليهم الأشعرية. وكان يجعل أهل العلم ويجلسهم في المكان اللائق بهم. ومما يؤثر عن نظام الملك أنه تمنى لو كانت له قرية ومسجد ينفرد فيه للعبادة. ثم تمنى بعد ذلك أن تكون له قطعة أرض يتقوت من ريعها ومسجد يعبد الله فيه. وقد تمنى في أواخر أيامه أن يمنحه الله رغيفاً يتبلغ به ومسجداً يعبد الله فيه. ومن هنا ندرك ميل نظام الملك نحو الزهد والتقشف في نهاية حياته وصدوفه عن الدنيا وزخرفها.

وكان من عادة نظام الملك أن يشرك الفقراء معه في الطعام ويقربهم إليه. وقد أثر عنه أنه كان ليلة يتناول الطعام مع عميد خراسان، وجلس إلى جانب العميد شخص فقير قد قطعت يده. ولاحظ نظام الملك أن العميد يتأنف من الأكل مع هذا الفقير، فأمر العميد أن ينقل إلى الجانب الآخر من السماط، وقرب هذا الفقير إليه فأكل معه.

مات نظام الملك في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحواً من ثلاثين سنة. وقد تضاربت أقوال المؤرخين في أسباب قتله:

(١) قيل إنه كان على مقربة من نهاوند، وكان صائماً، وبعد أن غربت الشمس تناول طعام الإفطار ثم خرج إلى خيمة لزيارة أهله. فاعترضه صبي ديلمي من الباطنية يحمل في يده ظلامة، وسأله أن يتناولها، فمد نظام الملك يده ليأخذها، فطعنه الصبي بسكين في قلبه، فسقط الوزير مغشياً عليه وحمل إلى مضربه فمات، وهرب القاتل فأدركه رجال الوزير وقتلوه[1].

(٢) وقيل إن السلطان ملكشاه دس إليه من قتله، لأنه سئم طول حياته واستكثر ما بيده من الإقطاعات وما بيد أولاده وأحفاده من الكور.

(٣) وقيل إن «تركان خاتون» زوجة السلطان ملكشاه المفضلة كانت تطمع في تولية ابنها الصغير محمود العهد بعد أبيه، وكان يعضدها في ذلك وزيرها تاج الملك، على حين كان الوزير نظام الملك يميل إلى تولية ابنه الأكبر بركياروق، وكان إذ ذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره.

(٤) ولعل السبب المباشر الذي أدى إلى هذه النكبة قد جاء عن طريق ذلك المسلك الذي ينم عن الصلف والغطرسة من أحد أحفاد الوزير نظام الملك، وهو عثمان بن جمال

= وبين السلف الصالح. ولذلك أطلق عليهم أهل السنة والجماعة.

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ٣٩٨.

الدين والي مرو (وكان السلطان قد أمر بدس السم لأبيه قبل ذلك) بسبب قتله مضحك السلطان. وقد قصد أحد مماليك السلطان (وكان يعد من أعظم أمرائه) دار الخلافة مستغيثاً شاكياً اضطهاد عثمان له وتنكيله به، الأمر الذي أثار استياء السلطان حتى إنه أرسل إلى وزيره نظام الملك مع بعض أرباب دولته رسالة يقول فيها: إن كنت شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم، وإن كنت نائبي وبحكمي فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة. وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولي ولاية كبيرة. ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا. وأطال القول وأرسل معهم الأمير «يلبرد»، وكان من خواصه وثقاته، وقال له: «تعرفني ما يقول، فربما كتم هؤلاء شيئاً».

وقد غضب الوزير الشيخ لكلمات التقريع التي تضمنها هذا الكتاب وأجاب في شيء من عدم الروية قائلاً: «إن ثبات تلك القلنسوة منوط بهذه الدواة، وإن اتفاقهما[1] رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة. ومتى قطعت هذه زالت تلك[2]. فإن عزم على تعييري فليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث أمام ظروفه».

ولكن هؤلاء الرسل رأوا أن يكتموا ما سمعوه من الوزير رعاية لحق السلطان، وكان الأمير يلبرد قد أنمى إلى السلطان كل ما فاه به الوزير، فعزل عن منصبه، وخلفه أبو الغنائم تاج الملك الذي تمتع بحماية تركان خاتون، وأجريت تغييرات كثيرة في مناصب الدولة الكبرى. لذلك قتل السلطان وزيره نظام الملك خشية أن يقوم بتنفيذ ما هدده به لأن أغلب الولايات كانت في يد أبنائه وأحفاده وأن له أنصاراً كثيرين.

مات السلطان ملكشاه بعد ذلك بخمسة وثلاثين يوماً. وقد رثى نظام الملك كثير من الشعراء، فقال شبل الدولة مقاتل بن عطية:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن عن شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فردها غيرة منه على الصدف

وبموت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) انتهى العصر السلجوقي الأول الذي يمكن أن يسمى العصر الذهبي للدولة السلجوقية أو عصر أقلام الملك، وانجلت الدولة ووقع السيف»[3].

---

(١) يعني أن عظمة الملك ترجع إلى تضامن الخطباء والملك مع السلطان.
(٢) يعني أن السلطان إذا جحد وفك هذا التضامن زالت قوة الملك.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٥ - ٧٦. Browne, Vol. II. p. 185

الباب الثاني

عصر سنجر[1] وإخوته

٤٨٥ ـ ٥٥٢/١٠٩٢ ـ ١١٥٧

(١) مميزات هذا العصر :

يبتدىء هذا العصر الذي يشغل نحو خمس وستين سنة ميلادية من موت السلطان ملكشاه وينتهي بموت ابنه سنجر. مع أن سنجر قبض على زمام الحكم في الدولة السلجوقية مدة إحدى وأربعين سنة فقط (٥١١ ـ ٥٥٢/١١١٧ ـ ١١٥٧) حكم فيها خراسان، فإنه كان في الواقع الشخص المسيطر على البيت السلجوقي من سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م). فقد حكم خراسان وبلاد ما وراء النهر قبل توليته السلطنة حكماً يتميز بالحكمة والحزم، ووقفت بلاده إلى حد كبير بمنأى عن هذه الحروب الدموية التي دارت بين إخوته وعكرت صفو الدولة السلجوقية. على أنه قبل نهاية حكم سنجر قاست الدولة السلجوقية كثيراً من ألوان التخريب والدمار على أيدي الأتراك الغز، ولكن هذا التخريب وذاك الدمار المخيف قد قدر لهما أن يزولا نهائياً عن طريق الفتح المغولي بنحو سبعين سنة، لذلك يمكن أن نطلق على هذا العصر «عصر سنجر» الذي يعتبر موته نهاية لعهد «السلاجقة العظام» في إيران.

وثمة أوجه للشبه بين سنجر وغيره من سلاطين السلاجقة من حيث طول حياته وأعماله المجيدة، بل إنه يفوق ـ على ما ورد في كتاب «راحة الصدور»[2] ـ سائر سلاطين السلاجقة. ومنذ قلده بركياروق ولاية خراسان (٤٩٠ هـ) قام سنجر بتسع عشرة غزوة من الغزوات

---

(١) ولد سنجر بسنجار ببلاد الجزيرة. ولذلك سمي باسم هذه المدينة، وقد ذكر براون (Vol. II, p. 303, note 4. وترجمة ص ٣٧٩ هامش رقم ٢) أنه سمي سنجر (بفتح السين) وسنجر بالتركية من فصيلة الصقر وطائر من طيور الصيد. وكانت تسمية أولاد السلاجقة بأسماء الحيوانات شائعة بينهم وبين غيرهم من الأتراك. من ذلك أرسلان ومعناه الأسد وطغرل ومعناه الصقر أو الباز.

(٢) يتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة. وقد كتب الراوندي هذا الكتاب في سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) كما تقدم في الباب الأول.

المظفرة في مدى أربعين سنة ، فقد استطاع أن يستولي على غزنة وأن ينصب عليها بهرامشاه على أن يؤدي له إتاوة مقدارها ألف دينار في اليوم. كذلك أسر سنجر أحمد خان ملك سمرقند الذي ثار على أثر وفاة بركياروق سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م)[١]. كما اخضع سنجر ولايتي سجستان وخوارزم. أما من الناحية السياسية فلم يعد لآل سلجوق ما كان لهم من القوة والنفوذ أيام حكم ألب أرسلان وملكشاه. وإننا لو صرفنا النظر عن الحروب الدموية التي وقعت بين أبناء ملكشاه في بداية هذه الفترة، والغارات المستمرة التي قام بها الأمراء الثائرون، فإننا نجد أنه كانت هناك بيوت ملكية أخرى تنازع «السلاجقة العظام» السيطرة وتعمل على إضعاف نفوذهم. وكان من أشد هذه البيوت خطراً ملوك جبال الغور في الشمال الشرقي من إيران الذين استطاعوا بفضل قوتهم النامية أن يوجهوا الضربة القاضية للبيت الغزنوي. كذلك أصبح ملوك خوارزم أو حكام «خيوة» أكبر خصم للسلاجقة على أثر تولية «أتسز» الخوارزمي الحكم في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧م). وكذلك نرى سلاجقة كرمان يحكمون الولايات الجنوبية الغربية من إيران، كما نجد الإسماعيلية أو «ملاحدة الموت» ينشرون الرعب والفزع في إيران ويرتكبون ألواناً من العنف والقسوة ليس في فارس وحدها بل في بلاد الشام أيضاً.

٤٢٩ ـ ٥٥٢ هـ	السلاجقة العظام	١٠٣٧ ـ ١١٤٧ م
٤٢٩	طغرلبك: ركن الدين أبو طالب	١٠٣٧
٤٥٥	ألب أرسلان: عضد الدين أبو شجاع	١٠٦٣
٤٦٥	ملكشاه: جلال الدين أبو الفتح	١٠٧٣
٤٨٥	محمود: ناصر الدين	١٠٩٢
٤٨٧	بركياروق: ركن الدين أبو المظفر	١٠٩٤
٤٩٨	ملكشاه الثاني	١١٠٤
٤٩٨	محمد: غياث الدين أبو شجاع	١١٠٤
٥١١ ـ ٤٤٢	سنجر معز الدين أبو الحارث	١١١٧ ـ ١١٥٧

(٢) محمود بن ملكشاه (٤٨٥ ـ ٤٨٧ هـ):

وقد ظهر في عهد سنجر كثير من مشهوري العلماء والأدباء. وقد ألف كثير من هؤلاء باللغة العربية أو بالفارسية أو بالفارسية والعربية معاً. وممن ألف بالعربية الفرا البغوي

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٤٠، ٢٤١.

والزمخشري في التفسير واللغة وأصول الدين والإمام أبو حامد الغزالي في علم الكلام، والقشيري في التصوف. وألف في اللغة الزوزني والتبريزي والجواليقي والميداني مؤلف الأمثال. ومن الشعراء الابيوردي والطغرائي صاحب لامية العرب. وممن اشتهر بالنثر الحريري صاحب المقامات. ومن المؤرخين ابن مَنْدة مؤرخ أصبهان، كما ظهر في هذا العصر من الجغرافيين أبو زيد البلخي، وكذلك اشتهر عصر سنجر بظهور كثير من كتاب الفرس الذين اشتهروا بالشعر والنثر، كما ظهر في ذلك العصر كثير من المؤلفات الهامة التي وضعت بالعربية في فارس. ومن مشهوري الشعراء في ذلك العصر الشيخ فريد الدين العطار (ت ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) ونظامي الجَنْحي (ت ١١٤٠) وعمر الخيام (ت ١١٢١/٥١٥ ـ ١١٢٢) والأزرقي (١١٣٠/٥٢٦) ومسعود بن سعد (١١٣١/٥٢٦) وأديب صابر (١١٤٣/٥٧٨ ـ ١١٤٤) ومُعِزِّي (١١٤٧/٥٤٢ ـ ١١٤٨) وَعميق (بفتح العين وسكون القاف) والبخاري (١١٤٨/٥٤٣ ـ ١١٤٩)، كما ظهر الصنعائي، ونظامي عروضي السمرقندي، والأنوري، ورشيد الدين وطواط، والسُّوزني شاعر الفكاهة وطائفة أخرى أقل أهمية من المغنين.

أما عن كتب النثر التي ظهرت في هذا العصر فنذكر من بينها على سبيل المثال هذه الموسوعة الطبية «ذخيرت ـ خوارزمشاهي» (١١١٠/٥٠٤) وترجمة كليلة ودمنة التي وضعها نصر الله بن عبد الحميد (١١٤٣/٥٣٨ ـ ١١٤٤) ومقامات القاضي حميد الدين أبي بكر البلخي (١١٦٠/٥٥٧) وجهار مقاله لنظامي عروضي السمرقندي (حول هذا الوقت تقريباً) وتعد من أهم ما كتب في هذا العصر.

وقد ترك ملكشاه عند وفاته عدة أولاد اشتهر منهم أربعة هم: بركياروق وكان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، ومحمد وكان أصغر من بركياروق بستة أشهر، وسنجر وكان في الثامنة من عمره، ومحمود وكان طفلاً لم يناهز الرابعة من العمر، وكان بركياروق ابن زبيدة التي تنتمي إلى البيت السلجوقي بأصبهان(١).

أما محمود فقد كانت أمه «تُركان خاتون» التي اشتهرت بذكائها ودهائها ونفوذها تقيم مع ابنها الصغير في بغداد. وقد اتخذت من مواهبها وكثرة أعوانها ووجودها إلى جانب الخليفة العباسي في بغداد سبيلاً إلى تولية ابنها محمود السلطنة، إذ كتمت خبر وفاة زوجها ملكشاه وأرسلت إلى أمراء الدولة سراً تطلب إليهم البيعة لابنها الصغير ورغبتهم بالمال،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٩ ـ ٨٠.

فبايعوه. كما أرسلت إلى الخليفة المقتدي تطلب إليه إقرار ابنها في السلطنة، فامتنع أول الأمر لصغر سنه، ولكنه عاد فلبى طلب تُركان خاتون وأقر محموداً في السلطنة ولقبه «ناصر الدنيا والدين». وقد استعانت تركان خاتون في تحقيق رغبتها بابن الخليفة (جعفر بن ماه ـ مالك أخت ملكشاه) وتدبير وزيرها تاج الملك الذي قام بنوع من الوصاية على ابنها الصغير؛ لأن الشرع لا يجيز ولايته في هذه السن، كما افتى بذلك الإمام الغزالي. وقد ذكر اسم السلطان الجديد في الخطبة على منابر بغداد في يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ٤٨٥ هـ كما خطب له في الحرمين الشريفين[١].

وقد خشيت تركان خاتون أن ينازع بركياروق أكبر أبناء ملكشاه أخاه الصغير محمود في السلطنة، فأرسلت الأمير بُغاإلى أصبهان، فوصل إليها بعد أسبوع من مغادرته بغداد وقبض على بركياروق وأثار بذلك مخاوف أمه زبيدة. ولكن أحد أولاد نظام الملك أخرجه من السجن في جنح الظلام وحمله إلى ساوَة (بفتح الواو) وآبا والري ونصّبه ملكاً على هذه البلاد. وكان بركياروق دون الثالثة عشرة من عمره حتى إنه لم يكن من السهل أن تحمل رأسه الصغيرة تاجه المثقل بالجواهر.

ويذكرنا هذا بتلك الأسطورة التي أخذها عن ابن هشام براون[٢] في صدد كلامه على عظمة آل ساسان الملكية واعتلائهم العرش، حيث يقول: «وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي به تاجه، وكان تاجه من القُنْقل[٣] العظيم فيما يزعمون، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك. وكانت عنقه لا تحمل تاجه، إنما يُستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه في تاجه، فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلاّ سجد هيبة له».

وقد دارت الحروب بين جند السلطان محمود تؤيدهم أمه تركان خاتون والوزير تاج الملك وجند بركياروق تؤيدهم أمه زبيدة وأبناء الوزير نظام الملك وبعض الأمراء الذين انحازوا إلى جيش بركياروق، وخاصة يلبرد وكمشتكين، وحلت الهزيمة بجند محمود فعادوا إلى أصبهان، وسار جند بركياروق في إثرهم وحاصرهم فيها، ثم عاد بركياروق عن

(١) كانت زبيدة ابنة ياقوتي بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه.

(٢) Vol. I. p. 128 نقلا عن ابن هشام (طبعة وستنفلد) ج ١ ص ٤٢، انظر تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٦٣١ ـ ٦٣٢.

(٣) بضم القافين وسكون النون: الخوذة العظيمة.

الحصار مقابل خمسمائة ألف دينار وعاد إلى همذان. وقد انتهز أنصار الوزير نظام الملك هذه الفرصة فأخذوا بثأره إذ قتلوا الوزير تاج الملك في المحرم سنة ٤٨٦ هـ ، لممالأته على قتل نظام الملك طمعاً في الوزارة، فقلد بركياروق عز الدولة بن نظام الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته[١].

(٣) بركياروق بن ملكشاه (٤٨٧ - ٤٩٨/١٠٩٤ - ١١٠٤)

على أن تركان خاتون (أم محمود) عادت تدبر الدسائس ضد بركياروق، ولكي تصل إلى غايتها أوعزت إلى الملك إسماعيل بمهاجمة ابن أخته بركياروق ووعدته بالزواج منه إذا هو قام بهذا العمل (٤٨٦ - ١٠٩٣). ولكن الهزيمة حلت بإسماعيل. وفي ٣ فبراير سنة ١٠٩٤ (١٤ محرم سنة ٤٨٧ هـ) نودي ببركياروق سلطاناً ببغداد.

وفي اليوم التالي لتولية بركياروق السلطنة توفي الخليفة المقتدي فجأة وخلفه ابنه المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وقد أطرى ابن الأثير[٢] والسيوطي[٣] على المقتدي فذكرا من محاسنه أنه أمر بنفي المغنيات والبنات اللاهيات من بغداد، وأمر الناس ألا يدخلوا الحمام إلا بمئزر، وخرّب أبراج الحمام ومنع اللعب بها منعاً للمقامرة. كما منع جريان ماء الحمامات إلى نهر دجلة محافظة على نقاء ماء هذا النهر وصحة الناس. كما ألزم أصحاب الحمامات بحفر آبار خاصة للمياه المستعملة ومنع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين. وكان المقتدي أحسن خلفاء بني العباس قوة نفس وعُلو همة[٤].

ولكن سرعان ما قام «تُتُش» بثورة أشد خطراً مما تقدمها من الثورات وهزم ابن أخيه بركياروق وحمله إلى أصبهان حيث سجن. ومع أن السلطان محمود استقبل أخاه الأكبر بركياروق بمظاهر العطف والرعاية، فقد حبس الأمير «أنرو - بُلْكا» بركياروق وصمم على أن يجعله غير صالح للحكم بسمل عينيه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٠ - ٨١.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٨٥ - ٨٦.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٠.

(٤) ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ٣٧٥) أن السلطان ملكشاه أوجس خيفة من تدخل الخليفة المقتدي في شئون الحكم، فعمل على إبعاده عن حاضرة الدولة وأمره بالرحيل إلى البصرة، بل إنه لقب نفسه بلقب أمير المؤمنين، ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم، بل إنه حمل الخليفة على أن يخلع أكبر أبنائه وهو المستظهر وأن يعهد لابنه الأصغر جعفر ابن بنت السلطان ألب أرسلان ويسلم إليه البلاد ويخرج هو إلى البصرة. على أن السلطان مرض في تلك الأيام ومات، وكفي الخليفة شر هذا السلطان.

وكان من حسن حظ بركياروق أن مرض أخوه محمود بالجدري ومات في خلال أسبوع قبل أن يقوم الأمير «أنرو ـ بلكا» بتنفيذ خطته القاسية فأجلس بركياروق على كرسي السلطنة من جديد، وانتهت دسائس تركان خاتون أم محمود التي قتلت في خريف سنة ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) وقد ساعد موتها على تهدئة الأحوال. ثم مرض بركياروق بالجدري بعد أخيه ولكنه برىء منه. وقد استمال مؤيد الملك وزير بركياروق أمراء السلاجقة في العراق وخراسان إليه نعظم شأن بركياروق وكثر جنده[١]. وفي السنة الثالثة هزم بركياروق عمه تتش وقتله، كما قتل عمه الآخر أرسلان أرغون الذي ثار عليه بخراسان فقتل على يد أحدغلمانه في مرو (٤٩٠ هـ)، ونجا بركياروق نفسه من الموت بأعجوبة إذ أصابه رجل من الباطنية بطعنة كادت أن تؤدي بحياته، ثم استولى بركياروق وبصحبته أخوه سَنْجر على خراسان بعد موت عمه أرسلان أرغون ونصب أخاه سنجر ملكاً عليها سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م)، وأسند وزارته إلى أبي الفتح علي بن الحسين الطُّغرائي الشاعر المشهور. وبينما كان بركياروق بخراسان خرج عليه محمد بن سليمان ويعرف بأمير أميران (وهو ابن عم ملكشاه) وقد توجه إلى بلخ، ولكن سنجر أخا بركياروق أحل به الهزيمة وأسره وحمله إلى خراسان وسمل عينيه. وفي هذه السنة قامت الدولة الخوارزمية على يد قطب الدين محمد بن أنوشتكين[٢].

وبعد أن جعل بركياروق أخاه سنجر ملكاً على خراسان عاد إلى العراق[٣]. ولكن في سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩م) هدد نفوذه أخوه محمد الذي قام في وجهه مطالباً بالسلطنة بتأييد مؤيد الملك بن نظام الملك[٤].

وكان مؤيد الملك من أكفأ أبناء نظام الملك. وقد أصبح للسلطان بركياروق عدواً لا تلين قناته بعد عزله إياه من الوزارة. وبتأثير مؤيد الملك قلد الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ) محمداً بن ملكشاه السلطنة بدل أخيه بركياروق ولقبه «غياث الدنيا والدين» وخطب له على منابر بغداد (١٤ رجب سنة ٤٩٣ هـ). وقد طالت الحروب بين محمد وأخيه بركياروق نحواً من خمس سنين (٤٩٢ ـ ٤٩٧ هـ)، ودارت بينهما خمس معارك طاحنة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٧. ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٩١، ٩٧.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٨ ـ ٩٩.

وفي هذه السنة دارت الحرب بين رضوان وأخيه دقاق صاحب دمشق ابني تتش بن ألب أرسلان ثم تم بينهما الاتفاق على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وكذلك بأنطاكية.

(٤) كان بركياروق (٤٨٧ ـ ٤٩٨ هـ) قد عزل مؤيد الملك ابن الوزير نظام الملك عن الوزارة وأسندها إلى عز الملك (أخي الوزير المخلوع). وكان بين هذين الأخوين خلاف على ثروة أبيهما وتنافس على الوزارة.

انتهت بانتصار بركياروق على أخيه محمد، وأرسل إليه الخليفة، على ما جرت به العادة في ذلك العصر، خلع السلطنة وأقيمت له الخطبة في بغداد (٤٩٧ هـ)(١).

وفي هذه الفترة بدأ الصليبيون حملاتهم على البلاد الإسلامية، وقد دخل بركياروق بغداد، ومد هو وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس، فخرج عن طاعته صدقة بن مزيد صاحب الحلة وقطع الخطبة له في بلاده وخطب لأخيه محمد. وقيل إن وزير السلطان بركياروق أرسل إلى صدقة يطالبه بأداء مليون دينار كانت مستحقة لبيت المال عدا الإتاوة التي لم تؤد عن السنين السابقة وهدده بأخذ بلاده فلم يأبه صدقة به، فأرسل إليه بركياروق جنداً طرده من بلاده. وفي هذه السنة أمر بركياروق بقتل الباطنية في فارس(٢).

اجتمع محمد بأخيه سنجر (وهما لأم واحدة) في جرجان، والتقى به إيلغازي بن أرتق وأحسن خدمته. ثم سار محمد إلى بغداد واستقر بدار السلطنة، فاستبشر الناس بقدومه وخرجوا للقائه، وعبر الخليفة عن سروره لإساءة بركياروق وجنده إلى أهل بغداد(٣).

على أن الهدوء لم يسد بغداد برحيل بركياروق عنها ودخول أخيه محمد إليها. فقد رحل السلطان محمد وأخوه سنجر عن بغداد مرة أخرى عائدين إلى بلادهما: فقصد الأول همذان ويمم الثاني شطر خراسان. وقد سمع الخليفة أن بركياروق قد تناوله بما يسيئه فاستقدم أخاه محمداً، وكان في واسط، إلى بغداد فلحق أخاه بركياروق ودارت الحرب بينهما، وعانى كل من الجندين كثيراً من شدة البرد وهطول الأمطار وقطع الجسور وهدم القناطر وانتشار الفساد ونهب الأموال وسفك الدماء. وتخربت البلاد، واستولى الملل على النفوس وتطرق الوهن إلى القلوب وتعرضت السلطنة للغزو الخارجي. وقد تدخل العقلاء بين الأخوين وأخذت عليهما العهود والمواثيق بأن يجنحا إلى السلم ويكفا عن الحرب. وبذلك تم الصلح بينهما على أن يكون بركياروق السلطان ومحمد الملك، وأن يضرب لمحمد البوق ثلاث مرات في اليوم وأن يكون له حكم «جَعْبر» وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل، وأن يمده السلطان بركياروق بالجند ليفتح ما يستعصي عليه من البلاد، وتعهد كل منهما باحترام هذه المواثيق، وبذلك انصرف بركياروق قاصداً «ساوَة» وانصرف محمد قاصداً «أسد أباد»، وقصد كل أمير اقطاعه، وأرسل الخليفة العباسي خلع السلطنة إلى بركياروق وأقيمت له الخطبة ببغداد على أن الحرب لم تلبث أن عادت سيرتها

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) انظر ما ذكره ابن الأثير (ج ١٠ ص ١١٦ ـ ١٢٠، ١٢٤) عن الإسماعيلية أو الباطنية في فارس.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١١٣ ـ ١١٥.

الأولى بين بركياروق ومحمد (٤٩٥ هـ ١١٠١ ـ ١١٠٢ م)[١].

طالت الحروب بين بركياروق وأخيه محمد أكثر من خمس سنين دارت بينهما فيها معارك طاحنة قبل أن يتم الصلح بينهما قبل وفاة بركياروق بنحو سنتين. ثم عقد الصلح بينهما من جديد، لأن «الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد، فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين. وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم. وكان السلطان بركياروق حينئذ بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين. وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيه وببلاد أرانية وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت، وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد. وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً. وأما خراسان فإن السلطان كان يخطب له في جميعها، وهي من حدود جرجان إلى بلاد ما وراء النهر ولأخيه السلطان محمد».

واضطر السلطان بركياروق إلى الصلح مع أخيه، ولانعدام المال بخزانته وازدياد طمع جنده فيه، فأرسل الرسل إلى أخيه محمد فأجابه إلى ذلك وتم الصلح بينهما على:

(١) ألا يعترض بركياروق على ضرب الطبول على دار محمد.

(٢) ألا يذكر اسم بركياروق بجانب اسم محمد في الخطبة في البلاد التي يحكمها.

(٣) أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء.

(٤) ألا يعرض أحد العسكرين لعسكر الآخر في داخل حدود كل منهما.

(٥) أن يكون من نصيب محمد البلاد الممتدة من باسبيندروذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والبلاد التي كانت تحت حكم سيف الدولة بالعراق[٢].

ولما وصلت رسل السلطان بركياروق إلى بغداد تحمل إلى الخليفة المستظهر شرط

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) يعني تحت حكم صدقة بن مزيد وكان يملك الحلة ويلقب سيف الدولة. وقد دخل تحت نفوذه الحلة والبصرة وواسط وكان يلقب أيضاً ملك العرب، لأن العرب وغيرهم كانوا يستجيرون به من السلطان أو الخليفة أو غيرهما. وكان صدقة نفسه يقول أنا ملك العرب (ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٥، ١٦٩) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٧.

الصلح بين الأخوين، أقيمت الخطبة لبركياروق ببغداد في ١٩ جمادى الأولى سنة ٤٠٧ هـ[١].

ولم يكد الحظ يبسم لبركياروق حتى اشتد به المرض، ولما أحس بدنو أجله بايع ابنه ملكشاه الثاني ومات في شهر ربيع الثاني سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٤ م) وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن ظل في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر.

ولا ريب أن الحروب التي طالت بين الأخوين واختلاف الأحوال من الرخاء إلى الشدة ومن السلطنة إلى الملك قد أثرت في صحة بركياروق وأنهكت قواه مع حداثة سنه، ولم يغنه استقرار الأحوال بعد إبرام الصلح الأخير مع أخيه محمد وانقياد المخالفين إليه عن ملاقاة الأجل المحتوم؛ فأدركته منيته في بروجرد (بضم الباء وكسر الجيم). وكان بركياروق، كما وصفه ابن خلكان[٢]، «مسعوداً عالي الهمة لم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشراب والإدمان عليه».

(٤) محمد بن ملكشاه ٤٩٨ ـ ١١٠٤/٥١١ ـ ١١١٧

أقيمت الخطبة لملكشاه الثاني ابن بركياروق عقب موت أبيه، ولم يكن قد بلغ الخامسة من عمره، وخطب له على المنابر، ولقبه الخليفة جلال الدولة، وهو لقب جده ملكشاه وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٧ هـ . ولم يكد هذا الطفل يستقر على عرش السلطنة أسابيع أو أشهراً قليلة حتى عزل وسملت عيناه على ما جرت به العادة في ذلك العصر[٣].

وبذلك صفا الجو لمحمد بن ملكشاه، فقلده الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ١٠٩٤/٥١٢ ـ ١١١٨) من جديد، ولقبه غياث الدين، وعظمت هيبته وكثرت جيوشه وأمواله، ولم يبق له منازع، وأصبح الحاكم الفعلي للولايات الفارسية زهاء ثلاث عشرة سنة (٤٩٨ـ١١٠٥/٥١١ ـ ١١١٨) بذل خلالها جهداً كبيراً في القضاء على قوة الباطنية المتزايدة إذ قتل عبد الملك ابن عطاش صاحب قلعة أصبهان[٤] وفيما عدا ذلك لم يقع في عهد السلطان محمد ما يستحق الذكر سوى مناوأته ابن اخيه اياز الذي حاول خلعه وتقلد السلطنة مكانه. وعلى الرغم من إبرام الصلح بينهما، لم يكف إياز عن مناوأة السلطان محمد ودبر مؤامرة لقتله. ولكن أمر هذه المؤامرة قد كشف واغتيل إياز عند دخوله قصر السلطنة[٤]. أضف إلى ذلك هذه الحملة

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٢.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤.
(٤) ابن الأثير: ج ١٠ ص ١٦١ ـ ١٦٣.

التي شنها السلطان محمد على الأمير صدقة بن مَزْيَد (بفتح الميم والياء وسكون الزاي) صاحب الحلة والبصرة وواسط الذي انضم إلى الأمير إياز. واستولى على البصرة (٤٩٩ هـ)، ثم على قلعة تكريت[١] وزادت الوحشة بين صدقة والسلطان محمد وخشي كل منهما الآخر وامتنع صدقة عن الاجتماع بالسلطان وتوسط الخليفة المستظهر في إصلاح ذات البين بينهما، وسار صدقة بن مزيد من الحلة إلى بغداد على رأس خمسين ألف عربي، فأرسل الخليفة الرسل والكتب إلى أصبهان مستنجداً بالسلطان محمد بن ملكشاه الذي استشار المنجمين، فأشار عليه أحدهم بحرب صدقة[٢]، ونشبت الحرب بين جند صدقة بن مزيد وجند السلطان محمد وحلت الهزيمة بالسلاجقة وأسر كثير من جندهم ووقع الاضطراب في صفوفهم، ولم تغن محاولات الخليفة في إقرار الصلح بينهما، ثم عاد السلاجقة فجمعوا صفوفهم وحملوا على جند صدقة وهزموهم هزيمة منكرة. وقد ضرب أحد جند الأتراك صدقة على وجهه فشوهه وأصابه آخر بسهم في ظهره وتعلق به غلام فجذبه عن فرسه، فسقط إلى الأرض فضربه الغلام بالسيف فقتله، وحمل رأسه إلى السلطان ودفن وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن ظل في الإمارة إحدى وعشرين سنة. وقتل من أصحابه أكثر من ثلاثة آلاف فارس بينهم جماعة من أهل بيته وأسر ابنه دبيس بن صدقة، وهرب ابنه الآخر بذران بن صدقة إلى الحلة وأخذ ما لا يحصى من الأموال، كما استولى على آلاف الكتب، وذلك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م)[٣].

ويقترن هذا النصر بهذه القصة العجيبة الخاصة بمعرفة الطالع على أيدي المنجمين على ما ورد في كتاب «جهار مقاله»[٤] (المقالات الاربع) تأليف النظامي العروضي السمرقندي الذي ترجمه الأستاذ إدوارد براون إلى الإنجليزية وتكلم عنه في الجمعية الأسيوية الملكية بانجلترا سنة ١٩٠٢ م (٦٠٥ هـ)[٥].

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٤٤ ـ ١٤٥، ١٥٠ ـ ١٥١ ـ ١٥٤.

(٢) النظامي العروضي السمرقندي: جهار مقاله، ترجمة عزام والخشاب (القاهرة ١٣٦٨/١٩٤٩) ص ٧١ ـ ٧٢.

(٣) ابن الأثير: ج ١٠ ص ١٦٥ ـ ١٦٩.

(٤) Anecdote XXIX (pp. 102-104). Browne, II, p. 302

(٥) وقد ذكر السمرقندي (ترجمة ص ٧١ ـ ٧٢) أن هذا المنجم لم يكن واسع العلم وأن الخمر قد لعبت بلبه فيما بعد فقال لأحد ندماء السلطان: «إني علمت أن الأمر لا يعدو واحداً من اثنين إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف، وإن حلت بهذا الجيش الهزيمة فمن ذا يبالي بي؟ ولما علم السلطان بذلك أمر بطرد هذا المنجم الغزنوي.

كان صدقة بن مزيد، على ما وصفه ابن الأثير[١]، «جواداً حليماً صدوقاً، كثير البر والإحسان، ما برح ملجأ لكل ملهوف، يلقى من يقصده بالبر والتفضيل، ويبسط قاصديه ويزورهم. وكان عادلاً، والرعايا معه في أمن ودعة. وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرَّى عليها، فما ظنُّك بغير هذا. ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة. وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزانته، ويُدِلُّون عليه إدلال الولد على الوالد. ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له. وكان متواضعاً.. يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله، لقد كان من محاسن الدنيا»[١].

عاد السلطان محمد إلى بغداد سنة ٥٠١هـ ورفع الضرائب والمكوس وغيرها بعد أن شكا منها أهل بغداد[٢]. وبعد خمسة أشهر عزم على الخروج من بغداد والعودة إلى أصبهان. وفي سنة ٥٠٢ هـ استولى السلاجقة بقيادة مودود على مدينة الموصل وكان الجاولي قد استولى عليها قبل ذلك بسنتين. واستمرت الحروب بين السلاجقة بقيادة مودود صاحب الموصل وطغتكين صاحب دمشق وإياز بن إيلغازي وغيرهم وبين بلدوين ملك بيت المقدس، وأسر بلدوين في طبرية بعد معركة طاحنة، ثم سار الأمير آقسنقر البرسقي (والد عماد الدين زنكي) وكان السلطان محمد قد ولاه الموصل بعد قتل مودود[٣]، ومعه مسعود بن محمد فعبرا الفرات ودارت بينهما وبين الفرنجة عدة معارك انتهت بانتصار الفرنجة. كما دارت الحروب بين أمراء السلاجقة أنفسهم.

صفات محمد بن ملكشاه وأخلاقه ـ وفاته

وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً، ومما يدل على عدله أن خاتون بيت ماله قتل على أيدي الباطنية، فأمر السلطان بعرض ما في خزانته من مال وجواهر. وكان بهذه الخزانة درج به كثير من نفيس الجواهر، فأقر السلطان بأن الخازن عرض عليه هذا الدرج قبل موته بأيام وأعلمه أن أصحابه وكانوا تجاراً غرباء قد حفظوه عنده، فأمر السلطان أحد غلمانه بأن يحتفظ بهذه الجواهر ويسأل عن أصحابها وقد أيقنوا من ضياعها ويئسوا من الحصول عليها. ولما أحضرهم الخادم سلم السلطان محمد إليهم الجواهر[٤].

---

(١) ج ١٠ ص ١٦٩.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤.

(٣) قتل مودود سنة ٥٠٧ هـ على يد أحد الباطنية بعد أن أدى صلاة الجمعة بالجامع الأموي بدمشق وقيل إن طغتكين صاحب دمشق هو الذي دبر مؤامرة لقتل مودود. ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٧.

(٤) ابن الأثير. الكامل ج ١٠ ص ١٩٨.

كان السلطان محمد بن ملكشاه، على ما وصفه ابن خلكان[١]، «رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يعني الباطنية)، والنظر في أمور الرعية».

وقد أورد ابن خلكان[٢] أن الإمام أبا حامد الغزالي نصح السلطان محمد بن ملكشاه بأن يتحلى بحميد الصفات ومكارم الأخلاق وأن يعلم أنه يقدر عناية الإنسان بهذه الحياة الدنيا، ينبغي أن يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه يجب أن يفكر في الوقت نفسه في هذه الحياة الآخرة، لأن الإنسان مهما امتد به الأجل لا بد صائر إلى هذا المصير المحتوم، فيقول «اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة غفلاء (غافلون) نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتذكروا في اليقين الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا اليقين الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم، وما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله».

مرض السلطان محمد بن ملكشاه. ولما اشتد به المرض وشعر بدنو أجله أحضر ابنه محموداً وقبله وبكى كل منهما وأمره أن يجلس على عرش السلطنة وينظر في أمور الناس، وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥١١ هـ مات السلطان محمد بمدينة أصبهان ـ وكان في السابعة والثلاثين من عمره[٣] ـ وخطب لابنه محمود بالسلطنة في اليوم التالي.

(٥) محمود بن محمد بن ملكشاه ٥١١ ـ ٥٢٥ / ١١١٧ ـ ١١٣١

كان محمود في الرابعة عشرة من عمره حين جلس على عرش السلطنة كما تقدم، وخطب له بأصبهان في ٢٥ ذي الحجة سنة ٥١١ وببغداد في ١٣ المحرم سنة ٥١٢ هـ. وفي شهر ربيع الثاني من هذه السنة توفي الخليفة المستظهر بعد أن ولي الخلافة أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً. وكانت أيام هذا الخليفة، كما يقول ابن الأثير، أيام سرور للرعية، فكأنها من حسنها أعياد. وكان غزير العلم حسن الخط، يحب الخير ولا يميل إلى

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٦٤.

(٣) خطب للسلطان محمد بالسلطنة ببغداد أول مرة شهر ذي الحجة سنة ٤٦٢ هـ وقطعت خطبته مرات عديدة.

أذى الناس[١]، وقد خلف المستظهر ابنه المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩/١١١٨ ـ ١١٣٥).

وفي عهد السلطان محمود شق أخوه طغرل صاحب ساوة وآوة وزنجان عصا الطاعة عليه سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) وزادت الوحشة بينهما. وفي هذه السنة دخل محمود في حرب دامية مع عمه سنجر لأنه خشي أن يغلب على دولته. وكان سنجر كما وصفه البنداري[٢] «السلطان الأعظم عماد آل سلجق، وسلطنته ببلاد خراسان إلى العراق إلى ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم والترك، قد عمت ونمت، ودولته قد علت وسمت، وهو شيخ البيت وعظيمه وحافظ عزه ومديده».

ويظهر أن محموداً هو الذي بدأ بالعدوان، فقد أرسل إلى والي سمرقند كتاباً يقول فيه إنه عزم على المسير بجيوشه ميمماً شطر بلاد عمه سنجر ويطلب إلى هذا الوالي أن يفاجىء عمه سنجر وهو بجيوشه من خلفه، وبذلك تقع جيوش عمه بين طرفي الكماشة. كما طلب مساعدة ملك العرب دبيس بن صدقة وغيره من الأمراء، ولما علم سنجر بما دبره له ابن أخيه عزم على قصد بلاد الجبل والعراق والاستيلاء على ما بيد محمود، لصغر سنه واستئثار وزيره وحاجبه بالحكم. وقد وصل جيش السلطان محمود إلى الري وأصبحت مقدمة جيش سنجر على مقربة منها، وبعث الأمير علي بن عمر إلى سنجر يذكره بوصية أبيه السلطان محمد لابنه محمود بتعظيم عمه سنجر والرجوع إلى رأيه وتنفيذ أمره على أن يحافظ سنجر على السلطنة لولده[٣].

على أن جهود الأمراء الذين تدخلوا في الصلح لم تحل دون احتدام القتال بين الفريقين، واستهان محمود بعسكر عمه واطمأن إلى كثرة خيله وشجاعة عسكره، وحلت الهزيمة بميمنة سنجر وميسرته واضطرب أمر جيشه وارتدوا على أعقابهم. ولكن سنجر صمد على القتال وأطلق ما معه من الفيلة نحو جيش محمود، فتراجعت خيله بأصحابها، وأشفق سنجر على السلطان الصغير وقال لأصحابه: «لا تفزعوا الصبي بحملات الفيلة فكفّوها عنهم». وحلت الهزيمة بالسلطان محمود وقطعت الخطبة له وأقيمت للسلطان سنجر في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ.

سار محمود بعد أن حلت به الهزيمة إلى أصبهان، ويمم سنجر شطر همذان، ورأى قلة عسكره، فراسل ابن أخيه في الصلح. ولم تكن هذه الهزيمة سيئة الأثر بالنسبة إلى السلطان الصغير، لأن سنجر استمع إلى شفاعة أمه، وكانت جدة السلطان محمود، فأشارت

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣.
(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١١١.

عليه بالصلح[1]. فلقي سنجر ابن أخيه بالقول وعفا عن كبوته وجعله ولي عهده وقلده ولاية العراق التي حكمها نحواً من أربع عشرة سنة، وزوجه من ابنته «ماه ـ ملك خاتون» التي ماتت بعد ذلك بقليل (٥٢٣ هـ)، وحزن أبوها على وفاتها حزناً عميقاً حتى إنه بعث في طلب الشاعر البخاري عميق (بفتح العين الأولى والثانية وسكون الميم)، وكان قد تقدمت به السن، لينظم قصيدة في رثائها[2].

وفي سنة ٥١٤ هـ خرج مسعود صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه السلطان محمود. وقد عزا المؤرخون ذلك إلى أن بعض الأفراد وعلى رأسهم دبيس بن صدقة دعوا مسعوداً لطلب السلطنة وحملوه على مناجزة أخيه محمود، وساعدهم على ذلك تفرق جند محمود بعد انهزامه أمام جيوش عمه سنجر، بل إنهم دعوا لمسعود بالسلطنة بأذربيجان والموصل والجزيرة ثمانية وعشرين يوماً، وضربوا له الطبول التي تضرب للسلاطين خمس مرات في اليوم. ولكن محموداً انتصر بمساعدة آقسنقر البرسقي على أخيه مسعود الذي هرب وتفرق أصحابه واختفى عن الأنظار. ولكن محموداً رق لحال أخيه وأرسل آقسنقر للبحث عنه. ولما عثر عليه أخبره بعفو أخيه عنه وأعاده إلى عسكره، وأمر السلطان بحسن استقباله والحفاوة به وأمنه وأحسن إليه[3]. وقد كوفىء الأمير آقسنقر بولاية مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار وغيرها لإخلاصه للسلطان وحسن تدبيره وما أبلاه في حروبه مع أخيه مسعود والفرنجة وما أظهره من حسن السياسة في استمالة مسعود[4]. ثم زوجه أم مسعود وقلده ولاية بغداد وعهد إليه بقتال دبيس بن صدقة بن مَزْيد صاحب الحلة إذا تعرض للبلاد. وقد دارت بين جند السلطان وجند دُبَيْس بن صدقة حروب كثيرة، كما خرج الخليفة المسترشد لحربه بعد أن تسلم منه رسالة يهدده فيها بتخريب بغداد. وعبر الخليفة نهر دجلة وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحة، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة. وحلت الهزيمة بدبيس بن صدقة، ولكنه عاد فاستولى على البصرة ثم غادرها والتحق بالفرنجة واشترك معهم في حصار حلب وأطمعهم في أخذها فلم يظفروا بها، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد وحسن له الاستيلاء على العراق سنة ٥١٩[5].

---

(١) ماتت خاتون جدة السلطان محمود بمرو سنة ٥١٥ هـ واحتفل بجنازتها وعزائها احتفالاً لم يشهد له مثيل.

(٢) ابن الأثير: ج ١٠ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

ويظهر أن خروج الخليفة المسترشد إلى حرب دبيس بن صدقة وقيادته الجيش بنفسه وما أحرزه من نصر وظفر عليه بسبب التفاف الجند حوله قد أثار مخاوف السلطان محمود حول ازدياد قوة الخليفة، وأشار عليه بعض خاصته بالتوجه إلى بغداد ووضع حد لهذه المخاوف. ولما علم الخليفة بعزم السلطان محمود نصح له بأن يرجىء الذهاب إلى بغداد حتى تهدأ الأحوال بعد ما تعرضت له من ضعف بسبب حرب دبيس، وما أصاب الأهلين من وهن لاشتداد وطأة الغلاء وندرة الأقوات؛ فحمل ذلك السلطان محموداً على الظن بأن نصيحة الخليفة إنما صدرت عن سوء نية، فقوي عزمه على دخول بغداد، وأبى الخليفة إلا أن يرحل عنها مع أولاده وأهل بيته، وبكى الناس لخروجه وأرسل السلطان يستعطفه ويسأله العودة إلى داره. وتشبث الخليفة برأيه وأثار بذلك غضب السلطان، ونشب القتال بين السلطان والخليفة فدارت الدائرة على جند الخليفة ودخل السلطان محمود بغداد في المحرم سنة ٥٢١ هـ ونهب عسكره دار الخلافة ودور بعض الأمراء. عند ذلك عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي من بغداد على رأس ثلاثين ألف مقاتل وبدأ القتال. على أن خروج أبي الهيجاء مع عسكره من جيش الخليفة وانضمامه إلى جيش السلطان محمود، ووصول عماد الدين زنكي صاحب واسط على رأس جيش كثيف وأسطول قوي لنصرة السلطان؛ كل ذلك قد أدخل اليأس إلى قلب الخليفة فجنح إلى السلم، واعتذر له السلطان عما حدث وعفا عن أهل بغداد وأبى أن يحرقها كما أشار عليه بذلك أحد رجاله، وأقام إلى ١٠ ربيع الثاني سنة ٥٢١ هـ وعاد إلى همذان، ثم عاد إلى بغداد سنة ٥٢٣ هـ، بعد أن التقى بعمه سنجر ومعه دبيس بن صدقة لإصلاح ذات البين بين دبيس بن صدقة والخليفة. ثم عاد السلطان محمود إلى همذان، ولكن «دبيس» عاد فخرج عن طاعة الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي بعث إليه جيشاً يتألف من عشرة آلاف فارس، فغادر البصرة واختفى[١].

وفي سنة ٥٢٤ هـ دعا بعض الأمراء مسعوداً من جرجان وحملوه على مناجزة أخيه السلطان محمود[٢]. وقد أثارت هذه الأنباء مخاوف السلطان فسار من بغداد إلى همذان ولما وصل إلى كرمانشاه لقيه أخوه مسعود وتبددت بذلك الأراجيف بخروجه عليه، فندبه السلطان للقيام ببعض المهام في أرانية، وقيل إنه أقطعه مدينة كنجة وأعمالها وسيره إليها، فبقي بها حتى مات السلطان محمود[٣].

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٢) وقد قيل إن مسعوداً كان عند عمه سنجر بخراسان وإنه حمله على ذلك.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥٤.

صفات محمود وأخلاقه ـ وفاته

لا ريب أن عهد السلطان محمود يتسم ببعض الأخطاء التي غلا البنداري فسماها مفاسد وهي تتلخص فيما يلي :

(١) أنه أثار في مستهل خلافته هذه الحرب ضد عمه سنجر مع اتساع نفوذه وبسطة سلطانه ووصية أبيه له بطاعته والعمل بمشورته .

(٢) أنه شجع ملك العرب دبيس بن صدقة بن مَزْيد وقربه إليه برغم حروبه المستمرة وتخريبه البلاد وطمعه الذي لا يحد ومناوأته الخليفة واستمالة الأمراء إليه عن طريق الرشوة مما ساعد على نشر الفساد في البلاد .

(٣) أنه أساء معاملة عامله بفارس وطالب الأهالي بالأموال ، مما أدى إلى قيام الوحشة بينهما وامتناع هذا العامل في إرسال المال وكان قد أعده لإرساله ، مما أدى إلى عصيانه على السلطان ، فاختل نظام هذه البلاد .

(٤) أنه أساء معاملة جماعة من أمراء مازندران وغيرهم كانوا بخدمة السلطان . وكانوا ينتسبون إلى الأكراد . وكان أبوه السلطان محمد قد تألفهم بإحسانه . وأثار بذلك سخطهم فعادوا إلى بلادهم المنيعة وشنوا عصا الطاعة وجاهروا بالعصيان .

(٥) استيلاء أمراء السلاجقة على الأموال من الذهب والفضة والحلي والجواهر والأثاث والتحف وغيرها التي خلفها السلطان محمد ، حتى أصبحت بيوت الأموال خاوية على عرشها .

(٦) تشتيت شمل مماليك السلطان وإضعاف شأنهم حتى لا يناوئوا حكمه أو يفكروا في الخروج عليه .

(٧) تشتيت وزيره أبي القاسم الأنساباذي الدركزيني الجنود التي كانت على حصار قلعة ألموت بعد أن أشرف هؤلاء الجنود على فتح هذه القلعة وتتبع أهلها جند السلطان وقتلهم عدداً كبيراً منهم .

(٨) تولية الأمير سلجق أخي السلطان بلاد فارس بدل الأمير قيصر الذي هرب إلى خراسان وبث شكواه إلى الأمير سنجر .

(٩) أخذ رجال الحاشية مماليك السلطان الصغار وإخراجهم المغنيات من الجواري والإماء من دار الحرم إلى دورهم ، وانقطاعهم إلى سماع غنائهن .

(١٠) تسلط الحاشية على السلطان واجتراؤهم عليه واتخاذهم من صغر سنه وقلة تجاربه سبيلاً للتأثير عليه[١].

على أنه برغم هذه العيوب التي عددها البنداري كان السلطان محمود، على ما وصفه ابن الأثير، حليماً كريماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه، مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافاً لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها[٢]. وذكر ابن خلكان[٣] أن محموداً كان متوقد الذكاء ملماً بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير. وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها، حتى إنهم عجزوا عن إقامة وظيفة صاحب الشراب، فدفعوا له يوماً بعض صناديق خزانة المال الفارغة، فباعها وأنفق ثمنها.

أما ميل السلطان محمود إلى العفو فيتجلى في موقفه من أخيه طغرل الذي خرج عليه وإرساله الهدايا إليه ووعده بزيادة إقطاعاته برغم عصيانه له وتشبثه برأيه. كذلك نرى محموداً برغم انتصاره على أخيه مسعود يرق لحاله ويطيب له قلباً ويؤمنه، كما يتجلى في موقفه من الخليفة المسترشد الذي عبر عن سخطه حين علم بعزم محمود على دخول بغداد وما كان من نشوب القتال بينهما وإلحاق الهزيمة بجند الخليفة ـ على الرغم من هذا نرى محموداً يستعطف الخليفة ويعتذر إليه ويعفو عن أهل بغداد الذين ناوءوه العداء وقاتلوه ولا يستمع إلى بعض خاصته الذين أشاروا بحرق بغداد حاضرة العباسيين. ثم يعود إلى همذان بعد قليل، ثم يعمل على إصلاح ذات البين بين ملك العرب صدقة بن دبيس وبين الخليفة، ثم يعفو للمرة الثانية عن أخيه مسعود الذي حمله بعض الأمراء على مناجزته طمعاً في السلطنة ثم يندبه للقيام ببعض المهام ويزيد من إقطاعه. ولعل من أبرز محاسن السلطان محمود هذه الحروب التي شنها على الصليبيين وعلى الباطنية وفتحه قلعة أَلَموت في فارس وقلعة بانياس في الشام، وكانتا من أمتع معاقل هذه الطائفة التي تفاقم خطرها وتطاير شررها في ذلك العصر.

وفي رأينا أن هذه العيوب التي أخذها بعض المؤرخين على محمود إنما ترجع إلى حداثة سنه وقلة تجاربه مما أدى إلى طمع أمراء دولته في أموال الدولة واشتطاطهم في جمع الضرائب الفادحة التي أثقلت كاهل الناس فكرهوا الحكم السلجوقي وتبرموا به. هذا إلى قيام المنافسة بين هؤلاء الأمراء وتفرق كلمتهم واستبدادهم بالأمر. ولو مد الأجل بالسلطان وحنكته التجارب لكان له شأن آخر بين سلاطين السلاجقة.

---

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠ ـ ١١٤.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٢٥٥.

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

وفي شهر شوال سنة ٥٢٥ هـ (١١٣١ م) مات السلطان محمود بهمذان، وخلفه ابنه داود وخطب له في بلاد الجبل وأذربيجان. وكان محمود في السابعة والعشرين ومات بعد أن ولي السلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً.

(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه[1] ٥٢٧ - ١١٣٢/٥٤٧ - ١١٥٢ :

ولد مسعود بن محمد بن ملكشاه من حظية تسمى «نيست». وبعد وفاة السلطان محمد زوجها خلفه وابنه السلطان محمود من الأمير «منكوبرس» والي السلطان محمد بالعراق وعهد بتنشئة ابنه مسعود إلى الأمير «مودود» صاحب الموصل. وقد اشتبك مودود هذا في عدة معارك انتصر فيها على الصليبيين. وفي شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ، خرج مودود إلى المسجد الأموي ويده في يد طُغْتكين صاحب دمشق، وبعد صلاة الجمعة ضرب رجل مودوداً ضربة قاتلة، فحمل إلى دار طغتكين الذي قيل إنه هو الذي دبر هذه المؤامرة لأنه خشي أن ينتزع مودود دمشق منه. ولما اتصل نبأ مقتل مودود بمسامع السلطان محمد عهد بتنشئة ابنه مسعود إلى أتابكه آق سُنْقُر وأقطعه الموصل والجزيرة[2].

وبعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ خطب لابنه داود بأذربيجان وبلاد الجبل. وقد دخل داود في حرب مع عمه مسعود الذي استولى على تبريز وتم الصلح بينهما في المحرم سنة ٥٢٦ هـ. ثم رحل مسعود إلى بغداد وأوفد وهو في طريقه إليها رسله إلى الخليفة العباسي المسترشد يطلب إليه إقامة الخطبة له. ولكن الخليفة رأى أن يرجع في هذا الأمر إلى سنجر، وكان عميد البيت السلجوقي، وأشار عليه بأن تكون الخطبة له وحده[3].

وقد ظل أنصار سنجر أكثر من خمسة أشهر حتى وصل إلى الري (ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ) ووصل بعده طغرل بن محمد بن ملكشاه ليلاً، وقابل عمه سنجر في صبيحة اليوم التالي. وكان الخبر قد وصل بأن مسعود بن محمد قد استعد للجلوس على عرش السلطنة، فزهد أخوه طغرل فيها وعزم على الرحيل. ولما أحس سنجر بهذا العزم أرسل الى طغرل وزيره وحاجبه يحملان إليه رسالته بتوليته سلطنة العراق وولاية العهد من بعده.

بعد ذلك سار سنجر إلى نهاوند، والتقى جيشه، وعلى ميمنته طغرل وعلى ميسرته خوارزم شاه، بجيش مسعود الذي حلت به الهزيمة وأسر هو ووزيره وبعض أمرائه. ثم خلع

(١) يفهم من هذا أن محمداً ومسعوداً لم يكونا من أم واحدة.

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٥٧.

سنجر على ابن أخيه طغرل وزوده بنصائحه وودعه وانصرف إلى الري(١). بعد ذلك قفل سنجر راجعاً إلى خراسان لأنه بلغه أن نائبه فيها قد عصاه (جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ هـ). أما طغرل فقد انصرف إلى الري وحكم في الحقيقة باسم سنجر، ولكنه لم يحسن علاقته بالسلطان والخليفة معاً(٢)، وقد صحب طغرل وزيره الدركزيني (بفتح الدال مع التشديد وسكون الراء).

أما داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي ولاه أبوه عهده فقد سار إلى همذان وناصره أتابكه ومربيه آقسنقر الأحمديلي، ولكن بعض أمرائه الأتراك انضموا إلى عمه طغرل، ثم التقى الجمعان وحلت الهزيمة بداود وأتابكه آقسنقر(٣).

وقد ذكر البنداري(٤)، أن الدركزيني وزير طغرل انفرد بأمور الدولة وطغى وبغى وبالغ في إيذاء الناس واشتط في مصادرة الأموال. وقد بلغ من ضجر طغرل بسوء تصرفات وزيره أن أرسل إليه يقول: «إنك أسأت سمعتي وأسمعت مساءتي وفضحت أمري وأمرت بفضيحتي. ألم يكفك سلخ جلود العظماء حتى شرعت في استفراغ دماء الضعفاء واستنزاف دماء الفقراء».

ثم سمع طغرل بتحرك جيوش أخيه مسعود وخروجه مع الأمير آقسنقر في جموع كثيرة، فيمم طغرل شطر أذربيجان ودخل تبريز وأقام في قلعتها حتى ينتهي فصل الشتاء وتفتح الطرق. وقصد مسعود بغداد ومر في طريقه على أصبهان ثم اتجه غرباً وأحل الهزيمة بجند أخيه طغرل، ثم عاد إلى همذان(٥)، واستولى على البلاد التي مر بها،(٦) والتف حوله الجند من كل حدب وصوب. وأحلت جيوش مسعود الهزيمة بجيوش داود بن محمود(٧).

دخل داود بغداد. ولما علم بقرب وصول مسعود إليها خرج إليه ولقيه ودخلا معاً بغداد. ونزل مسعود بدار السلطنة (صفر ٥٢٧ هـ) وأقيمت الخطبة له ولداود من بعده، وخلع الخليفة عليهما، واستولى مسعود على بلاد طغرل الذي لم يلبث أن مرض ومات بهمذان ودفن بها في أوائل سنة ٥٢٨ هـ بعد أن ولي السلطنة سنتين وشهراً أو شهرين وكان داود، كما يقول البنداري(٨)، «جامعاً للخلال التي تفتقر إليها السلطنة من الحزم والتحفُّظ والعزم والتيقظ». وقد قامت الوحشة بين الخليفة المسترشد وبين مسعود ودارت الحرب

---

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٢ ـ ١٤٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٦٠.
(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٥) ابن الأثير ١٠ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٦) البنداري ص ١٤٩ ـ ١٥١، ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٧) المصدر نفسه ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٨) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٧.

بينهما، وأسر الخليفة وحبس بقلعة قريبة من همذان. ولما بلغ ذلك أهل بغداد حَثَوا التراب على رؤوسهم وبكوا، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعوا الخطبة والصلاة. قال ابن الجوزي: وتعرضت حاضرة العباسيين عشرين يوماً كانت تقع الزلازل خمساً أو ست مرات في اليوم وأخذ الهلع من قلوب الناس كل مأخذ، حتى إن سنجر عميد البيت السلجوقي بعث الى ابن أخيه مسعود يقول: «ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأله العفو والصفح، ويتنصل غاية التنصل، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل، وتشويش العساكر وانقلاب البلدان. ولقد خفت على نفسي من جانب الله وظهور آياته وامتناع الناس عن الصلاة في الجوامع ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله، فالله الله! تتلافى أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه، وتحمل الغاشية[1] بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا» فنفذ مسعود ما أمر به وقبَّل الأرض بين يدي الخليفة ووقف يسأله العفو. ثم أرسل سنجر رسولاً آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى «مقر عزه». وقد ذكر السيوطي أن جند السلطان سنجر ضم سبعة عشر من الباطنية، قيل إن مسعوداً هو الذي دسهم، وأنهم هجموا على الخليفة وهو في خيمته وقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، ولم يشعر بهم حرس الخليفة إلاّ بعد أن ارتكبوا جريمتهم، فقبضوا عليهم وقتلوهم.

على أن السلطان مسعوداً ظهر بمظهر الحزن، فجلس للعزاء، واشتد بكاء الناس، ونمى هذا النبأ إلى أهل بغداد، فخرجوا حفاة ممزقي الثياب، وخرجت النساء ناشرات الشعور يلطمن ويرثين الخليفة الذي كان محبَّباً إليهن لما عرف عنه من الورع والتقوى والشجاعة وبعد الهمة والعدل والرفق بالناس. ويعزو المؤرخون انهزام الخليفة إلى تخلي جند الأتراك الذين انضووا تحت لواء السلطان مسعود، على الرغم من تفوق جيش الخليفة الذي ضم كثيراً من الفقهاء والصوفية والشعراء والأطباء، وقد وصف السيوطي[2] الخليفة المسترشد فقال إنه كان خطيباً مفوهاً وأديباً لامعاً وشاعراً مجيداً، كما كان محدثاً متفقهاً في الدين، خطب المسترشد يوم عيد أضحى فقال:

---

(١) لعل سنجر يقصد أن مسعوداً يجب أن يقف خاشعاً متضرعاً أمام الخليفة سائلاً إياه العفو والصفح عما بدر منه، ذاكراً أقوال يوم القيامة على ما ورد في سورة الغاشية والغاشية هي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا سلطان ولا جاه إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦.

«الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء (الشمس) وعلت على الأرض السماء. الله أكبر ما همَى سحاب ولمع سراب وأنجح طلاب وسرّ قادماً إياب. إلى آخر ما ذكره في خطبته البليغة. ثم جلس ثم قام فخطب وقال: اللهم أصلحني في ذريتي وأعني على ما وليتني وأوزعني شكر نعمتك ووفقني، وانصرني».

كان المسترشد كما يقول السيوطي ذا همة عالية وإقدام ورأي وهيبة، «ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها وباشر الحروب بنفسه».

قتل المسترشد بمدينة مراغة في الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ[١].

مات الخليفة المستظهر سنة ١١١٨/٤٨٧، واغتيل كل من المسترشد وابنه الراشد على أيدي الباطنية: الأول (بتحريض سنجر على ما قيل) والثاني بمراغة حيث كان أسيراً في يد السلطان مسعود في ٢٩ أغسطس سنة ١١٣٥ م (٥٢٩ هـ)، واغتيل الثالث في أصبهان بعد أن عزله السلطان نفسه بسنتين (يونيه ٥٣٣/١١٣٨ هـ). وفي الحق أن خلفاء عصر سنجر لم يكونوا أكثر .ن ألاعيب في أيدي السلاجقة.

وقد ذكر النظامي العروضي السمرقندي أن الخليفة المسترشد خرج من بغداد على رأس جيش كثيف كامل العدة قاصداً بلاد سنجر في محاولة يائسة كلفته حياته لوضع حد لقوة السلاجقة، وأنه خطب في طريقه خطبة الجمعة التي امتازت بالبلاغة. وقد عبّر فيها عن ضيق صدره وخيبة أمله من السلاجقة وبث شكواه منهم في هذه الكلمات فقال:

«فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾»[٢].

ولي الخلافة بعد المسترشد ابنه الراشد (٥٢٩ - ١١٣٥/٥٣٠ - ١١٣٦)، فسار على سياسة أبيه. وقد حزن لوفاة أبيه، ودفعه حب الثأر له على إهانة رسول السلطان مسعود وإثارة العامة عليه وتحريضهم على تخريب داره. وكانت خاتمة الخليفة الراشد كخاتمة أبيه. فقد سار مسعود إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب إلى الموصل والاحتماء بزنكي.

---

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢) جهار مقاله ترجمة ص ٣٠ - ٣١ Browne, Vol. II, 304-305

بل إننا نرى السلطان مسعوداً يجمع القضاة والشهود ويحملهم على الكتابة بذم الخليفة، فكتبوا محضراً بخلعه[١].

وقد ذكر صاحب الفخري (ص ٢٧١) أن السلطان مسعوداً استشار الوزير الزيني[٢] فيمن يوليه الخلافة فقال له: يا مولانا! هناك رجل يصلح لها، فسأله عن اسمه فقال له: يا مولانا إن سميته أخاف أن يقتل، ولكن إذا دخلنا بغداد سميته لك. فلما احتاجوا إلى إجلاس خليفة، سمى الزيني له أبا عبد الله محمد المقتفي عم الراشد، فبايع له وأجلسه على سرير الخلافة[٣]. وقد قتل الراشد وهو على باب أصبهان سنة ٥٣٢ هـ، وقيل إنه قتل على يد الباطنية كأبيه من قبل[٤].

ولما آلت الخلافة إلى المقتفي (٥٣٠ - ١١٣٦/٥٥٥ - ١١٦٠) عول على ترسم خطى آبائه ونجح كثيراً في هذا السبيل، ولم تكن جهوده موجهة ضد السلطان مسعود مباشرة، وإنما كانت موجهة ضد بعض أمراء البيت السلجوقي، فإن بعض هؤلاء الأمراء تسلطوا على محمد (بن محمود أخي مسعود) وحرضوه على الخروج على السلطان وأشاروا عليه بالسير معهم إلى بغداد (٥٤٣ هـ). وقد استمع إليهم محمد هو وأخوه ملكشاه وحاصروا بغداد وقتلوا أكثر من خمسمائة من أهلها وأبوا رفع الحصار إلاّ بعد أن يدفع إليهم الخليفة ثلاثين ألف دينار. وهنا ظهرت شجاعة الخليفة الذي رجع إلى رأي يحيى بن محمد ابن هبيرة، وكان يتولى زمام قصره، فأشار عليه بأن يستخدم هذا المال في جمع الجند لرد خطر العدو. ويقول البنداري[٥]: إن هذا العمل أرضى السلطان مسعوداً وساعده على جمع جيش قوي استعان به الخليفة في حروبه المقبلة.

أصيب السلطان مسعود بالحمى ومات بهمذان في أول شهر رجب سنة ٥٤٧ هـ، وكان، كما وصفه ابن الأثير[٦]، «حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس. . . وكان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم. (وكان) من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكة، سهل الأخلاق لطيفاً. لقد ماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم بعدها راية يعتمد عليها ولا يلتفت إليها».

(١) الفخري ص ٢٧٣.
(٢) هو أبو القاسم علي ويرجع نسبه من جهة أمه إلى زينب بنت سليمان بن عبد الله بن العباس.
(٣) الفخري ص ٢٧٣ - ٢٧٤.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١١ - ٢٨.
(٥) زبدة الفكرة ونخبة العصرة ص ١٨١. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٦٠، ٦٦.
(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٥.

ولي السلطنة بعد مسعود ابن أخيه ملكشاه (بن محمود بن محمد) الذي قضى وقته في اللهو واللعب وترك شئون الدولة إلى خاصبك بن بلنكري، فلم ير فيه الرجل الذي يستطيع النهوض بأعباء السلطنة، فاستدعى أخاه محمد بن محمود وولاه السلطنة(١).

(٧) نهاية عصر السلاجقة العظام:

على أن عصر السلاجقة العظام لم ينته في الحقيقة بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، بل امتد حتى وفاة سنجر سنة ٥٥٣ هـ. فقد بدأت المتاعب التي عكرت صفو السلاجقة بهذه الثورة التي قامت على يد أتسز خوارزم شاه الذي أعلن استقلاله سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ ـ ١١٤١). وفي السنة التالية هزم كفار الأتراك سنجر وأسروا زوجته وهزموا مائة ألف من جنده، كما ضاعت مرو وسرخس (بفتح السين والراء وسكون الخاء) ونيسابور وبيهق (بفتح الباء والهاء وسكون الياء).

وفي سنة ٥٤٧ هـ قوي أمر الغور بزعامة علاء الدين الذي حاصر هراة ونهبها ثم ملك بلخ، فقصده سنجر وأحل الهزيمة بالغور وهزم علاء الدين. ولما مثل بين يدي سنجر قال له: يا حسين! لو ظفرت بي ما كنت تفعل؟ فأخرج له قيداً من الفضة وقال له: كنت أقيدك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه (حاضرة الغور)». ولكن سنجر استماله إليه، فخلع عليه ورده إلى حاضرة ملكه.

وفي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) هزم سنجر هزيمة منكرة على أيدي الغز الأتراك الذين ملكوا طوس ونيسابور وقتلوا كثيراً من الأهالي من بينهم طائفة من العلماء عرفوا بزهدهم وورعهم، كما أسر سنجر نفسه، وكان من الناحية العملية سجيناً بأيدي الغز ولو أنه عومل بشيء من الاحترام ظاهراً، ولم يستطع أن يتنقل حيث شاء أو يحمي رعاياه البؤساء حتى خريف ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) حين نجح بعض أنصاره وخدمه في إطلاقه عن طريق إرشاء بعض حراسه وحملوه إلى مرو حاضرة خراسان التي اتخذها حاضرة لدولته(٢). وهنا أخذ سنجر يجمع الجند، ولكن الحزن الذي ملك عليه نفسه لما وصلت إليه بلاده من التخريب والإقفار وتقدم سنه أدى إلى وفاته بعد ذلك بأشهر قليلة (١٤ ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ /١١٥٦ ـ

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) يقول ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص٨٥) إن سنجر أسر في أيدي الغز من ٦ جمادى الأولى سنة ٥٤٨ إلى شهر رمضان سنة ٥٥١ هـ.

١١٥٧ م) ودفن كجده ألب أرسلان في مرو في البناء المعروف بدولت - خانه الذي بناه هناك . وقد ذكر ابن الأثير[١] أنه دفن في قبة بناها لنفسه وسماها قبة الآخرة. «وكاد يعود إليه ملكه فأدركه أجله» كما يقول ابن خلكان[٢]، ومات سنجر وقد بلغ الثانية والسبعين بعد أن حكم، على ما ذكره البنداري[٣]، إحدى وستين سنة حكم فيها خراسان وبلاد ما وراء النهر إحدى وأربعين سنة. وقد تلقب بلقب ملك عشرين سنة، وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية المترامية الأطراف نحو أربعين سنة، «وخطب له بالعراقين والشام وديار بكر وديار ربيعة والحرمين، وقد ضربت الدنانير باسمه في الخافقين، وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين».

---

(١) الكامل ج ١١ ص ٩٠.

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٤٨ .

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ .

الباب الثالث

الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

أولاً ـ دول الأتابكة

من هم الأتابكة؟

كان الجيش في عهد السلاجقة يقوده مماليك من الأتراك الذين عرفوا بطول أجسامهم وجمال خلقتهم. وكان هؤلاء المماليك يشترون بالمال ويعتنقون الإسلام وينشئون نشأة إسلامية خالصة في بلاط الخليفة أو السلطان حيث يتصلون اتصالاً وثيقاً بأمراء السلاجقة. وكان هؤلاء الأمراء يجلبون بصفة عامة من بلاد القفجاق[1] شمالي البحر الأسود، وتسند إلى هؤلاء المماليك بعض الوظائف كرياسة الخدم وتنظيم القصور، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة أو السلطان. وإذا ما أدى هؤلاء المماليك خدمات هامة للدولة أو أظهروا كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة وبرهنوا على إخلاصهم وولائهم وصلوا إلى أعلى المناصب في الجيش والبلاط أو أسند إليهم حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف.

على أن هذا النظام كانت له نتائج خطيرة. وكان هؤلاء الأرقاء الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام إذا ما بلغوا سن الرجال وظهرت مواهبهم الممتازة وأسند إليهم حكم إحدى الولايات يتمردون على ساداتهم ويحلون محلهم في حكم الولايات. وهكذا أخذ الضعف يدب في جسم الدولة السلجوقية، فتفككت هذه الإمبراطورية وانقسمت إلى دويلات، وانتقل النفوذ والسلطان إلى هؤلاء المماليك الذين خاضوا المعارك باسم السلاطين وأصبحوا أوصياء أو «أتابكة» على أبناء هؤلاء السلاطين.

وبموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) أفل نجم البيت السلجوقي في العراق، وتقاسم ملك السلاجقة دول كثيرة تعرف بدول الأتابكة (ويعبر عنها بأتابك العسكر).

---

(١) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 159

روى القلقشندي[١] عن السلطان عماد الدين في تاريخه أن أتابك أصله أطابك ومعناه الوالد الأمير. وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقب بألقاب منها «أتابك» ومعناها الأمير المسن، وقيل إن أتابك معناه الأب الأمير، ومعناه الأمير الكبير سنّاً، وهو عادة يكون أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل. وأتابك كلمة تركية معناها مربي الأمير، لأن «أتا» معناها مربي و«بك» معناها الأمير.

وكان السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم. وإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي (المربي) ليعاونه في الحكم ويسدي إليه ما يراه من النصائح. ويمنح هذا الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيش. وسرعان ما أصبح هؤلاء الأتراك أصحاب النفوذ الفعلي في الولايات التي عهد إليهم بالحكم فيها، فيعملون لحسابهم الخاص ويتخذون لأنفسهم الألقاب التي تروق لهم[٢]. وقد ساعد على ضعف الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه نشوب الحروب بين أبنائه وأحفاده، واتخذ الأتابكة من ذلك فرصة لفرض سيطرتهم على البلاد التي تحت حكمهم وتسابقوا إلى توسيع رقعة بلادهم كل على حساب الآخر. وبذلك نشأ الصراع بين أفراد البيت السلجوقي كما نشأ بين الأتابكة، وعمل بعض الخلفاء بعد موت السلطان مسعود على استرداد نفوذهم في العراق[٣].

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك وأورثوه أولادهم من بعدهم ومن ثم أطلق على هذه الأسرات أو الدول فيما بعد اسم دول الأتابكة. وإلى جانب هذه الدول دول أخرى ولاها بعض السلاجقة قوادهم فأورثوها أبناءهم، ويلقبون بلقب شاهات. ومن هؤلاء الشاهات شاهات خُوارزم وشاهات أرمينية. ومن دول الأتابكة أتابكية كيفا وماردين، وأتابكية دمشق[٤]، وأتابكية دانشمند[٥]، ثم أتابكيات الموصل والجزيرة وسورية وأذربيجان وفارس. وعلى هذا النحو نرى:

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠٣.

(٤) وتسمى الدولة البورية التي أسسها طغتكين الذي عينه تتش على دمشق.

(٥) وقد أسسها محمد بن جمشتكين في كبادوكيا وشملت سيواس وقيصرية وملطية.
Cambridge Mediaeval History, vol. IV, pp. 313-315

(١) طغتكين مملوك تُتُش (بضم التائين) السلجوقي يعين ابنه ووريثه الصغير داق «أتابك»، ثم يستأثر هذا الأتابك بالملك في دمشق بعد وفاة ابن السلطان فتقوم أتابكية دمشق.

(٢) وكان عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والجزيرة وحلب وغيرها ابن آقسنقر ابن أحد مماليك ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة.

(٣) ويرجع أصل أتابكية أذربيجان إلى رجل من بلاد القفجاق كان مملوكاً للسلطان مسعود السلجوقي في العراق.

(٤) وكان أنوشتكين جد شاهات خوارزم يشغل وظيفة الساقي (حامل الكأس) في بلاط السلطان ملكشاه.

(٥) وكان أرتق (بضم الألف مع الهمزة والتاء وسكون الراء) وسلغر (بفتح السين والغين وسكون اللام) مؤسسا الأثر في ديار بكر وفارس من قواد السلاجقة.

(٦) وكان خانات البجتجنيين (Begtigimids) والهزاراسبيديين (Hazarâspids) والقُطْلغينيين (Kutlughs) قواداً لمماليك السلاجقة.

(٧) وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كانت أراضي الإمبراطورية السلجوقية عدا بلاد الأناضول في أيدي قواد السلاجقة الذين أدخلوهم في خدمتهم.

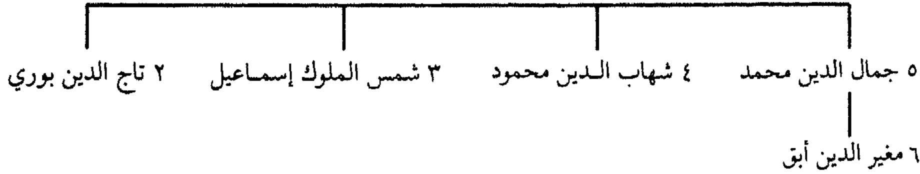
هكذا انقسمت الدولة السلجوقية العظيمة إلى دويلات الأتابكة المتعادية المتنافرة مما مهد السبيل لاسترداد بعض الخلفاء العباسيين بعض ما كان لهم من سلطان، وأتاح الفرصة للصليبيين لشن حروبهم على البلاد الإسلامية، كما مهد السبيل للمغول لاجتياح أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق. ولنتكلم في شيء من الإيجاز عن أهم دول الأتابكة.

٤٥٧ - ٥٤٩ هـ — (١) أتابكية دمشق — ١١٠٣ - ١١٥٤م

	البوريون أو أسرة بوري	
٤٩٧	سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين	١١٠٣
٥٢٢	تاج الملك بوري	١١٢٨
٥٢٦	شمس الملوك إسماعيل	١١٣٢
٥٢٩	شهاب الدين محمود	١١٣٤

٥٣٣ هـ	جمال الدين محمد	١١٣٨م
٥٣٤ - ٥٤٩	مغير الدين أبْق (أو أنَرْ، ت ٥٦٤ هـ)	١١٣٩ - ١١٥٤

[آل زنكي]



تنسب هذه الدولة إلى طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقي، وكان مملوكاً لتُتُش بن ألب أرسلان، وكان والياً على دمشق عند وفاة أخيه ملكشاه[١] وكان يطمع في السلطنة بعد وفاته واستطاع أن يمد نفوذه على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ويقيم الخطبة لنفسه في بغداد[٢]. وقد قتل تتش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) في أثناء صراعه مع السلطان بركياروق، وانفرد ابنه دقاق (بضم الدال) بحكمها، فاتخذ طغتكين «أتابك» له، فحكم البلاد باسمه[٣].

وقد استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى آل حكمها إلى أسرة زنكي سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) باستيلاء نور الدين محمود بن زنكي عليها لتقوية جيوشه للوقوف في وجه الصليبيين[٤]، ثم انتقل هذا النفوذ إلى الأيوبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي قاد أمورها إلى الأفضل، ثم انتقل هذا الحكم إلى العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين[٥].

---

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٥ - ٩٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٩٠.
(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠٣. Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 161.
(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٨٨ - ١٩٧.
(٥) Lane-Poole. op. cit: pp. 213-215

(٢) بيت زنكي

٥٢١ ـ ٦٣١ هـ	(١) أتابكة الموصل	١١٢٧ ـ ١٢٣٤م
٥٢١	عماد الدين زنكي (مع حلب)	١١٢٧
٥٤١	سيف الدين غازي الأول	١١٤٦
٥٤٤	قطب الدين مودود	١١٤٩
٥٦٥	سيف الدين غازي الثاني	١١٦٩
٥٧٦	عز الدين مسعود الأول	١١٨٠
٥٨٩	نور الدين أرسلان شاه الأول	١١٩٣
٦٠٧	عز الدين مسعود الثاني	١٢١٠
٦١٥	نور الدين أرسلان شاه الثاني	١٢١٨
٦١٦	ناصر الدين محمود	١٢١٩
٦٣١	بدر لؤلؤ	١٢٣٣
٦٥٧ ـ ٦٦٠	إسماعيل بن لؤلؤ	١٢٥٩ ـ ١٢٦٢

[المغول]

٥٤١ ـ ٥٧٧ هـ	(ب) أتابكة سورية	١١٤٦ ـ ١١٨١ م
٥٤١	نور الدين محمود	١١٤٦
٥٦٩ ـ ٥٧٧	الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود	١١٧٣ ـ ١١٨١

[أتابكة الموصل وسنجار، ٥٧٧ هـ ؛ ثم الأيوبيون ٥٧٩ هـ]

٥٦٦ ـ ٦١٧هـ	(ج) أتابكة سنجار	١١٧٠ ـ ١٢٢٠ م
٥٦٦	عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود	١١٧٠
٥٩٤	قطب الدين محمد	١١٩٧
٦١٦	عماد الدين شاهنشاه	١٢١٩

بيت زنكي

آقسنقر
١ ـ عماد الدين زنكي

- (أ) أتابكة الموصل
  - ٢ ـ سيف الدين غازي الأول (الموصل والجزيرة)
  - ٣ ـ قطب الدين مودود
    - ٤ ـ سيف الدين غازي الثاني
      - (د) أتابكة الجزيرة
        - (١) معز الدين سنجر شاه
          - (٢) معز الدين محمود
            - (٣) مسعود
          - مودود
          - غازي
    - ٥ ـ عز الدين مسعود الأول
      - ٦ ـ أرسلان شاه
        - ٧ ـ مسعود الثاني
          - ٨ ـ أرسلان شاه الثاني
          - ٩ ـ محمود
    - ج) أتابكة سنجار
      - ١ ـ عماد الدين زنكي الثاني
      - ٢ ـ محمد
        - ٣ ـ عماد الدين شاهنشاه
        - ٤ ـ محمود
- محمد
- (ب) أتابكة سورية
  - ١ ـ نور الدين محمود (سورية)
    - ٢ ـ الصالح اسماعيل ت ٥٧٧ هـ

بدرالدين لؤلؤ (وزير محمود بن مسعود الثاني)
(الموصل سنجار | الجزيرة ٦٣٧ ـ ٦٦٠ هـ)

- الصالح إسماعيل (الموصل ٦٥٧ ـ ٦٦٠ هـ)
- السعيد (حلب ٦٥٨ هـ)
- المظفر علاء الدين علي (سنجار ٦٥٧ ـ ٦٥٨ هـ)
- سيف الدين (الجزيرة ٦٥٧ ـ ٦٥٨ هـ)
- إلمجاهد

٦١٦ - ٦١٧هـ	محمود	١٢١٩ - ١٢٢٠م

[الأيوبيون]

٥٧٦ - ٦٤٨ هـ	(د) أتابكة الجزيرة	١١٨٠ - ١٢٥٠ م
٥٧٦	معز الدين سنجر شاه	١١٨٠
٦٠٥	معز الدين محمود بن سنجر	١٢٠٨
٦٣٩ - ٦٤٨	مسعود	١٢٤١ - ١٢٥٠

[الأيوبيون]

(٢) أتابكية الموصل[١] ٥١٦ - ٦٦٠/١١٢٢ - ١٢٦٢:

كانت الدولة السلجوقية في عهد سلاطينها الثلاثة الأول قوية الجانب مهيبة السلطان، فلم يجرؤ أحد من الأمراء أو القواد على الاستقلال بولايته. وهذا يرجع إلى اتحاد أفراد البيت السلجوقي وعدم تطلعهم إلى الملك إذ كان جل همهم المحافظة على استقلال دولتهم. ولكن الخلاف أخذ يدب إلى جسم الدولة بعد وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ) إذ قام الصراع بين أفراد البيت المالك رغبة في الاستيلاء على السلطنة مما أنهك قواهم العسكرية وبدد مواردهم المالية وأطمع فيهم القواد، فاستطاع بعضهم أن يؤسسوا إمارات محلية تتمتع بالاستقلال. وكان بعض هؤلاء القواد ينتمون إلى البيت السلجوقي والبعض الآخر من مماليك سلاطين هذا البيت وقواده.

وقد تركز معظم هذه الإمارات في الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية في أواسط وجنوبي آسيا الصغرى والجزيرة والشام وأذربيجان وغيرها. وهي مناطق وعرة المسالك تمتاز بغاباتها الكثيفة ويسكنها التركمان الشجعان. كما تمتاز هذه المناطق بحصونها المنيعة إذ كان بعضها محاطاً بسورين كمدينة آمد.

(١) وتسمى هذه الأتابكية أيضاً «دولة بني زنكي»، وقد ذكر لينبول (pp. 162-163) أن حكم هذه الأسرة بدأ في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) لأن عماد الدين زنكي تقلد في هذه السنة حكم بعض البلاد ومنها الموصل والجزيرة ونصيبين. واعتبر زامباور (ص ٢٢٦) سنة ٥١٦ هـ بداية حكم هذه الأسرة حتى تولى عماد الدين زنكي حكم مدينة واسط.

(١) آقسنقر:

كان آقسنقر (بسكون القاف الأولى وضم السين والقاف الثانية) الحاجب مملوكاً تركياً من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد تربى معه منذ صغره، حتى قيل إنه «لصيقه» ورافقه في طفولته وصباه. فلما تولى ملكشاه السلطنة سنة ٤٦٥ هـ بلغ آقسنقر منزلة رفيعة عنده وأصبح من كبار أمرائه وأخلص أصدقائه حتى إنه كان يعتمد عليه في كثير من أمور دولته، وعلت منزلته فلقبه قسيم الدولة[١] و«الحاجب»[٢].

ويظهر أن إيثار السلطان ملكشاه آقسنقر قد أثار حنق الوزير نظام الملك، فعمل على إبعاده.

وفي سنة ٤٧٧ هـ أمر ملكشاه آقسنقر بالمسير مع عميد الدولة بن فخر الدولة إلى الموصل والاستيلاء عليها من العقيليين[٣]. وفي سنة ٤٧٩ هـ اشترك آقسنقر مع السلطان ملكشاه في الاستيلاء على حلب من نواب العقيليين فيها، ثم قلده السلطان ولايتها[٤].

ولا يبعد أن تكون تولية آقسنقر حلب استجابة لوزيره نظام الملك الذي أراد إبعاد آقسنقر عن بلاط السلطان، فتسلم «قسيم الدولة» حلب وأعمالها كحماه ومنْبج واللاذقية وكفرطاب وفرض طاعته على صاحب شَيْزَر (٤٨١ هـ)[٥]. كما وسع نطاق ولايته فضم إليها حمص (٤٨٣ هـ) وحصن أفامية (٤٨٤ هـ). واشترك مع السلطان ملكشاه في مهاجمة العقيليين وانتصر عليهم على مقربة من الموصل[٦]. وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ضم آقسنقر مدينة تكريت إلى أملاكه[٧].

وفي سنة ٤٧٨ هـ أصبح آقسنقر نائباً لتتش (أخي السلطان ملكشاه) الذي طمع في السلطنة بعد وفاة أخيه (٤٨٥ هـ) وحاول استخلاصها لنفسه من بركياروق بن ملكشاه واستولى على معظم بلاد الجزيرة ثم على الموصل. ثم اتجه تتش إلى أذربيجان لمحاربة السلطان بركياروق، فلما تقارب الجيشان اتفق آقسنقر مع بعض الأمراء على الانضمام إلى

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٤.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٧ ـ ٢١٨.
(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٥.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٥٥.
(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(٦) المصدر نفسه ص ١٢١.
(٧) ابن الأثير: الباهر ص ١١ ـ ١٨.

السلطان بركياروق[١]، وضعفت بذلك قوة تتش فعاد إلى الشام. وقد عزا المؤرخون موقف آقسنقر إلى عدم تولية تتش إياه بعض البلاد التي استولى عليها وتقريبه بعض الأمراء عليه[٢].

أمر السلطان بركياروق آقسنقر بالمسير إلى حلب لوضع حد لمطامع عمه تتش، والتقى الجيشان على مقربة من هذه المدينة، فانتصرت قوات تتش وأسر آقسنقر ثم قتل سنة ٤٨٧ هـ.

وفي سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) حارب تتش السلطان بركياروق على مقربة من الري، ولكن الهزيمة حلت به وقتله أحد مماليك آقسنقر واستتب الأمر لبركياروق[٣].

(ب) عماد الدين زنكي:

كان عماد الدين زنكي عند وفاة أبيه في العاشرة من عمره، وكان يقيم بمدينة حلب، فحاطه السلطان بركياروق برعايته واهتم بتربيته، وأقطع مماليك أبيه الإقطاعات الواسعة في الموصل وعهد إليهم بتربيته[٤].

ولما بلغ عماد الدين زنكي مبلغ الرجال ظهرت مواهبه وشجاعته، واشترك مع ولاة الموصل في جميع المعارك التي نشبت مع الصليبيين في الجزيرة والشام وتل باشر ومعرة النعمان وطبرية وفي الرها وسميساط، وأظهر في هذه المعارك شجاعة نادرة أكسبته شهرة عظيمة بين المسلمين[٥]. ولما توفي السلطان محمد بن ملكشاه (٥١١ هـ) خلفه ابنه محمود في السلطنة. وكان السلطان محمد قد عهد إلى «جيوش بك» بتربية ابنه مسعود وجعله «أتابك» له على الموصل، فلما مات السلطان محمد دفع جيوش بك مسعوداً إلى التوجه إلى بغداد للجلوس على عرش السلطنة فيها، وانضم إليهما عماد الدين زنكي، ولكن هذه المحاولة انتهت بالإخفاق واستتب الأمر للسلطان محمود بن ملكشاه[٦].

وفي سنة ٥١٤ هـ شق جيوش بك عصا الطاعة ثانية على السلطان محمود. ولكن عماد الدين زنكي أبى الانضمام إلى «جيوش بك» الذي حلت به الهزيمة[٧]. وقد قدّ،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩.
(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٣٠ ـ ٣٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٤٦.
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٩. الباهر ص ١٧ ـ ٢٠.
(٦) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥.
(٧) ابن الأثير: الباهر ص ٢٢ ـ ٢٣.

السلطان محمود لعماد الدين زنكي موقفه. فولى آقسنقر البرسقي[1] ولاية الموصل (٥١٥ هـ) وأمره بتقديم عماد الدين زنكي على سائر الأمراء، والرجوع إلى رأيه ومشورته[2].

وقد استطاع عماد الدين زنكي أن يكتسب رضا سلاطين السلاجقة وأن يتنقّل في حكم البلاد بفضل ما أوتيه من حزم وشجاعة. ففي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) تقلد ولاية مدينة البصرة[3] فعمل على حمايتها من هجمات العرب، ولا سيما دُبَيْس بن صدقة أمير بني مزيد بالحلة؛ وقضى على الفوضى التي انتشرت في ربوعها، واستطاع كل من عماد الدين زنكي والبرسقي الذي كان يشغل منصب شحنة بغداد[4] أن يصدا هجمات دبيس بن صدقة ويشتتا جنده ويأسراه، وعاد الخليفة إلى بغداد[5].

وفي سنة ٥١٧ هـ عزل البرسقي من شحنكية العراق وأعيد إلى الموصل لجهاد الصليبيين. فاستدعى عماد الدين زنكي، وكان بالبصرة، لموافاته بالموصل، ولكنه آثر البقاء بأصبهان مع السلطان محمود الذي قربه إليه وزوجه من أرملة أحد كبار أمرائه في احتفال فخم شهده السلطان[6]. وفي السنة التالية أقطع هذا السلطان عماد الدين زنكي البصرة، فقضى على الفوضى التي سادتها، ثم ولاه واسط للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة في إرسال جيش للاستيلاء عليها[7]، وقد قدر السلطان كفاية زنكي فولاه شحنكية العراق[8].

وفي سنة ٥١٩ هـ ساءت العلاقة بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي سار إلى العراق لفرض سيطرته عليه، وأرسل الخليفة جيشاً إلى واسط للاستيلاء عليها، ولكن

---

(١) ويلقب أيضاً قسيم الدولة سيف الدين. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ ـ ٢٢٠.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٢٤.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٤٥.

(٤) الشحنة (بكسر الشين مع التشديد وسكون الحاء وفتح النون) في اللغة الجماعة من المحاربين يقيمون في البلد لحمايتها والدفاع عنها من هجوم العدو. وأطلق هذا اللفظ على من يقوم برياسة هؤلاء المحاربين. والشحنكية معناها محافظ المدينة أو الإقليم.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢. الباهر ص ٢٥ ـ ٢٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٦) ابن الأثير: الباهر ص ٢٧ ـ ٢٨ الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧.

(٧) الباهر ص ٢٨.

(٨) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٤٤.

الهـزيمة حلت بهـذا الجيش، ثم وصل السلطان إلى بغـداد ولحق به زنكي على رأس قـواته البرية والنهرية، واضطر الخليفة إلى طلب الصلح ،فتم له ما أراد[١]. ولم يطل مقام السلطان محمود ببغداد لاعتـلال صحته، فعـاد إلى أصبهان حـاضرة سلطنتـه. وقبل رحيله ولى عماد الدين زنكي شحنكية بغـداد والعراق بـالإضافـة إلى الولايـات التي كان يحكمهـا. وقد ظـل زنكي في هذا المنصب نحواً من أربعة أشهر، ثم صـدر منشور السلطان بـإقطاعـه الموصـل والجزيرة والشام[٢]، وسلمه ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي وجعله أتابك لهما. ومنذ ذلك الحين أطلق على زنكي لقب «أتابك»[٣].

وفي سنة ٥٢٢ هـ استولى عماد الدين زنكي على حلب التي كان الصليبيون يهددونها من حين إلى حين.

(حـ) علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة والسلطنة:

تقلّبت أحـوال عماد الـدين زنكي من حيث علاقتـه بالسلطان والخليفـة. على أن هذه التقلبات لم تزعزع مركزه في ولاية الموصل والجزيرة والشام، فقد سـار السلطان محمود إلى عمه سنجر شيخ السلاجقـة وصاحب الكلمـة العليا في السلطنـة لتصفية الخـلافات القـديمة بينهما. وكان دُبَيْس بن صدقة أمير الحلة عند سنجر، فطلب من السلطان محمود العمل على تحسين علاقته بالخليفة وتوليته الموصل والجزيرة والشـام بدلاً من عمـاد الدين زنكي، ولمـا وصل السلطان محمود إلى بغداد (المحرم سنة ٥٢٣ هـ) عرض على الخليفـة طلب سنجر، وكان عماد الدين زنكي قد علم بما دبر له، فأسـرع السير إلى بغـداد وبذل الأمـوال الضخمة لكل من الخليفة والسلطان لإقراره في منصبه من جديد.

وقد مال الخليفة والسلطان إلى تحقيق رغبة عماد الدين زنكي لعوامل كثيرة ترجـع إلى ما كان يضمره الخليفة من الكراهية والبغضاء لدبيس بن صدقة، لتحديه إياه وموقفـه العدائي منه وشنه الغارات على بغداد ومساعدته الصليبيين على المسلمين. أما السلطان محمـود فقد

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٣٨ - ٣١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤ - ١٩٦.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٣٥. الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ - ٢٤٨.
(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٧. انظر مادة عماد الدين زنكي في ابن خلكان ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠.

خشي أن يتخذ سنجر من تولية دُبَيْس على الموصل ذريعة لزعزعة نفوذه وتقويض سلطانه في العراق(١).

وفي سنة ٥٢٥ هـ ساءت العلاقة بين عماد الدين زنكي والخليفة المسترشد، فقد طلب الخليفة تسليم دبيس بن صدقة، وكان معتقلاً في دمشق، على أن عماد الدين زنكي أطلق دبيساً وأحسن إليه وأعطاه الأموال. ولعل زنكي أراد بذلك أن يراقب دبيساً ويحدّ من نشاطه إذا سولت له نفسه مناوأته. أما الخليفة فإنه كان يرمي من وراء تسليم دبيس أن يضع حدّاً لمناوأته إياه(٢).

وفي سنة ٥٢٥ هـ سمع عماد الدين زنكي وهو في طريقه إلى حمص نبأ وفاة السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه فطلب إلى الخليفة المسترشد أن يقيم الخطبة لألب أرسلان (وكان هو وأخوه الخفاجي تحت إشراف زنكي). وكان عماد الدين زنكي يرمي إلى الاستئثار بالنفوذ باسم هذا الأمير الصغير إذا آلت إليه السلطنة. لكن الخليفة اعتذر عن إجابة زنكي إلى طلبه بحجة أن ألب أرسلان لا يزال طفلاً غير صالح للحكم، وأن السلطان محمود كان قد عهد بالسلطنة وهو بأصبهان لابنه داود في الوقت الذي أقام عمال الأقاليم الخطبة لهذا السلطان الجديد، وأضاف إلى ما تقدم أنه في انتظار رأس سنجر كبير البيت السلجوقي وسلطان خراسان وما وراء النهر(٣).

وفي سنة ٥٢٦ هـ استمال مسعود (بن محمد بن ملكشاه) حاكم أذربيجان عماد الدين زنكي وطلب مساندته في المطالبة بعرش السلاجقة مقابل تقليده مدينة إربيل التي كانت تابعة له، وتم الاتفاق بينهما على المسير إلى بغداد لمطالبة الخليفة بإقامة الخطبة لمسعود والاعتراف به سلطاناً على العراق(٤). على أن سلجوقشاه سبق أخاه مسعوداً وسار إلى بغداد على رأس جيش كبير. ولكنه توجه (وهو في طريقه إلى بغداد) إلى تكريت لإيقاف تقدم زنكي(٥) وعلى مقربة من هذه المدينة دارت بين الفريقين موقعة انتهت بانهزام عماد الدين زنكي، فيمم شطر تكريت حيث أكرم نجم الدين أيوب وفادته وسهل له سبيل عودته إلى الموصل. ومن هنا نشأت العلاقة بين بيت زنكي والبيت الأيوبي، تلك العلاقة التي كان لها

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٩.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ - ٢٣٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٤٦.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٥٧، ج ١١ ص ١٣٨.

أثـر بعيد في الأحـداث التاريخيـة التي ظهر فيهـا نور الـدين محمـود بن عمـاد الـدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية في عصره[١].

وقد أدرك مسعود وسلجوقشاه أن الصـراع بينهما يتيـح الفرصـة لتدخـل عمهما سنجـر على إحباط هذه الخطة، فاستمـال إليه عمـاد الدين زنكي ودبيس بن صـدقة، وطلب إليهمـا التوجه نحو بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة له فيها ثم لطغرل بن محمـد بن محمود بن ملكشاه من بعده، وتعهد سنجر بإضافة منصب شحنكية بغداد الى عماد الدين زنكي[٢]، وبأن يقـطع «دبيس» إمارة الحلة[٣] ولكن سنجـر انتصر على جيـوش مسعود وسلجـوقشـاه وأجلس طغـرل بن محمد على عـرش سلطنة العـراق، ثم حلت الهزيمـة بـزنكي ودبيس، واستـطاع مسعود أن يجلس على عرش سلطنة العراق وإيران بموافقة عمه سنجر.

وكان من أثر هذه المعارك أن سـاءت العلاقـة بين عماد الـدين زنكي والسلطان مسعود من ناحية وبين الخليفـة المسترشـد من ناحيـة أخرى، وفي شهـر رمضان سنـة ٥٢٧ هـ سار الخليفة إلى الموصل على رأس جيش قيل إنه بلغ ثلاثين ألف مقاتل وحاصرها ثمانين يـوماً. واتخذ مسعود من حصار الخليفة الموصل فرصة لـلاستيلاء على بغـداد بمساعـدة دبيس بن صدقة. ولـذلك اضـطر الخليفة إلى العـودة إلى بغداد، وعقـد الصلح مع زنكي (٥٢٨ هـ) وتبودلت الهدايا بينهما، وأرسل ابنه سيف الدين غازي يؤكد طاعته للخليفة وولاءه له[٤].

ثم طلب الخليفة المسترشد من عماد الدين زنكي رفع الحصار عن دمشق والتوجه إلى بغداد ليشترك في النزاع الذي قام بينه وبين مسعـود (٥٢٩ هـ)، ودارت الحرب بين الخليفـة والسلطان قبل وصول جيش زنكي، وأسر الخليفة ثم قتل على أيدي الباطنية، وأخذت البيعة للراشد (ذو القعدة سنة ٥٢٩ هـ)[٥]. وكان من أثر انهزام جيش الخليفة المسترشد وزنكي أن ضاعت الفرصة في تولية ألب أرسلان عرش السلطنة، الأمـر الذي قـد يؤدي إلى سيطرة كـل من الخليفة وزنكي على شئون العراق باسم السلطان الصغير. كما كان من أثر هذه الهزيمـة أن زاد التوتر بين عماد الدين زنكي والسلطان مسعـود الذي حـاول اغتيال زنكي ليتخلص من

---

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤، ج ٦ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) الشحنكية أو الشحنة معناها منصب محافظ المدينة أو الإقليم كما تقدم.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ٢٦. ابن الأثيـر: الكامـل ج ١٠ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨، كتاب البـاهر ص ٤٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢، ٦؛ وكتاب الباهر ص ٤٧، ٤٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٠ ـ ١١؛ وكتاب الباهر ص ٤٩ ـ ٥٠.

نفوذه، فاستدعاه للتوجه إلى أصبهان. ولكن دبيس بن صدقة أخبر زنكي بنوايا السلطان وحذره من غدره. ولما علم السلطان مسعود بما فعله دبيس أمر به فقتل، وعلم زنكي بذلك فأسف على مقتل دبيس وقال: «فديناه بالمال وفدانا بالروح».

أراد الخليفة الراشد أن يثأر لقتل أبيه، فألب الأمراء على السلطان مسعود الذي رماه بتدبير هذه المؤامرة التي انتهت بقتل أبيه واستعان بعماد الدين زنكي، وأقيمت الخطبة لداود ابن محمود (بن محمد بن ملكشاه) في بغداد. ثم قام النزاع بين الخليفة الراشد والأمراء الذين حثهم على قتال مسعود الذي توجه إلى بغداد. واستطاع عماد الدين زنكي أن يصد قواته أول الأمر، ثم اضطر إلى الخروج من بغداد بصحبة الخليفة متجهاً إلى الموصل. ودخل مسعود بغداد، وخلع الخليفة الراشد وولى المقتفي الخلافة (في ١٨ ذي الحجة سنة ٥٢٩ هـ)(١).

وقد اقتصرت اقامة الخطبة للخليفة الجديد المقتفي على بعض أنحاء العراق، على حين استمرت للخليفة الراشد الذي كان يقيم في الموصل ويتمتع بحماية زنكي. واستطاع أعوان المقتفي أن يقنعوا عماد الدين زنكي بأخذ البيعة للخليفة الجديد، فكافأه بإقطاعه بعض أملاكه الخاصة وزاد في ألقابه (٥٣٠ هـ)(٢). وأخذ كل من الخليفة الجديد وعماد الدين زنكي العهود والمواثيق كل على الآخر، وأرسل محضر بخلع الراشد وتولية المقتفي، فقرىء على منابر مساجد الموصل وأقر قاضي القضاة والوزير وزنكي. عند ذلك اتجه الراشد إلى مراغة (في أذربيجان) ثم سار إلى أصبهان حيث قتل على أيدي الباطنية كما قتل أبوه من قبل(٣). وقد عزا ابن الجوزي(٤) موقف زنكي إلى ضعف قواته العسكرية خلال صراعه ضد السلطان مسعود وتعرض إمارته لهجوم جيوشه وخوفه من بطش السلطان سنجر. وكان زنكي يرمي إلى تحقيق سياسته وهي توحيد الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحدة تقف في وجه الصليبيين.

وقد أدى موقف عماد الدين زنكي من السلطان مسعود إلى تحسن العلاقة بينهما. وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٣٢ هـ بعث السلطان مسعود رسوله إلى الموصل يحمل الخلع إلى زنكي.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٥، ١٧. ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٦٥ - ٦٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٨ - ١٩؛ الباهر ص ٥٤.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج ١ ص ٧٠.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم: ج ١٠ ص ٦٧.

وقد أدرك عماد الدين زنكي خطورة الأحوال في شمالي الشام وتهديد الصليبيين مدينة حلب. فأرسل قاضيه إلى السلطان مسعود يطلب منه العودة لدرء هذا الخطر، على أن القاضي خشي أن تستخدم قوات السلطان في تهديد إمارة زنكي نفسها فقال: «إنني أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة فيرسل قواته، فإذا وصلوا إمارتنا استولوا عليها». على أن عماد الدين زنكي آثر المصلحة الدينية على المصلحة الشخصية، فرد على قاضيه ردّا تتمثل فيه هذه الروح الإسلامية العالية فقال: «إن الصليبيين قد طمعوا في البلاد، وإن هم استولوا على حلب لم يبق في الشام إسلام. وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار». وفي شهر رمضان سنة ٥٣٢ هـ وصل رسول السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب مدينة حمص يهنئه على ما أحرزه من نصر على الصليبيين ويخلع عليه الخلع التي أرسلها إليه السلطان ومنحه[١] كثيراً من الألقاب مثل: الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحد عماد الدين... زنكي بن أق سنقر نصير أمير المؤمنين[٢].

أما علاقة عماد الدين زنكي بالسلطان مسعود فقد ساءت في سنة ٥٣٨ هـ حين حاول هذا السلطان الاستيلاء على إمارة زنكي بسبب اتساع رقعة إمارته وضخامة ثروة بلاده وعظم قوته الحربية[٣]. وكان زنكي يرمي من وراء سياسته إلى تأليب أصحاب الأطراف على السلطان مسعود السلجوقي ليشغله عن الالتفات إليه، وبذلك يستطيع أن يوطد نفوذه في بلاد الموصل من جهة، ويوسع رقعة بلاده على حساب البلاد الإسلامية المجاورة من جهة أخرى[٤]، ويحارب الصليبيين من جهة ثالثة. وبهذه السياسة استطاع عماد الدين زنكي أن يستولي على الرها من أيدي الصليبيين (٥٣٩/١١٤٤) الذين عدوا ضياعها نذيراً لزوال نفوذهم في بلاد الشام وفتح الطريق أمامهم إلى العراق. لذلك كانت سياسة السلطان مسعود إزاء عماد الدين زنكي تقوم على المداراة والمهادنة بسبب الدور الخطير الذي كان يقوم به

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٣ - ٢٤؛ الباهر ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٨٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٣٨.

(٤) أقام بعض الأمراء إمارات محلية تتمتع بالاستقلال الفعلي. ومن أهم هذه الإمارات من حيث علاقتها بحكم عماد الدين زنكي: إمارة أرتق، وإمارة ديار بكر، وإمارة أرمينية. وهناك أتابكيات أخرى نذكر منها أتابكية كيفا، وشاهات أرمينية، وأتابكية فارس، وأتابكية كرمان. وهناك مدن متفرقة يحكم كلاً منها أمير شبه مستقل مثل جزيرة ابن عمر (وكانت تابعة للموصل)، وسنجار، وحران، والرقة، وشهرزور، والحديثة، وعانة.

في دفع الخطر الصليبي، إذ أن إمارته كانت في الواقع تقف سداً منيعاً في وجه ذلك الخطر الذي لا يبعد أن يمتد إلى بلاد السلطان مسعود نفسه.

وقد حاول عماد الدين زنكي أكثر من مرة أن يفرض نفوذه على مدينة دمشق، ولكنه لم يستطع تحقيق سياسته لمساعدة الصليبيين أتابكة هذه المدينة. إذ كانوا يدركون أن استيلاء زنكي على هذه المدينة يهدد بقاءهم في بلاد الشام، لأهمية موقع دمشق الحربي، ووقوعها على الطريق التجاري بين البلاد الواقعة على نهر الفرات ومصر. وقد استرعت دمشق أنظار كل من عماد الدين زنكي وأبنائه من بعده، كما شغلت بال حكام بيت المقدس، حتى تمكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي من الاستيلاء عليها سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، ومهد بذلك السبيل لاستيلائه على مصر.

(٣) أتابكية حلب:

قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) كما ذكرنا، وانقسمت أملاكه بين أبنائه، فتولى نورالدين محمود مدينة حلب وسار على سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، وتولى سيف الدين غازي الموصل وبلاد الجزيرة[١]. وبعد فترة من الزمن زال الفرع السوري وحل محله فرع آخر استقر في سنجار، ثم قامت فيما بعد دويلة أخرى في الجزيرة، وبذلك أخلى فرع سنجار السبيل للأيوبيين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) أما الفروع الأخرى فقد دخلت تحت حكم لؤلؤ مملوك ووزير بيت زنكي في الموصل، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت هذه الدويلات جميعاً تحت حكم المغول.

وقد عمل محمود على توحيد البلاد الشامية تحت سلطانه ليستطيع محاربة الصليبيين، واتخذ الصليبيون من موت عماد الدين زنكي فرصة لاسترداد مدينة الرها، ولكن ابنه نور الدين محمود لم يمكنهم من الاستيلاء عليها[٢]. وبلغ من أهمية الرها في نظر الصليبيين بعد استيلاء عماد الدين زنكي عليها وبقائها في أيدي المسلمين أن فكر الصليبيون في إرسال الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام لاسترداد الرها من أيدي المسلمين. وقد وصلت هذه الحملة في عهد نور الدين محمود، غير أن زعماءها انحرفوا عن هدفهم الأصلي واتجهوا صوب دمشق، وبذلك أخطأ الصليبيون باتجاههم إلى هذه المدينة التي كانت الحليف الوحيد للصليبيين ضد نور الدين محمود[٣]. وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى إخفاق الحملة الصليبية الثانية.

---

(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ١٥٧ ـ ١٥٩. (٣) Barker. The Crusades, p. 54:

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٥١ ـ ٥٢.

وقد فكر نور الدين محمـود في الاستيلاء على دمشق ليتحصن بهـا ضد الصليبيين وتم لـه ما أراد سنـة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، كما استـطاع أن يستـولي على بعض القـلاع الصليبيـة الأخرى[١]، وأن يمد نفوذه إلى مصر بمسـاعدة أسـد الدين شيركوه وابن أخيـه صلاح الـدين الأيـوبي الـذي أصبـح أكبـر زعيم في الشـرق بعـد وفـاة نـور الـدين محمـود سنـة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م). فقد توجه صلاح الدين إلى حلب بحجة إنقـاذ الصالـح إسماعيـل بن نور الدين محمود الذي لم يـزد عمره على إحـدى عشرة سنـة من أيدي أفـراد حاشيتـه الذين تحالفوا مع «ريمند» صـاحب طرابلس. ولكن صـلاح الدين رفـع الحصار عن هـذه المدينـة حين سارع «ريمند» إلى مساعدة أمير حلب.

وفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) سار سيف الدين غازي الثـاني (ابن قطب الـدين مودود) أتابك الموصل لمساعدة ابن عمه صاحب حلب. والتقت القوتان المتحالفتان بصـلاح الدين عند الموضع المسمى «قرون حماه» حيث انتصر صلاح الدين، كما انتصر على سيف الدين غازي في السنة التالية. وبذلك خضعت بلاد الجزيرة لسلطان صلاح الدين، فاعترف له أمير حلب بالسيادة على كافة البلاد الممتدة من مصر إلى نهر الفرات[٢].

وفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) توفي الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، وكان قـد أوصى قبل وفاته بولاية حلب لابن عز الدين مسعود أمير الموصـل. ولتباعـد هاتين الـولايتين بعضهـا عن بعض عرض عمـاد الدين صـاحب سنجار على عز الدين مسعـود أن يأخـذ عماد الدين «حلب» ويأخذ عز الدين «سنجار». وبذلك تصبح أملاك عز الدين متقاربة بعضهـا من بعض. وكانت سياسة عماد الدين زنكي ترمي إلى محاربة لصلاح الدين والحد من سلطانه لهذا لم ير صلاح الدين بدّاً من السيـر إلى مدينـة حلب (١١٨٣/٥٧٩) واضطر عماد الدين إلى تسليمها إليه مقابل إعادته إلى ولايته الأصيلة سنجار[٣]. وبذلك آلت ولاية حلب إلى صلاح الدين ثم إلى ابنه الطاهر من بعده[٤] واستمرت في أيدي الأيوبيين حتى استولى عليها هولاكو التتاري وفر الناصر صاحب حلب إلى الكرك (بفتح الكاف والراء) حيث تحصن ضد المغول[٥].

---

(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص. . . .

(٢) Lane-Poole. Hist, of Egypt in the Middle Ages, pp. 199-200

(٣) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٣١ ـ ٢٣٤ الكامل ج ١١ ص ٢٢.

(٤) لينبول. A. Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 213.

(٥) Raschid-El din, Histoire des Mongols de la Perse, p. 341.

(٤) أتابكية سنجار ٥٦٦ ـ ٦١٧/ ١١٧٠ ـ ١٢٢٠ :

أسس هذه الأتابكية عماد الدين زنكي (الثالث) ابن قطب الدين مودود صاحب الموصل الذي كان قد أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني، ثم عدل عن وصيته لابنه الأصغر سيف الدين غازي الأول بإيعاز أحد خواصه[1] ويدعى فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين لمسايرته عمه نور الدين محمود صاحب حلب. كما كان يضمر له العداء، فلما توفي قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ، وعلم نور الدين محمود باستبداد فخر الدين عبد المسيح بابن أخيه سيف الدين وسوء سياسته قال: «أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم». ثم سار نور الدين محمود إلى الموصل واستولى (وهو في طريقه إليها) على مدينة سنجار، ولما حاصر نور الدين الموصل أسرع فخر الدين عبد المسيح إلى تسليمها إليه، فولاها ابن أخيه سيف الدين غازي[2]، كما ولى سنجار وأعمالها عماد الدين زنكي الثاني (٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م)[3].

وقد أدى هذا التقسيم إلى قيام الخلاف بين الأخوين لتولي عماد الدين زنكي مدينة الموصل وأعمالها على حين تولى أخوه الأكبر إمارة سنجار التي تقل عنها أهمية[4].

وقد تجلى هذا الخلاف بين هذين الأخوين حين استنجد الصالح إسماعيل (بن نور الدين محمود) أمير حلب بسيف الدين غازي صاحب الموصل (٥٧٥ هـ) لمساعدته ضد صلاح الدين. فقد طلب سيف الدين من أخيه عماد الدين أن يمده بالجند ليسير بهم إلى بلاد الشام، فرفض أن يجيبه إلى طلبه، وكان ذلك بإيعاز من صلاح الدين الذي أطمعه في الملك بحجة أنه أكبر من أخيه سيف الدين غازي. وقد انتهى هذا الخلاف بحصار سيف الدين غازي مدينة سنجار، ولكنه عاد فرفع هذا الحصار خوفاً من أن يسرع صلاح الدين بعد انتصاره في بلاد الشام إلى نجدة خليفة عماد الدين[5].

وصفوة القول أن أسرة زنكي حكمت إمارة سنجار إلى أن استولى عليها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ثم خرب المغول معظم بلاد هذه الإمارة وما جاورها سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م)[6].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٣) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٦٣.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٣٢.

(٥) أتابكية الجزيرة ٥٧٦ ـ ٦٤٨/ ١١٨٠ ـ ١٢٥٠ :

ذكرنا من قبل أنه بعد وفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ انقسمت أملاكه بين ولديه نور الدين محمود الذي قبض على زمام الحكم في سورية، وسيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة، ثم استقر فرع آخر في سنجار، ثم قامت دويلة أخرى في الجزيرة.

ذلك أنه لما حضرت سيف الدين غازي صاحب الموصل الوفاة سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) أراد أن يوصي بأن يخلفه ابنه معز الدين سنجر شاه، وكان في الثانية عشرة من عمره. على أن أمراء دولته ذكروا له ما كان من تفاقم خطر صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام، وأشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود لما عرف به من الشجاعة ورجاحة العقل. فنزل سيف الدين غازي على رأيهم وولى أخاه حكم الموصل من بعده؛ وولى ابنه سنجر شاه مدينة الجزيرة وقلاعها[١]. ولذلك قامت هناك أتابكية صغيرة مستقلة.

على أن سنجر شاه كان سيِّئ السيرة مدمناً الشراب، محبّاً لمجالس النساء مولعاً بالطرب. وقد اتصف عهده بالعسف والظلم واستحلال دماء الأبرياء والأشرار على السواء. وبلغ من تعسفه أنه كان يعاقب بقطع الألسنة والآذان والأنوف، وامتد شره إلى أبنائه فأقصاهم عن قصره، وقد روى المؤرخون أن ابنه معز الدين محمود قتله سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) وقد لعبت الخمر بلبه وهو في أحد مجالس النساء، وتولى حكم بلاد الجزيرة من بعده ابنه وقاتله معز الدين محمود.

وقد خضع أمراء الجزيرة لصلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يوحد أمراء شمالي العراق وهي الموصل وسنجار والجزيرة وإربل وغيرها، وأن يوجهها لحرب الصليبيين[٢]، وكانت هذه البلاد من نصيب العادل وأولاده من بعده حتى غزاها المغول.

(٦) أتابكية إربل ٥٣٩ ـ ٦٣٠/ ١١٤٤ ـ ١٢٣٢ :

في سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عين عماد الدين زنكي أحد قواده الأتراك، وهو زين الدين علي بن بكتكين نائباً عنه في الموصل. وفي سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ضم زين الدين سنجار وتكريت وإربل[٣] وغيرها تحت نفوذه. وعند وفاة زين الدين علي في إربل (٥٦٣ هـ /١١٦٧ م) هرب ابنه الأكبر مظفر الدين كوكبُري إلى حران، وانتقل حكم إربل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) Lane-Poole, A. History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

(٣) هي قلعة حصينة من أعمال الموصل وأهلها أكراد استعربوا.

إلى ابنه الأكبر زين الدين يوسف تحت وصاية الأمير مجاهد الدين قيماز. وعند وفاة يوسف سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) عين صلاح الدين الأيوبي صاحب النفوذ في سورية وبلاد الجزيرة، مظفر الدين كوكبري خلفاً لأخيه في إربل وشهرزار، وأعطى البلاد التي كان يحكمها من قبل، وهي حران والرها وسُمَيْساط إلى ابن أخيه تقي الدين عمر. وقد مات كوكبري سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م). ولما لم يكن له أولاد ذكور أوصى بأن يكون حكم إربل إلى الخليفة العباسي، فظلت تحت حكمه حتى استولى عليها المغول أثناء غزوهم البلاد الإسلامية[١].

بيت بكتجين أتابكة إربل وغيرها

هجرية		ميلادية
٥٣٩	زين الدين علي كوجك بن بكتجين	١١٤٤
٥٦٣	زين الدين يوسف بن علي (في إربل) ت ٥٨٦ هـ	١١٦٧
٥٦٣	مظفر الدين كوكبُري بن علي (في حران)	١١٦٧
٥٨٦ ـ ٦٣٠	مظفر الدين كوكبري بن علي (في إربل)	١١٩٠ ـ ١٢٣٢
	[العباسيون ـ المغول]	

(٧) أتابكية ديار بكر[٢]:

كان أرتق (بن أكْسب) مؤسس هذه الأسرة قائداً تركياً من قواد الدولة السلجوقية. وقد تقلد ولاية بيت المقدس بعد أن فتحها تُتُش السلجوقي صاحب دمشق، وقد تولى سُكْمان وإيلغازي (ابنا أرتق) اللذان اشتهرا في حروبهما مع الصليبيين بفلسطين حكم ديار بكر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) إلى أن ضم الفاطميون هذه المدينة سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م)، ثم عادا إلى الرها والعراق على التوالي. وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١) عين السلطان محمد السلجوقي إيلغازي والياً على بغداد، وفي السنة نفسها قلد أخاه سُكمان حصن كَيْفا بديار بكر، فضم إليها ماردين؛ ولكن حكمها انتقل في سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) إلى أخيه إيلغازي، ومن ثم أَصبح هناك فرعان من بيت أرتق يتوليان الحكم في كيْفَا وماردين.

وبعد هذه الأعمال الحربية التي قام بها آل أرتق في كيفا على يد سكمان الذي حارب «بولدوين» وجوكلين Jocelin من الفرنجة عاش هذا الفرع في اطمئنان، يدين حكامه بالطاعة

---

(١) op. cit. p. 165

(٢) تعرف هذه الأتابكية بالدولة الأرتقية نسبة إلى مؤسسها أرتق بن أكسب، وقد شملت هذه الأتابكية ماردين وميافارقين وبعض الحصون المجاورة كحصن كيفا.

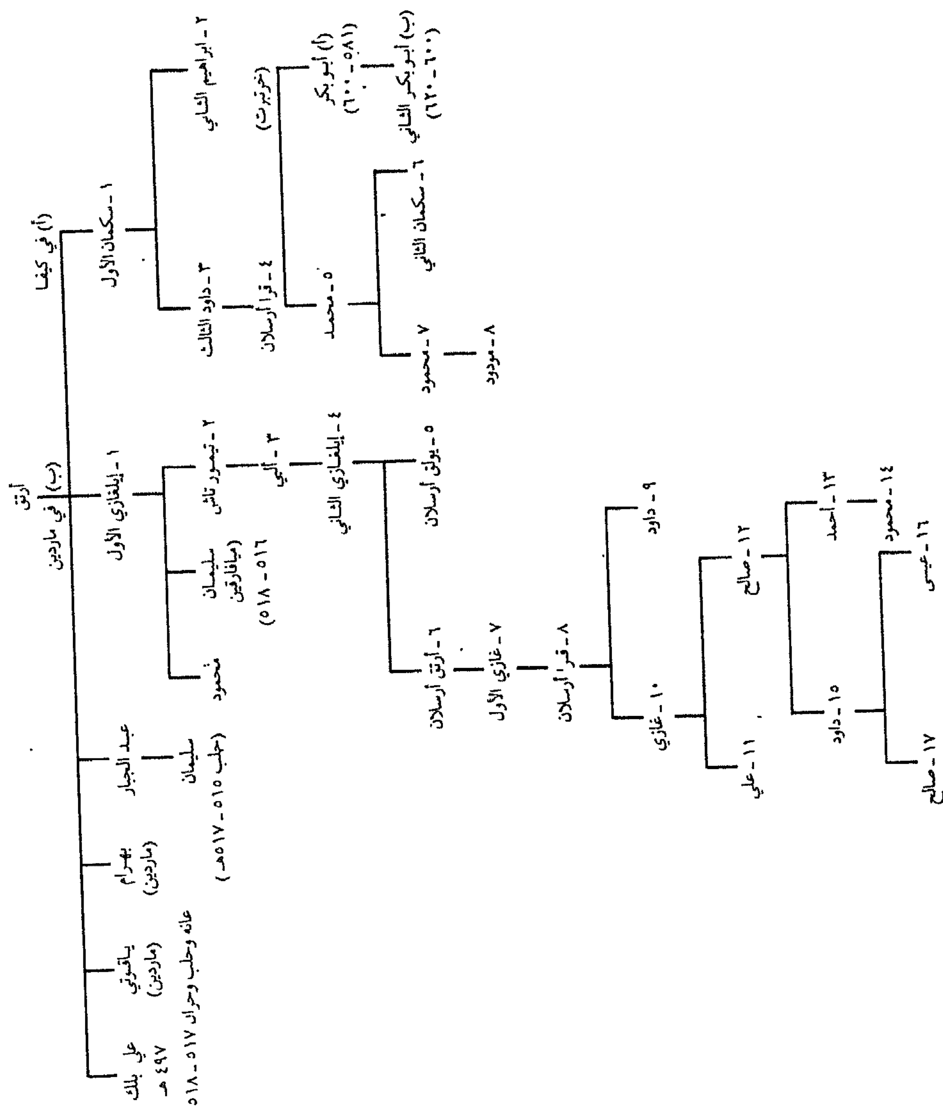
لصلاح الدين الأيوبي الذي كافأهم بضم آمد إلى بلادهم (٥٧٩ هـ /١١٨٣ م)، وظل هذا الفرع حتى انقرض على يد السلطان الكامل الأيوبي (٦٢٩ هـ /١٢٣١ م). وقد حكم فرع صغير من بيت أرتق في كيفا الذين كانوا يحكمون خَرْتَبِرْت بديار بكر من سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) إلى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م). أما بنو أرتق بماردين فقد كوفىء إيلغازي (مؤسس بني أرتق بماردين الذي يعد من أبطال المسلمين في جهاد الصليبيين) بولاية حلب سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م)، ثم قلده السلطان محمود السلجوقي ولاية ميافارقين (بديار بكر)، واستمر أبناؤه يحكمون ماردين وميافارقين حتى سنة ٥٨٠ هـ(١١٨٤ م).

على أن موقع هذه الدولة كان من العوامل التي أضعفت وحدة المسلمين بسبب المنازعات التي قامت بينهم. ثم غزا المغول معظم مدن هذه الأتابكية سنة ٦٢٨ هـ وعاثوا فيها فساداً في أثناء مطاردتهم جلال الدين المنكبرتي آخر شاهات الدولة الخوارزمية، وقد استسلمت الدولة الأرتقية لتيمورلنك ودخلت في دولة قَراقيونلي Karâ-Kuyunli المغولية سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م). على أن أهمية أمراء ماردين قد زالت بعد أن استقر نفوذ الأيوبيين في سورية وبلاد الجزيرة، ولكن حلب قد سقطت سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) على يد بَلَك بن إبراهيم أحد زعماء بيت أرتق الذي استولى على «عانة» (٤٩٧ هـ) وخرتَبِرْت (٥١٥ هـ). وكان بلك بن إبراهيم من القواد الذين اشتهروا بحروبهم مع الصليبيين[1].

(٨) بيت أرتق في كيفا:

هجرية		ميلادية
٤٩٥	معين الدولة سُكمان الأول	١١٠١
٤٩٨	إبراهيم	١١٠٤
٥٠٢	ركن الدولة داود	١١٠٨
٥٤٣	فخر الدين قرا أرسلان	١١٤٨
٥٧٠	نور الدين محمد	١١٧٤
٥٨١	قطب الدين سُكمان الثاني	١١٨٥
٥٩٧	ناصر الدين محمود	١٢٠٠
٦١٩ ـ ٦٢٩	ركن الدين موعود	١٢٢٢ ـ ١٢٣١

(١) زامباور: الأسرات الإسلامية ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، لينبول: The Muhammadan Dynasties, pp. 166-169.


أرتق
(أ) في كيفا
١ ـ سكمان الأول
٢ ـ ابراهيم الثاني
٣ ـ داود الثالث
٤ ـ قرا أرسلان
(خرتبرت)
(أ) أبو بكر (٥٨١ ـ ٦٠٠)
(ب) أبو بكر الثاني (٦٠٠ ـ ٦٢٠)
٥ ـ محمد
٦ ـ سكمان الثاني
٧ ـ محمود
٨ ـ مودود
(ب) في ماردين
١ ـ إيلغازي الأول
٢ ـ تيمور تاش
٣ ـ ألبي
٤ ـ إيلغازي الثاني
٥ ـ يولق أرسلان
٦ ـ أرتق أرسلان
٧ ـ غازي الأول
٨ ـ قرا أرسلان
٩ ـ داود
١٠ ـ غازي
١١ ـ علي
١٢ ـ صالح
١٣ ـ أحمد
١٤ ـ محمود
١٥ ـ داود
١٦ ـ عيسى
١٧ ـ صالح
سليمان (ميافارقين ٥١٦ ـ ٥١٨)
محمود
عبد الجبار
سليمان (حلب ٥١٥ ـ ٥١٧هـ)
بهرام (ماردين)
ياقوتي (ماردين)
علي بلك ٤٩٧ هـ
عانه وحلب وحران ٥١٧ ـ ٥١٨

[الأيوبيون]

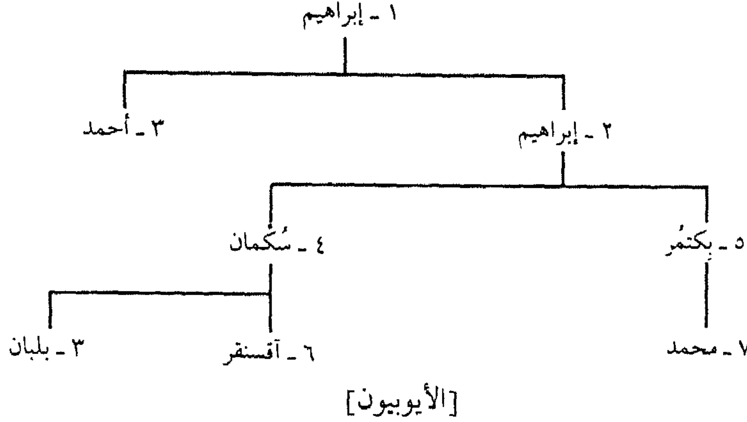
٥٠٢ ـ ٨٠١ هـ	(ب) بيت أرتق في ماردين	١١٠٨ ـ ١٤٠٨ م
٥٠٢	نجم الدين إيلغازي	١١٠٨
٥١٦	حسام الدين تُمُرتاش	١١٢٢
٥٤٧	نجم الدين ألبي	١١٥٢
٥٧٢	قطب الدين إيلغازي	١١٧٦
٥٨٠	حسام الدين يولُقْ ـ أرسلان	١١٨٤
٥٩٧	ناصر الدين أُرتق ـ أرسلان المنصور	١٢٠٠
٦٣٧	نجم الدين غازي الأول السعيد	١٢٣٩
٦٥٨	قرا ـ أرسلان المظفر	١٢٦٠
٦٩١	شمس الدين داود	١٢٩٢
٦٩٣	نجم الدين غازي الثاني المنصور	١٢٩٤
٧١٢	عماد الدين علي ألبي العادل	١٣١٢
٧١٢	شمس الدين صالح	١٣١٢
٧٦٥	أحمد المنصور	١٣٦٣
٧٦٩	محمود الصالح	١٣٦٧
٧٦٩	داود المُظَفَّر	١٣٦٧
٧٧٨	مجد الدين عيسى الطاهر	١٣٧٦
٨٠٩ ـ ٨١١	صالح	١٤٠٦ ـ ١٤٠٨

[قَرَاقُيُونْلي]

(٩) شاهات أرمينية:

هجرية		ميلادية
٤٩٣	سُكْمان القُطبي	١١٠٠
٥٠٦	ظاهر الدين إبراهيم شاه أرمان	١١١٢
٥٢١	أحمد	١١٢٧
٥٢٢	ناصر الدين سكمان الثاني	١١٢٨
٥٧٩	سيف الدين بكتمُر	١١٨٣
٥٨٩	بدر الدين آقْسُنْقُر	١١٩٣

٥٩٤	المنصور محمد	١١٩٨
٦٠٣ ـ ٦٠٤	عز الدين بَلْبَان	١٢٠٦ ـ ١٢٠٧



[الأيوبيون]

تطلعت أنظار العرب منذ أيام عثمان بن عفان إلى حكم أرمينية[1] وكان يتنازعها البيزنطيون والعرب. ولما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) دعا أهل أرمينية إلى الطاعة مع دفع الجزية فجنح أهلها إلى الطاعة وظلت خاضعة للحكم العربي. وعلى الرغم من الحروب المريرة التي قامت بين العرب الأوائل والأرمن نهضت البلاد في عهدهم. ثم حكمها العباسيون. ولكن ظهور القومية الأرمنية أطاح بالحكم العربي واستولى عليها البيزنطيون وظلت على ذلك حتى استردها قواد السلاجقة الذين أخذوا يشنون الغارات عليها من سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م).

على أن السلاجقة نهضوا في عهد ألب أرسلان الذي وجه حملاته إلى أرمينية من الري. فأخضع أران والكرج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي أرمينية. وسار الإمبراطور رومانوس الرابع (٤٦٣/١٠٧١ م) على رأس جيش جرار بلغ مائة ألف مقاتل لصد التقدم السلجوقي، واسترد حصن «ملاذجَرْد» أمنع القلاع الواقعة على الحدود. غير أن السلاجقة أرغموا الجيش البيزنطي على الارتداد إلى بلاد «بين النهرين» وأسر ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي. وكانت هذه الهزيمة إيذاناً بانتهاء حكم الدولة البيزنطية، واقترنت بسقوط بلاد الأناضول العربية وأرمينية وكبادوكيا وهجرة جماعات كبيرة من الأرمن نحو الغرب فراراً من

---

(١) بفتح وكسر الهمزة.

الغزاة، وأسسوا في كيليكيا دولة أرمينية مستقلة استمرت حتى زالت على أيدي المغول في آسيا الصغرى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

وقد انقسمت أرمينية في عهد الحكم السلجوقي إلى مناطق إدارية تختلف مساحتها، ويحكم كلاً منها أمير يتمتع بقسط كبير من الاستقلال. وكانت دولة أخلاط الواقعة في الجنوب الغربي والتي أسسها سُكْمان القطبي سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م)(١) أقوى الدويلات إذا قورنت بالدويلات السلجوقية التي قامت في أرمينية، على الرغم من أن هذه الإمارة التي كان أغلب سكانها من الأرمن لا تمثل إلا خمس بلاد أرمينية؛ ولما انقرضت أسرة بني سُكْمان (٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) انتقل الحكم إلى «مملوك بك تيمور» (١١٨٥ - ١١٩٧ م) ثم استولى الأيوبيون على هذه البلاد (٦٠٤/١٢٥٧)، وأقام السلطان الملك العادل (الذي أعاد توحيد دولة أخيه صلاح الدين) ابنه الأوحد أميراً على خلاط، ثم خلفه أخوه الأشرف(٢). ولما مات العادل استقل الأشرف بحكم هذه البلاد ووسع رقعة بلاده حتى بلغت بلاد الأكراد(٣). وفي سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) سقطت مملكة خلاط التي كان يحكمها المظفّر غازي آخر ملوك الأيوبيين، باستيلاء هولاكو التتاري عليها، كما فتح أرمينية(٤) وكردستان والعراق وبلاد ما بين النهرين.

(١٠) أتابكية أذربيجان(٥):

هجرية		ميلادية
٥٣١	شمس الدين إيْلدِجز	١١٣٦
٥٦٨	محمد البهلوان جاهان	١١٧٢
٥٨١	قِزِل - أرسلان عثمان	١١٨٥
٥٨٧	أبو بكر	١١٩١
٦٠٧ - ٦٢٢	مُظفَّر الدين أوزْبِك	١٢١٠ - ١١٢٥

(١) Lane-poole, Muhammadan Dynasties, p. 170

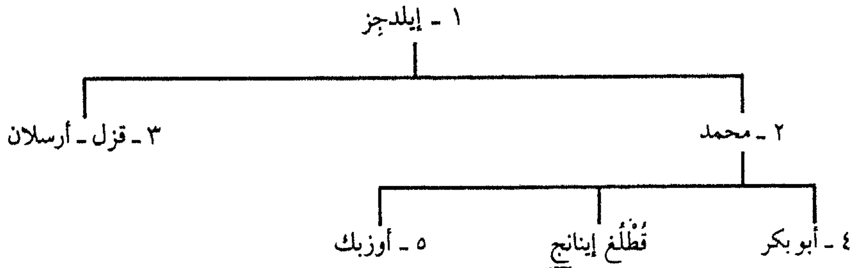
(٢) وكانا يحكمان تحت إشراف أبيهما العادل.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٢٦.

انظر مادة أرمينية في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٥) لينبول: الأسرات الإسلامية ص ٧١.



[شاه خوارزم]

أسس هذه الدولة إيْلدجز وهو مملوك تركي كان من المقربين في بلاط السلطان مسعود السلجوقي في بلاد العراق، وقد اشتراه من بلاد القفجاق[1]، فاشتغل في أول أمره في مطبخ السلطان مسعود، ثم أخذ يترقى في سلك البلاط في العراق، وأخيراً تقلد إقليم أران في شمالي أذربيجان. وقد تزوج من أخت زوجة السلطان وكانت أرملة، وقد أخذ ايلدجز يوسع نفوذه فاستولى على معظم بلاد أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وأصبهان والري وامتد نفوذه من تفليس إلى مكران[2]. وكان ابنه محمد الحاكم الفعلي للعراق بالإضافة إلى ولاية أذربيجان، وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ١١٧٢/٥٦٨. على أن هذه البلاد الشاسعة الأطراف انكمشت إلى أذربيجان في عهد الأتابك أبي بكر محمد الذي اتخذ مدينة تبريز حاضرة له. وظلت هذه البلاد تحت حكم هذه الأسرة حتى استولى جلال الدين المنكبرتي آخر شاهات خوارزم عليها من أوزبك البهلوان آخر أمرائها سنة ١٢٢٧/٦٢٢ وتزوج من أرملته وهي ابنة طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة في العراق[3] ثم استولى المغول على هذه البلاد سنة ١٢٣١/٦٢٨.

وقد روى المؤرخون أن هولاكو اتخذ من أذربيجان مكاناً لحفظ الأسلاب والغنائم التي استولى عليها في حروبه لبعدها ومناعتها. وبذلك أصبحت أذربيجان ذات أهمية خاصة في العصر المغولي.

(١١) سلاجقة كرمان:

هجرية		ميلادية
٤٣٣	قاورت بك: عماد الدين قرا أرسلان	١٠٤١
٤٦٥	كرمان شاه	١٠٧٢
٤٦٧	حسين	١٠٧٤

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٧٤.
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٩٨ - ٢٠١.
(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٣٤.

٤٦٧ هـ.	سلطان شاه: ركن الدين	١٠٧٤ م
٤٧٧	تُوران شاه	١٠٨٤
٤٩٠	إميران شاه	١٠٩٧
٤٩٤	أرْسلان شاه	١١٠٠
٥٣٦	محمد الأول(*): مغيث الدين	١١٤١
٥٥١	طُغْرل شاه: محيي الدين	١١٥٦
منافسون	{ بهرام شاه، أرسلان شاه الثاني، تركان شاه }	١١٦٧
٥٨٣	محمد الثاني +	١١٨٧

[التركمان الغزّ]

* كان محمد في حروب متصلة قبل وفاة بركياروق بسنوات كثيرة.

+ كان سنجر والياً على خراسان عشرين سنة قبل أن يجلس على عرش السلطنة.

(١٢) سلاجقة سورية:

هجرية		ميلادية
٤٨٧	تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤
٤٨٨	رضوان بن تتش (في حلب)	١٠٩٥
	(دقاق بن تتش في دمشق ٤٨٨ ـ ٤٩٧)	
٥٠٧	ألب أرسلان الأخرس بن رضوان	١١١٣
٥٠٨ ـ ٥١١	سلطان شاه بن رضوان	١١١٤ ـ ١١١٧

[الأرتقيون، البوريون]

(١٣) سلاجقة العراق وكردستان:

٥١١ هـ.	محمود: مغيث الدين	١١١٧ م.
٥٢٥	داود: غياث الدين	١١٣١
٥٢٦	طغرل الأول	١١٣٢
٥٢٧	مسعود: غياث الدين	١١٣٣
٥٤٧	ملكشاه: معين الدين	١١٥٢
٥٤٨	محمد	١١٥٣

٥٥٤	سليمان شاه	١١٥٩
٥٥٦	أرسلان شاه	١١٦١
٥٧٣ ـ ٥٩٠	طغرل الثاني	١١٧٧ ـ ١١٠٤

[شاهات خوارزم]

(١٤) سلاجقة الروم:

(آسيا الصغرى)

هجرية		ميلادية
٤٧٠	سليمان الأول بن قطلمش	١٠٧٧
٤٧٩	فترة	١٠٨٦
٤٨٥	قليج أرسلان داود	١٠٩٢
٥٠٠	ملك شاه الأول	١١٠٦
٥١٠	مسعود الأول	١١١٦
٥٥١[١]	عز الدين قليج أرسلان الأول	١١٥٦
٥٨٤	قطب الدين ملك شاه الثاني	١١٨٨
٥٨٨	غياث الدين كيخُسْرو الأول	١١٩٢
٥٩٧	ركن الدين سليمان الثاني	١٢٠٠
٦٠٠	قليج أرسلان الثاني	١٢٠٣
٦٠١	كيخسْرو الأول أعيد إلى الحكم	١٢٠٤
٦٠٧	عز الدين كيكاوُس الأول	١٢١٠
٦١٦	علاء الدين كيقباد الأول	١٢١٩
٦٣٤	غياث الدين كَيَخُسْرو الثاني	١٢٣٦
٦٤٣[٢]	عز الدين كيقاوس الثاني	١٢٤٥
٦٥٥	ركن الدين قليج أرسلان الرابع	١٢٥٧
٦٦٦	غياث الدين كيخسرو الثالث	١٢٦٧

(١) عاش قليج أرسلان إلى سنة ٥٨٠ هـ لكنه قسم بلاده بين أولاده قبل وفاته ببضع سنين.
(٢) حكم بالاشتراك مع أخيه قليج أرسلان الثالث.

٦٨٢[١]	غياث الدين مسعود الثاني	١٢٨٣
٦٩٦ - ٧٠٠	علاء الدين كَيقُبَاد الثاني	١٢٩٦ - ١٣٠٠

[المغول: الأتراك العثمانيون الخ]

(١٥) السلاجقة الدانسمندية:

في سيواس وقيصرية ومَلَطية

محمد الأول بن جُمُشْتكين بن تلو دانشمَنْد

هجرية		ميلادية
٤٩٩	غازي بن جمشتكين	١١٠٥
٥٢٩	محمد الثاني بن غازي	١١٣٤
٥٣٧	ذو النون بن محمد الثاني	١١٤٢
	يعي (أو يعقوب) أرسلان بن غازي	
٥٦٠	إبراهيم بن محمد الثاني	١١٦٥

[سلاجقة الروم]

بينما كان السلاجقة يوسعون رقعة إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى، وطد رئيس تركي آخر هو جمشتكين بن دانشمند قوته في كادوكيا في مدن سيواس وقيصرية وملطية. وفي المدينة الأخيرة هزم الفرنجة، وقد قام خلفاء جمشتكين بدور رائع في الحروب الصليبية، على أن هذه الأسرة سرعان ما اندمجت في جارتها السلجوقية العظيمة وهي سلاجقة الروم.

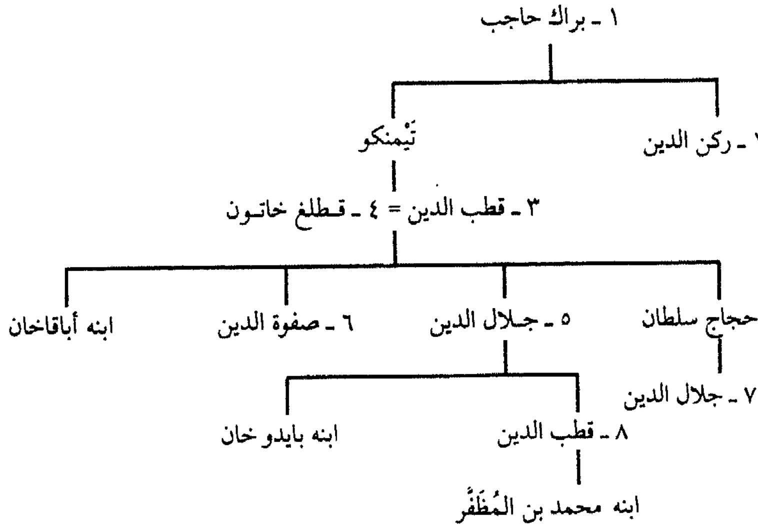
(١٦) أتابكية كرمان:

٦١٩ - ٧٠٣ هـ	(خانات قُطْلُغ)	١٢٢٢ - ١٣٠٣ م
٦١٩	بُرَاك حاجب قطلغ خان	١٢٢٢
٦٣٢	ركن الدين خوجة الحق	١٢٣٤
٦٥٠	قطب الدين محمد	١٢٥٢

(١) سمح أباقاجين المغولي لمسعود بحكم سيواس وأرضروم بعد وفاة أبيه كيدوس سنة ٦٧٧ هـ خلال حكم ابن عمه كيخسرو الثالث الاسمي الذي خلفه سنة ٦٨٢هـ ويظهر أن مسعود أعيد إلى مملكته على أثر عزل ابن أخيه كيقباد في سنة ٧٠٠ هـ وانه حكم أربع سنين. لكن الأربعة السلاجقة الأخيرين لم يحكموا إلا تحت سيطرة ايلخانات الغور في فارس.

٦٥٥	قطلغ خاتون (أرملة قطب الدين محمد، كان ابنها حجاج الحاكم الرسمي بين سنتي ٦٥٥ و٦٦٠ هـ)	١٢٥٧
٦٨١		١٢٨٢
٦٩٣		١٢٩٣
٦٩٤		١٢٩٤
٧٠١ - ٧٠٣		١٣٠١ - ١٣٠٣

[ولاة من المغول حتى سنة ٧٤١ هـ ثم المُظَفَّريون]



نجح بُراك حاجب، وهو أحد القواد في دولة الخطا الذين دخلوا في خدمة خوارزم شاه محمد[1] في كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م). على أن هذه البلاد ظلت خاضعة اسميّاً للخوارزميين في عهد جلال الدين منكبرتي الذي كان براك حاجب نائباً له. وقد أراد براك أن يستقل بهذه البلاد عن الخوارزميين سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م)، فأرسل إلى المغول يحثهم على محاربته، فلما علم جلال الدين خوارزمشاه بذلك سار على رأس جيش كبير لحرب براك الذي تحصن في إحدى قلاعه وأبى أن يقابله وأرسل إليه رسالة يقول فيها:

«إنني أنا العبد المملوك، ولماسمعت بمسيرك إلى هذه البلاد، أخليتها لك، ولو علمتُ

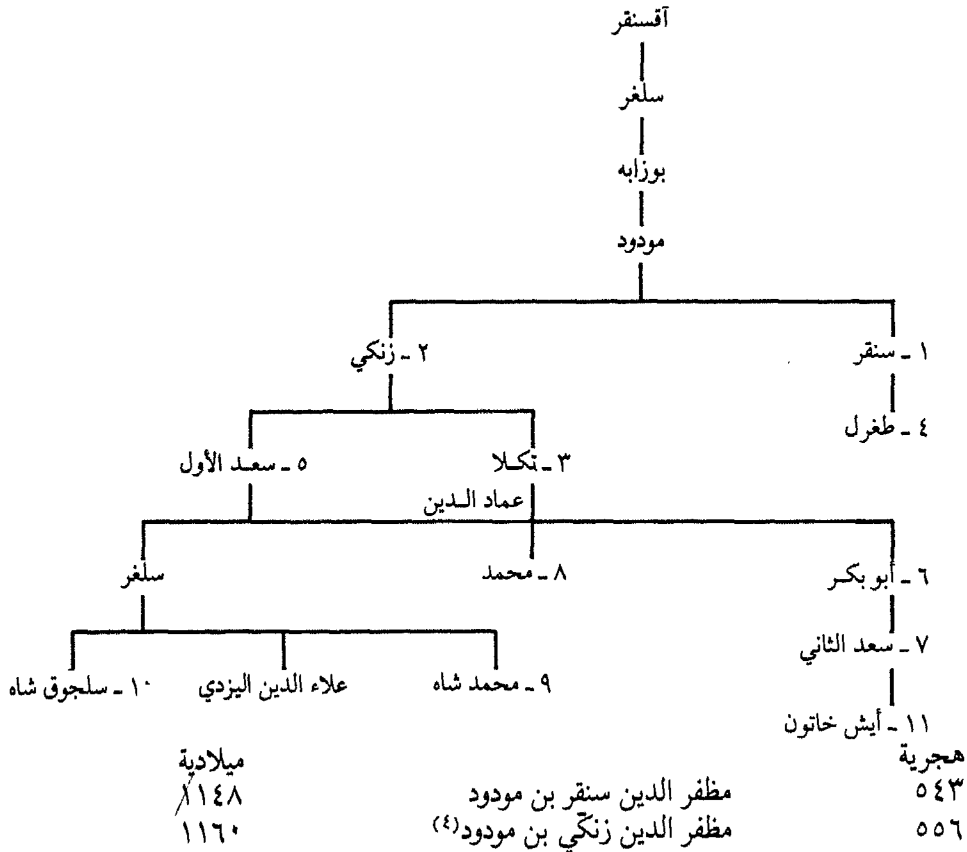
(١) راجع ما كتبه حافظ أحمد محمود عن دولة الخطا في كتابه «الدولة الخوارزمية والمغول» ص ٤٦ ـ ٦٦.

أنّك تُبقي علي لحضرت بابك، ولكنني أخاف هذا جميعه»[1].

وقد أدرك جلال الدين منكبرتي أن الدخول في حرب مع براك حاجب يصرفه عن الاستمرار في حرب المغول، فرأى أن يهادنه، وأرسل إليه الخلع وأقره على هذه البلاد.

وقد بقيت هذه الأسرة في حكم كرمان ثم خضعت للمغول حيث أقر «أُغطاي» براك حاجب على حكم بلاده، ومنحه لقب «قُطْلغ خان»، واستمرت هذه الأسرة في حكم كرمان مع ولائها لإيلخانات المغول في فارس، وقد تزوج اثنان من هؤلاء المغول من بنات هؤلاء الحكام[2].

(١٧) أتابكية فارس [3] ٥٤٣ ـ ٦٨٦/١١٤٨ ـ ١٢٨٧



هجرية		ميلادية
٥٤٣	مظفر الدين سنقر بن مودود	١١٤٨
٥٥٦	مظفر الدين زنكي بن مودود[4]	١١٦٠

(١) ابن الأثير: ج ١٢ ص ٢٠٩.

(٢) لينبول. The Muhammadan Dynasties, pp. 179 - 180.

(٣) وتعرف هذه الأتابكية أيضاً بالدولة السلغرية.

(٤) كان نائباً لأرسلان بن طغرل السلطان السلجوقي.

هجرية		ميلادية
٥٧٠	تكلا بن زنكي	١١٧٤
٥٩٠	طغرل بن سنقر	١١٩٣
٥٩٩	سعد الأول بن زنكي	١٢٠٢
٦٢٣	أبو بكر بن سعد	١٢٢٥
٦٥٨[1]	سعد الثاني بن أبي بكر	(١٢٥٩)
٦٥٨	محمد بن سعد الأول	١٢٥٩
٦٦٠	محمد شاه بن سلغر شاه	١٢٦٢
٦٦١	سلجوق شاه بن سلغر شاه	١٢٦٢
٦٦٣ - ٦٨٦	أيش خاتون بنت سعد الثاني	١٢٦٤ - ١٢٨٧

[حكم المغول]

تنسب هـذه الأتابكيـة إلى سلغر قـائد إحـدى قبائـل التركمـان التي هاجمت خـراسان وانضمت إلى السلطان طغرلبك السلجوقي الذي عينه في بلاطه. وقد استولى أحد خلفائه وهـو سنقـر بن مـودود على إقليم فـارس سنـة ٥٤٣/١١٤٨ حيث أسس دولـة حكمت قـرنـاً ونصف قرن. وقد مد سنقر نفوذه على كرمان، واتخذ شيراز حاضـرة لملكه. واستـولى سعد ابن زنكي (٥٩٩ ـ ٦٢٣ هـ) على أصبهـان ثم مد نفـوذه على العـراق العجمي (٦١٤ هـ)، والتقى بجيوش خوارزم شاه علاء الدين محمد في مدينة الري، ولكن الهزيمة حلت به. ومع ذلك أكرمـه خوارزم شـاه وأعاده إلى بـلاده وأخذ جـزءاً منها واكتفى بـإقامـة الخطبـة له على المنابر[2].

ولمـا تـوفي سعـد بن زنكي سنـة ٦٢٣/١٢٢٥ م تـولى بعـده ابنـه أبـو بكـر (٦٢٥ ـ ٦٥٨ هـ) الذي استطاع أن يـوسع رقعـة بلاده إلى بـلاد البحرين، وأن يخضـع جميع جـزر الخليج العربي. ولما أغار جنكيز خان على البـلاد الإسلاميـة رأى من الحكمة أن لا يقف في سبيله، فـأرسل إليـه الهدايـا الثمينة، فلمـا دخل جنكيـز خـان بـلاده لم يتعـرض لسـوء. ثم خضعت هذه البلاد لهولاكو[3].

(١) توفي بعد اثني عشر يوماً من وفاة أبيه.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٤٦.

(٣) Rashid - Eldin, Histoire des Mongols de la perse, p. 323.

(١٨) أتابكية لورستان ٥٤٣ ـ ١١٤٨/٨٢٧ ـ ١٤٢٣:

أسس هذه الأتابكية أبو طاهر بن محمد أحد قواد أتابكية فارس. وقد قامت هذه الدولة في أقليم جبلي حصين تسكنه قبائل بربرية منذ زمن بعيد وخضع حكامها لحكم دولة إيلخانات المغول في فارس، وظلت في حكم لورستان حتى سقطت على يد إبراهيم بن شاه رُخْ.

ثانياً: دولة خُوارزم ٤٧٠ ـ ١١٧٧/٦٢٨ ـ ١٢٣١:

انقسمت الدولة الإسلامية في ذلك العصر إلى دويلات متعادية متنافرة من بينها دولة خوارزم[١]. وقد جرت عادة السلاجقة أن يكافئوا أتباعهم من السقاة والحجاب وحراس الملابس الخاصة، بإقطاعات من الأرض. وقد بدأ أنوشتكين[٢] ملكه سنة ١٠٧٧/٤٧٠، ثم استطاع خلفاؤه بعد ذلك التخلص من كل صلة لهم بالسلاجقة، وظلوا يحكمون هذه الدولة حتى زالت في عهد آخر ملوكهم جلال الدين منكبرتي الذي كانت له مواقف رائعة من البطولة أمام المغول من سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) إلى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م).

كان أنوشتكين يشغل وظيفة «الساقي» في بلاط ملكشاه السلجوقي. وكانت هذه الوظيفة من أهم وظائف البلاط: فهو الذي يشرف على الأسمطة التي تقام في الأعياد والمواسم وعند استقبال سفراء الملوك، كما يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده[٣]. وثمة وظيفة أخرى هي وظيفة «الجاشنكير» الذي يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل تقديمها إلى السلطان[٤].

خلف أنوشتكين ابنه قطب الدين محمد، وقد نشأ نشأة عالية، وعرف بالأدب وتوفر عليه وانصرف إلى العلم. وكان عالي الهمة، فعينه السلطان بركياروق بن ملكشاه السلجوقي حاكماً على بلاد خوارزم، ولقبه خوارزم شاه أي ملك خوارزم. ولما ملك السلطان سنجر

---

(١) أو خوارزميا وهي كيفا الحالية. وكان يطلق على كل من الحي والحاضرة اسم خوارزم، ويطلق على حكامها لقب خوارزمشاه أو ملك خيوه. وهم من أتراك بلاد ما وراء النهر الذين جاءوا من خيوه ونشروا سلطانهم بين نهري الكنج ودجلة، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند.

(٢) يسميه النسوي في كتابه «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي» (ص ٣٤) «نوشتكين». وهذا المؤرخ يعد حجة في تاريخ فترة من فترات حكم الدولة الخوارزمية فوق أنه انخرط في سلك الوظائف في دولتهم في عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص، وكان من أبرز رجال هذه الدولة.

(٣) انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩.

(٤) المصدر نفسه ج ٥، ص ٤٧٠.

خراسان سنة ٥١٢ هـ ، أقر قطب الدين محمد خوارزم شاه على خوارزم وأعمالها. فظل محبباً إلى السلطان إلى أن مات سنة ٥٢١ هـ فخلفه ابنه أتسز، فسار سيرة أبيه واكتسب محبة السلطان، وكان أتسز أول من طمع في الاستقلال من أفراد هذا البيت. ولكن سنجر آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء في فارس عزله إثر ثورته عليه سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م). ثم عاد أتسز إلى ولايته بعد قليل وتمتع هو ومن خلفه من شاهات خوارزم بما يتمتع به الملوك المستقلون، وبلغ نفوذه جَنْد (بفتح الجيم وسكون النون) على نهر سيحون.

وفي سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) سار أتسز إلى مدينة مرو، فهزمه سنجر هزيمة منكرة، وقتل ابنه في هذه الموقعة. وكان من أثر انتصار سنجر في هذه الموقعة أن استولى على خوارزم وأقطعها ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه، ولما عاد سنجر إلى مرو استرد أتسز حاضرة ملكه، ثم فكر في الثأر لمقتل ابنه، فحرض الكفار من الخطا الأتراك فهاجموا بلاد سنجر وهزموه هزيمة منكرة في صيف سنة ٥٣٦ هـ وقتلوا مائة ألف من جنده وأسروا زوجته واضطروه إلى الهرب إلى ترمذ وبلخ[١].

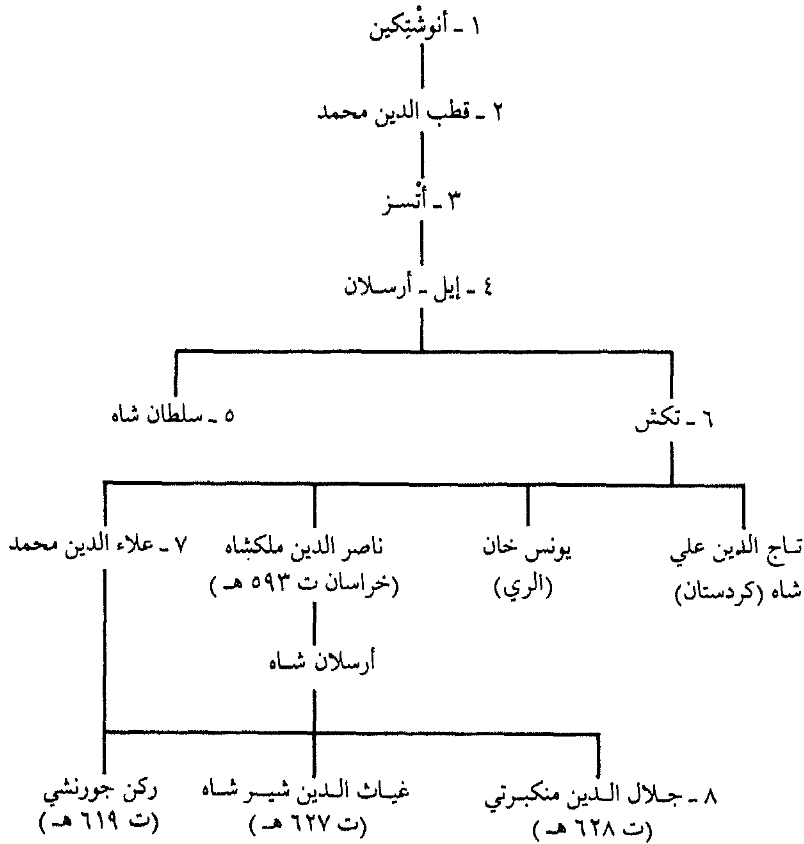
وفي هذه الأثناء أعلن أتسز استقلاله، ثم تقدم إلى مرو فاحتلها. ويذكر ابن الأثير[٢] في حوادث سنة ٥٣٦ هـ أن آتسز لم يكن ينوي التعرض لمدينة مرو كما فعل بمدينة سرخس، ولكنه اضطر إلى مهاجمتها حين علم بقتل جماعة من أتباعه[٣]. وكانت هذه الموقعة أول موقعة خسرها سنجر، كما كانت فاتحة لسلسلة أخرى من الهزائم التي حلت به فيما بعد. ثم فتح أتسز مدينة نيسابور وأمر بحذف اسم سنجر من الخطبة (٥٣٧/١١٤٢). وفي السنة التالية حاول سنجر محاصرة خوارزم، ولكنه عجز عن ذلك، فقبل الصلح مع آتسز الذي مات في ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٥١ (١١٥٦ م) قبل موت سنجر في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ بقليل.

وهكذا تربع أتسز على عرش امبراطورية شاسعة الأرجاء تنافس إمبراطورية السلاجقة في أبهى أيامها، وتمتد من جبال أورال إلى الخليج العربي ومن جبال السند إلى حدود الفرات وتضم جميع ولايات إيران عدا ولايتي فارس وخوزستان. وقد استطاعت الدولة الخوارزمية أن تمد رقعتها وتثبت أقدامها أكثر من قرن، ولم تسقط إلا بسبب كارثة عامة لم تكن في الحسبان، غيرت من وجه التاريخ وأنزلت المصائب والويلات بالجنس البشري، ونعني بهذه الكارثة غزوات المغول.

---

(١) الكامل ج ١١ ص ٣٣ ـ ٣٦. (٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٣٨٢ هامش رقم (٣).

٤٧٠ ـ ٦٢٨ هـ	**شاهات خوارزم**[1]	١٠٧٧ ـ ١٢٣١ م
٤٧٠	أنوشتكين	١٠٧٧
٤٩٠	قطب الدين محمد	١٠٩٧
٥٢١	أتْسز	١١٢٧
٥٥١	إيل أرسلان	١١٥٦
٥٦٨	سلطان شاه محمود ت ٥٨٩ هـ	١١٧٢
٥٦٨	تُكُش	١١٧٢
٥٩٦	علاء الدين محمد	١١٩٩
٦١٧ ـ ٦٢٨	جلال الدين منكبرتي	١٢٢٠ ـ ١٢٣١



(١) Lane - Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 176 - 177.

وفي عهد الخليفة المستضيء العباسي (٥٦٦ ـ ٥٧٥/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠) توفي خوارزم شاه إيل أرسلان بن أتسز (٥٦٨ هـ)، فملك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمد تحت وصاية أمه. وقد خرج عليه أخوه الأكبر علاء الدين تكش (بضم التاء والكاف) (٥٦٨ ـ ٥٩٦/١١٧٢ ـ ١١٩٩) الذي استولى على بلاد خوارزم واستقبل بها وقضى على ملك السلاجقة في العراق (٥٩٠ هـ) بقتل طغرل بن ألب أرسلان السلجوقي. وقد اتسع ملك علاء الدين في الشرق على حساب دولة الخطا، وبذلك امتد نفوذه من بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي استولى عليها وقضى على السلاجقة. ولكن ملكه الري لم يكن ثابتاً؛ فقد عول الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥) على أن تكون له سيادة الري بعد رحيل خوارزم شاه تكش عنها، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامله، فعاد إلى الري واستردها من جند الخليفة.

خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ ـ ٦١٧/ ١١٩٩ ـ ١٢٢٠:

بقي علاء الدين تكش في الحكم حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ، فخلفه ابنه علاء الدين محمد (٥٩٦ ـ ٦١٧/ ١١٩٩ ـ ١٢٢٠) الذي امتدت الدولة الخوارزمية في عهده من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن شمالي بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً.

وفي سنة ٦٠٤ هـ طلب سلطان سمرقند مساعدة خوارزمشاه علاء الدين محمد مساعدته على قتال الخطا الذين اشتدت وطأتهم وعم شرهم في تركستان وبلاد ما وراء النهر، فولى خوارزمشاه أخاه علي شاه طبرستان بالإضافة إلى جرجان وقلد نواباً عنه في حكم أقاليم خراسان وأبرم الصلح مع غياث الدين محمود الغوري واعترف بما كان تحت يده من بلاد الغور. ثم عبر خوارزمشاه نهر جيحون ودارت المعارك بين جيوشه وجيوش سلطان سمرقند وبين ملك الخطا. وقد دارت الدائرة على جيش المسلمين وقتل الخطا كثيراً منهم وأسروا خوارزمشاه علاء الدين محمد وأميراً كبيراً من أمراء دولته يقال له شهاب الدين مسعود، وعادت الفالة إلى خوارزم. وقد احتال هذا الأمير في إطلاق سراح مولاه، فعرض عليه أن يتظاهر بخدمته عله يتمكن من خلاصه. فقام خوارزمشاه بخدمة شهاب الدين مسعود، وكان يعظمه ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخُفَّه، فقال الخطائي الذي أسرهما لابن مسعود: أرى هذا الرجل يعظمك فمن أنت؟ فقال: أنا فلان وهذا غلامي، فقام إليه (الخطائي) وأكرمه وقال: لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندي لأطلقتك، ثم تركه أياماً، فقال له ابن مسعود: إني أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يراني أهلي معهم فيظنون أني قُتلت

فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالي فأهلك. وأحب أن تقرّر عليّ شيئاً من المال حتى أحمله إليك، فقرر عليه مالاً وقال له: أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتابي إلى أهلي ويخبرهم بعاقبتي ويحضر معه من يحمل المال ثم قال: إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا، ولكن هذا غلامي أثق به ويصدقه أهلي، فأذن له الخطائي بإنفاذه، فسيره وأرسل معه الخطائي فرساً وعدة من الفرسان يحمونه، فساروا حتى قاربوا خوارزم، وعاد الفرسان عن خوارزمشاه، ووصل خوارزمشاه، فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كذلك بنيسابور وبما صنع أخوه علي شاه بطبرستان»[١].

ولما علم علي شاه صاحب طبرستان وجرجان بفقد أخيه خوارزمشاه علاء الدين محمد بايع لنفسه[٢]. ثم عاد خوارزمشاه إلى بلاده واحتال في القبض على ابن خرميل صاحب هراة. وقد ذكر ابن الأثير[٣] أن قائد خوارزمشاه لما قرب من هراة خرج ابن خرميل مع كبار رجال إمارته للقائه، فأمر هذا القائد أصحابه فقبضوا عليه، ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ هراة[٤] وأبى الوزير ابن خرميل تسليم المدينة، فأمر القائد الخوارزمي بقتل ابن خرميل وطلب النجدة من خوارزمشاه، فبعث إليه عشرة آلاف فارس حاصروا هذه المدينة ومنعوا وصول المؤن إليها ثم استولوا عليها (سنة ٦٠٥ هـ). ثم أمر خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله «أمير ملك» وكان قد أنابه عنه في حكم هراة بالمسير إلى «فيروزكوه» قصبة بلاد الغور والاستيلاء عليها، فسلم إليه غياث الدين محمود الغوري وطلب منه الأمان. وقد أرسل أمير ملك بهذا النبأ إلى خوارزمشاه واستطلع رأيه في شأن غياث الدين محمود فأمر بقتله (٦٠٥ هـ)[٥].

وبذلك استقرت أقدام خوارزمشاه علاء الدين محمد في خراسان، ثم سار إلى بلاد ما وراء النهر فملكها وهزم الخطا هزيمة منكرة، ثم عاد إلى خوارزم. وهنا زوج ابنته من سلطان سمرقند وأعاده إلى بلده فملكها من جديد. على أن هذا السلطان قابل هذا بالإساءة، فغدر بالخوارزميين في بلاده وهمّ بقتل زوجته ابنة خوارزمشاه علاء الدين محمد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٠٨ ـ ١١٠.
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١١.
(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٩.
(٤) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١٠٩) قد حصنها وعمل لها أربعة أسوار محكمة البناء وحفر حولها خندقاً.
(٥) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ ـ ١١١.

وهنا ثارت ثائرة خوارزمشاه وسار إلى سمرقند واستباحها بجنده ثلاثة أيام أمضوا فيهـا في قتل الأهلين حتى قيل إنهم قتلوا نحو مـائتي ألف. ثم سلم إليه صـاحب سمرقنـد وطلب الأمان، فأمر به خوارزمشاه فقتل(١).

وفي سنة ٦١١ هـ استولى خوارزمشاه علاء الدين محمد على كرمان ومكران والسند(٢) وفي السنـة التاليـة عظمت قـوة خوارزمشـاه علاء الـدين محمد بـاستيلائـه على كافـة أقـاليم خراسان، وملك «باميان» واشتدت قوته وعظم سلطانه وهابه الملوك والأمراء. وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة. فأرسل إلى صاحبها تاج الدين الدز يطلب إليه أن يقيم الخـطبة له ويضرب السكة باسمـه. فأشـار عليه كبـار أمراء دولتـه بإجـابة خـوارزمشاه إلى طلبـه درءاً لخـطره وتلافيـاً لشره، فنزل على رأيهم. وأسرع عـلاء الدين خـوارزمشاه السيـر إلى غزنـة ودخلهـا واستولى على قلعتهـا وقتل من بهـا من الجند الغـوريين ولا سيما الأتـراك. ثم تـرك خوارزمشاه غزنة وخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرتي. ولما علم «الـدز» بهذا النبـأ، وكان غائباً عن غـزنة(٣)، هرب هو ومن معـه من الجند إلى لاهـور، فلحقته جيـوش أتباع شهـاب الدين محمود الغوري وأحلت به الهزيمة وقتلته(٤).

وبين سنتي ٦٠٧ و ٦١٤ هـ بسط خـوارزمشاه عـلاء الدين محمـد نفوذه على بـلاد مـا

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١١٢ ـ ١١٣) أن طائفة عـظيمة ببـلاد الصين بينهم وبين الخطا عـداوة قديمة وحروب طويلة، فلما سمعوا بما حل بـالخطا من الهـزيمة على يـد خوارزمشـاه علاء الـدين محمد خرجوا من بلادهم وقصدوا بلاد الخطا. عند ذلك أرسل ملك الخطا إلى خوارزمشاه يـطلب إليه أن يتنـاسى كل منهما ما كان بينهما من حروب ويطلب مساعدته ضد التتر ويخوفه من الأخطار التي تحدق ببلاده، إذا مـا انتصروا عليـه وأرسل التتـر في الوقت نفسـه إلى خوارزمشـاه علاء الـدين محمـد يخـوفونـه من الخطا ويطلبون منه العون ويعدونه بعدم التعرض لبلاده إذا تم لهما النصـر على عدوهمـا المشترك. وقـد أجاب خوارزمشاه كلًّا من الخطا والتتر بالمساعدة وسار بجنده حتى أصبـح على مقربـة من المكان الـذي عسكر فيه الفريقان المتنازعان، وتظاهر بأنه مع كل فريق. ثم نشب القتال بين الخطا والتتر وانهزم الخطا هزيمـة منكرة. وهنا سنحت الفرصة لخوارزمشاه علاء الدين محمد فجعل يقتل الخطا ويأسرهـم ويطاردهم. ودعا منهم فئة قليلة ساروا مـع ملكهم حتى بلغـوا مكـانـاً جبليـاً تحصنـوا فيـه. وبـذلـك طمـع كـل من التتـر وخوارزمشاه في بلاد الخطا، واخذ خوارزمشاه يشن الغارات على البلاد الإسلاميـة القريبـة من بلاد التتـر ويخربها خوفاً من امتلاكهم لها. ثم انشغل ملك التتر بحرب عسكر جنكيز خان وخلفائه الذين قضوا على هؤلاء التتر وعلى الدولة الخوارزمية جميعاً.

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٢٥.

(٣) كان الدز يقيم بغزنة أربعة أشهر الصيف.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٢٨.

وراء النهر وأحل الهزيمة بالخطا وملك إيران بعد حروب طاحنة مع الغور في خراسان. واستولى على بلاد الجبل وفارس، وتمكن من السيطرة على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي جنوباً بما في ذلك كرمان ومكران؛ وأخيراً استطاع الاستيلاء على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد استيلائه على غزنة حاضرة الغور (٦١٢/١٢١٥).

ومما يلاحظ في حياة خوارزمشاه علاء الدين محمد أنه انتحل عقائد المذهب الشيعي (٦١٤ هـ) ومهد السبيل للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد. وقد حاول الاستيلاء على مدينة بغداد ليستأثر بالسلطة التي كان يتمتع بها بنو بويه والسلاجقة من بعدهم فطلب من الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) أن يأمر بذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة فأبى الخليفة واشتدت العداوة والبغضاء بينهما حتى حذف خوارزمشاه علاء الدين محمد اسم الخليفة العباسي من الخطبة على منابر بلاده ونصب أحد الأشراف من سلالة علي بن أبي طالب خليفة. ولعل عدم إجابة الخليفة خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى ذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة راجع إلى تحوله إلى عقائد المذهب الشيعي.

وهكذا ترى خوارزمشاه علاء الدين محمد بدلاً من أن يجمع قوته لصد الكارثة التي تهدد بلاده من الناحية الشمالية الشرقية، يزج بنفسه في خصومة حامية مع الخليفة العباسي ثم يزداد الأمر سوءاً بوقوع كارثة أخرى كان سببها اشتداد البرد وقسوة الشتاء في هذه الديار بصورة لم تعهدها البلاد من قبل(١) وكان من المحتمل أن يؤجل وقوع الكارثة إلى حين لو أن علاء الدين محمد لم يقم بهذه الفعلة الطائشة بتحريض عامل مدينة «أوترار» على قتل التجار الذين أرسلهم جنكيز خان بأن أدخل في روعه أنهم ليسوا تجاراً في الحقيقة وإنما هم جواسيس للمغول حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن هذه الكارثة كانت السبب المباشر في غزوات المغول بل إن علاء الدين محمد تمادى في سياسته التي تدل على قصر النظر بقتله رسول جنكيز خان التركي وإعادة الرسولين المغوليين الآخرين إلى مولاهما بعد أن أمر بحلق لحاهما.

لذلك ثار جنكيز خان لقتل تجاره وإهانة رسله، فعقد جمعية عامة من المغول «قوريلتاي» وقرر مهاجمة «خوارزم». ولم يقو علاء الدين محمد على صد تيار المغول وأخذ يتقهقر أمام جحافلهم التي دخلت خراسان وانطلقت تتبعه وتطارده من بلد إلى بلد، فأسرع إلى ناحية الغرب صوب بحر قزوين، وتركه أتباعه ثم مرض بالبرص واشتدت عليه علته

(١) براون: تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ج ٢ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧.

ومات شريداً طريداً بعد أن استبد به اليأس وانتابه المرض في جزيرة من جزر بحر قزوين، تاركاً ملكه لابنه الشجاع جلال الدين منكبرتي، ووقعت أمه «تركان خاتون» مع زوجاته وأولاده وجواهره في أيدي المغول، وهيأ بذلك الفرصة لسقوط دولة خوارزم العظيمة[1].

وقد وصف ابن الأثير[2] مصير علاء الدين محمد في هذه العبارة فقال: «ومن أعظم الأمور أن سلطانهم خوارزمشاه محمدا قد عدم لا تعرف حقيقة خبره: فتارة يقال مات عند همذان وأخفي موته، وتارة يقال دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفي موته لئلا يقصدها التتر في إثره، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر فتوفي في جزيرة هناك. وبالجملة فقد عدم ثم صح موته ببحر طبرستان (أي بحر قزوين أو بحر الخزر)».

جلال الدين منكبرتي

وقد هام أولاد علاء الدين محمد خوارزمشاه الثلاثة على وجوههم في الولايات الفارسية، بل إن آخرهم، وهو جلال الدين منكبرتي (بفتح الميم والكاف والباء وسكون النون) قد هرب إلى الهند حيث عضده سلطان دلهي الذي تزوج ابنته، وبعد سنتين عاد جلال الدين إلى بلاده التي ورثها عن أبيه. يقول براون[3]: «وفي هذه الأيام الحالكة التي وقعت فيها غزوة المغول.. نجد أن جلال الدين خوارزم شاه بما حباه الله من شخصية لامعة يسطع حظه كالشهاب الثاقب والبرق الخاطف، ثم تخمد ناره وينطفىء أنواره دون أن ينتج أثراً أو يجدي نفعاً. ولربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله امتاز بجرأته وإقدامه... في هذه الأحوال المضطربة تجد أن جلال الدين يستجمع قوته ويتمنطق بسيفه، ثم يمضي أمام الصاعقة على عجل فيحتمي بالحدود الهندية. فإنه عندما بلغ جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه وقد أحاطت به جموع كبيرة من المغول، فقاومها وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد الشيء الكثير، ولكنه أدرك في النهاية أنه قد خسر الموقعة، فهجم على أعدائه هجوم اليائس، ثم يمم بوجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده، ثم امتطى صهوة جواده وعبر النهر، وتبعه قوم من أتباعه، ففعلوا مثل ما فعل. ولكن أكثرهم غرقوا أو أغرقتهم سهام المغول الذين كانوا يجدون في أثرهم، وغرقت أم جلال الدين وبعض نساء حرمه»[4].

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٥٨ - ٥٥٩.

(٢) الكامل ج ١٢ ص ٢٤٦.

(٣) تاريخ الأدب في إيران، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٦٩.

(٤) وقد قيل إنهن سألن جلال الدين أن يأمر باغراقهن خشية أن يقعن في أيدي المغول، ورأى جلال استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن. D'Hossou, Histoire des Mongols, tome I, pp. 258, 306 et esq.

وقد سجل شهاب الدين النسوي[١] كاتب جلال الدين منكبرتي أن جلال الدين حارب في عدة ميادين: حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه، وحارب أخاه غياث الدين الذي خانه، وحارب حاكم كرمان، كما حارب الخليفة في بغداد، وحارب التركمان والحشاشين، وفتح ولاية جورجيا.

وفي سنة ٦٢٧/ ١٢٢٩ أخذ جلال الدين منكبرتي يدعو أمراء المسلمين للتحالف معه على محاربة المغول، وكاد أن ينجح في تأسيس هذا الحلف، ولكن جيشاً من المغول قوامه ثلاثون ألف مقاتل حمل عليه فجأة واضطره إلى الهرب شمالاً حيث استطاع أن يستولي على مدينة كنجة[٢]، وانقلب حظ جلال الدين وخمد نشاطه وأدمن الشراب وبدت عليه الهموم فأصبح كسير القلب سريع البكاء، وما زال يهرب أمام جحافل المغول من بلد إلى بلد حتى انتهى به المطاف إلى قرية كردية، فقتله أحد الفلاحين (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١/ ٦٢٨ هـ)[٣]، قبل أن يعرف شيئاً عن وصول المغول، وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم وهو القضاء على الدولة الخوارزمية. وقد أحاط كثير من الشك نهاية جلال الدين منكبرتي، وحامت الإشاعات حول مصيره، فظن بعض أنه ما زال حياً، وانه قد خرج ثانية من مخبأه[٤].

يقول براون: ونهاية جلال الدين هذه وما أحاطها من شك في مصيره تمثل لنا حال أي بطل تتعلق به الآمال في ساعات اليأس العصيبة... حيث نجد الأوهام الشعبية تنتهي بالبطل إلى حياة الزهد والتقشف ثم الموت في سن الشيخوخة ميتة الأولياء والصالحين[٥].

ثالثاً ـ الدولة الأيوبية

(٥٦٧ ـ ٦٤٨/ ١١٧١ ـ ١٢٥٠)

صلاح الدين الأيوبي

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٦ م) بقلعة تكريت (بفتح التاء)، وهي بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. وكان أبوه نجم الدين أيوب والياً عليها. ثم

---

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، وقد كتبها النسوي بالعربية وترجمها «هوداس» إلى الفرنسية، ونشرت دار الفكر العربي بالقاهرة سيرة السلطان جلال الدين سنة ١٩٥٣. انظر براون.

(٢) وهي المعروفة باسم إليزافتبول Elizavetpol

(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران ترجمة ص ٧٢.

(٤) الكامل ج ٢١ ص ٢٤٦.

(٥) براون: تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ص ٥٧٢.

انتقل صلاح الدين مع أسرته إلى الموصل، فأقطعه صاحبها عماد الدين زنكي كثيراً من الأراضي، وكان نجم الدين من أتباعه المخلصين.

ولما فتح عماد الدين زنكي بعلبك ولى نجم الدين أيوب قلعتها، فبقي والياً عليها حتى توفي عماد الدين. فلما حاصر مجد الدين أُرْتُق صاحب دمشق قلعة بعلبك، أرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي يطلب منه النجدة. فلم يلب طلبه لانشغاله بإصلاح أمور الموصل، حتى إذا ما ضاق الأمير نجم الدين ذرعاً نزل عن قلعة بعلبك لصاحب دمشق، ثم سارع مع أخيه أسد الدين شيركوه إلى دمشق، ورافقه في سفره ابنه صلاح الدين يوسف، وكان إذ ذاك في مقتبل الشباب(١).

وقد اتصل أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وأصبح من أكابر أمراء دولته، فأقطعه حمص والرحبة وأسند إليه قيادة جنده. ولما عزم نور الدين على ضم دمشق إلى حوزته طلب من أسد الدين شيركوه أن يكتب إلى أخيه نجم الدين، وبذلك تمكن نور الدين من الاستيلاء على دمشق. وأصبح أسد الدين ونجم الدين من كبار أمراء جيش نور الدين محمود(٢). ولما لجأ شاور وزير العاضد الفاطمي إلى نور الدين طالباً منه العون على العودة إلى الوزارة، أرسل معه حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذي ظهر على مسرح السياسة منذ ذلك الحين(٣).

وقد خلف شيركوه شاور في الوزارة (١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤/١٨ يناير سنة ١١٦٩)، وخلع عليه الخليفة(٤). على أن شيركوه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب، إذ وافته منيته بعد ثلاثة أشهر، فتقلد الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. وقد رأى صلاح الدين أن مركزه قد أصبح شديد الحرج بعد أن آلت الوزارة إليه، لأنه أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي ونائباً عن نور الدين محمود صاحب دمشق، السني. فاضطر إلى الدعاء لهما في الخطبة، ثم أخذ يقوي مركزه في مصر ويعمل على اكتساب محبة أهلها ليشتد بهم أزره ويستقل بهذه البلاد.

وكان النصر الذي أحرزه صلاح الدين على الفرنجة في دمياط بدء طور جديد في

---

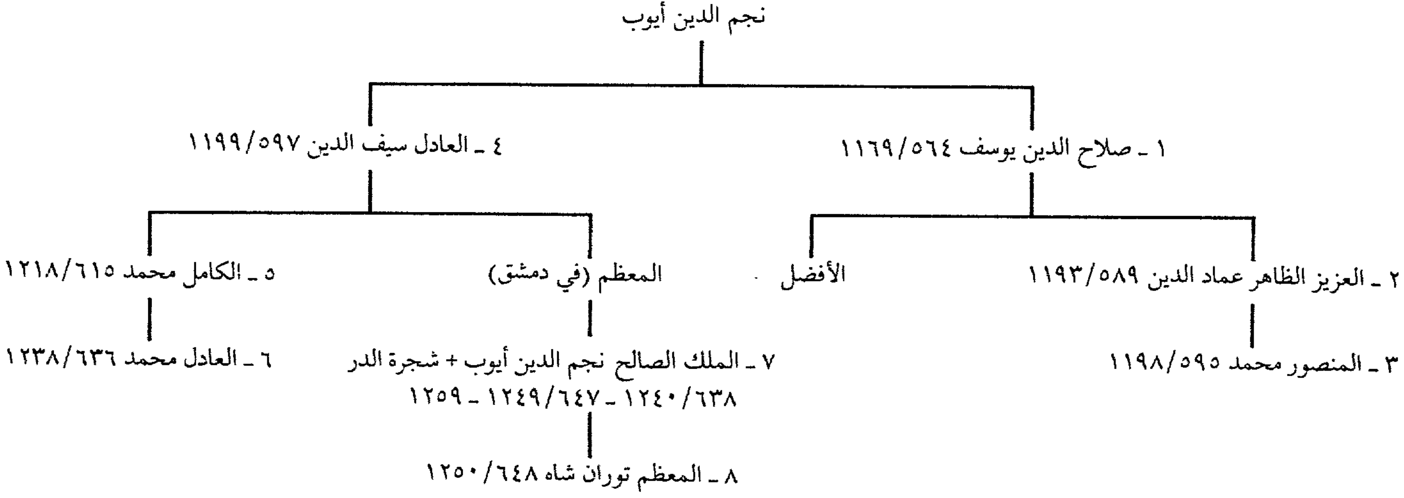
(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٤٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٢١. ابن خلكان ج ٦ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٣٦ ـ ١٣٧. ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٤٧ ـ ٤٨.

تسلسل نسب الأيوبيين



تاريخ النزاع بين مصر والصليبيين. فبعد أن كانوا يوالون الغارات على مصر في عهد الفاطميين قصروا جهودهم على الدفاع عن إمارة بيت المقدس.

ولما خرج صلاح الدين لاستقبال أبيه نجم الدين أيوب قال له: «هذا أمر لك (يعني الوزارة) وهي السلطنة الآن وتدبير ملك مصر، ونحن بين يديك»، فقال له أبوه: «يا بني! ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له»، وأبى قبول الوزارة، فأسند إليه ابنه صلاح الدين إدارة بيت المال، وأقطع أقاربه بعض الإقطاعات.

وعلى الرغم من أن صلاح الدين أصبح صاحب النفوذ المطلق في مصر بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي، ظل يخشى منافسة نور الدين له، فأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر اسم الخليفة العباسي، وضرب النقود باسمه، وأرسل إليه الهدايا حتى لا يرتاب في ولائه. كذلك حرص على الاحتفاظ بمكان يأوي إليه إذا غضب عليه نور الدين، فوجه أخاه شمس الدولة قدران شاه بن نجم الدين أيوب إلى السودان ليقف على أحوال هذه البلاد التي قد يلجأ إليها صلاح الدين إذا ما دعت الضرورة، ثم عهد إلى أخيه بغزو بلاد اليمن، فاستولى عليها وأقام الخطبة للخليفة العباسي.

ويمكن تقسيم عهد صلاح الدين الأيوبي منذ تولى زمام مصر إلى ثلاثة أدوار: الأول في مصر، والثاني في الشام، والثالث في فلسطين. فالأول هو طور الدفاع، والثاني طور إعداد العدة والتأهب، والثالث طور الهجوم. وفي هذه الأدوار الثلاثة كان صلاح الدين يوجه كل جهوده للدفاع عن رغبته الصادقة في إخراج الصليبيين من بلاد الشام وإنشاء امبراطورية إسلامية متحدة تستطيع أن تقذف بالفرنجة إلى ساحل البحر بل إلى أبعد من ذلك.

ففي الدور المصري (١١٦٩ ـ ١١٧٤ م) وقف صلاح الدين موقف الدفاع أمام الصليبيين وأنصار الفاطميين وأمام نور الدين صاحب دمشق الذي حكم صلاح الدين هذه البلاد باسمه، ومن ثم كانت سياسته في هذا الدور تنطوي على صد الاعتداء في الداخل والخارج وتقوية سلطانه من الناحيتين السياسية والحربية.

أما في الدور الثاني أو الدور الشامي (١١٧٤ ـ ١١٨٦ م) الذي يبتدىء بوفاة نور الدين، فقد ظهر صلاح الدين بمظهر أكبر حاكم إسلامي في الشرق الأدنى ونشر نفوذه في الشام والجزيرة، وأعد العدة لجمع القوات الإسلامية للصراع النهائي مع الصليبيين.

وفي الدور الثالث أو الدور الفلسطيني (١١٨٦ ـ ١١٩٣م) وجه صلاح الدين كل جهوده إلى الحرب المقدسة مع الصليبيين، تلك الحرب التي انتهت بصلح الرملة الذي

أعقبه بعد شهور موت بطل الإسلام[١].

ذلك أنه لما توطدت قدم صلاح الدين في مصر، خشي السلطان نور الدين صاحب دمشق ازدياد نفوذه وفكر في خلعه. بيد أن الحظ بسم لصلاح الدين بوفاة نور الدين سنة ٥٩٦ هـ (١١٧٤م) وعلى الرغم من أن الفرصة قد سنحت لصلاح الدين بأن يبسط سلطانه على البلاد الإسلامية في الشرق ظل يرقب الحوادث خشية أن يعرقل أهل الشام أعماله، فأظهر احترامه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وظل يضرب النقود باسمه ويخطب له على المنابر. غير أن هذا الملك لم يلبث أن وقع تحت نفوذ وزرائه وبطانته، وقام الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذي بعث إلى هؤلاء الوزراء كتاباً شديد اللهجة يهددهم فيه بالمسير إلى دمشق وإنزال العقاب بهم على سوء تصرفهم. وبعد قليل استدعى أحد أمراء دمشق صلاح الدين لاحتلال المدينة، فأسرع صلاح الدين بالمسير إليها دون أن يكترث بوجود الصليبيين في طريقه، وتمكن من الاستيلاء على دمشق (١١٧٥/٥٧٠) ثم أرسل إلى أتابك الشام كتاباً يؤكد له فيه أنه إنما جاء إلى هذه البلاد ليقدم فروض الطاعة لذلك الصالح إسماعيل الذي رد عليه رداً شديداً اتهمه فيه بالتمرد ونكران الجميل وأثار بذلك استياء صلاح الدين الذي زحف إلى حلب وأوقع بأهلها، ثم فك الحصار واتجه إلى حمص لمحاربة الصليبيين[٢].

ثم حاول صلاح الدين التفاهم مع الملك الصالح، فأرسل إليه كتاباً يعرض فيه استعداده للتخلي عن حماة وحمص وبعلبك على أن يقره على ولاية دمشق ومصر. وقد أبى الملك الصالح إجابة هذا الطلب، فلم ير صلاح الدين بدآً من محاربته، فاشتبك مع جيش إسماعيل في معركة بالقرب من حماه وانتصر عليهم ثم حاصرهم في حلب وأرغمهم على طلب الصلح. ولكي يستدروا عطف صلاح الدين أرسلوا إليه ابنة نور الدين، وكانت لا تزال في دور الطفولة، فتلقاها بالحفاوة وأحسن وفادتها وقدم إليها الهدايا. ثم سألها عما تطلبه لقومها، فقالت إنهم يريدون بلدة «إعزاز»، فوهبها هذه البلدة. ونزل لأخيها الملك الصالح إسماعيل عن جميع المدن التي استولى عليها من إمارة حلب. وأصبح صلاح الدين بهذا الصلح صاحب الأمر في دمشق وحمص وحماه.

ولما عاد صلاح الدين إلى مصر بعد سنتين أخذ ينظم أمورها ووجه همته إلى تحصينها ليأمن شر غارات الأعداء. فعهد إلى وزيره بهاء الدين قراقوش في بناء قلعة منيعة على قمة

(١) Lane-Poole, Hist of Egypte in the Middle Ages, p. 203.

(٢) ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٥ - ١٦٦.

جبل المقطم غرباً لتكون مركزاً لحكومته ومعقلاً لجنده وليتقي بها خطر الفاطميين وأشياعهم في الداخل إذا حدثتهم أنفسهم بإذكاء نار الثورة والخروج على سلطانه. ثم أخذ صلاح الدين في بناء سور عظيم يضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة (٥٧٢ هـ)[١].

وقد ظل صلاح الدين يعمل على توحيد كلمة المسلمين حتى توفي الملك الصالح إسماعيل (٥٧٧ هـ)، فبسط سلطانه على حلب (٥٧٩ هـ) والموصل، وأصبح بذلك الحاكم المسيطر على غربي آسيا، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين المتحدة في الشمال والجنوب والشرق[٢].

وكان صلاح الدين منذ تولى زمام الحكم في مصر يبذل قصارى جهده لإخراج الصليبيين من المشرق، فلما اتصل به نبأ إغارة «رينولد» صاحب حصن الكَرَك (بفتح الكاف والراء) على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج وأخذه بعض قوافل المسلمين وهم في طريقهم إلى بيت الله، أغار صلاح الدين على الولايات الصليبية وهزم الصليبيين هزيمة منكرة في موقعة حطين (بكسر الحاء والطاء مع التشديد) القريبة من طبرية سنة ٥٧٩هـ (١١٨٧ م)، ثم أخذ يطاردهم حتى استولى على حصن طبرية بعد قليل، ويصف العماد الأصفهاني ما أحرزه صلاح الدين من نصر في قصيدة ننقل منها هذا البيت:

حَطَطْتَ على حطين قَدْرَ ملوكهم ولم تُبق من أجناس كفرهم جِنْسا

ونظم ابن الساعاتي قصيدة أخرى في هذا الفتح استهلها بهذا البيت:

جَلَتْ عزماتك الفتح المبينا فقد قرّت عيونُ المؤمنينا

ولما فرغ صلاح الدين من طبرية واصل زحفه حتى بلغ عكاء فحاصرها واستولى عليها، ثم وقعت في يده نابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت، كما سقطت في يده صور وطرابلس وعسقلان، وبذلك أخذ صلاح الدين يعد العدة لاسترداد بيت المقدس، فسار إليها على رأس جيش كبير، ولما اقترب منها بعث في طلب أشرافها وخاطبهم بقوله إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب في انتهاك حرمتها بإراقة الدماء، ولذلك ينصح لهم بترك استحكاماتهم وتسليم مدينتهم من غير حرب على أن يعوّضهم عن أملاكهم بالأموال

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٣٩ - ١٤٠. ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٢. ابن خلكان: ج ٦ ص ١٦٨.

(٢) ابن خلكان: ج ٦ ص ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١.

والأراضــي، لكن الصليبيين رفضوا إجابة هذا الطلب، فلم يرَ صلاح الدين بدأ من محاصرة بيت المقدس[١].

ولما رأى الصليبيون أنهم أصبحوا عاجزين عن المقاومة وأشرفوا على الهلاك، طلبوا الصلح وتعهدوا أن يسلموا بيت المقدس إلى صلاح الدين وأن يخرجوا منها بأموالهم وأولادهم مقابل فدية يدفعها كل منهم. فكان يؤخذ من الرجل عشرون ديناراً ومن المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ديناران[٢]، وضمن لهم صلاح الدين سلامة الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس.

ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ. وكان جميع الفرنجة قد غادروها، ثم أمر صلاح الدين بترميم ما دمرته الحروب من مبانيها وإعادة تشييد المساجد والمدارس التي هدمها الصليبيون، كما وضع نظاماً خاصاً لإدارتها.

ولما وصل إلى أهل أوروبا نبأ سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين أخذ رجال الدين يدعون الشعوب المسيحية وملوك أوروبا لإعداد حرب صليبية أخرى، ولم تلبث أن تدفقت النجدات على صور، واشترك في هذه الحرب ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا شأناً وهم: فريدريك برباروسا إمبراطور ألمانيا، وكان على رأس مائة ألف جندي، وفيليب الثاني ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا!. وبينما كان الألمان يزحفون على أنطاكية غرق ملكهم في الطريق ولم يصل من جنده إلى بلاد الشام إلا القليل، أما جيوش ريتشارد وفيليب فقد وصلت إلى عكا واستولت عليها.

على أن هذه الحملة الصليبية قد قضي عليها لوقوع النزاع بين فيليب وريتشارد، فعاد فيليب إلى بلاده وانفرد ريتشارد بمحاربة المسلمين، وأظهر من الشجاعة والفروسية ما أثار إعجاب أعدائه فلقبوه «قلب الأسد»، وقد انتصر ريتشارد أولاً على جيش صلاح الدين في أرسوف ثم تابع زحفه على عسقلان، غير أنه لما شاهد بنفسه خرائب قلعتها أدرك أنه أمام خصم عنيد، فشرع في بدء المفاوضات معه وانتهت بإبرام صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ. (١١٩٢ م). ومن أهم شروطه: وقف الحرب بين الفريقين ثلاث سنين، وأن يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة وأداء مناسك الحج، وأن يقوم الصليبيون بحماية ساحل الشام من صور إلى يافا، وأن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين[٣].

(١) ابن خلكان: ج ٦ ص ١٧٤ وما يليها. (٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٨٧.

(٣) Lane-Poole, Hist. of Egypte in the Middle Ages, p. 211

ولم تمض سنة واحدة على إبرام هذا الصلح حتى حقق صلاح الدين أهم أغراضه في الحياة، وهو إخراج الصليبيين من بيت المقدس وإعادة وحدة المسلمين، وقد أنهكت هذه الحروب الطويلة قواه وأضعفت صحته، وأصيب بالحمى وتوفي بدمشق في شهر مارس سنة ١١٩٢م ودفن بها. وقد حزن المسلمون لوفاة هذا الزعيم العظيم الذي أعاد إلى الإسلام قوته، وصد تيار الصليبيين الذي كاد يجتاح بلادهم. فقد رثاه الشعراء بمرثيات خالدة تعرفها كتب الأدب، فمن ذلك قول بعضهم:

أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولةً ولربه طاعاته
أين الذي شَرُف الزمان بفضله ... وسمتْ على الفضلاء تشريفاته
ملك على الإسلام كان محامياً ... أبداً لماذا أسلمتْه حُماته
يا راعياً للدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوانُ ربِّ العرش بل وصلواته[١]

لم يكن للمسلمين قبل انتصارهم الحاسم في موقعة حطين غير واحد في أرض فلسطين غربي نهر الأردن، لكن هذه الأرض قد أصبحت بعد صلح الرملة أرضاً إسلامية، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى يافا، وقد خرج صلاح الدين من هذه الحروب بقوة لا تقهر، وانتشر أتباعه في كافة البلاد الواقعة بين جبال كردستان وصحراء ليبيا، وسارعوا إلى تلبية دعوته إذا ما دعاهم للجهاد، وعمل على محالفته ملك چورچيا وملك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية[٢].

وكان صلاح الدين مثلاً للآداب العالية والصفات الحميدة، وكان كما وصفه ابن خلكان[٣]، كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس، رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، ويستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه.

ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس وقع في يده كثير من الأسرى، فوفد عليه رهط من النساء وناشدنه أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن، وقلن له إنهن إذا رحلن عن هذه البلاد فقدن أزواجهن، ولو ردهم إليهن لأزال بؤسهن وعشن سعيدات بفيض كرمه وواسع

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٠.
(٢) Ibid. p. 211
(٣) انظر ترجمة يوسف بن أيوب الملقب الملك الناصر صلاح الدين في ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩ - ٢١٩.

رحمته، فتأثر صلاح الدين بتوسلاتهن وأمر برد الأسرى إلى أقاربهم، ووزع الصدقات على اليتامى والأرامل، وعمل على إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى بحجاج المسيحيين.

وهناك كثير من القصص التي تدل على حسن السياسة التي سار عليها صلاح الدين مع أهالي المدن المفتوحة، وهي سياسة تنطوي على كثير من حسن المعاملة والعطف والرعاية وإغداق الهبات وتحقيق الرغبات، مما تفيض به الكتب التي عني مؤلفوها بتدوين سيرة صلاح الدين الحافلة بضروب الشجاعة والفروسية.

وكان صلاح الدين محباً لمجالس العلم ميالاً لمناقشة رجال الفقة وأصول الدين[1]، وقد وصفه عبد اللطيف البغدادي طبيب بغداد في هذه العبارة فقال: وجدته أميراً جليلاً مهيب الطلعة جديراً بالاحترام والتقدير، وديعاً متواضعاً ذكياً سمح النفس واسع الإدراك. ثم قال: وجدته في ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم، ورأيته وهو يحسن الإنصات ثم يشترك في الحديث، وكان صلاح الدين - «مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة - كثير التواضع واللطف قريباً من الناس، رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم... وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه»[2] ويقول لينبول[3]: ويكفي صلاح الدين فخراً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية في القاهرة... وكان تطبيقه في القاهرة مما جعلها في مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة.

خلفاء صلاح الدين

وقد ترسم خلفاء صلاح الدين خطاه، ففي عهد أخيه العادل جمع جان دي بريين (Jean de Brienne) جيشاً من الجرمان واستولى على دمياط سنة ١٢١٨ م. ويقال إن العادل مات في شهر أغسطس من هذه السنة حزناً على ضياع دمياط، وأوصى قبل وفاته ابنه الكامل بإخراج الصليبيين منها؛ فبنى الاستحكامات جنوبي دمياط وفي المنصورة، وحسم النزاع الذي قام بينه وبين أقاربه، وجاءته الإمدادات من حلب وحمص وحماه وغيرها. ثم التقى بالصليبيين عند المنصورة، وأغرق السفن فحجزت ماء النيل وحال بذلك دون تقدمهم، وحلت الخسائر بالصليبيين بسبب فيضان النيل وإحاطة المسلمين بهم من كل ناحية وتفشي الحمى في جندهم، واضطر الصليبيون إلى طلب الصلح (١٢٢١ م)، فرأى السلطان

(١) لينبول Saladin, p. 20

(٢) ابن خلكان: ج ٦ ص ٢٠٧.

(٣) ترجمة ص ١٧٢ , Hist. of Egypt in the Middle Ages

الكامل من حسن السياسة وبعد النظر في أن يجيبهم إليه، حتى لا تقوم حرب صليبية أخرى للأخذ بثأرهم، وسمح للصليبيين بالجلاء عن دمياط، وعقدت بين الفريقين هدنة أمدها ثماني سنين. ورحل الصليبيون عن مصر بعد أن أقاموا فيها أربعين شهراً(١).

على أن هذا الصلح الذي عقد بين السلطان الكامل والصليبيين لم يحل دون وقوع حرب صليبية أخرى، فقد خرج الإمبراطور فردريك الثاني بحملته إلى فلسطين، وتزوج من ابنة الملك جان بريين وارثة عرش أورشليم. واضطر الملك الكامل - بسبب قيام النزع بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق - إلى عقد صلح مع فردريك سنة ١٢٢٩ م على أن ينزل السلطان الكامل عن بيت المقدس، وأن يظل مسجد عمر وما حوله في حوزة المسلمين، وأن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين. وتعهد الإمبراطور بأن يدافع عن السلطان الكامل أمام أعدائه حتى المسيحيين منهم. ومما ساعد على عقد هذا الصلح ما عرف به فريدريك من حرية الرأي، وميله إلى المسلمين. وقد حامت الشكوك في صدق إخلاصه للمسيحية، حتى إن البابا قال إنه تابع من أتباع محمد لا جندي من جند المسيح.

عاش السلطان الكامل بعد إبرام هذا الصلح تسع سنين. وتقدمت مصر في عهده تقدماً عظيماً، فقد عمل على تحسين الري، وأتم تحصين قلعة القاهرة، وأسس كثيراً من معاهد العلم. وكان الكامل - كما وصفه ابن خلكان(٢) - «سلطاناً عظيم القدر جليل الذكر محباً للعلماء، متمسكاً بالسيرة النبوية، حسن الاعتقاد، معاشراً لأرباب الفضائل، حازماً في أموره، لا يضع الشيء إلا في موضعه في غير إسراف ولا إقتار»(٣).

ولما توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م)، ولى أمراء مصر الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك، فساء ذلك الصالح أيوب بن الكامل، وكان أبوه قد أبعده عن حصن كيفا (الضفة الغربية لنهر دجلة)، وهمّ بمغادرة الشام ليستولي على مصر، فاعتقله الناصر صاحب الكرك، ولكنه ما لبث أن أطلق سراحه، وتحالف معه على أن تكون مصر له، وبلاد الشام للناصر، وتآمر مماليك الكامل على خلع العادل، واستدعوا الصالح أيوب، وولوه السلطنة سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م)(٤).

وفي عهد الملك الصالح أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) جرد لويس التاسع ملك فرنسا حملة

---

(١) Lane-Poole. pp. 218-224

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٦.

(٣) هكذا ورد في الأصل ولعله يريد من غير إسراف ولا تقتير.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٢٦٧ - ٢٩٤ - ٢٩٦.

على مصر، واستولى على دمياط، ثم عسكر بالقرب من البحر الصغير بالمنصورة، وانتصر أول الأمر، وكاد يقتحم قصر السلطان، لولا أن رده المماليك بقيادة بيبرس، الذي انقض بجيشه على الصليبيين وقلب نصرهم هزيمة[١]. ولما أخذ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة، توفي الملك الصالح (نوفمبر ١٢٤٩ م). وكان ابنه وولي عهده الملك المعظم «توران شاه» بحصن كيفا، وقد أخفت زوجته شجرة الدر موته، حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين. ثم قدم توران شاه ابن الملك الصالح أيوب مصر، ونزل بقصر السلطنة بالمنصورة، ونقل أسطولاً من المراكب على ظهور الجمال إلى مكان بعيد عن مرسى الأسطول الفرنسي، حيث ركبت أجزاء السفن، واستولى على اثنتين وثلاثين سفينة فرنسية، ومنع وصول المؤن والذخائر إلى جيش لويس في المنصورة، ودارت الدائرة على الفرنسيين[٢]، واضطر لويس إلى التقهقر نحو دمياط، فطارده المسلمون حتى فارسكور. وقضوا على جيشه سنة ١٢٥٠ م. ومرض لويس بالحمى، وأسر هو وكثير من رجاله، ولم يفك أسره إلا بعد أن تعهد الفرنسيون بإخلاء دمياط[٣]. وهكذا أخفق الصليبيون في كل حملاتهم على مصر.

بعد ذلك انتشرت سطوة المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح أيوب. واشتد أزرهم بهذ النصر الذي أحرزه بيبرس المملوكي في موقعة فارسكور، وأضمروا السوء لتوران شاه، الذي أثار غضبهم لسوء معاملته إياهم فقتلوه وولوا شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب سلطانة عليهم. وبقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية في مصر وقامت دولة المماليك البحرية، التي حكمت هذه البلاد من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ م.

رابعاً ـ الدولة المرابطية

(٤٤٨ ـ ١٠٥٦/٥٤١ ـ ١١٤٧)

(١) قيام الدولة المرابطية

أجمع المؤرخون على أن المرابطين[٤] أو الملثمين[٥] من قبيلة لمتونة (بفتح اللام

---

(١) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, pp. 38-39.

(٢) Ibid, p. 46.

(٣) Ibid, p. 51-57

(٤) سموا المرابطين لأنهم تتلمذوا على عبد الله بن ياسين في الرباط الذي أنشأه للدرس والعبادة في صحراء المغرب حيث قبيلة لمتونة.

(٥) سموا الملثمين لأنهم كانوا يضعون على وجوههم لثاماً يقيهم هاجرة الصحراء وبردها كما يفعل العرب، =

وسكون الميم) البربرية الصنهاجية ويكادون يتفقون على أن صنهاجة من القبائل العربية الحميرية، وأنهم ساروا من اليمن إلى الشام ومنها إلى الساحل الأفريقي حيث اتجهوا نحو المحيط الأطلسي واستوطنوا صحراء المغرب لمشابهتها لصحراء العرب. وكانوا بقيادة عقبة ابن نافع، ثم كثر عددهم في عهد موسى بن نصير[١]. وعلى الرغم من أن ابن خلدون وكتامة من بين تلك القبائل البربرية[٢]، يغلب الرأي القائل بيمنية صنهاجة لا بمضريتها[٣].

٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ **المرابطون** ١٠٥٦ ـ ١١٤٧

[المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس]

هجرية		ميلادية
٤٤٨	أبو بكر	١٠٥٦
٤٨٠	يوسف	١٠٨٧
٥٠٠	علي	١١٠٦
٥٣٧	تاشفين	١١٤٣
٥٤١	إبراهيم	١١٤٦
٥٤١	إسحاق	١١٤٧

= وقيل في سبب هذه التسمية إن طائفة من قبيلة لمتونة أغارت على عدو لهم، فسار العدو إلى بيوتهم، ولم يكن فيها إلا الشيوخ والنساء والصبيان، فأمر الشيوخ النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقن ثيابهن حتى لا يميزهن العدو، ويحملن السلاح، وسار الشيوخ والصبيان أمام النساء اللاتي طوقن البيوت، فلما أشرف العدو هاله هذا الجمع العظيم وظنه رجالاً يقاتلون قتال المستميت دفاعاً عن حرمهم، فاحتال العدو على استدراجهم للخروج من بيوتهم، حتى إذا تبعوهم قاتلوهم خارج بيوتهم، فبينا العدو منشغل بجمع الأنعام من المراعي، أقبل رجال لمتونة، وأصبح العدو بينهم وبين النساء، فقتل عدد كبير من العدو. ومن ثم جعل اللمتونيون اللثام سنّة وغدوا لا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٢٣٣).

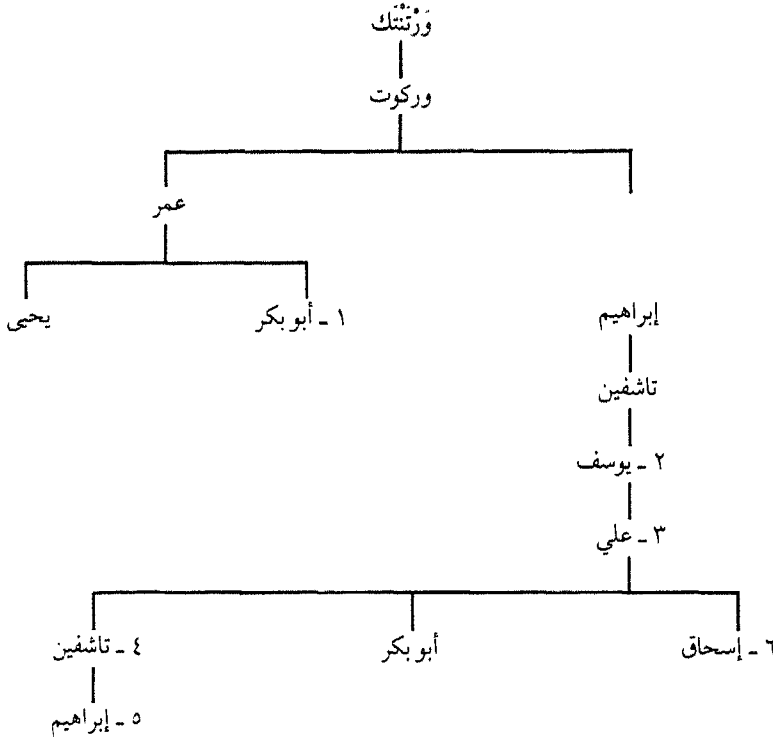
قال ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٢): «كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم... وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة... وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أي على الدين) فدانوا له واستوثق لهم (أي للملثمين) الملك، ثم افترقوا، وكانت رياسة كل بيت منهم في بيت مخصوص» انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٨ (٣)».

(١) ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٣٢.

(٢) العبر ج ٦ ص ١٦٥.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس (طبعة الرباط ١٩٢٦) ج ٢ ص ٥.

تسلسل نسب المرابطين



ويذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة (بفتح الصاد والجيم وسكون النون) فخذ من هوارة (بفتح الهاء والراء والواو مع التشديد) وهذا لا يعارض الرأى القائل بأن صنهاجة حميرية الأصل، لأن هوارة فخذ من حمير[1].

وكانت قبيلة لمتونة التي أنجبت تلك الدولة العظيمة تقيم بصحراء المغرب التي تمتد جنوباً حتى بلاد السودان[2]، وتتجول أحياناً في تلك القفار الشاسعة، شأنها في ذلك شأن العرب الرحَّل، وكانت تدين بالإسلام الذي لم تكن تعرف أحكامه إلا لماما، ولم تكن القبائل الصنهاجية التي تقيم في ربوع الصحراء، مثل جدالة (بضم الجيم) ومسوفة (بكسر الميم وضم السين مع التشديد) ولمطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم) ومسراتة (بكسر الميم وسكون السين وفتح التاء) وتكلاتة (بكسر التاء الأولى وفتح التاء الثانية) ومنداسة (بفتح الميم وسكون النون) وبني وارث وبني مسفير (بفتح الميم وسكون السين) وبني ذخير

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(٢) ابن خلدون: العبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ١٨٢.

(بفتح الذال وسكون الراء) وبني زياد وبني موسى وغيرها[١] خيراً من لمتونة من الناحية الدينية، غير أن اللمتونيين كانوا متعصبين للإسلام متحمسين له عاملين على نشره في بلاد السودان بقيادة أميرهم أبي عبد الله بن يتفاوت اللمتوني[٢].

(٢) يوسف بن تاشفين

ولما توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر ابن عمر، وقلده أمر الحرب والجهاد، ثم ندب المرابطين لغزو بلاد السوس والمصامدة، فزحف إليها في جيش عظيم، وجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني، ثم سار أبو بكر بن عمر إلى بلاد السوس، فغزا قبيلة جزولة، وفتح مدينة ماسة وتارودانت عنوة، وكانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الشيعة البجلية الذين ينتمون إلى عبد الله البجلي الذي سار إلى بلاد السوس في أيام عبيد الله المهدي، ونشر فيها المذهب الشيعي، فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر وانتصرا عليهم، فعادوا إلى مذهب السنة والجماعة[٣].

وفي سنة ٤٥٣ هـ عاد أبو بكر بن عمر من مهمته في الصحراء التي استغرقت نحو سنتين. وقد هاله ما رأى من ضخامة جيوش يوسف بن تاشفين، وأدرك أنه لا قبل له بمناوأته؛ فنزل له عن السلطة وسلم إليه أمر المغرب أمام شيوخ لمتونة وأعيان الدولة المرابطية وأمراء المصامدة والكتاب والشهود[٤]. وقد جرت عادة المرابطين أن تعقد البيعة للأمير حسب هذا الترتيب: أفراد الأسرة المالكة، فالأمراء، فرؤساء القبائل، وعمال الدولة. ثم يرسل إلى عمال الدولة في المغرب والأندلس منشور يتضمن هذه البيعة ويقرأ في المساجد، فيتقدم الناس لبيعة الأمير الجديد، كما جرت عادة المرابطين بتبادل الكتب مع الخليفة العباسي الذي يقرّ هذه البيعة ويباركها[٥]. وكان يوسف بن تاشفين، كما وصفه ابن الأثير: «رجلاً ديّناً خيّراً حازماً داهية مجرباً»، وأنه أحسن السيرة في الرعية ولم يأخذ منهم سوى الزكاة «وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة واتباع الشريعة، فاستغاث به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً وبلداً بلداً بأيسر سعي، فأحبه الرعايا وصلحت

---

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦

(٣) السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ١٢.

(٤) الحلل الموشية (لمؤلف مجهول) ص ١٦.

(٥) راجع كتاب الخليفة المستظهر العباسي إلى يوسف بن تاشفين بإقراره على ما بيده في كتاب الحلل الموشية ص ٧٦. ابن أبي زرع. روض القرطاس ج ٦ ص ٨٠.

أحوالهم . . وملك البلاد المتصلة بالحجاز، مثل سبتة وطنجة وسلا وغيرها»[١].

قامت الدولة المرابطية على أساس ديني، ومع ذلك فإن تلك الفترة التي بدأت بحكم يوسف بن تاشفين يمكن أن تعتبر فترة سياسية أكثر منها دينية، إذ كانت السيادة فيها لقبيلة صنهاجة الصحراوية على قبيبة زناتة صاحبة الأمر في المغرب قبل قيام الدولة المرابطية، ولكي يضمن يوسف بن تاشفين بقاء السيادة لقبيلته، تراه يصانع قبائل المصامدة الجبلية، فيبدأ بها عبد الله بن ياسين في توزيع خمس الغنائم التي استولى عليها في حرب درعة وسجلماسة على فقهاء المصامدة[٢]. ويعد يوسف بن تاشفين أول ملك بربري حكم المغرب وكوّن جيشاً قوياً تتمثل فيه جميع القبائل المغربية بصفة عامة.

(٣) موقعة الزلاقة:

ولم يقف طموح يوسف بن تاشفين عند بسط سلطانه على المغرب الأقصى، بل إنه كون أعظم دولة مغربية للمرة الأولى في التاريخ وهي الدولة المرابطية، إذ امتد سلطانه من السودان جنوباً إلى جبال البرانس شمالاً، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود تونس شرقاً، بل لقد اعتبر بعض المؤرخين يوسف بن تاشفين أعظم حكام المسلمين في عصره، إذ كانت الدولة العباسية في المشرق قد تطرق إليها الضعف والانحلال، وأخذت الدولة الفاطمية في الأفول، واتخذ الصليبيون من هذا الضعف فرصة للاستيلاء على المدن المقدسة بفلسطين وغيرها من البلاد التي امتد إليها ظل الإسلام، وشدد نصارى الأندلس بصفة خاصة الخناق على ملوك الطوائف، وكاد حكم هذه البلاد يخرج من أيدي المسلمين، لولا أن قيَّض الله لهم يوسف بن تاشفين الذي لبى نداء ملوك الطوائف ورد جيوش الفونس السادس على أعقابهم.

ويذكر عبد الواحد المراكشي[٣] أن أبا عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ولي أمور إشبيلية وأعمالها سنة ٤٣٩ هـ، وتلقب «المعتضد بالله». وقد قيل إن هشاماً المؤيد الأموي كان يقيم بقصر المعتضد العبادي وأنّه ولاه الحجابة. وفي سنة ٤٥٥ هـ أعلن المعتضد موت هشام المؤيد وأظهر أنه ولاه عهده ليكون أميراً على بلاد الأندلس من بعده.

وفي سنة ٤٦٣ هـ نزلت قبيلتا لمتونة ومسُّوفة من البربر رحبة مراكش واتخذوها داراً لملكهم لوقوعها في مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى.

---

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢.

(٢) ابن أبي زرع روض القرطاس ج ٢ ص ٨٥. (٣) المعجب ص ٩٥.

وقد ولي المعتمد على الله حكم إشبيلية، ويشبهه المؤرخون بالخليفة الواثق العباسي في سعة اطلاعه وغزارة أدبه، وكان شعره ـ كما وصفه المراكشي[1] ـ «كأنه الحلل المنَشَّرة»، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس».

تغلب المعتمد على قرطبة سنة ٤٧١ هـ من بني جهور (بفتح الجيم والواو وسكون الهاء). وكان المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة قد استولى عليها، فاستنجد عبد الملك ابن جهور بالمعتمد بن عباد الذي استولى على قرطبة فأصبحت تابعة لإشبيلية، ولكن أهلها ثاروا على الظافر بن المعتمد وقتلوه لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم لبني أمية، غير أن المعتمد بن عباد قضى على هذه الفتنة وولى ابنه الآخر المأمون أمور قرطبة، فظل بها إلى أن قتله المرابطون.

وقد وجد المعتمد بن عباد أمير إشبيلية في أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب الرجل الذي يستطيع أن يعتمد عليه في الصمود أمام أعدائه المسيحيين، وفي سنة ٤٧٩ هـ عبر المعتمد البحر قاصداً مدينة مراكش حاضرة الدولة المرابطية مستنجداً بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[2]، وكان إذ ذاك بمدينة سبتة، وطلب إليه الحضور لنجدة المسلمين والجهاد ضد المسيحيين في الأندلس، فلبى ابن تاشفين نداء المعتمد وقال له: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي» وأقبل من بقي من جند ابن تاشفين في مدينة مراكش حتى تكامل عددهم، ثم عبر البحر من سبتة في أسطول يتألف من مائة سفينة تحمل سبعة آلاف فارس وعدداً كبيراً من الرجال ميمماً شطر مدينة الجزيرة الخضراء، وتلقاه المعتمد بن عباد في وجوه من دولته، وقدم إليه الهدايا والتحف.

ثم اتجه ابن تاشفين نحو شرق الأندلس وطلب إليه المعتمد أن يدخل إشبيلية حاضرة ملكه ليستريح فيها أياماً من وعثاء السفر ومشقة الطريق قبل أن يلتقي بعدوه، فأبى ابن تاشفين وقال: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو، فحيثما كان العدو توجهت وجهه. . . . هلمّ (إلى) ما جئنا له من الجهاد». وقصد حصن ألفونس السادس ملك قشتالة[3]، وقد بلغ جيش يوسف بن تاشفين زهاء عشرين ألفاً عدا المتطوعين من المسلمين الذين جاءوا من سائر بلاد

---

(١) المعجب ص ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠.
(٣) المراكشي: المعجب ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

الأندلس، وجمع ألفونس من أقاصي مملكته جيشاً جراراً كامل العدة والسلاح والخيل[١]. وفي سهل الزلاقة على مقربة من بطليوس وقف جيش المعتمد في المقدمة وعسكر جيش ابن تاشفين خلف أكمة عالية من الجبل.

ويصف لنا عبد الواحد المراكشي ما ابتكره ألفونس السادس من ضروب الحيل والخداع لمنازلة المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم، واختلفت الرسل بين الفريقين المتحاربين في تحديد يوم القتال، وبعث قائد المسيحيين يقول للمسلمين: «الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان ما نريده من الزحف». ثم جاء يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة، وأوجس المعتمد بن عباد خيفة من ناحية المسيحيين وظل في جنده شاكي السلاح، وحمل المسيحيون على المسلمين، ففاجأهم جند المعتمد وحمل المرابطون السلاح واستووا على ظهور خيلهم، واختلط الفريقان. وأظهر المرابطون من ضروب البسالة ما كفل لهم النصر، وأخذ المسلمون يطاردون أعداءهم ويقتلونهم في كل مكان، حتى قيل إنهم أفنوهم عن آخرهم، وذلك في منتصف شهر رجب (وقيل في أوائل رمضان) سنة ٤٧٩ هـ، واستولى المسلمون على ما كان معهم من مال وسلاح ودواب وغيرها، وقد آثر بها يوسف بن تاشفين ملوك الأندلس، فأحبوه.

وهكذا لبى يوسف بن تاشفين نداء الجهاد وأحرز هذا النصر المؤزّر في موقعة الزّلاقة التي تعد من المواقع الحاسمة في التاريخ. وضمن للإسلام قوته وعزته في بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى.

كان انتصار المسلمين في الزلاقة فاتحة يمن وبركة، ولا غرو فقد أثار هذا النصر إعجاب المسلمين بيوسف بن تاشفين ولهجت الألسنة بإطرائه والثناء عليه ودعوا له على منابرهم، وقد عبر يوسف عن رغبته في زيارة الأندلس ومشاهدة معالمها، وكان في خلال زياراته يظهر إعجابه بمواهب المعتمد العبادي ويشيد بكرم ضيافته، وكان يظهر الحنين إلى مراكش حاضرة ملكه ويصغّر من شأن الأندلس، وهو كما يقول المراكشي[٢] «يُسرّ حسواً في ارتغاء»[٣].

(١) ذكر ابن الأثير: (الكامل ج ١٠ ص ٥٧) أن جيش ألفونس كان يتألف من خمسين ألف مقاتل.

(٢) المعجب ص ١٣٥.

(٣) مثل يضرب لمن يريد أن يعينك وإنما يقصد النفع لنفسه، كمن يؤتى بوعاء من اللبن ويظهر أنه يريد الرغوة خاصة لا يريد غيرها، وهو في أثناء ارتغائه يحسو اللبن جرعة جرعة.

وقد علق أشاخ[١] على هذه الموقعة فقال: إن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يستغل نتائج انتصاره في موقعة الزلاقة، لكانت أوروبا الآن تدين بالإسلام، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس.

(٤) بعد موقعة الزلاقة

لقد أثارت هزيمة ألفوس السادس في موقعة الزَّلَّاقة التي جرح فيها وقتل معظم جنده عوامل الحقد والضغينة على المعتمد بن عباد، لأنه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين إلى قتال نصارى الأندلس، لذلك عوَّل ألفونس على أخذ الثأر من المعتمد، فأخذ يجمع الجند ويستعد لمهاجمة إشبيلية. وركّز غاراته على مملكة ابن عباد، وأخذ يوجه ضرباته إلى حصن «لييط» فضاق ابن عباد بذلك ذرعاً وجاز البحر إلى بر المغرب والتقى بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين واستغاث به. وقد عاد ابن عباد إلى بلاده وجاز ابن تاشفين البحر إلى الجزيرة الخضراء حيث تلقاه ابن عباد، وقد رأى ابن تاشفين أن يوحد جهود المسلمين في جهاد النصارى، فكتب إلى ملوك الأندلس يدعوهم إلى منازلة النصارى، وطلب أن يكون اجتماع الجيوش المشتركة في حصن لييط[٢].

ولما وصلت جيوش يوسف بن تاشفين إلى هذا الحصن ساءه عدم استجابة أمراء الأندلس إلى دعوته، إذ لم يستجب لها سوى ابن عبد العزيز صاحب مرسية والمعتمد بن عباد، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة أمير المسلمين، إذ ضيق على هذا الحصن وأخذ يشن الغارات على بلاد النصارى. على أن قيام النزاع بين المعتمد بن عباد وابن عبد العزيز الذي قُبض عليه بأمر يوسف بن تاشفين، قد أضعف جند المسلمين. واضطر أمير المسلمين أن يولي وجهه شطر ليورقة فثغر المرية، حيث جاز منه البحر إلى عدوة المغرب، وقد تغيَّر (ابن تاشفين) على أمراء الأندلس لكونه لم يأته منهم أحد إلى نزول حصن «لييط». وبذلك خلا الجو لألفونس السادس، فنزل على الحصن وأطلق من بقي به من النصارى، ثم يمم شطر طليطلة، واسترد المعتمد بن عباد هذا الحصن.

وقد أقام يوسف بن تاشفين ببلاد المغرب إلى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م)، حيث جاز البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة للجهاد في سبيل الله والاستيلاء على الأندلس من أمراء المسلمين. وقد سار يوسف حتى بلغ طليطلة وحاصر ألفونس بها.... وقطع ثمارها وضرب أحوازها (أحياءها) وقتل وسبى كثيراً من أهلها. ولم يأت لمساعدة يوسف أحد من أمراء

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٧. وانظر أيضاً عبد الله كنون: المدخل ص٤٨. المراكشي: المعجب ص ١٧٨. ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦٣. السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٤١.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦٦ - ٦٧.

الأندلس الأمر الذي أثار حنقه عليهم، فلما رجع من غزو طليطلة سار نحو غرناطة، فنازل صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس لأنه صالح ألفونس السادس وظاهره عليه. فلما اشتد الحصار على غرناطة لم يجد صاحبها بداً من طلب الأمان، فأمنه يوسف بن تاشفين على أن يسلم إليه بلاده، ثم رحل عبد الله بن بلكين وأخوه تميم صاحب مالقه إلى مراكش[١].

جاز يوسف بن تاشفين البحر إلى المغرب في شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ، وأناب عنه الأمير سيري بن أبي بكر اللمتوني في حكم هذه البلاد، وأمره أن يتتبع آثار ألفونس السادس صاحب طليطلة، وأن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين ويلحق أمراءها بالمغرب، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة، وألا يتعرض للمعتمد بن عباد حتى يستولي على سائر الإمارات ويولي عليها أمراء جنده.

وقد استولى سيري على جيَّان في أوائل سنة ٤٨٤ هـ، ثم سار نحو قرطبة، فاستولى عليها من صاحبها المأمون بن المعتمد (صفر سنة ٤٨٤ هـ)، ثم يمم شطر قرمونة فدخلها عنوة (ربيع الأول ٤٨٤ هـ)، فلم يجد المعتمد بن عباد بداً من الاستنجاد بألفونس السادس الذي أمده بعشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل، فوجه الأمير سيري إليه جيشاً، والتقى الجمعان على مقربة من حصن المدور وانتصر عليه. ولم يزل الأمير سيري يضيق الخناق على المعتمد حتى سقطت إشبيلية (٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ)، وأرغم على طلب الأمان في نفسه وولده وأهله، فبعث بهم سيري إلى أمير المسلمين، فأنزلهم أغمات القريبة من مراكش. وفي شهر شوال من هذه السنة دخل المرابطون بقيادة يوسف بن داود ابن عائشة مدينة مُرْسية وأعمالها. ثم دخل المرية فهرب صاحبها معز الدولة بن صُمادح بحراً إلى إفريقية بأمواله وعياله. وفي سنة ٤٨٥ هـ أمر يوسف بن تاشفين قائده ابن عائشة بالمسير إلى دانية فاستولى عليها، كما استولى على شاطبة من صاحبها ابن منقذ، ثم سار ابن عائشة إلى بلنسية فاستولى عليها من القادر بن ذي النون، وكان يخضع لألفونس السادس ويدفع إليه الجزية، «فملك يوسف مملكة خمسة أمراء في سنة ونصف. وهم: ابن عباد، وابن حبوس (غرناطة) وابن الأحوص، وابن عبد العزيز، وعبد الله بن بكر (جيَّان)»[٢].

كان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيِّراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم، ويسند إليهم مناصب الدولة، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالي لما سمع ما اتصف به يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٧ ـ ٦٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٦٩ ـ ٧٧. المقرى: نفح الطيب ج ٦ ص ١٠٤ ـ ١١٠.

إليه، فوصل إلى الإسكندرية وأخذ في الاستعداد للرحيل، ولكنه علم بنبأ وفاته فعدل عن رأيه، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب، ويستمع إلى الموعظة في خشوع، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ.

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والأندلس مدة خمسين سنة، وقد أجمع المؤرخون على أن عهد يوسف بن تاشفين كان عصر المرابطين الذهبي، فقد أخذت الدولة المرابطية في الضعف بعد موته، وخلفه أمراء كانوا أقل منه حنكة وأضعف قوة، وصادفتهم ظروف سيئة في الداخل والخارج عجلت بسقوط دولتهم ولا سيما بعد ظهور الدعوة الموحدية على يد المهدي محمد بن تومرت.

(٥) علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٥٧/١١٠٦ ـ ١١٤٣:

عرفت الملكية في المغرب لأول مرة في الإسلام بعد قيام دولة الأدارسة الذين أخذوا نظرية الإمامة عن أسلافهم العلويين الذين اقتبسوا نظرية الحق الملكي التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد الساسانيين، أضف إلى ذلك اعتقادهم بأحقيتهم بالخلافة بعد الرسول. وقد رحّبت قبيلة أوربة (بفتح الألف والراء والباء وسكون الواو) بإدريس الأول وسلمت إليه مقاليد الحكم وساعدته على ضم جزء كبير من المغرب، في الوقت الذي استولى بنو مدرار على زمام الحكم في سجلماسة، واحتل البرغواطيون سهول المحيط الأطلسي، واحتل بوصالح مدينة نكور (بفتح النون) في الشمال. وقد ساعد البربر الأدارسة على إقامة حكم وراثي في المغرب لأنهم من بيت الرسول الكريم، ولما كان من اضطهاد العباسيين لهم، ثم لشدة تمسكهم بالإسلام، واستمرت الحال على ذلك حتى انقضى عهد الأدارسة سنة ٣٧٥ هـ.

وكان المرابطون أول من أسس ملكية وراثية من أبناء المغرب أنفسهم، وكانت دولتهم أول دولة وحدت المغربين الأقصى والأوسط، وقامت بدور خطير في نشر الإسلام في المغرب والسنغال. وقد جمعوا بين الجهاد والثقافة الإسلامية معاً، وقضوا على بدع البرغواطيين، وفلوا شوكة الزناتيين المتنازعين المتنافرين، وأنقذوا بلاد الأندلس من الضياع.

وقد أدرك يوسف بن تاشفين كل هذه الأمور حين فكر في أخذ البيعة لابنه علي، إذ كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده، وأن تنفصم عرى هذه الوحدة وتنتهي هذه الرسالة

التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف بن تاشفين أن يستخلف من ينوب عنه في مباشرة هذه التبعات الخطيرة. ولو أنه ترك الأمر شورى للمرابطين ليختاروا من بعده من أحبوا، لأصبح من العسير أن يجتمع الناس على شخص معين، لأنه لم يكن ثمة نظام مستقر للانتخاب في وقت أصبحت بلاد الأندلس مهددة بغارات نصارى الشمال، لذلك فكر يوسف في البيعة لابنه، إذ أنه رأى أن هذا الأمر يدخل في نطاق سلطته، كما يتبين ذلك من عهده له الذي جاء فيه.

«. . . فلأنه (يعني يوسف بن تاشفين) بما لزمه من هذه الوظيفة وخصّه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة، فقد أعز الله رماحه، وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً»[١].

وقد تمت هذه البيعة بمدينة قرطبة سنة ٤٩٦ هـ، فبايعه جميع أمراء لمتونة وفقهاؤها وأشياخها. وكان علي بسبتة التي ولد فيها[٢]. ولم يكن علي بن يوسف أكبر إخوته.

وكان يوسف بن تاشفين يخشى معارضة المصامدة حين أوصى ابنه علياً قبل وفاته بوصايا ثلاث تتلخص فيما يلي:

(١) ألا ينال سكان الأطلس ومن وراءه من المصامدة بسوء.

(٢) أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة من ملوك الطوائف التي أسسها سليمان بن محمد بن هود بن الجذامي أحد قادة الثغر الأعلى[٣].

(٣) أن يحسن إلى أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم. وقد اشتهروا بثوراتهم على الدول التي تعاقبت على حكم الأندلس، لأن عدداً كبيراً من أهلها كانوا من المولدين والفقهاء الذين تزعموا هذه الثورات[٤].

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٤.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٧٧.

(٣) استولى سليمان بن هود على لاردة سنة ٤٣١ هـ. ولقب نفسه المستعين، وضم سرقسطة التي بقيت في أيدي أولاده إلى أن سقطت في يد أحد أبناء روذمير سنة ٥١٢ هـ. وتقرب عبد الملك بن هود إلى النصارى سنة ٥٠٣ هـ. وقد خرج عبد الله ابن فاطمة قائد المرابطين في الأندلس على علي بن يوسف ابن تاشفين وحاول الاستيلاء على سرقسطة. ولكن الهزيمة حلت بجيشه أمام جيش ابن روذمير الذي استنجد به عبد الملك بن هود.

(٤) وقد أدت هذه الفتن إلى طرد الثوار، فلجأ بعض إلى طليطلة وقصد آخر المغرب والإسكندرية ثم ثارت قرطبة على المرابطين بزعامة القاضي ابن حمدين سنة ٥٣٩هـ، وطرده أهلها واستنجدوا بيحيى بن غانية =

ولد أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين بمدينة سبتة سنة ٤٧٧ هـ ونشأ في بيت أبيه كما ينشأ أبناء الأشراف. وكان أبو الطاهر تميم أول من بايع أخاه علياً على الرغم من أنه أكبر منه سناً ونادى في المرابطين: «قوموا فبايعوا أمير المسلمين»[١]. فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وشيوخ القبائل. ولم يتخلف عن بيعة علي إلا ابن أخيه يحيى الأكبر أبي بكر، وكان يلي مدينة فاس، وله مواقف مشهورة في أيام جده يوسف بن تاشفين، كما كان أبو بكر نائباً عن أبيه يوسف قبل انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة في الأندلس. لذلك تطلع يحيى بن أبي بكر إلى الحكم بعد جده يوسف لأنه ابن الأخ الأكبر من أبناء يوسف، وامتنع عن مبايعة عمه علي الذي سار إلى مدينة فاس لتأديب ابن أخيه وإدخاله في طاعته. ولكن يحيى قد فر أمام جيوش عمه الذي استولى على فاس، وتمت له بذلك البيعة في جميع أنحاء الدولة المرابطية التي امتد نفوذها على المغرب والجزائر والأندلس. وتلقب بلقب أمير المسلمين كما كان أبوه من قبل. وسار على نهج أبيه في الجهاد في سبيل الله وحماية البلاد من خطر النصارى. وكان علي بن يوسف يكره الظلم ويميل إلى حياة الزهد والتقشف ويعظم الفقهاء ويقربهم إليه ولا يقطع أمراً دون الرجوع إلى رأيهم[٢].

وقد وضع علي بن يوسف نصب عينيه القضاء على مقاومة النصارى بزعامة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذي اشتد طمعه وأخذ يشن الغارات على أطراف الولايات الإسلامية في الأندلس بعد موت يوسف بن تاشفين بطل الزلاقة. كذلك عمل علي بن يوسف على القضاء على الدعوى الموحدية التي قام بها المهدي بن تومرت في مستهل سنة ٥١٥ هـ، وأخذ يهدد الدولة المرابطية ويعمل على زوالها. لذلك لم يكن بد من أن يعمل علي بن يوسف على القضاء على هذين الخطرين في وقت واحد.

فأما نصارى الأندلس فقد ولى علي بن يوسف أخاه «تميم بن يوسف» غرناطة، وأسند إليه قيادة الجيش المرابطي في الاندلس. وقد استطاع تميم أن يحل الهزيمة بالنصارى في موقعة «إقليش» التي تعد من أكبر المعارك التي دارت بعد موقعة الزلاقة بين المرابطين والنصارى. ففي سنة ٥٠٢ هـ حاصر تميم حصن إقليش، فاستنجدت حاميته بألفونس السادس وكان مريضاً، فأشارت عليه زوجته بأن يرسل ابنه على رأس جيش كبير يفوق جيش

= آخر ولاة المرابطين. وقد قيل إن يوسف بن تاشفين أوصى ابنه علياً بأن يحسن إلى أهل قرطبة لأنها كانت مركزاً علمياً.

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ٧٨.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٧١.

المسلمين عدداً وعدة. وانتهت هذه المعركة بهزيمة النصارى هزيمة منكرة وقتل ابن ألفونس السادس ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من زهرة جنده[1]. ولما اتصل نبأ هذا الانتصار بعلي بن يوسف امتلأ حماساً وقرر أن يجتاز البحر إلى الأندلس لاستئصال شأفة النصارى فيها.

وفي السنة التالية (١١٠٨/٥٠٣) جاز علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للجهاد في مائة ألف جندي. وبعد أن قضى شهراً بقرطبة خرج إلى مدينة «طلايوت» ففتحها عنوة. كما فتح سبعة وعشرين حصناً من أعمال طليطلة، من بينها حصن مجريط (وهي مدريد الحالية) ووادي الحجارة. ثم يمم شطر طليطلة حاضرة أسبانيا النصرانية إذ ذاك، وحاصرها شهراً، ثم سار نحو قرطبة.

وفي سنة ٥٠٤ هـ فتح المرابطون شريش وبطليوس والبرتغال ويابرة وأشبونة (لشبونة). وقد ذكر ابن الأثير أن عليّ بن يوسف هزم الفرنجة هزيمة منكرة وأسر عدداً كبيراً منهم وغنم غنائم لا تحصى[2]. ولكن النصارى استطاعوا في سنة ٥١٣ هـ أن يستولوا على مدينة سرقسطة، كما استولوا على قلعة أيوب شرقي بلاد الأندلس، وكانت تعد من أمنع قلاع الأندلس. وكانت هذه الهزائم من بوادر ضعف الحكم المرابطي في هذه البلاد.

وفي سنة ٥١٣ هـ (وقيل سنة ٥١٤ هـ) قامت فتنة عظيمة بين أهل قرطبة وجند المرابطين. ويرجع ذلك إلى تعدي أحد عبيد الوالي المرابطي على امرأة، فاستغاثت بالمسلمين وقامت الحرب بين العبيد وأهل قرطبة. ويذكر ابن الأثير أن الفقهاء طلبوا من الوالي أن يأمر بقتل أحد العبيد الذين أثاروا هذه الفتنة ليكون ذلك رادعاً لمن تحدثه نفسه بأن يعبث بالتقاليد الإسلامية. ولكن الوالي لم يستمع إلى طلبهم، وقامت الحرب بين أهل قرطبة وجند المرابطين، وحاصر الأهالي دار الوالي ونهبوه وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من بلدهم، واضطر الوالي إلى الهرب. ولما اتصل ذلك بمسامع أمير المسلمين علي بن يوسف أنكر ذلك وجمع الجند من صنهاجة وزناتة وسائر البربر وغيرهم، وعبر البحر إلى الاندلس سنة ٥١٥ هـ، وحاصر قرطبة، فقاتله أهلها لحماية حرمهم وأموالهم وتدخل الوسطاء في الصلح فعدل عليّ عن قتالهم[3].

---

(١) الحلل الموشية ص ٦٤.
(٢) الكامل ١٠ ص ١٨٥.
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١١.

(٦) نهاية الدولة المرابطية:

وفي سنة ٥١٦ هـ بدأ ابن تومرت يناوىء سلطان المرابطين الأمر الذي أضعف قوتهم في الأندلس. ووقعت بين الفريقين معركة البحيرة، وكان جيش الموحدين بقيادة محمد البشير الونشريشي الذي قتل في هذه المعركة، وفقد ابن تومرت أكثر أصحابه العشرة وآلافاً من زهرة جنده، واشتد به المرض فمات في سنة ٥٢٤ هـ[1].

خلف ابن تومرت عبد المؤمن بن علي، وكان سياسياً محنكاً وقائداً ماهراً، استطاع أن يعيد إلى الموحدين قوتهم ويرد إليهم هيبتهم، فاستولى على كثير من بلاد السوس في حياة علي بن يوسف بن تاشفين. ولما مات علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ، ولي من بعده ابنه تاشفين. وقد استخلف على مراكش ابنه إبراهيم؛ وأخذ يحارب عبد المؤمن ويتعقبه في كل مكان يحل به رغبة في القضاء على قوة الموحدين التي أخذت تنمو وتشتد. وقد سار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها. ثم أتى عبد المؤمن بن علي؛ فخرج تاشفين إلى قتاله، واتخذ الجيش المرابطي مواقعه في السهل وربض الجيش الموحدي في الجبال المحاذية له. وكان تاشفين قد فر إلى مدينة وهران (في الجزائر الآن) ليتخذها حاضرة لدولته فحاصره الموحدون.

ولما اشتد الحصار على تاشفين وتكاثرت عليه الخيل والرجال، صعد تاشفين إلى ربوة تشرف على البحر في ظاهر مدينة وهران، وفي أعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وعلم أبو حفص بن عمر بن يحيى صاحب المهدي بن تومرت بانفراد تاشفين في ذلك الرباط، فقصده الموحدون وأحاطوا به وأحرقوا باب الرباط، فخرج تاشفين راكباً فرسه فأسرع الفرس لينجو من النار طالباً النجاة، فصادفته صخرة فهوى تاشفين من فوقها بفرسه، فقتل وقتل من كان معه من خاصته، واحتز الموحدون رأسه وحملوه إلى تينمل (مركز الدعوة الموحدية). وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ - ١١٤٥)[2]، فولى المرابطون بعده أخاه إسحق بن علي بن يوسف.

(١) الحلل الموشية.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ٦ ص ١١١.

الباب الرابع

غزوات المغول ـ سقوط بغداد

(١) معنى تتر ومغول:

تختلف كلمة تتر بالمعنى العام باختلاف العصور. فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر ورد ذكرهما في نقوش الأرخون (بضم الألف مع الهمزة وضم الخاء) التركية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة.

وفي جميع الفتوحات المغولية التي وقعت في القرن السابع الهجري كان الفاتحون يسمون التتر في كل مكان نزلوا فيه، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم في بلاد الروسيا وغربي أوروبا. ويسمي ابن الأثير أسلاف جنكيز خان باسم التتر، وهم التتر الأوائل، وكانوا يعرفون عند قدماء اليونان باسم سكيثيا Scythia أو سكوتيا.

ولم يظهر اسم المغول على صفحات التاريخ حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم كان يحمل ذلك الاسم. ثم بسط ذلك الزعيم سلطانه على سائر العشائر المتحالفة؛ ومن ثم أطلق عليهم اسم المغول من باب إطلاق اسم البعض على الكل(١).

وقد نزحت طائفة حربية من هؤلاء المغول إلى بعض بلاد آسيا الصغرى؛ وكان أعقابهم (الذين صاروا أتراكاً بلا شك) يسمون بالتتر السود (قَرَاتَتَر). وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك على البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا وقيصرية، وكانوا نحو ثلاثين أو أربعين ألف أسرة. وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا، فأنزلهم بايزيد الثاني العثماني بعض الأماكن في بلاد كاشغر وخُوارَزْم، ثم عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمورلنك إلى آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد. كذلك نرى في الروسيا وشرقي أوروبا اسم تتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية ما عدا العثمانيين.

---

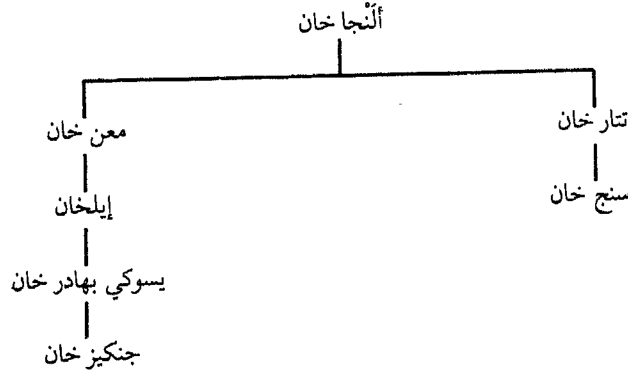
(١) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp 228-229.

ويرى بعض مؤرخي المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها، وهو مرادف للترك عند الفرنجة، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تتراً، ومنهم العثمانيون والتركمان. وقد أطلق لفظ تتر من باب التوسع فشمل جميع المغول، وبخاصة المنكوس Manchos كما كانت الحال في بلاد الصين.

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فإنها لا تطلق إلا على شعب بعينه وهم سكان حوض نهر الفلجا الذي يعيشون في تلك البقعة من الأرض التي تمتد من بلاد قازان إلى أستراخان، وكذلك على سكان شبه جزيرة القرم، وجزء من سيبريا، ويتكلمون اللغة التركية القديمة. وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل (بضم الميم والغين)، ولا يزال هذا اللقب مستعملاً إلى اليوم في بلاد الأفغان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون يحتفظون بلغتهم حتى الآن.

وقد أدخل جنكيز خان تلك التسمية رسمياً في بلاده، على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية.

ويقول مؤرخو الترك ونسابوهم إن ألنجا خان (بفتح الألف مع الهمزة واللام وسكون النون) أحد ملوك التتر في الأزمنة الغابرة ولد له توأمان هما «تتار خان» و«مُغل خان» كما هو الحال في ربيعة ومضر عند العرب. وقد استمر أبناء ألنجا خان على صفاء إلى أن وقع النزاع بينهما في عهد «إيلخان» ملك المغل و«سُنج خان» ملك التتار، وأدى هذا النزاع إلى حروب انتهت بانتصار التتار وقتل إيلخان ملك المغل. ومن ثم أصبحت السيادة للتتار، فاستذلوا المغول مدة طويلة حتى جمع هؤلاء جموعهم واتحدوا وحاربوا التتار وفلوا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم؛ فعادت بذلك سيادتهم، وأصبح الملك متوارثاً فيهم إلى زمن «يسوكي بهادر خان» والد جنكيز خان.



وسواء أصح التفسير الأول أم التفسير الثاني فإن هناك قرابة ملحوظة بين المغول والتتر الذين اندمج بعضهم في بعض على مر العصور، حتى إنه ليبدو عدم استطاعة المؤرخين والجغرافيين التمييز بين هذين الشعبين.

(٢) حالة المغول قبل ظهور جنكيز خان

ظهر المغول في عالم التاريخ حول نهاية القرن الثاني عشر الميلادي من وراء ذلك الغموض الذي كان يكتنف تاريخهم قبل ذلك الوقت. ويبدأ تاريخهم بالفاتح العظيم جنكيز خان الذي نقل لنا مؤرخو حياته أقوالاً مختلفة عن أسلافه. وإن سلسلة نسبه مسألة يحوطها الشك كما هي الحال عند غيره من الملوك والأمراء الذين ظهرت عظمتهم مرة واحدة. وليست هناك مصادر تاريخية نستطيع أن نقف منها على أصل المغول، اللهم إلا ذلك القصص الذي هو بالأساطير أشبه. وكل ما نستطيع أن نذكره عن تاريخ المغول الأول أنهم ظهروا في الجهات الشمالية من بلاد الصين في الأراضي التي نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك الذين كانت صلة النسب بينهم واضحة جلية.

وكانوا قبائل من البدو الرّحل تطوف في ذلك الصقع الواقع شمالي صحراء جوبي كما تقدم. وكان المغول في القرن الثاني عشر الميلادي إحدى القبائل الخاضعة لسلطان «كين» الذي فتح الشمال الشرقي من بلاد الصين. وهم قبائل الفرسان الرحالة الذين يعيشون في الخيام، غذاؤهم الرئيسي لحوم الخيل ومنتجات ألبانها، كما كانوا يحترفون رعي الأغنام والصيد في وقت السلم، وحمل السلاح في زمن الحرب، كما هو الشأن في حياة الأمم البادية. وكانوا ينزحون إلى الجهات الشمالية ابتغاء مراعي الصيف إذا ما ذابت الثلوج، ويبرحون إلى الجنوب سعياً وراء الشتاء كما هي عادة الرحل من سكان السهول الفسيحة. وكانوا يسعون وراء الربح من تبادل الجلود والدواب مع أقربائهم الخطا Khitâns أو مع الترك والصينيين.

وقد احتفظ المغول بديانتهم وعاداتهم الأولى التي هي من أهم مميزاتهم البارزة. فقد كانت حياتهم رعوية ونظامهم قبلياً، مع طاعة لرؤسائهم وحب للحرب والسلب والنهب، وكانت ديانتهم عبادة الكواكب يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرّمون شيئاً، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير. وكانوا حتى الحين لا يعرف الولد منهم أباه وكانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة للمغول الذين كانوا، برغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلاة، ولا يلقون إليه بالمودة، يعبدون عدداً من الآلهة المنحطة، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم. كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا

يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم. وكان المغول يلجئون إلى القسيسين، وهم الشامان والسحرة، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز في الدنيا والآخرة، على حد اعتقاد قدماء المصريين في كهنة المعابد. ولم تكن ديانة المغول معدودة ضمن تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم جهود الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوّة الإقناع وسدّ حاجات العقل وذات الهيئات المنظمة للمعلّمين الدينيين[١]، تلك التي كانت تحيط بالمغول من اليهودية والمسيحية والإسلام.

ولنتناول الآن الكلام في إيجاز عن حالة بلاد الصين موطن المغول والبلاد الإسلامية قبل ظهور جنكيزخان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلغت أسرة تانج (بسكون النون) العظيمة أقصى غايات الانحلال والضعف وانقسمت بلاد الصين إلى عشر دويلات متفرقة متعادية، ثم قامت أسرة جديدة حكمت هذه البلاد هي أسرة سُنْج (بضم السين وسكون النون والجيم) التي وحدت هذه الولايات نوعاً ما تحت سلطانها، واستمرت في الحكم من سنة ٩٦٠ إلى سنة ١١٢٧م برغم ما كان يكتنف عهدها من كفاح مستمر مع أمم الهون الشمالية التي كانت غير على الساحل الشرقي لتلك البلاد.

وفي ذلك الوقت ظهر أحد أهل بلاد الخطا الذي آلت إليه السيادة ردحاً من الزمن، ثم انتهى الأمر بإخضاعهم، وتحوّلت السلطة في الشمال إلى إمبراطورية أخرى من الهون هي إمبراطورية «كين» التي اتخذت «بكين» حاضرة لها؛ ومن ثم انكمشت أسرة سنج نحو الجنوب وعرفت بين سنتي ١١٢٧ و١٢٩٥ م باسم مملكة سُنج الجنوبية. وفي الشرق أيضاً كان جل الطوائف الآسيوية تحت إمرة حكام مختلفي الجنسيات والأهواء، وأصبحت تلك الطوائف تتطلع إلى فاتح جديد يلم شملها ويوحد كلمتها.

وفي مستهل القرن السابع الهجري كانت أرجاء الهند الشمالية التي كانت في بادىء الأمر جزءاً من إمبراطورية خوارزم من البلاد التي امتدت إليها تلك الغارات. فقد فتحها في سنة ٦٠٣ هـ (١١٠٦ م) شخص يدعى قطب الدين، آلت إليه الولاية على بلاد الهند بعد أن كان عبداً رقيقاً، وأقام ولاية إسلامية منفصلة في دلهي. وقضت البرهمية على الديانة البوذية في بلاد الهند منذ زمن بعيد، ولم يكن المسلمون في ذلك الوقت إلا أقلية في هذه البلاد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٢٣٥.

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p.20

(٣) حالة البلاد الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري :

هكذا كانت الحال في شرقي آسيا في البلاد التي نبتت فيها أصول المغول .

أما في البلاد الإسلامية ، في أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، فقد كانت الدولة العباسية التي لا تزال قائمة في بغداد تشمل جزءاً من بلاد العراق يمتد من تكريت إلى الفاو ومن حلوان إلى عانة ، واقتصرت سلطة الخليفة في خارج رقعة بلاده الضيقة على المظهر الديني .

وكان العالم الإسلامي منقسماً إلى دويلات كثيرة انشغل حكامها بالتوسع كل على حساب الآخر ، ولم يدرك هؤلاء الحكام خطر الغزو المغولي إلا بعد أن أغارت جيوش المغول الجرارة على الدولة الخوارزمية . ثم لم تلبث هذه الغارات أن امتدت إلى بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند وإيران وآسيا الصغرى وأوروبا الشرقية . ولم يفكر حكام المسلمين المتنازعون في إقامة حلف إسلامي يصدّ التيار المغولي الجارف قبل أن يستفحل خطره .

وفي بغداد نفسها قام النزاع بين القواد الذين طالبوا بزيادة أرزاقهم ، وتفاقمت العداوة والبغضاء بين الشيعيين والسنيين ، واشتد خطر فيضان نهر دجلة ، فاختل الأمن وتدهورت الحالة الاقتصادية ، حتى إن نصف أراضي العراق قد أصبح خراباً كما يقول رشيد الدين[١] .

أضف إلى ذلك إهمال نظام الري منذ بداية العصر العباسي الثاني (٢٣٢ هـ) حتى تحولت أجزاء كثيرة من جنوبي العراق إلى مستنقعات بعد أن كانت أراضيها عماد ثروة الدولة العباسية وازدهار حضارتها . كما قامت في الشرق إمبراطورية خوارزم العظيمة التي كانت في أول الأمر تحمي الخلافة العباسية من الشرق والشمال الشرقي بقوة جيوشها وضخامة أموالها . على أن علاء الدين محمد خوارزمشاه طمع في الاستيلاء على بغداد وانتزاع السلطة من الخليفة العباسي كما فعل بنو بويه والسلاجقة من قبله . ولكنه اضطر إلى التراجع بسبب هبوب عاصفة ثلجية عارمة ، وبسبب تقدم المغول نحو بلاده وإحلالهم الهزيمة بجيوشه حتى إنه اضطر إلى الهرب إلى جهات بحر قزوين حيث مات في إحدى جزره (٦٢٠ هـ) .

وبعد هذه الحرب الخاطفة أو الاستطلاعية بعبارة أدق عاد المغول إلى بلادهم ، على أن جلال الدين منكبرتي الذي عاد من الهند (٦٢٢ هـ) بعد أن فر إليها أمام جيوش

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٢ .

جنكيز خان، بدلاً من توجيه اهتمامه وأخذه الحيطة لدرء خطر المغول، نراه يجمع فلول جيش أبيه علاء الدين خوارزمشاه محمد، ويعيد سيطرته على العراقين العربي والعجمي ويحارب أمراءهما ويخرب أرضهما وينهب أموالهما[١]؛ بل يهدد بغداد نفسها،حتى اضطر أمراء المسلمين إلى محاربته في السنة نفسها، فنرى الملك الأشرف ابن الملك العادل الأيوبي يتفق مع كيفان بن كيخسرو صاحب سلطنة الروم على محاربة جلال الدين منكبرتي ويحلان به الهزيمة، وفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١/١٢٣٢ م) أغار المغول على جلال الدين منكبرتي وهزموه هزيمة منكرة، ففر إلى الجبال حيث قتل على يد أحد الأكراد كما تقدم[٢].

هذا في المشرق الإسلامي. أما في الولايات الإسلامية الأخرى فقد كانت الجزيرة ومصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي. ولكن انقسام الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل أخي صلاح الدين سنة ٦١٥ هـ بين أولاده الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب، وتهديد الدويلات الصليبية التي كانت لا تزال قائمة في سوريا وفلسطين لسوريا ومصر، كل ذلك حال دون إقامة حلف إسلامي يستطيع الوقوف في وجه المغول؛ لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حدثاً مفاجئاً، وإنما كان نتيجة حتمية لضعف العالم الإسلامي وإتاحة الفرصة للمغول لشن غاراتهم وغزو البلاد الإسلامية الذي بدأ في سنة ٦١٧ هـ.

(٤) جنكيز خان:

(أ) اليساق

لما مات يسوجاي سنة ١١٧٥ م آلت السلطة إلى ولده الصغير «تيموجين» (Timûjin) ولم يكن قد ناهز الثالثة عشرة من عمره كما لم يكن قد تلقب بعد بذلك اللقب الرفيع وهو «جنكيز خان». ولقد صرف «تيموجين» السنين الأولى من عهده في ترقية آلاته الحربية وضم المغول والقبائل المتصلة بهم في جيش واحد منظم.

قضى تيموجين ثلاثين سنة في نزاع متصل مع أعدائه في الداخل، استطاع فيها أن يفرض سلطانه على قبيلته وعلى القبائل المجاورة لها، ثم وجد الطريق مهيأة والظروف مواتية لكي يحقق مطامعه في توسيع رقعة إمبراطوريته على حساب البلاد الإسلامية.

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٤٣ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٥٣.

وفي سنة ١٢٠٦ م أقام تيموجين وليمة لرؤساء القبائل، وأعلن الشامان أو القسيس الأعظم في هذا الحفل العظيم الذي جمع أمراء البلاد ونبلاءها أن السماء قد خلعت على تيموجين لقباً أرفع من اللقب الذي كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح من الآن «جنكيز خان» أي الملك صاحب القدرة والبطش. وبذلك بدأ جنكيز خان في سن الثالثة والأربعين يحكم البلاد دون منازع[١].

ولما أمن جنكيز خان شر أعدائه فكر في ترقية حالة بلاده الاجتماعية والخلقية بوضع قانون يكون أشبه بكتاب ديني يسيرون على هديه في معاملاتهم وأحكامهم، فوضع لهم «اليساق» أو «الياسة». وقد روى المقريزي[٢] خلاصة هذا اليساق نقلاً عن أحمد بن البرهان الذي اطلع على نسخة منه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. وكذلك ذكر القلقشندي[٣] أن السياسة كلمة مغولية أصلها «ياسة»، فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سيناً فقالوا سياسة، وأدخلوا عليها الألف واللام؛ فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها إلا ما قلت لك، واسمع إذن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام، وذلك أن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق لما غلب «أونك خان» وصارت له دولة، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه «ياسة»[٤]، ومن الناس من يسميه «يسق» والأصل في اسمه «ياسة». وياسة كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعي[٥].

ومما شرعه جنكيز خان في هذا اليساق؛ «قتل الزاني، ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد، أو دخل بين شخصين يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر. ومن بال في الماء أو على الرماد قتل، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها قتل بعد المرة الثالثة، ومن أطعم

---

(١) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 203-206

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٢٠.

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢٠.

(٤) وقد قيل إنه لما تم وضع هذا الكتاب أمر جنكيز خان بكتابته ونقشه في صفيح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده.

(٥) ومن ألفاظ ياسة: سهياسة ومعناها القوانين الثلاثة، سه: معناها ثلاثة، وياسة بالتركية معناها القانون الاجتماعي، وسهيسق وسهياق كلمة واحدة لمعنى واحد. ومما يؤكد أن كلمة سياسة ليست عربية الأصل عدم ذكرها في القرآن الكريم ولا في اللغة المنقولة عن الاعراب.

أسيرقوم أو كساه بغير إذن قومه قتل. ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل».

ومما شرعه جنكيز خان أيضاً «أن تكتف قوائم الحيوان ويمرس (أي يدلك قلبه) إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه» ومن ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح، ومن وقع ثوبه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد وجب عليه أن ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله إياه كان جزاءه القتل، ومن أحكام الياساق الأساسية تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة ما. كما شرط ألا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب مؤنة ولا كلفة، وألّا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء والأطباء ومن عداهم من أرباب العلوم وأهل التقشف والزهد والتعبد والمؤذنين ومغسلي الأموات شيء من ذلك. وألزم الناس ألا يأكل أحد من طعام غيره حتى يأكل منه أولاً ولو كان أميراً ومن يناوله أسيراً، وألا ينفرد أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يجب أن يشركه في طعامه. وألا يتميز أحد بالشبع على أصحابه. وإن مر أحد بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم أن يمنعه الطعام، وألزمهم ألا يدخل أحد يده في الماء بل يتناوله بشيء، ومنعهم من غسل ثيابهم حتى تبلى، كما منعهم أن يفرقوا بين الطاهر والنجس. وحرم تفخيم الألفاظ ومنح الألقاب، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه باسمه المجرد. كما ألزم جنكيز خان قواده بعرض العساكر والأسلحة إذا أرادوا الخروج للقتال، وأن يعرض كل واحد ما معه حتى الإبرة والخيط، فمن وجد أنه قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه عوقب. وألزم نساء العسكر بالقيام بما على الرجال من الواجبات عند غيبتهم كلفة يقومون بها للسلطان. وألزمهم عند رأس كل سنة أن يعرضوا بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن من يشاء لنفسه أو لأولاده. واتخذ أمراء العسكر وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات.

ومما شرعه جنكيز خان في الياساق أنه إذا أذنب أحد الأمراء ولو كان كبيراً وبعث إليه السلطان رسولاً لينزل به عقابه، وجب عليه أن يسرع إلى تنفيذ طلب الرسول وهو خاضع ذليل حتى ينفذ فيه العقوبة التي أمر بها الملك، ولو كانت العقوبة تقضي بإزهاق روحه. كما ألزم الأمراء ألا يترددوا على غير الملك، ومن تردد منهم على غيره قتل. وأقام جنكيز خان البريد حتى يقف على أخبار بلاده أولاً فأولاً، وعهد إلى ابنه جغطاي بالإشراف على تنفيذ ما جاء في الياساق، ويقول المقريزي[1] في ذلك: «فلما مات جنكيزخان التزم من بعده من أولاده

---

(١) خطط ج ٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

وأتباعهم حكم الياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه».

ولا شك أن هذه الشريعة التي وضعها جنكيز خان قد ساعدت على تقدم المغول من النواحي العسكرية والاجتماعية، كما حرمت التعرض للأديان والملل وحالت بذلك دون قيام الاختلافات الدينية أو المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من المصائب والويلات. هذا إلى أن هذه الشريعة قد ساعدت على وجود جند قوي مزود بكامل العدد والعدة، وقواد لا يعرفون غير طاعة السلطان وحب الوطن. وجعلت من النساء عنصراً يعتمد عليه في وقت الحاجة، كما جعلت المغول شعباً بصيراً بعواقب الأمور يربأ بنفسه عن عيوب المجتمع وشروره، نشأ على المبادىء الديمقراطية السليمة التي لا تعنى بالألقاب ولا تميز بين الناس مهما اختلفت طبقاتهم وتباينت صفاتهم.

أما عن تحريم اليساق التمييز بين النجاسة والطهارة، فلعل من نتائجه عدم غسل الثياب إلى أن تبلى، ولعله يرمي من وراء ذلك إلى تعويد شعبه التقشف في المعيشة وتركه الترف الذي يجر إلى الضعف فيفسد الروح العسكرية، وأما رفع المؤن عن أولاد علي بن أبي طالب وتعظيمه لأهل الدين من المسلمين، فلعل جنكيز خان كان متأثراً بالشيعيين الذين كانت بلاده تحيط بهم في كثير من جهات إمبراطوريته، ثم إنه أراد بذلك آخر الأمر أن يتودد إلى المسلمين بتعظيم آل نبيهم ورجال الدين عندهم، في الوقت الذي كان يعمل على الاستيلاء على بلادهم، مؤملاً أن يلقى تأييد رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في ذلك العصر.

وعلى الرغم مما نأخذه على «اليساق» في بعض النواحي، فلا شك أنه يعتبر أساساً صالحاً لبناء النظم الإدارية والاجتماعية عند المغول، كما أنه يعد خطوة تطورية في ديانتهم، ويعتبر كذلك متأثراً في بعض النواحي بالديانات السماوية، كتحريم الزنا والقتل والغدر والكذب ونحو ذلك إذا عرفنا أن ديانتهم القديمة كانت لا تحرم شيئاً؛ لذلك استطاع جنكيز خان بأحكام اليساق أن ينشر نفوذه في البلاد الصينية والإسلامية.

(ب) غزوات جنكيز خان:

(١) رأي المؤرخين في غزوات جنكيز خان

كانت الغارات التي شنها المغول آخر الغارات التي شنتها القبائل الرحالة على مدنيات الشرق والغرب، تلك المدنيات التي كانت تختنق تحت أدران الترف والعبودية، على حين كانت الشعوب الرحالة تتقدم من حيث التفكير وتعبئة الجيوش واستعمال آلات الحرب، وتنساب من بلادها كالسيل يغمر تلك المدنية البالية ويسير بالعالم نحو عهد جديد.

وبينما كان جنكيز خان مشتغلاً بمحاربة إمبراطورية كين في بلاد الصين قَتَلَ خوارزمشاه سفراءه فحوّل إمبراطور المغول وجهه شطر بلاد خوارزم الإسلامية، وانسابت فرسانه فيها مزودين بأحسن أنواع السلاح، كما كان لديهم البنادق والبارود وآلات الحصار التي أخذوها عن الصينيين، ومن ثمَّ نزلت بالمسلمين وأمم الغرب الطامة الكبرى والمصيبة العظمى.

وقد وصف سير توماس أرنولد[1] ما قام به المغول من ضروب الوحشية في غزواتهم للبلاد الإسلامية في هذه الكلمات «لا يَعْرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول؛ فلقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قُنَن الجبال، واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء، فبعد أن تحوَّل جيش المغول عن مدينة هَراة خرج أربعون ألفاً من أهليها من مخبئهم، فراراً من الموت، وكان هؤلاء التعساء هم البقية الباقية من سكانها الذين كان يربو عددهم على المائة ألف، ووقفوا مُهْطعين مُقْنعي رؤوسهم يبكون أطلال مدينتهم، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ. وفي مدينة بخارى التي اشتهرت برجال العلم والورع اتخذ المغول إصطبلاً لخيولهم ومزقوا المصاحف واتخذوا منها وطاءً لدوابهم. كما نفوا من نجا من الأهلين من القتل وجعلوا مدينتهم أثراً بعد عين. وهكذا كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى التي كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية وموطن الأولياء وكعبة العلوم، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد التي ظلت قروناً عدة حاضرة الخلافة».

يقول «دوسون»[2] : إن تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ووحشيتهم لا تترك إلا صوراً بغيضة. وإن حكمهم كان انتصاراً للفساد والفوضى». ويختلف رأي سير هنري هاوارت عن رأي دوسون، فيقول: إن المغول جنس من الأجناس التي درجت تحت ظلال الفقر وشظف العيش، يجري في دمائهم مزيج قوي من الحديد، ينبعث في فترات منظمة ليقضي على الترف والثراء اللذين سادا في ذلك العصر، ويحطم الفن والثقافة التي لا تترعرع إلا في ظل الرخاء وبسطة العيش والأمن، ويُحوّل هذه الجنان التي جهد الإنسان في غرسها وتعهدها إلى صحراء جرداء مقفرة، فهم أشبه بالوباء والقحط، وأشبه بآلة تدمير وتخريب أتت على شعوب كانت غارقة في بحار الترف والنعيم، ثم ذهبت ضحية غارات

---

(١) The Preaching of Islam, pp. 218-219. ترجمة المؤلف الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) Dr. D'Hosson , Histoire des Mongols Amesterdam, 1834 rome I, pp. 7-8

المغول، كما قال «دوسون» إن الفتوحات المغولية أدت إلى اتصال أمم الشرق والغرب، وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوروبا بتأثير هذه الغارات.

كما يرى «دوسون» أن قصة المغول وإن كانت تثير الأسى والحنق، فهي مع ذلك ضرورية لتفهم مدى التقدم البشري.

ويعجب «ليون كاهون»(١) بنظام المغول الإداري الدقيق وانعدام روح التعصب الديني فيهم، ويطري صفاتهم الحربية التي هي من صفات كل الشعوب التركية.

ومن العقبات التي قامت في سبيل نشر سيادة المغول في كافة أرجاء العالم، تلك المملكة التي كانت تسمى قديماً قَرَة خِطاي أي بلاد الخطا السوداء، وكانت إلى حدود بلاد تركستان الشرقية الحديثة تقريباً، وكان يحكمها جماعة من الأمراء يسمون خانات الغور. وقد فرضت هذه المملكة احترامها على فارس وبلاد ما وراء النهر. على أن جنكيز خان وجنده سرعان ما انقضوا على بلادهم وأصبحت لهم السيادة على أهل كاشغر وبقية إقليم غور خان(٢).

(٥) غزو التتار بلاد خوارزم:

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسي وعلاء الدين خوارزمشاه محمد، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة العباسي الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزمشاه. ولا يبعد أن يكون لذلك ظل من الحقيقة، فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة من قبل، فراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حين أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر، بل لقد أوفد أحدهم الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة. وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببني بويه والسلاجقة وخوارزمشاه هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الفارق بين هؤلاء وأولئك: فقد كان هؤلاء مسلمين على حين كان التتار وثنيين، بيد أن هذا العامل الديني لا يضعف من صحة هذه الرواية، إذا لاحظنا أن الخليفة لم يبال بما فعل لتخليص ملكه، وأنه كان يرمي من وراء عمله إلى شغل خوارزمشاه بالتتار ليكفي شره، ولم يكن يتوقع أن هؤلاء التتار يستطيعون

(١) Introduction à L'Histoire d'Asie Turks et Mongols, des origines à 1405, pp. 79, 111-118.

(٢) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 203-204

الوصول إلى بلاده، لبعد الشقة ووقوف جند خوارزمشاه القوي في سبيلهم.

ولكن ابن الأثير[١] يذكر أن غزو التتار بلاد خوارزم وتوجيه أنظارهم للبلاد الإسلامية يرجع إلى سوء التفاهم الذي وقع بسبب قتل تجار المغول الذين ترددوا على بلاد خوارزم.

وقد توجس خوارزمشاه خيفة من تهديد التتار فأرسل رسله إلى بلاد جنكيز خان ليتفقدوا جيشه ويقفوا على مدى قدرته، فعادوا بعد مدة وأخبروه بكثرة جند التتار، ووصفوا له شدة صبرهم على القتال، وعملهم بأيديهم ما يحتاجون إليه من السلاح. فندم خوارزمشاه على ما فعل، وزاد قلقه من ناحية التتار. ثم جاءته الأخبار بأن التتار قد ساروا لقتاله، فاستشار أحد فقهاء دولته ـ وكان يثق به ويرجع إليه في مهام أموره ـ فأشار عليه بأن يعسكر بجيوشه على ضفة نهر سيحون الذي كان يفصل بين المملكة الخوارزمية وبلاد الترك، وبذلك يستطيع أن يقضي على قوات جنكيز خان بعد أن يكون التعب قد أنهك قواهم لبعد الشقة ووعورة الطريق. ثم عقد خوارزمشاه مجلساً لوزرائه وذوي الرأي في دولته، فأشاروا عليه بأن يترك التتار حتى يعبروا نهر سيحون ويسلكوا ما وراءه من الجبال والوهاد والمفاوز؛ وبذلك يستطيع القضاء على قواتهم.

وكان من أثر إرسال جنكيز خان رسوله إلى خوارزمشاه يتهدده بالحرب، أن قتل خوارزمشاه هذا الرسول وحلق لحى من كان معه من التتار، وجمع عساكره وقصد تخوم تركستان وانقض على بلاد التتار بعد مسيرة أربعة أشهر، فلم يلق إلا جموعاً قليلة تخلّفت مع النساء والصبيان والأطفال لاشتغال الجند بمحاربة أحد ملوك التتار، فأوقع بهم وغنم ما معهم. ولما علم التتار بما فعل خوارزمشاه أدركته طائفة منهم تحت قيادة أحد أولاد جنكيز خان قبل أن يخرج من بلادهم، واقتتل الفريقان ثلاثة أيام كاملة، «واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته»[٢]. على أن هذه الحرب لم تنجل عن انتصار أحد الفريقين، فعاد التتار إلى بلادهم، وعاد المسلمون إلى بخارى، وأخذ خوارزمشاه يعد العدة لقتال التتار، وعسكر بالقرب من مدينة بلخ.

أما التتار فقد يمموا شطر بلاد ما وراء النهر حتى وصلوا إلى مدينة بخارى بعد وصول خوارزمشاه بخمسة أشهر، وكان بها عشرون ألفاً من جند خوارزمشاه، ففارقوا المدينة، فدخلها جنكيز خان في ٤ ذي الحجة سنة ٦١٦ هـ وقتل الجند الذين اعتصموا بالقلعة عن

(١) الكامل ج ١٢ ص ٢٣٦.
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٣٨.

آخرهم وأخرج الأهالي لا يملكون سوى ثيابهم التي عليهم. ثم نهب جنده المدينة وأسروا من بقي بها من الأهالي واقتسموهم، وقد آثَرَ كثير منهم القتل حتى لا يرى ما نزل بإخوانه من كرب وبلاء. ثم ألقى التتار المنابر والمصاحف في الخندق، وأشعلوا النار في المدارس والمساجد وغيرها من المباني حتى أصبحت بخارى كأن لم تَغْن بالأمس[1].

رحل التتار بعد ذلك نحو سمرقند قصبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء والأدباء ومعين الثروة والرخاء، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى مشاةً على أقبح صورة، وقتلوا منهم من أعياه المشي. وكان بسمرقند خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه، ارتجفت قلوبهم وخارت قواهم لما علموه من فظائع التتار الذين قدّموا فرسانهم، ومن بينهم الرجالة والأسرى والأثقال، ومع كل عشرة من الأسرى علم، فزاد هذا في مخاوف أهل المدينة، وكانوا في عدد كبير ذكر ابن الأثير أنه بلغ سبعين ألفاً، واشتبكوا مع رجالة التتار، فارتد هؤلاء، فتبعهم أهل المدينة، ولم يدروا أن الأعداء قد وضعوا لهم كميناً، حتى إذا ما جاوزوه خرج عليهم هذا الكمين من مخبأه، فحال بينهم وبين المدينة، ورجع الباقون الذين قاتلوهم أولاً، وحاصرهم التتار من كل ناحية وقتلوهم عن آخرهم.

وقد تفاقمت مخاوف الجند الخوارزميين لهذا الانكسار الذي حل بأهل سمرقند، وطلبوا الأمان من التتار ظناً منهم أنهم يبقون عليهم لأنهم كانوا أتراكاً مثلهم. ومن ثم خرجوا في أهلهم وأموالهم، فطلب منهم التتار أن يسلموا سلاحهم وأموالهم ثمناً لأمانهم. ثم وضع التتار السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً؛ فأحرقوا الجامع، واستولوا على الأموال وسبوا الأهلين، وقتلوا الشيوخ والعجزة، وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧ هـ.

وقد بلغ من خوف جند الخوارزميين من التتار أن أصبحوا بحيث لا يستطيعون مواجهتهم، ويحدثنا ابن الأثير أن خوارزمشاه علاء الدين محمد أسل مرة عشرة آلاف من الجند ومرة عشرين ألفاً فلم يجرؤوا على مواجهة التتار وعادوا أدراجهم.

ولما تم للتتار فتح بخارى وسمرقند عولوا على القبض على خوارزمشاه، فبعث جنكيز خان عشرين ألفاً من خيرة جنده وقال لهم: «اطلبوه ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه»، فسار هؤلاء الجند ميممين غربي خراسان، ومن ثم أُطلق عليهم اسم التتار المغرِّبة تمييزاً لهم عن سائر طوائف التتار، فوصلوا إلى مدينة قِنْج آب (أي الخمس مياه)،

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

فلم يجدوا هناك سفناً يعبرون عليها، فعملوا صناديق كبيرة من الخشب ألبسوها جلود البقر حتى لا ينفذ إليها الماء ووضعوا فيها الأسلحة والأمتعة، ثم سيروا الخيل في الماء وأمسكوا بأذنابها وشدوا تلك الصناديق إليهم، فكانت الخيل تجذب الرجل والرجل يجذب هذه الصناديق، وبذلك أمكنهم العبور دفعة واحدة.

نيسابور ومازندران:

ولما علم المسلمون بذلك تفرقوا أمام التتار، وهرب خوارزم شاه في بعض خاصته إلى نيسابور، فقصده التتار ولم يتعرضوا بشيء لأهالي البلاد التي مروا بها، إذ كان همهم اللحاق به. فلما أحس خوارزم شاه بقربهم هرب إلى مازندران، فاقتفى التتار أثره من غير أن يعرجوا على نيسابور. وهكذا أصبح خوارزمشاه يتنقل من بلد إلى بلد والتتار المُغَرِّبون في إثره، حتى وصل أخيراً إلى الري ثم إلى همذان ثم إلى حدود العراق، فلما جاء التتار ملكوها بسهولة لم تكن منتظرة وأعملوا السيف في رقاب أهلها وسلبوا أموالهم[1].

ولما تم للتتار فتح مازندران استأنفوا سيرهم قاصدين بلاد الري في طلب خوارزمشاه وقد فر إليها من مازندران، وقبضوا على أمه، وكانت في طريقها إلى بلاد الجبل هرباً من التتار ومعها من الأموال والجواهر والأمتعة ما لا يدخل تحت حصر وأرسلوها إلى جنكيز خان في قرَه قورم حاضرة ملكه (٦٢٠/١٢٢٣).

ثم دخل التتار بلاد الري على حين غفلة من أهلها فأذاقوهم كل صنوف العذاب وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال، ثم مضوا قُدُماً في طلب خوارزمشاه فنهبوا ما صادفوه في طريقهم من القرى والمدن ومثلوا بأهلها.

ثم وصل التتار إلى همذان، وكان خوارزم شاه قد وصل إليها، فغادرها وخرج والي المدينة إلى التتار، فقدم إليهم الأموال والثياب والدواب وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى طلبه. ثم ساروا إلى زنجان ثم إلى قزوين فدخلوها عنوة وتقاتلوا مع الأهالي بالسكاكين وقتلوا منهم زهاء أربعين ألفاً.

وقد قصد التتار بعد ذلك أذربيجان فصالحهم صاحبها على مال ودواب، وكان منصرفاً إلى اللهو وإدمان الشراب ليلاً ونهاراً. وكانت أذربيجان في عهد العباسيين من الأقاليم القليلة الأهمية، ولم تقم لها قائمة سياسية إلا عندما هبت ريح المغول. ذهب التتار إلى أذربيجان فراراً من البرد والثلوج والأمطار، فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان

(١) ابن الأثير: ج ١٢ ص ٢٤٣.

فصالحهم، ثم يمموا ناحية البحر لقضاء الشتاء لقلة البرد وكثرة المراعي، فوصلوا وهم في طريقهم إلى بلاد الكرج وأوقعوا بأهلها وقتلوا أكثر جندها، فأرسل الكرج إلى صاحب أذربيجان في طلب الصلح والاتفاق على قتال التتار، كما تعاهدوا مع صاحب بلاد الجزيرة ويدعى الملك الأشرف ابن الملك العادل وأعدوا العدة لقتال العدو المشترك إذا ما انصرم الشتاء وحل الربيع. ولكن التتار لم يلبثوا أن تحركوا من مشتاهم قبل حلول الربيع قاصدين بلاد الكرج، وانضم إليهم كثير من التركمان والأكراد لمشاركتهم إياهم في الجنس.. وتقدم التتار نحو بلاد الكرج، فنهبوا أهلها وقتلوهم، ثم واصلوا السير نحو تفليس (حيث أدركهم التتار)، فهزموا أهل هذه البلاد هزيمة منكرة وقتلوا منهم عدداً لا يحصى (ذو القعدة سنة ٦١٧ هـ). وفي ذلك يقول ابن الأثير[١]:

«ولقد جرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه؛ طائفة تخرج من حدود بلاد الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان، وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة، ينكرها ويستبعدها والحق بيده، فمن استبعد ذلك، فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في زماننا في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة واستوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها... يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم... ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت مثلما دفعوا إليه الآن. وتعدّت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك. هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها ثم إلى الري وبلد الجبل وأذربيجان [كذا]. وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال، ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها، ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها. وباقي ديار مصر على خطر، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

كان ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) معاصراً لغارة المغول، وكان صديقاً لابن الأثير، وقد استطاع أن ينجو بنفسه من غاراتهم، وأن يخلف لنا صورة واضحة لما كانوا يلقونه في النفوس من رعب وفزع، كما يتضح ذلك من إشاراته المتفرقة في كتابه «معجم البلدان» وفي خطاب أورده ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان، وقد وجهه ياقوت[٢] إلى القاضي الأكرم

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) دون القفطي صورة هذا الخطاب في كتابه الذي سماه «إنباء الرواة على أنباء النحاة» ونقله ابن خلكان =

جمال الدين أبي الحسن علي الشيباني القفطي وزير صاحب حلب في كتابه الذي أرسله إليه من الموصل في سنة ٦١٧ هـ على أثر وصوله إليها من خوارزم هارباً من التتار يصف فيها ما حل بخراسان من التخريب والتدمير ولأهلها من الخطوب والويلات وما تعرض له من الأخطار حتى وصل إلى الموصل، كما عبر ياقوت عن أسفه العميق وحزنه الدفين لتركه مدينة مرو الزاهرة العامرة بمكتباتها، وقال إن ما اشتملت عليه من الكتب النادرة قد أنساه الأهل والأحباب والوطن والأصحاب. ثم وصف الرخاء والعمران اللذين كانت تنعم بهما خراسان حتى أصبحت شبيهة بجنة المأوى ورياض الخلد. ومما قاله ياقوت:

«فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر، وتفت في العضد، وتشيب الوليد وتنخب لب الجليد، وتسود القلب وتذهل اللب، فحينئذ تقهقر المملوك[1] على عقبه ناكصاً ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً... فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار. إلخ»[2].

(٥) وفاة جنكيز خان:

وفي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٣ م) مات جنكيز خان وكان في الستين من عمره بعد حياة حافلة بالنصر والظفر. وكان، كما يقول لينبول: قد أسس في مدى عشرين عاماً أوسع إمبراطورية شاهدها العالم وأقامها مقتفياً في ذلك السياسة التي رسمها له أبوه من قبل[3]. وكانت إمبراطورية المغول إمبراطورية حربية إدارية كما هو الشأن في جميع الدول التي أسسها أقوام من الرُّحل. وكانت كافة السلطات تتركز في شخص الملك، كما كانت علاقة الدولة برعاياها تقوم على أساس فرض الضرائب للإنفاق على الجيش. ويكفي أن نقول إنه بعد الثلاثين سنة التي قضاها «جنكيز خان» في ذلك الصراع العنيف ضد أعدائه في الداخل، والتي استطاع خلالها أن يثبت دعائم سلطانه على عشائره وعلى العشائر المجاورة على الرغم مما قام في سبيله من الصعاب وما دبر له من المؤامرات؛ على الرغم من هذا كله وجد جنكيز خان نفسه قادراً على تكريس العشرين سنة الباقية من حياته في سبيل تحقيق أغراضه الواسعة وأطماعه الكبيرة[4].

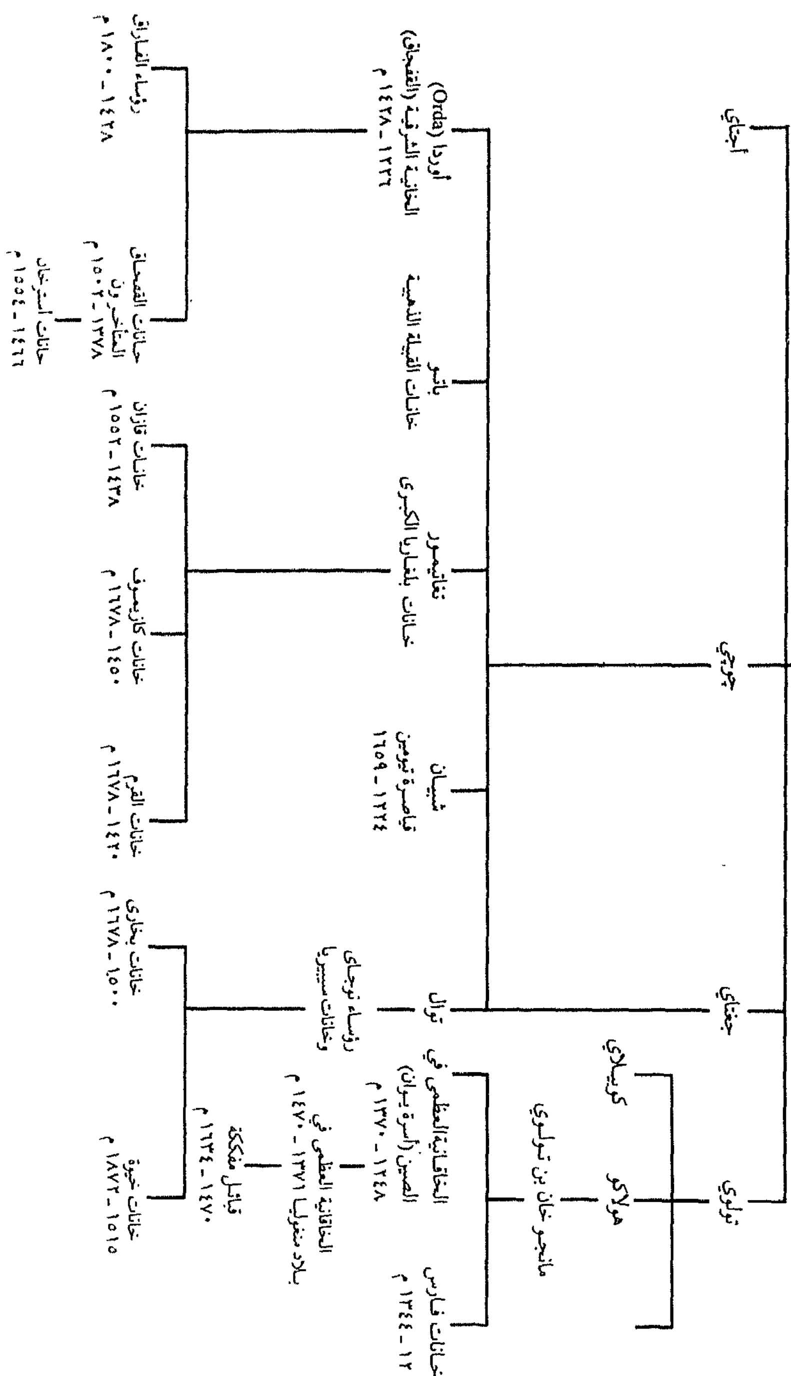
في كتابه وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ في ترجمة ياقوت الحموي.

(١) يتكلم ياقوت عن نفسه ويصف حاله وما صادفه من أخطار.

(٢) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣.

(٣) Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p.202.

(٤) Lane-Poole, Op. Cit, p. 206


القبائل المغولية وبطونها
جنكيز خان
أجتاي
جوجي
جغتاي
تولوي
كوبيلاي
هولاكو
مانجو خان بن تولوي
أوردا (Orda)
الخانية الشرقية (القفجاق)
١٢٢٦ - ١٤٢٨ م
باتو
خانات القبيلة الذهبية
تغاتيمور
خانات بلغاريا الكبرى
شيبان
قياصرة تيومين
١٢٢٤ - ١٦٥٩
توال
رؤساء نوجاى
وخانات سيبيريا
الخاقانية العظمى في
الصين (أسرة يوان)
١٢٤٨ - ١٣٧٠ م
الخاقانية العظمى في
بلاد منغوليا ١٣٧١ - ١٤٧٠ م
قبائل مفككة
١٤٧٠ - ١٦٣٤ م
خانات فارس
١٢ - ١٣٤٤ م
رؤساء الفاراق
١٤٢٨ - ١٨٠٠ م
خانات القفجاق
المتأخرون
١٣٧٨ - ١٥٠٢ م
خانات أستراخان
١٤٦٦ - ١٥٥٤ م
خانات قازان
١٤٣٨ - ١٥٥٢ م
خانات كازيموف
١٤٥٠ - ١٦٧٨ م
خانات القرم
١٤٢٠ - ١٦٧٨ م
خانات بخارى
١٥٠٠ - ١٦٧٨ م
خانات خيوة
١٥١٥ - ١٨٧٢ م

وقد استعان جنكيز خان في إدارة إمبراطوريته الواسعة برجل من إمبراطورية كين ذي كفاءة نادرة وهو Yeliu Chuisei، وكان ملماً بالتقاليد والعلوم الصينية جديراً بالاضطلاع بمهام دولة المغول بعد وفاة جنكيز خان، كما كان بلا ريب أحد أبطال السياسة الذين عرفهم التاريخ. وكان ليليوشتسي أكبر الأثر في تحسين العلاقة بين خانات المغول وبين رعاياهم، كما أنقذ كثيراً من المدن والآثار الفنية من الدمار، وجمع السجلات والنقوش مما ينهض دليلاً على ولعه بالعلوم والفنون، حتى إن منافسيه حين اتهموه بالرشوة لم يجدوا عنده إلا بعض الآلات الموسيقية والوثائق التاريخية الهامة.

وإلى يليوشتسي وإلى جنكيز خان يرجع الفضل في ترقية الآلات الحربية وبلوغها حد الكمال، هذا إلى ما امتاز به عهد جنكيز خان من ذلك التسامح الديني الذي ساد كل أرجاء آسيا.

خاقانات المغول

	هجرية/ميلادية
جنكيز خان	٦٠٣/١٢٠٦
أجتاي	٦٢٤/١٢٢٧
توراكينا (فترة بين موت أجتاي، وكيوك)	٦٣٩/١٢٤١
كيوك	٦٤٤/١٢٤٦
مانجو	٦٤٦/١٢٤٨

أسرة يِنْ Yuen

كوبيلاي	٦٥٥/١٢٥٧
أولجايتو	٦٩٣/١٢٩٤
كويوك	٧٠٦/١٣٠٧
بُيانتو	٧١١/١٣١١
جِجن إلى توغان تيمور	٧٢٠ ـ ٧٣٢/١٣٢٠ ـ ١٣٣٢

الإمبراطورية المنحلة

بليكتو Bilictu	٧٧١/١٣٧٠
أسّو خال إلى دَيان	٧٨٠ ـ ٨٧٥/١٣٧٨ ـ ١٤٧٠

قبائل منقسمة

	هجرية / ميلادية
بودي	١٥٤٤/٩٥١
كودانج إلى لنجدان	٩٥٥ ـ ١٠٤٣/١٥٤٨ ـ ١٦٣٤(١)

إمبراطورية المغول بعد جنكيز خان

(٦) أجتاي : فتوحه في آسيا وأوروبا :

ظلت حاضرة المغول بعد وفاة جنكيز خان في مدينة «قره قورم» في منغوليا ، حيث خلفه ثالث أولاده أجتاي (٦٢٤ ـ ١٢٢٧/٦٣٩ ـ ١٢٤١) فأصبح خاقان إمبراطورية المغول . وقد استاء أتباع جغطاي من تعيين أجتاي خليفة لجنكيز خان ، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضي بأن يعين أكبر الأبناء سناً ، وعند جلوس أجتاي على العرش وزَّع الهدايا على كبار رجاله ، وذبح أربعين فتاة وكثيراً من الخيل على روح أبيه ، وفقاً للتقاليد والعادات المرعية عند المغول .

وكان أول ما قام به المغول في عهد إمبراطورهم الجديد أن تعقبوا البقية الباقية من إمبراطورية كين (أو الأسرة الذهبية) حتى دانت كلها لسلطانهم في سنة ١٢٣٤م ، بعد أن حكمت البلاد الشمالية من بلاد الصين أكثر من قرن . وقد ساعدت المغول في تلك الحروب أسرة سُنج التي كانت على عرش الإمبراطورية في الجنوب ، وبذلك سعت تلك الأسرة إلى حتفها بظلفها بانضمامها إلى المغول ضد إمبراطورية كين إذ وهَنَتْ قوتها أمام ذلك العدو الغاشم ، ولم ينس أجتاي أن فتوحات أبيه في غربي آسيا تضطره للاحتفاظ بسيادته على مملكة خوارزم ، برغم عنايته أول الأمر بتوسيع إمبراطوريته في أخصب بقاع الصين وأغناها ، وأصبح يشعر بهذا الواجب ويجعله نصب عينيه منذ رجوع جلال الدين منكبرتي من الهند واسترداده البلاد التي ورثها عن أبيه وتقدمه غرباً حتى وصل إلى تفليس وكيلات .

حينئذ أرسل أجتاي إلى جلال الدين قوة مكوّنة من ثلثمائة ألف مقاتل ، وتعقب هذا الجيش المغولي عدوه في سرعة عجيبة ، ولكن جلال الدين كان قد هرب إلى جبال الأكراد حيث قتله أحد الفلاحين ؛ وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم . وقد جعل المغول هذا الفتح خطوة لغيره من الفتوح ، فاندفعوا نحو الغرب وأغذوا السير ، فاحتلوا ديار

(١) Lane - Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 215 - 216.

بكر وإربل وكيلات، ثم تقدموا إلى أذربيجان، وفي العام التالي (١٢٣٦ م) غـزوا جورجـان وأرمينية الكبرى مرتكبين أقصى الفظائع وأشدها هولاً. ومن المدن التي فتحوها تفليس.

وكـان أجتاي قـد وجّه في سنـة ١٢٣٥ م ثلاثـة جيوش في نـواح مختلفة: أحـدها إلى كوريا، وثانيها ضد أسرة سونج وكانت تحكم ما يلي نهر يانج تسي كيانج، وأرسل ثالثها غرباً نحـو شرقي أوروبـا، وعلى رأس هذا الجيش الأخيـر القائـد «بـاتـو بن جـوجي» أكبـر إخـوة أجتاي، وقد اتخذ سابوتاي Sebutai مستشاراً له، فسقطت بلغاريا أمام القوة التي على رأسها سـابوتـاي، على حين تقدم بـاتو نحـو نهر الفلجـا. واخترق جنـد المغول الغـابات التي في طريقهم حتى ظهروا أمام ريازان Ryazan أو المدينة الجميلة، وصوّبوا سهامهم إليها، وهددوا أسوارها وخربوا حصونها، ثم استولوا عليهـا في ٢١ ديسمبر سنـة ١٢٣٧ م. وانتقـم المغول لمن مات من جندهم في هذه المعارك، فذبحوا الأمير وأمه وزوجـه وأولاده وحاشيتـه وجميع سكان المدينة دون أي اعتبار للجنس أو السن، فمات البعض بالخوازيق والبعض الآخر قتل بـالسهام لمجـرد التسلية، وسلخ الآخـرون أو وضعت تحت أظافـرهم المسـاميـر أو شـظايـا الخشب، وحرق القسيسون في النار أحياء، واختطفت العذارى والراهبات من الكنيسـة أمام أقربائهن «حتى لم تبق عين لتبكي على الأموات».

ثم سقطت موسكو في يد الغزاة، وانتقم المغول من أهالي إحدى المدن أخذاً بثأر قوة من جيوشهم أحل بها أهلها الهزيمة، فأحل بهم أتباع «باتو» كل أنواع التعذيب، وأتوا من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان، حتى عرفت هذه المـدينة بـاسم فاتحهـا Mobalig كما عـرفت أيضاً باسم مدينة الويل والثبور.

وعلى أثر هذا الانتصـار تقدم المغـول نحو كييف Kief أم المـدائن الروسيـة واستولـوا عليها عنوة وسحقوا المدينة حتى أصبحت أثراً بعد عين.

ولقد دمر المغول في تلك الحروب الجزء الأعظم من بـلاد الروسيـا، وانقسم جيشهم إلى فريقين: فريق أغـار على بلاد المجـر بقيادة «بـاتو» وأغـار فريق آخـر على بولنـدة بقيادة «بيدار Beidar» وكيدو Kaidu. وقـد تقدم بـاتو نحـو بست Pest ببلاد المجـر دون أن يلقى أية مقـاومة في طـريقه. فـاحتشدت هنـاك جميع القـوى المجـريـة لمقـاومتـه في تلك المـروج الواسعة، فانقض عليهم «باتو» بجيشه في سباتهم وأوقع بهم، وأتى عليهم جميعاً ذبحاً وقتلاً حتى امتلأ الطريق بأشلاء القتلى على مسيرة يومين، ولـم يُنقـذ الملك بيلا الـرابع (Bela) من المـوت إلا خفة حصـانه وسـرعة عَـدْوه، فاتبعـه نفر من المغـول واقتفـوا أثـره حتى سـاحـل الأدرياتيك مخربين مدمرين كل ما وجدوه في طريقهم، ومن ثم استولى باتو على بست وعبـر

نهر الطونة على الثلج في عيد الميلاد من سنة ١٢٤١ م.

وبينما كان باتو ينعم بانتصاره كانت القوة التي تحت قيادة بيدار وكيدو تشعل النار في بولندة، وقد اتصل بهم نبأ موت أجتاي، واستدعاء باتو للرجوع إلى بلاد المغول في الوقت الذي كان يعمل فيه قواده وجنوده السيف في كل الجهات.

وكان أجتاي مسرفاً في شرب الخمر كما هي عادة الكثيرين من المغول حتى مات بسبب ذلك في ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ م.

(٧) كيوك:

ثم خلف أجتاي ابنه كيوك (٦٤٤ ـ ٦٤٦/١٢٤٦ ـ ١٢٤٨)؛ ولا يحفظ لنا التاريخ إلا القليل عن أخباره وأخلاقه، فقد ألقى بزمام الدولة إلى وزيرين من المسيحيين ـ كما امتلأ بلاطه بالرهبان والعلماء من المسيحيين أيضاً، وشيد كنيسة أمام خيمته.

أما عن معاملة كيوك لفقهاء المسلمين في بلاطه فقد روى الجوزجاني عن بعض الثقات أن البوذيين طالما أوغروا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم. وكان في هذه البلاد أحد الأئمة الذين اشتهروا بالعلم والورع بين المسلمين، وهو نور الدين الخوارزمي. وقد التمس من كيوك بعض القسس من المسيحيين وفريق من قسيسي عُبّاد الأوثان من البوذيين أن يستدعى ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه طالبين منه إقامة الحجة على تفوق الدين الإسلامي وإثبات رسالة محمد (ﷺ) وإلا كان مصيره القتل إن هو أعيته الحجة. وقد أجابهم الخان الأعظم إلى طلبهم وأرسل في طلب الإمام؛ وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد للنبوة وسلوكه في حياته، مع موازنته بسلوك غيره من الرسل. ولما كانت أدلة هؤلاء ضعيفة وخالية من كل وسائل الإقناع؛ نفضوا أيديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ولجأوا إلى طرق العنف، وسألوا كيوك أن يسأل هذا الإمام أن يسجد سجدتين وفق الأحكام الإسلامية والتعاليم المحمدية حتى تتبين أمامهم وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة (في نظرهم). فأمر كيوك ذلك الإمام ومن معه بالصلاة، فخروا على الأرض سجداً، فقام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك وأهانوهم وأخذوا يضربون الأرض برءوسهم، كما اقترفوا معهم بعض الأعمال المخزية. على أن الإمام ومن معه لم يأبهوا لكل هذا واستمروا في صلاتهم من غير أن يقطعوها. ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم، رفع رأسه نحو السماء قائلاً: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية﴾ (سورة الأعراف ٧: ٢٠٥).

ثم طلب كيوك أن يؤذن له بالانصراف وعاد إلى داره هو ومن معه[١].

(١) Raverty, p. 1160 et seq.

يقول سير توماس أرنولد[١] : «ولكن على الرغم من هذه المصاعب، أذعن المغول[٢] والقبائل المتبربرة التي دانت بدين هذه الشعوب الإسلامية التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطىء أقدامهم. ولا بد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين في طي الخفاء لجذب هؤلاء الكفار إلى حظيرة الإسلام».

(٨) مانجو خان :

وكان من حسن حظ أوروبا أن قامت الاضطرابات والفتن في بلاط قره قورم سنين عدة، ومن ثم ظهرت على تلك الإمبراطورية مظاهر التفكك وعوامل الانحلال. ففي سنة ١٢٥١م أصبح مانجوخان بن تولوي (٦٤٦ ـ ٦٥٥/١٢٤٨ ـ ١٢٥٧) خاقاناً على بلاد المغول.

وبعد سنتين من توليته على العرش زار بلاطه وليام روبرك (William of Rubruk) وغيره من الرهبان المسيحيين، حيث استقبلوا بمظاهر الإكرام والحفاوة. وقد وصف روبرك هذا قصر مانجو خان في «قرة قورم»، ومن هذا الوصف نقف على البون الشاسع بين حياة القصور وبين الحياة الرعوية التي كان يعيشها أسلافه. فكان قصره محاطاً بأسوار مبنية بالآجر، وبطرفه الجنوبي ثلاثة أبواب، والقاعة الوسطى تماثل الكنيسة. ويحتوي هذا القصر على ما يشبه صحن الكنيسة، ويفصل جناحي القصر ردهة فسيحة، تتوسطها عمد مرفوعة كان يجلس فيها رجال البلاط. وأمام العرش شجرة من الفضة على حافتها السفلى أربعة أسود يخرج من أفواهها الخمر والنبيذ، فتنصب في أربعة أحواض من الفضة، وفي أعلى الشجرة تمثال من الفضة يضرب البوق لملء خزانات تلك الينابيع الأربعة إذا ما نضب خمرها.

وقد عين مانجو خان أخاه كوبيلاي خان حاكماً عاماً على بلاد الصين. وفي عهده أخضعت كافة بلاد إمبراطورية سنج (بضم السين وسكون النون)، وبإخضاعها غدا المغول في البلاد الشرقية صينيين من حيث ثقافتهم ونظمهم، كذلك غزا مانجو خان بلاد التبت وخربها، كما ولى أخاه هولاكو قيادة حملة لغزو بلاد فارس وسورية.

---

(١) The Preaching of Islam, pp. 226-227

(٢) كانت ثلاثة أرباع الجيوش المغولية أتراكاً في القرن الثالث عشر للميلاد.

(٩) كوبيلاي خان:

خلف مانجو خان أخوه كوبيلاي (٦٥٥ - ٦٩٣/١٢٥٧ - ١٢٩٤) بعد سنة من وفاته قضاها زعماء المغول في العودة من أطراف تلك الإمبراطورية النائية: من بلاد المجر وسورية والصين إلى حاضرة الإمبراطورية، حيث انعقدت جمعية الأعيان لانتخاب خلف لمانجو خان، وأصبح كوبيلاي خان الخان الأعظم. وكان قبل اعتلائه العرش شديد الاهتمام بشئون بلاد الصين، فاتخذ بكين حاضرة لملكه بدلاً من قرة قورم، واستقل هولاكو ببلاد الفرس وسورية وآسيا الصغرى، على حين توزعت جيوش المغول في بلاد الروسيا وما يليها من بلاد آسيا، وكذا بعض الكتائب الصغيرة في بلاد تركستان. وفي عهد كوبيلاي سقطت مدينة بغداد على يد هولاكو.

(١٠) سقوط بغداد:

وبعد أن أتم هولاكو إعداد حملته، سار ميمماً نحو الغرب. ولم يكد يصل إلى بلاد تركستان وما وراء النهر حتى قدم إليه أمراؤها فروض الطاعة والولاء، ثم وجه همه إلى القضاء على طائفة الباطنية في فارس، فأرسل إلى ملوك إيران كتباً يدعوهم فيها إلى مساعدته. ومما جاء في هذه الكتب: «جئنا بأمر الخان الأعظم لتخريب حصون الإسماعيلية وقتل هذه الفئة ومحوها من الوجود، فإذا أتيتم إلينا ووافقتم على مشروعنا بتقديم المساعدة من الرجال والذخائر وآلات الحرب، فإني أعدكم بالبقاء في بلادكم آمنين تتمتعون بقصوركم وجيوشكم، أما إذا أظهرتم العكس سرت إليكم بعد إتمام مشروعي بعون الله وخربت بلادكم دون الالتفات إلى ما تقدمونه من الأعذار»(١).

وعلى أثر وصول هذه الكتب إلى الملوك خرجوا لمقابلة هولاكو محملين بالهدايا، وأتت إليه الرسل من العراق وخراسان وأذربيجان وجورجيا، فرحب بقدومهم. ثم عبر هولاكو نهر جيحون ونزل بحدائق طوس، ومنها سار إلى قلاع طائفة الإسماعيلية. وهناك دارت بينه وبينهم معركة انتهت بهزيمتهم وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله.

انتصر هولاكو على الإسماعيلية ووصل إلى مدينة همذان التي اتخذها مركزاً لقيادته، ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله كتاباً يعاتبه فيه على عدم إمداده بالجند في أثناء محاربته طائفة الإسماعيلية، وطلب إليه:

(١) أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه.

---

(١) D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome III, pp. 137-138

(٢) أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدويدار يحملان رسالته إليه.

وختم هولاكو كتابه بقوله إنه اذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقده عليه، وإلا عرض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التي قهرت جيوش خوارزم وإيران[١].

وقد أوفد الخليفة المستعصم شرف الدين بن الجوزي يحمل كتابه إلى هولاكو يدعوه فيه إلى الأقلاع عن غروره والعودة إلى بلاده. ومما في هذا الكتاب: «لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع؛ وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء، كيف تطلب مني طلباً لا تستطيع تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم؟» ثم أخذ الخليفة يذكره بمجد الخلافة فقال: «إن ملايين من الفرسان والرجالة على استعداد للقتال، وهم رهن إشارتي، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر»[٢]. ثم ختم الخليفة كتابه بقوله: «فما بالك بخنادق رعيتي وحصونهم؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان. وإن كنت تريد الحرب فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا عزمت، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب»[٣].

وقد حمل شرف الدين بن الجوزي ومن معه من الرسل مع هذه الرسالة بعض التحف والهدايا، فلم يهتم بها هولاكو، وأبدى امتعاضه من العبارات التي تضمنها كتاب الخليفة إليه وقال: «لقد ألقى الله في روع هؤلاء القوم مثل هذه الأوهام»[٤]، ورد على الخليفة برسالة يهدده فيها ويتوعده، ومما جاء فيها: «إنك تركت نهج آبائك، فاستعد للحرب وانتظر جيشاً قوياً، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه بعون الله»[٥].

ولما عاد رسل الخليفة وأدرك ما ينطوي عليه رد هولاكو من تهديد ووعيد، استطلع رأى وزيره ابن العلقمي، فأشار عليه بأن يتألفه ببذل الأموال والنفائس وقال: «ينبغي أن تدفعه ببذل المال، لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس، فيجب إعداد ألف حمل من النفائس وألفاً من نجائب الإبل وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات، وينبغي إرسال التحف والهدايا في صحبة الرسل الكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو وجعل الخطبة والسكة باسمه»[٦].

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٨.

(٢) Quatremère, Histoire des Mongols, p. 335

(٣) جامع التواريخ: المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٤) ابن الأثير: ج ١١ ص ٦٥، جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٧١.

(٥) كترمير ص ٣٣٩.

(٦) جامع التواريخ، المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٧١.

وقد مال الخليفة إلى قبول هذا الرأي أول الأمر، ولكن مجاهد الدين أيبك، وكان يلقب الدويدار الصغير، الذي كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير ابن العلقمي، استمال بعض الأمراء إليه، وبعثوا إلى الخليفة برسالة يقولون فيها إن الوزير إنما رأى هذا الرأي مدفوعاً في ذلك بمصلحته الخاصة، وإنه يعرضهم بذلك إلى البلاء على أيدي المغول، وتعهدوا للخليفة بأخذ الحيطة لدرء خطر هولاكو والقبض على رسله وأخذ ما معهم من الأموال وتعذيبهم بكل ألوان العذاب[١].

وهكذا لم يكن لتبادل المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها. وقد رأى هولاكو الاستيلاء على البلاد التي في طريقه إلى بغداد. ولما تأكد أنه قد أصبح في استطاعته السير إلى هذه المدينة دون تعرضه للمصاعب استطلع رأي الفلكيين، على ما جرت به عادة المغول إذا أقدموا على غزو بلد من البلاد؛ وقد حاول حسام الدين الفلكي، وكان سنياً يعطف على الخليفة، أن يثني هولاكو عن عزمه، وقال له: «إن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على معاداة أبناء العباس والتعرض لمدينة بغداد، زال عرشه وانتهت حياته؛ وإذا أبى الأمير أن يستمع لنصائحي وتمسك برأيه، كان ذلك سبباً في حلول ست مصائب وهي: موت الخيل، وإصابة الجند بأمراض مختلفة، وعدم طلوع الشمس، وانعدام سقوط المطر، وحدوث هزات أرضية يعاني منها العالم، وإقفار الأرض»[٢].

أما نصير الدين الطوسي الذي اشتهر بمؤلفاته في الدين والأخلاق ونظم الحكم والفلك، فقد انضم إلى جانب أمراء المغول الذين تمسكوا بضرورة غزو بغداد، كما استبعد وقوع الكوارث بحاضرة الخلافة على أثر سقوطها. ومما قاله لهولاكو: «إن كثيرين من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ماتوا دفاعاً عن الدين، ومع ذلك لم تقع كارثة من الكوارث، وإن كثيرين من الناس خرجوا على بني العباس ولم يلحقهم أذى. وضرب لذلك مثلاً بطاهر بن الحسين الذي قتل الخليفة الأمين»[٣].

ولما أيقن هولاكو أن في استطاعة قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها في أثناء إقامته بهمذان، وتنحصر في حصار هذه المدينة بجيوشه من جميع النواحي، فأنفذ حملة بقيادة أحد قواده «باجو» لمهاجمة بغداد من ناحية الغرب، وسار هو على رأس فريق من الجيش لمحاصرتها من ناحية الشرق (١٢٥٧/٦٥٦) وبصحبته

(١) المصدر نفسه المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٧٢.

(٢) D'Hosson, Tome III, pp. 224-225

(٣) Ibid, Vol III. p. 226.

كثير من من أمراء المسلمين من أمثال أبي بكر سعد زَنْكي أتابك Atabeck شيراز، ونصير السعدي الكاتب والشاعر الفارسي المشهور، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، وسكرتيره الخاص عطا مَلك الجويني صاحب التاريخ المشهور بتاريخ جهان جشا Jahân Gusha ونصير الدين الطوسي الفلكي والحكيم المشهور[١].

ولم يكد هولاكو يبلغ مدينة «دينور» على بعد عشرين فرسخاً من همذان حتى لقيه شرف الدين بن الجوزي رسول الخليفة العباسي ومعه رسالة يهدئه فيها ويعده بدفع جزية سنوية إذا عاد إلى بلاده، غير أن هولاكو لم يعبأ بما جاء في كتاب الخليفة وقال لسفيره ساخراً:

«لقد قطعنا طريقاً طويلاً، فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة؟ إننا بعد أن نتشرف بالمثول بين يديه وبعد أن نتحدث معه، سنسمع أوامره ونعود مباشرة». ثم تابع هولاكو المسير، وأمر «باجو» بأن يسرع إلى عبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب. ولما تمكنت قوات باجو من عبور هذا النهر دارت الحرب بين الفريقين، وحلت الهزيمة بالجيش العباسي في العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ هـ. واستولى باجو وجنده على الجانب الغربي من بغداد ونزلوا في أحياء المدينة على شاطىء نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها.

وكان من أثر انشغال الجيش العباسي بمقاومة المغول الذين هاجموا بغداد من ناحية الغرب أن خلا الجو لهولاكو، فترك معسكره في «خانقين» وتابع سيره إلى بغداد وعسكر من جهة بغداد الشرقية بجند لا يحصى عدده حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه كالجراد المنتشر. وقال ابن كثير[٢] إن هذا الجيش المغولي بلغ مائتي ألف مقاتل. وقد تدفق على بغداد الشرقية كثير من أهالي بغداد الغربية خشية أن ينكل بهم المغول بقيادة باجو. يقول ابن طباطبا[٣]:

«وسار الناس من دُجَيل والإسحاق ونهر ملك (بفتح الميم) ونهر عيسى ودخلوا المدينة بنسائهم وأولادهم، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء. وكان الملاح إذا عبر أحد في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زركش أو عدة من الدنانير. فلما وصل العسكر السلطاني (أي جند هولاكو) إلى دُجَيل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس، خرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيش مجاهد الدين أيبك الدويدار، وكان عسكراً في غاية القلة، فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد، فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة، ثم كانت الكرة للعسكر السلطاني فأبادوهم قتلًا

(١) براون، ترجمة ج ٢ ص ٢٨٣.
(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠.
(٣) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨.

ـ وأسراً، وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل، فكثرت الوحول في طريق المنهزمين، فلم ينج منهم إلا من رمى بنفسه في الماء أو من دخل البـرية ومضى على وجهه إلى الشام، ونجا الدويدار في جمعية من عسكره ووصل إلى بغـداد، وسار «بـاجو» حتى دخـل البلد من جانبه الغربي، ووقف بعساكره محاذي التاج، وجاست عساكره خلال الديـار، وأقام محـاذي التاج أياماً .وأما حال العسكر السلطاني فإنه في يوم الخميس رابع المحرم من سنة ٦٥٦ هـ ثارت غـبرة عظيمـة شرقي بغـداد على درب بعقوبـا بحيث عمت البلد. فانـزعج النـاس من ذلـك وصعدوا إلى أعالي السطوح والمنابر يتشوفون، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيولـه ولفيفـه وكراعـه، وقد طبق وجـه الأرض وأحاط ببغـداد من جميع جهـاتهـا. ثم شرعـوا في استعمال أسباب الحصار، وشرع العسكر الخليفي في المدافعة والمقاومـة إلى اليوم التـاسع عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ، فلم يشعر الناس إلا برايـات المغول ظـاهرة على سـور بغداد من برج يسمى «برج العجمي» من ناحية باب من أبواب بغداد يقـال له «بـاب كلواذي» (بفتح الكاف والذال وسكون الـلام). وكان هـذا البرج أقصـر أبراج السـور، وتقحم (اقتحم على الأصح) العسكر السلطاني هجـوماً ودخـولاً، فجرى من القتـل الذريـع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله؟».

وكـان مـا كـان ممـا لست أذكـره فـظن ظنـاً ولا تـسـأل عـن الـخـبـر

هذا ما ذكره «صاحب الفخري» بعد أربع وأربعين سنة من وقوع هذه الكارثة (أي قبـل أن ينتهي من وضع كتابه سنة ١٢٠١/٧٠١)، ولم يكن الفخري ـ كما يقول براون[1] ـ يكتب ما يشاء ويسجل ما يريد، ولكنه كان يكتب مـا يكتب وهو يعلم أنـه يعيش تحت حكم مغولي أيام غازان حفيد هولاكو.

ولمـا رأى الخليفة المستعصم أنـه لا مفر من دخـول المغول مـدينة بغـداد عـول على التسليم، فأرسل رسوله شرف الدين بن الجوزي ثانية إلى هولاكو يحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة معلناً رضاه بالتسليم ووقف القتال. ولم تمض على ذلك بضعـة أيام حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة. وقد ذكر ابن كثير[2] أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم اشار على الخليفـة بالخـروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتقع المصـالحة على أن يكـون نصف الخراج لهـولاكو والنصف الآخر للخليفة.

وفي يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) خرج الخليفـة لملاقـاة

(١) تاريخ الآداب في إيران. ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٨٧.

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١.

هولاكو، وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم : ولده الاكبر أبو العباس أحمد، وولده الأوسط أبو الفضائل عبد الرحمن، وولده الأصغر أبو المناقب مبارك، وثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء وأعيان المدينة، ولما اقترب هذا الركب من دار هولاكو حجبوا عن الخليفة ولم يبق معه إلا سبعة عشر شخصاً منهم. ولما أحضر الخليفة بين يدي هولاكو كان الاضطراب يبدو عليه، فقال له هولاكو: «أنت المضيف ونحن الضيوف فأحضر ما يليق بنا».
وقد بلغ من اضطراب الخليفة أنه لم يعد يعرف المكان الذي أودع فيه مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر عدة أقفال، وأحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار وكثيراً من الجواهر والنفائس، فلم يلتفت هولاكو إليها ومنحها كلها للأمراء، ثم قال للخليفة: إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة، وهي ملك عبيدنا، ولكن اذكر ما تملكه من الدفائن، وما هي؟ وأين توجد؟ فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر. فحفروا الأرض، فكان الحوض مليئاً بالذهب الأحمر، وكان كله من سبائك تزن الواحدة مائة مثقال. وقد أحصي نساء القصر فكن سبعمائة بين زوجة وسرية وخادمة(١).

ثم طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بحجة عمل تعداد لهم. فانفذ الخليفة رسولاً من قبله ينادي الناس في طرقات المدينة بأن يلقوا السلاح ويخرجوا من الأسوار. غير أنهم لم يكادوا يلبون طلبه حتى أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتلة. ولما استقر هولاكو بقصر المأمونية شرقي بغداد سمح لجنده بدخول المدينة فعاثوا فيها أسبوعاً كاملاً، وهدموا مساجدها ليحصلوا على ذهب قبابها، وجردوا القصور مما بها من التحف النادرة، وأتلفوا عدداً كثيراً من الكتب القيمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيرا من رجال العلم فيها(٢).

وقد أعمل جند المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم وأهلكوا كثيرين من رجال العلم، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس والربط، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان، وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال. ولما نودي بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى قد نبشت قبورهم، وقد أنكر بعضهم البعض، فلم يعرف الأب ابنه ولا الأخ أخاه، ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصداً ذريعاً، وفسد الهواء وعم الوباء(٣).

(١) جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٢) أنظر Browne, Lit. of Persia, Vol. II, p. 463, seq.، الترجمة ص ٥٨٦.
(٣) ابن القوطي : الحوادث الجامعة في أعيان المائة السابعة ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

وقد انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم.

وقد اختلف المؤرخون في عدد الأنفس التي أزهقتها المغول على أثر دخولهم بغداد، فذهب بعضهم إلى أنها بلغت ثمانمائة ألف، وقدرها السبكي[١] بتسعمائة ألف، وذهب ابن كثير[٢] إلى أنها بلغت مليوناً وثمانمائة ألف، عدا من غرق أو هرب. على أنه لا شك في أن هذه المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة وضاعت الثروة الأدبية والفنية التي عني الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو جعفر المنصور بغداد واتخذها حاضرة لدولته.

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية وزالت الخلافة التي عاش في ظلها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون. ولم تعد بغداد مركز الإسلام ومعين الثروة والرخاء وكعبة العلماء، ولم يحدثنا التاريخ أن حضارة زاهرة كالحضارة الإسلامية في بغداد قد اختفت في مثل هذه السرعة، وأصبحت حاضرة العباسيين طعمة تلتهمها النيران المستعرة وتغرقها الدماء المهرقة.

وقد أمر هولاكو قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم[٣].

وقد أسهب في وصف هذا التخريب عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ١٣٣٨/٧٣٩) في كتابه «مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع» لياقوت الحموي (ت ١٢٢٩/٦٢٩). وقد جمع عبد المؤمن هذا الكتاب حول سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) وزاد عليه وأخرجه في أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣ م)، فأشار في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٦٣) إلى التخريب الذي قامت به الجيوش الفاسية والتركية والمغولية التي كان يخرب كل منها ما بناه من سبقه من السلاطين.

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الدور الذي قام به مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة المستعصم في تسليم بغداد، فبعضهم يرى أن هذا الوزير أثار مخاوف الخليفة من خطر المغول ونصح له بالاستعداد لحربهم، وأخذ الحيطة لدرء خطرهم، وكان هذا الوزير، كما وصفه صاحب الفخري «من أعيان الناس وعقلاء الرجال». إلا أن بعض خاصة الخليفة قللوا من شأن المغول وأدخلوا في روع الخليفة أن وزيره يبالغ في تصوير هذا الخطر

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ص ١١٥.

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٢.

(٣) انظر Le strange Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 343.

ليفيد من الأموال التي تخصص لتجنيد الجند وتزويدهم بالسلاح. ويتهم الجوزجاني في كتابه طبقات ناصري هذا الوزير بأنه قلل من عدد الجند الذين أسندت إليهم مهمة حماية المدينة وزين للخليفة التسليم إرضاء لأطماعه وانتقاماً للاضطهادات التي تعرض لها الشيعيون على يد ابن الخليفة الأكبر. ولذلك اتفق ابن العلقمي مع نصير الدين الطوسي الذي اتخذه هولاكو وزيراً له والذي كان يدين بعقائد المذهب الشيعي كابن العلقمي على تسليم بغداد للمغول، بل لقد ذهب ابن كثير إلى القول بأن الوزير ابن العلقمي وبني جلدته من الشيعيين قد أشاروا على هولاكو بألا يدخل في صلح مع الخليفة بحجة أن مثل هذا الصلح لن يدوم، بل إنهم حسنوا له قتل الخليفة. كما ذهب هذا المؤرخ[١] إلى القول بأن ذلك كان راجعاً إلى العداء المستحكم بين السنيين وبين الشيعيين الذين نهبت دورهم قبل فتح بغداد على أيدي المغول، فاشتد حنق الوزير ابن العلقمي، كما ذكر السيوطي[٢]، فراسل التتار وأطمعهم بالمسير إلى العراق وفتح بغداد وإزالة الدولة العباسية وإقامة خلافة علوية على أنقاض الخلافة العباسية[٣].

على أن هذه الآراء لا تتفق مع هذه الحقيقة التاريخية وهي أن فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسي يهدف إلى اتساع رقعة إمبراطورية المغول بعد أن تم لهم فتح إمبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وجورجيا والقوقاز والروسيا وبولندة وغيرها. أضف إلى ذلك أن قتل المغول أهل بغداد قد شمل السنيين كما شمل الشيعيين الذين نهبت دورهم في الكرخ وهي محلة الشيعة ببغداد. وإذا كان المغول قد قربوا إليهم ابن العلقمي فإنهم مع ذلك قد تخلصوا منه، إذ أن حياته لم تمتد بعد مقتل الخليفة المستعصم أكثر من ثلاثة أشهر. ومما هو جدير بالملاحظة أن الجوزجاني يغلو في سنيته أكثر مما يغلو ابن طباطبا في تشيعه. هذا إلى ما عرف به الوزير ابن العلقمي من شغفه بالكتب وتقريب العلماء والأدباء، حتى لقد اشتملت مكتبته على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب، وأهداه كثير من الشعراء دواوينهم[٤]. وكان كما يقول ابن طباطبا[٥] «عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً».

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ وما يليها.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠.

(٤) براون: تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ج ٢ ص ٥٨٩.

(٥) انظر كتاب الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

البَاب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة
غير التابعة لحكم العباسيين
أولاً ـ الغوريون والغزنويون

١ ـ ظهور الغوريين:

آذن نجم البيت الغزنوي بالأفول وشهد عصر سنجر زوال هذه الأسرة النهائي على أيدي ملوك الغور الجبليين وهم أفغانيو «فيروزكوه» الأشداء، وكان ظهير الدولة إبراهيم (٤٥١ ـ ٤٩٢/١٠٥٩ ـ ١٠٩٩) جلس على عرش السلطنة حين بدأ الغوريون في الظهور. وقد اتصف هذا السلطان بقوة الشكيمة: فقد حدث نقص شديد في الخبز في غزنة، وأغلق الخبازون حوانيتهم وشعر الفقراء بالعسر والضيق واستغاثوا بالسلطان الذي بعث في طلب الخبازين وسألهم عن سبب ندرة القمح، فأجابوا بأن صاحب المخبز السلطاني احتكر الدقيق لرفع سعره، فأمر السلطان بوضعه تحت حوافر الفيل حتى يموت، وبعد موت صاحب المخبز أمر السلطان بأن يعلق جسمه بين أنياب الفيل ويطاف به في طرقات المدينة. وصدر منشور يعلن للناس أن ذلك هو مصير كل خباز يغلق حانوته. وقد زاد نظام الملك[1] أنه لم يأت مساء ذلك اليوم حتى وضع عند باب كل حانوت من حوانيت بائعي الخبز خمسون مقطفاً (والمقطف يحتوي على مائة رطل من الخبز)، وبلغ الخبز من الوفرة بحيث زهد الناس في شراء أكثره.

مات السلطان ظهير الدولة إبراهيم الغزنوي سنة ٤٩٢ هـ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٢ ـ ٥٠٨/١٠٩٩ ـ ١١١٤). ثم خلفه أبناؤه الثلاثة: شيرزاد (ت ٥٠٩/١١١٥)، وسلطان الدولة أرسلان شاه (٥٠٩ ـ ٥١٢/١١١٥ ـ ١١١٨)، ويمين الدولة بهرام شاه الذي حكم الدولة الغزنوية المتداعية حتى نهاية ٥٤٧/١١٥٢.

---

(١) سياسة نامه (نشرة شيفير) ص ٤٢ نقلاً عن .Browne, II. p. 305

وقد انتهى حكم بهرام شاه بنكبة حلت به، ذلك أنه في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ ارتاب سنجر في ولائه وعدم إخلاصه في الوفاء بوعوده، كما نمى إليه أنه ظلم الناس واغتصب أموالهم، فسار سنجر إلى غزنة[١] وقد أدركه الشتاء واشتد البرد به وبجنده وكثر هطول الأمطار وتعذر وصول القوت للجند والعلوفة للماشية. وما زال سنجر كذلك حتى قرب من غزنة وأرسل إليه بهرام شاه يستعطفه ويسأله الصفح عما بدر منه، فأرسل إليه سنجر يعده بالعفو عنه إذا حضر عنده وعاد إلى طاعته. فأذعن بهرام شاه لأمر سنجر، ولكنه لما قرب من معسكره تملكه الخوف وولى هارباً ولم يعرج على غزنة، فسار سنجر إليها ودخلها وجبى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه يلومه ويحلف له أنه ما أراد به شراً ولا ببلده مطمعاً، وإنما قصده لإصلاحه ورده إلى طاعته. فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتثقل ويقول إن الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع إلى السلطان أن يعفو عنه وأن يسبغ عليه عطفه، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده إليه، وترك غزنة وقفل راجعاً إلى بلده، فوصل إلى بلخ في شهر شوال سنة ٥٣٠ هـ «وعاد بهرام شاه إلى غزنة»[٣].

وبعد اثنتي عشرة سنة دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري وقد ثأر أخواه سيف الدين سوزي وعلاء الدين حسين لمقتل أخيهما هذا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) بطرد بهرام شاه من غزنة وهربه إلى الهند، وتقلد سيف الدين سوزي ولايتها نيابة عن أخيه علاء الدين. على أنه قد دبرت مؤامرة ضد سيف الدين في الشتاء التالي، ولما امتلأت الطرق بالثلوج دعي بهرام شاه للعودة إلى بلاده، فقبض على سيف الدين سوزي على حين غفلة وشهر به في المدينة وقد جلل وجهه بالسواد وهو ممتط بقرة، ثم شنق أو صلب[٣]. وقد ذكر ابن الأثير[٤] أن علاء الدين حسين الغوري (٥٤٤ - ٥٥١ هـ) عاد إلى غزنة وخربها، وتعد هذه السنة (٥٤٣ هـ) ابتداء الدولة الغورية حيث قوي الغور وعلا شأنهم وتركوا بلادهم الجبلية.

---

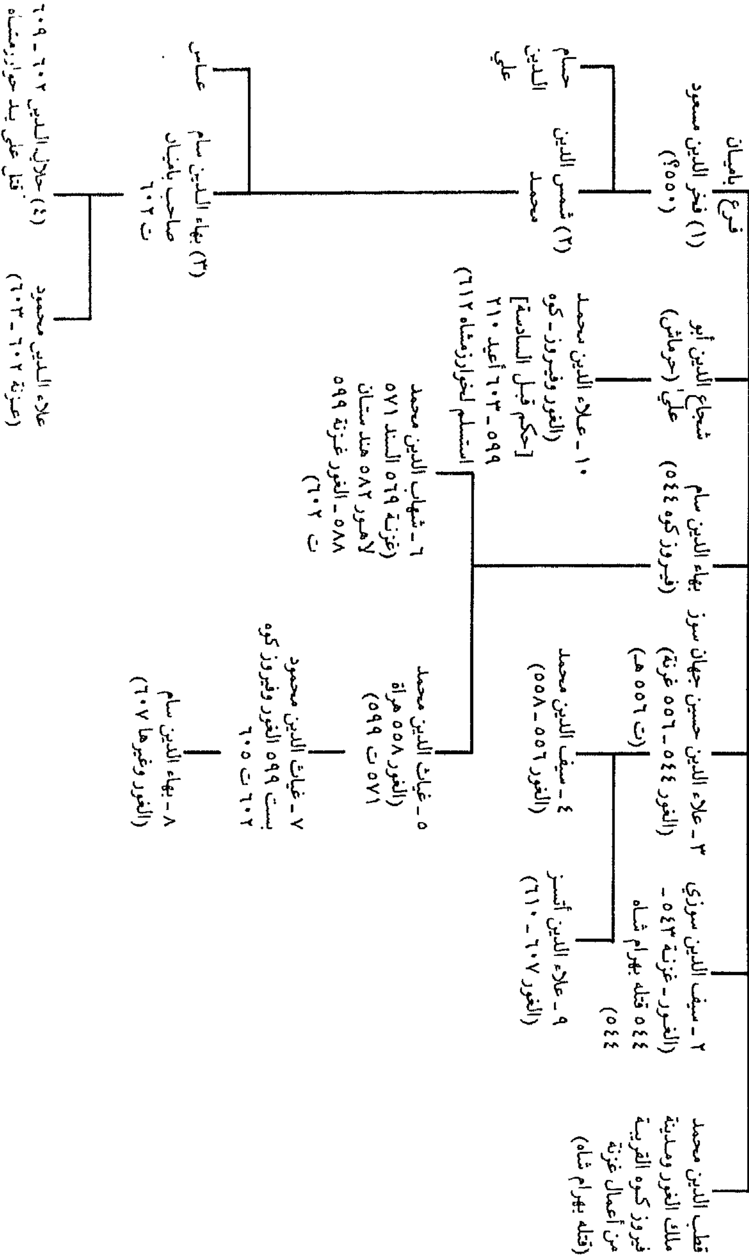
(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٩٠ - ١٩١) أن غزنة كانت قد دخلت في حكم سنجر سنة ٥١٠ هـ، وكان بهرام شاه بن ألب أرسلان الغزنوي قد استنجد به وطلب منه الحضور إلى غزنة. وقد تغلب جيش سنجر على جيش أرسلان شاه وجلس بهرام شاه على سرير جده محمود الغزنوي صاحب الفتوحات الإسلامية في الهند.

(٢) ابن الأثير: الكامل المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢.

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧.

(٤) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٦ - ٦٧.

٥٤٣ هـ - ٦١٢ (١) الغوريون ١١٤٨ - ١٢١٥



٢ ـ علاء الدين حسين الغوري:

وقد قابل علاء الدين حسين الغوري إساءة بهرام شاه بإنزال العقاب الصارم بأهل غزنة (١١٥٥/٥٥٠)، وذلك بعد موت بهرام شاه بثلاث سنين واستخلاف ابنه خسروشاه. وإن لقب «السلطان المعظم»[١] أو ملك الدنيا والدين (جهان سوز) الذي تلقب به، ونهب مدينة غزنة وتخريب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم الغزنويين، ليدل دلالة واضحة على مدى الويلات التي حلت بهذه المدينة العتيدة في خلال الأيام الثلاثة التي تعرضت فيها لنقمة الغور. وعلى الرغم من هذه المآسي التي حلت بغزنة على أيدي الغور لم يصب الأدب بسوء، بل على العكس من ذلك كان محل تقديرهم، فقد ذكر نظامي عروضي السمرقندي[٢] أن علاء الدين الغوري حين أمر بنهب غزنة وتخريب عماراتها «اشترى مدائح محمود ومسعود وإبراهيم (الغزنويين) بالذهب وخبأها في خزانة كتبه»، ولم يجرؤ أحد في عسكر علاء الدين في هذه المدينة أن يسمي أحد ملوك الغور سلطاناً، حين كان الملك نفسه يقرأ في الشاهنامة ما قاله مؤلفها الفردوسي:

«أول ما ينطق به الطفل الرضيع في مهده «محمود» (الغزنوي) تتمثل في جسمه صولة الفيل، وفي روحه علم جبريل، وفي كفه مطر الربيع، وفي قلبه نهر النيل[٣].

ملك العالم محمود، ذو العزة القعساء الذي جمع بين الذئب والحمل[٤] على مورد الماء».

ولما قوي أمر علاء الدين الغوري واتسع سلطانه نصَّب العمال على بلاد الغور الواسعة. ومن هؤلاء العمال ابنا أخيه بهاء الدين سام وهما: غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد. وقد استمالا إليهما الأهلين بالعدل وحسن السيرة، فأحبهما الناس وانتشر ذكرهما في الآفاق، فأضمر لهما بعض أمراء الدولة الحسد وأوغروا عليهما صدر عمهما علاء الدين حسين ورموهما بتدبير قتله والاستيلاء على ملكه. ولما بعث علاء الدين

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧.

(٢) Browne, II, p. 306 نظامي عروضي: جهار مقاله (ترجمه إلى الإنجليزية براون) ترجمة عربية ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) كثيراً ما كان يطلق على أنهار وبحار الشرق الأوسط كلمة «النيل» تشبيهاً بنيل مصر. كما يطلق المغاربة على نهري السنغال والنيجر كلمة النيل على سبيل التشبيه.

(٤) أي أنه لقوته وضراوته أذل الأشرار حتى أصبح الضعاف لا يخشون بأسهم. وقد شبه هذا بقوله إن السلطان استطاع أن يسير الحمل بجانب الذئب.

في طلب ابن أخيه امتنعا عن الحضور، إذ نمى إليهما الخبر بما دبره لهما عمال السوء، فسير إليهما عمهما علاء الدين جيشاً حلت به الهزيمة. وأظهر غياث الدين وشهاب الدين العصيان لعمهما وقطعا الخطبة له على منابر البلاد. ولم يجد علاء الدين بدأ من المسير إليهما بنفسه. ولكن الهزيمة حلت به وأسر. على أن ابني أخيه أحسنا معاملته وأجلساه على العرش ووقفا في خدمته واستدرا بذلك عطفه، حتى إنه بادر إلى زواج غياث الدين من إحدى بناته واتخذه ولياً لعهده.

٣ ـ غياث الدين محمد ـ زوال الدولة الغزنوية

توفي علاء الدين حسين سنة ٥٥٦ هـ. وكان كما وصفه ابن الأثير[١]، من أحسن الملوك سيرة في رعيته، ثم خلفه ابنه سيف الدين محمد (٥٥٦ ـ ٥٥٨ هـ). وفي عهده نشط دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم، فطردهم هذا السلطان من بلاده. وقد تبادل المراسلات والهدايا مع الملوك والأمراء. . ولم يعمر سيف الدين محمد في سلطنة الغور، وذلك أنه سار من جبال الغور على رأس جيش لحرب الغز ببلخ. وقد اتفق أن خرج سيف الدين محمد من معسكره في جماعة من خاصته، وسمع بذلك أمراء الغز، فألحوا في طلبه وأوقعوا به، فقاتلهم، فقتل مع بعض خاصته، وذلك في شهر رجب سنة ٥٥٨ هـ، وأسر بعض آخر وهرب الباقون، ولحق عسكره ببلادهم. وكان سيف الدين محمد في العشرين من عمره[٢].

ولما قتل سيف الدين محمد جلس غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام على العرش وخطب له على منابر الغور. ولما قوي أمره جمع جيشاً جراراً سار بقيادة أخيه شهاب الدين، فاستولى على غزنة من الغز، وكانوا قد حكموها خمس عشرة سنة أذاقوا فيها الأهلين ألوان التعذيب وعاملوهم معاملة قوامها الظلم والجور. ثم سار شهاب الدين الذي عرف بحسن سيرته وعدله إلى كرمان وعبر نهر السند واستولى على بعض بلادها الجبلية، ثم عاد الغز فملكوا غزنة من جديد[٣].

وفي سنة ٥٥٩ هـ، سار شهاب الدين على رأس جيش كثيف من الخراسانيين والغور، فعبر نهر السند وحاصر لاهور واستولى عليها من يد صاحبها الغزنوي خسروشاه (٥٥٥ ـ ٥٨٢/١١٦٠ ـ ١١٨٦) وأحسن معاملته، ثم طلب أخوه غياث الدين محمد إرسال خسروشاه إليه، فأمر به فقتل في إحدى القلاع. وبذلك زالت الدولة الغزنوية على يد

---

(١) الكامل ج ١١ ص ١٠٩.
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢٤

شهاب الدين الغوري سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، وتداعى سلطان الغزنويين في الهند، وانقسمت دولتهم إلى دويلات إسلامية مستقلة[١]. وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر ابن الأثير[٢] «من أحسن الملوك سيرة، ولا سيما جدهم محمود (الغزنوي)، فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة».

استقر سلطان غياث الدين الغوري وقوي أمره واتسعت رقعة مملكته وكثر عدد جنده، وأصبح بحيث يستطيع أن يعلن نفسه سلطاناً على البلاد؛ لذلك نراه يبعث إلى أخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له بالسلطنة على منابر الهند حيث استقر سلطان الغور في لاهور، وبعد أن كان لقب غياث الدين محمد «شمس الدين» أصبح الآن يلقب بألقاب «غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين»، كما تلقب أخوه شهاب الدين بلقب عز الدين[٣].

وفي سنة ٥٩٧ هـ عول غياث الدين على استرداد خراسان من خوارزمشاه محمد، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب إليه المسير إلى هذه البلاد وفتح حاضرتها مرو[٤]. ثم استولى على سرخس وطوس وهراة، ثم لحق به أخوه شهاب الدين وساعده على فتح نيسابور وحاصر بعض قلاع الإسماعيلية وطهر البلاد منهم ونشر الإسلام في ربوعها. ثم قامت الجفوة بين غياث الدين وأخيه شهاب الدين، وقد عزا ابن الأثير[٥] ذلك إلى أنَّ صاحب قهستان شكا غياث الدين أخاه وقال إنه حاصر بلده وخرج على العهد الذي أبرم بينهما. وبينما كان شهاب الدين مشغولاً بحصار حصن الإسماعيلية أتاه رسول أخيه يطلب إليه الرحيل من قهستان، فأبى، فانفذ الرسول أمر أخيه، فسل سيفه وقطع أطناب سرادق (حبال) شهاب الدين، فرحل مع عسكره غاضباً وأبى المقام بغزنة ورحل إلى بلاد الهند[٦]. وقد ذكر ابن الأثير[٧] في حوادث ٥٩٥ هـ أن خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش استرد ما أخذه الغور من خراسان.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٢٤.
(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٩. حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ١٠٢.
(٣) ابن الأثير: ج ١١ ص ٩٦.
(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٥) الكامل ج ١٢ ص ٧٠.
(٦) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٧) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٢.

وفاة غياث الدين محمد ـ صفاته

توفي غياث الدين الغوري سنة ٥٩٩ هـ. وقد اتسع ملكه. وكان كما وصفه ابن الأثير[١]، مظفراً منصوراً في حروبه، لم تنهزم له راية قط. وكان جواداً حسن الاعتقاد كثير الصدقات، وقد شيد الخانقاهات في الطريق، وأسقط المكوس، ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس. ومن مات ببلده أودع ماله ليوزعه القضاة على مستحقيه طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية. وإذا وصل إلى بلد من البلاد عم إحسانه الفقهاء وأهل الورع والدين وخلع عليهم وفرض لهم العطايا في كل سنة من خزانته، كما وزع الأموال على الفقراء. وكان يشمل عطفه ورعايته كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم. وقد أولع بالأدب والبلاغة وعرف بحسن الخط حتى كان ينسخ المصاحف بخطه ويقفها على المدارس التي بناها. وعلى الرغم من ميل غياث الدين محمد إلى عقائد المذهب الشافعي وبنائه المساجد لأصحاب هذا المذهب، لم يؤثر أصحاب مذهب على مذهب، بل كان يسوي بينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى، كما أثر عنه أنه تحول إلى هذا المذهب على يد محمد بن محمود المروروزي، وكان من فقهاء الشافعية. وكان غياث الدين يقول: التعصب في المذاهب من الملك قبيح[٢].

شهاب الدين محمد ـ حروبه مع الخوارزميين والخطا:

ولما مات غياث الدين (٥٩٩ ـ ٦٠٢ هـ) حال أخوه شهاب الدين دون تولية ابنه محمود، وجلس على العرش، ولكنه ولى محموداً بست. وكان لغياث الدين مغنية كلف بها فتزوجها. فلما مات لم ينس شهاب الدين ما لحق به من إساءة أخيه حين حاصر إحدى قرى قهستان وطهر الإسماعيلية منها، فقبض على زوجة أخيه وضربها هي وابنها ضرباً مبرحاً واستولى على ما كان لها ولأهلها من مال وممتلكات وسيرهم إلى بلاد الهند في أقبح صورة ونبش قبور موتاهم.

وفي شهر رجب سنة ٦٠٠ هـ استرد خوارزمشاه محمد مدينة هراة من ابن أخت شهاب الدين الغوري. وفي هذه السنة ترك شهاب الدين الغوري غزنة حاضرة ملكه قاصداً لاهور لغزو بلاد الهند، ولما علم خوارزمشاه محمد بذلك حاصر مدينة هراة، فلم ير شهاب الدين بداً من العودة إلى خراسان. ثم أغذ السير حتى بلغ ظاهر مدينة مرو حاضرة

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥.
(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥ ـ ٧٦.

خراسان، ودار القتال بين جند شهاب الدين وجند خوارزمشاه الذي استنجد بالخطا من أتراك بلاد ما وراء النهر، وساروا إلى بلاد الغور. ولما علم شهاب الدين الغوري بذلك عدل عن الاستمرار في القتال مع خوارزمشاه محمد وعاد إلى بلاده والتقى بمقدمة جيش الخطا (صفر سنة ٦٠١ هـ) وأحل بهم الهزيمة. ثم دهمه جيش كثيف من الخطا أحل الهزيمة بشهاب الدين وأسره وكثرت الأراجيف بقتله. ثم صالحه الخطا وأطلقوا سراحه بعد أن قتل أكثر جنده ونهب جميع خزائنه، ثم سار شهاب الدين إلى غزنة ولحق به أحد مماليكه إلى الهند ودخل المولتان وقتل نائبه فيها، واستولى على البلاد وأساء السيرة في الرعية وظلمهم وأخذ أموالهم وادعى السلطنة لنفسه. ولما نمى خبره إلى شهاب الدين سار إلى الهند وقبض عليه وقتله (جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ)[١].

ولم ينس شهاب الدين هزيمته على أيدي الخطا الأتراك وعول على أخذ الثأر منهم وغزو بلادهم. وقد ذكر المؤرخون أنه سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف مقاتل قاصداً الخطا. ولما وصل إلى بلادهم فرق عسكره في مفازة قليلة الماء وكان الخطا قد نزلوا بطرفها، وكلما خرجت طائفة من الغور فاجأهم الخطا وفتكوا بهم قتلاً وأسراً، ومن سلم منهم قفل هارباً إلى بلاده. وقد وصل شهاب الدين وقد أعياه التعب والإرهاق هو وجنده دون أن يعلم بما حل بجنده الذين تعرضوا للهلاك، فقاتل الغور الذين بلغ عددهم أضعاف عدد جنده وحصروه في «أندخوه» وكادت الهزيمة تحل بجيشه. وهنا فكر شهاب الدين في خدعة حربية تكللت بالنجاح، فقد أمر طائفة من جنده بأن تسير ليلاً وتعود إليه في الصباح، وظن الخطا أن المدد قد أتى من بلاد الغور وأخذ الخوف يدب إلى قلوبهم، وكان صاحب سمرقند يدين بالطاعة للخطا، وقد خشي أن يظفروا بالمسلمين؛ لذلك نراه يثير مخاوف الخطا من تدفق الأمداد على شهاب الدين، وأشار عليهم بأن يجنحوا للسلم ويطلبوا الصلح، فوافقوا على رأيه، وأرسل صاحب سمرقند إلى شهاب الدين سراً ليشير عليه بأن يتظاهر بالامتناع عن إجابة الغور إلى الصلح أولاً ثم يجيبهم إليه قبل فوات الفرصة. فلما أتت رسل الخطا تظاهر شهاب الدين بقوته وأبى قبول الصلح، ثم عاد فأجابهم إليه، وأبرم الصلح بين الفريقين على ألا يغير أحدهما على الآخر. وبذلك عاد شهاب الدين محمد بن سام الغوري إلى بلاده وتخلص من هزيمة محققة على أيدي الخطا[٢].

ولما ذاع نبأ مقتل شهاب الدين على أيدي الخطا وأن أصحابه لم يقفوا له على أثر، تنافس أمراء دولته على الحكم وقامت الثورات في أطراف بلاده. ومن هؤلاء الثائرين

---

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) ابن الأثير: ج ١٢ ص ٧٨.

«دانيال» صاحب جبل الجودي[١]، وكان قد أسلم، فلما بلغه مقتل شهاب الدين ارتد عن الإسلام. كما ثار «بنو كوكر» وأدخلوا صاحب جبل الجودي في طاعتهم وقطعوا الطريق بين لاهور وغزنة.

وقد أرسل شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك قائده في الهند والمولتان يأمره بأن يدعو بني كوكر إلى الطاعة ويتهددهم بالحرب إذا لم يجنحوا للسلم، فلم يثق زعيمهم بقوله وهدد بتخريب البلاد وكثرت جموعه وقويت شوكته وجبى الأموال باسمه. ولما نمى ذلك إلى شهاب الدين أمر مملوكه قطب الدين بالعودة إلى بلاده وقتال بني كوكر، فعاد إلى دهلي واستعد للحرب. وأقام شهاب الدين في «فرشابور» مهد الغور إلى منتصف شهر شعبان سنة ٦٠١ هـ، ثم عاد إلى غزنة واستعد لحرب الخطا. وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ سار على رأس جيش كبير، وانقطعت أخباره من غزنة وفرشابور وانتشرت الأراجيف بهزيمته، ولكنه كان قد أغذ السير إلى بني كوكر، فدهمهم ونشب بينهما القتال وأقبل قائده قطب الدين في عسكره ونادوا بشعار الإسلام وأحلوا الهزيمة ببني كوكر وطاردوهم في كل مكان حتى بلغوا أكمة احتمى بها الكوكرية، فأضرم جند شهاب الدين النار فيها وغنم المسلمون «ما لم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار. وهرب زعيم الكوكرية بعد أن قتل إخوته وأهله». أما ابن دانيال فقد استجار بقطب الدين أيبك، فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فأجابه إلى طلبه واستولى على قلعته وعاد إلى لاهور، وأخذ يستعد لحرب الخطا، ثم عاد إلى غزنة، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب «باميان» يأمره بالاستعداد للمسير إلى سمرقند[٢].

كذلك خرج على شهاب الدين الغوري «النبراهية»، وكانوا يسكنون البلاد الجبلية المحيطة بولاية «فرشابور». وكانوا على الوثنية، إذا ولد لهم بنت وقف أبوها على باب داره ونادى: من يتزوج هذه؟ من يقبلها؟ فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها. وكان للمرأة عدة أزواج. وطالما أغاروا على حدود بلاد الغور وأوقعوا بالمسلمين. وإذا وقع في أيديهم أسير من المسلمين أمعنوا في تعذيبه.

---

(١) لعل هذا الجبل هو المذكور في القرآن في سورة هود (١١ : ٤٤) التي تنص على أن سفينة نوح عليه السلام قد رست على جبل الجودي حين أمر الله سبحانه وتعالى الماء أن يكف قائلاً ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ وكان دانيال وأصحابه يقطنون البلاد الجبلية المنيعة بين لاهور والمولتان.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٣ ص ٨٦ - ٨٧.

وقد قيل إنهم أسروا رجلاً من فرشابور فأمعنوا في تعذيبه أياماً، وقد سأل زعيم النبراهية هذا الأسير عن حالة البلاد الإسلامية وقال له: لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني؟ فقال له: «يعطيك الأموال والإقطاع ويرد إليك حكم هذه البلاد التي لكم» فأعاد هذا الزعيم الأسير إلى شهاب الدين يعرض عليه قبوله الإسلام، فعاد ومعه رسول «بالخلع والمنشور بالإقطاع». وسار هذا الزعيم مع جماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلموا على يديه، ثم عادوا إلى بلادهم واستراح الناس من شرهم[1].

وفاة شهاب الدين محمد ـ صفاته:

امتد ملك شهاب الدين محمد الغوري على غزنة وبعض بلاد خراسان، وقتل وهو يصلي العشاء على أيدي بعض الكوكرية من الهنود أخذاً بالثأر لما ألحقه بأهلهم من قتل وتشريد،وكان شهاب الدين قد عاد من لاهور يحمل ما لا يحصى من الأموال التي اشتملت على ألف ومائتي حمل. وكان شهاب الدين قد أمر جنده في الهند باللحاق به كما أمر جنده بخراسان بالاستعداد والتأهب حتى يصل إليهم ليغزو بلاد الخطا الجبلية.

ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين وطلبوا منه الاحتفاظ بالأموال والملك إلى أن يتفقوا على من يخلفه في الحكم من البيت الغوري، ثم أخفوا جراحه وأظهروه بمظهر الحي ووضعوه على المحفة. وسار الوزير والأمراء والمماليك أمامه حتى وصلوا إلى غزنة حيث دفن شهاب الدين في ٢٨ من شعبان سنة ٦٠٢ هـ.

وكان شهاب الدين كثير الغزو في بلاد الهند. وكان حسن السيرة، عادلاً يحكم بين الناس بما يوجبه الشرع، فيحضر القاضي إلى قصره في أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء فإذا أصدر القاضي أحكامه أخذ كباز رجال الدولة في تنفيذها لا فرق بين صغير وكبير وشريف ووضيع. وكان شهاب الدين يدين بعقائد المذهب الشافعي (وقيل بعقائد المذهب الحنفي)، ولكنه كان لا يفرق بين مذهب ومذهب، وكان العلماء يجتمعون بحضرته فيتناولون المسائل الفقهية وغيرها. ومن هؤلاء الفقهاء فخر الدين الرازي الذي كان يقوم بالوعظ في قصر الأمير، وقد أثر عنه أنه وعظ يوماً فختم وعظه بقوله مخاطباً شهاب الدين: يا سلطان! لا سلطان يبقى... وإن مرده إلى الله. فبكى شهاب الدين وأكثر من البكاء.

وكان شهاب الدين رقيق القلب لين الطبع، لقيه صبي علوي وهو راكب فدعا له وقال

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٨٧ ـ ٨٨.

إنه ما أكل شيئاً منذ خمسة أيام، فعاد شهاب الدين لساعته ومعه الصبي وأمر فقدم له أشهى الطعام أمامه، ثم بعث في طلب أبيه وسلمه إليه. ووزع كثيراً من المال على العلويين(١).

غياث الدين محمود :

لم ينجب شهاب الدين محمد ولداً ذكراً يخلفه في الحكم، ومال وزيره مؤيد الملك ومعه الأتراك إلى تولية غياث الدين محمود (ابن أخيه غياث الدين محمد) صاحب بست وأسفراين، ومال العلويون إلى تولية بهاء الدين سام صاحب باميان وابن أخت شهاب الدين(٢)، وسار بعض أمراء الغور إلى بهاء الدين سام ونقلوا إليه نبأ مقتل خاله وحثوه على المسير إلى غزنة ليجلس على عرش السلطنة. فكتب بهاء الدين إلى أمراء الغور بغزنة يعلمهم بمسيره إليهم، كما كتب إلى أحد الأمراء وهو علاء الدين محمد (بن شجاع الدين أبي علي) صاحب «فيروز كوه» يستدعيه إليه ويعده الجميل، وإلى غياث الدين محمد بن غياث الدين محمد، وإلى ابن خرميل والي هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له، ولم يكن يظن أن أحداً منهما يخالفه.

سار بهاء الدين إلى غزنة في عسكره ومعه ابناه علاء الدين محمود وجلال الدين، ولم يكد يسير مرحلتين حتى شعر بصداع أخذ يتزايد وأيقن بالموت، فعهد إلى ابنه علاء الدين بالملك من بعده وأمره بأن يسير مع أخيه إلى غزنة وأن يرفقا بالرعية ويبذلا الأموال لكسب محبة الناس، وأن يصالحا غياث الدين محمود على أن تكون له خراسان وبلاد الغور، وأن يحتفظا بغزنة والهند. ثم توفي بهاء الدين سام وبلغ ابناه علاء الدين وجلال الدين غزنة ونزلا بدار السلطنة في مستهل شهر رمضان سنة ٦٠٢ هـ، وتلقاهما أمراء الغور وأهل البلاد، كما تلقاهما الأتراك على كره منهم.

أما غياث الدين محمود فقد كان مشغولاً بحرب علاء الدين محمد بن شجاع الدين

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) ذكر ابن الأثير: (الكامل ج ١٢ ص ٩٠) أن غياث الدين محمد أخا شهاب الدين محمد لما أدخل في حوزته باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود، وزوجه أخته، فولدت له ولداً سماه سام. فلما مات شمس الدين خلفه ابنه الأكبر عباس، وكان من أم تركية، فغضب غياث الدين محمد وأخوه ونصبا ابن أختهما «سام» عليها ولقباه بهاء الدين. وقد عظم شأن سام وأخذ يجمع الأموال، وتطلع إلى الجلوس على عرش الغور. وذكر ابن الأثير (المصدر نفسه ج ١٢ ص ٩٣) أن غياث الدين محمود (بن غياث الدين محمد) وبهاء الدين سام كانا قد تعاهدا في عهد شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لهما.

أبي علي صاحب «فيروز كوه». وكان غياث الدين يشعر بقوة منافسه بهاء الدين، لهذا رأى التريث حتى تنكشف الأمور، فلما انتشر خبر وفاة بهاء الدين بايع الأمراء غياث الدين وجلس على العرش، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد، وأقيمت الخطبة له بسلطنة الغور (١٠ رمضان سنة ٦٠٢). وقد أمر غياث الدين محمود الأمير تاج الدين الدز (بضم الدال مع التشديد مع تشديد الزاي) بأن يخرج ابني بهاء الدين سام منها، وقد لبى الدز طلب غياث الدين. وكان في الواقع يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة لامتلاك غزنة، وأرغم علاء الدين محمود على الخروج من غزنة، ونهب الأتراك ما كان معه وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه ولم يتركوا له غير سراويله، ولما علم الدز بذلك اعتذر إلى علاء الدين وبعث إليه بدواب وثياب ومال، فأخذ ما لبسه منها وترك الباقي. فلما وصل إلى «باميان» ركب حماراً ولبس السواد وقال: أريد أن يرى الناس ما صنع بي أهل غزنة حتى إذا ما عدت إليها وخربتها ونهبتها فإنه لا يلومني أحد. ثم دخل دار الإمارة وأخذ يجمع الجند. أما الدز فقد عمل على استخلاص الملك لنفسه، فعرض الوزارة على مؤيد الملك وزير شهاب الدين محمد، فأجابه على كره منه كما طلب الدز من غياث الدين محمود أن يخاطبه بالملك ويعتقه من الرق ويزوج ابنه من ابنته (أي من ابنة الدز) فلم يجبه غياث الدين إلى طلبه لوجود الفارق الاجتماعي في الكفاية الزوجية[١].

وأما علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي علي، فقد ولاه السلطان شهاب الدين بلاد الغور وما يليها. ولما بلغه قتل شهاب الدين سار إلى «فيروز كوه» خوفاً من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملكها ويستولي على خزائنها، كما حاول «الدز» استمالة كبار الأمراء إليه ودعاهم إلى مساعدته على حرب خوارزمشاه علاء الدين محمد وبهاء الدين صاحب باميان، ولم يهتم بشأن غياث الدين محمود استخفافاً به واستهتاراً لشأنه، فبايعوه وبايعوا ابنه من قبله. ولما بلغ غياث الدين محمود خبر موت بهاء الدين سام كما تقدم أمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة[٢].

وقد استتب الأمر لغياث الدين محمود فدخل في طاعته «ابن خرميل» والي هراة، وكان قد عزم على الدخول في طاعة خوارزمشاه. ثم عاد والي هراة فخلع طاعة غياث الدين محمود وانضم إلى خوارزمشاه حين علم بأن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد سارا نحو غزنة لاستردادها من يد الدز (٦٠٣ هـ). وانتهز خوارزمشاه هذه الفرصة فاسترد بلخ

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٩٣ ـ ٩٤.

وكانت تابعة لغياث الدين. أما الدز الذي خان عهد مولاه غياث الدين واستولى على غزنة وطرد علاء الدين وأخاه جلال الدين صاحبي باميان منها، فقد دهمته جيوش علاء الدين الغوري، فخرج لقتالهما فطارداه إلى كرمان، فاستولى عليها، ثم عاد إلى غزنة واستردها من جديد، واختلف مع أخيه جلال الدين في اقتسام الغنائم، وظهر بخلهما فكرههما أهل غزنة ومالا إلى حكم غياث الدين محمود لكرمه وإحسانه. ثم افترق الأخوان، فأقام علاء الدين بغزنة، وذهب جلال الدين إلى باميان، مما أطمع «الدز» في السير إلى غزنة وإعادتها إلى حوزته من جديد، ولما تحقق أمله في الاستيلاء على غزنة طمع في استرداد كرمان التي استولى عليها وأحسن إلى أهلها[١].

ولم تقف المتاعب التي أثارها الدز في وجه الغور عند هذا الحد، فقد قتل علاء الدين محمود صاحب باميان؛ ثم يمم شطر باميان فأسر أخاه جلال الدين وعاد به إلى غزنة، وفي سنة ٦٠٣ هـ عاد عباس (عم علاء الدين وجلال الدين) إلى ملك باميان[٢].

ولنعد إلى الكلام على علاقة غياث الدين محمود بالدز، فقد طلب من الدز أن يقيم الخطبة له، ولكنه استمر في تمرده حيث أمر الخطيب بأن يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين وتلقبه بتاج الدين الدز، الأمر الذي أثار حنق أهل غزنة، إذ كانوا يعاونونه ظناً منهم أنه يحتفظ بولائه لغياث الدين محمود ويعترف بسلطنته. فلما أرسل غياث الدين محمود يعاتب الدز على تمرده أصر هذا على طلب عتقه، فلم يجد غياث الدين بدّاً من إجابته إلى طلبه وبعث إليه بالهدايا والخلع، وبذلك صفا الجوبين الدز وغياث الدين محمود ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلاً، إذ طلب «ابن خرميل» صاحب هراة الدخول في طاعة غياث الدين وأبدى استعداده لإخراج «الدز» من غزنة بالقوة، فإذا تم له ذلك قسم مال غزنة ثلاثة أقسام: قسم للسلطان غياث الدين محمود، وقسم لخوارزمشاه، وقسم للعسكر، وكان خوارزم مشاه قد أرسل إلى غياث الدين يعرب عن رغبته في مصاهرته. وقد وافق غياث الدين على طلب ابن خرميل، ولما اتصل هذا النبأ بمسامع الدز عاد إلى تمرده وقطعه الخطبة لغياث الدين[٣]، واستولى على بست وغيرها، كما أمر صاحب سجستان بقطع الخطبة لخوارزمشاه علاء الدين محمد، وهدد ابن خرميل بالإغارة على بلاده، وأطلق علاء الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس لإعادته إلى ملكه وزوجه

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ ـ ١١٢.

ابنته. ثم استولى قائد خوارزمشاه على مدينة هراة من ابن خرميل وقتله (٦٠٥هـ)[٣]، ثم أمد خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله «أمير ملك» بالمسير إلى فيروز كوه قصبة بلاد الغور، فاستولى عليها غياث الدين الغوري (٦٠٥هـ).

ولم يلبث علاء الدين محمد أن استولى على كافة أرجاء خراسان وملك باميان، وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك. وهرب الدز (وكان غائباً من باميان) إلى لاهور، فلحقت به جيوش أتباع شهاب الدين محمود وأحلت به الهزيمة وقتلته. وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين بعد أن أنهكت قواها فيما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين وعلى بلاد ما وراء النهر والهند وخراسان وغيرها.

ثانياً ـ الدولة الفاطمية

١ ـ المستنصر والمستعلي:

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الخليفة الظاهر الفاطمي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ) لم تدم خلافته طويلاً وأن ابنه المستنصر بويع له في شهر شعبان سنة ٤٢٧ هـ، وهو في السابعة من عمره، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. غير أن مصر لم تتمتع في هذه المدة بالرخاء والطمأنينة سوى فترة قصيرة، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وتطرق إليها الضعف والوهن.

وفي الشطر الأول من عهد المستنصر امتد سلطان الفاطميين على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي أفريقيا. وكان اسمه يذاع في الخطبة على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، وفي صقلية واليمن والحجاز والموصل، بل وفي بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة. ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج عن سلطان الفاطميين، كما رفض أهل شمالي إفريقيا عقائد المذهب الفاطمي نهائياً (٤٧٥ هـ) وزال سلطانهم من بلاد المغرب الأقصى الذي استولى عليه الفاطميون وانتزعوه من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ، وأبطلت الخطبة للفاطميين في اليمن على يد نواب صلاح الدين الأيوبي في هذه البلاد.

جدول الخلفاء الفاطميين

		هجرية	ميلادية
١	المهدي أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩
٢	القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤
٣	المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥
٤	المعز أبو تميم معد	٣٤١	٩٥٢
٥	العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥
٦	الحاكم أبو علي المنصور	٣٨٦	٩٩٦
٧	الظاهر أبو الحسن علي	٤١١	١٠٢٠
٨	المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٩	المستعلي أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
١٠	الآمر أبو علي المنصور	٤٩٥	١١٠١
١١	الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
١٢	الظافر أبو المنصور إسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
١٣	الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
١٤	العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
		٥٦٧	١١٧١

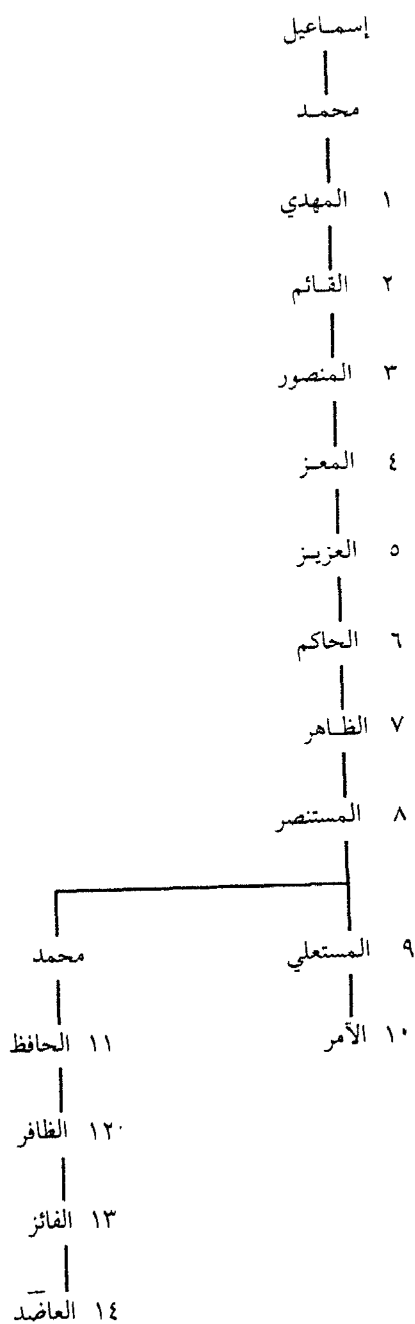
واستولى روجر النرمندي على صقلية التي كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجري وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم سنة ٤٦٢ هـ.

وعلى الرغم من النزاع الذي قام في عهد المستنصر بين التستري والفلاحي، وبتدخل أم الخليفة في إدارة شئون الدولة، تمتعت مصر بشيء من الطمأنينة والرخاء، فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمي وأبهته، وما كانت تتمتع به القاهرة في ذلك الوقت من يسر ورخاء[١].

غير أن هذا الرخاء الذي كانت تتمتع به مصر في ذلك الحين لم يدم طويلاً، فقد حلت بالقاهرة الأيام السيئة، وعاودتها المصائب التي لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها. فقد عم الوباء والقحط مصر في سنة ٤٤٦ هـ، وانقطع ماء النيل، فأهملت الزراعة، وانتشرت

(١) Nasiri Khusraw: Safar Namah Ed. Charles Schefer, Paris, 1881 p. 127 et seq.

تسلسل نسب الخلفاء الفاطميين



المجاعة، وعم الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، وامتد ثماني سنين (٤٤٦ ـ ٤٥٤ هـ)، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند، ودونت عنه قصص مروعة، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس. وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط، ثم أكل بعضهم بعضاً. وليس أدل على الفوضى التي سادت مصر في ذلك العهد من تقلد أربعين وزيراً في تسع سنوات بعد قتل الوزير اليازوري في سنة ٤٥٠ هـ. ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت في سنة ٤٥٩ هـ، وظلت الحال كذلك حتى سنة ٤٦٤ هـ. واقترنت هذه الشدة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها «الشدة العظمى» بقيام الفتن والحروب الأهلية، حتى تدارك مصر بدر الجمالي والي عكا، الذي استدعاه الخليفة المستنصر في سنة ٤٦٦ هـ. فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين(١).

ولما مات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ، بويع ابنه المستعلي دون أخيه الأكبر نزار الذي ولاه أبوه عهده، وشرع في أخذ البيعة له أثناء مرضه، غير أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أخذ يماطل الخليفة حتى توفي. ويرجع ذلك على ما ترويه بعض المراجع العربية إلى أن الأفضل دخل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة، فلما رآه نزار قال له: انزل يا أرمني يا نجس، فحقد عليه الأفضل، وانتهز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة؛ فاجتمع بالأمراء وكبار رجال الدولة، وأثار مخاوفهم من نزار، وأشار عليهم بتولية أخيه الصغير أبي القاسم أحمد، ثم بايعه ولقبه المستعلي بالله، وأخذ قاضي القضاة البيعة له من كبار رجال الدولة وأعيانها، ودعا الأفضل إسماعيل وعبد الله ابني المستنصر لمبايعة أبي القاسم، فبايعاه.

ولما رأى نزار أن الخلافة أفلتت من يده، سار إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله، وابن مصال اللكي، فتقبله واليها ناصر الدين أفتكين التركي قبولاً حسناً وبايعه هو وأهل الإسكندرية بالخلافة ولقبوه «المصطفى لدين الله». فلما علم الوزير الأفضل بذلك، خرج لقتال نزار على رأس جيش كثيف، فدارت الدائرة على الأفضل أولاً وعاد إلى القاهرة، وأخذ يعد العدة لقتال نزار، واستمال بعض أتباع من العربان، ثم خرج إليه على رأس جيش كبير حاصره حصاراً شديداً. ولما رأى ابن مصال أن الدائرة ستدور عليهم، جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب، ثم اضطر نزار وأفتكين إلى طلب الأمان، فأمنهما الأفضل، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبنى عليه، فمات، كما قتل أفتكين نائب الإسكندرية.

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ١٣ ـ ٢٣، ٣٤.

وفي عهد المستعلي[١] بدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام، فاستولوا على نيقيا، ودخلت أنطاكية في حوزتهم، ووصلوا إلى بيت المقدس. فلما علم الوزير الأفضل بذلك خرج إليهم في عشرين ألف مصري واشتبك معهم في معركة قتل فيها كثير من أتباعه، واضطر إلى الاتجاه إلى عسقلان، ثم عاد إلى مصر في سنة ٤٩٣ هـ، وأعد جيشاً كبيراً تحت قيادة سعد الدولة النواسي، الذي التقى بالفرنجة في عسقلان، ودارت بين الفريقين معركة حامية قتل فيها سعد الدولة، وواصل الفرنجة فتوحاتهم حتى استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين[٢].

٢ ـ الآمر والحافظ:

وبعد وفاة المستعلي ١٠ صفر سنة ٤٩٥ هـ، ولي ابنه الآمر الخلافة، وقبض الأفضل على زمام الأمور في البلاد.

وقد عني الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى في أيام انحلال دولتهم حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة. وإن مقتل الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي لأظهر مثال لتلك العناية، لأن الأفضل يميل ميل السنيين، فألغى الاحتفال بمولد النبي ﷺ، ومولد فاطمة وعلي رضي الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالأمر. وقد كان ذلك كافياً لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأييد دعواهم التي تقوم على أنهم من سلالة علي كرم الله وجهه.

وقد شرح لنا ابن القلانسي[٣](ت ٥٥٥ هـ) الأحوال التي أحاطت بمقتل الأفضل شرحاً وافياً. وابن القلانسي هذا توفي بعد الأفضل بنحو أربعين سنة، وقد اعتمد فيما ذكره على الاعتقاد بأن مقتل الوزير كان بتدبير الخليفة الفاطمي وأنصاره لبواعث سياسية وحزبية. وقد نسب ابن ميسر مقتل الأفضل إلى عداء جماعة الباطنية.

أما عن أخلاق الوزير الأفضل، فيقول ابن ميسر[٤]: «كان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة، يجاوز ما سمع به قديماً وشوهد أخيراً. ولم يعرف أحد صودر في زمانه. وبما حضر الإسكندرية، كان بها يهودي يبالغ في سب الأفضل وشتمه ولعنه. فلما دخل الأفضل قبض عليه وأراد قتله... فقال: إن معي خمسة آلاف دينار،

---

(١) وكان ابن أخت الأفضل بن بدر الجمالي.
(٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ١٤٦ ـ ١٤٨.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٤) تاريخ مصر ص ٥٨.

خذها مني وأعتقني واعف عني. فقال لليهودي: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً. ومحاسن الأفضل كثيرة: وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلق في الحال».

وقد أعاد الخليفة الآمر دار العلم بعد أن أغلقها الأفضل، عندما نمى إليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة: وهي الشافعي والحنفي والمالكي، يترددان على هذا المكان، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب.

ولي الحافظ الخلافة بعد مقتل ابن عمه الآمر على يد فريق من الباطنية. وقد قويت شوكة الوزير أبي علي بن الأفضل، وتلقب الأكمل، فقبض على الخلافة فحبسه واستولى على ما في القصر من الذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان بسبب أن هذا الوزير إمامي، فدعا للإمام الثاني عشر ودعا لنفسه على المنابر بهذه الدعوة: ناصر إمام الحق هادي العصاة إلى اتباع الحق مولى الأمم ومالك فضيلتي السيف والقلم. كما أزال عبارة «حي على خير العمل، ومحمد وعلي خير البشر» من الأذان. وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة[1].

وكان من أثر السياسة التي اتبعها أبو علي بن الأفضل أن كرهه الشيعيون المصريون وصمموا على قتله، فكمن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه.

ثم قدم بهرام الأرمني والي الغربية إلى القاهرة (جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ) وحاصرها، فلم ير الخليفة الحافظ بدا من توليته الوزارة على الرغم من أنه نصراني، وعلى الرغم من أنه كان يتحتم على الوزير بحكم منصبه أن يصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) التي تحجبه عن الناس، ولأن القضاة كانوا ينوبون عن الوزراء منذ أيام بدر الجمالي. وكانت هذه النيابة تذكر في الوثائق الرسمية وتدون في وثائق الزواج.

وقد تقلد بهرام الوزارة على الرغم مما أظهره الناس من سخط عليه، وسرعان ما تزايد نفوذه وأحضر إخوته وأهله من تل باشر وأرمينية، وسمح لبني جلدته من الأرمن بالإقامة في مصر، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً.

---

(١) ابن ميسر تاريخ مصر ص ٧٥.

وقد صادر هؤلاء الأرمن أموال المسلمين وبنوا الكنائس والأديرة لدرجة أقلقت بال المسلمين، فرفعوا شكاياتهم إلى الخليفة، وبعث الأمراء إلى رضوان بن الولخشي والي الغربية يطلبون منه المسير إليهم؛ فلبى رضوان طلبهم، وجمع ثلاثين ألف رجل وتوجه بهم إلى القاهرة، وانضم تحت لوائه عسكر المسلمين في جيش بهرام، الذي اضطر إلى الرحيل والذهاب إلى أخيه الباساك وإلي قوص.

وهكذا خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة (جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ) وتلقب بالأفضل، واستولى على ممتلكات أعوان بهرام وقتل كثيراً منهم، على أن ذلك لم يرض الخليفة الحافظ بل أغضبه، فأحضر بهرام وأسكنه في قصره واضطر رضوان إلى الخروج إلى والي صرخد[١]، حيث جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى القاهرة وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح. غير أنه أرغم على المسير إلى الصعيد حيث طارده الأمير أبو الفضل بن مصال وانتهى الأمر بحبسه في القصر. ولم ينته النزاع إلا بعد وفاة بهرام سنة ٥٣٥ هـ.

ولما تولى أبو علي الأفضل (الملقب بالأكمل) وزارة الحافظ، عزله وشل يده عن التصرف في أمور الدولة (٥٢٤ هـ) ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه، ثم استولى على ما في القصر، ومنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة[٢] ودخلت مصر في طور السقوط.

٣ ـ سقوط الدولة الفاطمية:

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) إلى تدبير مؤامرات سرية وأحزاب سياسية، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التي مزقها الانقسام ووقعت في أيدي المغيرين عليها.

وكان النزاع المتصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية في الجيش سبباً في وقوع القلاقل في أيام الوزير بهرام الأرمني المسيحي[٣].

قد خلف بهرام في الوزارة رضوان بن الولخشي، وكان شاعراً فذاً وجندياً مقداماً، تلقب لأول مرة في العهد الفاطمي بلقب «ملك»، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده. غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة، ففر إلى الشام. وهناك طلب إلى زنكي أتابك الموصل مساعدته. على أن أسامة بن منقذ الذي أوفده الخليفة الحافظ إليه

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق.

(٢) ابن ميسر ص ٧٥.

(٣) أبو صالح ص ٨٤، أسامة بن منقذ ص ٢٢ و٢٣.

استرضاه بالمال وأمنه على حياته. ولكن الخليفة لم يف بعهده، فقد حبسه عشر سنوات تمكن في آخرها من الفرار، ثم جمع أنصاراً واستقر في الجامع الأقمر أمام القصر، غير أن جنود الخليفة السودانيين هزموا أنصاره وشتتوا شملهم وقتلوه(١).

وبعد يومين من مقتل رضوان توفي الخليفة الحافظ، فنشب النزاع بين الجند السودانيين والجنود الأتراك. وولي ابنه الظافر ـ وسنه ست عشرة سنة ـ الخلافة وعادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين سيرتها الأولى.

وقد ابتدأ هذا الخليفة الشاب حكمه بطرد الوزير ابن السلار، وكان يلقب بالملك العادل، وقلد الوزارة نجم الدين بن مصال، وكان مكروهاً من الأهلين. وسرعان ما جمع ابن السلار فرقة من أعوانه وسار بهم إلى الجيزة (١٤ رمضان سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٥٠ م). وفي اليوم التالي حل محل منافسه في الوزارة ـ وكان ذلك أمراً مألوفاً في ذلك الحين ـ وقد فر ابن مصال حين رأى تقدم ابن السلار، ولم يكن قد مضى عليه في الوزارة أكثر من خمسين يوماً(٢).

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الحوف حيث تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة، ثم استقر في الصعيد فاتبعه العباس، ربيب ابن السلار. وفي مدينة دلاص جنوبي الواسطي التقى الجندان، فدارت الدائرة على ابن مصال، وقتل وحمل رأسه إلى القاهرة. وبهذا استراح ابن السلار من منافسه، وقلده الخليفة الوزارة، لكنه أخذ يكيد له وعمل على طرده من الوزارة(٣).

وقد طلب ابن السلار العون من نور الدين في غزو مدينة طبرية ليمنع غزو الصليبيين لمصر على أن يسير هو بنفسه إلى غزة وعسقلان(٤). وقد أدرك نور الدين من هذا الرجاء أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها في وجه الصليبيين مما أتاح له الفرصة في الإمارة عليها. ومن هنا طمع نور الدين في غزو مصر، كما أصبح الصليبيون على علم تام بحال هذه البلاد.

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤.

(٢) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦). أما الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد)، مخطوطات .Land القسم الشرقي رقم ٣٠٤، ورقة (١٠٥ أ) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٢٣) فقد ذكر أنه لم يمكث في الوزارة إلا أربعين يوماً.

(٣) أسامة بن منقذ ص ٥ و٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٧.

وقد أبى نور الدين امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين، ورأى أنه يغرر بنفسه إذا دخل في حرب معهم أو مع أهل دمشق، إذ كان هؤلاء وأولئك أعداءه على السواء.

لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر.

أما عن أحوال مصر الداخلية إذ ذاك، فقد كان ابن السلار الذي تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك اللقب الذي يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمي) سنياً مغالياً. وربما كان ذلك سبباً في تدبير الخليفة المكائد له حتى يخلص من شره. غير أن أنصار ابن السلار الكثيرين قد حالوا دون استقرار سلطة الفاطميين الدينية. أضف إلى ذلك النزاع الذي قام بين ابن السلار السني وبين ابن مصال المغربي الأصل، ذلك النزاع الذي كان في الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعيين. وكان ابن السلار يسمح في مساعدة نور الدين، لنشر المذهب السني في مصر وإحلاله محل المذهب الشيعي.

وكان ابن السلار - كما يقول ابن خلكان - من أصل كردي، ومن قبيلة الزرزرى[1]، نشأ في قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة في الصعيد، وتدرج في هذه المناصب حتى تقلد الوزارة في عهد الخليفة الظافر في رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر ١١٤٨م).

وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه للمذهب السني، وصار شافعي المذهب (وهو المذهب الذي كان يتبعه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين). ولما ولي الإسكندرية بعد وصول الحافظ السلفي الفقيه الشافعي في ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م)، عامله بكل تجلة وإكرام، وأنشأ في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إدارتها[2]. وبهذا هيأ ابن السلار السبيل إلى رجوع المذهب السني إلى مصر. وقد اعتمد الخليفة الظاهر في الكيد لابن السلار واغتياله على يد نصر بن عباس، وهو شاب في سن الخليفة ومن أخص خواصه. وكان من أمره أخيراً أن قتل الخليفة الظافر والوزير ابن السلار.

وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة وخلع عليه الخليفة[3]. ولقد صدق لينبول في قوله «إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر، وما تبعه من قتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر». ويقص علينا ذلك أسامة

(١) بفتح الزاي الأولى مع التشديد وفتح الراء الثانية وسكون الراء الأولى، قبيلة قريبة من برقة. انظر Quatremère, Notices Sur les Curdes in «Notices et Extraits» Vol. XIII, p. 315

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧، ٤٦٧، ٤٦٨.

(٣) تاريخ أسامة بن منقذ ص ١٣ - ١٤.

ابن منقذ، ذلك الرجل العظيم الذي اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة وكان صديقاً حميماً وضيفاً لابن السلار، كما كان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله.

وقد وضع الخليفة الذي تملكه الفرح لمقتل ابن السلار، رأس القتيل في بيت المال، ونفح قاتله بعشرين صحفة فيها ٢٠,٠٠٠ دينار، وحرضه على قتل أبيه بعد ذلك. لكن عباساً استشعر الخطر، فأعد العدة ليسم ابنه، وكان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر في إصلاح ذات بينهما، إذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره في داره.

وفي اليوم التالي، بينما كان أسامة جالساً في الدهليز، إذ سمع صليل السيوف، وقد أثار قتل الخليفة أهالي القاهرة؛ فنشبت المعارك في طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجمون أتباع الوزير عباس بالحجارة من نوافذ دورهم. ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه. ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الأهلين وثورة انتقامهم، ففر هو وابنه نصر إلى سورية[1]. غير أنه لقي حتفه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر في إثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩/١١٥٤). أما ابنه نصر فقد أرسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠)، فعذبه نساء البلاط وطيف به في المدينة، وصلب حياً على باب زويلة، وترك معلقاً هناك شهوراً كثيرة[2]؛ ثم أحرقت جثته (١٠ المحرم سنة ١١٥٦/٥٥١ م)[3].

وقد ترك الخليفة المقتول طفلاً في الرابعة من عمره؛ فدعي له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ. وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حداداً عليه، ثم أرسلوا هذه الشعور إلى الأمير طلائع بن رزيك والي الأشمونين، وتضرعن إليه أن يجيء لتخليصهن[4]. ثم سار ابن رزيك إلى القاهرة واستولى على دار المأمون (قصر عباس)[5].

وقد أخذ ابن رزيك في إعادة الأمن إلى نصابه وأعاد عصر سيادة القانون[6].

وكان ابن رزيك ـ الذي تلقب بالملك الصالح ـ الذي تحتاج إليه مصر في ذلك

---

(١) أسامة بن منقذ ص ١٩ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩ و٢٠.

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٠.

(٤) Lane-Poole, History of Egypt in The Middle Ages, p. 173.

(٥) هذا القصر بناه الوزير المأمون البطائحي، وتحول فيما بعد على يد صلاح الدين إلى مدرسة للأحناف، تعرف بالمدرسة السيوفية.

(٦) ابن ميسر: ص ٩٤. ابن خلكان: ج ١ ص ٢٩٨ وما يتبعها.

الحين. أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر معاقلهم في فلسطين، وقد استولى عليها الصليبيون[١].

أما الصليبيون فإنهم لم يستمروا في سيرهم إلى مصر، إذ فت في عضدهم وزعزع قوتهم في بيت المقدس نماء قوى البلاد المتاخمة لها، وإخفاق الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كنراد Conrad ولويس السابع، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره في حلب شمالاً ودمشق شرقاً، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوي أمره بضم دمشق إليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤ م)، وكان في حلف دفاعي مع الصليبيين[٢].

وقد قتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦/١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد، الذي زالت الخلافة الفاطمية في أيامه، ولنتقص هذا الوزير سلطته. ويجمل هنا أن نأتي بما أمدنا به عمارة اليمني، وكان شاهد عيان لما حدث في مصر في عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين.

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاور ويتجنب خلعه من منصبه. وكان شاور عربي الأصل، اتصل بابن رزيك ونال حظوة لديه فولاه الصعيد، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه. فلما توفي ابن رزيك خلفه ابنه العادل في الوزارة؛ غير أنه لم يلبث أن خلع وحل محله شاور في الوزارة، ثم قتل طي بن شاور ابن رزيك في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير ١١٦٣ م).

وقد أثار شاور بذلك سخط الأهلين، وأجمع أنصار العادل بن رزيك على خلع شاور من الوزارة[٣]. ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور الذي فر إلى سورية، وقتل ابنيه طي وضرغام وحل محل شاور في الوزارة (رمضان ٥٥٨/١١٦٢م)[٤].

وقد تدخل نور الدين والفرنجة تدخلاً جدياً في شئون مصر منذ ذلك الحين. وكان من أثر إغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة، وإسراف ضرغام في قتل قواد

---

(١) ابن ميسر: ص ٨٦. Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 36

(٢) ابن الأثير: ج ١١ ص ٤٦.

(٣) عمارة اليمنى: النكت العصرية ص ٨٨.

(٤) أبو شامة: مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ج ٤ ص ١٦٥.

Receuil des Histoires des Croisades, Historiens orientaux, tome IV, p 165.

النكت العصرية ص ٦٧ و٧٨: ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧.

مصر ـ كان من أثر هذه العوامل مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية[١].

طلب شاور النجدة من نور الدين بدمشق، وأظهر له أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له إذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية[٢]. وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسي الخاص، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد، كما كان يعلم أنها معين خصب للخراج.

ويمكن تلخيص الأسباب التي من أجلها عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر فيما يلي :

أولاً ـ رغبته في إجابة شاور الذي تضرع إليه وطلب الاستعانة به.

ثانياً ـ شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال في مصر، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جداً، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد.

٤ ـ حملات شيركوه على مصر :

هكذا عجلت الحوادث تدخل نور الدين. ذلك أن ضرغام اختلف مع عموري ملك بيت المقدس الجديد في الجزية السنوية التي كان يدفعها إليه، فسار عموري إلى مصر سنة ٥٥٩/١١٦٣ ليفرض عليها الجزية كرهاً، وحلت الهزيمة بضرغام في بلبيس، فأراد أن يتجنب الهزيمة النهائية، فأوحى له قصر نظره فتح سدود النيل ـ وكان في إبان فيضانه ـ فأغرق البلاد، وتم له ما أراد من رجوع عموري إلى فلسطين.

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي صارت بين شاور ونور الدين؛ فسارع إلى عقد حلف مع عموري، وزاد مقدار الجزية. وسرعان ما ظهر نور الدين على مسرح القتال. وقبل أن يتمكن عموري من المسير إلى مصر (جمادى الثانية ٥٥٩/ إبريل سنة ١٠٦٤ م)، سار شاور إليها مع جند قوي من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه، وعلى مقدمته صلاح الدين الأيوبي. والتقى الفريقان في بلبيس؛ فانهزم المصريون، غير أنهم لمواشعثهم واجتمعوا تحت أسوار القاهرة[٣].

---

(١) عمارة: النكت ص ٨٨. ابن الأثير: ج ١١ ص ١١٧.

(٢) ابن الأثير: ج ١١ ص ١٢١.

(٣) عمارة، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و١٢١).
Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, p. 117

واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين عدة أيام، تمكن شاور في أثنائها من الاستيلاء على الفسطاط، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة. وأراد ضرغام أن يجمع الأموال؛ فوضع يده على أموال الأوقاف، فأخذ الناس ينفضون من حوله، وامتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته، وسار في طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة، فلم يلق منهم إلا صياح الاستهزاء حتى جفل حصانه من صياح الناس، فألقاه على الأرض وقطع رأسه وطيف به في الطرقات[١].

وقد أدرك شاور غرضه، فتقلد الوزارة وتوطدت أقدامه. ولوثوقه بقوته، خان عهده مع أسد الدين شيركوه، وأبى أن يدفع الجزية المتفق عليها بينهما، ومد له الفرنجة يد المساعدة، فحاصروا شيركوه في بلبيس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام (ذو الحجة سنة ١١٦٤/٥٥٩). وانتهز نور الدين مسير عموري إلى مصر فهزم قواته في فلسطين، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده[٢].

ولكن شيركوه لم يخفق تماماً في حملته على مصر، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى، فأطمعه ذلك في امتلاكها. لذلك بقي في الشام مدة يعد العدة في تجهيز حملة ثانية أملاً في تأسيس إمبراطورية لنفسه، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين[٣].

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية في وزارته الثانية، ولم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر في مركزه. وفي اليوم التالي من وصوله إلى القاهرة، سار شيركوه إلى بلبيس وهزم الجيوش المصرية.

على أن نجم شاور أخذ في الأفول، فجرح أخوه جرحاً بليغاً وحاصر الفرنجة ببلبيس، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام، ولم يلبثوا أن عادوا هم أيضاً إلى فلسطين.

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطراباً من حالتها الخارجية، فلم يجد شاور بدأ من قمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك[٤] (عمارة ص ٦٧)، الذي طلب الوزارة

---

(١) النكت العصرية ص ٧٣.

(٢) ابن شداد ص ٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) قتله شجاع بن شاور. حياة عمارة ص ٣٤٨.

لنفسه، وتلا ذلك الاضطرابات التي أثارها بنو لواتة، وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى(١).

لذلك طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطناً ثابتاً في مصر، فأرسل نور الدين إلى هذه البلاد جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، ورأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة يكسبهم قوة في مصر ويهدد مركزه في الشام. وغادر جيش شيركوه الشام في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر - يناير ١١٦٦ - ١١٦٧ م)، ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة(٢).

وقد سار الجيشان بحذاء شاطىء النيل حتى وصلا إلى القاهرة، فضرب عموري سرادقه قريباً من الفسطاط. والتقى الفريقان ثانياً في موقعة البابين، على بعد عشرة أميال جنوبي مدينة المينا؛ فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصراً مبيناً. وبذلك توطدت أقدامه في الصعيد. غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة؛ فاختار أهون الأمرين، وسار في الصحراء شمالاً حتى وصل إلى الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة.

أقام أسد الدين شيركوه صلاح الدين والياً على الإسكندرية، وجعل معه نصف الجيش وعاد النصف الآخر إلى الجنوب، وأخذ يجبي الأموال في الصعيد. أما قوى الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الإسكندرية براً، على حين كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً. ولم يكن مع صلاح الدين إلا ألف من أنصاره؛ فأغذ شيركوه السير إليه، واصطلح الفريقان على أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار، ثم عاد شيركوه إلى الشام، لأن جيشه قد ضعف كثيراً في حربه مع الفرنجة والمصريين. هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار(٣). إلا أنه قد أصبح ملماً بأحوال مصر الداخلية، وعقد العزم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة.

وهكذا انتهت حملة الفرنجة والغز على مصر. وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرون إلى الشام؛ وبذلك زالت مخاوف شاور، ولكن إلى حين؛ فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد(٤).

وترجع حملة شيركوه الثالثة على مصر إلى زحف الفرنجة عليها من جديد، وكانت

(١) عمارة ص ٦٧ و٧٥ - ٧٨.

(٢) أبو شامة: Receuil, tome IV. p. 168

(٣) ابن شداد ص ٤٤ و٤٥.

(٤) النكت العصرية ص ٨١.

هذه الحملة بقيادة شيركوه يصحبه أخواه، وابن أخيه صلاح الدين وغيرهم من ذوي قرباه وجيوشه[١].

وهنا تجلت سياسة شاور المنقلبة ثانياً، فقد أرسل إلى شيركوه كتاباً يطلب فيه المساعدة. وصادف هذا الرجاء قبولاً من نفس شيركوه، لأن اتجاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة وتخلصه من شاور من جهة أخرى.

وقد سار الفرنجة نحو مصر، ووصلوا إلى بلبيس (صفر ٥٦٤ نوفمبر ١١٦٨) ولم يبقوا - كما يقول المؤرخ اللاتيني وليم الصوري William of Tyre - على أحد من الناس على اختلافهم شباناً وشيباً، ذكوراً وإناثاً[٢]. وقد أسخط عموري بعمله جميع المصريين فانحازوا إلى شيركوه، وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون استيلاء الفرنجة عليها. وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوماً، ولا تزال آثار هذا الحريق بادية بأطلال الفسطاط حتى اليوم في التلال الرملية التي تغطي القمامة المدفونة في الفضاء الممتد عدة أميال جنوبي القاهرة. وأسرع الناس بعد هذا لائذين بالقاهرة التي ساد أهلها الحماس استعداداً لصد هجوم الصليبيين[٣].

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة، فقد دخل شاور معهم في مفاوضات تعهد فيها بدفع مقدار من المال لعموري. لكن سياسة شيركوه لم يكن يسودها الإخلاص، فقد كتب إلى نور الدين في دمشق يطلب منه المعونة، على حين كتب الخليفة العاضد نفسه بذلك إلى نور الدين، ووضع في رسالته خصلاً من شعور النساء إمعاناً في الضراعة، حتى لا يرد توسله بعد ذلك[٤]. وقد بلغ من تأثر نور الدين أنه بعث أسد الدين شيركوه إلى مصر في جيش بلغ سبعين ألفاً[٥].

وكان نور الدين قد صمم على غزو مصر، إذ كان يود أن يذهب بنفسه، لولا أنه كان مشغول البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة، فأرسل في الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه، يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن

---

(١) ابن شداد ص ٤٥ و٤٦.

(٢) ذكر أبو شامة (ص ١٢٧) أن عموري قتل عدداً كبيراً من الأهلين وأتلف معظم المدينة وأحرق أكثر مبانيها وجعل الناس فيها فريقين، قتل أحدهما بحد السيف، واستبقى الآخرين شكراً لله على ما أتاه من نصر.

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦. أبو شامة ص ١١٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة، القاهرة: ١٩٦٠) ص ١٩٣ - ١٩٤.

أقاربه، وكذا صلاح الدين، وكان يد عمِّه اليمنى(١).

وصل شيركوه إلى القاهرة في السابع من شهر جمادى الثانية، وكان عموري لا يزال أمام أسوارها وحال دون تقدمه. ورأى عموري الذي خدعه شاور تفوق شيركوه عليه في الحرب، فعاد إلى فلسطين من غير حرب. ودخل شيركوه القاهرة، فقابله الناس بالترحاب، واستقبله الخليفة الذي قدر صنيعه وخلع عليه(٢).

وكان شيركوه يعتقد أن الفرصة لن تتاح له بامتلاك مصر ما بقي شاور فيها. لذلك قرر أن يقبض عليه في إحدى زياراته له، واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيدة، وقتل شاور بأمر الخليفة الذي ولى شيركوه الوزارة في ١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤ الموافق ١٨ يناير ١١٦٩؛ وخلع عليه، فظل فيها حتى مات في ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩)(٣).

(٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية:

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلي صلاح الدين الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه. وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية، لما مُنيت به من التطاحن الحزبي ومنافسات الوزراء المصريين.

وقد بدأت مواهب صلاح الدين تظهر بعد تقلده الوزارة بعد عمه فوطد العزم على تأسيس دولة واسعة الأرجاء. ولكي يصل إلى غرضه، خصص كل جهوده لطرد الصليبيين من البلاد(٤).

وقد عمل صلاح الدين على تقوية مركزه في مصر تدريجياً، لكي لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين. فبدأ يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة فكسب ثقة

---

(١) ابن الأثير: ج ١١ ص ١٣٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٦ و١٣٧.
(٣) ابن شداد ص ٤٧ و٤٨. ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ و٥٠٢.
ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) ان صلاح الدين نفسه هو الذي قتل شاور. وذكر الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد. مخطوطات Laud، القسم الشرقي رقم ٣٠٤، ورقة ١٣٥ ا) أن شيركوه ولي الوزارة قبل مقتل شاور.
(٤) ابن شداد ص ٤٨ و٤٩.

الأهلين واستمال قلوبهم بكرمه، وأخذ الناس يسارعون إلى طاعته[1] وأسند مهام الدولة إلى رجال من أنصاره.

وكان الخليفة العاضد ورجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداءهم لصلاح الدين، لذلك قامت المكائد بزعامة «نجاح» كبير الخصيان السود للقضاء على صلاح الدين، فعملوا على إصلاح ذات البين بينهم وبين الصليبيين لغزو مصر، فإذا ما خرج لهم صلاح الدين، هاجمه المتآمرون من مؤخرته، ووقع بين نارين، وقضوا عليه وعلى جنده من التركمان.

ولما علم صلاح الدين بما دبره له أعداؤه قبض على كبير الخصيان، وقُطعت رأسه (ذو القعدة ٥٦٤ يوليو ١١٦٩) وقتل كثير من بني جلدته. فأثار ذلك حنق جند الخليفة، وكان أكثرهم من السودانيين، فثار منهم خمسون ألفاً للأخذ بثأر نجاح واشتبكوا مع جند صلاح الدين في معركة عنيفة في المكان المعروف ببين القصرين، أحرق فيها كثيراً من الدور والحوانيت. ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين، وأحرق حيهم المعروف بالمنصورية، وطوردت فلولهم إلى الجيزة عن طريق النيل، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا في ثورتهم عدة سنين؛ إلى أن قضي عليهم نهائياً سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)[2].

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر، أخذ في إرسال الحملات ضد الصليبيين، فغزوا ولايتي الكَرَك والشِّوبك بذهاب سلطانهم في فلسطين.

وكان من أثر ذلك أن اتحد الصليبيون مع البيزنطيين وساروا بحراً إلى مصر، فنزلوا أولاً على مقربة من دمياط، واستولى جماعة منهم على قصر عكاء (ربيع الثاني ٥٦٥ هـ ١١٦٩ - ١١٧٠). ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط، بادر إلى نجدة صلاح الدين فحاصر الكرك (شعبان ٥٦٥/ ١١٧٠)[3].

وقد أعد صلاح الدين الذي آلت إليه السلطة المطلقة جيوشه وملأ دمياط بالذخائر والجند، ووعد بإرسال المدد إلى المدينة، ووزع عليهم الهدايا والهبات.

وقد نجح نور الدين في احتلال جزء من مملكة النصارى بفلسطين، وأرسل الأمداد إلى صلاح الدين الذي كان يعضده الخليفة العاضد طوال مدة الحصار الذي استمر خمسين يوماً، وأمده بنحو مليون دينار. وقد جعلت هذه الأمور إغارات الفرنجة عديمة الجدوى؛

(١) المصدر نفسه ص ٤٩.
(٢) ابن شداد (ص ٥٢)، وابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و١٤٠).
(٣) ابن شداد ص ٥٠.

فاضطروا لرفع الحصار[١] بعد أن أحرقت مراكبهم، واستولى المصريون على آلاتهم الحربية وقتلوا عدداً عظيماً من جندهم[٢].

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فوصلت أسرته (جمادى الثانية ٥٦٥/ ١١٧٠)، فقلد أباه بيت المال، وأخلص له إخوته[٣].

وقد شجع إخفاق الفرنجة في غزوهم دمياط ـ ذلك الإخفاق الذي يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو: «خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين» ـ صلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزو الصليبيين في بلاد الشام؛ وبذلك بدأت سلسلة الإغارات التي لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة.

وقد اعتبر المصريون الشيعيون والتركمان السنيون صلاح الدين حامياً لهم، فاتفقوا معه على محاربة الصليبيين أعدائهم جميعاً؛ وشجعهم على ذلك ما شاهدوه في القاهرة من الأسلاب التي غنمها صلاح الدين من الفرنجة[٤]، ولما استقرت قدم صلاح الدين في مصر أسند المناصب الدينية إلى الفقهاء المتضلعين في عقائد المذهب السني، وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وأزال صلاح الدين من الجيش بعض العناصر التي كان يشك في إخلاصها. ولما أيقن نور الدين محمود أن صلاح الدين استأثر بالنفوذ دون الخليفة الفاطمي في مصر، وأن رجالات الدولة قد انضووا تحت لوائه، أرسل إليه كتاباً يطلب إليه فيه أن يحل اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي.

غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ هذه الرغبة، إذ كان يخشى أن يثير هذا العمل أهالي مصر، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين، بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين، ولم يكن بد من أن يقوم صلاح الدين بتنفيذ أمره.

وكان الخليفة الفاطمي العاضد مريضاً في ذلك الوقت، فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل اسم الخليفة الفاطمي، فوافقه بعضهم وأخذوا على عاتقهم تعضيده، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح[٥].

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمير، حل بمصر أخيراً. ولما رأى

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٢. (٣) ابن شداد ص ٥٢.
(٢) ابن شداد ص ٥٢. (٤) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٧. (٥) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

ترددهم عرض أن يتولى تنفيذ رغبة صلاح الدين، فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم ودعا للمستضيء العباسي. وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء أن يقيموا الخطبة للخليفة العباسي. وهكذا تم ذلك التغيير من غير أن يلقى أية مقاومة. ولم ينتطح فيها عنزان ولم يختلف فيها اثنان(١).

ولم يخبر العاضد أحداً من أسرته بذلك الحدث وقالوا «إن عوفي فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته». وتوفي هذا الخليفة في العاشر من المحرم ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من غير أن يعلم بهذا الحدث التاريخي العظيم، فجلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على القصر.

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الفاطمي، الطواشي بهاء الدين قراقوش على القصر، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته في جناح منه، وأخرج الموالي من الذكور والإناث، وأعتق بعضهم.

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد، بعد أن حكمت مصر عصراً طويلاً كان عصر يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة، وإن زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين وإعادة الخطبة إلى الخليفة العباسي، بعد أن قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثماني سنين، كان في الواقع انتصاراً للسنة على الشيعة(٢).

ثالثاً: الدولة الصليحية في اليمن:

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب بفضل جهود دعاة اليمن من أمثال ابن حوشب وابن فضل وغيرهما من اليمنيين الذين كان لهم أثر بعيد في نشر الدعوة الإسماعيلية في اليمن والبحرين واليمامة وفي السند والهند ومصر والمغرب.

وقد تعرضت الإسماعيلية في اليمن لخطر جسيم، بسبب قيام النزاع بين ابن حوشب (منصور اليمن) وعلي بن فضل الذي خرج على الدعوة الإسماعيلية ولم يعبأ بنفوذ عبيد الله المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية في أواخر سنة ٢٩٦ هـ. بل لقد خلع طاعة المهدي وحارب ابن حوشب، واستولى على عدن، وحاصره بجبل مسور نحواً من ثمانية أشهر.

وكانت هذه الحرب من العوامل التي كان لها أثر بعيد في إضعاف الدعوة الإسماعيلية

---

(١) ابن الأثير: ج ١١ ص ١٤٩.

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨١ وما يليها.

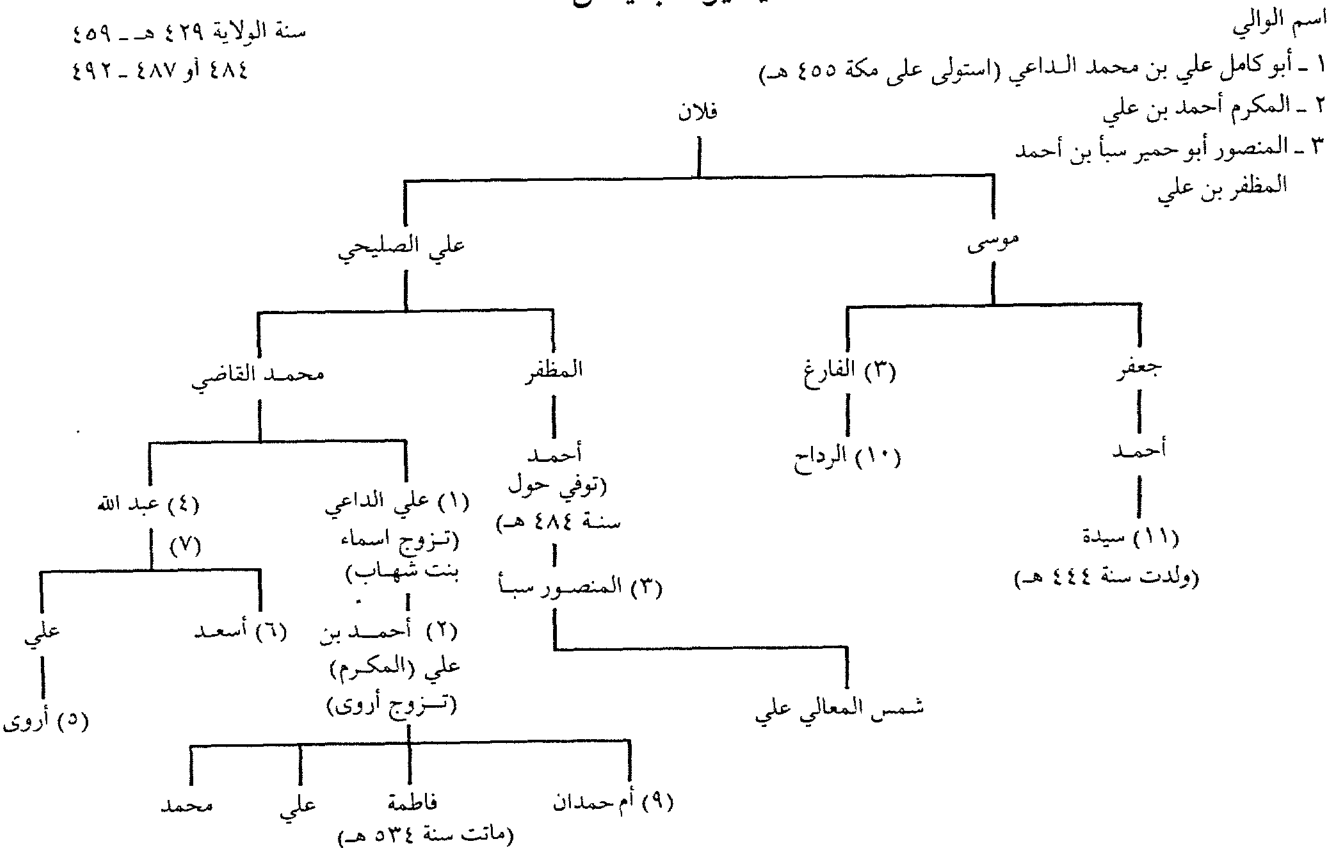
في بلاد اليمن. فقد مات ابن فضل مسموماً في سنة ٣٠٣ هـ؛ وخلفه ابنه، وكان ضعيفاً، فتمكن السنيون من القضاء عليه دون أن يحرك أنصار ابن حوشب ساكناً ويقدموا إليه أية مساعدة. وكذلك كان لموت منصور اليمن في سنة ٣٠٢ هـ أثر كبير في إضعاف هذه الدعوة الإسماعيلية ببلاد اليمن. فقد كان خلفاء منصور اليمن يأملون في بقاء رياسة الدعوة في أيديهم، ولكن عبيد الله المهدي قضى على هذه الآمال بتوليته عبد الله بن عباس الشاوي بعد منصور اليمن، مما أثار حنق أبنائه، حتى إن أحدهم خلع طاعة المهدي، وقتل الشاوي الذي آلت إليه رياسة الدعوة، ولم يصغ إلى نصيحة أخيه جعفر بن منصور اليمن الداعي صاحب المؤلفات الإسماعيلية الكثيرة، فتحول إلى المذهب السني.

وقد اتخذ السنيون من هذا الخلاف الذي تفاقم بين الإسماعيلية في اليمن فرصة للقضاء على هذا المذهب وأنصاره، مما حمل البقية الباقية من أنصار الفاطميين على التستر ونشر دعوتهم في الخفاء، حتى لا يتمكن السنيون من استئصاله، وظلوا على ذلك منذ أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حتى ظهرت قوتهم من جديد على يد علي بن محمد الصليحي حول منتصف القرن الخامس الهجري في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي.

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في اليمن على يد علي بن محمد الصليحي، وكان أبوه القاضي محمد بن علي من القضاة السنيين في هذه البلاد. ولما انتقلت الدعوة الإسماعيلية في اليمن إلى عامر بن عبد الله الزواحي (نسبة إلى زواحى وهي قرية من أعمال حراز) داعي دعاة الإسماعيلية في اليمن، تقرب إلى القاضي محمد بن علي الصليحي الذي توسم فيه مخايل الذكاء والنجابة والعلم والتفقه في الدين. وقد قيل إنه كان عند عامر الزواحي كتاب حلية الصليحي من كتاب الضوء، وهو من ذخائر الأئمة العلويين، فأوصى إليه أن يكتبه قبل وفاته.

وقد تحول علي بن محمد الصليحي إلى المذهب الإسماعيلي وهو في حداثة سنه، وتفقه في أصول هذا المذهب. ثم حل محل عامر بن عبد الله الزواحي بعد وفاته، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة. وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم. ولما استقرت قدم علي بن محمد الصليحي في معظم أرجاء بلاد اليمن، كتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر يستأذنه في إظهار الدعوة الإسماعيلية له في هذه البلاد، فأذن له الخليفة بذلك بعد أن تبادل كل منهما الهدايا، ووجه إليه المستنصر «برايات

الصليحيون باليمن



وألقاب وعقد له الولاية»(١). وقد شمر علي الصليحي عن ساعد الجد وأخذ يتنقل في البلاد داعياً إلى الإمام الفاطمي. ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد ذاعت في كافة أرجاء اليمن، ولم يبق من اليمن كما يقول عمارة اليمني، سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه علي الذي اتخذ صنعاء حاضرة لدولته، ويقص علينا عمارة اليمني(٢) أن علي بن محمد الصليحي شيد في اليمن القصور والدور وغيرها من المساكن الفخمة التي أصبحت بعد انقراض الدولة الصليحية مصدراً لمواد البناء من طوب وحجارة وأخشاب لكل من أراد بناء دار له. وهكذا أقيمت الخطبة للخليفة المستنصر على منابر اليمن وذكر اسم علي الصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب. وزالت الدعوة للخليفة العباسي في هذه البلاد.

ولى علي بن محمد الصليحي صهره أسعد بن شهاب على زبيد، مع أنه كان قد أقسم بألا يوليها إلا لمن يعطي له مائة ألف دينار، فلما ولى أسعد حكم زبيد تقدم إلى علي الصليحي بأموال كثيرة فقال له: من أين لك هذا؟واستولى على خزانته وقال: «هذه بضاعتنا ردت إلينا». وكان علي الصليحي برغم اعتناقه المذهب الإسماعيلي متسامحاً مع السنيين؛ فقد سمح لهم بإظهار المذهب السني الذي كانوا يدينون بعقائده. وقد ولى أبا علي محمد القم الوزارة وديوان الإنشاء. وكان القم شاعراً أديباً، على أن عليًّا الصليحي لم يترك لوزيره شيئاً من النفوذ. وفي سنة ٤٦٠ هـ بلغ عليًّا الصليحي أن ابن طرف خرج عليه بمؤازرة زعماء الحبشة والسودان، فسار إليهم وأحل بهم الهزيمة عند سفوح الجبال. وبعد أن استتب الأمر لعلي الصليحي ونشر نفوذه في جميع أرجاء اليمن، عاد إلى صنعاء وأقام بها اثنتي عشرة سنة وولى حصون اليمن وقلاعها ومدنها الهامة من يثق في إخلاصهم وولائهم. وانضوى تحت لوائه الأمراء وكبار رجالات اليمن. ثم عزم على التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج بصحبة زوجته أسماء بنت شهاب أم الملك المكرم الذي ولاه صنعاء في أثناء غيبته ببلاد الحجاز.

ولما كان ملوك الصليحيين في اليمن قد قاموا بخدمات جليلة للفاطميين، فقد وجد الخلفاء أن منح الألقاب لملوكها وأمرائها خير وسيلة لاكتساب ولائهم. وكانت هذه القبائل تطلق على أبناء هذا البيت ألقاباً كالتي كانت تمنح للأمراء والوزراء في مصر.

وكان الخليفة المستنصر يذكر في مكاتباته ألقاب الملك الصليحي في كل مناسبة. ولا

(١) الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣.
(٢) تاريخ اليمن ص ٢ وما يليها.

غرو فقد كان علي الصليحي في الواقع يحكم بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة الفاطمي، كما حرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر. ومما يدل على هذه التبعية التي كان يدين بها الصليحيون للخلفاء الفاطميين هذه الرسائل التي تبودلت بين علي بن محمد الصليحي والخليفة المستنصر الفاطمي. فقد بعث المستنصر إلى علي في عيد الفطر من سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) برسالة يقره فيها على ولاية اليمن ويذكر له أثره في نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاده[١].

ونستطيع أن نخلص مما تقدم بأن الخلفاء الفاطميين كانوا ينظرون إلى الصليحيين نظرتهم إلى كبار رجال دولتهم، فيمنحونهم هذه الألقاب الضخمة تشجيعاً لهم على الاستمرار في بث الدعوة لهم واستمرار ولائهم لهم. كما كانت هذه الألقاب تقابل من ناحية الصليحيين بالارتياح والشكر للإمام الفاطمي على هذه العناية، كما كانت هذه الألقاب من جهة أخرى تظهرهم أمام رعاياهم بمظهر القوة وتمكن من نفوذهم على أنه امتداد لنفوذ الإمام الفاطمي.

وبلغ من ثقة الخليفة المستنصر بعلي الصليحي واطمئنانه إلى ولائه أن منحه لقب «الأمير الأجل مشرف المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين»، كما لقبه أيضاً «منتخب الدولة وصفوتها ذا المجدين، منجب الدولة وغرسها ذا السيفين، نجيب الدولة وصنيعتها ذا الفضلين»[٢]. كما عهد إليه المستنصر بإقرار الأمور في مكة والمدينة وإعادتها إلى حظيرة الدعوة الفاطمية. واستطاع علي الصليحي بما أوتيه من الذكاء أن ينهج نهجاً جديداً في بث عقائد المذهب الإسماعيلي. فاتخذ من موسم الحج فرصة لنشر تعاليم المذهب. وكان يولي العامة، وهم السواد الاعظم في كل مجتمع، ومنهم الجنود، وعن طريقهم تجبى الأموال، اهتماماً خاصاً. وكان يجذبهم إليه بتدينه وتفقهه في عقائد المذهب السني. على أنه لم يظهر حقيقة مذهبه إلا لمن يثق به. وبذلك استطاع علي الصليحي أن يوطد أقدام الفاطميين في بلاد الحجاز، وأن يعيد الخطبة إلى الخليفة الفاطمي على منابرها، وقد أشاد الخليفة المستنصر بفضل علي الصليحي وخلع عليه لقب «عمدة الخلافة»[٣].

(١) سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن ـ نشرها الدكتور عبد المنعم ماجد (القاهرة ١٩٥٤).

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رقم ٣ ص ٣٤.

(٣) المصدر نفسه. رسالة رقم ٢ ص ٣٢.

وكان موسم الحج من سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) فاتحة عهد جديد في نجاح الدعوة الإسماعيلية على يد علي الصليحي، فقد قيل إنه بايعه ستون رجلاً من قبيلة همدان على نصرة الدعوة أو الموت دونها. وكان هذا من غير شك نصراً، ولا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه على نصرة الدعوة الإسماعيلية كانوا في عزة ومنعة من قومهم، وهكذا اعتمد علي الصليحي في نشر دعوته على الخاصة والعامة على السواء.

وقد استطاع علي الصليحي أن يجمع اليمن تحت لواء واحد، وهذا ـ كما يقول عمارة اليمني[١] ـ أمر لم يعهد في جاهلية ولا إسلام، «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلي ابن محمد الصليحي، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه في مدة يسيرة بعد أن قهر ملوكه»، وهو لذلك لا يقل عن بعض القواد الفاتحين الذين ظهر اسمهم على صفحات التاريخ، وذلك بفضل ما أحرزه من انتصارات وما قام به من أعمال مجيدة في خلال هذه المدة القصيرة من حكمه.

وكان علي الصليحي إدارياً ممتازاً، أمر ولاة الأقاليم بأن يسيروا وفق السياسة التي رسمها لتكون أساساً ومنهجاً ومرجعاً له في كل ما يشكل عليه. وكانوا يرجعون إليه في كل شئون الدولة. كما كان يدعوهم إلى «مسار» حاضرة ملكه ويجتمع بهم من حين إلى حين للنظر في مهام أمور الدولة، ويذكرهم بواجباتهم وبالمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتقهم. وكانت أمور الدولة والدعوة مركزة في شخصه، إلا أنه كان مقيداً بالسياسة التي رسمها لنفسه من إقامة الحق وبسط العدل. ومن هذا يتضح كيف حكم علي الصليحي بلاد اليمن حكماً مستنيراً[٢].

وقد أدخل علي الصليحي كثيراً من وجوه الإصلاح في بلاد الحجاز، فخصص أموالاً وفيرة للبيت العتيق وتشجيع موسم الحج، وأحسن معاملة الناس، ونشر العدل بينهم، واستمالهم إليه، وردع القبائل التي كانت تعترض طريق الحج، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص، فكسب بحسن سياسته رضا الخليفة وثقة كثير من أهالي البلاد الإسلامية بتسهيل سبل الحج وإشاعة الطمأنينة ونشر الأمن.

كما كسا علي الصليحي الكعبة بالديباج الأبيض، وجلب الأقوات إلى الحجاز، مما ألهج نفوس أهليه بالثناء عليه والدعاء له. وقد أقام سياسته على أساس العدل والحق، كما تقدم، وأثر عنه أنه قال: «أنصف المظلوم وأقمع الظالم» وهذا يذكرنا بقول أبي بكر

---

(١) تاريخ اليمن (طبعة كبي Kay ص ١٨).

(٢) عمارة اليمني ص ٣٠٨.

الصديق في خطبته التي ألقاها في اليوم الذي بايعه فيه المسلمون: «والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه»[١].

وكان الخليفة المستنصر الفاطمي يبعث إلى علي الصليحي بأنباء الأحداث الهامة في مصر ليذيعها على الناس ويعلنها من فوق منابر بلاده. فلما أغار عرب بني هلال على إفريقية وهزموا المعز بن باديس في معركة حيدران (بفتح الحاء وسكون الباء وضم الدال) في المغرب، بعث الخليفة الفاطمي إلى علي الصليحي بنبأ هذا النصر[٢]. وقد بلغ من تعلق علي الصليحي بالخليفة الفاطمي أن كتب إليه يستأذنه في السفر إلى مصر ليحظى بلقائه، وبعث إليه بكتابه مع الداعي ملك بن مالك. فأرسل إليه الخليفة كتاباً يأذن له بالحضور إلى مصر. ولكن علي الصليحي ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج، واستخلف ابنه المكرم بصنعاء، واغتيل علي الصليحي على يد سعيد الأحول بن نجاح وهو في طريقه إلى مكة[٣].

ولم تفتر علاقة الفاطميين بالصليحيين بوفاة علي الصليحي، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المكرم. ذلك أن الخليفة المستنصر ما كاد يسمع بنبأ مصرع علي الصليحي، حتى كتب إلى ابنه المكرم يعزيه في وفاة أبيه ويقره على ملكه ويعهد إليه بشئون الدعوة الفاطمية في اليمن وينصح له بأن يسير سيرة أبيه في بسط العدل وحسن السيرة[٤].

ولم يفت الخليفة المستنصر أن يغدق على المكرم الألقاب والنعوت التي تقربه من الخليفة وتحببه فيه وتشجعه على السير وفق سياسة أبيه، فلقبه بهذه الألقاب الضخمة التي كانت مألوفة في ذلك العصر؛ من هذه الألقاب: «أمير الأمراء شرف المعالي عز الملك منتخب الدولة وغرسها ذو السيفين أبو الحسن ابن الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة شرف المعالي تاج الدولة الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين»[٥].

وكان أحمد بن علي الصليحي ضخم الجسم فارع الطول فارساً مقداماً، اتصف بالشجاعة والكرم، وكان الخليفة المستنصر الفاطمي قد لقبه المكرم سنة ٤٥٦ هـ، وذلك في حياة أبيه، وأصبح ولياً للعهد بعد وفاة أخيه الأكبر محمد الأعز، وأخذ يتدرب على إدارة شئون البلاد حتى تسلم عرش الدولة الصليحية.

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٥ ص ٤٥.
(٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٢١٥.
(٤) الهمداني وحسن سليمان ص ٢١٦.
(٥) سجلات وتوقيعات المستنصر: رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧.

وكانت الصعاب تحيط بالمكرم في أول عهده. فقد قتل أبوه وهو في طريقه لأداء فريضة الحج كما تقدم، وأسرت أمه الملكة السيدة الحرة الصليحية أسماء بنت شهاب وغيرها من حرائر بني الصليحي وقضي على خيرة رجال دولته. وتفاقم خطر بني نجاح كما سيأتي الكلام عليهم بعد قليل، وكاد يقضى على الدولة الصليحية لأن أعداءها تربصوا بها الدوائر، وأخذ بعض الولاة ينقضون عهدهم حتى كاد نفوذ الصليحيين يتلاشى من كافة أرجاء بلاد اليمن، ولم يبق في أيديهم إلا التعكر، وكان العبيد قد حاصروه، وتآمرت القبائل من كهلان وعنس وزبيد ويحصب على الصليحيين، وامتد التمرد إلى صنعاء نفسها حيث كان المكرم يقيم فيها مع جماعة من الموالين من أتباعه.

ولعل السبب فيما أحاط بالمكرم من صعاب وما انتشرفي دولته من روح التمرد في أوائل عهده، يرجع إلى أن أهل اليمن في ذلك العهد لم يألفوا الخضوع لسلطات حكومة مثل تلك الحكومة المركزية التي أقامها علي الصليحي، الذي لم يستطع برغم ما بذله من جهد أن يحمل اليمنيين على الخضوع لسلطة حكومة مركزية. كما أن خضوع اليمن كلها لسلطان علي الصليحي لم يكن عن رغبة من أهلها، بل كان نتيجة للحرب التي شنها على ولاياتهم المختلفة، وما استعان به من دهاء وسياسة في سبيل توحيد دولته. لذلك لا عجب إذا وجد الحكام في موت علي بن محمد الصليحي فرصة سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة.

على أن المكرم قد صمم على قتال الخارجين عليه، واستطاع بفضل ما أوتيَ من الشجاعة وصدق العزيمة أن يذلل هذه الصعاب وأن يتخذ من ذلك اليأس الذي ولدته هذه الحالة التي يكتنفها الاضطراب مصدراً للشجاعة والإقدام، واستطاع هو وأعوانه أن يرفعوا الحصار عن صنعاء، وتتبعوا الأعداء وانتصروا عليهم. وكان أهم المواقع التي انتصر فيها جند المكرم موقعة الملوي، وموقعة ذي أشرق، وموقعة زبيد.

ولعل تخليص الملكة السيدة الحرة أسماء أم الملك المكرم يعد من أهم الأحداث التي وقعت في عهد هذا الملك الصليحي، وقد ذكر عمارة اليمني أن السيدة الحرة دبرت مؤامرة لقتل سعيد الأحول ابن نجاح. وكان من أثر ذلك أن قتل أبوه وأسرت أمه.

فلما آل الملك إلى المكرم عمل على تخليص أمه من الأسر، وقد روى المؤرخون أن المكرم وقف تحت طاقة أمه الملكة أسماء بنت شهاب فقال لها، وكانت لا تعرفه: أدام الله عزك يا مولاتنا، فقالت: مرحباً بأوجه العرب. ثم سألته من هو، فقال لها: أنا أحمد بن علي ابن محمد، فقالت: إن أحمد بن علي في العرب كثير، فاحسر ليْ عن وجهك حتى أعرفه،

فرفع اللثام عن وجهه، فقالت: مرحبا بمولانا المكرم، من كان مجيئه كمجيئك فما أخطأ ولا أبطأ. ثم دخل رؤساء العرب فسلموا عليها وقد كشفت عن وجهها، وكانت هذه عادتها في أيام زوجها لسمو قدرها عمن يحتجب عنه النساء، فنزل المكرم عن ظهر جواده، وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر وعفر خده في التراب، وأحرقت الدور التي اعتصم بها العبيد[١].

احتط المكرم أحمد الصليحي في مدينة ذي جبلة كثيراً من القصور والدور، كدار العز، والتي كان أكثرها يطل على النهرين. كما شيّد المساجد، وبنى قبراً لأمه السيدة الحرة أسماء، واستخلف عمران بن الفضل على صنعاء. وقد عرف المكرم كما عرف أبوه من قبل بحسن السيرة في الرعية، وآثر أن يعامل الناس بالحسنى حتى يجذب إليه قلوبَهم. كما نال تقدير الرعية بما أحرزه من نصر وظفر. وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ خرج سعيد الأحول من بني نجاح من تهامة على رأس جيش كبير وقصد صنعاء، فتصدى المكرم الصليحي لقتاله وانتصر عليه وأرغمه على الهرب. وأقبل الناس على المكرم يطلبون منه الأمان، فأجابهم إلى ذلك. وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦١ هـ توجه المكرم إلى صنعاء فدخلها، وحمد الله وأثنى على الإمام المستنصر الفاطمي وعزا إليه ما أحرزه من نصر وما تم له من فتح[٢].

وكان الخليفة المستنصر يهتم بما يجري في اليمن ويتابع ما يصيبه الصليحيون من نصر؛ فلما علم أن المكرم انتصر على سعيد الأحول ابن نجاح، كتب إليه يعلن سروره ويعرب عن اغتباطه بهذا النصر[٣].

وقد ساد الأمن في أنحاء دولة المكرم بعد أن قضى على الفتن والثورات حتى عاد إلى صنعاء في شهر شعبان سنة ٤٦١ هـ، وهنا عول على الأخذ بالثأر من سعيد الأحول وبني جلدته ليستريح من شرهم، وكان يرى فيهم عدوه التقليدي، فقام المكرم من صنعاء وقصد سعيداً الأحول في زبيد، ثم جاءته الأخبار بأن سعيداً تحرك إلى المخلاف أو إلى عدن، فاتجه المكرم بمن معه من همذان وأهل حراز نحو جبل الشعر حيث عسكر سعيد ومن معه من الأحباش الذين استولى الرعب على قلوبهم، وحمل المكرم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة، وقتل سعيد الأحول وحمل رأسه إلى المكرم الصليحي، كما قتل من بني نجاح بلال بن

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: اليمن البلاد السعيدة ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ٣٠.
(٣) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨.

نجاح وأخوه مالك، وعاد المكرم إلى زبيد، وصلى بالناس وخطب فيهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه وحمد الله على ما أولاه من نعمة النصر عليهم والأخذ بثأره. ثم ترك المكرم زبيد بعد أن ولى عليها السلطان أبا حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحي، وعزم على متابعة فلول جند جياش بن نجاح، ولكنه علم أنه هرب إلى بلاد الهند(١).

وقد تتابعت كتب المستنصر الفاطمي إلى المكرم الصليحي الذي ظل على ولائه للفاطميين، حتى لقد ولاه الخليفة ولاية عمان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)، كما أمره بالعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في بلاد الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي العلوي أمير الأحساء. وفي ٢٩ ذي الحجة سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) بعث الخليفة المستنصر ينبئه بتقليد أمير الجيوش بدر الجمالي والي عكاء منصب الوزارة، وما بذله من جهود في سبيل إقرار الأمن والسكينة في ربوع البلاد.

توفي المكرم في سنة ٤٨٤ هـ بعد أن أصيب بالفالج، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر. ولكن زوجته السيدة أرْوى الحرة لم ترض بهذا الاختيار، لأنها كانت تريد أن تولي ابنها عبد المستنصر، وكان لا يزال طفلاً، وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه أن يقر ابنها على بلاد اليمن؛ وقد أجابها الخليفة الفاطمي إلى طلبها، وأخذ يرسل الرسائل باسم عبد المستنصر. ولكن أمراء اليمن لم يعترفوا بهذا الغلام، واحتدم النزاع بين الداعي أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبي ربيع سليمان ابن الأمير الزواحي أخي الملكة أروى الصليحية. وهدد النزاع الذي قام بين الصليحيين والزواحيين النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن فأرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى أطراف النزاع ينهاهم عن هذا الخلاف، ويأمرهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر ويشيد بالخدمات التي أداها علي الصليحي وولده أحمد المكرم وزوجته السيدة الحرة(٢).

ويظهر أن النفوذ الفاطمي في اليمن كان لا يزال على قوته وأن الأحداث لم تكن لتستطيع أن تضعف من شأنه بدليل استجابة الفريقين المتنازعين لنداء الخليفة الفاطمي وتأييدهم السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر. وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الفاطمي تزف إليه هذا النبأ، فرد عليها برسالة يبدي فيها سروره واغتباطه(٣).

على أن عبد المستنصر لم يعمر طويلاً، فقد وافته منيته، واحتدم النزاع بين الداعي

---

(١) الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر، رسالة رقم ٣٨ ص ١٣١.

(٣) المصدر نفسه، رسالة رقم ٣٦ ص ١٢١.

سبأ بن أحمد وبين السيدة الحرة، لأنه كان يريد أن يئول إليه حكم بلاد اليمن وأن يتزوج منها. ولكن السيدة الحرة أبت عليه ذلك، فسار سبأ إليها على رأس جيش عظيم، ونشب القتال بين الفريقين، وطلب سبأ من الخليفة الفاطمي أن يتدخل في أمر هذا الزواج، فكتب الخليفة إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه حسماً للنزاع ودرءاً للفتن، فتزوجته نزولاً على أمر الإمام الفاطمي، مما يدلنا على مبلغ نفوذ الفاطميين في نفوس اليمنيين.

وقد أنفذ الخليفة المستنصر رسولاً إلى السيدة أروى فقال لها: «وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على ما حضر من المال، وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف». ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تلبي نداء الإمام الفاطمي، ورضيت أن تتزوج بمن تكرهه. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على ما كان للخلفاء الفاطميين من نفوذ روحي في بلاد اليمن، لأن السيدة أرْوَى اعتبرت الخروج على أمر الخليفة خروجاً على الدين[١].

وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي، تراسله وتراسل أمه وأخته، حتى وثق بها هذا الخليفة كل الثقة، وعهد إليها أن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهند وفي عمان، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد[٢]، كما ظلت العلاقة بين الصليحيين قوية وثيقة بعد وفاة المستنصر في سنة ٤٨٧ هـ. فبادرت السيدة الحرة إلى الاعتراف بالخليفة المستعلي برغم أنه لم يفز بإجماع أنصار الفاطميين في مصر. فقد عمد الأفضل بن بدر الجمالي إلى إقصاء نزار بن المستنصر عن العرش، وبايع أخاه أبا القاسم أحمد، ولقبه المستعلي بعد أن هدد الأمراء وحملهم على تأييده. وكتب الخليفة الجديد إلى السيدة الحرة رسالة يرجع تاريخها إلى ١٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ - ١٠٩٦) يصف فيها ثورة أخيه نزار وتغلب وزيره الأفضل عليه، وما كان من اعتقال نزار والقضاء على ثورته.

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ - ١١٠٢) آل حكم التعكر إلى الملك المفضل، وكانت التعكر - التي اتخذ ملوك اليمن إحدى مدنها وهي ذو جبلة حاضرة لهم - تحت حكم السلطان عبد الله بن محمد الصليحي أخي علي بن محمد مؤسس الدولة الصليحية في اليمن، وقد صحب المفضل وعبد الله علياً الصليحي في الحج وقاتلا معه وهما

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ٣٣.

(٢) Hamdani, Letters of al-Mustansir (B.S.O.S.) (1939), Vol. III, part II, p. 321.

في طريقهما إلى الحج . فلما جلس المكرم على عرش الدولة الصليحية ولى أسعد ابن عبد الله الصليحي على التعكر، ولكنه كان سيىء السيرة، فصرفه الملك المكرم عنها. وقد عظم شأن الملك المفضل الصليحي وامتد نفوذه على كثير من أرجاء اليمن. وكان سمحاً عادلاً كريماً يسهر على تدبير شؤون بلاده[١].

وفي سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) قدم إلى اليمن ابن نجيب الدولة، وكان أميناً على خزانة الكتب الأفضلية، متفقهاً في الدين، غزير العلم واسع الدهاء، إلى حد أنه تقرب إلى الملك وأصبح موضع ثقته، فقلده الوزارة ووكل إليه النظر في شئون دولته والعمل على قمع الفتن والثورات[٢].

ولما مات الملك المفضل سنة ٥١٥ هـ، وخلفه المأمون البطائحي، قوي شأن ابن نجيب الدولة، وتفاقمت سلطته حتى آل إليه الأمر، وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الآمر الفاطمي في مصر. وأرسلت إليه هدية من الجواهر النفيسة بلغت قيمتها أربعين ألف دينار، وأعربت عن ولائها له، وأكدت له رضاء الشعب اليمني على ابن نجيب الدولة[٣].

كان عهد ابن نجيب الدولة عهد استقرار وأمن في ربوع اليمن ودعم لعلاقاتها مع مصر الفاطمية حتى مات، فكان ذلك إيذاناً بقيام الفتن والثورات بين أمراء اليمن وحكامها من ذوي المطامع حتى استتب الأمر إلى الداعي محمد بن سبأ، وهو من سلالة علي الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ومن أشراف بلاد اليمن، حتى مات سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) وآل الملك من بعده إلى عمران بن محمد بن سبأ.

ولم يتأثر دعاة الإسماعيلية في اليمن بما أصاب الفاطميين من نزاع وفرقة إثر وفاة الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م)، فظلت السيدة الحرة تقيم الدعوة للخليفة المستعلي وتدين له بالولاء، برغم تفشي النزارية وتأييد الخولانيين لهم، مما هدد بلاد اليمن بمثل ما أصاب مصر من فرقة ونزاع. ولما علم الخليفة الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ) بذلك، أرسل الداعي علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى بلاد اليمن في سنة ٥١٣ هـ ليقف إلى جانب السيدة الحرة ويعينها في صراعها مع أعدائها. وظل ابن نجيب الدولة يعين الملكة الحرة في تدبير شئون البلاد واستقرار الأمور فيها. كما أرسل المأمون البطائحي وزير الآمر إلى ابن نجيب الدولة قوة من الفرسان، تشد أزره في نضاله مع أمراء اليمن. ولكن هذا

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ٣٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ و٤٧.

الداعي الفاطمي خرج على الفاطميين وانحاز إلى النزارية؛ فأرسل الخليفة الآمر يطلب منها تسليم الداعي، فقبض عليه وأرسل إلى القاهرة حيث قتل[١].

وقد حفظ الخليفة الفاطمي الآمر للسيدة الحرة إجابته إلى طلبه وتنفيذ أمره، فأرسل إليها في شهر ربيع الأول من سنة ٥٢٤ هـ يبشرها بمولد ولي عهده أبي القاسم الطيب، ويطلب إليها أن تذيع هذا النبأ في بلاد اليمن. ولما قتل الآمر في سنة ٥٢٤ هـ كتم الأمير عبد المجيد بن محمد (الحافظ) ابن المستنصر أمر هذا الطفل[٢]. وبذلك صرفت الخلافة عن الإمام الطيب ابن الآمر، وساء ذلك التصرف السيدة الحرة، فاعتبرت إمامة الحافظ باطلة، برغم ما بذل من جهود في سبيل استمالتها إليه، وظلت السيدة الحرة تدعو للطيب على منابر بلادها، بل عملت على إقامة الدعوة له في بلاد الحجاز. ولم يجد الحافظ بداً من أن يرسل إلى آل زريع في اليمن يطلب إليهم أن يدعوا له، وقلد علي بن سبأ بن زريع حكم هذه البلاد ولقبه «الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين».

وبذلك انقسمت الإسماعيلية ببلاد اليمن إلى فريقين: فريق يؤيد الطيب، وفريق يؤيد الحافظ. وكان من أثر هذا الانقسام أن ساءت أحوال بلاد اليمن، ولا سيما بعد وفاة السيدة الحرة في سنة ٥٣٢ هـ. في الوقت الذي آذنت الخلافة الفاطمية بالزوال، وما لبث الأتابك نور الدين محمود بن زنكي أن تدخل في شئون مصر، وتقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة، وقضى على الخلافة الفاطمية في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م)، وتطلع إلى بلاد اليمن، فأرسل حملة بقيادة أخيه الأمير توران شاه، الذي استولى على هذه البلاد، وقضى على نفوذ الفاطميين فيها، كما قضى على النفوذ الفاطمي في مصر نفسها.

هكذا استمرت هذه الوحدة في العقيدة الإسماعيلية بين مصر والمغرب والشام واليمن بضعة قرون، كانت وحدة في النواحي السياسية والثقافية والحضارية. وكانت مدارس صنعاء والقاهرة والقيروان ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب، وتترابط في وحدة فكرية عميقة الجذور. وإن انقسام العالم الإسلامي إلى كتلتين مذهبيتين متنازعتين: الكتلة السنية في العراق، ثم الكتلة الشيعية في مصر واليمن والشام قد انتهى إلى اتحاد عام شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وإنقاذ العالم الإسلامي مما حاق به من هذا العدوان الأثيم[٣].

---

(١) عمارة اليمني ص ٤٣ ـ ٤٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٩ ـ ٢٤٧؛ واليمن: البلاد السعيدة ص ٧١ ـ ٨٩.

رابعاً ـ اليمن قبل الأيوبيين:

(أ) بنو نجاح في زبيد (٤١٢ ـ ٥٥٤/١٠٢١ ـ ١١٥٩):

كان نجاح مؤسس دولة بني نجاح من أرقاء الحبشة وآخر نظار السراي في الدول الزيادية، وقد حكم زبيد إلى أن توفي سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م). واستولى الصليحيون إذ ذاك على المدينة المنورة التي أصبحت جزءاً من ممتلكاتهم إلى سنة ٤٧٧ هـ. وقد بعث علي ابن محمد الصليحي جيشاً يتكون من خمسة آلاف رجل لقتال بني نجاح وأنزلوا بهم الهزيمة.

وبذلك استقر الملك للصليحيين وازدهرت الحضارة في عهدهم، وظهر العلماء والفقهاء مثل جياش بن نجاح. ومما يدل على استتباب الأمر للصليحيين ما كان من وفود مائة وسبعين سلطاناً من أمراء اليمن على الصليحي يعلنون ولاءهم له ويلتمسون حمايته، فرد عليهم بهذه العبارة: «إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا، وقد أحسنا إليكم وحملنا إليكم الصيانة والعفو». فرد عليه أحدهم بقوله: «والله يا مولانا لئن فعلت ذلك لنازعتك قحطان فى ملك تهامة، ولئن كرهته بذلك ليهيجن حفائظها، ولتطلبن دخولها». فأجاب بقوله:

لا تقطَعنْ ذَنَب الأفْعى وترسلها ... إنْ كنتَ شهماً فأتْبع رأسَها الذَّنبا

ثم دارت الأيام دورتها على الصليحيين واسترد بنو نجاح سلطانهم على بلاد اليمن وقتلوا من الصليحيين خلقاً كثيراً. ويقص علينا عمارة اليمني ـ وكان شاهد عيان لما كان يجري في اليمن من أحداث بني نجاح ـ فيقول: فرأيت شيخاً منهم (يعني من الصليحيين) اتقى الحربة بولده، فنفذت منهما جميعاً، نعوذ بالله من جهد البلاء. قال جياش: لا أنسى رأس الصليحي في عود المظلة وقراءة المقرىء: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾)(١)، ولا أنسى قول الشاعر العُماني من قصيدة أنشدها مرتجلاً في هذا المقام يصف المظلة:

ما كان أقبح وجهه في ظلها ... ما كان أحسن رأسه في عودها!

فانظر إلى تفاني الشعراء في إرضاء بني نجاح بقتل عدوهم الصليحي وتقبيح وجهه في حياته مع تجميله في وفاته. وهذا يدل على الشماتة حتى عند وفاة العدو. ولا شك أن قصر

---

(١) سورة آل عمران ٣: ٢٦.

عهد أسرة الصليحيين إنما يرجع إلى ما اتصفوا به من التسامح والعفو عند المقدرة الذي يجذب القلوب ويشيع الطمأنينة في النفوس.

وكان من أثر هزيمة الصليحيين على أيدي بني نجاح أن هاجر هؤلاء إلى الهند فراراً من حنق أعدائهم. وعاد الأمر في اليمن إلى بني نجاح، وامتلأت صدور الناس هيبة من أول ملوكهم وهو سعيد بن نجاح بعد مقتل علي الصليحي، وتغلب الولاة على ما كان في أيديهم من القلاع، واستقر الأمر في تهامة لسعيد الأحول ابن نجاح في سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م)[١].

وقد تقلبت زبيد أكثر من مرة في خلال حياة سعيد الأحول بين أسرتين. وبعد سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) استمرت زبيد بصفة مستديمة تحت حكم بني نجاح حتى أفسحت دولتهم (التي وقعت تحت حكم سلطان الوزراء) الطريق إلى المهديين في سنة ٥٥٤ هـ (١٠٥٩ م).

ولم يكن لأولاد فاتك بن جياش من الأمر إلّا الظاهر فقط، كإقامة خطبة الجمعة بذكر اسمهم بعد اسم الخلفاء العباسيين ونقشه على السكة، وركوبه بالمظلة في أيام المواسم. أما السلطة الفعلية فقد كانت في أيدي الوزراء من الأحباش. وكانت السلطة في عهد المنصور بن فاتك بن جياش (٥٠٣ ـ ٥١٧/١١٠٩ ـ ١١٢٣) في أيدي الوزراء كما كانت في عهد أبيه. ومن هؤلاء الوزراء أنيس الفاتكي، وهو من الأحباش أيضاً. وقد امتاز بالشجاعة ولو أنه اتصف بالشدة. وقد أثرى هذا الوزير ثراءً كبيراً من الأموال التي استولى عليها من بني نجاح، حتى إنه بنى قصراً عظيماً اتخذه داراً لإقامته، بلغ عرض كل قاعة من قاعاته ثلاثين ذراعاً، وعرض كل مجلس من مجالسه أربعين ذراعاً، وسك النقود باسمه، وأراد أن يفتك بالمنصور بن فاتك، ولكن المنصور دبر له كميناً وقضى عليه، واستولى على أمواله وجواريه، ومن بينهن جارية مغنية تدعى «علم» تزوجها المنصور فولدت له ابنه فاتك الثاني ابن المنصور الذي آل إليه الحكم في سنة ٥٠٣ هـ[٢].

وقد خلف أنيس الفاتكي الوزير وزراء امتاز عهدهم بالمنافسة على الوزارة، وقامت الفتن في البلاد. ومن هؤلاء الوزراء أبو منصور مفلح الفاتكي، وكان حبشياً كذلك؛ امتاز بالأدب والشجاعة والكرم.

ولما مات فاتك الثاني انتقل حكم اليمن إلى فاتك الثالث ابن منصور (٥٣١ ـ

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ٦٠ ـ ٦٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ ـ ٧١.

١١٣٦/٥٥٢ - ١١٥٨). وفي عهده ظهرت في بلاد اليمن طبقة من العبيد، منهم ريحان الأكبر، وإقبال، ومسرور، الذين علا نفوذهم على نفوذ الوزير. وكان من أثر تآمرهم على لوزير مفلح أن أبعد بحجة محاربة ثوار عدن، فظل مقصياً حتى مات سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م). وتقلد الوزارة من بعده طائفة من العبيد حتى زالت دولة بني نجاح قضى عليها علي بن مهدي سنة ٥٥٤ هـ (١١٧٣ م). وقد اضطربت البلاد بعد وفاته، ولم ستقر الحكم إلا بعد أن استولى عليها بنو مهدي، وكانوا من الخوارج.

(ب) بنو مهدي (٥٥٤ - ٥٦٩/١١٥٩ - ١١٧٣):

خلف المهديون أو بنو مهدي بني نجاح في زبيد. وكان علي بن مهدي والياً ونبياً في هامة، جذب إليه أشياعاً أطلق عليهم الأنصار والمهاجرون. وفي سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) دأ علي بن مهدي يحتل الحصون ويخضع البلاد. واستطاع أخيراً أن يهاجم زبيد ويغزوها ١١٥٩/٥٥٤).

وقد استقر علي بن مهدي في يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م)، ولكن عهده لم يدم أكثر من شهرين. ومات في شهر شوال من تلك السنة، وخلفه ابنه المهدي ٥٥٤ - ١١٥٩/٥٥٨ - ١١٦٢). ثم ابنه الثاني عبد النبي الذي خلع وخلفه أخوه عبد الله. لكن الحكم ما لبث أن عاد إلى عبد النبي من جديد. وقد بسط نفوذه على جميع بلاد اليمن، وعلى تهامة وبعض المراكز والمدن المجاورة، إلّا عدن التي ظلت تدفع له الجزية فحسب[1].

وقد ذكر المؤرخون أن عدد الإمارات اليمنية التي خضعت لسلطان عبد النبي بلغ خمسة وعشرين، وأن ثروته قد زادت زيادة تتجلى فيما تركه من المجوهرات والقصور لعظيمة والملابس الثمينة.

وكان بنو المهدي لا يثقون في أتباعهم إلّا إذا ذبحوا أحد أبنائهم، ولو كانوا من عشيرته. وكان هؤلاء الأتباع يتفانون في تحقيق هذه الرغبة، وذلك بتضحية أبنائهم، اعتقاداً نهم بنبوة حكام هذا البيت وأنهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب. وقد استقر الحكم في ني نجاح حتى فتح الأيوبيون بلادهم في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م)[2].

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ٩٦ - ٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٩.

(جـ) بنو زُرَيْع[1] في عدن

(٤٧٦ - ٥٦٩/١٠٨٣ - ١١٧٣):

نصب المكرم الصليحي عباساً ومسعوداً ابني المكرم حاكمين على عدن سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م). وقد استمر حكمهما المشترك أجيالاً عدة. وقد انتهك أبو السعود وأبو الغارات استقلال ملك صنعاء، ولكنهما لم يستطيعا الاستمرار بصفة دائمة. وكانت هذه الدولة أهم دول اليمن بعد الصليحيين. وقد دامت حتى فتحها الأيوبيون سنة ٥٦٩ هـ.

وقد لقي ملوك بني زريع صعاباً كثيرة حتى توطد ملكهم في آخر الأمر في عدن. وكانت هذه الولاية من أمنع ولايات اليمن. ويعد سبأ بن أبي السعود بن زريع أول ملوك هذه الأسرة. وكان تقلد أمراء هذه الولاية الحكم يصدر من الخليفة الفاطمي في مصر منذ عهد الحافظ. ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع شاعر مصري من الإسكندرية يدعى ابن قلاقسي. ومن قصائده في مدح ياسر بن بلال وزير محمد بن سبأ:

سافر إذا حاولت قدرا سفر الهلال فصار بدرا

وفي أواخر عهد دولة بني زريع ضعف نفوذ حكامها حتى صار الأمر إلى وزيرهم ياسر ابن بلال الذي قبض على زمام الحكم في عهد محمد عمران بن محمد بن سبأ فكان آخر ملوك بني زريع. ثم دخل الأيوبيون بلاد اليمن في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م)[2].

خامساً - اليمن في عهد الأيوبيين:

وكما شاركت اليمن في الجهاد بعد ظهور الإسلام، كذلك شاركت في الجهاد ضد الصليبيين والتتار. ذلك أنه لما قامت الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي قامت المنازعات بين حكام اليمن؛ فكانت عدن ومخلاف الجند (بفتح الجيم والنون) في يد بني زريع، وكانت صنعاء وبعض مخاليفها في يد بني حاتم، وكانت صعدة (بفتح الصاد وسكون العين) والجوف في يد الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان الزيدي. وكان المخلاف السليماني في يد الشريف غانم بن يحيى بن حمزة، وزبيد وما حولها في يد عبد النبي بن محمد بن علي. وقد قامت بين حاكم المخلاف السليماني وحاكم زبيد منازعات انتهت بقتل غانم بن يحيى واستنجاد أخيه بالخليفة العباسي في بغداد، فكتب إلى

---

(١) بضم الزاي وفتح الراء وسكون الياء.

(٢) عمارة اليمني ص ١١ - ١٢.

السلطان صلاح الدين في مصر؛ فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م).

ويعتبر الفتح الأيوبي لبلاد اليمن أعظم حدث في تاريخ بلاد العرب الوسيط، فقد وحد أمراء بيت صلاح الدين بين اليمن ومصر وسورية وبلاد الجزيرة، وفتح توران شاه زبيد وصنعاء ثم استولى على عدن، وأناب عنه حطان بن كامل بن منقذ الكناني في حكم زبيد وعاد إلى سورية (٥٧١/١١٧٥)، فأضاف إليه أخوه صلاح الدين ولاية الإسكندرية، وبقي نوابه في اليمن إلى أن توفي سنة ٥٧٦ هـ، فولى صلاح الدين عليها أميراً من قبله. ثم ولى أخاه طغتكين بن أيوب بلاد اليمن فبقي بها حتى مات سنة ٥٩٣ هـ، وخلفه ابنه العزيز إسماعيل، ولكنه أساء السيرة فقتله أمراؤه وخلفه أخوه الناصر.

وهكذا توالى ولاة الأيوبيين على بلاد اليمن قرابة نصف قرن (٥٦٩ ـ ٦٢٥/١١٧٣ ـ ١٢٢٨).

وإليك سلسلة نسب الأيوبيين في بلاد العرب من حيث صلتها بالفرع الذي كان على حكم مصر، نذكره هنا لأهميته لتاريخ بلاد اليمن:

هجرية		ميلادية
٥٦٩	الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) ابن أيوب	١١٧٣
٥٧٧	الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (وصل إلى اليمن ٥٧٨ هـ)	١١٨١
٥٩٣	معز الدين إسماعيل بن طغتكين	١١٩٦
٥٩٨	الملك الناصر أيوب بن طغتكين	١٢٠١
٦١١	الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه (الثاني) (توفي سنة ٦٤٩ هـ)	١٢١٤
٦١٢ ـ ٦٢٥هـ	الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل	١٢١٥ ـ ١٢٢٨ م

سادساً ـ بنو رسول وبنو الرّسّي في اليمن:

(أ) بنو رسول (٦٢٦ ـ ٨٥٨/١٢٢٩ ـ ١٤٥٤)

خلف بنو رسول الأيوبيين في حكم اليمن سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م). وقد جاءوا إلى هذه البلاد مع الأيوبيين، وامتد نفوذهم من حضرموت إلى مكة، وظل حكمهم سائداً أكثر من قرنين. وهم ينتسبون إلى أول ملوكهم وهو علي بن رسول الذي ينتهي نسبه إلى الغساسنة الذين هاجروا من اليمن إلى الشام بعد انكسار سد مأرب.

وكـان علي بن رسـول قـد ولي مكـة سنـة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) ثم استخلفـه الملك المسعود الأيوبي على اليمن فبقي بها نائباً عن الأيوبيين الذين كانوا يحكمون مصر والشـام، ثم استقـل علي بملك اليمن وأسس الدولـة الرسـولية، في تعـز، وتلقب بالملك المنصـور، وأعلن أنه يحكم اليمن نيابـة عن الخليفة العبـاسي. ثم قتل علي سنـة ٦٤٨ هـ فخلفه ابنـه الملك المظفر يوسف صاحب جامع المظفريـة في تعز. وقـد طال عهـده باليمن حتى مـات بقلعة تعز سنة ٦٩٤ هـ. وقد أرسل المظفـر يوسف إلى قـلاوون سلطان المماليك في مصر هدايا نفيسة وخطب وده واتحدت مصر مع بلاد اليمن في ذلك العصر.

خلف المظفر يوسف ابنه الأشرف عمر ـ وهو صاحب جامع المظفرية في اليمن ـ ولكن عهده لم يطل، وتوفي سنة ٦٩٦ هـ، ثم خلفه أخوه الملك داود. وفي عهده توطدت الوحدة بين اليمن ومصر، وتبودلت الهـدايا والتحف بين حكـام البلدين، واعتنق ملك اليمن عقائـد المذهب الشافعي، واشتغل بالعلم، وعني بجمـع الكتب، حتى إن خزانـة كتبه حـوت مائـة ألف مجلد. وقد قرب إليه العلماء وأجزل لهم العطاء حتى تـوفي سنة ٧٢١ هـ، فخلفـه ابنه المجاهد علي الـذي عاصـر كلاً من محمـد بن قلاوون المملوكي وابنـه الناصـر حسن. وقد أساء المجاهد السيرة فقتله أنصار المجاهد الذي أعيد إلى ملكه وعزل مرتين، ثم خلفه ابنه الأفضـل عبـاس، ثم تتـابـع بنـو رسـول على حكم اليمـن حتـى زالت دولـتهـم سنـة ٨٥٨ هـ (١٤٥٤ م).

لم يزد جند اليمن في عهـد بني رسول على ألفي فـارس، وكان هنـاك فوق ذلـك نحو هذا العدد من الجند الغرباء. وكان زي الملك وعامة الجند يتكون من القبـاء الضيق الأكمام ويتمنطقون بالمناطق المشدودة، وعلى رؤوسهم تخافيف. وكـانوا ينتعلون الخف المصنـوع من الحرير، وشعار الملك عبارة عن قماش أبيض يتخلله كثير من الورود.

وكان من أهم موظفي الـدولة النـائب والوزيـر والحاجب وكـاتب السر وكـاتب الجيش ومقدم ديوان المال، وكان ملوك اليمن يحاكون سـلاطين المماليـك في مصر في زيهم وفي أكثر مظاهر السلطان، حتى إن التوقيع على الرسائل كان على مثال توقيع سلاطين المماليـك في مصر، وقد تضمن هذا التوقيع عبارة: «الشاكر لله على نعمائه».

وكان للتجار مركز في الدولة اليمنية، لأن التجارة كانت أهم موارد الدولة في عهـد بني رسول. وكانت بلاد الهند تمد اليمن بالسلع والسفن، وتعتمـد اليمن على أرباب الصنـاعات في مصر والشام. وكـان أمراؤهـا يجزلـون لهم الرواتب ويحسنـون معاملتهم ويقـربون إليهم

مهرة الصناع، وبذلك يخففون من غربتهم، ويمنحونهم ما يعوضهم عن ترك أوطانهم بما يوفرونه لهم من أسباب الرفاهية ورغد العيش. وكان اليمنيون يهتمون براحة الغرباء الوافدين على بلادهم ويكرمون وفادتهم ويفيدون من مواهبهم وكفاياتهم.

(ب)بنو الرّسّي ـ الأئمة الزيديون (بضعدة وصنعاء)

(٢٨٠ ـ ٧٠٠/٨٩٣ ـ ١٣٠٠)

ويرجع تاريخ بني الرسي إلى أيام المأمون العباسي، فقد خرج في عهده محمد بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ودعا إلى نفسه إلى أن مات، فخلفه أخوه القاسم الذي بث دعاته ـ وهو على حال استتاره زهاء عشرين سنة ـ فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور. وقد بعث الخليفة المأمون إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه، فاختفى في حي من البدو. ولما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ شدد في طلب القاسم، فانتقض عليه أمره (سنة ٢٢٠ هـ) وهرب إلى الهند وأقام بها حتى مات سنة ٢٤٥ هـ، وعاد ابنه الحسين بن القاسم الرسي إلى اليمن. واليه ينسب بنو الرسي.

وكان أنصار بني الرسي من الزيدية وغيرهم يقولون بأحقيته بالخلافة. وكان أول من خرج منهم باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي ودعا إلى نفسه، وتلقب الهادي وبويع بالإمامة سنة ٢٨٨ هـ. وقد جمع حوله جمعاً من الشيعة وحارب إبراهيم بن يعفر (وقيل أسد بن يعفر من أعقاب التبابعة بصنعاء وكحلان)، وملك صنعاء وضرب السكة باسمه، والتف الناس حوله وقوي نفوذه بينهم، ثم عاد إلى صعدة حيث توفي سنة ٢٩٨ هـ.

وخلف يحيى بن الحسين ابنه محمد المرتضى، ثم تتابع على ملك اليمن ملوك من بني الرسي حتى دب الخلاف بينهم وأتاحوا بذلك الفرصة لتغلب السلمانيين أمراء مكة في القرن السادس الهجري. فدعا المنصور عبد الله إلى الخليفة الناصر العباسي، وخطب له على منابر الديلم والجبل، وظلت الحال على ذلك حتى جاء المتوكل أحمد السليماني، فبايع الزيدية أحمد بن الموطىء بن الحسين المنتجب بن القاسم الرسي. وكان أحمد بن الموطىء فقيهاً أديباً عالماً تقياً قواماً صواماً. وقد سار إلى صعدة واستولى عليها من يد أحمد المتوكل زعيم السليمانيين الذي بايعه سنة ٦٤٩ هـ. واستمر حكم الزيدية بصعدة في عقب أحمد بن الموطىء.

جدول بني الرسي

٢٨٠ ـ ٧٠٠ هـ

(ا) العهد الأول

أبو محمد القاسم الرسي ترجمان الدين بن إبراهيم طباطبا (توفي ٢٤٦ هـ).

	هجرية
الحسين بن القاسم	٢٤٦
الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم (توفي ٢٩٨ هـ)	٢٨٠
المرتضى أبو القاسم محمد بن يحيى (اعتزل الحكم سنة ٣٠١ وتوفي سنة ٣١٠ هـ)	٢٩٨
الناصر أحمد بن يحيى (توفي سنة ٣٢٥ هـ)	٣٠١
المنتجب الحسين بن أحمد (توفي سنة ٣٢٤ هـ)	ــ
المختار أبو محمد القاسم بن أحمد	٣٢٤
المنصور يوسف الداعي ابن يحيى	ــ
القاسم المنصور بن علي الإلياني (توفي سنة ٣٩٣ هـ)	ــ
المهدي الحسين بن القاسم المنصور	٣٩٣
جعفر بن القاسم المنصور	ــ
أبو الهاشم الحسن بن عبد الرحمن	٤٢٦
الناصر أبو الفتح الديلمي ابن الحسين بن محمد	٤٣٠
استولى الصليحيون على صنعاء	٤٥٤
عمران بن الفضل (حاكم صليحي)	٤٨٠
سبأ بن أحمد (حاكم صليحي)	ــ
حاتم بن الغشيم الهمداني	٤٩٢
عبد الله بن حاتم	٥٠٢
معن بن حاتم	٥٠٤
حميد الدولة حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل	٥٣٢
المتوكل أحمد بن سليمان بن محمد (توفي سنة ٥٦٦) (عاد الرسيون للحكم مؤقتاً)	٥٣٢
علي الوحيد ابن حاتم (هزمه توران شاه الأول الأيوبي سنة ٥٦٩)	٥٥٦

(٢) العهد الثاني

	هجرية
المنصور عبد الله بن حمزة (ولد سنة ٥٦١ هـ وتوفي في المحرم سنة ٦١٤)	٥٩٣
استرد صنعاء	٥٩٤
الناصر عز الدين محمد بن عبد الله (بصعدة حتى سنة ٦٢٣ هـ) المحرم	٦١٤
الهادي نجم الدين يحيى بن حمزة	٦١٤
المهدي أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم (توفي سنة ٦٥٦ هـ)	٦٢٣
المتوكل شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة	٦٥٦
المنتصر داود	٦٨٠
(فرع من قرابة بعيدة نسبهم مشكوك فيه)	
أحمد الإمام	٦٤٦
أبو محمد الحسن	—
يحيى بن محمد	—
حسن بن فلان	—
إبراهيم بن أحمد	٦٧٠
المطهر بن يحيى (ضد المنتصر داود، توفي سنة ٦٩٧ هـ)	٦٧٤
محمد بن المطهر	٦٩٧
المطهر بن محمد	—
صلاح الدين بن المطهر	—

الدولة الموحدية في المغرب

(ا) عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ - ٥٥٨/ ١١٣٠ - ١١٦٣

(أ) مولده ونشأته:

يرجع نسب أبي محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلى[١] إلى قيس بن عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان[٢]. وقد أجمع المؤرخون على أن عبد المؤمن ينتمي إلى قبيلة

(١) ويقول المراكشي: (المعجب ص ١٧٦) هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الجومي.

(٢) ابن أبي زرع روض القرطاس ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧.

جومية الزناتية. وقد ولد في سنة ٤٨٧ هـ بضيعة من أعمال تلمسان (ببلاد الجزائر الآن) تعرف بتاجرا[١]. وكان أبوه علي فقيراً يشتغل بعمل الأواني الفخارية. وقد طلب عبد المؤمن العلم بالمساجد من صغره، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، واقتبس بعض علوم اللغة والدين، ثم التقى بأستاذه محمد بن تومرت، فأتم دراسته عليه. وقد عرف عبد المؤمن بشدة ذكائه ونال قسطاً وافراً من علوم الدين واللغة مع ما امتاز به من قوة الشخصية التي بوأته مكانة عالية بين الموحدين[٢].

(ب) بيعته:

بايع أصحاب المهدي محمد بن تومرت العشرة عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ. وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة الخاصة، لأن موت المهدي ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين، ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ[٣] وذلك بجامع تينمل[٤]. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص المهدي له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة، إلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته[٥]. وقد قاتل جيوش تاشفين بن علي بن يوسف بتلمسان ثم وهران حيث لقي حتفه[٦]. ثم استولى عبد المؤمن على مدينة فاس ثم على مدينة مراكش حاضرة المرابطين بعد حروب دامية. ثم قبض على إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين آخر أمراء المرابطين وقتله، وأتته القبائل من كل حدب وصوب ودخلت في طاعته، واستوثق له أمر المغرب ولم يبق له منازع. ثم فتح عبد المؤمن بلاد إفريقية، ومد نفوذه إلى برقة، وفتح بلاد الأندلس، وخطب له على جميع المنابر في هذه البلاد[٧].

---

(١) ضبطه ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٢ ـ ١٤٨) تاجرة، بتاء مربوطة في آخر الكلمة (بدلاً من الألف المقصورة).

(٢) وقد وصف (المراكشي المعجب ص ١٩٧) عبد المؤمن فقال: «وكان معتدل القامة وضيء الوجه جهوري الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق. وكان محبباً إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه».

(٣) ذهب ابن صاحب الصلاة (المن بالإمامة) إلى أن الموحدين أخفوا وفاة ابن تومرت ثلاث سنين وعلى ذلك تكون البيعة العامة قد تمت سنة ٥٢٧ هـ وقد أجمع المؤرخون على أن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٤هـ.

(٤) ابن أبي ززع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٧.

(٦) المراكشي: المعجب ص ٢٠٢.

(٧) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢.

ولما أخضع عبد المؤمن جميع قبائل المغرب فكر في فتح بلاد الأندلس وإعادة مجد المسلمين إلى ما كان عليه في عهد الأمويين وقد منى نفسه باسترداد طليطلة حاضرة النصارى وطردهم نهائياً من هذه البلاد. وتاقت نفسه للجهاد، فعزم على غزو الفرنجة براً وبحراً، فأمر بإنشاء الأساطيل فبنى أربعمائة سفينة.

وقد قيل إن المهدي بن تومرت لما توفي تطلعت نفوس العشرة للخلافة، وكادت الفتنة تقع بين القبائل وتختلف كلمة الموحدين، فاجتمعوا على عبد المؤمن بن علي لأنه لم تكن له بالمغرب قبيلة تنافس القبائل التي ينتمي إليها أصحابه العشرة. ولما أخذت البيعة لعبد المؤمن كان العشرة أول المبايعين له، ثم تبعهم الخمسون من الأشياخ ثم كافة الموحدين.

(ج) غزواته :

كانت حروب عبد المؤمن بعد أن بويع بالخلافة تهدف إلى غرضين هما: إخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحدية، والقضاء على الدولة المرابطية. ولم يكد عبد المؤمن يلي أمور الموحدين حتى وجه همته إلى جهاد أعدائه «وقتال أهل الزيغ والعناد عن طاعته» فغزا نادلا (بسكون الدال مع اللام المقصورة) في سنة ٥٢٦ هـ وانتصر عليها. ثم غزا بلاد «درعة» وفتحها، كما غزا قبائل تيغر (بفتح التاء وسكون الياء) وفازار وغياثة (بكسر الغين).

وفي شهر صفر سنة ٥٣٤ هـ تفرغ عبد المؤمن لحرب المرابطين حتى سقطت دولتهم سنة ٥٤١ هـ . فقد حاصر مراسيها على جميع سواحل بلاده[١]. ثم جمع الجند وأخذ في صنع الأسلحة على اختلافها، حتى كان يضرب من السهام وحدها عشرة قناطير في اليوم. ثم خرج عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ من مراكش حاضرة ملكه للجهاد ببلاد الأندلس، ولما وصل إلى رباط سلا كتب إلى جميع أهالي المغرب وإفريقية والسوس يدعوهم للجهاد. فأجابه عدد كبير من الموحدين وقبائل العرب والبربر، قيل إن عددهم بلغ ثلثمائة ألف مجاهد وثمانين ألف متطوع من الفرسان ومائة ألف راجل[٢].

أخلاقه ـ وفاته :

كان عبد المؤمن بن علي يؤثر أهل العلم ويجل العلماء ويعظمهم ويقربهم إليه ويحسن إليهم. كما كان يبعث في طلبهم من مختلف البلاد ويوفر لهم أسباب الراحة

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ .
(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

ويسكنهم بجوار قصره ويساعدهم على طلب العلم بتوفير المأكل والمشرب لهم في غير إسراف ولا تقتير، كما كان ينوه بذكر المتفوقين. وقد قسم عبد المؤمن الطلبة إلى طائفتين: طلبة الموحدين، وطلبة الحضر. وكان يقصد من ذلك تمييز طلبة المصامدة عن غيرهم[١]، ويحثهم على التعمق في دراسة عقائد المهدي بن تومرت. وكان عبد المؤمن نفسه من رجال العلم المعدودين، فقد كان كما وصفه بن أبي زرع[٢] فصيح اللسان عالماً بالجدل، متفقهاً في علم الأصول، حافظاً للحديث صحيح الرواية متبحراً في العلوم الدينية والعقلية، إماماً في النحو واللغة والقراءات ملماً بالتاريخ والسير، أديباً شاعراً. وقد اختار عبد المؤمن كتابه من أدباء عصره، كأبي جعفر بن عطية، وأخيه عطية بن عطية، وأبي الحسن بن عياش وغيرهم.

كما اتخذ عبد المؤمن وزراءه من العلماء النابهين، كعبد السلام بن محمد الجومي، وأبي جعفر بن عبد المؤمن، واتخذ قضاته من الفقهاء النابهين أيضاً، كأبي عمران موسى بن سهل من أهل تينمل، وأبي يوسف حجاج بن يوسف، وأبي بكر بن ميمون القرطبي.

وكان المرض أقوى من عزم عبد المؤمن ودأبه على الجهاد، فقد وافته منيته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ .

(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن: ٥٥٨ - ٥٨٠ / ١١٦٣ - ١١٨٤:

ولد أبو يعقوب يوسف في ٣ رجب سنة ٥٣٣ هـ[٣]. وقد عهد عبد المؤمن إلى ابنه الأكبر محمد بالخلافة من بعده، فبايعه الناس، وقد اضطرب أمر محمد بعد وفاة أبيه وكاد الحكم يخرج من أسرة عبد المؤمن، وقد اتفق الموحدون بزعامة أخويه يوسف وعمر على خلعه لأنه لم يكن يصلح للحكم[٤] وبايعوا أخاه يوسف، ولم يتخلف عن بيعته سوى أخويه السيد أبي محمد صاحب بجاية وأبي عبد الله صاحب قرطبة، وظلا على ذلك حتى سنة ٥٥٩ هـ حيث قدم عليه كل منهما ودانا له بالطاعة وبايعاه[٥].

كان أبو يعقوب يوسف حسن السياسة والتدبير محباً للجهاد. فلما ولي الخلافة سار

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٠٢.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢.
(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٢.
(٤) المراكشي: المعجب ص ٢٣٦.
(٥) ابن أبي زرع ج ٢ ص ١٨٣.

على سياسة أبيه، فجمع الأموال الضخمة وأنفق أكثرها في شراء السلاح وتدريب الجند. وقد قضى على ثورة «مَرْزَدْغ» (بفتح الميم والزاي وسكون الراء والدال) الغماري (بضم الغين) الصنهاجي الذي تبعه خلف كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة (بفتح الألف مع الهمزة والراء والباء وسكون الواو).

ودخل يوسف مدينة تازا[1] وأحل به الهزيمة وقتله وحمل رأسه إلى مدينة مراكش حاضرة الموحدين. وكان ذلك سنة ٥٥٩ هـ .

وفي سنة ٥٦٥ هـ أمر يوسف بن عبد المؤمن أخاه أبا حفص بحرب نصارى الأندلس فسار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف جندي سوى المتطوعين، وغزا الموحدون طليطلة وأحوازها وسبوا النساء وغنموا الأموال، ثم عاد جيشهم ظافراً منتصراً. وفي سنة ٥٨٠ هـ عزم يوسف على حرب نصارى الأندلس[2] بجيش جرار يضم قبائل عرب إفريقيا وزناتة ومصمودة وغمارة وصنهاجة وأوربة. وقد جاز هذا الجيش إلى بلاد الأندلس فنزل بمرسى جبل الفتح (جبل طارق) ثم سار إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى اشبيلية، واستولى على مدينة شنترين (بفتح الشين والتاء وسكون النون) غربي الأندلس في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ . ثم غزا هذا الجيش الموحدي مدينة أشبونة (لشبونة حاضرة البرتغال الآن)، على أن النصارى استطاعوا أن يستميلوا إليهم فريقاً من الجيش الموحدي. فقد أعلنوا ليلاً أن يوسف بن عبد المؤمن قد ارتحل عائداً إلى المغرب وأوقعوا بذلك الاضطراب في صفوف الجيش الموحدي، وأخذ الجند يفرون من المعركة. ولما تأكد النصارى المحاصرون أن جند الموحدين قد انفضوا من حول يوسف بن عبد المؤمن عادوا إلى القتال، ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار المسلمين. غير أن يوسف بن عبد المؤمن لم يلبث أن مات متأثراً بجراحه وهو في طريقه إلى الجزيرة الخضراء، وذلك في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ وحمل جثمانه إلى تينمل ودفن بجوار أبيه[3].

كان يوسف بن عبد المؤمن من أعظم خلفاء الموحدين حباً للعلم وأهله وتقديراً لرجاله لأنه عاش في الأندلس في حياة أبيه الذي ولاه إشبيلية. وقد ذكر المراكشي أن يوسف ابن عبد المؤمن كان ملماً بكلام العرب حافظاً لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٨٤.

(٢) بلغ يوسف بن عبد المؤمن أن ألفونس أغار على قرطبة وغرناطة ورندة (بفتح الراء والدال وسكون النون) ومالقه وغيرها. السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٣٧.

(٣) ابن أبي زرع ج ٢ ص ١٩٣.

والإسلام، وأنه لقي وهو في إشبيلية كثيراً من اللغويين والنحاة والمفسرين، كأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الملك (ويعرف بابن مُلكون)، وكان من أحسن الناس قراءة للقرآن وحفظاً للغة وتبحراً في النحو. كما عكف يوسف على دراسة الفلسفة والفلك والطب. وقد أولع بجمع الكتب من أنحاء الأندلس والمغرب. وكان يبعث في طلب العلماء[1]. ومن أشهر علماء عصره الفيلسوف أبو بكر بن طفيل، فقد كان عالماً بجميع فروع الفلسفة، وقد تتلمذ على أبي بكر الصائغ المعروف بابن باجة. ولابن طفيل مصنفات هامة في الطبيعيات والإلهيات وغيرها، كما خلف لنا رسالة «حي بن يقظان» المعروفة. ومن الفلاسفة الذين عاشوا في عصر يوسف بن عبد المؤمن الفيلسوف العظيم أبو الوليد بن رشد، والوزير الطبيب أبو بكر بن زهر (بضم الزاي وسكون الهاء)، وكان ملماً بالطب حافظاً للغة والأدب، مشاركاً في الفقه والحديث والتفسير، ومنهم الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد. وكانت مدينة مراكش في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في العلوم والآداب والفنون[2]. كما كانت تتطلع إليها أنظار المسلمين للدفاع عن حوزة الإسلام ضد مطامع النصارى في بلاد الأندلس.

(٣) يعقوب المنصور: (٥٨٠ ـ ٥٩٥/١١٨٤ ـ ١١٩٩):

ولد أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من أم ولد رومية تسمى «ساحر». وقد ذكر المراكشي أن البيعة أخذت له في حياة أبيه[3]. وخالفه في ذلك جمهور من المؤرخين، فذكر ابن أبي زرع أن الموحدين بايعوه عقب وفاة أبيه[4]، وقد استوزر يعقوب المنصور بن أبي حفص الهنتاتي وقلد أخاه يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن قيادة الجيش الموحدي في الأندلس.

وقد صادف يعقوب المنصور في أوائل عهده مشكلتين كبيرتين: الأولى قيام ابن غانية في وجهه، والثانية تمرد نصارى الأندلس وعملهم على إضعاف العرب والاستيلاء على أملاكهم في هذه البلاد.

فقد وجه علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس رجلين من قبيلة مسوفة هما: يحيى

---

(١) المراكشي ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠.
(٢) السلاوي، الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٠.
(٣) المعجب ص ٢٦١.
(٤) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٤٢.

ومحمد، ويعرفان بابني غانية (نسبة إلى أمهما). فأما يحيى فكان فارساً شجاعاً، كما كان فقيهاً ورعاً، وقد ولاه علي بن يوسف مدينة بلنسية، ثم ولاه قرطبة فظل على ولايتها حتى مات. وأما محمد فقد تقلد بعض أعمال قرطبة من قبل أخيه يحيى، فلما اضطرب أمر الأندلس بعد موت علي بن يوسف وقوي نفوذ الموحدين، خشي محمد ابن غانية على نفسه فعبر جزيرة «ميورقة» مع أهل بيته وحشمه فملكها، كما استولى على جزيرة منورقة، ويابسة، وعاش في هذه الجزر ودعا للخلفاء العباسيين فيها، وكان لمحمد من الأولاد: عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة. وقد آل الحكم إلى ابنه إسحاق ثم إلى حفيده علي بن إسحاق الذي حارب يعقوب المنصور الموحدي ببلاد المغرب ورأى الفرصة قد سنحت له بعد موت يوسف بن عبد المؤمن لانشغال الموحدين بحرب نصارى الأندلس. فاستولى علي بن إسحاق ابن غانية على بجاية ثم على قلعة بني حماد وما حولها من البلاد. وقد خرج يعقوب المنصور من مراكش حاضرة ملكه لحرب ابن غانية الذي لم يقو على حربه على الرغم من مساعدة بهاء الدين قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي له وانتصر يعقوب المنصور على ابن غانية وحلفائه من العرب والمصريين وعاد إلى بلاده سنة ٥٨٤ هـ [١].

(أ) موقعة الأرك[٢]:

أما المشكلة الثانية التي واجهت يعقوب المنصور فهي تمرد نصارى الأندلس وطمعهم في أملاك المسلمين في هذه البلاد. فقد عبر يعقوب المنصور إلى الجزيرة الخضراء (٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ)، وسار حتى نزل شنترين، وأغار على مدينة أشبونة وما جاورها وقطع ما صادفه من الثمار وحرق المزروعات وقتل وسبى كثيراً من الأهالي، ثم عاد إلى المغرب بعد أن أسر ثلاثة عشر ألفاً من النصارى. ويعتبر هذا الجواز الأول إلى الأندلس[٣].

وكان من أثر جواز يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الأولى وما أحرزه على المسيحيين من نصر أن طلب الفونس الهدنة خمس سنين، فأجابه يعقوب إلى طلبه. ولكن ألفونسو لم يكد يسترد قوته ويعد العدة لحرب الموحدين حتى نقض الهدنة وكتب إلى يعقوب المنصور كتاباً يطلب إليه فيه أن ينزل له عن بعض الحصون والمدن، ومما جاء في هذا الكتاب:

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

(٢) بفتح الألف مع الهمزة وفتح الراء.

(٣) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٦٢.

«اللهم باسمك فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية. وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وإخلاء الديار وأسبي الذراري وأمثل بالرجال. ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، إذا أمكنتك يد القدرة»[1].

ولما تسلم يعقوب المنصور هذا الكتاب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه قوله تعالى: ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾[2]. ثم ذيل هذه الآية القرآنية بهذه الكلمات: «ما ترى لا ما تسمع»[3].

وقد دعا يعقوب المنصور الجند من الأمصار وضرب السرادقات بظاهر مدينة مراكش. ولما تجمع الجند جاز بهم إلى بلاد الأندلس. وكان جيشه يضم قبائل العرب وزناتة ومصمودة وغمارة والمتطوعين من القبائل المغربية والأعراز والرماة والموحدين والعبيد. وقد سار الخليفة الموحدي في إثرهم في موكب عظيم يضم أشياخ الموحدين والفقهاء والزهاد. ثم سار هذا الجيش لملاقاة العدو حتى أصبح على بعد مرحلتين من حصن الأرك، وذلك في ٣ شعبان سنة ٥٩١ هـ. وعقد يعقوب المنصور اللواء لأبي يحيى بن أبي حفص الهنتاتي وبقي هو على رأس الجيش الموحدي. ولقي جيش أبي يحيى الهنتاني ظنّاً منه أنه جيش الخليفة يعقوب المنصور. وحمي القتال بين الفريقين، واستشهد أبو يحيى، وأيقن العدو أن يعقوب المنصور قد قتل، وأنه قد أحرز النصر على جيش الموحدين، ثم أقبل يعقوب المنصور بجيشه وطوق جيش العدو الذي أصبح بين جيش يعقوب المنصور وجيوش زناتة والمصامدة وغمارة والعرب التي كان يقودها أبو يحيى الهنتاتي؛ فولى النصارى الأدبار وأعمل فيهم المسلمون السيف وأسروا عدداً كبيراً منهم، ودخل الموحدون حصن «الأرك»، ونجا الفونس ونحو ثلاثين فارساً من حرسه الخاص (٣ شعبان ٥٩١ هـ)[4].

ويذكر ابن أبي زرع أن أسرى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً[5] وأن يعقوب المنصور

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٣٤ ـ ٣٧.

(٣) السلاوي: ج ٢ ص ١٦٧.

(٤) المراكشي: المعجب ص ٢٨١ ـ ٢٨٢. السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ١٦٩ ـ ١٧٣.

(٥) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ٤٨) أن عدد قتلى النصارى في موقعة الأرك بلغ مائة وستة وأربعين ألفاً، وأن عدد الأسرى بلغ ثلاثة عشر ألفاً، وأن المسلمين غنموا مائة وثلاثة وأربعين ألفا من الخيام، ومن =

أطلق سراحهم. وقد ذكر ابن الأثير أن يعقوب المنصور نادى عسكره: من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح.

ولما حلت الهزيمة بألفونس، حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم ألا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش حتى تنتصر النصرانية(١). ثم جمع جموعاً عظيمة، فطلب يعقوب المنصور المدد من بلاد المغرب ودعا الناس للجهاد، والتقى مع العدو في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٢ هـ وهزم النصارى هزيمة منكرة، وغنم ما معهم من أموال وسلاح ودواب. ثم سار إلى طليطلة فحاصرها وأغار على ما يجاورها من البلاد وفتح عدداً من الحصون، ثم عاد إلى إشبيلية فأقام بها حتى سنة ٥٩٣ هـ. ثم سار إلى بلاد النصارى الذين طلبوا الصلح، فعدل يعقوب المنصور عن متابعة الجهاد وأجابهم إلى الصلح وعقد معهم هدنة أمدها خمس سنين، إذ نمي إليه خبر إغارة علي بن إسحاق وعاد إلى مدينة مراكش حاضرة ملكه بالمغرب. وكانت هذه الموقعة العظيمة آخر المعارك التي انتصر فيها المسلمون على نصارى الأندلس.

وقد طمع علي بن إسحاق صاحب غانية في بلاد إفريقية لتغيب يعقوب المنصور الموحدي عن المغرب ثلاث سنين للجهاد ضد النصارى في الأندلس، فقصد إفريقية، وخرَّب جنده هذه البلاد وعاثوا فيها فساداً، وعزم على المسير إلى بجاية ومحاصرتها، ثم إلى بلاد المغرب نفسها. ولما اتصل هذا النبأ بمسامع يعقوب المنصور، هادن النصارى في الأندلس حتى يتفرغ لحرب ابن غانية كما فعل من قبل(٢).

(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين:

استولى الصليبيون على سواحل الشام وملكوا بيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري، ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تخرج الصليبيين كما لم يستطع ذلك العباسيون لأن هاتين الدولتين قد تطرق إليهما الضعف والوهن. فلما آل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام، عزم على الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدي

= الخيل ستة وأربعين ألفاً، ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير مائة ألف. وقد قتل من المسلمين عشرون ألفاً.

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨.

(٢) المصدر نفسه ح ١٢ ص ٤٨ - ٤٩.

وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة[١].

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً[٢] جاء فيه: «الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون[٣] بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية.

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول البحري الموحدي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس. وإذا كان صلاح الدين الأيوبي قد استرد بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ، فإن يعقوب المنصور قد جاز جوازه الأول إلى الأندلس سنة ٥٨٥ هـ، أي بعد استرداد بيت المقدس بسنتين. ثم جاز جوازه الثاني إلى الأندلس

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣.

(٢) قال السلاوي (الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣) إن هذا الكتاب من إنشاء عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل.

(٣) العبر ج ٦ ص ٤٩٠.

حين وقعت معركة «الأرك» الكبرى سنة ٥٩١ هـ. ومن هنا ندرك أن عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين الأيوبي، إن صح ما ذكره بعض المؤرخين، كان راجعاً إلى تربص النصرانية بالإسلام في الأندلس والمغرب معاً.

(ج) إصلاحات يعقوب المنصور - أخلاقه - وفاته :

اختط أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط ورسم حدودها وبدأ بناءها قبل وفاته[١]. فلما ولي ابنه يعقوب المنصور شرع في إتمام بناء هذه المدينة، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منار الإسكندرية، يصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان.

وكان عبد المؤمن بن علي قد هدم سور مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور[٢]. ومما ساعد على إقامة هذه المنشئات هذه الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته. فقد ذكر المراكشي[٣] تحت عنوان «اتساع الدولة وزيادة الخراج» أن يعقوب المنصور كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته في كل سنة مائة وخمسين بغلاً، هذا من إفريقية (بلاد تونس الآن) وحدها، ما عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها، والمغرب وجزيرة الأندلس قاطبة.

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من موقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن بالشام[٤]. ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة ٥٩٥ هـ، ودفن بتينمل مع آبائه[٥]. ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب، لأن قبر يعقوب المنصور ما زال إلى الآن يزار بمدينة تَيْنمِلّ مع قبر أبيه يوسف وجده عبد المؤمن بن علي.

---

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٦٦.
(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٧.
(٣) المعجب ص ٢٥٥ - ٢٥٦.
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٤.
(٥) المراكشي : المعجب ص ١٧٤.

الناصر لدين الله :

بايع يعقوب المنصور ابنه محمداً بالخلافة من بعده، ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ[١]. وقد ثار على الموحدين في مستهل عهد الناصر لدين الله رجل يدعى «علودان الغماري»، ولكن الناصر أحل به الهزيمة، ثم سار إلى فاس فأتم سورها. وكان عبد المؤمن بن علي قد خربه في حروبه مع المرابطين، ثم بنى أكثره في عهد يعقوب المنصور على ما تقدم. ثم اتجه الناصر لدين الله إلى حرب ابن غانية بإفريقية، وكان قد استولى على المهدية، ثم نازل تونس سنة ٥٩٩ هـ، وهزم الحامية الموحدية فيها، وفرض الضرائب الفادحة على الأهلين، وكادت إفريقية تقع في يده، إذ عين العمال على الأقاليم، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة على ما كانت عليه الحال في عهد المرابطين.

فلما علم الناصر لدين الله بذلك وهو بمدينة مراكش، استشار الموحدين والفقهاء في أمر ابن غانية، فأشاروا عليه بمسالمته. ولكن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أحد العشرة من صحابة المهدي بن تومرت (وقد أقام أبناؤه الدولة الحفصية بتونس) أشار على الناصر بقتاله، فعمل برأيه، وسار الجيش الموحدي لحرب ابن غانية تؤيده سفن الأسطول بقيادة يحيى بن أبي زكريا الهزرجي. فلما علم ابن غانية بقدوم الناصر، فر من تونس إلى القيروان، ثم اتجه إلى قفصة ثم إلى قابس ثم عاد إلى المهدية[٢]، وحاصر ابن غانية وانتصر عليه، ففر إلى بلاده سنة ٦٠٢ هـ . وفي سنة ٦٠٣ هـ عين الناصر لدين الله وزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي ولاية أفريقية، فقبل هذا المنصب بعد تردد[٣]، وبقي الحكم في عقبه بعد سقوط الدولة الموحدية بالمغرب.

موقعة العقاب :

ولما أغار ألفونس ملك أسبانيا النصرانية على ثغور المسلمين في الأندلس ونهبها وسبى نساءها وأطفالها، كتب الناصر لدين الله إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي صاحب إفريقية يستشيره في الغزو ويطلب إليه المساعدة، فلم يلب نداءه، وأخذ الناصر الموحدي يستعد لقتال نصارى الأندلس[٤]. وكان الناصر مستبداً برأيه، فكتب

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩١ .
(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٢ .
(٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة .
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٦ .

إلى رعاياه بإفريقية والمغرب والأندلس يدعوهم إلى جهاد العدو، فأتته الجيوش من سائر البلاد. ثم خرج من مدينة مراكش في ٩ شعبان سنة ٦٠٧ هـ ، واجتاز البحر بجيوشه، واستقر بجزيرة طريف حيث لقيه قواد الأندلس ورؤساؤها وفقهاؤها، ثم نزل مدينة إشبيلية.

وقد قسم الناصر جيشه إلى خمس فرق: فجعل العرب فرقة، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة، وجعل المتطوعة فرقة، وجند الأندلس فرقة، والموحدين فرقة وأمر كل فرقة بأن تنزل في ناحية من نواحي الأندلس، وأوقع بذلك الرعب في قلوب النصارى، حتى طلب منه ملك بمبلونة الأمان واستسلم له، فأمنه وأكرمه. ثم حاصر الناصر حصن «سلبطرة» الذي لا يوصل إليه إلا من طريق واحد شديد الوعورة. وأمر جنده بإحاطة هذا الحصن الذي امتنع على جيش الموحدين[1]. وقد أشار أحد شيوخ الموحدين المحنكين على الناصر بأن يعدل عن حصار هذا الحصن لصعوبة اقتحامه وأن يسير إلى ناحية أخرى، ولكنه أخذ برأي وزيره أبي سعيد بن جامع الذي أشار عليه بأن يظل على حصار هذا الحصن حتى تستسلم حاميته. وقد ظل الحصار نحو ثمانية أشهر[2] حتى ملّ الجند وقلت الأقوات. ولما سمع ألفونس بما آل إليه جند المسلمين من ضعف، دعا المقاتلين من سائر ممالك النصارى واحتل قلعة رباح من قائدها الموحدي أبي الحجاج يوسف بن قادس الذي فر مع رجاله.

ولما علم الناصر لدين الله الموحدي بذلك أغار على حصن «سلبطرة» واستولى عليه، ثم التقى الجيشان في حصن العُقاب، فسار النصارى نحو فرقة المتطوعين الموحدية فقضوا عليها، وولى الناصر الأدبار، تاركاً وراءه مئات الآلاف من القتلى. وقد دارت هذه الموقعة المشئومة في ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ ، وتعتبر هذه الموقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس على السواء، بل إنها تعتبر نذيراً بقرب سقوط الدولة الموحدية التي لم تقم لها بعدها قائمة[3].

وقد توفي الناصر الموحدي في ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ ودفن في اليوم التالي.

(٥) سقوط الدولة الموحدية:

لم يتصرف الناصر لدين الله في موقعة العقاب تصرف القادة المحنكين كما كان أسلافه من قبل، كعبد المؤمن ويعقوب المنصور. وليس من عجب في ذلك فقد تولى

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٧.
(٢) السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨.
(٣) المراكشي: المعجب ص ٣٢٢.

الحكم ولم يكن قد ناهز السابعة عشرة من عمره. ولذلك كان يصدر عن رأي وزرائه الذين كانوا يوجهونه كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم، حتى لقد اتهم المؤرخون وزيره أبا سعيد بن جامع بأنه كان غير أمين في نصحه[١].

وكانت هزيمة «العقاب» ضربة شديدة بعيدة الأثر في تقريب نهاية الحكم الموحدي في المغرب والأندلس. «فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية»[٢].

ثم مات الناصر لدين الله كمداً على ما لحق به من هزيمة منكرة في موقعة العقاب، وولي بعده ابنه أبو يعقوب يوسف الثاني، وكان في السادسة عشرة من عمره، فطمع بعضهم في الملك[٣] وصار الوزراء يولون صغار الأمراء لتحقيق أغراضهم وإشباع أهوائهم، ولم يخلص العرش الموحدي لأحد من بني عبد المؤمن دون قيام الفتن والاضطرابات وانتشار الفوضى. وظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م).

وبعد يوسف بن الناصر ولي أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (أخو يعقوب المنصور)، وكان شيخاً كبيراً لم يستطع أن ينهض بأعباء الحكم، فنزل عن العرش للعادل(ابن يعقوب المنصور)، وقد مات مخنوقاً بعد أن نزل عن العرش بثلاثة عشر يوماً، وقد أبى كثير من الموحدين أن يبايعوا العادل، واشتعلت نار الفتنة في المغرب والأندلس، فدعا أخوه المأمون حاكم إشبيلية لنفسه، وقامت الثورات في المغرب والأندلس.

وهنا كفر المأمون بالموحدين ومبادئهم وأخذ يلعن المهدي بن تومرت ويحط من شأن مبادئه وينادي بوجوب الرجوع إلى مذهب أهل السنة. وكان عهده عهد محن وخطوب ومنازعات تفرقت فيها كلمة الموحدين، فصارت جماعة معه وجماعة مع يحيى بن الناصر الذي زالت دولة الموحدين في عهده[٤].

ثم مات المأمون سنة ٥٣٠ هـ وولي بعده ابنه الرشيد، فاستمال الموحدين بإعادة الدعوة الموحدية إلى ما كانت عليه. وفي عهده حدثت أحداث تنذر بسقوط الموحدين، كظهور قبيلة مرين (بفتح الميم وكسر الراء) التي حاربها الرشيد، فأحلت به الهزيمة غير

(١) السلاوي. الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧.
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٠.
(٣) المراكشي. المعجب ص ٣٢٧.
(٤) السلاوي. الاستقصا ج ٢ ص ٢١٥.

مـرة. ثم مات الـرشيد غـريقاً في صهـاريج بستـانه بمـراكش سنة ٦٤٠ هـ ، وولي بعـده أبو الحسن السعيد علي (بن المأمون بن المنصور) الذي عقد الهـدنة مـع بني مرين، ولـم يلبث أن قتله بنو ريان حكام تلمسان، فتولى بعده أبو حفص عمر الذي تلقب بالمعتضد. ولكنه لم يكد يستقر على عرشه حتى خرج عليه أميـر موحـدي يدعى أبـا العلاء إدريس (ويلقب بـأبي ديوس) الذي تحالف مع المرينيين، ولكنهم غدروا به وقتلوه غيلة سنة ٦٦٧ هـ ، وكـان ذلك نهاية الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى، وحلت محلها الدولة المرينية[١].

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٣٣٦.

الباب السادس
العلاقات الخارجية

(١) علاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين :

ذكر ابن الأثير[١] أن الهدنة أبرمت بين السلطان طغرلبك السلجوقي وإمبراطور الروم وأن الهدايا تبودلت بينهما، وأن مسجد القسطنطينية قد عمر وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرلبك في الخطبة.

وفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) غزت جيوش أحد ملوك الروم البلاد الإسلامية وأسر هذا الملك، ففدا نفسه بأربعمائة ألف دينار، فلم يقبل إبراهيم ينال منه هذا العرض وحمله إلى السلطان طغرلبك. وقد طلب الملك البيزنطي من نصر الدولة بن مروان أن ينقل رغبته في افتداء نفسه إلى السلطان؛ فتم له ما أراد وأرسل طغرلبك الملك بغير فداء، فعبر عن سروره بهدية أنفذها إلى السلطان لم يحمل مثلها على حد تعبير ابن الأثير[٢].

وكان من أثر ذلك الانتصار الذي أحرزه السلاجقة على جيش الروم في «أخلاط» غربي آسيا الصغرى سنة ٤٦٣ هـ وأسر «ديوچينس رومانوس» وتعرضه للقتل على يد أحد غلمان السلاجقة أن أحضر الإمبراطور إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي. وعلى الرغم مما توقعه هذا الإمبراطور من القتل أو التشهير في بلاد الإسلام أو العفو، قبل ألب أرسلان العفو وقبول الفداء، واستقر الرأي بينهما على قبول الفداء وقدره مليون وخمسمائة ألف دينار، وأن يكون جند الروم على أهبة الاستعداد إذا ما طلبها السلطان السلجوقي، وأن يطلق أسرى المسلمين في بلاد الروم.

وقد أطلق سراح الإمبراطور مع جماعة من أمرائه وقواده، كما منحه السلطان خمسة عشر ألف دينار يستعين بها على السفر إلى بلاده، وعقد معه هدنة أمدها خمسون سنة وخلع عليه وردَّه إلى مأمنه وشيعه فرسخاً. ولما بلغ الروم نبأ هذه الموقعة خلعوا هذا الإمبراطور.

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠.

فلما وصل إلى إحدى قلاعه وعلم بهذا النبأ لبس الصوف وتزهد، وأوفد إلى الإمبراطور الجديد رسولاً ينقل إليه ما استقر عليه الرأي مع السلطان السلجوقي، فآثر قبول المعاهدة. ولكنه لم يستطع أن يرسل إلى السلطان غير مائتي ألف دينار وطبقاً من ذهب عليه جواهر تقدر بتسعين ألف دينار، وأكد الإمبراطور الجديد لألب أرسلان أنه لن يرسل المبلغ المتفق عليه لعجز الدولة عن ذلك. وقد أشاد الشعراء بهذا النصر المؤزر[1].

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والبيزنطية في أوائل عهد المستنصر على شيء من الصفاء. ففي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة الفاطمي والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ ـ ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل عمارة كنيسة القيامة التي خربها الحاكم، كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤ م) في سنة (٤٤٦/١٠٥٤) الذي تعهد بأن يمد مصر بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التي حلت بها في هذه السنة. غير أن هذا الإمبراطور توفي قبل تنفيذ هذا الاتفاق، واشترطت الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ ـ ١٠٥٦ م) على الخليفة الفاطمي أن يتعهد بمساعدتها إذا اعتدي على بلادها، واشتبك الفريقان في معارك برية كتب النصر فيها للفاطميين. ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين في مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم فطلب الخليفة المستنصر المهادنة، وأوفد في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) القاضي أبا عبد الله القضاعي لتسوية الخلاف بين البلدين[2].

(٢) علاقة العباسيين بالفاطميين:

كان للعوامل السياسية أثر كبير في عداء البويهيين للفاطميين، لأنهم كانوا يخشون خطر الفاطميين على بلادهم. وقد ذكر المؤرخون أن عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي استعد لغزو مصر، ثم جمع العلويين ببغداد وسألهم عن نسب الفاطميين إلى علي فأقروه وشهدوا بذلك.

ويعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري، وأنكر فيها نسب الفاطميين إلى آل البيت؛ وذلك لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب، وهالهم إقامة الخطبة

---

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٧ ـ ٤٢. ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) أبو الفدا ج ٢ ص ٦٢. انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٩.

للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل، فكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في نسبهم إلى علي وفاطمة، أو بإثارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين.

وقد ذكر أبو المحاسن في تاريخه أنه في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ . أمر الخليفة القادر العباسي بتدوين محضر في نسب الخلفاء الفاطميين أشهد فيه القضاة والأئمة أن الحاكم الفاطمي وأسلافه لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب(١).

وممن وقع على هذا المحضر الشريف الرضي وأخوه المرتضى، وابن الأزرق الموسوي، ومحمد بن عمر بن يعلى العلويون، والقاضي أبو محمد عبد الله بن الأكفاني، والقاضي الجزري، والإمام أبو حامد الإسفرايني(٢) والفقيه أبو محمد الكشفلي(٣) والفقيه أبو الحسين القدوري(٤) الحنفي، والفقيه أبو علي بن حمكان، وأبو القاسم التنوخي(٥)، والقاضي أبو عبد الله الصيمري(٦).

على أن الفاطميين أخذوا يضاعفون جهودهم في نشر دعوتهم وصادفوا كثيراً من النجاح في هذه السبيل، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين. لذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطعنون فيه في نسب الفاطميين(٧)، ثم يكتبون في سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر لتنفير قلوب المسلمين من الفاطميين(٨). وكان هؤلاء الذين طعنوا في نسب الفاطميين مدفوعين في هذا الأمر بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم للمذهب الفاطمي.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٢) كان من أئمة زمانه في الفقه، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه، كما قام بالتدريس في مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع بن يونس، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه: الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠)، ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ ـ ٢٠).

(٣) بفتح الكاف وضم الفاء، نسبة إلى كشفل إحدى قرى خراسان.

(٤) بضم القاف والدال، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق، وكان من أشهر القضاة، وله كتاب في الفقه يسمى مختصر القدوري.

(٥) هو علي بن المحسن بن علي بن محمد، اشتهر بالأدب، وصحب أبا العلاء المعري، وأخذ عنه، وتقلد قضاء كثير من النواحي كالمدائن وقرميسين، وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ ـ ١٩٢١) الذي ترجمه إلى الإنجليزية د. س. مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢)، وتوفي سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠.

(٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣.

(٨) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٣٧.

انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.

وكذلك كان الخليفة المستنصر الفاطمي لا يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين. ولذلك نراه يؤيد البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ويتعهد بإمداده بالمال والرجال، ومن ثم يبعث داعيته الجريء المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سفيراً من قبله لإثارة حماسة جند البساسيري وحثهم على إذكاء نار الثورة في وجه الخليفة العباسي. ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند الذين بعث بهم إليه من بلاد الشام، كما أرسل إليه كتاباً يعبر فيه عن تقديره لموقفه[١].

(٣) علاقة الفاطميين بالحجاز:

وقد أخذ الفاطميون منذ عهد المعز لدين الله يهتمون ببسط نفوذهم في بلاد الحجاز، لأنهم كانوا يعلمون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي كله، ويكسب خلافته قوة أمام العالم الإسلامي من ناحية، وأمام الشعوب التي يحكمونها وأمام العالم كله من ناحية أخرى. هذا إلى أن هذا الأمر يقلل من شأن الخلافة العباسية، لأن أمير المؤمنين حقاً هو الذي يستطيع أن يبسط نفوذه على الحرمين في مكة والمدينة[٢].

وقد أقام الحسن بن جعفر أمير مكة الخطبة للمعز الفاطمي على منابر بلاده في سنة ٣٥٨ هـ[٣]، كما أقيمت الخطبة لهذا الخليفة الفاطمي في المدينة المنورة[٤]. وبذلك انتشر النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز. وفي عهد العزيز انقطعت الخطبة للفاطميين[٥]، وظلت السيادة الفاطمية مزعزعة حتى سنة ٣٨٠ هـ حين أرسل العزيز الفاطمي حملة حاصرت مكة والمدينة وأعادت الخطبة للفاطميين، وقطعت الدعوة للعباسيين[٦]. وظلت الحال على ذلك حتى سنة ٤٠٠ هـ، حين خلع أمير مكة طاعة الفاطميين، ولكنه لم يلبث أن اعتذر[٧] إلى الخليفة الفاطمي ودخل في طاعته؛ فعفا عنه وأعاده إلى إمارة الحرمين وأقام له الخطبة ونقش اسمه على السكة[٨]. وظلت بلاد الحجاز تدين بالطاعة للفاطميين في عهد الظاهر

(١) المؤيد في الدين: السيرة المؤيدية، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٤.
(٢) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (القاهرة سنة ١٩٥٠) ص ١٤.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ - ١٤٦.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٧٢.
(٥) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٠١.
(٦) نفس المرجع والصفحة.
(٧) المقريزي: خطط ج ٢ ص ١٥٧.
(٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨.

والمستنصر. وأقام شكر بن أبي الفتوح الدعوة للخليفة المستنصر في الحرمين حتى توفي سنة ٤٥٣ [١].

ولما ولي محمد بن أبي هاشم إمارة مكة، خلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسي؛ فسير المستنصر علي بن محمد الصليحي إلى مكة في سنة ٤٥٥ هـ فأعاد النفوذ الفاطمي إلى الحرمين. على أن الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر في أواخر عهد المستنصر حالت دون استمرار سيادتها على بلاد الحجاز، بعد أن انقطع ما كان يرد إليها من أموال. فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة القائم العباسي، وراسل السلطان ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٦٢ هـ.

(٤) علاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية:

استمرت تبعية بلاد المغرب للفاطميين حتى وليها المعز بن باديس الذي خرج على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلي، وشد أزر أهل السنة ودخل في طاعة الخليفة العباسي ودعا له على منابر بلاده ونقش اسمه على السكة. ويؤيد هذه التبعية ذلك الدينار الذي ورد بمجموعة متحف برلين وقد نقش عليه في الوجه الأول: «ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه. لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله. والوجه الثاني: باسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام القيروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة. يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ونذيراً وداعياً إلى الله»[٢].

كما خطب المعز بن باديس للخليفة العباسي القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) على منبر جامع القيروان[٣]، وأمر باتخاذ السواد شعار العباسيين.

وإن من يتبع العوامل التي أدت إلى زوال السيادة الفاطمية ببلاد المغرب، يرى أن ذلك يرجع إلى انتصار مذهب مالك وسيطرة فقهاء المالكية في القيروان على الدولة الزيرية، في الوقت الذي شغل فيه الخليفة المستنصر الفاطمي بالفتن والثورات والمجاعات.

ولم يقف المستنصر الفاطمي من هذه الأحداث الخطيرة التي تمخضت عن خروج إفريقية عن طاعة الفاطميين موقف المتفرج، فقد عمل على الانتقام من بني زيري الذين

---

(١) ابن خلدون العبر: ج ٢ ص ١٢٢.

انظر حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧ - ٢٣٩.

(٢) حسن أحمد محمود، بنو زيري وسياستهم الداخلية ص ١٧٤.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

خرجوا عليه برغم ما أسداه آباؤه لهم من مآثر فأطلق نحوهم قبائل الرياحية والزغبية(١) من بني هلال.

وقد خرجت قبائل هلال وسليم وزغبة ورياح وعدي والأثيج من مضاربهم بصعيد مصر سنة ٤٤٠ هـ وانقضوا على إفريقية، وأوقعوا بالمعز بن باديس في موقعة حيدران(٢) (٤٤٣ هـ)، ودخلوا القيروان وخربوها، وأتوا على تراثها الزاهر، وضعف ملك بني زيري بعد ذلك حتى لم يعد يجاوز أسوار مدينة المهدية(٣). وقد طرب المستنصر الفاطمي لهزيمة الزيريين، واستطاع أن ينتقم لنفسه منهم. وعبر عن سروره في الرسالة التي بعث بها إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن(٤).

وقد ظلت الخطبة تقام للعباسيين في المغرب حتى قامت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت. ولما توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٨ م) خلفه عبد المؤمن بن علي، الذي قطع الخطبة للخليفة العباسي المقتفي، وتلقب بلقب أمير المؤمنين(٥).

والآن ننتقل إلى الكلام على علاقة الفاطميين بصقلية:

ظل ولاة صقلية من قبل الفاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجري في نزاع متصل مع الروم. وكان لهذا أثره في إضعاف نفوذ الفاطميين في هذه الجزيرة. فلما ولي الأكحل أمور هذه الجزيرة، جمع أهلها وقال لهم: «أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم في بلادكم، والرأي إخراجهم، فقالوا: قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً»(٦). على أن الأكحل لم يعبأ بذلك، وأرسل إلى الإفريقيين من أهل صقلية فلبوا طلبه، وظل يحمي أملاكهم ويأخذ الخراج من أهل الجزيرة. غير أن هذه السياسة التي اتبعها هذا الوالي أساءت إلى صقلية: فسار فريق منهم إلى المعز بن باديس الصنهاجي أمير إفريقية وشكوا إليه ما حل بهم، وهددوا بتسليم بلادهم إلى الروم. فسير معهم ابنه عبد الله(٧) الذي حاصر

---

(١) من بطون بني هلال الذين استقروا بصعيد مصر في عهد الفاطميين.

(٢) قطعت الخطبة للفاطميين في إفريقية سنة ٤٣٥ هـ وخرج العرب من مصر في طريقهم إلى بلاد المغرب في سنة ٤٤٠ هـ. ووقعت موقعة حيدران في سنة ٤٤٣ هـ، أي أن زحف العرب استغرق ثلاث سنوات (٤٤٠ - ٤٤٣ هـ).

(٣) حسن أحمد محمود: بنو زيري وسياستهم الداخلية ص ١٩٠ - ١٩١.

(٤) سجلات وتوقيعات الإمام المستنصر بالله، رسالة رقم ٥ ص ٤٥.

(٥) أبو المحاسن: ج ٥ ص ٥٠ - ٥٦.

(٦) أماري: المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٣ وما يليها.

(٧) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

الأكحل وقتله. وثار فريق من الأهالي وولوا عليهم «حسن الصمصام» أخا الأكحل. ولكن هذا الوالي لم يكن حسن السياسة، فثار عليه أهل الجزيرة، واستعان بعضهم بالفرنجة ومنوهم الاستيلاء على البلاد، فرحبوا بهذه الدعوة واستولوا على كثير من مدنها.

ولما رأى المسلمون ما حل بهم من الهزيمة، سار فريق منهم إلى المعز بن باديس وطلبوا إليه العون على طرد الروم، فأرسل إليهم أسطولاً غرق أكثر رجاله. ولم يلبث ابن باديس أن توفي، وخلفه ابنه تميم، فأبطل ذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمي في الخطبة (٤٤٣ هـ) ونشر الدعوة للقائم العباسي. وبذلك تقلص نفوذ الفاطميين في المغرب وصقلية، وظلت الدعوة تقام لبني العباس في هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين كما تقدم.

أرسل تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية أسطولاً لمساعدة المسلمين في صقلية على طرد الروم منها. ولم يكد هذا الأسطول يصل إلى الجزيرة حتى قامت الفتنة بين أهلها وبين تميم بن المعز، وانتهز النرمنديون هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة وثغورها، وضيقوا الخناق على المسلمين واشتعلت الحرب بينهم وبين النرمنديين زمناً طويلاً حتى اضطر المسلمون إلى التسليم، وتم لروجر النرمندي الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ[١].

هكذا فقدت الدولة الفاطمية نفوذها في صقلية بعد أن قام ولاتها بكثير من الإصلاحات فيها، ونشروا في بلادها ألوية العدل، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة، فزادت ثروة سكانها، وعمت الخيرات فيها، وافتن أهلها في ضروب الترف والنعيم. وظل المسلمون لا يمتازون عن النصارى في شيء، يتمتع كل منهم بعقيدته وأسلوب معيشته؛ وقد تشبه نساء النصارى بنساء المسلمين فانتقبن النقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، ولبسن الحرير الموشى بالذهب وتزين بكل ما يتزين به المسلمات؛ ولم يرهق الفاطميون النصارى بالضرائب، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم: دينارين من أغنيائهم، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات.

وقد شهد عصر الخليفة المستنصر زوال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب وصقلية، ويرجع ذلك إلى انشغاله بإخماد الفتن الداخلية التي صحبها الغلاء والوباء مما أدى إلى ضعف مصر. كما قطعت الدعوة للمستنصر بعد وفاة الصليحي في اليمن سنة ٤٧٣ هـ.

---

(١) أماري: المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢.

ولم يكتف الفرنجة باستيلائهم على جزيرة صقلية، بل تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل أفريقيا الشمالي، فاستولوا على المهدية حاضرة الدولة الفاطمية الأولى.

(٥) علاقة الفاطميين والعباسيين باليمن :

وقد راجت الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي (ت ٤٥٩ هـ). وكان أبوه من القضاة السنيين في هذه البلاد. وقد استمال عامر بن عبد الله الزواحي داعي دعاة الإسماعيلية في اليمن، علي بن محمد الصليحي، فتحول إلى المذهب الإسماعيلي وهو في حداثة سنه، وتفقه فيه، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم. كما استطاع علي بن محمد الصليحي أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضي على مناوئيه (سنة ٤٣٩ هـ). ولما استقرت قدمه في هذه البلاد، «كتب إلى صاحب مصر، وهو معد المستنصر من بني عبيد، ووجه إليه بهدايا، فوجه معد المستنصر إليه برايات وألقاب، وعقد له الولاية»[١](سنة ٤٥٣ هـ). ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان علي بن محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن.

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلي بن محمد الصليحي في إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها. ولما تم له ما أراد قضى على الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها، ولكنه لم يلبث أن قتل في سنة ٤٥٩ هـ[٢]وهو في طريقه إلى مكة، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المكرم ابن علي الصليحي (ت ٤٧٨ هـ)، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم (٥٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن، تلك الدعوة التي لا تزال منتشرة على أيدي البهرة في الهند.

وقد استطاع علي الصليحي أن يوطد نفوذ الفاطميين في الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرها، فأشاد المستنصر بفضله وخلع عليه لقب «عمدة الخلافة»[٣].

---

(١) الحمادي اليماني : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣.

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٥.

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣ هـ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣هـ. ولكن الرسائل التي تبودلت بين المستنصر الفاطمي وبين الصليحيين تؤيد أن موته سنة ٤٥٩هـ. راجع سجلات المستنصر في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلبنان The Letters of Al-Mustansir. B.S.O.S. p. 323.

(٣) جاء في رسالة رقم ٢ (ص ٣٢). وقد خوطب رسلك بما يذكرون لك مما يقوي نفسك ويشرح صدرك ويشد أزرك. وزاد أمير المؤمنين في نعوتك «عمدة الخلافة» لاعتماده عليك.

وكان الخليفة المستنصر يبعث إلى علي الصليحي بأنباء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليذيعها على الناس ويعلنها من فوق منابر بلاده.

ولم تتبدل العلاقات بين الفاطميين والصليحيين بوفاة علي الصليحي سنة ٤٥٩ هـ، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المكرم الذي أقره الخليفة الفاطمي على بلاد اليمن وعهد إليه بالاضطلاع بشئون الدعوة الفاطمية في اليمن[١]. وظلت كتب المستنصر إلى المكرم تواتيه لأنه ظل على ولائه للفاطميين. وقد عرف له الخليفة الفاطمي هذا الولاء، فولاه عمان سنة ٤٦٩ هـ. وأمره أن يعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله ابن علي العلوي أمير الأحساء[٢]. وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي فعهد إليها بأن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهند وفي عمان، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد[٣].

(٦) علاقة المسلمين بالصليبيين:

(أ) أسباب الحروب الصليبية

تطلق الحروب الصليبية على الحملات التي وجهها المسيحيون في أوروبا إلى الشرق من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري (الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي) للاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين. وتمتاز هذه الحروب في بدايتها على الأقل بصفتها الدينية وانعدام كل المميزات الجنسية والقومية، إذ أصبح المتحاربون شعباً واحداً هو الشعب المسيحي. ومن ثم أطلق على هذه الحروب الحروب الصليبية.

ومن أهم الأسباب التي دفعت المسيحيين إلى خوض غمار هذه الحروب:

(١) ظهور السلاجقة في بلاد الأناضول وآسيا الصغرى التي انتزعوها من الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وهددوا القسطنطينية وانتزعوا بيت المقدس (١٠٧٨/٤٧١) من الفاطميين. وكان المسيحيون يزورون بيت المقدس في أمن وطمأنينة، فلما جاء السلاجقة وقفوا للصليبيين بالمرصاد وأثاروا بذلك الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين في العصور الوسطى يعتقدون أن الحج إلى بيت المقدس يؤدي إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية.

---

(١) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢١٦.

(٢) راجع Hamdanî, Letters of Al-Mustansir (Bsos), 1934, Vol, III, Part II, pp. 316 - 317.

(٣) Ibid., p. 321.

وليس هذا عجباً لأن الناس في هذه الحروب، وعلى الأخص في عهد الإقطاع، كانوا يقترفون بسبب جهلهم الآثام، وكانوا يخشون قوة الكنيسة ويعتقدون أن لا منجاة لهم من هذه الآثام إلا بالأعمال الصالحة، كالصوم والتقشف في الملبس والحج إلى الأماكن المقدسة التي وطئتها أقدام المسيح وصلب على أرضها من أجل خلاص العالم. فإذا كان ثواب الحج إلى هذه الأماكن عظيماً، فإن ثواب قتال المسلمين، أو الكفار (على ما كان يعتقد المسيحيون في ذلك الوقت) لتخليص هذه الأماكن المقدسة أعظم. ومع ذلك فإنه يبدو أن الأخبار التي ذاعت قبل الحروب الصليبية عن تعصب السلاجقة وسوء معاملتهم الحجاج مبالغ فيها.

(٢) ظهور الروح الحربية في الكنيسة، تلك الروح التي قامت أول الأمر على المودة والمحبة والإخاء وحب السلام ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصدراً لحروب دموية استمرت عدة قرون. وذلك يرجع إلى دخول العناصر المتبربرة في الدين المسيحي واحتفاظها بنزعتها الحربية التي درجت عليها قبل اعتناقها هذا الدين، وإلى رغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق كما فعل الإسلام من قبل وتأسيس مستعمرات لاتينية فيه، ورغبة الكنيسة الغربية في السيطرة على جميع العالم المسيحي ليكون تحت سلطة حكومة دينية واحدة رئيسها البابا. أضف إلى ذلك الروح التي كانت سائدة بين الفرسان والأشراف وميلهم إلى الحروب والمخاطر في سبيل الدفاع عن الكنيسة ورغبتهم في تكوين إمارات في الشرق، ورغبة الرقيق في التخلص من نظام الإقطاع الذي كان يربطهم بالأراضي، وكذا التخلص من أداء ديونهم أو من زوجاتهم أو من المحاكمة على ما اقترفوه من الجرائم.

(٣) انتصار البابوية على الإمبراطورية وتفوق نفوذ البابا على غربي أوروبا مما جعل دعوته مسموعة وكلامه مطاعاً.

(٤) رغبة المدن التجارية مثل البندقية وجنوة وبيزا في نشر تجارتها في الشرق.

ومن العوامل التي مهدت السبيل لقيام الحروب الصليبية:

(١) انقسام دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه وتفكك الوحدة الإسلامية وعدم وجود زعيم قوي يجمع شتات القوات الإسلامية. أضف إلى ذلك ضعف الدولة الفاطمية وعدم قدرتها على درء خطر المسيحيين عن سواحل الشام ومصر.

(٢) قيام المدن الإيطالية، وخاصة جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا، وتغلب قواتها البحرية على قراصنة البحر الأبيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب، واحتلال النورمنديين جنوبي إيطاليا وصقلية مما سهل على الصليبيين عبور هذا البحر إلى فلسطين.

(٣) تحول المجريين إلى المسيحية الأمر الذي فتح الطريق بين غربي أوروبا والشرق.

(ب) الدعوة إلى الحروب الصليبية

استولى أحفاد طغرلبك على آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية. وقد قيل إن إمبراطور الروم أرسل إلى البابا أربان الثاني يطلب مساعدته. كما قيل أيضاً إن بطرس الناسك هو الذي أثار الحرب الصليبية الأولى بسبب ما كان يذيعه من اضطهاد السلاجقة للحجاج المسيحيين. على أنه يظهر من أقوال المؤرخين أن بطرس الناسك لم يذهب قط إلى فلسطين ولم ير البابا أربان إلا بعد أن أعلنت الحرب الصليبية الأولى، وأنه بعد إعلان الجهاد جمع شرذمة من الغوغاء رجالاً ونساءً وسار بهم إلى فلسطين. ومهما يكن من شيء فإنه مما لا ريب فيه أن البابا أربان الثاني رحل في سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) إلى فرنسا وعقد في مدينة «كليرمونت» مجمعاً حضره كثير من رجال الدين والفرسان، وشرح لهم حال المسيحيين في بيت المقدس وما يلاقيه الحجاج المسيحيون من المشاق والآلام. ودعا النصارى إلى حمل السلاح والذود عن الهيكل المقدس.

ولم يكد البابا يتم خطابه حتى أحاط به الآلاف من الناس، وأقسموا الأيمان على أن يأخذوا بناصر دينهم. فعلق البابا لكل من المتطوعين صليباً من الخشب على ذراعه الأيمن، فأصبح هذا الصليب شعار الحرب. ومن ذلك الوقت أطلق على هذه الحروب اسم الحروب الصليبية. ثم أعلن البابا حماية الكنيسة لأملاك المحاربين وأسرتهم ومضاعفة جزاء من يشترك فيها، وغفران ذنوب الخاطئين ودخول من يموت منهم في جنات النعيم. وقد بث البابا الأساقفة في طول فرنسا وعرضها لنشر دعوة الجهاد، ومن هؤلاء بطرس الناسك، وكان خطيباً مفوهاً، وسرعان ما سرت روح الحرب الدينية إلى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم وتسربت إلى أعماق نفوسهم، فهرعوا من كل صوب وحدب واتحدت أوروبا المتنازعة المنقسمة إلى دوقيات بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية لأول مرة، على حين كان المسلمون إذ ذاك منقسمين على أنفسهم متنازعين.

وعلى أثر إعلان الدعوة إلى الحروب الصليبية اجتمعت طبقات من الغوغاء وساروا في غير نظام ولا استعداد تحت قيادة بطرس الناسك، بدون تخليص بيت المقدس. فجعلوا ينهبون البلاد التي مروا بها، مقترفين في طريقهم الجرائم الشنيعة، حتى أدى الأمر إلى قيام المجريين والبيزنطيين في وجههم. ولما وصلوا إلى القسطنطينية رأى الامبراطور أن يتقي

شرهم، فساعدهم على السير إلى آسيا الصغرى والتقدم إلى «نيقيا»، حيث قابلهم السلاجقة وأفنوهم على بكرة أبيهم (٤٨٩/١٠٩٦).

(ج) الحرب الصليبية الأولى

في هذه الأثناء كان الاستعداد للحملة الصليبية الأولى قائماً على قدم وساق في أكثر ممالك أوروبا. وقد قام البابا بتنظيم هذه الحملة، فقرر أن تبدأ سيرها في ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) وأن يكون اجتماعها خارج أسوار القسطنطينية. غير أنه لم يكن لهذه الجيوش قائد يجمع شملهم ويوحد كلمتهم. أما الزعامة فقد عهدت إلى عدد من خيرة الأشراف والقواد وأغلبهم من فرنسا وهم:

(١) جودفري دوق اللورين الأسفل مع إخوته.

(٢) بولدوين.

(٣) يوستيس.

(٤) روبرت دوق نورمنديا وابن وليم الفاتح.

(٥) روبرت كونت فلاندر.

(٦) ستيفن كونت شارتر.

(٧) ريمون كونت تولوز.

(٨) هيو أوف فيرماندو.

(٩) بوهيمند دوق تورنتم وابن أخيه تانكرد.

ولم يكن لهؤلاء الزعماء خطة مشتركة بل عمل كل منهم مستقلاً عن الآخرين. أما ملوك أوروبا فإنهم لم يشتركوا في هذه الحملة، إذ كان فيليب الأول ملك فرنسا وهنري الرابع إمبراطور ألمانيا مطرودين من رحمة الكنيسة. وكان ملوك أسبانيا في حرب مع المسلمين، على حين كان ملك إنجلترا شاباً صغيراً لا يهمه من أمور الدين شيء. لذلك سارت هذه الحملة تحت لواء البابا يقودها نفر من الأشراف. وكان سيرها على مثال البرابرة أثناء غزواتهم لرومة لا جيشاً منظماً بالمعنى المعروف مما جعلها تنوء بمطالب الحياة اليومية.

وقد اتخذ كل زعيم طريقاً خاصاً مع جنده. وقد قيل إنهم بلغوا مليوناً من الرجال

والنساء والأطفال والخدم، بينهم عدد من المحاربين يختلف بين ٢٠٠ و٣٠٠ ألف مقاتل. فلما وصلوا إلى أبواب القسطنطينية خشي الإمبراطور «أليكسيوس» عاقبة أمرهم. لكنه استطاع أن يتفق مع بعض قوادهم على أن يردوا إليه ما عسى أن يستولوا عليه من أملاكه على أن يمدهم بما يحتاجون إليه من المؤن والذخائر.

ثم عبر الصليبيون البوسفور وحاصروا مدينة نيقية. فنقل قليج أرسلان صاحب سلطنة الروم ملكه إلى قونية، فاتفق الروم مع السلاجقة على أن يدخلوها وحدهم، فغضب الصليبيون لذلك، لأن الإمبراطور لم يسمح لهم بسلب المدينة. ثم تقدم الصليبيون إلى دوريليم حيث هزموا جيوش أرسلان، بينما تفرغ الإمبراطور البيزنطي لاسترداد آسيا الصغرى ويئس من الاتفاق مع الصليبيين، فكف عن مساعدتهم وأخذ يناهضهم لاسترداد ما دخل تحت حوزتهم.

وقد اختلف بولدوين وتانكرد كل يريد أن تكون الأولوية للوائه؛ فانسلخ بولدوين إلى الرها تلبية لدعوة أميرها، فاستقل بها وأسس فيها إمارة لاتينية. أما سائر الصليبيين فقد زحفوا على أنطاكية وحاصروها (أكتوبر ١٠٩٧) تسعة أشهر قاسوا فيها أشد آلام المرض والجوع حتى دب اليأس في نفوسهم، ثم دخلوها عنوة (١٠٩٨ م) ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل وقتلوا منهم عشرة آلاف وأمروا عليها بوهيمند.

وباستيلاء الصليبيين على أنطاكية خلا لهم الطريق، فاستأنفوا الزحف على أورشليم. واقتصر الإمبراطور البيزنطي على إمدادهم بالمرشدين، فدخلوها عنوة في يونيه سنة ١٠٩٩ م. وكان عدد جيش الصليبيين إذ ذاك أربعين ألفاً، مما يدل على معظم الخسارة التي لحقت بهم منذ رحلوا إلى أرض المشرق. وقد حدثت على أثر دخول الصليبيين مذبحة شنيعة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً، حتى خاضت خيولهم في بحر من الدماء كما ذكر جودفري في رسالته إلى البابا يهنئه فيها بالظفر.

وعلى أثر هذا الفتح انتخب جودفري ملكاً على بيت المقدس لما امتاز به من البسالة والإقدام، فاكتفى بلقب حامي قبر المسيح.

ثم أخذ الصليبيون يقتحمون المدن الباقية في فلسطين، وسهل عليهم هذه المهمة تلك المساعدات التي كانت تقدمها أساطيل المدن الإيطالية. فاستولوا على عكا، ثم على صور، وأنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند. وعلى أثر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عاد عامة جندهم إلى أوطانهم، وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى.

كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أهم نتائج هذه الحرب، فلم يحفل الغربيون بالخسائر الفادحة التي حلت برجالهم. ولما عاد المحاربون إلى أوطانهم قوبلوا بكل مظاهر الحفاوة والترحيب. وقد أثارت الحكايات التي نشرها المحاربون بين مواطنيهم كثيراً من ضروب الحمية والحماس التي مهدت لهم السبيل لتنظيم حملة صليبية أخرى إلى الشرق. كما تكونت أربع إمارات لاتينية في الشام هي:

(١) بيت المقدس ويحكمه جودفري ثم أخوه بولدوين من بعده.

(٢) أنطاكية وأميرها بوهيمند ثم ابن أخيه تانكرد من بعده.

(٣) طرابلس وأميرها ريمند.

(٤) الرها وأميرها بولدوين.

كما استطاعت الدولة البيزنطية أن تسترد جزءاً كبيراً من آسيا الصغرى، وبدأت جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين. ورحل إلى فلسطين كثير من الغربيين واتخذوها دار إقامة واندمجوا مع الأهالي وتصاهروا معهم، وأصبحت هذه البلاد النائية وطناً لهم. كذلك قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوروبا، فكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى على الرغم من أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم. وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة بسبب تغلب العنصر الفرنسي؛ ولذلك أطلق العرب اسم الفرنجة على الصليبيين جميعاً.

ولتحقيق تضامن الصليبيين في الدفاع عن الأراضي المقدسة والعناية بالمرضى والجرحى والحجاج، قامت عدة جمعيات دينية لتحقيق هذه الأغراض، وأهم هذه الجمعيات: طائفة فرسان المعبد، وفرسان القديس حنا، ويسمى أعضاء هذا المعهد Templars وكان يتحتم على هؤلاء الأعضاء الطاعة والطهارة والعفاف. ولذلك انضم إليهم كثير من فرسان الغرب وأغدق عليهم الأغنياء الخيرات، فأثروا وكونوا قلاعاً وضياعاً في أوروبا وآسيا.

(د) الحروب الصليبية الثانية (١١٠٠ ـ ١١٠٤)

لم يحسن الصليبيون في الشرق سياستهم مع أنفسهم ولا مع إمبراطور الروم لما كان بينهم من المنافسة والحقد والضغية والمكائد. وطالما تحالف المسيحيون مع المسلمين

ضد غيرهم من المسيحيين. وتمتاز فترة هذه الحرب بوجود زعيم قوي جمع شتات المسلمين هو عماد الدين زنكي الذي وجه همته نحو إخراج الصليبيين من الشرق. وكان عماد الدين عاملاً من قبل العباسيين على الموصل والعراق ذات العلاقات التجارية بأكثر بلاد الشام. وفي سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) تقدم عماد الدين حتى استولى على الرُّها وهدد كلاً من أنطاكية وبيت المقدس، ففزع الفرنجة من خطر هذا الهجوم، وطلب الصليبيون في الشرق معونة دول أوروبا. غير أن الحال في أوروبا قد تبدلت بوفاة البابا أوربان الثاني، فلم يلب أهل أوروبا نداء الصليبيين بنفس الروح القديمة، وذلك لقيام النزاع بين رجال الكنيسة على البابوية وضعف البابوات أنفسهم، وازدياد ثروة أهل أوروبا لرواج تجارتهم مما أدى إلى تغيير يذكر في حالة الشعوب.

ولانشغال أذهان الناس بالمصالح السياسية لم يعودوا يهتمون بتأييد الكنيسة، وبدأوا يعتقدون أن سلطة البابا يجب ألا يتعدى سلطته الروحية. أضف إلى ذلك ازدياد قوة الملكية في عهد لويس السادس ملك فرنسا، وتأسيس رودجر النورمندي مملكة تضم صقلية وجنوبي إيطاليا، وازدياد الثروة وازدياد النزعة الاستقلالية في مدن سهل لومباردي، وإيقاظ الحركة الفكرية، إذ بدأ الناس يفكرون تفكيراً حراً غير متأثر بالتعصب الديني. كما كان لدراسة القانون أثر بعيد في حرية الفكر. وأخذ الشعراء ينظمون قصائدهم في الغزل والخمر. وهكذا أضحى الناس لا يفكرون إلا في التمتع بمظاهر هذه الحياة الجديدة.

ولذلك كله أصبح من الصعب أن تنشب حرب صليبية أخرى. ومع ذلك فقد استطاع «برنارد أوف كليرڤو» (Bernard of Clairvaux) أن يجمع بحسن بيانه وقوة حجته عدداً كبيراً من المسيحيين للدفاع عن البلاد التي كلفتهم ثمناً غالياً من المال والرجال.

على أن هذه الحرب تمتاز عن الحرب الصليبية السابقة بانضمام لويسْ السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث إمبراطور ألمانيا بعد بضعة شهور. ولكن الفرنسيين والألمان اختلفوا بادىء ذي بدء في خطة العمل حتى اضطروا إلى مواصلة سيرهم إلى الشام بطريق البحر، فوصل الفرنسيون إلى انطاكية. أما جيش الألمان الذي كاد أن يستأصل بدسيسة إمبراطور الروم فقد سار إلى عكاء، واتفق الفريقان على الاستيلاء على دمشق ليسيطروا على الطريق الداخلي الموصل إلى الشام. وارتكبوا بذلك خطئاً حربياً؛ لأن أمير دمشق كان موالياً للصليبيين، غير أن قوات عماد الدين زنكي (الذي توفي سنة ١١٤٦/٥٤١) أحاطت بهم من كل جانب تحت قيادة ابنيه سيف الدين الذي خلفه في ولاية الموصل، ونور الدين محمود

الذي خلفه فيما بعد في ولاية حلب، واضطر الصليبيون إلى التقهقر. وأرغم كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا على العودة إلى بلاده بسبب مرضه، وتبعه ملك فرنسا بعد قليل.

ويعتبر ذلك إخفاقاً تاماً للصليبية ومشجعاً للمسلمين. وقد هيأ هذا الإخفاق الظروف لاستيلاء نور الدين على دمشق سنة ٥٤٩/١١٥٤ ثم على حلب سنة ٥٥٤/١١٥٩. فعمل نور الدين على الاستيلاء على الولايات اللاتينية في الشام، لولا انتقال ميدان القتال إلى مصر.

وقد أخفقت الحرب الصليبية الثانية إخفاقاً تاماً وساعدت على تقوية الوحدة بين المسلمين. كما ظهر ضعف الصليبيين في الشام، فقل عدد الحجاج، وضجر أهل أوروبا لهذا الإخفاق، فلم يفكروا في قيام حرب صليبية أخرى قبل وقت طويل.

(هـ) الحرب الصليبية الثالثة

اشتهر في هذه الحرب زعماء كثيرون من المسلمين، منهم نور الدين وصلاح الدين، أما نور الدين فقد قوي مركزه في الشام باستيلائه على دمشق وحلب كما تقدم، وأصبحت مملكة الصليبيين معرضة لهجمات المسلمين، غير أن مسرح القتال انتقل فجأة إلى مصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية عقب موت الوزير الصالح طلائع بن رزيك(٥٥٧/١١٦١) واستيلاء أسد الدين شيركوه (ومعه ابن أخيه صلاح الدين) على بلبيس ثم على الفسطاط ولكنه اضطر إلى العودة إلى الشام بعد أن وقف على ضعف مصر، وأخذ يعمل على الاستيلاء عليها. وفكر في إعداد حملة ثانية على مصر، ولكن سرعان ما فكر الصليبيون في ارسال حملة لغزو مصر، وأغاروا على بلبيس، فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين الذي أنفذ إلى مصر أسد الدين شيركوه على رأس جيش كثيف من التركمان، فوصلوا إلى القاهرة وانضم إليهم المصريون، وأرغم عموري على العودة إلى فلسطين، فدخل شيركوه القاهرة ورحب به المصريون وخلع عليه الخليفة الفاطمي.

ثم بدأ الوزير شاور يكيد المكائد لأسد الدين شيركوه الذي قتله في يناير سنة ١١٦٩ (٥٦٥ هـ) واستقر في مكانه في الوزارة. غير أن المنية عاجلت شيركوه في مارس من هذه السنة، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في الوزارة، فلم يلبث أن أزال الخلافة الفاطمية. وامتد سلطانه إلى حلب والموصل بعد وفاة نور الدين، ثم إلى غربي آسيا. وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين من كل جانب.

اشترك صلاح الدين في الحرب الصليبية الثالثة اشتراكاً أكسبه تلك الشهرة التي يعرفها

له التاريخ ،حيث استولى على كثير من القلاع والحصون التي كانت في أيدي الصليبيين ، وسقط في يده بيت المقدس. وقد هال انتصار صلاح الدين أهل أوروبا وحرك همم بعض ملوكها ، فأعدوا العدة لحرب صليبية جديدة. وأخذ هؤلاء الزعماء يكونون جيوشاً منظمة ، ودعوا حكامهم إلى تنظيم حملة جديدة لاسترداد هذه الأقاليم المفقودة.

وقد انتهت هذه الحرب الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢) وأصبحت فلسطين أرضاً إسلامية ، ما عدا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى عكاء.

(و) الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤)

كان الضعف قد أخذ من دول الغرب كل مأخذ بعد ما فقدوا من العدد والعدة في حروبهم مع الشرق؛ فخارت عزائمهم وضعفت نفوسهم. إلا أنه كان لا يزال هناك عدد غير قليل من الناس على استعداد لتلبية نداء البابا إنوسنت الثالث الذي استطاع أن يجمع حوله آلاف الفرسان ويتفق مع الدوق داندولو رئيس جمهورية البندقية أن يمدهم بالسفن والمؤن مقابل مبلغ من المال، على أن يقتسموا معه ما عسى أن يستولوا عليه من الغنائم والأراضي.

ولما كان من المتعذر على الصليبيين أن يدفعوا ثمن نقل هؤلاء الفرسان، عرض عليهم الدوج، وكان رجلاً مسناً ذا مكر ودهاء، أن يشتركوا معه في إخضاع مدينة «زارا» (الواقعة على بحر الأدرياتيك) تنفيذاً لأغراضه التجارية، مقابل إعفائهم من هذا الدين. فهاجم الفريقان المدينة وخربوا ما فيها (٥٩٩/١٢٠٢)، ثم طلبوا من البنادقة أن ينقلوهم على سفنهم إلى مصر أهم مراكز القوى الإسلامية في ذلك الحين.

ولما كانت مصر ذات علاقات تجارية مع البندقية، رأى الدوج أن يحول الصليبيين عن غرضهم الأصلي، وعرض عليهم مهاجمة القسطنطينية لضغينة كانت في نفسه، ولأن هذه المدينة كان لها الزعامة بين مدن البحر الأبيض المتوسط. وقد عزز أغراض الدوج استنجاد أليكسيس (Alexius) ابن الامبراطور المخلوع من عرش القسطنطينية بالصليبيين لاسترداد عرش أبيه مقابل مبلغ كبير من المال، على أن تشترك معهم فيما بعد قوى إمبراطوريته في إخضاع المسلمين.

وعلى الرغم من أن هذا العمل لا يتفق والغرض الأساسي للحملة، رحب به الصليبيون، غير مبالين بتهديد البابا بحرمان زعمائهم من رحمة الكنيسة، لأن أغراضهم كانت أغراضاً دنيوية مصدرها حب المال من أي طريق. فتحول الصليبيون إلى القسطنطينية

واستولوا عليها، ثم اختلفوا مع الإمبراطور لأنه لم يدفع لهم الأموال التي وعد بدفعها. فاشتطوا في جمع الأموال وأدى ذلك إلى قيام الثورة وفرار الإمبراطور عن حاضرة ملكه. فدمر الصليبيون المدينة ونهبوا ما فيها، وحطموا التماثيل والتحف، ثم اقتسموا البلاد فيما بينهم، وأنشئوا فيها ما عرف باسم الإمبراطورية اللاتينية، واختاروا بولدوين دوق فلاندر إمبراطوراً على القسطنطينية.

وفي هذه الأثناء اشتبك اللاتينيون في حرب مع البلغار قتل فيها الإمبراطور بولدوين، وتزعزعت الإمبراطورية حتى هاجمها الإغريق الذين أقاموا حاضرتهم في نيقية، فقضوا عليها سنة ٦٦٠/١٢٦١ واستردوا ملكهم.

ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى إضعاف وسائل الدفاع عن القسطنطينية.

أما الحملات التي تلت هذه الحروب فلم تكن ذات أهمية من حيث نتائجها، لأن العاطفة الدينية التي اتقدت في الحرب الأولى قد خمدت جذوتها وحلت محلها الروح المادية. وليس أدل على ذلك من أن الحملات التي وجهت إلى مصر كانت ابتغاء الربح التجاري بدلاً من أن توجه إلى بيت المقدس.

لماذا انتهت الحروب الصليبية؟ نتائجها:

إذا كانت الحروب الصليبية قد وقفت عند هذا الحد فإن الفكرة ظلت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حين دعا البابوات أهل أوروبا إلى خوض غمارها ضد المسلمين. ومع ذلك فقد لبى بعض ملوك فرنسا هذا النداء، لا لغرض سوى اتخاذ هذه الفكرة ذريعة لجمع الضرائب.

على أن أسباب انتهاء الحروب الصليبية ترجع إلى أن الصليبيين كانوا بصفة عامة في مبدأ أمرهم جماعات غير منظمة أو غير موحدة تحت لواء زعيم واحد يجمع شملهم ويلم شعثهم، وقد ظهرت بين صفوفهم المنافسة والمطامع الشخصية. ثم اتجهوا أخيراً نحو الغنم المادي، وانحرفوا عن الروح الديني الذي قامت الحروب الصليبية من أجل تحقيقه.

وقد ظهرت النزعات القومية وحلت محل النزعات الدينية، فأصبحت كل مملكة في حاجة إلى الاحتفاظ بقوتها لصالح وطنها، كما آثرت المدن التجارية المصلحة الاقتصادية على بذل الجهود في سبيل ما يسمى الحروب الدينية.

وهكذا انتهت الحروب الصليبية بطرد الصليبيين من المشرق وانتصار المسلمين بفضل

اتحاد كلمتهم وتوحيد جهودهم وبعدهم عن الحزازات الشخصية مما جعلهم قوة يخشى بأسها وشوكة في جانب الأوروبيين الذين كانوا يهدفون إلى استعمار هذه الجهات.

ومن هنا نرى أن الحروب الصليبية لم تحقق الأهداف التي قامت من أجلها؛ إذ كانت الدولة اللاتينية التي قامت ببيت المقدس قصيرة الأجل. ومع هذا فقد كان للحروب الصليبية نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ولا سيما في البلاد التي قامت على أرضها هذه الحروب، وكذلك البلاد التي أقامت هذه الحروب. فقد صانت هذه الحروب الدولة البيزنطية وحالت دون إغارة السلاجقة على أوروبا وامتلاكهم جزءاً كبيراً منها. كما قوت مركز البابوية وعلى الأخص في العهد الأول من هذه الحروب. وجعلت الحروب الصليبية من الفروسية نظاماً ثابتاً وساعدت على ظهور جماعات الرهبان الحربية، وأضعفت نظام الإقطاع، إذ باع كثير من الأشراف أراضيهم ونزلوا عن ممتلكاتهم الإقطاعية للحصول على المال والاندماج في سلك الحروب الصليبية. وكان من أثر ذلك أن قامت طائفة أشراف جديدة، وزالت بعض الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض، كما ظهرت الطبقات الوسطى من العمال الأحرار.

وكذلك بثت الحروب الصليبية في شعوب أوروبا وملوكها روح الاتحاد من أجل هدف واحد، ودعمت مراكز الملوك، وقضت على نظام الإقطاع الذي حل محله نظام القومية بين الشعوب، كما ساعدت على نشاط حركة الملاحة لزيادة السفن التجارية التي قامت بنقل الجيوش المحاربة إلى المشرق، وساعدت على استيلاء المسيحيين على موانىء الشام وفتح أبواب التجارة بين الشرق والغرب، وأتاحت الفرصة للغربيين على الوقوف على معالم الحضارة الإسلامية العريقة، فجعلوا ينقلون إلى بلادهم الأقمشة المزركشة والحرير والسجاجيد والمرايات وأنواع النباتات والحيوانات، مما ساعد على نماء ثروة أوروبا وتقدمها الصناعي..

وبهذا أيقظت الحروب الصليبية النشاط الأدبي في أوروبا، فأخذ الكتاب يكتبون القصص ويدونون حياة أبطالهم. ومن نتائج هذه النهضة الأوروبية ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وإنشاء مدرسة لتعليم اللغات السامية بباريس، كما اقتبس الأوروبيون نظم الزراعة من الشرق، وزاد اهتمامهم بالرحلات والكشف على أثر ما نقله الصليبيون إلى بلادهم من أخبار بلاد المشرق، وظهر من بينهم رحالون عظماء، مثل ماركو پولو في القرن الثالث عشر، وخرستوف كولمب الذي كشف القارة الأميركية سنة ١٤٩٢، وماجلان الذي كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م.

وبعد فقد أثرت الحروب الصليبية على أوروبا من نواح أهمها: تأثير هذه الحروب في الكنيسة وفي كرسي البابوي، كما أثرت في الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوروبا بصفة عامة، ثم إنها أثرت أيضاً في العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة، وفي العلاقات التي تربط القارة الآسيوية بأوروبا وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضي الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر.

الباب السابع
الحركات السياسية والدينية

(١) القرامطة:

كان أهل حران وثنيين ينتمون في الغالب إلى أصل إغريقي. وقد رحلوا من بلادهم الأصلية فراراً من بطش المسيحيين بهم بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة الرومانية الشرقية في عهد الإمبراطور جستنيان. ومع ذلك فقد تمسك هؤلاء المهاجرون بالثقافة اليونانية ولا سيما بالثقافة الأفلاطونية الحديثة Neo-Platonic Philosophy، وفي العصر العباسي نقل وثنيو حران فلسفة اليونان وعلومهم إلى بغداد.

وكانت الكوفة التي ظهر فيها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة مهداً لتشيع متطرف غير إسلامي، وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام: كالصابئة التي يعبد أتباعها النجوم والكواكب، والمانوية، والزرادشتية[١]. ومن الفرق الشيعية الغالية السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذي وضع مذهب تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر. ومذهب الوصاية[٢] الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم. كما أخذ عن الفرس نظرية الحق الإلهي[٣]. بل إن السبئية أتباع ابن سبأ ألهوا علياً. كذلك نرى الكيسانية الذين ظهروا في عهد عبد الملك بن مروان الأموي يبنون معتقداتهم على أساس معتقدات المجوس المزدكية التي ظهرت في بلاد الفرس في القرن الخامس الميلادي، والبراهمة في الهند، والفلاسفة القدماء، والصابئة، ويعتقدون بنبوة الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية أولاد علي بن أبي طالب[٤].

---

(١) وهي ديانة تقول بأن في العالم قوتين هما الخير والشر، ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة، وكانت هذه الديانة سائدة في فارس وشرقي بلاد العرب ولا سيما جهة البحرين.

(٢) وقد قال إن علياً وصي محمد وإنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين.

(٣) وقد قال إن علياً هو الخليفة بعد النبي وإنه يستمد الحكم من الله.

(٤) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٩٥، ٤٠٤ وما يليها.

وفي العصر العباسي الأول ظهرت طائفة الراوندية[١] الذين عبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء (وهي القبة التي بناها المنصور ببغداد) فألْقَوْا أنفسهم كأنهم يطيرون. ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس حتى اليوم القدرة على الطيران في الهواء كما يعزى ذلك إلى بعض البوذيين[٢]. وقد نظر المنصور إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروي، كما نظر إليهم باعتبارهم زنادقة يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها، فقتلهم شر قتلة، ولكنه لم يستطع أن يقضي عليهم، فظهروا في صور مختلفة نراها في ثورة المُقَنَّع الخراساني[٣] الذي ادعى الألوهية وزعم أن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة إبراهيم وغيره من الأنبياء، ثم في صورة محمد ثم في صورة أبي مسلم الخراساني، ثم زعم أنه انتقل منه إليه[٤].

ومن هذه الطوائف طائفة الخُرَّمية[٥] أصحاب بابك (بفتح الباء الثانية) الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني، وتعد حركته استمراراً لحركة المقنع والراوندية وغيرهم. ثم ظهر من طوائف الشيعة الغالية القرامطة والدروز والنصيرية. ذكرنا من قبل أن الخليفة العزيز الفاطمي عمل على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين والقرامطة[٦]، وأنه أرسل جوهراً الصقلي على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين، ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطي الذي استنجد بأفتكين، ويمما شطر عسقلان، وحاصرا بها جوهراً، فاضطر هذا إلى طلب الصلح كما تقدم، ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التي دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين الفاطميين بقيادة العزيز وبين

---

(١) نسبة إلى روان (بفتح الواو) القريبة من أصبهان وكانت مهد دعوتهم.

(٢) الطبري ج ٩ ص ٣٠٩.

(٣) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٤) ذكر النوبختي (كتاب فرق الشيعة ص ٤٢ ـ ٤٣) أن المقنع كان في مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزام وكانوا كيسانية الأصل) وقالوا بتناسخ الأرواح، واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلهاً بحلول روح الله فيه وأنه حي لم يمت.

(٥) قيل إنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما (بضم الخاء وفتح الراء مع التشديد) امرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها (وكان ذلك أيام قباذ أبي كسرى الأولى المعروف بأنو شروان). وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك الذي ادعى الألوهية في عهد المأمون العباسي وتفاقم شره في عهد المعتصم.

(٦) يقصد بذلك قرامطة البحرين.

القرامطة بزعامة الحسن الأعصم، والأتراك بزعامة أفتكين، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذي سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم(١)، وعادت دمشق إلى أيدي الفاطميين الذين أقيمت الدعوة لهم على منابرها.

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم، حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم، واضطروهم إلى الهجرة إلى أوال(٢)، حيث انتقم منهم أبناء أبي طاهر(٣). واتخذ الخليفة العزيز، الذي كان اليد المحركة التي أوقعت الاضطراب في صفوف القرامطة من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادتهم إلى حظيرة الفاطميين. ويقول ابن خلدون(٤): «ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بني العباس». واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون في سنة ٤٧٠ هـ، وذلك في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ.

وقد استطاع الخليفة العزيز الفاطمي بحسن سياسته أن يستميل القرامطة من جديد إلى حظيرة الفاطميين وأن يثير حفيظتهم على العباسيين. يؤيد هذه الحقيقة ما ذكره ابن خلدون(٥) من أن القرامطة «رجعوا إلى دعوة العلويين (أي الفاطميين) ومحاربة بني العباس»(٦). وكان من أثر هذه السياسة التي انتهجها الخليفة العزيز الفاطمي أن هاجم القرامطة الكوفة في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ - ٩٨٣ م)، ولم يرتحلوا عنها إلا بعد أن أخذوا من أهلها مبلغاً كبيراً في مقابل رفع الحصار عن مدينتهم(٧).

---

(١) يقول المقريزي (خطط ج ٢ ص ٨ - ٩) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه.

(٢) بضم الألف مع الهمزة.

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٩١.

(٤) المصدر نفسه. انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٠ - ٤٠١.

(٥) العبر ج ٤ ص ٩١.

(٦) الواقع أن الفاطميين استطاعوا أن يمزقوا وحدة القرامطة وأن ينتزعوا السلطة من بيت الحسن الأعصم الذي دارت بينه وبين الفاطميين حروب طويلة في عهد المعز والعزيز. وقد آلت زعامة القرامطة إلى ستة منهم أطلق عليهم «السادة». وقد اشتهر منهم جعفر وإسحاق من أبناء عمومة الحسن الأعصم. وكان لهذين الزعيمين أثر كبير في الثورة التي قام بها أفتكين ضد الفاطميين، ثم في ثورة القرامطة على العباسيين بعد ذلك. المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٤٥.

على أن صمصام الدولة (٣٧٢ ـ ٣٧٦ هـ) ابن عضد الدولة البويهي استطاع أن يصمد أمام القرامطة الذين حاولوا الاستيلاء على الكوفة غير مرة، وأن يردهم عنها وينزل بهم الخسائر الفادحة مما أوهن من قوتهم وآذن بقرب نهايتهم، «وزال من حينئذ ناموسهم»[١] كما يقول ابن الأثير[٢].

وكان من أثر هزيمة القرامطة أمام جيوش صمصام الدولة البويهي أن تشجع أحد البدو الأقوياء فهاجم القرامطة في الأحساء مركز قوتهم ونفوذهم وأحل بهم الهزيمة، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على أكبر معاقلهم؛ فعرج على القطيف واستولى على ما فيها من أموال القرامطة، ثم سار إلى البصرة وأعلن ولاءه للخليفة العباسي الطائع (٣٨١ هـ)[٣]. وعلى الرغم مما لحق بالقرامطة من هزائم ظلوا مصدر خوف للعباسيين. يدل على ذلك أنهم أغاروا في السنة التالية على البصرة وحالوا دون وصول الحجيج إلى الأراضي المقدسة مما أقلق بال العباسيين والبويهيين على السواء[٤] وفي سنة ٤٠٣ هـ نرى القرامطة يحاولون الوقوف في وجه الحجاج من جديد، كما يحاولون الاستيلاء على الكوفة[٥].

وقد استمرت العلاقات الطيبة سائدة بين القرامطة والفاطميين في عهد الحاكم، ولا سيما بين القرامطة وطائفة الدروز التي ظهرت في عهد هذا الخليفة الفاطمي. وحاول ابن علي مؤسس المذهب الدرزي أن يتصل بقرامطة البحرين ليجذبهم إلى مذهبه، واستطاعت قوة من القرامطة الاستيلاء على مدينة الملتان الهندية[٦]، فهاجمهم السلطان محمود الغزنوي وردهم على أعقابهم (٣٩٦ هـ)، فارتد زعيمهم إلى جزيرة سرنديب (سيلان) حاملاً معه أهله وماله[٧].

---

(١) يعني بذلك أنه لم يعد لمبادئهم قوة الانتشار والشيوع بعد ذلك.

(٢) الكامل ج ٩ ص ١٥ ـ ١٦.

(٣) النويري: نهاية الأرب، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ١٠٠.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩.

(٥) De Goeje, Les Carmathes du Bahrain, p. 195.

(٦) وتقع على سمت غزنة.

(٧) Defremery, Essai sur L'Histoire des Ismaeliens, pp. 30-31.

نهاية عهد القرامطة :

وكانت نهاية القرامطة في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي. وقد مرت هذه النهاية في طورين انتهى الطور الأول منهما بطردهم من جزيرة أوال وانتهى الثاني باستئصال شأفتهم من بلاد البحرين. ففي سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) خرجت جزيرة أوال عن طاعة القرامطة في البحرين وخضعت للعباسيين بعد سلسلة من الثورات التي قام بها السنيون في هذه الجزيرة. فقد بنى هؤلاء السنيون مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم، ولما فرغوا من بناء هذا المسجد خطبوا فيه للخليفة العباسي دون الخليفة الفاطمي. كذلك ثار أهل أوال على حكم القرامطة لأنهم عزلوا واليهم وفرضوا عليهم ضريبة جديدة أثارت حنقهم، فأشعلوا نار الثورة وقضوا على قوات القرامطة البرية والبحرية وآل الحكم في هذه الجزيرة إلى السنيين[١].

وكانت هزيمة القرامطة في جزيرة أوال بعيدة الأثر عليهم في بلاد البحرين نفسها، فقد اتصل السنيون في بلاد البحرين بالسلاجقة وبالعباسيين في العراق، فبعثوا إليهم في سنة ٤٦٢ هـ بجيوش جرارة أحلت بهم هزائم متتالية، واضطر القرامطة إلى الارتداد إلى بلاد الأحساء. وقد شجعت هذه الهزائم العباسيين والسلاجقة، فأرسلوا إلى الأحساء جيوشاً جرارة بقيادة طائفة من أمهر قوادهم، وأذاعوا المنشورات يستحثون فيها الناس على الانضواء تحت لواء هؤلاء القواد «في جهاد المبطلين والقرامطة الملحدين... وفي استئصال ذكرهم وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم»[٢]. وقد التف السنيون في البحرين حول الثوار وأنصار العباسيين، وأحاطوا بالقرامطة في شمالي الأحساء، وانتصروا عليهم في موقعة «الخندق» سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ - ١٠٧٨ م). وتعد هذه الموقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ، لأنها قضت على دولة القرامطة الذين ظلوا زهاء قرنين مصدر رعب وفزع للدولة العباسية بوجه خاص. وعلى الرغم من ذلك ظل أثر القرامطة باقياً في البحرين وعمان بعد موقعة الخندق بكثير، حتى لقد تأثر بتعاليمهم الخوجات من أتباع «آغا خان»، ولا سيما العمانيين منهم[٣].

---

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١، القسم الأول، ورقة ١٠٧.

(٢) La Fin de L'Empire des Caramathes du Bahrain (J. A., 1895) pp. 16-17.

(٣) انظر Badger, G. P., The History of the Imams and Sayyids of Oman (London, 1871).

(٢) الدروز[1]

١ ـ دعاة الدروز :

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تأثر المذهب الشيعي بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة : وذلك راجع إلى تأثر بعض الشيعيين بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ . ومن ثم أصبح المذهب الشيعي في عهد الفاطميين خليطاً من الدين والفلسفة ، ونشأت بسبب ذلك مذاهب أخرى كمذاهب القرامطة والدروز والنزارية في فارس وخراسان والشام والطيبية في اليمن وغيرها .

وفي أوائل القرن الخامس الهجري قامت طائفة الدرزية أو الدروز وهم من غلاة الإسماعيلية الذين ألهوا الحاكم ، وخرجوا بذلك على الإسماعيلية ثم المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . وقد قامت هذه الحركة الشيعية على أيدي الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملكي المقدس . ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً في هذه الحركة حمزة بن علي الزوزني ، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي ، الذين جهروا في مصر بتأليه الحاكم .

رحل حمزة بن علي إلى مصر سنة ٤٠٥ هـ وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ وأخذ ينشر في الخفاء الدعوة إلى تأليه الحاكم ، ثم جهر بدعوة ألوهية الحاكم (٤٠٨ هـ) ، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، بمعنى أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول (Incarnation) .

ويظهر أن هذه الدعوة قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة في مصر . وقد شجع الحاكم حمزة وأنصاره ، حتى إنه كان كثيراً ما كان يلتقي بهم في القرافة ويظهر عطفه

(١) الدرزي (بالفتح) : واحد دروز الثوب ونحوه . وهو فارسي معرب ويقال درز بالدال والذال ، وأولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغاء من الناس والخياطون والحاكة ، وهم من أسافل الناس . والدرزي (بالفتح) الخياط . والعامة تضم الدال فتقول درزي ، وفي الجمع درزي . والصواب درزي في المفرد ودرزية في الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

عليهم، ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه في هذه الحركة من نجاح[١]. وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة في تلقيب نفسه بألقاب كثيرة مثل الإمام، والدليل على عبادة الله، والداعي إلى توحيد الله، والناطق بحق الله، والبرهان على الله، والرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. . . وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أي الحاكم) والطريق إلى توحيده، والحجة إلى عبادته[٢]. ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية؛ فقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخاري الدرزي في نشر عقائد هذا المذهب، وشجع الأخرم في سنة ٤٠٩ هـ على الجهر بتأليه الحاكم.

وقد ذكر أبو المحاسن أن الأخرم ذهب إلى جامع عمرو على رأس خمسين رجلاً ممتطين دوابهم، وسلموا إلى القاضي السني فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم. وقد أثار الأخرم بذلك حنق السنيين فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم، وتمكن هو من الهرب، ولكنه قتل بعد قليل[٣].

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من هزيمة غلاة الإسماعيلية فقد ظهر على أثر مقتله في سنة ٤٠٩ هـ الداعي محمد بن إسماعيل الدرزي[٤]، وكان قد وصل إلى مصر في سنة ٤٠٨ هـ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء. وقد سلك الدرزي في سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك شتى، فألف الكتب في ذلك، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم في نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين.

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزي في سبيل نشر دعوته، فقد تسمى بسند الهادي (حمزة بن علي)، وحذا حذو أستاذه في نقل رياسة هذه الدعوة إليه، فكتب إلى ختكين داعي دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه، كما كتب إلى ولي عهد المسلمين عبد الرحيم بن إلياس الذي كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوهم إلى دعوته، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ أنصار المذهب الدرزي، على أن ختكين قاوم هذه

---

(١) يحيى بن سعيد: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) كتاب النقط والدوائر، وهو من كتب الدرزية، وقد ذيل ببعض رسائلهم، وهي (١) الرسالة الموسومة ببدء الخلق، (٢) نبذة من شرح البيان ومجرى الزمان (٣) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق، نشرة سيبولد الألماني (١٣١٩/١٩٠٢).

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣.

(٤) وإليه تنسب طائفة الدرزية، على الرغم من أن حمزة بن علي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب الدرزي.

الحركة واشترك مع السنيين في القضاء عليها، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزي وأنصاره وغلوهم. ووجدت هذه العقيدة أنصاراً من بين المصريين طمعاً في التقرب إلى الخليفة الذي ناصر هذه الحركة وعطف عليها. كما أخذ الدرزي في قراءة كتابه الذي صنفه في عقائد المذهب الدرزي في الجامع الأزهر، وأثار بذلك سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة، حتى كادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام، وأقام بوادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق، وأخذ ينشر الدعوة في تأليه الحاكم ويقرأ على كل أهالي هذه الجهات كتبه التي لم تلق قبولاً لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه، وأظهر الحاكم استياءه من دعوته خوفاً من رعاياه. وقد استطاع الدرزي أن يستميل إلى دعوته كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية. ولا يزال هذا المذهب منتشراً في جبال لبنان وحوران.

وليس من شك في أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية في مصر أولاً وفي الشام ثانياً، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن في دور بعض الناس. وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها، ثم تقديم تقاريرهن إليه في اليوم التالي. فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للمثول بحضرته وأخبرهم بما حدث في دورهم، كما اتخذ الحاكم جواسيس عهد إليهم بأن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث في الطرقات، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب.

٢ ـ أهم مميزات الدرزية:

قامت الطائفة الدرزية في أوائل القرن الخامس الهجري كما تقدم. ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشيء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلي. ولا يزال كثير من الأسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأوائل قائماً إلى اليوم. ومن أهم الخصائص اتخاذ الدرزية تقويماً يؤرخون به حوادثهم، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ، وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن علي وأنصاره. ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون، أي ظهور التوحيد.

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها في وجه كل من لا ينتمي إليها، أي من لا يكون درزياً أو موحداً على حد تعبيرهم. ويبررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب، فمن لم يؤمن بقي كذلك إلى الأبد، ومن آمن فقد آمن بلا ردة[١]، ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين:

---

(١) حمزة بن علي الدرزي: التاليد في مذهب أهل التوحيد (نشرة ميخائيل شاروبيم) ص ٢٣.

الأولى: طائفة الروحانيين، وتكون الطبقة المستنيرة التي تلم بأصول المذهب الدرزي، وتقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد، فالرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية، والعقلاء بيدهم الأسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب.

والطائفة الثانية هي طائفة الجسمانيين. وتنقسم قسمين: الأمراء الجسمانيون والعامة أو الجهال. فالأمراء الجسمانيون بيدهم شئون الحرب والزعامة الوطنية، والعامة أو الجهال هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه، ولا يحق لطبقتي الجسمانيين الدخول، بحال من الأحوال، في مجالس طائفة الروحانيين، ويعتبرون جهالاً مهما علا كعبهم في التعليم والثقافة[١].

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجسمانين بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقي أصول المذهب الدرزي والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقهاً في عقائده، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها. وقد وضع حمزة ابن علي صيغة هذا العهد الذي أسماه «ميثاق ولي الزمان»[٢].

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب، ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره[٣].

ولذلك نرى أن الدروز يرمون المعتدلين من طائفة الإسماعيلية بالجمود، كما يكفرون في الوقت نفسه المسلمين عامة ويسمونهم الكفار أو المشركين في الوقت الذي يطلقون على أنفسهم الموحدين، على حين نرى سائر المسلمين يكفرون الدروز ولا يعدونهم من الفرق الإسلامية: فقوم يكون البشر إلههم ومعبودهم، وحمزة بن علي نبيهم وناطقهم[٤]. كذلك

(١) راجع Hitti, The Origins of Druze People and Religion. p. 43.

(٢) Chrestomathie Arabe, Vol II p. 52

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٥٤ - ٣٦٠.

(٤) طه أحمد شرف: الإسماعيلية وتاريخهم السياسي حتى سقوط بغداد، مخطوطة ج ١ ص ٣٣٥.

نرى كثيرين من علماء المسلمين يرمون طائفتي الدروز والنصيرية بالزندقة ويبيحون دماءهم ويحرمون مصاهرتهم والتقرب منهم(١).

ولكي يقوي حمزة بن علي مؤسس المذهب الدرزي الرابطة بين أنصار مذهبه جعل العهد الذي يؤخذ على المستجيبين وثيقة مقدسة تلزم هؤلاء المستجيبين بالتفاني في سبيل المذهب والتماسك بين أفراد هذه الطائفة وإليك نصها:

«توكلت على مولانا الحاكم الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان ابن فلان إقراراً أوجبه على نفسه وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره، طائعاً غير مكره ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة في العبادة، وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو يُنتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله، ساءه ذلك أم سره. ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه وأشار به على غيره أو خالف شيئاً من أوامره، كان بريئاً من الباري المعبود وحُرم الإفادة من جميع الحدود، واستحسن العقوبة من الباري العلي جل ذكره... ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره، كان من الموحدين الفائزين.

وكتب في شهر كذا وكذا ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده»(٢).

وعلى الرغم من أن الدرزية قد انطووا على أنفسهم حتى أصبحوا جماعة مغلقة لا يعرف الناس من أمرهم شيئاً، نراهم يعاونون المسلمين في صراعهم مع الصليبيين معاونة صادقة في سبيل الاحتفاظ بالسهل الساحلي في لبنان. وكانت لهم في الوقت نفسه مواقف حربية رائعة في حصار قلعة الشقيف(٣). كما نرى أن الدروز يعاونون هولاكو التتاري إبان

---

(١) المحبي: تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ١٨٦٧) ج ٣ ص ٢٦٩.

(٢) دي ساسي: الأنيس المفيد ج ٢ ص ٨٢ ـ ٨٤. ويقصد بسنة عبد مولانا السنة التي دعي فيها بتأليه الحاكم بأمر الله أي سنة ٤٠٨ هـ.

(٣) ولعلها شقيف تيرون وهو حصن على مقربة من صور. وتطلق كلمة شقيف على عدة أماكن ببلاد الشام، وتشير إلى الأماكن الخصبة: فهناك شقيف أرنون في جبل قريب من بانياس من أعمال دمشق يقع بينها =

إغارته على بلاد الشام، بدليل إقطاعه إياهم بعض البلاد. وكذلك قام الدروز بدور ملحوظ في أثناء فتح الأتراك العثمانيين بلاد الشام ومصر (١٥١٦ ـ ١٥١٧ م) في عهد السلطان سليم الأول. فكان لمساعدة فخر الدين المعني الأول أحد رؤساء الدروز أثر بعيد فيما أحرزه العثمانيون من نصر. ولا غرو فقد أظهر الدروز كثيراً من ضروب الشجاعة والبسالة في تلك الحروب، مما جعل السلطان العثماني يعترف بهذه المساعدة ويمنحهم الجوائز[١].

وقد وقع في أيدي الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا كثير من مخطوطات الدروز التي عثر عليها في خلواتهم، وذلك عند قيام الثورة السورية في وجه حكم محمد علي سنة ١٨٣٨.

كما نرى الدروز يحملون السلاح في وجه المارونيين جيرانهم المسيحيين في الشمال، مما أدى إلى تدخل فرنسا وإرسالها حملة حربية لوضع حد لذلك النزاع، وانتهى هذا التدخل الفرنسي بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى. كذلك لا ننسى ثورة الدروز بزعامة آل الأطرش ضد الانتداب الفرنسي الذي انتهى باستقلال كل من سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦[٢].

٣ ـ النصيرية :

كانت طائفة النصيرية[٣] تقيم في شمالي الشام قبل طائفة الدروز في لبنان، وهم من الشيعة الغالية، وموطنهم جبل النصيرية (أو الأنصارية)، وهو جزء من جبل لبنان. وتمتد بلادهم شرقاً إلى سهل حماه وحمص وحلب، وشمالاً إلى ما وراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول.

وبينما نرى اسم «علوي» قد أطلق حديثاً على أتباع هذه الطائفة، فإن اسمهم الأصلي (النصيرية) يذكرنا باسم مؤسس هذه الطائفة، وقد يذكرنا باسم الشخص الذي كان يدعو إلى

= وبين الساحل، وشقيف دركوش وهي قلعة بنواحي حلب جنوبي حارم، وشقيف دبين وهي قلعة قرب أنطاكية. انظر لفظ شقيف في معجم البلدان لياقوت.

(١) كريم خليل: الدروز والثورة السورية ص ٢٥.

(٢) Hitti, Op. cit., pp. 48.

انظر طه أحمد شرف: الإسماعيلية وتاريخهم السياسي ج ١ ص ٣٣١ وما يليها.

(٣) ذكر أبو الحسن الأشعري (مقالات الإسلاميين، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد، جزءان، القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٥٠، ص ٩٦ ـ ١٠٢)، فرق الشيعة الغالية، كالخطابية، والتميرية أصحاب محمد بن نصير التميري، والسبئية والكيسانية، والراوندية، والرزامية، والأبو مسلمية والقرامطة، والمباركية وغيرها.

عقائدهم، وهو الفقيه الشيعي محمد بن نصير المتوفى سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣ م). وكان من أتباع الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند طائفة الإمامية الاثني عشرية[١]. ويقدم لنا أتباع ابن نصير - كما يقول ريني دوسو[٢] - مثلاً واضحاً للجماعة التي انتقلت مباشرة من الوثنية إلى طائفة الإمامية الاثني عشرية. وهذا يفسر لنا نقط الخلاف الشديد بينهم وبين الإسماعيلية. وثمة تفسير آخر لا يزال مألوفاً عند السنيين الذين يجاورونهم، ولكنه يدخل بلا ريب في نطاق الاشتقاق المتداول لهذا الاسم فيجعله ذا صلة بلفظ نصراني أو نصارى، مما يقرب إلى الذهن أن النصيرية لا يزالون يحتفظون ببعض تقاليد (طقوس) دينية خاصة، فيحتفلون ببعض الأعياد المسيحية، كعيد الميلاد وعيد الفصح (القيامة) ويعتبرونهما من الأعياد الكبرى. كما أن بعضهم يحمل أسماء مسيحية الأصل مثل متى ويوحنا (چون) وهيلانة.

وبالإضافة إلى المبادىء التي اقتبسها النصيرية من المسيحية فإن ديانتهم تحتفظ بقسط وافر من الأسرار الشبيهة بأسرار الدروز، وما تزال تحتفظ بمعالم واضحة تنبىء عن معتقداتهم وعقيدتهم التي هي مزيج من عناصر غير متجانسة تماماً، تقوم على أساس نظام ديني يتصل بعبادة النجوم والكواكب. وقد اقتبست هذه التعاليم في القرون الأولى للعصر المسيحي بعض المبادىء الروحية عند المسيحيين. ومع ذلك فإن هذه المبادىء قد اتخذت بعد ذلك مظهراً معيناً في الأطوار التي مر بها الإسلام، فقد اتخذ على يدي دعاة الإسماعيلية فيما بعد بعض أشكال غامضة مبنية على الإلحاد.

ويظهر أن حسين بن أحمد الخشبي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هو الذي وضع عقائد مذهب النصيرية الذي يفد أتباعه لزيارة ضريح حسين القريب من حلب، ويولون هذا الضريح ما يليق به من الاحترام والإكبار. ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقق (بفتح الباء والقاف الأولى وسكون الراء).

ويقوم نظام النصيرية على التجسد[٣]، ويدور حول هذه الأسماء الثلاثة التي تكون التثليث الشبيه بتثليث النصارى، ويتمتع هؤلاء بالوحدانية والخلود. وهذه الأسماء الثلاثة

---

(١) ذكر النوبختي (كتاب فرق الشيعة ص ٧٨) أن محمد بن نصير النميري أله الحسن العسكري وادعى أنه نبي قد بعثه الحسن العسكري. وكان ابن نصير يقول بالتناسخ والحلول وتأليه الأئمة.

(٢) Dussaud, p. 51.

(٣) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٥. البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ - ٢٥٥. الشهرستاني : الملل والنحل ص ١٤٣ - ١٤٥.

التي يرمزون إليها في قائمة مذهبهم هي التي تكون تثليثاً شبيهاً بالتثليث الكائن في النصرانية. ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بحروف ع م س ويقولون إن الله حل في ثلاثة هم: علي بن أبي طالب ويرمزون إليه بالمعنى، ومحمد ﷺ ويرمزون إليه بالاسم، وسلمان فارسي ويرمزون إليه بالباب[١].

وتعتبر النصيرية علياً الإله[٢]. ولذلك أطلق عليهم اسم «العلوية» (أي الذين يعبدون علياً) منذ الانتداب الفرنسي في ديارهم بعد الحرب العالمية الأولى. وعلي وهو الكائن الاسمى والنور المشع الذي ينبعث عن فيضه محمد ﷺ وسلمان الفارسي. وتتكون جماعة النصيرية من قبائل يقوم بينها تحالف، كالكلبية والخياطين والحدادين وبعض قبائل العرب اليمانيين الذين ارتحلوا شمالاً في العصر الجاهلي ثم اختلطوا مع الشماليين كالآراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التي اختلطت قليلاً أو كثيراً باللغة الآرامية التي لا تزال آثارها بادية في بعض اللهجات العربية وفي أسماء الأشخاص والقرى والأنهار والجبال. وتاريخ النصيرية عبارة عن سجل للحروب التي نشبت بينهم وبين جيرانهم للاضطهادات التي تعرضوا لها باعتبارهم ملحدين أو وثنيين، الأمر الذي أثار شعور جمهور المسلمين (ومنهم الشيعيون المعتدلون) ضد هؤلاء النصيرية الذين ظهروا في نظر المسلمين زنادقة مغالين[٣].

(١) انظر اعترافات أحد المرتدين عن المذهب النصيري التي نشرت تحت عنوان «الباكورة السليمانية» وقد ترجمها أ. سالسبوري إلى الإنجليزية في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية (سنة ١٨٦٦ مجلد ٨ ص ٢٢٧ ـ ٣٠٨)، والمجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٩ ص ١٩٢ وما يليها.

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol I, p. 203, n. 2.

(٢) وقد قالت الشيعة بإمامة علي، ومنهم المقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر. وقال بعضهم إن علياً إمام تجب طاعته بعد الرسول الذي استودعه هو وأولاده من العلم ما يحتاج إليه الناس من دين وجميع العلوم؛ ولذلك استحق الإمامة بعد النبي لعصمته وقرابته وسابقته وعلمه وسخائه وزهده وعدالته في رعيته، واستشهدوا على ذلك بقول الرسول: «علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (النوبختي: كتاب فرق الشيعة ص ١٥ ـ ١٦). أما سلمان الفارسي فقد كان أكبر الصحابة الذين يجلهم الرسول، حتى إن طائفة من النصيرية أدخلته في نظامهم القائم على التثليث. وقد علت منزلة سلمان عند الرسول وحسنت صحبته حتى عدّه من آل البيت فقال: «سلمان منا أهل البيت». كما أثر عن الرسول أنه قال: «سلمان ابن الإسلام». وكان أول من أسلم من الفرس، فعدّه الرسول أول ثمار الفرس. وهو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق حول المدينة وأدى ذلك إلى ازدياد قوة الإسلام وسرعة انتشاره وإلى ضعف روح المقاومة عند أعداء الإسلام. الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٩ ـ ٨٠. انظر كتابي زعماء الإسلام ص ٩٣ ـ ١٠٠.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

ويقيم الآن نحو ثلاثمائة ألف من أتباع هذا المذهب، معظمهم من الفلاحين في شمالي ووسط بلاد الشام. وهم يعيشون في قراهم الجبلية حتى كيليكيا التركية. وقد احتفظوا بمعظم أساليب معيشتهم وتقاليدهم التي نشئوا عليها منذ العصور الوسطى. وهم يمتنعون عن أكل لحم الجمل والأرنب وثعبان الماء والسمك الذي لا قشر له(١).

ويعتبر النصيرية والقرامطة والدروز والنزارية وغيرهم من فرق الإسماعيلية حتى في نظر الشيعة الاثني عشرية الذين يؤلفون السواد الأعظم من الشيعة، من الغلاة؛ لأنهم يمارون في ألوهية الله ولا يؤمنون بأن النبوة قد انتهت بمحمد. ومن هؤلاء الغلاة فرقة ذهبت إلى أن جبريل أخطأ فدفع الرسالة إلى محمد بدلاً من علي. وفرقة أخرى تسمى التختجية (بفتح التائين والياء مع التشديد وسكون الخاء وكسر الجيم) (قطاع الخشب) في غربي الأناضول، والعلي إلهية (المؤلهة علياً) في فارس وتركستان (ومنهم جماعة في شمال العراق). ويمت إليهم القزل (بضم القاف والزاي) والباشية (بكسر الشين وفتح الياء مع التشديد) (الرؤوس الحمر) في شرقي الأناضول، والبكتاشية في تركيا وألبانيا(٢).

٤ ـ الدعوة النزارية في فارس والشام:

شرع الخليفة المستنصر الفاطمي قبل وفاته سنة ٤٨٧ هـ في أخذ البيعة لابنه الأكبر نزار. غير أن الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي أخذ يماطله حتى توفي الخليفة قبل أن تتم البيعة لنزار، وبادر إلى تولية ابنه الأصغر أبي القاسم أحمد ولقبه المستعلي بالله. وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين أنصار الفاطميين في مصر.

وقد ظهر أمر الباطنية أو الإسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي. فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد جهاراً في مدينة ساوة، ولكنهم حبسوا ثم أطلق سراحهم. ويذكر ابن الأثير أن هؤلاء الباطنية دعوا مؤذناً من أهل أصبهان إلى اعتناق مذهبهم فلم يجبهم إلى دعوتهم، فخافوا أن ينقم عليهم فقتلوه، فكان ذلك أول دم أراقته الباطنية. ولما نمى خبر هذا الحادث إلى نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، أمر بالبحث عن المتهم، وانحصرت التهمة في نجار يسمى «طاهر»، فقتل ومثل به في الأسواق، فكان أول قتيل من أنصار هذه الطائفة. وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا: قتل نجاراً فقتلناه به(٣)، ولم يلبث أن استولى الباطنية على موضع عند قاين كان صاحبه يدين بعقائد هذا

---

(١) Samné, La Syrie, pp. 337 - 342.

(٢) History of the Arabs Hitti, Op. cit., pp. 448-449.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١١٦.

المذهب. وقد حدث أن اجتازت قافلة من كرمان في طريقها إلى قاين، فخرج الباطنية عليهم وقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا رجل استأنف سيره إلى قاين وأخبر أهلها بهذا الحادث، فخرجوا إلى جهادهم، ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمتهم.

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه، تفاقم خطر الباطنية وقويت أطماعهم والتأمت جموعهم في أصبهان حيث نشروا دعوتهم وأخذوا يلحقون الأذى بمخالفيهم، وأمضوا في سرقة أموالهم وتقتيلهم وأدخلوا الفزع في قلوب الأهلين، حتى كان الأمراء يضعون الدروع تحت ثيابهم[١]. وكان الباطنية إذا مر بهم شخص أخذوه إلى إحدى دورهم وقتلوه وألقوا بجثته في بئر قد حفر لهذا الغرض. وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع، نذكر من بينها قلعة أصبهان التي بناها السلطان ملكشاه السلجوقي ثم اتصل أحمد بن عبد الملك بن عطاش الطبيب[٢] بمتولي هذه القلعة. وقد نال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق وإلقاء الرعب والفزع في القلوب، حتى كانوا يقولون: «إن قلعة يدل عليها كلب ويشير بها كافر لا بد وأن يكون خاتمة أمرها الشر، ومنها الموت». وقلعة ألموت بنواحي **قزوين**، قيل إن ملكاً من ملوك **الديلم** كان يكثر من الصيد، فأرسل يوماً عُقاباً وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة، فوجده موضعاً حصيناً، فأمر ببناء قلعة عليه فسماها ألموت (بفتح الألف مع الهمزة وفتح اللام)، ومعناها في لغة الديلم: تعليم العقاب[٣].

وكان من تلاميذ ابن عطاش، الحسن بن علي (بن محمد بن جعفر بن **الحسين**) **بن** الصباح الحميري[٤]. وكان الحسن، كما وصفه ابن الأثير[٥]: «رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك». وكان الحسن كأبيه يدين بعقائد الإمامية **الاثني** عشرية، ثم وقع تحت تأثير أحد دعاة الفاطميين. وقد اتهم عامل الري (وكان زوجاً لابنة الوزير نظام الملك) الحسن الصباح بتلقي تعاليم الدعاة المصريين، أو بعبارة أخرى دعاة الفاطميين الذين جاءوا من مصر. وقد هرب الحسن الصباح ولم يدركه عامل المدينة

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤.

(٢) وكان داعياً إسماعيلياً نابهاً في فارس.

(٣) ابن الأثير: ج ١٠ ص ١١٧.

(٤) قيل إن الحسن لم يسمح لأنصاره بأن يذكروا هذا النسب قائلاً إنه يؤثر أن يكون عبد الإمام المختار من أن يكون له ابناً لا ينظر إليه الناس بعين الاعتبار.

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol II, p. 202

(٥) ج ١٠ ص ١١٨.

وتنقل في البلاد وانتهى بـه المطاف إلى **مصر**، فأكـرمه داعي الـدعاة وغيـره من كبار رجـال الدولة، وأكرمه الخليفـة المستنصر وأمـده بالمـال. ولما مثـل بين يدي الخليفـة أمره أن يقيم الدعوة باسمه في بلاده، فقال له الحسن: فمن الإمام بعدك؟ فأشـار إلى ابنه الأكبـر نزار. ثم غادر الحسن الصباح مصر ومر بالشام والجزيرة وديار بكر وعاد إلى خراسـان، ودخل كـاشغر وبلاد ما وراء النهر، واطمأن إلى أهالي ألموت، وأظهـر الزهـد ولبس المسوح ودعـاهم إلى الدخول في دعوته، فتبعه أكثرهم، واستمال صاحب القلعة (وكان علوياً) الذي أحسن الـظن به وقربه إليه وتبرك به.

ولما أحكم الحسن الصباح الأمر واطمأن إلى قوته، دخـل يوماً على صاحب القلعـة، وأمر أصحابه فأخرجوه منها إلى دامغان، وأعطاه ماله وملك القلعة. ولما بلغ هذا النبأ الوزيـر نظام الملك بعث بعسكر كثيف حاصروا الحسن حتى ضاق ذرعاً، فأرسل شخصاً قتل الوزير السلجوقي، ثم جهز محمد بن ملكشاه جيشاً آخر حـاصر القلعـة تمهيداً لاستـردادها، ولكن على غير جدوى[١]. وبعد استيلاء الباطنية على قلعة ألموت، وقعت في أيـديهم قلاع أخـرى حصينة[٢].

ويدل استيلاء الباطنية على هذه القلاع على قـوة أتباع الحسن الصبـاح الذي انفصلت دعوتهم بعد وفاة المستنصر عن الدعوة الفاطمية، لأنهم تبنـوا دعوة نـزار دون أخيه **المستعلي** الذي خلف أباه في القاهرة. ومن ثم انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فريقين: فريق نادى بإمامة **المستعلي**، فسموا المستعلية أو الإسماعيلية في مصر، وفريق نادى بـإمامـة نزار الابن الأكبر للمستنصر، فسموا النزاريـة أو الحشاشين (أو الحشيشـة)، وهو الاسم الـذي اشتهروا به، كما يعرفون أيضاً بالباطنية. وقد قام هؤلاء بـدور هام في محـاربة المستعليـة والسلاجقـة

(١) ابن الأثير: ج ١ ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) ذكر ابن الأثير: (ج ١٠ ص ١١٨ - ١١٩) أسماء هذه القلاع وهي: شاه دز (بكسـر الدال وزاي مشـددة) وخالنجان (بفتـح اللام وسكـون النون) قـرب أصبهان. وطبس (بفتـح الطاء والبـاء) وتون، وقـاين (بكسر الياء) وزوزن (بفتح الزاي الأولى والثانية وسكون الـواو) وخور، وخـوسف (بضم الخاء وفتـح السين) في قوهستان، ووشمكوه (بفتح الواووسكون الشين وضم الكاف) بقرب الأنبـار، وأستوناوند (بضم الألف مـع الهمزة والتاء وفتح الواو وسكون النون) في مازندران (بفتـح الزاي وسكـون النون وفتـح الدال) وأردهـات (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح الدال) وجردكـوه (بكسر الجيم وسكـون الراء والـدال)، وقلعة الناظر في خوزستان، وقلعة التنبور على مقربة من أرجان (بفتح الراء مع التشديد)، وقلعـة خلادخـان في فارس (بسكون الدال).

انظر Browne, Lit. Hist. of Persia, vol II, p. 204

والصليبيين الذين انتشروا أيضاً في بلاد الشام. وكان اعتناق الحسن الصباح العقيدة النزارية مؤذناً بتطور جديد في تاريخ هذه الدعوة، فقد ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام المستور والدعوة إليه، بعد أن كانت الدعوة الإمامية تعتمد منذ سنة ٢٩٦ هـ على الإمامة الظاهرة (exoteric) لا على المستورة (esoteric). كما استطاع الحسن الصباح أن يستغل الدعوة النزارية خير استغلال، فأصاب نجاحاً بعيد المدى، وأفلح في تكوين نظام جديد، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة في وسط دولة العباسيين السنيين.

وقد تركزت جهود الحسن الصباح بعد موت المستنصر في نشر الدعوة لنزار، واحتفظ بأنصاره القدامى من الإسماعيلية في فارس وخراسان، فالتفوا حوله؛ كما عمل على ضم عناصر جديدة إلى دعوته. ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن الصباح إلى نزار، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر في أماكن حصينة، يجتمع فيها كل دعاة النزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم. فأصبح للحسن مئات من القلاع والحصون القوية في أقاليم رودبار وقوهستان والطالقان وغيرها. كما وجه الحسن الصباح دعاته نحو بلاد الشام لنشر الدعوة النزارية ومحاربة السلاجقة والمستعلية والصليبيين، ومن ثم أصبح في كل إقليم أتباع وفي كل مدينة أنصار.

وقد امتازت دعوة الحسن الصباح في ذلك الحين بأنه استغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم، فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه، وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح مصدر العرفان. وكان هذا المبدأ من العوامل التي شجعت الحسن الصباح على حمل السيف في وجه الدولة العباسية السنية. كما لجأ إلى التأويل، فأول القرآن للنزارية تأويلاً يتفق ونزعاته السياسية، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم، وقدسه المستجيبون. كمااستغل عقيدة الإمام ونائبه وحجته كشرط أساسي للدين الحق. ولذلك سمي أشياع هذه الدعوة الباطنية وسميت دعوتهم الدعوة الجديدة.

وقد راع الدولة العباسية خطر دعوة الحسن الصباح، فحملت كثيراً من العلماء على الرد عليه. فألف أبو حامد الغزالي كتابه «المستظهري» أو فضائح الباطنية، ليرد به على النزارية بصدد نظريتهم في الإمام المعصوم.

وقد عمل الحسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيماً دقيقاً يضمن لها البقاء. ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات، وجعل المحبة والأخوة والمرحمة، الرباط الذي يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها، وجعل للأعضاء شروطاً، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم. ولم يشأ أن يجند أتباعه جميعاً ليشهروا السلاح في وجه أعدائه، بل

جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها، يهددون الأعداء بخناجرهم المسمومة، فسموا الفداوية، لأنهم يبذلون نفوسهم رخيصة في سبيل إمامهم ونائبه. أما أهم مراتب الدعوة النزارية فهي:

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل(١) وعدد أفرادها سبعة، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة. فكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة، ولا سيما بعد أن احتل قلعة ألموت في سنة ٤٨٣ هـ. كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل. وكان هو وحده الذي يعين الدعاة ويعزلهم، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعي الدعاة. وكان سلطانه لا يحد: يصدر أوامره من ألموت فيطيعها النزارية في كل مكان. وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين في الإخلاص للمذهب الإسماعيلي. ولم يجعل لمبدأ الوراثة أي اعتبار. كما تظاهر جماعته بالتقشف والورع والمحافظة على الشريعة، حتى إنه قتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر.

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعاة ولا يجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة، لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة: جعل على رأس كل قطر أو «بحر» واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة، وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب. على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر. ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيابزرك أُميد والحسين القَيْني، وأبو طاهر.

المرتبة الثالثة وهي مرتبة الدعاة وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة في ألموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة. وكانوا يتلقون العلم في مدارس القاهرة أول الأمر، ثم ينتقلون إلى ألموت ليتعلموا أسرار الدعوة. وقد اشترط الحسن الصباح في الداعي أن يكون بارعاً في التشكيك، ماهراً في التلبيس، ليخدعوا العامة ويدخلوهم في عقيدتهم. وقد كون هؤلاء الدرجات العليا، وكانوا على علم بعقائد وأغراض وسياسة هذا النظام.

المرتبة الرابعة أو مرتبة الرفاق، وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام، يتولون تثقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم، ويتفانون في المحافظة على المذهب، متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة. ويلي هؤلاء اللصقاء أو الأتباع الذين أقسموا يمين الطاعة والولاء دون أن يفهموا كثيراً مما ينطوي عليه هذا المذهب.

---

(١) وقد أطلق الصليبيون هذه التسمية، أي شيخ الجبل، فسموه الشيخ أو شيخ الجبل.

المرتبة الخامسة: الفداوية أو الفدائيون، الذين كانوا يستخدمون في قتل الأعداء غدرا، ويضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم. ولا يشترط في الفداوي أن يتعمق في دراسة أسرار المذهب، إنما يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود. فأصبحوا آلات انتقام فتاكة، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفزع. وكانوا يتصفون بالشجاعة النادرة وحب المخاطر والعزيمة التي لا تقهر، والصبر الذي لا ينفد؛ ويظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً بل سنين للفتك بعدوه. ويشترط في الفداوي أيضاً أن يكون من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات.

المرتبة السادسة: اللاصقون، وهم ينتسبون إلى الدعوة، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية، إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة، ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعمقوا في فهم أصول المذهب.

المرتبة السابعة: المستجيبون، وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون، لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي، إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس، وبث الذعر في نفوسهم.

وكانت الدعوة النزارية تتسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس. فكان الدعاة يتوسلون بالوسائل الآتية:

١ ـ التفرس، ويقصد به إدراك مكنونات النفس؛ ويطلق على ذلك الاستبطان (من الباطنية) ليتبينوا قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده.

٢ ـ التأنيس، وهو من الأنس، وهو بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعوين وإشباع ميولهم وإعطائهم كل ما يميلون إليه، كل حسب ميوله.

٣ ـ التشكيك وهو زعزعة عقيدة المدعوين، ويعتبر خطوة جريئة من أخطر الخطوات، يستطيع بها الداعي أن يصل إلى قلب المريد فيزعزع عقيدته ويزلزل إيمانه.

٤ ـ التعليق، وهو ترك المريد بعد تشككه متأرجحاً في عقيدته مشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي، حتى تستبين نفسيته وتعرف شخصيته.

٥ ـ التدليس، وهو أن يلجأ الداعي إلى التمويه، ويدعي ادعاءات كاذبة تزيد في إغراء المريد وتشويقه وإلهاب رغبته في الدخول في الدعوة.

٦ ـ التأسيس، وهو تثبيت المعلومات والحقائق التي أدلى بها الداعي والمستجيب حتى تستقر في ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها.

٧ ـ الخلع، ويقصد به إقصاء المريدين عن المذاهب السنية نهائياً بإسقاط الفرائض الشرعية في الإسلام، وذلك بالاستعانة بالتأويل غير المشروع.

توفي الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن استقامت له الأمور، وأقام دولة فريدة في نوعها، تتكون من قلاع متناثرة في أقاليم مختلفة، تقوم على نشر مذهب النزارية وتحارب أهل السنة وتناهض المستعلية بوجه خاص.

وهنا ينبغي أن نشير إلى العبارة التي وصف بها «ماركو بولو» هؤلاء الفدائيين في القرن الثالث عشر الميلادي، في وقت كانت قوة الحشاشين في فارس قد قضى عليها مغول هولاكو خان، فاندثرت أو كادت (لأن الحشاشين في سورية استمروا حتى هذا الوقت) ويقول ماركو بولو إن الشيخ كان يسمى في لغتهم «علاء الدين»[1]. وقد اتخذ له وادياً بين جبلين وجعله مقفلاً، وحوله إلى حديقة غناء، لها من جمال التنسيق والروعة والبهاء وفسحة الأرجاء ما لم تشهده عين من قبل، فيها من كل الثمرات، وبها قصور شاهقات تكسوها نقوش زاهيات، تجري من تحتها أنهار جاريات من خمر ولبن وعسل مصفى وماء فرات. وجاء فيها بغانيات فاتنات، اختارهن من أجمل ما في العالم من بنات، عازفات على مختلف أنواع الآلات، مطربات بأعذب الأصوات راقصات ساحرات بطريقة تخلب الألباب وتذهل العقول، لأن الشيخ أراد أن يجعل أنصاره يؤمنون حقاً بأن هذه هي جنة الفردوس؛ من أجل ذلك أنشأها وحاكها على ما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم جنته، إذ الفردوس يجب أن يكون حديقة فيحاء تجري من تحتها أنهار من الخمر واللبن والعسل، والماء، ملأى بحور النساء، حتى لقد آمن أهل هذه الجهات بأنها الجنة التي لا يدخلها إلا من كان من أتباعه الحشاشين (أو الفدائيين). وقام على مدخلها الوحيد الذي لا طريق للوصول اليه غير حصن منيع كفيل بأن يرد كل قوات العالم. وجعل الشيخ في حاشيته جماعة من شباب البلاد تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين كما لو كانوا يختارون للتجنيد. وإلى هؤلاء الشبان يقص الشيخ القصص عن الجنة كما اعتاد النبي محمد من قبل وقد آمن هؤلاء الشبان بهذا الشيخ كما يؤمن المسلمون بنبوة محمد. وكان الشيخ يدخلهم في جنته زمرة زمرة تتألف من أربعة أو ستة أو عشرة في كل مرة، فيسقيهم من منقوع الحشيش[2]، فينامون نوماً عميقاً، ثم

(١) وهو بلا ريب يقصد داعي الدعاة أو الرئيس الأكبر، وهو علاء الدين محمد بن الحسين الذي خلف أباه جلال الدين سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م).

(٢) ومن ثم أطلق على الشيخ «صاحب الحشيش». ويستبعد براون (تاريخ الفرس الأدبي جـ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) أن شيخ الجبل قد شجع استعمال الحشيش (أو الأفيون أو أي مخدر آخر) لأنه يسبب الكسل والإهمال. =

يحملون إلى داخل الجنة، حتى إذا ما استيقظوا من سباتهم ووجدوا أنفسهم في هذه الحديقة وفي هذا المنظر الساحر، آمنوا بأنها الجنة. وهناك تداعبهم الفتيات الحسان وتغازلهم كواكب البنات حتى يرضوا رغائب شبابهم كما يعمل كل شاب على شاكلتهم. ولو انهم حلوا ما برحوا هذا المكان.

ولقد حرص هذا الأمير أو الشيخ كما نسميه على أن يجعل بلاطه بحيث تتجلى فيه مظاهر العظمة والجلال، كما جعل بسطاء الشعب الملتفين حوله يؤمنون بأنه نبي عظيم، حتى إذا أراد أن يبعث أحد مريديه من الحشاشين، سقا أحد شبابه من مخدره، ثم حمل إلى الحديقة حتى اذا ما أفاق من غشيته وجد نفسه في القصر ثم في الجنة ولما يكن قد استكمل نشوته، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حضرة الشيخ، فيخر أمامه راكعاً في كثيرمن التجلة، معتقداً أنه في حضرة نبي مرسل، عند ذلك يسأله الشيخ من أين أتى، فيجيبه أنه أتى من الفردوس، وأنها الجنة التي وصفها محمد في القرآن. وكان طبيعياً أن يغري هذا الكلام أولئك الذين لم يدخلوا الجنة، فتتولد لديهم رغبة ملحة في دخولها. وهكذا إذا أراد الشيخ قتل أحد الأمراء، قال لمثل هذا الشاب، اذهب فاقتل فلاناً، وإذا ما عدت حملتك ملائكتي إلى الجنة، وإن أنت مت فلا أقل من أن أرسل إليك ملائكتي لتعود بك إلى هذه الجنة. وبذلك أوجد الشيخ في نفوس مريديه رغبة جامحة في دخول جنته إذا ما حققوا له رغبته. وعلى هذا النحو ساق الشيخ رجاله إلى إعدام وقتل كل من أراد التخلص منه، وكان من أثر هذا الرعب الذي ألقاه في القلوب أن أصبح كل الأمراء من أتباعه، ليكسبوا محبته وتقوم علاقتهم به على أساس المحبة والسلام وليتقوا شر الاغتيال.

وهذه الطاعة العمياء التي يتصف بها الفدائيون جعلت اختيارهم مقيداً بصفات خاصة تنحصر في الشجاعة والطاعة وعدم معرفة دقائق وأسرار هذا النظام بدرجاته الفلسفية العليا. ويظهر هذا في جلاء ووضوح فيما ذكره المؤرخون عن زيارة الكونت هنري دي شامباني Henry de Champegne ملك أورشليم لشيخ سوريا وإذ هما يسيران يوماً رأيا بعض الصبيان في جلاليب بيضاء جالسين فوق ذروة برج عال، فالتفت الشيخ إلى ضيفه الكونت يسأله عما إذا كان قد رأى رعية أطوع لسيدها من رعاياه. ودون أن ينتظر الكونت منه جواباً. أومأ الشيخ بيده إلى صبيين، فقفزا مسرعين من فوق البرج ليلقيا حتفهما في البقعة التي سقطا فيها.

= والضعف الذهني الذي لا يتناسب مع الواجبات الشاقة الدقيقة التي كان يعهد بها إلى المريدين؛ ولعل استعمال هذا المخدر اقتصر على إحدى الدرجات التي انقسم إليها نظام الإسماعيلية في فارس.

ومع أن الفدائيين لم يتعلموا أسرار مذهبهم وخفاياه كانوا مدربين بعناية فائقة على حمل السلاح واستعماله. وقد تعودوا على تحمل المشاق وأساليب التنكر، بل إنهم كانوا ملمين أحياناً ببعض اللغات الأجنبية، حتى اللغات الأوروبية، لأن هؤلاء الذين انتدبوا لاغتيال المركيز كنراد أمير مونت فيرات، كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية بدرجة كافية، وكانوا يحملون جوازات مرور باعتبارهم رهباناً مسيحيين خلال ستة أشهر يقضونها في معسكر الصليبيين، منتهزين الفرصة لتحقيق أغراضهم. ويندر طبعاً أن يعيش هؤلاء الفدائيون بعد فرائسهم. وكانوا يقتلون الأمير المسلم في يوم الجمعة وفي المسجد أو بيت الله، ويقتلون الأمير المسيحي أو الدوق في يوم الأحد وفي أقدس الأماكن لديه وهي الكنيسة على مشهد من جماعة المصلين. وفي عقيدة أتباع الحسن الصباح أن الموت في سبيل تحقيق أغراض «الشيخ» على هذه الصورة المروعة أشرف ميتة، وفيها توكيد لضمان السعادة، حتى إن أمهات الفدائيين كن يبكين إذا عاد إليهم أبناؤهم أحياء يرزقون.

وكان تهديد الفدائيين لغيرهم في بعض الأحيان كافياً لقضاء مآربهم والوصول إلى غاياتهم، فإذا ما سار زعيم إلى معقل من معاقلهم لمهاجمته، فقد يستيقظ من نومه فيجد بجواره خنجراً قد أغمد في الأرض، وقد ألصقت به ورقة قد تكون كافية لترده على أعقابه وتثنيه عن عزمه، كما حدث - على ما قيل - لملكشاه السلجوقي، ولصلاح الدين الأيوبي، ولو أن هذا القول بحاجة إلى ما يؤيده.

ولما اندثرت معاقل الفدائيين نهائياً ووقع شيخهم الثامن والأخير «ركن الدين خُرْشاه» أسيراً في أيدي المغول وأعدموه في الوقت الذي زالت فيه الخلافة العباسية في بغداد، كان نشاط الحشاشين لا يزال على قوته.

وقد ذكر ابن الأثير[1] أن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه استولى على قلعة ألموت سنة ٥٢٤ هـ.

أما عن فرقة الحشاشين في سورية فقد جعلت لهذا النظام شهرة في أوروبا وأضاف إلى لغاتها كلمة جديدة. ويبدأ تاريخ هذه الفترة السياسية بالاستيلاء على قلعة بانياس حول سنة ٥٢٠ هـ (١١٣٦ م)[2].

(١) راجع S. Guyard, Un grand Maitre des Assassins (J. A. 1877) أي «أحد عظماء شيوخ الحشاشين» (المجلة الآسيوية الفرنسية ١٨٧٧).

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٢٥٤.

وهـذه القصة الحقيقيـة عن الشيخ «رشـد الدين سنـان» المشهور الـذي جعـل الفـرع السـوري من هذا النـظام يستقل عن النـظام الفارسي قـد أمـدتنـا بمعلومـات تعـد من أقـوى القصص تأثيراً في النفوس وبتفاصيل وافية تتصل بتاريخ هذا المـذهب وما قـام به دعـاته من أعمال وما أدخلوه على أنظمتهم من أساليب.

وحتى هذا اليوم لا يزال أعقاب هذه الفرقة القوية برغم تشتتها منتشرة في الشـرق: في سوريا وفارس وخراسان وفي شرقي أفريقيا وفي أواسط آسيـا والهند، حيث نجـد «أغا خـان» الـذي يرجـع نسبه إلى ركن الدين خورشاه آخـر شيـوخ ألموت الذي ينتمي إلى نزار بن المستنصـر الفاطمي من سـلالة إسماعيل الإمـام السابـع من طـائفـة الإمـاميـة السبعيـة أو الإسماعيلية والذي يـرجـع نسبـه إلى علي وفـاطمـة.

من كل ما تقدم نرى أن طائفة النزارية انتشرت في بلاد فـارس وخراسـان والشام. ولم يقتصر نشاطهم على هذه البلاد، بل امتد نفوذهم الروحي منـذ أيام الحسن الصبـاح إلى بلاد الهند نفسها، فقد كونوا لأنفسهم دولة ذات طابع خاص، وقاموا بدور كبيـر في حياة سـلاطين السـلاجقة وفي حيـاة الخلفاء الفـاطميين والعباسيين. كمـا كان لهم أثـر بعيـد في الحـروب الصليبية، ووقفوا في وجه المغول في فارس. ولما انتهى أمرهم بقتل زعيمهم وإمـامهم ركن الدين خورشاه سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) لم تستسلم جميع قلاع «الدعوة النـزارية»، بـل بقي منها قلاع حمل دعاتهـا السلاح في وجـه المغول، واشتـركوا مـع المماليـك في موقعـة عين جالوت وغيرها من المواقع.

وقد مر تاريخ النزارية في العصر الذي أفردناه لهذا الجزء في كتـابنا (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) بدورين، يعرف أولهما بدور الستر الأول كما يعرف بدور الدعاة؛ ويعرف الدور الثـاني بدور الظهور الأول أو دور الأئمة.

أما دور الستر الأول أو دور الدعاة (٤٨٨ - ٥٥٧ هـ)، فيبدأ بمقتل نزار بن المستنصر، ويمتاز بأن رئاسة الدعوة كانت في أيدي جماعة من كبار دعاة النزارية، هم الحسن الصباح (ت ٥١٨هـ) وخليفتاه ألكيابزر[1] (بسكون اللام وكسر الكاف وضم الباء وفتـح الزاي) جميـد (بضم الجيم وفتـح الميم وسكـون اليـاء) (٥١٨ - ٥٣٢ هـ)، وابنـه محمـد الأول (٥٣٢ - ٥٥٧ هـ). وفي هـذا الدور كـان هؤلاء الدعـاة يدعـون للأئمـة المستورين من أبنـاء نـزار، معارضين في ذلك الخلافة والإمامة الفاطمية.

---

(١) الكيا = الرئيس، وبزر حميد = من يهب الأمل والرخاء.

وأما الدور الثاني أو دور الظهور الأول أو دور الأئمة فيبدأ بإعلان الحسن الثاني رئيس الدعوة النزارية (٥٥٧ ـ ٥٦١ هـ) الإمامة، وادعائه بأنه من سلالة نزار بن المستنصر، فسمى نفسه القاهر بن الهادي بن نزار، ومن ذلك الحين أصبح رؤساء الدعوة النزارية يعرفون بالأئمة بعد أن كانوا يلقبون بالرؤساء أو الدعاة، وقد جاء بعد القاهر أربعة من الأئمة هم: محمد الثاني (٥٦١ ـ ٦٠٧ هـ)، وجلال الدين حسن (٦٠٧ ـ ٦١٧ هـ)، وعلاء الدين محمد (٦١٧ ـ ٦٥٣ هـ)، وركن الدين خورشاه (٦٥٣ ـ ٦٥٥ هـ).

وفي هذا الدور نرى هؤلاء الأئمة يعملون على أن يرثوا الفاطميين في الأمور السياسية والدينية، وأن يقفوا في وجه العباسيين باعتبارهم الوارثين الحقيقيين لعلي وفاطمة وأبنائهما من بعدهما، واستطاعوا بذلك أن يقوموا بالدور الذي تقدمت الإشارة إليه.

على أن تاريخ النزارية لم ينته بمقتل ركن الدين خورشاه وانقضاء دور الستر الأول أو دور الأئمة سنة ٦٥٥ هـ . فقد دخل هؤلاء النزارية أنفسهم في دور جديد يعرف بدور الستر الثاني، ويبدأ من سنة ١٢٥٧ م وينتهي في سنة ١٨١٧ م وذلك بظهور الإمام النزاري الجديد محمد حسين (١٨١٧ ـ ١٨٨١) الذي تلقب بلقب أغا خان، وقد انتشرت النزارية في عهد الستر الثاني في فارس وخراسان وفي الهند.

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف تاريخ هؤلاء النزارية بدأ تاريخهم في الظهور منذ مستهل القرن التاسع عشر، بدليل أن بعضهم تقلد الحكم في بعض الولايات الفارسية؛ فقد تقلد الشاه خليل الله مثلاً ولاية كرمان. وتولى الشاه[1] محمد حسين إمامة النزارية في سنة ١٨١٧وتزوج من ابنة فتاح علي شاه فارس. وقد قيل إنه طمع في الوصول إلى العرش عن طريق زوجته. واضطر محمد حسين إلى الهجرة إلى أفغانستان بعد أن أخفق في الثورة التي أشعلها في جنوبي فارس، لأن وزير هذه البلاد كان قد طلب الزواج من ابنة هذا الإمام، فرفض طلبه لأنه عده غير كفء لابنته.

وقد قام محمد حسين بمساعدة الإنجليز في فتح أفغانستان، فمنحوه معاشاً ضخماً ولقبوه بصاحب السمو أغا خان. ولم يكتف الإنجليز بذلك، بل إنهم عملوا على تقوية الرابطة بينه وبين أتباعه في بلاد الهند وغيرها.

وبعد وفاة علي شاه بن محمد حسين (١٨٨١ ـ ١٨٨٥) تولى رياسة النزارية أغا خان

---

(١) يلاحظ أن هذا اللقب كان نوعاً من التستر لإحاطة الأئمة النزارية بنوع من الغموض بخلاف لقب شاه الذي يطلق على ملوك فارس.

محمد شاه جد صدر الدين بن علي الأغا خان الحالي. ويشتهر كل من هؤلاء بكثرة زياراتهم لأتباعهم الذين يعرفون باسم «الخوجات». وينتشر هؤلاء الأتباع في الهند، وعلى الأخص في ولايات بمباي وكلكتا والبنجاب وكشمير وأحمد أباد وسورات وغيرها، كما ينتشر بعضهم في فارس وأفغانستان وعمان وسائر بلاد الخليج العربي، وفي شرقي القارة الإفريقية ولا سيما في زنزبار.

من ذلك نرى أن الخوجات اليوم وعلى رأسهم أغا خان يمثلون طائفة النزارية أتباع نزار بن المستنصر، كما يمثل البهرة طائفة الطيبية أتباع الإمام الطيب بن الآمر بن المستعلي. فالخوجات أو الأغا خانية يمثلون الدعوة الجديدة، على حين يمثل البهرة الدعوة القديمة.

(٥) الدعوة الطيبية في اليمن:

نهج أنصار الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن نهج أنصار الدعوة الفاطمية في فارس وخراسان والشام. فقد نادى أهل اليمن من أنصار الخليفة المستعلي بابنه أبي القاسم وكان صغيراً، ونقلوه إلى بلادهم في سنة ٥٢٦ هـ، وأقاموا الدعوة له ولقبوه الإمام الطيب، ولم يعترفوا بإمامة الخليفة الحافظ؛ وبذلك أسسوا الدعوة الطيبية في اليمن، وساروا في ذلك الأمر على منوال أنصار نزار بن المستنصر في فارس الذي لم يعترفوا بإمامة أخيه المستعلي ونقلوا إليها أحد أبناء نزار وأسسوا الدعوة النزارية في فارس وخراسان والشام.

ولم يقتصر نفوذ الطيبية على بلاد اليمن فقد قامت الدعوة للطيب بمصر في بادىء الأمر، ونقشت الدنانير باسمه في الإسكندرية سنة ٥٢٥ هـ. وقد جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار في الإسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسمائة، أبو القاسم المنتصر بأمر الله أمير المؤمنين

الإمام

محمد(١)

وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية أولاً مركزاً لحركتهم ومستقراً لدعوتهم.

وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ الفاطمي ولم تعترف بشرعية حكمه أو أحقيته بالخلافة والإمامة، لأن الملكة الحرة أروى الصليحية كانت قد تلقت من

(١) Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes. p. 163, pièce no, 489.

الآمر كتاباً يبشرها فيه بمولد ولي عهده، فعرفت أن الحافظ اغتصب الخلافة وأنه لا حق له في إقامة الدعوة الإسماعيلية التي انقسمت بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي، وطيبية نسبة إلى الإمام الطيب بن الآمر حفيد المستعلي.

وقد عمل الخليفة الحافظ على مناوأة الدعوة الطيبية في اليمن، فاستعان ببني زريع[١] الذين ظلوا على ولائهم للحافظ وخلفائه، كما ظلوا يقاومون الدعوة الطيبية حتى أبطل نواب صلاح الدين الأيوبي هذه الدعوة كما ذكرنا.

ومن أهم ما تمتاز به الدعوة الطيبية في ذلك العصر، أنها كانت تدعو إلى إمام مستور هو الطيب وأبناؤه من بعده على حين دعا بنو زريع إلى إمام ظاهر، هو الحافظ وخلفاؤه من بعده.

ومن أهم ما تمتاز به الدعوة الطيبية أيضاً انفصال الدعوة عن الدولة، فقد أصبح الصليحيون، ولا سيما في عهد الملكة السيدة أروى (بفتح الألف مع الهمزة والواو وسكون الراء) الصليحية، يمثلون الدولة، على حين أصبح الداعي المطلق يمثل الدعوة نفسها، الأمر الذي أدى إلى اتساع نفوذ هذا الداعي بين أنصار الدعوة الطيبية؛ ولا عجب في ذلك. فقد أصبح هذا الداعي يمثل الإمام المستور، يعنون بذلك الطيب وأبناءه.

وإذا وازنا بين مركز الداعي الكبير لاماك بن مالك ومركز ذؤيب بن موسى الداعي الداعي المطلق من حيث أثر كل منهما في الدعوة الإسماعيلية في اليمن، وجدنا أن مركز الأول لا يتعدى الدعوة والدعاة هناك، بحيث إنه كان يستمد تعاليمه وأصول الدعوة من داعي الدعاة في مصر. أما الثاني فقد كان بالإضافة إلى ذلك يعتبر المنبع الأوحد لعلوم الإمام المستور ومعارفه. فلا تجد داعياً يكتب في التأويل إلا بعد الرجوع إليه، بعد أن كان ذلك مباحاً للجميع قبل عصر الدعوة الطيبية. ومن ثم أصبحت الطريقة الوحيدة لبقاء أصول المذهب الإسماعيلي مقصورة على دراسة آداب الدعوة، فلم تعد حاجة إلى مؤلفات يتجه فيها مؤلفوها نحو التجديد، بل لقد أصبح من الواجب أن يقتصروا على ما ورد في كتب الدعوة القديمة والمحافظة عليه واختصاره ونشره في مؤلفات سهلة المنال[٢]. (Compendiums).

لذلك رأى القائمون بالدعوة اليمنية من واجبهم أن يعملوا ما استطاعوا للحصول على

---

(١) بضم الزاي وفتح الراء وسكون الياء.

(٢) Hamdani, Some Un Known Ismaili authors (JRAS, 1933), p. 365.

المؤلفات الإسماعيلية القديمة والمحافظة عليها بإخراج هذه المختصرات. ولهذا نستطيع أن نجد المعلومات التي تضمنتها فلسفة إخوان الصفا، وهم إسماعيلة في ميولهم، وفي أبحاث الداعي أبي حاتم الرازي، وأبي يعقوب السجستاني الداعي، وأحمد حميد الدين الكرماني وغيرهم من قدامى الدعاة وأعلامهم؛ بل في الأبحاث التأويلية للقاضي جعفر بن منصور اليمني والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، يرى الباحث كل ذلك في مؤلفات الدعاة في عصر الدعوة الطيبية، ولم يكن هذا كله إلا لأن بقايا الإسماعيلية المستعلية من أنصار الخليفة المستعلي بن المستنصر وابنه الآمر يرون أن الإمامة الفاطمية لم يعد لها وجود منذ استتار الإمام الطيب، وأن تراث الدعوة القديمة يجب المحافظة عليه على هذا النحو الذي أشرنا إليه[١].

ومن أهم الكتب التي تمثل هذا الأسلوب الجديد كتاب «عيون الأخبار» للداعي عماد الدين إدريس بن الحسن بن الوليد (٧٩٤ - ٨٧٢/١٣٩٢ - ١٤٦٨) فقد بحث فيه تاريخ الدعوة الإسماعيلية وتطوره. ويعد هذا الكتاب أحسن كتاب وضع في هذه الناحية. ولعباد الديل كتب أخرى ألفها على غرار مؤلفات الدعوة القديمة.

كما تمتاز الدعوة اليمنية في هذا الدور بأنها كانت قوية في البداية، إذ كانت تعضدهـ وتشد من أزرها قوة الصليحيين السياسية، إلا أنها لم تنل مثل هذا التأييد في أخريات هذا الدور بسبب ما تعرضت له جماعة الإسماعيلية من ضعف ووهن نتيجة لزوال نفوذ الصليحيين وبني زريع في اليمن على يد عبد النبي بن مهدي[٢]. ثم على يد توران شاه ابن أيوب. فأخذ أتباع الدعوة اليمنية في هذه البلاد يتحولون تدريجياً إلى جمعية سرية دينية كل همها أن تعيش عيشة هادئة وأن تحتفظ بتراث هذه الدعوة.

وكذلك نستطيع أن نميز عنصراً آخر جديداً في هذه المرحلة، هو أن اليمن لم تقطع صلتها تماماً بمصر، إذ بقي بنو زريع على ولائهم لخلفاء مصر (نواب الأئمة) حتى قضى ابن مهدي على سلطانهم على ما سبق، وبعبارة أخرى نرى أنه على الرغم من أن أنصار الدعوة اليمنية في اليمن كانوا يعتبرون الحافظ ومن جاء بعده من الخلفاء خارجين على الدعوة اليمنية أو الإمامة الحق التي تتمثل في الطيب المستور - على الرغم من ذلك ظل آل زريع يخطبون على منابرهم باسم هؤلاء النواب. لهذا نستطيع أن نقول إن آل زريع كانوا يمثلون

(١) Hamdani Ismaili esoterice (Islamic Cultuc, 1927), p. 211.

(٢) كان أبوه مهدي يدعي أنه إسماعيلي وأنه أحد دعاتهم (ابن الجوزي: مرآة الزمان). وفي الحل أن المهدي وابنه كانا خارجين على المذهب الإسماعيلي.

الجانب الظاهري من الدعوة المستعلية، على حين يمثل أنصار الدعوة اليمنية الجانب السري منها؛ يتضح ذلك من هذه العبارة التي نقلها عمارة اليمني عن الملكة الحرة الصليحية إذ يقول: «ثم نقلت السيدة دعوة الحافظ إلى آل زريع، وقالت: «حسب بني الصليحي ما علموه من أمر مولانا الطيب. ثم صارت الدعوة اليمنية في أبناء حاتم بن إبراهيم إلى هذا الوقت»[1] أي إلى نهاية القرن السادس الهجري.

وقد ظلت الدعوة الطيبية تعمل في الخفاء في بلاد اليمن، كما انتقلت هذه الدعوة إلى بلاد اليمن حيث يمثلها هنا وهناك البهرة الذين ينتظرون الإمام من أبناء الطيب. ويشتهر البهرة بالتجارة ويختلفون مع الخوجات أتباع أغا خان[2]. ولا غرو فإن البهرة يدعون للإمام الطيب حفيد المستعلي، ويدعو الخوجات لإمامهم أغا خان الذي يرجع نسبه الى نزار بن المستنصر.

(٦) الدعوة المرابطية:

كان يحيى بن إبراهيم الجدالي رجلاً صالحاً متحمساً للإسلام عاملاً على نشره تواقاً إلى التزود بأحكامه وقد رحل عن بلاده لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول سنة ٤٤٠ هـ. وفي طريق عودته إلى بلاده مر بمدينة القيروان بإفريقية (وهي بلاد تونس الآن)، مركز إفريقية العلمي إذ ذاك، والتقى فيها بالشيخ الصالح أبي عمران الفاسي وكان من فقهاء المالكية، وانضم إلى حلقة دروسه. ولما رأى أبو عمران ميل يحيى للعلم، سأله عن اسمه وقبيلته ووطنه، فأجاب أنه يحيى بن إبراهيم من جدالة إحدى قبائل صنهاجة الجنوب[3].

وقد ارتاع أبو عمران حين اختبر يحيى بن إبراهيم في بديهيات الإسلام وعرف أنه لا يفقه منها شيئاً ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفاً على الرغم من أنه أمير قومه. غير أنه «صحيح النية والعقيدة واليقين، جاهل بما يصلح دينه» فقال له أبو عمران: وما يمنعك من التعلم؟ قال يحيى: «يا سيدي! إن أهل بلادي قوم عمهم الجهل، وليس فيهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسارعون إليه، لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ويعلمهم شرائع الإسلام ويبين لهم سنن النبي صلى الله عليه وسلم. فلو ابتغيت الثواب من الله تعالى

---

(١) تاريخ عمارة اليمني: ص ١٠٢.

(٢) وهم النزارية المحدثون.

(٣) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (لمؤلف مجهول الاسم) ص ٩.

بتعليمهم الخير، لبعثت معي إلى بلادنا بعض طلبتك، يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، فيكون لك في ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم إذ تكون سبباً لهدايتهم»[١].

وقد تأثر الفقيه أبو عمران الفاسي بكلام يحيى بن إبراهيم وهمَّ بتلبية طلبه، لأنه رأى في ذلك تقرباً إلى الله بنشر دينه وإشاعة الخير بين أهل هذه البلاد الذين تفشت فيهم الجهالة. ولما عرض الفقيه أبو عمران هذا الأمر على تلاميذه النابهين لم يوافقه أحد منهم لبعد الشقة وإشفاقهم من دخول الصحراء، فدله الفقيه على رجل من فقهاء المغرب يدعى «واجاج بن زللو» اللمطي، وكان يقيم بمدينة نفيس[٢] (بفتح النون وكسر الفاء) وهو فقيه من أهل السوس الأقصى، أخذ العلم عليه وانقطع للعبادة والعلم، وأسس مدرسة للمالكية في بلده وكثر عدد تلاميذه. وقد بعث أبو عمران الفاسي مع يحيى بن إبراهيم برسالة إلى واجاج، فرحب به وأكرمه ودلَّه على أحد تلاميذه وهو الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي. فقبل الذهاب مع يحيى بن إبراهيم اللمتوني إلى الصحراء حيث مواطن جدالة ولمتونة.

عرف عبد الله بن ياسين الجزولي مهدي المرابطين بالتبحر في العلم، والتفقه في الدين، وكان فوق ذلك زعيماً شجاعاً وقائداً مقداماً ومجاهداً مخلصاً[٣]. وقد أهلته هذه الصفات الممتازة لإرساء أساس الدولة المرابطية التي خدمت الإسلام ونشرت أحكامه الصحيحة في الجنوب المغربي وفي السودان ثم ولت وجهها شطر الشمال، فجددت عزة الإسلام في الأندلس وأعادت شوكته ولا سيما في عهد يوسف بن تاشفين.

ولما رأى عبد الله بن ياسين ما كانت عليه لمتونة من القوة والرغبة في الدين قال لهم: «إنكم إن صبرتم ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد فتحتم ما كان أمامكم ستفتحون إن شاء الله ما وراءكم» وأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة، وكان أهلها تحت طاعة أمراء مغراوة (بكسر الميم وسكون الغين) الزناتية. وكان بين لمتونة بقيادة عبد الله بن ياسين وبين مغراوة حروب كثيرة[٤].

تدرع عبد الله بن ياسين بالصبر في نشر دعوته. ولم يكد يستقر به المقام في بلاد لمتونة وجدالة حتى أخذ يعلمهم الدين ويبين لهم شرائعه. ولما رأى أن البربر في ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية، أخذ يحثهم على إصلاح سلوكهم، فأعرضوا عنه،

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص
(٢) الحلل الموشية: ص ٩ - ١٠.
(٣) الكامل ج ٩ ص ٢٣١.
(٤) الحلل الموشية ص ١١.

ففكر في الرحيل عن ديارهم[1] ولكن يحيى بن إبراهيم الجدالي تشبث ببقائه وقال له: «إني لا أتركك تنصرف وإنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وديني، وما علي فيمن ضلّ من قومي» ثم أشار على عبد الله بن ياسين بأن يفرا بدينهما ويعتصما بجزيرة نهر السنغال[2] بنيا بها رباطاً اتخذاه مركزاً لعبادتهما، وأخذا يعلمان الناس التفقه في دينهم والمحافظة على شعائرهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين.

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه، وخاصة من جدالة ومسوفة ولمتونة أخذت في الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادىء الإسلام. ومن كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة قوله لتلاميذه:

«اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخوفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته؛ فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه. فخلوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا»[3] وتعتبر هذه العبارة منهجاً أساسياً وضعه عبد الله بن ياسين لدعاة المرابطين من بعد.

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ يعلمهم القرآن والسنة وأحكام الدين؛ وهذا الاسم مأخوذ من الرباط، أي الخلوة التي اتخذها عبد الله بن ياسين في جزيرته بنهر السنغال. هذا ما ذكره صاحب القرطاس. أما ابن عذارى (بكسر العين) فإنه يرى رأياً آخر في هذه التسمية، حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية، فأطلق عليهم عبد الله ابن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم[4].

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ٩ ص ٢٣١) أن اللمتونيين رحبوا بيحيى بن إبراهيم وبعبد الله بن ياسين الذي أخذ يعلمهم عقائد الإسلام وفرائضه فقالوا: «ما ذكرت من الصلاة والزكاة فصحيح وهو قريب، وأما قولك من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنى يجلد أو يرجم فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا».

(٢) ويذكر ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة: «وأخذه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في الصيف وغمراً في الشتاء». ولعل ابن خلدون قد وقع في هذا الخطأ الذي وقع فيه الشريف الإدريسي (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨.) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤ ـ ١٦. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة المؤلف ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٤) أحمد مختار العبادي: مجلة تطوان، العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

وذكر ابن الأثير(١) أن عبد الله بن ياسين عقد لأبي بكر بن عمر شيخ لمتونة اللواء وسماه أمير المسلمين، وحث من حسن إسلامه قومه على الجهاد في سبيل الله وسماهم المرابطين.

ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هذا. ومعنى المرابطين: الأتقياء المجاهدون في سبيل الله. وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط، وهو حراسة الحدود، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حامياتها. وقد ورد لفظ رباط في القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد، أي القتال في سبيل الله، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها، فقال جل شأنه في سورة الأنفال [٢٢ : ٣٩ - ٤٩] ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

كان الأثر الديني في قيام دولة المرابطين أقوى من الأثر السياسي، إذ كانت الروح الدينية تقوم على الجهاد. ولم يكن «أمير المسلمين» الذي تلقب به أمراء المرابطين غير ملك مجاهد. وكان المجلس الاستشاري يتألف من رجالات الدولة، وكان الفقهاء من أبرز أعضاء هذا المجلس. وقد ظهرت هذه الحياة الدينية في رباط السنغال، وهو المكان الذي يرابط فيه المسلمون للجهاد ويدافعون عن الدين وعن البلاد. وكانت هذه الربط تقام في الأماكن التي يخشى فيها من هجمات الأعداء. ثم تحول هذا اللفظ إلى «ثغر» أي مدينة حصينة.

على أن الرباط قد أصبح له معنى آخر في شمالي إفريقيا، فقد كان فقهاء المالكية يلقون دروسهم بمساجد القيروان من أجل الدفاع عن مذهب مالك ودعوة الناس إلى التزهد والتعبد، وضربوا المثل بأنفسهم وبالإمام مالك. وقد فضل كثير منهم أن يعتزل حياة المدن التي سادتها الاضطرابات السياسية والفوضى وفساد العقيدة ويرحلون إلى رباطات ينقطعون فيها إلى العبادة وتلقين العلوم الدينية. ولعل هذه الرباطات كانت في بداية أمرها على هذه الصفة بمثابة رد فعل سلبي ضد المذاهب الجديدة التي تختلف مع المذهب السني كالمذهب الشيعي والمذهب الخارجي البرغواطي. وإذا كانت الربط قد ظلت كذلك في إفريقية والمغرب الأوسط حيناً من الدهر، فإنها في المغرب الأقصى قد تحولت من ربط التزهد وتدريس العلم إلى مراكز حربية لكفاح المذاهب الأخرى. وقد امتاز رباط السنغال

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢، انظر ما ذكرناه عن هذه التسمية بصدد كلامنا على الدولة المرابطية (الباب الثالث من هذا الكتاب).

بأنه لعب دوراً هاماً في ثلاث من النواحي ، إذ كان المؤمنون يتلقون فيه العلم ، ويتعبدون فيه ويتطلعون إلى جهاد المشركين والقضاء على عناصر الفتنة في شمالي المغرب . وبذلك كان رباط السنغال مدرسة ومعبداً ونواة لدولة لعبت فيما بعد دوراً بعيد الأثر في تاريخ المغرب والأندلس معاً . وفي رباط السنغال تشكل الجهاز السياسي الأول الذي جمع عدداً من الشيوخ والفقهاء ، على رأسهم يحيى بن إبراهيم الجدالي وعبد الله بن ياسين ، وإذا كان عبد الله بن ياسين رجل فقه من حيث تكوينه الديني ، فقد كان من الناحية العملية القوة الدافعة للحركة المرابطية من الناحية السياسية أيضاً ، لأنه هو الذي وحد بين قبائلهم ووضع لهم الخطط الحربية في الوقت الذي كان يحيى بن إبراهيم الموجه السياسي من الناحية النظرية فحسب .

ولم يلبث عبد الله بن ياسين أن أخضع جميع الصحراء ، وكون جيشاً كبيراً جمع أموالاً ضخمة من الغنائم وتودّد إلى قبيلة مصمودة . وبعث بأموال عظيمة من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة المصامدة وقضاتها .

ولم يكن الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني أقل حماساً في نشر الإسلام من سلفيه عبد الله بن يتفاوت ويحيى بن إبراهيم . فلم يكد يلي منصبه الجديد في رئاسة المرابطين حتى أمره عبد الله بن ياسين بالجهاد في سبيل الله : «وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين ، كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه ؛ فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً : وجب عليك الأدب ، قال له : فيم يا سيدي؟ قال له : لا أعرفك به حتى آخذه منك . فكشف له (يحيى بن عمر) عن بشرته . فضربه عشرين سوطاً ثم قال : إنما ضربتك لأنك باشرت القتال وأصليت الحرب بنفسك ، وذلك خطأ منك ، فإن الأمير لا يقاتل ، وإنما يقف ويحرض الناس ويقوي نفوسهم ، فإن حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيوشه»[1] .

وهذه العبارة إن دلت على شيء فإنما تدل على تفاني يحيى بن عمر في الإخلاص لدعوة عبد الله بن ياسين وشدة طاعته ، كما تدل على إلمام عبد الله بن ياسين بأساليب القتال وإدارة دفة المعارك الحربية .

وقد ظل يحيى بن عمر منقاداً لزعيمه الروحي عبد الله بن ياسين ، واستولى المرابطون على جميع بلاد الصحراء ، وغزوا بلاد السودان ، واتجهوا صوب الشمال ، ففتحوا درعة وسجلماسة وقضوا على أهل البدع وأحلوا محلها أحكام الإسلام . ولم يذهب عبد الله بن ياسين إلى سلجماسة ودرعة حتى استنجد به الفقهاء وكتبوا له وليحيى بن عمر وشيوخ

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦ - ١٧ .

المرابطين كتاباً يطلبون إليهم أن يقوموا بفتح بلادهم وتطهيرها من الآثام وتخليصها من عسف أمراء زناتة. فلما وصل هذا الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع شيوخ المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم في الأمر فقالوا: «أيها الفقيه! هذا مما يلزمنا ويلزمك، فسر بنا على بركة الله! فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد». وقد كتب الله النصر للمرابطين على أمراء مغراوة الذين كانوا حكام درعة وسجلماسة، واستولوا على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم، وقام عبدالله بن ياسين بتوزيع الغنائم على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، إذ أخرج الخمس وقسمه على فقهاء درعة وسجلماسة وأهل التقوى والصلاح. ثم وزع الأربعة الأخماس الباقية على المحاربين(١).

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا الغزو لم يكن غزواً سياسياً يرمي إلى التوسع الإقليمي وبسط سلطان المرابطين السياسي، وإنما كان جهاداً في سبيل الله ونصرة دينه.

وقد استشهد الأمير يحيى بن عمر في إحدى غزواته سنة ٤٤٧ هـ، فقلد عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني قيادة الجيش المرابطي (محرم سنة ٤٤٨ هـ)، وأمره بغزو بلاد السوس والمصامدة. وفي شهر ربيع الثاني من سنة ٤٤٨ هـ عين أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي لمع نجمه وعلا شأنه في الدولة المرابطية، واستطاع أبو بكر بن عمر في زمن قصير أن يستولي على معاقل بلاد السوس ويخضع قبائلها، ففتح جزولة وماسة وتارودانت قاعدة السوس وخلصها من أيدي الشيعة البَجَلية. ثم اتجه أبو بكر لحرب قبائل المصامدة، ففتح جبل دَرَن ومدينة نَفيس وسائر بلاد جَدْميوَة. ووفدت عليه القبائل فبايعته، ثم سار إلى مدينة أغمات، وبها يومئذ أميرها لَقْوط ابن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين، ففر إلى أبناء عمومته بني يَفرن ملوك سلا وتادلا (بسكون الدال). واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات سنة ٤٤٩ هـ، واتخذوها حاضرة لهم حتى تأسست مدينة مراكش.

ثم اتجه عبد الله بن ياسين إلى تامسنا(٢) حيث كانت قبائل برغواطة تقيم بساحلها وتستعد للقائه. وقد أوغلت هذه القبائل في الكفر والضلالة، وكان بعضها يدين بالمجوسية فقاتلها عبدالله بن ياسين لانضوائها تحت لواء الإسلام. وكان البراغواطيون بقيادة أبي جعفر عبد الله من سلالة اليسع بن صالح بن طريف المتنبي الكذاب(٣). وكانت بينه وبين عبد الله

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٢.

(١) يطلق هذا الاسم على الناحية الممتدة بين سلا وآسفي في سهول المحيط الأطلسي ولا سيما في سهول الشاوية الحالية جنوبي الدار البيضاء.

(٣) ذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ج ٢ ص ٢٥ - ٢٦) أن صالح بن طريف ينتمي إلى أصل يهودي، =

ابن ياسين حروب طاحنة أصيب فيها عبدالله بن ياسين بضربة أودت بحياته. ولما حضرته الوفاة قال للمرابطين:

«يا معشر المرابطين! إني ميت من يومي هذا لا محالة، وإنكم في بلاد عدوكم، فإياكم أن تجبنوا أو تتنازعوا فتفسلوا وتذهب ريحكم[1]، وكونوا أعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله. وإياكم والتحاسد على الرياسة، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده».

وتوفي عبد الله بن ياسين عشية هذا اليوم (الأحد ٢٤ من شهر جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ)، ودفن بموضع عال يعرف بكريفلة على مقربة من مدينة الرباط بين الرماني وابن سليمان وبني على قبره مسجد لا يزال حتى الآن.

وقد استمر الأمير أبو بكر بن عمر في حرب البرغواطيين حتى قضى على دعوتهم، ثم تفرغ لحرب الصحراء، تاركاً أمر المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين، ثم نزل له عن الحكم بعد عودته كما تقدم.

إن العوامل التي أحاطت بالدعوة المرابطية، ومدى تأثر عبد الله بن ياسين بالبيئة التي عاش فيها، وتكوينه الديني، وروح الحماسة التي اتصف بها في الإسلام لجديرة بالبحث،

= وأن موطنه الأصلي بلاد الأندلس. وقد أسلم في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان، ورحل إلى المشرق ودرس العلوم الإسلامية، ثم قدم بلاد المغرب ونزل بلاد قامسنا فوجد بها قبائل من البربر قد فشا فيهم الجهل، فادعى النبوة وتسمى «صالح المؤمنين» وقال لهم: أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد عليه السلام. ثم أخذ يشرح لهم ديانته (١٢٥ هـ) وجعل الصيام في شهر رجب لا في شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمس بالليل وخمس بالنهار، وقرر أن الأضحية واجبة على كل من اتبعه في الحادي والعشرين من شهر المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرّة والخاصرتين، وجعل في صلاتهم الإيماء، لا سجود فيها الا في الركعة الأخيرة حيث يكون السجود خمس مرات. وأمرهم بأن يخرجوا العشر من جميع الثمار. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء، وحرم الزواج من بنات العم. كما أمرهم أن يطلقوا ويرجعوا كما يشاءون. وأمر بقتل السارق حيث وجد، وحرم رأس الحيوان ولحم الدجاج، واعتمد في الصلاة على أذان الديكة التي حرم ذبحها، ومن ذبح ديكاً ألزم بعتق رقبة. ووضع صالح بن طريف المتنبي قرآناً يقرأونه في صلاتهم ويتلونه في مساجدهم، وزعم أنه نزل عليه وأنه أوحي به من الله تعالى، ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر. واشتمل قرآنه المزعوم على ثمانين سورة سماها بأسماء النبيين وغيرهم، منها سورة آدم وسورة نوح وسورة يونس وسورة موسى وسورة هارون وسورة فرعون وسورة بني إسرائيل وسورة الديك وسورة الجزاء وسورة إبليس وسورة الجمل... الخ.

(١) وهذا مقتبس من قوله تعالى ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا ويذهب ريحكم﴾.

لما لها من الصلة الوثيقة بـالدعـوة المرابـطية وقيـام الدولـة المرابطية، وإبـراز شخصية هـذا المصلح الاجتماعي.

اتفق جمهو المؤرخين على ثلاث نقط أساسية لا شك في صحتها وهي :

(١) أن عبد الله بن ياسين ينتسب إلى قبيلة جزولة.

(٢) أنه تلقى العلم على واجاج بن زلّلو بمدينة نَفيس.

(٣) أنه ينتمي إلى مدرسة واجاج بن زللو تلميذ أبي عمران الفاسي أحد أئمة المذهب المالكي.

أما عن قبيلة جزولة فقد أشار إليها ابن خلدون[١] عند كلامه على تفرع الشعوب البربرية حيث يقـول: «وأما شعـوب البـرانس، فعنـد النسـابين أنهم يجمعـون سبعـة أجـذام وهي : أزداجة، وأوْربة، وعَجيسة، وكتامـة، وصنهاجـة، وأوريغة، وزاد سـابق بن سليم وأصحابـه لمطة وهسكورة وجّزولة»[٢].

على أنه مما لا شك فيه أن صنهاجة المـرابطين قـد هاجـرت إلى الصحراء قبـل الفتح الإسلامي بزمن طويل. وسواء أكانت جزولة قبيلة برنسية قائمة بذاتها أم كـانت فخذاً أو بـطناً من صنهاجة أو من مصمودة، فإن موطنها هو جنوبي السوس على ساحل المحيط الأطلسي الذي عرف نوعاً من النشاط الحضاري. وعلى ذلك فإن عبدالله بن ياسين ينتمي إلى عنصـر بربري إلى أرومة عربية على أساس أن صنهاجة وكتامة قبيلتان عـربيتان كمـا أثبت ذلك ابن خلدون.

وأما عن مدينة نَفيس، فقد قامت فيها مدرسة واجـاج بن زللو شيخ عبدالله بن ياسين. وشهـدت منذ الفتـح الإسلامي التـطورات الفكريـة والسياسيـة والدينيـة التي تلقي كثيـراً من الضوء على شخصية ابن ياسين. وإذا رجعنا إلى الوراء رأينا أن عقبة بن نافع الفهري استولى

---

(١) العبر ج ٦ ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) خالف تيراس Terrasse. Histoire du Maroc, tome I, p. 196 ابن خلدون بقوله: إذا كان من السهل معرفة المغرب المصمودي برغم ما يحيط الجزء الخاص بالمصامدة من شك، فإننا على العكس من ذلـك نرى صعوبة ما في تحديد مواطن صنهاجة في المغـرب. ويبدو أن سـاحل المحيط الأطلسي الصغيـر كان قـد انتشرت فيه صنهاجة وجزولة ولمطة. وقال المؤلف نفسه في موضـع آخر (ج٢ ص ٢١٣) إنـه كانت هنـاك فيـدراليات مهمـة تحتل الصحـراء الغربيـة فكانت لمـطة وتاركـة وسرتـة وجزولـة على اتصال بـالجنـوب المغربي. وقد اختلف المؤرخون في نسب جزولة، فجعلها بعضهم فخـذاً وبطنـاً من صنهاجـة، وعدهـا بعض آخر قبيلة برنسية قائمة بذاتها كصنهاجة ومصمودة وغيرهما من القبائل المشهورة.

على هذه المدينة وأخضع الروم المسيحيين والبربر. ولا يبعد أن يكون قد بنى فيها مسجداً بعد أن جمع منها كثيراً من الغنائم. ثم بسط عبد الله بن ياسين نفوذه على الجنوب المغربي بعد أن ضم مدينة نفيس وجبال المصامدة. ويقول السلاوي[1] إن إدريس الثاني لما فرغ من بناء مدينة فاس. . . أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة ثم غزا بلاد المصامدة ودخل مدينة نفيس.

من ذلك نرى أن مدينة نفيس التي تلقى عبدالله بن ياسين العلم في مدرستها كانت مركزاً حضارياً أكثر من قرنين قبل قيام الدولة المرابطية. وسواء أولد عبد الله بن ياسين في هذه المدينة، أم قضى فيها شطراً من حياته، أم وفد إليها من مكان آخر لتلقي العلم على واجاج بن زللو، فإنه مما لا ريب فيه أنه كان لهذه المدينة أثر بعيد في تكوين شخصية عبد الله بن ياسين من جهة، وفي أنه وقف عن طريقها على المشاكل السياسية والحركات الفكرية التي عرفها المغرب في أيامه من جهة أخرى.

وأما عن المذهب المالكي الذي كان عبدالله بن ياسين يدين بتعاليمه، فإن الإسلام لم يكد يستقر في المغرب حتى تعرضت للاختلافات المذهبية التي انتشرت في الشرق الإسلامي زهاء ثلاثة قرون حتى قدر للمذهب المالكي أن تكون له السيادة بعد أن ظل في صراع مستمر مع غيره من المذاهب. وكانت سيادة هذا المذهب من أبرز نتائج الدعوة المرابطية.

ويظهر أن فقهاء المذهب المالكي ظلوا منذ سقوط دولة الأدارسة سنة ٣٧٥ هـ إلى قيام الدولة المرابطية في صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وبرغواطية، عاملين على توطيد مذهبهم، فأقاموا شبكة من المراكز تمتد من إفريقية (تونس الحالية) إلى السوس الأقصى. وقد اشتهر من هذه المراكز: القيروان، وفاس، ونفيس. وإذا كانت الخصومة قد اشتدت بين المالكية السنيين وبين الدويلات التي قامت في المغرب من شيعيين وخوارج وبرغواطيين، فإن المالكية قد ظلوا خلال هذا الصراع يعقدون الآمال على ظهور زعامة إسلامية توحد العالم الإسلامي وتعيده إلى السنية والسلفية. لذلك لم يكن عمل هؤلاء المالكية ذا صبغة فقهية فحسب، بل كان كذلك مظهراً دينياً وسياسياً يهدف إلى بعث حركة إصلاحية تنطلق من أحد هذه المراكز لتقيم الدولة المغربية السنية في المغرب أولاً ثم في سائر العالم الإسلامي ثانياً.

---

(١) الاستقصا ج ١ ص ١٥٣.

وإذا كان الفقيه المالكي واجاج بن زللو اللمطي قد تحمل مشاق الرحلة من الجنوب المغربي ليأخذ العلم على الفقيه أبي عمران الفاسي المالكي في القيروان، ثم يعود إلى هذا الجنوب المغربي ليؤسس مدرسة للفقه المالكي تضم طائفة من أبناء الجنوب رغبة في إعداد جيل يقوم بنصرة هذا المذهب، فقد كان عبد الله بن ياسين أحد أولئك التلاميذ الذين كانوا يهيئون للقيام بهذا الدور الذي يتفق وأهداف المالكية. وليس من شك في أن غرض واجاج بن زللو في مدرسته بنفيس قد تحقق في شخص عبد الله بن ياسين الذي لم يغادر نفيس يوم ندبه شيخه للتوجه إلى الصحراء مع الأمير الملثم يحيى بن عمر إلا وهو مؤمن بأن المغرب في حاجة ملحة إلى الإصلاح، وأن أستاذه لم يندبه للرحيل إلى بلاد صنهاجة إلا لثقته فيه لأن يبني قوة حربية وجهازاً سياسياً يتفق وأهداف فقهاء المذهب المالكي ونشر تعاليمه بين أولئك الصحراويين الذين لم يفسدهم تناحر الفرق وتنازع الأهواء. ومما يؤيد هذا الرأي أن عبد الله بن ياسين كان يبعث في بعض الأحيان بخمس الغنائم من الصحراء إلى أستاذه واجاج بنفيس، وأنه توجه في بعض غزواته إلى بلاد المصامدة بدعوة من أستاذه.

وصفوة القول أن شخصية عبد الله بن ياسين قد توافر لها من المؤثرات الفكرية والسياسية ما جعل من صاحبها مصلحاً وداعية دينية، إذ سار في توجيه الدعوة وفق خطة مرسومة تهدف إلى إقامة دولة وتوحيد أمة وتوطيد دعائم مذهب. أما تأثير عبد الله بن ياسين في توجيه الدعوة المرابطية فيتبين في جلاء ووضوح في اعتناق هؤلاء البدو الرحل الذين أصبحوا بفضل تعاليمه مسلمين حقاً متمسكين بتعاليم الإسلام على هدي من تعاليم مذهب مالك، ثم يتفانون في نصرة هذا المذهب الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة المرابطية، ويحاربون هؤلاء الذين انحرفوا عن جادة الإسلام.

(٧) الدعوة الموحدية:

(أ) مولد ابن تومرت ونشأته

ولد محمد بن تومرت بقرية **إيجلي**[١] بجبال الأطلس ببلاد السوس بالمغرب الأقصى، وذلك في النصف الثاني من **القرن الخامس الهجري**. وينسب ابن تومرت إلى قبيلة هرغة

(١) المراكشي: المعجب ص ١٨٧. ويذكر الزركشي (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٢ ـ ٣) أنها تسمى إيكلين.

إحدى بطون قبيلة مصمودة التي تعتبر أكثر قبائل القرن عدداً وأشدها بأساً وأوفرها ثراء، وهي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى[١].

ومن هنا يدرك أن ابن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ينتمي إلى أكبر قبائل المغرب، وأن هذا الأمر قد هيأ له النجاح في دعوته التي انتهت بقيام الدولة الموحدية، لأن العصبية، كما يقول ابن خلدون[٢]، تعد أهم العناصر نجاح المبادىء والدعوات.

وقد ذكر ابن تومرت أنه ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ويشير المراكشي (المعجب ص ١٧٨) إلى أن ابن تومرت ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الأدارسة الذين أسسوا دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ . وقد انقسم المؤرخون في مسألة نسب ابن تومرت إلى بيت الرسول إلى طوائف ثلاث :

(١) طائفة أيدت صحة هذا النسب، لأن الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم شرط أساسي في المهدي المنتظر. ومن هؤلاء المؤرخين أبو بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيدق وتلميذ ابن تومرت، وكان لا ينفك عنه كظله حتى توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ .

(٢) وطائفة أنكرت نسب ابن تومرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ومن هؤلاء ابن أبي زرع وابن عذارى.

(٣) وطائفة أخرى آثرت جانب الاعتدال والتزمت الحياد. ومن هؤلاء عبد الواحد المراكشي.

---

(١) ويذكر الشريف الإدريسي (وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، نشرة هنري بيرس Henri Perès، الجزائر ١٩٥٧ ص ٣٥) أن مصمودة هي القبيلة الأولى نزلت المغرب فعمرته، وقد ذكر البكري (المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤) أن كتامة بطن من مصمودة. وعلى ذلك يكون الشعب المصمودي قد انتشر في المغربين الأوسط والأقصى، وفي مصر في العصر الفاطمي حيث كان أكثر جيشها من قبيلة كتامة. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة فرع من المصامدة (المصدر نفسه). وعلى ذلك يكون هذا الشعب المصمودي قد انتشر في صحراء المغرب حتى السودان (عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٨). ويذكر ابن خلدون بعض قبائل مصمودة فيقول: «وقبائل هؤلاء المصامدة كثيرة، فمنهم هرغة (بفتح الهاء والغين وسكون الراء) قبيلة ابن تومرت، وهنتاتة (بكسر الهاء وسكون النون وفتح التاء) وتينمل (بفتح التاء وسكون الياء والنون وكسر الميم) وجدميوة (بفتح الجيم الأولى وسكون الدال وكسر الميم الثانية وفتح الواو)، وجنفيسة (بفتح الجيم والسين وسكون النون)، ووريكة (بفتح الواو والكاف) ورجراجة (بفتح الراء وسكون الجيم الأولى وفتح الجيم الثانية) وهزميرة (بفتح الهاء والراء وسكون الزاي)، ودكالة (بضم الدال)، وحاحة، وأصارن، وبنو وزكيت (بفتح الواو وسكون الزاي)، وبنو ماكر، وإيلانة (ابن خلدون): العبر ج ٦ ص ٤٦٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧.

ويبدو أن ابن خلدون[1] يميل إلى صحة نسب ابن تومرت إلى الرسول الكريم وانتمائه إلى قبيلة مصمودة البربرية فيقول: «وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ووشجت عروقه فيهم والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار في عدادهم». ويرى ابن خلدون أن ذرية سليمان بن عبد الله أخا إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى قد انتشرت في قبيلة مصمودة عن طريق المصاهرة، وكان محمد ا بن تومرت يدعى النسب إلى سليمان بن عبد الله.

وقد نشأ ابن تومرت في بلاد السوس التي اشتهرت منذ ظهور الإسلام في المغرب بحب الدين الحنيف والسعي لتحصيل علوم القرآن الكريم. وكان أهل بيته، كما يقول ابن خلدون، أهل نسك ورباط، وقد شب محمد (بن تومرت) هذا قارئاً، محباً للعلم، وكان يسمى «أسافو» ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل لملازمتها. من ذلك نرى أن ابن تومرت نشأ في بيئة دينية، وأنه انكب على طلب العلم ولازم بيوت الله للعبادة.

وبعد أن أخذ ابن تومرت بحظ من علوم الدين واللغة رحل إلى المشرق لطلب العلم، فرحل إلى الأندلس، ثم إلى مصر والشام، ثم ألقى عصا النسيار بالعراق حيث جد في طلب العلم. وكانت بغداد في ذلك الحين من أعظم الحواضر الإسلامية في العلم والأدب والحضارة. وقد تلقى ابن تومرت العلم على أعلام العلماء كأبي بكر الشاشي، والمبارك بن عبد الجبار من علماء الكلام والأصول والحديث، وقيل إنه أخذ العلم على الإمام أبي حامد الغزالي. وقد تأثر بالثقافة الإسلامية في بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية. وكان لهذه الثقافة أثر بعيد في حياة ابن تومرت الذي أخذ على عاتقه أن ينقل إلى المغرب التوحيد الكلامي القائم على التأويل[2] وأن يصرف الناس عن المذهب التقليدي الذي ورثه فقهاء المالكية عن السلف الصالح، والذي يأبى التأويل إباء تاماً عملاً بقوله تعالى:

﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنَّ أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكَّر إلا أولوا الألباب﴾ [سورة آل عمران ٢ : ٧].

---

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٢.

(٢) يقصد علم الكلام الذي يؤول الآيات القرآنية تأويلاً يبعد الذات الإلهية عن مشابهة الحوادث وعن التجسم مثال ذلك: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ [سورة الفتح ٤٨ : ١٠] فعلماء الكلام يفسرون اليد بالقدرة أي قدرة الله تؤيدهم بينما تقف السلفية موقفاً محايداً فلا يسمحون لأنفسهم بالتأويل.

(ب) دعوة ابن تومرت

وهنا نسأل: على أي أساسٍ قامت الدولة الموحدية؟ وهل قامت على أساس ديني إصلاحي أم على أساس ديني وسياسي معاً؟ ولماذا تسمت بهذا الاسم؟

ظل ابن تومرت سنوات يطلب العلم بالمشرق ثم عاد إلى بلاده حاملاً أفكاراً جديدة وآمالاً بعيدة، فحج بيت الله وأخذ بنشر الدعوة الموحدية في مكة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. وكانت مكة إذ ذاك خاضعة للحكم الفاطمي، فلم يكن بد إذن من أن يندد بسوء حال المسلمين في عهد الفاطميين. لذلك نرى ابن تومرت يغادر مكة ثم يتجه إلى الشام ثم إلى مصر مركز الدولة الفاطمية إذ ذاك. وقد قيل إنه اتصل بالفقيه أبي بكر الطرطوشي في الإسكندرية. وهنا أخذت الدولة الفاطمية تطارد ابن تومرت خشية انتشار مبادئه الثورية بين الناس، فركب البحر واتجه إلى المغرب، وقد اختلف المؤرخون في اسم المدينة التي نزلها ابن تومرت بعد خروجه من مصر، فيرى ابن خلدون أنه حل بمدينة طرابلس حيث أخذ ينشر مذهبه الجديد في التوحيد الذي يقوم على تأويل المتشابه من القرآن الكريم والحديث الشريف، مشدداً النكير على علماء المغرب في عدولهم عن التأويل. ثم قام ابن تومرت بتدريس علم التوحيد لتوضيح مذهبه الجديد وأخذ الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

على أن علماء المغرب المالكية السلفيين لم يتقبلوا مذهب ابن تومرت بل قاوموه بعنف حتى «لقي بسبب ذلك أذايات في نفسه احتسبها من صالح عمله» على حد تعبير ابن خلدون[١]. وقد ذكر البيدق أن ابن تومرت نزل بمدينة تونس ثم بمدينة قسنطينة ثم بمدينة بجاية، ثم اتجه إلى تونس، وكان طلبتها يأخذون العلم عليه. وقد أضاف البيدق قائلاً: «وظل (ابن تومرت) على هذا أياماً. فلما كان بعض الأيام قال: نتوجه إن شاء الله نحو الغرب، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كنا أول القدوم: سيدنا المعصوم، ويوسف الدكالي، والحاج عبد الرحمن، وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق. فلم نزل نجد السير حتى وصلنا قسنطينة». ثم يذكر البيدق أن ابن تومرت أقام بمدينة قسنطينة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ثم خرج منها إلى مدينة بجاية[٢].

ذكر ابن خلدون أن ابن تومرت التقى بتلميذه عبد المؤمن بن علي بعد خروجه من

---

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٧.

(٢) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص ٥١.

مدينة بجاية بقرية تبعد عنها بفرسخ واحد[1] ويبالغ مؤرخو الموحدين في وصف لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن، فيذكرون أن المهدي عرفه قبل أن يلتقي به بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم[2] والجفور[3]، وأن ابن تومرت قربه إليه وآثره على جميع أتباعه وهيأ له السبيل لأن يخلفه في زعامة الموحدين.

خرج ابن تومرت من هذه القرية ومعه عبد المؤمن بن علي، ومحمد البشير الونشريشي، فمر بوجدة ومكناسة وسلا،وانتهى به المطاف أخيراً بمدينة مراكش حاضرة المرابطين في ذلك الحين. وكان ابن تومرت في جميع هذه المدن يدعو إلى مذهبه، آمراً الناس بالمعروف ناهياً عن المنكر مشدداً النكير على من يخالف الشرع .وكان في الوقت نفسه يبشر بمبادىء التوحيد الكلامي سراً كلما أتيحت له الفرصة.

أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم «الموحدين» إشارة إلى أنهم هم الذين يوحدون الله حقاً، وتعريضاً بالدولة المرابطية التي رماها ابن تومرت بالكفر والتجسيم، وأحل قتالها باعتبار المرابطين (في رأيه) غير مؤمنين عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [سورة التوبة ٩ : ١٢٣].

(ج) ابن تومرت وعلي بن يوسف المرابطي

كان ابن تومرت يمشي في الأسواق آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، فيتلف المزامير وآلات اللهو ويريق الخمر ويكسر أوانها، ولم يكن في ذلك مأذوناً من السلطان ولا من القضاة ولا من المحتسبين التابعين للدولة المرابطية، إذ كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة اللهو المنافي للشرع من اختصاص المحتسب وحده. وكانت الحسبة عملاً حكومياً هاماً؛ من أجل هذا اعتبرت الدولة المرابطية عمل ابن تومرت مخالفاً لقوانين الدولة. وقد نبه ابن تومرت بأعماله الجريئة أذهان الناس، فلم يكن بد من أن يأمر السلطان علي بن يوسف بإحضاره. «فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه ورثاثة حاله، فاستحقره وهان عليه أمره

(١) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٤٦٧.

(٢) كان التنجيم من العلوم التي عني بها المسلمون في ذلك الحين، حتى إن الخلفاء والسلاطين كانوا لا يحاربون إلا بمشورة المنجمين. وقد ندد أبو تمام بالمنجمين مادحاً المعتصم العباسي بعد انتصاره على الروم في موقعة عمورية بقوله:

السيف أصدق إنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

(٣) الجفر جلد الماعز الذي قيل إن به علوم الأولين ومعرفة الغيب قد دونها الإمام جعفر الصادق ثم ورثها عنه أئمة الشيعة.

وقال: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ فقال: وما بلغك أيها الأمير؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك فإنك المسئول عنه. وقد عاب الله تعالى قوماً تركوا النهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾»(١) [سورة المائدة ٥: ٧٩].

فلما سمع السلطان كلام ابن تومرت أكبره وعظمه وأشار إلى وزرائه بإحضار الفقهاء لمناظرته وتحقيق مقالته. ولما حضر الفقهاء قال لهم السلطان: «إنما بعثت إليكم لتختبروا أمره، فإن كان عالماً اتبعناه وإن كان جاهلاً أدبناه»(٢).

من ذلك نرى أن السلطان الورع علي بن يوسف بن تاشفين قد تأثر بكلام ابن تومرت، وأنه بعث إلى العلماء ليستمعوا بدورهم إلى آرائه ويختبروا علمه، فإن كان على حق قضت الضرورة باتباعه، وإن كان على باطل فينبغي أن يؤدب. وإذا كان السلطان يريد أن ينزل العقاب بابن تومرت لما رأى ضرورة لطلب العلماء لمناظرته واختباره.

على أن علماء المرابطين برياسة مالك بن وُهَيْب حقدوا على ابن تومرت لأنهم عجزوا عن مناظرته. وقد اشتهر ابن تومرت بقوة الجدل والمناظرة فقال لهم: «قدموا من تقوم به حجتكم، وتأدبوا بأدب أهل العلم وسلموا عند شروط المناظرة واتركوا اللجاج، وقدموا أحدكم ممن تثقون بمعرفته وتأدبه. وكان جل من حضر ذلك المجلس أصحاب حديث وفروع (فقه) وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل»(٣).

ولما سمع مالك بن وُهَيْب كلام ابن تومرت استشعر حدة ذكائه وقوة عبارته وأيقن بعجزه وعجز علماء المرابطين عن دفع حججه. فأشار مالك على السلطان بقتل ابن تومرت وقال مشيراً إليه: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن فر إلى بلاد المصامدة وقع لنا منه شر كثير. ولكن علي بن يوسف الذي عرف بورعه وزهده استشعر حقد العلماء على ابن تومرت، فلم يستمع إلى نصيحة مالك ولم يفكر في قتل ابن تومرت. ولما يئس مالك من حمل السلطان على قتل ابن تومرت أشار عليه بحبسه حتى يموت في سجنه فقال علي بن يوسف: علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء، فخرج ابن تومرت مع أصحابه متوجهاً إلى بلاد السوس.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ج ٢ ص ١٠٨.
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٩.
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٠.

(د) هرب ابن تومرت

ثم فر ابن تومرت خشية أن يكيد له الفقيه مالك بن وهيب بمراكش، وظل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاجتمع حوله كثير من الناس. وقيل إنه نزل بأغمات على الفقيه المصمودي عبد الحق بن إبراهيم، وأنه أخبره بمقصده وما جرى له مع السلطان وعلماء المرابطين فقال له عبد الحق: هذا الموضع (يعني أغمات) لا يحميكم، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد بلدة «تينمل»، وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم. فلما سمع ابن تومرت كلمة تينمل دار بخاطره أنه رأى هذا في كتاب الجفر وتفاءل بأنه سوف ينتصر في هذا الموضع. فاتجه إليه[١].

ويذكر ابن خلدون أن ابن تومرت لما ذهب إلى أغمات غير بها المنكر على عادته، فضاق كثير من الناس به ذرعاً وأغروا به السلطان علي بن يوسف؛ فلما علم ابن تومرت بذلك، خرج هو وأصحابه من أغمات خائفين يبتدرون الطريق، فلحق بقبيلة مسفيوة المصمودية ثم بقبيلة هنتاتة، حيث لقيه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية، ثم تركهم ابن تومرت ميمماً شطر قبيلة هرغة، فنزل على قومه سنة ٥١٠ هـ[٢].

ولا ريب أن فرار ابن تومرت هائماً على وجهه وتوديعه مدينة مراكش حاملاً بين جنبيه عداء علماء المرابطين الذين عملوا على الإيقاع به وحملوا السلطان على طرده، ثم ما لمسه من ضعف هذا السلطان المرابطي الذي أمر بإبعاده وأبى الانتفاع بعلمه والاستماع إلى مبادئه كل ذلك قد حدا بابن تومرت إلى القيام بعمل حاسم إزاء الدولة المرابطية التي سيطر عليها العلماء والنساء في عهد علي بن يوسف، فبنى بهرغة رابطة للعبادة، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل المختلفة، وأخذ يلقي عليهم درساً من كتابه «المرشدة» الذي ضمنه مذهبه الكلامي الجديد. وألف لأتباعه كتباً في عقيدة التوحيد التي قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية[٣]. فذاع ذكره وعظم أمره واشتدت شوكته. وأخذ يفكر في المهدوية التي تعتبر أول خطوة في قيام الدولة الموحدية.

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٧٧.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٤٧٠.

(٣) انظر كتابي انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٢٠.

(هـ) بيعة ابن تومرت

ومما يدل على عناية ابن تومرت بإحلال التوحيد الكلامي القائم على التأويل محل توحيد السلف القائم على التسليم بظاهر الآيات، أنه بعد أن حل بقومه بهرغة وبنى رابطة للعبادة والتدريس، أخذ يدرس التوحيد الكلامي جهراً بعد أن كان يذيعه بين تلاميذه سراً(١). ولما اجتمع حول ابن تومرت كثير من الطلاب، طلب اليهم مبايعته على التوحيد، ثم مهد للخطوة التالية، وهي المهدوية، فأخذ يروي لطلابه الأحاديث التي جاءت في المهدي المنتظر، وذكر لهم أن ظهوره قد آن أوانه لوجود هذه العلامات التي وردت في الأحاديث التي أوردها الشيعة عن المهدي المنتظر. وقد ذكر ابن تومرت أن هذه العلامات تنطبق عليه من حيث اسمه ولقبه ونسبه النبوي؛ لذلك ادعى هذا الأمر لنفسه وقال: أنا محمد عبد الله، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه وناشد بالله للمهدي المعصوم، وروى في ذلك كثيراً من الأحاديث حتى استقر في الأذهان أن ابن تومرت هو المهدي، وبسط يده فبايعوه وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رسول الله(٢).

ويصف ابن القطان بيعة الموحدين لابن تومرت بالمهدوية فيذكر أنه حين وثق من منعته في قومه عقد اجتماعاً عاماً وخطب في قومه قائلاً:

«الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما يشاء، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه. وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور. مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمن، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم. وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد. وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل»(٣).

وهناك رواية ينقلها ابن القطان عن اليسع أنه قال: «وسمعت أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن بن علي (رضي الله عنه) يقول: لما فرع الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه من

---

(١) المصدر نفسه ص ٧١.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٨٨.

(٣) انظر ابن القطان: نظم الجمان، مخطوط المعهد الإسلامي بمدريد، نشره الدكتور محمود مكي ورقة رقم ١٥.

كلامه بادر إليه عشرة رجال منهم أنا، فقلت له: هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت المهدي، فبايعناه على ذلك»[١] والعشرة المذكورون هم: عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير الونشريشي، وأبو إبراهيم الهزرجي، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي، وأبو الربيع سليمان بن الحضري، وأبو عمران موسى بن عمار، وأبو يحيى، وأبو بكر بن يحيت، وأبو عبد الله محمد بن سليمان، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي (مؤسس الدولة الحفصية في تونس)، وعبد الله بن مَلْوِية.

وهؤلاء العشرة هم المسلمون أهل الجماعة، كانوا بمثابة مجلس وزراء لابن تومرت كما كانوا نواة للدولة الموحدية.

(و) الحكومة الموحدية

نظم ابن تومرت دولته تنظيماً عسكرياً على الآتي:

(١) العشرة أو أهل الجماعة: وكانوا بمثابة الوزراء.

(٢) أهل الخمسين: وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الشيوخ.

(٣) أهل السبعين: وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الأمة.

(٤) الطلبة: وهم العلماء.

(٥) الحفاظ: وهم صغار الطلبة.

(٦) أهل الدار.

(٧) قبيلة هرغة: وهي قبيلة المهدي بن تومرت.

(٨) أهل تِيْنمل: وهم جماعة منتخبة من عدة قبائل، وهم الذين ألفوا الجيش الموحدي الذي استطاع أن ينشر الدعوة الموحدية ويؤسس الدولة الموحدية. وقد ظلت تينمل مركز الدعوة الموحدية حتى سقطت مراكش في أيديهم سنة ٥٤١ هـ.

(٩) قبيلة جَدْمِيوة.

(١٠) قبيلة جَنْفيسة.

(١١) قبيلة هنتاتة.

---

(١) المصدر نفسه ورقة ٢٠.

(١٢) القبائل الموحدية .

(١٣) الجند .

(١٤) الغِزّات وهم عوام الناس[١] .

وكان المهدي بن تومرت يأخذ أتباعه بالشدة في احترام القوانين والمواعيد والتمسك بالصفات الحميدة . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكانها في الحكم . كما رسم ابن تومرت لهذه الطبقات ما لها من حقوق وما عليها من واجبات . وكانت الطبقات في مجموعها متساندة كمجموعة لها كيانها ، وكان على الموحدين كافة أن يقوموا بأداء حقوق الله قبل كل شيء ، وأن يواظبوا على الصلاة في أوقاتها وقراءة تلك الأحزاب التي وضعها المهدي[٢] والكتب التي ألفها في العقيدة الموحدية على أن تتلى بصفة مستمرة[٣] .

(ز) غزوات ابن تومرت

كانت غزوات المهدي بن تومرت التي سبقت موقعة البحيرة عبارة عن إخضاع القبائل التي أبت أن تدخل في الدعوة الموحدية عن طواعية واختيار ؛ فقد أرسل ابن تومرت إلى القبائل المختلفة كتباً يدعوها إلى الدخول في سلك هذه الدعوة التي تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور (في رأيه) وتنقذهم من التردي في هاوية العقيدة المرابطية التي تؤدي إلى التجسيم والإشراك بالله . وقد حارب ابن تومرت قبائل رجراجة وقبائل جبل درن (الأطلس) : يقتل من عصا ويؤمن من اتبعه وانقاد له . وبذلك استطاع ابن تومرت أن يفتح جميع قلاع جبل درن وحصونه وأوديته ، فأطاعته قبائل هنتاتة وجنفيسة وهرغة وغيرها[٤] .

على أن البيذق يعتبر أن حرب المهدي بن تومرت ضد قبائل الأطلس عبارة عن سلسلة من حروب ووقائع منفصلة ، فيعقد البيذق لأخبار المهدي فصلاً يتناول فيه سبع غزوات يشترك فيها ابن تومرت بنفسه ويشج ويحمل من المعركة جريحاً على نحو ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد[٥] .

---

(١) انظر ابن القطان : نظم الجمان ، مخطوطة المعهد الإسلامي بمدريد .

(٢) وهي أشبه بالأوراد التي يتلوها المصلون عقب الصلاة .

(٣) عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٧٢ ـ ١٧٧ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١١٨ .

(٥) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٧ .

وتعتبر موقعة «البحيرة» التي نشبت بين المهدي بن تومرت وبين الجيش المرابطي أهم المواقع . وكان الجيش الموحدي بقيادة أبي محمد البشير الونشريشي ، وقاد الجيش المرابطي أبو بكر علي بن تاشفين ، وانتهت هذه الموقعة بقتل قائد الموحدين وهزيمة جيوشهم[1]. وكانت هزيمة الموحدين صدمة عنيفة للمهدي بن تومرت الذي انتابه المرض ومات سنة ٥٢٤ هـ ، على ما ذكرنا في الباب الثالث من هذا الكتاب .

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١١٤ .

الباب الثامن
نظم الحكم

١ ـ النظام السياسي

١ ـ الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقيين:

بدأ الفقهاء يبحثون مسألة الخلافة نظرياً في عصر انحلال الدولة العباسية، حين لم يعد للخليفة من الأمر شيء. وقد تناول موضوع الخلافة من الوجهتين النظرية والعملية كثير من فقهاء المسلمين ومؤرخيهم.

فأبو الريحان البيروني[١] (ت ٤٤٠/١٠٤٨) أعلن في وضوح ما آل إليه أمر الخلافة العباسية فقال: إنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء، اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته.

كذلك تعرض لمسألة الخلافة فقيه آخر هو أبو الحسن علي الماوردي[٢] (ت ٤٥٠/١٠٥٨) الذي ولد في عهد الخليفة العباسي الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١/٩٧٤ ـ ٩٩١) وتوفي في عهد القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧/١٠٣١ ـ ١٠٧٥). ويعتبر الماوردي في طليعة الذين بحثوا هذا الموضوع، فقد بحث الخلافة بحثاً نظرياً لا يتفق والحوادث التي وقعت في عصره وقبل عصره؛ فهو يقول: إن مركز الخليفة انتخابي، ويذكر الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير. ثم يسرد تاريخ البيعة منذ أيام أبي بكر، ويدلي بالحجة على أن بيعة كل من الخلفاء الراشدين صحيحة شرعاً، كما يسرد شروط أهل الإمامة وواجبات الخليفة الدينية والإدارية والقضائية والحربية[٣]. على أن الماوردي قد تجاهل في هذا البحث النظري حقيقة ما وصلت إليه الخلافة في عهده.

كما تناول موضوع الخلافة كاتب متأخر عن البيروني والماوردي هو نظامي عَروضي

---

(١) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (لندن ١٧٨٩).

(٢) الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٧ هـ) (ص ٨ ـ ١٢).

(٣) المصدر نفسه ص ٤ ـ ٦، ٨ ـ ١٢، ١٣ ـ ٢٠.

السمرقندي، الذي يرى ضرورة قيام من يخلف النبي ﷺ للمحافظة على الشريعة، كما يقول: إن هذا القائم بالأمر يجب أن يكون خير المجتمع، ويقول أيضاً: إن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا أن يدير دولته إدارة حازمة لاتساع رقعتها، ولا بد إذاً أن يكون له نواب يمثلونه في الولايات النائية.

ومن الفقهاء الذين تكلموا عن الخلافة ابن حزم[١] (٤٥٦/١٠٦٤) في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، والشهرستاني[٢] (٥٨٤/١١٥٣) الذي تكلم في كتابه «الملل والنحل» (جـ ٤ ص ١٦٣ ـ ١٧١) عن آراء أصحاب الفرق في الخلافة وفي إمامة الخلفاء الأول.

كما تناول موضوع الخلافة فريق من الفلاسفة والأخلاقيين الذين تأثروا بعلوم اليونان وفلسفتهم، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون. ومن فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بما كتبه أفلاطون في جمهوريته: أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩/٩٥٠، والذي عاصر سيف الدولة الحمداني واتصل به اتصالاً وثيقاً وتأثر بفلسفة أفلاطون في جمهوريته، فتكلم على دولة تعتبر مثلاً أعلى عند الفلاسفة. وقد أفرد الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» باباً عنون له بباب «القول في العضو الرئيس»[٣]، (وهو الخليفة والإمام في العرف الإسلامي) تعتبر مثلاً أعلى على رأسها الفلاسفة.

وقد شبه الفارابي الدولة بالكون الذي ينتظم عوالم متناسقة بدرجاتها المختلفة، تخضع لسلطان الله سبحانه وتعالى، كما شبه الكون بالروح الإنسانية من حيث مقاييس الذكاء، وبجسم الإنسان من حيث تركيب أعضائه في شكل منظم يسيطر عليه القلب. وبهذه الطريقة نفسها شبه الفارابي الدولة بنظام متعدد الدرجات. والدولة المثالية في نظر الفارابي يشرف عليها زعيم يعرف ما هي السعادة الحق، لأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى هدفه بدون هداية مثل ذلك الزعيم (الإمام أو الخليفة). ولعل الفارابي لم يعن العناية المطلوبة في بحث الحالة السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي الذي كان يعيش فيه، وأن هذه الحالة لا يمكن أن تنطبق على الخلافة إلا من الناحية النظرية ومن جهة النظرة الدينية فحسب[٤].

كذلك تعرض إخوان الصفا لمسألة الخلافة من وجهة نظرهم التي تتفق ونظرية الشيعة كما يرى أكثر الباحثين، فقالوا: إن الملوك خلفاء الله في الأرض، وإن الملك حارس الدين

---

(١) القاهرة ١٣١٧ هـ.

(٢) على هامش كتاب ابن حزم.

(٣) ص ٧٠ ـ ٨٠.

(٤) Arnold, The Caliphate, pp. 121-122

وحارس الرعية، فهو يحمل رعيته على الإذعان لأحكام الدين ونواهيه؛ وهذا يتفق مع النظرية الإسلامية العامة. ومن هؤلاء نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي[١] وقد تناول موضوع الحكومة في كتابه سياسة نامه الذي وضعه سنة ٤٨٥ (١٠٩٢ م)، فبحث مسألة إعداد الحكام وإدارة الدولة.

ومن أولئك الفلاسفة والأخلاقيين شهاب الدين سهراوردي (١١٩١/٥٨٧) الذي تأثر في كتابه «حكمة الإشراق» بما كتبه أفلاطون في جمهوريته، ونصير الدين الطوسي الشيعي الذي دخل في خدمة هولاكو التتاري وحثه على إزالة الخلافة العباسية، وصحبه في حصار مدينة بغداد سنة ١٢٥٨/٥٦٦. فقد وصف في كتابه «أخلاقي ناصري» الإمام (أي الخليفة) كحاكم مثالي كما فعل أفلاطون وأرسطو من قبله، وكان نصير الدين الطوسي من أبرز الكتاب الذين خلفوا لنا مؤلفات في الدين والفلسفة.

وقد عني ببحث موضوع الخلافة في العصر الأخير بعض المستشرقين من أمثال متز وجولدتسيهر وسير توماس أرنولد، وغيرهم مثل عبد العزيز الدوري، وحسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن في كتاب (النظم الإسلامية)، وقد نقل إلى الأردية والفارسية.

ويرى ابن خلدون (ت ١٤٠٥/٨٠٨) أن الخلافة تطورت وتحولت عما كانت عليه في صدر الإسلام، وأنه لم يكن بأس من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أياً كانت جنسيتهم. ويقرر ابن خلدون نظريته التي تقوم على العصبية المطلقة لا العصبية القرشية التي بدأت عقب وفاة الرسول واختلاف الصحابة فيمن يخلفه، ويرى أن الإسلام في جوهره لا يفرض هذه العصبية القرشية على المسلمين. ونلاحظ أن ابن خلدون قد طبق روح عصره تماماً، إذ رأى الخليفة في القاهرة في عصر المماليك لا يملك من أمر المسلمين شيئاً، وأن الخلافة قد أصبحت صورية، وبذلك قرر نظريته وهي أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصبية المطلقة[٢].

بذلك نرى ابن خلدون يختلف مع جمهور السنة الذين يرون حصر الخلافة في قريش، ومع الشيعة الذين يريدون قصر الخلافة أو الإمامة على أسرة الرسول وفي بيت علي وأبنائه من بعده. كما يختلف مع الخوارج الذين يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر، ثم اشترطوا الإسلام والعدل، ومع المعتزلة الذين يقولون إن الإمامة اختيار من الأمة سواء أكان المرشح قرشياً أم غير قرشي.

---

(١) Siasset Naméh, 3 vols, (paris, 1891, 1897)

(٢) ابن خلدون: مقدمة ص ١٩٣ - ١٩٦.

بل لقد خالف ابن خلدون ابن حزم (ت ٤٥٦/١٠٦٤) برغم تقديره له واتخاذه إياه قدوة ونبراساً له في تاريخ المغرب والدين بصفة خاصة، إذ جعل ابن حزم أمر القرشية الشرط الأساسي الأول في الإمامة، كما لم يجوز خلع الإمام إذا ظلم، بل أشار بمنع المسلمين إياه من الظلم، فإذا لم يمتنع كان لهم أن يعزلوه[١].

٢ ـ الخلافة العباسية في عهد سلاطين السلاجقة:

لم تختلف حالة الخلفاء العباسيين أيام السلاجقة اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بني بويه. وكان هؤلاء الخلفاء في أيام السلاجقة يعيشون من إقطاعات مقررة كما كانت الحال في أيام بني بويه، ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة. وكانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها.

على أن معاملة السلاجقة السنيين للخلفاء العباسيين كانت أحسن بكثير من معاملة البويهيين الشيعيين لهم؛ يدل على ذلك ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع بعضد الدولة ابن بويه الذي لم يكن همه إلا إظهار ما كان يتمتع به من نفوذ وسلطان أمام رسول الخليفة الفاطمي العزيز.

كما تتجلى هذه العلاقات الطيبة التي سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة في هذه الخلع التي كانوا يتبادلونها؛ فقد كان الخليفة إذا ما ارتقى العرش يبعث في طلب السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا، كما كان السلطان السلجوقي يلتمس بعد توليته السلطنة التفويض من الخليفة العباسي[٢]. ويعزو المؤرخون هذه العلاقات الحسنة إلى هذه الحقيقة، وهي أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني مذهب الخلفاء العباسيين. وذكر سيرتوماس أرنولد في كتابه الخلافة «أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي لا لمركزه السياسي بل لأنه خليفة رسول الله»[٣].

كما تظهر تلك العلاقات واضحة جلية في ارتباط البيتين السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة. فقد تزوج طغرلبك من ابنة الخليفة القائم، الذي زوج ابنه المقتدي من ابنة السلطان ألب أرسلان (٤٦٤ هـ). كذلك تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ) من ابنة السلطان ملكشاه في سنة ٥٠٢ هـ، وتزوج الخليفة المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ) من فاطمة بنت محمد بن ملكشاه أخت السلطان محمود[٤].

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١١١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٤٠ ـ ٦٤.

(٣) The caliphate p. 80

(٤) ابن الأثير: ج ١٠ ص ٨، ٢٩، ١٩٩.

على أن هذه الروابط الوثيقة لم تحل دون قيام النزاع بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة الذين تعدوا على حرمة الخلافة إذا ما تدخل الخليفة في شئون الحكم. وقد ذكر سير توماس أرنولد[١]: أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب «ظل الله» الذي كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم، وأنهم أخذوا من الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) بردة الرسول التي كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية كذلك لقب ملكشاه نفسه بلقب «أمير المؤمنين»، ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء انفسهم[٢].

٣ ـ عودة النفوذ إلى الخلفاء العباسيين ـ المقتفي والمسترشد:

وإن حسن معاملة سلاطين السلاجقة للخلفاء العباسيين بوجه عام قد أحيت في نفوسهم الأمل في إعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان، حتى إنهم استطاعوا في أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشيء من السلطة، وبخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقي.

ولما آلت الخلافة إلى المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥/١١٣٦ ـ ١١٦٠) عول على ترسم خطى آبائه، ونجح كثيراً في هذه السبيل. وقد دخل النزاع بين الخليفة المقتفي والسلطان مسعود في طور جديد. وكان هذا الخليفة ـ كما يقول السيوطي[٣]: «قد حدد معالم الإمامة ومهد رسوم الخلافة، ولم تزل جيوشه منصورة حيثما يممت». وقد حاصر السلطان مسعود مدينة بغداد، ولكنه عاد مخذولاً.

٤ ـ احتفاظ الخلفاء العباسيين بسلطتهم الدينية:

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي قد أصبح طوال عصر انحلال الدولة العباسية ألعوبة في أيدي أمراء الأتراك أولاً، ثم في أيدي بني بويه والسلاجقة ثانياً، ظل محتفظاً

---

(١) Ibid., p. 80

(٢) ذكر البنداري (تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥، ٢٣٤، ٢٤٢) أن سنجر تلقب بلقب ملك عشرين سنة وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية، كما تلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين. وذكر ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ٧١ ـ ٧٤) أنه تلقب بلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين. وذكر ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) أن الخليفة المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥) خلع على عماد الدين زنكي كثيراً من الألقاب مثل الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحد عماد الدين، عمدة السلاطين قاهر الكفرة والمتمردين، أمير العراقين والشام نصير أمير المؤمنين.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢.

بسلطته الدينية في عهد السلاجقة، كما كان محتفظاً بها عند غيرهم من الأمراء المستقلين، لأنه قد ثبت في أذهان الناس أن الخلافة نظام لا بد منه لصلاح العالم واستقامة أموره، وأن الخليفة هو مصدر السلطات. لذلك نرى كثيراً من أمراء المسلمين الذين كونوا إماراتهم بقوة السيف يعترفون بسلطة الخليفة الدينية ويلجئون إليه للحصول على تفويض بالحكم باعتباره خليفة النبي ﷺ ومصدر قوة المسلمين.

وإنما لجأ هؤلاء الأمراء الذين وصلوا إلى الحكم بالقوة إلى هذه السياسة ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر الشعوب المحكومة. نعم! لقد اعترف بالخليفة العباسي السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ ـ ٤٢١/٩٩٨ ـ ١٠٣٠)، كما اعترف يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بخلافة المقتدي العباسي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ)، وطلب إليه أن يعطيه تفويضاً شرعياً بتثبيته في حكم بلاده.

من ذلك نرى أن الخلفاء العباسيين ما زالوا يتمتعون في ذلك الوقت بسلطة أدبية كبيرة في داخل بغداد وفي خارجها. ويقول سير توماس أرنولد: إن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يعارض في شيء، بل يحتمل أنه كان يقابل مثل هذه المطالب بالارتياح والقبول، لأنها اعتراف بسلطته النظرية في وقت امتدت فيه رقعة الدولة الفاطمية على حساب الدولة العباسية المنحلة المتداعية[1]. على أن الدولة الفاطمية ما لبثت أن تطرق إليها الوهن والانحلال، فسقطت في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م)، وظهر على مسرح السياسة صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي خطب للخليفة المستضيء العباسي (٥٦٦ ـ ٥٧٥/١١٧٠ ـ ١١٨٠) على منابر مصر واليمن وسورية، فمنحه هذا الخليفة تفويضاً بحكم هذه البلاد، كما منح الخليفة المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠/١٢٢٦ ـ ١٢٤٢) نور الدين عمر (١٢٢٩ ـ ١٢٤٩ م) تفويضاً بحكم بلاد اليمن، وأعطى مثل هذا التفويض إيلتتمش Iltutmish أحد الملوك العبيد الذي اتخذ مدينة دلهي حاضرة لمملكته، ومنحه لقب سلطان، فنقش اسم الخليفة على السكة.

٥ ـ زوال الخلافة العباسية في بغداد:

بموت مسعود سنة ٥٤٧ هـ أفل نجم البيت السلجوقي وتقاسمت ملك السلاجقة دول شتى عرفت باسم دول الأتابكة.

وفي مستهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كانت هناك دويلات إسلامية منفصلة متعادية في غربي آسيا وشمالي إفريقيا، فكانت مصر وفلسطين ومعظم بلاد

(١) Arnold p. 83.

الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي وبسط السلاجقة سلطانهم على آسيا الصغرى، في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية لا تزال قائمة في بغداد. كما قامت في الشرق إمبراطورية خوارزم على أنقاض الدولة السلجوقية، ونشر أمراؤها سلطانهم بين نهري الكنج (بالهند) ودجلة (بالعراق)، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند.

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسي وخوارزمشاه، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزمشاه، حتى يأمن شره ويحول بذلك دون ما يحدق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزمشاه. وفي شهر نوفمبر سنة ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) سار هولاكو بالتتار إلى بغداد، واستولى عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)[١].

وقد ذبح المغول السواد الأعظم من الأهلين، وأضرموا النيران في المدينة، وقتل الخليفة المستعصم وأولاده وزالت الخلافة العباسية من العراق كما تقدم في الباب الرابع.

٦ ـ تعدد الخلافة في المغرب والأندلس وغيرهما:

كان الشائع على ألسنة العلماء أن الخلافة لا يمكن أن تكون متحدة إلا في شخص خليفة واحد، وإن وجد أكثر من خليفة، فإن سلطانه يكون غير شرعي، بل تجب محاربته والقضاء عليه. ولكن بعد أن ضعفت الخلافة العباسية ولم يعد للخليفة شيء من السلطان تعدد الخلفاء:

١ ـ فقامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب أولاً (٢٩٧ هـ) ثم مصر ثانياً (٣٦٢ هـ).

٢ ـ وقامت الخلافة الأموية ببلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) الذي تلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر بعد أن قنع أسلافه بلقب «بني الخلفاء»، وبذلك أصبح هناك ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ثم مصر، والخلافة الأموية بالأندلس، كما تلقب حكام الموحدين في المغرب الأقصى فيما بعد بلقب أمير المؤمنين.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الخلافة العباسية قامت على الحق الإلهي في الحكم، وأن الخلافة الفاطمية قامت على نظام التوريث الذي كان سائداً عند الفرس أيام آل ساسان،

(١) الفخري ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧.

وأن الخلافة الأموية بالأندلس لم تستمد من الله سبحانه ولا من الشعب، وإنما هي نتيجة قوة عبد الرحمن الثالث، كما كان نظام الخلافة الموحدية في المغرب وراثياً.

٣ ـ وفي سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) اتخذ حاكم سجلماسة (جنوبي جبال أطلس) لقب أمير المؤمنين.

٧ ـ المرابطون والخلافة العباسية:

(أ) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين

كانت الثورات في المغرب الأقصى أشد منها في سائر شمالي إفريقية وقد ساعد على ذلك بعد هذه البلاد عن القيروان ثم المهدية فالمنصورية حاضرة الفاطميين، ومناعة جبال المغرب، ووعورة الطرق، الشيء الذي لم يكن مألوفاً لدى العرب الفاتحين.

وعلى الرغم من أن المرابطين في المغرب كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لم يلقب أحد منهم نفسه بلقب خليفة أو أمير المؤمنين لأن الظروف السياسية لم تساعدهم على منافسة الخلافة العباسية أو التغلب عليها في عهد السلاجقة، فقد خطب إدريس الأول في البربر يوم أخذت له البيعة فقال: «أيها الناس! لا تمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا». ولهذا اكتفى الأدارسة بلقب «إمام» الذي شاع في مخاطبتهم وكتاباتهم. وهذا اللقب هو اللقب الذي أطلقه الشيعة على الأئمة العلويين مما يقدم دليلاً على أن الأدارسة كانوا متأثرين بمبادىء الشيعة وإن لم يتعصبوا أو يغالوا في ذلك إذ أنهم نصروا مذهب السنة ونشروه بالمغرب. وقد ذكر ابن خلدون أن إدريس الأول بنى بمدينة تلمسان مسجداً صنع به منبراً كتب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة ١٧٤ هـ.

على أن الفاطميين لما استولوا على إفريقية (وهي بلاد تونس الحالية) وأقاموا خلافتهم في القيروان سنة ٢٩٧ هـ، امتنع الأدارسة عن الاعتراف بخلافتهم في بادىء الأمر، وعزلهم موسى بن أبي العافية في رقعة ضيقة من ناحية الريف والغرب. أصبح النفوذ في المغرب يتداول بين الفاطميين والأمويين، حتى أعلن الحسن بن جنون آخر أمراء الأدارسة ولاءه للفاطميين واغتيل بسبب تقربه إليهم. أما الزناتيون الذين حكموا المغرب نحو قرن ونصف قرن قبل قيام الدولة المرابطية، فإنهم لم يذعنوا للفاطميين إلا في سنة ٣٠٧ هـ، وظلوا على

ذلك حتى زالت الخلافة الأموية في الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري. وكان الزناتيون أكثر ميلاً إلى الأمويين.

يمتاز النظام السياسي في الدولة المرابطية في جملته بالبساطة. ولم يدر بخلد عبد الله ابن ياسين منذ بث تعاليمه في الصحراء أنه سيقيم دولة، بل كان كل همه منصرفاً إلى نشر التعاليم الإسلامية على وفق مذهب مالك كما ذكرنا.

أما اتخاذ المرابطين لقب أمير المسلمين فإنه يرجع إلى عوامل داخلية وخارجية انتهت بقيام دولتهم. وتنحصر العوامل الداخلية فيما يلي:

أولاً: العامل السياسي، وذلك أن مملكة غانة قد ظهرت في مستهل القرن الخامس الهجري بمظهر القوة والعظمة، وفي مستهل هذا القرن سيطر الملثمون على تجارة السودان وعزموا سنة ٤٣٢ هـ على الاستيلاء على أهم مراكز الغانيين التجارية، وهي مدينة أودغشت القريبة من نهر النيجر شمالي شرقي مدينة تمبكتو. على أن الملثمين انهزموا أمام الغانيين، ثم جمعوا صفوفهم ويمموا شطر الشمال، وقاتلوا الزناتيين المتنازعين المتنافرين في سجلماسة ونواحيها ومهدوا بذلك السبيل لقيام الدولة المرابطية.

ثانياً: العامل الاقتصادي. فقد كانت الحرب التي نشبت بين الملثمين والغانيين في الواقع نزاعاً على الطريق التجاري الذي يمر بسجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً، إذ كان أهل السودان يتبادلون السلع التجارية مع أهل الجنوب، فيرسلون إليهم التبر والصوف والإبل، على حين يرسل أهل الشمال القمح والقطاني ويسيطرون على تجارة الملح ويستولون من القوافل على مورد هام من المكوس. فلما أقصى الغانيون الملثمين من أودغشت، فقد هؤلاء هذه الموارد وفكروا في الزحف شمالاً، وكونوا الدولة المرابطية التي كان لها أثر بعيد في حياة المغرب الاقتصادي.

ثالثاً: العامل الديني، وذلك أن الأشراف في قبائل الملثمين كانوا يؤلفون الطبقة الأرستقراطية. وقد فرض الزناتيون المكوس في سجلماسة، وعمل المرابطون على إقامة حدود الدين ونشر الإسلام في كافة أرجاء المغرب، وأسسوا دولة أخضعت المغرب ومدت نفوذها من طنجة شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً ومن وادي شلف شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى بلاد الأندلس شمالاً.

أما العوامل الخارجية التي ساعدت على قيام دولة تعيد إلى المغرب الإسلامي وحدته وتصد عنه هجمات أعدائه وتحافظ في ظل الخلافة العباسية على مبدأ الوحدة الإسلامية في

وقت تفككت فيه عرى العالم الإسلامي ونشط النصارى إلى استعادة أملاكهم بالأندلس. فقد أخذ نفوذ الفاطميين في الضعف، واستولى السلاجقة على بغداد، وأخذ المسلمون يدخلون في ذلك الصراع العنيف مع الصليبيين، واحتل النورمنديون المهدية وزويلة من يد الصنهاجيين سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م)، ثم عادوا فاحتلوهما في سنتي ٥١٧، ٥٤٤ هـ، واحتل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م)، ودخل المرابطون في حروب مع قشتالة وأراغون في الأندلس. ولم يكن يحيى بن إبراهيم الجدالي شيخ لمتونة ولا عبد الله ابن ياسين يفكران في إقامة دولة وراثية. ومع ذلك فقد كانت إقامة هذه الدولة هي السبيل الوحيد إلى إنشاء نظام حكومي يضمن له الاستقرار ويتلاءم مع الأوضاع التي كانت سائدة بهذه البلاد في ذلك العصر.

ولم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة، لسوء اعتقادهم فيهم وعدائهم لهم بسبب تدخلهم في شئونهم، وتضامناً مع حلفائهم صنهاجة الذين قطعوا الخطبة للفاطميين سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م). لذلك عدل المرابطون عن طريق مصر حين رحلوا لأداء فريضة الحج، برغم ما قام به أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر الفاطمي من جهود في سبيل استمالتهم[١]. وكان المرابطون ينظرون إلى الخليفة العباسي نظرة أسمى من نظرتهم إلى الخليفة الفاطمي، رغبة في المحافظة على الوحدة الإسلامية كما ذكرنا، ولأنهم كانوا لا يخشون الخلافة العباسية التي تطرق إليها الضعف والانحلال.

(ب) المرابطون والخلافة العباسية

وقد نقش المرابطون اسمهم على السكة سنة ٤٥٠ هـ؛ وكانت تحمل اسم عبد الله أمير المؤمنين[٢]. وهكذا اتخذت الدولة المرابطية مقومات الدولة بعد أن استولى أمراؤها على جزء كبير من بلاد المغرب ولا سيما على سواحل المحيط الأطلسي وجزء كبير من الصحراء. ويرجح أن اسم عبد الله الذي نقش على السكة حتى نهاية الدولة المرابطية يقصد به الخليفة العباسي، حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين؛ يدل على ذلك اسم عبد الله الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢هـ) إلى علي بن يوسف بن تاشفين[٣] على أن اسم هذا الخليفة هو أحمد. ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب (عدا طنجة وسبتة[٤] وناحية تازا) واستقرت الدولة المرابطية في مراكش التي بنيت سنة ٤٥٤هـ، كان

(١) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٣٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤.
(٣) الحلل الموشية ص ١٧.
(٤) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٣٨٠.

طبيعياً أن يتخذ أمير المرابطين لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه. وقد رأى رؤساء المرابطين أن يتخذ يوسف بن تاشفين لنفسه لقب «أمير المؤمنين»، ولكنه أبى ذلك وقال: «حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم، وإنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راحلهم (رحلهم على الأصح) والقائم بدعوتهم»[١]. وإنما تسمى يوسف بن تاشفين ـ كما يقول السلاوي ـ بهذا الاسم، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة[٢]. ومنذ ذلك الحين اتخذ يوسف بن تاشفين لقب «أمير المسلمين وناصر الدين». وسار على ذلك أمراء المرابطين من بعده. وقد اتخذوا السواد شعار العباسيين شعاراً لهم في ملابسهم وأعمالهم. وإنما لجأ المرابطون إلى هذه السياسة لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية، وقد كتب يوسف بن تاشفين بذلك إلى عمال دولته وأعيانها، وقد جاء في هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل «فلانة» أدام الله كرامتهم ووفقهم لما يرضاه ـ سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر، وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر. وإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله في منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة. وإنه لما مَنَّ الله علينا بالفتح الجسيم، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة بروض النعيم، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المسلمين وناصر الدين. فمن خطب الخطبة العلية السامية، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام»[٣].

ولم يتصد المؤرخون لذكر السنة التي اعترف فيها الخليفة العباسي بإمرة يوسف بن تاشفين الذي بعث إلى الخليفة المقتدي، على ما ذكر ابن خلدون[٤]، سفراء يطلبون منه الاعتراف بإمرته فأجابه الخليفة إلى ما طلب.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين وناصر الدين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة على ألفونس السادس وحلفائه من المسيحيين بالأندلس في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧ م)، وأن أول من دعاه بهذا اللقب هو

---

(١) الحلل الموشية ص ١٧ ـ ١٨.
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٥٢.
(٣) الحلل الموشية ص ١٨.
(٤) العبر ج ٦ ص ٣٨٦.

المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وأقره على ذلك الخليفة العباسي. وعلى أن يوسف بن تاشفين اتخذ هذا اللقب، على ما ذهب إليه بعض المؤرخين، في سنة ٤٦٦ هـ أي قبل موقعة الزلاقة بثلاث عشرة سنة.

وقد ذكر صاحب كتاب الحلل الموشية (ص ١٧) أن زعيم المرابطين كان يلقب أول الأمر بلقب أمير المرابطين. وكان الأمير أبو بكر بن عمر أول من تلقب به بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ ولما سار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لحرب أعداء قبيلة لمتونة أصحاب اللثام في الجنوب، وخلف مكانه يوسف بن تاشفين، أطلق عليه أمير المغرب (أي المغرب الأقصى)؛ وكان هذا هو أول لقب تلقب به يوسف بن تاشفين الذي ظل من الناحية الرسمية عاملاً على المغرب من قبل أبي بكر بن عمر. وظل ابن تاشفين أميناً على عهده لأبي بكر بن عمر حتى توفي أبو بكر سنة ٤٨٠ هـ. يدل على ذلك أن السكة المغربية ظلت تحمل اسم أبي بكر بن عمر إلى سنة ٤٨٤ هـ. ولما استنجد المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بيوسف بن تاشفين مستنصراً إياه على ألفونس السادس زعيم المسيحيين في الاندلس ولبى نداءه، تلقب يوسف بن تاشفين بلقب أمير جند المسلمين، وذلك مقابل تسمية ألفونس السادس أمير المسيحيين.

لما انتصر يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة المشهورة، لقبه المسلمون بهذا اللقب تقديراً لجهاده وانتصاره على المسيحيين[١]. وقد ذكر ابن الأثير[٢] أن ابن تاشفين لما عاد من بلاد الأندلس ودخل مدينة مراكش حاضرة ملكه خاطبه علماء الأندلس بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة العباسي المقتدي في الخطبة ويأتيه عنه تقليد بإقراره، فأرسل رسله إلى الخليفة المقتدي ببغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب أمير المسلمين وناصر الدين[٣].

وقد قامت حول هذا اللقب مشكلة شرعية وهي : هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا

---

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٧.

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٥٧.

(٣) وقد ذكر ابن الأثير (ج ١٠ ص ١٥٦) أن يوسف بن تاشفين عندما استولى على بلاد الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم فقالوا له : ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة فتجب طاعتك على الكافة، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢) رسولاً يحمل هداياه ومعه كتاب يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنجة في الأندلس وما قام به في سبيل نصرة الإسلام، ويطلب إليه تقليداً بولاية البلاد التي دانت له. فبعث إليه الخليفة تقليداً بالحكم ولقبه أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع.

ليوسف بن تاشفين: باعتباره أميراً للمسلمين؟ على أن يوسف لم يصرح للخطباء بإقامة الدعوة له إلا بعد أن أرسل بعثة من رجال الدين إلى الخليفة العباسي المستظهر يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب، فلم ير الخليفة بدأ من عرض هذا الأمر على الفقهاء الذين اجتمعوا برياسة الإمام الغزالي سنة ٤٨٤ هـ وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين في موقعة الزلاقة. وهذا يدل دلالة واضحة على أن يوسف كان يصدر في أعماله عن وازع ديني لا جرياً وراء الشهرة، لأن حياته كلها كانت تتسم بالزهد والتقشف.

على أن هناك شروطاً أخرى يجب أن تتوافر فيمن يرشح لإمرة المسلمين في الدولة المرابطية، وهي أن يكون من قبيلة لمتونة ومن بيت وتطرن (بفتح الواو والتاء والطاء وسكون الراء والنون) بالذات، وأن يكون ذا كفاية حربية عالية، وأن يسير في سياسته على وفق تعاليم مذهب مالك، وأن يرجع في إدارة دولته إلى رؤساء القبائل، ويعمل برأي الفقهاء في الأمور السياسية والدينية[1].

وقد تأثر شعب النيجر بصفة عامة وشعب الفلاني (بضم الفاء) في إفريقيا بصفة خاصة بأمراء المرابطين، فأطلقوا على حكامهم لقب أمير المسلمين. وكان مذهبهم هو مذهب مالك، مما يحمل على الظن أن شعب النيجر قد تأثر بالمرابطين الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في حوض النيجر[2] وأنهم أخذوا بتلك الشروط التي وضعها المرابطون لمن يرشح لحكم الدولة المرابطية.

٨ ـ الخلافة الموحدية:

كان الموحدون يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم، لأنهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً. ولا غرو فقد استولى الموحدون على الأندلس، وامتد نفوذهم إلى طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسي غرباً، وحاولوا في عهد يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ) الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي، وكان عصرهم في المغرب والأندلس من أزهى العصور.

وقد أقر المهدي محمد بن تومرت عبد المؤمن بن علي على الجيش، وقال لأتباعه:

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٢٣.

«أنتم المؤمنون وهذا أميركم»(١). وبهذا لم يجد أتباع المهدي بن تومرت حرجاً في أن يلقبوا عبد المؤمن بلقب أمير المؤمنين بعد أن خلف المهدي في زعامة الموحدين. وبذلك اتخذ عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب لقب خليفة وتسمى أمير المؤمنين(٢)، ولا سيما أنه كان ينتسب أيضاً إلى بيت النبوة. وبذلك حددت رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال (٥٦٧/١١٧١).

٩ ـ الحفصيون والمرينيون:

وبعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس (٦٦٧/١٢٦٨) ظلت الدعوة الموحدية في إفريقية (وهي بلاد تونس الحالية) حيث أقيمت على أيدي الحفصيين (٦٢٥ ـ ٩٤١/١٢٢٨ ـ ١٥٣٤)، وهم نوع من الموحدين، ينتسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاتي (من هنتاتة إحدى بطون مصمودة). وقد قام الشيخ أبو حفص يحيى بدور هام في نشر دعوة المهدي محمد بن تومرت وفي إسناد الخلافة الموحدية إلى عبد المؤمن بن علي ودعم نفوذ الموحدين في المغرب والأندلس، بفضل زعامته لقبائل مصمودة التي تعتبر أكبر قبائل المغرب كافة(٣). ويرى أكثر المؤرخين أن الحفصيين ينتسبون إلى جدهم أبي حفص عمر، وقيل إنهم ينتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وبفضل انتساب الحفصيين إلى قريش وانتسابهم إلى الرسول وقرابتهم من الموحدين، استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صبغة شرعية وأن يؤسسوا دولة مستقلة امتد نفوذها الأدبي في عهد السلطان أبي زكريا الحفصي ٦٢٦ هـ من طرابلس شرقاً إلى سبتة غرباً وإلى سجلماسة جنوباً. وأعلن ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر في سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م)، أي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي التتار وقتل الخليفة المعتصم العباسي بسنة واحدة.

وعلى أثر ذلك بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصي باعتباره وارثاً للخلافة

---

(١) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٨.

(٢) وفي السنة الرابعة من ولاية عبد المؤمن أمر بسك نقود جديدة مربعة الجوانب تمييزاً لها عن نقود المرابطين ونقش على أحد وجهيها: «لا إله إلّا الله ولا حول ولا قوة إلّا بالله»، وعلى الوجه الآخر «الله مولانا ومحمد رسولنا والمهدي إمامنا».

(٣) المراكشي: المعجب ص ٣٣٩ ـ ٣٤١.

العباسية ودعا له على منابر بلاده ولقبه أمير المؤمنين[١]. وبذلك أكسبت هذه البيعة الخلافة الحفصية صبغة شرعية، وأقيمت الخطبة للخليفة الحفصي على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسيس دولتهم بالخليفة الحفصي. كما أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين في موقعة العقاب (Das Navas de Tolosa) في ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م)، وزال سلطان الموحدين، وسقطت هذه البلاد في أيدي الأسبان ولم يبق في أيدي المسلمين سوى منطقة جبلية في جنوب شرقي أسبانيا، حيث قامت مملكة غرناطة الإسلامية على أيدي بني نصر أو بني الأحمر الذين بايعوا الخليفة الحفصي أقوى حكام المغرب في ذلك الحين، وأقاموا له الخطبة على منابرهم، وذلك لحماية دولتهم الناشئة من إغارات الأسبان.

وقد اقتدى بنو مرين في المغرب الأقصى (٥٩١ ـ ٨٧٥/١١٩٥ ـ ١٤٧٠)، وبنو زيان[٢] في المغرب الأوسط (٦٢٣ ـ ٧٩٦/١٢٣٥ ـ ١٣٩٣)، الذين كون كل منهم دولته على أنقاض الدولة الموحدية، بملوك بني نصر الأحمر، في غرناطة، فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصي لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر شعوبهم. وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن أقام يعقوب المنصور الذهبي المريني (٦٥٦ ـ ٦٨٥/١٢٥٨ ـ ١٢٨٦) الدعوة لنفسه. وبذلك ظهرت في المغرب الكبير خلافة قوية هي الخلافة الحفصية التي امتد سلطانها الروحي على بلاد الحجاز شرقاً، وإلى المغرب والأندلس غرباً، وغدت حاضرتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب إليها السفراء والعلماء من كافة أرجاء العالم.

ويذكر السلاوي الناصري أنه برغم تأصل الدعوة الموحدية في نفوس أهل المغرب، رأى بنو مرين أنهم بحاجة لتأييد الحفصيين، فأقاموا الدعوة لهم «تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم وإثباتاً لهم من ناحية أهوائهم، إذ كانت صبغة الدولة الموحدية قد رسخت في قلوبهم»[٣].

ولعل بني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناتة خطبوا ود الحفصيين المصامدة الذين هم أشد قبائل المغرب وأكثرهم عدداً ولم ينسوا ما لحق بهم من هزائم على أيدي المصامدة الذين أقاموا الدولة الموحدية، فكانت مسالمة المرينيين للحفصيين سياسة تدل على بعد النظر.

---

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٦ ـ ٢٠٠.

(٢) أو بنو حمود أو بنو عبد الواحد أو بنو يغمراسن.

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ٢٨.

وقد شعرت مصر بخطر الخلافة الحفصية التي كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سورية والحجاز، تلك السياسة التي كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التي كـانت مصر تنتهجها منذ عهد الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ)، فحرصت مصر على مد سلطانها إلى الحجاز والسيطرة على تجارة البحر الأحمر، وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذي يرجع إليه الفضل في صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو في موقعة عين جالوت[1] المشهورة، وبالصليبيين في الشام؛ حرصت على إحياء الخلافة في مصر بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م). وكان بيبرس يرمي من وراء ذلك إلى تقوية عرشه وجعل حكمه شرعياً في البلاد، كما كان يرمي إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر، وإلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدبي في المشرق.

ولما دب الضعف إلى الخلافة الحفصية أبطل يعقوب المنصور المريني الدعوة للحفصيين بالأندلس والمغرب، واتخذ ملوك بني الأحمر في غرناطة لقب خليفة، وأخذ بنو مرين يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على حاضرتهم تونس غير مرة، وتلقب سلاطينهم بلقب أمير المسلمين[2].

وفي سنة ٦٥٦ هـ سقطت الدولة العباسية، فانتهت الخلافة بنظامها القديم، واختل نظامها حتى أصبح في استطاعة كل أمير قوي تغلب على بلد من البلاد الإسلامية أن يلقب نفسه بلقب خليفة، ولم ير ما يدعو إلى الالتجاء إلى الخلفاء العباسيين في القاهرة للحصول على تفويض شرعي بالحكم. ولذلك نرى المغول بعد أن اعتنقوا الإسلام لا يحلفون بالخلفاء العباسيين في القاهرة؛ ففي فارس اعتنق غازان (١٢٥٩ ـ ١٣٠٤ م) الإسلام، ودعي له على المنابر بهذه الألقاب وهي «السلطان الأعظم وسلطان الإسلام والمسلمين»، وتلقب الشاه رُنّ (بضم الراء وسكون النون مع التشديد) بلقب، خليفة، وتلقب أبو عنان فارس (١٣٤٨ ـ ١٣٥٨ م) أحد أمراء الأسرة المرينية في المغرب بألقاب خليفة وأمير المؤمنين وإمام، واتخذ علاء الدين خلنجي وأوزون حسن التركماني (١٤٥٣ ـ ١٤٨٧ م) لقب خليفة. وكذلك كان شأن محمد شيباني (١٥٠٠ ـ ١٥١٠ م) مؤسس دولة أزبك Uzbeck في بلاد ما وراء النهر. بل لقد أطلق سلاطين المماليك في مصر ـ مثل قايتباي وقانصوه الغوري ـ على أنفسهم لقب إمام.

وبهذا التعدد في نظام الخلافة أصبحت كلمة «خليفة» لا تدل على الحاكم الروحي

(١) هي بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين.
(٢) السلاوي الاستقصا ج ٣ ص ٢٨.

المتسلط على العالم الإسلامي، وإنما أصبحت تدل كما يقول سير توماس أرنولد[١] على مجرد حاكم، أي أن سقوط بغداد كان معناه انقراض الخلافة بمعناه التقليدي[٢].

١٠ - الخلافة الفاطمية
(٢٩٧ - ٥٦٧/٩٠٩ - ١١٧١)

كان قيام الخلافة الفاطمية في المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين. فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم أولاد علي كرم الله وجهه، وهو ابن عم الرسول الكريم وزوج ابنته فاطمة الزهراء. وظل العلويون يناضلون في سبيل هذه الزعامة، بالسيف تارة وبالدهاء تارة أخرى، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في المشرق.

وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته، ولقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد، قبولاً عند الخلفاء الفاطميين، وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض، كما أصبح شخصاً مقدساً.

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها الخليفة الفاطمي أو العلوي، وأمير المؤمنين ومن الألفاظ المحببة إلى الإسماعيلية، لقب إمام، وصاحب الزمان، وسلطان، والشريف القاضي، كما يظهر من مخاطبة قاضي القضاة الخليفة في صلاة الجمعة «الشريف القاضي الخطيب». وكان السنيون يطلقون عليهم «العبيديين»، نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين؛ كما كان يطلق عليهم «العلويون» نسبة إلى علي بن أبي طالب، و«الفاطميون»، نسبة إلى فاطمة الزهراء، كما كان يطلق عليهم «السلاطين». وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم، فنجد مثلاً: المعز لدين الله، والعزيز بالله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لدين الله، والمستنصر بالله.

وقد اتخذ أمراء الأيوبيين لقب «ملك». أما المماليك فقد تلقبوا بلقب «سلطان» وأصبح لقب ملك يطلق على بعض الأمراء وخاصة على بقايا الأيوبيين في بلاد الشام.

---

(١) The Caliphate, p. 88

(٢) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة ١٩٦٤) ص ٨١ - ٨٦.

وقد حذا الفاطميون حذو الأيوبيين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد، فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله، عهد بالخلافة إلى أحد أبنائه، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته. وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يسترد موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه. ثم أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه، كما فعل بدر الجمالي وابنه الأفضل من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبو المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده لأنه أكبر أبنائه.

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمي باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته، حتى لا يخلو العالم من إمام. وكان لهذه الطريقة ميزاتها وعيوبها، فقد كان صغر سن الخليفة وقلة تجاربه ونقص كفايته من عوامل ضعف الخلافة الفاطمية وسقوطها في النهاية[١].

وبعد وفاة الخليفة المستنصر نصب الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بن اخته أبا القاسم أحمد بن المستنصر ولقبه «المستعلي بالله». وقد أدى ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى فريقين: فريق نادى بإمامة المستعلي فسموا المستعلية، وفريق آخر نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر، فسموا النزارية.

وقد استبد بالسلطة في عهد الآمر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي. وقد اعتنق مذهب الإمامية الاثني عشرية فأبطل الموالد الأربعة التي كان يحتفل بها الفاطميون في كل سنة، وهي مولد النبي ﷺ، ومولد علي كرم الله وجهه، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الإمام الحاضر (الآمر). ولكن هذه الموالد قد أعيد الاحتفال بها بعد أن قتل الوزير الأفضل بتدبير هذا الخليفة، وذلك سنة ٥١٥ هـ.

ولي الحافظ (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ) الخلافة بعد مقتل ابن عمه الآمر بن المستعلي على يد فريق من النزارية. على أن الآمر ترك طفلاً أقام أنصار الفاطميين الدعوة له في اليمن، ولقبوه الإمام الطيب؛ وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ، وانقسمت الدعوة الإسماعيلية بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي بن المستنصر، وطيبية نسبة إلى الطيب بن الآمر حفيد المستعلي[٢].

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٢ ـ ٢٦٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٦ ـ ١٧٧، ٢٦٦ ـ ٢٦٧. انظر ما ذكرناه في الباب السابع.

وقد انتهز صلاح الدين الأيوبي فرصة مرض الخليفة العاضد الفاطمي ودعا للخليفة المستضيء العباسي (المحرم ٥٦٧/١١٧١)، كما أمر بالدعاء له أيضاً على منابر بلاد اليمن والشام وفلسطين التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية، فمنحه الخليفة العباسي تفويضاً بحكم هذه البلاد، وتم هذا التغير دون أن يلقى أية مقاومة. وفي تلك يقول ابن الأثير[١]: «فلم ينتطح فيها عنزان». ولم يلبث الخليفة الفاطمي أن توفي في العاشر من المحرم ٥٦٧ هـ.

وكان من أثر هذا التحول أن أصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة للخلافة العباسية تبعية اسمية، وأصبح يدعى للخليفة العباسي على المنابر[٢].

١١ ـ علاقة الأيوبيين بالخلافة العباسية:

ذكرنا من قبل أن صلاح الدين الأيوبي أمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء على منابر القاهرة بدل الخليفة الفاطمي العاضد الذي مات في شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) دون أن يعلم بهذا التغيير.

وقد أرسل صلاح الدين إلى نور الدين محمود صاحب حلب[٣] يخبره بذلك، فأشاد أحد الشعراء بهذا الحادث وأنشد:

قد خطبنا للمستضيء بمصر   نائب المصطفى إمام العصر
واستنارت عزائم الملك العا   دل نور الدين الهمام الأغر

ولما علم الخليفة العباسي بإقامة الخطبة له بمصر أرسل إلى نور الدين وصلاح الدين الخلع إعراباً عن رضاه عليهما، وبذلك اعترف الأيوبيون بالخليفة العباسي في بغداد وأقاموا له الخطبة على منابر بلادهم، ونقشوا السكة باسمه.

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب (نوفمبر ١٢٤٩) أخفت زوجته شجرة الدر خبر موته حتى لا يتطرق الضعف إلى نفوس المسلمين أمام الصليبيين الذين تقدموا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى المنصورة وكادوا يدخلون قصر السلطان. ولكن المصريين

---

(١) الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

(٢) انظر كتابي: النظم الإسلامية ص ٩٠ وما يليها.

(٣) ذكر المؤرخون أن نور الدين محمود هو الذي أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء.

بقيادة بيبرس أحلوا الهزيمة بالفرنسيين وطاردوهم وقضوا على جيشهم في موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ م وحملوهم على إخلاء دمياط.

وبذلك اشتد نفوذ المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقتلوا ابنه توران شاه لسوء معاملته لهم، وولوا شجرة الدر زوجة أبيه السلطنة؛ فقربت إليها المماليك ومنحتهم الإقطاعات وخففت الضرائب عن الناس. ولكن المصريين كرهوا حكمها، إذ لم تجر عادة المسلمين أن يتقلد حكمهم امرأة.

ولما أرسل أمراء المماليك إلى الخليفة العباسي المعتصم ببغداد يطلبون منه إقرار تولية شجرة الدر حكم مصر، أرسل كتاباً يقول فيه: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلاً»[١]. ولما علمت شجرة الدر بذلك آثرت المحافظة على كيان الدولة، وأعربت عن رغبتها في خلع نفسها من الحكم حفظاً لكرامتها من أن تمتهن بالعزل، فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيبك[٢] أتابك[٣] المعسكر، وتفوض إليه أمور المملكة، فنزلت عن حكم مصر بعد ثمانين يوماً[٤] أظهرت فيها حكمة نادرة في تصريف الأمور.

ولما تخلت شجرة الدر عن العرش نصب المماليك عز الدين أيبك سلطاناً عليهم ولقبوه المعز. على أن أيبك أثار غضب زوجته شجرة الدر بسبب خطبته إحدى أميرات الموصل فتآمرت على اغتياله، فقتل سنة ١٢٥٧ م، فانتقم له ابنه نور الدين الذي تقلد السلطنة من بعده، فأوعز إلى بعض الجواري فقتلتها. ثم اجتمع العلماء والقواد، وخلعوا نور الدين، وقلدوا قطز (بضم القاف والطاء) سلطنة مصر.

وإلى بيبرس أحد قواد المماليك يرجع الفضل في إلحاق الهزيمة بالمغول في موقعة عين جالوت[٥]. ولم يلبث أن اشتد نفوذه وتولى حكم مصر. وفي عهده انتقلت الخلافة إلى القاهرة بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)[٦].

---

(١) المقريزي: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٦٨.

(٢) بفتح الألف والباء وسكون الياء.

(٣) ومعناه مربي الأمير. وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي، الذي فوض إليه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ. وقد تحول هذا اللقب لقباً عسكرياً في عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيش.

(٤) ابن إياس: تاريخ مصر ج ١ ص ٩٠.

(٥) بليدة بين بيسان ونابلس بفلسطين.

(٦) انظر حسن إبراهيم حسن: المجمل في التاريخ المصري (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(ب) الوزارة

١ ـ الوزارة في عهد السلاجقة
٤٤٧ ـ ٦٥٦/١٠٥٥ ـ ١٢٥٨

يلاحظ على عصر السلاجقة الذي يربو على قرنين من الزمان:

(١) كثرة الوزراء الذين اشتهر بعضهم بتشجيع العلوم والآداب ومهروا في الإدارة والسياسة والحرب.

(٢) تفاقم خطر الباطنية في فارس الذين ذهب ضحيتهم كثير من الوزراء وكبار رجال الدولة العباسية الذين عملوا على قمع هذه الحركة.

(٣) مصادرة أموال بعض الوزراء وحبسهم عند عزلهم من مناصبهم لابتزازهم أموال الناس وقضاء حاجاتهم عن طريق الرشوة.

(٤) ظهور المنافسة والدس والرشوة ابتغاء الوصول إلى دست الوزراء.

ومع ذلك فقد أسندت مقاليد الوزارة إلى كثير من مشهوري الوزراء، نذكر منهم على سبيل المثال: الوزير الكُنْدري، وفخر الدولة بن جهير، وابنه عميد الدولة، وأبا شجاع، ونظام الملك وأبناءه، وابن صدقة، والشريف أبا القاسم الزينبي، وأنوشروان خالد، وابن هبيرة، ومؤيد الدين بن العلقمي الذي زالت الدولة العباسية في عهد وزارته.

بعد أن عاد الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ) إلى بغداد بمساعدة السلطان طغرلبك السلجوقي اتخذ أبا الفتح بن دارست وزيراً له[١]، فظل في الوزارة حتى خلفه فخر الدولة بن جهير سنة ٤٥٤ هـ، ثم عزل في سنة ٤٦٠ هـ ثم أعيد إلى الوزارة.

وقد اشتهر من أولاد فخر الدولة بن جهير زعيم الرؤساء، وكان يتولى ديوان الزمام، كما اشتهر منهم عميد الدولة. وقد ذكر المؤرخون أنه قد حمل رسالة الخليفة القائم إلى السلطان طغرلبك السلجوقي في الري وأنه نجح في مهمته بفضل زواجه من ابنة الوزير نظام الملك (٤٦٢ هـ)، فقدر له الخليفة كفايته ومهارته السياسية فاستوزره. وفي سنة ٤٦٣ هـ رحل عميد الدولة بن جهير إلى نيسابور يحمل هدايا القائم إلى السلطان ألب أرسلان ويطلب زواج ابنة السلطان من حفيد الخليفة.

(١)٢) انظر البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق. ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٤٥٤/٤٦٧.

وعلى الرغم مما اشتهر به عميد الدولة بن جهير من المهارة السياسية كان كما وصفه ابن الأثير(١) وابن خلكان(٢) «عظيم الكبر يكاد يعد كلامه عدًّا، وكان إذا كلم إنساناً كلمات يسيرة هنىء ذلك الرجل بكلامه».

وقد ظل عميد الدولة في الوزارة حتى عزل في سنة ٤٦٧ هـ، فخلفه ظهير الدين أبو شجاع(٣) وكان أديباً فذاً ومؤرخاً لامعاً طالما أفاد المؤرخون من تاريخه الذي يتناول الكلام على الدولة العباسية من سنة ٣٦٩ هـ إلى سنة ٣٨٩ هـ، وهو الجزء الذي عثر عليه المؤرخون من تاريخه، ويعتبر ذيلاً لكتاب تجارب الأمم لمسكويه. وكان أبو شجاع يقضي بين الناس بالعدل ويجلس للمظالم بعد صلاة الظهر، فينادي الحجاب في الناس: من كانت له حاجة فليعرضها.

وكان أبو شجاع ليناً حليماً متسامحاً. فلما وقعت الفتن بين أهل السنة والشيعة في الكرخ وباب البصرة ببغداد حرص هذا الوزير العالم على تهدئة الخواطر وحال دون إراقة الدماء. ولم يؤثر عن وزير حج بيت الله أيام وزارته غير أبي شجاع والبرامكة من قبله، ثم اعتزل أبو شجاع الوزارة بعد أن أحس بكيد حساده له وتدبيرهم الدسائس من حوله، وتزهد ولبس ثياب القطن وأقام بمدينة الرسول يكنس المسجد النبوي ويفرش الحصر ويشعل المصابيح وعليه ثوب غليظ الخام(٤).

ومما يؤثر عن أبي شجاع أنه برغم زهده وعلمه أقصي عن الوزارة سنة ٤٨٤ هـ فأنشد عند عزله هذا البيت:

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق(٥)

ثم أعيد عميد الدولة بن جهير إلى الوزارة في هذه السنة(٦). فظل فيها في السنوات الأولى من خلافة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ). وكان عميد الدولة يعمل تحت نفوذ مؤيد الملك بن نظام الملك، وانتهى أمره بالعزل والسجن سنة ٤٩٢ هـ.

---

(١) الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ (حوادث سنة ٤٦٣ هـ).
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٤.
(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٤. ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٦. البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨.
(٤) الفخري ص ٢٦٤.
(٥) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٧٩.

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أبو علي الحسن بن علي بن صدقة. وقد استوزره الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) سنة ٥١٣ هـ ولقبه بهذه الألقاب وهي:

«جلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين»(١).

وكان ابن صدقة عالماً بقوانين الملك واشتهر بحب الخير للناس. ولكن ظهير أمير المؤمنين لم يلبث أن عزل عن الوزارة، لأن وزير السلطان السلجوقي حقد عليه، ثم زال سوء التفاهم بين الوزيرين وأعيد ابن صدقة إلى الوزارة وخلع عليه الخليفة المسترشد وأمر أرباب الدولة أن يمشوا بين يديه إذا سار إلى ديوان الوزارة، فكان «أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه»(٢).

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أو عصر السلاجقة العظام نقيب النقباء الشريف أبو القاسم علي بن طراد الزينبي. وكان ملمًّا بقوانين الوزارة وقواعد الملك. استوزره الخليفة المسترشد سنة ٥٢٣ هـ. وقد عبر له الخليفة المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ) عن تقديره لمواهبه وكفايته بهذه العبارة وهي: كل من ردت إليه الوزارة شرف بها إلا أنت فإن الوزارة شرفت بك. وأمر أرباب المناصب العالية في الدولة بأن يسيروا بين يديه إلى ديوان الوزارة»(٣).

وقد استوزر سلاطين السلاجقة طائفة من مشهوري الوزراء من أمثال الكندري (بضم الكاف والدال وسكون النون) ونظام الملك وأبنائه وأنوشروان خالد. فقد استوزر السلطان طغرلبك (٤٢٩ ـ ٤٥٥ هـ) عميد الملك الكندري. ولما مات هذا السلطان أجلس الكندري سليمان بن داود، وكان عمه طغرلبك قد أوصى بأن يخلفه في السلطنة. على أن ألب أرسلان ثار على أخيه وجلس على عرش السلطنة من بعده بمساعدة وزيره نظام الملك. وسرعان ما قبض على الوزير الكندري وأرسل إلى مرو حاضرة خراسان حيث اعتقل أكثر من سنة، ثم قتل بأيدي غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر لطغرلبك ثماني سنين وأشهراً كما تقدم(٤).

ولما ولي ألب أرسلان السلطنة بعد عمه طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ أسند مقاليد الوزارة إلى نظام الملك وعهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه وقال له: «هذا حسن الطوسي (يعني نظام الملك)

---

(١) الفخري ص ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧١.

(٤) انظر ص ٢٠ ـ ٢١ من هذا الجزء.

فتسلمه واتخذه والداً لا تخالفه». وقد اتخذ ألب أرسلان نظام الملك وزيراً له قبل أن يجلس على عرش السلطنة.

وكان نظام الملك ساعد السلطان ملكشاه الأيمن ومدبر ملكه ومستشاره الأمين، وقد قبض هو وأولاده الاثنا عشر على زمام الأمور في الدولة السلجوقية، «فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد» على حد تعبير ابن خلكان[١].

وكان من أثر الاضطرابات التي عمت أطراف الدولة السلجوقية وما أداه نظام الملك من خدمات جليلة وما ظهر من شجاعته وكفايته في الأزمات الخطيرة أن منحه السلطان ملكشاه لقب «أتابك».

وكان نظام الملك عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت. وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء. واشتهر ببناء المدارس النظامية المشهورة، وأسقط المكوس والضرائب. وكان يجل أهل العلم ولا يشجع الشعراء لأنه لم يكن يجيد نظم الشعر.

وقد ذهب نظام الملك وأبناؤه كما ذهب البرامكة وبنو سهل من قبل ضحية الدسائس التي دبرها لهم حسادهم ومنافسوهم. ومات نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان صاحب خراسان من قبل عمه طغرلبك قبل أن يتولى السلطنة.

وقد ذكر المؤرخون أن عز الملك ابن نظام الملك أخرج بركياروق أكبر أبناء ملكشاه بعد أن قبض عليه وأرسل إلى أصبهان حيث سجن، وذلك لإفساح الطريق لجلوس أخيه الصغير محمود على عرش السلطنة بعد موت أبيه. ولما ولي بركياروق السلطنة ٤٨٧ هـ قلد عز الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته[٢].

وقد ساعد مؤيد الدولة ابن نظام الملك محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق لأنه أقصاه عن الوزارة وأسندها إلى أخيه عز الملك بن نظام الملك. وقد قام الخلاف بين هذين الأخوين على ثروة أبيهما كما قام على التنافس على الوزارة[٣].

ومن وزراء هذا العصر من أبناء نظام الملك: أبو نصر أحمد، وقد حكم بين الناس بالعدل ورفع عنهم الظلم. روى ابن طباطبا[٤] أن الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) لما عزم على

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦.

(٢) البنداري: ص ٨٠ - ٨١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٤) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٧٢.

عمارة سور بغداد فرض على الناس خمسة عشر ألف دينار، فأدى الوزير أبو نصر هذا المال عن الناس من ماله الخاص. وقد تقلد أنوشروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد الوزارة للخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة. وكان يعتذر عن قبول الوزارة. وهو الذي صنّف له الحريري «المقامات الحريرية». وقد اشتهر هذا الوزير بالتواضع حتى إنه كان يقوم لكل من دخل عليه كبيراً كان أو صغيراً.

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول: محمد بن محمد جهير[١] ومؤتمن الدولة ابن صدقة ويحيى بن هبيرة. وقد جمع ابن هبيرة بين السياسة والعلم وبين الطيبة والدهاء وبين القلم والسيف. وإليه يرجع الفضل في إزالة آخر نفوذ للسلطان السلجوقي في العراق وإعادة هيبة الخلافة[٢] في عهد المقتفي العباسي (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ). «ورزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه أحد حتى زاد ما مدح به من القصائد على مائتي ألف بيت»[٣].

ولما استوزر الخليفة الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) مؤيد الدين بن العلقمي خلع عليه الوزارة، فجلس في كرسي الوزارة والناس بين يديه، فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف في قدر الخنصر بخط يد الخليفة، فقرىء على الناس وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم! محمد بن العلقمي نائبنا في البلاد والعباد. فمن أطاعه فقد أطاعنا، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن أطاع الله أدخله الجنة؛ ومن عصاه فقد عصانا، ومن عصانا فقد عصى الله، ومن عصى الله أدخله النار»، فسما العلقمي بهذا التوقيع في أعين الناس وعلت منزلته[٤].

وكان مؤيد الدين بن العلقمي آخر وزراء الخلفاء العباسيين وكان كما وصفه صاحب الفخري من أعيان الناس وعقلاء الرجال. وقد عرف بشغفه بالكتب وتقريب أهل العلم ورجال الأدب. وكان عفيفاً عن أموال الناس مترفعاً عن أموال الدولة. وقد رماه خصومه بأنه زين للخليفة المستعصم تسليم بغداد لهولاكو وأنه اتفق مع نصير الدين الطوسي وزير هولاكو على ذلك. وكان كل من هذين الوزيرين يدين بعقائد المذهب الشيعي.

وقد عزا بعض المؤرخين ما قام به الوزير ابن العلقمي إلى ما حل بالشيعيين من الاضطهادات على يد أكبر أبناء الخليفة المستعصم. على أن موت هذا الوزير العالم النزيه

---

(١) الفخري ص ٣٦٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٩ ـ ٣٦٣.

(٣) انظر ما كتبه الدكتور جواد علي في مجلة الأستاذ (بغداد ١٩٦٠) ص ١٢٨

(٤) الفخري ص ٣٣٦.

بعد موت الخليفة بثلاثة أشهر لينهض دليلاً على عدم صحة ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون الذين رموه بخيانة بلاده.

٢ ـ الوزارة في مصر:

على الرغم من العظمة التي كان يتمتع بها الوزير في العصر الفاطمي الأول كانت سلطته محدودة، إذ كان بقاؤه في مركزه يتوقف على رضا الخليفة. غير أن تلك العظمة لم تلبث أن تبدلت، ولا سيما في العصر الفاطمي الأخير (٤٦٥ ـ ١٠٩٣/٥٦٧ ـ ١١٧١)، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض بعد أن كانت وزارة تنفيذ.

وفي عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) قامت وزارة التفويض، كوزارة يحيى البرمكي وابنه جعفر في عهد هارون الرشيد. فقد استدعى المستنصر بدر الجمالي والي عكاء لإصلاح أمور مصر على أثر «الشدة العظمى» التي استمرت بها سبع سنوات (٤٥٧ ـ ٤٦٥ هـ)، بعد أن أخفق الوزير اليازوري في تخفيف المجاعة التي اشتدت وطأتها. وتبين لنا مبلغ تزعزع مركز الدولة الفاطمية[١] من تعاقب أربعين وزارة مختلفة في تسع سنوات. وكان المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين من الضعف بحيث لم يبق لهم من الأمر شيء حتى أطلق على هذا العصر «عصر الوزراء العظام».

وقد قبض بدر الجمالي على زمام السلطة سنة ٤٦٥ هـ. وظل في مصر إلى أن مات في خلافة المستنصر، فتولى الوزارة بعده ابنه الأفضل الذي استبد بالسلطة حتى أصبح المستنصر في عهده كالمحجور عليه حتى مات.

فولى الأفضل المستعلي بن المستنصر الخلافة دون أخيه نزار الذي كان أبوه قد ولاه العهد قبل وفاته.

وكان المستعلي مسلوب السلطة مع خاله الأفضل، وظلت الحال على ذلك إلى عهد الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ) الذي فكر في قتله. وتم ذلك، فآلت الوزارة إلى أبي عبد الله المأمون بن البطائحي.

وكان النزاع الذي قام بين الخلفاء والوزراء من مميزات العصر الفاطمي الأخيرة، وربما كان ذلك نتيجة تولي الأطفال عرش هذه الدولة. وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير في هذا العصر أن أضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على هذا المعنى. ومن هذه الألقاب التي تلقب

---

(١) ابن منجب: الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٠ ـ ٤١.

بها أبو علي الأكمل حفيد الوزير بدر الجمالي: «ناصر إمام الحق وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، مُولِي النعم ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم». وتلقب رضوان بن الولخشي وزير الحافظ «السيد الملك الأفضل»، وظل الوزراء يتمتعون بهذا اللقب منذ ذلك الحين.

وفي أواخر عهد الخليفة العاضد الفاطمي (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ)تقلد الوزارة أسد الدين شيركوه بعد أن قتل شاور بأمر نور الدين محمود بن زنكي. ولكن شيركوه مات بعد أن حكم شهرين، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي تلقب بالملك الناصر بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وأسس الدولة الأيوبية كما تقدم.

٣ ـ الوزارة في المغرب:

لم يعن المؤرخون ببحث نظام الوزارة في عهد المرابطين، بل لقد اتخذوا من الكتابة والوزارة نظاماً ثابتاً. ويرجع السبب في ذلك إلى أن عمال الدولة كانوا يتمتعون بنفوذ طغى على نفوذ هؤلاء الذين كانوا يلونهم من كبار الموظفين. على أنه مما لا ريب فيه أنه كان للمرابطين موظفين يرجعون إلى مشورتهم، وأنه كان لهم كتاب يشرفون على الدواوين المختلفة، كديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء، مما جعل المؤرخين يخلطون بين هؤلاء وأولئك، فيسمون هؤلاء المستشارين وزراء، والآخرين كتاباً[١].

وكان للمرابطين وزراء إقليميون[٢] لم يكونوا في الواقع غير أصحاب ديوان الإنشاء[٣] كما كان لهم وزراء مركزيون يقيمون بمدينة مراكش.

ومهما يكن من شيء فإنه لم يكن عند المرابطين مجلس وزراء، وإنما كانت هناك هيئة استشارية يشترك فيها طائفة من الفقهاء والأعيان والكتاب. وكان أهم هذه الدواوين: ديوان الرسائل أو الإنشاء، ويرأسه موظف كبير يعرف بالكاتب. ولا يبعد أن تكون هناك دواوين متعددة يشرف على كل منها كاتب يقوم بعمل الوزير. ولم يتمتع الوزير في عهد المرابطين بما كان يتمتع به وزراء التفويض مثلاً في عهد العباسيين والفاطميين، ولا الحجاب في عهد الأمويين في الأندلس، لتمتع نواب أمير المسلمين بالسلطة المطلقة في

---

(١) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٥٨.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٦٤. صلة الصلة ص ٨٢.

(٣) صلة الصلة ص ٨٢.

نياباتهم. ولم يكن في الدولة المرابطية ما يطلق عليه اسم الوزير أو رئيس الوزراء، لأن النفوذ كان ينحصر في يد أمير المسلمين نفسه، ولأن الدولة المرابطية كانت تقوم على مشورة الفقهاء على مذهب الإمام مالك أكثر مما تقوم على السياسة.

٤ ـ الوزارة في الأندلس:

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية شائعاً كما كان في الدولة العباسية في الشرق وفي الدولة الفاطمية في مصر، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة في الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير تارة أخرى. ولهذا نرى أن الحاجب في الدولة الأموية في الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف. فكان الحاجب، كما ذكر ابن خلدون[١]، يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم، ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شئون الدولة.

وقد وزعت أعباء الوزير أو رئيس الوزراء كما يسمى اليوم بين جماعة من كبار موظفي الدولة للاستعانة بهم ومشاورتهم ويختار منهم الأمير أو الخليفة شخصاً يسميه الحاجب، وجعل للمالية وزيراً، وللرسائل وزيراً وللمظالم وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور أو الولايات وزيراً وهكذا. وقد جعل لهم مكان خاص يجتمعون فيه وينفذون أوامر السلطان، كل في دائرة اختصاصه. واختير أحدهم للتردد على الأمير أو الخليفة والنيابة عنه في كل وقت، وقد عرف باسم الحاجب. وظلت الحال على ذلك حتى عهد ملوك الطوائف، فأصبح اسم الوزارة عامّاً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم، وغدا الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين[٢].

ولم يكن مجلس الحاجب، أو بعبارة أخرى مجلس الوزراء، هو وحده الذي يدير شئون الدولة، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى «مجلس الشورى» يرأسه الأمير أو الخليفة، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموي.

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذي الوزارتين، مقتدياً في ذلك بالعباسيين، لجمعه بين خطتي السيف والقلم. ففي سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب الخليفة الأموي في الأندلس أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين، وضاعف له

(١) مقدمة ص ٢٠٨.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢.

راتبه. وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه. وقد أسند الأمويون الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداي بن شبروط الذي بعث به سفيراً إلى «أوتو» إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

ولما ضعفت الدولة الأموية في الأندلس ازداد نفوذ الحاجب، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شيء. وأحسن مثل لذلك المنصور بن أبي عامر الذي تخلص من جعفر المصحفي الحاجب في عهد هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو في بلاد الأندلس، وخلفه في كرسي الحجابة، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الأموية في هذه البلاد، حتى دعي له على المنابر، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان اسم الخلفاء[1].

(د) الكتابة:

وقد زخر العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم. فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق.

وكان ملوك فارس يسمون كتاب الرسائل تراجمة الملوك، وكانوا يقولون لهم: لا تحملنكم الرغبة في تخفيف الكلام على حذف معانيه، وترك ترتيبه والإبلاغ فيه، وتوهين حججه.

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة، فقد كانت إحدى المناصب العالية التي كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن آنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضاء الخليفة.

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمي جوهراً الصقلي كاتباً له سنة ٣٤١ هـ. لأنه كان كاتبا بليغاً، كما كان عفيفاً جم الأدب في كتابته. وكان الكاتب في عهد الفاطميين في مصر يقوم بعمل الوزير إذا رضي عنه الخليفة، ويسمى أحياناً صاحب الوساطة.

وكان صاحب الإنشاء والمكاتبات في عهد الفاطميين يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين ديناراً.

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ (الطبعة السابعة القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

ويلي صاحب الإنشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق، الذي كان يوقع على المظالم، ويجالس الخليفة في خلوته، فيدارسه كتاب الله ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ويحدثه عن مكارم الأخلاق، ويعلمه تجويد الخط، وكان راتبه مائة دينار في كل شهر، وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة، فإذا انتهى المجلس ألقي في هذه الدواة عشرة دنانير مكافأة له، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند[١] ممزوج بالمسك، ليتبخر به عند دخوله على الخليفة في المرة التالية.

ولما أصبح الوزير في آخر أيام الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم أخذ يجلس للمظالم، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق بدل كاتب السر. وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير، بل النظر في الشكاوى قبل انعقاد مجلس النظر في المظالم. ويلي صاحب القلم الدقيق في الرتبة صاحب القلم الجليل، ويقوم بتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها. وكان الكتاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب وامتازوا بالقدرة في فن الإنشاء[٢].

وقد نبغ القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) في الكتابة في أيام الفاطميين حتى صار من كتاب البلاط، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائي يعهد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي تذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصيغة الرسمية، وتتكون هذه العبارة من: «الحمد لله شكراً لنعمته»[٣]، كذلك تقلد ديوان الرسائل في عهد الخليفة الآمر الفاطمي ابن منجب الصيرفي، وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين.

وممن نبغ في الكتابة في عهد الأيوبيين القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م)، وقد تقلد منصب الوزارة في عهد صلاح الدين الأيوبي وولديه من بعده. وخلف لنا كثيراً من الرسائل التي تمتاز بغزارة المادة التاريخية، كما تمتاز بسلامة الأسلوب ووضوحه.

وكان بعض كبار الموظفين في عهد المرابطين في المغرب يجمع بين الكتابة والاستشارة. وكان أكثر الكتاب من رجال الأدب في الأندلس الذين عملوا في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين ثم دخلوا في خدمة أمير المسلمين. ونذكر من بين

(١) الند (بالفتح): عود يتبخر به، وقيل: العنبر.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٢.

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

هؤلاء الكتاب: عبد المجيد بن عبدون، وعبد العزيز الأنصاري، وأبا جعفر بن عطية، وابن أبي الخصال، وابن عبدون اليابري[١]. ويظهر أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بأحوال نصارى الأندلس أكثر من الكتاب المغاربة، كما سيأتي الكلام على ذلك في باب الثقافة.

وكانت الكتابة في الأندلس تلي الحجابة (وهي الوزارة) في الرتبة وتنقسم قسمين:

(١) كتابة الرسائل ويسمى صاحبها الكاتب.

(٢) كتابة الزمام ويعرف صاحبها بكاتب الجهبذة، ويشترط فيه أن يكون من أهل الذمة، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير[٢].

(د) الحجابة:

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية، فاتخذوا الحاجب، وزادوا في منع الناس عن لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة. وهذا ما يسميه ابن خلدون[٣] الحجاب الثاني. فصار بين الناس وبين الخليفة دار الخاصة ودار العامة، يقابل كل طائفة في مكان معين على ما يراه الحجّاب. ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين[٤].

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين، فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة. ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول «الفضل بن الربيع» الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد، وأوقع الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون.

وكثيراً ما كان الحاجب يتدخل في أمور الدولة العباسية ويستبد بالنفوذ دون الوزير، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة، ويحتم عليهم بألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته.

ولم يكن الحاجب في عهد الفاطميين يتمتع بذلك النفوذ الذي كان يتمتع به في البلاد الإسلامية الأخرى، ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين وحدهم بل لقد اتخذ قاضي القضاة أو الوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم. ولكن الحاجب كان بلا

---

(١) نسبة إلى يابري (بسكون الباء) إحدى مدن البرتغال.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣. انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٦٦.

(٣) مقدمة ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٤) كتاب المحاسن والمساوىء ج ١ ص ١٢٤.

ريب، من رجال البلاط الفاطمي، بدليل ما ذكره القلقشندي[1] عند كلامه على مجلس الملك في عصر الفاطميين. وكان صاحب الباب من كبار الموظفين في ذلك العصر.

وكانت الحجابة في الدولة الأموية بالأندلس، كما قال ابن خلدون، لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم. فكانت في دولتهم رفيعة للغاية، كما نراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم. ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك. ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره، جاء من بعدهم ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونه شرفاً لهم. وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين، يعنون به السيف والقلم، ويُدلُّون[2] بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة، وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم.

وأما عن الحجابة في المغرب فقد ذكر ابن خلدون[3] أنها لم تكن موجودة في عهد الأمويين في بلاد الشام ثم في الأندلس، وفي العراق في عهد العباسيين، لأن الدولة المرابطية تميزت بالبساطة؛ بل إنه كان من اليسير أن يتصل أي شخص بأمير المسلمين عن طريق الأعوان. وقد ساعد على ذلك ما امتاز به المرابطون من الزهد في مظاهر الحياة، حتى لقد كان لباسهم الصوف وطعامهم الشعير. وكان يوسف بن تاشفين يتفقد أحوال الرعية ويباشر شئونه بنفسه كما كان عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قبله، بل إن عليَّ بن يوسف بن تاشفين كثيراً ما كان ينصرف عن مباشرة شئون الدولة إلى التعبد والتبتل.

٢ ـ النظام الإداري

(أ) الإمارة على البلدان

١ ـ علاقة المسجد بإدارة شئون الدولة:

كان الخلفاء الراشدون يستعينون في إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل، وكانوا يجتمعون في مسجد المدينة، ولا يقطع

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٢) بضم الياء وكسر الدال وضم اللام مع التشديد من الإدلال وهو التيه والكبر.

(٣) مقدمة ص ٢٠٩.

(٤) السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ٥٥.

الخليفة أمراً دون استشارتهم، وكان نظام الحكومة في الثلاثين السنة الأولى للإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهوري.

وقد بحث سير توماس أرنولد[١] علاقة المسجد باعتباره مكان العبادة (أي المكان الذي يؤم فيه الخليفة أو الوالي الناس في الصلاة) بإدارة شئون الدولة السياسية والاجتماعية، وكيف يجمع الخليفة أو الوالي بين إمامة المسلمين وبين شئون الدولة أو الولاية فقال:

«لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية، فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء، ويدير شئون الدولة، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر في الأمور السياسية والدينية. . . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد، ومن فوق المنبر أيضاً، وقف عثمان يدافع عن نفسه. كما كان الخليفة عند استخلافه يلقي من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان عن سياسته في الحكم».

فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش يلقي منه الحاكم بيان سياسة الدولة كما هو الحال في النظم الدستورية اليوم.

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم، أن المساجد كانت تستخدم منذ ظهور الإسلام لاجتماع العلماء فيها، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم، ثم استخدمت المساجد معاهد للتعليم، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم. وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين، كان المسجد المكان الذي تذاع فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام.

وقد ذكر سير توماس أرنولد أن المساجد سرعان ما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية، فلم تعد تمثل عرش الخليفة وكرسي الوالي ولا منصة القاضي، وغدا عمل المساجد مقصوراً على إقامة الصلوات، يمجد فيها الله، ويصلى على النبي، ويترحم على الصحابة، ويدعى للخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله في المحافظة على الدين. ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة في الخطبة، ليكون ذلك اعترافاً من الولايات الإسلامية بسلطة الخليفة الاسمية.

وغير خاف أن المساجد كانت كمعاهد العلم اليوم تدرس فيها العلوم الدينية والعربية والعقلية.

---

(١) The Caliphate pp. 36-38.

٢ ـ نظرية الإمارة على البلدين:

ذكرنا في الجـزء الثالث من هـذا الكتاب أن الفقهـاء قسموا الإمـارة على البلدان إلى إمارة عامـة وإمارة خـاصة. فـالعامـة على نوعين: إمارة استكفاء بعقـد عن اختيار، وإمـارة استيلاء بعقد عن اضطرار[1].

وكان الخليفة مصدر كل قوة كما كان مرجع كل الأوامـر المتعلقة بـإدارة الدولـة. وكان الوزير سـاعد الخليفـة الأيمن، يقضي باسمـه في جميع شئـون الدولـة، فكان لـه الحق في تنصيب العمال وصرفهم والإشراف على جمع الضرائب.

وقد ظهر بتوالي الأيام أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيـع القيام بهـا رجل واحـد، ومن ثم أصبـح من الضروري تعيين مـوظفين يعاونـون الوزيـر في الإشـراف على الـدواوين المختلفة وإدارة شئونها.

وكان الخليفة يختار عمال الأقاليم بنفسه للقيام على شئونها، بيد أن سلطاتهم المـدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويـلاً، فإذا مـا عزل من منصبه، طلب إليه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته. ومع ذلك اكتسب بعض الـولاة امتيازات خاصة، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيـادة للخليفة وتقـديم بعض المساعدات المادية للدولة.

وكانت مصر في عهد الدولة الفاطمية مقسمة إلى أربع ولايات هي:

(أولاً) ولايـة قوص، وكـانت أعـظم ولايـات مصـر، لأن عـاملهـا يحكم جميـع بـلاد الصعيد، ويتولى إقليم الأشمونين بالإضافة إلى عمله الأصلي.

(ثانياً) ولاية الشرقية وتلي ولاية قوص في الأهمية. وكان عاملهـا يحكم منطقـة بلبيس وقليوب وأشموم.

(ثالثاً) ولاية الغربية، وتلي ولاية الشرقية في المنـزلة، ويتـولى عاملهـا المحلة ومنوف وأبيار.

(رابعاً) ولاية الإسكندرية، وتلي ولاية الغربية في الرتبـة ويتولى عـاملها إقليم البحيـرة كله.

---

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٨ وما يليها.

وكـان يخلع على هؤلاء الولاة الأربعة من خزانة الكسوة بـالبدنـة، وهو الثـوب الذي يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج[١].

وكانت هذه الـولايات الأربـع تضم كوراً أخـرى صغرى فصلهـا ابن مماتي في البـاب الذي عقده للتقسيم الإداري في أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين، وهي الشرقية والمرتاحية، والدقهلية، وجزيرة قويسنا، والغربية، والسمنودية، والدنجاوية (بكسر الدال مع التشديد وسكون النون) والمنوفية، وجزيرة بني نصـر، والتستراويـة (بضم التاء مـع التشديـد وسكون السين)، والبحيرة، وحوف رمسيس، والكفور الشاسعة، وفوة، والمزاحمتين (بفتـح الحـاء والميم والتـاء وسكـون اليـاء) والجيزيـة، والإطفيحيـة، والبوصيرية، والفيومية، والبهنساوية[٢]، والأشمونين، والأسيوطية، والإخميمية، والقوصية[٣].

وكان لأمراء المرابطين نـواب ينوبـون عنهم ويمثلونهم في حكم المغرب والأنـدلس. وكانت وظيفة نـائب أمير المسلمين سيـاسية وحـربية معـاً، ويراعى في اختيـاره أن يكون من أقـرب الناس إليـه متصفاً بـالمهارة الحـربية منفـذاً لسياسـة الدولـة التي تقـوم على التعـاليم الإسلامية وفق مذهب الإمام مالك. وكان هؤلاء النواب يختارون عادة من ولاة العهـود. فقد كان علي بن يوسف نائباً لأبيه يوسف بن تـاشفين، وكان تـاشفين نائبـاً لأبيه علي، وإبـراهيم نائباً لأبيه تاشفين. وقد تولى هؤلاء النيابة في بلاد الأندلس. وكذلك كان يوسف بن تـاشفين من قبل نائباً لأبي بكر بن عمـر قبل أن يصبـح أميـراً للمسلمين، ثم أصبـح أبو بكـر بن عمر نائباً ليوسف بن تاشفين في الصحراء بعد أن نزل عن سلطته.

وكانت سلطة النائب سياسية وحربية معـاً كما ذكـرنا. فقـد كان يـراقب أعمال العمـال ويضع الخطط الحـربية ويصـدر بتعيينه منشـور خاص يـذاع على العمال. وكـان نائب أميـر المسلمين يستعين في إدارة نيابته بطائفة من الكتاب أطلق عليهم الوزراء تجاوزاً.

(ب) الدواوين:

كـان الوالي يعين من قبـل الخليفة وينـوب عنه في حكم البـلاد، وهو الـرئيس الأعلى للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما إليها من أعمال الدولة.

---

(١) القلقشندي: ج ٣ ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٢) وهي محافظة المنيا الآن.

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٨٥ ـ ١٠٨.

انظر حسن إبراهيم حسن: كتاب تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٨٩.

وكانت الصلاة أهم أعمال الوالي لارتباطها بالإمامة الدينية، وهي منشأ الحكم في الإسلام. لذلك كان الوالي يقيم الصلاة في الجمع والأعياد، ويؤم الناس في الصلاة أو يستخلف عليها. وقد قضت الضرورة بذلك حين تعددت المساجد الجامعة بعد أن أخذ الإسلام ينتشر في مصر على أثر إقبال المسلمين على الزواج من القبطيات.

ولم يدخل النظام الإداري في مصر الإسلامية تغيير يستحق الذكر حتى جاءت الدولة الفاطمية فأدخلت عليه كثيراً من التعديل.

وفي عهد الفاطميين كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير. ومن هذه الدواوين: ديوان الجيش، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخيولهم، وديوان خزائن الكسوة والطراز، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام، وديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم، وديوان الرواتب. ويعد صاحبه استمارات الرواتب ويعرضها على الخليفة في كل سنة[1].

ومن هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام وديوان الحجاز.

وكان عدد الموظفين في عهد الفاطميين كبيراً: منهم صاحب الباب، وحامل مظلة الخليفة، وصاحب الرسالة (وكان يحمل كتب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين) وصاحب بيت المال (وهو بمثابة وزير المالية في العصر الحاضر) وحامل دواة الخليفة. وهناك كثير من المناصب الدينية، من أهمها منصب قاضي القضاة، وله النظر في الأحكام الشرعية والإشراف على دور السكة وضبط عيارها.

ويلي قاضي القضاة في الرتبة داعي الدعاة، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية في دار العلم والمساجد. ومن كبار الموظفين في عهد الفاطميين: المحتسب، وكان له النظر في الأسواق والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة، والإشراف على الموازين والمكاييل، وعلى استيفاء الديوان. وكان ينتخب من وجوه المسلمين، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً.

ومن كبار موظفي الدولة في العهد الفاطمي وكيل بيت المال، ونائب صاحب الباب، وكان يستقبل سفراء الدول وينزل كلاً منهم في المكان اللائق به. وهناك عدد كبير من القراء يقرءون القرآن في حضور الخليفة في مجالسه ومواكبه، ويقال لهم قراء الحضرة[2].

---

(١) القلقشندي: ج ٣ ص ٤٩٥.
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ ـ ٥٣٢.

ومن كبار الموظفين أيضاً تسعة يعرفون بالأستاذين المحنكين (بضم الميم وفتح الحاء والنون مع التشديد)[1] منهم: صاحب بيت المال، وصاحب الرسالة، وزمام القصر. وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار في الشهر، وراتب كل من قاضي القضاة وداعي الدعاة مائة دينار، وراتب كل من طبيبي الخليفة الخاصين خمسين ديناراً[2].

ومن المناصب الدينية الهامة في العصر الفاطمي وظيفة باب الأبواب وهو لقب شيعي لقب به جعفر بن منصور اليمن الذي تمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر حتى اتخذه الخليفة المعز «باب أبوابه» أي رئيس الدعاة. كما لقب حميد الدين الكرماني المتوفى سنة ٤٠٨ هـ بلقب «حجة العراقين»[3].

دور الضرب:

وتبين لنا كتب السكة نواحي أخرى من التقسيم الإداري، ونعني بها دور الضرب، وهي البلاد التي كانت الحكومة تتخذها مراكز لبنك النقود وضرب العملة. وليس من شك في أن هذه البلاد كانت تمثل حواضر الأقاليم التي تقيم بها أمراء الولايات حيث تكون الدواوين ومقر الحكومة الإقليمية. وهنالك ناحية أخرى تبينها كتب السكة، وهي السنة التي ضربت فيها النقود لأول مرة: فهي تبين التاريخ الذي أصبحت فيه هذه المدينة حاضرة الإقليم، كما تبين السنة التي انقطع فيها ضرب النقود من المدن، وهي تدل أيضاً على التاريخ الذي انتهت فيه أهمية المدينة كحاضرة لهذا الإقليم. وإليك ثبتاً بأسماء دور الضرب في مصر والولايات التابعة للدولة الفاطمية، مثل صقلية وافريقية وبلاد الشام.

---

(١) جمع أستاذ محنك، أي رجل مدرب، وكان يتلثم بطرف من عمامته، ومعناه يجعل عمامته تحت ذقنه وفكيه (انظر Lane's Arabic-English Lxicon). ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج، وصاحب المجلس، ويشبه الآن كبير الأمناء، وصاحب الرسالة، وصاحب بيت المال، وحامل الدواة، وزمام الأقارب، وزمام القصور، ويعهد إليه بإدارة شئون القصر (القلقشندي ج ٣ ص ٤٨٤ و٤٨٥).

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ و٥٢٦. المقريزي: خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: كتاب الدولة الفاطمية ص ٢٩٣ وما يليها.

دار الضرب Place of unit	الإقليم	السنة التي بدأت فيها السكة	نهاية السكة	ملاحظات
الإسكندرية	مصر	٤٦٩	٥٥٥	
أيلة	فلسطين	٥١٤	—	
تيماء	فلسطين	٥١٤	—	
حلب	الشام	٤٢٩	٤٤٤	
دمشق	الشام	٣٦٨	٤٤٦	
زويلة	إفريقية	٤١٤	—	
صقلية	صقلية	٣٤٣	٤٥٦	
صور	الشام	٤٣٠	٤٨٤	
طبرية	الشام	٣٩٥	٤٦٠	
طرابلس	الشام	٣٦٧	٤٧٥	
عسقلان	الشام	٥٠٧	—	
عكاء	فلسطين	٤٦٢	٤٩٥	
فلسطين	فلسطين	٣٥٩	٣٦٤	
القيروان	إفريقية	٣٠٣	٣٣٥	
مصر (الفسطاط)	مصر	٣٦١	٥٦٤	
المنصورية	إفريقية	٣٤١	٤٥٤	
المهدية	إفريقية	٣١٥	٤٢٠[1]	

(جـ) البريد :

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم. على أن مقاديره أو مسافاته كانت متفاوتة. وقد ذكر القلقشندي[1] أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية، وقد أخذه، عن الروم أثناء حكمهم في الشام. ثم أدخل عبد الملك بن

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) عدة تحسينات على نظام البريد، أصبح بذلك أداة هامة في إدارة شئون الدولة.

وكان للبريد ديوان كبير في بغداد (أشبه بمصلحة البريد الآن)، وكان مزوداً بمحاطّ على طول الطريق، وذلك نظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية في ذلك العصر، وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً في نقل الرسائل حتى خلافة المستعصم العباسي، وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة للتجارة في أسفارهم، كما كانت نواة للبحوث الجغرافية، على أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل مراسلات الجمهور. وكان صاحب البريد يراقب العمال ويستطلع أخبار الأعداء. ويشبه هذا النظام قلم المخابرات في أيامنا. وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم وبالعكس، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة، ينقل أخباره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه.

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم.

وقد ذكر أبو المحاسن[1] أن شفيعاً اللؤلؤي كان صاحب البريد في مصر سنة ٢٩٢ هـ. ومع أننا لا نعرف الكثير عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين والفاطميين، فقد ذكر المؤرخون أنهم اهتموا بحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل، واستخدم الفاطميون الحمام، وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنسابها[2].

وقد بلغ نظام البريد في عهد بني بويه (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة، حتى كانت الدولة تنقل البريد في أثناء الحرب بالجمازات[3]، وهي أشبه بالعربات التي تجرها الخيل السريعة التي يركبها عمال البريد ورجال الحرب وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة. فإن الفاطميين لما عزموا على غزو مصر سنة ٣٠١ هـ، استعمل علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسي الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال في كل يوم.

وكان لبني بويه أثر كبير في ترقية البريد، فقد أدخل عضد الدولة السعاة (وكان يقال لهم الفيوج)، وهم طائفة من موظفي البريد تخصصوا في نقل البريد من مكان إلى آخر.

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٨.

(٢) القلقشندي: ج ١٤ ص ٣٩٠.

(٣) انظر تاج العروس.

وقد استعملت النار كوسيلة من وسائل المراسلة في القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) على الساحل الإفريقي الشمالي، حتى كانت الرسائل تصل من طنجة إلى سبتة في ساعة واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات. ولم يبطل هذا النظام إلا في سنة ٤٤٠ هـ حين أثار المعز بن باديس الفتن في المغرب في وجه الفاطميين الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو[١].

كذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل في نقل الرسائل. وقد راج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية، وخاصة الإسماعيلية؛ فقد استعان عبد الله بن ميمون القداح بالطيور في نقل الأخبار إلى أنصاره[٢]، واهتم الفاطميون بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل، فقد ذكر القلقشندي[٣] أن الفاطميين بالغوا في العناية بالحمام حتى أفردوا له ديواناً وجرائد (قوائم) بأنساب الحمام، كما كان يفعل العرب في معرفة أنساب الخيل.

وللبريد محطات تسمى السكك، كانت تزود بالخيل وراكبيها في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة. وكانت طرق البريد منتشرة في المشرق والمغرب، ومن أهمها:

١ ـ من بغداد إلى القيروان بحذاء نهر دجلة، ويمر بالموصل وسنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان.

٢ ـ من بغداد إلى الشام بحذاء الضفة الغربية لنهر الفرات، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق.

٣ ـ من بغداد إلى الشرق، ماراً بحلوان وهمذان والري ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند حتى يصل إلى الصين. ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر في أواسط خراسان حتى يصل إلى الطالقان ثم يخترق نهر جيحون حتى يصل إلى فرغانة[٤].

وقد ارتقى نظام البريد في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، فوضع له نظام يكفل ارتباط جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط من البريد البري والجوي. وكان مركز هذه الشبكة

---

(١) الأمير شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٢٣٤.
(٣) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٠.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٧٥. وتاريخ الدولة الفاطمية ص ٢١١ ـ ٢١٥.

قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة ٥٧٢ هـ، حيث كان يتفرع منها أربعة طرق برية، يمتد أحدها إلى قوص، والآخر إلى عيذاب، وثالث إلى الإسكندرية، ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة. ومن قلعة الجبل تتفرع سائر خطوط البريد وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء الدولة، وترد إليها الرسائل من الولاة. وأصبح البريد في عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية يرد على مصر مرتين في الأسبوع.

(د) الشرطة:

الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين، وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم. وقد عرفت الشرطة بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها. وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس في الليل. وفي عهد علي ابن أبي طالب نظمت الشرطة، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة. وكان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر لأنه يتولى رياسة الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن.

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر، تقوم على الأحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود؛ ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم. وقد أدخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) نظام «الأحداث». وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد[١].

وكثيراً ما كانت الشرطة والحسبة تسندان لشخص واحد مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة في عصر الدولة الفاطمية، وكان ينوب عن صاحب الشرطة موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الأمر في الأقاليم، ويساعد صاحب الشرطة القضاة والعمال ويقوم بتنفيذ أحكامهم.

ومن ذلك نرى أن الشرطة كانت تابعة للقضاء في أول الأمر، يقوم صاحبها بتنفيذ الأحكام القضائية ويتولى إقامة الحدود. ولم تلبث أن انفردت عن القضاء، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم. وكانت الشرطة تؤهل صاحبها للحجابة أو الوزارة.

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى وشرطة صغرى. وقد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

اختص صاحب الشرطة الكبرى، كما يقول ابن خلدون[١]، بالحكم على الخاصة من ذوي النفوذ والجاه واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة.

٣ ـ النظام المالي

(أ) موارد بيت المال

١ ـ الخراج:

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد سارت الدولة الإسلامية منذ ظهورها على هذه السياسة، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة. وهو بهذا يشبه وزارة المالية في العصر الحاضر، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية، وكان يطلق عليه صاحب بيت المال.

والمال الوارد لبيت مال المسلمين، إما أن يكون ضريبة أو عن أشياء أخرى غير الأرض. وأهم موارد بيت المال: الخراج، والجزية، والزكاة، والفيء، والغنيمة، والعشور.

كان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة، كما صنع عمر بن الخطاب في أرض السواد[٢] بعد فتحها، وإما حصة معينة مما يخرج من الأرض، وهذا ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة كما عامل النبي ﷺ أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض، قليلاً كان أو كثيراً.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخراج، فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التي فرضت على أهل الذمة، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض.

ولم يكن الخراج ثابتاً، فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وتحسين وسائل الري، كما أن جزية الرؤوس كانت تتناقص بالتوالي لدخول أهل البلاد في الإسلام.

وكان خراج أقاليم الشرق الإسلامي يقدر بالدراهم وخراج أقاليم المغرب يقدر بالدنانير (عدا برقة وإفريقية). ويرجع السبب في ذلك، على ما ظهر، إلى أن مناجم الفضة

---

(١) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المحفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف.

(٢) سمي كذلك للخضرة والشجر والزرع، أي الأرض الخصبة التي تزرع فيبدو وجهها مخضراً قاتماً كلون السواد.

كانت أكثر في أقاليم المشرق منها في أقاليم المغرب، وبعكس ذلك مناجم الذهب. كما يلاحظ أيضاً أن ما يصل إلى بيت المال ببغداد كان صافي ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أرزاق الجند والموظفين وشراء المعدات الحربية وما تتطلبه مرافق الدولة من كري الأنهار والترع وإصلاح الجسور، وما ينفق على الدواوين وعلى الخليفة ورجال البلاط.

وهناك ضرائب أخرى تجبى من أرباب الحرف والصناعات ومن التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب.

٢ ـ نظام الالتزام:

يرجع نظام الإقطاع(١) أو الالتزام في الإسلام إلى عهد الرسول ﷺ.

ويقول المقريزي(٢): «وقد كان خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس يقطعون الأراضي من أرض مصر النفر من خواصهم، لا كما هو الحال اليوم (أي في زمن المقريزي)، بل يكون خراج أرض مصر يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف، ويحمل ما يفضل إلى بيت المال، وما أقطع من الأراضي فإنه بيد من أقطعه». وفي عهد صلاح الدين الأيوبي حتى زمن المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ كانت أراضي مصر تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده.

وكانت أرض مصر على سبعة أقسام: قسم يلحق بديوان السلطان، وهو على ثلاثة أقسام: ما يجري في الديوان الخاص، وما يجري في الديوان المفرد، وما يقطع للأمراء والأجناد، وقسم ثالث يحبس إيراده على المساجد والمدارس والخوانق(٣)، وعلى جهات البر وعلى ذرية واقفي تلك الأراضي وعتقائهم، وقسم رابع يقال له الأجباس، ينفق إيرادها على الذين يقومون بخدمة المساجد وإقامة الشعائر الدينية، وقسم خامس يباع ويشترى ويورث ويوهب لأنه اشتري من بيت المال، وقسم سادس لا يزرع للعجز عن زراعته، فترعاه المواشي أو ينبت الكلأ ونحوه، وقسم سابع لا يرويه ماء النيل فهو قفر كما هو الشأن في الصحارى.

---

(١) يقال: اقتطع طائفة من الشيء أخذها، أقطعني إياها أذن لي في اقتطاعها، واستقطعه إياها سأله أن يقطعه إياها. والإقطاعية جزء من أرض الخراج يقطعها الجند فتدر لهم غلتها فتصير لهم رزقاً وأجراً (راتب).

(٢) خطط ج ١ ص ٩٧.

(٣) جمع خانقاه وهي كلمة فارسية معناها «بيت». وقيل: أصلها خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. والخوانق حدثت في الإسلام حول سنة أربعمائة من الهجرة، وجعلت الخلوة الصوفية فيها للعبادة.

وقد أورد الماوردي[١] نـوعي الإقطاع فقـال : «وهو ضـربان : إقـطاع استغلال وإقـطاع تمليك ؛ والثاني ينقسم إلى موات وعامر ، والثاني وهو ضربان : أحدهما ما يتعين مـالكه ، ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسـلام ، فإن كـانت دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد ، فأراد الإمام أن يقطعهـا ليملكها المقـطع إليه عند الظفـر بها فإنه يجوز» .

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض في الـولاية الـواحدة ، بـل قد يشمل ولاية برمتها . وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي حين تـولى الأتراك حكم الـدولة العباسية ، فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لـدار الخلافـة مبلغاً من المـال عدا الهـدايا والـطرف كما كـان متبعاً في نـظام الإقطاع الـذي كان سـائداً في أوروبـا في القرنين العـاشر والحادي عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم[٢] .

ذكرنا من قبل أن السلطان ملكشاه السلجوقي منح الوزير نـظام الملك لقب «أتابـك» وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك . وقد سار سلاطين السلاجقة على هذه السنة ، فكانوا يسندون إلى بعض مماليكهم الذين يظهرون كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة حكم إقليم من أقاليم الدولـة السلجوقيـة ويعهدون إليـه بتنشئة أحـد أبنائهم[٣] . ولمـا ضعف البيت السلجوقي تقاسم هؤلاء الأمراء ملك السلاجقـة وأورثوه أبنـاءهم . وكان هؤلاء الأمـراء يقطعون الأمراء المقربين إليهم بعض الأقاليم والمدن بشرط أن يظلوا خاضعين لهـم ، فإذا مـا حاول أحدهم بالاستقلال بإقطاعه قام السلطان أو الأمير بعزله وإقطاع الإقليم أو المدينة لأمير آخر ؛ على أن هؤلاء المقطعين كانوا في عصر السلاجقة العظام مرتبطين بالسلطان السلجوقي مباشرة وكانوا يقيمون الخطبة له وينفذون أوامره ويشتركون في قتال أعدائه .

وكان بعض هؤلاء الأمراء المقـطعين يتمتعون بنفـوذ واسع واستقـلال يكاد يكـون تامـاً فعماد الدين زنكي مثلاً أصبحت الالتزامات الإقطاعية التي كانت تربطه بالسلطان السلجوقي محدودة بل إنها تحولت إلى موقف عدائي في بعض الأحيان ، وقد أدرك زنكي ضرورة إقطاع قواده بعض الإمارات المحلية في الجزيرة والشام وشرقي الموصل وفي الإمارات الصليبيـة . وكـان كلما استـولى على بلد «رتب أموره وأقـطع أعمالـه الأجناد والأمـراء» . كما فعـل بعـد

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٧١ ـ ١٨٢ .

(٢) الكندي : كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ـ ١٨٤ ، ١٩٥ ـ ١٩٧ ، ١٩٨ ـ ٢٠٢ .

(٣) انظر ص ٢٦ .

استيلائه على مدينة حلب سنة ٥٢٢ هـ[١]. وكانت سياسة عماد الدين زنكي ترمي إلى قيام المقطع بإدارة شئون الولاية باعتباره والياً من قبله، أو لإبعاده الشخصي الذي يرى في وجوده بإحدى الولايات خطراً على نفوذه[٢]، أو مكافأة لأحد المقربين إليه اعترافاً بولائه له وما أداه من خدمات ممتازة لدولته، أو لتشجيع بعض الأمراء المناوئين له على تسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق[٣].

٣ ـ الجزية :

الجزية مبلغ معين من المال توضع على الرؤوس، وتسقط بالإسلام، وثبتت بنص القرآن لقوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[٤]، والفرق بين الجزية والخراج على الأرض (وليس على الرؤوس)، ولا يسقط بالإسلام، وقد ثبت بالاجتهاد (لا بنص القرآن).

وقد فرضت الجزية على الذميين في مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان، لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة، ويتمتعون بحقوق واحدة، وينتفعون بمرافق الدولة العامة بنسبة واحدة. ولذلك أوجب الله تعالى الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم في الأقاليم الإسلامية التي يقيمون فيها[٥]. ولذلك فرض الشرع الجزية على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين لأن كلتا الطبقتين تكافأتا في الحقوق وتساويتا في الواجبات. وكانت الجزية تجمع على النحو الآتي :

١ ـ أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهماً.

٢ ـ متوسطو الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهماً.

٣ ـ فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهماً.

٤ ـ ولا تؤخذ الجزية من مسكين يتصدق عليه، ولا ممن لا قدرة له على العمل، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوي العاهات، ولا من الرهبان إلا إذا كانوا من الأغنياء. ولا تجوز أن تفرض إلا على الرجال الأحرار والعقلاء، كما أنها لا تفرض على امرأة أو صبي.

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٨.
(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٤٦.
(٣) ابن القلانسي ص ٢٧٠.
(٤) سورة التوبة ٩ : ٢٩.
(٥) أبو يوسف : كتاب الخراج ٦٩ ـ ٧٢

٤ ـ الزكاة:

والزكاة معناها الطهارة، فكأن الخارج من المال يطهـره من تبعة الحق الـذي جعل الله فيـه للمساكين، طبقـاً لقولـه تعـالى مخـاطبـاً الأغنيـاء: ﴿وفي أمـوالهم حق معلوم للسـائـل والمحروم﴾.

فكما أن الخراج شيء من المال يطهره، فكذلك يبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة، قال الله تعالى ﴿خـذ من أموالهم صـدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1].

وقد منح الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه وفضلا، وجعل علامة الشكر لذلك منهم على هذه النعمة التي منحها الله إياهـم أن يخرجـوا بعض هـذه الأموال لتنفق على الفقراء والمساكين وذوي الحاجة بوجه عام.

والزكاة شرعاً: تمليك جزء من المـال عينه الشـارع يخرجـه الغني للفقير في الحـدود التي عينها الشارع. وهناك خمسة أشياء يجب إخراج الزكاة منها وهي:

١ ـ زكـاة النقد (الـذهب والفضة)، وتجب الـزكـاة فيهمـا إذا بلغ النصـاب؛ فنصـاب الذهب عشرون مثقالا، والمثقال يساوي بالعملة المصرية ٥١ قرشاً تقـريباً، ونصـاب الفضة مائتا درهم (والدرهم يساوي نحو أربعة قروش مصرية). فإذا بلغ كـل منهما النصـاب المقرر وجب على المالك إخراج ربع العشر.

٢ ـ زكـاة السوائم[2]؛ وهي: الإبل والغنم. فـأول نصـاب الإبـل خمس وفيهـا شـاة، وهكذا في كل خمس شاة، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيهابنت مخاض[3] وفي ست وثلاثين بنت لبون[4]، وفي ست وأربعين حقة[5]، وفي إحدى وستين جذعة[6]، وفي ست وسبعين بنتاً لبون. فإذا بلغت إحدى وتسعين ففيها حقتان إلى مائة وعشرين. ثم تستأنف الفريضة فيؤخذ في كل خمس شاة مع الحقتين.

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٢٦١.

(٢) السائمة هي التي يرسلها صاحبها لترعى في البراري في أكثر السنة بقصـد الدر أو النسـل أو السمن الذي يراد به تقويتها لا ذبحها، فلو اتخذت للذبح أو الحمل أو الركوب أو الحرب فلا زكاة فيها.

(٣) هي ما بلغت من الإبل سنة ودخلت في الثانية.

(٤) هي ما أتمت سنتين ودخلت في الثالثة.

(٥) بكسر الحاء ما أتمت ثلاث سنين ودخلت في الرابعة.

(٦) بفتح الجيم والذال ما أتمت أربع سنين ودخلت في الخامسة.

أما زكاة البقر والجاموس، ففي كل ثلاثين تبيع أو تبيعة[١] وفي أربعين مُسن[٢] إلى ستين ففيها ضعف ما في الثلاثين، ثم في كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مُسِنَّة.

أما نصاب الغنم (ضأناً ومعزاً) ففي كل أربعين شاة، وفي كل مائة وإحدى وعشرين شاتان، وفي المائتين وواحدة إلى أقل من أربعمائة ثلاث شياه، وفي أربعمائة وما زاد ففي كل مائة شاة.

ولا زكاة في غير ما ذكر من الحيوان، فلا زكاة في الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة.

٣ ـ زكاة عُروض[٣] التجارة، ومنها ربع العشر، بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب والفضة، وأن يحول عليها الحول.

٤ ـ المعدن والركاز، وهما بمعنى واحد، وهو شرعاً: مال عثر عليه تحت الأرض، سواءاً كان خَلْقياً خلقه الله تعالى، أو كان كنزاً مدفوناً. قال الحسن البصري: ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة (وهو ربع العشر).

٥ ـ زكاة الزرع والثمار: وحكم زكاتهما أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر أو السيح[٤] وهو نصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها، ويقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها[٥].

والزكاة تصرف على الأشخاص المذكورة في قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[٦]، وفي قول الرسول الكريم: «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم».

وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمسكين، وفي حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ من الصدقة، والعاملون عليها هم الجباة الذين يندبهم الإمام لتحصيل

---

(١) التبيع: الذي يتبع أمه، وهو ما أوفى سنة.

(٢) المسن: ما أوفى سنتين.

(٣) جمع عرض (بسكون الراء) وهو ما ليس بذهب ولا بفضة.

(٤) وهو ماء يسقي الأرض دون أن يخرجه الإنسان من النهر، ويطلق عليه عند فلاحي مصر ري الراحة.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٠٨ ـ ١١٧.

(٦) سورة التوبة: ٩ : ٦٠.

الزكاة، والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا يظهرون الإسلام ليتألف المسلمون بذلك قلوبهم، وقد انقطع هذا الفريق بعد ظهور الإسلام وانتشاره. ويقصد «بالرقاب» أن يعتق الرقيق لضمان ولائهم للمسلمين. والغارمون هم الذين ركبهم الدين. وقوله تعالى: (وفي سبيل الله) يراد بهم الغزاة، وأهل الرباط الذين يعطون ما ينفقون في غزوهم سواء أكانوا فقراء أم أغنياء. (وابن السبيل) الذي انقطعت به الأسباب عن ماله لبعده عن بلده ومستقره وأهله. فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غنياً في بلده.

وكان للزكاة ديوان خاص بها في حاضرة الخلافة، وله فروع في سائر الولايات والبلدان.

٥ ـ الفيء والغنيمة:

والفيء كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا إيجاف[١] خيل ولا ركاب[٢].

وخمس الفيء يقسم خمسة أسهم متساوية: سهم للرسول ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين، وقد سقط بموته ﷺ.

أما أربعة أخماس الخمس فسهم لذوي القربى، ويراد بهم آل بيت رسول الله ﷺ، وقد اختلف فيهم: فقيل إنهم قريش كلها، وقيل بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وقيل بنو هاشم خاصة، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة[٣] بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[٤]، وبقوله ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم».

وكانت أربعة أخماس الفيء الباقية تقسم في صدر الإسلام بين الجند في الأعمال

---

(١) الإيجاف: سرعة السير. والركاب الإبل التي يسافر عليها، لا واحد لها من لفظها، أي لم يستعمل في تحصيله خيلاً ولا إبلاً، بل حصل بلا قتال.

(٢) جمع ركب ويقصد بذلك الإبل وغيرها المستعملة في الحرب.

(٣) مداولة من الأغنياء إلى الأغنياء دون الفقراء.

(٤) سورة الحشر ٥٩: ٧. الدولة (بضم الدال) في المال فقط، يقال صار الفيء دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا؛ الجمع دولات ودول.

الحربية وما تتطلبه من شراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب. وقد ظلت الحال على ذلك حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند.

والغنيمة في اللغة: ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي، وهي كل ما أصابه المسلمون من عساكر الكفار عن طريق الحرب.

وقد جرت العادة أنه إذا جمعت الغنائم لم تقسم حتى تنتهي الحرب لئلا يتشاغل الجند بها فتحل بهم الهزيمة كما حدث في غزوة أحد. فإذا انتهت الحرب عجل أمير الجيش بقسمتها في دار الحرب. ومع ذلك فإنه يجوز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب ما يراه أمير الجيش.

ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من الغنيمة، فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ (سورة الأنفال ٨ - ٤١). وقد تقدم ذكرهم في باب الفيء. والأربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين؛ غير أن الإمام إذا رأى أن يمن على الأسرى بإطلاقهم فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم.

٦ ـ العشور:

ويرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب. وكان تجار المسلمين الذين يفدون إلى دار الحرب (أي بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) يدفعون العشر عن سلعهم فأمر عمر بأن يأخذ المسلمون العشر من التجار غير المسلمين الذين يفدون ببضائعهم إلى دار الإسلام، وأمر بأن يؤخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة مائتي درهم فأكثر. وللإمام أن يزيد عن العشر أو أن ينقص عنه إلى نصف العشر، أو أن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة. ولا يزيد ما يؤخذ عن مرة واحدة من كل قادم بالتجارة في كل سنة ولو تكرر قدومه. وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى، وهذا ما نسميه في الوقت الحاضر الضرائب الجمركية.

وهناك مورد آخر من موارد بيت المال، هو الأموال التي لا يعلم لها مستحق كاللقطة، ومال من يموت وليس له وارث، والأموال التي صالح عليها المسلمون أعداءهم.

٧ ـ الضرائب في العصر العباسي الثاني :

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشئون الزراع والتخفيف عنهم. وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الحنطة والشوفان، وأحل محلها نظام المقاسمة، وهو دفع الضرائب النوعية (المتنوعة) بنسبة خاصة من المحصول. على أن النظام النقدي القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهها. ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة في جمع الضرائب توسع الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه المنصور فعممه، وجعل الضرائب تجبى دائماً بالنسبة إلى المحصول. وإذا كانت الأرض ممتازة الخصوبة ولا تحتاج إلى عمل كثير، كان على الزارع أن يقدم للحكومة نصف غلة أرضه. وإذا صعب عليه ريها دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض.

أما الكروم والبساتين والنخيل، فكانت غلتها تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث. ويسمى هذا النظام المقاسمة، تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف بالمحاسبة ويقضي هذا النظام بأن تجبى الضريبة بالنسبة إلى الأرض، وهناك ثلاث طرق في جباية الأرض:

١ ـ المحاسبة ـ وهي إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً.

٢ ـ المقاسمة ـ وهي ضريبة تؤخذ من المحصول.

٣ ـ المقاطعة ـ وهي ضريبة تجبى وفق اتفاقات معينة بين الحكومة والأمة، ويدخل في هذا النظام معظم أراضي الدولة. وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب، حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجدب.

وقد بلغت مساحة الجزء المنزرع في عهد المعز لدين الله الفاطمي ٢٨٥,٧١٤ فداناً، وفي أيام بدر الجمالي الذي تقلد الوزارة في سنة ٤٦٥ هـ نحو هذا القدر، وانعدمت أو كادت في أواخر عهد المستنصر. ولم يكن السبب في ذلك راجعاً إلى انخفاض النيل أو حدوث الوباء، وإنما كان راجعاً إلى سوء سياسة الحكام وعدم اهتمامهم بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخلجان وإقامة الجسور ونحوها.

ويمكننا الوقوف على اطراد النقص في مساحة الجزء المنزرع في مصر وزيادة مقدار الخراج الموضوع على الفدان من الثبت[١] الآتي:

---

(١) الثبت: الفهرس.

الوالي	السنة الهجرية	المساحة المزروعة	الخراج	الضريبة على الفدان
عمرو بن العاص	٢٠	٦ مليون فدان	٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٢ دينار
هشام بن عبد الملك	١٢٥	٢ مليون فدان	٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٢ دينار
المأمون	٢١٨	٢,١٢٨,٠٠٠ فدان	٤,٢٥٧,٠٠٠ دينار	٢ دينار
أحمد بن طولون	٢٧٠	؟	٤,٨٠٠,٠٠٠ دينار	
محمد الإخشيد	٣٣٤	٥٠٠,٠٠٠ فدان	٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٤ دينار
المعز لدين الله	٣٥٨	٢٨٥,٧١٤ فدان	٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار	٧ دينار
المستنصر في أواخر حكمه	٤٨٧	٧٦٥,٢٥٠ فدان	٣,٠٦١,٠٠٠ دينار	؟

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي ـ ولا تزال ـ تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية. وهنا أهم المحاصيل الشتوية نقلا عن ابن مماتي[1]:

نوع المحصول	الغلة بالفدان	ضريبة الفدان
القمح والشعير	٢ ـ ٤٠ أردب	٣ أرادب
الفول	٢٠ ـ ٢٠ أردب	٢ ١/٢ ـ ٣ أرادب
العدس	٥ ـ ٢٠ أردب	٢ ١/٢ أرادب
الكتان	٣٠ حبلاً	٣ ـ ٦ دينار
القرط (البرسيم)	٢ ـ ٤ أردب	١ دينار
البصل	١٠ ـ ٢٠ دينار	٢ دينار
السمسم	١ ـ ٦ أردب	١ دينار
القطن	٢ ـ ٨ قنطار	١ قنطار
قصب السكر	٤٠ ـ ٨٠ ايلوجة[2]	٥ دينار
القلقاس	٥ ـ ٤٠ دينار	٤ دينار
الباذنجان	٣٠ دينار	٣ دينار
النيلة	٢٦ دينار	٣ دينار
العنب والفاكهة	٣ دينار	٣ دينار

(١) كتاب قوانين الدواوين ص ٢٥٨ ـ ٢٧٠.

(٢) الأيلوجة هي الحزمة الكبيرة.

وكانت الضرائب فادحة على المواد الضرورية، كالقمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه، حتى إن متوسط الضريبة على الفدان الواحد بلغ أربعة دنانير.

وإذا كان الخراج قد بلغ ٣,٠٦١,٠٠٠ ديناراً في عهد وزارة بدر الجمالي، فإننا نستطيع أن نقدر مساحة الجزء الصالح للزراعة في أيام المستنصر على الوجه الآتي:

٣,٠٦١,٠٠٠ / ٤ = ٧٦٥٢٥٠ فداناً وهو مقدار قليل جداً كما نرى.

ولو كان لدينا خريطة مفصلة لمصر ونواحيها في أيام الفاطميين، لاستطعنا أن نستعين بالإحصاء القيم الذي أورده أبو صالح الأرمني في كتابه (كنائس وأديرة مصر)، حتى نقدر مساحة كل كورة بالتقريب، فنحصل على مساحة معقولة للجزء المنزرع. وما دام أبو صالح الأرمني قد أهمل مساحة كل كورة فلنكتف بأن نذكر أنه كان بمصر ١٢٢٨ ناحية و٨٣٤ قرية، وأن خراجها قد بلغ ٣,٠٦١,٠٠٠ ديناراً[١].

على أن أغلب مؤرخي مصر الإسلامية قد اتفقوا على أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم ومعاملتهم معاملة تنطوي على العطف والرعاية، ولا سيما في عهد المعز والعزيز. على أنه لما بدأ أمر الخلفاء يضعف وبدأ نجم الوزراء يعلو وسلطانهم يمتد، خرج أمر الرعية من يد الخلفاء فتصرف الوزراء حسب أهوائهم.

ولعل اليازوري هو الوحيد الذي استطاع أن يصلح ما أفسده من سبقه من الوزراء، فقد رأى أن يبيع قمح الحكومة بسعر معتدل دون أن ينتظر ارتفاع الأسعار كما كان يفعل الوزراء من قبل. وكان من أثر هذه السياسة أن خسرت الحكومة مبالغ كبيرة من المال، وخلت مخازنها من القمح الاحتياطي الذي كان ضرورياً في عهود الشدة التي جاءت بعد ذلك. ثم انتهز اليازوري فرصة زيادة المحصول في إحدى السنين، فحال دون إرهاق المرابين والتجار للفلاحين، فمنعهم من شراء المحاصيل بأسعار منخفضة في الوقت الذي كان الفلاح يعلن عن حاجته إلى المال. ثم أقام مخازن كبيرة للقمح في مدينة الفسطاط ليحول دون انتشار خطر المجاعة.

وقد أمدنا المقريزي[٢] ببيان واف يشتمل على ما كان يجبى بالدنانير من عوائد

---

(١) انظر كتابي النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢) ص ٢٦٥.

(٢) خطط ج ١ ص ١٠٣ - ١١١.

الأرض، وكل صنف من أصناف الصناعات، وما تحصله الدولة من الرسوم الجمركية ومستخرجات المعادن، ومن الزكاة وجزية الرؤوس، وما يتحصل من دار الضرب، وما يدخل بيت المال من التركات التي لا وارث لها.

ومما ذكره المقريزي وغيره من المؤرخين يتبين لنا مقدار خراج مصر في العصور المختلفة:

الحاكم	الخليفة	مقدار الخراج بالدينار
عمرو بن العاص	عمر بن الخطاب	١٢,٠٠٠,٠٠٠
عبدالله بن سعد بن أبي سرح	عثمان بن عفان	١٤,٠٠٠,٠٠٠
أسامة بن زيد	سليمان بن عبد الملك	١٢,٠٠٠,٠٠٠
عبد الله بن الحبحاب	هشام بن عبد الملك	٢,٧٢٣,٨٣٩
موسى بن عيسى الهاشمي		٢,٢٥٧,٠٠٠
أحمد بن محمد بن المدبر		٨٠٠,٠٠٠
أحمد بن طولون		٤,٨٠٠,٠٠٠
خمارويه بن أحمد بن طولون		٤,١٠٠,٠٠٠
محمد بن طغج الإخشيد		٢,٠٠٠,٠٠٠
كافور الإخشيد		٣,٢٧٠,٠٠٠
جوهر الصقلي	المعز	٣,٤٠٠,٠٠٠
وزارة يعقوب بن كلس	العزيز	٣,٠٠٠,٠٠٠
—	الحاكم	٣,٤٠٠,٠٠٠
وزارة اليازوري	المستنصر	٢,٠٠٠,٠٠٠ منها مليون من الشام
بدر الجمالي في سنة ٤٨٧ هـ		٣,١٠٠,٠٠٠
الأفضل بن بدر الجمالي	المستعلي	٥,٠٠٠,٠٠٠
صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٥ هـ	--	٤,٦٥٣,٠٢٩
الظاهر بيبرس	—	١٢,٠٠٠,٠٠٠(١)

(١) انفرد ابن إياس (ج ٣ ص ٢٦٦) بإيراد هذا الرقم.

٨ ـ النظام المالي في الأندلس:

وضع الأمويون أساس النظام المالي في الأندلس، وكان يتألف من الخزانة العامة، وإدارة بيت المال، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة.

وكان يشرف على الخزانة العامة أحد كبار الموظفين، ويسمى «خازن المال». ومقر هذه الخزانة القصر، وتودع فيها الأموال التي تجبى من المدن والقرى. ومن أهم هذه الأموال التركات التي يموت أصحابها دون أن يتركوا وارثاً، والضرائب المفروضة على الأسواق، والرسوم الجمركية التي تفرض على السفن، والخراج، والجزية، والأعشار.

أما موارد بيت المال، كما كان يسمى في الأندلس، فقد اقتصرت على ما يرد عليه من الأحباس (الأوقاف). وكان مقر هذا الديوان المسجد الكبير بقرطبة، يقوم هذا الديوان على صيانة المنشئات الدينية ودفع رواتب موظفي المساجد، وتوزيع الصدقات، ويشرف عليها قاضي القضاة ونوابه في الأقاليم برعاية الخليفة. ويشبه هذا الديوان من بعض الوجوه وزارة الأحباس ووزارة الشئون الاجتماعية الآن.

وأما موارد الأمير أو الخليفة الخاصة، فكان يشرف عليها موظف يعرف «بصاحب الدية»، ويشرف هذا الموظف على أرض الأمير أو الخليفة، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين، على أن يستولوا على جزء قليل من غلاتها[١].

وقد استمر هذا النظام في الأندلس حتى استولى عليها المرابطون واتبعوا نظاماً يقوم على قواعد الإسلام الأساسية وهي الزكاة. فلما أراد عمال المرابطين أن يتبعوا النظام السابق رغبة في جمع أكبر قدر من المال ثار أهالي الأندلس عليهم، واضطر أبو الطاهر (أخو السلطان علي بن يوسف) أن يقمع هذه الثورة التي اشتدت حتى جاء علي بن يوسف فقضى عليها، كما كانت هذه الثورات من العوامل الهامة التي جعلت الأندلسيين يرحبون بالحكم الموحدي ليتخلصوا من وطأة الضرائب التي اشتط العمال في جمعها على أيدي اليهود الذين اشتهروا إذ ذاك في الشئون المالية.

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة ١٩٦٥) ج ٣ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

٤ ـ النظام الحربي

(أ) الجيش في العصر السلجوقي:

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نمواً عظيماً على أثر دخول كثير من الناس في الإسلام وانضوائهم تحت لوائه. وقد بلغ عدد الجند في عهد العباسيين مئات الألوف. وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامي للدولة، تدفع لهم رواتبهم بانتظام، ومن ثم قلّت أرزاقهم تبعاً لزيادة عددهم. ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد، أصبح الجند يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهما[١]. وكان إلى جانب الجند النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب.

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده، فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح، وهؤلاء من جند العرب، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيمّا الخراسانيين. وفي العصر العباسي الثاني دخل في الجيش عنصر جديد أصبح أشد خطراً من الفرس والخراسانيين، هو عنصر الأتراك ويكونون القسم الرابع من الجيش.

وكان الجيش العباسي يتألف من عدة فرق تضم النظامية والمتطوعة. وتتألف هذه الفرق من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرماح والحراب والتروس، ومن الرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب ويلبسون الخوذ لتقي رؤوسهم والتروس لتقي صدورهم، ولها أجزاء للساعدين والساقين. ولكل فرقة من فرق الجيش فصيلة لقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين، ويرتدون الملابس التي فيها النيران لاقتحام الحصون المشتعلة.

وكان الجيش العباسي بوجه عام يتألف من الفرسان والمشاة أو الرجالة، والمنجنيقيين والنشابين (وهم الذين يرمون النشاب)، والنفاطين، والزراقين (وهم الذين يقذفون بالنار الإغريقية التي اقتبسها اليونان من الشرق)، والدبابين والعيارين، وهم رماة الحجارة من المقالع، وقد اشتهروا في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون، كما كان الجيش يتألف من المهندسين والأطباء والبياطرة والمرتزقة.

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية، وهو ما يعبر عنه اليوم بالقرعة العسكرية أو

---

(١) الدرهم يساوي أربعة قروش تقريباً.

التجنيد، تقرر بعد اختيار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد. وقد وصف هلال الصابي[1] طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب[2].

وقد ارتقى نظام الجاسوسية عند العباسيين، إذ كانوا يستخدمون الرجال والنساء، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم.

ولكي يحمي العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهي الثغور. ومن هذه الثغور طرسوس، وأدنة، والمصيصة، ومرعش، وملطية، وكانت تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي الروم.

وقد بلغ الجيش في عهد الدولة الزنكية درجة عالية من الرقي ودقة التنظيم حتى أصبح مثالاً يحتذى في البلاد الإسلامية الأخرى. وقد عني عماد الدين زنكي عناية خاصة بتنظيم الجيش للقضاء على الإمارات المحلية المتنافسة في الموصل والجزيرة والشام وتوحيدها في جبهة إسلامية تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين.

ولذلك وضع عماد الدين زنكي على رأس ديوان الجيش موظفاً كبيراً عرف باسم «أمير حاجب» كان يلي نائب السلطنة في الرتبة. وكان هذا القائد «ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمراجعة النائب. وكان عليه تقديم من يُعْرض (على السلطان) ومن يردّ[3]، وعرض الجند»[4]، كما كان ينظر في مخاصمات الجند وما يتعلق بأمور الإقطاعات الخاصة وغير ذلك[5]. وكان «أمير حاجب» يعتبر أكبر قواد عماد الدين زنكي.

وكان جيش الأيوبيين والمماليك من بعدهم يقوم على التقسيم العشري، بحيث ينظم أمراء الجند بشكل متدرج، فيلقب أكبرهم بمقدم ألف، ويليه أمير أربعين، ثم أمراء العشرات فالخمسات. وكان هذا التقسيم متبعاً عند السلاجقة قبل استيلائهم على بغداد سنة ٤٤٧ هـ، ويظهر أن عماد الدين زنكي اتبع نفس هذا التنظيم الذي يعد استمراراً للنظم السلجوقية من جهة وأساساً للنظم المملوكية من جهة أخرى.

---

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة) ج ٣ ص ٢٨٥.

(٣) يعني ومن ترفض مقابلته.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩.

(٥) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٢١٩.

وكان جيش عمادالدين زنكي يتألف من الخراسانيين والتركمان(١) الذين استعان بهم في قتال الصليبيين، ومن الشآميين وخاصة أهل حلب الذين اشتركوا في كثير من المعارك ضد الصليبيين في شمالي الشام وقاموا بدور هام في الدفاع عن حلب وأعمالها. كما استعان عماد الدين زنكي بأهل حماة الذين اتخذهم حرساً خاصاً له. وهناك فرق أخرى من البدو والأكراد التي تألف منها جيش زنكي بقسميه النظامي (أو المرتزقة) والمتطوعة.

كذلك أدخل عماد الدين زنكي نظام التجنيد الإجباري في المناطق المعرضة لخطر الصليبيين باعتباره نوعاً من الجهاد. كما اهتم بفرض حصار اقتصادي عند حصار المدن ليحول دون وصول المؤن إليها، واشترك مع جنده في الهجوم لإثارة الحماس في نفوسهم ورفع روحهم المعنوية. وتجلت براعة زنكي وقواده في استخدام أساليب القتال كنصب الكمائن(٢) وشن الغارات على معسكر العدو والانسحاب بسرعة لإثارة الخوف في نفوس الجند ونشر الفوضى في صفوفهم(٣).

وقد اهتم عماد الدين زنكي بترقية فن حصار المدن الحصينة المنتشرة في الجزيرة والشام، واعتمد على الجواسيس الذين كانوا يمدونه بأخبار العدو وتحركات جيوشه حتى يستطيع وضع خطة حربية سليمة(٤)؛ ففي مدينة الرها طلب زنكي من أهل الحصن تسليمه فرفضوا، فأمر بضربه بالمنجنيقات وأخذ جنده يوالون هجماتهم بلا انقطاع لقتال الحامية في الوقت الذي أخذ النقابون ينقبون بعض الأماكن التي تحت الأبراج حيث وضعوا الأخشاب وأشعلوا فيها النيران، فسقطت الأبراج واحترق السور وفتح زنكي الطريق أمام الجيش لدخول الحصن والاستيلاء عليه(٥).

(ب) أسلحة الجيش:

وقد كشف البحث الحديث خطأ النظرية التي ذهب أصحابها إلى أن المواد المفرقعة من اختراع اليونان والرومان الذين عرفوا المواد الملتهبة التي استخدمت قديماً في الحروب، ومن بينها النار الإغريقية التي لا علاقة لها بالمواد المفرقعة المتصلة بالنفط، والتي ساعدت على تطوير مجرى الحرب وعاونت على القيام بكثير من الأعمال والمشاريع العمرانية، كشق الطرق بين الجبال وما إليها.

ونقرأ كثيراً من أعمال النفط وفرق النفاطين التي اشتهرت في الفتوح الإسلامية، ولا

(١) ابن القلانسي ص ٢٧٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٤.
(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٤٠.
(٥) ابن القلانسي: ص ٢٧٩.

سيما في العصر العباسي، وما كان لها من أثر بعيد في حصار المدن وتمهيد السبيل لفتحها بعد إحراق بيوتها الخشبية، كما حدث في حصار حصن هرقلة (بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف) في عهد الرشيد. وكان لكل فرقة من فرق الجيش فصيلة من النفاطين (بفتح النون والفاء مع التشديد) لقذف النفط، يرتدي رجالها الملابس التي لا تؤثر فيها النيران عند اقتحامهم الحصون المشتعلة.

وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أخذ الأوروبيون عن المسلمين المواد المفرقعة المشتعلة على ملح البارود والكبريت والفحم. وقد دحض المستشرق الألماني جرجي يعقوب الرأي القائل إن القديسة «بربارة» اخترعت هذا المسحوق حين أغار الوندال على إفريقية واستخدمته للمرة الأولى، حتى أصبحت هذه القديسة شعاراً لفرق المدفعية عند كثير من الأمم حتى اليوم.

وقد عرف ثلج الصين (نترات البوتاسيوم أو ملح البارود) في بلاد الصين في النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حيث نجد استخدام الصينيين المواد المفرقعة للمرة الأولى عند هجوم أجتاي التتارى على إحدى المدن الصينية سنة ٧٨٢ هـ (١٣٣٢ م)، وهذه المواد المفرقعة عبارة عن أسهم نارية ومواد مدمرة كانوا يلقونها على العدو إذا حاصروه في زاوية لا يمكنه الإفلات منها. وقد أخذ المسلمون نترات البوتاسيوم عن الصين وأطلقوا عليها اسم ثلج الصين الذي استعمل كعنصر أساسي في صناعة الأسلحة النارية التي تعرف باسم «طوربيد». فوصفها حسن الرماح (بفتح الراء والميم مع التشديد) في كتابه عن الرماية بأنها «بيضة تخرج وتحرق». وقد عرف المسلمون النار الإغريقية كما عرفوا غيرها من أسلحة الحرب التي أخذها عنهم الأوروبيون.

(جـ) إمرة الجيش:

وقد عدد ابن طباطبا[١] الصفات التي يجب ان تتوافر في قائد الجيش فقال: «قال بعض حكماء الترك: ينبغي أن يكون في قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان: جرأة الأسد، وحملة (أي قوة تحمله) الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وغارة الذئب، وحراسة الكركي، وسخاء الديك، وشفقة الدجاجة على الفراريج، وحذر الغراب، وسِمَن تَعْرو، وهي دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والكد».

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه، لأنه يعتبر نائبه في القيادة وفي إمامة

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ٥٧.

الصلاة. وإذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس، فيصبح هذا القائد بمثابة «قائد القواد». وإذا انتهى الفتح ووقف القتال أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم كما هو الحال في عصرنا.

ويرجع إلى قواد العرب تنظيم طريقة القتال، فقد كانوا في الجاهلية يتبعون طريقة الكر والفر في القتال، فيكرون على العدو، وإذا ما آنسوا في أنفسهم ضعفاً فروا، ثم عادوا فكروا، وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام.

غير أن قواد المسلمين لم يرتاحوا لهذه الطريقة، ووجدوا أنها لا تكفل لهم النجاح ولا تصلح لقتال الجنود المنظمة، ونزلت الآية الكريمة﴿إنّ الله يُحِبّ الذين يُقَاتِلون في سَبِيلِهِ صفاً كَأَنّهُم بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [1]. وأخذ المسلمون في أيام النبي يقفون للقتال صفوفاً كما يفعلون في الصلاة، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامنين، وليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه.

وفي عهد الأمويين والعباسيين اختلط العرب بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة، أي تقسيم الجيش إلى كتائب، تكون إحداها في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى «قلب الجيش»، وتوضع واحدة إلى يمينها وتسمى «الميمنة»، وأخرى إلى يسارها وتسمى «الميسرة»، ثم تكون أمامها كتيبة (من الفرسان في الغالب) وتسمى «المقدمة»، وخلفها كتيبة تسمى «ساقة الجيش» ولذلك تركوا نظام الصفوف. وبعد تقدمهم في المدنية تفننوا في طرق تعبئة الجيوش.

وقد عدل العرب عن اصطحاب نسائهم معهم إلى ميادين القتال، بعد أن كن يصحبن الجيش ويخصص لهن أماكن في المدن الحصينة. وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على كل من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالي البلاد المفتوحة بسوء. ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر، كما كان الجندي لا يمكث بعيداً عن أسرته أكثر من أربعة أشهر وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية في أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفي أثناء المعارك الحربية، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس في نفوسهم. وقد اتصف الجندي المسلم بالتفاني في القتال لاعتقاده بأن من يموت في سبيل الله دخل الجنة.

---

(١) سورة الصف ٦١ : ٤.

ومما ذكره ابن الأثير[1] عن سير الخليفة المسترشد العباسي (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) لحرب دبيس بن صدقة بن مزيد صاحب الحلة الذي هدد الخليفة بتخريب بغداد بعد أن كحل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أخاه، نستطيع أن نتبين بعض الخطط التي كانت تتبع في المعارك الحربية فقد ندب الخليفة الأمير آقسنقر لحرب دبيس، واستعد الخليفة لحربه واستنفر الشعب للقتال ووزع عليهم الأموال والسلاح. وفي شهر ذي الحجة سنة ٥١٦ هـ نادى «أهل بغداد: النفير النفير، الغزاة الغزاة! وكثر الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة، وبرز الخليفة . . . وعبر دجلة، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحة، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني (أي من حديد صيني)، ونزل الخيام، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طرد وشيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل وغيرهم من الأعيان. وكان البرسقي قد نزل بقرية جهار طاق ومعه عسكره، فلما بلغهم خروج الخليفة من بغداد عاد إلى خدمته فلما رأوا الشمسة (أي الشمسية)، ترجلوا جميعهم وقبلوا الأرض بالبعد منه (أي على بعد منه). ودخلت هذه السنة، فدخل الخليفة في مستهل المحرم بالحديثة بنهر الملك، واستدعى (آقسنقر) البرسقي والأمراء واستحلفهم على المناصحة في الحرب، ثم ساروا إلى النيل[2] ونزلوا بالمباركة، وعبى (عبأ) البرسقي أصحابه، ووقف الخليفة من وراء الجميع في خاصته، وجعل دبيس أصحابه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً، وجعل الرجالة بين يدي الخيالة بالسلاح، وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي النساء، فلما تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف والعبيد بالملاهي. ولم ير في عسكر الخليفة غير قارىء ومسبح. فقامت الحرب على ساق. . فجعل عنتر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي، فتراجعت على أعقابها. . . وعاد وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأول. فلما رأى عسكر واسط ذلك ومقدمهم آقسنقر حمل وهم معه على عنتر ومن معه وأتوهم فبقي عنتر في الوسط وعماد الدين من ورائه والأمراء البكجية بين يديه. فأسر عنتر وأسر معه بريك ابن زائدة وجميع من معهما ولم يفلت أحد. وكان (آقسنقر) البرسقي واقفاً على نشز (مرتفع عال) من الأرض، وكان الأمير آق بوري في الكمين في خمسمائة فارس. فلما اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دبيس، فانهزموا جميعهم وألقوا نفوسهم

(١) ج ١٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) يقصد نهر دجلة الذي كان يطلق عليه النيل أحياناً كما كان يسمى نهر النيجر النيل أيضاً وهذه الإطلاقات نشأت من عظم نهر النيل وشهرته حتى أصبح علماً على كثير من الأنهار.

في الماء، فغرق كثير منهم وقتل كثير. ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب، جرد سيفه وكبر وتقدم إلى الحرب. فلما انهزم عسكر دبيس وحملت الأسرى بين يديه، أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً. وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل، وعسكر البرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل. ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً. وجعل نساء دبيس وسراريه تحت الأسر سوى بنت إيلغازي وبنت عميد الدولة ابن جهير، فإنه كان تركهما في المشهد. وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة... وأما دبيس بن صدقة فإنه لما انهزم نجا بفرسه وسلاحه وأدركته الخيل ففاتها وعبر الفرات... واختفى خبره بعد ذلك وأرجف عليه بالقتل ثم ظهر أمره...».

(د) **الجيش في مصر:**

وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوي يكون عدتهم وقت الحروب، ويتكون هذا الجيش من الأمراء وطوائف الجند، ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تجاوزها إلى غيرها، فالأمراء كانوا يطوقون بأطواق الذهب، والبعض الآخر يركب في المواكب بالقضب الفضية. أما طوائف الجند فتتكون من عدة عناصر، كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان. ولكل طائفة من هؤلاء قائد يشرف عليهم ويقوم بترتيبهم في مواقفهم. وينسب بعض هذه الطوائف إلى الخلفاء كالحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ الفاطمي والآمرية نسبة إلى الخليفة الآمر الفاطمي، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء كالجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي، والأفضلية نسبة إلى الأفضل بن بدر الجمالي[1].

وفي عهد الأيوبيين أخذ السلطان صلاح الدين الأيوبي جيشاً من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية، حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاقتنى عدداً كبيراً من المماليك كان معظمهم من الأتراك. ويرجع السبب في ذلك إلى المنافسة التي قامت بينه وبين أخيه العادل الذي كان يرى أنه أحق منه بالملك، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك، فتفرق عنه جيشه من الأكراد، ولم يبق معه غير مماليكه وطائفة من خواصه، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه. فلما تولى نجم الدين أيوب سلطنة مصر بعد أخيه العادل، حفظ للمماليك شجاعتهم وولاءهم حين تفرق عنه الأكراد، فاستكثر من شرائهم، وبنى لهم بجزيرة الروضة قلعة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية والأقوات، وأنشأ بها جامعاً وستين برجاً. ولما تم بناء هذه القلعة انتقل إليها الملك الصالح بأسرته واتخذها داراً لملكه وأسكن فيها مماليكه البحرية.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢.

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت الدولة الأيوبية وولي المعز أيبك سلطنة مصر، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل. ولما ولي الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية عرش مصر أعاد قلعة الروضة إلى ما كانت عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وأسكن الأمراء في أبراجها.

ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيماً تاماً، ولا عجب فقد كان قائداً ممتازاً، ظهرت كفاءته في موقعة المنصورة التي دارت بينه وبين الصليبيين وكان سلفه عز الدين أيبك الذي تزوج من شجرة الدر رئيساً لقواد المماليك. وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف: جنود نظامية تنفق عليهم الدولة، ومماليك السلطان وتنفق عليهم الخاصة السلطانية ويؤلفون حرس السلطان، وكانوا ذوي ثروة كبيرة ونفوذ عظيم بحيث كانوا يهددون السلطان بالخلع إذا شاءوا. أما الطائفة الثالثة فهم مماليك الأمراء وكانوا يحرسونهم. وقد حافظ المماليك على صبغتهم الحربية حتى بعد ضعف نفوذهم باستيلاء السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧ م. وكانوا ينظمون جيوشهم على هيئة مربعات، يقف فرسانهم في وسطها ثم يدور القتال بغير نظام، لذلك لم يكن من الصعب إلحاق الهزيمة بهم على الرغم مما امتازوا به من الشجاعة والبسالة.

(هـ) الجيش في المغرب:

عرفت قبيلة لمتونة المرابطية بشدة البأس وبراعة الرمي وقد أدخل يوسف بن تاشفين على الجيش المرابطي تعديلات جوهرية حتى أصبح من أعظم جيوش العالم عدداً وسلاحاً. وكان باعتباره أمير المسلمين هو القائد الأعلى للجيش. وعمل المرابطون على الاحتفاظ بخططهم الموروثة في تنظيم المعارك[1].

وقد اشتهر اللمتونيون بقوة البأس في الحروب، لا يفرون أمام العدو مهما تفوق عليهم في العدد، كما اشتهروا بركوب الخيل؛ لذلك كان معظم جيشهم من الفرسان. وكان أشجع جندهم من المشاة يقفون في الصف الأول متقلدين الحراب الطويلة التي كانوا يغرسونها في الأرض. وكانت قوة الفرسان لا تقل عن مائة ألف مقاتل من المدربين على الحروب والمزودين بأحسن السلاح، ويتألف الجيش المرابطي من فرق يحمل كل منها علماً خاصاً عليه نقوش تميزها عن سائر فرق الجيش، وعلى كل من هذه الفرق قائد خاص. ويسير الجند إلى حومة الوغى بين قرع الطبول وأصوات الأبواق، وقد رتبت صفوفه حسب القبائل المغربية على اختلافها.

---

(١) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (القاهرة ١٩٥٨) ص ٤٧٨.

وكـان ترتيب الجنـد المرابـطي يقوم على نـظام خماسي، هـو المقدمـة، والمؤخـرة، والميسرة، والميمنة (ويؤلفان جناحي الجيش)، والقلب: فالمقدمة تتألف من الجند المشاة، والجنـاحان من وحـدات الفرسـان الخفيفة وحملة القسي وحملة النبـال. ويتـألف القلب من وحدات الفرسان الثقيلة، وإليها يرجع الفضل غالباً في إحراز النصر في المعارك الحـاسمة. أمـا القوى الخفيفـة أو الاحتياطيـة فكان يقـودها يـوسف بن تاشفين بـاعتباره القـائـد الأعلى للجيش المرابطي، وتتألف من صفوة الجند وقوى الحرس على اختلافها[1].

وتنتمي كل فرقة من الجيش المرابطي إلى إقليم أو مدينـة: فالأنـدلسيون مثـلاً يؤلفون قسماً خاصاً من الجيش ويحملون أعلام إشبيليـة وقرطبـة وجيان ومـالقة وغـرناطـة وغيرهـا. وتتألف قوة الحرس الخاص من أكثر الجند شجاعة وتمتاز بحسن القوام وقوة البدن والشجاعة والبراعة. وقد استعان يوسف بن تاشفين بتجار الرقيق في إقليم غانة، واختار أمهرهم ودربهم على جميع الفنون الحربية، وزودهم بالسلاح والخيـل، وأنشأ منهم حـرسه الخـاص، وكان يتألف من ألفي جندي.

وكان جند المرابطين يحاربون بنفس الروح الإسلاميـة التي تحلى بها الجنـد في صدر الإسلام، يحاربون للجهاد في سبيل الله وليظفروا بإحدى الحسنيين، النصر أو الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين. كان حب المـرابطين للقتـال في سبيل الله يـظهر ظهـوراً واضحاً في حروبهم ضد النصارى من الأسبان. ومن تقاليدهم الصلاة قبل بدء القتال وإذاعة أنباء النصر من أعلى المآذن وتلاوة البيانات الخاصة بالحروب من فوق المنابر في كافة أرجاء الدولة المرابطية.

وكـانت أسلحة الجيش المـرابطي في عهـد يوسف بن تـاشفين خفيفة تمثـل البداوة، وتتـألف من درق اللمط وسيـوف الهنـد ومـزارق الـزاف والقنـا[2] الـطوال. ولما طـال مقـام المرابطين في الأندلس، اقتبسوا كثيـراً من أسلحة ملوك الـطوائف والأسبان، فـاعتمدوا على الخيل مع اعتمادهم على الجمال التي يطلق عليها سفن الصحراء، وتسلحوا بالزرد والدروع والسيوف. ويبدو أن أسلحة المسلمين في الأندلس والمعارك التي خاضوها كانت في مستهل الحكم المرابطي في هذه البلاد على ما ذكره أبو بكر الطرطوشي[3] حيث يقول:

«فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنـا (الأندلس)، وهـو تدبيـر نفعله في لقاء عدونا، أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الـطوال والمزاريق المسنـونة النافذة، فيصفون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض،

(١) أشباخ ص ٤٧٩.
(٢) القنا جمع قناة وهي نوع من الرماح.
(٣) سراج الملوك ص ١٧٩.

وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم، ولا يقوم رجل منهم على قدميه. فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب[١]، والرجالة بالمزاريق، وصدور الرماح تلقاهم، فأخذوا يمنة ويسرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله».

ولننتقل الآن إلى الكلام على الجيش في عهد الموحدين:

كان النظام الذي وضعه المهدي محمد بن تومرت نظاماً عسكرياً بحتاً، وكان ذلك أمراً ضرورياً في الجهاد؛ فوضع لأتباعه نظاماً يسمى «الطبقات» تتميز بمقتضاه كل طبقة عن الأخرى في وقت السلم والحرب. وفي مقدمة هذه الطبقات أهل العشرة وهم صحابة ابن تومرت ووزراؤه الذين منهم عبد المؤمن بن علي الذي ولي الأمر بعد ابن تومرت. وكانت الطبقات كلها تشترك في الحرب عند الضرورة، يدل على هذا موقعة البحيرة المشهورة التي هزم فيها المرابطون الموحدين هزيمة منكرة وفقد فيها ابن تومرت جل صحابته وتوفي بعدها بقليل. ولم يتخذ الجيش الموحدي طابعه الكامل إلا في عهد عبد المؤمن بن علي الذي يعد من أعظم قواد العصور[٢].

ولما آلت الخلافة إلى عبد المؤمن ألغى نظام الطبقات الذي لم يبق منه سوى مجلس الخمسين والسبعين. أما النظام الحربي فقد بقي على ما كان عليه في عهد ابن تومرت.

وكان المرابطون ـ كما ذكرنا ـ يعتمدون على الفرسان. أما الموحدون فقد كانوا أهل جبال؛ لذلك كانوا يعتمدون في حركاتهم الحربية على أنفسهم لا على دوابهم. وقد اقتبس عبد المؤمن تنظيم الصفوف من الطريقة الجرمانية، ولعله أخذها عن جند الأسبان أو النرمانديين في صقلية في حرب تونس والمهدية، فقد جعل كل صف يتألف من عشرة من الجند، ولكل وحدة قائدها الخاص. وكان عبد المؤمن يعنى عناية خاصة بتدريب الجند والقواد الذين كانوا يتميزون بخفة الحركة والبراعة الحربية. ويختار المشاة في الجيش الموحدي من أبناء رجال القبائل الجبلية ولا سيما قبائل مصمودة، الذين كانوا يحملون حراباً يبلغ طول كل منها اثنا عشر قدماً، وتسمى «الأمراس»، يقذفون بها في وجوه الأعداء في قوة وسرعة[٣]...

---

(١) بفتح النون والشين مع التشديد.

(٢) أشباخ: تاريخ المرابطين والموحدين ص ٣٠٥.

(٣) الحلل الموشية ص ١١٥ ـ ١١٦.

وكان الجيش الموحدي ينقسم بوجه عام قسمين: الأول هو الجيش النظامي ويختار من أبناء القبائل المغربية، والثاني ويختار من رجال الحرس وكانوا من أهل الجنوب ويقوم أمير المؤمنين بنفسه باختيارهم من أشد الشبان قوة وأعظمهم إخلاصاً. ولا يشترط فيهم أن يكونوا من المغاربة، بدليل وجود كثيرين من مسلمي الأندلس والصقالبة والسودانيين. وكان الجندي يتدرب تدريباً كافياً ويحصل على أكبر نصيب من المران الذي يعده للقتال ويكفل له البراعة في وضع الخطط الحربية.

وكانت الدولة الموحدية تزود الجند النظاميين بالسلاح والغذاء والملابس، وتقدم القبائل كل ما يطلبه أمير المؤمنين من شبان القبائل للاشتراك في المعارك أو الجهاد ضد نصارى الأندلس. وكان كثير من المتطوعين يقدمون أنفسهم للجهاد في سبيل الله، بخلاف الجند الذين كانت القبائل المغربية تقدمهم للخدمة العسكرية الإجبارية. وكذلك كانت القبائل تسهم في تقديم الذخائر والمؤن عند نشوب الحروب.

وإذا عزم أمير المؤمنين على خوض غمار الحرب ضد أعدائه، عقد مجلساً حربياً يعرض أمام أعضائه العوامل التي دعت إلى القتال، ويبحث مع قواد جيشه خطة المعركة وما يتصل بها من الهجوم أو الارتداد والخدع. وكانت الخدع البارعة من أهم فنون الحرب عند الموحدين، كأن يتصنعوا الفرار أو يتظاهروا بالانهزام أو نحو ذلك. وكان للموحدين عيون يبثونها للوقوف على مواطن القوة أو الضعف عند العدو، ثم يضعون خططهم على ضوء ما يتوافر لديهم من المعلومات الصحيحة. وإذا ما استقر الرأي على خوض غمار المعركة عرض أمير المؤمنين الجيش واشترك في ترتيبه، ثم ضرب قبته الحمراء، يخفق عليها علمه الأبيض، وارتدى ملابس القتال، وامتطى فرسه المطهمة وقبض على سيفه المسلول بإحدى يديه، وحمل المصحف الشريف في يده الأخرى. وكان ذلك إيذاناً بنشوب المعركة التي تقوم عند الموحدين على فكرة التربيع[1]، وتوضع كل فرقة من الجيش تحت إمرة قائد خاص تؤلف فرقته إحدى الزوايا الأربع التي يتألف منها المربع. وتتألف قوة الجيش الرئيسية من المشاة النظاميين الذين يقفون في مقدمة الجيش، ويتسلح جندها بحراب طويلة. ويلي هؤلاء صفوف من الجند تسلحوا بالسيوف وعليهم الدروع، ثم يليهم حملة النبال والقسي.

وقد تفوق الموحدون على المرابطين في فن الحصار، حتى إن أكثر المدن منعة كانت تتحطم أمام سلاح الحصار الموحدي. وكان الموحدون يستعملون أسلحة متنوعة في

(١) الحلل الموشية ص ٩٨.

الحصار: فأحياناً يستعملون الحراقات، أو يقومون بقذف كميات ضخمة من الأحجار، أو يطلقون المياه الغزيرة في قوة وعنف. وكان عبد المؤمن نفسه أستاذاً في فن الحصار ففي حصار فاس التي قاومت أسوارها المنيعة مدة طويلة، نرى عبد المؤمن يستعين بمياه النهر التي أمر بحفظها في خزانات ضخمة، ثم يطلقها دفعة واحدة على الأسوار. وكذلك نراه يحرق أبراج مدينة وهران بالنيران المحرقة المصحوبة بقذف الآلات، ويفتح مدينة المهدية بحيلة مماثلة، وذلك بتحطيم جدرانها القوية التي يسير عليها فارسان متحاذيان؛ وبمثل هذه المهارة استولى عبد المؤمن على مدينة مراكش التي لم تقف أسوارها المنيعة عقبة في سبيل فتحها. وعلى هذا النحو سقط في أيدي الموحدين كثير من القلاع في أضيق المفاوز الجبلية في المغرب والأندلس، وذلك بفضل آلات الحصار الضخمة التي كانت تقذف كتلاً هائلة من الحجارة والكرات الملتهبة من الحديد.

(و) إمرة الأسطول:

كانت السفن الإسلامية تبنى في معظم المرافىء البحرية السورية والمصرية، كما كانت هذه السفن أضخم من السفن البيزنطية، كما كثر عدد سفن البحرية التجارية ولقيت التجارة البحرية كل تشجيع. وكان بكل مرفأ منارة تدعى «الخشب». ويظهر أن الأسطول لم يكن مؤلفاً من السفن التي ابتنتها الحكومة للمهام الحربية فحسب، بل كان لزاماً على كل مقاطعة أو ثغر أن تقوم بتقديم عدد معين من السفن إذا طلب منها، وذلك في أيام الفاطميين في مصر. وعلى هذا النحو سار صلاح الدين الأيوبي. ولكل سفينة حربية قائد (أو مقدم) يتولى القيادة في سفينته، ويقوم بتدريب الجند وتجهيز الحملات، في الوقت الذي نرى موظفاً آخر يدعى «الرئيس» يتولى الإشراف على الملاحة، ويدعى قائد الأسطول أمير الماء أو أمير البحر ومنه اشتق لفظ Admiral أو Amiral.

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية. ولكن العرب الذين تعلموا هذه الفنون من البيزنطيين أصبحوا أساتذة أوروبا، لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة. يدلنا على ذلك أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوروبا لا تزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم. وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الابيض المتوسط بوجه خاص، أبعد مدى من أثر غيرهم من شعوب أوروبا. ويقول فون كريمر: ومما يوضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الأقطار المسيحية، أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوبي أوروبا؛ نذكر من تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ «حبل» العربي، وكلمة Arsenal (وبالإيطالية

Darsonal) المأخوذة عن لفظ «دار الصناعة» بالعربية، وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ «غراب» العربية.

(ز) البحرية في مصر:

اشتهرت مصر بصناعة المراكب النيلية التي كانت تسير في النيل تحمل حاصلات البلاد بين الوجهين البحري والقبلي، كما اشتهرت أيضاً بصناعة السفن التي تألف منها الأسطول المصري. وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس[1] والفرما[2].

وقد اشتهر أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ) بإنشاء المراكب الحربية، وجعل لها حول جزيرة الروضة أحواضاً كانت تعرف باسم «صناعة الجزيرة». وظلت صناعة السفن بجزيرة الروضة حتى نقلها محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) إلى فسطاط مصر في المصنع المعروف باسم «صناعة السفن»، فغدت المراكب الحربية والنيلية تصنع في «صناعة مصر» تارة وفي «صناعة الجزيرة» تارة أخرى.

وقد اهتم الفاطميون بعد قيام دولتهم في إفريقية بسيادة البحر الأبيض المتوسط، لأنهم كانوا يقدرون أثر العامل البحري في قصة النضال بين الإسلام والمسيحية، لذلك عنوا بإنشاء المواني البحرية المحصنة، فأسسوا مدينة المهدية واتخذوها قاعدة لأسطولهم في البحر الأبيض المتوسط، كما حرصوا على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار، فاستولوا على صقلية واتخذوا من موانيها قواعد يغيرون منها على مواني حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد أغار الفاطميون على بلاد الروم سنة ٣١٦ هـ، وكانت هذه الحملة خاتمة لسلسلة من الحملات البحرية على هذه البلاد حيث أغارت على لمبارديا وقلورية (Calabria) واستولت على مدينة تارانت، وحاصرت نابولي ويممت شطر جنوة سنة ٣٢٣ هـ وأغارت على جزيرة سردانية ودمرت أساطيل الفرنجة، ثم استولت على

(١) تنيس (بكسرتين وتشديد النون): اسم مدينة قديمة كانت قائمة في جزيرة صغيرة في الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة.

(٢) الفرما (بالتحريك) من حصون مصر القديمة في الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط.

جزيرة قرسقة، وغنم الفاطميون بذلك بلاداً ذات قيمة استراتيجية عظيمة. وبذلك رجحت كفتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلا شأنهم في العالم الإسلامي[١].

ولم تقف عناية الفاطميين عند حد تكوين الجيش، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين بلاد الشام (وكانت تابعة لمصر) واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوي؛ فأنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين المراكب الحربية في مدينة مصر وفي الإسكندرية ودمياط. وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانىء الشامية مثل عكاء وصور وعسقلان.

وقد أنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بني فيها ستمائة مركب، وصفها المسبحي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله: «إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً». ويحدثنا المقريزي[٢] أنه كان على رأس الأسطول المصري في ذلك العصر عشرة قواد، عليهم رئيس هو «قائد القواد»، ويسمى في عهد الفاطميين «أمير الجيش» وفي عهد المماليك «ناظر الجيش».

وكان هؤلاء القواد يتناولون مرتبات تبلغ عشرين ديناراً في الشهر، كما كان للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها. ولم يزل الأسطول المصري محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بين الصليبيين؛ فأمر شاور[٣] وزير الخليفة العاضد الفاطمي بإحراق الفسطاط ليحول دون وصول العدو، كما أحرق مراكب الأسطول.

ولما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي، اهتم بأمر الأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن المواني الإسلامية، فخصص له ديواناً كبيراً عرف باسم «ديوان الأسطول» وأقر له ميزانية خاصة، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل.

وكان معظم أفراد الشعب في عهد الدولة الأيوبية يكرهون الحروب البحرية، حتى كان السلاطين يضطرون لإرغام الناس على الاشتغال في الأسطول إذا دعت الضرورة إلى تجهيزه. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أصبحت خدمة الأسطول في عهد الدولة الأيوبية عاراً يسب به الرجل، فإذا قيل لرجل: «يا أسطولي» غضب غضباً شديداً. ويظهر أن تلك الكراهية إنما جاءت على أثر تحول الحروب الصليبية إلى مصر، فإذا قيل لرجل: يا

---

(١) ابن عذارى: المغرب ج ١ ص ١٩٨.
Fournel: les Berbères. pp. 150-151

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ١٣٣.

(٣) بفتح الواو هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار.

أسطولي، فكأنهم يعنون بذلك أنه مثل الصليبيين الذين حملتهم الأساطيل، ويرمز بهذا إلى الشر، وقد تغيرت نظرة الناس إلى رجال الأسطول واحترامهم لهم حتى أطلقوا عليهم «المجاهدين في سبيل الله» و«الغزاة في أعداء الله».

(جـ) البحرية في المغرب:

كان للمرابطين في عهد يوسف بن تاشفين أسطول صغير يتألف من السفن التي تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس. وكان عدد هذه السفن كبيراً بالنسبة إلى السفن الحربية. وقد ارتقى الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف، وأظهرت وحداته نشاطاً ملحوظاً في البحر الأبيض المتوسط. يؤيد هذا ما ذكره الإدريسي[١] «من أن أحمد بن عمر كان والياً لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله». ومن ثم نرى أن الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف كان ضخماً، وأنه كان ينقسم إلى أقسام أو وحدات. وقد انتصر الأسطول المغربي على أسطول الفرنجة في فتح بلنسية وجزر البليار[٢]. واشتهر من أمراء البحر في عهد علي بن يوسف: علي بن ميمون الذي كانت له جولات بحرية رائعة على سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا.

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين تفوقت قوتهم البحرية. وكانت سفنهم على نوعين أحدهما يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية كما كانت الحال في عهد المرابطين، وثانيهما يتألف من السفن الحربية. وقد ذكر المؤرخون أن أسطول الموحدين بلغ أربعمائة سفينة ألقت مراسيها على جميع سواحل بلاده[٣].

وقد تجلت عظمة الأسطول الموحدي منذ عهد عبد المؤمن بن علي. ثم نهض نهضة مباركة في عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن، وظهرت قوته في المعارك البحرية التي قامت بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة في بلاد الأندلس، وفي موقعة المهدية التي كان يحتلها النورمانديون أصحاب صقلية، وتغلب الموحدون بقيادة أمير البحر عبد الله ابن ميمون على أسطول النورمانديين الذي كان يتألف من مائتي سفينة على الرغم مما أظهروه من براعة في القتال، وأغرق وأحرق أكثر سفنهم.

---

(١) المغرب وأرض السودان ص ٥٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٧.

(٣) السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨. ومن هذه السفن ١٢٠ سفينة بالمهدية (وكانت تسمى حلق المعمورة) ومائة سفينة بمواني سبتة وطنجة والريف، ومائة سفينة بسواحل إفريقية (تونس الآن) ووهران ومرسى هنين، و٨٠ سفينة بعدوة الأندلس.

وقد عني عبد المؤمن بن علي عناية خاصة بالجيش والأسطول، وأنشأ المدارس الحربية لتخريج القواد الأكفاء والجند البواسل. ولكي يحافظ على الروح العسكرية جمع عبد المؤمن الشبان من القبائل المغربية ولا سيما من قبيلة مصمودة. وكانت المدارس الحربية تقوم إلى جانب الفنون الحربية بتدريس كتب المهدي محمد بن تومرت ونشر تعاليمه. ويحفظ الطلبة وصايا المهدي عن ظهر قلب.

ومن أهم مناهج الدراسة التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها، وركوب الخيل والسباحة وأساليب الحصار براً وبحراً. وعلى مقربة من مدينة مراكش أنشأ الموحدون بركة «وضعت فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة سفن التدريب» حيث كان الطلاب يتدربون على التجذيف وقيادة السفن وكل ما يتصل بالفنون الحربية.

وكان التعليم في هذه المدارس على نفقة الدولة الموحدية، عدا ما كان يمنح للطلاب من الخيل والأسلحة. وفي المدارس تخرج كثير من القواد وكبار الضباط وحكام القلاع[١].

ولا شك أن هذه المدارس العسكرية والأساطيل البحرية والجيوش الجرارة كانت تعتمد على دعامة اقتصادية متينة، بدليل ما ذكره عبد الواحد المراكشي[٢] أن خراج المغرب في عهد الموحدين بلغ ما يقرب من مائة وخمسين بغلاً من إفريقية وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها.

٥ ـ النظام القضائي

(أ) القضاء في العصر العباسي الثاني:

تطور النظام القضائي في العصر العباسي تطوراً كبيراً؛ فقد ضعفت روح الاجتهاد في الأحكام لظهور المذاهب الأربعة وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. فكان القاضي في العراق يحكم وفق أحكام مذهب أبي حنيفة، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك، وفي مصر وفق المذهب الشافعي. وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب القاضي عنه قاضياً يأخذ بمبادىء مذهب المتخاصمين.

---

(١) أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٤٨٩ ـ ٤٩١.
(٢) المعجب ص ١٥٥.

كذلك تأثر القضاء في هذا العصر بالسياسة، لأن الخلفاء العباسيين عملوا على أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية، وحملوا القضاة على السير وفق رغباتهم في الحكم، حتى لقد امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء، خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ولا يتفق مع ذممهم وضمائرهم. وخير مثل لذلك الإمام أبو حنيفة النعمان الذي اعتذر عن تولي منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور.

وقد اتخذ العباسيون نظام «قاضي القضاة»، وهو بمثابة وزير العدل اليوم. وكان يقيم في حاضرة الدولة، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم الإسلامية. وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) صاحب كتاب (الخراج) في عهد هارون الرشيد، وكان قاضي القضاة في الأندلس يسمى «قاضي الجماعة» ويقوم بتولية القضاة على الأقاليم.

وفي هذا العصر اتسعت سلطة القاضي، فبعد أن كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء، وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصص والحسبة ودار الضرب وبيت المال والإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية[1]، وعلى الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء، والدعاء في صلاة الاستسقاء[2].

وقد أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب المختلفة وينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه.

وقد عرف بعض قضاة هذا العصر بالعدل والنزاهة والزهد وتحري الدقة في الحكم، ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي: أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، فقد أثر عنه أنه لم يأخذ أجراً في أثناء تقلده منصب القضاء، كما عرف بالعدل ولم يحاب أحداً من المتقاضين، فقد ذكر ابن الأثير[3] عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٨ هـ (التي مات فيها هذا القاضي) أن أحد الأتراك شكا إليه رجلاً فقال له القاضي: ألك بينة؟ قال: نعم! فلان

(١) أنشىء هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ. وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه. وجعل من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٢) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً؛ ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة». واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس للصلاة شخصاً معيناً ولقضاء القضاء شخصاً آخر.

(٣) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٩٤.

والمشطب الفقيه الفرغاني، فقال: لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير، فقال التركي: فالسلطان ونظام الملك يلبسان الحرير، فقال؛ لو شهدوا عندي على باقة بقل لا أقبل شهادتهما.

وكان لقاضي القضاة ببغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة، ومن أشهر موظفي هذا الديوان: الكاتب والحاجب وعارض الأحكام وخازن ديوان الحكم وأعوانه. وقد اقتضى تطور نظام القضاء في هذا العصر التحري عن الشهود. وكان القاضي يرتدي السواد شعار العباسيين ويغطي رأسه بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة[١].

(ب) القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين:

وقد ضعف نفوذ القاضي السني بعد الفتح الفاطمي وألزم بأن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعي، بل أشرك معه قاض مغربي للنظر في المظالم الخاصة بالمغاربة. وما لبثت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً في القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين. ثم زاد نفوذه حتى آل إليه النظر في قضايا المصريين أنفسهم، وأصبح يطلق عليه اسم قاضي مصر والإسكندرية، ثم استقل الشيعيون بالقضاء.

وكان منصب القضاء يعهد به في العصر الفاطمي لبعض السنيين أحياناً؛ إذ أن الفاطميين في أواخر عهدهم لم يسيروا دائماً على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة. وكان سجل القاضي الذي كان يقرأ في القصر وعلى منبر جامع عمرو يتضمن فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة، وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة من الفقهاء المتشيعين، حتى لا يصدر الحكم مخالفاً للمذهب الشيعي.

على أن أبا علي بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) الذي كان يدين بمذهب الإمامية الاثني عشرية خرج على هذه القاعدة، فعين في سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة: اثنين من الشيعة، واثنين من السنيين. وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إمامياً والآخر إسماعيلياً. أما القاضيان السنيان فكان أحدهما شافعياً والآخر مالكياً. وقد أعطى هذا الوزير لكل من هؤلاء القضاة الأربعة السلطة المطلقة في إصدار أحكامه وفق مذهبه. ولما قتل هذا الوزير عادت السلطة إلى الإسماعيلية من جديد وظلت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي؛ فعمل في سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية، وأسس مدرستين لتعليم الفقه، إحداهما على مذهب الإمام

(١) الكندي: كتاب القضاة ص ٣٧٨.

الشافعي والأخرى على مذهب الإمام مالك، ثم صرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية إذ كان صلاح الدين شافعي المذهب.

وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئاً فشيئاً إلى المذهب السني الذي كانت له السيادة قبل الفاطميين، وأخذ المذهب الشيعي بنوعيه الإسماعيلي والإمامي في الضعف إلى أن قضي عليه نهائياً[١].

قانون الوراثة في عهد الفاطميين:

ويجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت. وهذا يخالف أحكام مذهب السنة التي تقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة. ولقد تمسك القاضي الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه، وغدا في استطاعته أن ينقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام.

وقد عدلت القاعدة التي تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولي على جميع الثروة التي يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث إذا لم يكن هناك وارث سواها، والسر في أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للأعمام أمران:

الأول أن أبا بكر أخذ فدك (قرية بخيبر) من يد فاطمة، وكان رسول الله قد أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها، فادعت أنها ترث ذلك، فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون، واستدل بحديث سمعه من رسول الله في ذلك.

والثاني أن بني العباس يدعون أيلولة ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم، لأنه عم رسول الله والوارث له يوم وفاته، لأن ابنته لا تحرز كل المال، وعلي أنزل من العباس فقالوا هم إنها تحرز كل الميراث ليمنعوا بني العباس من دعواهم، وإلى ذلك يشير شاعر بني العباس بقوله:

أنى[٢] يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام؟

وكان الداعي لحضور (أبي بكر) الطرطوشي أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر، وتوريث البنت نصف المال، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوي العصبية، كما هو مذهب آل البيت، فاعتذر المأمون (البطائحي) بأن هذه قضية لم يقل بها (أي لم يؤخذ بها من قبل)، وأن أمير الجيوش بدراً هو الذي ابتكرها...

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١.
(٢) أنى بمعنى كيف الاستفهامية.

واستمرت المناقشة إلى أن قال المأمون للفقيه: أنا لا أرى مخالفتك. . . . وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية. وهذا نصه بعد البسملة:

١ ـ يخلص لحرم ذوي الشيع الوارثات جميع موروثهم، وهو المنهاج القويم لقوله تعالى﴿وأولُوا الأرْحامِ بَعْضُهمْ أوْلى ببَعْضٍ في كتابِ الله إنَّ الله بِكُلِّ شَيء عَلِيمٌ﴾[١].

٢ ـ إن كل دارج من الناس (أي كل إنسان) على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته. . . ويحمل من سواهم على مذهب مخلفيهم، ويشترك معم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لمن بعدهم[٢].

٣ ـ إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود إلى ما كانت عليه الحال.

٤ ـ أن يعوض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحشرية[٣].

٥ ـ من لا وارث له، حاضراً أو غائباً، فموجوده لبيت المال، إلا ما يستحقه زوج أو دَيْن عليه.

٦ ـ وإن كان للمتوفى وارث غائب، فليحتفظ الحكام والمستخدمون بتركته. وإذا حضر وأثبت استحقاقه في مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب، فليخرج الأمر بتسليمه إليه.

٧ ـ يعتمد القاضي ذلك بالباب (يعني مجلس القاضي)، ويصدر الإعلام به إلى سائر النواب. وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين[٤]: بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد، ترسل نسخ منه إلى جميع النواب عنه في البلاد، وليخلد (يسجل) في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديوان المجلس والخاص الآمري.
لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ٥١٦ هـ[٥].

ومما هو جدير بالذكر أن تغير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع قد حدث في عهد

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٧٦.

(٢) يعني بذلك أن البنت التي تعيش مع أبيها بمفردها تتمتع بجميع ما له على جميع المذاهب، وليس للدولة أن تتدخل في ذلك طالما يحمل إليها الضريبة التي ينص عليها الشرع.

(٣) يعني الذين ليسوا من ورثة الصلب كالابن وابن الابن.

(٤) جامع عمرو والجامع الأزهر.

(٥) المقفى الكبير للمقريزي، ليدن، مخطوط ١٦٤٧، المجلد الثالث، ورقة ١٩٥ أ ـ ١٩٧ ب.

العباسيين قبل هذا التغيير الذي حدث في عهد الفاطميين، وذلك أنه في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد، ولم يخلف ولداً، فآلت ثروته إلى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به في ذلك الحين[١].

حدث ذلك في خلافة المعتمد العباسي ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ (٨٦٩ ـ ٨٩٢ م) فأمر خلفه المعتضد ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ (٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) بإرجاع القانون إلى ما كان عليه من قبل. وظلت الحال على ذلك إلى عهد المكتفي ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ (٩٠٢ ـ ٩٠٨ م)[٢]. فصدرت الأحكام في الميراث على حسب التعديل الذي أدخل على هذا القانون من قبل[٣]. وقد أنكر الوزير علي بن محمد بن الفرات هذا التعديل، وعده مخالفاً لما جرت به أحكام قانون مذهب السنة، فاستطاع أن يحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة، وصدر مرسوم مذيل بإمضاء الخليفة المقتدر يقضي[٤]:

١ ـ بأن يصرف القائمون بأعمال المواريث في سائر النواحي ويبطل أمرهم، ويرد النظر في أعمال المواريث إلى الحكام على ما كان يجري عليه قبل أيام المعتمد على الله.

٢ ـ وبأن يرد على ذوي الأرحام ما أوجب الله عز وجل، ورسوله ﷺ، وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، ومن اتبعهم من أئمة الهدى.

٣ ـ وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته.

٤ ـ وأن يعمل على إذاعة ما أمر، وإظهاره وقراءته على الناس في المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد)، ليكون مشهوراً متعارفاً، والخبر به إلى الأداني والأقاصي واصلا[٥].

(حـ) القضاء في الأندلس:

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس كما كان في غيرها من البلاد الإسلامية. وكان الأمير أبو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء، وذلك لتعلق هذه الوظيفة بالدين. وكان قاضي القضاة يسمى «قاضي الجماعة» أيضاً لأنه يقيم في حاضرة الدولة.

---

(١) هلال الصابي، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦.

(٢) هلال الصابي ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٨.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٨ ـ ٢٥٣، انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣١٦ ـ ٣١٨.

ويشترط في القاضي أن يكون متبحراً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة، وأن يكون عربيّاً خالصاً. وطالما تقلد القضاء الموالي والمولدون والبربر، وأحسن مثل لذلك يخنى الليثي قاضي قضاة الأندلس، وكان من أصل بربري، ومن قبيلة مصمودة. وكان قاضي الجماعة يختار غالباً من قضاة الأقاليم الأندلسية الذين تقلدوا بعض مناصب الدولة الهامة(١).

وكان قاضي الجماعة يقيم بقرطبة حاضرة الدولة الأموية في الأندلس، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة، وينوب عنه في الأقاليم قضاة يسمى كل منهم مسدد خاص.

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع في الأندلس، ويسير القضاة في الأندلس والمغرب حتى اليوم، على وفق مذهب الإمام مالك بن أنس، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة.

ومن اختصاصات القاضي أيضاً الإشراف على موارد الأحباس، وسجلات الفتاوى الفقهية(٢)، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة، أو بمسجد الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء، والدعاء في صلاة الاستسقاء، وكان قاضي القضاة يسمى «صاحب الصلاة»، حتى أفرد عبد الرحمن الناصر شخصاً معيناً للصلاة ولقضاء القضاء شخصاً آخر.

وكان القضاة في الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة (Romence)، ويناقشون المتقاضين بها في مجالس الحكم. وكان المسلمون يطلقون على هذه اللغة: اللغة الأعجمية أو العجمية أو اللاطينية(٣).

(د) المظالم:

وكانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا في عصرنا، تعرض عليها القضايا إذا لجأ إليها المتقاضي إذا اعتقد أن القاضي لم يحكم بالعدل. وكان الغرض الأساسي من إنشاء محكمة المظالم وقف تعدي ذوي الجاه والحسب. ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم قاضي المظالم.

---

(١) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣.

(٢) أنشىء هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ. وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه، واتخذ من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٣) راجع ما ذكره أبو عبد الله بن محمد بن حارث الخشني القروي في كتاب القضاة بقرطبة الذي نشره ريبيرا Julian Ribera (مدريد ١٩٤٤) ص ٩٦، ١٣٨.

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم، ويسمى رئيس هذا الديوان «صاحب المظالم». وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي.

وكانت محكمة المظالم تنعقد تحت رياسة الخليفة أحياناً أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما، ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طول أيام الأسبوع.

وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم: الحماة والأعوان، والحكام ويحيطون بالأحكام ويردون الحقوق إلى أصحابها، والفقهاء الذين يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل؛ الكتاب يقومون بتدوين أقوال الخصوم والشهود، ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ويشهدون على أن ما أصدره القاضي لا ينافي العدل. ومن اختصاصات قاضي المظالم:

١ ـ النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف، وعمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة.

٢ ـ النظر في تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم.

٣ ـ تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

٤ ـ مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد[١].

ومن هنا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة، كما نقف أيضاً على ما وصل النظام القضائي من الدقة والإتقان.

ويظهر أن نظام النظر في المظالم قد ارتقى في العصر العباسي الثاني، فقد ذكر ابن الأثير[٢] أن بعض سلاطين السلاجقة اشتهروا بالعدل واستمعوا إلى ظلامات الناس وعملوا على رفع الظلم عنهم. فقد قيل إن السلطان محمد بن ملكشاه اشترى مماليك من بعض التجار وأحالهم على عامل خوزستان ليتسلموا منه الثمن؛ فأعطاهم بعضه وماطل في تسليمهم البعض الآخر. وقد حضر هؤلاء التجار مجلس الحكم، وكان ينعقد عادة برياسة السلطان، فلما رآهم أمر حاجبه بأن يسألهم عن سبب حضورهم مجلس الحكم فقالوا: لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم، فقال الحاجب من هو؟ قالوا: السلطان، وشرحوا له قضيتهم. فبعث السلطان في طلب العامل وأمره بتسليم المال المستحق لهم وتشدد في

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٣ ـ ٨١. (٢) الكامل ج ١٠ ص ١٩٨.

عقوبته ليكون ذلك مثلاً لغيره. وكان هذا السلطان بعد ذلك يقول: لقد كان عادلاً منصفاً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم فيقتدي بي غيري ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق لصاحبه. وكان من أثر ذلك أن كف العمال عن الظلم وأخذ أموال الناس بغير حق.

(هـ) الحسبة:

وكانت سلطة القاضي ـ على ما هو معروف عن القضاء اليوم ـ موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم؛ فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحياناً مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب.

وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، مع ما بين العملين من التباين، فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل(١).

وكان المحتسب ينظر في مراعاة أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور؛ كما كان يستوفي الديون، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف. وكان للموازين والمكاييل دار خاصة بها، فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها، فإن وجد فيها خللاً صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها. وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية(٢).

وكان المحتسب يعاقب كل من يعبث بالشريعة أو يرفع الأسعار، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين.

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين، فكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق، فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع، ويشرفون على السقايين لضمان تغطيتهم القرب ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة.

كما كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر. واتسعت

---

(١) الماوردي ص ٦١ ـ ٧٢.

(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

سلطته حتى أصبح من واجب رجال الشرطة أن يقوموا بتلبية أوامره وينفذوا أحكامه. وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينتي مصر والقاهرة على المنبر.

وقد عرض الشيزري[١] للشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة، وأضاف إلى ما ذكرناه أن المحتسب كان يشرف على السلع المعروضة في الأسواق، فيشرف على بائعي الفراء وصانعي الحلوى، وعلى شوائي اللحوم، وعلى الرواسين أي بائعي الروس والأكارع، وعلى قلائي السمك والهرائسيين أي صانعي الهريسة، وهي طعام من خليط القمح واللحم. كما كان يشرف على الشرابيين أي صناع الأشربة، وهي الأدوية السائلة، وعلى البزازين أي بائعي الثياب، وعلى الحاكة وهم الذين ينسجون الغزل قماشاً، وعلى الخياطين لمراعاة جودة التفصيل، وعلى الصباغين والدلالين والمنادين، وعلى الصاغة، والصيارف، وعلى الحمامات وقومتها[٢].

وقد تكلم الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية والمقريزي في كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، على ولاية الحسبة في المشرق، وهي لا تختلف عنها في المغرب والأندلس، إلا أن ولاية الحسبة فيهما كانت أكثر تحديداً منها في المشرق.

كما كانت الحسبة تقوم على ما تقضي به الضرورة في المعاملات هناك بحيث يمكن أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والأندلس قد استمر طوال العصور الوسطى. وأحسن دليل على أهمية الحسبة أن ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليماً، أقروا المحتسب في عمله، وأصبحوا يطلقون عليه Almotacen، وهو الوالي الذي يعهد إليه بالإشراف على الموازين والمكاييل. أما في المغرب فليس أدل على أهمية الحسبة من استمرارها في المدن الغربية حتى اليوم[٣].

---

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره الدكتور السيد الباز العريني (القاهرة ١٩٤٦).

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥.

(٣) راجع ما ذكره ليفي بروفنسال في:

Histoire de l'Espagne Musulmane, Tome III (L'Espagne du califat de Cordon, pp. 148 - 150.)

L'Espagne Musulmane au Xe Siècle, pp. 181 - 185.

الباب التاسع
الحالة الاقتصادية

١ ـ الزراعة

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٣٠) أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية، بفضل انتشار المدارس الزراعية، وأنهم توسعوا في البحث النظري، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات، كما عملوا على تنظيم الري في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي فارس وبلاد ما وراء النهر. وعنوا بشق الترع وصيانة السدود[١]، وجعلوا لماء للري ديواناً أطلقوا عليه «ديوان الماء»[٢]. كما عنوا بحراثة الأرض وتسميدها واستخدموا لذلك الأبقار، واهتموا بتربية الحيوانات، وخاصة البقر وبتربية الجاموس الذي جلبوه من الهند وتفريخ الدجاج وتربيته وحفظ الحمام في أبراج لوقايته من الأفاعي[٣].

وكانت الحنطة تزرع بكثرة في كافة أرجاء الدولة الإسلامية حيث يتوافر الماء كالعراق وخوزستان ومصر والمغرب والأندلس. وكانت زراعة الذرة تكثر في جنوبي البلاد الإسلامية كجنوبي بلاد العرب وكرمان والنوبة.

ومن الحاصلات الزراعية النارنج والأترج الذي نقل من الهند منذ القرن الرابع الهجري، فزرع في عمان والبصرة والعراق والشام وطرسوس[٤]، وكثرت زراعة قصب السكر في كثير من البلاد الإسلامية، وخاصة في بعض بلاد الأفغان وفي بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والمغرب والأندلس.

واشتهرت مصر بزراعة الليمون، ومنه نوع يقال له التفاحي يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه[٥]. وقد ذكر الحسن الوزان[٦] أن سوق الزيانين بمدينة فاس كان يزخر

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .
(٢) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٤٥ .
(٣) متز: الحضارة الإسلامية ترجمة ج ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٩٤ .
(٤) مسكوبة ج ٢ ص ١٩٣ .
(٥) المقريزي : خطط ج ١ ص ١٧٣ .
(٦) Leon l'African, tome I— p— 195.

بالزبد المملح والعسل والجبن الطازج والزيتون والليمون والجزر والكرنب، وأن حوانيت هذا السوق كانت تزدان بزهرياته الزاهية التي كانت أثمانها تبلغ أضعاف أثمان السلع التي تباع فيها، وفي هذه السوق تباع خوابي (مفردها خابية وهي الجرة الكبيرة) الزبد والعسل والزيت بالمزاد العلني، وينادي عليها أشخاص مكلفون بوزن الزيت عند بيعه بالجملة، ويسع كل من هذه الخوابي نحو ستين كيلوا جراماً. أما سوق الزهور فإن الإنسان إذا شاهد هذه الزهور وتنوعها يعتقد أنه يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا، إذ يشاهد لوحة تضم أحسن وأزهى الألوان المتنوعة. ومن محاصيل المغرب القمح والذرة والشعير والجزر واللفت والفول الطازج.

وقد اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة قصب السكر وصناعته. وكثرت زراعة القصب في عهد السعديين كثرة عظيمة حتى إن السلطان أحمد المنصور الذهبي جلب الأعمدة الرخامية التي استعملها في بناء قصره البديع بمدينة مراكش من البلدان الأخرى مقابل كميات كبيرة من السكر التي اشتهرت المغرب بصناعته. وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة الزيتون واستخراج الزيت منه، كما اشتهرت باستخراج العقاقير (الأدوية) من النباتات المختلفة، كما اشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والكتان والقطن والتوت لتربية دود القز، وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنهر تاجة والوادي الكبير والوادي اليانع وإبرو (بسكون الباء)، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول، ووضعوا تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي، الذي أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات في مواعيدها وأخذه عنهم غيرهم من الأمم.

وقد أسس محمد بن علي بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيح دخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة. وقام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بغرس نباتات الشام وآسيا الصغرى وفارس ومصر، ثم ضمه الملك الكامل الأيوبي إلى حاشيته، وأصبح رئيس النباتيين، وألف كتابه المشهور في النباتات ومات سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م).

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة، كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت. على أن زراعة أشجار التوابل لم يقدر لها النجاح[١]. وقد وجد المسلمون في صقلية أرضاً مثمرة تمدهم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل، ويكثر بها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها.

(١) Heyd, tome I,p. 50.

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي ـ ولا تزال ـ تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية، وقد أورد ابن مماتي(١) أسماء المحاصيل الشتوية وهي : القمح والشعير والفول والحمص والجلبان والعدس والكتان والقرط (بضم القاف وسكون الراء هو البرسيم) والبصل والثوم والترمس والكمون والكراويا والسلجم (نوع من اللفت) والبطيخ الأصفر والأخضر واللوبيا والسمسم والقطن وقصب السكر والقلقاس والباذنجان والسمسم النيلي والنيلة والفجل واللفت والخس والكرمب.

كما اهتم الفاطميون بزراعة الفاكهة على اختلاف أنواعها، حتى كانت بساتين مصر تزخر بأشجار الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والموز والنخيل. كما عني الفاطميون بزراعة الورود والياسمين والمرسين (بفتح الميم وسكون الراء) والريحان والخيار شمبر (بضم الشين والباء وسكون الميم(٢)) .

ولما كان الإنتاج الزراعي يتوقف على وفرة ماء الري والعناية بخصب الأرض وجودتها، كان طبيعياً أن يعنى الفاطميون عناية كبيرة بنظم الري، من صيانة الترع والمحافظة على الجسور. وهذه الجسور على نوعين : «جسور سلطانية» تقيمها الدولة، و«جسور بلدية» يقيمها الفلاحون(٣).

أما الجسور السلطانية فقد كانت الدولة تقوم بإنشائها لتنظيم الانتفاع بماء النيل، وتفرض الدولة الفاطمية الضرائب على الأراضي الزراعية لصيانة الجسور والمحافظة عليها.

أما الجسور البلدية فتقام في القرية أو في الناحية أو في الكورة. ويتولى إقامتها أصحاب الإقطاع والفلاحون من أهل القرى المنتفعين بهذه الجسور. وتوزع نفقات إقامة هذه الجسور على الأفراد توزيعاً عادلا، ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر(٤).

وكانت الأراضي المصرية تشقها شبكة من الخلجان والأبحر(٥) والترع. وقد بلغ عدد خلجان مصر في ذلك العصر ثمانية، وعدد الأبحر خمسة وعشرين، أما عدد الترع فقد بلغ في الوجهين البحري والقبلي مائة وسبع عشرة(٦).

وقد استتبع اهتمام الفاطمين بالترع والجسور اهتمامهم بمقاييس النيل، فهي ضرورية لمعرفة الرخاء أو الكساد؛ إذ أنه كلما ارتفع مستوى النيل استبشر المصريون بوفرة المحصول

---

(١) كتاب قوانين الدواوين ص٢٥٨ ـ ٢٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .
(٣) المقريزي : خطط ج ١ ص ١٠١ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) جمع بحر وهي الترعة الكبيرة أو الرياح في المصطلح الحديث.
(٦) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٠٥ ـ ٢١٦ .

وضمنت الدولة زيادة الخراج بنوعيه. فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشرة ذراعاً كان في ذلك تمام الخرج وخصب البلاد، أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحلول الفيضان، وإذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحُلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية، كما حدث في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي[1].

ولما فتح العرب مصر بنى عمرو بن العاص مقياساً للنيل بأسوان وآخر بدندرة، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت مصر في طاعة الأمويين، فبنى عامل مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان مقياساً بأنصنا، وبنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان. أما مقياس الروضة فيرجع إلى سنة ٩٧ هـ، وذلك في عهد ولاية أسامة بن زيد. وقد جدد الخليفة المتوكل العباسي هذا المقياس في سنة ٢٤٧ هـ.

وقد أصلح أحمد بن طولون مقياس الروضة وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن الأضلاع، في موضع يصل إليه الماء عند انسيابه. وينقسم إلى اثنين وعشرين ذراعاً، والذراع مقسم إلى ٢٤ إصبعاً. أما الإثنا عشر ذراعاًالأولى، فإن كل ذراع منها ينقسم إلى ٢٨ إصبعاً. وتبدأ زيادة النيل في آخر بؤونة وأبيب ومسرى، وتستمر في شهر توت كله. وبالمقياس ذراعان يسميان منكرا ونكيرا، وهما الذراعان الثالث عشر والرابع عشر، فإذا زاد الماء عنهما نصف ذراع استسقى الناس، وإذا جاوز خمسة عشر ذراعاً ودخل في السادس كان فيه صلاح لبعض الناس، وإذا بلغ تسعة أذرع، انساب في خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وخليج المنهى. وقد جرت العادة أن تذاع نتائج المقياس على الناس، فيخرج المنادي إلى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر، ولكن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أمر بكتمان أمر المقياس، لأن الناس إذا أحسوا بانخفاض النيل، تسرب القلق إلى نفوسهم، فأخفوا الغلال، وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر، ويعمل الأغنياء على اختزان الغلال، فيحدث الغلاء. وإذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح الأضرار. لذلك كان في كتمان الزيادة عن العامة فائدة تامة.

وإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعاً ثم ستة عشر ذراعاً وإصبعاً واحداً، احتفل الخليفة بفتح خليج أمير المؤمنين. فإذا فتح الخليج فتحت الترع الأخرى، وفاض الماء، «وغمرت القيعان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً»[2].

---

(١) المقريزي: خطط ج ١ ص ٥٩.

انظر كتابي «تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الثالثة» (القاهرة ١٩٦٤) ص ٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ٥٨.

٢ ـ الصناعة

(أ) النسيج :

كان للصناعة في العصر العباسي الثاني حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة المعدنية على اختلافها، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز، والملح والكبريت من شمالي فارس، والنفط من بلاد الكرج.

وقد اشتهر بعض المدن الإسلامية بصناعة النسيج. ومن هذه المدن كازرون التي سميت دمياط الأعاجم. واشتهرت كابل بنسيج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين. واشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته، كما انتشرت هذه الصناعة في المغرب والأندلس؛ ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور. كذلك تفوق المسلمون في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد: فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها، واشتهرت خوزستان بمنسوجاتها الحريرية وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى «الدمسق»، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها. كما اشتهرت مرو بإقليم طبرستان بصناعة الإبريسم. وتفوق أهل أرمينية بصناعة التكك الإبريسيمية التي كان يتراوح ثمن الواحدة منها بين دينار وعشرة دنانير. واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية.

وقد ازدهرت صناعة النسيج بمصر في العصر الفاطمي، واشتهرت بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته بكورة الفيوم. ومن أهم مراكز هذه الصناعة إقليم الفيوم، ونواحي بحيرة تنيس (بكسر التاء والنون مع التشديد)، وخاصة في دمياط وشطا (بفتح الشين) ودبيق (بفتح الدال وكسر الباء) التي تنسب إليها الثياب الدبيقية، وتنيس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين عشرين ألف وثلاثين الف دينار سنوياً[١].

وقد بلغ نظام الطراز في مصر درجة كبيرة من الرقي في العصر الفاطمي حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية. والطراز فارسي الأصل معناه التطريز، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى. ولا يرتدي هذا النوع من الثياب إلا الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية. وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى

(١) المقريزي: خطط ج ١ ص ٢٢٦.

بالخيط، كما تطلق على النقوش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أي نوع، سواء أكان من الحجارة أم من الفسيفساء أم الزجاج أم الفخار أم كان محفوراً بالخشب[١]. ويتبين مقدار مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات من وصف الكسوة التي أمر الخليفة الفاطمي المعز بعملها للكعبة[٢].

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر. نذكر منها: الثياب العتابية[٣] المصنوعة من الحرير، والخسرواني (أو الخسرواني بضم الخاء وفتح الراء)، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسروشاه أحد ملوك الفرس[٤]، والقلموني (بفتح القاف واللام)، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس، وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع في دمياط وتنيس خاصة[٥]، والتستري (بضم التاء مع التشديد وسكون السين وفتح التاء الثانية)، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر أشهر مدن خوزستان. والقرقبي (بضم القافين وسكون الراء[٦])، وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان، ثم أدخلت صناعته إلى مصر، وأصبح يصنع في دمياط وتنيس. وقد اشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تتغير دائماً ولا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس. والنصفية (بكسر النون مع التشديد وسكون الصاد) وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن.

وكان مضرب الخليفة الظاهر الفاطمي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ) منسوجاً من خيوط الذهب ومقاماً على أعمدة من الفضة؛ وقد بلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار. وكان مضرب الوزير اليازوري مجموعة رسوم فنية بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار، واشتغل في صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات، وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدماً واتساع محيطه ألف قدم تقريباً، وقد نقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم[٧].

الزخرفة في العصر الفاطمي:

ولا بأس من أن نعرض هنا لذكر فن المنسوجات الزخرفية في العصر

---

(١) انظر الجوذري: سيرة جوذر توقيع رقم ٢١ ص ١٠٠.

(٢) انظر هذا الوصف في ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٤ وفي حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٣.

(٣) ينسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب.

(٤) Lane : Arabic - English Lexicon

(٥) ياقوت: انظر هذا اللفظ في معجم البلدان. Dozy Supplément

(٦) القرقب طائر يرى في الغدر والمستنقعات. انظر معجم البلدان لياقوت.

(٧) المقريزي: خطط ج ١ ص ٤١٩.

الفاطمي، فقد كانت المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة أربعة أنواع تمثل العصور الأربعة الرئيسية في تاريخ الفاطميين وهي :

النوع الأول وينسب إلى عصر الخلفاء المعز والعزيز والحاكم، وقوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى، بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها في بعض، وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود.

والنوع الثاني وينسب إلى عصر الظاهر والمستنصر، وقد تنوعت فيه الأشرطة الزخرفية، وقوامها جامات عليها رسوم طيور وحيوانات محرفة عن الطبيعة، وتحيط بها سطور من الكتابة الكوفية التي أصبحت عنصراً زخرفياً.

والنوع الثالث وينسب إلى عصر المستعلي والآمر، وقد تطورت فيه الزخرفة وظهرت عناصر جديدة مثل الأشرطة والجدائل التي تتعوج وتتداخل ويتخللها جامات تضم رسوم طيور وحيوانات وكؤوساً بها فاكهة، وتتخللها سطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره.

والنوع الرابع ويرجع إلى أواخر العصر الفاطمي، وتتألف زخارفه من جدائل تتقاطع وتتشابك وتؤلف جامات عليها رسوم حيوانات أو رسوم نباتية مكتوبة بخط النسخ(١).

(ب) بناء السفن :

ولما فتح الفاطميون مصر شعروا بحاجتهم إلى أسطول قوي يصد البيزنطيين خاصة والصليبيين عامة عن بلاد الشام. فقد أنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة مركب وصفها المسبحي المؤرخ المصري فقال: « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً». واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية، وبنيت في مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشواني(٢).

كما أنشأ الفاطميون دوراً لصناعة السفن في الاسكندرية ودمياط(٣). وعنوا بجلب الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من مناطق الغابات في كثير من جهات الصعيد. ولم يكن إنتاج البلاد من الخشب ملائماً لصناعة السفن الكبيرة، لأنه لم يكن يمتاز بالصلابة المطلوبة، لهذا كان الفاطميون يستوردون الخشب من أوروبا عن طريق البنادقة(٤).

---

(١) Migeon, Art musulman, tome11, pp. 300 - 309.

(٢) عن المقريزي : خطط ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٥٣ .

(جـ) صناعة المعادن:

وقد برع الصناع المصريون في صنع المعادن والعاج والفسيفساء، فعرفت مدينة الفسطاط[١] بصناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وشمالي إفريقية، كما عرفت مدينة تنيس بصناعة المقصات والسكاكين[٢]، وراجت صناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع في صنع الحلي والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ورش الملابس الفاخرة. وليس من شك في أن هذه التحف التي أنتجها الفاطميون والتي تدل عليها آثارهم تلقي ضوءاً على تقدم هذه الصناعة ورقيها[٣]. هذا إلى ما عرف به صناع مصر من مهارة ودقة في صناعة النحاس والبرونز. وكان سوق المكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة، وقد راجت صناعة النحاس المكفت رواجاً عظيماً، حتى لا تكاد تخلو دار في القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت (مطلي)[٤].

(د) قصب السكر والزيت:

وكان قصب السكر من أهم الحاصلات الزراعية ولا سيما في عصر الفاطميين في مصر، لأنه عماد صناعة السكر والعسل التي راجت رواجاً عظيماً. وانتشرت مطابخ السكر في جميع أرجاء البلاد: في الفسطاط والمنيا والفيوم وديروط وأسيوط وقفط وسمهود، حتى لقد ذكر ابن دقماق[٥] أن مطابخ السكر في الفسطاط وحدها بلغت ثمانية وخمسين مطبخاً. كما انتشرت مصانع العسل في أرجاء البلاد[٦]، وكان الفاطميون يهتمون بهذه الصناعة اهتماماً عظيماً، فأنشأوا المعاصر السلطانية وحملوا الفلاحين على نقل قصبهم إليها. ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى أن هذه الدولة كانت تجبي مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً[٧].

وكذلك راجت في مصر صناعة الزيت الذي كانت له أهمية كبيرة في حياة أهل هذه البلاد لأن منه طعامهم ووقودهم. لذلك عني المصريون عناية كبيرة بصناعة النباتات الزيتية، فزرعوا الزيتون في منطقة الفيوم والإسكندرية[٨]. كما كان السمسم يزرع في جميع أرجاء البلاد[٩]. وكانوا يستخرجون زيت الزيتون من الزيتون وزيت الشيرج من السمسم[١٠]. كما

(١) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٦٧.
(٢) Safar Naméh, p. 114,
(٣) خطط ج ١ ص ٤١٨ ـ ٤١٩.
(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢.
(٥) الانتصار ص ٤١ ـ ٤٢.
(٦) المقريزي: خطط ج ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٣.
(٧) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٣٦٧.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٩٧.
(٩) انظر ما ذكرناه عن الزراعة في هذا الباب.
(١٠) Nasir Khusrau, Safar Naméh

استخدموا الفجل والخس في هذه الصناعة، حتى إن هذه النباتات احتلت مكانة مرموقة في الصناعة المصرية. وكانت أهم معاصر الزيت في مدن صندفا بكورة البهنسا مركز بني مزار بمحافظة المنيا، وفي الفيوم والفسطاط(١). وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس باستخراج الزيت من الزيتون الذي تكثر زراعته في هذه البلاد(٢).

(هـ) صناعة الصابون والشمع :

وقد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون التي تقوم على الزيت. وانتشرت مطابخ الصابون بمدينة الفسطاط(٣)، وقد ذكر الحسن الوزان(٤) أن الصابون كان يصنع في الجبال المجاورة لمدينة فاس، وأن أهل الجبال وأصحاب البغال (المكارون) كانوا يحملونه ويبيعونه لأصحاب الحوانيت في مدينة فاس وغيرها، كما كانوا يبيعونه سائلاً، إذ لم تكن هناك إلا دكاكين قليلة مجتمعة، لأنه لا يخلو حي من أحياء المدن من حوانيت يباع فيها الصابون.

وقد انتشرت صناعة الشمع بالإسكندرية. وكان بمدينة القاهرة في عهد المماليك كثير من الأسواق نخص بالذكر منها سوق الشماعين، وكان يمتد من الجامع الأقمر الذي بناه الخليفة الآمر الفاطمي إلى سوق الدجاجين، وتباع فيه الشموع على اختلافها من موكبية وفانوسية وطوافات، وبلغت زنة بعض الشموع قنطاراً. حتى إنها كانت تحمل على العجل لثقل وزنها(٥) وكان بمدينة فاس سوق أطلق عليه اسم «سوق الشماعين». ويذكر الحسن الوزان أن صناعة الشمع في المغرب بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال لم ير مثلها في حياته(٦).

(و) صناعة الزجاج والبلور والخزف :

وقد اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف، واتخذت طرازاً خاصاً في زخرفة الزجاج. وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الإتقان. وكان الزجاج الملون المطلي بالميناء يصدر إلى كثير من جهات العالم(٧). وقد قيل

---

(١) المقريزي : خطط ج ١ ص ٤٦٢.

(٢) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ - ٩٦.

(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٨.

(٤) Description de l'Afrique, tome I, p. 191.

(٥) حسن إبراهيم حسن : المجمل في التاريخ المصري ص ٢٠٦.

(٦) كتاب وصف إفريقية (بالفرنسية) ج ١ ص ١٨٧.

(٧) أمير علي مختصر تاريخ العرب : ترجمة ٣٦٤ - ٣٦٥.

إنه كان ببغداد أربعة آلاف معمل لصنع الزجاج وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف[١]. كما اشتهرت بغداد بالصباغة المقتبسة من الفرس والتي بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأنظار، وكانوا يتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً يحكمون صناعتها بالرسم لتمثل الحقائق وصوراً عليها طيور تطير، ومن فوقها العقبان تنقض عليها وهي تحاول الإفلات من مخالبها[٢].

وقد ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخري في العصر الفاطمي، وبلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقي، يشهد بذلك هذه التحف التي تزخر بها متاحف القاهرة وأوروبا. ويعزى ذلك إلى كثرة بناء المساجد والقصور والمدارس وتزويدها بالقناديل وألواح الزجاج والشمسيات وغيرها[٣]. كما أن حياة الترف عند الفاطميين واتخاذهم القصور والمناظر، وتفننهم في زخرفتها وتزيينها ووفرة ثرائهم كان من أهم الأسباب التي أدت إلى رواج هذه الصناعة الدقيقة.

وقد اشتهرت الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عبادة (بكورة البهنسا، المنيا الآن)، والإسكندرية بصناعة الزجاج[٤] الذي كان يصدر إلى البلاد الشرقية والغربية[٥].

وزخرت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبلور التي بلغت حد الإعجاز في جمال الصناعة وإشراق الزخرفة[٦].

وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني والزجاج والبلور، فصنعت منه الأزيار الكبيرة والأواني المستعملة في حفظ العطور والبخور[٧]. ويدل على تفوق هذه الصناعة ما ذكره الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي رأى التجار يصنعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق. كما رأى في أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التي بلغ من جودتها أنه

---

(١) أمين زكي : كتاب عمران بغداد ص ٥٠.

(٢) نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٥. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٣) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ١٨١.

(٤) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٤٢.

(٥) Safar Naméh. p. 154.

(٦) المقريزي: خطط ج ١ ص ٤٣٤.

(٧) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ١٤٩.

رأى يده بوضوح بظهر الإناء، كما شاهد الرحالة المقدسي[١] توقيع صناع مصريين على بعض الفسيفساء في الكعبة وأن جدران الأروقة من الظاهر ألبست بالفسيفساء التي حملها إليها صناع مصر والشام.

وقد كشف عباس بن فرناس (بكسر الفاء وسكون الراء) الفلكي المسلم بالأندلس في معمله طريقة لصنع البلور، وهو الذي قذف بنفسه في تجربة رائعة مدهشة على متن طائرة شراعية سبح بها عالياً في الفضاء، ثم وقع ونهض سالماً، وكان بذلك مبشراً بفكرة الطيران منذ العصور الوسطى. وقد اقتدى أهل الأندلس بزرياب المغني والموسيقي المشهور في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) في تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة[٢].

وقد اشتهرت سابور والكوفة وجور (جنوبي فارس) بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والنرجس والسوسن والزئبق والنارنج. واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس[٣].

(حـ) صناعة الجلود:

كذلك اشتهر المسلمون بصناعة الجلود. وكان يصنع بمصر ولا سيما بمدينة الفسطاط الأنطاع التي كانت تصدر إلى بلاد الشام. كما كان يصنع بالفسطاط الكمرانات[٤] وحقائب الجلد والسيور والقسي (بكسر القاف) التي فاقت قسي دمشق في دقة الصناعة[٥]. وبرع المصريون في صناعة السروج المحلاة بالذهب والفضة حتى كانت قيمة السرج الواحد تتراوح بين الألف دينار وسبعة آلاف دينار. وقد تبعت صناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة، وقلائد وأطواق لأعناق الخيل. وقد بلغ من اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أن اتخذوا خزانة خاصة بالسروج أطلقوا عليها خزانة السروج[٦].

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٢.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢. بروفنسال: المشرق الإسلامي والحضارة العربية ـ الأندلسية ص ٣٠ ـ ٣٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٤) جمع كمران وهو حزام مجوف من الجلد توضع فيه النقود الذهبية والنفائس ويربط حول وسط الإنسان.

(٥) المقريزي خطط ج ١ ص ٣٦٧.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ ـ ٥٩١.

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة آلات الحرب من التراس والرماح والتروس واللجم والدروع[١].

وكذلك اشتهرت بلاد المغرب بصناعة المناطق الجلدية والأحزمة. وكان بمدينة فاس سوق خاصة للمحافظ والحقائب التي تصنع من الجلد والتي بلغت حد الاتقان والروعة[٢]. وسوق آخر تصنع فيه الدلاء الجلدية. ثم يلي سوق الإسكافيين الذين يصنعون الأحذية، على اختلاف أنواعها، وكان به مائة وخمسون متجراً وحوانيت أخرى تباع فيها الأحذية، وهناك نوع آخر من الأحذية أرقى لا يلبسها الصناع ولا الجنود ولا خدم القصور.

كما اشتهر أهل المغرب بصنع الدرق (بفتح الدال مع التشديد وفتح الراء) والتروس من الجلد على الطريقة الإفريقية، كما اشتهروا أيضاً بصناعة ركاب وسروج الخيل، وكانوا يصنعون لكل سرج ثلاث طبقات من الجلد كل طبقة تعلو الأخرى، والطبقةالوسطى أرقها. وتصنع هذه الطبقات بطريقة بديعة. واشتهر أهل المغرب الأقصى بصناعة الزرابي الجلدية الصغيرة والوسائد[٣]. واشتهرت لمطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم) بالمغرب الأقصى بصناعة الورق[٤].

٣ ـ التجارة

اهتم المسلمون بتسهيل سبل التجارة، فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل، وأنشئوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من غارات القراصنة وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمخر عباب البحار. وغدت بغداد حاضرة الدولة العباسية سوقاً نافقة للتجارة. وأصبحت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو

---

(١) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ٩٥.

(٢) الحسن الوزان ج ١ ص ١٩٣.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٨.

(٤) جمع درقة (بفتح الدال والراء والقاف). وهي معربة عن لفظ فارسي هو «دريجة». وهي درع بيضاوي الشكل غالباً، يتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين. وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة، وأحياناً من جلد التمساح.

انظر Lanés Arabic - English Lexion

راجع ما ذكره ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك حيث ذكر أن معدن الدرج اللمطية لا يوجد له مثيل في الدنيا.

من أقاليم نهر الفرات إلى بلاد الغرب ومصر، وأصبح نهر الفرات ودجلة وجداولهما شرايين تجارية هامة في بلاد الدولة العباسية[١].

وكان لعناية الخلفاء العباسيين بتيسير الطرق البرية والبحرية أثر بعيد في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل السلع وفي تمهيد السبيل أمام الكاشفين والرحالة الذين وصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة.

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وضع أبو القاسم بن خرداذبة الفارسي في كتابه المسالك والممالك[٢] دليلاً للمسافرين وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة (بضم الألف الثانية والباء) ويصل إلى بلاد الهند والصين. ويذكر ابن خرداذبة أن سفن المسلمين كانت تسير بمحاذاة ساحل الخليج العربي وساحل الهند حتى ملبار. وقد نشطت الحركة التجارية ونمت في الملتان (بضم الميم وسكون اللام). والديبل (بفتح الدال مع التشديد وسكون الياء وضم الباء) في السند (إحدى ولايات الباكستان الآن) حيث تذهب إلى الهند والصين وتعود حاملة منتجات هذه البلاد[٣]. وكانت قوافل البنجاب (شمالي الباكستان الآن) تنقل السلع عبر هضاب أفغانستان، وكان التاجر المسلم يستطيع الذهاب إلى الصين ويمر بهضبة التبت (بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وقبائل الترك لشراء الحرير[٤]. واستطاع المسلمون أن يستقروا في جنوبي مدينة شنغهاي. وكان للمسلمين في هذه المدينة قاض مسلم يسير في أحكامه بين المسلمين وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم في الصلاة. كما كان المسلمون يتبادلون التجارة مع الهند الصينية (تايلاند الحالية) والصين وشبه جزيرة الملايو[٥]. كما فتحت أمام تجار المسلمين جزائر الهند الشرقية المعروفة الآن باسم اندونيسيا، ولا سيما مع جزيرة جاوة وهي أكبر جزائرها.

وقد بدأ المحيط الهندي يزدحم بالتجار الآسيويين، وبخاصة تجار العرب الذين اعتادوا الرحلة إلى جنوبي بلاد الهند وجزيرة سيلان، بل إنهم وصلوا إلى الصين نفسها.

---

(١) Heyd, vol I, p. 26.

(٢) طبعة دي غويه (ليدن ١٣٠٦ هـ).

(٣) Heyd. tome I. p. 36. سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٦٢.

(٤) Heyd, p. 36.

(٥) وهي إحدى ولايات ماليزيا التي تضم سنغافورة والملايو وشمالي برنيو وسرواك (بفتح السين والراء).

لكن ظهور الإسلام في جزيرة العرب قد هيأ لهم الفرصة ليظهروا على مسرح التاريخ. وقد ظلوا من القرن السابع إلى القرن السادس عشر الميلادي سادة المحيط الهندي بلا منازع.

وكانت العلاقات التجارية بين أوروبا وآسيا تعتمد على السلع التي يحملها هؤلاء العرب إلى سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر. وقد أنشأ الغرب محاط تجارية قبل المحاط التي أنشأتها أوروبا؛ فقد أنشئوا محاط في فاليقوط وساحل ملبار وملقا، وأقاموا علاقات تجارية مع جزر الهند الشرقية والفيليبين وسيام، ثم استقر العرب في هذه البلاد. ويقال إنه أُنشئت مستعمرة عربية كبيرة في مدينة كانتون. ولم تكن هذه التجارة مقصورة على العرب والفرس، فإن أهل هذه البلاد الشرقية كانوا يردون الزيارات. وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرقي القارة الإفريقية وإلى ساحل بلاد العرب، كما وصلت سفن الملايو وجاوة إلى مدغشقر. وكذلك وصلت سفن الصين، بدليل أن كثيراً من العملة الصينية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) والتي لا يبعد أن يكون العرب أو الهنود قد جلبوها معهم قد عثر عليها في ساحل إفريقيا. ولا يبعد أن يكون الصينيون أنفسهم قد تعاملوا مع أهالي هذه البلاد، لأن الكتب الصينية القديمة تتضمن إشارات إلى شرقي هذه القارة. كما تتحدث بعض الكتب الصينية التي ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن زنجبار وعن أهلها من العرب الذين يرتدون عباءات زرقاء مصنوعة من القطن وينتعلون بنعال حمراء.

ومن ذلك يتضح أنه كان لشرقي إفريقيا نصيب من هذه العلاقات التجارية في المحيط الهندي في العصور الوسطى. فقد وجدت سلع الهند طريقها إلى أوروبا عبر آسيا. وأهم هذه السلع: العاج الذي يكثر في هذه البلاد حيث تكثر الفيلة التي تستخدم في الحروب أو في أغراض أخرى. كذلك وجد الذهب في مناجم روديسيا، وكان الخشب يحمل من زنجبار إلى بلاد العرب. ولا ننسى تجارة الرقيق التي كانت تعد السلعة الأولى في هذه التجارة.

غير أن هذه العلاقات التجارية التي قامت بين بلاد العرب وشرقي إفريقيا لم تتوطد إلا بنزوح العرب إلى هذه البلاد واستقرارهم فيها. وقد شاءت الصدف أن يكون هؤلاء المهاجرون من جنوبي الجزيرة العربية، وأن يؤسس هؤلاء العرب إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقي لهذه القارة[1].

---

(١) Coolpand, East Africa and its Invaders, pp. 15 - 21.

انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية (الطبعة الثانية، القاهرة سنة ١٩٦٥) ص ٢٧ ـ ٢٨.

وقد حاول دعاة المسلمين أن يشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة وأن ينتشروا على حدودها الشرقية، بالإضافة إلى من كان يفد إلى هذه البلاد من تجار المسلمين. وكان هؤلاء الدعاة والتجار يفدون إلى شرقي القارة الإفريقية عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين ومصوع وزيلع وبربرة وزنزبار ومدغشقر. وقد أخذ الإسلام يشق طريقه معهم إلى بلاد الحبشة والصومال، ليس عن طريق الفتح والغزو فحسب، بل عن طريق التجارة كذلك، حيث أخذ التجار المسلمون يفدون على هذه البلاد ويدخلون الكثيرين من أهلها في الإسلام. ومن الساحل الشرقي نفذ الإسلام إلى نياسالاند، بل لقد نفذ إلى كينيا وأوغندة وتنجانيقا، وإلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية[١].

ويمكن أن نلخص المسالك التي سلكها الإسلام وانتشرت منها التجارة إلى القارة الإفريقية فيما يلي:

١ ـ طريق شمالي إفريقيا: مصر، برقة، طرابلس، إفريقية (بلاد تونس)، المغرب الأوسط (الجزائر وجزء من مراكش)، بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال. ويتبع هذا الطريق طريق بحري بعد نمو البحرية الإسلامية: من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش).

٢ ـ طريق صحراوي: من واحات مصر العربية ماراً بجنوبي بلاد المغرب حتى غربي القارة الإفريقية.

٣ ـ طريق القوافل: من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالي السودان، ولا سيما من جنوبي تونس إلى بلاد برنو غربي بحيرة شاد، ومن جنوبي الجزائر إلى بلاد «الحوصا» شمال «نيجيريا». ومن جنوبي مراكش إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر.

٤ ـ والطريق الرابع يسير عبر الصحراء الشرقية ووادي النيل إلى بلاد النوبة وشمالي السودان.

٥ ـ والطريق الخامس من جنوبي بلاد العرب إلى ساحل أفريقيا الشرقية[٢].

وكان لاختراع البوصلة التي تهتدي بها السفن التي تمخر عباب المحيطات والبحار أثر كبير في اتساع نطاق تبادل السلع وتمهيد السبيل أمام الرحالة والمكتشفين. وإلى الصين يرجع الفضل في اختراع هذه الآلة التي لم تعرفها أوروبا قبل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)،

(١) سيرة توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٨١ ـ ٣٨٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٣٦.

أي قبل عصر كريستوفر كولمبس مكتشف القارة الأمريكية سنة ١٤٩٢ م. وقد ذهب ابن عذارى[١] المراكشي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى أن اختراع البوصلة كان في القرن الحادي عشر الميلادي، وقيل في القرن الثاني عشر.

وإلى الشرق يرجع الفضل أيضاً في اختراع وسائل المواصلات التي كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية: كالعربة ذات العجلات، وحمام الزاجل، والجمل. وكان استخدام الجمل في شمالي القارة الإفريقية من الأحداث الهامة التي أدت إلى ربط أجزاء الدولة الإسلامية ونمو العلاقات الاقتصادية والثقافية بين أفريقيا وآسيا من ناحية، وبين الشرق والغرب من ناحية أخرى، وبين المغرب الأقصى والممالك والإمارات الإسلامية بحوض السنغال والنيجر، كما أثبت التاريخ أن يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية قد استعمل الجمل في حربه ضد النصارى في موقعة الزلاقة الشهيرة ٤٧٩ هـ. وقد علل أكثر مؤرخي الغرب بأن ذلك كان من عوامل انتصاره في هذه الموقعة، إذ ذعرت خيول النصارى من الجمال التي لم ترها من قبل. كما أن أهل الأندلس لم يكونوا قد رأوا قط جملاً من قبل ولا كانت خيلهم قد رأت صورها أو سمعت أصواتها.

وقد اشتهرت بلاد العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد، واشتهرت بلخ ببلاد ما وراء النهر (أي نهر جيحون) بالجمال ذات السنامين (وتسمى البخاتي بفتح الباء والخاء). وكانت الخيل التي كثر استعمالها في أوروبا فيما بعد، تجلب إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية، من بلاد العرب، ولا سيما من بلاد الحسا (أو الأحساء) على الخليج العربي، كما جلب العرب الجاموس من موطنه الأصلي وهو بلاد الهند، حيث نقل إلى العراق في عهد الدولة الأموية[٢].

(أ) طرق التجارة:

أما وقد ذكرنا شيئاً عن عناية خلفاء المسلمين بالتجارة التي احتلت في العصر العباسي الثاني المكانة الأولى في التجارة العالمية، يحسن أن نذكر أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب. **والطريق الأول** من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر، ويبدأ من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويقوم به اليهود، ويسميهم المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية نسبة إلى نهر الرون، ويتكلمون العربية والفارسية واليونانية والفرنسية والصقلبية. ويجلب هؤلاء اليهود من الغرب الجواري والغلمان والديباج وجلود الخز[٣]، ثم أطلق هذا الاسم على الثوب

(١) كتاب المغرب في أخبار المغرب طبعة دوزي (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١، وباريس ١٩٣٠).

(٢) متز: الحضارة الإسلامية ترجمة أبي ريدة، ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٩٤.

(٣) الخز اسم دابة وقيل هو الذكر من الأرانب ويطلق فيعرف به الحرير في العرف.

المأخوذ من وبر الخز. وترسو سفنهم عند الفرما (وكانت من أهم الموانىء التجارية في ذلك الحين)، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم وهي مدينة السويس الحالية[١]، أو إلى الإسكندرية، وكانت ملتقى التجارة العالمية، ومنها تنقل إلى الفسطاط أكبر مدن مصر التجارية في ذلك الحين، أو إلى القاهرة حاضرة الفاطميين والايوبيين ومن جاء بعدهم من الحكام عن طريق النيل.

يقول «هيد» في كتابه تاريخ التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى[٢] نقلاً عن ابن خرداذبة إن السلع كانت تنقل من الفسطاط إلى القلزم، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة (وهي ميناء مكة المكرمة) حتى تصل إلى الهند والصين. ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدارصيني. فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية، ومنها إلى بروفانس، وأحياناً يقصد بعضهم الإسكندرية.

ثانياً ـ والطريق الثاني يبدأ بحراً من بروفانس على أيدي تجار اليهود الراذانية إلى المشرق صوب أنطاكية حيث تنقل السلع على الدواب إلى بغداد عن طريق نهر الفرات وجداوله، ثم إلى الأبلة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الفارسي، ثم إلى عمان والهند والصين.

ثالثاً ـ والطريق الثالث يبدأ من شمالي الروسيا إلى المشرق عن طريق بحر قزوين، ثم إلى مرو حاضرة خراسان، فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين، ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل، وكان المسلمون يأخذون الجزية من هؤلاء التجار باعتبارهم مسيحيين.

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل الفلجا الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وينبغي ألا ننسى فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند التي قيل إنه غزاها ثلاث عشرة غزوة ونشر الإسلام في ربوعها، وما كان لهذه الفتوح من أثر في رواج التجارة، ويرجع وجود النقود الإسلامية التي كشفت في شمالي أوروبا إلى هذا العصر، وقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمالي أوروبا وبلاد الشرق الإسلامي.

والطريق الرابع هو الطريق البري، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازاً المغرب الأقصى عن طريق سبتة والمغرب الأدنى عن طريق تلمسان ووهران والقيروان والمهدية والمغرب الأدنى عن طريق طرابلس وبرقة حتى يصل إلى مصر، ثم يتجه إلى

---

(١) ابن خرداذبة. المسالك ص ١٥٤.

(٢) ج ١ ص ٤١.

بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق، ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز، ثم إلى كرمان والهند والصين[١].

وكانت طرق التجارة تسلك طرق البريد. وقد عنى الفاطميون بطرق المواصلات البرية التي تسلكها القوافل التي تسير بالتجارة من بلد إلى آخر. فكان هناك طريق للقوافل يصل مصر ببلاد المغرب غرباً وببلاد الشام والعراق شرقاً.

(ب) مراكز التجارة:

ومن أشهر مراكز التجارة أنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربي، وقد حصنها الخليفة العباسي المعتصم. وكانت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية[٢]، كما أصبحت أداة الاتصال بين الشرق والغرب. وغدت الفرما (وكانت مفتاح الديار المصرية)[٣]، والإسكندرية من المراكز التجارية الهامة بين الشرق والغرب، تنقل منها التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الأحمر، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوروبا. وكانت الإسكندرية ـ ولا تزال ـ أهم موانىء البحر الأبيض المتوسط، تفد إليها السفن حاملة منتجات الشرق والغرب. واشتهرت بمعدن الرخام والخرنوب والزيتون واللوز. وكانت من أهم مراكز صناعة الزيت والصابون[٤] وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة حيث تكثر السلع الشرقية والغربية. ومن برقة ترى سلسلة من الموانىء التجارية الهامة مثل طرابلس والمهدية ووهران ومليلة وسبتة وطنجة.

وكانت الفسطاط عاصمة مصر التجارية في عهد الفاطميين وهي، كما يقول المقدسي[٥] «ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنام وأجل من مدينة السلام (يعني بغداد)، خزانة المغرب ومطرح المشرق، أهل من نيسابور وأجل من البصرة، وأكثر من دمشق. معدن الصلحاء، طيب الشتاء، أهل سلامة وعافية». وكانت أسواق الفسطاط في غاية النظافة والنظام، تصطف فيها القياسير والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع. وإليها ترد تجارة الشام والموصل والعراق وغيرها من بلاد المشرق الإسلامي.

---

(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) Heyd, tome 1, pp. 43 - 44.

(٣) اشتهرت بمصايد الأسماك، المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ص ١٩٥.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية.

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

ومن مراكز التجارة في مصر في العصر الفاطمي: مدينة أسوان، وكانت قصبة إقليم الصعيد، وكانت ـ ولا تزال ـ سوقاً لتجارة النوبة والسودان.

وتلي مدينة الفسطاط في الأهمية مدينة دمياط ثالثة الثغور التي تقع على ساحل مصر الشرقي، وهي تنيس والفرما ودمياط، وقد برزت دمياط في ميدان التجارة والصناعة وأضحت في العصر الفاطمي مركزاً هاماً لصناعة النسيج، كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية. ولعبت دمياط دوراً بارزاً في قصة الصراع بين المسلمين والصليبيين.

ومن مراكز التجارة في العصور الوسطى عيذاب (بفتح العين وتسكين الباء) على ساحل البحر الأحمر. وقد نافست ميناء القصير، ولعبت دوراً هاماً في تجارة البحر الأحمر، وازدهرت عيذاب في القرنين الخامس والسادس للهجرة لتحول طريق التجارة الفاطمية إلى الجنوب بسبب اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة الذين كانوا أصحاب النفوذ في بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك العصر، ثم لاستيلاء الصليبيين على أيلة (بفتح الألف وسكون الياء وفتح اللام) الواقعة على زاوية خليج العقبة سنة (٥١٠ هـ) ١١١٦ م. وقد ذكر ابن جبير[(١)] أن أهل عيذاب جمعوا ثروة طائلة من السفن التي كانوا يمتلكونها، وكانوا يحترفون التجارة وينقلون الحجاج ويقومون بصيد اللؤلؤ في شهري يونية ويولية من كل سنة.

وكان التجار والحجاج يفدون إلى ثغر عيذاب عن أحد طريقين: أحدهما طريق قوص ويتفرع إلى فرعين: أحدهما يعرف بطريق «العبدين»، ويعرف الثاني بطريق «دون» وهي قرية على شاطىء النيل. أما الطريق الثاني فهو طريق مدينة أسوان.

وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء في هذا الطريق في الصيف، يمتاز عن الطريق الأول بقصره، فكانت القوافل تقطعه في خمسة عشر يوماً. كما يمتاز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة التي تكثر في الطريق الأول. أضف إلى ذلك أن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة. لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص. وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز، أو بالسلع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب، ومنها إلى الساحل المصري، لذلك كانت عيذاب من أعظم مراسي الدنيا، لأن مراكب الهند واليمن كانت تفرغ فيها البضائع، ويقلع منها الحجاج في ذهابهم وإيابهم.

ومما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة إلى الجنوب قد أدى إلى انتعاش كبير في حالة

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٥ ـ ٤٢. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣.

عيذاب الاقتصادية، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السلع التي تمر بها، أو الاستيلاء على جزء منها للاستهلاك المحلي، كما استفاد الأهالي من اشتغال عدد كبير منهم في شحن السلع وتفريغها، مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم.

وقد ظل حجاج مصر والمغرب يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج عبر صحراء عيذاب التي لم تزل طريقاً للحج في ذهابهم وإيابهم أكثر من مائتي سنة (٤٦٠ هـ - ٦٦٠ هـ).

ففي الشدة العظمى في عهد المستنصر الفاطمي انقطع الحج براً، وظلت الحال على ذلك حتى كسا السلطان بيبرس الكعبة وعمل لها مفتاحاً، ثم أرسل قوافل الحج براً في سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ - ١٢٦٨ م)[١].

كانت مصر في عهد الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ترتبط بعلاقات تجارية مع كثير من بلدان أوروبا وبلدان الشرق، فكان تجار مدينة «أمالفي» الإيطالية يجلبون المنسوجات الحريرية من مصر والشام، ويجلبون من مصر مهرة الصناع لتزيين قصورهم بالفسيفساء. وكان لأهل «أمالفي» حي خاص بهم في مدينة أنطاكية كما كان لهم كثير من الفنادق بمدينة الإسكندرية[٢]. وأخذت مراكب جنوة تشق طريقها إلى موانىء مصر والشام وتحمل حجاج المسيحيين إلى يافا حيث يذهبون إلى بيت المقدس، ويذهب تجار جنوة إلى أسواق مصر ليجلبوا الفلفل وجوز الطيب والقرنفل والشب والنطرون الذي كان الفاطميون يحتكرون تجارته. كما كان لأهل جنوة جالية بالإسكندرية، وقد أقامت حكومة البندقية علاقات تجارية واسعة مع الفاطميين في مصر ونقلت سفنها منتوجات آسيا إلى أوروبا[٣].

وكانت الدولة البيزنطية، برغم سوء علاقاتها مع مصر، بحاجة إلى المصنوعات المصرية الممتازة التي تنتجها مصانع تنيس ودمياط، ويقبل عليها الأباطرة لتزيين قصورهم. واحتلت المنسوجات المصرية مكانة مرموقة في أسواق القسطنطينية حيث كان المصريون يجلبون الفراء الوارد من بلاد الروس، وكان بالفسطاط حي يقيم فيه تجار الروم[٤].

وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة في العصر الفاطمي؛ فكانت أكثر السفن تقلع من مصر إلى إيطاليا وجنوبي فرنسا مارة بموانىء صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات مصر وتحصل في مقابلها على قمح صقلية وفواكهها ومعادنها[٥].

ولم تنقطع علاقة الفاطميين ببلاد المغرب بعد انتقال حاضرة خلافتهم إلى مصر. فقد

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٦ - ٥٩٧.
(٢) Heyd, tome 1, pp. 104 - 106.
(٣) Ibid, tome 1, pp. 107 - 129.
(٤) Ibid, tome 1, p. 58.
(٥) المقريزي: خطط ج ١ ص ٩٦.

كانت سفن المغاربة تقلع إلى مصر تحمل حجاج المغاربة كما تقدم أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند. وقد ذكر أبو عبيد البكري أن سفن مصر كانت تحمل غلات بلاد المغرب مثل زيت الزيتون والفاكهة، وتسير السفن إلى المهدية التي بناها عبيد الله المهدي في إفريقية (بلاد تونس الحالية) وتستمر في سيرها إلى المغرب الأقصى وتعود محملة بالسلع إلى الإسكندرية[١].

وكان من أثر تقدم المسلمين في فن الملاحة أن أخذ الشرق الإسلامي يتصل ببلاد الأندلس، وأدى ذلك إلى قيام علاقات تجارية بينها وبين سائر البلاد الإسلامية، حاملة منتجات هذه البلاد، وكانت الأساطيل التجارية التي ترسو في موانىء إشبيلية ومالقة (بفتح اللام والقاف) ودانية والمرية (بفتح الميم وكسر الراء وفتح الياء مع التشديد) تنقل إلى جميع موانىء البحر الأبيض المتوسط محاصيل الأندلس ومنتجات مصانع المدن الأندلسية والمغربية. ونذكر على سبيل المثال أغطية جنجالة وسجاجيد بسطة (بفتح الباء وسكون السين) وفراء سرقسطة (بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين) وأواني مالقة الفخارية المذهبة، وحلي قرطبة المنقوشة وجلودها، وأسلحة طليطلة، وورق مالقة السميك. وقد شاهد ناصر خسرو[٢] في أسواق الفسطاط قطعة من البللور الصخري واردة من بلاد المغرب.

وكانت هذه العلاقات التجارية مستمرة مع مصر التي أصبح تأثيرها على الأندلس قوياً، كما تدل على ذلك النقوش التي أثبتت وجود هذه العلاقات التجارية، فقد وجد اسم تاجر من الإسكندرية مات في ميناء المرية سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) منقوشاً على أحد قبور المدينة، يدل على أنه مات في أثناء سفره في العهد الذي كانت المرية تصنع أقمشة فاخرة ذات شهرة عالمية. وفي هذه الحقبة كان الأندلس مغربياً في عهد المرابطين.

ويذكر البكري[٣] أن برقة كانت تصدر إلى مصر الذبائح كما تفعل اليوم، والصوف والعسل والقطران، وأن القوافل كانت تحمل منتوجات السودان وغانة وحوض السنغال والنيجر إلى واحات مصر، فتحمل التبر وبعض السلع التي ينتجها إقليم الواحات.

وكان للمغرب علاقات تجارية واسعة مع أهالي البلاد الواقعة جنوبي الصحراء بين المغرب وبلاد السودان. فقد قال الشريف الإدريسي[٤] عند كلامه على مملكة غانة: ومدينة

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥، ٣٠، ٤٧، ٤٩، ٨٢.

(٢) Sefar Naméh, p. 149.

(٣) المغرب ص ٥.

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (نصوص من هذا الكتاب بعنوان: «الغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» ص ٦).

ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتي عشرة مرحلة في رمال ودماس (قفار) لا ماء بها. وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو (يقصد نهر النيجر). وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى. وأهلها مسلمون، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وهو يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي، وله قصر على ضفة النيل (يقصد به نهر النيجر أيضاً) قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه، وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج، وكان بنيان هذا القصر في عام عشر وخمسمائة من سني الهجرة».

وقد ذكر الشريف الإدريسي[١] أنه كان بنهر النيجر جزيرة تقع شرقي مدينة غانة، طولها ثلاثمائة ميل وعرضها مائة ميل. ويحيط بها النهر في سائر السنة. ويطلق الإدريسي على هذا النهر اسم النيل، ولعله يظن أن نهر النيجر هو امتداد لنهر النيل. وبعد انتهاء موسم الفيضان في شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر، يقصد أهالي هذه الجهات الجزيرة بحثاً عن التبر، «فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر. وما يخيب منهم أحد. فإذا عاد النيل (أي النيجر) إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضاً، واشترى أكثره أرقلان (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الراء وفتح القاف) وأهل المغرب الأقصى، وأخرجوه إلى دور السكك (أي دور صك النقود) في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع، هكذا في كل سنة».

وقد ذكر السلاوي[٢] نقلاً عن أبي العباس أحمد الشريشي صاحب كتاب شرح المقامات الحريرية أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار، ثم يسيرون في قوافلهم إلى غانة، فيقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً، فيبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر. ويحدثنا الشريشي أن التاجر المغربي كان إذا سافر إلى غانة بثلاثين حملاً، رجع منها بثلاثة أحمال أو حملين: واحد لركوبه وثان للماء وذلك بسبب اختراقه المفازة. وكان التجار يقطعون هذه المفازة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا ما حملوه على ظهور إبلهم. وقد أضاف الشريشي إلى ما تقدم أن أثمان أحمال الثلاثين جملاً يوضع فيها من التبر ما يملأ

(١) المصدر نفسه ص ٨.
(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٥ ص ٩٩ - ١٠٠.

مزوداً[١] واحداً وهذا يؤيد رأي الشريف الإدريسي في استخراج التبر واستعماله في هذا العصر[٢].

وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى. وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم في التجارة السودانية من الذهب والرقيق، وأن يبادلوها بالسلع التي تحملها القوافل من المغرب الأقصى، وهي ملح الطعام والنحاس والفواكه المجففة، ويوجد الذهب في بلاد تسمى ونقاره (بفتح الواو والراء وسكون النون) (Wangara)، وكانت تقع خارج حدود مملكة غانة. وكانت شعوب الماندنجو يستخرجون الذهب من هذه الجهات ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى المجلوبة من غانة، ويتم التبادل بطريقة تسمى التبادل الصامت (Dumb Barter). ذلك أن تجار غانة يضعون متاجرهم على شاطىء أحد الأنهار ثم يختفون عن الأنظار، فيتقدم أصحاب التبر إلى هذا المكان ويضعون بجوار هذه السلع قيمتها تبراً، ثم ينسحبون فيظهر أهل غانة من مخابئهم، فإذا رضوا بكمية الذهب أخذوها، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى حتى تزاد الكمية. وكانت هذه الطريقة في المبادلة شائعة في القارة الإفريقية في العصور الوسطى.

وكانت تجارة الذهب تلعب دوراً هاماً في اقتصاديات العصور الوسطى، فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربي أوروبا[٣].

وحول منتصف القرن السابع الميلادي أحرز بعض قبائل لمطة (بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء) البربرية في المغرب الأقصى نفوذاً سياسياً على زراع مملكة صنغاي (بضم الصاد وسكون النون) الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة (Dendi)[٤]. واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى ديا (Dia) حكمت هذه البلاد حتى سنة ١٣٢٥ م واتخذت كوكيا حاضرة لهم[٥].

وقد تمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر عن طريق تاد مكة (أي مكة الجديدة) الذي يعد مركزاً هاماً لطرق القوافل. وكانت هذه العلاقات التجارية ذات

---

(١) المزود مخلاة يوضع فيها علف للبعير، والمزود كذلك هو موضع وضع علف الحيوانات في الحظائر.
(٢) انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٩٨.
(٤) للوقوف على نشأة هذه المملكة راجع السعدي: تاريخ السودان (طبعة باريس ١٩٨ ص ٣٣ وما يليها). راجع كتاب «الدعوة إلى الإسلام» ترجمة ص ٢٦٩.
(٥) لا يعرف موقعها بالضبط، ويمكن أن يقال إنها تقع على حدود نيجيريا في المنطقة الشمالية الغربية.

أثر بعيد في تحول ملوك هذه البلاد إلى الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق شمال إفريقية، وإن كان كثير من رعاياهم قد ظل على الوثنية.

وفي ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد على مقربة من طرق القوافل الرئيسي، إلى مدينة جوا (بضم الجيم) عند منحنى نهر النيجر. وقد أصبحت هذه المدينة من أهم مراكز التجارة في السودان الغربي، وهي تشبه مدينة غانة بالنسبة إلى البلاد الواقعة في أعالي النيجر[١].

(حـ) الأسواق:

وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة التي تعتمد على الأسواق. وتقيم كل طائفة من التجار في قسم من أقسام هذه الأسواق، ولا يعودون إلى دورهم إلا في المساء.

أما أسواق المدن فكانت تقام في أيام معينة من الأسبوع، وكانت الحوانيت في مصر والشام وفلسطين والمغرب تمتد على طول الشوارع من الجانبين، وخصصت للتجار الغرباء فنادق أشبه بالأسواق الكبيرة. ويضع التجار ـ كما يذكر ابن الفقيه[٢] ـ بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية. ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن (Depots) الفنادق أو القياسر مفرده قيسارية.

وهناك خانات أو مخازن كبرى، كدار البطيخ بالبصرة، ترد إليها جميع أصناف الفاكهة[٣]. أما في بلاد المشرق الإسلامي، فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد.

كان الرومان يحكمون شمالي أفريقيا، وقد أطلق على إمبراطورهم اسم «قيصر». وكان بكل مدينة سوق كبيرة أطلق عليها اسم قيسارية (تحريف قيصرية) نسبة إلى قيصر. ويعلل المؤرخون الأفارقة ذلك بأن الموظفين الرومانيين كان لهم في داخل المدن فنادق وحوانيت يبيعون فيها ما يتقاضونه من هذه المدن عيناً (أي سلعاً) كضرائب وإتاوات، ثم يبيعون هذه السلع في تلك الحوانيت والفنادق في داخل المدن. وكثيراً ما كان الأهالي ينهبون هذه المخازن؛ لذلك رأى أباطرة الرومان أن ينشئوا في كل مدينة حياً صغيراً يجتمع فيه التجار ويحفظون فيه سلعهم، ويختزن الموظفون المكلفون بالجبايات كل ما يحصلون عليه من السلع، وإذا أراد رجال المدينة أن

---

(١) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) كتاب البلدان ص ٥١.
(٣) متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ٢ ص ٣٢٧.

يدافعوا عن أموالهم الخاصة اضطروا إلى أن يدافعوا ويحافظوا على أموال الإمبراطورية ويحولوا بذلك دون نهبها(١).

وكانت الدولة الفاطمية تجبي مبالغ كبيرة من الجمارك أو المكوس المفروضة على الصادرات والواردات. فكانت السفينة إذا رست في الميناء صعد إليها موظفون معينون سماهم ابن جبير «الأمناء»، ومهنتهم «تقييد جميع ما جلب فيها من بضائع، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش»(٢). وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى مقاومة التهريب حتى لا تفلت البضائع من الرسوم المقررة عليها، أما القوافل فإنها لم تكد تصل إلى حدود البلاد حتى يهرع إليها الأمناء لتحصيل الرسوم المستحقة عليها(٣).

وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم الواردين على الثغور خمس ثمن السلع، ومن الروم ١٠ ٪ (٤). وكانت نسبة الرسوم تبلغ أحياناً ٣٥ ٪ من قيمة السلع، وقد تنخفض إلى ٢٠ ٪ (٥)، ويرجع ذلك إلى اختلاف أنواع السلع وقيمتها وجنسيات التجار. فكان تجار المسلمين الوافدون من الشرق أو الغرب يؤدون رسوماً أقل مما يؤديه تجار المسيحيين. ولم يكن التجار الأوروبيون يعاملون معاملة واحدة؛ فكانت الرسوم الجمركية تخفض على واردات دور الصناعة من الخشب والحديد بسبب حاجة الدولة إلى هذه المواد. هذا عدا رسوم إضافية يدفعها التاجر مقابل استخدام المترجمين والحمالين وعمليات الوزن(٦).

وإذا وصلت السلع إلى الميناء نقلت إلى الفندق أو الوكالة حيث يجري تثمينها بواسطة سماسرة تعينهم الدولة التي تستولي على ما تحتاج إليه من بعض المواد كالحديد والخشب والقطران(٧)، وتسمح للتجار الأوروبيين بإقامة الفنادق في الموانىء الهامة، ولكل جالية أوروبية فندقها الخاص، تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها، ويضم الفندق كنيسة صغيرة يقيمون فيها شعائرهم الدينية، وفرناً يصنعون فيه الخبز، وحماماً، وداراً لصنع النبيذ. وتختار الجالية واحداً من أفرادها يطلق عليه اسم الفندقي للإشراف على الفندق، وهو مسؤول أمام الحكومة(٨).

---

(١) الحسن الوزان (ليون الإفريقي) Description de l'Afrique, p.499

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧.

(٣) ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣.

(٦) Heyd, tome 1, pp. 391 - 392.

(٧) ابن مماتي ص ٣٢٧.

(٨) المقريزي (خطط ج ٢ ص ٩٢ ـ ٩٤) ومنها فندق بلال الغيثي حيث تباع صناديق الذهب والفضة، وفندق =

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة في الموانىء فحسب، بل كانت منتشرة أيضاً في داخل البلاد: فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هنالك فنادق بمحلة صرد والبجوم والكريون[١]. ولا يبعد أن يكون عدد هذه الفنادق قد تضاعف في العصر الفاطمي بسبب رواج التجارة ووفرة رؤوس الأموال وشدة إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر[٢].

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم بمثابة مخازن لبضائعهم ومنازل يقيمون بها عندما يقيمون بمصر، وتصبح هذه الوكالات صلة بينهم وبين التجار المصريين الذين كانوا بدورهم ينشئون وكالات من هذا النوع في بلاد الشام والعراق والحجاز[٣]. أما القياسر فهي «كالخان العظيم تغلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض»[٤]. «والقيسارية مجموعة من المباني العامة على هيئة رواق من أروقة الدير، وبها حوانيت ومصانع ومخازن، وأحياناً مساكن»[٥]. وقد كثرت القياسر في العصر الفاطمي وعمرت بالتجار الوافدين عليها من كل فج[٦]. كما كثرت الخانات بمصر في ذلك العهد[٧] وارتفعت إيجاراتها، حتى بلغ إيجار الخان بمدينة الفسطاط اثني عشر ألف دينار في السنة[٨].

= الصالح، وفندق ابن قريش، وفندق دار التفاح حيث ترد إليه الفواكه التي تنبت في بساتين ضواحي القاهرة من التفاح والكمثري والسفرجل. وتنقل من هذا الفندق إلى سائر أسواق القاهرة، وفندق طرنطاي وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام.

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ص ٨٩، ٩٠، ٩١.

(٢) البراوي ص ٢٧١.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٦٢.

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٤١.

(٥) انظر مادة قيسارية في دائرة المعارف الإسلامية.

(٦) أمدنا المقريزي (خطط ج ٢ ص ٨٦ - ٩١) بكلام مستفيض عن القياسر في مصر. ومن هذه القياسر: قيسارية ابن قريش، وقيسارية الشرب، وقيسارية ابن أبي أسامة، وقيسارية بيبرس، وقيسارية سنقر الأشقر، وقيسارية جهاركس، وقيسارية العصفر حيث يدق العصفر، وقيسارية العنبر، وقيسارية الجامع الطولوني، وقيسارية ابن ميسر الكبرى حيث يباع الكتان الأبيض والأزرق والطرح، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة.

(٧) ومن أهمها خان مسرور حيث كانت تباع مهمات الأساطيل والرقيق، وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر، وخان منكورش، وخان الخليلي (المقريزي: خطط ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤).
ويلاحظ أن بعض هذه الفنادق والقياسر والخانات يرجع إلى العهد المملوكي، فإن بعضها لا يزال باقياً حتى الآن.

(٨) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٨ - ٦٢٠.

وقد وصف المقدسي[١] أسواق الفسطاط في عهد الفاطميين فقال: «به أطعمة لطيفة وأدامات (بضم الألف مع الهمزة) نظيفة، وحلاوات رخيصة، كثير الموز والرطب، غزير البقول والحطب، خفيف الماء صحيح الهواء». وكانت أسواقها في غاية النظافة والنظام، وتصطف فيها القياسر والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع، وقد بلغ من ازدحام أسواقها بالناس أن شبهت بالجوامع. ومن أشهر أسواقها: سوق القناديل. وقد بلغ من روعة هذه الأسواق ما ذكره المقدسي[٢] الذي شاهد المدن العظام، فقال: «يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته؛ غير أن أجل أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم».

وبرغم ازدحام الفسطاط بالسكان، رخصت أسعارها، فكان الثلاثون رطلاً من الخبز تباع بدرهم، والبيض تباع الثمانية بدانق (وهو سدس درهم). وكان الموز والرطب في غاية الرخص[٣]. ويرد إليها من الصعيد: الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب؛ ومن تنيس الثياب الملونة، ومن دمياط القصب، ومن الفيوم الأرز والكتان، ومن الفرما السمك، كما كان يرد إليها الجلبان ودهن الفجل والزئبق[٤].

وقد وصف ناصر خسرو[٥] مدينة الفسطاط بعد المقدسي بنحو نصف قرن، فقال حين زارها بين سنتي ٤٣٩ و ٤٤١ هـ إن سوق القناديل كان يزخر بالتحف النادرة التي ترد إليها من جميع أنحاء العالم، وإن بها من الخانات ما لا يقل عن ألفي دكان يتراوح إيجار الواحد من دينارين إلى عشرة دنانير، وبها من السفن أكثر مما كان ببغداد والبصرة، كما رأى بها عمارات شاهقة بلغ عدد طبقاتها أربعة عشر طابقاً.

ومن مظاهر الحضارة بمدينة الفسطاط في عهد الفاطميين الأسواق التجارية التي كانت عامرة بحوانيت البزازين (أي بائعي الثياب) والمأكولات على اختلاف أنواعها. ومن هذه الأسواق: سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج والإوز (بكسر الألف مع الهمزة). وبه حانوت العصافير وآلاف الأقفاص التي بها هذه العصافير وأنواع الطير كالقماري والهزارات والشحارير والببغاء والسماني.

وكان سوق «الحلاويين» من أبهج الأسواق، يشاهد فيه الأواني وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة. ومن الحلاوات المصنفة، وتسمى المجمعة عدة ألوان. وفي هذا السوق

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه ١٩٩.
(٤) المصدر نفسه ٢٠٣.
(٥) Sefar Naméh, pp. 127, 145, 149, 153.

معامل يصنع فيها من أمثال الخيول والسباع والقطط وغيرها، وتسمى «العلاليق»، وترفع بخيوط على الحوانيت، منها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، وتشترى للأطفال، ويقبل على شرائها الناس على اختلافهم. وتمتلىء أسواق الفسطاط والقاهرة وريف مصر بهذا النوع من الحلوى.

وقد وصف الحسن الوزان أسواق مدينة فاس وصفاً شائقاً فقال: إنه كان لكل حرفة سوقها الخاص، وإن أهم هذه الأسواق كان يحيط بجامع القرويين. نذكر من هذه الأسواق على سبيل المثال سوق العدول وكان لهم ثمانون دكاناً، وسوق الإسكافية حيث تصنع أحذية الأطفال، وسوق النحاسين، وسوق الفاكهة ويضم خمسين حانوتاً، وسوق الزهور. وقد ذكر الوزان أنه إذا شاهد الإنسان كثرة الزهور وتنوعها اعتقد أنه إنما يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا، وبعبارة أخرى خيل إليه أنه يشاهد لوحة تضم أجمل وأزهى الألوان.

ومن أهم أسواق مدينة فاس سوق الحقائب والمحافظ التي تصنع من الجلد الفاخر، وقد بلغ عدد حوانيته الثلاثمائة.

ومن أسواق فاس سوق الجزارين وسوق الثياب المصنوعة من صوف المغرب، وسوق الأسلحة، وسوق السكاكين، وسوق الدجاج، وسوق الدقيق، وسوق الخيوط التي يصنع منها نسيج القنب والكتان والقطن، وسوق صانعي سروج الخيل، وسوق الحدادين، وسوق صانعي الرماح. وهناك أحياء تباع فيها الأغطية الصوفية والثياب الحريرية كالقلانس والمراتب والزرابي الجلدية الصغيرة، ويشغل الخياطون ثلاثة أحياء. وهناك حي خاص بطي وخياطة العمائم، وحيان لبائعي المنسوجات والقمصان والثياب النسوية، وهؤلاء هم أغنى تجار فاس، ويجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة. ثم يأتي حي تباع فيه الملابس المصنوعة من النسيج المجلوبة من أوروبا، وأخيراً يأتي حي تباع فيه الفوط والحصر والقمصان البالية.

وقد ذكر الحسن الوزان عند كلامه على سوق العطارين بمدينة فاس أنه كان يشغل شارعاً مستقيماً به نحو مائة وخمسين حانوتاً. وكان هذا الشارع يغلق من طرفيه ببابين جميلين يمتازان بمتانتهما. وكان العطارون يدفعون أرزاق الحرس الذين يجوبون الشارع خلال الليل ومعهم كلاب وفوانيس(١).

وذكر المراكشي(٢) أن الخراج بلغ في عهد الموحدين وقر مائة وخمسين بغلاً من إفريقيا وحدها، عدا بجاية وأعمالها، وتلمسان وأعمالها، وأن عبد المؤمن بن علي وجه همه لتشجيع

---

(١) نفس المصدر والصفحة. (٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥٥.

الزراعة وإصلاح الحالة الاقتصادية ببلاد الأندلس، وأن الازدهار الاقتصادي الذي عرفه المغرب في عهد الموحدين يرجع إلى اتساع رقعة الدولة الموحدية واستتباب الأمن واستقرار الحياة، وتشجيع التجارة والصناعة التي تتمثل في إنتاج الأسلحة وفي البناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران[1].

وقد روى عباس بن ابراهيم[2] عن الإدريسي[3] الذي وصف مراكش في عهد المرابطين بقوله: «وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة».

العملة:

وإلى الصين يرجع الفضل في إدخال العملة المعدنية والعملة الورقية التي أطلق عليها المسلمون اسم الورق (بفتح الواو وكسر الراء) وأخذها عنهم الأوروبيون، ومن المرجح أن الصين قد عرفت هذه النقود قبل الميلاد بنحو تسعة قرون. ويشك بعض في هذا الرأي، فيزعم أن العملة المعدنية اخترعت في بلاد اليونان أولاً، ويذكر بعض آخر أن انتقال هذا النوع كان نتيجة غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي.

وكانت العملة المستعملة في الأسواق: العملة الذهبية وهي الدينار، وهي مشتقة من ديناريوس Denarius اليونانية، والفضية وهي الدرهم وهو فارسي الأصل. وكان الدينار شائعاً في البلاد الغربية للدولة الإسلامية، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل الإسلام. أما الدرهم فكان استعماله شائعاً في العراق وفارس. إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق وغيرها من البلاد الإسلامية.

وكان الدينار يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد. فتارة يساوي ١٠ دراهم، وتارة يساوي ١٣ درهماً، وتارة أخرى يساوي ١٥ درهماً.

ومن وسائل التعامل الصك، وهو أشبه بالشيك الآن. وقد ذكر الخوارزمي (بضم الخاء وفتح وكسر الراء وسكون الزاي) في كتابه مفاتيح العلوم أن الصك كان يجمع فيه أسماء المستحقين وعددهم وما يستحقونه من المال. ثم يوقع الخليفة أو السلطان أو الأمير بتوقيعه في آخر الصك باعتماد دفع هذه الأرزاق أو الرواتب. وكثيراً ما ذكر الفردوسي لفظ «شيك».

ومع هذا الاختراع انتقلت الألفاظ والاصطلاحات الخاصة به، وهي ترجع إلى أصل

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ٤.

(٢) الإعلام فيمن حل مراكش وأغمات من الأعلام جـ ١ ص ٦٣ وما يليها.

(٣) نزهة المشتاق (نصوص بعنوان المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) ص ٦٧.

فارسي أو عربي. وما زالت هذه الصكوك متداولة في اللغات الأوروبية حتى اليوم، ففي اللغة الهندية مثلاً (ويطلق عليها الأردية بضم الألف مع الهمزة وفتح الياء مع التشديد) نجد أفال (بفتح الألف الأولى مع الهمزة) وهي حوالة (بفتح الحاء) العربية.

وقد ذكرنا في الباب الأول أن الملاحين الذين نقلوا السلطان ملكشاه السلجوقي هو وجيوشه عبر نهر جيحون تسلموا من وزيره نظام الملك حوالات تسلموا قيمتها من العامل السلجوقي بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك هذا السلطان.

قد حرم الإسلام التعامل بالربا، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان. ومن المعلوم أن التجارة في العصور الإسلامية الأولى، بل إلى عهد قريب، كانت تقوم على الثقة المتبادلة.

الباب العاشر
الثقافة

١ ـ مراكز الثقافة الإسلامية

كان من أثر كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة وذخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم. ومن ثم نرى صدى هذه النهضة في بلاط كل من الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والأمويين في الأندلس، والمرابطين والموحدين في المغرب.

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية. وخير مثل لذلك هذه الآثار التي خلفها العلماء من السنيين والشيعيين، وما كان لها من أثر في النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن، ولو أن قيام هذه الدول قد ساعد على زيادة الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم تبعاً لذلك.

كانت هناك في العصر العباسي الثاني مراكز عدة للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها:

١ ـ أصبهان والري حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهي. وكان بلاط بني بويه هنالك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب.

٢ ـ البلاط الساماني في بخارى حيث زخرت مكتبة نوح بن نصر الساماني بكثير من الكتب النادرة.

٣ ـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين.

٤ ـ بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني ابن مأمون في خيوة. وقد آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوي.

٥ ـ بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة. وكان من أحسن السلاطين ميلاً للأدب وتشجيعاً للعلماء.

٦ ـ بلاط السلاجقة في مرو حاضرة خراسان حيث أقام أمراء السلاجقة ولا سيما في عهد السلطان سنجر ثم في عهد أمراء الخوارزميين. وقد أقام ياقوت الحموي طويلاً في هذه المدينة وأخذ العلم على علمائها وأفاد من خزائن كتبها، وقال إن مرو «أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلها». كما أطنب ياقوت في وصف خزائن الكتب في مرو حين فارقها أمام غارات التتار سنة ٦١٦ هـ التي قال عنها: «وفيها عشر خزائن للوقف لم أرَ في الدنيا مثلها كثرة وجودة»[1].

٧ ـ بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب ولا سيما في عهد سيف الدولة الحمداني.

٨ ـ بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر. وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ. فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والعلماء والمؤرخين والشعراء. وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية، وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات.

٩ ـ وقد نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية، وأصبحت حاضرة الأمويين في الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب، وجذبت مساجدها الأوروبيين الذين وفدوا إليها للتزود من الثقافة الإسلامية.

٢ ـ معاهد الثقافة

(أ) المسجد:

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركة العلمية، وانصرف بعض فقراء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف حيث بنى الرسول الصُّفة، وهي مكان مظلل في شمالي المسجد يأوي إليه فقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم.

وكان المسجد فوق اعتباره مكان العبادة والمكان الذي يؤم فيه الخليفة الناس في الصلاة،

---

(١) انظر لفظ مرو في معجم البلدان لياقوت.

مركزاً لإدارة شؤون الدولة أو الولاية. وكان المنبر أشبه بالعرش، يلقى منه بيان الخليفة لسياسة الدولة، ويلقي فيه خطبته الأولى ويبين فيها سياسته في الحكم. وفي المسجد تذاع القرارات الهامة التي تتعلق بالصالح العام، ويستقبل الخليفة السفراء ويدبر شؤون الدولة. والمسجد هو المكان الذي يتخذه علماء التفسير والحديث مقراً لهم، وهو المعهد الذي يتلقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، وهو المكان الذي اتخذه القضاة لعقد جلساتهم، بل لقد اتخذ بعض المساجد أماكن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الأعداء. وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة في الخطبة، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات. على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تدرس فيها العلوم الدينية، ويقوم بذلك أئمة المساجد.

وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين، ثم أصبح الأزهر في عهد الفاطميين مركزاً هاماً للثقافة ومثابة للعلماء وخاصة فقهاء المذهب الشيعي. وأهم خصائص الأزهر أنه وإن كان قد بدأ كغيره من المساجد، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب الكثير من مختلف العلوم والفنون. وكان يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من فكر في تحويل الأزهر إلى جامعة. وكان العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين والأمراء يشجعون الطلاب من وطنيين وأجانب، فيقدمون إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل الراحة من غير أجر، وأصبح يدرس في الأزهر التوحيد والفقه واللغة والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم(١).

ومن هذه المعاهد الثقافية مسجد القرويين بفاس، وقد أنشيء حول منتصف القرن الثالث الهجري، ثم أصبح مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية. كما أصبحت هذه الجامعة شاهداً على ديمقراطية التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وتخصيص كراسي الأستاذية وشروط التعيين في وظائف التدريس ومراسيم تعيينهم ودرجاتهم العلمية والإجازات الفخرية ومجالس أوصياء الكليات، والمساكن الجامعية للأساتذة والطلاب والمكتبات الجامعية. وفي هذه الجامعة الإسلامية وضع أساس التقاليد الجامعية التي تسير عليها الجامعات في الأمم الراقية، كحفلة افتتاح الدراسة، وحفلة التخرج، وسلطان الطلبة وغير ذلك من الشواهد التي تدل دلالة واضحة على أن المسلمين سبقوا الأوروبيين في ديمقراطية التعليم. ومن ثم ظهرت بجامعة القرويين بفاس طائفة من العلماء الذين تفوقوا في مختلف العلوم والفنون.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٣.

وقد جذبت مساجد قرطبة الأوروبيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية. ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم.

(ب) الزاوية:

ومن معاهد العلم «الزاوية»، وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوي، وبمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد. وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء، فأنشئوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد، كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة. ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر. وتطلق الزاوية أيضاً على المعهد والرباط الذي تنشئه إحدى الفرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسنوسية والشاذلية والخلواتية. وتنتشر الزوايا في كثير من أرجاء المدن والقرى.

وتطلق كلمة زاوية في المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء، تتصل بها غالباً مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولي. وكثيراً ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم أو العبادة. وكانت الزاوية المغربية «مدرسة دينية وداراً لضيافة الأغراب».

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) انتشرت الزوايا في المغرب، وأنشئت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادىء العلوم، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يطوروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكليات، ليسهموا في الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها من مدارس الزوايا في داخل المدن وفي خارجها. وقد خصص ابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) الفصل الثاني والأربعين من رسالته عن أبي الحسن المريني المسماة «المسند الصحيح الحسن» للكلام على الزوايا التي شيدها هذا الملك المغربي[١].

وقد تطورت الزوايا بالمغرب في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حين اشتدت وطأة النصارى على المسلمين في الأندلس، وامتدت أطماعهم إلى احتلال السواحل

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، العدد التاسع، المجلد العاشر ص ٣٣٢.

المغربية. ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد، أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي، وبلغت أوج ازدهارها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، واستطاعت أن تجلس على العرش المغربي أسرة الشرفاء السعديين، وأن تقف معهم جنباً إلى جنب في الجهاد ضد المسيحيين المحتلين. وقد وفقت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية.

كذلك تطورت الزوايا في المغرب في خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة (السادس عشر والسابع عشر للميلاد)، حتى أصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعي الصلاح من ذوي الأغراض الفاسدة والمشعوذين. على أن هنالك بعض الزوايا التي لم يحد أهلها عن سبيل الدين وأجمع الناس على صلاحهم واستقامة سلوكهم، وظهرت نتائج أعمالهم، كالدلائيين والفاسيين والناصريين.

ولم تكن هذه الزوايا الثلاث بمعزل بعضها عن البعض الآخر، على الرغم من اختلاف مواقعها، وإنما كان يجمع بينها التزاور في حل المشاكل الاجتماعية. ومن المقرر عند الأشياخ أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ هم: سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، وسيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي عبد القادر الفاسي[١]. وإلى جانب هذه المراكز الدينية الهامة كانت زاوية العياشية، وهي ربيبة الدلائيين، تقوم بدور مماثل في منحدرات الأطلس المطلة على أراضي تافيلالت وواحات الصحراء، ولا تزال محتفظة بمكتبتها التي تزخر بكثير من الكتب إلى اليوم.

(حـ) الكتاب والمدرسة:

والكتاب مشتق من كتب، والمكتب (بضم الميم وسكون الكاف وكسر التاء) أو المكتِّب (بضم الميم وفتح الكاف وكسر التاء مع التشديد) هو الذي يعلم التلميذ الكتابة.

ولم تكن هناك مكاتب خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام، بل كانوا يختلفون إلى المسجد. ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هي المدرسة البيهقية في نيسابور[٢].

وقد ذكر ابن الأثير أن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ) أسس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، وتعرف كل منهما باسم

---

(١) محمد بن أحمد الفاسي: المورد الهني، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط ورقة ٢ ب.

(٢) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٣.

المدرسة النظامية. كما أسس نظام الملك المدرسة الحنفية ببغداد. وكان الإمام الغزالي يقوم بالتدريس في المدرسة النظامية ببغداد ثم في نيسابور في أواخر القرن الخامس الهجري. ولما زار السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك بغداد سنة ٤٧٩/١٠٨٦، زار الوزير المدرسة النظامية وجلس في خزانة كتبها وطالع بعض الكتب وألقى على الطلاب درساً في الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر[١]، كما أجرى هذا الوزير الجرايات والمخصصات المالية على مدارسه وأملى الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما[٢]، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن نظام الملك كان من رجال العلم المشهورين في ذلك العصر ومن أكبر المشجعين على نشر الثقافة عامة والثقافة الإسلامية خاصة.

كما بنى نظام الملك الرصد وعين له جماعة من أعيان المنجمين على رأسهم عمر الخيام. وكان نظام الملك يجمع بداره الفقهاء والعلماء الذين كانوا يلقون منه كل مظاهر التكريم والتشجيع. وقد طلب إليه السلطان ملكشاه أن يكتب له كتاباً في السياسة، فألف كتابه المشهور «سياسة نامه» الذي يشير إليه الفردوسي باسم «سير الملوك».

وقد ذكر ابن خلكان[٣] أن مجلس نظام الملك كان عامراً بالفقهاء والصوفية، وأنه كان يغدق الأموال على الصوفية.

وقد أخذ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي هذا النظام عن الفرس في القرن السادس الهجري، ثم نقله صلاح الدين الأيوبي إلى مصر حيث أبطل المذهب الشيعي مذهب الفاطميين وأقام المذهب الشافعي مقتدياً في ذلك بنور الدين محمود الذي بنى عدة مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب وغيرهما[٤].

وقد عني صلاح الدين الأيوبي عناية خاصة ببناء المدارس ومن مدارس الأيوبيين في مصر مدارس الناصرية والقمحية والسيفية، والمدرسة الفاضلية التي أسسها في سنة ٥٨٠ هـ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الذي تقلد ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) واتخذه صلاح الدين وزيراً له. وكان بهذه المدرسة مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد. ومن المدارس التي أنشئت في عهد الأيوبيين «دار الحديث» التي بناها الملك الكامل

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٥٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٧٧.
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٩٦.
(٤) المقريزي: خطط جـ ١ ص ١٠٩.
ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٩. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٦.

«بين القصرين»[(١)]، وتعرف باسم المدرسة الكاملية.

(د) المارستان:

وقد اهتم العباسيون بنشر العلوم الطبية، فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التي يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية. وقد أصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية. وقد اقتبس المسلمون فكرة البيمارستان عن السريان الذين تفوقوا في مهنة الطب في العصر العباسي الأول، وقد وضع بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء في المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين، وبنوا المارستان للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب، وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل.

ومن أحسن الأمثلة لذلك المارستان الذي أسسه أحمد بن طولون في أرض العسكر سنة ٢٥٩ هـ وأدخل عليه ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في الوقت الحاضر. وفي سنة ٣١١ هـ أسندت إمارة مارستان الري إلى محمد بن زكريا الرازي أشهر أطباء عصره، ثم أسندت إليه إمارة مارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي (٣١١ هـ)، وقد بنى عضد الدولة البويهي (٣٦٧ ـ ٣٧٢ هـ) كثيراً من المارستانات، نذكر منها المارستان العضدي ببغداد[(٢)]، وأسس الأيوبيون في مصر كثيراً من المارستانات[(٣)]، وأنشأ يعقوب المنصور الموحدي بالمغرب المارستان في مدينة مراكش، وكان يتفقده بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى بنفسه[(٤)].

(هـ) بيت الحكمة:

ذكرنا من قبل أن كسرى أنوشروان أسس في جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم بقي أثرها حتى قامت الدولة العباسية. وكان بيت الحكمة الذي يرجح أن يكون هارون الرشيد هو الذي وضع أساسه قد ألحق به ابنه المأمون مرصداً، وخزانة أمدها بالكتب والمصنفات حتى أصبحت من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي.

---

(١) يعني القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للخليفة المعز الفاطمي والقصر الغربي الصغير الذي بناه العزيز الفاطمي.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٨.

(٣) انظر لينبول: سيرة القاهرة (ترجمة المؤلف) ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٤) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

وقد نهض المذهب الإسماعيلي على أيدي الفاطميين نهضة بعيدة الأثر من حيث استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة الفاطمية وبسط نفوذها، فاعتمد عبيد الله الفاطمي أول الخلفاء الفاطميين على المدارس التي أطلق عليها اسم مدارس الدعوة لنشر عقائد المذهب الإسماعيلي بين أشياعه سراً. وقد راجت مدارس الدعوة في المهدية حاضرة الدولة الفاطمية الناشئة في عهد عبيد الله المهدي، ثم راجت في المنصورية حاضرة هذه الدولة في عهد حفيده المنصور، ثم في القاهرة في عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين. وقد عرفت هذه المدارس في مصر باسم «مدارس الحكمة» التي كان لها شأن كبير في نشر الثقافة الإسماعيلية. ومن هذه المدارس «دار الحكمة» التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله. ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصوراً على القاهرة وحدها، وإنما جاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسية أو بحارها أو جزرها كما كان يطلق عليها في ذلك الحين(١).

(و) قاضي القضاة وداعي الدعاة:

وقد عمل دعاة الفاطميين في مصر على ترويج المذهب العلني(٢) بين السنيين والشيعيين، بحيث يرضي هؤلاء ولا يثير سخط السنيين. لذلك نرى جوهراً والمعز يدخلان عبارات مذهبية كعبارة «حي على خير العمل» في الأذان والقنوت(٣) في صلاة الجمعة، والدعاء من فوق المنابر لآل بيت الرسول وللخليفة الفاطمي القائم بالأمر، كما جهروا بالبسملة في خطبهم وصلاتهم، إلى غير ذلك. ومما يلفت النظر أن المؤرخين قد تصدوا لهذه التغيرات المذهبية. أما الدعوة السرية فلم يتناولها أحد بالبحث، بل إن المؤرخين يكادون يجمعون على أن دراسة عقائد المذهب الإسماعيلي وأصوله لم تبدأ إلا في أواخر عهد الخليفة العزيز بالله، وكان الدعاة الفاطميون يتناولونها بالبحث والدراسة.

وقد بلغ من عناية الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم أنهم فتحوا أبواب قصورهم لأنصارهم من الإسماعيلية، وأصبح داعي الدعاة يشرف على مجالس الدعوة.

(١) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 1, pp. 305 - 306.
نقلاً عن بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ١ ص ٢٠١ وما يليها.

(٢) للفاطميين دعوة علنية يذيعونها بين الناس ولهم تعاليم سرية يلقنونها للخاصة من الدعاة.

(٣) يقرأ القنوت بعد الركوع في الركعة الثانية في صلاة الصبح عند الشافعية، ويقرأ قبل الركوع في الركعة الثالثة في صلاة الوتر عند الأحناف. ويبدأ القنوت بالعبارة اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثني عليك الخير كله. أما عند الشيعة فإن القنوت يبدأ بعد الركعة الأولى أو قبل الركوع مباشرة أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر (بعد صلاة العشاء) ويكون القنوت في أبسط صورة بعبارة «إنا لك قانتون».

وقد أسندت رياسة الدعوة الإسماعيلية في عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه «داعي الدعاة». وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه. وكثيراً ما كانت وظيفة قاضي القضاة وداعي الدعاة تسند إلى رجل واحد. ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً، وله نواب ينوبون عنه في البلاد، وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وأتباعه من الإسماعيلية.

ومن أهم أعمال داعي الدعاة رياسة الدعوة الإسماعيلية، وأخذ العهد على المريدين، إما مباشرة أو بواسطة نوابه في مصر وفي غيرها من البلاد التي ساد بها المذهب الإسماعيلي، والإشراف على المحاضرات التي تلقى بمجلس الدعوة، بل لقد بلغ من عناية الفاطميين بهذه المجالس أن المحاضرات التي يلقيها داعي الدعاة ونوابه كانت تعرض على الخليفة لإقرارها قبل أن تلقى على الناس[١]. وهذا يدل على أن الخلفاء الفاطميين كانوا بصفة عامة من أفقه الناس بعقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه.

ومن خصائص داعي الدعاة جمع النجوى من «المؤمنين والمؤمنات» يعني الإسماعيلية (وكانت ثلاثة دراهم وثلثاً)، وتدوين اسم من يؤدي أكثر من المال المقرر للنجوى. ومن سراة الإسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً، وفي هذه الحالة يعطى شارة فاطمية هي عبارة عن رقعة مذيلة بتوقيع الخليفة تحمل العبارة الآتية: «بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك»[٢].

وقد خصص لداعي الدعاة مكان بقصر الخليفة يشرف منه على نشر الدعوة، فيتصل بالدعاة ويزودهم بتعليماته، ويقدمون له في يومي الاثنين والخميس ما أعدوه من المحاضرات التي تلقى في أصول المذهب الإسماعيلي.

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس مصنفاته فيحاضر الرجال، كما يعقد في الأزهر مجلساً خاصاً للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقنهن فيه أصول هذا المذهب. وكانت هذه المجالس تفرد للناس كل حسب طبقته؛ فكان لأهل البيت مجلس، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس، ولخدم القصور مجلس، وللحريم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن.

وإذا فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضرته على أنصار المذهب الإسماعيلي، أقبلوا عليه يقبلون يده، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي يحمل توقيع الخليفة من محاضرته.

(١) المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، السيرة المؤيدية، مخطوط بجامعة القاهرة ص ١٢١.
(٢) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٩١.

وممن تقلد منصب داعي الدعاة: أسرة أبي حنيفة النعمان المغربي، وابنه علي بن النعمان، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي.

وكان قاضي القضاة يلي الوزير في الرتبة، وتعلو رتبته رتبة داعي الدعاة، وكان بعض فقهاء الإسماعيلية يجمعون بين المنصبين. ومما يدل على صحة هذا القول أنه إذا انعقد مجلس الملك في قاعة الذهب بقصر الخليفة، وأخذ زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب أمكنتهم عند الأبواب، وأخذ غيرهم أمكنتهم المخصصة لهم، أخذ الأمناء في تقديم من ينبغي تقديمه للخليفة، فكان الوزير أول من يقدم إلى الخليفة، فيحيي أمير المؤمنين بلثم يديه وطرف ردائه، فيأذن له الخليفة بوسادة يجلس عليها إلى جانب الخليفة الأيمن. ثم يتلوه قاضي القضاة، فيقترب من الخليفة ويحييه ويرفع يده اليمنى ويشير بسبحته قائلاً: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته». وبهذا يتميز على سائر أعضاء المجلس اعترافاً بمركزه الديني الرفيع. ثم يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم[1].

كما يتضح ما كان يتمتع به قاضي القضاة من مركز رفيع في عهد الفاطميين من احتفال الخليفة بصلاة الجمعة. فقد كان قاضي القضاة قبل وصول الخليفة إلى الجامع يحمل المبخرة، فيبخر المنبر والقبة التي يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة. وقاضي القضاة هو الذي يدخل على الخليفة وهو في قاعة الخطابة فيشير ببدء الصلاة، وقاضي القضاة هو ذلك الموظف الكبير الذي يقف مع الوزير على باب هذه القاعة، وهو الذي يلي الوزير في التبليغ عن الخليفة عند إقامة الصلاة، وإذا خرج الخليفة من الجامع بعد الصلاة سار الوزير عن يمينه، وسار قاضي القضاة عن يساره يتبعه داعي الدعاة[2].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٩٨ - ٥٠٠.

(٢) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٨١.

وذكر القلقشندي أن الخلفاء الفاطميين كانوا يركبون في مناسبات متعددة، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام، وهي: موكب أول العام الهجري، وأول رمضان، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيدي الفطر والأضحى، وجبر الخليج (القلقشندي جـ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠). أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند الركوب لمناظرهم ويكون ذلك عادة في أيام السبت والثلاثاء «شرحه جـ٣ ص ٥٢١».

حسن إبراهيم حسن: الأزهر: تاريخه وتطوره (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٢ - ٢٧.

(ز) المكتبات:

لما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي وتقدمت صناعة الورق، تبع ذلك ظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم، فكثرت المكتبات التي تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها، وأصبحت هذه المكتبات فيما بعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية. وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة الذي قيل إن هارون الرشيد هو الذي وضع أساسه كما ذكرنا، بمختلف الكتب، وظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م).

ومن أشهر المكتبات في العصر العباسي الثاني مكتبة نوح بن نصر الساماني[١]، ومكتبة الصاحب إسماعيل بن عباد[٢]. كذلك نقل السلطان محمود الغزنوي كثيراً من المؤلفات إلى غزنة، واحتوت مكتبة مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب[٣].

وقد أشاد ياقوت الرومي بمكتبات مدينة مرو حاضرة خراسان التي استوطنها مدة طويلة، وقال إنها كانت عامرة بالكتب ولا سيما في عهد السلطان سنجر السلجوقي، وإنه كان بها عشر خزائن لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في الجامع نذكر منها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر الزنجاني، وكان فقاعياً للسلطان سنجر[٤]. وكانت تحتوي على اثنـي عشر ألف مجلد، وخزانة نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد نوه ياقوت بالفوائد الجليلة التي ساعدته على جمع مادة كتابه معجم البلدان وغيره فقال: «فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد. وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن». وقد بلغ من ولع ياقوت وإفادته من الكتب التي زخرت بها المكتبة «ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل صفي وسكن، فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المفقودة»[٥].

وكذلك اتخذ الفاطميون في مصر من مساجدهم وقصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ذكر ياقوت (انظر لفظ مرو في كتابه معجم البلدان) أن الزنجاني كان في مبدأ أمره يبيع الفاكهة والريحان ثم سار شرابياً لسنجر.

(٥) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٨٤ في ترجمته لياقوت.

خاصة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات. وقد أمدت الدولة الفاطمية مكتبة «دار العلم» التي كانت متصلة بدار الحكمة بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة، وأبيح للناس الانتفاع بما يحتاجون إليه من المواد والأقلام والأوراق والمساند دون مقابل.

كما استفادت مكتبة القصر الشرقي في القاهرة من غيرة يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي الذي عرف بولعه بجمع الكتب التي نقل عدد عظيماً منها من داره الخاصة إلى مكتبة القصر الخلافي بعد وفاته. وكان بمكتبة القصر عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام لكل قسم منها باب. وقد روى المقريزي[١] أنه كان بالقصر الشرقي أربعون خزانة منها خزانة تحتوي على ١٨,٠٠٠ مجلد. وكانت هذه المكتبة ـ كما يقول أبو شامة[٢] ـ «من عجائب الدنيا»، حتى قيل إنه كان فيها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري. وقد اختلف المؤرخون في عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر الشرقي، فذكر ابن واصل أنها اشتملت على ١٢٠,٠٠٠ مجلد، وذكر ابن أبي طي وابن الطوير وعماد الدين الأصفهاني[٣] أن هذا العدد بلغ ٢٠٠,٠٠٠ و ٦٠٠,٠٠٠ و ٢,٠٠٠,٠٠٠ على التوالي.

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر الشرقي، فهناك مسألتان جديرتان بالملاحظة تحملان على الظن بأن عدد هذه الكتب بلغ ٦٠٠,٠٠٠ على الأقل على ما ذكره ابن الطوير.

الملاحظة الأولى أنه لما مات الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) نقل الخليفة الآمر من قصره ٥٠٠,٠٠٠ مجلد إلى مكتبة القصر[٤].

والملاحظة الثانية أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) حمل من مكتبة القصر ١٠٠,٠٠٠ مجلد إلى المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني سنة ٥٨٠ هـ[٥].

ومع ذلك فقد عانت المكتبة الكبرى في القصر ما عاناه غيرها من المكتبات من المصائب التي حلت بالخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ) وعند سقوط الدولة

---

(١) خطط جـ ١ ص ٤٠٩.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) جـ ١ ص ٢٠٠.
(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢٦٨.
(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٥٧.
(٥) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٦.

الفاطمية (٥٦٧ هـ) وفي غضون المجاعة التي أصابت البلاد في عهد دولة المماليك البحرية سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ ـ ١١٩٥م)[١].

وقد انتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي الذي استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط. وبذل عبد الرحمن الناصر جهوداً متصلة في توجيه الدراسة الأندلسية في ميدان العلوم والطب، وضمت مكتبة الحكم الثاني في قصره بقرطبة بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد. وكانت هناك طائفة من الباحثين والسماسرة والناسخين تعمل لحساب هذا الخليفة وتبحث عن المؤلفات التي يستطيعون العثور عليها في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ويعمل عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين في إنماء هذه المكتبة الفخمة وتجميلها[٢]. وكذلك قلد أشراف قرطبة ووجهاؤها الخليفة الأموي في الأندلس وأخذوا في تكوين مكتبات خاصة، ومن هذه المكتبات مكتبة المنصور بن أبي عامر الحاجب التي زخرت بكثير من الكتب النفيسة. ولكن كثيراً من مجلدات هذه المكتبة قد تعرض للحريق على يد المنصور بن أبي عامر نفسه. فقد أراد بعمله هذا أن يحول دون تفاقم سخط رجال الدين الذين عرفوا بكراهيتهم للفلسفة، فأمر بإحراق كتبها في ميادين قرطبة، وأحرق بعضها بيده، فسمي حامي الإسلام.

كما أمر المنصور الحاجب بإحراق جميع الكتب الخاصة بالكتب القديمة. وليس من شك في أنه كان يقصد بهذا العمل إرضاء فقهاء المالكية السلفيين الذين كانوا يكرهون الفلسفة ويعتبرونها خطراً يهدد مذهبهم السلفي.

وقد ظل نفوذ المالكية قوياً وبغضهم للفلسفة شديداً حتى عهد المرابطين بالمغرب. فقد حملوا السلطان علي بن يوسف بن تاشفين على إحراق كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي زعماً منهم أنه من صميم الفلسفة وأنه خطر على الدين. وبذلك أمر السلطان علي بن يوسف بإحراق هذا الكتاب بالأندلس والمغرب. وكان هذا العمل السيىء من العوامل الأساسية التي تذرع بها المهدي بن تومرت صاحب دولة الموحدين في حرب الدولة المرابطية ورميها بالجمود ثم بالتجسيم في التوحيد لسيرها على مذهب السلف الصالح الذي لا يؤول الآيات القرآنية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة نفوذ علماء المالكية وتحكمهم في المجال السياسي في ذلك العصر الذي كان للدين فيه شأن كبير، ليس في العالم الإسلامي

---

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٨ ـ ٤٣٥.

(٢) بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية ـ منشورات الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية (تطوان ١٩٥١) ص ١٨ ـ ١٩.

فحسب، بل في العالم أجمع، ولا سيما في أوروبا التي كان علماء المسيحية فيها يبيعون صكوك الغفران.

(حـ) ديوان الإنشاء:

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول أصبح من الضروري تعيين طائفة من كبار الموظفين يعاونون الوزير (أو رئيس الوزراء كما يسمى الآن) في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها. ويسمى كل من هؤلاء «الكاتب». ومن هؤلاء كاتب الرسائل ومهنته إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، وكذلك مراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمة.

كذلك كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان أو عامل الإقليم في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة[١]. ويتولى كاتب الرسائل مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة. وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه.

وقد ذكر ابن خلدون[٢] الصفات التي يجب أن تتوافر في الكاتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة فقال إنه يجب أن يختار من علية القوم، وأن يكون متصفاً بالمروءة والحشمة والعلم والبلاغة.

وكانت الكتابة سبيلاً إلى الوزارة في كثير من الأحيان، فنجد المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً بعد وزيره عبد الملك بن الزيات دون أن يلقبه بلقب الوزير.

وقد ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠) أن أبا الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي (ت ٤٦٩ هـ) كان إمام عصره في النحو وأنه كان يراجع الرسائل التي تحرر بديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من نحو أو لغة. وكذلك ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٣) أن أبا محمد عبد الله بن بري (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد) المقدسي الأصل اشتهر بالنحو واللغة والرواية، وأنه كان كابن بابشاذ يراجع كل ما يحرر من الرسائل في ديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من لغة أو نحو قبل أن ترسل إلى الملوك والأمراء.

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة ويتولاها الذين عرفوا بالكفاية والقدرة على معالجة الأمور، فإذا نال صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة، وكان يطلق على صاحب الإنشاء في عهد الفاطميين «صاحب الرسائل» و «صاحب الدست الشريف»، ويتسلم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) مقدمة ص ٢١٥.

المكاتبات الواردة ويعرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها، ويستشيره الخليفة في أكثر أموره. وكذلك كان يطلق على صاحب الرسائل «كاتب السر». وكان أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي أول من تلقب بهذا اللقب في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي في سنة ٤٥٤ هـ (١١٥٩ م)(١).

ويلي صاحب الإنشاء في الرتبة في عهد الفاطميين «صاحب القلم الدقيق». ويوقع على المظالم ويجلس مع الخليفة في خلوته، فيذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال، ويحدثه عن مكارم الأخلاق، وقد يعلمه تجويد الخط. ويتقاضى مائة دينار في الشهر. فإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة، فإذا انتهى المجلس ألقي في هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاس.

ولما غدا الوزير صاحب السيف والقلم في الشطر الأخير من أيام الفاطميين وأصبح يجلس للمظالم،كان صاحب القلم الدقيق يجلس إلى جانبه ويقوم مقام كاتب السر، ويوقع تحت توقيع الوزير، بل ينظر في الشكاوى قبل انعقاد المجلس(٢).

ويلي «صاحب القلم الدقيق» في الرتبة «صاحب القلم الجليل»، ويقوم بتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها(٣)، وكانت مرتبته أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق، وتسمى وظيفته الخدمة الصغرى.

وقد اشتهر من كتاب البلاط الفاطمي أبو عبد الله القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م). وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجرائي في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي تذيل بها الأوراق لإعطائها الصيغة الرسمية. وتتكون هذه العلامة من العبارة الآتية: «الحمد لله شكراً لنعمته». كما اشتهر بالكتابة في هذا العهد ابن منجب الصيرفي الذي تقلد ديوان الرسائل في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) في عهد الخليفة الآمر، وقد ظل في منصبه إلى سنة ٥٣٦ هـ، وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين. وقد خلف لنا كتابه «الإشارة إلى من نال الوزارة» (في عهد الدولة الفاطمية)(٤).

وكانت الكتابة في الأندلس مثل «الحجابة» (الوزارة) في الرتبة وتنقسم قسمين: كتابة

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢٨١. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨٠ - ٢٨١.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٩٠ - ٤٩١.
(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص ٤٩١ - ٤٩٢.
(٤) ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب جـ ٥ ص ٤٢١ - ٤٢٢.

الرسائل ويسمى صاحبها «الكاتب»، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة. «وكاتب الزمام» ويعرف بكاتب الجهبذة (ويشترط فيه ألا يكون ذمياً، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير)[1].

وقد نهضت الكتابة في عهد المرابطين ونفق سوقها بمدينة مراكش، إذ سيطر المرابطون على الأندلس وعلى المغربين الأقصى والأوسط. وكان بدهياً أن تتطلب هذه الدولة المترامية الأطراف طائفة من رجال الأدب لتحرير الرسائل المتنوعة عن لسان أمير المؤمنين إلى عمال دولته وقوادها وكبار موظفيها. وقد وجد المرابطون في أدباء الأندلس ما يسدُّ هذه الثغرة بعد استيلائهم على هذه البلاد وهي في أوج عزها الأدبي ومجدها العلمي في عهد ملوك الطوائف، حتى إنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه علي كما يقول المراكشي[2]: «من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار».

وكان على رأس هؤلاء الأدباء ابن قصيرة، وابن عبدون، ومروان بن أبي الخصال، وأخوه عبد الله بن أبي الخصال، وأبو جعفر بن عطية المراكشي. ولم يكن هؤلاء الكتاب أشهر كتاب الأندلس، بل لقد اشتهر غيرهم، ولا سيما الكتاب الإقليميون الذين لم تتح لهم الفرصة للعمل في بلاط أمراء المرابطين.

الرباط:

الرباط لا تقل أهميته عن المسجد من حيث كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام. فقد كان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى معرضاً للخطر من ناحية البيزنطيين، ولكي يحمي المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة، أقاموا الحصون في بعض المدن الواقعة على تخوم دولتهم، مثل طرطوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية. وكانت هذه الحصون ـ أو الثغور كما كانت تسمى ـ تقع طوراً في أيدي العرب، وطوراً في أيدي الروم. وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل، ولا يستريحون إلا في أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل. ولذلك بنيت «العواصم» وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة. وفي عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدولة الأموية أن تجد أعمالاً جديدة غير الفتح والغزو للمرابطين من جند العرب في الولايات الإسلامية حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال.

ولما استولى أبو جعفر المنصور العباسي على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٩٤.

الصغرى حصن هذه المدن وأحكم بناءها من جديد، وأطلق عليها اسم الثغور. ولما ولي هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ أنشأ ولاية جديدة سماها «الثغور»، وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً، وأقام فيها المعاقل، وأمدها بحاميات دائمة، ومنح الجند بالإضافة إلى أرزاقهم أراضٍ قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم. فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين. وقد سار أبناء الرشيد على نهجه في جهاد الروم، وكان من أبرز الحروب التي قامت بين ابنه المعتصم وبين الروم، موقعة عمورية الشهيرة التي انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً يتمثل في قصيدة أبي تمام الشهيرة التي سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال في مطلع قصيدته المشهورة:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتب ... في حَدِّه الْحدُّ بين الجِدّ واللّعِبِ

وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجأون إلى هذه الثغور للتفرغ للدرس والبحث. كما كان يتوافد غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ويرابطون فيها وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال العظيمة ويحتفلون فيها بالأعياد، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى في هذه الثغور من محاسن الإسلام.

وكان المسلمون كما نعلم يغزون بلاد الدولة البيزنطية صيفاً وشتاء. ولذلك سميت هذه الغزوات الصوائف والشواتي. وكان الخلفاء يعهدون إلى ولاة عهودهم أو إلى قضاة قضاتهم قيادة الصوائف والشواتي، لأنهم كانوا يعدونها نوعاً من الجهاد في سبيل الله، فقد قاد يحيى بن أكثم جند المسلمين لحرب البيزنطيين في عهد الخليفة العباسي المأمون، وقادهم أحمد بن أبي دؤاد في عهد الواثق. وسار الأمويون في الأندلس على نهج الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضاتهم قيادة الصوائف لحرب الروم نيابة عنهم. ومن هؤلاء القضاة منذر بن سعيد قاضي الأندلس الذي تولى قيادة الصوائف في عهد عبد الرحمن الناصر[١].

وقد أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين، السفن الحربية في مصر (وهي الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع)، وفي الإسكندرية ودمياط. وكان بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانىء الشامية مثل عكار وصور وعسقلان[٢].

ولقد عرف المغرب الرباط قبل أن يعرف الزاوية، ولعل عهده به يرجع إلى زمن الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، فرباط شاكر المعروف عند الفرنجة بسيدي شكير (بضم الشين) على ضفة وادي نفيس جنوبي مراكش، وهو مدفن شاكر أحد أتباع الفاتح العظيم

---

(١) ابن خلدون: مقدمة ص ١٩٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة ص ٣٠٣.

عقبة بن نافع الفهري، بناه يعلى (بفتح الياء) ابن مصلين (بفتح الميم وسكون الصاد) أحد رجال رجراجة (بفتح الراء) السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة، فأسلموا وعادوا إلى المغرب دعاة للدين الحنيف. وكان شاكر يقاتل فيه كفار بورغواطة[١]. وقد جدد المولى محمد بن عبد الله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ (١٧٦٤ م)[٢].

ويمتاز الرباط بطابعه الحربي بالإضافة إلى وظائفه الدينية من العبادة وتلاوة القرآن والتفقه في الدين، وهو بذلك لا يختلف عن الرابطة إلا من حيث كونها تبتدىء حيث ينتهي، فتجعل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم، وتهيىء المرابطين فيها بعد ذلك للجهاد، على ما نجده في رابطة عبد الله بن ياسين الجزولي[٣]. وقد اجتمع في هذه الرابطة نحو ألف من رجال صنهاجة كما تقدم، فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولاً، ثم أمور الجهاد في سبيل نشر الدين الحنيف. وكان للجهاد في عهد عبد الله بن ياسين غرضان:

الأول: فتح بلاد السودان، وتحويل أهلها إلى الإسلام.

الثاني: نشر مذهب الإمام مالك بين شعوب أفريقيا الشمالية[٤].

وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين. وكان عبد الله منقطعاً للعلم والجهاد في رباط شاكر، ثم انتقل إلى أقصى الصحراء ليرشد قبائل صنهاجة ويفقههم في أمور الدين. ومات وهو يقاتل كفار بورغواطة سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م)، وقبره معروف بكريفلة على الطريق الذاهبة من الرباط إلى الرماني[١].

(أ) العلوم النقلية

تقسيم العلوم:

ظهرت في الدولة الإسلامية عوامل متعددة كان لها أثر بعيد في تكوين مجتمع إسلامي جديد، وأهم هذه العوامل:

(١) التوسع في الفتوح الإسلامية إلى أقصى السند شرقاً وإلى أقصى المغرب والأندلس غرباً.

---

(١) يوسف بن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف (نشره مسيو فور، الرباط سنة ١٩٥٨) ص ٢٦.

(٢) انظر مجلة المغرب التي كان يصدرها محمد الصالح ميسة بالرباط، المقال الافتتاحي عدد شهري ربيع - جمادى سنة ١٣٥٥ هـ (يونية - يولية ١٩٣٦).

(٣) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع (الرباط ١٣٥٥/ ١٩٣٦) جـ ٢ ص ١١ وما يليه حيث تجد ترجمة مطولة لعبد الله بن ياسين.

(٤) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٦٥.

(٢) اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كالفرس والروم والهنود والصينيين وغيرهم.

وبفضل هذين العاملين دخلت في الإسلام علوم جديدة إلى جانب العلوم الدينية.

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها وميز كتابهم بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة أو الداخلية.

وتشمل العلوم النقلية: علم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والأدب. وتشمل العلوم العقلية الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والنجوم والموسيقى والسحر والتاريخ والجغرافية.

وقد قسم ابن خلدون العلوم إلى علوم آلية كالنحو واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والجغرافية، وإلى علوم مقصودة بالذات كالتفسير والحديث والفقه. وهناك تقسيم آخر للعلوم وهو العلوم النقلية والعلوم العقلية. ففي الأولى اعتمد العرب على دينهم ولغتهم وفي الثانية اعتمدوا على ما نقلوه من الأمم الأخرى. والآن نتحدث عن العلوم النقلية والعلوم العقلية التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الثاني (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ).

١ ـ القراءات:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن العباسيين عنوا بعلم القراءات الذي يعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم، وأن الأساس الذي قام عليه هذه العلم هو في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها، وبعبارة أخرى في قراءاته. ويعتبر علم القراءات أول محاولة لتفسير القرآن الكريم. ويرجع أكثر الاختلافات في القراءات إلى رجال عاشوا في القرن الأول كابن عباس وعائشة وعثمان بن عفان وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم ممن أثنى عليهم التابعون وغيرهم[١].

كانت الآية أو الآيات أو السورة ينزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم، فيقوم النبي بتبليغها لأصحابه فور نزولها. وكان أكثر الصحابة يحفظ ولا يقرأ وأقلهم يحفظ ويقرأ وأكثر هؤلاء القراء سبعة هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري. ولم يكن النبي ﷺ يكتفي بحفظ الحفاظ، بل كان يطلب إلى كتاب الوحي أن يكتبوا كلام الله المنزل. ومن أشهر هؤلاء

(١) تاريخ الإسلام السياسي جـ٢ ص ٣٢٠.

الكتاب عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب. وكان هؤلاء يدونون القرآن في العسب واللحاف والعظام والرقاع. ومن هنا نعلم أن القرآن الكريم كان مكتوباً في عهد النبي ﷺ كما كان محفوظاً في الصدور مرتب الآيات(١).

ومن أشهر القراء في العصر العباسي الثاني عبد الله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي. وقد اشتهر في الأدب والنحو والتفسير والحديث والقراءات والنسب والفرائض والحساب. وقد حفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات المختلفة. وقد ذكره العماد الأصفهاني في الخريدة وعدد فضائله وذكر أنه كان بجانب إلمامه بالعلوم الدينية ولا سيما القراءات شاعراً، وإن لم يؤثر عنه أنه كان من فحول الشعراء. ومن شعره يصف الشمعة:

صفراء من غير سَقام بها ... كيف وكانت أمها الشافيهْ
عاريةٌ باطنها مكتسٍ ... فاعجبْ لها عاريةً كاسيهْ

وقد توفي ابن الخشاب ببغداد سنة ٥٦٧ هـ(٢).

وقد اشتهر كثير من القراء في المغرب والأندلس حيث عني أهل هذه البلاد بالعلوم الدينية ومنها علم القراءات، ومن أشهر هؤلاء القراء أبو الطاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري وكان من أهل سرقسطة شرقي بلاد الأندلس. وكان ابن خلف إماماً في علم القراءات كما كان من مشهوري أدباء عصره. وقد خلف لنا كثيراً من المؤلفات التي تشهد بتفوقه العلمي ومن هذه المؤلفات: «كتاب العنوان». وكان الفقهاء في الأندلس يرجعون إليه في حياته وبعد وفاته. وقد أثنى عليه ابن بشكوال في كتاب الصلة. ولم يزل ابن خلف منصرفاً إلى علم القراءات حتى توفي سنة ٤٥٥ هـ(٣).

---

(١) كثرت القراءات في نهاية القرن الثاني للهجرة، ولكن الناس أجمعوا على صحة قراءة سبعة قراء هم: عبد الله بن عامر المتوفى بالشام سنة ١٨ هـ. وأبو معبد عبد الله بن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠ هـ، وأبو بكر عاصم المتوفى بالكوفة سنة ١٢٧ هـ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى بالبصرة سنة ١٥٤ هـ، ونافع بن نعيم المتوفى بالمدينة سنة ١٦٩ هـ، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى بالبصرة سة ١٨٩ هـ، وأبو عمارة حمزة بن حبيب المتوفى سنة ٢١٦ هـ. ومن أشهر رواته ابن هشام، ثم جاء القراء الثلاثة فصارت بهم القراءات عشراً وهم: أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٥ هـ، وأبو محمد خلف بن هشام المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ. ثم جاءت قراءات أربع نسبت لمحمد بن محيص المكي، والأعمش الكوفي والحسن البصري ويحيى اليزيدي، فأصبحت القراءات أربع عشرة، والمشهور والمتواتر منها القراءات السبع.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢١١.

ومن أشهر القراء أحمد محمد، ويعرف بابن العريف، وكان من أهل المرية ببلاد الأندلس. وكان فوق اشتغاله بكثير من العلوم الدينية يعنى عناية خاصة بالقراءات ويهتم بطرائقها المختلفة، واشتهر بالورع والتقوى. ومن مؤلفاته كتاب: «المجالس في التصوف». وقد بلغ من تبحره في العلم والتفاف الناس حوله، ولا سيما أهل الزهد والتقوى، أن أثار حسد منافسيه، فوشوا به عند السلطان علي بن يوسف أمير المرابطين الذي استدعاه إلى مدينة مراكش. ولكن ابن العريف لم يكد يصل إلى هذه المدينة حتى أدركته منيته ودفن بها (٢٣ صفر سنة ٥٣٦ هـ). وقد أثر عن هذا السلطان أنه أسف على استدعائه لما عرفه عن صلاحه وتقواه[١].

ومن أشهر قراء المغرب في ذلك العصر أبو العباس أحمد (ابن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطيئة اللخمي الفاسي). وقد ولد بمدينة فاس سنة ٤٧٨ هـ وتلقى العلم بها، ثم هاجر مع أهله إلى مصر واستقر بها. وقد عرف بالصلاح والزهد وعفة النفس، كما كان ملماً بالأدب وقد عده المؤرخون والفقهاء إماماً في القراءات السبع. وقد أقام بجامع راشدة في القاهرة، فقد ذكر ابن خلكان[٢] أنه وقعت بمصر في أيامه مجاعة، فسار إليه أعيان البلاد وسألوه قبول مساعدتهم، فامتنع. فاتفقوا على أن يخطب أحدهم ابنته الوحيدة، فتزوجها شخص من الأثرياء يعرف بالفضل بن يحيى الطويل الذي طلب من هذا الفقيه أن تعيش زوجته مع جدتها، فوافق على ذلك وقضى أيامه بنسخ الكتب ويعيش من أجره القليل حتى توفي في شهر المحرم سنة ٥٦٠ هـ.

٢ ـ التفسير:

لا ريب أن العرب الذين عاصروا نزول الوحي قد أدركوا معانيه ووقفوا على الأسباب التي أدت إلى نزول الآيات القرآنية. غير أن الأمم الإسلامية الأخرى وخاصة الفرس، كان يصعب عليها إدراك معاني الآيات والظروف التي أحاطت بنزولها، ولهذا نشأ علم التفسير.

وقد اتجه المسلمون كما ذكرنا في الأجزاء السابقة في تفسير القرآن اتجاهين، يعرف أولهما: باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة. ومن أشهر مفسري هذا النوع محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ، والقرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ. وقد اتسع التفسير بالمأثور على مر الأزمان بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

أما النوع الثاني من التفسير فيعرف باسم التفسير بالرأي، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل. ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية.

أما المعتزلة فإنهم لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم على العقل. وقد فسروا بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية، وأسسوا تعاليمهم على أسس دينية من القرآن الكريم واستخدموا التفسير في رد حجج خصومهم. ولما كان المعتزلة يؤمنون بمبدأ التنزيه أو بالأحرى بمبدأ نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى فقد أخذوا يفسرون القرآن على وفق آرائهم التي تقوم على العقل مخالفين في ذلك تعاليم مدرسة التفسير بالمأثور. ولذلك نرى مفسري المعتزلة يلجأون إلى التأويل فيما يتعارض مع مبدئهم في نفي صفات الله، وخالفوا المفسرين بالمأثور في رؤية الله يوم القيامة. من ذلك تفسيرهم قوله تعالى في سورة القيامة (٧٥: ٢٢ ـ ٢٣): ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة، على حين يقول المفسرون بالمأثور إن عباد الله الصالحين يرون ربهم عياناً. وقد استدل المعتزلة بقوله تعالى في سورة الأنعام (٦: ١٠١). ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير﴾ قائلين إن الأبصار لا تدركه في الدنيا بدليل قوله تعالى على لسان موسى في سورة الأعراف (٧: ١٤٣) ﴿رَبِّ أرِنِي أَنْظُرْ إليك قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾: «وإذا كانت رؤية الله في الدنيا مستحيلة فهي في الآخرة أحرى»[١]. وبذلك حبذ جولد تسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية؛ لأنهم كافحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين[٢].

ومن أشهر مفسري العصر العباسي الثاني (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ) الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ. وكانت له أمالي في الشعر والأدب شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالي تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائي وغيره.

ومن أشهر مفسري المعتزلة في هذا العصر العباسي أبو يونس عبد السلام القزويني (ت ٤٨٣ هـ). وقد فسر القرآن تفسيراً مطولاً، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبع

(١) جولدتسيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ترجمة ص ١١٠ ـ ١١١.
انظر كتابي الإسلام السياسي جـ٣ ص ٢٤٣.
(٢) جولدتسيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١١٣ ـ ١١٥.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ص ٣٤٢.

مجلدات. ويرجع السبب في عدم ذيوعها بين الناس إلى ضخامتها وما تحويه من عقائد السنيين أحياناً.

ويضع بعض الكتاب أبا القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) اللغوي المشهور وصاحب الكشاف في مرتبة الطبري في تفسيره. ولئن كان الطبري قد أخذ ببعض القصص الإسرائيلية، فإن الزمخشري قد بالغ في ذلك وأدلى برأيه في كل ما يتعلق بالتفسير، حتى إنه نال إعجاب المستشرقين. وقد أشاد به جولد تسيهر وعقد له فصلاً خاصاً في كتابه مناهج التفسير الإسلامي.

والزمخشري من أئمة علماء المعتزلة، وربما كان هذا سر إعجاب جولد تسيهر[1] به، وقد أثر عن الزمخشري أنه كان إذا قصد صديقاً وطلب أن يؤذن له في الدخول قال: قل لفلان أبو القاسم المعتزلي بالباب. وهذا يدل على اعتزازه بانتمائه للمعتزلة.

وكان الزمخشري إمام عصره في التفسير والحديث واللغة، «تشد إليه الرحال في فنونه»[2]. ومن مؤلفاته كتاب الكشاف في تفسير القرآن الكريم الذي يقول فيه ابن خلكان[3] إنه «لم يصنف قبله مثله». ومن كتبه المحاجاة بالمسائل النحوية، وكتاب المفرد والمركب في اللغة العربية، وكتاب الفائق في تفسير الحديث، وكتاب أساس البلاغة في اللغة، وكتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، وكتاب متشابه أسامي الرواة، وكتاب النصائح الكبار والنصائح الصغار. ومن كتبه أيضاً كتاب ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض، وكتاب المفصل في النحو، وكتاب الأنموذج في النحو، وكتاب المفرد والمؤلف في النحو. وللزمخشري كذلك كتاب رؤوس المسائل في الفقه، وكتاب شرح أبيات سيبويه، وكتاب المستقصى في أمثال العرب، وكتاب صميم العربية، وكتاب سوائر الأمثال، وكتاب شقائق النعمان في حقائق النعمان، وكتاب شافي العي من كلام الشافعي، وكتاب القسطاس في علم العروض، وكتاب المناهج في علم الأصول. وله أيضاً ديوان الرسائل وديوان الشعر، وكتاب الأماني في كل فن إلى آخر ما خلف لنا من تراث إسلامي يشيد بعلو كعبه في شتى الثقافات الإسلامية[4].

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١٣٧. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ ٢ ص ٢٩٠.

(٢) رحل الزمخشري إلى مكة وأقام بها مدة، ولذلك أطلق عليه «جار الله». وكان هذا الاسم علماً عليه، ثم طلب العلم في مدينة بخارى، وهناك سقط عن دابته فانكسرت رجله. وقد توفى بخوارزم سنة ٥٣٨ هـ، وذلك بعد رحلته من مكة.

(٣) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٥٧.

(٤) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٥٤ ـ ٢٦٠.

ومن أشهر مفسري هذا العصر أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن مَتّويه (ت ٤٦٨ هـ) وكان أشهر علماء عصره في النحو والتفسير الذي أخذه عن أبي إسحاق الثعلبي المفسر المشهور الذي وصفه ابن خلكان (ج ١ ص ٦١) فقال إنه: «كان أوحد زمانه في علم التفسير». ومن مؤلفاته: «التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير». كما وضع ابن متويه في التفسير عدة كتب نذكر منها البسيط، والوسيط، والوجيز. وقد ذكر ابن خلكان[1] أن أبا حامد الغزالي اعتمد على مؤلفات ابن متويه وأفاد من علمه وأعجب به حتى اقتبس أسماء كتبه الثلاثة في التفسير.

ولابن متويه كتب أخرى في التفسير نذكر منها كتاب «أسباب نزول القرآن» و«التحبير في شرح أسماء الله الحسنى» كما شرح ديوان المتنبي شرحاً وافياً اعتمد عليه الأدباء الذين جاءوا بعده. وقد أخذ ابن متويه العلم على الثعلبي المفسر المشهور وتوفي ابن متويه في نيسابور سنة ٤٦٨ هـ.

أما الباطنية فقد اتخذوا التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجأوا إلى التأويل. فتراهم يفسرون قوله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[2] بأن قوله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ أي اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ بأن السماء هي الإمام، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم؛ ومعنى: ﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى ﴿يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ أن الجنات هي الدعوة السرية الباطنية والأنهار هي العلم الباطني[3]، وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى[4]: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾، الشيطان هو عمر بن الخطاب والإنسان هو أبو بكر الصديق. ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب. وتفسيرهم قوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾[5] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس وآدم المشهورين في القرآن هما أبو بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر[6].

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٤٦٤ - ٤٦٦.
(٢) سورة نوح ٧١: ١٠-١٢.
(٣) Guyard, p. 209.
(٤) سورة الحشر ٥٩: ١٦.
(٥) سورة الرحمن ٥٥: ٥.
(٦) الغزالي: فضائح الباطنية (نشره جولد تسيهر - ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣.

والشيعة يقدسون الإمام ويؤولون كثيراً من الآيات القرآنية للتدليل على علو مقام الإمام والولاية له، فيقولون في قوله تعالى في سورة الأنعام: (٦ : ١٢٢) ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾: النور هو الإمام الذي يأتم به المسلم، وفي قوله تعالى في سورة النمل (٢٧ : ٩٠) ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون، ومن جاء بالسيئة فَكُبَّتْ وجوههم في النار﴾: الحسنة معرفة الولاية وحب أهل البيت للإمام، والسيئة إنكار الولاية وبغض أهل البيت، والأئمة هم الهداة الذين قال الله فيهم في سورة الرعد (١٣ : ٧) ﴿ولكل قوم هاد﴾[1].

هذان هما نوعا التفسير كما عرفا في العصور السابقة. ولئن كان التفسير بالرأي يبدو لأول وهلة أعم وأشمل من التفسير بالمأثور، فإنه مما لا ريب أن الذين أخذوا به قد بالغوا في استعماله حتى خرجوا به عن المقصود من تفسير القرآن الذي يراد به أن يكون واضحاً جلياً لا غموض فيه ولا إبهام على نحو ما ترى في تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده الذي نراه يعتمد على الرأي المستمد من أقوال السلف، والذي يرجع إلى جوهر القرآن وروح الدين، وهو يعمل رأيه في هذا بالتوسع في شرح الآيات القرآنية دون أن يتقيد بتفسير من سبقه، بحيث أضبح تفسيره مزيجاً من التفسير بالمأثور ما دام صحيحاً، ومن التفسير بالرأي الذي لا يفسر القرآن في نطاق إطارات ضيقة محدودة، إذ أن القرآن إنما جاء لهداية البشر، بحيث إذا سئلنا في يوم القيامة، على ما يقوله الأستاذ الإمام محمد عبده: هل بلغتم الرسالة؟ وهل تدبرتم ما بلغتم؟ استطعنا الإجابة على ذلك معتمدين على استخدام الرأي والعقل، ولكن في نطاق الجوهر الأساسي للقرآن الكريم.

(٣) الحديث:

إذا عرفنا أن الحديث الشريف هو أحد أصلين قام عليهما التشريع الإسلامي باتفاق جميع المذاهب الإسلامية، أدركنا أهمية هذا العلم في الثقافة الدينية الإسلامية خاصة وفي الثقافة الفكرية عامة، فالسلفيون، وفي مقدمتهم الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اتبع طريقهم كالظاهرية والحزمية، قد جعلوا التشريع الإسلامي قائماً على القرآن الكريم والحديث الشريف. وزاد الأحناف، ثم الشافعية الرأي والقياس كما هو معروف في علم أصول الفقه. ومن هنا نرى الحديث الشريف يلي القرآن في الأهمية، وكان له رجال عرفوا باسم المحدثين.

وقد نال الحديث حظاً وافراً من جهود الفقهاء. ولكن المصادر التي اعتمد عليها المسلمون لدراسة الحديث قليلة نذكر منها «الصحيحين» (البخاري ومسلم) وأبا داود

(١) عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٥٢.

السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن، وأبا عيسى بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع، وأبا عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، وأبا عبد الرحمن بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ صاحب السنن.

ومن أشهر المحدثين الذين ظهروا في المشرق في طليعة القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن مندة (بفتح الميم والدال وسكون النون) المتوفى سنة ٥١١ هـ. وهو من أهل أصبهان، وقد وصفه ابن خلكان في هذه العبارة فقال: «هو محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث. وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية، ثقة حافظاً فاضلاً مكثراً صدوقاً، كثير التصانيف، حسن السيرة بعيد التكلف. أوحد أهل بيته في عصره. خرج التخاريج لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصبهانيين»[1].

وعلى الرغم من شهرة ابن مندة الواسعة في علم الحديث فإنه يُعَدُّ من المؤرخين المعدودين. وقد صنف كتاب «تاريخ أصبهان» وغيره.

ومن مشهوري علم الحديث بالمشرق في القرن السادس الهجري، المحدث الفقيه أبو محمد (الحسين بن مسعود بن محمد) المعروف بالفرّاء البغوي[2]، وكان متبحراً في العلم، وقد صنف كثيراً من الكتب في الحديث والتفسير والفقه. ومن مؤلفاته كتاب: «شرح السنة في الحديث»، وكتاب «التهذيب في الفقه»، وكتاب «معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم»، وكتاب «المصابيح»، وكتاب «الجمع بين الصحيحين».

ومما يلفت للنظر إسهام النساء في الاشتغال بالعلوم الدينية، لا سيما في علم الحديث. ومن هؤلاء النساء: كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية التي اشتهرت برواية صحيح البخاري، وتوفيت بمكة سنة ٤٦٤ هـ[3].

ومن أشهر المحدثين في العصر الفاطمي أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ السِّلفي. وكان من أهل أصبهان، وكان حافظاً غزير العلم شافعي المذهب. وقد اختلف إلى كثير من البلاد يطلب الحديث على بعض أعلام الفقهاء، وقد رحل من بغداد إلى صور حيث ركب البحر إلى الإسكندرية فوصل إليها في شهر ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (١١١٨ م). ولما استقر به المقام استمع إلى دروسه كثير من أهالي البلاد. وفي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ الوزير الفاطمي

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢١٧.

(٢) بفتح الباء الموحدة والغين المعجمة بعدها واو نسبة إلى بغو بخراسان.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٢٦.

العادل بن السلار في الإسكندرية كلية عين السلفي عميداً لها، فظل يتقلد هذا المنصب حتى توفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م)(١).

وقد جعل أهل المغرب موطأ الإمام مالك من أصول كتب الحديث. ولا عجب فقد كان مالك إمام محدثي المدينة في عصره، كما كان أول فقيه وجه أنظار المسلمين إلى ضرورة الاعتماد على الحديث الشريف باعتباره أحد أصلين قام عليهما الفقه الإسلامي.

وقد اهتم الموحدون في المغرب بموطأ المهدي محمد بن تومرت باعتباره صورة مصغرة لموطأ الإمام مالك، وذلك بعد حذف الأسانيد، واهتم الخليفة الموحدي الثالث يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) بعلم الحديث اهتماماً خاصاً، حتى إنه قام بإصلاح فقهي أساسه اعتبار الحديث الشريف بالإضافة إلى القرآن الكريم مصدر التشريع في العبادات والمعاملات، وأمر بإحراق أهم الكتب التي تناولت الكلام على مذهب مالك، مثل مدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب(٢). كما أمر بوجوب أخذ الفقه من كتب عشرة عدها أمهات كتب الحديث، وهي الصحيحان (البخاري ومسلم)، والترمذي، وموطأ مالك، وأحاديث المهدي محمد بن تومرت في الطهارة، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي.

وكذلك ندرك مدى اهتمام المغرب الأندلسي بعلم الحديث في جميع العصور ولا سيما في القرن الخامس الهجري، حيث ظهر الفقيه المحدث الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ، والشيخ عبد الله بن ياسين زعيم دولة المرابطين المتوفى سنة ٤٥٣ هـ. وفي القرن السادس الهجري ظهر المهدي محمد بن تومرت المتوفى سنة ٥٢٤ هـ، كما ظهر الخليفة الموحدي المحدث يعقوب المنصور المتوفى سنة ٥٩٥ هـ(٣).

ومن أشهر المحدثين في الأندلس الحافظ القرطبي أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٢ هـ) الذي يقول أبو الوليد الباجي إنه لم يكن بالأندلس مثله في الحديث. ومن أشهر كتبه: كتاب «الاستدراك لمذاهب الأعصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار». وقد جمع ابن عبد البر الصحابة في كتاب سماه «الاستيعاب في معرفة الأصحاب». ومن كتبه كتاب «الدرر في المغازي والسير»، وكتاب «بهجة المجالس وأنس المُجالس».

---

(١) ابن خلكان: جـ ٢ ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٢٧٩.

(٣) عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٣٠٧.

كما نبغ في علم الحديث في المغرب والأندلس: أبو الوليد الباجي، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد الفيلسوف المشهور، وابن عاصم مؤلف: «التحفة». وتعتبر النسخة التي نقلها المحدث المشهور ابن سعادة من صحيح البخاري في سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) المرجع الأساسي في رواية صحيح البخاري في كافة بلاد المغرب والأندلس. ومن هؤلاء المحدثين أيضاً أبو علي الحسين بن أحمد الغساني الجياني (ت ٤٩٨ هـ) صاحب كتاب «تقييد المهمل» الذي ضبط فيه كل لفظ يقع فيه اللبس من كتاب الصحيحين، ويقع هذا الكتاب في جزأين، ويعد الجياني من أعظم المحدثين الذين ظهروا ببلاد الأندلس.

٤ ـ الفقه:

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩) أنه قد ظهر في العصر العباسي الثاني بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب في الفقه وأن هذه المذاهب لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام المذاهب الأربعة. ومن فقهاء هذا العصر داود الظاهري(١) الذي كانت له طريقة خاصة تتلخص في الأخذ بظاهر نص القرآن والسنة وعدم قبول الرأي والقياس؛ ولذلك سمي داود الظاهري، ويعرف أتباعه بالداودية أو الظاهرية(٢)، والظاهرية ـ كما يقول ابن خلدون(٣) ـ قد جعلوا المدارك كلها منحصرة في التصوف والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص. وبذلك خرج داود على علم الأصول والقواعد الفقهية التي وضعها أئمة المذاهب الأربعة ولا سيما الإمام الشافعي(٤). وكان ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهري(٥). ثم انفصل ابن حزم عن الظاهرية واشتغل بمذهب خاص عرف به سمي المذهب الحزمي وعرف أتباعه بالحزمية.

وهناك مذاهب أخرى في الفقه انقرضت كمذهب سفيان الثوري(٦) المتوفى سنة ١٦١ هـ. وقد أخذ عنه الأوزاعي (ت ١٨٠ هـ) إمام أهل الشام(٧)، ومذهب إسحاق بن راهويه (بفتح الهاء والواو وسكون الياء) (ت ٢٤٠ هـ). وفي القرن الثالث الهجري ترى من المذاهب: المذهب الشافعي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنفي، ومذهب الثورية، ومذهب

---

(١) وينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان، وكان شافعي المذهب.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٣٠٣.

(٣) مقدمة ص ٣٩٠.

(٤) ولداود مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم (الفهرست ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥).

(٥) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٣٤٧.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١٠.

(٧) المقري: نفح الطيب جـ ٤ ص ٢١٤.

الداودية أو الظاهرية. وقد ساد من هذه المذاهب في القرن الرابع الهجري: المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، ومذهب الداودية. كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كالمذهب الحنبلي ومذهب الراهوية ومذهب الأوزاعي. على أن السيادة قد أصبحت على مر الزمن للمذاهب الأربعة المشهورة وظلت على ذلك إلى وقتنا هذا وقد وقف الاجتهاد عند هذه المذاهب. وفي ذلك يقول ابن خلدون[١]:

«ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم[٢]، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد».

وقد ظهر في وقتنا الحاضر الاتجاه إلى توحيد المذاهب الفقهية والرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة في استخلاص الفروع الفقهية مع الاستئناس بآراء الأئمة حتى يسير المسلمون في اتجاه واحد في أمور دينهم مما عساه أن يضع حداً للخلافات المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من ألوان الشقاق والفرقة.

(أ) فقه الشيعة:

وقد نهض المذهب الإسماعيلي نهضة بعيدة الأثر على أيدي الفاطميين الذين اعتمدوا على المدارس التي أطلقوا عليها في المغرب «مدارس الدعوة» لبث عقائد المذهب الإسماعيلي على أساس تعاليم الفقه الشيعي. وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الحكمة، ومنها دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم الفاطمي. وقد امتدت هذه المدارس إلى أقاليم الدعوة الفاطمية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها في ذلك الحين.

وكان الخلفاء الفاطميون بصفة عامة من أفقه الناس بعقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه، كما كان لداعي الدعاة ونوابه أثر كبير في نشر الفقه الشيعي على المبادىء التي كانت تلقى في المساجد والقصور وفي دور العلم كمدارس الدعوة ومدارس الحكمة. وكان هؤلاء الدعاة يصنفون الكتب ويعدون المحاضرات التي تتناول المسائل الفقهية التي يستمدونها من أئمة أهل البيت. وقد أنجبت الدعوة الإسماعيلية دعاة كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف. ومن بين هؤلاء الدعاة أو الفقهاء: أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) في بلاد الديلم، وأبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١ هـ) وأبو حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ) الذي عاصر الفاطميين في المغرب وترك مؤلفات ذات غناء في الفقه الإسماعيلي.

---

(١) مقدمة ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(٢) أي لم يبق منهم أحد.

وقد بلغت الدعوة الإسماعيلية ذروتها على يد الخليفة المعز لدين الله وقاضي قضاته أبي حنيفة النعمان المغربي، وباب أبوابه جعفر بن منصور اليمن (٤٠٨ هـ). وكان لهذه المدرسة أثرها البعيد فيما خلفه من جاء بعده من الدعاة، مثل حميد الدين الكرماني الذي يعد من فلاسفة الإسماعيلية ودعاتهم في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله والذي كان يلقب بحجة العراقين. وقد ألف الكرماني في الرد على بدعة الدرزية في تأليه الحاكم رسالة سميت «الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله» ويثبت فيها عقيدة الإسماعيلية في وحدانية الله سبحانه. ومن أشهر كتبه كتاب «راحة العقل»، وله رسائل في أدب الإسماعيلية، وكتاب «المجالس البغدادية» وكتاب «المجالس البصرية» جمع فيهما محاضراته في تأويل الآيات المتشابهة[١].

ومن أشهر فلاسفة الإسماعيلية وفقهائهم المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، ويعرف بالمؤيد فقط. وقد غلب عليه لقب المؤيد في الدين، ويسمى «هبة الله» و «السلماني» نسبة إلى سلمان الفارسي. وقد انحدر المؤيد في الدين من أسرة اتخذت التشيع لها ديناً والفاطمية مذهباً. وأخذ المؤيد يرقى مدارك الدعوة الإسماعيلية حتى تقلد رياسة الدعوة في شيراز وأصبح حجة بلاد فارس حول سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م)، واتصل بالسلطان أبي كاليجار البويهي وكسب عطفه وتوثقت صلته به، واستطاع بقوة حجته وبلاغته أن يستميله إلى الدعوة الإسماعيلية، ثم سار إلى الأهواز ودعا الناس إلى إقامة الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي، ثم رحل المؤيد في الدين إلى الموصل ولجأ إلى قرواش بن المقلد العقيلي، ولكنه لم يستجب لدعوته، فرحل إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ومثل بين يدي الخليفة المستنصر الذي قلده ديوان الإنشاء. واستمال أبا الحارث البساسيري التركي الذي انتصر جنده على جند طغرلبك السلجوقي أول الأمر ونشر الدعوة الفاطمية في العراق وخطب للخليفة الفاطمي في بغداد نحواً من سنة[٢].

وقد تقلد المؤيد في الدين رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعي الدعاة في سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٨ م)[٣]، كما برع المؤيد في العربية والفارسية وخلف كثيراً من الكتب التي تعد بحق من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم[٤]. ومن مؤلفاته كتاب «المجالس المؤيدية» و «ديوان المؤيد»

(١) انظر كتاب أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٨٥ ـ ٩٣ و ٩٩ وحسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: المعز لدين الله ص ٢٥٨ وما يليها.

(٢) المؤيد في الدين: ديوان المؤيد في الدين، نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) مقدمة ص ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٨ و ٣٠. السيرة المؤيدية: مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، رقم ٥٦: ٢٦ ص ١٦.

(٣) ديوان المؤيد في الدين مقدمة ص ٤٩.

(٤) Ivanow, A Guide to Ismaili Literature

و «سيرة المؤيد في الدين» و «شرح المعاد» و «كتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير» وكتاب «الابتداء والانتهاء» و «قصيدة الاسكندرية» وتسمى أيضاً «ذات الدرجة»، وكتاب «تأويل الأرواح» وكتاب «المسألة والجواب» وكتاب «أساس التأويل»[١].

ومن أهم آثار المؤيد في الدين كتاب «المجالس المؤيدية»، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الفاطمي، ويصور «ديوان المؤيد» عقائد الفاطميين تصويراً كاملاً. كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأي والقياس.

ومن أهم مؤلفات المؤيد في الدين التي تعرض لفلسفة الإسماعيلية كتاب «المجالس المستنصرية». فقد تناول الكلام على أصول عقائد الإسماعيلية وتعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن، ورفع من شأن إمام العصر وهو المستنصر بالله ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً تتناول هذه المسائل وهي:

١ ـ توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك والقرناء له.
٢ ـ الاعتراف بالأنبياء والرسل وعصمتهم من كل خطأ وأن محمداً خاتم النبيين.
٣ ـ القول بوصاية علي وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم.
٤ ـ التصديق بما جاء في القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً.
٥ ـ إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة[٢].
٦ ـ القول بالظاهر والباطن معاً.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر عالماً أندلسياً رحل إلى مصر واتخذها وطناً له، ذلك هو الفقيه المالكي المشهور أبو بكر الطرطوشي[٣] الذي ينتسب إلى مدينة طرطوشة شرقي مدينة بلنسية بالأندلس، حيث ولد سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م). وقد تنقل في الحجاز والشام والعراق، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء في أمهات المدن الإسلامية كمكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة، ونزل الإسكندرية واستوطنها وقام بالتعليم فيها، وبقي بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م).

ولم يلبث الطرطوشي أن تقرب إلى الوزير الفاطمي المأمون البطائحي وأهدى إليه «سراج

---

(١) Ibid., p. 413.
(٢) ديوان المؤيد في الدين ص ١٠٣.
انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الجامع الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٣ ـ ٣٥.
(٣) بتشديد الطاء الأولى مع ضمها وسكون الراء. انظر لفظ طرطوشة في معجم البلدان لياقوت.

الملوك»[1] وكان من مظاهر سرور الوزير بهذا الكتاب أن رتب للطرطوشي خمسة دنانير في كل يوم، فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفضل ابن (أمير الجيوش) بدر الجمالي قد أجراهما عليه.

وقد أسهم الفقيه الطرطوشي في تعديل قانون الوراثة في عهد الفاطميين، ذلك القانون الذي قضى بأن ترث البنت كل ما يتركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت. وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذي يقتضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة. ثم عدلت هذه القاعدة التي تجيز بمقتضى قانون الشيعة بأن تستولي البنت على جميع الثروة التي يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث. وقد قضى هذا التعديل بأن يرث كل من الشيعيين والسنيين على وفق مذهبه والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته. وقد تم هذا التعطيل سنة ٥١٦ هـ.

وتوريث البنت جميع الثروة يخالف ما ورد في القرآن الكريم، إذ فصَّل الميراث في سورة النساء (٤: ١١ ـ ١٢) تفصيلاً واضحاً.

(ب) الفقه في اليمن:

انتشر مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة في اليمن، وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة وقع في هذا البلاد حدثان عظيمان:

الأول ـ فتنة القرامطة التي عمت بلاد العراق.

والثاني ـ قيام الإمام الهادي يحيى بن الحسين العلوي الذي دعا إلى اعتناق عقائد الشيعة في اليمن:

ولد يحيى سنة ٢٤٥ هـ واشتغل بالعلم منذ حداثة سنة في الحجاز والعراق وانتشر نفوذه في اليمن سنة ٢٨٠ هـ ويذكر المؤرخون أن يحيى دخل اليمن بدعوة من أهلها. وقد انتشر فيها مذهب القرامطة وجاهدهم جهاداً كبيراً، وألف كثيراً من الكتب قيل إنها جاوزت الأربعين. ووضع أساس الفقه الهدوي التي كانت تسير عليه الدولة اليمنية الزيدية حتى قيام الجمهورية العربية اليمنية.

وقد شق المذهب الشافعي طريقه إلى اليمن إلى جانب الزيدية، حتى أصبح للمذهب الشافعي في هذه البلاد أنصار يعملون على نشره ولا سيما بجهة زبيد وبيت الفقيه. وقد ظهر هذا المذهب على يد القاسم بن محمد الجمحي إمام الشافعية في صنعاء وعدن، وامتد في أواخر

---

(١) ويقال إن كتابه يسمى سراج الهدى.

القرن الرابع الهجري إلى المعافر ولحج وأبين وأهل الجند والسحول وغيرها، وممن أخذ الفقه عن القاسم الجمحي، جعفر بن عبد الرحيم المخائي الذي قام بالتدريس والفتيا ومات سنة ٤٦٠ هـ.

ومن علماء اليمن القاضي محمد الصليحي وابنه علي بن محمد. وقد تفقه في عقائد المذهب الشيعي وأسس الدولة الصليحية في هذه البلاد في القرن الخامس الهجري.

ومن أشهر علماء اليمن: زيد بن عبد الله اليفاعي. وقد أخذ الفقه وعلم الكلام على مشاهير علماء اليمن ومكة، ثم عاد إلى اليمن وسكن الجند حيث التف حوله كثير من الطلاب ثم هاجر إلى مكة حيث قضى فيها اثنتي عشرة سنة. واشتهر بالزهد والورع وعاش من غلة أرضه واستغل ثروته في التجارة. وقد نبه ذكر زيد بن عبد الله في مكة وبرز على فقهائها، ثم عاد إلى اليمن سنة ٥١٢ هـ وبقي بها حتى مات سنة ٥١٤ هـ.

ومن أشهر فقهاء اليمن: عبد الله بن يحيى الصعبي، وقد أخذ عليه الفقه كثير من الطلاب وكان إماماً في العربية. ومن فقهاء اليمن أيضاً: أبو بكر بن محمد اليافعي الذي تقلد قضاء اليمن (من إب إلى عدن) من قبل الداعي محمد بن سبأ. وقد أخذ الفقه على أخواله ونبغ في اللغة العربية والشعر وعلم الكلام ومات سنة ٥٥٢ هـ.

ومن أشهر فقهاء اليمن أيضاً: عمر بن علي بن سمرة الجندي اليمني. وقد خلف لنا كتابه «طبقات فقهاء اليمن». ويعد من أقدم المصنفات اليمنية في هذا الموضوع. وكان هذا الكتاب المرجع الذي يعتمد عليه الفقهاء الذين ألفوا في الطبقات والتراجم. وقد استمد الجندي مادته من كتب الفقه والحديث والتاريخ.

وكان الجندي شافعي المذهب، وقد ترجم لنفسه في ثنايا كتابه، فذكر أنه أخذ العلم من أشهر علماء اليمن، وأنه تقلد القضاء في «أَبْين» سنة ٥٨٠ هـ، وحج بيت الله من عدن عن طريق البحر وزار جزيرة كمران في ذهابه وإيابه. وتعد أسرة ابن سمرة من الأسر العريقة ذات الجاه والثراء. وقد ذكر مؤلفو التراجم والسير أن ابن سمرة انتهى من وضع كتابه سنة ٥٨٦ هـ ولم يجزموا برأي في سنة وفاته. ويظهر أنه توفي في السنة التي أتم فيها كتابه. ويلاحظ أنه يستطرد أحياناً فيذكر شيئاً من تاريخ الأسرات والدول التي تداولت الحكم في اليمن.

ولما كان الجندي يدين بعقائد المذهب الشافعي وجب أن نأتي بكلمة عن انتشار هذا المذهب في بلاد اليمن مستعينين في ذلك بما أورده هذا المؤلف نفسه في كتابه.

كان مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة قبل قدوم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين

إليها سنة ٥٨٠ هـ وانتشار الدعوة الشيعية على يده وظهور دعوة علي بن فضل وابن حوشب. ولما ظهر مذهب الإمام الشافعي لقي فقهاء اليمن بعض أئمة الشافعية في مكة والمدينة وبغداد والفسطاط وغيرها، وأخذوا عنهم علمهم وكتبهم وعادوا بها إلى اليمن حيث انتشر هذا المذهب من صنعاء إلى عدن في القرن الرابع الهجري، ثم عم انتشاره بعد ذلك إلى القرن السادس الهجري[1].

(جـ) الفقه في المغرب والأندلس:

جاء إقرار مذهب مالك في الأندلس رداً على إقرار العباسيين مذهب أبي حنيفة بالمغرب. ففي القرن الرابع الهجري تدخل الأمويون في سياسة المغرب ونشروا المذهب المالكي بين أتباعهم. على أن الاضطرابات السياسية التي سادت هذه البلاد في عهد الزناتيين لم تتح الفرصة لظهور علماء من المغرب متفقهين في المذهب المالكي بسبب عدم ضمان حياة الاستقرار التي تساعدهم على الإنتاج العلمي. وقد نقل مذهب مالك إلى أفريقية في القرن الثالث الهجري على أيدي علماء تلقوا العلم عن تلاميذ مالك، نخص بالذكر منهم أبا القاسم ومن تلاميذه أسد بن الفرات وسحنون[2].

ثم جاء المرابطون في عصر ظهور كبار الفقهاء كأبي عمران الفاسي، وعبد الله بن ياسين، والقاضي عياض ـ وكلهم من المغاربة الذين تلقوا العلم ببلاد الأندلس. وقد تلقى عبد الله بن ياسين العلم بقرطبة[3] نحواً من سبع سنين، ثم أتم دراسته على وجاج بن زللو الذي تلقى العلم بدوره عن أبي عمران الفاسي بالقيروان، ثم أسس أول مدرسة لفقه المالكية في نفيس على مقربة من أغمات. وكان مذهب مالك يتناسب وبساطة المرابطين الصحراوية الذين كانوا ينظرون إلى علماء أهل المدينة باعتبارهم رمز الإسلام ورسل المحبة والصفاء.

وقد قويت سلطة فقهاء المذهب المالكي في عهد المرابطين ولا سيما في بلاد الأندلس. وكان كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قد وصل إلى الأندلس والمغرب، وشقت الصوفية التي تقوم على محاسبة النفس طريقها إلى هذين البلدين[4]، وأصبحت الهوة تتسع في الأندلس بين الصوفية وبين الفقهاء الذين خشوا على نفوسهم من دخول كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي الذي جمع بين أحكام الفقه وآداب المتصوفة. فأفتوا علي بن يوسف بن تاشفين بمصادرته وإحراقه. ومما هو جدير بالملاحظة أن فقهاء المالكية قد قاوموا كتاب إحياء علوم الدين لسببين:

(١) الجندي. طبقات فقهاء اليمن ص ١٢ ـ ١٣. (٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٠.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٢١٨. (٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥.

الأول ـ أن الاتجاه الفقهي في هذا الكتاب يسير على مذهب الإمام الشافعي.

الثاني ـ أن كتاب الإحياء كتاب صوفي في روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي كان يحرمها المالكية ويخشون منها على مذهبهم. ولذلك أفتوا بإحراق الكتاب.

وكان زعيم فقهاء المالكية بالأندلس ابن حمدين وزعيمهم بالمغرب مالك بن وهيب[١] وقد تم إحراق هذا الكتاب بين سنتي ٥٠٠ و ٥٠٥ هـ.

ومما يدل على قوة نفوذ الفقهاء في الدولة المرابطية ما كان يتمتع به عبد الله بن ياسين من نفوذ، حتى إن أمراء المرابطين كانوا بعد موته لا يبرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء، ومن أكبر الأدلة على قوة نفوذ الفقهاء أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين هم بمساعدة مسلمي الأندلس ضد النصارى لم ير بداً من الرجوع إلى رأي الفقهاء الذين أفتوا بوجوب حرب النصارى، ثم أملوا على الأمير الكتاب الذي يجب أن يوجهه إلى الفونس السادس ملك المسيحيين في الأندلس. وكانت هذه الرسالة على نمط الرسائل التي كان يرسلها النبي والخلفاء الراشدون إلى الملوك. ومما يدل على صحة هذا الرأي ما ذكره المراكشي[٢] أن علي بن يوسف بن تاشفين «كان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشورة الفقهاء». ويذكر لنا التاريخ أن الفقهاء في الأندلس طلبوا إلى يوسف بن تاشفين القدوم إلى بلدهم وأفتوا بخلع ملوك الطوائف. بل إن علي بن يوسف بن تاشفين حين فكر في تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩ هـ استفتى الفقهاء في المغرب والأندلس، وقد اشترك ابن رشد الأندلسي في مجلس علي بن يوسف وأفتى بصحة هذه الفتوى. كذلك أفتى ابن رشد علي بن يوسف بإبعاد النصارى المعاهدين بغرناطة إلى المغرب لمساعدتهم «ابن روذمير» وغدرهم بالمسلمين، فتم ترحيلهم إلى المغرب ولا سيما إلى مكناسة وسلا[٣].

(٥) علم الكلام:

علم الكلام هو البحث في أمور العقيدة الإسلامية مثل توحيد الله، والكلام في ذاته سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله، ثم الكلام في الأنبياء والرسل، ويتناول كثير من كتب علم الكلام مسائل عصمة الرسل والإمامة. وقد يعرض هذا العلم لمسائل غيبية كالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك، ثم يعرض هذه المسائل على مقاييس العقل والمنطق في معرض جدلي كلامي منطقي. ويعد علم الكلام أساس الفلسفة الإسلامية، بل لقد تميزت به هذه الفلسفة

---

(١) الحلل الموشية ص ٨٥.
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١.
(٣) الحلل الموشية ص ٧٦.

الكلامية عند المسلمين عن الفلسفة اليونانية.

ويعتبر علم الكلام وليد النهضة الثقافية الإسلامية التي تأثرت بثقافات اليونان والفرس والسريان في العصر العباسي الأول. وقد حملت المعتزلة لواء علم الكلام الذي سيطر على الفكر الإسلامي حيناً من الدهر، وكان له أثر بعيد في دفع العقلية العربية خاصة والإسلامية عامة في ميدان التفكير الإسلامي العام.

ومن أشهر متكلمي المعتزلة: أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ. ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ من تلاميذ أبي الهذيل العلاف. وكان للنظام منزلة لا تدانى في عصره. وقد تتلمذ له أبو عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذي تنسب إليه فرق «الجاحظية» من المعتزلة[١].

وكان علم الكلام بدعة من أكبر البدع في الإسلام. وقد شدد النكير على هذا العلم أهل الحديث (السنة السلفية) الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث في الأحكام الفقهية ابتداع[٢]. وكان رجال مذهب السلف الصالح يرمون علماء الكلام بالكفر والزندقة. وقد روى السبكي أن أحد تلاميذ الشافعي جعل يسأله في علم الكلام، فكان الشافعي يجيبه بأخصر جواب، ثم التفت إليه قائلاً: «يا بني! هذا علم (يقصد علم الكلام) إن أصبت فيه لم تؤجر، وإن أنت أخطأت فيه كفرت، فهل لك في علم إن أصبت فيه أجرت وإن أخطأت لم تأثم؟ قال (التلميذ): وما هو؟ قال (الشافعي): الفقه، فلزمته وتعلمت عليه الفقه»[٣].

ويعد تأويل الآيات المتشابهات في القرآن الكريم أهم الفوارق التي تفصل أهل السنة السلفية عن المعتزلة.

(١) التوحيد في الإسلام:

ذكر الله سبحانه وتعالى التوحيد في أغلب آيات القرآن الكريم إما مباشرة وإما ضمناً بطريق التذكير بقصص الأنبياء السابقين الذين أرسلوا لتوحيد الله قبل كل شيء[٤]، وليست أحكام الفروع إلا وسيلة لعبادة ذلك الواحد الأحد. ومن تحصيل الحاصل الاستشهاد بآيات

---

(١) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي ريدة ص ٥١.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية جـ١ ص ٣٤١.

(٤) وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ (سورة يوسف ١١: ١٢٠).

قرآنية تثبت التوحيد لأنها أكثر من أن تذكر. وقد عقدت بعض السور القرآنية جميعها للتوحيد كسورة ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾[١].

وإن هذه السور التي كانت مطلع الوحي ونزلت على النبي الكريم بمكة المكرمة كلها تدور على محور الوحدانية ومحاربة الشرك[٢]. ثم كان التوحيد أول أركان الإسلام في الحديث النبوي الشريف: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».

ولقد وضع علماء المسلمين أمر التوحيد في المنزلة الأولى في كل العصور. ومن هذا قول الإمام الغزالي: لا إله إلا الله كلمة نتيجتها معرفة الوحدانية وثمرتها الإقرار بالفردانية. وذلك هو المقصود من وجود الموجودات، وكون الكائنات. ولولا معرفة الوحدانية والإقرار بالفردانية، لما سحب ذيل الوجود على موجود، ولما أخرج من كتم العدم مفقود، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٣]، كما يتضح ذلك من الحديث القدسي المأثور عن الرسول الكريم وهو: «عبدي خلقتك من أجل التوحيد وخلقت الأشياء كلها من أجلك».

وفي القرآن الكريم آيات محكمات تنزه الله تنزيهاً تاماً وتباعد بين مشابهة الذات الإلهية بالمخلوقات كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارىء المصور، له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم...﴾[٦].

وثمة آيات أخرى يفهم ظاهرها مشابهة الله لمخلوقاته، وتسمى الآيات المتشابهات وذلك كقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾[١٠].

---

(١) سورة الإخلاص ١١٢.

(٢) انظر على سبيل المثال سورة: العلق ٩٦، المزمل ٧٣، المدثر ٧٤.

(٣) الغزالي: التجريد في علم التوحيد، مخطوط مكتبة الإسكوريال (Escorial) ورقة رقم ١٧ قسم ٧٦٢.

(٤) سورة الشورى (٤٢: ١١).

(٥) سورة الحشر (٥٩: ٢٢ ـ ٢٤).

(٦) سورة البقرة (٢: ٢٥٥).

(٧) سورة طه (٢٠: ٥)

(٨) سورة الفتح (٤٨: ١٠).

(٩) سورة الأنعام (٦: ١٨).

(١٠) سورة الأعراف (٧: ١٢٧).

وهذه الآيات المتشابهات كانت مثار جدل عنيف بين علماء المسلمين، ولا سيما بين السلفيين وعلماء الكلام.

وقد وقف السلفيون ومن سار على نهجهم موقف الحياد التام إزاء الآيات المتشابهات، فلم يسمح لهم ورعهم بأن يعمدوا إلى تأويلها، بل سلكوا سبيل الحذر، وحملهم على ذلك أمران: أحدهما ظاهره المنع الوارد في القرآن الكريم، إذ يقول الله جل شأنه مخاطباً نبيه الكريم:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ. رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

فالسلفيون قد تركوا أمر تأويل هذه الآيات إلى الله إذ لا يعلم تأويلها إلا هو حسب النص القرآني، وآمنوا بهذه المتشابهات من غير بحث قائلين: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

والأمر الثاني - أن التأويل أمر مظنون فيه بالاتفاق، والقول في ذات الله سبحانه وتعالى بالظن غير جائز. والكلاميون لا يعتبرون التأويل ظناً، بل يؤمنون بما يرونه من تأويل. هذا إلى أن التأويل المظنون ليس من شرائط الإيمان وأركانه[2].

ومن أبرز رجال المدرسة السلفية الإمام مالك، والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم.

يقول الشهرستاني في الإمام مالك: «أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل، ولا تهدفوا للتشبيه، فمنهم مالك بن أنس رضي الله عنه إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». كما ذكر الشهرستاني من رجال هذه المدرسة السلفية أحمد بن حنبل وداود الظاهري الأصفهاني[3] وتلميذه ابن حزم. وكان شعار السلفيين: فر من الكلام في أي صورة تكون كما تفر من الأسد.

ويعبر عن شعور السلفيين نحو علم الكلام قول حانق ينسبونه إلى الشافعي وهو:

---

(١) سورة آل عمران (٣: ٧ - ٨).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (جـ١ ص ١٣٧ - ١٣٨).

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل جـ١ ص ١١٨ - ١١٩.

حكمي على رجال علم الكلام أنه يجب أن يضربوا بالسياط والنعال وأن يطاف بهم مشهرين في المجامع والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ينبذ القرآن والسنة في ناحية وينكب على علم الكلام الذي إن أصاب المرء فيه لم يؤجر وإن أخطأ فيه كفر[١].

ومن أشهر السنيين السلفيين في العصر السلجوقي شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري (٣٩٦ - ٤٨١/١٠٠٦ - ١٠٨٨). ويعد من أئمة العلماء والمحدثين وكبار الصوفية. وكان حنبلي المذهب، شديد التعصب لرأيه، ولقي بسبب ذلك كثيراً من العنت والاضطهاد من الفلاسفة وعلماء الكلام، حتى دبروا له المكايد للتخلص منه غير مرة ورموه بالكفر عند الوزير نظام الملك في عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقي. إذ اتفق هؤلاء العلماء على إغارة صدر السلطان على الأنصاري واجتمعوا عنده لشكواه، وكانوا قد وضعوا صنماً صغيراً من النحاس في محرابه، وقالوا إن الشيخ يقول بالتجسيم وإن في محرابه صنماً يقول إن الله على صورته، ثم طلب هؤلاء العلماء إلى السلطان أن يبعث في طلب الأنصاري، فأرسل السلطان (وقد تملكه الغضب) من يحضر الصنم من قبلة الشيخ فأحضر، ثم أمر بالشيخ فحضر، وحضر العلماء ووجوه المدينة إلى مجلس السلطان فوجدوا أمامهم صنماً، فاتجه السلطان إلى الأنصاري قائلاً: ما هذا؟ (مشيراً إلى الصنم)؟ فقال الشيخ: هذا تمثال عمل لعبة للأطفال. فقال السلطان غاضباً: لست أسأل عن هذا، فقال الشيخ: عما تسألون يا مولاي؟ فأجابه (السلطان): إن هذه الجماعة تقول إنك تعبده كما تقول عنك إنك تقول إن الله على صورته، فقال الشيخ: (سبحانك هذه بهتان عظيم)؛ قالها بهيبة وقوة، فأدرك السلطان أن الجماعة قد افترت عليه كذباً، فاعتذر السلطان للشيخ وأعاده إلى بيته معززاً مكرماً، كما اعترفت هذه الجماعة بأنهم دبروا هذه المكيدة للشيخ للخلاص منه، ولما يلاقونه من تعصبه، فأمر السلطان بأن يشتروا أرواحهم بثمن غال فرضه عليهم عقاباً لهم.

وللشيخ عبد الله الأنصاري هذا مؤلفات تشهد له ببراعته في الأدب والزهد. ومن مؤلفاته كتاب ذم الكلام[٢].

كان اهتمام المسلمين عظيماً في مجال علم التوحيد كما تقدم، فقد كتب فيه السلفيون والمعتزلة، كما عني الشيعة كثيراً بالبحث في هذا العلم، ومن أهم ما كتبه الشيعة في علم الكلام:

---

(١) ابن تيمية: العقيدة والشريعة لجولد تسيهر (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٤.
انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ١٣٣ - ١٣٧.
(٢) وهو بالمتحف البريطاني (Add ٢٧/٥٢٠).
نظامي عروضي: جهار مقاله (ترجمة) ص ١٧٧ - ١٧٨.

كتاب المجالس المستنصرية للمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس. ويعد من أهم آثارهم في علم الكلام، وهو مجموعة محاضرات ألقاها هذا الداعي في مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الإسماعيلي الفاطمي [١].

ويعد ديوان المؤيد في الدين من أهم مؤلفاته، لأن شعره في هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً. فقد تحدث عن الولاية والتوحيد، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الولاية والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة. ومن ذلك قوله في منظومته:

وهم أُولوا الأمر أئمة الهُدى عِصْمَةُ مَنْ لاذَ بهم من الردى
مفروضةٌ طاعتُهم على الأمم قاطبةً مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
اقرأ: أطيعوا الله والرسولا ثُمَّ أولي الأمر بهم موصولا
ثلاثُ طاعاتٍ غَدَتْ مَعْلُومهْ في آيةٍ واحدة مَنْظومهْ [٢]

وكما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأي والقياس، كذلك عرض لنظرية المثل والممثول، فالإسماعيلية يذهبون إلى القول بأن النبي ﷺ يعلم بتأويل ما أتى به، وأنه أول الراسخين في العلم وأفضلهم، وعنه أخذ كثير من الراسخين في العلم. وكما أن النبي كان يعلم تأويل القرآن، فإن من قام مقامه في كل عصر يعلم هذا التأويل. كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى من يخرج كنوز معانيه ويؤولها، لأن له معان غير المعاني التي تتداولها ألسنة العامة. وهذه المعاني هي سر إعجاز القرآن، وإعجازه ليس في لفظه بل في معناه، وفي ذلك يقول المؤيد:

إن كان إعجاز القُرآن لفظا ولمْ يَنَلْ معناه منه حظا
صادفتُمْ مَعْقُودهُ محْلولا مِنْ أجل أن أنكرتُمُ التأويلا [٣]

والإمامة في نظر الإسماعيلية هي قيادة العالم وحمل معرفة الحقيقة إليه. ولا بد من وجود

---

(١) وقد بلغ عدد هذه المحاضرات ثمانمائة محاضرة. ويرجح الدكتور محمد كامل حسين (ديوان المؤيد في الدين، مقدمة ص ٦٠) أن المؤيد ألقى بعض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعي الدعاة في سنة ٤٥١ هـ.

(٢) ديوان المؤيد ص ٦١.

(٣) ديوان المؤيد ص ١١٠.

ونلاحظ في هذا الكتاب التوحيدي الشيعي أنه اهتم اهتماماً خاصاً بأمور الأئمة العلويين وما يتمتعون به من حقوق يجب على المسلمين القيام بها نحوهم كجزء من العقيدة الإسلامية، إذا جعلوا الإمامة ركناً سادساً لأحكام الإسلام الخمسة التي وردت في الحديث المشهور بني الإسلام على خمس.

هذا المرشد في كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلاً، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس. ويقول المؤيد:

وتأويله مستودعٌ عند واحد وإنْ لم تسائله فزوراً تأولتَ
وأحْمدُ بيت النور لا شك بابُه أبو حسن والبيت من بابه يُؤتى
للعلم قومٌ به خُصُّوا، أقامهم رَبُّ الورى للورى في أرضه عَلَما[1]

ولم يأخذ الفاطميون بالقياس في التفسير والفقه وطعنوا في فتاوى الصحابة، وذهبوا إلى أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى قد حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا لفظه، كما يتضح ذلك من قول المؤيد:

وهو الذي قد حَرَّف الكتابا عن وجهه وجانَبَ الصوابا
يثبتُ شيئاً ليس فيه فيه وحُكْمِ آيٍ أُحْكِمَتْ يَنفِيه[2]

كما يعتقد الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت، وأن هذه العلوم هي علوم الباطن، ولذلك سموا الباطنية، لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم. قال المؤيد:

ورُب معنى ضَمَّه كلامُ كمثل نور ضَمَّه ظلامُ
باقٍ بقاءَ الحَبِّ في السنابل في مَعْقل من أحرز المعاقل[3]

وإن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المثل والممثول[4] وهو تفسير الباطن من الظاهر، أي تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويماثلها من الأمور الجسمية المحسوسة. وهذا الاسم مستمد من أقوال الفاطميين: إن الله جعل لهم مَثَلاً دالاً على ممثوله فعرفوا الممثول بمثله، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مَثَلٍ لعلهم يتَذَكَّرُون﴾[5]. فأخفى الله سبحانه الممثول[6] وستره وجعل مثله طريقاً إلى

---

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤.
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦.
(٤) الظاهر والباطن يقابلهما المثل والممثول. فالمثل: الظاهر، والممثول: الباطن. ولكل مثل ممثول كما أن لكل ظاهر باطناً. والله يضرب الأمثال للناس، أما بواطن هذه الأمثال أو ممثلوها فلا يعلمه إلا الأئمة وحدهم، لأنهم أصحاب علم الباطن.
(٥) سورة الزمر: ٣٩: ٢٧.
(٦) يقصدون به الله سبحانه وتعالى، والمثل يقصدون به الشبه والنظير.

معرفته اختباراً لعباده وامتحاناً لهم، قال المؤيد:

والـذي قـال في الكتـاب تعـالى مَـثَـلٌ ذاك تَحْتَـه ـ ممثـول
أقصـد: خَمـا مُثْـولَـه دون المثـل ذا أبَـرُ النحل وهـذا كـالعسـل(١)

كما رد المؤيد على الفرق المختلفة في تفسير رؤية الرحمن، ورد على الفرق التي أثبتت رؤية الرحمن أو أنكرتها، فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين: أحدهما محسوس والآخر معقول وهو رؤية العقل. فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسمية والعقل لا يدرك إلا المدركات العقلية، والرؤية إما رؤية حس أو رؤية عقل. قال المؤيد:

فـالعقـل لـلمـرء أداةٌ كـالبصر ذا بـاطنٌ فيـه وهـذا قـد ظَهَـر
كـلاهمـا يُـدْرِك بـالمجـانـسـةْ مَـقَـالـةٌ صَحَّـت بـلا مُمَـارَسَـةْ
ولـيس مـن جـنس العـقـول الله يـا قـومُ كي تُـدْرِكُهُ حـاشـاه(٢)
كـما تعـالى أن يكـون كـالصـور مجسـماً كـيـما يـلاقيـه البصر

فكأن المؤيد قد رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالأبصار، كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالف المعتزلة الذين رفضوا الصفات. يدل على ذلك قوله:

فـالفـرقتـان اجتمعـا مُشَبِّهَـهْ خَيَّـاطـةٌ عَشْـواء جهـلٌ وعَمَـهْ(٣)

أما نظر المؤيد إلى ما ورد في آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية، فإن للمؤيد في ذلك رأياً يتفق مع التأويل الذي ذهبت إليه الإسماعيلية والمعتزلة. فهو يرى أن اليد هي النعمة، وهي القوة، كما يتبين ذلك من قوله:

وقـائـلٌ لله وَجْـه ويَـدُ وقـولـه: هـذا لـديـه رشَـدُ
وقـائـلٌ ذلـك حُـكْـمٌ بـاطـلُ إنْ صَحَّ ذا، فالله شَخصٌ مـاثِـلُ(٤)

أما رأي المؤيد في الأحرف التي وردت بأوائل السور كقاف ونون وألم وكهيعص، فإنه يتفق مع رأي الإسماعيلية القائين بالتأويل. وهو يرى أن لهذه الحروف معاني مستورة خفية لا يعلمها إلا خزنة علم الله. كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا إليه عن الأنبياء. ذلك أن الفاطميين يقولون بعصمة الأنبياء، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين. وقد قال

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٧.
(٢) يعني أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية.
(٣) ديوان المؤيد ص ١١١.
(٤) المصدر نفسه ص ١١٤.

الفاطميون: إن لهذه الآيات تفسيراً ظاهرياً، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين، أما باطنها فإنه يبعد الأنبياء عن المعاصي. كما سمى الفاطميون الأنبياء النطقاء، لأن النطق ـ كما قالوا ـ قسمان: أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم، وهو النطق عما في الدنيا، والآخر النطق عما في الدار الآخرة الذي يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب أي الذين يدركون الغيب. وعلى هدي هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم، وقصة إبراهيم، والملك، وطوفان نوح، وقصة لوط، وقصة داود، وقصة يوسف، كما عرض لزواج النبي لزينب بنت جحش[١].

ومن أهم الكتب التي تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المستنصرية[٢]. فقد عرض مؤلفه لعقائد المذهب الإسماعيلي في إيجاز، وقد أشار إلى هذه العقائد، ولكنه مسها مساً رقيقاً في الوقت الذي عرض فيه المؤيد في الدين لأصول هـذه العقائد التي لا بد من أن يلم بها المستجيب؛ لذلك لم يسرف في التأويل إسرافاً يثقل على السامع الذي لا عهد له بعلم الباطن من قبل؛ ولهذا نراه يعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن. وانفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله الفاطمي وأعلى ذكره وغالى في تمجيده. ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبي ﷺ، فقد عمد الداعي إلى أن يتخذ من هذا العدد التاسع عشر أصلاً من أصول الدين، فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنتي عشرة سنة، فيكون مجموعها تسع عشرة إشارة إلى الإمام المستنصر[٣]. ولم ينفرد فلاسفة الدعوة الإسماعيلية باتخاذ الأعداد أصولاً لآراء دينية، فقد اتخذ الفيثاغوريون من كل عدد أصلاً لدراستهم، كما اتخذ العبرانيون العدد سبعة أصلاً لبعض عقائدهم، وكما فعل الحرانيون

---

(١) انظر مقدمة ديوان المؤيد ص ١٣٤ ـ ١٥٢.

(٢) ذكر إيفانوف في كتابه «المرشد إلى أدب الإسماعيلية» A Guide to Ismaili Literature أن هذا الكتاب ينسب إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وأنه غير كتابه المعروف باسم «المجالس المؤيدية» ويشك الدكتور محمد كامل حسين الذي قام بنشر كتاب المجالس المستنصرية في نسبة هذا الكتاب إلى المؤيد في الدين، ويستند في قوله هذا إلى أن التأويل على ما ورد في كتاب المجالس المستنصرية يختلف عن التأويل الذي ورد في كتاب المجالس المؤيدية إذ أن المؤلف الواحد لا يرى رأيين مختلفين في مسألة واحدة كما أن صاحب كتاب المجالس المستنصرية كان يميل إلى الاعتماد على الفقه في آرائه أكثر من اعتماده على التأويل أي أنه كان سائراً على مذهب السلف الصالح، بخلاف المؤيد في الدين، فإنه كان يؤثر التأويل. وقد خلص ناشر كتاب المجالس المستنصرية إلى القول بأن هذا الكتاب ينسب إلى الداعي علم الإسلام ثقة الإمام لا إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي.

راجع كتاب المجالس المستنصرية، للداعي علم الإسلام (القاهرة ١٩٤٧).

(٣) كتاب المجالس المستنصرية، مقدمة ص ١٧.

حين اتخذوا العدد خمسة أصلاً لعقيدتهم، وكذلك كان قدماء المصريين مثلثة[١]، والزرادشتيون مخمسة. وهاك أهم ما يمكن أن يستخلص من هذا الكتاب:

١ ـ توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك والقرناء له.
٢ ـ الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ، وأن محمداً خاتم النبيين.
٣ ـ القول بوصاية علي بن أبي طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً.
٤ ـ التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً.
٥ ـ إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة.
٦ ـ القول بالظاهر والباطن معاً بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ولا الباطن دون الظاهر[٢].

وقد انفرد هذا الكتاب بأنه أفرد مجلساً تحدث فيه الداعي إلى معشر المؤمنات مما يوحي بأن الدعوة كانت توجه إلى الرجال والنساء.

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً: عرض في المجلس الأول منها لوجوب التأويل، وعرض في المجلس الثاني إلى المجلس السادس للفرائض والسنن، وعرض في المجالس من السابع عشر إلى الرابع والعشرين إلى حسن المعاملة، كالبر بالوالدين وصلة القرابة وحفظ الجار، ومعاملة الزوجين، ومعاملة العبيد، وتعرض في المجلس الخامس والعشرين إلى المجلس الثلاثين لصيام رمضان[٣].

٢ ـ علم الكلام في المغرب والأندلس:

كان المغرب يسير على وفق العقيدة السلفية، وظل أهل هذه البلاد على هذه العقيدة حتى ظهر المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية، إذ كانت دعوته توحيدية محض، فقد تحدى علماء المرابطين ورماهم بالشرك والتجسيم لأنهم يتمسكون بظاهر الآيات المتشابهات، وظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية وقامت الدولة الموحدية تحمل مذهباً كلامياً جديداً دعا إليه ابن تومرت، وفي ذلك يقول المراكشي: «وكان جل ما يدعو إليه (ابن تومرت) علم الاعتقاد على طريق الأشعرية. وكان أهل المغرب. . . ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك»[٤].

(١) المصدر نفسه، مقدمة ص ١٨.
(٢) المصدر نفسه، مقدمة ص ١٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٥ ـ ١٤٧.
انظر كتابي: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦٥ ـ ٥٠٠.
(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٤.

وليس من شك في أن ابن تومرت كون عقيدة من المذاهب الإسلامية التي سبقته، ولكن خرج آخر الأمر بعقيدة توحيدية متميزة خاصة به. فالعقيدة التومرتية تعتبر مزيجاً من المذاهب الكلامية؛ فهي ليست أشعرية بحتة كما ذكر المراكشي وابن خلدون، ولا خارجية كما أدركها علماء المرابطين، كما أنها ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ولا سلفية تنأى عن الرأي والتأويل، وليست غزالية كما توهمها «أندريه جوليان»، بل هي مزيج من أغلب المذاهب المذكورة وغيرها. وقد أغفل المؤرخون جانباً هاماً في وضع هذه العقيدة وهو المذهب الحزمي؛ فقد تأثر ابن تومرت إلى حد ما بمذهب العلامة الأندلسي «ابن حزم»، مما يرجح الرأي القائل بأن ابن تومرت قضى شطراً من حياته الدراسية بالأندلس قبل أن يقصد إلى معاهد الشرق، وأنه نهل إلى حد ما من معين الثقافة الحزمية التي كانت تتألق حينئذ بقرطبة.

ولكي نبين مدى تأثر ابن تومرت بآراء ابن حزم في العقيدة، كان من الضروري أن نعقد مقارنة بينهما في هذا الصدد، ولكنه من العسير أن نعقد مقارنة كاملة بين الإمام ابن حزم وبين المهدي ابن تومرت في ميدان التوحيد لسبب أساسي وهو أن ابن حزم له مذهب كلامي مفصل واضح المعالم محدد المنهج، إذ قد ناضل المعتزلة والأشعرية والخوارج والشيعة والمرجئة وغيرهم، وانتهى من هذا النضال إلى نتائج تميز مذهبه، وتعين مدرسته، وتبرز شخصيته. وبهذا الجهد المتواصل انفصلت شخصية المذهب الحزمي عن شخصية المذهب الظاهري الذي فضله ابن حزم على جميع المذاهب، وأعجب به.

أما المهدي ابن تومرت فلم يناضل المذاهب الكلامية نضالاً علمياً، ولم يقدم لنا نظريات وآراء نستطيع بها أن نبني له مذهباً خاصاً.

وكل ما يمكن أن نعمله من مقارنة، هو مقارنة عقيدته المدونة بكتابه: «أعز ما يطلب» بآراء غيره في ميدان هذه العقيدة، لنرى مدى التشابه أو المخالفة بينه وبين أهل المذاهب الكلامية المفصلة مثل ابن حزم.

وربما كان السبب في تخلف ابن تومرت عن أن يترك للناس مذهباً دراسياً على نمط المعتزلة والأشعرية والحزمية وغيرهم، أنه أفرغ نشاطه في مقاومة المرابطين، والتفنن في كيفية قهرهم، وصرف الناس عن اتباع مذهب السلف الذي قد يجر معتنقيه إلى التشبيه والتجسيم. وابن تومرت في هذا الميدان العلمي يعتبر من الشخصيات العلمية البارزة في التاريخ الإسلامي، فقد انتهت دعوته بإسقاط دولة عتيدة وإقامة دولة مكانها، بينما أخفق ابن حزم في نشر مذهبه في حياته، إذ قهرته السلطات الحاكمة بالأندلس، ونجح علماء المالكية في الكيد له حتى أحرق

المعتمد بن عباد كتبه، ومات مهيض الجناح. وقد ضاق الغزالي بفساد أهل زمانه، ولكنه لم يجترىء على مساجلة الدولة السلجوقية، بل كان لها أداة طيعة. والمعتزلة من قبل قد نجحوا في جذب المأمون إلى صفوفهم، كما جذبوا المعتصم والواثق، ولم يهادنهم الزمن بعد ذلك، فهزموا على يد السنيين هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة.

وابن تومرت مصلح ديني عملي، وإن لم يترك مذهباً كلامياً كاملاً. وسوف نقدم نصاً من عقيدته كما دونها في كتابه «أعز ما يطلب». قال المهدي ابن تومرت تحت عنوان «توحيد الباري سبحانه» لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات، وشنهدت عليه المخلوقات، بأنه جل وعلا، وجب له الوجود على الإطلاق، من غير تقييد ولا تخصيص بزمان ولا مكان، ولا جهة ولا حد ولا جنس ولا صورة ولا شكل ولا مقدار ولا هيئة ولا حال.

أول، لا يتقيد بالقبلية. آخر، لا يتقيد بالبعدية. أحد، لا يتقيد بالأينية[١]. صمد، لا يتقيد بالكيفية. عزيز، لا يتقيد بالمثلية. لا تحده الأذهان، ولا تصوره الأوهام، ولا تلحقه الأفكار، ولا تكيفه العقول. لا يتصف بالتحيز والانتقال، ولا يتصف بالتغير والزوال، ولا يتصف بالجهل والاضطرار، ولا يتصف بالعجز والافتقار. له العظمة والجلال، وله العزة والكمال، وله العلم والاختيار، وله الملك والاقتدار، وله الحياة والبقاء، وله الأسماء الحسنى.

واحد في أزليته، ليس معه شيء غيره، ولا موجود سواه، لا أرض ولا سماء ولا ماء ولا هواء ولا خلاء، ولا ملاء[٢] ولا نور ولا ظلام، ولا ليل ولا نهار ولا أنيس ولا حسيس، ولا رز[٣]، ولا همس، إلا الواحد القهار. انفرد في الأزل بالوحدانية والملك والألوهية، ليس معه مدبر في الخلق ولا شريك في الملك، له الحكم والقضاء، وله الحمد والثناء، لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، ليس فوقه آمر قاهر ولا مانع، زاجر ليس عليه حق ولا عليه حكم، فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[٤].

تأثر ابن حزم بمذهب داود الظاهري في الفقه والعقيدة على السواء، بل لقد زاد عليه في تمسكه الشديد بظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف في العقيدة، فكان ابن حزم لا يقول

---

(١) أي لا يتقيد بالمكان؛ فالأينية نسبة إلى أين التي يسأل بها عن المكان.

(٢) يقصد بالخلاء الفضاء الأرضي وبالملاء الفضاء الجوي، من قولهم: الملا الأعلى؛ ولكن اللفظة اللغوية تعطي معنى آخر، فالملا والملاءة شدة الثقة. انظر مختار الصحاح مادة «ملأ».

(٣) الرز (بفتح الراء مع التشديد)، أن يسكت اللسان فجأة.

(٤) أعز ما يطلب ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

بصفات الله ولا يقول بالتأويل؛ ولذلك حمل على المعتزلة وعلى الأشعرية في غير هوادة. يقول ابن حزم[١]:

«وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عز وجل فمحال لا يجوز، لأن الله تعالى لم ينص قط في كلامه المنزل على لفظة الصفات ولا على لفظة الصفة، ولا حفظ عن النبي ﷺ أن الله تعالى صفة أو صفات. نعم! ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا عن أحد من خيار التابعين، ولا عن أحد من خيار تابعي التابعين».

ويذكر ابن حزم أن لفظ الصفات قد ابتدعه المعتزلة ورؤساء الرافضة، ثم سلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام الذين لم يتبعوا سبيل السلف الصالح. ويبين ابن حزم منهجه الكلامي في هذه العبارة: «إنما الحق في الدين ما جاء عن الله تعالى نصاً أو عن رسول الله ﷺ كذلك، أو صح إجماع الأمة كلها عليه، وما عدا هذا فضلال»[٢].

ويفسر ابن حزم ما يسميه الأشعرية «صفات» الله تفسيراً بارعاً، إذ يقول في قوله تعالى: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ «إن الله له معلومات بالأشياء كلها، وهو لا يخفى عليه شيء، ولا يفهم منه البتة أن له علماً هو غيره»[٣].

من ذلك ترى أن ابن حزم قد زاد على السنة السلفية في التمسك بنص الكتاب والسنة، إذ أن السلفيين رفضوا الدخول في مناقشات في العقيدة، واعتبروا أهل الكلام كفاراً أو زنادقة. ولكن ابن حزم لم يقف من علماء الكلام موقفاً سلبياً كما وقف أهل السنة السلفية، بل نازلهم وناقشهم بالحجة والبرهان، واستعمل في مناقشته آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة، فحمل على المعتزلة وعلى تلاميذهم الأشعرية. وكان لمذهبه أتباع كثيرون في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، بل إنه ترك وراءه فرقة تحمل اسمه وتعرف بالحزمية. وقد انضم إلى هذه الحزمية كثير من الظاهرية. ومال يعقوب المنصور الموحدي إلى مذهب ابن حزم في التوحيد، واعتنق مذهبه في التوحيد رجوعاً إلى الكتاب والسنة.

(و) النحو:

حفل العصر السلجوقي بطائفة من مشهوري النحاة، نخص بالذكر منهم أبا البركات

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ٢ ص ١٢٠.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٢١.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٢٩.
انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٥٢ ـ ١٥٤، ١٥٥ ـ ١٥٦.

عبد الرحمن الأنباري[١] (ت ٥٧٧ هـ). وقد رحل إلى بغداد في صباه وقضى بقية حياته فيها، وتلقى العلم بالمدرسة النظامية، ودرس اللغة على أبي منصور الجواليقي ونبغ في الأدب. وقد عهد إليه بتدريس النحو بالمدرسة النظامية، وصنف فيه كتاب «أسرار العربية» وكتاب «الميزان».

ومن مشهوري النحاة أبو نزار البغدادي. وكان من المبرزين في النحو حتى صار «أنحى طبقته». وكان يعجب بنفسه حتى لقد لقب نفسه ملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير هذا اللقب. وقد تلقى أبو نزار الحديث وأصول الدين والفقه وعلم الكلام على أئمة زمانه، وأخذ النحو على القصبجي الذي أخذه على عبد القادر الجرجاني. ثم رحل أبو نزار إلى جرجان وكرمان وغزنة ثم إلى الشام، واتخذ مدينة دمشق موطناً له وتوفي بها سنة ٥٦٨ هـ[٢].

ومن مشهوري النحاة أيضاً ابن الدهان، وكان يسمى «سيبويه» عصره. وقد وضع كثيراً من المصنفات القيمة في النحو، منها «شرح الإيضاح والتكملة» ويقع في ثلاثة وأربعين مجلداً، و «الفصول الكبرى» و «الفصول الصغرى». كما شرح كتاب «اللمع» لابن جني (بكسر الجيم والنون مع التشديد) في مجلدين وسماه «الغرة». وألف في النحو كتاب «العروض» وكتاب «الدروس» وكتاب «الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية» (ويشتمل على سرقات المتنبي كما ذكر ابن خلكان). كما ألف ابن الدهان كتاب «زهر الرياض» في سبعة مجلدات، وكتاب «الغُنْية في الطاء والظاء»، وكتاب «العقود في المقصور والممدود والراء»، وكتاب «الغنية في الأضداد».

وقد عاصر ابن الدهان كثيراً من أئمة النحاة كالجواليقي، وابن الخشاب، واشتهر في النحو وبرز فيه حتى كان العلماء يفضلونه على هؤلاء النحاة مع ذيوع شهرتهم في هذا المضمار.

ترك ابن الدهان بغداد إلى الموصل، فتلقاه الوزير جمال الدين بالقبول وأحسن إليه. ولكن كتبه التي خلفها ببغداد قد تلفت بسبب فيضان دجلة ووصول مائه إلى داره. ولما حملت هذه الكتب إلى ابن الدهان على هذه الصورة، أشير عليه بإصلاح ما أمكن إصلاحه منها، فقام بتبخيرها بنفسه بثلاثين رطلاً من اللاذن، فصعد البخار إلى رأسه وعينيه حتى قيل إن ذلك أفقده بصره، ولم يحل ذلك دون انتفاع الطلاب بتصانيفه.

---

(١) نسبة إلى الأنبار وهي بلدة قديمة على الفرات، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. وقد قيل إنها سميت بهذا الاسم لأن كسرى كان يتخذ فيها أنابير للطعام. والأنابير جمع أنبار ونبر كصرد: اللقم الضخام. راجع القاموس المحيط مادة نبر.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧١.

وكان ابن الدهان فوق تفوقه في النحو ينظم الشعر، كما كان ابنه أبو زكريا يحيى بن سعيد أديباً شاعراً.

وقد توفي ابن الدهان بالموصل سنة ٥٦٩ هـ [١].

ومن أئمة النحو في هذا العصر ابن الخشاب البغدادي، وكان متبحراً في النحو والأدب والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب والقراءات، كما اشتهر بجودة الخط. وقد شرح كتاب «الجمل» لعبد القادر الجرجاني وسماه «المرتجل في شرح الجمل»، كما شرح كتاب «اللمع» لابن جني (ولم يكملها) وتوفي سنة ٥٦٧ هـ [٢].

وقد أخذ النحو على ابن الخشاب: أبو البقاء (الضرير) العكبري [٣] الأصل البغدادي المولد والدار. وقد اشتهر بالفقه على المذهب الحنبلي، كما اشتهر بالحساب والفرائض، وأخذ النحو على ابن الخشاب وغيره من أئمة النحو في عصره. ووضع أبو البقاء كتباً قيمة في النحو وشرح كتاب «الإيضاح» لأبي علي الفاسي. كما شرح ديوان المتنبي. وألف من الكتب النافعة كتاب إعراب القرآن الكريم (في مجلدين)؛ و«إعراب الحديث» و«شرح اللمع» لابن جني و«اللباب في علل النحو» و«إعراب شعر الحماسة» لأبي تمام، و«شرح المفصل» للزمخشري، و«الخطب النباتية» و«المقامات الحريرية»، وكذلك ألف في النحو والحساب وانتفع به الطلاب وذاع اسمه في البلاد.

وتوفي أبو البقاء سنة ٦١٦ هـ.

ومن أئمة النحو أبو البقاء ويعرف بابن الصائغ. وكان موصلي الأصل. ولد بحلب ونشأ بها وأخذ العلم فيها وفي دمشق والموصل وبغداد وغيرها. واتصل به عدد من جلة علماء عصره مثل بهاء الدين بن شداد قاضي حلب وصاحب كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» (ت ٦٣٢ - ١٢٣٤) وابن الأثير (ت ٦٣٠ - ١٢٣٢) صاحب كتابي «الكامل في التاريخ» و«أسد الغابة في تمييز الصحابة». وقد شرح أبو البقاء كتاب «المفصل» للزمخشري وكتاب تصريف الملوكي لابن جني، وتوفي بحلب سنة ٦٤٣ هـ [٤].

---

(١) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٢٤ - ١٢٦.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ٢٨٨ - ٢٩٠.

(٣) نسبة إلى عكبراء (بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء) بليدة على نهر دجلة تبعد عن بغداد عشرة فراسخ.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ٦ ص ٤٥ - ٥١.

وفي عهد بني نجاح في اليمن ظهر كثير من العلماء والشعراء والفقهاء. وكان الحسن بن أبي عباد إمام النحاة في عصره. وقد صنف في النحو مختصراً ذاع صيته في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، كما كان الحسن من أئمة اللغة، وكذلك كان ابن أخيه إبراهيم من بعده.

ومن العلماء الذين ذاع صيتهم في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني (وكان لغوياً نحوياً)، وأبو طاهر النحوي في عهد الخليفة الحاكم، وأبو يعقوب النجيرمي[1] في عهد الخليفة الظاهر، وابن البركات (ت ٤٢٠ هـ)، وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن الأغلب، وقد صنف في النحو كتاباً كبيراً، كما صنف في إعراب القرآن كتاباً يقع في عشرة مجلدات. وكان فوق ذلك عالماً بالتفسير واللغة، وتوفي في أوائل عهد الخليفة المستنصر[2].

ومن نحاة العصر الفاطمي أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ). وقيل انه ديلمي الأصل، وكان إمام عصره في علم النحو. وقد صنف كثيراً من الكتب القيمة، نذكر من بينها: المقدمة، وشرح الجمل للزجاجي، وشرح كتاب الأصول لابن السراج. كما جمع وهو في عزلته طائفة كبيرة من المسائل النحوية قيل إنها لو نسخت لقاربت خمس عشرة مجلدة، وقد سماها النحاة الذين جاءوا بعده «تعليق الغرفة»، وقد انتقلت هذه التعاليق إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بركات النحوي، ثم إلى صاحبه ابن بري (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد)، ثم إلى صاحبه أبي الحسين النحوي. وكان كل من هؤلاء النحاة المشهورين يعهد بها إلى تلميذه ويعهد إليه بحفظها[3].

ومن نحاة هذا العصر أيضاً: إسماعيل بن خلف المتوفى سنة ٤٥٠ هـ. وقد أتقن القراءات ونبغ في الأدب. وكان من أهل سَرَقُسْطه في شرقي الأندلس. ومن نحاة الأندلس أيضاً: عبد الله البطليوسي، ومن مؤلفاته كتاب «الحلل في شرح أبيات الجمل» و«الحلل في أغاليط الجمل» و«شرح كتاب سقط الزند» «لأبي العلاء المعري»، وكتاب «شرح الموطأ» للإمام مالك، وقد أقام البطليوسي بمدينة بلنسية شرقي الأندلس، وأخذ عنه كثير من الطلاب، وكان يجيد نظم الشعر؛ فمن قوله في نظم العالم:

---

(١) بفتح النون مع التشديد وكسر الجيم وفتح الراء، نسبة إلى نجيرم (ويقال نجارم) وهي محلة أو قرية بالبصرة.

(٢) ابن خلكان جـ٢ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يُظنُّ من الأحياء وهو عديم[1]

وممن نبغ في النحو في الأندلس أبو الحجاج يوسف المتوفى سنة ٤٧٦ هـ. وكان من أهل شنتمرية[2]. وقد رحل إلى قرطبة وأخذ العلم بها، وكان عالماً باللغة حافظاً للأشعار عالماً بمعانيها حريصاً على ضبطها وإتقانها. وقد قصده الطلاب من البلاد لأخذ العلم عنه. وقد كف بصره في آخر أيامه.

وقد شرح أبو الحجاج كتاب «الجمل» في النحو لأبي القاسم الزجاجي، وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد[3].

ومن أئمة نحاة الأندلس أيضاً أبو علي عمر (بن محمد بن عبيد الله الأزدي) الشلوبيني[4]، وكان إماماً في علم النحو حتى كان أهل الأندلس يعتزون بعلمه ويقولون: «ما يتقاصر الشيخ أبو علي الشلوبيني عن الشيخ أبي علي الفاسي»، وقد شرح الشلوبيني المقدمة الجزولية (في القراءات والنحو) شرحاً وافياً وشرحاً موجزاً. ومن مؤلفاته في النحو كتابه الكبير «التوطئة». وقد أقام الشلوبيني بإشبيلية مسقط رأسه. وذكر ابن خلكان[5] أن الشلوبيني كان خاتمة أئمة النحو في الأندلس.

(ز) علم اللغة:

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب[6] أن علم اللغة قد تطور في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم. فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة، وكيف نبغ في مدرستي البصرة والكوفة كثير من العلماء المبرزين كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الذي وضع علم العروض ووضع كتاب العين الذي يعتبر أول موسوعة في اللغة العربية كما يعتبر أول معجم عربي مرتب على حسب الحروف

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح الفاء المثناة من فوقها والميم وكسر الراء وبعدها ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة: وهي مدينة في غربي الأندلس ببلاد البرتغال الآن. وقد قيل له الأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا.

(٣) ابن خلكان جـ ٦ ص ٧٩ ـ ٨١.

(٤) وهذه الكلمة بلغة الأندلس معناها الأبيض الأشقر.

(٥) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٢٤.

(٦) جـ ٣ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦.

الأبجدية. كذلك نذكر سيبويه الفارسي تلميذ الخليل بن أحمد، وقد أخذ الفراء عن أستاذه الكسائي النحو واللغة وفنون الأدب. ومن أشهر كتب الفراء كتاب معاني القرآن وهو تفسير لغوي شرح فيه دقائق النحو واللغة.

وقد نهض لغويو القرن الثالث نهضة مشكورة لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف ربما وقع فيه الناسخون، فوضعوا المعاجم المنظمة على طريقة الخليل من حيث ترتيب حرف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق، وأولها حرف العين. فأنشأ ابن دريد (بضم الدال وفتح الراء وسكون الياء) (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة، وإن كان لا يخلو من بعض المآخذ لما يلاقيه الباحث الذي يؤثر السرعة من صعوبة في الوصول إلى غايته من كتب اللغة. ولعل ابن دريد أول من اخترع فن المقامات في اللغة العربية، وعنه روى تلميذه أبو علي القالي (٢٢٨ ـ ٣٥٦ هـ) «كتابه الأمالي» من أحاديث مضبوطة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة.

ومن علماء اللغة أيضاً الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥) صاحب كتاب «المحيط»، ويقع في سبعة مجلدات، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب «المجمل»، وأبو منصور الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب التهذيب، وقد رتب المادة اللغوية على الحروف مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب والحرف الأول منها هو الفصل. وقد ذاعت هذه الطريقة بعد الجوهري في تأليف المعاجم في المشرق والمغرب.

ومن علماء اللغة في شرح الدواوين الأدبية ابن بسطام (بكسر الباء) الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي (٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ). وقد تلمذ لأبي العلاء المعري ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد. وكان أحد أئمة اللغة والبلاغة في عصره، وصنف كتباً كثيرة في الأدب مثل تهذيب غريب الحديث، وتهذيب إصلاح المنطق، وكتاب الكافي في علم العروض والقوافي، وكتاب الملخص في إعراب القرآن[1]. ومن كتبه أيضاً شرح ديوان الحماسة وشرح ديوان المتنبي وشرح سقط الزند وهو ديوان أبي العلاء المعري، وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات.

وقد ألف الجوهري من علماء المشرق كتاب الصحاح على الترتيب المعروف لحروف المعجم، فجعل البداءة منها بالهمزة، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل بن أحمد.

ومن أئمة اللغة في العصر الفاطمي بمصر أبو القاسم السعدي. ولد بجزيرة صقلية سنة

(١) وقد اطلع عليه ابن خلكان (جـ ٢ ص ٢٣٣) ويقع في أربع مجلدات.

٤٣٣هـ، ثم وفد إلى مصر حوالى سنة ٥٠٠هـ، واتخذها مقراً له، واشتهر بالتبحر في اللغة، وكان من أئمة الأدب في عصره، وقد صنف كتاب الأفعال وكتاب أبنية الأسماء، وكتاب الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة (يعني جزيرة صقلية)، وكتاب أم الملح الذي جمع فيه كثيراً من أشعار الأندلس، وتوفي بمصر سنة ٥١٥هـ[١].

وقد اشتهر أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن بري المقدسي الأصل في اللغة والنحو والرواية. وكان كما وصفه ابن خلكان[٢] «علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره». وقد أخذ علم اللغة عن أبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني (بفتح الشين مع التشديد والتاء) النحوي وأبي طالب المعافري القرطبي؛ كما سمع الحديث وحفظ كلام العرب. وذيّل كتاب الصحاح بحواشي قيمة، واستدرك عليه في مواضع كثيرة تدل على سعة علمه واطلاعه وغزارة مادته. وأخذ عنه فريق من العلماء كأبي موسى الجزولي صاحب المقدمة في النحو. وكان لا يصدر بديوان الإنشاء كتاب إلى ملك من الملوك إلا بعد أن يتصفحه ابن بري ويصلح ما قد يجده فيه من خطأ، وتوفي ابن بري بمصر في سنة ٥٨٢هـ.

ومن أئمة اللغة والأدب أبو طالب عبد الجبار المعافري[٣] المغربي وقد جاب البلاد وانتهى به المطاف إلى بغداد حيث تلقى العلم بها، وأخذ عنه كثير من الطلاب. وفي سنة ٥٥١هـ وصل إلى مصر واشتغل بالتدريس فيها. ومما يؤثر عنه أنه كان يجيد الخط المغربي ويعنى بضبط ما يكتب. وقد غادر مصر سنة ٥٦٨هـ، ولكنه مات وهو في طريقه إلى بلاده[٤].

ومن علماء اللغة في الأندلس أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ (٩٦٦ - ٩٦٧م). وقد استقدمه عبد الرحمن الناصر من العراق لتأديب ابنه الحكم المستنصر، وألف كتابه «الكامل في اللغة»، وأصبح كتابه «الأمالي» مرجعاً أساسياً يعتمد عليه في اللغة والأدب. وأبو علي القالي أول من أسس علوم اللغة وآدابها في الأندلس، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وأكابر الأدباء في هذه البلاد.

ويحتل ابن سيدة (بكسر السين وفتح الدال) الأعمى الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٥ - ١٠٦٦م) مكاناً بارزاً بين علماء اللغة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر

---

(١) ابن خلكان جـ٣ ص ١١ - ١٢.
انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٢) وفيات الاعيان جـ٢ ص ٢٩٢.

(٣) نسبة إلى المعافر (بضم الميم) ابن يعفر (بفتح الياء وسكون العين وضم الفاء) وهي قبيلة كبيرة يقيم أكثرها في مصر.

(٤) ابن خلكان جـ٢ ص ٣٨٤.

الميلادي). وكان ينعم بتعضيد الموفق صاحب دانية. وهو الذي ألف كتاب «المحكم»، وتعرض فيه لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، ثم لخصه محمد بن أبي الحسين، وكان معاصراً للدولة الحفصية بتونس، ورتبه على نمط كتاب الصحاح للجوهري على أساس اعتبار أواخر الكلمات. فكان هذان المعجمان ـ كما يقول ابن خلدون ـ «توأمي رحم وسليلي أبوة». ويعتبر كتاب «المخصص» لابن سيدة الذي يقع في عشرين جزءاً (بولاق سنة ١٣٢١هـ) دائرة معارف جليلة.

وقد ذكر المقريزي[١] في ترجمة ابن سيدة أنه إمام اللغة في عصره وأنه رحل بعد موت الموفق صاحب دانية لأنه لم يأمن جانب ابنه، ففر إلى بعض البلاد المجاورة وكتب إليه مستعطفاً.

وممن نبغ في اللغة أيضاً: ابن مالك الأندلسي مؤلف الألفية المنسوبة إليه. وقد ولد في جيان ورحل في صباه إلى الشام وبقي بها حتى مات بدمشق سنة ٦٧٢هـ (١٣٧٢م).

(ح) الأدب

(ا) الشعر:

(أ) تمهيد: ذكرنا من قبل[٢] أن نزعة الأمويين في الشعر كانت جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، وأنه لما انتقل الحكم إلى العباسيين ظهر كثير من الشعراء انتهجوا مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب في الشعر خاصة وفي الأدب عامة. وذلك يرجع إلى اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عما كانت عليه الجاهلية. كما يرجع ذلك إلى انتشار الشعوبية وأثر الثقافة الأجنبية والفارسية خاصة. ومع ذلك فما زلنا نرى في اللغة العربية بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان والتزام اتخاذ أواخر الأبيات في جميع أبيات القصيدة الواحدة. وتعرف هذه الطريقة بمذهب المحافظين في أيامنا هذه.

على أن شعراء الفرس لم يدخلوا على الشعر العباسي تغييرات من الناحية الشكلية؛ غير أنهم أمدوه بكثير من ألوان الخيال الخصيب والتعبير الدقيق والإحساس العميق. كما أمدوه بطائفة كبيرة من الآراء والأفكار التي اكتسبوها من الحياة الإسلامية الجديدة، إذ كان الإسلام ذا تأثير عميق في الحياة العامة. ونرى أن الشعر في هذا العصر يتميز بصفة عامة بالرقة والعمق والتفنن في المعاني، كما يتميز بالنقد الدقيق.

---

(١) نفح الطيب جـ ٥ ص ١٧١.

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

وربما ترجع نهضة الشعر والأدب إلى تشجيع الخلفاء والسلاطين والـوزراء رجال الأدب بالعطايا الجزيلة تارة وتقليدهم المناصب الرفيعة تارة أخرى. ولذلك نلاحظ انتشار المدح في هذا العصر واشتداد روح التنافس بين الشعراء والكتاب الذين كان من أهم أغراضهم أن يحظوا بالتقرب إلى رجال الحكم رغبة في استدرار عطفهم وكرمهم، على أن المدح وكثرته يدل من ناحية أخرى على مدى استبداد هؤلاء الحكام، وأنه لم يكن من سبيل للوصول إليهم أو اكتفاء شرهم إلا بالتقرب إليهم بكثرة المدائح.

وكان السلاجقة بوجه عام يميلون إلى الشعر، فقد ذكر نظامي عروضي أن طغانشاه بن ألب أرسلان (وكان حاكماً لخراسان أيام أبيه) كان من أكثر السلاجقة ولعاً بالشعر، وأن أكثر ندمائه كانوا من الشعراء[١].

وقد أثر عن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي أنه كان لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يجيد نظمه، وأنه عني بالأئمة والمتصوفة أكثر من عنايته بغيرهم من رجال العلم والأدب.

ويقول نظامي عروضي في المقال الثاني من كتابه «جهار مقاله» (أو المقالات الأربع) الذي عنون له: «في ماهية الشعر وصلاحية الشاعر»:

«الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة والقياسات الْمُنْتِجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، ويرد الحسن في زي القبيح في صورة الحسن، ويثير بالإيهام القوي العصبية والشهوانية، فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباض وانبساط، وتنشأ في العالم الأمور العظام»[٢].

ويقال نظامي عروضي في موضع آخر عن أثر الشعر في تخليد أسماء الملوك وبقاء ذكرهم عن طريق قصائد الشعراء في الدواوين والكتب:

وأسامي ملوك العصر وسادات الزمان خُلِّدَت بذكر جماعة لهم نظم رائع وذكر شائع. كما بقيت أسماء آل ساسان بالأستاذ أبي عبد الله جعفر بن الروذكي، وأبي العباس الربَنْجَني، وأبي المثل البخاري، وأبي إسحاق الجويباري، وأبي الحسن الأعجمي، والطحاوي، والخبازي النيسابوري، وأبي الحسن الكسائي[٣] وأما أسامي آل سلجوق فبقيت بِفَرَّخي الجرجاني، ولامعي الدهسَناني، وجعفر الهمذاني... وبرهاني... وأسامي ملوك الغرور آل شَنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبي العباس الرفيعي وعلي الصوفي[٤].

---

(١) نظامي عروضي: جهار مقاله الترجمة العربية ص ٥١، ١٣٢ - ١٣٥ هامش رقم (١٩).
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥.
(٣) المصدر نفسه. (٤) المصدر نفسه ص ٣٦.

أما عن الشروط التي يجب أن تتوافر في الشاعر فهي أن يكون «سليم الفطرة صحيح الطبع جيّد الرويّة رقيق النظر، متنوِّعاً في أنواع العلوم آخذاً بأطراف الرسوم، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم».

وينبغي أن يكون الشاعر منطقياً في مجلس المحاورة طَلْقَ الوجه في مجلس المعاشرة. وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطوراً وعلى ألسنة الأحرارمذكوراً، يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن، وخير ما في الشعر تخليد الاسم، ولا يبلغ هذا المقصد ما لم يكن مسطوراً مقروءاً. وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره ومات قبل قائله. وكيف يُخَلِّدُ غيره (يعني الشعر) إن لم يخلد نفسه»[1].

وكان الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ) أديباً بليغاً وخطيباً مفوهاً، وكان ينظم الشعر. فمن شعره حين أسر:

ولا عجباً للأُسْد إنْ ظفرتْ بها ... كلابُ الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشيٍّ سقت حمزة الردى ... وموتُ عليٍّ من حسام ابن مُلجم

قال الذهبي يصف بلاغة المسترشد وفصاحته: «وفد بالناس يوم عيد أضحى فقال: «الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء وعلت على الأرض السماء. الله أكبر ما هَمى سحاب وأنجب طِلاب وسَرَّ قادماً إياب. اللهم أصلحني وذريتي، وأعني على ما وليتني، وأوزعني شكر نعمتك، ووفقني وانصرني».

فلما انتهى المسترشد من خطبته أنشده أحد شعراء هذا العصر وهو أبو المظفر الهاشمي قصيدة طويلة نذكر منها هذه الأبيات:

عليك سلامُ الله يا خيرَ مَنْ علا ... على منبرٍ قد حفَّ أعلامَه النصر
وأفضلَ أهل الأرض شرقاً ومغرباً ... ومَنْ جَدُّه من أجله نزل القطر
لقد شنَّفَتْ أسماعَنا منك خُطْبَةٌ ... وموعظةٌ فصل يلين لها الصخر
ملأتَ بها كل القلوب مهابةً ... فقد رجفت من خَوف تخويفها مصر
فلله عصرٌ أنت فيه إمامُنا ... ولله دينٌ أنت فيه لنا الصدر[2]

وقد ذكر السيوطي[3]أن الخليفة الراشد (٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ) كان أديباً شاعراً.

---

(١) المصدر نفسه ٣٧.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٩.

(ب) الطُّغْرائي (ت ٥١٣هـ):

ومن أئمة الأدب في العصر السلجوقي أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد (ويلقب مؤيد الدين الأصفهاني) المعروف بالطغرائي[١]. ولد بأصبهان وأخذ العلم على أئمة علمائها وأدبائها. وكان الطغرائي يسمى الأستاذ لغزارة علمه. وقد وزر للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي بالموصل، فلما قامت الحرب بين مسعود وأخيه محمود وانتصر محمود على أخيه ضم الطغرائي إليه، ولكن الكمال نظام الدين وزير محمود نفس على الطغرائي ورماه بالإلحاد فقتل ظلماً في سنة ٥١٣هـ[٢].

وللطغرائي ديوان شعر معروف. ومن شعره قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم التي نظمها ببغداد في سنة ٥٠٥هـ يصف فيها حاله ويشكو زمانه، ومنها:

أصالةُ الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العَطَلِ[٣]
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شَرَعٌ ... والشمسُ رأدُ الضحى كالشمس في الطَّفَلِ[٤]
فيمَ الإقامةُ بالزوراء[٥] لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناء عن الأهل صِفْرُ الكفِّ مُنْفَرِدٌ ... كالسيف عُرِّيَ مَتْناهُ عن الخلل[٦]
فلا صديقٌ إليه مُشْتَكى حَزَني ... ولا أنيسٌ إليه ينتهي جذَلي
طال اغترابي حتى حنّ راحلتي ... ورحْلُها وقِرى العسَّالةِ الذُّبُلِ[٧]
حُبُّ السلامة يُثْني هَمَّ صاحبه ... عن المعالي ويُغْرِي المرءَ بالكسل
فإنْ جَنَحْتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقاً ... في الأرض أو سُلَّماً في الجو واعْتَزِلِ

---

(١) الطغرائي (بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء بعدها ألف مكسورة) نسبة إلى من يكتب الطغرى (بضم الطاء المشددة وسكون الغين وفتح الراء) وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب في عهده، وهي كلمة أعجمية.

(٢) وقيل سنة ٥١٤ هـ كما قيل سنة ٥١٨ هـ.

(٣) الخطل: العيب والعطل والتعطل.

(٤) يفتخر بأن مجده الأخير الذي هو خلاصة حياته هو امتداد لمجده الأول الموروث عن آبائه، كالشمس في مطلعها شبيهة بها وقت غروبها.

(٥) يقصد مدينة بغداد التي يطلق عليها الزوراء لازورار نهر دجلة عندها.

(٦) يشبه حاله بالسيف المثلوم متناه من الخلل.

(٧) يقصد حتى تاقت راحلتي إلى الانتقال، والرحل: الرحيل. والقرى: كرم النوق المحيلة التي لا تكرم عادة إلا بانتقالها ومسيرها في المراعي النضرة.

ودع غِمار العُلى للمُقْدمين على ... ركوبها واقْتَنِعْ منهنَّ بالبلل
رضا الذليل بخفض مَسْكَنَةٌ ... والعز تحت رسم الأيْنُقِ الذُّلُل[١]
إنَّ العلا حدّثتني وهي صادقةٌ ... فيما تُحَدِّث أنّ العزّ في النَّقَل
لو أنّ في شرف المأوى بلوغَ مُنىً ... لم تَبْرَح الشمس يوماً دارةَ الحَمَل[٢]
أعَلِّلُ النفس بالآمال أرْقُبُها ... ما أضْيَقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأمَل

(حـ) شعراء اليمن:

وقد فطن الملك علي الصليحي إلى أهمية الشعر باعتباره وسيلة من أهم وسائل الدعاية للمذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين الذي كان يدين به الصليحيون. وقد استغل علي الصليحي الشعر في الرد على خصومه واستخدمه في الدفاع عن دولته والإشادة بذكرها، فأجزل العطاء للشعراء في اليمن كما فعل الفاطميون في مصر وسورية. وكان علي الصليحي نفسه عالماً فقيهاً متضلعاً في علم التأويل كما كان خطيباً مفوهاً.

وكان الداعي ابن نجيب الدولة الذي آل إليه الأمر في اليمن في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) غزير العلم متفقهاً في الدين. ولعل إشرافه على خزانة المدرسة الأفضلية قد ساعده على الانصراف للعلم والتزود من مورده. ولا عجب فقد كانت مدارس صنعاء والقيروان والقاهرة ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب وتتلاقى في وحدة فكرية عميقة الجذور بعيدةالأثر، وانتهت هذه الكتلة العربية إلى اتحاد شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وتخليص البلاد العربية من هذا العدوان.

وفي عهد بني نجاح (٤١٢ ـ ٥٥٤/١٠٢١ ـ ١١٥٩) اشتهر جياش بن نجاح الحبشي صاحب تهامة الذي هرب إلى الهند بعد مقتل أخيه علي بن المكرم بن أحمد الصليحي، ثم عاد بعد موته إلى اليمن وحارب الصليبيين واستعاد تهامة منهم. وكان جياش شاعراً فصيحاً، له ديوان شعر[٣]، وله أيضاً كتاب المفيد في أخبار زبيد الذي اختصره عمارة اليمني[٤].

---

(١) يعني أن الذليل يرضى بالسكن والإقامة في عيش حقير. ومن يريد العيش الكريم والعز الأثيل فعليه أن يركب النوق التي ذللت على السفر واعتادت على الرحيل.

(٢) لو كان في عدم الحركة شرف وعزة وعلى لما تحركت الشمس من مكانها.

(٣) وقد وردت نماذج من شعره في مختصر المفيد لعمارة اليمني ـ لوحة ١٤٨ نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٨٠٤٨ ح.

(٤) الجندي: طبقات فقهاء اليمن ص ١٠٤.

وفي عهد بني نجاح امتاز الوزير مفلح بن منصور الفاتكي بالأدب. وقد أنشد عبد العزيز ابن الحسين بن الحباب الشاعر المصري صاحب ديوان الإنشاء في اليمن قصيدة في مدح هذا الوزير أجازه عليها بخمسمائة دينار، كما أجازه ابنه منصور بن مفلح بثلثمائة دينار بعد أن أنشده قصيدة أخرى في مدحه. ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع (٤٧٦ - ٥٦٩/١٠٨٣ - ١١٧٣) شاعر مصري من أهل الإسكندرية يدعى ابن قلاقس فقال:

سافرْ إذا حاولت قدرا سار الهلال فصار بدرا

ويعد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني من مشهوري شعراء اليمن. وقد خلف لنا في ديوانه قصائد رائعة في مدح الفائز والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وكبار رجال دولتهم، كما سنرى ذلك واضحاً عند كلامنا على الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين.

(د) الشعر في العصر الفاطمي الأخير
٤٦٦ - ٥٦٧/١٠٧٣ - ١١٧١

حفل العصر الفاطمي الأول بطائفة من الشعراء الذين نظموا قصائدهم في مدح الخلفاء الفاطميين الذين أغدقوا عليهم الخلع والجوائز والأرزاق. ومن هؤلاء الشعراء: ابن هانىء الأندلسي في عهد المعز، ومحمد بن أبي الجَرْع وأبو حامد الأنطاكي في عهد العزيز، وعبد الوهاب بن نصر المالكي الذي وفد على مصر من بغداد في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي.

وقد أمدنا أحد الكتاب المعاصرين، وهو عماد الدين الأصفهاني[1]، بمادة غزيرة عن الدور الذي قام به الشعراء في العصر الأخير من أيام الفاطميين.

ولد أبو عبد الله محمد هبة الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصفهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م). وكان شافعي المذهب درس الفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها، وأتقن المجادلة وفنون الأدب، واتصل بخدمة الوزير عون الدولة بن هبيرة، فأحسن إليه وقربه وشمله بعطفه، فلما توفي هذا الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق حيث تقلد إدارة البريد (٥٥٢/١١٦٥). وفي سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) تولى التدريس بدمشق. ولما توفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ذهب عماد الدين إلى الموصل حيث مرض مرضاً شديداً وظل بها حتى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)، ثم رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي حتى وفاته، فعاد إلى دمشق وعكف على الأدب حتى مات سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠م).

---

(١) انظر ياقوت: إرشاد الأريب جـ ٨ ص ٨١ - ٩٠، وابن خلكان جـ ٢ ص ٩٧ - ١٠٠.

وهناك كثير من الكتاب المعاصرين، من أمثال عمارة اليمني، أسامة بن منقذ، وابن مُيَسَّر. والعصر الذي تناوله عماد الدين الأصفهاني في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر[١] يمكن تقسيمه قسمين:

الأول: يبحث في الشعراء الذين عاشوا بين سنتي ٤٨٦ - ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ - ١١٥٤م). وذلك في عهد الخلفاء الفاطميين المستعلي والحافظ والظافر.

الثاني: ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا في عهد الفائز والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

ومن هؤلاء الشعراء أبو الفتيان مُفَضّل العسقلاني، وقد جاء إلى مصر فتمتع بصلات الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي. وقد مدحه بقصيدة طويلة جاء فيها:

أقول والنَّجْمُ مرقومٌ بغرته ... سطراً نظرتُ وضوء الصبح مبتسمُ
أماء خدَّيْه أضحى في زجاجته ... يدبرُ أم ماؤها وجنتيه دمُ؟
صيغ الصباحُ ضياءً من مياسمه ... فاستنبطت حلفاً في شعره العُتَم[٢]

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر وأفادوا من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم: أبو الحسن علي بن جعفر بن البُوَيْن[٣]، وهو من أهل معرة النعمان منبت أبي العلاء المعري. وقد حاز ثقة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي قربه إليه وأدر عليه صلاته ولقبه بأمين الملك. ومن قصيدته يمدح الوزير الأفضل:

يا منْ تنافس فيه السمعُ والبصرُ ... كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومَنْ تحكّم في الأرواح فاحتَكَمتْ ... ألا يُحَكّم فيها بعده بشر[٤]

كذلك أمدنا عماد الدين بمعلومات ذات غناء عن الشاعر أبي الحسن علي بن محمد الأخفش وهو من أشراف المغاربة. وقد مدح الخليفتين الآمر والحافظ، من ذلك قوله في إحدى قصائده:

إلى ذروة النور العلائي إنه ... إلى ذروة النور الإلهي يُنْسَبُ

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً جعفر بن أبي زبيد، وقد عبر عما خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر إلى بغداد في قصيدة نذكر منها هذين البيتين:

---

(١) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس.
(٢) المصدر نفسه: ورقة ١٨١ ب.
(٣) المصدر نفسه ورقة ١٤٣ (أ).
(٤) المصدر نفسه ورقة ١١٨ (أ).

وما قصدُنا بغدادَ شَوْقاً لأهلها ولا خَفِيَتْ مُذْ قط أبصارنا عنها
ولا أنّنا اخترنا على مصر بلدةً سواها ولكن المقادير ساقتنا[١]

ومن الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم في نشر العقائد الفاطمية: أبو الحسن ابن الزُّبد. وقد وصفه عماد الدّين الأصفهاني، نقلاً عن القاضي الفاضل، فقال: «وإنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله». ومما قال يهنىء الخليفة الحافظ بانتصاره على الصليبيين: «الحمد لله الذي فضل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول وجعل أيامه واضحة الحجول والغرر مخصوصة بالفتوح والظفر. يخفق النصر على بنوده، وتسير السعادة أمام جنوده. نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده»[٢].

الشعراء بين سنتي ٥٤٩ و٥٦٧هـ (١١٥٤ - ١١٧١م)

ومن الشعراء الذين عاشوا في العصر الفاطمي الأخير: المهَذَّب الحسن بن علي بن الزبير. وقد ذكر عمارة اليمني أن الحسن كان من أشهر شعراء عصره[٣]، وقال أيضاً «ولم يكن في زمانه أشعر منه»[٤] وهو من الشعراء الذين جذبهم تعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال دولتهم. ومما قاله المهذب في قصيدة طويلة يخاطب فيها الوزير الصالح طلائع بن رُزيك يصف بطولته في الجهاد:

أفارسَ المسلمين اسمعْ، فلا سمعتْ عداك غير صليل البيض في القُلل
مقال ناء غريب الدار قد عدم الـ أنصار، لولاك لم يسمع ولم يقل
يشكو مصائبَ أيام قد اتّسَقَتْ فضاق منها عليه أوْسعُ السبل
وكيف ألقى من الأيام مُرْزِية حلّت ولي من بني رُزِّيك كلُّ وَلي؟

وقد أشاد بعض الشعراء بمدح الفاطميين وأنصارهم وهم في بلادهم لم يفدوا إلى مصر، ومن هؤلاء الشعراء المهذب بن أسعد، وكان من أهل الموصل، ثم قام بالتدريس في مدرسة

---

(١) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (أ).
(٢) المصدر نفسه ورقة ١١٠ ب.
(٣) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٣٥.
(٤) انظر عماد الدين الأصبهاني ورقة ٣٧ ب.

حمص، وكان من أعلام الفقهاء والشعراء النابهين. استمع عماد الدين الأصفهاني لشعره سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧ ـ ١١٦٨م) حين لقيه بحمص. ومن ذلك ما أنشده ابن سعد في مدح الوزير الصالح طلائع بن رزيك هذه القصيدة التي بعث بها إليه، نقتطف منها هذه الأبيات:

هادي الدعاية أبو الغارات خيرُ فتًى ... أدنى عطياته أدنى أمانيكا
يشكو إليك بنو الآمال فقرَهُمُ ... فينثنون وبيتُ المال يشكوكا
مَنْ أرتضي يا كريمَ الدهر تُنْعِشُني ... جدواه إنْ شعبي في رحابيكا؟
أأمدَحُ الترك أبغي الخير عندهم ... والشعر ما زال عند الترك متروكا[1]

وكان الوزير ابن رزيك نفسه شاعراً، ينظم الشعر ويقرب إليه الشعراء، ويذكر عماد الدين الأصفهاني أنه لقي الفقيه والشاعر النابه نصر بن عبد الرحمن (وكان من أهل الإسكندرية) في بغداد سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤ ـ ١١٦٥م) ونقل عنه قصيدة نظمها الوزير طلائع بن رزيك يرد بها على قصيدة يمتدحه فيها هذا الشاعر، وفيها يقول الوزير:

أهدى لي القاضي الفقيه عرائسا ... فيها بديعُ الوشي من تنميقهْ
فأجلت طرفي في بديع رياضه ... من ورده وبهاره وشَقيقه
فكأنما اجتمع الأحبة فانبرتْ ... يد عاشقٍ تهوي إلى معشوقه
نزّهتُ في بستان نظمك ناظري ... فحظيتُ من زهر الرُّبا بأنيقه

(هـ) عمارة اليمني:

خلف لنا أبو محمد نجم الدين عمارة بن أبي الحسن الحكمي سيرته. وكان من أهل تهامة باليمن[2]. وفي سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤ ـ ١١٥٥م) حج عمارة بيت الله في مكة، وأوفده أميرها القاسم بن فليتة[3] رسولاً إلى مصر، فوصل إليها في غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م)، فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك بالعطف والقبول على أثر إنشاده أولى مدائحه في قاعة الذهب بالقصر. وقد أقام عمارة في مصر إلى شهر شوال سنة ٥٥٠هـ، ثم عاد إلى مكة، حيث أنفذه أميرها بمهمة أخرى (صفر ٥٥١ ـ إبريل ١١٥٦)[4] إلى مصر، حيث أقام

(١) عماد الدين الأصفهاني ورقة ٧٧ (أ) ـ ١٧٨ (ب).
(٢) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٧ - ٨.
(٣) بضم الفاء وفتح اللام والتاء الأولى وسكون الياء.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٢ ـ ٣٤، ٤١، ٤٢.

في القاهرة وأصبح من مشاهير شعراء البلاط الفاطمي في عهد الفائز والعاضد. وبلغ من تشجيع الفاطميين له وإغداقهم المنح عليه أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنياً شافعي المذهب. وقدْ ظهرت ميول عمارة للفاطميين ظهوراً واضحاً حتى إنه اتهم بالاشتراك في الحركة التي قامت لإزالة سلطان الأيوبيين وشنق في شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م). ويحسن أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده، وقد أنشدها في قاعة الذهب في القصر:

١ الحمدُ للعِيسْ بعد العزم والهممِ ... حمْداً يقوم بما أوْلَتْ من النعمِ
٣ قرَّبن بُعد مزار العز من نظري ... حتى رأيتُ إمام العصر من أمم
٤ ورُحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفْداً إلى كعبة المعروف والكرم
٦ حيث الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُها ... بين النقيضين من عفوٍ ومن نقمِ
٧ وللإمامة أنوارٌ مقدسةٌ ... تجلو النقيضين من ظُلْمٍ ومن ظُلَم
٨ وللنبوة آياتٌ تَنُصُّ لنا ... على الحقيقين من حُكْم ومن حِكَم
١٢ أقسمتُ بالفائز المعصوم معتقداً ... فوزَ النجاة وأجرِ البِر في القَسَم
١٣ لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما ... وزيرُه الصالح الفراج للغمم
١٧ أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني ... في يقْظتي أنها من جملة الحلم
١٩ ليت الكواكبَ تدنو فأنظمَها ... عقودَ مدحٍ فما أرضى لكم كلمي
٢٠ ترى الوزارةَ فيه وهي باذلةٌ ... عند الخلافة نصحاً غير متهم
٢٢ خليفةٌ ووزير مَدَّ عدلهما ... ظلًّا على مَفرَق الإسلام والأمم
٢٣ زيادةُ النيل نقصٌ عند فَيْضهما ... فما عسى يتعاطى مِنّة الديم[١]

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الخليفة الفائز ووزيره، كما يحدثنا عمارة نفسه، حيث يقول إنه بعد أن أنشده قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب، ودفع إليه الوزير خمسمائة دينار، وأتته مثلها من السيدة أخت الخليفة، وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة في مناسبات كثيرة، وأقام له أمراء الدولة الولائم في بيوتهم تكريماً له، وانتظم عمارة في سلك جلساء الوزير[٢].

بقي عمارة في مصر ينعم بكرم الدولة الفاطمية، وقبل عودته إلى اليمن أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ابن رزيك، فمنحه الخليفة وأخته ألف دينار، ومنحه الوزير مائتي دينار

---

(١) النكت العصرية ص ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) عمارة اليمني: النكت العصرية في الوزراء المصرية ص ٣٧.

لقصيدة أخرى أنشدها له في داره. وكان لتدخل هذا الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت لداعي اليمن السابق وقد مات، فأشير على ولده وورثته أن يعدل عن المطالبة بها.

ولما مات ابن رزيك وآلت الوزارة إلى شاور[١]، قرب عمارة إليه وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته، فسار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته، ونال الكثير من صلاته[٢].

ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رزيك[٣] وذوي قرباه وغيرهم من الأمراء، وختم كلامه بهذه الكلمات: «ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلّ نشاطه ولا يُطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم وهنت بعدهم»[٤].

ولما عاد عمارة إلى مصر في شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦)، أحسن إليه الوزير ابن رزيك وبنوه وأهله كل الإحسان، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب، على الرغم من اختلافه وإياهم في المذهب الديني[٥].

وقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين، وأشار إلى ذلك في ديوانه ببضعة أبيات خاطب بها الوزير الذي ألح عليه في التحول إلى المذهب الشيعي، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه؛ ولكن عمارة اعتذر بلباقة[٦]. وهو يشير إلى هذا الاختلاف في العقيدة في هذا البيت:

مذاهبُهمْ في الجود مذهبُ سُنَّة ... وإنْ خالفوني في اعتقاد التشيع[٧]

ولما مات ابن رزيك (١٩ رمضان سنة ٥٥٦/سبتمبر سنة ١٦١١). أصبح حزن عمارة على وفاته مثاراً لنظم قصائده، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم. وقد نظم في هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب، من أمثال ابن واصل والقلقشندي والمقريزي، كما نظم شعراً كثيراً في الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته. ولكن إخلاصه للفاطميين أقصاه عن عطف الدولة الأيوبية. ونستطيع أن نقف على مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التي وجه بها إلى صلاح الدين، وعنوانها: «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»[٨].

(١) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٣ - ١٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٧٦.
(٦) النكت العصرية ص ٤٥.
(٧) ديوان عمارة ص ٢٨٨ و٢٩٣.
(٨) المصدر نفسه ص ٢٨٧ - ٢٩١.

ولا غرو فإن تحيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين، وانتهت حياته الحافلة بشنقه لأنه اتهم بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين[١].

(و) البهاء زهير (ت ١٢٥٨/٦٥٦)

«البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم، يجمع إلى حب الخير وفضيلة العفو، قوة الشخصية وشرف النفس وعزة الإباء. وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفائقة خصوصاً في عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان في مثل منصبه».

هكذا استهل الأستاذ مصطفى عبد الرازق مقدمة بحثه عن البهاء زهير[٢].

ينتسب أبو الفضل زهير بن محمد بن علي إلى المهلب بن أبي صُفْرة. ويطلق عليه بعض المؤرخين البهاء زهير الحجازي، ويصفه بعضهم بالمصري، ويطلق عليه آخرون الوصفين معاً.

ولد البهاء زهير بمكة (أو بوادي نخلة على مقربة من مكة) على ما ذكره ابن خلكان[٣] الذي عرفه واجتمع به وشاد بسمو أخلاقه. والبهاء زهير مصري النشأة والروح والعاطفة وفي ذلك يقول:

فرعى الله عهدَ مصرٍ وحيّا ... ما مضى لي بمصر من أوقاتِ
حبّذا النيل والمراكب فيه ... مُصْعِداتٍ بنا ومُنْحَدِراتِ
هاتِ زِدْني من الحديث عن النيـ ... ـلِ ودعني من دجلة والفراتِ

ولد البهاء زهير في ٥ ذي الحجة سنة ٥٨١هـ (فبراير ١١٨٦م) وتوفي في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٦هـ (نوفمبر ١٢٥٨م). ونشأ بمدينة قوص من أعمال صعيد مصر كما ذكر السيوطي[٤]، وكانت قوص من أهم مراكز العلم في مصر في ذلك العصر، حتى قيل إنه كان بها ستة عشر معهداً للعلم[٥].

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٨ - ٢٨٨.
ابن دقماق (جـ ٥ ص ٩٣ - ٩٤)، نقلاً عن ابن المتوج (ت ٧٣٠/ ١٣٣٠) في كتابه خطط مصر المسمى إيقاظ المتغفل المتأمل. انظر الحاشية التي كتبها مسيو ديرنبور (سيرة عمارة: جـ ٢ ص ٥٥٢).
راجع حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٢) ص ٤٤٨ - ٤٦٣.

(٢) مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٨/١٩١٠ ص (١).

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٨٢، ٨٥.

(٤) حسن المحاضرة (طبعة ١٣٢٧ هـ) جـ ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٥) الأدفوي (ت ٧٤٨ هـ) صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأهل الصعيد (القاهرة =

وقد سمع البهاء زهير بقوص بعد أن سمع فيها الحديث ودرس الأدب، ثم انتقل إلى القاهرة واتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل الأيوبي[١]، وبقي في خدمته حتى قبض عليه ابن عمه الملك الناصر داود صاحب الكرك واعتقله بقلعتها. فأقام بهاء الدين بنابلس وحافظ على عهده لنجم الدين حتى عاد إلى ملكه، فعاد بهاء الدين إلى خدمته (٦٣٧هـ)، فكان لذلك «كبير القدر عنده لا يطلع على سره الخفي غيره»[٢].

ويمتاز شعر البهاء زهير بالرقة والعذوبة وشرف المعنى. وله ديوان شعر معروف. ومن شعره يحن إلى صعيد مصر الذي نشأ به وترعرع:

أحنُّ إليكم كلَّ يومٍ وليلةٍ ... وأهْذي بكم في يَقْظَتي ومنامي
فلا تنكروا طيب النسيم إذا سرى ... إليكم فذلك الطيبُ فيه سلامي
فهل عائدٌ منكم رسولي بفرحةٍ ... كفرحة حُبْلَى بُشِّرت بغلامِ؟
ويرتاح قلبي للصعيد وأهله ... وعيشٍ مضى لي عندكم ومُقامي
وأهوى ورودَ النيل من أجل أنه ... يمرُّ على قومٍ لديَّ كرامِ[٣]

ومن مليح شعر البهاء زهير يتفكه بحال عجوز تتصابى[٤]:

كم ذا التصاغُرُ والتّصابي ... غالطْتِ نَفْسَكِ في الحسابِ؟
لم يَبْقَ فيكِ بَقِيَّةٌ ... إلا التعلُّلُ بالخضاب
لا أقتضيك مودّةً ... رُفع الخراج عن الخرابِ
ما العيش إلا في الشبا ... بِ وفي معاشرة الشبابِ
ولقد رأيتك في النقاب ... وذاك عنوانُ الكتابِ
وسألْتُ عما تحته ... قالوا عظامٌ في جرابِ
يا هذه ذهب الصِّبا ... فإلى متى هذا التصابي؟

(ز) الشعر في الأندلس:

١ - ابن زيدون:

امتازت الأندلس بجمال الطبيعة واعتدال المناخ والثروة الطبيعية التي تتمثل في المياه

= ١٣٣٣/١٩١٤).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٨١.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ٨٢.

(٣) انظر ديوان البهاء زهير. مصطفى عبد الرازق: البهاء زهير ص ٢٦.

(٤) مصطفى عبد الرازق: البهاء ص ٢٩.

المتدفقة والرياض المزهرة والسماء الصافية، والخيرات الوفيرة. وقد تنافست الأندلس مع الشرق عند قيام الدولة الأموية في هذه البلاد. وكان لهذا التنافس أثره البالغ في ازدهار الحضارة والعمران بصفة عامة والأدب بصفة خاصة، حيث كان للأدباء والعلماء منزلة رفيعة ومكانة مرموقة، فكان منهم الوزراء وحكام الأقاليم والقواد وغير هؤلاء من ذوي الجاه وأصحاب السلطان. وامتاز عصر ملوك الطوائف بازدهار العلوم والأدباء وتشجيع رجال العلم والأدب، فزخر هذا العصر بطائفة من الشعراء والأدباء الذين لا تزال آثارهم إلى اليوم شاهدة بما بلغه الأدب من منزلة رفيعة في هذه البلاد.

ومن أبرز شعراء الأندلس في عهد ملوك الطوائف: الوزير أبو الوليد (أحمد بن عبدالله ابن أحمد) بن زيدون، وينتمي إلى بيت اشتهر بفقهائه وأدبائه. وقد نبغ في الأدب وهو في حداثة سنه، واشتغل بالسياسة، فانضم إلى بني جهور الذين تولوا الحكم في قرطبة بعد سقوط الدولة الأموية، فولوه الوزارة، فحسده أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين بني جهور وقد احتال ابن زيتون كثيراً في طلب الصفح فلم يظفر بطائل، ففر من سجنه إلى إشبيلية واتصل بصاحبها المعتمد بن عباد الذي قربه إليه لعلو كعبه في الأدب[1].

وكان لعلاقة ابن زيدون مع ولادة بنت المستكفي التي اشتهرت بالأدب أثر بعيد في حياته، حتى لقد زخرت بها كتب الأدب، وأضحت قصيدته الشهيرة التي نظمها متشوقاً إلى ولادة من القصائد الخالدة في الأدب العربي بصفة عامة. وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة[2]:

أضْحى التَّنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنْتُم وبِنَّا فما أبْتلَّت جوانِحُنا ... شوقاً إليكم ولا جَفَّت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائِرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا
حالت لفقدِكُم أيامنا فغدتْ ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذْ جانِبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا ... ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
إن الزمان الذي ما زال يُضْحكنا ... أُنْساً بقربِهِمُ قد عاد يُبْكينا
غيضَ العِدى من تساقينا الهوى فدَعوْا ... بأنْ نَغَصَّ فقال الدهر آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانْبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يُخْشى تَفَرُّقنا ... فاليوم نحن وما يُرْجى تلاقينا

(١) المراكشي: المعجب في أخبار المغرب ص ١٠٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ - ١٠٩.

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا
عليكِ مني سلامُ الله ما بقيتْ صبابةٌ منك تُخفيها فتخفينا

وقد توفي ابن زيدون بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ، وكان له ولد يكنى أبا بكر تقلد الوزارة للمعتمد بن عباد بعد أبيه، وقتل في اليوم الذي سقطت فيه قرطبة في يد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين.

(٢) ابن عمار:

ومن أشهر الشعراء في عصر ملوك الطوائف أيضاً: الوزير أبو بكر محمد بن عمار (ت ٤٧٩هـ)، وقد سار على نهج ابن هانىء الأندلسي الذي أطلق عليه لقب متنبي المغرب، وإن كان عبد الواحد المراكشي يفضل ابن عمار أحياناً على ابن هانىء فيقول: «ربما كان أحلى مَنْزَعاً منه في كثير من شعره».

وينسب ابن عمار إلى مدينة شِلْب (بكسر الشين وسكون اللام) التي نشأ فيها وأخذ الأدب على علمائها. ثم رحل إلى قرطبة فأتم دراسته، ونبغ في نظم الشعر وتكسب به وجال في الأندلس مادحاً الملوك ابتغاء منحهم وعطاياهم[1]، ولم يقتصر مدح ابن عمار على الملوك والأمراء بل مدح السوقة طلباً للرزق، وظل على هذه الحال إلى أن اتصل بالمعتضد بالله أبي المعتمد بن عباد، فمدحه بقصيدة استهلها بقوله:

أدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انْبرى والنجمُ قد صرف العنان عن السُّرى[2]
والصُّبحُ قد أهدى لنا كافورةً لما استردّ الليلُ منه العَنْبَرا

ثم يخلص ابن عمار إلى مدح المعتضد فيقول:

عَبَّادُ المُخْضَرُّ نائلُ كفه والجود قد لبس الرداء الأغْبرا
قداحُ زَنْد المجد لا ينفك مِن نار الوغى إلا إلى نار القِرى[3]

وقد وقعت هذه القصيدة من نفس المعتضد موقعاً حسناً، فأمر لابن عمار بمال وثياب ومَرْكب وألحقه بديوان الشعراء، ثم اتصل بالمعتمد بن عباد اتصالاً وثيقاً حتى إنه كان لا يفارقه ليلاً أو نهاراً، فاتخذه وزيراً حين ولاه أبوه ولاية شِلْب.

وقد قام ابن عمار بدور سياسي هام في المفاوضات التي دارت بين المعتمد بن عباد

(١) المصدر نفسه ص ١١١.
(٢) بضم السين المشددة وفتح الراء السفر ليلاً.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٤، ١١٥.

والفونس السادس زعيم نصارى الأندلس[١]. على أن المعتمد بن عباد قد ساورته الشكوك في إخلاص وزيره ابن عمار، إذ كان يطمع في انتزاع أحد الأقاليم الشمالية التابعة لابن عباد ليكون ملكاً مستقلاً. ولكن ابن عباد اكتشف هذه المؤامرة وأمر بتقييده وحمله إلى مدينة قرطبة (وكان المعتمد قد انتزعها من بني جهور)[٢]، فسجن، فكتب ابن عمار أشهر قصائده متوسلاً طالباً العفو. ومن هذه القصيدة:

سجاياك إنْ عافَيْتَ أندى وأسْجح[٣] ... وعذرك إنْ عاقبت أجلى وأوضحُ
وإنْ كان بين الخُطّتين مزيةٌ ... فأنت إلى الأدنى إلى الله تجنح
حنانَيْك في أَخْذي برأيك لا تُطع ... عدايَ ولو أثْنوا عليك وأفصحوا
فإنّ رجائي أن عندك غيرَ ما ... يخوض عدوي اليومَ فيه ويمرح
ولِمْ لا وقد أسلفت وُداً وخدمة ... بكران في ليل الخطايا فيُصْبح
وهبني وقد أعقبت أعمال مُفْسد ... أما تَفْسُد الأعمالُ ثمتَ تَصْلح
إقِلْني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله بابُ مُفَتح
وعفِّ على آثار جُرم سلكتُها ... بهَبَّة رُحْمَى منك تمحو وتُمْصِحُ[٤]
ولا تلتفتْ قول الوشاة ورأيَهُم ... فكل إناءٍ بالذي فيه يرشح
وماذا عسى الواشون أن يتزيّدوا ... سوى أنّ ذنبي واضح مُتَصَحِّحُ

ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً في سنة ٤٧٩هـ[٥].

(٣) الشعر الفني: الزجل والموشحات:

ذكر المقري أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وعذوبة ألفاظه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منوال التوشيح، ونظموا في طريقتهم بلغتهم العامية الحضرية، من غير أن يلتزموا فيه إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزّجل، والتزموا النظم فيه على طريقتهم، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة. وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كان هذا النوع من الشعر قد استعمل من قبلُ بالأندلس؛ لكن لم تظهر حُلاها ولا انسكبت معانيها إلا في زمانه. ويعد ابن قزمان إمام الزجالين على الإطلاق؛ وليس أدل على ذلك من قول ابن سعيد المقري (ت ٦٧٣/ ١٢٨٥): «رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٤.
(٣) السجاحة: غزارة الماء ويقصد بها الكرم.
(٤) تمصح: أي تزيل.
(٥) المعجب ص ١٢٥ - ١٢٦، ١٢٧.

المغرب». وهذا يدل على أن أهل المشرق قد اقتبسوا الأزجال عن المغرب كما عرفوا فن التوشيح عن الأندلس أيضاً. كما يقول ابن سعيد: سمعت أبا الحسن بن جَحْدر الإشبيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة.

وقد خرج ابن قزمان إلى متنزَّه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر فقال:

وعريشٍ قد قام على ركانٍ ... بحال الرواقْ
وأسدٍ قد ابتلع ثعبان ... من غِلَظ ساق
وفتح فَمُو بحال إنسان ... به الفُواق
وانطلق مِنْ ثَمَّ على الصفاح ... وألقى الصباح

ونرى أن هذا الشعر لا يلتزم وزناً ولا قافية ولا انتظاماً بين شطري البيت الواحد، كما تلاحظ أن بهذا الشعر كلاماً ملحوناً وكلاماً عامياً؛ فمن الخطأ النحوي قول ابن قزمان «ابتلع ثعبان»، ومن الخطأ اللغوي قوله «فتح فَمُو». وهذا يدل على أن هذا الشعر قد قيل بالعامية ولم تراع فيه المقاييس أو اللغة أو العرف الشعري بخلاف التوشيح، فإنه وإن كان لم يسر على نظام القصيدة العربية، قد روعي فيه التزام قواعد النحو واللغة، وهذا هو الفرق الأصيل بين التوشيح والزجل.

ومع أن ابن قزمان كان قرطبي الدار كان يتردد على إشبيلية ويقول فيها كثيراً من أزجاله لحضارتها وجمال طبيعتها وشدة إقبال الناس على سماع أزجاله فيها(١). ولا ريب أن ابن قزمان قد نهض بفن الزجل نهضة لم يسبق إليها، وأنه كان رائداً للزجالين الذين جاءوا بعد عصره.

ويحسن أن نعرض في إيجاز للشعر الفني في هذا العصر الذي خصصناه في هذا الجزء الرابع حيث نلمس تطوراً في الشعرالعربي بالأندلس: في أوزانه وقوافيه وفي نظامه بصفة عامة. وكان ذلك التطور راجعاً إلى طبيعة الأندلس الجميلة التي تتميز بالأنهار الجارية والجنان المزهرة والأشجار المشرقة والطيور المغردة والجبال المنيفة والروابي السحيقة والطبيعة التي لا تستقر على حال. كل هذا قد تحكم في الخيال الشعري وفي الشعر العربي، فتغنى الأندلسيون بطبيعتهم وجمال بلادهم، ولم يستطيعوا أن يحصروا شعورهم في تلك القيود الشعرية التقليدية التي نقلوها عن المشرق، بل انطلقوا يعبرون عن إحساسهم ومشاعرهم بلغة حرة، فتخلصوا من هذه القيود في قصائد لم تلتزم وزناً ولا قافية ولم تلتزم نظاماً معيَّناً في القصيدة. وقد أطلق على هذا

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

النوع من الشعر اسم «الموشحات».

وكان أول من برع في هذا النوع «مقدم (بضم الميم وفتح القاف والدال مع التشديد) القبّري» من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني. وقد عاش مقدم هذا في صدر الدولة الأموية بالأندلس، ثم أخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد. وكان أول من ظهر في هذا الميدان بعدهما عُبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المريّة. وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما وجد له من قوله:

بَدْر تَمّ[1] شَمْس ضُحى غُصْنُ نقًى مسك شمّ
ما أَتَمّ[2] ما أوضحا ما أورقا[3] ما أَنَمّ[4]
لا جَرَمْ[5] من لمحا[6] قد عَشَقَا قد حُرم

ثم جاء فريق الموشحين في عصر المرابطين، فنهضوا بالموشحات نهضة مباركة. وعلى رأس هؤلاء الموشحين الأعمى التطيلي، ثم يحيى بن بَقِيّ. ومن موشحات التطيلي قوله:

كيف السبيلُ إلى صبري وفي المعالم أشجان
والرَّكب[7] وسْط الفلا بالخُرَّدِ[8] النواعمِ قد باتوا[9]

ومن قول التطيلي أيضاً:

ضاحكٌ عن جُمان[10] سافرٌ عن بَدْرِ
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

وممن اشتهر بالموشحات في صدر الدولة الموحدية: محمد بن أبي الفضل بن شرف، وابن

---

(١) يقصد البدر قد بلغ التمام في ليلة الرابع عشر من الشهر الهجري.
(٢) يعني أن محبوبته قد بلغت الكمال.
(٣) يشبه محبوبته هنا في الرونق بالشجرة المورقة.
(٤) من النمو.
(٥) لا شك.
(٦) يلاحظ أن الألف للإطلاق لوزن الشعر ومثلها عشقا.
(٧) الركاب عامة ويعني هنا ركاب الإبل.
(٨) جمع خريدة وأصلها اللؤلؤة قبل الثقب أطلقت على الفتاة العذراء.
(٩) باتوا فارقوا الحي.
(١٠) الجمان اللؤلؤة يشبه بها أسنان محبوبته.

هردوس (بكسر الهاء وسكون الراء وفتح الدال ولعله اسم محرف عن الإسبانية)، الذي يقول:

يا ليلة الوصل والسعود بالله عودي

ومن موشحي الموحدين: ابن مؤمِّل الذي يقول:

ما العيد في حُلَّةٍ وطاقِ وشَمِّ طِيب
وإنما العيد في التلاقي مع الحبيب

ومن هؤلاء الموشحين في عهد الموحدين أبو إسحاق الدُّوَيْني الذي قال عنه ابن سعيد المغربي: سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول: إنه (أي الدويني) دخل على ابن زُهر وقد أسنّ وعليه زي البادية إذ كان يسكن بحصن سَبْتة، فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرَّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها (أي جاء فيها):

كُحْلُ الدُّجَى يَجْري من مُقْلة الفجرِ على الصباحْ
ومِعْصَمُ النهر في حُلَلٍ خُضرٍ مِنَ البطاحْ

فتحرك ابن زهر وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبره، فقال: ارتفع فوالله ما عرفتك[1].

ومن اشتهر بالموشحات في عصره أبو بكر بن زهر الطبيب الفيلسوف الذي «شَرَّقتْ موشحاته وغرَّبت» على حد تعبير ابن سعيد الأندلسي. وقد نسب إلى ابن زهر قوله:

ما للمُوَلَّه[2] من سُكره لا يُفيق يا له سكرانْ
من غير خمرِ ما للكئيب المَشوق يندُب الأوطانْ
هل تُستعاد أيامُنا بالخليج ولياليـنا ؟
إذْ يستفاد من النسيم الأريج[3] مسكُ دارينا
وإذْ يكاد حُسْنُ المكان البهيجِ أنْ يُحيينا
نَهْرٌ أظلَّه دَوْحٌ[4] عليه أنيق مورقٌ فَينانْ[5]
والماء يجري وعائمٌ وغريق مِن جَنَى الرَّيحانْ[6]

---

(١) نفح الطيب جـ ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٣.

(٢) من الوله (بفتح الواو واللام) الحيران الحزين. (٤) الدوح: الشجر الملتف.

(٣) ذو الرائحة الزكية. (٥) من الفنن (بفتح الفاء والنون) الغصن.

(٦) يقصد أن النهر قد نثرت عليه الرياحين، فمنها العائم ومنها الغريق، وقد أوجدت جواً عطرياً، فالرائي ينظر ماء كالفضة ويشم رائحة عطرية ويعجب بهذه الطبيعة التي تتفنن في الجمال.

ومما هو جدير بالذكر أن فن الموشحات الذي هو من ابتكار مسلمي الأندلس قد نهض نهضة ملموسة في عهد ملوك الطوائف وفي عهد المرابطين والموحدين كما ذكرنا.

الشعر في المغرب

الحصري:

ويعتبر الشاعر القيرواني المشهور أبو الحسن علي بن عبد الغني الكفيف المعروف بالحصري زعيم صناعة الشعر في عصره. وقد ولد بالقيروان ونشأ بها واشتهر أمره وذاع ذكره فيها. ولما غزا الهلاليون تونس ودمروا مدينة القيروان وحطموا مسجدها الجامع، فر الحصري محزوناً إلى مدينة سَبْتة بالمغرب الأقصى، ومنها إلى بلاد الأندلس، وذلك في منتصف القرن الخامس الهجري، فتنافس عليه ملوك الطوائف لذيوع شهرته وعلو مكانته الأدبية.

وكان أبو الحسن الحصري معاصراً لأبي العلاء المعري[١]، وهما يجتمعان في الأدب وفقد البصر، ولكنهما يختلفان في كثير من الأمور؛ فقد عاش أبو العلاء في عزوبة وعزلة، وكان عفيف اللسان كريم الخلق لا يميل إلى الهجاء، يغلب على شعره الحكمة والموعظة، على حين نرى الحصري قد تزوج بمن هي دونه في السن بالشيء الكثير حتى فارقته، كما كان يتكسب بشعره، مولعاً بهجاء الناس. وقد وصفه ابن بسام[٢] بقوله «كان فيما بلغني ضيق العطن[٣] مشهور اللّسن يتلفّت تَلفُّت الظمآن إلى الماء... اشتملت عليه مدينة طنجة (بعد أن خلع ملوك الطوائف). وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه[٤]، وله على ذلك سجع يَمَجُّ أكثره السمع، لم يسمح نقدي أن أكتبه ولا راقني أن أرويه، وما أراه يسلك إلا سبيل المعري فيما انتحاه، وكان هو وإياه كما وصف العباس بن الأحنف:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فَعَزِّ الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع إليها الصعودَ ... ولن تستطيع إليها النزولا»

وإن قصيدته الشهيرة التي خلفها لنا في كتابه «زهر الآداب وثمر الألباب» والتي استهلها بقوله:

---

(١) انظر ما ذكرناه عن أبي العلاء المعري في الجزء الثالث من هذا الكتاب (الطبعة السابعة، القاهرة ١٣٦٥) ص ٣٦٥ - ٣٦٨.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة جـ ١ القسم الرابع ص ١٩٢.

(٣) يعني أنه كان عصبي المزاج يضيق بالناس.

(٤) يقصد بذلك أنه قد ضاق بالناس وبالحياة بعد زوال حكم ملوك الطوائف الذين يغدقون عليه الأرزاق فرجع إلى هجاء الناس والضيق بالحياة.

يـا لـيـلُ الصَّبُّ متى غَـدُهُ   أقـيـامُ الـسـاعـةِ مَـوْعِـدُهُ

قد عارضها كثير من الشعراء والشواعر في كثير من العصور والبلدان، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن الأبار البلنسي، وإسماعيل الزبيدي اليماني، وشمس الدين الحصري الدمشقي[١]، وناصر الدين الأرجاني، ومن المحدثين: أحمد شوقي، وإسماعيل صبري، وولي الدين يكن، وعاتكة الخزرجية العراقية.

ولا بأس أن نذكر بعض أبيات في معارضة الشاعر ولي الدين يكن لذيوع شهرته:

الحُسْنُ مكـانُـك مَـعْـبَـدُه   واللحظُ[٢] فؤاديَ مَغمِـدُه[٣]
يـا سـيـدتي هـذا حُـرٌّ   لم يـعـرفْ قَـبْـلَكِ سَـيِّـدَه
الـلـيـل وطيـفُـك يـعـرفـه   إنْ كـان فـؤادك يَجْـحَـدُه
كم يـوحي طرفُـك لي غـزلاً   وأنـا في شِـعْـرِيَ أُنْـشِـده
وتـسـاجـلني الأطـيـارُ هَـوًى   في الـدَّوْحِ[٤] أبـيـت أُرَدِّدُه
للصبـحِ سنـاؤك[٥] أبْيَضُـه   لـلـيـل غـرامِـيَ أسـودُه[٦]
أحببتُ قِـلاك[٧] فمـطْلقُـه   عـنـدي عـذبٌ ومُـقَـيِّـدُه
إنْ ضـلَّ حنانُـكِ عن قلبي   فـأنـا بـولـوعـي أُرْشِـدُه
شـوقـي إنْ بنـتِ يضـاعـفـه   صـبري إن جُـرْتِ يؤكده[٨]
خِـلَّان هـمـا شمـسـا فَـلكٍ   طـرفي مع طـرفـك يـرصـده

ومن آثار الحصري ديوان زهر الآداب وثمر الألباب الذي تقدمت الإشارة إليه وكتاب المصون في سر الهوى المكنون. وله ديوان «المُعَشّرات». وهو في شعره في هذا الديوان وفي ديوان

---

(١) وكثيراً ما وقع اللبس عند الأدباء في الحصري القيرواني والحصري الدمشقي.
(٢) اللحظ: العين أو نظرتها.
(٣) المغمد (بفتح الميم الأولى وكسر الميم الثانية) غمدت السيف ويريد أن يقول:
أنت معبد الحسن في هذه الدنيا ومحج عشاقه   وقـلبي غـمـد لسـهم لحـظك الـفتـاك
(٤) الدوح: الشجر الملتف.
(٥) السنى: الضوء.
(٦) يقصد أن بياض الصبح مصدره نورها وغرامي يثير آلامي فكأن سواد الليل مأخوذ من غرامي.
(٧) القلى: الصدود.
(٨) في كلمة شوقي تورية، يقصد شوقي الشاعر وشوقه بمعنى الحب وهو المقصود، فحيثما تبعد يضاعف كلفه بها. وفي لفظة صبري تورية كذلك، فأحد المعنيين صبري الشاعر والمعنى الثاني الصبر على بعدها.

«ذيل الاقتراح» متأثر بأبي العلاء المعري في لزومياته في التقيد فيما ليس بضروري من قيود فيما نظم. فقصائد «المُعَشّرات» مرتبة على حروف الهجاء، وكل قصيدة منها عشرة أبيات تبدأ جميعها بحرف الهجاء في القافية. فإذا كانت القصيدة من قافية الهمزة أو التاء أو الظاء، جاءت أبياتها العشرة مبدوءة بالحرف نفسه. وقصائد ديوان «ذيل الاقتراح» عددها تسع وعشرون بعدد حروف الهجاء. وكل قصيدة منها خمسة عشر بيتاً يلتزم الحرف الواحد في أوائل الأبيات وأواخرها.

ولأبي الحسن الحصري ديوان فريد في نوعه سماه «اقتراح القريح واجتراح الجريح» في رثاء ولده عبد الغني الذي أنجبه من زوجته التي هجرته ومات وهو في التاسعة من عمره، إذ تركته أمه فآثره أبوه على إخوته ومنحه كل عواطف الأبوة وحنانها. فلما مات هذا الابن أفرغ الشاعر المحزون أحزانه وأشجانه في ديوان كامل من الرثاء ربما كان الديوان الوحيد في العربية في رثاء ولد.

ومما يثير الأسف أن الباحثين في ميدان الأدب لم يوفوا هذا الشاعر حقه من البحث ودواوينه من الدراسة الواجبة. ولكنه ظهر في تونس أخيراً كتاب «أبو الحسن الحصري القيرواني» للأستاذين الكيلاني بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقي. وقد تناول هذان المؤلفان حياة أبي الحسن الحصري كما تناولا الكلام عن تراثه الأدبي[1].

(٢) النثر

(أ) الحريري:

ظهر بين كتاب العرب كتاب ألفوا كتابة النثر المسجوع متأثرين في ذلك بالقرآن الكريم وخطب الجاهلية، كخطب أكثم بن صيفي الذي يقول: «أيها الناس! من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت... الخ». وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه.

وقد ظهر هذا النوع في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في خطب الخلفاء وعمال الأقاليم، ثم تطور هذا الفن على أيدي الكتاب المحترفين من أمثال ابن نباتة (ت ٣٧٤/٩٨٤)، كما تطور على أيدي كتاب البلاط من أمثال إبراهيم بن هلال الصابي (٣٨٤/٩٩٤). ومن ثم أصبح من مميزات الأدب الذي التزمه الأدباء. ومن هنا ظهرت طائفة

(١) انظر مقال الدكتورة عائشة عبد الرحمن في جريدة الأهرام (صفحة الأدب) في ١٣ يناير ١٩٦٤.

من بين كتاب العربية من العرب والفرس ابتدعوا فناً خاصاً من بين فنون الأدب يدعى فن المقامات. وإلى بديع الزمان الهمذاني (ت ١٠٠٧/٣٩٨) يرجع الفضل في ابتكار هذا النوع الجديد المميز من السجع المعروف باسم المقامات.

والمقامة حكاية تقال في مقام معين على نحو ما صنع أبو محمد القاسم الحريري (ت ١١٢١/٥١٥)[١] صاحب المقامات المشهورة التي تشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب والحكم والأمثال والأشعار النادرة التي تدل على سعة اطلاعه وغزارة مادته وطول باعه وعلو مقامه في عالم الأدب. ويرى نيكلسون[٢] أن الحريري دون بديع الزمان من حيث الابتكار والابتداع، على حين أن الحريري أغزر مادة وأكثر وأشد تعمقاً في اللغة مما جعل لمقاماته منزلة خاصة جعلتها في المنزلة الثانية بعد القرآن الذي يعتبر كنز اللغة العربية الذي لا ينفد والحديث الشريف، كما يرى نيكلسون أن مقامات الحريري تحفة أدبية رائعة.

ويعزى السبب الذي من أجله وضع الحريري مقاماته، إلى أنه كان جالساً في المسجد ببني حرام، فدخل شيخ رقيق الحال رث الثياب تبدو عليه أهبة السفر؛ وكان هذا الرجل فصيح العبارة، فسأله الحاضرون من أين الشيخ؟ فقال من سروج[٣]، فسألوه عن كنيته فقال: أبو زيد؛ فوضع الحريري مقامته الأولى المعروفة بالحرامية أو السروجية وعزاها إلى أبي زيد السروجي. فلما بلغ خبر هذه المقامة الوزير الفارسي والسياسي المشهور أبا نصر شروان بن خالد وزير الخليفة المسترشد[٤]، أعجب بها وأشار على الحريري بأن يضم إليها غيرها، فأتمها خمسين مقامة.

وقد أشار الحريري إلى هذا الوزير بقوله: «فأشار من إشارته حُكم وطاعته غُنم إلى أن أنشيء مقامات أتلو فيها تلو البديع[٥] وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع»[٦].

---

(١) ولد الحريري في البصرة سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ومات بها.

(٢) Lit. Hist. of the Arabs, p. 329.

(٣) هي مدينة في سواد العراق قريبة من الرها.

(٤) توفي هذا الوزير سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م)، وهو صاحب تاريخ السلاجقة الذي طبعه «هوتسما» (ليدن ١٨٨٩) ضمن مؤلف البنداري.

(٥) يقصد أن يسير فيها على نهج بديع الزمان الهمذاني في رسائله أو مقاماته. ويعتبر بديع الزمان أول من وضع المقامات بالمشرق.

(٦) وهو يشبه نفسه بالظالع أي المائل عن الطريق المستقيم، ويشبه بديع الزمان بالضليع أي القوي، وهو يقصد تأدباً منه أن مقاماته لا ترقى إلى منزلة مقامات بديع الزمان لأن الفضل للسابق. انظر مقامات الحريري (طبعة القاهرة ص ٥).

وللحريري أيضاً «ملحمة الإعراب» وهي منظومة في النحو، و«درة الغواص في أوهام الخواص»، وله أيضاً ديوان رسائل وشعر غير شعره الذي أنتجه في ثنايا المقامات.

وقد حقد على الحريري طائفة من أدباء عصره وطعنوا في نسبة هذه المقامات إليه، فاستقدمه الوزير شروان وطلب منه أن ينشيء رسالة في موضوع عينه هذا الوزير، فلم يوفق في هذا المقام فخرج، وبعد حين قدم إلى الوزير عشر مقامات.

وكان الحريري ضئيل الجسم زري المنظر عصبي المزاج، يقتلع شعرات لحيته إذا اشتغل بالتفكير أو الكتابة. ولكنه مع هذا كان موضع تقدير الناس وإكبارهم. ويحكى أن شخصاً زاره، وأراد أن يتلقى عليه شيئاً من العلم لذيوع شهرته، فلما وقع بصره عليه استزرى منظره فأدرك الحريري ما دار في نفسه. ولما طلب هذا الشخص إلى الحريري أن يملي عليه شيئاً من الأدب قال له: اكتب! وأملاه هذين البيتين:

ما أنت أول سارٍ غَرّه قمرٌ ورائد أعجبته خُضْرَةَ الدِّمَن[١]
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مِثل المُعَيْدي[٢] تسمع بي ولا تَرَني[٣]

اشتملت مقامات الحريري على فوائد جمة عددها في قوله: «وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خالدة وروية ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله، وغرر[٤] البيان ودرره وملح الأدب ونوادره؛ إلى ما وشَّحتُها[٥] به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي[٦] النحوية والفتاوي اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المُحَبَّرة[٧] والمواعظ المبكية والأضاحيك

(١) يشير إلى الحديث النبوي وهو قوله ﷺ: إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء. ويشير الرسول إلى أن النبات يخرج رائعاً شديد الخضرة فوق السماد المتخلف من فضلات الحيوان.

(٢) بضم الميم وفتح العين وسكون الباء وفتح الياء الثانية مع التشديد.

(٣) يشير إلى المثل العربي: لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، والمعيدي شخص قميء المنظر ذو شهرة. انظر ابن خلكان جـ٣ ص ٢٢٧ ـ ٢٣١.

(٤) جمع غرة وهي خيار الشيء.

(٥) من الوشاح وهو القلادة.

(٦) جمع أحجية وهي الأغلوطة يختبر بها العقل.

(٧) من التحبير وهو التزين.

المُلْهية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السَّروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري(١). وما قصدت بالإحماض(٢) فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه. ولم أودِعْه من الأشعار الأجنبية إلى بيتين فذَّيْن(٣) أسست عليهما بنية المقامة الحُلْوانية وآخرين توأمين(٤) ضمنتهما خواتم المقامة الكَرَجية. ما عدا ذلك فخاطري(٥)أبو عُذْره(٦)، ومقتضب(٧) حُلوه ومُره(٨) (أي جيده ورديئه).

ولنبدأ بتقديم المقامة الأولى التي أنشأها الحريري، والتي لفتت نظر الوزير «شروان» إذ يقول الحريري في هذه المقامة التي سماها «الحرامية»: روى الحارث بن همام عن أبي زيد السَّروجي قال: ما زلتُ مذ رحلتْ عَنْسي(٩) وارتحلتُ عن عِرْسي(١٠)وغَرْسي(١١)أحن إلى عِيان(١٢) البصرة حنين المظلوم إلى النصرة، لِما أجمع إليه أرباب الدراية وأصحاب الرواية وعلمائها من خصائص معالمها ومآثر مشاهدها وشهدائها، وأسأل الله أن يُوَطِئَني ثراها لأفوز بمراها(١٣)، وأن يُمْطيني قَراها(١٤) لأفْتري(١٥) قُراها، فلما أحَلّنيها الحظ وسرح لي فيها اللحظ.

رأيتُ بها ما يملأ العينَ قُـرَّةً(١٦) ويُسلي عن الأوطان كلَّ غريب

فغلَّست(١٧)في بعض الأيام حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو المنذر (١٨) بالنُّوَّام، لأخْطُوَ في خططها وأقضي الوتر من توسُّطها، فأداني الاختراق في مسالكها والانصلات (١٩) في

---

(١) يقصد نفسه، وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام: كلكم حارث وكلكم همام.

(٢) الإحماض: الانتقال من أسلوب إلى آخر، مأخوذ من إحماض الإبل وهو انتقالها من مرعى حلو إلى مالح.

(٣)الفذ الفرد وأحد البيتين للوأواء الدمشقي والثاني للبحتري.

(٤) التوأم المولود مع آخر في بطن واحد، سمي البيتان بذلك لكونهما لقائل واحد وهو ابن سكرة.

(٥) يريد قلبه.

(٦) يقال هو أبو عذرها إذا كان هو الذي اقتضها؛ والأصل فيه أبو عذرتها، فحذفت التاء منه، والمراد أنه أول قائل لهذا الكلام.

(٧) يعني الحريري نفسه. والمقتضب المرتجل خطبة أو شعراً من اقتضب الغصن أي اقتطعه على البديهة.

(٨) مقامات الحريري ص ٦ - ٧.

(٩) العنس: الناقة القوية.

(١٠)العرس: الزوجة.

(١١)الغرس: الأولاد.

(١٢)العيان: المشاهدة.

(١٦) يقصد مرآها.

(١٧)أي يركبني ظهرها.

(١٨)أفتري: أتبع.

(١٩)قرة أي سروراً.

(١٣)أي خرجت في الغلس وهو ظلمة آخر الليل عند بزوغ الفجر.

(١٤)كنية الديك.

(١٥)الانصلات: الخروج بسرعة والسير السريع،

سككها إلى مَحَلة[١] موسومة[٢] بالاحترام، منسوبة إلى بني حرام[٣]، ذات مساجد مشهودة وحياض موروودة، ومبان وثيقة ومغان أنيقة، وخصائص أثيرة[٤] ومزايا كثيرة.

بها ما شئت من دينٍ ودنيا ... وجيرانٍ تنافَوْا[٥] في المعاني
فمشغوف بآيات المثاني[٦] ... ومفتون برنّات المثاني[٧]
ومضطلع بتلخيص المعاني ... ومطلع إلى تخليص عاني[٨]
وكم من قارىءٍ فيها وقارٍ ... أضرّا بالجفون والجفان[٩]
وكم من مَعْلَم للعلم[١٠] فيها ... ونادٍ للندا[١١] حُلوِ المجاني[١٢]
ومَغْنَى[١٣] لا تزال تُغنُّ فيه ... أغاريدُ الغواني[١٤] والأغاني
فَصِلْ إنْ شئتَ فيها مَنْ يُصَلّي ... وإمّا شئتَ فادْنُ من الدِّنان[١٥]
ودونك صُحْبَةَ الأكياس فيها ... أو الكاسات منطَلِقَ العنان[١٦]

من ذلك نرى أن الحريري غني بمادته اللغوية، إذ استعمل كثيراً من الألفاظ اللغوية التي تحتاج إلى تفسير. كما نرى أنه يقول الشعر عن طبع وموهبة متصرفاً في شعره تصرف الواثق من نفسه، لغزارة أدبه وسعة اطلاعه وعلو باعه. ونراه أيضاً قد التزم السجع التزاماً، وأكثر من المحسنات البديعية الأخرى، ولا سيما الجناس الذي كان يقوله تاماً وناقصاً. فمن التام قوله بآيات المثاني ورنات المثاني في البيت الثاني، إذ يقصد بالمثاني الأولى آيات القرآن الكريم وبالمثاني

(١) أي منزلة.
(٢) موسومة أي معروفة.
(٣) بنو حرام قبيلة معروفة.
(٤) الخصائص الفضائل والأثير ذو الفضل يعني أنه يتمتع بمزايا مأثورة ممتازة.
(٥) تنافوا: اختلفوا.
(٦) أي مفتون بقراءة القرآن.
(٧) أي مفتون بنغم أوتار العود.
(٨) أي فك أسير.
(٩) الأول من القراءة والثاني من القرى للضيف.
(١٠) أي مدرسة.
(١١) يقصد مجلس الكرم.
(١٢) المجاني الثمار.
(١٣) المغنى المنزل.
(١٤) جمع غانية وهي التي استغنت بجمالها عن الزينة.
(١٥) يعني أنك مخير بين أن تجلس مع العباد المصلين أو مع أهل السكر الغاوين.
(١٦) مقامات الحريري ص ٥٥٧ ـ ٥٥٩.

الثانية رنات أوتار العود. واللفظان متفقان في الشكل وعدد الحروف وترتيبها، فهو من الجناس التام، ومن الجناس الناقص قوله في البيت الثالث تلخيص المعاني وتخليص عاني. فبين كلمتي تلخيص وتخليص جناس ناقص وبين المعاني وعاني جناس ناقص أيضاً.

وقد أنشأ الحريري مقامته الصنعانية في صنعاء حاضرة اليمن التي يعتقد أنها أول بلدة صنعت بعد طوفان نوح عليه السلام. وجعل هذه المقامة الأولى، وكان بطلها أيضاً أبا زيد السروجي الذي سماه سراج الغرباء وتاج الأدباء، ولم يستطع الحارث بن همام (وهو الحريري) أن يكلم السروجي إجلالاً له واحتراماً، فسأل عنه تلميذه قائلاً: «عزمتُ عليك بمن تستدفع به الأذى لتُخْبِرَني مَنْ ذا، فقال هذا أبو زيد السروجي».

قال الحريري في هذه المقامة: حدث الحارث بن همام قال: لما اقتعدت غارب[١] الاغتراب وأتتني المتربة[٢] عن الأتراب[٣]، طوَّحَتْ بي طوائح الزمن إلى صنعاء اليمن، فدخلتها خاويَ الوفاض[٤] بادي الإنفاض[٥]، لا أملك بلغة[٦] ولا أجد في جرابي مُضْغة[٧]، فطفقت أجوب طرقاتها مثل الهائم وأجول في حرماتها جَوَلان الحائم[٨]، وأرود في مسارح لمحاتي ومسايح غدَواتي ورَوْحاتي، كريماً أُخلق له ديباجتي[٩] وأبوح إليه بحاجتي، أو أديباً تُفرج رؤيته غُمَّتي[١٠] وتُرْوي راويته غلتي[١١] حتى أدتني خاتمة المطاف وهدتني فاتحة الألطاف إلى ناد رحيب... فرأيت في بُهْرة[١٢] الحلقة شخصاً شَخْتَ[١٣] الخلقة... يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه. وقد أحاطت به أخلاط الزمر إحاطة الهالة بالقمر والأكمام[١٤]

(١) غارب كل شيء أعلاه ويريد أنه تغرب عن الوطن.
(٢) المتربة الفقر.
(٣) جمع ترب وهو أمثال الشخص.
(٤) أي فارغ الوفاض والوفاض هو الشيء الذي يضع فيه الإنسان زاده.
(٥) الإنفاض هو فناء المال والزاد يريد ظاهر الفقر.
(٦) البلغة ما يتبلغ به من العيش وهو اليسير من الزاد.
(٧) المضغة هي ما يمضغ.
(٨) الحائم هو الطائر الذي يحوم ليرى ماء يشربه.
(٩) أي أبذل وجهي.
(١٠) الغمة ما على القلب من الأسى والغم.
(١١) الغلة شدة العطش.
(١٢) البهرة وسط الحلقة.
(١٣) الشخت هو الدقيق النحيل.
(١٤) الأكمام جمع كم وهو وعاء التمر.

بالثمر، فدلفت إليه لأقتبس من فوائده وألتقط بعض فرائده، فسمعته يقول حين خب في مجاله وهدرت شقائق ارتجاله: أيها السادر في غلوائه السادل ثوب خيلائه. . . »[١].

من ذلك نرى الحريري التزم السجع والمحسنات البديعية الأخرى ولا سيما الجناس وأنه يتصرف في اللغة تصرف الغني بثروته اللغوية المدرك لبراعة الكلام. والمقامة تدور حول الاتعاظ بشخصية أبي زيد السروجي الذي اتشح بالفقر وتزين بالأدب، فكان أدبه أبهى جمالاً من ثروة أغنياء المال. ثم إن الحارث بن همام (وهو الحريري) أعجب بهذا الشخص الذي يفيض أدباً وبلاغة وجلس يستمع إلى نصائحه الغالية وحكمه البارعة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على سعة اطلاع الحريري وامتلاكه ناصية الكلام والثقافة في عصره.

وهناك مقامات أخرى[٢] يطول بنا المقام إذا تصدينا لدراستها، وهي حرية بالدراسة الأدبية المتخصصة[٣].

ويذكر براون[٤] أن الحريري بأسلوبه في مقاماته هو الملك المتوج على رأس الكتاب الذين تخصصوا في المقامات، إذا ما قورنت مقاماته بما كتب بالعربية كمقامات بديع الزمان الهمذاني، أو ما كتب بالفارسية كمقامات حميد الدين البلخي، على الرغم من أن بديع الزمان أسبق إلى ابتكار فن المقامات وترويجه. وقد قدره الأدباء من المشارقة والأوروبيين، وحسبنا أن نذكر أن الزمخشري قدر الحريري بقوله إن مقاماته حرية بأن تكتب بماء الذهب. وإن مؤلفاته ومقاماته قد درست وشرحت وترجمت أكثر من مرة في بلاد المشرق وأوروبا[٥]. كما نالت مقامات الحريري شهرة عظيمة في بلاد الأندلس في حياته، ثم جاء الشُّرَيْشي الأندلسي بعده بنحو قرن، فشرحها شرحاً قيماً.

---

(١) سدل الثوب أرخاه والخيلاء الكبر.

(٢) مقامات الحريري ص ١٠ ـ ١٦.

(٣) من هذه المقامات المقامة الحادية عشرة الساوية (مقامات الحريري ص ٩٧ ـ ١٠٦) والمقامة الثانية عشرة الدمشقية (ص ١٠٦ ـ ١١٩) والمقامة الثالثة عشرة البغدادية (ص ١٢٠ ـ ١٢٨) والمقامة الرابعة عشرة الملكية (ص ١٢٨ ـ ١٣٦) والمقامة السادسة عشرة المغربية (ص ١٥٠ ـ ١٦٠) والمقامة الثانية والعشرون الفراتية (ص ٢٠٩ ـ ٢٢٠) والمقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية (ص ٣٨٣ ـ ٣٩٠) وهكذا.

(٤) تاريخ الأدب في إيران، ترجمة ج ٢ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٥) Chenery, Assemblies or maqamat (London, 1867)

يجد القارىء عبارة وافية عن حياته في مقدمة

Houtsma, Recueil de textes relatifs à l'Histoire des Seldjoucides (Leyden, 1889), p. II et seq.

(ب) القاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ).

ويعتبر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني زعيم النثر في عهد الأيوبيين. وله مدرسة عرفت به تدعى مدرسة المحسنات البديعية التي اقتبسها من ابن العميد، ولكن طريقة القاضي الفاضل قد تدهورت على أيدي تلاميذه الذين غالوا فيها مغالاة شديدة وانحرفوا بها عن الغاية المنشودة منها، فأضحت نوعاً من الحلية اللفظية التي ضعف المعنى بجانبها، واستمرت في هذا التدهور حتى أصبحت مظهراً سيئاً للأدب في عهد المماليك والأتراك العثمانيين.

ولد القاضي الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩هـ وتولى أبوه القضاء بمدينة بَيْسان (بين بيت المقدس ويافا). ولذلك نسب القاضي الفاضل إلى هذه البلدة فسمي البيساني. وقد أخذ العلم على علماء عصره ومنهم أبوه، ثم قدم القاهرة وخدم في ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ - ٥٤٤م)، ثم أخذ يتدرج حتى أصبح صاحب هذا الديوان. ولما قدم أسد الدين شيركوه مصر وآلت إليه الوزارة اتخذ القاضي الفاضل كاتباً له. ثم آلت الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي فقرب القاضي الفاضل إليه واستعان به في إزالة الدولة الفاطمية، ثم اتخذه وزيراً له يرجع إليه في أمور الدولة. وظل في الوزارة إلى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) حيث خرج لقتال الملك العادل بن أيوب وهو في طريقه للاستيلاء على مصر[١].

من آثار القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية التي أسسها في القاهرة سنة ٥٠٨هـ ويحدثنا المقريزي أن هذه المدرسة كانت تضم مكتبة نفيسة حوت نحو مائة ألف مجلد[٢].

ومن الرسائل التي وجهها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي رسالة يتشفع فيها لخطيب عَيْذاب رجاء توليته خطابة الكرك (بفتح الكاف والراء) لعدم احتماله المقام في هجير عيذاب، ولأن خطابة الكرك تدر عليه رزقاً أكثر لكثرة عياله. وإليك هذه الرسالة:

«أدام الله السلطان الملك الناصر وثَبَّته وتقبل عمله بقبول صالح وأثبته، وأخذ عدوه قائلاً أو بيته[٣]، وأرغم أنفه بسيفه أو كبته. خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب. ولما نبا (بعد) به المنزل عنها وقل عليه المرفق فيها، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض

---

(١) ابن خلكان جـ٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٧.

(٢) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٣٦٦.

(٣) يقصد أن الله سبحانه وتعالى يأخذ عدو صلاح الدين وقت القيلولة (ويكنى بها عن النهار) أو بيته بمعنى يأخذه في الليل.

ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صبحها. وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب، وتوصل بالملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب، والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف. ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف؛ والسلام»[1].

وللقاضي الفاضل شعر أيضاً، ولكنه لم يبلغ منزلة النثر عنده. ومن هذا الشعر قوله عند بلوغه الفرات في خدمة صلاح الدين متشوقاً إلى نيل مصر:

بالله قل للنيل عني أنني ... لم أَشْفِ من ماء الفرات غليلا
وسلِ الفؤاد فإنه شاهدٌ ... إن كان جَفْني بالدموع بخيلا
يا قلب كم اختلقتَ ثمَّ بثينة ... وأعيذ صبرك أن يكون جميلا

(جـ) النثر في المغرب والأندلس:

وقد اتخذ المرابطون عدة كتاب على رأسهم صاحب ديوان الرسائل، وكان بهذا الديوان طائفة من النساخين يقومون بنسخ عدة نسخ من الكتاب الأصلي توجه إلى عمال الأقاليم وغيرهم من الحكام، يذكر المراكشي بأنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه علي من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور المغرب.

وكان أكثر هؤلاء الكتاب من رجال الأدب في الأندلس الذين عملوا في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين، ومن هؤلاء الكتاب عبد المجيد بن عبدون وعبد العزيز الأنصاري. ويبدو أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بفن الكتابة الذي توارثوه عن الدولة الأموية بالأندلس التي عرفت بالتفوق الأدبي الذي اقتبسوه من الشرق. لذلك نرى المرابطين يعينون الكتاب والقضاة والمحتسبين وغيرهم من أهل الأندلس. ومن أشهر أدباء المرابطين:

(ا) أبو جعفر بن عطية:

ومن هؤلاء الكتاب أبو جعفر بن عطية، وقد نشأت أسرته بمدينة طرطوشة التي ينتمي إليها الفقيه أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك. وقد كتب ابن عطية لعلي بن يوسف ثم لابنيه تاشفين وإسحاق حتى أواخر عهد المرابطين، ثم انخرط متنكراً في جيش عبد المؤمن بن علي. وكان يحسن الرماية. ثم صحب أبا حفص عمر لحرب الثائر محمد بن هود الماسي السلاوي الذي انضم إلى عبد المؤمن أولاً ثم خرج عليه ثانياً، وأخذ يدعو إلى نفسه

(١) ابن خلكان جـ٢ ص ٣٣٤.

باسم الهادي، وكاد يطيح بعرش الموحدين، ولكنه قتل على يد أبي حفص قائد الموحدين.

وقد كتب أبو جعفر بن عطية إلى عبد المؤمن رسالة طويلة يشيد فيها بانتصار الموحدين على ابن هود، فأعجب بها عبد المؤمن واستدعاه إلى بلاطه وقلده الكتابة ثم الوزارة فيما بعد. ومما جاء في هذه الرسالة: «كتبنا هذا في وادي ماسة بعدما تزحزح من أمر الله الكريم ونصره المعلوم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. فتح فاق الأنوار إشراقاً وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً»[1].

على أن ابن عطية على الرغم مما بلغه من جاه ونفوذ في عهد الموحدين كان يعطف على المرابطين الذين تقلب في نعمتهم من قبل، حتى إنه تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين. وقد نصح أخاها يحيى بالهجرة إلى جزيرة ميورقة، فنمى الخبر إلى ابن عبد المؤمن، فأمر بالقبض عليهما وعلى أخيه، وحاول ابن عطية أن يستدر عطف ابن عبد المؤمن بما نظم من شعر وبعث برسائل يعتذر فيها عما فرط منه. ومن شعره قوله:

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البثّ والحزن
مَنْ عِنْدَكُمُ يسعى على ثقةٍ ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
أنتم بذلْتم حياة الخلق كلهم ... مِن دون منٍّ عليهم ولا ثمن
قد أوجدتهم حياةٌ منك سابقة ... والكل لولاك لم يوجد ولم يَكنِ

على أن عبد المؤمن أجابه بقوله متمثلاً بالآية الكريمة: ﴿الآن وقد عصيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2]، وأمر به فقتل. وقد ذكر المقري[3] أن بيت ابن عطية كان غنياً بأدبائه.

(٢) ابن أبي الخصال:

ومن كتاب النثر في المغرب مسعود بن أبي الخصال. وقد تقلد منصب الكتابة في عهد المرابطين، وقد ولد بالأندلس ونشأ بقرطبة وطلب العلم فيها ومرن على الكتابة، كأخيه أبي مروان الذي تقلد الكتابة لابن الحاج الذي خرج على أمير المسلمين علي بن يوسف تاشفين ودعا لنفسه بقرطبة ثم قبض عليه. ولكن علياً عفا عنه وولاه «فاس» ونواحيها، ثم قلده ولاية سرقسطة حيث قتل في حربه مع النصارى في سنة ٥٠٨ هـ. وقد وصف عبد الواحد المراكشي[4] ابن أبي

---

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٩٨. المقري: نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٠.
(٢) سورة يونس ١٠: ٩١.
(٣) انظر نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٠ ـ ١١٥.
(٤) المعجب ص ١٧٣.

الخصال بقوله: «إنه كان من أهمهم وأكبرهم مكانة لديه (يعني عليَّ بن يوسف) إذ هو آخر الكتاب[١] وأحد من انتهى إليه علم الآداب».

ولابن أبي الخصال ديوان للرسائل تداوله الكتاب والأدباء واتخذوه نموذجاً لرسائلهم[٢]. وقد قيل إن عليَّ بن يوسف أمر ابن أبي الخصال وأخاه أبا مروان أن يكتبا إلى جند بلنسية كتاباً يؤنبانهم فيه على تخاذلهم عن نصرة إخوانهم بسرقسطة. إلا أن كلاً من الأخوين كتب رسالة تنم عن احتقارهما للمرابطين ووصفهما إياهم بأنهم بدو عراة صحراويون لا إلمام لهم بأساليب السياسة وأمور الحضارة والمدنية، مما أغضب أمير المسلمين علي بن يوسف عليهما فعزلهما عن الكتابة. ومما جاء في هذه الرسالة:

«أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضاناً لها حالب قاعد. لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقاباً[٣] وأن نعيدكم إلى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم[٤]».

وقد أثار هذا الكلام غضب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فأمر بتنحية أبي مروان وقال لأخيه أبي عبد الله: كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين، والآن قد صح عندنا. فلما رأى ذلك أبو عبد الله، استعفاه فأعفاه، فعاد إلى قرطبة بعد موت أخيه أبي مروان بمدينة مراكش. وظل أبو عبد الله بن أبي الخصال بقرطبة حتى مات.

ومن كتاب النثر في المغرب أبو بكر بن القصير، وقد تقلد الكتابة لأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين. وكان قد تقلد الكتابة للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية. وقد وصفه المراكشي[٥] بقوله: «أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جَزْل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء».

ومن كتاب النثر الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، تقلد الكتابة للمظفر صاحب بطليوس، ثم لسيد بن أبي بكر، ثم لعلي بن يوسف بن تاشفين، وبلغ عنده مكانة عالية؛ وهو كما

---

(١) يقصد بذلك أنه آخر الذين اشتهروا بالكتابة في عهد المرابطين.

(٢) المعجب ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) يعني أنكم غير جديرين بوضع اللثام على وجوهكم. وكان ذلك اللثام عند المرابطين علامة على الشجاعة والفروسية والقـوة.

(٤) ارتحض: افتضح؛ والرحضاء أيضاً يطلق على العرق، يعني بذلك أنهم صحراويون لا يعنون بالنظافة.

(٥) المعجب ص ١٦٤.

يقول المراكشي من أهل يابرة[١]. وكان شاعراً مجيداً[٢]، كما كان كاتباً مجيداً. فمن رسائله قوله: «أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، خافقة بنصرة الدين أعلامه، نافذة في السبعة الأقاليم أقلامه، من داخل مدينة شنترين، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين...»[٣].

الفتح بن خاقان (٥٢٩/١٠٣٤ - ١٠٣٥)

ومن أشهر كتاب الأندلس أبو نصر الفتح بن خاقان، وكان أديباً كاتباً شاعراً، غير أن شعره كان وسطاً وكتابته فائقة كما يقول المقرّي[٤]. وقد أخذ العلم عن طائفة من أدباء عصره كأبي بكر ابن القصيرة، وابن اللّبانة، وأبي جعفر بن سعدون، وأبي محمد بن عبدون. ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال أصبح من كتاب الأندلس الذين يشار إليهم بالبنان، كما أحرز قصب الكتابة فألف «بداية المحاسن وغاية المحاسن» ومجموعة تتضمن ما أنتجه من نثر أدبي، كما ألف من الكتب «قلائد العقيان ومطمح الأنفس»[٥] ومن رسائله قوله:

«سيدي: لا عَدِمْتَ ارتفاقاً[٦] ولا حُرمت تكيُّفاً من السعد اتفاقاً، أنا الآن مشتغل البال لا أُفَرِّق بين الإعراض والإقبال. وعند توجهي أفرغ لك ما حضر[٧]، ومثلك أرجأ الأمر وانتظر[٨]، وفي علم الله تعالى لو أمكنني لحملتك على كاهل وأوردتك منه أعذب المناهل، وأَبَحْتُ لك السعد ثغراً ترتشفه، وخلعته بُرْداً عليك تلتحفه، لكن الزمان لا يجد[٩] وصروفه لا تنجد.

وعلى أي حال فلا بد أن تجد قراك وتُحمد سراك (سفرك) إن شاء الله تعالى».

ومن كتب الفتح بن خاقان البليغة هذه الرسالة التي بعث بها إلى أبي بكر بن علي (ابن تاشفين) عند ولايته إشبيلية:

---

(١) نسبة إلى يابرة إحدى مدن البرتغال.
(٢) المعجب ص ٧٥ - ٧٦.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٥ - ١٦٦.
(٤) نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٤٢.
(٥) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٢٤٨.
(٦) يقصد الرفق.
(٧) يقصد أنه يعبر له عما يجيش في صدره من هموم عند أول لقاء.
(٨) يعني أن لك من السلطات ما يستطيع إرجاء الأمور أو النظر فيها سريعاً.
(٩) يعني أن الزمان لا ينيل الإنسان كل رغائبه.

«أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبي بكر للأرض يتملكها ويستدير بسعده فلكها. استبشر الملك وحق له الاستبشار وأومأ إليه السعد في ذلك وأشار، بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من ألويتك. فلقد حُبِيَ منك بملك أمضى من السهم المسدَّد، طويل نجاد السيف رحْب المُقلَّد[١] يقدم حيث يتأخر الذابل[٢] ويُكرم إذا بَخِل الوابل (المطر)، ويَحمي الحما كربيعة بن مُكَدَّم (بضم الميم وفتح الكاف مع الدال المشددة هو أحد فرسان الجاهلية) ويسقي الظبا[٣] نجيعاً[٤] كلون العندم[٥]. فهنيئاً للأندلس لقد استردّت عهد خلفائها واستمدت تلك الإمامة بعد إغفائها، حتى كأن لم تمر أعصارها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا (يقصد مدينة الزاهر التي بناها عبد الرحمن الناصر) ونكحا (تزوج) عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية (سيف اليمن) مهراً. والله تعالى أسأله انتصار أيامك، وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أعجب من عصرهم ونصرك أعز من نصرهم والسلام»[٦].

وللفتح بن خاقان شعر كثير، ولكنه لا يرتقي إلى منزلة نثره البليغ. ومن أحسن ما نظم قوله يستعطف الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) ويحن إلى مثواه بإشبيلية:

وَيْحَكِ يا سَلْمَ لا تُراعي[٧] ... لا بد للبَين من مساعِ
لا تحسبيني صَبَرْت إلا ... كصبر مَيْتٍ على النزاع[٨]
ما خلق الله من عذابٍ ... أشدّ من وقْفَة الوداع
ما بينها والحمامُ فرقٌ ... إلا المناحاتُ في النواعي
إنْ يفترق شملنا وشيكاً ... مِن بعدما كان في اجتماع
فكل شمل إلى افتراق ... وكل شَعْب إلى انْصداع
وكل قرب إلى بعاد ... وكل وصل إلى انقطاع[٩]

---

(١) إشارة إلى سعة الصدر الدالة على الشجاعة، وكان يعلق به السيف، ويرد به إلى فراهة الجسم.
(٢) يريد به الرمح أو حامله.
(٣) جمع ظبية (بضم الظاء) حد السيف.
(٤) النجيع دم القلب.
(٥) هو زهر لونه كلون الدم.
(٦) المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٧) يقصد لا تخافي.
(٨) النزاع نزعة الموت.
(٩) الشعب التحام المنكسر وانصداع الكسر. المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٥١.

العلوم العقلية

(أ) الطب في العصر العباسي الثاني:

أشاد نظامي عروضي السمرقندي[١] بأهمية صناعة الطب وعرض الشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب فقال:

«الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان وهي كائنة ونستردها وهي مفقودة، وبواسطتها يزدان البدن بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط، وأما الطبيب فينبغي أن يكون رقيق الخلق حكيم النفس صائب الفكر قوي الاستنتاج، ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية، ولا يكون حكيم النفس ما لم يعرف المنطق. كما أنه لا يكون جيد الحدس ما لم يكن مستمداً العون من الله سبحانه. والطبيب الذي يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة؛ ذلك أنه يستدل على حالة المريض بالنبض، والنبض حركة الانقباض والانبساط وما بينهما من سكون».

وقد أوصى نظامي عروضي بأن يتزود من يريد مزاولة الطب بدراسة مصادره الأصيلة مثل أصول أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق[٢]، «ومرشد محمد بن زكريا الرازي[٣]، و«شرح النيلي»[٤] الذي أجمل هذه المؤلفات، وذخيرة ثابت بن قرة[٥] (بضم القاف وفتح الراء مع التشديد). و«المنصوري» و«الحاوي» لمحمد بن زكريا الرازي[٦]، أو «الهداية» لأبي بكر

---

(١) جهار مقاله، ترجمه إلى الإنكليزية إدوارد براون، وإلى العربية عزام والخشاب. الترجمة العربية ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) اسم هذا الكتاب «المسائل في الطب للمعلمين»، انظر ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٢٩٤. القفطي: تاريخ الحكماء ص ١٧٣.

(٣) اسم هذا الكتاب الفصول في الطب ويعرف باسم المرشد، انظر ابن النديم: الفهرست ص ٣٠١ والقفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٧٥.

(٤) هو أبو سهل سعيد بن عبد العزيز، وله كتاب «اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق» وتلخيص شرح جالينوس لكتاب الفصول لبقراط، وكان من أهل نيسابور.

(٥) يشك القفطي (ص ١٢٠) في نسبة هذا الكتاب لثابت.

(٦) كتاب المنصوري أو كتاب الطب المنصوري، ويحتوي على عشر مقالات، وقد ألفه الرازي باسم منصور بن محمد بن إسحاق بن أسد، وكان والياً على الري من قبل عمه أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني، وقد خرج منصور علي نصر بن أحمد ثالث أمراء السامانيين. انظر تعليق ميرزا محمد على كتاب جهار مقاله، ترجمة ص ١٦٣ - ١٦٤.

الأجويني، أو «الكفاية» لأحمد بن فرج، أو «الأعراض»(١) لسيد بن إسماعيل الجرجاني، ثم يدرس أحد الكتب المفصلة مثل «الست عشر رسالة» لجالينوس أو «الحاوي»(٢) لمحمد بن زكريا أو «كامل الصناعة»(٣) أو «صد باب»(٤) (مائة باب) لأبي سهل المسيحي، أو «القانون» لأبي علي بن سينا، أو «الذخيرة»(٥) للخوارزمي، وأن يقرأ هذا الكتاب المفصل في وقت الفراغ، فإذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلها فقد يكتفي بالقانون، فإن سيد الكونين وإمام الثَّقَلين(٦) يقول: «كل الصيد في جوف الفرا» فكل ما ذكرت موجود في «القانون» مع زيادات كثيرة. وكل من يحيط علماً بما في المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شيء من علم الطب وكلياته، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب(٧).

ويرى نظامي عروضي أن الطبيب إذا علم ما في المجلد الأول من «القانون» وهو في الأربعين من عمره، أصبح أهلاً للاعتماد عليه؛ وإذا ما بلغ الطبيب هذه المرتبة وجب عليه أن

---

(١) وهو في علم الطب بالفارسية، وقد ترجمه عن كتابه «ذخيرة خوارزمشاهي» بأمر مجد الدين أبي محمد الصاحب بن محمد البخاري وزير آتسز خوارزمشاه (٥٢١ - ٥٥١ م). ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٣٢٠.

(٢) ويعرف باسم «الجامع الحاضر لصناعة الطب» وهو أعظم وأهم مؤلفات أحمد بن زكريا الرازي. القفطي ص ٢٧٤.

(٣) كامل الصناعة الطبية، ويعرف بالملكي لعلي بن العباس المجوسي الأهوازي (ت ٣٨٤/٩٩٤). وهو أشهر أطباء عصره، وكان طبيب عضد الدولة البويهي، ويعرف مؤلفه في أوروبا باسم Harly Abbas، وقد طبع في القاهرة في جزأين (١٣٩٤/١٨٧٧) ويحتوي الجزء الأول على الجانب النظري ويبحث الثاني عن الناحية العملية.

(٤) ويعرف باسم «كتاب المائة في الطب». وقد ولد المسيحي في جرجان وأتم دراسته في بغداد، وهو أحد أساتذة ابن سينا، وكان صديقاً لأبي الريحان البيروني. ابن أبي أصيبعة جـ ١ ص ٣٢٧ - ٣٢٨، جـ ٢ ص ١٩.

(٥) أو «ذخيرة خوارزمشاهي» وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب، ألفه زين الدين (شرف الدين) إسماعيل بن حسن الحسيني الجرجاني المتوفى بمرو سنة ٥٣١/١١٣٦. وقد وضعه كما يقول في مقدمة كتابه باسم قطب الدين محمد خوارزمشاه مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ٥٠٤/١١١٠. وقد ذكر ريو Rieu في فهرست الكتب الفارسية (ص ٤٦٦ - ٤٦٨) ترجمة المؤلف وترتيب فصول وأبواب كتابه. ويلاحظ براون أنه قد يكون أول مسلم يستعمل اللغة الفارسية في المسائل العلمية أو على الأقل هو أول من عرفنا كتبهم. ابن أبي أصيبعة جـ ٢ ص ٣١ - ٣٢. نظامي عروضي: جهار مقاله، التعليق في الترجمة العربية ص ١٦٦.

(٦) يقصد علي بن أبي طالب، والثقلان يقصد بهما الجن والإنس.

(٧) وقد نوه نظامي عروضي إلى أهمية كتاب القانون لابن سينا وذكر أنه واجب القراءة لدرجة أنه من الممكن الاستغناء به عن الكتب الأخرى. جهار مقاله ص ٧٦.

يحرص على اقتناء أحد هذه الكتب الصغيرة التي ألفها أصحاب التجارب الطويلة من الأساتذة الأطباء مثل «تحفة الملوك» لمحمد بن زكريا الرازي، أو «الكفاية» لابن مندويه الأصفهاني، أو «تدارك أنواع الخطأ في التدبير الطبي»[١] لأبي علي بن سينا، أو «خُفِّي علائي»[٢] لاسماعيل بن حسن الجرجاني، أو «التذكرة» لسيد بن إسماعيل الجرجاني. وقد نوه نظامي عروضي بهذه الشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب والكتب التي لا غنى له عنها لمزاولة مهنته على أتم وجه فقال: «ذلك أنه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التي هي في نهاية مؤخر الدماغ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت في العمل. وإذاً ينبغي لكل ملك أن يحرص على هذه الشروط التي عددناها في الطبيب الذي يختار، فإنه ليس من اليسير أن يضع روحه وعمره في يد كل جاهل وأن يجعل تدبير حياته في حجر كل عاقل[٣]».

وكان الأطباء في هذا العصر ملمين بأكثر فروع المعرفة، فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً وفقيهاً وأديباً. فقد حكى نظامي العروضي السمرقندي، وكان ينتمي إلى الغور، أنه وقعت في سنة ٥٤٧هـ موقعة بين جيوش «سلطان العالم» سنجر السلجوقي وجيوش علاء الدين الحسين الغوري، وأن الدائرة قد دارت على الغور الذين تعرضوا لحقد السلاجقة وحنقهم واضطهادهم. وقد اختفى نظامي العروضي عن أنظار السلاجقة في مدينة هراة حيث دعاه أحد الأهالي لتناول طعام العشاء في داره، ثم عبر له عن حزنه لمرض ابنته الوحيدة التي كانت مصدر بهجته وسروره، وقال إنها في أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر مَنّاً[٤] من الدم حتى تخور قواها. ثم أضاف أنه استشار كثيراً من الأطباء الذين تولوا علاجها، ولكنْ على غير جدوى، وقال إن الأطباء إذا وقفوا الدم انتفخ بطنها وزاد ألمها، وإذا تركوه نزف وظهر عليها الهزال وتعرضت للهلاك. وطلب نظامي عروضي إلى الرجل أن يخبره حين يعود الحيض إلى ابنته.

---

(١) هو كتاب وضعه ابن سينا باسم الحسين أحمد بن محمد السهلي وزير علي بن مأمون خوارزمشاه الذي ولي الملك سنة ٩٩٧/٣٨٧. وقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٨٨٧/١٣٠٥ باسم «دفع المضار الكلية عن الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير» على حاشية كتاب «منافع الأغذية ودفع مضارها» لمحمد بن زكريا الرازي (بولاق، القاهرة).

(٢) هو كتاب مختصر في الطب باللغة الفارسية وهو مختصر لكتابه: «خوارزمشاهي» بأمر علاء الدين آتسز. وقد اختصره على جلدين من القطع الطويل حتى يمكن الاحتفاظ بهما دائماً في الخفين. وعلائي نسبة إلى علاء الدولة وهو لقب من ألقاب آتسز. ميرزا محمد تعليقاته على كتاب جهار مقاله، ترجمة ص ٧٧، ١٦٧.

(٣) جهار مقاله الترجمة العربية ص ٧٧.

(٤) كيل أو ميزان وهو يساوي رطلين.

ويقول نظامي عروضي: «فلما انقضت عشرة أيام جاءتني أم المريضة، فسرت معها وأحضرت البنت أمامي، فرأيتها رائعة الجمال حائرة يائسة من الحياة، فلما رأتني ارتمت على قدمي وقالت: أي أبي! أغثني لوجه الله فإني شابة ولم أر الدنيا. فانهمر الدمع من عيني وقلت لها: طيبي نفساً فهذا أمر يسير. ثم وضعت يدي على نبضها فوجدته قوياً، وكذلك كان لون وجهها عادياً، وقد توفرت فيها أكثر الأمور العشرة كالامتلاء والقوة والمزاج والسمنة والسن (يقصد سن الشباب) والفصل وهواء البلد والعادة والأعراض الملائمة[1] فدعوت فصاداً وأمرته بفصد عرق الباسليق في يديها، ثم أخرجت النساء من حولها، وقد خرج الدم الفاسد، وأخذت منها بالإمساك والتسريح ألف درهم من الدم[2]، فسقطت المريضة لا تعي. فأمرت بإحضار النار وشويت بجانبها اللحم والطير حتى عبق البيت برائحة الكباب وصعد بخاره إلى دماغها، فثابت إلى رشدها وتحركت وتأوهت. ثم أعددت لها شراباً مقوياً لذيذ الطعم، وعالجتها أسبوعاً حتى استعادت الدم الذي فقدته وزالت عنها العلة وانتظم الحيض عندها. وكنت أناديها بابنتي وكانت تناديني بأبي، وهي اليوم مني كأبنائي[3].

ومن ذلك نرى أن المسلمين الأوائل كانوا على دراية بالتشريح ودراسة أعضاء الجسم دراية عميقة تمكنهم من إجراء العمليات الناجحة.

ومن أطباء العصر السلجوقي الأول: أبو علي يحيى بن جَزْلة الطبيب (ت ٤٩٣هـ) وكان نصرانياً فأسلم، وقد صنف كتاب «المنهاج» في الطب[4].

ومن مشهوري الأطباء: أبو الحسن المختار بن بُطلان (بضم الباء وسكون الطاء). ولد ببغداد في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وسافر في رحلات علمية إلى مصر والقسطنطينية وسورية، وألف كثيراً من الكتب في الطب، نخص بالذكر منها كتاب «دعوة الأطباء».

وقد ذكر ابن بطلان في هذا الكتاب أنه دعا طبيباً لتناول الغداء معه وسماع درسه عن

---

(١) لعل نظامي عروضي يقصد أن حالتها الاجتماعية تجعلها في رخاء وسعة من العيش مما يتضمن سلامة جسمها وعدم تعرضها للمرض لنقص الغذاء.

(٢) يقصد أنه تحكم في دورتها الدموية باستنزاف الدم الفاسد وحفظ الدم النقي وظل على هذا النمط حتى بلغ ما استنفده من الدم الفاسد وما استطاع حفظه في الجسم من الدم النقي نحو ما يساوي ألف درهم. وكان ذلك في مدة من الزمن تجري لإجراء العملية بهذا المقدار.

(٣) نظامي عروضي: جهار مقاله، الترجمة العربية ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ١١٣.

الطب. وحينما جلسا إلى المائدة أخذ ابن بطلان يشرح خواص ما قدم لضيفه من ألوان الطعام. وقد اشتملت هذه الألوان على اللحوم والسمك والشكوريا والأرز والفطير والفاكهة، وبعد أن فرغ كل منهما من تناول الحلوى جاء الخادم بطبق مغطى بقماش ظن المدعو أنه طبق آخر من الحلوى. وقد تملكه الدهش حين رأى الآلات الطبيــة التي كان يستعملها ابن بطلان، نذكر منها كلبتي الأضراس، ومكاوي الطحال، وزراقان الكولنج[١]، وقناطير التبويل[٢]، وملزم البواسير[٣]، ومجرفة الأذن[٤]، ومخرط المناخير، ومخالب التشمير، ومحك الجرب، ومنشار المقطع، وخَشبة الكف، ومفتاح الرحم[٥]، ودرج المكاتل، وموهمدان المراهم.

ومن مشهوري الأطباء: محمد بن علي السمرقندي، وقد عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وألف كثيراً من الكتب في الطب، نذكر منها كتاب «أغذية المرضى». وقد تناول فيه الكلام على الأمراض والأغذية التي توافق كل مرض، وكتاب أبقراط وجالينوس وابن سينـا والمجوسي (ت ٣٨٤/٩٩٤) وهذا الكتاب من كتب الطب المشهورة.

ومن مشهوري أطباء هذا العصر أيضاً: هبة الله بن أبي الغنائم (ت ٥٦٠هـ). روى ابن خلكان[٦] عن كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصفهاني أن هبة الله «سلطان الحكماء»، كما قال: «وهو مقصد العالم في علم الطب، بقراط عصره وجالينوس زمانه، ختم به هذا العلم، ولم يكن في الماضيـن من بلغ مداه في الطب».

(ب) الطب في العصر الفاطمي:

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا بسهم وافر في الطب، كذلك حفل المغرب الإسلامي بطائفة من أشهر الأطباء. وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات التي كانت أشبه بكليات للطب تخرّج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين.

---

(١) هي آلة من آلات الجراحة التي تستعمل بنوع خاص للقولون (المصران الغليظ).
(٢) هي آلة تستعمل لقياس أمراض المثانة.
(٣) هي آلة أشبه بالمبضع تستعمل للكشف عن البواسير.
(٤) هي آلة تستعمل لجرف الأوساخ التي تتولد بالأذن.
(٥) هي آلة تستعمل لكشط الزائد بالرحم والتي تمنع الحمل إذا لم تكشط
(٦) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١١٩.

وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريانية واليونانية، بجانب إلمامه بالطب. وقد أورد القفطي وابن أبي أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا في العصر الفاطمي، مثل موسى بن العازار الذي نبغ في عهد المعز، وعلي بن رضوان الذي اشتهر في عهد العزيز وخلف كثيراً من الكتب في الطب والفلسفة والمنطق وغيرها.

ومن الأطباء الذين نبغوا في عصر الأيوبيين (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ) ضياء الدين عبد الله بن أحمد، وقد ولد بمالقة ببلاد الأندلس، ثم انتقل إلى مصر والتحق بخدمة الملك الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين. وكان كما يقول السيوطي(١) «أوحد زمانه... انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه» ومات بدمشق سنة ٦٤٦ هـ.

ومن أشهر أطباء هذا العصر علاء الدين علي بن النفيس القرشي، وكان يعد إمام الطب في زمانه، واشتهر بمؤلفاته الطبية. وهو كما وصفه السيوطي(٢) «أحد من انتهت إليه معرفة الطب» فوق إلمامه بالفقه وعلم الأصول والحديث واللغة والمنطق. وقد توفي سنة ٥٨٧ هـ.

الطب في المغرب والأندلس:

وكان أبو القاسم الزهراوي المتوفى بقرطبة سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦م) أشهر جراحي عصره. وقد ترك كتباً كثيرة في الطب نذكر منها بحثه الصغير في الجراحة، يشرح فيه العمليات الجراحية والآلات الطبية التي تستعمل في هذه العمليات. وقد وصف عملية شق المثانة وتفتيت الحصاة، وذكر أنواع الحصى وطريقة تفتيتها وإخراجها والآلات التي تستعمل في هذه العملية، كما وصف الأربطة وغيرها من الأشياء التي يستعملها الجراح لتضميض جراح المريض.

وإلى ابن زهر (بضم الزاي وسكون الهاء) يرجع الفضل في اكتشاف علاج للأمراض الجلدية قدمه إلى الخليفة يعقوب المنصور الموحدي.

وقد قصد الأطباء من كافة أرجاء العالم الإسلامي هؤلاء الأطباء المشهورين لتلقي العلم عليهم، كما قصدهم المرضى لالتماس الشفاء على أيديهم. وكان المسيحيون يقصدون قرطبة كلما دعتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معماري أو مطرب كبير. مثال ذلك ما حدث من أن «تونا» ملكة إنافار وفدت بولدها سانكو البدين لمعالجته من السمنة في قرطبة. وكان لنجاح علاجه

---

(١) حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص ٢٣٣.

أثر بعيد في عقد معاهدة مع المسلمين.

وكما عرف الغرب كثيراً من أطباء الإسلام كمحمد بن زكريا الرازي الذي يعرفه الأوروبيون باسم rhazes الذي أفادوا من مؤلفاته الطبية مثل كتاب «الحاوي»[١]. ذاعت شهرة الرئيس ابن سينا الذي يعرفه الأوروبيون باسم Avicenna، كما اشتهر ابن رشد الذي ولد بقرطبة وأتم دراسته الطبية فيها، ونبغ في علوم الطب النظرية، وتوفي سنة ٥٩٥هـ (١١٩٨م)، وخلف كتابه المشهور المعروف باسم «الكليات» أي كتاب الطب العام، وشرح كتاب «القانون» لابن سينا.

وقد عرف المسلمون نظام التخصص في الطب، وظهر بين أطباء المسلمين وأهل الذمة أطباء تخصصوا في أعضاء الجسم والجراحة واستعملوا الآلات الطبية في علاج الأمراض. وقد أطلق على من يشتغل بالطب في العصور الوسطى لقب «حكيم». والفلسفة كلمة يونانية معناها الحكمة، ويطلق على من يزاولها «حكيم»، لأن الطب كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة. وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة: كالطبائعية، والكحالين، والجرائحية والمجبّرين وغيرهم، وقد ذكر ابن القيم الجوزية[٢] أنواع الأطباء والآلات الطبية في هذه العبارة حيث قال:

«والطبيب في هذا الحديث يتناول من يطبُّ بوصفه وقوله، وهو الذي يختص باسم الطبائعي، وبمروده وهو الكحال، وبمبضعه ومراهمه وهو الجراح (الجرائحي في الأصل)، وبموساه وهو الخاتن، وبريشته وهو الفاصد، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجَبِّر، وبمكواته وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن. وسواء كان طبه لحيوان أو لإنسان فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء كلهم».

وكان لهذه المبادىء الإنسانية السامية التي قررها الإسلام أثر بعيد في شفاء الأمراض وتخفيف الآلام. وقد خصص بعض خلفاء المسلمين أعطيات ثابتة للمجذومين حتى يمتنعوا عن سؤال الناس ويحولوا دون انتشار الأمراض، وجعل بعضهم في المساجد خزائن وضعت فيها الأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين، وبنوا المارستانات للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل. بل لقد اشتهر كثير من أطباء المسلمين بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى، حتى كانوا يعالجونهم ويقدمون إليهم الأدوية والعقاقير ويقومون بالإنفاق عليهم حتى يتم شفاؤهم.

---

(١) وينقسم اثني عشر قسماً ويقع في ثلاثين مجلداً.

(٢) زاد المعاد ص ١١٠.

(د) المدارس الطبية:

وقد اهتم العباسيون بنشر الثقافة الطبية وتقدمها بترجمة ما خلفه اليونان، وتأسيس البيمارستانات أو الكليات والمدارس الطبية والمستشفيات لتخريج الأطباء وعلاج المرضى. ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت في جميع أرجاء الدولة الإسلامية. وحذق المسلمون صناعة الطب ومرنوا عليها، وبرعوا في تشخيص الأمراض، ووصفوا الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها. واعتمدوا في علاج المرضى على ما كسبوه من تجارب، وما يستتبع ذلك من وضع المؤلفات الطبية في الأدوية والعقاقير وفي أعضاء الجسم ووظائفه.

كما دعا المسلمون إلى عقد المؤتمرات الطبية التي كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد الإسلامية في موسم الحج، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويعرضون نباتات بلادهم ويصفون خواصها الطبية، وأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية.

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية أو المارستانات على نظام معاهد الطب الأجنبية، فقد اقتبس المسلمون فكرة المارستان عن السريان في العصر العباسي الأول لتفوقهم في مهنة الطب، وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سرياني الأصل اسم «الساعور» ومعناها بالسريانية متفقد المرضى. أما إذا كان مسلماً أطلق عليه اسم رئيس الأطباء، وهو الذي يشرف عليهم ويأمر بممارسة مهنة الطب[1].

وكان أبو منصور عبد الملك بن يوسف من علماء عصره، وقد تسلم المارستان العضدي الذي بناه عضد الدولة البويهي بعد أن تطرق إليه الخراب، فجدد عمارته وعين له ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاثة من الخزان، واشترى له الأملاك التي يصرف رَيْعها على إدارة هذا المارستان الذي لم يكن له قبل ذلك طبيب ولا خزانة دواء. وقد اشتهر أبو منصور بأعمال البر وفعل الخير وإغداق الصلات على الناس. وكان يلقب بالشيخ الأجل، ذلك اللقب الذي لم يلقب به أحد سواه في زمانه. ومات سنة ٤٦٠هـ[2].

وقد عني صلاح الدين الأيوبي ببناء المارستانات في مصر. وفي مدينة مراكش بنى الخليفة المنصور الموحدي المارستان الذي وصفه عبد الواحد المراكشي[3] فقال إنه يمتاز بالنقوش البديعة

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ١٩، ٢٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٢١ ـ ٢٢.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

والزخارف المحكمة، وأقيمت فيه الصيدليات وأجريت المياه المتفجرة وغرست الأشجار المزهرة والأشجار المثمرة، وزود بالثياب للمرضى من الصوف والكتان والحرير. ولم يقصر يعقوب المنصور هذا المارستان على الفقراء دون الأغنياء، بل كان كل من مرض بمدينة مراكش نقل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان يعقوب المنصور يركب بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى ويسأل عن أهل كل غرفة فيقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟[١] إلى غير ذلك من الأسئلة ليقف بنفسه على أحوالهم[٢].

٢ ـ الفلك والنجوم

(أ) الفلك والنجوم في العصر العباسي الثاني:

كان لعلم النجوم كما كان لغيره من العلوم في العصور الوسطى أهمية في المشرق وفي المغرب الإسلامي على السواء، حتى إن علماء الدين كانوا يولونه اهتماماً خاصاً، بل إنهم كانوا ينصرفون إلى دراسته والتبحر فيه، لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين كانوا لا يبرمون أمورهم ولا يقدمون على خوض غمار الحروب دون الرجوع إلى آراء المنجمين وكانت الجيوش لا تسير إلى ميادين القتال إلا في الوقت الذي يقع عليه اختيار المنجمين.

وقد ذكر أبو الريحان البيروني (ت ١٠٤٨/٤٤٠) في كتاب «التفهيم في صناعة التنجيم»[٣] أن المنجم يجب أن يلم بأربعة علوم هي الهندسة والحساب والهيأة والأحكام. ففي الهندسة يجب على المنجم أن يدرس كتاب أوقليدس الذي نقحه ثابت بن قرة، وفي الحساب يدرس كتاب «أرثماطيقي» ليلم بأصول الحساب، وأن يدرس فروع هذا العلم في «تكملة أبي منصور البغدادي» المتوفى سنة ١٠٣٧/٤٢٩. أو «صد باب» (مائة باب) للسجزي[٤]. والهيئة علم يعرف به أحوال العالمين العلوي والسفلي، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك ويجب على المنجم أن يدرس كتاب «المجسطي» وأحسن تفاسيره وشروحه، مثل «تفسير النيريزي»[٥]

---

(١) يقصد أطباء المارستان أو المستشفى والممرضين والخدم.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) هو كتاب في مقدمات علوم الهيئة والهندسة والعلوم ألفه البيروني سنة ١٠٢٩/٤٢٠ (وقيل سنة ١٠٣٣/٤٢٥) بالعربية والفارسية.

(٤) من مشاهير الرياضيين والمنجمين في القرن الرابع الهجري. وقد عاش معظم حياته تحت رعاية عضد الدولة البويهي في شيراز (٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ). ومن مؤلفاته كتاب «الجامع الشاهي» في النجوم والطالع وغيرها.

(٥) كان إمام عصره في العلوم الرياضية، وكان معاصراً للمعتضد العباسي (٣٧٩ ـ ٣٨٩ هـ). ومن كتبه تفسير =

«ومجسطي الشفا». وفروع هذا العلم هي علم الزيجات وعلم التقاويم. ويقصد بالأحكام الاستدلال على أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وأحوال أدوار العالم والممالك والبلدان والمواليد والتحاويل وغيرها. ويجب على المنجم أن يدرس تصانيف أبي معشر البلخي[١]، وأحمد ابن عبدالجليل السجزي، وأبي الريحان البيروني وكوشيار الجيلي[٢].

وينبغي أن يكون المنجم طيب النفس زكي الخَلْق رضي الخُلُق... وينبغي أن يكون طالع النجم الذي يريد أن ينبيء بالأحكام في سهم الغيب أو في مكان ملائم منه[٣]. ومن توفر له برج سهم الغيب كان مسعوداً، وكان مكانه محموداً، ووقع ما يقول قريباً من الصواب. ويجب على المنجم أن يعلم «مجمل أصول كوشيار»[٤] وأن يداوم قراءة «كار مهتر»[٥]، وأن ينظر في «قانون المسعودي»[٦] و«جامع شاهي».

وقد ذكر ابن الأثير[٧] أن قتلمش جد أمراء السلاجقة أصحاب قونية وقيصرية وملطية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ثار على السلطان ألب أرسلان وهدد الري فجمع السلطان جيشاً عظيماً أحل به الهزيمة في سنة ٤٦٥هـ. وكان قتلمش يتقن علم النجوم، فنظر أن طالعه في ذلك اليوم قد قارنه النحس، فحلت به الهزيمة ومات من يومه. وقد أضاف ابن الأثير إلى ما تقدم أن أولاد قتلمش قد حذوا حذو أبيهم في دراسة علم النجوم».

= مجسطي بطليموس. وينتسب إلى نيريز وهي بلد بفارس.

(١) من مشاهير منجمي القرن الثالث الهجري، وكان معادياً ليعقوب بن إسحاق الكندي. وقد توفي أبو معشر في شهر رمضان سنة ٢٧٢/ ٨٨٦ وقد جاوز المائة.

(٢) ينسب إلى بلاد جيلان وهو من مشاهير المنجمين والفلكيين في عصره. وقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. ومن مؤلفاته كتاب «مجمل الأصول» (مكتبة المتحف البريطاني ٤٩٠. Add. ورقة ٢٢ ب).

(٣) يعني بذلك أن يكون المنجم قد ولد في أحد الأبراج التي تشير إلى السعادة أو ترمز إلى الغيب.

(٤) هو مجمل الأصول لكوشيار. وتوجد منه نسخة ممتازة في المتحف البريطاني Add. ٤٩٠.

(٥) كارمهتر اسم كتاب في النجوم ألفه حسن بن الخصيب من حذاق المنجمين وكان معاصراً ليحيى بن خالد البرمكي.

(٦) هو من أنفس كتب البيروني في علمي الهيئة والنجوم، وقد ألفه بين سنتي ٤٤٢ و٤٢٧ هـ (١٠٣٠ ـ ١٠٣٦ م) باسم السلطان مسعود الغزنوي. ويشتمل هذا الكتاب على إحدى عشرة مقالة، كل مقالة مقسمة إلى أبواب. وفي المتحف البريطاني نسخة ممتازة تشتمل على ٢٦٢ ورقة.
انظر تعليقات الأستاذ ميرزا محمد على كتاب جهار مقاله، الترجمة العربية ص ١٤٦ ـ ١٥٢.

(٧) الكامل جـ ١٠ ص ١٣ ـ ١٤.

وقد روى نظامي عروضي السمرقندي[١] قصة الحكيم الموصلي المنجم. وكان الوزير نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي يرجع إلى رأيه، ولما تقدمت به السن طلب من الوزير أن يعفيه من عمله ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه تقويماً وتحويلاً في كل عام. وقد طلب منه الوزير أن ينظر في تقويمه فينبئه بالوقت الذي يموت فيه، فقال الحكيم الموصلي: «بعد وفاتي بستة أشهر».

وكان نظام الملك يسأل كل من يأتي من نيسابور عن حال الموصلي المنجم، فإذا علم أنه سليم معافى «اعتدل طبعه وطاب قلبه إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة (١٠٩٢ ـ ١٠٩٣م)، فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلي، فتقدم الرجل بالتحية ثم قال: ليبقى صدر الإسلام وارثاً للأعمار، لقد مات الموصلي. فقال الوزير: متى؟ قال الرجل: ذهب فداء لصدر الإسلام في نصف ربيع الأول. فتفطر قلب الوزير الكبير، وأفاق فأعاد النظر في أعماله وفي سجل الأوقاف، ووقع الأمر بصرف الخيرات، وكتب الوصية وحرر من رضي عنه من عبيدة وفي دَيْنه، وأسعد كل من استظل بسلطانه، وطلب العفو من خصومه، وبقي ينتظر الموت حتى كان رمضان، فاستشهد على يد تلك الجماعة[٢] في بغداد[٣]. أنار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه».

وكان الوزير نظام الملك مولعاً بعلم النجوم مشجعاً للمنجمين. فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٧هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه السلجوقي جمعا جماعة من أعيان المنجمين فجعلوا النوروز أول نقطة من «الحمل» وكان قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت، وأصبح هذا العمل مبدأ التقويم.

وفي هذه السنة عهد السلطان ملكشاه إلى مظفر الإسفزاري بعمل الرصد، فقام جماعة من عظماء المنجمين ومن بينهم عمر الخيام وميمون بن النجيب الواسطي وغيرهم بعمل التقويم الجلالي المعروف بالرصد الملكشاهي[٤]. وقد بقي هذا الرصد حتى مات السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ.

ويعتبر عمر الخيام بالإضافة إلى شهرته من مشاهير الفلاسفة والرياضيين في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس. وكان متبحراً في الفقه عالماً باللغة والتاريخ. وكان أحد

---

(١) جهار مقاله ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) يعني الباطنية أو النزارية أتباع الحسن بن الصباح.

(٣) اتفق المؤرخون على أن نظام الملك قتل في نهاوند.

(٤) انظر نظامي عروضي: جهار مقاله تعليقات ميرزا محمد ـ الترجمة العربية ص ١٦٠ هامش رقم ١٨.

واضعي الزيج الملكشاهي. وقد ذاع صيته في الشرق والغرب بفضل رباعياته، وكان ملكشاه السلجوقي ينزله منزلة الندماء، ويعظمه الخاقان شمس الملوك في بخارى غاية التعظيم ويجلسه على سريره. وكان صديقاً لنظام الملك وحسن الصباح[١].

ويروي نظامي عروضي[٢] أن عمر الخيام ومظفر الاسفزاري نزلا دار الأمير أبي سعيد في مدينة بلخ سنة ٥٠٦هـ. وكان نظامي عروضي متصلاً بهذا الأمير، فسمع عمر الخيام يقول أثناء مجلس السمر: «سيكون قبري في موضع تؤرّجه ريح الشمال بشذى الورد كل ربيع». وقد أضاف نظامي عروضي أنه لما زار نيسابور سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥ ـ ١١٣٦م) وقد مرت أربع سنين على وفاة الخيام، ذهب لزيارة قبر أستاذه يوم الجمعة، فرأى قبره أسفل جدار بستان قد أطلّت منه أشجار الكمثرى والمشمش، وقد تناثر على القبر كثير من الزهر حتى غطاه[٣].

وفي شتاء سنة ٥٠٨هـ (١١١٤ ـ ١١١٥م) أرسل سنجر وهو بمرو رسولاً إلى وزيره صدر الدين محمد[٤] يقول له: «قل للإمام عمر (الخيام) يختار بضعة أيام لا يكون فيها ثلج ولا مطر حتى نخرج للصيد... فذهب الخيام وأعمل جهده يومين واختار وقتاً حسناً، ثم ذهب بنفسه وسار بصحبة السلطان، فلما ركب السلطان وسار في طريقه قليلاً تجمّعت السحب وهبت الريح وهطل الثلج وانتشر الضباب، وضحك الرّكب وهمّ السلطان بأن يعود. فقال عمر الخيام: «ليطمئن قلب السلطان! المطر سينقطع لساعته ولن تنزل هذه الأيام الخمسة قطرة منه. فسار السلطان وانقشعت السحب. ولم ينزل طلّ في هذه الأيام الخمسة، ولا رأى أحد سحاباً».

وعلى الرغم مما بلغه عمر الخيام من شأن في علم النجوم لم يعتقد في أحكامها قط، وربما كان ذلك لسيطرة العقيدة الدينية عليه، إذ ورد في الأثر الشريف «كذب المنجمون ولو صدقوا». وقد علق نظامي عروضي على أحكام النجوم بقوله: إنه برغم انتشارها لا يجوز

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٣) اختلف المؤرخون في سنة وفاة عمر الخيام، فقيل سنة ٥١٧ هـ وقيل سنة ٥٢٦ هـ. ويظهر أن التاريخ الثاني أقرب إلى الصواب لأنه يتفق مع ما ذكره نظامي عروضي عن أستاذه الخيام حيث يقول: (ص ٦٩ ـ ٧٠) «فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسمائة وقد خلت أربع سنوات على إيداع هذا الرجل العظيم الثرى».

(٤) ابن فخر الملك أبي الفتح المظفر بن نظام الملك، وقد قتل سنجر أباه فخر الملك، وكان وزيره سنة ١١٠٦/٥٠٠، ثم أسند الوزارة إلى صدر الدين وقتله سنة ١١١٧/٥١١ بيد أحد المماليك. راجع ابن الأثير: الكامل في حوادث سنة ٥١٣ هـ.

الاعتماد عليها ولا ينبغي للمنجم أن يمعن فيها، بل عليه أن يحيل كل حكم يراه على القضاء[١]. وقد دلّل نظامي عروضي على رأيه الذي يتفق مع رأي أستاذه الخيام بقصة تتعلق بغزنوي كان قليل المعرفة بعلم النجوم، وكانت النساء يجتمعن حوله ليكتب لهن تعاويذ في الحب. وقد طلب السلطان من المنجمين أن يختاروا له طالعاً إذ عزم على حرب صدقة بن مزيد أمير الحلة حين ثار الخلاف بينهما. ولما يئس السلطان من عجز المنجمين على اختيار الطالع، تقدم هذا الغزنوي عن طريق أحد خدم السلطان ومثل بين يديه وأعد له الاختيار وشجعه على المسير على حرب صدقة.

ولما انتصر السلطان على صدقة عاب على عظماء المنجمين إخفاقهم في إعداد الاختيار، ولكنهم عابوا اختيار هذا المنجم الغزنوي ودبروا طريقة لكشف أمره. فأمر السلطان أحد ندمائه بأن يدعو المنجم الغزنوي ويشرب معه الخمر حتى تلعب بلبه ثم يسأله. فقام النديم بتنفيذ الأمر وسأل هذا المنجم فأجاب: «إني علمت أن هذا الأمر لا يعدو واحداً من اثنين: إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف، وإن حلت بهذا الهزيمة فمن ذا يبالي بي؟»[٢]. وهذا يدل على أن البعض يحترف التنجيم وهو غير عالم بأصوله، كما يدل كذلك على أن إخبار المنجمين غير صادق في بعض الأحيان.

ومن أشهر علماء النجوم في العصر السلجوقي أبو القاسم هبة الله المشهور بالبديع الأسْطُرْلابي[٣]. وكان كما يقول ابن خلكان[٤] «وحيد زمانه في علم الآلات الفلكية متقناً لهذه الصناعة» وقد اشتهر في عهد الخليفة المسترشد العباسي، ومات في سنة ٥٣٤هـ.

(ب) الفلك والنجوم في مصر والمغرب:

كان لعلم النجوم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم. فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسي للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو

---

(١) نظامي عروضي: ص ٧٠.

(٢) نظامي عروضي: جهار مقاله ص ٧١ - ٧٢.

(٣) نسبة إلى الاسطرلاب (بضم الهمزة وسكون السين وضم الطاء). وهي كلمة يونانية معناها ميزان الشمس، إذ كان الاسطرلاب آلة توزن بها أشعة الشمس في مواقيت مختلفة ويستعان بها في معرفة كثير من نتائج علم التنجيم القائم على أبراج الشمس وهي الحمل (بفتح الحاء والميم) والمريخ والسرطان وغيرها. وقيل إن أول من وضع الاسطرلاب هو بطليموس في المجسطي.

(٤) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٠١ - ١٠٢.

سهل بن نوبخت المنجم الذي أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها.

وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في هذه البلاد[١]، كما استعان جوهر الصقلي بالمنجمين ليختاروا له طالعاً سعيداً لوضع أساس مدينة القاهرة[٢]، واهتم الحاكم بعلم النجوم حتى إنه أنشأ بسفح المقطم في القاهرة رصداً أطلق عليه «الرصد الحاكمي».

وكان حكام المغرب يهتمون بعلم النجوم في عهد المرابطين السنيين، وفي عهد الموحدين الذين كان مذهبهم يميل نحو الاعتزال والتشيع. ففي عهد المرابطين نرى مالك بن وُهَيْب (بضم الواو وفتح الهاء وسكون الياء) رئيس العلماء قد أخذ بحظ وافر من علم النجوم: إذ كان حذاءً[٣] ينظر في النجوم. وكان الكهان[٤] يتحدثون بأن ملكاً من الملوك كائن بالمغرب لأمة من البربر، فقال مالك بن وهيب للسلطان علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ) محذراً إياه من ابن تومرت بأنه الرجل الذي يقصده الكهان: «احتفظ بالدولة من الرجل»[٥].

على أن مذهب الموحدين يرتكز على القرآن والسنة كما يقول الخليفة يعقوب المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ) في إحدى جلساته: «وليس لنا إلا هذا»، مشيراً إلى المصحف الشريف «أو هذا»، مشيراً إلى كتاب آخر من أمهات كتب الحديث.

ومع هذا فقد كان لعلم النجوم أهمية خاصة في نظر الموحدين، إذ كانوا يعتمدون في أعمالهم على الجفر[٦] (بفتح الجيم وسكون الفاء)، وفي طليعتهم المهدي محمد بن تومرت

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن (طبعة هنري كاسيل، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠.

(٢) ابن الجيعان: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٦ ص ٣٥. رموز وطلاسم مقلقة لا يدركها إلا العالمون بطرائقها. وظاهر القرآن الكريم يبطل زعم المؤمنين بهذه الجفور وما جاء بها من الغيبيات، إذ يقرر القرآن الكريم أن علم الغيب يختص بالله سبحانه وتعالى، كما ذكر ذلك في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى في سورة النمل (٢٧: ٦٥): ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾، وقوله تعالى في سورة هود (١١: ١٢٣). ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾.
انظر عبد الله علام: الدعـوة الموحدية بالمغرب ص ٨٩ ـ ٩١.

(٣) أي متطلعاً ومتابعاً لرصد النجوم.

(٤) جمع كاهن وهو عالم من علماء الدين عند غير المسلمين، والمقصود به هنا علماء النجوم.

(٥) ابن خلدون: العبر (طبعة بيروت) جـ ٦ قسم ٢ ص ٤٦٩.

(٦) الجفور جمع جفر. والجفر من الأولاد الماعز ما بلغ أربعة أشهر. وكان القدماء يكتبون على جلود أولاد الماعز =

صاحب الدعوة الموحدية، حتى لقد قيل إنه أقر عبد المؤمن على الجيش بعد أن رأى ذلك في الجفر. ويظهر هذا الاعتقاد واضحاً في المذهب الموحدي، لأن صاحب الدعوة الموحدية ادعى المهدوية التي تعد أصلاً وهدفاً عند الشيعة الذين اعتمدوا في أخبارهم الغيبية على الجفور كما يتضح ذلك من خطبة المأمون الموحدي. وإن كان قد أنكر المبادىء الموحدية لم ينكر الأخذ بالتنجيم القائم على الجفور في أغلب الأحيان، لذلك نراه يقول في إحدى خطبه: «لا تظنوا أني أنا إدريس الذي تندرس دولتكم على يده. كلا إنه سيأتي بعدي إن شاء الله»، مشيراً بذلك إلى الإخبار بالغيب.

٣ ـ الرياضيات

ومن العناصر الأساسية في قيام الثقافة الكتابة والعدد لتيسير طرق التفاهم ووسائل التعاون بين الناس. وهما يعتبران عنصرين هامين كان لهما أثر كبير في الثقافة الأوروبية. وكان العرب وسطاء في تيسير الكتابة ونشرها في الغرب. فالحروف الأبجدية الحالية مأخوذة رسماً واسماً عن السامية، إما مباشرة أو عن طريق الفينيقيين. وقد عجز الخط اليوناني عن مجاراة الخط السامي وما طرأ عليه من تطور فني عظيم.

والغرب مدين للشرق بنظام العدد العربي. ونحن ندرك قيمة الأعداد العربية إذا ذكرنا العلوم الرياضية والميكانيكية والفلكية الحديثة عمليات في جمع أو طرح أو ضرب أو قسمة بحروف رومانية مثل CL XXXV.II وإننا لندرك صعوبة وضع هذا العدد على غلاف كتاب، كما كانت الحال قبل سنة ١٨٨٨. كما نرى أن استخدام الأعداد الرومانية مصدر أخطاء مطبعية جسيمة. والأعداد العربية المستعملة في الشرق العربي الآن هندية الأصل. أما الأعداد العربية الأصل فهي المستعملة بالمغرب العربي الآن، وقد اقتبسها الأوروبيون عن طريق الأندلس والمغرب. وكان العرب وسطاء في نقل هذه الأعداد إلى الأوروبيين بدليل كتابتها من اليسار إلى اليمين، بخلاف ما نراه في كتابة الحروف الأبجدية في معظم اللغات السامية، أي من اليمين إلى اليسار.

= ويسمون هذه الجلود جفور على سبيل التجوز. وقد زعمت الخطابية (وتنسب إلى أبي الخطاب محمد بن زينب الأسدي) أن جعفر الصادق الإمام السادس عند طائفة الإمامية الاثني عشرية أودعهم جفراً فيه علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، كما زعموا أنه لا يقرأ فيه إلا من كان منهم. ولما أعلن أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة (الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ١١، ١٥) وقال أتباعه بألوهيته (البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٣٨) تبرأ منه الإمام جعفر الصادق (الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ١٦) وانتهى الأمر بقتل أبي الخطاب على يد عيسى بن موسى في عهد أبي جعفر المنصور.
انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية ص ٨٩، ٩٠ ـ ٩١.

أما ترتيب كتابة الأعداد والصفر فهو من اختراع الهنود الذين أخذ الناس عنهم علم النجوم. ولم يعرف الأوروبيون الصفر الذي هو من اختراع الهنود أيضاً، فإن أوروبا لم تعرف شيئاً عنه قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، على حين تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه منذ زمن طويل، وكانوا يسمونه حلقة ومعناها لا شيء أو عدم وجود القيمة التي يعبر عنها المسلمون بالصفر الذي يضعه المشتغلون بعلم الحساب على العدد المعدوم. وأما لفظ Zero فهو العربي صفر بمعنى «خلا». وقد استخدم مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتي المعروف «صفر» للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا، فقال ما معناه إنهم يجلسون أمامه كالأصفار. واستخدام لفظ Zero للدلالة على لا شيء. ويعبر عن الصفر أحياناً بواسطة دائرة صغيرة، وأحياناً بواسطة نقطة.

وقد استخدم الصفر للمرة الأولى كوحدة حسابية، واستخدم لفظ صفر في الشعر الجاهلي للتعبير عن معنى «خلا» كما يتضح ذلك من هذا البيت:

تـرى أن مـا أهـلكـتُ لم يـك ضرّني وأنّ يـدي مما بـخلت بـه صـفـرُ

(أي خالية).

٤ ـ الفلسفة

(أ) أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥/١١١١):

تأثر مسيحيو الأندلس بدراسة القرآن والحديث، وكانوا يكتبون العربية ويتكلمون بها، كما أعجبوا بالدراسات الإسلامية وتأثروا بآراء الفلاسفة الإسلاميين. وقد أخذ الأوروبيون عن المسلمين حكم الفلاسفة بعد أن درسوا مؤلفات الكندي المتوفى سنة ٢٣٦هـ (٨٥٠م) فيلسوف العرب، وأبي نصر الفارابي (٣٣٩/٩٥٠) الذي لقب المعلم الثاني تمييزاً له عن أرسطو الذي لقب المعلم الأول. وكذلك أدخل مسيحيو الأندلس مؤلفات الرئيس أبي علي بن سينا(ت ٤٢٩/١٠٣٧) الذي نبغ في الفلسفة والطب وأحيا آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب وقصده المرضى من كل فج كما جذبه الأمراء إليهم.

كما درس الأوروبيون مؤلفات أبي بكر الرازي الذي يعرفونه باسم Phrazes، ومؤلفات حجة الإسلام الغزالي (ت ٥٠٥/١١١١) في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة.

وعن التصوف الإسلامي أخذ الأوروبيون نظام التصوف ونظام الدراويش. وتتفق الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى مع الفلسفة الإسلامية تماماً. والتصوف الأوروبي،

والألماني بوجه خاص، أقرب إلى التصوف الإسلامي والفارسي بصفة عامة، منه إلى تصوف العالم القديم. والراهب الغربي والدرويش في الشرق يتبعان في حياتهما نظاماً خاصاً وضعه مؤسس الطريقة التي يتبعها الراهب والدرويش، ولو أن هناك بعض التباين بين الخلوة والدير. وتعتبر مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦) أساس علم الاجتماع الذي أخذه الأوروبيون عن المسلمين في عصر النهضة الحديثة. وقد عالج في هذه المقدمة نواحي الاجتماع والعمران ونظم الحكم والمذاهب الدينية وغيرها. وابن خلدون أول من كتب في فلسفة التاريخ.

ويعد أبو حامد محمد الغزالي إمام عصره ووحيد زمانه في علوم الدين الإسلامي الحنيف ولا سيما في علم أصول الفقه وعلم الكلام، كما عرف بحجة الإسلام. وكان الغزالي مصلحاً دينياً واجتماعياً، فقد ثار على المجتمع وندد بما وصل إليه حال المسلمين في عصره من الانحراف عن أصول الدين القويم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله. فعمل على إيقاظ الفضيلة بين المسلمين ودعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامي إصلاحاً شاملاً لأنه لم يطمئن إلى ما وصل إليه العالم الإسلامي حينئذ من تفكك وانحلال، في الوقت الذي كان الصليبيون في أوروبا يتأهبون لاكتساح العالم الإسلامي.

ولد أبو حامد بطوس من أعمال فارس سنة ٤٥٠هـ، ثم قدم نيسابور، واختلف إلى دروس إمام الحرمين الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء)، وظهرت موهبته العلمية أثناء طلب العلم حتى نال إعجاب أستاذه الذي كان يفخر به ويثني عليه في مجالسه العلمية. وكان أبو حامد مقرباً إلى أستاذه حتى توفي، فخرج من نيسابور والتقى بنظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي الذي أعجب بمواهبه وأكرمه وقربه إليه. وقد لمع اسم الغزالي فعهد إليه الوزير بالتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ. وكانت هذه المدرسة تعد أعظم المعاهد العلمية العالية. وقد ظهر نبوغ الغزالي وعم به النفع عند تلاميذه وعلماء عصره.

ويبدو أن سعة اطلاع أبي حامد الغزالي وتبحره في العلم قد سما به نحو عالم الروح، حيث مال إلى حياة الزهد والتقشف والعزلة، فترك التدريس بالمدرسة النظامية وحج بيت الله ولما أدى مناسك الحج قصد دمشق حيث أخذ يدرس علوم الدين في زاوية المسجد. ثم انتقل إلى بيت المقدس وانصرف إلى العبادة وعاش عيشة المتصوفة، وأخذ يتردد على المشاهد والأماكن المقدسة. ثم قصد الغزالي مصر وأقام بالإسكندرية حيث التقى بالفقيه المشهور أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك، وكان الطرطوشي يقوم بالتدريس في هذه المدينة التي أقام بها حتى وفاته.

وقد ذكر ابن خلكان[١] أن أبا حامد الغزالي عزم على الرحيل إلى المغرب الأقصى لزيارة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي بعد انتصاره في موقعة الزلّاقة المشهورة على نصارى الأندلس، وكسب بهذا الانتصار مكانة أدبية في العالم الإسلامي، حتى إنه لما طلب إلى الخليفة العباسي إقراره على ملك المغرب والاعتراف له بلقب أمير المسلمين، جمع الخليفة مجلساً ضم العلماء برياسة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الذي أفتى باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب لما أحرزه من نصر مؤزر على مسيحيّي الأندلس.

وقد عزم أبو حامد الغزالي على ركوب البحر إلى المغرب، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن بلغه نبأ وفاة يوسف بن تاشفين(٥٠٠هـ)، فعاد إلى طوس وانصرف إلى الاشتغال بالعلم، ثم طلب إليه الوزير فخر الملك ابن نظام الملك بمهمة التدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور، فلبى الإمام الغزالي طلب الوزير بعد تردد، وظل يعمل بهذه المدرسة حتى عاد إلى مسقط رأسه طوس حيث وافته منيته (٥٠٥هـ)[٢].

وقد خلف لنا الغزالي آثاراً علمية خالدة. وقد قيل إنه وضع نحواً من مائتين وثمان وعشرين مؤلفاً أكثرها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ. ومن أهم آثار الغزالي العلمية:

(١) إحياء علوم الدين[٣] ويعد من أهم كتب الغزالي. وقد عم به النفع في البلاد الإسلامية وغيرها. وقد نعى الغزالي في مقدمته ما صار إليه الإسلام من افتقاد علمائه الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله «العلماء ورثة الأنبياء»، وهم الذين يقول فيهم الغزالي: «قد شغر منهم الزمان ولم يبق منهم إلا المترسمون (المقلدون). وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً به؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتى ظل عَلَم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً... فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً. ولما كان هذا ثَلْماً في الدين ملمّاً، فقد رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، إحياء لعلوم الدين وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف

---

(١) وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٣) أودعت من هذا الكتاب نسخ خطية بمكتبات فيينا وبرلين وليدن وباريس ولندن وأكسفورد، وهناك نسخة خطية بدار الكتب المصرية في القاهرة.

الصالحين»[١].

من هذا نرى أن الغزالي وضع كتابه ليلفت أنظار المسلمين إلى أصول دينهم القويم، ومشيراً إلى ما حل بالإسلام من انصراف أهله إلى شئون الدنيا وإهمالهم شعائرهم الدينية، وما نص عليه القرآن الكريم من مثل عليا وآداب اجتماعية عالية، وما انطوى عليه الحديث الشريف من قواعد دينية قويمة وحكم عالية رفيعة.

وقد نهج الغزالي في تقسيم كتابه نهجاً واضحاً، إذ قسمه إلى أربعة أقسام سماها ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات. وقد صُدِّرت جميع هذه الأرباع بكتاب العلم الذي يقول فيه الغزالي إنه غاية المهم؛ لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبّد الله على لسان رسول الله ﷺ الأعيان إذ قال رسول الله ﷺ: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»[٣] وأميِّز فيه العلم النافع من الضار؛ إذ قال ﷺ: «نعوذ بالله من علم لا ينفع» وأحقق ميل أهل العصر عن مشاكلة الصواب وانخداعهم بلامع السراب واقتناعهم من العلم بالقشر عن اللباب.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هي:

(١) كتاب العلم (٢) كتاب قواعد العقائد (٣) كتاب أسرار الطهارة (٤) كتاب أسرار الصلاة (٥) كتاب أسرار الزكاة (٦) كتاب أسرار الصيام (٧) كتاب أسرار الحج (٨) كتاب آداب تلاوة القرآن (٩) كتاب الأذكار والدعوات (١٠) كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وكذلك يشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هي:

(١) كتاب آداب الأكل (٢) كتاب آداب النكاح (٣) كتاب أحكام الكسب[٣] (٤) كتاب الحلال والحرام[٤] (٥) كتاب أدب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق (٦) كتاب العزلة (٧) كتاب آداب السفر (٨) كتاب السماع والوجد (٩) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٠) كتاب المعيشة وأخلاق النبوة.

كما يشتمل ربع المهلكات على عشرة أبواب هي:

(١) شرح عجائب القلب (٢) كتاب رياضة النفس (٣) كتاب آفات الشهوتين (شهوة البطن وشهوة الفرج) (٤) كتاب آفات اللسان (٥) كتاب آفات الغضب والحقد والحسد (٦)

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين (طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٨ هـ) جـ ١ ص ٣.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٥٥ ـ ٦٥.

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٧٩ ـ ٨٤.

كتاب ذم الدنيا (٧) كتاب ذم المال والبخل (٨) كتاب ذم الجاه والرياء (٩) كتاب ذم الكِبْر والعُجْب (١٠) كتاب ذم الغرور.

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب كذلك وهي:

(١) كتاب التوبة (٢) كتاب الصبر والشكر (٣) كتاب الخوف والرجاء (٤) كتاب الفقر والزهد (٥) كتاب التوحيد والتوكل (٦) كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا (٧) كتاب النية والصدق والإخلاص (٨) كتاب المراقبة والمحاسبة (٩) كتاب التفكّر (١٠) كتاب ذكر الموت[١].

(٢) كتاب المنقذ من الضلال

ويعد هذا الكتاب من أهم آثار الغزالي العلمية، ويعرض لمسائل علمية هي في جملتها من المسائل المتعلقة بالفلسفة، إذ يتناول موضوعات: الشك ـ انتقاد الفرق ـ النبوة والإصلاح الديني ـ مداخل السفْسطة وجحْد العلوم ـ علم الكلام ومقصوده وحاصله ـ الفلسفة وأصناف الفلاسفة ووصمة الكفر ـ الدهريون، الطبيعيون ـ الإلهيون ـ أقسام علوم الفلسفة (الرياضيات ـ المنطقيات ـ الطبيعيات) ـ الإلهيات ـ السياسيات ـ الخلقيات ـ آفتا الفلسفة (آفة الرد ـ آفة القبول) ـ مذهب التعليم وغائلته ـ طريق الصوفية ـ حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها ـ سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه[٢].

ويطول الكلام إذا حاولنا التعليق على جميع مؤلفات الغزالي، ونكتفي بطائفة من أسمائها مثل:

(١) آداب الصوفية[٣]، وقد طبع بمصر.

(٢) أيها الولد، وقد كتبه لبعض تلاميذه ويتضمن نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب.

(٣) بداية الهداية[٤].

(٤) تهذيب النفوس بالآداب الشرعية.

---

(١) المصدر نفسه جـ١ ص ٣ ـ ٤.

(٢) الغزالي: كتاب المنقذ من الضلال (مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٤) ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣) وقد طبع مع ترجمة ألمانية (فيينا ١٨٣٨، ١٨٤١) كما طبع في مصر، ومنه نسخ خطية في مكتبات أوروبا ودار الكتب المصرية.

(٤) القاهرة، ومنه نسخ خطية بمكتبات باريس وبرلين ولندن والجزائر ولينينغراد.

(٥) جواهر القرآن ودرره[١].

(٦) خلاصة التصانيف. وقد ألفه الغزالي بالفارسية، وترجمه إلى العربية محمد أمين الكردي (ت ١٣٢٢هـ).

(٧) الرسائل القدسية في قواعد العقائد (الإسكندرية دون تاريخ).

(٨) فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، ويسمى المستظهري[٢].

(٩) أسرار الحج في الفقه الشافعي (القاهرة دون تاريخ).

(١٠) تهافت الفلاسفة[٣].

(١١) معيار العلم في المنطق (طبع في مصر سنة ١٣٢٩هـ)[٤].

وفي أواخر حياة الغزالي عاد إلى موطنه بطوس واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة الصوفية والتدريس حتى توفي سنة ٥٠٥هـ كما تقدم[٥].

وقد أحدثت مؤلفات الغزالي في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة أثرها البعيد في الشرق والغرب، وقام بترجمتها مسيحيو طليطلة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

(ب) ابن باجة (ت ٥٣٣/١١٣٨).

كانت الأندلس في نهاية القرن الخامس الهجري قد انقسمت إلى عدة ممالك صغيرة عرف حكامها بملوك الطوائف، وكان نصارى الشمال يهددون هذه الممالك حتى جاء المرابطون وقضوا على هؤلاء الملوك الذين انغمسوا في الترف، «ولاح إذ ذاك أن زمن الثقافة الرفيعة والبحث الحر قد انقضى» كما يقول دي بور[٦]، ولم يجرؤ على الظهور إلا رجال الدين ولا سيما رجال الحديث، أما الفلاسفة فقد كانوا عرضة للاضطهاد أو القتل، ويؤيد هذه الحقيقة إحراق كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي بأمر أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين.

---

(١) طبع بمكة وبمباي والقاهرة، ومنه نسخ خطية بمكتبة ليدن ومكتبة المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية.

(٢) وقد نشر جولدتسيهر قسماً كبيراً منه وقدم له بحثاً باللغة الألمانية (ليدن ١٩١٦).

(٣) وقد طبع في القاهرة غير مرة، كما طبع في بمباي (١٣٠٤ هـ) وترجم إلى العبرية.

(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال ص ٤ - ١٦.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٥٤.

(٦) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي ريدة (الطبعة الثانية) ص ٣٦٦.

على أنه برغم هذا نرى الأمير المرابطي أبا بكر بن إبراهيم (صهر السلطان علي بن يوسف المرابطي)، وكان يلي ولاية سرقسطة، يتخذ أبا بكر بن باجة السَّرَقُسْطي جليساً له ثم يقلده الوزارة. ولكن هذا قد أثار غضب الجند والفقهاء، وكان بين ابن باجة وبين الفتح بن خاقان عداوة راسخة، مما حمل ابن خاقان على هجاء ابن باجة في كتابه «قلائد العقيان»[1] فقد جعل ابن خاقان ترجمة ابن باجة آخر تراجم كتابه وقال فيه ما نصه:

«الأديب أبو بكر بن الصائغ هو رمدُ عين الدين وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً[2]. فما يتشرَّع[3] ولا يأخذ في غير الأضاليل، ولا يشرع. ناهيك من رجل ما تطهّر منْ جَنَابة ولا أظْهر مَخِيلةَ إنابة[4] ولا استَنْجى من حَدَث، ولا أشْجى فؤاده بتَوارٍ في جَدَث[5]، ولا أقرّ بباريه ومصوِّره، ولا قرّ بتباريه[6] في ميدان تهوره[7]. والإساءة إليه أجدى من الإحسان، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان. نظر في تلك التعاليم (يقصد الفلسفة) وفكّر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم، ونبذه وراء ظهره ثاني عطفه[8] وأراد إبطالَ ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[9]. واقتصر على الهيئة[10]، وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فيئة[11]، وحكم الكواكب بالتدبير واجترم على الله اللطيف الخبير، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد[12]، واستهزأ بقوله تعالى ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد﴾»[13].

وهذا يدل على مدى كراهية الفقهاء للفلاسفة وتشنيعهم بهم وتقبيحهم لآرائهم كما يدل أيضاً على مدى كراهية هذا العصر للفلاسفة واضطهادهم.

---

(١) طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ. انظر ص ٣٠٠ - ٣٠٦.
(٢) أي أنه هجر الشريعة الإسلامية وما تشتمل عليه من فروض وسنن.
(٣) أي لا يأخذ بالشريعة الغراء.
(٤) أي أنه ما أظهر ميلاً للإنابة أو التوبة إلى الله.
(٥) أشجى أي حزن والتواري الاختفاء والجدث القبر.
(٦) أي بتسابقه.
(٧) يعني أنه كان متهوراً في الدين ولم يعترف بتهوره.
(٨) يعني المتلوي سخرية من الناس وضيقاً بهم.
(٩) أي أنه يريد إبطال كتاب الله.
(١٠) أي أنه يؤمن بالطبيعة.
(١١) أي أنه رجع إلى الله.
(١٢) يعني يوم الحساب.
(١٣) المقري: نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٣٠ - ٢٣١.

لا يعرف الكثير عن حياة ابن باجة الأولى. قيل ولد سنة ٥١٣هـ (١١١٨م) حيث عاش بسرقسطة وألف فيها كثيراً من كتبه. ثم رحل إلى غرناطة وقدم على بلاط المرابطين في فاس حيث مات مسموماً بتدبير أحد حساده. ويذكر المقري[١] عن الأمير ركن الدين بيبرس في كتابه «زبدة الفكر في تاريخ الهجرة» أن ابن باجة «كان عالماً فاضلاً له تصانيف في الرياضيات والمنطق، وأنه وزر لأبي بكر الصحراوي (يعني المرابطي) صاحب سرقسطة، ووزر أيضاً ليحيى ابن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب، وأن سيرته كانت حسنة، فصلحت به الأحوال ونجحت على يديه الآمال، فحسده الأطباء والكتاب وغيرهم وكادوه فقتلوه مسموماً»[٢].

ويكاد ابن باجة يقتفي أثر فيلسوف المشرق الفارابي، فأحب العزلة مثله وضاق ذرعاً بالحياة، ولم يحاول كالفارابي أن يضع له مذهباً. ورسائله المبتكرة قليلة، ومعظمها شروح قصيرة لكتب أرسطو وغيرها من مصنفات الفلاسفة[٣] وبعضهم يرى أن ابن باجة من هواة الفلسفة لا من الفلاسفة. ويكاد ابن باجة يتفق مع الفارابي في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة. وكلاهما متأثر بآراء أرسطو (المعلم الأول). ومن أمثلة آراء ابن باجة الفلسفية «أن الموجودات قسمان» متحرك وغير متحرك. والمتحرك جسمي متناه. وهو متحرك حركة أزلية. وهذه الحركة لا يمكن القول بأنها من ذاته لأنه متناه. فلا بد في تعليل هذه الحركة التي لا تتناهى من أن نردها إلى قوة أو إلى موجـود أزكى (أعني إلى العقل)[٤].

كذلك أبدى ابن باجة رأيه في النفس والعقل فقال إن الهيولى لا يمكن أن توجد مجردة عن صورة ما. أما الصورة فقد توجد مجردة عن الهيولى، وإلا لما استطعنا أن نتصور إمكان أي تغير، لأن التغير إنما يكون ممكناً بتعاقب الصور الجوهرية... والإنسان بعروجه في درجات متتالية وترقيه من الجزئي والمحسوس وتصورهما، يكون مجموعة العقل، ويصل إلى ما هو فوق طور الإنسان وإلى ما هو إلهي. والذي يرشد الإنسان في هذا العروج هو الفلسفة»[٥].

وكذلك تعرض ابن باجة للإنسان المتوحد فقال إن الفرد لا يستطيع أن يعيش كما ينبغي. ولكي يستطيع أن يمضي في أعماله على أساس عقلي فإنه يجب عليه أن يعتزل المجتمع في بعض الأحيان. ويسمي ابن باجه كتابه في الأخلاق «تدبير المتوحد». وهو يطالب الإنسان بأن

---

(١) نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٤٠.
(٢) القفطي: طبقات الأطباء جـ٢ ص ٦٣ - ٦٤. دي بور ص ٣٦٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) دي بور ص ٣٦٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٧٠.

يتولى تعليم نفسه. على أن الإنسان يستطيع بوجه عام أن ينتفع بمحاسن الحياة الاجتماعية دون أن يتأثر بمساوئها(١).

وقد اشتغل ابن باجة بالأدب ونبغ في الشعر. ومن شعره قوله يمدح الأمير أبا بكر بن إبراهيم:

همامٌ جوده يصف السواري وسطوتُه بغيرها البحير
وقلنا نحن كيف وراحتاه بحورٌ يلتطي(٢) فيها سرور(٣)

(حـ) ابن طفيل (ت ٥٧١/١١٧٥).

كانت الدولة المرابطية تسير على هدي الفقهاء الذين كان لهم رأي في إدارة شئون البلاد والإشراف على الحياة الفكرية. وقد ارتاب المرابطون في آراء الفلاسفة تمسكاً بمذهب السلف الصالح الذي لا يقبل أن يحيد عما جاء به القرآن والسنة، وظل الأمر على ذلك حتى قام المهدي محمد بن تومرت بدعوته التي قامت على مذهب التوحيد الكلامي المستمد من آراء علماء الكلام وفلاسفة المسلمين، وظهر فيها حرية الرأي لأول مرة في تاريخ المغرب. وكان من حسنات هذه الدولة ظهور طائفة من كبار الفلاسفة مثل ابن طفيل وابن رشد.

ولد أبو بكر محمد بن طفيل في مدينة قادس ببلاد الأندلس. وقد عاش بخلاف ابن باجة حياة هادئة وأقبل على دراسة الكتب وانقطع إلى العلم وأثر ذلك على الاختلاط بالناس. وشغف بالفلسفة وكلف بها، ولكنه لم يتخصص فيها، فقد كان يلم بآراء دون أن يتأثر بها ويؤثر فيها. لذلك كان ابن طفيل يميل إلى الاستمتاع بالتأمل أكثر من ميله إلى التأليف. كما كان يشغف بالأدب ويميل إلى الشعر، حتى نظم كثيراً من القصائد.

على أن أكبر همّ ابن طفيل أن يمزج الحكمة اليونانية بحكمة أهل المشرق ليخرج للناس رأياً جديداً في الكون. كما أثار اهتمام ابن طفيل أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع وذهب في ذلك إلى أبعد ما ذهب إليه ابن باجة، فبينما نرى ابن باجة يجعل المفكر المتوحد أو طائفة صغيرة من المفكرين المتوحدين يكونون دولة داخل الدولة كأنهم نموذج لحياة سعيدة، نرى ابن طفيل يرجع منشأ الجماعة إلى الفرد(٤).

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.
(٢) من قولهم لطى الرجل بالأرض أي لزق.
(٣) جـ ٩ ص ٢٣٢.
(٤) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

قصة حيّ بن يقظان

يتكون مسرح قصة حيّ من جزيرتين. يضع ابن طفيل في إحدى هاتين الجزيرتين المجتمع الإسلامي بما فيه من عُرف وتقاليد وعادات وأديان، ويضع في الثانية إنساناً ينشأ وينمو على الفطرة، وتسود ذلك المجتمع المشتمل على هاتين الجزيرتين نزعات دنيوية. وفي هذا العالم ملة، أو دين يُحاكي الفطرة ويدين أصحابها بها تديناً سطحياً، ثم يظهر في هذا العالم (أي في الجزيرتين) فتيان من أهل الفضل يسمى أحدهما سلامان (أو سلمان) والآخر آسال (أو أبسال) يسموان بعقلهما إلى المعرفة والتغلب على الشهوات. وأول هذين الفتيين ينزع بعقله نزعة عملية، فهو يساير دين العامة حتى يسوده. وثانيهما ينزع إلى النظر العقلي الفلسفي الصوفي، إذ يرتحل إلى الجزيرة المقابلة لجزيرته، ظناً منه أنها غير مسكونة. وفي هذه الجزيرة ينقطع هذا الفتى إلى الدرس والزهد.

وحي بن يقظان الذي نحن بصدده قد ترعرع في هذه الجزيرة حتى أصبح فيلسوفاً كاملاً؛ وربما قد جيء به إلى أرضها وهو طفل أو نشأ فيها بالتولد الطبيعي من العناصر الأرضية وأرضعته ظبية، ثم توصل إلى تحصيل حاجاته المادية بوسائله الخاصة، واستطاع بالملاحظة والتفكير أن يتوصل إلى معرفة الطبيعة والسماء ومعرفة الله ومعرفة نفسه. وقد توصل حي بن يقظان وهو في التاسعة والأربعين من عمره إلى الله، أي أنه بلغ ما يبلغه الصوفية من الشهود لله والفناء فيه.

عند ذلك لقى حي بن يقظان آسال (الذي سما إلى النظر العقلي والتصوف). ولم يكن حي يعرف اللغة، ولكنه استطاع أن يتفاهم مع آسال بعد جهده، حيث ظهر أن فلسفة حي وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة، ولكنها عند الأول أكثر وضوحاً منها عند الثاني.

ولما عرف حي أن في الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها ما تزال تتخبط في دياجير الخطأ صحت عزيمته على أن يذهب إلى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة. فعلمته التجربة عند هؤلاء القوم أن العامة لا قدرة لهم على إدراك الحقيقة مجردة، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان على صواب؛ إذ بين للناس الحقيقة بضرب الأمثال الحسية، ولم يكاشفهم بالنور الكامل (وهو نور الله سبحانه وتعالى).

وبعد أن انتهى حي بن يقظان إلى هذه النتيجة عاد مع صديقه آسال إلى جزيرتهما الأولى الخالية ليعبدا ربهما عبادة روحية خالصة ما بقي في حياتهما[1].

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام الترجمة العربية ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩.

وفي هذه القصة يصور ابن طفيل حياة الإنسان والأطوار التي يجب أن يتطور فيها حتى يصل إلى الكمال، غير أن ابن طفيل لا يرى أن الفرد يستطيع وحده (معتزلاً عن المجتمع) أن يبلغ الكمال وأن يسمو إلى الحقيقة. وإذا استطاع فرد بطريق التصوف والعزلة أن يسمو إلى معرفة الله، فإن ذلك لا يتأتى لكل البشر. ومن هنا بعث الله سبحانه وتعالى الرسل إلى الناس، وكانت رسالة محمد ﷺ التي بعث بها إلى الناس كافة.

وتتمثل في قصة حي بن يقظان الأطوار التي مر بها الدين، كما يتمثل تطور الحكمة الهندية والفارسية واليونانية.

وقد صور ابن سينا قبل ابن طفيل بقرنين الإنسان وتطوره، واعترف ابن طفيل بذلك ولكن ابن طفيل صور العقل الإنساني الطبيعي الذي يشرق عليه نور من العالم العلوي، على أن هذا العقل يجب ـ بحسب منطق ابن طفيل ـ أن يتفق مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام. وكان ابن طفيل في هذا سائراً في نفس الطريق الفلسفي الذي سار فيه مفكرو المشرق من أن الدين يجب أن يقصر على العامة، إذ لا قدرة لهم على المضي فيما وراءه؛ أما الفلاسفة فهم القادرون على ما وراء ظواهر الدين. وعلى هذا فكلام النبي ﷺ ينطوي على تأويلات لا يسمو إليها إلا المفكرون. ومن المؤكد أن التفكير لا يتسنى لأحد إلا بعد بلوغ سن معينة. ويعتبر الاشتغال بالأمور المادية كالصناعات والعلوم خطوة طبيعية للوصول إلى الكمال الروحي.

ويعنى ابن طفيل بنشاط حي بن يقظان الصوفي الذي يحل محل العبادات التي فرضتها الشريعة الإسلامية على الدهماء. فالرجل الصوفي أسمى من المتعبد العادي. ولعل في ذلك مسحة من الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية. وقد تبينت لحي الغاية التي يرمي إليها من التماس الواحد في كل شيء والاتصال به، وهو يرى أن الطبيعة جميعها تنجذب نحو الواحد وهو الله سبحانه وتعالى. والإنسان هو أسمى المخلوقات لأنه القادر على الفكر، وهو يأكل النباتات والفواكه الناضجة ولا يأكل من الحيوان إلا الضروري، وهذا ما التزمه حي بن يقظان لمطالب جسده المادية. أما روحه فهي مرتبطة بالعالم العلوي، وهو يتشبه بالعالم الذي يعيش فيه، فهو بذلك يفيد ويستفيد. كما يرى أنه يجب أن يحيى حياة بريئة من شوائب المادة وأن يتعهد النبات ويحمي الحيوان ملتزماً النظافة والعناية بملبسه، منسق الحركات ليماثل الأجرام السماوية المعتدلة. وهكذا يصبح حي بالتدريج قادراً على أن يسمو بنفسه فوق الأرض والسماء، حتى يصير حقّاً صرفاً. وهذه هي حالة الفناء التي يريدها المتصوفة(١).

---

(١) انظر دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام الترجمة ص ٣٧٩ ـ ٣٨٣.

(د) ابن رشد (ت ٥٩٥/١١٩٨م)

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس في سنة ٥٢٠ ـ (١١٢٦م) ونشأ في بيت عريق في العلم والأدب، وذلك في أعقاب ملوك الطوائف الذين عرف عصرهم بالعصر الذهبي في الأندلس، ذلك العصر الذي بلغت فيه هذه البلاد أوج عزها الفكري والحضاري، كما بدأت حرية الفكر ببلاد المغرب بظهور المهدي محمد بن تومرت.

وقد ظهر ابن رشد في ميدان الفكر والفلسفة بعد أن زالت الدولة المرابطية التي كانت تناهض الفلسفة والفلاسفة. وقد قيل إن ابن طفيل هو الذي أخذ بيد ابن رشد ودفعه إلى الحياة العامة فقدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سنة ٥٤٨هـ. ولم يكن هذا الأمير الموحدي قد تولى الحكم قبل سنة ٥٥٨هـ. ولكن هذا الأمير كان مشغوفاً بمجالسة العلماء والفلاسفة.

ويقال إن هذا الأمير سأل ابن رشد عن اسمه واسم أبيه ونسبه، ثم بادره بقوله: ما رأي الفلاسفة في السماء؟ أقديمة هي أم حادثة؟ فاستولى الحياء وأخذ الخوف يستولي على ابن رشد وخشي أن يبطش به الأمير، وأخذ يتعلل وينكر اشتغاله بالفلسفة. ولكن الأمير ظل يتكلم في هذه المسألة مع ابن طفيل، فأعجب ابن رشد بغزارة علم الأمير ومعرفته بفلسفة أرسطو وأفلاطون والمتكلمين وفلاسفة المسلمين. عند ذلك ذهب الخوف عن ابن رشد وأخذ يتكلم دون خوف أو وجل من بطش الأمير، الذي أعجب به، فقربه منه، وكلفه بشرح مذهب أرسطو[١].

وقد قام ابن رشد بهذا العمل على أكمل وجه، «فأورث الإنسانية علم أرسطو كاملاً بريئاً من الشوائب».

وكان ابن رشد إلى جانب هذا فقيهاً وطبيباً، إذ تولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥هـ. وكان في سنة ٥٧٨هـ طبيباً للسلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ)، ثم تقلد ابن رشد القضاء ثانية في قرطبة مسقط رأسه، وشغل المنصب الذي شغله أبوه وجده من قبله.

غير أن الأيام تنكرت لابن رشد حين حل السخط بالفلاسفة فصارت كتبهم يلقى بها في النار. فنرى أبا يوسف يعقوب المنصور (٥٥٨ ـ ٥٩٥/١١٨٤ ـ ١١٩٩) يأمر بإبعاد ابن رشد، وقد بلغ سن الشيخوخة، في بلدة قريبة من قرطبة تدعى أليسافة، ثم يستدعيه إلى مدينة

(١) راجع مادة ابن رشد في دائرة المعارف الإسلامية.
Ernest Revan, Averoès et L´Averoisme

مراكش حاضرة الموحدين، فتحين منيته في هذه المدينة سنة (٥٧٥ ـ ١١٩٨ م) وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره[١].

ابن رشد وأرسطو:

وقف ابن رشد حياته على دراسة أرسطو، فتناول كل ما استطاع أن يحصل عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف أو من شروحها بالدراسة العميقة والمقارنة الدقيقة، وقد اطلع على ما ترجم به من كتب اليونان التي ضاع أغلبها فيما بعد، أو وصل إلينا بعضها ناقصاً. وقد اتبع ابن رشد في شروحه الطريقة المبنية على التحليل الدقيق والنقد السليم، وهو في شرحه لفلسفة أرسطو يوجز حيناً ويطنب حيناً آخر، فنرى الشروح ملخصة أو مبسوطة، وقد أطلق عليه «دانتي» في كتابه «الكوميديا الإلهية» لقب الشارح، فكان ذلك اصطلاحاً جرى عليه الفلاسفة بعد دانتي.

وقد بلغ فلاسفة المسلمين شأواً بعيداً في فهم فلسفة أرسطو وتقريبها إلى الأذهان بفضل ابن رشد.

كان ابن رشد يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكمل والمفكر الأعظم الذي استطاع أن يكشف عن الحقيقة وأن الزمن لن يستطيع أن يغير من آراء فيلسوف اليونان العظيم.

وكان ابن رشد شديد الوطأة في نقد المعلم الثاني أبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ) والرئيس أبي علي بن سينا (ت ٤٢٩هـ). ونرى ابن رشد في نقده لأسلافه أقسى من أرسطو في نقده لأفلاطون، على حين نراه يبالغ في مدح أرسطو إذ يرى مذهب أرسطو ـ إذا فُهم على حقيقته ـ لا يتعارض مع أسمى معرفة يستطيع أن يبلغها إنسان. «بل كان يرى أن الإنسانية في مجرى تطورها الأزلي بلغت في شخص أرسطو درجة عالية يستحيل أن يسمو عليها أحد، وأن الذين جاءوا بعده تجشموا كثيراً من المشقة وإعمال الفكر لاستنباط آراء انكشفت بسهولة للمعلم الأول. وستتلاشى بالتدريج كل الشكوك والاعتراضات على مذهب أرسطو، لأن أرسطو إنسان فوق طور الإنسان، وكأن العناية الإلهية أرادت أن تبين فيه مدى قدرة الإنسان على الاقتراب من العقل الكلي. وابن رشد يعتبر أرسطو أسمى صورة تَمَثَّلَ فيها العقل الإنساني، حتى إنه ليميل إلى تسميته بالفيلسوف الإلهي»[٢].

---

(١) المراكشي ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢٨٦.

ويتضح إعجاب ابن رشد بأرسطو في كتابه تهافت التهافت وفي مقدمة كتابه الطبيعة.

وابن رشد من المتعصبين لمنطق أرسطو، فهو يرى أنه لا سعادة لأحد دونه، ويأسف لأن سقراط وأفلاطون لم يكونا على علم بمنطق أرسطو، وسعادة الإنسان تكون على قدر معرفته بهذا المنطق.

وكان ابن رشد يهتم في علم اللغة بما هو مشترك بين جميع اللغات متأسياً في ذلك بأرسطو الذي راعى هذا في كتاب «العبارة» وفي كتاب «الخطابة» إذ كان يضع نصب عينيه هذا العنصر المشترك بين لغات الخلق جميعاً.

يرى ابن رشد أن الحقيقة قد تضمنتها آراء أرسطو، ومن هنا نظر إلى علم الكلام عند المسلمين نظرة عابرة. نعم إن ابن رشد يؤمن بالإسلام على أنه حقيقة من نوع خاص[١]. ومع إيمان ابن رشد بالإسلام فإنه لا يؤمن بعلم الكلام؛ لأن هذا العلم يهدف إلى إثبات أشياء يعتذر إثباتها بمناهج أرسطو التي تقوم على المنطق، «ويذهب ابن رشد إلى ما ذهب إليه إسبينوزا من أن الوحي الذي جاء به القرآن لايرمي إلى إعطاء الناس علماً، وإنما يرمي إلى إصلاحهم، وليس غرض الشارع في رأيه تلقين العلم، بل غرضه أخذ الناس بالطاعة، وبالأعمال الصالحة، لأن الشارع يعلم السعادة الإنسانية لا تتحقق إلا في مجتمع»[٢].

وأظهر ما يميز ابن رشد عن فلاسفة الإسلام ولا سيما ابن سينا، هو كيفية تصوره للعالم على أنه عملية تغيّر وحدوث منذ الأزل. والعالم في جملته وحدة أزلية ضرورية لا يجوز عليها العدم، ولا يمكن أن يقوم على ما هو عليه. وإذا كان التغير داخل نظام الكون أزلياً فإنه يستلزم حركة أزلية، وهذه تحتاج إلى محرك أزلي. ولو كان العالم حادثاً لتحتم علينا القول بوجود عالم آخر حادث نشأ منه، وهكذا إلى غير نهاية. ولذلك يذهب ابن رشد إلى أن القول بأن العالم كله متحرك منذ الأزل ضرورة، هو وحده الذي يضمن لنا إمكان الوصول إلى إثبات موجود مفارق للعالم محرك له منذ الأزل. وهذا الموجود بإيجاده تلك الحركة الدائمة وبإيجاده لنظام العالم البديع خليق بأن يسمى موجد العالم.

وكذلك يرى ابن رشد أن ماهية المحرك الأول أي الإله وماهية عقول الأفلاك هي أنها فكر تتجلى فيه الوحدة العقلية الوجودية.

والموجودات العقلية (أي الأفكار) تتجلى فيها الوحدة أو كمال الوجود، وكل العقول

---

(١) يقصد أن الدين قائم على الغيب وليس على المنطق في أغلب الأحيان، وهو يؤمن بغيبيات الدين. وهذا هو معنى قوله إن الدين حقيقة من نوع خاص.
(٢) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨٩.

تعقل ذاتها ولكن في معرفتها بذاتها صلتها بالعلة الأولى. وابن رشد يجزم بأن تعلق النفس الإنسانية بجسدها كتعلق الصورة بالهيولى، فهو يقول بهذا جاداً غاية الجد، وهو يرفض المذهب القائل بعدم فناء النفوس الجزئية المتكثرة[١] رفضاً باتاً، مخالفاً في ذلك مذهب ابن سينا. ولا بقاء للنفس عنده إلا باعتبارها كمالاً لجسدها.

ويشتمل مذهب ابن رشد على ثلاثة آراء: إلحادية تجعله مخالفاً للديانات السماوية الثلاث وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام، وأولها قوله بقدم العالم المادي والعقول المحركة له[٢]، وثانيها قوله بارتباط حوادث الكون جميعها ارتباط علة بمعلول على وجه ضروري لا يترك مجالاً للعناية الإلهية أو للخوارق أو نحوها، وثالثها قوله بفناء جميع الجزئيات[٣]، وهو قول يجعل الخلود الفردي غير ممكن.

وعلى كل فابن رشد مفكر جريء منطقي لا اضطراب في فكره، وإنْ لم يكن مفكراً مبتدعاً. وعلى الرغم من تولّيه مناصب قضائية إسلامية فكثيراً ما هاجم المتكلمين وغيرهم من فقهاء المسلمين؛ فقد كان ابن رشد قاسياً على الذين يقولون إنّ الخير خيرٌ لأن الله أمر به، والشر شر لأن الله نهى عنه. ويقول إن العمل يكون خيراً أو شراً لذاته أو بحكم العقل، والعمل الخلقي هو الذي يصدر فيه الإنسان عن معرفة عقلية. وينبغي بالطبع ألا يكون مرجعنا الأخير إلى عقل الفرد بل إلى ما تمليه مصلحة الدولة.

وابن رشد ينظر إلى الدين أيضاً بعين النظر السياسي، فهو يعظم الدين لما يرمي إليه من غايات خلقية، ويقول إن الواجب يحتم على الناس أن يؤمنوا بما جاء به الكتاب كما هو؛ وما في الكتاب حقٌّ، وهو يروى في صورة قصص لأنه موجه إلى أطفال كبار، ومجاوزة العامة ذلك شرٌّ لهم.

على أن ابن رشد يرى أنه يجوز للفلاسفة أن يؤولوا آيات القرآن وهم إذ يفهمون مراميه على نور يكون في ذلك الحقيقة العليا[٤].

وقد أثرت مؤلفات ابن رشد في الأندلس وفي الفكر الأوروبي ولا سيما في إيطاليا حتى القرن السادس عشر الميلادي. «وكان لمذهبه أتباع من المسلمين والأوروبيين. وعلى الرغم من

---

(١) أي المتوالدة تناسليا.

(٢) بمعنى أنه لم يجعل الله سبحانه هو القديم وحده كما قالت بذلك الكتب السماوية بل إن العالم قديم كذلك.

(٣) وبهذا لا يمكن أن يكون هناك بعث.

(٤) انظر دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٩٤ ـ ٣٩٨.

أن جامعة باريس عملت على اضطهاد أتباعه، فقد عادت فطلبت من خريجيها ألا يعلموا تلاميذهم إلا المعلومات التي تتفق مع تعاليم أرسطو كما قررها ابن رشد.

(هـ) محيي الدين بن عربي[١] (ت ٦٣٨/١٢٤٠)

ويعتبر محيي الدين بن عربي من أشهر فلاسفة ومتصوفة الأندلس. ولد ابن عربي بمُرْسية في شهر رمضان سنة ٥٦٠هـ ونشأ بها وتلقى العلم فيها حتى انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨هـ وأقام حتى سنة ٥٩٨هـ. ثم اختلف إلى كثير من بلاد المشرق كمصر والحجاز وبغداد والموصل وأخذ على كبار علمائه من أمثال الحافظ السّلفي وابن عساكر وأبي الفرج ابن الجوزي. ثم رحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة طويلة، ثم ذهب إلى دمشق وظل بها حتى مات.

وقد اشتهر ابن عربي بالتصوف وأخذ نفسه بالزهد والتقشف وحرمان النفس من ملذات الحياة ليخلص إلى الله سبحانه وتعالى. وكان ابن عربي يدين بعقائد المذهب الظاهري الذي أخذه عن ابن حزم الأندلسي، كما كان يجنح في تصوفه نحو مذاهب الشيعة. وكان ابن عربي «محصلاً بفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلحق به والتقدم الذي لا يسبق»[٢]. ولابن عربي مؤلفات قيمة في الفلسفة والتصوف نخص بالذكر منها:

(١) كتاب ضمنه مقامات رأى فيها النبي ﷺ ومنامات حدث بها عن النبي.

(٢) كتاب خيار مشايخ العرب وزهادهم.

(٣) كتاب الفتوحات المكية (ويقع في عدة أجزاء) ويشهد بطول باعه في التصوف والتأثر بالمذهب الشيعي، حتى إنه كتب كثيراً عن المهدي المنتظر، وأشراط الساعة بظهور المسيح الدجال ثم المسيح عليه السلام، والأئمة العلويين ولا سيما الأئمة الاثنا عشرية، حتى لقد وصفه المقري[٣] بقوله إنه كان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات[٤]. ويغلب على الظن أن البابية والبهائية في إيران قد تأثروا إلى حد بعيد بآراء محيي الدين بن عربي، ولكنهم غلوا في تشيعهم ومبادئهم. كما تأثر به كثير من متصوفي مصر، نخص بالذكر منهم الشيخ الشعراني[٥] والشيخ علي الخواص، والشيخ عبد الوهاب العفيفي وغيرهم من

---

(١) كان يعرف بالمغرب بابن العربي، واصطلح أهل الشرق على تسميته بابن عربي بدون الألف واللام.
(٢) المقري جـ ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٣.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٦٣.
(٤) أي أنه أخذ عن الشيعة مذهب التأويل.
(٥) المقري جـ ٢ ص ٣٧٨.

المتصوفة. ومن هذا نرى كيف سمى المؤرخون ابن عربي إمام المتصوفة في العالم العربي.

ولما صنف ابن عربي كتابه «الفتوحات المكيـة» كان يكتب كل يوم ثلاث كراسات[1].

(٤) تلقين المهتدي.
(٥) الأحكام الكبرى والوسطى والصغرى.
(٦) كتاب التهجد.
(٧) كتاب العافية.
(٨) كتاب المعارف الإلهية.
(٩) كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم.
(١٠) رسالة مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية.
(١١) كتاب فصوص الحكم[2].

ومما قاله ابن عربي في كتابه هذا: «اعلم أن القلب (أعني قلب العارف بالله) هو من رحمة الله، وهو أوسع منها، فإنه وسع الحق جل جلاله ورحمته لا تسعه[3]. هذا لسان العموم من باب الإشارة، فإن الحق راحم ليس بمرحوم، فلا حكم للرحمة فيه[4]. وأما الإشارة من لسان الخصوص فإن الله وصف نفسه بالنفس وهو من التنفيس، وإن الأسماء الإلهية عين المسمى وليس إلا هو».

وقد قال ابن عربي في الفص الثالث والعشرين[5] الذي عقده تحت عنوان «الحكمة الإحسانية»: موضوع هذا الفص الإحسان، وهو في اللغة فعل ما ينبغي أن يفعل الخير بالمال أو بالقول أو بالعمل. وفي الشرع أن تتوجه إلى الله في عبادتك بكليتك وتتمثله في محرابك، كما ورد في الحديث المشهورعندما سئل النبي عن الإحسان ما هو؟ فقال أن تعبد الله كأنك تراه، وهو (أي الإحسان) في عرف أصحاب وحدة الوجود شهود الحق[6] في جميع المراتب الوجودية

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٦٥.
(٢) نشره الدكتور أبو العلا عفيفي (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٩.
(٣) يعني أن قلب العارف بالله، أي قلوب المتصوفة، أكبر وأعظم من رحمة الله، لأن هذه القلوب وسعت الله جل شأنه، على حين أن رحمة الله لا تسعه، لأن الرحمة جزء صغير من فضل الله وصفاته جل شأنه، على حين أن القلب الله ذاتاً وصفاتاً.
(٤) يعني أن الرحمة فضل من الله وليس الله فضلاً منها لأنه سبحانه صانع الرحمة.
(٥) المصدر نفسه: تعليقات الدكتور أبو العلا عفيفي ص ٢٧٦.
(٦) يعرفه باصلاح أهل الباطن.

والتحقق من أنه متجل في كل شيء. وهذا الأخير[١] هو المعنى الذي يدور عليه هذا الفص (أي الباب). والذي يستخلصه المؤلف (يعني نفسه) من الآيات الواردة في حق لقمان في قوله تعالى ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[٢] ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾[٣]. فلقمان في هذا الفص لسان من ألسنة وحدة الوجود.

وقد زاد في شهرة ابن عربي تفوقه في الأدب ولا سيما الشعر، ومن شعره الصوفي قوله في الله جل شأنه:

يا مَنْ يراني ولا أراه   كم ذا أراه ولا يراني

وقد سئل ابن عربي في قوله إنه يرى الله ولا يراه الله فقال مرتجلاً:

يا مَنْ يراني مجرما   ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعِّما   ولا يراني لائذا

وهذا يؤكد أن ابن عربي كان يأخذ بمبدأ التأويل الذي سار عليه الشيعة وجمهرة المتصوفين، على حين أنه كان ظاهرياً في العبادات كالصوم والصلاة والزكاة والحج. من ذلك قوله في ضبط ليلة القدر التي اختلف الفقهاء في تحديدها:

وإنّا جميعاً إن نَصمْ يوم جُمعة   ففي تاسع العشرين خذ ليلة القدرِ
وإنْ كان يوم السبت أول صومنا   فحادي وعشرين اعتمده بلا عذر
وإن تَصُم الشهر في أحدٍ فخذْ   ففي سابع العشرين ما شئتَ فاستَقْري
وإن هلّ بالاثنين فاعلمْ بأنه   يواتيك نيل المجد في تاسع العَشْر
وفي يوم الثلاثاء إنْ بدا الشهر فاعتمد   على خامس العشرين فاعمل بها تدري
وفي الأربعا إن هلّ يا من يرومها   فدونك فاطلب وصلها سابع العَشْر
ويوم خميس إن بدا الشهر فاجتهدْ   ففي ثالث العشرين تظفرُ بالنصر
وضابطها بالقول ليلةُ جُمْعةٍ   توافيك بعد النصف في ليلة الوِتر[٤]

ويروي المقري عن الإمام الصيفي بن ظافر الأوزي قوله في ابن عربي[٥]: «وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية، ومنزلته

---

(١) يعني اصلاح أهل الباطن.
(٢) سورة لقمان ٣١: ١٣.
(٣) سورة لقمان ٣١: ١٦.
(٤) المقري جـ٢ ص ٣٦٨.
(٥) المقري: نفح الطيب جـ٢ ص ٣٨١.

شهيرة، وتصانيفه كثيرة، كأنْ غلب عليه التوحيد علماً وخُلُقاً وحالاً، لا يكترث بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً. وله علماء أتباع، أرباب مواجيد وتصانيف».

«ولو قيس ابن عربي بغيره من كبار مؤلفي الإسلام المتفلسفين أمثال ابن سينا والغزالي، لبذهم جميعاً في ميدان التأليف من ناحية الكم والكيف على السواء. أما من ناحية الكم فقد ألف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة على قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢هـ، أو خمسمائة كتاب ورسالة على حد قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب«نفحات الأندلس»، أو أربعمائة كتاب كما يقول الشعراني في اليواقيت والجواهر. وقد وصفه بروكلمان بأنه مؤلف من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً»[١].

(٥) التاريخ

(أ) مؤرخو المشرق الإسلامي:

وقد زخر أواخر العصر البويهي والعصر السلجوقي في الشرق ومصر والمغرب والأندلس بطائفة كبيرة من المؤرخين الذين أمدونا بمادة غزيرة تصور لنا ما وصلت إليه الدراسات التاريخية من نهضة مباركة في ميدان الثقافة الإسلامية.

وقد وضع أبو نصر العُتْبي (بضم العين وسكون التاء) (ت ٤٢٨هـ) كتابه عن حياة السلطان محمود الغزنوي وسماه «تاريخ اليميني» نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوي (القاهرة ١٢٨٦هـ) ويقع في جزأين.

وهناك ثلاثة من المؤرخين هم أبو الحسن مسكويه (ت ٤٢١هـ) وهلال الصابي (ت ٤٤٨هـ) وأبو شجاع (ت ٤٨٨هـ).

ويعتبر تاريخ مسكويه المسمى «تجارب الأمم» من أهم الكتب التاريخية، ويتناول جزء منه الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبري، وينتهي في سنة ٣٦٩هـ. ولا يكتفي مسكويه بذكر الحوادث التاريخية بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة. وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية. وقد تناول مسكويه بإسهاب تاريخ الصدر الأول من عصر بني بويه.

وقد نشر المستشرقان دي غويه ودي يونج جزءاً من كتاب تجارب الأمم، ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية التي وقعت من خلافة المأمون سنة ١٩٨هـ إلى أواخر خلافة المستعين

---

(١) فصوص الحكم، نشره أبو العلا عفيفي (القاهرة ١٩٤٦) ص ٥

(٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ) سنة ٢٥١هـ. وقد نشر المستشرقان دي غويه ودي يونج أيضاً الجزء الثالث من كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول، ويتناول الحوادث التاريخية من خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦هـ إلى نهاية خلافة المعتصم العباسي سنة ٢٢٧هـ. (ص ١ ـ ٤١٠) وذيلاه بهذا الجزء من كتاب تجارب الأمم لمسكويه (ص ٤١١ ـ ٥٨٣) (ليدن ١٨٦٩ ـ ١٨٧١).

وقد ذيل ظهير الدين محمد الحسين الدوذراوري وزير الخليفة العباسي المقتدي (٤٧٦ ـ ٤٨٧هـ) المعروف بأبي شجاع تاريخ مسكويه بتاريخه الذي تناول فيه الكلام على الحوادث التي وقعت بين سنتي ٣٦٩ و٣٨٩هـ. ثم تلاه هلال الصابي في تاريخه الذي ذيل به «أمدروز» كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣هـ، ونقله عنه «مرجليوث».

كما تناول هلال الصابي الكلام على الحوادث التي وقعت بين سنتي ٣٨٩هـ و٣٩٣هـ. وترجمها مرجليوث إلى الإنجليزية.

وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة في القاهرة سنتي ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤م.

ويعد كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ) بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابي. ويظهر أن ابن القلانسي اعتمد كثيراً على كتاب أبي شجاع وكتاب هلال. وكذلك يعد كتاب ابن القلانسي من كتب التاريخ العامة، لأنه يتناول فترة طويلة تتعلق بجزء كبير من أنحاء العالم الإسلامي تمتد بين سنتي ٣٦٠ و٥٥٥هـ، كما يعد هذا الكتاب ذا صفة محلية، لأنه يتناول الحوادث التي جرت في الشام والجزيرة ولا سيما ما يتعلق منها ببيت عماد الدين زنكي الذي كان معاصراً له، وكان شاهد عيان لما وقع بين زنكي وحكام دمشق من حروب وما أبرم من معاهدات وجرى من مفاوضات، ويمكن الاعتماد على المعلومات التي أوردها ابن القلانسي عن أسرة زنكي وعلاقتها بالصليبيين. على أنه يلاحظ على أسلوب ابن القلانسي كثرة السجع والتكرار اللذين يثيران الملل في نفس القارىء.

وتعتبر مؤلفات أبي الريحان البيروني الخوارزمي (ت ٤٤٠هـ) من أهم مصادر التاريخ والاجتماع. وقد قضى البيروني حياته تحت كنف مأمون بن مأمون أمير خوارزم، ثم زار حول سنة ٣٩٠هـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي اشتهر في طبرستان بتشجيع العلماء، وأهدى إليه البيروني تاريخه المشهور «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذي نشره إدوارد سخاو Sachau مع ترجمته الإنجليزية (لندن ١٨٧٩ وليبزج ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩). ويتناول هذا الكتاب القيم نظم الطوائف والجماعات المختلفة والاحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص.

ثم عاد البيروني إلى موطنه خوارزم حيث قضى بقية حياته في بلاط محمود الغزنوي صاحب الفتوح المشهورة في بلاد الهند التي غزاها اثنتي عشرة مرة ونشر الإسلام في كثير من ربوعها. وقد صاحب البيروني السلطان محمود الغزنوي في أغلب غزواته لبلاد الهند حيث لزم البيروني العلماء والفلاسفة وتعلم اللغة السَّنْسِكْرِيتية، واتسعت ثقافته بما أفاد من العلماء الهنود في التاريخ والرياضة والجغرافيا والعلوم الطبيعية.

وفي هذه الرحلات جمع البيروني علوم الهند ومذاهبهم وعاداتهم، وهي المعلومات التي ألف منها كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، ويعرف باسم «تاريخ الهند»[١]. ومن هذا الكتاب يتضح أن البيروني كان ملماً باللغة السنسكريتية وبقليل من العبرية والسريانية، وأنه لم يكن يعرف اليونانية، بل استقى كثيراً من معلوماته عنها من التراجم العربية أو السريانية. وقد قيل إن مؤلفات البيروني أربت على المائة مؤلف.

وللبيروني أيضاً كتاب «تاريخ خوارزم». ويقال إنه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بوطنه وخاصة الوقائع التاريخية التي شاهدها بنفسه. وقد أورد أبو الفضل البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه «تاريخ المسعودي».

ومن مؤلفات البيروني كتاب «التفهيم في صناعة التنجيم» وهو في مقدمات علم الهيئة والهندسة والنجوم بطريق السؤال والجواب. وقد ألفه حول سنة ٤٢٠/١٠٢٩ (وقيل سنة ٤٢٥/١٠٣٣)، وقدمه لريحانة بنت الحسن الخوارزمية، وكتبه باللغتين العربية والفارسية، غير أنه جعل إحداهما ترجمة للآخر[٢].

ومن مصادر العصر السلجوقي كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد ابن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ). ولو لم يكن للخطيب البغدادي كما يقول ابن خلكان[٣] «سوى التاريخ لكفاه». وقد خلف الخطيب البغدادي نحو مائة كتاب. وكان فقيهاً يغلب عليه الحديث والتاريخ. وكان الخطيب البغدادي حافظ المشرق كما كان ابن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» حافظ المغرب. وقد ماتا في سنة واحدة.

وكتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام من أمهات الكتب التي يعتمد عليها في دراسة

---

(١) نشره إدوارد سخاو وطبعت نسخة هذا الكتاب العربية مع ترجمتها الإنكليزية على نفقة حكومة الهند (لندن ١٨٨٧).

(٢) ويوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة في مكتبات أوروبا. انظر كتاب جهار مقاله، تعليقات ميرزا محمد، الترجمة العربية ص ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٣) وفيات الأعيان جـ١ ص ٧٦.

تاريخ الدولة العباسية من تأسيس مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف. ويشتمل هذا الكتاب على وصف مدينة بغداد وأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وغيرهم. ويقع هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً، ويتناول تاريخ الدولة العباسية في أزهى عصورها وفي أيام انحلالها.

ومن أشهر المؤرخين علي بن أحمد بن أبي الكرم بن الأثير (ت ٦٣٠/١٢٣٢) الجزري، وينسب إلى موطنه الأصلي جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل، ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل وأخذ العلم على بعض علمائها، ثم قدم بغداد مراراً بعد أن أدى فريضة الحج وسمع من شيوخها، ثم رحل إلى الشام وبيت المقدس وسمع بها، ثم عاد إلى الموصل مسقط رأسه وانصرف إلى العلم والتأليف، واشتهر بتبحره في علم الحديث والتاريخ وعلم الأنساب. وقد اختصر كتاب الأنساب للسمعاني واستدرك عليه في مواضع كثيرة وسماه كتاب «اللباب في معرفة الأنساب»، ويقع في ثلاثة مجلدات.

وقد لقي ابن الأثير شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١هـ) في مدينة حلب سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩ م) وتردد عليه كثيراً وانتفع بعلمه وأثنى على فضله وتواضعه وكرم أخلاقه. وفي السنة التالية رحل ابن الأثير إلى دمشق ثم عاد إلى حلب حيث انتفع ابن خلكان بعلمه، ثم عاد إلى الموصل.

ويعتبر كتاب «الكامل في التاريخ» من المصادر الأصيلة التي يعتمد عليها في دراسة التاريخ الإسلامي، وعلى الأخص ما يتعلق منه بالحوادث التي وقعت بعد سنة ٣٠٢هـ. وهي السنة التي انتهى إليها الطبري في تاريخه. والجزء الذي تناول فيه ابن الأثير الكلام على بني بويه من أهم ما كتب عن هذه الدولة. ولعل ابن الأثير استمد أكثر معلوماته عن بني بويه مما كتبه المسعودي عن صدر هذه الدولة في شيء من الإسهاب.

وكذلك يمكن الاعتماد على ما كتبه ابن الأثير عن السيرة النبوية حيث نجد معلومات هامة مركزة، وكذلك ما كتبه عن الفتوح الإسلامية في جزائر البحر الأبيض المتوسط، وعن غزوات المغول على يد جنكيزخان إلى سنة ٦٢٨هـ، أي إلى ما قبل وفاته بسنتين.

على أنه يلاحظ على كتاب الكامل لابن الأثير كثير من الجمود والغموض اللذين يدعوان إلى الملل والسأم ويبعدان عن التشويق في كثير من الأحيان.

وقد خلف لنا ابن الأثير كتابه عن تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل، ويسمى التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل). وقد تناول فيه الكلام على بيت زنكي منذ ولاية آق سنقر

والد عماد الدين زنكي إلى عهد السلطان مسعود (٤٧٧ ـ ٦٠٧هـ). وأسرة زنكي هذه هي الأسرة التي نشأت في كنفها أسرة ابن الأثير. وفي هذا الكتاب اعترف بفضل أسرة زنكي[1]. وقد عبر ابن الأثير عن وفائه لهذه الأسرة فخص أحد أحفاد زنكي وهو الملك القاهر (٦٠٧ ـ ٦١٥هـ) بكتابه «الباهر» الذي أهداه إليه.

ويعد كتاب «الباهر» مصدراً رئيساً لتاريخ أسرة زنكي، ويشتمل على معلومات قيمة عن سيرة عماد الدين زنكي. وقد نقل ابن الأثير هذه المعلومات المفصلة عن أبيه الذي عاش على كنفهم. كما يمدنا ابن الأثير بمعلومات هامة عن نظام الجيش وفرقه وأساليب القتال ونظام الاقطاع في عهد هذه الأسرة، وعن سياسة زنكي في الموصل وإربل وجزيرة ابن عمر ومناطق الأكراد.

أما المناطق الأخرى كبغداد والجزيرة ودمشق وحلب فقد اعتمد ابن الأثير في كتابه «الباهر» على ما دونه أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤/١١٨٨) في كتابه «الاعتبار» أو «حياة أسامة». ويعد هذا الكتاب من المصادر الهامة لأن مؤلفه عاصر عماد الدين زنكي سنين عدة واتصل به اتصالاً وثيقاً ووقف على حياته السياسية والخاصة، وكان شاهد عيان لما جرى في عهده من أحداث وأمور.

كذلك اعتمد ابن الأثير في كتابه «الباهر» على يحيى بن أبي طي[2] (١٢٣٢ ـ ١٢٣٣) والقاضي بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢/١٢٣٤) في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ويتبع ابن الأثير في كتابه «الباهر» التسلسل الزمني للأحداث التاريخية اللهم إلا إذا استثنينا ما كتبه عن سيرة عماد الدين زنكي. ويتسم ابن الأثير في كتابه «الباهر» بالتحيز لعماد الدين زنكي والمغالاة في مدحه ويغفل أخطاءه ولعل مرد ذلك أنه قدم هذا الكتاب هدية لأحد أحفاد عماد الدين زنكي ونرى ابن الأثير أقل تحيزاً لزنكي في كتابه «الكامل في التاريخ».

---

(١) وقد نشر هذا الكتاب في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية أي في الجزء الثاني من المجموعة الشرقية.

(٢) وأصله من حلب. وقد اعتنق (كأبيه من قبله) العقائد الشيعية. ومن مؤلفاته كتاب «معجم شعراء الشيعة» و «رسالة في فضائل الأئمة الاثني عشرية». كما وضع ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي في متناول أيدينا عن طريق أبي شامة (ت ٦٥٥/١٢٦٧ ـ ١٢٦٨) وتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥/١٤٤١)، وله «شرح لامية العرب» للشنفرى (بكسر الشين وسكون النون وفتح الفاء والراء) الذي وضعه سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م).
انظر مجموعة مؤرخي الجروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) جـ١ ص ٤٠٧ حاشية رقم ٣ مقدمة ب. ل. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٧ ـ ٥١٨.

ومن مؤلفات ابن الأثير كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ويقع في ستة أجزاء. وهناك كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» لشهاب الدين ابن حجر العسقلاني (ت ١٤٤٩/٨٥٣)[١].

ومما يؤخذ على ابن الأثير ركاكة عباراته وغموضها في كثير من الأحيان، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية مؤلفاته التي تتميز بغزارة المادة التاريخية وعمق الفكرة ودقة البحث.

ومن أشهر العلماء في هذا العصر الحافظ أبو سعد (ويقال أبو سعيد) عبد الكريم التميمي السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ. وقد ولد السمعاني بمدينة مرو حاضرة خراسان سنة ٥٠٦هـ، وتبحر في الفقه والحديث والأنساب، واختلف في سبيل طلب العلم إلى كثير من البلدان، إذ رحل إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان وإلى قومس والري وأصبهان وهمذان وبلاد الجبل والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد. ولقي في رحلاته كثيراً من العلماء الذين أخذ عنهم وروى عنهم حتى قيل إن عدد شيوخه قد نيف على الأربعة آلاف، ولو أن هذا الكلام يتسم بكثير من المبالغة.

وقد خلف لنا السمعاني كثيراً من الكتب نخص بالذكر منها: كتاب «تذييل تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ويقع في نحو خمسة عشر مجلداً. كما خلف «تاريخ مرو» الذي يزيد على عشرين مجلداً. ولعل أشهر كتب السمعاني كتاب «الأنساب» ويقع في ثمان مجلدات. وقد نشر في سلسلة ذكرى جب التذكارية رقم ٢٠ (١٩١٢). وقد لخص ابن الأثير كتاب الأنساب للسمعاني ويعرف باسم «اللباب في معرفة الأنساب».

وكان أبو سعد السمعاني من بيت علم ودين. فقد ظهر من هذا البيت كثير من العلماء والرؤساء، وكان أبوه محدثاً وفقيهاً[٢].

ومن شهر مؤرخي هذا العصر نجم الدين عمارة اليمني الذي نبغ في الشعر والفقه والتاريخ الذي تقدمت الإشارة إليه عند كلامنا على الشعر ونظم الحكم. وقد أقصاه إخلاصه للفاطميين عن عطف الأيوبيين وانتهت حياته الحافلة بشنقه في شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) لاتهامه بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين. وقد خلف لنا عمارة اليمني هذه المؤلفات التي تعد ذخيرة علمية وهي:

(١) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية (باريس ١٨٩٧).

---

(١) ويقع في ستة أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ) وقد قام سبرنجر على طبعه (كلكتا ١٨٥٦ - ١٨٧٣)، (١٢٨٠ هـ، ١٣٢٣ هـ).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٧٨ - ٣٨٠.

(٢) كما خلف لنا عمارة تاريخ حياته.

(٣) كتاب تاريخ اليمن، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون، ثم أخبار القرامطة باليمن تأليف القاضي البهاء الجندي (لندن ١٣٠٩هـ).

ومن أشهر علماء هذا العصر ومؤرخيه الحافظ جمال الدين عبد الرحمن بن جعفر بن الجوزي[١] الذي ينتسب إلى أبي بكر الصديق. وقد عاش ببغداد، وكان، كما وصفه ابن خلكان، علامة عصره وإمام وقته في الحديث والوعظ. وقد ألف في كثير من أنواع العلوم، ومن مؤلفاته:

(١) زاد المسير في علم التفسير ويقع في أربعة مجلدات.

(٢) الموضوعات ويتناول الأحاديث الموضوعة ويقع في أربعة مجلدات.

(٣) تلقيح فهوم الأثر وهو تعليق على كتاب المعارف لابن قتيبة.

(٤) لقط المنافع في الطب.

(٥) وربما كان أهم كتب أبي الفرج جميعاً كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»[٢].

وقد قيل إن الكراريس التي كتب أبو الفرج بن الجوزي كثيراً منها بخطه لو جمعت وقسمت على أيام حياته لكان له كل يوم تسعة كراريس. وهذه المبالغة إن دلت على شيء فإنما تدل على غزارة علمه وكثرة مؤلفاته. وقد توفي ابن الجوزي ببغداد سنة ٥٩٧هـ[٣].

ويعد كتاب «تاريخ جهان كشا» أو «تاريخ فاتح العالم» (أي جنكيزخان) الذي ألفه عطا ملك الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) من أهم المصادر التي يعتمد عليها في تاريخ المغول. ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء، يتناول الجزء الأول منها الكلام على أصل المغول وغزوات جنكيزخان، والثاني يبحث في تاريخ ملوك خوارزم المعروفين باسم «خوارزمشاه»، والثالث يتحدث عن الحشاشين أو إسماعيلية حصن ألموت وقهستان وحروب هولاكو معهم.

وقد نشر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ضمن سلسلة جب التذكارية وحققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزويني[٤].

---

(١) الجوزي نسبة إلى موضع يقال له فرضة الجوز.

(٢) يقع في خمسة أجزاء مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدرأباد الدكن بالهند (١٣٦٩ هـ).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢٢.

(٤) وقد اعتمد دوسون على هذا الكتاب كثيراً في تأليف كتابه تاريخ المغول: Histoire des Mongols
انظر براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية للدكتور الشواربي. جـ٢ ص ٥٩٩ - ٦٠٠.

ويعتبر كتاب «تاريخ دولة آل سلجوق» من أهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ السلاجقة. وقد ألف هذا الكتاب أنو شروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد العباسي (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ)، ثم ترجمه إلى العربية عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) الكاتب المشهور وصاحب كتاب «خريدة القصر وخريدة العصر»، ثم اختصر هذه الترجمة الفتح بن علي بن محمد البنداري (بضم الباء وسكون النون وكسر الراء) الأصفهاني في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م).

ويتناول مختصر البنداري في تاريخ آل سلجوق تراجم سلاطين السلاجقة وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين في عهدهم، كما يبحث نشأة دول الأتابكة، ويتناول الكلام على الوزراء وما قام به الإسماعيلية من الأعمال العدوانية ضد السنيين[1]. وقد لخص البنداري كتاب الشاهنامة للفردوسي بأسلوب نثري. على أنه يؤخذ على كتاب تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ركاكة الأسلوب وغموضه وتعقيد المعاني في كثير من الأحيان.

ومن المصادر التاريخية باللغة الفارسية كتاب «منهاج السراج» للجوزجاني[2]. وله أيضاً كتاب «طبقات ناصري». وقد ولد حول سنة ٥٩٠هـ (١١٩٣م) والتحق، كأبيه وجده، بخدمة ملوك الغور. وفي سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) خرج الجوزجاني إلى الهند والتحق بخدمة السلطان ناصر الدين قباجة (بضم القاف)، وظل الجوزجاني في خدمته حتى انهزم بعد سنة، فالتحق بخدمة شمس الدين إيلتمس الذي تغلب على قباجة، وأهدى كتابه منهاج السراج إلى ابنه ناصر الدين محمود.

ويشتمل كتاب «طبقاتي ناصري» على عشرين فصلاً تبدأ بالأنبياء والأولياء وتنتهي بغارة المغول التي تناول المؤلف الكلام عليها في شيء من التفصيل الذي لا نجده في المراجع الأخرى. وقد طبع الكاتب «تساوليز» جزءاً من هذا الكتاب ترجمه رافيرتي في سلسلة مكتبة الهند. ويتناول هذا الجزء المطبوع الدول المتصلة بالهند، ويغفل كل ما له صلة بأمراء الطاهريين والصفاريين والسامانيين والديلم والسلاجقة والخوارزميين وغيرهم من الحكام الذين كانت لدولهم أهمية خاصة لدى المعنيين بدراسة تاريخ إيران[3].

---

(١) نشر المستشرق هوتسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب.
راجع براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية ص٥٩٨ ـ ٥٩٩.

(٢) نسبة إلى جوزجان (بفتح الجيم والزاي وسكون الواو) بالقرب من بلخ.

(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية جـ٢ ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦.

ومن أشهر مؤرخي العصر السلجوقي الأخير جرجيس المكين[1] (ت ٦٨٠/١٢٧٣). وكتابه «المجموع المبارك»[2] من أوائل الكتب الأصيلة التي طبعت في أوروبا. وقد نشر المستشرق الهولندي إربنيوس (Erpenius) كتاب المكين مع ترجمته اللاتينية بمدينة ليدن سنة ١٦٢٥. ثم ترجم برجاس (Prurches) هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية في السنة التالية. ثم ترجمه فاتيير Vatitrer إلى الفرنسية سنة ١٦٥٧[3].

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر غريغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري (أي اليهودي) لأن أباه أهرون ترك ديانته اليهودية واعتنق المسيحية. ويعرف ابن العبري أيضاً باسم «جريجوريوس» أو غريغوريوس، وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) عندما تولى أسقفية جوباس.

ولد ابن العبري سنة ١٢٢٦م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى، وتعلم في صغره اليونانية والسريانية والعربية، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. فلما عم الفزع الناس من غارات المغول فرَّ به أبوه ـ وكان طبيباً ـ إلى مدينة أنطاكية في سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م).

وقد عاش ابن العبري عيشة الزهد والنسك وانفرد في مغارة بالبرية، ثم سار إلى مدينة طرابلس الشام حيث أتم دراسة البيان والطب ورقي وهو في العشرين من عمره إلى أسقفية جوباس من أعمال ملطية. وفي سنة ١٢٦٤م انتخب مفرياناً، ويعد هذا المنصب من أكبر المناصب بعد منصب البطريركية (وهو أشبه بكبير رؤساء الأساقفة)[4] على جهات ما بين النهرين والعراق العجمي وكان يقيم أحياناً في الموصل وأحياناً أخرى في إقليم أذربيجان أي في تبريز والمراغة في الشمال الغربي من إيران، ومات في مدينة المراغة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م)[5].

وقد ألف ابن العبري أكثر من ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها، نخص بالذكر منها كتابه المعروف «مختصر تاريخ الدول». وقد كتبه في الأصل باللغة السريانية، ولكن جماعة من كبار المسلمين طلبوا إليه أن ينقله إلى العربية، ففعل ذلك في السنوات الأخيرة من حياته، وطبع هذا الكتاب أكثر من مرة،

---

(١) أو عبد الله بن أبي الياسر بن أبي المكارم بن العميد، وهو مسيحي مصري.

(٢) أصبح كتاب «التاريخ المبارك» وكتاب «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفدا صاحب حماه أهم المصادر العربية التي ظلت في متناول المستشرقين الأوروبيين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي فترة طويلة.

(٣) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية جـ٢ ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧.

(٤) وهي كلمة فارسية معناها المثمر.

(٥) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول (طبعة بيروت) جـ ص: ح. د. هـ. و.

وترجم إلى اللاتينية والألمانية، وطبع في بيروت سنة ١٨٩٠م في ٦٣٠ صفحة.

وقد تناول ابن العبري في كتابه عشر دول هي:

(١) دولة الأولياء من آدم إلى «البرنساء» أي الناس.

(٢) دولة قضاة بني إسرائيل.

(٣) دولة ملوك بني إسرائيل.

(٤) دولة ملوك الكلدانيين.

(٥) دولة ملوك المجوس، أي ملوك إيران منذ الملك الأسطوري «كومرت» إلى «دارا» ومقتله على أيدي الإسكندر الأكبر.

(٦) دولة ملوك اليونانيين الوثنيين.

(٧) دولة ملوك الفرنج ويقصد بهم ملوك الرومانيين.

(٨) دولة ملوك اليونانيين المتنصرين أي البيزنطيين.

(٩) دولة ملوك العرب المسلمين.

(١٠) دولة ملوك المغول (إلى سنة ٦٨٣/١٢٨٤). وهي السنة التي تولى فيها «أرغون» الحكم[١].

وقد كتب شهاب الدين أحمد النسوي سيرة جلال الدين منكبرتي[٢] آخر سلاطين الدولة الخوارزمية، وقد تولى النسوي ديوان الإنشاء في بلاط هذا السلطان ودون مذكراته عنه في كتاب أسماه «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي».

وقد دون هذا المؤلف مذكراته في سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م)، أي بعد وفاة هذا السلطان بنحو عشر سنوات. وكان النسوي شديد الصلة بهذا السلطان كما كان شاهد عيان للأحداث والمغامرات التي جرت في حياته. قال هوداس Houdas في مقدمته لسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (باريس ١٨٩١ ـ ١٨٩٥):

وفي المدة الطويلة التي حكم فيها السلطان جلال الدين، لم يتركه النسوي إلا في فترات

---

(١) وقد كتب «نولدكة» مقالاً عن ابن العبري والعصر الذي عاش فيه نشره في كتابه «صور من التاريخ الشرقي»، وقد ترجم جون بلاك هذا الكتاب إلى الإنكليزية.
انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص (القاهرة ١٩٢٦) ص ١٠٧ هامش رقم (١). براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية جـ ٢ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٥.

(٢) بفتح الميم وسكون النون وضم الكاف وكسر الباء.

قليلة نادرة كان يؤدي له فيها بعض المهمات الخاصة. وكان النسوي إلى جواره ليلة هربه حين هم أحد الأكراد بقتله بخنجره. لذلك يمكن القول بأن كتاب «سيرة جلال الدين منكبرتي» من أصدق ما كتب عنه، إذ كان المؤلف ملازماً لهذه الأحداث، وكان يكشف عن أسبابها وعللها، كما استطاع أن يتحدث عن سيرته وما جرى في عهده من أحداث في صراحة تامة، إذ أنه كتب هذه السيرة بعد وفاة صاحبها بنحو عشر سنوات على الرغم من أنه كان متحفظاً بعض الشيء، لأنه كان بطبيعة الحال يحرص على ألا يمس بعض أصدقائه الذين عاصروا هذه الأحداث بسوء[1].

على أن التزام النسوي للسجع والمحسنات البديعية قد فوت عليه كتابة كثير من الأحداث التاريخية في دقة ووضوح، ومع ذلك فقد كان النسوي يجيد اللغتين التركية والفارسية، ولكنه كان ضعيف الكتابة باللغة العربية؛ لذلك لجأ إلى المحسنات البديعية ليستر بها هذا الضعف، وقد اعترف النسوي بأنه ليس من مؤرخي العصر البارزين أو من كتابه النابهين.

ولم يقتصر النسوي على سرد تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتي، فقد استهل كتابه بسرد حوادث المغول الأول وتتبع أحداثهم حتى حطوا رحالهم على حدود الشرق الإسلامي. ثم تكلم على تاريخ الدولة الخوارزمية في عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي يعد بحق أشهر سلاطين هذه الدولة، وعن صراعه مع المغول، ثم اهتم بتاريخ الدولة الخوارزمية في عهد آخر سلاطينها وهو جلال الدين منكبرتي[2].

كتاب التراجم:

وقد حفل العصر السلجوقي بعدد من كتاب التراجم نذكر منهم القفطي (ت ٦٤٦ - ١٢٤٨) وابن أبي أصيبعة ومحمد عوفي وابن خلكان.

ولد جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي وزير حلب (ويعرف بالقاضي الأكرم) بمدينة قفط من أعمال صعيد مصر سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) حيث رحل إليها آباؤه من مدينة الكوفة، ويرجع نسب أمه إلى قبيلة قضاعة.

وقد أخذ القفطي العلم بمدينتي قوص والقاهرة حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره. ثم قلد صلاح الدين الأيوبي أباه يوسف القضاء بمدينة القدس حيث التحق علي بأسرته وأقام فيها حتى ذهب أبوه سنة ٥٩٨هـ (١٢٠١م) إلى حران، وكانت من أهم مراكز الدراسات الفلسفية

(١) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران: الترجمة العربية جـ ٢ ص ٦٠١ - ٦٠٢.
(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي: نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي (القاهرة ١٩٥٣) ص ٢٤ - ٢٥.

اليونانية في آسيا حتى إنها سميت «هللينو بوليس». وقد تقلد يوسف أبو علي الوزارة للملك الأشرف الأيوبي وأدى فريضة الحج بمكة حيث مات سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)

انتقل علي بن يوسف المشهور بالقفطي إلى حلب حيث تقلد الخراج ولقب القاضي الأكرم، واشتهر بالكفاية والأمانة وولع بالاستزادة من العلم وتشجيع رجاله، ومن هؤلاء ياقوت الحموي (أو الرومي) الذي فر من خراسان إلى هذه المدينة أمام غارات المغول، فشمله القفطي بعطفه وأحاطه برعايته. ثم تولى القفطي الوزارة للملك العزيز الأيوبي، فظل فيها إلى أن مات سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م).

وقد ألف القفطي كثيراً من الكتب ذكر منها ياقوت الذي توفي قبله بنحو عشرين سنة، كتاب «تاريخ الحكماء» الذي يشتمل على معلومات ذات غناء استمد كثيراً منها من كتاب معجم الأدباء لياقوت. ويشتمل كتاب تاريخ الحكماء على ٤١٤ سيرة من سير الفلاسفة والأطباء والرياضيين والمنجمين الذين ظهروا في مختلف العصور حتى أيامه[١].

وهذا الكتاب الذي رتبه مؤلفه على الحروف الهجائية وليس وفقاً للترتيب الزمني هو مختصر من الكتاب الأصلي الذي وضعه القفطي. وقد أفاد منه كثير من أهل عصره ومن الكتاب المتأخرين، نخص بالذكر منهم ابن أبي أصيبعة وابن العبري وأبا الفداء، وقد نشر مرجليوث كتاب تاريخ الحكماء[٢] كما طبع هذا الكتاب في القاهرة.

أما ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٩/ ١٢٧٠) مؤلف كتاب «طبقات الحكماء» فقد ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) حيث درس الطب فيها وفي مدينة القاهرة وزاول كأبيه هذه المهنة واختص بطب العيون، واشتغل فترة من حياته بأحد المستشفيات التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في مدينة القاهرة.

وقد نشر مولر هذا الكتاب في مدينة كونجزبرج سنة ١٨٨٤م، كما نشر في القاهرة سنة ١٨٨٢، واعتمد وستنفلد اعتماداً كلياً على كتاب ابن أبي أصيبعة في كتابه الذي ألفه بالألمانية وعنوانه: «تاريخ الطب والنبات عند العرب» (جوتنجز ١٨٤٠)[٣].

ومن كتب التراجم كتاب «لباب الألباب» وكتاب «جوامع الحكايات ولوامع الروايات» لمحمد عوفي. ويرجع نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابي المشهور. وقد قضى عوفي معظم

(١) وقد طبع هذا الكتاب في لايبسك سنة ١٩٠٢/١٣٤٠.
(٢) راجع براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣.
(٣) انظر براون، المصدر نفسه جـ ٢ ص ٦٠٥.

طفولته في خراسان وبلاد ما وراء النهر ولا سيما في مدينة بخارى. ثم رحل إلى الهند والتحق بخدمة السلطان «ناصر الدين قباجة» (بضم القاف)، وأهدى إلى وزيره عين الملك حسين الأشعري معجمه الذي صنفه عن شعراء الفرس باسم «لباب الألباب». فلما اغتيل هذا السلطان سنة ١٢٢٨/٦٢٦ بقي عوفي في خدمة السلطان الذي قهره وهو شمس الدين إيلتتمش وأهدى إليه كتابه «جوامع الحكايات»، وهو عبارة عن مجموعة واسعة من الحكايات تنقسم أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على خمسة وعشرين باباً ويشتمل كل باب على مجموعة من الحكايات في أسلوب سهل بسيط.

أما كتاب «لباب الألباب» فهو مجموعة مقالات كتبها عوفي عن شعراء الفرس الأوائل. ويعتبر من أهم الكتب في الأدب الفارسي، ويشتمل على تراجم بعض الشعراء الذين كادت أخبارهم أن تندرس تماماً ولم يرد ذكرهم قبل ذلك؛ على الرغم من خلو هذا الكتاب من التواريخ الدقيقة أو التفاصيل الممتعة فضلاً عن مختاراته الرديئة عن أقوال الشعراء. ويلاحظ أن المؤلف أهمل جماعة من الشعراء المشهورين كناصر خسرو وعمر الخيام. وعلى الرغم من ذلك كله يعتبر هذا الكتاب، كما يقول براون، من الكتب القيمة، إذ أنه يشتمل على نحو ثلثمائة من تراجم شعراء الفرس الذين ظهروا قبل السعدي. وقد تم طبع الجزأين، وهما من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في دراسة شعراء الفرس.

وكتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان[1] (ت ١٢٨٢/٦٨١) من أهم المراجع التي لا غنى عنها لطلاب الدراسات الإسلامية. ولا ريبَ أنه يحتل المكانة الأولى بين كتب التراجم. وقد بدأ ابن خلكان في تصنيفه في القاهرة سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)، وانتهى منه في سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م).

وينتسب ابن خلكان إلى البرامكة، وولد في إربل سنة ١٢١١/٦٠٨. ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى حلب، ثم إلى دمشق، ثم إلى القاهرة، ثم إلى الإسكندرية حيث شغل كثيراً من المناصب في التعليم والقضاء.

وقد عني الكتاب بعد ابن خلكان بتذييل معجمه الكبير «وفيات الأعيان»[2]، فوصل فضل الله الصّقاعي كتاب وفيات الأعيان إلى سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٥م). ثم صنف ابن شاكر الكتبي

---

(١) بفتح الخاء وكسر اللام مع التشديد.

(٢) وقد نشره وستنفلد (١٨٣٥ ـ ١٨٤٣) وطبع أكثر من مرة، كما ترجمه دي سلان إلى الإنجليزية في أربعة مجلدات (١٨٤٢ ـ ١٨٤٨) وطبع أخيراً في القاهرة (١٩٤٨/١٣٦٧) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(ت ١٣٦٢/٧٦٤) كتابه «فوات الوفيات» وهو تتمة أيضاً لكتاب وفيات الأعيان.

التواريخ المحلية:

وهناك تواريخ محلية خاصة بالمدن والأقاليم، ومن هذه التواريخ ما يتعلق بتاريخ مكة أو المدينة أو الحجاز.

وممن ألف في تاريخ مكة الأزرقي (ت ٨٥٨/٢٤٤) والفاكهي (ت ٨٨٥/٢٧٢) ويعتبر كتاب «أخبار المدينة» لعمر بن شبَّة (بفتح الشين والباء مع التشديد) (ت ٢٦٢هـ) من أهم مصادر تاريخ المدينة المنورة. فقد عني بوصفها من الناحية التخطيطية (أو الطبوغرافية) معتمداً على مشاهداته الشخصية وما نقله عن كثير من الرواة، وتكلم عن آبارها ووديانها وأسواقها ومساجدها، وتناول الكلام عليها من الناحية الاجتماعية ولا سيما خطط المهاجرين وعشائرهم ودورهم وأخبارهم. ولابن شبّة كتب أخرى عن البصرة والكوفة ومكة. ويروي الطبري أخبار ابن شبَّة التي رواها عن المدائني وزاد عليها زيادات شاملة حتى أصبحت مرجعاً أساسياً لمن أتى بعده من المؤرخين.

وممن كتب عن المدينة الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ). ويعد كتابه «أخبار المدينة» من الكتب التي لعبت بها يد الدهر. وقد اعتمد البكري وياقوت الحموي على ما كتبه الزبير عن المدينة[١].

وهناك تواريخ محلية أخرى تتعلق بتاريخ فارس وخراسان وطبرستان والعراق ومصر والمغرب وغيرها.

ومن هذه التواريخ «تاريخ طبرستان» تأليف محمد بن الحسن بن إسفنديار. وقد اعتمد في وضع كتابه الفارسي على النسخة العربية من كتاب «تاريخ طبرستان» التي عثر عليها في مكتبة الملك «رستم بن شهريار» وقام بتأليفها اليزدادي في أيام قابوس بن وشمكير (٣٦٦ - ٥٠٣/٩٧٦ - ١٠١٢). وبعد ذلك عاد ابن إسفنديار إلى آمل ثم انتقل منها إلى مدينة خوارزم وقال عنها إنها مدينة عامرة برجال العلم والأدب، ووجد فيها كثيراً من المادة التي ساعدته على استكمال كتابه. ومن المرجح أن ابن إسفنديار مات على أيدي المغول في أثناء غارتهم على خوارزم في سنة ١٢٢٠/٦١٧.

وتشتمل الأجزاء الأولى من هذا الكتاب على كثير من الأمور المتصلة بالأساطير، فإذا

---

(١) صالح أحمد العلي: «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز» بحث مُسْتَلّ من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد ١٩٦٤/١٣٨٣) ص ١٥ - ٢٠.

وصل ابن إسفنديار إلى العصر الإسلامي أفاض في ذكر الحقائق التاريخية والجغرافية والإخبارية وخاصة التفاصيل التي تتعلق بسير المشهورين من الرجال المحليين سواء في طبرستان أم في خارجها ولا سيما سير الشعراء الذين نظموا أشعارهم باللهجة الطبرية المستعملة استعمالاً واسعاً في طبرستان.

وقد انتهى ابن إسفنديار من تاريخه حتى سنة وفاة رستم بن أردشير سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م)، ثم جاء مؤرخ آخر فاستكمل هذه الأحداث التاريخية إلى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م).

وقد ألف أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢هـ) «تاريخ مرو»، ويقع في أكثر من عشرين مجلداً كما تقدم.

وهناك تواريخ محلية أخرى كثيرة في الأدب الفارسي شبيهة بتاريخ ابن إسفنديار تتعلق بتاريخ بعض المدن الإيرانية مثل أصفهان، وشيراز، وقُمّ، وهراة، وسجستان، وشُشْتر، ومؤلفات أخرى وضعت عن طبرستان وحدها، ولا زال أغلب هذه المؤلفات مخطوطاً[١]. ومن هذه التواريخ المحلية كتاب «تاريخ خوارزم» لأبي الريحان البيروني، وقد أورد البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه «تاريخ المسعودي»[٢]. ويعتبر هذا الكتاب مفقوداً.

ومن كتب التاريخ التي ألفت عن دولة معينة تاريخ العُتْبي «تاريخ اليميني» نسبة إلى السلطان يمين الدولة محمود الغزنوي، وقد كتب العتبي هذا الكتاب باللغة العربية، ثم ترجمه إلى الفارسية ناصح الجزباذقاني[٣]، وقد طبعت هذه الترجمة على الحجر في طهران سنة ١٢٧٢هـ (١٨٢٥م). ثم نقلت إلى التركية والإنجليزية.

ومن كتب التاريخ الخاصة التي نقلت عن دولة معينة كتاب «تاريخ جهان كشا» أو «تاريخ فاتح العالم»[٤] لمؤلفه عطا مَلِك الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء).

ومن الكتب المحلية التي ألفت بالعربية كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، وكتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي، وكتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» لتقي الدين المقريزي، وكتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري.

---

(١) براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠٨ - ٦١٠.
(٢) انظر ما ذكرنا عن البيروني نقلاً عن كتاب جهار مقاله لنظامي عروضي السمرقندي، الترجمة العربية، الحواشي ص ١٤٦.
(٣) نسبة إلى جزباذقان، وهو مكان بين استراباذ وجرجان من نواحي طبرستان.
(٤) ويقصد بعبارة فاتح العالم «جنكيزخان».

(ب) مصادر العصر المغولي الأول

إن المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في استقصاء غزوات المغول وحصار بغداد على يد هولاكو وزوال الخلافة العباسية وما كان لذلك من أثر تكاد تكون فارسية في جملتها. فإن ابن الأثير (ت ٦٣٠/١٢٣٢) قد تناول غزوات المغول الأولى إلى سنة ٦٢٨هـ وهي آخر السنين التي تناول فيها الحوادث التاريخية في كتابه «الكامل في التاريخ».

وقد أمدنا بعض المؤرخين بمعلومات ذات غناء عن غزوات المغول من أمثال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦/١٢٢٩) في كتابه «معجم البلدان» وقد اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩/١٣٣٨)[١].

وممن كتب عن المغول أبو الفرج المالطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥/١٢٦٦) وقد طبع كتابه «تاريخ مختصر الدول» أكثر من مرة وترجم إلى اللاتينية والألمانية كما تقدم، وقد تناول في كتابه عشر دول، وتناول في الباب العاشر دولة المغول (إلى سنة ٦٨٣/١٢٨٤) وهي السنة التي تولى فيها أرغون إيلخان المغول في فارس الحكم.

ومن هؤلاء أيضاً ابن طباطبا (ت ٧٠٩/١٣٠٥)؛ فقد وصف في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» الذي انتهى من تأليفه في سنة ٧٠١هـ المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وبين كيف استولى عليه أصحابه من الجهال وما عرف عنه من سوء التدبير والانصراف إلى اللهو واستهتاره بقوة التتار وعدم أخذه الحيطة لمواجهة خطرهم.

وممن تناول غزوات المغول الأولى: ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨١) في كتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤/١٣٦٢) الذي يعتبر كتابه «فوات الوفيات» متمماً لكتاب ابن خلكان، وتاج الدين السبكي (٧٧١/١٣٧٠) في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»، وعماد الدين (إسماعيل بن عمر) بن كثير (٧٧٤/١٣٧٣) في كتابه «البداية والنهاية»، وابن بطوطة (٧٧٩/١٣٩٤)، وابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥) في كتابه المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، والقلقشندي (ت ٨٢١/١٤١٨) في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» والمقريزي (٨٤٥/١٤٤١) في كتابيه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» و«السلوك في معرفة دول الملوك».

(١) تاريخ «جهان كُشا»[٢] — Taitikhi - Djihan - Kushai أو تاريخ «فاتح العالم»

---

(١) ويقع في أربعة أجزاء (طبعة جوينبل، لندن ١٨٥٣).

(٢) وقد نشر «شيفر» جزءاً من هذا الكتاب في الجزء الثاني من كتابه «مختارات فارسية» ج ٢ ص ١٠٦ - ١٦٩. =

(يقصد جنكيزخان) تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني وزير هولاكو. ويعد من أحسن الكتب المعاصرة ومن أقدم المراجع التي كتبت عن تاريخ المغول وانتصاراتهم، وقد تنقل «عطا ملك» بين ربوع منغوليا، فوصف ما شاهده وصفاً دقيقاً، وإليه وإلى «وليام روبروك» يرجع الفضل في وصف مباني المغول وكثير من رقائع جنكيز خان.

(٢) طبقاتي ناصري أو منهاجي سراج الجوزجاني (كلكتا ١٨٦٤) للجوزجاني الذي ألفه بعد سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) بسنتين. وكان الجوزجاني أحد المؤرخين المعاصرين لهولاكو.

(٣) تاريخ المغول. ويعرف بجامع التواريخ (لندن ١٩١٠)[١]. وقد انتهى رشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨) من تأليفه سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م). وقد أفاض رشيد الدين في تاريخ إيلخانات المغول في فارس، وخصص الجزء الأول من هذا الكتاب لحياة هولاكو (ص ٨٥ ـ ٤٢٥). وقام كترمير بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية بعنوان Histoire des Mongols de la Perse: Rashid El Din.

ويمدنا هذا الكتاب بشيء كثير عن حصار بغداد على أيدي المغول. ويعد أوفى هذه المصادر وأهمها، وقد قامت وزارة الثقافة والإرشاد القومي (ج. ع. م) على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

(٤) وهناك مصدر آخر لا يقل أهمية عن المصادر السابقة هو كتاب تجزئة الأمصار أو «تاريخي وصاف» الذي كتبه بالفارسية عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة ومؤرخ حياة غازان (٦٩٤ ـ ١٢٩٥/٧٠٣ ـ ١٣٠٤)، أشهر إيلخانات المغول في فارس. وقد ولد ابن فضل الله سنة ٦٦٣هـ، أي بعد حصار بغداد بسبع سنين، ولا يبعد أن يكون قد أخذ من المؤرخين الذين شهدوا حصار مدينة بغداد على يد هولاكو[٢].

وهناك مصادر أوروبية حديثة تمدنا بتفاصيل وافية عن تاريخ المغول نذكر منها ثلاثة تعتبر أحسنها وأدقها وهي:

(١) كتاب Histoire des Mongols (Termerlan) تأليف البارون «دوسون» ويتناول

= ويبدأ بغارة المغول على خوارزم وينتهي بغارتهم على نيسابور. ونشر «كترمير» جزءاً آخر مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٣٦ ويتناول أحوال هولاكو، ونشر «بريزين» (Berésine) جزءاً آخر من هذا الكتاب، وقد تم طبع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء.

(١) وقد طبع هذا الكتاب في سلسلة «جب» التذكارية.

(٢) راجع مقال الأستاذ براون عن هذا الكتاب في المجلة الآسيوية الملكية بانجلترا.
J. R. A. S., vol. XL, pp. 17 - 37.

هذا الكتاب تاريخ المغول من عهد جنكيزخان إلى عهد تيمورلنك. وقد طبع في أربعة أجزاء استقصى فيها المؤلف تاريخ المغول معتمداً على أحسن المصادر العربية والفارسية كما حدثنا في مقدمة الجزء الأول من كتابه[١].

ويقول «دوسون» إنه كان لغارات المغول آثار بعيدة، وإن حكومتهم كانت انتصاراً للفساد وانحطاط الخلق، وتاريخهم يتميز بطابع الوحشية والقوة والبطش واضطهاد الشعوب وابتزاز الأموال[٢].

(٢) كتاب History of the Mongols (تاريخ المغول)، تأليف سير هنري هوورث Sir Henry Howorth، وهو في ثلاثة أجزاء. يتألف الجزء الثاني منها على المجلدين الثاني والثالث، ويتناول الجزء الثالث (الذي يكوّن المجلد الرابع من الكتاب) الكلام على دولة المغول في فارس (لندن ١٨٧٦ - ١٨٨٨)[٣].

ويختلف رأي «هوورث» عن رأي «دوسون» في المغول، ويرى أنه لم يكن بد من القضاء على الترف والفساد اللذين سادا في ذلك العصر حتى يتكون جيل جديد يقوم على الفضيلة. ويشبّه هوورث المغول بالمعاول التي قوّضت هذا الفساد، ويقول إن الفتوحات المغولية قد أدت إلى اتصال أمم الشرق والغرب، وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوروبا بتأثير هذه الغارات.

(٣) والمصدر الثالث الذي يسترعي الانتباه وعلى الأخص من حيث تأثيره في تركيا ونشوء الحركة الطورانية (The Turanian Movement) فهو كتاب «مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول إلى سنة ١٤٠٥م» لمؤلفه «كاهون»[٤].

ويذهب هذا المؤلف إلى أبعد مما ذهب إليه «هوورث» في إعجابه بالمغول وتمجيده لكل الشعوب التركية وإطرائه صفاتهم الحربية، وما أدوه من خدمات للإنسانية، وتضامنهم السياسي ووقوفهم في وجه آل ساسان من الفرس وفي وجه النفوذ الإسلامي في فارس. ويقول «كاهون» عن المغول إنهم قوم شجعان أقوياء كرماء، ويعجب بنظامهم الإداري الدقيق وانعدام روح التعصب الديني فيهم.

---

(١) دوسون ج ٢ ص ١٠ - ٦٨.

(٢) نفس المصدر ص ٧ - ٨.

(٣) Howorth, History of Mongols, vol: II, pp. 10 - 11.

(٤) Cahun, pp. 9, 79.

كذلك يقول «كاهون» إن الحركة الطورانية من الناحية الأدبية ترمي إلى تفضيل الكلمات والتعبيرات والاصطلاحات التركية على العربية والفارسية، على حين أنها تهدف من الناحية السياسية إلى مزج جميع الشعوب التركية التي تقطن شرقي بحر قزوين وغربيه (ويدخل في ذلك المغول والتتار) وانضواء هؤلاء جميعاً تحت لواء دولة واحدة، ثم إلى إقامة إمبراطورية تركية أو طورانية تشبه الإمبراطورية التي قامت على يد جنكيزخان. ولهذا نجد الأتراك في القرن العشرين يستمدون آراءهم من هذا الكتاب لدعم حركتهم الطورانية[١].

(٤) أضف إلى ذلك ما ورد عن المغول في المصادر الأخرى، نخص بالذكر منها ما كتبه سير توماس أرنولد Thomas W. Arnold في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»[٢] (لندن ١٩٣٥) عن انتشار الإسلام بين التتار والمغول في فارس والهند وأوروبا، وما كتبه إدوارد براون Edward E. Browne في كتابه تاريخ الأدب في إيران A Literary History of Persia, Vols. 11 and 111.

وهناك طائفة أخرى من المؤرخين كتبوا عن المغول في فارس وبخاصة في عصر تيمور من أمثال:

(١) شرف الدين علي يَزْدي الذي ألف كتابه «ظفر نامِه» (طبع في كلكتا[٣] في جزأين في مجموعة المكتبة الهندية) .Bibliotteca India (١٨٨٧ - ١٨٨٨) ويقع في نحو ١٥٦٠ صفحة.

وقد ألف شرف الدين علي يزدي كتابه بأسلوب منمق الألفاظ يمتاز بشيء كثير من الملق والرياء، ولا غرو فقد أسرف في مدح تيمور الذي وضع كتابه تحت رعايته. وقد ترجم Mercier de la Petit Croix هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية.

(٢) على أننا نرى من ناحية أخرى مؤرخاً وضع كتاباً في أخبار تيمور هو كتاب «عجائب المقدور في أخبار تيمور» لأحمد بن عربشاه الذي كتب كتابه في لهجة شديدة ووصف هذا الفاتح العظيم بعبارات مثل «هذا الخائن» و«هذا المجرم» و«هذا الكلب المجنون». ويقول الأستاذ براون (ج ٣ ص ١٨١): «ولكن لهجة التملق التي انتهجها شرف الدين علي يزدي أقل مغالاة من قذف ابن عربشاه، لأنه لم يستطع إنكار مذابح تيمور وأهرامه من الجماجم».

---

(١) المصدر نفسه ص ١١١ - ١١٨.

(٢) الترجمة العربية: لحسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل محمود النحراوي (الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧).

(٣) وليدن ١٨٣٦م، والقاهرة ١٨٢٥م.

(٣) وهناك كتاب تاريخ فارس تأليف ستانلي سير جون مالكولم[1] الذي يقول إن قائداً كتيمور أصبح معبود جنده.

وممن كتب في تاريخ المغول ستانلي لينبول في كتابه «الدول الإسلامية»، وفي كتابه «تاريخ أباطرة المغول في الهند»، وما كتبه عن أورانجب في كتابه «حكام الهند»، وما كتبه أيضاً لي سترينج في كتابه «بغداد في عصر الخلافة العباسية» وبارتولد في كتابه «هولاكو ـ بغداد» في دائرة المعارف الإسلامية.

وكتاب «مختصر تاريخ الهند» هو موجز «كتاب كيمبريدج في تاريخ الهند»، ويقع في ستة أجزاء، وهذه الكتب كلها بالإنجليزية كما سيتضح عند ذكرها في مصادر الكتاب.

ويتناول الجزء الثالث من هذا الكتاب الكلام على تاريخ الهند الإسلامية، ويتناول الجزء الرابع منه الكلام على إمبراطورية المغول في الهند.

وهناك كتاب ظهر حديثاً عن تاريخ المغول في الهند هو كتاب «الإمبراطورية المغولية في الهند»، وما كتبته السيدة «بيفريدج» عن حياة أكبر خان أعظم أباطرة المغول في الهند.

(ج) مصادر تاريخ الفاطميين والأيوبيين:

ومن الكتب التي ألفها ابن زولاق في تاريخ مصر سير كافور وجوهر والمعز والعزيز، بيد أن معظم تصانيف ابن زولاق قد تلاشت لسوء الحظ، ولا يعرف عنها شيء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده، وتصانيف ابن زولاق التي بقيت إلى اليوم هي:

١ ـ تاريخ مصر.

٢ ـ سيرة الإخشيد المسماة «العيون الدعج في حلى دولة بني طغج» التي نقلها ابن سعيد في كتاب «المغرب في حلى المغرب».

٣ ـ كتاب فضائل مصر (وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس). وهو مختصر لهذا السفر الكبير الذي ألفه صاحبه عن تاريخ مصر.

ومن مؤلفات العصر الفاطمي كتاب «الديارات» لأبي الحسن علي الشاشي (ت ٣٨٨هـ) (برلين مخطوط فيهار رقم ١١٠٠). وهناك كتاب آخر هو كتاب «كنائس وأديرة مصر» لأبي صالح الأرمني المتوفى سنة ٦٠٥هـ. وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد بقيادة شيركوه. وقد كتب أبو صالح جزءاً لا يستهان به من مؤلفه، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه بنفسه في زيارته

---

(١) History of Persia, pp. 482 - 483.

للكنائس والأديرة في القاهرة وضواحيها. والكتاب حافل بأمثله كثيرة عن الخيرات التي أغدقها الخلفاء الفاطميون وكبار الموظفين من المسلمين على القبط وهم مسيحيو مصر (طبعة وترجمة أ. ايفتس، اكسفورد ١٨٩٥).

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبِّحي (ت ٤٢٠هـ) الذي كتب عن مصر كتاباً مسهباً هو «تاريخ مصر» يقع في ستة وعشرين ألف صفحة، ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا. وهو واحد من جملة تصانيفه التي بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود اللهم إلا في هذه المقتبسات التي نجدها في المصادر الأخرى. وكان المسبحي رجل فضل وعلم، وكان على زي الأجناد: اتصل بخدمة الخليفة الفاطمي الحاكم (٣٨٦ - ٤١١هـ)، وتقلد في عهده القيس والبهنسا من أعمال الصعيد. ثم تقلد ديوان الترتيب، وهو المكان الذي تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقيها. وقد ذكر تصانيف المسبحي من جاء بعده من المؤرخين، كابن منجب، وابن ميسر، وابن خلكان، والمقريزي، وأبي المحاسن، والسيوطي.

ومما يأسف له أشد الأسف ضياع مؤلفات القضاعي (ت ٥٤٤/ ١٠٦٢م)، ومن بينها كتاب «عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف»، وهو مختصر كتاب «الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين». وهذا الكتاب مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس، وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصلي الذي لعبت به يد الضياع. أما مؤلفات القضاعي فقد عددها ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٨٥)، فذكر منها كتاب «مناقب الإمام الشافعي» وكتاب «تواريخ الخلفاء» وكتاب «خطط مصر» ويظهر أن المقريزي نقل هذا الكتاب برمته، وأودعه كتابه الذي يعرف باسم كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار».

والقضاعي حجة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين، وكان من كتاب البلاط، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائي يعهد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي يذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية، وتشمل هذه الكلمات: «الحمد لله شكراً لنعمته».

ومن مؤرخي العصر الفاطمي ابن أبي طيّ (ت ٦٣٠/١٢٣٢ - ١٢٣٣)، واسمه يحيى ابن حميدة (أو حافظ). ويرجع أصله إلى حلب، وقد طرده نور الدين محمود لخروجه في آرائه على الدين، وربما كان ذلك لاعتناقه العقائد الشيعية، وقد اعتنق ابن أبي طي هذه العقائد، يؤيد ذلك كتاباه «معجم شعراء الشيعة» و «رسالة في فضل الأئمة الاثنا عشرية»[1]. وقد وضع حاجي

(١) راجع حاجي خليفة رقم ١٩٦٤ ووستنفلد رقم ٣١٥.

خليفة ووستنفلد ترجمة ابن أبي طي لحياة صلاح الدين في متناول أيدينا. ومن مؤلفات ابن أبي طيّ «شرح لامية العرب» للشنفرى (بكسر الشين مع التشديد وسكون النون وفتح الفاء والراء).

ومن مؤرخي هذا العصر أيضاً: «أبو عبد الله القرطبي»[1] ويرجع نسبه إلى عمار بن ياسر الصحابي، وكان مولعاً بالتاريخ وقد رحل إلى بلاد اليمن والهند، وصنف كتاب «تاريخ مصر» في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب في حوزته، وقيد منه بعض ما أودع كتابه «المغرب في حلى المغرب». والقرطبي المؤرخ من أحفاد محمد بن جعفر القرطبي وكان معاصراً للإخشيديين في مصر، وقد قلده مؤنس الحسبة في مصر، ثم قلده الخراج (ابن سعيد: المعجب ص ٨ ـ ٩)، ثم تقلد خراج مصر والشام في عهد ولاية تكين الثانية الذي ولي مصر ثلاث مرات (٣٠٢، ٣٠٧ ـ ٣٠٩، ٣١١ هـ). (انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٥١٧ ـ ٥١٨). وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» لأبي يعلى حمزة بن القلانسي (ت ٥٥٥ ـ ١١٦٠) (بيروت ١٩٠٨) مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقي وسبط ابن الجوزي والذهبي، ويعد بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابي، وهو ذو أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين. ويظهر أن ابن القلانسي نقل كتاب أبي شجاع وكتاب هلال.

ويجب أن نشير في هذا المقام إلى ما كتبه عمارة اليمني (ت ٥٦٩/١١٧٤) وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤/١١٨٨). فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع في مصر من الحوادث في أواخر أيام الفاطميين، والدور الذي قام به الشعراء في نشر الدعوة الفاطمية؛ ذلك أن عمارة كان شاعراً نابه الذكر بين شعراء البلاط في عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين، وقد أمدنا عمارة في ديوانه المسمى: «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» (باريس ١٨٩٧)، بمعلومات ذات غناء عن هذين الخليفتين وعن الوزراء وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة في بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم. ولا غرو فقد أتحفنا عمارة بمعلومات صحيحة عن الدور الذي لعبه الشعراء في نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية (نشر هذا الكتاب ديرانبور، باريس ١٩٠٩).

أما أسامة بن منقذ فقد كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم. وله تصانيف عدة في فنون الأدب. رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد

---

(١) راجع القاموس المحيط وكتاب الأنساب للسمعاني، وهذا اللفظ منسوب إلى القرط الذي يعلق في الأذن، أو إلى قروط ويطلق هذا الاسم على أفخاذ بني كلاب إخوة قرط وقريط. والقرطبي المؤرخ مشتق اسمه من القرط الذي تأكله الدواب.

مصر، فأقام فيها مؤمراً إلى أيام الوزير الصالح بن رُزِّيك سنة ٥٤٩، ثم عاد إلى الشام. وأخبار أسامة جليلة الخطر، لأنه شاهد بنفسه حال مصر في زمنه وما وقع فيها من الحوادث التي تتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية. وقد ألف كتابه الاعتبار أو حياة أسامة (باريس ١٨٨٩).

ومن مؤرخي مصر الإسلامية ابن ميسر[1] (ت٦٧٧/١٢٧٨) الذي ألف كتابه «أخبار مصر»، ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا الجزء الثاني الذي تناول فيه الكلام على تاريخ مصر من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٥٣هـ.

ومن المصادر الحديثة كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» لحسن إبراهيم حسن (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٤) وكتاب كنوز الفاطميين لزكي محمد حسن (القاهرة ١٩٣٧) وكتاب «موجز تاريخ الخلافة الفاطمية» تأليف «دي ليسي أوليري» وكتاب De Sacy, Expose de la Religion Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).

ومن فلاسفة الإسماعيلية أولاد إسماعيل بن جعفر الذين ينتسب إليهم الفاطميون أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ)، ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم، وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الري، ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية في عهد إمامة عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين وخلافته. وقد لعب أبو حاتم دوراً عظيماً في الشئون السياسية في طبرستان والديلم، ولا سيما في أصفهان والري، حتى استجاب له جماعة من كبار رجال الدولة. وكان لجهود أبي حاتم أثر كبير في اتصال مرداويج بن زيار الديلمي بعبيد الله المهدي الفاطمي في المغرب. ومن مؤلفات أبي حاتم الرازي كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، نشره سامي النشار (القاهرة ١٩٣٩).

ومن فلاسفة الإسماعيلية أيضاً أبو عبد الله النسفي (ت ٣٣١هـ) الذي تقرب إلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني واستطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان، وعبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى حيث نجح نجاحاً عظيماً في تحويل كثير من كبار رجالها إلى المذهب الإسماعيلي، وقد رحب الأمير نصر بن أحمد الساماني بمبادىء الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي، ولكن قواد الأمير نصر من السنيين دبروا مؤامرة للتخلص منه لانضمامه إلى المذهب الإسماعيلي، فخلع نصر نفسه وتولى بعده ابنه نوح الذي عمل على مطاردة الإسماعيلية في بلاده بعد أن قتل النسفي.

وقد ذاعت شهرة النسفي في عالم الأدب وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي. ومن أشهر

---

(١) طبعة هنري ماسيه (القاهرة ١٩١٩).

مؤلفاته «كتاب المحصول» وكتاب «عنوان الدين» وكتاب «أصول الشرع» وكتاب «الدعوة المنجية».

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلي ودعاته: أبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١هـ)، وكان اليد اليمنى للداعي النسفي، وقام بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي ولأبي يعقوب السجزي مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي بوجه عام وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص. ومن أهم مؤلفاته كتاب «إثبات النبوة» وينقسم إلى سبع مقالات أو أبواب، وتنقسم كل مقالة إلى اثني عشر فصلاً، وكتاب «الينابيع» وهو في حوزة البهرة من الإسماعيلية في بمباي في الهند.

هؤلاء هم أشهر دعاة الإسماعيلية في بلاد المشرق، أما دعاتها في المغرب فنذكر منهم أبا حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣هـ)، ويسميه الإسماعيلية «سيدنا القاضي النعمان» ليميزوا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي المشهور. وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين في المغرب وعاصر عبيد الله المهدي والقائم والمنصور والمعز واتخذه المنصور والمعز قاضياً لهما، ويعد أبو حنيفة من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية. وقد أفادت هذه الدعوة من كثرة مؤلفات أبي حنيفة في الفقه الإسماعيلي، وقد ألف بضعة وأربعين كتاباً.

وأهم هذه الكتب كتاب «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام»، ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية، ويقع في مجلدين ضخمين، ويشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة، ويعتز به البهرة في اليمن والهند. وقد أطنب الدعاة المتأخرون في وصف هذا الكتاب، فذكره حميد الدين الكرماني داعي دعاة الخليفة الفاطمي الحاكم في فارس في كتابه: «راحة العقل» وأشاد به حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث.

وقد ترك أبو حنيفة النعمان المغربي في مؤلفاته الكثيرة ثروة ثمينة. وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته لا يزال أكثر ما بقي منها في حوزة البهرة في الهند. وقد أفاد الإسماعيلية كثيراً من هذه المؤلفات. ولنلق الآن نظرة على كتابي النعمان القيمين وهما:

١ ـ كتاب «المجالس والمسايرات»، ويعد أهم ما كتب في وصف حياة الخلفاء الفاطميين في الدور المغربي، فقد تناول أبو حنيفة في مؤلفه حياة الخلفاء الفاطميين الأربعة وهم: المهدي والقائم والمنصور والمعز خاصة. ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على حياة الخلفاء الخاصة وعلى وصف قصورهم وأوقات فراغهم. وقد أمدنا هذا الكتاب بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم في عهد المعز؛ فمن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة، إلى استقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر وجدهما علي بن أبي طالب إلى

غير ذلك. كما يتناول هذا الكتاب الكلام على علاقة المعز بالأمويين في الأندلس، وعلى الحملات البحرية التي شنها المعز على عبد الرحمن الثالث الناصر الأموي في الأندلس وحلفائه. وتعتبر الرسائل التي تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب في الأدب والمنطق، وتصور الصراع الذي قام بين الفاطميين والبيزنطيين تصويراً رائعاً. وصفوة القول أن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلي والعقائد الإسماعيلية، ولا يستغني عنه الباحثون في تاريخ الفاطميين في الدور المغربي بوجه عام وفي عهد المعز بوجه خاص.

٢ ـ أما كتاب «الهمة وفضل الأئمة» فيتكون من جزأين يشغل كل منهما ستاً وأربعين صفحة، وقد قسم المؤلف القسم الأول إلى ثمانية فصول والقسم الثاني إلى أحد عشر فصلاً. وترجع أهمية هذا الكتاب الذي عثر عليه سنة ١٩٣٤ إلى أنه من أقدم المراجع التي تمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره الأولى أصدق تمثيل. كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التي وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة وتدريبهم على التفاني في الإخلاص لمبادئها.

ويتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية، ويهتم مؤلفه اهتماماً خاصاً بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين وهم الدعاة ونحو الأئمة، كما يعنى بشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض، ويرسم لهم الخطط التي يجب عليهم أن يسلكوها في حياتهم. ويعد كتاب الهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالي عند الإسماعيلية. وقد اهتم أبو حنيفة النعمان اهتماماً بالغاً بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبيهم من جهة وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى، فوضع الخطوط الرئيسية التي يجب على الدعاة أن يسلكوها في جذب الأشياع، وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف لكي يكون تأثيرهم في النفوس كبيراً، وبذلك يجعل الداعي من نفسه للمريدين أباً وأخاً ومعلماً وقاضياً نزيهاً يحكم بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم.

ومن دعاة الاسماعيلية جعفر بن منصور اليمن الذي اشتهر منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين. وقد قصد بلاد الغرب سنة ٣٢٢هـ وتمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية. وكان موضع تقدير القائم والمنصور، كما نال تقدير المعز، حتى اتخذه «باب أبوابه» في مصر، وهي أعلى من رتبة قاضي القضاة، ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم في التأويل الإسماعيلي وترك كثيراً من الآثار العلمية التي لا تزال عند البهرة إلى اليوم. ومن أهم كتبه كتاب «تأويل الزكاة» وهو بمكتبة الجامعة بليدن، ولجعفر بن منصور اليمن أيضاً كتاب «سرائر النطقاء» وكتاب «أسرار النطقاء» وكتاب «الشواهد والبيان» المحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

ويعد كتاب «أسرار النطقاء» من أقدم مصادر الإسماعيلية ومن أهم الكتب التي ألفت

للدفاع عن المذهب الإسماعيلي وأنصاره، كما يعد من أحسن الكتب التي تمثل الأدب الإسماعيلي القديم أصدق تمثيل. وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثاً دقيقاً. ولهذا يعد كتابه «أسرار النطقاء» من أحسن المراجع في تاريخ الأئمة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق. كما يتناول هذا الكتاب بعض المبادىء الشيعية، من ذلك نظرية «الغيبة» أي اختفاء الإمام؛ ونظرية «الإمام الصامت»، ويقصد بذلك أن لكل نبي عند الإسماعيلية إماماً يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته، ويسمونه الأساس، أي أساس النطق. ويتبع هذا الأساس ستة أئمة بالتوالي، يسمى كل منهم «الصامت». وعندهم أن علي بن أبي طالب أساس، ومن جاء بعده من الأئمة حتى جعفر الصادق أئمة صامتون. فعلي وزين العابدين وجعفر الصادق أئمة صامتون.

ومن فلاسفة الإسماعيلية حميد الدين الكرماني (ت ٤٠٨هـ)، وكان من دعاة الفاطميين في عهد الخليفة الحاكم، ويلقب بحجة العراقين، وكبير دعاة الإسماعيلية في العراق. وقد ألف الكرماني في الرد على الدرزية رسالة سميت «الرسالة الواعظة» يبرىء فيها الحاكم من ادعائه الألوهية. وقد ألف طائفة من المؤلفات عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى مما يشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه في العلم وتضلعه في فقه الدعوة.

ومن أشهر كتب الكرماني كتاب «راحة العقل» (نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمي)، و«الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله» (فصلة من مجلة كلية الآداب، المجلد الرابع عشر مايو ١٩٥٢، نشره الدكتور محمد كامل حسين).

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (ت ٤٧٠هـ). وقد انحدر من أسرة اتخذت التشيع لها مذهباً، فكان أبوه داعياً للمذهب الفاطمي بشيراز. وقد أرسله الخليفة الحاكم الفاطمي، واتصل بالسلطان أبي كاليجار البويهي وكسب عطفه واستطاع أن ينشر المذهب الإسماعيلي في شيراز. ودخل أبو كاليجار في الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلي. ثم رحل المؤيد إلى مصر سنة ٤٣٩هـ في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي وتقلد ديوان الإنشاء، وحث البساسيري على دخول بغداد وإقامة الدعوة الإسماعيلية للخليفة المستنصر الفاطمي. ولكن البساسيري لم يلبث أن تفرقت جموعه وطرده طغرلبك السلجوقي من بغداد سنة ٤٤٩هـ. بيد أن الخليفة الفاطمي قدر جهود المؤيد في الدين وأسند إليه رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعي

الدعاة سنة ٤٥١هـ.

وكان المؤيد بارعاً في الكتابة بالعربية والفارسية وخلف عدداً كبيراً من الكتب لا زالت تعد من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم. ومن المؤلفات التي تنسب إلى المؤيد كتاب «المجالس المؤيدية»، و«ديوان المؤيد» (نشره الدكتور محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩) ويصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً، و«السيرة المؤيدية» (مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦). ومن أهم آثار المؤيد التي تكشف عن تعمقه في فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب «المجالس المؤيدية»، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة شرح فيها عقائد المذهب الفاطمي.

وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للدكتور حسن ابراهيم حسن، ويقع في نحو سبعمائة وخمسين صفحة، ويتناول بحث تاريخ هذه الدولة في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤).

من المصادر التي يعتمد عليها في دراسة عصر الأيوبيين كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» لعبد اللطيف البغدادي (ت ١٢٣١/٦٢٩). وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لابن شداد (ت ١٢٣٤/٦٣٢ هـ)[١]، وهو من أنفس ما كتب عن حياة صلاح الدين، وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة (ت ١٢٦٧/٦٦٥هـ)[٢]، ويتضمن أخبار مصر والشام في عهد نور الدين محمود صاحب دمشق وصلاح الدين الأيوبي سلطان مصر وقد استقى أبو شامة أخباره من الوثائق الرسمية في الكتب التي ألفها القاضي الفاضل (ت ١١٩٩/٥٩٦هـ) وعماد الدين الأصفهاني (ت١٢٠١/٥٩٧) وابن شداد (ت ١٢٣٤/٦٣٢) (القاهرة ١٢٨٧هـ).

ومن الكتب التي تناولت الكلام على هذا العصر كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» (في جزئين، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٧) لجمال الدين بن واصل (ت ٦٩٧هـ). وهذا الكتاب يمدنا بحقائق تاريخية عن الأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون في مصر، كما يعتمد عليه في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وعصر المماليك إلى سنة ٦٨١هـ.

(د) مصادر المغرب والأندلس:

١ ـ البكري (ت ١٠٩٧/٤٨٧): أبو عبيد.

---

(١) مجموعة تواريخ الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون، المجلد الثالث.

(٢) المصدر نفسه المجلد الثالث.

«كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (طبعة دي سلان باريس ١٩١١).

٢ ـ المراكشي (ت ٦٦٩/١٢٧٠): عبد الواحد بن علي.

يعتبر عبد الواحد بن علي المراكشي من أشهر المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب والأندلس من فتح الأندلس سنة ٩٢هـ إلى ما قبل نهاية عصر الموحدين (٦٦٩هـ) بسنتين. ويمتاز كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (القاهرة ١٩٤٩) بأنه جمع أخبار الشعراء وأعيان الكتاب والعلماء والفلاسفة الذين ظهروا في هذه البلاد في العصور التي تناولها المؤلف. كما يتميز كتاب المعجب بأسلوبه الرائق، فهو مؤرخ وأديب في آن واحد.

ولد عبد الواحد المراكشي بمدينة مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين أعظم أمراء المرابطين في شهر ربيع الثاني سنة ٥٨١هـ، وذلك في مستهل حكم أبي يوسف يعقوب (المنصور) بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي[1]. ولما بلغ عبد الواحد التاسعة من عمره رحل مع أبيه إلى مدينة فاس حيث قرأ القرآن وجوده. ولما أتم دراسته عاد إلى مدينة مراكش، وأخذ يتردد بينها وبين مدينة فاس.

وفي سنة ٥٩٥هـ التقى عبد الواحد المراكشي بالعالم المشهور أبي بكر بن زهر (بضم الزاي وسكون الواو) وبالفيلسوف ابن طفيل (بضم الطاء وفتح الفاء). ثم رحل إلى الأندلس وأخذ العلم عن كبار علمائه. ولما حل بمدينة إشبيلية قدمه صديق له يسمى محمد بن الفضل إلى صاحب المدينة الأمير إبراهيم بن أبي يعقوب المنصور أخي الخليفة الموحدي الناصر بن يعقوب المنصور، وأصبح عبد الواحد من خواصه المقربين، كما اتصل بكبار رجال الدولة في المغرب والأندلس[2].

عاد عبد الواحد إلى مدينة مراكش سنة ٦١٠هـ، ولكنه لم يطب له المقام بالمغرب، فعبر البحر ثانية إلى الأندلس حيث أقام في كنف الأمير إبراهيم صاحب إشبيلية. وفي سنة ٦١٤هـ ترك عبد الواحد المغرب والأندلس ميمماً شطر المشرق، وكان إذ ذاك في الثانية والثلاثين من عمره. ولسنا ندري العوامل التي دفعته إلى ترك بلاده والمسير إلى مصر في غضون سنة ٦١٩هـ[3]. وكانت حياته قلقة مضطربة كلها حنين وشكوى وضيق، إذ يقول في مقدمة كتابه المعجب[4]: «... والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت[5] على غاية الاختلال والتشتت وسبب ذلك هموم تزدحم على الخاطر وغموض تستغرق الفكر».

(١) المراكشي: المعجب (القاهرة ١٩٤٩) ص ٣٦٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣.
(٤) المصدر نفسه ص (٤).
(٥) يقصد الوقت الذي كان يؤلف فيه كتابه المعجب.

وقضى عبد الواحد بمصر سنين، ثم غادرها إلى الحجاز، ثم إلى الشام، ثم إلى بغداد. ثم بسم له الدهر فحظي بعطف وزير الخليفة الناصر العباسي. وقد عبّر عبد الواحد عن سروره مخاطباً الوزير العباسي بقوله: «أيها السيد الذي توالت عليّ نِعَمُه وأخذ بضَبْعي[1] من حضيضي الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه، وقضى إحسانه إليّ ومحبته التي جبلت عليها بأن ألتزم من بِرّه وطاعته ما أنا ملتزمه»[2].

وقد عهد ذلك الوزير إلى عبد الواحد المراكشي أن يؤلف كتاباً في أخبار المغرب وبيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه ولا سيما ملوك المصامدة (يعني الموحدين) بني عبد المؤمن من لَدُنْ ابتداء دولتهم. وقد لبّى عبد الواحد نداء الوزير، فألف كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب». وانتهى من تأليفه في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢١[3].

ومما هو جدير بالملاحظة أن عبد الواحد المراكشي انتهى من وضع كتابه «المعجب» حيث لم تنته دولة الموحدين إلا في سنة ٦٦٧ هـ (١٣٦٩م).

وكتاب «المعجب» من المصادر الأصيلة في تاريخ المغرب. وترجع أهميته إلى أن مؤلفه فوق سعة إطلاعه وعلو مكانته في الأدب قد عاصر الأحداث التي كتب عنها. أما ما كتبه عن أخبار المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدعوة الموحدية فقد اعتمد على ما نقله من مؤلفات كثيرة نوّه فيها بكتاب الحميري الذي لا نراه بين أيدينا الآن[4].

٣ ـ ابن سعيد (ت ١٢٧٥/٦٧٣): علي بن موسى الغرناطي.

كتاب «المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩) (القاهرة ١٩٥٣) نشره زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل كاشف.

٤ ـ ابن القاضي: أحمد بن محمد المكناسي.
«جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس».

مخطوط رقم ج ١٢٤٢ (الرباط).

٥ ـ المالكي؛ أبو بكر عبد الله

---

(١) بسكون ثانيه وبضمه الحيوان المعروف.
(٢) المراكشي: المعجب ص ٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٦.
(٤) وقد نشره «دوزي» سنة ١٨٤٧م، ثم أعاد طبعه سنة ١٨٨١م وترجمه فانيان Fagnan إلى الفرنسية ونشرت ترجمته في الجزائر سنة ١٨٩٣، كما طبعه الأستاذ محمد سعيد العريان سنة ١٩٤٩.

«رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم» (القاهرة ١٩٥١).

٦ ـ ابن عذارى (ت في أواخر القرن السابع الهجري): أبو عبد الله محمد المراكشي.

«البيان المغرب في أخبار المغرب» ٣ أجزاء، نشره «دوزي» (ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٥١م) (باريس ١٩٣٠).

٧ ـ ابن سيده (١٠٦٥/٤٥٨): أبو الحسن علي الأندلسي.

«كتاب المخصص» ٢٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١هـ).

٨ ـ ابن بسّام (ت ١١٤٧/٥٤٢): أبو الحسن علي الشنتريني.

«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة». نشرت الأجزاء الأربعة منه (القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩/١٣٦٤ ـ ١٩٤٥).

٩ ـ الطرطوشي (ت ١١٢٦/٥٢٠): أبو بكر.

«سراج الملوك» (القاهرة ١٢٨٩ هـ).

١٠ ـ الخشني: أبو عبد الله محمد بن الحارث.

كتاب القضاة بقرطبة «نشره ربيرا» Ribera (مدريد ١٩١٤).

١١ ـ ابن بشكوال (ت ١١٨٢/٥٧٨) أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسي «كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وآبائهم» نشره عزت العطار (القاهرة ١٩٥٥/١٣٧٤).

١٢ ـ ابن الأبّار (ت ١٢٦١/٦٥٩) أبو عبد الله القضاعي.

«كتاب التكملة لكتاب الصلة» جزآن (مدريد ١٨٨٦) (القاهرة ١٩٥٦/١٣٧٥).

(٦) الجغرافيا

ظهر في العصر السلجوقي كثير من الجغرافيين والرحالين. ومن أشهرهم:

١ ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشاري المقدسي (٩٩٧/٣٨٧). وكتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي نشره دي غويه في مجموعة المكتبة الجغرافية العربية (ليدن ١٨٧٧) ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية.

٢ ـ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ١٠٤٨/٤٤٠) وقد خلف لنا كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية». ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات في البلاد التي زارها وبخاصة طبرستان وخوارزم والهند. وقد ساعده اتصاله بعلماء البلاد التي اختلف إليها وإلمامه ببعض اللغات الأجنبية كالفارسية والعربية والسنسكريتية على التبحر في كثير من العلوم كعلم الهيئة والنجوم والرياضة والجغرافية والتاريخ والعلوم الطبيعية. وقد أفاد من رحلاته إلى الهند فجمع علومها ومذاهبها وعادات سكانها التي أودعها كتابه «تاريخ الهند».

٣ ـ ناصر خسرو (ت ١٠٠٨/٤٨١). وقد خلف لنا كتابه «سفر نامه» (أو زاد المسافر). ويتضمن كثيراً من مشاهداته في فارس والعراق والحجاز والشام وفي مصر التي زارها في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ) وظل فيها نحو سنتين (٧ صفر ٤٣٩ ـ ١٤ ذي الحجة ٤٤١هـ) ووصف ثروة البلاط الفاطمي وأبهته.

وكان ناصر خسرو وزيراً في بلاط خراسان ثم اعتزل السياسة فحج بيت الله وأصبح داعياً للإسماعيلية، فاعتبر القاهرة حاضرة الفاطميين المركز الرئيسي للمذهب الإسماعيلي الذي يدين بعقائده. واعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقاً. وقد ألف ناصر خسرو كتابه بالفارسية وترجمه شارل شيفر إلى الفرنسية سنة ١٨٨١م.

٤ ـ أبو عبيد محمد بن عبد العزيز البكري (ت ١٠٩٧/٤٨٧). وترجع نسبته إلى أبي بكر الصديق. وقد ألف كتابه «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»[1]، وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب المسالك والممالك. ولا غنى للطالب عن هذا الكتاب في دراسة تاريخ المغرب.

٥ ـ أبو الحسن محمد بن جبير (ت ١٢١٧/٦١٤). ولد في بلدة بلنسية[2] بالأندلس سنة ٥٣٩هـ ثم استوطن غرناطة. وينتمي إلى معد بن عدنان. وقد تلقى ابن جبير العلم على أبيه وعلى ابن أبي العيش وكثير من علماء عصره، وأفاد من علمه كثير من علماء المغرب ومصر.

وكان ابن جبير على درجة كبيرة من الورع والدين. وقد عاصر الدولة الموحدية التي كانت تحكم بلاد المغرب والأندلس، ثم سافر إلى المشرق ثلاث مرات، حج في كل منها بيت الله بمكة. وقد بدأ رحلته الأولى في شهر شوال سنة ٥٧٨هـ، ثم عاد إلى غرناطة بعد سنتين. وقد صنف فيها ما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع. وهو كتاب ممتع يحبب المرء في زيارة هذه المعالم. ولما علم ابن جبير بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين

---

(١) طبعة دي سلان، باريس ١٩١١.

(٢) وقيل إنه ولد بشاطبة.

الأيوبي قوي عزمه على القيام برحلته الثانية إلى المشرق (٥٨٥هـ). ثم عاد إلى غرناطة سنة ٥٨٧هـ ثم رحل إلى سَبْتة بالمغرب الأقصى وانصرف إلى الحديث والتصوف.

ولما ماتت زوجة ابن جبير (وهي عاتكة بنت الوزير أبي جعفر) عظم وجده عليها ففكر في القيام برحلته الثالثة، فخرج من مدينة سبتة إلى مكة، فبقي فيها فترة طلب فيها العلم، ثم غادرها إلى بيت المقدس فالقاهرة ثم إلى الاسكندرية حيث قام بتدريس الحديث حتى وافاه أجله سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م)، ولم يترك لنا إلا حديثه عن الرحلة الأولى من هذه الرحلات الثلاث.

وكان ابن جبير أديباً شاعراً، مدح النبي ﷺ بقصائد طويلة تشهد بطول باعه في الشعر والنثر ولا سيما الصوفي منها. وقد أشاد الوزير[١] لسان الدين بن الخطيب بعلم ابن جبير وفضله وعلو باعه في الفقه والحديث[٢].

٦ ـ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦/١٢٢٩). وكان إغريقي المولد، ومن أجل ذلك سمي الرومي. أسر صغيراً وبيع لأحد تجار مدينة حماة؛ ومن أجل ذلك نسب إليها فسمي الحموي. وقام مولاه بتعليمه وأوفده في تجارته إلى الخليج العربي وغيره، فجرت بينه وبين مولاه كَتْبَة أدت إلى عتقه، فعاش من نسخ الكتب وبيعها؛ أي أنه احترف الوراقة كما كانت تسمى، وأفاد من وراء هذه الصناعة بما تركه لنا من مؤلفاته النفيسة.

وقد نال ياقوت حظاً وافراً من التعليم وجاب كثيراً من البلاد وأقام بمدينة مرو حاضرة خراسان وأفاد من مكتباتها الزاهرة حتى بدأت غزوات المغول فاضطر إلى الهرب إلى الموصل (٦٦٤/١٢٢٤) حيث أتم مؤلفه «معجم البلدان». ومن مؤلفات ياقوت:

١ ـ كتاب «معجم البلدان[٣]». ويعتبر من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في كل ما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربي آسيا.

٢ ـ كتاب «مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع». وقد اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ١٣٣٨/٧٣٩)[٤].

---

(١) انظر ما كتبه عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب في كتابه تاريخ غرناطة.

(٢) وقد نشر وليام رايت أسفار ابن جبير (ليدن ١٨٨٢) وتعرف هذه الأسفار باسم رحلة ابن جبير. وقد ترجمه برود هيرست إلى الإنجليزية (لندن ١٨٥٢).

(٣) نشره وستنفلد في ستة أجزاء (١٨٦٦ ـ ١٨٧١) وطبع في القاهرة في ثمانية أجزاء (١٣٢٣هـ).

(٤) طبعة جوينبول في أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣).

ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب[1].

٧ ـ عبد اللطيف موفق الدين أبو محمد الطبيب البغدادي (ت ٦٢٩/١٢٣١):

كان كما يقول السيوطي[2] عالماً بأصول الدين والنحو واللغة والطب والفلسفة والتاريخ. ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هـ. وقد خلف لنا كتبه:

«الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر». وقد ترجمه دي ساسي إلى الفرنسية.

ـ مختصر تاريخ مصر، طبعة ج. هوايت (أكسفورد ١٨٠٠).

ـ شرح مقامات الحريري.

الجامع الكبير في المنطق والطبيعي والإلهي، ويقع في عشرة مجلدات. وقد أقام بمصر وتوفي ببغداد في ١٢ المحرم سنة ٦٢٩هـ.

٨ ـ زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢/١٢٨٣)، ولد بمدينة قزوين في إيران سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) وأقام فترة من حياته بمدينة دمشق وتولى القضاء في عهد الخليفة المستعصم في واسط الحلة، وقد خلف لنا القزويني كتابيه «عجائب المخلوقات» و«آثار البلاد» اللذين قام وستنفلد على نشرهما في سنتي ١٨٤٨ و ١٨٤٩.

ويشتمل كتاب «عجائب المخلوقات» على بيان التقويم الشمسي والنجوم والأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات الخرافية المختلفة.

يشتمل كتاب «آثار البلاد» على كثير من المعلومات الجغرافية الهامة، كما يشتمل على كثير من الأخبار المتصلة بتراجم شعراء الفرس الذين اتصل بهم القزويني، كالفردوسي وناصر خسرو وعمر الخيام وعنصري ورشيد الدين الوطواط.

على أن المعلومات الجغرافية التي وردت في كتاب «آثار البلاد» لا ترقى إلى المستوى الذي بلغته المعلومات التي أوردها ياقوت الحموي وغيره من الجغرافيين المبكرين، ولو أنها تزخر بكثير من الأخبار الممتعة المسلية.

ومن الغريب أن هذا الكتاب لا يتعرض لذكر إنجلترا فيما دونه القزويني عن الإقليم السادس، ولو أنه تعرض لإيرلندة ووصف في إيجاز صيد الحيتان، كما وصف مدينة رومة في

---

(١) طبعة سلسلة ذكرى جب، ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١).

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

شيء من الإسهاب. ولما تناول القزويني الإقليم السابع، تحدث عن الطقوس التي يتبعها الفرنجة في الماء والنار والمعارك، كما تحدث عن السحر والسحرة وعن الخليج الفارنجي Varangian Fiord في أقصى الشمال. يقول براون: «وفي رأيي أنني لم أصادف بين الكتب العربية كتاباً ممتعاً جديراً بالقراءة مثل هذا الكتاب»[1].

٩ ـ محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسي (ت ١٢٥١/٦٤٩). وكان من أهل سبتة بالمغرب الأقصى. وقد بدأ رحلاته وهو في السادسة عشرة من عمره؛ فزار بلاد الأندلس وفرنسا وإنجلترا. ثم زارمعظم أرجاء شمالي إفريقيا، ثم رحل لحج بيت الله، فزار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان التي وصل إليها سنة ٥١١هـ.

ولم يكن الإدريسي رحالة فحسب، بل كان عالماً موفقاً عميقاً في بحثه. ولما لم يجد في الشرق ما كان يؤمله عاد إلى بلده وفي نفسه شيء من المرارة. وعاصر الدعوة الموحدية التي قام بنشرها المهدي محمد بن تومرت.

وقد اتصل بمسامع الملك رودجر الثاني النورمندي ما يمتاز بـه الإدريسي من سعة الاطلاع، فدعاه إلى بلاطه بصقلية سنة ٥٣٣هـ. فرحب الإدريسي بهذه الدعوة، وعهد إليه هذا الملك بوضع كتاب في جغرافية العالم، ووضع تحت إشرافه لجنة قامت بزيارة البلدان النائية. كما وضع تحت تصرفه ٤٥٠ ٠٠٠ رطل من الفضة الخالصة ليضع له كرة يرسم عليها المصورون مواقع البلدان وأسماءها. وقد شرح الإدريسي ما في هذه الخريطة والكرة في كتابه «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان» واستغرق هذا العمل خمس عشرة سنة.

وقد ألف الإدريسي كتابه نزهة المشتاق، وهو مختصر لكتابه نزهة المشتاق الذي طبع في روما سنة ١٥٩٢م. ورسم الإدريسي خريطة العالم. ويبين لنا هذا العمل الدقيق مدى معرفة العرب ببلاد العالم المختلفة، ومنه نعلم أن العرب لم يجهلوا ألمانيا والسويد والنرويج وغيرها من البلاد الواقعة شمالي القارة الأوروبية.

ولا يبعد أن تكون معلومات الإدريسي نتيجة اتصال المسلمين بأوروبا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية. وقد طبع كنراد ميللر خريطة الإدريسي طبعة أنيقة مزينة بالألوان سنة ١٩٢٦. وقام المجمع العلمي العراقي حديثاً بطبع هذه الخريطة التي حددت أجزاء العالم الإسلامي قبل غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي، كما عينت منابع النيل بدقة، وصورت بحر قزوين وصحراء فارس. ولولا خريطة الإدريسي لظلت هذه الناحية مجهولة لدينا.

---

(١) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦١٢ ـ ٦١٤.

وتمتاز خريطة الإدريسي بعدم المبالغة. وقد أشار في كتابه «نزهة المشتاق» إلى مقياس خريطته فذكر أن كل درجة ٢٥ فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال، فيكون طول الدرجة ٧٥ ميلاً. وجاءت خريطة الإدريسي مطابقة لمواقع البلدان. وكانت في الأصل ثلاثة أمتار ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً. ثم نقلها «ميللر» في مترين طولاً ومتر عرضاً. ولم يخطىء الإدريسي إلا في مواقع قليلة. مثال ذلك أنه وضع «كليهار» في السويد في درجة $\frac{1}{3}$ /٥٦ بدل $\frac{1}{2}$/٥٦؛ وأخطأ في تعيين موقع انجلترا والدانيمرك بنصف درجة. ولم يضع خطوط الطول لعدم استطاعته تحقيق مواضعها، وإنما أثبت خطوط العرض التي تبدأ أفقية من خط الاستواء إلى الشمال، ووضع ست درجات بين كل خط وخط. وقد قيل إن الادريسي أسرع في إنجاز خريطته بسبب مرض رودجر ملك صقلية.

وكان الإدريسي محدثاً لامعاً، ألف كتاب «المفيد في أخبار الصعيد». ومات بالقاهرة في شهرصفر سنة ٦٤٩هـ[١].

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨.

الباب الحادي عشر
الفن
تخطيط المدن

(أ) تقسيم المدن:

يمكن تقسيم المدن إلى مدن تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية ومدن تبنى بطريقة ابتكارية أو مبتدعة، وهذا النوع الثاني قد أولع به الفرنسيون سكان المدن. ويمكن أن ينطبق هذا النوع الأخير على المدن الإسلامية.

١ ـ فالمدن التي تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية هي التي بنيت لاستيطان الجاليات أول الأمر، ويكتفي سكانها بالاحتفاظ بمقومات هذه الأبنية التي تؤدي إلى تحقيق الأغراض التي بنيت من أجلها.

ذلك أن العرب لم يرغبوا في الإقامة بالمدن القديمة كأقلية معرضة لمقاومة أهالي البلاد الأصليين الذين ينظرون إليهم باعتبارهم أجانب عنهم. لذلك نرى المدن الأولى التي بناها العرب أشبه بمعسكرات حصينة (مثال ذلك الفسطاط أو مصر القديمة)، وأحياناً تكون المدن منعزلة انعزالاً نسبياً عن المراكز الأخرى المنافسة لها (مثل الكوفة والقيروان). وقد يدفع الموقف السياسي للدولة الجديدة الحكام على تأسيس مدينة جديدة لإخضاع مدينة أخرى قصد القضاء على مقاومتها (مثال ذلك مدينة المنصورية التي بناها بنو مرين في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، لتحل محل تلمسان التي احتلها بنو زيان، وتبعد عنها بنحو ميل ونصف وقد اتخذها المرينيون حاضرة لهم). كذلك اقترن قيام دولة الأدارسة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (القرن التاسع الميلادي) بتأسيس مدينة فاس سنة ١٩٢هـ. واقترن قيام الدولة المرابطية ببناء مدينة مراكش على يد يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م). وقد ينقل الحاكم مقر دولته من الحاضرة التقليدية كما فعل المعتصم العباسي الذي بنى مدينة سامرا (على بعد سبعين ميلاً شمالي بغداد) سنة ٢٢١هـ، وظلت حاضرة الخلفاء العباسيين نحو ستين سنة حتى نقل المعتضد حاضرة الخلافة العباسية إلى بغداد سنة ٢٧٩هـ. وينطبق هذا المثل أيضاً

على رقادة (بفتح القاف مع التشديد) التي اتخذها الأغالبة حاضرة لدولتهم (وتبعد عن القيروان بستة أميال) لتحل محل العباسية (وتبعد عنها بميلين ونصف ميل) سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م). كذلك نذكر مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر الأموي على بُعد أربعة أميال ونصف من قرطبة.

٢ ـ وقد تستخدم المدن التي تبنى بطريقة ابتكارية في تحصين الدولة عند الحد الذي يفصل بينها وبين الدولة المجاورة لها أو تبنى في قلب الدولة نفسها، وقد تنمو هذه الحصون وتصبح على مر الزمن مدناً حصينة. فمدينة الرباط، الحاضرة الإدارية الحالية للمملكة المغربية تحتفظ بطابعها الأصلي وهو رباط الحرب[١].

وسنرى الآن كيف تنطبق هذه القواعد على المدن الإسلامية، إذ إن الموحدين كانوا يرابطون فيها بجندهم وخيلهم وأسلحتهم في الكفاح الحربي مع المرابطين، ثم مع نصارى الأندلس، ثم في فتحهم مدينة المهدية وطردهم الروم من إفريقية.

وقد أولع السلطان ألب أرسلان السلجوقي بالبناء. وكان إذا أراد أن يبني بناء حرص على أن يكون شامخاً يقوى على تحمل الأحداث دالاً على عظمة الدولة. كما كان يحرص على اختيار المكان الذي يبنى فيه بحيث يكون بهيجاً مشرقاً. وكان يقول: «آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا»[٢].

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ) مغرماً بالعمائر، فحفر كثيراً من الأنهار وأحاط كثيراً من المدن بالأسوار، وأنشأ الربط والقناطر في المفاوز، وعمر جامع السلطان ببغداد (٤٨٥هـ) وزاد في دار السلطنة بها، وحفر الآبار في طريق مكة. وقد خرج من الكوفة لتوديع الحاج سنة ٤٨٠هـ، فصاد في طريقه وحشاً كثيراً، فبنى بالسبيعي منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في هذا الطريق. وكانت هذه المنارة تعرف بمنارة القرون. كما بنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر[٣].

ولنذكر الآن بعض المدن الشهيرة في العصر الذي خصصنا له هذا الجزء الرابع من كتابنا (٤٤٧ ـ ٦٥٦هـ):

---

(١) Grunebaum, Islam, pp. 144 - 145; E. Pauty, Villes Spontanées, etc.

(٢) البنداري؛ تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٧٩.

(ب) مدينة قرطبة:

كانت قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أكثر المدن الإسلامية حضارة في الأندلس بصفة خاصة والمدن الأوروبية بصفة عامة. وكان العجب يأخذ من قلوب الرحالة الذين زاروا هذه المدينة كل مأخذ حين يشاهدون بها سبعين داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور. وقد اعترف ابن حوقل الجغرافي، برغم تحامله على أمويي الأندلس، بعظمة قرطبة التي سماها بغداد الثانية، كما أعجب بجمال مدينة الزهراء المتاخمة لقرطبة وبثراء حي الرصافة وفخامته.

وقد تأثر الفن الأوروبي بالفن الإسلامي الذي أخذ عن الفن المصري القديم وعن فن الشرق الأدنى. فالأساطين الأيوبية في البناء الكلاسيكي شرقية الأصل. كما أخذ اليونان عن طريق الشرق الأدنى أهم عناصر الفن الهلليني الشرقي. وليست هذه الخطوط المنقوشة إلا باقات وسيقان البردى التي نشاهدها على الأعمدة المصرية القديمة، إذ إن بلاد بابل تعد موطن النقش على الأحجار الكريمة، كما إن الأعمدة التي استخدمت كعنصر زخرفي في البناء مصرية الأصل، انتقلت إلى سورية وسائر بلاد الشرق الأدنى حول الألف الثاني قبل الميلاد، ثم إلى بلاد اليونان في القرن السابع الميلادي.

كذلك انتقل فن البناء العربي، ولا سيما القباب، إلى أوروبا محاكاة لمسجد عمر في بيت المقدس. وقد أثبت مؤرخو الفنون أن أهم عناصر الفن الروماني كانت متداولة في الشرق قبل أن تعرفها أوروبا بقرون، وأن العوامل التي أدت إلى وجود الفن القوطي شرقية الأصل.

وإنا لنرى التأثير العربي في أوروبا واضحاً في الفنون والصناعات المنزلية، فقد كانت دور الأغنياء في مملكة بيت المقدس على الطراز العربي. كذلك كانت الزخرفة والأثاث الداخلي والمصوغات الذهبية والحلى ولا سيما في إيطاليا وفي البندقية بوجه خاص. أضف إلى ذلك صناعة العاج والمينا والسجاجيد والأبسطة. وإن خزف مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر يثبت، كما يقول بروفنسال[1] بفنه وألوان تصويره ومناظره، أنه من أصل عراقي. أما الصناديق الصغيرة المصنوعة من العاج التي هي فخر مصانع الخليفة، فقد اتخذت موضوعاتها وصورها ومناظر الصيد والموسيقى عن الفن الآسيوي.

وعن الفن الإسلامي أخذ الأوروبيون كثيراً من فن النقش والزخرفة وصناعة السجاجيد. وعن عرب صقلية واسبانيا تأثرت الحضارة الأوروبية بالحضارة الإسلامية في

---

(١) الشرق الإسلامي والحضارة العربية ص ٣٣ ـ ٣٤.

الثقافة والفن، وفي نظم الحكم، وفي الحياة الاجتماعية وغيرها. وبذلك يظهر أثر التراث الإسلامي في الحضارة الأوروبية، وينمحي الرأي القديم الذي ذهب أصحابه إلى القول بأن الغرب أسبق من الشرق في تطور الفكر البشري ورقي الحضارة الإنسانية.

(ج) مدينة القاهرة:

ذكرنا من قبل أنه كان من أهم ما يرمي إليه الولاة في البلاد الإسلامية أن يؤسسوا قاعدة تسع جندهم وتأوي أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم، ثم يبنون مسجداً يقيمون فيه شعائرهم الدينية. وقد سن هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص، فأسس مدينة الفسطاط، وجاء بعده صالح بن علي فأسس هو وأبو عَوْن مدينة العسكر، وأسس أحمد ابن طولون مدينة القطائع. ثم جاء جوهر الصقلي فوضع أساس مدينة القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ بعد أن استولى على مدينة مصر (يعني الفسطاط وأطلال العسكر والقطائع). كما وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز لدين الله.

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة. وكانت حدودها الشرقية هي بنفسها حدود القاهرة الحالية، وأما من الجهة الغربية فلم تجاوز شارع الخليج.

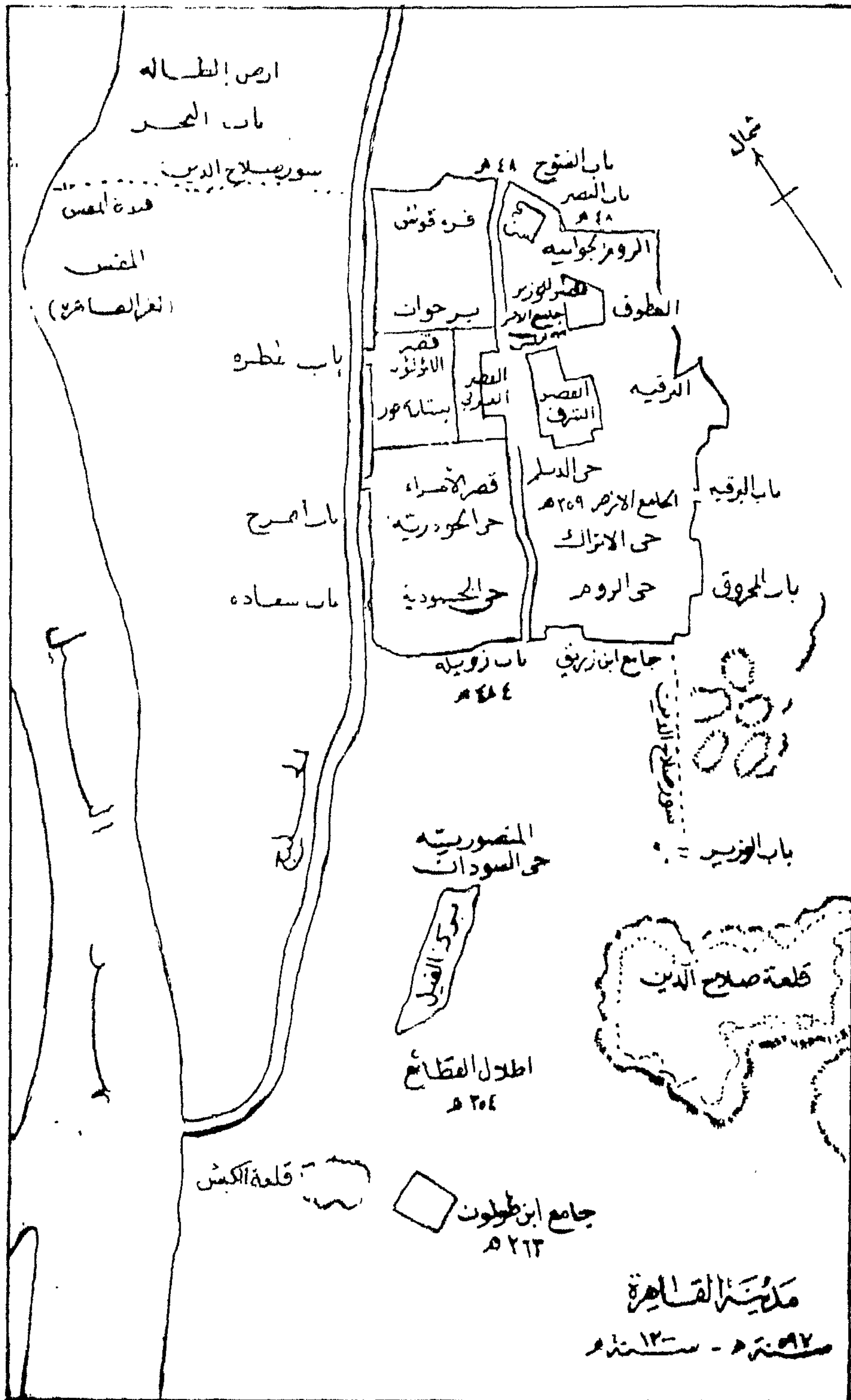
وقد ذكر علي مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب مدينة القاهرة كما أسسها جوهر كان يبلغ ألفاً ومائتي متر، ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فداناً كان القصر الخلافي يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فداناً. وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين فداناً، وخمسة وثلاثين فداناً للمكان المخصص لاستعراض الجند، والباقي وقدره مائتا فدان لسكنى الجند. وقد زاد السور الذي أقامه أمير الجيوش بدر الجمالي في مساحة المدينة ستين فداناً. وقد بني هذا السور من الحجر الكبير الحجم، وبه ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم[1].

وقد وصف ناصر خسرو الرحالة الفارسي تخطيط مدينة القاهرة التي زارها سنة ٤٤١هـ (سنة ١٠٤٩م) فقال إن قصر الخليفة يقع في وسط القاهرة، وأنه طلق الهواء من جميع الجهات، إذ لا يتصل به أي بناء وكل ما حوله فضاء... ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة.

وإذا كان جوهر قد فاته ما أشار به المعز لدين الله من اختيار منطقة الرصد واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية، فإن الخلفاء الفاطميين لم تفتهم مواطن الجمال في أطراف القاهرة

---

(١) راجع كتاب علي باشا: الخطط التوفيقية. ج ١ ص ٤ ـ ٢٢.


ارض الطبالة
باب البحر
سور صلاح الدين
شمال
باب الفتوح ٤٨٠ هـ
باب النصر ٤٨٠ هـ
قنطرة المقس
المقس
(ثغر القاهرة)
الروم الجوانية
العطوف
برجوان
قصر الوزير
جامع الأقمر
باب القنطرة
قصر اللؤلؤة
بستان كافور
القصر الغربي
القصر الشرقي
البرقية
حي الديلم
الجامع الأزهر ٣٥٩ هـ
باب البرقية
قصر الأمراء
حي الجودرية
باب سعادة
حي الأتراك
حي الروم
باب المحروق
باب زويلة ٤٨٠ هـ
جامع ابن رزيك
سور صلاح الدين
باب الوزير
المنصورية
حي السودان
بركة الفيل
قلعة صلاح الدين
اطلال القطائع
٢٥٤ هـ
قلعة الكبش
جامع ابن طولون
٢٦٣ هـ
مدينة القاهرة
٥٩٧ هـ - سنة ١٢٠٠ م

والفسطاط والجزيرة، فانتفعوا بها وبشاطىء النيل وحافتي الخليج وشبرا، حيث الخضرة والماء، فأنشأوا المناظر والحدائق التي كانوا يقضون فيها أوقات فراغهم. وكان لانتفاعهم بتلك المناطق أثر كبير في تعميرها بخاصتهم من الناس، فامتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة.

وفي سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) وسع الوزير بدر الجمالي رقعة مدينة القاهرة شمالاً وجنوباً وسمح بالسكنى فيها، فامتد عمرانها إلى أطرافها ثم إلى خارج أسوارها، وسميت الأبنية التي بداخل الأسوار باسم «داخل السور» كما سميت الأبنية التي في خارج الأسوار باسم «ظاهر القاهرة»، وأنشىء في هذا الفضاء الذي هو خارج السور خطط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين. هذا عدا الناحية الشرقية التي تقع بين السور والجبل، فإن الخليفة الفاطمي الحاكم أمر بأن تلقى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول المدينة، فتكونت تلك الأكوام التي تعرف بأكوام الترقية في نهاية شارع الدراسة.

وقد أحاط صلاح الدين الأيوبي القاهرة والفسطاط بسور واحد وبنى قلعة الجبل. وفي عصر المماليك امتد العمران وخاصة في عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى زادت رقعة القاهرة نحو النصف، وغدت هي والفسطاط مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة الحبش (أثر النبي) ومن النيل إلى المقطم[1].

وكان لتحول النيل في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أثر كبير في توسيع رقعة مصر والقاهرة. وقد وصفها ابن فضل الله العمري[2] المؤرخ الجغرافي في القرن الرابع عشر الميلادي بقوله:

«ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، بعد حريق الفسطاط (في عهد وزارة شاور) سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) وانتقال أهلها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العالية والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار».

(د) مدينة مراكش:

إن بناء مدينة مراكش باعتبارها حاضرة للدولة المرابطية مع وجود مدينة «أغمات» الكبيرة، التي كانت مزدهرة قبل مراكش، والتي لا تبعد عنها بأكثر من ثلاثين كيلومتراً لم يكن مجرد صدفة أو ارتياد مكان لغرض غير معين.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٦٥. (٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٧٠.

ذلك أن أغمات المدينة البربرية الأصيلة التي يرجع تاريخ بنائها إلى العصور القديمة كانت تحفّ بها أشجار الزيتون في سفح جبال الأطلس[١] وتكثر بها البساتين والأنهار. ولم تكن هذه المدينة تلائم البيئة الصحراوية التي تعودها المرابطون فضلاً عن أنها ضاقت بسكانها الجدد من المرابطين.

وقد وصف اليعقوبي[٢] أغمات بأنها «بلد خصب فيه مراعٍ ومزارع في سهل وجبل، وأهله قوم من البربر»، وقد ذكر الإدريسي[٣] الذي عاصر المرابطين والموحدين أن أهل أغمات يتوفرون على ثروات ضخمة من تجارة النحاس والثياب الصوفية والعمائم والآلات الحديدية، وما منهم رجل يسافر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً موقرة[٤]. ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً.

عاد أبو بكر بن عمر إلى مدينة أغمات وكانت مدينة مشهورة بعلمها وحضارتها. وكانت عبارة عن مدينتين تسمى كل منهما أغمات، وتنسب إحداهما إلى قبيلة وريكة فيقال لها أغمات وريكة، والأخرى تنسب إلى قبيلة هيلانة فيقال لها أغمات هيلانة أو إيلان أو إيلانة (هيلانة). وما زال أهل مراكش حتى اليوم يسمون أحد أبواب مدينتهم «باب إيلان». وقد قامت منافسة شديدة بين هاتين المدينتين، حتى إن كل فريق منهما كان يصلي في الجامع منفرداً. وفي ذلك الوقت استقر أبو بكر بن عمر في هذه المدينة وتوافدت عليه الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت بالسكان فضج أهلها بالشكوى لما كانوا يجدونه من عناء بسبب مضايقة المرابطين لهم، فقال لهم أبو بكر: عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إن شاء الله. فأشاروا عليه في بادىء الأمر بمكان يقع على نهر تانْسفت[٥] (بسكون النون والفاء وكسر السين) شمالي مراكش. ولكن أبا بكر خاف من فيضان هذا النهر وقال لهم: إننا قوم صحراويون ولا نستطيع العيش بجوار الأنهار. وأخيراً أشاروا عليه بفحص[٦] مراكش وقالوا له: أيها الأمير قد نظرنا لك موضعاً صحراء رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك، يكون وادي نفيس (بفتح النون) جنانَها، وبلاد دُكالة[٧] (بضم الدال وفتح الكاف مع التشديد) فَدّانَها، وزمام جبال درن (بفتح الدال

---

(١) Terasse, tome I. p. 222.

(٢) كتاب البلدان ص ٢١ ـ ٢٢.

(٣) كتاب الأندلس وأرض السودان ص ٦٧.

(٤) أي مثقلة بالأحمال.

(٥) ويصب جنوبي مدينة آسفي.

(٦) بفتح الفاء وسكون الحاء كل موضع يسكن.

(٧) لا تتصل دكالة اليوم بمراكش، وكان اسمها قديماً يطلق حتى على القبائل التي تدعى عبدة اليوم بجوار=

والراء) (بالأطلس الكبير) بيد أميرها. أضف إلى ذلك وقوع مدينة مراكش في مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى.

عند ذلك ركب الأمير أبو بكر بن عمر في صحبة نفر من قومه من لمتونة وشيوخ المصامدة ووجوه الناس إلى فحص مراكش، وكان خاوياً موحشاً، لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا ينبت به إلا السدر والحنظل؛ فوجدوا بجواره مكاناً خصيباً فسيحاً ورأوا في هذا السهل من العشب لجمالهم ودوابهم ما سرهم(١).

٢ ـ تسمية مراكش:

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي(٢) أن مراكش كانت في مبدأ أمرها غيضة لا عمران فيها، وكانت مأوى للصوص، وربما سميت مراكش باسم عبد أسود يدعى «مراكش»، استقر بها أو لأنها كانت بمكان موّحش مخيف. فكان المارة يقولون لرفقائهم: «مراكش»، ومعناها مرّ مسرعاً بلغة المصامدة؛ فعُرف المكان بهذا الاسم، وهو مراكش (بفتح الميم والراء مع التشديد وضم الكاف)(٣)، وبعضهم ينطقها بفتح الكاف وضبطها بعضهم بضم الميم وكسر الكاف. ويطلق لفظ مراكش على المملكة المغربية كلها فيقال سلطنة مراكش ومملكة مراكش (Maroc بالفرنسية Morocco بالإنجليزية) وMarrakesh على المدينة.

٣ ـ تخطيط مراكش:

وقد بدأ الأمير أبو بكر بن عمر عملية التعمير والبناء ببناء قصره، وتبعه الناس في بناء الدور بغير أسوار(٤). ثم بنى معسكراً ومخازن للسلاح والأموال إلى جانب مسجد لإقامة الصلاة. وليس من شك في أن المدينة بدأت في غاية البساطة، حيث سكن الناس أولاً في خيام من الوبر، ومنهم رجال الدولة. واستمر هذا العمل نحواً من سنة، وقيل ثمانية أشهر.

= مدينة مراكش.

(١) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (لمؤلف مجهول). نشره علوش، ص ٥ ـ ٦.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٩٥ وما يليها.

(٣) انظر لفظ مراكش في معجم البلدان لياقوت.

(٤) كان المرابطون يكرهون أن تكون المدن مسورة، وذلك لطبيعة نشأتهم الصحراوية الطلقة، حتى إن يوسف بن تاشفين لما فتح مدينة فاس، خرب السور الذي يفصل بين عدوتيها (أي عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين) وقال: إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا. ولما فكر علي بن يوسف بن تاشفين في تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩هـ (١١٣٥م) استفتى الفقهاء في المغرب والأندلس في هذا العمل.

ولما نزل الأمير أبو بكر بن عمر بموضع مراكش وبدأ عملية التعمير والبناء، وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء يعلمه أن جدالة قد أغارت عليهم. فأقام أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين على حكم المغرب وسار نحو الصحراء لنجدة قومه (١).

وينسب بعض المؤرخين بناء مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ويحدد تاريخ بنائها بسنة ٤٤٤هـ (١٠٦٣م)، على أنه مما لا شك فيه أن يوسف بن تاشفين كان يشرف على البناء حين كان أبو بكر بن عمر مشغولاً بإخماد الفتنة التي قامت بين قبائل المرابطين قبل أن يعود إلى الصحراء ويقضي بقية حياته فيها. على أننا نرى أن المؤسس الحقيقي لمدينة مراكش هو أبو بكر ابن عمر، وأن يوسف بن تاشفين قد أتم ما بدأه أبو بكر بن عمر. ومراكش تشبه كثيراً من حيث جوها والحركة الدائبة فيها مدينة بغداد، كما تشبه مدينة فاس من حيث كثرة غياضها وأشجارها، وطقسها مدينة دمشق، وتزخر مدينة مراكش بالآثار والمعالم الحضارية.

ويذكر ابن خلدون(٢) أن يوسف (بن تاشفين) جعل مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره ولمراقبة قبائل المصامدة التي كانت تقيم بجبال درن (بفتح الدال والراء) المتاخمة لمراكش. وهكذا يرجع تأسيس مدينة مراكش إلى عوامل أهمها:

(١) إيجاد مقر للحكومة ومعسكر يتسع لجند المرابطين.

(٢) اتخاذ حاضرة الدولة بقرب مواطن المصامدة الأصلية لدفع إغارتهم.

(٣) ارتياد مكان فسيح من حيث موقعه الملائم لطبيعة حياة المرابطين الصحراوية.

وقد اختط أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده مدينة مراكش في بسطة من الأرض حولها جبل إيجليز (ويسمى الآن جيليز) القريب من مراكش واقتطع منه الحجر وبنى منه داراً لحرمه، وقصراً يعرف بدار الحجر. ولا يعرف موقع هذا القصر على وجه التحقيق، أما المباني الأخرى فكانت من الطين والحجر.

وبعث يوسف بن تاشفين في طلب عبيد الله بن يونس الذي برع في الهندسة، فاستخرج الماء الذي جرى إلى المباني والبساتين والمتنزهات التي يسمونها البحائر(٣)، حتى كثرت قصور

---

(١) عباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام (فاس ١٣٥٥/١٩٣٦) ج ١ ص ٦٣ وما يليها.

(٢) العبر ج ٦ ص ٣٧٨.

(٣) جمع بحيرة (بفتح الباء) والمراد بها الفدان الذي يحرث (أي حقل)، وهي ما يسمى اليوم أجدال (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الدال).

الأمراء والقواد وغيرهم. وقد أمد يوسف بن تاشفين مدينة مراكش بالماء، فحفر آباراً أطلق عليها «الخطاطير» وجلب إليها الماء من أغمات[١].

وقد اتفق المؤرخون على أن المرابطين لم يتخذوا فاس حاضرة لدولتهم، لبعدها عن موطنهم وعن مواطن المصامدة الذين كانت تعمر بهم جبال الأطلس.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي بنيت فيها مدينة مراكش، فيذكر ابن خلدون[٢] وابن أبي زرع[٣] أنها بنيت سنة ٤٥٤هـ.

٤ ـ اتساع مدينة مراكش:

وقد أجمع المؤرخون على أن بناء مدينة مراكش تم في ثمانية أشهر، وأن عليّ بن يوسف هو الذي سورها وأنفق على بنائها سبعين ألف دينار مرابطية، وبنى بها مسجداً قام بترميمه المولى سليمان العلوي. كما بنى قنطرة تانسيفت واستعان بصناع الأندلس وغيرهم من مهرة المعماريين. ولكن سيول هذا النهر لم تلبث أن هدمت هذه القنطرة وأطاحت بها في النهر، ولم يبق منها إلا عقدها، فقام الموحدون بترميمها.

وقد ذكر المؤرخون أنه كان بمدينة مراكش سبعة عشر باباً، واشتهرت مراكش باتساع أروقتها ورحابة دورها وارتفاع مبانيها وزخرت أسواقها بالسلع.

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين سنة ٥٢٤هـ فتح عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ) أول خلفاء الموحدين مدينة مراكش[٤]. وقد عني هو ومن جاء بعده من الخلفاء بتشييد المباني، فبدأ ببناء جامع الكتبية الذي اشتهر بمنارته العظيمة التي تحاكي منارة «الخالدة» بإشبيلية. ثم أتمه ابنه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ). وجلب عبد المؤمن بن علي المياه من أودية جبال دَرَن وغرس في غربي المدينة بحيرة (بفتح الباء) عظيمة بلغت دائرتها ستة أميال وبنى فيها وفي خارجها صهريجين عظيمين، كما غرس ابنه أبو يعقوب يوسف بحائر أخرى جلب إليها الماء وبنى فيها صهريجاً ضخماً، كما بنى في جنوبي المدينة حصناً أتمه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ) وبنى بجوار مراكش مدينة أخرى تزخر بالبساتين والقصور والأسواق

---

(١) عباس بن إبراهيم: الأعلام ج ١ ص ٦٤.

(٢) العبر ج ٦ ص ١٨٤.

(٣) روض القرطاس ج ٢ ص ٣٩ ـ ٤١.

(٤) هدم الموحدون مسجد يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش ولم يبق من معالمها سوى سورها وخطاطيرها ودمرت المباني الأخرى وأقيم مكانها أبنية أخرى.

والفنادق، كما بنى بها جامعاً وقيسارية ذكر المؤرخون أنه لم يبن في المدن الإسلامية قيسارية أعظم منها[١].

وقد بلغت مدينة مراكش أوج ازدهارها في عهد الموحدين ثم في عهد بني مرين (٥٩١ - ٨٧٥/١١٩٥ - ١٤٧٠) ولا سيما في عهد المنصور الذهبي (٦٥٦ - ٦٨٥/١٢٥٨ - ١٢٨٦) حتى بلغت مساحتها أربعة فراسخ[٢] طولاً ومثلها عرضاً. وبلغت قصورها درجة عظيمة من الروعة والجمال[٣]، فاشتهرت ببساتينها وأعنابها وفواكهها وثمارها، وغرست فيها أشجار الزيتون ومعاصر الزيت ودهن الهرجان[٤]. وقد شيد يعقوب المنصور الموحدي ساقية تشق وسط المدينة ساق منها الماء إلى قصره، وجعل حولها سقايات يشرب منها الناس وتسقى منها الخيل والدواب، كما بنى في شرقي المدينة دار الفرج وهو مارستان المرضى الذي وصفه عبد الواحد المراكشي[٥] فقال: «ما أظن أن في الدنيا مثله».

وقد ظلت مدينة مراكش حاضرة للدولة المرابطية نحواً من ست وسبعين سنة حتى زالت هذه الدولة سنة ٥٤١هـ.

ولمدينة مراكش أهمية كبيرة من حيث موقعها الجغرافي: فهي تقع في وسط المغرب الأقصى بين الصحراء والسهول، وهي ملتقى الجبل والسهل ومجتمع العرب والبربر حتى أطلق عليها بعض أهلها خراسان المغرب، لأنه يسكنها أقوام من أجناس مختلفة يتكلمون لهجات متعددة. وهي سوق نافقة للتجارة بين العرب سكان الأراضي السهلية غرباً وشمالاً، كالرحامنة وحمير والسّراغنة ودكالة والشاوية، وبين البربر سكان الجبال شرقاً وجنوباً. فالخارج من مراكش من باب أغمات لا يسمع إلا اللغة البربرية من قبيلة مسفيوة شرقاً إلى ما وراء الأطلس الكبير ومنها جنوباً إلى بلاد السوس. وإذا خرج من باب الخميس لا يسمع إلا اللغة العربية من قبيلة الرحامة غرباً إلى سواحل المحيط الأطلسي، ومنها شمالاً إلى أقاصي قبيلة الشاوية، وكان يعبّر عن هذا الإقليم بالحوز وحاضرته مراكش، ويقابله الغرب وحاضرته فاس.

ومن الجهات الجبلية البربرية تجلب إلى السهل الزيوت والفواكه والأخشاب والجلود المدبوغة وسائر منتجات الأراضي الجبلية، ويجلب من أراضي السهول إلى الأراضي الجبلية

---

(١) عباس بن إبراهيم: الأعلام ج ١ ص ٦٣.
(٢) والفرسخ أربعة أميال.
(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٣٦٠.
(٤) ويعرف بالأرجان اليوم، وهو شجر يستخرج الزيت من حبه.
(٥) المعجب ص ٣٦٠.

الماشية والسمن والصوف وغيرها من منتجات السهول، ومما ساعد على رواج التجارة إصلاح الطرق التي تخترق الجبال وبناء القناطر التي تخترقها قوافل السيارات ليلاً ونهاراً[١].

(هـ) مدينة الرباط:

لما ولي يعقوب المنصور رأى أنه من الصعب أن يرسل النجدات من مدينة مراكش إلى الأندلس، لبعد الشُقة بينهما. لذلك فكر يعقوب المنصور وأبوه يوسف بن عبد المؤمن من قبله في بناء مدينة على ساحل البحر يستطيع أن يقضي فيها فصل الصيف مع جيوشه. وقد أشار عليه بعض رجال بلاطه بأن يتخذ مدينة سبتة معسكراً لجنده. ولكن يعقوب المنصور رأى أن إقليم سبتة يقصر عن تزويد جنده ورجال بلاطه وخدمه بما يحتاج إليه من أقوات مدة ثلاثة أو أربعة أشهر في السنة، لعدم خصوبة أرض هذا الإقليم، ولأنه لا يتسع لسكنى هؤلاء الجند والخدم ورجال البلاط. لذلك استقر الرأي على اختيار موقع الرباط. وقد بدأ يوسف البناء وأتمه ابنه يعقوب المنصور في بضعة أشهر، وذلك سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦ ـ ١١٩٧م) على أثر انتصاره في وقعة الأرك المشهورة. وقد بنيت في هذه المدينة المساجد والمدارس والقصور والدور والحوانيت.

وفي خارج سوق المدينة من ناحية الجنوب أقام يعقوب المنصور منارة تشبه منارة جامع الكتبية بمدينة مراكش،ولكنها أعظم منها، وجعل حياً خاصاً لكل جماعة من السكان، كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم. وسرعان ما ازدهرت مدينة الرباط وأصبحت من أغنى مدن القارة الإفريقية. وساعد على ذلك حسن موقعها ورواج تجارتها بسبب سكنى الجند والخدم ورجال البلاط، وكان يعقوب المنصور يقيم فيها بين شهري إبريل وسبتمبر.

على أنه يلاحظ أن ماء وادي (نهر) أبي الرقاق (بفتح الراء مع التشديد وفتح القاف) الذي يصب في البحر عند مدينة الرباط يتصف بملوحة مائه. لذلك فكر يعقوب المنصور في جلب الماء من مكان يبعد عن المدينة باثني عشر ميلاً بواسطة قنطرة حسنة البناء مقامة على أعمدة، تشبه القناطر التي كانت مستعملة في بلاد الدولة البيزنطية، ويخرج من هذه القنطرة فروع كثيرة تجلب الماء إلى جميع أحياء المدينة[٢].

ويقول المراكشي[٣] إن طول سورة مدينة الرباط (يشبه سور مدينة مراكش) بلغ في مبدأ

---

(١) أحمد بوستة: مجلة المغرب (ربيع الثاني ـ جمادى الأولى ١٣٥٥/يونيه ـ يوليه ١٩٣٦) ص ٢٣.
(٢) الحسن الوزان (ليو الإفريقي) «وصف إفريقية» (بالفرنسية) جـ ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٦.
(٣) المعجب ص ٢٦٦.

أمره نحواً من فرسخ وعرضه أقل من ذلك بكثير. وقد اتسعت رقعة المدينة، وألحقت بها أحياء كثيرة، مثل حي يعقوب المنصور وحي أجدال وغيرهما. وأصبحت الرباط حاضرة رسمية لبلاد المغرب الأقصى منذ سنة ١٩١٢.

(٢) المنشئات المعمارية

(أ) القصور:

بعد أن تم لجوهر فتح مصر ودخل مدينة الفسطاط سنة ٣٥٨هـ، عسكر في السهل الرملي الذي يقع إلى شماليها، ويحده من الشرق تلال المقطم ومن الغرب خليج أمير المؤمنين. وقد بني في هذا المكان القصر الشرقي الذي أعده جوهر لاستقبال مولاه المعز، واتخذ حول هذا القصر دوراً للجند والموظفين والأتباع. وموضع هذا القصر هو المكان الذي يقع فيه مسجد الحسين وخان الخليلي الآن. وقد بنى العزيز كثيراً من المنشئات التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده؛ فبنى «القصر الغربي» الذي يقع غربي القصر الشرقي. وكان القصر الغربي الذي بناه العزيز أصغر من قصر المعز، لذلك أطلق عليه «القصر الغربي الصغير» تمييزاً له عن «القصر الشرقي الكبير». وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريباً. وبين القصرين ميدان فسيح لعرض الجند أطلق عليه «بين القصرين».

وقد ذكر ابن دقماق أسماء أبواب القصر الشرقي الكبير: وهي باب الذهب، وتعلوه منظرة يشرف منها الخليفة في الأعياد، وباب البحر، وباب الريح، وباب الزمرد، وباب العيد، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجند في يومي العيدين وتعرف برحبة العيد وبجواره دار الضيافة، وتسمى بدار سعيد السعداء، وباب قصر الشوق، وباب الديلم، وموضعه الآن مسجد الحسين، ويقابله الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقي من القصر، وباب تربة الزعفران، وباب الزهومة؛ أعني الباب الذي يشم منه رائحة اللحم، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر[(١)].

وقد وصف ناصر خسرو حين زار مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٣٩ - ٤٤١هـ) القصر الخلافي، فذكر أنه كان به ثلاثون ألف جارية واثنا عشر بهواً وعشرة أبواب. وكان موضعه وسط القاهرة التي كان بها عشر حارات، وبلغ عدد الطبول والأبواق، وعزفت الصنوج وكون الحرس من أنفسهم دائرة، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس[(٢)]. كما وصف المقريزي هذا القصر، فذكر أنه كان به عشرة آلاف من الأشراف وثمانية آلاف من الخدم، كما

(١) ابن دقماق: الانتصار ج ٤ ص ٥٦ - ٥٧. (٢) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٢٨.

ذكر أنه كان بهذا القصر حين استولى عليه صلاح الدين الأيوبي اثنا عشر ألفاً كلهم من الإناث عدا الخليفة وأولاده، وأن هذا القصر قد جدده الخليفة الآمر في سنة ٥٢٢هـ. وكان يجلس في أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة خاصة، وألويتهـم بين أيديهم، والشموع تضيء لهم. وكانت تقام لهم الموائد وعليها ما لذ وطاب من سائر أنواع الأطعمة(١).

وكان الخلفاء الفاطميون يبنون المناظر، فبنوا بالمقس ثلاثاً منها، إحداهما تقع بين باب الذهب وباب البحر، والثانية على قوس باب الذهب، والثالثة يقال لها الزاهرة والناضرة والفاخرة. وكان الخليفة يجلس في إحدى هذه المناظر يعرض العساكر يوم غدير خُمّ، ويقف الوزير في قوس باب الذهب(٢).

وقد أنشأ الفاطميون كثيراً من المنشئات العامة كالفنادق والحمامات، وكانت كلها ملكاً خاصاً للخليفة. كما كانت الدكاكين في القاهرة كذلك ملكاً خاصاً له، يتراوح إيجار كل منها بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر. وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا باللبن، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة(٣).

(ب) الحمامات:

ومن أهم مظاهر الحياة في المدينة الإسلامية الحمام. ففي القرآن والسنة نرى النظافة الشخصية والصحة العامة أمراً أساسياً لتطهير الجسم ونظافته، حتى لقد ورد في الأثر الشريف قول الرسول الكريم: «والنظافة من الإيمان». لذلك نرى الإسلام يهتم بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك، فالسنة الشريفة تقرر على المسلم أن يستحم مرة على الأقل في الأسبوع، وعلى الأخص في يوم الجمعة. وقد اعتاد الرسول الكريم نفسه أن يستحم في عيد الفطر والأضحى، كما أثر عنه أنه أوصى المسلمين بالاستحمام في مناسبات معينة: بعد الجنابة والجماع وفي يوم الجمعة وعند الحجامة وبعد غسل الميت. كما شجع العرب على السباحة برغم عدم وجود خزانات لمياه الشرب ببلادهم واعتمادهم على مياه السيول. وكان الاستحمام بالماء الحار(٤)

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٨٤ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٠٤.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٣٢.

(٤) الحمام والحميم والحمية جميعاً: الماء الحار (والحمية أيضاً المخض إذا سخن) والحمية هو الماء الحار لغة، وجمعها حمامات، والحميم العرق، واستحم الرجل: عرق. وقولهم لمن دخل الحمام: طاب حميمك يعنون بذلك العرق أي طاب عرقك، وإذا دعوا له بطيب العرق فقد دعوا له بالصحة لأن الصحيح يطيب عرقه.

شائعاً عند العرب في صدر الإسلام، وربما أخذوه عن أهالي البلاد التي فتحوها ولا سيما في سورية ومصر. وقد رحب المسلمون بهذه العادة لأنها جزء من الطهارة التي هي باب الصلاة وشرط لكثير من العبادات. على أن بعض المسلمين قد امتنعوا أول الأمر عن دخول الحمامات التي قامت في مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التي تنم عن الكبرياء والجبروت. ومع ذلك فقد بقيت هذه التماثيل عدة قرون.

ويشبه تصميم بناء الحمام عند العرب حمامات رومة إلى حد كبير؛ فنجد في داخل الحمام غرفة رطبة الجو بها مصاطب حجرية مغطاة بحشيات أو سجاجيد لجلوس صاحب الحمام (المعلم) خلف عارضة تعلوها أقداح القهوة، ثم تأتي غرفة ثانية مدفأة لخلع الثياب والاستراحة في الشتاء، وتتوسط الغرفة الباردة وغرفة «الحرارة» التي يتصبب فيها الإنسان عرقاً، وتحاط بغرف فرعية صغيرة يجد فيها المستحم الماء الحار والبارد، وتجد فيها موظفاً يقوم بتدليك وغسل المستحم بالصابون في «الحرارة» أي في إحدى الغرف الصغيرة، وعندما يمر المستحم بالغرفة المتوسطة يظل فيها للاستراحة في الشتاء. وإذا كان الفصل صيفاً ذهب المستحم رأساً إلى الغرفة الباردة (المسلخ). وقد أولع بعض السيدات باستئجار حمام خاص بعد الظهر حيث يقمن مع قريباتهن وصديقاتهن حفلات في مناسبات الزواج أو الأعياد. وقد يستأجر الرجل حمامات خاصة في مناسبات الزواج. أما الأغنياء فيبنون حمامات خاصة بدورهم[(١)].

ويستفاد مما كتبه يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٦م) أنه كانت هناك في العصر الفاطمي حمامات خاصة بالمسلمين وأخرى باليهود وثالثة بالنصارى، وأن الخليفة الحاكم الفاطمي حرم أن يدخل أحد الحمام بدون إزار؛ ثم عاد فحرم على النساء دخول الحمامات العامة[(٢)]. وكان تجار مصر في عهد الفاطميين يجلبون العطور التي توزع على الحمامات في كل يوم جمعة، كما يوزع الطيب على قصور الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة[(٣)]. كما كانوا يستوردون العطر والند والمسك والعود والعنبر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو والكافور من ساحل زنجبار[(٤)].

وقد ذكر المقريزي أنه كان بمدينة الفسطاط ١١٧٠ حماماً، وقد روى هذا المؤلف عن ابن عبد الظاهر أن حمامات مصر (يعني الفسطاط والمعسكر وأطلال القطائع) بلغت في سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) نحو ثمانين حماماً[(٥)]. وكان الخليفة الفاطمي يخرج في العيد من باب الساباط بالقصر

---

(١) ديموبين: النظم الإسلامية، ترجمة ص ٢٢٧.
(٢) يحيى بن سعيد: صلة تاريخ أوتيخا ص ١٨٧ و٢٠٨.
(٣) المقريزي: خطط جـ١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.
(٤) ابن إياس: تاريخ مصر جـ١ ص ٦٣.
(٥) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٨٠.

الغربي الصغير إلى الميدان (وموضعه الآن الخرشنف، وينطقه العامة الخرنفش) إلى المنحر لينحر فيه الضحايا، ويعرف حمام الساباط إلى زمن المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) بحمام المارستان المنصوري، وقد خصص للنساء، ويعرف أيضاً بحمام الصنيعة. وقد بيعت في عهد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي للأمير عز الدين أيبك مع بعض الأراضي المجاورة سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) بمبلغ ١٢٠٠ دينار، ثم بيعت بعد ذلك بمبلغ ١٦٠٠ دينار[١]. وبلغ من شهرة حمامات دمياط أن وصفها المقدسي[٢] بقوله إن حماماتها كانت أجود حمامات مصر.

وذكر اليعقوبي[٣] أن حمامات بغداد بلغت ١٠,٠٠٠ وأن القسم الشرقي (الرصافة) كان به ٥,٠٠٠ حمام. وهذا القول لا يخلو من المبالغة. وقد وصف ابن جبير[٤] الذي عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حمامات بغداد في هذه العبارة فقال: «وأما حماماتها فلا تحصى عدة. ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل، وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب، ولقد انعقد. فسبحان خالق ما يشاء لا إله إلا سواه». ونقرأ في المقري[٥] شيخ مؤرخي الأندلس الإسلامية أنه كان بمدينة قرطبة ثلثمائة حمام. وبالمغرب الآن كثير من هذه الحمامات التي يعنى بها الأهالي ويؤمونها بصفة دائمة، إذ أن كثيراً من الناس لا يستحمون في منازلهم على ما هو شائع في مصر وهذه العادة ترجع إلى العصور القديمة.

(جـ) المدارس:

ولم تكن هناك مدارس خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام، بل كانوا يختلفون إلى المسجد. ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هي المدرسة البيهقيّة في نيسابور[٦]. ثم أنشأ نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي وصديق عمر الخيام المدارس النظامية المشهورة في بغداد سنة

(١) انظر ما ذكره المقريزي في الخطط جـ ٢ ص ٧٩ ـ ٨٦.
(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٠٢.
(٣) كتاب البلدان ص ٢٤٠ ـ ٢٤٩.
(٤) رحلة ابن جبير ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩.
(٦) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٦٣.

٤٥٧هـ، ثم في نيسابور وغيرها. ثم اقتدى الناس بنظام الملك فأسسوا المدارس في العراق وخراسان وما وراء النهر وفي الجزيرة وديار بكر. وقد حذا السلطان نور الدين محمود بن زنكي حذو السلطان ملكشاه حيث قام في القرن السادس للهجرة ببناء عدة مدارس للشافعية والحنفية لنشر المذهب الحنفي في دمشق وحلب وغيرهما[١]، ثم نقل صلاح الدين الأيوبي هذا النظام إلى مصر.

وكانت عمارة المدارس التي أنشأها صلاح الدين في القاهرة فتحاً جديداً في عالم البناء، فكانت المساجد إلى هذا الوقت ذات شكل واحد هو شكل الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة.

وكان صلاح الدين يعمل على مقاومة الشيعة؛ لذلك عني عناية خاصة ببناء المدارس أو المساجد المدرسية بعبارة أدق لتعليم عقائد المذهب السني. ولهذا أنفق صلاح الدين على هذه المعاهد من بيت المال. وإن الأبنية التي يعرفها الناس باسم مساجد هي في الحقيقة مدارس أو معاهد علمية؛ وهي أفخم ما كان في القاهرة من عمائر، مثل: مساجد السلطان حسن، وبرقوق، وقلاوون والناصر محمد بن قلاوون، وهي تختلف تماماً عن المساجد في شكلها وفي الغرض الذي شيدت من أجله؛ ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة، بل كانت تبنى بناء مدرسياً لكي يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية والعربية وكان لهذا أثر بعيد في تشييد المسجد وفي شكل بنائه.

وكانت المدرسة في عصر الأيوبيين عبارة عن بناء متجه إلى القبلة وفي وسطه صحن كبير مربع، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة تحتها محراب، ومن ثم لم تختلف هيئة المدارس في الجملة عن هذه المساجد، لأن المدرسة كان يقصد بها أول الأمر دراسة الدين في كل شيء، مما يدل على أن تصميم بناء المساجد قد أدخل عليه تطوير خاص بحيث أضحى عمارة مدرسية وليس عمارة خاصة بالمساجد كما كانت الحال من قبل[٢]. ويحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد. وأما الجناح الشرقي وهو أطولها فيخصص إيوانه للصلاة، وفيه المحراب والمنبر والميضأة وغيرها مما يحتاج إليه المصلون. وكانت الأروقة الأربعة تستقبل طلابها حسب المذهب: فأحدها للحنفية، والثاني للشافعية، والثالث للمالكية، والرابع للحنابلة، وكان الطلبة والعلماء يبيتون في أروقتهم الخاصة حسب توزيع

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٠٩.

(٢) ماكس هيرتز بك: لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية، تعريب علي بهجت بك ص ٣٦ - ٣٧.

مذاهب السنة. كما كانت هذه الأروقة تستعمل للدراسة والمكتبات وما إليها من شئون الدراسة[١].

وكانت السلطة في مصر أثناء غياب صلاح الدين توضع في يد ابنه أو أخيه، وكلاهما كان يرجع إلى رأي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني[٢]. وبفضل تأثيره بدأ الطلاب يفدون إلى مدارس مصر من أقصى بلاد فارس وتركستان وغيرهما، واتصلوا بالعلماء الذين جاءوا من قرطبة وإشبيلية. ومن هؤلاء «ابن فرو» الذي استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة في المشرق فجاء إلى مصر من أقصى بلاد الأندلس. ولما جلس هذا الفقيه في حلقة الدرس التف حوله جمهور من المستمعين، فقربه إليه القاضي الفاضل، وأنزله في داره وواراه التراب بعد موته في مقبرته الخاصة[٣].

وقد بنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من قبر الإمام الشافعي بالقرافة، كما بنى مدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) بجوار جامع عمر لتدريس المذهب الشافعي الذي كان يدين بعقائده، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكي عرفت باسم المدرسة القمحية[٤]. وكذلك أنشأ صلاح الدين المدرسة السيفية التي ما تزال أطلالها باقية حتى اليوم في المكان المعروف بالسيوفية بحي الخليفة في القاهرة. وأسس القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠ هـ، وكان بها مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد [٥].

وقد حذا خلفاء صلاح الدين حذوه في الاهتمام ببناء المدارس، حتى بلغ عدد المدارس التي شيدت في العصر الأيوبي ستاً وعشرين مدرسة، نذكر من بينها «دار الحديث» التي بناها السلطان الملك الكامل محمد بين القصرين، وتعرف بالمدرسة الكاملية. وبعد بضع سنين بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية. وقد أثر تأسيس هذه المدارس على الجامع الأزهر من ناحيتين:

(١) لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة المؤلف ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) وقد تقلد ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ)، وقلده صلاح الدين قضاء القضاة ثم اتخذه وزيراً له. وله طريقة كتابية معروفة في الأدب تعرف بطريقة القاضي الفاضل وهي مقتبسة من طريقة ابن العميد التي تقوم على السجع والمحسنات البديعية.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧١ - ١٧٣.

(٤) ذكر المقريزي (خطط جـ ٢ ص ٣٦٤) أن صلاح الدين وقف على هذه المدرسة قيسارية الوراقين وما يتبعها وضيعة في الفيوم. وعين بهذه المدرسة أربعة من المدرسين وزع عليهم وعلى الطلاب غلة هذه الضيعة من القمح، فعرفت هذه المدرسة بالقمحية.

(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٩. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣٦٦.

الأولى: أنه كان من المتعذر أن يساير الأزهر النظم الجديدة، حتى لقد أصبح في المرتبة الثانية من الأهمية في عهد صلاح الدين وخلفائه وذلك لأن الأزهر كان أكبر معهد شيعي يعتمد عليه الفاطميون في نشر العقائد الشيعية أولاً وفي مقاومة أهل السنّة ثانياً، فكان طبيعياً أن تتخلف شهرته في عهد الأيوبيين السنيين، وكان طبيعياً كذلك أن تكون الصدارة للمدارس الأيوبية السنية.

الثانية: كانت المناهج الدراسية في الأزهر حين استعاد مكانته في عهد المماليك تشبه نظام المدارس الجديدة أكثر مما تشبه نظام الدراسة في العصر الفاطمي. على أن الأزهر نفسه لم يلبث أن ساير الحياة الجديدة حتى أضحى فيما بعد كعبة للمذاهب السنية الأربعة، كما تطور الآن وأضحى به جامعة حديثة إلى جانب طابعه التقليدي القديم.

وكانت هذه المدارس في العهد الأيوبي تعنى بتدريس العلوم النقلية والأدب كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب، كما كانت تعنى أيضاً بتدريس العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم النجوم والفلك والرياضيات. وكان بعض العلوم كعلم النجوم والتاريخ الطبيعي والرياضيات العالية تدرس لبعض الطلاب على أيدي أساتذة أخصائيين في منازلهم الخاصة. أما الطب فقد كان يدرس في المستشفيات (١).

(٣) المنشئات الحربية

(أ) أسوار القاهرة:

أحيطت القاهرة عند انشائها بسور كبير من اللّبِن يضم الخطط التي تكونت منها هذه المدينة. وكان هذا السور بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة، وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار، على حين كان الجزء الواقع بخارجها يعرف بظاهر القاهرة، وهو عبارة عن خطط وأحياء تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل (التي بناها فيما بعد صلاح الدين الأيوبي) وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل، وتعرف الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية(٢). وكان سور هذه المدينة الغربي يبعد عن خليج أمير المؤمنين بنحو ثلاثين متراً. وفي سنة ٤٨٦هـ هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر، وكان ذلك في عهد وزارة بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي.

---

(١) Dodge, Al - Azhar (Washington D. C. 1961). pp. 40 - 41.

(٢) المقريزي: خطط جـ ١ ص ١٠٩.

وفي سنة ٤٦٥هـ بنى بدر الجمالي باب زويلة الكبير، ونقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي به الآن. كما بنى باب الفتوح في مكان آخر غير المكان الذي بنى فيه جوهر بابه. وهذه الأبواب الثلاثة من عمل ثلاثة إخوة أصلهم من الرها(١).

وكانت المناظر التي تستخدم أماكن للنزهة تستخدم في الواقع في الأغراض العسكرية، بدليل أنها كانت تبنى على مشارف الحاضرة الفاطمية أو تلال المقطم المشرفة على ما وراء الجبل وعلى الحاضرة معاً، بدليل خروج الخلفاء إليها في حالة توديع الجيوش قبل سيرها للقتال أو استقبالها عند عودتها من ميادين القتال، ويدعونا هذا الزعم الى القول بأن فكرة إنشاء المناظر كانت فكرة حربية، بدليل أن أمير الجيوش بدر الجمالي أحس بالحاجة اليها حين فكر في إعادة تحصين مدينة القاهرة وتجديد أسوارها(٢).

وليس لأحد من الحكام الذين سبقوا صلاح الدين ما له من الآثار الخالدة، فإليه يرجع الفضل في اتساع مدينة القاهرة وتنسيق هندستها التي كانت تفخر بها إلى عهد قريب: فالقلعة وهي أبرز معالمها من إنشائه، والمدرسة التي بناها هي أكثر عمائرها ذيوعاً وشهرة، وكل هذه التطورات قد تمت بفضل توجيهاته، وكان بعض هذه الآثار من أجل الدفاع عن البلاط وبعضها من أجل الدين. فأما الأعمال الدفاعية فقد تجلت في إنشاء القلعة والسور وجسر النيل، وكلها من الأعمال الدفاعية، التي لم يُسبق إليها، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواح ملكية، كل يبعد عن سابقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، حتى إن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والموظفين.

أما صلاح الدين فكان أول من وضع تصميماً شاملاً لحاضرة عظيمة، إذ أنه بدلاً من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة لدولته كما فعل أسلافه، أخذ يوحّد جميع الأحياء الآهلة بالسكان ويحيطها بسور عظيم وقلعة منيعة. لذلك نرى صلاح الدين يجمع

---

(١) وقد ذكرنا في كتابنا تاريخ الدولة الفاطمية (ص ٥٣٤) أن جوهراً لما اختط مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب هي بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح - ويتكون بابا زويلة من بابين متجاورين، أحدهما القوس الذي كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام، ولهذا سمي باب القوس، وقد مر منه الخليفة الفاطمي المعز عند قدومه من بلاد المغرب، فكان الناس يمرون منه تبركاً، أما الباب الثاني فقد تشاءم منه الناس وهجروه (القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص٣٥٢. المقريزي: خطط جـ١ ص ٣٨١).

(٢) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

شتات المباني المبعثرة في الأطراف ويضم ميناء المقس إلى مدينة القاهرة. وقد أراد صلاح الدين أن يكون السور من الحجارة وأن يكون امتداد سور بدر الدين الجمالي وزير المستنصر الفاطمي حتى ميناء المقس غرباً وجبل المقطم جنوباً، ومن هناك يمتد إلى النيل ليضم بقايا مدينة الفسطاط. غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط، لأن صلاح الدين كان منشغلاً بحروبه مع الصليبيين. وقد جمع أعوانه في القاهرة الأموال والرجال الذين يحتاج اليهم في حروبه والذين يقومون ببناء ما تقضي به الضرورة من المباني. وكل ما تم هو مد سور بدر الجمالي في الشمال من الخليج الى النيل حيث أقيمت أبراج المقس المحصنة؛ أما من الجهة الشرقية فقد مد السور الفاطمي جنوباً إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة. غير أن موت صلاح الدين حال دون إتمام هذا العمل الهندسي قبل أن يتم ضم الأسوار. أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدىء بعد في بنائها. ولا تزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن. ومن الممكن أن يقارن رجال الفن المعماري بين الأبراج الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما تشتمل عليه من أبراج ومنافذ للمراقبة.

ونلاحظ هذه المميزات المعمارية في السور الشرقي الذي يفصل مدينة القاهرة عن قرافة قايتباي، ثم يظهر مرة أخرى طراز جديد عند باب الوزير[١]، إذ أن جانباً من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية - بما في ذلك برج الظافر - يتوغل في الصحراء، مما يدل على أن المدينة قد انكمشت في هذا المكان إلى حدودها التي كانت عليها في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وفي الحق أن أسوار صلاح الدين لم تكن إلا امتداداً لأسوار بدر الجمالي[٢].

(ب) قلعة الجبل:

وقد عمل صلاح الدين الأيوبي على ضم الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة بعضها إلى بعض، وبنى قلعة الجبل، وشرع في بناء سور حول مدينتي القاهرة والفسطاط يبلغ طوله خمسة وعشرين كيلومتراً ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار، ويتراوح ارتفاعه بين تسعة أو عشرة أمتار. وقد بني وجه السور من الحجر المنحوت، تتخلله الأبراج في جهات مختلفة. وقد استدعى هذا العمل الإنشائي هدم الأماكن الواقعة بين مصر القديمة ومشهد السيدة نفيسة حيث غرست البساتين وأنشئت المنتزهات محلها.

(١) انظر مذكرات «فان برشم» (١٩١١) ص ٥٥، ٦٨ - ٧٠.
(٢) لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة المؤلف ص ١٥٩ - ١٦٠.

وربما كان بناء القلعة فكرة جديدة استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى في القصور الفاطمية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشيعة.

وقد بنى صلاح الدين هذه القلعة الحصينة على سفح جبل المقطم على ارتفاع مائتين وخمسين قدماً عن سفح البحر في المكان الذي كان يعرف في بقية الهواء التي بناها حاتم بن هرثمة في القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي). وقد عرفت هذه القلعة باسم قلعة صلاح الدين، وعرفت فيما بعد باسم قلعة الجبل تمييزاً لها عن الروضة. وفي سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) عهد صلاح الدين ببناء قلعة الجبل إلى بهاء الدين قراقوش[1]، لتكون مركزاً للحكومة وثكنات للجند، وتم بناؤها سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) في عهد الملك الكامل ابن الملك العادل الأيوبي.

ويحيط بهذه القلعة سور من الحجر له أبراج، ولها بابان: أحدهما مواجه لمدينة القاهرة ويسمى الباب المدرَّج، ويطلق على الباب الثاني باب القرافة. وبين هذين البابين مكان متسع يوصِّل إلى دهاليز، على يسرة الداخل منها باب يصل إلى جامع فسيح الأرجاء مرتفع البناء مبلط بالرخام، وسقوفه مبطنة بصفائح الذهب، وفي وسطه قبة تليها مقصورة يصلي فيها السلطان الجمعة والعيدين، وتحف الأروقة بصحن الجامع من جميع جهاته. وبصدر هذه الدهاليز مصطبة على جانبها ممر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير. وهو مرتفع البناء، به أقنية متسعة وعمد ضخمة. وبصدر هذا الباب سرير الملك، وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام، يجلس عليه السلطان في الأيام التي يستقبل فيها سفراء الملوك. وإلى يمين

---

(١) معنى قراقوش بالتركية «طائر أسود». وقد قام بإنشاء عدة أبنية عبرت معالم القاهرة، مثل قلعة الجبل وقناطر الجيزة وسور القاهرة، ولما فتح صلاح الدين عكا سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) عين بهاء الدين والياً عليها في السنة التالية. وقد أسر بهاء الدين حين استولى الفرنجة عليها سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م)، لكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير، ثم عاش في القاهرة حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م).

انظر عبد اللطيف البغدادي (طبعة دي ساسي ص ١٧١، ١٧٢، ٢٠٧، ٢١٣) وابن الأثير (طبعة القاهرة) ص ١٤٨، ١٤٩، وابن شداد: مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين جـ٣ ص ١٢٠، ١٣٥، ١٧٦، ١٨٣، ٢٣١، ٢٣٩، ٣٠٤، ٣١٧، ٣٥٥، ٣٥٦، وابن خلكان جـ١ ص ٥٤٣، ٥٤٤، جـ٢ ص ٥٠٢، ٥٢٦.

وينبغي ألا تخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمني الذي خدم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب. وكانت حياته عبارة عن سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤمرات ومذابح نهب وسلب. وبذلك ألقت أعماله في قلوب الناس الهلع الذي لا تزال ذكراه باقية إلى اليوم.

Derenbourg, Vie d'Ousama, p. 450, note 4.

هذا الإيوان ساحة كبيرة بها القصر الأبلق الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية. وقد بني بالحجر الأبيض والأسود، ولهذا سمي القصر الأبلق لأن لونه خليط من البياض والسواد. وفي هذا القصر إيوان يطل على الإصطبلات السلطانية.

وقد عني سلاطين المماليك بتربية مماليكهم وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب في طباق قلعة الجبل التي شاهدها تقي الدين المقريزي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م)، وهي عبارة عن ثكنات الجيش المملوكي. وقد بلغ عدد هذه الطباق اثنتي عشرة طبقة تشبه كل طبقة منها الحارة اليوم. وتشتمل على عدة مساكن، وتسع كل طبقة نحو ألف مملوك.

وقد أصبحت قلعة الجبل منذ بنائها مقراً لدور الحكومة. وهي حصينة، تشتمل على كثير من «الطباق» والقصور والميادين والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات والإصطبلات. وبها دار الوزارة وديوان الإنشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة، والدور السلطانية والجب والأبراج التي كان يحبس فيها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان.

وكان لقلعة الجبل حاكم يطلق عليه «نائب القلعة» أو «والي القلعة»، ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير الذي خصص لخروج الجند ودخولهم. ويتفقد نائب القلعة أسوارها ومنافذها ويعمل على إصلاح مبانيها. وكان يصدر بتعيينه مرسوم سلطاني أسوة بنواب قلاع دمشق وحلب وصفد (بفتح الصاد والفاء) والكرك (بفتح الكاف والراء) وغيرها من قلاع بلاد الشام وفلسطين التي كانت تابعة لمصر في ذلك العصر.

وقد أورد ابن فضل الله العمري المؤرخ المصري المشهور نص اليمين التي كانت تؤخذ على نائب القلعة عند تقليده أعباء منصبه. وإليك طرفاً من هذه الوثيقة التاريخية الهامة: «وإنني أجمع رجال القلعة على طاعة مولانا السلطان وخدمته في حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها والذب عنها والمدافعة عنها بكل أنواع ما فيها من الأقوات والأسلحة، وإنني لا أخرج شيئاً منها إلا في أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتعين فيها تفريق الأقوات والسلاح على قدر ما تدعو الحاجة إليها».

وكذلك اتخذ سلاطين المماليك قلعة الجبل مركزاً للبريد، وخاصة حمام الزاجل الذي يقوم مقام البريد الجوي اليوم. وكان لهذا النوع من البريد محطات في مصر والبلاد التابعة لها تتصل بالمركز الرئيسي في القلعة.

وعلى الرغم من ارتفاع قلعة الجبل حُفر بها بئر مملوءة بالماء العذب منقوبة في الحجر. وقد

حفرها بهاء الدين قراقوش. وهي من أعجب الآبار، وفي أسفلها سواق تنقل الماء إلى وسطها ثم إلى أعلاها[١].

وقد نقش على باب القلعة هذه العبارة التاريخية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، والمجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة[٢] التي جمعت نفعاً وتحصيناً واسعاً، على من التجأ إلى ظل ملكه، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المكي الناصري، في سنة تسع وسبعين وخمسمائة».

وقد زار الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م)، وشاهد العمل في بناء قلعة الجبل يجري على قدم وساق، فقال: «وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويُمدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة. والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته[٣] ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار، لعلوج الأسارى[٤] من الروم، وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم. وللسلطان أيضاً بمواضع أخر بنيان، والأعلاج يخدمون فيه، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مُرَفه[٥] عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد[٦]».

وقد أجريت بالقلعة تعديلات كثيرة، وعمل على توسيعها كثير من سلاطين المماليك، وقام محمد علي ببعض هذه التعديلات، حتى إنه لم يبق حينذاك من المساجد أو القصور التي بنيت في عصر صلاح الدين شيء، وبئر يوسف التي يعتقد الناس أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك. كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلي،

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٧٠ - ٣٧٢. المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٤.

(٢) العرمة (بضم العين وسكون الراء) سواد مختلط ببياض. العرمة (بفتح العين والراء والميم) مجتمع الرمل وأرض صلبة.

(٣) يقصد الأعمال التي يقوم بها العمال والصناع.

(٤) في الأصل العلوج الأسارى ويقصد الآثار التي قام بها الأسارى من الروم.

(٥) في الأصل موفة بالواو وهو يقصد مرفه بالراء، أي أن المسلمين أعلى من أن يعملوا في هذه الأعمال الممتهنة.

(٦) رحلة ابن جبير (طبعة عبد الحميد أحمد صفي) ص ٤١ - ٤٢.

وقد بني الباب الذي يؤدي إلى الرملية في أواسط القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من ذلك كله، لم تزل هناك أجزاء البناء الأصلي بخلاف البئر المشهورة باسم بئر السبع سقايات التي حضرها قراقوش، يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدماً. وهناك أيضاً أجزاء من السور الذي بناه صلاح الدين. ويرجع تاريخ بناء بعض الممرات الداخلية إلى وقت بناء القلعة. ومما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التي تحمي جانباً من السور، وانعدام الممرات الداخلية، والحجرات والفتحات في الجزء الأسفل من الأسوار، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى، يكشف لنا عن أن هندسة البناء الأصلي أقرب إلى الطراز السوري العربي منه إلى الطراز البيزنطي[١].

(٣) جسر الجيزة:

وآخر الأعمال الإنسانية التي ترجع إلى عهد صلاح الدين جسر الجيزة الذي شيد على الضفة الغربية للنيل. وقد وصفه ابن جبير في هذه العبارة فقال: «من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين، القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر، وعلى مقدار سبعة أميال منها، بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، وهي نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسي القناطر. والقنطرة متصلة بالصحراء التي تفضي منها إلى الإسكندرية. له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة، إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع ملوك العساكر بسببه، فأعد ذلك مسلكاً في كل وقت إن احتيج إلى ذلك. والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحدود عنه. ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية. والله أعلم بغيبه ولا إله سواه»[٢].

وقد تناول المقريزي[٣] الكلام على قناطر الجيزة فقال: «إن القناطر الموجودة اليوم في الجيزة من الأبنية العجيبة ومن أعمال الجبارين. هي ونيف وأربعون قنطرة، عمرها الأمير قراقوش الأسدي، وكان على العمائر في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التي كانت بالجيزة وأخذ حجرها، فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل. وكان خصياً رومياً سامي الهمة، وهو صاحب الأحكام المشهورة

---

(١) لينبول: سيرة القاهرة (ترجمة)، ص ١٦٣.
(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٣.
(٣) خطط جـ ٢ ص ١٥١.

والحكايات المذكورة، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش في أحكام قراقوش. وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده، فسدها رجاء أن يحبس الماء، فقويت عليها جرية الماء، فزلزلت منها ثلاث قناطر، وانشقت، ومع ذلك فما روى ما رجا (أي ما يحب) أن يروى. وفي سنة ثمان وسبعمائة، رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها، فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها، فحصل النفع بها. وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفاً من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر[1]».

وليس هناك شك في أن الغرض من بناء الجسر، هو الدفاع عن البلاد، فلم ينس صلاح الدين قصة غزوات الفاطميين العديدة من ليبيا، حيث أنه لم يكن هناك ما يصدهم عن الوصول إلى النيل، ولهذا اتخذ الحيطة لدرء مثل هذا العدوان. ويذكر ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين.

ولما تقلد محمد علي ولاية مصر سنة ١٨٠٥م أصلح قلعة الجبل وبنى بها مسجده الذي يعرف باسم مسجد محمد علي، ويعد آية من آيات الفن، كما بنى بقلعة الجبل قصر الجوهرة وقصر العدل وثكنات الجند، وديوان النظار ودار سك النقود، واتخذها مقراً لولايته[2].

(٤) المنشئات الدينية: المساجد

(أ) الجامع الأزهر:

لما تم لجوهر فتح مصر سنة ٣٥٨هـ لم ير أن يفاجىء السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمي حتى لا يثير كراهة المصريين. لذلك وضع جوهر أساس الجامع الأزهر في ١٤ رمضان سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، وتم بناؤه في سنتين تقريباً، وأقيمت الصلاة فيه في ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ[3].

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً، عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها. أما المقصورة التي بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض في صفوف متوازية. وفي سنة ١١٦٧هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا أحد ولاة الأتراك العثمانيين مقصورة ثانية بها خمسون

---

(١) لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة المؤلف ص ١٦١ ـ ١٦٣.

(٢) Lane - Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 201, 309, 354.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٦٤. المقريزي خطط جـ٢ ص ٢٧٣.

عموداً من الرخام. وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بلغ عدد أعمدتها مائة وستة وعشرون عموداً. وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً. وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد. وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع، وهما متلاصقتان، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء.

وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف، مرصوف بالحجر، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين. ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل.

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن «القبلة القديمة»؛ ثم أقيمت فيه تسعة محاريب أخرى، ولم يبق منها سوى ستة محاريبَ أشهرها اثنان: أحدهما بالمقصورة القديمة والآخر بالمقصورة الجديدة، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي.

وللجامع الأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع. وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم.

وأنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم.

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي، ومهنته التنبيه على أوقات الصلاة. وكانت تعرف عن طريق المزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر، وكانت مساجد القاهرة تتبع مؤذني الأزهر.

وأهم خصائص الأزهر أنه وإن بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون. ففي سنة ٣٧٨هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية. وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة لطلاب العلم. وقد عمل العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن، مما يسهل عليهم طلب العلم. وقد بنى الخليفة العزيز بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر، وقد أجرى على هؤلاء الأرزاق وأغدق عليهم وزيره ابن كلس الصلات.

ثم زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا إليه الهبات الجليلة.

وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء، قيل إن عددهم بلغ خمسة وثلاثين كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر.

وقد نقل إلى جامعي راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلاً، خص الأزهر منها بتنورين وسبعة وعشرين قنديلاً، وكان في محراب الأزهر منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب جامع عمرو، فاقتلعهما صلاح الدين كما اقتلع غيرهما من المناطق في كافة المساجد (٥٦٩/١١٧٣)، بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين[١].

وقد تعاقبت الزيادات على بناء الأزهر، وزيد في العين الموقوفة عليه عاماً بعد عام، فتحول هذا الجامع من مسجد تقام فيه الصلوات إلى جامعة علمية تدرس فيها العلوم بصفة عامة والعلوم الدينية بصفة خاصة.

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز، فاستغنى بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف. وفي سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) بنى الخليفة الآمر في الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفراً[١].

وكان للأزهر في العصر الفاطمي موارد أخرى غير الأحباس تشمل الأعطيات ومال النجوى[٢] الذي يؤديه المستمعون للمحاضرات التي تلقى بمجالس الدعوة. وكان بعض هذا المال ينفق على الدعاة وبعضه الآخر يخصص للجامع الأزهر ليوزع على من يحتاجون إليه من الطلاب الذين كان لهم أيضاً نصيب من الصدقات النوعية والمالية التي يمنحها بعض الأمراء والكبراء لهم. ولم تنقطع هذه الموارد عن الأزهر طوال العصر الفاطمي، بل لقد توالت الأرزاق والأعطيات الثابتة لأساتذته وطلابه[٣].

ظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفاء الفاطميين، حتى تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة في عهد الخليفة العاضد، فوجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي مذهب الفاطميين، فأنشأ

---

(١) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

(٢) المقريزي: خطط جـ١ ص ٣٩٦.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٥ - ٥٣٧.

المدرسة الناصرية لتدريس المذهب الشافعي الذي كان صلاح الدين يدين بعقائده، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي.

وقد عزل صلاح الدين قضاة الشيعة، وأسند قضاء مصر إلى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي المذهب، فأناب قضاة من الشافعية في كل أنحاء البلاد، واستعاد المذهب السني بهذا قوته وأخذ المذهب الإسماعيلي في الضعف حتى زال ولم يبق له في مصر أنصار[١].

(ب) مساجد العصر الفاطمي الأخير:

ومن المساجد التي بنيت في العصر الفاطمي الأخير «الجامع الأقمر» الذي بناه الخليفة الآمر الفاطمي سنة ١٩٥هـ ووقف عليه الأوقاف ورتب له المؤذنين والخطباء. وقد جدده الأمير «يَلبغى» سنة ٧٩٩هـ (١٣٦٦ - ١٣٦٧م). ولعل أبدع ما في هذا المسجد واجهته الغنية بأنواع الزخرفة، كما أن بها حنايا تنتهي بطاقيات وعقود ومقرنصات، وقد بنيت العقود على الطراز الفارسي، وتقوم على عمد من الرخام، وسقف الجامع مغطى بقبوات صغيرة[٢].

ومن مساجد الفاطميين في هذا العصر جامع الصالح الذي بناه الصالح طلائع بن رزيك (بضم الراء وكسر الزاي مع التشديد). وقد أراد أن يتخذه مدفناً له، وبنى فيه صهريجاً كبيراً تملؤه ساقية. وقد أقيم على خليج القاهرة الذي يطلق عليه خليج أمير المؤمنين. وقد تهدم في الزلزال الذي حدث بمصر سنة ٧٠٢هـ، فعمره الأمير سيف الدين الجوكندار وأصلح ما تهدم منه. ولهذا الجامع أربع وجهات مشيدة بالحجر. وكانت أرضيته عند تأسيسه ترتفع عن مستوى الطريق الذي بجانبه. ويقع باب المسجد الرئيسي بواجهته الغربية، وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ويحمل عقوداً حليت حافاتها بالزخارف الجميلة. ولهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة إيوانات، وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار[٣].

ومن منشئات الفاطميين في إقليم أسوان مأذنة بدر الجمالي في إسنا، وترجع إلى سنة ٤٧٤/١٠٨١ - ١٠٨٢، وذلك في عهد الخليفة المستنصر. كما نجد مأذنة جامع الحجاج في الأقصر. وقد بني هذا الجامع على أرض تمثل ثلاث ديانات: الوثنية والمسيحية والإسلام. ففي أسفل هذه الأرض نجد معبداً وثنياً يرجع إلى العهد الفرعوني في الدولة الحديثة التي تنتظم

(١) انظر حسن إبراهيم حسن في كتاب سجل الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٧.
(٢) المقريزي خطط جـ٢ ص ٢٩٠. زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٦٤.
(٣) المقريزي: خطط جـ٢ ص ٢٩٣. زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٦٥.

الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وقد تحول جزء من هذا المعبد بعد ظهور المسيحية إلى كنيسة. ويعلو جزءاً من البناء الفرعوني بسجد بني في أواخر العصر الفاطمي، هـو مسجد الحجاج الذي تزوج من سيدة مسيحية غنية أسلمت ووقفت جميع أملاكها على أعمال الخير.

كما نجد على مقربة من شلال أسوان منارة المسجد القبلي والمسجد البحري وعليهما نقوش كوفية، وهما مبنيان بالآجر. وتنسب هذه الأبنية إلى بدر الجمالي وزير المستنصر. وقد أمر بدر ببناء هذه الأبنية على أثر انتصاره على النوبيين. ونجد في ثكنات خفر السواحل بأسوان مأذنة قديمة ضاعت قبلتها، ويحيط بأعلى هذه المأذنة نقوش كوفية[١].

(جـ) جامع القرويين بفاس:

وصف الحسن الوزان مدينة فاس وصفاً شائقاً فقال إنها كانت في أيامه تشتمل على سبعمائة مسجد، منها خمسون مسجداً فخمة البناء عظيمة الزخرفة تحمل سقوفها على أعمدة من الرخام. وهذه المساجد مفروشة بحصر جميلة تغطي الأرض كلها، كما غطيت حيطانها بحصر بقدر ارتفاع قامة الرجل. وبكل مسجد منارة يصعد إليها المؤذن في أوقات الصلاة. ولكل مسجد من مساجد فاس صهريج من الرخام.

ومن هذه المساجد جامع القرويين، ومساحته نحو ميل ونصف باعتبار إضافة أبنية الطلاب الملحقة به وله ثلاثة عشر باباً[٢] ضخمة البناء. ويبلغ طول الجزء المسقوف من المسجد مائة وخمسون ذراعاً، ولا يقل عرضه عن ثمانين ذراعاً. ومنارة الجامع شاهقة وسقفه يحمل طولاً على ثمانية وثلاثين قوساً وعرضه على عشرين قوساً. وتحيط بالجامع من الشرق والغرب والشمال أروقة ذات أقواس، عرض كل منها ثلاثون ذراعاً وطوله أربعون ذراعاً، وفي أسفلها خزائن يودع فيها الزيت والمصابيح والحصر وغيرها. ويوقد في الجامع في كل ليلة تسعمائة مصباح، على كل قوس منها مصباح.

وفوق الأقواس التي تشق وسط الجامع قبالة المحراب مائة وخمسون مصباحاً. وهناك ثريات من النحاس تسع ألفاً وخمسمائة مصباح اتخذت من نواقيس نقلها بعض ملوك فاس من كنائس النصارى. وحول حيطان الجامع كراسي منصوبة مختلفة الأشكال يجلس عليها العلماء المدرسون الذين يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم، ويبدءون دروسهم قبل طلوع الشمس

(١) انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

(٢) ذكر الحسن الوزان (الترجمة الفرنسية) ٣١ باباً. وفي الواقع فإنه لا يوجد اليوم غير ١٤ باباً، مما يرجح أن رقم ٣١ هو مقلوب رقم ١٣. ويظهر أن عدد الأبواب قد زاد باباً واحداً بعد العصر الذي عاش فيه الوزان.

بساعة وينتهون في الساعة الواحدة بعد الزوال. وفي الصيف يبدءون في الساعة الثامنة مساء وينتهون في الساعة الواحدة والنصف صباحاً، ويقومون بتدريس العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية، ويتقاضون رواتب عالية فوق ما يصرف لهم من الكتب والشمع للقراءة ليلاً.

(د) مسجد الكُتْبية بمراكش:

امتاز الفن الموحدي على الفن المرابطي. وكان المهدي محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية يعتبر الفن نوعاً من اللهو. ومن هنا قاوم الموسيقى والغناء والنقش والزخرفة. وكان المغاربة يدركون مذهب الدولة الجديدة وميولها الدينية، حتى إن أهل مدينة فاس طمسوا معالم الأبنية الجميلة المزخرفة ليخفوها عن نظر عبد المؤمن وهو بمدينة فاس. على أن عبد المؤمن لم يلبث أن تجاوز عن زخرفة المنشئات في عهده. ولعل ذلك بعد مشاهدته معالم الحضارة والفن الأندلسي فمال إلى اقتباس هذه الحضارة الرفيعة بالمغرب. وقد زاد هذا الفن ازدهاراً في عهد ابنه أبي يعقوب يوسف الذي اشتهر بالأدب. وكان يتطلع إلى بلاد الأندلس ويعطف عليها، لأنه قضى فيها شطراً من حياته نائباً لأبيه قبل أن يلي الخلافة(١).

على أن الفن الموحدي قد بلغ غايته في عهد يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن. وإن ما نشاهده من آثار الموحدين ليدل دلالة واضحة على ما بلغه الموحدون من رقي فني وحضاري رفيع ولا سيما في عهد يعقوب المنصور. والطابع الفني العام الذي يتسم به فن الهندسة المعمارية في عهد الموحدين لا يرتكز في أساسه على الفسيفساء والزخرفة الدقيقة والخطوط الهندسية الجميلة التي امتاز بها الفن في عهد المرينيين، ذلك الفن الذي يمثل أجمل وأرقّ ما بلغه الذوق المغربي الذي اقتبس من الفن الأندلسي. على أن سمة الموحدين لم تكن في فنهم بقدر ما كانت في رقي أدبهم وقوة جيشهم وضخامة أسطولهم وشموخ أبنيتهم.

وكانت الأبنية الموحدية تعتمد كثيراً على الجير الذي يكوّن ثلث مواد البناء والذي هو نتيجة لميلهم إلى اللون الأبيض. ومما يمتاز به الفن الموحدي بناء الحصون والأبراج، يدل على ذلك أنهم بنوا في مدينة الرباط وحدها أربعة وسبعين برجاً. ويمتاز الفن المعماري الموحدي بإدخال عناصر «الميكانيكا» أو علم الحيل كما سماه المغاربة. ولعل ذلك هو السبب الذي جعل هذه الآثار تحتفظ بمناعتها وتثبت على صروف الحدثان أكثر من ثمانية قرون.

وقد ظهرت في هذا العصر في جميع أنحاء المغرب حضارة مزدهرة مؤتلفة القسمات أثرت في الدولة المرينية التي أعقبت الموحدين بالمغرب الأقصى؛ واستعمل الموحدون أساليب قائمة على

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس جـ٢ ص ١٧٦.

علم الحيل أو الهندسة المعمارية التي تعتمد على الدراسة[١].

ومما هو جدير بالملاحظة أن الموحدين اقتبسوا فنهم من الأندلس ومن القيروان، ذلك الفن الذي يمثل الفن المشرقي الذي تأثر في العصور السالفة بحضارة العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة.

ويتميز جامع الكتبية[٢] بمراكش بأساطينه وصحونه وأقواسه المقرنصة وبجمال قبابه وارتفاع سقوفه وامتداد أروقته[٣]. وقد اقتبست هندسة بناء جامع الكتبية من الفن الأندلسي، كما يلاحظ هذا في أساطينه وفي الأعمدة الأربعة التي يعلوها قوس المحراب.

أما منبر الجامع فقد بلغ حداً كبيراً من الإبداع. ويرجع بناء هذا الجامع إلى عهد عبد المؤمن[٤] ويرى تيراس Terrasse أن هذا المنبر أجمل منبر في المغرب بل إنه أروع منبر في العالم الإسلامي كافة. وما برح هذا المنبر التاريخي ماثلاً للعيان؛ بيد أن بعض أطرافه قد بدا عليها القدم. ويعتبر جامع الكتبية الثاني من نوعه في عهد الموحدين، أما الكتبية الأولى فقد أسست في إشبيلية في عهد يوسف بن عبد المؤمن، ثم أتم بناءها ابنه يعقوب المنصور، وما زال هذا الجامع إلى الآن من أهم آثار المسلمين في الأندلس.

وتعتبر منارة جامع الكتبية التي بناها يعقوب المنصور من أجمل الآثار التي خلفها الموحدون. وتتألف هذه المنارة من طبقات من الغرف المقوسة السقوف أو الحنايا، يصل بينها درج (بفتح الدال والراء) لا مرقاة بها. ويلاحظ هذا الأسلوب في البناء في مرصد «الخالدة» في إشبيلية وفي منارة حسان بالرباط. وجدران هذه المنارة مطلي بالجص الأصفر. وهذا النوع منتشر في أبنية مدينة مراكش إلى اليوم، ويوصّل هذا الدرج إلى الجزء الأعلى من منارة جامع الكتبية. وهذه النقوش الدقيقة قد صممت على شكل الأزهار وسعف النخل. وتعلو القاعة السادسة قبة مثمنة الشكل ذات أضلاع ومقرنصات تكون مجموعة هندسية بديعة.

وقد أكد «نبراس» وباسي Bassé أن الكتبية أروع مسجد بناه الموحدون في المغرب وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة.

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله: مجلة البينة (الرباط) العدد التاسع ص ٧٤.

(٢) وقد قيل إنه سمي الكتبية لأن باعة الكتب كانوا يحيطون به عند تأسيسه أو لأن الموحدين أنشئوا به مكتبة حوت كثيراً من الكتب في مختلف العلوم والفنون.

(٣) La Pensée (Rabat), No. 51 Mars, 1963, p. 31.

(٤) نفس الحاشية.

(هـ) مسجد ومنارة حسان:

يقع مسجد حسان في الشمال الشرقي من مدينة الرباط على أرض منحدرة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين متراً عن سطح البحر. وقد يكون اسم هذا المسجد مستمداً من قبيلة تسمى بهذا الاسم تقيم بإقليم الرباط (وهم بنو حسان). ويرى ابن أبي زرع أن يعقـوب المنصور الموحدي فرغ من بناء مسجد حسان سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧م). وقد قيل إن سبعمائة من أسرى الحرب المسيحيين عملوا في بناء منارة المسجد.

وتعد هذه المنارة من أروع كبريات المنارات الموحدية. وقد بنيت بعد منارة الكتبية بمراكش ومنارة «الخالدة» بإشبيلية. وقد تناول الحسن الوزان (ليو الإفريقي)[١] الكلام على هذه المنارة فقال: إنها جديدة عريضة بحيث يستطيع ثلاثة من الفرسان الصعود إليها جنباً إلى جنب. ومن فوق هذه المنارة يستطيع المرء أن يشاهد السفن على بعد عشرين فرسخاً[٢] (أي ثمانين ميلاً). ولم يكن الغرض الذي بنيت هذه المنارة من أجله دينياً فحسب بل إن ذلك كان راجعاً إلى أغراض حربية، بحيث يستطاع مراقبة السفن التي قد تهاجم مدينة الرباط أو سلا (بفتح السين) بوساطة هذه المنارة التي يبلغ ارتفاعها أربعة وستين متراً، والتي يتجلى فيها الفن المغربي بصورة عامة والفن الموحدي بصفة خاصة.

وفي السنة التي انتصر فيها يعقوب المنصور على نصارى الأندلس في موقعة «الأرك» المشهورة، أكمل بناء الجامع الأعظم بمدينة إشبيلية، وشيد به منارة عظيمة قيل إنه ليس في بلاد الإسلام منارة أعظم منها. ولما أتم يعقوب المنصور جامع إشبيلية ومنارته أمر ببناء حصن البرج على وادي إشبيلية.

ويذكر ابن صاحب الصلاة[٣] أن جامع إشبيلية بني في عهد يوسف بن عبد المؤمن، وأن ابنه يعقوب المنصور أتم بناءه وأقام فيه الصلاة، ثم أتم بناء منارة جامع حسان التي تعرف الآن باسم صومعة حسان، «فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف (يعقوب المنصـور) أمر العامل الذي ولي بإشبيلية... محمد بن أبي مروان الغرناطي ببناء الصومعة المذكورة، وإمضاء أمر أبيه في بنائها والجد في عملها. فابتدأ في بنائها (حيث) بناها «العريف» بالحجر المسمى بالطجون[٤] العادي المنقول من سور قصر ابن عباد».

---

(١) Description de L'Afrique, tome 1, pp. 164 - 195.

(٢) La Pensée No 4 pp.71,93.

(٣) كتاب المن بالإمامة، مخطوط بخزانة الرباط رقم ٣٣٧ ورقة ١.

(٤) الطجن (بفتح الطاء مع التشديد وإسكان الجيم) القلو. والإناء الذي يقلى فيه يسمى الطاجن. ومن هنا كانت حجارة الطجن هي الطوب المحروق المعروف بالآجر. ويسمى طجنا في لغة الأندلسيين=

الباب الثاني عشر
الحالة الاجتماعية

١ ـ طبقات الشعب

(أ) في عهد العباسيين:

يتألف المجتمع الإسلامي عادة من الخاصة، وهم أصحاب الخليفة من ذوي قرباه، ومن رجال الدولة البارزين كالأشراف والوزراء والقواد والكتاب والقضاة والعلماء والأدباء، وكان لهؤلاء باب خاص يدخلون منه لمقابلة الخليفة أطلق عليه «باب الخاصة». كما جعل لهم مطابخ خاصة وإسطبلات خاصة.

ويقابل الخاصة: العامة، وهم السواد الأعظم من الناس ولهم مرافق خاصة بهم كباب العامة ومطابخ العامة. وتنتظم هذه الطبقة أهل الحرف والصنائع والتجار والفلاحين والجند والرقيق. ويقال لهم العامة والدهماء والغوغاء. وهم في العادة أقل ثقافة ودراية بأمور دينهم حتى ولو كانوا من ذوي اليسار كطبقة التجار.

وقد ذكر ابن الجوزي[١] أن عامة بغداد كانوا يؤلفون خليطاً من العرب والفرس والترك والنبط والأرمن والجركس والأكراد والكرج والبربر، ولو أن تسمية هؤلاء جميعاً بالعرب قد غلبت عليهم لانصهارهم في بوتقة الشعب العربي وسيادة اللغة العربية التي كانت هي اللغة الأصلية للوطن العباسي.

وقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول كان يتألف من العرب، ومن الفرس، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية، وقد قويت شوكتهم في عهد المأمون لأن أمه كانت منهم. كما كان هذا المجتمع يتألف من الأتراك، وخاصة في عهد المعتصم الذي كانت أمه تركية. وقد اتخذ الترك حرساً له

= والمغاربة القدماء.

(١) المنتظم جـ ٩ ص ٢٢٨.

وأسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس، وأصبح هؤلاء الأتراك فيما بعد خطراً على حياة الخلفاء الذين استعانوا بالمغاربة والفراعنة (ويقصد بهم المصريون) وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين استعانت بهم الدولة في عهد الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ). ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين ينتسب إليهم بنو بويه.

وقد أصبح الحنابلة السنيون قوة يخشى بأسها، ولم تنقطع المنازعات بين السنيين والشيعيين. ويذكر لنا المؤرخون أن الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة عملوا على إحلال الوئام بين أبناء الطائفتين. وقد ذكر ابن الأثير(١) أن السلطان محمد بن ملكشاه الثاني السلجوقي (٤٩٨ ـ ٥١١هـ) لما قتل صدقة بن مَزْيد أمير الحلة، وكان يدين بعقائد المذهب الشيعي، ساورت الشيعيين المخاوف من ناحية السنيين وكادت تقع الفتن بينهم. وقد اتفق أن احتفل السنيون في شهر رمضان سنة ٥٠٢هـ بزيارة قبر مصعب بن الزبير، فلم يعترضهم الشيعيون الذين خرجوا ليلة النصف من شعبان لزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم، فلم يعترضهم السنيون، وهكذا أدخل الله سبحانه وتعالى السكينة إلى قلوب هؤلاء وأولئك.

ومن طبقات المجتمع الرقيق الذين كانوا يكونون طبقة كبيرة من أسرى الحروب، ومنهم الرقيق الصقلي والرومي والزنجي والتركي، ولهم ببغداد شارع خاص أطلق عليه شارع دار الرقيق(٢)، وموضع آخر سمي باب النخاسين. وكان الخدم والرقيق رجالاً ونساء يقومون بخدمة الخليفة وحاشيته في دار الخلافة ويقومون بخدمة الناس. ولم يترك لنا المؤرخون شيئاً ذا غناء عن الخدم الأحرار. وكان الرقيق يؤلفون الأغلبية الساحقة من طبقة الخدم، وهم الجواري والرقيق والخصيان.

وقد جلب أغلب الرقيق في العصر السلجوقي من بلاد ما وراء النهر على أيدي النخاسين الذين اتخذوا من تجارة الرقيق صناعة لهم(٣). وكانت مصر وشمالي إفريقيا وشمالي بلاد العرب من أهم أسواق الرقيق. كما جلب إلى العراق كثير من الزنجيات ومن الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور.

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان، بدليل أن أغلبهم من أمهات أولاد(٤). وكان بعض الخلفاء من أم رومية أو أرمنية أو تركية، وكان بعضهم يشتري الجارية لجمال منظرها أو لعذوبة صوتها أو علو ذكائها وجودة شعرها. ومن أصناف الجواري، الهنديات

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ١٧٧.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ٤.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة أبي ريدة.

(٤) وكان بعض الخلفاء من أبناء العربيات.

والسنديات والمكيات والمدنيات والطائفيات والنوبيات والزنجيات والحبشيات والتركيات والديلميات والأرمنيات والعراقيات.

وقد شاع استخدام الخصيان في المجتمع العراقي لحماية الحريم، ولذلك راجت تجارتهم وارتفعت أثمانهم[1].

ومن طبقات المجتمع أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، وكانوا يتمتعون بكثير من سياسة التسامح الديني ويقيمون شعائرهم في أمن وطمأنينة. وكان كثير من الخلفاء يحضرون مواكبهم ويشتركون في الاحتفال بأعيادهم ويزورون أديرتهم في مناسبات معينة ويغدقون عليهم الهبات والعطايا. وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب «ملك»، ويطلق على رئيس اليهود ببغداد «رأس الجالوت».

كما كان المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الثاني يتألف من المغاربة والفراعنة (ويقصد بهم المصريون كما تقدم) والأكراد. وتتمثل هذه العناصر في أجناس الجند حيث نرى بينهم العربي والكردي والخراساني والتركي أو السلجوقي (ويؤلفون أغلبية الجند) والديلمي والرومي والأرمني والعراقي.

(ب) في عهد الفاطميين والأيوبيين:

وكان المجتمع المصري في عهد الفاطميين (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ) يتألف من السنيين الذين كانوا يؤلفون الأغلبية الساحقة من المصريين، ومن الشيعيين وخاصة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب أولاً، ثم في مصر والشام والحجاز، إذ كانوا يؤلفون الجيش الفاطمي. ولم تخمد جذوة العداء بين السنيين والشيعيين طوال العصر الفاطمي.

والطبقة الثالثة هي طبقة أهل الذمة، وهم النصارى واليهود. وقد دفعت رغبة كثير منهم في المناصب والهبات إلى اعتناق الإسلام والدخول في المذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين. وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية، فشغلوا كثيراً من المناصب المالية في الدولة، بل تقلدوا الوزارة وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني، وسمح لهم ببناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه.

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية وظهر أمرهم في مصر في عهد الخليفة الحاكم الفاطمي.

---

(١) انظر بدري محمد فهد: العامة في بغداد، رسالة ماجستير ص ٣ وما يليها.

والطبقة الخامسة هي طبقة السودانيين الذين كثر عددهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيدي وظهر أمرهم منذ أيام الخليفة الحاكم الذي استعان بهم على الأتراك، ثم ظهر أمرهم من جديد في عهد الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية. وقد تفاقم خطر الجند السودانيين في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي حتى بلغ عددهم خمسين ألفاً. وقد طاردهم الأتراك إلى صعيد مصر، وأثار الفالة منهم الرعب في قلوب الأهلين وحالوا دون زراعة الأراضي، واكتسحوا دلتا النيل حتى وصلوا إلى الإسكندرية، ولكنهم ظلوا يكونون طبقة هامة من طبقات المجتمع الفاطمي. ثم جاء الأيوبيون فأكثروا من المماليك، فقد أثر عن السلطان نجم الدين أيوب أن عدد الرقيق بلغ في عهده اثني عشر ألفاً كانوا نواة دولة المماليك البحرية، واشتهر كثير منهم بالفروسية والفقه وتقلدوا المناصب العالية[1].

ولننتقل الآن إلى الكلام على المجتمع الإسلامي في المغرب.

(جـ) في المغرب:

كان المغاربة في عهد المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١هـ) يدينون بالإسلام في بساطته وسماحته، وكان مجتمعهم في أيام يوسف بن تاشفين ومن جاء بعده من المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين يتألف من عنصري البربر والعرب. وكان هذا المجتمع في عهد الموحدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧هـ) يتألف من جماعات مختلفة وأجناس متباينة. فهناك قبائل العرب من زغبة وهلال ورياح تنحدر إلى المغرب ثم تمتزج بالمغاربة امتزاجاً قوياً، ولا سيما في عهد عبد المؤمن وأبي يعقوب المنصور. ثم انضوت هذه القبائل العربية تحت لواء الجيش الموحدي وقاتلت إلى جانب المغاربة نصارى الأندلس وغيرهم، وقد ساعد وفود هذه القبائل العربية النازحة، ولا سيما بني هلال وبني سُلَيْم، على بلاد المغرب عن طريق مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على تعريب قبائل البربر[2].

وهناك عناصر الأكراد والجراكسة الذين بعث بهم صلاح الدين الأيوبي لقتال يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ ـ ٥٩٥)، الذي استطاع أن يستميلهم إليه ويستخدمهم في الجيش الموحدي.

وكان لهذا التمازج البربري العربي أثر بعيد في نشر المذهب الموحدي المهدوي وفيما أحرزه المسلمون من انتصارات، كما كان له أثر بعيد في الحياة المغربية.

---

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢١ ـ ٦٢٦ وكتابي النظم الإسلامية ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) يقال إن هذه القبائل وزعت على الجهات المختلفة بسبب إغاراتهم وتعدياتهم.

وكان بالمغرب طبقة تمثل أهل الحرف والصناعات، وهي تعطينا صورة واضحة عما كان عليه المجتمع المغربي في العصر الوسيط. ويتمثل ذلك في وصف الحسن الوزان عند كلامه على مدينة فاس حيث يقول إنه كان يسوق الحقائب أمين خاص يختار من مهرة هذه الحرفة. وكان صانعو الحقائب يجمعون ما يحصلون عليه من نقود في صندوق له مفاتيح عدة، يحتفظ كل رئيس فرقة بالمفتاح الخاص بفرقته. وإذا انتهى الأسبوع اقتسم العمال النقود التي جمعوها، وقد كونوا بذلك جمعية تعاونية. وإذا مات أحد العمال تعهد رفاقه بالإنفاق على زوجته وولده الصغير، وزوجوا أرملته إذا شاءت، وتولوا تنشئة الأطفال حتى يبلغوا السن التي تسمح لهم بممارسة المهنة. وإذا تزوج أحد الصناع أو ولد له ولد، دعا جميع زملائه إلى وليمة وقدم له كل منهم هدية. وقد أعفى الملوك صناع الجلود من أداء أية ضريبة، كما كانوا لا يؤدون أية نقود لأصحاب الأفران عن صنع خبزهم. وكان لهم لباس قصير في وقت العمل، وإذا فرغوا من أعمالهم ارتدوا ما شاءوا من الملابس، وكانوا على جانب عظيم من الاستقامة وحسن الخلق[١].

(د) في الأندلس:

وفي بلاد الأندلس أصبح المجتمع الإسلامي يتألف من عدة طبقات تتفاوت في الحقوق والاعتبار. وكان هذا المجتمع يتألف من العرب الذين قاموا بدور هام في تاريخ هذه البلاد. ولكن قيام العصبية بينهم قد أتاح الفرصة لمسيحيي الشمال لشن غاراتهم على المسلمين حتى استردوا بلادهم نهائياً في سنة ١٤٩٢، وفر من نجا من المسلمين إلى شمالي القارة الإفريقية.

ومن العناصر التي تألف منها المجتمع الإسلامي في الأندلس: البربر الذين تحملوا أكثر أعباء الفتح ولكنهم خرجوا على أمرائهم واحتلوا الأماكن الهامة في البلاد. ومن هؤلاء أسرة ذي النون بطليطلة التي أسست لها دولة بالأندلس[٢]. وحذا حذوهم ملوك الطوائف كابن عباد في إشبيلية وابن الأفطس في بطليوس وابن أبي عامر في بلنسية وابن هود في سرقسطة ومجاهد العامري بدانية الجزائر.

وكان مسيحيو الأندلس فريقين: فريق تمسك بدينه القديم، وفريق عرف باسم المستعربين، وقد تمتعوا بقسط وافر من التسامح الديني. وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى «الكونت»، ولهم ممثلون في البلاط، وقاض ومحكمة استئنافية برياسة الكونت. وكان كثير منهم يعينون في أرقى المناصب المدنية والحربية، وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر.

(١) الحسن الوزان: وصف أفريقيا جـ ١ ص ١٩٥.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٣٣.

كذلك سمح العرب لليهود الذين رزحوا تحت حكم القوط بمزاولة التجارة وبحرية الملكية، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة(١). كما تمتعوا بكثير من التسامح الديني، وأسند إليهم كثير من مناصب الدولة، وأضحت قرطبة مركزاً للدراسات العبرية. وقد ذكر الإدريسي(٢) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة كان أهلها أكثر غنى من بني جلدتهم في سائر البلاد الإسلامية.

وقد نال الرقيق كثيراً من الحقوق المدنية فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج للدولة.

ومن أهم طبقات المجتمع في الأندلس: الصقالبة، وكانوا يجلبون من أسرى الحروب أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوروبية أو من سواحل البحر الأبيض المغربية. وقد ذكر المقري(٣) أن عدد الصقالبة بقصر الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بلغ ٣,٧٥٠، واستخدم المنصور بن أبي عامر الحاجب الصقالبة في جيشه.

ولا ننسى طبقة الفقهاء الذين اشتد نفوذهم بالأندلس منذ أيام الدولة الأموية، ولكن نفوذهم قد اشتد في عهد المرابطين الذين يرجع الفضل في تأسيس دولتهم إلى الفقيه المالكي عبدالله بن ياسين. وها هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني(٤) يقول عن الفقهاء في عهده:

أهلَ الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقسمتمو الأموال بابن القاسم

٢ ـ مجالس الغناء والطرب

كان للغناء قواعد متبعة ومدارس معروفة، حتى لقد وضعت مؤلفات كثيرة في الغناء والموسيقى. وحسبنا أن نُنَوِّه بكتاب الأغاني الذي وضعه أبو الفرج الأصفهاني في المغنين والمغنيات، وتبع ذلك التعرض للأدب والأدباء(٥). وكان العامة يحفلون بهذه المجالس

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١. سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٢١٦.
(٢) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥.
(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٩٦.
(٤) من أدباء مدينة جيان بالأندلس.
(٥) فارمر: تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة حسين نصار (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

ويطربون لها للترويح عن مشاغل الحياة ومتاعبها[١].

ويبدو أن الموسيقى لم تلق إقبال الناس في العصر العباسي الثاني. ويعلل «فارمر»[٢] ذلك إلى مناهضة فقهاء الحنابلة لأسباب اللهو واللعب عامة، ومن بينها الموسيقى. وقد تبع ذلك إهمال المؤلفين لتدوين الموسيقى والغناء، فلم نجد مؤلفين للموسيقى كأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، حتى تصل إلينا أخبار المغنين والمغنيات في هذا العصر الذي سيطر عليه الفقهاء ولا سيما العلماء الحنابلة.

ومما يدل على عدم تقدير هذا الفن في هذا الزمن أن بعض الفقهاء كانوا لا يقبلون شهادة المغني والرقاص. غير أن بعض العلماء أجاز لنفسه حضور مجالس الغناء، كما كانت العامة تحضر في العادة مجالس الغناء والتسلية بما يجري في مجالسه من رقص وتمثيليات يُقصد بها الفكاهة.

والرقص كالغناء من حيث أصالته في المجتمع العراقي. وقد اخترعت له آلات خاصة مثل «الكرْج» وهي تماثيل خيل مُسرجة من الخيش معلقة بأطراف أقبية تلبسها الجواري، ويركبن بها الخيل، فيحدثن أصواتاً عند الكر والفر. وكان الراقصون والراقصات يعرضون فنونهم أمام الجماهير في الولائم والأعياد وأوقات الفراغ ومجالس اللهو. وقد انتقلت هذه العادات من بغداد إلى غيرها من المدن والقرى[٣].

وهناك نوع آخر من الفن ظهر في كنف الغناء والرقص وهو العزف. ولم يكن العازفون من الرجال فقط، بل اشتركت فيه النساء كذلك. وكان العازف يلقب باسم آلته، فيقال: الطبال والصناج والعواد، والزامر والطنبوري[٤]. وكانت الآلات الموسيقية المعروفة حينئذ هي: الدف والناي والعود والطبل والطنبور، ومنه الطنبور الميزاني والبغدادي. وهنالك أيضاً المعزفة والمزمار والشهروز والرباب والجرافة والجنك والقضيب والسرناي.

ويبدو أن الرذيلة قد تفشت في العراق في القرن الخامس الهجري لضعف الحكم، فانتشر شرب الخمر وكثرت المواخير والحانات وظهرت موجة انحلال خلقي بين المغنيات في عهد

---

(١) ومن هذه المؤلفات أيضاً كتاب الأدوار في معرفة النغم والأدوار لصفي الدين عبد المؤمن (ت ٦٩٣/١٢٩٤).

(٢) تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة ص ٢٤٩ ـ ٢٦٠.

(٣) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦١) ص ٧٦٦.

(٤) الأزدي: حكاية أبي القاسم البغدادي (هيدلبرج ١٩٠٢) ص ٥٠. الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ١٣٦.

الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧هـ)، وقام بعض الصالحين في وجه محاربة هذا التيار، وأنكروا تفشي الخمور، ويذكر ابن الأثير[١] أن شخصاً أتلف آلة الغناء التي تستعملها إحدى المغنيات كانت تصطحب جندياً من السلاجقة الأتراك، فاجتمعت العامة بزعامة علماء الدين واستغاثوا بالخليفة القائم طالبين إليه أن يأمر بهدم المواخير والحانات وتعطيلها. ويظهر أن الخليفة الذي لم يعد له من الأمر شيء اكتفى بأن وعد بعرض الأمر على السلطان السلجوقي.

وقد ذكر ابن الأثير[٢] أن الخليفة المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) أمر بنفي المغنيات والمفسدات من النساء من بغداد، وخرب أبراج الحمام ومنع اللعب بها صيانة لحرم الناس؛ كما منع دخول الناس الحمامات إلا إذا لبسوا مئزراً، ومنع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين، مما جعل الناس يمتدحونه ويطرون خلافته ويعدونه من أحسن الخلفاء العباسيين.

ذكر المقريزي[٣] أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ و٤٠١هـ قوانين تحرم اجتماعات اللهو والطرب على شواطىء خليج القاهرة، كما حرم فتح الأبواب والنوافذ التي تطل على هذه الشواطىء. وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات. ويقول ابن خلكان[٤] إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولي الخلافة الظاهر ابن الحاكم سنة ٤١١هـ. وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر العراق نحواً من سنة، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين:

يـا بَـنِي الـعـبـاسَ صُـدُّوا مَـلَكَ الأمـرَ مَـعَـدُّ
مـلكُـكُـم كـان مُـعَـارًا والـعـواري تُـسْـتَـرَدُّ

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً بمدينة القاهرة لا تزال إلى اليوم تعرف باسم أرض الطبالة.

وقد ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن تأثير زرياب على المجتمع القرطبي كان عميقاً في الموسيقى والغناء وفي الطعام وآداب المائدة، فقد علم زرياب أهل قرطبة أرقى أنواع الطهي البغدادي، وأذاع فيهم أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة، فكانوا يبدءون بالحساء، ثم يقدمون اللحوم والطيور وينتهون بالحلوى، واستبدل زرياب مفارش المائدة من الكتان بأخرى مصنوعة من الجلد الرقيق، وأظهر لهم أن الكؤوس المصنوعة من الزجاج الثمين أكثر انسجاماً

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٣٨.
(٢) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٨٥ - ٨٦.
(٣) خطط جـ ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٧.

مع منظر المائدة من الأكواب الذهبية أو الفضية.

ومن مآثر زرياب أنه فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل، واستعمل معجون الأسنان، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعورهم في وسط الرأس بدلاً من أن يتركوا خصلات الشعر تتدلى فوق جبينهم وتغطي أصداغهم، كما كانوا يعقصونه (يلوونه) حول شعورهم، وأن يظهروا الحاجبين والأذنين، ويلبسوا ملابس بيضاء من أول يونيه إلى نهاية سبتمبر. كما علمهم زرياب أن الربيع هو موسم الملابس الحريرية الخفيفة، والقمصان ذات الألوان الزاهية، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة.

وبتأثير زرياب تغير البلاط الأموي والمجتمع القرطبي بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسي، حتى في أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم[١].

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة

لم تنل دور العامة في البلاد الإسلامية عناية المؤرخين والرحالة بل إنهم اقتصروا على وصف قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة. وقد اقتصرت دور العامة على سكنى أصحابها غالباً، وكانوا يؤجرونها كلها أو بعضها. وكان الزهاد والمتصوفة يتخذون من المساجد مساكن أو يلجئون إلى سكنى الأكواخ[٢]. وكانت دور العامة تبنى غالباً من طابق واحد، وقد تبنى من طابقين[٣].

أما مواد البناء فكانت الجص والآجر والكلْس والنورة (الجير). وكانت السقوف تتخذ من جذوع النخل أو أغصان الأشجار[٤].

وللدار مرافق صحية كالحمام والبئر وغيرهما. وللأغنياء مرافق صحية خاصة لا يستعملها الخدم. ونرى عادة في بيت العامة رحى للطحين وتنوراً للطبخ وشجرة أمام المنزل وكلباً للحراسة.

وكان بعض العامة يزينون دورهم ويؤثثونها بأثاث يتمشى مع حالتهم الاجتماعية، ويفرشون الأرض بالحصير الشائع الاستعمال بالعراق. ويفرش أهل اليسار الزرابي ويستعملون

---

(١) ليفي بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية عن مخطوط المؤرخ الأندلسي أحمد بن محمد الرازي ـ منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية ص ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ٨ ص ٢٨٦.

(٣) ابن الجوزي: الأذكياء ص ٦٠.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٥٥.

الوسائد والستائر، ويضيئون دورهم بالمسارج والقناديل أو الشموع. وهذا يعلل لنا إغلاق الحوانيت بعد مغيب الشمس، فتنقطع الحركة التجارية في الشوارع والطرقات.

وكانت قاعة الذهب التي ينعقد فيها مجلس الملك في عهد الفاطميين مؤثثة أثاثاً فخماً، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب، وفي صدر هذه القاعة حَشِيّة عليها عرش الخليفة المحجوب بستور، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس رفعت الستور.

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذي بناه الخليفة الآمر في جزيرة الروضة[١] لزوجته الطائية، وقد بنى لها الخليفة هذا القصر بطريقة لا تجعلها تشعر بالانتقال من حياة البادية، وكان له حديقة رحبة ممتدة على شاطىء النيل[٢].

وكان الوزراء يعيشون عيشة قوامها الترف والإسراف وحب الظهور كما يعيش الخلفاء. فقد وجد في قصر الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الذي أطلق عليه «دار الملك» ٦,٤٠٠,٠٠٠ ديناراً من الذهب، وسبعمائة طبق من الفضة والذهب، وكثير من الصحاف والأباريق والأواني المستعملة في اللبن (الزبادي). وهناك أيضاً كثير من البرَاني[٣] الصيني الكبيرة المملوءة بالجواهر[٤].

وقد وصف ابن مُيَسَّر[٥] مجلس شراب الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي فقال إنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات، منهن أربعة بيض مصنوعة من الكافور، وأربعة أخرى سود مصنوعة من العنبر. وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلي، ويمسكن بأيديهن أثمن الأحجار الكريمة.

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس نكست تلك التماثيل رؤوسها إجلالاً له، فإذا أخذ مكانه في صدر المجلس استوت قائمة. ويظهر أن هذه التماثيل كانت تتحرك بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه[٦].

وقد ذكر ابن الأثير[٧] أن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب بعد أن استولى على

---

(١) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ١٠٩، ١١٤، ١١٦.
(٢) المقريزي خطط جـ ١ ص ٤٨٥.
(٣) جمع برنية وتسمى المحلبية وهي إناء مدور من الخزف.
(٤) ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٠٠.
(٥) تاريخ مصر ص ٥٧.
(٦) انظر كتابي: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧.
(٧) الكامل جـ ١٠ ص ٥٧.

غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين (بضم الباء واللام وكسر الكاف مع التشديد) وأخرجه منها رأى في قصوره من الأموال والذخائر ما لم يملكه ملك قبله بالأندلس. ومما وجد عنده سبحة فيها أربعمائة جوهرة قومت كل جوهرة منها بمائة دينار، إلى غير ذلك من النفائس الثمينة والثياب وغيرها.

٤ ـ الطعام:

اهتم العباسيون بالطعام وتفننوا في طهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على موائدهم. وقد عني العباسيون بوضع المؤلفات التي تصف الطعام وطريقة تقديمه. وممن ألف في هذا الباب: محمد بن الحسن بن عبد الكريم الكاتب البغدادي الذي ألف كتابه «الطبيخ» في سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م). ويصف لنا هذا الكتاب الطعام في عصر المؤلف وفيما سبقه من العصور العباسية.

وقد قسم هذا المؤلف الطعام على أساس طبقات المجتمع في عصره، فذكر طعام طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء[١] والطعام الشعبي.

ويتألف طعام الأغنياء من الدجاج، وكانت الدجاجة تسلق وتقطّع ثم تُعَرّق بالشيرج[٢] المضاف إليه الكزبرة والمستكة والدار الصيني. ويعتبر الدجاج أساس المائدة؛ ولذلك كان سعره مرتفعاً. ولهم في طهي الدجاج طرائق مختلفة حسب رغبة الآكلين[٣].

ومن ألوان الطعام المضيرة[٤]، فيقطع اللحم السمين مع الإلية ويوضع في قدر ثم يضاف إليه ماء وملح، ثم يغلى. فإذا قارب النضج أضيف البصل والكراث والكمون والمستكة والدار صيني، فإذا نضج وجف ماؤه ولم يبق سوى الدهن غرف في إناء، وأضيف إليه اللبن والليمون والنعناع، ثم ترك على النار حتى يغلي قليلاً، وأضيف إليه التوابل، ثم مسح جوانب القدر وترك وغطي حتى يهدأ.

ومن ألوان الطعام أيضاً: السكباج[٥]. وطريقة طهيه أن يقطع اللحم السمين ويوضع في قدر، ثم يضاف إليه الكزبرة الخضراء والدار صيني والملح، ويظل على النار حتى يغلي. ثم

---

(١) ويدخل في هذه الطبقة طبقة المتصوفة والزهاد الذين يكتفون بالقليل من الطعام ولا سيما من الخبز الجاف والملح أو الأدم القليل.

(٢) وهو زيت السمسم.

(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ١٠٠.

(٤) بفتح الميم وكسر الضاد بعدها ياء. انظر البغدادي: كتاب الطبيخ ص ٢٣.

(٥) بكسر السين المشددة.

يضاف إليه الكزبرة اليابسة وتنحى الكزبرة الخضراء من القدر، ثم يضاف إليه البصل والكراث والجزر أو الباذنجان.

وهناك ألوان أخرى من أطعمة الأغنياء، نذكر من بينها المشهيات كالسلاطة والحصرمية والسكسكية والعدسية والمهلبية.

وتتألف الأطعمة الشعبية من اللحم والخبز والدبس والخل والسمك، ومنه المشوي والمقلي والمطبوخ. وكان المحتسب يشرف على باعة السمك بصفة خاصة لئلا يخلطوا السمك الطازج بالسمك الفاسد.

وقد اعتاد أهل العراق عدم شرب الماء بعد أكل السمك كما كانوا لا يشربون اللبن بعده ولا يأكلون البيض أو اللحم إذ يعتبرون ذلك ضاراً بالصحة.

ومن الأكلات الشعبية الباقلاء، والهريسة وهي نوع من الحلوى تباع في الأسواق في الصباح. وهي من الأنواع القديمة بالعراق، فتطبخ في البيوت أو تباع في الأسواق. ومن الأكلات الشعبية أيضاً العصيدة والثريد، وتعمل العصيدة من التمر ويضاف إليه السكر والعسل[١]. ويعمل الثريد من المرق واللحم وقد يضاف إليه الحمص، ويؤكل في الغداء والعشاء. ومن الأكلات الشعبية أيضاً الأرز، ويؤكل مع اللبن أو السمن، والسكر ويقدم مع غيره من الأطعمة.

ومن الأكلات الشعبية الكباب وهو اللحم المقطع إلى شرائح، وتشوى الآن من اللحم المفروم. والكباب من الأكلات المتوفرة والرخيصة إلى اليوم، وهو من الأكلات المفضلة عند الشعب العراقي. كذلك يذكر من بين الأكلات الشعبية الرؤوس والأكارع، وتباع في الأسواق مطبوخة ونيئة[٢]. ويزيد في قيمة الطعام ما يضاف إليه من المسك والعنبر والعود والزعفران والقرنفل والكبابة (الصيني) والفواكه اليابسة كالجوز واللوز والفستق والبندق والعنب والزبيب والتمر والتفاح والرمان والموز وغيرها[٣].

وكان السلطان ألب أرسلان السلجوقي باراً بالناس يطبخ بمطبخه كل يوم خمسون رأساً من الغنم للفقراء، ما عدا المال الذي خصص لسماط الخاصة والعامة والعسكر والأمراء وغيرهم[٤].

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٣٩٥.
(٢) ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين ص ٣٤.
(٣) بدري محمد بدر: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ـ رسالة ماجستير مخطوطة ص ٨٣ وما يليها.
(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥.

وقد ذكر المؤرخون والرحالة أن الفاطميين والأيوبيين في مصر اهتموا بتربية الحيوانات وخاصة البقر وبتربية الجاموس وتفريخ الدجاج وتربيته. وكانت مصر في رغد من العيش، فزرعت فيها الحنطة والذرة والأرز والقمح والشعير والفول والحمص والعدس والبصل والثوم واللفت والسلجم (وهو نوع من اللفت) والقلقاس والباذنجان واللوبيا والكراويا. كما غمرت الأسواق بالفواكه على اختلافها كالكروم والتين والتفاح والخوخ والمشمش والموز والتمور والتوت واللوز. وكانت هذه الأسواق تزخر بالأطعمة كالدجاج والأوز والزبيب والسمك والحمام وسائر اللحوم(١). وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية، ويستقبل الشعب المصري هذه المواسم بمظاهر البهجة إلا يوم عاشوراء الذي كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر حيث يرتلون الأناشيد الحزينة في رثاء الإمام الحسين(٢).

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام، فأدخل بقلة الهليون المساة عندهم الأسفراج وزاد في الأطعمة لوناً أطلقوا عليه «النقايا»، ويصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب، ولوناً من التقلية أطلقوا عليه تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في مرق كثير الأفاويه والتوابل. كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد). وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه.

ويتميز المغرب بألوان خاصة من الطعام «كالكفتة» التي تطهى بالزيت ويضاف إليها كمية كبيرة من التوابل وتصنع على شكل كور كبيرة الحجم، وتصنع من لحم البقر الخالي من الشحم. وقد ذكر الحسن الوزان أنه كان بمدينة فاس سوق يباع فيه الخبز المقلي بالزيت، ويشبه الخبز الصغير، ويحلى بالعسل، ويتناول الناس هذا الخبز مع طعام الإفطار ولا سيما في أيام الأعياد، وتؤكل هذه الفطائر مع اللحم المشوي أو مع العسل أو مع الحريرة. ويلاحظ أن أهل فاس لا يزالون حتى اليوم يحتفظون بهذه العادة ويتناولون هذه الفطائر في الصباح ولا سيما مع رؤوس الغنم المشوية. وللأديب الأزموري الفاسي المولد والنشأة قصيدة طويلة في الأطعمة يذكر فيها رؤوس الغنم المشوية.

---

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٨ ـ ٣٨٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢٤٢.

وطريقة طهي الحريرة هي أن يدق اللحم ثم يطبخ ثم يدق من جديد، ويدخل في صنع الحريرة وتضاف إليها كمية من التوابل والمرق والبقول، وفي فاس وغيرها من المدن المغربية يشوى اللحم في السفافيد، ويبنى كانونان أحدهما فوق الآخر، وتوقد النار في الكانون الأسفل، وعندما يحمى الكانون العلوي يوضع الحمل كاملاً من فوهة في أعلا الكانون حتى لا تحترق الأيدي. وهكذا يتم شواء اللحم ويأخذ لوناً جميلاً ونكهة لطيفة، لأن الدخان لا يصل إلى اللحم وإنما يصل إليه اللهب المشتعل، ويستمر شوي اللحم على نار ضعيفة طول الليل، وفي الصباح يبدأ بيع هذا اللحم في الأسواق، حيث يباع فيها كذلك اللحم المقلي والسمك المقلي، وهناك حوانيت الأكارع.

أما سوق الجزارين فقد كانت المواشي قبل أن تحمل إلى الحوانيت تعرض على أمين الجزارين لفحص اللحم والتأكد من سلامته من الأمراض، ثم تسلم لحاملها ورقة يحدد فيها ثمن البيع بحيث يستطيع كل شخص أن يراها ويقرأ الثمن الذي يباع به اللحم. وهكذا سبق المسلمون بالمغرب غيرهم من الأمم إلى تحديد أسعار السلع، ثم نقل عنهم الأوروبيون هذا النوع من المعاملات.

وفي سوق الأسماك يبيع الصيادون أنفسهم ما يصطادونه من السمك بأسعار بخسة. وكان من عاداتهم أن يصطادوا سمكاً ممتازاً هو «الشايل» الكبير الجيد الطري، ويسمى «لاكا» بالإيطالية وبالفرنسية «لالوز»، ويبدأ صيده من الأنهار خلال فصل الربيع. وقد ذكره المقري في رسالة المفاخرة بين سلا ومالقة فقال عند كلامه على مدينة سلا: «وكفى بالشايل لحماً طرياً».

وكان لأهل المدن المغربية ولا سيما أهل فاس ولع بتربية الدجاج، وكانوا يعنون بنظافة دورهم ويحفظون الدجاج في أقفاص كبيرة.

ويزخر سوق الزياتين بزيت الزيتون والزبد والعسل والجبن الطازج والليمون والجزر واللفت والفول الطري وغيرها، ويشرف المحتسب وأعوانه على جميع السلع المستهلكة.

٥ ـ الملابس:

كان للخاصة في العصر العباسي الثاني ملابس رسمية تميزهم، أما ملابس العامة فكانت تختلف باختلاف حياتهم الاجتماعية، فكان أغنياؤهم يعنون بملابسهم أكثر من فقرائهم. ويعرف الزهاد والمتصوفة بملابسهم الصوفية الخشنة.

والملابس ثلاثة أنواع: ملابس للرأس، وملابس للبدن، وملابس للأرجل والقدمين بالإضافة إلى الحلى.

فملابس الرأس هي العمامة التي تميز الرجل. وقد أخذ العرب العمامة عن آبائهم منذ أيام الجاهلية وورثها المجتمع العراقي في القرن الخامس الهجري، فكان لا يجوز خلع العمامة وكشف الرأس إلا في مناسك الحج. وكانت العمامة السوداء تلبس في الاحتفالات والمواسم وعند مقابلة الخليفة لأن السواد كان شعار العباسيين الرسمي.

أما ملابس البدن فكانت تختلف باختلاف طبقات الناس، فالزهاد يلبسون الملابس الخشنة أو الممزقة، والفقراء يلبسون المدرعة (بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء)، وهي نوع من الجباب وتكون عادة من الصوف. وكان عمال الحمامات يلبسون التبان (بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وهي سراويل صغيرة تستر العورة. ويلبس الفلاحون الملابس الغليظة المصنوعة من القطن. ويلبس الأغنياء الملابس الحريرية والإبريسمية وهي نوع من الحرير. وكان الناس يلبسون في أرجلهم الجوارب وفي أقدامهم النعال[١].

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز النسيج. وقد بلغ نظام الطراز الذي يصنع بدار الكسوة مبلغاً عظيماً من الرقي كما تقدم. كما اشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية. وكان يصنع بدار الكسوة كسى مختلفة يصلح كل منها في مناسبة معينة، كالاحتفال بآخر رمضان وبالعيدين، والجلوس إلى السماط في أول أيام العيد. وكانت هذه الملابس موشاة بخيوط الذهب والفضة، حتى لقد بلغ ثمن بعض الكسي خمسمائة دينار وثمن المنديل خمسة دنانير. كما كانت الحلل المزركشة بالذهب تقدم إلى الوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة في أول رمضان وفي الاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه، وفي عيد الفطر والأضحى وفي الاحتفال بوفاء النيل وغيرها يمنحون في هذه المناسبة حللاً حريرية أو مزركشة بالذهب[٢].

٦ ـ المرأة:

كانت المرأة في العصر العباسي لا تختلط بالرجال الغرباء، فإذا أقيمت الحفلات لجأت إلى غرفة خاصة بالنساء أو طلعت فوق سطح منزلها لرؤية الحفل وحدها أو مع بعض زميلاتها. وكان المجتمع البغدادي لا يسمح للرجل بأن ينظر إلى جيرانه من نافذة، ومن تعمد كشف

---

(١) بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (رسالة مخطوطة) ص ١١٧ وما يليها.

(٢) المقريزي: خطط جـ١ ص ٤٠٩ ـ ٤١١.

عورات الناس كان جزاؤه من السلطات الحاكمة الجزاء الصارم. وكان المحتسب لا يسمح باختلاط الرجل بالمرأة في الطرقات العامة ولو كانا زوجين(١). وعلى ذلك فقد كانت المرأة تحضر مجالس الوعظ في المساجد(٢). وهذا يدل على مشاركتها للرجل في إقامة الشعائر الدينية وفي ميدان العلم والثقافة. على أن هذا لم يمنع من اختلاط الرجل بالمرأة في الأسواق وعلى شواطىء الأنهار وفي زيارة القبور وفي قضاء المصالح بالدواوين الحكومية(٣).

وقد تمتعت المرأة في العصر السلجوقي بقسط وافر من الحرية. وكان لبعض نساء هذا العصر تأثير عظيم على الخلفاء والسلاطين، حتى إنهن تدخلن في شئون الدولة. ونذكر على سبيل المثال «تركان خاتون» زوجة السلطان ملكشاه التي اشتهرت بذكائها ودهائها، واتسع نفوذها حتى إنها استطاعت تحت تأثير طموحها الشخصي أن تحمل الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧) على تقليد ابنها الصغير محمود السلطنة. ولم يكن بد من أن يلبي الخليفة طلبها بمعاضدة وزيرها تاج الملك وتأييد جعفر ابن الخليفة وابن «ماه مالك» أخت السلطان ملكشاه وغيره من رجال الدولة. وبذلك تحقق طموح تركان خاتون وتقلد ابنها محمود دون أخيه الأكبر بركياروق ابن زبيدة(٤). وقد أدى هذا العمل إلى انقسام البيت السلجوقي على نفسه، فدبرت المؤامرات واشتعلت الحروب وطمع بعض أعضاء البيت السلجوقي في السلطنة(٥).

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد، فقد كانت أم المأمون فارسية وأم المعتصم تركية، وكانت شجاع أم المتوكل رومية (أو خوارزمية)، والسيدة أم المقتدر رومية، وأم المطيع صقلية، وأم الظاهر الفاطمي سودانية.

وكان للمرأة شأن عظيم في عهد الدولة الفاطمية، فكانت تتدخل في شئون الدولة. واشتهر كثير من النساء بالثراء والبذخ؛ فقد تمتعت ست الملك أخت الخليفة الحاكم بالحزم ورجاحة العقل واشتهرت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الديني. ومن نساء العصر الفاطمي الأخير زوجة الظاهر وأم المستنصر، وكانت سودانية، على ما تقدم، وقد اشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين الذين كثر عددهم، وبلغ جندهم خمسين ألفاً. ومن نساء هذا العصر زوجة الخليفة الآمر الطائية البدوية التي شغف بجمالها ومواهبها. ولم يظهر بين طبقة العامة في

---

(١) الماوردي: ص ٢٥٧.
(٢) الخطيب البغدادي جـ ١٢ ص ٧٦.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ٢٧٨.
(٤) كانت زبيدة ابنة ياقوتي بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه.
(٥) انظر الباب الثاني من هذا الكتاب ص ٣٧.

ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة.

وقد تمتعت شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب بنفوذ عظيم في الدولة الأيوبية حتى لقد تقلدت سلطنة مصر ردحاً من الزمن، وقد تقربت من أمراء الدولة ومنحتهم الإقطاعات وخفضت الضرائب عن الأهالي واستطاعت بمهارتها أن ترد الصليبيين على أعقابهم بعد أن حلت بهم الهزيمة في موقعة المنصورة سنة ١٢٤٩ م.

وقد اشتهر بعض نساء المغرب برجاحة العقل وتدخلهن في شئون الدولة. ومن هؤلاء زينب النفزاوية التي اشتهرت بجمالها ورجاحة عقلها وظرفها. وقد تزوجها أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي عينه عبد المؤمن بن علي أميراً على بلاد المغرب. وقد ذكر ابن الأثير(١) في حوادث سنة ٥٠٠هـ أن ثلاثة أشخاص اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يفخر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الثالث زوجة يوسف بن تاشفين. ولما بلغ ابن تاشفين هذا الخبر، أحضر هؤلاء الثلاثة وأعطى الأول ما تمناه من المال وهو ألف دينار، وقلد الآخر عملاً من الأعمال، وقال للشخص الذي تمنى زوجته: «يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟» ثم أرسله إلى زوجته، فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً. ثم أحضرته وقالت له: «ما أكلت هذه الأيام؟» قال «طعاماً واحداً» فقالت: «كل النساء شيء واحد» وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته.

وقد تطور نفوذ المرأة في عهد علي بن يوسف بن علي بن تاشفين، فتدخلن في شئون الدولة تدخلاً أضر بالملك في عهده، «واستولى النساء على الأموال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومَسُّوفة مشتملة على كل مُفْسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيّد تغافله»(٢).

وفي الأندلس كثر زواج المسلمين بالمسيحيات، وغدا المسلمون يؤثرون اتخاذ أمهات أولادهم من السبايا اللاتي كن يؤتى بهن من شمالي أسبانيا(٣).

ولم يكن شراء الجارية في الأندلس من الأمور الهينة، بل كان شراؤها يتم بحضور كاتب العقود، فتوضح الأسباب التي تطلب الجارية من أجلها بكل دقة، وقد تمتعت المرأة في عهد

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ١٥٦.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٧٧.

(٣) ترنْد: تراث الإسلام، الترجمة العربية (القاهرة ١٩٣٦) جـ ١ ص ١٢ ـ ١٣.

الأمويين في الأندلس بنصيب كبير من الحرية وحظ وافر من الاعتبار، وإن نقص صفاء الجنس العربي كان نتيجة التزاوج من الأسبانيات على الرغم من أن ذريتهن أصبحت تحمل أسماء الآباء.

٧ ـ الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(أ) الأعياد والمواسم والمواكب:

كان العامة في المشرق الإسلامي يحتفلون بالأعياد الدينية كشهر رمضان ثم يحيون لياليه بتلاوة القرآن الكريم وصلاة التراويح. كما كانوا يحتفلون بعيدي الفطر والأضحى، فيخرج الناس صبيحة يوم العيد بملابسهم الجديدة إلى المساجد لأداء فريضة العيد وتوزيع الفطرة على الفقراء والمساكين، وكانت الدولة العباسية تحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة مرتدياً أفخر الملابس وبصحبته كبار رجال دولته. وكان العامة يقفون على جانبي الطريق لتحية الخليفة وهو في طريقه إلى المسجد وهم ينادون: السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام.

وكانت بغداد تزين بالأعلام والأقمشة الحريرية ذات الألوان الزاهية، وتضرب الطبول وتدق الأبواب. كما كانوا يحتفلون بموسم الحج؛ فإذا حل اليوم العاشر من شهر ذي الحجة احتفل الناس بعيد الأضحى وذبحت الأضاحي ووزع منها على الفقراء. وكان الصناع ينتهزون حلول العيد ليصنعوا تماثيل حيوانية للأطفال[١].

ومن الأعياد الدينية عيد الغدير عند الشيعة. وكان معز الدولة بن بويه أول من احتفل بهذا العيد في سنة ٣٥٢هـ. كما كان العامة يحتفلون بعيد النوروز، وبأعياد النصارى في الأديرة القريبة من بغداد، ويحتفلون بالانتصارات الحربية كما حدث في سنة ٤٦٣هـ حيث احتفل السلطان ألب أرسلان بانتصاره على البيزنطيين في موقعة ملازكرت الشهيرة.

وفي العصر الفاطمي في مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية في أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع والعيدين، أيام دينية أخرى. وكانت الأسمطة تقام ابتهاجاً بهذه الأعياد في قصور الخلفاء وتوزع الإنعامات بمقادير وافية. وفيما يلي بيان بأسماء الأعياد التي كان يحتفل بها الفاطميون:

(١) رأس السنة (٢) أول العام (٣) يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين) (٤) مولد

---

(١) انظر بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (نسخة مخطوطة) ص ١٦٠ وما يليها.

النبي ﷺ (١٢ ربيع الأول) (٥) مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٦) مولد الحسن عليه السلام (٧) مولد الحسين عليه السلام (٨) مولد السيدة فاطمة الزهراء (٩) مولد الخليفة الجالس على العرش (١٠) ليلة أول رجب (١١) ليلة نصف رجب (١٢) ليلة أول شعبان (١٣) ليلة نصف شعبان[١] (١٤) موسم ليلة رمضان (١٥) غرة رمضان (١٦) وفاء النيل (١٧) يوم النوروز (١٨) يوم الغطاس (١٩) يوم الميلاد (٢٠) عيد النصر[٢] (٢١) خميس العهد[٣].

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون في مناسبات متعددة، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام؛ وهي موكب أول العام، وأول رمضان، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيد الفطر والأضحى، ووفاء النيل[٤]. أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة[٥].

(ب) الخطبة في الأزهر:

كان الرسول ﷺ يؤم الناس في الصلاة باعتباره زعيماً للمسلمين. وقد ندب وهو في مرضه الأخير أبا بكر ليصلي بالناس بدلاً منه. وكانت إمامة المسلمين في الصلاة من أهم الأدلة التي استند إليها السنيون في أحقية أبي بكر بالخلافة بعد الرسول الكريم. ولفظ إمام تتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الإمامة في الصلاة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين، بل إنها تعتبر ثاني أركان الدين بعد الشهادتين، ويعدها بعضهم الركن الأول، لأن الشهادتين تذكران في سائر الأركان. ولذلك نرى الشيعة يستعملون لفظ إمام، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوي قوة إلهية مقدسة، كما ورد لفظ إمام في القرآن الكريم بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس، فقال تعالى في سورة الأنبياء (٢١ : ٧٣): ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات

---

(١) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود.

(٢) كان الاحتفال بهذا العيد في ١٦ المحرم وهو اليوم الذي أطلق فيه سراح الخليفة الحافظ وجعل في عزلة عن الناس منذ شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م). (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥).

(٣) هو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام. وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى في شعورهم الديني. ولفظ عهد استبدلت خطأ بلفظ عدس، وسماه أهل الشام خميس الأرز أو خميس البيض؛ واستمر ذلك إلى اليوم (المقريزي، خطط جـ ١ ص ٤٩٥).

(٤) القلقشندي جـ ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠.

(٥) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥٢١.

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾[١]. كذلك نرى الخلفاء يحافظون على وظيفة الإمامة في الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة، حتى لقد أصبحت الإمامة في الصلاة من أهم أعمال الخلفاء وولاتهم في الأمصار الإسلامية. وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين في الصلاة بأنفسهم.

وقد عني الفاطميون بتنظيم الإشراف على الأزهر، فعينوا له فقيهاً يتولى الخطابة في صلاة الجمعة والحفلات الدينية بين يدي الخليفة أو نائبه، كما نظموا شئون المسجد بصفة عامة. وفي أواخر العصر الفاطمي كانت الخطابة تسند إلى رجال الدين ومنهم داعي الدعاة. أما الشئون الخاصة بالدراسة والأساتذة والطلاب فكان يرجع فيها إلى الخلفاء ونوابهم كبار رجال الدولة الفاطمية.

وقد أصبح الأزهر منذ إنشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمي، فكانت تقام فيه صلاة الجمعة وعيد الفطر والأضحى، وكان الخليفة يؤم الناس بنفسه. وقد ركب الخليفة المعز الفاطمي إلى الجامع الأزهر وأم الناس في الصلاة، وألقى خطبة رائعة كان لها تأثير بالغ في نفوس المصلين. وكانت هذه أول صلاة يقيمها الخليفة الفاطمي في الأزهر. وقد ظل المعز يخطب في هذا الجامع بنفسه في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان وفي الأعياد حتى تم إنشاء جامع الحاكم بأمر الله، فأقيمت فيه صلاة الجمعة في شهر رمضان سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م) حيث أم الخليفة الحاكم الناس في الصلاة، وأصبحت صلاة الجمعة تقام من حين إلى آخر في بعض المساجد الأخرى، مثل جامعي راشدة والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله.

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالي لصلاة الجمعة، ويستريح الخليفة في هذا الشهر جمعة، تسمى «جمعة الراحة».

وكان صاحب بيت المال يشرف بنفسه في صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذي يصلي فيه الخليفة الجمعة، فيوضع في مقصورة الجامع ثلاث طنافس دبيقية[٢] أو سامانية، بعضها فوق بعض. وتعلوا هذه الطنافس الحصيرة التي يقال إنها كانت لجعفر الصادق الإمام السادس عند الشيعة الاثني عشرية، وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) في عهد الخليفة الحاكم[٣].

(١) حسن ابراهيم حسن: كتاب النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٢) ص ٤ ـ ٥.
(٢) الدبيقية نسبة إلى دبيق (قرية بمصر) اشتهرت بالنسيج الفاخر.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (طبعة جوينبول) مجلد ٣ جـ ١ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

وكان ينصب على جانبي المنبر ستران، يكتب على الستر الأيمن منهما البسملة والفاتحة وسورة الجمعة، وعلى الأيسر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين[١].

وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضي القضاة يحمل بيده مبخرة، يبخر بها المنبر والقبة التي يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة التي كان يقوم بوضعها أحد كتاب البلاط في ديوان الإنشاء. ويبدأ موكب الخليفة من باب الذهب بالقصر الخليفي وعلى رأسه المظلة، والطيلسان، وهو كساء مدور، ويرتدي الخليفة ثوباً من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق، ويحمل قضيب الملك بيده، ويحف به عدد كبير من القراء ومن حرس الخليفة الخاص ومن الجنود والأشراف، ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة المعز كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة، ممتطين الخيل، وعليهم الخوذات والدروع، ويتبعهم فيلان. وذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الآمر (٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ) كان يحف به في موكب صلاة الجمعة الفيلة والأسود وهي مزينة بفاخر الكسى، وعليها الأسلحة اللامعة. وكان يسلم لكل واحد من مقدمي الركاب في الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق (بكسر الراء، أي الفضة)، سوى الرسوم المقررة والهبات والصدقات التي تمنح للناس على طول الطريق. وقد زينت الحوانيت المملوءة بأواني الذهب والفضة.

وكان الخليفة الفاطمي يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وتلاوة القرآن بنغمات شجية حتى يصل إلى الجامع. ثم يطلق البخور وتغلق أبواب الجامع ويقف عندها الحجاب والبوابون، فلا يدخل إلا من كان معروفاً من الخواص والأعيان. ثم يأخذ الخليفة طريقه إلى قاعة الخطابة المخصصة لاستقباله، ويقوم بحراستها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة الذي يظل في هذه القاعة حتى ينتهي الأذان.

عندئذ يدخل قاضي القضاة ويقول: «السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله!» فيخرج الخليفة يحف به الأستاذون المحنكون، ويتبعه وزيره الأول، وجماعة من حرسه المدججين بالسلاح، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر. ويستمر الخليفة في مسيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر. ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة، فإذا أومأ إليه صعد وقبّل يدي الخليفة، وزرّ السترين عليه. وبذلك يكون المنبر والقبة أشبه بالهودج، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر[٢].

---

(١) رقم ٤٣. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٥١١.

(٢) ذكر المقريزي أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف، بمعنى أنه يجمع في يده كافة السلطات المدنية =

ويرجع السبب في استعمال الستور إلى أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبتهم التي كانت تعد لهذا الغرض في ديوان الإنشاء. كما يرجع السبب في كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة على سترين يوضعان على جانبي الخليفة، أحدهما عن يمينه ليقرأ ما فيه في الركعة الأولى، والآخر عن يساره ليقرأ ما فيه في الركعة الثانية، إلى ما قد يتعرض له الخليفة من النسيان أو التلعثم حال إقامة الصلاة. فقد أثر عن الخليفة الفاطمي الحاكم أنه برغم شغفه بأن تكون مواكبه في غاية الأبهة، رأى أن ينيب وزيره في صلاة الجمعة، لأنه كان يرتج عليه في الخطبة أحياناً.

وكانت الخطبة التي يلقيها الخليفة الفاطمي قصيرة وتشتمل على آية من القرآن. وكان الخليفة يذكر نفسه وأهل بيته بعبارة موجزة، ويتلو قوله تعالى في سورة النمل (٢٧ : ٢٩) ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾. ثم يدعو الخليفة لأبيه وجده، ولمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، ولعلي كرم الله وجهه، ولأسلافه الخلفاء، وأخيراً، يدعو لنفسه فيقول: اللهم أنا عبدك وابن عبدك، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مَسَّنِيَ السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ (سورة الأعراف ٧/١٨٨).

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين. فإذا فرغ من خطبته قال: اذكروا الله يذكركم. ثم يصعد الوزير فيحل السترين، ويظل هو وقاضي القضاة على الباب، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة.

بعد ذلك يبدأ الخليفة الصلاة، فيبلغ عنه الوزير، ثم قاضي القضاة ثم المؤذنون. فإذا انتهت الصلاة خلا الجامع من الناس، وخرج الخليفة، والوزير عن يمينه وقاضي القضاة وداعي الدعاة[1] عن يساره، ويحيط به حرسه الخاص، ويعود بموكبه على النحو الذي سار عليه في ذهابه إلى الجامع[2].

فإذا انتهت الصلاة استراح الخليفة في الجامع بقدر ما توزع الهبات. فكان يعطى للنائب في الخطابة ثلاثة دنانير، وللنائب في الصلوات الخمس ثلاثة دنانير، وللمؤذنين أربعة دنانير، وللمشرف على خزانة الفرش وفراشها ومتوليها لكل منهم ثلاثة دنانير، ولصبيان بيت المال

= والعسكرية والقضائية، قام قاضي القضاة برر السترين.

(١) كان داعي الدعاة يتبع قاضي القضاة.

(٢) القلقشندي: جـ٣ ص ٥٠٩ ـ ٥١٢.

ديناران. وقد خصصت رسوم للقراء، وتعم الصدقات الناس من وقت خروج الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود(١).

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بإقامة صلاة العيدين، فقد ذكر المؤرخون أن الخليفة المعز ركب إلى «مُصلّى القاهرة» الذي بناه جوهر خارج باب النصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م). وهنا أقام الصلاة على الطريقة الإسماعيلية، فقرأ في الركعة الأولى الفاتحة فسورة الغاشية (سورة رقم ٨٨)، ثم كبر وأطال الركوع والسجود، فسبح في كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة(٢). وكان القاضي محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير.

ثم قرأ الخليفة المعز في الركعة الثانية الفاتحة فسورة الضحى (سورة رقم ٩٣)، ثم كبر وفعل ما فعله في الركعة الأولى، وجهر بالبسملة، مقتدياً بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ولما فرغ الخليفة من الصلاة، صعد المنبر وسلم على الناس يميناً وشمالاً فقال: «السلام عليكم ورحمة الله!». وكان في أعلى المنبر وسادة من ديباج مُثْقَل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين. وكان يصحب الخليفة على المنبر: جوهر الصقلي وابن عمار من رؤساء قبيلة كتامة المغربية، وشفيع حامل المظلة.

وبعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر مرتين. وقد ألقى الخليفة المعز الخطبة في خشوع وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين.

ولما فرغ الخليفة من الخطبة والصلاة انصرف في عساكره، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ، ممتطين الخيل وهم في أحسن زي، يحف بهم فيلان؛ فلما وصل الخليفة إلى القصر سمح للناس بالدخول، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون(٣).

(جـ) الحج:

وكان المسلمون يقيمون الاحتفالات ابتهاجاً بحلول موسم الحج، إذ يتوافد الناس من أمهات مدن العراق كواسط والبصرة والكوفة، بل من المناطق الواقعة شرقي العراق كفارس وخراسان، فيجتمعون في بغداد ويقيمون هناك في خيام. وكانت الدولة تهتم باستقبال هذه

(١) أبو المحاسن: (طبعة القاهرة) جـ٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) التسبيح في الصلاة هو أن يقال في الركوع: «سبحان ربي العظيم» مرة أو أكثر، كما يقال في السجود: «سبحان ربي الأعلى» مرة أو أكثر كذلك.

(٣) المقريزي: «خطط جـ١ ص ٤٥١، ٤٨٤، وجـ٢ ص ٤٧ و٣٦٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٩٢.

الوفود، فتعين لهم مواضع لشرب الماء وتقدم لهم الأطعمة وتوفر لهم وسائل الراحة في هذا الموسم. وكان عدد الحجاج يبلغ عدة آلاف. وقد قدر ابن الجوزي[١] هذا العدد بعشرين ألف حاج في سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م).

وكانت شوارع بغداد تزخر بالعامة على اختلاف أعمارهم وأجناسهم لمشاهدة مواكب الحاج من البلاد المختلفة، مرتدين الملابس الزاهية.

وكانت الدولة العباسية تعين أمير الحاج، ويختار عادة من الأشراف الطالبيين، وتقيم لذلك احتفالاً رسمياً يحضره السلطان والأشراف وقاضي القضاة والقضاة والفقهاء، ويقام هذا الاحتفال في دار الخلافة حيث تخلع الخلع على أمير الحج. ومن هؤلاء الذين تقلدوا إمارة الحج: أبو الحسين بن موسى الموسوي سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م)، والشريف المرتضى سنة ٤٠٦هـ (١٠١٥م). ويرجع الاحتفال بتنصيب أمير الحج إلى عهد الخلفاء الراشدين[٢].

وقد أمدنا الخزرجي[٣] (ت ٨١٢/١٤٠٩) بمعلومات قيمة عن التقاليد والحفلات التي كانت تقام ببغداد في موسم الحج. وقد اشتملت هذه المعلومات على بيان الهدايا التي تقدم والخلع التي تخلع على الناس، فذكر في حوادث سنة ٦٥٦هـ أن أم الخليفة المستعصم عزمت على أداء فريضة الحج، فعين الخليفة أيبك الخاص الدويدار الصغير أميراً للحج، فحمل معه نفقات الحج، وهي خمسون ألف دينار، ومعها الكسوة الشريفة وكسوة حجرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وصدقة فقراء الحرمين، ومقدرات الكعبة، ثم أخرجت باقي السُّبُل[٤]، وهي سبيل الخاص، ويشتمل على مائتي جمل، وسبيل المستنصر بالله ويشتمل على مائة وخمسين جملاً، وسبيل الناصر لدين الله ويشتمل على مائة جمل، وسبيل أم الخليفة الناصر ويشتمل على ثمانين جملاً، وسبيل الخلاطية زوجة الخليفة الناصر.

وفي هذه السنة نفسها عزمت أم الخليفة المستعصم على الحج. ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال خرجت المحفتان[٥] والشمسة[٦]، وقد ألبست إحداهما في باب

(١) المنتظم جـ ٨ ص ٤٤.

(٢) انظر واجبات أمير الحج في كتابي تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة ١٩٦٤) ص ٤٤٠ - ٤٤١.

(٣) العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، مخطوطة مصورة بمكتبة المجمع العلمي العراقي رقم ٥٥، ٣ أجزاء، ورقة ١٦١.

(٤) جمع سبيل، ويراد بذلك أن ينيب شخص آخر ليحج عنه نظير أجر معين، والسبيل أيضاً السقاية.

(٥) وتشبه الهودج: سميت بذلك لأن الجند كانوا يحفون بالخليفة وهو راكب في المناسبات المختلفة.

(٦) الشمسة المحفة كالهودج، والشمسة هي المظلة، وهي عبارة عن قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب تحمل على رأس الخليفة أو السلطان في العيدين. راجع صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨. والشمسة هي =

الحجرة، وبين يديها أستاذ الدار ووكيل الخليفة وجماعة من الخدم، وحاشية دار الخلافة مشاة. ثم خرجت جمال باب الحجرة، وهي تربو على ألف جمل تحمل مختلف المواد من بغداد إلى مكة، وقد خصص لكل مادة من المواد التي نقلت معهم عدد معين من هذه الجمال نقل عليها صناديق التشريفات والخيم والسرادقات والملابس المعدة للصدقة، والكسوة والأطعمة والأشربة والحلوى والأبلوج[١] وجرار الخزف والأواني الزجاجية والمخابز وحوائج المطبخ وآلة الحلاويين والقصابين والخبازين وقرب الماء العذب وعلف الجمال.

ومما ذكره المقريزي نرى أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي ١٢٠,٠٠٠ دينار منها ثمن طيب وحلواء وشمع ١٠,٠٠٠ دينار، ونفقة الذين يرافقون الكسوة ٤٠,٠٠٠ دينار، وما يدفع لحماية القافلة وأجر الجمال وحفر الآبار في طريق قافلة الحج ٦٠,٠٠٠ دينار. وقد ذكر المقريزي أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة اليازوري ٢٠٠,٠٠٠ دينار[٢].

(د) الحفلات: الزواج

اقترنت حفلات الزواج بالبذخ والإسراف وحب الظهور، فإن السلطان طغرلبك الذي تقدمت به السن خطب بعد موت زوجته سنة ٤٥٤هـ (١٠٦١ - ١٠٦٢م) ابنة الخليفة العباسي القائم (وقيل أخته)، ومع أن هذا الطلب لم يلق قبولاً من الخليفة أول الأمر لم يسعه إلا القبول، وعقد الزواج في مدينة تبريز على صداق قدره ثلثمائة ألف دينار، بالإضافة إلى خراج واسط وأعمالها. ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل (جنوبي بحر الخزر)، فوصل إلى الري ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون التي تزوج منها الخليفة، فمرض السلطان وهو في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥هـ[٣].

وقد وصف ابن الأثير[٤] عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٠هـ زواج ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي إلى الخليفة العباسي المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) والحفلات التي أقيمت

= الستور التي تكسى بها الكعبة. وهي أيضاً نافذة مربعة في أعلى الحيطان، تترك مفتوحة عادة أو تزين بالزجاج لمرور الهواء أو الضوء فقط. انظر ما ذكرته عن هذا اللفظ في كتابي تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ص ٥٤١ - ٥٤٢) هامش رقم (٤).

(١) بضم الألف المهموزة، ويسميه الناس سكر النبات.

(٢) خطط جـ ١ ص ٤٥٠. انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٦٥.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨ - ٢١. ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٧، ٩ - ١٠.

(٤) الكامل جـ ١٠ ص ٥٩ - ٦٠.

بمناسبة هذا الزواج. ففي شهر المحرم من هذه السنة نقل جهاز ابنة السلطان إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وأربعة وسبعين بغلاً مجللة (مكسوة) بأنواع الديباج، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة لا يقدر ما تحويه من الجواهر والحلي بثمن، كما اشتمل الجهاز على مهد عظيم مزين بطبقة سميكة من الذهب. وقد أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه (وكان قد خرج عن بغداد للصيد)، يحمل التحف والمشاعل ومحفة بلغت غاية الحسن. وقال الوزير لتركان خاتون إن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يذكرنا بقوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[١]، وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره، فأجابت بالسمع والطاعة، وحضر الوزير نظام الملك ومن معه من أعيان الدولة، ومع كل منهم عدد كبير من الشمع والمشاعل وجاء نساء الأمراء ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وبين أيديهن الشمع والمشاعل يحملها الفرسان. ثم جاءت «الخاتون» ابنة السلطان في محفة مزينة بالذهب والجواهر، وقد أحاط بها مائتا جارية من الأتراك في المراكب الجميلة التي سارت إلى دار الخلافة. وكانت ليلة مشهورة لم يُر ببغداد مثلها، فلما كان الغد دعا الخليفة أمراء السلطان إلى السماط، وخلع عليهم وعلى كبار القواد، وأرسل الخلع إلى زوجة السلطان وإلى سائر الأميرات.

وفي سنة ٥٠٢هـ تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢م) أخت السلطان محمد بن ملكشاه بأصبهان على صداق قدره ١٠٠,٠٠٠ دينار، وتولى كتابة العقد القاضي أبو العلاء صاعد النيسابوري، وكان الوزير أحمد بن نظام الملك وكيلاً عن الخليفة. ونثرت الجواهر والدنانير على الحاضرين[٢].

وفي سنة ٥٣١هـ خطب الخليفة المقتفي (٥٣٠ ـ ٥٥٥هـ) فاطمة ابنة محمد بن ملكشاه. وكان الوزير أبو القاسم الزينبي وكيلاً عن الخليفة في عقد الزواج. وحضر العقد أيضاً أخوها السلطان مسعود. وقد زفت فاطمة إلى الخليفة في سنة ٥٣٤هـ. ويذكر ابن خلكان[٣] أن فاطمة اشتهرت بحسن التدبير، ولكنها لم تعمر طويلاً مع الخليفة، إذ توفيت في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٤٢هـ.

---

(١) مقتبسة من سورة النحل.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ١٧٨ و١٨٣.
(٣) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٥.

وقد أمدنا الخزرجي (ت ٨١٢)[1] بمعلومات قيمة عن زواج مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصري. ففي ليلة زفاف مجاهد الدين، أرسل إلى داره كثير من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر يزيد ثمنها على ثلثمائة ألف دينار. وقد عرضت الهدايا والتحف على الأمير مجاهد الدين، وكانت تتألف من مماليك الترك والخدم والأحباش والثياب والطيب والخيل وغيرها مما قدمه الزعماء وكبار رجال الدولة، كما أرسل إليه الخليفة المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ) ثلثمائة ألف دينار عيناً.

٨ ـ أوقات الفراغ

كان الناس يقضون أوقات فراغهم في الاستماع إلى الغناء أو الموسيقى أو في حضور مجالس الوعظ ومجالس القصص أو مشاهدة حفلات سباق الخيل أو اللعب بالطيور وغير ذلك.

ومجالس الوعظ كالمدارس الشعبية. وقد ظلت المساجد تؤدي مهمة الوعظ حتى أنشئت المدارس، كالمدرسة النظامية التي أسست في سنة ٤٥٧/١٠٦٤، ومدرسة أبي حنيفة (٤٥٩/١٠٦٦). وتمتاز مجالس الوعظ عن مجالس الثقافة بحضور الناس فيها دون شرط أو قيد. وهي تعالج مسائل الدين والدنيا. ولا شك أنه كان لمجالس الوعظ أثر ملحوظ في حفظ بعض التراث الإسلامي ولا سيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الإسلامية العليا.

ومجالس القصص تستهوي العامة عادة، فهي تعقد في الطرقات وفي المنازل وفي المساجد. ويختلف القاص عن الواعظ في أنه يقص حكايات الأقدمين وما تنطوي عليه من شجاعة أو صفات عالية كالنجدة والكرم والوفاء ونحوها. وعمل الواعظ ينطوي على تخويف الناس من عذاب الله ويحض على التمسك بأحكام الدين. ومجالس القصص هي تراث شعبي أصيل، ورثه العرب عن آبائهم الأقدمين؛ لذلك فإن مادة القصص تقوم على ذكر أيام العرب وأخبار الأمم المجاورة.

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة «قَصَص» في مواضع كثيرة[2]. وهذا دليل واضح على مدى شيوع القصص عند العرب.

وقد تمتع رجال القصص الديني باحترام العامة ورجال الحكم، على حين وقف الفقهاء من القصاصين العامين موقفاً عدائياً ورموهم بالجهل وتضليل العامة.

---

(١) كتاب العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، انظر ناجي معروف كتاب المجالس الشرابية ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) انظر سورة القصص ٢٨ : ٢٥، وسورة الأعراف ٧ : ١٠١، وسورة يوسف ١٢ : ٣.

وقد ذكر نظامي عروضي[١] أن الأمير طغانشاه بن ألب أرسلان حاكم هراة في عهد أبيه كان ذات يوم يلعب النرد[٢] مع البديهي الشاعر، وكان اللعب على عشرة آلاف دينار، ولما أوشك اللعب على الانتهاء «كان عند الأمير حجران في «بيت الشيش»[٣] ولأحمد البديهي حجران[٤] في بيت «اليك» واللعب للأمير. فاحتاط كثيراً، ثم رمى ليأتي «بالدش» فجاء الزهر «هبيك». فغضب الأمير غضباً شديداً وخرج عن طبعه، واشتد به الغضب، فكان يمسك السيف في كل لحظة، وارتعدت فرائص الندماء، فقد كان أميراً حدثاً ومقموراً[٥] محرجاً[٦]. فنهض أبو بكر الأزرقي واقترب من المطربين وأنشد هذا الدوبيت[٧]:

إذا طلب الدوش يأتي الهبيك
حتى لا تظن أن الزهر لا يعدل
فإن هذه «الضربة» التي ضربها هي مقصد الملك
جاءت على الخدمة ساجدة على الأرض[٨].

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي مولعاً بلعب الجوكان ولعبة البولو. وكان كثيراً ما يخرج للصيد[٩]؛ اصطاد ذات مرة طيراً كثيراً، فأمر بعده، فكان، كما قيل، عشرة آلاف، فتصدق بعشرة آلاف دينار، وقال إنني أخاف من الله كيف أزهقت أرواح هذه الحيوانات دون سبب يدعو لاستعمالها في الطعام، وفرق كثيراً من الثياب والأموال بين أصحابه. وكان كلما صاد شيئاً من الطير أو الحيوان تصدق بعدده دنانير[١٠]. وقدضرب المثل بمهارة ملكشاه في الصيد، حتى قيل إنه كان يحتفل ببناء المآذن من جماجم وقرون الحيوانات التي اصطادها. وقد بلغ من ولعه بالصيد أنه أمر بأن يحتفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده في كل مرة، حتى قيل إن ما صاده

---

(١) جهار مقاله، ترجمة ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) وتسمى هذه اللعبة عند جمهور المصريين «الضمنة».
(٣) يعني إحدى خانات لوحة هذه اللعبة.
(٤) هو حجر من أحجار النرد عليه علامتان.
(٥) أي أنه يلعب القمار.
(٦) أناني يحب أن يحرج زميله.
(٧) نوع من أوزان الشعر يجري على خلاف بحور الشعر التي أقرها العرب وهي ثمانية عشر بحراً.
(٨) يقصد أن الدش قد جاء كما أراد الأمير، إلا أنه احتراماً للأمير قد وضع وجهه على الأرض فظهر الهبيك. وهذا يدل على مبلغ استهتار الأمراء بالشعوب وأنانيتهم وحبهم للسيطرة.
(٩) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٥٨.
(١٠) المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٧٩.

بلغ سبعين غزالًا في اليوم. وقد رأى مؤلف كتاب «راحة الصدور» نفسه أحد هذه السجلات بخط الشاعر أبي طاهر الخاتوني الذي نظم ديواناً يعد من أقدم دواوين الشعر الفارسي، عنوانه «مناقب الشعراء»(١). وليس لهذا الديوان وجود الآن.

وقد سارت مهارة السلطان ملكشاه في الصيد على كل لسان، حتى إنه في السبعيني بطريق مكة منارة من جماجم الحيوانات التي اصطادها بنفسه، كما بنى منارة أخرى مماثلة ببلاد ما وراء النهر(٢).

ومن أنواع التسلية اللعب بالطيور ويقصد بها الحمام، وتربيته هواية محببة إلى كثير من الناس(٣). ولم يكن اللعب بالطيور مقصوراً على العامة، فقد شاركتهم في ذلك الطبقات الأخرى على اختلاف مستوياتها الاجتماعية، واستمر اللعب بالطيور والاهتمام بها طوال العصر العباسي الثاني. ولكن أكثر الناس كلفاً بها هم الخصيان. وقد عني الخلفاء بالطيور فاستخدموها في المراسلة، فاقتنوا أجودها وحسنوا سلالتها(٤).

وقد عملت بعض الحكومات على محاربة هذه الهواية، لأن بعض الشبان اتخذوها وسيلة للنظر إلى نساء الجيران وإقلاق راحة الناس وما يستتبع ذلك من الصياح ورمي الأحجار وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة(٥).

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة. وقد أباح الفقهاء هذه الرياضة على ألا تكون وسيلة للحصول على المال، لما فيها من إعداد الجند لركوب الخيل عند نشوب الحرب. وقد بلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولي في بعض الأحيان على الحصان المسبوق(٦).

وسباق الخيل هواية قديمة في بلاد العراق، وكان الخلفاء يحرصون على مشاهدة هذه الرياضة. ومن الخلفاء الذين عنوا بها المقتدر (ت ٣٢٠هـ) كما كان العامة يحرصون على مشاهدة سباق الخيل ويبادرون إلى تهنئة الفائز، وكانت الفروسية، شأنها في كل زمان،

---

(١) Browne, II, 183 - 184.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٧٩.

(٣) الدميري: حياة الحيوان الكبرى جـ ١٠ ص ٣٢٧.

(٤) الغزولي: مطالع البدور في منازل السرور جـ ٢ ص ٢٦٠.

(٥) الدميري جـ ١ ص ٣٢٧، ٣٣٣.

(٦) متز: الحضارة الإسلامية: ترجمة جـ ٢ ص ٢١٥.

تستهوي نفوس الشباب، وأصبح من الشائع التدريب على الرمي[١].

وقد وصف الفقيه القضاعي (ت ٤٥٤هـ) عرض الخيل فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة، وهي هذا العرض ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد. وقد أضاف هذا الفقيه المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة والجمعة ببغداد[٢].

وكانت حلبة السباق بمثابة الأعياد لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة. وفي هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق، كما جرت عادتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد.

وقد عني الخلفاء الفاطميون بعرض الخيل قبل سيرها في الموكب، فيجلس الخليفة على مرتبة عالية في الشباك[٣]. .

(١) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٩ ص ٤٩.

(٢) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) وهو بناء مغلق من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التي قد يوضع فيها حاجز من الحديد. المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٧٧.

مصادر الكتاب

أولاً ـ المصادر العربية والفارسية

ابن الأثير (ت ١٢٣٢/٦٣٠): علي بن أحمد
١ ـ الكامل في التاريخ، ١٢ جزءاً (القاهرة ١٢٩٠هـ).
٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، ج ٣ من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون. الإدريسي (ت ١٢٥١/٦٤٩): الشريف محمد بن عبد العزيز
٣ ـ نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان (رومة ١٥٩٢)
٤ ـ المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٩٤)
خريطة الإدريسي (طبعها كنراد ميلر ١٩٢٦) والمجمع العلمي العراقي.
الأدفوي (ت ١٣٤٧/٧٤٨)
٥ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٩١٤/١٣٣٣) ابن اسفنديار (ت ١٢٢٠/٦١٧)؛ محمد بن الحسن.
٦ ـ تاريخ طبرستان، انتهى من تاريخه سنة ٦٠٦هـ، ثم أكمله مؤرخ آخر إلى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م). حققه عباس إقبال (القاهرة ١٣٢٠هـ).
ابن إياس (ت ١٥٢٣/٩٣٠) محمد بن أحمد
٧ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، ويعرف بتاريخ مصر.
٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ ـ ١٣١٢هـ)
ابن بسام (ت ١١٤٧/٥٤٢): أبو الحسن علي
٨ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٣٦٣م)
ابن بطوطة (ت ١٣٧٨/٧٧٩) أبو عبد الله محمد
٩ ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار، ٤ أجزاء، طبعه وترجمه إلى الفرنسية ديفريميري وسانجونيتي (باريس١٨٦٩ ـ ١٨٧٩)، والقاهرة، جزآن (١٩٢٨/١٣٤٦).
البغدادي (ت ١٠٧٠/٤٦٣): الحافظ أبو بكر الخطيب
١٠ ـ تاريخ بغداد، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩)
البكري (ت ١٠٩٧/٤٨٧): عبيد الله الأندلسي
١١ ـ كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة دي سلان والطبعة الثانية (الجزائر ١٩١١).

دي بور: ت. ج.
١٢ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام (الترجمة بالانجليزية، لندن ١٩٣٣)، ترجمة أبي ريدة (الطبعة الثانية، القاهرة)
البيروني (ت ٤٤٠/١٠٤٨): أبو الريحان محمد
١٣ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة أ. سخاو (لندن ١٨٧٩)
وليبزج (١٨٧٨ ـ ١٨٧٩).
١٤ ـ تاريخ الهند (ليبزج ١٩٢٥) ترجمه إلى الإنجليزية أ. سخاو (لندن ١٨٨٧).
التطيلي (ت ٥٦٩/١١٧٣) بنيامين النباري الأندلسي.
١٥ ـ رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٤٥).
جب: سير هاملتون
١٦ ـ دراسات في حضارة الإسلام، ترجمه عن الانجليزية إحسان عباس، ومحمد نجم، ومحمود زايد (بيروت ١٩٦٤).
ابن جبير (ت ٦١٤/١٢١٧): أبو الحسن محمد
١٧ ـ رحلة ابن جبير، طبعة و. رايت (ليدن ١٨٥٢)، ترجمها إلى الانجليزية برود هيرست (لندن ١٨٥٢).
جرجيس المكين (ت ٦٨٠/١٢٧٣) عبد الله.
١٨ ـ المجموع المبارك، نشره المستشرق أربنيوس مع ترجمته اللاتينية (ليدن ١٦٢٦) وترجمه فاتيير إلى الفرنسية (١٦٥٧).
الزنجاني: أبو الحسن علي
١٩ ـ زهرة الآس في بناء مدينة فاس (تلمسان ١٩٢٢)، (فاس ١٩٢٢)
الجعدي: عمر بن علي (ألفه سنة ٥٨٦هـ)
٢٠ ـ طبقات فقهاء اليمن، حققه فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٧).
الجوزجاني
٢١ ـ كتاب طبقاتي ناصري، طبعه نساو ليز، وترجمه رافيرتي في سلسلة مكتبة الهند، ويتناول الدول المتصلة بالهند، ألفه بعد فتح بغداد (٦٥٦هـ) بسنتين.
ابن الجوزي (ت ٥٩٧ ـ ١٢٠٠ ـ ١٢٠١): أبو الفرج عبد الرحمن.
٢٢ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (الهند ١٣٥٨هـ).
الجويني (ت ٦٨١/١٢٨٣): علاء الدين عطا ملك
٢٣ ـ تاريخ جهان كشا (أو تاريخ فاتح العالم) ٣ أجزاء سلسلة مجموعة جب التذكارية حققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزويني، نشر المستشرق هونسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب.

شلبي: أحمد
٢٤ ـ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٤).
٢٥ ـ المجتمع الإسلامي (القاهرة ١٩٦٣).

حاجي خليفة (ت ١٠٦٧/١٦٥٧): مصطفى
٢٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة فلوجل، ٧ أجزاء (ليبزج وليدن ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨).

ابن حزم (ت ٤٥٦/١٠٦٤) أبو محمد علي
٢٧ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧هـ).

حسين أمين
٢٨ ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد ١٣٨٥/١٩٦٥).

ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٥): عبد الرحمن بن محمد
٢٩ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٧٤هـ، بيروت ١٨٨٦م).
٣٠ ـ مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠)، وترجمها إلى الفرنسية دي سلان وإلى الانجليزية روزنتال.

ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨١): شمس الدين أحمد
٣١ ـ وفيات الأعيان، مجلدان (القاهرة ١٣١٠هـ). ٦ مجلدات (القاهرة ١٩٤٨). ترجمه إلى الإنجليزية البارون دي سلان.

الدباغ (ت ٦٩٦/١٢٩٦): عبد الرحمن.
٣٢ ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ٤ أجزاء (تونس ١٣٢٠هـ).

ابن دقماق (ت ٨٠٩/١٤٠٦): إبراهيم بن محمد المصري.
٣٣ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤، ٥ (القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣).

ابن أبي دينار (ت ١١١٠/١٦٩٨): محمد بن أبي القاسم القيرواني.
٣٤ ـ المؤنس في ذكر بلاد إفريقية وتونس (تونس ١٢٨٦هـ).

الدوري: عبد العزيز
٣٥ ـ النظم الإسلامية (بغداد ١٩٥٠)
٢٦ ـ دراسات في العصور الإسلامية المتأخرة (بغداد ١٩٤٥)

رشيد الدين: (ت ٧١٨/١٣١٨): فضل الله الهمداني
٣٧ ـ جامع التواريخ ويتناول تاريخ المغول، سلسلة جب التذكارية (لندن ١٩١٠) ترجمه إلى الفرنسية «كترمير».

الحريري (ت ٥١٥/١١٢١) أبو محمد القاسم البصري
٣٨ ـ مقامات الحريري (المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة)

ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤): أبو محمد علي
٣٩ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧هـ).
٤٠ ـ جمهرة أنساب العرب، طبعة عبد السلام هارون، دار المعارف (القاهرة ١٩٦٢)

حسن إبراهيم حسن
٤١ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي طـ ٧ جزء أول (القاهرة ١٩٦٤)، جزء ثان (القاهرة ١٩٦٤)، جزء ثالث (القاهرة ١٩٦٥) ترجم إلى الفارسية والأردية.
٤٢ ـ تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤).
٤٣ ـ النظم الإسلامية بالاشتراك، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٢)
٤٤ ـ اليمن البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨)
٤٥ ـ انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).

الراوندي (ت ٥٩٩/١٢٠٣): محمد بن علي
٤٦ ـ واحة الصدور وآية السرور، ترجمه إبراهيم أمين، ونشر النص محمد إقبال، سلسلة جب التذكارية (لندن ١٩٢١).

زامباور: إدوارد فون
٤٧ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، أخرجه الدكتور زكي محمد حسن، وحسن أحمد محمود، جزآن (القاهرة ١٩٥١).

ابن أبي زرع (ت ٧٢٦/١٣٢٦): أبو الحسن علي
٤٨ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس(الرباط ١٩٣٦).

زهير (ت ٦٥٦/١٢٥٨): أبو الفضل البهاء
٤٩ ـ البهاء زهير (تأليف الشيخ مصطفى عبد الرازق) القاهرة ١٣٤٨/١٩٣٠.

زيادة: نيقولا.
٥٠ ـ الحسبة والمحتسب في الإسلام (بيروت ١٩٦٢).

زيدان: جرجي
٥١ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، ٥ أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥).

زيدان: عبد الرحمن
٥٢ ـ إتحاف أعلام الناس بجمال مدينة مكناس، ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩).
٥٣ ـ العز والصولة في معالم الرتبة (الرباط ١٣٨١/١٩٦١).

السبكي (ت ٧٧١/١٣٦٩): عبد الوهاب تاج الدين
٥٤ ـ طبقات الشافعية، ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٢٤هـ)

سترينج: جي لي
٥٥ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس، مطبعة الرابطة (بغداد

١٩٥٤/١٣٧٣).
٥٦ ـ بلدان الخلافة الشرقية، مطبعة الرابطة (بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤).
السخاوي (ت ١٤٩٦/٩٠٢): أبو الحسن علي.
٥٧ ـ تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات (القاهرة ١٩٣٧/١٣٥٦).
ابن سعيد (ت ١٢٧٥/٦٧٣): علي بن موسى الأندلسي
٥٨ ـ كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق (ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩).
السلاوي: أبو العباس أحمد.
٥٩ ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٤ مجلدات (القاهرة ١٩١٠ ـ ١٩١٢)، ١٠ مجلدات (الدار البيضاء ١٩٥٤).
السمرقندي: أحمد بن عمر نظامي عروضي
٦٠ ـ جهار مقاله (ليدن ١٣٢٧هـ) ترجمه إلى الانجليزية إدوارد براون، وإلى العربية عزام والخشاب، مع تعليقات ميرزا محمد.
السمعاني (ت ١١٦٦/٥٦٢ ـ ١١٦٧): القاضي أبو سعيد عبد الكريم.
٦١ ـ كتاب الأنساب، سلسلة جب التذكارية، ج/٢٠ (لندن ١٩١٢).
ابن سيدة (ت ١٠٦٥/٤٥٨): أبو الحسن علي الأندلسي
٦٢ ـ كتاب المخصص، ٢٠ جزءاً (القاهرة ١٣٢١هـ).
السيوطي (ت ١٥٠٥/٩١١): جلال الدين عبد الرحمن
٦٣ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزآن (القاهرة ١٣٢٧هـ)، ترجمه إلى الانجليزية هـ. جاريت (كلكتا ١٨٨١).
٦٤ ـ تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٥١هـ).
أبو شامة (ت ١٢٦٧/٦٦٥).
٦٥ ـ الروضتين في أخبار الدولتين، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون، المجلد الثالث، (القاهرة ١٢٨٧هـ).
أبو شجاع (ت ١٠٩٥/٤٨٨): محمد بن الحسين الروذراوردي
٦٦ ـ ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه، طبعة أمدروز، ترجمه إلى الانجليزية أمدروز، (أكسفورد ١٩٢١).
ابن شداد (ت ١٢٣٤/٦٣٢).
٦٧ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية، المؤرخون الشرقيون، المجلد الثالث، (القاهرة ١٣١٧).
الشيزري (ت ـ حول ٥٨٩ ـ ١١٩٣): عبد الرحمن بن نصر.
٦٨ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، طبعة السيد الباز العريني (القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦).

أبو صالح (ت ٦٠٥/١٢٠٨): الأرمني.
٦٩ ـ كتاب كنائس وأديرة مصر، طبعة ب. إفيتس (اكسفورد ١٨٩٥).
الطرطوشي (ت ٥٢٠/١١٢٦): أبو بكر محمد.
٧٠ ـ سراج الملوك (القاهرة ١٢٨٩هـ).
ابن طباطبا (ت ٧٠٩/١٣٠٩): محمد بن علي ويعرف بابن الطقطقي.
٧١ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧)، ترجمه إلى الإنجليزية هويتنج (لندن ١٩٤٧).
الطوسي (ت ٤٦٠/١٠٦٧): محمد بن الحسن
٧٢ ـ فهرست الشيعة (كلكتا ١٨٥٥). النجف (١٣٨٠/١٩٦١).
ابن أبي طي (ت ٦٣٠/١٢٣٢): يحيى ابن حميدة.
٧٣ ـ شرح لامية العرب للشنفرى
ابن عبد الحق (ت ٧٣٩/١٣٣٨).
٧٤ ـ مراصد الاطلاع، أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣).
العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧/١٢٠٠ ـ ١٢٠١): أبو عبد الله محمد
٧٥ ـ زبدة النصرة ونخبة العصرة، طبعة هوتسما (ليدن ١٨٨٦).
عبد اللطيف (ت ٦٢٩/١٢٣١): موفق الدين البغدادي
٧٦ ـ الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، نشره وترجمه دي ساسي (باريس ١٨١٠).
٧٧ ـ مختصر تاريخ مصر، ترجمة ج. هوايت (اكسفورد ١٨٠٠).
عبد النعيم حسنين
٧٨ ـ سلاحقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩).
العتبي (ت ٤٢٨/١٠٣٧): أبو نصر
٧٩ ـ حياة السلطان محمود الغزنوي المسمى تاريخ اليميني. جزآن (القاهرة ١٢٨٦هـ)
ابن عذارى (ت القرن السابع الهجري): أبو عبد الله محمد المراكشي.
٨٠ ـ البيان المغرب في أخبار المغرب، ٣ أجزاء، طبعة دوزي (ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٥١)
ابن عربي (ت ٦٣٨/١٢٤٠): محيي الدين
٨١ ـ كتاب فصوص الحكم (نشره الدكتور أبو العلا عفيفي: القاهرة ١٩٤٦).
الغزولي (ت ٨١٥/١٤١٢): علاء الدين الدمشقي
٨٢ ـ مطالع البدور في منازل السرور (القاهرة ١٣٠٠هـ)
علام: عبد الله
٨٣ ـ الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤)

العلي: صالح أحمد
٨٤ ـ المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (بحث مستل من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤).
عمارة اليمني (ت ٥٦٩/١١٧٤).
٨٥ ـ تاريخ اليمن (طبعة هنري كاسيل، لندن ١٨٩٢).
الغزالي (ت ٥٠٥/١١١١): الإمام أبو حامد
٨٦ ـ إحياء علوم الدين، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٨هـ)
٨٧ ـ المنقذ من الضلال (دمشق ١٣٥٣/١٩٣٤)
٨٨ ـ بداية النهاية، ومنه نسخ خطية بمكتبات باريس وبرلين والجزائر.
٨٩ ـ فضائح الباطنية، النص العربي والترجمة الألمانية (طبعة ا. جولدسيهر) ليدن ١٩١٦.
٩٠ ـ التجريد في علم التوحيد، مخطوط بمكتبة الاسكوريال
٩١ ـ تهافت الفلاسفة، طبع في القاهرة غير مرة (بمباي ١٣٠٤هـ)
أبو الفدا (ت ٧٣٢/١٣٣١): اسماعيل عماد الدين
٩٢ ـ المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦هـ) وجزآن (القاهرة ١٣٥١هـ)
أبو الفرج (ت ٦٨٥/١٢٨٦): غريغورس أبو الفرج المعروف بابن العبري.
٩٣ ـ مختصر تاريخ الدول، طبع أكثر من مرة (بيروت ١٨٩٠)
ابن الفوطي (ت ٧٢٣/١٣٢٣) عبد الرزاق أحمد الصابوني
٩٤ ـ الحوادث الجامعة
ابن القاضي: أحمد بن محمد المكناسي
٩٥ ـ جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، مخطوط رقم ١٢٤٢ (الرباط).
القزويني (ت ٦٨٢/١٢٨٣): أبو عبد الله زكريا
٩٦ ـ عجائب المخلوقات (لايبسك ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩).
ابن القلانسي (ت ٥٥٥/١١٦٠): أبو يعلى حمزة
٩٧ ـ ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)
الكتبي (ت ٧٦٤/١٣٦٢) محمد بن شاكر الحلبي.
٩٨ ـ فوات الوفيات، مجلدان (القاهرة ١٩٥١)
ابن كثير (ت ٧٧٤ ـ ١٣٧٢): عماد الدين اسماعيل الدمشقي
٩٩ ـ البداية والنهاية، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٢)
ماجد: عبد المنعم
١٠٠ ـ نظم الفاطميين ورسومهم جزآن (القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٥).
الماوردي (ت ٤٥٠/١٠٥٧): أبو الحسن علي البصري

١٠١ ـ الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨هـ) وترجمه إلى الإنجليزية ك.ا.ج. هويتنج (لندن ١٩٤٧).
١٠٢ ـ أدب الوزير، ويعرف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (القاهرة ١٩٢٩/١٣٤٨)
١٠٣ ـ متز: آدم
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمه عن الألمانية والانجليزية محمد عبد الهادي أبو ريدة، جزآن (القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١)
المراكشي (ت ١٢٧٠/٦٦٩): عبد الواحد
١٠٤ ـ كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، طبعة دوزي (ليدن ١٨٨١)، وترجمه إلى الفرنسية فافيان (الجزائر ١٨٩٣)، (القاهرة ١٩٤٩).
المقدسي (ت ٩٩٧/٣٨٧) شمس الدين أبو عبد الله
١٠٥ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ١٨٧٧).
المقري (ت ١٦٣٣/١٠٤١): أحمد بن محمد التلمساني
١٠٦ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٤ أجزاء (القاهرة ١٨٦٢/١٢٧٩)، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٤٩/١٣٦٩)
١٠٧ ـ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٣٦٠).
المقريزي (ت.١٤٤١/٨٤٥): تقي الدين أحمد.
١٠٨ ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جزآن (القاهرة ١٢٧٠هـ).
١٠٩ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا (الفاطميين) (بيت المقدس ١٩٠٨)، (القاهرة ١٩٤٨/١٣٦٧).
ابن القلانسي (ت ١١٦٠/٥٥٥) أبو يعلى حمزة
١١٠ ـ ذيل كتاب تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)
أبو المحاسن (ت ١٤٦٩/٨٧٤): جمال الدين بن تغري بردي
١١١ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٢٨ ـ ١٣٧٥).
ابن مماتي (ت ١٢٠٩/٦٠٦): شرف الدين
١١٢ ـ كتاب قوانين الدواوين طبعة عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣).
المؤيد في الدين (ت ١٠٧٧/٤٧٠): الداعي علم الإسلام هبة الله
١١٣ ـ ديوان المؤيد، نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩)
١١٤ ـ السيرة المؤيدية، (القاهرة ١٩٤٩)
١١٥ ـ كتاب المجالس المستنصرية، نشره محمد كامل حسين
١١٦ ـ نبذ تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى كتاب «مفاخر البربر» لمؤلف مجهول الاسم ألفه سنة ١٣١٢/٧١٢: نشره بروفنسال (الرباط ١٩٤٣).

النسوي (ت قرن ١٣م) شهاب الدين محمد.
١١٧ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي: نشره وحققه حافظ أحمد حمدي (القاهرة ١٩٥٣).
النووي (ت ١٢٧٧/٦٧٦): أبو زكريا بن شرف
١١٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات، جزآن (القاهرة بدون تاريخ)
هلال الصابي (ت ١٠٥٦/٤٤٨): أبو الحسن بن المحسن
١١٩ ـ تاريخ ج ٨ (٣٨٩ ـ ٣٩٣هـ). ذيل لكتاب تجارب الأمم لمسكويه، وترجمه مرجليوث
١٢٠ ـ تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، طبعة امدروز.
الهني: محمد بن أحمد
١٢١ ـ المورد الهني، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط
ابن واصل ـ (ت ٦٩٧ ـ ١٢٩٧): جمال الدين
١٢٢ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. طبعه جمال الشيال، جزآن (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧)
وصاف الحضرة (ولد ٦٦٣هـ): عبد الله بن فضل الله مؤرخ حياة غازان
١٢٣ ـ تجزئة الأمصار أو «تاريخي وصاف»
ياقوت (ت ١٢٢٩/٦٢٦): شهاب الدين الرومي
١٢٤ ـ معجم البلدان، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦/١٣٢٣)
١٢٥ ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ويعرف باسم معجم الأدباء طبعة سلسلة جب التذكارية، ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١).

ثانياً - المصادر الإفرنجية

Amari, M.
1 - Storia dei Musulmani di Sicilia (Firenze, 1854 - 72).
Amedroz, H.F.
2 - The Office of the cadi in the Ahkam Sultaniyya of Mawardi (J.R.A.S.,), July, 1911.
3 - The Mazalim jurisdiction in the Ahkam Sultaniyya of Mawardi (J.R.A.S., July 1911).
4 - The Hisba jurisdiction (J.R.A.S., 1916)
Arnold, Sir T.W.
5 - The Preaching of Islam, a history of the Propagation of the muslim Faith, 3 rd ed. by Reynold Nicholson (London, 1935).
6 - The Caliphates, Oxford at the Clarendon Press (1924).
7 - The Legacy of Islam (edited by T.W. Arnold and A. Guillaume) (Oxford, 1931).
Barker, E.
8 - The Crusades (London, 1925).
Brockelmann. Carl.
9 - Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898 - 1902).
Browne: E.
10 - Literary History of Persia.
1. From the Earlies Times until Firdawsi (London, 1909).
2. From Firdawsi to Sa'di (London, 1906).
3. Persian Literature under Tartar Dominion (1265 - 1502 A.D.).
4. Modern Times (1500 - 1924). (Cambridge, 1930).
11 - An Account of a Rare manuscript History of the Seljuks (London, 1906).
Cahun
12 - Pan Turanian Movement.

مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول إلى سنة ١٤٠٥م

Darmester, James
13 - Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'a nos jours (Paris, 1885).
Dozy, R.
14 - Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'a la conquete de l'Andalusie par les Almoravides (711 - 1110 A.D.), 4 vols. (Leyden, 1861). Translated into English under the title Spanish Islam by F.G. Stokes (London, 1913).
15 - Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).
16 - Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).
Fage, J.D.

17 - An Introduction to the History of West Africa (Cambridge at the University Press, 1955).

Fagnan, E.H.

18 - Additions aux dictionnaires arabes (Algier, 1923).

19 - L'Afique Septentrionale au XII siècle de notre ère (Constantine, 1900).

Fayzee, Asaf A.A.

20 - Outlines of Muhammadan Law (Oxford University Press, 1955).

Finlay, George.

21 - History of the Byzantine Empire (716 - 1500), (London, 1856).

Fischel, Walter J.

22 - The Origin of Banking in Mediaeval Islam: A Contribution to the Economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century (J.R.A.S., April, 1933).

23 - Jews in the Economic and political life of mediaeval Islam (London, 1937).

Friedlaender, Isräel.

24 - The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm, Journal of the American Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).

Gardet.

·25 - La cité musulmane (Paris, 1954).

Gobineau, De.

26 - Religion et Philosphie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).

Goldziher, I.

27 - Mohammed anishe Studien (Halle, 1888 - 90).

28 - Le Aogme et la Loi de l'Islam, trans by Felix Aren (Paris, 1920).

Grunebaum, G.E. von.

29 - Medieval Islam. A Study in the Cultural Orientation. 2nd ed. The University of Chicago Press (Chicago, Illinois, 1953).

30 - Islam, Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition, Rutledge and - Kegan Paul Ltd., London (Chicago, 1955).

Guyard, S.

31 - Unity and Variety in Muslim Civilization : ed. by, The University of Chicago Press (Chicago, 1955).

Guyard, S.

32 - Haagmenis relatifs`a la doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).

Haines.

33 - Africa today . ed by (Baltimore, 1955).

Hamdani, H.

34 - Some Unknown Ismaïli Authors (J.R.A.S), 1933.

Heyd. W.

35 - Histoire du Commerce du Levant au Moyen Ages, 2 vols (Leipsiz, 1923).
Hitti, Philip K.
36 - History of the Arabs (5th ed. London, 1953).
37 - The Origin of the Islamic State (New York, 1916).
Houtsma.
38 - Recueil de textes relatifs à l'Histoire des Seldjoucides (Leyden, 1889).
Howorth, Sir Henry.
39 - history of the Mongols, 3 vols in 4 parts. (London, 1876 - 1888).
Huart, C. L.
40 - Histoire des Arabes, 2 vols (Paris 1912).
Hughes. Thomas Patrick.
41 - A Dictionary of Islam (London, 1885).
Kremer, Von A.
42 - Orient Under the Caliphs translated by Khuda Bukhsh (Calcutta. 1920 - 1927).
Lane, Edward W.
43 - Arabian Society in the Middle Ages, ed by Stanley Lane - Poole, (London, 1883).
44 - Arabic. English Lexicon, 8 parts (London, 1863 - 1893).
Lane - Poole, Stanley.
45 - The Story of Cairo (London, 1912).
ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين إلى العربية بعنوان سيرة القاهرة.
46 - History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901).
47 - Coins and Medals (London, 1892).
48 - Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, 1893).
49 - The Muhammadan Dynasties (Paris, 1925).
50 - The Moors in Spain (London, 1887).
51 - Catalogue of the Collection of Arabia Coins Preserved in the Khediviel Library at Cairo (London, 1897).
52 - Coinage of Egypt A.H. 358 - 922 Collection of the British Museum, Oriental Coins (1892).
Lavoix, H.
53 - Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Decoxoi.
Léon l'Africain , Jean.
54 - Description de l'Afrique, trans by A. Epaulard, 2 vols. (Paris, 1955). English translation under the title: The History and Description of Africa by J. Pory, 3 vols. (London, 1846).
Levy, Reuben.
55 - A Baghdad Chronicale (Cambridge, 1929).

56 - The Social Structure of Islam, 2nd ed. (Cambridge at the University Press, 1957).

Lewis, Bernard.

57 - The Origins of Ismailism (Cambridge, 1940).

Isma'ili Notes Reprinted from the B.S.O.F.S. (University of London), vol. XII, Parts 3 and 4 (1948).

58 - The Arabs in History, Hutchison's University Library History (Oxford, 1950).

59 - The Fatimids and the Route to India, Extrait de la Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université D'Istanbul, 11e année, No. 1 - 4 (Istanbul, 1952).

Mann, J.

60 - The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs 2 vols. (Oxford, 1920, 1922).

Migeon. G.

61 - Manuel d'Art Musulman, 2 vols, (Paris, 1927).

Nasir Khosrau (d. 481/1088).

62 - Rélation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881).

Nicholson, Reynold A.

63 - Literary History of the Arabs (Cambridge, 1930).

Nizam al - Mulk (d. 485/ 1092), Hassan al - Tusi.

64 - Siasset Naméh, French translation from Persian by C.Schefer, 3 vols. (Paris, 1891 - 97), English translation by Robert Darke (The Book of Government or Rules of Kings) (London, 1960).

O'Leary. De Lacve.

65 - A Short History of the Fatimid Kaliphates (London, 1923).

Pauty. E.

66 - Villes spontanées et Villes creées en Islam, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Université d'Alger, IX (1951).

Provencal, Levi.

67 - L'Espagne musulmane au xe siècle, Institutions et vie sociale (Paris, 1932).

68 - La Civilisation arabe en Espagne (Paris, 1948).

69 - Histoire de l'Espagne musulmane, Tome III C L'Espagne du califat de Cordow (Paris Editions G.P. maisonneuve v Co., 1957).

الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية (تطوان ١٩٥١)

De Renaud, M.

70 - De l'Art militaire chez les Arabes au Moyen Age, IX/12 (Journal Asiatique, 1848).

71 - Relations Politiques et commerciales de l'Empire romain avec l'Asie Orientale (Journal Asiatique, 1863).

Ross, D.

72 - The Empire of the Seljuk Turks (The Universal History of the World, Vol. V)

De Sacy, Silvestre.

73 - Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols, (Paris, 1838).

Sanaullah, M. F.

74 - The Decline of the Seljukid Empire (Calcutta, 1938).

De Slane, M.

75 - Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanesde l'Afrique Septentrionale, Introduction (Algiers, 1852).

Steingass: F.

76 - Persian - English Dictionary (London, 1930).

Stern, G.H.

77 - The Succession to the Fatimid imam al - Amir, the claims of the later Fatimids to the imamate, and the rise of the tayyibi Ismailism, in Oriens, vol.4, No. 2 (December, 1951). pp. 193 - 255.

78 - Marriage in Early Islam (London, 1939).

De Sacy, Silvestre.

79 - Crestomathie Arabe, 3 vols., 2nd, ed (Paris, 1826 - 1827).

Vasiliev, Alexander A.

80 - History of the Byzantine Empire (324 - 1453), (Wisconsin, 1952).

Whishaw, Bernard.

81 - arabic Spain (London, 1912).

Wiet, Gaston.

82 - Précis d'Histoire musulmane d'Egypte, 4 vols, (Le Caire - Rome, 1932 - 35), ed by G, Wiet.

83 - Histoire de la Nation Egyptiènne, 7 vols. (Paris, 1931 - 40) vol. IV (1939): L'Egypte Arabe, par G.Wiet (ed. by Hanoutau) Wustenfeld, F.

84 - Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und familion (Gottingen, 1852 - 3).

85 - Geschichte der Fatimiden Chalifen (Gottingen, 1881).

86 - Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882)

Sacy, Silvestre de

87 - Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols (Paris, 1838).

الفهارس العامة

فهرس الأعلام والقبائل
والجماعات والأمم والشعوب

ـ ت ـ

- ح -

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

- ز -

- ش -

- ص -

ـ ض ـ

ـ ط ـ

- غ -

ـ ف ـ

- ق -

ـ ك ـ

ـ ن ـ

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الأماكن والبلدان

- ب -

ـ ت ـ

- ح -

- خ -

- ط -

- ع -

ـ ن ـ

- هـ -

- و -

- ي -

محتويات الكتاب

الباب الثالث

الدولة المستقلة التابعة للخلافة العباسية

الباب الرابع

غزوات المغول ـ سقوط بغداد

الباب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة
غير التابعة لحكم العباسيين

الباب السادس

العلاقات الخارجية

الباب السابع

الحركات السياسية والدينية

الباب الثامن

نظم الحكم

الباب التاسع

الحالة الاقتصادية

الباب العاشر

الثقافة

الباب الحادي عشر

الفن

الباب الثاني عشر

الحالة الاجتماعية